
المقتطف



المقتطف

الجزء الاول من المجلد الثاني والتسعين

١ يناير سنة ١٩٣٨ — ٢٩ شوال سنة ١٣٥٦

العلم والمال

ليس هذا البحث مقابلة بين قيمة العلم وقيمة المال على نحو ما قال الشاعر العربي « لنا علمٌ وللجهال مالُ » ولكنهُ تحقيقٌ في النزعة الحديثة البادية بين طوائف من العلماء وارباب الجامعات الكبيرة ، ولاسيما في الولايات المتحدة الاميركية ، الى التوسل بالمكتشفات والمخترعات العلمية الى جني الربح منها بتسجيلها واستغلالها ، وهل فائدة هذه النزعة تربي على ضررها ، او ضررها يربي على فائدتها . فثمة فريق من الكتاب يرى ان الاكتشاف العلمي على يدي باحث في جامعة اشبه ما يكون بمؤلف بليغ يؤلفهُ استاذ الادب وينشرهُ ويحتفظ بحقوق طبعهِ ويجني منهُ قليلاً او كثيراً . فهل هناك مأخذ يؤخذ على الباحث العلمي ، اذا هو سجل مكتشفاً او مخترعاً جديداً لهُ وجنى منهُ ما يستطيع ؟ هذا هو السؤال !

كان الرأي بين العلماء في القرون الماضية ولا يزال سائداً بعض دوائرهم حتى الآن ان العلم يطلب لذاتهِ ، لا للثروة التي قد يفضي اليها . وقد أُثرت عن بعضهم اقوال في هذا الموضوع جديرة بالترداد . فالعالم السويسري المولد الاميركي ، لويس اجاسيز ، اجاب صديقاً بيّن لهُ سبيلاً من سبل النفع المشروع بأنهُ « لا يجد متسعاً من الوقت لجمع المال » . ولما اقترح على باستور ان يسجّل مكتشفاتهِ في علم الجراثيم ويخرج بها شهادات تحصر استعمالها فيهِ او ان يسعى الى جني الربح منها ببيعها اجاب : « ان رجال العلم يحسبون ذلك حطة من شأنهم » . ثم كان يحدث لايدي

كافندش فقال : « لا يسعني ان اعمل في سبيل المال ولكنني استطيع ان اعمل دائماً في سبيل العلم »
ذلك ان العلماء يرون ان الوقت ثمين ، وان المال في المقام الثانوي بين مطالب الانسان ، وان المغامرة في سبيل الكشف عن اسرار الطبيعة اجدى على النفس غبطة ولذة من السعي وراء الثروة . ثم انهم يقولون ان السعي للكسب المادي لا يتفق والامانة العلمية

الاَّ ان المشاهد ان العمل في سبيل العلم يفضي بحكم الطبع والتقدم الى العمل في سبيل المال . ومهما يكن البحث العلمي مجرَّداً ، فانهُ على الغالب ينتهي يوماً ما الى التطبيق العملي . ان جميع الفنون اللاسلكية ترتدُّ الى معادلات مكسول الرياضية وتحقيق هرتز لصحتها بالتجربة . وجميع الاساليب المستعملة في شركات النفط للتكرير والتحطيم ترجع الى المعادلات الرياضية التي استنبطها نابغة جامعة يايل العلامة ولرد جبس Willard Gibbs . ولو كانت الشركات الصناعية تتأثر بعرفان الجميل لوجب ان تقيم لهذين الفيلسوفين الرياضيين انصاباً من الذهب الابريز

يضاف الى هذا ان العلم وتقدمهُ رهن التأييد الذي ينالهُ الباحثون من رجال المال في سبيل البحث لان المختبرات الحديثة والاجهزة العلمية التي لا بدَّ منها ، تقتضي نفقة كبيرة . والباحث العلميُّ في حاجة الى الاطمئنان والاستقرار على اسباب معيشتهِ ومعيشة من يلوذ بهِ ، لكي يفرغ للتأمل والبحث . فاذا كان العلم يخلق الثروة ، أفلا يجوز للعالم ان يجني مما يكشف ويستنبط لكي ينفق ما يجني في سبيل البحث العلمي ؟ وإذا كان من المتاح للمهندسين وأصحاب الاموال أن يتناولوا مباحث فراداي ومكسول وجبس الاساسية ، ويبنوا على اساسها الشركات الصناعية الكبيرة التي تدرُّ بدرات الاموال ، أفلا يصح للمكتشفين انفسهم أن يفعلوا بينات افكارهم وثمار جهدهم ما يفعلهُ بها غيرهم ؟ إن الجواب عن هذه الاسئلة ، بالنفي حتماً من الناحية الشرعية ، اذ ليس ثمة قانون يمنعهم ان يفعلوا ما يبغون بمكتشفاتهم ومستنبطاتهم ، ولكن هناك موانع عملية اساسها تعذُّر العناية بالبحث وبالاستغلال المالي والصناعي في آن واحد ، وأخرى نظرية وعمرانية مستمدَّة من طبيعة البحث العلمي والحرية الفكرية واخوَّة العلماء

***

في سنة ١٩٠٥ كان مدرّس كيمياوي شاب في جامعة كاليفورنيا ، يبحث عن عمل اضافي يزيد بهِ دخلهُ لضيق ذات يدهِ ولقلة مرتبهِ الشهري . ولو كان هذا الشاب ، مدرِّساً في قسم الأدب ، لألف كتاباً او أنشأ رسائل يجزيهِ عليها الناشرون أو اصحاب الصحف جزاء لا بأس بهِ . ولو كان مدرساً في قسم القانون ، لاتصل بمكتب أحد المحامين ، واتفق معهُ على إعداد بعض المذكرات القانونية : ولكن كوتريل F. Cottrell كان كيمياويًّا فماذا يفعل ؟
اتصل ببعض الشركات الصناعية لعلَّهُ يجد فيها مدراً يعهد اليهِ في الاشراف على بعض

الاعمال الكيماوية فيها ، فاتفق له أن عرف في أثناء بحثه مدير معمل يصنع الحامض الكبريتيك وكان هذا المدير يشكو ضياع بعض الحامض ، لان ابخرته تصعد من المدخنة في أثناء التكرير . فخطرت لكوتريل طريقة تمكنه من ترسيب ابخرة الحامض قبل ضياعها . فصنع شبكة من القضبان المعدنية ووضعها في المدخنة ، ثم وصلها بسلك كهربائي ،فوجد انه اذا شرعت الابخرة تصعد في المدخنة ، وكانت الكهربائية تجري في قضبان الشبكة ، اخذت ابخرة الحامض تتقاص على القضبان فتتكون قطيرات من الحامض لا تلبث حتى تعود الى المرجل . ثم ثبت ان هذا الاسلوب الصناعي الجديد يصلح للاستعمال في صناعات مختلفة

وقضى كوتريل هو وزميلان له في استغلال هذا الاستنباط ، خمس سنوات متوالية ، أصابوا في نهايتها النجاح المطلوب بعد انفاق اربعة آلاف جنيه . ولكن هذا النجاح حيَّرهم . لأن الشبان الثلاثة علماء وطنوا النفس على البحث العلمي لا على الاستغلال المالي فماذا يفعلون ؟

كانوا قد تعاهدوا عندما اقدموا على هذا العمل ، أن يخصُّوا الجامعة التي يدرّسون فيها ، بنصيب من اسهم الشركة التي انشأوها وما تدرُّه من الربح ، اعترافاً منهم بجميلها عليهم ، ولأنها سمحت لهم ان يجروا المباحث اللازمة في معاملها . فعرضوا ذلك على مجلس الجامعة فشكر وأبى عرضهم لان المصاعب التي تحول دون اشتراك معهد علمي في عمل تجاري ، كانت في رأي مديريها ، مما يتعذّر التغلُّب عليه . فضاق الثلاثة ذرعاً ، بما يفعلون ، فعرضوا على الجمعية الكيماوية الاميركية ان تتولى الاشراف على استغلال هذه المستنبطات المدرّة ، فأبت ، وكذلك فعلت غير واحدة من جمعيات المهندسين . وأخيراً ذهب كوتريل الى وشنطن بدعوة من مدير مصلحة المناجم لاستشارته في موضوع علمي . وهناك اتصل بمدير المعهد السمثصوني المشهور ، فاستقر الرأي اخيراً على انشاء شركة كبيرة مستقلة تضم نفراً من كبار رجال الاعمال وطائفة من العلماء ، لتشرف على استغلال هذه المستنبطات ، وغيرها ومما يمنحها المستنبطون حق استغلاله ، على ان لا توزع هذه الشركة ربحاً ما على حملة اسهمها ، بل يوزع المال الذي تجنيه على معاهد العلم وطوائف البحاث تشجيعاً للبحث العلمي ، اي ان تصبح الشركة محسناً كبيراً قائماً على اساس التعاون ، بدلاً من الاكتفاء بالجود الخاص من اموال أثرياء افراد كروكفلر وكارنيجي ولورد نفيلد

وقد بلغ ما وزعته هذه الشركة من المال : على معاهد العلم والبحث ١٥٠ الفاً من الجنيهات حتى بداية سنة ١٩٣٦ ومن اشهر البحوث العلمية الحديثة المدينة لها بحوث لورنس الاميركي في تهشيم الذرة بجامعة كاليفورنيا ، وكذلك بحوث ده جراف في معهد ماستشوستس الصناعي ، وهيزنبرج في جامعة ليبتسج ، وبحوث المعهد السمثصوني في ما للاشعاع من التأثير في الحياة وغيرها

وقد اتسع عمل هذه الشركة ، اتساعاً عظيماً فنظمت فرعاً مستقلاً عهدت في ادارته الى

كورنل نفسه ، ومهمتهُ البحث العلمي في علوم الطبيعة والاحياء والاجتماع والاقتصاد

وقد عنيت جامعات كثيرة في اميركا بهذه الناحية من البحث فانشأت اما شركات مستقلة منحت حق استغلال المكتشفات والمستنبطات التي تكتشف وتستنبط في الجامعة ، وغيرها مما يمكن الفوز بهِ ، واما نقَّب رجالها في نصوص قوانينها الاساسية لعلهم يجدون فيها ما يسمح للجامعة باستخراج امتيازات التسجيل والاستغلال باسمها الخاص ثم تنشأ لجنة خاصة من رجالها للاشراف على استغلال هذه الامتيازات استغلالاً ماليًّا

ففي بدء سنة ١٩٣٦ كان في الولايات المتحدة عشر جامعات لها شركات خاصة أنشئت للعمل وفقاً للنهج الاول . حالة ان النهج الثاني اتبع في جامعة تورنتو عند ما اكتشف الدكتور بانتنغ الانسولين فعهد في الاشراف على استغلالهِ لمصلحة الجامعة الى لجنة من رجالها . وحذت جامعة سانت لويس ومعهد الامراض المعدية بشيكاغو حذو جامعة تورنتو

وقد يقال أن تسجيل الاساليب الخاصة بالعقاقير الطبية وخلاصات الغدد وما اليها والاشراف على صنعها عمل واجب لان فيهِ وقاية للجمهور من بعض الشركات التي لا تتوخى الدقة كل الدقة في صنعها بحسب الاحوال العلمية فيتعرض مستعملها لخطر الموت على نحو ما حدث من عهد قريب في مادة « السلفانيلاميد » [1] . وهذا القول وجيه ولكن تسجيل اكتشاف او اختراع لوقاية الجمهور من مضار التطبيق الناقص ، شيء والتسجيل رغبة في الربح والاستغلال شيء آخر مع ان الغرض الواحد قد يفضي الى الآخر على الراجح

ومع ذلك ، ومع ان الازمة الاقتصادية قد حالت دون امداد معاهد العلم والبحث بأموال هي في أشد الحاجة اليها، ومع ان حق العلماء في استغلال ثمار بحثهم لا نزاع فيه من الناحية القانونية ، ومع ان مرتبات الباحثين لا تقابل بمرتبات الكتَّاب في الصحف ووكلاء الاعلانات وكواكب الصور المتحركة على الرغم من ان « كلَّ مبلغ مهما يعظم يعد ضئيلاً ازاء عمل هؤلاء الرجال الذين يملكون قوة الابداع والتفاني على ترقية الفكر العلمي خطوة خطوة حتى يصلوا بهِ الى البيوت فينشروا فيها اسباب الصحة والراحة والرفاهة . . . » [2] — مع كل ذلك لا يزال بين العلماء فريق كبير يعارض في الاستغلال التجاري لثمار البحث في معاهد العلم العالي

ولسنا في حاجة الى اقامة الدليل المفصَّل على اختلاف الرأي في هذا الموضوع . وحسبنا ان نشير الى ان مجمع تقدم العلوم الاميركي عني بهِ في سنة ١٩٣٣ فعين لجنة من اكبر العلماء لدراستهِ فوضعت اللجنة تقريرها في اربعين صفحة كبيرة ملخصة فيهِ ما يقال تأييداً للاستغلال

(١) راجع مقتطف دسمبر ١٩٣٧ صفحة ٦٦١ (٢) للمستر هوفر رئيس الولايات المتحدة السابق

المالي « لثمار البحث في معاهد العلم العالي » واعتراضاً عليه . ولكن المسألة لم تنتهِ عند هذا الحدّ ، وما زالت الصحف العلمية تنشر الفينة بعد الفينة مقالاً لعالم كبير ، او لمدير معهد علمي في تأييد هذا الرأي او نفيه

***

والغالب ان تكون الناحية الادبية في الموضوع في مقدمة ما يستند اليهِ المعارضون . فهم يذهبون الى ان الجامعة تعتمد على تأييد الشعب لها . فاذا كانت جامعة حكومية كان هذا الاعتماد غير مباشر ، لان الانفاق عليها من خزينة الحكومة يعود في آخر الامر الى المال الذي يجمع من الشعب وتسمح الهيئة التشريعية بانفاقه عليها . اما اذا كانت جامعة خاصة فاعتمادها على ما يجود بهِ الاسخياء من ناحية وعلى اعفائها من ضرائب معينة تبلغ الوف الجنيهات من ناحية اخرى . وطالما دافعت الجامعات الخاصة عن وجوب اعفائها من الضرائب على ممتلكاتها الواسعة من ارض وبناء ، بقولها انها معاهد عامة لا تبغي الربح ، وان اعمالها وقفٌ على الخير العام . فاذا شاءت الجامعات ان تنزل الى حلبة الاعمال المالية ، وتجني الربح من مكتشفات رجالها ومخترعاتهم ، ايًّا كان سبيل الجني ، فهي تناقض ذلك المبدأ الادبي العالي الذي تعتمد عليهِ في استمداد المعونة من الجمهور والحكومة

ثم ان الجامعات مرتبطة بعهد غير مكتوب مع الاسخياء الذين جادوا عليها بالمال لتشييد المباني وتجهيزها بمعدات البحث وتوفير المال لمرتبات رجالها . هل كان قصد هؤلاء المحسنين سواء أفراداً كانوا ام جماعات ، ان يهيئوا للجامعات السبيل للتنافس التجاري ? بل هناك عهد آخر لا يسع الجامعات ان تخرج عليهِ بعملها المالي من دون ان يوصم جبينها بوصمة ادبية . ذلك هو العهد الضمني بين رجال البحث في هذا العصر ، او في اي عصر ، والروّاد الذين سبقوهم ، الى تمهيد الطريق واستجلاء الغامض . فليس في العالم اكتشاف جديد او استنباط حديث لا يمكن ان ترتد بهِ خطوة خطوة الى مباحث عشرات من العلماء الذين جهدوا وشقوا في اكتشاف الحقائق واحدة اثر اخرى . . فكيف يجوز لباحث حديث ان يسجّل طريقته ويحصر استعمالها لجني الربح منها مع ان صاحب الركن الاساسي لم يفعل ، ولو فعل لما أتيحت لهُ الاركان التي تقوم عليها طريقتهُ . قد نقبل هذا من صاحب شركة تجارية ، ولكنه من عالم او باحث في جامعة ، يحسب نقضاً لذلك العهد الادبي المتفق عليهِ بين العلماء على ان العلم مشاع

خذ مثلاً على ذلك اكتشاف الطريقة الحديثة في معالجة الانيميا الخبيثة بخلاصة الكبد . فقد توصّل مينو Minot ومرفي Murphy الاميركيان الى اكتشافها باعتمادهما في ما اعتمدا عليهِ ، على مباحث هوبيل Whipple في معاهد مختلفة . وهوبل اعتمد على سلسلة متعددة الحلقات

من المباحث في الفسيولوجيا والكيمياء الحيوية . فلو شاء مينو ومرفي ان يسجّلا طريقتهما ويمنعا استعمالها الاّ عمّن يوفي الثمن الذي يطالبانهِ او تطلبهُ الجامعة التي يشتغلان فيها ، لكان لهما وللجامعة ذلك من الناحية الشرعية ولساء عملها عملاً من الناحية الادبية . ومن بواعث فخرهما ان الطريقة ابيحت للعالم بغير قيد ولا شرط . ولذلك ترى ان المعهد الذي عليهِ توزيع جوائز نوبل الطبية اشرك هويبل معهما في الجائزة من بضع سنوات

هذا من الناحية الادبية . ولكن للمسألة ناحيتها العملية ايضاً . ومن حق الباحث في شؤون العلم والتربية والاجتماع ان يؤكد من دون أن يخشى لوماً ان مصلحة التربية مرتبطة اوثق ارتباط بمصلحة البحث العلمي ، وكل ما يفضي الى تعزيز الجامعة ومعمل البحث يفضي حتماً وعلى المدى الطويل الى ارتقاء الانسان والحضارة . واذن فمستقبل معاهد العلم ونجاحها في تأدية مهمتها أمر يهمّ الناس . ومع اننا نسلّم بأن مسألة الخلاف على الناحية الادبية في موضوع العلم والمال ، قد تكون خاصة بالعلماء انفسهم ووجهة نظرهم الى الامور ، لا يسعنا أن نغفل العناية بنواحي كفاية المعاهد في ابداع الجديد وما يمكن أن يكون لهذا الجديد من ثبوت وفائدة . فهذه المسائل الاخيرة ، وان كانت في صميمها من شأن فلسفة العلم ، الاّ انها من ناحية التطبيق امور عملية كاخص الامور العملية

لا ريب في ان تجهيز معامل البحث بكل ما يلزم لها من الادوات اللازمة للبحث من أهم وسائل الارتقاء العلمي في هذا العصر . وكثيراً ما يكون استنباط جهاز جديد للبحث وسيلة عظيمة الشأن للكشف عن حقائق خفيت عن انظار الباحثين لقصور وسائلهم . ولعلنا لا نخطىء اذا ضربنا على ذلك مثلاً بالسيكلوترون في مباحث الذرة[1] فمعامل البحث الطبيعي في الجامعات والمعاهد المختلفة تعجز عن المضي في بحث ناحية من قلب الذرة اذا خلت من هذا الجهاز ، وقد انكر لورد رذرفورد العظيم ضرورتهُ قبلاً في معمل كافندش بجامعة كمبردج ، ثم غيّر فكرهُ

ولا يخفى أن تجهيز معامل البحث ، بهذه الادوات الحديثة اللازمة للكشف العلمي ، يقتضي نفقة غير يسيرة . ولو لم يقيض للورنس الاميركي ، من ينفحهُ بمغنطيس كهربائي كبير بلا مقابل ، وبمال من جماعة كوتريل (الذي تقدم ذكرهُ في هذا المقال) لينفقهُ على سائر ما يحتاج اليهِ في اتقان هذا الجهاز ، لما أتيح لهُ ان يصل بمباحثهِ الى مرتبة مكنتهُ من مجاراة الطبيعة بعض المجاراة ، وذلك بتوليد المواد المشعة على نمط الراديوم من مواد غير مشعة

ومن الحقائق التي يجهر بها العلماء وحكماء الحكام كالرئيس هوفر والرئيس روزفلت ان ما نجود بهِ الامم على دور البحث ، لا يبلغ عشر معشار ما تنفقهُ على البوارج والغواصات

(١) راجع مقتطف دسمبر ١٩٣٧ مقال « تهشيم الذرة » ص ٥٢٣

والطيارات والمدفع والغازات ، بل لا يبلغ معشار ما ينفق على المعجونات المطرية كل سنة

وقد قال عالم يدعى شنيدر وهو مدير معهد البحث في جامعة سنسناتي الاميركي ، ما ملخصه: وماذا في وسعنا ان نفعل اذا كان عندنا برنامج واف ببحث جدير بالعناية ، فنعجز عن المضي فيه لقلة المال ، انبذه ام نفعل كما فعل كوبرنيكوس ، فنمارس التنجيم ، ام نحتذي حذو باستور فنشتغل لحساب الخمّارين . لقد بذلت الجهد في سبيل الفوز بالمال اللازم من الافراد والمؤسسات ومن ميزانية الجامعة نفسها ، فاخفقت . ولا اعلم ما تفعل الجامعات الاخرى ، ولكنني اعلم ان استجداء الاكف عمل شاق ، وعند ما أردّ احس انني اودّ الارض ان تنشقّ وتبتلعني

هذا بعض ما يقوله شنيدر . ولذلك عمد الى تسجيل بعض المكتشفات التي اكتشفها سبرتي Sperti ، لكي يجنى منها المال اللازم لمتابعة برنامج البحث الذي وضعهُ . ولو اتيح لهُ المال الذي يحتاج اليه ، لكان في ذلك غنى للانسانية ، ذلك ان سبرتي اجرى بحثاً دقيقاً في الطاقة على اساس من نظرية المقدار « الكونتم » فتوصّل الى اسلوب مكّنهُ من تخير انواع معينة من الاشعة تولد فيتامين D في الطعام الخالي منهُ عند تعريضهِ لها . ولو لم يكن شنيدر وسبرتي في حاجة الى المال لمتابعة البحث ، لما سجّلا هذه الطريقة ، فكان في تسجيلها وبيعها لشركة معيّنة خسارة عامة

وليس بالعسير ان نعدد الامثلة . فالموقف الذي تقفه عامة الشعب من معامل البحث ومعاهد العلم العالي ، مشوب بروح من التعالي مردها الى هذا السؤال — وما الفائدة من كل هذا . بل ان هذه الروح لا تقتصر على عامة الناس ، وتتعداها الى فريق كبير من الخاصة فلا تحدثهم في الموضوع الا وترتسم على شفاههم بسمة ازدراء وتنطلق منها هذه الكلمات او ما هو شبيهٌ بها : ما الفائدة العملية ؟ وهم لو كانوا على المام يسير بتاريخ العلم لما كشفوا عن جهلهم بهذا السؤال ، والاّ لكانوا وجدوا في جميع العجائب اللاسلكية فائدة عملية من معادلات مكسويل؟ ولتذكروا قول فاراداي عند ما ردّ على سيدة سألتهُ ما الفائدة بقولهِ : وما الفائدة من الوليد

ما الغرض من معاهد العلم العالي ومعامل البحث وما الصلة التي تربطها بالعالم . ان البحث عن الحقيقة بصرف النظر عن فائدتها العملية ، هو سرّ وجودها وبقائها وصلتها بالاجتماع . ثم إن البحث العلمي يندمج في الفن او أن الروح التي تحرك الباحث العلمي والرجل الفني روح واحدة . فالعالم يقيس ، والفنان يبدع . ولكن كلاًّ منهما يعمل لا ليشبع رغبة الحيازة ، بل لكي يعمل ويتقن . كلٌّ منهما يحاول أن يعمل ما لم يعمل قبلاً ، وفي هذا ضرب من النزعة الفردية المتطرفة. وفي معاهد العلم العالي ، ومعامل البحث ، تربى هذه الطريقة من طرق التفكير والنظر الى الوجود والحياة . ولكن البحث العلمي لا يميل بصاحبه الى التطرف في النزعة الفردية فقط ، بل يفرض عليه قيداً من التضافر العالمي . ذلك ان العلم ليس مجموعة من الحقائق

المتحنة والمبوَّبة فحسب، بل هو اخوة دولية باخص معاني الاخوة ، فنتائج البحث في جميع ميادين العلم تجمع وتنشر بلا قيد ولا شرط ليأخذ منها ويستفيد بها من يستطيع . فالملك العام هو روح العلم او قل ان العلم هو الشيوعية الكبرى

واذن قبل الجامعات والمعاهد الى تسجيل المكتشفات الجديدة وتقييدها بقيود الملكية الخاصة يخمد تلك الروح . ثم انهُ يفضي الى التكتم في النشر بدلاً من الصراحة ، وتصبح المعاهد العلمية ورجالها ، في حلبة يتنافسون فيها الى الكتمان بدلاً من ان يتنافسوا الى السبق في النشر واذاعة النور . وهنالك من الحوادث ما يؤيد هذا القول . فقد روي عن عالم بحاثة انهُ زار جامعة غير جامعته واطلع على بحث باحث شاب في موضوع من اختصاصه . فلو كانت تلك الجامعة من المعاهد الحرة ، لاطلع الاستاذ ذلك الشابَّ على ما يعلم في الموضوع ولافضى الاشتراك في الرأي الى خير كبير . ولكن تلك الجامعة كانت من المعاهد التي تسعى الى الكسب المالي من كل كشف يكشف فيها ، فامتنع الاستاذ عن الافضاء ، وكان العلم هو الخاسر

ويضاف الى هذا الخطر الموجه الى التعاون العلمي ، خطر آخر وهو ان العلم بأن مجلس الجامعة يجزي الباحث الذي يكتشف او يستنبط شيئاً منهُ فائدة مادية معجلة ، يؤثر في ذهنية فريق من الباحثين على الاقل ، فيصرفهم عن تناول المباحث الاصلية الاساسية ، الى الاهتمام بما يعلّق به أملٌ في الربح المباشر . ولسنا في حاجة الى ترديد القول ، بأن البحث في الاصول هو ركن التقدم العلمي ، دون غيره . فالباحث في أسرار الكون والطبيعة والحياة ، يجب ان يكون حرًّا مطلقاً ، ان يسير في الطريق الذي يرى ، حرًّا في الاعتماد على مباحث غيره لانهُ يعلم ان في هذا الاعتماد لا يمكن ان يوصم برغبة الكسب الخاص . والاجماع الانساني يمنح الجامعة ورجال البحث فيها هذه الحرية بلا حدّ ولا شرط ، وينتظر مقابل ذلك ، ان يهبَ الباحث نفسهُ لهذا المعنى العالي الذي أصبح ملازماً لمعنى الجامعة ، بلا حد ولا شرط كذلك

ان قرّاء سيرة بيير وكوري وزوجته ماري يعلمون ان موضوع الكسب المالي من مكتشفاتهما في ميدان الاشعاع والراديوم عرضت لهما فأبيا ، وقد اشارت مدام كوري في سيرة حياتها الى هذا الموضوع فقالت ما ملخصهُ ... « وكذلك ضحَّينا بثروة كبيرة لامتناعنا عن استغلال مكتشفاتنا . وقد زعم اصدقاؤنا اننا لو فعلنا ، لما خلفنا لابنتينا مالاً تستمدان عليه فقط ، بل لتمكنا من انشاء معهد للراديوم فلا أعاني في بحثي قلة ما في يديَّ منهُ . ومع ذلك أظن اننا كنا على صواب . ان الانسانية تحتاج ولا ريب الى الرجال والنساء العمليين . . . ولكنها في حاجة كذلك الى اصحاب الرؤى والاحلام ، الذين يسيرون بقاسر خفيّ وراء رؤاهم واحلامهم فينسون العناية بمصلحتهم الخاصة ... » ومن يشكُّ في ان مدام كوري كانت على حق !

١ — الحاجة الى زيادة المعرفة بالانسان

الانسان المجهول

لاسماعيل مظهر

تمهيد

في سنة ١٩٣٥ ظهر للعلامة « الكسيس كارل » كتاب عنوانهُ « الانسان المجهول » احدث في دوائر الثقافة العالمية أثراً ، لعلنا لا نخطىء إذا قلنا إنهُ لا يقل عن الأثر الذي خلفتهُ مؤلفات قلائل ظهرت في خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين

ولعل ذلك الاثر العميق راجع الى ان الكتاب شامل الاغراض ، غير مقتصر على ناحية بعينها من نواحي العلم بالانسان .فهو ان قام في اساسه على فكرة اجتماعية ورمى الى اصلاح اجتماعي ، فان بحوثه قد قامت على دعامة من علم الاحياء — Biology — والى تأملات فلسفية استخلصت من العلم بطبيعة الانسان ، علماً اقل ما نصفه بهِ انهُ عميق كل العمق ، واضح كل الوضوح . والجمع بين العمق والوضوح ، صفة قلما يمتاز بها كاتب نشأ عالماً وربي عالماً وألف والنزعة العلمية تكتنفهُ والاسلوب الاستقرائي يقوم من وراء كل ما حصل من علم بالانسان الذي قصر ذلك الكتاب على بحث النواحي المجهولة من حياته ، تلك النواحي التي يعتقد ذلك العلامة الفارهِ انَّ العِلْمَ بها ينبغي ان يتخذ اساساً لاصلاح حالات الاجتماع . وكأنهُ يريد بذلك ان يقول ان الجهل بالانسان قد اقام النظامات والمعاهد الحاضرة على اساس بعيد عن ان يكون الاساس الامثل ، وسلك بالاصلاح الاجتماعي نهجاً بعيداً عن ان يكون النهج الواضح السويّ

أضف الى ما تقدم ان الكتاب في مجموعه نتيجة لظاهرة ثقافية ندر ان تقع عليها في كتاب آخر من الكتب التي عالجت الانسان وحالاته . فقد لابس الكتاب روح فلسفية عالية ،ولكنها روح فلسفية قامت على العلم ، بقدر ما بعدت عن التأمل والفرض . بهذا تحررت من المذهبية ووجهت كل قوتها الى تحرير الفكر وتنوير الذهن ، ولاحت عليها سمات الهدوء الذي يكمن من ورائه كل ما في الثورة من قوة الشك ، ورمت في اول ما رمت اليهِ الى القضاء على كل ما أناخت بهِ الظَّلامية وعمل له الظَّلاميون من المبادىء التي افسدت الاجتماع الانساني

فلا عجب اذا فكر الاستاذ محرر المقتطف في ان يُلَخِّص الكتاب في مقالات تظهر متتالية على صفحات المقتطف ، ولا عجب إذا لبيت دعوته ، راجياً القراء ان يستعينوا بالصبر على تفهم مبادىء ومشاكل، هي في الواقع اقرب اليهم من حبل الوريد . مبادىء ومشاكل موضوعها الانسان ، وكفى بذلك دليلاً على جلالة الموضوع واثره البالغ

١ — تقدم علم الاحياء ابطأ من تقدم علم المادة الجامدة : جهلنا بانفسنا

ان بين علوم المادة الجامدة ، وعلوم الأحياء ، لتفاوتاً كبيراً يحملنا على العجب والتأمل . فعلم الفلك وعلم الآليات وعلم الطبيعة ، قامت جميعها على تصورات يمكن التعبير عنها تعبيراً دقيقاً قوياً بلغة مستمدة من علم الرياضيات . ولقد اقامت هذه العلوم كوناً فيه من الأُلفة والتجانس ما نأنس في الآثار الجليلة التي خلّفتها إغريقية القديمة ، ونسجت من حول ذلك الكون شبكة باهرة من التقديرات والفروض ، كما عمدت الى البحث عن الحقيقة في عالم يقع من وراء ذلك العالم الذي تحوم فيه الفكرات العادية ، فدلفت إلى مجرّدات قوامها معادلات مكونة من رموز . أما علوم الاحياء ، فالحال فيها على خلاف ذلك . فان الذين يعالجون البحث في ظاهرات الحياة ، يحسّون كأنهم في تيه غامض مبهم ، او كأنهم في حرجة سحرية مغلقة المسالك ، لا تستقر أشجارها في مكان ، فهي دائمة التنقل ، ولا تبقى على صورة واحدة ، فهي دائمة التغيُّر . يحسون ان كواهلهم تكاد تنوء بأثقال من الحقائق . حقائق يستطيعون ان يصفوها ، ولكنهم عاجزون عن تحديدها وتعريفها ، بافراغها في معادلات جبرية

من الاشياء التي نصادفها في عالم المادة ، كالذرات او النجوم او الصخور او السحاب او الصلب او الماء ، أمكن استخلاص بضعة صفات عامة تشملها جميعاً ، كالحجم والامتداد في الفراغ ، وهذه المجردات ، لا الحقائق الجامدة ، هي موضوع التفكير العلمي . فان مشاهدة أشياء الطبيعة ، والاقتصار على المشاهدة وحدها ، انما يكوّن صورة من العلم دنيّة بذاتها وطبيعتها ، تلك هي الصورة الوصفية من العلم . فالعلم الوصفي يصنّف الظاهرات . أما العلاقات الثابتة القائمة بين الكميات المتغايرة ، وبالحري السنن الطبيعية ، فلا تلوح في أفق العلم ، الاّ عند ما تزداد صفة التجريد فيه . ومن أجل ان علوم الطبيعة والكيمياء علوم مجردة ، وهي فوق ذلك كميّة ، اي تتعلق بالكميات ، أصابها النجاح السريع الباهر . وبالرغم من ان هذه العلوم لا تدّعي القدرة على الكشف عن غائيات الاشياء ، اي عن الطبيعة النهائية للاشياء ، فانها تزوّدنا بما نستطيع به ادراك حوادث مستقبلة ، وان نعين باختيارنا في الغالب أوجه حدوثها . وبدرس سر المادة وتكوينها وخصّيّاتها ، أمكننا ان نسيطر على كل ما هو موجود في كرة الارض ، اللهمّ الاّ شيئاً واحداً : هو أنفسنا . إن علم الاحياء ، على الجملة ، وبخاصة ما تعلق منهُ بالفرد من بني الانسان ، لم يتقدم بمثل

تلك الخطى الكبيرة . انهُ ما يزال في الطور الوصفي من درجات العلم . والانسان كلٌّ بالغ التعقيد لا يمكن تجزئته . ولا يستطاع ان يمثل لهُ بشيء بسيط التكوين . وليس لدينا من أسلوب يمكننا من ادراكه دفعة واحدة في مجموعه وفي اجزائهِ وفي علاقاتهِ بالعالم الخارج عن حيّزه . ومن اجل ان نحلّل انفسنا ، ينبغي لنا ان نلجأ الى وسائل علمية شتى ، وان نستخدم ، ، بناء على هذا ، علوماً متفرقة . وطبيعي ان تلك العلوم تختلف من حيث التصورات المتباينة التي تكوّنها في درس الموضوع العام الذي تعكف على درسه . فهي لا تستخلص من الانسان الاّ ما في مقدورها ان تستخلص منهُ بأساليبها الخاصة . وما تستخلص تلك العلوم ، وبلغة الفلسفة ما تجرد ، من الانسان ، يظل حتى بعد ان يضم بعضهُ الى بعض ويفرغ في قالب كامل ، أقلّ غناء من الحقيقة الجامدة . فلا شكّ في انها تخلف من ورائها حثالة او بقية ، هي بطبعها اعظم من ان تهمل . فالتشريح والكيمياء وعلم الوظائف وعلم النفس والتربية والتاريخ والاجتماع والاقتصاد السياسي ، جماعها لا تستفني موضوعها درساً . فالانسان كما يعرفه الاخصائي ؛ بعيد عن ان يكون بذاتهِ الانسان الحقيقي . انهُ ليس اكثر من صورة تتألف من صورٍ أخرى تقيمها الوسائل العلمية الخاصة بكل علم على حدتهِ . فهو عند المشرح تلك الجيفة التي يقطعها ارباً ، وهو الوعي والشعور عند العالم النفسي والقائلين بالحياة الروحانية ، او هو الشخصية التي يظهرها الاستبطان لكل انسان ، قارّة في صميم ذاتهِ . وهو عند الكيمائي تلك الجواهر الكيمائية التي تؤلف الانساج واخلاط البدن . وهو عند الوظائفيّ (العالم بالوظائف) تلك المآثر الباهرة من الخلايا والسوائل المغذية التي يعكف على درس قواعدها وأسسها . وهو عند رجال الصحة والمربين ، إما تلك الانساج المركبة ، واما تلك القوة الشاعرة الواعية ، التي يحاول هؤلاء بجملتهم ان يرفعوها الى السمت الاعلى من التطوّر والنشوء على مرّ الازمان . وهو عند أهل الاقتصاد ذلك « الانسان الاقتصادي » Homo economicus : الذي ينبغي لهُ ان يستهلك ، على التوالي وبغير انقطاع ، تلك المصنوعات التي يؤدي استهلاكها الى بقاء الآلات التي أستعبدتهُ وردته رقيقاً ، تعمل الليل بعد النهار . لم يبق الانسان في اعتبارنا ذلك الكائن البالغ التعقيد الذي تحلله الوسائل العلمية لا غير ، بل هو فوق ذلك الشاعر والبطل والقديس . هو تلك الميول والخواطر والآمال التي تسوق الانسانية . لقد امتزجت تصوراتنا عن الانسان بالغيب وما بعد الطبيعة . لقد قامت هذه الاشياء عامة على أسس يعوزها الضبط والتحديد ، حتى لقد أصبح الاغراء في اختيار أيها يلذُّ لنا ، عظيماً قويّاً . لهذا نرى أن فكرتنا في الانسان تختلف بمقتضى مشاعرنا ومعتقداتنا . فالماديّ والرّوحاني كلاهما يقبل التعريف العلمي الذي يحدد بلّورة من كلوريد الصوديوم ويؤمن بهِ . ولكنهما يختلفان أزاء الانسان . والنفساني الذي يؤمن بالمبدإ الآلي ، لا ينظر الى الكائن الحي نفس النظرة التي يراها النفساني المؤمن بالمبدأ الحيوي (أي الروحاني).

فالكائن الحي الذي يراه « جاك لوب » يختلف جُهدَ الاختلاف عن ذاك الذي يراه « هنز دريش » . ولا شبهة في ان الانسان قد بذل جهداً جباراً لكي يعرف ذاته . وعلى الرغم من أننا نملك كنوز المشاهدة التي استجمعها العلماء والفلاسفة والشعراء والمتألهون على مدى الاحقاب والدهور ، فاننا لم نفقه الا بعض نواحي خاصة من انفسنا ، ولم ندرك الانسان في مجموعه . عرفناه شيئاً مكوَّناً من أجزاء مستقلة . وحتى تلك الاجزاء قد خلقناها بأساليبنا . فكلٌّ منا انما هو بمثابة جمهرة من الخيالات والاشباح ، تستقر في جوفها حقيقة مجهولة .

والواقع ان جهلنا عميق . فان اكثر المشكلات التي تقوم امام اولئك العاكفين على درس الانسان تظل بغير حلٍّ مرضٍ . فان آفاقاً واسعة من عالمنا الداخلي لا تزال مجهولة . فكيف تتحد جزيئات الجواهر الكيميائية لتؤلف أعضاء الخلية المعقدة ؟ كيف ان المورِّثات (Genes) التي تكون في نواة البُيَيْضَة الملقحة تبين خصائص الفرد الناشيء من تلك البيضة ؟ كيف تنظم الخلايا انفسها بمجهودها الذاتي في جماعات فتكون انسجاً أو اعضاء ؟ ومثل الخلايا في ذلك كمثل النمل والنحل ، لكل منها معرفة تامة بالدور الذي ينبغي لها أن تمثله في حياة الجماعة . في حين أن قدرتها الآلية الخفية علينا تمكنها من ان تبني كائناً عضويًا ، إذ هو معقد ، نراه بسيطاً . وما هي طبيعة بقائنا ، أي حقيقة أعمارنا ، من حيث الزمن النفسي والزمن الوظائفي ؟ نحن انما نعلم اننا نركب من الانسجة والاعضاء والسوائل والوعي . غير ان العلاقة بين المخ والوعي ، لا تزال سرًّا ، واننا لعلى جهل كامل بوظائف الخلايا العصبية . والى أي حد في مستطاع قوة الارادة أن تكيف من حالات الكائن الحي ؟ وكيف يتأثر العقل بالحالة التي تكون عليها الاعضاء ؟ وعلى أية صورة تتغير الخصائص العضوية والعقلية متأثرة بأسلوب الحياة وبالجواهر الكيميائية التي يتضمنها الغذاء ، وبطبيعة الاقليم وبالنظامات الوظائفية والادبية ؟

بعيد علينا أن نعرف ما هي العلاقات القائمة بين الهيكل والعضلات والاعضاء ، وبين أوجه النشاط العقلي والروحي . نحن على جهل بتلك العوامل التي تستحدث التوازن العصبي ومقاومة التعب والاجهاد ومقاومة الامراض . نحن على جهل بالطريقة التي تنمّي بها في انفسنا صفات الحس الادبي ودقة الحكم والشجاعة . وما هي القيمة النسبية القائمة بين النشاط الادبي والعقلي والميول التألهية ؟ وما هي قيمة الحس بالجمال والحس بالدين ؟ وما هو نوع تلك الطاقة التي تحدث الاتصال الفكري وتنقل الافكار بين الافراد ؟ ومما لا شك فيه ان هنالك عوامل وظائفية واخرى نفسية تقدر السعادة أو الشقاء ، النجاح أو الفشل . ولكننا لا نعلم ما هي . اننا لا نستطيع ان نهيء فرداً من الافراد بالقدرة على بلوغ السعادة ، كما اننا لا نعرف اية بيئة هي انسب البيئات ليبلغ الانسان في ظلها الحد الاعلى من التطور والنشوء باعتباره كائناً مدنيًا . أفي مقدورنا ان نكفّ الصراع والجهد والألم عن أن تعمل في كياننا الوظائفي والنفسي ؟ كيف نستطيع ان نحول بين

الانسان وبين الفساد في المدنية الحديثة؟ اننا نستطيع ان نضع كثيراً من الاسئلة الجوهرية في مسائل من أخص ما يتعلق بمصالحنا؛ ولكنها ستظل بغير جواب. وظاهر جلي أن كل مستحدثات العلوم التي اتخذت من الانسان موضوع درس وتحقيق، قد ظلت غير كافية، وان علمنا بانفسنا لا يزال من البدائيات

٢ — جهلنا انما يرجع الى اسلوب الحياة التي عاشها أسلافنا، وإلى تعقد تركيب الانسان، وإلى تكوين عقولنا

قد يعزى جهلنا، مع ما تقدم الى اسلوب الحياة التي عاشها اسلافنا، والى تعقد طبيعتنا، والى تكوين عقولنا. كتب على الانسان ان يعيش اول شيء. والحاجة الى العيش تطلبت غزو العالم الخارجي، اي العالم المحيط بنا. كان لزاماً ان نحصل على القوت والحِمَى، وان نقاتل الوحوش، كما نقاتل غيرنا من الناس. ولقد ظل اسلافنا عصوراً متطاولة لم تتح لهم الفرصة، ولا عرض لهم الميل لدرس انفسهم. ذلك بأنهم قد صرفوا ذكاءهم في نواحي اخرى، كصناعة الاسلحة والادوات واستكشاف النار وتدجين البهائم، والحيل منها خاصة، واختراع الدولاب (العجلة)، وزراعة الحبوب الى غير ذلك. وقبل ان يحس اسلافنا ميلاً الى البحث في تكوين جسومهم وعقولهم بأزمان طويلة، انصرفوا الى التأمل في الشمس والقمر والنجوم والمدّ وتغير الفصول. ولقد تقدم علم الفلك تقدماً كبيراً في ازمان كان علم الوظائف فيه من الاشياء المجهولة كل الجهل. آية ذلك ان «غليليو» قد رد الارض من مركز للكون، سياراً صغيراً حقيراً تابعاً للشمس، في حين ان معاصريه لم يدركوا اوليات العلم بشيء من تركيب الدماغ وخصائصه او الكبد او الغدة الدرقية. وكما ان تركيب الانسان العضوي يستمر عاملاً بغير ان يصيبهُ اضطراب ما ظلت حالات الحياة ملائمة لهُ، كذلك العلم، فانهُ سار في الناحية التي لاءمت ناحية التطلع في الانسان، اي الى العالم الخارجي

بين فترة واخرى، ومن بين البلايين العديدة التي تعاقب وجودها على الارض من بني الانسان، برز افراد قلائل خصوا بقوة نادرة، وهيئوا بقدرة غير عادية، وخصوا بالهام يستظهر المجهولات، وتصور يخلق العوالم الجديدة، وكفاية تمكنهم من كشف العلاقات القائمة بين ظاهرات معينة. وكان من نصيب هؤلاء ان يستكشفوا الكون المادي. والكون المادي بسيط التركيب. لهذا تراه قد خضع وشيكاً لهجمات العلماء وأفضى اليهم بسر بضعة من النواميس. ولقد مكنتنا المعرفة بتلك النواميس، من ان نستخدم عالم المادة في قضاء مصالحنا. وتطبيق المستكشفات العلمية تطبيقاً عملياً شيء مربح لاولئك الذين يمارسونهُ. فانهم يسلون البقاء للجميع، ويرضون الجماهير بأن يزيدوا من راحتهم وهناءتهم. وما من شك في ان كل فرد قد اصبح بحكم طبعه اكثر تطلعاً الى المخترعات التي تنقص مقدار الجهد الانساني وتقلل من اعباء العمل على

العامل ، وتزيد من سرعة الاتصال والتنقل ، وتلطف من خشونة الحياة ، منهُ الى المستكشفات التي قد تلقي بعض الضوء على المشاكل المعقدة التي تتعلق بتكوين جسومنا او حقيقة الوعي فينا . لهذا نرى ان غزو العالم المادي ، ذلك الغزو الذي استنفد كل انتباه الناس واستحوذ على ارادتهم، قد ادى الى ان يظل العالمان العضوي والروحاني مهملين كل اهمال ، مستخفين كل استخفاف. وفي الحق ان علمنا بما يحيط بنا من الاشياء كان ضرورياً ، ولكن علمنا بطبيعتنا قد ظهر لنا اقل استجابة لمصالحنا المباشرة وفوائدنا الملحة . ومع هذا كله فان المرض والالم والموت ، وفوق ذلك الآمال الغامضة التي عقدناها في قوة خفية تستعلي على كل ما في الكون المنظور وتهيمن عليه ، عامة اذا وجّه انتباه الانسان بقدر ما ، الى العالم الداخلي القار في جسومنا وفي عقولنا . ففي اول الامر حصر الطب همه في مسألة عملية ترمي الى شفاء المريض بوسائل تجريبية. ولقد حقق الطب ، ولكن حديثاً ، ان امثل الطرق في منع الامراض او علاجها هو ان يعرف الانسان ، معرفة تحقيق ، طبيعة الجسم في حالتي الصحة والمرض ، فاضطر الى تكوين تلك العلوم التي نسميها التشريح والكيمياء الحيوية والوظائف والامراض . ومع هذا فان سر وجودنا ، والآلام الادبية ، وشهوتنا الى استجلاء المجهول ، والظاهرات النبيلة ، كل هذا قد ظهر لآبائنا أعظم شأناً من الآلام الجسمية والامراض . ودرس الحياة الروحانية والفلسفة قد اجتذبت لناحيتها عدداً من الباحثين اعظم مما اجتذب الطب . ومبادىء التأله وطرائقه قد عرفت قبل ان يعرف علم الوظائف . غير ان مثل هذه المبادىء لم تر النور الا بعد ان نشأ في الانسان ميل كافٍ وجّه انتباهه الى اشياء اخرى غير غزوة العالم المادي

هنالك مؤثر آخر قد يعزى اليه السبب في بطء التقدم الذي نال معرفتنا بانفسنا . فان عقلنا قد ركّبت بحيث يهيم بالتأمل من الحقائق التافهة . وانا لنشعر بنفور من ان نهاجم مشكلات معقدة كتكوين الكائنات الحية او الانسان . فالقوة العاقلة ، كما قال « برجسون » قد اختصت بضعف طبيعي يمنعها من ادراك سر الحياة . وعلى العكس من ذلك ، نرى اننا نحب ان نكشف من الكون عن تلك الصورة الرياضية الهندسية التي تستقر في اعماق وعينا . فان ما في آثارنا القديمة والحديثة من اثر الضبط وطابع الاتقان ، وما في آلاتنا من مجالي الدقة ، كلها اشياء تعبر أصدق تعبير عن حقيقة عقلنا . ان الهندسة لا وجود لها في عالمنا الارضي . لقد خلقت في نفوسنا . وأساليب الطبيعة لن تبلغ من الدقة مبلغ الاساليب البشرية . فاننا لا نجد في الطبيعة ما يشبه ذلك الضبط وذاك البهاء ، الذي نأنسه في افكارنا . لهذا نحاول ان نجرّد من تعقيد الظاهرات قليلاً من النظامات البسيطة التي بين بعض اجزائها المؤلفة ، وبعض علاقات تخضع للتبيان عنها بطريقة آلية . والى قوة التجريد في العقل الانساني ، يرجع ذلك التقدم الباهر في علمي الطبيعة والكيمياء . ولقد كان لهذا النجاح مثيل في درس الكائنات الحية درساً قائماً على اساس طبيعي كيمائي . ونواميس

الكيمياء والطبيعة واحدة سواء افي الاشياء الحية ظهر أثرها ام في الاشياء غير الحية ، على ما قال « كلود برنار » من قبل . ولقدتبين لنا هذه الحقيقة لمّا كشف علم الوظائف الحديث مثلاً عن ان استمرار قلوية الدم وماء البحر ، انما ترجع في كلتا الحالتين إلى نواميس واحدة. وان الطاقة التي تبذلها العضلة المنقبضة يجدها تحوّل السكر في الجسم ، الى غير ذلك . ان في بحث المظاهر الطبيعية الكيميائية في الانسان من السهولة والبساطة ما في بحث الاشياء الاخرى التي يتضمنها عالمنا الارضي . وتلك هي المهمة التي نجح علم الوظائف العام في الاضطلاع بها

ان بحث الظاهرات الوظائفية الصحيحة — اي تلك التي تنشأ من نظام المادة الحية — تواجهه عقبات أعظم من العقبات التي تواجه غيره من البحوث . فان الاشياء موضوع البحث والتحليل في هذا العلم اذ هي صغيرة جهد الصغر ، يتعذر علينا ان نتخذ الادوات العلمية في الطبيعة والكيمياء ذريعة لبحثها . فأية أداة من أدوات العلم وأجهزته في مستطاعها ان تظهرنا على التكوين الكيميائي لنواة الخلية التناسلية او صبغياتها — Chromosomes والمورثات التي منها تتكون تلك الصبغيات ؟ ومع هذا فان هذه الكتل الدقيقة المكونة من جواهر كيمائية لذات خطر عظيم . ذلك بأن فيها يكمن فرد القدر ، وسلالة المستقبل . وكذلك هشاشية أنساج معينة ، كمادة الانساج العصبية ، فإنه يتعذر عليك ان تدرسها في حالة الحياة . وليس لدينا من وسائط علمية تخترق صميم المخ فتصل الى أسراره ، والى تآلف خلاياه ومجمها . ان عقلنا ، ذلك العقل الذي يحب الجمال الساذج الذي يأنسه في المعادلات الرياضية ، ليحار ويبهر اذا ما مضى يتأمل تلك الكتل العظيمة المكونة من خلايا وأخلاط ووعي ، تلك التي يتألف منها الفرد الحي. لهذا نجهد انفسنا في ان نطبق على هذه الاشياء المركبة ، تلك التصورات التي اتضح انها مفيدة في الكشف عن غوامض الطبيعة والكيمياء والآلة ، والمذاهب الفلسفية والدينية . غير أن مثل هذه المحاولة لم تنجح نجاحاً كبيراً ، لاننا لا يمكن أن نرتد الى مجرد نظام طبيعي كيميائي ، ولا إلى شخصية روحانية لا غير . وطبيعي ان علم الانسان عليه أن ينتفع بكل التصورات التي كونتها العلوم الاخرى . ولكنه بجانب هذا ينبغي له أن ينمي من تصوراته الخاصة . لأن ذلك العلم جوهري كعلم الذرات والجزيئات والكهيربات

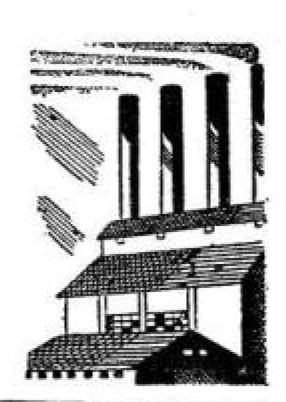
وعلى الجملة فإن بطء التقدم في المعرفة بالانسان ، مقيساً بالارتقاء الباهر في علوم الطبيعة ، والفلك والكيمياء والآلة انما يرجع الى نقصان الميل في اسلافنا الى بحثه ، والى تعقد الموضوع ذاته ، والى تركيب عقولنا . وهذه ولا شك عقبات كبار ، فوق أنها جوهرية . ولا أمل لنا في التخلص منها . انها عقبات ينبغي لنا ان نستقوى عليها بالجهد المفرط . وعلينا بانفسنا لن يبلغ حد السهولة المحببة والجمال والتجريد الذي نجده في علم الطبيعة . والعوامل التي سببت تأخره ، سوف تبقى ولا تزول . وعلينا ان نفقه ان علم الانسان هو اصعب العلوم جميعاً

حكم انكليزية ويابانية

يهزل الحسود اذا سمن جاره
كلمة الصادق حجة
قد تخرب ساعة ما عمّر في جيل
درهم من الحكمة خير من رطل من الذكاء
يبدأ الكذوب بخداع غيره وينتهي بخداع نفسه
الجمال بلا طهارة كسم في حق من ذهب
الحصاة والجوهرة سيان في نظر الاعمى
لا تثق بصديق يعاديك ثم يصالحك
خير للانسان ان يحسد من ان يُرثى له
من كان ضميره مطمئناً نام والرعود تقصف
في الجدال الطويل يضيع الحق
الاعتدال هو السلك الذي يضم سلسلة الفضائل
كثيرون يقبلون اليد التي يريدون قطعها
ليس الجود المطاء بسخاء بل بحكمة
الفوز لالفئة الصغرى اذا كانت على حق
اذا عرفت نفسك لم يجهلك أحد

***

اشتم جارك واحفر قبرك
تبديد الضباب بالمروحة محال
بناء جسر يصل الى السحب محال
غرف البحر بالصدفة محال
الكلب جسور عند باب صاحبه
الشاعر يرى العالم اجمع وهو في بيته
عرش الآلهة على جبين الصديق





لامين الريحاني

ان الحياة ، على تنوع اسبابها واغراضها ، وعلى اختلاف درجاتها في المدنية ، مثلاً اعلى ، كبيراً او صغيراً ، هو الضامن لسلامتها ورقيها ، وهو الضامن لدوامها . وان لهذا المثل الاعلى عوامل شتى تبدأ بفكر المصلح والمخترع ، وتتدرج في هذا الزمان الى افكار ارباب العمل والمال

اما الفكر فلا كيان له يذكر بدون الالف باء والصناعة التي تخلّد الالف باء . فهو يتجسد في الاولى ، ويتخذ من الثانية أجنحةً للطيران . وبكلمة اخرى اقول ان الفكر البشري ، في نشوئه وتطوره ، وفي ارتقائه وانتشاره ، هو ابن الطباعة ، وهو كذلك سيدها

فقد بدأت الطباعة بالحرف الخشبي والمطبعة الصغيرة اليدوية في منتصف القرن الخامس عشر وتمشت بعد ذلك على سنة النشوء والارتقاء ، فاصبحت المطبعة في تعدد اقسامها وادواتها ، وفي عملها الآلي الذاتي ، كالانسان ، لا ينقصها غير الفكر المولّد المخترع . بل هي في عملها العجيب ، وان كان محدوداً ، ترى ولا عين لها ما لا يراه الانسان ، وتعمل ولا يدَ لها ما لا يستطيع عمله ، وتضبط فوق ذلك عملها ، ولا فكر لها ، ضبطاً تامًّا تعجز دونه اليد البشرية

هو الفكر — اعود الى اوليتي — فكر الانسان المخترع . فقد جاءنا ، بعد اربعمئة سنة من الاختراع الاول ، بأعظم آلة للطباعة واعجبها حتى اليوم . هي منضدة اللينوتيب . ومعنى اللينوتيب سطرٌ من الاحرف line of type فمن الحرف الفرد الذي كان الاساس في التنضيد تدرجنا الى السطر الفرد ، ومن صندوق الحروف انتقلنا الى بودقة الرصاص لسكب الحروف . هو ذا الاوج الذي ادركتهُ الطباعة في هذا الزمان

لست بميكانيكي ، ولا علم لي بالميكانيكيات . ولكنني اقف دهشاً مسحوراً امام آلة عجيبة كما اقف امام صورة زيتية لشهير من المصورين . ولقد سحرتني منضدة اللينوتيب التي تكاد تكون عاقلةً رشيدةً كالانسان العاقل الرشيد ، هي آلة كبيرة كثيرة العوامل والاسباب ، ولكنها للعامل بها بسيطة في عملها بساطة الالف باء . وفيها مع ذلك أسرارٌ تنشرها وتطويها ، وآيات ينطق بها

الحديد . ان لها في الحديد مئة يدٍ ، ومئة عينٍ ، تعمل جميعها ، بنظام يفوق التصور ، عملها العجيب

ومن اعجب ما فيها لمثلي وللقراء غير الميكانيكيين الطريقة التي تلبي بها المنضّد الناقر على مفاتيح الالف باء البادية امامه . فهي ترسل الامهات من مستودعها وتصفها صفًّا متساوياً متراصًّا متقناً كل الاتقان . وهذا السطر من الاحرف ، بكلماته وفواصلها ، يمشي بعد ان يتم الى قالبٍ يقف به امام الباب او المنفذ الذي يتصل ببودقة الرصاص المصهور ، فيجري سائل الرصاص منها وينصَبُّ في الامهات المجوفة احرفاً بارزة . ثم يخرج السطر قطعةً واحدةً جامدةً نظيفة مصقولة ويسقط مكانه من عمود الجريدة او صفحة الكتاب . السطر الفرد بدل الحرف الفرد هو اليوم اساس التنضيد . واعجب مما ذكرت الطريقة التي تعاد بها الامهات الى المستودع ، وتوزَّع آليًّا بعمل ذاتي كما يوزع المنضد الحروفَ في الصناديق . على انها في عملها اسرع جدًّا منهُ واكثر تدقيقاً . فهي ترسل كل حرف الى بيتهِ وقلما تخطىء . آلة عاقلة رشيدة ، اختراع مدهش عجيب !

هذي هي منضدة اللّينوتيب التي يجلس اليها العامل كما يجلس الى آلة الكتابة ، فيلقنها الالف باء — الالف باء التي يتكون منها الفكر لخدمة الانسان ، بل لنشر المثل الاعلى في حياة الانسان وحياة الامم

المخترعات الالمانية

منذ اربعمئة سنة ، بعد ان اخترع غوتنبورغ مطبعته اليدوية وحروفه الخشبية ، كان الرهبان وطائفة صغيرة من العلماء خارج الاديرة يتمتعون وحدهم بخير ذلك الاختراع . اما اليوم فالمنضدة المطبعة هي شبيهة بالآلة ينثر خيره في الناس جميعاً وفي اقطار العالم المتمدن جمعاء . والفضل في الاختراع الثاني ، مثله في الاختراع الاول هو لرجل الماني . ان قصة الاول لمن صفحات التاريخ المعلومة . سأقص اذن قصة الاختراع الثاني ، وهي تبدأ في المجلس النيابي الاميركي بواشنطون

ولا عجب . فالكلام حياة المجالس النيابية في العالم . والنواب ، اميركيين كانوا او شرقيين لا يشتهرون الاَّ اذا اكثروا الكلام ، واحسنوا منهُ ما يدعى بالمركب المفيد . الاَّ ان لكلام النواب ، مركباً كان او غير مركب ، مفيداً او غير مفيد ، حق الخلود في سجلات الحكومة . اجل ، يجب ان يسجّل . ومن يستطيع من كتّاب المجلس ان يتتبع النائب الفصيح اذا ما طفق يتدفق بالكلام ! عوناً نوابغ العلم والاختراع . عونكم ، او تضيع درر الفصاحة والبيان والحكمة

جاء المخترعون بلغة الاختزال ، فاستطاع المختزل ان يعدو والخطيبَ — هذا ينثر وذاك يلتقط — دون ان تُفقد غالية من غوالي الخطبة . على ان التسجيل في جريدة الحكومة الرسمية من اللزوميات ، فوجب على الكاتب ان يعيد كتابتهُ المختزلة بلغة يفهمها منضد الحروف ، وقد كانت الخطب تنضَّد يومئذٍ بالطريقة القديمة — حرف من هذا البيت ، وحرف من ذاك ، والصندوق

كثير البيوت والمحن . يالها من طريقة بطيئة مزعجة شاقة . أفنستطيع والحالة هذه ان نصدر الجريدة الرسمية كل يوم . الجريدة الغراء التي يترقبها النواب ترقب الصائم لهلال العيد ، أيمكننا أن نباريهم في سرعة العمل وهم دوماً يخطبون ؟ ويغضبون اذا نقص من الخطبة كلمة واحدة . بل كان النائب الخطيب ، وهو يراجع مسودة خطبته ، يضيف اليها ما فات الكاتب منها ، ولاسيما تينك الكلمتين بين الهلالين (تصفيق حاد) في مواقفه الرنانة المفحمة ، اكراماً لمنتخبيه في الاقل فيقرؤنها في جرائدهم المحلية ويهتفون : هذا نائب ! ويعيدون انتخابه للمجلس

على ان كتّاب الخطب سئموا عملهم المزدوج المزعج ، وكان مدير الجريدة الرسمية يتضجر من تراكم المواد في ادارته ، والنواب الخطباء يتسخطون على الجريدة لتأجيل نشر خطبهم الغراء . ولاختصارها في بعض الاحايين . ما العمل وما التدبير ؟ تفكر الكتّاب كتّاب المجلس ، بطريقة تريحهم من المحنة او تخففها . أليس من الممكن ان نطبع موادنا المختزلة مباشرةً على آلة منضدة ؟ عونكم ، نوابغ الاختراع . جال بعض كتّاب المجلس جولة في ميدان الاختراع وعادوا مخفقين

وفي تلك الايام ، اي منذ خمس وخمسين سنة ، كان في واشنطون شاب يدعى أطمَر مُرغِنثالر ، جاء من ورتمبرج بالمانيا ، يدفعهُ الطموح ، وتستغويه الشهرة والثروة . وكان له ابن عم « ساعاتي » تقدمهُ الى البلاد الاميركية ، فاستخدمهُ في دكانه . ان في الساعات وأدواتها الدقيقة غذاء لعقل المخترع . فبين كان « أطمر » يشتغل في الدكان كان فكره يجول في عالم الاختراع . وقد كانت المادة في عقل هذا الشاب شبيهة بتلك التي أنارت عقل ابن بلاده الذي تقدمهُ بأربعمئة سنة ، اي المخترع الاول للطباعة جوهان غوتنبورج

سمع كتّاب المجلس النيابي بهذا الشاب ، وأنهُ يخترع اختراعاً للطباعة جديداً . فجاءوا به الى المجلس مستطلعين حقيقة الخبر ، فسروا بما علموا ، وساعدوا الشاب ادبيًّا ، ثم توفقوا الى من ساعده ماليًّا . فأنتجت تجرباته في سنة ١٨٨٦ الاختراع الاول لمنضدة الآلية وتلك هو الحادث الثاني العظيم في تاريخ الطباعة

انما المبتكر لايرضى بباكورة عمله ، ولا يقف المخترع عند حدٍّ في اختراعه . ان لكل اختراع قصةً في النشوء والارتقاء ، تبدأ بالفكر المولِّد ، ولا تنتهي ما زال ذلك الفكر حيًّا متنبهاً مولِّداً

اخترع مُرغنثالر منضدته ، فتولت شركة صنعها وبيعها ، وظل الفكر المتنبه المولِّد يحسّن فيها حتى أصبحت منضدة اليوم اذا قيست بالمنضدة الاولى كالمطبعة الاسطوانية اذا قيست بالمطبعة اليدوية . انما المخترع هو هو ، والمنضدة تحمل اسمه الذي اصبح خالداً مثل اسم مواطنه غوتنبرج .

بيد ان الفرق بين الاثنين هو ان مرغنثالر أحرز في اختراعه فوق الشهرة مليون دولار الماينان هما كوكبان في عالم الالفباء المطبوعة ، وفي سماء الفكر المنشور . وان بين الكوكبين

مسافة لا تعد بين الكواكب طويلة . على انها في حياة المثل الاعلى — وبدون مجاز أقول : في نشره وتعميمه — لأعجوبة من اعاجيب الزمان

فماذا عسى ان يكون من أمر الطباعة بعد اربعمئة سنة من عهدنا هذا، عهد اللاسلكي والطيران ؟

التحسين ونوافله

دع عنك الماضي والتكهن بما عسى أن يكون في المستقبل . ان المثل الاعلى اليوم مصنعاً كبيراً في البلاد الاميركية . قد أسميتهُ مصنع المثل الاعلى لا لما تقدم بيانه فقط — لا لانهُ من العوامل الكبرى في نشر المعارف ، وتعميم الثقافة — بل لانهُ مؤسس على مبدإ المثل الاعلى في الارتقاء الدائم الذي يشمل العامل والآلة والانتاج معاً

كان المعمل في الماضي مؤسساً على قاعدة واحدة اولية هي قاعدة الارباح . وكان العامل في سبيل الارباح ، لاصحاب العمل وحاملي أسهمه ، كالآلة الصماء ، بل كالرقيق المكدود المنكود ، يعمل اثنتي عشرة ساعة في النهار براتب ضئيل ، ويعيش وعائلته في بيئة تعجج من القذارة والفقر والجهل ، وما يصحبها من المآثم والامراض . فثار المصلحون الاجتماعيون على هذه الحال ، ولبت الحكومة تدريجاً مطالبهم او بعضها ، فاشترعت الشرائع لتحسين المعامل ، وتحسين احوال العمال فيها . وقد أصبحت هذه الاصلاحات من الامور العادية المرعية في المعامل الاميركية . بيد ان هناك من التحسين ما لا تفرضهُ الحكومة ، وما قلما يخطر في بال المصلحين . هي نوافل التحسين التي يقوم بها اصحاب المعامل من تلقاء انفسهم

ربَّ قائل قال : ليس الدافع لهذه النوافل مجرد الحب الانساني . هو قول معقول . فقد يكون الدافع لها حب التفوق الصناعي ، اي التنافس بين أرباب الصناعة الواحدة . وقد يكون الدافع لها رغبة الزيادة في الارباح . على انهُ في كلا الحالين لا يخلو من الحب الانساني الذي يوجبهُ المثل الاعلى في العمل ، فيدخل على قلب ارباب المال العقيدة الاجتماعية الاقتصادية انهم والعمال اخوان وشركاء . هذي هي نوافل التحسين التي لا تفرضها الحكومة ولا تنحصر نتائجها في الارباح المادية

وانك لتجد في المصنع الذي أحدثك الآن عنهُ شيئاً كثيراً منها . تعالَ زرهُ معي ، فتشاطرني ولا شك السرور والاعجاب — اننا في طريقنا الى القسم الاداري منه ، وهذه الصور الزيتية على الجدران تمثل تاريخ الكتابة والطباعة ، منذ نقش الاشوريون سير ملوكهم وآلهتهم في الحجارة الى يوم كُتبت الكتب خطاً على البردي ثم على الرق ، ومن عهد غوتنبورغ الخشبي الى عهدنا هذا الكهربائي

ومما يروقك في الطابق الذي يحتوي على القسم الاداري هندسته الاوربية القديمة . فالرواق فيه شبيه بأروقة الاديرة في القرون الوسطى . هو العلم والذكريات الجميلة لمهد العلم في اوربا وهل للنجاح في الصناعة والتجارة غير العلم سبيلاً ؟ هاك الى جانبي رواق الطرشي المكاتب

التي تقوم بشؤون العمل الادارية والتجارية . وفي احد هذه المكاتب يرحب الرئيس بنا ، ويصحبنا بدليلٍ للطواف بالمصنع الكبير الكثير الدوائر والاقسام ، الذي يعمل فيه اثنتا عشرة مائة من العمال رجالاً ونساء

ان دليلنا مدير الصناعات العام لفيلسوف حكيم . يحدّثنا ، وهو يطوف بنا بيت عجائب الحديد والنحاس ، عن عجائب العقل البشري ، وأسرار الضعف والقوة في الانسان العامل ، والانسان المفكر . اني اذكر قوله : « المرء يميل طبعاً الى السهل من الامور . ونحن نسعى دائماً الى تسهيل العمل على الآلات، ولازالة اخطارها » . وأذكر كذلك هذه الكلمات : « غايتنا الاولى هي ان نحوّل العمل من العضلات الى العقل » . سترى اذن كيف ان الاعمال اليدوية الشاقة اصبحت اعمالاً عقليةً دقيقةً مستحبة

سيرة الحرف الابجدي

في كل ما اخترعهُ العقل البشري ، وصنعتهُ اليد البشرية ، لا اظنك تجد شيئاً صغيراً حقيراً كالحرف الواحد من احرف «الالفباء» ذا سيرة عجيبة كسيرته . فان في صنعهِ ، منذ يُرسم على الورق الى ان يتصلب في الوجاق الكهربائي ، يفحص بالناظور المكبر ، ويعطى الشهادة انهُ صالح لتوليد مليوناً مثله من الحروف ، ان في صنعهِ آية من آيات التقسيم والتنظيم والتوحيد في الصناعة . اجل ، ان هذا الحرف الواحد يمر في تكوينهِ على اثنين وخمسين عاملاً ، يعمل كلٌّ فيه عمله مهما يكن صغيراً ، وبدونهِ لا يتم

ها نحن في دائرة الرسامين وأكثرهم من الجنس اللطيف . هو الفصل الاول من السيرة المدهشة . فالحرف يرسم على الورق رسماً ضخماً هو اربعمئة مرة اكبر من الحجم العملي . وهذه الرسوم ترسل الى دائرة الفن والتصوير للنظر والنقد ، فلا يخرج رسم منها وفيه نقص او خلل بالتناسب الفني

ثم تُرسل الرسوم هذه الى دائرة الحفر في النحاس ، وفيها آلات صغيرة صقيلة ، تديرها أيد نسوية نحيفة ، فيحفر الحرف على قطعة من النحاس ربع حجم الرسم حجمُها. ان سر الضبط في هذه الآلات لعجيب . فليس على الفتاة ان تجهد غير عينيها بين ان يدها تحرك ابرة على الرسم كأنها تجدد رسمه . وهذه الابرة تتصل بأدوات محجوبة مركبة تركيباً دقيقاً بحسب الاقيسة الهندسية والرياضية ، فتحرك ابرة من الفولاذ على قطعة النحاس ، فينحفر الحرف مصغّراً ليكون حجمه ربع الحرف المرسوم وأربعين مرة اكبر من الحرف المطلوب . ثم يحفر ويجلى كل ما حوله فيبقى الحرف وحده نافراً على النحاس

بعد ذلك يرسل هذا الحرف النحاسي الى دائرة الامهات ، وهناك صف من الانسان ،

في اثواب من الحرير ، جالسات امام آلات صغيرة الحجم كبيرة العمل ، شبيهة اصلاً بالآلات التي تصنع الحروف النحاسية . وكل فتاة تحرك ابرةً امامها على حرف النحاس ، فتتحرك الآلة وتحفر في جوف اسرارها الحرف الصغير المطلوب الذي يدعى الطابع

ومن هذا الطابع البارز تصنع الامهات المجوفة . اي انهُ يستخدم لطبع الحرف في القطعة التي تدعى « الامُّ » ، والتي تباع للطابعين . ولكن هذا العمل لا يتم بغير الضغط الشديد . لذلك يشوى الطابع في وجاق كهربائي حرارته الف واربعمئة درجة (فارنهيت) ثم يُغمس في الماء فيكتسب الصلابة وقل المناعة اللازمة لفعله ، فلا يتمدد في الكبس عليه ، ولا ينكسر تحت اثقال الادوات

اما « الام » التي تصنع من الطابع فهي كما اسلفت القول محفورة تجويفاً في قطعة من النحاس ذات اسنان وتجاويف اخرى لتمكن المنضدة من القبض عليها واستخدامها في التنضيد ، وفي سكب الرصاص والتوزيع . وهذه الام ، قبل ان تصبح صالحة لطبع الجرائد والمجلات والكتب تمر كما قلت على اثنين وخمسين عاملاً كل يعمل فيها عملهُ الميكانيكي او الكيماوي او الفني . ان في هذه الدائرة خمسمئة عامل وعاملة ينجزون في الاسبوع الواحد مليوناً واحداً من الامهات

بقي ان اقول ان آخر الاعمال يقوم به الفاحصون او بالحري الفاحصات الجالسات وراء الناظور المكبر في خيم صغيرة ، فترى الفتاة الحرف الذي ينعكس على الزجاج واضحاً امامها ومن اغرب طرق الفحص واسهلها ما تراه الى يمين الفاحصة والى يسارها . هناك زندان يتصلان بالآلة التي تدفع الامهات في احد طرفي الناظور فتنعكس في الطرف الآخر مكبرة امام الفاحصة فاذا كان الحرف سالماً من الشوائب حركت زند اليمين ، واذا كان فيه خلل حركت زند اليسار . فالحركة الاولى ترسله الى صندوق الانتاج الصالح للبيع ، والحركة الثانية تسقطهُ في صندوق آخر للاصلاح

قال المدير دليلي العالم بأخلاق الناس علمه بأسرار الآلات : لو « كان الفحص على غير هذه الطريقة ، او بالحري يدويًّا بالمكرسكوب ، لاستغرق الوقت الطويل ، ولكنَّا نضطرين مع ذلك ان نقيم الفاحصين على الفاحصات ، فلا يتهاملنَ او يتكاسلنَ في عملهنَّ . اما وقد جعلنا طريقة الفحص مقيدة بهذين الزندين ، وحركة الواحد سهلة كحركة الآخر . فلا سبيل للتفضيل او التهاون . تستطيع الفتاة ان تحرك كليهما على السواء ، والباقي موكل بنظرها »

قلت : « وبضميرها » فقال : « اذا سهلت العمل استقام الضمير »

آلات تصنع آلات

لو حاولت ان اصور للقارىء صورة من الجبابرة والاقزام في عمل واحد ، بل من الاقبال في العمل ومن النمل ، واجعل الوحدة المنظمة محور الصورة كما ينبغي ، فتبدو الصلات في الاعمال

كأنها الشرايين في الجسم البشري ، لكان العجز او الاجتهاد أظهر ما في الصورة . لذلك أكتفي بالاشارة الى النمل والى الافيال لأرمز على ما في هذا المصنع من الاشياء الدقيقة والاشياء الضخمة . ومن الدقة الصناعية والهندسية في كل عمل يتعلق بها ، كبيراً كان او صغيراً

لقد شاهدنا في معمل الامهات الحرف الذي هو كالنملة الصغيرة محفوراً في النحاس . فهب ان رجلاً من ارجل النملة كان مجروحاً فهل يُرى الجرح بالعين المجردة ؟ على ان الخلل في الحرف الصغير لا يقاس حتى بالجرح في رجل النملة . فهي بالرغم منهُ تمشي . اما الحرف المشوب بأصغر الشوائب فهو لا يمشي . وهو فوق ذلك يشوّه سطراً في صفحة من الحروف ، وقد يقضي بتوقيف المطبعة . فاذا كان عالياً مثلاً فهو يخرق الصفحة ، او يبدو بين أقرانه وقد أُثقل حبراً كالعبد الاسود بين صف من البيض . واذا كان واطياً فلا تدركهُ المطبعة فيختفي . وكم ينبغي ان يكون مقدار الزيادة او النقص ليحسب خللاً ؟ ان الحرف الواحد ، كما تعلم اذا كنت منضداً او طابعاً ، هو جزء صغير من السطر الذي ينبغي ان يضبط «على الشعرة» كما يقال . وليس في القول مبالغة . فاذا كان الحرف عالياً او واطئاً او زائداً او ناقصاً في سمكه وعرضه وطوله ، جزئين من عشرة آلاف جزء من البوصة ، فهو غير صالح في نظر ارباب الصناعة ، فينبذ او يصلح

وهل يمكنك ان تتصور مثل هذه الدقة في الصناعة ؟ اقسم البوصة الواحدة الى عشرة آلاف جزء ، ومثّل لنفسك ان استطعت جزئين منها . فهذان الجزءان اذا زادا او نقصا في جسم الحرف يشوهانه صناعيًّا او فنيًّا ، فهو اذ ذاك لا يصلح للعمل

وهذه الدقة العجيبة ترعى في كل جزء من اجزاء المنضدة كبيراً كان او صغيراً . فضلاً عن ذلك ان الخلل الذي لا يدرك بغير النواظير المكبرة يؤثر في الآلة اجمالاً . فالضبط في عمل النملة اذن هو ألزم من الضبط في عمل الفيل . بل ان في هذا الضبط تستقيم الوحدة التي اشرت اليها ، والتي تصل وظيفة الفيل بوظيفة النملة

بعد هذا البيان ننتقل من بيت النمل الى بيت الافيال — من دوائر الحروف والامهات الى دوائر الآلات الضخمة الجبارة . ها هنا الحديد يغل الحديد ، والفولاذ يقطع الفولاذ ، والآلات المخوفة تصنع الآلات العجيبة . ها هنا تتم وتركب أجزاء المنضدة ، فتمر قطعة من الحديد صماء في آلة ضخمة يستطيع الولد أن يحركها بأن يضغط زرًّا أو يدير لولباً . ثم تخرج من الآلة وفيها الثقوب أو الاسنان ، أو الصقل أو التجويف أو الاضلع اللازمة لكيانها كجزء حي سويّ من أجزاء المنضدة . ولكل عمل في أحد الاجزاء آلة مخصوصة ، فينقل من الواحدة الى الاخرى ليدرك درجة الكمال . ثم تنقل الاجزاء الكاملة كلها الى بيت التركيب ، حيث تركب المنضدة تركيباً تامًّا ، يؤهلها للعمل الذي اسلفت بيانه

السكة المعلقة

قلت ان اجزاء المنضدة تنقل اثناء صنعها من آلة هائلة الى اخرى . وقد تنقل عشرين مرة في الطابق الواحد الذي يبلغ طوله اربعمئة قدم . على ان نقل هذه الاجزاء باليد ، ومنها ماهو ضخم ثقيل يختلف وزنهُ من القنطارين الى الاربعة القناطير ، يشغل عدداً كبيراً من العمال ، ولا يخلو من خطر ، فضلاً عن البطء فيهِ والمشقة . فهي لذلك تنقل على المجلات ، وقد أعدت لها سكة من حديد . هي الطريقة المتبعة المألوفة في المصانع الاميركية

اما العجيب في سكة هذا المصنع فهو انها معلقة في السقف ! فلو مدَّت على الارض ضيَّقت على الآلات ، وسببت الازدحام والتلبك . الازدحام — في الآلات او في عمالها — انما هو عدو النظام ، والنظام صفة ملازمة للاتقان ، وفي الاتقان الطريق المستقيم الى النجاح والارباح . اذن ، سنمنع الازدحام ، وسنعلق السكة في سقف البيت

هي ذي آية اخرى من آيات العلم والاختراع — سكة في السقف من حديد ، وقد اثبتت هناك بكلاليب الحديد . هي خطوط ذات ادوات رافعة تتصل بها ، ومخالب كالملاقط تتدلى منها لكل حبلان يدنو طرفاهما من الارض ، فيشد العامل احدهما فتنزل الآلة الرافعة . وتقبض بمخالبها على قطعة الحديد التي يراد نقلها ، ثم يشد الطرف الآخر فتصعد وقد حملت حملها ، وتسير بهِ مدفوعة بقوة الكهرباء ، فتجري على المجلات فوق رؤوس العمال وفوق الآلات

هذا ما ارادهُ المدير دليلي بقوله ان الغاية القصوى في المصنع هي ان نعتاض الاعمال العقلية السهلة عن الاعمال اليدوية الشاقة . وقد شاهدت في الطابق الثالث مثلاً آخر باهراً من هذه الامثلة . هناك تُجمع وتركَّب اجزاء المنضدة ، فتصف صفًّا من طرف المكان الى الطرف الآخر ، الجزء يتلو الجزء ، كما يقتضي التركيب . فيبدأ العامل بفرش ارض المطبعة على مائدة ذات عجلات ، ثم يشرع يدفعها امامه ، فيقف بها عند كل جزء يضيفهُ اليها حتى تتم المرحلة وتكمل المنضدة

وفي تركيب الاجزاء تُرعى الدقة الذي تقدم بيانها في الكلام على فحص الامهات . فالجزء يرتبط بالجزء بطريقة محكمة مضبوطة « على الشعرة » ولا مبالغة . بل ما دققت في التعبير . فهي تضبط حقيقةً على ورقة « السيكارة » . هوذا العامل والورقة الرقيقة بيده ، يضعها بين طرفي جزئين ويستلها ، وهو يحكم ارتباطهما . وقد يقضي ساعة او ساعتين في هذا العمل حتى يمسي استلال الورقة من بين الجزئين المتصلين مستحيلاً . ان هذه الطريقة في الضبط تقاس ببضعة اجزاء من عشرة آلاف جزء من البوصة

— « غايتنا القصوى ان نستغني ما استطعنا عن الاعمال اليدوية الشاقة »

واليك ، قبل ان ننقل من الدوائر الميكانيكية ، بمثل آخر من هذه الامثلة الصناعية الباهرة ،

في الطابق الاسفل تتولد القوى البخارية الواجبة للعمل وللدفء. هناك صف من الخزانات الكبيرة، ولكل خزان وجاق حياته الفحم، فكان يطعم في الماضي باليد او بالحري بالرفش، فيقف الوقاد امام النار المتأججة يرفش الفحم، وهو احمر العينين، أسود الوجه، وقد لصقت قميصه بجسمه من العرق. ساعة واحدة من هذا العمل تمثل للعامل الموت والجحيم

بمدأ للمهلكات. هناك خارج المعمل مستودع الفحم وقد رفع عالياً، فتمتد منهُ حبال الحديد تجري عليها الزنابيل الملأى بالفحم فتقذف بهِ الى الوجاق. عملية ميكانيكية يقوم بها رجل واحد، وهو بعيد عن النار وشرها، فلا تمرض عيناه، ولا تحترق يداه، ولا يعرق ويشقى

قد يظن القارىء ان الاخطار تحوق بالعمال في هذا المصنع الكثير الآلات والادوات، وهي تدار بالقوى البخارية والكهربائية. ليس لديَّ ما ينفي هذا الظن. الاَّ اني علمت ان الشركة احرزت جائزة السلامة من دائرة الحكومة لفحص المصانع، لان حوادث الخطر في السنة الواحدة لم تتجاوز الاثنين في المئة. وقد زرت المستشفى فيهِ المعد للاسعافات الاولى في مثل هذه الحوادث، فرأيت الممرضة تطالع كتاباً، وما رأيت شخصاً في سرير

ومع السلامة الصحة والرضى

اني مسهب في وصف هذا المصنع وسائر دوائره اكراماً لاخواني الشرقيين الذين يبتغون لاوطانهم ما يتمتع بهِ الغرب من ثمار العلم والصناعة. فهاكم المثل الاعلى في الاثنين. لا ثروة بلا علم، ولا علم بلا عمل، ولا عمل يفلح بدون النظام والتضامن. لقد شاهدنا في ما تقدم مظاهر باهرة من مظاهر العلم والعمل والنظام

اما التضامن فالعروة الوثقى فيهِ إنما هي العدل، وقل هي اشتراك العمال واصحاب المال في ثمار الانتاج اشتراكاً عادلاً. من الاقوال المبتذلة: أحسن معاملة العامل يحسن عمله. وفي احسان المعاملة الارباح لك وله. فاذا عُمل بالقول المبتذل صار قولاً ذهبيًّا. لقد اسلفت الذكر لما كان من اصلاح المعامل بواسطة الحكومة، وأشرت الى نوافل التحسين التي يقوم بها اصحاب المصنع من تلقاء أنفسهم مهما كان الحافز بهم الى تلك الاعمال. وأي مصنع هو أجدر بالتحسين الدائم من هذا الذي يصنع الادوات لنشر المعارف، وتعميم الثقافة الحديثة في العالم. ان خبره ليصدق خبره. نقول نحن العرب: النظافة من الايمان. ويقول الغربيون قولاً شبيهاً بهِ يقرن النظافة بالالوهية. انما يشفعون القول بالعمل، والعمل بأمثلة من النظافة وهي تفاخر بينابيعها الثلاث: الصحة والاقبال والسعادة

لست معجباً بشيء من تلك الآلات العجيبة، ذات الاسرار المحجوبة، اعجابي بالنظافة فيها، وحولها وتحتها، وفوقها — ارض من الخشب المصقول كانها كُنست وغسلت ساعة دخلنا المصنع —

صناديق للكناسة في كل مئة ذراع من المكان ، بأغطية تفتح بدفعة يد ، وتقفل بعمل ذاتي — خزانات من حديد لاثواب العمال — مغاسل كبيرة ، بأنابيب مرتفعة ، ترش المياه رشاً أفقياً ، يغسل فيها العمال بالمياه الجارية ، لا كما كانوا يغسلون في الماضي بالاجران الجامعة للادران والجراثيم — حنفيات تقذف الى العلاء بالماء المبرَّد ، فيشرب المرء دون ان تمس شفتاه الحنفية (هي طريقة معكوسة للابريق الذي نشرب به في لبنان) اما الآلات نفسها فلمعانها لا يزول ، وحسنها لا يحول ، تجلس اليها الحسان في أثواب من حرير ، وبعد يوم من العمل يعدنَ الى بيوتهن كما غدونَ منها ، كأنهن عائدات من دور السينما . ناهيك بالفسحات بين الآلات وعمالها ، وبالجدران التي تكاد تكون كلها نوافذ وشبابيك فتغمر المكان بفيض من الشمس ، وبدورة مستمرة من الهواء النقي . أضف الى ذلك النعمة الكبرى : لا روائح ، ولا ضجيج ، ولا ازدحام

ان للعلم والاختراع والنظافة آيات في كل مكان . فهناك الآلات الصاقلة لبعض أجزاء من المنضدة . ان عملها ينشر دقيقاً من المعادن لو ظلَّ هناك لعلق بالهواء وأفسده ، فاخترع له اختراعاً هو المصّاصات . وما أدراك ما هي . أنابيب كبيرة تمتد من أمام الآلة الصاقلة الى الخارج ، فتمتص دقيق المعادن وتدفع به الى زنابيل على السطح تفرغ كل يوم

اما وقد انتهينا من أهم فروع المعمل الميكانيكية ، وحان وقت الغداء ، فدعوة الرئيس للاكل لا تُرد . ما خرجنا من المصنع لهذا الغرض الشريف ، بل يممنا المطعم فيه ، وهو كبير بطوله وعرضه ، موائده لا تعد ، يجلس الى بعضها ستة والى غيرها عشرة من العمال او المديرين ، رجالاً ونساء . وهم جميعاً — الف ومئتان عداً — يؤمون المطعم في ساعة معينة ، فيتناولون الطعام في وقت واحد . لا حاجة الى وصف النظافة ها هنا . انما اقف بالقارىء عند المطبخ المنفصل بالزجاج فقط ، فيرى بحذافيره ، ويوقظ القابلية في السقيم . كأن تلك الوجاقات الكهربائية ، والمواعين ، وأدوات المائدة ، معروضة كلها للبيع ، لا معدَّة للعمل . وما كل معروض للبيع في المخازن بأنظف منها

عفواً ، أيها القارىء العزيز . اني مطنب بما أراه من الكمال في الغرب المادي ، لعلنا في هذا الشرق نقتبس شيئاً منه ، ندعم به استقلالنا ، ونحسن به بعض أحوالنا . . . النظافة ، نقول ، من الايمان . وما قولك اذا كان ايماننا نفسه يحتاج الى التنظيف والتجديد ؟ — ان علومنا الروحية لفي حاجة الى العلوم الاجتماعية والاخلاقية والنفسية والعقلية ، فتحييها ، وتشعل نور الزمان الحاضر فيها . النظافة في كل مكان — في السوق وفي المعمل كما في المخزن والبيت . في الكبير من أمرها ، وفي الصغير على السواء . وهاك من الصغير المثل الاعلى في المصنع الذي طوَّفتك به . ان فيه الدليل على اجتهاد مديري المصنع في درس الاخلاق البشرية والعمل بما تقتضيه . ان الاشارة لخيرٌ من الامر . بل ان الاشارة لخيرٌ من القول المعروف — لا تبصق على

الارض . انها من باب النهي عن المنكر . وفي النهي شيء من التفوق والتحكم — في البصاق المدوى ، حافظ على صحة أخيك . انها من الكلمات المحقرة للناس ، المذكرة بمرض فيهم او جهل . فبدل الامر والقول المعروف ، حتى والمعقول منهُ ، تحييهم بالاشارة ؛ وهي أفصح من الكلام وأبلغ

ان جدران الادراج في المصنع مدهونة بالدهان الازرق والزوايا منها بالدهان الابيض . فما معنى هذا التمييز ؟ من عادات العمال القبيحة انهم يبصقون في الزوايا فلا تُرى فعلتهم . فجاءت الاشارة في الزوايا البيض ، كأنها تقول للعامل : ان انت بصقت هنا ، او رميت بشيء يوسخ المكان ، فالتوبيخ جزاك . وممن التوبيخ ؟ لا من المدير ، ولا من احد اخوانك العمال انما هو من نفس عملك البادي امام ناظريك . هو نقطة سوداء في صحيفتك البيضاء . فتنبه . هي ذي الاشارة التي تفوق ببلاغتها بلاغة الآيات والامثال . فالادراج نظيفة على الدوام ، وبالاخص زواياها البيض

لا أبوية في المعاملة

من المبادىء التي يلذ للصالحين في الشرق العمل بها المبدأ الذي يحمل صاحب العمل على معاملة عماله كبنيه . فيرمقهم في المعمل وخارج المعمل بنظره ، ويغار على آدابهم غيرته على مصلحتهم ، ويحسن في بعض الاحايين اليهم احساناً ابويًّا صافياً . لك ان تعترض على النمت الاخير . أما المدير الاميركي فهو يعترض على المبدإ الابوي باصوله وفروعه . لا . ليس لهذا المبدإ حرمة ، وليس له انصار في المعامل الاميركية

تناولت الغداء وبعض المديرين في المطعم العام . وكنت قد ظننت ان الطعام يقدم مجاناً لهم وللعمال ، فأخطأت الظن . وقد دهشت لما رأيت الرئيس يدفع ثمن غدائه وغدائي . فنظرت في لائحة الطعام فاذا بها مسعرة ، واذا بالاسعار اقل من نصف ما يتقاضاه مطعم من مطاعم المدينة . حدثت الرئيس في الامر فذكرت الضيافة قائلاً : « اذا الشرقي انشأ مطعماً لعماله فهو يكللهُ بالضيافة فيجعله مجاناً » . فابتسم وقال : « لا نرى الحكمة في المبدإ الابوي . فاذا انت اعطيت المرء شيئاً مجاناً فهو يظن ان لك في ذلك غرضاً خفيًّا ، فيحذرك ، وقد يسيء بعد ذلك اليك »

هي حكمة اميركية . وقد تكون خيراً من الحكمة الشرقية . بيد اننا في الشرق نشعر بالجميل شعورنا بالكرم وأشد . فهل نستفيض الحكمة الاميركية عن حكمتنا يا ترى ؟ هي الحكمة المألوفة في البيع والشراء . لا شيء بلا شيء . على ان المطعم مؤسس على غير قاعدة الارباح . فهو للعمال والمديرين عما يكلف الطعام والخدمة لا زيادة ولا نقصان

أضف الى ذلك ان المكان يستعمل كمرقص مرتين في الشهر . فتقام فيه الليالي الراقصة ،

يحضرها الشبان والشابات من العمال ، وهم يدفعون من مالهم اجرة الموسيقيين. هي القاعدة الاميركية بالضبط . كأن الشركة تقول لعمالها : قاعة الرقص مني، والموسيقيون منكم ولا تفاضل ولا منّة

سألت الرئيس : « هل تخص الشركة العمال بشيء من الارباح السنوية »

فاجاب قائلاً : « كلاً . ان في ذلك شيئاً من المبدإ الابوي »

قلت : وهل تساعدون من يمرض او يصاب في حادث اثناء العمل ؟ »

قال : مساعدة بسيطة في مستشفى المعمل فقط . بعد ذلك يُنقل المريض او الجريح الى بيته او الى احد المستشفيات في المدينة ، فيُعالج ويمرَّض هناك على نفقته ، او على نفقة الجمعية »

قلت : « اية جمعية ؟ » قال : جمعية التعاون المؤسسة من العمال ولهم . اما اذا نفد المال من صندوق الجمعية فهم يستعينوننا فنعينهم »

— وهل من منافع مادية تخصونهم بها ، وهم في اخلاصهم واجتهادهم يزيدون إنتاج المصنع وثروته ؟ »

— « لكل عامل من العمال الحق ان يشتري بما يذخره من راتبه اسهماً في الشركة ، فيشارك اذ ذاك في الارباح . هو حق الجميع رجالاً ونساء »

— « وما هو عدد المشتركين ؟ »

— « لربع العمال بالتقريب اسهم في الشركة »

وهي فوق ذلك تضمن حياة العمال ، كل عامل وعاملة ، بألف وخمسة دولار ، فتدفع الى شركة الضمان القسط السنوي عنهم جميعاً . ولا تخصمه من رواتبهم

قد تُعد هذه الطريقة المتبعة في اكثر المعامل الاميركية ، من الابويات . ولكنها في الحقيقة من باب التعاون والتضامن . ان لصاحب العمل حقه ، وللعامل حقه ، وان قسمة كليهما موكلة بثلاثة هي احسان العمل ، واحسان الجزاء ، والاقتصاد . فالعامل المجتهد في عمله ، المقتصد في نفقاته ، يصبح من الشركاء في المصنع . اما اذا كان من غير المجتهدين المقتصدين فحقه ينحصر في راتبه ، وفي صك الضمان المخصص به اكراماً لعائلته ، فاذا مات فقيراً ساعدت الشركة عائلته بما ضمنت حياة فقيدها ، اي بألف وخمسة دولار

قال الرئيس : « على الشركة واجبات ادبية ثلاثة ، هي ان ترضي عمالها ، وزبائنها ، وحاملي اسهمها »

اما العمال فقد شاهدت ما تقوم به الشركة من اعمال التحسين لخيرهم وخيرها . فهي لا تسألهم خيرما عندهم من علم ومقدرة واجتهاد ، بل تعد الاسباب ، وتمهد السبل المشجعة على ذلك ، فيسلكها العامل لسهولتها مسروراً بعمله ، راضياً بثمرته

وفي هذه الحال تتمكن الشركة من القيام بالواجبين الآخرين . فان في اتقان العمل رضى الشاري ومصلحته ، وفي الاقبال والارباح رضى الشركاء حاملي الاسهم . فلا تهاون ، ولا اهمال ولا تقصير في التحسين مهما اقتضاه من العلم والتجربات ، ومن النفقات

ومن التعاون في الاختراع

ان الشركة تمنح جائزة مالية لكل عامل يجيئها بفكرة جديدة ، او اقتراح مفيد ، للتحسين الميكانيكي او الفني او الاداري في المصنع . قرأت الاعلان المنشور على الجدران المنبيء بهذه الجائزة . وتحت العنوان صندوق وأوراق الكتابة ، فيكتب العامل اقتراحه ، ويضعه في الصندوق . هذه الاقتراحات تجمع مرة في الشهر ، وتعرض على لجنة من المديرين تنظر فيها ، فتجيز صاحب الاقتراح المقبول بما يستحقه ، بعد ان تقدر ما قد يكون من الفائدة في العمل بذلك الاقتراح

سألت المدير : وكم هي قيمة اكبر جائزة منحتموها ؟ » فأجاب : « الف دولار »

ثلاثة من لبنان

أعود ، وقد دنوت من نهاية هذه الرسالة ، الى المنضدة التي أوحتها الي . فقد طفنا ، ايها القارىء عصنعها الكبير ، الكثير المحاسن الميكانيكية والفنية والادارية . ومن أهم ما علمناه ان من أركان النجاح في الصناعات ركنين اصليين هما صحة العامل ، وصحة الآلة التي يديرها . ولنا ان نقول ان الركن الاول والاكبر هو العلم بالاخلاق البشرية ، وبالاسرار الميكانيكية ، علماً مقروناً بالعمل والانصاف . علمنا ذلك وتحققناه في ما شاهدنا

بقي ان أعلمك ان منضدة اللينوتيب اصبحت تنطق بخمسين لغة من لغات العالم ومنها لغة الضاد ، وان في جامعة برنستون بأميركا ثلاث منضدات عربيات لطبع ما تختاره من المخطوطات القديمة في مكتبتها العربية النادرة ، باشراف قيمها العالم الفاضل مواطننا الاستاذ فيليب حتي

ولمن الفضل في اختراع منضدة اللينوتيب العربية ؟ قد علمت ان مخترع المنضدة الانكليزية هو الماني هاجر في صباه الى اميركا . أجل . ان أطمر مرغنتالر لمن المهاجرين يحق للمهاجرين وأبنائهم في تلك البلاد العظيمة ان يفتخروا ويفاخروا به ، ويجب أن اخبرك ان مخترع المنضدة العربية هو ايضاً من المهاجرين . هو لبناني من الفريكة ، هو ابن قريتي الاستاذ سلوم مكرزل . يحق لابناء العرب اللبنانيين ، المهاجرين والمتخلفين ان يفتخروا به

اما ثالث الثلاثة فهو ، ولا فخر ، كاتب هذه الرسالة . لبناني يخترع المنضدة الناطقة بالضاد ولبناني يشرف على مطبوعاتها النفيسة في اشهر جامعة اميركية ، ولبناني يقص قصتها على ابناء هذه اللغة الشريفة . هذا واجب . هذا حق . فان في لبنان الخالد — بغير سياساته ورؤسائه — دوحة للعلم والادب اصولها عربية ، وفروعها شرقية غربية اهـ

للنبات والمعدن

شعور نابض

سيرة العلامة الهندي بوز
وطرف من مباحثه العجيبة

في اواخر العقد الثامن من القرن الماضي وضع احد العلماء الفرنسيين كتاباً بيّن فيه ان بين حياة النبات وحياة الحيوان وجوه شبه متعددة . فالنبات الاخضر الورق يطلق ثاني اكسيد الكربون في الليل ويأخذ الاكسجين ، اي انهُ يفعل ما يفعلهُ الانسان عند ما يتنفس. ثم ان في النبات خمائر هاضمة تحوّل النشاء الى سكّر ، ولهُ مفرزات كذلك ولكنهُ لا يفرزها الى الخارج بل يعود فيستعملها في شؤونهِ الحيوية . واذا قيل ان النبات ليس فيهِ عضل قيل نعم ولكن النبات متصف بالقدرة على الحركة . فالازهار تتجه احياناً الى الشمس وتحني اعناقها عند ما يهطل المطر ورؤوس افنانها في حركة دائمة . بل ان بعض النبات يقوم بضروب عجيبة من الحركة ، كأن لهُ عقلاً يأمر وعضلات تنفذ الامر كالسنط الحسّاس و« مذبئة زهرة » وغيرهما

لم ينهض بين علماء الاحياء عالم يتوفر على هذه الناحية من حياة النبات توفراً علمياً، الاّ في مستهل هذا القرن . وهذا العالم هو الاستاذ السر جاغاديس شندرا بوز الهندي الذي نقلت الينا الانباء البرقية خبر وفاتهِ من عهدٍ قريب

بدأ بوز حياته العلمية استاذاً رقيق الحال في جامعة بالهند ، فاستوقفت مباحثهُ نظر عالمين انكليزيين كبيرين هما السر جيمس ديوار واللورد راليه ، فاستقدماه الى بريطانيا وافسحا له مجال العلم والبحث في معمل فراداي بالمعهد الملكي في لندن . وفي اثناء اقامتهِ في انكلترا طار صيتهُ واسترعت مباحثهُ انظار الصحف فجعلت تنشر انباءها لما رآه فيها اصحابها من غرابة وعجب . ثم عاد الى الهند وقضى عشرين سنة في بحث متواصل ودأب مستمرّ . ولما عقد مجمع تقدم العلوم البريطانية اجتماعهُ المئوي برآسة البرنس اوف ويلز في جامعة اكسفورد سنة ١٩٢٦ دعي السر جاغاديس بوز اليهِ فألقى فيهِ محاضرة على اكبر علماء العصر وكان اينشتين نفسه في طليعتهم . فلما انتهت المحاضرة صرّح اينشتين بانهُ يجب ان يقام لبوز تمثال ينصب في عاصمة جامعة الامم . وقد وصفهُ احد العلماء وهو يحاضر بقوله : ان روح الجمال الحق ينبثق منهُ وهو يتكلم

ولماذا تأثر اينشتين بمحاضرة بوز؟ بل لماذا ذاع اسم بوز في جميع أنحاء العالم، فلم يقتصر على دوائر العلماء المختصين شأن فريق من العلماء؟ ذلك ان بوز أثبت وحدة الحياة. انهُ دلَّ بالتجربة على ان الصلب وغيره من الفلزات ذات شعور، وان للنبات انفعالات، وان كل ما خلق يحيا ويموت، ولو كان جماداً. وبوز لم يقتصر في مباحثهِ على مراقبة النبات بالعدسة المكبرة. ولكنهُ استنبط طائفة من الاجهزة الدقيقة لقياس الافعال العصبية العكسية في النبات. لقد وصف بأنهُ صوفي، ولكنهُ اذا صحَّ هذا الوصف عليهِ، كان صوفيًّا يقيس جزءا من مليون جزء من البوصة! قد يكون خيالهُ مستمدًّا من اصله الشرقي، ولكنهُ أضاف اليهِ الدقة العجيبة التي يتصف بها العالم الغربي — بل كل عالم على الاطلاق

ومع ذلك فان في مكتشفاتهِ من العجب العجاب، ما يحمل كثيرين على الشك فيها والاحجام عن التسليم بها. فانها أقرب الى بنات الخيال منها الى أصول الحقائق العلمية. واليك ما يقولهُ في فصلٍ لهُ: لقد كنا حتى الآن نحسب النباتات والاشجار بعيدة الصلة بنا اذلا صوت لها، تعبر بهِ، ولكنني سأثبت لكم انها مخلوقات تحس، وانها تستطيع ان ترد على الاسئلة التي نوجهها اليها. فورقة السنط الحساس عند ما تحس بصدمة تستجيب لها بالانقباض والانحناء على اعناقها، وقد استنبطنا جهازاً يمكننا من تحويل هذا الجواب الى خط يرى . . . . ثم وصف الجهاز والتجربة

والواقع ان الاجهزة التي استنبطها بوز لقياس احساس النبات دقيقة كلَّ الدقة. ولا يخفى ان حركات النبات، بطيئة على الغالب، فالبزاقة البطيئة أسرع في حركتها من نموّ النبات ستة آلاف ضعف. اذ لا يزيد متوسط نمو النبات على جزءٍ من مليون جزء من البوصة في الثانية. ولكن من النبات، كالخيزران، ما هو أسرع جدًّا في نموّه من معظم النبات. وليس بالنادر ان ترى غصناً من أغصان الخيزران ينمو من تسع بوصات الى اثنتي عشرة بوصة في اربع وعشرين ساعة. ومع ذلك استنبط بوز جهازاً لقياس نمو النبات قوامهُ عتلة مغنطيسية وابرة لا تتأثر بمغنطيسية الارض وبقعة من الضوء تعكس على ستارة من مرآة صغيرة ومجهر. وللدلالة على قوة هذا الجهاز نقول انهُ اذا طبق على حركة البزّاقة ظهرت وكأنّ سرعتها مئتي مليون قدم في الساعة

قال بوز: للنباتات قلوب. وقبل ان استنبط الكريسوجراف (اي مقياس نموّ النبات) كنت واثقاً بان عصير النبات يجري في عروقها بجهاز يشبهُ في اصوله جهاز الدورة الدموية في الجسم البشري اي ان ضغط العصير في حركتهِ لم يكن على نمط واحد بل كان كأنّ وراءهُ مضخة تنبض نبضاً منظَّماً. وقد ايّدت آلة الكريسوجراف ظنّي هذا

وقد عانى بوز في سبيل اتقان اجهزتهِ عرق القربة. ولكن شغفهُ بالبحث سهل عليهِ كلَّ مشقة. وعلى مقربة من مدينة كلكتا أنشىء معهد بوز. هناك بهو متسع للمحاضرة ومعمل للبحث تحيط بهِ حديقة غنَّاء. ويحف بالحديقة مساكن الطلاَّب من هنود وغربيين. وكلُّ ما

يستعمل في بناء الاجهزة يصنع في المعهد نفسه . ومع انهُ لم يعن كثيراً بتسجيل مكتشفاتهِ اتيح لهُ جمع ثروة غير يسيرة فوقف مئة الف جنيه منها على هذا المعهد

من التجارب العجيبة التي جربها ، ما لهُ صلة بتأثير السمّ في النبات وذلك بغمس جذعها في مركب البرومور ثم يصل اوراقها بأجهزته الدقيقة ، فتبدو فيها خطوط متعرجة اذا قوبلت بخطوط النبتة وهي سليمة سوية ، تبينت فيها ما يدل على اضطراب النبتة وخفقانها تحت تأثير السم كما يفعل الحيوان . وأغرب من هذا ان اطباء الهنود الاقدمين كانوا قد اكتشفوا ان قدراً يسيراً من السم من انياب الكوبرا قد يفعل في المريض المشفي فيعيد اليهِ الحياة . وهذا يفسر عادة قديمة عندهم وهي امتناعهم عن دفن من مات بلدغ الكوبرا بل يوضع على رمث في النهر ظنًّا منهم ان الحياة قد تعود اليهِ . هذا وقد اثبت بوز ان سم الكوبرا يزيد خفقان الشعور النابض في النبات

ولم يكتف بوز بحصر بحثهِ في النبات ، بل تعداه الى المعادن فثبت لهُ ان في المعادن ايضاً قوة حيوية . فالصناع الذين يتناولون المعادن والفلزات يعلمون ان الفلزات تصاب بظاهرة تشبه التعب في الانسان . ولذلك قيل ان حلق الذقن يقتضي الاَّ تستعمل شفرة الموسى يوماً بعد يوم . بل تجب المداولة بين الشفرات حتى تستريح . وقد اثبت الفحص بالاشعة السينية ، ان فترة الراحة تتيح لجزيئات الفلزّ ان تعود الى وضعها الاصيل . وقد استعمل بوز جهازاً كهربائيًّا يدعى « غلفا نومتر » لقياس ما تصاب بهِ الفلزات من التعب ، فثبت لهُ ان احساس الفلزات يضعف بتوالي الحافز الكهربائي عليها ، ثم اذا استراحت فترة ، عادت اليها قوة احساسها السوية . بل ذهب الى ابعد من ذلك اذ اثبت أن الفلزات تتأثر بالحرارة والبرد فيضعف احساسها في البرد . وأدهى من ذلك انهُ بين انها تتأثر بالمخدرات كما يتأثر الدماغ بها . فغمس قطعة من القصدير في محلول برومور البوتاسيوم يفقدها قوة الاحساس العادية . ولا يخفى ان جرعة كبيرة من الافيون تخدر اعصاب الانسان وان جرعة صغيرة تهيجها ، والفلزات تستجيب بالطريقة نفسها . بل ذهب الى ان السموم تميت الفلزات كما تميت الخلايا الحية ، فقد أخذ قطعة من المعدن وامتحنها بالجلفا نومتر فوجدها سوية الاحساس ثم عالجها بالحامض الاوكساليك ، فظهر في آثار الجلفا نومتر دليل الاضطراب فيها ، ثم ضعفت الحركة رويداً رويداً الى أن كادت تبطل تماماً . ثم عالجها بترياق فعاد شعورها رويداً رويداً . وبعد فترة من الراحة عادت القطعة سوية . ثم اعاد هذه التجربة فابقى الفلز مغموراً بالسم الى ان بطلت دلائل الشعور تماماً فاستخرجها وعالجها بالترياق والراحة ولكن الموت كان قد ادركها فلم تُفِقْ

هذه النتائج الغريبة لا تزال محور البحث والتجربة في مختلف انحاء العالم ، وقد وجه اليها نقد علمي من علماء مجرّبين (راجع فصول في التاريخ الطبيعي ص ٤٥—٥٥) . أما ما لا ريب فيهِ فهو ان بوز قد فتح ابواباً جديدة نطل منها على وحدة الوجود



اصلاح النسل

مدخل الى هذا العلم الخطير الشأن

للدكتور شريف عسيران

مقامه وتاريخه

ان موضوع اصلاح النسل من الموضوعات الاجتماعية الخطيرة الجديرة بالبحث لانهُ يتناول نواحي الحياة المختلفة من شخصية واجتماعية واقتصادية وسياسية وطبية وتهذيبية وغير ذلك مما يهم الفرد والمجتمع ويؤول الى خيرهما واسعادهما

قال الاستاذ باتسون رئيس مجمع تقدم العلوم البريطاني سنة ١٩١٤ ان المسائل السياسية التي يقتضي حلها معرفة الحقائق البيولوجية كثيرة ومنها مسائل التعليم والقوانين الجنائية وجميع فروع الادارة والسياسة فكثيراً ما تعرض لاهل السياسة مسائل يحكمون فيها فيما يمكن عمله او ما لا يمكن عمله لاحداث تغيير مطلوب في فرد مخصوص او في شعب بكامله ولا بد للحكم في هذه المسائل من المعرفة بالحقائق البيولوجية ولا تعد المعارف البيولوجية من المعارف الضرورية لاهل السياسة والاحكام في الوقت الحاضر ولكن سوف يأتي يوم يضطر فيه المعلم والحاكم والمحامي والسياسي الى الاشتراك مع الطبيعي في معارفه التي تتعلق بفسيولوجيا الشعوب[1]. وقد اهتمت بهِ الامم الراقية في عصرنا الحاضر واحلتهُ محله الرفيع فسنت له القوانين والانظمة وظهرت عشرات لا بل مئات من الكتب فيهِ لاشهر علماء العصر وكثر انصاره والمنضوون تحت لوائه والداعون اليهِ مع انهُ لا يزال طفلاً يترعرع. وسندرسهُ على ضوء الحقائق العلمية الصحيحة المجردة عن العاطفة والخيال والمبالغة في الاقوال معتمدين على اوثق المصادر المعترف بها في عالم العلم. وسنجد فيهِ لذةً وغذاءً شهيًّا النفس التواقة الى المعرفة

﴿ تاريخه ﴾ ليست فكرة اصلاح النسل من مبتكرات عصرنا الحاضر بل سبقنا اليها الاقدمون . فقد ذكرها الشاعر اليوناني ثيوجينس في النصف الاول من القرن الثاني قبل المسيح وبحثها افلاطون بحوقرن بعده واقترح ان تدخل الحكومة في الامر بتزويج الاحسن للاحسن والاردإ للاردإ وتشجع تناسل الفئة الاولى وتتولى تربية اولادها وتقذف باولاد الفئة الثانية

(١) العلم والعمران هدية المقتطف السنة ١٩٢٨ ص ٢١٣

في مجاهل غير معروفة[١] وان لا تتألف جمهورية من اكثر من ٥٠٤٠ وطنياً Citizens واشار بتحديد النسل لحفظ موازنة هذا العدد [٢]

وقد طرق ارسطاطاليس هذا الموضوع من الناحية السياسية والاقتصادية وايد مذهب تدخل الدولة في النسل[٣] وينسب اليهِ القول الآتي: اذا ولدت امرأة عدد الاولاد المحدد لها ثم حملت فيجب طرح الولد منها قبل ان تدب فيهِ نسمة الحياة [٤]. ويروي لنا التاريخ ما كان يفعله الاسبرطيون في سبيل تخشين ابنائهم بتدريبهم على الفروسية وتعريضهم لقارس البرد ولافح الحر ليخلقوا منهم رجالاً اولي بأس وقوة يكافحون في ميادين القتال وينتصرون على الاعداء

﴿ اصل اللفظة ﴾ ان لفظة يوجنكس Eugenics يونانية الاصل ومعناها الاصيل او الجيد الولادة [٥] Well born. واول من طبعها بطابع العلم الحديث العلامة الانكليزي النابغ السير فرانسيس غالتون صاحب المصنفات النفيسة في الوراثة واصلاح النسل ومقياس الذكاء وبصم الاصابع وغيرها من البحوث الاحيائية الاجتماعية الممتعة ولا يليق بنا ان نمر بشخصية فذة كهذه من دون أن نتوسع قليلاً في دراستها

العلامة غالتون

ولد غالتون (١٨٢٢ — ١٩١١) في نفس السنة التي ولد فيها مندل ولم يعلم شيئاً عن ابحاثه التناسلية في النبات ولكنهُ طرق الموضوع من ناحية اخرى احصائية وظهرت رسالته قبل رسالة مندل بشهرين وبرهن في كتابه «النبوغ الوراثي» الذي سنشير اليهِ فيما بعد على ان النبوغ والتفوق العقلي وغيرهما من المواهب جميعها وراثية وعرف اصلاح النسل بما يلي: اصلاح النسل هو درس العوامل التي تحت سيطرة المجتمع والتي تتمكن بها من اصلاح الجيل المقبل او افساده جسدياً وعقلياً [٦]. نشر غالتون مقالتهُ الاولى في هذا الموضوع في مجلة مكملان سنة ١٨٦٥ وبين فيها انهُ من الممكن تحسين نسل البشر بتعمد إنسال جيدهم وتوسع في هذا الموضوع في كتابه النبوغ الوراثي Hereditary Genius[٧] وقد تتبع نسب ٤١٥ مشهوراً من مشهوري انكلترا يمتون الى ٣٠٠ اسرة وجد فيها ما يقرب من الالف مشهور [٨] منهم ٨٥ قاضياً و ٣٩ سياسياً و ٢٧ قائداً و ٣٣ اديباً و ٤٣ عالماً و ٢٠ شاعراً و ٢٨ فناناً و ٢٥ قسيساً [٩] وقصده ان يبرهن على ان النبوغ وتفوق المواهب

(١) اصلاح النسل التطبيق Applied Eugenics, Popenoe and Johnson p. 348, 1933
(٢) Abortion Spontaneous and Induced. Dr. Frederick Taussig 1936
(٣) Applied Eugenics. p. 343 (٤) Abortion Spontaneous and Induced
(٥) دائرة المعارف البريطانية الطبعة الرابعة عشرة تحت لفظة Eugenics
(٦) دائرة المعارف البريطانية الطبعة الرابعة عشرة (٧) Applied Eugenics p. 344
(٨) Hereditary Genius p. 307 (٩) Applied Eugenics p. 344

العقلية بدرجاتها وراثية . قال في كتابه النبوغ الوراثي : « ان الحجج التي احاول ان استند اليها لابرهن على ان النبوغ وراثي هي وفرة عدد المشهورين الذين يمتون بنسب الى مشهورين مثلهم من أقربائهم » [١]

وسنة ١٨٧٤ طبع رسالة عن سيرة ١٨٠ عالماً انكليزياً برهن فيها على ان الوراثة لا المحيط هي الاصل في مواهب الانسان وسنة ١٨٨٣ طبع كتابه : البحث عن موهبة الانسان وتطوّرها . وطبع غيرها من الكتب التي يستشهد بها كبار المؤلفين في هذا الموضوع وقلما نجد باحثاً يبحث في هذه الموضوعات ولا يستشهد بأقوال هذا العلامة الشهير ويسترشد بمواهبه وعلمه

وسنة ١٩١١ قرأ رسالة امام جمعية علم الانسان Anthropology موضوعها . امكان تحسين نسل الانسان تحت تأثير الشعور والقوانين الحاضرة . وبعد ثلاث سنوات تلا رسالة أخرى أمام الجمعية الاجتماعية موضوعها اصلاح النسل تعريفه ومنهجه وغايته ملخصها : (١) تعميم معرفة قوانين الوراثة (٢) البحث عن معدل مواليد الامم القديمة والحديثة بين طبقاتها الاجتماعية (٣) جمع احصاءات صحيحة عن مقدار العائلات الكبيرة التي نشأت (٤) درس العوامل المتعلقة بالزواج (٥) أهمية علم اصلاح النسل للامم

وأسس سنة ١٩٠٤ كرسياً خاصاً لهذا العلم وأوصى بعد مماته في ١٧ يناير سنة ١٩١١ بتأسيس استاذية لهذا العلم بعهدة Karl Peorson الشهير وخصص لها المبالغ اللازمة من ماله الخاص [٢]

ثم انتشرت هذه الدعاية في اميركا والمانيا وفرنسا وايطاليا وروسيا واكثر الامم الاوربية وبعض الامم الاسيوية كاليابان والصين ولا نطيل الشرح هنا ومن شاء المزيد فعليه مراجعة (Applied Eugenics) وقد اخترنا منهج امتين مختلفتين لهذا الموضوع ننشرهما هنا لانهما يلخصان أهم الموضوعات التي سنطرقها في بحثنا وهما نموذج لابحاث هذا العلم الحيوي الخطير

منهج الامة الاميركية

انتشرت هذه الحركة في اميركا قبل غيرها . ولكنها سارت ببطء فأسس لورنغ مودي (Lorung Moody) سنة ١٨٨٠ معهد الوراثة في برسطن وساعده الشاعر الشهير لونغ فلو (Longfellow) وغيره من المشهورين . وكان الكسندر بل مخترع التلفون اول من طرق هذا الموضوع بصورة عملية سنة ١٨٨٣ وأنشئت سنة ١٩٢٦ جمعية اصلاح النسل الاميركية ووضعت سنة ١٩٣١ مقترحاتها الآتية نوردها هنا لانها تبين وجهة نظر الامة الاميركية ونورد بعدها وجهة نظر الامة الالمانية

(١) ادخال موضوع تحسين النسل في مناهج المدارس الابتدائية والعالية وجعله جزءاً

(١) Hereditary Genius p. 5 (٢) Applied Eugenics p. 345—46

لا يتجزأ منها والتشجيع على التخصص به في المدارس العالية كالكليات والجامعات (٢) تعميم الارشاد الكافي عن حقائق هذا الموضوع بواسطة الصحافة والمحاضرات والمعارض والكتب والنشرات الخ (٣) تشجيع الابوة والبحث عن الصفات الوراثية النافعة للامة (٤) تشجيع تزويج من يتصفون بصفات وراثية جيدة وذلك بما يلي :

(ا) استقصاء سبب قلة نسل ذوي المواهب المتفوقة

(ب) الحث على تتبع انساب الاسر ودرس الصفات المتأصلة فيها

(٥) منع زواج المصابين بعاهات وراثية كالجنون وما أشبه وسن شرائع خاصة لهذه الغاية

(٦) عزل الآباء والامهات المصابين بعاهات وراثية (٧) سن قوانين خاصة للزواج من جهة تحسين النسل تشمل الامور الآتية :

(ا) جعل الحد الادنى لسن الزواج ١٦ سنة

(ب) تأخير اجازة الزواج ثلاثة ايام من تاريخ الطلب ونشر اعلان عنهُ في الصحف او غيرها

(ت) عدم منح الاجازة الا بعد الحصول على شهادة طبية تثبت سلامة طالب الزواج من الامراض الوراثية والزهرية

(ث) جواز تزويج الاشخاص البعيدي القرابة

(ج) ان يدخل ضمن موجبات الطلاق عدا الزنا الجنون الوراثي وضعف العقل والعجز والعقم

(٨) سن قوانين تمنع هجرة من فيهم صفات وراثية غير مرغوب فيها (٩) تعميم ارشاد الناس في طرق منع الحمل تحت اشراف اطباء أكفاء في المستوصفات العامة

منهج الامة الالمانية

تأسست جمعية تحسين النسل الالمانية سنة ١٩٠٥ ونشطت هذه الحركة في المانيا خاصة بعد الحرب العامة وهاك ملخص خططها مقابلة للخطط الاميركية

(١) إن الخطر الرئيسي الذي تتعرض لهُ الامم هو الفساد الناشيء من فقدان العناصر القوية الصالحة (٢) ان الامم التي تستطيع ان تنازع غيرها البقاء هي التي فيها نسبة كبيرة من رجال ونساء ذوي مواهب عقلية وجسدية صحيحة واخلاق وآداب صالحة (٣) ان صحة الامة وحيويتها وانتاجها الثقافي لا تتوقف على المحيط فقط (كالغذاء والتهذيب والامراض الخ) بل على قابليتها الوراثية التي تعد من الاسس الجوهرية في كيانها (٤) ان ميراث الامة الوراثي عرضة للفساد بطريقتين الاولى تقديم العناصر الفاسدة على الصالحة والثانية افساد السلالة بادخال عناصر منحطة اليها (٥) عند الشعوب المتمدنة في الوقت الحاضر اختيار فاسد يؤول الى فساد النسل بمقدار كبير (٦) من سوء الحظ أن يرافق الصعود الاجتماعي فناء الاسر (٧) ان تشجيع تكثير نسل

ذوي المواهب الوراثية المتفوقة الذين يصلحون لقيادة الامة من خيرة الوسائل لتحسين السلالة (٨) من أهم مشكلات حفظ صحة النسل الاحتفاظ بالاسر المهمة اجتماعيًا من كافة الطبقات (٩) إن النسل الذي لا يصلح يتوقف على منعه اكثر مما يتوقف على تجنب اسبابه (١٠) لما كان جميع المواليد لا يبلغون مستوى الانتاج المتفوق فخطة الاكتفاء بولدين ليست حميدة لانها تؤول الى انقراض الاسر عقب اجيال قليلة ويكاد معدل ثلاثة أولاد لا يكفي لحفظ كيان الاسرة (١١) ان اسباب تعمد منع الولادة اجتماعية واقتصادية فيجب تشجيع علم صحة السلالات بتكثير الجيد وتقليل الضرر الناشيء عن تكثير نسل مثل هؤلاء. (١٢) يجب أن يأخذ التشريع بعين الاعتبار حجم العائلة ويجزيء الارث لغاية الضريبة الى اكبر عدد ممكن بحسب افراد الاسرة (١٣) يجب أن تعفى الاسرة المؤلفة من ثلاثة اولاد أو ولدين من ضريبة الارث وتستثنى التركات الكبيرة من هذا الحكم (١٤) يجب أن تسن انظمة خاصة لجباية الضرائب من سكان الارياف حتى لا يخشى سكانها خوفاً من قلة الاولاد الضرائب (١٥) يجب أن يراعي في انشاء القرى احتمال تناسل المزارعين. وتشجيع سكنى الارياف واشباهها مهم من وجهة صحة السلالة (١٦) ان سياسة تقليل النسل واتباع نظرية ملتوس يحرج موقف تحسين النسل لان النقص يحصل حتى بين احسن الاسر (١٧) ان الاعتماد على مجرد زيادة النسل بقطع النظر عن اختيار العناصر ذات الوراثة الصالحة مضر لانهُ يفسح المجال لتكاثر العناصر المنحطة

تطبيق اصلاح النسل

نبحث الآن هل موضوع اصلاح النسل قابل للتطبيق أو انهُ من الموضوعات النظرية الفلسفية التي يتلذذ المرء بمعرفتها ونقابل بين آراء المتحمسين الذين يعتمدون عليهِ في خلق جيل كامل من الناس والرجعيين الذين يعدون التدخل في الامور الطبيعية تحدياً للعزة الالهية كما قال المستر دارو: «من هو ذلك الاهوج الذي يجرؤ على تغيير طرز الإنسان الجسدي»[1]

في العالم اذكياء واقوياء وصالحون ونبغاء وغيرهم من ذوي الصفات الصالحة الممتازة وفيهِ الضعفاء والبلداء والناقصو العقل والمجرمون والاعلاء وغيرهم من اصحاب الصفات السقيمة. والقوانين والانظمة والثقافات والمدنيات والتهذيب والتعاليم والعادات والتقاليد وغيرها من مظاهر الحياة وليدة هذا الجرم الصغير الذي انطوى فيهِ العالم الاكبر تصلح بصلاحهِ وتفسد بفساده فلماذا لا نستبدل الفريق الاول بالفريق الثاني ونصير كوكبنا جنة عدن ومثوى الكمال (Utopia) الذي يتخيلهُ الفلاسفة والمصلحون. هذا ما يحلم بهِ دعاة هذا المذهب وما عناه رئيس جمعية اصلاح النسل الاميركية بقوله: يجب أن نجتهد ان نري العالم أن اصلاح النسل (يوجينا) من انجع الوسائل لحل المشكلات

(١) The Eugenic Predicament, 1933, S. J. Holmes p. 125

التي يتطلبها الاطباء ورجال الصحة والاجتماعيون والقسوس والمصلحون ، مشكلات مكافحة العجز والبطالة والنقص العقلي والاخلاقي والقضاء على الرذيلة والاجرام (١)

يستطيع الانسان أن يكيف النباتات وفقاً لرغائبه فينبت الحنطة ذات الحب الكبير والصغير والبيضاء والسمراء ويولد أنواع الفواكه الطيبة الطعم الكثيرة الانتاج وضروب الورود الفواحة يستطيع ان يوجد البقر الحلوب والسمين الصالح للاكل والقوي الصالح للفلاحة. يستطيع ان يختار خيل السباق وخيل الركب والدجاج الكثير البيض وكلاب الحراسة والصيد وغير ذلك مما تراه من ضروب النباتات والحيوانات وفقاً لرغائبنا . فلماذا لا نطبق نفس هذه الحقائق على الانسان وهو يعيش في نفس المحيط وتؤثر فيه العوامل التي تؤثر في النبات والحيوان ويخضع لنفس النواميس الطبيعية التي تخضع لها

يقول العلامة غالتون في كتابه النبوغ الوراثي : كما انه من السهل توليد سلالة دائمة من الكلاب او جياد السباق او غيرها متصفة بالصفات المرغوب فيها اذا بذلنا العناية في اختيار تناسلها كذلك يمكننا عملياً ان نخرج سلالة من البشر ذات مواهب فائقة بتزاوج اجيالها المتعاقبة (٢)

ويقول هومز في كتابه « مشكلة اصلاح النسل » : من الممكن توليد ضروب الناس من بين سلالات البشر الموجودة الآن بالتناسل الانتخابي ، الاغش (ذو ست اصابع) والمفتوح الكف والاشقر والاصلع والادرد (٣) والاصم والاعمى والقزم ذي الرأس الضخم وأنواع درجات الذكاء من الابله الى العبقري (٤) ويقول ليونارد داروين الشهير في كتابه « ماهو اصلاح النسل » : حينما يعزم امرؤ على الزواج يهتم بمقدار الميراث المالي ولكنه قلما يلتفت للميراث الجسدي والعقلي (٥)

هذه لمحة صغيرة عن تضارب الآراء في هذا الموضوع الحيوي وسنتبع خطة معتدلة في تمييز عجره وبجره معتمدين على أقوال الثقاة المعتدلين. ان خير تعريف حديث لهذا العلم هو تعريف الطبيب الهولاندي الشهير فان ده فلد Van de Velde في كتابه العقم والخصب في الزواج : ان المثل الاعلى في تناسل البشر هو ايجاد سكان متناسبين مع مواردهم الطبيعية والثقافية تزداد في كل جيل قابليتهم ومواهبهم الطبيعية وتنقص عيوبهم وعللهم (٦) وقد جمع هذا التعريف على اختصاره فأوعى

فغاية تحسين النسل تشجيع الصفات الجيدة ونبذ السقيمة ومما لا شك فيه ان كل امة تتمنى ان يكثر فيها عدد النبغاء والمخترعين والاقوياء والاذكياء وينقص فيها المجرمون والبله والضعفاء

(١) H. S. Jennings : The Biological Basis of Human Nature 1930, p. 130

(٢) Hereditary Genius p. 1

(٣) الدرد — وهو ان تسقط الاسنان كلها وقد درد درداً فهو ادرد والانثى درداء (ابن سيده)

(٤) The Eugenic Predicament (Holmes) 1933 p. 10

(٥) What is Eugenics ? by Leonard Darwin p. 1

(٦) Sterility and Fertility in Marriage : Van de Velde 1931 p. 49

واضرابهم . ومما لاريب فيه أن الانسان كسائر المخلوقات الحية تابع لسنة التطور . ويؤكد العلماء بناء على ما استنتجوه من المتحجرات ان الانسان الحالي يختلف عن الانسان الاول . ولا يستطيع أحد أن يجزم بمدى قِدَم الانسان . ويرجحون أن قدمه لا يقل عن النصف مليون سنة وقد انقرضت اكثر انواع الانسان ولم يبق الا النوع الحالي أي الانسان العاقل (Homo Sapiens) الذي لا يقل تاريخه عن خمسين الف سنة . وقد مرت به أطوار عديدة كان في خلالها عرضة للطبيعة تتصرف به كما تتصرف بغيره من الحيوان. ولما ارتقى دماغه اخذ يخضع المحيط فاستطاع التغلب على كثير من الامراض واكتشف سبلاً للعيش والوقاية من الحر والبرد وغير ذلك من مستنبطات الانسان التي استطاع بواسطتها ان يتغلب على كثير من العوامل المحيطة به ولا يزال جاداً في هذا السبيل يعمل لما فيه خيره وسعادته

يؤكد العلماء أن مواهب البشر الوراثية لم تتغير وان التغير الذي حصل اقتصر على محيط الانسان ولكن صفاته الاحيائية (البيولوجية) لم تتطور ولا تزال على ما كانت عليه منذ الوف السنين . وليس من مقتضيات المدنية تقدم الناحية الاحيائية . وسيان لدى الطبيعة إن كنا حشرات أو أرقى طبقات البشر فالذي يهمها تخليد الحياة وليس نوع الحياة التي نحياها . فالتطور يؤول الى التقدم او التأخر او بينهما[1] فينشأ جيل من الناس مواهبهم الوراثية ارقى من الجيل الحاضر بالقياس الى عصرهم . فقد ذكر غالتون في كتابه النبوغ الوراثي ان اقدم سلالة في التاريخ هي سلالة اليونان الاقدمين اذ لم يسبقهم احد فيما اخرجوه من الآثار التي تحتاج الى مواهب عقلية ممتازة ولان السكان الذين تحدر منهم هؤلاء النوابغ كانوا قليلي العدد فسكان اتيكا (Attica) اقدر ارداف السلالات اليونانية فقد نشأ فيها خلال قرن اي بين ٤٣٠ و٥٣٠ ق.م صدفة دون تعمد كوكبة من الممتازين بمواهبهم العقلية يبلغ عددهم اربعة عشر مشهوراً اي واحد لكل ٤٣٠٠ من السكان الاحرار البالغين . وفي القرنين ما بين ٣٠٠ — ٥٠٠ ق . م أخرجت هذه البلاد القاحلة التي لا تبلغ مساحتها مساحة جزيرة رودس اليوم وسكانها اقل من الخمس ما يقرب من الـ ٢٥ مشهوراً من الاحرار الخلص منهم :

تميستوكليس وميلتياديس وارستيديس وبركليز من الساسة والقواد . وسقراط وافلاطون وارسطوطاليس من الفلاسفة . واسكيلس ويوريبيدس وسوفوكليس وارستوفانيس من الشعراء . واكتينس وفيدياس وبراكسيتيليس من البنائين والمثالين . وتوسيديديس وكزينفون من المؤرخين . وديموستينيس وايسوقراطيس من الخطباء.[2]

(البقية في باب الاخبار العلمية)

(١) Holmes. The Eugenic Predicament p. 4-5

(٢) Heredity and Environment 1930 (Conklin)p. 299 Hereditary Genius p. 329

بيت الشاعر

في منطقة البحيرات بانجلترا وفي قرية « جراسمير » الجميلة بيت الشاعر « وردسورث » المشهور باسم « كوخ الحمامة » وقد زاره الشاعر من سنتين وقال فيه هذه الأبيات : —

يابيت « ورد سورثَ » لا أُقفرتْ ... منك المنى . ولا عداك السلامْ !
فيك حلّ الشعر أصفاده ... وانطلق الطير وغنّى الحمامْ !

*

ياشاعر الدنيا [1] وما قد حوت ... من كشرة عن نابها . وابتسامْ
هدأتَ . والدنيا كعهدي بها ... أشباح أطياف ورؤيا منامْ . . .
والناس : حيٌّ سائر للبلى ... وهامة تيّاهةٌ فوق هام

*

تلك البحـيرات وشطآنها ... توحي الى الشاعر معنى الكلام
منثورةٌ في الارض حبّاتُها ... كأنها عقد بغير انتظام
للشعر فيها نشوة حـلوة ... وللطبيعيين فيها هيام . . .
توحي الى المفتنّ من فنها ... وتلهم المغرم معنى الغرام
الجبل الرابض في أرضها ... مستشرف الذروة عالي السنام
يجلـل الثلج به قمةً ... كأنهُ شيخ جليل المقام!
والكلأ المخضلّ في صدره ... كأنهُ صـدر علاه الوسام !
والشجر الملتفّ من حوله ... يلوح في الوادي كبعض [2] الخيام!!
لله تلك الارض من جنة ... يحلو بها العيش ويصفو المُقام
قد فُـتن الشاعر في حسنها ... وجال [3] ما بين رباها وهام
هذا جمال الله ما صاغهُ ... فنّ الورى أو زخرفتهُ الانام

*

يا بيت « وردسورث » هل وقفةٌ ... تبل من نفسي الصدى والأُوام ؟
وهل يعيد الدهر جولاتنا ... بين روابيك وبين الإكام ؟ ؟
وهل « جراسميرُ » كعهدي بها ... العيش فيها نهبة واغتنام ؟ ؟
ظلتْ بالأنس عشيـاتنا ... تدوم . . لو كان لشيء دوام . .

---

(١) كان وردسورث وكولريدج وسذي أشهر شعراء الطبيعة عند الانجليز (٢) في شمال انجلترا نوع من الشجر على شكل القمع وما أشبهه بالخيام المضروبة في الصحراء (٣) كان لوردسورث جولات كثيرة في ارض البحيرات وله كتاب اسمه (جولة الماء)

تصادم عبقريتين

الصراع بين ابي جعفر المنصور
وأبي مسلم الخراساني

لعلي ادهم

يقف مدونو التاريخ الاسلامي وقفات طويلة حيال الخلاف المشهور الذي ثار بين ابي مسلم الخراساني وأبي جعفر المنصور وأسفر عن قتل ابي مسلم ، ويكثرون من تفصيل حوادثه واستقصاء اسبابه وسرد مختلف الروايات التي تدور حوله وتتصل به . وعذرهم في ذلك واضح مقبول . فقد كان الرجلان من الشخصيات النابهة المنيفة التي ارتبطت بتاريخها حوادث عصرها اشد ارتباط . وأبو جعفر هو رجل العباسيين الذي ثبّت لهم الخلافة وأرسى قواعد الملك وكان واحد عصره في قوة الشكيمة ومضاء العزيمة ونفاذ النظر وإحكام التدبير. وأبو مسلم نادرة من نوادر التاريخ ونتاج غريب لاحتكاك الاسلام بالحضارة الفارسية ، وقد انحدر على الاغلب من صلب بزرجمهر بن البختكان وزير كسرى انوشروان فهو من اصل فارسي شريف تلتهب فيه الروح الفارسية تحت غلالة الاسلام ، وتلمح في تصرفاته سطوة الارستقراطية وقسوتها ودهاؤها وشمائل الملك وعزة السلطان ، وقد استطاع بصادق حماسته وبارع قيادته وفائق تدبيراته ان يغير مجرى التاريخ الاسلامي ويضرب ملك بني مروان الضربة القاضية ويرفع على انقاضه بيت بني العباس ، وقد تمكن من انجاز ذلك قبل ان تبلغ سنه الخامسة والثلاثين

وقد كان في بني العباس طموح ودهاء وحرص على طيبات الدنيا ونزوع الى السلطة وخبرة جيدة بالدوافع الانسانية . وقد احسنوا تدبير الدعوة واختيار الارض العذراء الصالحة لاستنبات بذورها وعرفوا الفرصة المناسبة لظهورهم والجهر بدعوتهم . ولم تكن فيهم تلك النزعة الصوفية المشوبة بالزهد والعجز في الحياة العملية التي تميز بها العلويون وجرّت عليهم الاخفاق في كل محاولة وصيرت تاريخهم سلسلة من المآسي المفجعة تستوجب الاسف وتستدر الدموع وجعلت الرجال العمليين يقعدون عن نصرتهم لانهم لم يجدوا عندهم ايالة الملك ولا صيانة المال ولا مكيدة

الحرب كما قال احد هؤلاء الرجال وهو الاحنف بن قيس . ولكن كان ينقص بني العباس القائد الحربي الموهوب المتدرب على وضع الخطط وتدبير المعارك وتنظيم القيادة ، وقد اصابوه في ابي مسلم . فلولا براعته الحربية وأساليبه العجيبة لافلتت منهم الفرصة ولما امكنهم ان يبتزوا ملك الامويين وعلى رأسهم خليفة من اقدر رجالهم مثل مروان بن محمد الذي لم تغض الهزيمة من مزاياه الحربية ولم يستسغ التاريخ ان ينكر عليه همته العالية ومواهبه الممتازة

والذي يتدبر اخلاق هذين الرجلين يعرف انهما شخصيتان قدر لهما ان يتصادما . فكلاهما اناني الى اقصى حدود الانانية لا يطيق ان يرى الى جانبه منافساً في نفوذه او قسيماً لهُ في ملكه ، وكلاهما مكيافلي من فرعه الى اخمصه لا يعرف معنى للعواطف النبيلة او المبادىء السامية اذا وقفت حجر عثرة في سبيل اغراضه ، فأبو مسلم لم يتورع عن الاسراف في القتل على الشبهة والغدر بأصدقائه وأعدائه على السواء ، والمنصور اول من قتل في الاسلام على الملك عمه وابن اخيه وأظهر قسوة بالغة في معاملته لابناء عمه العلويين

وقد كان أبوجعفر متبحراً في دراسة الفقه الاسلامي ، وكان لهذه الدراسة تأثير كبير في تكييف عقله وصقل تفكيره ، وقد مكنتهُ من ان يدرك في سهولة أوجه الشبه بين الاشياء دون ان تغيب عنهُ اختلافاتها الدقيقة ، وشحذت رغبته في البحث والتقصي والصبر على الشك والتريث في التفكير والاستعداد للمراجعة ، وقد كانت حاسة النظام والترتيب في نفسه أقوى من حاسة ادراك الجمال ، ولم يكن بطبيعته شديد الميل الى النساء والتهالك على اللذات او غالياً في التأنق ، ولم يكن شديد الولوع بالشعر فان أعجب بشيء منهُ فانما يعجب بالجانب التعليمي فيه وعما قد يتضمنهُ من مأثور الحكم وناضج التجارب وما يمكنهُ ان يستخرج منهُ درساً سياسياً او قاعدة عملية . وكما زادتهُ دراسة الفقه استقامة في التفكير واناة في اصدار الاحكام فكذلك طول صحبته للعلماء زادهُ بعداً عن الاسراف في الترف والانغماس في اللهو

وكانت نشأة أبي مسلم سياسية عملية خالصة ، وقد جمع بين براعة السياسي ومهارة القائد ، وكان ينظر الى ابي جعفر نظرة متأثرة بذلك الازدراء الخفي الذي يضمره رجال العمل وأبطال الميادين للعلماء ، وهذا الاحتقار المستور كثيراً ما يعمي أبعد الناس نظراً وأصدقهم فراسةً عن مشاهدة مزايا الغير وتقدير المواهب . ولذلك لم يتيسر لابي مسلم تقدير ابي جعفر تقديراً دقيقاً ولم يستطع رهو في ريعان نفوذه وعنفوان انتصاره ان يدرك أن هذا الرجل هو نابغة قومه وباقعة عصره ، ورجل العمل والكفاح في حاجة ماسة الى ان يكون معلمه من طراز أرسطو معلم الاسكندر ليوقر العلماء . ولم يلق أبو مسلم باله الى تأثير الحوادث في المنصور وكيف أفاد تجربة وحنكة . ولقد عاش أبو جعفر في الظل والخفاء ، وعاش في الضوء الساطع وعلمتهُ الاقامة

في ذلك المنفى البعيد عن الحضارة بتلك القرية النائية المشرفة على الصحراء المسماة الحميمة ان يطيل التفكير ويجيد وزن الامور . واذا كان الانبياء المرسلون يخرجون الى العالم من اعماق الوحدة والنواحي المهجورة فلا مانع من ان تكون تلك القرية الموحشة مدرسة للسياسيين الملهمين والسياسة ضرب من الفلسفة العملية تشترك فيه التجربة والتفكير والبداهة ، ومن نظر الى الحياة من أطرافها واعماقها وذاق حلوها ومرها لا تزدهف له ابتسامات الملق ولا تطير به الوشايات والنمائم لانهُ تعود مراجعة النفس وألف الحذر

وأول ما وقع في نفس أبي جعفر من أبي مسلم وكان لهُ تأثير في مستقبل العلاقات بينهما هو ما كان من رسول أبي مسلم لما قدم على أبي العباس السفاح عند بدء ظهوره واستعلان أمره فقد دخل عليه الرسول لتبليغ التحية وتقديم التهنئة ، وكان أبو العباس جالساً مع أبي جعفر وجماعة من وجوه بني العباس ، فسأل الرسول « أيكم ابن الحارثية » ؟ وكانت أم المنصور جارية بربرية اسمها سلامة . وكان اخوه أبو العباس اصغر منهُ سناً ولكن ابراهيم الامام اوصى له بالخلافة وآثره بالاسبقية لان امه عربية حرة ، ولا نزاع في ان هذا التفضيل المقصود كان يحز في نفس أبي جعفر الذي كان يعرف قيمة نفسه ويرى انهُ احق بالخلافة واقدر على النهوض باعبائها من اخيه اللين المستضعف . وقد نكأت كلمة رسول ابي مسلم هذه القرحة في نفس ابي جعفر ، وهي في تقديره اهانة لا يغتفرها رجل مثله شديد الحقد الد العداوة

اوفده بعد ذلك السفاح الى خراسان ، وكان السبب الظاهر لذلك هو اخذ البيعة من ابي مسلم للسفاح ولابي جعفر من بعده ، وكان السبب الباطن هو الرغبة في اختبار احوال ابي مسلم وسبر غوره لان خيانة ابي سلمة الخلال ومحاولته نقل الخلافة الى العلويين عقب مجيء الاخبار بوفاة ابراهيم الامام اثارت شكوك العباسيين وجعلتهم يسترببون برجال دعوتهم ويحرصون على الاستيثاق من اخلاصهم وكان لهذه الرحلة تأثير كبير في نفس ابي جعفر فقد رأى بعينه قوة نفوذ ابي مسلم ولمس عن قرب سعة سلطانه ومدى سطوته وتعلق اصحابه به وتفانيهم في طاعته . ويظهر ان ابا مسلم لم يوفه حقه من الرعاية واستخف به بعض الاستخفاف ، واتفق اثناء وجود ابي جعفر هناك ان ابا مسلم اشتبه في سليمان بن كثير كبير نقباء خراسان فدعاه اليه وقتله دون ان يستشير في ذلك ابا جعفر او يرجع الى أبي الخليفة . فلما عاد ابو جعفر افضى الى اخيه بمخاوفه من استفحال نفوذ ابي مسلم وزين له الخلاص منهُ ، ولكن ابا العباس كان يستعظم الاقدام على ذلك ويخشى عواقبه فلم يعمل برأيه وارسله الى واسط ليتولى تضييق الحصار على ابن هبيرة ، وابلى ابو جعفر في هذه المهمة بلاء حسناً حتى اضطر ابن هبيرة الى طلب الامان ، وجرت السفراء بينهما وجعل لهُ ابو جعفر اماناً وكتب به كتاباً مكث ابن هبيرة

يشاور فيه العلماء ردحاً من الزمن حتى رضيه واطمأن اليه ، ثم انفذه الى ابي جعفر فأنفذه الى ابي العباس فامره بامضائه . وكان من رأي ابي جعفر الوفاء له بما اعطاه ولكن ابا العباس استشار ابا مسلم وكانت فرصة لتوهين رأي ابي جعفر فاشار على السفاح بقتله لان الطريق السهل اذا القيت فيه الحجارة فسد ولا يصلح طريق فيه مثل ابن هبيرة . وعارض ابو جعفر في ذلك معارضة شديدة فألح عليه ابو العباس حتى اضطر الى تنفيذ امره واستطاع ابو مسلم في هذه المعركة ان يتغلب على ابي جعفر ويبرزه ملوثاً بدم الغدر موصوماً بنقض مبرم العهود

ووجه أبو العباس أبا جعفر عقب ذلك والياً على الجزيرة ، وكانت بينهُ وبين أهلها وقعات وحروب شديدة ، ثم صالحوه واستقام أهل الجزيرة وحدثت هدنة اضطرارية بين الرجلين انصرف خلالها كلٌّ منهما الى معالجة شؤون ولايته واخماد الفتن ورتق الفتوق ، وبعد انقضاء أربعة اعوام عاد الخلاف بينهما على أشده وذلك لان ابا مسلم كتب الى ابي العباس يستأذنهُ في القدوم عليه للحج ، وكان ما يرمي اليه من وراء ذلك هو ان يظفر بشرف ولاية الحج توطيداً لمركزه وتوسيعاً لنفوذه ، وأدرك ابو العباس قصده ورأى في ذلك ما يزيده علوًّا وتمكيناً ، وبعد اعمال الفكر للحيلولة دون ذلك كتب الى ابي جعفر يستحثهُ على ان يستأذنهُ في الحج حتى لا يطمع ابو مسلم في تقدمه عليه ، ورحب ابو جعفر بهذه الفرصة التي عنت لهُ لمراغمة خصمه فلبى الطلب وكتب الرسالة، ولما علم ابو مسلم بذلك اضطغنها على ابي جعفر

وقدم ابو مسلم الانبار فأمر ابو العباس ان يتلقاه القواد واعيان الدولة وسائر الناس ، وأعظمهُ وأكرمهُ ، وقدم ابو جعفر من الجزيرة ، واتفق اثناء وجودهما بالانبار ، ان دخل ابو مسلم على السفاح وابو جعفر حاضر فسلم على السفاح ولم يسلم عليه فاسترعى ابو العباس التفاته الى ابي جعفر فقال ابو مسلم « اني قد رأيته ولكن هذا مقام لا يقضى فيه حق غيرك » وهو تخلص لبق اكتفى به ابو العباس الذي كان لا يرى كبير بأس في بقاء ما بين هذين الفحلين متباعداً ، وعاد ابو جعفر يلح على أخيه في ضرورة القضاء على ابي مسلم وأغراه باغتياله ولكن أبا العباس كان لا يزال يتخوف الاقدام على ذلك

وسارا بعد ذلك في طريقهما الى الحج ، وكانت مباراة محتدمة ومنافسة مكشوفة استطاع ابو مسلم ان يكون فيها أبعد صوتاً وأخلب مظهراً من ابي جعفر ، فقد تحرى استصلاح الطريق وحفر الآبار وكسو الاعراب وأغدق عليهم العطايا وتعهدهم بالطعام، ولم يكن ابو جعفر بطبيعته ميالاً الى الجود واجتذاب القلوب وكان يؤثر على الدوام ان يكون مخشي الجانب مرهوب السطوة.

ولما صدرا من الحج ترامت اليهما الانباء بوفاة الخليفة ابي العباس فدعا ابو جعفر الناس الى البيعة، وبايعهُ ابو مسلم بعد تلكؤ يسير ، وأظهر ابو جعفر لابي مسلم تخوفه من شر عمه عبد الله

ابن علي وشيعته . ولما أخذ عمه البيعة لنفسه اشار ابو جعفر على ابي مسلم بالتوجه الى قتاله لان عامة جنده ومن معهُ من خراسان . وكان ابو مسلم يحاول جهده الاسراع في العودة الى خراسان ويؤثر ان يخلي ما بين ابي جعفر وعمه عبد الله ، وكانت الحجة التي أبداها للمنصور هي ان امر عبد الله قليل الخطر وان أمر خراسان أعظم شأناً وأهول خطراً مما يستدعي بقاءهُ هناك ، ولكن أبا جعفر ألحَّ عليه وأغرى بعض رجاله بتحويله عن رأيه حتى قبل اخيراً التوجه لاخماد حركة عبد الله ، وقد استلزم القضاء عليها مجهود ستة أشهر انتصرت في نهايتها حركات ابي مسلم الموفقة القوية على حركات عبد الله الضعيفة ، وفي خلال هذه المدة أتم ابو جعفر تدبير الخطة للقضاء على ابي مسلم . ولم يكن ابو جعفر يجهل حاجته الى قائد عظيم ووزير قدير مثل أبي مسلم والدولة في طالعة امرها والمتربصون بها كثيرون والطامعون فيها لا يخلون من قوة وبأس ، وكان يعرف أن ابا مسلم هو مدبر المؤامرات الناجحة وراسم الخطط المثمرة ولكنهُ وازن بعقله الحسَّاب بين الضرر والمنفعة ولما قطع بالرأي لم يتردد في تنفيذه لان الرجل كان لا يعرف الموادة ولا تغلبهُ العاطفة في مواقف الخطورة ومواطن الجد . وقد كان ابو مسلم كلما سما مقامهُ وطغى نفوذه اصبح خطراً كبيراً على نفوذ الخليفة ، فليس هو الآن منقذ بيته ورافع دعائم ملكه والحاجز المنيع ضد الثورات ، وانما هو مناظر مخوف الجانب يستطيع ان يفسد عليه امره ويسلبهُ ملكه . وكان المنصور قد حكم منذ زمن على ابي مسلم بالاعدام بينهُ وبين نفسه وهو حكم انتجهُ التفكير المادىء والمنطق الذي لا يلين ولا يرحم وزادتهُ الايام ايماناً بصحة ذلك الحكم وضرورته

وكان ابو مسلم خلال اداء تلك المهمة التي اناطها به المنصور — وقبلها مضطرًّا كارهاً — ناقماً على المنصور ، ولم يستطع ان يقمع استخفافه به وموجدته عليه ، فكان يأتيه منهُ الكتاب فيقرأه ، ثم يلوي شدقه ويرمي بالكتاب الى صديقه الحميم ابي نصر (مالك بن الهيثم) فيقرأهُ ويضحكان استهزاء . وقد ساء ذلك القائد البارع الحسن بن قحطبة فارسل الى ابي ايوب المورياني وزير المنصور رسالة شفوية خاصة ضمنها ارتيابه بابي مسلم

وكان المنصور يحاول الآن — وقد انتوى ازاحة ابي مسلم من طريقه ألاَّ يبدو قتله في صورة الغدر الاثيم والخيانة الصارخة ، والوسيلة الوحيدة لذلك هي ان يستفز اباه ويثير غضبه حتى يخرج عن طوقه ، ويجد المنصور اذ ذاك مسوغاً لقتله امام اتباعه . فلما انهزم عبد الله بن علي وكتب ابو مسلم الى المنصور بذلك ارسل المنصور رسولاً من قبله لاحصاء الغنائم وتحصيل الاموال ، وكان يعلم ما في ذلك من الاساءة الى ابي مسلم الذي تعود الاستمتاع بالسلطة المطلقة بلا رقيب ولا حسيب . فلما قدم عليه الرسول وعلم بمهمته لم يستطع ان يكظم غضبه

وبسط لسانه في ابي جعفر وهمَّ بقتل الرسول لولا تدخل اصحابه . فعاد الرسول الى ابي جعفر وأخبره بذلك . وكان المنصور يحاول جهده ان يحول بينه وبين خراسان فأرسل اليهِ رسولاً آخر معهُ كتاب يخبره فيهِ بأنهُ قد ولاه مصر والشام وأنهما احسن لهُ من خراسان وان يوجه الى مصر من يشاء من قبله ويقيم هو بالشام ليكون قريباً من الخليفة . فلما جاءه هذا الكتاب عرف غرض ابي جعفر وغضب واعتزم المضي الى خراسان وأقبل من الجزيرة مجمعاً على الخلاف . والواقع ان ابا مسلم كان قد تعوَّد السلطة وأن يقطع برأيهِ ويتصرف بحسب هواه وان يأمر فيطاع ويستشار ويستنصح فيعمل بمشورتهِ ويؤخذ بنصيحتهِ ، ولم يكن يستطيع الآن ان يصانع ويتملق ويخطب الود ويلتمس الرضى وغير غريب ان يتحدى ويغاضب . ومن الصعب على الانسان ان يصل الى ذروة السلطة المطلقة والسيطرة الكاملة على الناس ثم يتنازل عن ذلك كله في يسر وسهولة وعند اول اشارة ، وقد تحوَّل الامر بأبي مسلم من عدم الاكتراث لأبي جعفر الى العناد والاصرار ومن العناد والاصرار الى التحدي الظاهر والمخالفة الصريحة وقد زاده الانتصار الاخير اعتزازاً برأيهِ وادلالاً بمكانتهِ وشدة شعور بشخصيتهِ ، وكان المنصور من ناحيــة اخرى يريد النظــام ويأبى الفوضى في أية صورة من الصور ومثل هذا الرجل لا يطيق ان يرى مناظراً له في سلطانه ولا يسمح ان يعيش في ظل ملكه الوريف معارضاً واحداً هادىء البال مصون الدماء

وخرج ابو جعفر من الانبار الى المدائن وكتب الى ابي مسلم في المصير اليهِ . فكتب اليهِ ابو مسلم وقد نزل الزاب وهو على الرواح الى طريق حلوان « انهُ لم يبق لامير المؤمنين اكرمهُ الله عدوٌ الاَّ أمكنهُ الله منهُ ، وقد كنا نروي عن ملوك آل ساسان ان أخوف ما يكون الوزراء اذا سكنت الدهماء ، فنحن نافرون من قربك حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيت ، حريون بالسمع والطاعة غير انها من بعيد حيث تقارنها السلامة ، فان ارضاك ذلك فأنا كأحسن عبيدك وان أبيت الاَّ ان تعطي نفسك ارادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضنًّا بنفسي »

ولما وصل هذا الكتاب الى ابي جعفر كتب الى ابي مسلم « لقد فهمت كتابك وليست صفتك صفة اولئك الوزراء الغششة ملوكهم الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم فانما راحتهم في انتشار نظام الجماعة فلمَ سويت نفسك بهم وانت في طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الامر على ما انت بهِ ؟ وليس مع الشريطة التي اوجبت منك سماع ولا طاعة واسأل الله ان يحول بين الشيطان ونزغاته وبينك فانهُ لم يجد باباً يفسد بهِ نيتك أوكد عنده وأقرب من طبهِ من الباب الذي فتحهُ عليك » واختار ابوجعفر من رجاله ابا حميد المروروزي ليحمل الكتاب الى ابي مسلم ورسم له الخطة التي يسلكها بعد تقديم الكتاب وهي ان يبدأ فيكلم

ابا مسلم بألين كلام ويلوّح له بالوعود ويمنيه الاماني ويستفرغ في ذلك جهده ويحذره عاقبة البغي فان أصرَّ على المخالفة وصرّح بالعصيان ويئس منهُ يبلغهُ هذه الرسالة الشفوية وهي ان امير المؤمنين يقول له « لست للعباس وانا بريء من محمد ان مضيت مشاقاً ولم تأتني ان وكلت امرك الى احد سواي وان لم آل طلبك وقتالك بنفسي ولو خضت البحر لخضتهُ ولو اقتحمت النار لاقتحمتها حتى اقتلك او اموت قبل ذلك » واوصى المنصور من حضرهُ من بني هاشم بان يكتبوا الى أبي مسلم يعظمون امره ويشكرون ما كان منهُ ويحذرونهُ عاقبة الغدر ويأمرونهُ بالرجوع الى امير المؤمنين وان يلتمس رضاهُ

***

وسار ابو حميد في جماعة من اصحابه ممن يثق بهم حتى قدموا على ابي مسلم بحلوان ، فدخل ابو حميد ومعهُ اصحابه ودفع الكتاب الى ابي مسلم ، وقال لهُ ان الناس يبلغونهُ عن امير المؤمنين ما لم يقلهُ وخلاف ما عليه رأيه فيه حسداً وبغياً يريدون ازالة النعمة وتغييرها ونصح لهُ ان لا يفسد ما كان منهُ ، فكبر هذا الكلام على ابي مسلم لان أذنه لم تتعود سماع النصائح فالتفت الى ابي حميد وقال لهُ في كبرياء وأنفة « متى كنت تكلمني بمثل هذا الكلام » فقال لهُ أبو حميد « لقد دعوتنا الى طاعتهم أفتريد حين بلغنا منتهى أملنا ان تفسد أمرنا وتفرق كلمتنا ، وقد قلت لنا من خالفكم فاقتلوه وان خالفتكم فاقتلوني »

وكان الى جانب أبي مسلم صديقه الحميم مالك بن الهيثم ، فأقبل عليه وقال « أما تسمع ما يقول هذا ! ما هذا بكلامه يا مالك »

فقال لهُ مالك « لا تسمع كلامه ولا يهولنك هذا منهُ ولعمري لقد صدقت ما هذا كلامه ، ولما بعد هذا أشد منهُ فامض لامرك ولا ترجع فوالله لئن أتيته ليقتلنك وقد وقع في نفسه منك شيء لا يأمنك أبداً »

وأراد ابو مسلم ان يخلو بنفسه فصرف القوم وأخذ يفكر ويقلب الامر على وجوهه ، ولما أتعبهُ التفكير استدعى نيزك وكان موضع ثقته وكاتم سره . فلما أقبل نحوه نيزك التفت اليه ابو مسلم وهو يحاول ان يخفي اضطراب خواطره ويتظاهر بقلة الاهتمام وقال لهُ « يا نيزك اني والله ما رأيت طويلاً أعقل منك فما ترى ؟ فقد جاءت هذه الكتب وقد قال القوم ما قالوا »

فقال لهُ نيزك « لا أرى ان تأتيه وأرى أن تأتي الري فتقيم بها فيصير ما بين خراسان والري لك وهم جندك ما يخالفك أحد ، فان استقام لك استقمت لهُ وان أبى كنت في جندك وكانت خراسان من ورائك ورأيت رأيك » واطمأن أبو مسلم الى هذا الرأي وعوّل على الاخذ به

ودعا أبا حميد وقال لهُ « ارجع الى صاحبك فليس من رأيي ان آتيه »

فقال لهُ أبو حميد « اوقد عزمت على خلافه ؟ فقال لهُ أبو مسلم « نعم »

فقال لهُ أبو حميد « لا تفعل » فقال ابو مسلم وقد بدت على وجههِ علامات الاصرار « ما أريد أن ألقاه »

***

وهنا لم يجد ابو حميد بدًّا من ان يبلغهُ رسالة ابي جعفر الشفوية . فلما سمعها ابو مسلم وجم طويلاً ، وأخذت تتكشف لهُ طبيعة الرجل الذي يريد مخالفته وكأنما رفع عن بصره الغطاء في تلك اللحظة وأدرك انهُ أفرط في تحدي أميره ، وكان ابو مسلم يعلم جيد العلم ان سلطان ابي جعفر قائم على دعامتين قويتين ليس من السهل هدمهما وهما قوة الدين وشرف النسب . وقد حاول ابو مسلم من قبل ان ينتزع جانباً من هذا الشرف ويخلعه على نفسه وذلك بادعائهِ مرة انهُ من ولد سليط الذي كان ينسبهُ الامويون الى عبد الله بن العباس وبمحاولتهِ مرة أخرى ان يخطب الى المنصور عمته أمينة بنت علي . وراعهُ هذا التهديد المكشوف الذي يشف عن صدق العزيمة والاستهانة بالخطر ، وكان ابو جعفر عند ما حاول استفزاز ابي مسلم قد احتاط للامر وأخذ يحرك المنافسة والحسد في قلوب مناظري ابي مسلم وحاسديه ، فكتب الى ابي داود خليفة ابي مسلم على خراسان يوليهِ امر خراسان ما بقي ؛ فكتب ابو داود الى ابي مسلم من رسالة انا لم نخرج لمعصية خلفاء الله واهل بيت نبيه صلعم ، فلا تخالفنَّ امامك ولا ترجعنَّ الاَّ باذنه ووافاه الكتاب وهو في تلك الحال من تبلبل الفكر وتضعضع العزم فزاده همًّا ورعباً ، وهنا ارتبكت اعصاب الرجل وتحللت عزيمته فاستدعى رسول ابي جعفر وصديقه مالكاً وقال لهما « اني قد كنت معتزماً المضي الى خراسان ثم رأيت ان اوجه ابا اسحق الى امير المؤمنين فيأتيني برأيهِ فانهُ ممن اثق بهِ » ولما قدم رسوله على المنصور تلقاه بنو هاشم بكل ما يحب وقال له ابو جعفر اصرفه عن وجهه ولك ولاية خراسان وأجازه فرجع ابو اسحق الى ابي مسلم وقال له انهُ لم يجد من القوم ما ينكره وانهم معظمون لحقه واشار عليه ان يرجع الى امير المؤمنين فيعتذر اليه مما كان . وكان ابو جعفر قد نجح في ان يهز ثقة الرجل بنفسه وان يعطل قوة رأيه القاطع فأجمع على العودة الى الخليفة لانهُ لم يجد بدًّا من ذلك وحاول نيزك ان يثنيه عن الرجوع ولكن ابا مسلم كان يشعر بقوة قاهرة تجبره على الذهاب ، ولما اطال عليه نيزك تمثل ابو مسلم قائلاً

ما للرجال مع القضاء محالة ذهب القضاء بحيلة الاقوام

فقال له نيزك وقد عجز عن اقناعه « اما وقد عزمت على هذا فاحفظ عني واحدة ، اذا دخلت عليه فاقتله ثم بايع لمن شئت فان الناس لا يخالفونك » وكتب ابو مسلم الى ابي جعفر يخبره انه منصرف اليه ، ولما طوى اكثر الطريق تلقاه رجل من قواده وحذره ونصح له بالعودة فاشتدت به المخاوف وكثرت هواجسه وخايلته فكرة العودة فتردد وتلبث ولكن الشبكة المحكمة لم تمكنه من الافلات واحس بشدة وطأتها وعجزه عن النجاة فاستسلم للقضاء ، وكان المنصور الذي لا تنفد حيله يدس عليه رجالاً ليبلغوه ما ينفي عنه الوساوس ويوحي اليه الطمأنينة ، ولما شارف المدائن امر المنصور الناس فتلقوه واحتفى بمقدمه القواد والرؤساء واعيان العباسيين ، ولما دخل المدائن كان النهار قد ادبر وارخى الليل سدوله وجلس ابو جعفر ينتظر قدومه وقد حفه صمت عميق ووقار رهيب ، ودخل ابو مسلم على المنصور وسلم والتقى الرجلان وجهاً لوجه على ضوء الشموع ، وكان احدهما وهو المنصور اسمر اللون رقيق السمرة طويلاً نحيفاً خفيف العارضين عليه ابهة الملك وجلال النسك ، وكان الآخر — وهو ابو مسلم — قصيراً اسمر احور العين عريض الجبهة وافر اللحية ساهم الوجه شارد الفكر يحاول جهده ان يتماسك ويتجلد ، ولم يغب عن عين المنصور ما يعانيه ابو مسلم من الاضطراب الخفي فتلطف معه وترفق به واحتفى بمقدمه وتهللت في وجهه المهيب الدائم العبوس تلك الابتسامات التي يتخذها الساسة قناعاً يسترون به مبهم النيات وخفيّ الاغراض . ولم يطل قيام ابي مسلم فقد أذن له الخليفة بالانصراف لينفض عنه غبار السفر ويرتاح من وعثائه ، وقد حاول كل منهما خلال تلك اللحظات القصار التي قضياها معاً ان يتغلغل بنظراته الحادة الى سريرة صاحبه ، وخرج ابو مسلم وقد ذهب به الفكر كل مذهب ، ولعله لم يشعر تلك الليلة بما حفلت به المدائن من اصوات البشائر وبما اقيم لقواده ورجال حاشيته من الحفلات والولائم ، وأوى الى فراشه مبكراً ، ونستطيع ان نتصور ابا مسلم في تلك الليلة متململاً فوق فراشه لا يقر له قرار ولا يهدأ له بال ، ولم تستطع مظاهر الحفاوة والتكريم التي قوبل بها ان تبدد مخاوفه وتنفي عنه الافكار السوداء وأخذت كلمات التحذير التي قالها له صديقه ابو نصر وصاحبه نيزك تدوي في اذنه دوياً متصلاً وترن رنيناً محزناً ولعله اخذ يعجب من نفسه وكيف جاء الى المدائن وسعى الى حتفه وكيف خذلته شجاعته والتوى عليه الرأي وهو الجندي الباسل والسياسي الخطير ، وكان يشعر بعزلته وانه وحيد في عالم غريب وان الخطر الذي يهدد حياته قد صار على كثب منه ، ولما مضى الهزيع الاول من الليل هدأت الحركة في المدائن وهمدت الاصوات ، وران الكرى على الجفون ولكن بقي رجلان ساهرين احدهما ابو مسلم الذي كان يفكر في مصيره وما تخبئه

لهُ الاقدار ويخشى ان يغدر الخليفة بأقدر رجالهِ وأعقل وزرائهِ ، والآخر المنصور وقد اخذ يلوم نفسهُ لانهُ لم يهتبل الفرصة ويقتل أبا مسلم عند ما ملأ عينيهِ منهُ وريح نفسهُ ويشفي غله وصار يستطيل الليل ويرقب تباشير الصباح في قلق وحذر

***

ولما اقبل الصبح استدعى المنصور اربعة من رجال حرسهِ الاشداء وعرفهم بالمهمة الموكولة اليهم فهالهم الامر ولكنهم لم يجترئوا على المخالفة وأوصاهم بالوقوف خلف الرواق وان يبرزوا اذا ارتفع صوتهُ وصفق بيديهِ ويقتلوا ابا مسلم

وأصبح ابو مسلم متعباً حزيناً لما عاناه من ارق وتسهيد وما ساوره من افكار وهموم وكانت بينه وبين عيسى بن موسى ابن اخي المنصور صداقة ومودة فأتى منزله وتناول عنده الغداء وفي خلال الحديث انشد عيسى

سيأتيك ما افنى القرون التي مضت وما حل في اكناف عاد وجرهم

ومن كان اناى منك عزّاً ومفخراً وانهد بالجيش اللهام العرمرم

فالتفت اليهِ ابو مسلم وقد امتقع وجهه وقال له « هذا مع الامان الذي اعطيت » فقال لهُ عيسى اعتق ما املك ان كان هذا لشيء من امرك وما هو الآ خاطر أبداه لساني « فقال ابو مسلم فبئس الخاطر والله اذن »وبعد قليل وافاه رسول الخليفة يدعوه الى الحضور فقال لهعيسى لا تعجل بالدخول حتى احضر وأدخل معك ، فابطأ عيسى بالوضوء ومضى أبو مسلم فلما همَّ بالدخول على الخليفة جرده البواب من سلاحه فدهش لذلك ، ولما مثل بين يدي الخليفة شكا اليهِ ما صنع به فطيب المنصور خاطره واقبل بعد ذلك عليهِ يعاتبهُ ويحصي عليهِ ذنوبه وينعي على زلاتهِ وشدد النكير على سلوكه نحوه وكيف كان يتقدمهُ في طريق الحج وكيف كان يكتب اليهِ فيبدأ بنفسهِ وكيف أقدم على قتل سليمان بن كثير مع بلائهِ في دعوتهم وكان ابو مسلم يرد على ذلك بكياستهِ المعهودة ، ولما اكثر عليهِ المنصور أخذته العزة فقال لهُ « لا يقال لي هذا بعد بلائي في دولتكم وما كان مني » فغضب المنصور وقال لهُ « لو كانت امة مكانك لأجزت ناحيتها انما عملت ما عملت في دولتنا وبريحنا ولو كان ذلك اليك ما قطعت فتيلاً » وسبهُ بعد ذلك وذكره كيف تطاول الى خطوبة عمتهِ وادعى انهُ من ولد سليط ، وغلت مراجل المنصور وانفتقت في نفسهِ شهوة الانتقام ولاحت في عينهِ بوارق الغضب والحقد ولوائح الغدر وأدرك ابو مسلم خطورة الموقف فأخذ يعرك يده ويقبلها ويحاول تهدئة ثائرته ، وتزايد غضب المنصور وصفق بيديهِ فبرزت

الرجال بالسيوف ولم تزد أول ضربة على ان قطعت حمائل سيفه فقال « يا أمير المؤمنين استبقني لعدوك » فقال له المنصور « لا أبقاني الله اذن وأي عدو اعدى لي منك » وصاح برجاله « اضربوا قطع الله ايديكم » ولما توالت على ابي مسلم الطعنات خارت البقية الباقية من شجاعته وانطوى إباؤه وارتجف من الموت هذا الرجل الذي اذاق الالوف طعم الموت وجرعهم مرارته وصار يلتمس العفو في ذلة وضراعة حتى عجب المنصور وقال له « العفو وقد اعتورتك السيوف »

ووقف المنصور امام فريسته كالوحش الضاري ينشد

زعمت ان الدين لا ينقضي فاستوف بالكيل أبا مجرم
سقيت كأساً كنت تسقي بها امرّ في الحلق من العلقم

ودخل بعد ذلك عيسى بن موسى وسأل عن ابي مسلم فقال له المنصور « ها هو ذاك في البساط فأبدى عيسى اسفه وتفجعه وذكر اخلاص ابي مسلم وطاعته فقال له المنصور « خلع الله قلبك وهل كان لكم ملك او سلطان او امر اونهي مع ابي مسلم » وامر المنصور فحملت بقايا ابي مسلم ورمى بها في دجلة وبعث الى عدة من قواده بجوائز سنية واعطى جميع جنده حتى رضوا ورجع اصحابه وهم يقولون لقد بعنا مولانا بالدراهم

ومرّت على هذه الحادثة اعوام وبينما كان المنصور ذات ليلة يسمر مع جماعة من خاصته قال لهم : « ثلاثة كنّ في صدري شفى الله منها كتاب ابي مسلم اليّ وانا خليفة عافانا الله واياك من السوء ، ودخول رسوله علينا وقوله ايكم ابن الحارثية وضرب سليمان بن حبيب ظهري بالسياط »

***

وطوى عصر المنصور ودارت الايام دورتها وضرب الدهر ضرباته وتسنم عرش الخلافة احد احفاده وهو عبد الله المأمون وجلس ذات ليلة يسمر مع رجال حاشيته ودار الحديث على أبطال التاريخ فقال لهم اجل ملوك الارض ثلاثة وهم الذين قاموا بنقل الدول الاسكندر المقدوني واردشير وابو مسلم الخراساني !

وقد كان قتل ابي مسلم ضرورة سياسية ومحاولة جبارة قام بها المنصور لصد تيار النفوذ الفارسي واعادها بعده الرشيد بايقاعه بالبرامكة وكررها المأمون باغتياله الفضل بن سهل ولكنهم لم يوفقوا في تلك المحاولة العنيفة التوفيق كله لان تغيير مجرى الحوادث في كثير من الاحوال من وراء قدرة الرجال ولو كانوا من طراز المنصور والرشيد والمأمون

اوراق متناثرة من ديوان

الادب العالمي

لكامل محمود حبيب

— ١ —

لينين والرواية

أفكان لينين يتعشق الرواية ويقرؤها وينكبُّ عليها وهو الرجل الصلب الجاف الذي عاش عمره تضطرب في نفسه فكرة واحدة سيطرت عليه فسلبتهُ من كل فكرة اخرى ، تلك هي الرسالة التي أخذ على عاتقه ان يقوم بها ويوفر عليها جهوده ؟ أفكان يجد في نفسه هوًى للرواية ونحن نرى فيها مسلاة وملهاة تملأ الفراغ وتقطع الوقت ، وهو . . . هو لينين رجل العمل والجد ؟

نعم ، لقد قرأ لينين الرواية واغرم بها ، رواية واحدة كان يجد فيها الاستاذ والمعلم والمرشد والنبراس الذي يهتدى بهديه ويستلهم منهُ الفكرة ، تلك هي « طبيب القرية » لبلزاك . ولكن اي فكرة سامية في هذه الرواية فتجذب اليها لينين فيقرؤها ويقرؤها فقط ؟ إن طبيب القرية (بيناسيس) الذي صوّره بلزاك بقلمه الرائع واسلوبه الجذّاب رجل عاش في الريف في منأى عن كل ما يشغل الناس وينفث فيهم روح التناحر الدائم . . . عاش هناك ، على بضعة أميال من جرينوبل ، ليضرب للناس مثلاً عالياً في الدكتاتورية الصالحة التي تنهض بها — اول ما تنهض — الامم

أخذ الطبيب بيناسيس نفسه بأن يبذر في نفوس الناس الذي عاش بينهم ما يبذر المعلم الامين في نفوس تلاميذه الصغار من غراس الخلق الطيب والعلم الصحيح . فراح يطهر الناحية من أدران الجهل والتكسل والفتور ، وهبّ يرفع من اسباب العيش ومستوى الحياة فأحسّ الناس بالحاجة الى اشياء ، وهو يقول « إن الذين لا يستشعرون الفاقة هم الفقراء حقًّا » . وألحت الحاجة على صحابته فاندفعوا يستبدلون مع الاجانب متاعاً بمتاع . وحين بدا هو في اعينهم نشيطاً دؤوباً مقداماً مصلحاً تهافتوا اليه يولونهُ ثقتهم ومحبتهم فأخرج منهم ناساً فيهم الدأب والرفاهية

وجاء جينستاس ، وهو رجل حرب ، ليرى الطبيب ، فنزل ضيفاً مكرماً في داره . وراح

الطيب يكشف له عن بعض ما كان منهُ ويبسط امامه خواطره وآراءه و ... وآماله ..

وعلى حين فجأة مات الطيب

والقارىء يرى في الطيب رجلاً بارزاً لا يضنيه الملل ولا يقعد به الجهد ، لا يهدأ ولا يستقر ، تدفعهُ العاطفة والعقل معاً الى الغاية التي يبتغي . أفلم يكن لينين من هذا الطراز ؟ ألم تحل فيه روح الطيب فتشيع في نفسه مبادئه حين يقول « ان الذي يعيش عاطلاً هو لص اجتماعي » وحين يقول « لا بدَّ ان يعيش الرجل بين الناس نزيهاً » أو حين يقول « ان الذي يدرك معنى الحكم ، ويجد في نفسه القوة على حمل اعبائه ، يجب عليه حين يمسك بالدفة ان يديرها في حزم وصمت » ؟

وروعة الكتاب تبدو في مواضع كثيرة اوضح فيها ان المادة هي شغل الناس الشاغل . ولقد اراد الطيب ان يهب نفسه لما فيه صلاح القوم فاضطربت في رأسه فكرتان : أيعيش بين الناس طبيباً يداوي عللهم ويحنو عليهم ام هو يسعى جهده ليقر بينهم السلام والهدوء ؟ وتنازعهُ عاملان : أفيكون طبيباً او قساً ؟ وخيِّل اليه ان الانسان يصغي في رضا لمن يخفف عنهُ آلامه اكثر مما يطمئن الى من يمنيهم ويخوِّفهم ، فراح يسهر على مرضاه ، واستقر الى جانب الفلاح الذي يكدح عمره لينال قوت يومه . ولكن الانسانية الخامدة لا ترقى الاَّ على سلم من الاعتداد بالذات ، فهذا العظيم الذي يقذف بنفسه في خضم الجهاد ، هو لا ريب يسعى لينفث روح الاعتداد بالنفس في نفوس الشعب لينشىء خلقاً جديداً غير ان الجيل الجديد سيكون ولاشكَّ مادياً

ولعلَّ لينين نفسه شعر بما شعر به الطيب فاندفع ينهج نهجهُ

ثم تجيء الفكرة الدينية تعلن — دائماً — عن نفسها ولقد قال الطيب : « إن الكاثوليكية كتلة من التعصب والخرافة تآلفت في إتقان ودقة ، يستطيع العقل الحصيف أن يمتد اليها بالتطهير والاصلاح » ولكنهُ حين اغتمر في عمله بين الفلاحين رأى أنها « هي القوة الوحيدة التي تنتظم في اضعافها كل المبادىء الاجتماعية السامية وتسبغ عليها من روح الحياة والوحدة السياسية » وان الدين « لم يكن — في يوم ما — سلوة يستمتع بها المرء بل هو اداة صالحة تقود الجماعات — دائماً — الى النجاح » . وحين أخذ لينين بهذا المذهب اصبح هو في روسيا الرجل المحترم المقدَّس ، وغدا عماد القانون الارضي وحارسه

ولقد اخذت كل من روسيا والمانيا وايطاليا بالمبدإ الذي رسمهُ طيب بلزاك « . . . إن اخلاط الناس هم سفلة القوم الذين يسهرون على حماية الامة . . . واذا هبَّ رجل عظيم يريد الاصلاح فلا بدَّ ان يعتمد على الحكومة والاَّ ألقى بالناس في غمار الثورة ... أن مجالس الشورى والبرلمانات والديموقراطية كل اولئك خور وضعف وضياع للوقت دون ثمرة تجتنى . . . ياعجباً ،

يا عجباً ! كيف بمجلس قوم يتنازعون بينهم الرأي ، والخطر على خطوات منهم يحدجهم بنظرات يتطاير منها الشرر فلا يستطيعون دفعه ! لا بد ان تكون السلطة والقانون و . . . أشياء تقبض عليها يد واحدة . . . يد واحدة فقط »

واخيراً ننشر امام اعيننا رسم الدكتاتور الصالح الذي نادى به بلزاك قائداً وحاكماً ، والذي سار على ضوئه لينين ومن بعده الزعماء ذوو الحزم والعزم مثل هتلر وموسوليني وستالين ... :

« أن يكون بعيد النظر ثاقب الفكر ، لا يطيش ولا يذهب بلبه الغرور والخداع ، وان ينزع عن نفسه شهواتها وأطماعها ليسيطر على مواهبه في نزاهة وعدل ، في عزم وقوة ، وان ينفذ أوامره في صرامة وشدة فلا يضطرب ولا يختلج ولا يرحم ولا يصغي الاّ لنداء ضميره هو ، وأن يستلب عن نفسه الشك والثقة العمياء فلا يطمئن الى رفاقه واعوانه دون تجربة ، والاّ يكون سهلاً ليناً ولا صلباً جامداً ، وان يكون على اهبة فلا تدهمهُ الحادثة فيضطرب لها ويفزع ويتزلزل زلزالاً شديداً ، ثم هو يجب عليه ان يجول بين الناس يشع عليهم من عبقريته وينفذ الى قلوبهم من خلال أحاديثه الرقيقة ونظراته النفّاذة ، والاّ تشغله الصغائر بل هو يعنى دائماً بالنتائج . . . ذلك هو الرجل الذي يرقى درجة فوق الانسانية »

تلك هي المبادىء التي بذر بلزاك غراسها في عقل لينين فتأثر بها وشغفتهُ حبًّا . . .

— ٢ —

اللحن الضائع لسافو

في الاربعين السنة الاخيرة انحسرت رمال الصحراء المصرية عن ألحان من الشعر الاغريقي فيها الروعة والجمال، طوّحت بها المسيحية الى أعماق النسيان والاهمال حين راحت تحط من قيمة الأدب الوثني في اعين الناس ، فكشف كل من جرينفل وهنت عن مقطوعات من شعر سافو ، وعثر العالم الايطالي ميديانورسا على اربع قطع ونصف من الشعر كتبت في القرن الثاني قبل الميلاد على قطع من الفخار ، عرف هو — عند ما قابل بينها وبين الحان أُخر — انها لسافو. وهي قطع من رائع الشعر تصف حفلاً حشد في اقليم كأنهُ الفردوس فيه الماء والزهر والاشجار وفي اضعافها دعوة الى أفروديت معاصرة سافو لتحضر الحفل مكللة بالغار وفي يدها كأس ذهبية فيها الرحيق

والاسطر الاربعة الاولى مضطربة غير ان القارىء المدقق يستطيع ان يستشف من ورائها

امرين : الاول ، انها تصف ناراً تتألق في السماء علامة يستبشرون بها كلما همّ الناس بعمل ذي خطر ولعل العمل هو حفل زفاف والنار هي علامة رضا الآلهة ، فالملأ كانوا يعتقدون ان النار والبرق والرعد سمات البشرى ترسلها الآلهة الى الناس . والثاني ، ان سافو تعلن عن نفسها امام الزمر في كريت . ولكن كيف ذهبت سافو الى كريت ومتى ؟ إن التاريخ يقول انها نفيت من وطنها وهي طفلة الى سليسيا ولعلها لبثت في هذه الجزيرة عمراً من عمرها في ذهابها او في إيابها ! ومهما يكن في الامر من شيء فهي التي تقول « على نغم الموسيقا وحول المذبح المقدس اندفع فتيات كريت يرقصنَ في ارجل لدنة ويطأنَ الازهار الجميلة اليانعة في خفة. . . » وفي هذا اللحن نجد سافو تذكر حفل كريت في حنين وشوق

واذا اغفلنا الاسطر القليلة المضطربة استطعنا أن نترجم ما بقي من اللحن « . . . ما اجمل اشجار التفاح المتشابكة والبخور يتصاعد سحباً عطرية من المعبد ، والماء البارد يتدفق في صخب بين الشعاب ، والظلال تنشر ثوبها الرقيق على المكان كله ، وحفيف الاشجار ينبعث كأنه صوت النعاس المقدس ، والخيل ترعى في الرياض المزهرة ومن فوقها أكمام زهر البلوط ، والنسيم يهب رقيقاً ينفح ريحه العطر الشذي... ! تعالَ الآن ، ايها القبرصي .. تعالَ لتأخذ زهرتك ، ولتصب في رفق رحيقك الشهي في الكأس الذهبية ، ثم انفث فيها اللذة والسعادة ! »

وهذه اغنية ترددت — ولا ريب — يوم زفاف سافو نفسها . والاستاذ ميديا يقول انها اغنية خاصة لم ترتفع بها الاصوات لدى المعبد بل كانت تترنم بها هي ورفيقاتها . وحجته في ذلك ان اغاني العرس كثيرة وعديدة ، وومضات البرق تعيد الى النفس ذكرى ابولون وهو يسلم هيرا المشاعل لتحملها في عرس فيلا وثيتس أبوي « أخيل » اوهي تذكر الناس بالنار التي شبت من جانب السماء حين ربط بين زيدو وإينوس بالرباط الوثيق في الكهف . ولعل حديقة التفاح المقدسة هي حديقة افروديت فهي كانت تقدس التفاح لانهُ عندها علامة انتهاء عهد العزوبة وابتداء عهد الزواج . ثم هي ذكرت سحب البخور وهي تنعقد في سماء المحراب علامة نجاح الحفل . ولقد خاطبت سافو الكريتيين لانهم رفاق زوجها فهي لم تناد واحداً منهم بل كانت تنادي زوجها وحده

وانهُ ليستوقف النظر ان نرى سافو تدعو أفروديت الى المهرجان وعلى رأسها النار وفي يدها الكأس الذهبية مترعة بالرحيق لتقدمها هي الى الزوج فيتقبلها وعلى شفتيه ابتسامة علامة الرضا والترحيب بحياته الجديدة ، فلقد كان يخيل الى سافو ان الآلهة يحفون من حولها وانها تتحدث اليهم ، فهي تدعو افروديت ربّة الزهر لتقوم لها بما يقوم به هيرمس في اعراس الاولمب، او لعلها كانت تناجي زهرة من بين الازهار العديدة التي نثرتها في ارجاء المكان كأنها هي ربة الزهر

ودوّى لحن عرس سافو تدوية شديدة ، في عالم الآثار ، فما هو كغيره من الالحان الاخرى لانها كشفت لنا عن بعض ما يضطرب في نفس المرأة في ليلة العرس من نوازع فيها اللذة والطرب ، وفيها السحر والسعادة ، ثم هي استطاعت بعد ذلك ان تتغلغل في النفوس بعبارات فيها السهولة واللين ، وفيها الخيال والروعة ، ثم هي تعيد العبارة مرات ومرات فما يمجها الذوق ولا تعافها الاذن لانها تنفث فيها في كل مرة من روحها الجذابة ونغمها الساحر وعاطفتها المتسعرة

والآن فيا مصر ، افيضي علينا بما تكتنزين عنا الحاناً أُخر فيها السحر والجاذبية والجمال فلطالما لجت بك الضنة

— ٣ —

مؤتمر ورق البردي

في اواخر اغسطس الماضي عقد المؤتمر الخامس لعلم البردي وحضره اكثر من ستين ومائة عالم من انحاء اوربا واميركا . وغريب ان تجتمع لورق البردي المؤتمرات فيخف اليها العلماء من كل صوب ! وماذا في ورق البردي حتى يعنى به العالم ويوليه من عنايته وهمته ووقته ?

لقد كان لورق البردي المكان المرموق عند قدماء المصريين والاغريق والرومان فهم قد كتبوا عليه كتبهم ودونوا وثائقهم العامة والخاصة ، والبردي ورق مصنوع من نبات مائي كان الى حين ينبت على ضفات النيل ، وهو سريع البلى غير ان جو مصر الجميل وتربتها الجافة ساعدا على أن يجتاز هذا الورق القرون الطويلة وهو في جدته وبهائه لم تعبث به الايام

وكان تاريخ الادب يبتدىء من القرن الرابع الميلادي ، فجاء البردي يفتح امامنا صفحة اخرى يمتد تاريخها الى ما قبل ذلك بقرون

وكشف عن ورق البردي — اول ما كشف عنهُ — في سنة ١٧٧٨ حين عثر جماعة من اهالي مديرية الفيوم على حزمة منهُ في اناء خزفي فاشترى احد الهواة بعضها بالثمن البخس ، واحرق القوم ما بقي حين لم يجدوا فيه فائدة ترتجى . واستطاع كاردينال بورجيا ان يحصل على هذه الاوراق فنشرها في سنة ١٧٨٨ فاذا فيها اسماء العمال الذين قاموا بأشغال الري سنة ١٩١ بعد الميلاد

وفي التسعين السنة التالية لم يعثر الا على وريقات لا تشفي غلة بينها بعض قطع من أدب هوميروس وهيبريديس تيرب ديموستنيس والكمان

وفي سنة ١٨٧٧ اكتشف اكبر قدر من هذا الورق وهو قرابة الف وثيقة تجمع بين

اسطرها ما كان من امر مدينة ارسينو ، وهذه المجموعة حفظها الارشيدوق راينر النمسوي

وجاءت سنة ١٨٩١ تحمل في اضعافها حزماً من ورق البردي فيها الادب وفيها العلم معاً فطبعت دار الآثار الانجليزية بعضها وهي: رسالة ارسطو المفقودة في تاريخ اثينا ، والاشعار لهيرودس وبعض خطب هيبريدس ، ورسالة مستفيضة في الطب ، ثم بعض ما كتب هوميروس وديموستنيس واسوكراتيس ، وفي ذلك الحين كشف عن وثائق فيها شذرات لهوميروس وافلاطون ثم المأساة المفقودة ليوريبديس

فابتدأ حب الاستطلاع يدفع الباحثين الى دراسة ما يزجيه الينا البردي من الادب والتاريخ ، فتوزعته الايدي بين برلين ولندن وفينا وجنيف ، وتناولته العقول بالبحث في نواحيه العديدة ...

***

ومنذ اربعين سنة تدفق سيل من اوراق البردي فأفعم مكتبات اوربا ومصر واميركا بمئات من القطع الادبية وآلاف من غير الادبية ، ذلك عدا بعض كتب في اللغة المصرية القديمة ونسخة اغريقية من الكتاب المقدس تسبق كل ما بين ايدينا من هذا الكتاب بمئتي سنة

ولقد افادنا البردي من الناحية الادبية فائدة عظمى ، فهو قد كشف لنا عن بعض ما كتب عظماء الفلاسفة والكتّاب والشعراء مثل : ارسطو وهيبريدس وهيرودس ومياندر وتيموثيس ، وقطع لسافو وبندار ومأساة سوفكليس ، ثم هو قد نشر على اعيننا كل ما نعرف الآن عن الادب والعلم عند قدماء المصريين ، والقى بين ايدينا بعض المخطوطات القبطية التي اوضحت لنا عن الفكرة الدينية الصحيحة ...

وجاءت الوثائق غير الادبية تهدينا الى المنهل العذب الصافي الذي نغترف منهُ كل ما تصبو اليه النفس من الحقائق عن تاريخ حكم البطالسة والرومان والبيزنطيين والعرب في مصر ، ثم الحياة الاجتماعية والاقتصادية في مصر في مدى الف سنة

***

والباحث في القانون يجد مئات من الوثائق تجمع في ثناياها المواد القانونية والمحاكمات الهامة من عهد المصريين القدماء حتى العهد البيزنطي ، واخرى تشمل خطابات خاصة تنم على الحياة في عصور المدنية السحيقة

افليس في كل هذا ما يبعث على ان تجتمع المؤتمرات وان تشاد المعاهد العلمية لدراسة ماجاء في اضعاف ورق البردي من ادب وتاريخ وعلم ؟

الدهن وانواعه

بحث لغوي تعليلي

للاب انستاس ماري الكرملي

احد اعضاء مجمع اللغة العربية الملكي

١ — تصدير

في معاجم لغتنا للبيئة ، شائبة شوّهت جبينها الناصع ، وكادت تنسي ما في سائر جسمها وقوامها من المحاسن والبدائع وهذه الشائبة هي انك تجد احيانا في تلك الدواوين — على اختلاف مؤلفيها وعصورهم — مثل هذه الكلمة (معروف) عوض التعريف . وان لم تذكر هذه الكلمة بنصها الواضح الصريح ، فانهُ يلمح اليها تلميحاً ، يبعث في صدرك السأم واليأس ، بحيث تستشيط غضباً على من وضع السِفر الذي بيدك وترميه بعيداً عنك

انك لا تستطيع مثلاً ان تعرف معنى (السرير) معرفة صادقة تامة ، مهما بحثت ونقَّرت وصرفت الساعات الطوال للاهتداء الى حقيقته او صورته . وكذا قل على (اللحم) و (الكُحل) و (الكاهن) و (التنحنح) و (النحنحة) الى غيرها . بل هذه كلمة (القُنْسطِيط) التي ذكرها اللغويون بقولهم : (شجرة معروفة) هي اجهل المجهولات . أوَ اهتديت الى حقيقتها ؟ — كلاَّ ولعل سبب ذلك غرابتها ، فانها تنفّر أذنك من سماعها حال بلوغها اليها بل تهرب من الأخذ في تطلب معناها ، اذ قد اجتمع فيها شيئان : غرابة تركيبها ووزنها . وكذا قُل عن عشرات الكلم التي كانت (معروفة) في عهد المصنفين ، لكنها اليوم لا تكاد (تعرف) أو تعرف بعض المعرفة ، فتندفع الكُتَّاب الى الجدل والمناقشة على غير طائل ، ولو عرف معناها حق المعرفة في اول تدوينها في المعاجم لما وقع عليها النقاش والنقار والنفار

ومثل هذه الشائبة لا تُصيبها في مصنفات اهل الغرب على اختلاف ألسنتهم واقوامهم وديارهم ومن جملة الحروف (المعروفة) : الدهن الذي ارصدنا له هذا المقال . فما هو ؟

٢ — الدهن وتعريفه على ما في كتبنا اللغوية

الدهن ، وما ادراك ما الدهن — قال المجد : « دَهَنَ : نَاقَقَ . ورأسَهُ وغيرهُ دَهْنَاً ودهنةً : بلّهُ [1] والاسم الدُهْن ، بالضمّ » اه . ولم يوضح في ما بقي من المادة ما يزيد هذا الكلام وضوحاً وتبياناً

وفي لسان العرب : « الدُهْن (معروف) ، دهن رأْسهُ وغيرهُ ، يدهنهُ دهناً : بلّهُ . والاسم الدُهن والجمع ادهان ودهان . . . » الى آخر ما قال وليس فيه جلاء في تحقيق المعنى

وقال في أساس البلاغة : « دهن رأْسهُ ودهّنهُ وادّهن وتدهّن ، وكأنها مداهن الفضة ، جمع مدهن وهو الذي يجعل فيه الدهن » اه . ولا تزد على هذا القدر من الابهام والكلام الغامض .

واما في مختار الصحاح والصحاح ، فالكلام فيهما على مثل هذا الغموض . فقد جاء فيهما : « الدهن (معروف) » — واذا نقلنا هنا كل ما ورد في معاجم الاقدمين ، فلا نزداد علماً ولا تحقيقاً ولا دراية الشيء ، بل رسوخاً في الابهام والابهام وغامض الكلام

واما في المعاجم الحديثة مثل محيط المحيط وما نقل عنهُ او صُنّف بعده ، فالاشارة الى معنى الدهن أبين لكنّ ركاكة العبارة ظاهرة . قال المعلم بطرس البستاني في دهن من محيط المحيط « الدِهْن (وهي مضبوطة بالكسر) . . . من الحيوان : اللحم الابيض كلحم أَلية الضأْن ونحوه الواحدة دِهْنة . مولّدة . والدُهْن (وضبطها بالضم) الاسم من دهن الشيء : اذا بلّهُ ودهن السمسم وغيره : زيتهُ . ج : ادهان ودهان . ودهن الحل : السيرج » . اه

واول شيء يلاحظهُ القارىء انهُ قال : اللحم الابيض ، وهو تعبير فاسد لان من يقول : (لحماً) لا يتصور الاّ شيئاً او مادة رخصة حمراء تكون مملوءة دماً ومن اعضاء الحيوان . فقوله : (اللحم الابيض) كقول من يقول : (الاحمر الابيض) وقولهُ (الواحدة دهنة) ، تعبير اركّ من الاول . لانهُ يقال : الواحدة كذا لما هو من شبه الجمع كقولك : بَقَر وتمر ونَمْر فتقول : (الواحدة بقرة وتمرة ونَمِرة . واما ما ليس من شبه الجمع فيقال فيه :(الطائفة منهُ او القطعة

---

(١) لم يفهم كثيرون من اصحاب المعاجم الحديثة معنى « بل رأسه » فخيل اليهم ان المراد بالبلل هنا ايصال شيء من الماء اليه ، وليس هذا هو المطلوب ، انما معنى « بله » : رطبه ورطله وطراه ، اي وضع عليه من الطيب او الطلاء او المادة المرطبة ما يمنع شعثه . ورطل الشعر مأخوذ من رطبه قلبت الباء لاماً لاحداث معنىً جديداً يخرجه من معناه المألوف العام الى هذا المعنى المحصور به ، الخاص به دون اصله.

وقلب الباء لاماً في مثل هذا المقام اكثر من ان يحصى فقد قالوا معزاب ومعزال ، للذي قد عزب بابله — والعندليب والعنديل للهزار المشهور بضروب ألحانه وأغانيه وبشق المسافر ولشق اي تأخر وعجز عن السفر — وعراقيب الامور وعراقيلها اي عظامها وصعابها ، الى غيرها وهي جمة لا تحصر.

منهُ كذا) كما لا يخفى على من له اطلاع على اللغة ، ومصطلحاتها

ثم إن هذا « الابيض » الى آخر ما قال فيه ، كان في غنى عنهُ لو قال « الشحم » أو الدهن والظاهر أنهُ « لم يعلم أن الدهن » بالدال المهملة المكسورة هي تصحيف الذهن ، بالذال المعجمة المكسورة ، وكان عليه أن ينبه على ذلك لينتبه الغافل ويعلم المولد ان التصحيف بين الكلمتين هو من قبيل لغة من لغات بعض العرب الاقدمين والمحدثين

وصاحب البستان أخذ كلام محيط المحيط وحذف منهُ العبارة الاولى المتعلقة بالدِهن (المكسورة الأول) وقال في الدهن ، المضموم الاول : « الدُهن ، بالضم ، الاسم من دهن الشيء : إذا بلَّهُ دهن الحل (كذا بالحاء المعجمة وهو خطأ طبع بلا أدنى ريب ، وما كان ينبغي ان يقع مثل هذا الخطأ في معجم لغة من شأنه ان يرشد الباحث فيه الى الصواب) ، الشيرج دهن السمسم زيته ج دهان وادهان » اه

فقول البستانيين : « دهن الحلّ : الشيرج » خطأ ، لأن الحلّ هو الشيرج نفسهُ ، فكيف يجوز أن يقال : دهن الحلّ الشيرج . فكأنك تقول : « دهن الشيرج : الشيرج » وهو كلام لا معنى فيه ولا فائدة

وللعرب كلمة تقال على كل دهن وهي (الاهالة) وتصدق على كل ضرب من ضروب الدهن . قال في اللسان في (اهل) : « الاهالة ما أذيب من الشحم . وقيل : الاهالة : الشحم والزيت . وقيل . كل دهن أؤتدم به إهالة . والاهالة : الوَدك . وفي الحديث : «انهُ كان يُدعَى الى خبز الشعير والاهالة السنخة فيجيب » . قال : كل شيء من الادهان مما يؤتدم به إهالة ،وقيل، هو ما أذيب من الالية والشحم . وقيل : الدسم الجامد . والسنخة : المتغيرة الريح ، وفي حديث كعب في صفة النار : (يجاء بجهنم يوم القيامة كأنها مَتن اهالة) اي ظهرها . قال : وكل ما اؤتدم به من زُبد وودكٍ شحم ودهن سمسم وغيره فهو اهالة . وكذلك ما علا القدر من ودكِ اللحم السمين : (إهالة) . وقيل : الالية المُذابة والشحم المُذاب : (اهالة) ايضاً . ومَتْن الاهالة : اذا سكبت في الاناء . فشبه كعب سكون جهنم قبل ان يصير الكفار فيها

٣ — الدهن وتعريفه على ما يحصل من كتب القوم

رأيت ان الدهن في كتب اللغة اسم مصدر لدَهَنَ الشيء : إذا بلَّهُ . فكل ما يبلّ شيئاً يسمى دهناً ، اي كل سائل ذي إهالة يسمى دهناً . هذا من باب التعميم، واما من باب التخصيص وعلى ما يتحصل من كتب الادب والعلم ، بل من اسفار اللغة نفسها فان (الدهن كل مادة دسمة) . ولما كان الدسم يوجد في الحيوان والنبات والجماد ، كان تعريف الدهن :(كل جوهر ومادة دسمة من حيوان ونبات وجماد) . ونحن نؤيد هذا القول بالنقل عن الائمة :

٤ — الدهن النباتي

الدهن النباتي ما يستخرج من عصر بعض الانبتة التي فيها زيت كالبان والزيتون والزنبق والخردل والسمسم والجوز واللوز والجلّوز والمشملوز وهي كثيرة جمة العدد

واحسن دليل على وجود الدُّهن في النبات ما جاء في سورة المؤمنين : « وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدُّهن وصبغ للآكلين » . فليس شيء اوضح من هذا الكلام على وجود الدّهن في الزيتون . ولا جدل في هذه المسألة

وسمى العرب دهن البان : (المضنون) على ما صرح به صاحب المحكم وغيرهُ وسموا دهن الزنبق ودهن الخردل (السعيط) . والمطيّب المطبوخ بالرياحين (الدهن المُقتَّت) . وسموا الدهن الذي يتخذ من الزيت بافاويه (الخطّار) . ولاحظ حسناً هذه الكلمة (الدهن الذي يتخذ من الزيت) ، مما يدل دلالة صريحة جليّة على ان هناك فرقاً بيّناً بين (الزيت والدهن) فالواحد غير الآخر من باب التخصيص ، بخلاف ما ذهب اليهِ بعضهم ودونك عبارة القاموس ، ليطمئن قلبك الى ما نورده عليك . قال المجد الفيروزابادي : « والخطّار ، ككتان : دهن يتخذ من الزيت بأفاويه الطيّب » . وفي اللسان : « الخطّار : دهن من الزيت ذو أفاويه »

وكذلك ميزوا بين الاثنين في كلامهم على «المقتّت من الزيت» . قال المجد : «زيت مقتّت: طبخ فيهِ الرياحين او خُلِط بأدهان طيبة» . فهذان نصّان يبيّنان على ان «الزيت غير الدهن» وان الدهن مادة دسمة تدخل في بعض الزيوت ، فالواحد غير الآخر

وذكر صاحب اللسان في مادة (ن ش ش) ما هذا نصّابُهُ : «روى الازهري عن الشافعي ، قال : الادهان : دُهنانِ : دهن طيب مثل البان المنشوش بالطيب ، ودهن ليس بالطيّب ، مثل سليخة البان غير منشوش . ومثل الشيرق . قال الازهري : المنشوش : المربّب بالطيب ، اذا رُبّب بالطيب فهو منشوش . والسليخة : ما اعتُصر من ثمر البان ولم يربّب بالطيب » اه

وهناك غير هذه الادلة المقتبسة من كلام ائمة اللغويين فاجتزأنا بهذا الوشل ، لان ما زاد على هذه الشواهد ، او على هذا القدْر ، لا يزيدنا فائدة او علماً على ما ذكرناه

٥ — الدهن الحيواني

وجود الدهن في الحيوان امر لا ينكر . قال ابن البيطار في ترجمة (القاوند) : « ابو العباس الحافظ : هو دهن معروف لونهُ مثل لون السمن ، وقوامهُ في الجمود كذلك . وهو معروف بالحجاز ، يؤتى بهِ من اليمن ومن بلاد الحبشة . ورأيتهم من الهند » الى آخر ما قال وهو لا يريد زيت الزيتون ولا غيره . اما الدميري فيقول : «القاوندطار يتخذ وكره على ساحل البحر ...

وهذا الطائر المتخذ منهُ «شحم» القاوند المعروف ، وهو يقيم المقعد ... » الى آخر ما قال .
فما سمّاه ابو العباس الحافظ «دهناً» سمّاه الدميري «شحماً» لأنهما شيء واحد

وهذا أبين دليل على ان « الشحم والدهن » من جنس واحدٍ . فهو « شحم » اذا كان جامداً . وهو «دهن» اذا ماع او لم يمع

وأهل بغداد يسمون «السمن» : « دهناً » . ومنهم من يقول : «دُهناً حرًّا» لتمييزه عن سواه من شحم وزيت الى غيرهما . ويقولون : «هذا اللحم دهين» ، اذا كان كثير الودك والشحم . فقول الاطباء والكتبة : « المواد الدهنية » اصح من قولهم : « المواد الشحمية » لشهرة اللفظة عند جميع الناطقين بالضاد ، من جميع ديار الناطقين بها ، من مصريين وسوريين وعراقيين الى غيرهم ، ولان صحة الدهن لا غبار عليها ، اذ تمني الشحم والزيت وكل مادة دسمة ، واذ في الالية دهن وشحم ، وفي الانسان دهن وشحم ، وفي الامعاء دهن وشحم . هذا فضلاً عن ان الشحم كلمة مبتذلة صارت اليوم من لغة القصّابين واللحّامين والشحّامين

ومن تعبير اللغويين للدلالة على ان الدهن يكون في الانسان ، شرحهم للكلمة (النِفارة) فقد قالوا فيها : خرقة (تكون دون المقنعة) توقي بها المرأة خمارها من الدهن (ق) . وقالوا مثل ذلك في (الصقاع) والصوقعة (ق) . وليس المراد هنا الدهن الذي تستعمله النساء للتطيب ، بل الدهن الذي يفرزه او يقذفه الرأس ، اذ لو كان من دهن التطيب ، لما عمم اللغويون الكلام واطلقوه على كل امرأة تستعمل الخمار ، وانما خصوا بهِ النساء لان الرجال اقل استعمالاً لما يلبس على الرأس من النساء ، ولانهُ يلازمهنّ ليل نهار ، والاَّ فرؤوس الرجال تقذف الدهن كما تفيض بهِ رؤوس النساء

٦ — الدهن المعدني

سيأتي في العودة الى الكلام على (الاهالة) أنها استعملت للزيت المعدني على ما ذكره استرابون، وهو من اعظم العلماء الاثبات واقدمهم ، فهو ثقة دونهُ كل ثقة، لكنهُ من الاعاجم ونحن في حاجةٍ الى حجة في لغتنا العربية ، ولما كان للدهن مترادفات عدة ، اخترنا من جملتها واحداً من عشراتهِ وهو (المُهْل) او (المُهْلة)

قال في لسان العرب : « المُهْل ، اسم يجمع معدنيات الجواهر . والمهل ما ذاب من صُفر او حديد . وهكذا فسر في التنزيل . والله اعلم . والمهل والمهلة : ضرب من القطران ماهيٌّ ، رقيق يشبه الزيت ، وهو يضرب الى الصفرة من مهاوتهِ ، وهو دسم تدهن بهِ الابل في الشتاء . قال : والقطران الخاثرُ لا يهنأ بهِ وقيل : هو دردي الزيت . وقيل : هو العكر المُغلى .

وقيل : هو رقيق الزيت . وقيل : هو عامتهُ . وانشد ابن بري للافوه الاودي :

وكأنما اسلاتهم مهنوءة بالمُهل من ندب الكلوم اذا جرى

شبه الدم حين ييبس بدرديّ الزيت . وقوله عزّ وجل : « يغاثوا بماء كالمهل » يقال : هو النحاس المذاب . وقال ابو عمرو : المهل دردي الزيت . قال : والمهل ايضاً القيح والصديد . ومهلتُ البعير : اذا طليتهُ بالخضخاض فهو ممهول . . . وقالت العامرية : المهل عندنا السمّ . . . » إلى آخر ما جاء هناك ، فراجعهُ ان شئت التطويل في التفصيل

فقد رأيت انهُ فسّر المهل والمهلة بالخضخاض ثم اطلق عليهِ اسم الزيت ايضاً . والخضخاض على ما قال صاحب اللسان ، نقلاً عن ابي منصور الازهري : « ضرب من النفط أسود رقيق لا خثورة فيهِ وليس بالقطران . . . (وهو) دسم رقيق ينبع من عين تحت الارض . . . » اه

وقال ابن مكرم في (نفط) : « النِفط والنَفط . دهن . والكسر افصح . وقال ابن سيده : والنفط والنفط: الذي تطلى بهِ الابل للجرب والدَبَر والقردان وهو دون الكحيل . . والنِفط والنَفط حلابة جبل في قعر بئر توقد بهِ النار . والكسر افصح » اه

فلو لم يكن في ايدينا الاّ هذا الشاهد المذكور في اللسان ، لكفانا دليلاً على ان (الدهن) قد يكون لسائلٍ معدني ولم يكن ابداً محصوراً عند العرب بما يحصل من عصر بعض الانبتة الحاوية زيتاً .

٧ — أصل الاهالة

من غريب تركيب أحرف هذه الكلمة ، انها لا تتصل بما بوجه معناها الى الدهن او الشحم او الزيت او اشباه هذه المعاني ، لكننا نراها مضارعة لليونانية Élaia جمع Élaion ومعناها في اول وضعها « زيت الزيتون » ثم اطلقوها على جميع الدهان التي ذكرها لغويو العرب بحذافيرها . لا بل ذكر استرابون الاقاميّ من علماء وُصّاف البلدان المقدّمين (وكان في سنة ٦٦ قبل المسيح الى ٢٤ بعد الميلاد في كتابهِ الذي نشره ج . كرامر في سنة ١٨٤١ الى سنة ١٨٥٢ في الفصل الحادي عشر والقطعة الخامسة) : ان الاهالة يراد بها الزيت المعدني ايضاً وكان بعض الفقراء يطيّبونهُ ويتخذونهُ اهالةً أو اداماً لهم . فصحت الاهالة على ان تطلق على كل زيتٍ من معدني ونباتي وحيواني

واللغة العربية لا تأبى هذا الاطلاق ولا تنبذه ولا تعافهُ ، اذ يشترط في (الاهالة) ان تكون « مادة دسمة وان يؤتدم بها »

وتعريب « الاية » اليونانية بصورة « اهالة » غير بعيدٍ ؛ لانهُ كان لبعضهم لغة يجعلون

فيا اللام هاء . فكانوا يقولون شاكهة في شاكلة (راجع المزهر طبعة بولاق الاولى ١ : ٢٢٨) وقالوا المقات كالقات وزان سحاب وهو الاحمق ، الى غيرها من نظائرها . وأما ابدال اللام بالباء فكانت لغة عند العرب ذكرها المزهر ايضاً (في ١ : ٢٧٠) والجاحظ في كتابهِ البيان والتبيين (الطبعة الاولى ١ : ١٧)

والذي يدفعنا الى هذا القول أن ليس للاهالة ما يقابلها في التركيب في سائر اللغات السامية وللكلمة « الاية » لنتان أخريان هما : (إلايهَة وإلاهيَة) فمجانستهما للعربية اوضح وأقوى

٨ — أصل المهل والمهلة

المُهْل تشبه قلب أُلِيُمْ Oleum اللاتينية (٢) لأنَّها تصير حينئذٍ Moleu ولا عبارة بآخر حرف أو إنهُ حول هاء . وهو غير بعيد فقد سبق للسلف ان قلبوا Litra فقالوا فيها رِطْل Ritla وقالوا في Mensis نماص أي الشهر Nemis وفي Virgo بِكْر اي بتول Vigro الى نظائرها مما ورد مقلوباً ومنقولاً عن اللاتينية أو اليونانية

زد على ذلك ان جميع معاني اللفظة الرومية Oleum تراها واحداً فواحداً في العربية وبالعكس . ولهذا لا ترى لها مقابلاً من هذه المادة في سائر اللغات السامية . هذا رأينا ولعلنا مخطئون في جميع هذه الاحرف

٩ — أصل الدهن

هذه الكلمة تنظر الى Dēmos اليونانية ومعناها الدهن ، اي كل مادة دسمة والشحم ايضاً على حدّ ما في لغتنا الضادية . والحرف H اليوناني يقابل الهاء العربية . وقد صوَّرناهُ هنا هكذا E

(٢) ومما نشأ من الكلمة Oleum الرومية ، كلة عربية أخرى هي (الحل) بمعنى زيت السمسم ، او (الشيرج) وهذه الثانية من الفارسية « شيره » اي عصير او عصارة : —

والحرف O الرومي — بل اليوناني ايضاً — كثيراً ما يرد بازاء حرف حلق في اللغات السامية ولا سيما في العربية . فاللاتينية Odor تقابل « عطر » — و Offa : عفة و Olla : حلة . وقد جهل بعضهم هذا الاصل المعرب . فقد جاء في تاج العروس ما هذا اصله : « الحلة في اصطلاح اهل بغداد كهيئة الزنبيل الكبير من القصب يجعل فيه الطعام . قاله الصاغاني . قلت (اي السيد مرتضى) : وفي اصطلاح مصر يطلق على قدر النحاس لانه يحل فيها الطعام » اه كلامه . قلنا : والحلة معروفة بهذا المعنى الى يومنا هذا في العراق. الا انها تستعمل لوضع الحمام فيها (الطير المعروف) لا الطعام . ولعل اصل قول الصاغاني كان (الحمام) لا (الطعام). والكلمة رومية بلا شك ولا ريب . ومعناها القدر او المرجل . هذا هو الاصل ثم أطلق على ما يشبه من نسيج القصب والخوص او نحوهما ، من باب التوسع في المعنى والخروج من سلاسل التقييد

ولما كانت الدال اليونانية تنقل مرةً دالاً مهملة واخرى ذالاً معجمة ، جاءت في العربية الدُهْن (بالضم) والدِهْن (بالكسر) وبين الضم والكسر تعاقب غير مجهول . والظاهر ان اليوناني هنا هو العبرة (اي الاصل الاول الذي تردّ اليه النظائر) دون غيره . والدليل على هذا ، اننا نجد في العربية (المدموم) بمعنى المتناهي السمن الممتلىء بالشحم ، وفي المادة العربية (دمم) عَوْد الى المعدن اليونانيّ من غير ادنى تبديل او تغيير او تعديل

قال في اللسان في (دمم) : « المدموم . الممتلىء شحماً من البعير ونحوه . وقد دُمَّ بالشحم اي اوفر . . . والمدموم : المتناهي السِّمن ، الممتلىء شحماً كانهُ طلي بالشحم ... ويقال للشيء السمين : كانما دمّ بالشحم دمًّا ... ودم البعير دمًّا : اذا كثر شحمهُ ولحمهُ حتى لايجد اللامس مسَّ حجم عظم فيه » اه

١٠ — تأثير وخلاصة

ظهر لنا من بسط هذا الموضوع : ان (الدهن) يعني كل مادةٍ دسمة ، معدنية كانت ام نباتية ام حيوانية ، سائلة ام جامدة ، ويقابلها في الفرنسية Corps gras ou graisse التي توافق هذا التعميم وهي بالانكليزية Fat or grease . اما (الزيت) فهو كل سائل او مائع دسم اودهنيّ وهو Huile بالفرنسية وتشمل الزيت النباتي والمعدني والحيواني وهو ، في الانكليزية Oil . — واما (الاهالة) فتشمل الدهن والزيت وكل مادة دسمة يؤتدم بها ،

وهي بالفرنسية Toute matière grasse ou huileuse avec laquelle on mange le pain

وبالانكليزية All fatty or oily matter eaten with bread

ومن الغريب ان ليس كلمة واحدة في لغة من لغات العالم تؤدي معنى (الاهالة) الذي وضعهُ لها ابناء عدنان ، بل يضطر اصحاب تلك اللسان الى اتخاذ عبارة للدلالة عليه كما مرّ بك . واللغة اليونانية مع غناها ، واللاتينية مع شيوعها وذيوعها بين طبقات العلماء من جميع العباد والبلاد ، لم ترصدا كلمة واحدة المؤدى الذي اشرنا اليه . فأكرم بلغة تتحدى ألسنة الدنيا كلها بسعتها واداء افكار ابنائها ودقائق معانيها في جميع العصور وفي جميع الفنون والعلوم والصنائع

و (المُهل) او (المُهلة) تجمع كل سائل او مائع [1] على اختلاف انواعه وضروبه ، جامداً كان اصله ام غير جامد ، حتى أن المعادن الصلبة اذا مُيِّعَت ، يقال لمائعها (المهل)

(١) الفرق بين السائل والمائع ان المائع ماكان اصله جامداً ثم أذيب فجرى ، والسائل ماكان اصله جارياً . فالماء والزيت من السوائل والدهن والشحم والالية اذا اذيبت من المائعات . وقد يتوسع فيهما والاصوب ان يحافظ على وضع العرب الاصيل

شدة الاحساس

بأشياء ومواد معينة

والاستهداف بسببه لحالات مرضية منوعة

يعرف كاتب هذه السطور سيدة اميركية عالية الثقافة حصيفة الرأي شديدة العناية بشؤون معيشتها ومعيشة اهل بيتها ، تقطن ضاحية المعادي قرب القاهرة ، ولكنها مضطرة الى مغادرتها مع اغتباطها بكل ما حواليها لانها تصاب كل سنة ، عند ما تبسم الارض في الربيع ، وتخرج الازهار من اكمامها بمرض يعرف « بحمّى التبن او القش » ، فتلتهب جفونها وتدمع عيونها ويسيل انفها وتصاب احياناً بضيق التنفس . وليس لذلك سبب ظاهر . فاهلها يأكلون ما تأكل ويشربون ما تشرب ويتنفسون الهواء الذي تتنفس ولا يصابون بما تصاب . وسرّ هذا الامر ان هذه السيدة شديدة الاحساس بحبيبات اللقاح التي تتطاير من ازهار الحقل ، فتستهدف لهذه الاعراض

وقد عرف كذلك سيدة أخرى كانت اذا اكلت الكركند الشائك والسرطان النهري (Lobster) أو السرطان (Crab) تصاب بما يشبه التسمّم مدة اربع وعشرين ساعة ، وقد اكلتهما هنا وفي اوربا وفي لبنان وكانت تصاب دائماً بالاعراض نفسها

في سنة ١٨٣٩ كان العالم الفسيولوجي الفرنسي فرنسوى « ماجندي » Magendie يجرّب بعض التجارب بالكلاب فحقن كلباً بقدر صغير من زلال البيض فلم تبد على الكلب آثار تدل على انهُ اصيب بضرر من هذه الحقنة . ثم بعد فترة وجيزة حقن الكلب ثانية بالقدر نفسه من زلال البيض فمات فجأة فتحيّر « ماجندي » في ما رأى لانهُ كان يعلم ان زلال البيض ليس سمّاً ومع ذلك فَعَل فعل السم في الكلب فقضى عليهِ

بعد ذلك بربع قرنٍ ذهب حدَثٌ من الاحداث الى اجتماع في الريف ، وبعد ما تعشّى اكل قطعة من الحلوى التي قدمت للزوّار وكانت مصنوعة من الحنطة السوداء ، وما كاد يزدردها حتى احسّ ناراً تأجج في حلقهِ ومعدته . ثم احمرّت مقلتاهُ وتورّدت وجنتاهُ وظهرت على شفتيهِ اورامٌ حمر . فساورهُ خوف عظيم . وعزم ان يسير الى بيتهِ على قدميهِ . وبعدما سار مسافة ثلاثة اميالٍ في الثلج خفّت وطأة الاعراض التي احسّ بها وعندما وصل بيتهُ كان قد

ثبت في ذهنه ان الحلوى المصنوعة من الحنطة السوداء هي سبب اصابته. وبعد سنوات أكل هذا الفتى كعكة مصنوعة من الذرة فاصيب بالاعراض نفسها . فلما تحرّى المسألة ظهر ان الذرة كانت قد طحنت في مطحنة طحنت فيها الحنطة السوداء. فاتصلت حبيبات منها بدقيق الذرة

وانقضت سنوات ، وبلغ الفتى سن المراهقة . وحدث له ما حمله على الاعتقاد ، بأن دقيق الفلفل الاسود يسبب نفس الاعراض التي يسببها دقيق الحنطة السوداء ، اذا ذرّه على طعامه. ولكنهُ وجد انهُ اذا اشترى حبات الفلفل وسحنها في بيته وذرّها على طعامه ، لم يصب بها . فحمله ذلك على الظن بأن دقيق الفلفل الاسود الذي يباع في الاسواق مدخول فيه ، فجعل ينقب ويبحث حتى اتصل بمدير احدى الشركات التي تحضر دقيق الفلفل وتبيعهُ وعرف منهُ ان شركتهُ تبتاع قشور الحنطة السوداء وتسحنها وتخلطها بدقيق الفلفل

ولما بلغ الخامسة والاربعين من العمر ذهب الى مستشفى جامعة جونز هبكنز . وكان العلماء في خلال ذلك قد جمعوا حقائق كثيرة عن هذه الظاهرة الغريبة ، فحضروا نقوعاً من دقيق الحنطة السوداء ، وخدشوا ذراعه ووضعوا على الخدش قطيرات من النقوع ، فما انقضت عليه خمس عشر دقيقة ، حتى صاح « ان الحنطة السوداء قد شرعت تفعل فعلها » وجعل يشكو ضيقاً في الصدر وأخذ يسعل كما يفعل المربوُّ (المصاب بالربو Asthma) وظهرت على وجهه وجسمه وأطرافه بقع حمر ، لم يسعهُ الاّ ان يحكها حكّاً عنيفاً

ثم استرعت هذه الظاهرة انظار طبيبين من اطباء فينا هما كلمنس فون بيركه Pirquet وبيلا شيك Schick . ولا يخفى ان فون بيركه اصبح في ما بعد من اشهر الاطباء المتوفرين على امراض الاطفال في العالم . اما شيك فاستنبط الكاشف المنسوب اليه لامتحان الذين يشتبه في اصابتهم بالدفتيريا . كان هذان الطبيبان يعالجان اطفالاً مصابين بالحمى القرمزية بمصل جديد استنبط حديثاً لعلاج هذا المرض . وكان لا بدّ في هذا العلاج من استعمال مقادير كبيرة من المصل . فلاحظ ان بعض الاطفال اصيب فجأة بحمى وقشعريرة ونقط حمر على الجلد وألم في المفاصل بعد انقضاء نحو اسبوعين على الحقنة . فواليا البحث ووجدا ان الاطفال الذين لم يصابوا بهذه الاعراض بعد الحقنة الاولى ، كانوا يصابون بها حتماً بعد الحقنة الثانية . فأطلقا على هذه الحالة « مرض المصل » واسماء اخرى منها اللفظ Allergy وبه تعرف في رسائل الاطباء

ومن ضروب الربو ما يعرف « بربو الجياد » والذين يصابون به تبدو عليهم اعراض الربو عندما يكونون على مقربة من جواد او عند ما يتصل بهم شعر من شعره او غبار كان عالقاً به على نحو ما يصاب بعض الناس « بحمى التبن » عندما تنتثر حبيبات اللقاح النباتي في الهواء . فهؤلاء الناس من المعضلات التي يواجهها الاطباء عندما يمرضون ويقتضي المرض حقنهم بمصل ما ،

لان طائفة كبيرة من المصول تولد في دم الخيل . فاذا أصيب أحدهم بالدفتيريا وجب حقنهُ بالمصل المضاد لها ، وهذا المصل يولَّد في دم الخيل ، فيصاب المحقون بإعراض الربو . ثم إن ارتقاء وسائل النقل بقوة البخار الحركات الذاتية كقطارات السكك الحديدية والسيارات ، بعد المركبات التي تجرُّها الجياد ، قد أزال عاملاً من عوامل هذا الضرب من الربو ولكن تقدم الطب في استعمال المصول عرّض بعض الناس لهُ من جديد

ومن الناس من يتأثر تأثراً خاصًا بقربهِ من القمح أو الخنازير والكلاب والهررة والارانب والجرذان والدجاج والبط والاوز أو بأكلهِ قطعاً منها على نحو ما يتأثر بعضهم بالجياد . بل ان بعض الناس يتأثر بريش الدجاج فلا يكاد ينام على وسادة محشوَّة بهذا الريش حتى يصاب بنوبة من الازم الشديد

ويمكن ان يقال بوجه عام أن المواد التي تسبب هذه الاعراض هي انواع من الطعام ، وحبيبات اللقاح والغبار ، وشعر الحيوان وقشورهِ وجذور الاوربس (وهو نبات اسمهُ العلمي اريس فلورنتينا وارس جرمانيكا ويستعمل دقيق جذور الاول او نشاؤهُ في تعطير بعض مستحضرات الجمال بعطر بنفسجي) وبعض البكتيريا . ويذهب بعضهم الى أن البرد والحرّ قد يؤثران في الجسم فتنحل بعض المواد الزلالية في الجسم فتصبح من طبقة المواد « الاليرجية » . وتقسم المواد التي تحدث هذه الاصابات الى ثلاثة أقسام عامة منها ما يتصل بأنساج الجسم عن طريق الاكل واخرى باللمس وغيرها بالاستنشاق

وهذا يعود بنا الى المثل الذي ضربناه في مستهل هذا المقال . نعني «حمى التبن Hay Fever» . وهي نادرة في مصر . فقد وصف الطبيب الانكليزي جون بوستوك Bostock هذا المرض أولاً سنة ١٨١٩ وكان يصاب بهِ في الصيف فاطلق عليهِ اسم « زكمة الصيف » وانقضى القرن التاسع عشر والظن الراجح انهُ مرض نادر

وكان الطبيب وليم دنبار Dunbar اول من درسهُ دراسة علمية في اواخر القرن التاسع عشر وكان رأيه انهُ نتيجة من نتائج الحضارة الحديثة . قال ان العمال في الامم غير المتحضرة لا يصابون بهِ ، او تندر اصابتهم بهِ حال أن الامم البالغة شأواً عالياً من الحضارة تكثر فيها الاصابة بهِ . وبين ان الاصابات بهِ في اميركا الشمالية كثيرة . وقد كانت قبل نصف قرن نادرة فاصبحت الآن مألوفة ويبلغ عدد حوادثها نحو المليون كل سنة

الاَّ أن الطبيب الانكليزي تشارلز بلاكي بدأ تجاربهُ في منتصف القرن الماضي ، أي نحو اربعين سنه قبل مباحث دنبار ، فثبت لهُ أن حبيبات اللقاح النباتي تسبب هذا المرض ، وكان بلاكي نفسهُ معرضاً للاصابة بهِ ، فجمع حبيبات اللقاح ووضعها في عينيهِ وأنفهِ فاحدث فيهِ اعراض هذه الحمى . وكان العلاَّمة الالماني هلمهلتز معرضاً للاصابة بهِ كذلك ، فأخذ بعض مفرزات أنفهِ وهو مصاب أعراضهِ وفحصها فوجد فيها بكتيريا لا تكون فيها عندما يكون سليماً . وكذلك ظلت النظرية

البكتيرية في سبب هذا المرض سائدة سنين متعدّدة ، لان مقام هلمهلتز العلمي كان في الطبقة العليا الأَّ ان دنبار ، مع ذهابهِ في تفسير هذا المرض الى استادهِ الى الحضارة ، بدا لهُ ان في اقوال بلاكلي شيئاً من الصحة . فجعل يجمع حبيبات اللقاح النباتي ويجربها في الناس المرضين لحمى التبن . نثبتت لهُ الصلة بين الحبيبات والاعراض

واعمُّ انواع هذه الحمى ينشأ عن لقاح نباتين احدهما يعرف باسم العود الذهبي (وهذا ترجمة الاسم الانكليزي Golden-Rod كما جاء في معجم شرف وهو خروسوغون او دَسْغس : يونانية في معجم اسماء النبات لعيسى) وكلاهما ينثر حبيبات لقاحهِ في الصيف . وقد أثبت البحث ان حبيبات اللقاح في النبات الثاني (Ragweed او عشب الحرقة : شرف) يمكن ان تنثر الى مسافات خمسة عشر ميلاً وان نبتة واحدة منها تستطيع ان تقذف ملايين من الحبيبات في اليوم

وهناك نوع آخر من هذه الاصابات يعرف بالخُناق او الخُناق وهو شبه الجدري يتنفط بهِ البدن ويعرف عادة باسم «الشري» . واعراضهُ ظهور بقع وارمة حول العينين وفي الشفتين واليدين والبدن . ولو اقتصر عليها لهان الامر ولكنهُ قد يحدث في الحلق والحنجرة فيفضي الى الموت اختناقاً

وبعد فما هو تفسير هذه الاصابات ؟ ليس ثمة رأي واحد يعلل جميع ظاهراتها . ولكن منها رأي فوغان (Vaughan) فهو يقول ان الخلايا في الحيوان السوي تتخصص . فاذا دخل الطعام الجهاز الهضمي ووصل الى الامعاء افرزت خلايا الامعاء مفرزات خاصة تخمّر الطعام وتحلّهُ . فاذا حقن احدهم تحت الجلد بمصل مستمدّ من دم جواد ، عمدت الخلايا المختصة الى افراز خمائر تحل مادة المصل . فاذا افرزت مقادير كبيرة من هذه الخمائر بعد الحقنة الاولى كان الجسم مستعداً لحل هذه المادة عند ما يحقن بها ثانية ، فتتولد مواد سامة تحدث اعراض هذه الاصابات . ويقول بعضهم ان مادة الهيستامين Histamine — وهي مادة أثبت الطبيب الانكليزي ديل H. H. Dale تكثر في معظم انساج الجسم — هي التي تسبب هذه الاعراض . والهيستامين نفسه اذا حقن في مقادير يسيرة سبب الاورام وهبوطاً في ضغط الدم وبعض اعراض الصدمة التي تمتاز بها الامراض « الاليرجية » . ومن بواعث القلق — لولا حكمة الخلق — ان يعرف الانسان ان في انساجهِ من هذه المادة ما يكفي لقتل عشرات من الناس

ويقال كذلك ان المواد « الاليرجية » اذا دخلت مقادير كبيرة منها الجسم اوعجزت الانساج عن حل ما يدخل الجسم بالسرعة اللازمة سببت اعراض الاصابات التي تقدّم ذكرها . ويعزى عجز الانساج عن حلّها بسرعة الى نقص في بعض مفرزات الغدد الصم . فبعضهم يذهب الى ان النقص هو فقط في مفرزات الكظرين . وآخرون الى انهُ نقص في مفرزات الحلوة . وثمة تقارير طبية مختلفة وصف فيها استعمال خلاصات الدرقية او الكظرين او المبيضين في علاج هذه الحالات

حيوانات مشهورة

وصحة اسمائها

للدكتور امين المعلوف

أوردت في مقتطف ماضٍ شيئاً عن الحشرات واني مورد في ما يلي غيرها مما عثرت عليهِ في مؤلفات القوم منها الكلمات الآتية وهذه الحشرات مما لم أذكرهُ قبلاً

لَيثُ عِفرين Ant lion Myrmeleon

بقرة بني اسرائيل . أم قيس . أم عويف . ابو عويف . دويبة من عصبية الاجنحة يأكل دعموصها النمل فانهُ يحفر لنفسهِ حفرة في شكل مخروط قمته الى الاسفل وقاعدته الى الأعلى ويندس فيها فاذا مرَّت نملة فوق الحفرة تدهورت الى أسفلها فيقبض عليها بمخلبيهِ ويغوص بها في التراب ويفترسها . وهو يسمى ليث عفرين وبقرة بني اسرائيل وأبا عويف متى كان دعموصاً فاذا نبتت أجنحتهُ وطار سمي أم قيس وأم عويف . والصبيان في مصر يسمون دعموصهُ غزالة ولا أذكر ما كنا نسميهِ في بيروت

وهاك ما جاء عن هذه الدويبات في المخصص من معاني ليث عفرين ٨ : ١٠٣ . ليث عفرين مثل الفسيفسة لونهُ لون التراب يندس في التراب وفيهِ ٨ : ١١٦ « ابو عويف دويبة غبراء تحفر بذنبها وقرنها لا تظهر ابداً » وهذه الدويبة غبراء تحفر بذنبها وقرنها لا تظهر ابداً كما يقول كل من يعرفها ولا يخفى ان عويف تصغير عوف وهو الاسد . وفي حياة الحيوان « بقرة بني اسرائيل هي التي يقال لها أم قيس وأم عويف وهي دابة صغيرة لها قرنان تكون في الرمل فاذا أردت ان تخرجها فاطرح في موضعها قملة فتخرج » وهو أحسن وصف لها وقد كنا نعبث بها في بيروت ونستعيض عن القملة بنملة فان امهاتنا لم تترك لنا قملاً لابحاثنا البيولوجية فلت ولم يذكر احد من اصحاب المعاجم هذه الدويبة على صحتها

أرقة . واحدة الأرق الآتي ذكره Aphid. A plant louse

أرق Aphidae. Plant lice

فصيلة من الحشرات تصيب الزرع فتحدث فيهِ الآفة المعروفة بالأرقان

أَرَقة Aphis. Pl. Aphides

جنس من الارق يحدث الآفة المعروفة في السودان بالعسل وفي مصر بالندوة العسلية وفصيحه الارقان

أَرَقة القطن . وهي تحدث فيه أَرَقان القطن اي الندوة العسلية A. gossypii

أَرقة التفاح A. mali

أَرقة الذرة A. sorghi

الارْق والارْقان والارَقان واليرَقان وفيه لغات غير هذه آفة تصيب الزرع والناس يتغير منها اللون . اما في الناس فالمشهور منها اليرَقان وهو داء معروف عند الاطباء وعند العامة بهذا الاسم . وأما الآفة التي تصيب الزرع فتسمَّى في السودان بالعسَل وفي مصر بالندوة العسلية وفي الشام بالمن وسببها حشرات صغيرة تعرف عند العامة بالمن. ولما كانت الارْق والارقان واليرقان ومرادفاتها فصيحة بهذا المعنى فقد اخترت اللفظة الاولى اي الارق لهذه الحشرات وجعلت واحدها ارقة قياساً وتركت سائر المرادفات لآفة الزرع خلا اليرقان فهو مشهور بمعنى الداء المعروف الذي يصيب الناس . أما تسمية العامة لهذه الحشرات بالمن فهو لانها تحدث هذه الآفة الحلوة الطعم فسمتها العامة منًّا . والمن مادة أُخرى تكون على شجر البلوط والطرفاء والعاقول وهي غير هذه وسببها حشرات اخرى غير الارق See Coccidae

هذه الفاظ وضعتها لما يعرف عند العامة بالمن ولا اظنني مخطئاً فالمن عامية بهذا المعنى

شبكية الجناح (الدكتور صروف) اسد الارْق او المن Aphis Lion. Lacewing fly

ككسيدة . حشرات المغافير Coccidae. Scale insects or Mealy bugs

فصيلة من الحشرات تحدث المغافير في الشجر كالمن الذي يؤكل . ومنها حشرة القرمز المعروفة بدودة القرمز . المِغفَر والمُغثور شيء ينضحهُ الثمام والعُشَر والرمث مثل الصمغ وهو حلو كالعسل يؤكل وربما سال لثاهُ على الثرى مثل الدبس وله ريح كريهة ج مغافير . ومثله المِغفَر والمُغفُر والمُغفور . ولا شبهة ان المغافير هي هذه اي التي تنضح المن

دُعْسُوقة Coccinella punctata. Ladybird

خنفسة صغيرة مرقطة تعرف في مصر بام العيد

فصيلة الدعاسيق . بنات العيد Coccinellidae

فصيلة من الخنافس صغار مرقطات بالوان مختلفة

قلت وقد ذكرت المعاجم هذه الحشرة باسم ابي العيد ولم تذكر الدعسوقة وقد اخذتها عن التاج قال : الدعسوقة بالضم دويبة والدعشوقة بالشين المعجمة دويبة ويقال للصبية والمرأة القصيرة يا دعشوقة تشبيهاً لها بتلك الدويبة او هي شبه الخنفساء وفي حياة الحيوان الدعسوقة بفتح الدال دويبة كالخنفساء وربما قيل للصبية والمرأة القصيرة تشبيهاً بها قاله في المحكم وفي مختصر العين

للزبيدي ايضاً الاَّ أنهُ ضبطهُ بالقلم بفتح الدال في نسخة صحيحة . قلت وقولهم يا دعسوقة مثل قولنا في بيروت يا ابو بليقة والابو بليق طائر سمين يؤكل كله دفعة واحدة بلا تنظيف

نَغَفة . دودة تنقف عن ذباب يتطفل على الحيوان والانسان جمعها نغف Bot, Bott.

نِبر Botfly. Any of the Oestridae

ذباب يتطفل على الغنم والابل والبقر والخيل فيتولد منهُ النَغَف . والنبر لا يَلْسع وانما يبيض تحت الجلد ويخرج منهُ نغف أما في الجلد او في مجاري الانف او في المعدة ولما كان النغف لا يلسع قالوا عنهُ دويبة اذا دبت على البعير تورم جلده وانتفخ وربما يكون ذلك سبب هلاكه

نبر الغنم يتطفل على الغنم فيتولد النغف في انوفها Botfly.of the sheep. Oestris ovis

نبر Botfly of the camel. Cephalomyia maculata

يتولد نغفه تحت جلد البعير فيتورم

نبر الخيل يتولد نغفه في معدة الفرس Botfly of the horse. Gastrophilus equi

نبر البقر Botfly of the ox. Hypoderma bovi and H. lineata

يبيض تحت جلد البقر فيتورم جلدها

نَغَف Bots, Botts.

دود في انوف الابل والغنم أو تحت جلد البقر والابل أو في معدة الخيل واحدتهُ نَغَفَة

نُعَرة Gadfly. Syn- Horsefly or Breeze fly. Any of the Tabanidae

ذباب من فصيلة النُعَر وهو ذباب كبير لهُ خرطوم طويل يلسع بهِ الدواب ويؤلمها الماً شديداً . ونَعِر الحمار دخل النُعَرة في انفهِ فاضطرب فهو نَعِر والعامة في الشام تقول نَوعَر وتستعمل النَعْر للطعن الحاد كما ينعر النُعَرة . واسم النُعَرة في السودان السَرُوت وهي كثيرة في اعالي النيل . ولا يلسع الذكر من النعرة بل الانثى وقد يطلق الانكليز هذه اللفظة على ذباب آخر هو النِبر بالعربية وقد تقدم ذكره

سَرُوت في السودان Tabanus dorsivitta

(See Botfly, Oestridae, Tabanidae)

فصيلة النُعَر الواحدة نعَرة Tabanidae. Gadflies

ذباب كبير طويل الخرطوم يلسع لسعاً مؤلماً ويمتص دم الملسوع والانثى هي التي تلسع أما الذكر فيقتات بالازهار . وقد تقدم الكلام على النعر وهو انواع كثيرة

نُعَرة Tabanus. Gadfly

ولا يخفى ان الحشرات كثيرة تعدُّ بالأُلوف في بعض الفصائل نحو عشرة آلاف نوع وقد ذكرت بعضها فقط

الحب الصوفي

٣ — الشك

كنتُ مؤمناً من قبل ، والآن ليس لي الاّ الشك ،
أراني أَقلّ جنوحاً وارتياحاً وقوةً للعمل .
شجرة العلم هي شجرة الموت
وثمارها مرّة المذاق للمتذوّق.

هذا النور الحار في هذه السماء الزرقاء
يخيل اليّ انهُ نظرة أو قبلة الإله .
أين يثوي في الشتاء ؟
ومن أين ينبعث حنان الآله الملتهب حبًّا حينما يمسنا في الصيف ؟

وأنت ايها المصور الالهي الذي — على حواشي الابدية وفي اعماق الفناء —
يتمم صور السماوات والازهار والاكوان الجميلة
قل لي : هل اهملت الانسان من بين الاكوان ؟

لماذا يقهر الشك الروح دائماً ؟
وخير من فينا يحطمهُ القدر ؟
وما يشيده الحب يهدمهُ الموت .
اي صاحب خلقنا ، وأي عدو خرقنا ؟

آه ! ما هو هذا الجسد الذي ينخره الدود سريعاً ؟
والحب الذي يموّه علينا بهذا العطف القصير ؟
اذا قدرت يا الهي على ابداع الوجود مرةً ثانية
فكيف تغادر حلمك فيه غير كامل ؟
كنهر يجمع الرمال ويفرقها .
يجمع الزمن ويفرق طوراً بعد طور من يستدعيهم الحب ويؤلف بينهم
غير مركّب ابداً ما لا يفنى .

يخيّل ان السماء تقارن السعداء في الحياة ؟
انا لم احلم ابداً بالبقاء طويلاً .
هل يرون الكهول يضحكون ويسمرون بهناء ؟
ان ماءهم القاتم لا يولد في نفسي شيئاً من الغيرة .

انك خلقتني يا الهي بدون رأيي !
وها أنا ذاهب لأهوي في الهوة المجهولة ،
من قبل ان ادرك اسرار وجودي الذي تذهلني عظمته أكثر من الفناء !

الحلم الذي تخاله حقيقة حين تنام .
واذ يتلاشى في ساعة يقظتك ترى أن روحك قد فقدت حقيقته
كذلك الاموات يشكّون في حياتهم الغابرة .

أرانا نمشي تائهين كالمجانين
ونحن يتمزق شملنا على الدروب .
اية غبطة تعروك من ذلك ؟
ولماذا الشر فيك يقضي علينا بالشك ؟

المعركة انتهت ، والموتى — هنالك — راقدون .
وقد همدت جميع اصوات البغض والشقاء .
وهذا السكون الذي يتلو كل عاصفة بشرية كم يعلن قوة هذا الفناء !

والسماء الخلية التي تلد وتميت !
ما عسى يعنيها ان يتألم الناس او ان ينتهوا من ألمهم ؟
وفي هذه الهوة البعيد قرارها ، هوة الزمن والفضاء
ما قيمة شقاء ذرة عابرة ؟

وانت خاضع لهذا القليل الذي هو كيانك
إذا اتاك الموت فلا تصح ،
فانما الارض ضريح نُصيب وسادة لنا ،
تعينتا على أن نحلم لحظة قبل الرحيل .

ان هذه اللبنة التي ربما كانت مجبولة
من رفات عمر ، أو فيريدون ، او الاسكندر الكبير
قد تمجع في تشييد قصور للاحياء ،
ستعيد الرياح تعفية آثارها ، ونثر ترابها .

انا بأيدي القدر شبيهون بالدمى الصغيرة ،
أو بكلمات واشارات باطلة .
تختلط ، وتتحرك وتدور مصعدة اصواتها
ثم يغمرها الصمت ، ثم يلفها الليل المدلهم !

ايتها العقدة السرية بين العدم والوجود !
آه ايها الحب لماذا دعوتني الى الظهور ؟
ايها الخيال الهائم بين الاخيلة المختلفة
والمعجب — مثلها — بهذا العالم المبهم ؟

إن سر الاله كامن في كل ذرة . . .
والصوان يواري في اعماق كراه كالليل في سكونه
هذا السر الذي تخفيه عنا الشمس .

متى نغادر قصر الوجود المتوهج
غداً او بعد غد ، هل أدري ؟
ولكننا سنغدو رفاقاً مهملين في الرماد المجدب لكل الألى دك
الموت منهم الحياة !

الارض والصخور والبحار
وهذه الكواكب الساطعة !
والنفس البشرية مع آلهتها واحلامها وعبقريتها وجنونها
كل هذا ينبغي له ان يتلاشى في صدر السماء الفسيح !

حلمي وحده هو الذي ينطق بالجمال والصفاء
هذه الشمس الذهبية الدموية التي تهبط في القرار .
ولكن عندما يقهر الوعي الانساني على أمره
قد تستطيع ان تشتعل بعده لامعة ، ولكن صفاءها يغدو باطلاً .

تغذية جوفه ، وافعام كيسه ، وسروره بتخليد الفضاء والشقاء بلا نهاية .
ألا ما هو كل هذا الفناء ؟ وماذا يدعونهُ الحياة ؟
ليسرع الموت الذي ينقذنا !

رجلٌ عاقل أوحى بسفر تكوين الآلهة !
على أنهم لم يكونوا قبيل الليلة الاولى ، ولا قبل الاصباح الاول ،
ولا قبل الانسان الاول . . .
وانما الخوف او الحب عمرا السماوات بالآلهة .

اشقانا من قبل — في الايام الماضية . . .
السأم والخوف ، التقزز والبغض
وازدراء الدناءة البشرية .
لنخشَ الموت أقل مما نخشاه فهو وحده يشفي كل شيء .

سليمان الذي كان عرشهُ مرصعاً
يأمر ارواح الارض والماء !
ولكن السأم القاسي على العظماء
قد أكله في قمة مجده .

اتتهُ ساعة أعلن فيها ان كل شيء باطل .
حتى الحب الانساني والحب الالهـي —
ووجد ان الخير للانسان ألاَّ يكون .
فماذا يفكر العبد اذاً — وهو دُمية في يد مولاه ؟

مع الموت وادناسه
كل شيء يحيا ويتجدد — وهذا نظام دائم
الغرسة والزهرة والحيوان
والخير النادر والشر .

ان غريزتك البهيمية للحياة كثيرة فيك
وإذا كان — لا شيء — يوقظ من الآن قلقك
والآنَّ شيء — عندك — يغدو لا شيء ، ولا يثير فيك غيرة
فأقلع عن هذه الحياة غير آسف ولا خائف .

سيحل محلك من يولدون ،
ابناؤك الفتيان الاشداء .
فهل تحس انهم بازاحتهم اياك ظافرون جذلون بما صاروا اليه ؟
قال لي الموت « انطلق ! انك زحمت ابناءك » !

انني ابغض ، واكره . . . بل كنت زمناً سكران بالبغض .
وكنت استمين اذا وقعت عليَّ الفاحشة العامة بجائر يحطم هذه الهوام البشرية
والآن صرت اخجل من نذري المشئوم الذي نذرتهُ .

وعند ما تحس — في الحالة التي تصم فيها عن اصوات اصحابك الكتب —
تحس مرارة الحياة وشقاءها
وعند ما تئن ناحباً لان الحياة جرحتك
إحلمْ « بلانهاية الازمان » التي لا محيص عنها .

العوالم المغمورة في ابديتك ،
المتلاشية فيك ، ماذا سيحل بها ؟
اتحول الى حلم، او شعاعة برق ومضت ومَضَت ؟
لماذا هذا الاضطراب الباطل — لحظةً — بهذا الفضاء ؟

الشر الأدبي يا الهي قد اتخذ المادة عبدة
وأحبها فجعلها يوماً أمًّا .
ولكنهُ الا يبقى هذا الذي القت بهِ وشجعتهُ
مقيداً بقيود هذا الحب الغريب ؟

روحك ظهرت لي يا الهي في الشمس
حيناً رقيقة ، واكثر احيانها مشتعلة .
الا انها كيف تتألم وتخفق دامية
في بعض أمسيات في الغروب القرمزي ؟

اهواؤك الالهية شبيهة بأهوائنا ! .
فلماذا تركض في رأسك هذه النجوم المجنونة ؟
او ليست نفسك التي لا تتناهى — يا الهي —
غير هذه النفس التي تضطرب قلقة فينا ؟

منذ ذلك اليوم الرائع ، يوم ولادتك يا آدم
يضيء ذات الشعاع في الانسان والشمس
وجودي والكون هما من كنه واحد
ونفسي واضطراباتها اجدها فيهِ .

ايها المسخ الذي تحركه نفس مظلمة
ايها المسخ الاخرس . يا أمي الطبيعة !
هل انا ضميرك وفعلك ؟
ولماذا يخيَّل اليَّ انك لا تفكرين ولا تعطفين الأبي ولي ؟

ايتها الشابة دائماً ، ايتها الأم دائماً
ايتها الخليلة الدنسة والمقدسة حيناً

يا مضاعفة المشهد دائماً — ايتها الطبيعة !
اني اراك قاسية كما انت مشفقة وعذبة كما انت مرة .

قد تفهمت نفسي خيراً من قبل حينما لاحظت نفسك ؟
وفي قلب ابنائك الفاحشين ما وجدت الا اياك :
ولا خطيئة فيهم الا كنتِ انتِ مصدرها

ايها الليل المعزي للانسان !
ايها الليل : يا حلم ابن السكرى وراحته !
ايها الليل الهادىء الذي تسكن الاعمال فيه .
ايتها البحيرة السوداء ، ويا ايها القبر الساكن الذي تظلم فيه عقولنا !

انك وانت حي — انما تحيا وتسمن بموت نفوس
وارتشاف دماء أجدادك الفانين !
ضع ما تأخذ !
وادخل بلا عناء كنهر في بحر ، بحر الاكوان .

وفي هذا الكون المجنون الذي صنعه (مايا)[1]
تجد من قادهم الحب يتدحرجون خلال الاشياء
ويضطربون لها بدون سبب ، يعتبرونها حقائق منشودة

الست مروعاً بالعدم المفعم ظلاماً ؟
حيث تلاشى فكرتك وانت تحلم كثيراً
اصعد من العدم ، فالحب وحده ينقذك
ويأخذ بيدك ويهتف بك الى حياة جديدة !

(١) بحسب الخرافة الهندية

ألا بالرغم عن الدهر وعن الشقاء الذي يمضنا
لا تزال — هناك — لحظات سعيدة في هذه الرحلة الكونية
فالهدوء في طرف العدوة الثانية
والسلام الاكبر تلقاه تحت مظلة الموت .

في بعض الأمسيات حيث تذهل الحواس
يبدو لك الوجود كأثر آلهي رائع .
ونفحات الريح لها حلاوة الاشعار
ولمعات السماء تشبه الالحان . . .

في فؤادي حفظت ذبول عينيك
الشبيهتين بالازهار التي تطلعها النفس علينا .
وفي فؤادي صنت شذا كيانك .
وعذوبتك تركتني رحيماً .

انك تدري العقدة والفصل الاخير . . .
حيث لا نظر ولا كلام ثم لا شيء . . .

تذوّق — لحظةً ثانية — هذا النور وارشفهُ
تأمل واحلم
اعمل دائماً . . .
واصنع الخير . . .

خليل هنداوي

« يتلوه : شفقة الاستسلام »

الوحدة العربية

لحنا خباز

نشأت في السنين الاخيرة دعاية جدّية الى الوحدة العربية . وجعل دعاتها ينادون بها في الاندية وفي الصحف ، مستبشرين او مبشرين بتآلف الاقطار العربية وتفاهمها وتحالفها ووحدتها . وقد تجاوز بعضهم هذا الحد الى التصريح « بالامبراطورية العربية » كأمر هو في حيز الامكان

وكان قد سبق فنفخ بالبوق هذي النغمة الجميلة المرحوم عبد الرحمن الكواكبي بكتابه الشهير « ام القرى » وذلك قبل نحو نصف قرن . وخفت ذلك الصوت بعدها ، الى ان تجدّد في آخر عهد الملك فيصل الاول ملك العراق . فارتفع صوت ذويه بالنداء بها على اثر عودته من لندن. وللناس في تعليل ذلك مذاهب متباينة. والذي اعلمهُ ان الدكتور قدري بك سفير العراق في باريس ، وفارس بك الخوري رئيس مجلس النواب السوري ، ورستم حيدر بك ، وغيرهم من امثالهم ، يرون ان تلك الوحدة لابد من تحققها ، وانّها ثمرة طبيعية لتحرُّر الامم العربية من السلطة الاجنبية . فان كل امة حرة هي واحدة في حكومتها ونظامها ، كايطاليا والمانيا وبريطانيا وفرنسا واليابان وروسيا وغيرها من امم الدنيا . وكل عربي صميم يودّ من كل قلبه ، حلول اليوم السعيد ، الذي بهِ تكون الامة العربية متحدة متوحّدة منضوية تحت علمٍ واحد . واذكر اني كنت احادث الاستاذ عبد العزيز الثعالبي ، الزعيم التونسي الكبير ، في امر الوحدة العربية . فقلت له ان حصول ذلك يقتضي الزمن الطويل . فاجابني فوراً : « وما هو الزمان ؟ ليس الزمان الاَّ انت وانا . فتى اتفقنا على امر من الامور فقد حان وقتهُ » : وجَّه هذا القول نظري الى ما للقوة الروحية من النفوذ في مصير الجماهير . على انهُ لم يعمني عما يعترض الوحدة العربية من العقبات . فهما تنتشر في نفوسنا محبة الوحدة لا يمكنها ان تخفف صعوبة ما يعترض تحقيقها من العقبات . ولا اراني ارمي الى تثبيط عزائم بني امي باشارتي اليها . انما هي نظرة علمية لا بد من العناية بها إزاء ما نسمع ونرى كل يوم من اعراض يقظتنا المباركة ، ورغبتنا في ادراك شأو الامم الراقية في مشارق الارض ومغاربها . وسأعالج الآن العقبات على ان افرد فصلاً خاصًا للاساليب والوسائل التي يجب ان نتخذها لتذليل هذه العقبات في سبيل ذلك الهدف السامي

١ — الوضع الجغرافي وصعوبة المواصلات

نظرة الى خريطة العالم العربي ، فانها تريك حالاً ان تلك الاقطار غريبة الوضع ، لا مثيل

لها في بلاد غير العربية من الامم . بلاد تمتد من الاوقيانوس الاطلنطي غرباً الى جبال كردستان شرقاً . ومن جبال طورس شمالاً الى بحر الهند جنوباً . وفي وادي النيل تمتد الاقطار العربية الى قلب افريقية . واكثر هذه الاصقاع صحارٍ وبلاقع ، يعزُّ فيها الزرع والضرع ، بل هناك ما هو اكثر من ذلك نكداً ، وهو انها تعزُّ فيها المواصلات . وتندر الخطوط الحديدية ، الاَّ ما كان من منشآت الاجانب . يستثنى من ذلك الخطوط الحديدية في مصر . على ان تلك الخطوط محلية لا تصل قطراً بقطر آخر من الاقطار العربية الاَّ ما يصل مصر بفلسطين اذا صحَّ القول بانهُ خط واحد . ثم ليس في كل الاقطار العربية نهر يصلح لمخر السفن فيهِ الاَّ النيل والدجلة والفرات . على ان المواصلات فيها محدودة وسفر الركاب قليل . انَّ تقارب الاقطار، وسهولة المواصلات فيها وتوافرها، من اول الشروط لامكان وحدتها . قابل الاقطار العربية بأي بلد آخر، كاليابان او المانيا او فرنسا، تجد البون الشاسع بين هذه وتلك . والاقطار العربية ليست منتشرة في قارتين فقط ، بل انها في القارة الواحدة بعيدة المدى صعبة المراس . مثلاً ، الاقطار العربية في افريقية تمتد من الاسكندرية الى قلب السودان نحو ثلاثة آلاف كيلومتر . ولكن امتدادها من بور سعيد الى الدار البيضاء في غربي مراكش هو اطول كثيراً مما ذكر . كذلك الاقطار العربية في آسيا فانها غير متآلفة ، ولا متدانية ، ففيها الشام ، والعراق بينهما صحراء سورية ، ثم الجزيرة العربية بصحاريها ورمالها ، وجفاف بقاعها

ومن المعلوم ان الاقطار المتباعدة ، الصعبة المسالك ، القليلة المواصلات تنشيء في أقوامها تنافراً في المشارب وتبايناً في الاذواق . لان الانسان ابن الطبيعة . ولكل اقليم تأثير خاص في نفوس ساكنيهِ وفي أخلاقهم . فترسخ مزايا كل قطر في قومهِ على مدى الاجيال ، فتصير فيهم ملكات يتعذَّر نزعها او يتعسر . وهذا يحول دون تفاهمهم وتساندهم واتحادهم لجر المغانم ودفع المغارم ، فكيف يهون عليهم انشاء امبراطورية على ما بينهم من بعد الدار ، وتباين الآراء والميول ؟ فان الوحدة السياسية اذا لم تكن اختيارية ، واذا لم تكن ثمرة الثقافة الواحدة والصبغة الروحية الواحدة ، فاما أن تكون مستحيلة ، واما ان تكون ، اذا أمكنت ، بلاء على الناس ، كما كانت حال الاقطار الخاضعة للدولة العثمانية

لكل قطر من أقطار العربية مزاياه الخاصة ، وعاداتهُ ، وتقاليده ، وميولهُ . ولدى محاولة جمع هذي الاقطار لتأليف ، وحدة او حلفٍ بينها ، يبرز التباين بين مزاياها ، وتبدو صعوبة انضوائها تحت علم واحد . بل ان هنالك ثُغَراً أوسع ، وأدواء أشنع . حتى في أقسام القطر الواحد . مثلاً : بر الشام ، وهو اصغر الاقطار العربية ، وأقلها حظًّا . ففي هذا القطر من تباين الآراء ، وتنافر الاذواق ، ما ليس لهُ مثيل في قطر من أقطار الدنيا . فالتباين النفسي

بين الشمال والجنوب امر تحققناه ، في معاهد العلم التي ضمت أبناء البلاد ضمن جدرانها . وهنالك عناصر لا يهون امتزاجها بعضها ببعض . كالدروز والموارنة والنصيرية واعراب البادية . وعلاوة على ما ذكر هناك « اليهود » وهم ساميون نظيرنا ، ومع ذلك ، فان بينهم وبيننا ما صنع الحداد. وقد ضاعت حكمة اساطين السياسة في أوربا وأميركا أمام المشكلة اليهودية في فلسطين

وارجو القارىء العزيز أن لا يذهب عن فكره ان في القطر السوري من الادمغة والهمم الشماء ما يعزّ نظيره في أقطار هي أوسع مساحةً وأكثر سكاناً . تلك حقيقة لا مراء فيها ، تؤيدها شهادات أقطاب العالم المتمدن . ومع ذلك فأنت ترى ما فيها من الانشعاب وتنافر الاذواق ، وعدم التوافق . فاذا كان هذا هو الواقع في قطر واحد صغير ، فما ظنك في الاقطار المتباعدة كمصر وحضرموت او الجزائر والعراق ؟ فهذي أول عقبة في سبيل الوحدة العربية

٢ — الفقر

هو الداء العضال الذي لا ينفع فيه دواء ، ولا رقية ولا تعويذة ولا حيلة . الفقر اعضل الادواء البشرية واعصاها على نطس الاجتماع والسياسة . هذه الاقطار العربية ، على جودة اقاليمها — بعضها لا كلها — وموقعها الجغرافي الممتاز ، فانها صلة الوصل في العالم ، وبالرغم من ذكاء اقوامها وصفاء فطرتهم ، بالرغم من كل ذلك يحيق بها الفقر المدقع ، الفقر الاسود

وكيف يمكن ان تصان الوحدة والامة عاجزة عن الدفاع ؟ هذي هي بحارنا بحر العرب وخليج عمان ، والبحر الاحمر بخليجيه العقبة والسويس ، والبحر المتوسط ، وبوغاز جبل طارق ، وشرقي الاطلنطي . هذي هي البحار التي تفصل الشطوط العربية ، فكم بارجة فيها لنا وكم نسافة وكم طراد ؟ فلنفرض جدلاً ان الوحدة العربية ، التي نحبها ونحلم بها ، قد حصلت فاذا في طوقنا للدفاع عن الشطوط . وهب ان الحكومة حاولت ان تعقد قرضاً داخليًّا فكم مليون جنيه يمكنها ان تقترض ، وماذا عساها أن تفعل بتلك المبالغ ؟ . اذكر ولا انسى يوم اعلن الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ ، وهبَّت الامة لتتولى الدفاع عن نفسها . فأذاعت جمعية الاتحاد والترقي ، وهي يوم ذاك حكومة ضمن حكومة ، اذاعت هذي الجمعية نداء في عرض البلاد بضرورة التبرع لانشاء اسطول عثماني يتولّى أمر الدفاع عن شطوط الممالك المحروسة . وتبارى رجالها في كل بلد في هذا المضمار . فكانوا يدعون الاعيان والاغنياء ، ويستنهضون هممهم لخدمة الوطن ، « قرّرنا انشاء اسطول عثماني ، فهاتوا أرونا غيرتكم» . فكم جمعت الممالك المحروسة بعد بذل الجهود الخارقة ؟ الذي اذكرهُ أنها جمعت نحو نصف مليون جنيه . فماذا عساها أن تنشىء بهذا المبلغ،والبارجة من الطراز الاول تكلف ثمانية ملايين جنيه؟وكم سفينة حربية يلزمنا لحماية شطوط الامبراطورية العربية التي نحلم بها ؟ . وكم مليون يلزمنا لانشاء جميع تلك البوارج

والطرادات وغيرها من السفن الحربية ، لا للغزو ، بل للدفاع ؟

وإذا عجزنا عن ذلك فالى أي مستند نستند في انشاء امبراطورية اوسع من كل دولة في الارض واطولها شطوطاً؟ وما قلتهُ في الاسطول يقال في الجيش البري . فيلزمهُ من الاموال مالا يستهان بهِ . واليك شاهداً محسوساً « مصر » اليوم . فانها بناء على المعاهدة الحديثة بينها وبين انكلترا صار يحق لها ، بل يجب عليها ، زيادة الجيش للدفاع عن بيضة الملك . واجتمع الوزراء مراراً وتبادلوا الافكار ، وسمعوا اقوال الخبراء ، وانتهوا الى نتيجة مضبوطة وهي : أن انشاء جيش مؤلف من عشرة آلاف يكلف الدولة عشرين مليون جنيه او أكثر . وان مصر ، مع ما يستدعي موقفها الحاضر لا تكاد تقدر ان تجند في العام القادم ثلاثة آلاف . فكم يلزمها لتعبئة نصف مليون ؟ . ولو أنها تولت الدفاع وحدها لما كفاها نصف مليون . ويلزمنا للدفاع عن الامبراطورية العربية أكثر من ذلك كثيراً ، فأين الاموال ؟ ان فقر العالم العربي يغلّ يده عن انشاء الوحدة لانهُ يرى نفسهُ عاجزاً عن الدفاع . اللهمَّ الاَّ أن تكون وحدة زائفة خالية من مؤهلات الاعتبار والاحترام فتغدو العوبة في ايدي الاجانب

٣ — ضعف الزراعة والصناعة

الزراعة اول حجر في بناء الاجتماع البشري ، وهي استغلال الطبيعة ، ومنبع الثروة بالمعنى الصحيح . والصناعة هي الخطوة الثانية ، وهي ثمرة تصرُّف العقل بالمادة . والارتقاء الصناعي لصيق العلم وظاهرة المدنية . وقد جعل افلاطون الزراعة والصناعة ، في كتاب الجمهورية ، أس العمران ، وضامن الكيان . وعلى تبادل المنافع بين الافراد والجماهير تدور رحى المدنية والسياسة والارتقاء . وارتقاء الزراعة والصناعة في بلدٍ أو امَّة عنوان الارتقاء . ولا يمكن ان ترقى أمة وزراعتها منحطة وصناعتها متقهقرة . فما هي أحوال هذين الركنين — الزراعة والصناعة — في العالم العربي ؟ . ليس ثمة من يجهل ان الاقطار العربية متأخرة في الامرين . وذلك أهم اسباب الفقر في بني قحطان ، لان الصناعة والزراعة مورد الثروة الأول

أجل ان القطر المصري ، وهو أسبق الاقطار العربية مدنيًّا ، فيه نهضة زراعية وصناعية أيضاً . وقد خطا في مساعي الري خطوة كبيرة الى الامام . وقد صحب ذلك نبوغ مهندسين وطنيين كبار ، عدا الخبراء والاختصاصيين الاجانب المستخدمين في مصلحة الري بوزارة الاشغال . فمصر بهذا الاعتبار جادَّة في أثر الامم الحية . وأرى ان العراق يسير في اثر مصر ويستند في نهضتهِ اليها نوعاً . وذلك ظاهرة حياة في مصر والعراق ، ومقدمة ارتقاء في العالم العربي . أني اقدر ذلك قدره كمؤرخ نزيه للنهضة العربية . على ان نزاهتي لا تأذن لي بالتعامي فالمغالاة . فلست أجهل ان نهضة مصر والشام والعراق محلية وابتدائية . فلم يبلغ قطر من هذي الاقطار

مصاف الامم الراقية في احد ركني الحضارة . فلا نزال ، نحن العرب ، في أول أشواط الارتقاء وينقصنا من الصناعات الشيء الكثير ، كمصانع بناء السفن ، والبوارج ، والقاطرات ، والترام ، والسيارات والطيارات ، والغواصات . والاسلحة ، والكرتشرك ، والآلات المتنوعة كآلات النسيج وآلات عمل الجوارب ، وآلات التطريز والزركشة ، كذلك معامل صنع الخردوات ، كالمرايا والازرار والابر والدبابيس واقلام الرصاص ، والورق والحبر وأنواع البويا والاصباغ وغير ذلك من الصناعات التي لا بدَّ منها للاستقلال . هذا ما أقولهُ في أرقى الاقطار العربية ، فماذا ترى في الجزيرة العربية والسودان وبعض اقطار المغرب ؟ هل لها صناعة وزراعة تؤهلان بادماجها في عداد الامم الراقية ؟ لا أرى مطَّلعاً عاقلاً يجهل ان الجواب ، مع الاسف ، سلبي .

كنت في اليابان أدهش لرؤيتي مبلغ التقدم الزراعي ، وقد لمست في ذلك حقيقة النهضة اليابانية . وكذلك في صناعتها . فلما أشرفت على أوسا كا سنة ١٩١٨ وفيها يومذاك سبعة آلاف معمل ، ورأيت مداخن المعامل في ظاهر المدينة ، ودخانها يكاد يحجب نور الشمس عنها ، عندها فهمت معنى النهضة الحديثة ، وتمنيت لبلدي العربي نهضة نظيرها . وقد تجلى هذا الاقتناع للخاص والعام في السنين الاخيرة لما غمرت المنتوجات اليابانية أسواق العالم . ورأى ابناء السين والضاد المنسوجات الحريرية اليابانية ، والحدايد اليابانية ، هذا عدا الخردوات والبهارج اليابانية ، عدا الراديو وغيره من مصنوعات اليابان . وما أقولهُ في اليابان اقول اكثر منهُ في الولايات المتحدة الاميركية وفي فرنسا وانكلترا والمانيا وايطاليا . ولا أجهل ، ولا أنكر انَّا مسبوقون في ذلك ، ومسبوقون كثيراً

وربَّ قائلٍ يعارضني : ما علاقة تقدم الزراعة والصناعة بالوحدة العربية ؟ : اجيب هنالك كل العلاقة . فالتقدُّم الزراعي والصناعي شرط لازم لامكان الوحدة . فقد يكون ارتقاء صناعي وزراعي دون حصول الوحدة . ولكن الوحدة لا تكون بدونهما . لأن الوحدة ظاهرة حياة شعبية . والارتقاء الزراعي والصناعي اول ظاهرات الحياة . فلا يمكن حصول الاولى خلوّاً منها . ثم ان الزراعة والصناعة ادوات الوحدة تستعين بها على غلبة الصعوبات وتسيير الاسس . ولا يمكن امة في امم الارض ان تدرك وحدتها دون تقدُّم حقيقي زراعةً وصناعةً على انها اذا كانت موحدة وتأخرت في الزراعة والصناعة ضعفت أواصر وحدتها وتبدد ركن اجتماعها ، فتنشعب وتتفرق ايدي سبا ، شاهدك المحسوس في ذلك الصين . فقد كانت الصين امة واحدة ولكن تأخرها صناعةً وزراعة انتهى بتفكك اوصالها ، وتمزيق وحدتها . وليس غزو اليابان اياها علة ذلك الانشعاب بل نتيجته ، كما ان غزو الترك الاقطار العربية ، وقضاء الاسبانيين على ممالك الاندلس العربية ، لم يكن علة الانشعاب في الجسم العربي بل نتيجته . فالانشعاب اولاً والاستعباد ثانياً . واري — وكلامي هنا سابق وقته — ان كل جهدٍ في تحسين الزراعة والصناعة

هو خطوة الى الامام في بناء الوحدة العربية

يتبع ذلك ، او ينشأ عنهُ « تبادل المنافع » بين الاقطار العربية . وتبادل المنافع هو الرابط الاجتماعي العظيم . وتتم الوحدة العربية والكونية حين يكمل نظام تبادل المنتوجات على الوجه الاتمّ . وليس الخلل والشقاء في مسالك الامم والدول ، في عصرنا وفي كل عصر، الا ظاهرة ، او نتيجة عدم الانصاف في تبادل المنافع . فتبادل المنتجات ، في صورته الكاملة هو مجلى حياة ومجد اشراق تلك الحياة . ترى ذلك في الجسم العضوي كالانسان مثلاً فان نظامه الفسيولوجي صورة مصغرة لبناء الدولة والوحدة الشعبية فما دام الجسم سليماً من الآفات ، والحياة آمنة في عرشها والصحة مالكة زمام الاعضاء ، كان التعاون وتبادل الانتاج بين الاعضاء ، على اتمه. فيقوم كل من القلب والرئتين والمعدة والكبد والكليتين والدماغ بوظيفته الخاصة ويمد الاعضاء الأخرى بما يلزمها . فاذا اعتلّت الاعضاء اختلّت علاقاتها ، وانصرمت المواصلات ، وتعطل التبادل ، فبدت على الجسم اعراض الموت . هذا هو حال امم اوربا واسيا واميركا ، وهو حال المجموعات الفلكية ، وحال الوجود في ما اعتقد . فما هي المنتجات التي تتبادلها الاقطار العربية ؟ ارجع الى لائحة الصادر والوارد في مصر وسورية والعراق واليمن وغيرها من سائر الاقطار العربية .ويدخل في ذلك الاصطياف والمشتى والسياحة ، وكل انواع التواصل والتعاون الاجتماعي

وخلاصة ما أقول في هذا الفرع هو ان تأخر الزراعة والصناعة والانتاج ، وقلة التبادل في المنتوجات ، عقبة في سبيل الوحدة العربية المرغوبة

٤ — اختلاف المقاييس

يدخل هذا البحث تحت التباين في الحالة النفسية . لكني اخصه بالذكر هنا لما لهُ من شأن كلنا نعلم ما حدث في الحجاز بين المصريين والوهابيين في امر المحمل المصري وكيف اشتبك الفريقان في القتال . ولولا الملك عبد العزيز انقذ الموقف بحكمتهِ لساءت العاقبة . على أنهُ مع ما ابدى الملك عبد العزيز من الحيطة والهمة ، ومع انقاذهِ الموقف بلباقة وشمم يستحق عليهما قدر الناس اياه قدره ، مع ذلك تصرّمت العلاقات بين القطرين الشقيقين نحو عشر سنين . ولماذا كان ذلك ؟ الفريقان عرب. والفريقان مسلمون. ولمصر في الحجاز ايادٍ بيض . فانها تنفق هنالك كل سنة عشرات الالوف من الجنيهات . وليس ثمة قطر عربي أوفر سخاء في الحجاز من مصر . فلو أن هنالك امة محبة الى قلب آل نجد ، فتلك الامة هي الامة المصرية . فلماذا كان التجافي والتنابذ بينهم وبينها ؟

الامر واضح . انهُ « اختلاف المقاييس ». مصر تحب الموسيقى وتحسبها ظاهرة حياة نفسية عالية . والوهابيون ينكرون ذلك ويحسبونهُ ظاهرة خلاعة وجناية على الروح . المصري يزامل زوجه الى السينما ، وقد يصحب صغاره أيضاً ، والوهابي يرفض ذلك ويقاومه . المصري يرسل بناتهِ

الى المدارس الوطنية والاجنبية للتخصص في العلوم والفنون . والوهابي يحسب ذلك عاراً . المصري يحلق عارضيه والوهابي يرخي لحيته . المصري يدخن وذلك ينكر التدخين . أقول ان اختلاف المقاييس هو كل السبب في نزاع الاخوين وتجافيهما . وهو اس التنابذ بين الشرق والغرب ، وبين الشيوعيين والدكتاتوريين ، وبين النفس والجسد ، وبين الارض والسماء . فكيف تتسنى الوحدة مع اختلاف المقاييس والقيم ؟

هنا يدخل توحيد الثقافة ، والكلام فيها ليس من اختصاص هذي المقالة ، فاكتفي بالاشارة ان تفاوت الاقوام في المستوى الاجتماعي والعمراني والمدني والعلمي يقيم في سبيل وحدتها اصعب العقبات . فاذا كان احد الفريقين يتكلم الانكليزية والفريق الآخر الروسية فلا تفاهم بينهما . واذا راما التفاهم لزمهما الترجمان او القاموس . هذا هو موقف امم هي على درجات متفاوتة في سلم الارتقاء . فلكي يمكننا توحيد الخطة يجب اما ان اصعد اليك او انك تنزل اليّ . ولما كان منهج الطبع الارتقاء ، كان نزولك اليّ غير مشروع ، فوجب ان ارقى اليك . ومتى كنا في مستوى واحد فحينذاك ، ليس الاّ ، يمكننا ان نسير معاً جنباً الى جنب وكتفاً الى كتف

ان ما قلتهُ في امم الاقطار العربية يصح في العائلات ، وفي العلاقات الزوجية . فما دامت المقاييس في عين الزوجين متباينة لايمكنهما ان يتمتعا بسعادة الاتحاد . فالزوجان السعيدان هما اللذان عندهما مقاييس واحدة . فما يقدسهُ الزوج تقدسهُ الزوجة ، وهكذا . فاذا تباينت مقاييسهما حل بهما الشقاء

٥ — الميل الى الانشعاب

عرف هذا الميل في اليونانيين القدماء . فتعذر عليهم الانضمام تحت علم واحد . فكانوا ممالك عديدة ؛ حتى في بعضها كانت كل مدينة مملكة . لذلك لما تكلم افلاطون في الجمهورية مثل عليها بالمدينة . لان المدينة في عرف اولئك المنشعبين هي الدولة . أما في تمدن اوربا الحديث فليس الامر كذلك ، بل نرى فيها كل امة تحت علم واحد ، فجميع الفرنسيين يخضعون لحكومة باريس ، وجميع الانكليز لحكومة لندن . وهكذا الالمان والروس والايطاليون وغيرهم . أما في العالم العربي فليس كذلك ، فلنا دول مستقلة متمايزة في امة واحدة . هذي اليمن . والى جانبها حضرموت ، ثم الحجاز ونجد ، تليها العراق فسورية فمصر . يأتي بعد كل ذلك المغرب باقسامه تونس والجزائر ومراكش ، ولا ننسى طرابلس والسودان . وقد بلغ من بعضهم الاعتصام بذلك حداً حسب عنده السعي في الوحدة افتئاتاً وجنايةً !! والسبب في ذلك ميل الجنس العربي — كما كان في الجنس الاغريقي — الى الانشعاب

والانشعاب اسهل على الحياة الفطرية من الاتحاد . ففي الحياة المادية التقدم من الواحد الى المتعدد . فالنبت اصله واحد ثم انشعب . والعائلة اصلها واحد ثم تعددت . هذا هو منهج الفطرة .

اما في الحياة الروحية فالتقدم هو من المتعدد الى الواحد . الاصل في بني حواء فرادى . فاذا ارتقوا روحيًّا تقاربت افرادهم وتواصلت فتبادلت الحياة . نرى ذلك كلهُ في الجسم العضوي فاذا برحتهُ الحياة ، وتحكمت فيهِ نواميس المادة تبعثر وتشعبت اجزاؤه حتى صار تراباً . اما اذا سادتهُ الحياة فان اجزاءه تترابط وتتساند ، فالاجناس التي ما زالت على الفطرة يعز عليها انشاء الوحدة ، وعليهِ تنقسم الامم في الطور الاول الى عشائر متباينة متمايزة . وفي جزر فيلبين لكل جزيرة لغة خاصة ، وهكذا في العشائر الافريقية ، فتعداد اللغات في امم اوربا هو كالحروب من موروثات التقدم ، والارتقاء آذن بتوحيد اللغة لا بتنوعها . فالامم العربية أقرب الى الفطرة منها الى الارتقاء . ومع ان بعض اقطارها لامس المدنية وصعد في سلم الارتقاء ، مازالت سنة الفطرة تسود احكامه . فمها يكبر الرضيع لا يزال يصبو الى النهد . وترى في اكبر الشيوخ الميل الى اوصاف الطفولة كالمرح والبكاء والشهوة والنزاع . فانشاء الوحدة العربية عمل تقدم ايجابي ينافيهِ الميل العربي الى الانشعاب . فان البدوي لا يعرف الخضوع للنظام في دائرة واسعة . ولا يحترم انكار النفس في سبيل حقوق الغير . لذا كان الغزو عنده مشروعاً . ونحن الحضر اخوانه شركاؤه في تراث السلف « الصالح » . كنت اقرأ كتاب تاريخ اليمن للعلامة الشيخ عبد الواسع ابن يحيى الواسعي اليماني ، راغباً في الوقوف على شيء من شؤون اخواننا في قلب الجزيرة يصح الاستشهاد بهِ في موضوعي والاستناد اليهِ .فاستوقف نظري تعداد العشائر في تهامة الى حدّ تضيع عنده الحافظة . وقد شغل ذكر العشائر المتمايزة اكثر من ٤ صفحات ، ولكل عشيرة مزاياها الخاصة ومقاييسها . يقيم ذلك صعوبة كأداء في سبيل الوحدة العربية كنظام سياسي

كذلك كانت ايطاليا في بدء تاريخ رومة . وكانت عشائرها وحدات متمايزة يحارب بعضها بعضاً ، كما تفعل عشائر الاعراب اليوم . وبعد سقوط الامبراطورية الغربية في عهد شارلمان عادت ايطاليا الى الانشعاب . وانقسمت الى اقاليم عديدة . وفي بعضها الحكم لمدينة واحدة كالبندقية وفلورنسا وجنوى ونابلي وهكذا . وظل الانشعاب الى النصف الثاني من القرن التاسع عشر حيث نشأت الوحدة الايطالية بمساعي كافور وغاريبلدي ومازيني وغيرهم . وقد نقم بعضهم ، وأنا معهم ، على دول الاستعمار لانها قسمت البلاد الى وحدات صغيرة يسهل ازدرادها . فاوجدوا ما يدعونهُ شرق الاردن . فلسطين . لبنان . سورية . سنجق الاسكندرونة . وهكذا . على اني لا انكر انهُ لولا الميل العربي الى الانشعاب لاستحال حصول ذلك . وعندي على ذلك شواهد لا محل لاثباتها هنا لضيق المقام

هذي بعض عقبات ذكرتها مختصراً ، وقد تجنبت فيها ايراد الشواهد . وعندي ان هذا البسط لا مندحة عنهُ لوصف الخطة القويمة التي نختطها في سبيل التغلب على هذه العقبات ، والاتجاه الى تحقيق الوحدة . وهو موضوع مقالة على حدة ، ان شاء الله



على مفترق الطرق

مضت سنة ونصف سنة وروسيا السوفيتية تعاني ازمة داخلية شديدة، بدا بعض مظهرها في محاكمة اقطاب الثورة البولشفية وفريق من اكبر قواد الجيش واعدامهم، وما لازم تلك المحاكمة، من اعتراف المحاكمين اعترافاً ليس فيه اثر من الرجولة بل كل اثر من الضعف والتخاذل، وما كشف عنه التحقيق من تهم بالخيانة والتدمير موجهة الى الرؤساء في اعلى دوائر الحكومة، وما تبعها من فقد روسيا جانباً كبيراً من الثقة التي احرزتها في العهد الاخير في اوربا واميركا ولا سيما بعد اعتراف حكومة الولايات المتحدة الاميركية بها وانتظامها في جامعة الامم في خريف سنة ١٩٣٤

فهل ستالين دكتاتور روسيا مصاب بجنون الاضطهاد؟ ألم تفض الحوادث الاخيرة الى زعزعة الاركان التي يقوم عليها النظام السوفيتي؟ وهل من المحتمل ان يبقى ظل حكمه الدكتاتوري مبسوطاً على روسيا؟

لنصرف النظر عن السؤال الاول. فليس في ما يعرف عن اعمال ستالين وحالته ما يكفي لتناول ذهنه وحالته النفسية بالتحليل السيكولوجي والطبي المجدي. ثم ان التماس العلل النفسية للتطورات السياسية المعقدة، قد يضل بالباحث عن طريق الصواب حتى في البلدان التي تحكم حكماً دكتاتورياً

الا ان السؤال الثاني، يرمي الى تبين اثر الحوادث الاخيرة في مكانة ستالين وهل عززتها او زعزعت من اركانها؟ ويقول باحث متنكر في مجلة الكونتمبورري وعنه ننقل — ان الرد على هذا السؤال لا يمكن ان يكون ايجاباً صرفاً ولا سلباً بحتاً. ذلك انه اذا نظرنا الى ستالين على انه زعيم الشيوعية، وقائد الحركة التي ترمي الى احداث الثورة العالمية، فلا ريب في انه قد فقد جانباً كبيراً من سلطته وقوته وثقته بنفسه. وهذا يفسر ما يشاهد في الاحزاب الشيوعية في مختلف البلدان من انقسام ونزاع، ولذلك غدت موسكو بعدما كانت الى عهد قريب محجة جميع الشيوعيين المستقيمي الرأي في العالم، وهي غير ما كانت عليه. ولذلك يرى السائر في هايد بارك بلندن خطيبين شيوعيين يخطبان، احدهما في جوار الآخر، اولهما تحت علم ستالين والآخر تحت علم تروتسكي واتباعه. ولذلك يصح القول بان التهمة التي يوجهها تروتسكي في مقالاته وكتبه الى ستالين، بانه خان الثورة الشيوعية العالمية، لها ما تستند اليه

والواقع ان ستالين اليوم غير ما كان عليه سنة ١٩٣٣ او في السنوات التي تلت وفاة لنين . فبعد ما كان الزعيم الثوري للاشتراكية الدولية اصبح الحامي الحاكم بامره لمصالح روسيا القومية

فاذا نظرنا اليه على انهُ الرائد للمرحلة التالية من الثورة البولشفية التي يصح ان نسميها مرحلة البولشفية الوطنية ، وجدنا انهُ عزّز مقامهُ وأيد سلطتهُ نتيجة للحوادث الجسام التي وقعت في روسيا في العام الماضي . ولعلهُ غير مدرك تماماً هذا التحوّل الداخلي في نفسهِ . بل لعلهُ لايزال يعتقد انهُ الامين على ميراث لنين . ولكن الواقع ان ستالين زعيم الثورة العالمية قد انقلب رجلاً آخر هو زعيم البعث القومي في روسيا . فموقفهُ الآن من الوجهة النظرية ، هو الموقف الذي يستخلصهُ الباحث من حديثهِ مع ولز حيث وصف بأنهُ رجل يواجه حقائق الحال وقد اضطرتهُ نزعتهُ هذه الى تعديل خطتهِ وفقاً لتحول الحالة الدولية . اما هل يعود بعد ذلك الى موقفهِ الاول موقف زعيم الثورة العالمية ، فمن الصعب الحكم فيهِ وهو غير محتمل على الارجح

ان هذا التحوّل في نفسية ستالين ، وفي تطوّر روسيا السياسي ، ليسا من نتائج المصادفة . بل هما مظهران من مظاهر الخطر الخارجي الذي يحفُّ بروسيا السوفيتية . فقيام الهر هتلر في المانيا ، وأملهُ المعقود على توسع المانيا في شرق اوربا ، قد أثرا في اتجاه الفكر الروسي وسياسة روسيا الداخلية . ثم ان مطامع اليابان في الشرق الاقصى أيدت هذا الاتجاه . وقد كان للحروب الخارجية ، في تاريخ روسيا الحديث ، تأثير كبير في نظامها الداخلي . لذلك قال لنين ان الشيوعيين لا يستطيعون ان يبدلوا في جغرافية روسيا . فانشاء روسيا الحديثة على يدي بطرس الاكبر ، كان نتيجة النزاع الطويل مع ندّه السويدي . والاصلاحات الثورية التي أدخلها على البلاد ، لم تكن وفقاً لبرامج أعدّت للاصلاح ، بل كانت أعمالاً قضت بها الحاجة لمواصلة الحرب . ثم ان حرب القريم أفضت الى الغاء الرقّ الزراعيّ والحرب الروسية اليابانية الى وضع الدستور ، والحرب العالمية حولت روسيا القيصرية الزراعية المتأخرة في شؤون الصناعة الى الدولة الشيوعية الاولى في ظلّ دكتاتورية العمال

أما اليوم فان مخاطر الحرب التي تهدّد روسيا من الداخل والخارج تؤثر في نشوبها الداخلي قبل وقوعها ، لان الدولة ترى حتماً عليها ان تبذل كل جهد للتأهب لها ولو كان في كل عمل تعملهُ في هذا السبيل ، ما يناقض برنامج الحزب الشيوعي وخطتهُ

ان نظام الدولة السوفيتية نفسهُ قد بدأ يتغير وفقاً لمقتضيات الحالة الدولية . حتى تحقيق برنامج السنوات الخمس الاول والثاني ، يجيء في المقام الثاني بالقياس الى الاصلاح الدستوري في البلاد . لقد عدّل الدستور الاميركي الذي وضع من قرن ونصف قرن احدى وعشرين مرة . ولكن الدستور السوفيتي الذي أنشئ من اربع عشرة سنة قد نقح كل سنة تقريباً . والمرة الاولى في

السنوات الاربع عشرة الماضية، فسح المجال في الاصلاح الدستوري الذي تمّ في السنة الماضية، لمثُل الاحرار والدمقراطيين . وكان ذلك على اثر الخطبة التي خطبها ستالين في ٤ مايو سنة ١٩٣٥ عندما بيّن قيمة « الشخصية » التي طالما أنكرتها روسيا الشيوعية

ان الحكومة الروسية القائمة ترى انها في اشدّ الحاجة الى توسيع الاساس الاجتماعي الذي تقوم عليه سلطتها رغبةً منها في تعزيز قدرة البلاد على الدفاع . واذن لا بدّ من مسالمة العناصر التي كانت تعاديها قبلاً . ولذلك نصّ الدستور الجديد على أن جميع الروسيين ما عدا المصابين في عقولهم سيمنحون حق الانتخاب عندما يبلغون السنة الثامنة عشرة من العمر . فلا ينظر بعد الآن الى نشأة الرجل او المرأة في بيت من بيوت الاشراف او الارستقراطيين . لان روسيا الجديدة ستضمّ من الوجهة النظرية على الاقل ، « جميع المرابين وجواسيس البوليس » اسوةً بالعمال . ثم إن الخدمة العسكرية والانتظام في الجامعات لن يكونا ميزة مقتصرة على العمال . بل على الضدّ من ذلك اصبح اقطاب الحكومة يصرّحون بان الخدمة العسكرية ، عمل شريف يجب على كل روسي . ومن مظاهر هذا التحول ان فرسان القوزاق الذين كانوا من ألدّ خصوم البولشفية ، قد أعيدت اليهم امتيازاتهم وملابسهم الخاصة . ذلك ان الحكومة تريد أن تضم تحت لوائها جميع القوى في سبيل الدفاع عن « الوطن الروسي » !

إلاَّ أن ما تقدم لا يكفي لانهُ يتصل بمظهر الدولة فقط . ولكن العقول والنفوس يجب ان يغير ما بها ، وتعدّ للنهوض بالاعباء التي تواجهها . واذا بحث باحث في الصحافة السوفيتية الآن حمله على الدهش ما يراهُ فيها من تبدل في اللغة وأساليب التفكير . فهي تستخرج الآن من دفائن الماضي الفاظاً كانت الثورة البولشفية قد حظرتها . هو ذا كلمة « الوطن » يجب ان تظهر في كل مقال افتتاحي . « والوطنية » صفة تمجد بكل اسلوب من اساليب التمجيد . قالت الاسفستيا في ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٣٧ :— « الوطن ! ما اعظم ما تنطوي عليه هذه اللفظة البسيطة من المعاني تثيرها في نفس كل روسي . انها تعبر عن أجلّ وأعلى وأنبل شعور يجول في نفس الوطني السوفيتي . محبة المرء لبلاده ، والتباهي بقومه ، والشعور بقوته التي لا تغلب ، والاستعداد للخدمة ، والتضحية بالحياة اذا اقتضى الامر ذلك »

لقد قلّ بل ندر ما يذكر الآن في الصحف عن العمال الروس وأنهم روّاد الثورة العالمية . وحلّ محلهُ القول في عظمة الشعب الروسي ومجد مآثره القومية . فالصحافة الروسية ترسخ في اذهان الشعب الروسي المباهاة بتاريخه وادبه وفنه وبعظماء أبنائه . وكتابها يعمدون الى التنقيب في التاريخ الروسي فيستخرجون منهُ صفحات المجد وينشرونها على الناس

حتى الادب الروسي غدا يستعمل وسيلة لنشر الدعوة في سبيل جمع القوى والتأهب

للدفاع . والمؤلفون الروس يُحثون على معالجة مشكلات الدفاع عن الوطن وتعزيز حبه وروح التضحية في سبيله في نفوس القراء . وقد بُعثت الاناشيد الوطنية الحماسية التي كانت شائعة في العهد القديم ، لأنها مرتبطة بكثير من الاساطير التي تمجد ابطال الدفاع عن الوطن في مختلف عصور التاريخ . بل ان الدعاية الوطنية في روسيا قد اخذت تتسم بسمة الغلوّ في الوطنية . فالشاعر الروسي لوجوفسكي ، هدّد من عهد قريب بطرده من جماعة المؤلفين الروس لانهُ حاول ان يخرج طبعة جديدة لاشعاره القديمة التي يصف فيها كآبة القرية الروسية وجفاء الطبيعة فيها

ثم هناك تعليم التاريخ . وفي هذا الميدان نجد تبدلاً ظاهراً . فقد قال احد الرحالين الانكليز ، انهُ عند ما يزور البلدان الاجنبية يعنى عناية خاصة بمطالعة كتب التاريخ التي تدرّس في المدارس لانهُ يجد فيها أبلغ دليل على اتجاه الفكر في تلك الامة

ولا يخفى ان أقطاب الثورة البولشفية في روسيا عمدوا بعد الثورة الى تغيير كتب التاريخ التي تدرس في المدارس ، فألقوا ستاراً كثيفاً على مكانة « الشخصية » في التاريخ ، مع ان إجلال شخصية لنين حينئذٍ كان قد بلغ مبلغ العبادة . وجعلوا يفسّرون كل حادث تاريخي ، بأنهُ مظهر للنزاع بين الطبقات . ولكن هذه النزعة قد أخذت تتبدل . وغدت كتب بوكروفسكي القائمة على تفسير التاريخ تفسيراً اقتصاديًّا بحسب مذهب ماركس — وهي كتب أثنى عليها لنين ، وطبعت منها ملايين النسخ ووزعت في المدارس — غدت هذه الكتب في نظر الحكومة السوفيتية الآن مناقضة للاسلوب التاريخي السليم . كانت كتب التاريخ تعمد الى تمجيد عهد الوثنية الروسية قبل دخول المسيحية ، ولكن الكتب التي تؤلف وتدرس الآن تشير الى دخول المسيحية البلاد كعامل من عوامل الارتقاء . وبطرس الاكبر الذي كان يوصف بأنهُ طاغية مستبد بالجماهير الروسية ، غدا « قيصراً حكيماً محبًّا للارتقاء » . والامثلة على هذا التحوُّل في كتابة التاريخ وتدريسه كثيرة فاكتفينا منها بما تقدم

هذا السعي الى افراغ حياة الشعب الروسي العقلية ، في قالب النزعة الوطنية القومية ، يصحبهُ سعي آخر الى العودة بالحياة الاجتماعية الى حالة الاجتماع « البورجوازيّ » . فالنزعة الحرّة بادية الأثر في الدستور الجديد ، حيث يعترف بحقوق الانسان على مثال ما بسطت في الدستورين الاميركي والفرنسي

ثم هناك تحوُّل عظيم الشأن في النظر الى حياة الاسرة ، يرجى منهُ أن تحوّل روسيا من بلاد « الحب الحرّ » الى بلاد الاسرة المتماسكة . وقد صدرت قوانين متعدّدة غرضها مكافحة الموقف المجرّد عن الشعور بالمسؤولية نحو الاسرة وواجباتها

فالطلاق الذي كان سهلاً جدًّا وضعت في سبيله القيود . وبعدما كان الراغب فيه الى عهد

قريب ، يكتفي بكتابة ورقة يقرر فيها هذه الرغبة ، فيمنح الطلاق ، اضحى كل طلاق جديد يقتضي من طالبه للحصول عليه، دفع مبلغ اضافي من المال للدولة ، يزيد بزيادة عدد طلبات الطلاق، وكان الاجهاض عملاً شرعياً خلال ست عشر سنة، اما الآن فهو محرَّم لانهُ ضار على ما يقولون، ومن يحاولهُ او يقم به يعاقبْ عقاباً شديداً . فالامومة اصبحت في هذه النظرة الاجتماعية الجديدة « واجباً عظيماً » والوالدات اللواتي يلدنَ ستة اولاد او اكثر تمنحهن الدولة اعانة خاصة على مثال ما تفعل الحكومات الفاشستية

وما تبيّناه من اثر الاتجاه الجديد في الانظمة السياسية والاجتماعية نجده كذلك في ميدان التعليم والادب . فقد استردّ المعلمون سلطتهم على الطلاب ، وعادت الجامعات توزع الالقاب والرتب العلمية على مستحقيها . وزاد الطلب على مؤلفات الكتاب الروس العظام مما يدلُّ على ان القارئ الروسي قد أخذ ينصرف عن « الادب الاشتراكي » التي وضعت مؤلفاتهُ باسم الدولة ، الى مؤلفات الكتاب والشعراء الروس الذين احرزوا أعلى مكانة في الادب العالمي كبوشكين وتورجنيف وتولستوي وغيرهم

وقد عادت رواية « آنا كارنينا » تأليف تولستوي ، اوسع الروايات انتشاراً بعد رفع الحظر عنها . ولا يقل الطلب كذلك على مؤلفات الشعراء والادباء الاجانب كبيرون وجيته وهيني وبلزاك ، بل إن مسرحيات شكسبير ، تحسب « قمة الدرامة الكلاسيكية »

ان حماسة الروس الثورية قد بلغت ، على ما يظهر ، مرتبة الجمود ورقاص الثورة الذي اندفع الى اقصى حدوده في ناحية قد أخذ يرتدُّ الى الناحية المقابلة . وهناك آثار إعياء وخمود بادية في جميع مسالك الحياة . فالنزعة الى مواجهة الحقائق اليومية أخذت تحل محلَّ الحماسة الثورية

وكذلك يمكن ان يقال ان الثورة البولشفية قد بلغت المرتبة التي تلتهم فيها الثورة أبناءها — اي الافكار والمنشآت الثورية — بل ومبدعي تلك الافكار والمنشآت . وليس ذلك بالغريب. فالتحوُّل من الثورة والانحراف عن سبيل الشيوعية المستقيم الى مسالك « القومية البولشفية » ، ما كان يمكن ان يتم بغير نزاع عنيف ، عام وخاص . وقد كان شبان الشيوعيين في مقدمة الذين بعثوا بأسئلتهم الى مكاتب الصحف ، لانهم على ما قالوا عاجزون ان يفهموا مغزى الكلام على الثقافة القومية حالة انهم نشأوا ورسخ في أذهانهم مقتهم واحتقارهم للثقافة الخاصة بالماضي . ثم ان الانصراف عن السعي الى بث الثورة العالمية، هال بعض اقطابها فاعترضوا عليه . وهذا يفسّر اعدامهم. ان التحول الجديد ، يقتضي ازالة النزعة الثورية من سبيله . وقد أصدر ستالين امره من عهد قريب بفض جماعة البولشفيك القدماء . ومن المفارقات ما يروى الآن، من ان ستالين وهو سكرتير الحزب الشيوعي ينوي ان يقضي على الحزب في شكله الحالي . ومما يلحق بهذه النزعة ، فتور الحكومة

الروسية في استقبال الشيوعيين الاجانب الذين يجيئون موسكو حجاجاً او لاجئين . ان معظم هؤلاء ، يرون في روسيا الحالية ، هيكل احلامهم لا غير

اما اعدام المارشال توخاتشفسكي فلا يمكن ان يفسَّر تفسيراً معقولاً بما تقدم . والذين يعرفونهُ يؤكدون ان تهمة الخيانة والتواطؤ مع اعداء روسيا ، وهي التهمة التي وجهت اليهِ رسميًّا عند محاكمتهِ ، ليس لها ما تستند اليهِ . والراجح انهُ سلك سلكاً معيناً املتهُ عليهِ وطنيتهُ . فالجفاء بين الحكومتين الالمانية والروسية الآن لا صلة لهُ بما بين الشعبين من تنافر في الذوق والطبيعة . ومردُّهُ الى عداءٍ مفتعل بين الفاشستية والشيوعية . ومع ذلك ففي الريخسفهر ، في عهد الريخ الثالث اسوة بعهد الجمهورية ، فريق من الاقطاب من رأيهم الاتفاق مع روسيا . وقد كان توخاتشفسكي في المنصب الذي يمكنهُ من فهم الخطر الذي يتعرض لهُ وطنهُ اذا اضطر ان يحارب دولتين عسكريتين عظيمتين في الشرق والغرب في آن واحد . ولعلهُ حاول حينئذ ان يتصل بذلك الفريق من الريخسفهر الذي يؤيد فكرة التفاهم مع روسيا ، بباعث من شعوره الوطني وادراكه للخطر الذي يحف بروسيا . وليس من المستحيل ان تكون مساعي من هذا القبيل منطوية على فكرة نزاعٍ داخلي او مؤامرة على ستالين . والواقع ان تطور روسيا الداخلي ، الذي وصفناه في ما تقدم كان قد انشأ جوًّا صالحاً لاحداث انقلاب على يد قائد كبير . ولو وقع هذا الانقلاب ونجح لكان من شأنهِ تعزيز النزعة القومية في روسيا . ولكن ستالين علم بما يدور فضرب ضربتهُ القاضية ، وباعدام توخاتشفسكي فقد الجيش الاحمر قائداً من اعظم قواده وأعظمهم جرأة

والآن — هل يطول حكم ستالين ؟ وهل يدوم حكم هتلر ؟ وهل تخرج اوربا سليمة بوجهٍ عام من حرب عالمية اخرى ؟ وهل ثمة امل ما في اجتناب هذه الحرب ؟ انها اسئلة من صنف واحد ، وهي متصلة بعضها ببعض أوثق اتصال . ومن البيّن ان محاولة التنبؤ بما يقع في روسيا متعذّر ، ولا سيما وهي تجتاز ازمة داخلية عنيفة وتحولاً اساسيًّا بعيد المدى . وانما يمكن ان يقال ، ان ستالين قد عزز سلطتهُ بالقوة والبطش ، وانَّ لا ريب في انحرافهِ رويداً رويداً الى ناحية الطريق « البولشفي القومي » بضغط القوى الخارجية التي تهدد روسيا . والبادي للباحثين المجردين عن الهوى الآن ، ان دكتاتورية ستالين اقل تعرضاً للسقوط الآن من ارث لنين — ارث الشيوعية الخالصة والثورة العالمية

ان مقبرة لنين الفخمة لا تزال قائمة في الميدان الاحمر بموسكو . ولكن هل ينبعث منها الآن ، كما كان ينبعث في الماضي ، نور وحي قوي وايمان راسخ ؟ لقد علمنا التاريخ ، ان الانصاب كثيراً ما تفقد تأثيرها في النفوس بانقضاء قليل او كثير من الزمن عليها !

مدرسة عجيبة حيث يتعلم الطلاب
كيف يعيشون وكيف يفكرون

التعليم على قمة جبل

في هذا المقال النفيس ملخص واف لتجربة خطيرة في ميدان التربية وصفها الكاتب الاميركي الكبير لويس اداميك في مجلة هاربرز الاميركية ونقلها عن ملخص الريدرز ديجست محمد سعد فوزي

ليست بلدة « بلاك ماونتين » — أو الجبل الاسود — إلاَّ بلدة جبلية صغيرة يحيط بها الاخدود الازرق الكبير من جهة وسلاسل الجبال الشاهقة من الجهة الاخرى في ولاية كارولينا الشمالية باميركا . وعلى منبسط من شمالها قامت « كلية الجبل الاسود » في بناء على طراز الفنادق الصيفية تملكه جمعية الشبان المسيحية ولا تزال تستعمله الى الآن في شهور الصيف كمعسكر للكشافة الشبان

عندما اجتزت ردهة الكلية لم يكن في نيتي ان امكث فيها الاَّ ما يقضي الزائر العادي — ربما ساعة او بعض ساعة . ولكني بقيت فيها شهرين ونصف شهر ادرس ما يمكن ان يضحى اهمّ المبتكرات الغريبة في تاريخ أميركا الحديث

إن بداءة كلية الجبل الاسود سنة ١٩٣٣ اتخذت شكلاً يصعب تصديقه . ولست ألمح في قولي هذا الى الدكتور جون رايس الذي كانت جامعة رولينس بفيلادلفيا قد طردته لانهُ كان مصدر قلق دائم فيها لما اتصفت بهِ آراؤهُ في التربية والفلسفة من الجرأة والخروج على المألوف ، ولا الى ذلك الفريق من المدرسين الذين ايّدوا رايس وفقدوا بسببه وظائفهم . ولكنني لا ازال اذكر وأعجب بمنظر اولئك الشبان ، وكان عددهم خمسة وعشرين بين شاب وفتاة وهم لا يزالون في العشرين من العمر أعجب بمنظرهم وقد انضموا بملء اختيارهم الى اولئك الاساتذة الثوار في مشروعهم الكبير لتأسيس كلية حين كان كلٌّ يجهل طريقة الابتداء في العمل او على اي اساس من الناحية المالية يقوم

ولقد نجح المشروع . فقد تمكن الطلبة باكتتاب عام من مساعدة اساتذتهم على جمع مبلغ يسير من المال يكفي لاستئجار المكان المذكور عدة شهور وشراء بعض اللوازم المدرسية وتخزين بعض الاطعمة لتكفيهم بضعة اشهر . واحضر كل طالب معهُ وكل مدرس كتبه الخصوصية وجمعوها في غرفة واحدة وسموها « مكتبة الكلية » واتفقوا على ان يقوموا بالاعمال اليدوية فيها بالتناوب . وعند انتهاء السنة الاولى كان كل مدرس قد سحب من « الخزينة » مبلغاً قدره

سبعة ريالات وسبعة وعشرين سنتاً في الشهر اي نحو جنيه ونصف وذلك لشراء الضروريات من ملابس وغيرها . واخذ عدد الطلبة والمدرسين يزداد تدريجاً ويمكن القول ان العدد قد يصل في بحر الثلاث السنوات القادمة الى مائة وعشرين طالباً وطالبة وثلاثين مدرساً ، وهو أقصى عدد يمكن أن تتسع له الكلية في مكانها الحالي

وليس للكلية مجلس امناء ولا مجلس ادارة ولا عميد ولا اي مدير يمكن ان يتدخل في عمل الاساتذة . ولما كان جون رايس هو الذي انشأ هذه الكلية فهو في منزلة المدير ولكن جميع القرارات الخطيرة تصدر من الجمعية التي قوامها بعض المدرسين يختارهم زملاؤهم ومندوب او اكثر عن الطلبة . والكلية عبارة عن دولة صغيرة أساسها الديموقراطية والمساواة التامة فمندوبو الطلبة يقفون على قدم المساواة مع مندوبي هيئة التدريس . والمدرسون يجتمعون مع الطلبة للنظر في مسائل الكلية العامة ومشاكلها كلّ شهر مرة او عند ما تقتضي الحالة عقد هذا الاجتماع

ولقد القيت سياسة التدريس اول الامر على عاتق الدكتور رايس . وترمي طريقته الفلسفية في التعليم الى تخريج شبان ناضجين عقلاً « وعاطفة » وهو يقول في ذلك « إن مهمة المدارس هي تخريج طلبة لا يمتازون بمقدار ما تعلموا فقط ، ولكن بما في استطاعتهم أن يستفيدوا مما تعلموه . وكليتنا تخرج شباناً يعلمون أن الحياة ما هي الا سلسلة تعاون محكمة الحلقات »

وموطن جون رايس في جنوب كارولينا وهو ابن قسيس ويبلغ من العمر الآن نحو سبعة وأربعين عاماً ويتصف بكثير من النشاط الجسمي والعقلي. أما صراحتهُ وإخلاصهُ فلا يرقى اليهما الشك. وهو كثير التعصب لمهنته . ولقد استوقفت نظري شخصيته أولاً وتملكتني حماستهُ ولكنني ارتبت في نظرته المتفائلة الى مشروعه الكبير. ثم استوثقت بعد الدرس والتمحيص من أن طريقتهُ التعليمية لا بد وأن تنال نجاحاً عظيماً في المستقبل القريب

والتعليم في تلك الكلية ينحصر ويتركز في شيء واحد — التجربة والاختبار . فالطالب يجد هناك بغيتهُ من العلوم العادية ومن بينها الموسيقى ودراسة الدراما والفنون الجميلة. وهو مضطر أن يعيش كوحدة في هيئة اجتماعية مشدود عراها . واذا استثنينا اثنين من الاساتذة يعيشان مع زوجتيهما وأولادهما في جناح خاص ، فان باقي الاساتذة يسكنون مع الطلبة في بناء واحد وينامون في عنبر واحد ويقومون بتمريناتهم الصباحية معاً في صحن المدرسة الواسع . ويتناول الجميع الطعام في أوقاته المحددة في حجرة الطعام الكبيرة حيث ينضم اليهم الزميلان المتزوجان مع زوجتيهما والاطفال

وليس في الكلية موظفون . وإذا استثنينا الطباخ ومساعده وخادمين ورجلاً يهتم بالمدفأة

في شهور البرد القارس ، فان الأعمال اليدوية جميعها يقوم بها الطلبة والاساتذة معاً بغير فارق ففي أوقات الطعام يخدم الطلبة الاساتذة دوراً وهؤلاء يخدمون الطلبة دوراً آخر وهلم جرًّا . والطلبة الذين يدفعون أقل من النفقة المقرّرة للكلية أو الذين لا يدفعون شيئاً قط لا يطالب منهم القيام بأي عمل إضافي في خدمة الطلبة الآخرين . والحكمة في ذلك سامية وهي أن الطالب الذي يدفع اقل من غيره يشعر بغضاضة تجرح عزة نفسه اذا خدم طالباً آخر يعرف أنهُ يدفع أكثر منهُ ، ومن الناحية الاخرى فان الطالب الآخر قد يداخلهُ الغرور وتملأ نفسهُ النفخة الكاذبة

***

ويبلغ عدد طلبة المدرسة الآن سبعة وعشرين شابًّا واثنتين وعشرين فتاةً تختلف اعمارهم من الثامنة عشرة الى الخامسة والعشرين. وليس في نظام الكلية ما يحتم قبول الطلبة في سن معينة. والكلية لا تهتم بدرجات الامتياز التي نالها الطالب في المدارس الثانوية بقدر ما تهمها شخصيتهُ ومدى استعداده لتفهم مبادىء الكلية وقبولها. أما شروط الانتظام فاتقان المقدرة على الاستفادة من المعيشة في وسط كوسط الكلية ثم الذكاء النسبي ، وهم يفضلون أن يكون الطالب شجاع الرأي سامي الاخلاق محبًّا للحق مدافعاً عنهُ . وكثيراً ما تقبل الكلية انتظام بعض المصابين بنقص في عقولهم في سلك الطلبة وقصدها من ذلك هو محاولة اصلاح امرهم من جهة ومن الجهة الاخرى اتاحة الفرصة للطلبة العاديين لتعلم كيفية المعيشة والاختلاط مع من هم اقل منهم نموًّا في العقل

ولما كان المطلوب من الطالب هو ان يتعلم كيف يعيش بنفسه وكيف يقرر ما يراه صالحاً لنفسه بنفسه فان الكلية لا تفرض على الطلبة مواد معينة ولكن على الطالب أن يتقدم الى امتحانين الاول عند انتهاء سنتين من دخوله الكلية والثاني بعد أربع سنوات . أما المواد التي يختارها الطالب والطريقة التي يتبعها في التعليم فذلك راجع اليه أولاً وآخراً . وفي امكانه أن يدرس بنفسه وتحت ارشاد مدرس أو يحضر الحصص اليومية المخصصة لباقي الطلبة . ولكن المتفق عليه أن يواظب الطالب على حضور الحصص الدراسية في بدأ دخوله المدرسة . أما بعد ذلك فالعمل كلهُ يقع على عاتقه الشخصي

وطالب القسم الاعدادي في الكلية يجد الفرصة متاحة لتجربة عدة مواد حتى يستوثق من المادة التي يميل اليها اكثر من غيرها . والانتقال من القسم الاعدادي الى القسم العالي يتوقف على الطالب فهو الذي يقرر متى يكون ذلك . وليس معنى ذلك هو ترك الطالب وحبلهُ على غاربه

لان الاساتذة مستعدون دائماً لإسداء النصح الى الراغب فيهِ . اما الطالب الذي يعتقد انهُ أتمَّ دروسه العالية ويريد التخرج فليس عليهِ الاَّ ان يعلن الكلية بذلك في صورة التماس باعطائهِ الاجازة ويكون ذلك مشفوعاً بملخص وافٍ لما يعرف من المواد التي درسها . واذا رأت الكلية بعد استشارة الاساتذة ان الطالب يستحق اجازته فانها تدعو بعض المبرزين في هذه المواد من الخارج لامتحانهِ

أما في أيام العطلة الصيفية فيذهب الطلبة الى منازلهم وفي آذانهم يدوي صوت أساتذتهم وهم يحثونهم على زيارة المنشآت الصناعية المختلفة والامتزاج بالبيئات السياسية والاجتماعية ويطلب منهم عند رجوعهم كتابة التقارير المفصلة عما شاهدوا وتعلموا

ولعلَّ أغرب ما شاهدتهُ في الكلية هو تعاون الاساتذة والطلبة وامحاء الفوارق بينهم امحاء تامًّا . فلقد شاهدت الاساتذة يشتركون مع الطلبة اشتراكاً فعليًّا في جميع الاعمال التي تتطلبها الحياة اليومية في الكلية من غسل الصحون ومسح الارض الى قطع الخشب واصلاح الطرق وتمهيد ملعب « التنس » وغير ذلك

ويتمتع طالب كلية « الجبل الاسود » بحرية قلما يتمتع بها طالب آخر فله الحق كل الحق في ان ينحي على أعمال مدرسيه بالنقد كما ينقد هؤلاء أعماله . ولهُ مطلق الحرية في ان يقول ما يشاء عن أي شيء في اي وقت شاء مع تحمل العواقب بالطبع . ويحضر بعض الاساتذة — ومن بينهم جون رايس نفسه — بعض الفصول كطلبة ويجلسون مع الطلبة ولا فارق بينهم مطلقاً

ومعظم دراسات الكلية تتم خارج الفصول . وكثيراً ما رأيت الطلبة يجتمعون فرقاً فرقاً في صحن المدرسة ورايس ينتقل بينهم فهو هنا يشرح مسألة صعب فهمها وهناك تراهُ جالساً كطالب مؤدبٍ عادي ثم هو هنالك يناقش الطلبة في مبادىء الكلية وأغراضها . او في مشكلة اجتماعية او سياسية . وأحياناً ينضم جميع الطلبة والاساتذة لمناقشة احدى المسائل العامة ويوالون النقاش اثناء تناول الغداء والعشاء وكثيراً ما تمتد المناقشة الى وقت متأخر من الليل فيتفق الجميع على ارجائها الى الغد حيث يستعد كل فريق بحججهِ وادلته الى ان يصلوا الى القرار الاخير

وقد تكون اهم اغراض الكلية هي اعداد الطلبة لمواجهة الحياة الصحيحة بعزم وشجاعة وتخريجهم خبيرين بالطبيعة البشرية رجالاً ونساء يعتمدون على انفسهم ولا يقعون في حياتهم في اخطاء في زيجاتهم او علاقاتهم الشخصية بغيرهم او ما اشبه ذلك او تكون اخطاؤهم في ذلك أقل من اخطاء غيرهم . وبيئة الكلية تظهر نفسية الطالب تماماً فيراهُ الجميع على حقيقته كما

يرى هو قرارة نفسه في وضوح وجلاء وربما لم يكن يعرف ذلك من قبل . والطالب الذي يريد ان يخدع نفسه يجد الفرصة مؤاتية له فليس هناك قوانين ولا لوائح . ولكنه لا يلبث طويلاً حتى يرى الفرق بين سلوكه وسلوك اخوانه الطلبة فان النقد الذي تقابل به اعماله تجعله يخجل من نفسه ، وهو نقد خال دائماً من الغرض او اللذع الاليم . والرغبة في مساعدة الغير متوافرة ودائمة وقوية ونبيلة . والطلبة القدماء يحاولون جهدهم تقويم اخلاق الزميل الجديد واصلاح اعماله

***

ومن المواد الاساسية التي يدرسها الطلبة في الكلية دراسة الدراما والروايات التمثيلية وهي ذات فائدة عظيمة كما سيجيء بعد . ويقوم الطلبة مع الاساتذة بتأليف خمس روايات تمثيلية كل سنة وتمثيلها واخراجها . وفي ذلك يقول جون رايس :

« غايتنا — إذا أردتَ مثلاً — أن نظهر شاباً ممتلئاً نفسه غريزة الطغيان في دور الطاغية حيث يرى عواقب طغيانه واضحة جلية . ونحن نخلق للفظ دوراً يناسبه وللغني عملاً يؤديه . ومن الناحية الاخرى فنحن نعين للطلبة أدواراً تخالف طبيعتهم كل المخالفة فالطالب الغني يقوم بدور رجل قد هدّه الفقر وحطمه . ونضع الفتاة الفقيرة في مقام امرأة غنية تعسة . أما دور الشاب الخائر المتشكك فيوحي اليه معنى الكفاح في الحياة ولذة النصر ويريه كيف يموت المرء راضياً دفاعاً عن مبدإ إعتنقه . . »

وموارد الكلية محدودة وهي لا تكاد تكفي لإنهاء العام الدراسي . وربما يأمل الجميع ان يهبط عليهم ذات يوم ملاك من السماء ويرميهم بمائة الف جنيه فهم في اشد الحاجة الى مكتبة عصرية كاملة ومعدات كثيرة . ولكنهم في الحقيقة يخشون الغنى المفاجيء ويفضلون حالتهم الحاضرة مع ما فيها من عنت . ولا يقبل أحد منهم ان يتقدم لتمويلهم غني ما اذا عنّ له املاء شروط خاصة على إدارة الكلية

قد تكون عظمة الكلية في الوقت الحالي أنها محاولة لا تزال في المهد ولكن الفكرة فيها على كثير من السمو . ويفكر كثيرون من خريجي الكلية في انشاء فروع اخرى على غرارها في أنحاء الولايات المتحدة . والسائد انه في نهاية العام الدراسي الحالي يكون لدى الكلية هيئة تدريس تصلح مع من ينضم اليهم من الطلبة القدماء كنواة لانشاء فرع جديد . وأنا اعتقد اعتقاداً جازماً ان عشرين كلية من ذلك الطراز تضم كل منها مئة وثلاثين طالباً وثلاثين مدرساً في امكانهم ان يقلبوا طرائق التعليم الحالية رأساً على عقب . وأعتقد ان الف طالب يتخرجون منها يمتد اثرهم الى جميع المرافق في حياة العالم الجديد

الخدمة الاجتماعية

افتتاح مدرسة لها في القاهرة

— ١ —

زكاة الثقافة والعلم والنبوغ

خطبة الاستاذ محمد العشماوي بك

وكيل وزارة المعارف

طالما تمنيت ان اقف مثل هذا الموقف بعيداً عن دائرة عملي الحكومي ، في ميدان حر ، ارحب بمشروع حر كهذا المشروع الذي نحتفل به اليوم . لذلك احمد الله ان هيأ لي هذه الفرصة التي اتاحت لي ان ابدي عظيم الاعجاب بهمة هؤلاء العاملين الذين اخرجوا هذه المؤسسة ، معتمدين على انفسهم وعلى الجمهور ، يستمدون منهُ نشاطهم وقوتهم ، ثم يعكسون عليهِ ما استمدوه منهُ ، فيهيئونهُ للاعمال الصالحة ، ويرشدونهُ الى انجع وسائل التربية والثقافة والاحسان

وبمثل هذه المجهودات المثمرة يهيأ الشعب للاشتراك الفعلي في الميادين الاجتماعية . وأقوم سبيل للوصول الى هذا الغرض هو ان يتولى المفكرون ارشاد الناس الى اتباعهم والاهتداء بهديهم . وأعتقد ان للمجتمع كل الحق في مطالبة هؤلاء المفكرين بتقديم جزء من تفكيرهم وثقافتهم للجمهور وهذا الجزء هو الزكاة التي يجب ان يؤدوها لمواطنيهم مما اكتسبوه من ثقافة وعلم ، وما حباهم بهِ الله من تفكير ورأي

واني لأعلم انهم يفرضون في بعض البلاد على كل صاحب عمل منتج ان يخصص جزءاً من جهوده ، بدون مقابل ، للاعمال العامة التي تعود بالنفع على المجتمع : وهذا هو ما اسميهِ بزكاة الثقافة والعلم والنبوغ ، وهي لا تقل شأناً عندي عن زكاة المال

ولعل اهم هذه الجهود : وخصوصاً في مصر ، هو ما يبذل منها في سبيل اصلاح المجتمع . واول خطوة في هذا السبيل هي تنظيم الخدمة الاجتماعية

لعلَّ الكثيرين يتساءلون عن ماهية الخدمة الاجتماعية ، وافضل تعريف اطلعت عليهِ هو تعريف وضعه مؤتمر دولي عقد في السنوات الاخيرة لبحث وجوه هذه الخدمة ، ففسرها بانها هي مجموع الجهود التي يقصد بها تقديم المعونة في النواحي الآتية : —

١ — تخفيف الآلام التي تنشأ عن البؤس : وهذه الناحية يمكن ان يطلق عليها ناحية « الخدمة الملطفة »

٢ — وضع الاشخاص والاسر في ظروف طبية تلائمهم : وهذه الناحية هي ناحية « الخدمة الشافية »

٣ — منع وقوع الويلات الاجتماعية : وهذه هي ناحية « الخدمة الوقائية »
٤ — تحسين حال المجتمع ، ورفع مستوى المعيشة : وهذه هي ناحية « الخدمة الانشائية»

فتلطيف اثر المصائب ، وشفاء الاشخاص مما ينتابهم من العلل ، ووقاية المجتمع من الخطوب ، وانشاء النظم التي تحسن حالته وترفه عنه : تلك هي اغراض الخدمة الاجتماعية

ولأضرب لحضراتكم مثلاً تظهر فيه هذه الاغراض : تصوروا الفلاح وهو عماد المجتمع المصري ، اذا اصيب بمرض خطير يقعده عن كسب الرزق له ولعياله : هنا تتدخل الخدمة الاجتماعية لتقدم لاسرته الطعام والشراب والمسكن وما اليها ، وهذه هي « الخدمة الملطفة ».ثم يجب ألاَّ يهمل علاجه ، وان يوفر له ما يحتاج اليه من دواء حتى يشفى ويستطيع ان يستأنف عمله : وهذه هي « الخدمة الشافية » . ثم اذا شفي من مرضه ، وجب ان تدبر له ولاولاده معيشة صحية تقيهم شر الوقوع في الامراض مرة اخرى : وهذه هي « الخدمة الوقائية » . ثم يجب ان تهيأ لهذا الفلاح وامثاله نظم معينة لضمان راحتهم وهناءتهم ، وان يوفر لهم ما يحتاجون اليه من ثقة وتسلية ورياضة وما الى ذلك : وهذه هي « الخدمة الانشائية »

هذا بعض ما يمكن ان تؤديهُ الخدمة الاجتماعية . فهلاَّ ترون حضراتكم ان بلادنا في أمس الحاجة الى أيدٍ كثيرة تقوم بهذه الخدمة في مختلف المرافق ؟

ضربت لحضراتكم مثلاً بحاجة الفلاح اليها . ولقد خطر هذا المثل ببالي لاشتراكي في بحث مشروع المجموعات القروية الذي اقترحه حضرة صاحب العزة الدكتور عبد الواحد الوكيل بك احد أعضاء مجلس ادارة الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية ، التي تحتفل اليوم بافتتاح مدرستها

أخذت أفكر اثناء دراستي لهذا المشروع الجليل ، الذي قصد بهِ تحسين حال الفلاح ، فيما يحتاج اليه من أيد عاملة ، لان نجاحه يتوقف على الجهود التي يبذلها اعضاء المجموعة التي تباشر تحسين حال القرية . ويجب ان تتضمن كل مجموعة عاملاً اجتماعيًّا ، فكم من مئات من هؤلاء الاجتماعيين تحتاج اليهم بلادنا للاشتراك في رفع مستوى القرية من الناحيتين المعنوية والمادية .وكم كنت اود لو أتيح لعمد البلاد نصيب كبير من الثقافة الاجتماعية يمكنهم من المساهمة في هذا الاصلاح

واذا تركنا الفلاحين ونظرنا الى العمال او المجرمين من احداث وكبار او الى اللقطاء والمتشردين او الى الطبقات الفقيرة بصفة عامة ،وجدناهم جميعاً في حاجة كبيرة الى من يلطف ادواءهم ثم يشفيهم منها ويقيهم من الوقوع فيها مرة أخرى ثم ينشىء لهم نظاماً ثابتاً وحياة رغدة هانئة

وليس افراد الشعب فقط هم الذين يحتاجون وحدهم الى الخدمة الاجتماعية بل ان كثيراً من الهيئات والمرافق العامة كالمستشفيات والملاجىء والمدارس ، في مسيس الحاجة الى طائفة من الاخصائيين الاجتماعيين لينهضوا بمستواها ويحققوا لها الوصول الى الغرض الذي أنشئت من

أجله . على ان هذا العمل لا يمكن ان يؤدَّى على وجهه الاكمل الاَّ اذا درست أساليبه الصحيحة دراسة علمية . وهذه هي الدراسة التي من أجلها تنشأ مدارس الخدمة الاجتماعية في الامم المتمدينة

واني لأرجو ان تقوم المدرسة التي نحضر اليوم افتتاحها الرسمي بما نؤمله فيها من تخريج اخصائيات واخصائيين في الشؤون الاجتماعية يسدون النقص الكبير الذي نشعر به الآن في الميدان الاجتماعي . وانتهز هذه الفرصة لاوجه نظر الشابات والشبان الى هذا المجال الفسيح ، ففي الاشتغال به ما يقلل البطالة ويوفر عملاً شريفاً نافعاً لطائفة كبيرة من المتعلمات والمتعلمين

ولم يفت وزارة المعارف ما للدراسات الاجتماعية من كبير شأن في المجتمع ، فأوفدت بعثة منذ سنتين الى اوربا لهذا الفرض وهي تفكر الآن في ايفاد بعثات اخرى . كما انها عملت على انشاء عيادة نفسانية (سيكولوجية) في معهد التربية لمعالجة الاطفال الشواذ بمدتين اسباب شذوذهم وهذه ناحية هامة من نواحي الخدمة الاجتماعية المدرسية . كما انها تدرس الآن مشروع انشاء معهد خاص بالشواذ وذوي العاهات . وما كادت تعلم بتأسيس الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية وقيامها بانشاء مدرسة للخدمة الاجتماعية ، حتى رحبت بهذا المشروع الجليل كل الترحيب

ويسرني أن اعلن اليوم ان الوزارة لم تقتصر على الترحيب الادبي ، بل شفعتهُ بتشجيع مادي ، إذ قررت منح الجمعية هذا العام مبلغ ٣٠٠ جنيه لاعانتها على القيام بسد بعض نفقاتها وشراء ما تحتاج اليه من كتب في الشؤون الاجتماعية . كما قررت ان تدرج لها في الميزانية مبلغاً ثابتاً يمنح لها سنويًّا . وستنظر الوزارة في تقدير « الدبلوم » التي تمنحها المدرسة ، كما ستنظر ايضاً في وضع نظام لتفضيل الطلاب الذين يتمون الدراسة بهذه المدرسة ، وتتوافر لهم المؤهلات المطلوبة في شغل وظائف الاشراف على النواحي الاجتماعية في المعاهد والملاجىء وفي تلقين الطلبة بعض الموضوعات المتصلة بالدراسات الاجتماعية . كذلك وافقت الوزارة على تمكين طلبة معهدي التربية للبنين والبنات وطالباتهما، وبعض المدرسين والمدرسات المشتغلين بالنواحي الاجتماعية من حضور مقررات المدرسة كلها او بعضها مقابل رسم تدفعهُ الوزارة عنهم لهذه المدرسة . ولم تخط الوزارة هذه الخطوات الاَّ بعد أن تبينت حاجة البلاد الى تشجيع هذا النوع من الدراسات ، وبعد أن اطمأنت الى ما تبذلهُ هذه المدرسة مع حداثة عهدها من جهد كبير في سبيل اداء مهمتها ، وما يسودها من نظام

وانهُ ليسر الوزارة أن ترى أن الجامعة المصرية لم تبخل على هذه المدرسة بالتعضيد فقدمت لها كلية الطب مكاناً للمحاضرات والمكتبة وها نحن الساعة نرى هذا التعضيد ظاهراً في إقامة هذا الاحتفال في قناء الكلية . ولا يفوتني أن انوه في هذا المقام بما قام به حضرة صاحب المعالي احمد نجيب الهلالي بك من جهود جبارة موفقة في سبيل الاصلاح الاجتماعي في مصر

وها هي الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية ومدرسة الخدمة الاجتماعية ورابطة الاصلاح الاجتماعي وغيرها : كلها أمثلة حية ، تنطق بفضله العميم في الميدان الاجتماعي

واني لأحيي هذه الروح الاجتماعية في معاليه وفي كل من اشترك معهُ في هذه الاعمال الجليلة ، وأرجو أن تكون المدرسة التي تفتتح اليوم نواة طيبة لامداد المجتمع المصري بايد عاملة رشيدة تعمل على اصلاحهِ وتخفيف ما ينتابه من ويلات ودرء ما قد يتعرض له من اخطار

وانهُ لفأل حسن أن تفتتح هذه المدرسة في مستهل هذا العهد السعيد الذي تستعيد فيهِ البلاد شبابها اذ يتسنم عرشها مليكها الشاب المحبوب جلالة مولانا المعظم فاروق الاول حفظهُ الله ورعاه فتستمد منهُ روحاً فتية وعزماً قوياً للسير الى الامام جعل الله عهد مليكنا المعظم عهداً مديداً سعيداً ينعم فيهِ المجتمع المصري ، بكل طبقاتهِ باوفر السعادة والرفاهية وتبلغ فيهِ حياتنا الاجتماعية اسمى درجات الكمال

—٢—

تاريخ مجيد وأغراض نبيلة

للسيدة انصاف حرم الدكتور منصور فهمي بك

لقد شرفتني الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية ، فرأت أن أتحدث اليكم في افتتاح اول معهد بالقاهرة للخدمة الاجتماعية . واني انتهز هذه الفرصة لأحييكم أطيب تحية ، وأشكر لكم تلبية دعوتنا ، اذ حضرتم لهذا الحفل المبارك حرصاً على المساهمة في الاعمال النافعة التي تعود على الوطن وبنيه بالخير فجزاكم الله خير الجزاء

ايها السادة : ان الشعور بما تحتاج اليهِ الامم من اصلاح ، والرغبة الصادقة في القيام بالخدمات الاجتماعية ، لا يكونان الاَّ في الجماعات الراقية التي يسودها روح التعاون والتكافل ، ولا تسود هذه الروح الاَّ حيث تتجلى الصفة الانسانية في اروع مظاهرها واجلاها . فالامم التي تروج فيها الدعوة للتعاون بين الافراد لترقية شؤونهم وتخفيف آلامهم تعتبر بحق في مصاف الامم الحية الراقية

سادتي : ان البلاد التي نحذو حذوها في ميادين التقدم قد سبقتنا الى الاهتمام بامر الخدمات الاجتماعية ، والى انشاء معاهد تعد الخبيرين بهذه الخدمات . وان نظرة عجلى الى تاريخ الخدمة الاجتماعية تبين لنا ان النهضة تنشأ في اول امرها صغيرة تقوم على جهود نفر من الغيورين ، وتبدو كالدائرة الضيقة تتسع بمقدار ما تجد من تأييد الاعوان وانضمامهم اليها ، وبمقدار ما تنتج من صالح الأثر ، حتى يشمل محيطها الامة جميعاً

ففي البلجيك من نحو اربعة قرون شعر المصلح الاجتماعي البلجيكي جان لويس فيف بحاجة المجتمع الذي كان يعيش فيهِ الى المعونة ووسائل الاصلاح ، فاهتم بشأن الاسرة ووجه اول

خدماته اليها ، لانها اساس المجتمع ودعامته ، تخصص لكل حي من احياء المدينة مندوبين يتفقدون احواله ويقفون على ما يعوزه من وسائل الاصلاح ، فيحصي الفقراء وتعرف اسباب عوزهم رغبة في النهوض بالاسر ماديًا وصحيًا وخلقيًا . ولقد جرت هذه البداءة وتطوراتها الى أن أنشئت في مستهل القرن العشرين ثمانية معاهد للخدمة الاجتماعية يتخرج فيها الخبيرون وتعتمد الحكومة شهاداتهم

وفي فرنسا من نحو ثلاثة قرون نشر الراهب الفرنسي « سان فنسان دي بول » دعوته لاعمال البر والاحسان بين سيدات الطبقة الراقية للمساهمة في تفقد شؤون البائسين ومد يد المعونة اليهم ، فانتشرت هذه الدعوة وصادفت من نفوس المتطوعات الخيرات قبولاً واقبالاً . ترتب على ذلك أن أسس هذا الراهب نظاماً لجماعات المنقطعات من الراهبات اللائي وقفن حياتهن على عمل الخير والاحسان وسميت جمعياتهن العديدة المنتشرة في انحاء العالم باسم ذلك الراهب العظيم . ولم يمض بعد ذلك زمن طويل على تأسيس جمعيات الخير النسوية حتى امتدت الدعوة الى الرجال كذلك لتأسيس جمعيات شبيهة اسدت الى المجتمع خدمات مشكورة . ولما حلت الثورة الفرنسية ثبتت في فرنسا تنظيم أعمال البر حتى أصبحت لا تخلو ناحية في هذه البلاد من مؤسسة تقوم بحاجات المعوزين من أهلها ممن لا قدرة لهم على العمل ، وبحاجات الارامل واليتامى وأبناء السبيل الى غير ذلك من اعمال البر

ولقد تنبهت انجلترا في مستهل القرن التاسع عشر الى ما للخدمات الاجتماعية من طيب الاثر فسنت قوانين تبيح لفقراء كل حي ان يلجئوا الى كنيسة ذلك الحي لطلب المعونة والارشاد ثم ظهرت المصلحة الاجتماعية فلورانس نيتنجيل تحفزها الشفقة على المرضى الى العناية بأمر اعداد الممرضات والى تحسين ادارة المستشفيات ، وعلى الجملة الى تنظيم كل عمل يخفف وطأة الآلام

وقام « كانون بارنت » ومعه طائفة من الجامعيين المثقفين الصادقين ، فاستوطنوا أفقر أحياء لندن من طرفها الشرقي وانبثوا في غمار الشعب يهذبونه ويشغلونه في أوقات فراغه ، وذلك لكي يرفعوا مستوى الحي من جهة الاخلاق ومن جهة الصحة والآداب وبعد ذلك أخذت حركة الخدمة الاجتماعية تخطو خطوات واسعة ، فأنشئت لها ادارة ومعاهد خاصة ، وألحقت هذه المعاهد بالجامعات . وفي أميركا قام المصلحون في بعض الولايات بإنشاء المؤسسات الاجتماعية ، وكان من اظهر البارزين في تنظيمها جوزفين شولول المصلحة الكبيرة ، وتعددت هذه المؤسسات حتى بلغت الالف . ثم في اوائل القرن العشرين انشئت في مدينتي نيويورك وبوستن مدارس للخدمة الاجتماعية مستكملة الدراسة . وتدل الاحصاءات على ان عدد مدارس الخدمة الاجتماعية يبلغ خمساً وثلاثين مدرسة فيها نحو ٥٢٥٩ تلميذاً وتلميذة ، ومع ذلك فان عدد المتخرجين من هذه المدارس هو دون حاجة البلاد وحاجة الناس الى الخدمات

ولنكتف الآن أيها السادة بذكر ما تقدم من الشواهد خوف الاطالة والاً فهناك بلاد أخرى كألمانيا والسويد وسويسرا وايطاليا واستراليا وكندا واليابان وغيرها مما نرجو ألاً تكون البلاد العربية وبخاصة مصر دونها حظاً في هذه النهضة الانسانية . وان لنا نحن الشرقيين في الفاروق عمر بن الخطاب وعنايته بالفقراء والمساكين وتفقده بنفسه احوالهم اسوة حسنة وذكرى مشرفة . فان سيرة هذا الخليفة العظيم وسيرة أصحابه في اعمال المؤاساة ومقاومة الأثرة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر لما تفخر بها صفحات التاريخ في الاعمال الاجتماعية والصفات الانسانية الخالدة. وان النظم الاسلامية في تطورها قد استنت السنن الصالحة في سبيل الخدمات الاجتماعية ، فكان في سلف المسلمين ومن نحا نحوهم من يحبس الاموال بكرم لمؤاساة ذوي العاهات أو يقفها لانشاء المستشفيات والمطاعم أو لتسبيل الماء وتيسير الانتفاع به او للبر بالحيوان وغير ذلك مما كان يسجل في الاوقاف . ولم يعدُ كل ذلك الخدمات الاجتماعية فلها اذاً في تقاليدنا تاريخ مأثور وأثر مشكور

أيها السادة : ان اللمحة التي قدمتها في تاريخ الخدمة الاجتماعية تريناً ان كثيراً من أعمالها كان نتيجة لجهود ذوي المبادىء السامية الذين تدفعهم رغبتهم في الاصلاح الى التضحية براحتهم في سبيل تحقيق هذه المبادىء. وانه ليسرني أن اعلن بأن العنصر النسوي كان له فضل عظيم في هذه النهضة وجدير بهذا العنصر أن يواجه مستبسلاً حاجة الخدمات الاجتماعية ويتحمل أعباءها، فليس من شيء اقرب الى قلب المرأة الصالحة من اعمال البر. وليس من شيء ادنى الى طبيعتها من العمل لمواساة الغير. وليس من شيء اشد تقريباً لها عند الله ، وأشد تأثيراً في تدعيم السلام من امومة المرأة وعملها في تربية جيل صالح ينطبع على بذل التعاون ، وبث روح المحبة وعمد اسباب السلام . وانهُ ليزيدني غبطة ان ارى بعصر الآن عدداً من المؤسسات الخيرية كان للمرأة في نجاحها اكبر الأثر . وها هو ذا عدد السيدات اللاتي يعملنَ الخير لمجرد الخير آخذ في الازدياد . واني وان كنت ارى أن اعمال الخدمة الاجتماعية تحتاج الى جهود مشتركة من الرجال والنساء معاً ، الاَّ ان المرأة يجب ان تكون اسبق من الرجل في ميدان هذه الخدمة ، لما وهبها الله من حسن الاستعداد لذلك ، فهي التي تستطيع ان تطمئن اليها ربات المنازل ليفضينَ اليها بهمومهنَّ ، وهي التي تجنح اليها الفتاة البائسة لبثها الشكوى وتدلي اليها بآلامها وأحزانها ومنازعها ، وهي التي يسهل عليها ان تتغلغل في صميم الاسر لتبحث وتنقب وترشد وتدعو للاخلاق وللتوفيق واشد اواصر الاسرة . واني اهيب بالسيدات المصريات ان يساهمنَ في نواحٍ من الخدمات الاجتماعية الميسورة الشريفة التي لا تضيع حق منازلهنَّ ففي اعمال البر متسع لمن يريد العمل . واني الح في رجاء كل ام لتبث الهدف على البائسين في نفوس اولادها منذ الصغر ، حتى تهيء بذلك المجتمع

جيلاً جديداً تتضاءل فيهِ نزعات الانانية ويسهل عليهِ أن يعمل للخير العام

ايها السادة : ان النهضة المصرية العامة تناولت في هذا العصر الحديث عدة نواح في الاصلاح بفضل جهود الموفقين من ولاة الامور وبفضل الغيورين من ابناء مصر على مصلحة البلاد . لكن مهما بلغت بلادنا من الرقي في النواحي الاقتصادية والصناعية وغيرها فان بعض النواحي الاجتماعية عندنا لا يزال في طور نشأته الاولى ، وفي مقدمتها رعاية الطفولة والامومة ، ورفع مستوى الاسرة وتوطيد اركانها وتقوية روابطها ، والعناية بذوي العاهات ، والنظر في ادوار المراهقة ومشكلاتها ، وحماية الفتيات والفتيان من المفاسد والمغريات ، وتنظيم اوقات الفراغ . وما شاكل ذلك من وجوه الاصلاح مما يحتاج الى العاملين الصادقين . على ان العمل في هذه النواحي جد خطير ، وذلك لاتصاله بالنفوس البشرية المختلفة في ادق الحالات واحرج المواقف ، فهو من الاعمال التي تتطلب خبرة وصفات خلقية سامية ، في مقدمتها ان يكون المرء صبوراً ، قادراً على ضبط نفسه ، محبًّا لاخيهِ الانسان مضحياً بوقتهِ وجهده في اسعاد غيره ، وان يجد في بذل الخدمات غبطة وارتياحاً ، وبجانب هذه الاخلاق يجب ان يكون ملمًّا بنوع من الدراسات تتفق وطبيعة الخدمات التي يؤديها ، كدراسة علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الصحة وطبائع الطفل وعلاج الشذوذ واسباب الاجرام والتشرد والبطالة وغير ذلك من الوسائل الثقافية التي تعينهُ على اداء ما يضطلع بهِ من الخدمة في الجماعة التي يعيش فيها

ولايجاد الاخصائيين الاجتماعيين الذين يمكن ان تستفيد بجهودهم البلاد على الوجه الصحيح فيما هو قائم الآن من المؤسسات الاجتماعية ، وفيما نأمل ان ينشأ منها في المآل ، اعتمت الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية ، بانشاء المعهد الذي نفتتحهُ اليوم رسميًّا . ولحضرة صاحب المعالي الاستاذ احمد نجيب الهلالي بك يد تذكر فتشكر على هذا المشروع الجليل بما بذله معاليه من جهود في توجيهه التوجيه الصحيح . كما اننا نسدي الشكر لمن ساهم فيهِ من حضرات اصحاب المعالي والسعادة والعزة المتبرعين وصاحبات العصمة المتبرعات من مصريين واجانب

اما بعد ، فاسمحوا لي ايها السادة ان اذكر الآن نبذة قصيرة عن المعهد الذي اجتمعنا اليوم لافتتاحهِ :

بدأت الدراسة فيهِ في اليوم السادس عشر من شهر اكتوبر سنة ١٩٣٧ ، وروعي في اختيار طلبتهُ ميلهم للخدمة الاجتماعية واستعدادهم لتلقي الدراسات المتصلة بها . وبالمعهد ٦٤ طالباً وطالبة من الحاصلين على شهادة الدراسة الثانوية (قسم ثان : البكالوريا) واكثرهم من الموظفين المشتغلين بقسم التعاون بوزارة الزراعة ومصلحة المساحة والسجون ومن الجوالة ومن الآنسات المثقفات . وهؤلاء الطلبة وإن كانوا من بيئات مختلفة الاَّ انهم يجتمعون على غاية واحدة

هي اعداد انفسهم للنهوض بمصر وان الروح السامية السائدة بين هؤلاء الطلبة لجديرة بالتشجيع ويقوم بالقاء المحاضرات اخصائيون واخصائيات في المواد التي يدرسونها ، وكثير منهم من اساتذة الجامعة ومدرسيها ومن كبار رجال التعليم بوزارة المعارف . ومن مميزات هذا المعهد انهُ يعمل على دعوة الاخصائيين البارزين في الشؤون الاجتماعية من الزائرين الاجانب ومن المصريين لالقاء المحاضرات العامة . ولكي يتوافر لطلابه الجو العلمي الملائم والمتاحف والمعامل التي تضمن مستوى عاليًا من الثقافة والتحصيل ، رئي أن يلجأ الى كلية الطب . وقد تفضل عميدها حضرة صاحب السعادة الدكتور علي ابراهيم باشا فاذن في ذلك

ويستفاد للمعهد من مكتبة كلية الطب . ومما عني باستحضاره من الكتب الاجتماعية والنفسية والنشرات الدورية المستصدرة من الخارج للفائدة الدراسية . ويعنى المعهد بالناحية العملية من الدراسة كعنايته بالناحية النظرية ، فخصصت ثلاثة شهور من العام الدراسي لتدريب الطلاب تدريباً عمليًا في المؤسسات الاجتماعية على اختلاف انواعها

بالمعهد روح قوية مستمدة من حضرة العميدة السيدة رتا كال فهي الاخصائية في العلوم الاجتماعية وهي لا تألو جهداً في العمل على رفع شأن هذا المعهد وتوطيد دعائمه

سيداتي . سادتي : ذكرت لكم نبذة قصيرة عن اول معهد للدراسات الاجتماعية نشأ في مصر ، ويسرني انه اول معهد من نوعه في البلاد العربية ، وان في بوادر نشأته ما يبشر بنجاحه ولربما يباح لنا ان نتطلع الى امل مشروع ، ذلك ان تهيء الحكومة ادارة قوية منظمة لرعاية الخدمة الاجتماعية اسوة بالحكومات التي اضطرتها شؤون الحياة العصرية الى تنظيم الجهود وتتبع مشاكلها . ولعلَّ الحكومة اذا هي حققت في يوم من الايام ما نأمله ونتمناه تجد في خريجي معهدنا ادوات صالحة ينتفع بها في مختلف نواحي الاصلاح كالمدارس والمعاهد الخيرية والملاجيء ومراكز رعاية الطفل والاصلاحيات ومحاكم الاحداث الى غير ذلك

ايها السادة : ان كل رعاية لشؤون المجتمع البشري هي رعاية اسمى من ان تمسها اختلافات الاجناس او العقائد او الآراء ، اذ في طبيعة الاصلاح الاجتماعي ما يربط بين الناس جميعاً ، مهما اختلفت الوانهم وتباينت اجناسهم

وهل لنازع الخير ومذاهب الاحسان حدود في الارض تحدها او حواجز بين الناس تصدها وتردها ! لا حد للاعمال الانسانية الخيرية الا عند مرضى القلوب وصغار الاحلام ألا ان مبعث هذه الاعمال صفاء النفوس ومبدأها عظمة الهمم . ألا ان مردها واسع الرحمات ومنتهاها الى رافع السموات . اسأل الله تعالى ان يحقق آمالنا الخيرية في ظل حضرة صاحب الجلالة المرتجى لخير البلاد فاروق الاول ايده الله



عمر القمر

وموعد الاحتفال بزواج جلالة الملك المعظم

طالما وجدنا من ألزم اللزوميات معرفة عمر القمر في اي وقت نريد لنهتدي بوجوده في ظلمات البادية او لنذهب على ضوئه ليلاً الى كوخنا وهو «يبعث النور في الظلام دليلاً»

ومن محاسن الصدف اني وجدت طريقة مختصرة ظريفة سهلة يمكن حفظها بسهولة يعرف بها عمر القمر ليس في اول السنة فقط كما هو الحال في نظام ال (Epacts*) لا بل في أي يوم من ايام السنة الافرنكية . واعترافاً بالفضل لذويه أقول انها للعالم الفلكي الانكليزي جورج فوربس (George Forbes) جاءت في كتابه The Wonder & The Glory of the Stars) وهذه الطريقة تتلخص فيما يلي:—

« أضف عدد اليوم الى عدد الشهر الى عدد السنة الى العدد واحد واقسم المجموع على ٣٠ ثلاثين الذي هو اقصى عمر القمر فالباقي يكون هو عمر القمر في التاريخ المعلوم المراد معرفة عمر القمر فيه مع العلم ان :—

(١) عدد اليوم هو تاريخ اليوم من الشهر

(٢) عدد الشهر هو العدد الوارد ازاء اسم الشهر في الجدول الآتي :—

الشهر	العدد	الشهر	العدد
يناير	٠	يوليه	٤
فبراير	٢	اغسطس	٦
مارس	٠	سبتمبر	٧
ابريل	٢	اكتوبر	٨
مايو	٢	نوفمبر	٩
يونيه	٤	دسمبر	١٠

(٣) عدد السنة يستخرج هكذا :

اعتبر ان سنة ١٩١١ تساوي صفراً وكل سنة بعد ذلك يطرح منها العدد ١٩١١ ويضرب الباقي في ١١ ويقسم المجموع على ٣٠ فيكون الباقي هو عدد السنة ويستمل طول ايام السنة

واذا اختبرنا هذه القاعدة بمضاهاة نتائجها على ما هو وارد في التقاويم السنوية وجدنا انها مضبوطة تماماً مع فرق يوم واحد في بعض الاحيان . ولنضرب لذلك مثلاً فنقول ما هو عمر القمر في يوم ٢٠

(١) ال Epacts عبارة عن عمر القمر في اول يوم من السنة الافرنكية او هو عدد الايام التي بها يسبق مولد القمر الجديد مبدأ السنة الافرنكي

يناير سنة ١٩٣٨ وهو اليوم الذي عينه حضرة صاحب الجلالة المعظم فاروق الاول لعقد زواجه على حضرة صاحبة المجد والشرف الآنسة النبيلة فريدة هانم ذو الفقار بارك الله هذا الزواج وجعله طالع سعد ويمن فالجواب على ذلك هو : —

(١) عدد اليوم ٢٠

(٢) عدد الشهر صفر

(٣) عدد السنة $= \frac{(١٩٣٨ - ١٩١١) \times ١١}{٣٠}$

$= \frac{٢٧ \times ١١}{٣٠} = \frac{٢٩٧}{٣٠} = ٩$ والباقي ٢٧ وهو عدد السنة

اذن $\frac{٢٠ + ٠ + ٢٧ + ١}{٣٠} = \frac{٤٨}{٣٠} = ١$

والباقي ١٨ وهو عمر القمر يوم ٢٠ يناير سنة ١٩٣٨

بدر رقيق ومنظم للوقت دقيق ! فسبحانك اللهم يا مبدع الكائنات ومرتب الافلاك ومنظم الكواكب ومسير النجوم وانا لنفنى نواظرنا ولن نفنى أن ذرة واحدة من هذا الكون الفسيح لهي آية من الآيات البينات تنطق بعظمتك وقدرتك جل جلالك وسبحانك اللهم يا من علمتنا مالم نعلم . واليك يا ابنا العلامة فوربس تحية شاكر لفضلك وعارف بجميلك

صبحي جلبي
بعموم هندسة السكة الحديد

جائزة نوبل الطبيعية
لدافيسون الاميركي وطمسن الانكليزي

أذاعت لجنة جائزة نوبل ان جائزة الطبيعة عن سنة ١٩٣٧ منحت للباحث الاميركي الدكتور دافيسون احد علماء شركة بل التلفونية الاميركية وللعالم الانكليزي الاستاذ جورج طمسن الاستاذ بكلية العلم الامبراطورية بلندن ونجل شيخ علماء الطبيعة في هذا العصر السر جوزف طمسن مكتشف الالكترون وهو الكهرب أو الكهيرب بحسب وضع مجمع اللغة العربية الملكي

والاكتشاف الذي منح هذان العالمان جائزة نوبل من أجله هو اثباتهما ان الكهيربات (الالكترونات) تفعل فعل أمواج الضوء او أمواج الاشعة السينية (اشعة اكس)

فقد اثبتا كل منهما على حدة ، ان البلورات تفرق الكهيربات على نمط معين كما تفرق امواج الضوء . فأيد بالتجربة نظرية الميكانيكيات الموجية التي وضعها العالم الفرنسي البرنس ده برولي ونال عليها جائزة نوبل الطبيعية سنة ١٩٢٩

وتبلغ قيمة جائزة نوبل هذه السنة نحو ثمانية آلاف جنيه نصفها لدافيسون ونصفها لطمسن الصغير

ان وجه الخطر في اكتشاف الحقيقة التي اكتشفاها — أي ان البلورات تفرق الكهربات على نمط معين — قائم على ان هذه الحقيقة الطبيعية الجديدة أصبحت وسيلة بارعة دقيقة من وسائل البحث الطبيعي وهي تشبَّه باكتشاف اشعة اكس. ان تفرق هذه الاشعة عند تسديدها الى بلورات مكن علماء الطبيعة الحديثة من النفوذ الى فهم المعادن وكيف تتركب ذراتها وجزيئاتها ومن فهم البلورات وما اشكالها وكيف تجتمع فتتكون منها كتل بلورية كبيرة. ثم انها تصلح لدراسة الاغشية الرقيقة جدًّا وقوامها من ذرات وجزيئات. وفي جميع هذه الاحوال — أي المعادن والبلورات والاغشية — لا تسدي اشعة اكس خدمة للعلم لانها تخترق هذه المواد فتحل الكهربات محلها لانها تصطدم بالذرات والجزيئات فتتفرق فيعرف من تفرقها وشكله قوام المادة المخترقة. وفضل دافيسون وطمسن قائم على اكتشاف هذه الحقيقة اولاً ثم تحرّي اساليب استعمالها

ومن عهد قريب اقترح احد الباحثين الاحيائيين انهُ يمكن استعمال هذه الطريقة لدراسة الاغشية الحيوية الرقيقة التي تفصل خلايا الجسم الحي بعضها عن بعضها ومعرفة قوامها

اكتشف هذان الباحثان — كلٌّ على حدة — هذه الحقائق سنة ١٩٢٧. وكان دافيسون يشتغل بكهربات سريعة يوجهها الى بلورة من معدن النيكل. وكان يساعده الدكتور جرمر. اما الاستاذ طمسن فكان حينئذٍ في جامعة ابردين باسكتلندا وكان قوام تجاربه كهربات بطيئة — بطئاً نسبيًّا طبعاً — موجهة الى ورق رقيق جدًّا من الذهب الخالص

ويبلغ طمسن السنة الخامسة والثلاثين من العمر أما دافيسون ففي السادسة والاربعين. وقيل انهُ لما بلغهُ نبأ الجائزة وقابله الصحفيون لمحادثته أصرَّ على وجوب ذكر مساعده الدكتور جرمر مقروناً باسمهِ عند النشر

جائزة نوبل الكيماوية

وكما منحت جائزة نوبل الطبيعية لعالمين احدهما انكليزي والآخر اميركي منحت جائزة نوبل الكيمياوية عن سنة ١٩٣٧ لعالمين كذلك احدهما انكليزي والآخر سويسري. اما الانكليزي فاسمهُ الاستاذ هاورث احد اساتذة جامعة برمنغهام. وأما السويسري فاسمهُ الاستاذ بول كارر أحد اساتذة جامعة زوريخ

كان مدار البحث الذي نال من أجله الاستاذ كارر هذه الجائزة التركيب الكيمياوي لجزيء فيتامين A وهو المعروف بفيتامين النمو ويكثر في زيت السمك والزبدة والجزر وغيرها. ومن بدائع ما ثبت للاستاذ كارر في أثناء بحثه ان هذا الفيتامين دقيق الصلة بمادة كيمياوية تعرف باسم « ايونون » وهي المادة الاساسية في عطور البنفسج

ثم حوَّل الاستاذ كارر نظره بعد ذلك الى فيتامين B الثاني وهو ضرب من فيتامين B

ينير الشهية فكشف عن تركيبه الكيماوي وقد تمكن احد بيوت العقاقير ان يصنع هذا الفيتامين بالتركيب الصناعي باشراف العالم السويسري . وتقول احدى الصحف الملية الاميركية ان علماء اميركا أتيح لهم رؤية هذا الفيتامين المركب بالتأليف الصناعي في الاجتماع الذي عقدته الجمعية الطبية الاميركية سنة ١٩٣٥ وكان كل ما ركب منهُ ستين قمحة حينئذ

أما مدار البحث الذي أجراه الاستاذ هاورث فكان فيتامين C المانع للاسكربوط وطائفة أخرى من المواد الكيماوية هي أساس المواد النشوية والسكرية فنفذ من بحثه هذا الى أسرار تركيب السلولوس وهو المادة الاساسية في الخشب والقطن والكتان وغيرها

جائزة نوبل الطبية

وقد سبق لنا أن اشرنا في هذا الباب الى ان جائزة نوبل الطبية عن سنة ١٩٣٧ منحت للعالم المنغاري الاستاذ البرت سانت جورجي. وقدرنا عند ما أشرنا الى هذا الموضوع ان الجائزة منحت لهُ جزاء لهُ على اكتشافه فيتامين P المعروف باسم السترين الذي يوجد في ثمار المَوالح والبابريكا (وهي نوع من الفلفل) ولكن الجائزة منحت لهُ لانهُ كان اسبق العلماء الى الحصول على فيتامين C مبلوراً . وهذا الفيتامين كما لا يخفى مانع لداء الاسكربوط . وأما فيتامين P الذي اكتشفهُ الاستاذ سانت جورجي من عهد قريب فوثيق صلة القرابة بهِ الاَّ انهُ يختلف عنهُ

*

الولايات المتحدة الاميركية

تخسر تفوقها في ميادين الطيران

كان التفوق في ارقام الطيران القياسية في سنة ١٩٣٦ لاميركا فكان لطياريها ٥٤ رقماً ولطياري فرنسا ٣٧ ولطياري ايطاليا ٣٦ ولطياري المانيا ٨ ولكل من بريطانيا وروسيا رقم قياسي واحد

اما الآن فقد اصبح المقام الاول لايطاليا فلطياريها ٤٥ رقماً قياسياً وتليها الولايات المتحدة الاميركية (٤٣) ففرنسا (٣٥) فروسيا (١٥) فألمانيا (١٤) فبريطانيا اربعة ارقام قياسية

ولعلَّ ارتقاء روسيا من احرازها رقماً قياسيًّا واحداً في الطيران الى احرازها ١٥ رقماً قياسياً في سنة واحدة اكثر استيقافاً للنظر من ارتقاء ايطاليا من المكانة الثانية الى المكانة الاولى وزيادة الارقام القياسية التي احرزها طياروها من ٣٧ رقماً الى ٤٥ رقماً قياسيًّا . وقد كان التنافس على اشده بين انكلترا وايطاليا على الرقم القياسي للتحليق في الجو وهو الآن للطيار البريطاني آدم اذ حلق الى ٥٣٩٣٧ قدماً

العلم والدمقراطية

قصة عالم فرنسي شهير

يروى عن جورج كلود المهندس والمستنبط الفرنسي المشهور انهُ رغب من بضع سنوات في أن ينتخب عضواً في مجلس النواب فأعدَّ سيارة نقل كبيرة وحملها أسلاكاً ومضخات وأنابيب وقوارير وذهب الى دائرته الانتخابية ليخطب في الناس ويقنعهم بانتخابه ولما وصل الى دائرته الانتخابية وقف على السيارة وخطب قائلاً اني لا أعرف شيئاً عن السياسة ولكن من تحتاج اليوم فرنسا في مجلس النواب ليسوا سياسيين بل كيماويين وطبيعيين ومهندسين وفنيين مدربين يعرفون ما هي الآلات التي انبثقت عن حضارتنا صفتها واتجاهها انتخبوني فأسعى لاجعل فرنسا اعظم مما هي عن طريق العلم والهندسة . والآن اليكم بعض التجارب العلمية فراقبه الجمهور مأخوذاً وسمعهُ مشدوهاً

ولكن جورج كلود لم ينتخب عضواً في مجلس النواب الفرنسي . ولو انهُ أدرك ساعتها ان الجمهور في حاجة الى المحاضرة أشد تأثيراً بما يثير العواطف منها بما يحفز العقل لتمكن بشيء من البراعة والاستهواء ان يحول اخفاقه الى ظفر لان تاريخ فرنسا حافل بفريق من اكبر العلماء كانوا كذلك من أقطاب السياسة رجال كبرت الفسيولوجي وبرتيلو الكيماوي وبانلفيه الرياضي

ليس جورج كلود من طراز الفلاسفة المثاليين الذين اراد افلاطون ان يسودهم على الدولة المثلى ولكنهُ مهندس يعرف ان الدمقراطية عاجزة عن معالجة المشكلات التي خلقها العلم ويرى ان انقاذ الدمقراطية والحكم النيابي والاحتفاظ بقواعد الحرية والمساواة لا يمكن ان يكونا الاَّ عن طريق العلم نفسه

ذلك أن الدمقراطية صورة لنظام الحكم ورثناها من القرن الثامن عشر ولا يزال اقطابها في القرن العشرين يفكرون على الاكثر تفكير اسلافهم في القرنين الماضيين حالة أن الجماعة التي عنت للآلة ومنتجات الآلة اصبحت في الواقع خاضعة للهيئات الصناعية والاقتصادية اكثر منها للاحزاب السياسية

لان الاحزاب السياسية هيئات منظمة يعرف اقطابها كيف يستهوون الجماهير اما العلماء حتى علماء السيكولوجيا فهم ابعد ما يكونون عن معرفة اهواء الجماهير وكيفية التأثير فيها. ولكن الحكومات والشعوب التي يهمها ان تنقذ الديمقراطية للحضارة يتحتم عليها ان تبتدع اسلوباً تدخل به العلماء الى مخادع الحكام

انابيب البيرا من الزجاج

كانت أنابيب البيرا التي تمد بين مصانع البيرا ومستودعاتها في مشاربها بالمانيا تصنع من المعدن المطلي من داخله بالقصدير فأصبحت تصنع من الزجاج لان الحاجة ماسة الى القصدير في في صناعة السلاح

اخلاط ملونة من الذهب

لون الذهب معروف لا يحتاج الى وصف ولكن التجارب الحديثة اثبتت انهُ اذا خلط بمعادن اخرى تغير لونهُ فيصبح له شأن آخر في ما يستعمل له بقصد الزينة . والغالب أن يكون لون الخليط المعدني مزيجاً من ألوان المواد الداخلة في الخليط الا أن الباحث يجد احياناً ان خليطاً جديداً من مواد معينة يظهر في لون غير اللون الذي يتوقعهُ

والذهب من هذا القبيل فاذا خلطت ٢٢ جزءاً من الالومنيوم بـ ٧٨ جزءاً من الذهب كان لك خليط معدني أرجواني او في لون الياقوت الاحمر . والغريب الذي يبعث على الاسف ان هذا الخليط قصم سهل الكسر فلا يمكن مده اسلاكاً ولا طرقه ورقاً رقيقاً ولا يعلم الآن هل يمكن في المستقبل ان يستعمل بقصد الزينة

أما إذا خلطت الذهب بمقدار عشرة في المئة من الالومنيوم كان الخليط ابيض فاذا زاد نسبة الالومنيوم في الخليط رويداً رويداً تحول لونهُ الابيض الى وردي فالى ارجواني

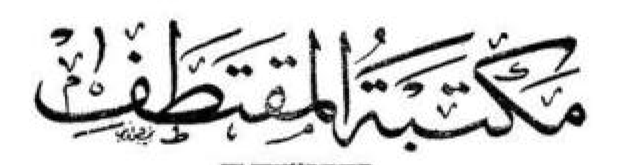
***

ولا يعرف علماء المعادن خليطاً معدنيًّا آخر بهذا اللون الا خليطاً قوامهُ ٥١ في المئة من النحاس و ٤٩ في المئة من الانتيمون ولكن لونهُ الارجواني اقل زدهاء من لون خليط الذهب والالومنيوم

اصلاح النسل

تتمة المنشور على الصفحة ٣٩ للدكتور شريف عسيران

وكان يبلغ عدد سكان اتيكا ٩٠ الفاً من السكان الخلّص و ٤٠ الف اجنبي عن البلاد وأربعمائة الف عبد من العمال وأصحاب الحرف. وتولد النوابغ الذين مرّ ذكرهم من التسعين الف الاولى . والسبب في ذلك ان الاثينيين فتحوا الباب على مصراعيه لهجرة العناصر الجيدة وأوصدوه في وجه الفاسدة وجعلوا مدينتهم مركزاً لاولي المقدرة الفائقة والثقافة العالية بخلق وسائل لم تتوافر في غيرها من المدن . واستنتج غالتون من ذلك ان معدل مقدرة السلالة الاثينية في ذلك العصر يفوق على اقل تعديل السلالة الانكليزية الحاضرة بنسبة تفوقها على سود افريقيا . يقول هالدين : ليس هناك دليل على أن مواهب الانسان الوراثية تحسنت في الثلاثين السنة المتأخرة مع العلم بأن عاداته وعلمه تحسنت بمدى واسع . والانسان الذي اكتشف النار لا بد كان عالي الهمة شديد الذكاء . والارجح انهُ لو عاش اليوم لعرف كيف يستخرج النفط من الطباشير والماء وقوة الريح . وكذلك لم تتقدم وراثة الامة العربية وانما حصل تغير في محيطها فاسلافنا كانوا اخصب منا فلسفة وعلماً وأدباً ومدنية وثقافة والمحيط مهما ارتقى لا يحسن الوراثة البيولوجية ومن الممكن تحسين وراثة النباتات والحيوانات ولكن تجارب آلاف السنوات علمتنا أن ما ينطبق عليها لا ينطبق على الانسان



هندسة الكون بحسب ناموس النسبية

بقلم نقولا الحداد ١٦٨ صفحة من القطع المتوسط ٢٤ × ٧ سم أصدرته دار المقتطف وعدداً خاصاً من المقتطف في شهر اغسطس سنة ١٩٣٧ م القاهرة — الثمن ١٥٠ مليماً

الاديب البحاثة نقولا الحدّاد من رجالات الفكر الذين يعنون بتبسيط معضلات مباحث الفوزيقا الحديثة وخاصة ما اتصل منها بنظريات البرت اينشتين في مبدأ النسبية . والكتاب الذي نحن بصدده تبسيط لاوليات نظرية اينشتين مسوق الى الافهام العامة . وهذا الكتاب يعتبر الاول في موضوعه في اللغة العربية ، والمبحث الوحيد الذي كتب في هذا الشأن . واني وان كنت شخصيًّا قد وضعت دراسة مفصلة عن نظريات اينشتين في مجلدين في اكثر من خمسمائة صفحة في العربية تلخيصاً عن كتابي Die Grundlangen der Relativitaetstheorie, Leipzig. 1934 الذي ألّفته بالالمانية في ثلاثة اجزاء ، الاّ أني لم أنشر من دراستي العربية غير جانب في مجلة « الرسالة » مسلسل على عدة مقالات ، وهذا الجانب يعرض لقرارات « النسبية الخاصة » التي تقومت بجهود لورانتز و بوانكاريه واينشتين ومينقوفسكي دون « النسبية العامة » . ولما كنت قد نهجت في دراستي النهج الرياضي الصرف فقد كانت الفائدة قاصرة على الذين في مكنتهم ان يسيروا في البرهان الرياضي العالي . لهذا وحده يمكنني ان أغفل حساب ما كتبت في هذا الشأن واقرر ان كتاب البحاثة نقولا الحدّاد الاول في موضوعه بأسلوبه وسيظل فريداً في بابه بمنهجه. غير ان هذا لا يمنعني بحكم توفري الطويل على دراسة النسبية والقيام بتدريسها في وقت من الاوقات ضمن دروس الفوزيقا النظرية بمعهد الطبيعيات الروسي التابع لجامعة موسكو ان أوجّه نظر المؤلف الى بعض الاخطاء التي وقع فيها نتيجة الخلط بين النظر الكلاسيكي والنظرة الجديدة التي تقومت بجهود اينشتين ومينقوفسكي

ذهب المؤلف مذهب لورانتز في تفسير ظاهرة تقلص الاجسام في اتجاه سرعتها واعتبر هذا التقلص حقيقة فوزيقية . ولكن قبل كل شيء يجب أن نفرق بين ما هو داخل في نطاق الفوزيقا الثانية مما هو راجع لاعتبار انساني وبين ما هو ضمن الفوزيقا الاولى مما هو يعرض لعالم الطبيعة من حيث هي ، لان موضوع الفوزيقا الثانية يتصل بعالم المظاهر بينما موضوع الفوزيقا الاولى يتصل بما هو واقع . إذن فلنا ان نسأل : هل ظاهرة التقلص في الاجسام في اتجاه حركتها حقيقة واقعة ام حقيقة تتصل بعالم المظاهر ؟ فان كانت حقيقة تتصل بعالم المظاهر فهل يصح تفسيرها تفسيراً واقعيًّا ؟

لقد كانت الفوزيقا القديمة ترى هذه المظاهرة حقيقة واقعة حتى ان لورانتز فسرها بنظريته في الالكترون — انظر Hendrik-Autoon Lorentz Ernscheinungen في Elektromagnätische in einen System, das sich beleibiger, die des Lichtes nichterreichender Gaschvindigkeit. (Leiden 1895).

ولقد تابع المؤلف لورانتز في تفسيره ، ولكن الفوزيقا الحديثة التي تقومت بجهود اينشتين وتكملت بمباحث مينقوفسكي بيّنت ان ظاهرة التقلص ظاهرية بالنسبة للانسان وحقيقتها تتصل بمظالم المظاهر ، حتى ان الاب مورو Moreux يرى ان الاثر الوحيد لاينشتين في النسبية الخاصة ينحصر في هذا وحده . ولقد تبسطنا في شرح هذه المسألة رياضيًّا في المقال المنشور بمجلة الرسالة العدد ١٣٨ (السنة الرابعة — ٢٤ فبراير سنة ١٩٣٦) وقد جاء في ختامها :

« ومسئلة تقلص الاطوال شيئاً فشيئاً كما تقرره ميكانيكية لورانتز ليست راجعة الى تقلص الاجسام في اتجاه حركتها وانما هي نتيجة لنسبية الاطوال . وليس هذا التقلص حقيقيًّا بل هو ظاهري حيث ان الراصد لا يمكنهُ ترتيب حدوث الحوادث كما تقع في عالم الواقع . وانما يرتبها بحسب ما تتراءى له . وتقسيم الزمان والمكان تقسيماً مطابقاً لموضوعها لا يمكن اجراؤه في صورة مستقلة بعضها عن بعض ، حيث ان سرعة اندفاع الجسم اذا بلغت سرعة انتشار النور او قاربتها بلغ التقلص اقصاه — ولم يصبح للجسم عمق لدى النظر . لان الاجسام عند ما تبلغ من السرعة هذا الحد تلوح كصفائح رقيقة » . اذاً فاعتبار المؤلف تقلص الاجسام في اتجاه حركتها عملية واقعية ، خطأ لا يتفق وقواعد نظرية النسبية لأن هذا التقلص ظاهري بالنسبة للراصدين . والتفسير الذي قدمهُ المؤلف لتعليل التقلص لا يتفق ومنطق النظرية التي يشرحها

عرض المؤلف لنظرية النسبية كناموس كوني، وقرر واقعية مبادئهِ وغاب عنهُ ان النسبية نظرية تدخل في نطاق الفوزيقا الثانية ، ويعترض عليها بالشيء الكثير الذي يحمل التريث في بناء نظرة كونية استناداً اليها ، شيئاً محموداً في نظر العلم

يقرّر مبدأ النسبية الكلاسيكية أن الحوادث تحدث في العالم مطلقة سيان كانت منسوبة الى كمياتها الوضعية co-ordinates نسبة ثابتة أو كانت متحركة ازاءها حركة مستقيمة منتظمة . وتجربة « ميكلصون — مورلي » تثبت أن للنور سرعة ثابتة فهل في الامكان التوفيق بين مبدأ النسبية الكلاسيكي النيوتوني وسنة ثبات انتشار الضوء في الفضاء ؟

إن الاجابة عن هذا السؤال بحسب منطق نظرية النسبية ترجع بنا الى مسألة التواقت التي توحي الينا ان الزمان ليس بفكرة أنية a priori كما تقرر الميكانيكا الكلاسيكية ، وان مفهوم السرعة مشتق منهُ ، بل أن سرعة النور وثبات هذه السرعة مفهوم أولي، ومنها يشتق مفهوم الزمان

فكأنما براصد الحادثات مقيد بآلاته يقرر حسبما تتراءى له الحادثات، والزمان بالنسبة لهُ ليس شيئاً وهميًّا لدى القياس كما هو في ميكانيكية لورانتز لهُ حقيقة موضوعية

هذا الافتراض حققهُ اينشتين عن طريق ردّ مبدأيْ مطلقية الزمان والمكان ورجع بهما الى هيئة القياس، أعني الى مبدأ عام ينسبهما الى الهيئة التي تقاسان بالنسبة لها. وهذه الوجهة من النظر هي قرارة نظرية اينشتين في النسبية الخاصة

ولقد خلص اينشتين الى هذا الافتراض من تحقيق رياضي عرض لهُ المؤلف في آخر القسم الثالث، الفقرة ى من الفصل التاسع ص ٨٧ — ٩٠ فلتراجع هناك. غير أنهُ من المهم أن نعلق على هذا بأن هذا الافتراض خطأ من الوجهة الفيزيقية والرياضية، أما الوجهة الفيزيقية فلأن تحقيق ذلك قائم على الخلط بين نظريتين من هيئات القياس

وقد كان بودّي أن اشرح هذا الخطأ ولكن تحقيقه رياضي. والمقتطف لا يتسع لمثل هذا التحقيق، غير أن هذا لا يمنعني ان أعلن قرائي اني أرحب بكتابتهم اليَّ بشأنهِ إذا أرادوا التوسع، وكل ما يمكنني ان أقوله من باب عقلي بعيد عن الاسلوب الرياضي أنهُ في الشرح الذي قدمهُ البحاثة نقولا الحداد ص ٦٦ — ٦٩ من كتابهِ كان الزمن متواقتاً بالنظر للراصد الذي بالنقطة (ب) ومتخلفاً بالنسبة للراصد (ن)، وذلك لان انتشار النور سيكون ثابتاً للراصد (ب) ومتخلفاً بالنسبة للراصد (ن). والى هنا نتفق مع اينشتين ولكن نختلف معهُ في أن التخلف سيكون بالنسبة لمن ؟ بالنسبة للراصد (ب) ؟ ام بالنسبة للراصد (ن) ؟ وان الحادثتين اذا كانتا متواقتتين بالنسبة للراصد (ب) فمن الذي سيحكم بعدم تواقتهما بالنسبة للراصد (ن) ؟ ومن الذي سيقتنع بهذه الوجهة من النظر ؟ ان الذي سيقتنع والذي سيحكم بطبيعة الحال هو الراصد (ب) !

فكان بالنسبة لوجهة نظر الراصد (ب) هناك حادثتان متواقتتان لهُ غير متواقتتين بالنسبة راصد (ن)!

ولتحقق هذا يجب ان نعترف بامكان معرفة الراصد (ب) وجهة نظر الراصد (ن)، ولكن اينشتين يسوق كل نظريتهِ ويمضي في استدلاله الرياضي دون ان يكون هنالك اثبات لهذه الدعوى فكأن ملاحظة اينشتين إذن ساقطة

لقد اغفل المؤلف الكلام عن ميكانيكية لورانتز التي هي نتيجة من نظرية النسبية، لان استخراج معادلات التحويل اللورانتزية يستلزم قبول ميكانيكا لورانتز، ولقد أخذ اينشتين بهذه الوجهة من النظر غير أن المؤلف اعرض عن هذا مع أنهُ في معرض الكلام عن نظرية اينشتين وكان نتيجة هذا قفزة واسعة من نطاق النسبية الخاصة الى النسبية العامة لا يتأتى ادراكها الآ في ضوء الكلام على الميكانيكا الجديدة والديناميكا النسبية

فاذا ضربنا صفحاً عن الاخطاء الاصطلاحية وهي كثيرة في الكتاب وهي موضوع بحث

خاص فان الدراسة لم تخلص في اكثر فصولها من الخلط بين النظريتين الكلاسيكية والجديدة من ذلك ما قدمهُ الكاتب من تعليل لسبب انحراف شعاعة النور المارة على مقربة من الشمس ص ١١٠ ، والذي يناقض اعمال البعثتين الفلكيتين — انظر J. W. Dyson, A. S. Eddington and C. Davidson, " A Determination of the Dflection of light by the Sun's gravitational field...., Philosophical Transactions of The Royal Society of London Serie A. Vol 220 (1920) , p. 291-333. Cf. E. Freundlich, Die Naturwisrenschaf.en (1920) , p. 667-673.—

كذلك عما كتبه في «تحدب الابعاد الاربعة» ص ١٣٦—١٣٨ . فاذا ضربنا عن كل هذه المآخذ وهي لا تنقص من قيمة الكتاب اذ لا يخلو من مثلها اي كتاب مبسط في نظرية النسبية ، لا يسعنا الاَّ ان نشكر صاحب الكتاب على ما تجشمهُ من مشقة في وضع هذا الأثر

الاسكندرية اسماعيل احمد ادهم

الصيد في البلدان العربية في العصور الوسطى

٤٤ صفحة و ١١ لوحة للدكتور زكي محمد حسن

Hunting as Practiced in Arab Countries of the Middle Ages

رسالة أنيقة في موضوع طريف كتبها باللغة الانجليزية الدكتور زكي محمد حسن أمين دار الآثار العربية في مناسبة انعقاد مؤتمر الصيد الدولي في برلين . وهي محلاة بمجموعة من الصور الفنية نقلاً عن النقوش المعدنية والخزفية والمنسوجات الاسلامية والاخشاب الاثرية المودعة في دار الآثار العربية وغيرها . في هذه الرسالة تناول الدكتور بحث الاسباب التي دعت الاعراب الى الاهتمام بالصيد قبل الاسلام وكيف ان طبيعة معيشتهم في الصحراء والدفاع عن انفسهم قد وجهتهم الى الغرام بالصيد . كما تكلم عن أسلحة العرب التي استعملوها في الصيد قبل العصر المعدني في شبه الجزيرة العربية وتطوُّرها فيها بعد اكتشاف المعادن

واستشهد الدكتور ضمن وقائع ما كتبهُ ببعض قصص الصيد المشهورة في الاسلام . ولا سيما عند ملوك السلجوقيين والفرس والتتار وسلاطين الفاطميين والايوبيين وسلاطين المماليك الذين كانوا يقلدون أعمال الصيد لضابط كبير بأسم « امير شيكار »

ولم يكن لدى خلفاء بني أمية في دمشق والاندلس أو بني العباس في بغداد والطولونيين وآل إخشيد والفاطميين والايوبيين وسلاطين المماليك في مصر أعز وأحب من الخروج الى الصيد على متون جيادهم الكريمة وخيولهم الصوافن يحيط بهم رجال معيتهم يحملون أسلحة الصيد البراقة وهم في أزيائهم الملونة البديعة . والرسالة انيقة كما قلنا وطريفة الى حدٍّ بعيد . وقد أخرجتها المطبعة الاميرية ببولاق في ثوب قشيب عبد الرحمن زكي

القضية الفلسطينية

لواضعه الدكتور يوسف هيكل ، في ٣٠٠ صفحة ، طبع يافا سنة ١٩٣٧

تنازع البقاء ناموس عام في عالم الاحياء . هذه هي منازعات رومة وقرطاجنة ، وبابل وأشور ، والفرس واليونان ، والصين واليابان ، وهذا ما جرى للأوربيين في قارتي أميركا . فقد أفنوا سكانها الاصليين وحلوا محلهم ، كما فعل الاتراك بالارمن . هذه سنة الكون النافذة رضينا أم لم نرضَ . والكون بحسب نظرية دارون، وتفكير شوبنهور ، نزاعٌ في نزاع

على هذه الصورة أرى امامي في مشهد كتاب هيكل ، اليهود والعرب يتنازعان . اليهود طائفة معروفة ، من ذرية ابرهيم الخليل ، طائفة مشتتة في جميع اقسام الدنيا . طائفة قديرة ، غنية ، مضطهدة متساندة ، منبوذة في كثير من البلدان . لها تقاليد دينية وجنسية تربط قلوبها بفلسطين. لحفز اليهود الى فلسطين حافزان ، هما التوراة والاضطهاد القاسي . فهبوا للسعي في العودة اليها . وألفوا الجمعية الصهيونية في أواخر القرن المنصرم لهذا المقصد . وفي واقع الامر جاء كثيرون منهم الى فلسطين في عهد عبد الحميد . واختطوا تل أبيب وزمارين وغيرها

وشبت نار الحرب الاوربية الكبرى سنة ١٩١٤ . وهنا يقول المؤلف هيكل في صفحة ٤١ « كانت نتيجة الحرب أوائل عام ١٩١٧ غير معلومة . ووضعية الحلفاء حرجة . وكان العالم اليهودي قوَّةً هامة . فسعت دول الحلفاء (من جانب) ودول اوربا الوسطى (من جانب آخر) لاجتذابهم . فأظهرت المانيا رغبةً شديدة في الاحتفاظ بميل اليهود وربطهم برباط صداقة جديدة . وتوسطت لدى الباب العالي ليسمح لليهود بسكنى فلسطين . . . . وألحَّت على صديقتها تركيا بالتسامح مع الصهيونيين للاحتفاظ بصداقة اليهود . . . . وفي تلك الاثناء أخذ الحلفاء يعتبرون اقتراحات الصهيونيين وعملوا على ارضائهم خوفاً من انضمامهم الى الالمان . فتساهلوا معهم ، واتفقوا وإياهم على « تصريح بلفور » . وص ٤٤ . كانت نتيجة الحرب متوقفة على الولايات المتحدة . اذ لم يكن للحلفاء أمل في الانتصار دون مساعدتها . . . وتأكدوا انهُ من الصعب جداً ادخال الولايات المتحدة الحرب في صفوفهم ان لم يجتذبوا اليهم قلوب اليهود الذين فيها، فكان تصريح بلفور »

ويذكر الكتاب في صفحة ١٧ — ٢٥ اتفاق الحسين بن علي شريف مكة يومئذ ، والحلفاء على خروجه على الترك ، والانحياز الى الحلفاء واعدين بتحرير البلاد العربية واستقلالها فلما انتهت الحرب . وفاز الحلفاء . وكثر اليهود بفلسطين وتنازعوا والعرب ، ذكر العرب انكلترا بمواعيدها للحسين التي مفادها استقلال فلسطين عربية ، وتشبث اليهود بتصريح بلفور

« ان يكون لليهود وطن قومي بفلسطين » . فكانت انكلترا بين قوتين متضادتين تجرانها الى جهتين متقابلتين . بهذا الاعتبار يقول المؤلف في صفحة ٧٢ : وخاطبت الحكومة البريطانية زعماء الصهيونية قائلة : ليس من الصواب ، ولا من الحكمة ، ان يتابعوا الضغط على حكومة جلالته ، لتتبع سياستهم في مسألتي المهاجرة والاراضي . اذ معنى عملهم هذا انهم يتجاهلون واجب الحكومة نحو سكان البلاد من غير اليهود .

ثم قال المؤلف في صفحة ٩٩ « وبعد ان درست وزارة المستعمرات (الانكليزية) تقرير لجنة شو ، وتقرير سمبسون ، وضعت حكومة جلالته الكتاب الابيض لعام ١٩٣٠ وبه انصفت العرب بعض الانصاف » . و ص ١٠١ « وجابه العرب المشروع بتروٍّ وامعان فكر ، وأخيراً قبلته مبدئيًّا اكثر يتهم . . . اما اليهود فحملوا عليه حملة شعواء » الخ . ويقول في ص ١٠٠ « وأخيراً هدَّد الصهيونيون حكومة جلالته باعلان حرب اقتصادية عليها ان قامت بتنفيذ محتويات الكتاب الابيض لعام ١٩٣٠ » وفي ص ١٠٢ « حاول وزير المستعمرات الدفاع عن المشروع . غير أن اعضاء المجلس (البرلمان) المتشبعين بالاهواء الصهيونية لم يعيروا براهينه اذناً صاغية . فخشيت حكومة بلدوين تألُّب النواب عليها ، فعدلت عن مشروع تأسيس المجلس التشريعي ، وأوعزت الى مندوبها في فلسطين ان يتمهَّل . . . فظهر للعالم بكل جلاء أن نفوذ الصهيونية دخل وتمكن في البرلمان البريطاني »

وجاء في ص ١٠٤ « نرى وللاسف أن الحكومة المنتدبة لم تتقدم خطوة واحدة في سبيل ترقية الحكم الذاتي في فلسطين . . . ليس لانها لا تريد القيام بواجباتها ، ولكن لانها عاجزة عن مقاومة الصهيونية »

يتبيَّن القارىء من هذه الاقوال وامثالها ، وهي كثيرة في الكتاب ، أن المؤلف يشهد للحكومة الانكليزية بحسن النية نحو العرب . ولكنها غير قادرة على ان تقاوم الصهيونية ذات الحول والطول في انكلترا او اميركا . وذلك ابلغ دفاع قال به فلسطيني عن الحكومة الانكليزية

ثم أتى في صفحة ٢٤٩ على « الحل العلمي العادل » لمشكلة فلسطين ، وبعد ما مهَّد له بكلام حكيم قال في ص ٢٥٣ و ٢٥٤ ما نصهُ : « خير حل للمشكلة اليهودية هو . . . ايجاد وضعية دولية خاصة باليهود . اي إن يعيش اليهود في البلاد التي هم فيها . وان يكونوا مخلصين نحو حكومتها . ويقوموا بجميع الواجبات التي يقوم بها اهل البلاد . وان تعترف لهم الدول بحقوق خاصة في ما يتعلق بديانتهم وعاداتهم ولغتهم . وان تكون هذه الحكومات مسؤولة عن ذلك أمام مجلس دولي . . . وتكون فلسطين مركزاً روحيًّا وثقافيًّا لهم »

وهو حل بديع لو يصحّ

ولا يحط من قدر المؤلف بعض اغلاط وردت في كتابهِ ، ارى من واجب المراجعة الاشارة اليها . قال في صفحة ٤٧ « خلف يعقوب ١٢ ولداً صغيرهم يوسف » . وهو خطأ . والصواب ان صغيرهم بنيامين . وقال في ص ٤٨ وبعد ان مضى عليهم خمسة قرون (في ارض كنعان — بني اليهود) مالوا الى الحضارة واختاروا شاول ملكاً عليهم » . والصواب ان عصر القضاة ، الذي كان اليهود فيهِ في شيء من البداوة ، لم يزد على ٢١٥ سنة يضاف اليهِ عصري يشوع بن نون وصموئيل ٨٠ سنة . وقال في ص ٥٠ دخلت فلسطين ضمن امبراطورية الاسكندر عام ٣٣٢ ق م . الى ان دخلت ضمن الامبراطورية الرومانية عام ٦٤ ق . م . هنا أغفل المؤلف عصر المكابيين وهو امجد سطر في تاريخ اليهود . وقال في ص ٥٤ عدد المسيحيين اكثر من ٤٥٠ مليوناً . وهو خطأ صوابه انهم اكثر من ٧٠٠ مليون . منهم في اوربا ٤٥٠ وفي اميركا ٢٦٠ عدا من في اوستراليا وافريقية واسيا وجزر البحار . اقتصر على القليل وهو عن الكثير بديل . مثنياً على نزاهة المؤلف وسعة اطلاعه القاهرة حنا خباز

اصول الطب البيطري

تأليف الدكتور ابرهيم نجيب محمود مدرس الطب البيطري في كلية الزراعة في الجامعة المصرية
مطبعة الاعتماد بشارع حسن الاكبر والثمن خمسون قرشاً

انهُ ليسر الباحث ان ينقد كتاباً مثل هذا الكتاب فهو كتاب مدرسي حسن التأليف والطبع فرأيت ان انقد بعض فصولهِ لأبين للقارىء بعض ما جاء فيهِ فالباب الاول في الحيوانات الاهلية كالبقر والابل والخيل ونحوها وقد زين المؤلف صفحاته بالصور المتقنة البديعة واورد فيها اجزاء الجسم في كل منها وكتب اسماءها بلغة عربية فصيحة ففي اجزاء الفرس مثلاً ما يأتي:

الرأس والجبهة والاذن والانف والعين ونقرة العين والناصية والمنخران والشفة العليا والشفة السفلى والذقن والفك والبارزة الوجنية والرقبة والسبيب اي العرف وصفحة العنق ثم الصدر ثم الجسم وفيهِ المحارك والظهر والقطن والجنب واللبان اي الصدر والبطن والخاصرتان والكفل يتوسطهُ العجز والجراب داخلهُ القضيب ويقال للجراب القنب ثم الصفن داخلهُ الخصيتان ثم البارزة الحرقفية ثم القائمة الامامية وهي الكتف ومفصل الكتف والعضد والمرفق اي الكوع والساعد والزائدة القرنية والركبة والوظيف (المدفع الامامي) والزر (الرمانة) والقيد والثمرابة الامامية اي الثنة والاكليل والحافر . ثم القائمة الخلفية وفيها مفصل الورك والفخذ والساق والعرقوب وبروز العرقوب والوظيفة الخلفي والزائدة القرنية الخلفية والرمانة الخلفية والثمرابة الخلفية اي الثنة والقيد الخلفي والاكليل الخلفي والحافر الخلفي والذيل وشعر الذنب وفي الانثى الضرع ولهُ خلفان اي حلمتان والحياء في أسفل الضرع . ثم أورد أجزاء البقر والابل

وكلهُ بلغة فصيحة . وقد سرني في تصنيف هذه الحيوانات قولهُ اللبونة فانها اصلح كثيراً من الثديية فليس كل لبون ثديي على ان مجمع اللغة لا يزال على ثديي او ان الموكل بانتخاب مصطلحات علم الاحياء لا يزال في القرن التاسع عشر او انه يرضى بالحيوانات اللبونة بعض مضي سنوات حتى ينسى من اقترح اللبونة

هذا في الفرس ثم ذكر المؤلف الحيوانات الاهلية المشهورة في مصر واورد رسومها واسماءها العربية الفصيحة في غاية الدقة والاتقان . هذا في فصل واحد من الفصول وكنت افضل ان يهمل ما هو اعجمي في بعضها فيقتصر على الوظيف مثلاً اما اضافة المدفع اليها فأعجمي لا لزوم لهُ فالمدفع انكليزي والوظيف عربي وهو يكفي وهناك مسألة اخرى احب ان اشير اليها فقولهُ الجمال والاغنام والماعز كلهُ فصيح واظن لو قال الابل فالابل تشمل الجمال وهي الذكور والنوق وهي الاناث . فالعامة تفهمها وهي ادق في التعبير ولماذا نقول الاغنام والغنم افضل وهي جمع وتشمل الضأن والمعز والغنم شائعة في السودان والعراق ويراد بها ذوات الصوف وذوات الشعر

اما الباب الثاني في تركيب الحيوان فانهُ ذكر فيهِ الشحم والدهن وقال إن الشحم يشبه الدهن في ذوبانه وقد بينت قبلاً في المقتطف ان الدهن مادة سائلة وان الشحم هو ما يسمى بالانكليزية Fat لا كما تزعم العامة ولا كما جاء في لجنة علوم الاحياء والمادتان هما بالانكليزية والعربية كما يأتي fat and oil

(المقتطف : في هذا الجزء من المقتطف بحث للاب انستاس ماري الكرملي في هذا الموضوع)

ثم الباب الثالث وغيره الى آخر الكتاب . فالكتاب مؤلف دقيق اورد فيهِ المؤلف الاسماء العربية الفصيحة كما تقدم فهو كتاب نفيس واني اشير بالاعتماد عليهِ لفصاحته فهو من جملة الكتب التي اختارها الله لتوحيد المصطلحات الطبية

مصر الجديدة امين المعلوف

الثورة العرابية

لانور زقلمة — واخراج مطبعة المجلة الجديدة — في ١٣٠ صفحة

في دراسة التاريخ القومي أكبر عون على الفخر بالانتساب الى وطن عظيم . ومن أجل هذا كانت عناية جميع الأمم الحية بدراسة التاريخ الوطني علماً منها بانها خير سبيل لكي يغرس في نفوس النشء روح الاعتزاز بالوطن والعمل على احياء تراث الماضي المجيد . وكانت الوسيلة التي تبعتها تلك الأمم الحية لايقاظ الشعور الوطني أنها استفادت من كل صفحة من صفحات تاريخها المضيء باستخراج ما فيها من دروس وطنية

والروح التي كتب بها الاستاذ المحامي « انور زقلمة » كتابه الاخير الثورة العرابية هي التي

يحتاج اليها في معظم كتب التاريخ التي يجب ان يتداولها الطلبة في المعاهد العلمية بعد التحول الفكري الذي اصاب معظم الكتاب والمؤرخين الذين انتدبوا « رسميًّا » للكتابة عن بعض صفحات تاريخية لمصر تعمدوا فيها عن قصد او غير قصد الحط من قيمة تاريخنا وذكرى ابطالنا .
فكتبوا ما كتبوه من الكتب وهي خالية من ذكرى الاعمال العظيمة التي اتاها الجيش المصري في فتح البلاد الاسيوية بقيادة تحوتمس الثالث او ملوك الرمامسة . وفي محاربة الصليبيين امام دمياط والمنصورة وفارسكور وفي القضاء على الجيوش العثمانية في سورية والاناضول بقيادة الجندي البطل ابراهيم . وفي القضاء على مآرب الفرنسيين في مصر وفي مقاومة الحملة الانجليزية في المئتي السنة الاخيرتان

والتاريخ المصري الحديث حافل بحوادث الابطال المصريين — هؤلاء الابطال الذين يجب علينا ان ندرس تاريخهم بتوسع . فلا يقال عنا انا امة تنكر الجميل وتجحد فضل ابنائها الذين ماتوا في سبيل رقيها — ومن هؤلاء الرجال . . . عرابي باشا وهو وان كان قد خاب في مساعيه الاً انا يجب ان نذكر ان خيبته لا تحطُّ من قيمة عمله بل يجب علينا ان نكثر من درس سيرته لنعلم اسباب الاخفاق فنجتنبها واسباب الرقي فنأخذ بها

هذا البحث يقدمهُ الينا الاستاذ « أنور زقلمه » في كتابه « الثورة العرابية » بعد ما راجع من الكتب والمصادر النفيسة ما راجع وحلل ما ورد فيها من الآراء المتناقضة

لخص المؤلف اهم حوادث مصر منذ حكم محمد علي الى ايام اسماعيل العظيم . وتناول الكلام عن تسرب النفوذ الاجنبي الى الادارة المصرية وأسبابها السيئة في قيام العاصفة فالثورة فالعصيان القومي وقيام عرابي يدافع عن الظلم الذي لحق بالجيش من جراء تعسف الضباط الترك وانتقل المؤلف الى الكلام عن التداخل الانجليزي بين الخديو وشعبه بحجة الدفاع عن عرش سيد البلاد . ثم وصف الحوادث التالية للثورة الى نشوب الحرب بين الجيش المصري والانجليزي . وفي الفصلين الختاميين لخص اهم اسباب الثورة ونتائجها فنجده يقول : « لقد اخرجت لنا الثورة جميع زعماء النهضة الحديثة في مصر ويكفي ان الزعيم سعد زغلول كان احد الشبان الذين تخرجوا منها »

ونحن نهنيء الاستاذ زقلمه بمؤلفهِ النفيس ونأمل ان يكشف الستار قريباً عن صفحة تاريخية ماضية ليملأ بنورها فراغاً آخر

عبد الرحمن

فؤاد الاول

من الصفات النبيلة التي خلعها العالم على المصريين انهم كرام . ولسنا ندري ان كان مبعث ذلك طيب مناخهم ، وصفاء سمائهم ، أم انهم من سلالة أولئك العرب الذين أثبتوا عمليًّا انهم معدن الكرم ، فاحتفظت صفحات التاريخ بذكريات رائعة لهم ، ما زالت تسير مسير المثل وتهب هبوب العرف الشذى . ولئن كان المرحوم شاعر النيل نعى عليهم ان يتغالوا في تلك الحلة التي

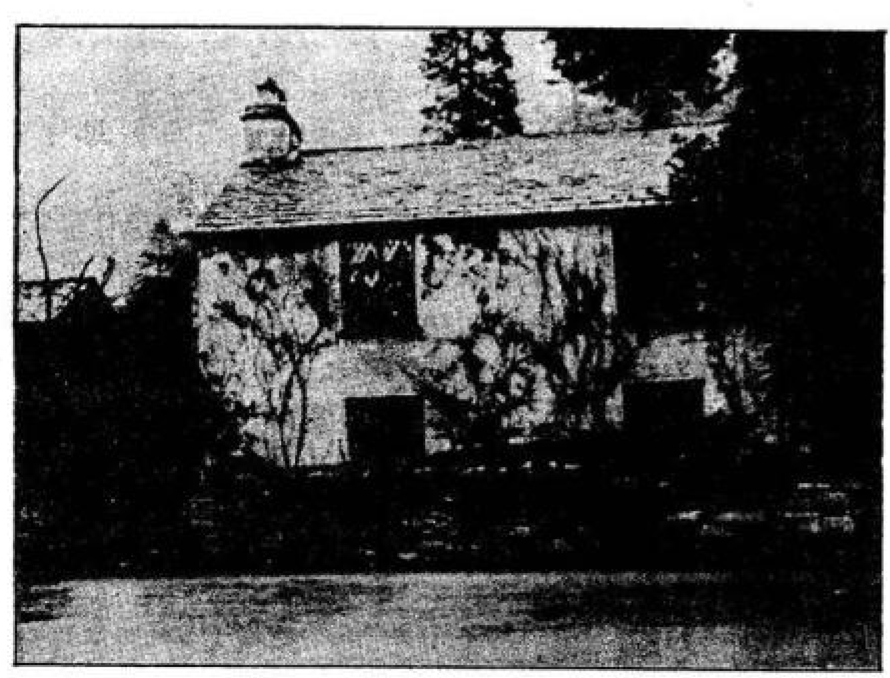
جرت عليهم في سبيل الحياة ذاك الزحام ، فان مما لا شكّ فيهِ انهُ لم يجد هو او غيره مغمزاً في ذلك الخلق النبيل : خلق الوفاء الذي انتظم خاصتهم وعامتهم . وظهر ذلك جليًّا في ليالي خطوبهم كما وضح في مباهج أعيادهم . ولئن كان مظهر الكرم رائعاً فيهم على الرغم من انهُ لم يعد يناسب الاوضاع الاجتماعية فان مظهر الوفاء فيهم ما زال أروع ، اذ لا مصدر لهُ إلاَّ القلب ، بخلاف الكرم فقد يكون لدواع لا تمت الى جوهره الاَّ بأوهى سبب !! نقول هذا على ذكر المؤلف الضخم الذي قام بتأليفهِ ثلاثة من رجال التربية في وزارة المعارف. أما الكتاب فهو « فؤاد الاول » . وأما المؤلفون فهم الاساتذة الافاضل : عبد العزيز الازهري وعلي سرحان ومحمد مجاهد . لم نكد نتصفح صفحاته التي تشارف الخمسمئة من القطع الكبير حتى راعنا حسن تنسيقه ، وجميل تبويبهِ ووفرة صوره هذا الى افانين من الاسلوب السهل الممتنع ، والبحوث الدقيقة المدعومة بالارقام ، والبسط الوافي لكل ما لهُ علاقة بجلالة الملك الراحل وليداً وطالباً واميراً وزوجاً ووالداً وسلطاناً وملكاً . . . او ما له صلة بعصر الحديثة ما بين سنة ١٩١٧ التي ولي فيها حكم مصر وسنة ١٩٣٦ التي جاور فيها الرفيق الأعلى . فدعاهم هذا الى ان يستطردوا في دقة وبراعة النهضات المصرية : علمية وسياسية ودينية واجتماعية واقتصادية ... ومما نشكره لحضرات المؤلفين اهتمامهم بأمر الصحف والمجلات في بحث شائق استغرق ست صفحات كاملة فتحدثوا عن مبلغ نفوذها واثرها ومنزلتها كهيئة محترمة بين الهيئات التشريعية والقضائية والتنفيذية وأقدم الجرائد الاوربية والعربية وكان ذلك من حضراتهم تمهيداً لعلاقة الملك الراحل بالصحافة : أميراً وسلطاناً وملكاً

وكما أن المنطق أوحى الى المؤلفين أن يجملوا براعة الاستهلال في كتابهم أن تحدثوا عن الاسرة المحمدية العلوية وانتخاب محمد علي والياً والخديو اسماعيل وسعيهِ لجعل مصر دولة مستقلة فكذلك كان توفيقهم في الاختتام إذ تحدثوا في آخر اقسامهِ عن ساعات الغروب فتتبعوا صحة الملك الراحل في ترتيب متسق وعبارات رائعة مؤثرة من سنة ١٩٣٣ م حتى غربت شمس حياتهِ التي طالما ملأت الشرق بهجة ونشاطاً . . . ولم يتركوا الفاجعة الحارة تعبث بالقلوب الدامية طويلاً بل واسوا تلك الجراح بما كان من تنصيب الملك الشاب المحبوب فاروق الاول على عرش الفراعنة وتنازلهِ عن ثلث مخصصاتهِ السنوية

هذا هو الكتاب في جملتهِ . وعندنا ان المؤلفين احسنوا التعبير عن ولائهم للذات الملكية وكان التوفيق رائدهم في كل ما بسطوه في كتابهم الحافل عن الملك الخالد وعصره الذهبي وحسبهم ان التقرير الذي رفع الى جلالة الملك فاروق عن كتابهم انصفهم وشهد لهم بمجهودهم ولكتابهم بأنهُ طيب وانهُ اوفى كتاب صدر الى الآن عن جلالة الملك الراحل طيب الله ثراه **



الشاعر وردزورث
في شيخوخته



كوخ الحمامة — بيت الشاعر وردزورث
(تصوير محمد عبد الغني حسن)



رباعيات الغزالي

للشاعر الفرنسي جان لاهور

الحب الصوفي — الشك

نقلها خليل هنداوي



سير الزمان

الوحدة العربية

لحنا خباز

روسيا

على مفترق الطرق



باب التربية
والخدمة الاجتماعية

التعليم على قمة جبل

للكاتب الاميركي لويس اداميك

زكاة الثقافة والعلم والنبوغ

خطبة الاستاذ محمد العشماوي بك

تاريخ مجيد وأغراض نبيلة

للسيدة انصاف منصور فهمي بك

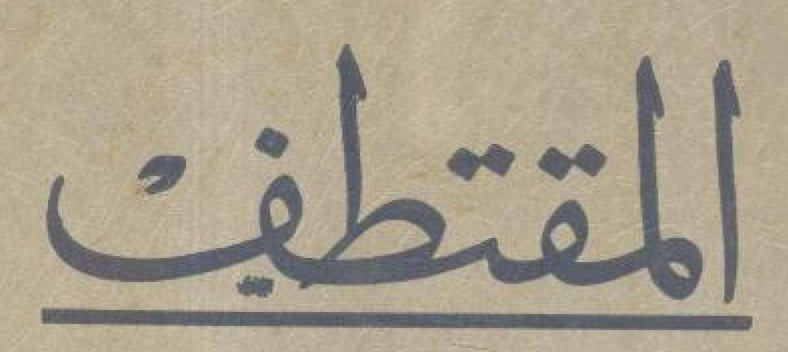
تغتنم مجلة المقتطف هذه الفرصة السعيدة فرصة القران الملكي الميمون فترفع الى مقام جلالتيهما السامي فروض الولاء الصادق والتهنئة الخالصة وتضرع الى الله ان يجعل عهدهما عهد يمن واقبال

تمّ عقد القران الملكي الكريم يوم الخميس في ٢٠ يناير سنة ١٩٣٨ الموافق ١٨ ذي القعدة سنة ١٣٥٦ ه



فهرس الجزء الاول

من المجلد الثاني والتسعين

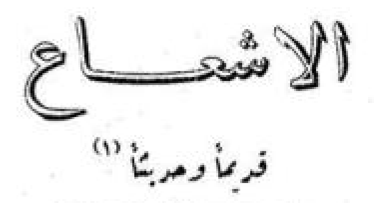

المقتطف





الجزء الثاني من المجلد الثاني والتسعين

١ فبراير سنة ١٩٣٨ — ١ ذي الحجة سنة ١٣٥٦



قديماً وحديثاً [(١)]

موضوع الاشعاع موضوع عويص وواسع النطاق في آن ، قلما يعرف الباحث، اذا حاول ان يلقي محاضرة واحدة فيه، اين يبتدىء واين ينتهي . فامواج الاشعة المرئي منها والخفي تحيط بنا من كل ناحية ، وتؤثر في معظم وجوه المعرفة والعمل والحياة . من الامواج اللاسلكية الطويلة والقصيرة ، الى امواج الحرارة الخفية ، الى امواج الطيف المرئي ، الى امواج الاشعة التي فوق البنفسجي ، الى الامواج التي وراءها كالاشعة السينية ، واشعة غمّا ، الى الاشعة الكونية ، التي تستطيع ان تنفذ من خلال الواح من الرصاص كثافتها عشرون قدماً او تزيد

ما هذه الاشعة ؟ وكيف تتشابهُ وكيف تختلف ؟ وكيف تنبث ؟ وكيف تنتقل في الفضاء ؟ وما صلتها بالمادة ؟ وكيف يفسَّر فعل العناصر التي تطلق اشعةً ؟ وما العلاقة بين ما نعرفهُ عن هذه العناصر وبناء المادة الاساسي ؟ وهل في المستطاع مجاراة الطبيعة فيتاح للانسان ان يخرج من المواد الجامدة ، غير المشعة ، مواد تتأجج في احشائها الطاقة وتنطلق منها الدقائق والامواج ؟

هذه هي بعض الاسئلة التي تخطر للباحث عندما يقترب من موضوع الاشعاع . والغرض من هذا البحث محاولة الاجابة عن بعضها، على اساسين من الايجاز والتبسيط ، فالتطويل ممتنع بالميعاد المضروب للمحاضرة، والتعمق الرياضي ليس هذا محلّهُ وهو على كلّ حالٍ فوق طاقتي

---

(١) من محاضرة القاها رئيس تحرير المقتطف في المجمع المصري للثقافة العلمية باجتماع يناير ١٩٣٨

١ — مدى طيف الاشعاع

ولعلَّ خيرَ ما نستهلُّ بهِ البحث ، تبين مدى الاشعاع في الطبيعة ، وخواص الامواج في كل قسم منهُ . ولعلّ خير تقسيم نعتمد عليهِ في هذا الصدد ، مع انهُ تقسيمٌ عرفيٌّ ، هو اتخاذ الطيف المرئي اساساً ثم البحث في مدى الامواج التي على جانبيهِ

عرف من عهد نيوتن في القرن السابع عشر انهُ اذا دخلت شعاعة من ضوء الشمس حجرة معتمة من ثقب ، في جدارها او في ستارٍ اسودَ مسدل على نافذتها ، ووقعت هذه الشعاعة على منشور زجاجي ، نفذت منهُ في الناحية المقابلة ، وقد انحلت الى الوانٍ سبعة هي الاحمر فالبرتقالي فالاصفر فالاخضر فالازرق فالنيلي فالبنفسجي . الاحمر اطولها امواجاً والبنفسجي اقصرها امواجاً ، وامواج الالوان الاخرى بينها متدرجة قصراً من الاحمر الى البنفسجي

الآن مدى الاشعاع في الطبيعة لا ينتهي عند الاحمر من ناحية ولا عند البنفسجي من ناحية اخرى . فوراء الاحمر اشعة تعرف بالاشعة التي تحت الاحمر وهي اشعة حرارة لا تبلغ امواجها في سرعة تواليها المبلغ الذي تتأثر بهِ عين الانسان فتعجز عن رؤيتها ، ولكننا نحسُّ حرارتها . ويرجع الفخر في اكتشاف فعل هذه الاشعة الى العلامة هرشل ، السر وليم هرشل مكتشف السيار اورانوس . فقد كان يجرّب التجارب بالامواج التي يتألف منها طيف الشمس المرئي وما لها من تأثير في مقياس الحرارة ، فكان يحلُّ شعاعة الضوء ، بالطريقة التي تقدّم ذكرها ، ثم ينقّل المقياس الحراري ، من البنفسجي الى الاحمر ، في فسحات متساوية من الوقت ، ويدوّن تأثير اشعة الالوان المختلفة في رفع درجة الحرارة فيهِ ، فلاحظ ان اشعة اللون الاحمر اشدُّ رفعاً لدرجة الحرارة في المقياس وان اشعة اللون البنفسجي اقلها . ثم خطا الخطوة التالية ، وهي خطوة يحتمها المنطق ، اذ وضع مقياس الحرارة في المنطقة التي تلي اللون الاحمر ، وهي منطقة لا تتبين العين فيها لوناً ما ، فوجد ان درجة حرارتهِ ، ترتفع وهو فيها ، اكثر من ارتفاعها اذ يكون المقياس مغموراً بالامواج الحمر . فثبت لهُ ان وراء اللون الاحمر ، امواجاً خفية ، تبعث حرارة في الجسم الذي يغمر بها . ثم طبق هو وطائفة من الباحثين الذين تلوه ، ما كان معروفاً عن خضوع امواج الالوان المختلفة ، لقوانين الانعكاس والتكسر والاستقطاب والتداخل فثبت ان طبيعة هذه الامواج الخفية من طبيعة الامواج المرئية

ولم يكتف هرشل باستكشاف المنطقة التي وراء اللون الاحمر بمقياس الحرارة ، بل حاول كذلك استكشاف المنطقة التي وراء اللون البنفسجي ، فوجد الفعل مختلفاً ، اي كان كلما بعد بمقياسهِ عن امواج اللون البنفسجي يرى الحرارة فيهِ وقد هبطت . وكان ذلك مما توقعهُ وتوصل اليهِ بالاستنتاج

من مشاهدة التدرج في هبوط درجات الحرارة في المقياس ، بالانتقال بهِ من وراء الاحمر او تحت الاحمر الى الاحمر الى ما يليهِ من الالوان

وكان الكيمياوي السويدي شيل ، قد اكتشف ان أملاح الفضة تتغير لوناً اذا عرضت لضوء الشمس . فتساءل الباحثون ، هل للاشعة التي فوق اللون البنفسجي تأثير في املاح الفضة ؟ وفي سنة ١٨٠٢ جرّب ولاستن التجربة التي اسفرت عن الجواب . ثم اثبت يونغ ان الفعل الكيمياوي الذي تتصف بهِ الاشعة التي فوق البنفسجي سببها امواج اثيرية ، لانها تنعكس وتنكسر وتستقطب كأمواج الضوء . ونحن نعلم الآن ، ان هذه الاشعة هي التي تؤثر في املاح الفضة التي تغطي طبقة الافلام وألواح التصوير فتجعل التصوير الضوئي ممكناً . ونعلم كذلك ان ما تتصف بهِ هذه الامواج من الفعل الكيمياوي يستعمل الآن لتوليد بعض انواع الفيتامين في مواد خالية منهُ . وليس هنا مجال التبسط في ذلك

ولعلي لا أخرج كثيراً عن الموضوع ، اذا قلت ان الباحث الاميركي ميز Mees اثبت من عهد قريب ان الاشعة التي تحت الاحمر ، وهي اشعة حرارة كما قدمت ، تؤثر تأثيراً كيمياويًّا في بعض المواد ، فصنع ألواح تصوير تغشاها المادة التي تتأثر بالاشعة التي تحت الاحمر ، وأحمى مكواة ووضعها في حجرة معتمة ، فلم يرها بعينيهِ ولكنهُ استطاع تصويرها ، لان اشعة الحرارة المنطلقة منها أثرت في لوح التصوير فرسمت المكواة عليهِ

وكذلك امتدَّ طيف الاشعاع من اليمين ومن اليسار ، أو من تحت ومن فوق ، فشمل من ناحية اللون الاحمر ، اشعة الحرارة ، ومن ناحية اللون البنفسجي الاشعة الكيمياوية ، فالاولى تعرف باسم الاشعة التي تحت الاحمر ، والثانية بالاشعة التي فوق البنفسجي . وكذلك ثبت أن بين الضوء والحرارة صلة وثيقة . فهل ثمة ظاهرة اخرى من ظاهرات الطاقة تتصل بهما ؟

هذه مسألة تستهوي العقول التي يشغلها ويحيرها ما في الطبيعة من اسرار ، ويحثها الشوق الى التساؤل والتجربة . وكان من الطبيعي أن يتجه فراداي الانكليزي وهو امير العلماء المجربين في عصره ، الى هذا السؤال . ففي سيرتهِ ما ينبئنا انهُ كان في سنة ١٨٢٢ معنيًّا بالبحث عن الحلقات الخفية الناقصة ، في سلسلة الظاهرات الطبيعية وكان يعتقد اعتقاداً راسخاً في ان الاشكال المختلفة التي تظهر فيها قوى المادة ترتدُّ الى اصلٍ واحد ، وكان بطبيعة مباحثهِ الاخرى ، يهتم بالضوء والمغناطيسية والكهربائية . وكان الضوء المستقطب يحيرهُ . وكان يحسُّ وليس عندهُ دليل ، ان هناك صلة بين المغنطيسية والكهربائية . فامرَّ شعاعة من الضوء المستقطب بين قطبي مغنطيس كهربائي قوي ، فتبين لهُ ان شعاعة الضوء تدور عندما يجري التيار الكهربائي في المغنطيس . فاذا انقطع عادت الشعاعة الى وضعها الاصلي . ثم اخذ لفّة من السلك بدلاً من

مغناطيس واجرى فيها تياراً فكان تأثيرها في شعاعة الضوء المستقطب كتأثير المغناطيس الكهربائي تخلص فراداي من هذه التجارب الى النتيجة المحتومة بان للضوء خواص كهربائية ومغناطيسية .

وفي سنة ١٨٤٦ تنبأ فراداي بأنهُ لا بدّ ان يجيء يوم يثبت فيه ان ثمة صلة بين الضوء والاهتزازات الكهربائية المغنطيسية (الكهرطيسية) في الاثير . وكان فراداي مجرباً عبقريًّا ولكنهُ كان غير راسخ العلم في الاساليب الرياضية ، وهذا التنبوء الجريء ، لابدّ لهُ من سحر الرياضة ليحوّلهُ من خاطر ومشاهدةٍ الى حقيقة علمية

ومن محاسن الاتفاق ، او من اسرار الخلق ، ان العصر الذي انجب فراداي ليكشف هذا الكشف ويقذف بهذه النبوءة الجريئة ، انجب كذلك اميراً من امراء البحث العلمي الرياضي في جميع العصور اعني جيمس كلارك مكسول . كان مكسول مجرّباً لا يستهان بهِ ، ولكن قلّ من يجاريهِ في عبقريتهِ الرياضية . فنظر مكسول في نتائج التجارب التي اجراها فراداي وقال في ذات نفسهِ لا بدّ من وجود تفسير لما يتصف بهِ الضوء المستقطب من الخواص الكهربائية والمغناطيسية . فعكف على التحليل الدقيق ، وخرج منهُ بمعادلات رياضية ، تدلُّ على ان في الفضاء اضطرابات كهربائية مغنطيسية تتصف بصفات الضوء . فكأن مكسول قال : ان الضوء مظهر اضطراب موجي في الاثير، وكذلك الاضطرابات الكهربائية الناشئة من شرارة كهربائية تبدو في مظهر امواج في الاثير ، لا نراها ، ولكنها هناك كالامواج التي تحدث النور والحرارة والطاقة الكيمياوية تسير جميعها بسرعة واحدة، هي السرعة المعروفة للضوء اي ١٨٦٣٠٠ ميل في الثانية

وقضى مكسول ، في سنة ١٨٧٩ وهو في الثامنة والاربعين من عمره ، ومعادلاتهُ الرياضية لا تزال ارقاماً ورموزاً على ورقٍ ، ولكن لم تكد تنقضي سبع سنوات على وفاته حتى حقق هينرش هرتز الالماني بالتجربة ، ما كان ظنًّا في ذهن فراداي ومعادلة رياضية في بحوث مكسول . ففي يوم من ايام سنة ١٨٨٦ كان هرتز يجرب التجارب في معمله ، بملفين من الاسلاك المعزولة ، واذ هو يجرب لاحظ انهُ اذا افرغت جرة ليدن في احد الملفين احدث افراغها تاثيراً في الملف الآخر البعيد عنهُ . فدهش لذلك . ومضى في التجربة بغية الاستيثاق ، فثبت له ان التأثير في الملف الثاني لا يقع الاَّ اذا كان في حلقة الملف الاول فراغ صغير بين طرفيهِ اي متى كان الملف كالخاتم وقد احدثت فيه ثغرة صغيرة . ثم ثبت لهُ كذلك ان تفريغه جرة ليدن في الملف الاول يحدث تاثيراً في الملف الثاني ولو ابعد عنه بعداً لا بأس بهِ

ثم نوّع التجربة ، فاحدث ثغرة في الملف الثاني كالثغرة التي في الملف الاول ، ثم افرغ جرة ليدن في الاول فقفزت شرارة بين الطرفين ، وقفزت شرارة مثلها بين طرفي السلك الثاني مع انه لم يكن ثمة اي اتصال بينهما . وتفسير ذلك ان قفز شرارة بين طرفي الحلقة الاولى

احدث اضطراباً او ذبذبة في الفضاء ، فانتقل هذا الاضطراب او الذبذبة الى الملف المقابل فاحدث فيه تياراً كهربائياً مؤثراً induced فقفز شرارة بين طرفي الحلقة حيث تقوم الثغرة. فكان ذلك الجهاز اللاسلكي الاول في ابسط اشكاله

وكانت الخطوة التالية ، ان عُني هرتز بدراسة الاضطراب الذي يحدث في الفضاء ، اي الذبذبات او الامواج التي تنتقل من الملف الاول الى الملف الثاني . فاثبت ان هذه الامواج تكسر وتستقطب وقاس سرعتها فوجدها كسرعة الضوء تماماً ثم بين انها تتداخل interference كامواج الضوء . ان هذه الامواج التي تنتقل في الفضاء على اثر تفريغ جرة ليدن تتصف بجميع صفات الامواج الضوئية ، والفرق الوحيد بينها وبين الامواج الضوئية ، انها كانت اطول كثيراً من امواج الضوء

وكذلك تحققت نبوءة من اعظم النبوآت العلمية في العصر الحديث ، فافضى تحقيقها الى تقدم عملي عجيب في المخاطبات اللاسلكية

كان هرتز في السابعة والثلاثين من عمره ، عند ما أصيب بتسمم في دمه وتوفي . ولكنه كان قد طبق جميع اساليب البحث على الاشعة الكهربائية المغنطيسية — وهي المعروفة باللاسلكية الآن — ليعرف هل هي من نوع امواج الضوء فعكسها وكسَّرها وفرقها وداخل بعضها في بعض . ومن المعروف الآن انها تمتدُّ من حيث طول موجتها عشرات الاميال الى حيث طولها بضعة سنتمترات . وهي من حيث المدى بين اطولها واقصرها اوسع مدى من طيف الضوء المرئي ، ألوف المرات ، حتى ولو اضفت اليه الاشعة التي فوق البنفسجي والاشعة التي تحت الاحمر

واذن ، كان مدى الاشعاع ، عند ما اثبت هرتز في منتصف العقد التاسع من القرن الماضي وجود الامواج الكهرطيسية ، يشتمل على الضوء المرئي ، وما يحيط بطرفيه من الاشعة الكهرطيسية وأشعة الحرارة — التي تحت الاحمر ، والاشعة الكيمياوية — التي فوق البنفسجي . ولكن الفرق بين اقصر الامواج الكهرطيسية واطول الامواج الحمر كان كبيراً في البدء ، الا أن المباحث الحديثة كشفت عن امواج كهرطيسية قصيرة جداً تساوي في طولها او تحاذي اطول الامواج الحمر وكذلك يمكن ان يقال ان طيف الاشعاع من اطول اشعة الراديو الى الاشعة التي فوق البنفسجي ، اصبح بالبحث الدقيق والتجربة البارعة « مكشوفاً » للعلم ولا ثغرة فيه . ففي الناحية الواحدة امواج يقاس طولها بالاميال ، وفي الناحية الاخرى امواج يقاس طولها باجزاء صغيرة من السنتمتر أو المتر

ولكن أيقف طيف الطاقة عند هذا الحدّ من ناحية الاشعة التي فوق البنفسجي ؟ اليس وراءها اشعة اخرى ، امواجها اقصر من هذه الامواج التي تؤثر في املاح الفضة ؟

هذا سؤال لم تُنر الطريق الى الجواب عنهُ الاّ بعد انقضاء نحو عشر سنوات على اكتشاف الاشعة الكهرطيسية او اشعة الراديو او الاشعة اللاسلكية

ففي سنة ١٨٩٥ كان وليم رنتجن في فرتزبرج . وكان في احد الايام يبحث في حجرة معتمة، وكان من ادوات بحثهِ انبوب استنبطهُ السر وليم كروكس الطبيعي الانكليزي فنسب اليهِ ،وكان رنتجن قد غطاه بورقة سوداء . فلاحظ في احد الايام ظاهرة عجيبة استرعت نظرهُ واستوقفت فكرهُ . ذلك ان تياراً كهربائياً كان منطلقاً في انبوب كروكس ، وهو مغطى بالورقة السوداء . وعلى بضع اقدامٍ منهُ كانت لوحة مغطاة بطبقة من مركب (بلاتينو سيانور الباريوم) ، فتألقت اللوحة تألقاً عجيباً . فظن اولاً ان اشعة المهبط احدثت هذا التألق . ولكنهُ بعد تفكيرٍ عرف ان هذه الاشعة لا يسعها اختراق زجاج الانبوب . فعدل عنها الى القول بان هناك اشعة اخرى تخترق الزجاج والورق الاسود وطبقة من الهواء كثافتها بضع أقدام — المسافة بين الانبوب واللوحة — وعندئذٍ جعل يجرب التجارب ليعرف قدرة هذه الاشعة الخفية على اختراق الاجسام والنفوذ من خلالها ، وذلك بوضع أجسام مختلفة الكثافة والصلابة بين الانبوب واللوح . ومن جملة ما وضع يداً بشرية وراءها لوحة فوتغرافية حسّاسة . ولشدة دهشتهِ وجد صورة اليد وعظامها قاتمة في الصورة حالة ان الانساج المحيطة بها كانت رمادية الى البياض. فكأنَّ هذه الاشعة اخترقت اللحم والدم ولم تخترق العظام

وفي ٢٤ دسمبر سنة ١٨٩٥ اعلن رنتجن اكتشافهُ لهذه الاشعة الخفية في رسالة تليت على جمعية برلين الطبيعية . ووسمها بحرف X الذي يرمز بهِ الى المجهول في علم الجبر . وبعدما دعيت بالعربية اشعة اكس واشتهرت بها رأى بعضهم اطلاق اسم الاشعة السينية عليها لان الحرف «س» يحلّ محلَّ الحرف X في الجبر العربي ويسهل استعمالهُ منسوباً اليهِ

عند ذلك اخذ العلماء يسألون ، هل امواج هذه الاشعة ، من نوع اشعة الضوء . واشعة الحرارة والاشعة الكيمياوية ، والاشعة اللاسلكية . وانقضت ست عشرة سنة قبل ان فاز العلم بالجواب الاول . ففي سنة ١٩١١ تمكن العلامة الالماني فون لاو Von Laue من تفريقها بوساطة لوحة محزّزة . ثم جاراهُ وليم براج الانكليزي في هذا البحث فعكسها وقاس طول امواجها فوجدها اقصر من امواج الاشعة التي فوق البنفسجي ، واقصر الوف المرّات من اشعة الضوء الذي يرى . وفي سنة ١٩٢٥ كمّرت، فاجتمعت الادلة الوافية ، على انها جزء من ذلك الطيف طيف الاشعاع الذي يجمع اشعة الراديو واشعة الحرارة واشعة الضوء والاشعة الكيميا وية

هل ينتهي الطيف عند هذا الحدّ ؟ هوذا السؤال نفسهُ يتردد ثانية وثالثة . اوليس وراء الاشعة السينية اشعة اخرى ، اقصر امواجاً واعظم نفوذاً واختراقاً للاجسام ؟ في الرد

عن هذا السؤال تنطوي جميع المباحث الخاصة بالمواد المشعّة التي مهّد لها بكريل الفرنسي الطريق وعبّدها بير كوري وزوجه ماري باكتشافهما عنصري البولونيوم والراديوم وما تلا ذلك من مباحث عشرات من العلماء الاعلام الذين اثبتوا ان انواع المقذوفات المنطلقة من الراديوم ثلاثة، هي دقائق الفا، ودقائق بيتا وهي الكهربات، واشعة غمّا. واشعة غمّا هذه اقصر امواجاً من الاشعة السينية واشدّ نفوذاً من خلال الاجسام المادية. وما كاد الستار يزاح عن اشعة غمّا حتى بدأ البحث بقصد معرفة طبيعتها وهل هي تابعة للطيف الكهرطيسي. وكانت اقامة الدليل على ذلك من اعسر الامور. ولكن ڤيلار اثبت انها تعكس وتكسّر وتسير بسرعة الضوء وفي سنة ١٩١٤ تمكن رذرفورد واندراده من قياس طول امواجها فثبت انها اقصر امواجاً من الاشعة السينية واذن فقدرتها على اختراق الاجسام اعظم من قدرة تلك، فضمت الى الطرف القصير الامواج من طيف الاشعاع

وما كادت هذه الحقائق تعرف او يعرف بعضها، حتى خطّت في افق علم الطبيعة الحديثة علامة استفهام قديمة مؤدّاها، هل ينتهي مدى طيف الاشعاع عند هذا الحدّ؟ وكان من المتعذّر الاجابة قبل التجربة والامتحان، اذ كان يعسر على الذهن البشري ان يتصور اشعة اقصر امواجاً من اشعة غمّا المنطلقة من الراديوم، وتستطيع لقصرها ان تخترق لوحاً من الرصاص سماكتهُ اكثر من بوصتين. ولكن هذا الذي كان يصعب تصوّره ويتعذّر توقعهُ اصبح حقيقة واقعة، باكتشاف الاشعة الكونية. وقد سبق لي أن تشرفت بالقاء محاضرة في موضوعها في هذا المجمع الموقر نشرت في كتابه السادس فلا اعيد ما جاء فيها وانما اكتفي بالقول بان اقصر الاشعة الكونية التي تبينتها اجهزة العلماء الدقيقة تخترق ما سماكتهُ ٢٨٠ قدماً من الماء أو ٢٥ قدماً من الرصاص! مع ان الاشعة السينية لا تخترق الاّ ما سماكتهُ سنتمتران فقط!

بقي علينا، ان نقول كلمة في وحدة المقاييس التي يعتمدها العلماء في قياس امواج قصيرة من هذا القبيل قبل الاتيان على هذا الجانب من المحاضرة. وهذه الوحدة التي اعتمدها العلماء في قياس طول الامواج القصيرة تعرف «بالانجستروم» وهي جزء من عشرة ملايين جزء من المتر

على هذا الاساس من القياس تكون اطوال الامواج في الطيف الكهرطيسي، كما يلي

ضرب الامواج	اطوال الامواج
الامواج اللاسلكية	من عدة كيلومترات الى عشر المليمتر (مليون انجستروم)
الاشعة التي تحت الاحمر	من مليون انجستروم اي عشر المليمتر الى ٨٠٠٠ انجستروم
اشعة الطيف المرئي	من ٨٠٠٠ انجستروم الى ٤٠٠٠ انجستروم
الاشعة التي فوق البنفسجي	من ٤٠٠٠ انجستروم الى ١٠٠ انجستروم

ضرب الامواج	طول الامواج
الاشعة السينية	انجستروم واحد
اشعة غما	من بضعة اعشار الانجستروم الى سبعة اجزاء من الف جزء من الانجستروم
الاشعة الكونية	اقصر من ذلك كثيراً

٢ — طبيعة الاشعاع

نستيقظ في الصباح فاذا الضوء يغمر الكائنات . فلا يخطر للذهن البشري ان هذا الضوء يصدر ويسير ويستغرق في صدوره وسيره ووصوله وقتاً . فكان لا بدَّ من خيال متيقظٍ ليتصوَّر ان الضوء يتحرك وانهُ يتحرَّك بسرعةٍ ثابتة . وليس في تاريخ العلم ذكر من سبق الى فكرة انتقال الضوء ولكن اول من طبق هذه الفكرة تطبيقاً علميًّا على ما نعلم هو الفلكي الدنماركي رويمر . ففي سنة ١٦٧٦ كان رويمر يراقب حركة الاقمار الاربعة التي تدور حول المشتري ، وفي دورانها حول هذا السيار ، تجيء عليها فترات تغيب عن النظر وراءهُ . ثم تبرز للعيان . وكان كل قمر يغيب فترة معينة من الزمن . فدوَّن رويمر مدى غياب كلٍّ منها في أرصاد مختلفة . فدهش عند ما رأى ان مدة غياب القمر الواحد ليست واحدة ، فحيرهُ ذلك لانهُ لم يرَ كيف السبيل الى حسبان سرعة دوران المشتري على محوره سرعة متغيرة . ولا كان في وسعهِ كذلك ان يسلم بأن هذه الاقمار تغير سرعتها في دورانها حول المشتري . ثم لاحظ ان هذا التغير في مدى غياب الاقمار ، او في سرعتها الظاهرة على صلة بحركة الارض بالقياس الى حركة المشتري . فالمشتري تبعاً لحركتهِ وحركة الارض حول الشمس ، يكون آناً مقترباً من الارض وآناً مبتعداً عن الارض . فاذا فرضنا ان المشتري ، آخذ في الابتعاد عن الارض . وانهُ لكذلك نرصد احد أقماره فنراهُ يغيب وراءه ثم يظهر . ولكن في الفترة بين غيابهِ وظهوره يكون المشتري قد ابتعد عن الارض . واذن فالضوء الواصل الينا من القمر بعد ظهوره ، يقطع مسافة أبعد من المسافة التي كان قد قطعها قبل غيابهِ ، لابتعاد المشتري في اثناء ذلك . واذا كان المشتري آخذاً في الاقتراب كانت المسافة التي يقطعها قمر المشتري بعد ظهوره اقصر من المسافة التي قطعها قبل غيابهِ ، لان المشتري يكون قد اقترب منا في اثناء ذلك . فاذا كان الضوء يستغرق زمناً مهما يكن صغيراً في اختراقهِ الفضاء او اجتيازه المسافات ، فلا يمكن أن تكون الفترتان اللتان يستغرقها القمر بين الغياب والظهور ، في حالتي اقتراب المشتري وابتعادهِ واحدة . وكذلك حلَّ رويمر العقدة التي حيرتهُ بقولهِ ان الضوء يستغرق زمناً في اجتياز المسافات . وحسب حساب سرعتهِ فاذا هي ١٩٢٠٠٠ ميل في الثانية . وقد صحح هذا الرقم في خلال الزمن الذي انقضى على حساب

رويمر ، وتعددت التجارب واساليب القياس ، والرقم المقبول الآن هو ١٨٦٣٠٠ ميل في الثانية . وعلى هذا القياس يستغرق ضوء الشمس في الوصول الينا نحو ثماني دقائق

هذا القياس الذي قام بهِ رويمر في العقد الثامن من القرن السابع عشر ، اثار سؤالاً كبير الشأن ، لا يزال حتى يومنا هذا يحفز عقول العلماء الى الرد عليهِ . ماذا يحدث خلال سير الضوء في الفضاء اي ما طبيعتهُ وكيف ينتقل ؟ والعصر الذي انجب رويمر فقاس سرعة الضوء واثار بقياسها هذا السؤال ، انجب كذلك نيوتن وهوجنس فذهب كلٌّ منهما مذهباً يخالف مذهب الآخر في طبيعة الضوء وسر انتقالهِ . اما نيوتن فذهب الى ان الضوء ذرات او دقائق تنطلق من الجسم المنير ، بالسرعة التي قاسها رويمر وفي خطوط مستقيمة . فكأنهُ تصور الاشعاع حركة من حركات المادة . وأما هوجنس فتصور الضوء والاشعاع حركة تموجية . اي حركة الطاقة لا حركة المادة . فكأنهُ قال ان امواج البحر تنتقل بتموج الماء . وامواج الضوء تنتقل بتموج الهواء . فلما قيل لهُ ان الضوء يخترق الرحاب الشاسعة بين الاجرام حيث لا هواء يتموج وانهُ ينتقل كذلك في الفراغ ، فرض وجود الاثير ، على انهُ وسط شفاف لا وزن لهُ يملأ رحاب الكون وتجواته

كانت الغلبة في البدء لمذهب نيوتن ، لما كان لهُ من المقام العلمي العظيم ، ولان الظاهرات الضوئية المعروفة في عصره ، امكن تعليلها بمذهبه على اوفق وجهٍ . ولكن ظهرت ظاهرات ضوئية اخرى ، لم يمكن تعليلها بمذهبهِ الذرّي ، وأمكن تفسيرها بالمذهب التموُّجي فعقد لهذا اكليل النصر وظل معتمد العلماء الى اواخر القرن التاسع عشر

ولكن ظهر في اواخر القرن الماضي حقائق تتعلق بالطاقة ومنها الضوء ، اثبتتها التجارب ولكنها جاءت مناقضة للنظرية التموجية . فابتدعت نظرية جديدة ، اصبح لها الشأن الاول في مباحث الطبيعة الجديدة ، ونعني نظرية المقدار (Quantum) وقد كان مولدها الرسمي يوم ١٤ دسمبر سنة ١٩٠٠ وهو اليوم الذي قرأ فيهِ العلامة الالماني ماكس بلانك رسالة في الجمعية الطبيعية الالمانية ضمنها قواعد هذه النظرية

ويجدر بنا قبل ان نصف الصورة الجديدة التي رسمها العلم الحديث لطبيعة الاشعاع ان نوطىء للوصف بفذلكة عن فكرة الانفصال في الطبيعة . فلنفرض اننا نملك منجماً للفحم . وان في هذا المنجم اربعمائة عامل . وانهُ ينتج في الاسبوع خمسمائة طن . ولنفرض ان الاحوال الاقتصادية قضت بنقص عدد العمال . فالنقص لا يمكن ان يتمّ في وحدات اقل من عامل واحد . اي اننا لا نستطيع ان ننقص عدد العمال من ٤٠٠ عامل الى ثلاثمئة عامل ونصف

عامل . بل يجب ان يكون اما ثلثمائة عامل واما ثلثمائة عامل وعامل واحد . اما مقدار الانتاج فيمكن ان يزيد او ينقص بكسور من الطن

وكذلك في الطبيعة . ففيها كميات ، تتغير تغيراً متصلاً واخرى لا تتغير الا تغيراً منفصلاً . فالوقت والمسافة من النوع الاول وان كانا يقاسان بمقاييس تنتقل قفزاً من أصغر وحداتها الى الوحدة التالية. ولكن عند ما نسأل كم ذرة من الايدروجين في لتر من هذا الغاز ، لا يمكن ان يكون الجواب الا عدداً كاملاً من الذرات . لا كسور فيه . اذ لا يمكن ان يكون في اللتر كذا مليون من ذرات الايدروجين ونصف ذرة او ثلث ذرة منهُ . فالطبيعيات الكلاسيكية كانت تتناول الكميات المتصلة كالوقت والمسافة والكتلة والقوة والطاقة

ولكن نشوء النظرية الذرية في القرن التاسع عشر ، احدث التغيير الاول . اذ اثبتت ان المادة منفصلة لا متصلة . فالايدروجين المحفوظ في وعاء يحتوي على عدد كبير جدًّا من الذرات الكاملة . وهذه النظرية القائمة على مبدإ الانفصال مكنت العلماء من تعيين كتلة ذرة واحدة من الايدروجين . وكانت النتيجة الاولى ان انهارت فكرة الميكانيكيات الكلاسيكية القائمة على اتصال الكتلة . اذ ليس في الامكان ان تضيف الى وعاء يحتوي غاز الايدروجين مليون ذرة ونصف ذرة من هذا الغاز ولا ان تزيل منهُ مليون ذرة ونصف ذرة

ثم اتصل اثر ذلك بالكهربائية نفسها . ذلك انهُ لما ثبتت النظرية الكهربية (الالكترونية) القائلة بان الذرة قوامها بروتونات والكترونات ، وان هذه الوحدات هي وحدات الكهربائية السالبة والموجبة ، ظهر ان الشحنات والتيارات الكهربائية ليست متصلة فلا يمكن ان تنقص ولا ان تزيد الا بوحدات كاملة

واذا كان ذلك كذلك فاي جديد اتت بهِ نظرية المقدار ؟ الجديد الجريء في نظرية المقدار ، ان العلامة بلانك ، قال بان جميع ضروب الطاقة منفصلة القوام . اي انها غير متصلة ، وانها مجموع وحدات اطلق على كلّ منها « كوانتوم » وقد ترجمناها بلفظ « مقدار » والجمع « مقادير » . فاصبح عندنا المقادير الاساسية في المادة وهي الذرات ، والمقادير الاساسية في الكهربائية وهي الكهيربات والبروتونات والبوزيترونات ، ومقادير الطاقة

تطلق الاجسام المضيئة اشعاعاً ، وتمتص المادة هذا الاشعاع او تعكسهُ او تفرقهُ . قال بلانك: كل ما تطلقهُ الاجسام المضيئة من الاشعاع وما تمتصهُ المادة منهُ لا يتم الا في « مقادير » . فالجسم يطلق عدداً معيّناً من المقادير الكاملة والآخر يمتص حين يمتص عدداً معيناً من المقادير الكاملة

هذه نظرية « المقدار » في ابسط اشكالها . ومن الطبيعي ان يكون اول سؤال يتبادر الى الذهن في هذا الصدد ، ما حجم المقدار . فلنعمد الى التشبيه في التوطئة للردّ على هذا السؤال الوحدة الاساسية في الميزانية المصرية هي المليم . فلا يمكن ان تزيد الميزانية او تنقص الا

ملاليم مهما يكبر عددها . ولنفرض ان الوحدة الاساسية في الميزانية الانكليزية هي « البنس ». فلا تزيد الميزانية البريطانية ولا تنقص الا « بنسات ». وان الوحدة الاساسية في الميزانية الفرنسية هي « السنتيم » فلا تزيد او تنقص الا سنتيمات . كلٌ منها وحدة اساسية ولكن قيمة هذه الوحدات الاساسية الثلاث ليست بمتساوية

فاذا كانت هذه الوحدات هي « المقادير » الاساسية في الميزانيات الثلاث، فالمقادير مختلفة القيمة أو الحجم . وهي كذلك في الطبيعة . ان « مقدار » الضوء الاحمر يختلف عن « مقدار » الضوء البنفسجي. والمقدار يزيد كبراً بالقياس إلى قصر الموجة في الطاقة التي يمثلها . فطول الموجة في الضوء البنفسجي نصف طول الموجة في الضوء الاحمر . وإذن فمقدار الضوء البنفسجي ضعف مقدار الضوء الاحمر

واذن يتحوّل سؤالنا : ما هو المقدار اي الكوانتم الاساسي للطاقة الى سؤال آخر : ماهو المقدار الاساسي لضرب معين من الطاقة ذي طول موجة واحد. وفي الرد على هذا السؤال لا بد من استعمال كمية ثابتة استنبطها بلانك وتعرف في علم الطبيعة الحديث « بثابت بلانك » ويرمز اليها في اللغات الاعجمية بالحرف h الصغير فلنرمز اليها بالحرف (ه) . وهذه الكمية ليست من ابتداع المخيلة وانما توصل اليها بلانك من تجارب ومباحث دقيقة كلّ الدقة . وعن طريق هذا الثابت (ه) نستطيع ان نعين « مقدار » او كوانتوم كل ضرب من ضروب الاشعاع اذا عرفنا طول موجته بحسب المعادلة التالية

مقدار الطاقة $=$ ه $\times$ $\frac{\text{سرعة الضوء}}{\text{طول الموجة}}$ ومن هنا يتبين انهُ كلما قصرت الموجة زاد المقدار . ويجب ان تكون جميع الكميات في هذه المعادلة بالسنتمتر او بأجزاء منهُ

ولا يخفى على حضراتكم انهُ اذا رفع ما وزنهُ كيلوغرام مسافة مترٍ انفق على هذا الرفع قدر من الطاقة . فاذا قسمتم هذا القدر من الطاقة مائة مليون جزء دعي كل جزء منها « ارج » فهذه الوحدة الصغيرة من وحدات الطاقة يمكن ان يقاس بها العمل الذي تعملهُ النملة الصغيرة في بناء قريتها . فاذا سألنا ما عدد مقادير الضوء الاحمر في « الارج » افضى بنا الحساب الى انهُ ٤٠٠ مليون مقدار في الارج الواحد . وكان عدد مقادير الضوء البنفسجي في الارج الواحد ٢٠٠ مليون مقدار. وعدد المقادير ينقص في الاشعة التي امواجها أصغر مما تقدم كالاشعة السينية واشعة غما

وفي سنة ١٩٠٥ نشر عالم شاب في « انالن در فيزيك » بحثاً في تطبيق نظرية « المقدار » على الضوء . وكان ذلك العالم البرت اينشتين . فتقدم بالنظرية التي اخرجها بلانك خطوة الى الامام. اذ قال ان الضوء ليس موجاً وانما هو « مقادير » دعاها فوتونات (وقد ترجمها احد اعضاء مجمعنا الاستاذ اسماعيل مظهر بضويئات قياساً على جزيئات) تسير بسرعة الضوء . فكانهُ أحيا نظرية نيوتن الذرية في طبيعة الضوء ، مبدلاً فيها التبديل الذي يقتضيه تقدم العلوم الطبيعية في

هذا العصر . ولكن اذا الغينا النظرة التموجية في الضوء ، حذفنا من علمنا صورة « طول الموجة » فاذا يحل محلها ؟ بمقتضى هذا التغير يصبح علينا أن نقول « الطيف المرئي قوامه ضويئات مختلفة الطاقة » بدلاً من « الطيف المرئي قوامه أمواج مختلفة الاطوال » . و « ان طاقة الضويء في المنطقة الحمراء من الطيف نصف طاقة الضويء في المنطقة البنفسجية في الطيف نفسه » بدلاً من « إن طول الموجات في الاشعة الحمر ضعف طول الامواج في الاشعة البنفسجية »

وليس خروج العلماء على نظرية الضوء التموجية نتيجة نزوة من النزوات ، ولكن لان النظرية الجديدة تفسر ظاهرات عجزت النظرية التموجية عن تفسيرها ، وتنبىء بحقائق اثبت البحث صحتها

الاَّ ان نظرية « المقدار » لم تحلَّ جميع المصاعب التي تعترض العلماء في بحث الطاقة . ففي دراسة الضوء ظاهرة تعرف باسم الفعل « الكهربائي النوري » او « الكهرنوري » لا يمكن تفسيرها بنظرية الضوء التموُّجية . ويمكن تفسيرها أحسن تفسير بنظرية المقدار . ولكن هناك ظاهرة أخرى تعرف بظاهرة « التداخل » لا تجدي نظرية المقدار في تعليلها ولكن النظرية التموجية تجدي . وهذا مما يحيّر . فقد تعودنا ان نحسب الضوء نوعاً من التموج . ولكن بعض الظاهرات تقتضي ان يكون تياراً من المقادير دعيت الضويئات . وتعوَّدنا ان نحسب المادة مجموعة من الدقائق . ولكن بعض التجارب يثبت ان دقائق المادة تتصرف كأنها امواج . وقد منح جرمر الاميركي وطمسن الانكليزي — نجل السر جوزف طمسن — جائزة نوبل الطبيعية سنة ١٩٣٧ لاثباتهما ذلك بالتجربة . ولذلك سعى العلماء في العشر السنوات الاخيرة ، الى الجمع بين الرأيين في صورة جديدة ، أطلق عليها اسم « الميكانيكيات الموجية » . فبمقتضى هذه الصورة الجديدة يكون الكهيرب متصلاً حين ينطلق او مصحوباً بسلسلة من الامواج . ولكنها ليست امواجاً طبيعية ، فكأنها امواج غير مادية كامواج الغبطة أو الحزن او الحماسة التي تكتسح شعباً من الشعوب

لا تزال هذه النظرية غير مفهومة تماماً الاَّ لنفر يسير من العلماء . لانها لا تزال في دور البحث الرياضيّ العالي . ولان مقتضياتها ليست مما يسهل افراغهُ في صور قريبة من الذهن ، ولا سيما الذهن الذي تعوَّد التفكير الطبيعي على أساس الطبيعة الكلاسيكية

ولعلَّ عالمنا الطبيعي الكبير الدكتور مشرَّفة يبسط لنا في محاضرة خاصة الفكرة الحديثة في ثنائية المادة والطاقة ، فانهُ من الاعلام الذين أضافوا اليها إضافات سجِّلت لهُ في الجمعية الملكية البريطانية واشار اليها غير واحدٍ من العلماء في مؤلفاتهم الحديثة . قال السر جيمز جينز في كتابه « الكون الخفيّ » ما يلي صفحة ٧٧ : وقد اقترح مشرَّفة وغيرهُ ان السرعة قد تكون الفرق الوحيد بين الاشعاع والمادة ، فالمادة نوع من الاشعاع المتجمد سائراً بسرعة أقل من سرعته السوية

٣ — النشاط الاشعاعي الصناعي

استعملنا لفظ الاشعاع في ما تقدم من القول مقابلاً للفظ Radiation الاعجمي . ولكن هناك لفظاً آخر لا بدّ من وضع مقابل خاص لهُ للتميز وهو لفظ Radio-activity وقد رأينا ان نختار لهُ مقابلاً عربيًّا فاخترنا « النشاط الاشعاعي »

هذا الفصل من البحث ذو مشهدين . احدهما بدأ عند ما كشف بير كوري وزوجه ماري سكلودوفسكي البولندية الاصل، عنصر الراديوم قبيل نهاية القرن الماضي. وقد دام هذا الدور حتى مستهل العقد الرابع من القرن العشرين . اما المشهد الثاني فيبتدىء باسم كوري كذلك ، ولكنهُ اسم ايرين كوري كريمة مكتشفي الراديوم . وهي الآن زوج الاستاذ جان فردريك جوليو ، وقد قبل زوجها ان يضاف اسم كوري الى اسمهِ ، تخليداً لذلك الاسم الكريم اللامع في تاريخ الطبيعة الحديثة ، لان الاستاذ بير لم يعقب ذكراً ، فاصبح الاستاذ جوليو وقرينته يعرفان باسم مركب هو « كوري ، جوليو »

ما اعجب اسرار الخلق ! تفرُّ فتاة بولندية من وطنها ابتعاداً عن الاستبداد فتؤمُّ باريس ، وفيها تلتقي بباحث وديع ، فيتزوجان ، فيتاح لهما كشف عنصر الراديوم المشعّ فينالان جائزة نوبل الكيماوية ١٩٠٣ ثم يصاب الزوج بحادثة اودت بحياته فتحل قرينتهُ محلهُ في السوربون ، وتوالي بحثها قصد استفراد ذلك العنصر العجيب ، فتنال جائزة نوبل الطبيعية وحدها . ومدام كوري فذَّة في تاريخ جوائز نوبل في ان احداً غيرها من العلماء لم ينل جائزتين منها . وهاهي ذي ابنتها تقتفي خطواتها ، فتكشف في هذا الميدان ما يجعلها جديرة بجائزة نوبل ايضاً فتنالها هي وزوجها من سنتين (١٩٣٥)

امتاز المشهد الاول في تاريخ النشاط الاشعاعي بدراسة ما يقذف من الراديوم . فاذا هو ثلاثة انواع ، دقائق الفا وهي نوى ذرّات الهليوم ، ودقائق بيتا وهي الكهيربات ، واشعة غمّا وقد تقدم ذكرها . هذه المقذوفات تنطلق من الراديوم انطلاقاً ذاتيًّا لا يؤثر فيها ضغط ولا حرارة عالية او واطئة ، فالانسان عاجز عن ان يزيد انطلاقها سرعة او بطئاً ، فكأنها خارجة عن نطاق إمكانه

اما المشهد الثاني ، فيمتاز باكتشاف الطريق الى توليد العناصر المشعة من العناصر غير المشعة. ان عناصر ساكنة مستقرة كالفضة والنحاس والكربون ، وهي ابعد ما يكون طبيعة عن عنصر دائم الانحلال كالراديوم ، يمكن ان تهيجها فتشعُّ . فكأنك اخذت مقعداً مشلولاً ونفخت فيه روحاً جديداً او حقنتهُ بعقار قوي ، فقفز عن سريره واصر على ان يشترك في الالعاب الاولمبية

العناصر المشعة نادرة في الطبيعة . ولذلك نجدها غالية الثمن . حتى ان الغرام الواحد من عنصر الراديوم يزيد ثمنه الآن على عشرة آلاف جنيه . وقد كان قبل عقدين من السنين يبلغ ثلاثين الفاً او نحو ذلك . ولذلك يصح القول بأن الكشف الحديث عن تحويل العناصر غير المشعة الى مواد مشعة ، تقدم عظيم الشأن في علم الطبيعة ، وقد يكون ، بل لا يبعد ان يكون ، نفحة جليلة اخرى من نفحات العلم النظري لعلوم الطب العملية . اذ لا يخفى ما للعناصر المشعة من فائدة في بعض انواع العلاج

هذا الكشف الجديد ، الذي اثبت ان الانسان يستطيع ان يحوّل بعض العناصر غير المشعّة الى عناصر مشعّة ، بأساليب صناعية ، وبمقذوفات لا يد للطبيعة في اطلاقها ، نتيجة النشاط العجيب ، الذي بدا في علم الطبيعة التجريبي ، ودار حول نواة الذرة ، عن طريق تهشيمها بغية الوصول الى معرفة قوامها . فقد أذيعت الانباء الاولى عن هذا الكشف في ١٥ يناير سنة ١٩٣٤ في رسالة للاستاذ كوري جوليو وزوجه ارين كريمة مكتشفي الراديوم . وما ذاع النبأ الذي انطوت عليه رسالتهما حتى اكبت عليه طائفة من البحّاث في مختلف البلدان ، فتوسعت فيه ، وأيدت بتجاربها الحقائق التي كشفاها . وفي مقدمة الذين تناولوها وأضافوا اليها ، اللورد رذرفورد واعوانهُ — وقد كانت وفاة رذرفورد في السنة الماضية خسارة علمية فادحة — والاستاذ ارنست لورنس الاميركي وغيرهم

***

قلنا ان هذا الكشف الجديد ، اي ان هذه المرحلة الجديدة في دراسة النشاط الاشعاعي، نشأت عن العناية بدراسة نواة الذرة ، والتوسل بتهشيمها الى معرفة قوامها

ولا يخفى ان تهشيم الذرة ، او بالحري تهشيم نواتها ، يقتضي أولاً — قذيفة تطلق على نواة الذرة فتخترق النطاق الكهربائي الذي يحيط بها فتهشمها . وثانياً — وسيلة صالحة لاطلاق تلك القذيفة بزخم كافٍ للتهشيم . وثالثاً — هدفاً يحتوي على الذرات التي نبغي تهشيم نواها كلوح رقيق من البورون او الالومنيوم او المغنسيوم او الصوديوم — وليس بضروري ان يكون الهدف لوحاً — فيوضع الهدف في مسار القذيفة فتصطدم بهِ . ورابعاً — اسلوباً يمكن الباحث من معرفة نتيجة التصادم

تطلق هذه القذائف المديدة على الهدف فلا بد ان يتفق لاحداها ان تصطدم بذرة من الذرات التي في الهدف فتهشم نواتها وقد تتحد بجزء منها فينشأ من هذا الاتحاد مادة جديدة او قد تلصق بالنواة بغير ان تهشمها فينشأ من ذلك جسم اكبر وزناً من جسم الذرة الاصلية . ويكون هذا الجسم غير مستقرّ التركيب فلا يلبث حتى ينحل فتنطلق منهُ دقائق ذرية وأشعة

عمّا . وهذه الحالة الاخيرة هي ما يعرف بالنشاط الاشعاعي الصناعي لان النشاط الاشعاعي الذاتي في الراديوم ليس في الواقع الاّ انطلاق دقائق وأشعة من ذلك العنصر

كانت القذائف التي استعملها اللورد رذرفورد أولاً في تحويل العناصر قذائف تستمدُّ طاقتها وزخمها من الطبيعة ، اي الدقائق المنطلقة بسرعة عظيمة من العناصر والمواد المشعة كالراديوم والبولونيوم والثوريوم وغيرها . فلم يكن لهُ يدٌ في اطلاقها أو في زيادة طاقتها . الاَّ ان العلماء مقتنعون كاقطاب المسكرين بالفائدة العظيمة التي تجنى من استعمال الاجهزة الميكانيكية . ولذلك عمدوا الى استنباط الوسائل والاجهزة التي تمكنهم من ان يتناولوا دقائق مادية منوّعة ، فيطلقوها بوساطة اجهزتهم ، بزخم عظيم

أما الوسائل المستعملة لهذا الغرض فمختلفة. وافضلها جهاز لورنس المعروف باسم السيكلوترون او الجهاز الرحوي . وجميع الاجهزة التي سبقت اتقان طريقة لورنس ، تتصف بخزن مقادير كبيرة من الطاقة الكهربائية واطلاقها بين قطبين ضخمين . ولكن ظهر بعد التجربة انهُ إذا ارتفع الضغط الكهربائي في القطبين وبعدت المسافة بينهما ، تعذر وجود انابيب تصلح لمرور الشرارة العظيمة بين القطبين . وقد صنع فعلاً جهاز عظيم في معهد ماستشوستس التكنولوجي قبل اربع سنوات ، بحيث تنطلق الشرارة الكهربائية فيه عندما تنطلق بقوة سبعة ملايين فولط ولكنهُ لم يستعمل لانهُ تعذَّر حتى الآن صنع انبوب صالح لذلك

ولكن ارنست لورنس الاميركي ، احتال على تحقيق الغرض نفسهِ باسلوب بارع . فقد كان في سنة ١٩٢٩ — وهو حينئذٍ في الثامنة والعشرين من عمره — يطالع رسالة لباحث الماني غير مشهور فوقع فيها على وصف لما يحدث للايونات عندما تكون في حقل مغناطيسي ، وكيف تمكن من ان يجعل طاقة الحركة في ايونات البوتاسيوم ، ضعفي الطاقة الاصلية التي قذفت بها . فخطر للورنس ، ان يسعى الى صنع جهاز ، القصد منهُ أن يطلق فيهِ الدقائق بقدر معيَّن من الطاقة واطيء الضغط بالقياس الى الطاقة العظيمة في الاجهزة التي تقدم وصفها . ولكنهُ يجعل الجهاز بحيث تؤثر هذه الطاقة مرة بعد اخرى في الدقائق ، فتزيد سرعتها رويداً رويداً حتى تصبح طاقة انطلاقها اضعاف الطاقة الاصلية التي اطلقت بها. وقد شبه الاستاذ كارل كمطن مدير معهد ماستشوستس التكنولوجي هذا الجهاز تشبيهاً لطيفاً يقرب معناهُ . قال انهُ اشبه ما يكون بفتى واقف على عارضة ارجوحة ساكنة فيطلب الى احد رفاقهِ ان يدفعهُ الى الامام . فيفعل . ولكن الفتى يستطيع ان يبلغ علواً عظيماً وزخماً كبيراً اذا عرف كيف يرتب حركة قيامهِ وقعودهِ في الارجوحة . وقد استطاع لورنس فعلاً ان يبدأ اطلاق القذائف في جهازهِ بقوة تبلغ ضغطها خمسين الف فولط فقط فيبلغ طاقة حركتها ستة ملايين من الفولطات.

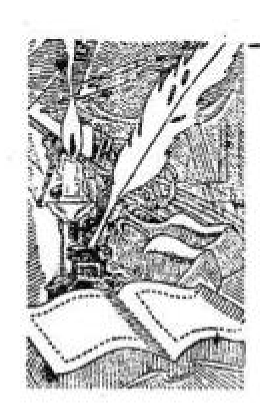
وأحدث الانباء من كاليفورنيا تشير الى انهُ معنيٌّ الآن بصنع جهاز يمكنهُ من ان يقذف بهِ قذائف معينة بطاقة ١٢ مليوناً الى ٢٠ مليوناً من الفولطات ودقائق اخرى بطاقة ٢٤ مليوناً الى ٤٠ مليوناً من الفولطات

قلنا ان القذائف الاولى التي اعتمدها لورد رذرفورد كانت تنطلق انطلاقاً ذاتيًّا من العناصر المشعة . ثم استعملت البروتونات وهي نوى ذرات الايدروجين . ولكن في خلال المدة التي انقضت والعلماء يبحثون عن استحداث جهاز لاطلاق هذه القذائف بطاقة عظيمة ، اكتشف الباحثون دقائق مادية جديدة ، هي اصلح من البروتونات للاطلاق . ففي سنة ١٩٣٢ اكتشف شدك الانكليزي ما يعرف باسم « النوترون » — ومعناه المحايد — وهو دقيقة وزنها واحد اي كوزن البروتون ولكنها لا تحمل شحنة كهربائية واذن يسهل عليها اختراق النطاق الكهربائي حول النواة لعدم تأثرها بفعل الجذب والدفع الكهربائيين . وحوالي ذلك الوقت ايضاً اكتشف يوري الاميركي الدوتيريوم او الدبلوجين ، وهو الاسم الذي يطلق على الايدروجين الثقيل ، اي الايدروجين الذي كتلة نواتهِ ضعف كتلة النواة في الايدروجين العادي . ولما كان البروتون من القذائف المستعملة في هذا البحث ، فالدوتون او الديبلون خير منهُ لان كتلته ضعفا كتلة البروتون ، واذاً فزخمه عند اطلاقه يجب أن يكون اعظم

وكذلك توافرت للباحثين القذيفة . والجهاز اللازم لاطلاقها بزخمٍ عظيم . فتمهَّد الطريق لاحداث النشاط الاشعاعي في عناصر غير مشعة . وفي احدث ما لديَّ من المصادر ان اربعين عنصراً غير مشع استحدث فيها النشاط الاشعاعي باحدى الطرق المتقدمة

ومن اعجب ما تمَّ في هذا الميدان صنع الصوديوم المشع باطلاق الدوتونات عليهِ . فعندما يصيب الدوتون ، وهو منطلق بطاقة ٠٠٠و١٧٥٠ فولط نواة ذرة الصوديوم يندمج فيها ويطلق منها بروتوناً ، ولكن الدوتون ضعفا كتلة البروتون ، اذن تزيد وزن نواة الصوديوم واحداً فتصبح بذلك ذرة صوديوم مشعة . وهذه الذرة تطلق اشعة غمًّا تماثل اشعة غمًّا المنطلقة انطلاقاً ذاتيًّا من عنصر الراديوم . الَّا ان نصف حياة الراديوم ١٦٠٠ الى ١٧٠٠ سنة . ولكن نصف حياة الصوديوم المشع خمس عشرة ساعة . ويمتاز الصوديوم المشع على الراديوم في انهُ لا يطلق الاَّ اشعة غما حالة ان الراديوم يطلق دقائق الفا ودقائق بيتا كذلك . واذن فاستعمال الصوديوم المشع في الطب قد يكون اسهل من استعمال الراديوم

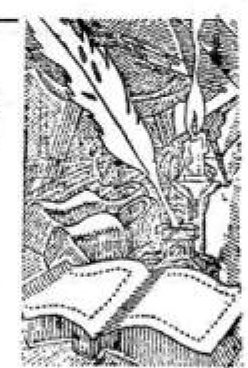
هذا ايها السادة ما اتسع لهُ المقام من القول في الاشعاع من ناحيتهِ الطبيعية فقط دون الابواب المتعددة التي فتحها بحثهُ على العلوم الاخرى ، وحسبي ان تتلقَّوه بحلمكم وتغضوا الطرف عمَّا فيهِ من تقصير



العوامل الفعالة

في

الادب العربي الحديث



عُني حضرة العلاّمة الاستاذ انيس المقدسي استاذ الادب العربي في جامعة بيروت الاميركية باعداد بحث نفيس عنوانه « العوامل الفعالة في الادب العربي الحديث » وهو دراسة تحليلية للنزعات المتجلية في آداب النهضة العربية الحديثة وبواعثها السياسية والاجتماعية والفكرية . وقد اتيح المقتطف ان يظفر بهذا البحث . فشرعنا في نشر الحلقة الاولى التي عالج فيها المؤلف « العوامل السياسية في المواطن الرئيسية للنهضة اي مصر والعراق والاقطار السورية من منتصف القرن الماضي الى الوقت الحاضر » . والاستاذ المقدسي يعلم « ان هذه طريق وعرة لا يأمن سالكها العثار أو الضلال . فاذا كنا نحاول سلوكها فان جلّ همنا ان نشقّها شقّاً واضحاً لمن يسلكها بعدُ فيمهدها ويعبّدها حتى يصل بها الى الغاية القصوى . وها نحن نعرض هذه الدراسات التمهيدية في المقتطف — المعرض العربي العلمي العام — راجين اولي الاطلاع النظر فيها والتكرّم بكل ملاحظة تفيد كاتبها وتخدم الحقيقة العلمية المنشودة »

النزعات الادبية

العامة قبل دستور ١٩٠٨

لانيس المقدسي
استاذ الادب العربي بجامعة بيروت الاميركية

— ١ —

﴿ الرابطة العثمانية ﴾ ظلت تركيا الى عهد قريب سيدة الامم العربية من الناحية السياسية، وظلت عاصمتها الاستانة مقرّ سلطنة مترامية الاطراف ، وخلافة دينية واسعة النفوذ

وبرغم ما بلغتهُ في اواخر عهدها من فساد اداري واختلال اقتصادي ، وبرغم الدعايات[1] الواسعة التي كانت تقوم بها الدول الاوربية ، واخصّها روسيا القيصرية وبريطانيا وفرنسا والمانيا والنمسا ، لا ترى في الشرق العربي منذ ايام ابراهيم باشا المصري حتى اواخر القرن التاسع عشر حركةً جدية للانفصال عن السلطنة العثمانية والاستقلال بكيان سياسيّ منظّم .

ولم يكن لقطر عربي من الاسباب المهّدة لظهور ادب قومي عربيّ النزعة ما كان لمصر في القرن التاسع عشر فهي أسبق البلدان العربية الى انشاء وحدة ادارية ذاتية ، بل هي اول مكان بعثت فيهِ الروح العربية الاستقلالية ، كما يستدل من سياسة ابرهيم باشا التي كانت ترمي الى فصل بعض الاقطار العربية عن جسم السلطنة وتأسيس مملكة عربية كبيرة[2]. كان ابرهيم باشا يحلم بالاستقلال حينما صرّح للبارون بوالكونت بقوله[3] « ما انا بتركي بل انا ابن مصر ان شمسها قد غيّرت دمي فجعلتني عربيًّا قحًّا » وقد سارت مصر بعده بخطى ثابتة في ذلك السبيل ومع كل ذلك ظلّ الادب العربي فيها عثمانيّ الروح . والذي يراجع نفثات الادباء المصريين في القرن الاخير كابي النصر علي ، والشيخ علي الليثي ، وسامي باشا البارودي ، وعبد الله نديم وسواهم يتجلّى له ما نقصد اليه

---

(١) الدعايات لفظة غير قاموسية . ولكننا آثرنا استعمالها لشيوعها بين الكتّاب السياسيين ولانطباقها على قاعدة ذكرها ابن جني في الخصائص تحت باب التدريج

(٢) Rustum, The Royal Archives p. 92-96

(٣) Douin, Mission du Baron Boisle Comte p. 249

وسبب ذلك ، على ما يظهر ، ما كان للخلافة ودعاتها من تأثير في نفوس المسلمين . فكان سلطان تركيا الممثل الاكبر لعظمة الشرق والاسلام . وإذا سمعنا الشيخ الليثي شاعر الخديو اسماعيل يقول في السلطان عبد العزيز (على الطريقة الشعرية في ذلك العهد)

دعْ ذكر كسرى وقيصرْ إن اردت ثنا عن قيصر الروم حيث النفع مفقودُ
واشرح مآثر من سارت بسيرته ركائب الجود تحدوها الصناديدُ
مَلْك الملوك الذي من يمن دولته ظلّ العـدالة في الآفاق ممدودُ

فانما قوله انموذج لما كان يقال في العرش العثماني وخلافة الاسلام .وقد ظلت الروح العثمانية شديدة البروز في مصر حتى حدث ما حدث بعد الحرب الكبرى من سقوط الخلافة وانقلاب السلطنة العثمانية الى دولة تركيّة صرفة . وكان قادة الحركة الادبية على اتصال بمقر الخلافة . تغمرهم النِّعم السلطانية كعلي ابي النصر المتوفي سنة ١٨٨٠ وعبد الله فكري ١٨٨٩ وعبد الله نديم ١٨٩٦ وابراهيم المويلحي ١٩٠٦ ومصطفى كامل ١٩٠٨ ثم المتأخرون عن هؤلاء بالوفاة كاحمد شوقي وحافظ ابراهيم واسماعيل صبري وسواهم

وشوقي على ما يظهر هو اعظم من تغنى شعريًّا بمحامد الخلافة وتعظيم رجالها . فان له في ذلك قصائد سائرة . ومن اشهرها ما نظمهُ في وقائع الحرب العثمانية اليونانية سنة ١٨٩٧ وكان في ابّان شبابه كقوله في بائيته العصماء (صدى الحرب) يخاطب السلطان : —

بسيفك يعلو الحقُّ والحقُّ اغلبُ ويُنصر دين الله ايَّان تضربُ
وما السيف الاَّ آية الملك في الورى ولا الامر إلاَّ للـذي يتغلّبُ

ومنها في وصف معركة ملونا وبأس الاتراك الظافرين : —

فهل من « ملونا» موقفٌ ومسامعٌ ومن جَبَليها منبرٌ لي فاخطبُ
فاسأل حصنيها العجيبين في الورى ومدخلها الأعصى الذي هو أعجبُ
وأستشهدُ الاطوادَ شمَّاء والذرى بواذخ تلوي بالنجوم وتجذبُ
هل البأسُ الاَّ بأسهم وثباتُهم ام العزمُ الاَّ عزمهم والتلبّبُ
أم الدين الاَّ ما رأت من جهادهم أم الملك الاَّ ما اعزّوا وهيّبوا

والحق يقال ان هذه القصيدة ملحمة حربية . بل هي فيض من العواطف العثمانية . وكذلك كان كثير من شعر شوقي في كل ادوار حياته . فقد نشأ على حب العثمانيين وظلّ من اكبر الدعاة لهم . ومن أراد ان يتحقق عثمانية هذا الشاعر الكبير فليراجع من قصائده ما يلي : —

محية الترك ومطلعها :

بحمـد الله ربّ العالمينـا وحمدك يا امـير المؤمنينا

ضيف امير المؤمنين ومطلعها :

رضي المسلمون والاسلام فرع عثمان دمْ فداك الدوام

نجاة امير المؤمنين ومطلعها :

هنيئاً امير المؤمنين فانما نجاتك للدين الحنيف نجاة

الاسطول العثماني ومطلعها :

هزّ اللواء بعزّك الاسلام وعنت لقائم سيفك الايام

في سبيل الهلال الاحمر ومطلعها :

يا قوم عثمان والدنيا مداولة تعاونوا بينكم ياقوم عثمانا

في سبيل الهلال الاحمر ومطلعها :

جبريل هلّلْ في السماء وكبّر واكتب ثواب المحسنين وسطّر

الاندلس الجديدة ومطلعها :

يا اخت اندلسٍ عليك سلام هوت الخلافة عنك والاسلام

تحية للترك ومطلعها :

الدهر يقظان والايام لم تنم فما رقادكمُ يا اشرف الامم

رثاء الخلافة ومطلعها :

عادت اغاني العرس رجع نواح ونعيت بين معالم الافراح

فمن قراءة هذه القصائد وسواها يتبين لك ما كان للخلافة العثمانية من مقام في نفوس المصريين

اما في الادب المنثور فاكثر ما ترى ذلك في خطب السيد عبد الله نديم ومقالاته . ثم في الحركة الوطنية التي قام بها مصطفى كامل وفي كتابات السيد توفيق البكري . ومن امثلته قول الاول في خطاب [1]

« هذي يدي في يد من اضعها ؟ ضعها في يد وطنك واعقد خنصرك على محبة امير المؤمنين الخليفة الاعظم والاّ فقطعها خير من وضعها في يد اجنبي يستميلك اليه بوعود كاذبة وحيل واهية لتكون عونه الاكبر على ضياع حقوقك واذلال اخوانك ونزع سلطة اميرك وسلطانك » وهذه الروح بارزة في كثير من اقوال هذا الخطيب

وكان مصطفى كامل (وهو زعيم الحركة الوطنية قبل الحرب الكبرى) يرى ان مصلحة مصر مرتبطة بمصلحة الاسلام على العموم . فكان كما قال زيدان « شديد المدافعة عنهُ كثير السعي في نصرتهِ . وقد كان يخدم مصلحة الدولة العثمانية من طرق كثيرة فانعم عليه السلطان بالرتب

(١) راجع مقالاته المنشورة على نفقة المطبعة الجديدة (مصر) ولا سيما الثالثة والتاسعة

والالقاب [١] » ومن قرأ خطبه تحقق صدق عثمانيته . ومن امثلة ذلك قوله من خطاب القاه على المصريين في باريس سنة ١٨٩٥ [٢]

« حقاً ان سياسة التقرب من الدولة العلية لاحكم السياسات وأرشدها . فضلاً عن الاسباب العظيمة الداعية لهذا التقرب فان العدو واحد . ولا يليق بنا ان نكون في فشل وشقاق في وقت يعمل فيه اعداؤنا على تجزئة دولتنا . ولا غرو ان كنا نتألم لآلام الدولة العلية فما نحن الا ابناؤها المستظلون بظلها الوريف المجتمعون حول رايتها » ... الى ان يقول « وقصارى القول ان الراية العثمانية هي الراية الوحيدة التي يجب ان نجتمع حولها . ولا تتحقق وحدتنا بغير الاتحاد والائتلاف فلنتحد قلباً ولساناً ولنكن يداً واحدة في خدمة الاوطان واسعادها . ولنقل اليوم جميعاً من صميم افئدتنا ليحي جلالة السلطان عبد الحميد وليحي العباس ولتحي العثمانية ومصر »

ولا نستطيع الآن البت في هل كان مصطفى كامل يستخدم الدعوة العثمانية مناوأة للاحتلال الانكليزي في مصر او كان يستخدم مناوأة الاحتلال اداة لخدمة الخلافة . على ان الذي لاشبهة فيه ان كلتا العثمانية والمصرية بارزتان في حياته وادبه ، وانه كان من اكبر الدعاة في مصر بل في الشرق لتوطيد دعائم الجامعة العثمانية في ظل الخلافة الاسلامية

وقد نشأ قبله اثنان كان لهما يد طولى في هذه الدعوة واحيائها في الادب العربي . الاول احمد فارس الشدياق ١٨٨٧ وهو لبناني الاصل لكنه اتمّ علومه في مصر وعمل فيها فتولى كتابة الوقائع المصرية . ثم جال في اوروبا وأقام فيها بضع عشرة سنة . وبعد ذلك امّ تونس حيث اعتنق الاسلام ثم طلب الى الاستانة وهناك انشأ الجوائب وكانت واسعة الانتشار في العالم الاسلامي وفيها يجد الباحث كثيراً من القصائد والمقالات التي تدور على عظمة الدولة ومدح سلاطينها ورجالها . كقوله من قصيدة في عبد العزيز [٣]

للدولة العليا عُلىً ومآثر يشدو بها يوم الفخار الآثر

ساست ممالك ليس يعلم حدّها ولغاتها الا العليم القادر

سر حيث شئت من البلاد فلا ترى إلاّ النعيم وما اشتهاه الناظرُ

والثاني جمال الدين الافغاني ١٣١٤ هـ ويتصل نسبه بآل البيت . كان زعيماً اسلامياً كبيراً . وقد اضطرته الاحوال السياسية ان يفارق بلاد الافغان ويقصد الاستانة فاستقبل هناك بحفاوة

(١) تراجم مشاهير الشرق ١ — ٢٩٧ و ٢٩٩ (مصر ١٩٢٢)
(٢) راجعه في كتاب مصطفى كامل باشا (الطبعة الاولى مصر ١٩٠٨) ج ٣ — ١٩٧
(٣) منتخبات الجوائب (١٢٩٢) ٣ — ١٥٢

واقام بها مدة . ثم امّ مصر وكان فيها محجّة العلماء والمفكرين . ولجمال الدين خطط وتعاليم سياسيّة ويؤخذ منها «ان الفرض الذي كان يصوّب نحوه اعماله والمحور الذي كانت تدور عليه آماله توحيد كلمة الاسلام وجمع شتات المسلمين في حوزة دولة اسلاميّة تحت ظل الخلافة العظمى»[1]

ولا شك ان للافغاني وللشدياق اثراً كبيراً في الادب السياسي بمصر

***

ونحن إذا قلنا ان الادب المصري كان متشبعاً بروح التشيُّع للخلافة والجامعة العثمانية فحكمنا يتناول المصريين الاصليين ولا سيما المسلمين منهم . اما نزلاء مصر من السوريين والعراقيين فكانوا فئتين متطرفتين ، فئة تجاري المصريين في عثمانيتهم وفئة تنكر عليهم هذا الاندفاع نحو تركيا

ومن الفئة الاولى سليم تقلا مؤسس جريدة الاهرام . واليك بعض ما كتبهُ سنة ١٨٩٩ في « الوطنية العثمانية » قال —[2]

« انَّ في ممالكها المحروسة عناصر عديدة بين تركية وعربية وارمنية ويونانية وغيرها . وكذلك مذاهب مختلفة . ولكنها تجمعها كلها جامعة واحدة وطنية هي الجامعة العثمانية وهي دون استثناء تخضع لجلالة سلطانها وتصدع بامره وتنصاع لاحكامه . وهذه الجامعة كانت وتكون الحصن الحصين للرعية دون اطماع الدول ، وما وراء العبث بها الاَّ الخسران والضياع . واذا تبيَّن هذا ، وهو الحق الصُّراح ، كان ابن مصر وابن الحجاز والعراق والشام اخوة لامٍّ هي دولتهم ، وأبٍ هو جلالة السلطان »

وتتجلّى هذه النزعة العثمانية في شعر خليل مطران . وفي ادب مطران وسيرته ما يدلّ على مجاراته الوطنيين المصريين في آمالهم ونزعاتهم . فلا نستغرب ان نسمعهُ يقول في قصيدته « فتاة الجبل الاسود » وكان قد نظمها قبيل استقلال ذلك الجبل[3] —

طغتْ امة الجبل الاسودِ على حكم فاتحها الأَيّدِ

ومنها — وما الترك الاَّ فحول الحروب رضيعو لظاها من المولد

اذا لقحوها الدماء فلا نتاج سوى الفخر والسؤدد

سواء على المجد ايًّا تكنْ عواقب مسعاهم تُحمَد

وتظل هذه الحماسة العثمانية فيه الى زمن متأخر كما نرى في القصائد التي يذكر فيها حرب طرابلس الغرب وبعثات الهلال الاحمر[4] في هذه وما يماثلها يظهر ميله العثماني وتشيعه لوطني مصر

---

(١) تراجم مشاهير الشرق (زيدان) (مصر ١٩١٠) ج ٢ — ٦١

(٢) مجاني الغرر ٧٣ (٣) ديوانه ص ١٥٤ (٤) راجعها في الشعراء الثلاثة للسندوبي (١٩٢٢) ص ٣١٤ و٣٣٤ والمورد الصافي ٣ — ١٨٣

ويمثل الفئة الثانية المناوئة للسياسة العثمانية سليم سركيس صاحب جريدة المشير فهو شديد التهجم على هذه السياسة وعلى دعاتها . ومما يبيّن لك ذلك مقالة له موضوعها «هل مصر عثمانية» قال فيها[1]

« لم اجد في حياتي ولا قرأت في مطالعاتي عن امة تريد الانتقال من نور الاستقلال الى ظلمات العبودية الاّ هذا القسم من الامة المصرية الذين يريدون التمسك بأذيال العرش العثماني » ومن شعره قوله[2] —

نرجو صلاح الترك قد خابت امانينا الكواذبْ
هي دولة ظلمتْ وليس العدلُ عن ظلم بذاهبْ
فانشدْ معي قولاً تردّ ده المشارق والمغاربْ
ليس العجيبة فقدها بل عيشها احدى العجائبْ

ومثل سركيس كثيرون ممن بلغ بهم اليأس هذا الحدّ من كره الادارة التركية

على أن بين هاتين الفئتين فئة ثالثة تتوسطهما وتتصل بكلتيهما . وهي فئة المعتدلين الذين لم يعمهم التعرّض عن سيئات تركيا — ومنهم من هجرها طلباً لحرية الفكر — وكان مع ذلك كله يحرص على بقاء الجامعة العثمانية . نذكر منهم فرح انطون فقد اصدر في الاسكندرية سنة ١٨٩٧ مجلةً (الجامعة العثمانية) ومن اسمها يتضح مذهبه السياسي وخلاصته[3] ان الامم الشرقية يجب ان تتحالف تحالفاً متيناً جدّاً حتى تستطيع ان تسير مع التيار الغربي فلا يدوسها ولا يستطيع ان يهتضمها فهو منذ بدء حياته القلمية يدعو الى جامعة شرقية واسعة . ومن اقواله في العدد الاول من مجلته مشيراً الى المدارس الاجنبية — « فلننشأنّ ايها العثمانيون بازاء تلك المدارس مدارس جديدة يكون اساس تعليمها حب الوطن والامة وتعليم ما هو الوطن وما هي الامة . لنؤسس مدارس جديدة ندخل اليها طرق التعليم الحديثة ووسائل التربية الحديثة . وندخل اليها قبل ذلك عناصر الامة كلها فنربيها فيها على مقاعد واحدة ونلقنها دروساً واحدة ومبادىء واحدة حتى تكون بعد خروجها من حياة المدرسة الى حياة الرجولية بقلوب واحدة وأفكار واحدة فان هذا هو السبيل الى تقوية جدار الوطنية العثمانية ووقايته من الثلم والهدم »

وقد علق على ذلك الشيخ رشيد رضا صاحب المنار الاسلامي بقوله[4] « فشكراً لك ايها الكاتب الفاضل ، ونجح الله تعالى الجامعة العثمانية بمبادئك الصحيحة » ومما لا ريب فيه ان الشيخ المذكور كان من دعاة العثمانية وكذلك الشيخ علي يوسف صاحب جريدة المؤيد وغيرهما من رجال العلم والدين

(١) راجعها في المشير عدد ١٠٣ (٢) المشير ٢١ ابريل ١٨٩٩ (٣) «فرح انطون» ملحق مجلة السيدات والرجال ١٩٢٣ ص ١٤ (٤) المنار مج ٢ — ٤٧

ومن المعتدلين الناظرين الى الامور بعين الروية جرجي زيدان منشىء الهلال فهو من طلاب الاصلاح السياسي ولكنهُ لم يكن مناوئاً للعثمانية . والذي يطالع اعداد مجلته ولا سيما في السنين الاولى يراه عطوفاً على الدولة ولعله كان يرى كما كان يرى اديب اسحق واصحاب المقطم وامثالهم ان الرابطة العثمانية لازمة للشرقيين وان طلب الاصلاح لايعني القضاء عليها او استبدال رابطة اخرى بها

واذا صح ان نعد ولي الدين يكن نزيلاً في مصر لنشأته في الاستانة واعتباره اياها وطنه الاصلي فهو من ابرز المنتمين الى هذه الفئة الوسطى . بل هو يجمع في نفسه اطرف الفئتين الاولين — شدة النقمة على سلطان تركيا ، وشدة العصبية للوطن التركي . فلما كان في مصر ورأى بعض الجرائد الانكليزية والعربية تتحامل على الجنس التركي نسي نقمته على عبد الحميد وحكومته وقام يدافع عن الاتراك غير مبالٍ بمعاداة كثير من خلانهِ الاحرار[1] . وهو القائل « لوطني مني حياتي وكل ما كان دونها على ان اعيش عثمانيًّا وأموت عثمانيًّا » [2] ومن اقوالهِ في وطنهِ العثماني

ويخلد للَّيالي فيك حبي واخلاصي الذي في الناس شاعا

وفي مرثاته لادهم باشا بطل الحرب اليونانية يقول

وبلاد الفتى تعزّ عليهِ وعظام الآباء فيها عظام
وعهود الصبا عهودٌ غوالٍ وغرام الوفيّ ذاك الغرام

وكيف التفتّ الى ولي الدين تجده في ادبهِ ذلك العثماني المخلص الذي يكره الاستبداد ولكنهُ يحبّ الوطن ، يمدح اللورد كروم لحمايته الاحرار في مصر [3] ولكنهُ ينفضّ على مشايعي غلادستون المتحاملين على تركيا والاتراك[4] وحتى في ايام محنته ونفيه الى سيواس لا يذكر بلاده الاّ بالخير فيقول [5]

ايها الركبُ سرْ فانّ امامي لبعاداً مرًّا وعيشاً امرّا
غربةٌ هذه وقد كنت ادري أن سأرمى بها لدنْ كنت حرّا
فالفحي يا رواسيَ الارض ناراً وأفيضي فدافد الارض بحرا
وانفحي يا ريح الشمال سموماً واقذفي يا سوائر الافق صخرا
انا ارضى بذا لحبّ بلادي وارى في سبيلها الموتَ فخرا

(١) المعلوم والمجهول (١٩٠٩) ١ — ١٠٧ (٢) المعلوم والمجهول (١٩٠٩) ١ — ١٣٩
(٣) المعلوم والمجهول ١ — ١١٠ (٤) المعلوم والمجهول ١ — ١٠٧ (٥) المعلوم والمجهول ٢ — ٦٥

واذا ذكر الخلافة العثمانية ومجدها الماضي وكيف اصبحت في ايام عبد الحميد قرن ذلك بدموع الاسى على الوطن فقال[1] —

خلافة قد مضى عنها خلائفها من آل عثمان من سادوا ومن شادوا

ابقوا بها المجدَ للاخلاف بعدهمُ والمجدُ يبقيه للاخلاف امجادُ

حتى انتهت لاميرٍ في تسلّطه يخشى مظالمه عادٌ وشدّادُ

يا ويلنا انما نبكي لنا وطناً يبكيه في الترب آباءٌ واجدادُ

فولي الدين مهما يكن موقفهُ من الادارة الحميدية عثماني مخلص شديد التعلق بالجامعة العثمانية ولعله يفوق سائر الاصلاحيين في ذلك

وما يصدق على المهاجرين العثمانيين في مصر يصدق عليهم في سائر المهاجر الاَّ انهُ لما كان اكثرهم هناك من السوريين واللبنانيين النازحين من بلادهم اما رهبة من الاستبداد وإما رغبةً في طلب العلى ، ولما كانوا بعيدين عن تأثير الدعايات العثمانية كما كانت حال اخوانهم في وادي النيل ، فقلما ترى منهم من يعطف على الجامعة العثمانية او يهتم ببقائها . على انك قد تجد منهم من تهزه العصبيّة الشرقية أحياناً فتظهر العثمانية في شعره اونثره ولكن ذلك قليل اذا قيس بسواه

***

وإذا خرجنا من مصر الى سائر الاقطار العربية ولا سيما سوريا ولبنان والعراق فمن الطبيعي أن نجد معظم الادب السياسي فيها متلبساً بملابس المجاملة او التزلف الى السلطان ورجال دولتهِ

ولا ينكر ان من الشعراء في هذه الاقطار من كان صادق العقيدة العثمانية إما لتأثيرها الديني في نفسهِ وإما لاسباب اخرى . على ان الرهبة من الاستبداد او الرغبة في جرّ المغانم كانتا قبل العهد الدستوري من اهمّ الدواعي الى شيوع النزعة العثمانية في الادب العربي وليس على طالب الحقيقة الآن يراجع دواوين الشعراء في ذلك العهد كبطرس كرامه ، وعبد الباقي العمري ، وناصيف اليازجي ، وعبد الغفار الاخرس ، وفارس الشدياق ، ويوسف الاسير ، وابراهيم الاحدب . ثم محمد حسن الحموي ، ومحيي الدين الخياط ، والباروني ، وعبد الحميد الرافعي ، ومن عاصرهم . فانهُ يجد في جميعها ما يماثل قول اليازجي الكبير في السلطان عبد العزيز : —

(١) ديوانه ٤٣

خليفة الله ظلٌّ في خليقته ظلت بهِ تتّقي الدنيا وتستترُ
لا ترتضي غيره الدنيا لها ملكاً لوكان جبريل يأتيها اوالخضِر
مقلّد فوق اثواب مضاعفة من خشية اللهّ سيفاً صاغه القدر
إذا طلبنا من الباري لنا وطراً فليس الاّ بقاءُ عندنا وطر

أو قول عبد الحميد الرافعي في ابي الهدى الصيادي شيخ السلطان عبد الحميد

سألوا يا سعدُ أين المبتغى قلتُ حيثُ الشمسُ في برج الاسد
حيث لي من آل طه سادة ملأُوا الدنيا بأنوار المدد
ودنوا من ملجأ الملك لدى مقعد الصدق ومرقى المعتمد
فرد ذا الدهر حميد الخُلقا دام في حفظٍ من الفرد الصمد

وباب مديح العظماء في ادب ذلك العهد واسع ، بل هو أوسع الابواب الشعرية . وكثير منهُ شخصي لا علاقة لهُ خاصة بالاحوال السياسية . على ان منهُ ما يتعلق بالسياسة الداخلية او الخارجية . فدراستهُ من هذا القبيل مفيدة للباحث . ومن أمثلة ذلك قصيدة رفعت سنة ١٩٠٢ الى مظفر باشا متصرّف لبنان عند توليهِ الحكم يحاول فيها الشاعر [١] ان يعبر عن أماني اللبنانيين المهاجرين فيصف حال الجبل في ذلك الحين وأحوال المهاجرين ثم يلتفت الى المتصرف الجديد فيحذّره من تدخل القناصل في ادارتهِ . ويطلب الى نواب الاقضية (اعضاء مجلس الادارة) ان ينشطوا الى ما فيهِ خير البلاد وان يمحوا سيئات الماضي في هذا العهد الجديد . ويختمها راجياً من المتصرف ألاّ تكون وعوده كوعود أسلافهِ كلاماً في كلام فيقول —

أمظفر الجيل الذي ضمنت لنا أقوالهُ يمناً يعزُّ مثالهُ
كم حاكمٍ ابدى لاول حكمهِ وعداً فكان وفاءه اخلالهُ
حاشاك إخلاف الوعود فانت مَن شرف المبادىء والوفاء خِلالهُ
تركوا لنا التاريخ مسوداً فكن ممّن تخلّد بالجميل فعالهُ

ولو رجعنا قليلاً الى الوراء وراجعنا مثلاً مدائح ناصيف اليازجي وخليل الخوري في فؤاد باشا لقرأنا في خلال سطورها كثيراً عن حوادث السنة الستين في سوريا ولبنان وقس على ذلك كثيراً من شعر المديح المتعلق بحوادث سياسية اثارت خواطر الناس في مختلف الاقطار العربية

« للبحث صلة »

(١) قيصر المعلوف في تذكار المهاجر (١٩٠٤) ص ١٠١

٢ — الحاجة الى زيادة المعرفة بالانسان

الانسان المجهول

لاسماعيل مظهر

٣ — أثر علوم الآلة والطبيعة والكيمياء في تكييف بيئتنا

إنّ البيئة التي كوّنت جسوم آبائنا الاولين وكيفت ارواحهم، طوال الآلاف المؤلفة من السنين، قد استبدلت الآن بغيرها. ولقد مرّ بنا هذا الانقلاب الصامت من غير ان نحسّه غالباً. وكذلك لم ندرك مالهُ من الشأن. ومع هذا فانهُ احد المآسي الكبرى التي يرويها تاريخ الانسان. ذلك بأن تغيرًا ما يصيب المحيط الذي يشمل الاحياء، انما يترتب عليه اضطرابات لها اعمق الاثر. لهذا ينبغي لنا ان نحقق مدى تلك التحولات التي فرضها العلم على أسلوب الحياة التي عاشها أسلافنا، ومن ثمّ علينا بالذات

فمنذ بُداءة العصر الصناعي، اضطر فريق كبير من الناس ان يعيشوا في مساحات من الارض ضيقة محدودة. فان العمال قد سيقوا الى التجمع: إما في ضواحي المدن الكبرى، وإما في قرًى اقيمت لهم. وهم يعملون في المصانع ساعات محدودة، ويقومون بأعمال سهلة وعلى وتيرة واحدة، وينقدون اجوراً حسنة. وكذلك ترى المدن وقد اكتظت بعمال المكاتب وخدام الحوانيت والمخازن وكتاب المصارف والادارات العامة والاطباء والمحامين ومعلمي المدارس، غير تلك الجموع الغفيرة التي تكسب قوتها، بالذات او بالبواسطة، من التجارة او الصناعة. وما المعامل في الواقع الا مكاتب كبيرة، حسنة الإضاءة تامة النظافة. ودرجة حرارتها واحدة لا تتغير تقريباً. واجهزة التدفئة والتهوية، ترفع درجة حرارتها شتاء، وتخفضها صيفاً. في حين أن المُطَرّحات (ناطحات السحاب) التي نشاهدها في المدن الكبرى قد جعلت من الشوارع والطرقات ما يشبه الاغوار السحيقة. وقد استبدل ضوء الشمس في داخل العمائر بأضواء كهربية غنية بالاشعة فوق البنفسجية. واستعيض عن هواء الشارع المشبع بأدخنة الغزولين، في المكاتب

والمعامل ، بهواء نقي تجذبهُ اليها جهازات التهوية المركبة فوق الاسطح ، من طبقات الجو العليا . وقد عمل على حماية سكان المدن الكبرى من كل ما قد يحتمل ان ينزل بهم تغير الطقس من المكدّرات . ومع هذا كله ، فهم عاجزون عن ان يعيشوا كما عاش اسلافهم ، بقربة من معاملهم او مخازنهم او مكاتبهم . فالاغنياء يحتلون العمائر الضخمة القائمة على جوانب الشوارع الكبرى . وعلى قمم الابراج العليا يعيش «ملوك العمل» في صروح ممرّدة، تحيط بها الاشجار والحشائش والازاهير. يعيشون هنالك ، محصنين عن أن يصل اليهم رُغاءٌ أو لغط او تراب ، او أي من المكدرات الاخرى ، كما لو كانوا يعيشون في قمم الجبال الشامخة . يعيشون في عزلة عن العامة ابن منهما انفراد اسياد القطائع خلف اسوارهم وقلاعهم في قصورهم الحصينة . اما متوسطو الحال ، وبالحري الذين هم أقل غنىً عن اولاء ، فيعيشون في شقق فيها من النعائم مالم يحظ بمثله لويس الرابع عشر ، أو فردريك الاكبر . وكثيرهم الذين يعيشون بعيداً عن المدن ، فتحملهم قطارات سريعة مساء كل يوم زرافات غفيرة الى حيث يجدون الطرقات المتسعة تشق رقعاً من الارض اخضوضرت بالحشائش ، وارتال من الاشجار تقوم صفوفاً ، وعلى جانبيها بيوت جمعت كل اسباب الراحة والهناء . أما العمال وصغار المستخدمين، فحياتهم أرقى من حياة الاغنياء في فارط الزمن . فجهازات التدفئة التي تنسق درجة الحرارة آليًا في المنازل ، والحمّامات ، والمبرّدات ، والمحامي الكهربية ، والادوات المنزلية التي أعدت للطبخ وتنظيف الحجرات ، تضفي على مسكن كل انسان ، لا في المدن والضواحي وحدها ، بل في الريف ذاته ، طابعاً من الهناءة ، وتزوّدها بعوامل للسعادة ، ما كنت لتقع عليها في غير مساكن قلةٍ من الافراد ذوي الامتياز

مع تغير المسكن ، تغير اسلوب الحياة . والسبب في هذا التغيُّر راجع في أكثر الامر إلى الزيادة في سرعة المواصلات . وفي الحق إنهُ لظاهر أن القطارات الحديثة والبواخر والطيارات والسيارات والبرق والتلفون ، سلكيًا ولاسلكيًا ، قد كيّفت العلاقات القائمة بين الافراد وبين الامم في انحاء الارض جميعاً . فان الفرد الآن في مستطاعه ان ينجز من العمل اكثر مما كان في مستطاع زميله الاول اضعافاً . ويشترك في عدد اكثر من الاحداث ، وفي كل يوم يتصل بخلائق جُددٍ . والفترات التي يقضيها في هدوء او عطلٍ من العمل ، إنما هي فترات نادرة في مجرى حياته. والعشيرة الضيقة الحدود، عشيرة الاسرة او عشيرة الأبرشية ، قد تبخرت وزالت . فالاقبال على غشيان دور الخيالة والمسارح ، أو القيام باعمال الرياضة البدنية ، والاندية والمجتمعات بأنواعها ، ناهيك بالجامعات العظيمة والمعامل والمخازن الكبيرة والفنادق ، عامة ذا قد أدى الى توثيق عادة العيش في جماهير . فالتلفون والراديو والحاكي بما تسجل من حوادث ، تنقل بغير انقطاع عامية الجمهور ونقائصه ، كما تنقل مسراته وصوره النفسية الى كل بيت ، مهما كانت عزلته

وانقطاعه عن العالم المتمدن . وعلى الجملة فقد اصبح كل فرد ذا اتصال ، سواء أمباشرة ذلك كان ام بالواسطة ، بغيره من الخلائق البشرية ، واقفاً على جميع الحوادث كبيرة كانت ام تافهة ، سواء أفي القرية التي يعيش فيها وقعت ام في المدينة المجاورة ، ام في طرف بعيد من اطراف الدنيا الفسيحة . ففي مستطاع من يقيم في ركن منعزل من اركان الريف الفرنسي ان يستمع الى الانغام التي تتجاوب بها جنبات وستمنستر ، كما ان فلاحاً في « فيرمونت » قد يصغي ان اراد ، الى خطيب يتكلم في برلين او لندن او باريس

حيثما وليت وجهك ، في المدينة ام في الريف ، في المساكن الخاصة ام المعامل ، وفي دور الصناعة والطرقات والحقول والضياع، ترى ان الآلات قد انقصت من مقدار الجهد الانساني . حتى لقد اصبح من غير الضروري في هذا العصر ان نمشي . واستعيض بالمرقاة عن السلم ، والسيارات العامة والعربات والمتحركات بأنواعها اصبحت مباءة الجميع وملتمسهم في الانتقال مهما قصرت المسافات . كذلك ترى ان ضروب الرياضة البدنية الطبيعية كالمشي والجري على الارض الخشنة وتسلق الجبال واثارة الارض بالعمل اليدوي وقطع الحرجات بالفؤوس والعمل مع التعرض للمطر والشمس والريح والبرد والحرارة ، قد استبدلت بأنواع من اللعب منسقة بحيث تبعدنا عن الخطر ، وبصنوف من الآلات تمنع علينا القيام بأي جهد عضلي . ولقد ترى في كل مكان ملاعب للتنس والجولف وحلقات التزحلق الصناعية وحمامات العوم الدافئة والملاعب التي يقوم فيها الرياضيون بمراناتهم ومصارعاتهم ، وجميعها مداريء تمنع التعرض لتغيرات الطقس . وبهذا الاسلوب يستطيع ايٌّ من الناس ان ينمي عضلاته من غير ان يعرض نفسه للتعب او الصعوبات التي استلزمتها الحياة في العصر البدائي

اما الاطعمة التي تغذَّى بها اسلافنا ، وكانت عبارة عن دقيق الشعير الخشن واللحم والمشروبات الكحولية ، فقد استبدلت بأطعمة غيرها فيها من التنوع ، بقدر ما فيها من النعومة . فقديد لحم البقر والغنم ، ليس في عصرنا ، كما كان في سالف العصور ، الغذاء المعتاد . فان العناصر الاساسية في الغذاء الحديث هي اللبن والقشدة والزبد والبقول والغلال مبرأة من القشور وفواكه المنطقتين الاستوائية والمعتدلة ، والخضر النضّة او المحفوظة والمشهيات ومقادير كبيرة من السكر مصنوعة فطائر او حلوى . ولم يبق محتفظاً بمقامه الاول غير الكحول . كذلك ترى ان غذاء الاطفال قد انتابهُ تغير كبير ذو أثر بيِّن . فانهُ الآن في الاكثر صناعي وغزير . وغذاء البالغين لا يقل عن غذاء الاطفال كثرة وغزارة . وانتظام ساعات العمل في المكاتب والمعامل ، نظمت وقت الوجبات استتباعاً . ونظراً الى ازدياد الثروة ، وقد كان عامًّا

حتى عدد يسير من السنين ، والى الضعف الذي اصاب الروح الديني ، والاخلال بمراعاة فرائض الصوم ، لم يمر بالانسان وقت انتظمت فيه التغذية فحددت اوقاتها وروعيت ، كوقتنا هذا

والى ازدياد الثروة وتوزعها في العصر الذي تلا الحرب العظمى ، يرجع السبب في الاقبال على التعلم ، ذلك الاقبال العظيم . فقد اقيمت المدارس وشيدت الكليات والجامعات ، وأمها من طلاب العلم جموع غفيرة . ذلك بان شباب هذا العصر قد أدركوا ما للعلم من أثر في دنيانا الجديدة . وقد قال « باكون » — « المعرفة قوة » — لهذا قصدت جميع معاهد التعليم ونشر المعرفة الى تنشئة الشبان والاولاد تنشئة عقلية ، والى جانب ذلك عنيت بحالاتهم الجسمية والتكوينية . ولا خفاء ان الغرض الذي تتطلع اليه معاهد التعليم أنما يتجه الى تنمية القوتين ، العقلية والبدنية . ونرى من جهة اخرى ان العلم قد اثبت فائدته في حياة الناس بحيث شغل من برامج التعليم المنزلة الاولى ، وأن عدداً كبير من الفتيان والفتيات قد تطوعوا له مختارين الخضوع لنظمه الشديدة . وآية الامر ان المعاهد العلمية والجامعات والاتحادات الصناعية قد عنيت جميعها بتأسيس معامل للبحث يتسنى معها لكل باحث علمي الاستفادة من علمه الخاص

ان أسلوب الحياة الانسانية قد تأثر تأثراً عميقاً بالغ المدى بما استكشف من قواعد علم الصحة والطب والمبادىء التي استخلصها « باستور » ولا ريب في ان ذيوع « المبادىء الباستورية » كان بذاته حادثاً من اكبر الحوادث أثراً في حياة الانسانية

ويكفينا ان نعرف ان تطبيقها قد أدى دراكاً الى صد تيار الامراض المعدية التي كانت تكتسح العالم المتمدن بين حين وآخر ، كما قضت على كثير من الامراض التي كانت مستوطنة في كل بلد بذاته . وبذلك ادرك الناس فائدة النظافة ، وقلّ معدّل وفيات الاطفال ، وزادت متوسط العمر زيادة أدت الى العجب ، حتى بلغ في الولايات المتحدة ٥٩ سنة و٦٥ سنة في زيلندا الجديدة . وليس معنى هذا ان الناس قد طالت اعمارهم عن ذي قبل ، انما معناه ان عدد المعمرين منهم قد زادت نسبته . ومبادىء علم الصحة قد ضاعف عدد الناس . أضف الى ذلك أن الطبَّ ، وقد أدرك طبيعة الامراض ادراكاً أوفى ، واستطاع ان يطبق العمل الجراحي تطبيقاً أدق ، مدَّ يده الى إنقاذ كثير من الضعفاء وناقصي التكوين ، أولئك الذين قدرت الطبيعة ان يكونوا نهباً للعدوى الميكروبية ، كما ساعد أولئك الذين قضي عليهم ، قبل ان يمد اليهم الطب يده ، أن يعجزوا عن مقاومة اسلوب من الحياة فيه خشونة بعض الشيء . وعلى الجملة نقول إن الطب قد استطاع ان يزيد رأس مال المدنية من حيث عدد النسمات زيادة تضاعفية عظيمة . وفي الوقت ذاته أمكنهُ ان يَهبَ كل فرد وسائل يأمن بها الالم والمرض

أن بيئاتنا العلمية والادبية التي نعيش مغمورين في غمرها ، قد حوَّلها العلم . وان العلم هو الفارق العظيم

بين الدنيا التي تغشى عقل الانسان الجديد ، والدنيا التي غشت عقول أسلافنا الاقدمين . فقبل ان تنال تلك الانتصارات العقلية التي حبتنا الثروة والراحة والهناء ، حلّت القيم الادبية محل غيرها من القيم . ولقد كان ذلك طبيعيًّا وملائمًا لفطرة الاشياء . أما اليوم فقد اكتسح العقل العقائد الدينية ، واصبحت المعرفة بالسنن الطبيعية والقوة التي استحوذنا عليها بمعرفتنا هذه واستقوينا بها على العالَم المادي وعلى الخلائق البشرية معاً ، وحدها الاشياء ذات القيمة الاولى في اعتبارنا . فالمصارف المالية والجامعات والمعامل ومعاهد البحث ومدارس الطب والمشافي ، قد حازت في نظرنا من الجمال والعظمة ، ماكان للمعابد القديمة والكاتدرائيات القوطية وقصور البابوات ، في الزمن الحالي . وحتى بدء الازمة المالية الحديثة ، كانت رياسة المصارف وشركات سكك الحديد ، مرمى نظر الشبان ، وقبلة آمالهم ومطمح خيالهم

ولا يزال لرؤساء الجامعات من الاعتبار والتقدير في نظر الناس منزلة فذة . ذلك بأنهم يذيعون العلم وينشرون المعرفة . والعلم نبع الثروة والهناءة والصحة . ومع هذا فلا نكران ان الجو العلمي الذي يعيش الانسان الحديث مغموراً به في حياته ، قد مضى يتغير بسرعة كبيرة. فان عواهل المال والاساتذة والعلماء وخبراء الاقتصاد بدءوا يفقدون ما كان لهم على الناس من سلطان . فان جماهير العصر الحديث قد نالوا من التعليم قدراً يمكنهم من قراءة الجرائد والمجلات، وهم فوق ذلك يستمعون إلى الخطب التي يذيعها السياسيون ورجال العمل والدعاة وأصحاب الرسالات المختلفة . وقد تشبّعت نفوسهم بقدر عظيم من الدعايات التجارية والسياسية والاجتماعية. تلك الدعايات التي اصبح لها فن خاص معروف أخذ في التقدّم نحو الكمال . وكذلك هم يقرءون في الكتب فصولاً بسط فيها العلم وذللت الفلسفة . وذلك ان تعرف ان الكون الذي نعيش فيه قد نال من العظمة والجلال ، بفضل ما استكشفهُ علم الطبيعة وما ابان عنهُ علم الفلك ، قسطاً وفيراً . ومع هذا فان أي انسان ، يستطيع إن اراد ، ان يستمع الى شيء من نظريات إنشتين ، او يقرأ كتب إدنجتون وجينز ، ومقالات شابلي وملكن . فالجمهور الحديث مشغوف بالاشعة الكونية شغفهُ بنجوم السينما ولاعبي كرة القدم . والكل يعرفون ان المكان محدودب ، وإن الكون مؤلف من قوى عمياء مجهولة ، وإن ذواتنا ليست باكثر من ذرّات صغيرة تدب على سطح دقيقة من التراب مغمورة في سعة الكون ، وان ذلك الكون على سعته وترامي نواحيه فاقد الحياة ، فاقد الشعور ، فاقد الوعي . هم يعرفون أن كوننا نظامٌ آليٌّ ولن يكون كوننا غير ذلك ، ما دام انهُ خُلق أساسهُ مجهولات قررها علم الطبيعة وعلم الفلك . على هذا يقوم محيط الانسان الحديث ، فانهُ ليس اكثر من كون عجب نمتهُ علوم المادة الجامدة

٤ — النتائج المترتبة على مثل هذا الانقلاب

ان الانقلابات البالغة التي انتابت عادات الانسان بتطبيق مكتشفات العلوم ، حديثة العهد . والحق اننا ما نزال في غمر الثورة الصناعية . لهذا يصعب علينا أن نعرف معرفة تحقيق ، كيف أثر في خلائق المدنية الحديثة ، تبدّلُ وجودهم من طراز طبيعي الى طراز اصطناعي ، وانقلاب البيئة التي تشملهم انقلاباً تامّاً . أما ما نحن على يقين منه فهو انّ انقلاباً كهذا قد وقع بالفعل . ولما كل كائن حي انما يعتمد في بقائه على حالات محيطه ، وبقاؤه في الواقع مرهون بالتغاير الطبيعي لاحتمال كل ما ينتاب محيطه من الانقلاب ، انبغى لنا ان نحقق بأي اسلوب تأثرت حياتنا وعاداتنا وأطعمتنا وتعليمنا ، بل ومتجهاتنا العلمية والادبية ، التي فرضتها علينا المدنية الحديثة . أأصبنا فائدة من هذا الارتقاء ؟ إن الاجابة عن هذا السؤال الهامّ لا تتأتى الاّ بان نبحث بحثاً مستفيضاً كاملاً حالة الامم التي كانت اول الامم استغلالاً واستفادة من المستكشفات العلمية

ليس يخفى ان الناس استبشروا بالمدنية الحديثة واستقبلوها فرحين مهللين ، فتركوا الرّيف ونبذوه إلى المدن والمعامل ، فاكتظت بهم . وقد عملوا جاهدين نهمين أن ينتحلوا الاساليب والطرائق التي اقتضاها العصر الحديث ، عملاً وتفكيراً . فتركوا عاداتهم القديمة بغير تردّد ، لان تلك العادات كانت توجب عليهم جهداً اكبر . فما لا شك فيه مثلاً أن العمل في مصنع أقل تطلباً للجهد من العمل في الحقل . غير ان الحقل ذاته قد ادركتهُ الوسائل العملية فخففت من خشونة الحياة ومحت كثيراً من متاعبها فيه . والمساكن الحديثة قد هيأت للناس حياة أنعم وأرفه عن ذي قبل . فان ما فيها من الراحة والدفء والانارة التامة ، قد أضفت على سكانها شعوراً بالراحة والرضا ، ومُعدّاتها الرئيسية قد انقصت كثيراً من الجهد الذي تطلبته من النساء مساكن الاولين . والى جانب ما أنس الناس من انقاص الجهد العضلي وازدياد التنعّم ، قد اخلدوا فرحين الى حياة الجماعة ، فانهم قلما يتركون فُرَادَى أي منعزلين عن الناس ، وانغمسوا في مشهيات المدن وملاهيها ، والعيش في غمر الجماهير ، والبعد عن التفكير . كذلك تراهم يهيمون بالفكاك ، بما غرس فيهم من نتاج التربية العقلية ، من القيود الادبية التي فرضها المُمَحّصون (Puritants) والمبادىء التي فرضها الدين . وفي الحق ان الحياة الحديثة قد ردت الناس أحراراً . فقد فتحت لهم سبيل الحصول على الثروة بكل سبيل مستطاعة وبكل وسيلة ممكنة ، طالما انها وسيلة لا تؤدي بهم إلى السجن . إنها فتحت لهم ممالك الارض وفجاجها . إنها حررتهم من الاساطير وطهرتهم من الاوهام . انها مهدت لهم سبيل استثارة شهواتهم الجنسية كيفما شاؤوا ، وسهلت لهم سبيل ارضائها . انها محت القيود وفكت اغلال النظم وقللت من الجهد الجسمي ، بل ومن جميع الاشياء المتعبة او المكدرة . وعلى

الجملة فان الناس ، والذين هم من الطبقة الدنيا خاصة ، اكثر سعادة وهناءة ، من الوجهة المادية ، مما كانوا في الازمان الاولى . على ان فئة من الناس قد اخذوا يمسكون ، ولكن تدرجاً ، عن ان تستهويهم ملهيات الحياة الحديثة أو يأخذوا بملذاتها الغليظة . وهؤلاء في الغالب هم الذين يحول ضعف صحتهم دون الاستمرار في التورط فيما هيأت لهم حياة المدنية من مناعم كالاكل والشراب والتخالط الجنسي ؛ تلك التي مهد السبيل اليها محو النظم الادبية وكسر اصفادها . هذا إلى جانب انهم يعيشون مهددين بفقدان العمل الذي يعملون فيه او موارد معيشتهم او مدخراتهم او ثرواتهم . انهم عاجزون عن ان يرضوا حاجة النفس الى الشعور بالامان والطمأنينة ، تلك الحاجة التي نحس جميعاً انها كامنة في اعماق نفوسنا . وعلى الرغم مما يحف بالناس من ضروب التأمين الاجتماعي ، فانهم يشفقون من مستقبلهم . اما الذين هم قادرون على التفكير ، فانهم ينقلبون ممتعضين ثائرين

من المحقق مع هذا ان الحالات الصحية تتقدم وتتحسن . ولم يقف تحسن الصحة عند نقصان متوسط الوفيات ، بل إن كل فرد قد اصبح اجمل تكويناً واكبر حجماً واشد مرّة . فالاطفال في عصرنا الحاضر اكثر طولاً مما كان آباؤهم ، ووفرة الغذاء والمرانة الطبيعية قد ادّتا إلى زيادة حجم الجسم وقوته العضلية . واكثر الرياضيين الممتازين في الملاعب الدولية يفدون من الولايات المتحدة . وفي الفرق الرياضية التابعة للجامعات الاميركية ، نقع على افراد هم في الواقع نماذج عليا للتكوين البشري . والتعليم الحديث اكبر عامل على نماء العظام والعضلات نماء كاملاً . ولقد استطاعت اميركا بطرقها الخاصة أن تستحدث من نماذج الجمال ما يضارع نماذج الجمال القديم في العصور الفارطة . ومع كل هذا نجد ان طول العمر ، مع ما نبذل من جهد رياضي وما نمتع به من مزايا الحياة الجديدة ، لا يزيد عن طول عمر أسلافنا ، بل ربما كان فينا أقصر منه فيهم . فان قدرتهم على مقاومة التعب والكدّ قد نقصت . والظاهر اجمالاً أن الافراد الذين اعتادوا معالجة المرانة الجسمية الطبيعية ، واحتمال التعب والتعرض لتقلبات الجوّ ومكدّراته كما كان اسلافهم من قبل ، هم اقدر على بذل الجهد وتحمل المتاعب من رجالنا الرياضيين . وإنا لنعلم انّ محصلات التعليم الحديث تتطلب من الفرد أشياء اساسية منها كثرة النوم ووفرة الغذاء وانتظام العادات . بذلك اصبح المجموع العصبي هشّاً ضعيفاً ، حتى غدا الناس عاجزين عن تحمل اسلوب الحياة الجديد في المدن العظمى ، والاحتباس في المكاتب ، ومشاغل العمل ، بل اصبحوا غير قادرين على مواجهة المصاعب وآلام الحياة العادية التي عليهم ان يواجهوها كل يوم . لذلك هم يتحطمون سراعاً . وربما كانت انتصارات علم الصحة والطب والتعليم الحديث اقل قيمة للناس مما نعتقد في العادة

وإن لنا ان نسائل انفسنا : أليس هنالك من نقائص عملية متعلقة بنقصان متوسط الوفيات اثناء طوري الطفولة والفتوة ؟ الحقيقة ان للضعيف في عصرنا من فرص الحياة ما للقوي . ذلك بان الانتخاب الطبيعي قد منع عليه ان يؤدي رسالته . ولا يمكن لاحد ان يتكهن عما يكون مستقبل سلالة احتمى أفرادها بالطب. غير اننا نترك هذا المشكل الى مشاكل اخرى اعظم واروع تتطلب منا حلاً سريعاً شاملاً . فبينما نرى أن الطب قد استطاع ان يقضي على مرض الاسهال الاخضر في الاطفال ، وان يقف فعل السل والدفتيريا والتيفود ، بل ويقضي عليها قضاء ، نرى ان هذه الامراض قد استبدلت بامراض اخرى ذات طابع انحلالي . اضف الى ذلك ازدياد عدد الاصابات بالامراض العصبية وأمراض العقل . ففي بعض الاقاليم نجد ان عدد المجانين في مشفى ما ، يزيد عن جميع عدد المصابين بأمراض أخرى في بقية المشافي جميعاً . وليس يقف الامر عند الجنون ، بل ان الاضطرابات العصبية ومظاهر الضعف العقلي قد اصبحت اكثر ذيوعاً عن ذي قبل . وانها لاكبر العوامل تأثيراً في احداث التعاسة في الافراد والانحلال في الاسر . ولا شكّ في ان الانحطاط العقلي أنكى خطراً على المدنية من الامراض المعدية ، تلك التي حصر علماء الصحة والاطباء همهم كله في بحثها ومقاومتها

***

بالرغم من المبالغ المالية الطائلة التي تنفق في الولايات المتحدة على تعليم الاطفال والناشئين فان الطبقة المنتقاة من ذوي العقل الممتاز لم يزد عددها . ولا شكّ في ان الطبقة الوسطى في الولايات المتحدة ، رجالاً ونساء ، تتلقى تعليماً ارقى ، وتعيش عيشاً أرفه مما كان اولاً ، والرغبة في القراءة والاطلاع اصبحت اكبر وأعظم ، والجمهور يشتري من المجلات والصحف اكثر مما كان يشتري جمهور الجيلين السالفين ، والمشتغلون بالعلم والآداب والفنون اكثر عدداً . غير ان اكثرهم مشغول بأحط صور الادب ، ومن يعمل منهم في العلم والفن يعكف على ما يشبه العلم والفن ، لا على ضروبهما العليا . ويظهر من ذلك ان الحالات الصحية الممتازة التي يعيش الاولاد مشمولين بها ، والعناية التي تبذلها المدارس والمعاهد في سبيلهم ، لم تضف شيئاً الى صفاتهم او نماذجهم العقلية والادبية . وقد يمكن ان يكون هنالك تناقض ما بين نمائهم الجسمي ، وقدرتهم العقلية [1]

« البقية في باب الاخبار العلمية »

(١) يريد الكاتب ان يقول ان المدنية الحديثة تحقق بأساليبها قول القائل : اجسام البغال وأحلام العصافير

لماذا يغرّد الطير

ألطرب ام للمزاوجة ام للتخاطب ؟

في حياة الطير نواح متعدّدة تستوقف العناية [1] ولكن التغريد اشهرها واعمّها . فقد يكون بين قرّاء هذه الصفحات من لا يميّز نوعاً من نوعٍ من الطير ، ولكن يندر ان يكون بينهم من لا يطربهُ تغريد البلبل والكنار والحسّون والقبرة . ودواوين الشعراء حافلة بوصفهِ وبأثرهِ في نفوس الشعراء . وهذه العناية بالتغريد حملت علماء الطير على البحث في سببهِ . فاصبحوا في شغل عن الطرب بما هم فيهِ من البحث . ولكنهم على كل حال ينكرون بوجهٍ عام ان الطير يغرّد طرباً لان ذلك الرأي القديم في نظرهم ليس رأياً علميًّا

ان العلماء الذين عنوا بهذه الناحية من حياة الطير ، فريقان . فريق يقيم رأيهُ على اساس مادي ، والآخر يقيمها على اساس غير ماديّ . والرأي الغالب الآن هو الرأي الاحيائي (البيولوجي) وزعيمهُ ، المستر نكولسون E. M. Nicholson . ان اصحاب هذا الرأي يقولون ان سلسلة الانغام التي يميّزها علماء الطير سواءٌ ابسيطة كانت ام مركبة ، يستعملها الذكر في فصل المزاوجة اعراباً عن استقلالهِ وسيادتهِ في المنطقة التي نزل فيها . وانهُ لا يغرّد خارج تلك المنطقة . فاذا فعل لم يكن ذلك تغريداً حقيقيًّا بل شبيهاً بهِ sub-song ثم ان للتغريد مسوّغات بيولوجية علاوة على ما تقدم . فهو في مذهبهم وسيلة يستدعي بها الذكر الانثى الهائمة في الربيع وعندهم ان الذكور تصل اولاً الى المنطقة الجديدة ، فتنزل فيها ، ثم تتبعها الاناث غير المتزوجة . ولما كان معظم الطيور المغرّدة صغير الحجم، لا يمتاز بريش باهي الالوان متعددها ، فالتغريد وسيلةٌ لاتمام المزاوجة بتوجيه عناية الاناث اليه . ثم ان التغريد رسالة تحذير يوجهها الذكر الى غيره من الذكور ان لا يعتدوا على المنطقة الخاصة بهِ . فاذا لم يغرّد فقد يقصى عن منطقتهِ وقد لا يجد زوجاً . فالتغريد في رأيهم ليس اعراباً عن شعور ، وانما هو ضرورة بيولوجية

هذا هو الرأي البيولوجي في تفسير تغريد الطير مجملاً . ولكن عند التدقيق فيهِ ، يجد الباحث

---

(١) راجع « عقل الطير » مقتطف يونيو ١٩٢٣ صفحة ١

خطأين اولهما ان التغريد لا يقتصر على فصل المزاوجة ولا ينحصر فيهِ . وقول المستر اليوت هوارد Eliot Howard ان التغريد محصور في فصل واحد من فصول السنة وهو فصل التوليد مردودٌ بالمشاهدة . فليس في السنة فصل واحد لا تفيض بهِ لهى الطير بالنشيد . فان الحنّاء Robin (معجم الحيوان عن القزويني) والصَعْوَة Wren (معجم الحيوان ويعرف في الشام باسم سكسوكة ونمنمة ودعويقة) والسمنة تغرّد في غير فصل التوليد . وقد ردَّ اصحاب المذهب المتقدم هذا الاعتراض بقولهم ان هذه الطيور التي تغرّد في غير فصل المزاوجة ، تحتلُّ أرضاً خاصة بها على مدار السنة . ثم هناك خطأٌ آخر . فقولهم ان تغريد الذكر يجذب الانثى التائهة اليهِ يعني ان الانثى تتجه الى أطرب الطيور تغريداً وهذا مردود بقول اليوت هوارد نفسهِ اذ أثبت فسادهُ في ما يتعلق بضربين من الطير من نوع الدُرَّسة Bunting المعروف بمصر باسم « الصعو » مع ان الصعو كما تقدَّم يقابل (Wren) (راجع معجم الحيوان مادة Bunting)

وعلى الرغم من هذين الاعتراضين على الرأي المتقدم لا يزال هذا الرأي قائماً . ولكن كلما أمعن الباحث تدقيقاً فيهِ تبين انهُ غير دقيق وغير شامل . فقولهم ان تغريد الذكر اعراب عن سيادتهِ في منطقتهِ وتحذير موجه الى منافسيهِ مردودٌ بما يشاهد في اثناء الربيع من القتال الكثير بين الذكور . راقب الذكر وهو يغرّد . قد تحسُّ انهُ يعرب في تغريده عن استقلالهِ وسيادتهِ ، ولكنك قلما تقتنع ، وأنت تشاهدهُ مستغرقاً جسماً وعقلاً وروحاً في التغريد انهُ مهتمٌّ بغيره قصد تحذيره . وقد قال الاستاذ فيزي فتز جيرالد في مجلة الكونتمبورري — وعنهُ نلخص — انهُ كثيراً ما راقب الدُخلة او الهازجة اثناء التغريد ، فعجز عن اقناع نفسهِ بأن فيهِ تحذيراً وانذاراً لسائر الهوازج

ولو كانت الذكور لا تغرّد خارج المناطق الخاصة بها لكان الباحث مضطرًّا ان يسلم بهذا الرأي . ولكنها تغرد أينما تكون . ففي الربيع تغرّد الهوازج القواطع في اماكن لا تنوي مطلقاً ان تبني فيها عشاشها . وقد كان للاستاذ فيزي فتز جيرالد حديقة ، في منطقة تجتازها هذه القواطع ، فكان يسمع في الربيع تغريدها مع انها لم تكن معششة فيها ولا في جوارها . بل ان الشجرة الواحدة كانت بمنزلة منبر تشدو من فوقهِ ستة أنواع او اكثر . ثم كان يبحث عنها في اليوم التالي فلا يقف لها على أثر ، ثم يسمعها شادية ، عند عودتها قاطعةً في الخريف . فليس ثمة صلة بين الشدو والمنطقة . ثم ان هذه الطيور قلما تشدو كثيراً خارج منطقتها ، بعد ان تتوطنها . ومع ذلك فكثير من الباحثين غير مقتنع بأن هناك صلة بين الشدو والمنطقة في عقل الطير في حالة المتوطن منها . والامثلة على ما تقدم كثيرة . اما المستر نكولسون فيزعم ان هذا الشدو خارج المنطقة ليس شدواً صحيحاً وانما هو شبيهٌ بهِ ويطلق عليهِ اسم (sub-song) اي انهُ

اصوات لم تسمُ الى مستوى الشدو او التغريد . فيردُّ عليه فيزي فتز جيرالد بأنهُ جهد نفسهُ في التفريق والتمييز بين التغريد في المنطقة المستوطنة والتغريد خارجها فلم يتبين اقل فرق

اما التوسل بالتغريد لجذب الاناث فقائم على الرأي القديم بأن الطيور الزاهية الالوان قلما تجيد التغريد . وان الطيور المتوسطة الحجم قلما تحسب في عداد الطيور المغرّدة . ويذهب نكولسون الى القول بان الطيور التي لا تعيش في جماعات ، تحتاج الى قدرة التغريد ، لتعتاض بها من خفائها الناشىء عن صغر حجمها او عدم ازدهائها . ففي فصل المزاوجة — على رأيه — يحتاج الذكر الى ما يمكنهُ من اعلان وجوده رغبة منهُ في جذب الانثى اليه وكذلك في اقصاء المعتدين عن منطقته لكي يكفل ارضاً تحتوي ما تحتاج اليه صغارهُ من الغذاء . فاذا كان صغير الحجم او قليل اللون كان لا بدَّ لهُ من الاعتماد على الصوت وإن لم يكن ذلك الصوت تغريداً دائماً

وفي الردّ على هذا يقول الاستاذ فيزي فتز جيرالد انهُ قد يكون التغريد في بعض انواع الطير وسيلة لاجتذاب الاناث ، مع انهُ ينكر صدق ذلك على اي نوع . ويستشهد بقدرة طيور غير غريدة على الفوز باناثها . ولكنهُ يسلم جدلاً بان التغريد قد يكون لهُ هذا الغرض في بعض الانواع ثم ينكر ان البحث عن الزوج هو القصد الاول او الوظيفة الرئيسية المقصودة بالتغريد. وقد أقام الدليل على ذلك بالاشارة الى طائر يعرف باسم خاطف الذباب fly-catcher (معجم الحيوان عن احمد فارس وشورب وهي عامية في مصر عن حلمي السمّاع وبوبانة عامية في لبنان) . فالارقط منهُ يستوقف النظر بريشه وطبائعه ومع ذلك يتصف بتغريد شجيّ . والظالم او الصغنج chaffinch (معجم الحيوان الاولى عامية في الاسكندرية عن حلمي السمّاع والثانية عامية في لبنان عن بوست) حسن الصوت ويستوقف النظر بشكله في آن واحد . وكذلك الصفارية Golden Oriole (معجم الحيوان) يستوقف النظر بلونه الاصفر وصوته الحسن

وهناك فريق ثان يذهب مذهباً آخر في تفسير تغريد الطير . وزعيمهُ المستر رتشموند (W. K. Richmond) وهو يستمدّ اساس رأيه من المذهب البيولوجي ، فيقول : لما كان معظم الطيور يغرّد في فصل المزاوجة فيصحّ القول بان التغريد كان اصلاً مرتبطاً بالمزاوجة . ويمكن التسليم كذلك من الناحية العلمية ، بان ازدياد التغريد في الربيع مرتبط بنمو الاعضاء الجنسية في الذكر وان خفوتهُ مرتبط بضمورها . ومن الصحيح ايضاً ان الطيور تغرّد عندما يكون نشاطها على اشدّهِ ، فاذا اتجه النشاط الى اعمال أخرى كتغذية الصغار او تبديل الريش قلّ التغريد . ثم هنالك عامل آخر وهو توافر الاحوال المؤاتية . فاذا حرم الطير الطعام او هبطت الحرارة فجاءة أثَّر ذلك في تغريدها فاذا استمرّت الاحوال غير المؤاتية انقطع التغريد ، ولكن حماسة الطيور المغرّدة في الربيع تتغلّب على احوال الجوّ ، وكثيراً ما سمعت أبا قلنسوة (الخوري والشمّاس ذكرهُ وانثاه

في لبنان عن معجم الحيوان) والموازج وهي تغرّد بغير انقطاع عندما كان الثلج يغطي الارض

ثم ان رتشموند لاينكر التغريد على الطيطوى Sand piper (معجم الحيوان عن ترجمة كليلة ودمنة لفوكنر) والزرزور Starling لانهُ يعلم ان لتغريد الطيور نواحي متعددة . وقد ضرب المثل على ذلك بطائر الحمراء Redstart فقال في وصفه ما يلي : لقد شاهدت حميراء وهو يشدو شدواً كله قوة وكبر ... وكانت كل حركة من حركات الطائر وكل نغمة من نغمات شدوه تدل على طبعٍ عنيف وغد . ولكنني رأيت نفس الطائر بعد الظهيرة وهو اهدأ بالاً مما كان في الصباح وكان يهزج هزجاً رقيقاً يدل على رضائه وهنائه في هزجه . ثم يقول ان الطيور تغرّد عند ما تصاب بأذى او حتى عند ما تكون على وشك الموت . ومن هذا يخرج رتشموند الى ان التغريد في الطيور اعرابٌ وانها تغرد لا لأنها مدفوعة اليه بحاجة قاسرة يفرضها عليها الانتخاب الطبيعي ، بل لان التغريد منفذ لنشاطها الفائض «فهي اما ان تغني واما ان تنفجر» . والتغريد في رأي رتشموند هو الاعراب الانفعالي عن حياة الطير

قد يكون هذا الرأي في هذه الايام ، ايام التفسيرات العلمية والشبيهة بالعلمية ، غير مقبول لانهُ غير علميّ . ولكن من الخطل ان نتجاهله لكونه غير مفرغٍ في قالب علمي . فالمستر رتشموند باحث محقق دقيق الملاحظة . وهو اقرب في نظر فيزي فزجيرالد الى الحقيقة من اصحاب الرأي الجغرافي القائم على ان التغريد اعلان الطائر استقلالهُ في منطقته وتحذيره غيره من تعدي حدودها . ولا يبعد ان يكون رأيهُ الحقيقة كلها

وماذا نعني بتغريد الطير ؟ السمنة تغرّد والغراب ينعق . ومع ذلك فللغراب لهاة مرتقية التركيب ومدى من الاصوات اذا شبهناها بألفاظ الانسان قلنا ان ثروتهُ اللفظية واسعة . والظاهر اننا نقصد بالتغريد تلك الاصوات التي تقع وقعاً مطرباً على آذاننا . بل ان اصحاب الرأي الجغرافي ، ينكرون ان الطيور تغرد خارج منطقتها الخاصة بها . وما يصدر منها من الانغام خارج هذه المنطقة ، يوصف بأنه شبيه بالتغريد . فاذا كانت اصواتها غير منغمة تجاهلوها اطلاقاً . ولكن هذا التعريف الضيق لايتسع لكثير من الاصوات التي وصفها هندي Hendy بأنها « كلام الطيور »

اذاً ما تغريد الطيور ؟ لا بد من القول بأن تغريد الطير ليس مسألة واحدة بل مسائل متعددة . ويمكن ان نقسمها ثلاثة اقسام تدور حول اصل التغريد ، ونموه ووظيفته . وكلٌّ منها مسألة قائمة بذاتها . ثم ان موريس Morris يعمد في كتابه عن « التغريد » الى تقسيمه بحسب الفصول ويعد منها تغريد الربيع والخريف والشتاء . ولكن التمييز بين ألوان التغريد الخاصة بهذه الفصول شاق او متعذر . ومع ذلك يمكن ان يتمادى الباحث في تصنيف التغريد ، فيميز بين التغريد قبل المزاوجة والتغريد الذي يقصد منهُ اطراب الانثى وهي حاضنة البيض . وهذا يدلك على سعة الموضوع

لا ريب في ان للنزعة الجنسية في الطير تأثيراً كبيراً في تغريده ولكن من الخطل الذهاب الى ان تغريد الطير ليس الاّ اسلوباً من اساليب التحدث الجنسي . لان الحقائق تدل على ان التغريد أبعد مدى من مجرد الاعراب الجنسي . وعلماء الطيور يعرفون طائفة كبيرة من الطيور تجيد التغريد بعد ان تقضي فيها الشهوة الجنسية

ان التغريد الذي نشأ اصلاً للاعراب عن الرغبة الجنسية قد تطوَّر حتى اصبح لغة او وسيلة للتخاطب . ولا بدَّ لنا اذا شئنا ان نفهم تغريد الطير من ان ندرك ان ما نطلق عليه وصف «التغريد» او «الشدو» هو في الواقع لغة الطير ، وللغة نواحٍ متعددة ، بتعدّد النواحي في حياة الطير . وآذاننا ليست معدَّة للتأثر بجميع ألوان الصوت الصادر من لهى الطيور . وقد قال الاستاذ جارستانج في وصف هذه اللغة « انها تعرب عن الشعور والانفعال لا عن الاشياء والافكار ، وهي في آخر الامر متصلة بالسلوك وتشتمل على الدعوة والتحية والتحذير والتحدي والتشجيع وقلما تشمل غيرها »

وهذا الذي قالهُ جارستانج لا يشكُّ فيهِ احد من مراقبي الطيور . وكما ان الانفعال في الناس تصحبهُ الحركة كذلك يصحب الرقص ورفرفة الاجنحة والتحليق الاعرابَ عن انفعال الطير بالتصويت . ولا يخفى ان وردزورث الشاعر الانكليزي الذي كان يعرف طبائع الطير وصف طبع الشاعر كأنهُ يصف طائراً عند ما قال : « ثم يحفل قلبي بالغبطة فيرقص مع الدخلة »

إن ارتقاء القدرة على التخاطب بالتصويت في الطيور يختلف باختلاف انواعها . ولكن هذه القدرة تمتدُّ من نعيق الغراب الى الشدو الموسيقي الصافي في فصيلة السمنة ، ولغة كل نوع لا يفهمها الاّ ذلك النوع

اذن ، هل تغرّد الطيور كما نفهم التغريد ؟ هل تغرّد اعراباً عن غبطة الحياة ؟ انها ولا ريب تفعل ذلك . ولكن أصحاب المذهب الجبراني يصفون تغريدها هذا بأنهُ شبيه بالتغريد sub-song الاّ أنهُ اتيح لي (فيزي فتزجيرالد) ان اراقب الشحرور يفرغ قلبهُ في صياحه وهو جاثم على غصن . ثم شاهدتهُ بعد قليل وهو لا يزال على ذلك الغصن يشدو شدواً رخيماً رضيًّا . ومنذ ذلك اليوم لم يخامرني شك في حقيقة التغريد . اذكر ايها القارىء حيراء رتشموند . او تذكر الصفنج Chaffinch جاثماً على سور الحديقة وهو يهزج . او الزرزور على قمة المدخنة . او التفاحي linnet (معجم الحيوان عن حلمي السباع وهو عند عامة المصريين التفاحي والزقيقية وعند عامة السوريين الزقاقية والتفيفيحة) او السمنة . ليس ثمة ظلٌّ من الشك في ذلك . والواقع انني لا انكر قدرة التغريد على اي طائر . اليس الصرد shrike من ارخم الطير شدواً مع اننا تعودنا ان ننكر عليه التغريد

ان اصوات الطير التي يصفها بعضهم بانها « شبيهة بالتغريد » لهي التغريد الحقيقي ، المجرّد من قيود التخاطب والمنطقة والجوع والعمل ، مجرّد من كل شيء الاّ من الطرب

في تاريخ العرب

للدكتور زكي محمد حسن

على هامش كتاب History of the Arabs
للدكتور فيليب حتي الاستاذ بجامعة برنستون

كتب المستشرقون وكتب المسلمون أنفسهم المؤلفات الكثيرة عن تاريخ العرب والمسلمين عامة، وتضاربت الآراء في قيمة هذه المؤلفات، ولكن الكتاب الذي ظهر حديثاً للاستاذ الدكتور فيليب حتي يختلف عن كل ما كتب في هذا الموضوع، ويبزه في المادة والاسلوب وطريقة البحث. ولسنا نقصد ان نعرض او ان نشير الى الابحاث والكتب التي ألفت في شتى موضوعات التاريخ الاسلامي وفروعه، فان مثل هذه الكتب، بطبيعة حجمها وكون كل منها موقوفاً على دراسة ناحية او مشكلة من مشكلات التاريخ الاسلامي، تكون أوفى غرضاً وأوسع مادة وأدق منهجاً، ولكننا نريد الكتب التي عقدت فصولها للكلام عن التاريخ كله او جله في تركيز وايجاز لا يمكن بدونهما ان يلم المؤلف بتاريخ المسلمين او العرب في مجلد واحد من القطع المتوسط

ولم تكن هذه الكتب الاخيرة كثيرة في شتى اللغات فليس بالانجليزية الا كتاب مور [١] والسيد امير علي [٢]. وبعض كتب أخرى مختصرة جداً. وليس في الفرنسية الا كتاب هوار [٣]. فضلاً عن بضعة مؤلفات موجزة لا تفي الموضوع حقه. اما الالمانية فقد كانت أغنى من اللغتين السابقتين بل كانت في التاريخ العلمي الصحيح أغنى من اللغة العربية نفسها. فمؤلفات

---

(١) W. Muir : The Caliphate وقد طبع سنة ١٨٨٣ وسنة ١٨٩١ وسنة ١٨٩٨ وظهرت منه طبعة جديدة منقحة على يد T. H. Weir بادنبره سنة ١٩٢٤

(٢) Syed Ameer Ali : A Short History of the Saracens (London 1921) وقد ظهرت بعض مؤلفات اخرى بالانجليزية في تاريخ العرب والمسلمين لغير السيد امير علي من المؤرخين الهنود

(٣) C. Huart : Histoire des Arabes (Paris 1902)

فون كريمر [١] . وفيل [٢] وبيكر [٣] لا تزال مراجع ثمينة في التاريخ الاسلامي عامة وليس في اللغة العربية كتاب واحد يضم بين دفتيه تاريخ العرب او المسلمين على نحو علمي صحيح [٤]

وهكذا يرى القراء أن كتاب الدكتور حتي سد ثغرة في عالم التأليف . على ان المؤلف يبدأ مقدمته بأن كتابه «محاولة متواضعة لحكاية سيرة العرب والشعوب التي تكلمت العربية منذ العصور الاولى حتى الفتوح العثمانية في بداية القرن السادس عشر» ، ولكن الحق أنه عمل جليل يشهد بعلم وافر واطلاع واسع ومثابرة مضنية ، ولا غرو فالمؤلف يعترف في المقدمة بان هذا الكتاب ثمرة عمل دام سنوات طويلة قضاها في الدرس والتدريس بجامعة كولومبيا والجامعة الاميركية في بيروت وجامعة برنستون باميركا

وينص الدكتور حتي في المقدمة على أن الكتاب أعد ليفي بحاجة الطالب وبحاجة القارىء المثقف من غير الاختصاصيين. والواقع أن هذا الكتاب رفيق طيب لأساتذة التاريخ الاسلامي، وإن كنا لا نذهب الى حسبانه مصدراً جامعاً شاملاً يمكن الاعتماد عليه إلى حد كبير . وسنبين علة ذلك في المآخذ القليلة التي سنعرض لها في آخر هذا المقال

ولعل خير وسيلة لتبين ما لكتاب الدكتور حتي من شأن خطير ان نستعرض اقسامه وفصوله

قسم المؤلف كتابه خمسة اقسام ، عقد الاول للكلام عن العصر الجاهلي ، والثاني عن قيام الاسلام وعصر الخلفاء الراشدين، والثالث عن القيصريتين الاموية والعباسية ، والرابع عن العرب في اسبانيا وصقلية ، والخامس عن آخر الدول الاسلامية في العصور الوسطى وعن الحروب الصليبية

أما القسم الاول فقد بدأه المؤلف بالتحدث عما لتاريخ العرب من شأن خطير ، على الرغم من ان المعروف عن بلاد العرب لا يتناسب وكون المسلمين يبلغ عددهم الآن نحو سبع سكان العالم او سدسه ، ولا يتفق مع عظمة المسلمين ، الذين لم تكن لهم قيصرية مترامية الاطراف فحسب ، بل ورثوا المدنيات التي قامت على ضفاف الدجلة والفرات والنيل ، واقتبسوا من العالم الاغريقي الروماني القديم ، وكانت لهم ثقافة عظيمة اثرت في اوربا في العصور الوسطى فبعثت النهضة فيها . وكان التراث الذي خلفه العرب والناطقون بالضاد اكبر من تراث اي شعب آخر

(١) A. von Kremer : Culturgeschichte des Orients unter den Chalifen (Wien 1875-77)

(٢) انظر G. Weil : Geschichte der islamitischen Völker von Mohamed bis zur Zeit des Sultan Selim, (Stuttgart 1866) , ايضاً : G. Weil : Geschichte der Chalifen (Bd. 1—3, Mannheim 1846-1851)

(٣) C. H. Becker : Islamstudien (Bd. 1-2, Leipzig 192

(٤) ان تاريخ الاسلام السياسي للاستاذ الدكتور حسن ابراهيم حسن لم يظهر منه الا ... محاضرات الاستاذ عبد الحميد العبادي في كلية الآداب لم تطبع بعد . بينما كتاب «العالم ... كحالة موجز ومقتضب ، وثمة مؤلفات اخرى لم تتبع في تأليفها طريقة البحث العلمي الصحيح

ثم تكلم الدكتور عن الاستكشافات الحديثة في بلاد العرب ، وعن الشعوب السامية عامة ومهدها في شبه الجزيرة . وعقد بعد ذلك فصلاً عن بلاد العرب : طبيعتها ومناخها ونباتها وحيوانها ، ثم وصف الحياة البدوية ، فتكلم عن الغزو والحماسة والمروءة والعصبية والقبيلة وشيخها. على أن أبدع فصول القسم الاول من كتاب الدكتور حتي انما هي الرابع والخامس والسادس، فقد لخص الدكتور في الفصل الرابع العلاقات الدولية بين العرب وجيرانهم في العصور القديمة : علاقتهم بالمصريين القدماء وبالسوريين والبابليين والاشوريين والفرس واليهود والعالم الاوربي القديم . وكان قوام هذه العلاقة تجارة البخور واللبان والتوابل ومناجم الذهب والنحاس . اما الفصل الخامس فقد شرح فيه المؤلف احوال الدول القديمة التي قامت في بلاد العرب الجنوبية: المعينية والسبائية والحميرية وتكلم في هذا الصدد عن تجارة بلاد العرب الجنوبية وعن النقوش السبائية والحميرية ومكتشفيها نيبهر Niebuhr وهالفي Halévy وجلازر Glaser ، وعن مأرب وعن العرب الذين هاجروا من حضرموت واليمن الى شرق افريقية ، حيث أسسوا دولة الحبشة السامية الاصل والتي أتيح لها ان تمد سلطانها الى بلاد العرب الجنوبية في القرن السادس الميلادي، حتى هب لطردهم منها سيف بن ذي يزن بطل السيرة الشعبية المشهورة ، وعاونه الفرس ولكنهم اتخذوا ذلك سلماً لحكم اليمن، وظل نفوذهم قائماً فيها حتى اعتنق الاسلام باذان خامس ولاتهم فيها، فأصبحت اليمن جزءاً من الدول الاسلامية وأصبح شمال بلاد العرب أخطر شأناً من جنوبها

وعقد المؤلف الفصل السادس للكلام عن الولايات التي قامت في شمال شبه الجزيرة قبل الاسلام فكتب عن النبط الذين نزحوا في القرن السادس قبل الميلاد من شمالي اقليم شرقي الاردن الى جنوبيه واتخذوا مدينة البتراء Petra عاصمة لهم فغدت من أعظم المدن في الطريق التجاري بين سبأ وسواحل البحر الابيض المتوسط . وكان النبط يتكلمون اللغة العربية ويستخدمون في كتابتها الحروف الآرامية كما كانت اللغة الارامية لغة العلم عندهم . ثم تطورت الكتابة النبطية في القرن الثالث الميلادي الى الحروف العربية النسخية التي عمّ استخدامها في العالم الاسلامي ، اللهمّ الاّ في العصور الاولى حين استخدم الخط الكوفي في كتابة المصاحف وفي كتابة بعض المستندات الرسمية الخطيرة وفي العملة وعلى العمائر والمساجد

وقد شرح المؤلف في هذا الفصل كيف تطورت الرموز الهيروغليفية على يد سكان شبه جزيرة سينا حتى وصلت الى الحروف الابجدية الخالصة ، التي كان الفينيقيون اول من عرفها . ثم تحدث عن مدينة البتراء عاصمة النبط المحفورة في الصخر والتي بلغت اوج عظمتها تحت رعاية الرومان في القرن الاول من الميلاد ، وعن مدينة تدمر التي كانت من أغنى مدن الشرق الادنى في القرن الثاني والثالث بعد الميلاد والتي بهر العرب بآثارها حتى زعموا انها من بناء الجن

لسيدنا سليمان ، وعن بني غسان الذين كانوا يقطنون جنوب شرقي دمشق عند آخر الطريق التجاري بين مأرب والشام والذين اعتنقوا المسيحية وتعلموا الارامية لغة السوريين بدون ان تنقطع صلتهم باللغة العربية ثم اسسوا امارة حليفة لبيزنطة تشملهم برعايتها نظير قيامهم بحماية حدود ممتلكاتها في الشام وصد القبائل العربية عنها ، كما اسس اللخميون في الحيرة امارة اتخذها الفرس حليفة لهم تحمي حدود العراق من غارات البدو

وختم الدكتور حتي القسم الاول من كتابه بفصل ممتع عن بلاد الحجاز قبيل الاسلام ، شرح فيه ايام العرب وحروبهم ولغتهم وأدبهم وشعرهم من سجع وقصائد ومعلقات واحوالهم الاجتماعية ودياناتهم وما يتصل بها من اعتقادهم في الجن ومن حجهم الى الكعبة كما تحدث عن اشهر مدنهم في ذلك العصر : مكة ويثرب والطائف ، وعما كان لبلاد العرب الجنوبية والحبشة وايران من تأثير في بعض نواحي الحياة في الحجاز فضلاً عن اثر اليهود والنصارى في تهيئة النفوس للدين الجديد

وفي اعتقادنا ان القسم الاول من كتاب الدكتور حتي أنفس ما في كتابه . ولعلّ السر في ذلك ان سائر الكتب التي عرضت لتاريخ العرب والمسلمين لم تصل الى تلخيص اهم ما انتجته الابحاث والحفائر والدراسات العلمية من بيانات عن حال العرب قبل الاسلام ، وانما عنيت باخبار العرب في العصر الاسلامي ، ومصادرها كما نعرف كثيرة الى حد كبير. وان صح ان جورجي زيدان جمع في كتابه عن بلاد العرب قبل الاسلام شتات ما تناثر من الاخبار في هذا الموضوع ولخص كثيراً مما جاء في الكتب التي الفت باللغات الاوربية عن العرب في الجاهلية فان تاريخ تأليف هذا الكتاب (١٩٠٨) سابق على كثير من الابحاث والمكتشفات التي أماطت اللثام عن بعض معميات هذه الحقبة من تاريخ العرب

اما القسم الثاني من كتاب الدكتور حتي ، فقد تحدث فيه عن قيام الاسلام : عن سيرة محمد رسول الله وعن طبيعة الدين الاسلامي وعن عصر الخلفاء الراشدين وعن الفتوحات العربية وإدارة الاقاليم المفتوحة وعن النزاع بين علي ومعاوية ، كل ذلك في دقة علمية تستحق الثناء والاعجاب وأسلوب جذاب ممتع وبعد عن التعصب الذي يشوب كتابات كثيرين من المؤرخين المستشرقين والمسلمين القدماء وقد أسدى المؤلف بذلك خدمة جليلة الى الذين يودون الوقوف على الآراء العلمية الصحيحة في هذا الميدان بدون قراءة الكتب المطوّلة في شتى نواحيه

وقد عقد المؤلف القسم الثالث من كتابه للحديث عن الدولة الاموية : عن قيامها ، وعن علاقاتها العدائية بالبيزنطيين ، وعن اتساع ملكها ، وعن الحياة السياسية والادارية والاجتماعية والعقلية والفنية في عصرها ، ثم عن الدولة العباسية ، والنهضة العقلية التي حملت لواءها ، وعن نظم

الحكومة وطبقات المجتمع والتقدم العلمي في عصرها ، حتى انهُ عقد فصلاً للحديث عن مراحل التعليم وعن المكتبات والورق والورّاقين ، كما عقد فصلاً آخر للكلام عن الفنون فتحدث عن العمارة واشار الى تشييد سامرا وما كان فيها من زخارف جصية ونقوش ونوّه بمنتجات الفنون الفرعية المختلفة كالمنسوجات والخزف والزجاج والمخطوطات المصورة . وهذا تجديد في تأليف الكتب التاريخية حبذا الحال لو عني بهِ المؤلفون حق العناية

ومن ابدع فصول هذا القسم فصل الفرق الدينية في الاسلام وقد لخّص المؤلف فيهِ تلخيصاً طيباً مبادىء كل فرقة وما ألمّ بأتباعها من الاحداث السياسية . وكان طبيعيًّا ان يختم المؤلف حديثه عن الدولة العباسية بما جلبهُ ترامي اطرافها وضعف خلفائها ونمو سلطان الجند الترك فيها من اضمحلالها ، واستقلال اجزائها النائية عنها ، وقيام دويلات صغيرة على انقاضها كبني ادريس في المغرب الاقصى ، وبني الاغلب في افريقية (تونس) ، والطولونيين والاخشيديين في مصر والحمدانيين في الجزيرة ، والطاهريين والصفاريين والسامانيين والغزنويين وبني بويه والسلاجقة في ايران وغربي اسيا

وشرح المؤلف في نهاية هذا القسم كيف سقط بنيان الدولة العباسية وتهدمت عاصمتها سنة ١٢٥٨ على يد جموع المغول بقيادة هولاكو حفيد جنكيز خان

واوجز الدكتور حتي في القسم الرابع من كتابهِ الكلام عن تاريخ العرب في اسبانيا وفي جزيرة صقلية فبدأ بفتح الاندلس وتطرق الى عبور العرب جبال البرانس وتوغلهم في جنوب فرنسا تحت لواء عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ، حتى هزمهم الفرنج بقيادة شارل مارتل في واقعة بلاط الشهداء سنة ٧٣٢ بين تور Tours وبواتييه Poitiers

ثم كان سقوط الدولة الاموية في الشرق ، وفرار عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الى المغرب في الاندلس ، حيث افلح في الاستيلاء على السلطان وتأسيس امارة اموية غربية فيها ، وازدهرت هذه الامارة في عصر عبد الرحمن الناصر ، الذي اتخذ لنفسه لقب الخلافة سنة ٩٢٩ . وكان حكمه العصر الذهبي في تاريخ المسلمين بالاندلس ، فاسترد ما كان المسلمون قد خسروه من املاكهم في شبه الجزيرة ، ووطد دعائم حكمه فيها وشيّد مدينة الزهراء ، ووقف حجر عثرة في سبيل تقدم حركة ال Reconquista او استعادة المسيحيين سلطانهم في شبه جزيرة ايبيريه

وعقد المؤلف فصلاً خاصًّا للكلام عن النظم السياسية والاقتصادية وعن المؤسسات العلمية الاسلامية التي ازدهرت في الاندلس وجعلت قرطبة اكثر مدن اوربا علماً وثقافة ، وأحد المراكز الثلاثة للعلم والعرفان في ذلك العصر ، ولا غرو فانها كانت لا تقل بهاءً عن زميلتيها : القسطنطينية وبغداد ، وكانت تفخر بأميال من الطرقات المرصوفة والمضاءة ، « بينما

لم يكن في طرقات لندن مصباح واحد بعد هذا التاريخ بسبع مائة سنة » ، وكانت الحمامات امراً مألوفاً في قرطبة إذ ذاك « بينما كانت جامعة أكسفورد تنظر الى الاستحمام كعادة وثنية »، وشرح المؤلف النظم الحكومية واساليب الزراعة والتجارة في الدولة الاموية بالاندلس، ووصف ابهة الخليفة والازدهار العلمي في عهده ثم تكلم عن دكتاتورية المنصور بن ابي عامر في عصر الخليفة هشام الثاني (٩٧٦ — ١٠٠٩) ، قبل أن ينتقل الى سقوط الدولة الاموية ، وقيام ملوك الطوائف ، وتاريخ الولايات التي بقيت في يد العرب بعد ذلك ، والعمائر التي شيدت فيها حتى تقلص سلطان المسلمين ، وسقطت غرناطة سنة ١٤٩٢

ومن ابدع فصول هذا القسم ما تحدث فيه المؤلف عن تراث المسلمين في اسبانيا وما خلفوه للغرب ، فتكلم عن لغتهم وادبهم وشعرهم وما استحدثوه من اوزان ومعانٍ ، ثم عن اساليب التعليم عندهم ومجموعات الكتب التي كانت تزدحم بها حوانيت ورّاقيهم ، وعمن نبغ بينهم من المؤرخين وكتّاب التراجم . كابن القوطية وابن حيان وابن الفرضي وابن بشكوال وسعيد ابن احمد الطليطلي ولسان الدين بن الخطيب وعبد الرحمن بن خلدون ، ثم الجغرافيين والرحالين كالبكري والادريسي وابن جبير وابي حامد محمد المازني الذي زار روسيا سنة ١١٣٦ . وكتب المؤلف عن الفلك والرياضيات والطب وعلم النبات والفلسفة في الاندلس وعما كان للمسلمين من تأثير في تقدم هذه العلوم على يد الاوربيين بعد هذا التاريخ ، واستن المؤلف سنة حميدة فعقد فصلاً خاصًا للكلام عن الفن والعمارة الاسلامية في الاندلس وما كان لهما من تأثير في اوربا[1]

وختم الدكتور حتي هذا القسم من كتابه بفصل عن جزيرة صقلية : فتح العرب اياها على يد بني الاغلب في منتصف القرن التاسع الميلادي ، ثم اتخاذها مركزاً لغارات كان المسلمون يشنونها بين حين واخرى على الشواطىء الايطالية ، حتى سقطت الدولة الاغلبية واصبحت صقلية جزءاً من قيصرية الفاطميين ، وظلت كذلك حتى استولى عليها النورمنديون ، ولكنهم ساروا فيها على سياسة التسامح الديني واعزاز المسلمين ورعاية ثقافتهم[2] . وكانت صقلية ميداناً خصيباً لتبادل الثقافة بين الشرق والغرب ولا غرو فقد كان سكانها خليطاً من الاغريق الذين يتكلمون اليونانية ، والمسلمين الذين يتكلمون العربية ، والعلماء الذين يستخدمون اللاتينية

بقي الجزء الخامس والاخير من هذا السفر الضخم وقد عقده المؤلف للكلام عن آخر الدول الاسلامية في العصور الوسطى فكتب عن دولة الفاطميين الشيعية في مصر : تاريخها السياسي وحياة المجتمع في عصرها وما ازدهر فيها من علوم وفنون ، ثم عن الدولة الايوبية

---

(١) راجع كتاب تراث الاسلام The Legacy of Islam الذي نقلته الى العربية لجنة الجامعيين لنشر العلم (٢) راجع كتابنا « كنوز الفاطميين » ص ٧ و ٨ و ١٠٣ و ١٢٠ و ١٤١ و ١٤٣

والنزاع بين الشرق والغرب في الحروب الصليبية وختم الكتاب بالتحدث عن دولتي المماليك وحضارة مصر في عصرها

ذلك عرض سريع لما جاء في هذا الكتاب النفيس من موضوعات وبحوث . وانا لنحرص الحرص كله على ان ننوه بالكشاف الطويل الذي الحق به ، وباسلوب الكتاب الرائع ، ودقته العلمية ، وربطه بين الفنون والآثار وبين سائر نواحي التاريخ الاسلامي ، بله ان الصور الكثيرة التي تزين الكتاب تساعد على تفهم الحضارة الاسلامية العظيمة ، وتقرب الى الفهم كثيراً مما يستعصي تصوره من الكتابة والوصف . واما ما فيه من رسوم وخرائط فيشهد بطول الباع في الدقة والتحقيق

وان كان ثمة ما نأخذه على الاستاذ المؤلف فهو قبولهُ ان تحذف المراجع في نهاية كل فصل او قسم ، فان الايجاز في شرح بعض النظريات والمسائل يجعل الاشارة الى المصادر التي توفيها حقها من الدرس امراً لازماً ليستطيع القارىء أن يفي حاجته من التحصيل وان يكون رقيباً على المؤلف ، يقره أو يتخذ لهُ رأياً آخر ، وليمكن فضلاً عن ذلك ان يعد الكتاب مصدراً علميًّا صحيحاً يتخذ حجة ويشار اليهِ في المؤلفات المطوَّلة

وثمة شيء آخر لانجد مفرًّا من الاشارة اليهِ ملتمسين للمؤلف الجليل عذراً في وقوعه : ذلك اننا لاحظنا ان بعض الموضوعات الخطيرة لم توف حقها من العناية فنالها من صفحات الكتاب أقل مما نال غيرها من المسائل التي لا تساويها خطراً ، ولكن هذا راجع بطبيعة الحال الى حجم الكتاب وطول الحقبة التي عرض لها . كما اننا لاحظنا في بعض ابواب الكتاب ان الاستاذ المؤلف لم يستخدم المؤلفات الحديثة في بعض نواحي التاريخ الاسلامي . وربما كان السبب في ذلك ان ابواب الكتاب المذكورة اعدت قبل صدور المؤلفات المشار اليها وقد سمعت مثل هذا النقد من بعض أفاضل المستشرقين ، كل في الناحية التي وقف نفسهُ على دراستها

***

على ان الاستاذ الدكتور حتي قد وفق الى ابعد حدود التوفيق في قص تاريخ العرب في زهاء سبعمائة صحيفة بطريقة طريفة مع الدقة، وعلمية مع السهولة . ولا نبالغ في شيء اذا قلنا ان كتابه النفيس ألزم عدة لكل من يريد ان يدرس تاريخ المسلمين بدون ارهاق وعلى نحو علمي صحيح . ولا غرو فقد قام الدكتور حتي بالتدريس في الشام وفي اميركا واعد اعداداً طيباً لاخراج هذا المؤلف الجليل واتيحت لهُ فرص للدرس والتحصيل لم ينعم بها غيره ممن كتبوا في التاريخ الاسلامي . وحسبهُ فخراً ان ينسب اليهِ هذا السفر الضخم الذي يدل على علمهِ الغزير وفضله الواسع

التوائم

وأثر البيئة والوراثة فيهم

للدكتور شريف عسيران

كنت قد نشرت في المقتطف الاغر بحثاً عن التوائم والمحيط [1] وعثرت الآن في المجلد ١٥٧ العدد الثاني الصادر في اغسطس ١٩٣٧ من مجلة السينتفك اميركان على هذا المقال النفيس بقلم سيسل ريف احد اساتذة جامعة اوهايو فرأيت ان انقله اتماماً للفائدة لانهُ ينهج نفس المنهج الذي نهجته في مقالي . وللوراثة والمحيط شأنهما الكبير اليوم في عالم العلم . واليك المقال

كنت في احد الايام سائراً في الشارع اذ لمحت على مسافة قصيرة مني شابًّا منظره اليف اليَّ فلحقت بهِ ولما ادركتهُ اخذت أحدثهُ كمن يعرفهُ حق المعرفة ولكن كان موقفهُ مني موقف المستغرب فالتفت اليَّ وقال لاشك انك تظن انني اخي التئم وكان قوله صحيحاً لانني ظننتهُ اخاه. وقد دلت التجارب ان التوائم غير المتولدة من بيضة واحدة لا تتشابه صفاتها الاَّ كواحد في ربع مليون . وبتعبير آخر دلت هذه الحادثة على ان هذين التئمين من النوع المتماثل

وقد اتخذنا التجارب المذكورة قاعدة تشخيصية للتوائم استنبطناها في مختبرات علم الوراثة بجامعة ولاية اوهايو وهي تشمل فرق الدم وبصم الاصابع ولون العين والقامة وبعض تفاعلات حاسة الذوق وحاصل الذكاء. فبحثنا كل صفة من صفات التوائم بالمقابلة بينهم وبالقياس الى آبائهم واخوتهم واخواتهم . ثم استخرجنا احتمال التشابه بين توائم كهذه منشقة من بيضات ملقحة مختلفة . ان الشابين المذكورين آنفاً ينتمان الى فرقة دم واحدة ولا فرق يذكر بين شعرهما ولون اعينهما. والفرق بين قامتهما لايتجاوز ربع البوصة (انش) وبين وزنهما «الباوند» الواحد وبصمات اصابعهما متشابهة حتى لا يفرق بينهما الخبير البارع وهما مصابان بدرجة واحدة من عمى اللون الاحمر والاخضر ويغنيان احياناً معاً احدهما بصوت منخفض والآخر بصوت عال ويتبادلان الصوت دون ان يلاحظ السامعون . ودرجة ذكائهما واحدة بحسب امتحان Stanford Binet وفي العشرين

---

(١) المقتطف م ٨٢ ج ٤ ص ٤١٤

من عمرهما اصيب كلاهما بألم في نفس السن وذهبا الى طبيبين مختلفين عالجا سن كل منهما العلاج نفسهُ يكاد كل انسان يصادف توائم متماثلة تنطبق عليها وجوه الشبه التي ذكرناها كل الانطباق .
ومع انهُ من المحتمل ان يتولّد تئمان متماثلان اشد التماثل ذكران او انثيان من بيضتين مختلفتين (ملقحتين) فالارجحية الوف المرات للمرة الواحدة ان تئمين من هذا القبيل يتولدان عادة من بيضة واحدة . ومن المعقول جدًّا ان يكون التئمان اللذان يصعب التمييز بينهما على الاقارب والاصدقاء من بيضة واحدة. ترى على صفحات هذه المجلة (يقصد السيتنفك اميركان) بنتين تئمتين اجريت لهما عملية الزائدة الدودية في السنة الخامسة من عمرهما خلال يومين بين الاولى والثانية وقد بلغت الزائدة طولاً واحداً تقريباً وكانت حالتهما بعد العملية واحدة ايضاً

ان مقدار ٢٠ — ٢٥ بالمائة من التوائم البشرية متماثلة تماماً . اما التوائم الاخوية فلا تتشابه اكثر مما يتشابه الاخوة والاخوات في صفاتهم الوراثية. وقد تكون التوائم ثلاثية او رباعية او خماسية وهي اما متماثلة واما خليط من متماثلة واخوية والتوائم المتصلة Siamese هي المتماثلة التي لم ينفصل احدها عن الآخر . ان نوع التوائم يهيء لنا مادة للبحث في مكانة الوراثة والمحيط في تكوين الصفات فالفرق بين التوائم المتماثلة لا بدَّ ان يكون غير متولد من الوراثة لانهما من بيضة فاذا تزوج اخوان تئمان متماثلان اختين تئمتين مثلهما تتشابه صفات اولاد الاعمام مشابهة صفات الاخوة والاخوات العاديين ولا يعني هذا انهُ من الضروري ان تكون الفروق بين التئمين وراثية فمخالفة الايدي تحصل غالباً في بعض التوائم المتماثلة ولكنها لا تحصل في اغلبها (اي ان يكون احد التئمين أيمن والآخر أعسر) ومع ذلك لدينا أدلة تثبت ان لتكوين الايدي أساساً وراثيًّا وتعليل هذه الظاهرة أن محيط التوائم المتماثلة يختلف حقيقةً عن محيط الفرد غير التوأم وقد يؤثر وضع الجنين في الرحم في القابلية الوراثية . ولتتخذ التوائم الاخوية ضابطاً في بحثنا عن التوائم المتماثلة[1] ويمكننا ان نقول مؤكدين ان التوائم التي تنشأ معاً يكون لها نفس المحيط فالمشابهات التي تكون اكثر بين التوائم المتماثلة من عكسها يجب ان يكون لها أساس وراثي على شرط ان يكون محيط النوعين متماثلاً . ولا يجب ان يغرب عن بالنا انهُ رغماً عن انهُ ليس للتوائم الاخوية قابليات وراثية متماثلة فهي تشابه بعضها بعضاً مشابهة الاخوة والاخوات . فمقابلتنا لنوعي التوائم في المحيط المتماثل لا تحل المشكلة اذاً لانها تظهر شطراً فقط من تأثير العوامل الوراثية

وقد استرشد عدة علماء بهذه الطريقة في تتبعاتهم عن تأثير الوراثة والمحيط ونذكر على سبيل المثال ديل Diehl وفون فيرشور von Verschuer الالمانيين اللذين أنجزا منذ عهد قريب درس ٢٠٥ ازواج

(١) دفعاً للالتباس نقول ان التوائم المتماثلة تتولد من بيضة واحدة وفيها نفس الصفات الوراثية والاخوية من بيضتين مختلفتين وصفاتها الوراثية مختلفة (المعرب)

توائم في كلا التثمين او في احدهما قابلية للسل واستغرق درسهما عدة سنوات . ومن هذه التوائم ثمانون متماثلة و ١٢٥ أخوية فتبين ان قابلية السل كانت ثمانين بالمائة في التوائم المتماثلة و٢٥ بالمائة فقط في التوائم الاخوية . وتدلنا هذه النتائج دلالة أكيدة على ما للقابليات الوراثية من أثر مع العلم ان العدوى ضرورية لاحداث المرض

وقد حذا حذوهما في استقصاء عدة امراض علماء مختلفون مسترشدون بنفس الطريقة فبعض انواع الفتوق والجحوظ والصرع والجنون تكون شديدة الشبه في التوائم المتماثلة وضعيفةً في الاخوية مما يدل على ان الوراثة عامل قويّ في حدوثها وعكس ذلك الحصبة والسعال الديكي فانهما يصيبان النوعين على السواء مما يدل على ان تأثير الوراثة في قابلية المرء للعدوى ضعيف فيها

وهناك ملاحظات وتقارير عن عدة مشابهات تستوقف النظر بين التوائم المتماثلة لامراض أقل شيوعاً من الامراض المذكورة آنفاً . وقد اكتشفنا حديثاً رجلين تثمين عمر كل منهما ٥٢ سنة عاشا مدة ٢٥ سنة بعيدين أحدهما عن الآخر مسافة ١٠٠ ميل أحدهما عامل في السكة الحديدية والآخر عامل في احدى الموانىء البحرية فرض الاول في ابريل سنة ١٩٣٣ وأجريت لهُ عملية حصى المرارة الساعة السادسة مساء وفي منتصف الليلة نفسها مرض أخوه وأجريت لهُ العملية ذاتها . ومنذ أقل من سنة أوردت بعض المجلات المعروفة حادثة عن سرطان المعدة تشبه هذه الحادثة . مرض تثم عمره ٧٠ سنة وأدخل أحد المستشفيات وظهر انهُ مصاب بسرطان في المعدة وفي خلال اسبوع مرض أخوه الذي كان يسكن بعيداً عنهُ ولم يعلم شيئاً عن مرض أخيه فأدخل المستشفى وتبين انهُ مصاب بسرطان المعدة ايضاً . ومن الواضح ان مشابهات كهذه بين التوائم المتقدمة سنًّا والتي تعيش بعيدة بعضها عن بعض هي اعظم شأناً من مشابهات التوائم التي تعيش معاً . والحادثة التالية التي نشرها Champlin في مجلة المجمع الطبي الاميركي سنة ١٩٣٠ تزيد البحث وضوحاً : اصيب فرد تثم بلطمة من قدة خشب في خصيته اليمين فظهر ساركوما [1] في موضع اللطمة ومات وكان عمره ٢٤ سنة بعد سنتين من اثرها . وظهر في خصية اخيه التثم عند ما بلغ الحادية والثلاثين نفس الورم مع أنهُ لم يصب بأي لطمة فمن الواضح ان اللطمة لم تسبب الساركوما وانما عجلت ظهوره

إن لمقابلة النقص العقلي بين التوائم المتماثلة وغير المتماثلة لذة خاصة فنسبتها بين الاولى ٩٦ بالمائة والثانية ٢٥ بالمائة . ومن عدة سنوات درس Lange ١٣ توأماً متماثلة في المانيا من ناحية ميلهم للاجرام فاكتشف اجراماً في سيرة كل منهم ما عدا ثلاثة حالة ان هذه النسبة كانت في ١٨ توأماً أخوية ثلاثة فقط فدفعت هذه النتيجة غيره من الباحثين ان يحذوا حذوه فدرسوا ٦٦ زوج تثم متماثلة و ٨٤ اخوية فكانت نسبة المجرمين في المتماثلة ٦٨ بالمائة وفي الاخوية ٣٨

(١) نوع من الاورام الخبيثة

وهناك عدة صفات انسانية Anthropological كفرق الدم ولون الشعر والعين والجلد وعدة شذوذ وراثية كالعنش [١] (Polydactylism) واللهاق [٢] (Albinism) والعُلْمة [٣] (Harelip) والصلع وعمى اللون لا تتغير البتة في التوائم المتماثلة حالة ان بصمات الاصابع والكف وشكل الاسنان والقسمات والمشية والصوت والمظاهر الخارجية تختلف اختلافاً عظيماً ولكنها قد تختلف أو لا تختلف في التوائم الاخوية . وفي بعض التوائم المتماثلة وليس في جميعها نجد الشبه بين اليد اليمنى واصابعها في التئمين اشدَّ منهُ بين اليمنى واليسرى في التئم الواحد

واعظم ما يثير اهتمامنا في درس مقابلة التوائم هي الصفات العقلية . ان تأثير الوراثة والمحيط وايها أفعل في حياة الفرد كان ولا يزال شغل العالم المتمدن الشاغل وموضوع مجادلات عنيفة . فهل يلقي درس التوائم نوراً على هذا الموضوع الذي تتبعهُ مختلف الباحثون وبذلوا الجهود الكثيرة في سبيله ؟ ويجابه المرء بعض الصعوبات في البحث عن الصفات العقلية لا يجابهها في دراسة الصفات الجسدية . ولا نستطيع ان نستوثق من امتحان الذكاء وهل يقيس فقط قابلية المرء الطبيعية للتعلم أو ان حل بعض الاسئلة نتيجة التهذيب والتدريب . ويجب ان نقدر أن المُمتَحن يستطيع او لا يستطيع أن يجيب بهِ باقصى مقدرته

وقد درس علماء النفس بعض مقاييس الذكاء كمقياس Simon Binet وتنقيحاته درساً وافياً زمناً مديداً ووجدوا نتائج هذه المقاييس مرضية في التوصل الى قياس قابلية درجة التعلّم بصورة عامة . فاذا تعهد هذه الامتحانات (المقاييس) اناس مدربون استحقّت ان تكون دليلاً في معرفة درجة الذكاء وبعبارة أخرى ان مختلف الممتحنين يتوصلون الى حاصل ذكائي متساوٍ تقريباً في الشخص الواحد او اذا امتحن الشخص الواحد في فترات مختلفة بين سنة او اكثر بقي حاصل الذكاء متساوياً في مختلف الفترات

وقد تناول مختلف الباحثين درس درجات ذكاء التوائم المتماثلة فكان الفرق خمس نقط بين بعضها في حاصل الذكاء وهو فرق لا يؤبه لهُ وعكس ذلك الفرق بين التوائم الاخوين اذ يبلغ ١٠—١٢ نقطة وهو فرق محسوس . والنتيجة الحاصلة من هذه المقابلات ان الذكاء وراثي الى حدّ ما. وقد حاول نيومن ان يعرف مدى تأثير المحيط في تكييف الشخص فدرس عشرين زوج تئم متماثلة رباهم منفصلين بعضهم عن بعض في اماكن مختلفة فوجد حاصل ذكائهم تقريباً كحاصل توائم اخوية تربوا معاً اي في محيط واحد . فهذه التجربة تدلنا على ان للمحيط والوراثة أثراً بيناً في حاصل ذكاء الفرد . وهناك بعض الصعوبات في قبول صحة هذه النتائج لان المحيط المتشابه

---

(١) ان تنمو ست اصابع أو اكثر في الكف الواحدة والاعنش لغة من له ست اصابع
(٢) اللهق واللهاق — الابيض الشديد البياض (ابن سيده)
(٣) العلم والعامة والعلمة — وهو شق في وسط الشفة العليا مثل شفة البعير (ابن سيده)

وغير المتشابه ليسا الا تعبيرين نسبيين اذ لا يمكن ان يكون لفردين محيط مماثل او مختلف بالمعنى الحرفي . ويقول النقاد اننا حتى لو ربينا نوعي التوائم معاً فمحيط المماثلة يكون اكثر تشابهاً من الاخوية لان الانسباء والاقربين فقط يستطيعون تمييز فردي التوأم المماثلين فيقف الناس منهم موقفهم من شخصية واحدة . وأما التوائم الاخوية فتختلف اختلاف الاخ والاخت ولهذا يختلف تأثرهم بالناس . والطريقة المعقولة لتحقيق هذه القضايا ان نأخذ نوعاً رابعاً اي توائم اخوية تربى بعيدة بعضها عن بعض . فاذا كانت مقاييس الفروق بين التوائم المماثلة والاخوية التي تربى معاً اكثر من التي تربى مبتعدة بعضها عن بعض فيمكننا حينئذٍ ان نوقن بأن هذا الاختلاف ناشيء عن ان محيط التوائم المماثلة التي تربى معاً اكثر تشابهاً من التوائم الاخوية التي تربى معاً لان الفروق الوراثية متشابهة في كلتا الحالتين . واذا كان الفرق بين نوعي التوائم التي تربى كل على حدة مثل التي تربى معاً او اكثر كان في وسعنا ان نقول حينئذٍ بأن الفروق المحيطة بين نوعي التوائم التي تربى معاً لا يؤبه لها من وجهة الذكاء

ومن الممكن ان يمتحن فردان نفس امتحان الذكاء باحدى الطرق المتبعة ويجاوب كل منهما عن اسئلة من الامتحان اجوبة تختلف عن التي يجاوب بها الآخر . ويجاوب اجوبة صحيحة تختلف عن اجوبة الفرد الثاني . وكل من لهُ خبرة كبيرة في فحص التوائم الاخوية يعلم ان الفرد الواحد يجاوب اجوبة صحيحة تختلف عن اجوبة الآخر حتى اذا جاوبا أجوبة صحيحة فان طرق اجوبتهما تختلف حالة ان اجوبة التوائم المماثلة تتشابه تشابهاً كليًّا في صحة الاجوبة ونوعها . وقد دلت الاحصاءات ان درجة الاختلاف كبيرة في نوعي التوائم وبعبارة اوضح أن التوائم المماثلة التي تربى معاً تتشابه نوعيًّا في اجوبتها اكثر من تشابه الاخوية التي تربى نفس التربية . ولا نعلم هل منشأ هذه الزيادة زيادة مشابهة المحيط او ان هناك سبباً وراثيًّا لنوع الذكاء المقاس بامتحانات كهذه ،وصفته . ويجب ان نتوصل الى حل لهذه القضية اذا قابلنا توائم أخوية تربى منفصلة مع توائم مماثلة تربى مثلها فاذا ثبت وجود فروق نوعية كهذه متساوية بين نوعي التوائم فلا يخامرنا شك حينئذٍ في ان جانباً على الاقل من نوع ذكاء الفرد ودرجته يتوقف على الوراثة واذا كانت هذه الفروق معدومة بين نوعي التوائم التي تربى منفصلة أمكننا ان ننسب الفروق النوعية بين التوائم التي تربى معاً الى زيادة مشابهة المحيط في التوائم المماثلة

لقد أوجزنا في مقالنا هذا بعض الطرق الوراثية في البحث عن التناسل . ولا يخفى اننا لا نزال في اول الطريق للاستفادة من الممكنات الميسورة لنا وكل من يعرف شيئاً عن توائم مختلفة او مماثلة ربيت مبتعدة بعضها عن بعض يسدي مساعدة حقة الى علم التناسل اذا اتصل بالباحثين الشغوفين بهذا الموضوع



الدكتور محمد اقبال

اكبر شعراء الهند المسلمين في العصر الحاضر
رسالة شعره

للسيد ابو النصر احمد الحسيني الهندي

— ١ —

ان للشعر في حياة الامة رسائل ووظائف تتنوع على حسب ادوارها المختلفة . لذلك قالوا ان الشاعر دائماً مَثل لاحوال زمنه وصورة لحوادث عصره. وان الزمن هو الذي يخلق الشاعر على حسب احتياجه وضروراته . ففي دور الفروسية حين لا تعرف افراد الامة دعة ولا تستوطىء راحة ، بل كل واحد منهم يريد ان يخوض هائل الغمرات ويجوب وطيس الوقعات ، لا يألو اقداماً ، ولا ينكص احجاماً ، لا ينشر الشاعر بشعره لآلىء الحديث تستعبد الاسماع وتلذ الانفس فتلهيهم ، وتحيلهم عن قصدهم ، وتصدفهم عن مبتغاهم ، بل ان شعره في هذا الدور شرارس النار تلهب نار الشجاعة في قلوبهم ، وتنفخ روح الحماسة في نفوسهم . تذمرهم للحرب ، وتهيجهم للطعان والضرب . وتشعلهم للقِراع وتؤججهم للمصاع . وفي دور العروج حين تغلب الامة وتحكم تتوجه الى تدبير شئون البلاد وتنظيم ادارة الحكومة . فتكف افرادها عن القتال وتصد عن النضال . فتضمحل قوى الحياة ويتغير الطلب بالقناعة ويحل السكون محل الحركة والاستلذاذ محل الجهاد لان امور الامة تنتظم فيه فتصلح حالها ، وتتضاعف يسارها ، وتمرع جنابها ، فيقع اعيانها في الطَّفش والرَّفش[1] فينتج الشاعر بطبيعة الحال في هذا الدور على الاكثر ، القصائد في المديح والغزل والنسيب . وفيه يبتدىء الشعر ان يتضع رتبة وينحط حقيقة ويسقط منزلة . وفي دور الانحطاط حين تخلد الامة الى الكسل وتطمئن الى الخمول فتصبح ميتة الحس لا تحفزها الحاجة ولا تستحثها الفاقة ، فتميل دعائم عزها ، وتتهاوى كواكب سعدها ، فتتقوض سرادق مجدها يستعبدها الاجنبي ويستذلها الغير ، يفتح على افرادها ابواب الظلم والخذلان ، ويطلق

(١) قال ابن خالويه : وقع فلان في الطفش والرفش اي في الاكل واللهو

عليهم عقال الجور والهوان . فيرضون بها ، ويركنون اليها ، ويعدون هذا الجورعدلاً ، والهوان كرامة ، والضعف قوة ، والانحطاط عروجاً . في هذه الساعة تتحرك القدرة الالهية لايجاد التوازن في النظام الطبيعي فتخرج الحياة من الموت ، وتبعث اليهم رسل الشعر ، معجزي البيان ، محكمي المنطق ، سلسي الأسلة ، يحيون بشعرهم مواتاً ، ويهدون برأيهم ضالاً ، ويعدلون بصيرتهم زيغاً ، ويصلحون بنظرهم فاسداً فتدب الحياة في عواطفهم وتستيقظ غيرتهم وتجتمع كلمتهم وتبعث روح الحماسة في قلوبهم فيقومون قومة واحدة لاعادة مجدهم واستعادة كرامتهم

ومن هؤلاء الرسل شاعرنا الدكتور اقبال . فرسالة شعره في الحقيقة نفخة صور تبعث الحياة في العالم الاسلامي خاصة والشرق عامة من جديد وتسعى لاخراجهم من الظلمة الى النور، ومن الضعة الى الرفعة ومن الهوان الى الكرامة ومن الانثناء الى العزم ومن الضعف الى القوة . وإذاً فدعوته تختلف عن دعوة الشعراء الآخرين لان دعوتهم وان باشرت بعض نواحي الحياة ، قد لا تباشر الحياة نفسها ومن أساسها . فشعره في الحقيقة دواء ناجع لمرضى العزيمة ، وحياة جديدة لموتى اليأس ، ودليل ناطق لحائري الضعف ، وبشارة عظمى لكلال الهمة وقد اشار الدكتور الى رسالته هذه في ديوانه « بانك درا » فقال :

« ان رسالة غيري شيء ، ورسالتي شيء آخر
ان أسلوب الكلام لمن عانى العشق (حقيقة) شيء آخر
انكم قد سمعتم نياحة الطير المحبوس
ولكن اسمعوا ان نياحة الطير الذي على القمة شيء آخر»

وما تلك الرسالة الا سر الحياة أو طريق الكمال الذي بذل الدكتور في معرفته حياته فلم يدركه الا بعد ان عقله التعب ، وشكله النصب ، ومسه اللغوب ، وناله الرزوح ، ولحقه الطلوح . فلما عرفه لم يجد من يفهمه ولا من يسمعه كما قال في بيت :

« اني وان كنت قادراً على التعبير فانه ليس هناك من يفهمه
واحسرتاه ! على من في صدره سر وليس له رفيق ! »

وقال في بيت آخر :

« اني جئت بحديث جديد ولا يصغى اليه أحد
ان النور كاد ان يغيب ولا يمد نحوه احد بصره»

يضيق بنا المجال عن ان نقدم الى القراء جميع المعالم في رسالة شعر اقبال لان صاحب تلك الرسالة قد بسطها في سبعة دواوين ظهرت الى الآن اي في ألفي صفحة تقريباً . وما نقدر عليه هنا هو ان نقدم اليهم بعضها بالايجاز فنقول :

أولاً : ان أهم ما يحتوي عليه رسالة شعره هو الدعوة الى الجد والجهد . فقد أبان في دواوينه مرة بعد مرة بطرق مختلفة ، وأفكار دقيقة ، وأمثلة كثيرة ، وأسلوب مؤثر ، ان المصائب والآلام في حياة الانسان ان هي الاّ أشياء اعتبارية ، وان تحملها من اكبر البواعث على بلوغ الانسان الكمال المنشود الذي به ينال الدوام والخلود . وان عيشة التنعم التي تشل قوى الانسان العملية في الحقيقة تدمير لحياته وموت له . وإذاً فان كل من أراد بلوغ الكمال ونيل الخلود يجب ان يجتهد ويجد ويخوض غمار الآلام والمصائب ويجابه العراقيل في سبيل ذلك بالبسالة والشجاعة . وقد بسط الدكتور هذه الدعوة في جميع الدواوين نقتطف منها بعض الابيات هنا قال :

« ان الحياة هي ان تخلق اللؤلؤ في صدفك
وان تنفذ في اللهيب ولا تذوب . »

وقال في بيتين آخرين : —

« يامن جلست على الساحل جلسة القناعة والهدوء
قم ! لانهُ لا يزال لك شغل مع الدُرْدُور والتمساح
ان اعراضك عن القدُوم ليس من شأن العاقل
لان كثيراً من الجوهرات لا تزال في قلب الحجر . »

وقال ايضاً : « لا تزين محفلك على الساحل لان هناك صوت الحياة منخفض
غص في البحر ! وجاهد امواجه
لان خلود الحياة في الجهاد »

وقال ايضاً : « سألت صاحب النظر ما هي الحياة ؟
فقال : هي الخمر التي امرُّها احسنها »

وقال ايضاً : « قال الساحل الساكن : أنا عشت طويلاً
ولكن واحسرتاه ؟ انا لم أعرف من انا ؟
فلم يتمالك الموج وجرى بالسرعة اليه وقال :
ان وجودي من الجريان فان لم أجر فلا وجود لي

وقال ايضاً : « الى متى تكون تحت اجنحة الآخرين
تعلم الطيران الحر في هواء الحديقة
اخرج من عزلة البرعوم مثل الشذى
وامتزج مع نسيم السحر وتعلم المحبوب »

ثانياً : ومن معالم رسالة شعر اقبال الدعوة الى استمرار الجهاد فالتقلب بين اعطاف السكون، والتفيؤ في ظلال الراحة ، والاخلاد الى الدعة ، عنده مرادف للموت . لذلك قد وضح في دواوينه بطرق مختلفة مؤثرة ان لا ينبغي للانسان ان يكتفي بحالة واحدة ويرضى بما هو فيه ، ويقتنع بالكفاف ، ويجتزىء بالميسور ما دامت ابواب الرقي عليه مفتوحة ، وطرق التوقل في أعلى منها ممكنة . لان الحياة عنده هي الحركة الدائمة والجهاد المستمر . وقد عبر عن ذلك بابيات كثيرة نختار منها ما يلي قال :

«ان الحياة تنفش في كل لحظة نقشاً جديداً
ولا قرار لها في صورة واحدة
لو كان يومك هذا نفس صورة البارحة
فليس في ترابك شرار الحياة »

وقال ايضاً : « اتسألني من اين انا ومن انا ؟
اني اموج حول نفسي فأعيش
اني مضطرب في هذا البحر مثل الموج
فان لم اضطرب حول نفسي فلا وجود لي »

وقال ايضاً : « لو تبحث عن رمز الحياة لا تجده الاّ في الاضطراب
ان في الاستراحة في البحر عاراً على ماء النهر »

وقال ايضاً : « ان حياة الفطرة تعلم اسرار الحياة
فانها احياناً اصبحت لؤلؤاً ، وتارةً ندًى ، وطوراً دمعةً »

يشترط الدكتور اقبال اصطحاب هذا الجد المستمر بالعلم . لان العلم مفتاح المحاسن ومصباح المحامد اذ لا شرف الاّ وهو السبيل اليه ، ولا خير الاّ وهو الدليل عليه . فقد بث الدكتور منزلته وفوائده في الدواوين بأبيات كثيرة وحثّ على التحلي به نكتفي منها بما يلي قال :

« ان الحياة جهد وليس الادعاء
ولا سبيل لذلك الاّ بعلم الانفس والآفاق
ان العلم يعطي الجناح للحرف والصوت وبهاء اللؤلؤ لما ليس بلؤلؤ »

وقال ايضاً : « ان دواء امراض الامة في هذا العصر علم
لانه كالفصد للدم الفاسد في جسمها
ان الله قد قال في الحكمة انها خير كثير
فخذ هذا الخير اينما تجده »

ولكن ينكر اقبال العلم الذي يوهن العزيمة فيبيد نشاط الاضطلاع باعباء المهمات ، ويفتر الهمة فيتلف شهامة الركوب على ظهور العوائق ، ويضعف الحماسة فيفني صولة الثبات في ارتطام المهالك ، فقد قال فيه ما يلي ترجمته :

« أنا لا آخذ بقطعة من الحشيش ذلك العلم والفراسة
اللذين يجعلان الرجل الغازي عن سيفهِ ودرعهِ غريباً »

وفي هذا البيت ايضاً اشارة الى ان الثقافة او التربية التي لا تلائم بيئة الانسان وطبعه وعاداته وتقاليده بل تقطع صلته بها ليست ذات قيمة تستحق الاعتناء

وينكر اقبال ايضاً العلم المجرد عن الروحانية ، ويرى انهُ خطر داهم على الانسانية . فالثقافة الغربية التي تتسلط يوماً فيوماً على نفس الانسان وعقله عنده غير مفيدة للعالم لانها تشل الروحانية وتقتلها . وذلك لان اساسها العلم المجرد . فعيون عقلاء الغرب يقظة ولكن قلوبهم ميتة وأرواحهم راقدة . وهم يشاهدون في تقدم العلوم والفنون الحاضر انحطاط الروحانية وزوالها ولا يقدرون على انقاذ الموقف . وتقدم العلوم الطبيعية الذي ثار في اطرائهِ الآن ضجة وان كان أفاد الانسان من بعض الوجوه فان ويلاته عليهِ اشد من ذلك لانهُ الوسيلة الوحيدة لصنع الآلات المهلكة لهُ وللاتيان بالدمار عليهِ . ألم ترَ كيف ان اصوات الحرية المرتفعة في الغرب المتقدم في العلوم والفنون ان هي الاَّ اصوات السلاسل لاسترقاق الغير من ابناء البشر . لذلك يدعو اقبال أهل الشرق عامة والمسلمين خاصة الى انقاذ انفسهم من الوقوع في مثل هذه الورطة اي اهمال الروحانية . وهو يرى ان اساس العلم العقل واساس الروحانية عشق . فمركز عقل الانسان دماغه ومركز عشقه قلبه . والغرب قد اهمل القلب . وقد وضح ذلك في قصيدة طويلة كتبها رداً على الشاعر الفيلسوف الالماني جويته ونشرها في ديوانه «رسالة الشرق» . والقصيدة آية في البراعة والاتقان تملك القلوب وتسترق الافهام وتستعبد الاسماع . كما انهُ ابان ذلك في دواوينه الاخرى ونحن نترجم بعض الابيات المختارة منها هنا قال :

« لو تقرأ العلم بغير حرقة القلب فهو شر
ونوره ظلمة البر والبحر
ان العالم من غازه اعمى وازرق
ومَلَكُه يُسقط اوراق الفناء والبقاء
فالبحر والصحراء والجبل والحديقة والمرج
متأثرة بقنابل طيارته

« ان النار في صدر الافرنج منهُ
ولذة الهجوم عندهم منهُ
هو يعطي الايام السير المعوج
ويسلب رأس مال الاقوام
ان قوتهُ صاحبة ابليس
والنور يصبح النار بصحبة النار
ان قتل ابليس أمر صعب
لانهُ متوارٍ في اعماق القلب
فالاحسن ان نجعله مسلماً
ونقتلهُ بسيف القرآن .
الامان ! من الجلال المجرد عن الجمال
الامان ! من الفراق المجرد عن الوصال
ان العلم بغير العشق من الطاغوت
ان العلم مع العشق من اللاهوت

وقال ايضاً : « ان اساس العلم على الخوف والرجاء
وأما العشاق فلا رجاء لهم ولا خوف
ان العلم يخاف جلال الكائنات
والعشق يغوص في جمال الكائنات
نظر العلم الى الماضي والحاضر
ولكن العشق يقول : انظر الى ما يأتي
إن العلم قد عاهد قوانين الجبر
فليس لديهِ علاج الاَّ الجبر والصبر
ولكن العشق حر وغيور وغير صبور
هو قد جاء في معرض الوجود جسوراً
ان عشقنا لا يعرف الشكاوى
وإن كان سكران بالبكاء

وقال في القصيدة التي كتبها رداً على جوبته

« ايتها الريح ! بلغي عني فيلسوف الافرنج
ان العقل كلما يكون مدققاً يكون اكثر اسراً
انهُ يحرق هذه الكبد ويأسر الاخرى
ولكن العشق اكثر محافظة على الكبد من العقل الفتّان
إن العين لا ترى إلاّ لون الورد وشقائق النعمان
والاّ الذي تحت قناع اللون اكثر ظهوراً
ليس العجب من أن عندك اعجاز المسيح
ولكن العجب ان مريضك اكثر سقماً (بسببك)
انك قد جمعت الحكمة ونبذت القلب من الكف
واحسرتاه ! على النقد الثمين الذي نبذته

وقال فيها ايضاً مشيراً الى ما انتجت الحضارة الغربية المؤسسة على العلم المجرد :

« ان العشق اصبح طمعاً فتجذمت العرى
والانسان صار من فتنته في الشص مثل السمك
انهُ قد اختار الحرب على السلم وحشد الجيش
ولم ينزل سيفه الاّ على رؤوس الاصدقاء وصدورهم
واللصوصية التي أسسها سماها « تعمير العالم »
وظلمُ سيادته قد كسر ظهر العامل
انهُ يرقص على صوت الدف والناي بغير الحياء
وفي يده كاس من دم اقاربه المساكين »

(يتبع)



مكتشفات العلم

في غور اليم
عوالم جديدة في قعر البحر

لعوض جندي

سيشرع عما قريب في عمل من اخطر الاعمال البحرية ، وذلك على بعد اثني عشر ميلاً بحريًّا من التخم الجنوبي لجزيرة ارلندة الشبيه ببنانة الاصبع في غور المحيط الاطلنطي ، تحت أمواجه السنجابية . وسيضطلع به رجال شجعان حيث يمارسونهُ على عمق يُربي على ثلاثمائة قدم في جوف البحر ، متذرعين الى بغيتهم ، بأجهزة علمية بديعة الصنع للغوص . ونعني بذلك العمل الطريف الشاق ، انتشال الذهب الذي غرق مع الباخرة لوزيتانيا . ثم يعكفون على تصوير اللقايا التي يلقونها ، صوراً سينمائية لتعرض في معارض الصور المتحركة الناطقة ، فتذاع انباؤها بالراديو في الوقت نفسه ، ليقف الملأ على ما يبلغ المكتشفون من أمانيهم المنشودة في قعر المحيط ، رويداً رويداً ، حيث يحققون فعلاً ما جاء بالاساطير وهماً

ولذلك القصد جعل غواصان اميركيان مشهوران ، يتأهبان لتنفيذ هذا المشروع الدالّ على الاقدام على مكافحة اللجج في بحيرة متشيغان الساكنة ، ثم في حياض الضغط التابعة للبحرية الاميركية في وشنطون ، حيث جرّبا جهازين من اجهزة الغياصة الحديثة ، اخترعا لتلك الغاية . ويبلغ ثقل كلٍّ منهما ٢٨٨ رطلاً . ويمتاز ذلك الجهاز بتجرده من خرطوم الهواء إذ يستنشق الغواص الذي يتجهَّز به ، الاوكسجين الذي يلزمهُ ، من مستودعات توثق بسيور جلدية تشدُّ الى كاهله محتوية على أوكسجين مضغوط ضغطاً شديداً . وفي ذلك الجهاز ايضاً لوحة مثبتة فيها آلات دقيقة ، تدل على مبلغ عمق الماء ودرجة حرارته وضغطه ، وتبين مقدار الباقي في المستودعات من الاوكسجين المضغوط

وينمُّ على الغواص في أثناء نزوله في البحر ، ميكرفون مودع في باطن جهازه يضخم حركاته وسكناته ويبلغ الباخرة ، (التي ينزل منها) اياها . ويضيء له سلكه في اللجج ، مصباح كهربائي مثبت بالباخرة مشتبك بمقبض جهاز الغوص تبلغ قوتهُ ٤٠٠٠ شمعة من المصابيح القوية

(قام باختراعها مهندسو شركة الكهربائية العامة الاميركية ، خاصة لذلك المشروع العظيم) وتغشاها طبقة كثيفة من الصمغ المرن « كاوتشوك » وقايةً لها من المياه فتحتمل ضغطها حتى ٥٠٠ رطل على العقدة الواحدة المربعة ، وهذا يزيد على ثلاثة اضعاف ضغط المياه في عمق الـ ٣١٢ قدماً المرتطمة فيه الباخرة لوزيتانيا التي غرقت في ٧ مايو سنة ١٩١٥ على اثر اطلاق الطوربيد عليها من احدى غواصات الالمان ابان الحرب العالمية

ويبلغ أجل هاتيك المصابيح الكهربائية ، وهي مضاءة في باطن الخضم حيث تبردها مياهه ، نحو ٢٥ ساعة . على حين انها لو أضيئت في الهواء الطلق لاحترقت من شدة حرارتها في بضع دقائق

وسيتوسل اولئك المكتشفون إلى إضاءة غور البحر ، عند التصوير بالمصورات الضوئية باثني عشر مصباحاً تبلغ قوة نور كل منها ٢٠٠٠٠ شمعة . وهي من المصابيح المملوءة زجاجاتها بغازي النتروجين والارغون . وستقام على منصات خاصة في قعر اليم للاضاءة عند التقاط صور المخلوقات البحرية

وتشترك في انقاذ وسق لوزيتانيا ، شركة انكليزية ، وسينتدب غواصوها الى الغياصة بأجهزة من طراز تريتونيا Tritonia الذي يبلغ ثقل الجهاز منها ٩٠٠ رطل ، وله غطاء ذو مفاصل من خليط معدني متين جداً يقي الجهاز في قعر المحيط من الضغط الهائل للمياه عليه ويهوّن عليهم الغياصة عشر ساعات كاملة بلا انقطاع ، ويتيح لهم ايضاً تناول طعامهم من رفوف صغيرة مرتفعة تجاه صدورهم في الجهاز عينه . وقد ثبت من امتحان تلك الاجهزة في المختبرات العلمية انها تصلح للغوص الى عمق ٢٤٠٠ قدم تحت سطح البحر لان الضغط لا يتغير على ذلك الجهاز . فيتسنى انتشال الغواص مباشرةً الى سطح الماء . واذا بلغ الغواص الباخرة الغريق لوزيتانيا ، امكن استخراجه رأساً في ثلاث دقائق بينما يستغرق رفعهُ ساعتين ، متى كان مرتدياً جهازاً عادياً . وفي أثناء تينك الساعتين لا بدَّ من وقف العمل في فترات معدودة لكي يتعود جسم الغواص ، تقلب الضغط

وفي خريف سنة ١٩٣٥ تمكن جيم جرّات Jim Jarratt الغواص البريطاني من بلوغ جسم لوزيتانيا لابساً جهازاً من طراز تريتونيا فاستطاع تحديد موقعها بالضبط بالقياس الى رأس Kinsale كنسيل الكبير في ارلندة ويرى الخبيرون ان أولئك المستكشفين الجريئين سيغنمون ، بأحدث الوسائل ، العلمية التي لديهم ، ما يحويه وسق لوزيتانيا من السبائك الذهبية والفضية التي تساوي ١٥ مليوناً من الريالات عدا النقود العين والجواهر النفيسة التي كانت تقلها تلك الباخرة المنكودة الحظ

ولا جرم ان هذا المشروع المقصود به احراز غنيمة عظيمة من البحر عاجلاً ، يوجه النظر مرة اخرى الى اقصى حدود الارتياد ، في غور المحيط

ولقد جاءتنا الانباء حديثاً بأن الطائرات قد حامت في جو القطب الشمالي ، وان البلونات

قد بلغت في طيرانها منطقة الطبقة الطخرورية ، وان السيارات تقطع طرق أشد مجاهل افريقية غموضاً . ومع ذلك فان غور المحيط ومساحته تكاد تبلغ ٣/٧ العالم قاطبة ما زال حصناً حصيناً لا قِبلَ لامرىء باقتحامه وكشف ما يستوعبهُ من الغرائب

ولا غرو فسطح البحر الازرق اللون ، بمنزلة سور منيع يحجز وراءهُ ربوات سابحة من الخلائق المائية التي لا نعلم عنها غير القليل ، بينما تؤلف معرضاً طبيعيًّا واسع الارجاء . وفي غور المحيط كنوز من الذهب وبراكين ومنابع للنفط وغيرها من مصادر الثروة الخفية العذراء

وربما تنشب حروب المستقبل في تلك الاغوار الحالكة ، بل ذلك العالم المدهش الواقع على بعد نصف ميل تحت سطح البحر الذي لم يصل اليه إلاَّ الدكتور وليم بيبي Dr. Wiliam Beebe ورفيقه اوتيس بارتون Otis Barton ومساعدوهما . وذلك في كرة فولاذية جوفاء يبلغ قطرها ست أقدام ويزيد ثقلها على طنين اطلق عليها اسم الغرفة الغوّاصة او « كرة الاعماق » Bathysphere

وما لبثوا أن شقوا عباب البحر بتلك الغرفة السابحة ، حتى اخذوا يشاهدون من نوافذها التي صنعت من البلور الصخري ، خلائقها العجيبة — وبينها البراغيث البحرية المضيئة « وهي المعروفة عندنا باسم الجمبري » وما تطلقهُ من غيوم أو دخان مضيء يعمي عيون اعدائها ويعرقل سيرها حينما تدنو منها محاولة اغتيالها [1] وقواقع طيارة ذات اجنحة جلدية تسهل لها العوم وسمك ذو اجنحة واذناب منيرة نوراً ضئيلاً مجرداً من الحرارة ، وحبارات — أم الحبر — تشع ضوءا برتقالي اللون وسمك النجوم وسمك آخر مزدان ببقع ذهبية منيرة تحدق بها فوانيس أرجوانية ، وغيرها من الخلائق البحرية المجهولة التي ينبثق منها شرار يبلغ حجم القروش ، تبزغ وتأفل في هنيهة

وقصارى القول ان ذلك العالم الحالك ، المشرب بالزرقة ، المكتظ بالخلائق المضيئة ، يستهوي المكتشفين والعلماء بعجائب مخلوقاته

ولقد اقترح الدكتور بيبي انشاء خطة بارعة للهجوم على أسراره الخفية الجمة . وهي إقامة سلسلة مراصد بحرية في غور البحر . كما تقام المراصد الفلكية فوق قنن الجبال فتشيد من الفولاذ والزجاج والخرسانة ويهبط اليها المرء بسلالم ومصاعد وذلك من منصة تقام عند سطح الماء حيث يمارس العلماء مباحثهم على مدى السنة فيتاح للزائرين استجلاء غوامض ذلك العالم العجيب الذي ما برح مجهولاً

وإذا شئت ان نصف لك تلك الحجرة الغوّاصة — فتخيل نفسك نازلاً في إحدى هاتيك المراقب البحرية العتيدة ، اذ تنزل فيها عاجلاً في مصعدة تقلك الى عالم آخر تكاد عجائبه

(١) انظر ما كتبناه على الغازات السامة والغاسياء بصفحة ٣٩١ بمقتطف مارس سنة ١٩٣٤

تبلغ عجائب كوكب المريخ (إذا استطعت بلوغه) . وفي الحجرة معامل كيميائية لمباحث العلماء ومتاحف لجمع التحف البحرية . بيد ان اهمّ ما فيها — نوافذها المصنوعة من البلور الصخري وهي التي ترصد منها عن كثب عجائب المخلوقات في قعر البحر

فتبصر من نافذة فأخرى ، في معرض عام لا نهاية له ، الخلائق المائية تمرح في ادغال المرجان بين الاعشاب البحرية التي تكاد تشبه المنسوجات المطرزة التي تزين بها الحيطان في البيوت . وتلمح السمك الهلامي المسمى قنديل البحر[١] يغدو ويروح زرافات ووحداناً . وترى القرش[٢] يسبح على بعد اثني عشر قدماً من النافذة البلورية . وتلمح من فوقك السمك الكبير يعوم كأنهُ الكواكب السيارة في كبد السماء . وترى عن كثب كثيراً من المخلوقات المائية العجيبة تمدُّ انوفها تجاه النافذة الزجاجية وتحدّق فيها . وفي الليل ترسل المصابيح الكشافة انوارها الباهرة على شكل قطع مخروطي فتتلألأ امامك وخلفك فتكشف لك هاتيك الحيوانات التي تجول ليلاً مفتشة عن فرائسها

ويقول الدكتور بيبي إنه متى نصبت تلك المراصد في بقع مستورة على امتداد شاطىء فلوريدا الجنوبية ، استطاع العلماء اقامة معاهد لدراسة عشرة آلاف نوع من الاحياء المائية التي لا نعلم عنها الاَّ اليسير بالقياس الى غيرها

وما انفك الاستاذ ريجنالد ترويت Prof-Reginald Truitt ومساعدوهُ في المختبرات البيولوجية في خليج تشيزابيك يقومون بالاكتشافات البحرية في ذلك الخليج ، بغية التبحر في علم طريقة معيشة السمك في الاعماق ، متوسلين لذلك بأسطوانة فولاذية مسدسة القوائم ، ذات نوافذ من الزجاج الثقيل مثبتة في جوانبها ورأسها . ويسمونها بنثاريوم Bentharium وهو لفظ اغريقي معناه « حجرة في قعر البحر » وتنزل الاسطوانة الى الغور ، من بئر مثبتة في رمث عائم ، وتسع راصدين ، وبها تمكَّن العلماء عشرات المرات من الجوس خلال حياض الاصداف والبقاع الملأى بالحشائش المكتظة بالحيوانات البحرية العائشة في ذلك الخليج . وقد هبطوا كثيراً في آناء الليل واطراف النهار، قريباً من الشاطىء وبعيداً عنهُ وفي غضون العواصف ايضاً . ثم انهم من عهد قريب غاصوا في اللجج قبل الفجر ليتحققوا كيفية مظهر شروق الشمس عند السمك

ان المعرض الحافل بالالوان الذي خبره اولئك العلماء ، لدليل على ما سوف نلاقيه في

---

(١) سمكة كصورة القلنسوة ، شفافة كشفوف الزجاج ، شبيهة بالخوذة ولها اربعة اجرام في وسطها ، ترى في الليل مضيئة كالقمر اذا حجبه السحاب الرقيق ولها ضوء يشرق على ما حولها في البحر ولونها ازرق سماوي

(٢) سمكة في البحر لها خرطوم كالمنشار تفترس وربما التقمت ابن آدم وقصمته نصفين ويقال لها اللخم والكوسج ايضاً وتخافها دواب البحر كلها . عن معجم الحيوان للفريق الدكتور امين فهد المعلوف باشا

اعماق البحر حينما يصبح الارتحال اليها امراً ميسوراً مألوفاً ، حيث أبصر الرقباء من حجرتهم الفولاذية الغائصة في المياه الحالكة ، قبل بزوغ الفجر ، من نوافذها الزجاجية ، الماء ينقلب من حالك الى ازرق فقرنفلي ، فأحمر برتقالي ، فشبه اخضر شفاف ثم يظل على ذلك طول النهار

وقد اطلوا مرة من النافذة العليا فشاهدوا اعظم المشاهد البحرية اذ بدت لهم اشعة الشمس تنزل عليهم من علو كأنها كرات كبرى نارية حمر ، مخترقة المياه البرتقالية اللون. وحينئذ كانت الشمس قد أنارت الافق فجملت سطوح الامواج البلورية اللون الجارية فوقهم ، تعكس صور الاشباح الى اسفل. ومن الموضوعات المفيدة في الاستكشاف البحري ، دراسة الغور نفسه . ففي الطبقات الصخرية لتلك السهول والاودية وسلاسل الجبال المغمورة دائماً بالمياه ، مفاتيح ما أغلق على العلماء من الالغاز الجيولوجية منذ اقدم العصور . ولا غرو فالعلماء في هذا الزمن فريقان ولكل منهما رأي مخالف للآخر في مسألة تكوين القارات . فأصحاب المذهب الاول يقولون ان القارات كانت ذات يوم متصلة بعضها ببعض بمعابر أرضية ثم غمرتها المياه من زمن بعيد . ويذهب الفريق الآخر ان القارات بمثابة طبقات من الجمد عائمة على سطح الماء ، ترحل من مكان الى آخر ترحالاً وئيداً ، محمولة على مادة من المعادن المصهورة التي في باطن الارض

والوجه ان المرجع في معرفة أصوب ذينك المذهبين ، سيكون في المواد التي تنتشل من سلاسل الجبال الغائرة في المحيط . فان كانت تلك السلاسل قد كونت في زمن ما ، معابر ارضية لربط القارات ، كانت النماذج الصخرية التي تؤخذ منها محتوية على الحيوانات والنباتات المتحجرة التي تمتاز بها مناطق المياه الجارية فوقها الآن

وقد أعلن حديثاً الدكتور تشارلس بجوت Dr. Charles Piggott أحد علماء معهد كارنيجي في وشنطون ، وسيلة جديدة تساعد على كشف اسرار الجيولوجيا في غور البحر ، وقوامها مثقب ضخم مجوف ، يطلق مباشرة بالمواد المفرقعة الى قعر البحر ، ثم ينشل الى سطحه محتوياً على اسطوانة من الصخر من غور البحر . وبهذه الوسيلة تسنى للعالم المشار اليه الظفر بنموذج طوله ثماني أقدام من قلوب الصخر الكامن في عمق ٧٢٠٠ قدم تحت سطح البحر

هذا وقد وافتنا بعض انباء اخرى خطيرة باللاسلكي عن اكتشاف عالم غور المحيط في القطب الشمالي ، حيث قام من عهد قريب اعضاء البعث الروسي بسبر غور المياه هنالك فاذا هي تبلغ من العمق ١٤٤٠٠ قدم وتبينوا ان ارض البحر في ذلك المكان مؤلفة من غرين اسمر مشرب باللون السنجابي

وأولع لفيف من هواة الفنون الجميلة والصيد بالاكتشافات البحرية في مياه البحر الابيض المتوسط الدفيئة . ويرأس تلك الجماعة المسيو جان بنليفه Jean Painlevé نجل رئيس وزراء فرنسا

السابق وقد شرعت في انشاء أندية لها اطلقت عليها اسم « اندية تحت سطح البحر » واعمالها ناجحة . وينضوي تحت لوائها بضع مئات من الاعضاء يرتدون وجوهاً مستعارة خاصة ويعلقون باكتافهم احواضاً صغيرة للهواء المضغوط مربوطة بسيور جلدية تكفيهم لرحلة ربع ساعة تحت الامواج ، متسلحين برماح مثلثة الشعاب وبنادق هوائية لصيد السمك في الآجام المائية على عمق ١٢ قدماً او اكثر تحت سطح الماء

واحدث ضروب التحسين في تلك الرياضة البدنية ، البحث عن المدن المغرقة على ساحل البحر . فقد عثر احد الاعضاء الغُيُر من تلك الجمعية ، من زمن قريب على فخارٍ رومانيٍّ نادرٍ من قرية كانت واقعة على الشاطىء الجنوبي لفرنسا ، وقد طغت عليها مياه البحر من زمن بعيد . ومن الميسور لأولئك الهواة المغامرين النزول تحت سطح الماء الى عمق يتراوح بين ١٥ قدماً و ٢٠ قدماً ، حاملين عتادهم المؤلف من الوجوه المستعارة ومستودعات الهواء المضغوط وعلى رؤوسهم خوذ ثقيلة . اما العالم بيبي فقد وصل الى عمق ٦٠ قدماً ، وهذا اقصى ما يستطيع المرء بلوغه دون التذرع بجهاز الغوص الكامل

ولما تعمَّق الدكتور بيبي اول مرة في غرفته الغواصة الاصلية ، اكتشف اكتشافاً عجيباً فأذاعهُ ، وفحواه ان الاحياء في أغوار المحيط لها مناطق مكتظة بسكانها مثل طبقات الفطيرة ، يعلو بعضها بعضاً . ثم أعلن من عهد قريب اكتشافاً آخر احدث من ذلك ، وهو تأثير الاشعة التي فوق البنفسجية في سمك المياه الملحة . وذلك انهُ توسل بمصباح كشاف من مصابيح الاشعة التي فوق البنفسجية فأطلق منهُ تلك الاشعة الخفيـة في عبـاب البحر من طرف افريز احد المرافىء فاصطادت شباكهُ سمكاً اكثر مما كانت تصيد في الاحوال العادية ، اذ احتشد السمك في تلك البقعة احتشاداً كبيراً كأنهُ يشغف بتلك الاشعة الغريبة فيسايرها حيث تنبثق ، وقد تبين لهُ في عدة حوادث ان الخلائق البحرية تتألق تألقاً باهراً على ألوان مختلفة مثل بعض المعادن حينما تُعرَّض لضوء الاشعة التي فوق البنفسجية

ويعنى هذا العالم ، في هذه الآونة ، بتجارب جديدة في مقرّه بجزيرة برموده متوخياً بها التحقق من علّة هيام السمك بالاشعة المشار اليها . وما زال هذا سرًّا من اسرار شتّى ينطوي عليها عالم البحر

وما ذهب لوزيتانيا وغيره من كنوز البواخر الغارقة المنتشرة شذر مذر في قرار المحيط الأحافز وحيد على الاكتشافات البحرية . اما المشاهد العجيبة والاكتشافات العلمية الطريفة فستكون من نصيب طلائع المرتادين . ويعتقد الدكتور بيبي ان بين قرار المحيط وسطحه ، تمتد آخر ميادين المغامرات العلمية

(عن مجلة العلم العام)

الياس الراعي

أيتها الارض

أيتها الحجارة الرحيمة التي حملتني حتى اليوم وأنا ابن الرجل الذي طرده اللّه من جنّته
أيها الصدر الرحب الذي ادوسهُ وفي دمي غذاؤهُ . . .
أيتها الكريمة الحليمة التي أمزّقها بمحراثي فترتق بزادها ومائها ما فتقهُ في الزمان
أيها الثدي الكبير الذي تتدفّق منهُ الينابيع . .
أيتها الفاتحة ذراعيها لموتاي ، الخازنة في اعماقها ذهبي ، الشاربة سموم الافاعي لتقيني شرّها ، الصامتة صمت الجبابرة لتكسر حدة الهوس في بياني ، الحاملة جبالها لا تلقّن امثولة الصبر ، الباسطة صحاريها ليتسع نطاق أحلامي ، وحدائقها ومروجها لأضفر على رأس الحبيب اكليلهُ الزاهي ، المتبرّعة باشجارها لأجني ثماري ، المرتدية ثوبها الترابي لا خلع عني حلل الحرير والدمقس وارضى باطماري ، الفاتحة بابها على مصراعيه للجبار والصعلوك والغني والفقير والمجنون والعاقل والذكي والابله لاسحق كبريائي وآخذ عنها درس المساواة ، الطاوية كبدها على النار لتفهمني أنني خلقتُ للالم ، الباسطة كفها للموت وقبوره لاقطع حبل شروري وآثامي ، المتبلجة في الصباح لتنقذني من براثن اليأس ، الفاتحة صدرها لتضحيتي وجراتي ومجدي ، المستسيغة دماءالمعارك لتكثر الاشلاء فاستفظع مظالمي ، الحاملة تماثيلي لأرى العظمة في أقراني وهياكلي لأصافح الرحمان وخرائبي لأتخيّل الماضي ، الناظرة بارحامها الى الامهات نظرة الزميل الى زميله ، المنصتة لعربدتي لأظلّ ثملاً بالخليقة أكرع كؤوسها ، المتوّجة بالافق لكي لا يجاريها فوق عرشها سلطان ، السائرة في مواكب الاجيال ، المستظلة براية الزمان ، الراقدة في احضان الليالي ، المفترشة الفضاء ، المتحفة بجلال الخالق ، السابحة في بحور النور ، المنعمة بالأثير ، الرافلة بحلل التاريخ ، الحائرة بين المهود واللحود ، المتكئة على وسادة اللّه ، الباسطة بقاراتها يدها ذات الاصابع الخمس ، الزاحفة في طريقها الى حيث لا تدري ، الحاملة اعباء الانسانية على ظهرها الحديدي الذي لا تقوّسهُ الايام ، الدائرة على نفسها كأنها تحاول أن تفلت من حقارة الانسان ، العارضة قمرها للعاشقين ونجومها للطامعين وبحورها لليائسين وغاباتها لقراطيس الموهوبين وحراجها للمظلومين الفارّين وساحاتها للمصارعين وبلاياها للمغرورين المتجبرين وامجادها للمجاهدين وشللاً لأنها

لمن أصيب بالعقم وتحجّر قلبه وغلظت كبده، واجواءها للمحلقين وزواياها للقانتين ونواقيسها للناسكين ، القائمة على قمة هرمها الابدي الذي يؤلف جوانبه الثلاثة امسها ويومها وغدها ، الحانقة على الاسكندر وهانيبال ويوليوس قيصر ونابلبون الذين حاولوا أن يمتلكوها ، المعترفة بجميل كولمبس الذي اهتدى الى شطرها المفقود

أيتها الارض ! ! يامسرح الوجود وياوليدة الرحمن ، ايتها التائهة في صحراء الله السابحة في بحور حلمها الاكبر الذي غابت عنّا أسراره . . .

أيتها الارض ! ؟ أنا من ضيوفك الذين القتهم في احضانك يد الحب القاهرة اتيتك باكياً وما جفّت دمعتي بعد . . .

اتيتك حائراً وما ترال فيّ حيرتي . . .

ورأيت الناس يموتون وأنت تفتحين بيدك أبواب لحودهم فدبّ الرعب في نفسي وجئتك مستجيراً استحلفك بمعجزاتك أن لا يكون نصيبي نصيب رفقائي فيطول بقائي الى أبد الآبدين . . وأنا انما احب الحياة في ظلالك والخلود في حماك لكي لا يقال اني ضيفك الذي اغتالهُ ترابك وانك تفتكين باللاجئين اليك المستدرّين كرمك ورضاك . . . ولكي أجاريك في سيرك الى يومك الاخير . . .

أحب ان أرافقك ايتها الارض الى نهاية الطريق الذي رسمتهُ لك السماء وأن أكون ثابتاً على مسرحك ثبات شمسك التي لا تنطفيء وقمرك الذي لا يموت ونجمتك التي لا تمل ولا تتوارى وينابيعك التي لا تجف وسنابلك التي لا تفنى . . .

احب أن لا أزول وفي رأسي فكرة واحدة وفي صدري عاطفة واحدة . .

أحب ان أبقى لأظلّ من البنائين فلا يهدم الفناء بنائي . . وأن اظل حيًّا لاستكشف اسرارك واسراري . . .

لقد رضيت بآلامك وشربت دموعك وهلل قلبي لجراحاتك فما انا نافر منك ولا أنا حانق عليك . . .

ليطل حبل شبابي وليأتني الهرم في الساعة الاخيرة قبل يومك الاخير . . .

احمليني على اجنحتك الى حيث تريدين ولكن بربّك لاتهيلي عليّ ترابك البليد ففي ذلك انتقام بليد انت اكبر من أن تتسلحي به ايتها الارض الجبارة الشريفة الكريمة

إن بساطك فسيح جدًّا فلا تخافي أن لا اجد فيك مكاناً على توالي القرون . .

انا لك ايتها الارض . . انا لك على علاّتك فلا تطرديني من يديك . . إن حقّ الضيافة مقدس ولا يطردُ ضيوفهُ الا الوقح الزنيم . .

أقطاب الاسلام لاحداث الطلاب

عمرو بن العاص (1)

لحسن حسن علي

— ١ —

يقول المؤرخون ان عمرو بن العاص داهية من دواهي العرب ، والداهية : هو الرجل ذو الدهاء والفكر الناضج والعقل الممتاز ، فاذا قلنا ان عمرو بن العاص داهية من دواهي العرب ، فمعنى ذلك ان عمراً من أشد العرب دهاء ، وأوسعهم حيلة وأوفرهم ذكاء ، وأحدهم ذهناً

ونحن لن نتعرض لتاريخ عمرو بن العاص من مبدأ حياته الى منتهى اجله ، فان ذلك امر يطول شرحه علينا وعليكم ، وانما نريد ان نعرف كيف كان عمرو بن العاص داهية من دهاة العرب؟ وما هي الحقائق والوقائع والحوادث العملية والنظرية التي جعلت عمراً من دهاة العرب الممتازين

وُلد عمرو بن العاص في مكة ، وكانت تسكن مكة قبيلة ضخمة تعرف بقريش ، ولم تكن قريش في مكة ذات حكومة منظمة وقوانين موضوعة كشأن الحكومات المعروفة في عصرنا هذا ، وانما كانت قريش منقسمة الى عشائر وبطون وأقسام يتولى كلُّ قسمٍ منها فرعاً من فروع الحكم ، فكان منها جماعة يعرفون ببني الدار ، وكانوا يتولون حمل الراية في وقت الحرب ، وكان منها جماعة يعرفون ببني هاشم ، وكانوا يتولون سدانة الكعبة ، وسقاية الحجيج ، وهؤلاء هم رهط النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان منها جماعة يعرفون ببني سهم ، وكانوا يتولون القضاء والحكم فيما يقع بين الناس من الخصومات ، وهؤلاء هم عشيرة عمرو بن العاص ، ولا بدَّ ان بني سهم هؤلاء كانوا على شيء كبير من الدهاء والذكاء ، لان القاضي محتاج بحكم وظيفته الى عقل ذكي حاد حتى يعرف به موضع الحق من موضع الباطل ، ولا بدَّ ان يكون ذا لباقة وحصافة ومقدرة على التصرف في الامور حتى يداري المحكوم عليه اذا كان ذا سطوة وشوكة ونفوذ ، ولا سيما في هذا الزمان الغابر الذي لا يدين الاّ للقوة

(1) من المحاضرات التي تلقى في بهو المحاضرات بمدرسة الجمالية الابتدائية الاميرية

وعلى هذا فبنو سهم أجداد عمرو بن العاص وآباؤه واهله وعشيرته كانوا ذوي ذكاء ودهاء بحكم مركزهم القضائي في قريش ، فلا عجب ان يأتي منهم عمرو بن العاص الذكي الداهية ، ومن يشابه آباءه وأجداده فما ظلم

ومما زاد هذا الذكاء حدة وهذا العقل نضوجاً واتساعاً ، ان عمرو بن العاص اشتغل منذ حداثته بالتجارة ، فكان يذهب في رحلة الشتاء الى بلاد اليمن وبلاد الحبشة فيشتري من هذه الاقطار الطيب والجلود والعطور ، ثم يذهب بها في رحلة الصيف الى مصر وبلاد الشام ، فيبيعها هناك ، ويشتري من هذه الجهات الحنطة والمنسوجات والمصنوعات والزبيب ، وبلاد الشام حتى هذه الساعة مشهورة بالزبيب

ويقال ان اول رحلة قام بها عمرو بن العاص الى مصر ذات سبب عجيب ، وذلك انهُ خرج مرة مع جماعة من اصحابه الى تجارة في بيت المقدس ، فكانوا يحملون بضائعهم بالضرورة على الجمال ، وكانوا يسافرون من بلادهم الى بيت المقدس على الجمال ، فاتفقوا أن يخرجوا وهم في بيت المقدس الى الاسواق للبيع والشراء ويتخلف في كل يوم واحدٌ بالتناوب ليرعى هذه الجمال في المراعي بين الجبال ، وبينما عمرو بن العاص يرعى الجمال وسط الجبال ابصر شماساً مصريًّا ، والشماس رجل لهُ وظيفة دينية صغيرة بالكنيسة . ابصر هذا الشماس وقد اجهده التعب ، وأضناه الحر وأهلكه الظمأ ، فلما رآه عمرو يكاد يموت من العطش اسعفهُ بقدح من الماء ، فأحيا بذلك مواته ، ولما انس بهِ الشماس نام بالقرب منهُ ، الاّ ان الشر والنحس كان يلاحقه ، فقد خرجت حية كبيرة من جحرها واتجهت نحو هذا الشماس النائم لتفتك بهِ ، ولكن عمرو بن العاص شكها بسهم صائب فقتلها ، ولما استيقظ الشماس وعلم بذلك قام الى عمرو فشكره وقبل رأسه ، وقال لهُ لقد احياني الله بك مرتين : مرة من العطش ، ومرة من هذه الحية ، فلك اليوم عندي ديتان والدية الف دينار . ثم قال الشماس لعمرو ولكني الآن رجل غريب فقد سافرت من الاسكندرية الى هنا لاني قد نذرت لله ان اصلي في بيت المقدس وان اطوف في جبالها شهراً ، وقد وفيت نذري وانا الآن صفر الكف ويدي خالية من النقود ، فان اتيت معي الى مصر فلك عهد الله وميثاقه ان اعطيك الفي دينار جزاءً لك على ما فعلت ، فلما احس عمرو من كلام الشماس الصدق ووثق من كلامهِ ، استأذن من اصحابه وسافر معهُ الى الاسكندرية ، فأكرمهُ الشماس غاية الاكرام ، وألبسهُ ثوباً من الحرير ، وقدم لهُ المبلغ ، واتفق في ذلك الوقت ان اهل الاسكندرية كانوا يقومون باحتفال عظيم سنوي ، اذ يجتمع الحكام والعظماء ، والقواد في ميدان كبير ، ويتقاذفون بكرة مرصعة من الذهب ، ويتلقفونها بأكمامهم ، فاذا استقرت الكرة في كم واحد منهم فلا بدَّ ان يأتي عليهِ يوم يكون فيهِ حاكماً على مصر ، وبينما كان عمرو مع الشماس يشهد هذا

الاحتفال اذ بالكرة تهبط وتستقر في كم عمرو بن العاص ، فدهش الناس وتعجبوا وقالوا اذا كانت هذه الكرة قد صدقتنا في أيامها الماضيات ، فقد اخطأت هذه المرة خطأً ظاهراً . لأنهم أستبعدوا ان يكون هذا الفتى البدوي الصغير اميراً عليهم في مستقبل الايام

ولم يعرفوا انهُ عمرو بن العاص الفاتح العظيم الذي سيغزو بلادهم مرتين مرة قبل الاسلام ومرة في ايام علي

وعلى كل حال فان هذه الرحلات التجارية التي قام بها عمرو بن العاص في الجاهلية قد زادت ذكاءه حدة ، وعقله نضوجاً ، وامدتهُ بكثير من التجارب والمعلومات ، لان اختلاطه بالاجناس الاجنبية ، واطلاعه على بلادهم واخلاقهم وعاداتهم امدهُ بكثير من الافكار والتجارب التي لم يكن ليتيسر لهُ أن يعرفها في بلاده

ولما اراد ان يتجر في بلاد الحبشة ركب البحر في سفن تجارية مع شريك يقال لهُ عمارة وقد ركبوا السفن ليعبروا البحر الاحمر ، ويصلوا الى الحبشة لدى الشاطىء الافريقي ولكن عمارة شريك عمرو كان رجلاً سفيهاً فاسد الاخلاق ، وكان مغرماً بالتحدث مع النساء ، فأراد مرة ان يتحدث مع زوجة عمرو ولكن المرأة احتقرتهُ ولم تحدثهُ اما عمرو بن العاص فقد اعتبر هذا من عمارة اهانة عظيمة لا بدّ ان ينتقم بسببها منهُ انتقاماً رادعاً ، ولكنهُ ماذا يفعل بعمارة وهما بين الماء والسماء . ايقذفهُ في البحر ؟ ايقتلهُ بالسيف ؟ إنهُ لو فعل ذلك لتقدمت اليه عشيرة عمارة بسيوفها لتقتلهُ حتى تأخذ بثأر عمارة ، فكأنهُ قد قتل نفسه حين قتل عمارة ، إذاً فليصبر عمرو ساتراً غيظه والايام وحدها هي التي تهيء لهُ الفرص المناسبة للانتقام من شريكه السفيه

ذهبا الى النجاشي في بلاد الحبشة فقدما اليه أحسن التجارة فاشترى منهما ثم اتجها الى الرعية فباعا واشتريا وكثر ربحهما وزادمالهما ، ولكن عمارة شريك عمرو كانت اخلاقه السيئة تلازمه اينما حل ، فرأى زوجة النجاشي فحدثها فحدثتهُ ، وصار في كل يوم يذهب اليها ليحدثها ثم يأتي الى عمرو بن العاص فيخبره بذلك فيقول له عمرو ان هذا امر لا اصدقهُ واظن انك مبالغ في خبرك ، وان زوجة الملك لا تحدث امثالنا فيؤكد لهُ عمارة القول ، ويقسم له اغلظ الايمان انهُ يحدث زوجة النجاشي ، وهنا يضغط عمرو على اسنانه ونواجذه لانهُ وجد الفرصة السانحة للانتقام من عدوه ثم يقول له إذا اردت ان اصدقك فيما تدعي فاحضر لي شيئاً من بيت الملك مما لا يستعمله الاّ الملك ، فان فعلت عرفت انك حقيقة تدخل في بيت الملك ، فقال لهُ عمارة : ما اسهل هذا الامر عليّ ، وما اهونهُ ، ثم انطلق الى زوجة الملك وحادثها كعادته ، ثم قال لها طيبيني من الدهن الذي يتعطر منه الملك ، فطيبتهُ ثم قال لها اعطني قارورة من هذا العطر حتى ادهن منها اذا كنت في الخارج ، فأعطتهُ قارورة من العطر ، فذهب عمارة وهو نافخ اوداجه

يتيه عجباً واختيالاً بما فعل ، ثم تقدم الى عمرو بن العاص وقال لهُ هذه ثيابي فشمها ، وهذه قارورة من العطر الذي لا يدهن بهِ الاَّ النجاشي خذها هدية مني اليك ، فقال له عمرو حقّاً انك تحدث زوجة الملك وقد اقررت لك بالمقدرة وحسن الحيلة

ولما انصرف عمرو من مجلسه ، ذهب الى النجاشي وقال له ايها الملك العظيم إنني أخشى ان يصلني سوء منك بسبب شريكي العربي فقال لهُ النجاشي وما سبب ذلك ، فقال عمرو إن عمارة شريكي رجل سفيه شرير ، وكثيراً ما اخبرني انهُ يذهب الى زوجة الملك ويتحدث معها ، ولكنني في باديء الامر لم اصدق دعواه ، فلما احضر لي من الملكة قارورة العطر الذي لا يدهن منهُ الاَّ الملك أيقنت من الخبر ، وجئت اليك متبرئاً من عمله ، وهذه هي قارورة العطر ، فلما رآها النجاشي غضب غضباً شديداً ، وامر بعمارة فشم في اثوابه رائحة العطر فأراد ان ينتقم منهُ انتقاماً مرّاً أليماً فماذا يفعل بهِ. انهُ افسد لهُ بعض اعضائه وهو حي ، واتلف لهُ هذه الاعضاء إتلافاً تامّاً ، وكان جزاؤه من جنس العمل

وهكذا انتقم عمرو بن العاص من خصمه انتقاماً مرّاً أليماً من غير ان يلقيه في البحر او يقتله بالسيف او يعرض نفسه للقتل ، وهكذا ألقى على عمارة درساً قاسياً في الاخلاق لم ينسه طول حياته ، وهكذا استطاع عمرو ان يصرع خصمه بحيلته ومقدرته وذكائه

ولما هزم الله الاحزاب في غزوة الخندق ، وسلط عليهم ريحاً عاصفة قوضت خيامهم ،وكفأت قدورهم ، وتفرقوا الى بلادهم ، فكر عمرو بن العاص في هذا الامر فأدرك ان النبي صلى الله عليهِ وسلم ، لا بد ان ينتقم من قريش ، ولا بد ان يجازيها حرباً بحرب ، وتكهن بفتح مكة قبل ان يدخلها النبي بأزمنة طويلة ، فقال في نفسه اذا وقعت هذه الحرب ، وانتصر محمد على قريش فلا بد ان يرد عزيزها ذليلاً ، فلأذهبنَّ الى النجاشي في الحبشة فان انتصر محمد فأنا بمنجاة من الشر ، وإن انتصرت قريش فليس لي عند قومي الاَّ الخير

ثم اخذ هدية الى النجاشي وقدمها اليهِ ، فتقبلها قبولاً حسناً ، ولكن عمرو وجد عند النجاشي رجلاً من اصحاب النبي فحدثهُ في شأنه فقال لهُ النجاشي ان هذا الرجل آتٍ من النبي الذي تنزل عليهِ الملائكة ويأتيه الوحي وإن دينه لحق ، وهنا تغير رأي عمرو تغييراً تامّاً لانهُ تمكن بعقله النافذ ان يخترق الحجب ويسابق التاريخ ويستشف المستقبل من وراء حجاب فقال في نفسه إذا كان هذا الدين على حداثة عهده قد آمنت بهِ الملوك فضلاً عن الرعية ، وإذا كان قد وصل الى البلاد الخارجية فضلاً عن جزيرة العرب ، فلا بد ان يعم هذا الدين البلاد العربية ولا بد ان يدين اهل مكة طوعاً او كرهاً فبدلاً من ان ادخل هذا الدين كارهاً فلا بد من ان ادخل طائعاً ، وعليَّ ان اسرع في ذلك حتى اكون من السابقين ، ثم انقلب عمرو راجعاً الى

بلاد الحجاز لم يرجع عمرو الى مكة مقر عشيرتهِ ، وانما رجع الى النبي فأسلم على يديهِ وحسن إسلامه

وهكذا لم يسلم عمرو كما اسلم غيره من العرب بل اسلم بعد موازنات شتى ، وبحوث مستفيضة ، ومقارنات ذهنية كشفت لهُ ما يكنهُ مستقبل الاسلام الباهر . ولما ارسله ابو بكر رضي الله عنهُ على رأس جيش من الجيوش الاربعة لفتح بلاد الشام اشتغل في هذه الحروب بهمة ونشاط ، ولما توفي ابو بكر رضي الله عنهُ رأى عمر بن الخطاب ان على فلسطين قائداً من الروم لم يسمع الناس بمثله في الدهاء والمكر وسعة الحيلة ، وكان يقال له ارطبون ، وكان ارطبون في الروم بمنزلة عمرو بن العاص في العرب فامر عمر بن الخطاب عمرو بن العاص ان يتجه الى فلسطين ليحارب ارطبون ، وقال : رمينا ارطبون الروم بأرطبون العرب ، فلننظر عمَّ تنفرج . ومعنى ذلك اننا ارسلنا الرجل الماكر من العرب ليحارب الرجل الماكر من الروم وسننظر ايغلب ماكر الروم ام ماكر العرب

***

اما عمرو بن العاص فقد وجد ان ارطبون قد وضع لفلسطين خطة حربية محكمة ومن الصعب ان يتغلب عليها اي قائد حربي ، وذلك انهُ عسكر بجيش كثيف في مدينة اجنادين مركز فلسطين وجعل في كل مدينة حامية قوية تدافع عنها اذا هاجمها العدو ، وانشأ بين هذه البلاد مراسلات سريعة ، بحيث اذا اغار العدو على اية مدينة ففي الحال ينتقل الخبر بهذه المراسلات السريعة ، ويتوالى ورود المدد على المدينة المحصورة ، فيصبح الجيش المهاجم بين قوة المدينة الاصلية ، وبين الامدادات المتوالية ، فتحل بهِ الخسارة ، وبهذه الخطة الحربية المحكمة تمكن الارطبون من الوقوف امام المسلمين وصدهم مدة طويلة

ولكن عمرو بن العاص لا بدَّ ان يفسد على الارطبون خطته فماذا يفعل ، انهُ اتى بفصائل خفيفة قليلة المدد هي اشبه بالعصابات ، وسلط على كل مدينة فصيلة من هؤلاء الجند ليغيروا عليها حتى يشغلها امرها عن غيرها ، لانها تعرف انها لو ذهبت جنودها لنجدة غيرها ، فان الاعداء الذين يهاجمونها لا بدَّ ان يحتلوها في الحال ، وبذلك تمكن عمرو بهذه الفصائل من ان يشغل كل مدينة بنفسها ، ثم تفرغ هو لمقارعة ارطبون في اجنادين ، ولكنهُ تقدَّم اليهِ حذراً متوجساً محترساً ، لانهُ لا يحارب قائداً عاديًّا ، وانما يحارب داهية الروم

فأرسل اليهِ رسولاً يتظاهر بأنهُ يريد ان يفاوضه في شروط الصلح والحرب ، وامره عمرو ان يتفقد القلاع ، ويعرف شكل الحصون ، ووسائل الدفاع ، ونظام الجيش ، ولكن

ارطبون داهية الروم اخفى عن الرسول كل امرٍ وفطن الى مهمتهِ الحقيقية ، فأرسل عمرو رسولاً ثانياً وثالثاً فلم يهتد احدهم الى شيء ، فعزم عمرو ان يذهب بنفسه ليتفقد جيش عدوه وحصونه فتنكر في زي رسولٍ من الرسل ، فاراد ارطبون ان يخفي على عمرو كل شيء كما فعل مع الرسل السابقين

ولكن عمرو بن العاص ما زال يحاوره ويداوره ، ويقوده الى موقع الحصون حتى يطبق شروط الصلح على طبيعة المدينة ، وما زال يجره من موضع الى موضع وهو يجوس خلال الجنود ، ويطلع على اسرار الجيش حتى اهتدى الى معرفة كل شيء . ولكن هل تظنون ان الارطبون رجل أبله انهُ تفرس في هذا الذكاء ، وهذه السياسة ، وهذه القدرة فجزم بان الذي يحدثهُ اما ان يكون عمرو بن العاص ذاته ، واما ان يكون المشيرَ الذي يشير على عمرو في الامور ، فيأخذُ عمرو برأيهِ

وقد وجد ان الفرصة سانحة للتخلص من عدو خطر عظيم المكر والدهاء ، فاشار الى احد اتباعه ان يكمن مع جماعة لهذا الرجل في الطريق اثناء رجوعه ، فاذا مرَّ عليهم قتلوه ، اما عمرو ابن العاص فقد عرف كل شيء وادرك انهُ وقع في الشرك ، وانهُ لا محالة مقتول

***

اين حيلتك واين فطنتك يا عمرو ان بينك وبين القتل ان تسير في الطريق الى جيشك ، ولكن عمراً في اقل من لمح البصر يأتي بالخدعة المدهشة ، يخاطب الارطبون في هدوء وثبات ويقول أيها الارطبون إنني اصارحك القول واعلمك انني مع تسعة من العرب اصحاب الرأي والمشورة في هذا الجيش العربي الذي امامك ، وان عمراً لا يعمل شيئاً إلاَّ اذا وافقنا عليهِ ، وقد سمعت حديثك ، وعرفت شروطك ، وفهمت رأيك ، وسأذهب الى اصحابي فآتي بهم جميعاً ، وسيسمعون حديثك بآذانهم ، ويرون شروطك بانفسهم ، فان وافقوا عليها فقد وافق عمرو بن العاص ، لانهُ لا يعمل إلاَّ برأينا ، فطمع الارطبون ان يقتل عشرة من اصحاب الرأي ، وفضل ذلك على ان يقتل هذا الرجل الذكي في الوقت والساعة ، وفي الحال ارسل الى الكمين الذي رصده في الطريق ان يخلي سبيل الرجل إذا مرَّ بهِ

ولما مضت الايام ولم يعد الرسل ، وعرف الارطبون خدعة عمرو قال خدعني عمرو هذا ادهى العالم اجمع ، ولما بلغ ذلك عمر بن الخطاب قال غلبهُ عمرو ولله عمرو . أما عمرو بن العاص فانهُ درس حصون الروم واسرار الجيش ، ثم فاجأ الارطبون واتاه من العورات وتمكن من التغلب عليهِ ومن فتح اجنادين وبقية بلاد فلسطين

« للبحث تتمة »

مفردات النبات

بين اللغة والاستعمال

لمحمود مصطفى الدمياطي

— ٢٠ —

الإجّاص العاديّ (١)

ويقال له في بلاد الجزائر (العين) وفي مصر وبلاد المغرب (البَرْقُوق) وفي الشام (الخَوْخ) ترتفع شجرته الى ٢٠ قدماً او اكثر وهي من النوع المتساقط الورق غير شائك الفروع ورقها بيضية الشكل أو إهليلجية ملساء من وجهها العلوي وعلى وجهها السفلي شعيرات دقاق مسننة الحافة خشنتها أزهارها بيض تخرج عقب الاوراق أو معها . ثمرتها كرية الشكل جلدتها مختلفة اللون لحمها اصفر ونواتها اما لاصقة به او منفصلة

اسمها العلمي (Prunus domestica, L.) (برونس دومستيقا) من الفصيلة الوردية وبالانجليزية (damson-tree, prune-tree, common plum-tree)

وبالفرنسية (prunier cultivée, prunier domestique) أصل موطنها بين البحر الاسود الى غرب الصين ولا سيما جبال القوقاز وآسيا الصغرى ويعتبرها علماء النبات اصلاً لما غرس منذ ٢٠٠٠ سنة في بلدان حوض البحر المتوسط ونتج عنهُ الاصناف الحالية الكثيرة التي بلغت زهاء ١٠٠ صنف في فرنسا وانجلترا و ٩٥٠ صنفاً في الولايات المتحدة من اميركا وأشهرها جميعاً :

(١) الاجّاص الابيض ويقال له (الشاهلوج) بالفارسية وبالانجليزية (green-gage plum) وبالفرنسية (prune reine claude) معروف في اوربا وأميركا للاكل فاكهة ويمتاز عن اي صنف آخر بطعمهِ اللذيذ ثمرته متوسطة الحجم كرية الشكل خضراء او ذهبية

---

(١) يذهب كثير من علماء النبات الى ان انواع شجر الاجاص الآتية انما هي نوع واحد وهي شجر الاجاص العادي المذكور وشجر اجاص ابن آوى واسمه العلمي (prunus spinosa) وبالانجليزية (sloe tree, black thorn) وبالفرنسية (épine noire, prunellier, prunier épineux) وشجر الاجاص البري واسمه العلمي (Prunus insititia) وبالانجليزية (bullace-tree) وبالفرنسية (prunier sauvage)

(٢) الاجّاص الاسود ويقال له (عُيُون البَقَر) [١] واسمهُ بالانجليزية (damson) وبالفرنسية (prune de Damas) ثمرتهُ كبيرة الحجم بيضية الشكل مفلطحة على نوع ما جلدتها زرقاء أو ارجوانية ولحمها متماسك اخضر أو اصفر أو ذهبيّ وهو صنف متى كان فيهِ مقدار كبير من السكر صار صالحاً للتجفيف فتصنع منهُ (القراصيا) [٢] المعروفة المستعملة مطبوخة وقديماً كانت ترد القراصيا الجيدة من دمشق أما الآن فمن فرنسا

وخشب شجر الاجاص مرغوب فيهِ لصنع الآلات الموسيقية وله استعمال في الخراطة الممتازة والقلف من سوقه يدخل في الصباغة باللون الاصفر

الإحْرِيض أو المُعَصْفُر

ويقال لهُ (الزّعفران الكاذب) و (قِرْطِم الصبّاغين)

عشب يرتفع الى ثلاث أقدام جيل المنظر يزرع سنويّاً ساقه ملساء وورقته بيضية الشكل ذات حافة شائكة ونورته برتقالية اللون وثمرته عريانة في اصطلاح النباتين

اسمهُ العلمي (.carthamus tinctorius L) (قارثاموس تنقتوريوس) [٣] وفصيلته المركبة وبالانجليزية (officinal carthamus, safflower) وبالفرنسية (carthame, safran bâtarad)

موطنهُ الاصلي مصر ممتد الى الهند والآن يزرع في كثير من الجهات في أوربا والشرق وتصدر من ازهاره مقادير عظيمة الى انجلترا للصباغة والتلوين اذ يحصل منها على صبغ يتفاوت لونه من اصفر الى ورديّ الى غير ذلك حسبما يمزج بهِ من مواد ، والعنصران الفعّالان في هذا الصبغ هما القارثامين (carthamin) والقارثاموس الاصفر (carthamus-yellow) والصينيون يستعملون زهرات الاحريض لصبغ الحرير باللون الورديّ الجميل والقرمزي والارجواني والبنفسجي وذلك بوضعها في منقوع بعض القلويات وتركها حتى تلين ثم يستخرجون الاصباغ منها باضافة عصير الليمون او اي حامض نباتي آخر بنسب متنوعة . ويزرع الاحريض في اسبانيا في الحدائق كما يزرع القُوقَحان [٤] في انجلترا وتستعمل ازهاره في تلوين الحساء (الشوربة) والزيتون وبعض المواد الغذائية الاخرى واليهود في بولندا رغبة في هذه الازهار فيضيفون

---

(١) وقيل ان عيون البقر ضرب من عنب الشام . قال ابو حنيفة : هو عنب اسود ليس بالحالك عظام الحب مدحرج يزبب وليس بصادق الحلاوة

(٢) وفي بلاد الجزائر يقال للكرز عندنا (قراسيا) و (جراسيا) و (حب الملوك) وهو غير هذا الصنف من الاجاص واسمه بالانجليزية (Cherry) وبالفرنسية (Cerise)

(٣) قيل ان (قارثاموس) اشتق من قرطم اسم النبات بالعربية وان معناه يصبغ لما تنتجه الازهار من صبغ جيل

(٤) واسمه العلمي (.Calendula officinalis, L : قالندولا اوفيسينا ليس) وبالانجليزية (marigold) وبالفرنسية (Souci ou calende)

بعضاً منها الى خبزهم ومعظم لحوم غذائهم . وفي الهند يزرع الاحريض من اجل تلك الازهار ومن اجل زيته فيحصل عليهِ باعتصار الحبّ المعروف بالقرطِم هذا ويقال ان الفراخ الرومية والاوز ترغب في اكله كثيراً فتسمن بهِ جدًّا

آرمِيلِيلِس

ضرب من الشجر يقال له في بلاد الجزائر (الصفيرا) وفي الشام (النبق المترادف) او (الزَفْرين) ذكره ابن البيطار[1] في مفرداته وقال انهُ اسم بربري في بلاد المغرب الاقصى ترتفع الشجيرة منهُ الى ٢٠ قدماً او اكثر اوراقها اهليلجية الشكل منشارية الحافة حادة القمة منفرجة القاعدة وازهارها خضر متساقطة

اسمها العلمي (Rhamnus Alaternus, L.) .(رامنوس الاترنوس) وفصيلتها العُنَّابية او النَّبِقيَّة (Rhamnaceae) (رامناسية) وبالانجليزية (broad-leaved alaternus) وبالفرنسية (alaterne) موطنها بلدان حوض البحر المتوسط وهي دائمة الاخضرار سريعة النمو ولذلك تغرس سياجاً للزينة ولكون زهراتها رحيقية كثيراً ما ترد اليها النحل للتغذي بهِ

الأَمْبَرْبَارِيس او الزَّرِشْك العادي

اسمان فارسيان يطلقان على شجيرة تعرف (بامير باريس) و(بَربَريس) كما جاء في مفردات ابن البيطار وغيره

ترتفع الى ثمان اقدام أوراقها من النوع المتساقط خضر تضرب الى الصفرة او الزرقة بيضية الشكل مسننة الحافة ازهارها صفر مجتمعة في نورات عنقودية بسيطة متدلية رائحتها غير مقبولة عن قرب ولكنها مقبولة عن بعد تألفها اصناف مختلفة من الحشرات وثمارها عنبية شديدة الحموضة لا تمسها الطيور الا نادراً حمراء او ارجوانية او صفراء فاتحة

اسمها العلمي (Berberis vulgaris L.) (بربريس ولغاريس) وفصيلتها البربريسية او الزرشكية (Berberidaceae) (بربريداسية)

وبالانجليزية (common barberry or berberry-bush, peperidge-bush)

وبالفرنسية (épine-aigrette, épine-vinette, épine vulgaire,) شائعة في اوربا تغرس

---

(١) هو ابو محمد ضياء الدين عبد الله بن احمد المالقي الاندلسي الطبيب عرف بابن البيطار وبالنباتي صاحب كتاب الادوية المفردة لم يصنف مثله ويعرف بمفردات ابن البيطار نقل الى الفرنسية وطبع في باريس سنة ١٨٧٧ و ١٨٨١ و ١٨٨٣ ميلادية في ثلاثة مجلدات محفوظة بدار الكتب المصرية واليه انتهت معرفة النبات وتحقيقه واسمائه وأماكنه سافر الى اقصى بلاد الروم وأخذ فن النبات عن جماعة وكان ذكياً فطناً وله ايضا كتاب المغني في الطب وغير ذلك توفي بدمشق سنة ٦٤٦ هـ

سياجاً للزينة لجمال منظرها مزهرة في الربيع ومثمرة في الخريف وهذه الثمار اما تحفظ في الخل لتؤكل كامخاً وإما تغلى مع السكر لصنع شراب او فالوذج لذيذ الطعم وإما تصنع منها حلوى مسكرة بمفردها او مع الاجّاص او فاكهة اخرى او يتداوى بها قابضة لطيفة ملائمة للمعدة او لتأثيرها الفعّال في الاضطرابات الصفراوية الى غير ذلك

وتدخل الجذور اذا غليت في محلول قلوي من الصودة او البوتاسة في الصباغة باللون الاصفر وفي بولندا يدخل القلف من الجذور في صباغة الجلد باللون الاصفر الجميل كما يدخل القلف الداخلي من السوق مع الشب المعروف في صباغة الانسجة الكتانية باللون الاصفر الجميل. ويقال ان البقر والغنم والماعز ترغب في الاكل من هذه الشجيرة على خلاف الخيل والخنازير هذا ولا يفوتني هنا ان اذكر علاقة الاثرار العادي بالمرض المعروف عند النباتيين بالصدأ الاسود الذي يوجد على القمح والنباتات النجيلية الاخرى ذلك لان الفُطر المسمى (Puccinia graminis) (بكسينيا غرامينيس) او (Aeciduim berberidis) (ايسيديوم بربريديس) يقطع طورين متبادلين تتم بهما حياته طوراً على نبات القمح او غيره من النجيليات وآخر على الاثرار العادي بحيث اذا لم توجد شجيرات اثرار عادية في منطقة ما كان ذلك في الغالب عاملاً مهمًّا في عدم اصابة القمح وغيره من النجيليات بالصدأ الاسود

آكُنَّار

اسم بربري لنبات (جَوْز الارض) أو (جَوْز أَزْقم) وهو الذي يقال لهُ في برقة وبلاد القيروان (تالغُوطة) كما جاء في مفردات ابن البيطار نبات درني الجذر معمّر ينبت بريًّا الى ارتفاع قدمين أوراقه متنظمة وأزهاره بيض

اسمهُ العلمي (Carum Bulbocastanum, Koch) (قاروم بولبوقاستانوم) أو (Bunium Bublocastanum, W.) (بونيوم بولبوقاستانوم)[1] وفصيلتهُ الصيوانية او الخيمية وبالانجليزية (grat earth-nut) وبالفرنسية (bunion bulleux, noix de terre, terre-noix)

موطنهُ وسط اوربا وجنوبها وشمال افريقية ووسط آسيا الى بلاد كشمير كثير الوجود في تربة الارض الجيرية المزروعة حتى ما ارتفع منها الى ٩٠٠٠ قدم فوق سطح البحر

ينتفع بجذوره الدرنية (جوزاته) يحفر عليها الفقراء ويأكلونها نيئة او مطهية لاحتوائها على نوع من الدقيق وما فيها من حلاوة الطعم ولذا يقال انها مغذية جدًّا وقد تطهى اوراق هذا النبات للاكل ايضاً وثماره تستعمل من ضمن الابازير

---

(١) اشتق اسم (بونيوم) من كلمة (فنيوس) اليونانية ومعناها تل ذلك لان هذا النبات تلائمه المواقع الجافة المرتفعة

ابولون ودفني

كانت « دفني » أول من أحبّ « أبولون » . على ان هذا الحب لم يأت عفو الحوادث ، وانما كان نكاية من « كوبيدوس » وكيداً ، استطاع به اله الحب الصغير ، أن ينتقم لنفسه من ابن « زفس » ، بل من اله من اكبر الآلهة الذين عرفهم المقام الاولمبي

فقد رأى « أبولون » الصبي « كوبيدوس » يلعب بقوسه وسهامه . وكان « أبولون » قد انتصر في ذلك الوقت على « فوثون » وما زالت نشوة الانتصار تتأجج في صدره ، وتضطرم سورتها في قلبه ، فراح تياهاً فخوراً . فلما رأى الصبي في لهوه ، اكبر منهُ أمر اللعب بالقوس والسهام وقال له :

« مالك ولآلات الحرب ، وما أنت صانع بها ؟ انما يجب عليك ان تتركها للأيدي التي تحسن حملها ، وللأبطال الذين يعرفون كيف يحمونها ! أيها الصبي الناشىء . اترك هذه الآلات للذين هم معتادون ان يقتحموا بها المعارك ويشقون بها طريقهم إلى النصر . انظر الى النصر الذي توجت به جبيني ، والى الفتح العظيم الذي نلتهُ بانتصاري على الحية « فوثون » ، وكانت قد نشرت جسمها السام على ما شئت من فضاء الارض . ألا فاقنع أيها الصبي بمشعلك فأوقده وأرسل لظاه ووجه ألسنته الى حيث شئت ، ولكن حذار أن تتخذ من أسلحتي ألهوة تتلهى بها »

فلما سمع ابن « فينوس » هذا الكلام التفت الى الاله الكبير وقال له :

« ان سهامك قد تصيب حيث شئت ان تصيب بها ، ولكن سهامي سوف تصيبك في الصميم »

وما أن فاه بهذه الكلمات ، حتى اعتلى صخرة من صخور « فَرْناسوس » ، واستلَّ من جعبته سهمين ، كلاً منهما مختلفاً عن الآخر ، فأحدهما يثير الحب ، والثاني يقمعهُ . وكان الاول مصنوعاً من الذهب حديدَ السنان ماضي الطعن ، أما الثاني فكان كليل الحد مطلوًّا بطبقة من الرصاص ، وبهِ طعن الحورية « دَفني » ابنة « بنيوس » آله النهر ، وبالسهم الذهبي رشق « أبولون » فشكَّ فؤاده

وكأنما ذلك السهم الذهبي كان لهيباً أضرم في قلب « أبولون » لظى الحب ، فراح يهيم « بدفني » هياماً ويغرم بها غراماً . كان في قلب « دفني » من البغض لهُ والاشفاق منهُ ما يعادلهُ ويزيد . وانما كان لهذه الحورية الجميلة غراماً بالحراج والغابات الملتفة ، وبالالعاب التي تجد في سكون تلك الغابات متسعاً لها ومجالاً يكفيها. وقد تبعها كثير من المحبين ، وتعقبها عديد من المغرمين بها ، فأقصتهم عنها ونفرت منهم نفوراً ، ومضت تجول في الغابات متنقلة في فضائها وتحت خمائلها ، كأنها شعاع الشمس المضيئة في غيهب من الليل البهيم . ولم تفكر في « كوبيدوس » ولا في سهامه التي يصيب بها القلوب ويضرم بها الاحشاء

أما أبوها فكثيراً ما نهاها عما كانت فيهِ ، فلم تنته ، ونصحها فلم ترعو . وذات يوم أقبل اليها يحدثها بلين ورفق قائلاً « يا بنتي : ان لي في عنقك حفيداً ، بل حفدة » . ولكنها كانت ترى ان الزواج جريمة كبرى ، بل معصية عظمى ، فاحمر وجهها الجميل خجلاً ، وألقت بذراعيها حول عنق أبيها قائلة . « يا أبي العزيز : هبني الهبة التي أطلبها ، هبني الحرية في أن اظل عذراء ، وان أبقى بغير زوج ، كما بقيت « ديانا » ! فلم يسعهُ الاَّ الرضوخ لمشيئتها ، وانصرف عنها وهو يتمتم : « ان وجهك يأبى أن تظلي كما تريدين »

كان « أبولون » قد أحبها ، ورغب في ان تكون لهُ . غير ان « أبولون » ، ذاك الذي كان يقسم الحظوظ على الدنيا بأسرها ، قد أنس العجز في ان يصرّف حظ نفسه ، وان يسعدَ بأمنية قلبه . ولقد رأى ذات يوم شعرها الفاتن مرسلاً من فوق كتفيها الجميلتين فأهاب بها . « اذا كان هذا مقدار ما في جمال شعرك مُرْسلاً ،

فكيف بهِ اذا تعهدته اليد الصناع ، فأضفى عليهِ الفن جمالاً فوق جمال ؟ » . ورأى في عينيها بريق النجم المؤتلق ، ورأى شفتيها الفاتنتين ، ولم يقو على ان يقنع بمرآهما . ولقد جنَّ بيديها المسوَّاتين ، وذراعيها اللتين اتخذهما الفن مثالاً ينسج عليهِ ، وكتفيها العاريتين البضَّتين ، ولقد خيل اليهِ أن ما احتجب عن ناظريهِ من جسمها كان أوفى جمالاً ، وأعظم فتنة مما ظهر فيهِ

وتعقبها « أبولون » . وهربت « دفني » ، فكانت أسرع من الريح ، وأعجل من السهم الضال ، ولم تنثن عن التنقل فزعة خائفة لتستمع الى شيء من توسلاته — « قفي يا ابنة « بنيوس » ، فلست عدواً ولا منتقماً جباراً . لا تفرّي مني فرار الشاة من الذئب ، او فرار الحمامة من الباشق . انما اتبعك مسوقاً للحب . ان بعدك يتعسني ، وفرارك يؤلمني ، حذار ان تزل قدمك فيصيبك من هذه الصخور أذى . أتوسل اليك ان تكوني في فرارك اكثر تريثاً وأقل سرعة ، وأنا اعدك ان اكون في طرادي كما تكونين في فرارك . ان أبي « المشتري » ، وأنا سيد دِلفوس وتندوس . اني عليم بكل الاشياء ، شهادة وغيباً . اني الٓـه الاغنية والايقاع . ان سهامي لن تخطىء الغرض . وأسفاه ! فان سهماً أشد من سهامي فتكاً وأنفذ فعلاً ، اخترق قلبي . انا الٓـه الطب الذي يعرف خصائص جميع العقاقير الشافية . ولكني أشكو مرضاً تعجز جميع البلاسم عن ان تبرئه »

***

غير ان الحورية كانت تتابع الفرار ، تاركة توسلاته الى الرياح ، تتولاها بالشتات والتبديد . على ان فرارها كان مبعث اعجاب في قلب « أبولون » . فقد كان الهواء يعبث بفضل ثيابها ، وينشر شعرها الجميل مرسلاً من ورائها . غير ان الالٓـه ذهب صبره وقلت حيلته في اغرائها بالتوسل وشفاعة الحب ، فأسرع الخطى ، مسوقاً بسهام « كوبيدوس » ، ليلحق بها ويقطع عليها شوط الفرار الدائم . فتبعها كما يتبع السلوقي فريسته ، فاتحاً ذراعيهِ ، فاغراً فاه ، مبدياً نواجذه ، والفريسة الضعيفة جادة في الهرب ، مطلقة للريح ساقيها ، تطلب النجاة . وعلى هذه الصورة كان الالٓـه يتبع

الحورية الربانية — هو يطير وراءها ، على أجنحة الحب ، وهي تفر منهُ على اجنحة الخوف والاشفاق

ولاحت بداية المنتهى ، لمَّا ان ادركها « ابولون » ، ولحق بها فكانت أنفاسه في ظهرها ، ثم مدَّ يده فكانت في قبضتهِ . وتراخت مفاصلها ، وانحلت قواها ، فترنحت وكادت تسقط على الارض إعياء ورعباً ، ولكنها وجدت بقية من قوة اليأس فصاحت بأبيها — « أدركني يا بنيوس ! افتح الارض لتنشق فتبتلعني ، ثم تسوَّى عليَّ ! او فغيِّر هيأتي التي كانت سبباً في ان أقع فريسة هذا العدوان »

ولم تكد تتم صيحتها حتى يبست مفاصلها ، وانقلب صدرها الى جذع شجرة كبيرة يكسوه لحاء خشن كثيف ، وتطوَّر شعرها فأصبح اوراقاً ، وذراعاها فصارتا أغصاناً ، وغاصت رجلاها في الارض فأصبحت جذوراً وشُعَيْرات ، وتحول وجهها الى قمة شجرة ، فلم يصبح فيه من شيء مما كان ، اللهمَّ الاَّ مسحة من الجمال تذكر من يشهدها بجمال من كانت قبل ان تنقلب ذلك الانقلاب السحري ، فتصير شجرة

ووجم « أبولون » ، ينظر بتعجب فيما يرى . ولمس الجذع بيده . وأراد ان يتحقق الامر ، فلمس الاوراق بفمهِ ، فكانت نباتاً لا أثر للحيوانية فيه ، بل تذوق فيها طعم نبات لم يعهده . وتفرس الشجرة ساعة ثم مضى يهمس بكلمات خافتة :

« أما وقد فاتني ان تكوني لي زوجة ، فلن يفوتني ان تكوني شجرتي . سأتخذ منك إكليلاً ألبسهُ فوق رأسي . سأجمل بكِ قيثارتي وجعبة سهامي . فاذا جاء الوقت الذي سوف يقود فيه ابطال الرومان جحافلهم قافلين الى الوطن أثر انتصاراتهم التي سوف يشهدونها ، فهنالك يعقد من اغصانك اكاليل تتوج رؤوسهم . وكما اني قد خصصت بهبة الشباب الابدي ، فكذلك ستكون اوراقك دائمة الاخضرار ، فلا تجف ولا تكون هشيماً . انت يا شجرة الغار »



الحب الصوفي

٤ — عاطفة الاستسلام

ايها القلب المريض الذي اقتنع بجمال المرأة
ابحث هنالك — في مكان أبعد
وضع امانيّك ومسراتك في مثل اسمى
وناشد الطبيعة الكاملة ان تمنح نفسك
حبًّا اوسع آفاقاً ، يليق برغابك

لتبدأ حياة حبيبة جديدة في نفسك
مكثرة فيك الفرح والشقاء .
وانظر الى الانسانية كأنها كونك الواسع
واجعل لنفسك آماله وسكره ودموعه !

في هدوء الحواس وصفائها
يعرف العاقل ان يزدري التأثير القبيح الذي يحمله الينا الجمال المروّع
بواسطة الاتحاد الصافي للالوان والخطوط .

حارب بدون أمل ولا سأم من نفسك ،
واقفاً كل كيانك على بلوغ المثل الاعلى .
واذا ما غُلبت على أمرك فصن دائماً لون الكبرياء في عينيك
لانك تمثل عملاً مقدساً ، وتحل محل الآلهة .

اربعون مثل سليمان حكموا طوراً بعد طور
— قبل ان يولد آدم — على جماعات لاعدد لها تجهل كل حب .
كانت تلك العصور يغمرها ظل من الابد الكثيف البعيد .

ثم ظهرت ذرية آدم نافضة عنها كثيراً من الوحشية الاولى

ولكن الغريزة الحيوانية لا تزال تجري في عروقها .
طينتها حالت تراباً ، ثم أصبحت سامية ، تخلقت آلهتها .

على أنها تفوقت بقوتها وعظمتها على الاجداد
رغم جبلتها المخلوقة من طين ، وعدمها المائل لها .
فلتكن يوماً اهلاً لتكون خليفة في الكائنات ،
ولتبدع نفسها على صورة آلهتها الطاهرين

العاقل يبصر ان قايل مع هابيل ،
والفضيلة مع الرذيلة يخرجان من نبعة واحدة .
والعاقل — على عجبه بهذا السر المبهم —
— وعلى رغم دنس الوجود — يظل قلبه نقياً .

ألا اين الراحة ؟ وكل شمس من هذه الشموس السابحة في الفضاء
يسوقها نزع أزلي ،
وهذه الاعاصير من حب وقوة وصفاء
تدحرج غارسة الحياة حيث تمحط زوايها.

الهواء والماء ، الصخر الصلد والكائن الفائض بالحياة
النبات والحيوان ا[illegible] ابخرة متجمدة .
ولكن من أين فاض [illegible] فينا ؟
ومن أين اقبلت افكار[illegible] ؟
أكانت أبخرة الشمس [illegible] من قبل ؟

[illegible] رابطة الشفقة تربط [illegible] الاشياء
[illegible] رابطة المحبة سرية [illegible] لا ينبغي ان تقطعها
[illegible] الخطيئة وتفهم [illegible]
[illegible] نفسك قبلة [illegible] الى المحزونين

[illegible] من يضحي بحياته [illegible] الحدود ،

ويعرف الموت في سبيل ملكوت الوجود
هو السلطان الذي أغبطه

ومن يتقبل الألم ليجعل حبه اكثر عنفاً وقوة ،
وينتصر على سر الحياة وهو محب سعيد .

ذهولك في الموت أغبطك عليه دائماً ،
ايها المؤمنون المراعون للحب حتى العذاب
ويا من تعرفون تذوق اللذات المرة
لتكونوا شهداء حبكم .

امزج نفسك المتأثرة بالكون
وتابع الحياة في كل مكان ، في اعماق الهوات السحيقة
او الحياة المضيئة الصافية الهادئة على رؤوس القمم
ثم اسقط هادئاً نشيطاً في « العمل » !

اعز الفقير — ملك الفقراء !
الذي يستميح قوته
ولكن نفسه المحبة مشعلة من نار !
هنالك توابون شبيهون بالأسود
وتوابون يشبه غضبهم غضب الكون وتمرده
وتوابون ترتجف امامهم الملوك

ماذا تستطيع ان تتمنى ايها القلب الاكبر من الوجود
شيئاً غير الحب ، وغير الجنون فيه ، وغير مؤازرتك بدون نهاية للشقاء الذي
يدوي ، شقاء من في نفوسهم ظمأ
وفي اجسادهم جوع

إذا كان الملكوت الحقيقي هو في المعرفة ،
واذا كان العاقل متدرعاً بمثل هذه القوة ،

سيداً على نفسهِ وسيداً على الاشياء ،
فان الكنز الحقيقي الرائع هو في افئدة العاشقين ،

ينبغي لهُ ان يعطي عينيهِ ، ويجود بنفسهِ ،
ويودع شفتيهِ ويسمح بدمه وهواه وناره ،
ويعطي نفسهُ كلها كما تفعل الشمس
قبل أن يغرق في النعاس الأزلي

الصوفي يعلم الرغبة المتأججة في صدور الناس ليكونوا سعداء ،
ويعلم ان في سيئاتهم سيئات الاجداد
ولكنهُ رفيق محب مشفق عليهم
يوزع هبات قلبه وحبه على جميع الكائنات .

وراء ملذاتك لا تزال لك ملذة اخرى :
ان تذهب فقيراً حقيراً مأخوذاً بجنون الحب نحو المتألمين
تلثمهم بكل نفسك وقلبك ،
اولئك المتألمين الاموات المرتعشين في الليل البارد الذي يُرخي سدوله عليهم.

اجعل حلمك أليفاً مع الابدية
وعوّد عينيك النظر في هوة الفضاء .
وفي كل هذا الغمر المجهول الذي تتضاءل عنده جرأة الانسان المحدودة

وهكذا تتدحرج المادة كنهر كبير .
وكل شيء يتبدل . ولا شيء يموت .
في الهاوية العميقة تدور الاسباب ، وتتحول الاعمال
والاشياء تتآلف وتتفكك بلا انتهاء !

ان المتأمل في الحياة الخالدة الذاهل في مادتها كأنهُ متلاشٍ فيها ،
يري الغد لا شيء عنده ، ولا الامس ولا اليوم .
ويجد ان الحياة والموت كلمة لا معنى لها (انتهى)

الرئيس ماساريك

رأيه في الديمقراطية والفاشية

لعلي أدهم

في ١٤ سبتمبر من العام الفارط مات توماس ماساريك رئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا السابق فطويت بموته حياة سريّة وختمت سيرة عاطرة وغاب عن ميدان السياسة الاوربية سياسي من اعالي الابطال صانعي التاريخ وبناة الدول . ولعل اكبر عزاء لامته عن فقده انهُ مات بعد ان نضجت سنه وأدى واجبه وأبلغ رسالته على اتم ما يكون اداء الواجب وتبليغ الرسالة وارتقى ذروة المجد الخالد وظفر بالتقدير القمين بمثله والجدير بما تم على يديه

وقد استطاع ماساريك خلال تلك السنوات المليئة بالحوادث العاصفة التي تلت الحرب الكبرى وبين الانقلابات الهادمة والتغيرات الطارئة ان يحتفظ بتشيكوسلوفاكيا واحة مزدهرة ظليلة في وسط صحراوات جرد من الديكتاتوريات وحكومات الغشم والطغيان ولقد كان في سعيه الى تأسيس الجمهورية وتولي رآستها مثلاً من امثلة العزم الصارم والشجاعة الخارقة وقد اثبت في السنوات التي تولى فيها الرآسة وأشرف على مقاليد السلطة انهُ سياسي بعيد النظر رحب الافق نبيل المقصد

وقد ولد ماساريك عام ١٨٥٢ في قرية صغيرة وبدأ حياته عملاً منقطع النصير وحيداً من الخلان وزاول في صدر حياته بعض المهن الشاقة والحرف الكاسدة ثم عالج التدريس بفضل صبره وقوة احتماله وبعد جهد شاق استطاع ان يحرز اجازة في الفلسفة وقد مكنته سعة المامه بمذاهب الفكر وتضلعه من الفلسفة من ان يصل وهو في سن الثانية والثلاثين الى منصب استاذ الفلسفة في جامعة براج وهناك تجلت مواهبه ونبه شأنه وسمت مكانته

وأتاح له ذلك فرصة التوفر على البحث والتحرر للكتابة فاخذ يضع غرر التصانيف وينشر روائع البحوث في الادب والنقد والفلسفة والسياسة ويلقي شائق المحاضرات ويضمنها سديد الآراء وناضج الافكار وامتاز بخصلتين بارزتين ميله الشديد الى العدالة الاجتماعية وشدة تأثيره في نفوس تلامذته ومريديه حتى صاروا يتخذونه قدوة لهم ويتأثرون خطواته في طلب المثل العليا ونشدان الكمال. ومهد لهُ ذلك السبيل الى دخول مجلس النواب، وحدثت محاكمة هلسنر اليهودي لاتهامه بقتل فتاة بوهيمية واقتنع ماساريك بعد بحث تلك القضية وتغلغله الى دقائقها ببراءة هلسنر فانبرى للدفاع عنه وصمد لذلك في وجه التهم والاقاويل التي كانت تنهال عليه جزافاً وقد اثبت موقفه

النبيل في هذه المحاكمة انهُ كان يجمع في نفسه بين العاطفة القوية والبصيرة النافذة، وعارض السياسة النمساوية التي كانت ترمي إلى اضعاف شخصية أمته وإدماجها في العنصر الالماني وفي سنة ١٨٩٠ حمل لواء الحركة الوطنية التشيكوسلافية ولمس روح قومه واخذ يعمل على اثبات كيانها وتحقيق وجودها، وثارت الحرب الكبري فنبت بهِ بلاده وجاب الاقطار حتى انتهى بهِ المطاف الى لندن حيث اختارتهُ كلية الملك ليكون ضمن اساتذتها وهناك تهيأت له الفرصة لتدبير أمر استقلال بلاده وتنظيم حركته وكان يؤيده في ذلك ويشد ازره صديقه بنش، وترادفت عليهِ المتاعب واعترضت طريقه الصعاب فلم يتداركه وهن وتغلب بثاقب عزمه على العقبات المعترضة وقد كان انتصاره انتصار رجل حلق الاحلام بعيد الآمال ولكنهُ أوتي قوة العزيمة على تحقيق احلامه وتصديق آماله

وكان من الطبيعي ان لا تنسى لهُ امته بعد ذلك سابق خدماته وسالف تضحياتهِ وكده في نيل حريتها وتأثيل مكانتها فاصطفتهُ لرئاسة الجمهورية ولم يكن ذلك من هين الامور فقد كان عليهِ أن يعبّد لقومه الطريق الوعر ويقيم لهم الحدود ويرسم لهم الخطط وينكر مستحدث التقاليد وكانت هناك اقليات عليهِ أن يحسن السياسة معها ويلتزم القصد ليزيل نفورها ووحشتها ويؤلف بين قلوبها، وكان عليهِ أن يبث حماستهُ في الاعمال الادارية وان يفيض من ضوء عبقريتهِ على التفاصيل اليومية الدارجة ورغم ما يؤخذ عليهِ بعض نقاد سياستهِ من الاخطاء ووجوه التقصير فان الذي يلقي نظرة شاملة على سياسته لا يخالجهُ شك في أن ماساريك قد اجاد وضع الاساس وأحسن تشييد البناء حتى اصبحت تشيكوسلوفاكيا بفضل سياستهِ ومبادئهِ السامية قوة ادبية يلوذ بها طلاب الحرية

وقد نهض بالتعليم نهضة صادقة ورفع مستواه حتى صارت معايير التشيكوسلافيين الفكرية محلاً للتقدير وسما بالتشريع حتى اصبحت قوانين بلاده تضارع قوانين أرقى الامم وأعرقها حضارة وتمدناً وقد لقن قومه حب الحرية السياسية وعلمهم اذا اقتضى الامر ان يجودوا بارواحهم في الذود عن حياضها

والعمل الذي قام بهِ ماساريك باهر راجح من اية ناحية تواجهه وبأي ميزان تحاول وزنه، وإذا عزونا نجاحه وتوفيقه الى قوة الظروف والملابسات والى ان امبراطورية النمسا العتيقة المتهدمة قد طوعت لهُ الفرصة السانحة وافسحت لهُ مجال العمل ثم جاءت الحرب الكبرى فمكنتهُ من أن يتحين الظروف المؤاتية والى انهُ قد وجد في صديقه بنش خير عضد له، فانهُ لا نزاع بعد ذلك في أن الرجل قد راض قومه على اساليب الحكم الصالح وضرب لهم خير الامثلة وعوّدهم الديمقراطية الصحيحة الحقة، فالانتخابات في تشيكوسلوفاكيا حرة والتعليم هناك

يفسح المجال للاستباق في مضمار النبوغ وحرية الاجتماع مكفولة وحرية ابداء الرأي والنقد مصونة وليس بين من تخرجوا في مدرسة ماساريك من يفكر في الانقلاب على الديمقراطية والتنكر لمبادئها ، ومن اقوى الادلة على اقتداره انهُ استطاع توطيد مبادىء الديمقراطية وتعزيز مكانتها في الظروف الالحة التي يعانيها هذا العصر المضطرب وفي تلك الليالي الحبالى بكل عجيبة

وقد ظلَّ هذا الاستاذ الاديب والسياسي الفيلسوف يأتيه التشريف وبوافيه الاعجاب من مختلف اطراف الارض وهو مع ذلك مؤثر للبساطة في عاداتهِ واخلاقهِ لا يزهى ولا يتكبر ولا تأخذه نشوة الشهرة ولا تضلهُ سطوة الحكم وظل كدأبه ولوعاً بالدرس عاكفاً على مطالعة الروايات والتملي من فنون الادب وفي سويعات فراغهِ واستجمامهِ يرتاض في الخلوات مشياً على القدم او ممتطياً صهوة جواده ولا ينفض عنهُ الناس ولا يقصيهِ عنهم الحجاب ولم ينس انهُ نشأ من سواد الشعب وان قوته قائمة على تصديقهم بمثله الاعلى ومشاركتهم لهُ في الايمان بهِ فهو في العصر الحديث خير نموذج للحاكم الفيلسوف الذي تصوره افلاطون

ويرى الاستاذ لاسكي ان السر في نجاح ماساريك يرجع الى شخصيتهِ الجذابة المحببة وأخلاقهِ المتينة الرضية وجمعه بين العقل المفكر الرزين والعاطفة الحارة الفوارة وتزاوج الرأي بالشجاعة ، ولم يكن ماساريك فظًّا غليظ القلب فينفض من حوله الانصار بل كان اخلاصه التام وتفانيه في خدمة مبادئه وافكاره يدني منهُ قلوب عارفيهِ ويمكنهُ من قيادهم مختارين مغتبطين لانهم يستظلون بدوحتهِ ويستمتعون بأنافيض آرائهِ ومنثور حكمتهِ ، ولقد كسب الحرية لمواطنيهِ ومزجها بنفوسهم واجراها في طبائعهم ولم يلمس شيئاً الاَّ اضاءه بذكائهِ المشرق ونقاه من الاوشاب بصفاء نفسه ونزاهة اغراضه

ماساريك والفاشية

وأنقل هنا رأيه في الحكومة الفاشية ودفاعهِ عن الديمقراطية لأعرض على القارىء مثالاً من تفكيره وسديد نظراتهِ معتمداً في ذلك على احاديثه مع الكاتب المعاصر اميل لودفج أحد نوابغ كتاب التراجم في العصر الحديث وهي أحاديث امينة الرواية صحيحة الاسناد — قال عن الفاشية « ليست الفاشية كتاباً للسياسات العملية والادارة الحكومية وانما هي مذهب من مذاهب الحياة وأسلوب من أساليب تقويمها فهي فلسفة اقرب ما تكون الى الفلسفة الاخلاقية . لقد عنيت بنظرة الفاشية الى الحياة فأوسعتها بحثاً من الوجهة النظرية واقتفيت آثار سياستها ولقد شرح موسوليني المذهب الفاشي في دائرة المعارف الايطالية شرحاً شائقاً وأنا اقره على بعض ما ورد فيهِ واخالفهُ في بعضهِ وانما اريد الموازنة بين المبادىء

الديمقراطية والمبادىء الفاشستية ، لقد اعلن موسوليني عداءه للمادية والوضعية واكد روحية نظرته الى الدنيا والحياة دون ان يصف في شيء من التفصيل افكار فلسفته الاساسية ، وقد دارت اكثر احاديثه وكتاباته حول مسألة الدولة والوطن . والفاشية مثل كل نظام سياسي يعنيها ويشغلها تحديد العلاقة بين الفرد والنظام الاجتماعي ، وموسوليني عدو للفردية وهو لا يعرف الفرد الا باعتباره جزءا متمما للدولة والدولة في نظره تطور تاريخي وهي الضمير العام والارادة الشاملة ، وأنا من الوجهة النفسية ومن الناحية التاريخية ومن الجانب الاخلاقي كذلك لا استطيع التسليم بان الضمير الفردي مستغرق في ضمير عام ملفوف في تضاعيفه ولا اصدق بوجود ما يسمونهُ الضمير العام او الارادة العامة فليس هناك سوى ضمائر فردية ومن الوجهة السياسية فاننا لا نرى امامنا سوى مجاميع من الافراد وهؤلاء الافراد يمكن ان تكوّن منهم وحدة ويجمعهم نظام مختلف الاشكال والفاشية اسلوب من اساليبه

ولاعتقادي بالفردية لا استطيع ان اقبل فكرة ان الحكومة او الوطن او الشعب يتجسم في افراد قلائل او يجتمع في فرد واحد ، واعرف ان بين علماء الاجتماع واصحاب النظريات السياسية من يؤمنون بوجود ضمير عام وينكرون الضمير الفردي ولكن هذا التصور لا يقوم على اساس علمي وهو مشتق من تبعة الفكرة الارستقراطية في السياسة

والدولة عند الفاشية هي جماع كل شيء فهي اعرق من الوطن والشعب وهي تكون الوطن والوطن لا يكونها فهي صميم الوجود وروح الروح ومعنى هذا ان ضمير الدولة وهو الوحي الذي يستلهمه جميع الافراد من خاملين وبارزين ويعمل بمقتضاه الفنانون والمفكرون والسياسيون ، فليس عمل الحكومة الفاشية مقصوراً على سن القوانين ووضع الشرائع وادارة دفة السياسة وانما يشمل تنظيم الحياة الروحية ورسم القواعد الاخلاقية والدولة هي السلطة الوحيدة المتفردة المتمادية ولاحدود لنموها لانها غير محدودة وانهُ لما يروق ويعجب ان يسترسل الانسان في بسط تعاريف الفاشية وبيان اغراضها ومنازعها واكنني ان ألاحظ انها من ثمرات الخيال اكثر مما هي من نتاج العقل

والدولة الفاشية لا تروم تشكيل صور لوجود الانسان على انماط جديدة فحسب وانما ترمي الى تنقيح محتويات ذلك الوجود بما فيهِ من رجال واخلاق ومعتقدات ولهذه الغاية تحاول ان يكون لها سلطة تامة تهيمن بها على العقول وتسيطر على الاخلاق بلا معارضة ولا تعقيب ، وفي رأي الفاشية ان عصر الديمقراطية قد انتهى بالحرب الكبرى

ويبدو لي ان الدين والكنيسة قد كان لهما شأن كبير في تكوين عقلية موسوليني وصياغة افكاره وأثرا فيهِ اكثر مما اثرت النظريات السياسية والآراء التي يتلقاها الانسان في ابان نشأته من

المدرسين الذي يحبهم ومن والديه لها تأثير كبير ، فالروح الدينية الصارمة والقول بتنزيه الكنيسة عن الخطأ وتسويغ سلوكها في مختلف الشؤون لقداستها وارتفاعها عن النقد تصبح تنزيهاً للحكومة والامة وتحيطهما بقداسة تحرم النقد وتفرض الطاعة والولاء فرضاً ، وقد اقتبست الفاشية من الكاثوليكية مظاهرها ورموزها ونظامها ، وتتظاهر الفاشية بمناصرة الدين المسيحي ولكنها ترمي من وراء ذلك الى غاية سياسية لان المبدأين المسيحيين الهامين وهما مبدأ حب الناس بعضهم لبعض ومبدأ الاخاء العام للنوع الانساني مما يحير الفاشية ويربكها وهما في نظرها اوهام وخيالات سمادير والفاشية تنبذ المثل الاعلى للسلام لان الحياة عندها معركة ابدية ومن ثمّ تدريبها الشبان وتلقينهم الروح الحربية

ومحاولة الفاشية احياء الروح الرومانية جدير بالتساؤل اذ يشك في قيامه على اساس تاريخي متين لان كبار فلاسفة الرومان واليونان كانوا يبشرون بالمثل الاعلى للانسانية وأنضج العقول في روما وأنبل الشخصيات كانت تقاوم النزعة الحربية والروح الاستعمارية

ولم تستطع الفاشية السائدة ولا النزعة الالمانية المتطرفة ان يزعزعا ايماني بالديمقراطية ، ولتحليل الفاشية يلزم بطبيعة الحال أن تنظر الى منشأها وتطورها وان نكشف عن عواملها المختلفة وقد ذكرت تأثير الكنيسة وفكرة احياء الامبراطورية الرومانية ورغم معارضة موسوليني للمركسية او بسبب ذلك فانّ في تعاليمه قدراً كبيراً من المركسية من امثال ذلك محاولة نقل الجماعات الى الدولة وفكرة إقامة الديكتاتورية

الديمقراطية والديكتاتورية

ولقد سألتني[1] عن الفاشية لتوازن بينها وبين الديمقراطية من ناحية مسألة السلطة والحرية وأنا اقول بان الديمقراطية تعترف بالسلطة ولكنها تحرص على ان تجمع بينها وبين الحرية

ولقد كانت الحكومة الدينية سابقة للديمقراطية وكان هذا النظام العتيق نظام السلطة التيوقراطية يعترف باستمداد السلطة من الله أو من الآلهة ويقول بان القساوسة والحكام ورجال الدين على اختلاف طبقاتهم يستمدون سلطتهم من ذلك المصدر المقدس وكانت الانظمة التي قامت على هذه العقيدة أنظمة دينية ارستقراطية مطلقة ، ولكن الحكومة الديمقراطية ليست من نوع الحكومات المطلقة فهي تسمح بالنقد وترحب به ومن مزاياها الاعتدال وهي ترتكز على

(١) الحديث موجه هنا الى اميل لودفيج

الاخلاق لاعلى الدين وتقوم من الوجهة الفكرية على العلم والفلسفة لاعلى اللاهوت والفقه الديني

ولقدكانت الحكومات في سالف الزمن تستعين بنظرية السلطة المطلقة لتخرس النقد وتكم الافواه ولكن الحكومة التي يباشر اعمالها في العصر الحديث اعضاء يستمدون سلطتهم من الامة لا يمكن ان تدعي العصمة لاعمالها ، والحكم القائم على الارادة المطلقة ونظرية الحق المقدس ادى الى قيام الثورات وبسبب آثاره السيئة لا تزال روح الثورة تختلج في النفوس ، وكل من يستطيع ان يفكر تفكيراً سياسيًّا منظماً يعترف بنظرية السلطة ويصبر على ضرورة الولاء للدولة ولكنه يقف في نفس الوقت الى جانب حقوق الحرية والحرية معناها حق التجديد والابتكار في كل فرع من فروع الحياة وكل ناحية من نواحيها وبخاصة في العالم السياسي . وهي تستلزم قبل كل شيء عرض الافكار والنظم والسلوك السياسي على محك النقد ومن ثم فان اول ما تعمل الديمقراطية على ايجاده هي فضيلة التسامح والاعتدال وبذلك تستطيع ان تتغلب على روح الثورة المتمكنة من نفوس القوم في العصر الحديث وتمحو الاسباب التي تدعوالى الصراع والكفاح بين الديمقراطية والنظم الارستقراطية التي اخلقت جدتها وذبلت نضارتها ، بل اني اقول الصبر بدلاً من الاعتدال واقصد به الصبر السياسي والصبر لازمة من اللوازم لنجاح الديمقراطية وتوفيقها »

ويعلل ماساريك الاخفاق الذي منيت به الديمقراطية الجديدة بقوله « ان الديمقراطية الحديثة لا تزال في دور الحداثة والنظام القديم قد استغرق آلاف السنين ليستتم نموه ويكتمل نضجه وقد تأصلت جذوره واستطالت فروعه في حين ان الديمقراطية نشأت مع الثورة الفرنسية فهي في دور النشوء والنمو والمستقبل لها . واذا نظرنا الى خريطة اوربا وجدنا ان اكثر دولها جمهوريات او ملكيات دستورية فلا تزال اغلبها مستمسكاً بالديمقراطيـة ، وليس مما يزري بالديمقراطية ان اصرح بانها لا تزال بعيدة عن الكمال ولا تزال يعتورها النقص وهل كانت حكومات المانيا والنمسا والروسيا الملكية كاملة من الوجهة الديمقراطية ؟ وما الذي احدث الحرب الكبرى ؟ ومن الذي فقد الحرب ؟ هل هي الديمقراطية ؟ وما الذي ادى الى الازمة الاقتصادية ؟ هل هي الديمقراطية ؟

اما عن الديكتاتوريات فانتظر وستعلم خاتمتها ، وأوربا رغم ذلك كله آخذة في نبذ النظام القديم فليس هناك امة تحاول قبول النظام القديم مهما كان رأيها في الديمقراطية ، واني احرص على ضرورة التفريق بين الديمقراطية والفوضى وان اميز الديمقراطية السلبية من الديمقراطية الايجابية : وقد كانت بعض الامم تستجيب لاسمى مبادىء الديمقراطية في مقاومتها للنظام العتيق ولكنها عند ما اسقطت ذلك النظام وحاولت تطبيق الديمقراطية اي القوة السياسية والحكم بارادة الشعب لا بارادة الله شاب تفكيرها وعلقت بأساليبها طرائق التفكير القديم وجرائم العهد

البائد وليست الديمقراطية مجرد نظام سياسي واسلوب من اساليب الحكم وانما هي فلسفة حياة يحترم بمقتضاها كل مواطن زميله وصنوه ومعنى الديمقراطية هو تساوي الحقوق

ومن شأن النظرات السياسية المتطرفة ان لا تصيب الهدف عند أول محاولة وقد كان هذا هو حال الثورة الفرنسية وردود الفعل المختلفة والانتكاسات التي تعقب الثورات ليست بالشيء الحديث . وهي لا تقدح في البرنامج ولا تعيب النظام وانما هي تنال من سياسة ابطاله والموكول اليهم امر تطبيقه ، ولقد كانت اوربا معملاً للتجارب السياسية وستظل كذلك ردحاً من الزمن وهذا واضح الوضوح كله لكل من له ادنى المام بالسياسة ، ونحن نعيش في عصر انتقال كبير والنظام القديم يتحول من جميع نواحيه الى نظام جديد ، وعند ما ينادي موسوليني وجبلز بان انظمتهما هي اصفى انواع الديمقراطية ارى في ذلك اعترافاً بفضل الديمقراطية التي أتحدث عنها

واجل ما في الديمقراطية ان اعمالها لا تحاط بالاسرار ولا تنجز في الظلام وانما تبحث في وضح النهار وعلى مسمع من العدو والصديق ، وفي النظام الديمقراطي لكل مواطن الحق في اعطاء صوته ويلزمه ذلك ان يكون على بينة ودراية بسير الاحوال ومن ثمّ ضرورة الصحافة الحرة الراقية النزيهة والمجالس النيابية والديمقراطية بطبيعة الحال كسائر انواع الحكم في حاجة الى ادارة قديرة وحكومة مستنيرة ورجال تقدم وعرفان لهم قدرة على التوجيه وحسن استعداد للبناء ولهم تجربة صحيحة وخبرة مستفيضة بتصريف الامور ومعالجة الشؤون المختلفة ونظرة سياسية متسعة المدى . واني اقول لمن يشكون الحرية السياسية وينكرون على الصحافة حريتها ان العلاج الوحيد لذلك هو الاكثار من الحرية وليس معنى الحرية تمهيد السبيل للفوضى والجهل والعجز

علي أدهم

طريق الحق

لما شاهد المسافر الطريق الى الحق

اخذهُ العجب لانهُ رأى الاعشاب تغطيهِ

فقال : أرى ان احداً لم يسر عليهِ منذ زمن

طويل . ثم تبين ان كل عشبة سكين حادّة :

فقال لا بدّ ان يكون هنالك طرق أخرى

عن : ستيفن كراين

الشؤون الدولية

في سنة ١٩٣٧

اذا خلا الباحث الى نفسه ، وارتدّ بذهنه الى حوادث العام الماضي في حلبة السياسة الدولية ، تبين اتجاهين عامين ، ينتظمان معظم هذه الحوادث . اما الاتجاه الاول فجذب ودفع بين فريقين من الدول احدهما فريق يريد تبديل الحالة القائمة،وحكومات دوله قائمة على مبدأ الزعامة فهو في شئون السياسة الخارجية ، مقدم يعمد الى امتحان قوة الدول الاخرى بالتهديد آناً وبالمطالبة بتنقيح بعض الاتفاقات والمعاهدات آناً آخر . ومن هذا القبيل تعزيز محور روما برلين وتحويله الى مثلث بانضمام ايطاليا الى الاتفاق الالماني الياباني ضد الشيوعية ، وامداد قوات الجنرال فرانكو في اسبانيا ، وتأييد موقف اليابان في الشرق الاقصى داخل مؤتمر بروكسل وخارجه،وخروج ايطاليا من العصبة واعترافها بمنشوكو

اما الاتجاه الآخر فهو سقوط هيبة القانون الدولي والعرف المتبع في العلاقات الدولية ، وقد اشار الرئيس روزفلت الى ذلك في خطبته المشهورة التي ألقاها في شيكاغو في ٥ اكتوبر الماضي اذ وصفهُ بوباء يجب كفاحه بفرض — الحجر الصحي — عليه . وهو متمثل في غزو اليابان للصين خارجة في ذلك على معاهدة الدول التسع وميثاق تحريم الحرب المشهور بميثاق كيلوج بريان ، وفرضها الحصر البحري على سواحل الصين مع ان حرباً لم تعلن . ومن هذا القبيل حادثة اصابة السفير البريطاني في الصين ، واغراق المدفعية الاميركية باناي في نهر الينجتسي ، وتفشي القرصنة في البحر المتوسط ، الى ان وضعت قرارات مؤتمر نيون حداً لها

الحرب الاهلية الاسبانية

يلخص ما تمّ في اسبانيا من ناحيتها الداخلية ، في فوز قوات الجنرال فرانكو في شمال اسبانيا وسقوط بلباو وسنتندر وجيجون في الشمال ، ومالقة في الجنوب في يديها ، فصار الحكم الفعلي في نحو ثلاثة أخماس اسبانيا للجنرال فرانكو وصحبه . وكان الظن انهُ بعد هذا الفوز في الشمال تطلق قواته الشمالية او معظمها فتنضم الى سائر قواته في هجوم حربي عام في منطقة مدريد ومنطقة اراجون وترويل،ولكن فصل الشتاء اقبل ببرده وزمهريره وهذا الهجوم لم يقع

ولذلك قدر الكتاب الحربيون ان ساعة الحسم في الحرب الاهلية الاسبانية لا بدّ ان تتأخر الى الربيع القادم عند ما يصبح الجو الاسباني في النجدين القشتالي والاراجوني صالحاً مواتياً للاعمال الحربية الواسعة النطاق

اما في ناحية الحكومة ، فقد سقطت حكومة كاباليرو وألفت وزارة نجرين يؤيده فيها السنيور انداليسيو بريتو فاتجهت الوزارة الجديدة الى هدفين ، الاول تعزيز مكانتها الداخلية بضم العناصر المعتدلة اليها ، وفرض النظام والقانون على العناصر المتطرفة الى اليسار واشراك قطلونية في أعمال الدفاع ، ولهذا الغرض انتقلت الوزارة الأسبانية من بلنسية الى برشلونة . هذا هو الهدف الاول ، والكتّاب الذين زاروا اسبانيا في العهد الاخير ، يجمعون على ان وزارة السنيور نجرين قد حققت كل ما تبغيه في هذا الصدد او معظمهُ على الاقل

اما الهدف الآخر فهو تنظيم جيش قوي مدرب يعتمد على نفسه ، وكذلك تنظيم مصانع الاسلحة حتى تستطيع ان تمد ذلك الجيش بأكثر ما يحتاج اليه. والهجوم العنيف الذي قامت به قوات الحكومة على ترويل في الايام العشرة الاخيرة من السنة الماضية دليل على مبلغ ما أدركتهُ الحكومة الاسبانية في هذا المضمار

ولكن هذا لا ينفي أن جيش الحكومة في حاجة الى استيراد المدافع الضخمة والدبابات والمدافع المقاومة للدبابات والطيارات ، علاوة على حاجتها الى مواد الطعام لان ما تنتجه البلاد التي لا تزال في قبضتها من الطعام لا يكفيها مقداراً ونوعاً . ولا سيما اذا تمكنت قوات الجنرال فرانكو من فرض الحصر البحري على سواحل اسبانيا الحكومية . وهذا في نطاق قدرتها من الناحية البحرية لان معظم الاسطول الاسباني موالٍ لها ، ولها في جزيرة ميورقة من جزائر البليار قاعدة لا تفوقها قاعدة للقيام بهذا العمل . ولكن يلوح أن انكلترا لن ترضى بالتخلي عن حقوقها في هذا الصدد زاعمة ان القانون الدولي لا يجيز للجنرال فرانكو فرض هذا الحصر وهو لم يمنح بعد حقوق المحاربين وليس في وسعه أن يجعله حصراً فعالاً . وقد أرسلت وزارة البحرية البريطانية التعليمات الى اسطولها في البحر المتوسط بأن لا تذعن سفنه لما يصدر من سفن الجنرال فرانكو الحربية الى السفن البريطانية التجارية

***

خطة عدم التدخل وملابساتها

كانت سياسة عدم التدخل التي اقترحتها فرنسا وايدتها انكلترا وتلكأت ايطاليا والمانيا في قبولها ، بدعة في السياسة الدولية لانهُ من المفروض عقلاً وقانوناً دوليًّا الامتناع من

التدخل في شؤون دولة اجنبية إذا وقع فيها خلاف داخلي . بل من المفروض ان تؤيد الحكومة الشرعية القائمة حتى تتمكن من خضد شوكة المنتقضين على سلطتها . ولكن اسبانيا واقعة عند مدخل البحر المتوسط وتملك جزائر البليار ، فموقعها الجغرافي والحربي ، وما في شبه الجزيرة من مصادر للمواد الخام -- كل ذلك ذو شأن عظيم في نظر الدول الاوروبية المتناضلة ، ولذلك اصبحت ميداناً لنزاع ايديولوجي بين الفاشستيين والشيوعيين. حالة ان انكلترا وفرنسا ترغبان في ابقاء الحال فيها على ما هي فاقترحت خطة عدم التدخل ، لكي تكون واقياً لاوربا من خطر التدخل الرسمي ، وحتى لا يتعدى النزاع الدولي في اسبانيا حدودها فيصبح نزاعاً اوربيًّا

فاذا أخذنا خطة عدم التدخل على انها رمت فعلاً الى منع التدخل في شؤون الحرب الاهلية الاسبانية ، فالحكم انها اخفقت كل الاخفاق، وحسبنا ان نشير الى ما تعترف بهِ المصادر الرسمية من وجود عشرات الالوف من المتطوعين الاجانب الذين اشتركوا مع الفريقين المتنازعين علاوة على الاسلحة والذخائر الاجنبية . اما اذا نظرنا اليها على انها ستار يخفي وراءه التدخل ، فلا يوسم بالسمة الرسمية ، لمنع خطره الدولي ، فالخطة قد حققت ما قصد اليهِ بها

ونحن اذا نظرنا الى أعمال اللجنة الدولية لعدم التدخل بلندن ، خلال السنة الماضية ، وما دار فيها من النضال والاخذ والرد ، والتراشق بالتهم ، ثبت لنا انها كانت بمنزلة صمام للتنفيس عن الضغائن الدولية ، ولاسيما ما كان منها ايديولوجيًّا

وقد عنيت اللجنة خلال السنة الماضية بمشروعين كبيرين، أحدهما الرقابة البحرية على سواحل اسبانيا ، لمنع وصول المدد الى الفريقين المتقاتلين من الدول التي تظاهرهما . وفعلاً اشتركت اساطيل انكلترا وفرنسا وايطاليا والمانيا في هذه المراقبة ، وظلت قائمة فعلاً الى ان حدثت حادثتا الطرادين الالمانيين — الدويتشلند (مايو) — والليبستش (يونيو) — فقد ألقيت على الطراد الاول قنابل من الجو ، اصابت دكته وقتلت بعض بحارته ، فثأرت المانيا لنفسها بضرب المرية وتهديم بعض مبانيها . وخرجت من اللجنة ثم عادت اليها بعد مفاوضات دقيقة ، وما كاد الامل يتجدد بامكان التعاون ، حتى حدثت حادثة الليبستش ، وملخصها ان غواصة اطلقت عليها قنبلة تحت الماء اصابتها ولم تحدث فيها عطلاً ، فطلبت المانيا اجراء مظاهرة بحرية مشتركة امام بلنسية بحسب الاتفاق الذي عادت الى اللجنة على اساسه ، فأبت انكلترا وفرنسا وروسيا ذلك قبل تحقيق الحادث وتعيين التبعة . فخرجت المانيا من نظام المراقبة . وجارتها ايطاليا . وظلت اللجنة تجتمع ، والنقاش يدور فيها حامياً ، الى ان بدأت حوادث الاعتداء على السفن التجارية في البحر المتوسط ثم استفحلت وهاج الرأي العام الدولي من جرائها ، مستعيداً ذكرى القرصنة في العصور الوسطى

عند ذلك رأت فرنسا وانكلترا وجوب القيام بعمل حاسم لحماية الطرق التجارية البحرية من اعتداء القرصان ، فدعتا الى عقد مؤتمر نيون ، في الاسبوع الاول من سبتمبر ، فابت ايطاليا الاشتراك فيه ، بعد مذكرة من روسيا اتهمتها فيه بأن الغواصات الايطالية هي المعتدية ، ولكن المؤتمر اجتمع ووضع قراراته بسرعة وحزم وهي قرارات فنية لا دخل للعنصر السياسي فيها وترك المجال فيها مفتوحاً لانضمام ايطاليا ، فأبت أولاً ، ولكن بعد مفاوضة طويلة ، قبلت ان ترسل خبراءها الى مؤتمر ثلاثي بباريس يشمل خبراء انكلترا وفرنسا وايطاليا البحريين ، فتمّ الاتفاق هناك على نصيب ايطاليا في مشروع الرقابة وحماية المواصلات في البحر المتوسط

وكانت انكلترا قد اعلنت بعيد مؤتمر نيون انها ستكف عن اعمال المراقبة على سواحل اسبانيا لكي تعبىء سفنها لحماية المواصلات البحرية بحسب مؤتمر نيون ، فكان في ذلك ختام المشروع الاول الذي حاولت به لجنة عدم التدخل الدولية تنفيذ خطة عدم التدخل في اسبانيا

***

اما المشروع الثاني الذي حاولته لجنة عدم التدخل ، فهو سحب المتطوعين الاجانب من اسبانيا ، وكان الرأي اولاً ان نجاح المؤتمر الثلاثي في باريس من شأنه ان يقوي الامل بنجاح مؤتمر ثلاثي آخر يحضره مندوبو انكلترا وفرنسا وايطاليا لبحث مسألة المتطوعين ، ولكن ايطاليا أبت ان تشترك في مؤتمر لا تدعى اليه المانيا ولا تشترك فيه ، وذهبت الى ان لجنة عدم التدخل هي الهيئة التي يقع على عاتقها معالجة هذا المشروع . فافضى هذا الرد الى هياج الرأي العام الفرنسي ، وجعلت الصحف تطالب بفتح الحدود الفرنسية الاسبانية ، ولكن السياسة البريطانية خففت من اندفاع الرأي العام الفرنسي وانسياق الوزارة الفرنسية في تياره ، فعادت المسألة برمتها الى لجنة عدم التدخل وبعد بحث طويل ، ومقترحات تقابلها مقترحات ، اتفقت لجنة عدم التدخل على الرضى ، بمبدأ السحب ، وانهُ عند ما يبلغ سحب المتطوعين مرتبة كافية — تقررها اللجنة — يعترف للجنرال فرنكو بحقوق المحاربين . وقد ابلغت نصوص هذه القرارات الى حكومتي الفريقين الاسبانيين ، فقبلتا المبدأ واعترضتا على بعض اساليب التطبيق ، وحتى آخر السنة لم يشرع في تنفيذ القرار

اليابان والصين

ان بواعث النزاع العنيف بين اليابان والصين — ولا ندعوه حرباً لان حرباً لم تعلن بحسب قواعد القانون الدولي — ليست بوليدة العهد الاخير ، وانما هي ترتد الى اواخر القرن الماضي ، عند ما اصبحت اليابان دولة صناعية ، لا يقوم لشعبها اود الاَّ بالصناعة والتجارة

الخارجية ، فهي لذلك تحتاج الى المواد الخام من ناحية والى الاسواق تبيع فيها منتجاتها من ناحية اخرى

وقد اقتطعت اليابان من الصين الكبرى كوريا اولاً ، ثم رسخت مصالحها المالية في منشوريا فلما نشبت الحرب الكبرى وانصرفت دول الغرب عن العناية بالصين ، عنيت بها اليابان ، وقد حاولت ان تفرض عليها سيطرتها في مطالبها المشهورة فأبت عليها الدول ذلك فاستردتها . ولما عقد مؤتمر وشنطن البحري سنة ١٩٢٢ اتفقت انكلترا واميركا واليابان على تحديد قوة البوارج في الاساطيل الثلاثة وفقاً للنسبة ٥ : ٥ : ٣ وصحب وضع المعاهدة البحرية المذكورة وضع معاهدة الدول التسع ، وفيها قطعت الدول عهداً باحترام وحدة الصين الجغرافية والسياسية ، والتزام سياسة الباب المفتوح في علاقاتها المالية والاقتصادية بها ، وظلت هاتان المعاهدتان قاعدة النظام السائد في الشرق الاقصى ، الى سنة ١٩٣١ عندما شرعت اليابان في اقتطاع قطعة اخرى من الصين فاحتلت منشوريا وجيهول سنتي ١٩٣٢ و١٩٣٣ وأنشأت منهما دولة منشوكو وأقامت امبراطوراً عليها هو آخر أباطرة الصين . فأفضت هذه الحوادث الى تحقيق لجنة ليتون المندوبة من قبل عصبة الامم ، فلم يرق هذا التقرير حكومة اليابان ، فتذرعت بما انطوى عليه من الحكم ضدها الى الخروج من عصبة الامم

الآن منشوكو لم تحقق لليابانيين من الناحية الاقتصادية ، كل الآمال المعقودة عليها ، فبذلت المساعي ، الى تنشيط حركة الاستقلال الذاتي ، في الولايات الصينية الشمالية ، مما يلي منشوكو ، وهي غنية بالمناجم فيها الفحم والحديد والبترول ، علاوة على كونها سوقاً واسعة يقطنها نحو ثمانين مليوناً من الصينيين . فخبطت هذه المساعي على الغالب ، وصحب ذلك تعزز الحكومة الصينية المركزية بزعامة المارشال شانغ كاي شك فاغتنمت اليابان فرصة انشغال الدول الاوربية التي لها مصالح كبيرة في الشرق الاقصى بشؤون أوروبا في السنة الماضية ، فتقدمت الى تحقيق فكرتها العريقة وهي انشاء شركة اقتصادية كبيرة في الشرق الاقصى ، تكون هي فيها الشريك الاكبر ، وكانت قد عززت مكانتها أزاء روسيا بعقدها الاتفاق الالماني الياباني لمقاومة الشيوعية في شهر نوفمبر من سنة ١٩٣٦

لذلك لما حدثت حادثة جسر ماركو بولو على مقربة من بكين في ٧ يوليو من السنة الماضية ، تعذرت تسويتها ، لان اليابان أبت ان تسويها مع حكومة الصين المركزية ، واصرت على تسويتها مع السلطات المحلية ، وأبت حكومة نكين ذلك لانهُ يعد تنازلاً عن سيادتها على شمال الصين ، فبدأ القتال والقراء قد تتبعوه في الصحف اليومية ، فاحتلت الجيوش اليابانية الولايات الخمس الشمالية وهي شاهار وهوبي وشانسي وسويان وشانتنغ أو معظمها ، وسارت جيوشها من شنغاي

حيث لقيت مقاومة عنيفة ، الى ننكين وهانغتشو ، ويقال ان في النية الآن الزحف جنوباً الى كانتون ولكن حكومة شانغ كاي شك انتقلت الى داخلية البلاد ويقال ان عزمها على المقاومة لا يزال قوياً

وكان من الطبيعي ان يفضي تغلغل اليابانيين في الصين ، الى الاصطدام بالمصالح الاجنبية فيها ، فنشأ عن ذلك حوادث متفرقة أثارت الرأي العام الاوربي والاميركي ومن اشهرها حادثة الاعتداء على السفير البريطاني السر ناتشبول هيوجسن واصابته بجراح خطيرة ، واغراق المدفعية الاميركية باناي في نهر اليانجستي امام ننكين

وقد توسلت الصين بعضويتها في عصبة الامم ، وبالدول الموقعة لمعاهدة الدول التسع ، فدعت الى تنفيذ ميثاق العصبة في مساعدتها . ولكن العصبة رأت وهي لم تزل تعاني آثار الاخفاق في فرض العقوبات على ايطاليا ، ان تكرار التجربة في فرضها على اليابان يعرضها حتماً الى اخفاق آخر . فأصدرت قراراً بلوم اليابان وتذرعت بموقف الولايات المتحدة الاميركية واهتمامها بشؤون الشرق الاقصى الى عقد مؤتمر بروكسل ، حتى تبعد المسألة عن محيط جنيف وكان حبوطه متوقعاً من قبل اجتماعه ، ولكنهُ دعي الى الاجتماع ، فمثلت فيه ايطاليا وأبت اليابان حضوره ، وحجتها ان معظم اعضائه دول اشترك ممثلوها بجنيف في لومها قبل الدعوة اليه . واصرت على وجوب حل المشكلة بينها وبين الصين بغير تدخل اجنبي . وحاول المؤتمر في غير قرار واحد ان يحمل اليابان على حضور المؤتمر او قبول التوسط فأبت ، وانفض على ذلك

وقد دعيت اليه المانيا كذلك ، ولكنها اعتذرت بحجة انها ليست من الدول التي وقعت معاهدة الدول التسع

ومما يتصل بمشكلة الشرق الاقصى انضمام ايطاليا الى الاتفاق الالماني الياباني لمقاومة الشيوعية في اوائل شهر نوفمبر وقد اسفر هذا الانضمام عن اعتراف ايطاليا بدولة منشوكو ووقوفها موقف المؤيد لليابان في الملابسات الدولية الناشئة عن حربها في الصين

الاستهتار بالقانون الدولي

ليس القانون الدولي بقانون في ادق معانيه . اي انهُ ليس اعراباً عن مشيئة سلطة ذات سيادة تملك تنفيذه ومعاقبة الخارج عليه . وانما هو عرف ، مستخرج من القواعد والمبادىء المقررة في المعاهدات المختلفة ، ليس لهُ سلطة القانون من الناحية الشرعية ولكن لهُ سلطة القانون من الناحية الادبية . وقد جرت الدول على احترامه وحساب الف حساب لما ينشئه الخروج عليه او الاستهتار به من اثر سيء في الرأي العام الدولي

وقد عانت الآداب والقوانين الدولية في السنة الماضية سقوطاً في هيبتها ، واستهتاراً في نقضها ، حتى وصف الرئيس روزفلت هذه الحالة في خطبة شيكاغو المشهورة « بوباء الاستهتار بالقانون » — والامثلة على ذلك كثيرة

خذ مثلاً على ذلك الحالة في الشرق الاقصى . ليس في التاريخ الحديث — حالة — عقد لضمانها من المواثيق والمعاهدات ما عقد لضمان الحالة في الصين . فسياسة الباب المفتوح ومعاهدة الدول التسع وميثاق تحريم الحرب كل اولئك عهود دولية قطعت ودونت في وثائق رسمية وهدفها الاحتفاظ باستقلال الصين ووحدتها والحيلولة دون تميز دولة على اخرى فيها . والنتيجة ان اليابان تجاهلتها جميعاً فاقتطعت منشوريا وجيهول سنتي ١٩٣١ و١٩٣٣ وها هي الآن في غمار حرب غرضها الاول انتزاع شمال الصين ولا يعلم احد الى اين ينتهي

ومع ذلك كله لم تعلن حرب حتى يعرف للقتال قواعد يجري بمقتضاها وذلك لان « الصين لم تفهم مقاصد اليابان فيجب ان تفهمها — او — ان تؤدب حتى تجثو على ركبها » على قول البرنس كونوي

او خذ الاعتداء على سفير انكلترا في الصين ، ليس ثمة من يقول بان اليابان قصدت الى الاعتداء عليه ولكن الاقوال اليابانية الاولى في هذا الصدد كان مؤداها ان الطيارين اليابانيين ظنوا ان المارشال شان كاي شك في السيارة وان العلم البريطاني كان صغيراً لم ير وان القيادة اليابانية لم تنبأ بانتقال السفير البريطاني على تلك الطريق . ومن هذا القبيل ضرب المدن المكشوفة بقنابل الطيارات واغراق المدفعية الاميركية باناي

او انتقل من الشرق الاقصى الى البحر المتوسط وقف قليلاً عند حوادث الاعتداء على السفن التجارية والحربية . فهي انتهاك لحرمة الملاحة والقانون الدولي والمعاهدات القائمة . فبعد سعي دام ستة عشر عاماً قبلت الدول البحرية المادة ٢٢ من معاهدة لندن البحرية وغرضها مستمد مما عانته الدول اثناء الحرب الكبرى من اهوال الغواصات وهو انهُ لا يجوز لغواصة ما في اثناء الحرب ان تغرق سفينة تجارية او تعطلها عن السير الاَّ بعد انذارها وتأمين سلامة ركابها وملاحيها ومستنداتها . واذا كان ذلك متفقاً على مراعاته في الحرب فأحرى بهِ ان يراعى ابان السلام ولاسيما مع سفن دول محايدة تقوم باعمال التجارة المشروعة

هذا الاستهتار بالقوانين الدولية والآداب الدولية ، ظاهرة خطيرة يتصف بها هذا العصر كما اتصفت بهِ بعض عصور الانحطاط الماضية ، وهو منبع طائفة من المشكلات التي تعانيها الامم ومن العبث ان تعالج بعض هذه المشكلات على حدة اذا لم يصد مد هذا التيار . فكيان الدولة الواحدة لاقوام له الاَّ بهيبة القانون واحترامه احتراماً ناشئاً عن الاقتناع بانهُ لازم لمصلحة الفرد والجماعة اكثر من نشوئهِ عن خوف العقاب

تزاور الاقطاب

وقد امتازت السنة الماضية في حلبة السياسة الدولية ، باتصال اقطاب الدول زيارة ومكاتبة ، وفي مقدمتها تبادل الرسائل بين المستر تشمبرلين والسنيور موسوليني ، واساسها الرغبة في تصفية المسائل المعلقة بين الدولتين، بحيث يجعل « اتفاق الكرام » الذي عقد في مستهل السنة ، اتفاقاً ذا شأن عملي ، وزيارة موسوليني لالمانيا حيث استقبل بحفاوة عظيمة فاسفرت زيارته عن تعزيز محور برلين روما والتأكيد بانهُ غير موجه ضد دولة بعينها وانهُ ليس بمحالفة ولكنهُ تنسيق لموقف الدولتين ازاء مشكلات اوربا العامة وفي طليعتها المشكلة الاسبانية ومكافحة الشيوعية وتنظيم قلب اوربا على أساس من التعاون الاقتصادي . ثم هناك رحلة لورد هاليفاكس الى المانيا واجتماعه بالهر هتلر لاستكشاف نية المانيا في ما يتعلق بالمستعمرات وشرق اوربا وميثاق اوربا الغربية وغيرها ويزعم بعض الباحثين ان زيارة موسوليني لالمانيا افضت الى تحويل محور برلين روما الى مثلث برلين روما طوكيو. وان زيارة لورد هاليفاكس لالمانيا عجلت في خروج ايطاليا من عصبة الامم

وقد عقب زيارة لورد هاليفاكس لالمانيا رحلة شوطان رئيس الوزارة الفرنسية والمسيو دلبوس وزير خارجيتها الى لندن حيث اجتمعا بأقطاب الوزارة البريطانية وتباحثا مليًّا في المشكلات الدولية القائمة على ضوء الحقائق التي تبينها لورد هاليفاكس في رحلته الالمانية ثم تلا ذلك رحلة المسيو دلبوس الى عواصم بولندة ورومانيا ويوجوسلافيا وتشكوسلوفاكيا لتعزيز اواصر الصداقة بين فرنسا وهذه البلدان التي كانت في ما مضى والى عهد قريب من اخلص اصدقاء فرنسا واوثقها ارتباطاً بها. ومن هذا القبيل زيارات اخرى قام بها اقطاب السياسة كالجنرال جورنج والهر فون ربنتروب لايطاليا ، وستويادينوفتش الى باريس ولندن وروما. وليس امامنا متسع لتفصيل هذه الرحلات وانما الغرض الاشارة اليها لتبيان العناية الكبيرة التي تعلقها الحكومات الآن على اتصال اقطابها باقطاب الحكومات الاخرى

حوادث واتجاهات متفرقة

في خلال السنة الماضية احتفل بتتويج الملك جورج السادس ملكاً على المملكة المتحدة وامبراطوراً على الهند والممتلكات البريطانية وراء البحار وتوالت المساعي الى تصحيح الحالة الدولية الاقتصادية ، بتخفيف بعض القيود التي تقيد بها التجارة الدولية وعهد الى المسيو فان زيلند رئيس وزارة بلجيكا في دراسة الحالة ووضع تقرير يضمنه مقترحاته في هذا الموضوع وقد انجز هذا التقرير وكان تقديمهُ الى حكومتي انكلترا وفرنسا منتظراً قبيل نهاية العام — ومضى ستالين في اضطهاد خصومه واعدامهم ، كما انه وضع الدستور السوفيتي الجديد موضع التنفيذ فجرت

انتخابات عامة في ١٢ دسمبر ويقال في تفسير هذا وذاك ان ستالين مرغم بمنطق الحوادث الدولية ان يرتد عن ارث لنين في الشيوعية الدولية ، الى تعزيز النزعة القومية في روسيا لتتمكن من التاهب لمواجهة اعدائها في الشرق والغرب — واشتدت مطالبة المانيا بمستعمراتها السابقة حتى اصبح هذا الموضوع من الموضوعات التي تعنى الحكومات به ولا سيما الحكومة البريطانية. وبريطانيا ازاءه فريقان، فريق متصلب يرى الامتناع بتاتاً عن ارجاع مستعمرات المانيا السابقة اليها وآخر يوافق على ارجاعها على ان يكون ذلك جزءاً من تسوية عامة — واسقطت وزارة بلوم في فرنسا على اثر اختلاف وقع بينها وبين مجلس الشيوخ على مسائل مالية ، فالفت وزارة جديدة برئاسة شوطان وانتظم فيه الاشتراكيون برئاسة زعيمهم بلوم رئيس الوزارة السابقة وخفض الفرنك تخفيضاً كبيراً

وعظم شأن الاضطرابات في المغرب الاقصى ، فقمعتها الحكومة بالشدة وعينت المسيو سارو وزير الدولة في الوزارة القائمة للاشراف على دراسة الحالة ووضع النظام اللازم لمعالجتها — ووقع انقلاب حكومي في البرازيل اذ أقام السنيور فارجاس نفسهُ دكتاتوراً ينوي ان يجعل البرازيل دولة نقابية بغير ان ينضم الى فريق ايديولوجي دون آخر في السياسة الدولية — ونشرت اللجنة الملكية التي عينت لبحث مشكلة فلسطين تقريرها الذي اقترحت فيه تقسيم البلاد الى منطقتين رئيسيتين احداهما لليهود واخرى للعرب . فاشتد الاعتراض على هذا الاقتراح من العرب جميعاً ومن بعض الانكليز — وتمت الانتخابات في الهند وفقاً للدستور الجديد ، وبعد ما امتنع حزب المؤتمر عن تولي الحكم في الولايات التي فاز فيها بالاكثرية تمَّ التفاهم بينهُ وبين الحكومة البريطانية على تفسير بعض نصوص الدستور فتولى الحكم في معظمها — واعلنت انكلترا وفرنسا (٢٤ ابريل) والمانيا (١٣ اكتوبر) ضمانها لسلامة البلجيك — واعلن تنفيذ دستور ارلندة الجديد ابتداء من منتصف ليل ٢٩ ديسمبر الماضي

وفيات

وقد توفي في خلال السنة الماضية خمسة من اكبر اقطاب السياسة العالمية هم السر اوستن تشمبرلين السياسي البريطاني المشهور باشتراكه في عقد معاهدة لوكارنو ، والمسيو دومرج رئيس الجمهورية الفرنسية سابقاً ، والمسيو ماساريك منشىء جمهورية تشكوسلوفاكيا ورئيسها الاول والمستر رمزي مكدونلد زعيم العمال في بريطانيا ورئيس وزارتيهم في سنتي ١٩٢٤ و ١٩٢٩، والمستر كلوج وزير خارجية اميركا سابقاً وصاحب ميثاق تحريم الحرب المشهور باسم ميثاق — كلوج بريان

القاهرة : ٣١ دسمبر ١٩٣٧

كلمة الافتتاح

يوم الطفولة

للدكتور محمد عبد المنعم رياض بك

في مثل هذا اليوم من العام الماضي دعت رابطة الاصلاح الاجتماعي الى عقد مؤتمر للطفل يحثت فيه اهم المسائل المرتبطة به وقد لاقى هذا المؤتمر نجاحاً كبيراً اذ وجّه النظر الى ما لهذا المخلوق الضعيف من اثر كبير في تكوين الامة فاذا قيل ان الطفل هو أبو الرجل او ان الطفل هو عماد المجتمع حتى انهُ يلقب « بصاحب الجلالة الطفل » فلنصدق هذا القول ولنؤيده بالعمل على حماية الطفولة من جميع الاخطار التي تهددها حتى نغذي المجتمع بأيدٍ عاملة قوية وأدمغة صحيحة متزنة . هذا هو اهم ما تعنى به بلاد العالم المتمدين في الوقت الحاضر الذي اصبح من اهم مميزاته دراسة الاطفال والعمل على اسعادهم حتى يخرج منهم جيل صالح سليم العقل والجسم ولهذا سمي هذا العصر بعصر الطفل The Century of the Child ولقد تغيرت في السنوات الاخيرة القواعد الخاصة بتربية الاطفال ورعاية صحتهم عما كانت عليه من قبل فبينما كان الاطفال يعاملون أولاً معاملة الكبار وتطبق في تربيتهم وتهذيبهم وعلاج أدوائهم نفس الوسائل التي تطبق على من تعدوا سن الطفولة أصبح للصغار الآن كيان خاص ومقام يختلف كل الاختلاف عن مقام الكبار فللاطفال مشكلات خاصة تحل بوسائل تصلح لهم ولتربيتهم أساليب خاصة ولعلاجهم مما ينتابهم من أمراض طرق علاج خاصة ، تجدون هذا ظاهراً في نواحٍ متعددة ففي الطب اصبح علاج الاطفال اختصاصاً قائماً على حدة لهُ من القواعد والاساليب الحديثة ما لم يكن معروفاً من قبل

وفي التربية والتعليم وضعت طرائق بعينها للاطفال بل وضعت طرائق لكل طبقة منهم تغاير الطرق القديمة فانتهى عهد التخويف والتأديب الجسماني ولم يعد المعلم يطبق ما كان يقولهُ الآباء من قبل في سبيل التوصية على أولادهم « اضرب وأنا أداوي » بل أصبح هم المعلم ان يغرس في نفوس الاطفال ثقتهم بأنفسهم ومحبتهم للعلم والمدرسة — كذلك تغيرت معاملة الاطفال اذا ارتكبوا جرماً يستدعي محاكمتهم او عقابهم فافردت لهم محاكم خاصة لا علنية فيها بل اشبه ما يكون بمجالس عائلية يتبين فيها القاضي حالة الطفل وظروفه وبيئته والاسباب التي دفعتهُ الى الاجرام ويبحث عن طريق لانقاذه واعادته الى الطريق السوي ولا يقف في سبيل القاضي للوصول الى هذا الغرض ارتباط الطفل باسرته بل أصبح هذا الارتباط ثانوياً ازاء الغاية التي تنشد من انقاذ الطفل فيستطيع القاضي في البلاد الغربية أن ينزع الطفل من السلطة الابوية غير الرشيدة ويقضي بسقوطها وهذا نظام لم يقتبس بعد في مصر مع شدة حاجتنا اليه اذ كثيراً ما نرى ان السبب في فساد كثير من الاولاد او ضلالهم يرجع الى القدوة السيئة التي يجدونها من اب

مجرم او غير صالح للابوة . واذا ظهرت حاجة الطفل الى الاصلاح او التهذيب فانهُ يوضع في دور خاصة لذلك هي دور الاصلاحيات ولا يرسل الى سجون عادية كما كان الامر قبلاً . وكذلك اصبحت للاطفال نظم تتفق وحاجتهم . على ان هذه النظم ذاتها اصبحت تختلف باختلاف طبقات الاطفال اذ اصبح لكل نوع من الاطفال اسلوب خاص يتلاءم مع احوالهم فهذا طفل شاذ لضعف في عقله او قوة تفكيره او لضعف في بصره او سمعه او لعي في نطقه وبذلك لا يمكن ان يكون في مستوى واحد مع غيره من الاطفال الاقوياء بل يجب ان يدرس سبب شذوذه ويعالج من اساسه . ستسمعون الآن ابحاثاً في شؤون بعض انواع الطفولة المعذبة وستتبينون منها أن لكل حالة علاجاً خاصاً — وما المشكلات التي ستعرض علينا الليلة الا قليل من كثير والغرض من عرضها اثارة اهتمام الجمهور بمسائل الطفولة . فقد آن الوقت أن تنظم دراستها في مصر تنظيماً صحيحاً ويا حبذا لو انشئت ادارة خاصة تضم كل ما يتعلق بشؤون الاطفال من صحة وتهذيب وقضاء واصلاح ويتولى العمل فيها اخصائيون يستطيعون بحث مسائل الاطفال بطرق علمية صحيحة — وليس هذا بأمر جديد بل قد قامت بعض الدول مثل ايطاليا بانشاء مثل هذه الادارة لتجعل جميع شؤون الاطفال في يد من يحسنون فهمها وعلاجها حتى ان الدفاع عن الاطفال في القضايا قصر على طبقة خاصة من المحامين لهم من الخبرة والدراسة والاستعداد ما يمكنهم من فهم الاطفال وعرض مسائلهم عرضاً صحيحاً على القضاء . وقد انشئت في اوربا في هذا العام هيئة دولية تسمى بالحزب الاجتماعي للطفل Social Party of the Child بمقتضى قرار أصدره مؤتمر دولي عقد في صيف هذا العام في كوبنهاجن ويقصد بهذه الهيئة ابراز مقام الطفل وما لهُ من شأن عظيم والعمل على ايجاد اخصائيين يتولون شؤون الاطفال ويدافعون عنها في الحكومات وفي الهيئات التشريعية المختلفة كمجالس النواب حتى يأتي اليوم الذي تنشأ فيه في كل دولة وزارة للطفل

هذا هو مبلغ اهتمام القوم في اوربا وقد آن الوقت لمصر ان تشترك بنصيب في هذه الحركة حركة العناية بالطفل واني لارجو ان يتاح لنا في القريب العاجل عقد مؤتمر بل جملة مؤتمرات تمثل فيها جميع الهيئات المشتغلة بمسائل الاطفال من حكومية وغير حكومية وتقوم بمباحث منظمة في أهم المسائل المتعلقة بالطفولة في مصر ثم تقدم اقتراحات عملية لعلاج ما يحتاج الامر الى علاجه وتنظيم النواحي التي لا تزال في حاجة الى التنظيم وهي كثيرة فاطفال القرى واطفال الشوارع في المدن والاطفال الشواذ وغيرهم — كل هذه مسائل تحتاج الى درس بل الى درس عميق طويل حتى تكشف اسبابها ويوضع لكل منها علاج يجتث الشر من اصوله . فاذا وفقت رابطة الاصلاح الاجتماعي الى تنمية روح العناية بالطفولة في مصر فانها تكون قد اسدت الى البلاد خدمة جليلة في ناحية من اهم نواحيها الاجتماعية . سدد الله خطى العاملين لرفعة الوطن وهداهم سواء السبيل

الطفل الشريد

لكامل كيلاني

سيداتي سادتي : اتأذنون لي — متفضلات ومتفضلين — في أن أصارحكم ، فأقص عليكم من امري حديثاً عجيباً ؟ لقد شعرت بحيرة عجيبة حين مضيت افكر في هذا الموضوع ، وتشعبت امامي اطرافه ،وكادت تلتوي طرائق البيان له ، وأساليب التفكير فيه ، على الرغم من وضوحه ، وأكاد اقول على الرغم من بداهته

ولقد قلت في نفسي : اي طفل شريد يعنون ؟ واي طفل طريد يريدونني على التحدث في أمره ؟ ان كل من في الحياة — اذا امعنا في الفكر ، وأطلنا التأمل — ليس الا طفلاً شريداً ، فاذا ابى أحد واستكبر ، ولم يرض ان يكون طفلاً ، فهو رجل طريد شريد

فأي هؤلاء الاطفال والرجال يعنون ، والى اي نوع من التشريد يقصدون ؟ فان ضروب التشريد — في بلادنا التاعسة — أفانين اعندنا مشردون في الثقافة ، ومشردون في الاخلاق ، ومشردون في العقائد ، ومشردون في كثير من ألوان العيش وأسباب الحياة . . . .

كلاً لن يقتصر التشريد على الصعاليك والمفلوكين ، كما يتوهم المفكر أول وهلة ، بل ان تشرد هؤلاء هو أيسر مراتب التشرد ، أما عليا مراتب التاعسين المشردين الغرباء في هذا العالم ، فهي وقف على افذاذ الفكر ، واساطين المعرفة من عباقرة الجنس الانساني الجاحد الكنود

وقديماً قال شاعر في وصف عبقري من اولئكم الأفذاذ : غرّبته اخلاقه الزهر فيهم . . . .

وقال أبو العلاء : أولو الفضل في اوطانهم غرباء تشذ وتنأى عنهم القرباء

ثم قال وأبدع : متى ما يأتني اجلي بأرضي فحيٌّ على الجنازة للغريب

ولعلكم تذكرون ان ابن الرومي قد جمع في حياته بين تشريد النفس والجسم ، وقضى حياة الغريب وهو في أهله ، وعاش عيشة البائس وهو في وطنه وعشيرته . حتى بلغت صيحاته آذان العالم العربي في عصره وما تلاه من العصور الى اليوم ، وان لم تجد سميعاً من أقرب خلصائه وأصحابه الأدنين في ايام حياته . أليس هو القائل :

حرمت في سني وفي مبعثي قراي من دنيا تضيفتها

لهفي على الدنيا، وهل لهفة تنصف منها ان تلهفتها

بلى! وهو القائل: ألا أين عنى الصائنون لصحتي فهاهي قد اضحت أذل من النعل

بلى! وهو القائل : لاتعجبنّ لمرزوق أخي هوج حظًا تخطى اصيل الرأي طرافا

فخالق الناس اعراء بلا وبر كاسي البهائم أوباراً واصوافا

ثم هو القائل المبدع : ان للحظ كيمياء اذا ما مس كلباً أحالهُ انسانا

ماذا ؟ أتراني احاضركم في ابن الرومي الشاعر الشريد في هذه الليلة ؟ لا ، فلنجتزئ بهذا القدر ، وليشرد بنا القول وجهة أخرى ، علّنا نصل الى الطفل الشريد الذي خصصت له الرابطة بضع دقائق للحديث عنهُ ، فأضعت أكثرها في غير ما أرادت الرابطة

سيداتي سادتي — إن الطفل الشريد الذي نحدثكم الليلة في أمره ، هو الطفل البائس الذي حرم نصيبه من مائدة الحياة ، وأغفل حقه في طيباتها ولذائذها ، وإن ظفر من صنوف الشقاوة فيها بأوفر قسط ، وأوفى حظ . ولعل أسعد هؤلاء المشردين حظاً من يظفر بركن مظلم في في معارج الطريق ينام فيها آمناً لا ينالهُ من الشرطة العنت والتفزيع

وعندي أن كل وصف لهذا الشريد الذي ترونهُ حائراً بمدرجة الطريق ، لن يفيه حقه مهما تفنن الواصف وأبدع ، واستمد ما شاء من النعوت والاوصاف

وعندي كذلك أن كل نداء يتوجه بهِ دعاة الاصلاح الى استدرار عطف القادرين ، هو نداء قليل غناؤه ، ضعيف أثره ، فقلما يجدي الوعظ المجرد من إشعار السامع بالفائدة العملية التي يجنيها من اتباعه لما يراد عليهِ ، أو الخسارة المادية التي تلحقهُ اذا خالف الواعظ الى ما نهى عنهُ

فواجب الداعين الى الاصلاح — فيما أرى — أن يتركوا الوعظ قليلاً ، وأن يوجهوا جهودهم إلى شرح الفوائد التي تعود على المجتمع من إغاثة الطفل الشريد ، والمضار الهائلة التي تهدد الوطن من جراء إهماله وإغفال شأنه . واليكم أقصوصة صغيرة تمثل لكم ما أعنيه :

كان عند أحد الملوك وزة من خالص الذهب ، عيناها لؤلؤتان ، من أنفس اللآلئ . وعنَّ لهُ ان يتفكه متفنناً في هبة الاوزة لمن يقص عليهِ قصة مكذوبة على أن يرغمهُ على ان يصارحهُ بانهُ كاذب فيما قص . فجاءه رجل يخبره أنهُ ركب جملاً ذات يوم ولم يكن معهُ الا تمرة واحدة ، فأكلها ، وألقى بالنواة ، فوقعت على رأس الجمل ، فاذا هي لساعتها نخلة باسقة ، واذا ثمرها جنيّ ، فصعد اليها ، وظل يأكل ما شاء ، ويلقي بالنوى في الصحراء يمنة ويسرة ، فلما عاد من رحلتهِ وجد الصحراء حاشدة بالنخيل المثمر ، فابتسم الملك ، وقال : جلت قدرة الله ! .. فرجع الرجل يائساً ، فجاء ثانٍ يخبر الملك بانهُ خرج للصيد ذات يوم ، فأبصر ظبية شاردة ، فصوّب اليها سهماً ، فانفتلت يمنة ، فحاد اليها السهم ، فانعدلت يسرة ، فسايرها السهم ، فقفزت فتابعها السهم قافزاً ، ثم هبطت فهوى السهم اليها فأصابها ، فقال لهُ الملك : ما أبرعك صياداً . . . . ! وجاء ثالث ورابع وخامس وآخرون رجعوا من قصصهم بحظي صاحب الجمل والصياد ، وبعد حين جاء الملك رجل أفاق خبير باقتناص الفرص ، ومعهُ جرة كبيرة . فأخبر الملك بأن اباهُ كان صديقاً حميماً لوالد جلالته ، فلما نشبت الحرب بين هذه الدولة والدولة المجاورة ، وأعوز الملك الراحل

المال ، اقترض من أبيه ملء هذه الجرة ذهباً ، على أن يردها اليه ، فان لم يفعل كانت ديناً في ذمة ولده . فلما انتهى من قصته لم يستطع الملك ان يقره على ما قص ، كما اقر الكذبة السابقين ، ففاجأه بقوله : أنت كاذب ! فقال له الرجل من فوره : عليّ بالإوزة ! فقال الملك : دونك فخذها . وهكذا عرف هذا الرجل من اين يؤخذ الإوز ! ....

ومغزى هذه الاسطورة الطريفة ان المرء — كما قلت لكم — لا يبالي الأمر ، مهما يجل خطره ، إلاّ اذا اتصل الامر بذات نفسه وذات ماله من قريب !

وأي جدوى تعود على السامع حين انشده قول المعري :

لقد جاءنا هذا الشتاء وتحته ففير معرّى او أمير مدوّج
وقد يرزق المجدود أقوات امة ويحرم قوتاً واحد وهو أحوج

أو قول القائل : كان يحيي ميتاً من عطش فضل ما أوبق ميتاً من غرق

إنهُ ليتأثر زمناً طال أو قصر ، ثم يذهب تأثره بعد حين الى غير عود !

ولا شك ان الأحجى ان يسلك الدعاة الى الاصلاح طريقاً اخرى ، هي — عندي — اهدى واقوم ، ولأضرب لحضراتكم مثلاً يوضح ما اعني :

يقول بعضهم : لقد انشأت الحكومة جمعية للرفق بالحيوان ، فهلا فكرت في انشاء جمعية للرفق بالانسان ؟ حتى تؤوي أولئك المشردين التاعسين . ولو شئنا ان نجاري الوعاظ والدعاة في هذا الاسلوب لارينا ، وقلنا : ولقد أنشأت الحكومات جماعات للرفق بالنبات وحفظه من الآفات ، وإنقاذه من غوائل الجراد والحشرات . فما بالها تقسو على هؤلاء الاطفال المشردين ولا تعنى بأمرهم

هذا اسلوب — كما ترون — خيالي فياض بالشاعرية ، ولكننا نسأل انفسنا ، اذا توخينا الجد : هل تحمي الحكومات النبات رحمة به ؟ ام تحميه لأنهُ عماد الغذاء ، ومصدر الثروة ، فإذا استولت عليه الآفات وفتكت به ، كانت المجاعة المخيفة ، وكان الفتك الذريع بالاهلين ؟

الجواب من الوضوح بحيث لا يحتاج الى بيان ، فواجب المصلحين ان يتجهوا بجهود المخلصين من القادرين الى العناية بالطفل الشريد ، بحجة ما يهدد المجتمع الانساني من الاخطار الهائلة التي تحل به اذا لم يعن اشد العناية بحماية الامة من شر التشرد . فلا بد من تأمين الحقل الآدميّ من اخطار المشردين ، كما أمنت الحقول النباتية من اخطار الجراد والدود . واذا جاز للمعري ان يقول :

شر اشجار علمت بها شجرات أثمرت ناسا

جاز لنا ان نستعير تعبيره الطريف ، فنقول ان اول واجب على الحكومات ، هو ان تؤمّن هذه الشجرات التي أثمرت الناس ، وأن تحوطها برعايتها من خطر الشجرات السامة والآفات الراعبة الاخرى وأي سم أفتك من سم تلك الجراثيم الانسانية التي اذا اهملنا امرها ، وضنّ عليها القادرون

منا بفتات المائدة ، ونبذوهم من المجتمع ، وشردوهم في الطريق ، ولم يعنوا بامرهم صغاراً ، أحفظوهم كباراً على البيئة الانسانية ، ونزعوا من صدورهم حب الخير ، وعرفان الجميل ، فامتلأت نفوسهم حقداً على العالم كله . ومن ثم تنشأ الحوادث التي نقرؤها كل يوم في صحفنا ، وهي متشابهة ، تكاد تدور حول محور واحد وهو مقابلة الاحسان بالاساءة ، فمن ضيف يقتل من آواه ، ومن خادم يفتك بمولاه ، ومن أفاق وشريد يحترفان السطو والنهب والاعتداءات المنكرة ، وما الى ذلك من أفانين الاجرام والتنكيل . واني لأتمثل في كل طفل شريد قصة الجني التي الخصها لكم فيما يلي :

كان من عادة صياد طاعن في السن ان يرمي شبكته كل يوم في الماء ، ويرجع فرحان بما يجيء به ، ففي صبيحة يوم طرح شبكتهُ على عادتهِ ، فلما جذبها وجدها ثقيلة ، فبذل أشد الجهد في إخراجها حيث تمكن من ذلك بعد عناء لا مزيد عليهِ ، فاذا بالشبكة قمقم من نحاس اصفر مرصّص ، فقال في نفسهِ : لعلَّ في القمقم كنزاً ، ثم عالج الرصاص حتى نزعه فارتفع غطاء القمقم عن دخان كثيف لم يلبث ان تجمع واكتمل مارداً يروع الناظر ، فقال للصياد : اختر لك ميتة ! فقال لهُ : اهذا جزاء احساني اليك باخراجك من القمقم واطلاقك من المحبس ؟ فقال لهُ : لقد حبسني وزير النبي سليمان لعصياني اياه منذ اعوام مئات ، فقلت في أثناء المائة الاولى : من اطلقني تكفلت له بكنوز الارض اضعها بين يديه ، فلم ينقذني احد ، فقلت في اثناء المائة الثانية : من اطلقني اغنيته وكفيته وما تركت له حاجة الاَّ قضيتها مهما تكلفني ، فما عبأ بي احد ، فقلت في أثناء الثالثة وقد عيل صبري ، وامتلأت غيظاً من الناس : من انقذني قتلته انتقاماً من بني آدم اجمعين !

هذه هي قصة الجني ايها السادة وايتها السيدات ، وما أشبهها بقصة الشريد ، يقول لنا في طفولته : أنقذوني اكن لكم خادماً حياتي كلها ، اقيلوا عثرة والديَّ بي ، فلعلي اكون في مستقبلي مقيلاً عثرات الامة في اخطر المزالق . . . . ثم لا يزال الطفل الشريد يصيح لسان حاله بهذا ، حتى اذا لم يجد منقذاً له ، ولا مقيلاً اياه ، امتلأ قلبهُ بالحقد على الانسان ، وغلت في دمه معاني الانتقام لطفولته المعذبة ، فيكون رجلاً كل خواطره حرب على المجتمع ، واغتيال لما تناله يداه منهُ .

واول واجب علينا وعلى كل من يتصدى للاصلاح ، هو ان نعنى بأمر هؤلاء المردة المشردين وهم في اول مراحل الحياة ، قبل ان يستفحل الشر في صدورهم ، ويكبر الاثم بين جنوبهم ، ويكفروا بكل معاني الرحمة والعدالة ، فيقسموا : ليقتلنَّ كل من استطاعوا لهُ قتلاً ، وليملؤُنَّ اسواق الناس اعتداء وسلباً ونهباً . فعلينا ان نعمل على ان يكونوا قوى عاملة على خير الامة واسعادها ، بدلاً من ان يكونوا ادوات شريرة فتاكة

أمامك فانظر : أي نهجيك تنهجُ طريقان شتى : مستقيم واعوج ...

الطفل اللقيط

للدكتور علي فؤاد بك

مدير قسم رعاية الطفل بوزارة الصحة

سادتي — سمعتم الليلة قصة الشريد فهزت مشاعركم واستدرت دموعكم، والآن احدثكم عن طفل آخر فاق زميله الاول في الشقاء لا يعرف ابًا ولا امًّا ينتسب الى احدهما بل كل آماله ان ينتسب الى الانسانية الظالمة المخطئة . يستصرخكم هذا الطفل من ساعة ولادته ويستنزل بآلامه ومحنته الغضب والمقت واللعنة على من كانا السبب في شقوته وتعاسته

سادتي — اللقيط احق من يتمثل بيت ابي العلاء حيث يقول : —

هذا جناهُ ابي عليّ وما جنيت على احد

أَلم ينبذ نبذ النواة من ام قسا قلبها فتركتهُ في الطرقات عديم الحول والقوة ؟

أَلم يحرم من حنان الاب وعطف الاسرة ؟

أَلم يفقد حبور الاخوة والاخوات، والاصدقاء والصديقات ؟

أَلم يفقد صلته بالمجموع وانتسابهِ للشرف ؟

أَلم يسبغ عليهِ لقب مرذول فدعي ابن السفاح ؟

هذا هو اللقيط الذي عرفته حكومتنا بانهُ كل من وُجد على قارعة الطريق، وابن سفاح ووليد خطيئة ومهده الاول ارصفة الشوارع والطرق وصناديق القمامة . كل حقه على الحكومة ان يسلمهُ من يجده للبوليس في المدن او للعمدة في الارياف كي يحرر بشأنهِ المحضر اللازم فان اخذت الرأفة بهِ من وجده اعطي اليه والاّ فانهُ يسلم الى احد المحسنين ممن حسنت سمعتهم وكان قادراً على رعايته والاّ ارسل الى احد الملاجيء للاهتمام بهِ الى حين .

سادتي — لكل لقيط سره الخاص . ولكن قصة الجميع تنحصر عن اصل ثابت ورواية تكبر وتصغر بحسب ما وضعها مؤلفها بطلاها رجل وامرأة دفعتهما عواطف الشباب والشهوة الجامحة الى تيار ينتهي الى هوة العار والتعاسة والشقاء والذلة والمسكنة لهذا الطفل الذي من يوم ولادته تسلمتهُ المراضع وتحكم في اطعامهِ ثدييها بدون رحمة ولا حنان. هي مكرهة اذ لولا الحاجة ما كشفت عنهما لغير ابنها. ولا تنظفهُ الاّ مضطرة حتى الماء الذي بلا ثمن لا ينالهُ الاّ بعد ان تأخذ الرحمة احد المارين بهِ . يبيت الليل يبكي فلا يجد من يواسيه . حتى اذا كبر وترعرع ترعاه القوة الرحمانية

خاف أقرانه منهُ فابتعدوا عنهُ لما يسمعونه من تسميتهِ بابن الحرام. وكذلك في المدارس

سادتي — لا تتصوروا أني أبالغ في ما قلتهُ بل لم أحدثكم ان بعضهم يتصورون انهُ اذا اصبح الصباح عليهِ ونظر في وجه أحدهم كان يومه يوم شؤم عليهِ . بل يعتقد البعض انهُ اذا وجد في منزل جلب اليهِ الخراب

طفل هذا حاله كان فيما سبق يتحتم عليهِ ان يخرج الى الشوارع لا يلوي على من يؤويهِ فيكون من المتشردين البؤساء . لا من المتشردين فقط

أسائلكم . من المتسبب في شقاء هذا الطفل الذي لا يفصله عن أشرف الابناء الاَّ نقطة واحدة هامة هي الزواج ليكون زينة الحياة الدنيا ومحط آمال أسرة واعزاز أخوة ومفخرة أصدقاء

أسائلكم عن الجاني . هل هو الرجل ام المرأة؟ سيقول البعض هو الرجل اذ بدونهِ لا تلد المرأة . وسيقول فريق هي المرأة اذ بدونها لا يكون حمل . وفريق ثالث يشرك الرجل والمرأة في الجرم دون ان يعين أيهما اكبر وزراً وأعظم جريرة

ولكني لا أردد فيما اصارحكم بهِ من رأي فأقول : —

حقيقةً ان الرجل شريك في الجرم فالمرأة باستسلامها وضعف ارادتها وخلقها وطيشها وعدم تبصرها واستهتارها مكنت احد الذئاب البشرية من جريمة يذهب ضحيتها طفل بريء . فهذه الأم وهذا الاب مجرمان في حق الانسانية والامومة والطفولة . ولكل عقابه في الدنيا وعقاب الام يبدأ من يوم شعور المرأة بالجنين فهي لا تفتأ تعمل جاهدة للخلاص منهُ . تجتهد في اشهر حملها الاولى في ازالته بشتى الوسائل فمن دواء مر الى اشربة ضارة ومن دق على البطن وقفز ووثب واجهاد في حمل اثقال الى تعرض للبرد والحر مما يعرضها لكثير من الاخطار . فاذا تشبث الطفل بمكانهِ وأبى ان يغادره راحت كل هذه الجهود عبثاً

ماذا تعمل هذه المرأة الآن وشبح العار واقف بالمرصاد . انها تقاسي من الآلام النفسانية فوق ما تحتمله اعصابها وقواها فتجد الامراض والافكار السوداء سبيلاً اليها . ويتغير تبعاً لذلك نظرها الى الحياة فكثيراً ما تقدم على الانتحار لتضع حداً لكل ذلك . ولكن الطبيعة تقسو عليها فتمنيها بزوال آلامها ومخاوفها عند الوضع اذا عرفت كيف تخفي عن العيون سرها . لذلك نراها ترجع عن فكرة الانتحار وتبدأ في خلق الاسباب للابتعاد عن الناس وتتحاشى مقابلاتهم فتنزوي بين الجدران . تشد بطنها بالاربطة وتتفنن في الحيطة وتبالغ في كتمان امرها الى اقصى حد تستطيع معهُ اخفاء حملها عن المحيطين بها كما سأبينه لكم بالحوادث — الواقعة الحقيقية . هذه الآلام المبرحة تستمر شهوراً طويلة ليعقبها ما هو شر منها حين يأتي المخاض . في هذه الساعة الرهيبة تستجمع كل قواها الباقية وتتذرع بالمعاذير لتلد في مكان بعيد لا ينم على فعلتها .

تكبت آلامها فلا تتأوه ولا تئن خوفاً من سماع صوتها وانكشاف امرها . فاذا انتهت هذه الآلام المبرحة وهذا العذاب النفساني أخذت تفكر في اخفاء عارها فألقت به في سواد الليل وغفلة العيون على قارعة الطريق وولت هاربة تظن في كل طرقة على الباب يد البوليس المؤذنة بالقبض عليها . اما المجرم الثاني فله من عذاب الضمير اكبر عذاب طول حياته . ومن لعنات ابنه عليه حتى بعد مماته ما فيه الكفاية.

سادتي : — هذا ملخص بسيط لحياة حمل مسكين قدر له أن يدعى لقيطاً . والآن انتقل لمسألة أخرى على جانب كبير من خطر الشأن وهي : —

ماذا اعددنا لهذا الطفل البريء وكيف نعوضه ما سلبته يد الشر والفجور

هذا الطفل بريء لا ذنب له وهو ان كان غريباً عن المجتمع لما يحوطه من سر فهو على كل حال ابن الانسانية له حقوق اهمها : —

اولاً — ان نعمل على بث روح الفضيلة في نفوس الشباب وزرع بذور الدين لتثمر ثمرتها فلا تقع امثال هذه الجرائم الشنيعة مستقبلاً .

ثانياً — هذا الطفل له استعداد جميع الاطفال الآخرين فهو مساوٍ لهم في القوة والفكر والذكاء فيجب ان نفسح له طريقاً بين الآخرين.

ثالثاً — هذا الطفل البريء يجب ان يعوض فيساهم الاغنياء وأهل البر في رعايته الى جانب ما تقدمه له الحكومة من ملجأ يأوي اليه فيتعلم ويعيش عيشة فاضلة .

رابعاً — يجب ان يكون هذا الطفل محل عطف بعد ان فقد كل شيء يجب ان نمنحه عطفنا ورعايتنا .

ويسرني جداً ان اقول لكم ان كثيراً من هؤلاء الاطفال في الملجأ الذي اشرف على اطفاله يجد من عطف اولي الامر ما يحسده عليه الآخرون وكثيراً ما يتبنى بعض اهل اليسار لقيطاً وينزل له بمحض ارادته عن املاكه الواسعة بعد ان يبذل العناية في تربيته

ان في بعض هؤلاء اللقطاء ذكاء يجب ان يستثمر ونفوساً غضة يجب ان تنشأ على الخير والفضيلة فالواجب يحتم علينا ان نهتم بهم لنكفر بعملنا الخيري عن جريرة الآخرين

والآن اقدم لكم فلماً سينمائياً عن اطفال الملجأ يبين لحضراتكم مبلغ ما نقوم به نحوهم اسأل الله ان يوفقنا جميعاً للخير والسلام

الطفل اليتيم

للسيدة نبيهة على

سيداتي . آنساتي . سادتي : قد تفضل من سبقوني بمحاضرتكم الليلة فذكروا الكثير عن الشريد واللقيط من النواحي النفسية والعلمية والصحية وأفاضوا في بيان ذلك التشرد وقد وفوا الموضوع حقه . لذلك رأيت ان أختصر عجالة تستحق التطويل لولا ضيق وقتكم الثمين . تلك العجالة عن اليتيم . الذي هو أقوى اسباب التشرد والاجرام . فاللقيط تأويه ملاجىء حكومية ترعى مهد طفولته وتهيء له عيشة صالحة . أما اليتيم الفقير فلا ناصر له ولا معين غير الله تعالى الذي جعل في قلوبكم الرحمة وأنزل فيها الحنان . لتشملوه بمجهود عملي ملموس يقيه التشرد والاجرام . ويخفف من ألم نفسه فيصرفها عن الطالح ويغذيها بحب الغير والعمل لخيرهم . قال تعالى (يسألونك عن اليتامى قل اصلاح لهم خير) صدق الله العظيم

حقاً ان بيان القرآن لسحر حلال — إيجاز كله حث وأمر لاصلاح اليتيم غنياً كان أو فقيراً لان الآية الشريفة لم تحدد نوع اليتيم . فاليتيم الغني يحتاج الى اصلاح حاله وتربيته وقد حماه الشرع ممثلاً في المجالس الحسبية . اما اليتيم الفقير البائس فلا حول له ولا قوة ولا معين سوى محسن كريم وعطوف رحيم . ورب ذي يتم لأم او اب اذا وصي عليه امين يخاف الله لم يذق في يتمه لوعة الاسى كما ذاقها حرى يتم الفقر

ود اليتيم لو رد عن امه او ابيه بما يستطيع غائلة الموت حتى يتربى في ظلهما ويعيش بمجهودهما وحتى لا يكون كلاً على المجتمع يستجدي الاكف لان ذلك كبير على نفسه . رأيت طفلاً مرة يبكي بحزن وحرقة في وحدة فأزعجت عليه خلوته وسألته « ما الذي يبكيك أيها الصغير ولا ينقصك شيء في الحياة ؟ » فقال « يبكيني تعب امي ونضالها في الحياة لاستكمال مطالبي واستدرار عطف من يدوم الأسى لانني يتيم ! ! ويؤلمني جداً أن أسمع انني يتيم » فشاركته بدمعة اخفيتها عنه وطيبت خاطره قائلة « اعتمد على اجتهادك وستصبح رجلاً في المستقبل فتريحها من هذا التعب وتعوض عليها ما فقدته من راحة وسعادة عيشة راضية هادئة مطمئنة تلك التي يعيشها الطفل المتمتع برعاية الابوين الصالحين المثقفين . فينشأ ثابت الجنان مطمئن النفس كامل العقل . نشيط الجسم متوقد الذكاء يعيش في جو كله مرح وسعادة فهنيئاً لهذا الطفل الذي حباه ربه بتلك النعم . وما أشقى واتعس حياة اليتيم . اليتيم عضو الامة المسكين الذي قست عليه الحياة قسوة عاتية فصدمته بموت امه او ابيه او كليهما فانتزعت منه مصدر الرحمة وينبوع الحنان والرعاية . وبدلت سعادته بؤساً ونعيمه شقاء فاصبح يضطرب ويقسو وتلتهب في نفسه جذوة الانتقام وتنبت في صدره بذور الحقد والشك لا سيما إذا دخل عليه دخيل

بعد فقد احد الابوين فتثور نفسهُ . وإما ان يصير خنوعاً ذليلاً كسيرَ القلب ضعيف الارادة . واما ان يصبح متمرداً وقد يجرهُ التمرد الى التشرد والاجرام . وقد يرجعُ احد الأبوين الذي لم يمت كثيراً من الطمأنينةِ الى نفس اليتيم بما يبدي من عطف وزيادة في العناية بهِ والسهر على مصلحتهِ فتهدأ نفسهُ ويخف بعض ألمهِ ولوعتهِ . ولليتيم الغني في ذلك حظٌ اوفر من اليتيم الفقير

ولو بحثنا في اسباب إجرام من آوتهم الاصلاحيات . لوجدنا اكثر الحالات هناك ناشئاً عن فقدان احد الابوين والاتيان بدخيلٍ على الطفل يسلبهُ حنان الوالد الباقي له . فينقمُ على المجتمع ويحاول الانتقام منهُ عن طريق الاجرام

وما من عابر سبيلٍ قط او سائرٍ في طريق من طرق العاصمة . إلاَّ وافسد عليهِ جمال الطريق . إما جمعٌ من ابناء الشارع وإما شرذمةٌ من بناته . وليت القبحَ مظهرهم فحسب . إنما اولئك جموعٌ تقتهم الرذيلة وانحطَّت مداركهم بعد إذ تدهورت اخلاقهم فجاسوا سبل الضلال. وسبروا غورَ كلِّ قبيح وبذا اصبح هذا النبتُ الشائن وذاك الغراس المعيب خطراً داهماً على مظهر الامة ومدنية البلاد — هم اولاء اليتامى الذين لا عائل لهم . اومن حكمتا ظروف الفقر القاهرة بالتفرقة بينهم وبين ابويهم . فهل نكون لهم او عليهم ؟ وهل نتركهم هائمين على وجوههم يتضورون جوعاً وعرياً . او نعمل على ايوائهم وبرهم ؟

انتم وازواجكم واولادكم في ظلال بيوتكم . على الارائك تتكئون . لكم فيها دفءٌ ونعيمٌ مقيم . لكم في حدائقها فاكهة ولكم ما تشتهون — إذا كان هذا حظكم السعيد من الحياة الدنيا فادخروا فعل الخير للآخرة عملاً بقولهِ تعالى « ولا الآخرةِ خيرٌ لك من الاولى ولسوف يعطيك ربك فترضى . الم يجدك يتيماً فآوى ووجدك ضالاً فهدى . ووجدك عائلاً فاغنى . فأما اليتيم فلا تقهر واما السائل فلا تنهر واما بنعمة ربك فحدِّث » . ما كان اليتم ليرضى لنفسهِ اليتمَ والحرمان لو كان مخيراً ولكن ذلك تقدير العزيز العليم . (ليبلوكم ايكم احسن عملا)

فتسابقوا إلى البر . واجمعوا شتات اليتامى واسقوهم كأس العطف مترعاً . وكونوا لهم آباء وضعوا نُصب اعينكم فعل الخير كما فعل الرسول اذ مرَّ النبي صلى الله عليهِ وسلم في يوم عيدٍ بصبيةٍ يلعبون ويمرحون — ووجد بينهم صبيًّا ينحى عنهم ناحية ولمح على وجهه الكآبة فسأله « لِمَ لمْ تشاركهم فرحهم بالعيد ؟ » فقال « لاني يتيم » . فضمه النبي صلى الله عليه وسلم الى صدره وقال له « ايرضيك ان اكون اباك وعائشة امك وفاطمة اختك ؟ » واخذه وآواه ورباه

وارحمتاه لليتيم ان لم يعد يتذوق للرحمة مذاقاً . ولا يستسيغ للعطف طعماً ان يحمل بين جنبيه من العذاب الواناً ومن الشقاء انواعاً . وما ذلك الاَّ لموت عائله . لقد تقطعت به الاسباب واعوزته الوسائل وسدت في وجهه السبل ولم يبقَ منها الاَّ سبيل احسانكم . بصرف جل

وقته في بكاء وحنين وامل ورجاء . يبكي عائله الذي كان بالامس واليوم يطويه الرمس . تراه يلاعب قرينه ويضاحكه وما بقلبه شعاع للمرح لقد ابى عليه ثغرُ الزمان الابتسام له فاختطف عائلهُ وعمادهُ في الحياة . لقد غابت شمس سعادته في أفق من دمٍ بعد ان كانت في أفقٍ من نورٍ متلألئٍ وضاحٍ . فيا ايها الاباء امسحوا دموعَ اليتامى البؤساء وارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء . ولو تراحمَ الناسُ ما كان بينهم جائعٌ ولا عريان . ولا مظلوم ولا مغبون، ولأقفرت الجفونُ من المدامع واطمأنت الجنوبُ في المضاجع ولمحت الرحمة الشقاء من المجتمع كما يمحو الصبحُ مدادَ الظلام . ولقد أعجبني قولَ الشاعر المرحوم الشيخ عبد المطلب في وصف اليتيم

يقول يا رب عيل صبري ... فهل درى ما لقيتُ جاري
يا جارنا لو أملت احدى ... اذنيك من ظاهر الستارِ
سمعتَ خلفَ الستار ... صوتاً ينبيك عن صبية صغار
تشكو اليك بالنهار لما ... امضها الجوعُ بالنهارِ
ولو سألتَ الظلامَ عنها ... تجيبك الانجم السواري
فهل درَى جارُنا عيالاً ... غرثى إلى كسرةٍ قفارِ

بعد هذه الايات لا يسعني الاَّ ان اقول لكم ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من ضم يتيماً من بين يتامى المسلمين الى طعامه وشرابه حتى يغنيه الله تعالى اوجب الله له الجنة البتة الاَّ ان يعمل عملاً لا يغفرهُ الله له» .

***

وقد جاء رجل الى النبيّ صلى الله عليه وسلم وشكا اليه قسوة القلب فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم « إن سرّك ان يلين قلبك فامسح برأس يتيمٍ واطعمهُ »

الكلام في وصف اليتيم كثير وجزاه الله للمحسن فلنتكاتف ونتعاون على إقالة اليتيم من ألم يُتمه ونسرع باخراجه من وحدة شقائه وخيرُ البرّ عاجله وافضل ما يعمل لهؤلاء اليتامى ايجادُ منازل لايوائهم وإطعامهم وسد حاجاتهم . اما امر تعليمهم فيوكل الى وزارة المعارف . وافضل ما يكون من امر تعليمهم ان يتعلموا مع ابناء الشعب حتى لا يشعروا بألم اليتم وباختلاف حالهم عن غيرهم والطفل شديد الاحساس سريع التأثر . يتعلمون نهاراً في المدارس العامة ويلجأون ليلاً الى منازل معدة لراحتهم . يجدون فيها من الحنان ما يعوض عليهم ما فقدوه بفقد الوالدين . هذه المنازل لا يمكن ان توجد نفسها ولا ان تدبرّ المال اللازم للانفاق عليها وإنما جودكم واحسانكم وعطفكم على الانسانية هو السبيل الوحيد لانشاء تلك المنازل فجودوا يزدكم الله من خيره (وهو ولي التوفيق)

الطفل الاعمى

للدكتور محمود عزمي القطان بك

سيداتي وآنساتي وسادتي : لا ارى افصح في التعبير عما يمكن عمله للترفيه عن الطفل الاعمى وتدرجه في مراحل التعليم من ان اعرض على حضراتكم شريطاً سينمائياً لمعهد العميان الرئيسي بأميركا المعروف بمعهد پركنز Perkins Institats بالقرب من مدينة بوستن بالولايات المتحدة الاميركية وسترون فيه طرق التعليم من رياض الاطفال الى درجة الكلية ونظم المعيشة والالعاب الرياضية والتعليم الصناعي مما يدعو للاعجاب حيث يربى الطفل الاعمى ويتدرج في التعليم حتى يحصل على قسط وافر من الثقافة تجعله في مستقبل حياته عضواً نافعاً للمجتمع . وكم كان شعوري بما عليه بلادنا من التقصير نحو العميان المصريين عند ما اطلعت على ما تفعله تلك البلاد للقيام بالواجب نحو عميانها . ومما يجعل المقابلة اشد ألماً إن نسبة العميان في مجموع تعداد القطر المصري اكثر بمراحل من اي نسبة اخرى ولم يكن بمصر حتى القريب اي عمل جدي نحو رعاية العميان الى ان أنشئت الجمعية المصرية لرعاية العميان في عام ١٩٣٢ برئاسة المغفور لهُ الدكتور محمد شاهين باشا فأسست معهد الغلمان الضريرين بالزيتون ولا إخالكم إلاَّ قد شاهدتم شريطاً سينمائياً عن هذا المعهد في دور السينما حديثاً اخرجته شركة بنك مصر . وسعت الجمعية لدى وزارة المعارف العمومية فتكرمت الوزارة بأن تقوم بنفقات المعهد المذكور وهو الآن تابع لها كنواة لثانوية من تعليم العميان بمصر على الطرق المستحدثة . وقد أخذت الجمعية على عاتقها ان تجد العمل لخريجي معاهد العميان فبدأت بانشاء المصنع الحالي التابع لها بجهة الزيتون ايضاً حيث يقوم اول فوج من خريجي معهدها القديم بصنع الفرش من كافة الاصناف بنجاح عظيم يبشر بالخير لهذه الفئة المسكينة . وقد اضافت الحكومة الى سخائها السابق ان اعطت للجمعية أرضاً في جهة الدقي بالجزيرة مساحتها ٦٠٠٠ متر مربع لكي تبني عليها ملجأ ومصنعاً للعميان يتسع لاكبر عدد ممكن من الصناع المتخرجين من معاهد الوزارة الحالية والمستقبلة . والجمعية لها كبير الامل في ان يعضدها الجمهور بالاشتراكات والتبرعات لكي يمكنها القيام بهذا المشروع الكبير

ومما لا شكَّ فيه ان مكافحة العمى خير بكثير من ان ندرس الوسائل التي نكفل بها هؤلاء المساكين بعد وقوع المصاب . ومن الممكن بواسطة التعاون الاجتماعي ان نمنع العمى عن الكثيرين من مواطنينا الفقراء وهذا ضمن حدود الواجبات التي تأسست من اجلها الجمعية المصرية للخدمة الاجتماعية التي كانت البلاد في اشد الحاجة الى مثلها من زمن بعيد . واذا اردنا لبلادنا حياة عزيزة وجب لكل فرد منا ان ينسى نفسه لخدمة المجموع والواجب على كل فرد منا ان يكون جندياً يدافع عن الانسانية المعذبة في هذه الديار وعليه ان يقدم نفسه الى القيادة العامة التي تمثلها هذه الجمعيات المباركة فلا يبخل عليها بماله او علمه أو جهوده فالى العمل منذ الآن



الدهن والشحم

والقول الفصل فيهما

Oil and fat

للفريق امين المعلوف

في مقتطف يناير الاخير مقالة ممتعة للاب انستاس موضوعها الدهن جاء فيها ما يأتي : الدهن في كتب اللغة مصدر لدهن الشيء اذا بلّهُ. فكل ما يبل شيئاً يسمى دهناً . هذا من باب التعميم واما من باب التخصيص وعلى ما يتحصل من كتب الادب والعلم بل من اسفار اللغة نفسها فان الدهن كل مادة دسمة

ولما كان الدسم يوجد في الحيوان والنبات والجماد كان تعريف الدهن كل جوهر دسم من حيوان ونبات وجماد ونحن نؤيد هذا القول بالنقل عن الأئمة

وجاء في هذه المقالة الدهن النباتي ما يستخرج من عصر بعض الانبتة التي فيها زيت كالبان والزيتون والزنبق والخردل والسمسم والجوز واللوز والجلوز والمشلوز وهي كثيرة جمة العدد

واحسن دليل على وجود الدهن في النبات ما جاء في سورة المؤمنين « وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين » فليس شيء اوضح من هذا الكلام على وجود الدهن في الزيتون ولا جدل في هذه المسألة — انتهى كلام الاب المحترم ثم زاد على ذلك وصف الدهن والزيت وقال ما محصله ان الدهن غير الزيت وانهُ مادة دسمة تدخل في بعض الزيوت . قلت وقد ذكرت هذه الآية في مقتطف ابريل من سنة ١٩٣٦

الى ان قال: وجود الدهن في الحيوان امر لا ينكر . قال ابن البيطار في ترجمة (القاوند) : أبو العباس الحافظ : هو دهن معروف لونهُ مثل لون السمن ، وقوامهُ في الجمود كذلك . وهو

معروف بالحجاز يؤتى به من اليمن ومن بلاد الحبشة . ويأتيهم من الهند » الى آخر ما قالهُ وهو لا يريد زيت الزيتون ولا غيره . أما الدميري فيقول :« القاوند طائر يتخذ وكره على ساحل البحر » . وهذا الطائر المتخذ منهُ « شحم » القاوند المعروف وهو يقيم المقعد . . . » الى آخر ما قال . فما سماه ابو العباس الحافظ «دهناً» سماهُ الدميري شحماً لانهما شيء واحد . قلت ليس هما شيئاً واحداً فاذا دققنا كان الصواب في جانب الدميري لان الدهن على التدقيق لايكون في الحيوان بل عادة في النبات وهذا حيوان . الى ان قال الاب انستاس وهذا أبين دليل على ان الشحم والدهن من جنس واحد فهو شحم اذا كان جامداً وهو دهن اذا ماع او لم يمع . قلت فقولهُ من جنس واحد كقولنا الضأن والمعز من جنس واحد فالضأن من ذوات الصوف والمعز من ذوات الشعر وكلاهما غنم ولكنهما مختلفان فالدهن مختلف تمام الاختلاف عن الشحم في الفصيح من الكلام كما سيجيء

الى ان قال : وأهل بغداد يسمون السمن دهناً ومنهم من يقول دهناً حرًّا لتمييزه عن سواه من شحم وزيت الى غيرها ويقولون « هذا اللحم دهين » اذا كان كثير الودك والشحم فقول الاطباء والكتبة المواد الدهنية اصح من قولهم المواد الشحمية لشهرة اللفظة عند جميع الناطقين بها من مصريين وسوريين وعراقيين الى غيرهم . قلت فليسمح لي الاب انستاس ان اقول ان هذا الكلام فيهِ شيء من مخالفة الواقع فالعراقيون لايقولون دهناً بهذا المعنى بل يقولون دهيناً كما مرّ والدهين غير الدهن الى ان قال الاب انستاس لان صحة الدهن لا غبار عليها اذ تعني الشحم والزيت وكل مادة دسمة اذ في الالية دهن وشحم وفي الانسان دهن وشحم وفي الامعاء دهن وشحم ، قلت هنا فيه شيء من مخالفة الواقع ايضاً وخطأ فسيولوجي والصواب ان يقال الشحم فقط في جميع هذه المواضع اي يقال ان في الالية شحم وفي الانسان شحم وفي الامعاء شحم فلماذا دهن وشحم فان كان الدهن هو ما يريدهُ الاب انستاس فليحذف منهُ الشحم وإن كان الشحم فليحذف الدهن اي يحذف واحدة منهما ولكن الاب انستاس لا يزال يعتقد ان الدهن بلغة مصر والشام صواب ويصعب زحزحتهُ عن هذا الاعتقاد فليأتني بشاهد واحد من كتب اللغة ان الدهن معناه الشحم ولكنهُ لا يقدر . ألا ترى ان أحمد فارس وقد رأى

اميرة لبنانية في صومعة راهب « في مار الياس » شويّا قال قد ملأت الطنفسة شحماً ولحماً ولو تكلم بلغة لبنان وهو لبناني لقال لقد ملأت الطنفسة دهناً ولحماً ولكنهُ آثر اللغة الفصحى فقال شحماً ولحماً . الى ان قال الاب انستاس هذا فضلاً عن أن الشحم كلمة مبتذلة صارت اليوم من لغة القصّابين واللحّامين والشحّامين فما قول الاب المحترم في آية وردت في سورة الانعام والآية هي « وعلى الذين هادوا حرّمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرّمنا عليهم شحومهما الاَّ ما حملت ظهورهما او الحوايا او ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون » الآية . ولا اظن الاب المحترم يقول الآن انها مبتذلة ومن لغة القوم الذين ذكرهم ولا أفهم كيف يغفل عن ذلك وهو لا يغفل عن شيء ثم إنهُ لم يأت بشاهد واحد يثبت ان الشحم هي الكلمة الفصحى ولكنهُ وجه كل عنايته للفظ الدهن ومن الصعب زحزحته عنه فالشحم هي الكلمة الفصيحة لهذا المعنى والدهن عامية بلغة مصر والشام ولهم عذر في الشام لانهم يستعملون الدهن في لبنان وبعض قرى الشام بمعنى الشحم المذاب اي الاهالة وهو سبب خطأ اهل الشام في ما اظن

هذا وقد ورد ذكر الشحم مراراً عديدة في التوراة وهو بمعنى الشحم في القرآن الكريم وانكليزيته Fat or grease وفرنسيته Corps gras ou graisse وقد ذكرت هذه الالفاظ خدمةً للمعهد الطبي في دمشق حتى يأخذوا بها

اما الدهن والزيت فوردا مراراً في التوراة وهما بمعناهما في القرآن الكريم على ان الدهن معناه في التوراة وفي بعض الاماكن منها المطيب من الزيت والزيت في اماكن اخرى فكلهُ زيت. اما الدهن فانكليزيته وفرنسيته Oil or huile ومن قال غير ذلك فليقنعني بكتب اللغة لا بغيرها

ان كلمة دهن هي الشائعة في جميع انحاء الشام للشحم واريد بالشحم ما هو وارد في القرآن الكريم اي ان الشحم هو الودك جميعه لا كما يظن العامة هو شحم الامعاء فقط ولكنهم يقولون في لبنان وجميع قرى الشام دهن للشحم المحفوظ ويسمونهُ قاورمة وهو اللحم بعد قطعه قطعاً صغيرة واضافة شحم الالية وغيره من الشحم وطبخه وهم يسمونه ايضاً قاورمة واظنها تركية وهو السبب على ما اظن في تسمية الشحم بالدهن والله اعلم

هندسة الكون

بحسب ناموس النسبية

ردّ على نقد

لنقولا الحداد

اشكر لحضرة البحاثة الدكتور اسمعيل احمد ادهم عنايتهُ بنقد كتابي « هندسة الكون بحسب ناموس النسبية » في مقتطف يناير الاخير (صفحة ١١٤ — ١١٧) وارحب بملاحظاته القيمة ترحاب المفكر والمتبحر في كل فكرة دقيقة عميقة . واشكر لهُ ايضاً ثناءهُ وتقديره قيمة تجشم المشقة في بحث موضوع النسبية الذي يُعَدُّ اعوص الموضوعات العلمية في هذا العصر

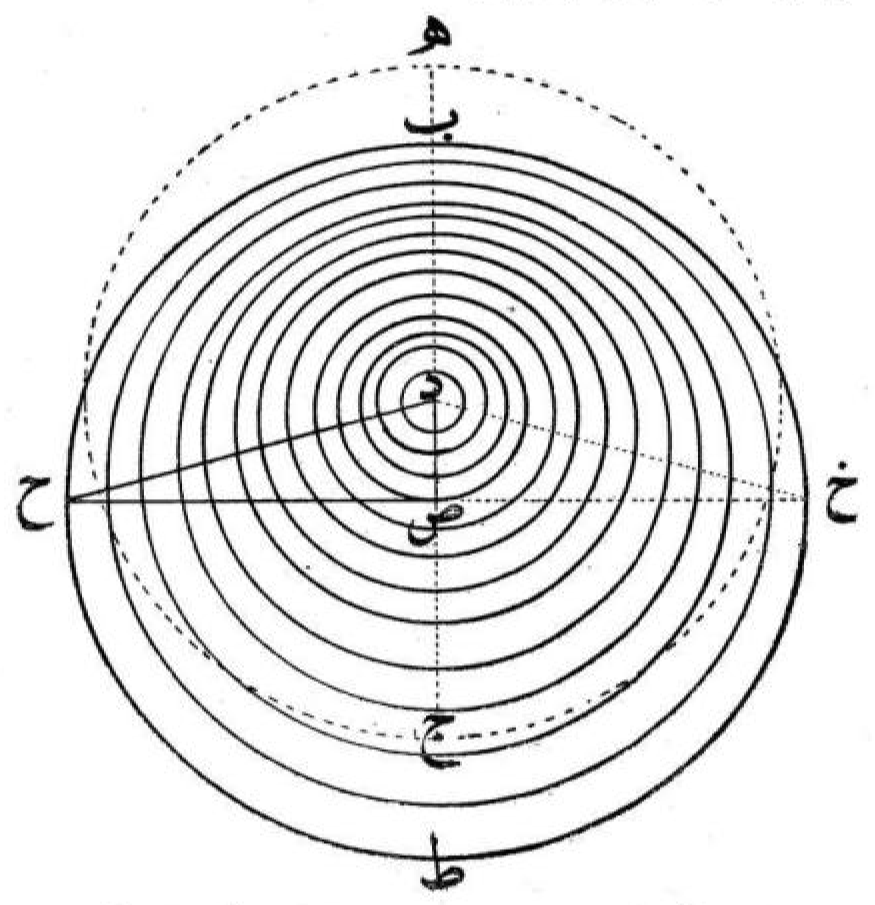
واهم ما في نقدهِ ملاحظته بشأن تفسير ظاهرة تقلص الاجسام في اتجاه سرعتها . وقد فهم من تفسيري لها اني اعتبر هذا التقلُّص حقيقةً فوزيقيةً اي حقيقة طبيعية واقعة . ثم يوعز بوجوب التفريق بين الواقع والظاهر بقولهِ بحروفهِ : — « يجب ان نفرق بين ما هو داخل في نطاق الفوزيقا الثانية مما هو راجع لاعتبار انساني ، وبين ما هو ضمن الفوزيقا الاولى مما يعرض لعالم الطبيعة من حيث هي . لان موضوع الفوزيقا الثانية يتصل بعالم المظاهر ، بينما موضوع الفوزيقا الاولى يتصل بما هو واقع . اذن فلنا ان نسأل هل ظاهرة التقلص في الاجسام في اتجاه حركتها حقيقة واقعة ام هي حقيقة تتصل بعالم المظاهر ، فان كانت حقيقة تتصل بعالم المظاهر فهل يصح تفسيرها تفسيراً واقعيًّا ؟ »

يجد حضرتهُ جوابي عن هذا السؤال : أولاً في اسفل صفحة ٢ وأعلى صفحة ٣ ثانياً في الفصل السادس ولا سيما في اواسط صفحة ٥٩ حيث ختمت الفقرة بهذه العبارة : تقرَّر ان هذه المسافة تعتبر متقلصة : اي انها في نظر عمر أقل مما هي في يقين زيد . اي ان هذا التقلص حقيقةٌ ظاهرةٌ في نظر عمر . ولكنهُ غير حادث بتاتاً في يقين عمر . وهذا هو المراد بالنسبية

وفي فصل التواقت (السابع) يتضح جيداً هذا الفرق بين الواقع في يقين احد مراقبين والظاهر في نظر المراقب الآخر

والظاهر لي ان حضرته يشير بالخلط بين الواقع والظاهر الى تفسيري للتقلص في الفصل الثاني (صفحات ٣٥ — ٤١) ، او انهُ يحسب ذلك التفسير تفسيراً للتقلص الظاهر كأَنهُ تقلص واقع حقيقة

على ان ادينغتون نفسه الذي بنيت تفسيري ذاك على قولهِ الموجز في تعليل التقلص يسأل نفس السؤال الذي يسأله حضرة الدكتور اسمعيل . ثم يقول ادينغتون : ان هذا التقلص حقيقي واقعي Real وحقيقي يقيني True ولبيان الفرق بين الحقيقتين تنظر نظرة الى الرسم الذي فسّرت بهِ التقلص تفسيراً وصفيًّا ورياضيًّا



لنفرض ان زيداً يقيم في النقطة (ص) وهي تنتقل بهِ الى النقطة (د) فالواقع عنده Really ان المسافة التي ينتقلها من (ص) الى (د) لا تتقلّص . واما عمر المراقب وراء (ج) خارج الرسم مثلاً فالحقيقة Truly في يقينهِ ان تلك المسافة متقلصة . —لان الامواج الكهرطيسية التي تبلغه خبر انتقال زيد لا تصل اليهِ إلاَّ بعد ان يكون زيد قد تجاوز النقطة التي كان فيها حين صدرت الموجة منها ورحلت الى عمر

اذن التقلص الذي علته هو حقيقي true في يقين عمر وان كان غير واقعي not Real عند زيد . وعلى هذا الاعتبار قامت النسبية

ولو انتقل عمر الى جنب زيد بغتة لانتفت هذه الحقيقة عنده . والدكتور اسماعيل نفسهُ يعترف (في وسط صفحة ١١٥) بان « الراصد اذا نظر الى جسم مسرع بسرعة النور لا يعود يراه الاَّ كصفحة رقيقة » . وازيد على قوله ان الجسم اذا تجاوزت سرعته سرعة النور لا يعود الراصد يراه بتاتاً ، لان النور لا يدرك الجسم المسرع لكي ينعكس عنه الى الراصد . واذا كان الجسم المسرع نفسه منيراً فلا يصل نوره الى الراصد الاَّ احمر او ما تحت الاحمر infra-red . وان زادت سرعته ايضاً فلا يعود الراصد يشعر بنوره بتاتاً لان امواجه تصبح من طبقة Octave غير الطبقة النورانية التي يحس بها البصر الانساني

فهل يا ترى تقلص الجسم المسرع (كسرعة النور) الذي اصبح كلوحة رقيقة ، ثم احتفاؤه ، ثم احتفاء شعاعه ، بتاتاً عن عين الراصد — هل هذه الحالات الثلاث اوهام في خيال الراصد مخالفة للواقع ? ام هي حقائق يقينية لهُ ?

لا ريب انها حقائق (true) يقينية لهُ . اذاً الجسم المسرع متقلص تقلصاً حقيقيًّا في يقين الراصد ، وغير متقلص في يقين من هو راحل معهُ (اي مع ذلك الجسم) . وعلى هذا الاعتبار قامت نظرية النسبية

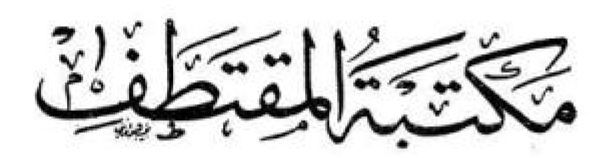
وحاصل القول انه ليس في مباحث الكتاب ما يثبت اني لا افرق بين النظرين — نظر المراقب البعيد للجسم المتحرك ونظر من هو مرافق للجسم المتحرك ، خلاف ما توهم حضرة الناقد

بقيت ملاحظة حضرته في قضية « التواقت » واعترف بكل تواضع اني لم افهم ماذا يعني بها . وقد راجعت ما كتبتهُ في صفحتي ٦٨ و ٦٩ فلم اجد التباساً ولا غموضاً فيه يوهم ما يخالف نظرية اينشطين . بل بالعكس فيه صراحة ووضوح يوافقان النظرية

وقد اشار حضرته اشارتين الى قضية انحراف شعاعة النور عند مرورها على مقربة من الشمس ، وقضية تحدُّب الابعاد الاربعة . ولم يفصح فيها عن ملاحظته

« وضرب حضرته صفحاً عن الاخطاء الاصطلاحية وهي كثيرة في الكتاب » في رأيه . فحبذا لو ارشدنا اليها ودلّنا على تصحيحها في متون لغتنا العربية او في اعمال المجمع العلمي اللغوي الموقر . فنزيده شكراً على شكر

واخيراً ارجو من حضرته ومن كل من يطلعون على الكتاب ان يثقوا اني لا ادعي العصمة — معاذ الله — ولا اتبرأ من الخطإ في بحث النسبية العويص ، الاَّ اذا قدِّر لي ان اكون اينشطين نفسهُ او احد انداده . وهو الامر المستحيل



العشرة المقدمون في تاريخ الفكر العربي

قرار لجنة التحكيم

اجتمعت اللجنة في تمام الساعة الخامسة من مساء الجمعة ١٤ يناير سنة ١٩٣٨ وحضر جلستها كل من الاستاذ ا . هـ . ر . جب استاذ اللغة العربية بجامعة اكسفورد وعضو مجمع اللغة العربية الملكي والاستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق استاذ الفلسفة الاسلامية بالجامعة المصرية والاستاذ احمد امين استاذ الادب العربي بالجامعة المصرية واسماعيل مظهر سكرتير المجمع المصري للثقافة العلمية وفؤاد صروف محرر المقتطف ، وقرئت الرسائل وعددها خمس ، وقد رأت اللجنة ان رسالة منها غير مستوفية لشروط المسابقة وهي الرسالة التي رمز صاحبها لاسمه بحرفي « ك . ن »

أما الرسائل الاربع الاخرى التي استوفت شروط المسابقة فقد رأت اللجنة ان كاتبيها لم يلحظوا تماماً الاسلوب الذي اختير لكتابة الرسائل ، ورأت فوق ذلك ان اصحابها اعتمدوا على الترجمة في الاكثر دون الرجوع الى المظان الاصلية ، فوقعت اخطاء في بعض الاسماء المشهورة واخطاء اخرى في اسماء كتب عربية معروفة ، وانهم جروا على طريقة العرض لا على طريقة التحليل الفلسفي او الأدبي الذي يظهر سر العبقرية والعظمة في شخصيات من اختاروهم من العظماء

وبعد البحث والمقابلة قررت اللجنة ان لا تمنح الجوائز التي نشر عنها لأحد من الكاتبين واحتفظت بالاظرف المحتوية على اسماء حضراتهم غير مفضوضة ، وقررت كذلك ان توجّه الشكر الخالص الى حضرة صاحب السعادة أسعد باسيلي باشا وان ترغب اليه ان يبقي هذا المبلغ من المال رهن عمل ادبي آخر رأت اللجنة ان يكون على غير اساس المباراة بان يعهد الى كتّاب مختصين في كتابة فصول في موضوعات مختلفة وأن يوزّع عليهم هذا المبلغ مكافأةً لهم ، ثم تقوم إدارة المقتطف بطبع هذه الفصول في كتاب تهديه لمشتركيها باسم سعادة الواهب لذكرى الدكتور يعقوب صرّوف

ويلي ذلك : التوقيعات

في منزل الوحي

تأليف الدكتور محمد حسين هيكل بك

كثيراً ما تمنيتُ لو ان المشتغلين بالتصنيف الفني العميق من كتّاب العربية الذين زاروا الحجاز وعرفوه ، يُعنون بهذه الناحية كعناية علاّمة الهند السيد سليمان النّدْويّ في كتابهِ (أرض القرآن) ، وكعناية شيخ مستشرقي هولندا هرغرونجه في كتابهِ الكبير عن مكة والحجاز . ولما أقمتُ في مكة والحجاز شطراً من سنوات الحرب العظمى أخذتُ أستعدُّ لهذه المهمة ، وجمعتُ لها مواد أغتبط بها (١) ، لكني تهيبتُ اخراجها في كتاب ارتضيهِ ، لان الموضوع أعظم من ان يلمّ بهِ محبٌّ الكمال ما لم ينقطع لهُ . والى الآن لا تزال المكتبة العربية مفتقرة الى الكتب الجيدة عن بلادنا المقدسة ، وعن سائر بلاد العرب وأقطار المسلمين ، وكان من حق قراء العربية على كتّابها ان يملأوا هذا الفراغ ويتفنّنوا فيهِ ، لولا ان المشتغلين بالتصنيف اتخذوه في الحقبة الاخيرة وسيلة للاستغلال والكسب وقلّ من ينقطع منهم لخدمة العلم لاجل العلم وحده

أما كتاب (في منزل الوحي) الذي اخرجهُ للناس في هذه الايام معالي الدكتور محمد حسين هيكل بك ، فان اثر العناية والبحث والتفكير بادية للقارىء في كل فصل من فصوله . وقد قال في مقدمته يصف ما توخاه فيهِ : « لقد وجّهت اكبر عناية الى آثار الرسول الكريم في البلاد المقدسة ، وجعلت جلّ همي ان اسير حيث سار ، ألتمس ما في حياتهِ من اسوة وعبرة ، وأرجو ان أقف على شيء من السر الذي هيأ هذه البلاد لتكون منزل الوحي الى النبيّ العربي خاتم الانبياء والمرسلين . ولم أتقيد في تفكيري وتأملي أمام شيء مما رأيت بغير منطقي وعقيدتي الذاتية اللذين كوّنتهما الطريقة العلمية الحديثة . فأنا لا اسلم بالعقيدة الموروثة اذا لم يكن لها اساس غير ما وجدنا عليهِ آباءنا ، ما لم امتحنها وأمحصها ، وما لم اصل من امرها الى الايمان بانها هي الحقيقة كما يسيغها عقلي ويطمئن اليها ضميري . ولقد جعلت السير في اثر الرسول غرضي من يوم أتممت مناسك الحج . والحق اني لم اجد مشقة في تعرف الآثار التي هدمها الوهابيون قبابها ، لكني انما وجدت المشقة في الاهتداء الى آثار لها في تاريخ المسلمين الاولين اثر بالغ . من ذلك اختلاف الاقوال على موقع حُنين حيث كانت الغزاة التي تركت في تاريخ الاسلام اثراً قل كمثله اثر . ومنه اختلافهم على موقع عكاظ سوق العرب جميعاً في الجاهلية وفي صدر الاسلام . وانما سوّغ

(١) نشرت منها في السنة الخامسة من مجلة (الزهراء) فصلا عن عهد جرهم في الحجاز ، ونشرت في السنة الثانية من المجلة السلفية فصلا من الكتابات الباقية على بعض جبال الطائف وفي طريق الطائف الى مكة

الجهلُ الذي خيم على بلاد العرب من عصر العباسيين هذه الجناية النكراء ، كما سوّغ امراً لا يقل عنها نكراً ، فقد اقيمت آثار لحوادث وقعت وليس في التاريخ ما يدل على انها وقعت حيث تقوم هذه الآثار ، واقيمت آثار لحوادث لا يعرف التاريخ الحق من امرها شيئاً . وتحقيق ذلك كله وبيان قيمته العلمية امر جدير بكل من يريد الحقيقة . وقد حاولت من ذلك ما استطعت . لكن هذا التحقيق يحتاج الى أضعاف الزمن الذي قضيته بالحجاز . وكان حديث الآثار الصحيحة التي وقفنا عندها كله البلاغة في التعبير عما تدل عليه وتوحيه الى النفس من آي الجلال والعظمة. فجبل حراء والغار في قمته ، ومسجد عدّاس بالطائف ، ومسجد العقبة وجمرتها ، وجبل ثور ومختبأ رسول الله وابي بكر بالغار فيه ، والطريق الذي سلكه النبي الى المدينة في هجرته من مكة ، ومسجد قُباء ، والمسجد النبوي والآثار الكثيرة بالمدينة ، وميدان بدر حيث وقعت الغزوة الاولى بين قريش والمسلمين ، هذه المواقع وما اليها كانت تثير امام ذهني ذكرياتٍ مليئةً بالحياة كانما حدثت بالامس ، وكانت توحي اليّ معاني الاكبار والاعظام وتزيدني اجلالاً لهذه الاماكن في صمتها العميق لم يغيّرمنهُ توالي القرون »

الى ان قال : « ليس هذا الكتاب مرجعاً من مراجع التاريخ الاسلامي ، ولا شيء فيه من تقويم بلاد العرب . انما هي وقفات وقفتها في بلاد الوحي ومنزله استوحي فيها مواقف محمد عبد الله ونبيه ورسوله . وهناك في هذه المواقف تجرّدت نفسي وسمتْ روحي وكرّتْ بالعصور والقرون اطويها وحدت أتمثل هذا الهادي الكريم ، واتمثل المسلمين من حوله ألتمس في ذلك الاسوة والعبرة آملاً ان اشرك فيهما اخواني . لم اتقيد في هذه المواقف بما جاء في كتاب غير كتاب الله ولم أخضع تفكيري لحكم غيري . لقد تركت نفسي على سجيتها ، تتوجه بوحي روحي وتستلهم الحقّ من حولي ، وتستعرض ما تستلهم على حكم عقلي وتقدير ضميري ، ثم سطرت ما اجتمع من ذلك لا ابغي الاّ رضاء الله وحسن ثوابه»

ثم قال « كيف نستطيع ان ننقل ثقافة الغرب الروحية لننهض بهذا الشرق ، وبيننا وبين الغرب في التاريخ وفي الثقافة الروحية هذا التفاوت العظيم . لقد خفي هذا الكلام عني سنوات كما لا يزال خفياً عن كثيرين . وقد حاولت ان انقل لابناء لغتي ثقافة الغرب المعنوية وحياته الروحية لنتخذها جميعاً هدى ونبراساً ، لكنني ادركت بعد لأيٍ انني اضع البذر في غير منبته فاذا الارض تهضمه ثم لا تتمخض عنه ولا تبعث الحياة فيه . وانقلبت التمس في تاريخنا البعيد في عهد الفراعين موئلاً لوحي هذا العصر ينشيء فيه نشأة جديدة ، فاذا الزمن واذا الركود العقلي قد قطعا ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب قد يصلح بذراً لنهضة جديدة . وروّأتُ فرأيت ان تاريخنا الاسلامي هو وحده البذر الذي ينبت ويثمر ، ففيه حياة تحرّك النفوس وتجعلها تهتزّ

وتربو . ولابناء هذا الجيل في الشرق نفوس قوية خصبة تنمو فيها الفكرة الصالحة لتؤتي ثمرها بعد حين »

***

هذه مقاطع من كلام المؤلف عن موقفه من موضوعه ، ووصفه العمل الذي اقدم عليهِ ، وهو يعتبره تمهيداً لبحوث جامعية يؤمل في اهل البحث من رجالنا ان يقوموا بها ، لان تركة السلف لا تزال بكراً وفي حاجة الى الايدي الرفيقة من اصحابها لتنظيمها وبعث الحياة فيها واستمداد الحياة منها

وهذا السفر النفيس الذي تقدم بهِ هيكل بك الى قراء العربية في هذه الايام يتألف من ستة كتب اولها في فرض الحج والرحلة اليهِ حتى وقفة عرفة وايام التشريق . والثاني عن البلد الحرام وصف فيهِ مكة الحديثة وابن السعود بمكة والجمعة في الحرم وجوف الكعبة وآثار مكة وغار حراء وغار ثور وظاهر مكة . والثالث عن الطائف وآثارها وباديتها وما كان للعرب فيها من اسواق . والرابع عن طريق المدينة ووحي المدينة . والخامس في المدينة ومسجدها وآثارها وبقيعها وظاهرها . والكتاب الاخير عن بدر وشهدئها وأوبة الرضا . ثم تساءل في خاتمة كتابه : ما بال قوم في عصور وبلاد مختلفة جحدوا الحياة الروحية وكفروا بفضل الايمان ؟ ويعلل الدكتور ذلك بان تعاليم عصور الانحلال انصرف الحظ الاوفر منها الى الجانب المادي من الحياة والى تنظيمه بكتب الفقه وقواعد الشرع ، فنشأ عن ذلك تفريط في جانب الحياة الروحية التي تصوروها صورة مادية لا يزيد مداها عما يقع عليهِ الحسّ وينحصر في حدود ادراكه . فخضعت الامم الاسلامية لغيرها بسبب ذلك التفريط واذعنت لسلطان من آتاهم العلم مفاتيح السلطان . ولا مفرّ لبعث الحياة في الامة من تضافر مقررات العلم ومقررات الالهام لتنظيم الحياة ، ولا مفرّ من الاحاطة عن طريق العلم والالهام جميعاً بحياة الكون الى غاية ما ندركه من مدى الزمان والمكان ، لنعرف موضع الانسانية منها وما تطيقه من نشاط فيها ، لتؤدّي رسالتها في الكون على خير وجه ، بان تبذل في الانتاج العقلي والروحي اخصب مجهود واحكمه واعظمه ، ولتؤدّي هذه الرسالة عن ايمان بها هو الحافز الصحيح للعمل المثمر

***

ان كتاب (في منزل الوحي) لا يقتصر على انهُ وصف للانطباعات التي شعر بها الدكتور هيكل بك وهو في منزل الوحي ، بل هو فوق ذلك حلقة من تاريخ التطوّر الفكري عند المؤلف قد يكون لها شأنها فيما سيصدر عنهُ بعد اليوم من اعمال نفيسة اخرى . وهو كتاب خليق بان يقرأه الشباب المثقف من قراء العربية في جميع اوطانها

محب الدين الخطيب

كتب شرقية باللغة الفرنسية

— ١ —

E. Dinet et El Hadj Sliman Ben Ibrahim—La vie de Mohammed, Prophète d'Aallah — Paris, G.— P. Maisonneuve, 1937.

أ. دينيه والحاج سليمان بن ابرهيم

سيرة محمد، نبي الله

قد كثرت التآليف عن سيرة النبي العربي في السنين الاخيرة سواء في الغرب او في الشرق وهذا الكتاب يمتاز عن غيره بأن احد صاحبيه فرنسي أسلم وحسن اسلامه فراح يكتب في شؤون الاسلام كتابة المهتز قلبه المنشرح صدره

تضم هذه السيرة اهم اخبار النبي وهي مسرودة كأنها صور متلاحقة ، ويرجع ذلك الى ان المؤلف الفرنسي رسّام . ومصادر هذه السيرة لا تخرج عن المعروف من طبقات ابن سعد وسيرة ابن هشام والسيرة الحلبية . وقد التزم المؤلفان المنقول في تلك المصادر ولم يذهبا في السياقة مذهب الناقد ولا المنقب لانهما يعدان مثل هذا المذهب مدرجة للخطأ والتحامل

وربما يهمّ القارىء العربي ان يعرف رأي (ا. دينيه) في صيرورة الاسلام . فقد ذكر الرجل في خاتمة الكتاب ان اسباب انحلال الشوكة الاسلامية ترجع في رأيه الى ثلاثة امور . اما الاول فابتعاد جمهور المسلمين منذ القرن الاول عن السنة المحمدية . واما الثاني فهجوم خرافات الامم الداخلة في الاسلام على الدين الحنيف وانتشار مغالاتها . واما الثالث فاقلاع المسلمين في العهد الحديث عن نظام فائدة المال ذهاباً منهم انها تدخل في الربا . فبهدم هذه الامور تزول اسباب انحلال شوكة الاسلام . واما ما يُتهم به الاسلام من انه مبني على التعصب وتعدد الزوجات والاستسلام للقدر فكلام لا محصول له في الواقع لان في الاسلام الصحيح ما ينفي التشيع لدين على دين ولان تعدد الزوجات من طريق الشرع خير من الزنا ولان الاستسلام للقدر اسلام لمشيئة الله وليس بتوانٍ وقعود عن العمل ودليل هذا الجهاد

ثم يختم المؤلفان كتابهما يبسط الآمال الجسيمة المعلقة على الاسلام بعد ان ينفض المسلمون سباتهم الموقت عن اعينهم

— ٢ —

Out el Kauloub. Harem, Librairie Gollimard, Paris 1937

هذه مجموعة قصص قصيرة ألفتها السيدة الجليلة قوت القلوب باللغة الفرنسية ونشرتها المجلة الفرنسية الحديثة فيما تنشره من المؤلفات المستقلة الخاصة بالاقصوصة الحديثة . وقد عمل الكاتب الفرنسي الشهير بول موران مقدمة لهذه المجموعة اشار الى خصائص فنها . ولا شك ان هذه القصص القصيرة تروق قراء الغرب لما فيها من الوصف الدقيق والبيان الواضح والتحليل النفساني الصادق لعادات الامة المصرية المنتشرة قبل تحرر المرأة في المدن . وكان يحسن باحدى النساء الفطنات ان تدوّن ما يتعلق بكل هذه العادات قبل ان تبيد فتبقى على تحول السير مرجعاً اميناً لمن يحب ان ينظر الى ما كان

فلهذه المجموعة اذن ميزتان . واسلوب الكتابة فيها سهل بسيط مطرد ، لا اغراب فيه ولا تعسف . الا انهُ ربما اندس في نواحيه تعابير عربية منقولة الى الفرنسية من غير تبديل فتدخل في الاسلوب الفرنسي شعاعاً شرقيًّا لا يخلو من اللطف

واظرف قصص هذه المجموعة حفلة الحِنّة ومدير القرية والذكر في جامع سيدي المغربي ويوم شم النسيم

— ٣ —

الوحدة السورية والصيرورة العربية

بقلم ادمون رباط من نواب سوريا

Edmond Rabbath, Unité Syrienne et Devenir arabe, Paris 1937.

هذا مؤلف نفيس يبحث في النظام السياسي القائم في سوريا نظراً الى وضعية التخوم وهيئة الدولة وشكل المعاهدات وفي الامة العربية من حيث انها مجموعة افراد يحسون احساساً واحداً بالقومية القائمة على وحدة الارومة والحضارة والاقتصاد من جهة، والارض والدم من جهة اخرى . ثم يبحث في نشأة الاستقلال اللبناني وشكله وتضخمه وانحرافه مع مايكتنفهُ من النزعات الاقليمية كنزعات الدروز والعلويين واهل اسكندرونة ثم يعرض لفكرة الولايات العربية المتحدة فيفحص عن النظام التي تقوم عليه من ملزمات حيوية ومعاهدات تجارة ووحدة « جمارك » ثم يختم البحث باسترسال في الكشف عن سياسات الدول الاوربية ازاء الشرق العربي مع الوقوف عند السياسة الفرنسية. وهنا ذهب الاستاذ ادمون رباط مذهباً فيه صراحة وقوة اذ لم يخف ان الحركة العربية سائرة في طريقها لا محالة بفضل العناصر المستنيرة وبفضل تكون الفكرة القومية فالحكمة ان تسلم فرنسا بالواقع فترعى هذه الحركة بدلاً من ان تعمل لخنقها

بشر فارس

المعجم القضائي — الجزء الاول

تأليف خليل شيبوب — صفحاته ٣٧٣ بقطع المقتطف — مطبعة البصير بالاسكندرية

عرف قراء المقتطف خاصة ، وادباء الضاد عامة ، شاعر الفجر الاول ، خليل شيبوب ، فلمسوا في شعره صدق العاطفة ، ولمحوا دقة الخيال والتصور ، كما عرفوا فيه الديباجة المشرقة ، وها هو يطلع على قرائه من ناحية جديدة كنا ما نزال في حاجة قصوى الى أثر فيها ، فوضع للدوائر القضائية معجماً اصدر منهُ الجزء الاول الذي بدأهُ من حرف A الى منتصف الحرف D والذين يعرفون سعة اطلاعه على آثار لغته يدركون الدقة التي راعاها المؤلف في نقل مصطلحات هذا المعجم . والى القارىء جانباً من توطئته التي اجمل فيها اغراضه وطريقته :

هذا الكتاب أمنية حققتها لأنها في نفسي صدى شعور عميق بالحاجة الى مرجع يصيب منهُ المشتغلون بالامور القضائية قولاً شارحاً . يكون جامعاً مانعاً . يقفون بهِ من معاني اللفظ عند حدوده . ومن دلالتهِ عند المقصور على مقصوده . ولا يفي بمثل هذا الغرض الاَّ معجمٌ وجيزٌ تُبسطُ فيهِ الالفاظ القضائية كافةً . وتشرح شرحاً دقيقاً يستوعب معناها . ولا يتعداهُ الى سواها

ولا تزال اللغة العربية فَتِيَّةً بصيغها القانونية الحديثة إذ لا يرجع عهدها بها الى ابعد من خمسين سنة . وهي فترة المهد لمثل هذا العلم اذا عرفنا ان غيرنا من الامم عالج موضوعاتهِ وصيَغهُ منذ عشرات القرون

بيد ان اللغة العربية حفلت بفرع من فروعه لا يتعدّى الموضوعات الفقهية المعروفة فزخرت كتبها بالتعبيرات الاصلية . والقوالب التالدة الطريفة . حتى إن المطالع المتريِّثَ لا يبرح مفتون اللب من مرونتها على تصريف أدق المعاني . واتساعها للاعراب عن أيسر خطفات المخالفات والموافقات . ولكن الإكباب على اكثر هذه الكتبِ . والإيغالَ في استنباط دقائقها أمرٌ شاقٌ مرهق . لما فيهِ من تطويلٍ في المتون . وشرحٍ في الحواشي . وتعليقٍ على الشرح . وشرحٍ على التعليق . مما يذهب بالصبر . ويضيق بهِ الصدر

***

أما المؤلفات الحديثة فقد حفلت بفروع القانون كافةً ولم تغفل منها فتيلاً ومنها ما يُعدُّ بحق آيةً من آيات هذه الصناعة . ونبراساً يهتدى بهِ في حلك الابهام . والتنقيب عن مستغلق اللفظ . ولكنها قلةٌ الى جانب الكثرة . والمؤلفون الاعلامُ ما برحوا يلتمسون طريق اللغة الى المعاني لأن العجمة طاغيةٌ عليهم . ودقائق تلك المعاني متنافرةٌ مع عقلية الفصحى اذا صحَّ هذا التعبير

فلما عقدتُ العزيمة على وضع هذا المعجم عَنَّت لي طرائق ثلاث لم أرَ مندوحةً عن تخير احداها :

اما الاولى فكانت توجب عليَّ الرجوع الى كتب اللغة والفقه . واستيعابها كافةً لاستخراج اللفظة العربية الصميمة التي لا يمكن تبديلها ولا تحويلها . ولكنني رأيت العمر اضيق من ان يتسع لمثل هذا العمل حتى ولو توفر لهُ كل الوقت وجاز الافتراض بأن قلماً منفرداً يقوى على النهوض بمثل هذا العبء الكبير

اما الثانية فهي الرجوع الى كتب القانون الحديث واستخلاص هذه الالفاظ من مظانها . واقرارها على ما هي عليهِ في مكانها من الترتيب المعجائي . الاَّ ان هذه الطريقة ادنى خصائصها العجز والكسل . بل هي ادنى خطةً واحطُّ منهاجاً . ولا اكذب الله اني لا اقر كثيراً من الصيغ والالفاظ التي درج عليها الشرّاح الحديثون . فما الى هذا ذهبت . ولا في هذا رغبت

فلم تبق اذن إلاَّ طريقة وسطٌ يساق القلمُ فيها قدماً بين هاتين . وهي التي ذهبت اليها . ورغبتُ فيها . فقد راجعت كلَّ ما توفر لي من كتب الشريعة الغراء وانتقيت منها اللفظ الذي رأيتهُ ملائماً للمعاني الحديثة . ثم راجعت عدداً كبيراً من كتب القانون الحديث . واستعنت على كثير من الالفاظ بكتب الادب وبما استقام لي من معرفة باللغة أصبتها من اشتغالي بها سنواتٍ طويلةً نظماً ونثراً

ولقد عملت على مجاراة العرف في كثير من اللفظ حتى يأنس القارىء بما الفهُ على ان يكون صحيحاً . أما اذا عرضت لفظة اصح مبنى ومعنى فقد رأيتني ملزماً بذكر اللفظة المشهورة الى جانب التي اراها أقوم في التعبير . واقعد في اداء القصد

واما التعريف القانوني فقد اعتمدت فيهِ على اصدق المراجع الفرنسية واخصها القاموس الذي وضعهُ حديثاً نخبة من جلة العلماء برئاسة الاستاذ هنري كابيتان . فقد نهجت نهجه واغترفت منهُ ولكنني لم اتقيد بهِ ولم اقصر همي عليه . بل كنت اطوف باللفظة على معاجم كثيرة . وكتب وفيرة . ثم اسهب في شرحها حيث الفائدة في الاسهاب . واوجز حيث الحاجة الى الايجاز . وربما استغنيت عن الفاظ جمة لا حاجة بنا اليها في معايشنا وانظمتنا . ثم انني تحريت كل التحري تبسيط التعريفات حتى ينتفع بها كلُّ من له صلة قريبة او بعيدة بالحياة القانونية

***

وغني عن البيان ان هذا المعجم من المراجع التي لا تستغني عنها دوائر القضاء والمحاماة ولاسيما ونحن مقبلون بعد عقد اتفاق مونترو على عهد يتحول فيهِ القضاء وطنيًّا بحتاً

عشائر العراق

المجلد الاول

تأليف المحامي الاستاذ عباس العزاوي

اعتاد الاستاذ المحامي ، عباس العزّاوي ، في بغداد ، ان يهدي الى قراء العربية ، كتاباً مبتكر الموضوع . وقد الف في هذه السنة : (عشائر العراق) ، واصدر منهُ المجلد الاول . وهو يحتوي على العشائر التي احتلت العراق ، منذ اقدم العهد الى يومنا هذا ، وما يتعلق بعرفها ، وأنسابها ، وسائر اصولها ، فوقع في ٥٢٤ صفحة بقطع الثمن الكبير ، وزيّنهُ بست وعشرين صورة لمشاهير المشائخ الذين في عهدنا

ووضع له سبعة فهارس ، وحسبنا ذكر عناوينها ، للحكم على محتويات الكتاب ، وهي : ١ً فهرس المواضيع — ٢ً فهرس الكتب (وقد راجع منها ١١٥ تصنيفاً من مطبوع ومخطوط ، ومن قديم وحديث ، ومن عربي وفارسيّ وتركي) — ٣ً الامكنة والبقاع — ٤ً الشعوب والقبائل — ٥ً الاشخاص — ٦ الالفاظ الغريبة (من عربية واعجمية وردت في تضاعيف الكلام) — ٧ً التصاوير

وقد انتقد حضرة الكاتب ، المراجع التاريخية التي وقعت بيده ، واستمدَّ منها ، وبيّن ما فيها من المغامز والمحاسن ، ومن الاطايب والشوائب ، فأظهر من سعة علمهِ في الموضوع الذي جال في ميادينهِ ، ما يدل على انهُ فارسها المغوار وعلى رسوخ قدمهِ في ركابهِ ، وحسن نظره وتدبره لكلام من سبقهُ ، فافاد علماء التاريخ فوائد جمة لا يستغني عن الوقوف عليها ، كل من يحاول بعدهُ معالجة هذا البحث

زدْ على ذلك انهُ ظفر بمخطوطات فذة ، بل بتعليقات لا وجود لها في خزانة شرقية او غربية ، بذل فيها الدرهم والدينار وعن يد سخية ، وجال في ديار تركيا والنمسا وسورية للبحث عنها ، فامخض كل ما اصابهُ فيها ، ونفى القشور عن كتابهِ ، ولم يودعهُ الا اللباب والحُوّارى

وقد نقل من هذا الصنف من التآليف ١٧ في المقدمة التي صدرّ بها سفرهُ الجليل . فجاء الكتاب خزانة ثمينة حوت كل ما لذّ وطاب في هذا المعنى الذي عالجهُ ببراعة سهلة ممتنعة

***

ومن يقف على هذا الكنز الدفين ، يتحقق ان المؤلف من اصل عربي بدويّ قد تحضر ، ولهذا تراه اماط اللثام عن امور لا ينتبه لها الا من كان من صميم الاسرة البدوية ، ولا يمكن

لحضري ان يتوصل اليها مالم تكن صفتهُ تلك المذكورة . وبالحقيقة ان « العزاوي » الجليل ينتمي الى العزة من قبيلة ذوبع

وترى في هذا الديوان ابيات شعرٍ كثيرة مع شرحها في اغلب الاحيان ، مما يدل على ان المؤلف — حفظه الله — جوّل تجويلاً في عشائر العراق من الشمال الى الجنوب، ومن الشرق الى الغرب . ولم يبخل بنفقات التنقل ليكون ما وضعهُ حجة ثبتاً بيد الباحث ، يقف فيهِ على أصدق الروايات واوثق التواريخ

***

ومما يحسن بنا ذكره هنا ان الانكليز وضعوا عدة تآليف عند احتلالهم العراق وهي تحوي اسماء القبائل وشيوخها وما تملك ايديهم من المال ، والكراع ، والسلاح مع ذكر الاراضي التي هم فيها ، والامكنة التي يرتادونها ، والمراعي التي ينتجعونها

وقد وضع هذه التآليف سيدة انكليزية اسمها جرترود لوثيان بل Miss Gertrude Lothian Bell وكانت تتقنُ العربية وجاست خلال ديار العرب وبواديها ودونت اموراً كثيرة لم يسبقها احد اليها . لكن لا يطلع على هذه الكتب احد ، اللهم الاّ نفر قليل من الموظفين، لانهُ كتب على ظهر كل مجلد باللغة الانكليزية « لا يمسّهُ إلاَّ الموظفون الانكليز » وعلى مجلدات أخر : « من كتب اسرار الدولة المحتلة ولا يعار لغير الموظفين البريطانيين »

والظاهر ان الاستاذ العزاوي رأى شيئاً من مؤلفاتِ الآنسة (بل) ، لكنهُ لم يتمكن من الوقوف عليها وقوفاً تامًّا ، اذ يقول :

« وهذه الرسالة (التي وضعها السيد جرجيس حمدي في سنة ١٨٦٥ م) كالكتب الاخرى للمس بل وغيرها من كتّاب الغربيين ، فانها كلها تقريباً مضت على هذا السنن في تآليفها ، وان كانت اشارت احياناً الى بعض الاحوال التاريخية عرضاً ، او لم تتمكن منهُ تماماً ، وانما اكتفت بالنبذة اليسيرة عن الماضي القريب ومضت . وخير هذه المؤلفات ما اوردت اسم القبيلة بالحروف العربية كما فعلت المس بل »

وقد جعل المؤلف ثمن الكتاب زهيداً بالقياس الى حجمهِ وجدة مباحثهِ اي ٢٥٠ مليماً او فلساً ليتمكن كل انسان من ان يشتريه . ونحن في انتظار الجزءين الباقيين وهما الثاني ويبحث في ادب البادية والثالث وهو في القبائل الريفية . وهناك جزء قائم بنفسهِ هو عشائر العراق غير العربية اي قبائل التركمان والكرد . حقق الله الاعمال واقام لنا في العراق اناساً يضارعون الاستاذ العزّاوي في نفع الوطن واللغة والامة !

الاب انستاس ماري الكرملي

الكاتب واللغة العربية

رسالة بالفرنسية — للدكتور بشر فارس — ٢٤ صفحة من القطع الكبير

نشرت مجلة «الدراسات الاسلامية» التي تصدر في باريس باللغة الفرنسية مقالاً مسهباً لصديقنا الدكتور بشر فارس في موضوع «المصاعب اللغوية والثقافية والاجتماعية التي يعانيها الكاتب العربي الحديث ولا سيما في مصر». وقد جاءتنا نسخة مستقلة من هذه الرسالة فاذا هي في اربع وعشرين صفحة كبيرة، حسنة التبويب دقيقة التلخيص كاملة الاسانيد. والواقع ان الكاتب راد بفكره الثاقب النهضة العربية الحديثة في ميدان الكتابة والتأليف، وخرج من ريادته بصورة واضحة لما يعانيه الكاتب من المشاق، سواء أفي اختيار الالفاظ والاساليب كان ذلك ام في التحرر من اساليب الكتّاب القدماء واحوال السياسة والاجتماع السائدة في هذا المصر. وقد ضرب على كل ذلك الامثلة المنتزعة من الكتب والمجلات والصحف. ولكنهُ لم يكتف بذكر المصاعب، بل عمد في القسم الثاني من رسالته الى بيان الذين جابهوا هذه العقبات، وكيف تخطَّوها او سعوا الى تخطيها وما لهم في ذلك من الأثر. فني وسعك بعد قراءة هذه الرسالة النفيسة، ان تتمثل مواكب الكتّاب والشعراء والعلماء، تليها مواكب الكتب والصحف اليومية والاسبوعية والشهرية، مارّة امامك، فتعرف ما لكل منهم ومنها من أثر في هذه النهضة، المباركة ولو كانت لا تزال في مهدها، وفي املنا ان يعني المؤلف بنقل هذه الرسالة الى العربية لنفاستها

الشرق في الآداب الفرنسية بعد الحرب

١٩١٩ — ١٩٣٣

تأليف يوسف داغر — صفحاته ٣٠٤ من القطع الكبير — طبع بيروت — ثمنه ٥٠ فرنكا

كتاب نفيس وضعهُ باللغة الفرنسية الاستاذ يوسف داغر امين دار الكتب المساعد ببيروت بذل حضرته في اعداده واخراجه وتبويبه بهذه الصورة جهداً عظيماً وصبراً طويلاً، فيجد فيهِ الباحث كل ما كتب من بحث طويل او رسالة موجزة او مقالة مقتضبة عن الشرق باللغة الفرنسية من سنة ١٩١٩ الى سنة ١٩٣٣ مع ذكر مقامها من حيث الموضوع الذي يعالجهُ وما ظهر عليها في كبرى المجلات الفرنسية من نقد وتعليق. فبدأ بعرض الابحاث تبعاً لاسماء مؤلفيها على الطريقة الابجدية ثم انتقل الى جدول مرتب وفقاً للمواد المدرسية ذاكراً المعلومات العامة من مصادر الابحاث والمكاتب والمخطوطات ومن علوم مساعدة للتاريخ كالآثار والنقود والوثائق والرقم ومن ديانات وفنون وتواريخ عامة لاحقاب الشرق فخرج السفر موسوعة كبيرة لا يستغني عنهُ باحث في شؤون الشرق

المريد

تأليف بول بورجيه — ترجمة سليم سعده

فرحت فيما مضى بكتب مترجمة قرأتها بلهفة وشوق اذكر منها ، الحرية ، سر تقدم الانجليز ، روح الاجتماع ، محاورات رينان ، الابطال ، فلسفة الملابس ، فلسفة النشوء والارتقاء ، مباحث في الاخلاق ، الامير ، سر تطور الامم ، الاسرار الزوجية ، روح التربية ، الاخلاق . وأحسب ان هذه أحسن الكتب المترجمة لا كلها ، وها انا افرح اليوم وأهلل لكتاب « المريد » الذي نقلهُ الى العربية حديثاً الاستاذ سليم سعده

افرح بهِ لسببين اثنين ، الاول لانهُ الكتاب الادبي الثاني الصادر في فترة الركود ، والثاني لان مؤلفه « بول بورجيه » قد نحا فيهِ نحواً فريداً في إقحام العلوم والمبادىء في فن الرواية ، وفي بسط تأثير التعاليم الفلسفية في العقول ، وفي استصراخ ابناء جنسه صرخات صادقات لا تصدر عن غير قلب مفعم بالمحبة الصادقة والاخلاص الطاهر حين يخاطب الشاب الفرنسي قائلاً « وليس الامر الآن ان تكون خفيف الروح ، طائشاً او ملحداً ، مهذاراً متشككاً او لعوباً ، فكف عن ذلك ردحاً من الزمن ، فان الله والطبيعة ، والعمل ، والزواج ، والحب والنسل ، كل اولئك من الحقائق المجلوة ، وهي تنتصب امامك ، فيجب ان تتجلى كلها وتحيا او تموت أنت »

ولقد استطاع بورجيه بذهنهِ المتوقد ، وومضات عبقريتهِ الخلابة ، وجلده الجبار ان يلفت العالم الى صرختهِ ويجعله يصغي الى كلامهِ ، فقد لقي فيهِ المؤمن والملحد موئلاً ، والعصري والرجعي نصيراً ، والثوري المتوفز والقانع المستكين ملاذاً ، والفرنسي وغير الفرنسي سميراً ، ولا غرو في ذلك لانهُ قدر على ايقاظ كوامن الحياة وعناصرها في كل انسان وهزها بعنف ، ثم واجهها بصروف العقل ، ونوازل العاطفة ، وجبروت الغريزة ، وأفانين المدنية ، وتأثير التهذيب ، وترك الاعنة للخصال والمزايا تتطاحن في ميدان التجارب ، بيد انهُ لم يتباعد عن القارىء ليصفق للمنتصر ويضحك من المفكر اغتباطاً بل وقف الى جانبهِ يدله على مواطن الضعف التي اوجبت الانكسار ، وبواعث القوة التي توجتهُ باكليل الظفر

هوذا لمحات من مواضيع رواية « المريد » التي ليست رواية ولا كتاباً بل خلاصة جامعة لدائرة معارف الحياة الانسانية : جمعها وصنفها بول بورجيه العالم الاديب ونقلها الى العربية سليم سعده نقلاً أميناً

بقي لي ان اقول كلمة في ترجمة الرواية . ولما كانت ترجمتها لا تختلف الا قليلاً عن الروايات التي سبق للاستاذ سعده ترجمتها فاني اعيد ذات الرأي الذي ابديته فيه بعد تعديل يسير

قلت انهُ « يفهم جيداً مرامي المؤلف واغراضه فيماشيها في الترجمة كلمة فكلمة وحرفاً فحرفاً ، لا يقدّم في بناء الجملة ولا يؤخر ، وفي وسعك ان تعيد الكلمات والجمل إلى أصولها الفرنسية بدون عناء ولا جهد » وأزيد على ذلك أن المترجم الذي يضبط الكلمات والحروف ، ويقيد نفسهُ بروابط الجملة وفق القواعد الغراماطيقية والاصطلاحات الفرنسية إنما هو امين لا غبار على أمانته فلو توافرت لهذا المترجم المقتدر اسباب الغنى بمفردات اللغة والاسلوب السلس تنهض بالجملة العربية فتكسوها حلة فخمة كالتي ألبسها إياها « بول بورجيه » العالم الاديب القدير لكان بلغ مبلغ المترجين الموهوبين

توجب الترجمة العلمية المترجم على التقيد بالمصطلحات أما الترجمة الادبية فأول موجباتها الروح الادبي ، والغنى اللفظي ، والسلاسة في الاسلوب ، والذوق في اختيار الكلمة التي لا سبيل لمرادفاتها ان تقوم مقامها

القاهرة حبيب الزحلاوي

***

ترجم الاديب سليم سعده قصة التلميذ للكاتب الفرنسي الكبير « بول بورجيه » ورأى ألاَّ يسميه التلميذ والكلمة صحيحة وجميلة ودقيقة الترجمة فسماهُ « المريد » وهي كلمة لا تمت الى التلميذ بصلة ولا نفهم معنى لها في هذا المقام فهي لذلك ليست صحيحة ولا دقيقة الترجمة . وفي المعجمات « المريد اسم فاعل من اراد وعند الصوفية المتجرّد عن ارادته او الذي اعرض قلبهُ عن كل ما سوى الله او من يحفظ مراد الله »

وهي مصدرة بمقدمة من قلم الاستاذ ابراهيم المصري ومهداة الى الاستاذ خليل مطران لانهُ اول من عرّف المصريين الى شخصية بول بورجيه

وكان الاستاذ عبد المجيد نافع قد ترجمها ملخصة وقلت كلتي فيها على صفحات المقطم . وما قلتهُ حينذاك اقولهُ الآن فيما سوى ان الترجمة الملخصة اقل اخطاء من هذه المطولة . وان في الاولى غناء للبيب عن الثانية وان في افصاح الثانية ما لا نحبه للشبان والشابات اللذين واللواتي يقع في ايديهم وأيديهنّ . وما كان اعتراضنا على النسخة النافعية الا لأدبها المكشوف

نجيب شاهين

الانسان المجهول

تابع المنشور على الصفحة ١٥٨

وعلى الجملة نقول اننا لا نعرف : أتدل زيادة الحجم الجسمي والطول على حالة ارتقائية كما يُعتقد اليوم، ام على حالة انحلالية ؟ وليس بنا من شكّ في ان الاولاد اسعد حالاً في المدارس التي امحت فيها طرق الالزام ، حيث ابيح لهم ان يدرسوا من صنوف المعرفة ما هو أكثر ملاءمة لميولهم ، وحيث قضي على الجهد العقلي والانتباه الارادي . ولكن ما هي النتائج المترتبة على مثل هذا الضرب من التعليم ؟ ان من مميزات الفرد في المدنية الحديثة كونه ذا نشاط عظيم يوجه بكليته الى الجانب العملي من الحياة ، ولكن مع جهل شامل ومع قدر غير قليل من المكر والتحايل ، مزودين بضعف عقلي يتركهم نهباً لمؤثرات اي محيط يتفق ان يتسع ذلك الفرد تحت سلطانه . ومما يلوح لي ان الذكاء نفسه ، يضمحل ويزول ، اذا ضعف الخُلق . ولقد نرى ان المثال العقلي في الولايات المتحدة ، ما يزال دنيًا بالرغم من ازدياد عدد المدارس والجامعات

***

يلوح لي ان المدنية الحديثة عاجزة عن إنجاب افراد زُوّدوا بمقدرة التصور والذكاء والشجاعة . وانا لنشهد في كل مملكة نقصاً ظاهراً في « المعيار » العقلي والادبي لاولئك الذين يحملون مسؤولية الحكم وتصريف الامور العامة . كذلك نلفى ان المجموعات المالية والصناعية والتجارية قد بلغت سعة عظمى ، ولقد تتأثر هذه المجموعات ، فلا يقف تأثرها على حالات البلاد التي تنشأ فيها ، وانما يأتيها التأثير ايضاً من حالات البلاد المجاورة لها في انحاء الارض . والحالات الاقتصادية والاجتماعية في جميع امم الارض ، تنتابها تغيرات سريعة . ونظام الحكومة في كل بقعة من بقاع الارض لايلبث ان يستقر، حتى تبدأ المناقشة فيه والتساؤل عن مقدار صلاحيته والديمقراطيات العظمى في انحاء العالم انما تقف الآن لتواجه معضلات عظمى — معضلات تتناول وجودها وكيانها ، ولذا فهي تتطلب حلاً سريعاً فاصلاً . من جماع هذا قد تحققنا بالرغم من الآمال العظام التي عقدها الانسان على المدنية الحديثة ، ان هذه المدنية قد عجزت عن تكوين رجال فيهم من الذكاء وصلابة الخلق وقوة الشكيمة ما يكفي لقيادتها في ذلك الطريق الشائك الخطر الذي تتعثر فيه . وفي ذلك دليل على أن الخلائق البشرية لم تنمُ بنسبة السرعة التي نمت بها النظامات التي خلقتها عقولهم . والحق ان النقائص العقلية والخلقية التي يتصف بها زعماء السياسيين وجهلهم ، هي أنكى ما تتعرض له الامم من الاخطار



الاستاذ كوري جوليو وزوجهُ مكتشفا النشاط الاشعاعي الصناعي

ارنست لورنس مستنبط « السيكلوترون »



الدكتور فيليب حتي

مؤلف كتاب History of the Arabs

حديقة المقتطف

ابولون ودفنى

من أساطير الادب اليوناني

رباعيات الغزالى

للشاعر الفرنسي جان لاهور

الحب الصوفي — عاطفة الاستسلام

نقلها خليل هنداوي





ابولو ودفني



الرئيس ماساريك

رأيه في الديمقراطية والفاشية

لعلي أدهم

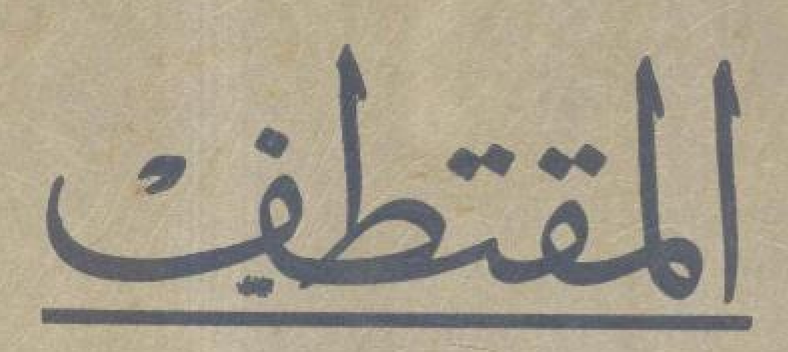
الشؤون الدولية

في سنة ١٩٣٧

جذب ودفع — امتحان القوة — الحربان في اسبانيا والصين — سقوط هيبة القانون — القرصنة ومؤتمر نيون — روسيا ترتد الى القومية — من محور الى مثلث ضد الشيوعية — تزاور الاقطاب. المانيا والمستعمرات — ايطاليا والعصبة


رابطة
الإصلاح الاجتماعى
يوم الطفولة
الدوره الثانية
يناير ١٩٣٨

فهرس الجزء الثاني من المجلد الثاني والتسعين


المقتطف



المقتطف

الجزء الثالث من المجلد الثاني والتسعين

١ مارس سنة ١٩٣٨ — ٢٩ ذي الحجة سنة ١٣٥٦

أثمن من اليواقيت

او الزجاج والحضارة الحديثة

قد يبلغ ثمن حجر واحد من الالماس اذا كان وزنهُ رطلاً نحو مائتي الف جنيه ولكن الزجاج لا يزيد ثمن الرطل منهُ على اربعة قروش . ومع ذلك فان الفرق بين الالماس والزجاج من حيث فائدتهما للحضارة كبير لان الزجاج من اعظم المواد فائدة للناس وأثراً في العمران . فهو في ذلك يفوق اي حجر من الحجارة الكريمة . ولا ريب في ان قيمة الزجاج ستعلو شأناً عندما ينتهي العلماء والمستنبطون الى صنع اصناف جديدة منهُ

كان الزجاج قبل ان تعالجهُ ايدي العلماء مادة شفافة قصمة تصلح للنوافذ لانها تحجب الهواء والمطر وتأذن للضوء في اختراقها . اما الآن فقد اصبحت اصناف الزجاج متعددة ، وخواصها كثيرة ومتباينة . فثمة مثلاً زجاج يؤخر سير الحرارة فيهِ فتصنع منهُ لبنات للبناء ومقابض لاباريق الشاي والقهوة ، وزجاج مقاوم للتيار الكهربائي فيستعمل في صنع الموازل الخاصة باعمدة التلفون وكذلك الانابيب المفرغة . ومن اصنافهِ ما يصلح لصنع اجهزة لقلو البيض او لنسج نسيج غير قابل للاحتراق او لصنع الواح تستعمل في احواض السباحة للقفز في الماء . بل هناك نوع متين من الزجاج اذا صنعت منهُ مكعباً ضلعهُ بوصتان ، استطاع ان يتحمل ضغط قطار بضائع كبير من غير ان ينكسر مع ان ضغطاً من هذا القبيل قد يكفي لكسر مكعب

مثلهُ من اية مادة اخرى . وثمة صنف آخر من الزجاج يصلح لصنع الواحٍ منهُ لا تخترقها رصاصات مدفع رشَّاش اذا كانت سماكتها بوصة واحدة . وآخر تصنع منهُ الواح رقيقة اذا وقفت عليها لم تمترك رعشة كهربائية ولو كان ضغط التيار المتصل بك عشرة آلاف فولط . اما اللبنات التي تصنع من الزجاج الخاص ببناء الدور فلا تنفذ منها الحرارة ولو كان الجوّ في الخارج قارس البرد ، الاَّ بمقدار خمسين في المائة من اختراق الحرارة لجدران البناء العادي

فلا بدعَ وهذه خواص الزجاج الحديث ، في كثرة تنوّعها وعظم فائدتها ، أن يبلغ المصنوع من اصنافهِ المستعملة في أميركا في سنة ١٩٣٠ ما يزيد على ثلاثة ملايين من الاطنان

قد يقال ان الالماس متصف بمعظم صفات الزجاج ، وانهُ علاوة على ذلك اقسى منهُ ، فهو لذلك اعظم نفعاً . ولكن الزجاج متصف بصفة لا قبل للالماس بها ، وهي انصهاره وسيلهُ كالعسل آناً ثم تجمُّدهُ في قوالب يفرغهُ فيها الصانع كما يشاء . والزجاج من الناحية الطبيعية ليس جامداً كالصلب او الخشب ، ولكنهُ يفعل عندما تكون حرارتهُ غير مرتفعة ، كانهُ مائع بَرد فلم يجر . احمهِ برفع الحرارة بضع مئات من الدرجات يصبح قابلاً للإفراغ في أي قالب تريد . ثم ارفع الحرارة قليلاً يسل كالشراب (Syrop) ثم بردهُ قليلاً يصبح لزجاً . وبالبحث يمكن الوصول الى درجة متوسطة من الحرارة يكون الزجاج عندها قابلاً للنفخ والضغط والافراغ والمدّ والنسج

ان الواح الزجاج المستعمل في النوافذ يمكن ان تصنع بنفخ الزجاج . وقد ارتقى هذا الاسلوب ارتقاءً عظيماً حتى صار في امكان النافخ ، بعد المرانة الكثيرة ، ان يأخذ بأنبوبةٍ من الزجاج المصهور ، كتلة تكفي لنفخ فقاعة كبيرة قطرها ثلاث اقدام . وعند ما تبرد هذه الفقاعة تكسر عنقها ثم تحزُّ من جنبها بالماسة ، ثم تحمى قليلاً فتلين فتنبسط على سطح مستوٍ . ولكن الزجاج المنبسط على السطح قد لا يكون متناسق السماكة في كل جزء منهُ ، وهذا يظهر في زجاج النوافذ الرخيص اذ يبدو سطحه متموّجاً قليلاً لا مستوياً تامًّا . وأما الطريقة الحديثة فهي بسط سطح طويل مستوٍ من الزجاج المصهور بغير نفخهِ اولاً ثم يُدحى حتى تصبح سماكتهُ واحدة في جميع اجزائهِ ، وكذلك تصنع ألواح تبلغ مساحتها ملايين من الاقدام المربعة كل سنة في اميركا

والزجاج يمكن ان يصنع من مئات من الموادّ تختلف من الرمل على شاطىء البحر الى السكَّر في حانوت البدّال ، إذ كل مادة يمكن أن تصهر ثم أن تجمَّد من غير ان تتبلور تصلح لصنع الزجاج . ولكن الزجاج المألوف يصنع عادةً من بلورات الكوارتز في الرمل بعد خلطها بالجير والصودا ثم تصهر جميعاً وعندما تبرد تبدو شفَّافة قاسية مقاومة للحرارة وللكهربائية ، وهي خواصٌ ثبتت فائدتها للحضارة ولولاها لما بلغت الحضارة الشأو الذي بلغتهُ في هذا العصر

إن قراء المقتطف يعلمون ، ان الاشعة السينية تستعمل الآن لمعرفة ترتيب البلورات في

الجسم المتبلور. فاذا درسنا الاجسام المتبلورة كالحديد والالماس بهذه الطريقة ظهر لنا ان البلورات فيها مرتبة في صفوف مستعرضة وقائمة وقاطعة للزوايا ، فكأنها فرقة سائرة من الجنود تراها صفوفاً مستعرضة وقائمة ومتقاطعة وفقاً للزاوية التي تنظر منها اليها . ولكن البلورات في الزجاج ليس لها تنسيق معين معروف ، ومعظم الخواص الممتازة التي يتصف بها الزجاج ناشئة عن كون جزيئاته لا تتخذ صورة معينة عند تجمدهِ

وخير اصناف الزجاج ما صنع من مادة «السليكا» النقية المصهورة الا انهُ يكلف نفقة كبيرة ذلك ان صهره صعب وتناوله وهو مصهور أصعب . ولكن عندما نحتاج الى زجاج خاص لصنع مرايا المراقب ، فلا بد حينئذٍ من الاعتماد على هذا النوع من الزجاج لانهُ خير ما تصنع منهُ هذه المرايا . اما اذا شئنا ان نصنع منهُ طبقاً للاكل فقد يبلغ ثمن الطبق مائة جنيه ! وفي ظن العلماء انهُ قد يتاح لهم في المستقبل صنع هذا الزجاج الامثل بحيث لا يكون ثمنهُ مرهقاً ، واذن يجب علينا ان نكتفي الآن بأنواع اخرى من الزجاج الى ان يحلَّ ذلك اليوم المنشود

إن صناعة الزجاج الحديثة ، قد استبدلت اسلوب نفخ الزجاج بأجهزة ميكانيكية تفرغ الزجاج في أي قالب تريد او تبصمهُ من غير ان ينفخ فيهِ نافخ. وقد ترى شريطاً ثخيناً من الزجاج المصهور في قوام العسل ، خارجاً من الاتون ، فيقطع قطعاً من حجمٍ معين ، تبدو كأنها شهبٌ نارية ، ثم تحملها نقالات خاصة فتوزعها على الآلات المختلفة فتفرغ في القوالب المطلوبة او تطبع بالمطابع ، فاذا تمَّ ذلك نقلت الى أتاتين خاصة لسقيها وهو عمل لا غنى عنهُ ، لانهُ يمنع حدوث التشقق في الزجاج بعد ما يبرد . فاذا أخذت كتلة من الزجاج المصهور وتركتها حتى تبرد من تلقاء نفسها ، برد خارجها أولاً فيتجمد ويضغط على داخلها الذي لا يزال حامياً غير متجمد . فينشأ من جرَّاء هذا الضغط ، صدوع خفية قد لا يبدو أثرها مدى سنوات ، ولكنها تكون أشبه ما يكون بالزنبلك المضغوط ، اذا أرخي الضغط الواقع عليهِ قليلاً قفز قفزاً . وكذلك هذه الصدوع فانها قد تبقى خفية ثم إذا حدث ما خدش الزجاج خدشاً يسيراً في مكان معين رأيتهُ وقد تشقق ثم تهاوى شظايا أن لم يتطاير في وجهك. فعملية «السقي» تزيل الضغط الخارجي على الكتلة الداخلية فتمنع حدوث الصدوع وذلك بابقاء كتلة الزجاج كلها على درجة مرتفعة من الحرارة مدة ثم تبريدها رويداً رويداً

وهذه العملية بطيئة وتقتضي نفقة غير يسيرة ولا سيما اذا كانت كتل الزجاج كبيرة . فمرايا المراقب الكبيرة قد تستغرق عشرة أشهر حتى يتم تبريدها . وحرارتها يجب أن تبقى نحو ٤٠٠ درجة مئوية خلال مدة طويلة ؛ فالنفقة على الوقود اللازم لتوليد هذه الحرارة لا يمكن أن تكون نفقة يسيرة . وكان الاعتماد في «سقي» الزجاج الى عهد قريب ، على الاختبار . ولكن العلماء استنبطوا ما يمكنهم من رؤية الصدوع وتصورها وبذلك يعرفون أين تبدأ هذه

الصدوع في الظهور فيمنعونها، ومتى يصبح الزجاج صالحاً للاستعمال بخلوِّهِ منها

ان السعي الى صنع زجاج جديد ، كثيراً ما تكون عليهِ سمة من عمل الطاهي . بل اذا نظرت الى الاوراق التي دونت فيها التعليمات اللازمة لمزج المواد بعضها ببعض ، لم تختلف في نظرك عن وصفةٍ لصنف خاص من الطعام : خذ قدر كذا من كوارتز الزمل وثلث برميل من الصودا وحركهما معاً في دلو من الجير. اما الكوارتز فيمنح الزجاج قواماً ومتانة . واما الصودا فتساعده على الانصهار . واما الجير فلمنعهِ من الذوبان في الماء . هذه هي المواد الاصلية . ثم بعد ذلك يصبح للخيال شأن وأي شأن . فأمامنا طائفة كبيرة من العناصر. ان اضافة قليل من هذا العنصر او من ذاك يمنح الزجاج العتيد خواص معيَّنة. أنضع فيهِ قليلاً من البورق لتحول دون تصدُّع الزجاج عند احمائهِ ؟ ام نضيف قليلاً من الرصاص لنمنع الاشعة السينية من اختراقهِ ؟ ام حفنة من الباريوم لكي يتألق ؟ وبعد ذلك يأتي المزج الدقيق ، ثم يوضع المزيج في اتون ليلة كاملة وفي الصباح يُصبُّ في قوالب من اللبن ويترك حتى يبرد تدريجاً ثم يمتحن

هنا يدخل عالم الطبيعة الحديثة ميدان صناعة الزجاج . يدخلهُ وفي ذهنهِ اسئلة كثيرة يريد ان يعرف الجواب عنها ليعرف قيمة الزجاج . ما قرب هذا الزجاج من ذلك الزجاج الامثل الذي لا يتمدَّد عند ما يحمى ولا يتقلَّص — واذن فهو لا يتصدع — عندما يبرد ؟ هل يبقى صافياً متألقاً اذا ظلَّ معرَّضاً لعوامل الجوّ ستة اشهر ؟ واية درجة من الحرارة يجب ان يبلغ قبل ان يصبح قوامهُ كقوام العسل الكثيف ، عندما يسهل العمل فيهِ افراغاً ونقشاً وحفراً ؟ وهل يصبح مائي القوام بسرعة ؟ هذه بعض المسائل التي يجب ان يجاب عنها ، قبل ان يعلم صاحب الوصفة السابقة ، هل هي جديرة بالحفظ ام تنبذ نبذ النواة

ان الغرض الاساسي من الزجاج ان يكون شفافاً ينفذ النور من خلاله . والعين كما لا يخفى جهاز دقيق ، ولكنهُ كثيراً ما يصيبها شيء من الخلل . فاذا وضعت امام العين قطعة زجاج موافقة اصلحت ذلك الخلل فيها . ولا يخفى ان احدَّ العيون نظراً لا تستطيع ان تتبين الاشباح البعيدة . وسواء أعدسات نظارات كانت هذه القطع الزجاجية التي تضعها امام العين، ام عدسات مراقب ام مجاهر ، فانها تصلح لما تستعمل له لأن الزجاج يبطىء سير الضوء عند ما تخترقه اشعتهُ

تسير شعاعة الضوء في الفضاء الخلاء بسرعة ١٨٦٣٠٠ ميل في الثانية. ولكنها عند ما تخترق كتلة من الزجاج تهبط سرعتها الى نحو ١٢٠ الف ميل في الثانية. وهنا يخطر لنا سؤال يحيِّرنا وهو: لماذا تمكننا هذه الخاصية ، خاصية ابطاء سرعة الضوء في الزجاج ، من استعمال الزجاج لاصلاح خلل البصر . ولماذا يستطيع رجل مصاب بالحسر (قرب البصر) عاجزٌ عن ان يرى الاجسام واضحة اذا كانت على أبعد من ثلاث اقدام منهُ ، ان يراها واضحة جلية اذا وضع امام

عينيه قطع زجاجية من تحديب معيّن ؟ ولماذا تمكننا عدسات المراقب من رؤية كواكب لا تتبينها بالعين المجرّدة ، وعدسات المجاهر من رؤية اجسام دقيقة كثيرة في قطرة من الماء لا تزيد على رأس الدبوس ؟

انما نرى الاجسام بما تعكسهُ نقط مختلفة على سطوحها من أمواج الضوء الى العين . وشعاعة الضوء تسير — في حدود هذا البحث — في خطّ مستقيم ، ولكنها تنحرف عندما تدخل جسماً كالزجاج يبطيء سيرها . ثم تنحرف أيضاً عند نفوذها منهُ في الجانب الآخر . فاذا كان سطحا الجسم الزجاجي ماثلين أحدهما على الآخر ، كان انحراف شعاعة الضوء بعد نفوذها ، في اتجاه مخالف لاتجاه انحرافها داخل الجسم الزجاجي . ولكن العين لا تتبين هذا الفرق . بل ترى الجسم الذي صدرت الشعاعة منهُ ، واقعاً في الاتجاه الذي يبدو لها أن الشعاعة قادمة منهُ . وكذلك يمكن أن تعرّف العدسة بانها جهاز يخدع العين ، فيحملها على التأثر بالضوء تأثراً يجعلها تظن ان الاشعة صادرة من جسم أقرب اليها وأكبر حجماً مما هو حقيقةً

وتقريب الاجسام ليس خاصة العدسات الفريدة ، ولا هو أهم خواصها . ذلك أن العين لا تبصر الا بالضوء الذي يدخل بؤبؤها ، فاذا كانت العدسة كبيرة ، استطاعت أن تجمع قدراً كبيراً من الضوء ، وكذلك يدخل البؤبؤ قدرمن الضوء صادر من ذلك الجسم ، اكبر مما يدخلهُ عادة ، فتراهُ العين أوضح مما تراهُ عادةً . واكبر عدسة صنعت حتى الآن هي العدسة التي صنعت لمرقب مرصد يركيس باميركا ويبلغ قطرها اربعين بوصة ، وبها يرى القمر كأنهُ على مائة ميل منا فقط . مع انهُ على نحو ٢٠٠ الف ميل منا ، وليس مرقب مرصد يركيس بأكبرمرقب صنع . بل هنالك مراقب أكبر منهُ . ولكنها تعتمد على مرايا عاكسة لا على عدسات كاسرة ، منها مرقب مرصد جبل ولسن الذي قطر مرآتهِ مائة بوصة ، والمرقب الذي يصنع الآن وقطر مرآتهِ مائتا بوصة . وصنع عدسة كعدسة مرقب يركيس ، يقتضي كتلة كبيرة من الزجاج الصافي الذي لا شائبة فيهِ . فالزجاج الذي يصنع للآلات البصرية ، يجب أن يكون خالياً من اللون والفقاقيع الهوائية ، مهما يكن اللون خفيفاً والفقاقيع صغيرة ، لان ذلك يجعلهُ غير صالح لما يصنع لهُ ، فاذا اتفق وجود قليل من الحديد في كتلة من الزجاج البصري ، كان ذلك كافياً لنبذه

وبعد ما تصنع كتلة من هذا الزجاج في حجم قريب من حجم العدسة المطلوبة ، يصقل سطحها أولاً بفركها بسطح معدني من شكل معيّن بعد ان تذر فيهِ حبيبات من مادة « الكاربوروندوم » فاذا أصبحت في الشكل المطلوب يوالى صقلها بحبيبات متدرجة صغراً وأخيراً تصقل بحبيبات المادة الحمراء التي تدهن بها النساء شفاههنّ

وقد أنبأنا الدكتور جوبت العالم الاميركي، إن الصقل النهائي بهذه المادة الحمراء لمرآة

المرقب الكبير وهي المرآة التي قطرها مائتا بوصة ، قد يستغرق نحو سنتين

ومن غرائب ما يروى في صدد العدسات المستعملة في النظارات انهُ في الامكان الاستغناء بعدسة توضع على المقلة فلا يراها أحد ولا يحسُّ صاحبها بها . وتكون في الوقت نفسه صالحة لتصحيح البصر بغير الحاجة الى استعمال النظارات ، وهي طبعاً أغلى من النظارات العادية ، ولكنها أقلُّ تعرضاً منها للكسر ، وتدلُّ الاحصاءات الاميركية على ان ألوفاً من الاميركيين يستعملونها

من نواحي التقدم الجديدة في صناعة الزجاج ، ناحية نشأت عن شكوى فريق من عمال سكك الحديد . ذلك انهم يحملون فوانيس لها كوى يشعُّ منها اللون الاحمر أو الاخضر ، او الضوء العاديّ . فاذا سقطت قطرات المطر على فوانيسهم واصابت زجاج هذه الكوى ، تكسَّر الزجاج لتقلصه المفاجيء الناشيء عن البرد الذي تحدثهُ قطرات الماء . فعني علماء احدى الشركات الاميركية المعروفة باسم « شركة كورننغ » بالسعي الى صنع زجاج لا يتقلص أكثر من عشرة في المائة من مبلغ التقلص الحادث في الزجاج المستعمل في هذه الفوانيس ، عند ما تتغير حرارتهُ تغيُّراً فجائيًّا . وكانوا يعلمون ان زجاج الكوارتز النقي يصلح لذلك ولكنهُ غالٍ جدًّا لا يصلح للاستعمال التجاري . فأخذوا يبحثون عن مواد تمكنهم من صنع زجاج قليل التمدُّد والتقلص فوجدوا انهم اذا أضافوا البورق الى مواد الزجاج العادية تحققت أمنيتهم . ولكن الزجاج الاول الذي صنعوه على هذا الاساس ، كان يذوب في الماء كالسكر . وبعد بحث دام سبع سنوات ، تمكنوا من صنع أصناف جديدة من الزجاج ، متصفة بقلة تمددها وتقلصها ، وبشدَّة مقاومتها لعوامل الجوّ والحرارة والكهربائية . وهذا الصنف من الزجاج مشهور الآن في أسواق العالم باسم زجاج « بايركس » Pyrex . ولا يخفى ان اطباق الزجاج العادية وكذلك الاكواب ، تتطاير شظايا اذا أحميت احماء فجائيًّا ، ومن أول ما تعلمناه ان نضع ملعقة من المعدن في كوب من الزجاج اذا شئنا أن نسكب فيه ماء مغليًّا . ذلك أن الملعقة المعدنية تمتص جانباً من حرارة الماء فتحول دون تفرقع الزجاج . اما اطباق الزجاج الجديد « Pyrex » فلا تتكسر حتى ولو وضعتها في الفرن ، وفي وسع ربَّة البيت ان تطهي بها ما تريد من طعام او كعك

وكان اهمّ عمل قامت به هذه الشركة في صناعة الزجاج صبّ قرص ضخم من الزجاج سماكتهُ قدمان وقطرهُ ست عشرة قدماً لتصنع منها مرآة المرقب الكبير بكاليفورنيا . وزجاج المرآة في المرقب يختلف عن زجاج العدسة في ان الاول لا يجب ان يكون شفافاً كزجاج العدسة . ذلك ان زجاج المرآة يستعمل اساساً بعد صقله لطلائه بطبقة معدنية عاكسة . ولذلك يجب ان يكون قابلاً للصقل الدقيق ، وغير قابل للتمدُّد والتقلُّص . وقد بلغ من كبر هذا القرص الزجاجي الضخم — البالغ عشرين طنًّا وزناً — ان اضطرَّ صانعوهُ ان ينقلوهُ بطريق غير

مباشرالى كاليفورنيا لكي يجتنبوا الانفاق والجسور التي يجتازها القطار حرصاً على القرص من ان يصاب بأذى . اما العدسة الكبيرة فمن اشق الامور الحصول على قطعة من الزجاج يبلغ قطرها أكثر من اربع اقدام وهي خالية من فقاقيع الهواء مهما تكن دقيقة ، ومن آثار الضغط الخارجي على داخلها عند تبريدها وهذا كما تقدَّم يحدث فيها قابلية كامنة للتشقق والتكسُّر

فلما عدل عن العدسات في المراقب الكاسرة الى المرائي في المراقب العاكسة اطرد التقدم في صنع هذه حتى بات في الامكان صنع مرآة قطرها ٢٠٠ بوصة ، وبها يستطيع الراصد ان يتبين شمعة واحدة ولو كانت على اربعين الف ميل

هذا في ما يتعلق بالمراقب . اما في ما يتعلق بعدسات المجاهر ، فقد بلغ العلماء فيها اقصى حدود الاتقان ، اذ اصبحوا يستطيعون ان يكبروا قطر جسم صغير دقيق اربعة آلاف مرَّة . فاذا شاؤا تكبيراً اعظم من هذا وجب عليهم ان يعتمدوا على امواج من الطاقة غير امواج الضوء المرئي وأقصر منها ، اي على امواج الاشعة التي فوق البنفسجي . ولكن الزجاج العادي غير شفاف لهذه الاشعة ، اي انها لا تخترقهُ كما تخترقهُ امواج الضوء المرئي ، ولذلك اتجهت انظار الباحثين الى صنع زجاج يأذن للاشعة التي فوق البنفسجي في اختراقهِ . وقد تمَّ لهم بعض ما يريدون فأصبح في الامكان رؤية اجسام اصغر جدًّا من الاجسام التي نراها بأقوى المجاهر العادية . واستعمال كلمة « الرؤية » هنا ليس بالاستعمال الدقيق . ذلك أن عين الانسان لا تتأثر بالاشعة التي فوق البنفسجي واذاً فالجسم الذي يعكسها لا يمكن ان تتبينهُ العين البشرية . فنعتمد حينئذٍ على الواحٍ خاصة من الواح المصوِّرات الضوئية (Cameras) . الاَّ ان هناك صعوبة اخرى . وهي ان الهواء يمتص جانباً كبيراً من الاشعة التي فوق البنفسجي القصيرة . وبين الجسم الصغير الملقى على شريحة المجهر والعدسة ، طبقة من الهواء لا بدَّ ان تمتصَّ جانباً من هذه الاشعة المعكوسة عن الجسم الى عدسة المجهر . ولذلك ذهب علماء الطبيعة الى وجوب وضع المجهر كلهِ في صندوق مفرغ . فاذا تمكن العلماء من كل ذلك وضعوا في أيدي علماء الطبيعة والكيمياء الطبيعية والحيوية أداة للبحث لا تقوَّم بمالٍ

ولا يخفى ان الزجاج يبدو شفافاً لان الاشعة التي نرى بها الاجسام عند ما تنعكس عن سطوحها ، هي الاشعة التي تخترقهُ . ولو كانت عيوننا ترى بالاشعة التي فوق البنفسجي ، لا بأشعة الضوء المرئي ، لما كان الزجاج شفافاً . بل لنذهب الى ابعد من ذلك فنقول انهُ لو كان في امكاننا ان نرى بالاشعة التي تحت الاحمر لكان الورق الاسود والمطاط شفافاً في نظرنا ولما كان الزجاج شفافاً لان الاشعة التي تحت الاحمر تخترقهما ولا تخترقهُ

وبتغيير المواد التي تدخل في تركيب الزجاج يمكن ان يجعل اقسى من الصلب او اكثر

ليناً من الطلاء الذي يطلى بهِ الخشب . فبعض اصناف الزجاج التي تصنع منها مرايا المراقب وأطباق الطهي تقاوي الاستعمال وما يلازمهُ من الفرك اكثر مما يقاويه الصلب . فاذا استطاع العلماء ان يصنعوا خيطاً زجاجيًّا مرناً يصلح للنسج ، اخرجوا للعالم مادة اقوى وامتن من خيوط الحرير

وقد استنبطت وسيلة حديثة في صناعة الواح الزجاج لتقسية الزجاج تجعله اقسى وأمتن من الزجاج العادي خمسة اضعاف وذلك بصنع الواح تعرض فجأة للهواء فتبرد سطوحها قبل ان يبرد داخلها فيضغط خارجها على داخلها ولكن بدون ان يتشقق داخلها . الاَّ أن الطبقة الداخلية تكون شديدة التأثر بما يصيبها من خدش او حزّ . واما الطبقة الخارجية فأقل تأثراً منها بذلك . وهذه الحقيقة تمكنهم من صنع الواح متينة من الزجاج تستعمل في واجهات السيارات ولكن كل لوح منها يجب ان يصنع على حدة . اذ لا يمكن حزّ لوح كبير لصنع الواح صغيرة منهُ ، لانهُ عند حزّهِ تتأثر طبقتهُ الداخلية فتنهار كأنها حبيبات من الرمل الدقيق كانت متماسكة فتفككت . ولهذه الصفة فائدة كبيرة في استعمال هذا الزجاج في واجهات السيارات ، فاذا حدث اصطدام وأصاب زجاج الواجهة ما كسرهُ أو حزّهُ ، واتصل اثر ذلك بالطبقة الداخلية ، فان اللوح لا يتشظى ولا تتطاير شظاياهُ ، بل ينهار ألوفاً وألوف الالوف من الكسر الصغيرة

وفي الاستطاعة الآن مدُّ الزجاج خيوطاً دقيقة ولكنها لا تصلح للنسج بل هي تشبه عند خروجها من المصنع ذلك النوع من الحلوى المعروف « بغزل البنات » . وفي أحد مصانع الزجاج الاميركية ثلاثمائة ثقب يخرج منها كلّ ثانية ما طولهُ سبعون ميلاً من هذا النوع من الخيط الزجاجي فيتراكم بعضهُ فوق بعضهُ فيبدو كأنهُ كتلة هشَّة من الصوف المندوف ، فتستعمل قطع منها في العزل من الكهربائية والحرارة في المباني والثلاجات وغيرها . ولا يزيد وزن قدم مكعبة من هذا الزجاج المعروف « بالصوف الزجاجي » على أربع وعشرين أوقية ، ومن خواصهِ ان الرطوبة لا تؤثر فيهِ ويمنع انتشار الحرائق واذا وضع في جدار البيت وقاهُ من البرد القارس في الخارج كما لو كان جدار البيت من الاسمنت المسلح وسماكتهُ عشر اقدام

وقد استعمل الخيط الزجاجي في صنع الملابس منهُ ولكنها لا تزال حتى الآن غير وافية بالمرام . ذلك ان الخيط الزجاجي لا يزال تعوزه المرونة اللازمة لكل خيط صالح للنسج . ولذلك لا بد من ان ننتظر صابرين اليومَ الذي يحقق فيهِ صنع خيوط زجاجية دقيقة مرنة تصلح لصنع الملابس ، ان كان ذلك مستطاعاً على الاطلاق

ان المقام لا يتسع لتعديد النواحي التي تعتمد فيها الحضارة على الزجاج وما يجتمع فيهِ من خواص فذَّة ، وقد اقتصرنا في ماتقدم على بعضها وما تمَّ فيها من التقدم في العصر الحديث

الطفل المتأخر

للدكتور امير بقطر

ليس هذا المقال تقريظاً للمجلد الكبير الذي نقدمه للقراء، وليس هو تلخيصاً للمادة الغزيرة التي جمعها المؤلف من ناحية، وتوصل الى نتائجها من ناحية أخرى. وانما عرض عام لمسائل علمية عظيمة الشأن قتلها الدكتور سيرل برت [1]، استاذ علم النفس بجامعة لندن، بحثاً واختباراً، وسبقهُ اليها غيره من علماء التربية والنفس. وقد رأينا، إفادة لقراء المقتطف عامة، والوالدين والمربين والمهيمنين على شؤون الاطفال خاصة، أن نضع بين السطور ما ينبغي أن يعرف مما لم يتعرض لهُ المؤلف، اذ أن لغة الكتاب، ومفرداته العلمية البحتة، وأسلوبه الفني، لم يراعَ فيه التبسيط، لانها موجهة الى الخاصة لا الى العامة، والى المشتغلين بعلمي النفس والتربية لا الى غيرهم

وقد يتساءل البعض ويعجب، إذا علم أن مؤلفنا هذا ضمّ بين دفتيه نحو سبعمائة صفحة بينها الكثير بالخط الدقيق المضني للعين المجردة، وأنهُ ثمة مجلد آخر لا يقل عنهُ ضخامة موضوعه «الطفل المذنب»، ويذهب العجب اذا أدركنا ان العلماء لا تقل عنايتهم بالطفل الشاذ، وجميع الموضوعات التي تدور حوله، منهم بالطفل العادي، وما ذلك إلاّ لان العقل البشري لا يستطيع ان يتفهم الجمال بغير القبح، ولا السعادة بغير الشقاء، ولا الذكاء بغير الغباوة، وبضدها تتميز الاشياء. وخير الجهود التي بذلها علماء التربية، وابهر النتائج التي توصل اليها علماء النفس، نشأت في معاهد الشواذ وضعاف العقول، وترعرعت في معامل الحيوان بين القردة والكلاب والقطاط والجرذان، وأكثر مدارس العالم شهرة فتحت ابوابها اولاً لقبول التلاميذ الشواذ، مثال ذلك مدارس دكرولي التي تنسب اليها طريقة دكرولي والمعروفة اليوم باسم مدارس «لرميتاج» في مدينة بروكسل (L'Ermitage)

وقد ظل العالم زمناً لا يعير الشواذ التفاتاً، كأنهم من سقط المتاع، وكان الناس فوق ذلك يسيئون معاملتهم كأنهم لا عواطف لهم ولا حساسية، كما كانوا يقيدون المصابين بالامراض العصبية، ويسومونهم العذاب ضرباً بالسياط، وكيًّا بالنار، وتكبيلاً بالسلاسل الفولاذية الثقيلة.

(1) The Backward Child, by Cyril Burt

ولم يتنبه أولو الامر لهذه القسوة الوحشية إلاّ مؤخراً ، حينما برهن علماء النفس على ان الذكاء كلمة نسبية كالحرارة والضغط الجوّي والجمال والصلاح . وابناء البشر (والحيوان) يتفاوتون في الذكاء بين المعتوه ، والسفيه (وتعريفهُ كما في الشريعة الاسلامية من يغبن في المعاملات) والابله ، والمتوسط ، والفائق ، والممتاز ، وفوق الممتاز ، وأخيراً العبقري . والطفل يولد بقدر محدود من الذكاء يبقى فيهِ غير قابل للزيادة والنقصان تقريباً طول حياته (الاّ إذا كان سبب نقصهِ مرضاً قابلاً للشفاء كاختلال في الغدد الصمّ) . وطالما كان هذا القدر موروثاً ، فليس ثمة من ذنب على الطفل إذا لم يستطع الانتقال من مرحلة الدراسة الابتدائية مثلاً بلغت جهوده وجهود معلميه ما بلغت ، كما أنهُ ليس ثمّة من ذنب على رجلٍ لا يستطيع ان يحمل قنطاراً من الحديد . وعلى هذا المبدأ نشأت نظرية الفروق الفردية التي بمقتضاها تنوع الدراسات تنويعاً يعين كل طفل على تخير المواد التي توافق حالته ، كمية وصعوبة

بقي علينا أن نعرف ان المجنون لا يقاس بمقاييس الذكاء التي يستطاع بواسطتها تحديد مكانهِ من المعتوه أو الابله ، أو غيرهما من ضعفاء العقول ، لان المجنون مريض ، كالمحموم والمجذوم ، وليس من العدل أن يقاس ذكاء المرء وهو في حالة مرض . فإذا ما شفي المجنون ، فهو كغيره من المرضى وذوي العلل ، يمكن أن يكون عبقريًّا او ممتازاً ، كما يجوز أن يكون أبله او معتوهاً. وكما أن المحموم لا يعذب ولا يجلد إذا ما استرسل في الهذيان ، كذلك ليس من الانسانية في شيء ان يعذب المجنون أو الذاهب العقل إذا ما استرسل في الهذيان او التعدي على الغير قولاً أو عملاً

ولم تعبأ انجلترا بالاطفال الشواذ إلاَّ حديثاً ، وقد سبقتها في هذا المضمار اميركا والمانيا وبلجيكا وفرنسا . بيد أنها اخذت أخيراً تخطو خطوات واسعة في هذا السبيل . وما هذا المؤلف الذي نحن في صدده الاَّ دليلاً على قفزات انجلترا السريعة . وقد خيل إليّ وأنا اتصفح الكتاب أن مؤلفهُ اميركي ، لأن الاميركيين أكثروا من التجارب ، ودونوا من نتائجها ، وألَّفوا وصنفوا ما لم يصنفهُ غيرهم من الامم . كما ان الطريقة التي اتبعها تكاد تكون أميركية بحتة لأن الاميركيين كما لا يخفى ، اذا كتبوا تبسطوا وأسهبوا ، في حين ان الانجليز اذا كتبوا أوجزوا وتركوا القارىء لذاتهِ يقرأ بين السطور

نعود الآن الى الكتاب الذي نحن في صددهِ فنقول ان المؤلف قسّم الاطفال المتأخرين الى (١) ضعاف العقول و (٢) المذنبين او المشاغبين و (٣) الكثيري الغياب عن المدرسة (٤) والمتقدمين في جميع المواد الدراسية ما عدا بعضها كالحساب او الهجاء او المطالعة . والغرض من هذه التفرقة علاج كل طائفة علاجاً يناسب مقتضى الحال لانهُ ليس من شرعة الانصاف ان يتلقى جميع الاطفال ولا المتأخرون منهم مواد الدراسة الواحدة كمية ونوعاً بغير تفريق او كما

يقول المؤلف ليس من شرعة الانصاف ان تقدم طعاماً واحداً لجميع الحيوانات في الحديقة على السواء

وعمد صاحب الكتاب الى تقسيم آخر ففرق (١) بين التأخر ذهناً وخلقاً و (٢) التأخر الموروث والمكتسب و (٣) التأخر العام والخاص و (٤) أخيراً التأخر المؤقت والدائم . ويحتاج التقسيم الاخير الى شيء من الايضاح :

فمن الطائفة الاولى من المتأخرين ، يقال ان الطفل متأخر من الناحية العقلية اذا كان أقل ادراكاً من أمثاله الذين يستوون معهُ عمراً . وقد استنبط علماء النفس كما قلنا مقاييس او اختبارات للذكاء ، وهي أسئلة تتعلق ببيئة الطفل ولا دخل لها بمواد الدراسة ، يطلب من الطفل الإجابة عنها . وهذه الاسئلة تتنوع بتنوع الأعمار ، وقد وجد بعد تجربتها بمئات الالوف من الناس ان طائفة من هذه الاسئلة تخصص لمن عمره تسع سنوات مثلاً وأخرى لمن عمره اثنتا عشرة سنة وأخرى لمن عمره خمس سنوات وهكذا ، فاذا استطاع طفلٌ في السادسة من عمره أن يجيب عن طائفة الاسئلة المخصصة لمن عمره ست سنوات ، قيل انهُ متوسط الذكاء اي ان سنهُ العقلية تساوي سنهُ الزمنية . واذا لم يستطع ذلك ولكنهُ أجاب عن الاسئلة المخصصة لمن عمره خمس سنوات فهودون المتوسط لان سنهُ العقلية خمس سنوات ، في حين ان سنهُ الزمنية ست سنوات . واذا استطاع الاجابة عن الاسئلة المخصصة لمن عمره سبع سنوات فهو فوق المتوسط في الذكاء لان سنهُ العقلية سبع سنوات في حين ان سنهُ الزمنية ست سنوات وهكذا . ويمكن استخراج رقم الذكاء لاي طفل بعد اختباره بواسطة الاسئلة التي تلائم سنه الزمنية ويتم بعملية حسابية بسيطة ، وهي :

$$\frac{\text{السن العقلية}}{\text{السن الزمنية}} \times ١٠٠$$

مثال (١) الطفل يوسف سنهُ الزمنية ١٠ سنوات وسنهُ العقلية ١٢ سنة فيكون رقم ذكائه ١٢٠

مثال (٢) سمير سنهُ الزمنية ١٠ سنوات وسنهُ العقلية ٨ سنوات ، فيكون رقم ذكائه ٨٠

مثال (٣) حميدة سنها الزمنية ٨ سنوات والعقلية ١٢ سنة فيكون رقم ذكائها ١٥٠

هذا عن الناحية العقلية ، أما عن الناحية الاخلاقية او المزاجية كما يسميها المؤلف أحياناً فسنعالجها فيما بعد

وعن الطائفة الثانية من المتأخرين يكاد يكون العلاج عديم الجدوى اذا كان التأخر موروثاً . وهل يستطاع اخراج بذلة متقنة بديعة الهندام من قماش مادته الخام من النوع الرديء ؟ اما اذا كان مكتسباً فالمسألة من السهولة بمكان اذ يكون مثل الطفل كالمومى التي لا غبار عليها سوى

انها في حاجة الى السنان ، أو كاللؤلؤة المحوطة بسياج من الصدف والاعشاب والاقذار ، لا غبار عليها سوى انها في حاجة الى الصانع الفنان الماهر

وعن الطائفة الثالثة يقال ان في ٩٠ ٪ من الحالات، اذا كان للطفل (وسائر الناس من الكبار) كفاية في شيء فانه يكون عادةً كفؤاً مقتدراً في جميع الاشياء وهذه القدرة العامة وراثية لا مكتسبة ومهما حللناها الى وحدات وعناصر فانه يمكن جمعها في كلمة واحدة وهي كلمة « الذكاء » . اما العشرة في المئة الباقية فيكون الطفل مقتدراً في مواد ومتأخراً في مادة او اكثر منها ويقال حينئذ ان عنده كفاية خاصة في مواد وضعفاً في غيرها . ولهذه النظرية انصار على رأسهم سبيرمان من أكبر علماء النفس في انجلترا ومن خصومها ثورنديك اكبر علماء النفس في اميركا ووليم براون في انجلترا . وليس هنا المجال للدخول في تفاصيل هذه النظرية . والذكاء بحسب تعريف المؤلف هو « كفاية (مقدرة) عامة عقلية موروثة »

والطائفة الرابعة لا تحتاج الى كثرة ايضاح فالتأخر المؤقت يرجع الى اسباب لا تلبث ان تزول او يسهل ازالتها ، اما التأخر الدائم فيرجع الى علل خطرة لا سبيل الى شفائها

والطفل المتأخر كالمريض يحتاج اولاً الى تشخيص الداء وثانياً الى وصف الدواء . ويتم الاول بمقاييس الذكاء التي سبقت الاشارة اليها والاختبارات المدرسية المعروفة . اما الثاني فيحتاج الى ادارة منظمة وعناية عظيمة وخبراء او معلمين مدربين . ويقتضي العلاج الكشف الطبي الدقيق وقياس الجسم الانساني (انثروبومترك) وحفظ سجلات وافية بتاريخ الطفل وتاريخ اسرته وحياته المنزلية والمدارس التي سبق انتظامهُ فيها وتقارير معلميه الخ الخ . ويدعى هذا السجل الشامل . والمدرسة الراقية يلزم ان يكون فيها محلل نفسانيٌّ (وفيها في اميركا علاوة على ذلك طبيب اطفال وطبيب امراض عقلية) والاَّ فيلزم ان يكون المعلم ذا تربية ممتازة

ويبلغ الاطفال المتأخرون في المتوسط ١٠ ٪ من مجموع التلاميذ وقد وجد المؤلف ان هذه النسبة تبلغ ٢٠ ٪ في الريف ، وهذا على ضدّ الرأي الشائع خطأً من ان اطفال الريف يمتازون عن اخوانهم في المدن . وتتفق هذه النتيجة مع النتائج التي نعرفها في اميركا ، فقد اتضح من تجارب العلماء هناك ان اطفال المدن اشد ذكاء من اطفال القرى والارياف . وقد احصى المؤلف المتأخرين ووازن بينهم وبين ضعاف العقول فوجد أن عدد النوع الاول سبعة امثال الثاني وأن عدد ضعاف العقول في انجلترا وويلز مئة الف تلميذ

اسباب التأخر

رسم المؤلف خريطة لمقاطعة لندن مقسَّمة الى ستين وحدة جغرافية ودرس الارقام الاحصائية التي جمعها من كافة مدارس هذه المقاطعة درساً دقيقاً للوقوف على توزيع المتأخرين

من أطفالها في هذه الوحدات الجغرافية . واستدلّ من ابحاثه على ان التأخر والفقر يسيران جنباً الى جنب ، ويلي الفقر ازدحام السكان . ومن الغريب انهُ وجد ان التأخر يتفق واحصاء المواليد والوفيات . وتتقدم هذه الاحصاءات الوفيات ، اي انهُ كلما علت نسبة الوفيات في حيّ من الاحياء علت نسبة الاطفال المتأخرين تبعاً لذلك . وتلي الوفيات المواليد ثم عدد افراد الاسرة. ووجد ان الاحياء التي تكون أعلى نسبة من غيرها في أطفالها المتأخرين تكون أسرعها في ازدياد عدد السكان ، وان نسبة وفيات الاطفال قبل بلوغهم سنة واحدة في حيٍّ من الاحياء تتمشى مع نسبة الاطفال المتأخرين في ذلك الحيّ الى حدٍّ كبير . ولا عجب في ذلك فان العوامل التي تؤدي الى وفاة الاطفال مبكّرين هي بعينها التي تؤدي الى النقص العقلي والبدني

وقد فحص المؤلف بطريقة دقيقة ١٩٣ صبيًّا و١٩٣ صبية بواسطة (١) الكشف الطبي و(٢) اختبار الذكاء .و(٣) الاختبارات المدرسية الخ الخ فوجد ان ٢٠ ٪ من المتأخرين من هؤلاء من الاسر الفقيرة المعدمة ، و ٨ ٪ منهم من البيوت الخالية من الوسائل الصحية ،و١٦٪ من البيئة الثقافية المنحطة و١١ ٪ يرجع تأخرهم الى اسباب مصدرها البيئة والاخلاق والشعور. ولا يفوتنا ان نذكر انّ في عدد ليس بقليل من الحالات تكون المدرسة (ومعلموها) الملومة لانها لم تستطع التوفيق بين طرق التدريس ومناهج الدراسة وبين حاجات الطفل المتأخر . ويختم المؤلف البحث في هذه الناحية بقوله انّ اهم اسباب التأخر التي تعزى للمنزل هي الامّ التي ينقصها الذكاء وتعوزها قوة الشخصية وحسن الخلق واتزان الطباع ، والام التي لا تكترث بشؤون المنزل ولا تعبأ بمطالب بنيها وبناتها والتي تقتلها الهموم، أو يكون إرثها العقلي ضعيفاً

القامة والوزن

تتناسب القامة والوزن تناسباً طرديًّا مع نسبة النجاح في الاعمال المدرسية ، لان الطفل غير الناضج أي الذي أعيق نموه او وزنه لسبب من الاسباب يكون متأخراً تبعاً لذلك . وبعد أن بين المؤلف هذه الحقيقة بسرد الارقام الكثيرة المعززة لها ، تعرّض لمسألة اخرى جديرة بالذكر ، وهي ان كثيرين من الناس يزعمون ان الطول دليل الغباوة وهو قول معكوس ، لان الطالب الذي تزيد قامته على قامة غيره في الفرقة الواحدة يكون غالباً اكبرهم سنًّا ، واذ يكون متأخراً عادة فان الناس يظنون ان تأخره يتناسب وطول قامته . ولا يعجب القارىء لعناية هذا العالم صاحب الكتاب بهذه النقطة اذا علم ان معاهد التعليم في العالم الغربي تحرص على سجلات التلاميذ التي تبين القامة والوزن وغيرها حرص وزارة المعارف المصرية على سجلات الدرجات والامتحانات العامة . وقد ورد اليّ من وزارة معارف اليابان اخيراً تقرير بديع اصدرتهُ باللغة

الانجليزية عن حالة التعليم هناك ، ومما يسترعي الانظار فيه جداول متقنة بخطوط بيانية ملوّنة بديعة لنحو خمسة عشر مليون طالب وطالبة . وتبين هذه الخطوط بعبارة جلية الزيادة المستمرّة المطردة في طول القامة والوزن ومحيط دائرة الصدر من سنة ١٩١٤ — سنة ١٩٣٥

عيوب الحواسّ

تنحصر عيوب الحواس بين الاطفال عادة في النظر والسمع والحركة (في اليد واللسان) . وليست هذه امراضاً في غالب الاحايين ، ولذا يخصص للعناية بها العالم النفساني او المعلم الحاذق لا الطبيب . وانه من المعلوم انا اذا دقّقنا البحث علمنا أن العيب في الحس والحركة نفساني لاجسماني . وفي الحالات النادرة التي يكون فيها العيب جسمانيًّا يحال الطفل الى الطبيب المختص . وكثيراً ما تكون هذه العيوب سبباً في إخفاق التلميذ لان المعلم لا يجعل طريقة التدريس ملائمة لهذه العيوب ولا يراعي الفروق الفردية بين أفراد الفرقة الواحدة فما يتعلق بالنظر والسمع وحركة اليد واللسان واخراج الحروف التي يستعصى تمييزها من مخارجها . ولا يخفى ان الجهاز الذي يدير الادراك (العقل) هو حسّي حركيّ (Sensori-motor) أي إن المعلومات تصل الى المخ بواسطة الاعصاب الحسّية ، ومتى كيّفها المخ أرسلها بواسطة الاعصاب الحركية الى عضو من أعضاء الجسم للقيام بما تتطلبهُ هذه الرسالة . وكتب التربية وعلم النفس غنية بالطرق التي يستطيع المعلم اتباعها لفحص هذه العيوب الحسية

الطفل الايسر

من أقوى فصول الكتاب وامتنها ، بحث مسهب ممتع عن الطفل الايسر أي الذي يستعمل يده اليسرى في المواضع التي يستعمل فيها غيره اليمنى ، او أكثرها . ومن السهل فحص الوليد بين سنّ ستة شهور وخمسة عشر شهراً لمعرفة ذلك ، بوضع عصا من الحلوى ملفوفة في ورقة ملوّنة أمام عينيهِ ، ومراقبة اليد التي تحاول القبض عليها . ومن الصعب تحديد اليسر لان بعض الناس يستعينون باليمنى في مواطن وباليسرى في أخرى . فلاعبو « الكركت » من الذكور اليُسْر مثلاً يستعملون اليد اليمنى بعكس الاناث اليسر فانهنّ يلعبنها باليد اليسرى . ويتضح معنى هذه الظاهرة من الاسئلة الآتية التي وجهها المؤلف الى ستمئة من التلاميذ اليسر ، وهي : —

ما اليد التي تستعملها في (١) الكتابة (٢) الرسم (٣) التصوير (٤) الضرب بالعصا (٥) القبض على سكينة (٦) قص رقعة من الثياب (٧) حمل كوب او فنجان للشرب (٨) تنظيف الاسنان (٩) ملء الساعة او الفونوغراف (١٠) تناول كتاب او طبق موضوع فوق رفّ يصعب الوصول اليهِ .

وقد قسّم المؤلف الاعمال التي يستعين فيها الناس باليد قسمين أحدهما يتطلب دقة ومهارة والثاني لا يحتاج الى ذلك. فأولئك الذين يستعملون اليد اليمنى في الاعمال التي تتطلب مهارة ودقة يقال للواحد منهم أيمن وإلاّ فهو أيسر اذا أدى هذه الاعمال بيده اليسرى، وإن أدى غيرها باليمنى. ويقال بالاجمال ان ٥ر٢ ٪ من تلاميذ المدارس (وغيرهم) يُسر

وقد استعان المؤلف بعدد كبير من معلمي المدارس لفحص خمسة آلاف تلميذ في لندن فوجد ان توزيع اليُسر بين الاطفال العاديين والمتأخرين وناقصي العقول كالآتي :

بيان النسبة المئوية لليسر

بين التلاميذ العاديين والمتأخرين وناقصي العقول

	عاديون	متأخرون	ناقصو العقول
ذكور	٥ر٨	٦ر٩	٥ر١٣
إناث	٧ر٣	٠ر٦	٣ر١٠
متوسط الاثنين	٨ر٤	٨ر٧	٩ر١١

ويتبين من هذه الارقام ان اليسر أكثر انتشاراً بين البنين منهم بين البنات، وبين ناقصي العقول منهم بين المتأخرين، وبين المتأخرين منهم بين العاديين. ويندر جدًّا ان يكون الواحد أيمن وأيسر في وقت واحد. غاية ما في الامر ان تتساوى اليدان قوّةً ولكنهما قلما تتساويان مهارة في تأدية الاعمال

وقد وجد علماء الاميركيين انهُ يصعب جدًّا معرفة هل الطفل أيمن او ايسر قبل بلوغه الشهر السادس من عمره. اما بعد هذه السنّ فتأخذ حالته في الظهور تدريجيًّا حتى الشهر التاسع إذ دلّت الابحاث ان في هذه السنّ ٦٠ ٪ من الاطفال يؤْثرون استعمال اليد الواحدة على الاخرى. ويحدث احياناً في حالات نادرة جدًّا كما قلنا، ان مهنة المرء تدعو الى استعمال اليدين في اعمالٍ تستدعي الحذق والدقة، فاذا كان لديهِ الاستعداد الطبيعي الكافي أصبحت اليدان متكافئتين، كما هو الحال في بعض كبار الجراحين. ويذكر لنا التاريخ من هذا القبيل ميشيل أنجلو وليوناردو دي ڤينشي، وسبستيان دي بيومبو. وقد دل الاحصاء على ان هناك تناسباً كبيراً بين اليسر والسماجة وعدم الاتزان وسرعة التأثر وحدة المزاج. ويظهر من ابحاث المؤلف الذي نحن بصدده وغيره من المؤلفات التي نعرفها ان علماء النفس مجمعون على ان اكبر اسباب التلعثم، والفأفأة، والتأتأة، واللألأة ترجع الى اليُسر. وما ذلك الاّ لجهل الوالدين والمعلمين بطرق التربية في هذا الشأن، لان تأنيب الطفل او زجره او تعييره او السخرية به لاستعماله اليد اليسرى، يكسبهُ

شعوراً بالضعة وعدم الثقة بالنفس ، وسرعان ما ينقلب الشعور الى عقدة نفسية تعرقل حركة اللسان

وقد وجد المؤلف ان ٦ ½ ٪ من اليُسر يتلعثمون او يفأفئون الخ في حين ان هذه النسبة لا تتجاوز ١ر٧ ٪ بين اليُمْن . وهذه النسبة ضئيلة اذا قيست بالنتائج التي توصل اليها غيره من العلماء الذين نعرفهم . ولا بد ان يكون هناك شيء من الاضطراب العصبي في اليسر والذين يستعملون اليمنى في اشياء واليسرى في غيرها . ونكرر القول أن معظم النتائج السيئة مصدرها الوالدين والمعلمين الذين يحاولون تدريب الطفل الايسر على استعمال يده اليمنى بأساليب عمية عنيفة ، وهم لا يعلمون ان هذه الاساليب تؤدي الى عيوب كلامية وقد تكون سبب حولٍ في إحدى العينين أو كلتيهما

وهنا يتساءل القارىء : هل اليُسر وراثي او مكتسب ؟ هنا يختلف العلماء . يقول جون ب. وطسن زعيم مذهب السلوكية كعادته أنهُ مكتسب، ويقول جزل (Gesell) انهُ وراثي. ويقول غيرهما أن الطفل في السنة الاولى من عمره يستوى ذراعاه طولاً ، غير أنهُ بعد قليل تكون عظام الذراع اليمنى أطول منها في اليسرى ، ومن هذا يستدلون على أن الطول نتيجة استعمال اليد اليمنى بالعادة . وذكر اليوت سمث ان أقدم سكان لندن تدل بقاياهم على أنهم كانوا يمناً ، وكذلك الانسان القردي (ape-man) . بيد أن غير هؤلاء من العلماء يقولون أن الجرذان تؤثر اليد اليمنى على اليسرى ، ومنهُ يستدلون على ان استعمال اليد اليمنى يرجع عهده الى ما قبل التاريخ او قبل العصور البشرية (pre-human times) على أن الاسرة التي يظهر فيها اليُسر تستمر فيها هذه الظاهرة جيلاً بعد جيل . وقد أحصى العالم الانجليزي تشمبرلين ١٢ الف من السكان فوجد أن ١٧ ٪ من ذرية الوالدين اليسر (أو أحدهما) يُسْر . ولا عيب في ما توصل اليهِ من النتائج في إحصائه الا أنهُ بنى ابحاثه على الكتابة في حين ان الكتابة وحدها لا تتخذ دليلاً كاملاً على اليسر او العسر . ويكاد يتفق تشمبرلين مع المؤلف فقد تبين من ابحاث الاخير أن ١٤ ٪ من الاطفال اليسر من والدين يُسْر و ٣١ ٪ منهم لهم أقارب (بعيدون) يُسْر . وفي هذا دليل على أن اليسر وراثي ولكن ليس من النوع المنحط او المرتد الذي أشار اليهِ مندل كما زعم بعض العلماء

ومن أغرب ما قيل في هذا الشأن ان العالم الفرنسي Aimé Père (ايمه بير) وجد في أسرة واحدة ٢٥ أيسر . وليس من الغرابة في شيء ان نجد التوائم المتماثلة [1] تتفق في إيثار إحدى اليدين على الاخرى وان التوائم غير المتماثلة او الاخوية [2] تكون أقل اتفاقاً في هذا الإيثار

(١) وهي التي تولد من بيضة واحدة dentical or unicellular

(٢) وهي التي تولد من بيضتين fraternal or bi-cellular

واصحاب مذهب السلوكية (وعلى رأسهم وطسون الذي سبقت الاشارة اليه) يعتقدون ان تشابه الابن وابيه في استعمال اليد اليسرى لاينهض دليلاً على فعل الوراثة ، لان الابن يقلد أباه عادة في كل شيء ومن شابه أباه فما ظلم . وهذا تعزيز لمبدإ البيئة لا لمبدإ الوراثة

وهناك نقطة هامة جديرة بالعناية لم يفت المؤلف الإشارة اليها لانها تتفق مع اقوال علماء النفس والاعصاب ، وهي اننا اذا سلمنا ان بعض اليُسر منشأه العادة أو الصدفة ، فان الكثير منهُ يرجع الى اختلاف في وظائف الجسم التشريحية . فمن المعروف في علمي النفس والتشريح ان الناحية اليمنى من الدماغ تدير دفة الناحية اليسرى من الجسم والعكس بالعكس . ولذا يقال ان الرجل الايمن يداً أيسر دماغاً . ومن هذا يتضح ان الحالات التي يكون فيها الرجل أيسر شبيهة بالحالات التي يكون فيها القلب في الجهة اليمنى والكبد في اليسرى . وفي معظم حالات اليسر تكون الاعضاء في الناحية اليسرى من الجسم اقوى منها في اليمنى . فقد لاحظ المؤلف من إحصاء قام به بين التلاميذ الذين فحصهم ان ٨٢ ٪ من الذين يؤثرون اليد اليسرى ، يؤثرون كذلك القدم اليسرى ، و٩٤ ٪ من الذين يؤثرون اليد اليمنى يؤثرون كذلك القدم اليمنى ، وأن ٦١ ٪ (٥٧ ٪ من الذكور و٦٥ ٪ من الاناث) من الذين يؤثرون اليد اليسرى ، يؤثرون كذلك العين اليسرى على اليمنى ، و٧٣ ٪ من الذين يؤثرون اليد اليمنى (٧٠ ٪ بين الذكور و٧٧ بين الاناث) يؤثرون كذلك العين اليمنى

ولكن لعمري لِمَ يؤثر الناس الايمن على الايسر ؟ لان الايسر شاذ. ربما يقول البعض ان نصف المخ الايمن يزيد وزنهُ عن الايسر بمقدار ثمن اوقية . غير ان ما للمخ من شأن انما هو في القشرة او المادة السنجابية . وهي أكبر مساحة في النصف اليسار منها في اليمين . ولما كان النصف الأيسر من المخ هو الذي يدير اليد اليمنى كما قلنا ، فاستعمال اليد اليمنى يؤثر على اليسرى . غير ان هذا دليل ضعيف مشكوك فيه ولا يصحّ اتخاذه حجة يعوّل عليها

﴿ العلاج ﴾ — لا شك ان الطفل الايسر عرضة لان يكون متأخراً ليس في الخط والرسم والاعمال اليدوية وحسب ، بل في القراءة والهجاء والحساب ، لان ميل الحروف وكتابة الاعداد وإجراء عمليات الجمع والطرح والضرب والقسمة الخ الخ كلها تختلط عليه فيكون عرضة للخطأ بطيء الحركة . وقد وجد المؤلف أن الايسر يكاد يكون أربعة اخماس الايمن سرعة في العمل اي انهُ عند تساوي جميع العوامل الاخرى يسبق الايمن الايسر بمقدار ٢٠ ٪ في عمل ما

ولكن ليست هذه الاَّ اعراض الداء المنظورة . اما العلامة الكبرى في العلل النفسية الدفينة الكامنة التي تنشأ عن استعمال اليد اليسرى . هي ذلك الشعور بالضعة والاختلاف عن سائر الاطفال في كل شيء ، في الكتابة واللعب والقبض على الاشياء ، في غرفة المائدة ، وساحة

اللعب ، في المكتبة وحجرة الدراسة ، وغرفة النوم . وفوق ذلك كله فانهُ على الدوام هدف لسهام الملام وقوارص الكلام من معلميه ورفاقه واقاربه ، الذين لا يفتأون ينبهونهُ ويقرّعونهُ ويتهرونهُ ويصلحون « خطأه » فيجرحون احساسه ، ويطعنونهُ في عزته وكرامته طعنة نجلاء. فهل نعجب اذا كره بعد ذلك معلميه واهله وزملاءه ودروسه والمدرسة وكل ما يتعلق بها ؟ وهل نعجب اذا شبّ مفأفئاً شاذّاً ،خجولاً ، غريب الاطوار ، عصيّ المزاج ، انانيًّا ، محبًّا للوحدة ، متقلباً ، ثائراً على غيره وكل شيء حوله ؟

والمؤلف يختلف مع كثير من العلماء في العلاج . فمعظم علماء النفس الذين اطلعنا على مؤلفاتهم يؤثرون ان يترك الايسر يستعمل يده اليسرى ولا يجدون في هذا غضاضة ويعتقدون ان كل محاولة للاصلاح تؤدي الى نتائج وخيمة . بيد أن المؤلف يفرق بين حالة وحالة ، ويقول ان الطفل وهو في المهد صبيّ ناعم الاظفار ينبغي ان يدرب على إستعمال اليد اليمنى وذلك بوضع جميع الاشياء التي يريد القبض عليها في الناحية اليمنى . ويذكر حكاية طليّة لصديق له تمزق جيبه الأيمن مرةً فنقل نقوده الى الجيب الأيسر . وظلّ الجيب ممزقاً زمناً طويلاً ولم يخطر لزوجته ان تصلحه . ومن ذلك الحين أصبح صديقه أيسر في هذه الناحية وحدها، أي ظلّ يتناول نقوده بيده اليسرى من الجيب الايسر ،حتى بعد اصلاح الجيب وتغيير السترة تغييراً كليًّا . ويزيد المؤلف على هذا ان المعلم عليه مراعاة سن الطفل ومزاجه ومقدار تملك عادة استعمال اليد اليسرى منهُ والعمل الذي يغلب ان يتخذه الطفل مهنة لهُ ، وعنصر الوراثة فيما يتعلق بهذا الامر فيه . فالطفل بعد سن السادسة يكون قد تأصل فيه الداء ويكون من العبث ان يحاول انتزاعه منهُ . وكذلك الطفل الذي تدل الدلائل على انهُ وُلد كذلك . والمؤلف حريص جدًّا على ان يحاول جميع من يهمهم أمر الطفل منذ نعومة أظفاره ان يدربوه بكل حكمة وحذر على استعمال اليد اليمنى ، ويقول ان الطفل متى شبّ رجلاً بقي طول عمره مديناً لكل من ساهم في علاجه . والدليل القوي الذي يتخذه المؤلف سلاحاً لهذا ان أجهزة المدنية كلها — آلاتها ووسائلها — صنعت بحيثُ يقف أمامها الايسر مكتوف اليدين . فالمفاتيح وسلالم العربات والسيارات وآلات الخياطة والحاكي وكل شيء آخر وضعت على هذا الاساس

ويقول العالم الاميركي ترمان Terman ان الايسر يجب ان يترك كذلك، خصوصاً فيما يتعلق بالكتابة ، لان التدخل في أمره يؤدي الى عيوب في النطق (كالفأفأة) وهذه أشد وطأة من تلك . غير ان المؤلف لا يعتبر هذا الرأي لان الفأفأة بين اليسر ليست من الخطورة بهذا القدر ، فان النسبة المئوية بين هؤلاء في اليمن واليسر هي ٢ر٠٤٪ و ١ر٠٦٪ على التوالي

ويقول العالم ترافيس Travis بمثل ما قال بهِ ترمان وذلك بناء على هذه النظرية ، وهو ان الايسر

يكون نصف دماغه الايمن هو السائد بعكس الايمن فان نصف دماغه الايسر هوالسائد .
والطفل عند ما يتكلم يستعمل النصفين معاً لانهُ يسمع بأذنيه ويحرك الجزء الايمن والجزء الايسر من الوجه والفم معاً ، في حين انهُ عند الكتابة يستعمل أحد الجزءين فقط ، فاذا كتب بيده اليمنى فانهُ يستعمل النصف السائد من الدماغ ولا يتدخل في أمره أحد ، واذا استعمل اليسرى فانهُ يستعمل النصف السائد او القوي فيتدخل في أمره الناس ويضطر الى استعمال الجزء الضعيف . وهذا يؤدي به الى اختلال التوازن في طباعه وعواطفه ويدفع في نهاية الامر الى الفأفأة ، ويعترف المؤلف بوجاهة هذا الرأي ولكنهُ يؤثر ان يرجىء حكمه الى ان تقرر هذه النظرية بأدلة علمية أخرى

العيوب الكلامية

كما ان النظر والسمع هما الحاستان الرئيسيتان في الانسان ، كذلك حركتا اليد واللسان هما الآلتان الرئيسيتان فيه . الاولى تقودها العين والثانية الاذن . وبين الاثنتين اللسان اهم من اليد. وقد وجد بالاحصاء ان العيوب الكلامية عالية نسبتها المئوية بين الاطفال ضعاف العقول . وهناك عيان رئيسيان في الكلام وهما (١) التلعثم و (٢) استبدال حرف بحرف آخر . اما التأتأة فتطلق على من ينطق الثاء بدلاً من السين . واللألأة فتطلق على من ينطق اللام بدلاً من الراء . اما الوقوف فهو تكرار الكلام او الحروف ، والتلعثم هو عدم استطاعة الاستمرار

نحو ٢٥ ٪ من ناقصي العقول في المدارس التي فحصت في لندن عندهم عيوب كلامية. وتبلغ نسبة البنين للبنات في هذه العيوب الضعف . ووجد المؤلف من فحص عام أن نحو ٥ ٪ من جميع التلاميذ مصابون بعيوب كلامية ، وان معظم الثقاة وجدوا ان التلعثم والوقوف ، بين الصبيان ٣ امثاله بين الاناث . والتأتأة واللألأة ضعفه فقط والسبب الاول ان المرأة بطبيعتها فياضة في الحديث ورشيقة في جميع حركاتها، والكلام هو حركة اللسان . والسبب الثاني ان الناس يعاملونها منذ الطفولة باللين بعكس الذكر

وتكثر العيوب الكلامية في سن الرابعة والخامسة ولكنها تتضاءل بعد نهاية الدراسة الابتدائية. ولوحظ ان بين سن ٧ — ٨ تقفز النسبة المئوية لاسباب (١) لكثرة أمراض الاطفال في هذه السن كالسعال الديكي والحصبة والزكام الشديد لانها تضعف الجهاز التنفسي والسمع (٢) لانها سن التسنين dentition

وقد أفاض المؤلف في العلاج ولعل اهم ما ذكره ان صاحب العيوب الكلامية لن يستقيم حاله مالم يتجنب أهله كل سخرية وهزء ، وما لم يراعوا إحساسه ويشجعوه على الكلام ولا يلومونهُ ،

مع عدم ارهاقه بالدروس او العمل، ومع إيكال امره الى معلم حكيم حليم صبور يستطيع ان يمرنهُ على الكلام بأساليب بيداجوجية نفسية

هذه نظرة سريعة اهملنا فيها فصلاً كاملاً عن الذكاء مكتفين بما سبقت الاشارة اليه مما يهمّ القارىء معرفته عنهُ. وقد ذيلنا البحث بالمفردات التي استعملناها وما يطابقها بالانجليزية إتماماً للفائدة . وحبذا لو اطلع على هذا المؤلف الجليل كل من يمت الى شؤون التربية بصلة

المحلل النفساني	psychoanalyst
طبيب الامراض العقلية	psychiatrist
علماء الاعصاب	neurologists
طبيب الاطفال	pediatrist
اليسر او العسر	left-handedness sinistro-dextrality
اليمن	right-handedness dextro-dextrality
ايسر	left-handed sinistro-dextral
ايمن	right-handed dextro-dextral
الاضبط	ambidexterous
مرتد . منحط	recessive
السلوكية (في علم النفس)	behaviourism
المادة السنجابيّة (في المخ)	substantia grisea gray matter
تلعثم	stammering
لُكنة (تكرار الحروف)	stuttering
الثأثأة (نطق الثاء بدل من السين)	lisping
اللألأة (نطق اللام بدل من الراء)	lallying
توائم متماثلة	identical twins unicellular twins
توائم متشابهة او أخوية	fraternal twins bicellular twins

مذنب	delinquent
متأخر	backward
شاذ	abnormal
ناقص العقل	defective (mentally)
عبقري	genius
ابله	moron [1]
ضعيف العقل	feeble-minded
سفيه (وهو من يغبن في المعاملات)	imbecile
معتوه	idiot
عادي	normal
دون العادي	subnormal
السن الزمنية	chronological age
السن العقلية	mental age
السجل الشامل	cumulative record
عالم نفساني	psychologist

(1) يعتبر moron عند علماء النفس الاشخاص الذين يكون ذكاؤهم اقل درجة من feeble-minded وأعلى درجة من imbecile (سفيه)

التعليم

بين المؤثرات التاريخية والاخطاء البورجوازية

لعبد الرحمن شكري
المفتش بوزارة المعارف

يزداد عدد الشبان العاطلين يوماً بعد يوم على الرغم مما حازوه من الشهادات. وكان الناس يظنون ان التعليم تميمة تقي صاحبها شر البطالة لان ابواب الرزق كانت تتفتح امام المتعلمين القليلين فلما زاد عددهم ضاقت بهم ابواب الرزق فظن بعض المفكرين ان سبب ذلك قلة نصيب المتعلمين من الثقافة وان نصيبهم اقرب الى ان يدعى قشوراً وانهم اذا زاد حظهم من الثقافة التي هي دواء لكل داء مثل إكسير الحياة، لم يصبهم حتى داء العطل من العمل

على ان هذا الشباب المتعلم العاطل من العمل غير مقصور على مصر بل هو ايضاً في الدول الغربية . وبعض هؤلاء العاطلين نصيبهم من الثقافة الفكرية نصيب عظيم . وقد يعجب المفكر من وجود العطل من العمل في الدول الغربية . فانهُ يقول هذه بلاد توارث الناس فيها الملكات العملية وميولها جيلاً بعد جيل ثم تمتعوا ببيئة منزلية وغير منزلية تساعد على تمكين الطبائع العملية في النفوس ثم وجدوا فرصاً كثيرة تزيد هذا التمكين من الفرص والمؤهلات والمؤسسات والاسواق الاقتصادية والمستعمرات فلم تحُل جميع هذه العوامل دون انتشار عطل المتعلمين بينهم . ولا مراء في ان سريان سنة العرض والطلب الاقتصادية كان لها اثر في هذا الانتشار وكانت هناك اسباب ليس هذا المجال مجال بحثها. ولكن مما لاريب فيه ان سياسة التعليم وخطته العامة كان لها اثر أيضاً لان الطبقة الوسطى على اختلاف درجاتها عند ما ظفرت بالحكم والسلطة في دول غرب اوربا في القرن التاسع عشر جعلت خطة التعليم العامة مؤسسة على الثقافة النظرية، وتقديس (البورجواه) لهذه الثقافة وسعيهم في طلبها يشبه سعي أهل القرون الوسطى في طلب إكسير الحياة او حجر الفيلسوف . وفاتهم ان طبقتهم ليست في الحقيقة طبقة واحدة متجانسة وليس جميع أفرادها ولا كل من يتعلم بحسب خطتهم الثقافية (ان صحَّ انهم كانت لهم خطة لا محض

اتجاه فكري) ممن يستطيعون ان يعيشوا بالثقافة الفكرية دون سواها . وقد بدأوا الآن يندبون حظ العاطلين ممن يسمون بذوي «الياقات» البيض . ومن اغلاطهم انهم لم يدركوا فائدة الانتفاع من زيادة تمكين الطبائع العملية من النفوس بالوسائل التعليمية المصطنعة في المدارس الا في العهد الاخير وربما كان السبب في ذلك اغترارهم زمناً بعمل عوامل الوراثة والبيئة والفرص الاقتصادية في بلادهم على تمكين هذه الطبائع .وفاتهم ان مثل الوسائل العلمية المصطنعة التي تتخذ لزيادة تمكين الطبائع والميول العملية في النفوس وتنمية ما ينشأ عنها من الصفات في العقول والجسوم كمثل الوسائل العلمية الحديثة في الزراعة فان خصب التربة لا يغني عنها وكذلك النفوس الغنية بالميول العملية المخصبة بها لا تستغني عن الوسائل التعليمية المصطنعة المنظمة التي تتخذ للاستيثاق من تمكين هذه الطبائع والميول العملية

ولما كنا نجاري دول غرب أوربا في خططها التعليمية فقد وقعنا فيما وقعت فيه من أخطاء وكانت هذه الاخطاء أشد ضرراً بنا لان المؤثرات التاريخية والاجتماعية في نفوسنا غيرها في نفوسهم ولا تعمل كثيراً على توافر هذه الطبائع والميول العملية في نفوسنا ولان البيئة عندنا منزلية كانت او غير منزلية لا تعمل ايضاً على توافر هذه الطبائع ولان الفرص والمؤسسات الاقتصادية التي من شأنها إنماء هذه الطبائع ليست متوافرة عندنا كما هي متوافرة في هذه الدول التي نجاريها

***

والذي يتتبع خطة التعليم في مصر في الجيل الماضي يجد ان محورها كان زيادة المناهج او انقاصها وزيادة مرحلة الثقافة العامة او انقاصها، وما عدا ذلك من اوجه الاصلاح كان عرضاً لا جوهراً ولا محوراً لخطة التربية والتعليم وما كان منه صالحاً لم يستفد منهُ فائدة تذكر لان واضعي خطط التعليم كانوا يدينون بعقيدة الاكثار من الثقافة العامة من غير تمييز بين المتعلمين وحاجاتهم وطبقاتهم وكان لفظ الثقافة محور التفكير والحديث والكتابة والفخر وكانوا يقولون ان المرء اذا ثقف ثقافة عامة كان صالحاً للحياة وكانت الحياة صالحة له وانما كانوا يختلفون في سبيل تحقيق هذه الثقافة فبعضهم كان يرى توافرها في اطالة مرحلتها في التعليم او في إتراع مناهجها واشباعها وبعضهم كان يرى توافرها في تخفيف المناهج مع نشدان الجودة .وكان اتجاه كل فريق مثل الاتجاه الفكري عند الحكام من «البرجواه» في دول غرب اوروبا أو من المتصلين منهم بطبقة الاشراف الاغنياء و تقديس «البورجواه» للثقافة تقديساً يصرف النظر حتى عن مهيئاتها هو أمر نبيل وهو ضرورة لهم لحفظ السلطة في يدهم ولكن لم تكن جميع اسبابه عالية نبيلة فقد كان من اسبابه حسد الاغنياء من «البورجواه» للمتعلمين المستنيرين من اغنياء الاشراف الذين كانت في يدهم مقاليد الحكم قبل فوز

«البورجواء» في القرن التاسع عشر ولكن الثقافة كانت عند اكثر الاشراف لذة عقلية لا عقيدة وديناً كما جعلها «البورجواء» كي يخفوا بعض الاسباب الحقيقية التي جعلتهم يأخذون بها

***

وكثرة التحدث بالثقافة ومزايا الثقافة قد صرفت المفكرين عندنا عن سبيل تحقيق الثقافة فان خوفهم من ان يجور التخصص على الثقافة فينتج نشأً ناقصاً قد جعلهم لا يميزون بين وسائل تمكين الطبائع العملية من النفوس وبين التخصص. فكلما جد اقتراح من شأنه تمكين الطبائع العملية اثناء مرحلة تعليم الثقافة قيل هذا تخصص في عمل من الاعمال لا يصح ان يدرب عليه اثناء مرحلة الثقافة. وبهذا التفكير جنوا على الثقافة التي ينشدونها لان الحواس هي ابواب النفس واذا لم تربَّ ولم تربَّ الطبائع العملية كانت النفس مغلقة او شبه مغلقة لا تقبل كل ما يرد اليها من المعقولات. وهذه الحواس والطبائع العملية والصفات التي تنشأ عنها، ومنها حضور الذهن واليقظة الفكرية وسرعة الخاطر ودقة الحكم على الحقائق وإقدام الواثق المؤهل، امور لا تنمى الا بمنهج فيه كثير مما يرفضهُ القائلون بالثقافة قبل كل شيء ويقولون برفض كل ما يظن انهُ تخصص في اثناء مرحلة الثقافة. ومن أجل ذلك لم يثمر ما يدعى بالنشاط المدرسي كل ثمرته لانهُ لم يكن بالجوهر بل كان العرض في المدارس فكان مقصوراً على عدد قليل من الطلبة وعلى انواع محددة من النشاط ولم تعدَّ له كل ما يحتاج اليه من حجرات او مال او اخصائيين او ادوات او فراغ ولم ينظم بطريقة المنهج الواسع النطاق المدرج الذي يراد به ما يراد من بث الصفات والطبائع العملية ولم يتضمن نتائج ابحاث المشتغلين بالتربية ولا منهجاً لتربية الحواس والملكات كما تربى على طريقة منتسوري مثلاً ولا نظاماً للتدرب على اعمال الحياة المختلفة، كما في المدارس التجريبية الاميركية ولا على غير ذلك من نتائج خبرة المشتغلين بالتربية الحديثة وبحثهم — وقد يعترض معترض فيقول ان طرق تربية الحواس والملكات من امثال طريقة منتسوري انما تراد لناقصي العقول والملكات وهذا وهم فان ثمرتها تكون اتم وأعظم في غيرهم. وقد يعترض معترض فيقول ان المدارس التجريبية في اميركا وغيرها ما هي الا تجربة فحسب وهذا وهم فان هذا الاتجاه الفكري قد أثر في المدارس عامة وكان من اثره ما يسمى بالنشاط المدرسي

واذا نظرنا الى تاريخ الامم وجدنا لكل منها حضارتين او ثقافتين فلها ثقافة في ابان نهضتها من البداوة او ما شابه البداوة من انواع المعيشة وهي الحضارة التي تكون للامم عند اخذها بأسباب الثقافة، قبل ان تفقد الطبائع والميول العملية التي هي اكثر في معيشتها الاولى قبل ان تعتورها رخاوة الحضارة وطراوتها. ولها ايضاً ثقافة اخرى او قل هي شكل يدخل

على الحضارة والثقافة الاولى بعد ان تنال منها رخاوة الحضارة وعوامل الضعف الاجتماعي المختلفة سواء أمن فساد القوانين والنظم الاجتماعية نشأت ام من ركود التجارة والصناعة والاعمال العامة لاسباب أخرى . وهذه الثقافة الاخيرة قد تكون في بعض البيئات راقية من الناحية الفكرية النظرية ولكنها قلما تكون مثمرة لافتقاد الميول العملية والصفات الناشئة من طبائعها والتي كانت لها في حضارتها الاولى

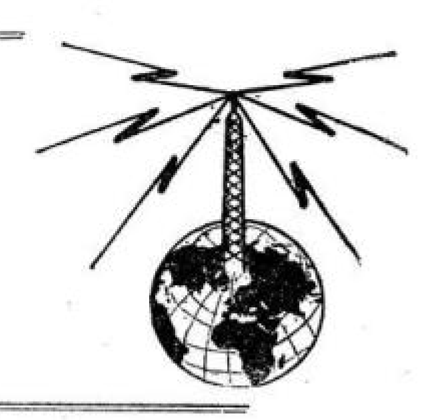
وفي مثل هذه الحال لابد ان تحاول الامة احياء تلك الطبائع العملية واعادة تمكنها من النفوس بالوسائل التهذيبية التعليمية المصطنعة وهذه المحاولة هي ما ينبغي ان يكون محور خطة التعليم وأساسها وما يستدعي تفكيرنا وسعينا قبل كل شيء حتى قبل التفكير في الثقافة فاننا اذا فعلنا ذلك كان امر الثقافة بعد ذلك هيناً وكانت اتم وأحسن وأكثر ثمرة

***

وكما ان لنا في حياة الامم وتاريخها وحضاراتها التي ذكرناها عظة وحجة وعبرة فان لنا في حياة الانسان الفرد اعظم حجة وأكبر عظة . فالطفل لابد أن تتفتح حواسه وتربى في طفولته، وهي عادة تربى في المنزل والبيئة عفواً بطرق غير منظمة ولكنها تربية على اي حال، قبل ان ينمو ويستعد لقبول الثقافة النظرية الفكرية. وتربية الحواس المنظمة تصحح وتساعد تربيتها غير المقصودة والخطر كل الخطر في الامة المتحضرة بالحضارة الاخيرة من حضارتها اي الحضارة التي فقدت فيها الطبائع العملية اذا كانت الثقافة هي محور التعليم ان تزيد هذه الثقافة النظرية الفكرية ابناء هذه الامة عجزاً على عجز وتغريهم باحلام اليقظة وتشتت ذهنهم وتشل مساعيهم فتكون تلك الثقافة اشبه الاشياء بالمخدرات لا اقل ولا اكثر

***

وقد يعترض معترض فيقول اذا كانت الاعمال تمكن الطبائع والميول العملية من النفوس وتؤهل للنجاح فيها فلمَ لم تفعل ذلك في مدارس الصناعة والزراعة وهذه مغالطة . فانها تفعل ذلك وانما يكون أثرها اعظم لو ان طلاب هذه المدارس قد نشأوا من صغرهم على خطة من التعليم محورها تربية الحواس والملكات بالطرق البيداجوجية المنظمة الحديثة وتمكين الميول العملية من النفوس وانماء صفاتها التي تؤهل للنجاح في الحياة والتي تجعل الانسان اكثر استعداداً للانتفاع بالثقافة العقلية . والحقيقة ان بعض طلاب الثقافة يخسرون الثقافة ويضلون طريقها كما يضل طريق السعادة او الصحة بعض من يعنون انفسهم ويشقونها بالتفكير فيهما في كل لحظة



اساليب المخاطبات

الكهربائية وارتقاؤها في العصر الحديث

من تلغراف مورس الى تلفاز بيرد

واليوم أبطأ ما تكون رسالة	ان لطت عاجلها بريش القشعم
حمل ألوكتك الفضاء يؤدها	شرراً الى اقصى مدى متيمم
فالجو بالقطبين طرس دائر	والبرق أسرع ما ترى من مرقم

بهذه الابيات البليغة وصف خليل مطران المخاطبات اللاسلكية الحديثة . وليس بخافٍ ان وسائل المخاطبات بين البشر ظلّت بطيئة لارتباطها بناقلٍ يعتمد على سرعته في السير كرسول او قطار او حمام زاجل. فلما تمكن العلماء من استعمال التيّار الكهربائي الساري في سلك من المعدن ، ثم لما تمكنوا من تحميل الامواج الكهرطيسية الخفية رسائلهم المنوّعة ، ارتقت اساليب التخاطب ارتقاء عجيباً وانتشرت انتشاراً واسعاً ، فربطت البلدان باسلاك من حديد واسباب من نحاس اولاً ، ثم بامواج خفية قصيرة وطويلة ، فصار في الامكان ان تبعث برسالة برقية بالسلك التلغرافي ، أو الموّاج اللاسلكي في ثوان ودقائق ، بل غدا في مكنة الانسان ان يحدّث عميلهُ أو صديقهُ في أنأى الاقطار عنهُ فينتقل الحديث « شرراً الى اقصى مدى متيمم »

وقد حدث في خلال الشهر الماضي في مصر حادثان استوقفا النظر ووجها العناية ، الى ما نفحنا بهِ العلم من أسباب التخاطب السلكي واللاسلكي ، أولهما اجتماع المؤتمر الدولي للمواصلات السلكية واللاسلكية في القاهرة ، وقد حضرتهُ وفود من نحو ستين دولة ، والثاني اذاعة لاسلكية في الولايات المتحدة الاميركية ، كان مصدرها من حجرة الملك في هرم خوفو الكبير بالجيزة .(١)

فلذلك رأينا من حق القراء علينا ان نوجز لهم في مقال واحد ، ارتقاء المواصلات الكهربائية الحديثة من تلغراف مورس الى تلفون بل الى التلغراف والتلفون اللاسلكيين وما يتصل بهما من فنون النقل اللاسلكي كنقل الصور والنقل النموذجي والتلفزة

(١) راجع وصف ذلك في باب الاخبار العلمية من هذا الجزء

التلغراف السلكي

في أواسط القرن الثامن عشر خطر لبعض المشتغلين بالكهربائية انهُ في الامكان نقل الاشارات الكهربائية من مكان الى آخر . ثم اكتشف ستيفن غراي وغرانفل هويلر انهُ يستطاع نقل الكهربائية من زجاجة ليدن مسافة طويلة على سلك معزول . ثم اقترح أحدهم سنة ١٧٥٣ في المجلة الاسكتسية نقل الاشارات الكهربائية على سلك معزول قوامهُ ستة وعشرون سلكاً معزولاً كلُّ سلك منها يقابل حرفاً من حروف الهجاء الانكليزية

على ان المصاعب العملية التي قامت في سبيل تحقيق هذا الفكر او ما عاثلهُ كانت جمة لم يُستطع تذليلها قبل سنة ١٨٣٧ . ذلك انهُ كان لا بدَّ لزعماء الباحثين في الكهربائية كغلفاني وفولطا وأورستد وفراداي من كشف أسرارها ومعرفة قوانينها قبل ان يصير التحكم بأفعالها مستطاعاً . ثم توالت المستنبطات وكلٌّ منها خطوة في طريق الكمال . ثم قام مورس في اميركا وستانهيل في بافاريا وهويتستون وكُك في انكلترا فصنع كلٌّ منهم تلغرافاً خاصًّا مخالفاً لتلغراف الآخر وحسب انهُ نال قصب السبق في هذا المضمار ولكن فُضِّل تلغراف مورس لبساطتهِ وسهولة العمل بهِ

صنع مورس تلغرافهُ الاول سنة ١٨٣٢ ولكنهُ كان معدماً لا يستطيع ان ينفق على اذاعتهِ فبقي يشتغل باتقانهِ الى ان تسنى لهُ عرضهُ للناس سنة ١٨٣٧ في جامعة نيويورك فأرسل حينئذٍ الاشارات الكهربائية مسافة ١٧٠٠ قدم على سلك نحاسي . ثم منحهُ الكنغرس (مجلس الامة الاميركي) ٣٠ الف ريال فأنشأ اول خط تلغرافي تجاري سنة ١٨٤٤ بين وشنطن وبلطيمور . وهو الذي وضع نظام الاشارات التلغرافية المستعمل الآن والمعروف باسمهِ (Morse Code) وتوفي سنة ١٨٧٢ قبيل انشاء المقتطف

شاع تلغراف مورس في انكلترا وأميركا واتقن اتقاناً عظيماً في بضع سنوات ومدت اسلاكه حتى صار في الامكان ارسال الرسائل التلغرافية مسافة مئات من الاميال سنة ١٨٥٠ . ثم جعل العلماء يبحثون عن امكان مدّ الاسلاك التلغرافية تحت البحر فمدّ السلك التلغرافي البحريُّ الاول بين كاليه بفرنسا ودوفر بانكلترا سنة ١٨٥١ وتلاهُ مد الاسلاك التلغرافية بين اسكتلندا وارلندا وبين انكلترا وارلندا . وكان المهندسون الكهربائيون حينئذٍ يطمحون الى وصل اميركا واوربا بالتلغراف فتألفت شركةٌ في بلاد الانكليز سنة ١٨٥٦ لمدّ سلك تلغرافي في المحيط الاطلنطي . فتمَّ مدهُ سنة ١٨٥٨ الاَّ أنَّ الاشارات التي ارسلت بهِ لم تكن واضحة كلَّ الوضوح فاهمل استعمالهُ فتألفت شركةٌ أخرى لمدّ سلك آخر وكان مستشارها السر وليم طمسن (لورد كلفن بعدئذٍ) فأتمت عملها سنة ١٨٦٦ بعد تجارب كثيرة أبدى فيها السر وليم طمسن من البراعة في العلوم

النظرية وتطبيق مبادئها ما جعل اسمهُ مرتبطاً كل الارتباط بمدّ السلك التلغرافي بين اوربا واميركا

وحاول بعضهم بعد ذلك ان يرسل رسالتين تلغرافيتين على سلك واحد في وقت واحد فنجح المستر ستيرنز احد سكان بوسطن في ذلك . ثم سعى رجل يدعى ستارك الى ارسال أربع رسائل تلغرافية على سلك واحد فلم تسفر تجاربهُ عن النجاح وتلاهُ اديصن المستنبط الاميركي المشهور فأفلح في ذلك ولا يزال أسلوبهُ متبعاً الى الآن

ومن ثمَّ أخذت الشركات والحكومات المختلفة تمدُّ الاسلاك التلغرافية بين مختلف البلدان والقارات فوق الارض وتحت الارض وتحت البحر فتمكنت شركة الايسترن التلغرافية في سنة ١٩٢٤ من ارسال رسالة تلغرافية من لندن حين افتتاح معرض ومبلي فدارت حول الارض ورجعت الى لندن في دقيقة وثلث دقيقة

ونشأ عن مدّ الاسلاك التلغرافية في مختلف البلدان علاقات دولية اقتضى لها مؤتمرات لتنظيمها ووضع قانون لها تجري عليهِ فالتأمت مؤتمرات في باريس سنة ١٨٦٥ وفينَّا سنة ١٨٦٨ ورومية سنة ١٨٧١ وبطرسبرج سنة ١٨٧٥ ولندن سنة ١٨٩٧ وبرلين سنة ١٨٨٥ وباريس سنة ١٨٩٠ وبودابست سنة ١٨٩٦ ولندن سنة ١٩٠٣ وغيرها . وأنشيء مكتب دولي لادارة التلغرافات في برن عاصمة سويسرا سنة ١٨٦٨ . هذا وقد بلغ طول الخطوط التلغرافية المستعملة في سنة ١٩٢٠ ستة ملايين ومائة وسبعين الف ميل منها ٣٠٠ الف ميل بحري من الاسلاك التلغرافية البحرية

التلفون السلكي

لا يخفى ان الصوت شعور تشعر بهِ الأذن من أمواج في الهواء تصل اليهِ من الجسم الصائت فينقلها الى الاذن . وهذه الامواج تختلف في عددها وسعتها واتصال أمواج أخرى بها وقت حدوثها فيكون من ذلك علوّ الصوت وشدتهُ وكيفيتهُ . فاذا أُريد نقل الصوت البشري بآلة من مكان الى آخر وجب ان تنقل الامواج بحسب عددها في الثانية من الزمان وبحسب سعتها واتصال غيرها بها لكي يكون منها صوت مسموع مثل الصوت الذي نُقل تماماً . وهذا ليس بالامر السهل كما يظن لاول وهلة ولذلك تعذَّر على العلماء زماناً طويلاً . وأول من تغلَّب على جانب منهُ الاستاذ ريس من فرنكفورت فانهُ صنع غشاء من الكلوديون سنة ١٨٦٠ وأوصل بهِ مفتاحاً معدنيًّا متصلاً بسلك كهربائي فكان الصوت يهزّ هذا الغشاء فيتحرك المفتاح باهتزازه فينتقل المجرى الكهربائي على السلك وينقطع عنهُ بحسب اهتزاز المفتاح . وفي الطرف الآخر من السلك مفتاح آخر مثل هذا يتصل بهِ غشاء مثل الاول فيهتزّ بحسب سريان الكهربائية وانقطاعها ويهز الغشاء فيتولد صوت من اهتزازه مثل الصوت الاول في عدد أمواجهِ ولكنهُ ليس مثله في سعتها وكيفيتها فلا ينتقل به الكلام ولو نقل به بعض الاصوات الموسيقية

ثم استنبط المستر غراي من شيكاغو ان ينقل الصوت بعدد اهتزازته واتساعها اي بعلوه وشدته وذلك انهُ ابدل الغشاء الذي يهزهُ الصوت بقلم معدني يغمس في الحامض الكبريتيك المخفف فتزيد المقاومة للتيار الكهربائي بحسب انغماسه في الحامض ولذلك يقوى التيار الكهربائي او يضعف وفقاً لتموّج الغشاء او وفقاً لارتفاع الصوت وانخفاضهِ. ووصف غراي تليفونهُ هذا في كتاب قدمهُ الى «ديوان الامتياز بالمخترعات» في الولايات المتحدة في ١٤ فبراير سنة ١٨٧٦ وفي ذلك اليوم عينهِ قدم اسكندر بل Bell الانكليزي الاصل والاميركي النشأة رسم تليفون الى ديوان الامتياز مؤلف من غشاء رقيق تتصل بهِ قطعة من الحديد اللين موضوعة امام قطعة من المغنطيس الكهربائي لكي تهتز امامهُ مع الغشاء بتموّج الصوت، فتقوى الكهربائية او تضعف وينتقل هذا الفعل على سلك معدنيّ الى مغنطيس كهربائي آخر امامهُ غشاء كالاول فيهتز بالمجرى الكهربائي كما اهتزَّ الغشاء الاول ويصدر الصوت من اهتزازهِ. ولم يفِ هذا التلفون بالغرض، فجعل الاستاذ بل يزيد قطعة الحديد اتساعاً حتى جعل الغشاء كلهُ صفحة رقيقة من الحديد اللين وأبدل المغنطيس الكهربائي بمغنطيس دائم فتمَّ التلفون على ما تراهُ في الجهاز الذي يسمع الصوت بهِ الآن

ومن ثمَّ اخذ المستنبطون يشتغلون باتقان الجزء المرسل والسّماعة حتى يكون الصوت جليًّا والكلام واضحاً وأشهر المشتغلين بذلك اديصن واليشا غراي وهيوز مستنبط المكروفون وغيرهم

ولقي بل صعوبة كبيرة في اول عهدهِ باستنباط التلفون في اقناع الجمهور بفائدتهِ. فعرض تلفونهُ في المعرض المئوي الاميركي فمرَّ بهِ القضاة قرب الغروب وقد انهكهم التعب مرَّ الكرام، وسألهُ احدهم متهكماً «وماذا يهمنا لو نقل الصوت على سلك او لم ينقل». واذا بحادثة من الحوادث التي يسوقها القدر لتغير مجرى التاريخ فانقلبت الحال بين غمضة عين وانتباهتها الى حال اخرى. ذلك انهُ حينما همَّ القضاة بالانصراف اقترب من مائدة بل رجل في جماعة كبيرة من الاتباع. كان ذلك الرجل دوم بدرو امبراطور البرازيل وكان قد حضر الى الولايات المتحدة قبلاً وتعرَّف الى بل لما كان مدرساً فعرفهُ الآن وتقدم اليهِ وصافحهُ فشرع بل يبسط لهُ استنباطهُ والقضاة يصغون اليهِ. وبعد ما انتهى من بسطهِ اخذ الامبراطور السماعة واصغى الى ما يقوله بل في الطرف الثاني فصاح «يا الهي انها تتكلم»

كانت هذه الحادثة خاتمة المصاعب التي لقيها بل في سبيل نشر اختراعهِ. فما اتمَّ الامبراطور تجربتهُ حتى اقترب القضاة واحداً واحداً يريدون ان يجرّبوها وكان بينهم السر وليم طمسن (لورد كلفن) وجوزف هنري العالم الكهربائي. فقال طمسن بعد ما جرَّبها «ان هذا الجهاز اعجب ما رأيت في اميركا» فذاع اسم بل بين ليلة وضحاها وفي صباح اليوم التالي نقل تلفونهُ من

المكان الزري الذي كان فيهِ الى أظهر الاماكن في المعرض

ومن ثمَّ اخذ التلفون في الشيوع حتى بلغ عدد التلفونات المستعملة سنة ١٩٢٨ نحو ٣١ مليون تلفون في كل العالم منها نحو ١٨ مليوناً في الولايات المتحدة الاميركية وهو آخر احصاءٍ عثرنا عليهِ في دائرة المعارف . ويظهر من مقابلة التلفونات التي كانت مستعملة سنة ١٩٢٠ بما كان مستعملاً منها سنة ١٩١٠ ان عددها تضاعف في عشر سنوات ثم انهُ زاد اكثر من خمسين في المئة بين سنتي ١٩٢٠ و١٩٢٨ . وقد تمت في الحقبة الاخيرة اصلاحات جمة في التلفون اهمها آلة استنبطها الاستاذ پيوپن من اساتذة جامعة كولومبيا جعلت المخاطبات التلفونية سهلة على مسافات شاسعة . فمدت الاسلاك التلفونية من شرق الولايات المتحدة الى غربها واستعمل الخط التلفوني التجاري بين نيويورك وسان فرنسسكو في ٢٥ يناير سنة ١٩١٥ ثم مدت اسلاك تليفونية تحت البحر الى كوبا سنة ١٩٢١ وتمكن المهندسون المنقطعون للتلفون من مد خط تلفوني بين بلطيمور وبتسبرغ سنة ١٩١٨ تجري عليهِ اربع محادثات في وقت واحد

ومن الاجهزة التلفونية التي نشأت حديثاً ما يعرف بالتلفون الذاتي وبهِ يستغني مشترك التلفون عن الوسيط في « السنترال » فيحرك القرص حركة خاصة تفتح امامه الخط الذي يطلبهُ من غير ان يوسّط احداً في ذلك

التلغراف اللاسلكي

بيّن هرتس العالم الالماني الشهير سنة ١٨٨٧ ان الكهربائية التي تنطلق من مكثّف كهربائي تسبب شرارة قوية تموّج الاثير الذي حولها كانها حجر رمي في راكد الماء فيحدث فيهِ دوائر تنتشر الى كل جهاتهِ وقد سميت هذه التموجات تموجات هرتس نسبةً اليهِ لانهُ اكتشفها وقاسها وأثبت انها سريعة جدًّا وقد كان عملهُ هذا نتيجة لبحث مكسويل الرياضي على ما بيّنا في سيرتي مكسويل وهرتس في « اساطين العلم الحديث » . فاذا استنبطت آلة تتأثر بهذه التموجات وهي منتشرة في الفضاء اصبح التحكم بها مستطاعاً فتنتقل الاشارات الكهربائية في الفضاء من غير سلك وتلتقط بالآلة المستقبلة . فاستعمل هرتز اولاً حلقة من السلك لالتقاط هذه التموجات ولكن لم يلبث ان اهملها لان آلة هيوز كانت أتقن منها وادقّ تأثراً . ثم استنبط الاستاذ كلزكي اونستي الايطالي آلة تفوق آلتي هيوز وهرتز وحسّنها برانلي الفرنسي ولُدج الانكليزي وغيرهما ودعاها لُدج الجامع او الرابط Coherer

واهمّ مركوني بالاساليب المستعملة لكشف التموجات الكهربائية في الفضاء من سنة ١٨٩٤ الى سنة ١٨٩٦ فصنع جامعاً مؤلفاً من انبوب صغير من الزجاج مفرغ من الهواء طولهُ

نحو أربعة سنتمترات وقطره نحو ٤ ملمترات وفيهِ قطعتان من الفضة بينهما فسحة مملوءة ببرادة النكل والفضة ٩٥ في المائة منها نكل و ٥ فضة والقطعتان متصلتان من طرفيهما بسلكين من البلاتين في بطرية محلية . وبرادة النكل والفضة تفصل التيار الكهربائي الجاري من هذه البطرية . ولكن اذا فعلت فيها تموجات هرتس المذكورة آنفاً اجتمعت دقائق البرادة بعضها مع بعض وصارت موصلاً للكهربائية فتتم دائرة البطرية المحلية وتبقى البرادة مجتمعة كذلك الى ان تهز فتنفصل وتعود الى مقاومتها الاولى للتيار الكهربائي كما كانت وينقطع التيار

ثم كشف مركوني حقيقة كبيرة الشأن في تحقيق التلغراف اللاسلكي اذ وجد انهُ اذا وصل احد السلكين اللذين في طرفي جامعهِ بلوح من المعدن ودفنهُ في الارض ورفع الآخر على عمود تمكن جامعهُ من التأثر بتموجات هرتس ولو كانت ضعيفة لقدومها من مكان بعيد . ثم صنع جهازاً مرسلاً لاطلاق التموجات الكهربائية المتتابعة في الهواء واستقبلها بجهازه المستقبل او اللاقط ومن أجزائهِ الجامع وآلة تدوّن علامات مورس التلغرافية فكان ذلك أساس التلغراف اللاسلكي التجاري المستعمل الآن

ولا نتولى هنا بسط التحسين الذي طرأ على أجهزة التلغراف اللاسلكي بل نكتفي بالاشارة الى أهم التواريخ في شيوعهِ كوسيلة للتخاطب

نجح مركوني في يوم عيد الفصح سنة ١٨٩٩ في ارسال رسالة تلغرافية لاسلكية بين فرنسا وانكلترا فوق بحر المانش ثم فعل مثل ذلك بين سفن في عرض البحر ومحطات لاسلكية قائمة على الشواطىء . فاستوقف هذا العمل نظر العامة والخاصة الى هذا النوع الجديد من وسائل التخاطب فأقبل عليهِ جمهور من العلماء والباحثين زادوهُ اتقاناً بمباحثهم النظرية والعملية واستعمل اسلوب ماركوني اللاسلكي في المناورات التي اجراها الاسطول الانكليزي في يوليو واغسطس سنة ١٨٩٩ فثبت ان سيكون لهُ شأن كبير في الحروب البحرية فوجهت الاميرالية الانكليزية وقيادة الاساطيل الاخرى اهتمامها الى ارتقائهِ

وكان مركوني يطمح الى ارسال الرسائل اللاسلكية فوق المحيط الاطلنطي وشجعهُ على ذلك نجاحهُ في ارسال الرسائل اللاسلكية بين جزيرة ويت وجزيرة لزارد في يناير سنة ١٩٠١ والمسافة بينهما مائتا ميل . فاختار مكاناً لمحطتهِ اللاسلكية المرسلة في بولدهو بجنوب بلاد الانكليز وأقام فيها آلات كهربائية قوية لكي تكون تموجات هرتس التي تحدثها في الاثير قوية واتمَّ بناء هذه المحطة وتجهيزها بالمعدات اللازمة في دسمبر سنة ١٩٠١ ثم اجتاز المحيط الاطلنطي الى جزيرة نيوفندلند وجعل يستعد لاستقبال الاشارات اللاسلكية التي اتفق عليها مع معاونيه وفي ١٢ دسمبر سنة ١٩٠١ التقطت آلتهُ المستقبلة اشارة « S » وهي ثلاث نقط متتابعة

بحسب نظام مورس التلغرافي وكان قد اتفق عليها مع معاونيه ليرسلوها في وقت معين دفعاً لكل ريب[1] . فدهش العالم لما ذاعت الانباء بنجاح تجربة مركوني وثبت للعارفين ان التلغراف اللاسلكي يمكن استعمالهُ على مسافات شاسعة جدًّا ثم أعاد مركوني تجربتهُ في فبراير سنة ١٩٠٢ وهو على الباخرة فلادلفيا وكانت على ١٥٥٧ ميلاً من المحطة المرسلة فدوّن المستقبل رسالة طويلة بحسب نظام مورس الدولي ثم دوّن حرف S والباخرة على ٢٠٩٩ ميلاً من المحطة المرسلة . وثبت لهُ من تجربتهِ هذه ان الاستقبال في الليل اوضح منهُ في النهار . وفي ١٩٠٤ أنشئت شركة لنقل الاخبار الصحافية باللاسلكي بين أميركا وأوربا وكانت جريدة التيمس بلندن تتلقى أنباء الحرب الروسية اليابانية كذلك وما وافت سنة ١٩٠٥ حتى كان كثير من البواخر ومعظم الاساطيل قد جهزت بآلات التلغراف اللاسلكي

التلفون اللاسلكي أو الراديو

ان اذاعة الاخبار والخطب والالحان الموسيقية والاغاني بالتلفون اللاسلكي الى أبعاد شاسعة واستقبالها صار الآن امراً مألوفاً وهو قائم على مبدأ علمي بسيط مدارهُ ان أمواج الصوت تؤثر في التموجات الكهربائية التي يولدها جهاز الارسال فتختلف في قوتها وضعفها باختلاف امواج الصوت ثم تنتقل في الفضاء بسرعة النور الى أن تلاقي اسلاك جهاز مستقبل أو لاقط فتثير فيها تياراً كهربائيًّا متناوباً تتلقاهُ الانابيب المفرغة وتحوّلهُ الى تيار مستمرّ وتقويهِ ثم يتصل بسماعة التلفون فيعاد صوتاً مسموعاً

وتحقيق هذا المبدأ العلمي لم يكن مستطاعاً لولا استنباط الانبوب المفرغ — ويعرف علميًّا thermionic valve — الذي يتأثر بالتموجات اللاسلكية مهما تكن ضعيفة فيقويها ويحوّلها الى تيار كهربائي مستمر . وقد كشف مبدأهُ العلمي المستر توماس اديصن سنة ١٨٨٣ اتفاقاً ثم اشتغل بهِ فلمنغ الانكليزي وتلاهُ ده فرست الاميركي فأتقنهُ

وآلة التلفون اللاسلكي قوامها جهازان — جهاز الارسال وجهاز الاستقبال

اما الاول فيتألف من آلة كهربائية تولد تياراً كهربائيًّا سريع التناوب يحدث في الهواء التموجات اللاسلكية المطلوبة، وآلة تلفون عادية يتصل فيها الصوت بالتيار المتناوب فيقويهِ او يضعفهُ وفقاً لقوة أمواج الصوت أو ضعفها ، وأسلاك مرتفعة تعرف بالهوائي ترسل التموجات اللاسلكية في الاثير

وأما جهاز الاستقبال ففيهِ أولاً — السلك الهوائي الذي يلتقط التموجات اللاسلكية من الاثير . ولا يلزم ان يكون خارج البيت بل قد يكون في داخله . وثانياً — آلة تتأثر بهذه التموجات التي يلتقطها الهوائي فتحوّل التيار المتناوب الى تيار مستمرّ وهي الانبوب المفرغ

(١) راجع وصف هذه التجربة المفصل في كتاب « فتوحات العلم الحديث » صفحة ٢٠٢

ومن خصائصها تقوية التيار ايضاً . وثالثاً — وسيلة للضبط حتى لا يلتقط الجهاز من الفضاء الا امواجاً من طول معين . ورابعاً — سماعة تلفون عادي يتحول فيها التيار الكهربائي صوتاً مسموعاً . وخامساً — الارض لتكملة الدورة الكهربائية

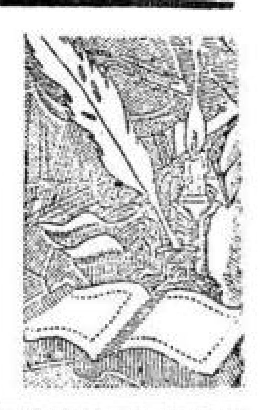
هذه مبادىء التلفون اللاسلكي وقد طبقت في اميركا واوربا والشرق العربي تطبيقاً واسع النطاق فتألفت شركات او هيئات كبيرة انشأت محطات قوية لاذاعة الانباء والخطب والاغاني والقصص والانباء التجارية والجوية وكل ما يهم الناس معرفتهُ في ساعات معينة من النهار والليل

وليس التلفون اللاسلكي من مزاحمي التلفون السلكي بل كلٌّ منهما مكمل للآخر . مثال ذلك : أن باخرة كانت تمخر المحيط الاطلنطي على مئات الاميال من شاطىء أميركا الشرقي فتكلم احد رجالها مع رجل في جزيرة كاتالينا في المحيط الهادي والمسافة بينهما نحو أربعة آلاف ميل وكان الكلام واضحاً كل الوضوح . ذلك انهُ تكلم مع محطة لاسلكية على الشاطىء الشرقي من الولايات المتحدة وهذه اتصلت بمركز التلفون السلكي فانتقلت الرسالة بهِ من شرق أميركا الى غربها ثم انتقلت بالتلفون اللاسلكي الى الجزيرة المذكورة . وقد تمَّ الآن الاتصال بالتلفون اللاسلكي بين معظم بلدان العالم وقد علمنا ونحن نكتب هذه السطور أن أحد اعضاء الوفد الاميركي بمؤتمر المواصلات الدولي اتصل بزوجتهِ في اميركا فحدثها مدة ثلاث دقائق من حجرتهِ في فندق هليوبوليس بالاس

ومن الامور التي اتجهت اليها البحوث حديثاً توجيهُ الاشعة اللاسلكية في ناحية خاصة حتى يكتم ما فيها بعض الكتمان فلا تلتقطهُ الاَّ المحطات التي في تلك الناحية . وكان مركوني يجرب قبل وفاتهِ استخدام أمواج لاسلكية قصيرة في التلفون اللاسلكي . اذ لا يخفى ان طول الموجة اللاسلكية من امواج المخاطبات التلفونية بين أوربا وأميركا يزيد على الف متر وقد يبلغ بضعة آلاف متر ولتوليد هذه الامواج يجب بناء آلات ضخمة قوية تقتضي نفقات طائلة فالنجاح في استعمال الامواج القصيرة يوفر كثيراً من الاموال والطاقة التي تنفق في المحطات اللاسلكية الكبيرة

واتجهت الانظار في العهد الاخير الى ارسال الصور باللاسلكي فوصفنا ذلك في غير مكان من المقتطف ونشرنا بعض الصور التي نقلت كذلك . ومن انباء اميركا ان احد الاطباء استطاع أن يعالج كسراً في يد إمرأة بعد ما نقلت اليهِ صورة الكسر باشعة اكس لاسلكياً .

ثم هناك النقل النموذجي وهو قائم على مبدإ نقل الصور ويستعمل خاصة لنقل صور العقود والتحاويل كما هي بدلاً من نقل كلامها فقط . ومن نواحي الارتقاء في النقل اللاسلكي التلفزة وهي تختلف عن نقل الصور في أنها تنقل المشاهد الواقعة لاصورها الفوتغرافية . ومن شاء التوسع في ذلك فليطلبهُ في كتابي « فتوحات العلم الحديث » و« أساطين العلم الحديث » ومجلدات المقتطف



النزعات الادبية

العامة قبل دستور ١٩٠٨

لانيس المقدسي
استاذ الادب العربي بجامعة بيروت الاميركية

— ٢ —

﴿ البوادر الثورية الاصلاحية ﴾ رأينا فيما سبق ان « العثمانية » كانت قبل الدستور بارزة في الشعر المصري عموماً . وفي كثير من الشعر العراقي والسوري واللبناني . على ان الشعر العربي لم يكن كله كذلك . فقد كان في الشرق العربي كما اسلفنا احرار يهاجون الفساد ويحملون على السياسة الغاشمة التي كانت تدفع بالبلاد الى هوّة الانحطاط . وابرز ما نرى ذلك في عهد مدحت باشا ابي الاحرار العثمانيين . فانهُ لمّا تولى ولاية سورية ظهر في بيروت ودمشق حركة ادبية ترمي الى احياء الشعور القومي والتظلم من ضغط الاستانة . ولا ندري تماماً سرّ تلك الحركة أكان مبعثها كما يقول البعض مدحت باشا نفسه طمعاً بجعل سوريا كمصر والجلوس على اريكة الحكم فيها [1] ام لان وجود ذلك الحاكم النزوع الى الاصلاح انشأ في سوريا (كما انشأ من قبل في العراق) جوّاً ادبيّاً حرّاً استطاع بهِ اباة الضيم ومرهفو الاحساس ان يبثوا بعض خوالجهم ويفرّجوا عن كربتهم . ذلك ما نتركه للتحقيق التاريخي

وسواء أهذا صحّ أم ذاك فالواقع ان الادب العربي في ذلك العهد اخذ ينادي بالاصلاح وحملت الحماسة بعضهم على نشر قصائد نارية الصفوها (غفلاً من التوقيع) على ابواب المساجد والكنائس ومنها السينية المشهورة — دع مجلس الغيد الاوانس ، والحائية — يادولة الترك اركي عنك العناد وباشري الاصلاحا — وسنعود اليها في غير هذا المقام

وقد اهتمت حكومة الاستانة بهذه البوادر الثورية واخذت تسعى لمعرفة اصحابها فلم تفز بطائل واقتضت السياسة نقل مدحت سنة ١٨٨٠ الى ازمير ثم محاكمته بتهمة قتل السلطان عبدالعزيز

(١) كتاب سر مملكة لسليم سركيس ص ٦٣

فتخلص عبد الحميد منهُ وبوقت قصير استطاع ان يبطش برجال الحرية والدستور وأن يرجع بالبلاد الى عهد الاستبداد المطلق فهو بعد ان بدأ حكمه باعلان الدستور وبمجاراة والده عبد المجيد في طلب الاصلاح نكص على اعقابه وعاد كما يقول روحي الخالدي الى سياسة جدّه السلطان محمود خان في استعمال الجبر والاستبداد معتقداً ان الشعوب التي وضعها الله تحت يدي جلالته لا يمكن تسييرها الاَّ بالقوة »[1] فخمدت في أيامه الروح الاصلاحية داخل البلاد لكن بعض الاحرار من الترك والعرب حملوها الى الخارج وهناك نمت وترعرعت فكانت من العوامل الفعّالة في انقلاب الحكومة الحميدية . وفي هؤلاء الاحرار المهاجرين يقول المشير[2] « هم اخواننا في الانسانية ، ورفاقنا في الحرية . علموا ان المجد لا ينال الاَّ على جسر من التعب . فهم يتعبون في السعي وراء خدمة بلادهم وارجاع مجد مملكتهم الذي انحط الى دركات الخمول باهمال الامام الذي جار في احكامه والاعوان الذين صاروا بليةً على الامة » . . . الى أن يقول . . « وقد انضمّ اليهم بعض أدباء سوريا ومصر وهرب البعض منهم من عالم الجور والظلم الى فضاء الحرية والامن فانتشروا في باريز وسوريا وانكلترا وأميركا وأنشأوا الجرائد » الخ

فظهر من هؤلاء المهاجرين طبقة من حاملي شعلة الادب وأكثرهم الآن في عالم الارواح منهم فتح الله مراش — رزق الله حسون — عبد الرحمن الكواكبي — خليل غانم — محمد قدري — لويس صابونجي — امين مجيد ارسلان — حبيب سلموني — خليل سعادة — سليم سركيس — نجيب الحداد — ولي الدين يكن . ولا يزال حيًّا من هذه الطبقة فارس نمر (الدكتور نمر باشا)

ومن أراد الاطلاع على بنات افكارهم فليرجع الى مؤلفاتهم (وأكثرها معروف) او الى صحفهم كالمشير والمقطم ولسان العرب ومرآة الاحوال والمجلة وتركيا الفتاة والنحلة والشورى وضياء الخافقين ورجع الصدى وكشف النقاب وسواها[3] وكلهم كما يصرح الدكتور يعقوب صرُّوف قد اتحدوا على التنديد بالادارة السيئة الضاربة أطنابها في بلادهم[4]

على انهم في ذلك متفاوتون . فمنهم المشدّد ومنهم المعتدل . ومنهم من بلغ به فرط التشاؤم حدّ اليأس بالاصلاح فصار لا يرى اصلاحاً الاَّ بهدم كيان الدولة او وقوعها تحت مراقبة الاجانب . وأقدم ما رأينا من هذا القبيل قصيدة لرزق الله حسون نظمها في الحرب الروسية العثمانية واستيلاء الروس على القرس ومنها :[5]

كم حروبٍ للروس دارت على التـرك رحاها فغادرتها طحينا

---

(١) الهلال ١٧ — ١٤٥ (٢) عدد ١١٣ (٣) في المعلوم والمجهول لولي الدين ص ٦٢ — ٧٤ وصف لبعض هذه الصحف وأصحابها فليراجع . (٤) المقتطف ٣٣ — ٨١٣

(٥) راجع القصيدة في المشير عدد ٣١ (وفي بعض أبياتها اضطراب في الوزن)

عَلَّم الروس يخفق اليوم فوق الـــقرص ولّى الاتراك في الغابرينا

هكذا هكذا تدور على البـــاغي الدوائر[١] ويهلك المجرمونا

ما عليهم لو عاملونا بحسنى وتساوٍ او انهم انصفونا

قال الدكتور فارس نمر باشا من خطبة له في النهضة الدستورية مشيراً الى فتح الله مرّاش ورزق الله حسّون[٢] — « فهذان الحـرّان الحلبيان اللذان فاقا الاقران بحب الحرية كما فاقا الاقران بمعانيهما السحرية ومبانيهما المسجدية قضيا ردحاً من الزمن يرسلان شعاع الحرّية الى ابناء سوريا من قلب أعظم عاصمتين اشهرتا في اوروبا بالحرية والنظامات الدستورية (اي لندن وباريس) ولكنهما مزجا بلاغتهما بعلقم التفريق بين الترك والعرب فأصابا بايقاظ النفوس لطلب الحرية وأخطأ بتمزيق الجامعة العثمانية »

ويستدل من شعر حسون انهُ لجأ الى روسيا حيناً . ومدح قيصرها بقصيدة جعل القسم الاول منها وصفاً لفساد الاحوال في تركيا فقال : —

جُلت الشآم وغسّاناً وعُجت على فينيقيا وكيليكيّا كمعتمرِ

وأذرعاتٍ وبلقاء وتدمر في صحراء خالية كالبحر من شجرِ

اذ لم أجد غير امصارٍ مقلبةٍ ورسم ابنيةٍ تبكي على الزمنِ

وقفت أنعي خراب الملك من مُدُنٍ في الحصر والوصف يعي المرء بالحَصَرِ

وهو يعزو ذلك الخراب الى سوء ادارة السلطان ورجال دولته ثم يقول بعد ابيات

لهني ولهف بني الاحرار كلهم على التساوي بانصافٍ مدى العُمُرِ

ومنها : حتى دخلت بلاد الروس ملتجئاً بالمستجار محبّ الله والبشرِ

ومن هنا يتقدم الى وصف ما وجده في روسيا من عدل وامن ويقابله بسوء الحال في تركيا فتؤلمهُ المقابلة ويصيح من قلبٍ متحسر[٣]

وإن تذكرتُ اوطاني بكيت دماً من مهجةٍ طفحت جرياً بمنهمرِ

ومثل حسّون في النقمة على الادارة التركية وحب التخلص منها عدد من الادباء (وجلهم من مسيحي سوريا ولبنان) وقد سبقت الاشارة الى احدهم سليم سركيس . وهو من الذين برزوا في هذا المضمار وله في ذلك كثير من القصائد والمقالات . منها قصيدة موضوعها « ثلاث حبّات » وضعها على لسان ارمني يموت جوعاً[٤] وقصيدة نفير سوريا التي مطلعها[٥]

يا اهل سوريا القساورْ من كل مفخورٍ وفاخرْ

١) هكذا رواية المشير ولو استبدلنا الدوائر بالدواهي — لاستقام الوزن . (٢) المقتطف ٣٦ — ٢٥٨
(٣) راجع القصيدة في ديوانه النفثات ص ٧٤ (٤) راجعها في المشير ٥ ابريل ١٨٩٦ (٥) المشير ١١ مايو ١٨٩٥

افترتضون صغارة لم يرضها في الناس صاغرُ

وله قصيدة اخرى مرّ ذكرها في كلامنا على موقف السوريين من الدعاية العثمانية في مصر وهي شديدة الوطأة وكذلك اكثر شعره ونثره . ويكفي ان نقول انهُ صاحب جريدة المشير التي اشتهرت بعدائها للدولة العثمانية ولاسيما لسياسة عبد الحميد

والذي يراجع الجرائد الحرّة التي كانت في ذلك العهد تصدر خارج تركيا او في جوّ بعيد عن السيطرة التركية يجد ما لا يستطاع حصره هنا من نفثات الكتاب والشعراء الذين كانوا يحملون على عبد الحميد ويناوئون سياسته . وقد كان لتلك النفثات تأثير ملموس في النفسية العربية بل هو الخميرة التي خمرتها وهيأتها للنهضة القومية التي تلت ذلك العهد

واذا كان السوريون واللبنانيون قد اضطروا قبل الدستور الى هجر تركيا ، ولم يستطيعوا الجهر برغائبهم الاّ خارجها . فمن الانصاف ان نذكر هنا ان الشعر الاصلاحي في العراق كان عالي الصوت حتى في عُقر البلاد . وأبرز دعاته هناك اثنان — جميل الزهاوي ومعروف الرصافي . فلكليهما ما يستوقف النظر من الحملات العنيفة على سوء الادارة . ولقد يستغرب الانسان هذا العنف وصبر أولي الامر عليهِ دون عقاب مميت . ولكنهُ الواقع كما يتبين لمن يطالع قصائدهما القديمة وهما في عنفوان الشباب والقوة . فمن ذلك قصيدة للزهاوي قالها في الاستانة (حوالي سنة ١٨٩٧) وهي كما سترى من أشدّ ما هوجمت بهِ ادارة ذلك العهد وقد كان عقابه النفي من الاستانة الى وطنهِ بغداد . ومطلعها

ألا فانتبه للأمر حتام تغفل ... أما علمتك الحال ما كنت تجهلُ
أغث بلداً منها نشأتَ فقد عدتْ ... عليها عوادٍ للدمار تعجّلُ

ومنها — وما رابني الاّ غرارة فتيةٍ ... تؤمّل اصلاحاً ولا تتأمّلُ
تؤمل اصلاحاً وترجوا سعادةً ... ألا باطلٌ ما ترتجي وتؤمّلُ
وما هي الاّ دولةٌ همجيةٌ ... تسوس بما يقضي هواها وتعملُ
فترفع بالاعزاز من كان جاهلاً ... وتخفض بالاذلال من كان يعقلُ

ومنها — لقد عبثت بالشعب اطماع ظالمٍ ... يحمّله من جوره ما يحمّلُ
فيا ويح قومٍ فوّضوا أمر نفسهم ... الى ملكٍ عن فعله ليس يسألُ

وهي طويلة وأكثرها على هذا النسق[1] ومثلها قصيدته « الصارخة » وهي مخمسة يصف فيها حكومة عبد الحميد ونشرها يومئذٍ في المقتطف[2] ومن نفثاته قوله من قصيدة يخاطب السلطان[3]

---

(١) راجع ديوانه (مصر ١٩٢٤) ٢٨٠ (٢) راجع ديوانه (مصر ١٩٢٤) ١٩٦ (٣) اللباب (له بغداد ٩٢٨ ص ١٤)

ان الرعيّة أغنامٌ يحدُدٌ لهم ولاتك المستبدون السكاكينا
يا عدلُ ان التفاتاً منك يسعدنا يا عدلُ ان ابتساماً منك يكفينا
ما جاءنا الشرُّ الاّ من تهاونتا وعمّنا الظلم الاّ من تغاضينا
لا بدّ من فكّ ما قد شدّ من عُقَدٍ كفُّ الإسار بأيدينا بايدينا
إن الذين استحبّوا قتل انفسهم فرّاً من الضيم ما كانوا مجانينا

وقوله يصف حال وطنه

ألا رعى الله اوطاناً لنا انتُهِكَت محبوبة السهل والوديان والكُثُبِ
قد أضرم الجورُ ناراً في جوانبها واهلُها بين نفّاخٍ ومحتطبٍ

وعلى هذا المنوال ينسج في كثير من شعره السياسي القديم.وكجرأته جرأة زميله الرصافي ولا سيما قبل ان يؤمّ الاستانة ويشغل منصباً علميًّا فيها . ومن قصائده الجريئة مخمّس طويل موضوعه « ايقاظ الرقود » جاء فيه : —

حكومة شعبنا جارت وصارت علينا تستبدُّ بما اشارت
فلا أحداً دعتهُ ولا استشارت وكلُّ حكومة ظلمت وجارت
فبشرها بتمزيق الجلود

اقول وليس بعض القولِ جدًّا لسلطانٍ تجبّر واستبدّا
تعدى في الامور وما استعدّا ألا يا أيها الملك المفدّى
ومن لولاه لم تكُ في الوجود

أنِمْ عن أن تسوسَ الملك طرفا أقِمْ ما تشتهي زَمْراً وعزفا
أطل نكر الرعية خلّ عُرفا سُم البلدان مهما شئت خسفا
وأرسل من تشاء الى اللحود

وتتجلى لنا هذه الجرأة ايضاً في قصيدته « رقية الصريع » التي مطلعها

ياعدلُ طال الانتظار فعجّل ياعدلُ ضاق الصبر عنك فأقبلِ

ومنها : كيف القرار على امور حكومةٍ حادتْ بهنّ عن الطريق الامثلِ

ومن هنا يأخذ بوصف فساد الادارة واستبداد الخليفة منادياً بسقوط الحكومة الفردية ووجوب استبدالها بنظام جمهوري او دستوري . ثم يقول غير هيّاب

حتامَ نبقى لعبةً لحكومةٍ دامت تجرّعنا نقيع الحنظل
تنحو بنا طرق البوار تحيّفاً وتسومنا سوء العذاب الاهول
ما بالنا منها نخاف القتل إن قتنا أما سنموت أن لم نقتل ؟

وفي ديوانه الاول المطبوع سنة ١٩١٠ كثير من هذه الحملات العنيفة نظم بعضها في العهد الاستبدادي وبعضها في عهد الدستور . وقد صدق محيي الدين الخياط اذ قال فيه[1] « من هؤلاء الافذاذ الذين فطروا على عدم الاستخذاء للضيم والتجافي عن مضاجع الذلّ وعدم الاستنامة للحوادث . وقد كان يقرع قومه في اشد ايام الاستبداد بمثل قوله :—

عجبت لقوم يخضعون لدولةٍ يسوسهم في الموبقات عميدها
وأعجب من ذا انهم يرهبونها واموالها منهم ومنهم جنودها

وهذان البيتان من قصيدة موضوعها « تنبيه النيام » وهي خمسة وثلاثون بيتاً وكلها تتقد بمثل هذه النيران النفسية.

***

وقد كان في البلاد العربية العثمانية غير من ذكرنا من اصحاب الوجدان الحرّ والنزعة الثورية ولكنهم قلما كانوا يجرؤون على الجهر بما تكنهُ صدورهم لحرص قلم المراقبة ان لا ينشر في الصحف او الكتب الاّ ما يوافق مصلحة الحكومة ويشيد بذكر رجالها . فاجروا اقلامهم في غير الاصلاح السياسي وبلغوا في ذلك كما سنرى بعد شأواً يذكر

***

على انهُ لا بدّ لنا هنا من العودة الى ولي الدين يكن فقد اسلفنا انهُ كان من دعاة الجامعة العثمانية ومن أبناء الوطنية التركية . لكنهُ كان أيضاً من دعاة الاصلاح الناقمين على الدولة استبدادها وسوء ادارتها . وقد شرع بمهاجمة فسادها منذ كان في الاستانة . وفي ديوانهِ باب خاص بالسياسيات تجد فيهِ عدة شواهد على نزعتهِ الحرة . وأولى وطنياته قصيدة « نشتاق حرية فيؤبسنا »[2] ومنها

يا وطناً قد جرى الفساد بهِ متى يرينا أصلاحك الزمن
دُفنت حيّا وما دنا أجلٌ ما ضرّ لو دافنوك قد دُفنوا
دماء أبنائك الكرام جرت بحراً فأشلاؤهم لها سفن

وكذلك قصيدته « الوطن يشكو أهله »[3] جاء فيها :

في ذمة الله رجالٌ قضوا طال بهم تحت القبور الثّواء
لا التاجُ ذاك التاج من بعدهم ولا بهاء الملك ذاك البهاء
يا أرض ميدي انها دولةٌ مادت وأنت اضطربي يا سماء

(١) مقدمة الديوان الاول ص ١١ (٢) راجع المشير ٨ يناير ١٨٩٨ (٣) في جريدة القانون الاساسي ١٨٩٨

ومنها — أقول والظلم بآفاته يحثث للملك مطايا الفناء
لا ييأس المكروب من فرجة ولا عليل أبداً من شفاء

ومما يذكر له هنا قصيدته « زفرة من زفراتي » قالها عند ما نفي الى سيواس سنة ١٩٠٢

ومنها : ارى سيواس تغمدني كأني صارم ذكر
صدأت بها واحسبني ساصدأ ما جرى العمر
فوا لهفي على سرب تولى رعيه النمر
غدا في ارض مسبعة جفاها النبت والشجر

ومنها : عداة الحق قد ربحوا واهل الحق قد خسروا
ونحن امامنا وطن نراه اليوم يحتضر
فيا افق التهب حزناً وجد بالدمع يا مطر

﴿ النعرة الشرقية في الادب الحديث ﴾ ظهر لنا في العواطف الشعرية العربية السابقة لعهد الدستور مجريان رئيسيان — المجرى العثماني (او الدعوة للعرش العثماني ورجاله) والمجرى الاصلاحي (او الحمل على ذلك العرش ودعاته) . وظهر لنا ايضاً ان للاخير فرعين فرع المتطرفين الداعين الى هدم الكيان العثماني . وفرع المعتدلين القائلين بوجوب الانقلاب مع المحافظة على الجامعة العثمانية . والذي يلوح لنا ان هؤلاء هم الاكثرية بين الاصلاحيين وقدكان هدفهم تجديد السلطنة ورفع مستواها لتكون وطناً حراً خليقاً بأن يحب ويفاخر به . فالشرق والغرب عندهم لا يجتمعان ولا ينجي الشرقيين من براثن الاستعمار أو يحفظ كيانهم الشرقي إلا العرش العثماني اذا قام على اسس الحضارة الجديدة ومن الطبيعي ان يكون المسلمون عموماً أعطف على الدولة العثمانية وفيها خلافتهم ومجدهم . يدلك على ذلك ما أظهروه في الحروب التي خاضتها قبل الدستور وبعده كحرب روسيا سنة ١٨٧٨ والحرب اليونانية ١٨٩٧ وحرب طرابلس ١٩١١ وحرب البلقان ١٩١٣ . بل وفي الحروب التي لم تخضها ولم يكن لها فيها مصلحة مباشرة كحرب روسيا واليابان (١٩٠٤ — ١٩٠٥)

ففي هذه الحرب كان العالم الاسلامي العربي بجانب اليابان لا لسبب الا لان اليابان دولة شرقية ثم هي تحارب روسيا عدوة تركيا التاريخية . وقد اثارت هذه الحرب من العواطف الشعرية في ادبنا ما لا يجوز لباحث الاغضاء عنه . فمن ذلك قصيدة مشهورة لحافظ ابرهيم مطلعها : « لا تلم كفي اذا السيف نبا » وفيها يقول مادحاً امبراطور اليابان (الميكادو) ووطنية شعبه

هكذا الميكادُ قد علّمنا ان نرى الاوطان امًّا وأبا
ملكٌ يكفيك منهُ انهُ أنهض الشرق فهزّ المغربا

وكذلك قوله من قصيدة موضوعها « الانقسام آفة الشعب »

فاقضوا النوم وجدّوا للعلى فالعلى وقفٌ على من لم ينمْ
وانظروا اليابان في الشرق وقد ركزتْ أعلامها فوق الامَمْ
حاربوا الجهلَ وكانوا قبلنا في دجى عمايته حتى انهزمْ
فاسألوا عنها الثريّا لا الثرى انها تحتل ابراج الهِمَمْ

وقولهُ من قصيدة « أساحةٌ للموت أم محشرُ » يشير الى ما نال الشرق من انتصار اليابان

تسوءنا الحربُ وان أصبحت تدعو رجال الشرق أن يفخروا
أتى على الشرقيّ حينٌ اذا ما ذكر الاحياء لا يذكرُ
حتى أعاد الصُّفر أيامهُ فانتصف الاسودُ والاسمرُ

ولعلّ قائلاً يقول ان شعر حافظ في الحرب الروسية اليابانية بل شعر مصر عموماً انما هو لما في نفوسهم من العطف على العثمانية لا لنعرة شرقيـة تستفزّهم الى تحدّي الغربيين . فنقول ان اليابان كانت يومئذٍ حليفة بريطانيا . وفي الاشادة بمحامدها نوع من الدعاية لبريطانيا . ومع كل ذلك لم يمتنع حافظ وزملاؤه [1] وهم من محاربي النفوذ البريطاني في مصر عن ان يستسلموا لعواطفهم الشرقية ويظهروا عطفهم على دولة شرقية برغم ما يربطها من الصداقة بمحتلي مصر

واذا ألقينا نظرة على غير مصر وجدنا ان الشعراء حتى الاحرار الناقين على تركيا يضربون على هذا الوتر الشرقي كما فعل الرصافي في قصيدته « معركة تسوشيما » [2] اذ قال

سعروها في البحر حرباً ضروساً تأكل المال نارها والنفوسا
يوم طوغو [3] دها بأسطوله الـــروسَ قتالاً وكان يوماً عبوسا
فحداها بوارجاً تملأ البحر وقـــاراً طوراً وطوراً بؤوسا
فكسوهم من الهوان لبوساً وسقوهم من المنون كؤوسا
هكذا شيدوا بناء المعالي هكذا أحسنوا لها التأسيسا

---

(١) كمصطفى الرافعي واحمد نسيم
(٢) وهي معركة بحرية بين الاسطولين الروسي والياباني كانت نصراً باهراً لليابان
(٣) اميرال الاسطول الياباني

والشاعر اللبناني امين ناصر الدين في الحرب الروسية اليابانية قصيدة [١] موضوعها « الياباني ومعشوقته » جمل سداها ولحمتها شجاعة اليابان وحميتهم الوطنية وظفرهم الباهر ومن ذلك ما وضعه على لسان المجاهد الياباني : —

هجمنا على ميناء « أرثور » هجمة ترد ابن عام وهو بالخوف أشيبُ
ببيض يلوح النصر أيان جردت وسمر لها بين القلوب تقلّبُ
وكنا اذا انهلّ الرصاص كأننا من الغيد بالتفاح نرمى فنطربُ
وعدنا وهاتيك القلاع بأسرها مهدّمة قد حلّ منها المركّبُ
وقائعنا في البحر كانت عجيبـــة ولكنها في لجة البحر أعجبُ

وهنا يصف معركة تسوشيما وانتصار طوغو ثم يقول : —

ورجّعت الاقطار صوت انتصارنا ففي الشرق هزّاج وفي الغرب ندّبُ

وقد أصاب الشاعر فان الشرق الادنى العربي او قل العثماني عرته هزة وطنية عامة على أثر انتصار اليابان وقد رددها الادب العربي عدة سنين بعد تلك الحرب . وكان كلما أراد انهاض الامم الشرقية ذكرها باليابان ونهضتها كقول كاتب هذه السطور سنة ١٩١١ من قصيدة موضوعها الحياة الجديدة في المشرقين [٢]

معاذ الله ان نبقى نياما يحيط بنا الظلام ولا ظلاما
أرى النيران تضطرم اضطراما وآسيا تهب من الهجود

ونجم المجد في اليابان يسطع تخر لهم كواكبهم [٣] وتخضع
اضاء على الملا الشرقيّ اجمع وأفهم جمهم معنى الوجـود

***

ولو اردنا تعداد القصائد والمقالات التي اثارتها هذه الحرب او ذكرياتها لضاقت بنا الصفحات الكثيرة . وليس غرضنا من الاشارة اليها وضرب الأمثلة عليها الا اثبات حقيقة قد تضيع في مطاوي الايام ، او تذهب بذهاب الذين عرفوها بالاختبار وهي ان النهضة اليابانية التي بلغت اوجها في حرب ١٩٠٤ — ١٩٠٥ قد حركت عواطف الوطنيين في مصر والشام والعراق فظهر ذلك في ادبهم المنظوم والمنثور ، وكان من الاسباب الممهدة لذلك الاتقاد الوطني

---

(١) راجعها في صدى الخاطر (١٩١٣) ص ٣٤ (٢) راجعها في المورد الصافي م ٣ ص ١٧٣
(٣) الضمير في كواكبهم يرجع الى الغربيين

الذي عقب اعلان الدستور العثماني فعزز الروح الشرقية في جميع الاقطار العربية

﴿ عوامل اقليمية ﴾ بقي علينا في هذا المقام ان نوجّه النظر الى حوادث سياسية تركت في الادب صبغتها الخاصة . وهي كثيرة ومتفاوتة الاثر على ان اهمها اثنان وهما :

١ — حركة السنة الستين (١٨٦٠) في البلاد السورية وما عقبها من استقلال لبنان الداخلي . ولهذه الحركة في الادب العربي ظاهرتان كبيرتان — الاولى تأصيل الحزازات الدينية بين ابناء سوريا — تلك الحزازات التي كانت ولا تزال من اهم بواعث الشقاق في الشرق. والثانية انفصال لبنان عن السلطنة العثمانية بكيان سياسي خاص مضمون من الدول العظمى فصار اللبناني يشعر بكرامته الذاتية ويتذوق حلاوة الاستقلال

وفي تينك الظاهرتين تكوَّن في نفسه ذلك الشعور الاقليمي الذي وقف في سبيل الوحدة العربية كما سيجيء.

ومن يراجع دواوين الادباء اللبنانيين في هذه الخمسين السنة الاخيرة يرى شيوع ذلك الشعور برغم جميع الوسائل التي كانت تستخدم لاضعافه . ولا ينكر ان بعض اللبنانيين قد اخذ بعد الحرب الكبرى ينزع نزعة وطنية عامة ، إما تحت اسم القومية السورية وإما تحت اسم الوحدة العربية ، ولكن الشعور القديم الموروث عن آبائهم والمستمد من استقلال لبنان بعد السنة الستين لا يزال قويًّا ، وسيظل الادب اللبناني مصطبغاً به مدة طويلة من الزمن

٢ — الاحتلال البريطاني لمصر سنة ١٨٨٢ . وهو من الحوادث الاقليمية الكبرى التي تكاد لخطورتها ان توضع في مصاف العوامل العامة . ولا نتعرض هنا للبحث في اسباب الاحتلال او النظر في مساوئه وحسناته فذلك من خصائص التاريخ . ولكننا نقرر ان هذا الاحتلال كان مبعثاً لادب مصري عنيف ، وكان له صدى لا يزال يتردد في انحاء البلدان العربية

وبرغم تضارب الآراء فيه فاننا نرى ان اكثر الشعراء والخطباء في مصر كانوا ينظرون الى الاحتلال نظر العداء وينادون بالاستقلال والدستور . وقد ادى ذلك الى احياء الشعور الوطني فيها ثم الى تدرجها في مراتب الاستقلال حتى بلغت ما بلغته في هذا العهد

ولما كان هذا الادب المصري الوطني شديد الارتباط بما نشأ منهُ بعد الدستور فسنتركه الآن على ان نعود اليه مفصلاً في مقام آخر

***

ومن هذه العوامل الاقليمية — حوادث ارمينية ، وحوران ، واليمن وكثير من حوادث العراق المحلية . ولما كانت غايتنا هنا وصف الاتجاهات العاطفية العامة فاننا نقف عند هذا الحدّ من الكلام على الشعر قبل الدستور تاركين العوامل المحلية لمن يحب التخصص فيها

الفلسفة العربية

ما أخذت وما أعطت

لفلمون الخوري

— ١ —

ليس هنالك في ما أعتقد شيء من جميع ما ترك أسلافنا العرب من تراث خالد ما هو أدعى للاعجاب والفخار من ان نرى تلك الفئة اليسيرة من أقطاب الفلسفة العربية تحتل مكاناً بارزاً في مصاف فلاسفة العالم وان تنقش أسماؤهم على لوحة الخلود الى جانب أشهر نوابغ العالم ورجاله المفكرين . فأسماء ابن سينا والغزالي والفارابي وابن رشد وابن جبرول وابن الطفيل ستظل مقرونة أبداً الى اسم فيثاغورس وأفلاطون وأريسطو والقديس توما والبرت الكبير وغيرهم من أساطين الفلسفة الخالدين . بل ولسوف يسمو ذكر أولئك بتوالي القرون اذ تدرك الشعوب انهُ لولا جهود العرب ورغبتهم النادرة في نشر الفلسفة والعلوم واحتفاظهم في ظلمات تلك الاجيال بكنوز علوم المتقدمين لتأخرت النهضة العلمية في بلاد الغرب قروناً عدَّة لا محالة

وأي عربي لا تأخذهُ هزَّة الطرب والارتياح الشديد عند ما يذكر كيف كانت تتقاطر قوافل طلاب العلم والفلسفة من متفرق الأنحاء الى قرطبة بالاندلس مدينة العلم الزاهرة وكعبة الفلسفة في ذلك العصر ليتلقوا عن أبي الوليد ابن رشد أسرار الحكمة المشرقية وآيات الفلسفة العربية وكيف كانت الملايين من ذوي المعرفة والاطلاع في أرقى الممالك يترقبون معرفة آرائهِ وأفكاره ليسترشدوا بهديهِ ويستنيروا بنبراسهِ

نشأت الفلسفة العربية في زمن تشابه احوالهُ وعواملهُ الاحوال والعوامل التي دعت لقيام الفلسفة اللاهوتية Scholasticism وقد كانت كلتاهما تستقي من مصدر واحد هو الفلسفة اليونانية القديمة والافلاطونية الجديدة Neo-Platonism وترميان الى غرض واحد هو تطبيق

التعاليم الدينية على أحكام العقل او التوفيق بين مذاهب الفلسفة وعقائد الدين . وقد تقدم معنا في مقال سابق تحت عنوان « أدوار الفلسفة الثلاثة » ان الفلسفة اللاهوتية لم تطلع بمذهب جديد في عالم الفلسفة وهكذا كان شأن الفلسفة العربية . ذلك لان زعماء الفلسفتين العربية واللاهوتية لم يكونوا طلاب حقيقة لان الحقيقة الواحدة العظمى أنزلت لهم وحياً في الكتب السموية فلم يكن ثمَّ من حاجة الى مزيد . ولولا ان اعداء الدين من فلاسفة الوثنية قاموا يحاولون نقض الاديان الالهية الجديدة وخنقها في المهد ربما لم تكن هنالك فلسفة لاهوتية ولا عربية . ولما كان سلاح خصوم الدين الجديد مبادىء الفلسفة القديمة التي كانوا يفسرونها ويؤولونها حسبما يوافق أغراضهم كان لا بدَّ لفلاسفة اللاهوت من اتقان الفلسفة اليونانية وتمحيصها لمحاربة اولئك القوم بمثل اسلحتهم وردهم على أعقابهم خائبين . وقد بلغ فلاسفة العرب في إتقان فلسفتهم الدينية حدًّا جعل العلاَّمة الفيلسوف الفرنسي ليبري يقول ان الفلاسفة العرب قد فاقوا في فلسفتهم الدينية نظراءهم من فلاسفة النصرانية . وهو اعتراف له قيمته الكبيرة عند اهل العلم والمعرفة

بيد انه وان يكن الفلاسفة العرب لم ينشئوا مذهباً خاصًّا جديداً في الفلسفة فانهم تمكنوا من ان يجعلوا لفلسفتهم شأناً يذكر في سائر الاقطار . وذلك عائد الى ذكاء العربي الغريب الذي استطاع ان يمثل الفلسفة اليونانية تمثيلاً يقرِّبها كثيراً من الاذهان ويجعل تناولها سهلاً سائغاً لجميع طلاب الفلسفة والعلم . وان من يمعن النظر في رسالة « حي بن يقظان » للفيلسوف الاندلسي الكبير ابن الطفيل يدرك الحد البعيد الذي بلغه فلاسفة العرب في اجتلاء غوامض الفلسفة اليونانية وفك طلاسمها وكشف خفاياها

***

قلت ان القصد من الفلسفة العربية كان تطبيق مبادىء الفلسفة على تعاليم الدين والتوفيق بينهما وقد جرى القوم على ذلك في كافة شرائعهم وسننهم بايمان خالص وتسليم تام . بيد ان فريقاً منهم ممن اطلقوا لانفسهم حرية التفكير الفلسفي رأوا في بعض عقائد الدين ما لا ينطبق تماماً على احكام العقل او مقتضيات مذاهب الفلسفة فخالفوا الجماعة في تلك العقائد وأنشأوا لانفسهم مذهباً خاصًّا وكان منهم فرقة المعتزلة

بيد ان أول الآثار الفلسفية التي تذكر واهمها في تاريخ الفلسفة العربية هي « رسائل اخوان الصفا » وهي احدى وخمسون رسالة وضعها اصحابها وكلهم من أهل التقوى والاطلاع الواسع افرغت في شكل دائرة معارف لتكون مجموعة الفلسفة والعلوم منذ العصور القديمة الى ذلك العصر . وقد كان لهذه الرسائل شأن خطير وتأثير قوي في جميع انحاء العالم الاسلامي لا سيما وان واضعيها

ممن انصرفوا الانصراف التام الى الامور الدينية والتفكير الفلسفي . أما الغاية الرئيسية التي ترمي اليها هذه الرسائل فهي ترقية النفس البشرية بالمواهب الروحية الى أن تبلغ حد الكمال الانساني بما يماثل الكمال في الذات الالهية وذلك بواسطة التأمل والتفكير الفلسفي . وانها لعمري فكرة جديرة بكل اعتبار . ولا نقول ان الفلاسفة اليونان لم يدركوا هذه الحقيقة او لم يقولوا بها لكنهم لم يعيروها الاهتمام اللازم ولم يحلوها المنزلة التي احلها فيها فلاسفة العرب حتى في بدء عهدهم بمباحث الفلسفة ومذاهبها وطرقها . ثم إن المحور الذي تدور حولهُ ابحاث الرسائل هو نظرية الفيض الالهي التي اخذها العرب عن المذهب الافلاطوني الجديد وآثار هذا المذهب ظاهرة في كل موضع في الرسائل تقريباً وخلاصتهُ أن كل شيء في الوجود صادر بطريق الفيض او الانبعاث من الذات الالهية العظمى والى وحدة تلك الذات الالهية مرجعهُ ومعادهُ وان على الانسان أن يحرر نفسهُ من عبودية المادة ويطهرها من ادرانها لتعود النفس طاهرة خالصة الى بارئها والمصدر الذي كان علة وجودها . وقد كان لهذه الرسائل شهرة واسعة وتأثير كبير في كافة الاوساط على الرغم مما يتخللها من اقوال ومباحث كثيرة في العرافة والسحر والتنجيم وغيرها من الابحاث العقيمة

ثم ان جماعة الاخوان اصحاب الرسائل يؤلفون بانفسهم مدرسة خاصة مستقلة ولفلسفتهم صبغة دينية بحتة ولا غرو فهم قوم انصرفوا بالاكثر الى الامور الدينية طيلة حياتهم فلم يكن بدٌّ من ذلك الاتجاه الديني الصرف

***

على ان هنالك فريقاً من اهل الفلسفة يرجعون في مبادئهم الفلسفية الى قواعد المنطق واحكام العقل ويبنون آراءهم على حوادث الطبيعة ونواميسها وأحكامها وهم يؤلفون بأنفسهم مدرسة خاصة تعرف بمدرسة الطبيعيين او العقليين لاعتمادهم احكام العقل وقواعد المنطق في بناء آرائهم ونظرياتهم . ويمكن قسمة هذه المدرسة الى قسمين : المدرسة الشرقية التي زهت في عاصمة الخلافة العباسية في اوائل العهد العباسي اي في القرن العاشر والحادي عشر. والثانية التي قامت في عهد الخلافة الاموية بالاندلس . وقد كان اهم اركان المدرسة الشرقية ابو اسحق الكندي (توفي سنة ٨٧٠ م ٢٥٧هـ) وابو نصر الفارابي (٩٥٠م ٣٣٩هـ) والشيخ الرئيس ابن سينا (١٠٣٧م ٤٢٩هـ) وجميعهم من القائلين بان الفلسفة يجب ان تبنى على العلوم الطبيعية وذلك بدرس الطبيعة نفسها ومراقبة أنظمتها ونواميسها . وهم يعتمدون قواعد المنطق في وضع آرائهم واحكامهم وهذا ما يعبر عنهُ ابناء العصر الحديث بالطريقة العلمية الحديثة وهي الرجوع في كافة

المذاهب والآراء العلمية والفلسفية الى نواميس الطبيعة واحكامها . الاَّ ان النظر العلمي عند زعماء هذه المدرسة يختلف كثيراً عن رأي أهل هذا العصر فهم يدخلون ضمن دائرة العلم الطبيعي ويخلطون بهِ، أبواباً وفنوناً غريبة ليست من العلم في شيء. كفنّ السحر والتنجيم وتفسير الاحلام وغير ذلك . وكانوا يعتبرون هذه جميعها أبواباً او فروعاً حقيقية من فروع العلم ولها من الشأن ما لغيرها من العلوم والفنون الطبيعية . وكانوا يعتقدون بوجود أرواح تطوف أنحاء الفضاء وتقطن النجوم ويزعمون ان من هذه الارواح الملائكة الوارد ذكرها في القرآن والتوراة

***

أما في ما يتعلق بخلق العالم ومادة الكون الاصلية فان الفارابي وابن سينا يعدّلان مراعاةً للتعاليم الدينية رأي اريسطو القائل بازلية المادة ويتخلصان من الوقوع في نظرية الخلق من العدم بقسمة الوجود الى قسمين واجب وممكن . فالواجب هو الكائن او الموجود الاول وهو ما يوافق الفارابي وابن سينا فيهِ رأي اريسطو بانهُ العقل الاول او الفعال أول وأهم الصادرات رأساً عن الذات الالهية العظمى . وهو أزلي أبدي وكل ما عداه فهو مسبب عنهُ متولد منهُ . أما كيفية نشوء العالم من مصدر وجوده فهي بطريقة الفيض او الانبعاث emanation theory ويذهب الفارابي الى ان المادة هي احد الاشياء المنبعثة او الصادرة عن الذات الالهية . أما ابن سينا فيقول بازلية المادة والعالم . ولكنَّ كليهما يعتقد ان الخلق معناهُ بروز الصورة في المادة او خروجها من حيز القوة الى حيز الفعل فكأن الباري جلَّ وعلا يضع في المادة قوة كامنة لها الاستعداد الكافي للظهور بالصور المختلفة عند حصول الظروف او الاسباب الملائمة لظهورها

ويذهب الفارابي وابن سينا — وهو مذهب اريسطو بعينهِ — الى ان العقل الاول او العام هو الذي يتحد بالعقل الانساني في الافراد فيتولد منهُ المعرفة والعلم . ويزعم الفارابي ان العقل المتولد في الفرد من هذا الاتحاد هو خالد أبدي وهذا يوازي القول بخلود النفس . أما ابن سينا فيذهب مع أريسطو الى أن الخالد انما هو العقل العام او عقل الانسانية فقط دون الافراد

وفي أواخر القرن الحادي عشر ظهر كتاب « تهافت الفلاسفة » للامام الاكبر الفيلسوف ابي حامد الغزالي فأفل بظهوره نجم الفلسفة في بلاد المشرق . ذلك ان الامام أبا حامد يحاول في كتابهِ «التهافت» نقض مذاهب الفلاسفة العرب كابن سينا والفارابي وغيرهما وذلك انتصاراً للدين ومراعاةً لحرمة التعاليم الدينية فجاء كتابهُ صدمة للفلسفة في ذلك العصر وكان من أثر ظهورهِ أن ثبّطت همم الفلاسفة العرب عن مباحث الفلسفة وقضى ارباب السلطة باحراق كتبهم

الفلسفية ولكن لم يتعرض الغزالي في ابحاثه لمسألة الخلق وخلود النفس وهو تخاص غير جدير باهل الفلسفة ورجال العلم

بيد انهُ لم تكد تغرب شمس الفلسفة العربية في عاصمة العباسيين حتى طلعت في سماء الغرب في تلك البقعة العربية الصغيرة في الاندلس، ولكن بلمعان ابهى وضياء اسطع اذ قام نخبة من اهل النبوغ الشرقي والذكاء العربي النادر فاقاموا معالم الفلسفة وبلغوا بها مبلغاً رفيعاً وذاعت شهرتها في الآفاق حتى غدا طلاب العلم يتوافدون بالالوف من مسلمين ونصارى ويهود الى قرطبة كعبة الفلسفة والعلم في ذلك الوقت لاستماع اقوال ابي الوليد ابن رشد وتلقي مبادىء الفلسفة ومذاهبها عنهُ . وقد كانت طريقة ابن رشد في التدريس من نوع القاء الخطب والمحاضرات في شتى الموضوعات الفلسفية والعلمية والادبية . ويعتقد الافرنج ان الذكاء العربي بلغ في ابن رشد اقصى مداهُ

***

كان ابو بكر محمد بن باجة يعتقد بخلود العقل العام دون الخاص وهو عقل الانسانية التي تبدو ماهيتهُ وآثاره في الافراد. وكان ينكر الصوفية (mysticism) والاعتقاد بالفناء او الاندغام في الذات الآلهية بواسطة التقشف والصلاة او الصيام والاستغراق (ecstasy) بل يقول ان هذا الاتحاد ممكن بواسطة ترقية قوانا العقلية ومواهبنا الروحية الى المراتب السامية التي يمكن ان يتم بها ذلك الاستغراق والاتحاد . وقد وافقهُ على ذلك ابو باصر ابن الطفيل في روايته الفلسفية المشهورة « حي بن يقظان » التي يمثل فيها كيفية نشوء القوى العقلية والروحية في فرد نشأ في جزيرة بعيدة منقطعة عن العمران وكيف توصل اخيراً بالارتقاء العقلي الطبيعي والرياضة الروحية الى الاندماج في الذات الآلهية وهو غاية مسعاهُ . وان من يطالع هذه القصة الفلسفية السامية يدرك ان الفلاسفة العرب لم يتركوا باباً من ابواب الفلسفة الطبيعية والعقلية لم يعالجوه ولم يغادروا موضوعاً لم يوفوهُ حقهُ من البحث والتفكير

أما الفيلسوف الكبير ابن رشد وهو الذي يعرفهُ الافرنج باسم Averroes فقد كان معجباً كل الاعجاب بالفيلسوف اليوناني اريسطاطاليس وكان يعتقد ان الذكاء البشري بلغ في هذا الفيلسوف أسمى مراتبه

كان قصارى هم ابن رشد شرح فلسفة اريسطو وتمثيلها تمثيلاً صحيحاً شافياً بما يقرب كل القرب من الاصل اليوناني فينفرد وحده بذلك الشرح والتفسير . ولكن من المحقق انهُ لم

يستطع انجاز مهمته هذه وذلك لسببين : الاول لان ابن رشد لم يدرس فلسفة اريسطو في كتبه الخاصة وبالاصل اليوناني لانهُ كان يجهل اللغة اليونانية بل في الكتب العربية التي ترجمها علماء النساطرة والسريان في الشرق والغرب وهؤلاء اخذوها نقلاً عن زعماء المذهب الافلاطوني الجديد ومن شروحهم لفلسفة اريسطو التي اصطبغت بين ايديهم بشيء كثير من نظرياتهم وآرائهم الخاصة . لهذا نرى في شرح ابن رشد وتعليقاته على فلسفة اريسطو مذاهب وآراء ليست منها كمسألة الفيض الالهي ومسألة عقل الانسانية العام وغيرها . والثاني لان ابن رشد كسائر فلاسفة القرون الوسطى كان لا بد لهُ في وضع آرائه الفلسفية من مراعاة جانب الدين خشية الرأي العام وسخط الرؤساء والحكام

***

ذهب ابن رشد في قضية الصورة والمادة الى ان الصور كائنة بالقوة في المادة نفسها غير مضافة اليها كما زعم الفارابي وابن سينا ويحصل ذلك بواسطة قوى او صور اسمى منها والتي اسماها العقل الالهي . لذلك فمسألة الخلق حسبما يعتقدها الجمهور لا تعقل ، ويقول ان هنالك عقلاً واحداً عامًّا هو عقل الانسانية وهذا العقل العام يفعل في العقول الخاصة في الافراد فيرشدها الى المعرفة. وهذا يعلله ابن رشد بهذه الكيفية : ان في نفوس الافراد استعداداً فطريًّا او قابلية للتأثر بهذه المؤثرات فاتحاد العقل العام بنفس قابلة التأثر ينجم عنه نفس فردية مستقلة . كما ان النور لا يصير شيئاً محسوساً الاَّ اذا صادف جسماً ماديًّا تنعكس عنه أشعته كذلك شأن النفس التي فيها استعداد للتأثر بمؤثرات العقل العام ثم انه بتوالي تأثير العقل العام في الخاص او عقل الفرد فان المعرفة الكامنة في الاخير تصير ظاهرة بارزة وتأخذ بالارتقاء تدريجيًّا الى ان تبلغ اسمى مراتب الشعور الذاتي او معرفة الذات وتصير اذ ذاك واحدة مع الروح الكلي وبعبارة اخرى تندمج او تدغم فيه وتصير جزءًا من العقل الكلي المشترك بين ابناء الانسانية . بهذا المعنى فقط يمكننا ان نقول ان الارواح خالدة لا ان النفس البشرية خالدة بذاتها كما يعتقد عموم البشر انما الخالد هو الروح الكلي فقط

***

واتهم ابن رشد في سنيه الاخيرة بنشر مبادىء وتعاليم تضاد عقائد الدين فأمر الخليفة المنصور بنفيه من ديوانه الاَّ انه عاد فعفا عنه لما عرف من سوء حاله في منفاه ولكن لم يعش ابن رشد بعد العفو عنه الاَّ سنة واحدة ثم توفي في عام ٥٩٥ للهجرة وله من العمر ٧٥ سنة

الذرة وبناؤها

الكهربائي

The Electrical Structure of the Atom

للدكتور اسماعيل احمد ادهم

— ١ —

يكاد يكون اتجاه علم الطبيعيات الحديثة في مبحث الذرة ان اللبنات الاساسية التي تبنى منها الذرة موجية ، وذلك من بعد ما نجح العالم الفرنسي « لويس دي بروي » Louis de Broglie والاستاذ « هيزنبرج » Heisenberg في وضع مبادىء الميكانيكا الموجية . فنحن نعلم أن نظرية « نيلز بوهر » Niels Bohr مع نظرية المقدار القديمة The Old Quantum Theory — كانت تستحكم في الاذهان حينما تقدم للملأ « لويس دي بروي » عام ١٩٢٣ م مقرراً ان الالكترونات وهي دقائق كهربائية مادية ذات شحنة سالبة تحمل ما يتبين فيه نبضاً موجياً ، وأن أشعة « اكس » X تظهر في شكل من الطاقة خاص بالذرة . غير ان ملاحظة « لويس دي بروي » لم تحظ بتأييد أحد غير العلامة « شرودنجر » Erwin Schrodinger — ولكن حدث ان نجح الاستاذ « دافسن » Davisson — وزميله « جرمر » Germer — في اثبات ان الكهيرب « الالكترون » وهو دقيقة مادية ، يخضع لقوانين التفرق الموجي . فنحن نعلم ان مرور موجة ضوئية في ثقب دقيق يسفر عما يعرف باشتباك الامواج وتفرقها — إذ بدلاً من ان تسير الموجات الضوئية في خطوط مستقيمة فان اجزاءها تشتبك — ومثل هذا يحدث اذا مرت في معدن متبلور او صفائح فلزية حيث تقوم دقائق المعدن او الفلز مقام الحائل دون الضوء المرئي . وقد نجح هذان العالمان في إمرار الكترونات من خلال صفائح فلزية من الذهب ومعادن متبلورة فكانت النتيجة التي انتهيا اليها ان الالكترون يتصرف تصرف الامواج ، اذ تشتبك اجزاؤه وتتداخل . ومن ذلك الحين احتلت الميكانيكيات الموجية مكانها اللائق في عالم الفكر العلمي الحديث

وقد استند « لويس دي بروي » الى ظاهرة تصرف الالكترون كموج وقرر انهُ عبارة عن موجة كهربائية تجمعت في حيز صغير ، ورغم ان فرضهُ كان يوافق النتائج التجريبية التي انتهى

اليها الاساتذة «دافسن» و«جرمر» و«طمسن الصغير» G. P. Thomson فان مبدأ «عدم الثبت» — uncertainty — الذي كشف عنهُ «هيزنبرج» كان يقف عقبة دون قبول هذا الرأي

فنحن نعلم من نظرية المقدار القديمة ان اطلاق المادة لفوتونات الطاقة تكون كاملة وكذلك امتصاصها لها ، وان عملية امتصاص الفوتونات واطلاقها تسير متقطعة غير متصلة ، وذلك يرجع لكون نظرية « ماكس پلانك » Max Planck قامت تستمد كل قوتها من التحولات الدورية periodic في الاهتزازات التي تعين خط شعاع الموجة ، معتبرة هذه التحولات ليست مستمرة بل وثبات متماثلة متساوية المسافة الفاصلة بينها ، كما ان الزمن الفاصل متساوٍ ، فتكون بناء على ذلك هذه التحولات الدورية راجعة الى وحدات ثابتة لا تنقسم اصطلح على تسميتها بثابت پلانك او H = هـ في الرمز الرياضي. فاذا اخذنا موضع النظر الحقيقة التي قررها جيمس كلارك ماكسويل James Clark Maxwell — في ان الامواج أيّاً كانت تتسع في دوائر باستمرار في جميع الجهات ، فكأن موجة ضوئية تصدر من احد السدم تصل الارض بعد سنين من صدورها ورؤيتها يحمل في «علم المقدار» على ان مقداراً Quantum اصاب العين ، مع ان المقدار المنطلق من احدى ذرات السدم يجب ان تتوزع طاقته على صدر قوس موجته ، حتى ان السنتيمتر من سطح الارض الواقع في دائرة شمول الموجة لا يصيبهُ الاّ جزء صغير جداً من المقدار وهذا يستلزم انقسامها وهي لا تنقسم وهذا خلف او تناقض — contradiction —

ولقد فرض « هيزنبرج » لحل هذا الاشكال ان الامواج لا تحمل اقداراً من الطاقة متساوية في صدرها ، انما تحمل احتمالات متساوية بوجود الطاقة متمركزة في إحدى النقط الواقعة على صدر الموجة . والمذكرة التي قدمها « هيزنبرج » في هذا الشأن خريف عام ١٩٢٥م تنطوي على هذا المبدأ الذي تستتر وراءه حقيقة من أهم حقائق الكون الخفية

وقد نجح العلماء من بعد « هيزنبرج » في اثبات هذه الحقيقة ، وقد كنت أنا من أوائل هذا النفر، فقد بيَّنت تجاريبنا بمعامل البحث الطبيعي في موسكو اننا لو اسقطنا حزمة من أمواج الحرارة على طبقة معدنية من المغنيسيوم، فبطبيعة الامر سيتطاير عدد من الكهارب، وعن طريق قياس السرعة لسقوط أمواج الحرارة وعدد الكهارب المتطايرة وعرض الموجة ، تمكّنا من حساب مسئلة تركز الطاقة في نقط معينة من صدر الموجة او توزعها ، وكانت نتيجة هذه التجارب أن الطاقة في أمواج الحرارة متجمعة في أجزاء على صدر الموجة وبذا تؤثر في الكهارب التي تصدمها

وإذاً يمكننا أن ننقح رأي « لويس دي بروي » وان نفرض مع الاستاذ « اروين شرودنجر » ان الكهربائية في الذرة ليست مركزة في نقط معينة من الذرة هي الكهيربات انما موزعة على السواء في محيط كرة الذرة . وتفسير هذا التوزيع بشكل أهم مسئلة في الطبيعيات الحديثة

— ٢ —

لقد كان أثر نظرية المقدار في تفكيرنا العلمي عن بناء الذرة كبيراً ، إذ لم نعد نعتبر سير الكهيرب في فلكه حول النواة مستمراً بل متوثباً ، ويكون بذلك شكل الذرة الخارجي متعدد الاضلاع نظراً لأن الكهيرب يرسم حدود الذرة وثباً في سيره من حول النواة ، وكذلك نقترب من التصور الذي وضعه للذرة « جلبرت نيوتون لوس » G. N. Lewis عام ١٩١٦ وهو الذي اعتبر أساساً لبناء الذرة المستقر

وهذا التفكير وضع حداً لذرة « بوهر » خصوصاً وانه كان يرى المسارعة في الذرة ، مسارعة الكهيرب ترجع الى قوانين النشاط الكهربائي Electrodynamic الكلاسيكية ، بينما اشعاعات الذرة للفوتونات ترجع الى قاعدة « ثابت بلانك » في «علم المقدار»

ومن المعلوم لنا عن طريق التجربة ان المسارعة أي التعجيل من جهة واطلاق الذرة للفوتونات من جهة أخرى يمكن ان يخضعا لقوانين النشاط الكهربائي الكلاسيكية ولكن . . . . ذلك إذا بلغت عدد المقادير — ثوابت بلانك — اللانهائية او قاربتها

هذا الى أنه من المتعذر على الباحث في الدقائق الذرية Sub-Atomic ان يعيّن مكان دقيقة ذرية وسرعتها في آن واحد ، فاذا عرف المكان تعذر على الباحث تعيين السرعة وإذا عرف السرعة تعذر عليه تعيين المكان ، وقد كان تأثير هذا المبدأ ، مبدأ عدم التثبت ، كبيراً لانه هدم ثقة العلماء بالجبرية determinism في علم الطبيعة

غير أن من المهم ان نلاحظ ان هذه الاستحالة أو عدم التثبت كان ينعكس في المقادير الكبيرة الى نوع من التثبت والحتمية ، وهذه الحقيقة بجانب أوليات حسابات الاحتمال مهدت السبيل للعلامة « اروين شرودنجر » ان يضع نظرية جديدة في « علم المقدار » تضافر معه على تحقيقها « ماكس بورن » Max Born و « جوردان » Jordan و « ديراك » Dirac وفي هذه النظرية الجديدة لم يعتبر « شرودنجر » الكهيرب دقيقة مادية ركزت فيها الشحنة الكهربائية . انما اعتبرها شحنة كهربائية موزعة على فلك الالكترون على السواء ، والتوزيع هنا معناه احتمالي محض . وقد اختلفت وجهات النظر في تفسير الاحتمال ، فهو عند « شرودنجر » ليس في ساحة فراغية انما في ساحة رياضية صرفة ، بينما هو عند «جوردان» و«ماكس بورن» قياس لا لكمّ واحد او عدد من الكميات وانما مظهر من قياس عدد لا متناه من الكميات الممكنة المنتظمة . أما « ديراك » فيرى التوزيع رمزاً symbol ولكن بدون أي امكان لتفسير عددي حيث يأخذ بالوجهة التي تربط سرعة الكهيرب بمقدار طاقة حركته

إن فكرة الاحتمال التي دخلت ساحة الطبيعيات الحديثة نبتت من الحقيقة التجريبية في انه

إذا بلغت عدد المقادير أعني ثوابت بلانك اللانهائية أو قاربتها فان مسارعة الكهيرب واطلاق الذرة للفوتونات يخضعان لقوانين النشاط الكهربائي الكلاسيكية. ومن المعلوم من حسابات الاحتمال ان إتساع الدائرة التي تخضع للاحتمال يؤدي الى تكيفات حتمية او في شبه الحتمية، وذلك راجع الى أنهُ في حالة اتساع الدائرة تتساوى نسبة مجيء الحادثات واطرادها في تتابعها . وبيان هذا:

لو افترضنا ان معنا قطعة من النقد . فهذه القطعة لها وجهان بطبيعتها ، واحتمال مجيء أحد هذين الوجهين معادل لاحتمال مجيء الوجه الآخر، فالحالات الممكنة اعني المحتملة هنا هي :

١،٢ : ٢،١

ويكون احتمال حالتين الحالتين بنسبة احداهما الى الاخرى :

$$ح_١ ـ ح_٢ = ١ ـ ح_١$$

باعتبار ان الوضع ١، ٢ = ح١ والوضع ٢ر١ = ح٢ فاذا تكررت هذه الاوضاع ن من المرات ، فالحالات الممكنة ثابتة في التعاقب ويكون وجه احتمال مجيء الوضع ح١ راجعاً للمعادلة : [ح١ — ح٢] ن التي تحدد من امكان الوضع الاول

وهنا التفاضل بين ح١ — ح٢ اصغر من الواحد ، فاذا كان مقدار ن بالغاً الحد الاعظم فان امكان الوضعين يقترب من التعادل حتى يساويه في اللانهائية

واستناداً الى هذه الفكرة الرياضية المحضة امكن تفسير مغمض انطلاق الفوتونات وتغير الذرة لموازنتها الكهربائية . فنحن نعرف في ان كهيرباً ينطلق من الذرة اذا بلغ عدد المقادير اللانهاية وذلك في صورة متجانسة مع المبادىء الكلاسيكية ، وانطلاق كهيرب او تغيره لفلكه يحدث اختلالاً في موازنة الذرة ، ويحدث في بناء الذرة رد فعل ينجم عنهُ موازنة جديدة لا تأتي الا بإطلاق مقادير من الطاقات تعرف بالفوتونات . واطلاق الذرة لهذه الفوتونات يرجع لحملها حالة طقس جديدة تقوم على عدد لا نهائي من المقادير . وهذه اللانهائية في عدد المقادير هي التي تعطي الاطراد في انطلاق الفوتونات بالنسبة لتغير الشحنات الكهربائية موازنتها في الذرة ، لانه في الوضع اللانهائي تتساوى جميع الحالات الممكنة واطراد انطلاق الفوتونات في تتابعها

ونفس النظر الاحتمالي فسر مفهوم مبدأ عدم التثبت ، لان هذا المبدأ في ابسط صوره لم يخرج عن استحالة تعيين دقيقة ذرية في مكانها وسرعتها في آن واحد ، فاذا امكن تعيين السرعة استحال تعيين المكان واذا امكن تعيين المكان استحال تعيين السرعة ، ولكن هذه الاستحالة وعدم التثبت سرعان ما ينعكسان كما قلنا في المقادير الكبيرة ، ولبيان هذا نقول :

ان قطعة النقد المؤلفة من وجهين ، وجه مرسوم عليه رسم الملك ووجه آخر عليه المبلغ ولنرمز الى الوجه الاول بالرمز ح١ ، وللوجه الثاني بالرمز ح٢ ، فان امكان تعيين أحد الوجهين

متعادل واحتمال بحيثه متساوٍ بحكم الطبيعة . فاذا رمينا قطعة النقد عدداً من المرات فمن المحتمل في هذه المرات ان يأتي كل وجه في دورة واحدة كما انهُ لا يستبعدان يأتي احد الوجهين عدداً من المرات ولا يظهر الوجه الآخر الأَ مرة واحدة .... ، ولكن هذا التخالف سرعان ما يتناقص مقداره ويأخذ في الاقتراب من الصفر إذا رمينا قطعة النقد ٥٠٠ ألف مرة . لانهُ في مثل هذه المرات الكثيرة ، يعطي اتساع المدى تساوياً لتتابع الاوجه الممكنة واطرادها وهي وجهان هنا فيأتي معنا الوجه الذي يحمل روسم الملك لـ ٢٥٠ ألف مرة وكذلك الوجه الآخر. ونفس هذا يحدث معنا في ساحة « علم الذرّة » وعلم « المقدار ». ولشرح هذا نقول :

إن المشاهد في عالم الذرة ان النتيجة التي يخلص بها الباحث من تعيين أوضاع لبناتها غير حتمي لانهُ النتيجة التي يخلص بها الراصد والباحث في زمن ووضع معين يخرج بغيره باحث آخر في غير «ذا الوقت والوضع» ولو جرت التجربة في عين الشرائط التي جرت وفقاً لها التجربة الاولى . ولو أجريت التجارب عدداً من المرات فعلى عدد هذه المرات تكون النتائج معنا ، غير أن هذا العدد إذا بلغ حدًّا كبيراً ، فسنجد ان النتائج الجزئية تعطي وجهاً عامًّا في احتمال لا نهائي ، وهذا الاحتمال يمكن الباحث من حساب النتيجة التي تأتي معهُ في وضع رياضي ولكن يحمل عنصر اللزوم والحتم في طياتهِ . وهذا نفس ما يحدث معنا إذا رمينا قطعة النقد مراراً فان النتائج تتباين في كل رمية ولكن هنالك في اتساع المدى تساوٍ في تتابع هذه النتائج واطرادها

هذه الاوليات تفسر لنا أوجه تفسير «التوزيع» عند كل من «شرودنجر» و « جرردان » و « ماكس بورن » و « ديراك » من وجهتيه الطبيعية والرياضية

— ٣ —

لقد انتهى « ديراك » بمباحث النظرية في تفسير التوزيع ، الى ان هذا التوزيع رمز ولكن بدون أي امكان لتفسير عددي آخذاً بالوجهة السلبية من المعادلة الاساسية لنظرية « المقدار » الجديدة . أعني بالوجهة التي تربط سرعة الكهرب بمقدار طاقة حركتهِ ، وكان نتيجة ذلك أن انتهى الى أن هنالك ضربين من الكهيربات موجبة وسالبة الشحنة الكهربائية ، والكهيربات ذات الشحنة السالبة من الكهربائية هي الالكترونات ، أما الموجبة فهي وراء تناول تجاربنا ، فكأنها والخلاء سيَّان

وامتحان نظرية « ديراك » من الوجهتين الرياضية والفيزيقية عن طريق دراسة تدفق الاشعاع المادي واستناداً الى معادلتي « كلاين » Klein و « نشينا » Nishina تنتهي بالباحث، كما انتهت بنا ، الى حقيقة فوزيقية مهمة : ان الطاقة السالبة والطاقة الموجبة التي ترتبط بدقيقة الكهيرب متساوية وان الاختلاف في دلالة الاشارة الجبرية على نوع الشحنة ، وهذا يؤدي حتماً

الى فرض كهيرب موجب الشحنة الكهربائية يقابل الكهيرب السالب الشحنة الكهربائية .
وهذا التنقيح في نظرية « دبراك » يتيح لنا النجاح حيث اخفق غيرنا ، مثل اوبنهيمر Oppenheimer
ومن المهم ان نقول ان « لويس ده بروي » يوافقنا على هذا التعديل

وقد كشفت المباحث الفيزيقية الاخيرة عن وجود دقيقة مادية ذات شحنة موجبة وتقابل الكهيرب اصطلح على تعريفها بالبوزيترون. وكان زميلنا العالم الروسي «سكوبلزن» Skobelzien اول من انتبه الى هذه الحقيقة اثناء تصويره مسارات الاشعة الكونية Cosmic Rays عن طريق ما تتركه من الاثر في المسار الذي تسلكه وذلك في خريف عام ١٩٢٩

وكانت تجارب الاساتذة «اندرسون» Anderson و«بلاكيت» Blackett « وأوشياليني» Occhialini في الذرة المتهيجة تحت تأثير الاشعة الكونية قد انتهت الى حقيقة تجريبية في ان كتلة هذه الذرات المتهيجة تحت تأثير الاشعة الكونية تعادل كتلتها في حالتها الاولى . وقد تبين خلال هذه التجارب ان هنالك خطوطاً مزدوجة احدها منحرف لليمين والآخر لليسار ، اعني ان احدهما موجب والثاني سالب ، وتبين من مباحثهم ان الخط الموجب هو صنو الكهيرب نظراً لان الخط السالب هو الالكترون نفسه . وان كتلة الدقيقة الموجبة معادلة لكتلة الدقيقة السالبة ، فكأن «البوزيترون » صنو الالكترون وليس البروتون هو الذي يصنوه

ونحن نعلم من نظرية « نيلز بوهر » العالم الدانمركي ان النواة في الذرة تعادل كتلتها كتلة الذرة وانها مكونة من بروتونات ، غير ان الميكانيكا الموجية وتجارب « دمبستر» A. J. Dempster ــ بينت ان البروتون لم يخرج عن كونه موجة كهربائية ولكنها ليست مركزة في قلب الذرة كما ارتأى « دي بروي » وانما موزعة توزيعاً رياضيًّا في كرة الذرة الداخلي

هذه الحقيقة التي تنسجم مع المبادىء النظرية في الفوزيقة الحديثة لها ما يسندها في عالم التجربة ، وقد كان لي عام ١٩٣٣ فكرة في ان كرة الذرة الداخلية متوزعة فيها الشحن الموجبة توزيعاً رياضيًّا ، وان هذه الشحن تتمركز في بعض النقط ، وهذه النقط هي الالكترونات الموجبة او «البوزيترونات» بحسب الاصطلاح الحديث

والآن ونحن في مستهل عام ١٩٣٨ يحمل انباء التجارب العلمية الحديثة ان البروفسور « سكوبلزن » قد نجح في ان يخلص بروتونات من تيار من البوزيترونات تحت ضغط عالٍ ، — فاذا صح هذا — فسيكون معنا في الذرة لبنتان اساسيتان — الالكترون والبوزيترون . وهكذا يتحقق معنا الفرض القديم الذي قلت به منذ خمس سنوات في مذكرتي الى معهد الطبيعيات الروسي وهي ان الذرة مكونة من موجتين — ذات شحنة موجبة وذات شحنة سالبة، وأن هاتين الموجتين في توزيعهما الرياضي في عالم الذرة يخلقان لنا ذلك الشيء الذي نصرف اليه اصطلاح « الذرة »

العلم واصلاح النسل

العلل الوراثية

الجسمية والعقلية

للدكتور شريف عسيران

لتحسين النسل طريقتان رئيسيتان سلبية وايجابية . ومعنى السلبية سلب الصفات الفاسدة او نزعها لتبقى الصفات الصالحة، والايجابية تشجيع الصفات الوراثية الجيدة وافساح المجال لتكاثرها وانتشارها بخلق جيل جيد الصفات سالم من العلل التي تحط من جودة النسل . وتشمل الاولى نزع الجنون والبله والصرع وغيرها من العلل التي ستمر بنا فيما بعد وتحسين المحيط واختيار الصالحين من ابناء الامة لتكثير نسلهم وتحديد النسل الفاسد وتحسين طرق الزواج والتعقيم والتطبيب وغير ذلك مما سيمر بنا بالتفصيل . وقد لخص جننز الطرق السلبية بما يلي (١) طرق العلاج كمعالجة البله الناشيء عن علة في الغدد الصم والمصابين بالكساح باعطائهم الفيتامين وما اشبه (٢) اصلاح العائلة باقصاء المصابين بعاهات وراثية من ابنائها بمنعهم عن الزواج او اختلاط تلك العائلة باخرى اصلح منها وراثة ومنع تزاوج افرادها بعضهم من بعض وغير ذلك (٣) اصلاح السلالة بنزع العوامل الوراثية الرديئة [١] منها . وسنتناول الطرق السلبية بالبحث اولاً لانها عملية اكثر من الايجابية ولان مشكلاتها اوسع نطاقاً . واكثر مشكلاتنا الاجتماعية متعلقة بالناحية السلبية . واذا كان موضوع اصلاح النسل لا يزال يعد نظرياً من الناحية العملية فبالاحرى ان ينطبق هذا الوصف على الناحية الايجابية من طرق تحسين النسل لانها نظرية صرفة

﴿ اصلاح النسل والوراثة ﴾ من الحقائق الاساسية ان من لا يعرف بسائط الوراثة لا يستطيع فهم اصلاح النسل فهماً صحيحاً لانهُ النتيجة العملية للوراثة . وقد بحثنا في اعداد المقتطف السابقة بحثاً مستفيضاً في اهم موضوعات الوراثة [٢] . وسنلخص هنا في عبارات موجزة اهم حقائق الوراثة ليستعين بها القارىء الكريم على فهم اصلاح النسل : تنتقل الصفات الوراثية بطريقتين رئيسيتين الاولى طريقة مندل بنسبة ٣ غالب الى واحد كامن والصفة المتغلبة هي الاحسن

---

(١) Jennings : p. 228 (٢) راجع مجلدات المقتطف ٨٠و٨١و٨٢و٨٣

بالاجمال ولكن قد تنعكس الحقيقة. ينال الولد نصف وراثته من الاب ونصفاً من الام فاذا اتحدت عوامل الاب الصالحة بصنوها من عوامل الام جاء النسل صالحاً والعكس بالعكس. فاتحاد نوع من العوامل باخرى مثلها يخرج افلاطون او المعري او نيوتن او اينشتين واتحاد غيرها يوجد الجانين والحمق والبله وضعاف العقول. اما أيُّ نوع يتحد بالآخر فيتوقف على المصادفات. فاذا اتحد الفاسد بالجيد فالاخير يغطي العيب ولكنهُ يبقى كامناً في النسل فقد يخرج من الصالح طالحٌ ومن الطالح صالحٌ ولكن الارجح ان نسل الصالح اكثر انتاجاً للصالحين والعكس بالعكس. والطريقة الثانية للوراثة هي الاتصال الشقي او الجنسي فتنتقل صفات الاب الى الاناث وصفات الام الى الذكور بواسطة العامل الوراثي الشقي كنزف الدم الوراثي (هيموفيليا) وعمى اللون وغير ذلك. وقد بينا علاقة الوراثة بالمحيط فبعضها لا تظهر الا في محيط خاص فالمحيط والوراثة مقترنان و تأثير الوراثة يرجح فعل المحيط. اما الصفات المكتسبة فلا أثر لها في تكوين الفرد

يهول المرء ان يعرف مبلغ انتشار الامراض الوراثية في جميع الامم تحط من جودتها وتفسد نسلها. والامم التي تهتم باصلاح نسلها تضع الاحصاءات المضبوطة التي ترشدها الى الحقائق وتساعدها في مكافحة مشاكلها الاجتماعية على ضوء العلم الصحيح. ولا نستطيع ان نستوعب جميع العلل الوراثية في مقالنا هذا لان الاحاطة بهذا الموضوع تحتاج الى كتاب خاص. وسنذكر نماذج اهمها لتكون مرشداً لنا في بحثنا وتجعلنا نقدر العلل الوراثية المنتشرة في الامم وخطرها العظيم

﴿ العين ﴾ ان في عضو صغير كالعين مئات من العيوب الوراثية كالعمى الناشىء عن ضمور عصب العين والماء الازرق Cataract والسوداء glaucoma [١] والعشو (عدم النظر ليلاً) وعمى اللون. وقد احصى الدكتور لوسين هو Lucien Howe احد الاخصائيين الاميركيين بامراض العيون ما يربي على الثلاثمائة عيب من العيوب الوراثية [٢]. وتتبع كارل بيرسون Karl Pearson وغيره ارومة سبعمائة اسرة اتضح له منها ان فقدان لون العين وراثي واكثر العيوب البصرية كقصر النظر وطوله وراثية. ومع ان أكثر الكتب الطبية يعزو حسر النظر Myopia الى كثرة القراءة والتحديق الكثير واجهاد النظر وغير ذلك فقد ثبت مؤخراً ان سببهُ استعداد وراثي لانهُ يصيب الاشخاص الذين لا يتعرضون للعوامل المذكورة ولا يصيب غيرهم ممن يتعرضون لها. وهو وراثي بصورة كامنة اي بنسبة ١ : ٣ ويظهر ايضاً كصفة متنقلة [٣] دع عنك كثيراً من العيوب البصرية التي لا يتسع المجال لذكرها

(١) المقتطف: في معجم شرف استعمل «الماء الازرق (مصر)» لـ glaucoma

(٢) The Eugenic Predicament p. 14

(٣) Human Heredity, Bauer, Fisher, and Lenz 931, p. 230-31 الوراثة البشرية

﴿ عيوب السمع ﴾ ان عيوب السمع الوراثية كثيرة العدد وقد نشر بل مخترع التلفون رسالة في سنة ١٨٨٤ بيّن فيها ان الصمم وراثة في بعض الاسر الاميركية واثبت غيره ان الصم البكم ينحدرون من اسر مصابة بهذا المرض ويقدر عدد الصم البكم في المانيا بخمسين الفاً منشأ العلة في اكثر من ربعهم الوراثة [١]

﴿ الامراض الجلدية ﴾ وثمة كثير من العلل الجلدية الوراثية كالبهق والنمش والتقرّن Keratosi والصلع وغيرها

﴿ العيوب الخلقية ﴾ كثيرة منها العنش Polydactylism [٢] والاصابع المحبوكة كالبط Sydactylism فيتصل اصبعان (او اكثر) ويبقيان غير منفصلين والكزم brachydactylism [٣] والصَّدَف [٤] Knock Knee والفَحَج [٥] Bowleg والقَفَد [٦] Flat foot والطفالة Infantilism والحدب Kypfosis وكثير غيرها

﴿ الاستعداد للامراض ﴾ اما الامراض التي يرث فيها المرء استعداداً فكثيرة منها التهاب الغدد والكساح ونزف الدم الوراثي (هيموفيليا) وتصلب الشرايين والبول السكري وداء النقرس والتأثر بالمواد الغذائية والادوية والروائح المختلفة فبعض الناس يتأثر بأكل البيض او الجبن وغيرهم يتأثر بالكينا او غيرها ويصاب آخرون بنوبات ربو حينما يشمون رائحة زبل او غيرها . والبرقان المزمن وبعض أمراض القلب ورائحة الانف الكريهة المعروفة (بالاوزينا) والاستعداد للسل الرئوي والعظمي والسرطان ومئات غيرها تدخل تحت هذا الموضوع

﴿ الامراض العصبية ﴾ ان الامراض العصبية هي بيت القصيد في بحثنا ولهذا سنتوسع قليلاً في البحث فيها لانها تؤثر في عقول المصابين وانتاج الامة الثقافي . ولا نستطيع ان نتصور عدد المجانين والبله وضعاف العقول والصُّرع الذين هم عالة على الامة يحطون من جودتها ويكلفونها النفقات الباهظة ويقللون انتاجها المادي والثقافي ويثقلون كاهل دافع الضريبة فيها . والامراض العقلية ضروب كثيرة وهي درجات من اختلال بسيط الى أعلى مراتب الجنون . وقلما ترى امرءاً خالياً من الاضطرابات العقلية . فالغضب الشديد والانفعال الذي يحمل المرء ان يأتي باعمال يأباها العقل السليم كالقتل والتخريب والتسفل بالافعال والاقوال وأمثالها ، جميعها ضروب من

(١) Human Heredity p. 262 (٢) الاعنش من له ست أصابع . المقتطف : الزمع : في معجم شرف . والازمع في محيط المحيط ي زائد الاصابع (٣) قصر الاصابع (٤) اقبال احدى الركبتين على الاخرى (٥) تداني صدور قدميه وتباعد عقبيه فهو أفحج (٦) الاقفد من يمشي على صدور قدميه ولا تبلغ عقباه الارض

الاضطرابات العقلية الوراثية . وشتان بين من يتلقى الحوادث برباطة جأش وعقل رزين ، ومن يتأثر بأتفه الامور فيفقد توازنه ويضيع صوابه

يقدر عدد المصابين بالامراض العقلية الذين يدخلون مستشفيات الولايات المتحدة سنوياً بثلاثين الفاً . وقد ظهر من الاحصاءات ان عدد الذين أصيبوا في الماضي والمصابين حالاً والذين يصابون في المستقبل من هذا النوع اي الذين يدخلون المستشفيات المخصصة لهذه الامراض يبلغ مقدار خمسة بالمائة من مجموع السكان . فاذا أضفنا اليهم عدد الذين لم يدخلوا المستشفيات الخاصة بهذه الامراض يبلغ معدل المصابين ما يقرب من عشرة بالمائة من مجموع السكان(١)

وقد أيدت احصاءات كثيرين من الباحثين ان الجنون وراثي في الأسر ينتقل انتقال القامة ولون الشعر والعين وغيرها من الصفات الجسدية. ومن رأي بيرسن اننا اذا تتبعنا اصابات الجنون تتبعاً كاملاً لم نكن مغالين اذا قلنا ان اربعين بالمائة منها تأتي من آباء كانوا مصابين بهذه العلة (٢)

وتقدَّر النفقات التي تتكبدها مستشفيات الولايات المتحدة سنوياً في معالجة المصابين بهذه الامراض بثلاثة أرباع بليون دولار . فرض واحد منها وهو الخرَف قبل الاوان (Dementia Praecox) يكلف مليون دولار يومياً(٣)

ومن رأي بعض الثقاة الذين يعوَّل على آرائهم ان خرَف الشيخوخة ووهن القوى العقلية اللذين نعدهما من المظاهر الطبيعية وراثيان لأنهما يصيبان بعض الناس ويعفان عن آخرين ويظهران باكراً في فئة ويتأخران في غيرها ويكونان شديدين في البعض وخفيفين في آخرين(٤)

ولا يجب ان يتبادر الى الذهن ان الوراثة هي السبب الوحيد في الامراض العصبية . بل هناك عوامل اخرى كالحلق (الزهري) والكحول وغيرهما مما لا مجال لتعداده ولكن الوراثة من العوامل المهمة وقد حصرنا بحثنا فيما يتعلق بموضوعنا فقط

﴿الصرْع﴾ ان للصرع اسباباً كثيرة منها أذى يصيب الدماغ من جرَّاء لطمة او ضغط او كسر وداء الزهري وغير ذلك . ويؤكد الاخصائيون ان بعض هذا الداء ناشئ عن استعداد وراثي. وأغلب الصُّرْع معرضون لانواع الاختلال العقلي ، ونحو عشرة بالمائة من الصرْع متولدون من آباء كانوا مصابين بهذا المرض وعشرة بالمائة من اولادهم مصابون به(٥) وبصرف النظر عن الوراثة فالمصابون بهذا الداء غير صالحين ان يكونوا آباء وامهات لاولاد أسوياء الخلق

(١) Applied Eugenics p. 123. (٢) The Eugenic Predicament
(٣) Applied Eugenics p. 124 (٤) Human Heredity p. 438 (٥) Human Heredity 441

﴿ النقص العقلي ﴾ (Mental defficiency) ان هذا الداء من اكثر الادواء انتشاراً ومدى انتشاره أكثر من مدى انتشار كل مرض عقلي . وستهولنا كثرة انتشاره وهو يهم الآباء والمربين والنفسيين (Psyhcologists) وأساتذة المدارس والسلطات الصحية لانهُ من المشكلات المهمة في حياة الامم . ولهذا سندخل في تفصيلاته بعض التفصيل

يجب ان نميز بين النقص العقلي والتأخر العقلي . فالثاني عارض يتولد من حادث جسدي او عقلي او محيطي كلطمة على الرأس او كسر او ضغط حين الولادة . ويتولد أيضاً من مرض الزهري الخَلْقي وفقر الدم وعدوى الطفيليات وامراض القلب والكلى والتهاب اللوزتين والحميات واجهاد العين والسل والكساح وغيرهما . ومتى زال السبب عاد العقل الى حالته الطبيعية . أما النقص العقلي الصحيح فلا يزول وهو درجات مرتبة بحسب شدته وضعفه . واليك درجاته :—

الاحمق : (Idiot) وهو شخص ضعيف العقل لا يستطيع وقاية نفسه من الاخطار ولا القيام بحاجاته الجسدية وذكاؤه لا يتجاوز ذكاء ولد عمره ثلاث سنوات وحاصل ذكائه أقل من ٢٥

الاخرق : (Imbecile) هو غالباً من يمكن تدريبه على قضاء حاجاته الجسدية واعمال يدوية في منتهى البساطة ولا يمكن ان نجعله يعتمد على نفسه وعمره العقلي بين ٣—٧ سنوات وحاصل ذكائه يتباين من ٢٥—٤٩

الابله : (Moron) : هو من يمكن بالتدريب والعناية ان يعتمد على نفسه بعض الاعتماد ولكنهُ لن يستطيع ان يجاري رفقاءهُ العاديين وعمره العقلي لا يتجاوز عشر سنوات وحاصل ذكائه ٧٤ [1]

وقد توصل العلماء الى ترتيب هذه الدرجات اي درجات نقص العقل بواسطة امتحان الذكاء الذي يجدر بنا ان نذكر شيئاً عن اهميته وصلاحه

﴿ امتحان الذكاء ﴾ Intelligence Test هو واسطة لتمييز ذكاء الانسان والحيوان ويعلق به بعض العلماء شأناً كبيراً في الحياة الاجتماعية فمن الضروري ان نعرف مثلاً هل تأخر الولد ناشئ من عدم قابليته الطبيعية او من فساد طريقة التعليم او ضعف رغبته او غير ذلك [2]

---

(١) Osler, Modern Medicine vol. VI p. 918 وجاء في تاج العروس : احمق قليل العقل وحقيقة الحمق وضع الشيء في غير موضعه مع العلم بقبحه والمعري يقول

اذا كان لا يحظى برزقك عاقل وترزق مجنوناً وترزق احمقا (الى آخر الابيات)

مما يدل على ان الحمق يأتي بعد الجنون . وجاء في الافصاح في فقه اللغة . الاخرق فوق الابله والابله الذي به ادنى حمق (الافصاح ص ٨٨) . فالتعاريف العلمية واللغوية تتفق مع ما ذكرناه من عربية هذه الالفاظ

(٢) قياس الذكاء The Measuremant of Intelligence by Lewis Terman p. 5

ولا ينكر باحث مبلغ تأثير النقص العقلي في احداث الرذيلة والجناية والانحطاط [١] . وقوام امتحان الذكاء اسئلة للاجابة عنها او ايعازات للعمل بموجبها . والمقياس المعول عليه هو مقياس بينه سيمون (Binet and Simon) وهما عالمان فرنسيان من علماء النفس لهما الفضل الاول في هذا الموضوع وخير من شرحه ونقحهُ الاخصائي الاميركي الشهير الاستاذ لويس تيرمان (Lewis Terman) استاذ علم النفس في جامعة ليلاند ستانفورد بكاليفورنيا وقد لخصنا عنهُ

يتكون مقياس « بينه » من مجموعة امتحانات مفرغة في اسئلة تتطلب الإجابة عنها إعمال موهبة الذكاء هي أربع وخمسون امتحاناً متدرجة في صعوبتها ويتمكن ولد سوي [٢] (normal) في الثالثة من العمر من الاجابة عن اسهلها . ويتطلب اصعبها اجهاد ذكاء معدل الشخص البالغ . والقصد الاول من الاسئلة امتحان الذكاء الطبيعي لا العلم المدرسي ولا التمرين البيتي والتمكن من معرفة درجة ذكاء الولد لان ما يتعلمه ينوّرنا في معرفة قابليته لزيادة التعلم . وقد ادرك « بينه » تمام الادراك ان الذكاء غير موحد الجهة بل له نواح متعدّدة ولا يمكن ان يجلي حقيقته نوع واحد من الامتحانات . وعليه وضع اسئلة مختلفة الانواع ففيها ما يميز فروق قوة الذاكرة والعقل (reaso) والمقابلة والفهم وتقدير الوقت والسهولة في تقدير قيم الاعداد والتمكن من استنباط معنى كامل لمختلف الافكار ونضوج قوة التقدير وغنى الافكار ومعرفة الاشياء العادية وغير ذلك

﴿ كيفية استنباط المقياس ﴾ رتبت الامتحانات بحسب درجة صعوبتها بعد ان جربت على ٢٠٠ ولد اسوياء (جمع سَوِيّ أي الولد الطبيعي لا المتفوق ولا المنحط) من مختلف الاعمار بين سن ٣ — ٥ فوجد « بينه » مثلاً انهُ لم يجز امتحانين من الامتحانات سوى عدد يسير من صغار الاولاد ولنقل ممن هم في الخامسة من العمر . ثم اخذ يزداد عدد الذين جازوا هذا الامتحان بتتابع السنين الى ان نجح جميع الاولاد تقريباً بين سن ٧ — ٨ . فلو نجح ٢/٣ — ٣/٤ الاولاد الاسوياء الذين بلغوا السابعة من العمر في الامتحان الذي ذكرنا لحسب « بينه » هذا الامتحان امتحان ذكاء ولد عمره سبع سنوات . والامتحان الذي يجوزه ٦٥ — ٧٥ ممن هم في التاسعة من العمر امتحان ذكاء ولدٍ عمرهُ تسع سنوات وهلم جرًّا . وبعد ان جرب عدة امتحانات بهذه الطريقة استخلص خمسة اسئلة لكل امتحان تمثل كل دور من ادوار العمر من سن ٣ — ١٠ (ما عدا السنة الرابعة التي جعل لها اربعة اسئلة فقط) ووضع خمسة اسئلة لسن ١٢ وخمسة لسن ١٥ ومثلها للبالغين حتى بلغت الاسئلة اربعة وخمسين ونذكر بعض هذه الاسئلة على سبيل التمثيل :

(١) Terman p 9.

(٢) السوي : غلام سوي لا عيب فيه ولا داء ج اسوياء

﴿السن الثالثة﴾ (١) يدل الولد على انفه او عينه او فمه (٢) يردد عددين (٣) يعد الاشياء التي يراها في الصورة (٤) يذكر اسم اسرته (٥) يردد جملة ذات سبع مقاطع

﴿السن الخامسة عشر﴾ يرد سبعة اعداد (٢) يذكر ثلاث سجعات (rhymes) لكلمة من الكلمات (٣) يردد جملة ذات ٢٦ مقطعاً (٤) يفسر صورة من الصور (٥) يشرح بعض الحقائق المعطاة له

ويتمكن العلماء بوساطة هذه الامتحانات من تفريق درجات الذكاء من اعلاها الى ادناها. ويعبرون عن العمر الذي يجتاز فيه الفرد هذا الامتحان بالعمر العقلي (ع. ع) فعندما نعرف عمر الشخص العقلي نتمكن من تعيين درجة ذكائه . وحاصل الذكاء هو العمر العقلي مقسوماً على العمر الزمني (ع.ز) مضروباً في مائة :

(ع. ع ÷ ع . ز) × ١٠٠ = حاصل الذكاء

فلنفرض ان عمر ابنك ١٠ سنوات وعمره العقلي ٧ سنوات فقط فيكون حاصل ذكائه (٧ ÷ ١٠) × ١٠٠ = ٧٠ اي بدرجة اخرق (moron) . ولنفرض ان عمر شخص آخر العقلي ١٧ والزمني ١٠ فيكون حاصل ذكاءه : (١٧ ÷ ١٠) × ١٠٠ = ١٧٠ اي عبقري واذا كان حاصل الذكاء دون العشرين كان الشخص احمق ودون الستين ابله الخ .[١] ومعدل درجة الذكاء مائة فما فوقها يكون فوق المعدل وما دونها دونه ولا يقيسون الذكاء بعد سن ١٥—١٦ اذ يعتقد اكثر العلماء ان المواهب العقلية لا تنمو بعد هذا السن وانما تنمو قوة الحكم (Judgement) لا موهبة الذكاء ولا المعرفة الحسية [٢]

وقد انتقد بعض العلماء هذه الامتحانات بأنها لا تميز الذكاء الفطري من المصطنع المتولد من التعليم والتدريب وان اللغة والمحيط عاملان في تباعد الشقة بين المُمْتَحنين وان المُمْتَحن يتعودها ، وأكثرها يتطلب مجرد معلومات ولا تدل على ذكاء المرء الفطري . ثم يتوقف الامتحان على اختبارات الشخص وإلمامه بالمواد الممتحن بها وغير ذلك [٣]

ورغماً عما يوجَّه الى هذه الامتحانات من الانتقاد والاعتراض فانها أفضل طريقة معروفة حتى الآن للوصول الى نتائج تقريبية في تفريق درجات الذكاء. وقد نقح تيرمان هذه التجارب ووسعها واستنبط مقاييس للسن المعين تماماً فاذا كان الولد في الخامسة من عمره قاس هذا السن فقط . وهكذا اذا كان في السادسة والسابعة . وجعل الاسئلة ستة عوضاً عن خمسة لكل امتحان

---

(١) Scientific American, Jan. 1937, p. 18 "Ourselves and the Feeble-minded" by Estabrook (٢) Scientific American, Jan. 1937, p. 18 (٣) Science of Life p. 1332

لكل شهرين سؤال فيبلغ مجموعها ٩٠ ويقيس الذكاء من السنتين الاولين لا من السنوات الثلاث الاول كما كان سابقاً

وقد نقح تيرمان ومريل (Merril) هذه الاسئلة في الطبعة الجديدة لسنة ١٩٣٧ فجعلا الامتحانات ١٢٩ . وقد تطورت هذه الامتحانات تطوراً عظيماً في العهد الاخير فصارت تشمل شهور الحياة الاولى الى سن البلوغ وتجاوزت ما بعد هذا السن ولم تعد الامتحانات تقتصر على قياس الذكاء وتفريق الحمقى وضعاف العقول بل تناولت شخصية المرء هل هي سوية أو غير سوية فيدرس العلماء قوة إرادة المرء وثباته وضميره وغيرها من المميزات. وبالاختصار يحاول معرفة نوع شخصيته

نقتصر على هذا القدر من الموضوع لانه ليس من اختصاصنا ومن شاء أن يتعرف على المذاهب الجديدة فليراجع كتاب بهلر : امتحان نشوء الاولاد منذ ولادتهم حتى السن المدرسي[١]

﴿ الاحصاءات ﴾ لنستنطق الآن الاحصاءات عن عدد ناقصي العقول عند مختلف الامم. يستدل من تقرير طبيب مدارس لندن لسنة (١٩١٤—٣٠) ان ناقصي العقل فيها موزَّعون كما يلي:

حمقى ١٧ر١ بالمائة . بُلُه ٧٨ر١٣ وضعاف العقل ١٥ر٨٥ وتقرب هذه النسبة مما توصلت اليه لجنة استقصاء النقص العقلي في مدن انكلترا وهي حمقى ٦ر٣ بالمائة خُرق ٦ر١٦ بالمائة وضعاف العقول ٣ر٨٠ بالمائة[٢]. ويظهر من تقرير لجنة البحث عن النقص العقلي في ادارة المعارف البريطانية ان ناقصي العقل زادوا في انكلترا خلال سنة ١٩٠٦ —١٩٢٧ مائة بالمائة بينما لم يزدد عدد السكان سوى ١٤ بالمائة . وفي سكان انكلترا الحاليين عشرة آلاف لكل مليون مصابون بالنقص العقلي[٣]

بلغ عدد ناقصي العقل والصرع في مؤسسات الولايات المتحدة في أول يناير سنة ١٩٢٩ فقط ٦٤٢٥٣ من مجموع ١٢٠ مليوناً . وهذا الاحصاء لا يبين الحقيقة لانه لا يشمل الاَّ الذين هم تحت رعاية المؤسسات الخاصة بهذه الامراض فاذا اضفنا اليهم الخارجين عن هذا النطاق ارتفعت النسبة كثيراً .[٤] وقد قدر مؤتمر البيت الابيض لسنة ١٩٣٠ أن نسبة ناقصي العقل في الولايات المتحدة ١٥ بالمائة من مجموع السكان (أي ما يقرب من العشرين مليوناً) وتبين من امتحان ذكاء ما يزيد على المليونين من جنود أميركا اثناء الحرب العامة أن حاصل ذكاء ٢ر٦ منهم دون السنين

---

(١) Testing Children Devlopment from Birth to School Age, by Charlotte Buehler translated to English by Henry Beaumont.

(٢) The Eugenic Predicament p. 37 (٣) The Science of Life p. 1468

(٤) The Eugenic Predicament p. 151

ومع أنهُ لم يثبت أن الجرائم وراثية فالارجح ان مثل هؤلاء ذوو امزجة عصبية ضعيفة تسيطر على إرادتهم وتدفع بهم الى ظلمات السجون وتجعلهم عالة على الامة . ويمكننا أن نعد المتسولين من هذه الطبقة غير المرغوب فيها

روى تيرمان عدة شواهد عن بعض الأُسر الاميركية المشهورة بالنقص العقلي وتأثير ذلك في النسل ومن ابرزها اسرة « كاليكاك » . وهذه قصتها : كان مارتن كاليكاك (Martin Kallikak) شابًا جنديًا في الثورة الاميركية فاتفق أن التقى في الحانة التي كان يرتادها الجنود بفتاة ضعيفة العقل فتزوجها فولدت منهُ صبيًا ضعيف العقل وبلغ صلب هذا القران الموقت سنة ١٩١٢ (٤٨٠) منهم ٣٦ غير شرعيين و٣٣ فاسقاً و٢٤ مدمناً للخمر وثمانية تجار اعراض و١٤٣ ضعاف العقول والباقي مشكوك في صحة عقولهم . وعقب رجوعهِ من ميدان الحرب بسنوات قليلة تزوج فتاة من عائلة عريقة النسب فأثمر هذا القران ٦٩٦ فرداً ليس فيهم لقطاء ولا مومسات ولا مجرمون ولا متاجرون بالاعراض ووجد بينهم فاسق واحد ومدمنان ولم يظهر فيهم اي نقص في العقل بل نشأ منهم اطباء ومحامون وقضاة ومربون وتجار وملاك[1]

قال جننغز ان ضعف العقل منتشر في ثلث من واحد في المائة من الامة . فالامة التي عددها مائة مليون يبلغ ضعاف العقل فيها ٣٣٠،٠٠٠ وهذا العدد يشمل الذين يكون هذا النقص بارزاً فيهم . واذا تذكرنا ان الصفة الوراثية لا تظهر الأ اذا كانت في زوجي الاب والام فاذا كانت في زوج واحد وكان الآخر سليماً فالسليم يغطي المعيب فيكون النقص المستتر هاثلاً فنجد في الامة نحو ٩٠٠٠٠٠٠٠ يحملون هذا العيب ولا بد من ظهوره يوماً من الايام[2]

ولا تقتصر الامراض الوراثية على التي ذكرناها بل هناك امراض كثيرة يرث المرء فيها استعداداً لقبولها كالسرطان وتضخم الغدة الدرقية وغيرها . ومن رأي دافنبورت D. Davenport مدير معهد كارنيجي التناسلي ان المناعة ضد الامراض والاستعداد لقبولها وراثيان فحين ما ينتشر وباء من الاوبئة كالتيفوئيد مثلاً يصاب بهِ البعض وينجو آخرون بسبب مناعتهم فالذين يتعرضون للعدوى ولا يصابون تكون فيهم مناعة موروثة[3]

***

نقتصر على هذا القدر من العلل الوراثية وسنذكر غيرها حينما نتطرق الى بحث التعقيم

(١) The Measurement of Intelligence, Lewis M. Terman p. 10

(٢) The Biological Basis of Human Nature, Jennings p. 241

(٣) Scientific American Oct. 1933 p. 162 The Inheritance of Diseases

معركة الكلام

أو التنافس الدولي

في الاذاعة اللاسلكية

— ١ —

لما مرض الملك جورج الخامس من بضع سنوات ، وهو المرض الذي سبق مرض وفاته ، كانت الاذاعة التي يذيعها اطباؤه كل ليلة عن حالته الصحية ، تطرق اسماع عشرات الملايين من الناس في مختلف انحاء المعمورة . فتنشئ روح العطف على الملك الكريم وهو يغالب الموت. ويعتقد المستر ستيفن دجان مدير المعهد الدولي للتربية، ان اعراب اقطاب الحياة العامة في اميركا ، سواء أقطاب الحكومة كانوا ام اقطاب الصحافة والمعاهد العامة ، عن عطفهم على الملك واسرته وشعبه ، خفّفت من حدّة الشعور السياسي، الناشيء عن اختلاف الحكومتين الاميركية والانكليزية في بعض المشكلات السياسية والاقتصادية . وفي هذا دليل على ما تستطيعه الاذاعة اللاسلكية ، من بث شعور التعاطف والفهم وتأثيرها في العلاقات الدولية

يقابل هذا ان الجانب الاول من سنة ١٩٣٤ كان حافلاً ، في أوربا الوسطى ، باذاعات لاسلكية ، صادرة من محطة في جنوب المانيا وموجهة الى الشعب النمسوي ، منطوية على التحريض على الحكومة النمسوية . وكان من نتائج هذا الضرب من الاذاعة ان حدثت حوادث النمسا المشهورة في يوليو سنة ١٩٣٤ التي أغتيل فيها المستشار دولفوس ووقفت أوربا الوسطى أياماً بعيد اغتياله وهي على شفا جرف هار — شفا الحرب الاوربية . وفي هذه الحادثة دليل على ما قد يكون للاذاعة اللاسلكية من أثر في احداث الجفاء والقطيعة في صلات الدول بعضها ببعض

كان الاصل في الاذاعة اللاسلكية ، ان تكون وسيلة من وسائل التسلية ، باذاعة الموسيقى على اختلاف ضروبها ومراتبها ، والاحاديث الفكهة والروايات القصيرة ثم ضمّ اليها استعمالها للتثقيف العام ، باذاعة أحاديث الكتّاب والعلماء ، فيصغي كلُّ من شاء الى أحدث مبتدعات العلماء وآراء المفكرين

ولكن الاذاعة اللاسلكية كالصحافة ، هذه للعين وتلك للاذن ، في وسعها ان تنمي روح المودة والتفاهم بين الأمم وفي وسعها أيضاً ان توسع شقة الخلف وتبذر بذور الشقاق . والتبعة الواقعة على محطات الاذاعة اللاسلكية أعظم من تلك الواقعة على الصحافة . ذلك ان جمع الانباء الصحفية وتمحيصها وجمعها وطبعها وتوزيعها ، يستغرق وقتاً ، والوقت يفسح المجال لسكون العواطف الثائرة بعض السكون ، وتحكيم العقل بعض التحكيم . ولكن ليس بين المذيع وسماعيه حاجز ما ، فالمسافة بين المذيع والسامع ، كائناً بُعدها ما كان ، تجتازها الامواج اللاسلكية بسرعة الضوء اي في جزء من الثانية . فشعور الحقد والبغض الذي يثيره المذيع بما يقول ، قد يفضي الى نتائج خطيرة لساعته بل لدقيقته . ثم إن البلدان الدمقراطية فيها ، صحف متباينة الرأي ، مختلفة النظر ، وتباينها هذا يحمل على المقابلة والتريث والتأني ، ويعصم من التعجل والاندفاع . أما الاذاعات اللاسلكية ، فمحصورة في محطات خاضعة في كل بلد لسلطة واحدة على الغالب ، ما عدا البلاد الاميركية وهولندة ، فالمجال لاختلاف الرأي والمقابلة بين وجوه النظر ضيق محصور . حتى في الولايات المتحدة الاميركية ، لا تجد الاّ نظامين كبيرين لهما مقام في طول البلاد وعرضها

— ٢ —

من نحو سنة أعلن السر جون سيمون ، وكان وزيراً للداخلية ، أن الحكومة البريطانية طلبت الى شركة الاذاعة البريطانية ، ان تتخذ الوسائل اللازمة لانشاء برنامج إذاعة بعيد المدى وان بحثاً أجراهُ ممثلو الحكومة البريطانية اسفر عن ضرورة استعمال اللغات الاسبانية والبرتغالية والعربية في هذه الاذاعات

وليس ثمة ريب في أن الاذاعة الى البلدان الاجنبية بلغاتها ، مشكلة حملت رجال الاذاعة اللاسلكية واقطاب الحكومات على كثير من التفكير في السنتين الماضيتين . ولا ريب كذلك في انها تنطوي على كثير مما لهُ صلة بمستقبل العلاقات الدولية ، ابان السلم والحرب . وما عزم شركة الاذاعة البريطانية ، على الاذاعة باللغة العربية — وهي الاذاعة التي بدأت من نحو شهرين — الاّ من قبيل الردّ على النشاط السياسي ، الذي عمدت اليه بعض الحكومات الفاشستية بوساطة الراديو . فالراديو اصبح في عرف الدول الدمقراطية والفاشستية على السواء ، سلاحاً لا يمكن اهمالهُ في الدفاع عن المصالح القومية

ان السيطرة على محطات الاذاعة اللاسلكية مركزة في يد الحكومة او يد مجلس خاص في معظم بلدان أوربا ، وذلك على الضدّ من الطريقة المتبعة في الولايات المتحدة الاميركية . وتركيز السيطرة ، تختلف اغراضهُ باختلاف البلاد . ففي بعضها — وهي البلدان الدمقراطية بوجه عام — يقصد بهِ الى تنظيم الاذاعة بدلاً من تركها ولا ضابط بها اولاً ومنع الاذاعات

التي قد تسيء الى الرأي العام داخل البلاد او في البلدان المجاورة . اما في البلدان القائمة حكوماتها على مبدإ الزعامة فالغرض بثُّ الدعاية في الداخل لافراغ الرأي العام في قالب واحد، وفي الخارج لبسط رأي الحكومة ونزعتها السياسية . ففي الدنمارك والنرويج نجد محطات الاذاعة اللاسلكية تابعة للحكومة وأما في هولندة فالمجال فسيح لنشاط الشركات الخاصة . وأما في المانيا وروسيا فتدار محطات الاذاعة كأنها مصالح حكومية . واما في ايطاليا ، فقد أنشىء للاذاعة شركة كبيرة تموَّل من رؤوس الاموال الخاصة وتخضع لسيطرة الحكومة

ولكن انكلترا تجري على نظام خاص وسط فأنشأت لذلك شركة الاذاعة البريطانية B.B.C. وهي هيئة صدر بأنشائها مرسوم ملكي ، تدير محطات الاذاعة لفائدة الامة ، لا بقصد الربح . فلا تختلف في قاعدتها وطريقتها عن كثير من الهيئات العامة في انكلترا كالهيئة التي تدير مرفأ لندن او الهيئة التي تدير اعمال سيارات النقل الكبيرة (الاوتوبوس) وليست هذه الهيئة وقفاً على حزب سياسي دون آخر ، بل هي تمثل النزعات السياسية السائدة في البلاد بوجهٍ عام . ولا تمارس الحكومة عليها ضغطاً ما ، وانما عملها يقتضي الحذر في نقد الحكومة التي اصدرت قانونها . ولكن مما لا ريب فيه انهُ اذا مالت محطة الاذاعة البريطانية اكثر مما يجب ان تميل ، الى ناحية الحكومة ، ارتفعت اصوات الاحتجاج في البرلمان والصحف ، فيُصغَى الى ما تقول ، لأن المعارضة اليوم قد تكون حكومة جلالة الملك في الغد . فالاتزان في مصلحة الجميع على السواء

وتسير فرنسا على خطة تجمع بين محطات تملكها الحكومة ومحطات تملكها الشركات الخاصة . اما المحطات الحكومية فتابعة لوزارة البريد ، وادارتها في يد مجلس للحكومة فيهِ ممثلون للحكومة ولاصحاب مصانع الادوات اللاسلكية وللسمَّاع كذلك . والمحطات الخاصة تدار على نمط المحطات الاميركية وتجني المال اللازم من الاعلانات اللاسلكية . أما المحطات التابعة للحكومة في فرنسا وانكلترا فتجني نفقاتها من مال يستوفى من أصحاب الأجهزة الملتقطة

وتختلف هولندة عما تقدَّم في ان فيها خمس جماعات للاذاعة اللاسلكية وهذه الجماعات لا تدار للربح بل لنفع أعضائها . فثلاث من هذه الجماعات نزعة دينية خاصة (كاثوليكية وبروتستانية والثالثة مسيحية فقط) ومحطة لها نزعة سياسية اشتراكية والخامسة عامة محايدة علمانية . ولكل جماعة دائرتها الخاصة ومذيعوها ومذيعاتها ، وهي تقتسم بالاتفاق بينها الوقتَ المتاح للاذاعة من محطتين من محطات الامواج الطويلة وتدفع الاجر عن استعمال هاتين المحطتين للشركة التي تديرها . وهذه الشركة مستقلة ولكن أسهمها موزَّعة على الحكومة والجماعات الخمس . وقد أثبت الاختبار ان هذا النظام سائر على خير ما يرام بغير جفاء او اختلاف ما . والعجيب في أمرهِ تبرُّع السماع للجماعات بلا قاسر او قانون . فليس في هولندة قانون ما يقضي بانتماء من يملك

جهازاً ملتقطاً الى احدى هذه الجماعات ولا ان يستصدر رخصة لاستعمال جهازه وفي الاصغاء الى ما يذاع. ومع ذلك فلكل من هذه الجماعات المختلفة طائفة من الاعضاء يتبرعون بما يكفي للقيام بنفقاتها. أما الاعلان، وأما الربح فممنوعان. وكل ما هناك ان الموظفين والمذيعين والمذيعات يتقاضى كلٌّ منهم جعلاً معقولاً. وليس في أي بلد من بلدان العالم نظام أرقى وأتم من هذا النظام الهولندي

— ٣ —

للاذاعة اللاسلكية في مغزاها السياسي ناحيتان — الناحية الداخلية والناحية الخارجية في اوربا خمس عشرة دولة لا تسمح باذاعة الاقوال والآراء السياسية من محطات الاذاعة إلاَّ باسم الحكومة وموافقتها وهذه البلدان هي — المانيا وايطاليا وروسيا السوفيتية والنمسا وبلغاريا واستونيا وفنلندا وهنغاريا ومدينة دانزج الحرة وبولندا والبورتغال ودولة ارلنده ومدينة الفاتيكان. أما في تشكوسلوفاكيا ويوجوسلافيا فالحكومة فيهما تراقب كل ما يذاع في الموضوعات السياسية. وأما في سائر البلدان الاوربية، ومعظمها دمقراطيُّ الحكم فثمة مراقبة على ما يذاع في السياسة، يمارسها المشرفون على محطات الاذاعة نفسها معتمدين في الحذف على ما يحرّمهُ القانون والادب العام

ولكن انكلترا تلغي كلَّ مراقبة في اثناء المعارك الانتخابية. وكانت اسبانيا تسمح باذاعة الخطب السياسية بعد مراجعة مدير البرنامج لها. اما الآن فمحطات الاذاعة اللاسلكية في اسبانيا في قبضة السلطات العسكرية في الفريقين المتناضلين. واذن يمكن أن يقال أن اطلاق حرية الاذاعة في الموضوعات السياسية في اوربا، يكاد يكون محصوراً بوجهٍ عام في البلدان الدمقراطية الغربية. وقد يضاف اليها دولتا لتفيا ولتوانيا على سواحل بحر البلطيق

وللدعاية الانتخابية اللاسلكية في انكلترا نظام خاص. فقبل ميعاد الانتخاب العمومي، بنحو اسبوعين او ثلاثة اسابيع، يسمح لاقطاب الاحزاب السياسية الممثلة في مجلس النواب أن يذيعوا خطباً سياسية من محطة الاذاعة، على أساس التساوي في الوقت. اي إذا سمح لاقطاب المحافظين في هذه الاسابيع الثلاثة، باذاعات مجموع وقتها عشر ساعات، سمح لاقطاب العمال كذلك باذاعات مجموع وقتها عشر ساعات. وكذلك لسائر الاحزاب. وقد سار هذا النظام على ما يرام الى أن كانت سنة ١٩٣١ عندما طلبت الحكومة القومية ان يعتبر كل حزب ممثل فيها، حزباً مستقلاً وان يتاح لهُ المساواة المشار اليها آنفاً. فكان مجموع الوقت المتاح للاذاعة للاحزاب المؤيدة للحكومة اكبر كثيراً من مجموع الوقت المتاح للمعارضة. ويعزى غير قليل من اكتساح الحكومة القومية للبلاد في الانتخابات التي تمت في نوفمبر سنة ١٩٣١ لهذا التفوق في ما أتيح لاقطابها من الوقت للدعاية الانتخابية اللاسلكية. ومن المشكلات التي تواجهها شركة الاذاعة البريطانية في هذا الصدد كون الحزب الشيوعي ممثلاً بعضو واحد في البرلمان. فهل يتاح لهُ من الوقت للاذاعة

اللاسلكية السياسية في الانتخاب القادم ما يتاح لحزب المحافظين وهم أكثرية

وعلاوة على ما تقدم يسمح مجلس شركة الاذاعة البريطانية ، بالمناظرات السياسية بين اقطاب السياسة والكتاب السياسيين ، ولكنهُ يشترط ان تقدم اليهِ نسخ الخطب لمراجعتها ، ومعرفة هل نصوص الخطبة محصورة في الموضوع ، وهل هي متسقة مع الوقت المتاح للاذاعة ثم لحذف ما قد يكون فيها خارجاً على العرف الادبي . وكل ذلك لحفظ التوازن في المناظرة ، فاذاعة رأي معين تتلوه اذاعة رأي مقابل له . وهكذا . ومن هذا القبيل مناظرة في « الفاشستية » اشترك فيها السر اوزوالد موزلي زعيم الفاشستيين البريطانيين والمس ميجان لويد جورج كريمة المستر لويد جورج وأحد أعضاء مجلس النواب . أما الكتّاب المشهورون كبرنارد شو فيمنحون الحرية المطلقة في اذاعة ما يشاؤون ما زال الكلام في نطاق الأدب العام — في رأي المذيع

وتقتصر سائر دول أوربا الدمقراطيـة في الاذاعات السياسية على موضوعات وأقوال غير حزبية الاّ في النرويج والدنمارك والبلجيك ، فانها تتبع خطة أقرب الى الخطة البريطانية . وأما في هولندة فثمة جماعتان من الجماعات الخمس تسمح بالخطب السياسية ، وهما الجماعة الكاثوليكية ، والجماعة الاشتراكية . ولكن الجماعات الثلاث الباقية تحظرها . ولا تأذن حكومتا السويد وسويسرا الاّ في اذاعة الخطب السياسية التي لاتحيُّز حزبيٌّ فيها . ولكن تشكوسلوفاكيا تحظر الخطب التي فيها نقد للحكومة ، مع انها من خير الامثلة على الحكم الدمقراطي في أوربا . ولذلك لا بدَّ من وضع تشكوسلوفاكيا — في ما يتعلق بالاذاعة — في صف الدول الدكتاتورية ، لولا انها تقيم وزناً في اذاعتها للاقليات التي ضمن حدودها وما لها من ثقافة قومية خاصة بها . وهي تعتذر عما تفرضهُ من الرقابة على الاذاعة السياسية، بموقفها الجغرافي السياسي . لان خطبة واحدة قد تنشىء لها مشكلات دولية معقدة . فاذا اتجهنا بنظرنا الى الحكومات الدكتاتورية، وجدناها تستعمل الاذاعة اللاسلكية لتعزيز مقامها داخل حدودها الجغرافية والعنصرية ، واذاعة آرائها السياسية، أنى سمعت اذاعتها . فالاذاعة اللاسلكية أضحت في أيدي رجالها أمضى سلاح عرفهُ العالم. فاذا أضيف الى ذلك براعة أقطاب الدعاية في استعمال هذا السلاح بحيث يؤثر في النفوس ويستهويها، عرفنا مبلغ الخطر الذي ينجم عن استعمالهِ لتحقيق بعض المآرب القومية

وهذه الدعاية تتخذ أشكالاً متعدّدة ، بحيث أصبحت الخطب السياسية الاّ خطب الزعماء غير لازمة . ذلك ان كل ما يذاع يطوى بطريقة خفية على مغزى سياسي سواء أفي التاريخ تحدَّث المحدِّث ام في العلم أم في الفن أم في الاعمال العامة . ويضاف الى هذا اذاعة أنباء الحوادث وقد لوّنت باللون السياسي الخاص ووصف الاحتفالات الشعبية العامة ، ولا سيما الاحتفالات السياسية، وصفاً يؤثر في النفس بفخامته. وليس من نتائج المصادفات ان لا الهر هتلر ولا السنيور موسوليني،

يذيع خطاباً سياسيًّا من حجرته الخاصة ، بل من منبر عام او من شرفة قصر رسمي او من دكة مدفع ضخم ، وذلك لان اذاعة الخطبة يسبقها وصف الجماهير المحتشدة والهتافات الصاعدة في اجواز الفضاء والاعلام والبنود المرفوعة . وهذا كلّهُ من نواحي التقدم في فهم نفسية الجماهير وتطبيقها في الدعاية اللاسلكية

وعند ما يتكلم هتلر في المانيا ، تذاع خطبتهُ فيجب ان يصغي اليها كلُّ الماني . فتنفخ الصفّارات في المعامل فيسود السكون ثم ينطلق صوت الزعيم من الابواق المضخَّمة . وتنصب مثل هذه الابواق في الميادين العامة ، فتحتشد الجماهير للاصغاء ومن يتخلّف عن الاصغاء كان ذلك طعناً في وطنيتهِ وولائهِ . اما في الانتخابات العامَّة فتتحول البلاد الى احتفال انتخابي عام يدوم بضعة ايام وتسودهُ الحماسة الشديدة ، مع ان نتيجة الانتخاب قلما تكون في معرض الشك

— ٤ —

ولا يخفى ان تخطيط اوربا الجغرافي السياسي ، يجعل من المتعذّر ان تقيم محطات الاذاعة اعتباراً للجغرافية السياسية . ذلك ان حصر الاذاعة في نطاق الحدود الخاصة بدولة من الدول عملٌ مستحيل . فمن المتعذر مثلاً على محطة في جنوب المانيا الى الشرق ان تذيع ما تذيع من دون ان يسمع ما تذيعهُ في تشكوسلوفاكيا . ثم هناك حدود اللغة وهي مختلفة ايضاً . فمحطة الاذاعة في ستراسبورج بالالزاس تذيع باللغة الالمانية لان لغة السواد من سكان الالزاس هي اللغة الالمانية فيسمع ما تذيعهُ في جانب كبير من غرب المانيا . وروسيا تسوّغ ما تذيعهُ باللغة الالمانية بوجود جمهورية الفولجا الالمانية في الاتحاد السوفيتي . وما يصدق على ستراسبورج يصدق على بلدان اوربية كثيرة . هذه المحطات تذيع انباء الحوادث من ضمن ما تذيع . فالمحطة الروسية تعنى عناية خاصة باذاعة انباء الهر هتلر والريخ الثالث وايطاليا والتعليق عليها وتفرغها في قالب تحسبهُ المانيا دعاية ضدها . وهي على حق في ذلك . ومحطة موسكو لا تكتفي باذاعة الانباء والتعليق عليها ، بل تعمد الى نقد ما يذاع من المحطات الالمانية ، و « تصححهُ » على قولها . وتستخدم لذلك مذيعين يجيدون اللغة الالمانية كتابةً ولهجةً ، وليس بالنادر أن تتعدى التعليق والنقد الى ضروب من الكلام الجارح

اما محطة ستراسبورج فلا تجري على نمط محطة موسكو في اذاعة الانباء بل تتوخى عدم التحيز . ولكن ذلك لا يرضي السلطات الالمانية لان ما تذيعهُ يختلف عما يذاع في المانيا نفسها في الصحف والانباء اللاسلكية . ومن أعسر الامور على الحكومة الالمانية ابطال فعل هذه المحطة . نعم أنها أصدرت قوانين بمنع الاصغاء الى محطة ستراسبورج ، ولكن مراقبة جميع الذين يملكون أجهزة ملتقطة ، مهما تكن دقيقة ، لا يمكن ان تكون شاملة

هذا قليل من كثير وهو كافٍ للدلالة على ما هو حادث . وقد اشتدت هذه المنافسة منذ شرعت الدول في انشاء محطات مركزية قوية . ففي سنة ١٩٣٠ لم يكن ثمة محطة للاذاعة قوتها تبلغ مائة كيلو وط . ولا تزال الحدُّ الاعلى في الولايات المتحدة الاميركية لقوة محطات الاذاعة خمسين كيلو وط . ولكن ما أهلّت سنة ١٩٣٢ حتى انشئت خمس محطات قوة كلّ منها مائة كيلو وط . وقد أنشئت هذه المحطات على ما قيل ردًّا على محطة موسكو القوية التي غمرت اوربا بالدعاية الشيوعية مع ان الروس يزعمون انهم اضطروا الى انشاء هذه المحطات القوية لكي تتصل اذاعتها بجميع انحاء روسيا وسيبيريا الشاسعة . ثم زادت قوة بعض المحطات الى ١٢٠ كيلو وط — كمحطتي وارسو وبراج — ثم الى ١٥٠ كيلو وط فالى ٢٠٠ كيلو وط. ويقال الآن ان الاتجاه الى انشاء محطات قوتها ٥٠٠ كيلو وط . والاذاعة من هذه المحطات لا تشمل البلدان المجاورة فقط بل والبلدان النائية ايضاً . ومن هذا القبيل محطة باري الايطالية ، فحاولت انكلترا مقاومتها اولاً باذاعات من محطة فلسطين ثم بالاذاعة بالامواج القصيرة من لندن

واستعمال الامواج القصيرة اصبح عاملاً جديداً ذا شأن كبير في الاذاعة البعيدة المدى . فازداد الطلب عليها لاستعمالها في الاذاعة العامة ، مع شدة الحاجة اليها للاستعمال في « الخدمات المتنقلة » اي لخدمة الطيارات والسفن وغيرها . وتوزيع هذه الامواج من المشكلات الرئيسية التي يعالجها مؤتمر المواصلات السلكية واللاسلكية الملتئم في القاهرة الآن

فاستعمال الامواج القصيرة ، مقترناً باسلوب « الشعاع الموجَّه » beam يمكن محطات الاذاعة من الاتصال بأنأى الاقطار من دون ان تلتقط الرسائل التي تحملها هذه الامواج في معظم البلدان الواقعة بين محطتي الاذاعة والالتقاط . وتفسير ذلك ان الموجة الارضية من هذه الامواج ، تضعف بعيد انطلاقها ، ولكن الموجة الجوية تسير منعكسة من طبقة هيفسيد فتدور حول الارض. فاذا « وجِّهت » بالهوائي العاكس أمكن سماعها في منطقة دون أخرى من مناطق الارض . وهذا النظام تعتمد عليه الحكومة البريطانية في الاتصال ببلدان الامبراطورية . وتعتمد عليه الحكومة الالمانية في الاتصال بالجاليات الالمانية في شتى انحاء الارض فتوقظ فيهم الحنين الى الوطن وتبث بينهم فلسفة النازي الوطنية والسياسية وتسعى ان تفتح الاسواق للمصنوعات الالمانية بانشاء صلات الودّ والتعاطف مع بعض البلدان ، وتحاول ان تقنع العالم اجمع بعظمة المانيا وسداد مطالبها وأمانيها . وهذا النوع من الاذاعة يتمُّ على وجهٍ مستمر بست لغات ، وباكثر من ستٍّ اذا اقتضى الامر ذلك . وتحذو ايطاليا هذا الحذو فتذيع محطة الامواج القصيرة في براتوسميرالدا بالايطالية والانكليزية والاسبانية والبرتوغالية والعربية والصينية واليابانية والهندستانية . وعلى هذا جرت البلدان الاخرى التي لها مستعمرات كفرنسا وهولندة وبلجيكا

— ٥ —

إن المتفائل فقط ، المتمادي في التفاؤل ، يستطيع أن يتجاهل أو ان ينكر أن هذا التنافس في انشاء محطات الاذاعة اللاسلكية انما هو جزء من الاستعداد للحرب ، لانها وسيلة الدول المختلفة للتأثير في صفوف العدو المحارب واضعافها وتفكيكها من الناحية المعنوية . وليس ما نراهُ حادثاً في اسبانيا الاَّ صورة مصغَّرة لما يمكن أن يحدث في حرب عامة . فلذلك قرأنا ان السلطات العسكرية استولت على محطات الاذاعة في مقدمة ما استولت عليهِ . واختص أحد قوَّاد الثوَّار باذاعة الانباء التي من شأنها ان تضعف المقاومة وتكسرها في أرض الحكومة . فعرف الجنرال كيوده لانو بوصف « الجنرال المذيع » . ثم إن الحكومة من ناحيتها شوَّشت جميع الرسائل المذاعة الى حامية «القصر» لكي لا يبلغها نبأ المدد العسكري الوافد عليها . كما انها سعت الى بذر بذور القلق في صفوف المتطوعين الايطاليين بوصفها ما أُصيب بهِ اخوانهم في ميدان القتال وفي الاسر . وكلا الفريقين يحاول ان يشوّش اذاعة الفريق الآخر

وليس ما تقدم الاَّ ناحية يسيرة من نواحي استعمال الاذاعة اللاسلكية في الحرب . ففي مستهلّ الحرب الكبرى كانت المواصلات اللاسلكية لا تزال في مهدها . وكان اعتماد الدول على المواصلات التلغرافية السلكية ، وكان معظم الاسلاك البرقية البحرية خاضعاً لسيطرة انكلترا واميركا ، فلما قطع الاسطول البريطاني الاسلاك الالمانية في بدء الحرب غدت المانيا معزولة عن العالم . ويذهب احد الكتَّاب الى ان جانباً كبيراً من هزيمة المانيا في الحرب الكبرى يمكن ان يعزى الى ايصاد ابواب الانباء والدعاية في وجهها ، علاوة على التقاط رسائلها المرسلة بالاسلاك الدولية وحلّها

اما الآن فان أهم طرق المخاطبات الدولية ، تشق الاثير ولا تعتمد على الاسلاك . ومع انهُ من المستطاع تشويش الاذاعة اللاسلكية ، لا يمكن ان يقال الآن ان قطعها مستطاع . ذلك ان التشويش يقتضي احداث امواج كهربائية قوتها كقوة الامواج التي يراد تشويشها ، ويقتضي كذلك معرفة توالِيها . فلا بدَّ من سهر دائم ومعرفة سابقة بالقاعدة التي يقوم عليها توالي الامواج . واذن فمن المتعذر في المستقبل ، وفي حالة نشوب حرب ، ان تلتقط جميع الرسائل المذاعة وان تحل ، دع عنك تعذُّر تشويشها تماماً . اما توجيه الرسائل الى الوكلاء والجواسيس في البلدان الاجنبية فليس صعباً ، بل الصعب منعهُ ، لان الاجهزة المتقطة قد بلغت مرتبة من الاتقان ، بحيث يستطيع الجهاز ان يلتقط رسائل موجهة الى منطقة ما ، بالاشعة القصيرة ولو كان مصدرها يبعد أُلوفاً من الاميال . ويكفي في هذه الحال ان يلتقط الجهاز جزءًا من نغم موسيقي او عبارة مقتبسة من كتاب ادبي مشهور ، لكي يؤدي ذلك معنىً خاصًّا للجاسوس

ان هذا الميدان واسع جدًّا ومن المتعذر التكهن بما يمكن ان يتمّ فيهِ من الغرائب

الدكتور محمد اقبال

اكبر شعراء الهند المسلمين في العصر الحاضر
رسالة شعره[1]

للسيد ابو النصر احمد الحسيني الهندي

— ٢ —

ثالثاً : ومن معالم رسالة شعر اقبال التعميم . فدعوة رسالته لا تخص طبقة دون طبقة بل تشمل نوع الانسان بأجمعه . وتسعى لتحويل العالم الانساني الى كتلة واحدة . وذلك لانه من ابناء الدين الذي من تعاليمه « الخلق عيال الله ، فأحب الخلق الى الله من احسن الى عياله[2] » وبناء عليه فمن اهم مباديه الحب العام وكراهة الفروق الجنسية والدموية وتمييز الالوان والاوطان قال :

« ان التمييز الجنسي والقانوني قد أباد الشعوب
فهل يعرف اهل وطني ذلك ويفكرون فيه
فلا يكون لساني مقيداً بلون خاص
فليكن نوع الانسان شعبي والعالم وطني »

وقال ايضاً : « لسنا من الافغان ولا الترك ولا التتار
اننا ولدنا في الحديقة ومن غصن واحد
ان تمييز اللون والرائحة علينا حرام
لاننا تربينا في ربيع واحد »

ولا يختص حب اقبال بنوع الإنسان فقط بل هو يحنو على غير ذوي الارواح كذلك . قال :

« اذا صدم الهواء ورقة الورد
فالاثر يقطر دمعة من عيوني »

يرى اقبال ان وجود الفرد وجود اعتباري . فاذا اجتمع الافراد وأنشأوا لانفسهم اجتماعاً خاصاً يزدادون قوة ، ويتوفرون هيبة ، ويتضاعفون ثقة ، وينالون به قسطاً وافراً من

---

(١) راجع مقتطف فبراير صفحة ١٧٦ لقد كتبت هذه المقالة على ذكر احتفال بتكريم الشاعر عند بلوغه سن الستين في ٩ يناير سنة ١٩٣٨ مد الله في عمره (٢) من الاحاديث النبوية

التقدم لا يقدر الفرد ان يبلغهُ في حالة الانفراد . ولا اجتماع عنده اشد اركاناً ، واقوى اسباباً ، وأثبت قواعد ، وأرسى دعائم من الذي تبنت وطائده وتأكدت اواخيه بوحدة الدين ، ووحدة الفكر ، ووحدة الغاية . ويرى ان الاجتماع الاسلامي من هذا الصنف . وان اعظم خطر يهدد هذا الاجتماع في العصر الحاضر هو نبذ الروح الديني الذي كان اساس التكوين لوحدته ، وخوض افراده غمار التعصب الوطني والجنسي الذي تعلموا أساليبهُ من الغرب لذلك يخاطبهم :

« ان شعبكم بالدين فاذا ذهب الدين ذهبتم
لانهُ اذا لم يكن هناك التجاذب لم يكن محفل الأنجم »

وقال أيضاً : « ان الدين اذا ملص ذيله من اليد فلا رابط هناك
واذا ذهب الرابط ذهبت الامة . »

وقال ايضاً : « لا تقس أمتك على أمم الغرب
لان نظام أمة الرسول الهاشمي خاص
ان اجتماعهم ينحصر في الملك والنسب
ولكن اجتماعك يستحكم بقوة الدين »

وقال ايضاً : « كل من يختار فرق اللون والدم يفنى
سواء أتركياً كان أم راحلاً ام عربياً شريفاً
ان نسب المسلم اذا قدم على الدين
طرتَ انت من هذا العالم مثل غبار الطريق . »

وقال ايضاً : ان الافتخار بالنسب جهل
لان حكمه على الجسم والجسم فانٍ . »

يرى اقبال ان ليس في العالم نظام اجتماعي يضمن حرية الفرد التامة كما يضمنها نظام الاجتماع الاسلامي . فالفرد ينال حريته الكاملة بغير بذل اي جهد حالاً عند دخوله فيه . لان من أهم مباديه الاساسية « إن الحكم الاّ لله » و « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » . لذلك يخاطب المسلم :

« لانهن فطرتكَ الحرةَ بالعبودية (أيها المسلم)
انك لو اخترت برهمن[1] لك سيداً فأنت أكفر منهُ
ان المسلم ليس بعبد لأحدٍ سوى الله
فرأسه لا يخضع لفرعون ما . »

وهو يعتقد ان المسلم لو يصبح مسلماً حقيقياً لا يمكن ان تشدخهُ غمرة اي قوة مهما يكثر

(١) لقب للرئيس الديني في الديانة الوثنية الهندية

جمها وتدوّسهُ شدَّة اي سطوة مهما يكبر شأنها . فان التاريخ شاهد على ان عدداً قليلاً من أهل البادية بغير ان يكون لهم عدَّة كافية وأهبة شاملة أو سلطة منظمة دوَّخوا العالم بقوتهم الروحانية واتحادهم الديني . لذلك يقول :

ما الذي أباد استبداد قيصر وكسرى ؟
انهُ قوة حيدر وفقر أبي ذر وصدق سلمان
هل يمكن لاحد أن يقدر قوة المؤمن
ان القدَر يتغير بنظر الرجل المؤمن »

وقال أيضاً : « إن رُحلة المسلم وراء السماء الزرقاء
انت القافلة التي ذرّات طريقها النجوم »

وقال أيضاً : « انت يد الله (العليا) ولسانهُ (الصادق)
اجعل (في نفسك) اليقين ايها الغافل ! لانك مغلوب الظن.

رابعاً : ومن معالم رسالة شعر اقبال الدعوة الى الاعتماد على النفس . فان أكبر داء الشرق عامة والمسلمين خاصة فقدان عزة النفس وضياع علوّ الهمة وعدم القصد لجسام الامور فأصبح الرضا بالذلة شعارهم والصبر على الهوان دثارهم . لذلك يخاطبهم :

« اعرف حقيقتك أيها الزارع
لانك أنت الحب ، وأنت المزرعة ، وأنت الماء ، وأنت المحصول
هل يرتعش قلبك من خوف الطوفان ؟
مع أنك انت الرُبان ، وأنت البحر ، وأنت السفينة ، وأنت الساحل
وا أسفاه على جهلك ! لانك اصبحت محتاجاً الى الساقي
مع انك أنت الخمر، وأنت الدنّ ، وأنت الساقي ، وأنت المحفل . »

وقال أيضاً : « كن لهيباً واحرق القش، ما سوى الله
لِمَ تخاف من الباطل ؟ انك أنت المبيد له . »

وقال أيضاً : « اعرف أصلك أيها الغافل !
لانك وان كنت قطرة ولكنك غير محدود مثل البحر
إن العدة التي يمكن أن يفتح بها العالم بغير السيف والمدفع
لو تفهم فتلك العدة [1] في حوزتك
لِمَ أنت اسير طلسم اللاشيء ؟

(١) يريد به القرآن وقوة الايمان به

أنظر (الى نفسك) لان عظمة الطوفان فيك مخفية»

وقال ايضاً : « انت مسلم ! فعمّر صدرك بالاماني

واجعل مطمح نظرك في كل زمان «لا يخلف الميعاد»

وقال ايضاً : انظر الى نفسك ، لم تشتكي من العالم ؟

انك لو غيرت نظرك فالعالم يتغير لك . »

وقال ايضاً : « انت غمضت عيونك وقلت ان هذا العالم حلم

افتح عيونك فان هذا الحلم حلم اليقظة . »

وقال ايضاً : « ليس ذلك العاشق الذي يحرك شفتيه للتأوه (من ألم الحب)

ان العاشق هو الذي يحمل العالَمين على كفه

ان العاشق هو الذي يخلق العالم لنفسه بنفسه

ولا يرضى بالعالم المحدود . »

خامساً : ومن معالم رسالة شعر اقبال الدعوة الى محاربة الجمود والجحود . اما الجمود فان لكل زمن مقتضياته وضروراته . والزمن يتغير . فمقتضياته وضروراته ايضاً تتغير . ولذلك فالجمود او الاستمرار على حالة واحدة واهمال دواعي الحال ومطالب الزمن عنده من اكبر العوائق في سبيل التقدم الانساني . وهو يعتقد ان القرآن ما دام ينبوع الهداية للانسان فهو يقدر ان يخلق له عالماً جديداً على حسب الاحوال والدواعي في كل مكان وزمان ويهدي الحياة الانسانية في جميع الاحوال لذلك يقول :

اهدم القديم واقدم على بناء الجديد

فان كل من بقي في ورطة « لا » لم يصل الى « الاّ » [1]

وقال ايضاً : « بكل نَفَس نخرجه غيِّر العالَمَ

وامض في هذا الرباط القديم كالزمن »

وقال ايضاً : «ايها الشاهين ! أخشى انك اخترت السكن في الحديقة

لان هواءها يجعل جناحيك عاجزين عن الطيران . »

وقال ايضاً : «اعبر نهر المجرة [2] واجتز زرقة السماء (ولا تُقيم)

فان القلب يموت بالاقامة وان كانت في القمر »

وقال ايضاً : « لوكان في قلبك عالم جديد فأتِ به

فان الافرنج قد وقعوا ضحية جروحهم الخفية» (يتبع)

---

(١) اشارة الى كلمة التوحيد « لا اله الا الله » (٢) مجموعة النجوم في السماء

عمرو بن العاص

لحسن حسن علي

—٢—

لما ذهب عمرو بن العاص لفتح مصر ، واستولى على الفرما وبلبيس وأم دنين وأراد ان يفتح قصر الشمع أو حصن بابليون ، وجد ان الحصن منيع ، وأسواره قوية عالية ، وجنوده كثيرون، وهم مزوَّدون بالسلاح والعتاد الوافر ، فعرف انهُ اذا هاجمهم في هذا الحصن على عددهم الجمّ تعرض بجيشهِ لضرباتهم ، وسهام قسيهم ، وحجارة منجنيقاتهم ، وهم وراء الحصون تحميهم الاسوار ، فتراجع أمامهم فظنَّ تيودوروس قائد الحصن أنهُ يستطيع أن يزحزحهُ عن أم دنين فخرج اليهِ في جيش كبير. أما عمرو فانهُ أتى بفئة من جيشهِ وعلى رأسها خارجة بن حذافة ،وجعلها تكمن عند الجبل الأحمر (في العباسية الآن) ، وأتى بفئة أخرى ، وجعلها تكمن عند أم دنين بالقرب من النيل ، ثم قابل تيودوروس ببقية الجيش ، فابتدأت المعركة ، والتحم الجيشان واستمرت الموقعة حتى كلَّ الفريقان ، ولما أدركهما الفتور والخور كرَّ خارجة بن حذافة من الجبل الأحمر وانقضَّ بجيشهِ على تيودوروس كالصاعقة ،ورجاله أقوياء أشداء لانهم لم يشتركوا في المعركة. فتراجع أمامهم جيش تيودوروس واختلَّ نظامه ،فقوَّى ذلك من عزيمة جيش عمرو واشتدت حماستهُ ، فزاد ذلك في ضعف جيش تيودوروس ، وفي اختلال صفوفه ، ثم انقض الجيش المرابط عند النيل في أم دنين على جيش تيودوروس من الناحية الاخرى فأصبح جيش الروم محصوراً بين ثلاثة جيوش في غاية الحماسة ، فتمكن عمرو من ان يفنيهُ عن آخره ولم ينج من هذا الجيش الاَّ شرذمة قليلة . وهذه الخطة الحربية وان كانت تُرينا دقة عمرو في وضع الخطط الحربية المتقنة الفريدة فانها تكشف لنا عن عقلية عمرو وميله الى الترصُّد والمباغتة ، وتُرينا كيف كان يحب ان يخدع خصمه ، ويبدي له شيئاً يشغله بهِ ، ويخفي عنهُ شيئاً آخر ، وبعد ذلك يفاجئهُ بأمر غريب لم يكن في حسبانه فيوقعهُ في الحيرة والذهول ، وفي أثناء هذا الذهول يتمكن عمرو من القضاء على خصمه بأيسر السبل

ولما تمّ فتح مصر لعمرو بن العاص ، نصبه عمر بن الخطاب والياً عليها ، فلما تولى عثمان ابن عفان صرفهُ عنها وولى مكانه عبد الله بن أبي السرح ، فغضب لذلك عمرو بن العاص ، ونقم على عثمان ، وحنق عليه غاية الحنق ، ولكنهُ نظر في المدينة يميناً ويساراً فوجد ان الخطر قريب وان الثوار يتراسلون ، وان الثورة توشك ان تنفجر ، فأدرك ان الخليفة لا محالة مقتول ، وانهُ اذا بقي في المدينة اتهمهُ الناس بأمر عثمان ، لما شاع بين الناس من نقمته وحنقه عليه ، فخرج الى فلسطين وأقام بها ، ولما قتل عثمان وجد عمرو المسلمين قد انقسموا اربعة اقسام

١ — القسم الاول وهو قسم المتورّعين المتدينين ، وهؤلاء نفضوا ايديهم من الفتنة ، وتركوا الثوار والثورة والقتال والقتلة ، وانزووا في بيوتهم يعبدون فيها ربهم ولا يرضى عمرو مطلقاً أن ينضم الى هذا الفريق ، لان ذكاءه وفطنته ونشاطه الوفير تمنعهُ من أن يكون كمّاً مهملاً ، وتبعثهُ على ان يغامر في هذا الامر حتى يستفيد من هذه الحال الجديدة

٢ — القسم الثاني وهو قسم طلحة والزبير ، وكان يرى هذا الفريق ان الثوار هم الذين أجبروا الناس في المدينة على مبايعة علي ، وهم يرون ان بيعة علي باطلة ، لانها تمت وسيوف الثوار مشهورة على رقاب الناس ، فيجب ان تنقض بيعة علي ، وان يترك الناس وهم احرار يختارون من شاءوا ، وقد رأى عمرو ان هذا الفريق ضعيف ، وأتباعه قليلون ، وجيشه لامحالة مهزوم ، وهو لا ينضم الى فريق سيؤول امره الى الهزيمة المحققة

٣ — القسم الثالث وهو قسم علي بن ابي طالب ، فكّر عمرو في هذا القسم طويلاً ، فرأى ان هذا الفريق كثير الاضطراب ، وانهُ يحوي جماعة من الشذاذ ذوي الرؤوس الصلبة وهم في كثير من الاحيان لا ينقادون الى رئيسهم ولكنهم يجبرونهُ على الاخذ برأيهم

ورأى أن علي بن أبي طالب في جميع اعماله واموره آخذ بأحكام الشريعة والدين ، تارك لأمر الرأي والسياسة ، ورأى ان ما عند علي من العلم بالدين اكثر مما عند عمرو ، فإذا انضمَّ عمرو اليه ، فلن يتخذه وزيراً ولا مشيراً ولا صاحب رأي ، لان الكلمة العليا عنده للدين وحده ، إذاً لا مفر له من ان ينضم الى الفريق الرابع وهو فريق معاوية بن ابي سفيان ذلك الرجل الحول القلب الذي توافق طباعه طباع عمرو

أرسل معاوية الى عمرو يطلب الانضمام اليه ، ويستشيره في امره ، فأشار عمرو على معاوية بأن يطلب منهُ أن يقتل من قتلوا عثمان ، فاذا فعل ذلك فقد أوهن نفسه ، وقتل أنصاره ، وأضعف جنوده لان اكثر الثائرين على عثمان كانوا قد انضموا الى جيوش علي . وإذا قتلهم علي فانهُ يوقع الفتنة في جيشه ، والاختلاف في صفوفه . فاذا أبى ان يقتلهم حاربهُ بجنود الشام ، وهكذا أصبح عمرو بن العاص من أشد الناس مناصرة لعثمان بعد مقتله بعد ان كان من اعظم

الحاقدين عليه وقت حياته . كيف ذلك يا عمرو ؟ ألم تكن حاقداً على عثمان كل الحقد ؟ يجيب عمرو عن ذلك دعني أدور مع الزمان كما يدور ، ودعني ألبس لكل حال لبوسها ، فان السياسي لا يستقر على حال واحدة

أخذ معاوية برأيه ، وأتى بالقميص الذي قتل فيه عثمان وهو مضرّج بدمه ، وشدّ به أصابع زوجته نائلة التي قطعها الثوار حين دافعت عن زوجها ، ثم نشر هذا الثوب على المنبر ، وجعل يحض الناس على الاخذ بثأر هذا الخليفة الذبيح المظلوم ، وما زال بهم حتى بكوا ، وعاهدوا الله على الحرب والانتقام لهذا الخليفة ما بقيت فيهم قطرة من الدماء

ولكن ماذا تجدي الخطب وماذا يفعل التهديد ، وهناك علي بن ابي طالب وهو قائد حربي عظيم محنك ، وشجاعته وقوته الشخصية مضرب الأمثال . أسرع علي بجيشه الى البصرة وقابل جيش طلحة والزبير فتغلب عليه ، ثم سار في بلاد العراق نحو الشمال بجيش كبير يبلغ نحو تسعين الفاً ، فوجد إن معاوية قد عسكر عند صفين بجيش يبلغ عدده نحو خمسة وثمانين الفاً . ابتدأ القتال مناوشة ، ولما طالت المدة زحف علي بجيوشه على جيش معاوية ، وأمعن قائده الفذ الاشتر النخعي في جيش معاوية فتكاً وقتلاً وتنكيلاً حتى تراجع جيش معاوية ورجحت كفة علي ، واوشكت جيوش معاوية على الهزيمة ، فركب معاوية فرسه ، والتجأ الى عمرو وقال لقد هلكنا يا عمرو إن لم تنجدنا برأيك ، وهنا تخيل عمرو مصرع طلحة والزبير ، وأدرك ان الأسر ينتظره ، والقتل يترصده ، وأحسّ حرج الموقف فأدار رأسه ، وقلب افكاره ، وفي الحال أتى بالخدعة الصماء والداهية الدهياء والفكرة الحالكة السوداء أتى بالخدعة التي ارتجفت لها الدنيا ، والتفت لها الدهر ، وتغير بها مجرى التاريخ ، وانقلبت بها الحوادث . نادى بأعلى صوته في جيش معاوية من كان معهُ مصحف فليعلقهُ على سنان رمحه ، ثم نادى في جيش علي والجيش في شدة حماسته وقوته : هذا كتاب الله هو الحكم الفصل بيننا وبينكم ، فان كنتم على حق اتبعناكم ، وإن كنا على حق فيجب عليكم أن تتبعونا ، إنكم اخواننا في الدين ، والاخوة لا تهدر بينهم الدماء ، وبمثل هذه الكلمات تأثرت جيوش علي وكفت عن القتال وقالوا إخواننا في الدين طلبوا صلحنا ، وأرادوا حقن الدماء ، أنقتلهم وقد رجعوا الى كتاب الله ، وبذلك أجبروا عليًّا وأكرهوه على أن يترك هذه الموقعة بعد أن رجحت فيه كفته ، وأصبح قاب قوسين من النصر ، وألجأوه الى اختيار أبي موسى ليعرف حكم الله في هذه الفتنة مع عمرو بن العاص

ولا يجوز لنا أن نستهين بخدعة رفع المصاحف فقد كان لها آثار تاريخية عظيمة لانها

أولاً : منعت علي بن أبي طالب من أن يجني ثمرة انتصاره فهو لم يفتح الشام ، ولم يأسر معاوية ، ولم يقض على الفتنة . ثانياً : أن معاوية تمكن بعدها من تعزيز جيشه وضم صفوفه ،

وتنظيم وسائل الدفاع . ثالثاً : أن علي بن أبي طالب بعد أن كان يقود جيشاً متوحد الكلمة متحمساً للقتال خرج عليه جماعة يعرفون بالخوارج ، وكانوا يقولون إنا على بصيرة من أمرنا ، وعلى يقين من ديننا وإن الله قد أمرنا أن نحارب العصاة حتى يفيئوا الى أمر الله هذا حكم الله الواضح البين فكيف نترك حكم الله وننتظر حكم عمرو وابي موسى هؤلاء الجماعة أصبحوا حرباً على علي وعلى الدول الاسلامية التي ظهرت بعده ، وإن عشرات الآلاف الذين قتلوا منهم وفي سبيلهم كانوا ضحايا هذه الخدعة السوداء الجهنمية التي اخترعها عمرو في لحظة . رابعاً : أن بقية جيوش علي لم تظل على ما كانت عليه من الحماسة وحب الحرب فقد فترت حماستهم بهذه الخدعة ، وأصبحوا يرون أنفسهم يحاربون إخواناً لهم من المسلمين ، فهم لن ينالوا ثواباً على هذا القتال التي تزهق فيه ارواحهم ، وأصبحوا يتسللون من معسكر علي ، وهكذا تمكن عمرو بحيلته وذكائه من تشتيت جيش علي ، ويقضي عليه القضاء المبرم ، ويحوّله الى جماعات مفككة لا أثر لها ولا غناء فيها

فبعد أن كان جيش علي في أوج نصره ، وفي نشوة ظفره ، وفي منتهى حماسته ، وبعد ان عجزت عن رده همم الرجال ، وعزائم الابطال ، وشفرات السيوف ، وأسنة الرماح استولت عليه حيلة عمرو المدهشة فزقته شذر مذر ، وقطعته إرباً إرباً وجعلته هباء منثوراً

اجتمع الحكمان أبو موسى الاشعري وعمرو بن العاص فقال عمرو لأبي موسى إن أهل الشام يكرهون عليًّا ، ولا يمكن أن ينصبوه خليفة عليهم أبداً . وإن أهل العراق يكرهون معاوية فعلينا أن ننقذ الناس من الفتنة التي توشك أن تقضي على المسلمين جميعاً ، وعلينا ان نبعد معاوية عن هذا الامر ، ونخلع عليًّا من الخلافة ، ونترك الناس احراراً يختارون من شاءوا خليفة عليهم ، فوافق ابو موسى على ذلك ، ثم قدّم عمرو بن العاص أبا موسى ليتكلم اولاً تكريماً له واعترافاً بفضله فخلع ابو موسى عليًّا وأقره بعد ذلك عمرو ولكنه ثبت صاحبه ، وبذلك ضرب عليًّا الضربة الاخيرة القاضية ، وبايع اهل الشام معاوية بالخلافة ، ومكث علي مدة حاول فيها ان يجمع شتات جيشه ليعيد الكرة على معاوية ، فلم يطل الله في اجله

ثم تتابعت الحوادث فقتل علي بعد أن ذهب عمرو الى فتح مصر ولما فتحها جعلها له معاوية طعمة فأقام بها حتى مات فيها . فنحن اذا تصفحنا تاريخ عمرو بن العاص ، نجد انفسنا ننتقل من فكرة ناضجة الى فكرة أنضج منها ، ومن حيلة غامضة الى حيلة أغمض منها ، ومن خدعة ملتوية الى خدعة اكثر منها التواء ، وهكذا نجد عمرو بن العاص عاش طول حياته ذا ذهن جبار ، وعقل ناضج ، وحيلة منقطعة النظير

المراجع — (١) حسن المحاضرة للسيوطي (٢) الاغاني لابي الفرج (٣) ابن الاثير (٤) كتاب الدكتور حسن ابراهيم



المؤتمر الدولي للمواصلات

السلكية واللاسلكية

التأم في القاهرة في اواخر يناير المؤتمر الدولي للمواصلات السلكية واللاسلكية، وقد اتيح لنا مقابلة بعض اعضائه من رؤساء الوفود وخبرائها الفنيين فخلصنا من الحديث معهم الى الحقائق التالية

المؤتمر في الواقع مؤتمران احدهما للتلغراف والآخر للراديو . لاولهما لجنتان وللثاني ثلاث لجان تتناول في بحثها أجور الرسائل وقواعدها وتوزيع الامواج اللاسلكية على الاغراض المختلفة التي تحتاج اليها

مشكلة مؤتمر الراديو

والمشكلة الكبرى التي يواجهها قسم الراديو من المؤتمر هي توزيع الامواج . فباتساع نطاق الاذاعة اللاسلكية لاغراض التسلية والتثقيف والدعاية زاد الطلب على الامواج القصيرة — وهي اصلح الامواج للاذاعة — لاستعمالها في هذا الباب . ولكن هناك اغراضاً اخرى لا بد لها من هذه الامواج . فثمة الطيران التجاري ومعظم الطائرات ان لم نقل جميعها مجهزة باجهزة لاسلكية للاذاعة والالتقاط فهي تتلقى من المحطات الارضية المختلفة في المطارات وغيرها انباء الجو وتقلبه في كل ساعة من ساعات الطيران وتبعث برسائل من قبلها تستعلم بها عما تريد من الشؤون الفنية وهي في الحالين لا تستغني عن الاذاعة والالتقاط حرصاً على سلامة الركاب . وقد اتسع نطاق الطيران التجاري في السنوات الاخيرة اتساعاً عظيماً وينتظر ان يطرد هذا الاتساع بل ان السناتور هوايت رئيس الوفد الاميركي مقتنع الاقتناع كله بان انتظام السفر الجوي فوق المحيط الاطلنطي قريب التحقيق . ولا بد لطائرات الخط الاطلنطي حينئذٍ من الاعتماد على الراديو في تأمين سلامة الركاب

واذن فالمنطقة الخاصة بالطيران من الامواج اللاسلكية القصيرة قابلة للاتساع لا للضيق وذلك لاستعمالها في المحافظة على حياة الناس وهو أهم من الاذاعة للتسلية او الدعاية او حتى للتعليم

وما يقال عن الامواج اللازمة للطيران

يقال بوجه عام كذلك عن الامواج اللازمة للسفن التي تجوز البحار . فان سلامتها وسلامة ركابها تقتضي ان يخصص لها منطقة معينة من الامواج اللاسلكية القصيرة تستطيع الاعتماد عليها وتكون دائماً في خدمتها

***

ولكن منطقة الامواج اللاسلكية القصيرة محدودة . وهنا لبُّ المشكلة الفنية التي يواجهها المؤتمر فالمطلوب لمحطات الاذاعة العامة من هذه الامواج لا يمكن ان يتاح لها الآن من احد طريقين . إما ان يؤخذ من الامواج المخصصة لخدمة الطيران والملاحة وما شاكلهما وهي تعرف باسم « الخدمات المتنقلة » وأما أن يتوصل العلم الى توسيع منطقة الامواج القصيرة . ولا يمكن ان يقال أن العلم عاجز اطلاقاً عن ذلك . ولكن الحالة كما هي الآن تجعل التوفيق بين طلبات محطات الاذاعة العامة ومقتضيات الاذاعة الخاصة بالخدمات المتنقلة والموازنة بينها عملاً دقيقاً ، وهو لب المهمة الملقاة على اللجنة الثالثة من لجان مؤتمر الراديو

مشكلة مؤتمر التلغراف

أما في مؤتمر التلغراف فالمشكلة البارزة تختلف عما تقدم لانها مشكلة مالية اقتصادية في المقام الاول اي أنها مشكلة فنية فقط بالمعنى الاقتصادي . ذلك ان القائمين باعمال التلغراف سواء أكانت الهيئات القائمة بها هيئات حكومية ام هيئات خاصة يهمها ما يمكن ان ترجحهُ من الخدمة التي تسديها للامم اذ تربطها بعضها ببعض بطرائق المخاطبات السريعة المكتومة المضبوطة . يقابل هذا ان هناك هيئات عامة أخرى كهيئة مراسلي الصحف وهيئة ارباب الاعمال وغيرهما يهمها ان تكون أجور هذه المخاطبات أقل ما يمكن ان تكون حتى لا يرهق عملها بنفقات كبيرة . فهمة اللجنة الاولى من مؤتمر التلغراف هي التوفيق بين مطالب هؤلاء ومطالب هؤلاء

وقد تفضل السناتور هوايت فبسط لكاتب هذه السطور لماذا احجمت اميركا حتى الآن عن توقيع اتفاق التلغراف الدولي . ذلك إن جميع اعمال التلغراف في اميركا في أيدي شركات تترك لها الحكومة كامل الحرية في تصفيف الرسائل التلغرافية وتعيين الاجور وكل ما يتعلق باعمالها الادارية وانما للحكومة سيطرة رقابة عليها فقط فلا تتدخل في أعمالها الاَّ إذا رأت منها ميلاً الى التحكم والاستغلال اللذين يجعلانها في مرتبة الشركات المحتكرة . فتوقفها عند حدها وتردها الى الصراط السويّ . أما اتفاق التلغراف الدولي فيتدخل في تفاصيل الاعمال الادارية التي تأبى الحكومة الاميركية وفقاً لمبدإها ان تفرضها على الشركات الخاصة . ولو اكتفى الاتفاق الدولي بتقرير المبادىء العامة لما رأت الحكومة الاميركية مانعاً يحول دون توقيعه

هذا من الوجهة النظرية . أما من الوجهة العملية فجميع شركات التلغراف الاميركية تعمل وفقاً لقواعد الاتفاق الدولي عندما تكون اعمالها خارج الولايات المتحدة الاميركية

العالمان بيلان وبيرو

من متع الحياة الصحافية ان توالي الكتابة عن أقطاب عالميين فتروي لقرائك ما تيسر من اعمالهم ومباحثهم وتطالع في الكتب والمجلات آثارهم وآراءهم ثم تتاح لك فرصة الالتقاء بهم فترتفع الكلفة اذ يلتقي النظر بالنظر لانك في الواقع كنت تعرفهم حقًّا ذلك ان معرفة الرأي والخلق أعرق وأتم من معرفة الوجه والقسمات

لذلك كانت الامسية التي قضيناها في حديث مع المسيو بيلان المخترع الفرنسي المشهور والمسيو بيرو العلامة المتيورولوجي الكبير من فرص الحياة النادرة فالاول مخترع الطريقة الاولى لنقل الصور الفوتغرافية بالتلغراف وهو اختراع يرتد الى ثلاثين سنة وقد وصفناه في مجلتنا المقتطف. فما وقعت العين على العين حتى ارتفع حاجز الكلفة بيننا وجلسنا نتحدث في ذلك الاختراع الطريف ونواحي استعماله في الصحافة العصرية

والثاني من اولئك الافذاذ الفرنسيين الذين يدرسون في الوقت الحاضر قوام الجو الكهربائي بوساطة الامواج اللاسلكية يطلقها في الجو فترتفع في الفضاء ثم تنعكس مرتدة الى الارض فتلتقط في مواقع مختلفة فاذا خصائصها قد تغيرت ، ومن وجوه التغير التي تصيبها يستنتج بعض خواص الجو في طبقاته العليا ولا يكتفي بذلك بل يعد اجهزة مختلفة لتدوين الحرارة والارتفاع وغير ذلك من خواص الهواء ويضعها في بلونات تنطلق في الجو فترتفع وترتفع حتى تنفجر البلونات فتسقط الاجهزة الى الارض معلقة بمظلة تقيها خطر التحطم عند السقوط وحاملة المعلومات التي دونت فيها في اثناء الصعود ، وبطاقات عليها العنوان الذي يجب ان ترسل اليه. وقد بلغ ارتفاع اعلى هذه البلونات محلقاً ٢٥ الف قدم او اكثر

بل أغرب من ذلك انهُ وضع في بعض هذه البلونات جهازاً لاسلكيًّا للارسال ووصله بالاجهزة المتيورولوجية فأصبح البلون يرسل الى الارض المعلومات التي تدوّنها الاجهزة من تلقاء نفسها رويداً رويداً فتدوّن على الارض وتدرس

نقل الصور التلغرافي

وقد انبأنا المسيو بيلان باتساع نطاق الاستعمال لجهازه المعروف باسمه (بيلانوغرام) في الصحافة في فرنسا وانكلترا وغيرهما . ومن محاسن الصدف انا عدنا الى البيت بعد الاجتماع به فاطلعنا في جريدة النيويورك تيمس الصادرة يوم ٢٣ يناير على صورة حضرة صاحبي الجلالة الملك فاروق والملكة فريدة بعد الزفاف . منقولة بالتلغراف من احدى مدن اوربا الى نيويورك ونرجح ان الاصل نقل من القاهرة الى لندن او الى غيرها من مدن اوربا بالطيارة

ومما روي لنا ان صورة مصرع الملك اسكندر اليوجوسلافي والمسيو بارتو الفرنسي في مرسيليا سنة ١٩٣٤ نشرت في صحف باريس بعد الحادثة بخمس وثلاثين دقيقة

وسألنا المسيو بيلان عن سبب تأخر التلفزة في فرنسا عنها في انكلترا واميركا فقال ان كل اختراع جديد ناحية من التقدم يختص بها البلد الذي يتم فيه الاختراع ولا يتاح للبلدان الاخرى مجاراته فيه الا بعد زمن

وعلى كل حال فان اساليب التلفزة المستعملة الآن على ما فيها من البراعة والاتقان قد لا تكون السبيل الاوفى الى تحقيق التلفزة على أتم وجه واذاعة استعمالها . ومن هذا القبيل العقبات الفنية التي لا تزال تحول دون ذلك كوجوب تنقيل الجهاز المرسل الى مكان الحوادث الكبيرة التي ينتظر الجمهور مشاهدتها واخرى اقتصادية كغلاء اسعار الاجهزة وهذا الرأي يطابق في مجمله ما سمعناه من خبراء الراديو في الوفد الاميركي في المؤتمر الحالي

وقد قال لنا المسيو بيلان انه كان مرة في برلين فاتصل بصديق له بليبزج بالتلفون التلفزي فرأى صاحبه وصاحبه رآه فانحنى كل منهما للآخر وهو يكلمه ويشاهده وأراد المسيو بيلان ان يقدم زوجته الى صديقه ودعاها فأبت قائلة « إن ذلك يخيفني »

والغالب ان عناية المسيو بيلان بالمؤتمر ناشئة عن عنايته بما ينتظر ان يصيب اجور النقل التلغرافي الخاص بالصور من تغيير وتبديل

خارطة الجو المتقلب

أما عناية المسيو بيرو به فأعرق وأوثق . ذلك انه على كونه باحثاً علمياً في قوام الجو الكهربائي يرئس اللجنة الدولية للظواهر الجوية الخاصة بالطيران التي مقرها باريس ومهمة هذه اللجنة ان تعد خارطة للجو الدائم التقلب عدة مرات كل يوم ثم تذيعها في فترات قصيرة بالراديو فتتصل معلوماتها بالمطارات والطائرات المحلقة فتعرف حالة الجو في مسارات الطيران المختلفة . ولا بدّ لهذا العمل من تبادل المعلومات بالراديو بين محطات متباينة المواقع لجمعها واعداد الخارطة الجوية ثم اذاعتها

ان القيام بهذا العمل الحيوي للطيران يقتضي أن تخصص له منطقة من الامواج للاذاعة تكون خاصة به دون غيره من الاعمال حتى لا تختلط الاذاعة ولا تشوش . وقد بلغ التقدم فيه في العهد الاخير مبلغاً عظيماً فتذاع خريطة جوية كاملة مرة كل ثلاث ساعات ويبلغ عدد الكلمات او مجموعات الحروف التي تتبادلها محطات الظواهر الجوية كل يوم نحو خمسين الف كلمة

فهو هنا ليدافع عن استقلال العمل الذي يشرف عليه بأمواج خاصة به والتوسيع نطاق هذه الامواج قليلاً اذا أمكن

***

حديث الدكتور جوويت

من حسنات المؤتمر الدولي للمواصلات السلكية واللاسلكية انه كان الباعث على قدوم طائفة كبيرة من العلماء والمشتغلين بالبحث العلمي تنقيباً وادارة الى مصر . وقد سبق أن اشرنا في ما تقدم الى العالمين الفرنسيين بيلان وبيرو وموضوع هذا الحديث رجل يرجع اليه جانب كبير من الفضل في البلوغ بوسائل المخاطبات الكهربائية ولاسيما التلفونية

منها في الولايات المتحدة الاميركية اعلى مراتب الارتقاء — اعني الدكتور جويت وكيل شركة التلغراف والتلفون الاميركية

واذا علمت ان هذه الشركة تملك بواسطة الشركة المركزية في نيويورك وفروعها السبعة عشرة او الثمانية عشرة في سائر انحاء البلاد الاميركية نحو ثلاثة ارباع اجهزة التلفون المستعملة في اميركا وهي تزيد على عشرين مليوناً، وان الدكتور جويت هو الذي انشأ قسم المباحث العلمية فيها ونظمه ورقاه حتى صار يضم خمسة آلاف من الباحثين واتباعهم نصفهم من الباحثين المتخرجين في كليات العلوم من شتى جامعات اميركا — اذا علمت ذلك ادركت ان لهذا الرجل مقاماً فذاً في هذه الناحية من نواحي الحضارة الحديثة وان ما يكرم به من الحقائق عن تقدم التلفون ونقل الصور التلغرافي والتلفزة في اميركا جدير بأن يسطر ويقرأ

وهو علاوة على ذلك صديق لطائفة من اكبر علماء اميركا ورئيس لبعضهم فملكن المشهور في مباحث الذرة والاشعة الكونية خدنه واعز صديق له، وكذلك كان ميكلصن الذي قاس سرعة الضوء في العصر الحديث ادق قياس وقام بتلك التجربة المشهورة التي بنيت عليها نظرية اينشتين، وبوبن الذي جعل التلفون بعيد المدى ممكناً، وادبصن الغني عن التعريف. ثم ان دافيسون الذي نال جائزة نوبل الطبيعية في السنة الماضية من اقطاب رجال البحث في قسم المباحث الذي انشأه جويت ونظمه

لذلك كانت الساعة التي قضيناها في الاصغاء الى هذا العالم المتواضع في حديثه الى حد الحياء، المبسط لادق المباحث الكهربائية باقوال وتشبيهات تقربها من الذهن من المتع النادرة التي قلما ننساها

الرسائل المتعددة على سلك واحد

سألت الدكتور جويت في مقدمة الحديث عما بلغه ارسال الرسائل التلفونية المتعددة على سلك واحد ذهاباً واياباً من الارتقاء قائلاً اني كنت قرأت عن خط انشيء من سنوات بين مدينتين من مدن اميركا ينقل اربع مخاطبات تليفونية على سلك واحد في وقت واحد. فابتسم وقال: اننا قد تخطينا هذه المرتبة الآن وصار من المألوف عندنا نقل محادثات يتباين عددها بين اثنتي عشرة محادثة وست عشرة محادثة في وقت واحد بل ليس ما يمنع ان تنقل خمسمائة محادثة في وقت واحد لولا ان النفقة باهظة الآن تحول دون شيوع الطريقة الخاصة بها

فقلنا أفي وسع المحدّث الكريم ان يبسط لنا بكلام قريب من الفهم السر العلمي الذي يتيح لكم مثل هذا العمل العجيب

فعمد الى التشبيه. قال افرض ان امامك طريقاً وان عند طرفي الطريق سلسلة من الأبواب. فمن باب واحد يدخل غنم لوّن صوفه باللون الأحمر ومن باب ثان يدخل غنم لون صوفه باللون الازرق ومن الثالث غنم لون بالاخضر ورابع بالاسود وهكذا. فكل باب من هذه الابواب لا يسمح إلاَّ بدخول صنف من الغنم ملوّن بلون خاص. ولكن عندما يجوز الغنم الابواب ويسير في الطريق حيث لا حوائل ولا حواجز تختلط الاحمر بالازرق بالاخضر بالاسود. ثم يقبل الغنم على آخر الطريق فلا يستطيع ان يخرج كله من باب واحد

ولكنه لا بد للاحمر منه ان يخرج من الباب الخاص به وكذلك الاخضر والازرق والاسود . فأنت اذا نظرت الى الطريق نفسه ورأيت الغنم فيه رأيته مختلطاً بعضه ببعض ولكنك اذا وقفت أمام الابواب التي في منتهى الطريق رأيت كل صنف خاص خارجاً من الباب الخاص به

وكذلك في المحادثات التلفونية المتعددة السائرة على سلك واحد . فكل رسالة منها منقولة بتيار ذي موجه ذات تذبذب خاص تدخل السلك من باب اي من جهاز معين فاذا أصبحت جميعها سائرة في السلك اختلط بعضها ببعض بحيث اذا وصلت سماعة تلفونية بمنتصف السلك لم تسمع الا لغطاً مشوشاً لا معنى له ولا فائدة فيه . ولكن اذا انتهت الرسائل جميعها الى آخر رحلتها أصابت أجهزة بمنزلة الابواب كل جهاز منها لا يسمح الا لنوع واحد من الذبذبات الكهربائية بالمرور وكذلك تنفصل الرسالة الواحدة عن الرسائل الاخرى وتسير تواً الى الجهاز التلفوني الذي وجهت اليه

وليس هذا النوع من الارسال خاصاً بالمحادثات التلفونية ومقتصراً عليها بل هو صالح للرسائل التلغرافية كذلك ولنقل الصور التلغرافي بل ليصلح السلك الواحد لنقل محادثات تلفونية ورسائل تلغرافية وصور بالتلغراف في وقت واحد مادامت جميع هذه العمليات تحول الى ضرب واحد من الطاقة هو الامواج الكهربائية المختلفة الذبذبات

نقل الصور الفوتوغرافي

ولما كنت مشتغلاً بالصحافة فقد همني بوجه خاص ان اعلم ما بلغه نقل الصور التلغرافي في اميركا من الارتقاء . وفي هذا الموضوع كان حديث الدكتور جويت حديثاً عجباً . ذلك ان هذا الضرب من المواصلات الكهربائية بلغ في الولايات المتحدة أعلى مراتب الارتقاء . فشركة (الاسوشيتدپرس) مثلاً تملك سلكاً خاصاً مدته لها شركة التلغراف والتلفون الاميركية وهو ينطق الولايات المتحدة كلها على من فيها من شاسع المسافات فتستقبل الصور المرسلة اليها وترسلها الى فروعها وعملائها من الصحف في كل ساعة بل في كل دقيقة من ساعات النهار والليل ودقائقهما . وهي لا تختلف عند التقاطها عن الصور الفوتغرافية دقة ووضوحاً . ونقلها طبعاً أغلى من ارسالها بالبريد والطيارة ولكن الاجر ليس فاحشاً . ولما كانت شركة التلغراف والتلفون تتقاضى من الاسوشيتدپرس جعلاً معيناً في السنة على استعمال السلك فلم يكن في مستطاع الدكتور جويت ان يذكر لي ما يكلفه نقل البوصة المربعة من الصور العادية

ثم هناك نظام آخر لنقل الصور يعرف بالنظام الثانوي تنقل به الصور على اسلاك التلفون والتلغراف العادية وميزة هذا النظام في أن اجرة النقل أقل ولكن الصور لا تبلغ مبلغ الصور المنقولة بالسلك الخاص من الوضوح ولكنها واضحة وضوحاً كافياً لاغراض الصحف

والخطة التي تجري عليها شركات الصور الصحافية ان ترسل صورها بالبريد الى أقرب عملائها وبالطيارة الى من كان أبعد من هؤلاء ثم بالتلغراف الى ابعدهم عن مقرها

عوائق تقدم التلفزة

وسألته عن التلفزة او الرؤية عن بعد فقال ان العائق دون انتشارها الآن عائق اقتصادي على الغالب. فان مجرد رؤية المغني او المحدث يقتضي انفاقاً اضافياً على البرنامج لاعداد المشاهد والملابس وهو ما لا تقتضيه الاذاعة اللاسلكية. وهذا يجعل نفقة تحضير البرامج كبيرة. اما المشاهد العامة كحفلة ملاكمة او مصارعة او سباق او تنصيب الرئيس او ما كان من قبيلها فتستعمل في نقلها طريقتان: الاولى. نقل التلفاز المرسل الى مكان الحادث واذاعة مشاهده وهي حادثة فيراها اصحاب التلافز اللاقطة عند حدوثها تماماً. وإما ان يؤخذ لها فلم سينمائي ثم بعد انقضاء الحادث بقليل يذاع هذا الفلم من التلفاز المرسل فيراه اصحاب التلافز اللاقطة وهذا ليس بالتلفزة الصحيحة لانه لا يذيع المشاهد عند حدوثها تماماً ولذلك يمكن وصفه بالتلفزة الثانوية

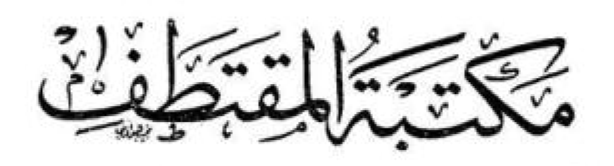
ومن النواحي العلمية الخاصة بالتلفزة ان اللوح المستقبل كان في عهد التلفزة الاول يشتمل على مصابيح متعددة كل مصباح يقابل كل بقعة صغيرة من النور تقع على الجسم المتلفز (بفتح الفاء) فعندما تقع شعاعة النور على جزء صغير من الخد مثلاً ينار في لوح الجهاز اللاقط مصباح يقابلها وهكذا الى ان تتم الصورة بسرعة يجب ان تكون عظيمة

وقد قال لي الدكتور جويت انهم جربوا في عهد التلفزة الاولى نقل المشاهد المتلفزة بين وشنطن ونيويورك من نحو ١٢ سنة فكان في لوح الجهاز اللاقط ستة آلاف واربعمائة مصباح ولكنهم الآن استبدلوا باللوح المؤلف من مصابيح متعددة بلوحٍ متألق فما تقع على بقعة منه شعاعة الضوء او شعاعة من الكهيربات حتى يتألق مكانها فاذا اجتمعت الوف من هذه البقع المتألقة بسرعة عظيمة نشأت على اللوح صورة هي طبق الاصل للاصل المتلفز

الخدمة العامة السريعة

وللدلالة على مبلغ ما ادركته شركة التلغراف والتلفون العامة باميركا من الشأو البعيد في تحقيق غرضها وهو الخدمة العامة للمشتركين وجمهور المتكلمين دون ان يحدث اي تأخير في محادثاتهم ولو كانت بعيدة المدى، انه استطاع ان يطلب رقم ولديه التلفوني — وهما في كاليفورنيا — قبل سفره من نيويورك فتم الاتصال التلفوني بينهما في ثلاثين ثانية مع ان المسافة تزيد على ثلاثة آلاف ميل. وروى لي قصة اخرى عن جار له ذهبت زوجه في مهمة الى بلدة صغيرة في احدى الولايات المتوسطة الشمالية ولم يأته نبأ وصولها. والبلدة لا يتجاوز عدد سكانها المائتين. فسأل الدكتور جويت ما يمكن ان يعمل فقال نحاول الاتصال بها بالتلفون ولم تنقض دقيقة حتى كان الزوج يحدث زوجته مع انها كانت مقيمة عند احد اهلها في بيت منعزل بعد عشرة اميال عن تلك البلدة الصغيرة

هذا التقدم العلمي الراجع الى البحث العلمي الدقيق وهذا التنظيم الكامل وهذه الخدمة العامة السريعة جعلت للمواصلات التليفونية في اميركا اكبر شأن في حياتها الخاصة والعامة وقد كان للدكتور جويت ولاعوانه ولقسم المباحث الذي نظمه اكبر الاثر في كل ذلك. فالساعة التي قضيناها نصغي اليه كانت من ساعات العمر



تاريخ اليهود ليوسف بن كريون

Geschichte der Juden des Josef Ben Gorion

أخرجه ووقف على ضبطه وشرحه وطبعه ، من مخطوطات برلين و لندن واكسفورد وباريس واستراسبورج الدكتور مراد كامل مبعوث الجامعة المصرية في المانيا

(المقدمة بالالمانية في ٤٨ صحيفة ، والمتن والفهارس في ٢٣٤ صحيفة باللغة الحبشية ، ومن قطع المقتطف . وعدد اللوحات المصورة ١٢ . الناشر J. J. Augustin بغيبورك)

عمل جليل لم يكن يقدم على مثله حتى السنين الاخيرة الا شيوخ المستشرقين ، ولكنه اليوم ثمرة جهود زميل مصري نابه هو الدكتور مراد كامل، الذي أوفدته الجامعة الى أوربا منذ زهاء ست سنوات ليتخصص في دراسة اللغات السامية على أساتذتها في المانيا ، ويعرف القراء انهم أعلى المستشرقين كعباً وأغزرهم علماً في هذا الميدان

درس الدكتور مراد في جامعة توبنجن Tübingen على الاستاذ الدكتور ليتمان Littmann مدير القسم الشرقي فيها وعضو مجمع اللغة العربية الملكي كما درس في جامعة برلين على الاستاذ Mittwoch ،وفي غيرها من جامعات المانيا، واتصل بجل الاساتذة المشتغلين باللغات السامية ، ثم اختار موضوعاً لرسالته في الدكتوراه نشر الترجمة الحبشية لكتاب يوسفوس في تاريخ اليهود

ويعرف كثير من القراء ان يوسفوس هذا — او يوسف بن كريون — مؤرخ يهودي مشهور ، وُلد في بيت المقدس سنة ٣٧ او ٣٨ ميلادية . وكانت أسرته من كبار الكهنة فعنيت بتعليمه ، وكان ذكيًّا سريع الدرس والتحصيل حتى قيل انه كان حجة في علوم الدين اليهودي منذ كان في الرابعة عشرة من عمره وقد اتبع يوسفوس في التاسعة عشرة من عمره مذهب الفريسيين (وهم شيعة يهودية نشأت في القرن الثاني قبل الميلاد وامتاز اتباعها بشدّة تمسكهم بقواعد الدين وبالتقاليد القديمة والمظاهر الخارجية للعبادة والتقوى) وسافر الى روما حين كان في السادسة والعشرين من عمره ليسعى في الافراج عن بعض القسوس الذين قبض عليهم والي الشام وأرسلهم الى روما لمحاكمتهم في تهم ليست خطيرة الشأن ، ولقي يوسفوس حظوة لدى صديقة للامبراطور نيرون فشفعت له عند العاهل الجبار حتى أطلق سراح الكهنة ، وأغدقت الهدايا على يوسفوس ، ثم عاد الى الشام فوجد ان اليهود قد عقدوا العزم على التخلص من حكم روما ، ولم يقبل في البداية ان يشجع هذه الحركة لعلمه بسلطان روما وصعوبة التغلب عليها ، ولكن لم يلبث ان جرفه التيار فانضم الى الثوار . وولاه

مجمع اليهود في بيت المقدس على مقاطعة الجليل ، وحارب الروم فحاصروه في مدينة يوتاباط ، ولما سقطت المدينة في أيديهم ووقف يوسفوس أسيراً بين يدي فسبانيوس قائد الروم ، قال انه رسول أوقعته العناية الربانية أسيراً ليتنبأ للقائد بأنه سيرتقي عرش روما بعد نيرون ، وأبقاه القائد حتى تحققت نبوءته فأكرمه واستصحبه الى روما حيث عاش وعكف على التأليف حتى توفي في أول القرن الثاني الميلادي

وكتاب تاريخ اليهود الذي نحن بصدده الآن ، مكتوب بالعبرية وله ترجمة عربية (تاريخ يوسفوس اليهودي — المكتبة العمومية لسليم ابراهيم صادر ببيروت) كما ان له ترجمة حبشية. على ان النسختين العبرية والعربية ليستا متفقتين تمام الاتفاق ، وأكبر الظن ان النسخة الحبشية مترجمة عن النسخة العربية لأنها تكاد ان تكون ترجمة حرفية لها

وكانت حاجة الدوائر العلمية المشتغلة باللغات السامية ماسة الى نشر النص الحبشي ، فقد كان المطبوع منه لا يتجاوز صفحات معدودة ، على الرغم من ان له شأناً تاريخيًّا خطيراً

أما الدكتور مراد فقد نشر اليوم هذا الكتاب نشراً علميًّا صحيحاً ، فراجع نسخه المختلفة ، وقارن بعضها ببعض ، وأثبت نتائج مراجعته في هامش الكتاب بعد ان رمز لكل نسخة بحرف من حروف الابجدية ، بل انه كتب له مقدمة ثمينة بالالمانية ، أثبت فيها النتائج التي وصل اليها من مقارنة النسخة الحبشية من كتاب يوسفوس بالنسختين العبرية والعربية . وقد قال صديقنا الدكتور في مقدمته هذه ان مخطوطات هذا الكتاب في الحبشية ترجع الى القرن السادس عشر الميلادي وأكبر الظن انها نقلت عن العربية في نهاية القرن الثالث عشر او بداية القرن الرابع عشر الميلادي ، فالمعروف ان العصر الذهبي لترجمة المؤلفات العربية الى الحبشية كان بين سنتي ١٢٧٠ و ١٤٣٠ تقريباً

وألحق الدكتور مراد بالكتاب فهارس للأعلام وفهارس للأماكن وبياناً برؤوس الموضوعات . وقصارى القول ان نشر هذا الكتاب على النحو العلمي الصحيح دليل قوي على ان كلية الآداب تؤدي رسالتها العلمية على أطيب وجه . ففي آخر السنة الماضية أصدرت لجنة التأليف والترجمة والنشر كتاب أخبار أبي تمام الذي نشره وحققه وعلق عليه الزميلان خليل عساكر ومحمد عبده عزام من خريجي كلية الآداب ومعهما الاستاذ الهندي نظير الاسلام وقد كتب الاستاذ الجليل أحمد أمين « ان هذا الكتاب خير الامثلة لما ينبغي ان يكون عليه النشر » واليوم يظهر في عالم المستشرقين كتاب تاريخ اليهود بالحبشية على يد زميلنا مراد كامل ، وقد سمعت عن عمله في نشر هذا الكتاب ثناءً ليس بعده ثناء ولاسيما من أستاذنا ليتمان

وان كان ثمة ما نأخذه على صديقنا الدكتور مراد فهو انه لم يعن في مقدمته حق العناية بتعريف المؤلف وبيان ما لكتابه من خطير الشأن

دار الآثار العربية زكي محمد حسن

اعتقادات فرق المسلمين والمشركين

للامام فخر الدين الرازي — بمراجعة وتحرير علي سامي النشار — ومعه بحث في الصوفية والفرق الاسلامية لفضيلة الاستاذ الشيخ مصطفى بك عبد الرازق — ١٠١ص . ٢٤×١٦

إن ميزة رسالة الرازي أن صاحبها — على قول فضيلة الاستاذ مصطفى بك عبد الرازق — عُني بتمييز مذهب الصوفية باعتباره مذهب فرقة مستقلة وبتبيين فرقهم الفرعية بعد ذلك فسدّ نقصاً وتدارك ما فات من ألّف قبله في الفرق الاسلامية. قد ورد هذا القول في سياق البحث الذي عمله الاستاذ مصطفى بك عبد الرازق (ص ٦ — ١٦) وهو بحث دقيق يشف عن دراية واسعة بما يتصل بالصوفية وعن اطلاع شامل على ما قيل فيها من حيث أنها فرقة من فرق الاسلام . وكان فضيلة الشيخ عبد الرازق قد اتى هذا البحث محاضرةً في مؤتمر تاريخ الاديان المنعقد بليدن سنة ١٣٥١ هـ (١٩٣٢ م)) ، فجاء دلالةً حافلةً على براعة أستاذ من اساتذة الجامعة المصرية في معالجة المسائل الاسلامية اللاحقة بالشؤون الدينية

والاستاذ مصطفى عبد الرازق ممن يعمل للعلم الخالص في جد وأمانة . ومن حسنات هذا العالم أنهُ أول من نظر في رسالة الرازي مخطوطة فوصف مضمونها واستخلص ما فيها ، ثم جاء تلميذ من تلاميذه من بعده ينشرها اتماماً للفائدة وتعميماً لها . وقد اعتمد الناشر وهو الاستاذ علي سامي النشار على مخطوطتين احداهما مخزونة في الخزانة التيمورية في القاهرة والاخرى في خزانة مدينة ليدن في هولندة . وهو يصفها لنا في مقدمة موجزة (ص ١ — ٥) ثم يبسط لنا المنحى الذي انتحاه في التدقيق فالنشر . ثم رأى بعد هذا أن يدوّن ترجمة فخر الدين الرازي ويثبت تصانيفه (ص ٢٦ — ٣٤) مستنداً الى اوثق المصادر المعروفة

أما الرسالة نفسها فجليلة على قلة صفحاتها وايجاز عباراتها وقد نشرها الناشر على أحسن وجه ، لولا سقطات أستأذنهُ في التنبيه على بعضها :

ص ٦٠ ، س ٩ : ودعى الخلق الى نفسه — والوجه : ودعا (عارض ص ٦٣ ، س ٦)

ص ٦٢ ، س ١٣ : فلما علم المختار إنه — والوجه : أنه

ص ٦٧ ، س ٦ : وهو فرق كثيرة — والوجه : وهم (عارض ص ٧٢ ، س ٦)

ص ٧٤ ، س ٥ : وهو الأشر من الطوائف — والوجه : وهؤلاء شر الطوائف (انظر روايات الحاشية)

ص ٧٧ ، س ١٠ : وأول تملك منهم بمصر — والوجه : وأول من .. (انظر رواية الحاشية)

ص ٨٣ ، س ١١ : وما عداهم من اليهود يؤمنون بالتورية وغيرها من كتب الله — والوجه : بالتوراة (انظر رواية الحاشية)

ص ٩٢ ، س ١١ : ولم تزل تلامذتي ولا تلامذة والدي — والوجه : تلامذتي وتلامذة (انظر رواية الحاشية)

ص ٩٣ ، س ٦ : لما كان كليم الله . . أن مع حججه الباهرة يقول . . — والوجه : حذف « ان » (كما في رواية الحاشية)

ثم ان الناشر عمل للاعلام فهرساً (ص ٩٥ — ١٠١) ، فأخرج بكل ما بذل كتاباً يدخل في جانب المؤلفات العلمية ب. ف.

المجموعة السنوية لمراجع علم الآثار والفن الاسلامي

Annual Bibliography of Islamic Art and Archeology

الجزء الاول ٦٤ صفحة لعام ١٩٣٥ · بيت المقدس

نشرها الاستاذ ل . ا . ماير وقام على تحريرها الاساتذة جعفر عبد القادر ومحمد أغا أوغلو والدكتور زكي محمد حسن وفيرا كراتشكوفسكايا والدكتور كارل لام وعبد الرزاق لطفي وفان دي بوت وفوجل وواكر وغيرهم

اهم ما يحتاج اليهِ الباحث والمؤلف ومحب الاطلاع ان يجد بسهولة وبدون عناء المصادر الفنية التي يستقي منها مادة كتابتهِ . ولاسيما بعد ان تنوعت مواد المعرفة ونمت الدراسات العلماء والفنية والادبية نمواً كبيراً كما نضجت وسائل البحث والاطلاع . وأية ذاكرة مهما تكن قوية لا تتسع لاستيعاب كل ما كتب في موضوع خاص ؟

لذلك اتجه فريق من الباحثين الذين وهبوا فضيلة الصبر وسعة الاطلاع الى جمع المراجع وتنظيمها بحسب اقسامها للاعتماد عليها والرجوع اليها

ولقد اخذ الاستاذ المستشرق ماير (L. A. Mayer) على عاتقه اخراج مجموعة سنوية لمصادر علم الآثار والفن الاسلامي ظهر منها الجزء الاول لتسجيل كل ما يكتبه العلماء والهواة والباحثون من كتب ومقالات ومحاضرات . . الخ في العمارة الاسلامية وتخطيط البلدان والمجموعات الفنية والمخطوطات والعملة والملابس والاسلحة والرنوك والتأثيرات الاسلامية والاتنوجرافي والحفريات ... الخ مما ينشر في المطبوعات العالمية التي تبحث في تلك الموضوعات

وقد عاونهُ في اخراج هذا السفر الفريد نخبة من علماء الآثار والفنون الاسلامية اشرنا اليهم في صدر هذا الكلام من مصر وايران والعراق وفلسطين وسوريا وأسبانيا وتركيا وهولنده والسويد وألمانيا وانجلترا ... الخ

والآن فانك ترى قيمة هذا المجهود العلمي النادر الذي بذلهُ الاستاذ ماير والزملاء الافاضل ... فانهم بهذا العمل المجيد قد عاونوا كل مؤلف واثري ومحب للفنون على تسهيل مهمته عند الكتابة والبحث . فنشكر للاستاذ ماير وزملائهِ هذه التحفة النفيسة ونأمل أن نرى المجموعة السنوية الثانية لعام ١٩٣٦ قريباً جداً

عبد الرحمن زكي

سارة

تأليف عباس محمود العقاد — صفحاته ١٩٢ قطع وسط — ثمنه ١٠ قروش

للاستاذ عباس محمود العقاد مكانة ممتازة في أدب اللغة العربية في العصر الحديث بلغها بما اجتمع لهُ من طبع متوقد ونفس مرهفة وعقل يميل الى النقد والتحليل فيتخذها مطية الى الحكمة وهي ضالة الاديب . وهذا كلهُ من السجايا الفكرية والنفسية التي قلما تجتمع في انسان ، فاذا اجتمعت وأسعفها قلم بليغ ، كان لصاحبها المكانة العالية المرموقة

فني شعر الاستاذ العقاد ومضات من شعور نفسهِ المرهفة ، وقلبه الخفاق ، وتأمله الحكيم ، وفي « فصولهِ » و « ساعاتهِ » و « مطالعاتهِ » آثار ذلك العقل الذي وعى من طرائف الآداب الشرقية والغربية ، وطبائع الشعوب ، واتجاهات النفوس ، ونتائج المباحث العالية في العلم والتاريخ والاجتماع ، ما يوحي اليك وأنت تطالعها ان مواكب الفكر العالمي سائرة أمامك وهي مرفوعة الاعلام زاهية البنود . ثم انقلبْ الى « ابن الرومي » و « سعد زغلول » تجد المترجمَ المحقق لشخصية أديب شاعر ، وشخصية زعيم مصلح ، فاذا توغلت في مطالعة فصولها ، رأيت قلم العقاد فيها قلماً منقاداً لعقل متمكن ، كل خطوة يخطوها في التحليل والتعبير ، خطوة راسخة ، صاحبها على ثقة من الطريق الذي يسير فيهِ ، والحجة التي يقصد اليها

الاَّ ان الاستاذ العقاد في كتابهِ « عالم السدود والقيود » ثم في « سارة » — وبخاصة في سارة — هو الكاتب الذي اجتمعت لهُ فنون الشعر والادب والعلم في نطاق كتاب واحد ، ثم أضفى عليها غلالةً من « اختبار الحياة » فتجلت في « سارة » تلك الموهبة الموحَّدة موهبة الاديب الممتاز التي تنطوي فيها وتندمج ، جميع مواهب الشعور والفكر والتأمل التي تقدمت الاشارة اليها

قد يختلف بعض الذين قرأوا « سارة » في هل هي قصة بالمعنى المتواضع عليهِ ، من حيث حوادثها واشخاصها ، والمؤلف لم يقل انها قصة او رواية ولو قال لما ضارهُ ذلك . فاذا كانت حوادثها قليلة فان فيها من الحوادث ما يكفيهِ وسيلة لما يريد من الوصف والتحليل والتغلغل في النفوس والغرائز . واشخاصها الاربعة ولاسيما سارة وهمام وامين ، أشخاص احياء ولو كانوا من بعث الخيال ، رسم الاستاذ العقاد صورهم رسماً دقيقاً لانهُ تغلغل في نفسياتهم فانكشفت له حقيقتها

ولكن الذين قد يختلفون على ما تقدم لا يسعهم ان يختلفوا في ثلاث مزايا تمتاز بها « سارة » . اولاً — توقد الشعور فيها من اولى صفحاتها الى أخراها . وهذا الشعور المتوقد هو الرابط القوي بين اجزائها جميعاً سواء أعمد الكاتب الى وصف المقابلة بين سارة وهمام ام عمد الى وصف الفراغ الذي يحسهُ همام في حياتهِ عندما لا يقابلها . وثانياً — التحليل النفسي الدقيق البليغ لحالة الحبيب والحبيبة في ساعة الرضى وساعة الغضب ، او في فترة الهزل وفترة الجدّ ، او عندما يعمر قلبهُ

اليقين بحبها له وعند ما تساوره الريب في انحرافها . وثالثاً ذلك التعليق الفلسفي الحكيم على جميع هذه الحالات ، وهو تعليق مرده الى العقل ولكنهُ مصحح ومقيد بنتيجة الاختبار . ومن المتعذر ان نسوق للقارئ، فقرات مختارة لنمثل بها على ما تقدم ، فصفحات الكتاب مترابطة وليس بالسهل ان يفك ترابطها وتفصم وحدتها ، ولكننا نقول اننا قرأنا الكتاب مرتين فلم تكن القراءة الاولى بمغنية عن الثانية متعة وفائدة . وأملنا من قارىء هذه الكلمات ان يقرأه

الرد على مستشرق

قد كان المستشرق الفرنسي لويس جوفليه الف كتاباً في سير الحوادث الجارية منذ ١٩٣٠ الى ١٩٣٣ في البلاد العربية . وعنوان الكتاب

Louis Jovelet. L'Evolution Politique et Sociale des Pays Arabes
Edition Geuthner, Paris

وقد نشرت المجلة الالمانية Die Welt des Islams (العالم الاسلامي) في عددها الاخير نقداً باللغة الفرنسية لهذا الكتاب بقلم الدكتور بشر فارس . والذي حمل الدكتور فارس على نقد كتاب ذلك المستشرق انهُ اصاب فيهِ ما لا يجاري الحقيقة . ومن ما آخذه عليهِ قول المؤلف إن مطالبة مصر بالغاء الامتيازات الاجنبية مظهر من مظاهر بغض الاجانب Xenophobia ، فردَّ الناقد ان هذه المطالبة انما هي ترجع الى حقوق المساواة والكرامة القومية. ومن ما آخذه ايضاً قول المؤلف إن التفكير العربي الحديث حقير الشأن وهنا انبرى الدكتور بشر فارس يبسط فضائل ادبنا الحديث ، فذكر اسماء الكتاب والشعراء المبرزين امثال خليل مطران والزهاوي وامثال طه حسين والريحاني وجبران وميخائيل نعيمة والاب انستاس الكرملي والعقاد وهيكل والمازني مشيراً الى خصائص كل واحد منهم . وقد ذهب الناقد الى ابعد من ذلك اذ نبه على السقطات التاريخية اللغوية التي تجول في كتاب المستشرق . والذي يقرأ هذا النقد يأخذه اسلوبه الانشائي المتدفق المدعم بالطريقة العلمية

محاضرات دينية

الارشمندريت بولس الخوري — صفحاتها ٣٢ من قطع المقتطف — مطبعة كوبي بمصر

اصدر سيادة الارشمندريت بولس الخوري رئيس كنيسة رؤساء الملائكة للروم الارثوذكس بمصر كراسة تتضمن ست محاضرات دينية كان قد القاها في الكنيسة على الشعب في موضوعات مختلفة من دينية واجتماعية وأدبية نهج فيها منهجاً حديثاً في تفهيم حقائق الديانة من الوجهة العلمية وبث روح الفضيلة والاخلاق العالية في الجمهور

المسألة الجنسية

تأليف الدكتور اوجست فوريل — دكتور في الطب والفلسفة والقانون — استاذ الامراض العقلية ومدير مستشفى المجاذيب بزوريخ «سويسرا» سابقاً — نقله الى العربية عن الترجمة الانكليزية للطبعة الالمانية الدكتور صبري جرجس — وهو في مجلدين ٢٧٩ ص . و ٢٥٠ على التوالي

تعد المسألة الجنسية من أعقد المشاكل التي تواجه الحضارة الحالية وأكثرها تشعباً وأعسرها حلاً لانها تتصل بالحياة الانسانية في صميمها . وقد حاول المؤلف ان يعرض لها من جميع نواحيها ووفق في ذلك توفيقاً بديعاً وكان في أسلوبهِ واضحاً وصريحاً وجريئاً . وتلك ميزات أكسبت كتابه تلك الاهمية التي يحظى بها في جميع أنحاء العالم المتمدين

ولست أريد ان أدلل هنا على أهمية المسألة الجنسية في الحياة الانسانية ولا على ضرورة بحثها بحثاً جديًّا على ضوء العلم الحديث فتلك أمور أصبحت من البديهيات التي لا تحتاج الى الذكر والتنويه . ولكني أقصد بنقل هذا الكتاب الى العربية أن أعرض امام القارىء ثمرة تجارب رجل يعد من الثقات في علم التناسليات . ولست أطلب من القارىء ان يوافق على كل النظريات والآراء التي يعرضها المؤلف في كتابهِ ولا ان يأخذها كقضية مسلم بصحتها ولكنني أريده ان يجعلها موضعاً لتفكيره ونقده

ولعل الميزة الظاهرة لهذا الكتاب هي أنهُ يعالج الموضوع من مختلف نواحيه ولا يقتصر على بحثه من ناحية واحدة . وهو لهذا السبب يفيد القارىء الذي يريد أن يلم بالمسألة الجنسية من جميع وجوهها . هذا فضلاً عن انهُ يبحث هذا الموضوع الدقيق في صراحة لا تخدش الحياء وبأسلوب علمي سهل واضح

واذا كان المؤلف قد أراد بهذا الكتاب ان يدرس الطبيعة ويبحث نفسية الانسان في حالتي الصحة والمرض فان المترجم قد اراد فضلاً عن ذلك ان يؤدي واجباً يشعر بضرورة القيام بهِ نحو الثقافة الجنسية في مصر . فان اللغة العربية ظلت الى عهد قريب محرومة من كل ما يتناول المسألة الجنسية بذكر قريب او بعيد وبقي الشباب من الجنسين جاهلاً للثقافة الجنسية الصحيحة مع تقدمهِ في مختلف نواحي التفكير الاخرى

والمترجم اذ يقدم هذا الكتاب الى الشباب ليدرك تمام الادراك أنهُ يعرض في الفصول الاخيرة منهُ بعض الآراء التي تخالف التقاليد السائدة ولكنهُ يرجو ان تكون هذه الآراء موضع العناية والتمحيص من القارىء فلا يتعصب لها أو عليها دون تفكير أو بحث

وفي ختام هذه الكلمة يجب ان أعترف بالخدمة الجليلة التي أسداها الدكتور محمد بك شرف الى اللغة العربية فقد كان « قاموس المصطلحات العلمية » عوناً دائماً لي في اختيار اللفظ المناسب لكثير من المصطلحات الغريبة اه من مقدمة المترجم

عقيدة الالوهة

رسالة محمد — المال في الاسلام — بقلم الدكتور أبو شادي

لا يذكر الدكتور أبو شادي الاَّ ويذكر بجانبهِ النشاط العقلي والعملي اللذان يتصف بهما واللذان لايقفان بهِ عند حدّ واحد او اتجاه بذاتهِ . وها هي رسائله الثلاث الاخيرة تشهد له بسعة اطلاع في نواحي دينهِ ، ولكن بعقل العالم وبصيرة الباحث الذي يريد ان يتقصى الحقيقة من وراء البحث والاستقراء . فقد لاحظ ان كثيراً من الاطباء تتزعزع عقائدهم لعجزهم عن التوفيق بين الدين والعلم وذلك راجع لضعف ايمانهم الفطري وسطحية نظراتهم ولأن ازدياد تقدم العلوم اصبح معه التدليل الموروث على وجود الله لا يقنع عقل الباحث المفكر في حين أن الاسلام لم يفقد الادلة العظيمة الحجة التي لا تخالف العلم السليم ولا الاحساس النفسي التي لانها تقوم على ركنين أولها الاحساس الصوفي الفطري : إحساس الجزء بالكل . وثانيهما وحدة الوجود. وقد دلل الدكتور ابو شادي على ذلك في رسالة عقيدة الالوهة تدليلاً علمياً

أما « رسالة محمد » فهي رسالة تمجيدية لنبي الاسلام الكريم أظهر فيها الكاتب ديمقراطية الاسلام وضمان حرية الفكر والتسامح وما كفله النبي الكريم للمرأة من حقوق رفعت من شأنها ونهضت بالعرب من جرائها والحضّ على العلم والمعرفة والعمل وحسن التصرف في نظام الحياة وانتهى من كل ذلك الى أن « رسالة محمد (صلعم) هي رسالة انسانية تقوم على الديمقراطية والبر والتقوى والاخاء الشامل ، ولها في مثاليتها الرفيعة جناحان أحدهما وجداني والآخر عملي يأخذ بقوانين الحياة ، وقوتها متصلة بالتعمير والاصلاح وترقية الانسانية وتآخيها . فكل ما يماشي هذه الغايات فهو منها ، وكل ما يناقضها فهو غريب عنها ، ولذلك قيل في صدق تام إن العلم روح الاسلام »

أما الرسالة الاخيرة « المال في الاسلام » فهي من الرسائل النفيسة التي لا يمكن ان تتناولها سطور قلائل فقد عالج فيها اقتصادية الاسلام واحكامه وبيّن فضل هذا الدين في الايحاء الاقتصادي لاوربا بهذا التنظيم الجديد مما حمل برناردشو على الاشادة بصلاحية تعاليم الاسلام لاوربا الحديثة

وبالاطلاع على هذه الرسائل تتضح للقارئ جهود المؤلف في إعزاز دينهِ القويم ومحاولة التقريب بين احكام العلم واحكام الدين مما يثبت العقائد على اساس صحيح في زمن يحتاج فيهِ الدين والعلم الى كل هذا التقريب والى جميع هذه الجهود

حسن كامل الصيرفي

الهام

قصة مصرية تحليلية في ١٩٢ صفحة من القطع الكبير بقلم نقولا يوسف

لم يقصد المؤلف بوضع هذه القصة الى الدعوة لاصلاح اجتماعي معين أو علاج ناحية من النقائص المألوفة بقدر ما عني بالناحية الفنية التي يقصد بها التحليل والتصوير. ولذا فهو لم يتبع طريقة السرد الروائي الذي نعهده في القصص الشعبية المطولة التي يسهب مؤلفوها في اختراع الحوادث والمفاجآت المثيرة بل كان مؤلف هذه القصة شديد الاهتمام بالتحليل السيكولوجي وتصوير الشخصيات فهو في سياق الرواية يصور لنا عدداً من الشخصيات المتباينة الطباع والخلق من نساء ورجال ويعمل على تطبيق فروع علم النفس في استجلاء الخفايا النفسانية فيتغلغل الى مجاهل النفس البشرية ويصور مكنوناتها والى القلوب الحساسة فيرسم خلجاتها. وهو في هذه الناحية يدرس الخواطر التي تنساب في الرأس بلا ترتيب في بعض الظروف

وفي القصة عدد من الشخصيات المختلفة الا ان أبطالها من الشباب الذين يتميزون بشعور قوي وقلوب ملتهبة تتبدل عليها شتى الازمات النفسانية فتزيدهم تجارب في الحياة وقوة في الشخصية — كما ان بها عدداً من المناظر المصرية طبيعية واجتماعية صورها المؤلف بأسلوب سلس واضح فلا يمل المرء تتبعها والاستمتاع بها فهذه صورة شم النسيم ، وصورة الريف المصري في مختلف أشكاله وروائعه ، وصورة كاتب مصري يكافح في الحياة بقلمه ويلاقي العقبات فيتخطاها تارة ويتورط بها تارة أخرى ، والراقصة « الهام » التي تقف حيرى بين الفن الذي وقفت عليه حياتها وبين الزواج والبيت الهادىء . والحسناء ايزيس التي تعيش في جنات الفيوم تقطع أوقاتها في الموسيقى والمطالعة وهناك صور الفقر والتشرد والبيئة التي تدفع المجرم الى اقتراف الآثام. ولا تخلو القصة من مواقف ينتصر فيها العقل على العاطفة الجامحة ومواقف ينتصر فيها الخير على الشر . والنفس البشرية التي لا تخلو مطلقاً من فضيلة مستترة أو جملة فضائل تختفي في مجاهل النفس ثم تظهر كبصيص من نور وسط ظلام . وتطلب هذه التحفة القصصية من جميع مكاتب القاهرة وثمنها ٥ قروش

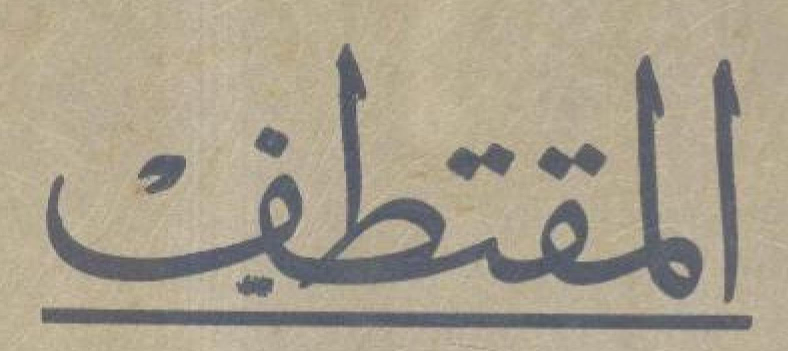
البوق

بين ايدينا العدد الاول من مجلة البوق لسنتها الثالثة وهي صحيفة مدرسة فؤاد الاول الثانوية يحررها طلبة المدرسة بما تجود به أقلامهم باحاديثهم الظريفة وحوادثهم الطريفة وقد استهلوه بحديث ممتع لحضرة صاحب العزة ناظر المدرسة ضمنه نصائح ثمينة منها قوله « النظام والطاعة والصدق » فاتبعوا النظام في اعمالكم والطاعة لاساتذتكم والصدق في اقوالكم وستجدون مني اباً يسهر على راحتكم وامنكم ويدأب بلا كلل على ما فيه رفعة شأنكم وجميل ذكركم وخير وطنكم . والصحيفة مطبوعة على ورق مصقول طبعاً متقناً نهنىء طلبة مدرسة فؤاد الاول الثانوية بصحيفتهم الادبية ونتمنى لهم اطراد التقدم والنجاح

فهرس الجزء الثالث

من المجلد الثاني والتسعين

وجه


المقتطف



المقتطف

الجزء الرابع من المجلد الثاني والتسعين

١ ابريل سنة ١٩٣٨ — ٣٠ محرم سنة ١٣٥٧

المجرات

بحث في أجزاء الكون الكبرى

— ١ —

وصف أحد الكتّاب الارضَ بقوله « ان الانسان يعيش على ذرّة من الغبار الكوني تحيط بها نفحة من الهواء ورشّة من الماء وعلى سطحها مسحة من الحياة ». الاّ ان الانسان على عجزه عن الافلات من هذه الذرة، سعى قروناً طوالاً الى التغلغل في أسرارها من ناحية وفي خفايا الكون العظيم الذي يحيط بها من ناحية أخرى. وكان في عهده الاول مولعاً بالتخيّل فتصوَّر الكون صوراً متباينة. فقد كانت الارض في نظر طاليس قرصاً سابحاً في محيط من الماء. وذهب اناكسيمندر الى ان الارض مسطّحة وانها في مركز الكون وان الشمس ليست الاّ ثقباً في قبة الجلد الصلدة تفيض منها نار الآلهة التي وراءها. الاّ ان اناكسيمينيس رأى صورة أخرى إذ خيّل اليه وهو يرقب السماوات من سطح الارض ان النجوم مسامير فضية مدقوقة في القبة الصلدة

وتهاوت هذه الصور القديمة صورة إثر صورة، اذ كثر عدد الرصّاد فكشفوا واحد بعد واحد حقائق عن حركات النجوم والسيارات، فتحت لهم الباب الى معرفة شيء عن هندسة هذا الكون العظيم. ففيثاغوراس علم تلاميذهُ ان الارض كرة تدور حول الشمس فلم يؤبه لقوله. وارسطرخس ذهب في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد الى ان الشمس مركز الكون وحاول ان يقيس المسافة بين الشمس والارض الدائرة حولها. فلم يصغ احد الى ما يقول.

وانقضى نحوالفي سنة قبل ان ولد علم الفلك الحديث . ففي ٢٤ مايو سنة ١٥٤٣ كان كوبرنيكوس يعاني سكرات الموت عند ما جيء اليهِ بنسخة من كتابهِ « دوران الاجرام السموية » وهو الكتاب الذي ذهب فيهِ الى ان الارض كرة، ليست بثابتة كما قال بطلميوس ، بل متحركة دائرة حول الشمس كما قال فيثاغوراس وارسطرخس

كان الكون الذي تصوَّره كوبرنيكوس كوناً صغيراً لا تعدو حدوده أبعد السيارات المعروفة حينئذٍ . الاَّ ان النجوم التي ظنها ارسطرخس قليلة ، والتي لم يحصِ منها بطلميوس الاَّ ألفاً ، أخذت دراستها تنمو لا آلات الرصد الحديثة بعد ما صنع غليليو المرقب (التلسكوب) الاول في القرن السابع عشر . فأحصي منها أولاً نحو خمسمائة الف نجم . وعندئذٍ بدأ علماء الهيئة يدركون ان الشمس ليست الاَّ « جنديًّا في جيش السموات » . وكذلك بعث علم الهيئة في القرن السابع عشر وتراجعت الآفاق الكونية من حدود النظام الشمسي الى حدود المجرَّة رويداً رويداً . ثم جاء اسحق نيوتن ، وهو ابن فلاح انكليزي وُلد بعيد وفاة والده ، وكشف عن ناموس الجاذبية العامة ، ففسَّر بهِ افلاك الاجرام الفلكية وحركاتها ، وهو موضوع عجزت عبقرية غاليليو عن ادراك كنههِ

هذا الكشف بعث حياة جديدة في علم الفلك . فأقبل الرصَّاد على دراسة النجوم المتلألئة وراء أبعد السيارات وعيَّنوا بعد عناء كبير مواقع مئات منها . وكان بين هؤلاء البحَّاث، رجل الماني انكليزي يدعى وليم هرشل ، نشأ موسيقيًّا وهاجر الى انكلترا فراراً من ويلات الحرب الدائرة حينئذٍ ، وتحوَّل وهو يعلم الموسيقى في سبيل الرزق ، الى الفلك ، اذ كان في الخامسة والثلاثين من العمر . ولو لم يتح لهُ في ليلة ٣١ مارس سنة ١٧٨١ اكتشاف السيار أورانوس لظلَّ على الراجح موسيقيًّا طول حياته يسترق اللحظ الى السماوات في ساعات الفراغ اشباعاً لرغبتهِ الخاصة . ولكن اكتشافهُ السيَّار أورانوس افضى بهِ الى عناية وجّهت اليهِ من المليك والى زواجهِ من سيدة ذات ثراء ومال

ومضى هرشل وقد كُفي مؤونة العيش ، يتقن صنع المرايا للمراقب العاكسة ، وشغف بعمله هذا شغفاً عظيماً حتى روي عنهُ انهُ كان لا يتوقف عن عملهِ لتناول الطعام فكانت شقيقته كارولين تلقمهُ بيدها وهو ماضٍ في عمله . ولما تمَّ لهُ صنع مرقب قطر مرآتهِ تسع عشر بوصة وجَّههُ الى السموات فكشف ما يعرف بدرب التبَّان أو المجرَّة . وقد وصف المجرَّة هذه في الجمعية الملكية سنة ١٧٨٤ بقولهِ « انها طبقة ممتدة من النجوم وليست الشمس ومجموعتنا الشمسية الاَّ جزءاً منها » .والواقع ان الراصد على الارض يرى المجرَّة كأنها شيء منفصل عنهُ ولكنهُ عند التدقيق قريب من مركزها . وعني هرشل بهذه الناحية من الموضوع فحسب ان الشمس منحرفة قليلاً

عن مركز المجرَّة، وإن المجرَّة شبيهة بقرص قليل التسطيح او بساعة جيب وأن قطرها ستة اضعاف سمكها. ولما قضى هرشل نحبهُ حفر على شاهد قبره « انهُ نفذ الى السموات »[1].

ثم جاء على علم الفلك الحديث فترة من الجمود. ذلك ان الامم لم تنجب خلالها عالماً يلتقي على اكتافه وشاح غاليليو ونيوتن وهرشل، فيستطيع ان ينفذ من المجرَّة الى ما وراءها

إلاَّ ان ذلك كان يقتضي اولاً، معرفة أبعاد النجوم على وجه من الدقة. ولم يكن قياس ابعاد النجوم بالامر السهل. حتى هرشل نفسه كان قد حاول قياسها وأخفق. ولا يخفى ان أقرب النجوم الى شمسنا هو النجم المعروف باسم « بروكسيما سنتوري » وهو يبعد عنا اربع سنوات ضوئية وخمس سنة. أي ان الضوء يستغرق هذه المدة في سيره منهُ الينا مع ان سرعتهُ ١٨٦٣٠٠ ميل في الثانية. فالشمس على هذا الاساس تبعد عنا ثماني دقائق. فليس من الغريب ان يعجز علماء ذلك العصر عن قياس أبعاد النجوم، وهذا النجم وهو أقربها الينا يبعد عنا ٢٥ مليون مليون ميل يقابله ان الشمس تبعد عنهُ ٩٣ مليوناً فقط

الاَّ أنهُ لم تنقض ست عشرة سنة على وفاة هرشل حتى اجتاز علم الفلك مرحلة جديدة كبيرة الشأن. ذلك ان ولم هرشل كان لهُ ابن يدعى جون ترسم خطوات أبيه. وإذ كان جون معنيًّا بتصنيف النجوم التي في غيوم مجلان البادية في نصف القبة الجنوبي جاءهُ في سنة ١٨٣٨ كتاب من باحث يدعى فردريك بسيل Bessel. وكان في هذا الكتاب ان بسيل تمكن من تعيين بعد النجم المرقوم برقم ٦١ في صورة الدجاجة باسلوب جديد سمَّاهُ اسلوب زاوية الاختلاف المثلث Triggonometric Parallax وأساس هذه الطريقة ان النجوم تبدو ثوابت لبعدها العظيم عن الراصد الارضي. الاَّ ان مراقبتها تسفر عن انها ليست ثابتة بالقياس الى نجوم اخرى أبعد منها. فاذا قيست الزاوية الحاصلة من مراقبة كلّ من نجمين من موقعين مختلفين على الارض او من موقع واحد في مكانين مختلفين من فلك الارض حول الشمس امكن ان يعمل حساب لبعد اقربهما الينا بطرائق علم المثلثات. وهذا العمل شبيه بما يعمله المهندس الذي يقيس بعد جبل من مكانين ليرسم مثلثاً يعرف به بعد الجبل من معرفة البعد بين المكانين والزاوية التي بين خطي النظر

وكان بعد النجم ٦١ في صورة الدجاجة بحسب طريقة بسيل ٦٠ مليون مليون ميل عن الارض. وما انقضت شهور على ذلك حتى اعلن توماس هندرسن وهو اسكتلندي كان يشتغل بالرصد في مرصد رأس الرجاء الصالح انهُ قاس بعد الفا قنطوروس فاذا هو ٢٥ مليون مليون ميل أي نحو اربع سنوات ضوئية وثلاثة اعشار السنة. ثم قاس ستروف بالطريقة نفسها « الفا السلياق »

(١) راجع موجز سيرته وآثاره العلمية في اساطين العلم الحديث صفحة ٣٤ — ٤٠ من الطبعة الاولى

الاَّ ان الطريقة كانت صعبة ، ولذلك كان عدد النجوم التي قيست ابعادها بها حتى مستهل القرن العشرين لا يزيد على ستين نجماً . وكان منها احد عشر نجماً فقط تبعد عنا احدى عشرة سنة ضوئية او اقلّ والباقي كان أبعد من ذلك

غير ان العلماء ظلوا مكبّين على هذه الطريقة على الرغم من صعوبتها ، ولكنهم تولوها بالتحسين والاتقان فشرع علماء مرصد يركيس في استعمال التصوير الضوئي سنة ١٩٠٣ فغدت هذه الطريقة أدق مما كانت ثم كشف العلاَّمة ولتر ادمز — مدير مرصد جبل ولسن — طريقة طيفية لتعيين زوايا الاختلاف من دراسة خطوط الطيوف المختلفة وقوة الاشراق فأسفر استعمال هذه الطريقة الطيفية من سنة ١٩١٦ الى ١٩٢١ عن قياس ابعاد الفين من النجوم. ومع ما اضيف الى طريقة زاوية الاختلاف من التحسينات على ايدي فان مانن ورسل وشابلي ظلَّ عدد النجوم التي قيست ابعادها قليلاً جدًّا بالقياس الى الوف الوفها المنثورة في رحاب الفضاء

***

قلنا ان الشمس والسيارات وسائر الاجرام الداخلة في مجموعتها جزء من تلك المجموعة النجمية التي اطلق عليها اسم المجرَّة . فهل وراء المجرَّة عوالم أخر ؟ يرى الباحث في نواحٍ شتى من الفضاء « لطخاً سحابية » مضيئة يبدو له انها وراء المجرَّة . ما هي ؟ وهل هي مجرَّات اخرى ؟ وهل تشبهُ مجرتنا؟ ليست هذه الخواطر بشيء جديد في العلم . بل ان الفيلسوفين كانت وسپينوزا اشارا اليها وكتبا فيها . فقالا ان وراء آفاقنا عوالم لا حدَّ لها ولا عدد . بل استرعت نظر ابي الحسن الصوفي الفلكي العربي قبلهما فوصفها

وكذلك وقف العلم هنيهة عند حدود مجرَّتنا ، يعد عدَّتهُ ويحشد بحارتهُ وربابنتهُ لرحلة جديدة في رحاب الكون الشاسعة وراءها . ففي سنة ١٧٨٢ كان الفلكي الفرنسي ميسييه (Messier) قد أحصى مائة وثلاث لطخ من هذه اللطخ السحابية المضيئة. كان بعضها أشبه ما يكون بأقراص السيارات ، وكان بعضها لا شكل خاص له كأنهُ قطعة مشعّثة من الغيوم . ثم في ١٨٤٨ تمكن لورد رُص من رؤية أول لطخة من هذه اللطخ الحلزونية الشكل . وكان سبيله اليها مرقب قطرهُ ست اقدام وطول أنبوبهِ خمسون قدماً . ثم تمكن العلامة هجنز Huggins في أواخر العقد السابع (١٨٦٧) من استعمال المطياف في دراستها . قال : وجَّهت المطياف الى أحد هذه السدم Nebulae الصغيرة ، ولعلَّ القارىء يستطيع ان يتصوَّر شعور الرهبة والتطلع الذي خالجني عندما وضعت عيني على المطياف » . فكانت هذه الطريقة الجديدة في البحث الخطوة الاولى الى هذه « العوالم الجزرية » الكائنة من وراء المجرَّة ، ومعرفة تركيبها ، وتبيَّن ان بعضها مجموعات كبيرة من النجوم تبدو غيمة مضيئة لبعدها ، وإن البعض الآخر غاز مضيء على الاكثر

كانت السدم بعيدة عنا بعداً يجعل قياسه متعذراً . فطريقة زاوية الاختلاف لا تجدي . لان الاختبار كان قد أثبت ان هذه الطريقة لا يمكن تطبيقها على نجوم تبعد عنا اكثر من مائة سنةٍ ضوئية . فكان لا بد من طريقة اخرى تقوم على قاعدة جديدة . وكذلك انقضت السنون وعلماء الفلك يبحثون عن هذه الطريقة . اما كيف كشفت فمن روائع العلم الحديث

***

من انواع النجوم التي ترصّع القبة الفلكية نوع يعرف باسم « المتغيرات القيفاوية » وقد دعيت هذه النجوم كذلك نسبة الى نجم « ذلتا قيفاوس » . هذه النجوم تتغير اشراقاً تغيراً دوريًّا فاذ تكون خافية الضياء تراها وقد اخذت تزداد اشراقاً ثم تأخذ بعد ذلك بالخمود حتى ترجع الى حالها الاولى . وقد شبهها جينز بنار الموقد الخامدة وقد ألقي فيها قدر من الفحم فما لبثت حتى اشتدَّ سعيرها . وقد وصفناها في مقتطف دسمبر ١٩٣٥ فقلنا « هذه النجوم قد تكون حمراً او مبياضة أو صفراً ، ولكنها على اختلاف ألوانها تنبض نبضاً منتظماً كأن كلاًّ منها قلب كبير ينقبض وينبسط او كأنها شعلة من الغاز تمدها حنفية تفتح وتقفل في فترات منتظمة فاذا فتحت كبرت الشعلة واذا أقفلت ضؤلت الشعلة حتى تكاد تنطفىء » . اما فترة التغير هذه فتختلف باختلاف النجوم من بضعة ايام الى شهر او اكثر

والفضل في كشف الطريقة الجديدة لقياس ابعاد النجوم لسيدة أميركية تدعى المس هنريتا لفيت Leavitt . كانت هذه السيدة تشتغل في مرصد جامعة هارفرد سنة ١٩١٢ . وكان قد مضى عليها سنوات وهي تدرس الالواح المصورة لنواحٍ مختلفة من السموات بغية ان تكشف ما تنطوي عليهِ هذه الالواح من حقائق جديدة عن النجوم مفردة ومجتمعة . واذ كانت مكبَّة على صورة لاحد القنوان النجمية التي على حدود المجرَّة ، تبيَّنت فيها شيئاً جديداً . ذلك ان طائفة من المتغيرات القيفاوية كانت قد ظهرت في تلك المجموعة النجمية . فلاح لها من دراسة الصورة ان المتغيرات القيفاوية الكبيرة المشرقة كانت أبطأ تغيُّراً من المتغيرات القيفاوية الصغيرة الخافية . فالفترة التي تنقضي بين خفاء القيفاويات الكبيرة وبلوغها ذروة اشراقها ثم رجوعها الى ما كانت عليهِ كانت أطول من فترة التغيُّر في القيفاويات الصغيرة . فأسرَّت ذلك الخاطر وعمدت الى ما تجمع من الصور الضوئية للسدم الاخرى التي صورت منذ استعمل تلك الطريقة الفلكي درايبر في سنة ١٨٨٠ وخرجت من بحثها الدقيق المستفيض بأن طول فترة التغيُّر متصلة صلة وثيقة بقوة الاشراق . فأعلنت هذه القاعدة الجديدة في علم الفلك

ولكن الاشراق البادي لنجم من النجوم يختلف عن اشراقه الحقيقي. لان ما يبدو من اشراق أحد النجوم يتوقف على بعده . فقد يكون نجم عظيم الاشراق ولكنهُ عظيم البعد في الوقت نفسه فيبدو للراصد الارضي نجماً غاثراً . فاذا كان هناك نجمان قيفاويان على بعد واحد من الارض وكانت فترة التغيُّر في أحدهما اقصر من فترة التغير في الثاني ، فالاول أقلُّ اشراقاً من صاحبه

فلما وضعت هذه القاعدة هذا الوضع ظهرت فائدتها في قياس ابعاد النجوم . ولنفرض أن أمامنا نجمين قيفاويين فترة تغيُّرهما واحدة . ثم لنفرض ان اشراق أحدهما البادي يفوق اشراق الآخر مائة ضعف . فالنتيجة الحتمية التي نخرج منها — إذا صحت قاعدة المس لفيت — ان أقلهما اشراقاً يجب ان يكون أبعد من الآخر عشرة اضعاف لان الضياء الصادر من جسم مضيء يقل كمربع المسافة . ثم لنفرض ان أحد هذين القيفاويين واقع في مجموعة من النجوم عرف بُعدها عن الارض . ففي هذه الحالة يمكن استخراج بعد الآخر استخراجاً دقيقاً وكذلك تمَّ للعلماء أسلوب جديد بارع لذرع الفضاء (١)

هنا دخل هارلو شابلي Shapley الميدان . كان شابلي قد توفَّر على علم الحيوان ، ثم انقلب الى الصحافة واخيراً استهواه علم الفلك فأقبل عليه . فلما اعلنت المس لفيت قاعدتها الخاصة بعلاقة فترة التغير في النجوم القيفاوية المتغيرة بقوة الاشراق كان في مرصد جبل ولسن بكاليفورنيا يرصد القنوان الكروية Globular clusters لما بدا له فيها من خواص تجعلها عوالم قائمة بذاتها وفي الوقت نفسه جزءاً من المجرَّة ، فوجد في بعضها طائفة كبيرة من النجوم يبلغ عددها ٣٥ الفاً . فلما ثبت لهُ ما لقاعدة المس لفيت من الشأن جعل شغلهُ الشاغل البحث عن المتغيرات القيفاوية في هذه القنوان . وبعد بحث رياضي دقيق تمكن من استخراج طريقة سهلة من قاعدة المس لفيت تمكن الباحث من معرفة ابعاد هذه النجوم الحقيقية بدلاً من معرفة ابعادها النسبية واستعمل طريقتهُ هذه في قياس بعد قنو هرقل — وعدد نجومه ٣٥ الفاً — فوجدهُ ٣٦ الف سنة ضوئية . واذن فهذا القنو جزء من المجرَّة ولا يمكن ان يكون خارجها لان قطرها نحو مائة الف سنة ضوئية. ثم استعمل الطريقة نفسها في قياس ابعاد مائة من هذه القنوان الكروية فوجد ان ابعدها — وهو الموسوم NGC 7006 — يبعد ٢٢٠ الف سنة ضوئية ، عن الارض

ومن غرائب هذا الباحث انهُ كان في اثناء بحثه الفلكي يرتدُّ الى البحث في الحيوان ليريح ذهنهُ فيعدُّ رسائل في طبائع بعض الحيوانات ويتلوها على اكادمية العلوم الاميركية

(١) راجع مقتطف دسمبر سنة ١٩٣٥ صفحة ٥٢٠ مقالة « ذرع الفضاء »

هو ذا طريق جديد رسمتهُ المس لفيت وسار فيهِ شابلي الى بعد ٢٢٠ الف سنة ضوئية ، فمن يجرؤ على ان يقود موا كب العلم الى رحاب الفضاء حيث السدم اشبه ما يكون بالمنائر في بحار الكون القائمة تومىء الى الروّاد

وجد علم الفلك هذا الرائد المقدام في شخص باحث يدعى ادوين هبل Hubble . ولد هبل في مارشفيلد بولاية مسوري الاميركية وتلقى العلوم العالية في جامعة شيكاغو فكان ملكن الطبيعي مدرّبهُ وهايل الفلكي مصدر إلهامهِ . وكان علم الفلك اقرب العلوم الى قلبهِ تليهِ الرياضة العالية . وظهر نبوغهُ وهو لا يزال حدثاً فمكنهُ وهو في الحادية والعشرين من الفوز بجائزة مهّدت لهُ سبيل الدراسة في جامعة اكسفورد . والغريب فيهِ انهُ تلقى في اكسفورد علوم القانون وعندما عاد الى اميركا مارس المحاماة في مدينة لويسفيل بولاية كنتكي . فلما احس انهُ يَبرم بقوانين الناس ارتد الى قوانين الكون فعيّن باحثاً في مرصد يركيس ثمَّ استدعاه هايل الى مرصد جبل ولسن بكاليفورنيا في سنة ١٩١٩

هناك شرع هبل في دراسة السدم وكان قد سبق لهُ ان صوّرها في سنة ١٩١٧ وسأل نفسهُ وهو يصوّرها هل هي جزء من المجرَّة . وكان اقرب هذه السدم يبدو لطخاً خفيفة الضياء في حجم قرص القمر . فوجّه نظرهُ اولاً الى السديم المرقوم Messier 31 وهو سديم حلزوني في صورة المرأة المسلسلة Andromeda وصفهُ اولاً ابو الحسن الصوفي احد كبار علماء الهيئة عند العرب بقولهِ انهُ « لطخة سحابية » . ثم صرف عنايتهُ الى السديم Messier 33 في صورة المثلث . فوجد ان السديم الاول — اي M. 31 [١] — أضعف اشراقاً من اجرام سماوية أخرى معروف بعدها عن الارض . ولكن ذلك لم يدلّهُ على اشراقهِ الحقيقي . فجعل يبحث عن متغيّرات قيفاوية فيهِ فوجد طائفة منها نحو العشرة او أكثر قليلاً وظهر لهُ ان فترة التغيّر فيها تماثل فترة التغيّر في بعض القيفاويات التي في المجرَّة . فاستند الى قاعدة المس لفيت كما أفرغها شابلي واستخرج الاشراق الحقيقي لهذا السديم فاذا هو يزيد على اشراق الشمس أربعة آلاف ضعف . وعلى هذا الاساس قال ان السديم M. 31 يبعد عن مجرتنا ٩٠٠ الف سنة ضوئية . واذن فهو خارج المجرَّة . وقد أسفر البحث الدقيق في هذا السديم المعروف باسم سديم المرأة المسلسلة علاوة على سمتهِ العلمية M. 31 فاذا هو شبيههُ بالمجرَّة شكلاً وتركيباً

بعد ذلك انصرف الى السديم الثاني M. 33 فبحث فيهِ عن متغيرات قيفاوية فلما وجدها اعتمد عليها وعلى قاعدة المس لفيت في تعيين بعد هذا السديم عن مجرَّتنا فاذا هو خارج المجرَّة كذلك ويبعد عنها مليون سنة ضوئية

(١) سنستعمل حرف M في ما يلي من الكلام اختصاراً لـ Messier

وكذلك شرعت سفينة العلم في رحلتها خارج حدود المجرَّة . لقد أثبت هبل وجود عوالم اخرى هناك ، وأشار الى أنهُ من الجائز وجود الوف منها . إن نظرية « العوالم الجزرية » التي أشار اليها هرشل ثم اهملت ، عادت الآن وجلست على عرش الفلك !

***

كان بحث هبل المتقدم فاتحة فصل جديد عجيب في الريادة الفلكية . وما مهدت السبيل حتى أقبل الروّاد من كل جانب يبحثون عن عوالم جديدة في الرحاب التي خارج المجرَّة . هو ذا المراقب الكبيرة مسدَّدة الى صدر السماء . وها هي ذي « اللطخ السحابية » تنحل بفعل المرقب والمصوَّرة الضوئية والمطياف الى نجوم تامة التكوين وسحب مضيئة لا تزال في حالتها البدائية. هنا وجدت متغيرات قيفاوية مكنت الراصدين من تعيين ابعاد هذه السدم بل وجد في بعضها نجوم جديدة Novae تبدو حيث لم يكن ثمة نجم او حيث كان هناك نجم غارٍ ، وإذا النجم الجديد ينبثق مشرقاً كأنهُ نار شبت فجأة ثم لا تلبث بعيد اشتعالها حتى تخمد وتنطوىء . كان الصينيون قد رصدوا بعض هذه النجوم في الزمان القديم. ويروى عن هبَّارخس انهُ صنع زيجه لانهُ رأى نجماً جديداً عظيم التألق . فأراد ان يعرف هل هو ظاهرة نادرة او كثيرة الوقوع فجعل يحصي النجوم ويدوّن مواقعها ليعلم متى ظهر نجم يحسب جديداً ، بالقياس الى النجوم الثوابت . وكان اول نجم جديد ظهر في العصر الحديث فاسترعى عناية العلماء نجماً رآه تيخو براهي في صورة ذات الكرسي Cassiopeia سنة ١٥٧٢ وقيل انهُ بلغ درجة من التألق جعلت رؤيته مستطاعة في رابعة النهار . وظل على ذلك ستة اشهر . ومن احدث ما رصد من هذه النجوم الجديدة نجم جديد في صورة هرقل سنة ١٩٣٤ زاد اشراقه خلال شهر واحد مائة الف ضعف وكان اشراقه قبيل احتفائه مثل اشراق النجم القطبي. وليس في تاريخ الفلك منذ سنة ١٥٧٢ الاَّ ذكر ثمانية وأربعين نجماً من هذه النجوم الجديدة. ولعل نجم بيت لحم الذي استدل به الرعاة على ولادة المسيح كان احدها. ولكن العلماء لا يزالون في شك من اصلها ونشأتها ويذهب بعضهم الى انها نشأت من اصطدام نجم غارٍ بآخر مظلم ويقول آخرون انها قد تنشأ من انفجار النجم بما يحشد في داخله من الطاقة

هذه النجوم الجديدة ، من الوسائل التي تمكن الباحثين من تعيين ابعاد السدم لان البحث اسفر عن ان معظم اشراقها يدل بوجه عام على بعد الصورة التي تظهر فيها عن الارض

[موضوع الفصل التالي في
هذا البحث الخلاب « تفرق
السدم وتمدد الكون »]

الشيخ ابو علي

ابن سينا

بقلم منوشهر مؤدب زاده
صاحب جهره نما الايرانية

— ١ —

الشيخ الرئيس ، حجة الحق ، رئيس العقلاء ، شرف الملك ، أبو علي حسين بن عبدالله ابن سينا . هذه هي الالقاب التي نعرفهُ بها غير أن لقب (الشيخ الرئيس وحجة الحق ورئيس العقلاء) ليست ألقاباً سلطانية أو أميرية بل هي ألقاب لقّبهُ بها العلماء وعرف بها بينهم ونرى أن كلمة (حجة الحق) قد استعملت من بعده لقباً لبعض أعاظم الفضلاء كالخيام مثلاً . اما الشيخ الرئيس فهو من ألقابهِ المخصوصة وقد يقال لهُ (الشيخ) اختصاراً فأينما استعمل هذا اللقب في الكتب الفلسفية فهو المقصود بهِ . وأما كلمة (الرئيس) فكانت تستعمل في ذلك العصر لقباً لاعاظم الرجال وكانوا يضيفون اليهِ بعض الاحيان ألفاظاً كالاستاذ والفاضل وما اشبه ذلك من الالفاظ الدالة على زيادة في الإجلال والاكرام . ومنها لقب (الشيخ الرئيس) الذي تفرّد بهِ ابن سينا وأصبح علماً له بعد ذلك

وشرف الملك من الالقاب السلطانية التي عرف بها الشيخ . ويظهر لنا أن اشتغاله بالمناصب الملكية والتصدي لامور الوزارة قد منحاه هذا اللقب . ونراه مذكوراً في رسائل كتبت للشيخ من معاصريه وصرح بهِ القاضي ابن خلّكان في كتاب وفيات الاعيان ايضاً ولكنهُ ليس من الالقاب المتداولة كثيراً بين الناس

واما نسبه فالمشهور هو ما ذكرناه ولكنّ ثمّ طائفةً تزعم غير ما قرّرناه وتجعل سينا جدّاً ثالثاً للشيخ أبي علي ، ويذكرون نسبه كما يأتي : أبو علي حسين بن عبد الله بن حسن بن علي بن سينا

وكان أبوه عبد الله من مدينة بلخ وقد هاجر في أيام نوح بن منصور أحد ملوك السامانية

(من سنة ٣٦٥ — ٣٨٧ هجرية) الى مدينة بخارى[١] عاصمة الحكومة السامانية وفي زمن نوح ابن منصور المذكور توظّف في دوائر الحكومة وباشر أعمال الدولة وكان عاملاً في إحدى قرى بخارى تسمى خَرمَيثَن (بفتح الخاء المعجمة وسكون الراء المهملة وفتح الميم وسكون الياء وفتح الثاء المثلثة قرية من قرى بخارى — معجم البلدان ص ٤٢٤) وقد تزوّج من فتاة من أهل قرية أَفْشَنَه (وأفشنه بفتح الهمزة وسكون الفاء وفتح الشين المعجمة قرية من قرى بخارى. — راجع معجم البلدان صفحة ٣٠٥ من المجلد الاول) تسمى ستاره — حسبما ذكرها ابن خلكان — فاولدها أبا علي (وستارة لفظة فارسية بمعنى كوكب) . وقد اختلفوا في سنة ولادة الشيخ فنهم من قال انهُ ولد في سنة ٣٧٣ ه وقد نظم فيها بعض الشعراء بالفارسية ما معناه أن حجة الحق أبا علي ابن سينا وُلد في (شجع — ٣٧٣) ودرس كل العلوم ومارسها في (شصا — ٣٩١) وتوفي في (تكز — ٤٢٧)

ومما يستفاد من المقدمة التي كتبها تلميذ الشيخ (أبو عبيد الجوزجاني) الآتي ذكره على كتاب « الشفاء » ان أستاذه كان يبلغ من العمر ٣٢ عاماً سنة ٤٠٤ مما يدل على انه ولد عام ٣٧٣ ويقول الشهرزُوري ان ولادة الشيخ أبي علي كانت في سنة ٣٧٠ ويوافقه جلّ المؤرخين القائلين ان وفاة ابن سينا كانت في سنة ٤٢٨ وكان إذ ذاك يبلغ من العمر خمساً وخمسين سنة وهو مطابق للتاريخ المذكور ايضاً

ويقول لنا ابن سينا في رسالة كتبها عن نفسهِ وأودع فيها سيرة حياته ما ترجمتهُ : انهُ عند ما تفرَّغ من الطب وأتم دراسته كان لا يبلغ من العمر اكثر من ستة عشر عاماً ثم دعاه الملك الساماني نوح بن منصور لمعالجة مرضه الذي أعيي الاطباء واستعصى عليهم وكانت وفاة نوح في سنة ٣٨٧ فاذا فرضنا ان ولادة ابن سينا كانت في سنة ٣٧٣ كما يدَّعون تكون سنّهُ عند ما توفي نوح بن منصور لا تتجاوز الرابعة عشرة او الخامسة عشرة وهو يخالف كل المخالفة ما ذكره

---

(١) وكانت بخارى في ذلك العصر عاصمة الدولة السامانية الايرانية التي ينتهي نسبها الى بهرام جور الساساني وكان لهم اهتمام بالشعر والادب الفارسي الذي أخذ بنمو بعد ان أخمدت جذوته الفتوح الاسلامية فأكرموا الشعراء واصطنعوهم وأسبغوا عليهم نعمهم وبذلوا لهم الصلات والهبات فزها الشعر الفارسي ونما وأزهر وأينع وصارت بخارى مقصد الشعراء ومحط رحالهم فكثر الشعراء والادباء حتى لم تكن مدينة او بلد او قرية لم يقم منها شاعر او أديب من الايرانيين وقد أمر ملوك بني سامان بنقل كتب من اللغة العربية الى الفارسية فنقلت . ومن أهم ما نقل في هذا العصر كتابا التاريخ والتفسير للطبري وهما اليوم أحسن أثر ودليل على الثقافة الادبية الايرانية في ذلك العصر الذي يعد فجر النهضة وسلاسة الالفاظ والعذوبة اللتين تظهران في هذين الكتابين وتدلان على ذلك الاستعداد العظيم الذي نهض بالادب الايراني نهضة لم يحلم بانتظارها التاريخ

الشيخ عن نفسه فانه يقول أنهُ أتم دراسة الطب في السادسة عشرة ولا بد ان يكون قد اشتغل قبل ذلك بالطب وارتفعت شهرته وعلا صيته حتى دعاه الملك الساماني لمداواته . ولكن اذا جعلنا تاريخ الولادة سنة ٣٧٠ خرجنا من هذا المأزق . أليس من العجب ان يكون الراوي لهذه الرسالة والمذيل لها هو أبو عبيد المذكور مع ذلك نراه يقول في مقدمته على كتاب « الشفاء » ان استاذه كان يبلغ من العمر اثنين وثلاثين عاماً سنة ٤٠٤ ؟

ففي ما ذكرناه ما يكفي لان نقول ان ولادته على أصح الروايات كانت في سنة ٣٧٠ والآن نعود الى سيرة حياته فنقول : —

بعد ما وُلد ابو علي في افشنة انتقل بهِ والده الى مدينة بخارى وسكنها وأرسل ولده الى احد الكتاتيب . ومن هنا تبتدىء حياته العلمية وثقافته النادرة فانهُ لم يبلغ العاشرة حتى كان قد حفظ القرآن الكريم ودرس اكثر فنون الادب

وكان أبوه من الشيعة الاسماعيلية القائلين بامامة اسماعيل بن الامام جعفر الصادق وكان يراجع رسائل اخوان الصفا وأبو علي يسمع ما يدور بين أبيهِ وأخيهِ وما يتذاكران فيهِ من المسائل الفلسفية الاسماعيلية في مبحث العقل والنفس وما أشبه ذلك فتأثرت نفسه بما سمعهُ منهم وتمكن حبُّ الفلسفة من نفسهِ ورغب في دراستها . ولكن أباه أرسله ليتعلم الحساب فاشتغل بدراستهِ وأتقنه على احد أساتذة هذا الفن . واتفق ان أبا عبد الله الناتلي زار مدينة بخارى في تلك الايام (وناتل بلدة قديمة من بلاد طبرستان) وأبو عبد الله هذا هو أحد فلاسفة القرن الرابع وكان من جهابذة فن الالهيات وممن يُشار اليهم بالبنان في هذا الفن وقد ألَّف كتباً في الفلسفة ومنها كتاب في بيان « مدى العمر الطبيعي » . وقد نقل عنهُ البيروني في كتابهِ المسمى بالآثار الباقية ص ٨٣ ومنها كتاب آخر في شرح الوجود ورسمهِ وقد شاهده الشهرزوري وارتضاه وكانت عنده نسخة منهُ

وقبل ان يزور أبو عبد الله الناتلي بخارى كان أبو علي يقرأ الفقه على اسماعيل الزاهد ولما ورد أبو عبد الله بخارى أخذه عبد الله أبو الشيخ أبي علي بن سيناء الى بيتهِ وأضافهُ عنده ليدرس ابو علي عنده الفلسفة فقرأ هذا على الناتلي بعضاً من المنطق وقسماً من هندسة اقليدس ولكنهُ بعد ان درس ستة من الاشكال الهندسية وفهم طريق حلها استخرج باقي الاشكال ودرسها من نفسهِ وقرأ أيضاً بعض المجسطي عند الناتلي ولم يشكل عليهِ فهم بقية الكتاب

ولكنَّ أبا علي لم يقدِّر هذا الاستاذ حق قدره فهو يحتقره فيما يقول عنهُ ومما يقول فيهِ انهُ قرأ عنده ظواهر المنطق وأما الدقائق فلم يكن للناتلي إلمامٌ بها ، ويقول ايضاً « عندما شرعت في قراءة المجسطي قال لي اقرأ الكتاب وأوضح مسائله ثم اعرض عليَّ أفكارك لأصلح

لك الخطأ ولاُ دلك على الصواب ولكن هذا الرجل (اي الناتلي) لم يكن يفهم الكتاب، فشرعت أنا في المطالعة والدرس وأوضحت ما أشكل من القضايا والمسائل وما أكثر القضايا التي لم يفهمها حتى عرضتها عليهِ وأوضحتها لهُ »

ثم سافر الناتلي بعد ذلك الى مدينة جرجانج وظلَّ أبو علي يطالع الكتب الفلسفية ويدرسها وحده وقد نجح في ادراك اكثر مطالبها وايضاح معظم مسائلها المشكلة العويصة

ثم أقبل ابن سينا على دراسة الطب وهو يعتقد ان هذا العلم ليس من العلوم الصعبة ولذلك تمكَّن من اتقانهِ في زمن قليل واشتهر فيهِ فقصده علماء هذا الفن وأخذوا يقبلون عليهِ للاخذ عنهُ فأصبح مقصداً لعلماء هذا الفن ومحطًّا لرحالهم . وكذلك قصده المرضى فجعل يداوي من قصده حتى برع في الطب ووقعت له تجارب ذات شأن ربما لم يصبها من كان قبله . وكان اشتغاله بالطب بينما كان يدرس الفقه وهو لم يتجاوز السادسة عشرة ثم عاد الى دراسة المنطق والفلسفة وأخذ يدوّن القضايا الفلسفية ثم يعرضها على القوانين المنطقية واستمرَّ مثابراً على عمله هذا زمناً لا يقل عن ثمانية عشر شهراً لم ينم فيها الاَّ قليلاً طرفاً من الليل فأتقن الفنون المنطقية والطبيعية والرياضية وفهمها وأوضح ما اشكل منها . ثم شرع في دراسة علم الالهيات وقرأ كتاب (ما بعد الطبيعة) لارسطاطاليس وأعاده اربعين مرة حتى حفظه عن ظهر قلب ولكن مع ما بذله من الجهد لم يتمكن من فهم ما حواه الكتاب من المطالب فتطرق اليهِ اليأس وربما اراد الانصراف عن تعلم الالهيات ولكن وافاه الحظ وقتَ ما عثر على رسالة لابي نصر الفارابي كان قد كتبها لبيان اغراض ارسطو في (ما بعد الطبيعة) فكانت هذه الرسالة أحسن سبب في فض ما اشكل عليهِ من علم الالهيات ففهمهُ واتقنهُ كسائر العلوم . ثم ارسل اليهِ نوح بن منصور ودعاه ليداويه فانتهز الشيخ هذه الفرصة ولم يضيعها وطلب من الملك الساماني ان يسمح له بالدخول الى المكتبة الملكية فأذن له وكانت هذه المكتبة من المكتبات العظيمة تحتوي على كتب ومجلدات نفيسة نادرة الوجود فدخلها ابن سينا وأقبل على المطالعة والقراءة وأكبَّ على الاخذ من كتبها النفيسة وأعمل حافظتهُ فأخذت تلتهم ما تجد امامها من فنون وعلوم وعثر هنالك على كتب لم يرها احدٌ قبله فشرع يكتب عنها مذكرات نافعة قيمة ذات فوائد عظيمة ولم يبلغ الثامنة عشرة حتى اتقن العلوم الفلسفية ايَّ اتقان وارتوى من منهلها العذب وبلَّ غلته . واتفق ان تطرقت النار الى هذه المكتبة العظيمة واحترقت بما حوته من الكتب وذلك بعد خروج ابي علي منها فرماه أعداؤه بالتهمة ونسبوا اليه احراق المكتبة لينفرد بالعلوم والكتب التي اكتسبها منها وليشتهر بهذه العلوم وينسبها الى نفسه . ولكن مؤلفات هذا النطاسي العظيم التي حوت العلوم الفلسفية والحكمية قد ملأت الفراغ الذي احدثه احتراق المكتبة وسدت تلك الثلمة التي

حدثت من جراء ذلك . ثم شرع ابو علي في التأليف وصنف كثيراً من الكتب واتفق ان توفي والده في تلك الايام — والظاهر ان وفاته كانت سنة ٣٩٢ هـ — فتصدى الشيخ بعد ذلك للاعمال السلطانية التي كانت لابيه واستمر في ذلك العمل حتى اضطربت احوال ما وراء النهر واختلت الامور فسافر الى خوارزم اضطراراً ونزل ضيفاً كريماً على ابي الحسين السهيلي وزير علي بن المأمون خوارزمشاه فأكرم مثواه وتلقاه بكل ما يليق بمقامه وطلب اليه أن يصنّف الكتب — وكان أبو الحسين السهيلي هذا من جلّة أهل الفضل والادب في ذلك العصر وكان ينظم الشعر وله اشعار عربية رائقة ذكر بعضها صاحب معجم الادباء في كتابه . وكان وزيراً للخوارزمشاهية ، وفي سنة ٤٠٤ أي في عصر المأمون بن المأمون سافر الى بغداد دار الخلافة العباسية وعاش فيها الى سنة ٤١٨ — وأما أبو علي فقد عاش في سعة ورخاء في البلاط الخوارزمشاهي ونال من علي بن المأمون والمأمون بن المأمون بعده كلّ اكرام وعاشر بعض اهل الفضل واختلط بجلّة العلماء كأبي ريحان البيروني وابى نصر بن عراق وابي سهل المسيحي — وكان أبو سهل عيسى بن يحيي المسيحي الجرجاني من اعاظم علماء هذا العصر وله تآليف كثيرة منها كتابه المعروف (بالمائة) في الطب . قال ابن العبري في كتابه تاريخ مختصر الدول « ودرس ابن سينا الطب على ابي سهل المسيحي » وهو مرتاب فيما يقوله والظاهر انهُ قول لا يعبأ بهِ لان أبا علي لو كان متلمذاً عليهِ لذكره في رسائله ولو اعتقد فيهِ كالتالي لذمّه ايضاً . ثم من اين نعلم أن أبا سهل كان في مدينة بخارى ؟ وبعد هذا كله فان أبا علي قد صرّح ان الطب ليس من العلوم الحرجة وانهُ قرأه على نفسه ولم يدرسهُ على احد ولم يُشر احدٌ من المؤرخين الى ذلك فكون ابي سهل من اساتذة ابي علي لا يخلو من تأمل

وفي سنة ٤٠٣ سافر أبو علي من خوارزم لسبب غير معلوم ولعل عدم اكتراث خوارزمشاه لأبي الحسين السهيلي الحامي لاهل العلم والادب وعدم الاهتمام بهِ كان هو السبب . وقد ذكر صاحب كتاب (چهار مقاله) في السبب الذي سافر من اجله أبو علي حكاية لا ريب في سقمها حيث يقول إن فراره كان خوفاً من السلطان محمود الغزنوي يمين الدولة وقد علّل القاضي نور الله في كتاب مجالس المؤمنين ذلك وقال أن تشيّع أبي علي وتعصّب السلطان لمذهب اهل السنّة كانا سبب هذا الخوف فأراد ابو علي ان يذهب الى شمس المعالي قابوس بن وشمكير الذي كان من السلاطين المتشيّعة والظاهر ان ابا علي لم يقصد قابوساً لتشيعه بل لانهُ كان من الفلاسفة والادباء وكان يحب اهل الادب ويهتمّ بهم فقصده لذلك . غير انهُ لما كان على وشك الذهاب الى جرجان سمع ان قابوساً قد قبض عليهِ وسجن ثم قتل فاضطرّ الى العود الى دهستان ومرض هناك ولما عادت اليه صحته وتعافى من مرضه ذهب الى جرجان . وفي كتاب (چهار مقالة) رواية

عن زيارة الشيخ لقابوس بن وشمكير والطريقة التي داوى بها الشيخُ أحد أقارب هذا الامير وقد نظمها مولانا جلال الدين الرومي في الجزء الاول من كتابهِ المسمى بالمثنوي . غير ان المستفاد من رسالة أبي علي انهُ لم يلاقِ قابوساً : فلا بدَّ لنا اذن من ان نقول ان الرواية المذكورة في كتاب (جهار مقالة) سقيمة لا أصل لها

ويقول أبو الفداء في تاريخه ان أبا علي قد ذهب الى قابوس بعد ما أقام عند مجد الدولة البويهي وخدمهُ مدة ولكن الذي نعلمهُ هو ان أبا علي سافر الى الري في سنة ٤٠٤ ولم يكن قابوس حيًّا في ذلك التاريخ . وعند ما كان أبو علي مقيماً في جرجان استأجر لهُ احد الفضلاء بيتاً الى جنب بيتهِ وأنزل ابا علي فيهِ وكان يتولى أموره ويتعهدها وهنا اتصل بهِ أبو عبيد الجوزجاني المشار اليهِ آنفاً الآتي ذكره في محله وكان هذا يحرض الشيخ ويستفزُّ همته في التأليف والتصنيف. وكان الشيخ يتصدّى لبعض الاعمال السلطانية في جرجان ايضاً ولم يكن لديه متسع من الوقت للتأليف والتدريس . ومن الكتب التي الفها في جرجان المجلد الاول من كتاب القانون ومختصر المجسطي وبعض رسائل الَّفها لابي محمد الشيرازي . ويستفاد من مقدمة هذه الرسائل ان الشيخ قبل وصوله الى جرجان اصيب بامراض صعبة كان ابو محمد الشيرازي سبباً في تخفيف وطأتها . ومن جرجان قصد مدينة الريّ وخدم مجد الدولة وامه المعروفة بالسيدة والمسماة بزبيدة وداوى مجد الدولة وكان مرضه السوداء ثم سافر الى قزوين ومنها الى همذان واتصل بكدبانويه — ولم نعرف من هي — وورد على شمس الدولة بن فخر الدولة حاكم همذان في مجلسه وشفاه من مرضه الذي كان يشكو منه وقد اختلفوا في السنة التي سافر فيها الشيخ الى همذان فالشهرزوري يقول في كتابه سافر قبل بدر بن حسنويه (وحسنويه هذا كان يحكم بعض بلاد كردستان) وقال ابو عبيد في مقدمته ان سفره هذا كان بعد مقتل هلال بن بدر بن حسنويه. وانا نعلم حق العلم ان بدر بن حسنويه وابنه هلالاً قد قتلا (سنة ٤٠٥) فعلى قول الشهرزوري يكون سفر الشيخ الى همذان قبل سنة ٤٠٥ أو بعد هذه السنة على ما قال ابو عبيد في مقدمته . والظاهر لنا ان الثانية اصح لان الشيخ قد طالت اقامته في جرجان وذهب من هناك الى الريّ وقزوين . ثم ان رواية أبي عبيد أصح ولعل الاشتباه الحاصل للشهرزوري هو من تصحيفه كلة (قتل هلال) اذا كان قد قرأها (قبل هلاك) بدر بن حسنويه فنقلها كذلك . واما ابو علي فقد أصاب منزلة رفيعة عند شمس الدولة البويهي ولازمهُ في اسفاره فاستوزره وفوض الاموراليهِ ويظهر ان تصديه للوزارة كان بين سنتي ٤٠٥ و ٤١٢ لان حوادث سنة ٤١١ تذكر لنا تاج الملك بهران وزيراً لشمس الدولة واما قبل ٤٠٥ فلم يكن قد سافر الشيخ الى همذان . وكان قد ضعف امر الديالمة وافل نجم سعادتهم ولم يبقَ لهم في بلاد الجبال ما كان لهم من القوة وهاج الجند ونهبوا دار الشيخ ابي علي

واختفى هو خوفاً على نفسه ولم يضيع هذه الفرصة فاشتغل بالتأليف في ايام اختفائه ولم تمض ٤٠ يوماً على ذلك حتى اصيب شمس الدولة بالقولنج فاستدعى أبا عليّ ليداويه وفي بعض الروايات انهُ استوزر الشيخ ثانية . وفي سنة ٤١٢ توفي شمس الدولة وخلفهُ من بعده ابنه سماء الدولة وقبض على الشيخ وحبس في قلعة فردجان وبقي محجوراً عليه وله في هذه القضية قصيدة مطلعها : —

دخولي في اليقين كما تراه وكل الشك في امر الخروج

ولم يفتهُ ان يستغل هذه المدة ويغتنم هذه الفرصة فقضاها في التأليف والتصنيف فألف فيها شطراً من كتبه وتآليفه . وفي سنة ٤١٤ هاجم همذان علاء الدولة ابو جعفر كاكويه حاكم اصفهان الذي كان أبو علي متهماً بمكاتبته وحبس لاجله ففرّ تاج الملك وسماء الدولة من همذان. ولما رجع علاء الدولة عنها عادا اليها واخذا في استمالة الشيخ ووعداه بالحسنى . ولما يئس من انجاز ما وعداه به سافر مستتراً الى اصفهان. والذي يظهر لنا من رسائله وما يرويه غيره انهُ لاقى شدة ومحنة في همذان وان الدجالين من اهل العلم والادب قد آذوه وناصبوه العداء واتهمهُ بعضهم بمعارضة القرآن الكريم واتخذوا بعض خطب الشيخ في التوحيد والالاهيات دليلاً لمدعاهم . ويظهر من كتاب ارسله الشيخ الى ابي عبيد الجوزجاني ان بعض الفضلاء قد رشا بعض الدجالين ليتهموا الشيخ في معتقده ومذهبه ،ومن الخطب التي استدل بها أعداؤه على زيغه هي الخطبة المسماة بالغراء وقد شرحها الحكيم عمر الخيامي في سنة ٤٧٢ بالفارسية وكان أحد فضلاء همذان يقول ان الكلّ الطبيعي لهُ وجود في الخارج وكان الشيخ معارضاً لهُ ويظهر ان هذه المعارضة قد اشتدت بينهما حتى اضطرّ أبو علي ان يستفتي علماء بغداد ويعرض المسألة عليهم ليحكموا فيها

***

ولا نعلم على وجهٍ من الدقة السنة التي سافر فيها الشيخ الى اصفهان ولكن المظنون ان سفره هذا كان بعد ٤١٤. والذي نستفيده من مقدمة ابي عبيد الجوزجاني على كتاب « الشفاء » ان هذا الكتاب قد تمَّ تأليفه في اصفهان وكان الشيخ في ذلك الحين قد بلغ من العمر أربعين سنة ولكن لا يمكن الركون الى هذا القول لانهُ ينقضهُ في شرحه لسيرة أبي علي حيث يقول ان ابا علي لم يتوجه الى اصفهان الاّ بعد ان انقضت مدةٌ طويلة على وقعة علاء الدولة ومهاجمة همذان .فاذا كان ما يدعيه ابو عبيد من اتمام تأليف كتاب الشفاء في اصفهان وان عمر الشيخ كان في ذلك الحين أربعين سنة فيلزم ان يكون الشيخ قد توجه الى اصفهان قبل الواقعة بسنتين حيث شرع هناك باتمام التأليف .ولكن ابا عبيد قد نقض هذا القول . وأقام ابو علي في اصفهان عند ابي جعفر كاكويه

فارغ البال منعم الحال وتفرغ الى التأليف والتصنيف فأظهر درر فضائله ودوَّن غرر حكمهِ وأودعها بطون كتب لا يزال البشر يستفيد منها ويرتوي من منهلها العذب. قال بن الاثير «ابو جعفر كاكويه كان ملحداً زنديقاً ولذلك صنف أبو علي كتبه في الزندقة والالحاد وردّ الانبياء عنده» ولكننا لم نعلم حتى الآن اي كتاب لابي علي كتب على رد الانبياء على اننا نقول ان الرجل قد أيد الانبياء وأخذ بجانبهم الى حدّ ما وكان ابو جعفر يعقد في كل ليلة من ليالي الجمع مجلساً ويدعو اليه العلماء فكان ابو علي يتكلم ويتكلمون ويتباحثون في شتى المسائل. ومن الامور التي اقترحها علاء الدولة على الشيخ فأجاب طلبه وقام بما اراد هو الرصد الذي اشتغل بهِ الشيخ مع تلميذه ابي عبيد الجوزجاني مدة لا تقل عن ثماني سنين ولكننا ويا للأسف لا نعلم من ذلك الرصد والامر الذي انتهى اليهِ شيئاً. وكان ابو علي ملازماً لابن كاكويه في جميع اسفاره ومنها التي دارت فيها الحرب بين علاء الدولة وجيش خراسان في سنة ٤٢٣ وقد حضرها ابو عبيد واصيب بالقولنج وكان يحب مصاحبة علاء الدولة وعدم التخلف عنهُ فاستعمل ادوية حارّة أثرت فيهِ فانحرفت صحته وضعف مزاجه فاعتلّ وفقد نشاطه ولم يقدر على القيام بالامور كذي قبل وزاد الطين بلّة ما ارتكبهُ بعض الاطباء وغلمانه من ذوي الاغراض حتى استعمل من الادوية اكثر من اللازم فأحدث له ذلك مغصاً في الامعاء وأدّى الى وفاته وذلك سنة ٤٢٨ وهذا قول أجمع عليهِ المؤرخون وكتبهُ ابو عبيد ايضاً فعلى هذا يلزم ان يكون الشيخ قد عمّر ٥٨ سنة. ولكن أبا عبيد قد احتاط عليهِ الامر فهو يقول ان الشيخ في سنة ٤٠٤ كان يناهز الثانية والثلاثين من عمره فعلى هذا القول تكون ولادته في سنة ٣٧٣ ويكون عمره عند وفاته ٥٥ سنة بيد ان أبا عبيد مع انهُ يتفق مع غيره في سنة الوفاة يقول ان عمره كان ثلاثاً وخمسين سنة وهذا سهو منهُ

***

ولكن هناك ملاحظة أخرى وهي انا اذا جعلنا كلمتي (شجع) و (تكز) المذكورتين تاريخاً للولادة والوفاة فكلمة (تكز) تساوي ٤٢٧ وعلى هذا يكون عمره ٥٤ سنة وهذا لا يطابق ما كتبهُ ابو علي عن نفسهِ في سيرة حياتهِ. وقد اختلف المؤرخون في محل وفاتهِ وقبره ايضاً. قال ابن الاثير في وقايع سنة ٤٢٨ «وفيها توفى أبو علي بمدينة اصفهان» وهناك قول آخر بأن الوفاة كانت في همذان وحمل جثمانه الى اصفهان ودفن فيها. والصحيح انه توفي في مدينة همذان ودفن فيها وقبره معروف هناك يزوره السائحون والناس

[للبحث تتمة]



الشعلة الدستورية

لانيس المقدسي
استاذ الادب العربي بجامعة بيروت الاميركية

الشعلة الدستورية سنة ١٩٠٨
وانقضاء العهد الحميدي

أدرك أحرار الأتراك حرج الموقف السياسي ، وكأنما نظروا بلحظ الغيب الى العواقب السيئة بل الى الانفجار المتوقع من استمرار الدولة على فسادها فسعوا الى اصلاح الحال وتمكنوا ان يحملوا السلطان عبد الحميد عند تسنّمه العرش سنة ١٨٧٦ على اعلان الدستور والحكم النيابي لكن ذلك الدستور لم يلبث — كما رأينا — ان خنق في المهد . وعادت الدولة الى نظام الحكم الفردي فكان ما عرفناه من تفاقم الاضطراب السياسي والاجتماعي طيلة العهد الحميدي [١] .

ولعلّ الابيات التالية لولي الدين يكن ترسم لنا بوضوح صورة ذلك العهد . قال [٢]

يبكي بنوكَ ويضحك الزمنُ	ماذا أصابك أيها الوطنُ
ما أوشكت ان تنتهي محنٌ	الاّ وجاءت بعدها محنُ
أما الرسوم فانها درستْ	أما الرجال فانهم دفنوا
العصر راجت سوق باطله	فالحقُّ فيه ما لهُ ثمنُ
يا قوم هبّوا من مضاجعكم	طال المدى حتّام ذا الوسنُ

وما رآه ولي الدين في تركيا نفسها رآه جميل الزهاوي في العراق فقال من قصيدة موضوعها « نحن في غفلة » [٣]

(١) راجع وصف هذا الاضطراب في مقالات الانقلاب العثماني — الهلال م ١٧ ولا سيما ص ١٥٧ — ١٦٣ (٢) ديوانه (الطبعة الاولى) ٣٢ (٣) ديوان الزهاوي (مصر) ١٩٢٤ ص ٢٩١

نحن في غفلة نيامٌ وعنّا نائبات الزمان غير نيامِ
نحن في دولةٍ تداركها الله تبيح المحظور للحكامِ
وعدها بالاصلاح جمٌّ ولكن لا يجوز الاصلاح حدّ الكلامِ
نحن قوم قضت ارادة شخصٍ واحدٍ ان نعيش كالأنعامِ

ومن الطبيعي ان يصحب الاضطراب الاداري اشتداد العوامل الهدّامة من الخارج ومن الداخل . وقد صدق روحي الخالدي اذ قال (١) « فبسبب تشويش الادارة وتذبذبها لم يعد للحكومة قاعدة مضطردة ولا أصول مرعية لا في سياستها الداخلية ولا الخارجية ولذا سقط اعتبارها عند الدول الاجنبية حتى تجرأوا على تهديدها في المسائل الطفيفة العادية وسقط اعتبارها أيضاً في نظر رعاياها وصار أكثر الموجودين منهم في الديار الاجنبية يأنفون من دخولهم في التابعية العثمانية » فلا عجب اذا رأينا ممتلكاتها البلقانية تنفصل عنها واحدة بعد واحدة فضلاً عن كريت وقبرص وسواها . وفي الشعر العربي اشارات كثيرة الى ذلك كقول الزهاوي (٢)

رعى الله شعباً أهملتهُ رعاته وملكاً كبيراً ركنهُ متزعزعُ
تقطّع منهُ كلَّ يوم مدينةٌ وما الكفّ الاّ أصبع ثم أصبعُ

وكقصيدة في جريدة المشير مطلعها (٣)

ذهبت ويا للهول أرض كريد بمصائبٍ هتكتْ ستار الغيد

وكلها طعن في عبد الحميد وسياسته التي أدّت — بزعم الشاعر — الى تجزئة المملكة وزعزعة أركانها . وكثيراً ما نرى هذه الاشارات الى ضعف السلطنة مقرونة بشعور الأسى والجزع كقول ولي الدين في منفاه الى سيواس (٤)

يقول أحبتي صبراً وهل في النار يُصطبرُ
ونحن أمامنا وطنٌ نراهُ اليوم يحتضرُ
فمن يجزع فمعذورٌ ولكن قلَّ من عذروا
فيا أفق التهبْ حَزناً وجُد بالدمع يا مطرُ

ففي مطلع القرن العشرين نرى السلطنة العثمانية بين المطامع الاوربية والفساد الداخلي في موقف شديد الدقّة . وكما تمكن الاحرار في مثل هذا الموقف سنة ١٨٧٦ من اعلان الدستور عادوا بعد اثنتين وثلاثين سنة تحت لواء « الاتحاد والترقي » فاضطروا عبد الحميد الى اعلانهِ والشروع في انتخاب نواب الامة . وهكذا كان يوم ٢٤ تموز (يوليو) ١٩٠٨ يوماً عظيماً في تاريخ السلطنة

(١) الهلال ١٧ — ١٦٢ (٢) اللباب ١٣ (٣) المشير ٢٧ فبراير ١٨٩٧ لاسعد حمادي
(٤) ديوانه ٥٦

العثمانية اذ تنادى زعماء الامة بالحرية والمساواة والاخاء فتجاوبت أصواتهم في أنحاء البلاد وكان لها دويّ عظيم بين أبناء الشرق العربي

﴿ الاستبشار العام بالعهد الجديد ﴾ وباعلان الدستور سرت في نفوس العثمانيين عموماً وأبناء العربية خصوصاً نشوة حبور لم يُعهد لها مثيل. فعقدوا الحفلات الباهرة في الوطن وفي المهاجر. وانبرى خطباؤهم وشعراؤهم يشيدون بمحسنات الانقلاب وأعمال القائمين به [1] . ولا نبالغ اذا قلنا انهُ ما من حدثٍ حرّك الاقلام العربية كهذا الحدث العظيم فقولنا قول من شهد بعينهِ تلك الحال وعرف باختباره شعور الناس وشاركهم في غبطتهم العامة وآمالهم الواسعة . خذ سوريا ولبنان مثلاً وراجع صحفهما لذلك العهد فتدرك عمق ذلك الانفجار الادبي فيهما . ويكفي ان نلمح هنا الى قصائد عبد الله البستاني ، ومحيي الدين الخياط ، وشكيب أرسلان ، والياس فياض ، ونقولا فياض ، وفارس الخوري ، وأمين ناصر الدين ، وعبد الرحمن سلام ، ومصطفى الغلاييني ، وشبلي ملاّط ، وبشارة الخوري ، وسواهم من شعراء الوطن ، وسعيد شقير ، وأسعد رستم ، والشاعر القروي ، وشبل دموس ، ونعوم مكرزل وأمثالهم في مصر والمهاجر الغربية . هذا فضلاً عن عشرات الاناشيد الوطنية والازجال العامية التي لبست من البيان مسحة لم نعهدها في عهود الاستبداد

وما يصدق على سوريا ولبنان يصدق على العراق ايضاً. وهناك الزهاوي، والرصافي، والدجيلي، والعبادي ، والشبيبي ، والهنداوي ، والازري ، والعُبيدي ممن شهدوا هذا الانقلاب وكان كلامهم معبراً عن عواطف الامة

وقد رسم لنا الزهاوي يومئذٍ صورة لبغداد تُعدُّ مثالاً صادقاً لجميع المدن العثمانية . قال [2]

وقفتُ والعين تبكي من مسرتها ... أمام شعبٍ من الافراح محتاجِ
أمام بحرٍ من الافكار مضطرب ... أمام جيش من الاصوات رجراجِ
ان الشعوب اذا هاجت عواطفها ... كالبحر يضرب أمواجاً بأمواجِ

ازاء هذه النعمة الدستورية نسي شاعرنا ما كان يثير اشجانه من مساوىء العهد الماضي — عهد الظلم والجهل والفوضى — كما كان ينعته قبلاً ، فقال والامل يملأ فؤاده [3]

البرق أهدى لنا بُشرى بها هدأت ... أرواحنا بعد طول الخوف والرهبِ
بُشرى كما تبتغي الآمال صادقة ... أجلّها الناسُ من قاصٍ ومقتربِ
لقد أقرّ لعمري أعيناً سخنت ... ما نالهُ فئة الاحرار من أربِ

---

(١) قال المقتطف (٣٣ — ٩٠٥) كان لاعلان الدستور أعظم وقع في نفوس العثمانيين فعقدوا له حفلات باهرة في بلادهم وفي كل البلدان التي هاجروا اليها تلي فيها من الخطب والقصائد ما لو جمع لملأ مجلدات كثيرة (٢) ديوانه (١٩٢٤) ٢٧٤ (٣) ديوانه (١٩٢٤) ٢٧٥

وقال آخر يصف شعوره وشعور الناس في احدى حفلات الدستور في بيروت (١)

« هذه أول مرة شعرت فيها بالوطنية التي يشعر بها كل من قدر الوطنية قدرها . ويتزاور الناس من جميع الطبقات وهم فرحون منشرحو الصدور فاليوم شعر السوريون بطيب الحرية وأدركوا سوء مغبّة الاستبداد والضغط وعرفوا ان التعصب الذي يفرّق الكلمة يفرّق القلوب. اليوم دروا ان أوربا لم تستفحل صولتها الاّ بالاتحاد ، ولا اتحاد مع التعصّب »

وليس في هذا الكلام شيء كبير ولكنهُ شعور الناس يومئذٍ . وقد كان ذلك الشعور يتدفق شعراً ونثراً على ألسنة كبار الادباء وعلى ألسنة صغارهم وكان للشعر العاميّ نصيب وافر منهُ ولا سيما في لبنان ومهاجره ومن أمثلته قول أحدهم ارتجالاً (٢)

يا اسلامْ ومْسيحيّه اسمعوا لي ها القضيّه
اهل الارضْ بطول وعرضْ يقولوا تحيا الحريّه

***

أهل الارض بطول وعرض يقولوا تحيا الحريه
فليحيا نيازي وأنور والجيوش الشاهانيه

***

أهل الارض بكاملْها من أوّلْها لآخرها
تركيا الله يعمّرها بجاه ربّ البريّه

***

بَطَلْ روح الاستبدادْ نادوها بكل البلاد
زَمانْ الماضي ما ينعاد الظلم نجومه مخفيّه

وقد اشترك في هذا التهليل اشهر قوّالي ذلك الحين كخليل القفاليْ الشحروري والياس الفرّان وسواهما . وللاول مخمّس دعاه صوت الحريّة ومطلعه

صوت البرى من قاع بوسفور العميق لما وصل لله من أقومْ طريقْ
المجد ظلّل حزب تركيا الفتاة وانتصر عهد الجديدْ على العتيقْ

***

المجد ظلّل حزب تركيا الفتاة والروح لبْستْها بعد ذاك الممات
والرب أوهبها علا ونصر وحياة من بعد ما كانت حزينة بائسه
والمظالم راحْ بتخنقها خنيقْ

(١) جريدة لسان الحال ١ آب ١٩٠٨ (٢) الآداب في القرن التاسع عشر (شيخو) ٢ — ١٦٢

وقد ذكره الاب شيخو في منتخباته الدستورية : وكذلك ذكر « قرّادية » للقرآن مطلعها

كنت بأكبر بليّه بسجن العبوديه

وبعض أقوال المهاجرين فلتراجع [١]

ولم تقصّر مصر في مشاركة سائر الاقطار العثمانية بهذا الابتهاج العام . على أنهُ لا مناص للناظر المتعمق في الخوالج الشعرية يومئذٍ من ان يلمح هنا كما لمح من قبل شيئاً من التفاوت بين النزعة المصرية الصميمة وغير الصميمة . فبينا ترى الاخيرة تقرن الغبطة الدستورية بذكريات العهد البائد ومآثر رجال الاتحاد ، وتحوم دائماً حول ما كان يقاسيه الناس من ظلم واضطهاد . ترى الاولى هزجة بالعرش العثماني داعية الى توثيق عرى الاخلاص له. وقلما ترى فيها ما يشير الى اضطرابه أو فساده ، وحال الرعية في أبّان استبداده . وهذه قصيدة شوقي في الدستور العثماني [٢] ومطلعها

بشرى البريّة قاصيها ودانيها حاط الخلافة بالدستور حاميها

فهي فيض من الحبور ، وبشرى وضاءة بمستقبل زاهر ستقر لهُ عيون العثمانيين ولكنها عند التحقيق قلادة دريّة يضعها في عنق السلطان . اثنان وخمسون بيتاً أكثرها يدور على السلطان وعمله العظيم في اعلان الدستور من مثل قوله —

أسدى الينا أمير المؤمنين يدا جلّت كما جلّ في الاملاك مسديها

وليس مستعظماً فضل ولا كرم من صاحب السكّة الكبرى [٣] ومنشيها

إنّ الندى والرضى فيه واسرته والله للخير هاديه وهاديها

خلافة الله في احضان دولتهم شاب الزمان وما شابت نواصيها

بل هو يعزو الى عبد الحميد قبول الدستور راضياً مرضيّا وانهُ لو أراد لرفضه وأحدث حرباً أهليّة عظيمة —

حقنت عند مناداة الجيوش بها دم البريّة ارضاء لباريها

وهكذا يجري في مدحه وتبيان فضله ولا يشير الا بيت واحد فيها الى رجال الدستور وفي نهايتها يهنيء العثمانيين ويشير الى حال مصر والى أماني المصريين فيقول —

ياشعب عثمان من تُرك ومن عربٍ حيّاك من يبعث الموتى ويحييها

صبرت للحقّ حين النفس جازعة والله بالصبر عند الحق موصيها

ما بين آمالك اللائي ظفرت بها وبين مصر معانٍ أنت تدريها

---

(١) الآداب في القرن التاسع عشر (شيخو) ٢ — ١٦٠ — ١٦٢ (٢) الشوقيات ١ — ٣٥٨
(٣) اشارة الى السكة الحديدية الحجازية

ومثل شوقي حافظ ابراهيم في قصيدته « تحية الاخلاص » [١] للامة العثمانية الدستورية ففيها يمدح السلطان عبد الحميد لاعلانهِ الدستور ومدّهِ سكة الحجاز . ويستهلّها بقوله —

أثنى الحجيج عليك والحرَمانِ وأجلَّ عيد جلوسك الثقلانِ
أرضيتَ ربَّك إذ جعلت طريقه أمناً وفزت بنعمة الرضوانِ
وجمعت بالدستور حولك أمّة شتى المذاهب جمّة الاضغانِ

ومنها مشيراً الى سرور الناس بالحرّية —

ثلجت صدورهمُ وقرَّ قرارهم لما حلفت باوثق الأيمانِ
يايومَ عاد النازحون لارضهم يتسابقون لرؤية الاوطانِ
لله كم اطفأتَ من نارٍ ذكت دهراً وكم هدّأت من اشجانِ
هذا يطير الى « فروقَ » ومن بها شوقاً وذاك الى رُبى لبنانِ
خلعوا الشباب على البشير واخلقوا بالثم عهد خليفة الرحمنِ

وينحي باللائمة على شريف مكة ويحمل عليهِ وعلى أعوانهِ حملة شعواء . وفي القصيدة وصف للحرية معشوقة الجميع . وذكر خاص لشهر تموز (يوليو) شهر الدستور وتمنٍّ أن يكون لمصر نصيب منه —

تمّوز أنت أبو الشهور جلالةً تمّوز أنت مُنى الاسير العاني
هلاَّ جعلتَ لنا نصيباً علّنا نجري مع الاحياء في ميدانِ
ايعود منك الآملون بما رجوا ونعود نحن بذلك الحرمان

وهي تدعو الى الوئام والاتحاد في ظل الهلال

وعلى غرار شوقي وحافظ أكثر نفثات المصريين الدستورية . ويقابلها نفثات الذين ذاقوا مرارة العهد الحميدي : ففيها كما أسلفنا يقترن الحبور بذكر الماضي ، كما ترى في شعر ولي الدين يكن ومنهُ قصيدة في افتتاح البرلمان العثماني يقول فيها [٢]

بالامس كنا معشراً نبكي لحالتنا المعاشرْ
تقتادنا الايدي الاثيـمةُ للسجون وللمقابرْ
ويصول أنصار المليـك على الاكابر والاصاغرْ

ومنها مشيراً الى المجلس النيابي : —

لله قصـرٌ شامخٌ مدُّ النواظر عنهُ قاصرْ
قصرٌ بهِ يعلو النسـا وي رأسَ مأمورٍ وآمرْ

(١) راجعها في ديوانه (١٩٢٢) ج ٣ — ٢١ (٢) ديوانه (١٩٢٤) ٥٤

وتجيش عاطفة الشكر في نفسه فيقول

يا دهر شكرك واجبٌ   يا دهرُ ما في الناس كافرْ
لم يبق ظلمٌ يتقى   دارت على الظلم الدوائرْ

هذا الميل الى مقابلة العهد الحاضر بالعهد البائد — الى ذكر المساوىء التي كانت تزعج الناس وتؤلمهم تعظيماً لحسنات الدستور وبثّاً لما كانت تكظمهُ الصدور تراه شائعاً في المنظومات الدستورية خارج الحلقات المصرية . وقد ذهب الشعراء في ذلك كل مذهب وهاموا في كل واد . ولا بدع فهم يعبرون عن شعور أمة كانت ترسف بقيود الذل فجاءها فجأة من حطّم تلك القيود ، وأطلقها حرّةً تنعم بسعادة الوجود . ولو أردنا ضرب الامثلة على هذه الظاهرة الروحية لملأنا صفحات عديدة من قصائد الشعراء وخطب الخطباء ولكننا نكتفي هنا بأنموذج منها . وهو أبيات من قصيدة لسعيد باشا شقير قال فيها يخاطب الجند الذين تمَّ على أيديهم اعلان الدستور

اليوم نمرحُ احراراً بفضلكمُ   نغدو ونمسي ولا همٌّ ولا نَصَبُ
قد أطلق الحرُّ من سجنٍ أهين بهِ   وعاد للوطن المحبوب مغتربُ
فلا جواسيس نخشى من وشايتهم   ولا جرائد تأتينـا فترتعبُ
ننام في الليل لا الاحلام تقلقنا   وننهض الصبح لا خوفٌ ولا رعبُ
كم بين حال اتتنا كلّها طربٌ   وبين حالٍ عدتنا كلّها رَهَبُ

ومثلها قول نقولا رزق الله من قصيدة مطلعها (١)

يا ايها الناس حيّوا ذلك العَلَما   وسبّحوا مانح الحريّة الأُمَما

وفيها يطلب من الناس مناصرة عصبة الاحرار الذين احيوا البلاد ، وحرّروا العباد والدعاء لهم بالبقاء حتى تدوم للوطن هذه الآلاء . ثم يلتفت الى العهد الماضي فيقول

سوّاكمُ العدل اخواناً سواسيةً   فليس يُظلم فيكم غير من ظلمـا
وليس يقصى اديبٌ عن مواطنه   ولا يضام عليم قال ما عَلِمـا
ولا يكافأ ذو مالٍ لثروته   ولا يجازى فقير فقره أثِمـا
ولا يقوم على الذلّ العزيزُ كمن   قد شفّه الداء حتى عاشر السقما
لا يعبثنّ بحقّ من حقوقكم   ذو سلطةٍ جائرٌ مهما علا وسما

***

وسواءٌ أكان الشعر العربي ممالئاً للعرش العثماني ام غير ممالىء فان الدستور التى عليه عموماً

(١) الهلال ١٧ — ١٧٢

مسحة ظاهرة من الزهو والاستبشار اذ فتح للناس ابواب الرجاء فأصبحوا ينظرون الى المستقبل نظر الوثوق والتفاؤل . وكان الدستور عندهم شعار السعادة الفردية والقومية ومفتاح الرقيّ الاقتصادي والاجتماعي . شعور لذيذ هزّ القلوب حيناً ولكنهُ لم يطل

﴿خلع عبد الحميد﴾ والذي يلاحظ من دراسة الشعر ان هذا الحبور العام الذي عقب اعلان الدستور كان في اول الامر مقروناً بالثناء على عبد الحميد . ذلك لان الذين احدثوا الانقلاب لم يمسوا باديء ذي بدءٍ عرشهُ فظلَّ حيناً يتمتع بنفوذٍ عظيم . على انهُ لما حدثت الفتنة الرجعية سنة ١٩٠٩ رأى الدستوريون أن في بقاء ذلك السلطان خطراً على نظامهم فخلعوه في ٢٧ نيسان من تلك السنة واجلسوا على العرش اخاه محمد رشاد . وبخلعهِ سرَت هزة شعرية لا تقلّ عن هزّة الدستور : فتفجرت القلوب بما كانت تكنّهُ لشخصهِ ولعهده ، واخذ الشعراء في سوريا والعراق والمهاجر يتبارون في تعداد مساوئهِ . ومن امثلة ذلك قصيدة لفارس الخوري[1] مطلعها

الله اكبر فالظلاّم قد علموا لايّ منقلَبٍ يُفضى الأُولى ظلموا
لقد هوى اليوم صرح الظلم وانتقضت اركانهُ وتولّت اهله النِّقَمُ

ومنها يخاطب عبد الحميد ساخراً بهِ ذاكراً مجد اسلافه

شادوا لك العزّة القعساء من قدمٍ فجئت تهدم ما شادوا وما رسموا
كانت لهم دولة بالسيف ناهضةٌ وفي زمانك لا سيفٌ ولا قَلَمُ
حصدت ما زرعوا فرّقت ما جمعوا هدمتَ ما رفعوا بعثرت ما نظموا

وهي طويلة وكلها من هذا النفَس البليغ . وأشد منها تشفيًّا قول احد شعراء المهجر من قصيدة نشرتها جريدة مرآة الغرب[2]

مضى عبد الحميد الى مكان رمتْ فيهِ أم قشعم الرحالا
مضى وله بفعل الشر ذكر محا ذكر الالى كانوا مثالا
مليكٌ قد تسربل بالمخازي وعمَّ الارض غدراً واحتيالا
امير المؤمنين دعوه زوراً فكان الذئب لم يعرف حلالا
عدوٌّ الدين والاسلام هلاّ علمت بانّ في الدنيا زوالا

وللمعروف الرصافي في ديوانه قصيدة معروفة يصف فيها زحف الجيش من سلانيك على الاستانة وخلعهم عبد الحميد تأييداً للحرية وحفظاً للدستور . ومطلعها —

لقد سمعوا من الوطن الانينا فضجّوا بالبكاء له حنينا

---

(١) فارس بك الخوري (رئيس المجلس النيابي السوري الآن) راجع القصيدة في المقتبس ٤—١٣٧
(٢) الآداب العربية في القرن التاسع عشر (شيخو) ١٨٥

وناداهم لنصرته فقاموا جميعاً للدفاع مُسلّحينا

ومنها مشيراً الى زحف الجيش وارغامهم أنوف الرجعيين —

أتينا دار قسطنطين صبحاً وقد فتحت لهم فتحاً مُبينا
وظلّ الجيش جيش الله يشفي بحدّ سيوفه الداء الدفينا
فأرهق انفس الطاغين حتى سقاهم من عدالته المنونا
وحطّوا قصر يلدز عن سماءٍ له فانحطّ أسفل سافلينا
هوى عبد الحميد به هويّاً الى درك الملوك الظالمينا

وفي ختامها —واسقط ذلك الجبّار قهراً وأنباه بصارمه اليقينا
فقرّت أعين الدستور أمناً وشاهت أوجه المتمردّينا

وله في ذلك قصيدة أخرى اسمها « وقفة عند يلدز » وهي لا تقلّ عن اختها مضاءً . وفيها يخاطب الشاعر قصر يلدز بعد أن سقط صاحبه (عبد الحميد) وأرسل سجيناً الى سلانيك ، فيذكر ما كان له من مساوىء ومظالم ويختم القصيدة بنفثة تحرّريّة حماسيّة فيقول —

إنما نحن امةٌ تدرأ الضيم ولا تستكين لوالِ
أمّةٌ سادت الانام وطابت عنصراً من أواخرٍ وأوالِ
فاذا ما علا الغشوم نهضنا فقذفناه سافلاً من عالِ
نحن من شعلة الجحيم خلقنا لا لأي الجور لا من الصلصالِ

وهنا تحمله الحماسة الى اقصى مدى فيهدد طغاة الانام جميعاً منذراً إياهم بسوء المصير فيقول —

يا ملوك الانام هلاّ اعتبرتم بملوكٍ تجور في الافعالِ
فاتركوا الناس مطلقين والاّ عشتم موثقين بالاوحالِ

***

تلك كانت عواطف الشعر العربي في العراق والاقطار السورية والمهاجر . اما في مصر او في الاوساط المصرية الاصيلة فمن الطبيعي ان لا نتوقع هذا الاندفاع في الحمل على عبد الحميد والتهليل لسقوطه . فالمصريون او بكلمة اصح فالشعر المصري قد قابل خلعه برعشة مقرونة بالعطف والشفقة . وذلك على ما يظهر لسببين رئيسين . (١) لما ذكرناه سالفاً من ان المصريين الحديثين لم يذوقوا من الادارة الحميدية ما ذاقهُ اخوانهم في الاقطار الاخرى . (٢) لانهم كانوا ازاء احتلال اجنبي قد أثار حفائظهم الدينية والجنسية فليس من الوفاء الوطني وقد جاهروا

مراراً بمودتهم للعثمانية ان ينقلبوا على الخليفة الآن ويحطوا من شأنه امام الاجانب وقد كانوا الى الامس يعظمونهُ ويدعون له . فليس غريباً اذن ان تظل علاقتهم بعرش الخلافة حية فعّالة ، وان يكونوا أعطف على الهاوي عنهُ وأقرب الى الصفح عن سيئاته . وعلى ذلك نرى شوقي يقول في قصيدته « سل يلدزا ذات القصور » (١)

خطبُ الإمام على الـــنظيم يعزّ شرحاً والنثير
شيخ الملوك وان تضعـــضع في الفؤاد وفي الضمير
نستغفر الله لـــهُ والله يعفو عن كثير
ونراه عند مصـــابهِ اولى بباكٍ او عذيرِ

وانظر الى روح العطف كيف يظهر في قوله مخاطباً عبد الحميد

عبدالحميدحساب مثلك في يد الملك الغفـورِ
ماذا دهاك من الامو ر وأنت داهية الامورِ
دخلوا السرير عليك يحـــتكمون في ربّ السريرِ
أعظِم بهم من آسرين وبالـــخليفة من اسيرِ

وكما كان طبيعيًّا ان يتلبّس شعر شوقي بثوب الوفاء للسلطان والعطف عليهِ كان طبيعيًّا ايضاً ان نرى شاعراً كولي الدين ذاق ما ذاق من أهوال الاستبداد يعارض قصيدة شوقي فينظم قصيدة (٢) على وزنها ورويها منددّاً بعبد الحميد معدّداً سيئات حكمهِ كقولهِ : —

ان الثلاثين التي مرّت بنا سرّ العصورِ
وهبتك تجربة الامور فعشت في جهل الامورِ
من كان يدعوك الخبيرَ فلست عندي بالخبـيرِ

ويقول مشيراً الى شوقي وطبقتهِ متألماً من عطفهم ومسيئاً الظن بعواطفهم

لما أُديل عن السرير بكاه عباد السريرِ
أسفوا عليـــهِ وانما أسفوا على المال الدريرِ
طلبوا لهُ عفو الغفور وشذّ عن عفو الغفورِ

(١) الشوقيات ١ — ١٢٦ (٢) ديوانه ٣٠

وما نراهُ في شعر شوقي نراهُ في شعر حافظ واسماعيل صبري واحمد نسيم وسواهم ونود ان نشير هنا اشارة خاصة الى قصيدتين لحافظ (١) فالاولى مطلعها

لا رعى الله عهدها من جدود كيف أمسيت يا ابن عبد المجيدِ

ومنها — شمت المسلمون قبل النصارى فيك قبل الدروز قبل اليهودِ

شمتوا كلهم وليس من الهمة ان يشمت الورى في طريدِ

انت عبد الحميد والتاج معقودٌ وعبد الحميد رهن القيودِ.

خالدٌ انت رغم انف الليالي في كبار الرجال أهل الخلودِ

وهذه القصيدة ، برغم ما يتخللها من ذكر بعض المساوىء الحميدية ، مرتبطة بشعور واحد هو شعور العطف والوفاء لخليفة

ولي الامر ثلثَ قرنٍ ينادي باسمهِ كلُّ مسلمٍ في الوجودِ

على انَّ هذا العطف اخذ يخفُّ في شعر حافظ وها نحن نراه في العيد الدستوري الاول ينشد قصيدته التي مطلعها « أجل هذه اعلامه ومواكبهُ » فيذكر محامد الدستور وما بي محمود شوكت ونيازي وأنور. ويقف على يلدز واصفاً ما اصابهُ ، معدّداً اوهام صاحبه واخطاءه ثم يقول

سلوه أأغنتْ عنهُ في يوم خلعهِ عجائبهُ او احرزتهُ رغائبه

وأخرجهُ من يلدزٍ ربّ يلدزٍ وجرّده من سيف عثمان واهبه

وأصبح في منفاه والجيش دونهُ يغالبُ ذكرى ملكه وتغالبه

يناديهِ صوت الحقّ ذق ما أذقتهم فكلُّ امرىءٍ رهنٌ بما هو كاسبه

مضى عهد الاستبداد واندكَّ صرحهُ وولَّتْ أفاعيهِ وماتت عقاربه

واذا تابعنا حافظاً في قصيدته هذه التي نظمها بعد خلع عبد الحميد بنحو ثلاثة أشهر وجدنا ان تحوّل عطفه عن ذلك السلطان لم يخفّف من ولائه للعرش العثماني والخلافة الاسلامية فهذا العيد يستخفهُ لمدح السلطان الجديد محمد رشاد وتعظيم عرشه فيقول —

لتهنِ امير المؤمنين محمداً خلافتهُ فالعرش سعدٌ كواكبه

ستملك امواج البحار سفينه كما ملكت شمَّ الجبال كتائبه

ممالكه محروسة وثغورهُ ركائبه منصورةٌ ومراكبه

[موضوع الحلقة التالية من هذا البحث النفيس — الدستور والروح الوطنية —]

---

(١) راجعها في ديوانه (١٩٢٢) ٣ ص ٣٠ — ٤٤

حواء الخالدة

لعبد الرحمن شكري

أنتِ يا من أَلَّفَتْ بين الفنونْ   وهي لولا ما جنت منك ظنونْ
دوحة الفن التي تحبو الورى   بجناها من قطوف القاطفين
كل لحن او قريض او دُمَى   نُحِتَتْ اوصورةٍ منك تكون[1]
كل من قد خلبت لب الرصين   من حسان جمعت سحر الفتون
كُنْتِهَا في الناس حالاً بعد حالِ   تحفة فاتنة للناظرين
فلبستِ الحسن شكلاً بعد شكلِ   وخبرتِ الحب حيناً بعد حين
ورأيتِ الكون في ضحوته   وفهمتِ الناس في ضيق ولين
كنتِ أمًّا كنتِ أختاً كنتِ زوجاً   كنتِ في البؤس عزاء البائسين
فعلى صدرك يبكي همه   وأساهُ موجعُ القلب حزين
كم نفوس وقلوب بسطت   لك ما تضمر في ماضي السنين
فعرفتِ القلب ما ينشده   وعرفت النفس والسر الكمين
وقرأتِ الروح دهراً بعد دهرِ   وبلوتِ الخلق في مرّ القرون
اي قلب مغلق لم تفتحي   اي سر للورى لا تعرفين
كُنْتِ حواء التي من أجلها   يندب الفردوسَ كلُّ العالمين
وقليلٌ لكِ يا حواء ان   يفقد الخلقُ جنان الخالدين

(١) الدمى التماثيل

آدمُ كان بجهل قانعاً … ناعماً بالجهل في خفض ولين[1]

ليس يستطلع امراً غامضاً … في ثمار العيش والسر المصون

بك ِ شام الكون غضاً زاهياً … اكذا النبن فيا نعم الغبين

جذوة الفطنة في اللب وفي … نفسه من حسنك الغض ، شؤون

كَفّري في النسل عن إثم مضى … وثقي بالله خير الغافرين

لم يكن إثمك الاّ قدراً … كي يلذ الناسُ سعدَ الهالكين

لا يُحِسُّ السَّعْدَ الاَّ هالكٌ … قد أحسَّ الهم في القلب الحزين

كُنْتِ هيلين التي من أجلها … خربت طِرْوادة ذات الحصون[2]

وقليلٌ لكِ يا هيلين ان … يهلك الأقيال في الحرب الزَّبُون

كُنْتِ شيرين التي قد ذللت … عُنْق كسرى وهو ذو الملك المكين[3]

كُنْتِ تايِيس اذا ما خطرت … خفق القلب كطير في وكون[4]

كُنْتِ سيفو اذ رمت بالشعر كالـ … ـجمر تُذْكي لفظه للسامعين[5]

كُنْتِ اسبزيا التي قد فتنت … باقتران الحسن والفهم الفطين[6]

كُنْتِ ليلى كنتِ بُثْنا كنتِ عزّا … باعثات الوجد والشعر المبين[7]

كُنْتِ ما كنتِ ولكنْ انتِ انتِ … لكِ سحر الضوء والليل الدجين

وغداً كيف تكونين وما … اسمك بين الناس في الآتي الشطون[8].

---

(١) خفض العيش نعيمه وكذلك اللين والمراد باسم حواء المذكور في القصيدة أكلها من الشجرة المحرمة وحث آدم على الاكل منها (٢) هيلين الاغريقية الحسناء التي كانت سبب حصار وتخريب طروادة كما جاء في القصص (٣) شيرين من حسان الفرس (٤) تاييس ممثلة اغريقية فاتنة (٥) سيفو شاعرة اغريقية اشتهرت بالغزل (٦) اسبزيا حسناء في عهد بركليز اشتهرت بالعقل (٧) بثنا هي بثينة التي نظم جميل بن معمر فيها الشعر وعزا هي عزة التي نظم فيها كثير وقد وردت ها تان الصيغتان في شعر جميل وكثير (٨) الشطون البعيد

فكرة التقدم

ما كان منها وما آلت اليه

لعلى أدهم

لكل عصر من عصور الحضارة فكرة خاصة تسيطر عليه ويتسم بطابعها وتحدد اتجاهه وتعبر عن عقل المجتمع الذي نشأت فيه وتبين مدى ادراكه وتدل على تصوره للحياة وموقفه من مشكلاتها . وفي ابان قوة هذه الفكرة وامتداد سلطانها وشدة استيلائها على النفوس تسمو على البحث وتنزه عن النقد لانها تعتبر في ذلك الوقت من المبادىء المقررة والقضايا التي لا يرتقي اليها الشك ، فلا ينظر اليها من حيث هي فكرة سائدة فهي من أجل ذلك عرضة للدثور والعفاء لانها وليدة ظروف متقلبة ونبت ملابسات لا تني تتغير وانما ينظر اليها من حيث هي حقيقة خالدة مطبوعة في صفحات الكون مسطورة على جباه الاشياء فهي من الوضوح والابانة بحيث لا تتطلب تفكيراً ولا تستلزم بحثاً ولا تحقيقاً

وفكرة التقدم من قبيل هذه الافكار التي شغلت مكانة كبيرة ولعبت دوراً هاماً في سير الحضارة الغربية، ولم تكن مجرد نزعة طارئة او فكرة فلسفية رائجة وانما كانت عقيدة ثابتة مدةً تقارب القرنين يسير الناس في مدارجها ويعتصمون بأسبابها وكانت في الواقع هي الايمان المحرك والقوى الدافعة في الحضارة والمحك الذي يقدر به نصيب المذاهب الاجتماعية من الصلاح والفساد والنفع والضرر ، وكانت جميع النظريات التي نشأت في ذلك العصر تستنجد بها وتتعلق بأذيالها لغلبة الاعتقاد بأن النظرية السياسية او الفكرة الاجتماعية التي لا توائم فكرة التقدم لا تستطيع ان تستجمع عناصر البقاء ولا تتوافر لها دواعي الحياة

وقد كان السواد الاعظم من الناس في العصور الوسطى يتجهون بتفكيرهم ويفزعون بآمالهم الى الحياة وراء القبر ، وكانت الدار الآخرة هي مجال خواطرهم ومهوى أفئدتهم وكانوا ينظرون الى الاشياء بمنظار هذه الفكرة ويعايرون الامور بمعاييرها ، ثم حدثت احداث زعزعت الثقة بهذه الفكرة وأزالتها من مكانتها العالية فهي وان كانت لا تزال عالقة بالنفوس ولكنها أصبحت في العصور التالية فكرة غير رئيسية وأخذ الاعتقاد بحياة سعيدة هانئة في هذا الكوكب

الارضي قد تتيسر أسبابها وتدنو قطوفها للاجيال القادمة يحل محل فكرة السعادة المنشودة في العالم الآخر والكمال المرتقب وراء الموت وبذلك التحقت فكرة العالم الآخر بتلك الحكم الاخلاقية والمواعظ الدينية التي يرددها الناس بألسنتهم ولكنهم لا يستجيبون لها في أعمالهم ولا يبنون عليها أساس تفكيرهم وليس لها أثر مذكور في وزن الامور وتقدير القيم

***

وقد قامت فكرة التقدم في العصور الحديثة مقام الافكار الدينية ، ومعروف ان الدين في طليعة القوى المحركة للحضارة ولكن الدافع الى الدين قد يبدو في صورة التفكير السياسي والاتجاه الفلسفي

وفكرة التقدم في معناها الواسع تتضمن الاعتقاد بان العالم يتدرج في سبيل الكمال تدرجاً شاملاً وينتقل على الدوام من حسن الى أحسن ويرتقي من منزلة الى منزلة أرقى ، ولكن المعروف ان أشياع فكرة التقدم كانوا ناقمين على حاضرهم برمين بما في القوانين من نقص وعيوب وما يعم الحياة وتمتلىء به جنباتها من ضروب القسوة وألوان الظلم ، ولما كان المستوى الذي بلغته الانسانية هو نتيجة تطور قصي المدى بعيد الاصول استغرق عصوراً غير محدودة فاننا خلقاء ان نستخلص من ذلك ان حركة التقدم جد بطيئة وان بلوغ الانسان مرتبة الكمال المأمول مسألة موصولة بالمستقبل البعيد الذي يصعب علينا تصوره وإدراك كنهه ، وكان ذلك قميناً بأن يكفكف من حماستهم ويطامن من آمالهم

ولكن مفكري القرن الثامن عشر والتاسع عشر لم يلمحوا التقدم من هذه الناحية ولم يقيسوا مداه بألوف السنين ، وانما كان يغلب عليهم الامل في قرب اقبال عهد جديد للعدالة والاستنارة تتحقق فيه آمالهم وتصدق ظنونهم ولم يكن للمؤرخين الذي تعودوا اقتفاء اثر الانسانية واستقراء تاريخها فضل كبير في توطيد الفكرة والاشادة بها وكان أكثر انصارها من المفكرين السياسيين وانصار المذاهب الثورية والانقلابات الاجتماعية وكانت انظارهم متجهة صوب المستقبل القريب بحكم مذاهبهم السياسية والغايات التي كانوا يعملون لتحقيقها وكانوا يستعينون بهذه الفكرة على مرارة الكفاح ويتقون بها آلام الهزيمة ، وكان يغلب على مصلحي القرن الثامن عشر والتاسع عشر الاعتقاد بامكان اصلاح المجتمع وعلاج عيوبه واستدراك نقائصه والانتقال من الفساد الطامي والاضطراب المستحكم الى الصلاح التام والاستقرار الكامل والخروج من الظلمة الحالكة الى النور المشرق المتلألىء وكان هذا الايمان القوي بفكرة التقدم منطوياً في الحقيقة على حسن ظن بالطبيعة الانسانية وقابليتها للرقي والكمال

أما عامة الناس فكانت فكرة التقدم تقترن في أذهانهم بالتغير الاقتصادي الذي بدأت طلائعه وظهرت مقدماته في القرن الثامن عشر وبذلك الرقي الصناعي الذي توالت انتصاراته وعمت فواضله ويسر لهم استعمال السيارات واللاسلكي والمذياع والصور المتحركة ومكنهم من الافتنان في الاختراع والكشف ، وقد يبدو لنا أن نسخر من هذا التقدم الذي تعتبر دلائله وسماته أمثال هذه المظاهر البراقة والمرائي الخادعة ولكن لا نزاع في أن القرنين الاخيرين قد شاهدا براعة منقطعة النظير في تسخير قوى الطبيعة وترويض عناصرها وتطبيق العلم على الحياة اليومية واخضاعه لمستلزماتها وكان من أثر ذلك ان ظهرت حضارة علمية صناعية ليس لها مثيل في سالف العصور وغابر الحضارات وقد ادى ذلك الى استفاضة الثروة وتكاثر السكان على مثال غير معهود وانتشار الثقافة وتيسير اسبابها

***

وفي القرن التاسع عشر بسطت الحضارة الغربية سلطانها على العالم وكانت الحضارات الشرقية القديمة قد استنزفت قوتها وضعف شأنها فلم تستطع ان تثبت لها وتقاوم تأثيرها ، واستغلت الحضارة الاوربية كنوز العالم الجديد لتضخيم ثروتها وتكثير مواردها وتمكين اهلها من العيش الرغيد والنعمة السابغة ، واخذت الافكار السياسية والاجتماعية تعبر البحار وتجوب الاقطار وتعمل عملها وتسري مسراها في العقول وتنسخ الافكار القديمة والآراء البالية وذاعت مبادىء الديمقراطية وانبعثت النهضات القومية ونشطت الامم تطالب بالحكومة الذاتية وتحققت حرية الرأي الى مدى بعيد وكفلها القانون وسمت الفكرة الانسانية وناهضت فكرة الرق والعبودية واعلنت عليها حرباً شعواء وطاردتها مطاردة عنيفة وبطلت العقوبات القاسية التي كانت تشوه الحضارات القديمة وتزري بالطبيعة الانسانية وانتشر التعليم وشمل مختلف الطبقات وهذب عقلية الجماعات وصقل مداركها ، فالتقدم من هذه الناحية حقيقة لا سبيل الى نكرانها والمماراة فيها وليس حلم حالم ولا خيال واهم

ولكن لا ينبغي ان ينسينا ذلك ان هذا التغير الملحوظ والتقدم المشهود الذي نعتز به هو في ذاته تحول نسبي وليس نتيجة حتمية لتطور حيوي عام شامل لحياة الانسانية جمعاء فهو تقدم خاص موقوت منوط بمرحلة من مراحل الانسانية ودور من ادوار التاريخ وصنف من صنوف الحضارة ولا يقتضي ذلك ان يكون اكثر بقاء واشد استعصاء على عوامل الهدم ودواعي الفناء من الحضارات القديمة وهو لا يعفينا من ان نسائل انفسنا هل التقدم في ضروب الحياة المادية هو تقدم في المعنى الدقيق والتفسير الصحيح للكلمة ؟ وهل الانسان في العصر الحديث اسعد حالاً

وأنعم بالاً وأسمى نفساً وأرجح عقلاً من الانسان في سوالف العصور ومؤتنف الحضارات ؟

كثير من كبار المفكرين لم تفتنهم الحضارة الحديثة ولم يخلب ألبابهم بريقها وقد حذرونا عواقب الاندفاع في الكثير من نزعاتها وعابوا عليها الكثير من الاخطاء والنقائص وتطرف بعضهم فآثر العودة الى الماضي او نبذ الحضارة والفرار من مغرياتها ، وبعض المفكرين الذين أطالوا النظر وأجادوا البحث في أحوال تلك الحضارة تكشفت لهم عيوبها ودخائل ضعفها وراعهم ما قد يؤدي اليه تقدم الصناعة والاختراع من ارهاق للاجسام واضعاف للعقول وافناء للشخصيات وهبوط بالفن الرفيع والثقافة العالية ، وأثار مخاوفهم الافراط في استغلال موارد الطبيعة وافناء ذخائر الارض للربح العاجل والحاجات العارضة ، وقليل من المفكرين الآن من يجترىء على ان يمزج الرفه المادي بالتقدم لاننا نعرف حق المعرفة ان حضارة من الحضارات قد تكون في مظهرها الخارجي شامخة البنيان ضخمة الثروة موفورة المرافق والموارد في حين ان حيويتها الاجتماعية وقوتها المعنوية في هبوط وانحلال وتدهور وهي تفقد في كل لحظة جزءاً من مدخر تقاليدها العالية وثقافتها السامية

***

ولم تساور أمثال هذه الشكوك أهل القرن الثامن عشر لانهم كانوا يثقون ثقة تامة بمبادئهم وساعد على تقوية تلك الثقة ومحاها غوائل الشك انتشار فلسفة ديكارت ، فان طرافة فلسفته قائمة على انهُ يجعل العقل قوة منفصلة ناهضة بذاتها لا تخضع لاحكام الجسم ولا تتأثر بمؤثراته والعقل عنده في مكنته ان يحصل المعرفة التامة الاكيدة من الحقائق الواضحة البسيطة المودعة فيهِ والكامنة في كيانهِ والتي يستطيع ان يدركها بالبداهة المباشرة دون ان يركن الى السلطة والتقاليد او يرجع الى التجربة والمشاهدة ، وهذا هو الاساس الذي يستصوبهُ ديكارت ويشير باعادة النظر في مختلف العلوم في ضوئهِ ، ويرى ديكارت ان ذلك العلم الغزير والمعرفة المستفيضة والتقاليد الجمة التي يتكوَّن من مجموعها تراث الثقافة الغربية وجميع الافكار والاعتقادات التي أفادها الناس من التجارب وانتزعوها من المشاهدات لا قيمة لها ولا غناء فيها فهي معرفة مدخولة يلتبس فيها الحق بالباطل ويختلط الغث بالسمين وهي لا تستحق ان نوليها عنايتنا ونوقف عليها بحثنا وعلينا ان نحل محلها المعرفة الحديثة التي لها دقة الرياضة وأحكامها والمستمدة من أشعة العقل الذي لا يعرض لهُ الخطأ ، وتفكير الرجل الكيس الاريب لهُ من القيمة والصحة أكثر مما في العلم المستقى من الكتب والمدارس لانهُ قائم على الادراك البديهي المباشر المدلول على الصواب والموكل بالالباب

وقد أثر هذا الاسلوب في التفكير تأثيراً بعيداً وفي ظلالهِ ترعرعت الافكار المجردة عن

الحضارة والتقدم والعلم والعقل ، وهذا الاعتقاد غير المحدود بقوة العقل ظاهر في أكثر ما كتبهُ فلاسفة القرن الثامن عشر عن المسائل الاجتماعية والسياسية وفي اعتقادهم ان الآداب لم يكن لها تأثير ذو بال في تقدم الانسان وانما الفضل كل الفضل للعقل والاختراع ومن ثمَّ تحامل مفكري القرن الثامن عشر على الاديان وتشديدهم النكير عليها واعتبارها خرافات تعوق التقدم وترتد بالانسان الى الوراء وانها قائمة على الخديعة والقسوة ولم يخطر لهم أنها صادرة من اعماق الضمير وأنها صدى لعاطفة متغلغلة في أطواء النفس وحاجة من حاجات القلب الانساني واذا كان تاريخ الانسانية القريب والبعيد ممتلئاً بالسخف والمنكرات حاشداً بالضحايا البريئة فما أحرانا بالشك في حركة التقدم واليأس من طبيعة الانسان ولكن الحقيقة أن مفكري القرن الثامن عشر لم يعتقدوا بالتقدم المستمر المنتظم الحركات المتتابع الادوار وانما كانوا يؤمنون بتقدم فجائي للعقل الانساني مصدره الثورة الفكرية التي أحدثها ديكارت ، واستتباب سلطان العقل كان عندهم دليلاً على اقبال عصر كله سعادة وخير ورخاء تحطم فيه الانسانية قيودها الموهنة وتسمو على أحكام المصادفات وتنطلق في سبيل الحق والخير ثابتة الخطوات موفقة السعي ، وقد أوحى ذلك الى رجال الثورة الفرنسية محاولة إعادة بناء المجتمع على أسس جديدة عمادها العقل وألهم مصلحي القرن التاسع عشر الاجتماعيين الاعتقاد بامكان تغير نظام المجتمع

***

وقد كان لاخفاق الثورة الفرنسية رد فعل في عالم الفكر والسياسية ولكنهُ كان رد فعل وقتي وظل أكثر المفكرين السياسيين امناء لمبادىء عصر الاستنارة وظلوا يعتقدون بفكرة التقدم وفكرة الحضارة المطلقة القائمة على مبادىء صالحة لجميع الناس وجميع العصور

وقد امتاز النصف الاول من القرن التاسع عشر بمحاولة انشاء علم الاجتماع وجعله علماً مستقلاً يتوج جهود سائر العلوم وكان اقدر ممثلي ذلك العلم الحديث الفيلسوف اوجست كونت وهو أول من تناول بالتفصيل والاسهاب العلاقة بين علم الاجتماع والعلوم الاخرى وعنده أن هنالك تطوراً متتابع الحلقات مستمر الخطوات من العلوم التجريدية كالرياضة الى العلوم الاوفر نصيباً من التعيين والتخصيص مثل الفلك والكيمياء وعلم الحياة وعلم الاجتماع ، وتقدم علم الاجتماع يوضح المرحلة الاخيرة للتقدم العلمي ويجعل من الممكن ان تكوّن من ضروب المعرفة الانسانية كلاً عضوياً التركيب منسق الاجزاء وهذا العلم الوضعي الذي يشمل علم الانسان وعلم الطبيعة الخارجية في علاقتها بالانسان يحل محل المذاهب القائمة على المعتقدات الدينية او نظريات ما وراء الطبيعة التي كانت لها الغلبة قبل أن تستتم الروح العلمية قوتها وتأخذ أهبتها ولذا

اشتد كونت في نقد آراء القرن الثامن عشر وعمل على نقضها لانها في رأيه متشبعة بافكار ما وراء الطبيعة فهي هادمة وغير صالحة للبناء وكان المنظور ان يؤدي به ذلك الى نبذ الافكار المجردة امثال فكرة التقدم وفكرة الانسانية وفكرة الحضارة وان يحصر تفكيره في الافراد والمجتمعات الخاصة ولكنهُ على النقيض من ذلك اصر على ان الانسانية هي الحقيقة الفذة وان الفرد في ذاته محض تجريد وان جميع التغيرات التي تطرأ على المجتمعات خاضعة لقانون التقدم وهو الحقيقة النهائية للعلم الوضعي الاجتماعي

ولما كان هذا الكلي المركب العلمي ثمرة الفلسفة الوضعية اجتماعيًّا في صميمه فقد تبع ذلك ان الطبيعة كانت تفسر بموجبه تفسيراً يلائم حاجات الانسان ويتجاوب مع مطالب المجتمع ولا ينظر اليها من حيث هي كل شامل المجتمع نفسه جزءٌ منهُ ووظيفة العلم عند كونت مقصورة على خدمة الانسانية وقد أدى ذلك الى تقويم الطبيعة بالقيم الانسانية ونشوء ديانة الانسانية ولم ترق هذه النزعة الدينية مفكري القرن التاسع عشر وأثارت شكوكهم في صحة فلسفة كونت

وحوالي سنة ١٨٤٨ أخذ تأثير الفلسفة المثالية الالمانية ينحسر شيئاً فشيئاً وأخذ تيار الفلسفة المادية يشتد ويعلو وراجت افكار بخنر وظهرت نظرية التطور وأثرت تأثيراً شديداً في التفكير الاجتماعي ويبدو ذلك واضحاً في فلسفة هربرت سبنسر اكبر ممثلي علم الاجتماع في النصف الثاني من القرن التاسع عشر عند الكثيرين ، ونظرية التطور هي محور بحثه واساس تفكيره وهو يعتبر التقدم الاجتماعي فرعاً من فروع قانون التقدم الكوني العام ورقي الحضارة هو احد مظاهر ذلك القانون الذي يشمل الخليقة باسرها ، وهنا نرى فكرة التقدم في اقصى امتدادها واوسع تطبيقاتها فهي لا تشمل حياة الانسانية وحدها وانما تشمل نظام الطبيعة برمته

***

وهناك شيء من التناقض بين تصور مفكري القرن الثامن عشر للتقدم والتفسير العلمي الذي فسره به مفكرو القرن التاسع عشر فقد كان فلاسفة القرن الثامن عشر يضعون الانسان في مرتبة اسمى من مرتبة الحيوان وينظرون اليه منفصلاً عن الطبيعة ويجعلون العقل مبدأ تطور الحضارة ولكن نظرية النشوء والارتقاء اعادت الانسان الى احضان الطبيعة ونسبت تقدمه الى عملية آلية تقوم بها قوى الطبيعة العمياء ودوافعها الخفية التي تسيطر على العالم المادي في مختلف صوره والعقل نفسه عضو كسائر الاعضاء تكامل تركيبه وتطور نموه تحت تأثير جهاد الانسان في الملاءمة بين نفسه وبين البيئة والتقدم هنا لا يعرف الاخلاق ولا الرحمة لانهُ قائم على تنازع البقاء وتطبيق ذلك على حياة الانسان يهدم الكثير من مثله العليا ويبدد احلامه في العدالة

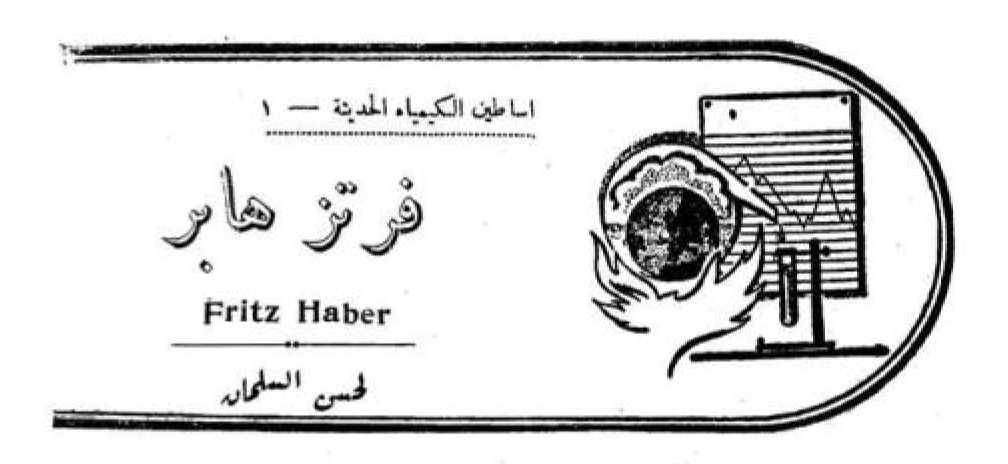
والمساواة وهي من خصائص فكرة التقدُّم القديمة ويؤدي الى الجشع والانانية وكان على المفكرين الذين قبلوا نظرية دارون في الانتخاب الطبيعي ان يواجهوا تاج التناقض العميق بين اعتقاداتهم العلمية ومثلهم العليا الاخلاقية وكيف أن الانسان ذا الآمال البعيدة والاحلام السامية هو ابن الطبيعة الشاهرة السلاح المؤللة الانياب التي تأكل أبناءها وتضحي بذريتها ، وقد عني بذلك التناقض العلاّمة هكسلي والتقدُّم في رأيه يقوم على تعطيل عمل التطوُّر الكوني في كل خطوة من خطواته ومرحلة من مراحله والأخذ بالتقدُّم الاخلاقي ، وطبيعة الكون عنده منافرة لطبيعة الاخلاق والحركة الكونية لا ترمي الى خير الانسان والطبيعة لا تعرف فكرة الواجب ولا تحفل بالآداب ، والحقوق عندها قائمة على القوى المفترسة المستضرية

ولكن اذا كان الامر كذلك فان الامل ضعيف في تغلب الانسان على حركة الطبيعة المستمرة وخطتها الابدية ولا مناص للانسان في هذا الموقف الأ في العودة الى الاعتقاد بقوة شاملة صمدية خارجة عن حدود الزمان والمكان او الانطواء على اليأس الاليم وتوديع الآمال المحلقة وتوطين النفس على احتمال الحياة والصبر على احداثها حتى يقبل الموت وتنتهي اللعبة أو يعمل على الاستفادة من الظروف جهد الطاقة ويجاري سائر المخلوقات في الاخذ بقانون المحافظة على الذات دون ان يتورَّع عن الاجرام او يعف عن الشر

***

وهكذا كان مصير فكرة التقدم التي اوحت الآمال الكبار والاماني الحسان وانتهت باخلاف الظنون وخيبة الآمال وتبعها الشك في مقدرة العقل نفسه على الاصلاح والخلاص من ثوائر الاهواء ونوافر الغرائز وقد شجع ذلك انتشار النزعات المتمردة على العقل التي بدأت في اواخر القرن التاسع عشر

وعلى هذا الاساس قام مذهب الذرائع (البراجمتزم) والمذهب الحيوي ومذاهب تحليل النفس وكلها ترمي الى اضعاف الثقة بالعقل وعلم الاجتماع نفسه اخذ يوجه التفاته الى هذه الناحية التي تبدو واضحة في نفسية الجماعات وغريزة القطيع . وقد كانت الحرب الكبرى آخر صدمة عنيفة اصابت فكرة التقدم ومهدت السبيل لانتشار المذاهب القدرية التي ترى ان الحضارة الحديثة مشرفة على الانحلال والزوال وانها ستلحق بالحضارات البائدة مثل مذهب شبنجلر الذي قوبل بالترحيب وأثر تأثيراً كبيراً في التفكير التاريخي



فرتز هابر

Fritz Haber

لحسن السلمان

في عام ١٨٩٨ كان الرئيس لمجمع تقدم العلوم البريطاني العالم الكبير السير وليم كروكس، فاختار السير وليم موضوعاً لخطبة الرآسة « الخبز والعالم » ، لانهُ كان يعتقد ان البشرية لا بد ان تبلغ يوماً تعم العالمَ فيهِ مجاعة كبرى . ذلك لان الجنس الابيض الذي يعيش على الحنطة يزداد عاماً بعد عام زيادة مطردة بينما مجموع الاراضي الزراعية في العالم محدود وزيادة مقادير الحنطة المستنبتة في تلك الارض تنقص عاماً بعد عام . فاذا ما رأيت تلك الزيادة وهذا النقص فلن يحل عام ١٩٣١ حتى تظهر اولى بوادر المجاعة العامة ولن تمر عشرة اعوام على هذا التاريخ حتى تكتسح المجاعة جميع انحاء العالم

ويستدل كروكس على رأيهِ هذا بالادلة التالية : ان الاسمدة وهي العامل الاساسي في زيادة مقادير الحنطة والحبوب الاخرى ، على نوعين الاسمدة الطبيعية — اعني الاسمدة الحيوانية والنباتية وهذه تستعمل لتسميد الاشجار والانجم والخضر ، والاسمدة الكيمياوية التي يكثر استعمالها في تسميد الاراضي لزراعة الحبوب . فالاسمدة الاولى محدودة المقدار ونتروجينها ينفصل عنها عند ما تتحلل ، اما الثانية فمقاديرها لا تكفي لما تحتاج اليهِ الارض مدداً طويلة ، وهي املاح النتروجين المستخرجة من تقطير الفحم الحجري او من الارض ذاتها في بلاد شيلي . ومما لا ريب فيهِ ان املاح النتروجين سواء أكبريتات الامونيوم كانت ام نترات الصوديوم نافدة مهما يطل عليها الزمن وبزوالها سيقل الخبز وهو الطعام الاساسي للناس وتفنى الماشية ، وتنتشر المجاعة فيهلك الناس وتأخذ المدنية بالزوال . وقد مرَّ عام ١٩٣١ على العالم بسلام والمجاعة لم تظهر، وربما لن تظهر بعد اليوم . فكيف نوفق بين ما ذهب اليهِ كروكس وبين الواقع ؟ أكان كروكس مخطئاً في احصائهِ وتدقيقهِ ؟ أم حدث في العالم ما غيَّر مجرى الحوادث ؟ ذلك ما سنفهمهُ من دراسة حياة الكيمياوي الالماني المشهور فرتز هابر

في التاسع والعشرين من شهر ينا ير (كانون الثاني) عام ١٩٣٤ انتقل من هذه الدنيا عظيم من عظماء

العصر ، وقائد من قواد العلم الحديث وأحد الواضعين لأسس الصناعة الكيمياوية . توفي فرتز هابر في وطن غير وطنه وبين شعب غير شعبه . وخمدت شعلة حياة هذا المجاهد في سبيل العلم دون ان تحتفل الامة التي افنى حياته من اجلها بذكراه ، مع انها تتنعم بثمار جهوده وستبقى مدينة له ما زالت المدنية قائمة . لكن العلماء ابناء البشرية جمعاء وليسوا بابناء امة واحدة ، فاذا ما قصرت امة من الامم في ما يحتمهُ الواجب عليها نحو علَم من اعلامها فان تلاميذ ذلك العالم والمعجبين بابحاثه في مشارق الارض ومغاربها لا بد ان يقيموا لهُ مجداً في قلوبهم وان يتذكروا دائماً الخدمات الجلّى التي اسداها لابناء البشرية عامة

يعد هابر ولا ريب من العلماء الخالدين الذين سيبقى أثرهم ما بقيت المدنية الحديثة . فقد خلق صناعة عالمية وسيبقى العالم محتاجاً الى هذه الصناعة ما زال عدد نفوسه في ازدياد وما زالت الصناعة سائرة في طريق التقدم سيراً حثيثاً. فبفضل هذا العالم بلغ مجموع ما انتجهُ العالم من الامونيا الصناعية خلال عام ١٩٣٥ ثلاثة ملايين من الاطنان. فما مقدار ما سينتجه عند ما تستخدم جميع مصادر الطاقة الكهربائية ؟

وُلد هابر في التاسع من شهر ينار (كانون الاول) عام ١٨٦٨ بمدينة برسلو ، وأكمل دراستهُ العالية على يد العالم الالماني الكبير لايبرمان Lieberman أحد المكتشفين لصبغ الاليزارين الصناعي . وقد شارك أستاذه في بحوثه واتخذ الاليزارين موضوعاً لاطروحته التي نال بها « الدكتوراه » . ولكن ما ان ترك حجرة الدرس حتى استقل في بحثه خوفاً من ان يتأثر برأي أساتذته وانصرف لدراسة ما لم يحل من مشكلات الكيمياء الكهربائية والكيمياء الصناعية. ولم يستقر على بحث ما حتى قادتهُ الصدفة الى الاجتماع بفرتز بونت Bunte عام ١٨٩٤ في مدينة كارلسروه Karlsruhe وكان منهمكاً مع رفيقه انكلر Engler حينئذٍ في بحوث صناعية متعلقة بالوقود

صنَّف الكيمياوي والعالم أوستفالد العلماء فميز بين فريقين الاول ويشمل أولئك الذين أنتجوا في مستهل حياتهم ثم خبت نارهم عند ما تقدموا في السن أمثال لايبج وجرهارت وورتز. والثاني ويشمل العلماء الذين أنتجوا في مختلف مراحل أعمارهم أمثال فراداي وأديصون وجب وهلمولتز وأضرابهم من الذين لم تنطفىء نار عبقريتهم الاَّ بخمود أنفاسهم . أما هابر فانهُ يصعب علينا ان نضعهُ في أحد الفريقين ذلك لانهُ قضى الشطر الاول من عمره دون أن ينتج للعالم انتاجاً يستحق الذكر ولكن بزغت شمسهُ عند ما بلغ منتصف العمر وقام بجلائل الاعمال مما بوأه المكان الرفيع بين كيمياويي العالم

للمواد العضوية نوعان من الجزيئات ، الجزيئات السلسلية Straight Chain Molecule والجزيئات الدائرية Closed Chain Molecule . فالزيوت المعدنية ومشتقاتها مكونة من جزيئات

سلسلية ، وتمتاز هذه المركبات بأن حالتها الطبيعية متوقفة على طول السلسلة ، فاذا طالت السلسلة اشتدت كثافة المادة وتماسكت جزيئاتها والحالة على ضد ذلك عند ما تقل ذرات الكربون في السلسلة

كانت هذه الحقائق معروفة لدى الكيماويين ، ولكن ما لم يدركه أحد منهم كان العلاقة بين أفراد طائفة الهيدروكربونات . وقد انكبّ هابر على دراسة هذه العلاقة دراسة علمية ، وبعد تجارب دقيقة متعددة عرف ان ذرات الكربون في المواد الهيدروكربونية متحدة بعضها ببعض وبالهيدروجين. فالميثين مثلاً وهو أبسط المواد الهيدروكربونية تركيباً قوامهُ أربع ذرات هيدروجين تحيط بذرة كربون بينما الايثين قوامهُ ست ذرات هيدروجين محيطة بذرتين متماسكتين من الكربون وهكذا الى ان تصل الى سلسلة مكونة من خمس وثلاثين ذرة كربون كل ذرتين منها متماسكتان ويحيط بهذه الذرات الكربونية اثنتان وسبعون ذرة من الهيدروجين . وهذه المادة معروفة باسم بنتاتراي — اكونتين Pentatriakontane ، وهي مادة صلبة تنصهر عند ما تبلغ الحرارة ٧٥ مئوية وتغلي عند الدرجة ٣٣١ مئوية

والمهم في هذا ان هابر هو المكتشف الاول لطريقة تحطيم جزيئات المواد الهيدروكربونية بفعل الحرارة . فقد تمكن من تكوين مواد هيدروكربونية قصيرة السلسلة من أخرى طويلتها. فمثلاً عند احماء المادة المعروفة بالهكسين وهي مكونة من ست ذرات كربون واربع عشرة ذرة هيدروجين دون تعريضها للهواء ، تكوَّن لديه عدة مواد هيدروكربونية بسيطة السلسلة بعضها مشبع وبعضها غير مشبع . وتدعى هذه الظاهرة « بالتحطيم » Cracking

والتحطيم كبير الشأن ولا سيما في صناعة البترول ، اذ لا يخفى ان البترول الخام سائل كثيف قوامهُ عدة مواد هيدروكربونية مشبعة تتفاوت سلاسلها طولاً . فعند التقطير تنفصل هذه المواد بعضها عن بعض وتتجمع في أنابيق خاصة بها بحسب درجة غليانها . ولما كان بعض هذه المواد كبير الشأن من الناحية الصناعية كالغازولين مثلاً تضطر معامل تكرير البترول ان تحطّم جزيئات المواد التي تلي الغازولين في الكثافة لتحضيره منها

ومن الغريب ان هابر لم يشتهر ببحثهِ في هذا الموضوع ولا ببحثهِ في طرق أكسدة المواد العضوية واختزالها بالاساليب « الكهركيماوية » Electrochemical ، ولكنهُ اشتهر وعرف في العالم أجمع باكتشافه طريقة تحضير الامونيا الصناعية من نتروجين الهواء

كان هابر يبحث في التوازن بين جزيئات الغازات عند ما أدرك أن للضغط علاقة كبيرة بالتفاعلات الكيماوية الجارية بين الغازات أو بين الغازات والمواد الصلبة والسائلة . وكانت غايته من بحثه هذا أن يحقق بعض القضايا المتعلقة بالحركة الحرارية Thermodynamics وكان في هذا الاثناء يؤلف كتاباً عنوانه « الحركة الحرارية لتفاعلات الغازات الصناعية » . ولقد

نُشر كتابهُ هذا عام ١٩٠٥ وما زال يعد من خير ما كتب في الموضوع ، ومن يطالعه يستوثق من انهُ لو لم يكتشف نيرنست القانون الثالث من قوانين الحركة الحراوية لاكتشفه هابر

عندما اشتهرت بحوث هابر في البلاد التي تتكلم الالمانية ، وجه اليهِ شقيقان يشتغلان بالصناعة الكيمياوية بفينا سؤالاً استفسرا فيهِ عن امكان تحضير الامونيا من النتريدات والهيدريدات. وكأن هذا السؤال كان وميض برق أضاء لهُ سبيل البحث عن تحضير الامونيا بالطرق الصناعية. فسعى اولاً لتحضير الامونيا باحمائهِ الهيدروجين والنتروجين معاً حتى تبلغ درجة الحرارة نحو الف مئوية مستعملاً عناصر مختلفة كمواد مساعدة ، أهمها الاورانيوم والاوسميوم ، فكانت نسبة الامونيا المتكونة من القلة بحيث لا يمكن الركون الى هذه الطريقة من الناحية الصناعية . ولما كان التفاعل بين الهيدروجين والنتروجين باعثاً للحرارة Exothermic بعكس كثير من التفاعلات الكيمياوية فاستعمال الحرارة وحدها مما يخالف القانون الثالث من قوانين الحركة الحراوية . فلم يبق أمام هابر عندما أدرك هذه الحقيقة الاَّ أن يستعمل الضغط كعامل للاتحاد . وتحقيقاً لفكرتهِ هذه صنع جهازاً مكوناً من اسطوانة معدنية سميكة داخلها أخرى من الكوارتز ، ويحيط بهذه ملف لاحمائها على أن تكون بين الاسطوانتين مادة عازلة . ويتصل بالاسطوانة الصغرى انبوبان متمركزان أحدهما لارسال المزيج من غازي النتروجين والهيدروجين والآخر لاخراج غاز الامونيا المتولد داخل الاسطوانة الصغرى ، ويمر هذا الانبوب بمكثف لتكثيف الامونيا . وقبل إمرار الغازين يضغطان ضغطاً شديداً لا يقل عن مائتي ضغط جوي على أن يحمى الانبوب المصنوع من الكوارتز حتى تقرب حرارته من خمسمائة درجة مئوية

وقد جابه هابر لأول وهلة مصاعب كثيرة أهمها أن التفاعل لا يتم ما لم يكن كل من الغازين نقيًّا حتى لا تحول أي مادة دون التفاعل . والصعوبة الاخرى ان الاجهزة المستعملة لا تتحمل الضغط العالي مدداً طويلة . أما نقاوة الغازات فقد تغلب عليها بتحضير النتروجين من الهواء السائل وبتحضير الهيدروجين من الغاز المائي ، وأما الصعوبة الاخرى فقد تغلبت عليها الميكانيكية الحديثة

كان هابر يبغض الحرب لانهُ كان من الذين آمنوا بأنها سبيل من سبل تدهور المدنية الحديثة. ولكن ما إن اشتعلت نار الحرب بين بلاده والحلفاء ، وأدرك أنها حرب ضروس ستدوم اكثر مما كان يظن ، وأن حكومته في أمسّ الحاجة الى الرجال العاملين، حتى تقدم عارضاً علمهُ ونشاطهُ على حكومتهِ وانتظم في خدمة الجيش واشترك في المعارك الحربية اشتراكاً فعليًّا . كانت المانيا تستعد لتلك الحرب قبل وقوعها بمدة طويلة ، على عكس حلفائها الذين خاضوا غمارها دون سابق استعداد ظانين أنهم بمساعدة حليفتهم الكبرى المانيا سيكسبون الحرب وأنها وإن طالت فلن تدوم

أكثر من عام واحد . ولكن ما ان انقضى عام ١٩١٤ حتى ادركت جميع الامم التي اعلنت الحرب ولا سيما حلفاء المانيا ان الحرب ستدوم عدة أعوام وانهم سيهزمون شر هزيمة ان لم يستعدوا لها أتم استعداد . وبديهي أنهم يقصدون بالاستعداد التزود بالمقادير الكافية من المفرقعات والمتفجرات . ولا يخفى ان المادة الاساسية في صناعة خمس وتسعين بالمائة من مختلف انواع المفرقعات والمتفجرات تحضر باستعمال الحامض النتريك ولا يمكن تحضيرها بغيره . ومعنى ذلك ان الفوز في الحرب العظمى كان حليف الامة التي تمتلك اكبر مقدار منهُ .

كانت الحكومتان الالمانية والنمساوية قبل الحرب تحضران الحامض النتريك من تفاعل حامض الكبريتيك مع نترات الصودا او ملح شيلي . ولكن عندما اشتعلت نار الحرب وحوصرت المانيا حصاراً بحريًا تعذر على المعامل النمساوية والالمانية تحضير المفرقعات اللازمة للجيوش ما لم تهتم الحكومتان بابتكار طرق اخرى

ولو لم تساعد الصدف الجيوش الالمانية فتفتتح احدى المدن البلجيكية انتورب وتستولي على خمسين الف طن من ملح شيلي لانهزمت الجيوش الالمانية في ميادين الحرب قبل انقضاء عام ١٩١٥ . ومع هذا فان الحكومة الالمانية لم تجد بدًّا من تأسيس معملين كبيرين لتحضير الامونيا بطريقة هابر احدهما في اوبو والآخر في مرسبرج وتبلغ المقادير المحضرة في هذين المعملين اربعمائة وخمسين الف طن في العام الواحد . وكذلك استطاعت المانيا ان تتابع الحرب حتى عام ١٩١٨ . ومما يجب ان لا يغرب عن البال ان انخذال المانيا وحلفائها لا يعزى الى قلة عتادها وانما لقلة المواد المغذية فيها

هذه طريقة هابر في تثبيت نتروجين الهواء وما كان لها من الأثر في الحرب الماضية وما قد يكون لها من الاثر في الحروب القادمة ، أما شأنها في حالة السلم فلا تقدر ، لان نجاح الامم زراعيًا متوقف على مقادير الاسمدة النتروجينية التي يمكن الحصول عليها والاستفادة منها . ومما لا ريب فيهِ ان العالم بأسره سيقبل على طريقة هابر عند نفود ملح شيلي وغيره من الاملاح النتروجينية وعند تمكنهِ من الاستفادة من جميع مصادر الطاقة الكهربائية

وبعد انقضاء الحرب عاد هابر الى دراساتهِ وبحوثهِ العلمية فترأس خلال عهد الجمهورية الالمانية جمعيات علمية متعددة اهمها جمعية القيصر ولهلم للابحاث الكيمياوية الطبيعية ، وبقي رئيساً لها حتى اضطر الى مغادرة بلاده في عهد الريخ الثالث . وتشاء الظروف القاهرة ان يمضي بضعة اعوام مريضاً عليلاً في بلاد الغربة ويوافيه الاجل وهو بعيد عن التربة التي شب فيها وترعرع ، والتي احبها واخلص لها وصرف جميع ما يملك من اجلها ولكن ذكراه ستبقى في قلوب طلاب العلم الذين لا يعرفون فروقاً بين عالم وآخر

— البصرة —

نواح عسكرية وجغرافية في عصر اسماعيل

الجيش المصري

والاستكشاف في أفريقيا

للملازم الاول عبد الرحمن زكي

— ١ —

لما أراد الخديو اسماعيل إعادة تنظيم الجيش المصري رأى انهُ يعوزه الاكفاء من الضباط الحربيين والاداريين والمهندسين . فوقع اختياره على لفيف من الضباط الاميركيين لتأليف هيئة اركان حرب الجيش وعين الجنرال « ستون » رئيساً لها . فانتخب نحو اربعين ضابطاً منهم « لورنج » و« داي » و« شاييه لونج » و« بروت » و« بوردي » . وبعد قليل من الزمن تمكن « ستون » وزملاؤه من تخريج فئة من الضباط المصريين لهم من المهارة والتدريب على الاعمال ما ملأ صدر الخديو والامة فخراً وإعجاباً . ومن هؤلاء الضباط مختار وواصف وحمدي وفوزي وغيرهم ممن اضاءوا صحيفة تاريخ مصر الحديث في السودان [1]

كانت باكورة اعمال القسم الجغرافي من هيئة اركان الحرب في الجيش المصري استكشاف الصحارى المصرية

ففي اوائل عام ١٨٧٠ اضطلع الكولونيل ميسون Mason ومعهُ بعض الضباط المصريين بمهمة استكشاف الطرق والدروب الموصلة الى واحة سيوة . وقامت بعثة الكولونيل بوردي "Purdy" عام ١٨٧١ برسم ضواحي حلوان واستكشاف المنطقة التي بين النيل والبحر الاحمر ابتداء من الخط الممتد بين المقطم والسويس الى خط يوازي القصير . وقد استغرقت اعمال هذه البعثة عاماً. وعادت بحقائق وافية عن طبقات الارض وما فيها من مناجم المعادن والمحاجر وعروق الذهب التي عرفها قدماء المصريين في تلك الجهات [2]

وفي عام ١٨٧٣ قام الكولونيل كولستون Colston بكشف الطريق الموصل بين قنا وبيرنيقه Berenice على ساحل البحر الاحمر جنوب رأس بناس. وفي هذه المدينة التقى بالكولونيل بوردي

---

(١) فتح افريقية في عهد الخديو اسماعيل للاستاذ محمد رفعت (٢) مصر والجغرافيا تأليف الدكتور فردريك بنولا بك وترجمة احمد زكي باشا — المطبعة الاميرية ببولاق سنة ١٣١٠ ه

قادماً عن طريق البحر الاحمر. فاستصحبهُ معهُ في التجول بالبقعة الواقعة بين بيرنيقه وبربر للتوفيق بين ابحاثه الجديدة وبين ابحاث لينان دي بلفون التي بدأها فيها قبل ذلك بأربعين عاماً [1]

الاستكشاف في كوردفان ودارفور

ولما أتمت القوات المصرية فتح كوردفان ودارفور (١٨٧٤) اصدر الخديو اسماعيل امره الى الجنرال ستون بتنظيم بعثة كبيرة لاتمام الاستكشاف في تلك البقاع . فأنشأ ثلاث بعثات من الضباط كان على رأس البعثة الاولى منها الكولونيل كولستون لارتياد كوردفان ثم الانضمام الى البعثة الثانية بعد انتهائه من اعمال بعثته . وتألفت البعثة الاولى من الضباط المصريين :

الملازمين الاول عمر رشدي (باشا) ومحمد ماهر (باشا) وأحمد حمدي (باشا) ويوسف حلمي وخليل فوزي وأربعة ضباط آخرين . وقد لازم هؤلاء القائمقام الاميركي ريد لكنهُ لم يصبر على متاعب الرحلة فعاد الى القاهرة . وقد اصطحب رجال هذه الحملة العالم المواليدي الدكتور بفوند Pfund وتسعين رجلاً . غادرت هذه البعثة القاهرة في شهر ديسمبر عام ١٨٧٤ وسلكت طريق النيل الى وادي حلفا ثم سارت بجانب الشاطىء الايسر الى مدينة الدبّة ثم تجولت في وادي ماتول عن طريق إيلاي وبلغت مدينة الابيض في ١٢ يونيه سنة ١٨٧٥

في هذه الرحلة اصيب الكولونيل كولستن بمرض شديد فاضطر ان يعهد بقيادة الحملة الى الميجور بروت Major Prout قائد الحملة الثانية . وقد ألف كولستون كتاباً نشرته مجلة اركان حرب الجيش المصري كما نشرت له مجلة الجمعية الجغرافية الخديوية رسالتين ارفقت بهما خارطة عن بيان خط السير الذي اتبعه [2] . ثم تقلد قيادة البعثة المذكورة الماجور بروت . وكان غرضه الوصول الى الابيض عن طريق سواكن والخرطوم ورسم الطريق الذي تخترقه البعثة . وقد انجز مهمته وسافر في يوم ٢١ مارس سنة ١٨٧٦ الى دارفور للحاق ببعثة الكولونيل ردي. وفيما يلي نلخص اهم الاعمال التي اتمها الكولونيل بروت وفريق الضباط المصريين الذين كانوا معهُ [3]

١ — رسم خط سير طوله ٦٠٠٠ كيلو متر عمل بواسطة جميع الضباط متفرقين

٢ — خارطة عمومية لاقليم كوردفان مقياس $\frac{١}{٦٠٠٠٠٠}$ رسمها بروت والملازمان ماهر وفوزي

٣ — خارطات تفصيلية اهمها خارطة الطريق من سواكن الى بربر بمقياس $\frac{١}{٨٠٠٠٠٠}$ رسمها «بروت» وماهر . وأربع مناطق من الطريق بين النيل الى الابيض

---

(١) رسالة كولستون بعنوان يوميات الرحلة من قنا الى بيرنيقة وبربر المنشورة في العدد التاسع من القسم الثاني من المجلة الجغرافية الخديوية

(٢) تقرير عن كوردفان الشمالية والوسطى في مجلد واحد بمطبعة اركان الحرب باللغة الانجليزية

(٣) راجع الطريق من الدبة الى الابيض في العدد الرابع من القسم الثاني من مجلة الجمعية الجغرافية ١٨٨٨

٤ — تعيين سبعة عشر موقعاً بالارصاد الفلكية

٥ — خارطة مدينة الابيض بمقياس ١/٢٠,٠٠٠ رسمها الضباط خليل فوزي وعمر رشدي ويوسف حلمي

٦ — رسوم شتى وصور متنوعة اهمها خارطة تبين توزيع الغابات في كوردفان

٧ — ملاحظات وبيانات بعلم الجو وطبيعة الاراضي

٨ — مجموعات نباتية وجيولوجية جمعها الدكتور بفوند

٩ — رسائل مفيدة جداً في الكلام عن السكان والتجارة والاخلاق والعادات [١]

وقد اتم الاميرالاي بروت اعمال حملته في ثلاث سنوات . ثم قام من الابيض قاصداً الى الفاشر فبلغها في اليوم الرابع والعشرين من ابريل بعد ان رسم الطرق والمسالك التي مرَّ بها [٢]

***

اما الحملة الثانية بقيادة الكولونيل بردي Col. Purdy فكان قوامها القائمقام ميسون بك Col. Mason الفلكي والملازمين الاول محمود صبري (باشا) ومحمد سامي وسعيد نصر (باشا) من ضباط هيئة اركان الحرب (قسم الجغرافيا) والملازم الثاني خليل حلمي والطبيب محمد امين واثني عشر صف ضابط وجندي من اركان الحرب. وقد سارت هذه الحملة من دنقلة العجوز الى الفاشر عن طريق جديدة اختطتهُ ورسمتهُ حملة الكولونيل بردي في سنة ١٢٩٢هـ ١٨٧٥م وكانت محفوظة في مكتبة اركان حرب الجيش [٣] . ولم تنشر نتائج هذه الحملة العلمية مفصلةً . وان كان الكولونيل ميسون قد كتب بحثاً ملخصاً لاعمال الحملة لم يجنِ منهُ علماء الجغرافيا فائدة كبيرة

وقد قطعت البعثة في رحلتها ٦٥٠٠ كيلو متر واستكشفت كل ما مرت بهِ اثناء سيرها وعينت ٢٢ موقعاً فلكيًّا . وقد توفى اثناء هذه الرحلة الدكتور بفوند في اليوم الثاني والعشرين من اغسطس ١٨٧٦ وترك مجموعة نباتية واخرى جيولوجية وكلتاهما حفظت بالجمعية الجغرافية

ورسمت الحملة الطرق الآتية :

الميرالاي بوردي	من دنقلة الى الفاشر الى حفرة النحاس
« ميسون	من الفاشر حوالي جبل ميدوب . من الفاشر الى جبل مرة . والى

(١) راجع التقرير العام عن مديرية كوردفان باللغة الانجليزية المطبوع بمطبعة عموم اركان الحرب عام ١٨٨٧

(٢) راجع خارطة الطريق من الابيض الى الفاشر رسمها الضابطان ماهر وفوزي بمقياس ١/٥٠٠,٠٠٠ فيها خمسة مواقع فلكية والارتفاعات وخارطة الطريق من فوجه الى الابيض التي رسمها بروت بمقياس ١/١,٠٠٠,٠٠٠

(٣) راجع خارطة خط السير من دنقلة العجوز الى الفاشر عن طريق وادي محال الى السكرتك بمقياس ١/٩٠٠,٠٠٠

	الحدود الغربية للترجة. وغربي جبل مرة من دارا الى شكا والطويشة
الماجور بروت	حول منطقة جبل مرة . وفي جهة الشمال عند قوم الزعارة وقد رسم خارطة لها بمقياس $\frac{١}{١٠٠,٠٠٠}$
الملازم محمود صبري	في الشمال بجانب تخوم دار تاما في فوجه وقد رسم خارطة للمنطقة
« محمد سامي	شرقي الفاشر والطويشة والعودة منهما ورسم خارطة (١)

اما البعثة الثالثة فقد كانت برئاسة المهندس الاميركي ميتشل Mitchell الملحق بقسم اركان حرب الجيش المصري (٢) وبصحبته الضابط عبد الفتاح حلمي . وكان غرض البعثة كشف المعادن بين النيل والبحر الاحمر . وقد كشفت مناجم الذهب في « الحمامة » شمالي قنا ثم عرجت بثغور البحر الاحمر وخليج عدن كالقصير ومصوع وتاجورة وزيلع . وأوغلت في الداخل ثم عادت الى مصوع وكشفت الجهات الشرقية من الحبشة (٣)

ورسم البكباشي محمد عزت احد ضباط حملة منزنجر باشا خارطة للجهات الواقعة بين تاجورة وبحيرة عوسا بالحبشة

فتح هرر واستكشاف اقليمها

وبينما كانت اعمال الاستكشاف الجغرافية سائرة بنشاط في غربي السودان كانت القوات المصرية قد اخضعت هرر فأصبحت منفذاً للحضارة الحديثة الى اواسط افريقيا . ولاسيما بعد ما تنازلت تركيا للحكومة المصرية في منتصف عام ١٨٧٥ عن مدينة زيلع مقابل اتاوة سنوية

وفي العام المذكور كان اللواء رؤوف باشا قد اعدّ حملة عسكرية نجحت في اخضاع اقليم هرر وظل العلم المصري يخفق على ربوع تلك البلاد الى مارس ١٨٨٤ (٤)

وكان لزاماً عقب هذا الفتح العسكري ان تعقبه البعثات العلمية لدرس تلك الاقطار الجديدة وارتياد طرقها وجبالها واوديتها وخيراتها الطبيعية

ولسنا نبالغ مطلقاً اذا قلنا ان نصيب مصر من الاعمال التي تمت في ميدان البحث الجغرافي في افريقيا الشرقية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر مجهول لدى الباحثين الاوربيين الذين عنوا بتاريخ الكشف . فقد خلف لنا رجال الكشف المصريين تراثاً نفيساً من الاعمال

---

(١) راجع مصر والجغرافيا ص ٥٤ والتعليقات المذكورة رقم ٥و٦و٧

(٢) راجع تقريره عن أعمال هذه البعثة في مجلة الجمعية الجغرافية الخديوية مجموعة ١ عدد ٦ — اكتوبر سنة ١٨٧٩ ص ٧و١٥

(٣) عبد الرحمن الرافعي — عصر اسماعيل — الجزء الاول . ص ١٧٨

(٤) راجع الكلام على سيادة مصر في بلاد هرر بقلم المؤرخ البولندي « بوليتشك » في العدد الحادي عشر من القسم الثاني من مجموعة الجمعية الجغرافية الخديوية

الجغرافية التي لا تعتبر بأي حال من الاحوال قليلة . وتثبت هذه الاعمال لنا بدون ادنى شك سبق الرواد المصريين الى فتح داخلية بلاد الصومال وحصولهم على معلومات جغرافية نفيسة

فانهُ لما خضعت ميناء زيلع للرقابة المصرية سهل لمصر ان تتصل بسكان داخلية البلاد. وتم لها اخضاع هرر فأعادت فتح الطرق التجارية القديمة. فكانت النتيجة ان اصبحت مصر على اتصال قريب بجنوبي شرقي الحبشة . وهذا يشبه ما تمَّ عندما احتلت مصوَّع فأخذت السيادة المصرية تتسرب ايضاً الى الجزء الشمالي الشرقي من تلك المملكة . وفي ذلك الحين كان النفوذ المصري يمتد ببطءٍ الى الجنوب حتى اصبح سنة في النهاية الرقابة على كل ساحل الصومال الى الجنوب حتى ميناء كسمايو ونهر جوبا . وفي جميع الحملات كانت التحقيقات العلمية تسير بجانب العمليات الحربية المصحوبة بالتغلغل السلمي . وقد سعى رجال القسم الجغرافي من هيئة أركان الحرب في الجيش المصري ليجعلوا اسم مصر وهاجاً في العالم العلمي وللاخذ بيد الحضارة في فتح ميادين جديدة للتوسع [(١)]

ولم تكن جهود هؤلاء الضباط الشبان الجريئين مقتصرة على شرقي افريقية بل أنها امتدت واتخذت سبلاً متعددة الى داخلية مناطق السودان الشاسعة والى المناطق المجهولة حتى الآن من أعالي النيل . ولقد سجلت معظم أعمال الكشف الاولى ما تركهُ لنا هؤلاء الضباط من تقارير ورسائل وابحاث وخارطات لم ينشر كلها . وإن كانت الجمعية الجغرافية نشرت منذ سنين [(٢)] بحثاً نفيساً لاعمال مصر الجغرافية التي تمت في القرن التاسع عشر . وعلى الرغم من خلو هذا البحث من التمحيص لاختصاره الا انهُ القى ضوءًا على ما بذل من النشاط في ميدان الطبوغرافيا ورسم الخارطات . ورسم صورة واضحة للعمل العظيم الذي تم في البلاد التي كشفت ومسحت

ولنبدأ اولاً بالاشارة الى الدراسات الجغرافية الجدية التي اشترك في القيام بها الضابطان المصريان البكباشي محمد مختار والصاغ عبد الله فوزي في هرر وساحل الصومال لنستطيع الحكم على نوع العمل العلمي الذي اتم الاثنان جزءًا كبيراً منهُ في ذلك الوقت لولا انهُ اوقف فجأة نتيجة للحوادث السياسية في مصر عام ١٨٨٢ [(٣)]

وبعد فانهُ يظهر لنا ان الكتاب الاوربيين لا يعلمون شيئاً عما انجزه المكتشفون المصريون في افريقية وذلك على الرغم من ان معظم بحوث الضباط نشرت باللغتين العربية والفرنسية في حينها. وكان

---

(١) Mustafa Amer : Some Unpublished Egyptian Maps of Harrar مجلة الجمعية الجغرافية الملكية — مجلد ١٩ . ص ٢٨٩ — ٢٩٩ عام ١٩٣٧ . وهذا البحث مرجعنا الاساسي في كتابة هذا الموضوع

(٢) F. Bonola Bey : L'Egypte et la Geogrphie Le Caire 1890 مترجم الى اللغة العربية أيضاً بقلم المغفور له احمد زكي باشا

(٣) راجع مقالاتهما في مجلة الجمعية الجغرافية الخديوية (بالنص الفرنسي) ومجلة اركان الحرب العامة للجيش المصري باللغة العربية

هؤلاء الكتّاب قد ارتبطوا بمحالفة للصمت وعدم التحدث عنها او انهم يتعمدون الجهل بها. ومع ذلك فلا يفقد الحق مناصريه . لاننا نستثني من هذا الحكم اوربيين شهدا بالجهود العلمية التي قامت على اكتاف ضباط الجيش المصري وأولهما الدكتور بوليتشه (Dr. P. Paulitsche)[١] الذي زار هرر بعد خروج القوات المصرية منها مباشرة وانصف الادارة المصرية في تلك البلاد كما نوه في كتاباته بما للعمل الجغرافي الذي انجزه الضباط المصريون ولاسيما البكباشي مختار من الشأن الكبير. وثانيهما العالم الايطالي روبتشي بريشتي (L. Robecchi Bricchetti) الذي زار هرر فيما بعد وأدرك عمل مختار وأعوانه[٢]

ولقد ترك لنا الضباط المصريون بجانب ملاحظاتهم وتقاريرهم وأوراقهم مجموعة نفيسة جداً من الخارطات ما زال البعض منها محفوظاً للآن . وهي بدون أدنى شك ليست الخارطات الاولى من نوعها . لكنها في الحقيقة هبة ثمينة في علم الخارطات . فقد كان كشف المنطقة الواقعة بين مصوع وهضبة الحبشة والعمليات الحربية ضد الحبشة خير وسيلة لامداد علم الجغرافية بانواع المعرفة المفيدة وأهمها عدد وفير من الرسوم والتخطيطات الكروكية . ونذكر في هذا الصدد بيان خط السير الى بحيرة عوسا الذي عمله الضابط محمد عزت سنة ١٨٧٥[٣] وعمل الضباط ضياء ونظمي ومجدي على حدود الحبشة في عام ١٨٧٥[٤] . ونذكر ايضاً خارطة المكتشفات العسكرية على الحدود الشمالية للحبشة التي اشترك في عملها ستة من ضباط الجيش (١٨٨٠ — ١٨٨١) لما كان اللواء راشد باشا حكمداراً لمناطق الحدود[٥]

ومن الخارطات المهمة — خارطة زيلع وضواحيها التي رسمها مختار وفوزي (١٨٧٥)[٦] وخارطة بربر وضواحيها التي رسمها الضابط عبد الرزاق نظمي وآخرون[٧] ثم خارطات البكباشي مختار الخاصة برأس جردفوى بمقياس $\frac{١}{٥٠٠,٠٠٠}$ (١٨٨٠) ووادي طحين ومناطق هندوينا[٨] . وأخيراً تخطيط نهر جوبا وتصحيح خارطة ساحل الصومال الذي تم على يد الضباط حسن واصف وعبد الرزاق وصديق وجميعهم كانوا من ضباط حملة ماكيلوب باشا

(١) P. Paulitsche : Le Harrar sous l'Administration Egyptienne (1875-1885), Bull. de la Soc. Geog. Le Caire, No. 10. pp. 575-591.

(٢) L. R. Bricchetti : Nell Harrar, Milan 1896, pp. 28 and 114

(٣) Dor Bey : Werner Munzinger Pasha. Bull. 1876, Serie I. No. 1 pp 124-127; Bonola : p. 61

(٤) مجلة الجمعية الجغرافية الخديوية — المجموعة ١ رقم ٨ ص ٣٨ عام ١٨٧٦ ورقم ٩ و ١٠ ص ٤٣ — ٧٦

(٥) Bonola — ص ٧٤ — خارطة باللغة العربية وتحتوي على ثلاث لوحات مطبوعة في المطبعة الاهلية بالقاهرة

(٦) مجلة أركان الحرب — السنة الثالثة — مجلد ١ — جزء ١ — القاهرة ١٨٧٦ ص ٢٩ — ٣٥

(٧) مجلة الجمعية الجغرافية — السلسلة ٢ — رقم ٧ ص ٣٤٩

(٨) مجلة الجمعية الجغرافية — السلسلة ١ — رقم ٨ ص ٢٩ — ٤٢ ورقم ٩ و ١٠

والكولونيل شايه لونج [١] وكان من نتائج تهديد لورد دربي للخديو اسماعيل (يناير ١٨٧٦) ان اعمال هذه الحملة لم تتم كما كان ينتظر

وكان قوام هذه الحملة بارجتين حربيتين مصريتين وهما محمد علي ولطيف وسفينتين نقالتين — طنطا ودسوق — وثمانية بلوكات مشاة وبلوك خيالة وآخر من المدفعية . وقد اقلعت السفن المذكورة من السويس في يوم ١٧ فبراير ١٨٧٥ فوصلت الى مصب نهر جوبا وتمكن شايه لونج من استكشاف البلاد الكائنة على ضفتي النهر مسافة ١٥٠ ميلاً بزورق بخاري ورسم اليوزباشي حسن واصف الذي كان برفقته مجرى النهر . ووفقت هذه الحملة لتصحيح خارطة سواحل الصومال واستكشاف مينائي كسمايو (بور اسماعيل) ودنفورد على المحيط الهندي وسبر اعماقهما بمعرفة الكولونيل وارد واليوزباشي صديق وضابط آخر من اركان حرب الجيش [٢]

وقد تعاون ضباط القسم الجغرافي بعضهم مع بعض فأخرجوا خارطتين عامتين عن مصر وملحقاتها: كان مقياس الخارطة الاولى $\frac{1}{1,000,000}$ وقد عرضها مندوبو مصر في المعرض الجغرافي الدولي الذي عقد في البندقية في سبتمبر ١٨٨١ [٣] والخارطة الثانية مقياسها $\frac{1}{1,000,000}$ احتوت على جميع المعلومات التي جمعت في خلال الاعوام الثمانية عشر للفتوحات والاكتشافات والدراسات المصرية ومما يؤسف له ان هذه الخارطة قد ضاعت لما سقطت الخرطوم في ايدي المهديين [٤]. ومن الآثار النفيسة التي خلفها القسم الجغرافي ذلك المصور المظيم لافريقيا (Carte General de l'Afrique) وليس هناك ادنى شك في ان هذه الخارطة المفصلة الفخمة خير ما انتجه ضباط اركان حرب الجيش عام ١٨٧٧ . وهي أدق خارطة عرفت الى ذلك الحين اشترك في رسمها كل من الاميرالاي لوكيت والقائمقام مختار بك والصاغ عبد الله فوزي وعبد الرزاق نظمي والضباط محمود صبري وأحمد فائق (باشا) وأحمد فهمي وحسن حارس (باشا) وحسن صفوت وابراهيم حلمي ومحمد جودت ومحمد خير الله ويوسف ضياء (باشا) وعلي حيدر (باشا) واحمد رشيد [٥]

ومن حسن الحظ انهُ ما زالت النسخة الاصلية لهذه الخارطة محفوظة في قصر عابدين في في احد ابهائهِ العظيمة . وكان المغفور له جلالة الملك فؤاد قد امر باعادة طبعها واخراجها في نصف حجمها الاصلي . فنفذت ارادته بهمة رجال مصلحة المساحة المصرية . واخرجت الطبعة الاولى عام ١٩٣٠ ثم اعيد طبعها بتهذيب وتحسين واخرجت عام ١٩٣٤ [للبحث بقية]

(١) Bonola, 65-66 et 72 ; M. Sabry, L'Empire Egyptien sous Ismail, Paris 1933, p. 397-398

(٢) من مذكرات مخطوطة أرسلها الكولونيل لونج الى الدكتور بونولا . ومقالة أخرى نشرتها له الجمعية الجغرافية الاميركية الصادرة سنة ١٨٧٨ وعنوانها « على نهر جوبا » (٣) مجلة الجمعية الجغرافية الملكية — القاهرة ١٨٨٢ — السلسلة ٢ رقم ١ ص ١ — ٢١ (٤) Bonola : p 75 (٥) عبد الرحمن الرافعي — عصر اسماعيل — الجزء الاول ص ١٨٠

الى وكرك يا قلبي !

لحسن كامل الصيرفي

الى وَكْرِكَ يا قلبي ففي وَكْرِكَ أحلامُكْ
تُعانِقُ فيهِ ما يُوحِيهِ من شِعْرِكَ إلهامُكْ
وتَغْنَى في جلالِ الوحي والأحلام آلامُكْ
وتَزْخَرُ فيهِ اصداؤُكَ بالنَّجْوى وأنغامُكْ
فقد تَسْحَرُكَ الدنيا فتستيقظُ آثامُكْ
إذا ما حِدْتَ عن وَكْرِكَ أو غرَّتْكَ أوهامُكْ

* * *

الى وكرك يا قلبي فقد حاصَرَنا الليلُ
وجُنَّتْ حولنا الدنيا فلا وَحْيٌ ولا عقلُ
وخَفَتْ زُمَرُ العشّاقِ كالأحلامِ تَنْسَلُّ
دَعَتْها الشهوةُ العمياءُ فانساقَ بها الرَّحْلُ
وهامت في ضَلالِها بكأسٍ قلّما تخلو
فَلُذْ بالوَكْرِ يا قلبي حَسْبُكَ ذلك الظِّلُّ

* * *

الى وكرك يا قلبي لتطرَحَ عنكَ أعباءَكْ
وتسمعَ في سكون الليلِ من جارِكَ اصداءَكْ
ولا تَعْبَأْ بأضواءٍ يُنَسِّينَكَ أضواءَكْ
فحُلْمُكَ لم يَزَلْ يقظانَ يستلهم إيحاءَكْ
يطلُّ عليكَ من مَرْقاهُ يستَطلِعُ انباءَكْ
فلا تَحْفِلْ بمَنْ تبسمُ ، أو تَزْمَعُ إغواءَكْ

* * *

الى وكرك يا قلبي فإنَّ الليلَ خدّاعُ
ترى الاضواء ساحرةً وهذا السحرُ إيقاعُ
وهذي الفتنةُ الحيْرَى غواياتٌ وأطماعُ
وهذا الحبُّ يا قلبي مَلَذّاتٌ وإمتاعُ
وهذي حَيّةُ الجناتِ تلهو بالأسى أنصاعوا
فعُدْ للوَكْرِ يا قلبي ففي وَكْرِكَ أسجاعُ

بعث الثقافة

وأثره في النهضة العربية

لقدري حافظ طوقان [1]

وطد المحاضر لمحاضرته بذكر ما أدركته أمم الغرب وبعض أمم الشرق من ان بعث الثقافة أهم العوامل التي تستند اليها النهضات السياسية والحركات الاستقلالية وان الامة التي تبغي مجداً وسؤدداً عليها ان تخلق في الافراد روح الايمان بقابليتهم على للابتداع وان تنشىء فيهم الشعور بالعزة القومية وذلك بالاهتمام بماضيها وربطه بحاضرها وتعريف الناشئة بجهود أسلافهم وما ثرهم في ميادين العلوم وما كان لهم من اثر في تقدم الحضارة . ثم أشار الى ما فعلت الامتان اليونانية والارلندية في هذا الميدان . ثم وجه الكلام الى الامة العربية وتراثها العقلي المجيد فقال : — [المحرر]

ان الامة العربية من الامم التي خلّفت آثاراً جليلة في ميادين المعرفة عادت على الحضارة بالتقدم والارتقاء . وقد لا يكون هناك امة لها ما للامة العربية من تراث خالد وأثر بليغ في سير العلوم فلولا نتاج القريحة العربية لتأخر سير المدنية بضعة قرون

ومما يؤسف لهُ حقًا اننا اهملنا تراثنا ولم نلتفت اليه ، وأنه باهمالنا هذا وعدم التفاتنا الى ما آثر اسلافنا اصبح لدى الكثيرين اعتقاد في عدم قابليتنا وأنه لم يكن لاجدادنا اي جهد فكري عالي ، وانهُ لم ينشأ بين العرب من استطاع ان يبلغ في ميدان العلم مبلغ علماء اوربا وعباقرتها

ومن اغرب ما نشاهده اليوم ان نجد كثيرين ينكرون على العرب مآثرهم في مختلف العلوم والفنون وقد تزيد استغرابكم اذا علمتم ان هذا الانكار سائد ومسيطر على المثقفين وأصحاب الشهادات والالقاب العلمية ، وليت الامر يقف عند هذا الحد — حد الانكار — بل يتعداه الى الاستخفاف بكل ما هو شرقي عامة وعربي خاصة والى التنقص من جهد السلف وفضلهم على المدنية ، بينما نجد في الغرب من قام يدافع عن الحقيقة لانها حقيقة ومن قام يظهر الحق لانهُ حق . وقد دفعهم الاخلاص للحقيقة ان ينصفوا الحضارة العربية بعض الانصاف فاعترف غير واحد بما للمدنية العربية من فضل على مدنية أوربا التي ينعمون بها . وقد ثبت لهم

(١) من المحاضرة النفيسة التي ألقاها قدري حافظ طوقان في منتدى جمعية الشبان المسيحية بالقدس برآسة الاستاذ احمد سامح الخالدي عميد الكلية العربية بالقدس

انهُ كلما تقدم العلماء في البحث عن نتاج قرائح العرب تجلى لهم فضل العرب على العلم والعمران بصورة أوضح وظهر لهم ان العرب سبقوا الغرب في وضع النظريات الرياضية والفلكية والفلسفية . وقد قال أحد علماء الفرنجة ان بعض ابتكارات واختراعات حسبناها من عملنا ثبت بعد قليل ان العرب سبقونا اليها . واعترف بعضهم بعلوّ كعب الحضارة العربية وبما أسدتهُ من خدمات جلى الى المدنية . قال فلوريان : « . . . كان للعرب عصر مجيد عُرفوا فيه بانكبابهم على الدرس وسعيهم في ترقية العلوم والفنون ، ولا نبالغ اذا قلنا ان أوربا مدينة لهم بخدمتهم العلمية — تلك الخدمة التي كانت العامل الاول والاكبر في نهضة القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد . . . » . وقال (ولز) عن حضارة العرب ما يلي : « وكانت طريقة العربي ان ينشد الحقيقة بكل استقامة وبكل بساطة وان يجلوها بكل وضوح وبكل تدقيق غير تارك منها شيئاً في ظل الابهام . فهذه الخاصة التي جاءتنا نحن الاوروبيين من اليونان وهي نشدان النور انما جاءتنا عن طريق العرب ولم تهبط على اهل العصر الحاضر عن طريق اللاتين ... » ومما لا شكّ فيه ان الحضارة العربية هي حلقة الاتصال بين حضارة اليونان والحضارة الحالية فهم الذين حفظوا علوم اليونان وغيرها من الضياع وهم الذين نقلوها ونقلوا معها اضافاتهم الكثيرة الى اوربا عن طريق الاسبان ، ويعترف (البارون دي فو) بأن الرومان لم يحسنوا القيام بالميراث الذي تركه اليونان ، وبأن العرب كانوا على خلاف ذلك فقد حفظوه وأتقنوه ، ولم يقفوا عند هذا الحدّ ، بل تعدوه الى ترقية ما أخذوه وتطبيقه باذلين الجهد في تحسينهِ وانمائهِ حتى سلموه للعصور الحديثة . وهم فوق ذلك أساتذة أهل اوربا اعترف بذلك العالم الافرنسي الكبير (سيديو) حيث قال : « وان نتاج أفكارهم الغزيرة ومخترعاتهم النفيسة تشهد انهم أساتذة أهل اوربا في جميع الاشياء ... »

هناك أناس يضربون على نغمة جديدة اقتبسوها عن الجاحدين لفضل العرب والاسلام ، وهذه النغمة تدور حول قولهم ان العرب لم يكونوا غير نقلة للعلوم ، ومن الغريب ان لا تجد من العرب من ردّ عليهم ، ومن الغريب ان يكون الرد عليهم من عالم أميركي اشتهر بالبحث والتنقيب . قال الدكتور (سارطون) : « ان بعض الغربيين الذين يجربون ان يستخفوا بما أسداهُ الشرق الى العمران يصرحون بأن العرب والمسلمين نقلوا العلوم القديمة ولم يضيفوا اليها شيئاً ما . . . هذا الرأي خطأ . . . لو لم تنقل الينا كنوز الحكمة اليونانية لتوقف سير المدنية بضعة قرون . . » ويمضي الدكتور في كلامهِ فيقول : « ... ولذلك فان العرب كانوا أعظم معلمين في العالم في القرون الثلاثة الثامن والحادي عشر والثاني عشر للميلاد . . . »

في العرب علماء عباقرة استطاعوا ان يُسدوا جليل الخدمات الى العلم كالتي اسداها نيوتن وفراداي ورنتجن وغيرهم من نوابغ الغربيين . وقد اعترف (ويدمان) بأن العرب أخذوا بعض النظريات

عن اليونان وفهموها جيداً وطبقوها على حالات كثيرة مختلفة ثم أنشأوا من ذلك نظريات جديدة وبحوثاً مبتكرة « فهم بذلك ... » يقول ويدمان « ... قد أسدوا الى العلم خدمات لا تقل عن الخدمات التي أتت من مجهودات نيوتن وفراداي ورنتجن .. » والذي لا أشك فيه ان عالماً له مقامهُ العلمي الممتاز كالاستاذ (ويدمان) لا يلقي الكلام جزافاً وهو يعرف ما يقول ويزن كل كلمة يفوه بها بميزان الحقيقة والانصاف. اننا أولى من غيرنا بمعرفة عباقرتنا ونوابغنا . انه لواجب مقدس علينا أن نهتم بتراثنا وبما أورثهُ أسلافنا الى الاجيال . أليس من العيب الفاضح علينا ان لا نعرف ان الخوارزمي هو من كبار رياضيي العالم وانهُ اول من وضع (الجبر) بشكل مستقل عن الحساب وقد بوّبهُ ورتبهُ وزاد عليهِ زيادات هامة تعد اساساً لكثير من بحوثه . وعلم الجبر — يا سادتي — من اعظم اوضاع العقل لما فيهِ من الدقة واحكام في القياس

ولقد جمع العرب بين الجبر والهندسة وطبقوا الهندسة على المنطق كما طبقوا اكثر العلوم على مختلف مرافق الحياة . واعترف (كاجوري) بفضل العرب على الجبر فقال « ... ان العقل ليدهش عند ما يرى ما عمله العرب في الجبر .. » وقال ايضاً . « ... ان حل المعادلات التكعيبية بواسطة قطوع المخروط من اعظم الاعمال التي قام بها العرب ... » ويمكن القول ان بحوث العرب في الجبر والهندسة وفي إحكام العلاقة بينهما كانت سابقة لبحوث (ديكارت) و(فرما)

أليس غريباً ان لا يعرف كثيرون ان العرب هم الذين هذبوا الارقام الهندية التي نستعملها الآن والتي وصلت الغرب بواسطة الكتب العربية . وليس المهم هنا تهذيب العرب للارقام بل المهمّ ايجاد طريقة جديدة لها ، طريقة الاحصاء العشري ، واستعمال الصفر للغاية التي نستعملها الآن ووضع علامة الفاصلة للكسر العشري . ان أثر ذلك في تقدم الرياضيات والعلوم الاخرى وارتقاء الحضارة في مختلف نواحيها ليس مما تسهل المبالغة فيهِ

هل سمعتم شيئاً عن البتاني الذي امتاز على غيره بمواهبه وقد تبوأ مركزًا عالميًا في ميادين العلوم ولاسيما في الفلك والمثلثات والجبر والهندسة . ولقد اطلع (لالاند) وهو عالم غربي لمع في سماء البحث والاستقصاء والانتاج ، اقول اطلع (لالاند) على مآثر البتاني فكان أن عدّه من العشرين فلكيًا المشهورين في العالم كله . وكان من العرب علماء آخرون ادهشوا الاوربيين وحملوهم على الايمان بقوة العقل العربي وابداعه ، ومن هؤلاء العلماء ابن سينا الذي قال عنهُ (سارطون) انهُ من اشهر مشهوري العلماء العالميين . والكندي الفيلسوف الذي سرى ذكره في كل ناد ، وهو من الذين امتازت مواهبهم بنواحيها العديدة ومن الذين عدّهم (كاردانو) العالم الايطالي الشهير من الاثني عشر عبقريًا الذين هم من الطراز الاول في الذكاء في العالم كله

أليس من المؤسف حقًا ان لا يعرف الناشىء العربي ان اجداده تبذّوا الكيمياء وانهم

ابدعوا فيها وانهم سبقوا غيرهم في الالتجاء الى التجربة ليتحققوا من صحة بعض النظريات . واليهم يرجع الفضل في استحضار كثير من المركبات والاحماض التي تقوم عليها الصناعة الحديثة. فلقد استحضروا مركبات تستعمل الآن في صنع الصابون والورق والحرير والمفرقعات والاصبغة والسماد الاصطناعي . وقد يجهل كثيرون ان جابر بن حيان هو من ألمع علماء الكيمياء العالميين ومن الذين اضافوا اضافات هامة الى الثروة الانسانية العلمية جعلته في عداد الخالدين المقدمين في تاريخ تقدم الفكر

وقد تدهشون (ايها السادة) اذا قلنا انهُ وُجد في الامة العربية من اشتهر في كثير من العلوم كالبيروني وانهُ كان ذا كعب عال فيها . ففاق علماء عصره وعلا عليهم وكانت لهُ مبتكرات كبيرة الشأن وبحوث نفيسة في الرياضيات والفلك والتاريخ والجغرافيا . وقد توصل (شاو) العالم الالماني بعد دراسة حياة البيروني وبعد اطلاعه على مؤلفاته الى الوقوف على حقائق لم تكن معروفة خرج منها باعتراف خطير وهو : « ان البيروني اعظم عقلية عرفها التاريخ » . ولو ان هذا الاعتراف صدر عن باحث عربي لرُمي بالتحيز والمغالاة ، لكنهُ بحمد الله صادر عن عالم يزن كلامه ولا يبدي رأياً الاَّ بعد بحث وتمحيص. و(شاو) هذا يقترح ان تؤلف جمعية لتمجيد البيروني واحياء مآثره . واني اقترح على الاستاذ الخالدي ـ ونحن في هذا الصدد ـ ان يعمل على احياء ذكر البيروني باقامة مهرجان (على غرار مهرجان الجاحظ) يدعو اليه العلماء من الاقطار العربية ليتكلموا في نتاج البيروني في نواحيه المتعددة ، وبذلك ينصف عالماً كبيراً اسدى الى العلوم والمدنية اجل الخدمات . ومن بحاث الغرب من حملتهُ دراسته للتاريخ والجغرافيا على القول بان مقدمة ابن خلدون هي اساس التاريخ وحجر الزاوية فيه وان كتاب معجم البلدان لأبي عبدالله ياقوت هو معجم غني جدًّا بالمعرفة وليس له من نظير في سائر اللغات

لولا العرب لما كان علم المثلثات على ما هو عليه الآن ، فاليهم يرجع الفضل في وضعه بشكل مستقل عن الفلك وفي الزيادات الاساسية الهامة التي جعلت الكثيرين يعتبرونهُ علماً عربيًّا . ولا يخفى ما لهذا العلم من اثر في الاختراع والاكتشاف وفي تسهيل كثير من البحوث الطبيعية والهندسية . ونظرة الى بحوث الضوء ونظرياته تثبت انهُ لولا العرب لما تقدم هذا العلم تقدمه الحاضر . يقول (ماكس مايرهوف) . «ان العرب اسدوا جليل الخدمات الى هذا العلم الذي تتجلى لنا فيه عظمة الابتكار الاسلامي .. »

وبقيت كتب ابن الهيثم في البصريات منهلاً ينهل منهُ أكثر علماء القرون الوسطى كروجر باكن وبول وانيلو وليوناردفنشي وكوبرنيكس وكبلر وغيرهم . وتعترف دائرة المعارف البريطانية بان كتابات ابن الهيثم في الضوء أوحت اختراع النظارات . ويمكن القول ان ابن الهيثم هو من

عباقرة العالم الذين أسدوا الى العلوم خدمات لا تثمن . ومن يطلع على مؤلفاته ورسائله تتجلّ لهُ المآثر التي خلفها مما ساعد كثيراً على تقدم علم الضوء الذي يشغل فراغاً كبيراً في الطبيعة والذي لهُ اتصال وثيق بأهم المخترعات والمكتشفات والذي لولاه لما تقدم علما الفلك والطبيعة تقدمهما العجيب ، تقدماً مكّن الانسان من الوقوف على بعض أسرار المادة في دقائقها وجواهرها وكهاربها وعلى الاطلاع على ما يجري في الاجرام السماوية من مدهشات ومحيرات. وأثبتت التحريات الحديثة بأن العرب هم الذين اخترعوا الرقاص والاسطرلاب واكتشفوا الخلل الثالث في حركة القمر . وبأنهم من الذين مهدوا لايجاد التكامل والتفاضل واللوغارتمات ، وبانهم من الذين قالوا بدوران الارض كما ان أرصادهم تقيم الدليل على اهليلجية فلك الارض وقد سبقوا (غاليليو) في وضع بعض قوانين الرقّاص . وإذا شئنا المضيّ في تعداد مآثر العرب في العلوم والفنون طال بنا القول وقد نخرج عن موضوع المحاضرة

أيها السادة — يظهر مما مرَّ أن في الغرب منصفين ، وان في الغرب من حفزهُ الانصاف والروح العلمية الصحيحة الى الاهتمام بالتراث العربي والاعتراف بعظمة النتاج الذي خلّفهُ العقل العربي للعلم والعمران ، وقد ثبت لهم ان المدنية العربية مدنية تزدان بها التاريخ ويحق للدهر أن يفاخر بها . وأرى ان هذه المدنية لو لم تكن حافلة بالمآثر مليئة بالمفاخر، سامية رائعة لها طابعها الخاص وخصائصها الممتازة لما اشتغل بها الغربيون ولما كتبوا عنها المجلدات ولما اهتمت جامعاتهم بالبحث عن آثارها والغوص على كنوزها . فلقد قدرت جامعة (برنستون) الاميركية خدمات العرب وافضالهم على الانسانية والثقافة فراحت تخصص أفخم ناحية في اجمل ابنيتها لمآثر علم من أعلام الحضارة الخالدين — الرازي — كما راحت تنشىء داراً لتدريس العلوم العربية والبحث عن المخطوطات واخراجها ونقلها الى الانكليزية حتى يتمكن العالم من الاطلاع على اثر التراث العربي في تقدم العلم وازدهار العمران . وعلى الرغم من هذا الاهتمام ، وعلى الرغم من البحوث التي قام بها العلماء في تراثنا فلا تزال هناك نواح لم تعطها حقها من البحث والاستقصاء ولم ينفض عنها بعد غبار الاهمال. ومما لا ريب فيه أن مثل هذه البحوث والموضوعات ليست بالتي يمكن اعطاؤها حقها بسهولة . ولن يتمكن الباحثون والمنقبون من الوقوف على نتاج العقل العربي كاملة وخدماته للانسانية إلاّ اذا تابعوا استقصاءهم وواصلوا تنقيبهم ، وعندئذ يتمكنون من إزالة السحب الكثيفة المحيطة بتراثنا ومآثرنا

واذا كان في الغرب منصفين فان فيه كذلك من هو غير منصف او من لهُ مطامع وأغراض لا تستقيم ونهوض العرب . فشوّه كثير من الحقائق ، وقلب البعض الآخر ، وادخلت الشكوك والريب في كثير من الحوادث التي تمجد العرب ، وفوق ذلك أُخذ بعض النظريات والاختراعات العربية ونُسب الى غيرهم وقيل باسم العلم والحقيقة ان العرب غير منتجين وانهم لم يكونوا غير

نقلة ، وان الحضارة العربية لم يكن لها أثر يذكر في سير المدنية الحاضر ، ووصم العقل العربي بالجمود وبكونه دائماً عالة على غيره . وقد يسأل البعض هل من قصد وراء ذلك ؟ والجواب على هذا ان القصد التثبيط من عزائمنا وإدخال اليأس الى قلوبنا من نجاحنا ومن المؤسف حقًّا ان تتحقق بعض غايات هؤلاء وبعض ما يرمون اليه ، إذ كان لذلك كله الاثر الكبير في عقلية طلاّبنا وكتّابنا واخذ الاعتقاد بعدم قابليتنا يتسرّب الى الكثيرين منا واصبحنا هدامين لكياننا ، منكرين ميراثنا لا نرى فيه خيراً ولا جمالاً ولا متاعاً ولا انتفاعاً ورحنا مفتونين بالحضارة الغربية عاكفين عليها مهملين تاريخنا وحضارتنا واصبحنا نعرف عن شكسبير ودانتي وجيتي وفراداي ونيوتن واديسون وباستور اكثر مما نعرف عن المتنبي والمعري والبيروني والبوزجاني والخوارزمي وابن الهيثم والبتاني وجابر بن الافلح وابن رشد والكندي والمجريطي . . . و و . . . وغيرهم . واصبحنا نرى في المدنية الاوروبية كل الخير وكل الجمال وكل المتاع وكل الانتفاع

أيها السادة — قد يسيء بعضكم الظن فيرى في أقوالي هذه دعوة الى اهمال العلوم الاوروبية ونبذ الحضارة الغربية . أنا لا أدعو الى ذلك ، ولا أطلب مقاومة تيار المدنية الحالية من كل النواحي . أنا أقول وأطلب ان ندرس الى جانب المدنية الاوروبية ثقافتنا وتاريخنا . أنا أقول بدرس ما يأتي به الغرب والتعرف على سبله ومسالكه وان نضيف الى ذلك ما في حضارتنا وثقافتنا من عناصر خالدة . نريد أن يعرف النشء العربي مآثر اجداده في ميادين العلوم والفنون ومكتشفاتهم فيها . نريد ان يشعر الناشيء العربي أن أجداده كانوا شيئاً في هذا الوجود ، وأنهم بالعمل الجدي استطاعوا ان يشيدوا حضارة شرقية عربية لا تزال أوروبا تنعم بمآثرها . نريد ان يعتقد العربي بقابليته وان يؤمن بنبوغه وانه في إمكانه ان ينتج وان يبدع

سادتي : ان في استطاعة علماء العرب ومفكريهم أن يمهدوا لهذا كله بعقد مؤتمر للعلوم العربية (كما اقترح الدكتور مشرّفة بك) تنحصر غاياته في بعث الثقافة العربية واحياء الآثار العربية بمختلف الوسائل : كانشاء مجمع دائم للدراسات العربية والاسلامية يعمل على نشر المؤلفات العربية مع شرحها وبيعها باثمان معتدلة حتى يتمكن الجميع من الاطلاع عليها والوقوف على مآثر السلف وتراث الاجداد ، والعمل ايضاً على ادخال تاريخ العلوم العربية في برامج التدريس في الجامعات والكليات في الاقطار العربية ، وبذلك تستطيع هذه المعاهد ان تقوم بواجبها القومي والوطني ويصبح عندئذ معنىً لوجودها . وقد اتصلت بعميد كلية العلوم في الجامعة المصرية الدكتور مشرّفة بك وطلبت منهُ ان تقوم كلية العلوم بهذا العمل الخطير وان تتولى الدعوة لهذا المؤتمر . ويسركم ان تعلموا ان هذا الطلب تحت الدرس ومحل عناية العميد . وأملنا وطيد بأن فكرة بعث الثقافة عن طريق عقد هذا المؤتمر ستخرج قريباً الى حيز الوجود

لا أظن ان أحداً يخالفني في ان الحكومات العربية والجماعات وبعض الافراد في الاقطار العربية بدأت تسعى لسدّ النقص الذي لازم الحركات الوطنية والقومية مدة طويلة . فلقد بدأت النهضة الثقافية تسير حثيثاً وستعود على الامة باليقظة وعلى ابناء الجيل بالاعتزاز . وها نحن اولاء نجد ارباب المعاهد وبعض القائمين بأمر الحكومات العربية يهتمون باحياء تراث العرب واظهار مآثرهم وما قدموه من جليل الخدمات الى المدنية . مَنْ منا لم يسمع عن المهرجانات العديدة في مصر والمغرب وسوريا التي اقيمت احياءً لذكرى شاعر العرب المتنبي ? وقد كانت هذه المهرجانات موفقة ورائعة ، نبيلة المقاصد سامية الغايات كشفت عن بعض النواحي التي كانت محاطة بغيوم الغموض والابهام

ومَنْ منا لم يقرأ عن اسبوع الجاحظ الذي اقامته كلية الآداب في الجامعة المصرية وقد تكلم فيه فريق من فحول الادب وأئمة البيان ? بل ومن منا لم يلمح الحركة الجديدة نحو احياء الكتب القديمة واظهارها الى الناس والسعي لنفض غبار الاهمال عنها ? وها هي ذي الحكومة المصرية تشترك مع الافراد والجماعات في بعث الثقافة العربية عن طريق احياء ذكرى كبار الادباء والشعراء ونوابغ رجال العلم والفن ، وعن طريق اخراج المخطوطات وطبعها ونشرها . وهاهي ذي الحكومة السورية تعمل على اقامة مهرجان كبير احياءً لذكرى المعري بمناسبة مرور الف عام على وفاته وقد انتهت من وضع تصميم لبناء ضريح الشاعر الفيلسوف في مسقط رأسه (المعرة) من ولاية حلب

ومن المبهج ان نجد هذا التوفّز نحو بعث الثقافة العربية لا ينحصر في جهة واحدة ، بل يشمل جهات اخرى . فقد اخبرني الدكتور مشرّفة بك ان في نيته اقامة مهرجان لاحياء ذكرى ابن الهيثم في عام ١٩٣٨ اذ يكون قد مرَّ على وفاته تسع مئة عام . ولا شك ان هذا الاتجاه الجديد سيدفع بالحكومات العربية والجماعات والافراد الى اخراج مؤلفات نوابغ الرياضيين والطبيعيين ورسائلهم وجعلها في متناول المتعلمين . ولست بحاجة الى القول أن هذه النهضة لا تزال في اولى مراحلها ونحن لم نقطع فيها بعدشيئاً جديراً بالاعتبار . ولكن ما نراه من الشروع في الاهتمام بالتراث العربي لما يؤكد لنا ان العرب أصبحوا يدركون ان بعث الثقافة واحياء القديم وربطه بالحاضر من أقوى الدعائم التي عليها يبنون كيانهم ويشيدون استقلالهم

وأختم كلامي بأنهُ ما من أمة تستطيع احترام حاضرها وتحقيق مثلها العليا اذا لم تكن على صلة بماضيها محترمة لهُ واقفة على ما فيهِ من جلال وبهاء ، وعلى الامة التي تبغي عزّاً وتبغي سؤدداً ان تصل ماضيها بحاضرها وان تبني حضارتها على حضارة أسلافها ، وبذلك لا بغيره تستطيع تلك الامة ان تشعر ناشئتها بأن لهم كياناً محترماً وشخصية مستقلة ، وهذا كلهُ يدفع بالامة الى حيث المجد والعظمة

الفلسفة العربية

ما أخذت وما أعطت

لفيلمون خوري

— ٢ —

لم يكن بد قبل الدخول في قلب هذا البحث من الاشارة الى الذين شادوا أركان الفلسفة العربية وكانوا بناة مجدها وشهرتها وماكانت اشهر آرائهم ومذاهبهم . وقد أتينا على أهم تلك الآراء في القسم الاول من هذا المقال بقدر ما سمح بهِ المجال

اما موضوع المقال وهو « ما أخذت الفلسفة العربية وما أعطت » فقد تقدم القول أن الفلسفة العربية كنظيرتها الفلسفة اللاهوتية (Scholasticism) في بلاد الغرب لم تطلع بمذهب جديد ولا اتخذت لنفسها طريقة خاصة بل كان ما جاءت بهِ منقولاً عن فلاسفة اليونان . وقد أخذ العرب عن هؤلاء جميعهم فلم يدعوا فيلسوفاً لم ينقلوا عنهُ من طاليس الى أرسطاطاليس الى افلوطينوس وبروكلس من زعماء الافلاطونية الجديدة . ولكن جلّ اعتمادهم كان على المذهب الافلاطوني الجديد لأنهُ اكثر موافقة لنزعتهم الدينية

على أنهُ وان كان الفلاسفة العرب لم يستقلوا بمذهب خاص يعرفون به فقد كانوا كما تقدم أعظم الشارحين للفلسفة اليونانية واكثرهم دقةً وتحقيقاً . وانما كان بفضل شروحهم هذه ان انتشرت الفلسفة وذاعت في الاقطار شرقاً وغرباً كأنما بعثت على أيديهم من مرقدها فكان عليها المعوّل في كثير من معاهد الفلسفة والعلم طيلة القرن الثالث والرابع عشر الى أواخر الخامس عشر تقريباً حين بدت طلائع الفلسفة الحديثة والعلم الحديث في مستهل القرن السادس عشر فضربت حجباً كثيفة على جميع الفلسفات القديمة والوسطى والفت معظم مذاهبها ونظرياتها

إن من يراجع آراء فلاسفة العرب ومذاهبهم المختلفة يجد بينها كثيراً مما لهُ قيمة فلسفية كبيرة ولكن الفلسفة الحديثة ومكتشفات العلم الحديث قضت على معظمها كما قضت على كثير من نظريات الفلسفة اليونانية . الاَّ ان من يمعن النظر يرى بينهما يشير اشارة واضحة الى أهم مبادىء

الفلسفة الحاضرة وأشهر مذاهبها. وهذا ما قصدت بالاشارة اليهِ بقولي «ما أعطت الفلسفة العربية» صارفاً النظر عما لا أثر لهُ او صدًى في الفلسفة الحديثة

فمن هذه الآراء ما ذهب اليهِ زعماء المدرسة الشرقية مثل الفارابي وابن سينا من وجوب تقرير الحقائق الفلسفية بناء على درس نواميس الطبيعة ومراقبة مجاريها وأحكامها . وهذا ما يعزوه علماء العصر المجددون من أهل الغرب للفيلسوف الانكليزي باكون مع انهُ تقدمهُ فيها كثيرون غيرهُ مثل روجر باكون وأوكام وغليليو . ولكن الفارابي وابن سينا سبقوا جميع هؤلاء الى تقرير هذه الحقيقة بمئات السنين

ومنها قول أبي الوليد ابن رشد بأن في المادة نفسها قوة طبيعية لتوليد صور الاشياء (forms) اي ان هذه الصور تحصل بسبب قوة كامنة طبيعية في المادة نفسها . وهو يخالف بذلك مذهب أريسطو القائل ان صور الاشياء تحل في المادة بقوة من الخارج . أليس في رأي ابن رشد هذا من النظر العلمي ما فيهِ ولا سيما لمن لم يعرف شيئاً عن النشوء الطبيعي في مذهب المتأخرين

ومنها رأي ابن سينا والفارابي في الكون وقسمة الوجود الى واجب وممكن . وهذا من البراهين التي اعتمدها الفيلسوف الالماني الكبير كانت (Kant) وأطلق عليها اسم البراهين الكونية [١] (cosmological proofs) على وجود الخالق جل وعلا

يزعم ابن سينا والفارابي ان الاشياء الطبيعية ليست من الامور الضرورية حتماً اذ من الجائز ان يوجد غيرها بدلاً منها . فهي اذاً من الاشياء الممكنة لا الواجبة الوجود . والممكن يستدعي او يقتضي بطبيعة الحال وجود ما هو واجب الوجود بذاته ليكون سبباً او علة لوجوده . فالواجب الوجود بذاته هو الخالق جل جلاله ولا احد سواه . وكل ما عداه فهو في دائرة الممكن . وقد أفاد هذا الرأي الفارابي وابن سينا كثيراً اذ تخلصا بهِ من القول بأزلية المادة تبعاً لرأي اريسطو وهذا منافر لمقتضى التعاليم الدينية كما تقدم

ولابن جبرول الفيلسوف العربي (١٠١٠ — ١٠٧٠) الذي اشتهرت فلسفتهُ عند علماء الغرب وكان له المناظرات الشديدة اللهجة مع اعظم فلاسفتهم فكان لهُ منهم الانصار والخصوم، آراء ذات قيمة فلسفية كبيرة تدل بأوفى بيان على أسمى مبادىء الفلسفة في هذا العصر

فمن تلك الآراء ما ذهب اليهِ من اتحاد العنصرين العقلي والمادي في مادة واحدة عامة اذ

(١) أما البرهان الثاني من هذا النوع الذي اعتمده كانت فهو مذهب أريسطو من حيث السبب او المحرك الاول . يقول أريسطو ان كل حركة في الكون لا بد لها من محرك . فاذا تتبعنا سلسلة الاسباب او المحركات وجدنا انه لابد لنا من الوقوف عند السبب او المحرك الاول غير المتحرك . فالمحرك الاول في اعتقاد أريسطو هو الباري جل جلاله

قال ان المادة الهيولية والمادة الروحانية ليستا سوى جزئين من المادة العامة وقد اتيت على ذكر هذه النظرية مفصلاً في مقال نشرته مجلة المقتطف الغراء في عدد حزيران (يونيو) من السنة الماضية تحت عنوان « بين اسبينوزا وابن جبرول » وفيه اشارة كافية الى وجه الشبه في مذهب الاثنين في المادة الاصلية(١)

وقد ورد في المقال نفسه ايضاً نظرية ابن جبرول في الارتقاء الطبيعي وكيفية ذلك الارتقاء وهو بحث لم يتناوله اهل الغرب الا بعد القرن السابع عشر . قال ابن جبرول « ان المادة الطبيعية (يريد مادة الكون الاصلية) اي الجوهر المنتشر يتحرك ليتخذ صورة العناصر الاربعة ثم يرغب في اتخاذ صورة الجماد ثم النبات ثم الحيوان . ثم يطمح الى الامتزاج بالعقل والارتفاع الى ذلك العقل العام الذي هو منتهى كل الارتقاء واليه تنتهي كل حركة » . واننا اذا تأملنا هذا القول على ما فيه من بساطة المعنى والتركيب واعتبرنا الوقت الذي قيل فيه لم يسعنا الا اكبار هذا الرأي وانزاله منزلته من المكانة والاعتبار

ولابن جبرول فكرة اخرى جديرة بكل اعجاب وهي اعتقاده في الارادة وايراده اياها كاحدى علل الوجود ومبادئه . فقد جاء في خلاصة مذهبه قوله « ان للكون ثلاثة مبادىء الوحدة الخالصة وهي الخالق . ثم المادة والصورة وهما العالم . ثم الارادة وهي الواسطة بين العلة السامية ومفاعيلها » . ان الارادة كما يعلم المطلعون هي المبدأ الاول للوجود في مذهب الفيلسوفين شوبنهور وهارتمان وغيرهما من فلاسفة القرن التاسع عشر (will to live,) أو ليس ان ارادة او حب البقاء معناه في نظر المحدثين وعلماء العصر تنازع البقاء ؟ فاما ان تكون ظهرت هذه الفكرة في عصر ابن جبرول على ندرة المادة العلمية في ذلك العهد فذلك امر يستحق الذكر بل الاعجاب . ثم ولئن كان نظر ابن جبرول في الارادة يختلف عن وجهة نظر هارتمان وشوبنهور فجوهر الفكر واحد والفضل للمتقدم . ولا حاجة بنا الى القول ان نظرية شوبنهور هذه في الارادة هي من اشهر مذاهب الفلسفة في وقتنا الحاضر

ومن مأثور اقوال ابن باجه الذي عرفه الافرنج باسم (Avempace) قوله في الخلق الاجتماعي في الانسان نقلاً عن كتابه تدبير حياة المعتزل « ان بين الانسان والحيوان نسبة كما بين الحيوان والنبات وبين النبات والجماد . فما اختص من الاعمال بالانسان وكان صحيح النسبة اليه هو ما صدر عن ارادة مطلقة اي عن ارادة مصدرها التبصر لا ما صدر عن مجرد الهداية الطبيعية كما في الحيوان . مثال ذلك: انسان كسر حجراً لكونه صدعه فهو عمل حيواني

(١) ان هذا الرأي ينسبه الغربيون الى الفيلسوف الهولندي اسبينوزا ولكن ابن جبرول تقدمه فيه بمئات السنين كما اشرنا الى ذلك في المقال المذكور

فلو كسره كي لا يصدع غيره لكان عملاً انسانيًا . وقلما فعل الانسان افعالاً حيوانية محضاً وكثيراً ما فعل افعالاً انسانية محضاً فعلى المعتزل ان يفعل ما كان من النوع الثاني ويحترز من مطاوعة النفس الحيوانية ولا يكون دليله الاَّ النفس المدركة ، ويفضل الافعال المستقيمة على النافعة حتى اذا تبارت فيه النفسان العقلية والحيوانية تسبق الاولى الثانية سبقاً مبيناً . ويعتني باصلاح صفاته الادبية فتصير اعماله اقرب الى الالهية منها الى الانسانية ، فاذا جرى المعتزل على هذا السنن فانهُ يتدرَّج في الوصول الى معرفة العالم الروحاني وهي غاية سعيه »

ألا يجد القارىء في هذه العبارة اوضح دلالة على مبدإ الغيرية altruism في حياة الانسانية الاجتماعية والغيرية هي اظهر صفات الخلق الاجتماعي في الانسان كما لا يخفى

هذا أهم ما وقفت عليهِ في نظريات فلاسفة العرب وآرائهم مما لهُ أثر بيّن في الفلسفة الحديثة وكان من وضعهم ولا أصل لهُ في الفلسفة اليونانية . وما أدرانا ان الفلاسفة المحدثين من أهل الغرب لم يأخذوا بعض الاصول والمبادىء في فلسفتهم الحاضرة من الفلسفة العربية . فربَّ فكرة صغيرة تقلبت مع الايام فصارت مذهباً خطيراً . وربَّ حادث يسير حوَّل مجرى تاريخ مملكة بأسرها . فعسى ان يوافينا بعض ذوي الاطلاع بشيء من هذا النوع استيفاءً للبحث وتعميماً للفائدة . على اني أرى أديبنا العربي يستطيع ان يروي من الذاكرة مئات الابيات من الشعر لشاعر واحد وقد يقضي الساعات يحلل بيتاً من الشعر ليتبين مواطن القوة والضعف فيه . انهُ قد يفعل ذلك وربما كان لا يعلم انهُ قام في تاريخ الامة العربية أفراد كالفارابي والغزالي وابن باجة وابن الطفيل من أعلام الفكر وأقطاب الفلسفة . فهل يقلب لنا المستقبل صفحة جديدة من الجد والاهتمام فنقبل على ذلك المورد العذب من آثار فلاسفتنا الاعلام نستقي آيات الحكمة الشرقية ونجتني ثمرات تلك العقول الفياضة بالمعرفة والاختبار . هل نفعل ذلك انصافاً لانفسنا واحياءً لذكر فلاسفتنا العظام الذين عرف ابناء الغرب قدرهم فأجلوهُ وأكرموهُ وجهلناه نحن فكان جهلنا علينا خساراً

***

ان القرن العشرين هو عصر التيقظ والتسامي لمعرفة حقائق الكون الكلية وعدم الركون الى الامور السطحية او التلهي والاشتغال بالاشياء القليلة الجدوى . هذا هو الطابع الفلسفي العلمي للقرن العشرين فعسى ان يكون لابناء الاقطار العربية حظ من هذه اليقظة العامة كيما نستطيع ان نحيا أفراداً وجماعات الحياة المستنيرة المثلى ونكون اعضاء عاملين حقًّا في جسم هذا المجتمع العظيم

الدكتور محمد اقبال

أكبر شعراء الهند المسلمين في الوقت الحاضر

رسالة شعره

للسيد ابو النصر احمد الحسيني الهندي

—٣—

اما الجحود وهو ترك الدين الذي هو عنده بمنزلة الروح في هيكل الاجتماع الاسلامي أو الانسلاخ عن الماضي ، والانحراف في سبيل الغرب ، فيرى انهُ خطر مهدد لكيان الهيئة الاجتماعية الاسلامية واكبر دليل على العجز وفتور العزيمة ، اذ بهِ يزدري المرء ماضيهُ ، ويحتقر متاعه، ويصغر نفسه . فتمتلأ أرجاء قلبه بعظمة الغير ، ويحتل جوانب نفسه اعمال الاجنبي . فلا يرى الخير الاّ في محاكاته ، ولا النجاح الاّ في تقليده فيموت استعداده للخلق ، وتفنى كفاءتهُ للابداع . لذلك ينشدهم:

« انني ارى عند المسلم التقليد والظن
فروحي ترتعش في جسمي في كل وقت
خشية ان يحرمه (الله) يوماً
ويلقي حرقة (حبه) في قلب الغير »

وقال ايضاً : « وان كان عند الفرنجي اساليب كثيرة
ولكنني لم استفد منهُ الاّ العبرة
يا من اصبحت اسيراً في تقليده ! كن حرّاً !
امسك ذيل القرآن وكن حرّاً ! »

وقال ايضاً : « مزق قميص التقليد
لكي تتعلم بهِ التوحيد »

وقال ايضاً : « ان صاحب القلب الحي يخلق الاعصار والدهور

ولكن روحه تصبح من التقليد محرومة من الحضور[١] »

وقال ايضاً : « انهُ يثقل على العبد الحر

ان يعيش في عالم الآخرين »

وقال واصفاً نتيجة التعليم الغربي :

« وان كنا مسرورين بتعليم الشبان ولكن

تخرج من شفتينا الضاحكتين سروراً ، اللهفةُ كذلك

لانا كنا نفهم ان تعليمهم سيأتي بالرخاء

ولم نك نعرف انهُ يأتي معهُ الالحاد

وقال ايضاً مصوراً حالة الشاب في العصر الحاضر :

« انهُ قد أصبح من حب الظهور عبداً للافرنج

فيأخذ منهم الرقص والغناء

هو يبيع نقد حياته باللهو

وقد اصبح العلم عليه صعباً فيهتم باللهو

وغدت فطرته تقبل ذلك

ان البحث عن السهل في هذا الدير القديم

دليل على ان الحياة قد ذهبت عن الجسم »

***

وعلى ذكر اللهو ورأي الشاعر فيه أذكر انهُ لما نزل الدكتور مصر من سنوات جاءهُ شاب مصري من المشهورين بالعلم والادب. فسألهُ وأنا جالس عنده رأيهُ في مصر فقال

— انا لم امض هنا الاَّ بضعة ايام ولكن ما وصلت اليه بملاحظاتي هو ان مصر تحتاج الى قيادة اخلاقية قوية اشد الاحتياج . فكنت بالامس اتنزه في جهة الجيزة اذ رأيت هناك مدينة الملاهي فاستغربت جدًّا . فبالله عليك قل لي يا سيدي ! ما هي الواجبات التي قمتم بها حتى وجدتم متسعاً من الوقت لتأسيس مدينة الملاهي وضياع حياتكم فيها . ثم انا أرى انكم تحبون تقليد أوربا أكثر من ان تخلقوا انتم عالمكم لانفسكم بأنفسكم

— نحن نقلد أوربا لان نهضتها لم تقم الاَّ تقليداً لنهضة الاسلام . فالثورة الفرنسية في أوربا في الحقيقة كانت صدى الحركة الاسلامية

(١) اي من حضور القلب الى الله

— ما دمتم تنتقدون ذلك فلم لا تقلدون الاسلام عوضاً عن تقليد أوربا ؟

— وما رأيك في مصطفى كمال ؟

— ان مصطفى كمال لم يأت بشيء جديد بل كل ما عمل باسم التجديد انه قلد أوربا ولا غير. وعندي الحركة الفاشستية خيرٌ من حركة مصطفى كمال ، لانها تخلق من الايطاليين عالماً جديداً وبدون اي تقليد كما خلق الاسلام من العرب

لم يكن انتقاد الدكتور مبنيًّا على سوء النية بل على ما وصل اليه فكره وبصيرته بعد درس عميق للحضارات القديمة والحاضرة وعلى ما يتمنى للبلاد الاسلامية من الخير والمجد . فهو رجل مفكر يرى بفكره الثاقب ضرورة تجرد النهضات في ابان قيامها عن الفنون والملاهي الضارة لها . وهو عندي رأي سديد . وقد وضحهُ هو منذ عشرين سنة في مجلة العهد الجديد ونحن نلخصه هنا قال :

« ان الغاية القصوى لجميع الاعمال الانسانية هي الحياة . فما يريده الانسان من أعماله وجدّه وما يبتغيه من عنائهِ وكدّه إن هو الاّ ان تكون حياته ذات خصب ومجد وقوة .لذلك يجب أن يكون جميع الفنون الانسانية قاصدة هذه الغاية العظمى ومصوّبة الى هذا الهدف الجليل ، وان يُقدّر كل شيء في هذا العالم على حسب كفاءته لتحقيق هذا الغرض ولبلوغ هذه الغاية — الحياة. وعليهِ فالفن الذي يقدر ان يوقظ قوتنا الارادية الراقدة وينفخ فينا روح العزيمة والجلد لمجابهة محن الحياة وآلامها بالبطولة والفحولة ويقودنا على هذا النمط نحو مجد الحياة وقوتها ، أرفع وأعلى وأجدر بالاهتمام والعناية . وما سواه جميع تلك الاشياء التي تمسنا وتحملنا على غمض عيوننا عن الحقائق المحيطة بنا التي على سيادتها تتوقف الحياة هي في الحقيقة بلاغ الزوال ورسول الموت . وعلى هذا يجب أن لا يكون الفن مسكراً كحبة الافيون تخدّر الاعصاب فتوهن العزيمة وتفتر الهمة فتقتل الاماني وتجعل الانسان ينسى واجباته نحو نفسه وغيره ويقع في هاوية الخمول والضعة

وأما القول ان « الفن لأجل الفن » فهو من ايجاد التدهور والانحطاط قد اخترع لخدعنا ولابعادنا عن الحياة والقوة » انتهى

لذلك يرى الدكتور اقبال ان المعاملة التي عامل بها الاسلام الفنون والملاهي هي في المسألة عين الرشد ونفس الهداية لنوع البشر قاطبةً في كل مكان وزمان

***

سادساً : ومن معالم رسالة شعر اقبال الدعوة الى غرس الانانية [١] وتربيتها ونيل الكمال .

(١) مرادنا « بالانانية » هنا الانانية المجردة عن صفاتها الحسنة والسيئة وليست كما هي معروفة عند العامة بصفتها السيئة ونحن قد اعتمدنا في ترجمة هذه الكلمة على رأي الدكتور اقبال نفسه لان الدكتور يعرف العربية ولان صاحب القول أدرى بما يقول

وهو موضوع فلسفته الخاصة ، بسط مباديها في جميع دواوينهِ وعلى الاخص في اثنين منها اي « أسرارِ خودي » و « رموزِ بيخودي » . ففي الاول قد وضح طريق تربية الانانية وتكوينها، وفي الثاني طريق نيل الفرد الكمالَ وذلك بدخولهِ في نظام الاجتماع الاسلامي وهو عنده المثل الاعلى في جميع النظم الاجتماعية في العالم . فالاول يشمل المبادي والاصول لتربية الانانية ، والثاني يحتوي على الاركان والاسس للنظام الاجتماعي الاسلامي التي بالخضوع لها ينال الفرد الكمالَ . لذلك سمى الاول « أسرارِ خودي » اي أسرار الانانية والثاني «رموزِ بيخودي» اي رموز انكار الانانية لان الخضوع في الحقيقة انكار الانانية . ونحن نقدم اليك أولاً صورة موجزة لفلسفتهِ [1] ثم نزف اليك ترجمة بعض الابيات المختارة التي تمس الموضوع من دواوينهِ المختلفة

ان الحقيقة عند اقبال عبارة عن عمل مستمر للتكوّن والتغيّر وليس معناها حالة الوجود الساكنة او الوجود المقيد والمعين . وما يريد بهِ هيجل من تعميمهِ ، وويداننا [2] من برهما [3] والصوفية من الله انهُ روح سارية في الكون ليس الاَّ صورة من تصوير الذهن او جولة من جولات الفكر . وبازاء هذا التعميم لهيجل وبرهما لويداننا وتصور الله للصوفية يرى اقبال ان المراكز المعينة للتجربة هي الحقائق الاساسية للكائنات . وتلك المراكز تتجلى في الانسان في شكل الانانية الملية شخصيتهُ على صفحة الوجود . فالحياة عند اقبال شيء منفرد خلاف ما يصورها هيجل او ويداننا او الصوفية بأنها الشاملة السارية في الكون . وعلى هذا فالله عنده فرد واحد أعلى وأسمى ليس كمثلهِ شيء تتمتع بصفاته الافراد الاخرى . ثم الحياة عنده عبارة عن حركة مستمرة في التقدم تجذب الكائنات بالغلبة على مشاكلها الى نفسها (أي الى مركزها الانانية) كما تجذب الصفات الالهية الى نفسها (اي الى مركزها الانانية) . والانانية هذه تتقوى بالعشق الذي هو أسمى صورة للحركة المستديمة في الطلب والسعي في نيل المطلوب غاية الحياة . وأما المقياس لمعرفة الخير والشر في الطلب فهو ان جميع الطلبات التي تقوي الانانية خير، والتي تضعف الانانية شرٌّ . فالعشق خيرٌ لانهُ يقوّي الانانية ، والاستجداء شرٌّ لانهُ يضعف الانانية . فكلما تتقدم الانانية على هذا المنوال تتقرب الى الانانية العظمى (اي الله) وينال صاحبها الكمال . ولا يريد اقبال بذلك التقرب او الكمال ان يكون نهاية الانسان الفناء في تلك الانانية العظمى او الانضمام اليها كما يقوله الصوفية او يبيّنهُ لنا ويداننا ، بل الانسان الكامل

(١) وقد كتبنا قبلاً مقالاً ممتعاً في فلسفته نشر في الرسالة في عدد ١١٨ من سنتها الثالثة فمن أراد التفصيل فليرجع اليه (٢) اسم للكتاب المقدس عند ديانة البراهمة وهو أساس فلسفتهم (٣) اسم علم عندهم لله تعالى

عنده هو الذي يجذب تلك الانانية العظمى الى نفسه اي يتصف بصفاتها ويتخلق بأخلاقها . وهذا الكمال لا يمكن ان يناله الفرد الاّ بالدخول في أمثل النظم الاجتماعية وأعلاها وهو عند الدكتور نظام الاجتماع الاسلامي كما قلنا

نقتطف من تمهيد ديوانه « أسرار خودي » بعض الايات التي ترجمتها في ما يلي قال :

أنا أنتظر قائمي الفجري
سُعداء عُبّاد ناري
أنا النغمة ولكن غير محتاجة الى المِضراب
أنا صوت شاعر الغد
ان عصري لا يعرف الاسرار
ويوسفي ليس لهذه السوق
أنا قانط من اصحابي القدماء
ان طُوْري يحترق لأجل موسى المقبل
إن بحر أصحابي ساكن مثل الندى
ولكن ندائي يحمل طوفان البحر
ان نغمتي من عالم آخر
إن هذا الجرس لقافلة أخرى
كم شاعر ولد بعد موته
فهو غمض عينَيْه وفتح عيونَنا
ورحل الينا من العدم مرة أخرى
وازدهر مثل الورد من تراب قبره
أنا العاشق والصراخ ايماني
وضجيج الحشر معشوقي .

وقال في ان أساس نظام العالم الانانية وان تسلسل حياة الافراد يتوقف على توطيد الانانية واليك ترجمة بعض الابيات المختارة :

إن مظهر الكائنات اثر من آثار الانانية
فكل ما تراه سرٌّ من أسرار الانانية
ان الانانية متى ايقظت نفسها
كشفت عالم الفكر (لها)

إن مئات من العوالم مخفية في ذاتها
فان الاعتراف « بأنا » يميط اللثام عن « غير أنا »

وقال أيضاً : على أن حياة العالم قائمة بقوة الانانية
فالحياة فيه على حسب تلك القوة

وقال أيضاً : ان القطرة حين فهمت الانانية
حوّلت وجودها التافه الى اللؤلؤ
ان الجبل متى انعدمت أنانيته أصبح الصحراء
وأنَّ من شدة جَرَيَان النهر

وقال ايضاً : ان الموج الى أنه موج في البحر
حقيق بان يركب اكتاف البحر

وقال ايضاً : ان العشب متى نال قوة النموّ من أنانيته
فَلَقَت همته صدرَ الحقيقة

وقال في ان حياة الانانية قائمة من خلق الآمال وايجاد المقاصد ما يلي ترجمة بعض الايات منهُ :—
ان بقاء الحياة من الأمل
ان قافلتها تسير بجرس الأمل

وقال ايضاً : أحيِّ الاملَ في قلبك
لئلاَّ تصبح حفنة ترابك قبراً

وقال ايضاً : ان التمني هيجان الانانية
انهُ موجٌ مضطربٌ من بحر الانانية

وقال ايضاً : ايها الغريب عن سر الحياة ! قم !
قم ! سكران من خمر الأمل
فان كنت ذا أمل فأنت مشرق كالصبح
ونار محرقة لغير الأمل .

وقال في ان الانانية تتقوى من العشق ما يلي ترجمة بعض الايات منهُ :—
ان نقطة النور التي تسمى الانانية
في ترابنا شرار الحياة
هي تصبح من العشق اكثر ثباتاً
وحياةً واحتراقاً ولمعاناً

وقال ايضاً : تعلم العشق واطلب محبوباً
ونظرَ نوح وقلبَ ايوب

وقال في ان الانانية تضعف من الاستجداء ما يلي ترجمة بعض الابيات منهُ :—

يا من جمعت الضرائب من الأُسود
وأصبحت تطلب الطبع من الاحتياج
الى متى تكون سائل المنصب
وتركب العصا مثل الاولاد

وقال ايضاً : ان الفقر يزداد ذلةً من السؤال
ان السائل يزداد فقراً من السؤال
ان اجزاء الانانية تنفك بالسؤال
ويحرم بهِ نخيل طُوْر الانانية من التجلّي

وقال ايضاً : ان القمر يأخذ قُوتَهُ من مائدة الشمس
لذلك يحمل النَدْبَة في قلبهِ من احسانها

وقال ايضاً : ان تحت السماء ذلك الشاب الشريف
يمشي عاليَ الرأس مثل الصنوبر
الذي يحافظ على عزة نفسه اكثر عند ضيق اليد
وان كان حظه راقداً ولكنهُ اكثر يقظة

وقال في الحياة ما يلي ترجمته :

« ان الحياة شرح إشارات الانانية
ان « لا » و« الاّ » من مقامات الانانية [١]

وقال ايضاً : ان الحياة هي تزيين الانانية بالذات
وطلب الشهادة على وجودها من الغير

***

طاغور واقبال

هذه اهم المعالم لرسالة شعر اقبال . وفي الآخر نحب ان نقول كلمة في الفرق بين رسالتي الشعر للشاعرين الهنديين العظيمين الدكتور السر محمد اقبال والدكتور السر رابندرانات طاغور

(١)« لا » و «الا» اشارة الى كلمة لا اله الا الله

اللتين هما كفرسي رهان في العصر الحاضر تعتز بعبقريتهما الهند وتتباهى لانهما رَكِبَضا امومتها ورضيعا لبانها . ولا يساعدنا المجال ان نصيب عُذَيقه ولا الوقت ان نوافي جُذَيلهُ هنا برسم جميع معالم الفرق بينهما للقارىء . فما نقدر عليهِ هو ان نتحفهُ بصورة مصغرة لكل منهما فيتضح له الفرق فنقول :

ان اهم الفرق بين رسالتي شعرهما هو الذي بين السكون والحركة . فروح شعر طاغور كلها هدوء وسكون وهما من لوازم التفكير العميق فيما وراء الطبيعة الذي لا يزال الصفة المميزة والمطمح الرئيسي للديانة الوثنية الهندية وثقافتها من القدم . لذلك جولان فكر طاغور لا يتعدى هذا المدى . فهو يقدم لك مناظر أنيقة بنمط يكاد سنا ضوئها يخلب قلبك ومشاهد رائعة بأسلوب يكاد بهاء حسنها يذهل نفسك ، فيقص بهِ جناح فائرك ويطمس معالم ثائرك ، ويدفعك الى التزام الهدوء والسكينة والتفكير . وهذا الهدوء والسكينة اللذان يتمناهما المرء كثيراً ويحنّ اليهما في معامع الحياة وجلبة الاعمال حنيناً قد فقدهما الغرب منذ زمن بعيد . لذلك عند ما سطع نور شعره فرح بهِ الغرب وأسبغ عليهِ جائزة نوبل فأصبح سيباً هامًّا في ذيوع شهرته في العالم مالم تبلغهُ شهرة اقبال بعد. وقد يكون السبب لذلك اختلاف طبعه ايضاً عن طبع طاغور. فانه يكره الظهور[1] وطاغور لا يكرههُ كما يدل عليهِ ترشيحه نفسه للجائزة . وعلى كل حال فشعر طاغور صورة بهية لمناظر الطبيعة وجمالها وهدهدة مؤثرة للمتعبين من معارك الحياة ومشاكلها ، ووحي السكينة للفاقدين طمأنينتهم في منافسات الحضارة ومنازعاتها

واما روح شعر اقبال فكلها حركة وإقدام . وهما ايضاً من الصفات المميزة لدعوة الاسلام وثقافته . فشعره ثورة تتأجج لهدم السكون ، وبركان نار يلتهب لحرق الجمود . هو يوقظك بشعره من النفوة وينبهك على الهفوة ويسبح بك الى العلاء سبحاً ، وينفخ فيك بهِ روح العزيمة ويحذرك من فتور الصريمة ويسبح بك الى المجد سبحاً . لذلك رسالة شعر إقبال رسالة تحتاج اليها الحياة الانسانية اشد الاحتياج في حين قد وهت علائقها باسراف الغرب في الاقدام على غير الهدى ، وتضعضعت دعائمها بامعان الشرق في الاحجام على غير البصيرة ، خلافاً لرسالة شعر طاغور فانها علاج وقتي لها لا يتعدى اثره ظروفاً وأحوالاً خاصة كما لا تمسها ايضاً الحاجة الى تلك الرسالة في كل حين وآن . وعلى هذا فشعر اقبال روح الثقافة وصُور التقدم وجرس الرحيل الى رفعة لا تطاول وقوة لا تضام ، ونداء عام للتسنم الى ذروة الشرف والتوقل في معارج المجد

(١) وقد صور الدكتور طبعه هذا في بيت ترجمته « أنا لا أتحمل دلال الملوك ولا جرح الاحسان . يامن انخدعت بالطمع انظر الى همة هذا الفقير »

مقام الكربون

في الافعال الحيوية

والتوازن العضوي

للكربون مقام خاص بين العناصر لانهُ يدخل في مركّبات منوعة متعددة يزيد عددها على مركبات جميع العناصر الأُخرى . فمن المسلَّم بهِ عند الكيمياويين ان جميع العناصر ما عدا الكربون، تدخل في تركيب عشرين الفاً الى اربعين الفاً من المركبات مع انها لم تركَّب جميعاً منها. يقابل ذلك ان الكربون يدخل في تركيب نحو ٣٠٠ الف مركَّب، ولا يبعد ان يزداد هذا العدد في السنوات المقبلة حتى يصبح ٦٠٠ الف . فليس ثمة حدٌّ من الناحية النظرية للمركبات التي يمكن تركيبها من الكربون . ولعلَّ الصفة المميزة لذرّات الكربون قدرتها على توليد مركبات ذاتية . وهذا يجعل المركبات الكربونية مما لاعدَّ لهُ ، وقد اثبتت التجربة في احوال متعددة وجود مركبات كربونية كان الدليل اليها البحث النظري فقط . وعلى ذلك نرى ان تغييراً يسيراً في بناء الجزيء الكربوني من الناحية الكيمياوية ، كابدال ذرات بذرات، او مجموعات من الذرّات بمجموعات اخرى ، يمكن الباحث من احداث تبديل في الخواص التي يتصف بها ذلك الجزيء . وهذا حمل العلماء على الاعتقاد بان هذا العنصر هو اساس لا غنى لهُ لاعظم ظاهرات الطبيعة ، نعني ظاهرة الحياة. وقد عرِّفت الكيمياء العضوية بانها « كيمياء مركبات الكربون »

اثبت العلماء بالبحث الطيفي الدقيق ان نحو ٦٠ عنصراً من العناصر الاثنين والتسعين موجودة فعلاً في الاجرام السموية. والكربون منها . فليس ثمة ريب الآن في ان هناك كربوناً غازياً في اكليل الشمس (كروموسفير) . ولما كان متوسط درجة الحرارة في الاكليل يبلغ ستة آلاف درجة مطلقة ، فمن المتعذر على الغالب ان يدخل الكربون هناك في تركيب مركبات كربونية . ومما يجدر ذكرهُ في هذا الصدد ان الكربون يدخل في بعض مركبات شمسية قلما نراها على الارض ومنها ثلاثة غازات احدها يعرف باسم داي كربون Dicarbon وعبارته الكيمياوية C_2 — ك٢ والثاني اسمهُ مونسيان Moncyan وعبارته الكيمياوية C N — ك ن والثالث ميثاين Methine وعبارته الكيمياوية C H — ك يد . وهذه الغازات معروفة عند علماء الفلك وقد وجدوا آثارها في اجواء الشموس او النجوم التي من قبيل شمسنا . ويلوح للعلامة الالماني نوداك Noddack

ان هذه المركَبات الكربونية الثلاثة هي الاركان التي تقوم عليها الكيمياء العضوية. وقد ظهر من دراسة النيازك ان بعضها يحتوي مركبات عضوية. وبحث هذه المركبات لا يزال في مستهله لقلة ما امكن استخراجه منها من النيازك النادرة لاجراء البحث عليه ووجودها في النيازك يبعث على الاهتمام. ذلك ان المسلم به ان النيازك لا اثر للحياة فيها واذن فهذه المركبات نشأت فيها بالتركيب الكيماوي

قد يظن انهُ يسهل على البحاث والطلاب ان يروا بأعينهم تحول المواد غير العضوية الى مواد عضوية على الارض ولكن هذا ليس في الواقع بالامر اليسير. ذلك ان دهوراً طوالاً انقضت على الاحياء وهي العامل الفعال في انشاء المواد العضوية على الارض، حتى لتصعب اقامة الدليل على ان بعض المركبات العضوية المعقدة نشأت من اصل غير عضويّ

والكربون عنصر واسع الانتشار ولكنهُ ليس اكثر العناصر مقداراً في كرة الارض، والغالب في رأي نوداك، ان متوسط مقدار الكربون في الارض يبلغ ثلث واحد في الالف يستدل بنتائج المباحث الجيولوجية على انهُ كان على الارض من نحو الف مليون سنة احياء كثيرة. والظاهر ان الحياة على الارض بدأت على سطحها بعد ما برد برداً كافياً ولكن العلماء لا يعلمون على وجه من الصحة كيف بدأت الحياة ولا متى. وما بدأت الحياة على الارض وغطت سطحها حتى اصبح لعنصر الكربون شأن في تطور الحياة على سطح الارض اكبر جدًّا مما يمكن ان يؤخذ من متوسط مقداره في قشرتها

والراجح ان الافعال الحيوية في مختلف العصور كانت على نمط واحد ولكنها كانت متفاوتة في شدَّتها. وهذه الافعال يصفها العلماء عادة بكلمتين معناهما «دورة الكربون». ولا يخفى ان كثيراً من العناصر والمواد على سطح الارض يطرأ عليها وجوهٌ من التغير تنتهي بها الى المرحلة التي بدأت منها. وأشهر الامثلة على ذلك الماء. فالماء منتشر في الجوّ بخاراً ثم ينعقد مطراً ويسقط على الارض ويجري جداول وأنهاراً الى البحر ثم يتبخر بفعل حرارة الشمس فيعود بخاراً مائيًّا في الهواء

أما الميزة التي تمتاز بها «دورة الكربون» فهي اشتراك الاحياء في اتمامها. فعنصر الكربون موجود في قشرة الارض في الصخور الكربونية وأطباق الفحم وماء المحيط والهواء والاحياء. والاحياء قسمان عامان النبات والحيوان. ومن صفات النبات الاساسية قدرتهُ على تناول ثاني أكسيد الكربون من الهواء ثم تحويلهُ بفعل الضوء الى مركبات عضوية وأوكسجين. ثم يتناول الحيوان هذه المركبات الكربونية طعاماً فيحوّلها ثانية الى ثاني أكسيد الكربون بعد ان يستعمل بعضها في توليد الطاقة. فالنبات يطلق في الليل ثاني اكسيد الكربون في الهواء. وبعد الموت تتحلل الاجسام العضوية فينطلق منها ثاني أكسيد الكربون. واذن فنحن أمام دورة تامة لعنصر الكربون تشترك فيها الاحياء اشتراكاً فعَّالاً فتنتقل ذرات الكربون من الهواء الى النبات

ومنهُ الى الحيوان ثم تعود الى الهواء . الاَّ ان جانباً من ثاني اكسيد الكربون الذي ينطلق من أجسام الحيوانات لا ينطلق في الهواء حتى يتناولهُ النبات ويمثلهُ

أما النباتات البحرية فتتناول ثاني أكسيد الكربون من ماء البحار . والحيوانات البحرية تطلقهُ في الماء ، حتى بعد موتها وانحلالها ينطلق منها هذا الغاز ويذوب جانب كبير منهُ في مياه البحار

الاَّ ان « دورة الكربون » لا تسير دائماً هذا السير المطلق . لان بعض الحيوانات يستطيع ان يحدث تفاعلاً بين ثاني اكسيد الكربون وعنصر الجير فتتولد مركبات تعرف باسم « الكربونات » وفي هذه المركبات يخزن جانب غير يسير من عنصر الكربون في الارض . او قد تنحرف « دورة الكربون » بتولد اطباق الفحم . ولكن اطباق الفحم أقل من رواسب « الكربونات » الجيرية مقداراً . وكلا الفعلين يزيل من الطبيعة جانباً من الكربون الذي تتناولهُ الافعال الحيوية على المنوال المتقدم ، لاسيما لان هذين المعدنين — الكربونات الجيرية والفحم — من المواد التي تقاوم التفاعل الكيمياوي . والغريب مع هذا ان البحوث الجيولوجية أثبتت ان مقدار ثاني اكسيد الكربون في الهواء والماء ومقدار الكائنات الحية كان مقداراً ثابتاً مدى ملايين من السنين . والظاهر ان النقص يسدُّ بما ينطلق من ثاني اكسيد الكربون من الطبقات السفلى من القشرة الارضية ومن تفتت الصخور البركانية

واذا بحثنا هذا التوازن بين ثاني اكسيد الكربون والنبات والحيوان وجدنا انهُ لا يعتمد فقط على كون مقدار ثاني اكسيد الكربون ظلَّ ثابتاً دهوراً طويلة ، بل ويعتمد كذلك على تركيب الاجسام كذلك ولذلك يصحُّ ان ندعوه « التوازن العضوي »

قلنا ان النباتات تستطيع ان تحوّل ثاني اكسيد الكربون بفعل ضوء الشمس وحبيبات الخضير (الكلوروفل) الى مواد عضوية واوكسجين . وان الحيوانات تأكل النباتات فتأخذ مقداراً من الكربون المثبّت فيها وتحوّله الى ثاني أكسيد الكربون . ولما كانت النباتات لا تستغني عن ضوء الشمس لتركيب المواد العضوية فضوء الشمس اذاً عامل لا غنى عنهُ في حفظ التوازن العضوي . ولا يخفى ان معظم الطاقة في ما يصيب الارض من ضوء الشمس يستنفد في تدفئتها مما يجعلها قابلة لسكن الانسان ، وان قليلاً منها فقط يستنفد في التركيب الضوئي

والكربون الذي يخزن في النباتات كلَّ سنة ليس كلَّ الكربون المثبّت في اجسام النبات لان كثيراً من النبات يعمّر ، وكثيراً منهُ تأكلهُ الحيوانات ومنها ما يعمّر ايضاً . فالجانب الاكبر من الكربون المخزون على هذا المنوال مخزون في الاشجار المعمّرة . وما في الحيوانات من الكربون يعدل تقريباً مقدار الفحم الذي يحرق كلَّ سنة . ويقدر نوداك ان مقدار الكربون المثبّت في اجسام النبات والحيوان يعدل نصف مقدار ثاني اكسيد الكربون في الهواء

واذا قابلنا بين مقدار الكربون الذي تثبّتهُ النباتات كلّ سنة بمقداره المخزون في الارض كان الثاني اعظم جدًّا من الاول . وسبب ذلك واضح وهو ان الوف الالوف من السنين انقضت والنباتات تثبت الكربون في جسمها بفعلها الحيوي ثم تقبر في الارض . ومع ذلك فان مقادير الفحم وكربونات الجير المدفونة في الارض يسيرة جدًّا اذا قيست بملايين السنين التي انقضت على فعل النبات في تثبيت الكربون وهذا يدلُّ على ان جانباً قليلاً جدًّا من هذا الكربون المثبت يتحوَّل فحماً وكربونات . والبحث يدل على ان النباتات تأخذ من الهواء مقداراً من الكربون يكاد يعدل تماماً المقدار الذي تطلقهُ الحيوانات بالتنفس . اما ما يتحوَّل الى كربونات الجير او فحم فلا يزيد على خمس واحد في المئة . الاَّ أن هذا التوازن قد ينحرف الى ناحية النبات لان في الهواء من ثاني اكسيد الكربون ما يكفي لمقدار من النبات هو ضعفا مقداره الحالي مدى ثلاثة قرون. وهذا إذا تمَّ يعني نشوء حراج كثيفة على نحو ما شهد العالم في بعض العصور الخالية . وأما انحراف التوازن الى ناحية الحيوان فلا يدوم — اذا تحقق — لان الحيوانات لا تلبث حتى ترى ان ليس أمامها نبات يكفي لغذائها . والغريب ان الطبيعة تحتفظ بالتوازن العضوي وتحافظ عليهِ محافظة دقيقة تدعو الى العجب . فالموازنة بين الحيوان والنبات تشمل عصوراً طويلة . ولا يعلم الباحثون كيف يحتفظ بهذا التوازن العضوي . ولكن لا ريب ان هناك وسائل طبيعية لا نعرف الاَّ شيئاً يسيراً عن بعضها

فهل يمكن الاحتفاظ بهذا « التوازن العضوي » الى ما شاء الله ؟ سؤال عظيم الشأن ، فاذا حاولنا ان نجيب عنهُ من ناحية العوامل التي تجعل هذا « التوازن » مستطاعاً عجزنا عن ذلك لجهلنا معظم هذه العوامل . ولكن اذا نظرنا الى الموضوع من ناحيتهِ الكيمياوية الجيولوجية استطعنا ان نجيب بالايجاب . ذلك ان الحياة تعتمد على اشعاع الشمس ووجود ثاني أكسيد الكربون في الهواء والماء . وليس ثمَّة ما يدل على ان قوة اشعاع الشمس قد ضعفت في العصور الجيولوجية التي درسناها . ولا ما يدل على انها قد تضعف في المستقبل القريب . أما في ما يتعلق بثاني اكسيد الكربون في الهواء فالمسألة تختلف قليلاً . ذلك ان النباتات والحيوانات حوَّلت أثناء تطورها مدى ملايين ومئات الملايين من السنين ، مقداراً عظيماً جدًّا من كربونها الى فحم وكربونات الجير . فالكربون الذي في هذين المعدنين مثبت فيهما لا يعود منهُ الى « دورة الكربون » الاَّ مقدار يسير لا يزيد على الربع على الاكثر . وعلى هذا الاساس ومن هذه الناحية وحدها ، لا يمكن ان يقدر مدى التوازن العضوي — كما هو الآن — بأكثر من ٢٠٠ الى ٣٠٠ مليون سنة . أما هل تستطيع الاحياء ان تتحوَّل تحوُّلاً عجيباً يمكنها من اطلاق كربون الفحم وكربونات الجير ، فن أسرار المستقبل وحده

أسرحدّون

ملك أشور — او وحدة الحياة

للروائي الروسي تولستوى

غزا آسرحَدُّون ملك أشور ديار الملك ليلي ، ودمر بلاده تدميراً وتركها طعمة للنيران واستأسر سكانها جميعهم وساقهم مصفدين في الاغلال، وأطاح رؤوس المقاتلة واهلك بعض الزعماء ومثّل بالباقين افظع تمثيل ، وحبس الملك ليلي نفسه في قفص

وبينما كان الملك آسرحدّون مستلقياً في فراشه وهو يفكر في ابتداع طريقة لقتل الملك ليلي سمع فجاءة ركزاً على مقربة منه ، ولما فتح عينيه أبصر شيخاً طاعناً في السن ذا لحية بيضاء منسدرة تشع عيناه وداعة وحناناً

وقال لهُ الشيخ « أنت تفكر في قتل الملك ليلي »

فاجابهُ آسرحدون « نعم أريد ذلك ولكني لم اهتد بعد الى طريقة لتنفيذه »

فقال له الشيخ « ولكن أنت نفسك ليلي »

فاجابهُ الملك « كلا هذا غير حق ، إن ليلي هو ليلي وأنا أنا »

فقال له الشيخ « أنت وليلي شخص واحد ، وانما انت تتوهم إنك لست ليلي وان ليلي ليس اياك »

فقال الملك آسرحدّون « ماذا تعني بذلك . هأنذا مستلق على فراشي الوثير وحولي من رجالي والموالي عبيد خاضعون واماء طائعات ، وغداً سأولم وليمة لاصدقائي كما فعلت اليوم في حين ان ليلي محبوس كالعصفور في القفص، وغداً سينخزق ويظل في وصب مندلق اللسان حتى تزهق روحه ويطرح للكلاب توسع جسده تمزيقاً »

فقال لهُ الشيخ « ليس في متناول قدرتك ان تفتك بحياته »

« ولكن ما حال الاربعة عشر الفاً من جنوده الذين افنيتهم ورفعت من رممهم تلالاً ،

واني ما ازال حيًّا ولكنهم الآن لا وجود لهم ، ألا ترى في ذلك دليلاً واضحاً على أني استطيع ان أنهب الاعمار وأمحو الحياة ؟

« ولكن من أين جاءك انهم غير موجودين » ؟

« لاني لا أراهم،وفوق ذلك انهم قد تعذبوا وذاقوا الغصص والآلام ولكني لم الق عذاباً ولم أكابد المًا ، ولقد كان ذلك نقمة عليهم ونعمة لي »

« هذا يبدو لك كذلك ، وانت انما عذبت نفسك ولم تعذبهم

فقال الملك « اني لا أفهم حديثك »

« أتريد ان تفهم »

« نعم أريد ذلك »

فقال لهُ الشيخ « اذن تقدم هنا » وأشار الى حوض متسع متأقٍ بالماء

فنهض الملك ودنا من الحوض

« اخلع ثيابك وادخل الحوض »

ففعل آسرحدّون ما أمره بهِ الشيخ

وقال الشيخ وهو يملأ الجرة ماء « عندما أصب عليك الماء غطّس رأسك » وأمال الشيخ الجرة على رأس الملك وأحنى الملك رأسه حتى صار تحت الماء

***

أخذ الملك آسرحدون بعد ذلك يشعر بأنهُ أصبح شخصاً آخر غير آسرحدون ، ولما أحسَّ بأنهُ ذلك الشخص الآخر رأى نفسه مستلقياً على فراش فاخر والى جانبهِ امرأة حسناء لم يكن قد رآها من قبل وانما أدرك انها زوجته ، وهبت المرأة وقالت لهُ

« زوجي العزيز ليلي ! لقد انهكك مجهود الامس وقد نمت أكثر من المعتاد وقد حرصت على راحتك ولم أيقظك ، ولكن الامراء ينتظرونك الآن في البهو ، فالبس ثيابك واخرج لهم »

ففهم آسرحدون من هذه الكلمات انهُ ليلي ولم يستغرب ذلك وانما عجب كيف لم يدر ذلك في خلده من قبل ، ونهض من فراشهِ وارتدى ملابسه وخرج الى البهو حيث كان الامراء ينتظرونه

وحيَّا الامراء ملكهم ليلي وألصقوا جباههم بالارض ثم رفعوا رؤوسهم بعد ان ألقى عليهم كلمة ، وجلسوا أمامه وشرع أكبر الامراء سنًّا يتكلم قائلاً انهُ أصبح غير ميسور احتمال اهانات الملك آسرحدّون وانهُ يلزم ان تعلن عليهِ الحرب ، ولكن ليلي خالفهم وأمر بإيفاد الرسل للاحتجاج على أعمال الملك آسرحدّون وصرف الامراء من حضرته ، واختار بعد ذلك

جماعة من الاعيان ليكونوا سفراء ولقنهم ما يقولونهُ للملك آسرحدّون ، ولما أنجز آسرحدّون عمله — وكان يشعر — بأنهُ ليلي — امتطى جواده وانطلق ليصطاد الحمر الوحشية ، وأصابهُ التوفيق فقتل بيديهِ حمارين وحشيين ، ولما عاد ادراجه الى قصره أولم وليمة لاصدقائهِ وشاهد رقص الجواري ، وفي اليوم التالي ذهب الى البلاط حيث كان ينتظره مقدمو العرائض واصحاب الدعاوى والاسرى المجلوبون للمحاكمة ، وهناك فصل كعادته في المسائل المعروضة عليهِ ، ولما اتم عمله وقام بواجبه اقتعد صهوة جواده وتوجه للصيد وكان رياضته المحبوبة، واسعفه الحظ فصاد لبوة عجوزاً معها شبلاها ، وبعد الصيد اولم وليمة لاصدقائه وشاهد خلالها الرقص وسمع عزف الموسيقى ، وقضى ليلتهُ مع الزوجة التي يحبها

وهكذا كان وقته مقسماً بين واجباته الملكية والمتع والمسرات ، وقضى اياماً واسابيع ينتظر عودة رسله الذين اوفدهم الى الملك آسرحدّون الذي كانه يوماً ، ولم تعد الرسل الا بعد مضي شهر ورجعوا وقد جدعت انوفهم وصلمت آذانهم ، وامرهم الملك آسرحدّون ان يبلغوا الملك ليلي ان ما صنع بهم سيصنع بالملك ليلي نفسه اذا لم يبادر بارسال الجزية من الفضة والذهب وخشب السرو والحضور بنفسه ليقدم الطاعة للملك آسرحدّون

فجمع ليلي — آسرحدّون سابقاً — الامراء وشاورهم في الامر فاشاروا عليهِ جميعهم بان لامناص من الحرب ومهاجمة الملك آسرحدّون قبل ان يغزوهم في عقر دارهم ، واقرهم الملك على ذلك وسار في طليعة الجيش وبدأ الجهاد ، وكان يركب كل يوم ليستنهض عزيمة رجاله ويثير حميتهم ، وفي اليوم الثامن من مسيره التقى جيشه وجيش الملك آسرحدّون في واد متسع يشقه نهر واستمر القتال واستبسل جيش الملك ليلي ، ولكن ليلي — الذي كان آسرحدّون سابقاً — رأى جيش العدو يزحف من سفوح الجبال في عدد النمل حتى غص بهِ الوادي وتغلب على جيشه ، فطار في عربته الحربية الى بهرة المعركة وأثخن في العدو اثخاناً وبطش بهم بطشاً ذريعاً ولكن جيش الملك آسرحدّون كان يفوق جيشه عدداً وشعر ليلي بانهُ قد جرح ووقع اسيراً وطوى تسعة ايام في سفر مع سائر الاسرى مكبلاً بالقيود وحوله جند آسرحدّون ، وفي اليوم العاشر دخل نينوى ووضع في قفص وكان لا يبالي السغب ولا الم الجراح وانما كان يحز في نفسه عار الهزيمة والاحساس بالعجز ، ورأى ان كل ما يستطيعه في هذا المأزق هو ان يحرم عدوه سرور رؤية آلامه ولذا صمّم على ان يحتمل صابراً كل ضروب التعذيب وصنوف الآلام وامضى في قفصهِ عشرين يوماً ينتظر الاعدام ، ورأى رجال حاشيته واصفياءه وأقاربه يقادون الى الموت وكانت همهمتهم تخترق صماخ اذنه وكان أنينهم يشق سمعه فبعضهم قطعت ايديهم وبترت ارجلهم ، والبعض سلخت جلودهم أحياء ، وقد احتمل رؤية ذلك دون

ان يظهر توجعاً او رثاء او تفزعاً ، ورأى زوجته وريحانة قلبه مقيدة بالسلاسل يقودها أثنان من الخصيان السود وعرف انها مسوقة الى الملك آسرحدّون واحتمل ذلك بلا تذمر. ولا تأفف، ولكن احد الجند الموكلين بحراسته قال له «انا مشفق عليك يا ليلي ، لقد كنت بالامس ملكاً فانظر ماذا صار اليهِ امرك ؟ ولما سمع ليلي هذه الكلمات تذكر ملكه الضائع فأمسك بقضبان القفص وضرب رأسهُ فيها محاولاً الانتحار ولكن لم تكن بهِ قوة على القيام بذلك فأنَّ من الالم وغلبهُ اليأس وارتمى في اسفل القفص

وحضر أثنان من الجلادين وفتحا باب القفص وأخذا في تكتيفهِ وقاداه الى مكان الاعدام وكان مخضباً بالدماء ، ورأى ليلي خازوقاً يقطر منهُ الدم وقد انتزعت منهُ جثة احد اصدقائه فعرف انهُ هيئ لقتله ، ونزعوا ملابسه فهاله نحف جسمه الذي كان قويًّا جبلاً وحملهُ الجلادان وكانا على وشك وضعه فوق الخازوق

وفكر ليلي في الموت والعدم ونسي اعتزامه ان يظل الى النهاية محتفظاً بهدوئه قائياً شجاعته وارتفع صوتهُ بالبكاء والنحيب والتمس الرحمة دون ان يصغى لشكاته احد

ولكنهُ فكر اخيراً «هذا لايمكن ان يكون ولا بد انا اكون في نوم عميق ولا بد ان يكون ما انا فيهِ حلم رهيب» وحاول اليقظة من النوم وما عتم ان استيقظ ولكنهُ لم يجد نفسه آسرحدّون ولا الملك ليلي وانما وجد نفسه نوعاً من الحيوان فعجب لذلك ، وكان اشد ما يثير عجبه هو انهُ كيف لم يعرف ذلك من قبل

***

كان يرعى في واد معشوشب ويمزق الكلأ بأسنانهِ وأنيابهِ ويطرد الذباب بذنبهِ المسترخي وكان يمرح حوله جحش اشهب طويل الساقين منمر الظهر ثم انطلق يعدو الى آسرحدون ولكزه تحت بطنه بفمه الناعم المستدق ملتمساً الضرع ، ولما اصابهُ اخذ يترشف منهُ ترشفاً متصلاً وأدرك آسرحدون انهُ أتان ولم يدهشهُ ذلك ولا احزنهُ بل سره أن يرى حياتهُ نامية سارية في ذريتهِ ، ثم سمع حوله حفيفاً وأحسَّ بسهم صارد نفذ حده المسنون من الجلد الى اللحم وشعر بألم مرمض ، ونزع آسرحدون — الذي كان في نفس الوقت أتاناً — الضرع من فم الجحش وارخى اذنيه وانطلق يعدو الى العانة التي ضلَّ منها يتلوه الجحش ، ولما قاربا العانة التي أجفلت أصاب سهم آخر رقبة الجحش وأصماه مخترقاً الجلد الى اللحم فزحر زحيراً مؤلماً وأقعى على ركبتيهِ ولم يستطع آسرحدون ان يتركهُ وظلَّ واقفاً الى جانبهِ ونهض الجحش مترنحاً على سيقانهِ الهزيلة وسقط من الاعياء ووثب اليهِ الرجل واحتزَّ رأسه

ففكر آسرحدون وغمغم لنفسه « هذا لا يمكن ان يكون لا بدّ ان أكون في حلم وبذل مجهوداً ليستيقظ ويفيق من حلمه حقيقة اني لست ليلي ولست الحمار الوحش ولكني آسرحدون »

وصاح ورفع في نفس الوقت رأسه من الحوض وكان الرجل العجوز ما يزال واقفاً الى جانبه يصب على رأسه آخر قطرة من الجرة

فقال آسرحدون « لقد تألمت كثيراً واحسبني قضيت في تلك الآلام ردحاً من الزمن » ؟

فقال لهُ الشيخ « كلاَّ لم يطل عهدك بالالم لقد غمست رأسك في الماء ورفعتهُ وانظر الى الجرة ترَ بها بقية الماء فهل تدري الآن » ؟

فلم يحر آسرحدون جواباً ونظر الى الشيخ نظرة ملؤها الرعب واسترسل الرجل العجوز يقول « أتدري الآن ان ليلي هو أنت وان الجنود الذين أعدمتهم هم أنت ؟ وليس الجنود فحسب وانما الحيوانات التي ذبحتها وانت تصيد ونهشت لحمها هي كذلك انت ، ولقد جرى في وهمك ان الحياة مقصورة عليك وحدك ولكني رفعت عن باصرتيك حجاب الوهم وجعلتك تدرك انك باساءتك الى الغير انما تسيء الى نفسك ، والحياة واحدة في الجميع وحياتك جزء من نفس هذه الحياة العامة ، وتستطيع في ذلك الجزء من الحياة الممنوح لك ان تجعل الحياة احسن او اسوأ وتنميها او تنقصها ، وتستطيع ان تسمو بالحياة في نفسك وان تحطم الحواجز التي تفصل حياتك عن حياة الغير ، واذا احببت للغير ما تحب لنفسك واعتبرتهم مثلك زاد نصيبك من الحياة ، وأنت تنقص حياتك اذا حاولت ان تزيدها على حساب الغير ، وتحطيم حياة الغير من وراء طاقتك ، وحياة من سفكت دماءهم ومثلت بهم قد اختفت عن ناظريك ولكنها لم تنعدم ، ولقد توهمت انك تطيل حياتك وتختزل حياتهم ولكن هذا ليس في وسعك ، والحياة لا تعرف الزمان ولا المكان ، وحياة لحظة وحياة آلاف السنين وحياتك وحياة الكائنات جميعها خفيها وظاهرها متساوية متعادلة ، ومحو الحياة او تبديلها غير ممكن لان الحياة هي الشيء الوحيد الموجود »

ولما نطق الشيخ بذلك اختفى

***

وفي صباح اليوم التالي اصدر الملك آسرحدّون اوامره باطلاق سراح الملك ليلي والاسرى جميعهم ومنع عقوبة الاعدام

وفي اليوم الثالث استدعى ابنه اشور بانيبال وسلمهُ صولجان الملك وانطلق الى الصحراء ليفكر فيما تعلمهُ ، واخذ بعد ذلك يسيح في المدن والقرى ويدعو الناس الى معرفة ان الحياة واحدة وانهم عندما يلحقون الاذى باحد انما يضرون انفسهم

***

طبقة الاوزون

في أعالي الجو
التي تقينا من البوار

يعلم قرّاء المقتطف مما يطالعونهُ فيهِ اننا نتلقى من الشمس اشعة كثيرة عدا اشعة الضوء التي نرى بها ، وانَّ تلك الاشعة بعضها اطول امواجاً من اشعة الضوء وبعضها اقصر امواجاً ، ولكن الطويل الامواج منها والقصير الامواج لا تحسُّ بهِ عيوننا على السواء . ولا يخفى ان الامواج التي اقصر امواجاً من اشعة اللون البنفسجي تؤثر تأثيراً عظيماً في الاحياء . فهي تميت الاحياء الدنيا التي من قبيل البكتيريا والجراثيم . وتؤثر في البشرة فتلفحها . وتفعل في بعض المواد الكيمياوية فتجعل التصوير الضوئي ممكناً وفي الجسم فتحول بعض مواده الى فيتامين D الواقي من الكساح ، مع انها تظل جامدة عاجزة من التحوُّل حتى تقع تحت تأثير هذه الاشعة

ان منطقة الاشعة التي فوق البنفسجي منطقة واسعة تمتدُّ من محاذاة الاشعة البنفسجية حيث يبلغ طول امواجها اربعة آلاف انجستروم[1] الى حيث يبلغ طول امواجها مائة انجستروم . الا ان الامواج التي تتفاوت اطوالها من ٤٠٠٠ انجستروم الى ٣١٥٠ انجستروماً لا تؤثر تأثيراً بيولوجيًّا معيَّناً مع انها تؤلف معظم الاشعة التي فوق البنفسجي التي نتلقَّاها من الشمس. ثم يزداد هذا التأثير ازدياداً سريعاً وفقاً لقصر امواجها فتصبح قادرة على لفح البشرة وقتل المكروبات والتأثير في الالواح الفوتغرافية وتوليد الفيتامين المقاوم للكساح

ولكن المشاهد في دراسة ضوء الشمس ان طيف الاشعة التي فوق البنفسجي تنتهي فجأة عند حدّ معيَّن من دون ان تتدرَّج قصراً . وهذا غريب لان في قدرة الباحثين ان يولدوا بأجهزتهم ، من الاشعة التي فوق البنفسجي ما هو أقصر امواجاً من الامواج التي يقف عندها الطيف الشمسي . وهذا لا يصدق على ضوء الشمس فقط بل يصدق على ضوء النجوم ، اي ان تحليل الضوء الواصل الينا من النجوم المختلفة ، يسفر عن منطقة واسعة من الاشعة التي فوق

---

(١) وحدة قياس الامواج القصيرة وهي تعدل جزءاً من عشرة ملايين جزء من المليمتر

البنفسجي ، ولكن هذه المنطقة تنتهي فجأة عند حدٍّ واحدٍ في جميعها ، فكان الاستنتاج الطبيعي الذي يمكن الخروج بهِ من هذه الدراسة ، أن في الغلاف الغازي الذي يحيط بالكرة الارضية شيئاً يمتص تلك الاشعة القصيرة الامواج فلا نستطيع ان نتبينها بأدق الاجهزة العلمية التي يعتمد عليها

فاذا صحَّ ذلك كان وجود هذا الحائل دون وصول تلك الاشعة الى سطح الارض من الغرائب لان الهواء عند سطح الارض يأذن للاشعة القصيرة الامواج في اختراقهِ . وقد جرِّب نقل هذه الاشعة في مسارٍ أفقي من الهواء على سطح الارض طولهُ عدَّة أميال ويزيد مقدار الهواء فيهِ على مقدار الهواء الذي تخترقهُ الشعاعة في سيرها من أعلى طبقات الجوّ الى سطح الارض، فثبت ان ذلك مستطاع . واذن في الجوّ شيء غير الهواء يحول دون وصول هذه الاشعة الينا . وكان الرأي أن الأُوزون هو ذلك الشيء . والأُوزون أوكسجين قوام جزيئهِ ثلاث ذرات حالة ان الاوكسجين العادي قوام جزيئهِ ذرتان فقط . وفي سنة ١٩٢٠ أثبت الباحثان الفرنسيان شارل فابري وهنري بويسون صحة ذلك . فقالا ان هذا الاوزون موجود في طبقات الجوّ العليا ، وانهُ يفعل كأنهُ غشاء كثيف يحول دون وصول هذا الضرب الخاص من الاشعة الينا ، حتى ولو كانت السماء صافية كعين الديك

ثم عمد هذان الباحثان الى أساليب ضوئية وبصرية دقيقة لقياس مقدار الاوزون ، فعرفا مقدارهُ ولكنهما عجزا عن معرفة مدى الطبقة التي يتخللها . والغريب ان مقدارهُ يسير ، اي انهُ لو بلغ الضغط عليهِ مبلغ الضغط على الهواء الملاصق لسطح الارض لكوّن طبقة من الاوزون التي لا تزيد كثافتها على ثلاثة ملمترات . ولكن هذا لا يعني ان طبقة الاوزون حيث هي في أعالي الجوّ تبلغ هذه السماكة ، او تشغل طبقة رقيقة من الهواء ، لان الضغط هناك قليل جدًّا فالغاز لطيف ثم هو مختلط بغازات أخرى ولا يبعد ان تكون سماكة الطبقة التي تحتوي على هذا القدر من الاوزون بضعة أميال

ومن العجب العجاب ان يكون مقدار يسير من الاوزون كهذا المقدار كافياً لاحداث هذا التأثير . ولكن التجارب الدقيقة في معامل البحث تؤيد النتائج التي توصل اليها فابري وبويسون . وقد ظهر علاوة على ذلك انهُ لو نقص الاوزون مقدار الثلث لكفى تعرضنا بضع دقائق لضوء الشمس لاحتراق بشرتنا كما لو اصابتها نار حامية . يقابل هذا انهُ لو تضاعف مقدار الاوزون لقضي على الجنس البشري بالبوار لكثرة ما ينمو من البكتيريا والجراثيم ولقلَّة ما يتولَّد في الاجسام من الفيتامينات اللازمة للحياة

إلاَّ ان تغيُّراً يسيراً في مقدار الاوزون يحدث في فصول مختلفة واحوال متباينة ، فقد ينقص حتى يبقى مقدارهُ مساوياً لطبقة سماكتها مليمتران ، أو يزيد حتى تربي سماكتها على ثلاثة

مليمترات . والغالب ان الاوزون أكثر في الربيع والخريف من المتوسط ، ثم انهُ على أقلهِ في المناطق الاستوائية حيث التغير في مقدارهِ يسير جدًّا

ويتفاوت علوّ هذه الطبقة من الاوزون عن سطح الارض من عشرة اميال الى أربعين ميلاً . ولكن القارىء قد يسأل اذا كان مقدار الاوزون في طبقات الجوّ العالية ذا شأن في مقدار ما يصلنا من الامواج القصيرة من الاشعة التي فوق البنفسجي ، فما شأن ارتفاع الطبقة التي تحتوي عليهِ ؟ وهو سؤال في محلّهِ والردّ عليهِ ان لهُ شأناً يذكر في حرارة الارض وغلافها الغازيّ

لا يخفى ان حرارة الارض نتيجة للتوازن بين ما يتصل بها من اشعة الشمس فتمتصهُ وما تطلقهُ من هذه الاشعة بعد امتصاصهِ . ولما كانت حرارة الارض دون حرارة الشمس الوف الدرجات ، فالاشعة التي تنطلق من الارض تقتصر على الاشعة التي تحت الاحمر من طول معين — يزيد طول امواج هذه الاشعة عشرين ضعفاً على طول الامواج الحمر — . يقابل هذا ان الاوزون متصف بصفة أخرى غير امتصاص الاشعة التي فوق البنفسجي من طول معيّن. ومن هذه الصفات قدرتهُ على امتصاص الاشعة التي تحت الاحمر . ومن غرائب الاتفاق ان أمواج الاشعة التي تحت الاحمر التي يمتصها ، هي من قبيل امواج الاشعة التي تطلقها الارض . واذن فالاوزون في الهواء ، يمتصّ جانباً من الاشعة القادمة من الشمس الى الارض وكذلك جانباً من الاشعة التي تطلقها الارض في الفضاء . وامتصاصهُ لهذا الضرب الاخير من الاشعة يرفع حرارة سطح الارض وغلافها الغازي ، لان جانباً من الحرارة التي يمتصها ينتقل منهُ الى الغازات الاخرى إما بالاصطدامات الجزيئية وإما بالاشعاع . فحفظهُ للحرارة التي يمتصّها من اشعاع الارض، او انتقالها منه الى غازات الهواء الاخرى يتوقفان على الضغط الجوّي او بكلمة أخرى على ارتفاع الطبقة المحتوية على الاوزون عن سطح الارض . وفعل الاوزون في كلّ ذلك يشبه فعل ألواح الزجاج في مستنبت ، فانها تقي النبات من تطرق بعض العوامل الجوية الخارجية اليهِ كالبرد ، وفي الوقت نفسهِ تحفظ الحرارة التي تولّد فيهِ من التشعع الى الخارج

وقد دلّت التجارب على ان الطبقات المحتوية على الاوزون مرتفعة جدًّا بحيث لا تجدي أساليب البحث الطخروري (اي ارتفاع البلونات الى الطبقة الطخرورية سواءٌ أكبيرة كانت فيها علماؤهُ مع أجهزتهم أم صغيرة لا تحتوي الاّ على الاجهزة المدوّنة من تلقاء نفسها) في قياسها . ولكن هذا الاسلوب من البحث سائر الى الامام وقد يتاح للفلكي والمتيورلوجي في المستقبل القريب ان يبعث بأجهزتهِ الى الطبقة المحتوية على الاوزون او إن يتخطاها وحينئذٍ يستطيع ان ينفذ الى بعض أسرارها وأسرار الاشعة الواردة من الاجرام السموية

الاذاعة

اللاسلكية المصورة او التلفزة
وسائلها وأطوارها وارتقائها

لعوض جندي

يرى بعض الناس انهُ من اصعب الصعوبات ، ادراك طريقة اطلاق صورة متحركة من احدى غرف الاذاعة ، على اجنحة الاثير الى بيوتنا حيث تتجلّى لنا على ستار صغير بكل سهولة. وذلك لاننا اذا ما تأملنا مليًّا التفصيلات الفنية لعناصر الرؤية باللاسلكي ألفيناها عويصة. بيد اننا عند ما نجزىء الجهاز المستقبل لتلك الصورة ، لا نلبث أن نوقن سهولة فهم القواعد المؤسس عليها . وأساس الاذاعة اللاسلكية المصورة ، الخداع النظري . فالصورة التي تنقل بها تخدع العيون التي تبصرها . ولسنا نشاهد على الستارة صورة مفردة ، بل سلسلة كاملة من نقط تتغير بأقصى سرعة . ولو حدَّقت عن كثب في صورة فوتوغرافية مصورة في جريدة ما ، لوجدتها مؤلفة من نقط صغيرة متباينة درجات الضوء والظلّ . حتى اذا ما أبعدتها عن بصرك قيد ذراع واحدة وتطلعت اليها ، تبينت لك صورة كاملة . وتكاد الصورة التي يتم نقلها بالراديو تؤلف على ذلك النمط . ولا يزال مستحيلاً نقل صورة كاملة في آن واحدٍ . ولكن من الميسور نقلها أجزاءً نقلاً عاجلاً يخدع العين البشرية فتظن انها ظهرت بأجمعها مرة واحدة . وسبب نجاح هذه الطريقة قوة أو خاصية الحفظ او الاستبقاء التي في آلة البصر . ومن ثمَّ كانت تجزئة الصورة أولى العمليات الجوهرية للتلفزة . وتجزأ الصورة بطريقة اضاءتها تدريجاً

وتضاء الصورة اضاءة تدريجية بعدة وسائل . وقد تكون الصورة غير فوتوغرافية ، بل كائناً حيًّا اي ممثلاً يمثل في مقر الاذاعة المصورة . وربما تتغاير وسائل تلك الاضاءة التدريجية المصورة ، غير ان قاعدتها الاصلية لا تتغير ، وقوامها قرص مثقّب عدة ثقوب ، ويسلط الضوء المراد انارة الصورة به ، على ذلك القرص فيمرُّ من ثقوبهِ الى الصورة المرغوب فيها ، بدلاً من سقوطه عليها مباشرةً مرة واحدة . وتجعل ثقوب القرص على شكل حلزوني . وعندما يدور القرص دوراناً سريعاً يصيب الضوء الصورة على شكل نقط صغيرة او خطوط يلتقطها الجهاز الناقل ويطلقها في

الاثير واحدة في إثر الاخرى ، فتصل الى الجهاز المستقبل حيث تحشد حشداً عاجلاً جداً فتأْلف الصورة المنقولة. وحينما يستعمل عدد كبير من النقط، او الخطوط المقسمة الى نقط، في تأليف صورة تظهر الصورة في الجهاز المستقبل منتظمة واقرب الى اصلها مما لو أُلفت من نقط قليلة . ومثال ذلك ان الصورة التي مساحتها عقدة مربعة تؤلف من الف نقطة ، ويجب ان تكون هذه النقط ابعد بعضها عن بعض ، منها لو تألفت الصورة من عشرة آلاف نقطة ، فتصير درجات الضوء والظل في الثانية المؤلفة من عشرة أمثال نقط الاولى ، اوضح كثيراً منها في الاولى

ومن العقبات الكبرى التي اعترضت مخترعي الاذاعة اللاسلكية المصوَّرة ، نقل عدد كبير من الخطوط في ثانية واحدة . ولكنهم قد ذللوا حديثاً هذه العقبة الى حدٍّ ما . وبذلك ستصبح الصور المنقولة بالراديو المصور مضبوطة ، أُسوة بالصور الضوئية التي تصور في الجرائد

ولاضاءة الصورة المزمع نقلها بالراديو وسيلتان اساسيتان وأولاهما جعل الضوء يتحرك حركة سريعة على الاشخاص المراد نقل صورها ، غير ان لهذه الطريقة عوائق عديدة ومنها وجوب تعتيم البيئة التي يجري فيها العمل . وهذا يقتضي حصر العمل في غرف الاذاعة

والوسيلة الثانية هي اضاءة الشبح اضاءة طبيعية كما يضاء على المسرح بالانوار المخصصة لتلك الغاية ، او وضعه خارجاً في نور الشمس بحيث تلتقط الانوار او الظلال بعدسة تجمعها ثم توجّهها الى عجلة منيرة . وفي احدى تينك الحالتين يتجزأ الضوء اجزاء قبل وصوله الى الشبح . وفي الحالة الاخرى يتجزأ الضوء المنعكس تجزئة تامة بعد مغادرته الشبح ، فتكاد النتيجة تكون واحدة في كل حالة ما دام المعوَّل على الجهاز الاخير . وبذلك نصل الى أنفع الاجزاء في جهاز نقل الاذاعة المصورة . ونعني بهِ البصاصة الكهربائية ونتائجها اعجب كثيراً من تفصيلات تركيبها الفعلي

انّنا متى تكلم في التليفون تهتز طبلته فتحدث ذبذبة في التيار الكهربائي الضئيل الساري في الجهاز . وذلك وفقاً لنبرات صوت المتكلم في بوق التليفون . وهذا عينه ما تفعله البصاصة الكهربائية في الضوء ، بدلاً من الصوت ، لأن أضأل تغاير في الضوء والظل يستحيل بالبصاصة الكهربائية ذبذبات في التيار الكهربائي

ذلك ان سلسلة سريعة من ومضات الضوء تنبعث من القرص المضيء ، فتسدّد الى البصاصة الكهربائية فتحدث ذبذبات في التيار الكهربائي . فتضخم مثلها عند ما تتولد من الصوت بالميكروفون . ثم تذاع من الموصل الجوي اللاسلكي ، أما في محطة الاستقبال فتعكس هذه الطريقة اذ يلتقط الموصل الجوي اللاسلكي أمواج الاثير كما يحدث في محطة استقبال الاذاعة حيث تلتقطها صمامات الاستقبال في جهاز الاذاعة المصورة وتضخمها. ثم ان هاتيك التيارات يتوسل بها الى تغيير قوَّة مصدر الضوء او المصباح ويمرُّ في قرص مضيء آخر ومنهُ الى الستارة حيث

يعاد تأليف الصورة الاصلية التي أذيعت من غرفة الاذاعة . وقد روت مجلة العلم العام انهُ « اخترع في المانيا حديثاً جهاز جديد يتيح للجماهير المحتشدة سماع الخطب العامة ورؤية خطيبهم جليًّا وسماعه جيداً . والجهاز مؤسس على أنماط الاذاعة اللاسلكية المصورة اذ يكبر صورة الخطيب بحجمها الطبيعي عدَّة أضعاف فتظهر للحضور جيماً واضحة بينما يسمعون صوته الجهير بأبواق الراديو المتادة . ولذلك يعتلي الخطيب منبر الخطابة وتوضع الميكروفونات المألوفة تجاههُ وتوضع بصاصتان كهربائيتان يمنة ويسرة . ومتى شرع الخطيب في القاء خطبته، تصوب الى وجهه ، شعاعة خضراء من جهاز العرض ، تكاد لا تبصرها العين ، فتتموج إزاءهُ تموُّجاً خفيًّا لا تلمحهُ غير تينك البصاصتين الكهربائيتين الحساستين بالضوء أيًّا كان فتساير الاشعة المنعكسة من ملامح الخطيب فتطلق سلسلة نبضات كهربائية مطابقة لتلك الاشعة فتستحيل ضياء مرة أخرى وذلك بصمام من صمامات الاشعة السالبة من قوة ٢٠٠٠٠ فولط . ثم تقوم عدسة قوية بالقاء الصورة على الستار . وقد أزمع مخترعو هذا الجهاز تعميمه في المسارح ليجعلوا كل مقعد من مقاعدها مساوياً للآخر في التمتع برؤية الخطيب وسماع صوته من كثب »

وليست عملية اضاءة صورة الشبح شيئاً فشيئاً بالقرص المثقب كلها هينة جدًّا كما تلوح للقارىء أول وهلة، فاذا لم يتحرك القرص المضيء في طرف الجهاز المستقبل بالسرعة عينها التي يتحرك بها في طرفه الناقل ، حدث في الستار اضطراب وتشويش ، اذ ينبغي جعل ذينك القرصين في مركز مضبوط ، الواحد بالقياس للآخر . ويجب تحريكهما بسرعة واحدة تماماً . وقد اخترعت لذلك التوازن عدة أجهزة بديعة . واذا أدير جهاز استقبال الاذاعة المصورة بتيار كهربائي متغير من نوع التيار الذي يستعمل في جهاز النقل ، كان الامر هيناً الى حدٍّ ما ، لان ذبذبات التيارات الكهربائية ثابتة جدًّا فلا تتبدل البتة ولذلك تستعمل لادارة الساعات الكهربائية . وليس ذلك ميسوراً دائماً لانهُ قد يتفق ان يكون مقر الاذاعة المصورة في منطقة يسكنها لفيف من الناس لا يستخدمون تياراً كهربائيًّا من منبع واحد . ولذلك اخترع المخترعون قاعدة ارسال نغمة مستمرة تعمل بمثابة مسيطر على القرص المضيء في طرف جهاز الاستقبال على ان يضبطوا سرعته ضبطاً يطابق سرعة القرص المضيء في جهاز النقل

وقالت مجلة العلم العام الاميركية في جزء يناير ١٩٣٨ انهُ قد تبين للخبراء ان الصبغات الحمر التي تستعملها ممثلات السينما في تبرجهن لا تظهر في وجوههن عند تصويرها بآلات التصوير فتتجلى صورهن عند نقلها بأجهزة الاذاعة اللاسلكية المصورة ، مشوَّهة غير طبيعية ، فاستبدلن بالدمام ، صبغات خضر واتخذن منها اقلاماً لصبغ شفاههن وتخضيب وجناتهن فتلوح شفنا الممثلة ووجنتاها متناسقة مع ظلال الصور الفوتوغرافية لسائر ملامح وجهها عند ما تعرض الصورة على ستار جهاز الاستقبال

أما وقد أوضحنا القواعد الاساسية للاذاعة المصورة ايضاحاً موجزاً، فجديرٌ بنا ان نشير الى شتى التفصيلات التي أفضت الى تحسين الاذاعة اللاسلكية المصورة . ومنها ان الثقوب التي تثقب في قرص الاضاءة قد استعيض عنها بالمرائي او المدسات لكي تزيد منفعة الضوء وذلك على نسق عدسة آلة التصوير اذ انها تنقل من الضوء أكثر مما ينقله ثقب دقيق مجرد

﴿ مرآة مغنطيسية مهتزة تعكس الصور المنقولة بالراديو ﴾ اخترع الدكتور لي دي فورست والمستر وليم بريس Wiliam Priess أسلوباً لانارة الاشباح في الاذاعة المصورة قِوامهُ مرآة هزازة تعكس الصورة المنقولة بالراديو على ستارة مساحتها قدمان فتبدو الصورة للناظر متقنة واضحة بلا استعمال الصمام السلبي الشعاعة . ولذلك يستقطب (يعطى خاصية الاستقطاب) الضوء من مصباح للعرض من قوة ٥٠٠ وط فيمر في بطارية كر Kerr فينظم الشعاعة ومن ثمَّ تعكس المرآة الضوء المنظم على الستارة . وتؤلف المرآة من لوحة فولاذية صقيلة ذات سطح من معدن الروديوم rhodium معلقة بين قطبي ملف مغنطيسي يمنط بجهاز يحوّل التيار المتغير الى تيار ثابت ويستمد قوتهُ من دائرة النور الكهربائي المنزلي المعتادة . وتهتز المرآة نفسها ٥٠٠٠ مرة في الثانية . وبهز الاطار الموضوعة فيه فيلقي صوراً مؤلفة من ٢٥ خطاً × ٢٠٠ خط على ستار العرض في كل ثانية ويمتاز هذا الجهاز المضيء برخصه وسكونه »

وكانت مساحة الصور القديمة التي نقلتها الاذاعة المصورة قلما تزيد على مساحة طابع البريد فكان لا بدَّ من الامعان في التنقيب عنها امعاناً يكاد يضارع البحث عن شرط الصور المتحركة « السينما » في عهد شيوع صناديق الدنيا أو صناديق العجب . وقد تضاعف حجم هاتيك الصور فأصبح في وسع المرء مشاهدتها عن بعد قليل وهو جالس على كرسيه

ومن جهة اخرى يرى الخبيرون أنهُ غير محتمل تكبير ستار الاذاعة اللاسلكية المصورة تكبيراً تظهر عليه صور الفيلم النظرية الاَّ إذا اخترعت قاعدة جديدة من كل الوجوه او أحدثت في تلك الستار بضعة تحسينات خطيرة

﴿ صمام الشعاعة السلبية أو الصمام السلبي الشعاعة ﴾ وأحدث ما تمَّ من المخترعات الخاصة بالاذاعة اللاسلكية المصوَّرة صمام الشعاعة اللاسلكية الذي ذاع ذيوعاً واسع الانتشار فاستعمله المخترعون بدلاً من مصدر الضوء الاعتيادي الذي يغيره التيار الكهربائي . وهو بمنزلة دورق او قنينة ضيقة العنق يقوم قعرها المسطح مقام الستارة وقد اخترعت منذ عدة سنين قبل صيرورة اللاسلكي مذهباً عمليًّا . ولكن لم تظهر خاصية هذا الصمام النافعة الاَّ قريباً . وهي جعل شعاعة من الكهربات تنطلق الى الستارة وتتموج وفق شحنة المكثف الكهربائية . وكان استعمالها في بدء الامر مقصوراً على المباحث الجوية . غير انهُ يبدو لنا ان هذا الجهاز سيجد على الارجح مكاناً في كثير من

المصورة ، عن الاشارة الى الاشعة الضوئية أيًّا كان نوعها وطول موجتها ، ولو كان من الاطوال التي لا تراها العين المجردة . وهذا يتضمن استحالة نقل الصور في اثناء انتشار الضباب وفي الليل،ويبين لنا تعذر ادخال التلوين عليها ايضاً في آخر الامر.ولا بدّ انهُ سيأتي وقت تتمكن فيهِ من اضاءة الصور بأجمعها ونقلها مقرونة بتلحين الصوت والعناصر التي تتألف منها على بعد صورة ميكانيكية جذابة ذات رونق يستهوي مشارب المتعلمين وذلك بموجات تتحرك في آن واحد

﴿ جهاز بيرد J. L. Baird ﴾ هو من النماذج العملية الاولية وقد قررت شركة الاذاعة البريطانية تجربة جهازين مختلفين من اجهزة الاذاعة اللاسلكية المصورة جنباً الى جنب لكي تختار اصلحهما اختياراً نهائيًّا . وكانت تلك التجارب الابتدائية تجرَّب بأجهزة معظمها وقتية مصحوبة بجملة عدسات قديمة وشمع الختم والدوبارة،ومع ذلك فقد اسفرت عن النجاح اذ اتيح نقل صور متقنة واضحة جدًّا في سنة ١٩٢٥

وقد تحسنت الاجهزة في السنين التالية تحسناً عظيماً فغدت شركة الاذاعة البريطانية تنقل الصور نقلاً منتظماً وكان من العوائق التي تكشفت في بدء الامر ضرورة وجود قوة الضوء العظيمة لانارة الاشخاص المراد نقل صورهم. فحاول العلماء تذليل تلك العقبة باكتشاف نافع وهو التمكن من نقل الصور بالراديو نقلاً جيداً بوساطة الاشعة الخفية ، يكاد يضارع نقلها بالضياء الابيض المألوف ونعني بالاشعة الخفية الاشعة التي تحت الاحمر التي تستطيع اختراق الضباب والتي لا تراها العيون المجردة . فأضحى ميسوراً نقل صورة شبح في الظلام الحالك تقريباً . وقد تتبين فائدة اختراع هذا الجهاز عند تطبيقه على البواخر . فكل باخرة يُركَّب فيها منظار ليلي قوي (نوكتوفيزور Noctovisor) يتسنى لها رؤية غيرها عندما تدنو منها في الضباب الكثيف ، ولو كانت تلك الباخرة القادمة مختفية كل الاختفاء عن العيون البشرية المجردة

وقد اقترح بعضهم إمكان استعمال جهاز الشماعة السلبية،لتلك الغاية . فاذاً ما أرسلت إحدى البواخر اشارة ثابتة في اثناء انتشار الضباب الكثيف ، ظهرت الاشارة على ستارة رقاص الشماعة السلبية بمثابة سلسلة خطوط فتنبه ربان الباخرة الى دنوّ الباخرة الاخرى منهُ . ويتوقف نجاح الاذاعة اللاسلكية المصورة على صفة الصور ، وقوامه في الاغلب ، السرعة والضبط ، اللذان يستعملان في ارسالها . وفي مطلع هذا الاختراع كان يستعمل ٢٤ خطًّا ثم زيد هذا العدد الى نحو ٤٠٠ خط و ٢٠ أطاراً في الثانية ، فكانت النتيجة صورة تكاد تكون مشابهة للصورة الاصلية . اما في حالة نقل الصور السريعة الحركة فيدخل فيها تعقيد آخر ، لان السينما المعتادة مشهورة بكونها صيغة من صيغ الخداع البصري ، لأن الذي تراه على الستارة ليس صورة متحركة ثابتة حقيقية بل سلسلة كاملة من الصور الفوتوغرافية تعرض تباعاً عرضاً حثيثاً جدًّا بحيث تخدع عينك فتتخيلها صوراً متواصلة

واضعف سرعة يمكن عرض تلك الصور بها، على ذلك النمط تناهز عشراً في الثانية بيد انهُ قد تبين بالاختبار ضرورة عرض عدد يتراوح بين ٢٢و٢٥ صورة في الثانية . فاذا ما اريد جعل الصور المذاعة بالراديو غير معطوسة ولا مهتزة فلا بد من مراعاة هذه القاعدة لان عيوننا يجب ان تخدع بالنقط المتحركة ويجعل عدد الصور المعروضة ٢٥ صورة في الثانية على الاقل حتى تعتقد العيون بأنها تشاهد حركة ، لا سلسلة صور منفصلة بعضها عن بعض . ولما كانت اسطوانات الجراموفون تؤلف جانباً كبيراً من برامجنا اللاسلكية ، رجّح العليمون بأن افلام السنما سوف تستعمل في ملاهينا التي توافينا بها الاذاعة المصورة لان نقل فيلم السنما بطريقة الاذاعة المصورة ، أسهل كثيراً في الحقيقة من نقل مشهدٍ من غرفة الاذاعة . ويتمُّ عرضهُ بالطريقة المألوفة غير ان الضوء الذي يوجه من السنما الى الستارة ، يستبدل بهِ جهاز منير تسدَّد أشعتهُ الى بصاصة كهربائية . ومن ثمَّ تلتقط الصور بالطريقة المعتادة — وفي أثناء ذلك يكون الجزء الناطق من الصورة ، الذي يستوعبهُ مجاز ضيق من فيلم الصوت تحت حافتهِ ، قد مرَّ بما يسمى بباب الصوت حيث يلتقط ذلك الصوت ويرسل على موجة مستقلة الى حيث يستقبل ويضخم وينقل الى بوق الراديو . ويكون الصوت على الافلام دائماً سابقاً قليلاً للصورة لانهُ لا بدَّ من مضي بعض الثانية قبيل مرور الفيلم من جهاز عرض الضوء الى جهاز عرض الصوت . وهذا التأخير يتيح مثل فتح فيهِ في اللحظة الملائمة بعكس ما اذا كان سجلاً الصوت والصور موضوعين جنباً الى جنب قبيل ذلك بقليل . وما زالت الشروح الخاصة بمسابقات العدو وغيرها ، تؤلف شطراً مألوفاً جدًّا عند الجمهور من برامج الاذاعة اللاسلكية الشفوية . ويرجو كل امرئ بوساطة الاذاعة اللاسلكية المصورة زيادة التمتع بالملاهي وذلك بتمكينه في الحقيقة من رؤية مباراة كرة القدم أو مسابقة الملاكمة ، لا ان يصغى فقط الى الشروح التي يلقيها عامل الاذاعة

على انهُ من سوء الحظ ان نقل الحوادث بالراديو في الهواء الطلق ، من اشق الامور . وقد تبين بالاختبار ان تسجيل الحوادث على الفيلم ونقلها بالراديو المصور أسهل . وليست هذه الطريقة بطيئة كما يظن ، اذ قد اتضح بجهاز بديع صغير ، سهولة نقل الفيلم بالراديو المصور في عشر ثوانٍ بعيد التقاطه ، وذلك بأن يلتقط المصور الصورة بالاسلوب المعتاد ثم يحمض الفيلم بذاته بعد اظهاره ويثبت ويجفف ، ويتم تجفيفه في سلسلة من الحياض ثم ينقل بلا موانئة الى جهاز الارسال الخاص بالاذاعة ، المصورة حيث ينار حالاً . ومع ان ذلك العمل يحدث بعيد الزمن الحقيقي بهنيهة فان هذه الثلاثين الثانية التي تمضي بعيد وقوع الحادث قلما يمكن ملاحظتها الا في نهاية السباق ، وعند الفوز حينما يسمع ضجيج النظارة قبيل حدوث الحادث بلحظة . وأي تأخير ثابت يتسنى اصلاحه بكل سهولة

ومن التحسينات التي لا مندوحة عنها للاذاعة المصورة (التليفون الظاهر) اي الذي تظهر فيه صورة المتكلم . ولم يبق الاَّ قليل من الشك في ان كثيراً من حظائر التليفونات العامة في المستقبل ، ستركب فيها اجهزة للاذاعة المصورة بحيث يمكن انارة محيا المتكلم فتلقط ذبذبات التيار الكهربائي وترسل الى الجهاز المستقبل حيث تصور الصورة بجوار سماعة التليفون المعتادة

***

ومن الاسباب التي تحتم تكوين جل البرامج الابتدائية للاذاعة المصورة من الافلام ، هو أن مدى اشارات الاذاعة المصورة محدد ، أكثر منهُ في اذاعة الصوت ، لان الاشارات اللاسلكية العادية يتيسر اطلاقها الى مدى مئات من الاميال بلا صعوبة كبيرة . أما اشارات الاذاعة المصورة فلا تعدو ٢٠ أو ٣٠ ميلاً حينما يراد الحصول على نتائج مرضية في هذه الآونة . وكثيراً ما تصادف الاذاعة مناطق تسمى « بالميتة » وقد تعترضها العوائق بسهولة اكثر منها في حالة الراديو المعتاد . أي أننا لو شئنا تعميم الاذاعة المصورة في مملكة انكلترا مثلاً لاحتجنا الى ٢٠ او ٣٠ محطة لنقل الاذاعة المصورة . ومع ذلك قد يبقى مليون او مليونان من الناس بعيدين عن اجهزة النقل بعداً لا يسمح لهم بالرؤية دون حائل . فاذا ما أريد تمثيل ثلاثين رواية مختلفة او أكثر على أيدي شركات مختلفة كل يوم ، كانت نفقاتها باهظة جداً . اما اذا صوّرت تلك الروايات على الافلام تصويراً خاصاً لاذاعتها بالراديو المصوّر ، امكن نقلها من المحطات المركزية جميعها في آن واحد بلا نفقة فادحة وقد يكون الفيلم في الحقيقة نافعاً للاذاعة المصورة كنفع جهاز البلاتترفون[1] للاذاعة العادية . وقد شرع الخبراء في تجربة نقل اشارات الاذاعة المصورة الى ابعاد اكثر مما بلغتها حتى الآن ، فظهر لهم أن تلك الموصلات الجوية اللاسلكية تتأثر بالارتفاع كل التأثر . فأقام المهندسون الالمان في سيارة نقل جهازاً طوافاً لنقل الاذاعة المصورة ليجول في منطقة واسعة ابتغاء الحصول على نتائج افضل مما حصلوا عليها من قبل . والمرجو انهم بالتوقل في جبل ارتفاعه ١٤٠٠٠ قدم سيتمكنون من ارسال اشارات جيدة تقطع اكثر من مائة ميل . اما بلاد انكلترا فغير صالحة لعمل كهذا اذ لا تزال تحتوي هضاباً صغيرة بجوار المراكز الكبرى الحافلة بالسكان . ولذلك سيضطرون الى انشاء محطات صغيرة مفرقة لتستعمل بضع سنين . وثمة بعض الشك بأن الصعوبة الناشئة عن البعد ستذلل اخيراً فتتبوأ وتتخذ الاذاعة اللاسلكية المصورة الدولية مكانها وتصبح ضرورة من ضرورات الحياة اليومية

[نقلا عن كتاب الاستاذ لو العالم الانكليزي ومجلتي « العلم العام » و « الميكانيكا العامة »]

---

(١) وقد وصفناه في باب الاخبار العلمية بمقتطف نوفمبر سنة ١٩٣٢

السراب

للشاعر بابي دوفيلي

آه ! العيون المعبودة ليست بالعيون التي يرى اصحابها
انهم كانوا يحبونها وتضوى ابدانهم من اجلها !

والاحلام — اكثر الاحلام نشوة ليست بالاحلام التي يبدعها
كائنان تراميا قلباً على قلب وباتا ذراعاً على ذراع !
والسعادة — بل اكثر السعادة غلاء على أنفسنا الظمأى —
ليست بالسعادة التي يبكى عليها بعد زوالها !

بل الحب الجميل الذي كان في الحياة ،
لم يخرج ابداً من القلب . . .

انهُ هنالك ! يحيا ابداً ، ويبقى سرمدا .
لا تؤثر فيهِ السنون ، ولا ينال منه الزمان شيئاً
يظنون انهُ قد توارى وضاع وهلك في ثنايا المقادير ،
ولا يخالون البائد الاّ إيّاه .

ولقد يحيون بعده عشر مرات .
الفتوة قد تدحرجت مفجّرة ملتهبة .
والزمان يجر بيده الكهولة التي تطوينا احشاؤها ، وتلفنا أطواؤها .

ولـكن هذه الاحشاء القوية التي يظن انها سليمة من الجراح ،
لهم فيها جرح يحسونهُ !
انهُ جرح لم يندمل ، ولـكنهُ لا يسيل دما .
هذا ليس بشيء !
انهُ كثني الورود الاولى التي سحقت في الربيع على القلب عندما يتبرعم .
ما أكثر ما هنالك من أشياء عبرت على هذا القلب .
ولـكن هذا (اللاشيء) الباقي هو كل شيء .

ليس أحد يتكلم عنه أبداً ،
وليس أحد ، هنالك — يشعر بأن تحت اطواء القلب تتوارى
عاطفة لا اسم لها ، ولا يستطيع أحد انتزاعها .
ليس هذا الشيء هو الحب الذي فسر على ذراع المحبوب ،
ثم أخذ يُمقَت قليلاً قليلاً .
ليس هذا الحب ،

انهُ ليس إلاَّ حلماً ، ولـكنهُ حلم أجمل من الحب .
تحت كل هذا الحب الذي يترك الحياة زاهية .
وتحت كل السعادة التي تستطيع ان تسكرها
تجد دائماً هذا الجنون الذي لا يجد لهُ القلب قريناً
وانا نحملنا — في كل مكان — أثر هذه المملكة الغريبة من هذا الحلم القوي المبهم المنتصر .
والى ذراعيك — يا حبيبتي — يمشي هذا الحلم الجميل ويرسو على قلبي !

انكِ لا تدركين ما يعرو قلبي ويغمر نفسي .

انكِ تطوقين جبيني بذراعك ، وبالذراع الأُخرى التي تسكب في نفسي لهيبها وتبحث عن هذا القلب ، حيث أنتِ لا تكونين .

تفتشين عنهُ لتنظري نفسك فيهِ أيتها الغادة التائهة !

وتقولين « انك صامت يا حبيبي فماذا عراك ؟ »

لا شيء عراني يا معبودتي ، ولكني رحت أنظر الى ذلك (اللاشيء)

إن هذا اللاشيء ينتصب في فكري !

انهُ ليس إلاَّ خيالاً ، أو وجهاً وهميًّا .

ولكن بين جميع ذكريات أنفسنا المتيقة

تظل الذكرى البعيدة هي الاقوى .

ومن خلل القلب المشتعل الذي يأكل بعضهُ بعضاً

نرى الغابر المتدحرج هو الاكثر لمعاناً لعيوننا .

والنهار الأَصفى والاتقى جمالاً ما هو الاَّ طيف

فجرٍ عاد يطوف في السموات .

وانتِ انتِ كنت طيف فجر لا يخبو شعاعهُ عندي أبدا .

ولكنكِ — يا نور عيني — يا من رحت اعبدها ،

لم تمحي ابداً هذا (الغير) الذي رحت أحبه .

ان نجمة محلقة على البحار التي لا تُحد، تنعكس على امواجها وتضحك من تلاطمها.

ألا ! كم نفتقر نحن الى نساء مثلكنَّ ، لكي يستطعنَ ان يساوينَ تلك التي لا نملك عليها . . . .

[نقلها خليل هنداوي]

ليبلغ الغاية فيسلم الروح ، بل هي شيء مقدس لا بدّ ان يعبده الناس لان فيهِ نغم لحن موسيقي أخاذ . . . وأراد ان ينفث في حياتهِ معاني الموسيقا الحبيبة الى نفسهِ، فنأى بعقلهِ عن آلامهِ فهي لا تملك عليهِ السبيل ولا تزعزع من عزيمتهِ الجياشة ، ونأى بقلبهِ عن أفراحهِ فهي لا تسيطر عليهِ فتسلبهُ رزانته وهدوءه ، ثم اطمأنّ الى حياتهِ وفيها الرضا والطمأنينة . . . وأغرم بالبلاغة والبيان شأنهُ في ذلك شأن أترابه من الادباء الرمزيين . . . وشرب الخمر بقدَر فما رؤى في سني عمرهِ مرة واحدة متاخ العقل يضطرب في مشيتهِ ، أو ذاهلاً يترنح ويهذي بما لا يعي . . . ولشدَّ ما أساءت اليهِ الخلوة فكان يشعر كأن شيئاً يحبس نفسه فيتململ في سكون . . . »

هكذا كان ديبوسي كاتباً ومؤلفاً وناقداً وموسيقياً ، افتنّ في كل ذلك ليخلّف من ورائهِ صفحة طيبة الذكر من صفحات تاريخ العباقرة على الارض

— ٣ —

من أدب المرأة الالمانية :

تتحدَّث المرأة عن نفسها وآلامها فتبدي عن شيء وتخفي شيئاً حياءً منها وكبرياء . ثم هي تخلو الى القرطاس فتطرح عنها ثوب الكبرياء والخجل ، وتفتح أمامه مغاليق قلبها ليرى فيها أشياء غُمِّيَت على الناس ، وبين جنبيها قلب يحمل في اضعافه أنداء من العاطفة النبيلة حيناً وأعاصير من روح الشر العاصفة أحياناً . . . ثم هي تجد في قلبها نسمات الهوى فتنسى كل شيء إلاّ الرجل الذي أحبت أنانية منها وطيشاً ، والمرأة هي هي في كل حين وفي كل وطن

وأسلوب المرأة رقيق طلي يأخذ بالالباب كأنهُ رنّات صوتها العذب ، وقلبها معلق دائماً بالامل الحلو . . . الدار والرجل والولد ، تلك أمنية لا تستطيع ان تنزع عنها وان هي فعلت فلا تلبث ان تتردَّى فيها من ناحية أخرى

جريت جو لبرانس وفريدة اشترندرج واليصابات شخت ، ثلاث ممن كتبنَ في القصص الالماني فأبدعنَ وصفاً واتقاناً ، والمرأة — دائماً — تسبح في آفاق من الخيال منفسحة الارجاء ، فتجيد الوصف والتصوير . هكذا كانت السيدة جريت في قصتها الاخيرة « ظلال محبوبة » "Geliebte Schatten" فهي تصف في روعة ومهارة حياة أسرة عاشت تتقلب بين ربوع سويسرا وجبال المانيا الجنوبية

وإذا كانت جريت قد نشرت أمامنا صورة من خيالها الراقي الجميل ففريدة

تجذبنا الى عصور كان الناس فيها يهيمون بالعبقرية ويرفعونها الى سماء التقديس. ففي أواخر القرن التاسع عشر كان أمل كل فتاة مهذبة ان تلقي بنفسها بين احضان رجل تهبهُ جسمها وروحها ثم تقاسمهُ متاعب حياته واعباءه. ولقد سيطرت هذه الخاطرة على عقل الفتاة (فريدة) فوقعت في حبالة كاتب كبير يكبرها بسنوات وسنوات هو أوغست أشتر ندبرج وقعت في حبالتهِ حين اسرتها عبقريته وظرفه فتزوجت منهُ، غير ان حياتها الزوجية لم تدم طويلاً فافترقا . وبعد سنوات راحت هي تصور حياة الكاتب الكبير من الناحية النسائية — وهي ما تزال تهفو نحوه — ، ولعلَّ الغيرة التي تأججت بين ضلوعها — حين رأتهُ قد تزوج من غيرها — هي التي دفعتها الى ان تحلل خواطر الرجل الذي عاشت الى جانبهِ عمراً من عمرها ، بعد اذ أحست ببعض شقاوتهِ في داره الجديدة ، فأخرجت للناس قطعة من الادب العالي هي درة في جبين تاريخ الادب العالمي

وكتبت اليصابات شخت قصتها « يونكا » تقص حادثاً فيهِ السلوة والمتعة ، فهي تصف لنا فتاة جمعت بين الجمال الاوربي الجذاب وبين سمرة البشرة الشرقية الفتَّانة هي « يونكا » نفسها ، كانت أمها أميركية وأبوها أوربيًّا فاختار هو لها هذا الاسم يعني بهِ الفريدة ، وفي الحق لقد كانت فريدة في كل شيء ، في خلقها العالي النبيل ، وفي عاطفتها الشريفة المضطرمة ، وفي نفسها الرقراقة الصافية ، وفي عقلها الحصيف الناضج ، وفي جمالها الآسر الخلاَّب . . . تزوجت « يونكا » من ضابط الماني فتفتح الزواج عن طفلة جميلة هي ليلى بعث بها ابوها الى بلاده لتتلقى علومها هناك ، وبعد حين نجمت المرأة في زوجها ، على حين كانت قد تعلقت رجلاً من وطنها أميركا . . . واصطرعت الخواطر في رأس المرأة ، أفتترك وحيدتها هناك تتذوق مرارة الوحدة والغربة معاً ، أم هي تسرع اليها فتخلف قلبها عند الرجل الذي أحبت ، أم هي تدعو صاحبها ليرافقها الى هناك ؟ وأنى للرجل أن يفعل وهو زوج ، وامرأتهُ على فراش المرض ما تستطيع ان تبرح ؟ وجاءت ساعة الوداع لتنطلق الام الى ابنتها ويظل الرجل العاشق الى جانب زوجته المسكينة . . . وفي هذا الكتاب وصف رائع لاقطار كثيرة هي من معجزات الادب ولاسيما وصف يونكا لبلادها

ثلاث قصص تكتبها المرأة فلا تستطيع ان تخفي بعض ما يضطرب في قلبها وهو يتحرَّق شوقاً الى ان تصبح هي ربة دار وزوجة واماً . . . كامل محمود حبيب

الخلق القومي

في المانيا وفرنسا وانكلترا

أن السياسيّ الذي يقيم للمواد الخام وزناً في تقديره السياسي اكثر مما يقيم لفلسفة الشعب، او يعتقد ان الارقام افعل اثراً في توجيه التاريخ من الشعور، لا بدّ ان تأخذهُ الدهشة عندما يشاهد بأُمّ عينيه، ما لم يكن يتوقعهُ من تحوّل او انقلاب في اخلاق امة من الامم، والفلاسفة وحدهم يستطيعون ان يستشفوا تطور الاحوال الانسانية بدقة، وهذا حكم يصدق على افلاطون وفيقرون ونيتشه صدقهُ على الفلاسفة المحدثين. ولو ان الالمان عنوا قبل الحرب الكبرى، بفهم الخلق الانجلو سكسوني، اكثر من عنايتهم بانباء الجواسيس وارقام المدافع، لما اقدموا على الحرب، واذا عني الانكليز والاميركيون الآن بدراسة الخلق الالماني فقد يكون في وسعهم ان يحولوا دون حرب أخرى تتجمع نذرها في الافق الدولي

ان الفرق الحاسم بين تاريخ المانيا النفسي وتاريخ الشعوب الاخرى، هو التعارض في المانيا بين العقل والدولة. ففي العصور الزاهية في فرنسا وانكلترا نرى ازدهار الثقافة مقترناً باستفحال القوة المادية في الامتين. اما المانيا فقد كان عقلها يزدهر وثقافتها تشرق في العصور التي تنتابها فيها يد التمزيق والضعف. فاذا انحدرت على العدوّ وانبسط فوقها ظل القوة ضعف فيها الوزن الذي يقام للاعتبارات الروحية العالية. وفي وسع الباحث ان يتتبع هذه الظاهرة من عهد ارسموس المصلح الديني الى بلانك العلاّمة الطبيعي. بل ان جوته وهو اعظم حدث في تاريخ المانيا، نشأ في عصر كانت فيه المانيا ممزقة في الداخل مقهورة في الخارج. اما كوكبة الموسيقى من باخ الى شوبرت فارتفعت فوق ضعف الامة وتخاذلها كما تحلق الطيارة فوق اطباق الضباب الكثيف

ان الرجال الذين اذاعوا ذكر المانيا في الخافقين، رجال الفن والاختراع والتفكير والشعر، نشأوا وعاشوا في اظلم عصورها بل وفي ولاياتها الصغيرة الضعيفة بالقياس الى بروسيا. بل ان بروسيا لم تنجب خلال التاريخ الالماني من القرون الوسطى الى عصرنا الحاضر موسيقيًّا واحداً ولا شاعراً واحداً في الطبقة الاول بين الشعراء والموسيقيين

وليس بين رجال الفكر والقلم في المانيا من ادرك هذه الحقيقة كما ادركها جوته أو كان أشدّ منهُ نقداً لها. ولذلك روي عنهُ انهُ ذكر وهو شيخ ان المعلمين الثلاثة الذين يدين لهم بكل شيء كانوا شكسبير الانكليزي ولينيوس السويدي وسبينوزا اليهودي. وقد عاش طوال حياته وهو يحسّ ان الالمان «عظامٌ أفراداً ضعافٌ أمةً». ثم ان بطل جوته كان عدوّ وطنه — نبوليون — وأما نيتشه فقد حمل على بسمارك لانهُ جعل المانيا قوية

هذا الفصل بين الدولة والعقل في تاريخ المانيا ، ناشئ عن فقد روح الحرية الحقيقية . الا ان المانيا لم تكن الدولة الوحيدة التي قامت فيها طبقة عسكرية أخذت بيدها مقاليد الحكم لا ينازعها فيها منازع . ولكن الشعب قام في البلدان الاخرى على الطبقة العسكرية فأنزلها من رفيع عليائها . أما المانيا فقد ظلّت ثلاثة قرون متوالية ، والحاكم الحقيقي فيها طبقة الضباط (اليونكرز) وعليهم كان اعتماد الملك والامراء في الحماية وفي قمع كل ثورة . ولم يقم من صفوف الشعب من يثور على هذه الحالة . والمانيا هي البلاد الوحيدة في اوربا التي لم تقع فيها ثورة . فحرب الفلاحين قاومها لوثر مع انهُ أوحى بها ، وثورة سنة ١٨٤٨ انقضت قبل ان تترك أثراً باقياً ، أما في سنة ١٩١٨ فلم يكن هناك ثورة على رغم التحوُّل من ملكية تكاد تكون مطلقة الى جمهورية . وكل ما حدث في سنة ١٩١٨ ان طائفة من الامراء فرُّوا من البلاد ، تاركينها في أيدي فريق من أقطاب الاحزاب ، ليس لهم من المرانة والقدرة ما يمكنهم من تسيير مقدَّراتها . وهذا يفسّر لك تلك الظاهرة الغريبة في تاريخ المانيا الحديث ، وهي ان ملكاً او أميراً من بيوتها المالكة لم يخلعهُ الشعب . وقد تبينت ذلك بنفسي بعيد الحرب اذ زرت معظم الولايات الالمانية فكان أفراد الشعب يباهون بأنهم آخر من أشار على أمرائهم بالنزول عن عروشهم

ثم ان الشعب الالماني ، قلما كان برِماً بأنهُ لم يمنح الحقوق التي تتمتع بها الشعوب الاخرى . بل كان مكتفياً راضياً بأن يترك مقاليد الحكومة والجيش لطبقة الضباط ، فطغوا وبغوا وكانت النتيجة ان الحرية أخذت تختنق حالة ان التجارة أخذت في الاتساع . ومن غريب ما أرويهِ في هذا الصدد اني كنت أحدث أحد دهاة « اليونكرز » قبل الحرب فقال لي « سأخلف مالي وأرضي لاذكى أبنائي وأما من يليه فلينتظم في الجيش والثالث في وزارة الخارجية » . اما الرجل من الطبقة المتوسطة فكان يعقد أملهُ على نجاح ابنهِ في تجارتهِ او صناعتهِ او فنهِ . وكذلك ترى ان معظم اصحاب العقول الثاقبة والارواح النيرة في الامة الالمانية مستمدَّة من الطبقة الوسطى . وأما القواد والوزراء فيكادون ينحصرون في الطبقة الارستقراطية . ولا يسعنا ان نقول ان مجد المانيا الحقيقي قام على ممثلي الطبقة الارستقراطية ، يستثنى من ذلك بسمرك السياسي وكلايست الشاعر

هذا الفصل بين العقل والدولة في كل العصور كان الباعث على رسم صورة مزدوجة لالمانيا تنشيء اضطراباً وغموضاً في ذهن من يحاول ان يفهمها . فالمتتبع للتاريخ الالماني ، المعجب بمجدها الفني والفكري كثيراً ما يسأل : ما السرُّ في أن البلاد التي انجبت جوته وبيتوفن ، ترتدُّ في الحين بعض الحين ، او بالحري تنحطُّ في الحين بعد الحين ، الى مستوى هو دون المستوى العالي الذي بلغتهُ في الثقافة والحضارة ؟ إن السر في ذلك ان الرجل — رجل الشارع كما يصفونهُ — يميل على طول الزمن الى تقليد الرجال الذي يمثلون القوة والسلطان في قومهِ . فاذا رأى الطلاَّب ان المالي الكبير او الاستاذ المظم ، لا يدخل ذلك المجتمع الزاهر الاَّ من باب الرتب العسكرية

والملابس الرسمية الفخمة ، فلا تعجب اذا رأيتهم يقلدون الجنود في مظهرهم وان يعمدوا الى اثخان وجوههم بالجراح في مبارزات يقيمونها لاوهى الاسباب . ومن كان وجههُ اكثر ندوباً كان أعلى من زميله مقاماً . ان الملابس العسكرية والمبارزات الدامية استعادت مكانتها في المانيا الحاضرة ، وغدا الضابط كما كان بطل كلّ فتاة

وكانت نتيجة هذا التنظيم العسكري الدقيق ، فوضى الروح . ذلك ان صورة الدولة كما كانت طبقة الضباط تتخيلها ، جاءت بعيدة البعد كلهُ عن مُثل العقل وأهدافه العليا . فالطاعة والنظام لا بدَّ منهما في دولة من هذا القبيل ، ولذلك رفعا الى المقام الاول بين الفضائل . والالمان هم الامة الوحيدة على الارض التي تطيع عن شعور لا عن ضرورة . وكذلك انكمشت «مشيئة الحرية» فلم تجدها مبدأً الاّ في ساحة العقل ، فتولّدت منها «نزعة الفردية» التي أشار اليها جوته وترسخت

هنا نقبل على أهم الفروق بين الخلق الشعبي الالماني والخلق الشعبي الفرنسي . ذلك ان «الطاعة» تسود الحياة السياسية والاجتماعية في المانيا ، يقابلها نزعة قوية أساسها مقاومة القواعد الجامدة في حياة العقل . أما في فرنسا فالامر على نقيض ذلك . فالكاتب الفرنسي اذا استعمل صيغة من الصيغ التي ليست في القاموس الانسكلوبيذي اتهم بانتهاك احد القوانين . ولكن اذا علّق في الشارع اعلان يأمر الناس في باريس ان يمشوا الى يمين الشارع مشوا الى اليسار

إن أكبر خطر يتعرّض له سياسيّ الماني ، اشتهارهُ بانهُ عالم بحاثة في موضوع ما . ولو ان وزيراً المانياً ألف كتاباً عن هوميروس كما فعل غلادستون ، لكان موضوع سخرية . ثم ان فريقاً غير يسير من وزراء انكلترا الف روايات . اما في فرنسا فقلما تجد وزيراً لم يؤلف . ولكن ماذا نجد في المانيا — انها تهزأ براتينو لانهُ ألف ونشر خمسة مجلدات او ستة . وقد ظل البرنس بولوف يخفي عن قومه عشر سنوات انهُ من المتعمقين في دراسة فوست وفهمها . فالالماني يحكم بالسيف لا بالقلم

وهذا من اسرار الخلاف الدائم بين الجارتين الكبيرتين المانيا وفرنسا ، وهو لا يمكن ان يفهم على صحته الاّ اذا درس الخلق القومي في الامتين . الواحدة تملك ما يعوز الاخرى . وما يضعف الاولى يعزز من قوة جارتها . هنا على جانبي خط واحد ، امة دقيقة النظام جامدته تقابلها اخرى قليلة النظام وقلما تعبأ به اذا زاد عن حد معين . الواحدة متصفة بنزعة الى الصوفية . والثانية باجلال للمنطق . أحداها تبغي التوسع والثانية لا تريد سوى الدفاع

ان الالمان يستريبون كياسة الفرنسيين . والفرنسيون لا يأمنون توفّر الالمان . فالرجل الفرنسي يريد ان يترك وشأنهُ ، بل يؤثر ألاَّ يعلق اسمهُ على باب داره . اما في المانيا فثمة رجال مهمتهم ان ينظموا كل ناحية من نواحي الحياة حتى ناحية الملاهي . السلطات الحكومية في فرنسا على جانب عظيم من اللطف والظرف . ولكن بعض الخطابات تضلُّ طريقها . اما في المانيا فتصلك خطاباتك

في مواعيدها ولكن أولي الشأن يدمدمون في وجهك . كل انسان في فرنسا حتى رئيس الدولة «موسيو» . اما في المانيا فكل جزار وخباز يحب ان يكون ذا لقب . الفرنسي يحب هرَّهُ لانهُ يحتفظ بعزلته ويأبى كسيده ان يتلقى الاوامر من احد . وأما الالماني فيحب كلبهُ البوليسي الذي يقف كسيده طائعاً منتظراً الاوامر للانقضاض على العدوّ. ان الخضوع محتقر في فرنسا مبجَّل في المانيا . وهذان الرجلان — هاتان الامتان — مقضيٌّ عليهما ان يعيشا جنباً الى جنب...

واذا قابلنا بين الخلق القومي الالماني والخلق القومي الانكليزي ، تبيَّنا وجوهاً من الشبه في سجيتي الكفاءة في الاعمال وحب المغامرة في سبيلها . الاَّ اننا نجد فطرة اللعب ونزعة التهكم عنصراً اساسيًّا في الخلق الانكليزي وكلتاهما بعيدة عن الخلق الالماني . ان الانكليزي يغلب عليه حسُّ التهزل ، والالماني حسُّ المأساة بل و «حب الموت» على قول كلنصو . انهُ غير متصف بذلك التجرُّد الذي يحسب أساساً لفطرة اللعب السليمة . فهو لا يرغب في الظفر فقط بل ويحتقر الخاسر . وقد قيل أن الجنود الانكليز الاول الذين وقعوا في أسر الالمان في الحرب الكبرى حاولوا أن يصافحوا آسريهم فلم يمدّ المانيٌّ واحدٌ يدهُ اليهم

لقد عاشت المانيا وكأنها في ظل حكم دكتاتوري مطلق — اذا استثنينا عهد الجمهورية — مدى ثلاثة قرون وفي هذه الفترة لم يكن في وسع السلطة الحاكمة ان تتساهل في شأن التصوير الهزلي (الكاريكاتور) اذ ليس في المانيا شيء اسمهُ الجمع بين الولاء للحكام والهزل منهم . والهزل لا يمكن ان يكون بغير شعور الحرية ، والحرية لا تؤخذ الاَّ بالكفاح في سبيلها . ان الالماني يتصور الدولة هرماً ، ومطمحهُ الاعلى ان يكون اقرب ما يكون الى قمته . اما كيف يتناول زعيم المعارضة في انكلترا مرتباً من الخزينة العامة فيحيّرهُ . عدد القوانين المسطورة في انكلترا على أقله وفي المانيا على أكثره . والقاعدة في انكلترا أن كل مالم يمنع مباح . أما القاعدة في المانيا فان كل ما لم يُبَح ممنوع. واذكر انني عندما رأيت ركاب القطار في انكلترا يأخذون امتعتهم من عربة الامتعة بلا وصل أو وثيقة ، وأن الاعتماد في ذلك على «الكلمة» والثقة ظننت انني في جمهورية أفلاطون . على انني تبينت بعد ذلك بعض الفروق بين انكلترا والجمهورية الافلاطونية

ويجب ان نضيف الى فقد روح الحرية وشهوة الطاعة او الخضوع ، صفة ثالثة اساسية في الخلق الالماني ، وهي حب الالمان للموسيقى . ان فهمهم لا يمكن ان يكون كاملاً الاَّ اذا فهمنا أثر هذا الحب في نفوسهم . فالموسيقى هي الواحة الظليلة التي يلجأون اليها من متاعب التنظيم الدقيق . وكذلك لجأ الالمان الى موسيقى بيتوفن بعد خذلانهم في الحرب العالمية ، فعزفت موسيقاه في المانيا في السنوات التالية لعقد الصلح اكثر من اي عهد سابق

وليس من مجرَّد الاتفاق ان شعبين يكادان يكونان ابناء خؤولة وعمومة — كالانكليز

والالمان — يختلفان في موقفهما من الموسيقى هذا الاختلاف . فالانكليز شعبٌ سياسيٌّ . والسياسة قائمة على النزعة العملية . وهو اذن ليس بالشعب الموسيقي ، لان حب الموسيقى الاصيل المتأصل ينبع من نزعة صوفية . ولذلك فالشعب الالماني ، ليس شعباً سياسياً او بالحري ان الناحية السياسية من حياته تغلب عليها نزعة صوفية تجعلها خطراً دولياً ، وتقض مضاجع الحكومات ولا سيما وقد اضفيت الآن سمة الصوفية على «القوة» لا على الدولة فحسب فأصبحت بمنزلة العقيدة الربانية

منذ ما انشأ بسمارك الريخ الاول ، خشي اعظم المفكرين الالمان ، وعلى رأسهم نيتشه تأثير الانتصارات العسكرية في نفس الامة . وقد قال لي راتينو وهو من خير من اسدى خدمة لالمانيا خلال الحرب ، «اذا انتصرنا فسأذهب الى سويسرا وأعيش فيها» ذلك انه كان يخشى طغيان الطبقة العسكرية وقد واتاها النصر . هذه الطبقة العسكرية هي الحاكمة بأمرها في المانيا الآن وسببهُ ان تدريب الشعب على الحرية ، وغرس اصولها في نفسه ، في حاجة الى نظام اقوى وارسخ من جمهورية فيمار

والعالم يواجه المانيا اليوم ، وهي على عهده بها سنة ١٩١٤ مستعدة للقتال وللموت ، خاضعة للنظام ، آخذة بطاعة حكامها ، شاكية السلاح . ولكنها كانت سنة ١٩١٤ غنية واسعة التجارة جاهدة العمل مبدعة مبتكرة . يقابل ذلك انها تحسُّ اليوم بقوتها ولكنها تحسُّ كذلك بان العالم غبنها ، وانها خلقت للحكم ولكن النصر انتزع منها خدعة وميناً . فهي واقفة اليوم في دروعها تطلب الثأر . والخطر الصادر من المانيا في حالتها الحاضرة ليس سببهُ الرغبة في الحرب لصون الكيان بل الرغبة في الحرب لاسترداد ما تحسبهُ شرفاً مضاعاً

ان الالمان في قرارة نفوسهم لا يبغون المواد الخام والمستعمرات وحقول اوكرانيا . انهم يسعون وراء شيء ينزل في طبقة المثل العالية . انهم لا يبغون الحرب ليحفروا آباراً من الزيت خاصة بهم ، ولا ليزرعوا القطن الذي يحتاجون اليه في حقولهم . انهم يريدون الحرب للنصر نفسه . انهم يريدونها ليثأروا لانفسهم من الجناية التي اقترفت ضدهم عند ما انتزع منهم النصر خدعةً وغصنهُ ملتوٍ في ايديهم ثم توّجت هذه الجناية بذلك الخزي ، خزي منعهم عن التسلح !

لا يقنعهم اعجاب العالم بأنهم ثبتوا في وجه العالم اربع سنوات ، ولا باعجاب العالم بالعلم الالماني والاختراع الالماني والسفن والطيارات الالمانية وبما انجبتهُ الامة الالمانية من مؤلفين وفلاسفة وشعراء وموسيقيين وكيماويين وأحيائيين . ان ذلك ليس مجداً كما تفهمهُ الامة العسكرية . اما المجد في نظرها فيعني النصر بقوة السلاح . وكل من يشعر انهُ غبن يبالغ في مطالبه . وخطر الحرب تتجمع نذرهُ في الجوّ ، اذ ليس هناك ما يرضي المانيا إن نالته بالمفاوضة لا بالقوة والفتح . اعطهم تنجنيقا غداً فيطالبوا بعد غدٍ بجميع المستعمرات . اعطهم دانسنج فيطلبوا في الحال المجاز البولندي . انهم يشعرون

انهم ضحايا بريئة لدسائس العالم. ولكنهم يحسون في الوقت نفسه انهم على جانب من القوة لاخذ الثأر
واذا كان الالمان يطلبون النصر فذلك النصر يجب ان يتحقق في باريس . اذ من فرض عليهم عار فرساي ؟ وقلما تجد من يفكر في ان الفرنسيين — لولا تدخل ولسن — كانوا ينوون ضم الضفة الشرقية من نهر الرين وان الالمان كانوا عازمين على استبقاء جميع البلاد التي فتحوها . على ان الشروط الباهظة التي فرضها الالمان على رومانيا وروسيا لا تسوّغ في نظرهم ما ارتكب في معاهدة فرساي من الاخطاء . ذلك ان المشهد الذي تمَّ في بهو المرايا في قصر فرساي عند توقيع معاهدة فرساي مطبوع في ذهن كل طفل الماني . وقد ولَّد فيهم شعوراً بالصغار لا بدَّ من التخلص من ربقته مهما يكن الثمن

وقد أقنا نحن دعاة السلام من الالمان ، نكتب ونذيع مدى عشر سنوات ، داعين الى التفاهم الاوربي وتأييد العصبة كما يجب ان تكون ، وجاءت علينا فترة من الزمن بدى لنا فيها بريق أمل في ان يحل الفهم محلَّ الثأر . ولكننا نسينا ان احدى هاتين الامتين أعظم حيوية ، وأضيق أرضاً بشعبها ، وأشد استعداداً للكفاح من جارتها، واذا كان الشعب الفرنسي بعد هزيمته في حرب السبعين تحمل آثار هذه الهزيمة بصبر مدى أربعين سنة ثم تعرَّض ثانية لاعتداء المنتصر الاول عليه ، فأحرِ بألمانيا وهي المهزومة ان تستعدَّ لاعادة الكرَّة . واذا كنا قد عقدنا الامل يوماً ما على الحيلولة دون هذا ، فاننا كنا على خطإ لان الخلق الالماني يناقضه على خطٍّ مستقيم

ومن غريب الامر ، ان الطفل الالماني يتعلَّم في كتبه المدرسية ان شتراسبورج كانت المانية وستظلُّ المانية ، حالة ان هتلر يذيع في خطبه منكراً انهُ يرغب او يفكر في السعي الى استعادتها. واذ يؤكد لفرنسا ان لا باعث للنزاع بين الامتين ، يباع « كفاحي » في المانيا بعشرات الالوف من النسخ وفيه ما فيه عن ان فرنسا هي « العدوّ الاصيل ». كان العالم يحسب ان نقض معاهدة من كبائر الامور ، وجاءت عليه عشرون سنة منذ نشبت الحرب الكبرى ورواية « قصاصة الورق » من اكبر ما يوجَّه الى المانيا القيصرية من التهم . ولكن المانيا اليوم تقول « ان المعاهدات تظل نافذة ما زالت مؤاتية لمصلحة الدولة » . وقد قيل هذا القول ونشر في الجرائد الرسمية مصبوباً على معاهدات قبلتها المانيا عن رضاً ولم تكره عليها إكراهاً كمعاهدة فرساي . ومع اني كنت مخالفاً للهر بروننغ في الخطة السياسية ، الاَّ ان ذلك لا يمنعني من ان اقول ان بروننغ كان آخر الماني فاوض وعقد معاهدات على أساس من الثقة واحترام التوقيع

هذه الخصائص الاساسية في الخلق القومي الالماني متجمعة بارزة في عهد الحكم الحالي — على رأي اميل لدفج وعن مقالٍ لهُ في الاتلنتكي منثلي لخصنا ما تقدم — فروح المانيا المنبعثة لا يمكن ان تفهم الاَّ بدرس من هذا القبيل

مشكلة العالم الاقتصادية

وعلاجها بحسب تقرير فان زيلند

كان موضوع الحوائل التجارية في مقدمة الموضوعات التي استرعت عناية رجال الحكم والاقتصاد منذ ما وضعت الحرب اوزارها . وقد تنوّعت هذه الحوائل ، حتى كأن نظام الحماية والحواجز الجركية حينئذٍ لم يكن كافياً فوضع نظام خاص لتقييد الاستيراد في كثير من البلدان فلا يستطيع التاجر ان يستورد بضاعة ما الاّ اذا استصدر رخصة بذلك . وكانت حكومات تلك البلدان في كثير من الاحيان لا تذيع الاحصاءات الرسمية الخاصة بالوارد ولا عدد الرخص التي صدرت لاستيراد اصناف معينة من العروض ، فكان ذلك مانعاً دون الاعتراض على تحكم اصحاب الشأن في التجارة . ثم استغني عن نظام الرخص رويداً رويداً حتى الغي في اتفاق عقد سنة ١٩٢٨ واتفاقات اخرى تلته

ولكن حلّ محلّ نظام الرخص الخاصة بالاستيراد رفع الضرائب الجركية في معظم بلدان العالم . فلما اجتمع المؤتمر الدولي الاقتصادي في جنيف سنة ١٩٢٧ برآسة المسيو تونيس رئيس وزراء بلجيكا سابقاً ولاحقاً ، اشترك فيه فريق من اكبر رجال العمل والاقتصاد في العالم فنظر في موضوع الضرائب الجركية وأعرب عن رأيه في وجوب « وضع حدّ لزيادة الضرائب الجركية والسعي الى خفضها » . واخذت عصبة الامم بهذه الخطة فقرّرت في جمعيتها العمومية المجتمعة في خريف سنة ١٩٢٩ الموافقة على اقتراح اقترحته فرنسا وبلجيكا وانكلترا مشتركة ، افضى في سنة ١٩٣٠ الى « مؤتمر الهدنة الجركية » . ومع ان اعضاء المؤتمر لم يتفقوا على هذه الهدنة الجركية المرغوب فيها ، عقدوا اتفاقاً تجاريًّا من شأنه ان يجعل كل زيادة تحكمية في الضرائب الجركية عملاً صعباً او متعذراً لانهم جعلوه خاضعاً لشروط معيّنة .

الاّ ان هذا الاتفاق لم يبرم وعلى ذلك ظل العمل الدولي المشترك لخفض الضرائب الجركية حبراً على ورق . الاّ ان طائفة من الدول الصغيرة اقتنعت بالمبدإ فطبقته في دائرتها الخاصة وهي الدول المعروفة بدول « كتلة اوسلو » التي تشمل بلجيكا والدانمارك ولوكسمبورج وهولندة والنروج والسويد. ثم انضمّت اليها فنلندة . وكذلك اتفقت هذه الدول على ان تطبق مبدأ الاتفاق التجاري في معاملاتها بعضها مع بعض ووضعت لذلك اتفاقاً وقعته في ٢٣ دسمبر سنة ١٩٣٠ وهو مشهور باسم « اتفاق اوسلو »

الاّ ان الازمة الاقتصادية العالمية ، ما لبثت حتى استفحلت ، فعمدت شتّى الدول الى

أساليب مختلفة جديدة لتقييد التجارة وفي مقدمتها نظام الحصص وتقييد التبادل النقدي

والواقع ان نظام الحصص هو نظام الرخص وقد اتخذ شكلاً دقيقاً . ذلك ان القيد لا يفرض على مجمل الوارد من بضاعة ما فقط، بل وعلى ما يستورد منها من كل بلاد. أما تقييد التبادل النقدي فكان من شأنه اقامة الحوائل دون تسديد ثمن ما يستورده التاجر الا بترخيص من الحكومة . والقاعدة في هذا القيد ان يجعل تسديد المال ثمناً لما يستورد من بلاد ما ، خاضعاً لنطاق التبادل التجاري بين البلادين . حتى لا يزيد ثمن ما يستورد من بلاد ما على ثمن ما يصدَّر اليها بوجه عام

وكذلك اخذت صورة التجارة الدولية تتحوَّل ، من تجارة تشترك فيها دول متعدّدة ، الى صورة وحدتها التبادل بين دولتين

وقد كان في مقدمة البواعث على ظهور هذه الحوائل اضطراب سعر الذهب في مختلف البلدان . وهذا الاضطراب طغى على حدود المنافسة التجارية العادية ، فاضطرت الدول ان تعمد الى وسائل خاصة لحماية منتجاتها . ولكن الحالة تحسنت في أواخر سنة ١٩٣٦ باتفاق بعض الدول على تسوية أسعار نقدها ، مما مهّد السبيل الى عقد الاتفاق النقدي الثلاثي بين انكلترا وأميركا وفرنسا في ٢٨ سبتمبر من سنة ١٩٣٦ معلناً خفض سعر الفرنك ومعرباً عما تعلقهُ الدول من الشأن العظيم بالتخلي رويداً رويداً عن نظام الحصص وتقييد التبادل النقدي سعياً الى الغائهما

وعندئذٍ بدا لأُولي الامر انهُ من الحكمة اجراء بحث دقيق في خير الوسائل لتحقيق هذا الغرض. وذكر اسم المسيو بول فان زيلند في هذا الصدد على اعتبار انهُ خير من يتولى القيام بهذا البحث ، وذلك لانهُ من الخبراء المتمكنين من أساليب التجارة الدولية بما أتيح لهُ من دراستها عند ما كان مديراً ووكيلاً للبنك الاهلي في بروكسل ثم وزيراً للخارجية فرئيساً للوزارة البلجيكية . يضاف الى هذا ان الرجل الذي يعهد اليهِ بهذا العمل الخطير يجب ان يكون ممثل دولة من مصلحتها السعي الى اطلاق التجارة الدولية من قيودها . وقد كانت بلجيكا تلك الدولة. يستدلُّ على ذلك باشتراكها في غير اتفاق واحد من هذا القبيل كاتفاق أوسلو — المشار اليهِ آنفاً — واتفاق أوشي المعقود سنة ١٩٣٢ بينها وبين لوكسمبرج وهولندة على هذا الاساس

وفي شهر نوفمبر ١٩٣٦ كان المسيو فان زيلند — وكان حينئذٍ رئيساً للوزارة البلجيكية — في لندن فذكر لهُ بعضهم اقتراح قيامهِ بهذا البحث ، ولكنهُ لم يخاطب رسميًّا في هذا الموضوع الا في شهر ابريل من سنة ١٩٣٧ فقبل ما عرضتهُ عليهِ الحكومتان الفرنسية والانكليزية في هذا الصدد واستعان بأحد رجال الاقتصاد البلجيكيين — المسيو فرير — لان مهامَّ منصبهِ كانت تحول دون قيامهِ بجميع أعمال البحث وما تقتضيها من أسفار ومقابلات وحدهُ . فزار

المسيو فريز معظم حواضر اوربا وحادث اقطابها الاقتصاديين والسياسيين وسافر المسيو فان زيلند الى اميركا فاجتمع بالرئيس روزفلت ، وانتهى البحث في اواخر الصيف الماضي ، فلما استقال فان زيلند من رآسة الوزارة البلجيكية لاسباب تتعلق بالسياسة الداخلية في البلجيك تفرّغ لوضع تقريره وما عنَّ لهُ في هذا الموضوع الخطير من آراء ومقترحات

التقرير ثلاثة أقسام . أولها مقدمة عامة تناول فيها مسألة أساسية عليها يتوقف ما في القسمين التاليين . وهذه المسألة يمكن ايجازها في السؤال التالي : هل نسعى الى الرخاء الدولي بتعزيز تبادل العروض والخدمات بين الامم على اساس من حرية التعاقد والتبادل او نسعى اليهِ عن طريق الاكتفاء الذاتي فتعنى كل دولة في سدّ كل ما تحتاج اليهِ بالاعتماد على مواردها وصناعاتها الخاصة ؟ والمسيو فان زيلند يعترف بان هناك ما يمكن ان ينهض حجة لتأييد خطة الاكتفاء الذاتي وانها قد تؤتي ثمرة نافعة ولكنهُ يضيف الى ذلك ان الدول المكتفية ليست بمعزل عن تقلب الاسواق العالمية . فليس في وسع اية أمة ان تنسحب من مجمع الامم . وجميع الدول التي حادث فان زيلند وصاحبهُ اقطابها مجمعة على وجوب القيام بعمل مشترك لتقليل الحوائل التي تعرقل التجارة العالمية . نعم إن هذا الاجماع كان في كثير من الاحيان محوطاً بالتحفظ الشديد ، ولكن فان زيلند تبين في جميع محادثاتهِ اثر الرغبة الصادقة فشجعهُ ذلك على المضيّ في بحثهِ

أما القسم الثاني من التقرير فنقد دقيق لأنواع الحوائل القائمة دون التجارة العالمية الحرَّة وما يقترحهُ في سبيل علاجها . فالضرائب الجمركية ليست الآن اعظم هذه الحوائل بالقياس الى نظامي الحصص وتقييد التبادل النقدي . ولذلك يعود في ما يقترحهُ في هذا الصدد الى فكرة « الهدنة الجمركية » التي اقترحت سنة ١٩٣٠ الاَّ انهُ يستثني من الهدنة بعض الضرائب الجمركية المرتفعة جدًّا عن المستوى العام ويقترح خفضها حتى تتسق واياهُ . أما نظام الحصص فاقتراحهُ بشأنهِ يقوم على اساس من الحسم أي انهُ يجب ان يلغى . ولكن الغاءه لا يمكن ان يتم إلا رويداً رويداً ، وإذا كان مستوى الضرائب الجمركية في بعض الاحوال غير كافٍ لحماية معقولة للبضائع الخاضعة لنظام الحصص فلترفع الضرائب قليلاً وليلغَ هذا النظام . والحصص التي يجب ان تقدَّم الغاءه على غيرها هي الحصص المفروضة على المصنوعات . وهو يرى ان الاحتفاظ بنظام الحصص في ما يخص الحاصلات الزراعية لهُ ما يسوغهُ اذا كان الغرض منهُ توزيع المستورد منها على شهور السنة بحيث لا يضار الحاصل الذي تنتجهُ البلاد المستوردة . وعلى كل حال يرى المسيو فان زيلند انهُ يجب ان لا تفرض حصص جديدة ولا ان تجعل قيود الحصص القائمة اشد مما هي

فاذا انتقلنا الى موضوع الاضطراب النقدي والتباين الكبير في اسعار الكمبيو وجدنا ان لا امل للمسيو فان زيلند في علاج ناجع الاَّ في المستقبل البعيد عند ما تعود احوال العالم

الاقتصادية والمالية الى الطمأنينة والاستقرار . هذا العلاج يمكن ادراكه في آخر عهد غير قصير من الانتعاش الاقتصادي والتعاون العالمي لا في مستهله . ولا بدَّ في رأيه من تقبيح الاتفاق النقدي الثلاثي — انكلترا وفرنسا وأميركا — وتوسيع نطاقه حتى تنضم اليه كل دولة ترغب في الاشتراك في حركة انهاض التجارة العالمية . وكذلك يتاح نوع من الاستقرار الوقتي للنقد ، اما الاستقرار النهائي فنتيجة عوامل متعددة داخلية وخارجية ، ولا يمكن ان يحقق الا تدريجاً

وعند المسيو فان زيلند ان تقييد التبادل النقدي اكثر الحوائل الاقتصادية ضرراً بالتجارة العالمية ويجب ان يلغى . ولكن قبل ان تتمكن الامم من ذلك عليها ان تعالج مشكلة «الاموال المتجمدة» . اي يجب ان تسوي بقايا النظام القديم وهذا لا يستطاع الا بعقد اتفاقات لتسوية الديون ولا سيما في الدول التي طرأ على نقدها تغيير كبير . ثم توحَّد الديون وتحوَّل الى سندات تصدرها الدول الدائنة وتضمنها الدول المدينة وتستعمل لتمويل التجارة العالمية بواسطة هيئات عالية معيَّنة . وعند ذلك نستطيع ان ننظر في معونة البلدان التي الفت نظام تقييد التبادل النقدي فيها . وهذه المعونة يجب ان تفرغ في شكل اعتمادات تفتح لها وتمكنها من التصدير والاستيراد . ولعلَّ بنك التسويات الدولي خير هيئة تتولى هذا العمل . وقد تقتضي الحاجة ان تشترك الدول في انشاء صندوق خاص بهذا البنك لتمويل الاعمال التجارية المشروعة

حصرنا الكلام حتى الآن في الحوائل التجارية مجرَّدة عن صلتها باحوال العالم عامة . والاختبار يدل على ان هذا الحصر أو هذا التجريد لا يجديان في اصابة الهدف المقصود . فمشكلة التعاون الاقتصادي تعتمد بطبيعتها على عوامل متعددة منها السياسي ومنها النفسي . والواقع أننا اذا تغلغلنا في الموضوع الى منبعه تبين لنا ان اساسهُ تعزيز شعور التعاون والرغبة فيه ، في البلدان التي مضت عليها سنوات وهي تسعى الى الرخاء عن طريق القطيعة والاكتفاء الذاتي . والغالب ان البلدان التي اختارت هذا الطريق لم تختره مدفوعة ببواعث اقتصادية في المقام الاول ، بل ببواعث سياسية ونفسية . واذن فنحن أمام نوع آخر من العقبات التي تعترض التجارة الدولية وعلى هذه العقبات وقف المسيو فان زيلند القسم الثالث من تقريره . ولما كانت المهمة التي عهد اليه بها لا تشتمل على هذه الناحية من الموضوع فانَّ ما يقولهُ فيها محوط بشيء كثير من التحفُّظ. وعندهُ ان أهم المسائل التي يجب أن تعالج قبل ان هي ما يلي : ١ — مسألة توزيع المواد الخام توزيعاً غير متساوٍ وهذه المسألة متصلة وتجرُّ في أثرها مسألة توزيع المستعمرات ٢ — مسألة توزيع رؤوس الاموال توزيعاً غير متساوٍ ٣ — مسائل الاقليات العنصرية ٤ — الحاجة الى تسوية الديون والقروض الدولية ٥ — تأثير التنافس في التسلح ٦— المشكلات السياسية بوجه عام

وبعد ذلك عمد المسيو فان زيلند الى تلخيص بعض المقترحات لعلاج هذه المسائل . ففي ما

يتعلق بالمستعمرات مثلاً يشير الى تحويل البلدان المشمولة بالانتداب الى بلدان خاضعة للرقابة الدولية ، والى اعتماد سياسة الباب المفتوح في المستعمرات ، او الى انشاء شركات كبيرة برؤوس اموال دولية تمنح امتيازات خاصة للقيام باعمال اقتصادية بحت في المستعمرات . اما في ما يتعلق بالمواد الخام فيتخيّل صاحبنا انهُ في المكنة وضع نظام للمقايضة بين المواد الخام في البلدان التي تنتجها والخدمات العامة والمصنوعات في البلدان الصناعية . على ان كلَّ هذا لا يمكن ان يتحقق ويطمئن اليه الانسان الاَّ اذا عقدت تسوية سياسية عامة بين الدول

ومن الواضح اذن ، انهُ من المتعذر وضع اقتراح عام شامل تحل بمقتضاهُ مشكلة الحوائل التجارية في أوسع مقتضياتها ، ولا بدَّ حينئذٍ ان يكون الاعتماد على قواعد عامة يسهل تطبيقها وملاءمتها لمقتضى الحال ، والمسيو فان زيلند يتصوَّر عهدة تعقدها الدول وتقطع بها عهداً بأن تبذل ما في وسعها لرفع مستوى الحياة في بلدانها وبين شعوبها . وهذه العهدة لا بدَّ أن تشتمل على ناحية سلبية مؤداها الغاء جميع الاعمال والافعال التي تعارض المصلحة العامة وعلى ناحية إيجابية مؤداها التعهد ببحث جميع الحوائل التي تعترض سبيل التجارة بروح الصداقة والمودة . ولا تكون هذه العهدة الاَّ توطئة اذ لا بدَّ ان تعقبها اتفاقات عملية قائمة على البحث الدقيق التي قام بهِ حتى الآن القسم الاقتصادي في عصبة الامم

ومن المستطاع تطبيق هذا الاقتراح في ثلاث مراحل . أما المرحلة الأولى فهي مرحلة التوطئة وفيها يجتمع ممثلو الدول الاقتصادية الكبرى او على الاقل ممثلو فرنسا وبريطانيا وأميركا والمانيا وايطاليا (ولماذا أغفل اسم اليابان ؟) فيدرسون الموضوع درساً عامًّا . ثم يوسع نطاق البحث وينشأ مكتب خاص يتصل رجالهُ بالحكومات المختلفة داعياً اياها لبسط المصاعب والعقبات التي تعانيها في تجارتها الدولية ، وما هو العون الذي ترتقبهُ من الدول الاخرى في هذا السبيل ، او الذي تستطيع ان تبذلهُ للغير . ثم تجمع هذه الاجوبة وتبوَّب ويوضع على أساسها برنامج عملي ويلي ذلك المرحلة الثالثة وهي مرحلة المفاوضات الدبلوماسية لعقد الاتفاقات وتنفيذها

ان التقرير الذي وضعهُ المسيو فان زيلند آية في بابهِ . ذلك أن الرجل خبير اقتصادي وقد اتاح لهُ منصبهُ ومقامهُ وهو مشغول بدراسة الموضوع الذي عهد اليهِ بهِ ، ان يتصل بأقطاب الامم . ثم انهُ رجل عرف كيف يفصل في تقريره بين الاقتصاد والسياسة . فالقول الذي قالهُ لا ينزع عن قوس سياسية معينة فقولهُ اشبهُ ما يكون برأي الطبيب لان المسيو فان زيلند كتبهُ كاقتصادي لا كسياسيّ ، ومجرد ذكره للمشكلات المتسمة بالسمة السياسية يدلك على انهُ لم يحابِ . فهل تأخذ الحكومات بهِ ؟

لقد قال الطبيب قولتهُ ، فعلى المريض ان يدل ان فيهِ مشيئة للحياة — وتطبيق العلاج

باب المراسلة والمناظرة

هندسة الكون

بحسب ناموس النسبية

رد على رد

قرأت بامعان كلمة الأديب البحاثة نقولا الحداد في مقتطف فبراير (ص ٢٤١ — ٢٤٣) رداً على كلمتي المنشورة بمقتطف ينابر نقداً لكتابه النفيس «هندسة الكون بحسب ناموس النسبية» وكان بودّي ان يلاحظ العالم الفاضل نقولا الحداد ان تفرقتي علم الفوزيقا قسمين، أساسية في الطبيعيات الحديثة من وجهة نظري، ولبيان هذه التفرقة أقول ان جسماً ما كنا مشحوناً بالكهربائية على الكرة الارضية، طالما هو ساكن فهو يحدث من حوله مجالاً كهربائياً ولا يحدث مجالاً مغناطيسياً، ولكن هذه الحقيقة تدخل في اي قسم من الطبيعيات الحديثة؟

أنا شخصياً أراها تدخل في نطاق الفوزيقا الثانية لانها قائمة على اعتبار انساني، لانهُ بالنسبة لراصد في احدى السدم خارج مجرتنا، او بالنسبة لراصد مستقل عن حركة الارض، سيكون هذا الجسم الساكن المشحون بالكهربائية لفوزيقي الارض جسماً يتحرك بسرعة ١٠٠٠ ميل في الثانية، ونحن نعلم ان شحنة متحركة تحدث تياراً كهربائياً تابعاً للحالات التي تسمح بها قوانين الكهربائية المغناطيسية وتتمخض عن مجال مغناطيسي

اذن المسئلة تتصل بحركة الجسم وسكونه وهما أمران اعتباريان يدخلان في باب نظرية النسبية وكذلك يدخل في هذا الباب خلق الجسم المادي المشحون بالكهربائية لمجال كهربائي او مغناطيسي. وكل هذه المسائل معروفة للباحثين في علوم الفوزيقا ولكن هؤلاء الباحثين يندُّ عنهم ان هذه الصور التي نرسمها في علم الفوزيقا اعتبارية، أن صحّت من جهة رسم صورة للطبيعة المدركة فانها لا تصح لرسم صورة للطبيعة من حيث هي طبيعة. ويجب ان نلاحظ ان النظريات العلمية لا تخرج عن كونها شيئاً ذهنياً؟ ونحن لايمكننا الاً ان نكشف عن اثر خطانا، ولا نستطيع الخروج من التعميم الصادر عن ذواتنا الاً في ساحة واحدة هي ساحة « علم المقدار »

هذه التفرقة أساسية، وعدم انتباه جلّ علماء هذا العصر ان لم يكن كلهم جملهم يترددون في

خطأ فاحش وينقلبون من علماء واقعيين الى مثاليين، ذلك انهم لما رأوا امكان ربط العالم الخارجي في صيغ معادلات رياضية ورموز حسابية ظنوا أن هذا يؤخذ على ان الوجود عقلي مثالي، اعني يردُّ في نهاية تحليله للفكر، فهذا السر ارثور ستانلي ادنجتون الفلكي الانجليزي المعاصر ينشر بحثاً في صحيفة « الابزرفر » في عددها الصادر في ٢١ ديسمبر سنة ١٩٣٠ يكتب فيه ان العالم المادي ليس الا قرارة الرموز التي تتظاهر في واعيتنا، وهذا السر جيمس جينز الرياضي الانجليزي الشهير ينشر في نفس الصحيفة بحثاً في عددها الصادر في ٤ يناير سنة ١٩٣١ ويعلن في هذا البحث انضمامه للمثاليين معتبراً الوعي اس الوجود وان العالم المادي مشتق منهُ، وأنت لو ذهبت تستقصى آراء اساطين العلم في عصرنا لوجدتهم يتفقون في هذه النقطة، ولكنهم يقعون في التناقض فيما يكتبون، وهذا راجع للخلط في التفكير المجرد، اذ هم لا يدركون ان نجاح الوجهة الرياضية في ربط الحوادث وتفسير تصرفاتها لا يحمل على ان طبيعة الاشياء رياضية بل يدل على ان هنالك قاعدة معقولة تصل بينهُ وبين طبيعة الاشياء، فالاشياء هي الكائن الواقع والرياضيات ربط ما هو واقع في نظام ذهني على قاعدة العلاقة والوحدة وبعبارة اخرى ان الرياضيات نظام ما هو ممكن والكون نظام ما هو واقع. والواقع يتضمنهُ الممكن، ولذلك فالواقع حالة خصوصية منهُ. ومن هنا يتضح انهُ لا غرابة في انطباق الرياضيات على الكون الذي نألفهُ بل كل الغرابة في عدم انطباقها. لان لكل كون رياضياته المخصوصة فكونُ كونٍ من الاكوان مضبوط بالرياضيات شرط ضروري لكونهِ كوناً. ومن المهم ان نلاحظ مع الاستاذ ا. وولف استاذ المنطق بجامعة لندن ان هذا الخطأ الذي تردّى فيه علماء هذا العصر ونفرٌ من جلة علماء العصور الماضية يرجع لممارستهم الكثيرة للاستدلال الرياضي حتى لقد رسخ في ذهنهم ان العالم لا يخرج عن نسب وعلاقات رياضية ترد في نهايتها من حيث التحليل، الى الفكر، مع ان استعمال الرموز الرياضية لا يعني وجود الفكر وحده، لان العمليات الجبرية والرموز الرياضية تظل صوراً جوفاء حتى يتحدد لكل منها قيمة حسابية خاضعة للقياس والتقدير، والرياضة في ذلك كخاصة التفكير الذي يجري بين نسب فكرية خاصة تظل جوفاء حتى تدل كل منها على صور واحساسات لها قيم مخصوصة في العالم الخارجي

هذه هي نكتة تفكيرنا في التفريق بين ضربين من الطبيعيات، ضرب كما تخلقهُ تصوراتنا وتخيلاتنا وكما يخضع للتعميمات الصادرة من نفوسنا. وضرب يعرض للطبيعة من حيث هي، وهذا الضرب لا يتأتى الا في بعض ساحات علم الفوزيقا ومنها ساحة « علم المقدار »

على هذا الاساس يتبين حقيقة نقدنا لتعليل ظاهرة التقلص عند البحاثة نقولا الحدّاد، وهي تنصب على الفصل الثاني كله من القسم الاول من كتابه (ص ٣٥ — ٤١)، لانهُ فسّر

ظاهرة التقلص وكانهُ واقع حقيقة وبناهُ على توازن الذرة والتيار الذي ينشئهُ سرعتها او تسارع الذرة فقال ص ٣٦ :

« ان الجو الكهربائي المغناطيسي الذي تحدثهُ الذرة يتقلص في اتجاه سير النواة ولا يتقلص في الاتجاه المعامد له » وشرح هذا ص ٣٧ وص ٣٨ وملخص هذا الرأي :

« ان الذرة حين تكون متحركة تحدث جوًّا كهربائيًّا مغناطيسيًّا موجيًّا يشبه الجو الجاذبي تماماً . وامواج هذا الجو حالما تصدر من الذرة تنتشر الى جميع الجهات متتابعة حرة غير خاضعة لاي تأثير من قبل الذرة التي اصدرتها اي ان الذرة لا تجر جوّها معها بل ان النواة تندفع في جوها ، وكهربها يحذو حذوها ، بسير امواج الجو الذي نحن بصدده . وتنتج عن ذلك نتيجة طبيعية وهي ان اقواس الامواج امام خط سير الذرة تكون اقرب بعضها الى بعض من اقواسها الخلفية ، ومعنى ذلك ان الجو الكهربائي المغناطيسي الذي احدثتهُ الذرة اشد حدّة امام الذرة واقل حدة وراءها منهُ الى جانبيها . اما الكهرب فيجتهد ان يحافظ على بعده المقرر عن النواة ما امكنهُ . ولكن لان النواة سائرة يصبح كأنهُ يدور في فلك اهليلجي في حين يكون الفلك موازياً لخط السير . وكل ذرة من موكبة الذرات تحذو حذو الذرة التي نحن نصف تحركها وجوّها وبطبيعة الحال تندفع نحو القسم الاقل حدة من الذرة التي امامها لان قوة التدافع بين فلكي الكهربين المتلاصقين اقل ولذلك تصبح المسافة بين الذرتين المتلاصقتين اقصر منها بين الذرتين المتجانبتين المتجاورتين »

وانت ترى ان هذا التفسير فوزيقي يفسر ظاهرة التقلص وكانهُ واقع في عالم الذرة ، ولا اقول عن هذا التفسير خطأ من الوجهة الفيزيقية لان نفراً من العلماء يقولون بهِ ويعارضون بهِ تفسير اينشتين ، وانما اقول انهُ لا يتفق ونظرية النسبية التي كان البحاثة نقولا الحدّاد في مقام المبسط لها والشارح

ان نظرية اينشتين ترى التقلص ظاهريًّا اعني لا وجود له في العالم الذرّي وهو نتيجة من عدم امكان الراصد التفريق بين الزمان والمكان تفريقاً موضوعيًّا لانهُ مقيد بآلاته وبحركة النسبية التي تعطي له وجهة من النظر غير الوجهة التي تعطيها لراصد آخر لهُ من حركة النسبية ومكانه موقف آخر وقد شرحت وجهة نظر اينشتين في المقال الذي اشرت اليهِ في نقدي لكتاب البحاثة نقولا الحدّاد

واحب ان الفت نظر البحاثة نقولا الحدّاد لمؤلفات لورانتز ومنيقوفسكي وهو سيقف على حقيقة الفرق بين نظرة نسبية اينشتين ونسبية لورانتز لظاهرة التقلص . كما احب ان يلاحظ أني لا أعيب عليهِ لبوساً او غموضاً في شرحهِ لقضية اينشتين في التواقت ، وانما كانت كل ملاحظتي تنصب على نقطة واحدة وهي انهُ نظر لنظرية اينشتين في النسبية كناموس كوني وبني عليهِ

هندسة للكون مع ان فكرة اينشتين في التواقت غير مقبولة علمياً لانها قائمة كما قلت على خلط بين نظاريتين من هيئات القياس ، واما فكرة لورانتز في نسبية التواقت هي المقبولة من العلماء وقد توسعت في هذه النقطة وأفردت لها بحثاً في الجزء الثالث من كتابي Die Grundlangen der Relativitaetstheorie فيستحسن ان تراجع هنالك . او في احد المصادر التي تناقش نظرية النسبية

أما اشارتي لقضية انحراف شعاعة النور عند مرورها على مقربة من الشمس فهي تنصب على ان تفسير البحاثة نقولا الحداد ليس من نظرية النسبية العامة في شيء ، لانهُ قائم على نفس النظرة التي نظر بها لقضية تقلص الاجسام في اتجاه سرعتها (انظر ص ١٠٩ — ١١٠ من كتابهِ) وهي ليست من نسبية اينشتين ، انما تدخل في باب آخر من مبحث النسبية هي نسبية لورانتز — ولورانتز نفسه في نسبيته يفسر انحراف شعاعة النور التفسير الذي قدمهُ في كتابه البحاثة نقولا الحداد ، غير انهُ يعترض على هذا التفسير بانهُ لا يتفق واعمال البعثتين الفلكيتين اللتين رصدتا ظاهرة الإنحراف لانهُ يترتب على ذلك ما قاله البحاثة نقولا الحداد في هامش الصحيفة ١١٠ من كتابه مع ان نتيجة الرصد تثبت ان الانحناء واحد من جهة كوكبة النجوم التي امام الشمس وكذلك من جهة الكوكبة التي وراءها ، وقد اول لورانتز هذا تأويلات وخرّجها تخريجات تراها في مبحثهِ الاخير الذي نشره عن نسبيته عام ١٩٢٣

اما قضية تحدب الابعاد الاربعة فاشارتي تنصب على ان التحدب الذي قال بهِ الرياضيون منصب على اربعة ابعاد فراغية . اما التحدب الذي يقول بهِ اينشتين فكائن في عالم متمادي « الزمان — المكان » . وهذا التحدب الرياضي في عالم المكان غيره في عالم « الزمان — المكان » وهذا الفرق دقيق لم يتنبه لهُ الكثيرون من شراح النسبية حتى ان ادنجتون والارل رسل وجيمس جينز ترددوا فيهِ . والبحاثة نقولا الحدّاد جاراهم في خطئهم وظن ان التحدب الذي قال بهِ الرياضيون في عالم رباعي الابعاد هو ما انتهى اليهِ اينشتين نفسه وبودي ألاَّ يظن البحاثة نقولا الحداد اني اعيب عليهِ هذه الفرطات ، لانهُ لم يبرأ من مثلها او ممَّا يماثلها احد من شرّاح النسبية ، واني لا انكر ان السبيل الوحيد لعدم الوقوع في هذه الاخطاء هو ان تبقى النسبية في عليائها في صيغها الجامدة الرياضية ولكن من يفهمها وقتئذٍ من غير الذين في مكنتهم السير في الاستدلال الرياضي العالي ؟ لا اشك ان لا أحد !

اذن ليس هنالك سبيل الاَّ الوقوع في مثل هذه الاخطاء حتى تساق النسبية الى الافهام العامة ، واني واثق بان البحاثة نقولا الحداد لو صحح هذه النقط من كتابه لجاء فريداً في بابه ، بين الكتب المبسطة لنسبية اينشتين

اسماعيل احمد ادهم

الدهن والشحم

Oil and Fat

أرى الآن ان اعود الى هذا البحث للفصل فيه فانهُ لا يليق تركه فالالفاظ واضحة لا تقبل التأويل. فمن جملة ما قاله الاب انستاس ما يأتي بنصهِ :

ومن تعبير اللغويين للدلالة على ان الدهن يكون في الانسان شرحهم لكلمة الغفارة فقد قالوا فيها خرقة تكون دون المقنعة توقي بها المرأة خمارها من الدهن. وقالوا مثل ذلك في الصِقاع والصوقعة (ق) . وليس المراد هنا الدهن الذي تستعمله النساء للتطيب بل الدهن الذي يفرزه او يقذفهُ الرأس إذ لو كان من دهن التطيب لما عمَّم اللغويون الكلام واطلقوه على كل امرأة تستعمل الخمار وانما خصوا بهِ النساء لأن الرجال اقل استعمالاً لما يلبس على الرأس من النساء، لانهُ يلازمون ليل نهار والاَّ فرؤوس الرجال تقذف الدهن كما تفيض بهِ رؤوس النساء . انتهى

قلت ان سيادة الاب واهم هنا واليك ما جاء في تاج العروس في مادة غفر: الغفارة ككتابة خرقة تكون دون المقنعة توقي بها المرأة خمارها من الدهن . وفي مادة صقع : الصقاع خرقة تكون على رأس المرأة تقي بها الخمار نقله الجوهري كالصوقعة. وفي معجم لاين في مادة صقع وهو ترجمة التاج قال :

الصِقاع خمار a piece of rag which a woman protects her from oil in her hair putting it on her head

فتجد ان الاب انستاس واهم في ما قاله فالدهن لا تفرزه رؤوس الناس لا نساء ولا رجالاً بل هو الدهن او الزيت كما جاء في القرآن الكريم فالاب جعله شحماً رغبةً منهُ في جعل الدهن كذلك وهو مخالف للآية التي ورد فيها الدهن . ومن العجب ان ذلك يجوز على الجوهري والفيروزابادي والزبيدي ولاين الاعجمي . ولو تبصر الاب أنستاس في عبارة التاج لما حصل لهُ هذا الوهم فالدهن كما ذكرت في المقالة الاولى ولا يمكن غيره وكما ذكرت في مقتطفي ابريل ويونيو سنة ١٠٣٦ التي قبل السنة الماضية

فاذا أراد الواحد ان يقول الدهن فليقل انها عامية او مولدة امناً للعثار فلا يصطدم الدهن بكتب اللغة والآية الكريمة اما الدهن والشحم فكما ذكرت في صدر هذه المقالة والتي قبلها . ثم ان الدهن والشحم لم يردا في القرآن الكريم الاَّ في آيتين فقط وقد ذكرتهما . عرفت ذلك من فهرست فلوجل اشتراه لي وانا في بغداد الاب انستاس .

امين المعلوف

حول «مفرق الطريق»

مسرحية في فصل واحد

الى محرّر المقتطف : — هذه طرفة ادبية ، لوقيل لك : ان ثمنها زنتها لآلىء ، قل لهم : انكم تبخسون حقها ، لانها تزري بالدر ، وتسخر بالابيض والاصفر ، وما ذلكم الا لانها عروس بكر ، لم يعرفها انس ولا جان ، ولم يعهد مثلها اهل الدراية ولا ارباب العرفان

هي مسرحية ، افرغت في قالب بديع ، وضعهُ لها حضرة الدكتور الفنان ، الاستاذ بشر فارس ، وقد قدم عليها توطئة هي غرة البيان . فنحن لا نعلم ما نقرظ ، أالتوطئة وقد تفردت بمحاسن دلت على ما في صدر منشئها من دفائن الادب ، ام روائع الفن التي ترى في المسرحية نفسها ، فجعلتها يتيمة فذة في بابها

تلكم براعة دلت على براعة ، لا يأتي بمثلها الاَّ من قضى أشهراً وليالي ، في تذوُّق فن الروايات وصبها في قالب عصري فتان ، وصوغ مفردات لها هي فرائد ، غاص عليها صاحبها في ابحر العربية ، ومعاجمها الجمة ، ومخطوطاتها المتعددة . فجاءت تختال بأبهة ودلال ، تتحدى بمحاسنها الشائقة كل ما جاء من امثالها ، ممن سبق موشيها الى هذا الطراز

أما مغزاها فمن أحسن المغازي ، اذ حسبك ان تعلم انهُ وسمها (مفرق الطريق) فهو يحذر بها من أراد ان يختار لنفسهِ شَرَّى الطريقين ، عند وصوله الى هذا المفرق ، وان لا يتبع إلاَّ حسناهما . وقد صور كل ذلك بريشة إحدى الفنانات الفرنسيات فضلاً عن وصفهِ ببراعتهِ الساحرة. وعبارتها محكمة متقنة شائقة رائقة ، تجذب القارىء الى تتبع ما فيها من الوصف الانيق ، السليم الذوق ، الخالي من كل تعسف وتكلف

على أننا نأخذ على حضرة الكاتب انهُ قال في ص ٩ : « فتردَّ الرقص وثبة حرَّة وثبة النفس اللطيفة نحو الغبطة المضنية » . ونحن لم نسمع في حياتنا كلها « بغبطة مضنية » فهذان لفظان متضادان متنافران في معناهما . وعندنا انهُ لو قال : نحو الغبطة الميمونة أو الموفقة أو الفالحة او نحو هذه النظائر ، لكان كلامهِ أوفى بالمقصود

ورأيناه يكثر في التوطئة من استعمال «انما» حتى اننا لو اطلقنا على حضرته اسم «الدكتور انما» لما ظلمناه حقه وبخسناه مقامه . ولعل الكاتب الضليع ابقى في توطئة مسرحيتهِ هاتين الشامتين ليقال عليهما : انهما شدَّتا لون هذه العروس البكر ليبهر حسنها ، حسن سائر ما تقدمها من أشباهها او ليكسف جمالها الساحر الفتان ، جمال البدر التم . فكفى بذلك عذراً !

الاب انستاس الكرملي



الرحلة الاخيرة للمنطاد هندنبرج

ليونهاردت ديلت

كاتب هذا المقال كان أحد الركاب الناجين وهو يصف تلك الحادثة المروعة

ابتدأت الرحلة مبشرة بنجاح اكيد وكانت هي المرة الاولى التي اركب فيها منطاداً. كانت رؤية العالم الارضي من المنطاد متعذرة اولاً ولم نكد نتميز شمال الاطلنطيكي حتى كنا عبرناه . اما الركاب الآخرون فقد امضوا وقتهم بين تسلية وعمل فبعضهم كان يقرأ والبعض يحرر خطابات والبعض الآخر يتكلم عن مشكلة المانيا في حجرة التدخين واجتمع الاطفال يلعبون في براءة الطفولة وانهمك النساء في التطريز وشغل الصوف . واخترق السفين السحب القاتمة كأنه يخترق سحاب ليل مقمر

وفي صباح اليوم الثالث تمكنا من رؤية نيوفندلند فظهرت النظارات المكبرة وآلات التصوير من صناديقها ومما زاد في سرور زوجتي انها رأت خلال النظارة ان النقط البيض الصغيرة التي لم تستطع تمييزها بالعين المجردة انما هي جبال الجليد العائمة ولقد أمر الكابتن ان يطير المنطاد على قرب منها فرأيناها في جلاء كأنها تماثيل رخامية هائلة وبرزت الشمس من خدرها وانعكست اشعتها على الثلوج متموجة بديعة فكان منظرها يسلب الالب ويأخذ بمجامع القلوب ورأينا بطون الاودية ومرشد السفن الكبير عند كايب ريس وغابات الصنوبر الشاسعة ثم اختفى الشاطىء وارتفعنا ثانية — منطاد سنجابي اللون يخترق فضاء سنجابياً فوق المحيط الكبير اللانهائي . وبعد ظهر اليوم الرابع من الرحلة كنا قد وصلنا الى الحدود الاميركية من تحتنا بوسطون ملتفة في ضباب كثيف

وكان الجميع في هرج يجمعون اوراقهم الخصوصية واهتم الخدم بأسرة النوم فكوموها في نهاية الممشى ورتبوا الحقائب الكثيرة في البهو الاسفل وكنا حينئذ فوق نيويورك حيث رأينا ناطحات السحاب وقد لفها الضباب فظهرت رؤوسها كأنها مسامير بارزة من لوحة كبيرة . وعند ما بدت الشمس بعد هنيهة قلت كثافة الضباب وكنا على علو يسير فامكننا ان نرى مصوري الصحف على قمة امبير بيلدنج ورأينا الجسور (الكباري) ظاهرة كأنها في

تصميم هندسي نائي، أما تمثال الحرية الكبير فظهر كدمية خزفية صغيرة . وبعد قليل بدأنا نهبط ببطء ناحية القاعدة في لاكهرست حيث كان الجميع يتوقعون وصولنا في الساعة الرابعة ولكن العاصفة الشديدة وما تخللها من رعد وبرق كانا يحيطان بنا ويتبعاننا كذئاب جائعة مفترسة اجبرتنا على التأخر . ورأيت السيارات الكثيرة واقفة على جوانب المطار والناس يلوحون بأيديهم في حماسة . ومما زاد في اغتباطي علمي بان اخوي من المستقبلين ولم اكن رأيتهما منذ ثلاثين عاماً

وكان المنطاد متجهاً برأسه ناحية الجنوب والعاصفة على اشدها والبرق يخطف الابصار ولكن لم يكن هناك رعد. ودار المنطاد نصف دورة وعلى فجأة هدأت العاصفة قليلاً وكانت جميع العوامل تبشر بنزول المنطاد في سلام تام ورغم ذلك لم ينقطع البرق الذي كان يحيط بنا ويتبعنا بينما اتجه برأسه الى فوق وسار بسرعة كبيرة وسط الامطار التي أخذت تنهمر ورأينا الحظيرة وقد فتحت ابوابها ودار المنطاد دورة سريعة ليتجنب مواجهة الرياح وابتدأ في النزول ورأى القائد ضرورة تفريغ المياه لتقليل سرعة الهبوط ورمينا حبلين طويلين لاننا كنا وقتئذ على بعد ١٥٠ قدماً من الارض وأخذ العمال يجذبون المنطاد ناحية إحدى الصاريات المتحركة

وكنت وزوجتي وقتئذ نتطلع من نافذة جانبية وفجأة لحظت سكوتاً فجائياً مطبقاً وطبعاً كانت المحركات جميعها ساكنة ولكن خيّل اليّ وقتئذٍ أن العالم جميعهُ قد شمله سكون عميق مرعب ولم أسمع أمراً ولا نداء ولا صوتاً قط ورأيت من مكاني الناس على الارض وكأنهم قد تصلبت أجسامهم وأخـــذوا ينظرون ناحيتنا في بلاهة ورعب وسمعت أثر ذلك فرقعة خفيفة كصوت زجاجة البيرة عند فتحها فدرت بصري الى المقدمة ورأيت النار مشتعلة فيها . لم تكن هناك الا وسيلة واحدة للنجاة وهي ان أقفز في الحال . أظن ان المسافة كانت وقتئذ ١٢٠ قدماً وخطر ببالي ان آتي بملاءة الفراش لأخفف من أثر الصدمة ولكن في تلك اللحظة اصطدمنا بالارض صدمة شديدة نصحت بأعلى صوتي الى النافذة وسحبت زوجتي وقد أخذت ترتعش فرقاً

***

ولقد ادرك الجميع الحقيقة المروعة ويخيل اليّ الآن ان القدر الظالم لم يعط ضحاياه الفرصة حتى للشعور بروعهم وإدراكه واني لست أعلم الآن ولا زوجتي كيف قفزنا من النافذة

كان المنطاد قد ارتطم بوجهه ولما كنا في الجزء الاعلى فقد كان بيننا وبين الارض نحو ١٥ قدماً . لم نشعر الا وقدمانا على الارض وكانت الصدمة قاسية نوعاً فركزنا على ركبتينا بضع ثوانٍ وقد احاطت بنا سحائب الغاز المشتعلة ولهيبها يشوي الوجوه . كان على كل منا ان يترك يد زميله ليفسح لنفسه طريقاً وسط الاتون الحديدي المشتعل واقسم اني كنت أوسع يدي

الطريق ولم اشعر بالالم من جراء مسك الحديد الحامي . لم يكن هناك منفذ قط فالنار تحيط بنا من جميع النواحي فكنت كأني في حلم غريب وليس لجسمي حقيقة او وجود بل كان كأنهُ يسبح في الفضاء

وفي لحظة تبيَّنت أن زوجتي ليست بجانبي فالتفت الى الوراء ففاجأتني ألسنة اللهيب والدخان الخانقة في وجهي كأسواط الجحيم ورأيتها منبطحة على الارض فذهبت اليها وركزتها فقامت بنفسها وأخذت تتبعني كانها في حلم او كأنها دمية ميكانيكية ادير مفتاحها وتعثرت أنا الآخر بدوري ولكن بالزيت الملتهب الذي كان يغطي الارض

غمرني وقتئذ شعور غريب، شعور من وصل الى نهاية الطريق شعور من أدرك ان النهاية قد دنت . وسعدت بهِ فقد كان الموت اكثر ما يتمنى وسط ذلك الجحيم المرعب . ونظرت ناحية زوجتي فرأيتها تجري بسرعة غريبة وقد احترق نصف وجهها فزودني ذلك بشجاعة جديدة وقمت من عثرتي وداومت الجري ناحية الحياة كشيطان رجيم

وعلى فجأة تنفست الهواء ووقفت جامداً ثم اتجهت ببصري ناحية المنطاد فرأيته خلف اللهب الكثيف قطعة من نار واقسم ان وازعاً دفعني للاتجاه اليه ولم يكن ذلك طبعاً لانقاذ غيري ولعلها غريزة المخاطرة واهلاك النفس التي تدفع بالفراشة الى النار وفيها حتفها ولكني سرعان ما رجعت الى صوابي عند ما رأيت زوجتي متمددة على الارض بجانبي وسمعتها تئن أنين الموت

أتت مركبة الاسعاف وحملتنا الى مستشفى المطار الذي كان يعج بالناس وتصاعدت آهات الالم من الجميع وأخذ الممرضون يحقنون الجميع بالمورفين ولقد سمعت باذني شاباً يطلب حضور عروسه من المانيا وقسيساً . ودخل ضابطان يساعدان كهلاً على المسير وقد احترق نصفه الاسفل فكانا في الحقيقة يحملانه ورأيت كثيرين وقد احترقت شعورهم وآخرين امتزجت بالدماء حروقهم ورأيت رجلاً يبحث عن زوجته وقد ذهب بصره

ولم تكن حروقي على كثير من الخطورة فقادوني الى الحجرة المجاورة حيث كان الكابتن لهمان ممدداً على الفراش وقد نزعت عنهُ ملابسه وعلمت ان ظهره قد انكسر مما زاد في خطورة حالته فاقتربت منهُ وقلت له ما السبب؟ فقال: البرق ولم يقل بعدها في حياته كلمة

وعندما خرجت من الحجرة كان المنطاد لا يزال يحترق . . . نقلها : محمد سعد فوزي

هل تعلم

* ان أقدم الطيور عاش من نحو ١٥٠ مليوناً من السنين وكان عاجزاً عن الطيران ؟

* وان عمق بعض آبار النفط في الولايات المتحدة الاميركية بلغ ميلين وان المهندسين يزعمون انهم قادرون ان يبلغوا عمق ثلاثة أميال بما لديهم من الاجهزة الآن

عنصران أثقل من الاورانيوم

لا وجود لهما في الطبيعة

في جامعة ستانفورد بكليفورنيا باحث طبيعي شاب يدعى فيلب ايلسن اعلن في الاسبوع الثاني من شهر دسمبر الماضي ما قد يكون من أهم المكتشفات العلمية الحديثة . ذلك انهُ تمكن بحسب قولهِ من تحويل عنصر الاورانيوم الى عنصرين أثقل منهُ فأيد بذلك مباحث فرمي الايطالي الذي اعلن من سنتين انهُ صنع من الاورانيوم عنصراً جديداً

في الجدول الدوري الذي وضعهُ منديليف الروسي وفي جدول الاعداد الذرية الذي وضعهُ موزلي الانكليزي ، مكان لاثنين وتسعين عنصراً . اخف هذه العناصر هو الايدروجين ورقمهُ الذري واحد واثقلها عنصر الاورانيوم ورقمه الذري اثنان وتسعون . وكان الظن الى ان اذيع اكتشاف فرمي الايطالي ان ليس وراء هذه العناصر عناصر اخرى في الطبيعة . ولكن اذا تأيدت مباحث فرمي وايلسن فقد اصبح في وسع الانسان ان يخلق عناصر لا وجود لها في الطبيعة . بل ان ايلسن يقول ان هناك ما يدل على وجود عنصرين آخرين عدا العنصرين اللذين صنعهما ، رقمهما ٩٥ و٩٦ ولكن هذه الادلة ليست بوافية الآن

صنع الاستاذ فرمي العنصر الثالث والتسعين باطلاقهِ النوترونات على عنصر الاورانيوم ذلك ان النوترون لاشحنة كهربائية له فلا تفعل فيهِ القوى الكهربائية فيستطيع ان يخترق النطاق الكهربائي المضروب حول نواة الاورانيوم فاذا اصاب نوترون نواة الاورانيوم قذف منها كهرباً ولصق هو بالنواة فتصبح نواة عنصر جديد هو العنصر الثالث والتسعون

الاَّ ان العنصر الثالث والتسعين ليس مستقراً اي انهُ مشع ولا تلبث نواته حتى تطلق كهرباً آخر فيصبح عنصراً جديداً هو العنصر الرابع والتسعون

وكان الظن ان العنصر الثالث والتسعين الذي صنعهُ فرمي قصير العمر فلا يلبث حتى يتحول بانطلاق ذريرات (دقائق الفا) من نواتهِ الى راديوم فالى رصاص . ولكن مباحث ايلسن في كليفورنيا اثبتت ان وراء الاورانيوم عناصر ليست بقصيرة العمر كما كان يظن وان نصف حياتها نحو الف سنة — وهو حقيقة جديدة — اي ان العنصر يفقد نصفهُ بالاشعاع في مدى الف سنة على نحو ما يفتقد الراديوم نصفهُ بالاشعاع في مدى ١٦٠٠ سنة

***

والطريقة التي يعتمد عليها في احداث هذا التحويل هي تناول نوى الايدروجين الثقيل — وهي تعرف باسم دوتيرونات من دوتيريوم اسم الايدروجين الثقيل — فتوضع في جهاز جديد استنبطهُ لورنس الاميركي

وتمنح زخماً عظيماً بدورانها دوراناً رحوياً فيه فاذا بلغت مرتبة معينة من الزخم اطلقت على لوح من عنصر البريليوم فتصيب ذراته وتقذف منها نوترونات وهذه النوترونات تصيب بدورها وهي منطلقة عنصر الاورانيوم فتولد منه العنصر الجديد اي العنصر الثالث والتسعين ومن العنصر الثالث والتسعين يتولد العنصر الرابع والتسعون

التلفزة الملونة

فوز عظيم للمخترع الانكليزي بيرد

« التلفزة » لفظ عربنا به لفظ التلفيزيون الفرنسي ولفظ « التلفشن » الانكليزي وهو يعني نقل المرئيات عن بعد وفي الوسع استعمال الفعل « تلفز » واسم الآلة « التلفاز » يتلوه وصفه بالمذيع أو باللاقط وكذلك اسم المفعول « المتلفز » بفتح التاء والفاء

إن قراء المقتطف يعرفون ان شركة الاذاعة البريطانية لها محطة خاصة في قصر الكسندرا بلندن تذيع منها برامج تلفزة فيلتقطها كل من يملك تلفازاً لاقطاً وقد سبق لنا ان نشرنا رواية « آخر المرحلة » وهي من أشهر مسرحيات الحرب أذيعت كاملة بالتلفاز المذيع من قصر الكسندرا فتمكن اصحاب « التلافيز » اللاقطة أن يتتبعوا فصولها ومشاهدها وقد بدأت شركة الاذاعة البريطانية اذاعة هذه البرامج في شهر اكتوبر من سنة ١٩٣٦ ومن المشاهد التي أذيعت منها موكب التتويج وسباق السيارات ومباريات التنس بومبلدون والفوتبول والملاكمة وغيرها وحفلة محافظ لندن وحفلة يوم الهدنة

ولكن يؤخذ من آخر ما اتصل بنا من الاحصاءات ان أصحاب التلافيز اللاقطة في المنطقة التي يشملها البرنامج لا يزيد على ثمانية آلاف وهو عدد قليل بالقياس الى عدد السكان في تلك المنطقة وهم نحو اثني عشر مليوناً وعدد الاجهزة اللاسلكية اللاقطة نحو مليونين ويعلل ذلك بغلاء الاجهزة وخشية الناس ان يكون التقدم سريعاً في اتقانها فيضطرون الى نبذها وقصر الوقت المخفض للاذاعة التلفزية

الا ان هذا لم يثبط من همة المخترع العظيم بيرد فبعد ان تقدم جميع المخترعين في تحقيق فكرة التلفزة تحقيقاً عملياً عمد مؤخراً الى جعلها ملونة وذلك باستعمال ثلاثة ألوان اساسية في التلفاز المذيع صادرة من ثلاثة مصادر مختلفة وهي الازرق والاخضر والاحمر ثم تجمع هذه الالوان في التلفاز اللاقط فتولد منها ظلال الالوان المختلفة وتبدو الاشباح في ألوانها الطبيعية

ولا ينكر المستر بيرد ان التلفزة الملونة لم تبلغ مبلغ الافلام الملونة من حيث دقة التلوين ووضوح الاشباح ولكن الاختراع لا يزال في دور التجربة ولا بدَّ ان يسفر البحث والامتحان عن اتقانه

الغدة التكفية وتأثيرها في النمو

في سنة ١٨٥٥ ظهرت رسالة موجزة في موضوع الغدة التكفية ولكن مؤلفها كان يجهل وظيفتها . وكان بعضهم يظن انها عضو أثري لا عمل لهُ الآن . الاَّ انها قد تتضخم أحياناً فتضغط رقبة الطفل فيموت اختناقاً . وهي جسم رخو وردي اللون قائم فوق القلب يكون وزنه عند الولادة نحو ربع أوقية ثم يكبر حتى يبلغ وزنه عند البلوغ أوقية كاملة . ثم يضمر رويداً رويداً فلا يبقى منهُ الاَّ أثر يسير

وقد ظلَّ عمل هذا الجسم غامضاً حتى أخذ باحث يدعى جودر ناتش قطعاً من الغدة التكفية وغذى بها الشراغيف (صغار الضفادع) فنمت نمواً عظيماً من دون ان تتحول الى ضفادع تامة وصنع الباحث « ريدل » خلاصة من تكفية الثور وحقن بها حماماً مصاباً بضعف في غدتهِ التكفية فبدت في هذا الحمام آثار عجيبة اذ جعل يبيض بيضاً سويًّا بعد ما كان يبيض صفار البيض فقط

وفي سنة ١٩٣٤ تمكن الباحث رونتري من تحضير خلاصة هذه الغدة وغذى بها الجرذان ففاز بنتائج تبعث على الدهشة

ذلك ان الاجيال المتتالية من الجرذان كانت تفوق بعضها بعضاً في سرعة نموها وتبكير نشاطها الجنسي. فلما كان الجيل الرابع والخامس برزت أسنان الجرذان بعد انقضاء ٢٤ ساعة فقط على ولادتها مع ان المدة التي تنقضي بين الولادة وبروز الاسنان في الجرذان السوية ثمانية أيام . وتفتحت عيون الصغار في هذين الجيلين بعد انقضاء يومين مع ان هذا لا يتم عادةً الاَّ بعد انقضاء أربعة عشر يوماً على الولادة وتمكن من فطمها بعد ثلاثة أيام من ولادتها وبعد ثلاثة أيام أخرى استطاعت ان تسبح وما بدا في أعمالها الحيوية والفسيولوجية من اسراع بدا كذلك في نمو غرائزها الجنسية فجيلها العاشر استطاع ان يخلف نسلاً بعد انقضاء ٤٣ يوماً على ولادتهِ مع ان السوي منها لا يخلف نسلاً في العادة قبل انقضاء مدَّة تتفاوت من ٨٠ يوماً الى ١٢٠ يوماً ولو أسرع نمو الغرائز الجنسية في الصبيان والبنات بهذا المعدل لبلغوا سن النضج التناسلي في الثامنة الى العاشرة من العمر

ان الباب الجديد الذي تفتحهُ هذه المباحث الطريفة ولا سيما في تربية المواشي لباب سحري يعجب منهُ الانسان ويروَّع عند يتأمل في ما قد يفضي اليه

***

هبوط الارض

كانت الارض حول مدينة لندن في العصر الحجري أعلى مما هي الآن نحو ستين الى سبعين قدماً وانها لا تزال آخذة في الهبوط بمعدل تسع بوصات كل قرن ؟



مقاييس الكفاءة للاستقلال

تأليف الدكتور ولتر هولز رتشر — استاذ العلوم السياسية في جامعة بيروت الاميركية
صفحاته ١٥٠ قطع المقتطف

ألف الدكتور رتشر هذا الكتاب باللغة الانكليزية ونشره سنة ١٩٣٤ ثم طلب اليه فريق كبير من اصدقائه ان يعنى بنقله الى اللغة العربية، فعهد الى مساعده فؤاد خليل مفرّج بترجمته وبعدما مضى شوطاً غير يسير في نقله الى العربية « دعي لعمل آخر خارج الجامعة فأفضى الى وقف الترجمة » فأتمها الكاتب البليغ شاكر خليل نصّار ووقف على الطبع في المطبعة الاميركية ببيروت فخرج الكتاب كجميع ما تخرجهُ جامعة بيروت الاميركية فائدة ورونقاً

والفكرة التي تدور من حولها بحوث الكتاب مجملة اجمالاً طيباً في توطئته قال المؤلف :—

«ان نظام الانتداب الذي نصت عليه المادة الثانية والعشرون من ميثاق عصبة الامم مسلم به انهُ بطبيعته نظام وقتي وأنهُ سيشاهد ان عاجلاً أو آجلاً الغاء الانتدابات عن البلدان المنتدب عليها والاعتراف باستقلالها . والميزة الهامة في هذا النظام اقراره بأن هذا التطور الذي يؤدي الى الاستقلال لا يتم الاَّ بعد ان تبرهن الامم المنتدب عليها أنها قادرة ان « تقف وحدها تحت ضغط الاحوال في العصر الحاضر » . على ان هذه الاحوال لم تحدَّد بطريقة ما كما انهُ لم توضع مقاييس للكفاءة عامة القبول يمكن ان تتجه اليها انظار الامم المنتدب عليها او أن يقاس بها مقدار الرقي الذي تبلغهُ كل أمة من هذه الامم

«وغير خافٍ ان وضع مقاييس معينة لمعرفة كفاءة الامم المنتدب عليها وتقرير مؤهلاتها للاستقلال ضروري لأمرين أولهما اعتباره خطوة جوهرية نحو الغاء الانتداب وثانيهما نزع الشك وعدم الثقة اللذين يخامران عقول الامم المنتدب عليها من جراءِ ما سمعوه من الوعود غير المحدودة بنيل الاستقلال ، واقامة هدف ظاهر تتجه اليه تلك الامم بقواها في سعيها الى الاستقلال . وقد كان الامل عند ابتداء بحثنا هذا في سنة ١٩٢٧ ان نلقي نوراً على هذه المشكلة المظلمة كما انهُ كان غرضنا ان نقوم بالبحث مقابلين بين مختلف المقاييس التي تقدمت بها الامم التي تطلب الاستقلال في نهضاتها القومية التحريرية لعلنا نستخلص منها مقاييس صحيحة عامة يمكن تطبيقها سياسيًّا تطبيقاً يظهره شيوع استعمال هذه المقاييس . وما جاءت سنة ١٩٣١ حتى قامت اللجنة الدائمة للانتدابات في عصبة الامم ، بعد تحليل المشكلة تحليلاً استدلاليًّا ، بوضع بعض الشروط العامة

التي يجب ان تحققها الامة قبل رفع نظام الانتداب عنها . فاتخذنا هذه الشروط هدفاً للاشارة والمقابلة بينها وبين المقاييس التي اظهرها تحليلنا الاعمال والسوابق التاريخية تحليلاً استقرائياً

«وقد قادنا البحث الى هذه النتيجة وهي أن المقاييس التي كانت توضع لحالات مختلفة الظروف من حيث الجنس او العنصر وجغرافية البلاد وماضيها التاريخي كانت تتشابه تشابهاً ظاهراً على وجه العموم الامر الذي يؤيد صحة الافتراض ان هناك مقاييس عامة يصح استعمالها في كل الاحوال . واذا كان قد ظهر فرق بعض الاحيان بين هذه المقاييس فانهُ كان نتيجة الملاءمة والمقتضيات السياسية ويمكن اعتباره شذوذاً يؤيد القاعدة العامة ولا يقاومها اذ انهُ كان شذوذاً ايضاً في تصرف الدول المختلفة

«والظاهر جليًّا ان مقدار الفائدة التي تجنى من هذه المقاييس في تقرير اهلية جماعة ما للاستقلال تتوقف على تمكننا بطريقة حسية ظاهرة من معرفة ما اذا كانت الجماعة المذكورة قد حققت الشروط التي تتطلبها هذه المقاييس . ولسوء الحظ ليس لدينا الاَّ القليل من الوسائل التي تمكن بها من قياس درجات التقدم التي تبلغها الجماعات قياساً بالكمية والمقدار . وايجاد وسائل كهذه لايزال مشكلة قائمة أمام مهارة الخبراء والعلماء الباحثين الاحصائيين»

فاذا عرفت ان المؤلف طبَّق هذه القواعد العامة على العراق وجزائر الفلبين والهند في دراسة مفصلة مقابلة وافرة الاسانيد شغلت ثلاثة فصول مسهبة وانهُ ضمَّ اليها فصلين في « مقاييس الاعتراف بالدول الجديدة » و « مقاييس الدخول في عصبة الامم » ، علاوة على مقدمة عظيمة الفائدة في تحديد موضوع الكتاب عرفت ان الدكتور رتشر ومساعديه قد أسدوا خدمة كبيرة للدول العربية بنشر هذا الكتاب الحافل بكنوز الحقائق والمبادىء السياسية.

***

على هامش السيرة

الجزء الثاني

للدكتور طه حسين بك ٢٨٤ صفحة من القطع المتوسط

حقًّا ان الدكتور طه حسين بك عميد كلية الآداب في مصر قد بلغ الغاية التي كان ينشدها من وراء تأليف هذا السفر النفيس ، وذلك بطريقة كلها حذق ودراية . وقد ابرز هذا احسن ابراز صديقنا الدكتور بشر فارس في الحوار الذي كلّف وضعهُ لحفلة تكريم معالي محمد حسين هيكل

باشا التي اقيمت في دار الاوبرا الملكية في الثامن عشر من شهر مارس والحوار يجري بين استاذ وطالب في الجامعة المصرية بعد مائة سنة . وموضوع الحوار « محاكمة فرسان السيرة الثلاثة » والفرسان هم محمد حسين هيكل (مؤلف « كتاب محمد ») وطه حسين (مؤلف « على هامش السيرة ») وتوفيق الحكيم (مؤلف « محمد ») ونورد هنا الجانب الخاص بكتاب الدكتور طه حسين بك لما فيه من صدق النقد والرشاقة في التعبير

الاستاذ — واما الكتاب الثاني ؟

الطالب — صاحبه كان دعامة من دعائم جامعتنا ، حفظت وسلمت ! وكان قد حلف لينصرنَّ الفكر الحر فلقي في سبيل ذلك مصاعب وللرجل رسالة جليلة منشورة في مجلة كانت تبرز في مدينة حلب (يعني « الحديث ») ساق فيها ما وقع له ودفع الإشكال القائم بين الدين والعلم . واما الكتاب فقل سمكة تملص من بين اصابعك ، تقرأ فتقول : ما هذا علماً بل اساطير جُمعت وسردت في اسلوب لطيف وعبارة اخاذة . ثم تقلب فيه النظر فتقول : ليس هذا بعلم ولا بأدب وان كان جامعاً لها ألطف جمع : لقد والله كان ذلك الرجل على جانب عظيم من الحذق . تراهُ يتشبث بنص السيرة اذ تحدث عن الرسول وافاض في الاخبار المتواترة ، ثم يفلت وينسرح ساعة يأخذ الحديث في غير ذلك . ويعينهُ في الحال الاولى علمه الثاقب بتاريخ الاسلام وفي الحال الثانية مخيلته الزاخرة

الاستاذ — وما كانت غايته ؟

الطالب — ان يرد جانباً من جوانب المنقول ادباً حيًّا تصاب فوائده على غير كلفة

الاستاذ — وهل ادرك غايته ؟

الطالب — نعم يا سيدي الاستاذ

ففي هذه الجمل القلائل ابرز صاحب الحوار ميزة الدكتور طه حسين المفكر الحر والمنشىء المتمكن في « هامش السيرة » ثم دل على انهُ لم ينزل عند رغبة عامة القراء اذ عالج الكتابة في السيرة وقلمه مستقل فقال ما شاء ان يقول متفنناً مصوراً من دون ان ينحرف عن الاصول وهو العالم بها ، حتى ان كتابه جاء يجبر العقول بل يغلبها على امرها فيضطرها ان تقبل الادب القديم في شكل جديد كلهُ رواء ، ثم دفع صاحب الحوار ما اتهم به الدكتور طه حسين بك من جانب بعض النقاد لما قالوا انهُ انما عالج الكتابة في الاساطير . والتحقيق ان « على هامش السيرة » كتاب فيه ادب وعلم يتراسلان نحو غاية جليلة مفيدة هي « ان يردَّ جانباً من جوانب المنقول ادباً حيًّا »

مفرق الطريق

تأليف بشر فارس — طبعة فاخرة جداً في ٤٠ صفحة من القطع الكبير — مطبعة المعارف بمصر الثمن ١٢ قرشاً عدا أجرة البريد

عرف أبناء العربية عامة وقرّاء المقتطف خاصة ورجال الاستشراق الدكتور بشر فارس أديباً متفنناً ، وبحّاثة مدققاً ، ولغويًّا متضلعاً ، وعُرف الى جانب كل هذا بشاعريتهِ الرمزية العميقة التي يصوّر بها أحاسيسه تصويراً ليس فيهِ جمود الواقع فتحس ان وراء ألفاظهِ عوالم شتى بها أشباح متلاحقة . ما تكاد تميز واحداً منها حتى تلقاهُ قد انطوى خلف سحر آخر يلاحقهُ

وللدكتور بشر عناية دقيقة باللفظ المتفق مع الجو الذي ينظم فيهِ أو يكتب عنهُ بل ان اللفظ من ألفاظهِ يخلق بذاتهِ جوًّا للمعنى ، ومن يقرأ قصيدته « الخريف في باريس » يتسمع قطرات المطر وهي تتساقط ، ومن يقرأ أغنيته لحبيبتهِ في الشروق ويستمع الى البيت التالي يستمع الى سقسقة العصفور منبعثة من ثنايا الالفاظ : —

سقسقَ العصفورُ ما سقسقَ همساً في وسادك

وما ذلك الا للعناية التي يبذلها شاعرنا في المزاوجة بين اللفظ والمعنى وخلق الجو من هذا التزاوج

ولقد شاء ان يتحف لغتهُ في ناحية من نواحيها التي اختطَّت حديثاً في الادب العربي — ناحية الادب المسرحي — بأثر من آثاره ، فوضع مسرحية في فصل واحد ، وكلنا نعلم قلة هذا النوع في أدبنا حتى يكاد يكون الى العدم أقرب منهُ الى القلة غير أنهُ لم يستطع ان يتخلى عن أسلوبهِ الرمزي فغمس ريشتهُ من ألوانه ورسم أفكاره وأغراضه واتجاهات نفسهِ رسماً خلق للفكر مجالاً بعيداً للتأمل وأفقاً مترامي الاطراف للخيال المنسرح ، وقد أتحف المقتطف بدوره قرّاءه بهذا الاثر . وقد مهّد لهذه المسرحية بتوطئة فريدة في بابها بسط فيها الاسلوب الذي أجرى عليهِ مسرحيته ، وهذه التوطئة قطعة من الادب التحليلي الخالص للاسلوب الرمزي

قد يجد القارىء العادي صعوبة في فهم هذه المسرحية بل قد تتعب القارىء الذي لا يهيها إحساسه كله عند المطالعة او المشاهدة فتمر بهِ كما تمر الفرصة السعيدة بالمتناوم المتكاسل . وقد أشار الى ذلك المؤلف في توطئته

والمسرحية تصور لنا التجاذب النفسي بين العقل والشعور فتعرض لنا صورة تمثل على مسرح الحياة ، وخصوصاً في هذا الزمن الذي طغت عليهِ موجة الاستهتار ، أشخاصها ثلاثة رجلان وامرأة فأما الرجلان فأحدهما غارق في نفسه تائه عن رشده ، وثانيهما أحد هؤلاء المسحورين بالاضواء التي تلفهم بين دهشتها وتأخذهم ببريقها ، وأما المرأة فهي معلقة بين عالمي هذين الرجلين تسوقها عاطفتها فتكاد تهوي بها الى الحضيض فتصرعها ويجتذبها عقلها وقد ردّها اليهِ الالم المنبعث

من نفس الرجل الاول فتستيقظ وتتوب الى رشدها وتتجه صعداً الى ثلج العقل تطفىء فيه حرارة العاطفة . إن قراء العربية التي طلع عليهم الدكتور بشر فارس بهذه المسرحية ليشاركوننا في شكره على المتعة الذهنية التي أتاحها لنا ولهم آملين ان لا ينقطع هذا الفيض « الصيرفي »

السير

محاضرات اذاعها محمد سعيد لطفي الحائز لشهادة الشرف من جامعة اكسفورد ومستشار الاذاعة اللاسلكية للحكومة المصرية — صفحاته ٢٣٧ قطع المقتطف حرف ٢٤ ابيض

لسنا في حاجة الى إقامة الدليل على ما للاذاعة اللاسلكية من مقام وأثر في تعليم الشعب وتهذيبه . فهي مدرسة الامة ، يتصل اثرها باصغر القرى وأنأى الدور . او هي منبر عام يقف عليه الخطيب سواء أكان ام اديباً ام مؤرخاً ام واعظاً ، فلا ينحصر صوته بين اربعة جدران ولا تقتصر فائدة ما يقول على عشرات او مئات . ومن هنا المكانة الاجتماعية التي احرزتها الاذاعة اللاسلكية في عصرنا ، وعلى مقدار ما يبذله رجالها من السعي لتحقيق اغراضها التعليمية السامية ، نهوضاً بالتبعة العظيمة الملقاة على عواتقهم، بحكم لهم او عليهم

وليس ثمة ريب في ان الاذاعة اللاسلكية للحكومة المصرية — ادركت منذ يومها الاول — على حداثة عهدها — ما عليها من تبعة كبيرة في نشر النور ، نور العرفان والارشاد — في طبقات الامة المصرية والامم الناطقة بالعربية في البلدان المجاورة . فاستعانت بالادباء والشعراء والعلماء والمؤرخين علاوة على حشد اسباب الطرب على انواعها لكي تنهض بجانب من التبعة الاجتماعية التي يشعر رجالها بانها تبعتهم الخاصة . والفضل الاكبر في تنظيم كل ذلك لمستشار الاذاعة الاستاذ محمد سعيد لطفي . ومع ان العمل الذي قام به يستغرق وقت وجهد اكثر من رجل واحد ، عمد الى اعداد احاديث في « سيرة الرسول وبعض اصحابه وقرابته » واذاعها. ولا نشك في ان المؤلف المذيع أسدى خدمة عظيمة الشأن لسماع الاذاعة المصرية ، لاننا اشد ما نكون حاجة في هذا العصر الى بث ما اتسف به اولئك الافذاذ من خلق قويم ، وعزم صلد ، وفضائل جعلتهم أئمة في الدين والعلم والسياسة يؤتم بآرائهم النافذة وحكمتهم العالية ويقتدى بهم

وقد وصف المؤلف طريقته في مقدمة ساقها الى والده الكريم في الدار الآخرة فقال : « رويت التاريخ ياوالدي كما كنا نتحدث ساعات التسلية فلم ارهق المستمعين ولم اذكر اسماً إلاّ لضرورة ولا بلداً الاّ لحادث جلل ونزهت من تناولت سيرهم جميعاً عمّا لهج به الحاسدون وأدخله عليهم الاعداء والموتورون » . ثم اوجز طريقة تناوله لسير الخلفاء الراشدين ومعاوية وعمر ابن عبد العزيز وهشام وابي العباس السفاح وهارون الرشيد والامين وغيرهم من أقطاب الاسلام ولهذا الكتاب ميزة أخرى على غيره من الكتب في انهُ أول كتاب عربيّ أُلف خاصة

للاذاعة اللاسلكية . وسيرى متتبعو الادب العربي الحديث ، إن انشاء محط الاذاعة اللاسلكية العربية ذو أثر كبير في توجيه أساليب الكتابة العربية ، لان ما يكتب ليذاع ، يجب ان يتصف بخصائص بيانية تختلف عمّا يكتب ليقرأ ، وفي مقدمة هذه الخصائص البيانية الوضوح وقصر الجمل وتخير الالفاظ السهلة الجزلة ، وكلّ ذلك حتى يستقيم للمذيع تحقيق غرضهِ وهو الاستئثار باصغاء الجمهور . وكتاب الاستاذ محمد سعيد لطفي مثل طيب على هذا الانجاه .

نباتات النحل الاوربية

European Bee Plants

ومجلة مملكة النحل

تأليف الفس بايت الن — طبعته مجلة مملكة النحل بالاسكندرية — صفحاته ١٥٠ قطع المقتطف (مصورة)

ليس في مصر مَنْ لا يذكر للدكتور ابي شادي فضل الدعاية للنحالة العصرية واذاعتها والنهوض بهذه الصناعة الزراعية الى فن من الفنون يمارسهُ الطفل والفتاة كما يمارسهُ الرجل فقد دأب منذ تسع سنوات على تعزيز هذه الحركة حتى استطاع ان يحمل وزارة المعارف على ادخال النحالة في مدارسها وتدريب التلاميذ عليها ، وأنشأ من اجل ذلك مجلة «مملكة النحل» وأسس لها رابطة تضم كبار المشتغلين بهذه الصناعة وأصبح امر النحالة بطرقها العصرية من المسائل التي تعنى بها جميع الطبقات الزراعية في مصر . ولقد خطت مجلته الى سنتها التاسعة وهي تحمل لقرائها آثار كبار المشتغلين بالنحالة في العالم . وبهذه المناسبة نشر الدكتور ابو شادي كتاباً حديثاً باللغة الانجليزية عن النباتات العسلية او نباتات النحل الاوربية لعالم انكليزي هو القس بايت آلن وليس بغريب ان يكون احد القساوسة الانكليز عالماً نحّالاً فتاريخ الانكليز العقلي حافل بآثار العلماء ولا سيما المواليدين منهم من طبقة رجال الدين

الكتاب علمي عمليّ يتناول اسم النبات السائر والعلمي وترتيبهُ في جدول الفصائل النباتية وخصائصهُ ووصف حبيبات لقاحهِ ومقابلةً بين النباتات التي يختلف اليها النحل لامتصاص أريها وتحويله عسلاً

هذا الوصف الموجز لا يفي بتبيان قيمة الكتاب العلمية وفائدتهِ العملية ولكن العالم الفاضل الاستاذ محمود مصطفى الدمياطي تفضل فعمد الى ترجمة أسماء النباتات الواردة في هذا الكتاب على نحو ما فعل في طائفة كبيرة من النباتات في الفصول النفيسة التي نشرها لهُ المقتطف بعنوان « مفردات النبات » بين اللغة والاستعمال ، وسيلحق باسم كل نباتٍ أشهر أوصافهِ وما يستعمل لهُ وبذلك تصبح مقالات الاستاذ الدمياطي — وسنشرع في نشرها في مقتطف مايو — مرشداً نافعاً يزيد من فائدة هذا الكتاب للنحالين في مصر والبلدان العربية

تاريخ ابن الفرات

المجلد التاسع : الجزء الثاني — عني بتحرير نصه ونشره الدكتور قسطنطين زريق والدكتورة نجلا عز الدين — جامعة بيروت الاميركية — وطبع بالمطبعة الاميركية ببيروت — صفحاته مع الفهارس ٥٩٠ قطع المقتطف

قلنا في مقتطف دسمبر ١٩٣٦ عند صدور الجزء الاول من المجلد التاسع من هذا السفر النفيس ما يلي

«صاحب هذا التاريخ هو ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن علي بن الفرات المصري الحنفي وُلد سنة ٧٣٥ هـ ودرس على جماعة من علماء زمانه وأجازه فريق منهم . . . . وأكبَّ على دراسة التاريخ وكتابته فوضع فيه مؤلفهُ الكبير . وتوفي ليلة الفطر سنة ٨٠٧ هـ

«أما تاريخهُ فقد أجمع المترجمون لهُ على انهُ كان كبيراً جداً تبلغ مسودتهُ نحو مائة مجلدة وان ابن الفرات لم يكمل تبييضه بل أتمَّ تبييض المائة الثامنة ثم السابعة ثم السادسة منهُ ، فلما بلغ المائة الخامسة فالرابعة أدركهُ أجلهُ . وذكروا ان هذا التاريخ كثير الفائدة الاَّ ان عبارتهُ عامية جداً غير سليمة من الاخطاء اللغوية . وقد جرى على قاعدة اكثر المؤرخين في عصره فرتب حوادث تاريخية بحسب السنين وأورد الوفيات في آخر كل سنة

«لم يحفظ من هذا الكتاب الاَّ نسخة واحدة فريدة يوجد منها في المكتبة الامبراطورية في فينا تسع مجلدات وقد نقلت بالفوتوستات للعلامة المغفور لهُ احمد تيمور باشا فوضع لها مقدمة وجيزة واستقصى المصادر التي اعتمد عليها ابن الفرات وذكر ما في النسخة من السقط والتقديم والتأخير ، وهذه النسخة محفوظة في دار الآثار المصرية . وفي مكتبة الفاتيكان مجلد يعتقد لوستراانج انهُ أحد المجلدات الساقطة من نسخة فينا وبين مخطوطات المكتبة الوطنية بباريس مجلد يظهر من وصف ده ملاين لهُ انهُ يمتُّ كذلك الى النسخة الاصلية . وفي مجموعة شيفر مخطوطة وصفها بلوشيه بأنها المجلد التاسع او الثامن من تاريخ ابن الفرات وهي تبدأ بأخبار الملوك الساسانيين وتنتهي بشعراء الجاهلية»

والجزء الثاني كالجزء الاول منشور على احدث الطرق العلمية في نشر الوثائق والاصول التاريخية تحقيقاً ومقابلة واسناداً . وفي هذا الجزء مائة وعشر صفحات من الفهارس للاشخاص والقبائل والشعوب والاماكن وهي تشمل متن التاريخ دون المقدمة اما الحواشي فلم يؤخذ منها الاَّ المنقول عن هوامش الاصل . والقاعدة في صنع الفهرس :« ايراد اسماء الاشخاص باكثر ما يمكن من التفصيل ذاكرين — بالترتيب — الاسم فالكنية بـ (ابن) فالنسبة ، فالكنية بـ (ابو) فالشهرة ومتبعين بقدر الامكان ترتيب المؤلف عند ذكره للاعلام بصورتها التفصيلية في الوفيات او في المواضع الاخرى . ولم نعتبر في الترتيب الابجدي الكلمات الموضوعة ضمن قوسين او حاصرتين او كلمة اطلب . كذلك اهملنا اداة التعريف والف ابرهيم واسمعيل واسحق وابن حين وقوعها في وسط الكلم . . . »

تاريخ الفن المصري القديم

تأليف الاستاذ محرم كمال

اخرج الاستاذ محرم كمال الامين المساعد بالمتحف المصري هذا السفر النفيس وقد بذل في اخراجه جهداً كبيراً وبحثاً مدققاً فقسم الكتاب الى عشرة فصول شرح فيها باسهاب كل ما تناوله قدماء المصريين من تنوع الحرف والصناعات في جميع الفنون فعرف في الفصل الاول طبيعة الفن المصري وقال ان فن كل امة يخضع كما تخضع اخلاقها لمؤثرات عدة تختص بطبيعة الاقليم الذي نشأت فيه . فالمناخ والمناظر وسائر ما تتميز به امة عن اخرى ، كل ذلك يكيف الروح الفنية كما يكيف القوم انفسهم . « واذا اراد فن ان ينسج على منوال فن آخر كان هذا خلطاً بين الافكار » . تصور معبداً كورنثيًّا او كنيسة نورمندية او هيكلا صينيًّا تجد كلاًّ منها بطبيعة الحال مناسباً وملائماً لاحواله الخاصة التي اقيم فيها . ولكن اذا بني المعبد الكورنثي في انجلترا والكنيسة النورمندية في الصين والهيكل الصيني في مصر ، كان وضع كل منها خطأً كبيراً . ومن اجل ذلك اذا اردنا ان نفهم فنًّا ما وجب علينا ان نبدأ بتعرف عوامل هذا الفن وأحواله وخصائصه والجو الذي نشأ فيه

فالفن المصري اذا نظرنا اليه من وجهة الفن الصحيح الحقيقي نجده قد وصل الى اعظم مرتبة من الحقيقة ولقد نبا ذوق هذا الفن عن اقامة الابراج العالية التي لا يحيط ولا يمسك بها شيء ، كما انهُ لم يرد ان يعبر عن الجمال الخيالي ومشاعره في البناء بما يخرجه عن حدود الرسوخ والثبات

والكتاب مزين بالصور الكثيرة التي تشرح كل الاعمال والصناعات التي قام بها القدماء المصريون . ومن فصوله فن العمارة المدنية والحربية والعمارات الجنازية والنحت والحفر والنقوش في الدولة القديمة ، وقد وزعته مجلة الهلال الغراء هدية على مشتركيها

الضرائب ومصروفات الدولة

تأليف روفائيل مسيحة — صفحاته ١٠٠ من قطع المقتطف ، مطبعة المجلة الجديدة

الاهتمام بدراسة المالية العامة حديث بالنسبة لغيرها من العلوم ولعلَّ السبب في هذا راجع الى ان العلاقة بين الفرد والحكومة كانت قائمة على الرهبة وقد أخرج الاستاذ روفائيل مسيحة هذا الكتاب وعالج فيه المبادىء العامة للضرائب وباقي ايرادات الدولة بشيء من الايجاز توخى فيها الناحية الاجتماعية لا الناحية الادارية التفصيلية كطرق جمع الضرائب وطرق صرف النفقات العامة

ولقد تعددت الضرائب في المجتمع الحديث فقلما يجد الانسان شيئاً خالياً من الضرائب ، فالثياب التي نرتديها والمأكولات التي نتغذى بها والمسكن الذي نأوي اليه والكتاب الذي نقرأه والملهى الذي نروّح فيه عن نفسنا كل هذه موضوعات للضرائب ولذا أصبح الانسان مجموعة متحركة من الضرائب ولهذا فقد أصبحت متصلة بحياتنا اتصالا وثيقاً

والكتاب مطبوع على ورق جيد طبعاً نظيفاً ويطلب من جميع المكاتب الشهيرة بمصر



الكولونيل شايه لونج بك

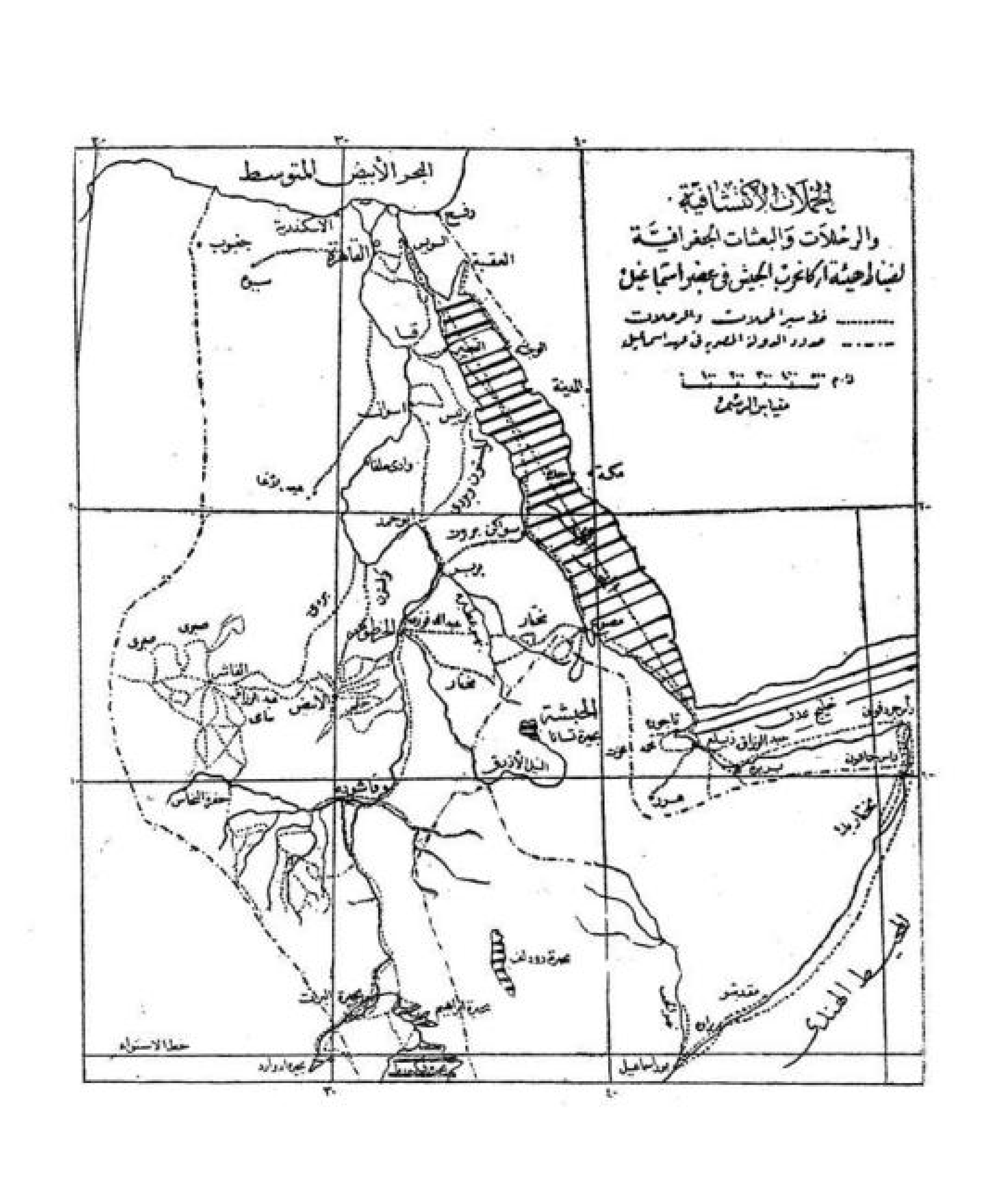
الجنرال ستون

[جميع صور المقال مهداة من الجمعية الجغرافية الملكية]



الكولونيل كولستون

الكولونيل براوت


الحملات الاكتشافية
والرحلات والبعثات الجغرافية
لضباط هيئة أركان حرب الجيش في عصر إسماعيل
خط سير الحملات والرحلات
حدود الدولة المصرية في عهد إسماعيل
مقياس الرسم
البحر الأبيض المتوسط
الاسكندرية
القاهرة
السويس
العقبة
جغبوب
سيوه
المدينة
مكة
سواكن
بربر
الخرطوم
القلابات
الحبشة
بحيرة تسانا
النيل الأزرق
خليج عدن
زيلع
بربرة
هرر
فاشودة
غندوكرو
مقدشو
المحيط الهندي
خط الاستواء

حديقة المقتطف

السراب

للشاعر بابى دورفيلى

نقلها خليل هنداوي

الادب العالمى

على هامش خمسة كتب جديدة

لكامل محمود حبيب



الخلق القومي

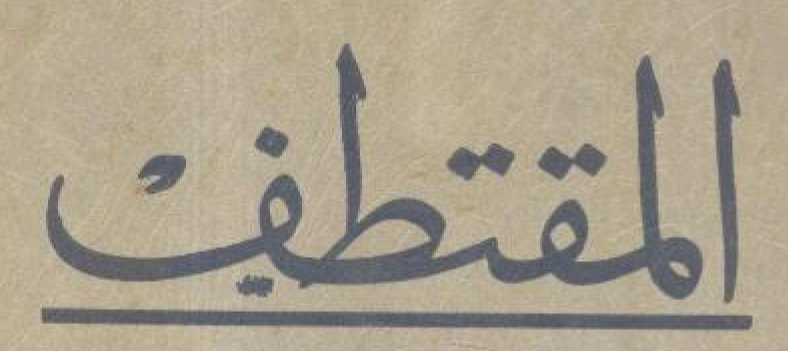
في المانيا وفرنسا وانكلترا

مشكلة العالم

الاقتصادية وعلاجها بحسب تقرير فان زيلند

فهرس الجزء الرابع

من المجلد الثاني والتسعين


المقتطف





الجزء الخامس من المجلد الثاني والتسعين

١ مايو سنة ١٩٣٨ — ١ ربيع اول سنة ١٣٥٧

بعد عهدي بعلم الفلك [١]

للدكتور فارس نمر باشا

كنا سنة ١٨٧٤ ، نحسب بعد الشمس عن الارض ٩٥ مليون ميل ، على اعتبار ان زاوية اختلافها الافقي الاستوائي ٨،٥٧٧٦ً ، كما حسبهُ الفلكيون من عبور الزهرة على وجه الشمس سنة ١٧٦٩ ، ولكننا كنا نسمع أن بعض الذين جاؤوا بعدهم من الفلكيين ، قاسوا زاوية اختلاف الشمس الافقي من النظر في اضطرابات حركات القمر، ومن رصد المريخ . وكان متوسط قياسهم لها أيضاً ٨،٩٤ أي اكثر من ذلك بأقل من ٣ أعشار الثانية من القوس . وذلك يجعل بعد الشمس عن الارض ٩١٫٤٣٠٫٠٠٠ ميل فقط . وكان الجميع ينتظرون ان يتوصلوا الى حساب أدق من ذلك حين عبور الزهرة على وجه الشمس ، في ديسمبر ١٨٧٤ ، فلما حان الزمن كنت في بدء عهدي بعلم الفلك ، وقد ناهزت العشرين من العمر، فبت أرقب ذلك بشوق عظيم، كأني سأبلغ به غاية المقصود . ولكننا لما أصبحنا في ذلك اليوم ، كانت السماء مطبقة بالغيوم ، فخابت مني الآمال ، واشتدت بي الغموم ، وهرعت الى المرصد لاستقبال مديره ، أستاذي المرحوم الدكتور « كرنيليوس فان ديك » ، فوجدتهُ مثلي كاسف البال ، ولكنهُ مع ذلك يعلل النفس بالآمال ، خلافاً لما كنت أنا عليه . فجعلنا كل لحظة نخرج من المرصد ونرقب وجه

---

(١) نص محاضرة الرآسة في المجمع المصري للثقافة العلمية بدورته السابعة

السماء فلا نجد إلاَّ سحاباً يتلو سحاباً ، حتى اذا اقترب ميعاد العبور ، رأيت السماء قد صحت والغيوم انقشعت عن وجه الشمس، فظهرت ساطعة في القبة الزرقاء . فأسرعنا الى المنظار والساعات المعدّة لتقييد زمن العبور ، ووقف أستاذي يرصد الزهرة ، وأنا وابنه نقيد وقت مماسّتها لقرص الشمس ، وعبورها عليه بالساعات والدقائق والثواني ايضاً، وانتهينا من ذلك على ما يرام ، وقضيت بقية يومي وانا أتيه تارةً عجباً وأطفر طوراً سروراً بما تمَّ . وفعل غيرنا مثل ما فعلنا في مراصد عديدة متفرقة على وجه الكرة ، ولما حسبوا حسابهم وجدوا انهم غير متفقين في زاوية اختلاف الشمس الافقي ، وان اختلافهم لا يزال يدور على كسر من الثانية من القوس ، بسبب الصعوبة في رؤية مماسة قرص الزهرة لحرف قرص الشمس بتمام الضبط والدقة ، ذلك لان الكسر الذي يساوي نحو ثلث الثانية من الزاوية ، لا يزيد عن غلظ شعرة من شعر الانسان إذا نظر اليها عن بعد ١٢٥ قدماً (أو أربعين متراً) ومع كل هذا الصغر وهذه الدقة في الزاوية ، فانها تجعل مقدار الفرق في بعد الشمس عنا نحو ٣ ملايين من الاميال . فبقينا حيث كنا . ثم عبرت الزهرة ثانيةً على وجه الشمس في ٦ ديسمبر ١٨٨٢ ، فقلنا في المقتطف عقب ذلك ما نصه :

« ولكن أبى الطقس الذي قضينا زهرة العمر في رصد تقلباته ومراقبة أحواله ، إلاَّ ان يحرمنا مرآها ، فسدل على وجه السماء برقع السحاب صفيقاً ملبداً لا تذيبهُ حرارة الشمس، ولا تنفذه اشعة نورها . فانثنينا عن المنظار آسفين ، وودعنا الزهرة وراصديها ، عالمين أنا لن نرى عبورها ، لانها لا تعود فتعبر قبل مئة وإحدى وعشرين سنة ونصف سنة ، بعد أن ينقضي العمر ، وتمسي عظامنا رميماً »

وما زال الفلكيون بعد ذلك يقيسون زاوية الاختلاف هذه بطرق مختلفة ، كانحراف النور، ورصد احدى النجيمات حين اقترابها من الارض ، حتى علمت من مطالعاتي ان مؤتمر باريس الذي عقد سنة ١٩١١ ، اعتمد على حساب بعد الشمس عن الارض ٩٢٫٨٧٠٫٠٠٠ ميل . ولكن المتفق عليه الآن ان زاوية الاختلاف الاستوائي ٨٫٨ًَ وهي تساوي ٩٢٫٨٩٧٫٠٠٠ ميل ، والفرق (٢٧٫٠٠٠) سبعة وعشرون الف ميل ، فلا نحاسبهم عليها

***

كان آخر عهدي بعلم الفلك ، أن النظام الشمسي مؤلف من الشمس وثماني سيارات فقط ، تدور حول الشمس عدا النجيمات والمذنبات والنيازك والشهب . ولكنهم كشفوا بعد ذلك ، اي سنة ١٩٣٠ سياراً تاسعاً سموه « إفلوطون » وهو (إله الجحيم والنيران المستبطنة الارض عند قدماء اليونان) واقع وراء « نبتون » ويبعد عن الشمس اربعين ضعفاً من بعد الشمس عن الارض . وأذكر بمزيد السرور والفخر من مطالعاتي لاخبار هذا السيار الاخير ، أنهُ كان

لحضرة اخينا الفاضل الدكتور محمد رضا مدور مدير المرصد المصري بحلوان ، واحد اعضاء مجمعنا الموقر، مشاركة تذكر فتشكر في رصد هذا السيار بمنظار مرصد حلوان العاكس، وتصوير مواقعه لتتبع حركاته بين النجوم ، وتيسير حساب عناصره الفلكية على اهل الحساب

***

فارقنا مرصد بيروت سنة ١٨٨٤ ، وكان المعلوم حينئذٍ ان المريخ ليس له اقمار تدور حوله كالزهرة وعطارد، ولكنا علمنا بعد ذلك ان الفلكي «آصاف هول » مدير مرصد « وشنجتن» بالولايات المتحدة ، اكتشف له قمرين صغيرين سنة ١٨٧٧ ، واكبرهما لا يزيد طول قطره عن ١٥ كيلو متراً ، والآخر نصف ذلك القدر

وكان المعلوم ان للمشتري اربعة اقمار فقط ، اول من اكتشفها « غليليو » بمنظاره سنة ١٦١٠ . ولكنهم اكتشفوا له خمسة أقمار اخرى بين سنتي ١٨٩٢ و١٩١٤ فأصبح عدد أقماره تسعة ، وهذه الاقمار تدور حوله في جهة دورانه على محوره ، الاَّ الثامن والتاسع ، فانهما يدوران حوله في خلاف جهة دورانه ، اي على خلاف التوالي

وكان المعلوم ايضاً ان لزحل ثمانية أقمار فقط ، فاكتشف له الفلكي « بكرنج » قمراً تاسعاً سنة ١٨٩٩. وهذا القمر التاسع يدور حول زحل في جهة مخالفة لجهة دوران زحل على محوره، ولجهة دوران الاقمار الثمانية حول زحل

أما « أورانوس ونبتون » ، فلم يكتشف لهما اقمار اخرى غير الاربعة التي كانت معلومة « لاورانوس » ، والقمر الواحد الذي كان معلوماً « لنبتون »

وكان طول يوم السيار « اورانوس » ، اي مدة دورانه على محوره ، غير معلوم . ولكن في سنة ١٩١٢ وجد الفلكيان « برسيفال لويل » و «سليفر» ، من رصد طيفه (بالسبكترسكوب) الذي سماه الاستاذ فؤاد صروف محرر المقتطف[1] وأجاد «بالمطياف»، ان طول يومه ١٠ ساعات و٤٥ دقيقة . ثم أيدها «مور» و « منزل » الفلكيان في مرصد « لك » بالولايات المتحدة، سنة ١٩٣١

وكذلك السيار نبتون كانت مدة دورانه على محوره غير معلومة ، ولا تزال غير معلومة تماماً حتى الآن . ولكن « مور » و« منزل » المذكورين آنفاً، حسبا انها ١٥٫٨ ساعة . واستدل « مكسويل هول » من تغير إشراقه ، أن هذا التغير يتم في ٧ ساعات وخمسين دقيقة. فاذا حسبنا ان إشراقه يتغير مرتين في مدة دورانه على محوره ، كانت تلك المدة ١٥٫٤ الساعة . والاكثرون الآن على ان مدة دورانه على محوره بين ١٥ و ٢٠ ساعة

---

(١) محرر المقتطف :— بمشاورة الاستاذ عبد الرحيم بن محمود

وكان عدد الكويكبات التي كنا نسميها نجيمات Asteroids يزداد ازدياداً مطرداً في عهدنا فقد اكتشف « پيازي » الايطالي ، اول كويكب منها في سنة ١٨٠١ ، واكتشف غيره بعده ثلاثة أخرى، حتى بلغ عددها اربعة كويكبات سنة ١٨٠٧ ، وبعد ذلك لم يكتشف احد غير هذه الاربع مدة ٤٠ سنة ، وفي سنة ١٨٤٥ اكتشف احد هواة علم الفلك واسمه « هنكي » الكويكب الخامس . ومنذ ذلك الحين توالى اكتشاف الكويكبات الجديدة وخصوصاً بعد أخذ صورها بالتصوير الضوئي ، حتى تجاوز عددها ٢٢٠ كويكباً ونحن في بيروت . وتتبعنا اخبارها بعد ذلك الى أن بلغ عددها ١١٠٠ كويكب سنة ١٩٢٨ ، وأرجح الآن انهم اكتشفوا مئات اخرى غيرها ، ولكنهم لم يستوفوا رصدها ليحسبوا أفلاكها وهي لصغرها لا تكاد جاذبيتها تكون شيئاً مذكوراً ، حتى انهُ لو وقف إنسان في احدها وقفز إلى علو ٥٠ ذراعاً من سطحها لما اعتراهُ من الأذى ما يعتريه لو انهُ قفز الى علو نصف ذراع وهو على سطح الارض

وتذكر انهُ في سنة ١٩٠٠ اهتم علماء الفلك اهتماماً عظيماً بأمر كويكب من هذه الكويكبات يسمى « إروس » (Eros) لانهُ يدور حول الشمس في فلك اهليلجي يدنيه كثيراً من الارض ، حتى تصير على بعد مليوني كيلو متر منهُ . ففي سنة ١٩٠٠ دنا منا حتى لم يبق بيننا وبينهُ سوى مليون كيلو متر ، فانتهز الفلكيون الفرصة في جهات مختلفة من الارض وتعاونوا على رصده حينئذٍ للوصول الى معرفة بعد الشمس عن الارض

***

والشيء بالشيء يذكر — فقد اذاع فلكي ايطالي (سكياپارلي) في سنة ١٨٧٧ ، انهُ رأى بمنظار مرصده خطوطاً مستقيمة على وجه « المريخ » . ثم عاد فأذاع سنة ١٨٨١ ان كثيراً من هذه الخطوط التي كانت مفردة ، صارت مزدوجة ، وسماها (Canale) أي ترعاً أو قنياً ، فهاج خبره هذا خواطر الفلكيين في الاقطار ، وكثر اخذهم وعطاؤهم فيه . واتصلت اقوالهم بالصحف العمومية فأذاعوها في الاصقاع طولاً وعرضاً ، وبنوا عليها العلالي والقصور . فقال قوم ان المريخ مسكون بأناس مثلنا يحرثون ويزرعون وفيهم المهندسون الذين يهندسون الترع للري . وقال آخرون ان اهل المريخ حفروا الترع المزدوجة بعد الترع المفردة ، لكي يخاطبوا أهل الارض وينبهوهم الى وجودهم . وجعل البعض يقترحون عمل ترع مثلها على الارض ، أو اضرام نيران عظيمة على مسافات طويلة ، او وضع علامات اخرى ظاهرة على سطح الارض ، لافهام اهل المريخ اننا فهمنا مرادهم من حفر ترعهم ، ونحو ذلك من القال والقيل ، والكلام العريض الطويل

ولا ازال اذكر استاذي العظيم ، قدس الله روحه ، وهو يرصد سطح المريخ بالمنظار

العاكس في تلك الليالي ، وأنا واقف بجانبه ، ثم يقول لي تعال وانظر ، فأرى احياناً خطاً أو خطوطاً مفردة أو مزدوجة ، ولا أكاد أقطع حتى الآن إن كانت خطوطاً على سطح المريخ او سمادير في عيني من شدة التحديق . وكان أستاذي يطرق طويلاً وهو يفكر ، ثم يقول : ترى أهذه من صنع الطبيعة ؟ وكيف يمكن ان تكون من صنع الاحياء ؟ وبعد ما يطلق كلانا العنان للخيال حتى يطاول المريخ ويكتنفهُ ، ثم يعود ولا يأتي بطائل ، يتنهد أستاذي ويتحسر ويقول : آه ، ياليتني كنت قد ولدت بعد اليوم بخمسمئة سنة ، لكي أعلم ما يخبئهُ عنا الزمان الآن . فأقول في سري ولو ولدت بعد الف عام لتحسرت كما تتحسر الآن ، لأن ما يبقى خفيًّا عنا حينئذٍ ، يكون أكثر من الخفي الآن

وبعد ان فارقت بيروت ومرصدها ، وطلّقت علم الفلك بأعوام، سافرت الى أوروبا سنة ١٨٩١ ، وأتيت « ميلانو » وقصدت مرصد « بررا » وقابلت مديره « إسكياباريلي » وسألتهُ في سياق الكلام عما جرى بترعه ؟ فضحك وقال : ان قوماً يتابعونني وآخرين يخالفونني . وهزَّ كتفيه كمن يقول ، دعنا منها الآن ، وسنحتكم الى الزمان

ثم علمت من مطالعاتي ان هذه الخطوط لم تعد تظهر مدة ١٠ أعوام او أكثر ، وبعد ذلك عادت فظهرت ورآها الراصدون ورسموها في خرائط « المريخ » وصوروها تصويراً ضوئيًّا أيضاً . ولا يزال الفلكيون مختلفين في أمرها ويقولون انها تختلف كثيراً في عرضها واتجاهها . وأن زيداً يراها على شكل ، وعمراً على آخر ، بحسب المنظار الذي ينظرها به

وهناك ظاهرة أخرى دامت ايام اشتغالي في مرصد بيروت ،ساعداً للدكتور « فان دَيك » مديره ، ثم مديراً لهُ بعده ، وهي البقعة الحمراء الكبيرة التي ظهرت على وجه المشتري سنة ١٨٧٨ ودامت حتى فارقت المرصد سنة ١٨٨٤ . وقد كان لظهورها سماع ورنين كثير بين الفلكيين ، والصحف التي تروي أخبارها . فقد كان شكلها في أوّل أمرها بيضيًّا ولونها أحمر داكناً، وبلغ عرضها نحو ١٤ الف كيلو متر (٨٧٠٠ ميل) وطولها نحو ٤٠٠٠٠ كيلو متر (٢٥٠٠٠ ألف ميل) وظهرت ظهوراً جليًّا جدًّا على سطح المشترى ولقبها الافرنج بالبقعة الحمراء العظيمة،واشتدت حمرتها بعد مضي الحول عليها ، ثم حال لونها على توالي الاعوام . وقد علمت من مطالعاتي لاخبارها انها خفيت شيئاً فشيئاً ولم يبق منها الاّ أثرها منذ ٢٠ سنة الى الآن . ويظهر لي من قراءة ما قالوا في تعليلها ، ان حقيقة أمرها لم تزل مجهولة الآن كما كانت ايام رصدي لها منذ نيف وخمسين عاماً

ولست اقصد في هذه المحاضرة استقراء كل ما جدَّ اكتشافه في النظام الشمسي بعد عهدي بعلم الفلك . وانما اذكر اكتشافاً آخر وهو تغير عرض المكان من حين الى حين تبعاً لتغير المحور الذي تدور عليه الارض دورتها اليومية ، بسبب تزحزح مواد في باطنها عن مواضعها

الى مواضع أُخَر ، بسبب تعرّي سطح القارات ، وتأثير اختلاف الفصول فيها . وقد خطر ذلك على بال « يولر » من اكابر علماء الرياضيات في القرن الثامن عشر ، وحسب حسابه ، وعين مقدار تأثيره . ولكن لم يستطع احد اثباته فعلاً بالرصد والمشاهدة ، الاَّ في سنة ١٨٨٨ حينما اثبت « كستنر وشَنْدلر » — (Keistner & Chandler) ومن تبعهما من الفلكيين ، ان قطب الارض يتغير تغيراً ضئيلاً جدًّا في مدد معينة ، وبالتالي ان عرض المكان يتغير كذلك ولكن تغيره محدود وقليل جدًّا ، بحيث لا يؤثر في هواء المكان واقليمه على اختلاف فصوله وانتقل الآن من النظام الشمسي الى غيره

***

ابنا فيما تقدم ان علماء الهيئة اكتشفوا في الخمسين السنة الماضية ، اقماراً واكتشافات اخرى مختلفة لم يكتشفها الذين سبقوهم . ولا خلاف في ان اكتشافهم لها كان بعضه بجدهم واجتهادهم ولكن لا جدال ايضاً في أن معظم توفيقهم كان بزيادة الانقان في صنع الآلات الفلكية ، واستعانتهم بالتصوير الضوئي والحل الطيفي والآلات الاخرى التي بلغت الغاية في دقة الصنع ، وتقسيم الزوايا. فقد كانت آلات مرصد « بيروت » وأنا أديره ، وافية بأغراض المرصد وحاجاته ، ولكنها على ما أسمع ، كانت بالقياس الى آلاته الآن أو الى آلات مرصد حلوان ، كأنوال الحاكة في الكرداسة بقرب الاهرام ، الى أنوال معامل الغزل لشركة مصر في المحلة الكبرى . ولا أزيد في المبالغة فأقول : كنسبة أسلحة الاحباش الى أسلحة الايطاليين الذين يقاتلونهم في وادي نهر « تمبين » .
ويطول بي الكلام جدًّا لو أردت الاسهاب في بيان تلك الآلات إجمالاً بل يعجز قلمي عن الشرح او الوصف لو شئت شرحها ووصفها تفصيلاً ، فأضرب صفحاً عن ذلك ، وأقول ان المنظار كان أعظم مميز لعلم الهيئة عند المحدثين ، على ما كان عليه عند المتقدمين . ولا أدري ما الذي كان البشر يعلمونه عن الكواكب لولاه ، غير ما وصل اليهم من الاقدمين عن صورها وأسمائها وحركات بعضها وأزمان دورانها . فالفضل فيما اتصل اليه علمنا بعد ذلك ، معظمه للمنظار وتوابعه ، وللتصوير الضوئي[1] (الفوتوغرافي) وللحل الطيفي . والمنظار إما كاسر للنور ، وإما عاكس لهُ . ولعل « غليليو » كان أول من استعمل المنظار الكاسر الذي صنعه لنفسهِ في أوائل القرن السابع عشر في رصد الشمس والقمر والكواكب ، فاكتشف الكلف على وجه الشمس والجبال في القمر ، والاربعة الاقمار الاولى من أقمار المشتري ، وكان الفيلسوف «اسحق نيوتن » أول من استعمل منظاراً عاكساً لرؤية النجوم سنة ١٦٦٨ وكان قطر مرآة الشبح في

(١) محرر المقتطف : فضل المقتطف التصوير الضوئي على الشمسي لان هذا الضرب من التصوير لا يكون دائماً بضوء الشمس

منظاره لا يزيد عن بوصتين . ثم أخذ صناع الآلات البصرية والفلكيون يفتنّون في الصنع ويتبارون في الاتقان . وامتاز الفلكي الانجليزي « وليم هرشل » بصنع عدة مرايا عاكسة ، الواحدة اكبر من الاخرى بين سنة ١٧٧٤و١٦٨٩ حتى أبلغ قطر مرآة الشبح أخيراً ٤ أقدام (٤٨ بوصة) واكتشف بها أقمار « أورانوس » وغيرها من أقمار « زحل » ، و٢٥٠٠ سديم ونجوماً ثنائية أي مزدوجة حقيقية . وفي سنة ١٨٤٥ صنع اللورد « رُصْ » منظاره العاكس المشهور وقطر مرآة الشبح فيهِ ٦ أقدام (٧٢ بوصه) ورأى بهِ السدم الحلزونية ولم يزالوا يتبارون في تكبير هذه المناظير العاكسة حتى اوصلوا مرآة الشبح فيها الى ١٠٠ بوصة في منظار «هوكر» سنة ١٩١٩ وهو المركب في مرصد جبل «وِلسن » بولاية « كالفورنيا » في الولايات المتحدة الاميركية ، وهو الآن اكبر منظار ، ووزن مرآة الشبح فيهِ ٤ اطنان ، وقد شرعوا في صنع مرآة أكبر من هذه قطرها ٢٠٠ بوصة ، وينتظر ان يتم صنعها وتركيبها سنة ١٩٤٠

وكما تسابقوا في صنع العاكسات وتكبيرها ، تسابقوا ايضاً في صنع الكاسرات وتكبيرها ، حتى أبلغوا قطر بلورة أكبرها ٤٠ بوصة في المنظار المركب في مرصد « يركِس »

ويخيل اليَّ انهُ بعد هذا الاتقان والتكبير في المناظير ، وفي بعض الوسائط التي استنبطوها ليستعينوا بها على رصد ما لا يستطيعون رصده بالمناظير وحدها ، كتصوير النجوم بالتصوير الضوئي وحل ضوئها الى الالوان المختلفة التي يتركب الضوء منها لمعرفة المواد التي تتركب منها ولاكتشاف حركاتها ، وقسمة الزوايا الى اقسام في منتهى الصغر والدقة ، وغير ذلك من الآلات البصرية والهندسية التي تشاهد الآن في المراصد المستكملة وسائط الرصد — أقول إنهُ يخيل اليَّ بعد ذلك كله انهم يحولون عنايتهم الآن بصفة خاصة الى مجموعات النجوم والكواكب الخارجة عن النظام الشمسي ، ويتقدمون في ذلك بخطى أوسع كثيراً مما كانوا يتقدمون بها في عهدي . فقد كانوا يقيسون بعد النجوم بمقياس زاويتها الاختلافية ، متخذين فلك الارض حول الشمس قاعدة لذلك ، فعلموا بذلك الاختلاف السنوي لاثنى عشر نجماً ، وانها تبعد عنا بعداً هائلاً ، تتخذ فيهِ سرعة النور مقياساً له

ثم اهتدوا الى التصوير الضوئي لقياس زاوية اختلاف الثوابت ، فلم تأت سنة ١٩١٤ حتى كانوا قد علموا اختلاف ١٨٧٠ نجماً ، وحسبوا أبعادها عنا ، ثم وجدوا ان قياس زاوية الاختلاف بهذه الطريقة يحتمل خطأ $\frac{1}{100}$ من الثانية من القوس ، بزيادة أو نقصان ، و $\frac{1}{100}$ من الثانية يكاد لا يحده البصر ، ولكنهُ مع ذلك يؤثر في معرفة البعد المدقق ، فعدل كثير منهم عن هذه الطريقة ، وجعلوا يعولون على المطياف (Spectroscope) لقياس زاوية الاختلاف ، فعينوا بهِ ، اختلاف ١٦٥٠ نجماً بحسب مطالعاتي حتى الآن

[لها بقية]

الليل في صحراء مصر

للشاعر المستر (William Gray) وليام جراي
مهندس اللاسلكي بالجيش البريطاني بمصر

بدا الهلال مختالاً في القبة الزرقاء . وكأنما خلعت عليه « إيزيس » من جمالها الفتان ! ها هو الفضاء بيننا ساج ، وكأنه يحلم بنجوم لم تولد بعد !!

* * *

فوق صدر السماء الازلية مضى الهلال في رحلته . لا يمل المسير ! بينما أنا ، اضطجعت على الرمال مأخوذاً كمن قد سُحِر . أحلم بآمون . . .

* * *

ها هي ربّة الفناء ! كلما حرّكت أجراسها استيقظت بعض نسائم لا تلبث أن تموت ! وهناك من أعماق وادي الموت يُسمع نداؤها الرهيب ! !

* * *

وإلاهة الشر بوجهها المتجهّم ! قد كفّت عن الجولان ورقدت مسربلة في عارها لتستريح ! بينما تتجاوب في جوف الصحراء صيحات ابن آوى المنبعث صداها من الغرب ! !

* * *

والوادي الخصيب ! تعلوه ابتسامات الكرى غارقاً في النوم على نغم هدهدة حنون . وقد رقدت « ايزيس » على شاطىء النيل تملأ النهر بفيض دموعها . . .

* * *

وحتى عيون « أبي الهول » ، تلك العيون التي لا تنام ، يبدو عليها فتور الوسن وهي ترنو الى السماء تنتظر الإله « راع » [1] راكباً قاربه عائداً مع الشروق ، من خلال ضباب الفجر ! !

* * *

. . . وهنا امتدت يد الكرى السحرية الى أجفاني فتلاشى كل شيء وتركتني على صدر الرمال يحنو عليّ الليل في صحراء مصر ! !

[نقلها : محمد فهمي]

(١) اسم الاله الشمس التي كان يعبدها قدماء المصريين



ابو العلاء المعرى

وفلسفة التاريخ

بحث في أحد جوانب الفلسفة العلائية

لعلى أدهم

ابو العلاء المعري شاعر كبير عرك الحياة وبلا الناس وترك في شعره ذخيرة لا يستهان بها لقراء القلب البشري ومفسري غرائب النفس الانسانية ، ولكن شعره الحاشد بالتبرم والسخط والغاص بالتشاؤم والتطير لا يسمو بك فوق متناقضات الحياة الى عالم الاتساق والانسجام ولا يرفعك الى الجو الفني الهادىء حيث تنسى الاوطار واللبانات ولا تهفو بك أحزان الحياة ولا تطرقك هموم العيش ، وهو حكيم مخلص يكشف لك عن أعمق علاقات الكون بالانسان ويجلو لك افانين الطباع ويرسل الضوء في غيابات النفس ولكن حكمته لا تهدي الضال الى الصراط المستقيم ولا ترفع المصباح لساري الليل وخابط العشواء ولا تؤامي من ساءه الدهر وتنكر له الحظ ولا ترد الى الامل من ازمع اليأس ولا تزيد المقدامة الشجاع اقداماً وشجاعة بل قد توهن ارادته وتلم عزيمته وتيئسه من الصعود الى مصاف الابطال ومراتب العظماء

وابو العلاء هو هادم صروح اليقين وقاطع طريق الآمال البشرية، وهو يكمن لها في الشعاب والمثاني لاغتيالها ولا يكتفي بتركها جريحة دامية بل يقصفها قصفاً منكراً ويجهز على حياتها، وتجول من شعره في صحراء مترامية يقصر عن مداها الطرف ومهما ضربت في نواحيها فلن تصادف شجيرة واحدة تستذري بظلها، بل لا ترى فيها أثراً للنبت والحشائش وتشاؤمهُ من الرسوخ والقوة بحيث يصح ان يكون معبراً عن تشاؤم جيل برمته او سلالة من السلالات البشرية بأسرها ، ولئن كان المتنبي يمثل جانب القوة والطموح من النفس العربية والبحتري يصف الجانب المماوج الطروب من حياتها فان المعري يعبر عن الجانب المتطير منها كما عبر شوبنهاور عن تشاؤم الالمان وكما افصح ليوباردي عن تشاؤم اللاتين في القرن التاسع عشر ، وقد اعلن المعري على الحياة معركة لا مهادنة فيها ولا هوادة وتدرع لها بدرع موضونة من اليأس والزهد وجمل يقذفها بحملات شعواء ستظل تتجاوب باصدائها الدهور وسيجد فيها كل مفكر مهما بلغ من رضاه عن الحياة درساً صالحاً وعبرة صادقة

فما هو سر تشاؤم الرجل ؟ وهل هو عدوى عصره ومرض جيله ؟ وهل يئس المعري لانهُ أبعد الامل وأغرق في حسن الظن بالحياة فأيقظهُ من رقاده نذير الشقاء وداعي الألم ؟ وهل حلم المعري حلم الكمال وصحا من نشوة الحلم ولا تزال صورته باقية في معالم ذاكرته ثم التقى بالواقع المشوه الجديب فكرههُ واشاح بوجهه عنهُ ثم شرع بعد ذلك يثأر لنفسه المخدوعة بمحاولة هتك اسرار الحياة وتعديد مساوئها ؟ وهل عاش المعري حسير لباناته وصريع امانيه وعلالاته ؟ وهل كان له طموح في الحياة وامل في الصولة والغلبة فلما سلبهُ الدهر بصره ونكبه في سلاح من اقوى الاسلحة مضاء في معركة الحياة أضمر في نفسه كراهة الحظ وتمرد على الاقدار ولعن الايام ؟

لست ارى رجاحة اي وجه من هذه الوجوه ، وليس في حياة ابي العلاء وما انتهى الينا من اخباره ما يدل على انهُ كان حالماً بالكمال ولوعاً بالمثل الاعلى ، ولم يخدع المعري عن حقيقة الحياة وقد أحسَّ من أول امره فوضى الحياة وخداع الاقدار ومماطلة الحظوظ وظل طول عمره يجمع الحقائق ويعبثها وينظمها ويسلط عليها ملكته الفنية ليهاجم بها الآمال ويمزق شملها

واذا رجعنا الى عصر المعري لنستقرىء علاقته بهِ ولنعرف هل استمد المعري تطيره من احوال عصره المضطربة وتشبع بهِ من جوه القاتم وجدنا المسألة غير مقنعة ولا شافية ، ولقد كان عصر المعري عصر شك وانحلال وانحدار في مهابط التدهور ، ولكن تشاؤم المعري كان أبعد إعراقاً من ان نعزوه الى حالة عصره ، وعبقرية المعري بطبيعتها عبقرية حزينة وقد قوى عصره نزعة التطير في نفسه وشحذ يأسه وأكد حنقه على الايام وتصاريفها ولكنهُ لم يخلق هذه النزعة ، وقد لاحظ اناتول فرانس ان الفلاسفة المتطيرين قد يظهرون في اوقات ازدهار الحضارة وصفاء الجو ، والمسألة قبل كل شيء مسألة مزاج شخصي وطبيعة نفسية قد يزيدها العصر قوة دون ان يوجدها وقد يضعفها ويحبس تيارها ولكن دون ان يقضي عليها ، واهم العوامل المكونة لتطير المعري كامنة في نفسه ضاربة في صميم طباعه ومردها الى احساسه الفردي ومشاعره الشديدة اليقظة والتنبه ، وابو العلاء بمزاجه من الارواح المستوحشة من زهرة الدنيا الناقمة على الوجود المؤثرة لظلمة العدم وصمت الفناء ، وهو يكره الحياة في الصميم والجوهر فضلاً عن الصور والاعراض ولا يشكو عصراً ليمدح آخر وانما كل العصور عنده سواسية والناس جميعهم اشرار خساس الطباع ليس لكسرهم جبر ولا لدائهم دواء يستطب بهِ فلا سبيل للامل ولا معنى للحرص على النسل في مثل هذا الوجود الخاسر ، ويرى شوبنهاور ان الحياة في نفسها «جريمة» نكفر عنها باحتمال آلامها ويرى المعري انها «جناية» جناها الآباء القساة على اولادهم المساكين وانها مصيبة تعالج بالبر والاحسان

فكونك في هذي الحياة مصيبة يعزيك عنها ان تبر وتحسنا

وينفرد ابو العلاء من بين شعراء العرب قاطبةً بميزة واضحة لا سبيل الى نكرانها وهي انهُ

قصب السرعة

بين الاحياء

والطيران حول الارض في نهار واحد

يعلم قراء المقتطف ان قصب السرعة في الكون للضوء فهو يسير بسرعة ١٨٦٣٠٠ ميل في الثانية . ويعلمون كذلك ان من الطيور ما تتجاوز سرعتهُ مائة ميل في الساعة ، وبعضها كالصقر او البازي يبلغ ١٦٠ ميلاً في الساعة او اكثر قليلاً . وهذه سرعة عظيمة ، ولكنها مع ذلك تجعل الصقر بطيئاً البطء كلّهُ بالقياس الى حيوان آخر تزيد سرعتهُ على سرعة امواج الصوت ! ذلك الحيوان حشرة صغيرة تعرف باسمها العلمي « كيفينومايا» Cephenomyia وباسمها الشائع « ذبابة الايل » وهذا الاسم الثاني مستمد من كونها تتطفل وهي يرقٌ على بعض الحيوانات من نوع الايّل فتسكن مسالكها الانفية والحلقية . ويقال انها تختزن الغذاء وهي في هذه المرحلة من حياتها وتستعمله عند ما تتحول ذباباً

وقد روى المواليدي الاميركي العلاّمة روي تشابمن اندروز — مدير المتحف الاميركي للتاريخ الطبيعي — في مجلة التاريخ الطبيعي التي يصدرها ذلك المتحف ان العلاّمة الدكتور تشارلز توزند قضى سنين كثيرة في دراسة هذه الحشرات فوصفها في كتاب خاص بعث بهِ الى الدكتور اندروز بانها تخترق الجوّ كخطف البرق وانهُ قاس سرعتها وحقق القياس بوساطة مصوّرات ضوئية سريعة خاصّة فاذا سرعتها تبلغ ٤٠٠ ياردة في الثانية او نحو ٨١٨ ميلاً في الساعة . وكتب توزند مقالاً عنها في مجلة الحشرات التي تصدر بنيويورك فقال انهُ قد يصعب على ايّ كان ان يصدّق ان حشرة تستطيع ان تسبق رصاصة بندقية ولكن ذبابة « الكيفينومايا » تستطيع ان تسبق رصاص البندقيات القديمة ولا يستبعد ان في مكنتها ان تساير قنابل المدافع الالمانية الضخمة التي اطلقت على باريس في اثناء الحرب العالمية

والغريب في هذه الحشرة ان ذكرها أسرع من انثاها ويفسّر ذلك بأنهُ لا بدّ للذكر

مفكر مثل نيتشه او شوبنهاور او رينان ان يعبر عن نفسهِ التعبير الكامل في عصر مثل عصر لويس الرابع عشر اوالعصور الوسطى ، وما كان ليسمح عصر مثل عصر عبد الملك ابن مروان او عصر الرشيد بوجود المتنبي او أبي العلاء ، وهذا من أشد ما ينعاه الفرديون على أنصار الاشتراكية لانها تحاول بإحكام الروابط الاجتماعية ان تصبَّ الناس جميعاً في قوالب متشابهة وتقضي على النزعات الفردية واختلاف ألوان الامزجة . وقد كان أبو العلاء كسائر كبار الشعراء نهم الفكر شغوفاً بتعرف كل شيء مطبوعاً على تلك العالمية الخاصة بالعبقريين ، وهذا الاتساع النفسي من شأنه ان يوجه النظر الى التاريخ ويغري بالتعمق في تأمل حوادثه واستعراض صوره ومن ثمَّ كان للثقافة التاريخية دخل كبير في تكوين كبار شعراء العالم وفي أشعار هوميروس وفرجيل وروايات شكسبير وجيتي وشلر وبيرون شواهد نواطق بذلك ، ولم يكتف بعض الشعراء بتناول التاريخ في منظومات الشعر وروائع الملاحم بل أوقف جزءاً من حياتهِ على كتابة التاريخ كما فعل شلر في كتابة تاريخ حرب الثلاثين سنة وكما فعل هيني في مقالاتهِ الانتقادية

وأبو العلاء الذي بزَّ شعراء العرب وحلق فوقهم بعبقريتهِ العالية واخلاصهِ الجم للادب والحياة يفوقهم جميعاً من ناحية النظرة التاريخية ، ومن كان في عمق أبي العلاء فلا مفرَّ لهُ من ان يطالع قصة الخليقة ويجول في تاريخ الانسانية ليسرد أخبارها وينصَّ عبرها ويتأمل ما انتابها من آمال وآلام وما لحقها من يأس ورجاء وما تعلقت بهِ من عقائد ومذاهب وما مرَّ عليها من مختلف الاطوار ومتنوع الحالات ، وقد وجد في التاريخ مجالاً رحيباً لتطيره ومنفذاً لسخريتهِ، وكان يشعر بغزارة معرفته التاريخية ويقول

ما كانَ في هذه الدنيا بنو زمن   الاَّ وعنديَ من أخبارهم طرف

وفي الحق ان أبا العلاء لم يقصد بهذا البيت المباهاة الكاذبة والفخر الاجوف وانما قرَّر حقيقة تدعمها لزومياته وتشهد بصدقها سائر آثاره

ومن أدمن النظر في التاريخ وأطال التأمل في حوادثه لا بدَّ ان ينتهي فيهِ الى رأي خاص ويكوّن لنفسهِ فلسفة ينظر الى التاريخ في ضوئها مهما كانت قيمة هذه الفلسفة من الحق او من الباطل وسواءٌ أراد قارئ التاريخ ذلك ام لم يرده وأدركهُ أم لم يدركهُ . ورجل مثل ابي العلاء حائر شاك منفرد بنفسهِ ماهر في التنقيب على مواطن الضعف في الانسانية نزاع بفطرتهِ الى التطير من الواضح اللازم ان تسمع في فلسفته التاريخية صدى يأسه وترى أثر تململه وتسخطه، وقد كان ابو العلاء شديد الفردية في احساسه يصادم المجتمع بفرديته الاوحدية الشاذة ولا يرضى النزول من برجهِ العاجي للانغماس في تيار الجماعة وانما الدنيا ملعب وهو متفرّج لا لاعب كما في قوله

والارض رقعة لعَّاب مقسمة   منها سهول وأجبال وحزان

٣ — الحاجة الى زيادة المعرفة بالانسان

الانسان المجهول

للعلامة الكسيس كارل

تلخيص : اسماعيل مظهر

ينبغي إذن ان تعرَّف كيف ينتظر ان تؤثر أساليب الحياة الجديدة في مستقبل السلالة البشرية . فان استجابة النساء لاوجه التكيُّف التي انتابت حياة اوائلنا وعاداتهم ، من طريق الانقلاب الصناعي ومدنية الانتاج العملي ، كانت حاسمة سريعة . ولك ان ترى شيئاً من ذلك في ان نسبة المواليد قد نقصت فجأة . ولقد كان لهذا الحادث أثره البالغ الجلل في الطبقات الاجتماعية وفي الامم التي كان يظن انها سوف تكون اكثر اهل الارض استمتاعاً ، إن مباشرة أو بالواسطة ، بفوائد التقدم الحديث وجنياً لثمراته ، بتطبيق المكتشفات العلمية تطبيقاً عمليًّا . على ان العقم بالارادة — اي تعقيم النساء بحكم الاختيار — ليس حادثاً جديداً يشهده لاول مرة تاريخ العالم . فانهُ كان طابَع بضعة عهود مرت في تاريخ مدنيات بائدة . إنهُ لعَرَض طائفي . على اننا ولاشك نعرف له مكانتهُ تمام المعرفة

وإنهُ لمن الظاهر أن التغيرات التي انتابت محيطنا بذيوع « الصناعية » — Technology — وبالحري الفن الصناعي ، قد أثر في جميتنا تأثيراً بالغ المدى . بَيْدَ ان نتائج هذا « الفن » قد لابستها خليقة لم نكن نتوقعها . لقد أدركنا ان لها نتائج تنافي كل المنافاة تلك التي أمَّلْنا فيها ، والتي كان لنا ان نرتقبها من أوجه الارتقاء التي انتابت مساكننا وطرائق حياتنا واغذيتنا وتعليمنا والجو العقلي الذي كوَّنتهُ من حولها الخلائق البشرية في العصر الحديث

إذن نتساءل : كيف انتهينا الى هذه النتائج المتناقضة ؟

٥ — إن هذا التغير مضر ، مادام انهُ قد تمَّ من غير نظر صادق في حقيقتنا

قد يمكن ان نجيب عن هذا السؤال جواباً بسيطاً ساذجاً ، فنقول : إن المدنية الحديثة قد تحَرَّجت وارتجّت دعائمها ، لانها لا توائمنا . ذلك بان قواعدها قد اقيمت من غير نظر في حقيقة

مرارة والماً فهم يبشرون باليأس والتزهيد في الحياة ويندبون حظ الانسانية ويقفون على اطلال الحضارات يبكون مصائر الامم، وفلسفتهم حزينة مجللة بالسواد ملأى بصور الفناء، والانتصار في نظر اصحاب هذه الفلسفة نذير الهزيمة والحياة دليل الموت والضوء رسول الظلمة، وكل عمل ينم على حماسة ويقين ينظرون اليه نظرة المتشكك المرتاب فلا ينجو من سخريتهم آثم ولا مصلح ولا يفلت من تهكمهم حامل القلم ولا رب التاج، وهم يسخرون بانفسهم وبالطبيعة والكون وبالله نفسه وانبيائه، وكأن الطبيعة التي ضنت عليهم بروح الامل والسرور الخالص قد حبتهم بالنصيب الاوفر من ملكة السخرية والاستهزاء

ويعمد اصحاب هذه الفلسفة الى طرق كثيرة للتسلي، فمنهم من يتلهى بالكأس واللذة على طريقة عمر الخيّام او بتحليل نفسه على طريقة فردريك اميل او بالاشتغال بغريب اللغة كما كان يفعل ابو العلاء، مصنف كتاب الايك والغصون وكما فعل ليوباردي الذي كان امام المتطيرين في عصره وكان في نفس الوقت اكبر لغوي في زمنه في آداب اللغة اليونانية، ومثل بسكال الذي برع في الهندسة وان كانت الروح الدينية التي غلبت على عصره قد منعتهُ من الايغال في التطير

اما المدرسة الثانية فهي تؤمن بالتضامن الاجتماعي وقانون التقدم وترى ان الانسانية سائرة الى الكمال وهي تستخلص ذلك من نزعة الاجتماع الغريزية في الانسان ومن وحدة النوع الانساني واتفاق الغرض الذي ترمي اليه الانسانية وتتجه نحوه جهودها المشتركة، وهي ترى ان خير كفيل بتحقيق أمل الانسانية هو انتقال الحق من جيل الى جيل وذلك النزوع الى الكمال الذي يهوّن التضحية ويوحي الاديان ويعمر القلوب بالايمان، وجهود الامم والافراد ليست ضائعة ولا ذاهبة عبثاً وما ثرهم خالدة والشر الذي نشكوه سيتمخض عن الخير وستستحيل اخطاء البشر على مدى الايام منافع جزيلة وخيرات سابغة ويأسف اصحاب هذا المذهب لوجود الشر والفوضى في الحياة ولكنهم لا ييأسون من مقاومته واصلاح الحياة وتهذيبها

ويفخر كلا المذهبين بطائفة من الاسماء البارزة في تاريخ الفكر الغربي، فمن انصار المذهب الاول ماكيافلي وشوبنهاور الذي يقول «ما دامت الحياة أبدية فان فكرة التقدم لامحالة باطلة» وكارلايل، ومن القائلين بالتقدم بيكون وديكارت ومشليه وأوجست كنت، وابو العلاء في نظره للتاريخ ينتسب الى المذهب الاول فهو ينكر التقدم ولا يرى جديداً تحت الشمس فيقول عن الناس

يسعون في المنهج المسلوك قد سبقوا ... الى الذي هو عند الغر مخترع

ابكار هذي المعاني ثيبات حجا ... في كل عصرٍ لها جانٍ ومفترع

وهو لا يهتف للمنتصر وانما يحذره عاقبة كعاقبة المغلوب فيقول له

لا تفرحنَّ بدولةٍ أوتيتها ... ان المدال عليهِ مثل الدائل

وينذر من احتوت يده على شيء بأنهُ سيفقده لان

من يعط شيئاً يستلبهُ ومن ينم جنح الظلام فانهُ سيؤرق

وابو العلاء لا ينظر الى الماضي نظرة اكبار ولا يحيطهُ بهالة من التقديس والقدماء في نظره لم يكونوا اكرم طبعاً وأبر نفساً من اهل عصره

ما كان في الارض من خير ولا كرم فضلٌ من قال ان الاكرمين فنوا

وأما حكم العقل في قضية المفاضلة بين القدماء والمحدثين فهو كما روى لنا ابو العلاء

يخبر العقل ان القوم ما كرموا ولا افادوا ولا طابوا ولا عرفوا

عاشوا طويلاً وماجوا في ضلالتهم ولا يفوزون ان جوزوا بما اقترفوا

بل لم يتسم فرد واحد منهم بالحكمة وفصل الخطاب ولم يؤت العقل والرشد احد والارض لم تعرف الانسان الاعلى ولن تعرفهُ

ما كان في هذه الدنيا اخو رشد ولا يكون ولا في الدهر احسان

وانما ينقضي الملك عن غيرٍ كما تقضت بنـو نصر وغسان

وردف ذلك بقوله: ولم يأت في الدنيا القديمة منصف ولا هو آت بل تظالمنا جزم

فاذا ضقت ذرعاً بعصرك وبرمت بشروره آساك ابو العلاء بقوله

شكوت من اهل هذا العصر غدرهم لا تنكرنَّ فعلى هذا مضى السلف

فاذا شككت في ذلك اكده بقوله

لا يخدعنك اخرانا كأولنا في نحو ما نحن فيه كانت الامم

فاذا وصل الى مسمعه ان هناك قوماً يعلقون الامل على المستقبل ويرجون من ورائه الخير وتحقيق الاحلام هزَّ رأسه وأنشد

يقال ان سوف يأتي بعدنا عصر يرضي فتضبط اسد الغابة الحطم

هيهات هيهات هذا منطق كذب في كل صقر زمان كائن قطم

ومن يدري فقد يستفحل الشر ويتفاقم الخطب في المستقبل

والله يحمد كلما طال المدى طغت الشرور وقلت الاخيار

وكان المعري يرسل فكره الى الماضي السحيق والمستقبل البعيد فيرى الحياة بين هاتين النهايتين صوراً سريعة يغتالها الفناء وخيالات تزول كما تزول دوائر الماء حول مواقع الحصيات في سطوح البحيرات، فما قيمة الدول العظيمة والآثار الضخمة وما تأثير النجوم اللامعة والشمس الساطعة وما قيمة العواطف البشرية ومتع الروح ولذات النفس ؟ كل هذا ضائع في الابد الزاخر، والانسان هذا الطيف الزائر والسائح الغريب في هذا الكون يعيش قليلاً ثم تطوى صفحته ويدرج في قبره والدنيا بحالها

نمضي ونترك البلادَ عريضة والصبح انور والنجوم زواهر

وقد تضيع اخبارنا وتندرُ آثارنا كما ضاعت في جوف الدهر آثار من قدم الارض قبلنا

سيسأل ناس ما قريش ومكة كما قال ناس ماجديس وما طسم

والبشرية التي تهافتت في التاريخ وتلك الاجيال المتلاحقة انما هي صور تترامى الى الليل الابدي وتغرق في زواخر الدهر وهي اشبه بالخيالات والاشباح تلوح ثم تختفي وانما البشر

اشباح ناس في الزمان يرى لها مثل الحباب تظاهر وتواري

أو شخوص اقوام تلوح فأمة قدمت مجددة وأخرى تهلك

والدهر هكذا مستمر في دورته يطحن الاجيال ويطوي الايام

عش ما بدا لك لن ترى الأمدى يطوى كمادته ودهراً داهرا

وانما هي حركة مكررة معادة: والدهر اكوان تمر سريعة ويكون آخرها نظير الاول

والوجود كله كدر لا صفو فيه

لا أزعم الصفو مازجاً كدراً بل مزعمي ان كله كدر

ولا امل في اصلاح الكون وتقويم اعوجاج الناس وعلاج الطبائع

لم يقدر الله تهذيباً لعالمنا فلا ترومنَّ للاقوام تهذيبا

وهم كذلك لان النبعة التي استقوا منها نبعة فاسدة

تفرع الناس عن اصل به درن فالعالمون اذا ميزتهم شرع

والانكى من ذلك انهُ

يكفيك شرًّا من الدنيا ومنقصةً ألاَّ يبين لك الهادي من الهاذي

والناس في غفلة لا يفيقون منها

وما عيون الناس فيما ارى منتبهات من طويل السنة

ولقد اجرى اناتول فرانس على فم المؤرخ الكهل لملك فارس المحتضر في احدى محاورات كتاب آراء جيروم كوانيار كلمة هي خلاصة فلسفته التاريخية وهي قوله في تلخيص تاريخ البشر « انهم ولدوا وتألموا وماتوا » ويصح ان تكون هذه الكلمة موجز رأي ابي العلاء الذي يقول

خلقنا لشيء غير باد وانما نعيش قليلاً ثم يدركنا الهلك

بل قد انحدر به اليأس الى ابعد من ذلك حيث فقدت الاشياء في نظره حقيقتها واشتبهت عليه مميزاتها وصفاتها

فنحن في غير شيء والبقاء جرى مجرى الردى ونظير المأتم العرس

وهذه هي اعمق قرارات اليأس ولكنها ايضاً الذروة العالية التي ارتفع اليها المعري في عالم المفكرين المتطيرين واستحق بها ان يكون الامام الثبت والحجة الثقة في وصف علل الحياة وأدواء النفوس، ولئن كان يسئمك من ابي العلاء جهامة الحزين الذي لا تزدهيه اعاجيب الحياة ولا تطربهُ انغامها فقد يسليك منهُ تبسم الساخر المتهانف الذي لا يعفي شيئاً من سخريته ولا يغفل لحظة عن تهاتفه

الانسان والنبات

للدكتور محمد بهجت

اختصاصي بقسم البساتين بوزارة الزراعة

مملكة النبات مملكة واسعة عظيمة تحوي عدداً كبيراً من الاجناس والانواع موزعة على الارض بل وعلى البحار والانهار توزيعاً عجيباً تقرره وتحدده عوامل البيئة المختلفة كالحرارة والرطوبة ونوع التربة والضوء وغير ذلك من العوامل الظاهرة والخفية . ومن افراد تلك المملكة ما هو ضئيل الى ابعد حدود الضآلة بحيث لا يتسنى لاعيننا البشرية ان تراه ، وربما استطاعت ان ترى البعض منه اذا استعانت بأقوى المكبرات الحديثة التي مكنتنا من رؤية عالم عجيب خفي يزخر بالحياة النباتية ويؤثر من مصاير الانسانية أعظم تأثير — ذلك هو عالم البكتيريا والفطر والجراثيم . ونرى بها من الناحية الاخرى افراداً بلغت من الاكتناز والضخامة والذهاب في كبد السماء مبلغاً عظيماً يدعو الى الدهشة والتعجب . ولا يسع المرء عند ما يقف حيال اشجار السكويا الهائلة التي بولاية كاليفورنيا الاميركية على ساحل المحيط الهادىء الا ان يخشع امام تلك العمالقة التي تحسب اعمار بعضها بآلاف السنين ويذهل لتلك المخلوقات التي كانت يوماً ما بذوراً صغيرة دقيقة تذروها الرياح فأصبحت اطواداً حية هائلة كالرواسي الشامخات لا تنال منها الانواء والاعاصير الهوجاء . . . ومن أفراد تلك المملكة ما هو نافع غاية النفع للانسان والحيوان ومنها ما هو ضار بهما أبلغ الضرر . . ومن أفرادها ما هو جميل لأعيننا ومنها ما هو قبيح دميم

ومما لا ريب فيه ان النبات ظهر على الارض في فجر الحياة الاولى ونشأ وتدرج في سلم الارتقاء خلال عصور عديدة من قبل ان يدب عليها الانسان وتنشأ بينه وبين النباتات العلاقات الوثيقة التي أثرت في حالاته النفسية والاجتماعية والاقتصادية تأثيراً عظيماً أوصله الى منزلته الحالية من المدنية الحديثة . ولنا في التاريخ أمثلة متعددة يظهر منها ان الوقوف على سر واحد من أسرار النبات قد يؤثر في حياتنا الفكرية والمادية أعظم تأثير . ومن الامثلة البارزة المتعددة نبات المطاط او الكاوتشوك الذي نعلم قدر أثره في مدنيتنا الحديثة

ولو فتشنا ملياً عن مصدر حياتنا وينبوع نشاطنا ومدنيتنا لوجدناه النبات ، ذلك الكائن الحي المنتج الخليق بالاجلال والاعظام والمحبة والتقدير . ولو تجاوزنا تلك النظرة السطحية وتعمقنا قليلا

في البحث لوجدنا ان النبات مدين بحياته للشمس التي هي مصدر الحياة جميعها . ولقد أحسَّ اجدادنا المصريون منها ذلك وأدركوا ما في خيوطها الذهبية من حياة هي السحر وسحر هو الحياة فعبدوها وقدَّسوها . وكانوا يتخيلونها زورقاً يستقله اله من آلهتهم اسموه هوروس يسبح به في أجواز الفضاء من المشرق الى المغرب في نظام ثابت عجيب وتدبير محكم . وعندما ابين فيما يلي علاقة ما بين الشمس والنبات ستتكشف لاعيننا حقيقة من أروع الحقائق التي ندرك منها نعمة الحياة التي أنعم بها الله سبحانهُ وتعالى علينا ونقدر قدرته جلَّ شأنه اذ سخر الشمس فيما سخر لنا من القوى الطبيعية التي تنفعنا في حياتنا الدنيا

يتنفس النبات كما يتنفس الحيوان ، فيأخذ كلاهما الأوكسجين من الهواء ويعطي غاز ثاني اكسيد الكربون الذي يزفره الحيوان من منخريهِ والنبات من مسامهِ العديدة الخاصة بذلك . واذا احترق النبات او الحيوان نتج عن احتراقهما غاز ثاني أكسيد الكربون كذلك وهذا ينتشر في الهواء ويختلط بهِ . . . يدخل الهواء المحمل بهذا الغاز الى النبات عن طريق فتحات بأوراقهِ منتشرة على سطوحها السفلية وبالغة من الصغر والدقة مبلغاً عظيماً وهناك يذوب في العصارة النباتية ويتحوَّل بعمليات متتابعة الى سكر بسيط ومن ثمَّ الى سكر مركب او نشاء أو زلال أو دهن او الى خلووز (سلولوس) — تلك المادة التي يبني بها جدر خلاياه وأليافه وخشبه ، او الى اي مركب آخر يحتاج اليه في بنائهِ وتغذيتهِ ، ثم ان هذه المواد المجهزة تتحرك في الاوعية الى الانساج القريبة او البعيدة في النبات للاختزان أو لأداء الوظائف الفسيولوجية المختلفة . غير ان تحويل الغاز الكربوني الى سكر ثم الى مواد أخرى اكثر منهُ تعقيداً ثم دفع تلك المواد في الأوعية والانساج كل ذلك يحتاج الى جهد . وهذا الجهد يستمده النبات من أشعة الشمس . فعندما تسقط هذه الاشعة على أوراقهِ الخضراء المنبسطة تمتص المادة الخضراء التي بها والتي تعرف بالكلوروفيل او الخضير جزءاً صغيراً من تلك الاشعة التي هي مزيج من حرارة وضوء فتتم العملية السحرية في صمت عجيب لا يلحظها ملاحظ او يحس بها مستنصت . وينتقل بهذه العملية الجهد الذي كان بأشعة الشمس الممتَصَّة الى المركبات التي تكونت داخل النبات . وعندما تحترق هذه المركبات داخل جسم الحيوان بواسطة عملية التنفس تعطيهِ من الحرارة والجهد بقدر ما أخذت من أشعة الشمس تماماً . كذلك تعطي قطعة الخشب اذا احترقت في الهواء حرارة وجهداً بقدر ما أخذت من الشمس . فنحن نستغلُّ الحرارة التي تتولد بجسومنا في الحركة وفي أداء العمليات الفسيولوجية والشغل الخارجي . ونستخدم الحرارة التي بالوقود في انضاج طعامنا وتسيير عرباتنا وطياراتنا وسفننا وغير ذلك . فالاشجار التي على وجه الارض اذاً والفحم والزيوت المعدنية التي في باطنها والتي نشأت من تحلل مواد عضوية نباتية كل هذه كنوز عظيمة ومستودعات هائلة للقوى الشمسية اختزنت بها من الآلاف بل ملايين السنين . . . فنرى من ذلك انهُ لولا الشمس

لما كانت الحياة على سطح الارض ، وانهُ لولا تلك الورقة الخضراء الكريمة — ورقة النبات — لما كان انسان او حيوان . وربَّ سائل يتساءل وماذا نقول في أمة الاسكيمو التي تسكن الاصقاع الجليدية القطبية والتي لا يقتات أهلها الاَّ سمك البحار وحيتانها ولا تسكن الاَّ كهوفاً تتخذها من الجليد ؟ اين فضل النبات على ذلك الانسان المنعزل عن المملكة النباتية والذي لم ير ورقة النبات الخضراء ؟ والجواب على ذلك ان هذا الانسان الذي يقتات اللحم فقط يعتمد في حياته على النبات أيضاً ولكن بصفة غير مباشرة . وذلك لان السمك الذي يأكلهُ يعيش على أسماك او حيوانات بحرية أخرى اصغر منهُ . وهذه تقتات الاعشاب البحرية الضئيلة . وقد حسب بعض الحاسبين ان كل رطل من جسم انسان الاسكيمو بني من ٦٣٥ رطلاً من الاعشاب البحرية التي تغذت بها اسماك أكلها الاسكيمو بدوره . فما أبهظ ما تتكلفهُ مملكة النبات لإعاشة أمة الاسكيمو القليلة العدد !

وربَّ قائل يقول أيضاً ان العلم تقدم تقدماً عظيماً بحيث أصبح في مكنتنا تركيب بعض المواد الغذائية في مصانعنا . وسوف يأتي يوم نستغني فيه عن الحقول الشاسعة بما نستطيع تجهيزه في المصانع المحدودة ! نعم لقد استطاع علم الكيمياء مثلاً ان ينتج صبغ النيل المعروف فقضى بذلك قضاء مبرماً على زراعة النيل الطبيعي بالهند ، وصحيح ايضاً ان بعض العلماء تمكن من تحضير مقدار صغير من السكر البسيط بواسطة الاشعة فوق البنفسجية ، وصحيح ايضاً أنهم توصلوا الى تحضير بعض المواد الهامة كالفانيليا بل والكاوتشوك إلاَّ ان تحضير كل ذلك يستنفد من الجهد والنفقات الشيء الكثير مما يجعل الانسان محتاجاً الى أوراق النباتات الخضراء ومعتمداً عليها كل الاعتماد

وثمَّ اعتبار آخر يجعل اعتماد الانسان على النبات أمراً محتوماً وهو ان الاخير يصنع المركبات الهامة المعروفة « بالفيتامينات » في أوراقه الخضراء . ويتوقف نمو الجسم الانساني وسير وظائفه سيراً طبيعيًّا وسلامته من كثير من الامراض على تلك المركبات المعقدة الغامضة التي لها في حياتنا شأنٌ هامٌّ والتي توجد في الجسم الحيواني أيضاً . فبعد ان يمتصها الحيوان من الغذاء النباتي نسترجع بعضاً منها فيما ينتجه من لبن وزبد وجبن وبيض وغير ذلك من منتجاته المتعددة هذا فضلاً عما نحصل عليه مباشرةً من النبات نفسه عندما نأكله

ولننظر الآن كيف بدأت العلاقة بين الانسان والنبات ، ثم كيف توثقت تلك العلاقة وتطوَّرت مع السنين والقرون وأثرت في الانسان حتى ابلغتهُ مدنيته الحاضرة

كان الانسان الاولي يسير عارياً في الغابات يلقط مما يجده على الشجر الذي ينمو لنفسه ما يطيب لذوقه من حَبّ وثمر . وكان يحتمي في ظلال اشجارها من حرارة القيظ او صبارة البرد ومن شآبيب المطر . ثم هداه تفكيره الى ان يتخذ من اجزاء النبات سقفاً وعرائش يأوي اليها هو وما قد استأنس من حيوان . ومن ثمَّ نشأت فكرة بناء البيوت والمساكن . وكان اذا

تناسل فتزايد عدده وقلّ قوته وكلاّ ماشيته نزح الى جهة أخرى وفيرة القوت كثيرة المياه والعشب . ولما شاهد النبات ينضج حبه وينثره حوله لابقاء نوعه فطن الى استكثاره فجمع الحب وبذره لنفسه وحصده وهكذا تعلم الزراعة التي طرأ بواسطتها تغيير كبير على الاصناف البرية من حيث الكم والكيف . وكان يرى قطعة الخشب تطفو على سطح الماء فيعتليها ليعبر عليها الأنهر والبحيرات الصغيرة، ثم بدا له بعد ذلك ان يجوف تلك القطع او يضمها بعضاً لبعض ليستوى بداخلها حتى لايدركه البلل ومن ثمّ كان بناء السفن التي ساهمت بنصيب وافر في بناء مدنيتنا الحالية اذ استطاع الانسان ان يحمل فيها غذاءه ويجوب البحار ويكشف آفاقاً جديدة ويربط اطراف العالم بعضها ببعض

ولقد بدأ الانسان اول ما بدأ بتغطية جسمه وستر عورته باوراق النباتات الكبيرة ولم يلبث ان اهتدى الى ذات الالياف منها وفطن الى استعمالها بدل تلك الاوراق . ثم اهتدى بعد ذلك الى غزل ونسج تلك الالياف . وها نحن اليوم اكثر ما نكون اعتماداً على النبات في لباسنا ، حتى تلك المنسوجات التي تمت الى اصل حيواني كالصوف والحرير فان انتاجها يتوقف على النبات فالاغنام او الابل ترعى النبات وتربي صوفها . وتأكل دودة القز اوراق النباتات ثم تنسج خيوطها الحريرية بعد ذلك

وكان الانسان يذوق ويأكل بطبيعة الحال كلّ ما يصادفهُ من اجزاء النباتات المختلفة فيجد في بعضها حلاوة وفي البعض الآخر غضاضة ، وفي البعض ما ينفعهُ من داء معين وفي البعض الآخر ما يؤذيه اذية بالغة او طفيفة . فاستطاع من تجاريبه الكثيرة التي عاناها ان يميز بين ما هو صالح منها لقوته وما هو صالح لدوائه . وما زال الانسان الى يومنا هذا يرجع في معالجة اكثر امراضه واسقامه الى النبات واصبحت النباتات الطبية المعروفة تعد بالآلاف

ولقد غير الانسان كثيراً من معالم المملكة النباتية فما حل ببقعة الاّ وعمد الى تقطيع الاشجار الباسقة والنباتات المتكاثفة ليفسح في رقعة سكناه . فاذا ما أفسحها واستقر بها قطع كثيراً غيرها من حوله لكي يزرع الحب لنفسه ولحيوانه . وعند ما تيسرت المواصلات واصبح في مستطاع الانسان ان يهاجر في افواج كبيرة الى اصقاع بكر لم يكن لها به عهد من قبل امعن فيها تقطيعاً وتحريقاً باسراف مريع فأزال غابات عامرة بتمامها وعرّى وجه الارض من زينتها الخضراء الجميلة وبدد كنوز القوى المذخورة فيها شر تبديد . وأعظم مثل لذلك الغابات الفسيحة الواقعة شرقي نهر المسيسبي بالولايات المتحدة الاميركية . كانت تلك الغابات مأهولة ببضعة آلاف من الهنود الحمر الذين لا يأخذون من الطبيعة الاّ القليل الذي يفي بحاجاتهم البسيطة . فلما نزلها الرجل الابيض المتمدين ازالها ومحا معالمها وأقام مكانها الدور والقصور والقرى العامرة والمدن الصاخبة الزاخرة. وحصل في الهند ان اخليت الغابات لزراعة الشاي والبن والمطاط وغيرها من النباتات الاقتصادية التي يلح في طلبها الانسان . ولم يكن تقطيع الغابات وتدميرها بأوربا بأقل منهُ في القارات الاخرى

فقد دمر الانسان فيها اكثر مما تستطيع الطبيعة انتاجه . وأخيراً فطنت الحكومات الى تلك الثروة الجسيمة المهددة بالزوال فسنت القوانين لحماية الغابات ولاستغلالها بقدر ولتعميرها من آن لآخر ... ما كان ذلك من الانسان لمجرد العبث ومحاربة النبات وانما من اجل مصلحته الخاصة فهو وان محا الاشجار من رقعة ما فقد اسكن تلك الرقعة انواعاً اخرى من النبات كالحبوب وغيرها . وتراه من ناحية اخرى ينزل الارض القاحلة او الصحراء المجدبة فيطرق اليها الماء ويغرس بها الاشجار وينثر فيها الحب فتصبح جنة فيحاء دانية القطوف متعددة الالوان ولئن قسا الانسان على النبات من ناحية فقد اسدى الى مملكته ايادي بيضاء كثيرة ، فهو يطوف بالغابات المنعزلة البعيدة ويتسلق الجبال الوعرة ويسلك الصحاري المخيفة ليتصيد كل نادر من النبات ثم يكثره ويحسنهُ الى درجة لا يبلغها ذلك النبات في الاحوال الطبيعية . . . لقد فعل الانسان أكثر من ذلك فانهُ زاد بطريقة التوليد على المملكة النباتية أصنافاً وأشكالاً وألواناً ما كان لها وجود من قبل فهو الذي خلقها خلقاً بعقله الراجح وصبره العظيم فأتت خيراً الف مرة من آبائها الوحشية . هذا فضلاً عن انهُ حسن الاصناف والانواع الموجودة تحسيناً عظيماً . ولأضرب على ذلك مثلاً واحداً بسيطاً بنجر السكر الذي يزرع في اوروبا بكثرة لاستخراج السكر منهُ بدلاً من قصب السكر الذي لا تسمح الظروف الجوية بنموه هناك . كانت نسبة السكر بالبنجر من نحو ٥٠ سنة نحو ٥ر١٠ ٪ فأصبحت الآن بفضل عمليتي التوليد والانتخاب التي يقوم بها الانسان نحو ٥ر١٨ ٪ ولقد وصلت النسبة في بعض افراد منهُ الى نحو ٢٥ ٪ وهكذا أوشك هذا النبات ان ينافس قصب السكر الذي تبلغ نسبة السكر فيه نحو ٢٠ ٪

ولعل أغرب وأعجب ما في حياة الانسان تلك العلاقة التي بينهُ وبين النباتات الدنيئة التي لا يراها بعينه المجردة . تلك الكائنات التي نسميها الميكروبات او الجراثيم تكافح في الحياة وتناضل من أجل بقائها وبقاؤها قوية . فهي تهاجم النباتات الراقية كما تهاجم الانسان والحيوان وتفتك بها جميعاً فتكاً ذريعاً في بعض الاحوال . انها لا تعبأ بالانسان العاقل الجبار بل تتحداه دواماً وتعيش على لحمه ودمه وتزهق في كل يوم آلافاً بل ملايين من الارواح البشرية والحيوانية . لم يستطع الانسان بعلمه الواسع الغزير وعقله الجبار العظيم ان يقضي على تلك المخلوقات الضئيلة التي تتغذى بدمه وأحشائه ثم تفرز فيها سموماً ناقعة تودي بحياته . وكل ما استطاع ان يفعله هو انهُ ألجمها وكسر من شرتها وأصبح مالكاً لقيادها بحيث يستطيع ضبطها ومقاومتها . ولكن كثيراً ما يفلت زمامها من يده وتهيج مرة واحدة فتذيق الانسان والحيوان من صنوف العذاب أشكالاً وألواناً وأخيراً تذهب بالارواح جملة . تلك هي جراثيم الامراض التي نخشاها ونفرق منها . وغير ذلك بعض الجراثيم النباتية التي تقع في طعامنا وشرابنا لتتغذى به أيضاً

فتحيلهُ وتجعل منهُ مركبات أخرى فاسدة ذات روائح كريهة او طعم بشع . وفي مقدورنا ان نتصور عظم ما تخسره الانسانية كل عام من جراء تلك الجراثيم التي تتلف اللحم واللبن والخضر والفاكهة والشراب وغير ذلك مما تقدر قيمتهُ بملايين الجنيهات . . .

ومن الناحية الاخرى تقع جراثيم من نوع آخر في كثير من صنوف الطعام والشراب فتحيلها تماماً او بعض الشيء وتغير من نكهتها او طعمها بحيث تصبح أطيب مذاقاً وأشهى الى النفس . والامثلة على ذلك متعددة فبعض أصناف الجبن مثلاً لا تكتسب طعمها الطيب المعهود من غير ان تقع عليها اصناف خاصة من الجراثيم النباتية تعيش عليها وتتكاثر وتحيل بعض موادها وتفرز بها افرازات خاصة . ونحن لا نأكل من جبن « الروكفور » اللذيذالشهي مادتهُ اللبنية فقط بل والعفن الذي عليهِ بجراثيمهِ مما يجعل لهُ هذا الطعم الزكي الخاص . وثمَّ مثل آخر هو الخبز الذي نستطيبهُ فما كنا لنستسيغهُ او نستطيع اكله مالم نضع مع العجين قبل خبزه قليلاً من نبات الخميرة الذي يخمر بعضاً منهُ فيجعله لذيذاً شهياً . يرحب الانسان بمثل هذه الجراثيم النباتية ويتركها تعمل عملها بل ويشجعها عليهِ بما يهيء لها من الظروف الخاصة المساعدة وكم نحن مدينين لامثال تلك النباتات الدنيئة التي يتوقف على نشاطها الكثير من الصناعات الكبرى التي تدر علينا الخير الوفير والبر العميم

هذا ولم تقتصر العلاقة بين الانسان والنبات على الناحية المادية فحسب بل تعدتها الى الناحية المعنوية ايضاً . فقد استعان الانسان بالنبات في طقوسه الدينية وفي افراحه وأتراحه . وأدرك ما في اجزائه وألوانه من رشاقة وجمال فأحبهُ وأحاط نفسه به في غرفه وحدائقه ومتنزهاته واتخذ منهُ معيناً لا ينضب يشبع منهُ ناحيته الفنية . وسيظل النبات من اهم موارد الالهام للشعراء والمفتنين يشيدون بجماله ويبرزونه للعالم في شكل رائع جذاب . كما انهُ سيظل مورداً خصباً يأخذ منهُ الانسان لزخرفهِ مسكنه ومعبده وملبسه وشتى ادواته المنزلية وغير المنزلية

نرى من كل ما تقدم صورة واضحة يظهر لنا في ناحية منها التعاون بين الانسان والنبات واعتماد الاول على الثاني في معيشتهِ وأعماله بل وفي حاجاتهِ الفنية والروحية ويظهر من الناحية الاخرى منها ذلك الصراع الهائل الطويل المدى بين الانسان والنبات . فالنبات يهاجم الانسان رأساً ويهاجم طعامه وشرابه ونباتهُ الذي يزرعه وحيوانه الذي يرعاه ، والانسان بدوره يذود عن نفسه وعن حيوانه ونباته الذي تحت كنفه بكل ما اوتيه من قوة وحيلة مستعيناً في كفاحه هذا بشتى الوسائل كالبرودة الشديدة والحرارة المرتفعة والجواهر السامة وغير ذلك من الوسائل الطبيعية والكيماوية الفعالة . وخلاصة ذلك أن ما نفيده من النبات ليعدل الف الف مرة ما يصيبنا منهُ وانا مدينون له بحياتنا المادية والروحية الى حدٍّ كبير

قصب السرعة

بين الاحياء

والطيران حول الارض في نهار واحد

يعلم قراء المقتطف ان قصب السرعة في الكون للضوء فهو يسير بسرعة ١٨٦٣٠٠ ميل في الثانية . ويعلمون كذلك ان من الطيور ما تتجاوز سرعتهُ مائة ميل في الساعة ، وبعضها كالصقر او البازي يبلغ ١٦٠ ميلاً في الساعة او اكثر قليلاً . وهذه سرعة عظيمة ، ولكنها مع ذلك تجعل الصقر بطيئاً البطء كلّهُ بالقياس الى حيوان آخر تزيد سرعتهُ على سرعة امواج الصوت ! ذلك الحيوان حشرة صغيرة تعرف باسمها العلمي « كيفينومايا » Cephenomyia وباسمها الشائع « ذبابة الايل » وهذا الاسم الثاني مستمد من كونها تتطفل وهي يرقة على بعض الحيوانات من نوع الايّل فتسكن مسالكها الانفية والحلقية . ويقال انها تختزن الغذاء وهي في هذه المرحلة من حياتها وتستعمله عند ما تتحول ذباباً

وقد روى المواليدي الاميركي العلاّمة روي تشابمن اندروز — مدير المتحف الاميركي للتاريخ الطبيعي — في مجلة التاريخ الطبيعي التي يصدرها ذلك المتحف ان العلاّمة الدكتور تشارلز تونزند قضى سنين كثيرة في دراسة هذه الحشرات فوصفها في كتاب خاص بعث بهِ الى الدكتور اندروز بانها تخترق الجوّ كخطف البرق وانهُ قاس سرعتها وحقق القياس بوساطة مصوّرات ضوئية سريعة خاصّة فاذا سرعتها تبلغ ٤٠٠ ياردة في الثانية او نحو ٨١٨ ميلاً في الساعة . وكتب تونزند مقالاً عنها في مجلة الحشرات التي تصدر بنيويورك فقال انهُ قد يصعب على ايّ كان ان يصدّق ان حشرة تستطيع ان تسبق رصاصة بندقية ولكن ذبابة « الكيفينومايا » تستطيع ان تسبق رصاص البندقيات القديمة ولا يستبعد ان في مكنتها ان تساير قنابل المدافع الالمانية الضخمة التي اطلقت على باريس في اثناء الحرب العالمية

والغريب في هذه الحشرة ان ذكرها أسرع من انثاها ويفسَّر ذلك بأنهُ لا بدّ للذكر

من ذلك لكي يلحق بالانثى حتى يتسنى اتمام الزواج . ولو كان في الامكان ان تصنع طيارة تطير بسرعة هذه الذبابة لاستطاعت ان تطير حول الارض عند خط العرض الشمالي ٤٠ مثلاً بين شروق الشمس وغروبها في يوم من أيام الصيف . ولا يخفى ان اسرع الطيارات لا تتجاوز سرعة ٤٥٠ ميلاً في الساعة . وان سرعة امواج الصوت في الهواء ١٠٨٩ قدماً في الثانية اي اقل من ٤٠٠ ياردة وهي سرعة هذه الذبابة العجيبة

***

من الثابت ان كل ما اصابتهُ انواع الحيوانات من الرقي في الحركة والانتقال مبني او متصل بمبادىء ميكانيكية مستقرة في شكلها وتركيبها ، فاذا عرف العلماء أسرار الحركة السريعة في ذباب « الكيفينومايا » تمكنوا من بناء آلات للطيران قائمة عليها فيبلغون سرعة قد يتعذر عليهم بلوغها اذا اقتصروا على اتخاذ الطيور مثالاً لهم ينسجون على منواله . وان ما شاهدناه من معجزات المخترعات والمستنبطات في هذا العصر يشير الى ان الجزم باستحالة شيء لغرابتهِ او بعده عن المألوف جرأة لا يقدم عليها عاقل

فاذا استطاع العلماء والمهندسون ان يتبينوا اسرار السرعة في هذه الذبابة ، وان يطبقوا مبادىء حركتها وقواعد شكلها في بناء الطيارات ، وان يجعلوا الطيارات بحيث تطير في طبقات الجوّ الطخرورية حيث الهواء لطيف والمقاومة للطيارات أقل منها على ارتفاع بضعة آلاف من الاقدام ، فليس من المتعذر ان تبلغ الطيارات سرعة ٨٠٠ ميل او الف ميل في الساعة

فاذا اتيح لنا الطيران بطيارة من هذا القبيل سبع عشرة ساعة متوالية تمكّنا من الطيران بها حول الارض في نهار واحد . فالمسافة حول الارض عند خط العرض الاربعين نحو ١٤ الف ميل . فاذا طارت الطيارة بسرعة ٨٠٠ ميل في الساعة تمكّنت من الطيران حول الارض في ست عشرة الى سبع عشرة ساعة . واذا فرضنا انها قامت من نيويورك في الساعة الخامسة صباحاً فانها تبلغ مدينة « أوماها » بالولايات المتوسطة الاميركية في ساعة ومدينة « رينو » على حدود كاليفورنيا في ساعة أخرى ومدينة « باكين » بالصين في ست ساعات ومنها الى « استانبول » في أربع ساعات أخرى ثم الى « مدريد » في ساعة ونصف ساعة ومنها الى « نيويورك » في ثلاث ساعات ونصف ساعة فتصلها في الساعة العاشرة مساء

فاذا تحقق عمل من هذا القبيل فاق خرافات الاقدمين عن بساط الريح وروايات جول فرن الفرنسي مع ما كان فيها من التطرف في الخيال والوهم حين وضعت ، ولكن الحقائق التي يقوم عليها هذا الزعم ثابتة نقرؤها في فصل الحشرات من كتاب الطبيعة المفتوح

٣ — الحاجة الى زيادة المعرفة بالانسان

الانسان المجهول

للعلامة الكسيس كارل

تلخيص : اسماعيل مظهر

ينبغي إذن ان نعرف كيف ينتظر ان تؤثر أساليب الحياة الجديدة في مستقبل السلالة البشرية . فان استجابة النساء لاوجه التكيُّف التي انتابت حياة اوائلنا وعاداتهم ، من طريق الانقلاب الصناعي ومدنية الانتاج العملي ، كانت حاسمة سريعة . ولك ان ترى شيئاً من ذلك في ان نسبة المواليد قد نقصت فجأة . ولقد كان لهذا الحادث أثره البالغ الجَلَل في الطبقات الاجتماعية وفي الامم التي كان يظن انها سوف تكون أكثر اهل الارض استمتاعاً ، إن مباشرة أو بالواسطة ، بفوائد التقدم الحديث وجنياً لثمراته ، بتطبيق المكتشفات العلمية تطبيقاً عمليًّا . على ان العقم بالارادة — اي تعقيم النساء بحكم الاختيار — ليس حادثاً جديداً يشهده لاول مرة تاريخ العالم . فانهُ كان طابَع بضعة عهود مرت في تاريخ مدنيات بائدة . إنهُ لعَرَض طائفي . على اننا ولاشك نعرف له مكانتهُ عام المعرفة

وإنهُ لمن الظاهر أن التغيرات التي انتابت محيطنا بذيوع « الصناعية » — Technology — وبالحري الفن الصناعي ، قد أثر في جميتنا تأثيراً بالغ المدى . يَبْدَ ان نتائج هذا « الفن » قد لابستها خليقة لم نكن نتوقعها . لقد أدركنا ان لها نتائج تنافي كل المنافاة تلك التي أمَّلنا فيها ، والتي كان لنا ان نرتقبها من أوجه الارتقاء التي انتابت مساكننا وطرائق حياتنا واغذيتنا وتعليمنا والجو العقلي الذي كوَّنتهُ من حولنا الخلائق البشرية في العصر الحديث

إذن نتساءل : كيف انتهينا الى هذه النتائج المتناقضة ؟

٥ — إن هذا التغير مضر ، مادام انهُ قد تمَّ من غير نظر صادق في حقيقتنا

قد يمكن ان نجيب عن هذا السؤال جواباً بسيطاً ساذجاً ، فنقول : إن المدنية الحديثة قد تحرَّجت وارتجَّت دعائمها ، لانها لا توائمنا . ذلك بان قواعدها قد اقيمت من غير نظر في حقيقة

طبيعتنا أو معرفة بها ، وانها وليدة نـزَوات الـكشف العلمي ، وشهوات الناس وخيالاتهم ونظرياتهم ورغباتهم . فهي على الرغم من انها قد شيدت بجهودنا ، فانها خلقت بعيدة عن ان تـكافىء منا الحجم والشكل

والظاهر الجلي ان العلم لا يتبع طريقاً مرسوماً او خطة معينة . أنهُ ينمو خبط عشواء . وأوجه تقدمه رهن حالات اتفاقية ، القضاء الصرف مصدرها ، والقدر الاعمى منبعها . مثل ذلك ميلاد العباقرة ذوي الـكفايات ، وتكوين عقولهم ، والاتجاه الذي تتجه اليهِ قوة التطلع فيهم . وكل هذا لا يقع اتباعاً للرغبة في تحسين حالات الانسان . فإن المـكتشفات التي أحدثت المدنية الصناعية إنما جاءت تبعاً لما تقلّب على مشاعر العلماء وميولهم من الاهواء ، والظروف التي أحاطت بمنّجهاتهم . فلو أن غليليو ونيوتن ولافوازيه كانوا قد صرفوا قواهم العقلية الى درس الجسم الحي والوعي ، اذن لـكانت دنيانا غيرها الآن . فان رجال العلم لا يدرون في اي طريق هم مسوقون . انهم انما تقودهم المصادفة والتفكير العلوي ، وبالحرّي ضرب من الـكشف النفسي — clairvoyance ، ان كلاً منهم بمنزلة عالم برأسهِ ، له سنتهُ التي تحكمهُ . وبين الفينة والفينة ينجلي لهم من الاشياء ، ما يظل غامضاً على غيرهم . وعلى الجملة نريد ان نقول إن المـكتشفات إنما تأتي عفواً من غير تقدير للنتائج التي تترتب عليها . على ان نتائجها قد أحدثت في الدنيا انقلاباً بالغاً ، صوّر حضارتنا في الصورة التي نشهدها

انتقينا من تلك الثروة العلمية الضخمة أجزاء بعينها . على ان اختيارنا لتلك الأجزاء لم يكن حليف النظر في ما تحتاج اليهِ الانسانية من المصالح العليا . لقد اتبعنا في الاختيار اتجاهاً أملتهُ علينا ميولنا الطبيعية . ان العوامل المسيّرة التي أدت الى نجاح المخترعات الحديثة في حضارتنا قد ترجع في حقيقتها الى مبادىء تعلق بها الانسان هي : الحصول على الراحة والرضا ببذل أقل ما يمكن من الجهد ، والجذل الذي تحدثهُ السرعة او اختلاف المناظر ، مضافاً الى ذلك حاجة الانسان الى التخلص من ذات نفسه بعض الاحيان . ولـكن قلما ساءل أحدٌ نفسه : كيف يستطيع ان يواجه عوامل الاستسراع التي انتابت أُلفة الحياة وانسجامها ، تلك العوامل التي تتجلى مظاهرها في سرعة الانتقال والمبرقة (التلغراف) والمسرّة (التليفون) وأساليب التعامل الحديثة ، والآلات الـكاتبة الحاسبة ، بل وجميع تلك الاجهزة التي تقوم الآن بأعمال المنازل الحديثة . فان النزعة التي حملتنا على استخدام الاجهزة الحديثة ، كالطائرات والسيارات والخيالة والمسرّة والراديو ، والتي ستحملنا في القريب العاجل الى استخدام المرناة Television هي في حد ذاتها نزعة طبيعية ، أشبه بتلك التي حملت آباءنا في ظلام القرون الاولى ، على ان يعكفوا على تعاطي الخمور . فالمنازل ، المدفأة بالبخار ، والنور الـكهربي والمراقي elevators وذيوع الاغذية الـكيمياوية والتزام حدود

أدوية خاصة في الحياة التناسلية ، عامةً ذا لم يقبله الناس الا لانها مخترعات محببة الى النفس ، مجلبة للرضا . ولكن لم يلتفت أحدٌ الى شيء مما لها من الاثر المحتمل في الخلائق البشرية

***

في تنظيم الحياة الصناعية لم يلتفت الى شيء مما للمعمل من التأثير الوظائفي والعقلي في حياة العمال . فالصناعة الحديثة قائمة على قاعدة — « أكبر نتاج بأقل نفقة » — حتى يتمكن فرد واحد أو مجموع من الافراد من كسب أكبر مبلغ يمكن كسبهُ من المال . ولقد نمت هذه الطريقة وتشعبت من غير ان تساور انساناً فكرة ما في طبيعة الخلائق البشرية الذين يحركون الآلات ، ومن غير ان يؤبه بالتأثيرات التي تنتاب الافراد ، وبالتبعية اعقابهم ، من طريق ذلك الاسلوب المصطنع الذي تفرضهُ حياة المعمل عليهم فرضاً . كذلك شيدت المدن المظيمة من غير ان يحسب حساب للخلائق التي تسكنها . فالمطرحات Sky-scrapers بصورها الدميمة وحجومها العظيمة لم تقم الا على فكرة الحصول على أكبر ايراد ممكن من كل قدم مربعة من الارض ، وتزويد ساكنيها ، أصحاب مكاتب كانوا أم طلاب إقامة ، بأماكن يرتاحون اليها ويأنسون بها . وكان هذا سبباً مباشراً في اقامة تلك العمائر المطرَّحة العظيمة ، التي تزدحم بعدد كبير من أبناء آدم . وأبناء المدنية الحديثة يألفون هذا الاسلوب من الحياة . وبينما هم يمتعون بمباهج هذه الحياة وزخارفها التي تحوطهم في مساكنهم تلك ، ينسون أنهم قد جرَّدوا من حاجيات الحياة . فان المدن الحديثة انما تتألف مما يشبه الاغوار السحيقة القائمة جنباتها حفافي شوارع مظلمة ضيقة شاع فيها لهب الغزولين وتراب الفحم والغازات المسمَّمة ، وتعالت فيها جلبة السيارات والعربات والترام ، وازدحمت على غير انقطاع بجماهير غفيرة من الناس . والمدرك من هذا جميعه ان المدائن الحديثة لم تُشد بحيث تتفق مع الخير الذي ينشده سكانها

ان حياتنا الحديثة تتأثر الى حد بعيد بالاعلانات التجارية . ذلك بأن اذاعة هذه الاعلانات لم يلحظ فيه مصلحة المستهلك ، بل منفعة المعلن . ومثلنا على ذلك ان الجمهور قد لقن ان العيش الابيض خير من العيش الاسمر . فطفق تجار الدقيق يمعنون في نخله المرَّة بعد المرة حتى تجرَّد من كل عناصره المفيدة . وبذلك استطاع تجار الدقيق وأصحاب المخابز ان يحصلوا على أرباح أعظم مما كانوا يربحون ، في حين ان المستهلكين قد انحطت قيمة غذائهم ، وان اعتقدوا انهم انما يأكلون غذاءً أنفع من غذائهم الاول . وقد اتضح ان الامم التي يؤلف الخبز غذاءها الرئيس ، مضت تنحدر وتنحط . والمحصل ان اموالاً طائلة تنفق على الاعلان . فكان من نتائج ذلك ان مقادير عظيمة من المنتوجات الغذائية والصيدلية ، منها ما هو غير مفيد ، ومنها ما هو مضر ، قد اصبحت من الحاجيات التي يعكف عليها الانسان المتمدين . وبهذا نجد ان طوائف من ذوي الطمع والجشع

قد استطاعوا بطرائقهم الخاصة في دفع الجماهير الى استهلاك سلعهم التي يعرضونها للبيع ، ان يحدثوا اثراً بالغاً في حالات العالم الحديث

ومع هذا فان الدعاوة التي توجه طرائق عيشنا في الحياة الجديدة ، لا تخضع دائماً للبواعث الأَنانية . ذلك بان الظاهر من طبيعة تلك الدعاوة أنها بدلاً من ان تتجه الى فائدة الافراد المالية او فائدة جماهير منهم ، فانها في الاكثر ترمي الى النفع العام . غير انها الى جانب هذا قد تكون بالغة منتهى غايات الضرر والفساد ، إذا هي صدرت عن اشخاص تصورهم ، الذي كوَّنوه عن هذا الكائن البشري ، ناقص او خاطىء . ولنضرب لذلك مثلاً . فان اطباءنا اذ ينصحون بالتزام ضروب خاصة من الطعام ، وكثيراً ما يفعلون ذلك ، يزيدون الاطفال تسارعاً في النماء ، ويدل فعلهم في مثل هذه الحال على انهم ولا شك يجهلون الموضوع الذي يعالجونهُ ، فهل الاطفال الذين هم اكبر حجماً او أكثر ثقلاً ، اصلح من اولئك الذين هم اصغر حجماً او أخف وزناً ؟ فان الذكاء والنشاط والهمَّة والقدرة على مقاومة الامراض لا تتوقف على وزن الجسم او كبر الحجم ، أو ما يجري ذلك المجرى من الصفات . ومثل آخر نقتطعهُ من معاهد العلم . فان التعليم الذي تفرضهُ المدارس والجامعات انما يعني غالباً بتدريب الذاكرة ومرانة العضلات على نمط اجتماعي خاص ، يُسلم حتماً الى شيء من الضعف النفسي ، يتجلى في عبادة الرياضيين ، فهل مثل هذه النظامات مفيدة لرجال العصر الحديث الذين هم أحوج ما يكونون الى الاتزان العقلي وثبات الاعصاب والحكم الصادق على الاشياء والهمة والشجاعة الادبية وقوة الاحتمال ؟ ولقد نتساءل لماذا يتصرف رجال الصحة تصرف المقتنعين بان الانسان عرضة لان يصاب بالامراض المعدية وحدها ، من غير ان يفكروا في انهُ الى جانب هذا معرَّض الى الاضطرابات العصبية والعقلية والى ضعف العقل بصورة عامة . ومن هنا نرى ان الأطباء والمعلمين ورجال الصحة ، ولو أنهم يعملون جهدهم رامين الى خير الانسان ، فانهم لا يصيبون الغرض الذي يسعون اليه . ذلك بانهم يعالجون مقدمات لا تتضمن من الحقيقة الاَّ جزءاً ضئيلاً . وقد يصدق هذا الحكم على كل اولئك الذين يستعيضون بميولهم واحلامهم ومذاهبهم عن تلك الحقيقة الجامدة التي ندعوها الانسان . وما هؤلاء غير نظريين يحاولون ان يقيموا مدنيّات لا تلائم عند الواقع غير صورة مشوَّهة ممسوخة من الانسان ، لا الانسان على حقيقته . والذي لا شك فيه ان أنظمة الحكومات التي تقوم في ادمغة أصحاب المذاهب الاجتماعية من غير ان تكون اصولها مستمدة من الحالات الراهنة ، اشياء معدومة القيمة هزيلة الوزن . فمبادىء الثورة الفرنسية ، واوهام ماركس ولنين ، إنما تصلح لنوع من البشر خياليٍّ لا حقيقة لوجوده . ولذا أقول انهُ من الواجب أن نؤمن بأنَّ السنن التي تحكم الصلات الانسانية ما تزال مجهولة خفية ، وإن لنا ان

نقضي الى جانب هذا بأن علمي الاجتماع والاقتصاد علمان ظنيان حدسيّان، وبالحري علمان كاذبان

لهذا نقول ان المحيط الذي تعاون العلم والفن الصناعي على تلوينهِ ونجحا في خلقه ليكون للانسان مباءة، محيط لا يوائم الانسان، ذلك بأنهُ شيد اعتباطاً، من غير نظر في حقيقة ذاته

— ٦ —

حاجتنا الى معرفة أوفى بحقيقة ذواتنا

والمحصل: ان علوم المادة الجامدة قد أحرزت تقدماً عظيماً في حين ان علوم الكائنات الحية ظلت بدائية. فان بطء التقدم الذي نأنسه في علم الاحياء — Biology — إنما يرجع الى الحالات المحيطة بالوجود الانساني والى تعقد ظاهرات الحياة والى الصورة التي انصب فيها ذكاؤنا، وهو ذكاء يميل بفطرتهِ الى الأبنية الآلية والى الرياضيات المجردة. ذلك الى ان تطبيق المكتشفات العلمية تطبيقاً عمليًّا قد قلب الآية في عالمي المادة والعقل. وكان من جراء ذلك الانقلاب أن حدث تأثير عظيم الخطر على حالات الحياة. أما اخطر ناحية من نواحي ذلك الانقلاب فتنحصر في أنهُ استحدث من غير نظر او اعتبار لطبيعتنا. فان جهلنا بأنفسنا قد أوسع المجال لعلوم الآلة والطبيعة والكيمياء تلك القوة التي مكنتها من ان تكيِّف تكيفاً أعمى انماط الحياة التي ألِفَهَا أسلافنا

والحقيقة ان الانسان ينبغي ان يكون المقياس الذي يقاس عليهِ كل الاشياء. وبالرغم من هذه الحقيقة وعلى عكس ما تقتضيهِ تماماً، يعيش الانسان غريباً في هذا العالم الذي خلقهُ من حولهِ. لقد عجز الانسان عن ان ينظّم دنياه، لانهُ لا يملك المعرفة العملية بحقيقة طبيعته. فكان التقدم العظيم الباهر الذي حازتهُ علوم المادة الجامدة وبذت به العلوم ذوات العلاقة بالكائنات الحية، من أعظم الكوارث التي انتابت الانسانية. والمحيط الذي أبدعهُ ذكاؤنا وتلك المخترعات التي اخترعنا، قد أثبتت انها غير ملائمة لنا من اكثر الوجوه. نحن انما نشعر بأننا تعساء، واننا نتحدر أدبيًّا وعقليًّا، وتلك عشائر الانسانية وأممها التي بلغت فيها المدنية الصناعية أرقى مبالغها، هي بذاتها العشائر والامم التي ترى انها آخذة في أسباب الضعف شيئاً بعد شيء، بل انها العشائر والامم التي نلحظ ان رجوعها الى الهمجية سريع وشيك. غير انها لا تشعر بهذه الحقيقة. انها تعيش غير محمية من أثر البيئات المعادية التي كوّنها العلم من حولها.

والواقع ان حضارتنا، كالحضارات السابقة، قد خلقت حالات أصبحت معها الحياة، لاسباب ما تزال غامضة، أمراً يكاد يكون مستحيلاً. فان متاعب أهل المدن الحديثة وشقاواتهم، انما تعود الى نظاماتهم السياسية والاقتصادية ومعاهدهم الاجتماعية، وفوق كل هذا، الى ضعفهم الذاتي. وعلى الجملة نشعر أننا ضحية لتأخر علوم الاحياء وسبق علوم المادة عليها

اما العلاج الاوحد لهذه السيئات فاستعاقنا في المعرفة بحقيقة ذواتنا . فان استعاقنا وتفقهنا في هذه المعرفة سوف يمكننا من معرفة وسائل الحياة الجديدة التي تؤثر في وعينا وفي جسومنا. وبهذا نفقه بأي سبيل نكيّف انفسنا بحيث نلائم بيئاتنا وكيف نبدل هذه البيئات ، إذا ما أصبح قلب نظمها وأسسها ضرورة محتومة . واننا باستظهار طبيعتنا الحقيقية وكفاياتنا والطرق التي نجعل بها هذه الكفايات قوة ذات اثر واضح في الحياة ، نستطيع ان نجلو نواحي ضعفنا الوظيفي ونستبين حقيقة امراضنا الادبية والعقلية . اننا بغير الاستعاق في درس علوم الاحياء نعجز عن معرفة السنن التي تحكم أوجه نشاطنا العضوي والروحي ، كما نعجز عن ان نعرف ما يجب ان نتنكب وما ينبغي ان نقبل عليهِ من أشياء الحياة ، او أن نحقق على الاقل مدى حريتنا في ان نحوّر من بيئاتنا أو أنفسنا بمحض اختيارنا

ان حالات البقاء الطبيعية قد حطمتها الحضارة الحديثة . وهذا ما يجعلنا نشعر شعوراً عميقاً بأن العلم بالانسان قد أصبح أمسّ العلوم بكيانتا

في الادب

قال الطغرائي في ولدٍ لهُ وافاهُ على كبر :

هذا الصغير الذي أوفى على كبري ... أقرَّ عيني ولكن زاد في فِكَري

وافى وقد أبقت الايام في جسدي ... ثلماً كثلم الليالي دارَةَ القمر

والشيب أردف مسودًّا بمشتعل ... والدهر أعقب منصاتاً بمستطر

سبع وخمسون لو مرّت على حجر ... لبان تأثيرها في صفحة الحجر

فزاد حرصي على الدنيا وجدَّد لي ... ضنًّا بمالي واشفاقاً على عمري

أضوى عليهِ وأخشى ان يعاجلني ... يومي، ولم أقضِ من تشريحهِ وطري

وأشتهي أن أراهُ وهو مقتبلٌ ... غض الإهاب خضيب الوجه بالشعر

أحيي مآثر آبائي وأشبههم ... في مجدهم،واقتني في هديهِ أثري

زواج الاقارب

أضارٌ هو أم نافع

للدكتور ليفي لنز

مسألة الزواج بين الاقارب وما قد يسفر عنهُ هذا الزواج من اولاد أصحاء او أعلاَّء ، مسألة شغلت عقول الناس من قديم العصور . وهي مسألة معقدة لان المرء يميل على الغالب الى الحكم حكماً قاطعاً في الموضوع وفقاً لحادثة استوقفت نظرهُ او مراعاةً لبعض القواعد الدينية . ولكن إخلاف النسل السليم القوي غدا في عصرنا مشكلة كبيرة الشأن . ولذلك أصبح لعلم اصلاح النسل مكانة عظيمة في دوائر العلماء والعامة على السواء . والنتيجة التي خرج بها العلماء من بحوثهم وتجاربهم هي ان الزواج بين الاقارب لا خطر فيهِ ولا خوف منهُ اذا كانت الاسرة التي يتم الزواج بين افراد منها اسرة سليمة

ولنضرب على ذلك بعض الامثال : هو ذا شاب يريد ان يتزوج ابنة عمهِ . فاذا دلَّ البحث الدقيق على ان الاسرة سليمة من العيوب الوراثية ، فليس ثمة ما يعترض بهِ على هذا الزواج من الناحية العلمية والصحية . بل على الضدّ من ذلك ان العلم يرى في هذا الزواج خيراً كبيراً يتجلى في صحة الاطفال التامة . او خذ مثلاً آخر . يريد اثنان من أسرة واحدة سليمة ان يتزوجا . ولكنَّ في هذه الاسرة أفراداً مصابون بحسر النظر (ميوبيا) وهو عيب غير بارز فلا يسترعي النظر لان كثيرين من المصابين بهِ لا يستعملون النظارات . ففي هذه الحالة يستهدف الاولاد — ثمرة هذا الزواج — لخطر الاصابة اصابة شديدة بحسر النظر لانهم يرثون الاستعداد لهذه الاصابة من أبويهم

ولكن اذا تزوج أحد شبان هذه الاسرة فتاةً من أسرة أخرى غير مصابة بحسر النظر بل بالبول السكري ، ففي هذه الحالة يقلُّ خطر الاستهداف للاصابة بحسر النظر لان الجرثومة الحاملة لهذا العيب تنتقل الى الطفل من ناحية واحدة هي ناحية الوالد . وعلى قدر ما يستهدف

الطفل لخطر الاصابة بحسر النظر ، يستهدف كذلك لخطر الاصابة بالبول السكري لان أسرة الأم مصابة بهِ . وليس في هذا ما يمنع ان يصاب الطفل بحسر النظر او بالبول السكري . ولكن التعرّض لخطر الاصابة بأحدهما قليل . واذن يصحّ ان تقول إن زواج الاقارب ، اذا كانوا من أسرة سليمة من العيوب الوراثية ، لا خطر فيهِ على الاولاد

والعلماء لم يصلوا الى هذا الرأي على أساس التأمل النظري، ولكنهم خلصوا اليهِ من تجارب متعدّدة واسعة النطاق

ففي المانيا بحديقة قصر روزنشتين على مقربة من مدينة شتتغارت يعيش فريق من الاتباع الاقطاعيين البيض وقد مضى عليهم مائة سنة وهم يتزاوجون حتى غدت صلات القرابة بينهم وثيقة جدًّا . وليس ثمة ما يجيز لنا ان نقول إنهُ يبدو عليهم أقل دليل من ادلة الانحطاط او الحؤول البيولوجي . وفي سنة ١٨٦٤ نقل الى انكلترا ثلاثة من الاتباع الاقطاعيين من زيلندة الجديدة فنسلوا في ٦٤ سنة ستة آلاف خالين جميعاً من آثار الحؤول . ثم ان الجياد الشهب في فردريكسبورج تولدت من تشبية جوادٍ وثلاث عشرة أصيلة . وهي مشهورة بصفاتها الممتازة على الرغم من التزاوج بين نسلها

***

وكانت الشريعة تقضي على ملوك « الانكاس » بأن يتزوجوا شقيقاتهم . فلما تغلب الاسبانيون عليهم في أميركا الجنوبية كان ملك بيرو أحدهم خلفاً لاسلاف يستغرق تاريخهم الف سنةٍ ومع ذلك كان سليماً . أما انهُ عجز عن مقاومة الاسبانيين فلا دخل لهُ في الامر

وما لنا وللاعتماد على الشواهد البعيدة وعندنا في تاريخ مصر القديمة ما يكفينا حيث كان زواج الملك بشقيقته اجباريًّا . ولم تكن هذه القاعدة مما يتميز بهِ الاعيان بل كان عادة شائعة في جميع طبقات الشعب

ومع ذلك لا بدَّ من ان نقول ان الاسر السليمة من العيوب نادرة الندرة كلها واذن لا بدَّ من اتخاذ الحيطة الكاملة عند النيَّة على عقد زواج بين قريبين لصيقين . ونحن نشير الى هذا عنايةً منا بالصحة الخاصة والعامة وسلالة الاطفال من العيوب الوراثية ، وهذا يفسّر عناية بعض الحكومات الاوربية بانشاء عيادات طبية خاصة حيث يعنى الاطباء المختصون بتنوير الخطيبين في هذا الموضوع الخطير واطلاعهما على ما يجب ان يطلعا عليهِ . ومما يؤسف له ان مصر لم تنشىء حتى الآن عيادات من هذا القبيل

الدستور

والروح الوطنية

لانيس المقدسي
استاذ الادب العربي بجامعة بيروت الاميركية

مما ذكرناه آنفاً يتضح أن ما تدفّق بهِ الشعر الدستوري من عواطف الحبور والتهليل راجع بالاكثر الى ما نشأ في نفوس العثمانيين عموماً والعرب خصوصاً من ايمان ثابت باخلاص الدستوريين ورجاءٍ حيٍّ بحسن المصير. فكنت تراهم على شبه يقين من انهم أصبحوا ابناء لدولة عظيمة تحبّهم وترغب في تقدّمهم

ذلك الايمان وذلك الرجاء بعثا في الشرق العربي روحاً جديدة أيقظت القلوب وأضرمت فيها الشعور بالفخر والكرامة الذاتية فألبست الادب حللاً قشيبة من الجمال. وقد ظهر ذلك في مظهرين رئيسيين هما الاعتزاز بالوطنية، والدعوة الى الاتحاد القومي. واليك البيان مما اختبرناهُ بأنفسنا وعرفناه من اختبار الآخرين

« الاعتزاز بالوطنية » أشرنا في فصل سابق الى ما كان للحرب الروسية اليابانية ١٩٠٥ من أثر في تخمير الشرق العربي بروح الكرامة الشرقية. وقلنا ان ذلك لم يكن الا سبباً تمهيديًّا لحركة أعمق وأوسع نطاقاً. وقد بدأت هذه الحركة فعلاً عقب اعلان الدستور. وسنرى كيف تطورت مع الزمان. وكيف تغيرت أشكالها في شتى البلدان

ولا يخفى ما كان للاجانب في السلطنة العثمانية من نفوذ سياسي واقتصادي وفكري. فهم أصحاب الامتيازات وفي معاهدهم نشأ سواد المتعلمين، فلا بدع ان يتولد في نفس الشرقيّ ازاءهم ما يسميه علماء النفس بالصغار الذاتي[1]، حتى صار عند الجمهور كل شيءٍ غربي أفضل من كل شيءٍ شرقي، تاجرهم أصدق، وعالمهم أعلم، وصانعهم أحذق، بل وعنصرهم، أشرف وأرقى. وجرى ذلك بين الناس في الشرق العربي وألفوهُ حتى صار جزءاً من كيانهم النفسي. على ان النهضة العلمية أخذت منذ القرن الماضي تعمل على إضعاف هذا الشعور، فنشأ بين المفكرين من ثار على «الصغار

(١) مقابلة للتعبير الانكليزي Inferiority Complex

الذاتي» حرباً شعواء داعياً الناس الى احترام النفس واكرام الوطن. كقول أحدهم[1] «كيف نؤمل نجاح صناعتنا وتأخر صناعتهم في بلادنا حال كون كل عربي يمدح صناعتهم ويطعن في صناعة بلاده، ويفضل ما كان أفرنجيًّا مهما كان» . وقد نظر الكاتب هنا الى الوجهة الاقتصادية وهالهُ ان يرى تأخر الوطني لتأصل فكرة سقيمة فيه. ومنهم من نظر الى الوجهة الاجتماعية او الروحية فآلمهُ ان يرى ما يسود الناس من اعتقاد بأفضلية الغربي وتفوّقه الفطري على الشرقي. فقال[2] « ام لا ترى انك لو عنيت بأمر قومك عنايتك بالاجنبي تقوم بأمره، وتولع بشكره، لما لبثت أن ترى منهم من يبلغ شأوه وان كان رفيعاً، ومن يدرك سعيه وإن كان سريعاً »

وعرف الغربيون ذلك الشعور في الشرقيين فاستغلوه بل تمادوا في استغلاله حتى صاروا لا يتورَّعون عن التشامخ على بني الشرق وامتهانهم في عقر دارهم. فمن الطبيعي ان يولد ذلك في نفوس الأُباة من الشعراء والكتبة « ردّ فعل » يظهر في منظومهم ومنثورهم كما ترى في قصيدة للزهاوي قالها قبل الدستور ومنها[3]

كفى الغربُ فخراً انهُ متقدّم وانَّ له مالاً به يتنعم
وانّ لهُ في البرّ جيشاً عرمرماً يماثله في البحر جيش عرمرم
ترقّى فلما اشتدّ ساعدهُ عتا وبات يغيظ الشرق والشرق يكظم
يطيل على اجحافه بحقوقه سكوتاً كأنّ الشرق ليس له فمُ
فيا أيها الغرب المدلّ بنفسه رويدك ما هذا الغرور المذمَّمُ
أتزعم ان الشرق يلبث صاغراً أمامك مغصوباً وأنت المكرَّمُ
وتبقى عليه هكذا متسيطراً تمصُّ دم الاموال منهُ وتهضمُ

والقصيدة حوالي ثلاثين بيتاً وكلها على هذا النسق من البرم بهذه الحال وبتخللها فخر بالماضي وأمل بالمستقبل. وظلّ الامر كذلك الى اوائل القرن الحالي حين أخذت الحضارة الجديدة تعمّ البلاد وحين توفَّر الشرقيون على دراسة العلوم الحرّة، فعرفوا ما لهم وما عليهم. وكبرت نفوسهم فصارت الطبقة المثقفة منهم تشعر بوجودها، فيسؤها ما تراه في الوطن من اثرة أجنبية وتحاول القضاء عليها بشتى الوسائل ولا سيما باحياء الروح الوطنية. على انها كانت تصطدم بالامتيازات الاوربية. ويفتّ في عضدها خنوع الدولة للاجانب وجهل العامة معنى احترام النفس والوطن. وقد زاد الطين بلَّة تلك النعرات الطائفية وما ولدته من ضغائن ومخاوف، مما فتح الباب لتدخل الاوربيين بحجة حماية الاقليات، وبالتالي لازدياد نفوذهم الروحي والسياسي وشيوعه في جميع انحاء الشرق

(١) سليم البستاني مجالي الغرر (١٩٠٦) ١٠٠
(٢) أديب اسحق في الدرر ١٤٨ (٣) ديوانه (١٩٢٤) ٢٩٣

فلما اعلن الدستور وارتفع الضغط المضني عن الالسن والصدور ، اتّقد الشعور الوطني اتقاداً لم يعهد من قبل واخذ الادب العربيّ يتغنّى بالقومية تغنياً غريباً اشتركت فيه جميع العناصر والطوائف . وقلما كانوا يفرقون يومئذٍ بين الكرامة الشرقية والكرامة العثمانية ، بل ذهبوا الى ابعد من ذلك في حماستهم الدستوريّة فقلبوا للاجانب ظهر المجنّ ورفعوا الهلال العثماني الى اوج التعظيم

وقد كان شيء من ذلك قبل الدستور ولكنهُ لا يقاس بما وصل اليه بعده والذين ادركوا ذلك العهد لاينسون قط تلك الهبَّة القومية التي كان لها في نفوس الشبيبة فعل للسكرات فأنْستهم حتى نسوا مساوىء العهد السابق ، واطلقوا لاقلامهم وألسنتهم العنان فجرت في هذا المضمار جري السوابق . فلا تستغرب اليوم اذا قرأت لاحد ادباء بيروت المسيحيين الاصلاحيين قوله من خطاب القاهُ في الاسكندرية [1] :—

« ليبتهج العثمانيون فقد نشر الدستور ، وجاء اليوم الذي التمّ فيه شعث الامة العثمانية وتآلفت اعضاؤها ، وتآخت اجزاؤها . فكلنا بنعمة الدستور عثمانيون — عثمانيون لا نعرف غير هذا اللقب لقباً ، ولا نتخذ سواه نعتاً . عثمانيون قبل كل شيء . عثمانيون طول الحياة . عثمانيون مذهبنا الحرية وشعارنا الوطنية وفخرنا الراية الهلالية وملجأنا الدولة العلية »

ومثله ما جاء في لسان الحال من افتتاحية [2] : — قال الكاتب يصف حالتنا الاجتماعية والروحية قبل الدستور ويقابلها بما صارت عليه بعده — « لم يكن حالنا حال المريض فقط . بل لا نجازف اذا قلنا اننا كنا قد بلغنا حال المحتضَر . وطال هذا الدور (اي دور الاحتضار) الى ان اتانا الدرياق فنشطنا من عقال الخمول ووثبنا وثبة الاسد من العرين » وبعد ان يصف هذه النهضة يشير الى علاقة الوطنيين بالاجانب فيقول (وهو من المعروفين باعتدال المنهج) — « وسيرى الغريب من الفرنجة وغيرهم كيف يعاد مجد الامم وتتجدّد حياتها بقوة افراد رجالها »

وقال احد الكتبة المسلمين [3] واصفاً ما كانت تقاسيه الدولة من السياسة الاوربية — « ان الدول كانوا يواصلون الضغط على جسم المملكة العثمانية . ويضاعفون السمي لايقاع الشلل في عروقها الكثيرة التشعب . ولكن قضى ربك ان يردّ كيد اولئك المتسابقين الى نهش هذا الجسم المتضعضع الى نحرهم ، وتعود العثمانية بفضل الدستور قوية الشكيمة تقف في وجوههم وقفة الرئبال لا جزعة ولا فزعة »

وعلى هذا المنوال نسج كثير من المقالات والخطب وكلها تشير الى ما كان يملأ النفوس من

(١) خليل زينيه جريدة الثبات ١ عدد ٦ (٢) عدد ٢٦ (تشرين اول : اكتوبر) ١٩٠٨

(٣) طه المدور في لسان الحال ٢٢ شباط (فبراير) ١٩٠٩

النقمة على الاجانب او على الاقلّ من الامل بنهوض الدولة فيسترد ابناؤها (الترك والعرب على السواء) مجدهم الغابر ولا يضطرون بعد ان يقفوا امام الاجنبي وقفة الضعيف امام القادر

اما الشعر فحدّث عن اتقاده الوطنيّ ولا حرج . فيهِ اشتركت جميع الاقطار العربية والمهاجر حتى لبنان فانهُ برغم استقلاله الذاتي ورغم اتجاهه نحو الغرب علقت بهِ شرارة من ذلك اللهيب فكان من ابنائهِ في الوطن والمهجر شعراء يهزجون بتعظيم الانقلاب والاستبشار بهِ ، ويهللون للعرش العثماني وابطال الحرية . ومن اراد الاطلاع على ما قيل في هذا الباب فليرجع الى الصحف العربية في العامين ١٩٠٨ و١٩٠٩ (١)

ومما لا ريب فيهِ ان الشعر الدستوري في السنتين المذكورتين مفعم بروح التفاؤل شديد الحماسة للكرامة الشرقية والجامعة العثمانية . سواء في ذلك المسيحيّ والمسلم ،الناقم على سياسة عبد الحميد او غير الناقم . ومن امثلتهِ هذان البيتان لسعيد شقير من قصيدته المار ذكرها —

لا زلتَ يا جيشنا فخراً لامتنا وحظّ اعلامك الامجاد والغلبُ
زرق المعالي وتركيّا لنا وطنٌ للعزّ والمجد فيها تُرفع القببُ

والابيات التالية من قصيدة للدكتور نقولا فياض (٢)

يا بني عثمان إنا امةٌ اصبحت موضوع اعجاب الامم
سيعيد العدلُ تاريخاً لكم طبع المجد بهِ منذ القدم
في حمى جيش عزيز باسلٍ واسع النعمة كشاف الغمم

وبعد ان يصف حماة الدستور الاحرار وافعالهم المجيدة وخوالج الامة يلتفت الى الغرب وعلاقته بتركيا فيقول : —

قل لاهل الغرب عنا حسبكم ان للاتراك بأساً وكرم
حرّروا الشرق وذي افعالهم جدّدت صبوته بعد الهرم

وكأنهُ يرى ما كان يراه كثيرون من الاجانب سبب التفريق بين الشرقيين فيقول : —

ولمن يطمع في تفريقنا كان للتفريق عهدٌ وانصرمْ
غير دين الحبّ لا دين لنا نحن في البؤس سواءٌ والنِعمْ

ولعلّ الابيات التالية تمثل نزوات الشباب الوطنية عهدئذٍ وعصبيتهم الشرقية الثائرة . وهي من قصيدة تليت يوم افتتاح « المبعوثان » (البرلمان العثماني) (٣) وتصف تألم الشرقيين من غطرسة الغربيين وشعورهم ان العهد الجديد سيضمن للشرقي حقوقه وكرامته . تبدأ بذكر

(١) راجع خصوصاً المشرق (بيروت) (٢) راجعها في مجلة الهلال ١٧ — ٨٧ (٣) للكاتب سنة ١٩٠٨

ما كانت عليهِ مصر وسوريا وما كان يعانيهِ أباة الضيم فيهما وفي سائر الاقطار العربية من صلف الأجانب حتى يحمل الناظم شعوره الى قولهِ: —

أترتضي الذلَّ من أيدٍ تقبّلها كأنها للهدى والدين معتصَمُ
ونحن نحقر في القطرين سيدنا ونكرم الزعنف الصعلوك ينهمُ
داءٌ سرى في دم ابن الشرق فانقلبت أهلوه لا همٌّ فيهم ولا شيمُ

ويتقدَّم من هنا الى ذكر الانقلاب الدستوري وانبثاق النور الجديد من العرش العثماني وان هذا النور سيجلو ظلمات الهوان عن البلاد وسيربطهم معاً برابطة الوطنية الحقة والولاء لصاحب العرش. ثم يلتفت الى الغرب فيقول متحمساً

لظًى من النيل للدانوب متقدٌ الى العراق الى البحرين ملتهمُ
ان يكرمونا فان الشرق يكرمهم او يحقرونا فان الشرق منتقمُ

ومما يلاحظ ان هذه الحماسة كانت شديدة الاتقاد في شعراء المهاجر. كقول أحدهم (١)

حسب الغرب هبَّة الشرق نوماً ورماها بأنها وهميَّه
كذب الغرب ان في الشرق قوماً بشفار الصمصام شقّوا الدجيَّه

وليس ما قدَّمناهُ لا نماذج قليلة من الشعر الوطني الذي أنشأه الامل الدستوري في الاوساط الادبية المسيحية، فما قولك بالاوساط الاسلامية وما نشأ فيها من حماسة شعرية وما أثارتهُ من عواطف قومية والمسلمون عموماً أكثر ميلاً الى العثمانية وأشدّ نفوراً من السيطرة الاجنبية

ومن الخطأ الفادح ان يُساء الظن بتلك العواطف الوطنية وان يقال انها لم تكن الاَّ من قبيل التزلف او المداهنة. قد تكون عواطف مغترٍّ او سكران ولكنها كانت يومئذٍ تخرج من قلوبٍ كان كثير منها طافحاً بالامل والاخلاص. واليك تزكيةً لذلك قول أستاذ عرف ببعد نظره وترويهِ في الامور. فقد نشر لهُ المقتطف خطبةً اختارها من بين كثير من خطب ذلك العهد اذ رآها من أدلّ ما أنشىء في وصف تلك الحالة (٢). وقد جاء فيها وصف دقيق لحالة العثمانيين قبيل الدستور كقولهِ — «كنا منذ بضعة أسابيع والصدور خائفة بما فيها. والنفوس واجمة من هول ما ترى من موقفها، والعقلاء النزهاء لا يدرون ماذا يصنعون ولا ماذا يقولون. وكأنما أطبقت عليهم السماء أو سدَّت عليهم منها منافذ الرحمة. وبينما نحن في هذه الظلمة المدلهمة وفي حالٍ من اليأس والقنوط ما شهدنا مثلها ولا آباؤنا الاولون سطع علينا بغتة نور القانون الاساسي فأشرقت على آثاره شمس الحرية الشخصية والحرية القومية والحرية الفكرية الادبية»

---

(١) آداب القرن التاسع عشر لشيخو ٢ — ١٧٣ (٢) المقتطف ٣٣ — ١٩٠٥ للاستاذ جبر ضومط

ثم يتقدَّم الى شرح معنى الدستور وتأثيره حتى يصل الى قولهِ — « ترون مما ذكرته في بيان حقيقة الدستور اني لا أرى ان أفراحنا بهِ صبيانيَّات تافهة . ولا احتفالاتنا ومظاهراتنا الخارجية تكرمةً لهُ وحماته تهوّسات ضارة . بل هي مهما بلغت مع القصد والحكمة قليلة في جنب أهميته ومقدار قيمته . وأيُّ قيمة أعظم من قيمة الحياة — حياة الفكر والقول والعمل المشروع للفرد، وحياة العزة والقوة والتوازر والاستقلال والاستبسال للامة . فمن أراد الحياة فليقل ليحي الدستور العثماني والقائمون بهِ ومن أراد الموت موت الذلّ والصغار والاستعباد فلا رحمهُ الله . وليمت هذا الشخص من بين جماعة العثمانيين الحرَّة »

وقد شعر الاستاذ كما شعر أكثر العقلاء يومئذٍ بطغيان ذلك التيار الوطني وخشي كما خشوا ان يقود الى الغرور والتهوّر او ان يستغلهُ أهل المآرب فناشد الناس قائلاً « دعوا التسرّع فان تسرّعكم لا يفيدنا الآن وان كنتم أخلص المخلصين وأغير أهل الغيرة الحقة على شرف العثمانية ومصلحة العثمانيين . انا في حاجة الى المخلصين أصحاب العلم والخبرة الذين قبل ان يقولوا يفكرون ويتروون وبعد ان يقولوا يفعلون كما يقولون . مثل هؤلاء تطمئن اليهم نفوسنا ونسلم اليهم قيادنا وتدبيرنا »

ومن ظواهر الاعتزاز بالوطنية في ذلك الحين تلك الغارات الشعواء التي شنها الشعراء على بعض الدول الاوربية لتعديها على بعض الممتلكات العثمانية وضمها نهائيًّا الى أملاكها . كما فعلت النمسا بالبوسنة والهرسك . واليونان بكريت . ثم ما فعلتهُ ايطاليا بطرابلس الغرب : فكان شعراء العربية على اختلاف نحلهم ومنازعهم يداً واحدة على المعتدين . وكان شعرهم غالباً كالبحر الثائر يرمي صخور الشاطىء بالزبد الصاخب . كقول الشاعر اللبناني من قصيدة وطنية [1]

ألا من يبلغ النمسا كلاماً	تسجّلهُ ونورثهُ البنينا
بان عهودها كانت سراباً	وكان ودادها (بلفاً) مبينا
فلا تجد السنون الى التصافي	سبيلاً ما تعاقبت السنونا
او النمسا تكفر عن ذنوبٍ	جنتها فاغتدت عاراً وهونا
أتحسب جارة الدانوب أنَّا	نذلُّ لمثلها ابداً جبينا

ولا ريب ان الشاعر كان في هذه الابيات يعبّر عن الشعور العام في المملكة العثمانية ، وقلَّما خطر يومئذٍ بباله ان « جارة الدانوب » ستصبح عن قريب حليفة الدولة العثمانية في الحرب العالمية . وفي حادثة كريت كان من تحمس العثمانيين عموماً ما حمل شاعراً لبنانيًّا آخر على نظم قصيدة بدوية النزعة ومنها [2]:—

(١) شبلي الملاط — راجع شبخو ١٧٧ (٢) لامين ناصر الدين راجعها في ديوانه صدى الخاطر تحت موضوع قادة كريت وكذلك في شيخو ١٩١ على ان في الروايتين بعض الاختلاف

أظنَّ بنو اليونان ان سيوفنا تثلَّمن ام اخنى علينا التأخرُ
ألم يذكروا بالامس ما كان بيننا على حين خضنا الموت والموت يزخر

لعله يشير بذلك الى الحرب اليونانية العثمانية سنة ١٨٩٧

صدمناهم تحت العجاجة صدمةً كما راع اسراب الظباء غضنفر
وكان لنا معهم وقائع لم تزل احاديثها في الخافقين تُكرَّر

ومنها يخاطب اليونان: —

تحيَّنتمُ وقتاً توالت خطوبهُ لادراك امرٍ نيلهُ متعذّرُ
وخلتم توالي الظلم اورث شعبنا خمولاً واصبحنا على الهون نصبر
قهرناكمُ والملك قد كان ذاوياً فكيف وروض الملك فينان اخضرُ

أي قهرناكم أيام عبد الحميد والدولة في حال البؤس فكيف الآن وهي زاهية بعهدها الدستوري الجديد

فا ضمُّ إكريت بسهلٍ قدونهُ صدام الرزايا والهلاكُ المقرَّرُ(١)

ولشاعرنا اللبناني نفثات كهذه في حوادث البلغار وأدرنه وحرب طرابلس الغرب وغيرها من الوقائع السياسية التي كانت مثاراً للخواطر قبل الحرب الكبرى

ومثل ذلك تجده في الشعر العراقي. فالرصافي مثلاً، وقد عرفنا انهُ كان قبل الدستور من الاحرار أو الناقين على سياسة الحكومة الحميدية، اصبح بعده من المغالين في نصرتها، المتحمسين في مقارعة أعدائها. وله قصائد رائعة يستنهض فيها المسلمين الى الجهاد ذوداً عن الوطن العثماني كقوله من قصيدة في الحرب الطرابلسية موضوعها « الى الحرب »(٢)

ألا انهضْ وشمّر أيها الشرق للحربِ وقبل غرار السيف واسلُ هوى الكتبِ
ولا تغترر ان قيلَ عصرُ تمدّنٍ فان الذي قالوه من اكذب الكذبِ
ألست تراهم بين مصرٍ وتونسٍ أباحوا حمى الاسلام بالقتل والنّهبِ
وما يؤخذ الطليان بالذنب وحدهم ولكن جميع الغرب يؤخذ بالذنبِ

وله أشدُّ من ذلك في هذه الحرب وفي ادرنه والبلقان وسواها. والظاهر ان اقامته في الاستانة قد أثرت كلَّ التأثير في الناحية القومية الدينية من نفسه. فلما نشبت الحرب العالمية وخاضت غمارها تركيا الى جانب المانيا والنمسا اخذته الحميّة الدينية كما اخذت كثيرين سواهُ فنظم قصيدة موضوعها « الوطن والجهاد » يدعو فيها المسلمين الى قتال أعداء الوطن والدين (اي الحلفاء) ولكي يدرك القارىء ما كان يسود بعض الاوساط العربية في ذلك العهد (أي قبل

---

(١) والظاهر ان هذا البيت حذف من القصيدة في صدى الخاطر (٢) راجعها وراجع امثالها في باب الحريات من ديوانه (بيروت ١٩٣١)

ان تتبدّل الحال بظهور الدعوة العربية والثورة الحجازية ،) تنقل لهُ منها بعض أبياتها الاولى — قال : —

يا قومُ إن العدى قد هاجوا الوطنا ... فانضوا الصوارم واحموا الاهل والسكَنا
واستنفروا لعدوّ الله كلَّ فتىً ... ممن نأى في أقاصي ارضكم ودنا
واستنهضوا من بني الاسلام قاطبةً ... من يسكن البدو والارياف والمدنا
واستقتلوا في سبيل الذود عن وطنٍ ... بهِ تقيمون دين الله والسُّننا

وبعد ان يجري شوطاً في هذا المضمار يلتفت الى مصر فيندّد بحكومتها (أو قل بسلطانها يومئذٍ ووزارته) لمجاراتهم الانكليز والانقياد لسياستهم . ويعود بعد ذلك الى الوطن والدعاء لهُ فيقول

لا زلتَ ياوطن الاسلام منتصراً ... بالجيش يزحف من ابنائك الاُمنا
إنّا نحبّك حبًّا لا انتهاء لهُ ... يستغرق الارض والاكوان والزمنا

ويخصُّ العراق بالقسم الاخير من القصيدة وما أشيع عن اقتراب العدوّ منه ، فيحضّ العراقيين على الاستبسال في صدّه —

إن العراق لعمرُ الله مسبعةٌ ... تواثب الأُسْد فيها من هنا وهنا
هم المغاوير ان صالوا بملحمةٍ ... فلا يرون لهم غير المنون مُنى

ويجري مجرى الرصافي من شعراء العراق محمد حبيب العبيدي ، وخيري الهنداوي ، ومحمد الحسين كاشف الغطاء ، وعبد العزيز الجواهري وسواهم ممّن نفخ فيهم الدستور روحاً جديدة تحملهم على مناصرة الخلافة والتهجّم على اعدائها في أوروبا ، وأضرم فيهم النعرات الشرقية والدينية ، حتى قال أحدهم من قصيدة موضوعها « بعد حرب الطليان والبلقان » .[1]

اظهر الغرب ما أجنّ من الغدر — وأبدى كوامن الاضغانِ
وأحاطت بالمسلمين علوجُ البغي — من كلّ جانبٍ او مكانِ
أيها المسلمون هبّوا فليس الموتُ — الاّ حياتكم بهوانِ
قد دهاكم ويلٌ فماذا التمادي ... وأتاكم سيلٌ فماذا التواني
جاءكم جارف من الغرب تيّارٌ — يهدُّ البنا وأسّ المباني

والحبيب العبيدي قصيدة اسمها « ألواح الحقائق » القاها في المنتدى الادبي العربي في الاستانة بعد خطاب له في الحرب الطرابلسية وهي تقرب من خمسمائة بيت وقد ضمّنها أهمّ الحوادث التاريخية من عهد الرسالة الى زمن انشادها[2] . ومما نقل الينا منها يصح ان نحكم انها تعبر

---

(١) محمد كاشف الغطاء . راجعها في كتاب الادب العصري في العراق لروفائيل بطي الطبعة الاولى ج٢ — ٨٧

(٢) راجعها في الادب العصري : لبطي ١ — ١٤٨

تعبيراً جلياً عن هذه الهبّة المعنوية في نفوس الشرقيين وعن أمانيهم في ارجاع مجدهم الغابر ونفض ما كان قد لحق بهم من عار التأخر — كقوله —

كيف ترضى ياشرق ان يمشيَ الـغرب اماماً وانت تمشي وراه
أفلم يأنُ ان تجدد عهداً شهد الصُبح فضله والمساه
أتسام الهوان دون المنايا انما الموت والهوان سواه

وهو يصل هذه النهضة الشرقية بمجد العرب الاقدمين ويختمها بذكر مفاخرهم التاريخية. ويدعو بني الشرق عموماً الى النهوض والجري في سبل العلى والتقدّم. ومثل ذلك خيري الهنداوي في قصيدته « أيها الشرق »[1] ، وقصيدته « فتاة سلانيك »[2] ومن هذه الاخيرة قولهُ متألماً —

أمّ البلاد أضاعك الاقوامُ فبكى مرابع مجدك الاسلامُ
يا أيها الشرق الذي قد عمّهُ للغرب من بعد الشروق ظلامُ
ما الغرب اوّل ظالم لك بالذي يأتيه بل ابناؤك الظلاّمُ
قد أهملوكَ وانت معقل عزّهم فاستهوتك بوطئها الاقـدامُ

ولقد يجوز ان نتهم بعض شعراء ذلك العهد بمداهنة الاتراك وان شعرهم لذلك لا يعكس لنا الشعور العربي الحقيقي. وهنا نكرّر قولنا اننا انما نؤرخ العواطف العربية كما تظهر في نفثات أدباء العرب الشعرية، ومهما تكن الاغراض النفسية وراءها فذلك لا ينفي حقيقتها وانها ناشئة عن الحوادث متصلة بالشعور العام. والحقّ يقال ان ما اختبرناه بأنفسنا، وما عرفناه من اختبار الآخرين يدفعنا الى تنزيه كثير من الشعراء يومئذٍ عن المداهنة المقصودة، ويميل بنا الى ان نعزو عثمانيتهم الى ما أثارتهُ الاحداث السياسية من شتى النعرات في نفوسهم

ففي أوائل العهد الدستوري كان الشعر العربي في سوريا ومصر والعراق مجلىً لالوانٍ من الوطنية غير واضحة الحدود. ولكن كما ان ألوان الطيف اذا مزجت معاً كوّنت شيئاً واحداً هو النور. كذلك تلك الالوان العاطفية من دينية او قومية مرجعها واحد هو الاحساس الحادّ بكرامة شرقية لم يعهدها الشرقيون او العرب منهم قبل ذلك العهد. وقد كان لنشوة الدستور يدٌ في تعميم ذلك الاحساس والباسه حيناً لباس الجامعة العثمانية. وكانت تلك النشوة على اشدها في السنة الاولى من اعلان الدستور ايام كان الناس لا يزالون يطفرون فرحاً بزوال الاستبداد، وينظرون الى المستقبل بعيون التفاؤل والاستبشار، ثم اخذت بالتراخي تدريجيا

على أن النزعة الشرقية المصطبغة بالصبغة العثمانية ظلت بارزة في الادب العربي الى اوائل الحرب العالمية. ومما يزكي ذلك ما نظمه الشعراء سنة ١٩١٣ في حادثة الطيارين التركيين فتحي

(١) الادب العصري : لبطي ١ — ١٦٦ (٢) الادب العصري : لبطي ١ — ١٧١

وصادق وهما اول طيارين شرقيين ظهرا في سماء الشرق العربي . فلما وصلا سوريا ولبنان قابلهما الادب العربي بهبّة وطنية هزّت اعصاب الناس وأثارت نخوتهم الشرقية او قل العثمانية . كقول الشيخ مصطفى الغلاييني من قصيدة حماسية : — (١)

خيمتما فوق الرؤوس فأشرقت … منا الوجوه وأزهرت انوارها
وفتحت يا فتحي القلوب بزمرة … احيا موات رجائنا تذكارها
ونزعت منا اليأسَ وهو بلية … شنعاء عمَّت قومنا اضرارها

ومثل هذه الحماسة الوطنية تتجلى في اقوال اكثر الشعراء لذلك العهد . ثم طار الطياران يقصدان مصر ، ولكن القدر المحتوم لم يمهلهما فسقطا قرب طبريا وكان لمصرعهما رنة اسف عمت جميع الاقطار العربية . وقد جعلهما الشعر العربي مثال الوطنية الشرقية المتحفزة لمباراة الغرب . وفي ذلك يقول الياس فياض — (٢)

فتحي أطلَّ من العلاء مكذّباً … من قال إنا امة لن تقدما
من قال ان الشرق شعبٌ خاملٌ … لا يستطيع مع الشعوب تقدُّما
اليوم قد جددتما لشبابه … عهداً ينسّي عهده المتصرما
أهرقتما للعلم افضل مهجة … كانت تراق على المظالم قبلما
هذا هو الدرس المفيد وهذه … عظة الزمان فهل لنا ان نعلما
من ليس يعرف ان يموت مكرماً … هيهات يعرف ان يعيش مكرّما

ويتجلى شعور المصريين يومئذٍ في قول شاعرهم حافظ من قصيدة (٣)

اخت الكواكب ما رماكِ … وأنتِ رامية النسورِ
ماذا دهاكِ وفوق ظهركِ … مربض الاسد الهصور

ومنها مخاطباً فتحي: حاولت ان تَرِد المجرَّة … والورودُ من العسيرِ
فوردتَ يافتحي الحِمامَ … وأنت منقطعُ النظيرِ
وهويت من كبد السماء … وهكذا مهوى البدور
ان كان اعياك الصعود … بذلك الجسد الطهور
فاسبح بروحك وحدها … واصعد الى الملك الكبير

وعلى هذا النمط نظم كثير من الشعر الوطني في بيروت ودمشق وبغداد والقاهرة وسواها من حواضر العالم العربي

واذا قيل كيف ذلك والعرب يومئذٍ كانوا قد بدأوا يستنكرون سياسة الاتحاديين الاتراك

(١) المورد الصافي ص — ٢٤٣ (٢) المورد الصافي ص — ٣٠١
(٣) المورد الصافي ص — ٣٠٢ مطبعة المقطم ١٩١٦ ص ١٢٧ — ١٣٨

ويتشوّفون الى حياة قومية وكيان مستقل بدليل ما نراه من جمعياتهم السياسية في مصر وغير مصر قلنا ان تلك الجمعيات لم تكن تملك من وسائل الدعاية ما يشيع في جميع الانحاء مبادئها او ما يجمع القلوب على نصرتها . فظلّ السواد الاعظم من ابناء العربية متعلقين بآمالهم الدستورية . لا يرون لهم من رابطة غير الخلافة العثمانية . ثم ان الحركة العربية الاستقلالية لم تكن قد نضجت نضجاً كافياً لتأصيل فكرة الانفصال عن الجامعة العثمانية . ويخيل الينا من دراسة عواطف الناس في ذلك الحين ان الزعماء الذين كانوا يعملون في سبيل الفكرة العربية لم يكونوا على بينة من هذا الامر . ولو راجعت الرسائل التي كان يتبادلها سرًّا امثال عبد الحميد الزهراوي ، ومختار بيهم ، ومحمد المحمصاني ، وسليم الجزائري ، ورشيد رضا ، واخوانهم من اعضاء المؤتمر العربي او الجمعية الاصلاحية ، لوجدت ما يزكي قولنا ان الاصلاح الذي كانوا ينشدونهُ لم يكن يراد به اولاً القضاء على الرابطة العثمانية والاستهداف لمطامع الاستعمار[1] . ولو عرفت تركيا يومئذٍ كيف تستغل شعور الناس لالّفت من الكتلتين التركية والعربية جامعة عزيزة الجانب صادقة الوطنية . لكن السياسة العنصرية الحادة حالت دون ذلك ، فكانت من الاسباب المعجلة لنجاح الدعايات الاوربية في الشرق العربي ، ثم لاشتعال الثورة العربية في اثناء الحرب الكبرى

وسواء أصح استنادنا الى تلك الرسائل ام لم يصح فالواقع المشاهد ان الشعر العربي كان في اوائل العهد الدستوري أسرع الى الصفح عن مساوىء العهد الماضي والى تعزيز الرابطة العثمانية . ثم حدث الاحتكاك بين العنصرين التركي والعربي وأخذ البعض يلهجون بحقوق العرب في السلطنة وقد ظهر ذلك في الشعر العربي (كما سنرى) . على ان الشعر لم يقطع صلته بغتةً بآماله الدستورية التي كان يشيد بذكرها . وقد ظلّ طيلة العهد الدستوري أميل الى التوفيق بين الاماني القومية والجامعة العثمانية ولو تأملنا لرأينا انهُ لم يصبح عدوًّا لهذه الجامعة الاّ بعد الثورة العربية والحرب العالمية

فليس من الغريب ان نراه من حين الى آخر يتأجج بالشعور العثماني إزاء بعض الحوادث الوطنية كالتي مرّ ذكرها من حوادث التعدي على الدولة في البلقان وطرابلس او من حادثة الطيران التي اضرمت القلوب في مختلف الاقطار حتى قال فيها شاهد عدل هو الدكتور هورد بلس رئيس جامعة بيروت الاميركية السابق وكان يوم الحادثة في مصر — « ان ما آنسته من حماسة اخواننا المصريين وشدة استعدادهم لاستقبال الطيارين واقامة المآدب والاحتفالات اللائقة بهما جعلني اتصور شيئاً مما سمعته عن عظمة الاستقبال الذي جرى لهما في بيروت وعن الابتهاج الذي شمل الاهلين لمشاهدتهم الطيارين العثمانيين لاول مرة »[2]

(١) راجع هذه الرسائل في كتاب ثورة العرب (لاحد أعضاء الجمعيات العربية) (٢) مجلة الكلية

الانسان الآلة

لفليمون خوري

قدّر ان تكون فلسفة الفيلسوف الفرنسي ديكارت منشأ المشكلات الفلسفية والمعضلات التي لا يزال يعالجها اهل الفلسفة الى يومنا هذا . وقد أبنت في مقال سابق نشره المقتطف تحت عنوان « العقلي والمادي » كيف ان قضية الفصل المطلق التي فصل بها ديكارت بين العقل والمادة ادّت الى كثير من النظريات والافكار المختلفة وكيف تعددت فيها وجوه المسائل والقضايا الفلسفية وما انتهت اليه في وقتنا الحاضر

ولدينا هنا مشكلة الانسان الآلة (man machine) ولكن هذه لم يثرها ديكارت بل خلقها فلاسفة القرن الثامن عشر الذي كان بنوع خاص خصباً بفلاسفة المادة وعلماء الطبيعة . الاّ ان فلسفة ديكارت كانت منشأ هذه المشكلة ومنبت غرسها واليك ايها القارىء بيان ذلك :

قضت فلسفة ديكارت بالفصل التام بين المادة والعقل وجعلت كلاً في دائرته الخاصة فلا تفاعل بينهما على وجه السببية ولا تداخل على الاطلاق . وقد ارتأى ديكارت هذا الرأي وجرّد الطبيعة من كل اثر للعقل خلافاً لمن تقدمهُ من الفلاسفة ليدع للعلم الطبيعي مجالاً لتفسير حوادث الطبيعة ونواميسها تفسيراً طبيعيًّا ميكانيكيًّا بحتاً . وعليهِ فلا يكون ثمّ من قصد في الطبيعة كما يزعم الفلاسفة ولا غاية لانهُ اذا سلمنا بوجود قوة عقلية تدبر الكون فاننا نكون قد حكمنا بوجود العقل في الطبيعة نفسها وهذا غير ما يريدهُ ديكارت . ثم ان ديكارت لم يقف عند هذا الحد بل اطلق هذا المبدأ حتى تناول العالم العضوي (organic world) ايضاً فجعل حياة الحيوان والنبات خاضعة لهذا الحكم وكذلك جسم الانسان لانهُ من العالم العضوي . فعندهُ ان حياة الحيوان ومثلها الحياة في الجسم البشري تمشي على طريقة ميكانيكية بحتة نظير الآلات الصماء كالساعة مثلاً او غيرها مما يدور بحركة ذاتية ميكانيكية غير ان الفرق بينهما ان المحرك في الساعة هو الرقّاص اما في الجسم البشري فالحرارة المتولدة في القلب . ويقول ايضاً انهُ لا حاجة الى فرض اية قوة لتدبر هذه الحركة الحيوية في الجسم فمجرد تركيب الجسم على هذه الصورة هو كتركيب ادوات الآلة كافٍ لتقوم الاعضاء بوظيفتها تماماً . وان وجود الدم والحرارة هو كل ما يقتضي لهذه الغاية

يتضح مما تقدم ان ديكارت لم يطلق هذه اللفظة «الآلة» على الانسان بل على الحيوان فقط

فقال الحيوان الآلة (animal machine) لا الانسان . أما الفلاسفة الماديون الذين عاصروا فولتير مثل لامتري وكونديـاك وتولاند وهارتلي وهولباخ وهلفيتيوس وديدرو وغيرهم من فلاسفة القرن الثامن عشر فانهم تناولوا هذه الفكرة ووجدوا فيها دعامة قوية لمقاصدهم ومبادئهم المادية فجعلوها حجر الزاوية واخذوا يبنون عليها ما شاء لهم التصور من غريب الآراء والافكار. وكان اول ما شرعوا فيه بهذا الصدد قولهم « اذا كان الحيوان آلة » فلماذا لا يكون الانسان ؟ « وما الدماغ » ؟ هو آلة الفكر كما ان اللسان هو آلة الذوق . وزعم هارتلي ان الفكر نتيجة اهتزازات ذرات الدماغ وهذه تتحرك تبعاً لنواميس طبيعية آلية . وذهب بريستلي وهو مكتشف الاوكسجين الى ان الاعمال والحركات الفكرية هي من نوع حركة الاجسام المادية . وقال كابانيس ان الفكر وظيفة الدماغ كما ان الهضم وظيفة المعدة وافراز الصفراء وظيفة الكبد . وفي سنة ١٧٧٤ وضع البارون هولباخ الالماني كتاباً في المذهب المادي تحت عنوان « نظام الطبيعة » يفسر فيه جميع النواميس الطبيعية وحوادث الكون بمجرد المادة والحركة فقط . ويزعم ان الفكر هو عمل الدماغ وليس خالداً سوى المادة . وانهُ لا يوجد شيء مما نسميه روحاً . ولا قصد ولا غاية في الطبيعة ولا خارجاً عنها . اما ارادة الانسان فهي غير حرة بل خاضعة حتماً لناموس الضرورة واحكام القدر

وجملة القول ان هذا هو رأي الفلاسفة الماديين في العقل البشري وقد بنوه كما تقدم على نظرية ديكارت . ولما كان رأي ديكارت ايضاً انهُ لا علاقة ولا تأثير للعقل في اعمال الحياة العضوية تبادر لاذهان غلاة المادية انهُ اذا كان لا علاقة للعقل ولا تأثير في اعمال الجسم ووظائف الاعضاء فأي حاجة اليه . ان هو الاَّ تابع من توابع المادة وخاصة من خواصها وليس له وجود مستقل عن المادة اصلاً

هذا وان للفلاسفة العقليين او الروحيين ردوداً جمة على آراء الماديين هذه ولكن ليس هذا مجال بسطها لانني قصدت بيان قضية الانسان الآلة حسبما تطورت بين ايدي فلاسفة المادة. على اننا اذا بسطنا رأي العلامة الفيلسوف الالماني هرمان لوتزي (١٨١٧ — ١٨٨١) وهو احد اعلام الفلسفة العقلية وقد حاول الجمع او التوفيق بين مختلف الآراء الفلسفية وخصوصاً بين الرأي الميكانيكي والمبدأ العقلي الروحي فاننا نكون قد اشرنا الى رأي الفلاسفة العقليين بهذا الصدد وهو نقيض الرأي المادي المتقدم ذكره والى الاتجاه الفلسفي الغالب بعد القرن الثامن عشر

يقول لوتزي « ليس الانسان مجرد مرآة تنعكس عليها صور الاشياء والحوادث الخارجية . ان العالم المادي الذي يسير سيراً ميكانيكياً لا يستطيع ان يفيدنا شيئاً عن الوجود المعنوي وأسرار الحياة العميقة ومقاصدها السامية . ان هذه جميعها لا يمكن ان يكون لها أثر في عالم ميكانيكي بحت . ومع هذا فلا بد من تفسير النظام الطبيعي وفقاً لهذه النظرية الميكانيكية . ان الجسم الحي انساناً كان او حيواناً يحيا ويقوم بوظائفه كما تقوم الآلة الصناعية بعملها تماماً ولا

فرق بينهما من هذه الجهة مطلقاً . ثم ان الفرق بين المواد الآلية وغير الآلية ليس بكون الاولى تمتاز عن الاخرى بوجود قوة حيوية فيها بل بتركيبها وترتيب أجزائها بنسبة بعضها الى بعض . وهذا الترتيب فيها هو نتيجة عوامل طبيعية تحدد لكل جزء صورته ووجهة تطوره وارتقائه

« وان رأياً كهذا اذا أخذناه بظاهره كأنما لا يدع مجالاً لحقيقة الانسان ومقاصده العظيمة ومطالبه السامية . غير أنَّا اذا تحرينا الاسباب الاولية والمقدمات التي نبني عليها الرأي الميكانيكي هذا نجد ان هذا هو غير الواقع . ذلك لان العالم الخارجي الذي نخاله ونعتقده عالم الحقيقة انما هو عالم ظاهري فقط (phenomenal world) أي الذي تمثله لنا الحواس لا العالم الحقيقي بالذات — هو نتيجة شعورنا وادراكنا للمؤثرات الخارجية وتفسير العقل لها . بيد ان هذه الاحساسات والادراكات ليس الاَّ تأثيرات عقلية في العقل نفسه، وما الحس والادراك فينا بل والمبادىء العقلية التي تفسر بها مختلف الحوادث والمؤثرات، الاَّ وظائف متنوعة في العقل الواحد الانساني

اذاً ما هو جوهر الاشياء الخارجية وبعبارة أخرى ما هي الحقيقة بالذات ؟ انا اذا أنعمنا النظر وتحرينا الاسباب والمقدمات وجدنا ان الاستقراء يؤدي بنا الى نتيجة واحدة فقط وهي المبدأ التصوري (Idealism) ودليل ذلك ان الاشياء بالذات [1] (things-in-themselves) يجب ان تكون من طبيعتها ان تؤثر في غيرها وان تتأثر به . ان كائناً بهذه الصفة لا نجده الاَّ في انفسنا فقط وما هو إلاَّ ذلك الجوهر في داخلنا والذي يؤلف وحدة الوجدان فينا وهو ما نسميه الروح او النفس. هذه الوحدة في الوجدان التي تستطيع ان تجمع بين مختلف التأثيرات الخارجية والداخلية وتؤلف منها أبداً وحدة كاملة هي التي تحدو بنا الى الاعتقاد بوجود نفس فائقة الحس غير قابلة التجزئة ومستقلة أو متميزة كل التمييز عن الجسد. وانه في النفس وفي النفس البشرية فقط نجد هذه الوحدة الدائمة بين الاشياء المتعددة والثبوت على حال واحدة وسط جميع عوامل التحول والتغيير والنشوء

لذلك فالجواهر التي يتكلم عنها العلم هي غير مادية بالمعنى المتعارف ولا يمكن تعريفها الاَّ بأنها أشبه الاشياء بوحدات ليبنتز (Leibniz's monads) أو بأنها مراكز قوة فقط كالتي نختبرها في أنفسنا . وحتى الدقائق التي في أدنى طبقات المادة ليست اشياء ميتة جامدة كما تتوهم بل مملوءة حياة وحركةً ونشاطاً . وان في الطبيعة درجات متفاوتة من الحقيقة ولكن أسماها العقل البشري بيد ان في أحط ضروب المادة أثراً من القوة العقلية ايضاً

هذا هو رأي الفيلسوف لوتزي في العقل والوجود المادي وهو يعبر به عن رأي معظم الفلاسفة العقليين فيما نعلم . ولعل فيه اشارة كافية لترينا ان في الوجود اسراراً لم تتجلَ بعد للعقل البشري فلا يتوهمنَّ الواهمون ان فلاسفة المادة فكوا الطلاسم وحلوا الالغاز ونفذوا بمادتهم الى اعماق الحياة . فهذه لم تؤت بعد لمخلوق وأسرار الوجود لم تشرق بعد انوارها على عقول بني الانسان

(١) هذا هو تعبير الفيلسوف الالماني كانت وهو يقصد به التمييز بين الاشياء كما هي في حقيقتها الاصلية وبينها كما تبدو للحواس

العبقرية والنبوغ

الفروق العقلية بين الوراثة والمحيط

للدكتور شريف عسيران

من الامور الظاهرة فروق البشر الجسدية فنهم الطويل والقصير والاسود والابيض والاصفر والبدين والنحيف واسود العينين وازرقهما الى غير ذلك . وكذلك نجد مختلف الفروق العقلية كالعبقري والاحمق والذكي والابله والعاقل والمجنون والمفكر والجامد وهلمَّ جرًّا . وليست الفروق العقلية اكثر من الجسدية فقط بل تفوقها شأناً . نجد في كل امة وكل جيل افراداً يسمون على اترابهم كما يسمو الجبل الشامخ على ما يحيط به من البقاع امثال كنفوشيوس وسقراط والمعري وغليليو ونيوتن وباسكال وباستور وشكسبير والمتنبي وبتهوفن وشوبرت والرازي واينشتين واضرابهم وهم معروفون عندنا معرفة النجوم الساطعة في السماء . وتظهر امارات التفوق على المرء منذ ان يشب عن الطوق . فقد رجا باسكال والده ان يسمح له بدرس الرياضيات وهو صبي فرفض طلبه ريثما يدرس اللغات والتاريخ وطالما كان يشاهده منكبا على درس الهندسة رغماً عن ممانعته لميوله الفطرية فاستطاع ان يحل عدداً من نظريات اقليدس. وكان يعزف موزارت الموسيقى في الرابعة من عمره والف قطعاً موسيقية وهو ابن ست سنوات . وظهرت بواكير بتهوفن الموسيقية في الثانية عشر من عمره وكتب شلر روايته اللصوص وعمره ٢٣ سنة والف شكسبير كثيراً من رواياته وهو في الرابعة والثلاثين من عمره[١] ونظم المعرّي الشعر وعمره يقرب من الاربعة عشر سنة ومثله المتنبي

ونشاهد هذه الفروق بارزة في المدارس الابتدائية والعالية والجامعات فبعض الطلاّب يحلون اعوص المسائل الرياضية دون عناء ويعسر على غيرهم حلُّ ابسطها ويصل بعضهم الليل بالنهار درساً وسعياً ولا يتوصلون الى درجة اقرانهم ممن لا يجهدون انفسهم بالدرس . ونعرف كثيرين ممن تبحروا في اللغة العربية وآدابها وتضلعوا من فلسفتها وصرفها ونحوها وبيانها وعروضها وسائر ما

(١) Human Heredity p. 581

يتعلق بها ولا يستطيعون رغماً عن ذلك نظم بيت من الشعر ونرى آخرين يجهلون القواعد والقوافي ويأتون بمعجزات احمد فالفروق بين مختلف الافراد ظاهرة في كل موهبة من المواهب في الموسيقى والشعر والرياضيات والتصوير وغير ذلك فالقوى العقلية محدودة في كل امرىء بحسب وراثته ولا يفيدها التمرين الاَّ بقدر القوة المدخرة فيها

واول من اثبت ان العبقرية والمواهب العقلية وراثية هو السير فرانسيس غالتون وقد مرَّ بنا انهُ تتبع سِيَر ٤١٥ شخصاً من مشهوري انكلترا ينتمون الى ثلاثمائة اسرة ووجد في تلك الاسر ما يقرب من الالف مشهور

***

ويجدر بنا ان نقف هنيهة لنميز بين العبقرية والنبوغ اوالموهبة . ان ألسنة الناس والصحف والمجلات تلوك هذين اللفظين وتستعملهما في شتى المناسبات وتغدق بهما على لفيف كبير من البشر حتى ليخيَّل الينا ان ارضنا تمج بالعباقرة والنابغين فاذا نظم فلان قصيدة او كتب مقالاً في مجلة او جريدة دعتهُ عبقريًّا واذا ارادت التنويه بفضل فلان قالت عنهُ نابغة فخرج هذان اللفظان عن معناهما وامتهنا اي امتهان

﴿ العبقر ﴾ جاء في الطبعة الرابعة عشر من دائرة المعارف البريطانية تحت لفظة Genius انها من اصل لاتيني ومعناها المولّد وكانت ترمز في العصر الروماني القديم الى عقيدة دينية خاصة وهي جونو Juno ربَّة الزواج والولادة تقابلها لفظة هيرا Hera عند اليونان وهي ربَّة النساء والزواج ثم انحرفت عن معناها الاصلي وصار يقصد بها العفريت أو الروح (Spirit) او الملاك الحارس وصارت تستعمل في الانكليزية مقابلة للفظة جن العربية وهي طائفة من الارواح الصالحة او الشريرة حسبما جاء وصفها في قصة الف ليلة وليلة [1]

وجاء في تاج العروس : عبقر كجعفر بالبادية كثير الجن يقال في المثل كأنهم جن جعفر ثم نسبوا اليهِ كل شيء تعجبوا من حذقهِ او جودة صنعتهِ وقوتهِ وقال ابن الاثير قرية يسكنها الجن فيما زعموا فكلما رأوا شيئاً فائقاً غريباً مما يصعب عمله او شيئاً عظيماً في نفسهِ نسبوه اليها وقيل العبقري الذي ليس فوقهُ شيء [2] وجاء فيهِ ايضاً تحت لفظة جن والجن بالكسر خلاف الانس والواحد جني يقال سميت بذلك لانها تتقى ولا ترى كما في الصحاح وكانوا في الجاهلية يسمون الملائكة عليهم السلام جنًّا لاستتارهم عن العيون [3] . فنستنتج من هذا التعريف اللغوي ان العبقر هو الجن وان العبقرية تقابل لفظة genius اللاتينية والانكليزية

﴿ النبوغ ﴾ جاء في تاج العروس نبغ الشيء كمنع ونصر وضرب اي ظهر نبغ الماء نبوغاً

---

(١) ملخص عن دائرة المعارف البريطانية الطبعة الرابعة عشر تحت لفظة genius

(٢) تاج العروس لفظة عبقر ص ٣٧٩ (٣) تاج العروس لفظة جن مر ١٦٥

مثل نبع بالبين ومن المجاز نبغ فلان ان قال الشعر وأجاده ولم يكن في ارث الشعر وفي اللسان في ارثهِ الشعر ومنهُ سمي النوابغ من الشعراء والنابغة الرجل العظيم الشأن والهاء للمبالغة [١] وأرى ان لفظ نبوغ اكثر مقابلة للفظ Talent الانكليزية ومعناها الموهبة

وبعد ان عرفنا معنى اللفظين اللغوي نأتي على تعريفهما العلمي : يعرّف غالتون العبقريَّ بأنهُ الرجل ذو المواهب المتفوقة ويميز العبقرية عن المقدرة باننا لا نستطيع تجريد الاخيرة من اثر التهذيب اما العبقرية فطبيعية تخلق مع المرء [٢] . ويجعل الشهرة مقياساً لتفوق الفرد ويقول يجب على الانسان ان يظهر مقدرة بارزة في موضوع ما على الاقل ليحصل على شهرة عالية او ان يمتاز بأنهُ أتى بشيء لم يستطعه غيره او ان يكون زعيم فكرة [٣] ويجعل المتفوق او العبقري الرجل الذي يصل الى مرتبة لم يبلغها سوى ٢٥٠ من بين مليون او واحد من أربعة آلاف [٤]

ويفرق الدكتور لنز بين العبقرية والموهبة او النبوغ . فالموهبة Talent هي أعلى مراتب الفن . أما العبقرية فتعددة المواهب والتفاوت بينها وبين الموهبة في التفوق العقلي كالتفاوت بين الاحمق والاخرق في الانحطاط العقلي . ويوجد بين مليون شخص يختارون صدفة عدَّة نوابغ او موهوبين اما العباقرة فقليلون جدًّا فكل عبقري نابغة او موهوب ولا يعكس . ومن رأيه انهُ ليس ضروريًّا ان يكون العبقري مبتكراً او مولداً Creative بل انساناً متعدد المواهب [٥]

﴿ العبقرية والجنون ﴾ يجعل بعض العلماء صلة بين العبقرية والجنون . وأول من قال هذا القول العالم الايطالي لمبروزو وجاراه غالتون ولنز وغيرهما ويأتون بشواهد متعدّدة على ذلك وحجتهم ان في أكثر العباقرة والنوابغ المشهورين ضرباً من الانحراف العقلي والانحراف يعدُّ علة خاصة اذا كان لا يمكن الشخص من القيام بأود نفسه وحمايتها Solf Preservation وتؤدي المواهب الشاذة الى حالة كهذه لان كثيراً من النابغين يقصرون عن القيام بتكاليف الحياة اليومية التي تسهل على الرجل المعتدل وما يصدق على الفرد من وجهة كفاء النفس في تحصيل العيش يصدق بصورة اكثر على الاسرة . فكثيرون من العباقرة لا يتزوجون واذا تزوجوا كانت حياتهم الزوجية تعسة لانهم يفشلون في القيام بما تتطلبهُ الحياة الزوجية السعيدة فالنتيجة فناء تلك الاسرة . ويوصف صاحب الحالة العقلية التي لا تمكن المرء من كفاء نفسه أو أسرته بـ « المضطرب النفس Psychopathic » واقصى درجاته الجنون . وأغلب العباقرة والنابغين لم يخلوا من ضرب من هذا الاضطراب كغوتيه وبسمارك ولوثر ونيوتن واميير وفردريك الكبير وباسكال وروسو وبلوشر وشوبنهور ووجنر ونيتشه وتولستوي ونابوليون وأضرابهم [٦]

(١) تاج العروس لفظة نبغ ص ٣١ (٢) ص ٧ Hereditary Genius (٣) Ibid : ص ٩
(٤) المقدمة ص ٨ (٥) Ibid: Human Heredity p. 567 (٦) Human Heredity p. 609—613

ولا نسترسل في تحليل هذه الناحية لنعود الى موضوعنا الاصلي وربما عقدنا فصلاً خاصًّا لهذا البحث في المستقبل. ينكر غالتون ان للمحيط تأثيراً في اكتساب القوى العقلية ومن أقواله المأثورة: إن التهذيب والمؤثرات الاجتماعية لا تؤثر في انماء القوى العقلية بقدر ما يؤثره التمرن في انماء عضلات ذراع الحداد. ويعترض البعض على غالتون بان ابناء المشهورين لايكونون كآبائهم وحجة غالتون ان الفرد يرث ربع صفاته من أحد والديه والصفات الباقية من الاب الآخر او من أسلافه الماضين واذا علمنا ان نطفة الذكر ونطفة الانثى تفقدان نصف عواملهما الوراثية قبل ان تمتزجا اتضح لدينا صحة قول غالتون. اضف الى ذلك ان عدداً كبيراً من العباقرة يموتون بلا عقب امثال بتهوفن وشوبرت وغيرهما

وقد توصل الدكتور فردريك ودس في أميركا، (Dr. Frederick Adams Woods)[1] الى نتائج تشابه نتائج السير فرانسيس غالتون فتتبع سيَر ٣٥٠٠ مشهور من مشهوري أميركا المدونين في قواميس كبار الرجال ووجد انهم يمتون بصلة قرابة بعضهم الى بعض بنسبة ١ — ٥

***

واذا كان المحيط عاملاً في تكييف القوى العقلية فيجب ان يتساوى ابناء الملوك في هذه الناحية — ولاسيما أولياء العهد الذين تتاح لهم جميع الاحوال الملائمة من تعليم وتهذيب وتدريب وتثقيف وسائر المؤهلات التي تؤهل المرء أن يكون ذكيًّا خلوقاً مثقفاً. وقد تتبع الدكتور ودس المذكور في كتابه الوراثة في الاسر المالكة Heredity in Royalty فلم يرَ ان المساواة في المحيط التي تتاح لكل فرد من الاسر المالكة تخلق منهم رجالاً متساوين في مواهبهم وبيَّن الفرق بين الهوهنزلرين Hohenzollern المتفوقين بمواهبهم والهانوفريين العديمي الذكاء[2] وقد ذكر وودس على سبيل المثال فردريك الكبير وايزابلاً ملكة أسبانيا ووليم الصامت وغوستافس ادلفس Gustavus Adolphus مقابلة لهم مع غيرهم من المنحطين من نفس الطبقة

ولا ينكر ان الفرص تفسح المجال أحياناً لبروز المواهب الكامنة كما زاد عدد علماء الالمان في نصف القرن الاخير فلا تعزى هذه الزيادة الى ازدياد معدل ولادات هذه الطبقة بل الى ان تقدير العلم كان حافزاً لابراز تلك المواهب

وقد ناقش كتل J. Mckeen Cattell نظرية المواهب في درسه الف عالم من علماء اميركا وقال « لو ولد دارون في الصين سنة ١٨٠٩ لما كان دارون ولو ولد لنكلن هنا (يقصد اميركا)

---

(١) Applied Eugenics p. 14 (٢) The Eugenic Predicament p. 6

في نفس اليوم الذي ولد فيه ولم تكن الحرب الاهلية لما اصبح لنكان . فلو استبدلنا الاثنين لما كان دارون في اميركا ولا لنكان في انكلترا . . . » وقصده ان يبرهن ان الظروف هي التي تخلق الرجال . صحيح ان للظروف اي المحيط تأثيراً ولكنهُ تأثير ثانوي او يسير بالقياس الى المواهب الطبيعية . ربما لو ولد دارون بأميركا لا يكون دارون الذي نعرفه الآن ولكنهُ على كل حال ما كان يموت مجهولاً فالمحيط لا يخلق الرجال بل يبرز مواهبهم . فالمساواة في المحيط تزيد الفروق بين البشر اكثر مما تنقصها [1] ويجب ان يكون هناك مساواة في المحيط ليصبح كل امرىء ميسراً لما خلق له

ودرس الدكتور بيركس ٢٠٠ ربيباً دفعوا الى من تبنّاهم حين ولادتهم او في السنة الاولى من العمر [2] وقابلهم مع مائة ولد نشأوا في احضان آبائهم الحقيقيين ومن السهل تمييز تأثير الوراثة في الفئة الثانية لعدم وجودها في الاولى وكان تمييز ذكائهم وتأثير المحيط والحياة البيتية ممكنين فيهم فلو كان للتدريب وتقليد الآباء والمحيط تأثير في تكييف الاولاد لكان لزاماً ان يشبه الابناء المتبنّون الذين تبنوهم مشابهة الابناء لآبائهم الحقيقيين ولكن النتيجة لم تكن هكذا بل ظهر ان تأثير الوراثة في هؤلاء الاولاد بنسبة ٧٥ — ٨٠ بالمائة وتأثير المحيط البيتي بنسبة ١٧ بالمائة . والمحيط البيتي اهم من المحيط المدرسي في امتحانات الذكاء [3]

***

﴿ القياس ﴾ اذا كان للمحيط تأثير فيجب ان يصدق على اليتامى الذين يربون في المياتم اذ يعيشون في محيط واحد ويدربون نفس التدريب ويجب ان يختلفوا عن غيرهم ممن تختلف تربيتهم باختلاف الاسر التي ينتمون اليها . وقد جاء درس الف يتيم في تكساس مخالفاً لهذه الفكرة لان الفروق بين الايتام الذين عاشوا في محيط واحد وتربوا تربية واحدة كانت كالفروق بين سواهم من غير اليتامى مما يدل على ان الوراثة لا المحيط هي الاصل في تكييف الشخصية

﴿ اللقطاء ﴾ وتتبع بعض العلماء في انكلترا عدداً من اللقطاء الذين أُدخلوا المعاهد الخاصة فور ولادتهم فكان معدل ذكاء ابناء التجار وارباب المهن منهم ١٠١ بينما كان معدل اولاد الصناع labourers ٩٢ مع ان الفريقين تربوا في محيط واحد ولم يحتكوا بآبائهم وقد اتخذوا ضابطاً لهم control اولاداً من لندن عاشوا في احضان آبائهم وتربوا في المدارس العامة فكان معدل درجة ذكاء الطبقة العليا منهم ١٠٥ والسفلى ٩٦ وهكذا جاءت نتائج درس التوائم من وجهة

---

(١) Applied Eugenics p. 17

(٢) اختيروا في هذا السن لسببين « ١ » افساح الوقت الكافي لتأثير المحيط ان كان له ذلك التأثير « ٢ » خشية اختيار العائلات الذكية الاولاد الاذكياء

(٣) Applied Eugenics p. 3

الاجرام وامتحان الذكاء والامراض وغيرها من العوامل مؤيدة لفكرة ان الوراثة هي العامل الاكبر في تكييف الفرد

***

﴿ تلامذة المدارس ﴾ قابل دف Duff ٧٣ تلميذاً من الممتازين بلغ حاصل ذكائهم ١٣٦ فما فوق سنة (١٩٢١ — ١٩٢٢) مع فئة اخرى حاصل ذكائها مائة اتخذها ضابطاً وتتبع سير الفئتين في المدرسة فكانت نسبة الذين دخلوا المدرسة الثانوية من الفئة الاولى اكثر من الثانية ونال ٥٥ بالمائة منهم جوائز بينما لم ينل احد من الفئة الثانية اي جائزة. ولما قوبل بعض افراد الفئة الاولى الذين لم يدخلوا المدرسة الثانوية مع الذين دخلوها من الفئة الثانية فاقوهم في التهجئة وحسن التعبير وجودة القراءة ونطاقها وروح الطموح ولم يتقدم احد لنيل الشهادة الثانوية من الفئة الثانية عدا واحد بلغ درجة حاول بها نيلها بينما نال ٣٠ بالمائة من الفئة الاولى الشهادة و٧ لم ينجحوا و١٠ بدلوا مدرستهم و٢ كانوا صغاراً ولم يحاولوا دخول الامتحانات واثنان تركوا المدرسة. وذكر هولمز ولداً امتحن ذكاءه هولنورث بطريقة «ستانفورد — بينه» وعمره ٨ سنوات فنال ١٨٧ درجة وبلغت درجاته بعد مضي عشر سنوات ٤٤١ بينما كان معدل درجات هذا الامتحان ٤٤٠ فخرج من المدرسة بدرجة شرف ونال جائزة Phi Beta Kappa [1] ونال درجة معلم علوم وهو ابن ١٦ سنة [2]

وقد حاولت مس أوتس تزييد ذكاء بعض البنات الناقصات العقل اللواتي تجاوزسنهن السادسة عشرة بتمرينهن تمرينات خاصة على القراءة وغيرها ولما امتحنتهن بطريقة «ستانفورد بينه» وجدت درجة ذكائهن تقدمت ونشأ هذا التقدم من مفردات الكلام وفهمه لا من تحسن ذاكرتهن او عاقلتهن (reasoning) ولم تستطع تقدير تقدمهن من هذه الناحية لانها لم تكد تتقدم ومتى كانت القوة العاقلة مفقودة فلا سبيل لتمرينها

وتتبع الدكتور تيرمان ومساعدوه سيرة مائة ولد ذكور واناث بلغ حاصلهم الذكائي ١٤٠ فما فوق ولا يبلغ هذه الدرجة من مجموع طلاب المدارس الا النزر اليسير فدرسوهم درساً مفصلاً من جميع النواحي قبل عهد الدراسة وبعدها فوجدوا انهم تفوقوا بدروسهم طيلة حياتهم المدرسية ولم يرسب منهم احد بأي موضوع من الموضوعات ونالوا أحسن الجوائز وغير ذلك من الميزات التي ينالها الممتازون. وظهر من تتبع سجلات أجدادهم انهم كانوا يمتهنون المهن التي تتطلب معدل المقدرة العقلية

---

(١) شارة اميركية ممتازة في الجامعات تدل على التفوق الجامعي

(٢) The Eugenic Predicament p. 72

وانحدر العدد الاكبر منهم من هذه الطبقة وكان أباء عدد منهم من رجال الاعمال وفريق يسير من أرباب المهن الرفيعة (Skilled) وواحد بالمائة فقط من ارباب المهن الوضيعة (Unskilled) [١]

وقد فحص بيترس W. Peters الاخصائي بعلم النفس تقارير عدد كبير من أولاد المدارس ووجد على الاغلب مشابهة بين الآباء والابناء وقابل تقارير الآباء مع اجداد الاولاد وتوصل الى نفس النتيجة فاستنتج ان أثر المحيط (كالتهذيب البيتي وما أشبه) ضئيل جداً في حياتهم التعليمية. وأجرى تجارب نفسية على عدد من التلاميذ الذين يمتون بعضهم الى بعض بصلة نسب وقابلها مع تقارير آبائهم فوجد الفروق بين الابناء كبيرة حينما تكون كذلك في الآباء والعكس بالعكس

وقد درس بيرسون وشستر والدرتن تقارير خريجي جامعة اكسفورد وقابلوها مع تقارير آبائهم فوجدوها متقاربة

***

﴿ التوائم ﴾ فحص ثورنديك ٥٠ تماً فحصاً نفسياً فوجد ان مشابهتهم بعضهم لبعض ضعف مشابهة الاقارب غير التوائم ولكنهُ لم يميز بين التوائم المماثلة وغير المماثلة

ودرست المس غوردون ٢١٦ تماً في أحد مياتم كالفورنيا فامتحنتهم بطريقة «بينه» وكانت نتائجها قريبة من نتائج غيرها ولا يمكن ان تكون الفروق العقلية ناشئة عن المحيط في المياتم لان المحيط واحد

وذكر بوبنو حادثة تئمتين ماتت أمهما وعمرهما أسبوعان فحضن احداهما ريب من الحضر وبقيت في المدرسة مدةّ أربع سنوات ثم انصرفت الى الاعمال التجارية وصارت أمينة لاحدى الشركات وكانت وظيفتها تقضي عليها بالتجوال أحياناً في غير بلادها . ونشأت الأخت الاخرى في الريف وأنهت تحصيلها المدرسي ثم دخلت الجامعة وتزوجت عقب مدةّ قصيرة من دخولها ورزقت بولد ثم انتظمت في سلك التعليم ومع ان هاتين الاختين عاشتا في محيط مختلف فانهما كانتا متقاربتين في عقليتهما وطباعهما [١]

﴿ الاسر ﴾ من المعروف لدى أكثرنا ان المواهب تسري بين الاسر سريانها في الافراد وأكثرنا يعلم عن كثير من الأسر العربية التي اختصت بموهبة من المواهب كأسرتي اليازجي والبستاني بالادب واللغة وأسرة المعلوف بالشعر . ونأتي الآن على ذكر بعض الاسر التي اختصت ببعض المواهب كالموسيقى والرسم والشعر والرياضيات والعلوم وما أشبه فن هذه

(١) The Eugenic Predicament p. 73-74

(٢) Human Heredity p. 558

الاسر أسرة باخ Bach التي تستطيع ان تتبع مواهبها الموسيقية مدى خمسة أجيال في الذكور. وظهر بين أولاد Johan Sebastian Bach ما لا يقل عن خمسة موسيقيين . ويستطيع المرء ان يتتبع الموهبة الموسيقية عدة أجيال في اسرتي موزارت وفبر Weber واحداهما تمت الى الاخرى بنسب وقد جمع H. Kurella مستندات عن ٢٨ أسرة استطاع ان يتتبع فيها مواهب متفوقة في الموسيقى مدى أربعة أجيال امثال أسرة بتهوفن وشوبرت ولزت Liszt ولسوء الحظ ان بعضهم كبراهمس وبتهوفن وشوبرت ماتوا عقيمين

﴿ الرياضيات ﴾ ومن الاسر المشهورة بالموهبة الرياضية اسرة Bernouillis التي اشتهر بها على الاقل ثمانية رياضيين بارزين او تسعة

﴿ الصناعة ﴾ ومن الاسر المشهورة بالمخترعات الصناعية اسرة كروب الشهيرة بصنع الاسلحة فقد ظهر تفوقها بهذه الناحية في النساء والرجال

وقد ذكر غالتون في كتابه النبوغ الوراثي بعض الاسر التاريخية المعروفة بمواهبها العسكرية والسياسية امثال اسرة اسكندر الكبير ووليم اورانج. وللكيماوي الطبيعي الفيلسوف Boyle المعروف ١٤ نسيباً من ذوي المواهب الخارقة . ومن الاسر الممتازة بمواهبها العقلية اسرة دارون وغالتون. فالسير فرانسيس غالتون ابن عم شارلس دارون مؤلف كتاب اصل الانواع وغيره من الكتب القيمة . واسرة اراسمس دارون Erasmus Darwin معروفة بتفوقها فاولاده (١) روبرت دارون كان طبيباً معروفاً وعضواً في الجمعية العلمية الملكية (٢) وكان يرجى لابنه شارلس دارون الذي مات بسن العشرين مستقبل باهر . وشارلس روبرت دارون الذي تنسب اليه نظرية التطور هو ابن روبرت وقد تزوج Ema Wedgwood وقدكان والدها من مشهوري المؤسسين لصناعة الخزف بانكلترا فولدت اربعة اولاد وهم فرانسيس دارون النباتي الشهير وجورج الفلكي المعروف وهوراس المهندس البارع وليونارد المؤلف في السياسة والاقتصاد ورئيس جمعية تحسين النسل سابقاً. وتتبع Primfall سيَر ٩٥٦ عالماً من علماء اميركا وتوصل الى نتائج تقرب من نتائج غالتون ووجد علاوة على ذلك ان تزاوج لذوي المواهب امر متعارف الى حدٍّ ما فنحو من ٢١ عالمة من عالمات اميركا تزوجنَ علماء بعلم ايوان

***

هذا وشل من بحر من هذا الموضوع الواسع وفيه البراهين الساطعة على ان الوراثة هي العامل الاكبر في تكوين الشخص وان اثر المحيط ضئيل اليها وقد اكتفينا بهذا القدر خشية الملل

تفرّق المجرّات

حقائق الموضوع

اذا ثبت الرأي الحديث في ظاهرة تفرّق المجرّات كان إكتشاف هذه الظاهرة الفلكية العجيبة في الطبقة العليا بين المكتشفات العلمية الباهرة في جميع العصور . ذلك ان الصورة الكونية التي رسمت وفقاً لهذا الرأي تمثّل لنا الكون وقد اخذت أجزاؤه الكبرى في الابتعاد بعضها عن بعض ، بسرعة تزيد في بعضها على سرعة دقائق « ألفا » المنطلقة من الراديوم . فكأن الكون فقاعة من الصابون ، مضت تنتفخ وتنتفخ ، حتى غدا ما على سطحها وما فيها من ذرّات وجزيئات يبتعد بعضهُ عن بعض بسرعة عظيمة . وقد طلع هذا الرأي على العلماء فجأة فأخذوا بهِ حتى كادوا يمسكون انفاسهم ، وعجزوا عن تفسيرهِ تفسيراً مقبولاً عند جمهرتهم ، لما فيهِ من الغرابة والجرأة

هذا الموضوع يعالج من ناحيتين ، إحداهما ناحية الحقائق التي اثبتها العلماء بالرصد والتصوير والثانية ناحية الآراء التي تفسر بها هذه الحقائق

كان هبل Hubble [1] زعيم هذا البحث الجديد . وكان هيوماسون Humason ساعدهُ الايمن . أما كيف دخل هيوماسون ميدان البحث الفلكي وصار من أعلامهِ ، فقصة عجيبة . ذلك ان والد هيوماسون كان صاحب مصرف في كاليفورنيا . ولكن الولد كان راغباً عن المدرسة وعن أعمال المصارف . وكان يرى من سهول باسادينا بكاليفورنيا قمّة جبل ولسن فاستهوتهُ فذهب الى فندق قائم على مقربة من المرصد المشهور ، وجعل يخدم فيهِ ، آناً يسوق سيارتهُ ومركباتهِ لنقل ما يجب نقلهُ اليهِ من المدينة عند السفح . وآناً يساعد موظفيهِ وخدامهُ في شتى الاعمال . وعهد اليهِ في أحد الايام بأن يسوق مركبة تجرّها بغال ، وكانت المركبة تنقل أجهزة علمية ثقيلة الى المرصد . فاتصل ببعض رجالهِ ، فعطفوا عليهِ وكان يُدعى للقيام ببعض الاعمال في حجرة الساعات او في حجرة التصوير . وما لبث الفتى حتى برع في أساليب التصوير الضوئي Photography [2] ثم تزوج ابنة احد رجال المرصد ومن ثمّ أكبّ على دراسة

---

(١) راجع مقتطف ابريل ١٩٣٨ صفحة ٣٥٥ مقال « المجرات » (٢) فضلنا استعمال لفظي « التصوير الضوئي » على « التصوير الشمسي » لان التصوير قد يتم في ضوء المغنيزيوم مثلاً لا بضوء الشمس

علم الفلك وغدا يعتمَد عليهِ في كثير من أعمال التصوير النجمي وفي سنة ١٩٢٢ بلغ من تقدير مدير المرصد لبراعتهِ ان عينهُ في منصب رسمي بين رجال المرصد وأتاح لهُ استعمال المراقب الكبيرة

***

بعد ان أثبت هبل — على نحو ما بيَّنا في المقال السابق — ان وراء مجرتنا عوالم لا تحصى التفت هو وهيوماسون الى موضوع فلكيّ جديد كان قد طرقهُ اولاً عالم فلكي آخر هو صليفر Slipher مدير مرصد فلاغستاف بولاية اريزونا الاميركية وهو المرصد الذي كشف فيهِ اولاً السيّار التاسع « بلوطو »

كان صليفر قد عني بدراسة طيوف المجرّات الحلزونية وهي المجرّات التي خارج مجرتنا لانهُ وجد ان قياس بُعدها بطريقة اختلاف الزاوية لا يجدي . فالتفت الى دراسة طيوفها لعلَّهُ يستطيع ان يتبيَّن حركتها من خطوط الطيف . وهذه الطريقة تعود الى العقد السابع من القرن الماضي وصاحبها الاول عالم انكليزي يدعى هجنز Huggins وهي قائمة على مبدإ طبيعي اكتشفهُ اولاً عالم بوهيمي يدعى كرستيان دوبلر Doppler في سنة ١٨٤١ ويعرف بمبدإ دوبلر. ولعلَّ خير وصف لمبدإ دوبلر هذا ضربُ مثلٍ عليهِ . ذلك ان القطار الصافر اذا كان مقترباً منا علا صفيرهُ واذا كان مبتعداً عنا انخفض صفيرهُ . فأمواج الصوت في الحالة الاولى تتلاحق في مدى يقصر باقتراب القطار فتقصر اذا قصر فيرتفع الصفير . أما اذا كان القطار مبتعداً فان أمواج صفيره تتلاحق في مدى آخذ في الاستطالة بابتعاد القطار عن السامع ، فتطول الامواج فاذا طالت انخفض الصفير . وقد كان مبدأ دوبلر مقتصراً على عالم الصوت وأمواجهِ . ولكن اللون في الضوء يقابل الارتفاع والانخفاض في الصوت . فالاحمر في الضوء اقل تذبذباً وأطول امواجاً من البنفسجي في الطرف الآخر من الطيف . فاذا طبقنا مبدأ دوبلر على الضوء قلنا انهُ اذا كان هناك جسم مضيء ضوءاً يقترب منا تلاحقت امواج ضوئهِ في مدى متقاصر فتقصر الامواج فينحرف فيهِ اللون من الاحمر الى جهة البنفسجي .وعلى الضد من ذلك اذا كان جسم مضيء ضوءاً بنفسجيًّا يبتعد عنا تلاحقت امواج ضوئهِ في مدى متطاول فتطول وينحرف فيهِ اللون من البنفسجي الى جهة الاحمر . ولا يخفى ان في طيوف النجوم خطوطاً مميزة لها . فاذا قلبنا الآية المتقدمة وكان لدينا طيف لجسم مضيء ووجدنا في هذا الطيف الخطوط الطيفية المميزة في غير مكانها المألوف وانها حادت الى جهة الاحمر، قلنا ان ذلك الجسم مبتعد عنا . واذا كان الحيود الى جهة البنفسجي قلنا ان ذلك الجسم مقترب منا . ومقدار الحيود يدلُّ على سرعة الابتعاد او الاقتراب

واذن ففي وسع الباحث الفلكي ان يتخذ من مقدار الحيود مقياساً لسرعة ابتعاد الجسم المضيء او اقترابهِ . وقد كان هجنز اول من اعتمد على هذا المبدء في دراسة حركة الاجرام

السموية . فأخذ طيوف بعض الاجرام السموية وتبين فيها الخطوط المميّزة لبعض العناصرفيها . ثم قابل مواقع هذه الخطوط بمواقع الخطوط المقابلة لها في طيوف اجسام منيرة ثابتة على سطح الارض . فوجد ان الخطوط المميزة للعنصر الواحد في طائفتي الطيوف لا تتوافق . فأسند الخلاف الى حركة الاجرام السموية وثبوت الاجسام التي على الارض . فلما أعلن رأيهُ هذا في سنة ١٨٦٨ قوبل بكثير من الريب . ولم يقم لهُ الوزن الصحيح الاّ بعد ان أعيدت تجاربهُ واتقنت وسائل تصوير الطيوف ودراستها . وعلى هذه الطريقة اعتمد صليفر في دراسة احدى المجرّات الحلزونية فوجدها تدور بسرعة عظيمة . فطرف منها يقترب من الراصد الارضي بسرعة لان الخطوط في طيفهِ تحيد الى البنفسجي والطرف المقابل يبتعد عنهُ بسرعة لان الخطوط في طيفهِ تحيد الى الاحمر

واجتمع لديهِ في سنة ١٩٢٨ حقائق عن حركة ثلاثة واربعين سديماً من أقرب السدم الى الارض فظهر لهُ انها جميعاً آخذة في الابتعاد عنا . الاّ ان صليفر لم يدرك مغزى هذه الارقام فلما اتجه اليها هبل وعني بها تبين صلة غريبة وثيقة بين سرعة ابتعاد هذه السدم وابعادها . وان سرعة الابتعاد كما تقاس بالحيود الى جهة اللون الاحمر في خطوط طيوفها تزداد وفقاً لبعدها عن الارض . فالسدم البعيدة أسرع ابتعاداً من السدم القريبة . فهل هذه الصلة بين البعد وسرعة الابتعاد سرعة اساسية ؟ وهل يمكن تطبيقها على الآفاق الكونية التي وراء ما بلغناه بمراقبنا ومصوّراتنا من رحاب الفضاء ؟ وهل جميع السدم آخذة في الابتعاد عن الارض ؟

ما كادت ترتسم هذه الاسئلة في ذهن هبل حتى ثبت لهُ ان لا بدَّ من امتحان هذه الصلة ليعلم أحقيقة أساسية هي ، ام ظاهرة عارضة ؟ وان هذا الامتحان يجب ألاَّ يقتصر على السدم التي في نطاق ما بلغناهُ بآلاتنا من الفضاء ، بل يجب ان يشمل كذلك أبعد ما يمكن ان نبلغهُ بها . واذن فالاس الاول الذي يتعين عليهِ هو ان يقيس ابعاد السدم بالاعتماد على الطريقة التي كشفتها المس لفيت — طريقة المتغيرات القيفاوية (مقتطف ابريل ١٩٣٨ ص ٣٥٥) — وثانياً عليهِ ان يعين مقدار الحيود الى الاحمر في طيوفها بالطريقة الطيفية التي ابتدعها هجنز وجاراه فيها صليفر . أما العمل الاول فأخذه على عاتقهِ . وأما العمل الثاني فعهد بهِ الى صاحبهِ هيوماسون . وأنبأ مدير المرصد بما ينوي فأتاح لهُ استعمال المرقب الكبير الذي قطر مرآتهِ العاكسة مائة بوصة

ليس من السهل أن ترسم طيوفاً للضوءِ القادم الينا من سدم تبعد عنا ملايين من سني الضوء بل أن سنة الضوء نفسها صورة ذهنية لا نكاد ندرك لها معنى بالقياس الى الابعاد على سطح الارض لان سرعة الضوء ١٨٦٣٠٠ ميل في الثانية الواحدة . وفي السنة ٣١٥٣٦٠٠٠ ثانية على اعتبار السنة ٣٦٥ يوماً . فكيف بنا اذا شئنا ان نتصور مليون سنة ضوئية او عشرة ملايين او مائة مليون ! وكذلك كان على هيوماسون ان يبقي الضوء الواصل في سديم معين ، مخترقاً هذا

الجوّ الحافل بالسدم والنجوم ، واقعاً من أنبوب المرقب على شق ضيق في المطياف المتصل به . ثم انهُ كان يتعين عليهِ ان يرقب ذلك الضوء الليل كلهُ حتى يبقى انبوب المرقب مسايراً لمصدر الضوء مع دورة الفلك ، فلا يحيد عنهُ والاَّ اختلط ضوؤه الواقع على المطياف بأضواء أخرى

نعم ان للمرقب اجهزة ميكانيكية غاية في الدقة ، يمكن ضبطها فتحفظ المرقب مسايراً للجسم المرصود ، ولكن سرعة حركة المرقب تتغير قليلاً بتغيُّر الحرارة ، فلا بدَّ من المراقبة الدقيقة للفوز بالنتائج الدقيقة . ثم يأخذ الليل في الانقضاء ، ويقرب الفجر من الانبلاج ، فيجب حينئذٍ ان تغطى لوحة التصوير الحسّاسة ، حتى الليل التالي ، وكذلك حتى الليل الذي يليهِ ، حتى يتمَّ تصوير السديم ، وهو كثيراً ما يستغرق من سبعين الى خمس وسبعين ساعة ، اي من ثماني ليالٍ الى عشر ليالٍ من العمل المضني . وليس بالسهل ان تقضي سبع ساعات او ثماني ساعة كل ليلة مدى ثماني ليالٍ او عشرٍ ،وانت ترقب نقطة من الضوء الخفي ، ولكن هيوماسون نهض بهذا العمل الاخّاذ ، ولم يقتصر على سديم واحد بل صوَّر عشرات ومئات

بعد ذلك يؤخذ الفلم المصوَّر ، ويحمض ويثبت في حجرة خاصة بالمرصد ، ثم تؤخذ صورة الطيف ويبدأ البحث فيها عن الخطوط المميزة للعناصر ، ليعلم هل هي في مكانها ، ام هي حائدة عنهُ الى جهة ما ، وما مبلغ الحيود . وهذا الضرب من العمل دقيق الدقة كلها . لانَّ طيوف النجوم والسدم ، حافلة بالخطوط الدقيقة المتلازّة ، فكيف بها اذا كان الطيف في صورة طولها عشر بوصة . وكثيراً ما كان هيوماسون لا يتبين شيئاً واضحاً فيعيد عمل التصوير من اولهِ . فاذا تبين خطوطاً معينة معروف مكانها في طيف جسم مضيء ثابت ، قابل المكانين وعين مقدار الحيود وعلى اساسهِ تقدَّر سرعة السديم

كان تقدير سرعة السديم ، وعلاقة ذلك ببعدهِ عنا ، منوطاً بالدكتور هبل . ولم يكن هذا العمل بالعمل العاديّ . هنا رأي يقول انهُ كلما بعدت السدم زادت سرعة تباعدها . وهذا صور دقيقة فيها خطوط مبهمة تدلُّ على انحراف الخطوط الطيفية . فهل يثبت الحساب، ان السدم جميعاً آخذة في الابتعاد عنا وفي الابتعاد بعضها عن بعض ، وهل يثبت الحساب كذلك ان سرعتها تزداد بالقياس الى بعدها عنا ؟ لذلك كان البحث في كل صورة من هذه الصور ، وكأنهُ استكشاف سيّار جديد . وكانت النتيجة ان جميع الصور ايَّدت الرأي السابق — اي ان السدم جميعاً آخذة في الابتعاد . وأبعدها عنا اسرعها ابتعاداً

ومضى هبل وهيوماسون في سبر اغوار الفضاء واستخراج النتائج من الصور التي تتجمع عندها . ثم اخذا يرتبان تلك النتائج في جدول. هوذا السديم المرقوم N.G.C. 385 في صورة الفرس الاكبر بعدهُ عنا ثلاثة وعشرين مليوناً من سني الضوء وهو آخذ في الابتعاد بسرعة ٢٤٠٠

ميل في الثانية . ثم هناك سدم ابعد من السديم السابق واسرع. فثمة السديم المرقوم N.G.C.2562 في عنقود السرطان بعده عنا تسعة وعشرون مليوناً ونصف مليون من سني الضوء وسرعة ابتعاده عنا ٣٠٠٠ في الثانية . اما السديم في فرساوس فبعده ستة وثلاثين مليوناً من سني الضوء وسرعة ابتعاده ٣٢٠٠ ميل في الثانية. والسديم N.G.C. 4884 الذي في شعر برنيقة بعده خمسة واربعون مليوناً من سني الضوء وسرعة ابتعاده ٤٧٠٠ ميل في الثانية . وفي صورة الدب الاكبر عنقود اكتشفه ولتر باد من بضع سنوات وقدر بعده بخمسة وثمانين مليوناً من سني الضوء وهو بحسب هذه الصور العجيبة آخذ في الابتعاد عنا بسرعة ٩٥٠٠ ميل في الثانية. ولما كشف عنقود الاسد في سنة ١٩٣٠ وعرف ان بعده ١٠٥ ملايين من سني الضوء صوّر طيفه فاذا الصورة تقول انه يبتعد عنا بسرعة ١٢ الف ميل في الثانية . وفي التوأمين عنقود يبعد ١٣٥ مليون سنة ضوئية ويبتعد بسرعة ١٥ الف ميل في الثانية . وفي العوّاء عنقود فيه سديم يبعد ٢٢٠ مليون سنة ضوئية وسرعة ابتعاده بحسب هذه الصور ٢٤ الف سنة ضوئية في الثانية

الصورة السموية	المسافة بملايين سني الضوء	سرعة الابتعاد بالاميال في الثانية	عدد السدم التي رصدت وصورت
العذراء	٦	٧٠٠	٢٣
الفرس الاكبر	٢٣ر٥	٢٤٠٠	٤
السمكتان	٢٤	٢٩٠٠	٤
السرطان	٢٩ر٥	٣٠٠٠	٢
فرساوس	٣٦	٣٢٠٠	٤
شعر برنيقة	٤٥	٤٧٠٠	٨
الدب الاكبر	٨٥	٩٥٠٠	١
الاسد	١٠٥	١٢٠٠٠	١
الاكليل الشمالي	١٢٠	١٣٥٠٠	١
التوأمين	١٣٥	١٥٠٠٠	٢
العواء	٢٢٠	٢٤٠٠٠	١

هذه هي حقائق الموضوع . اثبتها بالرصد والقياس باحثان متمكنان . فما مغزاها ؟ أتعني ان الكون آخذ في التفرق والتشتت ؟ وما صفة هذا الكون وما صورته ؟ هذا موضوع المقال التالي

الشيخ ابو علي

ابن سينا

بقلم منوشهر مؤدب زاده
صاحب جهره نما الايرانية

— ٢ —

ان أبا علي كما نرى في سيرته كان من نوابغ عصره الذين لا يشقّ لهم غبار فان عبقريته الفذّة مكنتهُ من أن يتقن في زمان قليل علوماً لم يتمكن غيرهُ من فهمها واقتنائها إلاّ بعد عناء شديد وممارسة تحتاج الى زمن ليس بالقليل . نعم ان هذا الرجل اللوذعي العظيم قد حوى ما استعصى على الناس من العلوم والمعارف في ابان شبابه وأحاط بها إحاطة تامة وفهم مسائلها وأوضح ما أشكل منها وكشف غطاء اسرارها وشرح نكاتها الدقيقة ولم يترك باباً من العلم إلاّ طرقهُ ولم يبق مسألة إلاّ نظر فيها وبلغ بهِ الامر انهُ لم يحصل له اي تفاوت في زمن الكهولة عن زمن الشباب الذي هو أوان الطيش والعيش تضطرب فيهِ الافكار وتزلّ فيهِ الاقدام فكان له في شبابهِ ما للشيوخ من الافكار والمسائل في شتى العلوم والمعارف

ومن هنا قال بعضهم ان دماغه كان مخلوقاً للفلسفة ومعجوناً منها بل في وسعنا ان نقول ان دماغ أبي علي كان خلاقاً للفلسفة وموجداً لها . فقد كان للرجل ذكاء وفطنة قويان نادران قلما وجدا في شخص فكانا عاملين قويين في استخراجاته ومستنبطاته في الطب ومعالجة الامراض فقد استنبط بفضل هذه المواهب ما ربما عجزت عنهُ اليوم الافكار مع ما في متناولها من الوسائل الكاملة التي جهّزها بها العلم

يقال انهُ اصيب مرة بصداع تخيّل اليهِ ان مادة من المواد قد توجهت الى دماغه فاذا لم يدفعها بأضمدة ولطخات خارجية احدثت قرحة في دماغه فبادر الى مداواة نفسه ونجح فيما استنبط

وفضلاً عن هذا الذكاء النادر والفطنة التي فاق بها أهل عصره كانت جميع قواه في حد الاعتدال والكمال فكان متفرداً في القوى المادية والمعنوية ومتمتعاً بها . ولاجل هذا يمكن

ان يقال عنهُ انهُ كان انساناً معتدلاً تام القوى ونحن نعلم حق العلم ان لاعتدال القوى المادية اثره الفعّال في اعتدال القوى الفكرية . والفلسفة الجديدة تبرهن على هذا وتثبتهُ لنا ولذا كان أبو علي من الوجهة الفكرية من أعدل الفلاسفة المشائين وكانت طريقته أقرب الطرق للبرهان والحقيقة وفضلاً عن هذا فإن القوى المذكورة قد أكسبت الرجل قوةً من الاجتهاد والمثابرة على الاعمال تناسبها تمام المناسبة ولذلك نراهُ قد تمكّن من إعمال القوة المادية والروحية واجتنى منها ثماراً ناضجة وأحرز منها نتائج باهرة لا يستهان بها بل لا يحصر مداها . فقد روى لنا أبو عبيد : قال عند ما وصل منطق كتاب النجاة الى شيراز أورد عليه علماء تلك المدينة بعض إشكالات أرسلوها للشيخ على يد أبي القاسم الكرماني فتناول الشيخ الرسالة وراح يشتغل بأمور كانت لديه وكان وصولها عند الاصيل فقضى الشيخ تلك الليلة مع أبي عبيد ولكن أبا عبيد يقول لم يتنفس الصبح حتى وجه اليَّ فحضرت ووجدتهُ جالساً في مصلاه فناولني الجواب وكان مكتوباً على خمسين صحيفة

وروي لنا هذا الرجل أيضاً ان ابا علي قد ألف مبحث الالٓهيات والطبيعيات من كتاب الشفاء سوى مبحث النبات والحيوان في مدة لا تزيد على عشرين يوماً ولم يحتج في تأليفه الى مراجعة اي كتاب واليوم لا يمكننا ان ندرس ونتفهم ما كتبهُ هذا العبقري في أقل من سنتين . فانظر الى حافظة هذا الرجل واستحضاره للمسائل والمطالب ثم تصوَّر شخصيتهُ الفذة . ولعلَّ هذه القوى والحافظة والذكاء النادر وتمكنه من ممارسة العلوم والاحاطة بجميع المسائل وفهم المطالب أكسبتهُ في مجالس الدرس والتقرير تلك الحدة التي طالما أشار اليها المؤرخون وصرَّحوا بها في كتبهم ومؤلفاتهم . فقد ذكر الشهرزوري في عدة مواضع من كتابه تاريخ الحكماء ان أبا علي كان يحتد ويكثر من ذم العلماء ولذلك كثر أعداؤهُ والحاقدون عليه وأخذوا يسعون بشتى الطرق في احتقاره واستصغاره . ونرى كل هذا واضحاً مكتوباً في رسالاته ومنها رسالته المسماة بالأضحوية وقد قال في أولها «وقد انتابتني حوادث وصُبَّت عليَّ مصائب ونحن لو أصيبت بها الجبال الرَّواسي لتصدَّعت واندكَّت منها»

ومنها معارضة أبي علي لأبي القاسم الكرماني وأبي علي المعروف بمسكويه وهي دليل على هذه الدعوى . يقال ان أبا علي مرَّ يوماً على مجلس درس لمسكويه فرمى اليه بجوزة وقال لهُ ما مساحتها ؟ فناولهُ مسكويه رسالة كان ألفها في علم الاخلاق وقال لهُ يجب عليك أولاً ان تسعى في تهذيب أخلاقك

لا ريب في ان الامر لا يخلو من مبالغة وان أكثر هذه الامور قد نسبها اليه أعداؤهُ وخصومه الكثيرون في حياته وبعد مماته

وكيف يمكن ان يصدق ان رجلاً بلغ من العلم والحكمة مبلغاً فاق بهِ الاقران والاتراب يكون على جانب عظيم من سوء الخلق والحدَّة التي تلوّث سمعته ؟

فاذا سلمنا جدلاً بما يقال عنهُ فاننا لا يمكننا إلاَّ ان نعترف بأن أبا علي كان من أعظم الفلاسفة بل كان على رأس اولئك الذين تفقهتم المدنية الاسلامية الزاهية وأنجبهم ذلك العصر الذهبي الزاهر . فقد درس فلسفة ارسطاطاليس من دون إلمام باللغة الاغريقية او اللاتينية ففهمها بفضل قواهِ النادرة وذكائهِ العجيب ومع انهُ لم يكن لديه إذ ذاك سوى تراجم ناقصة فقد تمكن من أن يتكلم فيها ويقررها أحسن تقرير ويبينها بياناً ما عليهِ من مزيد حتى نسخت مؤلفاته كتب المتقدمين ورغب فيها الناس ورغبوا عن كتب أرسطاطاليس فاحتلت هذه مكانها

ولم ينكر المتقدمون ولا المتأخرون مقامه هذا وقد أقروا لهُ بالفضل واعترفوا له بانهُ أحذق استاذ قرر تعاليم أرسطاطاليس وقد عرضوا عليهِ كل مسألة أشكلت عليهم واخذوا برأيهِ وجعلوا أقواله وآراءهُ مستنداً لهم في اثبات المسائل الفلسفية والحكمية . ومن جملة فلاسفة الاسلام وعلمائهم الذين يشار اليهم بالبنان ابو حامد الغزالي فقد قال في مقدمة كتابه (تهافت الفلاسفة) ان أقوال المترجمين لكلام أرسطاطاليس لا تخلو من تبديل او تحريف يحتاج الى تفسير او تأويل وقد صار هذا سبباً للنزاع بينهم وبين اكبر فلاسفة الاسلام نقلاً وتحقيقاً اي الفارابي وابن سينا ، ولذلك فنحن نبذنا ما اختاراه وقالا بصحتهِ لاننا لا نشك فيما لم يختاروه ان يكون سقيماً او مختلاً

ولاجل ذلك يعتقد بعض العلماء ان الغزالي لم يقدم على تأليف كتابه هذا الموسوم بتهافت الفلاسفة إلاَّ وهو يريد هدم آراء ابي علي الفلسفية والتحامل عليهِ والحط من مقامه وكذلك كتاب المصارعة لمؤلفه محمد بن عبد الكريم الشهرستاني فهو يحكي لنا الصراع الدائم القائم بين مؤلفه والشيخ أبي علي بن سينا . وقد جاء في بعض الرسائل الفلسفية أنهم اتفقوا على ان أبا علي قد تفرَّد وفاق الاقران في الحكمة وأصبح في الفلسفة علاَّمة دهره فلم يبلغ شأوه احد ولم يشق له غبار وكل من ادرك كلام أبي علي وفهم معناه فقد فاز بقصب السبق ونال أعلى مقام في الحكمة والفلسفة . وكان عمر الخيَّامي من فلاسفة القرن الخامس والسادس من الذين يعتقدون بأبي علي أي اعتقاد وقد سألهُ بعضهم شأن الاعتراضات التي اوردها ابو البركات البغدادي على آراء ابي علي في الفلسفة والحكمة من الصحة والبطلان فأجاب الخيَّامي ان أبا البركات لم يفهم كلام ابي علي بعد

وقد بلغ المقام بأبي علي في الفلسفة والحكمة حتى اصبح تعلُّم مؤلفاته وتعليمها من الامور الضرورية المسلَّم بها حتى اصبح المقصود من درس الفلسفة على مرّ الزمان هو دراسة كتب ابي

علي ليس إلاّ ولذلك هدأت الحركة الفلسفية و توقف سيرها الى حدٍّ ما فآل ذلك الى انحطاطها في القرون الاخيرة فقام بعض العلماء وعارض اقوال ابي علي وآراءه وأورد عليهِ ولم يكن ذلك الاّ اظهاراً للفضل والعلم وشمر آخرون للدفاع عنهُ وعن تآليفه وكتبه . ومن المعارضين للشيخ والموردين على كتبه شكوكاً كثيرة الامام فخر الدين الرازي الشارح لاشارات ابي علي وقد رد على آراء الشيخ ومبانيه حتى سمّى بعضهم هذا الشرح (بالجَرح)

ثم جاء نصير الدين الطوسي من جلة حكماء القرن السابع وقرر اقوال الشيخ احسن تقرير وأبطل اعتراضات فخر الدين الرازي وحسبها واهية وانتقد كتبه وجرحها باشكال مختلفة . وكذلك محمد بن عبد الكريم الشهرستاني فقد كرر في كتابه المصارعة آراء ابي علي وأقواله واعترض على اكثرها اعتراضات واهية حسبها واردة وقد يتجاوز هذا الرجل في بعض الاحيان حده فيعدُّ كلام ابي علي كالمجانين والمجذوبين وقد رد الخواجة نصير الدين على كتابه المسمى بالمصارعة بكتاب سمّاه (مصارع المصارع) وابطل اقوال الشهرستاني وانتقد اخلاقه ولامهُ على تعرضه للشيخ بما لا يليق من الكلام ولعمر الله ان نصير الدين لعلى حق فيما يقول

ولما شاعت وانتشرت فلسفة المشائين ومعتقداتهم على يد ابي علي وكتبه واذعن لها تقريباً قام رجل من اعاظم علماء ايران معارضاً لهذه المعتقدات وجاء بالعقيدة الاشراقية وهي التي تعرف بالحكمة الاشراقية وجعل يقررها ويشيد لها صرحاً على انقاض اصول المشائين التي أوشكت ان تنقرض ويأفل نجمها . وقد راجت الحكمة الاشراقية وكثر تابعوها وكسدت سوق مؤلفات ابي علي ورغب عنها الى حدٍّ ما وذكر تفصيل ذلك في تاريخ الفلسفة للقرن السادس

***

وقد حاز ابو علي فضلاً عن الفلسفة مقاماً شامخاً في الطب ووقف منهُ موقف الاستاذ فقد نسخ كتابه المسمى بالقانون كتب المتقدمين وقضى على تعاليمهم . وكان ابو علي يتحيز لارسطاطاليس ويميل اليهِ ويتحامل على جالينوس ويحقره في كتبهِ ويسميهِ احياناً (فاضل الاطباء) ويقول عنهُ ان فاضل الاطباء جالينوس هو طبيب غير انهُ يجب ان يتفلسف

أما محمد بن زكريا الرازي فكان جالينوسيًّا ولم يكن يعتقد بأرسطاطاليس كثيراً — فطريقة أبي علي التابع لارسطاطاليس في تدوين الطب وتقريره لهُ منطقية بينما طريقة الرازي أقرب للمطابقة والعمل

فلما شاع منطق أرسطاطاليس بين الناس ولم يكن الاشتغال بالتشريح والتجارب الكيمياوية بالامر الهين كان لتقرير أبي علي وقوة بيانه أحسن تأثير في انتشار طريقته وأقوى عامل وضامن للاخذ بها فنسخت طريقة جالينوس التي نشرها محمد بن زكريا وغيره من الذين عرفوا

بالزندقة وعدم التمسك بمذهب فصار كتاب قانون ابي علي يدرس في جميع مجامع الطب والمجالس التي تعقد لدراسة هذا العلم وغدا الكتاب الذي يعتمد عليهِ . ولم يقتصر ابو علي في الطب على التقليد بل كانت له تجارب وآراء وتأملات وكان اكثرها في معالجة الامراض ومداواتها وقد ذكرها في القانون وقد فقد ما كان منها على صورة مذكّرات لم تدوَّن بعد في كتاب — هذا ما يرويه لنا ابو عبيد

وقد ظن بعضهم أن أبا علي — كما يستفاد — من كتبهِ لم يكن إلاَّ تابعاً لارسطاطاليس وقد قلّد المعلم الاول في آرائهِ قوةً وفعلاً وخصوصاً في المنطق وكتاب التعليم الاول . ولكن الامر على خلاف ما ظنوه فقد كان للشيخ في كل قسم من اقسام العلوم التي اخذها عن ارسطاطاليس آراء اودعها في كتاب مخصوص سمّاه (الحكمة المشرقية) واما الخطة التي كان قد قرَّرها لنفسهِ في تآليفه وكتبه كالشفاء فهي تقرير آراء المشائين ليس إلاَّ ولذلك لم يتعرض لرد آراء شيعة أرسطاطاليس وتضعيفها بل على العكس من ذلك سعى في تأييدها جهد طاقته وقد اتبع نصير الدين الطوسي الذي خلفهُ هذه الخطة في كتبه التي ألفها في تقرير آراء المتكلمين والحكماء من الاشراقيين والمشائين . ومع ان الشيخ أبا علي يقول كل من أقرَّ بشيء وآمن بهِ بلا دليل لديه فهو خارج من الفطرة الانسانية منسلخ من الطبيعة البشرية نراهُ عند اثباته النبوة أجاز للفرد الكامل اباحتهُ صبت مخالفيهِ ودماءهم . ولعل آراءه هذه حملت المؤلفين على ان ينتقدوا فيهِ التكتم ولكنهُ لم يكن معروفاً بذلك في عصره بل كان معاصروه يرمونهُ بالكفر والالحاد والزندقة . والذي يلوح لنا من سيرة حياته أنهُ لم يكن منكراً للمبادىء الدينية وكان كلما وقعت له مسألة لم يفهمها دخل المسجد الجامع وسأل الله تسهيلها وكشفها له . ولما أيقن بالوفاة تاب الى الله ووهب امواله للفقراء والمساكين ولعل ما اتهمهُ بهِ المعاصرون من الكفر والالحاد جعله يعتقد في كتمان الحقائق الفلسفية وعدم البوح بها وقد اوصى في آخر كتاب الاشارات بكتمانه والضن بهِ على غير اهله وأن لا يظهر عليهِ إلاَّ من كان أهلاً له . وأما من الوجهة التعليمية فقد كان يشابه أرسطاطاليس كل الشبه . ولم يأخذ برأي فلاسفة الهند الذين يعتقدون ان عمران الروح لا يكون إلاَّ باضعاف الجسم وهدم بنائه . وقد اخذ بهذه العقيدة بعض المتصوفين ولكن أبا علي لم يقدم على هدم قواه الجسمانية بل تمتع بقواه الروحية والجسمية كما يقول المحققون والفلاسفة والعرفاء أن الانسان يجب ان يكون جامعاً وذا عينين ويهتم بكل من مراتب الوجود في حدة . فكان كما يقول اهل العرفان : « لا الكثرة تمنع وحدته ولا الوحدة تحجب كثرته »

[لها بقية]

الجيش المصرى

والاستكشاف فى أفريقيا

للملازم الاول عبد الرحمن زكي

— ٢ —

اقليم هرر

اذا تحوّلنا من بلاد الصومال الى مديرية هرر التي زارها الرحالة الانجليزي برتون R. F. Burton بين عامي ١٨٥٤ و١٨٥٥ وجدنا ان النتائج العلمية التي حصل عليها كانت قليلة جدًا ولا يصحُّ الاعتماد عليها ويمكن ان ننتحل بعض الاعذار لهذا الرحالة فنقول ان الاحوال التي احاطت به أثناء اضطلاعه برحلته جعلت اقامته في هرر لا تزيد على عشرة أيام. ثم انه تعذَّر عليه ان يستعمل من اجهزة البحث الا بوصلة الجيب وساعة وترمومتر ومع ذلك فقد أدت له بعض الفائدة (١) ويحتوي كتاب برتون بجانب تخطيط عام لهرر على خارطة اخرى لا قيمة لها البتة من الناحية الجغرافية تبين الطريق الذي سلكه الى هرر. وقد كان الموقع الذي أثبته لمدينة هرر أصح من الموقع الذي اثبتهُ هاريس واعوانه الذين قاموا برحلة الى شوا (٢) او الرحالة كراتندن (٣)

ولقد ظلَّت مهمة الفوز بمعلومات صحيحة عن داخلية تلك البلاد شاقة جدًا زمناً طويلاً لغيرة الاهالي الوطنيين وتعصبهم. فكانت المعلومات المكتسبة مبنية على التخمين والرواية وليست مؤسسة على التحقيق العلمي. وظلت الاحوال على هذا المنوال مدة عشرين عاماً عقب زيارة برتون. ولم يحاول احد خلالها ان يقوم بفتح داخلية البلاد حتى ظهر المصريون وأفلحت جهودهم في عام ١٨٧٥ وحينذاك سهل القيام بالرحلات. فتجمعت تدريجيًا المعلومات والنقط الرئيسية للارشاد والمرة الاولى عملت خارطات لاقليم كان بالامس مجهولاً تماماً. واستطاع

(١) R. F. Burton. First Footsteps in East Africa. London 1856. p. 62
(٢) W. C. Harris. Highlands of Aethiopia, 3 Vols. London 1844
(٣) C. J. Cruttenden. J. R. G. S. Vol XIX. 1849 pp. 49-76, also-J.R.G.S. Vol. XVIII, 1848. pp. 136--139.

الضباط المصريون بقيادة البكباشي مختار ان يزهوا بعملهم الانساني فانتشلوا هرر من الظلام الجغرافي الدامس الذي رقدت فيه قروناً كاملة

لقد وصل المصريون الى نتائجهم الباهرة التي لم يصل اليها أحد من قبل لانهم كانوا يشرفون على ادارة تلك الاقطار ولانهم كانوا ايضاً يتمتعون بمزايا لم يتمتع بها غيرهم من المستكشفين. وقد استفادوا من تلك المزايا بدليل النتائج الغزيرة التي حققوها والتي نراها أمام أعيننا اليوم

ففي عام ١٨٧٦ بعد ان انهى البكباشي محمد مختار من جولاته لاستكشاف بلاد الصومال[١] نشر مع زميله فوزي باللغة العربية الخارطة الاولى لهرر والبلدان المجاورة. وقد ظهرت في مجلة اركان الحرب. وكتب ايضاً الضابط فوزي مقالاً طويلاً عن نتائج أعمال الكشف الذي قام به المصريون في مقاطعات شعوب العيسي وجالا وهرر[٢]. وتمتاز الخارطة المذكورة بدقة ما احتوته من الحقائق كالمحطات المهمة والمدن وطرق التجارة ومقاطعات القبائل وأهم اوصاف الارض الطبيعية ومعالمها[٣]. وفي هذه الخارطة أثبت موقع هرر كما يأتي:

٤٨َ ٢٢َ ٩٠° من خط العرض و ١٥َ ٢٠َ ٤٢° من خط الطول[٤]. واثبات هذا الموقع لا يختلف الا ببضع دقائق الى الشمال ومثلها الى الشرق عن موقعها الجغرافي الذي أثبت أخيراً بغاية الضبط كما يختلف شيئاً قليلاً عن الموقع الذي أثبته رءوف باشا في تقريره عن مدينة هرر وضواحيها[٥] ففي تقرير رءوف باشا أثبت موقع المدينة على خط عرض ٢٠َ ٩٠° شمالاً و ١٧َ ٤٢° طولاً كما أثبته برنون. ولكن لمَ كان الاختلاف بين تقرير القائد العام للحملة الى هرر وبين تقارير ضباط هيئة اركان حربه؟ هذا مما صعب فهمه

والخارطات الهامة الاخرى التي أحرز فيها مختار وفوزي نجاحاً باهراً خلال الاعوام الاولى للاحتلال المصري هي أول تخطيط عمل لمدينة هرر (١٨٧٦) وقد بيَّنا عليه أسوار المدينة وأبوابها وقلاعها وأهم الايضاحات الطبوغرافية ورسما قطاعاً واضحاً يقطع المدينة في اتجاه شمالي جنوبي تقريباً[٦] وهذا الرسم (قياس $\frac{١}{٤٠٠٠}$) يعتبر عملاً فائقاً من الطراز الاول من ناحية التفاصيل الموضحة عليه ومهارة العمل ودقته اذا قوبل بأي عمل آخر تمَّ فيما بعد لهذه المدينة

(١) راجع النبذة التي كتبها البكباشي مختار على استكشافه في بلاد جاديبورسي المدرجة في العدد السابع من القسم الاول من مجموعة الجمعية الجغرافية (٢) مجلة اركان الحرب — السنة الثالثة — المجلد ١ — الجزء ٥ — القاهرة ١٨٧٧ ص ٣٨٥ — ٤٠٠ وجزء ٦ ص ٤٦٢ — ٤٧٩ (٣) أحمد فوزي — وصف عمل الاستكشاف في العيسي والجالا وهرر — مجلة اركان حرب — السنة الثالثة ١٨٧٧ — المجلد ١ ج ٥ ص ٣٩٢. ومحمد مختار — الجمعية الجغرافية — ملاحظات عن مقاطعة هرر — السلسلة ١ — ص ٣٦١
(٤) في هذه الخارطة يعتبر خط الطول المار بباريس صفر (٥) رءوف باشا: تقرير عن مدينة هرر وضواحيها — مجلة أركان حرب ١٨٧٦ — السنة الثالثة : المجلد ١ — جزء ١ ص ٤٤
(٦) محمد مختار واحمد فوزي: خارطة مدينة هرر عام ١٨٧٦ — مطبعة اركان حرب العامة — القاهرة ١٨٧٧ — مجلة الجمعية الجغرافية الخديوية ١٨٧٧ — السلسلة ١ رقم ٤

ونذكر ايضاً في هذا الصدد — الخارطة العربية — لبلاد الصومال التي رسمها الضابط فوزي وعرضها في المؤتمر الجغرافي بالبندقية عام ١٨٨١ [١] . لكن مما يؤسف لهُ ان تلك الخارطة قد فقدت . ومن المحتمل ان تكون قد أودعت في مكان وظلت فيهِ منسية مجهولة

عود الى الصومال وبربرة والحبشة

وقبل اختتام هذا البحث نعود الى ذكر بعض الاعمال الجغرافية التي قام بها الضباط المصريون في افريقيا . فقد رسم الملازم الاول عبد الرزاق نظمي وكثير من زملائهِ من ضباط اركان حرب الجيش ميناء بربرة وضواحيها الى جبل دوبار . وكان المستر « سدني أنسور » مكلفاً أعمال البحث فيما يختص بانشاء سكة حديد بين دنقلة والفاشر

ولما نشبت الحرب بين مصر والحبشة (١٨٧٦) رسم بعض ضباط اركان الحرب برآسة الاميرالاي لوكيت عدداً كبيراً من الخارطات التفصيلية للبلاد الحبشية ورسموا خارطة عامة للبلاد الواقعة بين مصوع وهضبة الحبشة . ويعتبر هذا العمل من أهم وأفضل ما اشتغلت بهِ هذه الجماعة المنتخبة من اكفاء الضباط المصريين . كما حقق البكباشي عبد الله فوزي (باشا) حدود الحبشة الشمالية والطرق بين مصوع والخرطوم ثم رسمت خارطتها [٢]

وفي عام ١٨٧٨ عهد الخديو اسماعيل الى الكولونيل جريفز (Col. Graves) والقائمقام محمد مختار بارتياد شواطىء الصومال على المحيط الهندي لاختيار موقع يقام فيهِ فنار لارشاد السفن فخطَّط القائمقام مختار بك خارطة هذه الجهة ومكان الفنار وهو يقع على بعد ثمانية اميال جنوبي رأس جردوفوي [٣] وعلى مسافة ثمانمائة متر من مصب نهر صغير يجري فيهِ الماء العذب . لكن لم ينشأ الفنار لانتهاء حكم اسماعيل في يونيو سنة ١٨٧٩ . وفي عام ١٨٨٠ كان الاميرالاي محمد مختار قد جاب نواحي السودان الشرقي لما كان رئيساً لأركان حرب السودان يصحبه من ضباطه خليل بك فوزي والملازمان محمد خير الله وعلي خيري وقد نشر بحثاً مسهباً في تخطيط أبو حراز والقضارف (ابوسن) والقلابات وطومات وأمديب وغيرها من مدن السودان الشرقي [٤]

الاعمال الختامية

ونتجه الآن لدراسة آخر اعمال الخرائط التي انجزها الضباط المصريون في هرر التي تعتبر تقدماً باهراً على الاعمال التي سبق عملها بمعرفة مختار وفوزي وغيرهما : ففي أواخر عام ١٨٨١ مسحت هرر وملحقاتها من جديد بتفصيلات متقنة وايضاحات اكثر مما جاء في المحاولات التي تمت من قبل

---

(١) مجلة الجمعية الجغرافية الخديوية ١٨٨٢ — السلسلة ٢ — رقم ١ — ص ١ — ٢١ (٢) عبد الرحمن الرافعي — عصر اسماعيل — ص ١٧٩ (٣) مجلة الجمعية الجغرافية مجموعة ١ عدد ٩ (أغسطس — نوفمبر ١٨٨٠ ص ٢٩) (٤) مجلة الجمعية الجغرافية مجموعة ١ عدد ١١ — فبراير ١٨٨١ ص ٥

وقد قام بهذا العمل البكباشي أحمد وعدي والملازم الاول عبد الكريم عزت . وكانت مصر في ذلك الحين قد أخضعت بعض قبائل من الوطنيين الذين لم يقبلوا التسليم في بادىء الامر . وكان كلما اتسع الافق السياسي امتدت أعمال الكشف وازدادت . ولذلك جاءت الخارطات الجديدة بطبيعتها اكثر استيفاءً للمعلومات من سابقاتها او التي اعقبتها وانجزت في احوال صعبة في ذلك الوقت الذي عادت فيهِ هرر الى حكم أمرائها السابقين واخلاء المصريين لتلك البلاد (١٨٨٤ — ١٨٨٥) وأخيراً لما أصبحت هرر تحت الحكم الحبشي (١٨٨٧) . ففي خلال عامين كان عمل الضابطين وعدي وعزت قد تم . ويمكن الاطلاع عليهِ في مجموعات خارطات الجمعية الجغرافية . وقد عرف « بولتشكي » قيمة تلك الخارطات العلمية والجغرافية واثنى على العمل الفني الذي اضطلع به الضباط المصريون في هرر كما انهُ امتدح جهود الضباط مختار وفوزي وعزت[1] وبينما كان هؤلاء الضباط النابهون يقومون باكتشافاتهم كان الجنرال ستون[2] يشرف في القاهرة على رسم خارطة كبيرة شاملة للاملاك المصرية قياسها ١ : ١٠٠٠٠٠٠ . وكان الغرض من انشاء هذه الخارطة جمع النتائج المتحصلة في خلال ثماني عشرة سنة انقضت كلها في الفتوحات والاستكشافات والمباحثات والمراجعات . وقد كتب عنها الجنرال ستون : — « ان مسطح الارض التي شملتها تلك الاعمال يعادل مجموع مساحة فرنسا وامبراطوريتي المانيا والنمسا . وقد قضت هذه الاعمال على حياة ضابط وعالم ألمانيين واثنين من الفرنسيين ومثلهما من الاميركيين ومثلهما من الطليان ومثلهما من المصريين وجميعهم استشهدوا في سبيل الاخلاص للعلم . هذا غير من اختارهم الموت من « الجنود البواسل الذين رافقوا الضباط وأهل الريادة . فانهم لقوا حتفهم في تلك البلاد المجهولة مثل زملائهم الذين صحبوا البعثات العلمية المحضة ايضاً »

وليس في وسع احدٍ ان يتجاهل ما كان لمصر من شأن المتقدم وفضله في ميدان الاستكشاف الجغرافي في بلاد الصومال وافريقيا الشرقية وجميع انحاء السودان وصحارى مصر[3] . وهذه الاعمال الخالدة صفحة مجيدة تفاخر بها كل أمة حية . وهي جهود اعوام متتالية كما وصفها الجنرال ستون قامت كلها على أكتاف الضباط المصريين في صمت وهدوء وتواضع وكفاح مع الامراض المتوطنة في تلك الاقاليم البعيدة والتي كانت في يوم من الايام قطعة من أرض الوطن

---

(١) Paulitschke. pp. 575—591

(٢) هو شارلس بومري ستون رئيس هيئة اركان حرب الجيش المصري من عام ١٨٦٩ الى عام ١٨٨٢. وقد كان كولونيلاً في الجيش الاميركي ندبه المغفور له الخديو اسماعيل باشا لرآسة بعثة عسكرية اميركية لاصلاح الجيش المصري كما ذكرنا في صدر المقال . راجع مقالة اباته باشا بعنوان الجنرال ستون ومقالنا بالمقتطف ج يوليو بالمجلد ٩١ ص ٢٠٢ — ٢٠٨ (٣) من مقال الاستاذ مصطفى عامر بك رئيس قسم الجغرافيا بالجامعة المصرية وكان اتقن مرجع لنا في كتابة هذا الموضوع

ساعات في هياكل الشعراء — ٣

الياس فياض

وقصيدة النجوم

ليوسف البعيني

مضى خمسة أعوام وأزيد على وفاة الشاعر الرقيق الحسّاس الياس فيّاض ذلك البلبل الفريد الذي فتن بأناشيده أبناء العربية على السواء . وكنت طوال هذه الاعوام أمنّي النفس بكتابة كلمة ضافية عنهُ لا لشيء بل قدراً لروحه الكبيرة وإنصافاً للشعر العربي الذي أحببتهُ وآثرتهُ على الآداب الاخرى لما في اوزانه من رنين ، ولما في الفاظه من حبّ لم يخبُ نوره ولم تترمّده جراتهُ !!

أما أدلّتي على ذلك فهي تلك المقاطع الساحرة التي ردّدها تحت سماء الشرق المقمرة عُمَرُ بن أبي ربيعة ومجنون ليلى وغيرهما من شعراء الحبّ والغرام . . . وقد طوت أشعارهم الحقب الخوالي طافيةً كالاحلام فوق أمواج الدهور دون ان يفقدها تقادم العهد تلك النشوة المسكرة ، وذلك الدبيب المستحبّ

على اني لا احاول في هذه الكلمة الموجزة أن أعطي للقارىء صورةً شفّافة عن الياس فياض ، ولا ان أجهد نفسي بتبين اسرار شعره السائغ اللذيذ . . . كلاً فأنا لا أقصد هذا ولا ذاك . . . بَيْدَ اني أريد التحدث عن قصيدة « النجوم » التي كانت ولا تزال موضوع إعجاب وفتنة لدى ادباء العربية في كلّ مكان !

وقبل ان ابدأ بحديثي أحبُّ ان اطلع القارىء على إني أصرف اكثر أيامي ولياليّ بين الكتب . فلمطالعة الكتب عندي لذّة لا تعادلها لذّة في الحياة . . . ولذلك توفرت لديّ ثروة أحاديث ادبية طريفة ، ثروةٌ لا حدود لبحورها ولا تخوم . . . وعلى هذه القاعدة امسيتُ واقفاً على سير الادباء ، ليس عند العرب فحسب ، بل عند كثير من الامم الغربية التي تتذوّقُ الادب الرفيع ، وتقدّس الفنّ والجمال !!

ولطالما عثرتُ في مطالعاتي على مآخذ ادبيّة جمّة ، مآخذ شعرية ونثرية ، فكنت امضي في سبيلي وهو سبيل الاديب الذي لا يطلب من مطالعاته الاَّ اللذّة الشافية وإشباع ميوله وعواطفهِ بروحانيَّة علوية سامية . وظلَّ عهدي كذلك حتى وقع بين يديَّ ديوان — الياس فيّاض — وهو من أفضل الدواوين الشعرية التي اصدرتها المطابعُ العربية في مستهل هذا الجيل لكونهِ مطبوعاً بطابع يختلف عن غيره ويتهادى في موكب من الجدَّة والانسجام. وقد حُرمت من هاتين الميزتين أغلب دواوين الشعر في تلك الايام

قرأت الديوان فأسكرتني قصائده العذبة وعلى الاخص قصيدة — النجوم — تلك القصيدة الرائعة المؤثرة التي قلَّدها جمهور من كبار شعراء العربية في مصر ولبنان . وهؤلاء لم يقلدوها الاَّ لما تحمل في ابياتها من حرقة ، هي حرقة الشاعر الظامىء المتألم الذي يتعانق فجر الحياة ومساؤها في ظلال اجفانهِ ! !

وهذه هي القصيدة :

قُلتُ للنيّرات ذاتَ مساء ... أتُرى أنتِ مثلنا في شقاء
ساهراتُ الجفونِ — هل لفراقٍ ... خافقاتُ الضلوعِ — هل للقاء
هائماتٌ مع المجرَّة تجر ... ينَ الى غير غايةٍ او رجاء
مثلَ سربٍ من القطا ظامئاتٍ ... حول ماء يمنعنَ وردَ الماء
أو عذارى من حولِ نعش حيارى ... في صلاةٍ ما تنقضي ودُعاء
إنَّ في لحظكِ الشجيّ حنيناً ... نافذاً سهمهُ الى احشائي
وأرى نورك الضئيل كدمعٍ ... سائلٍ من محاجر بيضاء

***

أنورٌ كئيبةٌ ام جراحٌ ... أنتِ في اللانهاية السوداء
أنتِ يا جدَّة الخلائق ام الد ... هر يا ربة الهدى والضياء
أنتِ تبكين يا نجوم ؟ أجابتْ ... نحن في عزلةٍ بهذا الفضاء
بيننا البحر من قديم فلا يقربُ ... كلٌّ منا تقارب الاضواء
كلُّ نجم منا يعيش بعيداً ... عن أخيهِ في وحشةٍ وجفاء
محرقاً نفسهُ بغير انتفاعٍ ... ذاهباً نوره سدًى في السماء

***

قد فهمتُ الذي تقولين يا شهب ... فأنتنَّ انفس الشعراء
هكذا نورُها يضيع بأفقٍ ... نزلتْ منهُ منزلَ الغرباء

لا ترى الانفس القريبةُ منها ما بها من توقد وذكاء
فتنير الظلام حيناً وتمضي في ثياب الخلود نحو الفناء

***

ولكنني لم أكدْ استعيدها حتى علمتْ بأنها مأخوذة عن الشاعر الفرنسي المشهور — سولّي برودوم — وأحببتُ ان انبه المرحوم الياس فياض الى هذا المأخذ الصريح فكتبتُ اليه رسالة لطيفة طويتها على إعجابي بهِ وعلى تبيان الحقيقة . وعلى الرغم من تقادم العهد فأنا لا أزال اذكر من تلك الرسالة جملة مقتضبة فيها جمالٌ وإغراء وهي : —

اخي الحبيب الياس ،

أجتناةٌ ريشتُك الساحرة من رياض الجنّة ومعطّرةٌ بأنفاس الخلود . . . أم قنصتها من جبينِ الانبياء حتى جاءت تقطّر في جراحات القلوب ما تقطّرهُ ، وتسكب على الاجفان الذابلة ما تسكبهُ ؟ فللهِ دركَ من شاعرٍ حنون اذا ما اهاب بأوتار قيثاره مشت رعشةٌ برياض الشعر وبلابله . . . .

بعثت اليه بتلك الرسالة نازقاً في مراشفها عاطفةً من عواطفي المرتمشة كزنبقة النور عندما يلامسها نسيم الاودية وهي اول رسالة بعثتُ بها الى شاعرٍ يلمعُ اسمهُ في سماء الادب اذ كنتُ انقل خطواتي ايامئذٍ بحيرة واضطراب كاني الفرخُ يهمُّ للطيران من الخوصه واهياً ضعيفاً على اني ما انتظرت ان يجيبني مبيناً لي الحقيقة . ولكنهُ اجابني رحمهُ الله بكتابٍ ضافٍ ينمُّ على ادب سامٍ وروح معذبة ترهقها اشباح الشاعرية . وهذا الكتاب لا ازال احتفظ به كأثر غال له قيمته المقدسة

اليك بعضه :

أخي !

أي نغمٍ موجعٍ مؤثر هو هذا النغمُ الذي جئتَ تسمعني اياه ؟ لقد أيقظ في صدري حلماً هامداً كنت أحسبني رقدت معه يوم ودعت الشعر وقبعت صامتاً الى ان يسمح الله بمغيب شمس الحياة

تسألني يا اخي عن قصيدتي — النجوم — وتلح عليَّ بتبيان حقيقة أمرها . لقد قلت لي انها وقعت من نفسك في العربية موقعاً الطف منها وهي في الفرنسية . لماذا لم تكتف بهذه اللذة قانعاً بها وحدها ؟ أما وانت تريد ان تعرف اسرارها فما عليَّ اذاً الاَّ ان احدثك بإسهاب ، وهذا الحديث يرهقني كثيراً لكوني مريضاً اليوم بداء قديم سوف لا يبارحني إلاّ وحياتي في قبضته !

من عشرين عاماً تقريباً كنت أدرس الحقوق في باريس — باريس المدينة الشعرية الفاتنة — فعرفت فيها فتاةً جميلة شقراء على جانب كبير من الثقافة والتوسع في الفنون. وكثيراً ما أنشدتني الرائع من الشعر الفرنسي. ومن بين ما أنشدتني اياه، وكان لهُ تأثيراً عميق على عواطفي وافكاري، قصيدة — سوليّ برودوم — المسماة (المجرَّة) فقد رسخت هذه القصيدة في فكري رسوخاً امتزج بقلبي وروحي

وبعد مضي زمن طويل على هذا الحادث عدت الى الاسكندرية. وفي ذات ليلة اشتدَّت عليَّ آلامي النفسية فرحت أبحث عمَّا يعزّيني. ولما لم ألقَ في الاسكندرية من أبثّهُ مصابي بكيت متألماً !! ولم يكن امامي الأ النجوم اشكواليها كآبتي. فقابلت بين احتراقها في الظلام وبين احتراق نفسي الحزينة فجاشَ الشعر في قلبي . . . ولم يطلع الفجر حتى كنت أتمم آخر بيت من قصيدة النجوم

هكذا نظمت قصيدة (النجوم) وأنا أحسب أنها من توليدي. ويمكنك الاعتقاد يا يوسف انني لم أكن انتظر ان أجيء على أبيات بكاملها من قصيدة الشاعر الفرنسي المجدّد، وان نبرة تلك الفتاة الحسناء ما زالت تتردّد في مخيلتي ... ولذلك لم أقل في ديواني انها مأخوذة !

(أخوك الياس)

***

بعد شهر على تسلّمي هذه الرسالة قرأت في جريدة كانت تصدر في بيروت تهجماً على الياس فيّاض من قلم أحد أدعياء الادب والفن يعيب فيه قصيدة النجوم ويتهم الشاعر الحسّاس بالسرقة والتقليد. لقد أذهلني ذلك التهجّم وتلك الإغارة لكوني واثقاً بأن معارف الناقد المستتر وراء امضاء مستعار هي معارف لا تتعدّى البسيط من الادب والنقد والمضحك ان الناقد اخذ الخبر عن المرحوم الياس ذاته ثم رفع عقيرته بالسباب والشتائم، وهي غالباً ما تكون شيمة الاديب المقصر العاري من الفن والعبقرية

ولكن الامر الذي يدعو الى الدهشة والعجب هو ان اديبنا الكبير الاستاذ - امين الريحاني - ترجم قصيدة النجوم الى اللغة الانجليزية دون ان ينتبه الى شيء . . . وقد لاقت ترجمة صديقي فيلسوف الفريكة استحساناً عامًّا من ابناء هذه اللغة . وذلك لان الياس فياض سكب عليها شعوره فراحت تتراهى بين انامل المترجم العبقري في حلتين ساحرتين، حلة الشاعر اللبناني الرقيق، وحلة الاديب الفرنسي الظريف — سولي برودوم — الذي نفح الشعر العالمي بقصائد هي تماثيل خالبة في هياكل الارواح

صورة قلمية

اسعد باسيلي باشا

بقلم نقولا شكري

رجلٌ مثقف ، هادىء ، قوي الارادة ، واسع أفق التخيل شديد الملاحظة ، متسعر الذكاء ، أوتي من وثاقة العقل وقوة النفس ، وشدة الطبع ، وسعة الحيلة ، ما لم يرزق كثير

تقابله فتلقى رجلاً من الطراز الاول ، في العقد السابع من العمر ، نحيف الجسم ، معتدل القامة ، متواضع السمت ، تبدو عليهِ مخايل الثقة العظيمة بالنفس ، والرغبة العميقة في ان يعمل دون ان يتكلم ، على وجهه الباسم النبيل الهدوء العجيب ، والرقة والحزم معاً ، يحدثك في صوتٍ هادىء ، وبعبارات سهلة ، فيبهرك بوفرة معلوماته ، لانهُ دائم الاطلاع على الحركات الفكرية في العالم ، فلا تفوتهُ بادرة من حوادث العالم ، وقد درس فلاسفة عصره وكتابه العظام ، من أميل زولا الى تولستوي . ذلك هو مجموع الخطوط الرئيسية التي تتألف منها صورة صاحب السعادة اسعد باسيلي باشا

وشخصية اسعد باسيلي باشا الى هذا كله فيها سهولة وفيها تعقيد ، وفيها جوانب لا تدق على الباحث ، وفيها جوانب اخرى تدق على المستقصي ، ولكنها في الحالين شخصية الجيل التي قلما تتكرر . وهي شخصية فيها ما يجتذب الاديب ، وما يجتذب الفيلسوف ، وما يجتذب التاجر ، لانها جمعت اليها الواناً من الخصائص التي اتاحت لها ان تكون جذابة ، وان تكون مؤثرة في اولئك وهؤلاء

واني — مع عرفاني البالغ بهذه الشخصية الكبيرة — لن ازعم للقراء اني استوعبتها وتناولتها من وجوهها جميعاً ، لن ازعم ذلك فما هو بالهين ان يضم هذا الفصل اليسير خصائص ، وما هو بالامر الهين ان يكون البحث وراء هذه الشخصية وليد السرعة والايجاز ، ولكني مع ذلك سأتحدث عن اسعد باسيلي الاديب والباحث والتاجر . واني لأرجو ان اكون في

دراسته موفقاً بعض التوفيق ، وألاَّ يدخل في روع احد اني أقرضهُ الثناء ، فما لشيء من هذا كله أتحدث عن اسعد باسيلي ولكني أتحدث عنهُ لانهُ كما أسلفت شخصية قلما تتكرر في جيل واحد . . .

ويطيب لي ان اتناوله من مرحلة شبابه ، تلك المرحلة التي اكتملت فيها اسباب التكوين لهذه الشخصية الممتازة ، فأقول ان اسعد باسيلي لم يكن من اولئك الذين يعيشون في ظل محدود ، وفي موطن محدود ، وانما كانت له اطماع الرجل الذي انتبه الى خصائصه وفطن الى ما فيها من جلال ، وما لها من روعة ، فاتخذ منها مشعلاً لنفسه وكان هذا المشعل باهر الضوء ، رائع الشعاع . ثم كان من شأنه ان يمضي في كنف هذا الضوء وان تكون خطواته لا تعثر فيها ولا التواء

ولقد كانت مرحلة شبابه مقترنة بهذا البعث الهائل لتلك الرسالة الضخمة ، رسالة التجديد الشامل في بعض مراميه ، المتحفظ في كثير من اغراضه ، وقد تحمَّل نصيبه من ادائها أيام دراسته في مدينة طرابلس الشام حين كان يتولى الاشراف على التعليم في مدرسة « مار الياس » كعضو بارز في الجمعية الخيرية الارثوذكسية ويراسل امهات الصحف في بيروت والقاهرة

***

واكبر الظن عندي ان تأثير هذه المرحلة كان التأثير القوي الفعال ، فهذه شخصية أسعد باسيلي قد بدأت تغمر الفضاء الرحيب ، متجاوزة حدود مدينة طرابلس ومتجاوزة مع ذلك حدود الطلاب الذين يبهرهم هذا القائد الشاب

ونحن في هذه المرحلة حيال ناحيتين : تتمثل الناحية الاولى في جهاده كباحث واديب وقف حياته لهدم الركيك من القديم . ولبثّ الآراء والمبادىء الجديدة في مجلة « الجامعة » التي تولى اصدارها الكاتب الاجتماعي الكبير المرحوم فرح انطون ففي وسع الذين يميلون الى مراجعة الابحاث العلمية التي كانت تنشر في أثناء النهضة الاخيرة ان يطلعوا على نخبة من الموضوعات الفلسفية التي كان أسعد باسيلي الاديب يعلن فيها وتنتشر رأيه في « العلم والدين » وما الى ذلك من الآراء الجريئة التي كان يجاري فيها مذهب الفيلسوف « سبنسر » ومذاهب غيره من الفلاسفة ويبني على احكامهم

وتتمثل الناحية الثانية في الحقبة القصيرة التي قضاها في تجارة الاخشاب مع شقيقه المرحوم انطونيوس باسيلي في طرابلس الشام . وأنها لناحية جزيلة الاثر في حياته ، فقد استطاع بمواهبه ، وبأعماله الحافلة بمشاهد الصدق والاستقامة ان يوقظ في بني وطنه عاطفة التوقير لمقامه التجاري

هاتان الناحيتان — ومكانة أسعد باسيلي منهما هي مكانته — قد أيقظتا في شخصيته الجوانب التي أصارته فيما بعد رجلاً في الطبقة الاولى بين الرجال

واخذت شخصية أسعد باسيلي بعد ذلك تتجاوز البيئات الخاصة وتفرض نفسها على الحياة العامة من ذلك اليوم الذي أبحر فيه الى مصر مع مواطنه الاديب الكبير فرح انطون لاصدار جريدة يومية يبثان فيها آراءهما الجريئة ولكنهما لم يلبثا ان اختلفا على تفصيلات هذا المشروع فأفضى هذا الخلاف الى انصراف أسعد باشا عن الصحافة الى ميدان التجارة حيث برزت كفايته التجارية وأطلت على مصر من هامة الاوج . وآثر فرح انطون ان يظل في ميدان الكتابة والتأليف ويسير فيه الى آخر الشوط

ونعتقد انهُ لو تخيَّر اسعد باشا وقتئذٍ ان يكون ذلك الصحفي البحاثة المشتغل بالمباحث العالية لما كان أقل توفيقاً وربما كان نجاحه يعود على الجيل بنتائج شديدة النفع والاثر

***

اذن لم يسلك أسعد باسيلي سبيل العمل المادي إذ ذاك بعقلية محدودة كأكثر المشتغلين بالتجارة ، وتخليه عن سبيل العلم والادب انما يرجع الى مذهبه الوضعي وعقيدته التي لا تؤمن الاَّ بالحقائق الملموسة . على ان مذهبه الوضعي باعتباره من رجال الاعمال لم يحل دون تدينه وصدق ايمانه وهو ممن يرون « ان للدين اصولاً عميقة في الانسان لا سطحية كما يتوهم البعض وأن هناك حقيقة أساسية قام عليها بنيان الاديان »

اما فنه في الكتابة فمع انهُ كان محتفظاً فيه بشيء من الرشاقة الاَّ انهُ اصبح مسبوقاً بطائفة من الكتاب الحديثين الذين انجبهم تطور العصر . ولكن رسائله ستبقى على الزمن لانها من صميم المثل الاعلى . . . وقد كان كاتباً منوَّعاً كثير الابواب ، جم الاحاطة ، بالغ التفوق ، فقد كتب في أدق مسائل الاجتماع ، وأعمّ مسائل الحياة ، فلهُ رسائل قيمة في العلاقات الزوجية ، وبحوث أدبية شائقة . ولما تخلى نهائيًّا عن الاشتغال بالدراسات الادبية والعلمية الرفيعة ، وأقبل على تجارة الخشب ، أحرز في الزمن القصير مقاماً وثقة واتساعاً في الاعمال لا تتوافر لغيره في الزمن الطويل

***

أقبل أسعد باشا على تجارة الخشب في الاسكندرية والسوق التجارية ممتلئة بجبابرة التجار ودهاتهم . ولكنهُ لا ينقصهُ النشاط الذي يكافح بهِ ، وعرف كيف يقاوم العوامل العديدة التي تعمل على محاربة التاجر الناشىء وهزيمته ، فقد وقف وحده غير مبال بضروب النضال التي

حُشدت لمقاومته ، واستطاع ان يهزم خصومه بأسلحة أشد من أسلحتهم ، تساعده في ذلك ارادة صلبة وخبرة واسعة وذكاء متوقد

وقد ظلَّ يشق طريقه بين الصفوف حتى سيطر على سوق الخشب وربما قامت وارداته مقام الضعفين من واردات سائر التجار . وحسبنا ان نعترف بأننا لا نستطيع الاشارة اليهِ دون ان نلقبهُ بملك الخشب

وبعد ، فقد تمتد الطريق وتطول أمام الذين يبتغون الوصول الى الغاية . ولكن الذين لا يكلون ولا يقفون يخلفون من ورائهم خطًّا مستقيماً هو سبيل النجاح في الحياة ، هو الخط نفسه الذي يخلفهُ البطل بين الصفوف ، دليل جهاده المقرون بالفوز ، وهو الخط الذي يتركهُ في التربة محراث المزارع مبشراً بالانتاج

***

قلنا ان الطريق تمتد وتطول أمام الذين يبتغون الوصول الى الغاية . ونضيف الى ذلك ان الاقدام رأس النجاح ، وفي أمثال الاميركيين المعاصرين ان فرضاً على المرء ان يخاطر وان عاقبة هذه المخاطرة محمودة لانها تعلّم الجرأة ، والتاجر الجريء موفور النجاح لان لا جرأة بلا بصيرة

وما زال أسعد باشا رغم مشاغله التجارية الكبيرة يعطف على الفكر والادب . فمن عاداتهِ ان يأوي بعد الغداء الى مكتبتهِ الانيقة ليعيش فيها بين كتب الادب والاجتماع ، ثمرة أذهان جيل او يزيد مخطوطةً وتشارفةً . فلا يحرم من الجو الذي لا يموت فيهِ الذهن ، ولا تصدأ فيهِ القريحة ، وفي هذا ولا ريب عزاء الادباء بعد اعتزالهِ ايام

ومن الحق ان نقول ان العمل التجاري لم يمنع هذا الرجل المفكر من ان يطل على الناس الحين بعد الحين . ولم يحل بينهُ وبين عرض الصور التي تلوح في ذهنهِ على الجمهور ، واخراج ثمرات قريحته كلما رأى الفرصة سانحة والزمن مواتياً ، فقد قرأنا لهُ في العام الماضي بحوثاً طريفة في الازمة الاقتصادية بعث بها الى جريدة المقطم من اوربا وهكذا أقام الدليل على انهُ لم ينس الناس ولم ينصرف عن الجمهور شأن كثيرين من أهل الفكر بلغوا الذروة في التجارة ، او قعدوا مقاعد الحكومات ، وتولوا الوزارات والرئاسات ، فقد كان لورد بيكونسفيلد على رأس الوزارة الانجليزية فلم يمنعهُ منصبه على خطورته ان يضع ذهنه في كل مكتبة ، ويعيش في خزانة كل قارىء فبينا هو ينشىء المحالفات ، ويوقع المعاهدات ، ويرأس الوزارات ، اذ هو طارح عنهُ كل ذلك عائد الى حجرته ، ليغيب في تفكيره ، ويأخذ في وضع رواياته ، ثم نحن لا ننسى ايضاً

ان جوته كان وزيراً ورئيس بلاط دوق فيمار فما كان ذلك ليقتل فيه الروح المضطرمة في جانحته ، والنزعة الفكرية التي تتقد في فؤاده . ثم لا ننسى كذلك ادباء العرب الذين عاشوا في قصور الخلفاء ، وولوا الولايات ، فأبوا الا ان يظلوا مع ذلك ادباء وكتاباً اكثر منهم ولاة وحكوميين ...

وأسعد باسيلي باشا قد شق طريقه الى المجد باقدامه وشجاعته ، وهو قدوة صالحة لمن يبغي ان يسلك سبيل التجارة او الاقتصاد ، وهو يجمع الى مواهبه وصفاته الممتازة حبًّا للخير وللانسانية ويرى في الاحسان وسيلة تقوى بها ارادته في العمل ، وحياة الضمير في دائرة العمل المادي أقوى منها في سائر الاعمال الاخرى ، فهو أريحي كريم ، والتاجر الكريم عنصر غريب في أهل صناعته ، لان اكثر التجار يستمسكون بالاخلاق التجارية في الحياة العامة لانهم يدخلون أموالهم في الدفاتر والسجلات ولعلهم يرون خروج شيء منها ضرباً من التكلف والمشقة وفساد النظام . ولكن المبرات التي يخرجها التاجر من فضل أرباحه هي وسيلة جميلة من وسائل الزيادة فيها ومباركتها ، وانت ترى روكفلر الاميركي ملك المال ، قد كان له من ملايينه العديدة غنى عن التماس حب المساكين ، واكتساب قلوب المنكوبين في الحياة ، لان له متاجر ضخمة لا تعد وأموالاً مركومة لا تنفد

ولكن الحياة لاقيمة لها اذا خرج الانسان منها ولم يستطع ان يكتسب قلباً واحداً من قلوب هذه الارض، ولو كان روكفلر هذا قصر عنايته على ماله وثرائه ، فلم ينشىء الملاجىء والمعاهد والمستوصفات والجامعات ، ولم يخرج من دفاتره جزءاً كبيراً مما دخلها ، لخرج هو الآخر روكفلر فقط ، ولكن روكفلر عرف معنى الحياة وأدرك قيمة المال في نفسه ، فاشترى بكل ثروته كلمة واحدة اراد ان يذهب بها الى الابد وهي كلمة « روكفلر محسن »

***

وعلى هذا المبدأ سار اسعد باسيلي فهو ينفق جزءاً كبيراً من ارباحه على الفقراء والمحتاجين واعانة الاسرات التي أدركها البؤس ، فلم يلبث ان اصبح محبوباً من الناس ، جميل الذكر بين الطبقات ، وكان من ذلك ان انتخب رئيساً للمجلس الطائفي للروم الارثوذكس المصريين ، ورئيساً للجمعية الخيرية السورية الارثوذكسية ، ووكيلاً للغرفة التجارية المصرية ، وقاضياً محلفاً بمحكمة الاسكندرية المختلطة ، ثم عرفت الحكومة المصرية مكانته السامية ، فطلبت الى مجلس الوصاية الموقر الانعام عليه برتبة الباشوية الرفيعة ، فأصدر المجلس امره بهذا الانعام السامي

وسيبقى آخر الامر ، ان أعترف اليك ايها القارىء بانني لا أعرف رجلاً أعذب حديثاً ، ولا أبعد شرّاً ، ولا أقرب خيراً ، ولا أحلى خلقاً وروحاً ، من أسعد باسيلي باشا

تقدم الري بمصر

في العصر الحديث

لمعالي حسين سرى باشا

اقتطف «المقطم» ما يلي من المختصر النفيس الذي وضعهُ معالي حسين سري باشا وزير الاشغال:

تمَّ بانشاء القناطر الخيرية وضع الحجر الاساسي في بناء الري المستديم في الوجه البحري وأمكن بواسطتها امدادُ هذه الاراضي بما يلزمها من الماء مدة الصيف مما ساعد على تحويل المساحات الحوضية لتروى بطريقة الري المستديم وكانت مساحة الاراضي التي تزرع فيها بعض المحاصيل الصيفية لا تتعدى مليوني فدان وقت البدء في بناء القناطر فزادت بعد ذلك الى ما يربي على ثلاثة ملايين تتمتع بنظام الري المستديم ولا يخفى ما كان لهذا التوسع من اثر في زيادة مقدار المحاصيل وما ترتب عليه من ازدياد موارد البلد وازدياد ثروتها بارتفاع ثمن اراضيها وبذلك تكون الجهود المتواصلة التي بذلها المغفور له محمد علي باشا قد اثمرت وتحقق الامل الذي تطلع اليه. كذلك كان انشاء ترعة الابراهيمية الخطوة الاولى في ادخال نظام الري المستديم في مصر الوسطى. اذ لما لمس سكان هذه المناطق أثر محصول القطن في الثروة الزراعية عملوا على زراعته في بعض مساحاتهم الحوضية وكانوا يحيطون هذه المساحات بجسور تقيها طغيان الماء عليها مدة الفيضان ويرفعون ما يلزمها من الماء بالآلات اما من النيل وإما من الآبار الارتوازية. ومن ثمَّ امتد العمل جديًّا الى تحويل جانب من اراضي مصر الوسطى الى الري الصيفي فجاءت بأطيب الثمرات. ولعلنا نجد بين سطور الجدول الآتي ما يكفي للتدليل على مقدار ما جنتهُ البلاد من الربح منذ أن أدخل المغفور له محمد علي باشا زراعة القطن في مصر بازدياد مقدار هذا المحصول سنة بعد اخرى

السنة	قنطار	بالة
١٨٢٠	٩٤٤	٢٣٤
١٨٣٠	١٦٨٦٧٥	٤٦٦٦٩
١٨٤٠	١٩٣٣٠٧	٤٨٣٧٧
١٨٥٠	٣٨٤٤٣٩	٩٦١٠٠
١٨٦٠	٥٩٦٢٠٠	١٤٩٠٥٠
١٨٧٠	١٩٦٦٠٠٠	٤٩١٥٠٠
١٨٨٠	٢٧٩٢٠٠٠	٦٩٨٠٠٠
١٨٩٠	٤١٦٠٠٠٠	١٠٤٠٠٠٠
١٩٠٠	٦٤٤٠٠٠٠	١٦١٠٠٠٠
١٩١٠	٧٥٠٠٠٠٠	١٨٧٦٠٠٠
١٩٢٠	٦٠٣٦٠٠٠	١٥٠٩٠٠٠
١٩٣٠	٨٢٧٦٠٠٠	٢٠٦٩٠٠٠

وقد بلغ محصول القطن في عام ١٩٣٦ ما يزيد على تسعة ملايين من القناطير وهي اكبر مقدار أنتجتهُ الاراضي المصرية منذ عهد ادخال زراعته الى الآن . على ان زراعة الاراضي مدة الصيف تتطلب ريها في هذا الوقت الذي تقل فيه تصرفات النيل ويعجز ايراده عن ان يمدها بحاجاتها من الماء لذلك كان على القائمين بامر التوسع في كل مرحلة ان يفكروا في توفير الماء اللازم للمساحات الصيفية ومن هنا عادت فتجددت فكرة التخزين وحجز مقادير من ماء الفيضان الزائد على الحاجة والاستفادة به مدة الصيف وسبق ان قلنا ان أول من فكر في تخزين الماء هم ملوك الاسرة الثانية عشرة وبدت هذه الفكرة من بعدهم لمحمد علي باشا فأمر مهندسه لينان باشا بدراسة هذا المشروع

وفكر هذا في منخفض بحيرة موريس القديم غير انهُ عدل عن هذه الفكرة لما رآهُ من التكاليف الباهظة التي تلزم لتنفيذها . ثم رأى اقامة قناطر عند جبل السلسلة لتخزين الماء أمامها الاَّ ان ضعف القناطر الخيرية بعد بنائها لم يشجعهُ على المضي في تنفيذ هذه الفكرة ولقد تجددت فكرة تخزين الماء عند جبل السلسلة مرَّة أخرى ثم عاد الرأي فانحرف عن هذا الاتجاه الى منخفض وادي الريان وهكذا الى ان استقرَّ على استخدام مجرى النهر نفسه للتخزين وأخذت الحكومة في بحث هذا الاقتراح وعهدت الى لجنة من المهندسين الاخصائيين باختيار الموقع الموافق لهذا الخزان فقررت اللجنة بعد دراسة مجرى النيل بين حلفا والقاهرة — ان أنسب موقع يبنى عنده هو شلال اسوان بحري جزيرة أنس الوجود وكان تصميم السد في بادىء الامر يسمح بالحجز عليه الى منسوب ١١٦ متراً وتبلغ سعة الخزان عند هذا المنسوب نحو ثلاثة آلاف مليون من الامتار المكعبة الاَّ ان الرغبة في المحافظة على معبد أنس الوجود الذي يقع في حوض الخزان حالت دون ذلك واقتصر في بناء السد الذي تمَّ في سنة ١٩٠٢ على جعل منسوب التخزين ١٠٦ امتار وبذلك لم ينشأ الخزان الاَّ ليسع ملياراً واحداً فقط

وللانتفاع بماء التخزين رأى رجال الري في ذلك الوقت ان يعملوا على رفع منسوب ماء النيل عند فم ترعة الابراهيمية ليتمكنوا من اعطاء مصر الوسطى نصيبها من هذا الماء مدة الصيف . وكانت هذه الترعة تتغذى من النيل بدون قنطرة تساعد على رفع الماء أمامها للدرجة التي تكفي لامداد الزمام المترتب ريه عليها بالماء اللازم لهُ ولمعالجة هذه الحال استقرَّ الرأي على اقامة قناطر على النيل عند اسيوط وتمَّ بناء هذه القناطر سنة ١٩٠٢ وكذلك أمكن لترعة الابراهيمية ان تأخذ نصيبها من الماء مدة الفيضان والصيف دون ان يكون لمناسيب النيل تأثير كبير فيها

وفي سنة ١٩٠٣ تمت اقامة قناطر زفتى على فرع دمياط لتغذية أراضي شمال مديرية الدقهلية والجزء الشرقي من الغربية في الفترة الحرجة وقت طغي الشراقي واشتداد الطلب على الماء

وامتدت الجهود بعد هذه المرحلة الى العناية بتحسين وسائل الري في أراضي مصر العليا التي تروى بطريقة الري الحوضية ولما رؤي ان أراضي مديرية قنا تحتاج الى تحسين حالة ريها فكّر في اقامة قناطر اسنا على النيل لترفع أمامها ماء الفيضان بحيث تكفي لغمر هذه الحياض وبدىء في اقامة هذه القناطر سنة ١٩٠٦ وتمّ بناؤها سنة ١٩٠٨

ولقد جرت العادة في الماضي ان يقام سنويًّا سدان من التراب في كل من فرعي النيل أحدهما بالقرب من ادفينا والآخر عند فارسكور ثم أبطلت اقامتهما في السنوات الاخيرة من القرن التاسع عشر حتى كانت سنة ١٩٠٠ حيث أعيد انشاء السدين ومنذ هذا التاريخ درجت مصلحة الري على ان تقيمها سنويًّا لمنع دخول ماء البحر المالح الى المجرى وتلوث مائه بها وللتمكن من ان تحجز أمامها ماء الرياح الذي يتسرَّب من الاراضي الزراعية للانتفاع بهِ في الري عند اشتداد الطلب . ويبدأ العمل عادة في انشاء السدين في ديسمبر ويتم قفلهما في أواخر فبراير او أوائل مارس وتختلف هذه التواريخ باختلاف تصرف النهر الطبيعي ويبنى حسابها على قاعدة قفل السدود قبل التاريخ الذي يجب ألاّ تمر بعده قطرة من ماء النهر الى البحر او بمعنى آخر التاريخ الذي يقابل البدء في تفريغ خزان اسوان ويستمر كل منهما قائماً حتى يقطعا عند حلول ماء الفيضان في يوليو او أغسطس

ولقد دعت قلة الايراد الذي أتت بهِ السنون الشحيحة في اوائل القرن الحالي الى إعادة التفكير في تخزين مقادير أخرى من الماء واتجهت الانظار الى خزان اسوان للعمل على رفع منسوب التخزين بهِ لعله بذلك يسد النقص في الايراد الطبيعي للنهر عن احتياجات الاراضي الزراعية . وانتهى هذا التفكير الى البدء في تعلية خزان اسوان الاولى التي تمت سنة ١٩١٢ وأصبحت سعة الخزان بعدها حوالي ٢٥٠٠ مليون متر مكعب وقد استخدمت كمية الماء الاضافية في تحسين حالة الري وفي التوسع في جانب من الاراضي البور في الوجه البحري ولما تم الانتفاع بهذه الزيادة كانت مساحة الاراضي المنزرعة بالدلتا ٣،٣٠٥٠،٠٠٠ فدان ومساحة الاراضي التي تروى ريًّا مستديماً في مصر الوسطى ١،٠٥٠،٠٠٠ فدان وبذلك يكون قد أمكن الانتفاع بماء التخزين كله عند اسوان في استصلاح نحو ٣٠٠،٠٠٠ فدان من اراضي الدلتا وفي تحويل حوالي ٤٥٠،٠٠٠ فدان من حياض مصر الوسطى الى الري الصيفي . وفي سنة ١٩٣٠ تمّ بناء قناطر نجع حمادي على النيل في وسط المسافة تقريباً من قناطر اسنا الى قناطر أسيوط وذلك لضمان الري الحوضي في مديرية جرجا ولامكان تحويل الاراضي الحوضية بمديريتي اسيوط وجرجا الى الري المستديم بعد اتمام اعمال التخزين . وتمّ حفر ترعتين تأخذان من امام هذه القناطر أحدهما بالبر الايسر للنيل وهي ترعة الفؤادية والاخرى بالبر الايمن وتسمى ترعة الفاروقية

رولا

من أروع قصائد الفريد دي موسيه

ترجمة فليكس فارس

تمهيد

إنَّ الفكرة والبيان لعزيزان على كل كاتب ، وقد تكون غيرته على بيانه أشدَّ من غيرته على تفكيره ، والكاتب يبدي آراءه وأحكامه أقوالاً في كل مجال فلا يلوي عليها في حين ان صفحةً تدبجها براعته تسقط عن شخصيته سقوط الجنين عن أحشاء أمه ، فكل ذي بيان حريص على بيانه حرص الحياة على مظهرها ، وما تدرك الحياة نفسها الاَّ على معاكس شخصيتها

إنَّ في بذل البيان لتفكير الغير كثيراً من التضحية لكاتب اندغم تفكيره في بيانه ، لأن هذا البذل يستلزم إقامة حاجز بين القوة المبدعة مما كمن فيها تذكاراً وتنسيقاً ، علماً بالاستقراء وعلماً بالحس الباطن ، وبين قوَّة التعبير تصويراً وتلويناً وتنغيماً . وفي هذا الفصل من الجهد ما لا يدركهُ الاَّ من يعانيه . ولا يعاني هذه المشقة كل من يقتحم الترجمة اطلاقاً ، فان من الترجمة ما لا تتعدى الاقتدار على النسخ وليس هذا النوع ما نعني ، فالمترجم الذي ينقل عن لغات الغرب كتاباً يبحث صناعة او مسألة اقتصادية لا يكون عملهُ اذا هو امتلك ناصية اللغتين الاَّ عبارة عن كتابة ما سطَّرتهُ الريشة من الشمال الى اليمين بكلمات يخطها القلم من اليمين الى الشمال ولمثل هذا العمل قيمته ولا نكر غير انهُ جدّ بعيد عن مجال البيان الأدبي ، وليس فيه غير أثر الجهد والاطلاع والدقة اذ لا يمكنهُ ان يتضمن أشياء من شخصية المترجم الادبية

شتان اذاً بين من يترجم ومن يسلخ انشاءه عن تفكيره ليكوّن هيكلاً سويّاً من البيان تحتله روح مؤلف مبدع فنان

لك ان تعهد الى اي مهندس شئت بان ينقل لك خارطة مهما تعددت خطوطها

وتشعبت تعاريجها ، فانهُ ليستعين بالمسطرة والبركار فيأتيك بنسخة عنها لا تفرق عن الاصل بشيءٍ ، ولو عهدت الى عشرة مهندسين بهذا العمل لأتاك كل واحد منهم بنسخة لاتفرق عن نسخ الآخرين . ولكنك لن تصل الى النتيجة نفسها اذا أنت عهدت الى رسامين اثنين برسم صورة انسان او حيوان او زهرة او منظر من مناظر الطبيعة . ذلك لان رسم الجماد يستلزم العمل بصناعة ثابتة الاصول ورسم ما تتجلى فيهِ الحياة يستلزم العمل بالفن ، وما الفن الا قوة متغلغلة كالحياة نفسها في أعماقٍ يجهل الفنان نفسه أغوارها

ناقل المعلومات الوضعية والقصص والاحاديث العادية من لسان الى لسان مترجم كلمات بكلمات أما ناقل البيان الفني والشعري ففنان وشاعر يعبر بيانه بلغته ويتنازل عنهُ لتفكير عبقري يستحق أن يُسكت الناقلُ تفكيرَهُ أمامه وبطوي لديهِ شراع خيالهِ والهامه

وبعد ، فهذا تعبير بالعربية عن قصيدة من أروع قصائد الفريد دي موسه ان لم تكن اروعها جميعاً ، تصبّتنا بالهامها وفنها فاقتحمنا ايرادها بالعربية ناثرين نظيمها معرضين عن قوافيها ، اذ لو اردنا تقييدها بالنظم العربي لأضفنا الى غموض الاصل غموضاً آخر يُبعد الشقة بين إلهام موسه وبيانه ، ونحن باعتمادنا النثر كنا اقرب من الشاعر نفسه الى إلهامهِ وشاعريتهِ

لاح لبعض كبار كتّابنا ان لا فائدة من ترجمة الشعر لانهُ قائم على عناصر لا يمكنها اجتياز حدود لغتها للدخول في حدود لغة اخرى ، ونحن مع اعترافنا بما للنظم من ميزة لا نعتقد ان الوزن والقافية هما اهم عناصر القصيدة بل قد تتضاءل قيمتهما حتى ليصبحا في حكم المعدوم في القصائد التي يسودها الشعر العالي وروعة الموسيقى الفنية في إحكام ألفاظها . فانك لو قرأت لموسه صفحة من انشائهِ المرسل لتحس بالهزّة نفسها التي تستولي على مشاعرك حين تقرأ أجمل قصائده

وهنالك ظاهرةٌ أخرى تدلك على ان ما يشجيك من سماع القصيد ليس موسيقى الساكن والمتحرك في التفاعيل او (التكّ والتمّ) بتعبيرٍ آخر بل هو انتظام الالفاظ في سلك البيان وتلاؤم النبرات ، وهذه الظاهرة تتجلى لك في طريقة إنشاد

الفنانين للشعر فهم لا يقرأونهُ سواءٌ أعربيًّا كان ام أفرنجيًّا على الطريقة القديمة التي تدخل التفاعيل الى الاذن كأنها نقرات الدفوف بل يلقونهُ بالمد والقصر تبعاً لموسيقى النثر الكامنة في النظم متجاوزين حدود القوافي ليشعروك بروح القصيد دون تقاطيعه

ولو انك سمعت ملقياً من كبار فناني الفرنجة ينشدك قصيدة فانك لا تميّز لاول وهلة هل ما يلقيهِ من المنظوم او من المنثور

لذلك لا نرى ما يراه البعض من الاستغناء عن ترجمة القصائد الخالدة من اللغات الاجنبية الى العربية بحجة انها تفقد ميزاتها وروعتها ، فاننا نرى بالعكس ان المترجم اذا ملك ناصية البيانين يمكنهُ ان يزيد في جلاء القصيدة وجمالها بتوجيه موسيقاها ومراميها توجيهاً اقرب الى الفن المطلق من توجيه المؤلف نفسه . لان المؤلف الناظم قد اكرهتهُ الاوزان والقوافي على مجاراة قيودها

ان الفريد دي موسه لأقدر من تسلط على الالفاظ فانقادت له بأوزانها وقوافيها ، ومع ذلك فقد رأيناه في قصيدته (رولاً) يضطر احياناً الى الانقياد لاوزانه وقوافيه فتتحكم بإلهامه وتجره الى ترسّمها بخطوات تخرجه عن سبيله ، وكنا نحن غير مقيدين الا بفكرته وعواطفه وأسلوبه ، فأمكننا ان نرجع خطواته التائهة الى مواقعها وما نحتاج الى مثل هذا الجهد عندما نترجم من نثره ونثر غيره من أرباب الفن الخالدين

ويلوح لنا ان اللغة العربية بما فيها من مرونة والفاظ موسيقية أليق من اية لغة باستيعاب فنون الامم جميعاً ، ذلك لاننا نقرأ ما يترجمهُ الفرنجة عن لغاتهم وعن لغتنا ونشعر بتمرّد الاصل يغالبهُ المترجم فلا يتوصل الى دمغهِ بطابع لهُ . وما نشعر بمثل هذا القصور عندما نطالع ترجمة كبار كتابنا

لقد حاولنا ان ننقل قصيدة رولاً فأعرناها بياننا واذا كان توفيقنا لم يتعد حدود اقتدارنا ، فحسبنا اننا اقتحمنا مسلكاً غير معبَّد ان يصعب على عباقرتنا تذليل صعابه

الاسكندرية ابريل ١٩٣٨ فليكس فارس

رولا

مهداة الى محمود تيمور

— ١ —

أيشجيك الزمان الذي كانت الارض فيه مسرحاً للسماء فتغص بطغمات الآلهة : آلهة الاساطير ، حين نفرت الزهرة من احشاء القمر وهي تنفض بلل دموعه وتثب راقصة ضفائر شعرها لتُمرع الدنيا بلواقحها . . .

أيشجيك الزمان الذي كانت فيه الحور الهائمات تداعبنَ شعاع الشمس طافرات بين ازاهر الغدران متحرّشات بأرباب الحقول المتراخين تحت ظلال الغاب ، حين كانت الينابيع ترتعش لقبلات الاله الذي انقلب على ضفافها نرجساً نديًّا ، بينا كان هرقل الجبّار المدثر بعباءته الدموية يمد على الارض وارف عدله ، وبينا كان آلهة الغابات يطلّون من بين أغصان السنديان الخضراء المتأودة ويرددون أغنية السابلة بأصداء الصفير .

ذلك زمن كانت الأُلوهية فيه تتغلغل في كل شيء حتى في صميم آلام الناس ، فكانوا يعبدون ما ينحرون في هذا الزمان .

ذلك زمن كان له اربعة آلاف إله ولم يكن فيه جاحد واحد : زمن تمتع فيه الكل بالسعادة فما حرم منها الاّ (بروموته) شقيق ابليس الهابط بهبوطه .

لقد مضى ذلك العهد فتبدلت السماء كما تبدلت الارض والانسان ، فاذا مهد العالم يستحيل له لحداً ، وقد هبت أعاصير الشمال على انقاض روما فكفّنتها بأوشحتها السوداء .

***

أيشجيك الزمان الذي توارى فيه عصر البرر مخلّفاً عصراً ذهبيًّا شهد العالم القديم يصدع لحده ليهبّ حين هبّ العازار من قبره مطلاً على الدنيا وقد التمع جبينه بأنوار الشباب

ايشجيك الزمان الذي كانت اغانينا القديمة فيه تنشر اجنحتها الذهبية لتجول في آفاقها الساحرات ، حين كان كل ما لنا من صروح ومعتقدات يتشح بياض البكارة والطهر حين كان كل شيء يُبعث من لحده بعد ان بسط عيسى عليه راحتيه ، حين كان بيت الكاهن وقصر الامير يرفعان كلٌ على جبهته صليباً يمد بذراعيه الى الآفاق ؟

أيشجيك زمن كانت فيه بيعة السيدة في كولونيا وبيعة الحواري بطرس في ستراسبورغ تنصتتان كأنهما اكوام صخور جاثمة في خشوعها الى اناشيد الشعوب تسبح الله مستقبلة طلائع العصر الجديد ؟ ذلك زمان كان للحياة فتوتها فيه وكان الموت فيه راسياً على الرجاء .

***

أي ، عيسى ، ما انا ممن تحملهم خطواتهم المرتعشة الى معابدك لتأدية فروض الصلاة . لست ممن يتسلقون مرتقى الجلجلة لينطرحوا امام صليبك مقبلين اقدامك الدامية ، انا ممن يلبثون وقوفاً امام ابواب هياكلك المقدسة ، بينما تهب المدائح على جماعات المؤمنين فتلويهم كما تلوي الرياح متأودات الغاب ، فيترامون على الركب متمتمين كلمات التسليم لمشيئة الله

أنا لا أؤمن بكلمتك ، أيها المسيح ، وما أنا الا قادم متأخر يقتحم عالماً تجاوز حد الهرم ، وهل يلد جيلٌ لا امل له الا جيلاً وقحاً لا خشية في قلبه ؟ لقد أقفرت سماء هذا الزمان فأفلت كواكبها ونجومها وما يسود الا الصدف العمياء على من انتفضوا من اوهامهم وهم يندفعون شتيتاً مروّعاً على مراكض الاشباح

إن الروح القديمة تهب على ردوم العالم مشوّهة ما في السماء من أجناد قاذفة بهم الى أعمق الاغوار

لقد تخلخلت مسامير صليبك تحت مستندك عليه ، وزلزلت الارض تحت جدران مدفنك ، فأين مجدك ايها المسيح . ان مجسمك قد استحال رماداً على صلبانا السوداء . .

***

أستميحك ايها السيد أن أضع قبلة على هذا الرماد ، انا ابن هذا العصر الجاحد ، دعني أسح دموعي على هذه الارض الباردة التي وهبتها الحياة بموتك وها هي ذي صائرة بعدك الى الموت

من سيعيد اليها حياتها ، وقد كنت احييتها بدمك الطاهر . من سيأتي الى العالم مرة اخرى بما اتيت به ، من سيعيد الينا الشباب نحن ابناء الامس المثقلين بأوصاب الشيخوخة والهرم . وحال العالم اليوم كحاله يوم ولدت وهذا الجيل يتوقع ما توقعهُ ابناء عهدك ، على ان ما فقدناه نحن قد تجاوز ما فقده الاولون

إن العازار هذه الازمان مسجّى في قبره الفسيح ، فأين المخلّص يدحرج الحجر عنهُ ؟ اين الحواري بولس الشيخ يقف كما كان يقف بين ابناء روما حين كانت عيون الشعب معلقة بأطماره ؟

اين نحن من علية العشاء السري ومن سراديب أوائل المؤمنين ؟

من منا يحمل هالة النور على جبينه . وعلى اقدام من ستنكسب عطور المجدلية ؟

في أي جوٍّ سيصدو الصوت الخفت لأصوات البشر ، من منا سيرقى مرتبة الالوهية ؟

لقد عادت الارض الى هرمها وقديم انحطاطها فهي ترتعش اليوم كما ارتعشت حين ظهر يوحنا في الصحراء وهتف هتفتهُ التدسية ، غير ان الارض المحتضرة احست في ذلك العهد بالمخاض لندائهِ وتحرك في احشائها عالم جديد

أفليس عهدنا كعهد كلوديوس وطباريوس ، وقد أخلق الدهر كل شيء وارتوى كيوان من دماء أبنائه . لقد تعبت الانسانية من توليد الآمال ، وهذا ضرعها يتدلى خاوياً لكثرة ما أرضعت فهي الآن ساجية تطلب الراحة في عقمها

— ٢ —

وكان جاك رولاً أضلَّ فاسق في باريس : في المدينة المجلّية بين مدن العالم باندفاق رذائلها وابتذال فحشائها. وما لاح بين اعمدة مواخيرها ولا أنارت مصابيحها الخاسئة ولداً عربيداً كرولاً على موائد ميسرها وولائمها

وما كان لرولاً من قائد غير شهواتهِ وقد أسلم لها زمام حياته وهي تنساب أمامه طليقة كقطيع تام عنهُ راعيه ، فأصبح يتطلع الى ايامه كوسنان ينظر الى ذاهبات الماء في الغدير

وانحصرت حياة رولاً في شهواتهِ فاستقرت في جسده كنزلاء فندق سادهم السكر يتلهون تارةً بتخديش الجدران وتحطيم الأسرة متناوشين في الظلام متهازئين

كالجاذر والمصارعين ويتجمعون تارةً متعاطين الكؤوس متاشدين كسرب اطيار دفعتهم الرياح الى شجيرة مزهرة في أرض قاحلة

وكان والد رولاً وهو من صعاليك البلهاء ربي ولده تربية من سيرث ميراثاً ضخماً وقد تناسى انهُ بدَّد هو نفسه اكثر من نصف ثروته

ووجد رولاً نفسهُ في ليلة من ليالي الخريف سيداً يتولى زمام نفسه وهو لا يحسن صنعة ولا يعرف فنًّا ولو انهُ أحسن اي عمل لما أطاق القيام بهِ، وهل يحمل نفسهُ مشقة من يرى السعي للرزق جديراً بالخدام، ومن لا يقابل الناس إلاَّ بابتسامة لا يعرف احد الاَّ معناها ؟

وذهب رولاً يتمتع بالزهيد الباقي له إرثاً عن أبيه محتفظاً بغرور السيد لاعتقاده بأن الله قد ابدعهُ سيداً

***

قيل ان هرقل جلس يوماً وقد تعب من جهوده في عمله الابدي على مفرق طريقين تناديه الفضيلة من أحدهما وتراوده ملذات الفسق من الآخر فاتبع الفضيلة إذ لاحت له أبهى وأجمل من الملذات

ذلك زمان كان فيهِ قبحٌ وجمال أما الآن فلا جمال لا في الخير ولا في الشر، وليس لهذا الجيل ان يقف مشككاً حائراً بعد ان سبقتهُ أجيالٌ اختطت لها جادتها الكبرى بين طريقين اندثرت معالمهما حول المسلك الجديد . . .

وما كان رولاً وهو يتبع هذا المسلك في العشرين من عمره الاَّ مقتفياً خطوات من تقدموا عليهِ من آبائهِ

***

ما يستقبل انظار الداخل الى المدن الاَّ مجازرها وأسوارها ومدافنها، وهكذا من يتجه الى المجتمع لا تلوح له عند اقترابه منهُ الاَّ نفاياه، فالطهر والعفاف محجبان في حين ان الرذيلة والابتذال يتعانقان أمام عين الشمس . وما يرحب الناس بابن جلدتهم اذا هو تقدم نحوهم شاهراً النصل القاطع الذي وهبتهُ إياه السماء ليدافع بهِ عن نفسهِ فهم لا يفسحون له مجالاً إلاَّ اذا غمس هذا النصل أولاً في نهر الضلالة والاقذار . . .

وكان جاك صريحاً جسوراً رائع الجمال يأنف من الانطباع على الحياة ولا يعرف له آلهاً غير الشمم ، عاش ثلاث سنوات مخصصاً لكل سنة كيساً من الذهب، فلم ترَ الارض من مشارقها الى مغاربها آدميًّا مثلهُ ينثر احتقاره على الشعوب وأسيادها

مشى رولا بنفس طارية في مساخر هذه الحياة معربداً صاخباً يجرّ اذيال غروره فما جهل احد انهُ بدَّد جميع ما يملك في سنواته الثلاث ، وكان الناس ينظرون اليهِ مبتسمين فيعلن لهم انهُ أعدَّ قذيفة يلهب بها دماغه حين ينتهي بهِ شوطه الى الاملاق

وكان هذا الفتى الجموح ابيّ النفس ساذجاً كالاطفال عطوفاً كالاشفاق عظيماً كالامل لا يبالي بالدهر ولا يحسب لهُ حساباً وهو يعتقد انهُ مدّرع للحادثات زرداً لا يفنيهِ الزمان

***

عندما يشرد فرس القفر الجموح في الصحراء وتمر الايام تبتليه بالسعار القاتل يتطلع عبثاً الى السماء متوقعاً منها رذاذاً يبلل النخيل المقنّع بالغبار وقد تدلت اغصانه من وهج السماء المشتعلة كانها غدائر التوادب ، فيذهب مفتشاً على الآبار وقد نزحتها ألسنة النار ، وتلوح له الآساد منطرحة على الصخور تمج بالأنين وقد هدّ قواها الظمأ ، عندئذٍ ، يفرس الفرس منخريه الداميين في الرمال ، والرمال المحرقة تمتص دماءهُ فينطرح على الغبراء وينطفىء النور في عينيه فتدور بهِ ذرات الرمال الصفراء لتلفعه بأكفانها الصامتة ابداً في طيها ونشرها

***

لو علم هذا الفرس ، عند ما مرت بهِ القافلة قرب الساج ، انهُ باستسلامه لحداة العيس واقتفائه آثارهم ينجو بحياته لكان ادلى بعنقه وكبت جموحه فوجد في بغداد معالف القضب الندي المزهر وآباراً لا يدرك الطرف غورها

***

اذا كان الله قد جبلنا من طينة واحدة ، فلا ريب انهُ انشأ من صلصال غريب من يشبهون العقبان بتمردهم ولعله التي يجزفهم ليجف تحت اشعة شمس لاذعة ، فجابهوا الحياة بأجنحة لا تلوى ورؤوس لا تخفض ، فعاشوا في الدنيا وما امتلكوا منها الأكلة الحرية

— ٣ —

أعلى ثلج أم على دمية من رخام يتلاعب اشعاع المصباح الذهبي على الستائر الزرقاء المتهدلة فوق السرير ؟ لا . . ليس للثلج ولا للرخام مثل بياض هذه الطفلة النائمة تتردد انفاسها كالنسيم المهوّم على اعشاب البحار

هي طفلة ما مرّ بها الاّ خمسة عشر ربيعاً ولما تتضح انوثتها بعد . والملاك المنعطف عليها يرتاب فيها فلا يدري اهو اخوها أم هو عاشق لها

لقد انفرط شعرها على جسمها فكان له دثاراً وهي قابضة على صليب عقدها كأنها تُشهد الليل على انها رفعت الى الله صلواتها قبل استسلامها للكرى وانها ستكرر هذه الصلاة عند ما تفيق مع الضحى .

***

لقد استغرقت في نومها وتألق جبينها بهالة النبل والطهر فكأن السماء قد أغدقت ا رذاذاً من العفاف الأعلى .

هي نائمة عارية وراحتها مبسوطة على قلبها ، فيا لروعة هذا الجمال هابهُ الليل فارتعش وشاحه الاربد أظلالاً يداعبها النور فترتد الاظلال خاشعة عن هذا الجمال

***

يا لأنفاس هذه العذراء تورث الرهبة كأنها صدى خطوات عابد خاشع امام هيكله .

في الغرفة ازهار ليمون ناضرة ، ونول وكتب ، وعلى الحائط غصن مقدس يتدلى حزيناً فوق صليب قديم ، فما اطهرك يا رقاد الطفولة وقد القت اليك السماء بدرع الجمال ، وهل عاطفة الطفولة الاّ صلاة خاشعة كأنها محبة الارواح .

أفما يشعر من يتقدم الى هذه الطفلة الراقدة بأن فوق سريرها ملاكاً يرتعش جناحاه وهو ساهر عليها

***

أهي أمك ايتها الفتاة ، هذه المرأة الجالسة قرب سريرك تردد انظارها على الساعة النابضة وعلى الموقد المستعر ، فتنفض بذاهب صبرها من حين الى حين .

ماذا تراها تنتظر في مثل هذا الهزيع من الليل ، وعلى مَ تنهض لتعاين بابك وشرفتك ، اذا كانت هذه المرأة أمك ، فمن تنتظر غير أبيك ، وأبوك قد مات منذ زمن طويل .

لمن هذه الكؤوس وهذه المائدة وما عليها من الطعام ، لمن أُشعلت هذه الشموع ومن هو القادم يا ترى ؟

ليأتِ من يشاء ، فأنتِ مستغرقة في رقادك ، ولست أنت الخليلة المهيأة للعاشق المنتظر . ومن يجسر ان يتلفظ بالغرام أمامك وهذه أحلامك مشرقة بأنصع من ضياء النهار في ظلمة ليلك

لمن هذا الدثار تمسح المرأة الساهدة عنهُ ما علق بهِ من أمطار وأوحال

انهُ لدثار صغير فهو اذاً دثارك ، يا ماريا ، وهذه آثار البلل على شعرك ، واحمرار التعب على خديك . فأين كنت ذاهبة تحت العاصفة في هذا الليل

لا . . . ان هذه المرأة ليست أمك

***

سكوتاً . . . ان ما وراء الباب أصواتاً خافتة ، وقد لاح من فرجة دفتيهِ نساء نصف عاريات تشعثت غدائرهن وهن ينزلقن انزلاقاً في السرداب المظلم

في الغرفة المحاذية مصباح تتضاءل أنواره على كؤوس متساقطة فوق الخوان المضرج بثمالات الخمور وعلى نفايا ما تمتعت بهِ الفحشاء

أُغلق الباب وتعالت من ورائهِ قهقهات مروعة

***

انها لاشباح أحلام ، يا ماريا ، فكل شيء يرقد حولك بسلام ، وهذه المرأة الساهرة قربك هي أمك ، وما يعبق حولك الاَّ عرف الازهار ، وليس على شعرك الاَّ بلل الزيت المعطر وما احمرار وجهك الاَّ تورد من دماء قلبك

سكوتاً . . . لقد قرع الباب ، وأقلق سكون الظلام وقع أقدام تطأ الدهليز ، ولمع نور جسّاس يتقدَّم شبحين

هذا أنت ، يا رولاً . . . ما ذا أتيت تفعل في هذا المكان

***

أي فوست . . . أفما كنت مستعداً لمبارحة الارض في تلك الليلة المفجعة حين تقدَّم اليك الملاك المطرود من الجنان ملفعاً بدثاره الناريّ يحملك ليجول بك في أبعد الآفاق أفما كنت قذفت بلعنتك الأخيرة ، وضربت بعرض جدرانك المتهدمة جبينك

المجد بقضون ستين عاماً ، حين سمعت من بعيد نبرات الاناشيد المقدسة فارتعشت والسموم تجول على شفتيك والموت يواكبك وأنت ترتكب الكبائر حتى وصلت الى آخر مرحلة من انتحارك البطيء ، فانفجر قلبك وقد أخلفهُ الزمان كما يتفتق الصخر من لوافح الحر أيام الصقيع

لقد كانت دنت ساعتك أيها الشيخ ، وكنت تواجه الفناء بلحيتك وقد رعى سوادها المشيب وهزت الحياة جذورك لتقتلها ، فاذا بملاك الموت يقف حائراً بك ، حين قطرت من ساعدك النحيل قطرة من دمك تريقها كعهد لابليس ليردك الى الدنيا

يا لهُ من نسيم بليل مرَّ على رأسك المجلل بالبياض ، أي فوست ، عند ما قضى لك ان تعود الى الدنيا لتتعلق بأهداب طفلة في الخامسة عشرة من ربيع الحياة . . .

***

خمسة عشر ربيعاً ، هو عمر جوليت ، اي روميو ، عند ما كانت قبلاتكما تمازجان مع نشيد القنابر ذاهبة معها على أجنحة النسمات

خمسة عشر ربيعاً ، هي شجرة الحياة في الواحة المخضلّة بين كثبان الرمال

خمسة عشر ربيعاً ، هو عمر حواء عندما نشأت من راحة الله فأودعها خلود الاجيال

لقد كنت زهرة الجنة ، أيها المرأة الاولى ، فعراك الذبول وقادتك الخيانة الى الحرمان . لقد كان سيدك خالداً فأوردته الموت وما تناقص حبك لهُ ، ولئن أعيد اليكِ جنانكِ ، فلن تترددي في اضاعته مرة ثانية ، لأنكِ تعلمين ان من يعبد الرجل هو انتِ ، وانتِ تريدينهُ طريداً منفيّاً لتكوني عزاءه في شقائهِ وموتهِ

***

وأتى رولاً بنظراتهِ الكئيبة الحاسرة الى ماريا المنطرحة على سريرها المديد ، فارتعش كأن قوة سرية راعتهُ فهزتهُ هزّاً

ان ما سيؤديه لقاء تمتعهِ ليلة واحدة بماريا لمبلغ جسيم وقد اضطر الى بذل آخر دنانيره في سبيلها ، وكان اصدقاء رولاً عارفين بما اقدم عليه وقد اعلن لهم قبل مبارحتهم ان احداً لن يراه بعد حين يشق الضحى ظلمات هذا الليل

لقد مرت بهِ السنوات الثلاث وهي خير مراحل شبابهِ ، ثلاث سنوات مليئة بالملذات والعربدة والسكر ، مرت كحلم وتلاشت تغاريدها كألحان طير عبر في الفضاء وتوارى

انها لآخر ليالي رولاً هذه الليلة ، ليلة الموت التي تطبق فيها شفتا المحتضر على آخر توسلاته ، وتغتفر فيها الروح كل شيء اذ ترى كل شيء يتقرب الى الحق حتى ليكاد يندغم فيه . ورولاً قد جاء يقضي ليلتهُ الاخيرة هذه بين احضان فتاة ساقطة، على سرير طفلة تنتظره كغصن ذابل يترامى على نعشه المفتوح

يا للاختلال الابدي ... يا للجريمة تدفع بالطفولة الى مهاوي الفحشاء . . .

أفما كان خيراً لهذا الجسم الضعيف الصغير المستسلم للدعارة ولا من يدافع عنهُ ان يتناوله منجل الحصَّاد فيبتره بتراً وان تمد يد الى عنقه فتفكك عظامهُ فكّاً ؟

أفما كان خيراً لهذا الوجه ان يُطلى بالجير ويُشد فوقهُ قناعٌ من حديد من ان تجيء الفحشاء فتحوله الى غدير صاف تنعكس على سطحه الازهار ونجوم السماء وفي قعره قطرات الغسلين ؟

***

يا لهُ من جمال يغالب القبائح فيبقى جمالاً . . ويا للكنز المهتوك . .

أية قبلة غرام تهيم على هذه الشفاه . وأية أثمار تتهيأ للانعقاد على هذا الاملود تهب عليه نسمات السماء بل أي لهب يكمن في هذا المشعل الطاهر تراوده لوافح الفحشاء

***

أيها الفقر ! . . ايها الفقر ، انت هو القوَّاد الذي أتى على هذا السرير بهذه الطفلة التي كانت اليونان القديمة ترفع امثالها الى هيكل (ديانا)

لقد أدت فرض صلاتها قبل ان رقدت امس، ولمن وجهت هذه الصلاة ،يا لله ! .

أفما كان الاولى بها ان تركع امامك أيها الفقر لاجئةً الى رحمتك متوسلة اليك .

أفما انت من جاء ذات ليلة مع عاصفات الرياح مقتحماً الإعوال الساهد في المسكن الحقير لتقول للأم (إن ابنتك عذراء ورائعة الجمال، والبكارة تباع والجمال يباع)

أفما انت من غسل هذه الطفلة ، ايها الفقر ، وأرسلها الى المهرجان ، كما تغسل الاموات لتدرج في الاكفان ؟

أهي أم أنت ، ايها الفقر ، من التفَّ بالدثار الصغير وتراكض تحت لمعان البروق قاصداً باب العهر والابتذال

من يدري، لو أنك جدت عليها بالرغيف، اين كانت ستلتقي ماقدر لها على غير هذا الباب

ما كان هذا الجبين الناصع جبين فتاة لا حياة فيها . وما كان لهذا القلب الطاهر ان ترعاه جراثيم الفساد وهو يستقبل شفق الحياة

ويلٌ لهذه الطفلة تدفع الى مهب العواطف المضللة الجامحة وعاطفتها لما تزل راقدة لقبوها بماربون وهي ماريا... والقوا بها الى هاوية الفحشاء ، وماغرّها لمعان الذهب ولا استهوتها حياة الاغنياء ، انها بائسة لا تطلب الا قوتاً وما تستسلم تحت هذه الستائر المروعة على هذا السرير ، سرير العار الا لتعود الى أمها بما جنته من عذابها عليه ...

***

أين شفقتكن ، يانساء المجتمع ، المرسلات احتقاركن في العيش المرح على كل من لا يتمتع بما تتمتعن به من حبور ورخاء ؟

أين شفقتكن ، ايتها الامهات ، الموصدات الابواب على البنات في الخدور والساترات العشاق تحت أسرّة الازواج . ؟ .

إن عشقكن ذهبي الاحلام تنفخ الحياة فيه جاهات الخيال

ولكم فيكن من تباهي بمثل هذا العشق لانها ليست معروضة بين البائحات اعراضهن لمن يشاء ، ان مثل هذه المرأة لم تشهد شبح الجوع يتقدم ليرفع غطاء سريرها منشداً طروباً يلصق شفتيه على فمها متقاضياً قبلة لقاء كسرة خبز . . .

***

ايها الجيل ، اتراك ذاهباً في مآتيك ذهاب الاجيال المنصرمة قبلك تندفع كالنهر الصاخب حاملاً جثثاً عائمة على مجراك مترامية الى بحر السكون ، في حين ان هذه الارض الهرمة تشهد هذه المآسي بين الولادة والموت فتستمر دائرة حول الشمس دون ان تتجاوز مدارها لتصعد نحو خالقها شاكية اليه هذا الشقاء

***

لك اذاً ، أيتها المومس الجميلة ان تهي وتمزّقي ستر نهديك ، فالخمرة تشع متدفقة في الأكواب ونسمات الليل تهزّ منهدلات الستائر وقد لاح ارتعاشها في مرآتك

انهضي انها ليلة رائعة بذلتُ لها ما تستحق من ثمن ، وما كان المسيح ليشعر اثناء عشائه السري بقدر ما أشعر من جذل وحبور في عشائي الاخير

هيا تعالي ، ولنحيا الحب الثامل العربيد ، دعيني أتذوق خمرة الاندلس في

رضابك ، ولتحملنا ملائكة اللذة على معاصمها الى حيث لا صواب ولا شعور
هيا بنا ننشد الحب والجنون خير أغانينا ونشرب نخب الزمان الفاني ونخب الموت القريب
تعالي نكرع الخمرة ونسلو كل شيء الاَّ الخمرة والجمال ، فلا يتصاعد هتافنا الاَّ لتبجيل الحرية والحياة

— ٤ —

اي فولتير ، ارقد الآن بسلام ، ولما تزل بسمتك القبيحة تلوح على موضع الثغر من جمجمتك البالية
قالوا ان عصرك لم يكن ناضجاً ليفهمك ، فهلا رافقت عصرنا وقد ولد فيه رجالك
لقد عملت راحتاك العريضتان طويلاً في زعزعة ذلك الصرح الرفيع فتداعى ولكنهُ هوى علينا بأنقاضه نحن ابناء هذه الايام .
لقد انتظرك الموت ثمانين حولاً وهو يتشوّق اليك وأنت تراوده تغزّلاً وتشبيباً فما كان غرامكما الاَّ شرارةً من الجحيم .
أفلا تنسحب احياناً ، اي فولتير ، من فراش عروستك بنت العدم بين ديدان القبور لتذهب بجبينك الشاحب تائهاً بين أنقاض الاديرة واطلال القصور .
بماذا تراها تناجيك هذه الصروح المقفرة والهياكل المتهدمة وانت نفخت عليها فأقوت وغدت خاوية لا حياة فيها .
بماذا تناجيك الصلبان ، وما يقول لك المخلّص المشبوح عليها ، أفتدمى جراحه عندما يتقدم شبحك اليه في الليل محاولاً اقتلاعه كما تُقتلع الزهرة الذابلة عن معارشها ؟
أفراضٍ أنتَ ، يا فولتير ، عن عملك رضى المبدع حين فرغ من الخلق فرأى حسناً كل ما ابدع .
أما وأنت الراضي المبتهج بما أتيت ، فانني ادعوك الى وليمة في هذا المساء ، انهض من مرقدك فما عليك الاَّ ان تضرب الباب بلا استئذان وتدخل الى حيث احد اتباعك يتناول عشاءهُ الاخير .
أفما تسمع قبلات هذا الفتى وهذه الفتاة ، أفما يلوحان لك وقد تمنطق كل منهما بساعدي رفيقه جسداً واحداً بروحين وقد زفرت شفاههما المرتجفة بشهيق كأنهُ نحيب وإعوال .

كلاهما فتى وكلاهما رائع الجمال ، وهذه صرخة الغرام بينهما تستهوي المساء لتنزل بستائرها الذهبية على عناقهما المديد .

فتش على الحب بين هذين المتعانقين، إنهما ما عرفاه من قبل وما يعرفانه الآن..

***

وهذه الكلمات الرائعة الساحرة أين تلقفناها ، وليس الا لنشوة الحب ان تتفوه بها بين الشهيق والزفير ؟

يا للمرأة من أداة حبور ومن أداة تعذيب ، يا لها من هيكل سرّي تعالى فوقه همسات المصلين وصخب اللاعنين ...

أين ترى تجول من الاجواء او من الاصداء هذه الكلمات الابدية التي لم تزل تعربد منذ خمسة آلاف سنة على شفاه العاشقين ؟

***

يا للمطاولة الكافرة : ليس من حب هنا ، وهنا ملاكان وقلبان ما أحقهما بالاعتلاء في صفائهما الى أبيهما الأعلى مع طفات الافلاك

ليس من حبٍّ هنا ، وهنا زفيرٌ في الليل ، بل هنا الطبيعة بأسرها ترتعش ثاملة من خمرة الغرام

هنا عبقات بخور وأقداحٌ مبعثرة ، هنا تصدو قُبَلاً لا عداد لها ، ولعلّ هنا ، ويا للشقاء ، يتكوّن مخلوق تعس سيلعن النور

اذا كان لا حبَّ هنا ، فما هو هذا الشبح الرائع كأنهُ الحب بعينه ؟ . .

***

يا مساكن العزلة تحت قباب الاديار ، أيتها المدافن المظلمة، ان الحب كامن فيك.

وما من شفة ألقت قبلة ملتهبة على أعمدتك وأحجارك دون ان ترتعش بنشوة الحب العميق

تعالي أيتها الصروح ، صروح المنعزلين ، تقدمي واهتكي أستارك أمام هذا الفتى وهذه الفتاة وهما يلتهبان بشوق النشوة على سرير لا يصلح الا للرقاد وللموت

اضربي بقلبيهما عرض جدرانك، أيتها الصروح، واغرسي فيهما أشواك ما فيك من مسوح دامية وارسلي على جبينهما رشاش مياهك المقدسة، قولي لهما كم يجب على امثالهما

من سجدة على اللحود ليدركوا حقيقة الحب كما يدرك بين جدرانك أيتها الاديار . . .

***

انكم لتكرعون ثمالة كؤوسكم فترسلونها الى اعماق قلوبكم ، أيها المترهبون ، انكم ترون وجه المخلّص عند ما يراود النعاس أجفانكم . وعند ما ينفلق الصباح تلمّس عيونكم هذا الوجه ايضاً على زجاج النوافذ المذهبة بالنور ، وأنتم تصغون الى ما تهتفون مع الارغن من أناشيد الصلاة

هذا هو حبكم تتفانون في سبيله فتجدون السعادة فيه

***

أي فولتير ، أنظر الى هذا الشاب المتدفق قوّةً وحياة يترامى بأحر قبلاته على هذا الصدر البديع ، انظر اليه انهُ سيسجى غداً في لحده الضيق ، فهل لك ان تغبطهُ لقد قرأ هذا الشاب ما كتبتَ للمجتمع فان يجد سلواناً ولا أملاً بعد ان أصبح علمه جحوداً ، فلك غداً ان تضمهُ الى رفاتك دون ان تهتك حرمة قبرك

أفترًاكَ تعتقد ، يا فولتير ، لو استبقيتَ في نفس هذا الرجل شيئاً من الايمان انهُ كان سيلتقي باحتضاره على فراش الفحشاء ؟

ليتك أبقيتَ لهُ الاعتقاد بأن الموت اجتيازُ معبرٍ الى قرار ، لكان اذن لا يبالي ولا يخاف اقتحامه فينظر الى ملاك الموت نظره الى عروسة تتعالى في السحاب حاملة مفتاح قلبه الذهبي لتطرحهُ عند عرش الله الحي

***

هذه صنيعتك ، يا فولتير ، هذا هو الانسان كما أردت ان يكون ، فان التاريخ لم يشهد الاّ منذ أمس من يموت كما يموت رولاً . . .

عند ما وقف بروتوس على أنقاض روما صارخاً (ما أنتِ الاّ كلمةٌ أيتها الفضيلة) لم يكن يرسل لعنةً او يتفوّه بتجديف

كان بروتوس فقد كل شيء ، ولم يبق لهُ لا وطن ولا مجد ولا أمل ولا حرية ، بعد ان توارت عنهُ (بورتيا) وفارقهُ (كاسيوس) ، بعد ان أراق دمه وتفرّق جنده من حوله ، فامتنع عليه ان يؤمن بشيء على وجه الغبراء . ولكنهُ عند ما رأى نفسه وحيداً ولا مقعد لهُ الاّ قطعة من الصخر ، رفع أبصاره الى السماء فا

تفقد شيئاً في مداها الفسيح ، بل تنفس قلبه منها نسمات الامل فأدرك ان آلهته لم تزل وان سيفه لم يزل في قبضة يده

اما نحن ، قتلة الآلهة فأي شيء بقي لنا ؟

***

لمن تعملون ، ايها الهدامون الاغبياء ؟ . .

اي شيء تريدون ان تزرعوا على قبر المسيح اذا انتم اسقطتموه عن هيا كله وقذفتم بالحمامة البيضاء الى المهاوي المظلمة .

لقد طمحتم الى خلق الانسان من جبلتكم وتكوينه على مثالكم وعلى هواكم ،

لقد اردتم اقامة عالم جديد ، فها هو ذا العالم الذي اردتم

ان عالمكم رائع وانسانكم متفوق كامل ، لقد هدمتم الجبال وافسحتم مدى السهول واستنبتم شجرة جديدة للحياة .

لقد كسحتم كل حائل فمهدتم طرقكم على الحديد .

كل شي عظيم وكل شيء رائع ، ولكن هذه الاجواء تكتم الانفاس وتشد على الصدور وقد ذهبت اقوالكم الرنانة على الرياح الموبوءة تزعزع كل معبود ، فروعت الاطيار وشردتها . .

لقد قضي على الرياء ، فما يثق بالكهنة احد ، ولكن الفضيلة تنهار وقد انتشر الجحود على انقاضها

اين النبلاء يباهون بطارف امجادهم، بعدان اصبحوا يعرضونها للابتذال في المواخير؟

لقد اصبح التفكير حرًّا واُطلق البيان على مسارحه ، غير ان الشعب اصبح يتوق الى الميادين تتصارع عليها الثيران

لا الفقير اذا عزّت نفسه عليه ولا الغني اذا اجتاحته المحن يلجآن الى الرهبنة في هذه الايام ، فهما يعتبران هذا الانعزال جنوناً ويفضل كلٌّ منهما أن يشعل فحماً في غرفته ويوصد نوافذها ليختنق بسمومه

— ٥ —

ولاحت لعين رولاً اوائل اشعة الشمس على السطوح فذهب الى الشرفة يتطلع منها الى الطريق وكانت العربات الضخمة قد بدأت تهتز باثقالها على المنعطفات ، فاحنى

رولاً جبينه الشاحب وقد حكمهُ الذهول امام السماء بشق الضحى فيها ستائر الافق الحمراء .

وكانت على الساحة جوقة من رعاع المغنين تنشد أغنية قديمة .

يا للاغنية يسمعها الانسان في ساعات محنته بعد ان تغنى بها في مرح طفولته .

انها لتمحو كل ما انطبع بعدها في التذكار فتحفر بين ماضيه وحاضره هوَّة سحيقة واذ يشعر ببعدها عنهُ او ببعده عنها ، اذ يشعر بتقادمها او بتقادمه ، يحني رأسه المتعبة على نبراتها حزيناً واجماً .

ان هذه النغمات القديمة لأنفاس مافي المرء من اطلال وتحيب ما فيه من ملائك التذكار ترف على احلام الطفولة وحبها البريء .

انها لتهبّ بنبراتها على أزاهر الزمان المنصرم فتنوّرها وتتعالى باكية فوق مضجع احتضارنا بعد انْ غرّدت فوق مهودها .

***

وادار رولاً رأسه فرأى ماري مستسلمة للكرى وقد ارهقها السهاد .

هكذا كانت الطفلة تفزع الى عالم الرؤى والرجل يفزع الى عالم الفناء .

عند ما تمزق الغمام شمس الخريف لتقع على ركام الثلوج ، تبدو هذه الركام ملتهبة كأنها صدر الصباح تعلوه حمرة الخجل من قبلات النور المحرقة .

هكذا يتورد إهاب العذراء من دم قلبها عند ما تمسّها الشهوة باطراف جناحها.

أي كوكب النهار ! ما الارض الاَّ معشوقتك الهائمة وما تحتفظ أنت بشبابك الاَّ لتسكب عليها روعة الجمال الى الابد .

***

اي ، أطيار السنونو المتطايرة في الافق متعالية متهاوية ، خبريني لماذا قُضي عليَّ أن اموت . . .

أيهِ ، ما أقبح الانتحار . . . ويا ليت لي جناحين لامدهما في هذه الاجواء الصافية فأذهب طائراً طليقاً

علّماني ، يا أرض ويا سماء ، ما هو معنى الضحى ، وما هي قيمة يوم جديد في هذا العالم الهرم القديم .

قولي لي أيتها المروج الخضراء ، وأيتها البحار السحيقة لي شيئاً يتجلى فيك اذا

كنت انتِ محرومة من الشعور ليهتز القلب اهتزازاً امامك وتجثو الركاب عند ما تتوهج آفاقك بأنوار الصباح . . .

من أوثق رباط الخطوبة بينك وبين كوكب النهار أيتها الارض .

ماذا تقول الاطيار في تغاريدها وعلى من تبكي أنداء السماء ؟

لماذا تحدثينني عن حبك الآن ، وماذا تريد الكائنات مني وانا اطلب الفناء .

***

أية قوة كانت تدسّ في خيال رولاّ كلمة الحب فتجول فيهِ بكل روعتها . بل اي هاتف كان يلقي بهذه الكلمة في أذنيهِ والموت منتصب أمامه .

اي معنى لكلمة الحب تقال لفاسق عاش يوماً فيوماً متنقلاً من خمّارة الى خمّارة محتقراً الحياة مباهياً بتحقير كل عاطفة تمتّ الى الحب بسبب .

أتقال له هذه الكلمة وما وقعها في مسمعه الاّ وقع إهانة توجه الى قلبه المتحجر حيث لم تنبت زهرة واحدة وهو يعرضهُ قاحلاً على الناس كما يعرض الجندي جرحاً قديماً .

أيذكر الحب أمامه وهو مَنْ لا خليلة ولا سكن لهُ وهو مَنْ عاش في ملاعب الرياح متحدياً تصاريف أقداره مسلماً شبيبته لكل زعزع ينفضها نفضاً كأنها اوراق ذابلة على شجرة جفّ جذعها .

من تُرى تذهب بهِ القحة الى الوقوف امام هذا المحتضر ليذكّره بالحب بعد ان كرع ثمالة كأسه والقى الى ليل الابد بآخر شرارة من حياته وها هوذا في ساعته الاخيرة يفتش على سرير ماخورٍ ينطرح عليهِ ليلفظ آخر انفاسهُ ويدفع بآخر لعناته .

***

عند ما تبارح أنثى العقاب وكنها يتقدم فرخها الى حافتهِ متحفزاً فكأنهُ يحس باقتداره على نشر قوادمه والانطلاق في الفضاء

من ترى يهيب به الى الطيران ويشجعهُ على اقتحامهِ وهو لم يفرج مخلباً ولم ينشر جناحاً من قبل . انهُ يعلم بنسبه وأن له أن يقتحم الرياح عندما تدغدغهُ لفحاتها

على ان تحت الشمس منابت للارواح السافلة كمنابت الكلاب وبنات آوى والافاعي ، تستنبت هذه الارواح كما تستنبت هذه الحيوانات فتموت حيث ولدتها امهاتها وكلها تحمل في احشائها جراثيم سلالاتها الدنيئة كان الطبيعة تستبقي على اجناسها سماداً تسمد بهِ التراب حول القبور ، ولكن لهذه الطبيعة قوتها السرية

تعمل بها على خلق طبقة من الاحياء نبيلة تمر على الحياة فلا تعلق بها ارجاسها

ومن حبته الفطرة هذا الصفاء ، فانه ليتمرغ في الحمأة وتدور به الشرور خانقة سريرته طوال ثلاث سنوات دون ان تقضي عليها اذ يجيء يوم ينتبه فيه ضميره فينتفض قلبه انتفاض عبدان (سان دومينيك) الذين مرّت عليهم الاحقاب حتى تمكنوا من اقتلاع سلاسلهم من ارض العبودية حين عصفت بهم زعازع التمرد ونسمات الحرية

هكذا تنتبه أفكارك الآن ، يا رولاً ، محاولة تحطيم قيودها فهي تصيح بك وقد لاحت في دياجر القفر مشاعل الحياة ذاهبة الى ما وراء الحياة

أي رولاً ان هذا العدم الذي تتمسك به يداك إن هو الاّ وهمٌ يتبدّد ، انما العدم خيالٌ قاتمٌ لا تنطفيء أمامه أنوار الارض حتى تتوهج لمعاتها في الابدية

انك ما أحببت من قبل ، فانك لن تحب الى الابد

***

وعلا وجه رولاً الشحوب فأغلق النافذة وهو يرتعش فاذا بيده تصدم زهرة ناضرة فتقصفها واذا بالزهرة تهتف في اعماق روحه :

أحب وأموت . . . لقد ألهبني النسيم تقبيلاً فنوّر تويجي وتساقطت أوراقي ، لقد لبست له الزهو والبهاء فجاءت القبلة تهبني الحياة ، وما يهم الزهرة انسحاق قلبها بعد ان تفتحت اكمامها

***

احب ... هذه هي الكلمة التي تلفظها الطبيعة بأسرها لتحملها اجنحة الرياح والاطيار ، هذه هي الزفرة المفجعة تزفرها الارض عند ما يحين لها ان تندفع الى أغوار الظلام

وهل تهيم الكواكب بغير هذه الكلمة الحزينة الرائعة وهي ذاهبة في مدار اجوائها ؟ ان أضعف النجوم اندفعت منذ ابدعها الخالق متجهة الى حبيبها كوكب النهار ، واندفع وراءها ما يشتاقها من الاجرام فسارت العوالم منذ الازل متجاذبة بالحب في أفلاكها

***

ووجم رولاً أمام الفتاة الراقدة متفرساً في ملامحها ، تأخذه منها روعة الجمال

وتعيد اليه رؤى كأنهُ شاهدها فيما مضى من الزمان ، فارتعش متسائلاً : أليست هذه الموسى اخته في هذه الغرفة تلحد فيها كما سيُلحد هو ، افما يحس الى جنب ما يعانيه من اقتحام الموت بما تعانيه هي من اوصاب الحياة

***

ان الصبر يتمشى على مهل في قلب هذه المخلوقة الشقية الواهية ، أفليست آلامها اختاً لآلامي . أفما هي التمثال الذي قدِّر لي ان اراه عمداً على لحدي ، وأنا اتحفز للنزول الى اعماقه ؟

لا تنتبهي من رقادك ايتها الفتاة ، إن انتباهتك من حياة الارض ولكن هجوعك طاهر فهو لله . دعيني أقبل النعاس على اجفانك فأودعه وأوليه حبي ، فهو لم يبع وشاح طهره ولم ادفع له ثمناً . إن وسنك لم يزل طفلاً ذاهباً في احلام طفولته ولم يعلق به منك إلاَّ روعة جمالك

***

يا للجسم الملائكي يتلوّى وراء هذه الستائر المتماوجة

أفما يكتفي الحب بما ترسمهُ الخطوط في اتساقها المادي وبما يهب عليه من نسمات البهاء ليغرِّد بأشجى الحانه ، وهل الحب الاَّ الضحية المستمرة للخداع ، الاَّ العليل يرتعش فرقاً من زوال دائه .

اذا كان العاشق لا يظفر من الحبيب الاَّ بما يحتاج اليه من التوهم ليتمتع بعذابه ، فعلى مَ أذهب مفتشاً على الوهم في الآفاق .

مالي ولماري وحيائها ، افما هي امامي الآن مجسّم الفتوة والحياة ؟

لك ان تأتي الآن ، ايها الحب ، اذا كنت انت عطر الحياة وليفح عبيرك من هذه الزهرة البائسة وقد تفتقت اكمامها عن مثل هذه النضارة وهذا الجمال . . .

***

وتقدم رولا الى السرير وتمدّد جنب ماري فاشتبك الناظران وتمازج النفسان .

وقالت : — كنت أشهد رؤيا غريبة ، رأيتني على هذا السرير افيق من رقادي ، فاذا بهذه الغرفة منبسطة امامي كأنها مقبرة واسعة الارجاء تبعثرت العظام البالية بين اكمامها الخضراء .

ورأيت ثلاثة رجال يحملون نعشاً تقدموا بهِ وانزلوه عن اكتافهم ليؤدوا فريضة الصلاة ، فاذا بالنعش ينقلب عنهُ الغطاء واذا انتَ ممددٌ فيهِ وعلى وجهك رشاشٌ من الدماء السوداء .

رأيتك تنهض من النعش وتتقدم اليَّ آخذاً بيدي قائلاً لي — ماذا تفعلين هنا ، لماذا تحتلّين مكاني .

وانتبهت الى نفسي فاذا بي ممددة على قبر .

فقال رولاً — إن في حلمك حقيقةً وإن خلا من الجمال ... ولن تحتاجي الى إغماض جفنيك غداً لتري مثل الحلم ، فانني منتحرٌ اليوم

***

ونظرت ماري الى مرآتها وهي تبتسم ، فلاح لها وجه رولاً في المرآة وقد علتهُ صفرة الموت فارتعشت وامتقع لونها فصاحت بهِ : — مالك ، ماذا جرى لك ؟

فقال : — أفما بلغك انني أفلست منذ امس ، وهل أتيت إلاَّ لأُحيي ليلة الوداع بقربك . ما من احد يجهل هذا ، وقد قضيت بالانتحار على نفسي

— أقامرت بمالك

— لا لم اقامر ولكنني بددّت مالي

فخدجت الارض بأنظارها مستغربة وقالت : — أفليس لك امٌّ ، أفليس لك أقارب وأصدقاء ، أفليس لك أحد في الحياة ؟ أتنتحر ، ولماذا تنتحر . . .

والقت عليهِ نظرة تشع أسىً وحناناً وترددت على شفتيها سؤالات لم تجسر على التفوه بها . فألقت رأسها الى رأسهِ واختطفت عليهِ قبلة واجفة ، وهي تقول همساً : — ليس لي مال ، فان أمي تأخذ ما تصل اليهِ يدي ، ولكنني املك عقدي الذهبي أفما تجيز لي بيعه فتأخذ ثمنهُ وتقامر به مرواداً حظك ؟

ابتسم رولاً على مهلٍ وأخذ حقاً أسود صغيراً أفرغهُ في فمهِ ، ثم انحنى يقبّل عقدها على نحرها ، وإذ رفعت رأسها لم تجد على صدرها غير جثتهِ لا حراك فيها

وكان رولاً قد لفظ روحه بالقبلة الطاهرة

وكان الحب قد ساد لحظةً عليها وعليهِ . . .

تمت

اوربا المتوسطة

والشرقية

مركز الثقل في السياسة الاوربية الآن

أما وقد انتهت المفاوضات البريطانية الى اتفاق يرجى منهُ خيرٌ عظيمٌ في اقرار الحالة السياسية المضطربة في حوض البحر المتوسط فقد انتقل مركز الثقل في السياسة الاوربية الى شرق أوربا وما يليها من شرقها الشمالي وشرقها الجنوبي

هذه المنطقة وصفها ماساريك — الرئيس الاول للجمهورية التشيكوسلوفاكية — في مقال لهُ نشرهُ في مجلة أوربا الجديدة سنة ١٩١٧ بقوله انها « منطقة الشعوب الصغيرة » وهي تشمل الآن بعدما ضمَّت النمسا الى المانيا ، ثلاث عشرة دولة هي من الشمال الى الجنوب فنلندا واستونيا ولاتفيا ولتوانيا وبولندا وتشيكوسلوفاكيا وهنغاريا ويوجوسلافيا ورومانيا وبلغاريا واليونان والبانيا وتركيا . واذا نحن تذكرنا اين بدأت الحرب الكبرى في سنة ١٩١٤ وكيف أضرمت نارها الاولى تبين لنا ما لمنطقة الشعوب الصغيرة من الاثر في سلام أوربا وحربها . وما صحَّ بالامس لا يزال صحيحاً اليوم . فما الحالة هناك ؟

ان تقسيم هذا الجانب من أوربا الى دولات متعدّدة لا يعود الى بواعث عنصرية فقط . بل ان الامبراطوريات الكبيرة في العصور الماضية لم يتم لها توحيد هذه الشعوب وادماجها بعضها في بعض على نحو ما تمَّ لفرنسا وانكلترا وأسبانيا في الغرب . ذلك ان الامبراطورية الرومانية المقدّسة ، وامبراطوريتا آل هوهنزولرن وآل هبسبرج والسلطنة العثمانية ، كانت تعتمد على إثارة الطوائف العنصرية بعضها على بعض في سبيل حكمها ونزعت منها في الوقت نفسه المنشآت السياسية التي كانت قد أقامتها لنفسها بغير ان تسلّم لها بما ينسيها نزعتها الخاصة ويمكنها من التآلف والاندماج . ولعلَّ خير الامثلة على ذلك بوهيميا وبولندة . فالأولى نزع منها استقلالها في القرن السابع عشر والثانية في القرن الثامن عشر . وحاول الجرمان من ناحية والروس من ناحية أخرى استعمار هاتين المنطقتين علاوة على الاستبداد بهما . فازدادت النزعة القومية العنصرية فيهما شدَّة وتأصلاً . فلما نشبت الحرب الكبرى هبّتا الى استعادة ما فقدتاهُ

فهل تستطيع المانيا ان تحقق في القرن العشرين ما أخفقت فيهِ في القرون الماضية ؟ هذه المسألة محور مشكلة من اكبر المشكلات في السياسة الاوربية في هذا العصر . فاذا استطاعت المانيا ان تخضع الدول الصغيرة في أوربا الوسطى وأوربا الشرقية لنظامها السياسي والاقتصادي

استطاعت ان تصبح الدولة المهيمنة على اوربا . وكتاب « كفاحي » يبين ان زعيم الريخ الثالث ينوي تحقيق هذا الحلم . فاذا لم يصدَّه صادٌّ ، واذا استأنفت المانيا « الاندفاع نحو الشرق » Drang nach Osten بغير نظر الى العواقب ، فاني اخشى ان تكون اوربا ممرضة ثانية لاهوال الحرب . لانهُ على الرغم من ضعف الوزارات الفرنسية والبريطانية وتقلب الرأي العام الذي تستند اليهِ ، يخامرني الريب في ان تسلّم حكومتا فرنسا وبريطانيا في آخر الامر باطلاق يد المانيا في اوربا الوسطى والشرقية . لانهما ان فعلتا كان ذلك تسليماً منهما بسيطرة المانيا على مصادر من الثروة والسطوة تجعلهما ضحاياها الاولى . وانا لا اقول ان بعد النظر وادراك حقائق الحال ستحملهما على مقاومة هذا «الاندفاع» ولكنني اقول انهما ان لم تفعلا فقد قضي عليهما ان تكون دولتين من الطبقة الثانية

وقبل ان تغامر المانيا لكسب ما تريدهُ من طريق الحرب تراها تبذل السعي لتهديم النظام السياسي الذي انشيء بعد الحرب الكبرى للمحافظة على ما قررتهُ معاهدات الصلح . وكل حدث من احداث السياسة الدولية القريبة كان مظهراً من مظاهر هذا السعي

فلننظر الآن في تحول الاتجاهات السياسية في اوربا المتوسطة والشرقية بعد الحرب لعلّنا نستطيع ان نتبين ما يدلنا على مستقبلها وهل هناك في « منطقة الشعوب الصغيرة » ما يشير الى انهُ في وسع بعضها ان يحتفظ باستقلاله او هو مقضي عليهِ بان يصبح تابعاً لشمس المانيا وما لها من قوة عسكرية واقتصادية . وتاريخ هذه المنطقة منذ سنة ١٩٢٠ ينقسم الى ثلاث مراحل واضحة . فثمة اولاً مرحلة التفوق الفرنسي في النفوذ السياسي والعسكري . وتليها مرحلة السعي لتنظيم السلامة الاجتماعية بواسطة المعاهدة والمواثيق وقد بلغت قمتها في الميثاق الفرنسي السوفيتي في مايو ١٩٣٠ ثم هناك المرحلة الثالثة التي تبرز فيها نزعة بعض الدول الصغيرة الى عقد معاهدات مقابلة للمعاهدات القديمة ، وقد كان بدؤها يوم دخلت جيوش المانيا منطقة الرين المجردة من السلاح في ٧ مارس سنة ١٩٣٦

مرحلة التفوق الفرنسي

دامت المرحلة الاولى — مرحلة التفوق الفرنسي — من حين عقدت معاهدات الصلح ووقعت الى شهر اكتوبر من سنة ١٩٣٣ اي الى ان خرجت المانيا من مؤتمر نزع السلاح وعصبة الامم وهيئة العمل الدولية . في خلال هذه السنوات كان الجيش الفرنسي أمنع جيوش اوربا . وكان احتلال فرنسا منطقة الرين (الى سنة ١٩٣٠) وتجريد هذه المنطقة من الحصون بمقتضى معاهدة فرساي ، مما يمكنها من اختراق غرب المانيا بغير ان تقف عقبة كبيرة في وجهها فتستطيع

مناجزة الجيش الالماني في الغرب ، بحيث تصبح المانيا عاجزة عن اي عمل حربي ذي شأن في الشرق . في هذه الفترة كان الخطر الوحيد الذي تستهدف له دول اوربا الوسطى والشرقية ، ناشئاً من موقف هنغاريا وروسيا السوفيتية . أما الاولى فلم يكن في وسعها الاعتماد على المانيا حينئذٍ ، في طلبها للثأر ، فاتجهت الى ايطاليا . وقد اعلنت ايطاليا رأيها في وجوب تنقيح المعاهدات في خطبة لموسوليني القاها في يونيو سنة ١٩٢٨ ولكنها مع ذلك ظلت تتعاون مع فرنسا وانكلترا وهي تبحث عن خير الوسائل لتحقيق اغراضها . واما روسيا فكانت لا تزال في غمار الثورة فلم يكن في وسعها الاشتراك في حرب خارجية ولا سيما بعد هزيمتها في الحرب الروسية البولندية في سنة ١٩٢٠

في هذه الحالة تراءى لفرنسا ان خير وسائل السلامة أبسطها . فعقدت في فبراير من سنة ١٩٢١ اتفاقاً سياسيًّا وآخر حربيًّا مع بولندة . وفي يناير من سنة ١٩٢٤ عقدت اتفاقاً سياسيًّا مع تشيكوسلوفاكيا وكان الاتفاق التشيكوسلوفاكي بمنزلة محالفة الاّ انهُ لم ينصّ على تعاون هيئتي اركان الحرب في الجيشين . ومع ذلك كان للبعثة الحربية الفرنسية في براج مقام اعظم من مقامها في وارسو حيث كان المارشال بلسودسكي يحدُّ من نفوذها غيرةً على مقامهِ . ولذلك يمكن ان يقال ان الاتفاق العسكري البولندي الفرنسي ظلّ حبراً على ورق على الغالب ولم يوضع موضع التنفيذ الفعّال . فلما ذهب المارشال فوش في سنة ١٩٢٣ الى وارسو ليحدّث المارشال بلسودسكي في ما يكون موقف بولندة اذا اتخذت المانيا خطة الهجوم في شرق اوربا ، لم يفز القائد الفرنسي من القائد البولندي الاّ بقولهِ « أزحف على موسكو . اما المانيا فانني اتخذ قراراً عندما اراني في الميدان »

كانت الحكومة الفرنسية قد فاوضت حكومتي بولندة وتشيكوسلوفاكيا لان حدودها محاذية لحدود المانيا . وبهذا يفسّر تمثيلها في مؤتمر لوكارنو الذي عقد في شهر اكتوبر من سنة ١٩٢٥ ولا يخفى على متتبعي السياسة الدولية ان اتفاقات لوكارنو كانت قسمين احدهما اتفاق خاص بمنطقة الرين وقد ضمنتهُ بريطانيا وايطاليا يؤيده اتفاقان احدهما بين فرنسا والمانيا والآخر بين المانيا وبلجيكا . اما القسم الثاني فكان مشتملاً على معاهدتي تحكيم بين المانيا من جهة وكلٍّ من بولندة وتشيكوسلوفاكيا من جهة اخرى . ولكن بريطانيا وايطاليا تجنبتا ضمان هاتين المعاهدتين فتعيّن على فرنسا ان تنهض بهذه التبعة وحدها فعزّزت اتفاقيها مع بولندة (١٩٢١) وتشيكوسلوفاكيا (١٩٢٤) بتصريحين وعدت بمقتضاهما ان تؤيد حليفتيها الشرقيتين بالقوة العسكرية في الاحوال التي تشملها الفقرة السابعة من المادة ١٥ وكذلك المادة ١٦ من ميثاق عصبة الامم . وهذه النصوص في الميثاق تشمل جميع حالات الحرب — اي حالات النزاع المعروضة على مجلس عصبة الامم اذا

عجز المجلس عن حلّها بالاجماع وكذلك حالات الاعتداء الصريح الذي لم تتخذ لمنعهِ وسائل التسوية السلمية

اما وقد قطعت فرنسا على نفسها عهوداً من شأنها ان تلزم المانيا باحترام حكم القانون الدولي فلم يبق على بولندة وسائر الدول في حوض الدانوب الاَّ ان تفعل ما يدل على تماسكها في وجه روسيا السوفيتية وهنغاريا . ولذلك عقدت بولندة ورومانيا اولاً اتفاقاً في سنة ١٩٢١ ثم في مارس سنة ١٩٢٦ قطعتا فيهِ عهداً بالتعاون على صدّ اي اعتداءٍ موجهٍ الى اراضي احداهما او كيانها السياسي . ثم حدّدتا الاحوال التي ينفذ فيها هذا العهد وفقاً لما فعلتهُ فرنسا في السنة السابقة بمقتضى المادتين ١٥ و١٦ من ميثاق عصبة الامم . واضافتا الى ذلك اتفاقاً يشمل التعاون بين هيئتي اركان الحرب في جيشها ووعدت كلٌّ منهما بان لا تعقد محالفة مع دولة ثالثة قبل مشاورة صاحبتها

وعقدت رومانيا وتشيكوسلوفاكيا ويوجوسلافيا ثلاث معاهدات حدّدت فيها موقفها من هنغاريا وهذه المعاهدات هي أساس « الاتفاق الصغير » . والقاعدة في هذه المعاهدات الثلاث التعاون المتبادل في وجهِ اعتداء غير مستفزّ من هنغاريا على احداها . ثم الامتناع عن عقد معاهدة مع دولة رابعة الاَّ بعد التشاور . والغرض العام الذي اتجهت اليهِ هذه المعاهدات كان على ما جاء في التوطئة، هو المحافظة على السلام الذي اشتري بتضحيات عظيمة ونصَّ عليهِ ميثاق عصبة الامم وكذلك صون الحالة الناشئة عن عقد معاهدة تريانون سنة ١٩٢٠

وهذا كلهُ يعني ان رومانيا وبولندة اتفقتا على صدّ روسيا وان رومانيا وتشيكوسلوفاكيا ويوجوسلافيا اتفقت على صدّ هنغاريا . وقد سبق ان قلنا ان فرنسا عقدت معاهدتين مع بولندة واحدة ومع تشيكوسلوفاكيا واحدة . اما صلتها برومانيا ويوجوسلافيا فلم تتعدَّ معاهدتي التشاور والتعاون المعقودتين في ١٠ نوفمبر ١٩٢٦ (رومانيا) و ١١ نوفمبر ١٩٢٧ (يوجوسلافيا)

الاَّ انك عند ما تدقق النظر في هذا النظام المعقد ترى فيهِ كثيراً من مواطن الضعف . فالاتفاق الصغير قاعدتهُ صدّ المجر وحدها فليس فيهِ ما يحتم اشتراك دولهِ الثلاث في عمل ضدّ المانيا او ايطاليا او بلغاريا . وبولندة على الرغم من تحالفها مع رومانيا ، كانت شديدة العطف على هنغاريا فلم تبرم معاهدة تريانون ، وعلى شيء من النفور من تشيكوسلوفاكيا . ثم ان تشيكوسلوفاكيا وطرفها الشرقي داخل كالاسفين بين رومانيا وبولندة ، لم تكن مرتبطة ارتباطهما بوجوب التصدي لروسيا . أما مشكلة استقلال النمسا وضمانهُ فلم تعالج . وكانت جميع هذه الدول تحسب فرنسا صديقة لها وحليفة وتعتمد على مساعدتها في ساعة الضيق ، مع ان أساليب المساعدة وطرائق العون لم تبحث بحثاً مفصلاً . وكانت الصداقة وثيقة بين بنش وزير خارجية تشيكوسلوفاكيا ومارِكينوفتش وتيتولسكو وزيري خارجية يوجوسلافيا ورومانيا ، فلم يجرؤ أحد على الظن حينئذٍ ان هذه الصلات الوثيقة يمكن ان يعروها الانحلال

٢ — مرحلة السلامة المشتركة

في سنة ١٩٣٣ أخذت عوامل الضعف تتطرّق الى هذا النظام الاوربي القائم على تفوق النفوذ الفرنسي . كانت جيوش فرنسا في منطقة الرين قد سحبت منها في يونيو ١٩٣٠ وحذفت مسألة التعويضات الالمانية في مؤتمر لوزان (١٩٣٢) من سفر النزاع السياسي . وألغيت المراقبة الدولية على أعمال المانيا الحربية. وفي ٣٠ يناير من سنة ١٩٣٠ تقلد الهر هتلر منصب المستشار في الحكومة الالمانية وأخذت الثورة الوطنية الاشتراكية طريقها المرسوم . وفي شهر أكتوبر من السنة نفسها فصم الهر هتلر كل صلة لهُ بجنيف . فشعرت الدول المهدَّدة في سلامتها أنها لا يسعها الاكتفاء بضمانات السلام العامة المطوية في ميثاق العصبة . ولا سيما لان الولايات المتحدة الاميركية ظلّت متمسكة بمبدأ حرية البحار مما حدَّ من رغبة بريطانيا في تطبيق مبدإ العقوبات (المادة ١٦ من ميثاق العصبة) تطبيقاً فعالاً خشية ان تصطدم بامبركا . وكانت قوة الجيش الفرنسي قد أصيبت بما أوهنها بنقص مدة الخدمة العسكرية الى سنة واحدة. فلما تولّى المسيو لويس بارتو وزارة الخارجية الفرنسية ودرس هذه الحالة الجديدة وأدرك مغزاها بعث بمذكرته المشهورة الى انكلترا (١٧ ابريل ١٩٣٤) مبيناً فيها ان فرنسا تحتفظ بحريتها في اعادة تنظيم جيشها وتعزيزه

هنا بدأت المساعي لتحقيق ما يعرف «بالسلامة المشتركة» بتحديد المقصود من تطبيق المادة ١٦ من ميثاق العصبة اذا اقتضت الحال تطبيقها . واسم المسيو بارتو مرتبط بهذه المساعي مع أن جانباً منها كان قد بذل في البلقان قبل دخوله الكاي دورساي

كان من شأن انبعاث القوة العسكرية الالمانية في هذه الفترة ان وجهت انظار وزراء الخارجية الفرنسية المتعاقبين — هريو وبونكور وبارتو — وكذلك قواد الجيش — فيجان وجاملان — الى فكرة واحدة ، وهي استغلال القلق البادي في الدوائر الروسية من جرَّاء السياسة الالمانية البادية في مذكرة هوجنبرج المشهورة في صدد أستعار المانيا لبعض الاراضي الروسية . وان يكون غرض هذا الاستغلال هدم معاهدة رابالو الروسية الالمانية التي عقدت في سنة ١٩٢٢ ثم أيدت بمعاهدة ١٩٢٦ وجدّدت في مايو ١٩٣٣ في عهد الحكومة الوطنية الاشتراكية الجديدة في المانيا . وأدرك بارتو وقواد الجيش الفرنسي الفائدة الكبيرة التي تجنى من هدم الصداقة الالمانية الروسية واحلال الصداقة الفرنسية الروسية محلّها . ففي المقام الاول ينتفي الخوف الذي يسود حلفاء فرنسا في شرق أوربا من طغيان روسيا عليها . وفي المقام الثاني تمتنع روسيا عن ان تكون مصدراً ثميناً لكثير من المواد الخام التي يحتاج اليها الجيش الالماني . ويضاف الى هذا وذاك رغبة الحكومة الفرنسية في تأييد موسكو لنظرية « السلامة المشتركة » التي اقترحها الوفد الفرنسي في مؤتمر نزع السلاح ، والاعتماد على قوة روسيا الجوية في حالة قيام ازمة بين فرنسا والمانيا

وكذلك حفلت سنة ١٩٣٣ والسنتان اللتان تلتاها بمساعٍ سياسية متعددة لعقد مواثيق لضمان السلام ضماناً متبادلاً . ففي سبتمبر من سنة ١٩٣٤ ضمَّت روسيا الى عصبة الامم . وبعود ضمها الى العصبة الى رأي وسعي كلٍّ من بارتو الفرنسي وبنش التشيكوسلافي كي ويفتتش اليوجوسلافي ورشدي أراس التركي وبوليتيس اليوناني وغيرهم ممن كانوا يرغبون في أن يروا دول أوربا المتوسطة والشرقية مرتبطة في اتفاق دفاعي يكفي لصد أي سعي من شأنه ان يهدم النظام القائم

وكان الرأي ان تكون فرنسا وروسيا قطبي هذه الكتلة احداهما في الغرب والثانية في الشرق . وكان الرأي كذلك ان تقسم او تجمع مواثيق «السلامة المشتركة» في بضعة مواثيق اقليمية ، فيعقد ميثاق خاص بشرق اوربا الشمالي تنتظم فيه المانيا وروسيا وبولندة وتشيكوسلوفاكيا ودول ساحل البلطيق . وآخر للبحر المتوسط تنتظم فيه الدول القائمة على سواحله . وثالث لاوربا الوسطى يكون اساسه اتفاق بين فرنسا وايطاليا وغرضهُ الاول ضمان استقلال النمسا

لم يحقق من جميع هذه المشروعات العظيمة الاّ النزر القليل . منها الاتفاق البلقاني في ٩ فبراير ١٩٣٤ بين يوجوسلافيا ورومانيا واليونان وتركيا ، وذلك قبل ان يتقلد بارتو وزارة الخارجية الفرنسية . وكانت قاعدتهُ محالفة عسكرية للدفاع عن الحدود القائمة في البلقان ولكن الاتفاق العسكري لم ينصّ في الواقع الاّ على التعاون بين ثلاث منها فقط في حالة هجوم بلغاريا . وقد اعتذرت اليونان عن الاشتراك معها في ذلك بأن سواحلها شديدة التعرض للخطر. ثم ان الاتفاق لا يحتوي على نص خاص بالتعاون بين دوله ضد احدى الدول الكبرى . ونذهب الى أبعد من هذا فنقول ان لا الاتفاق البلقاني ، ولا الاتفاق الصغير، ولا الاتفاق البلطيقي، يشمل نصاً ما خاصاً بمقاومة اعتداء تقوم به المانيا او ايطاليا

كان الطريق الى عقد الاتفاق البلقاني قد مهّد في سنة ١٩٣٣ بعقد معاهدات بين روسيا السوفيتية وجاراتها حدّد فيها معنى الاعتداء . وفي مقدمة هذه المعاهدات ما عقد بين روسيا والاتفاق الصغير . وبمقتضى هذه المعاهدات سلّمت روسيا بضم بسارابيا الى رومانيا ، تسليماً ضمنياً لان حدود الدول المتعاقدة وصفت وصفاً صريحاً فيها . وعلى اثر ذلك سعت روسيا لدى صديقتها تركيا لحملها على الشروع في المفاوضة لعقد الاتفاق البلقاني

وأهم من الاتفاق البلقاني ، بين المعاهدات التي عقدت في هذه الفترة ، واوقع أثراً في السياسة الدولية ، المعاهدة الفرنسية السوفيتية (٢ مايو ١٩٣٥) وبمقتضاها قطعت الدولتان المتعاقدتان عهداً بالتعاون المتبادل وفقاً للمادتين ١٥و١٦ من ميثاق عصبة الامم . وتبعتها في ١٦ مايو ١٩٣٥ معاهدة تشبهها بين روسيا وتشيكوسلوفاكيا . فلما فسّرت المادة ١٦ من مواد ميثاق العصبة في النزاع الايطالي الحبشي تفسيراً جعل تطبيق العقوبات على ايطاليا لا مفر منهُ ، غدت هاتان المعاهدتان

بمنزلة تحالف عسكري ، لانهُ اصبح لكل دولة ان تعتبر اي اعتداء موجه الى غيرها من اعضاء العصبة كأنهُ موجه اليها . والفرق الوحيد بين المحالفات القديمة التي كانت تعقد قبل الحرب الكبرى وهذا الضرب من مواثيق التعاون المتبادل ، ان المواثيق الحديثة القائمة على اساس من المادة ١٦ في ميثاق العصبة ليست الاَّ مواثيق دفاعية

كان المشروع الذي قصد بارتو الى تحقيقه واسع النطاق كثير التعقيد والاشتباك وكان الرأي ان تشترك فيهِ جميع الامم وتجني منهُ فائدة الضمان المشترك لسلامتها . فروسيا مثلاً تعد بنجدة فرنسا اذا استهدفت لهجوم الماني وبنجدة المانيا اذا استهدفت لهجوم فرنسي . وفرنسا تعد بنجدة المانيا اذا استهدفت لهجوم روسيا ، وروسيا اذا استهدفت لهجوم المانيا عليها . وهذا النوع من الترابط يجب ان يشمل معظم دول اوربا ، واذن فعقد الاتفاقات الثنائية بين الدول الاوربية الكثيرة كان يقتضي محادثات دبلوماسية لا نهاية لها . ففي شهر يوليو من سنة ١٩٣٥ فاز المسيو تيتولسكو من الملك كارول بالسعي لعقد ميثاق تعاون متبادل بين رومانيا وروسيا ، ولكن فرنسا أخَّرت ابرامها للميثاق الفرنسي الروسي الى شهر مارس من سنة ١٩٣٦ ولذلك لم يتقدم لتفينوف الى بحث مسألة الميثاق الروماني الروسي الاَّ في ٢١ يوليو من ١٩٣٦ ،موضحاً ان المفاوضات الرسمية تبدأ في شهر سبتمبر من تلك السنة في جنيف . ولكن تيتولسكو اخرج من وزارة الخارجية الرومانية في ٢١ اغسطس ١٩٣٦ فوقفت المساعي لعقد هذا الميثاق بين رومانيا وروسيا عند ذلك الحدّ . وفي الوقت نفسهِ كانت يوجوسلافيا تسعى لعقد اتفاق تعاون متبادل مع فرنسا فلم يعرها لاقال اذناً صاغية ، وكذلك نرى انهُ ما توارت جثة بارتو في لحدها حتى كانت عوامل الانحلال قد تطرقت الى فكرتهِ

٣ — انحلال السلامة المشتركة

كيف يُفسَّر هذا التحوُّل ؟ ذلك ان المحرِّك القوي الذي كان يسوق دول أوربا المتوسطة والشرقية الى التفاهم والترابط في سبيل سلامتها المشتركة ، أُصيب بما عطلهُ ووقفهُ عن الحركة وكان الباعث على ذلك يرتدُّ جانب يسير منهُ الى النزاع الحبشي الايطالي ، أما الجانب الاكبر فكان يرتدُّ الى ما بدا من ضعف فرنسا وبريطانيا يوم ٧ مارس سنة ١٩٣٦ عندما دخلت الجيوش الالمانية منطقة الرين المجرَّدة من السلاح . هذا الحادث قضى على ما كانت تؤمِّلهُ دول اوربا المتوسطة والشرقية من مساعدة فرنسا لها في محنتها . وكانت المفاوضات التي دارت بين ١٩٣٤— ١٩٣٦ قد أثبتت ان السلامة المشتركة في حوض الدانوب لا يمكن تنظيمها بغير تأييد فرنسا لها ، وضمان مواثيقها . أما فرنسا فلم يكن في وسعها ان تؤيد وتضمن الاَّ اذا وافقتها انكلترا على ذلك

ان نظرة واحدة الى الخارطة الاوربية تحمل الباحث على السؤال ، لماذا لم تعقد رومانيا وتشيكوسلوفاكيا معاهدة تعاون متبادل مع اتفاق مصلحتهما على وجوب عقدها . وتفسير ذلك ان كلَّ اتفاق من هذا القبيل لا تشترك فيهِ فرنسا او لا تضمنهُ فرنسا وتتعهد بمقتضاهُ ان تستعمل جيشها المظيم لشغل الجانب الاكبر من الجيش الالماني في الغرب، لا يمكن ان يقوم على أساس سليم

فاذا نظرت الى الحالة الاوربية هذه النظرة تبينت ان يوم ٧ مارس سنة ١٩٣٦ كان تاريخاً حاسماً . لانهُ ما زالت منطقة الرين مجرَّدة من الحصون والاستحكامات ففي وسع الجيش الفرنسي ان يوغل في المانيا من غير ان يلقى مقاومة تذكر وان يشغل الجانب الاكبر من الجيش الالماني فتعجز المانيا عن أي عمل حربي ذي شأن في شرق اوربا أو متوسطها . وفي هذه الحالة كان في وسع فرنسا ان تنذر المانيا اذا رأت منها ما يدلّ على نية الاعتداء فتقول لها «الى هنا وكفى»

والجيش الفرنسي جيش قوي جدًّا (اذا استثنينا سلاحهُ الجوّي الآن) حسن النظام والتدريب . وحصون فرنسا على حدودها الشرقية أمنع من عقاب الجوّ . ولكن منذ احتلت الجيوش الالمانية منطقة الرين في ٧ مارس سنة ١٩٣٦ انشأت فيها حصوناً تجعل الدفاع عن المانيا سهلاً . ثم ان البلجيك ارتدت في شهر ابريل من سنة ١٩٣٧ الى خطة الحياد . وهذا حمل دول اوربا المتوسطة والشرقية على التفكير : هل تستطيع فرنسا وانكلترا في هذه الاحوال سبيلاً الى القيام بهجوم فعَّال على المانيا ، اذا حدَّثتها نفسها بالاعتداء في اوربا الشرقية او المتوسطة . وهذا التفكير هداها الى القول بأن جميع المعاهدات والمواثيق التي انشأتها لضمان السلامة المشتركة اصبحت غير قابلة للتنفيذ

فلننظر الآن في ما تمَّ بعد ما تبينت دول هذه المنطقة الحقائق المتقدمة مما قضى الى انحلال الجبهة الفرنسية في وسط اوربا وشرقها

الاَّ ان الجبهة التي كان بارتو ساعياً في توحيدها وتعزيزها ، بدأت تتصدَّع في أيامهِ . فعقدت بولندة في ٢٦ يناير من سنة ١٩٣٤ اتفاقاً مع المانيا على تأجيل جميع المسائل المختلف فيها بينهما عشر سنوات وهو اتفاق يبدو اول وهلة انهُ عقد لمنع ما قد ينشأ بين الدولتين من نزاع ولا سيما بسبب المجاز البولندي . الاَّ ان الواقع ان الباعث لالمانيا على عقده معرفتها ميل الكولونيل بك وزعيمهِ المارشال بلسودسكي . ذلك ان ميولها حملت المانيا على الاعتقاد بأن بولندة محتفظ بجميع قواتها في المستقبل لمقاومة روسيا السوفيتية بل لمهاجمتها . وانها لن تكون كاملة الولاء لفكرة السلامة المشتركة . وانها ستسعى جهدها لعزل تشيكوسلوفاكيا بالدخول بينها من جهة وبين حليفتيها رومانيا ويوغوسلافيا في الاتفاق الصغير من جهة أخرى . وانها لا بدَّ ان تبذل مساعيها في براغ مع هنلين ضد بنش وفي رومانيا ضد تيتولسكو . والواقع ان تقدير المانيا

كان في محله ، لان الكولونل بك كان دائم السعي لاضعاف النفوذ الفرنسي وهدم ما ابتغته فرنسا من انشاء نظام « السلامة المشتركة » .

ثم ان تفكير بلسودسكي العسكري كان لا يتلاءم مع النزعة السلمية في الدمقراطيتين الفرنسية والتشكية . واما بك فكان تلميذاً وفيًّا لاستاذه وزعيمه . نعم ان بولندة كانت حانقة لان فرنسا اهملتها بعض الاهمال في معاهدات لوكارنو ولانها قبلت ان توقع في ٧ يونيو من سنة ١٩٣٣ ميثاق الدول الاربع مع بريطانيا والمانيا وايطاليا . ومع ان هذا الميثاق ولد ميتاً لكن تأثيره النفسي في حلفاء فرنسا في أوربا الوسطى والشرقية كان بالغاً أقصى حدود الضرر . ثم ان بولندة أزعجها ان تقترح فرنسا في مؤتمر نزع السلاح خططاً لضمان السلامة قبل ان تستشيرها فيها . فلما اقترحت بولندة على فرنسا القيام « بحرب واقية » على المانيا في سنة ١٩٣٣ أبت فرنسا ذلك فشرعت بولندة في الحال في المفاوضات مع برلين . ومهما تكن الاعذار التي يعتذر بها الكولونيل بك ، ومهما يبلغ تصريحهُ بولائه لفرنسا واصدقائها من البلاغة ، فالواقع الذي لا ريب فيه انه اختار طريقهُ . فاذا حدث ما أسلم أوربا الى ازمة لا مخرج منها الا بالحرب فعلى بولندة ان تختار ، واذا كانت الكلمة العليا للكولونيل بك حينئذٍ فالغالب انهُ يختار ان يكون في جانب الريخ الثالث . ولكنهُ مع ماله من المكانة ليس سيد بولندة الوحيد . ومنذ ما دخلت جيوش المانيا منطقة الرين في مارس من سنة ١٩٣٦ أخذت رومانيا ويوجوسلافيا تجري على خطة تشبه خطة بولندة من بعض الوجوه لتأمين سلامتهما من دون ان تتخذ إحداهما خطوة لا رجعة فيها

ففي ٢٩ اغسطس سنة ١٩٣٦ اخرج تيتولسكو من وزارة الخارجية برومانيا . فلما اجتمع مجلس الاتفاق الصغير في براتيسلافا ، في احد اجتماعاته الدورية ، بعيد ذلك ، قرَّر حلَّ الوثاق الذي كان يربط الدول الثلاث منذ فبراير سنة ١٩٣٣ وذلك باعتراف المؤتمر بأنهُ من حق كل دولة ان تفاوض من تشاء من جاراتها وتعقد معها اتفاقاً وفقاً لمصلحتها الخاصة . وكانت الحجة ان تشيكوسلوفا كيا قد عقدت اتفاقاً مع روسيا في مايو من سنة ١٩٣٥ فلماذا لا يجوز ليوجوسلافيا او رومانيا ان تعقد اتفاقاً مع المانيا او ايطاليا اذا دعت الحاجة اليه . وكان المجلس نسي حينئذٍ ان الاتفاق الروسي التشيكوسلوفا كي عقد بموافقة الدول الثلاث ، وان وزيري رومانيا ويوجوسلافيا كانا قد انضما الى وزيري تشيكوسلوفا كيا في تبيان الفوائد الجمَّة التي تجنى من عقد اتفاق روسي فرنسي . بل انهم ذهبوا الى ان الاتفاق الفرنسي الروسي اساس للاتفاق العام الذي يبغونهُ ، ولم يسلموا بالاتفاق الفرنسي الايطالي الذي عقد في ٧ يناير ١٩٣٥ الاَّ عند ما تيقنوا ان باريس تنوي ان تعقد اتفاقاً آخر مع روسيا

وعلى الرغم مما حدث في مؤتمر براتيسلافا جدَّدت فرنسا مساعيها لتعزيز جبهة الاتفاق الصغير فأنبأت الدول الثلاث في نوفمبر من سنة ١٩٣٦ انها مستعدَّة ان تتخذ على نفسها عهوداً عسكرية وسياسية ازاء كلٍّ واحدة منها على نمط العهود التي تتخذها الدول الثلاث ازاء بعضها بعضاً. ولكن رومانيا ويوجوسلافيا لم تقبلا هذا العرض. لانهما لم تقبلا ان تتعهدا بمساعدة تشكوسلوفاكيا ضدَّ المانيا. نعم ان عرض فرنسا لم يرفض رسميًّا ولكنهُ لم يقبل فهو اذن معلق

وماذا فعلت يوجوسلافيا بعد ما اتخذ مؤتمر الاتفاق الصغير ذلك القرار؟ عقدت مع بلغاريا معاهدة في ٢٤ يناير سنة ١٩٣٧ اتفقت فيها الدولتان على ان لا تحارب احداهما الاخرى مطلقاً ولكن الاتفاق البلقاني كما لا يخفى يقضي على يوجوسلافيا بأن تشترك في الدفاع عن اليونان او تركيا او رومانيا في حالة اعتداء بلغاريا على احداها — ومع ذلك اكد المسيو ستويادينوفتش رئيس وزراء يوجوسلافيا لحلفائه في الاتفاق البلقاني ان اتفاقه مع بلغاريا لا يحول دون نهوضه بما تقتضيه منهُ نصوص الاتفاق البلقاني!

ثم انهُ عقد اتفاقاً سياسيًّا مع ايطاليا في ٢٥ مارس سنة ١٩٣٧ وبهِ وعدت ايطاليا بالامتناع عن اي سعي موجه الى سلامة الاراضي اليوجوسلافية ووعدت يوجوسلافيا مقابل ذلك ان تتشاور مع ايطاليا في حالة نشوب ازمة دولية للاتفاق على موقف مشترك. وهذا لا يتوائم ونصوص المعاهدة الفرنسية اليوجوسلافية المعقودة في سنة ١٩٢٧ والمجددة في ١٩٣٢ ثم في اكتوبر من سنة ١٩٣٧. وتفسير ستويادينوفتش لهذه المفارقة ان التشاور والاتفاق على موقف مشترك، اختياريٌّ في المعاهدة مع ايطاليا واجباري في المعاهدة مع فرنسا لان المعاهدة اليوجوسلافية الايطالية تستثني اي عهود قطعتها حكومة بلغراد في اتفاقات سابقة. ومما يذكر في هذا الصدد ان معاهدتي يوجوسلافيا مع بلغاريا وايطاليا عرضتا على حلفاء يوجوسلافيا ولكنهما عرضتا عن انهما امر واقع فاما ان تقبلا واما ان ينهار الاتفاق البلقاني والاتفاق الصغير

وماذا تم في رومانيا؟ لم تجار بولندة ويوجوسلافيا في انفصالها انفصالاً صريحاً عن الكتلة التي سعت فرنسا الى انشائها في شرق اوربا ووسطها. ولكن وزارة تاتارسكو شرعت في ربيع سنة ١٩٣٧ في مفاوضة بولندة وايطاليا. إلا ان فرنسا تدخلت في الموضوع وبذلت ما لها من مقام ونفوذ في بوخارست للحيلولة دون انتهاء هذه المفاوضات الى اتفاق معيَّن. ولا يخفى أن الكولونيل بك وزير خارجية بولندة لا يني عن بذل سعيهِ في رومانيا ضدَّ فرنسا. ولكن نجاحهُ كان متعذراً ما زال نقولاي تيتولسكو وزيراً للخارجية. ولذلك ظلَّت المعاهدة الرومانية البولندية الموجَّهة ضدَّ روسيا حرفاً مماتاً في اثناء عهد تيتولسكو فلما أُخرج من وزارة الخارجية الرومانية في اغسطس ١٩٣٦ جدَّد الكولونيل سعيه. وكبر الأمل في تحقيق أغراضهِ عند ما

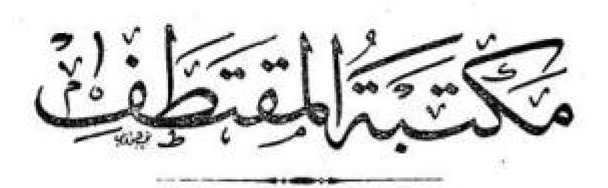
قامت وزارة جوجا في أواخر السنة الماضية . ولكن سقوط وزارة جوجا وقيام وزارة البطريرك كرستيا وإعادة تأليفها من عهد قريب جعل الحالة في رومانيا غامضة. وان كان السعي المبذول في الاسابيع الاخيرة للقضاء على الحرس الحديدي دليلاً على ان الملك كارول — وهو حاكم رومانيا الحقيقي الآن — ينوي ان يحتفظ بما يربط رومانيا بفرنسا وانكلترا من العرى

خاتمة

هذا أهمّ ما يمكن ان يقال الآن عن تطور الحالة في «منطقة الشعوب الصغيرة» . اما ما يأتي بهِ الغد وهل تفوز المانيا بيسط نفوذها على هذه المنطقة ، او تعود معظم هذه الدول فتلتف حول الدمقراطيتين الغربيتين ، فيتوقف في رأي الكاتب الفرنسي برتينا كس — وعلى مقال لهُ في مجلة الشؤون الخارجية الاميركية [1] عدد ابريل ١٩٣٨ اعتمدنا في كتابة هذا الفصل — على حزم انكلترا وفرنسا . فاذا بدا لهذه الدول الصغيرة أن فرنسا وانكلترا عادتا قوة فعَّالة في السياسة الاوربية عادت هذه الدول الى تأييد مساعيهما . وإذا ثبت ضدّ ذلك ، فانها لا بدّ لها من ان تمضي في خطتها البادية في موقف بولندة ويوجوسلافيا ، الى أن تصبح مضطرة جزءا من « أوربا الوسطى » — مثل أوربا — الخاضعة للسيطرة الالمانية

ويروي «برتينا كس» في آخر مقاله هذا انهُ كان في لندن في الاسبوع الثالث من شهر فبراير الماضي — بعد ان اجتمع الهر هتلر بالهر شوشنج في برختسجادن (في ١٢ فبراير) وحملهُ على اجابة بعض مطالبهِ كضمّ الهر زايس انكوارت الى وزارتهِ وتقليده منصب وزير الداخلية فيها — فخطب في فريق من اعضاء مجلس النواب البريطاني مبيّناً ان ما تمّ في النمسا لم يكن الاَّ نتيجة لعجز فرنسا عن القيام بعمل حاسم في ٧ مارس سنة ١٩٣٦ فهتفوا لهُ مؤمنين على كلامهِ . ولكن في يوم ١٨ فبراير سنة ١٩٣٨ تلقى المسيو كوربان سفير فرنسا في لندن امراً من حكومتهِ بان يخاطب المستر ايدن وزير الخارجية البريطانية في ارسال تصريح انكليزي فرنسي مشترك الى برلين تعرب فيهِ الحكومتان عن عزمها على مقاومة كلّ اعتداءٍ على المعاهدات الدولية الخاصة باوربا الوسطى . فأعرب ايدن عن موافقتهِ على هذا الرأي ولكنهُ لم يلبث حتى اضطرّ أن يستقيل من وزارة الخارجية لما بينهُ وبين رئيس الوزارة من خلاف أساسي في الرأي والاسلوب ولا سيما في ما يتعلق بالمفاوضات مع ايطاليا. أما الاقتراح الفرنسي فلم يرفض ولكن المستر تشمبرلين صرّح في مجلس النواب بأنهُ ينوي ان يسعى ثانية للاتفاق مع ايطاليا وألمانيا . ولا يخفى ان الجيوش الالمانية دخلت النمسا (في ١١ مارس) فلم تحرك فرنسا ولا انكلترا ساكناً غير الاحتجاج ثم أُيّد ضمّ النمسا الى المانيا في استفتاء ١٠ ابريل . وفي ١٦ ابريل تم توقيع الاتفاق البريطاني الايطالي

(١) Foreign Affairs, April 1938 pp 401 -- 416



تآليف المستشرقين

بقلم الدكتور بشر فارس

— ١ —

Henri Pérès — La Poésie andalouse en arabe classique, au XIe Siècle — Editions Adrien--Maisonneuve, Paris 1937.

هنري بيرس — الشعر الاندلسي باللغة الفصحى في القرن الحادي عشر (للمسيح) ظواهره العامة وقيمته من حيث هو وثيقة — ٥٤١ ص — ٢٥ × ١٦

الاستاذ هنري بيرس مستشرق فرنسي معروف ، لهُ مباحث طريفة موقوفة على الآداب العربية وقد نقدت بعضها في هذا الباب من المقتطف . والاستاذ بيرس من أساتذة كلية الآداب في الجزائر . وها هو ذا يخرج مؤلفين نفيسين في وقت واحد ، أحدهما الذي بين يدينا والآخر عنوانه : أسبانية في أعين الرحالين المسلمين من سنة ١٦١٠ الى سنة ١٩٣٠ (ارجع الى نقدي لهُ في مجلة الرسالة ، عدد ٢٥١ ، البريد الادبي)

يرى المؤلف ان الادب الاندلسي للقرن الحادي عشر للمسيح قليل الحظ من عناية البحَّاثين . والتحقيق أنهُ على جانب عظيم من الشأن لأسباب ، منها تبدل المجرى السياسي ببروز ملوك الطوائف على انقاض الدولة الاموية ، وتحرر الافكار من الضغط الديني بفضل تآليف الفلاسفة ، وتقبض العنصر الاندلسي مستقلاً عن العناصر الشرقية ، وتسرُّب الفكرة القومية اذن في نواحي الشعر . واعتماد المؤلف في سبيل فحص الشعر الاندلسي لذلك العهد على القصائد والمقطوعات المنظومة باللغة الفصحى دون اللغة الدارجة اي دون الازجال لان هذه كانت نادرة في ذلك الزمان . وطريقة عرض المؤلف لمباحثه أن ينظر في الشعر ظاهره وباطنه فينقل الجانب اللامع منهُ الى اللغة الفرنسية مع سوابقه ولواحقه مخافة ان يجيء الشعر أبتر . وأما النقل فما لا يخفى على المؤلف ان ترجمة الشعر العربي من المصاعب، الاَّ انهُ لزم النص حتى انهُ ربما نقل البيت حرفاً بحرف ارادة ان يحافظ على الروح والمدلول

وللكتاب مقدمة مسهبة يبسط فيها المؤلف مجرى الحياة السياسية ثم ما يتعلق بشؤون العنصر والقومية فهنا يشرح نفسية الاندلسي وهناك يقابل حزب الاندلسيين بحزب البربر . والمقدمة توطئة علمية ترسل على نواحي الكتاب كلها ضوءا وهَّاجاً . اما مباحث الكتاب نفسه فتنقسم اربعة اقسام . احدها موقوف على الشاعر وتكوينه وحالته الاجتماعية واتصاله بالملوك والامراء .

والآخر محصور في الهام الطبيعة للشعراء . والثالث يتناول الحياة الاجتماعية . والرابع الحياة المنزلية

واما القسم الاول فيعرض طرق انتشار اللغة العربية في الاندلس ، ويذكر الكتب والمواد التي كانت تقرأ وتؤخذ ، ويشير الى ما اقتبسهُ الاندلس من الشرق ثم الى انزوائه عنهُ وتخلصهِ من قيده ، ويسرد طبقات الشعراء وضروب الشعر ، ويدوّن الوان الشعر التي توحيها حياة القصور

واما القسم الثاني فيعرض مصادر الوحي الخاصة بالطبيعة الاندلسية ، نذكر منها : الصعيد والمدينة والمتنزهات والقصور ، قرطبة « وعجائبها الاربع » ، اشبيلية وظواهرها ، المرية وضواحيها ، وغيرها من البلدان والقرى . ثم الاودية والجبال والحدائق والخمائل والازهار والفواكه والخضرة والبحيرات والجداول والبحر والسفن والسماء وما فيها ثم ما يتصل بها كالامطار والبروق ، ثم الحيوانات من ذوات الاربع والطيور والحشرات

واما القسم الثالث فيستخرج من الشعر مجموعة مدلولات على الحياة العامة كالسكان وعناصرهم والاقتصاد والاحوال الشخصية (من زواج وموت وملبس ومشرب) والترف والاستحمام واللعب والرياضة والحرب ثم اللهو على ألوانه من مآدب وشرب النبيذ وسماع الغناء

وأما القسم الرابع فخاص بالمرأة والرجل والحب . وفيه تحليل لطيف لالوان شعور المرأة واخلاق الرجل ومراتب الحب

هذا وقد جعل المؤلف للكتاب خمسة فهارس : الاول للاعلام والثاني للشعراء والثالث للمراجع والرابع للالفاظ الفنية والخامس للالفاظ العربية المدونة بالفرنسية

فانك لترى ما شأن هذا الكتاب الجليل ، يبرز لنا قرناً كاملاً من طريق الشعر وهذه طريقة من البحث العلمي مستقيمة مفيدة

وجل ما يؤخذ على الكتاب بعض أوهام في الترجمة . منها :

bienveillant للفظة « سَمِيْح » (ص١٢٥) والوجه tables, généreux للفظة « موائد » (ص ٣١٦) والوجه tables servies لان المائدة خوان عليه طعام

expérimenté للفظة « ماهر » (ص٣٢٤) ، والوجه maître (bijoutier) واللفظة الفرنسية التي أوردها المؤلف تفيد لفظة « خبير »

mélodies للفظة « تَرَنُّم » (ص ٣٩٢) ، والوجه psalmodie ، واللفظة الفرنسية تفيد لفظة « الحان »

spirituels للفظة « ظرفاء » (ص ١٧٥) ، والوجه agréables

بقي ان المؤلف قال في الحاشية الاولى لصفحة ٢٢٥ ان النسبة تفيد نسبة المسلم الى ارومته والوجه « العربي »

— ٢ —

Ibn Haiyan—Al Muktabis - tome IIIe—Texte Arabe publié par le P. Melchior M. Antuna, O. S. A. — Editions Geuthner, Paris 1937.

القسم الثالث من كتاب المقتبس في تأريخ رجال الاندلس ، للمؤرخ الشهير أبي مروان حيان بن خلف المعروف بابن حيان — نشره الاب ملشور م . انطونية — ٢٢ ص باللغة الفرنسية و ١٧٥ للنص العربي — ٢٤½ × ١٨

لهذا السفر مقدمة مسهبة يتكلم فيها الناشر على ابن حيّان من كتّاب القرن الخامس . فيذكر مكانتهُ العالية بين سائر المؤرخين من العرب وان ضاع الجانب الاكبر من تآليفه . ثم يترجم له ترجمة وافيةً إذ يخبرنا أين ولد ونشأ ثم كيف أخذ العلم وعمن أخذه ثم لمن بذله ثم في اي الفنون كتب وما كتب . وينتقل بعد هذا الى وصف المخطوطتين اللتين اعتمد عليهما في نشر الكتاب . ثم ينصرف الى تدوين المصادر التي عوَّل عليها ابن حيّان ، وتراه يذهب في هذا الفصل الى ان المؤرخ الاندلسي اطلع على سير وأخبار من أقلام النصارى . ثم يختم المقدمة بذكر اثر ابن حيّان في تآليف من جاء بعده من المؤرخين

وميزة هذا الكتاب انهُ يسرد في أسلوب سهل على ركاكةٍ او ضعفٍ أحياناً الحوادث التي وقعت في عهد الامير عبدالله صاحب قرطبة وجدّ الخليفة عبد الرحمن الثالث . والجانب الاكبر من هذه الحوادث ترجع الى حروب وغزوات

هذا وقد بذل الناشر الأب ملشور م . أنطونية جهده في التثبت والتدقيق ، إلا ان هنالك بعض أوهام لا بدَّ من التنبيه عليها . منها :

ص ١١٥ ، س ١٠ : وهي (مدينة باسة) في خير الطاعة — والوجه : حيّز

ص ١١٧ ، س ١٤ : وأنفذ القائد احمد بن محمد رسله الى المدينة لورقة معذراً الى الخبيث ديسم . . . — والوجه : منذراً

ص ١١٧ ، س ٢ (تحت) : فنشت حرب — والوجه : فنشبت حرب

ص ١١٩ ، س ٧ : ووافى بها (بأشبيلية) أيضاً روه وريح ومطر — والوجه : نوه (راجع ص ١٦ ، س ١)

ص ١١٩ ، س ١٢ : ثم صار العسكر متردد على تلك الحصون — والوجه : يتردد

ص ١٣٣ ، س ١٥ : ذاك الخبيث المراي بالزهد — والوجه المرائي

ص ١٣٣ ، س ١٧ : وتدبر برائه — والوجه : برأيه

ص ١٣٦ ، س ١٨ : فلنفر عليه الهزيمة — والوجه : فلتقر

ص ١٤١ ، س ٢ : يستقرى قراءها ويتقصى أكنافها — والوجه : قراها
ص ١٤١ ، س٦ (تحت) : وجال العسكر في تلك الجهة أياماً يحترق ويدمر والوجه : يحرّق
ذلك الى ما هنالك من الجمل المتشابهة (مثلاً : ص ١١٥ س ١٠ ، ١١ — ص ١٣٦ ، آخر الصفحة — ص ١٤١ ، س ١١) والغلطات المطبعية (مثلاً : ص ١٢٠ ، س ١١ — ص ٦)

— ٣ —

Biographie des grammairiens de l'Ecole de Basra, par ... as-Sirafi publié et annoté par F. Krenkow—Bibliotheca Arabica, Faculté des Lettres d'Alger. 1936

كتاب اخبار النحويين البصريين . تأليف ابي سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي . اعتنى بنشره وتهذيبه افقر عباد الله الى رحمته فرنسيس كرنكو — ٩ صفحات للمقدمة الفرنسية ، و ١١٦ للنص العربي ، و ٣ ألواح للمخطوطة — $19\frac{1}{2} \times 12\frac{1}{2}$

إن هذا الكتاب يخرج في عهد شغل علماء العربية فيه بعلم النحو ، إذ يقلبون فيه النظر ارادة تهذيبه وتقريب مناله الى طلبة العلم . والتحقيق أن الكتاب لا يبحث في المسائل النحوية ولا يعرض لملتوياتها ، غير أنهُ يلوح اليها في معرض الكلام على أئمة النحو . وخير ما يستخرج من هذا الكتاب انهُ يرتب النحويين البصريين فيجعلهم طبقات ثم يوازن بينهم، حتى إنك تستطيع ان تميز النحوي الثقة من النحوي الضعيف . وانها لنتيجة جليلة

هذا وللكتاب ثلاثة فهارس : الاول لاسماء الرجال والقبائل ، والثاني للاماكن ، والثالث لاسماء الكتب

وأما نشر الكتاب فحسن على وجه الاجمال ، وثمة هنات أشير اليها :

ص ٥٩ ، س ١٠ : (شعر) فتولّى لم يُمَتَّع بِكَفَن — والوجه : يُمَتَّعْ .
ص ٦٢ ، س ٢ : فنظر فيه — والوجه : فنظر .
ص ٦٣ ، س ١ : (تحت) بين يدي الناس — والوجه : أيدي .
ص ٦٤ ، س ٥ : نَمى إليَّ انّ الرشيد . . . — والوجه : نُمي .
ص ٧٥ ، س ٦ : خلَفتُ أخيَّة لي أصغر مني اقيمها مقام الوالد — والوجه : الولد (كما في الاصل ، انظر الحاشية)
ص ٧٥ ، س ٢ : (تحت) : تقول ابنتي حين جدّ الرحيل أرانا سواء ومن قد يتمّ
زانا اذا ما . . . .
والوجه : أرانا (كما في البيت الاول ثم كما في ديوان الاعشى ص٣٣ ، والبيت لهُ)

— ٤ —

Les Prolégomènes d'Ibn Khaldoun 2e partie. Editions Paul Geuthner, Paris 1936

مقدمة ابن خلدون — المجلد الثاني — ٤٩٣ ص — ٢٤ × ١٦

إن مقدمة ابن خلدون فوق التعريف . وقد اشتدت عناية علماء الفرنجة لهذا العهد بها منذ اليوم الذي فيهِ اخذت العلوم الاجتماعية ينبسط ميدانها ويعلو شأنها ، ولا سيما بعد قيام المدرسة الفرنسية الجارية على سنن دُركايم Durkheim . ذلك ان رجال هذه المدرسة أصابوا في مقدمة ابن خلدون ما يساير آراء دركايم ونظرياته. وما أعرف مفكراً عربيًّا قديماً يظفر الآن بما يظفر بهِ ابن خلدون من العناية . فالرسائل فيهِ متلاحقة في المشرق والمغرب

ومما لا يجهله احد ان مقدمة ابن خلدون نقلها البارون دي سلان الى اللغة الفرنسية في باريس حوالي سنة ١٨٦٠ . وقد اصبحت الترجمة عزيزة نادرة . ففطن ناشر فرنسي لاخراجها مرة ثانية للمشتغلين بالمشرقيات والاجتماعيات. فظهر الجزء الاول منها سنة ١٩٣٤ (اطلب ديسمبر وابريل ١٩٣٤) . واليوم ظهر الجزء الثاني . وعسى ان يظهر الجزء الثالث وهو الاخير قريباً، فتعمّ الفائدة ، وان كانت ترجمة البارون دي سلان موضع نظر أحياناً لانتقال لغة الفلسفة من مذهب الى مذهب في اثناء تسعين سنة . ولعلي افصّل هذا عند ظهور الجزء الثالث

— ٥ —

Abstracta Islamica. (3e Série) Revue des Etudes Islamiques. Editions Geuthner, Paris.

يعنى الاستاذ لويس ماسينيون المستشرق المعروف وأحد اعضاء مجمع اللغة العربية الملكي باثبات مجرى التأليف الخاص بالعرب والاسلام في المجلة التي يخرجها في باريس « مجلة الدراسات الاسلامية » . ففي الجزء الرابع من سنة ١٩٣٥ والجزء الثاني من سنة ١٩٣٦ يصيب القارىء عناوين التآليف وأسماء المؤلفين مدونة على حسب الموضوعات . وهذه الموضوعات كما يلي :

تاريخ العلوم في البلاد الاسلامية — الفلسفة وعلم الكلام — فقه اللغة والتربية — علم الاجتماع واحوال الشعوب — تاريخ الادب ونشر النصوص — الفن والريازة (اي المعمار ، والكلمة للعلامة الاب انستاس الكرملي ، انظر « اهرام » ٤/٣ ١٩٣٨ ص ٣) — تاريخ الادب الفارسي والتركي والعبري — والعربي — التشريع والتقنين والتدبير — التاريخ الديني : محمد والقرآن — التصرف والفرق — الاستحداث — الاستعمار الاوربي والسياسة العصرية — الاسلام: نظرات عامة وصلة الاسلام بالغرب — المخطوطات والبردي — المصادر والمؤتمرات والمجلات

وقد اشترك في اثبات هذه التآليف كلها الاستاذ لويس ماسينيون والاستاذ بول كراوس والاستاذ هنري شارل

ولا يسع الناقد الاّ أن يفرح بمثل هذا العمل المفيد ، إذ انهُ يبذل للباحث المراجع مفصلةً وافيةً . ولربما نبّه على بعض سقطات في كتابة الالفاظ والاسماء العربية باللغة الفرنسية ، نحو كتابة لفظة الريح هكذا : الريه (ص ٣١٠) ولفظة اللآلىء هكذا : اللألىء . (ص ٣٠٧) واسم ابن العربي هكذا : ابن الاربي (ص ٣٠٤) ب. ف.

الفصول والغايات

في تمجيد الله والمواعظ

لأبي العلاء المعري — ٤٨٢ ص من قطع المقتطف — يطلب من مجلة الرسالة بالقاهرة
ضبطه وفسر غريبه ونشره محمود حسن زناتي

ان ناشر هذا الكتاب — الاستاذ الشيخ محمود حسن زناتي — ممن الِف المخطوطات ووطن النفس على النظر فيها وممن جعل الكتب والتصانيف خلطاءه وصحبه ، ذلك بانهُ ظل زماناً اميناً للخزانة الزكية وهي خزانة شيخي المرحوم احمد زكي باشا . واكبر شاهد على هذا انهُ لما اعتزل عمله عقد النية على نشر طائفة من اسفار المتقدمين . وها هوذا يخرج علينا اول ما يخرج بكتاب ضخم له مكانة رفيعة ، كتاب الفصول والغايات للامام الأكبر واحد عصره وفخر العربية نثراً وشعراً وفلسفةً أحمد بن عبد الله بن سليمان ... التنوخي المعري صاحب اللزوميات ورسالة الغفران

واذا نحن أغفلنا التنويه بالمؤلف فما يحسن بنا ان نشير الى قدر الكتاب . فاعلم انهُ من الكتب التي شاع عنها انها ضاعت والتي قيلت فيها اقوال منها أن « الفصول والغايات » مؤلف يجنح الى الكفر لان صاحبه عارض بهِ القرآن وأراد ان يأتي بالاعجاز البعيد . والتحقيق ما اثبتهُ الاستاذ زناتي في « المقدمة » من ان الكتاب انما تجري غايته الى « تمجيد الله والمواعظ » من طريق الافتنان في الكتابة من تدوين الغريب وارسال النوادر وبث الطرف وهي طريقة معروفة لأبي العلاء

هذا وأما نشر الكتاب فيدل على العناية الشديدة التي بذلها الاستاذ زناتي بين تحقيق وتدقيق ونظر ومراجعة . وجل ما كانت تتوق اليهِ النفس أن يذهب الناشر في كتابة المقدمة الى ابعد مما ذهب اليهِ من التعليق على الكتاب نفسه ومن الوصف للنسخة الخطية التي اعتمد عليها (وهي بالخزانة التيمورية برقم ٨٣٨ أدب) على حسب ما يصنع الناشرون اليوم . ثم ان الكتاب تعوزه طائفة من الفهارس منها فهرست للاعلام واسماء الاماكن ب. ف.

الحلل السندسية

في الاخبار والآثار الاندلسية

تحفة من تحف الامير شكيب أرسلان

عطوفة الامير شكيب ارسلان في غنى عن التعريف الى حملة الاقلام في هذه الدنيا العربية لان الادباء والعلماء في هذه الايام أحد رجلين بالنسبة الى الأمير أعزه الله :

إما عالم امتلأت نفسه اعجاباً وتقديراً لفضل الامير في مختلف نواحي العلم والادب وإما متعلم من بحره الزاخر وفيضه العظيم والرجلان يعترفان من صميم القلب بأن الامير حجة العرب في هذا القرن ومناط فخرهم في هذا العصر

الله أكبر ما هذا البحر الزاخر وما هذه الروح السامية والادب العالي والوطنية العاملة وما هذا الرجل الذي لا ترتاح نفسه المتواضعة الا الى خدمة يسديها الى العالمين العربي والاسلامي، فهو السياسي الذي ينوب عن ملايين العرب والمسلمين في جنيف يدافع عن قضاياهم العديدة فيهاجم أخصامهم ويشرح حججهم وينشر حقيقة أمرهم فاذا ظهر كتاب لعالم أو مقالة لسياسي او رسالة لمستشرق وفيها شيء أو بعض شيء يغمط حق العرب او يحاول الحط من فضلهم أو النيل من الاسلام وشعوبه رأيت الامير لا تهدأ ثائرة نفسه حتى ينشر في الحال الرد المفحم فيقرع الباطل بحجته ويرفع صوته عالياً يدوي في الاندية السياسية والعلمية والادبية

انك ليملكك العجب حين تعلم انهُ على الرغم من نصح الاطباء لهُ يواصل اخوانهُ في مختلف بقاع الارض بالرسائل العامة والخاصة فيجيب عن كل سؤال ويتقدم بكل نصيحة ويواسي كل مظلوم ويدافع عن كل مضطهد

أما ناحيته العلمية والتي يحاول ان ينقطع لها في هذه الايام فهي من أهم نواحيه وسيرى العالم العربي على الرغم مما رأى من آثاره الكثيرة آثاراً خالدة يستجم لها في جنيف ولا يمضي عام أو بعض عام حتى يخرج الامير كتاباً خالداً في الموضوعات التي يتوق لها العلماء والمفكرون في العالم العربي

ولقد عرف الامير ايده الله بأشد الغيرة على تراث امته العربية وولع منذ نعومة اظفاره بدراسة تاريخ الاسلام وحضارة العرب في الاندلس ذلك الفردوس المفقود وقد تجلى ولعه هذا في ترجمة رواية آخر بني سراج وما علق عليها . ولما شاءت الحال ان تتيح للامير زيارة الاندلس منذ اعوام قريبة — وهي امنية طالما كان يرجو تحقيقها — انصرف يومئذ بكليته الى تطبيق النظريات

التاريخية على الحقائق الملموسة فزار الممالك والبلدان وجاس خلال الدور والقصور وشاهد المساجد والمعابد ووقف مبهوراً امام عظمة القصور الشواهق وغاص في غمرات ذلك الفردوس المظلم فتفقد كل مدرسة وكل مكان فوصف كل شيء رأى وأرجعهُ الى اسمه العربي وشرح تاريخه وايامه البيض واستقرأ الآثار واستخرج عبرها فرَّ بكل قطر وأحاط بكل عصر

ثم افرد الفصول الضافية عن الحياة الاسلامية في تلك الجنان وكيف أخرج منها المسلمون كما خرج ابو البشر آدم من الخلد ولم يترك حادثة تتعلق بأحوال الامة الاسلامية في الاندلس لها علاقة تاريخية او علمية او سياسية الاّ اشار اليها

جمع الامير كل هذا في كتابهِ «الحلل السندسية» الذي نحن بصدده فكان مؤلفاً فريداً لا يمكن لعالم او اديب او سياسي من ساسة العرب ان يستغني عنهُ خصوصاً وان المؤلفات عن فردوس الاندلس باللغة العربية قليلة من جهة وناقصة من جهة اخرى

فقد رجع الامير الى مئات المصادر فصحح رواياتها بما لديهِ من صحيح السند فأنكر الباطل وأحق الحق وأخرج طائفة من الاسماء تعد بالمئات من عجمتها المغلوطة الى عربيتها الصحيحة مما يدل على سعة منقطعة النظير في حب البحث والصبر على استخراج الحقائق من مكامن بعيدة واماكن ليس من السهل الوصول اليها

وقد جمع بين دفتي الكتاب مجموعات كبيرة من صور ملوك القوط والاندلس وآثار الحضارة الاسلامية بفنونها ومعابدها وصور القادة والوزراء وبعض وقائع تلك الايام ايام الوصل بالاندلس وعهد المجد الذي خلده العرب في تلك الدنيا التي مرت كخلسة المختلس

وسرد الامير شكيب في رحلته هذه اسباباً تعتبر من اقوى الادلة على ما انتاب العرب من اسباب الضعف بعد تلك القوة ودلل عليها باستقراء واستنتاج يبعثان على الدهشة حتى يخيل اليك وانت تطالع ما كتب وتقارن بما كتب الغير — انك ذهبت الى تلك البلاد وعاشرت اهلها ودرست عن كثب حالتهم النفسية من كل وجوهها

وقد اهدى الامير رحلته هذه الى روح ابي المطرف الخليفة اميرالمؤمنين عبد الرحمن الناصر الاموي الذي يعجب بهِ المؤلف اكثر من كل خليفة حاشا الخلفاء الراشدين

***

وقد تولى طبع هذه الرحلة ونشرها السيد محمد المهدي الحبابي صاحب المكتبة التجارية الكبرى بفاس وقدم لها بمقدمة اوجزت ما في الكتاب ودلت على تقدير عظيم للمجهود الجبار الذي بذلهُ المؤلف الجليل حتى أخرج للعلماء والباحثين هذه الموسوعة الاندلسية التي أضافت الى المكتبة العربية ذخراً من أنفس الذخائر

***

المعجمية العربية

على ضوء الثُنائية والالسُنية السامية

للاب ا . س . مرمرجي الدومنكي أحد أساتذة المعهد الكتابي والآثاري الفرنسي في القدس الشريف مطبعة الآباء الفرنسيسيين في القدس سنة ١٩٣٧ . ثمنه ٢٥٠ ملا

هو كتاب لغوي يبحث في بعض الالفاظ العربية وأصلها بحثاً دقيقاً ويبحث في تاريخها والبلاد التي نشأت فيها أفارسية هي أم عربية أم ارمية أم عبرية أم حبشية والبحث دقيق جداً فيه طلاوة يستهوي القارىء . ولما كنت عاجزاً عن نقد هذا الكتاب لجهلي اللغات السامية الاّ لغتي العربية وهذه لا أعرفها الآ معرفة ضعيفة محدودة ولكنني سأستعرض بعض الالفاظ التي جاءت فيها استعراضاً . وجملة الالفاظ نحو خمسين لفظاً واليك بعضها

البارية ليست بفارسية

قال المؤلف سُئلت احدى المجلات هذا السؤال (« أأصاب اصحاب المعاجم العربية بقولهم البارية او البورية الحصير المنسوج من القصب وهي كلمة معربة أصلها فارسي»! فان كان صحيحاً فما هو اللفظ الفارسي الاصل وما هو مدلوله ؟ وان لم يكن فما رأيكم في الامر) ؟ فأجابت المجلة « البارية او البورية فارسية لا تحتمل شكاً وهي في هذه اللغة بوريا بضم الباء ضماً غير صريح ومعناها الاصلي نوع من القصب يكثر في الآجام ويشبه البلاج بعض الشبه تتخذ منهُ هذه الحصر او البواري » . واما الظاهر لنا فهو ان البارية او البورية ليست فارسية قطعياً فما أصلها اذن ؟ ذاك ما يجيب عليهِ هذا المقال ثم أجاب المؤلف عن هذا السؤال ببحث استغرق ١٢ صفحة ذكر فيها اصلها بالاكدية والعبرية والارمية والحبشية وأتى بالشواهد الكثيرة على ان البارية اصلها من العراق اي البلاد الشمرية الاكّدية وهي اكّدية في الاصل من كلمة بورو ومعناها اليراع او القصب وانها عراقية قحة عمرها ماينيف على الاربعين قرناً

ثم الكلمة التالية

اصل الحواريين فقد قال فيها ما ملخصهُ . قال : الظاهر مما تقدم ان لفظة الحواريين قرآنية أم غير قرآنية ليست مشتقة من حَوِر وأنهم قوم كانوا قصّارين او ملوكاً او أنقياء القلب او أنصاراً ولا هي سريانية بل حبشية معناها الرسل دخلت العربية بدخول الحبشة الى اليمن وعن أهل نجران تلقاها عرب الحجاز عنهم

ثم كلمة الحج

فقد قال فيها هو يدل على اجهاد النفس انتقل معناه الى معنى الرقص ثم الدوار فالاحشاد فالموسم فالعيد فالقصد فزيارة أحد المقادس فزيارة كنيسة نجران عند نصارى العرب فزيارة كنيسة القيامة فزيارة الكعبة المكيّة

أصل كلمة داوية

كان في ايام الصليبيين فرقتان من الرهبان دعاهم العرب أحياناً الاسبتارية أو الاسبتالية ولاشبهة في أن هؤلاء هم رهبان المستشفيات وآخرين داوية وهذه سريانية معناها الفقراء اي الاخوة الفقراء

أصل كلمة الفصح

وهي عبرية وكلمة توراة كذلك عبرية وكلمة إيل وبيت لحم واللحم واللقم وكلمة صلاة وصورت السريانية وسورة القرآنية

أصل كلمة هيكل

هذه اللفظة من عداد الالفاظ الواردة في اللغات السامية جمعاء اي الاكدية والعبرية والارمية والعربية والحبشية . أما المعاجم العربية من قديمة وحديثة فلا نجد فيها ذكراً لاصلها . أما الواضح انها ليست من الاوضاع المشتقة من الافعال بل أحر بها ان تحسب من الاصول الجامدة

كان يظن سابقاً ان أصلها عبري . ثم لما ظهرت في الرقم المسمارية قيل انها أشوريّة . وفي الحقبة الاولى من دراسة الاشوريات حين كان الباحثون يدعون اللغة الشمرية « اكدية » قالوا انها منقولة من هذه اللغة الى الاشورية . بيد انهُ إذ توصل المحققون ان يثبتوا بان « الشُمَرية » لغة قائمة بذاتها ليست من طائفة الالسن السامية لكونها لغة مقطعية مجاورة غير متصرفة وقد وضعوا لها تدريجاً كتب لغة وصرف ونحو — اتضح اليوم بكل جلاء ان لفظة هيكل وضع شمريّ ولا سامي قطعاً . ومن هذه اللغة نقل الى الاكدية ومنها الى العبرية فالارمية فالحبشية فالعربية

وقال والخلاصة

مما ينجم عن تقصيات المتخصصين أن اللغة الشمرية ليست بسامية فلا يجوز ان تنظمها في سلك هذه الالسن . كلمة Ekal شمرية مركبة من علامتين صوريتين وقد أطلقت عند الشمريين على البلاط والمعبد . أدخل الاكديون هذا الوضع الى لسانهم غير مغيرين فيه شيئاً سوى انهم زادوا عليه علامات الاعراب التي لا وجود لها في الشمرية . ومن الاكدية انتقل الى اللغات السامية الاخرى . وفي هذه الالسن لا في الاكدية نفسها المضمحلة منها الحلقيات تحولت الهمزة الى هاء فأصبحت اللفظة بصورة : هيكل

هذه هي الحقيقة العلمية الناصعة وما كان في الكتب او الصحف بهذا المعنى فهو الحري بالاعتبار والاتباع . ومن هذا ينكشف وهن الرأي القائل : ان كلمة « هيكل » سامية الاصل . وهي كذلك او ما يقاربها لفظاً ومعنىً في الارمية والعربية والحبشية والاشورية .

والكتاب على هذه الصورة يبحث في نيف وأربعين كلمة بحثاً دقيقاً وافياً فهو خير علمائنا من شرقيين وغربيين على الاطلاق الذين يبحثون في مثل هذه الامور امين المعلوف

القانون الدستوري

تأليف الدكتور وايت ابراهيم والدكتور وحيد رأفت — الاستاذين بكلية الحقوق المصرية
صفحاته ٨٥٧ قطع المقتطف — ثمنه ستون قرشاً

جرت العادة ان تقسم دراسة القانون الدستوري قسمين كبيرين : — قسم المبادىء والنظم الدستورية وقسم دستور الدولة وهو في هذه الحالة الدستور المصري . وعلى هذا جرى المؤلفان الفاضلان . فتناولا في الكتاب الاول القواعد والنظم الدستورية بوجهٍ عام من دون ان يحول ذلك دون التعريج على الدستور المصري لضرب الامثلة بهِ وتبيان ما أخذ بهِ من هذه القواعد

وقد تناولا في الباب الاول في فصول حسنة الترتيب وافية البيان الدولة وأساسها ونشأتها وسيادتها وأين مستقرُّها فيها . والحكومة وأنواعها وأجزاءها والسلطات فيها . وأما الباب الثاني فقد خصَّاهُ بالدستور المصري ، وهو في أكثر من ٢٠٠ صفحة ، فهو على ما نعلم أوفى كتاب مدرسي في الدستور المصري وتحليل مبادئهِ وموادّه . ولم يكتف المؤلفان بذلك ، بل جعلا البحث في الدستور المصري ، من النوع المقابل ، فأنت بعد أن تقرأ المواد الخاصة بسلطة من السلطات وتفسيرها ، تطالع ذيلاً عامًّا فيهِ بسط لنشأة المبادىء التي تقوم عليها ، وكيف طبقت في دساتير الامم الاخرى المشهورة بنظمها الدستورية . وفي الكتاب الرابع من هذا السفر النفيس موجز دقيق لبعض الدساتير الاجنبية كدستور بلجيكا ودستور فرنسا ودستور انكلترا ودستور الولايات المتحدة الاميركية . ويلحق بذلك جميع الوثائق الرسمية الخاصة بالنظام الدستوري بمصر كنصوص الدستور وقانون الانتخاب واللائحة الداخلية لكلٍّ من مجلسي النواب والشيوخ

ويشهد كاتب هذه السطور انهُ طالع هذا الكتاب مطالعة باحث منقّب ، ولا سيما ما كان منهُ خاصًّا بالدستور المصري وأحكامهِ . فوجده وافياً بالاغراض التي توخاها المؤلفان الفاضلان ، واضحاً في الشرح والتعليق والمقابلة ، وحبذا الحال لو خلا من بعض هفوات مطبعية يسيرة لا تضيره

تاريخ أورطة البنادق الخامسة المشاة

للملازم الاول عبد الرحمن زكي — مطبوعات المتحف الحربي — ٤٢ صفحة — المطبعة الاميرية ببولاق

تناول المؤلف في كتابه وهو الاول من نوعه تاريخ الجيش منذ نشأته في ايام الفراعنة وتطوراته في العصر القديم . وانتقل بعد ذلك الى وصف حالته في العهد الاسلامي فنهضته الوثابة في أيام حكم محمد علي باشا وأشباله العظام . ووقف المؤلف صفحات كتابه الاول على تاريخ الاورطة الخامسة منذ انشاء الجيش المصري الجديد في عام ١٨٨٣ فوصف أهم معاركها وعملياتها الحربية في أقاليم السودان وحوادثها الهامة التي اشتركت فيها وذكر أسماء قوادها ومشهوري ضباطها . كل ذلك أورده المؤلف في اسلوب طلي يغري القارىء غير المحارب بقراءته بشغف

نوابغ الشباب

بقلم احمد قاسم جودة — هدية مجلة الهلال

معرفة سير عظماء الرجال وتراجمهم من الامور المستحبة التي تلذ للجميع مطالعتها ولا سيما تراجم الذين نبغوا منهم في سن مبكرة فتكون نماذج من المثل العليا يسير على غرارها الشباب سواء أفي التضحية كان أم في الايمان والجد والوطنية والاقدام ، والتراجم بطبيعتها كما يقول الفيلسوف المشهور كارليل أشمل الموضوعات نفعاً وأعمها لذَّة ومتعة للنفوس ولا سيما تراجم الممتازين الافذاذ والكتب الموضوعة في هذا الموضوع كثيرة نذكر منها على سبيل المثال اعلام المقتطف ورجال المال والاعمال واساطين العلم الحديث غير ان الاستاذ احمد قاسم جوده أحسن صنعاً باختياره هذا الموضوع وجعله على عظماء الشباب اي ان يكون جميع اصحاب التراجم التي في الكتاب قد بلغوا اوج مجدهم في سن الشباب الباكرة وظلوا حياتهم موسومين بسمة الشباب

واليك بعض الذين ذكرهم في كتابه واتى على سيرهم واعمالهم : الاسكندر المقدوني وموتسارت وتوماس تشاترتون وطرفة بن العبد ومصطفى كامل وكيتس الشاعر وغيرهم

وجميع الذين ترجم لهم في هذا الكتاب من رجال السياسة أو الفن أو الادب وكان يحسن ان يضم اليهم سيرة عالم او عالمين من الذين نبغوا في سن الشباب امثال باسكال الذي تعلم هندسة السطوح والاجسام وهو في الثانية عشرة ونشر بحثاً في « هندسة القطوع المخروطية » وهو في السادسة عشرة . ولا جراءج الذي وصف بانهُ « اعظم عالم رياضي حيّ » وهو في الخامسة والعشرين ولافوازيه الذي منح الوسام الذهبي من اكادمية العلوم الفرنسية وهو في الثامنة والعشرين وموزلي وقد كان أحد أركان الطبيعة الحديثة وهو في السادسة والعشرين فكان قتلهُ في جبهة الدردنيل من فواجع الحرب العامة ومن اكبر ما مني بهِ العلم من الخسائر

رئيس التحرير وقصص اخرى

اصدره الاديب صلاح الدين ذهني . وهو طائفة من القصص المصرية المستمدة موضوعاتها من الحياة المصرية دون مبالغة او مخالفة . وامثال هذه القصص تبشر بنهضة طيبة يقوم بها شباب الادباء الذين يتناولون الحياة الاجتماعية بالبحث والتحليل . ولقد قرأت قصصاً كثيرة وضعها ادباء مصريون اختلفت فيها عوامل « التكوين » أو الوضع وتشعبت فيها مناحي البحث وانما قد دعتني كلها الى الاعتراف بأن النثر العربي وإن كان قد تطور وارتقى حتى اصبح في مكنة الكاتب المثقف ان يتخذ منهُ أداة لبحث معضلات الحياة والنفس الانسانية الاَّ انهُ لما يزل في حاجة قصوى الى المرونة والتهذيب والصقل والثروة اللفظية . حتى يقوم بما يقوم بهِ

النثر في اللغات الحديثة الاوربية وحتى يؤدي رسالته في الادب كاملة . فلسنا ننكر ان بعض الكتاب مما يعرضون للابحاث الاجتماعية والنفسية بنوع خاص قد يقفون قاصرين دون التعبير عما يجول بعقولهم من آراء وفكر ، وبنفوسهم من نزعات ورغبات . وعما يشاهدونهُ في الحياة من ألوان وصور . ولن يكون « الهيكل القصصي » ممتعاً مؤثراً الاَّ اذا صب فيهِ الكاتب المعنى القوي العميق واستطاع ان يطوّع له اسلوباً رصيناً لا يعتوره ضعف او فتور . وأحب ان اثبت في هذه العجالة ان هذه القصص تستمد شيئاً غير قليل من نفسية المؤلف كما انها لا تخلو في مواضع كثيرة من أثر قراءته للقصة الاوربية . ولست اعني هنا التقليد فالمؤلف قد ترك هذه المرحلة وانما اعني انهُ يستضيء في ابحاثه الاجتماعية بالمنحى الخاص الذي يعرض لهُ ادباء القصة في الادب الاوربي . والقصة في الادب الفرنسي مثلاً تعرض للاخلاق في شيء كثير من التفصيل والايضاح وتعرض للحياة الزوجية في شيء غير قليل من العناية الخاصة . انها تعالج الاجتماع في شتى صوره وأوضاعه . واما القصة في الادب الروسي فتفتح امام القارىء ميادين كثيرة للبحث والالهام . هي تعنى بأوضاع الحياة الانسانية وتعالج مشكلات الفقر والعمل والتعليم كما ان القصة في الادب الانكليزي قد تبحث مشكلة النسل والعناية بالطفل وتعرض في اغلب الاحيان لدرس الحياة الاجتماعية العامة . فانني لست انسى انني اذا قرأت مسرحية لـ « شو » او قصة لـ « ولز » او « هكسلي » تبينت عقب قراءتي « الفكرة » والمثل الاعلى مما يعمد المؤلف الى إثباته لكي يخرج منهُ القارىء بالفائدة المرجوّة . ولعلي لا أعدو الحقيقة اذا قلت ان هنالك صوراً كثيرة من الحياة المصرية بما احتوتهُ من عادات وتقاليد قد بحثها المؤلف فأجاد بحثها . كما انهُ وفق الى حد بعيد في ان يتخذ من موضوع المرأة سبيلاً الى استهواء القارىء . والخيال في قصصه شيء يتركه المؤلف لطبيعة الموقف فلا يخلق منهُ فنّاً قائماً بذاته وهذا ما يطبع أسلوبه الفكري بالطابع الواقعي . ولقد ترى هذا عندما يتحدث عن الحياة حديث الرجل العادي لا حديث الفيلسوف الذي يتبينها طبقاً لفطنته وبصيرته فهو يرسم باختصار حقائق الاجتماع ما يسر منها وما يحزن ولعل من خير ما أعجبت بهِ قصة « حسنة » وما فيها من حوار أعاد الى ذاكرتي « التحقيق الجنائي » لصاحب يوميات نائب في الارياف وما فيهِ من حوار وذكريات ومواويل بلدية — ولست أحكم هنا ان كان منطق الحديث نفسهُ يدعو الى تكرار بعض العبارات في سياق الحوار . واذا كان هذا يطغى أو لا يطغى على الوضع الطبيعي للقصة

وبعد فالمؤلف يغبط على توجيهه السليم ولانهُ لا يشعر القارىء بشيء من الضجر أو السآمة وذلك لانهُ لا يعجز عن التجوال في مختلف الميادين وهذا ما يهيء له مكانة ملحوظة في الادب القصصي

حليم متري

السيد رشيد رضا او أخاء ٤٠ سنة

تأليف الامير شكيب أرسلان — طبع بمطبعة ابن زيدون بدمشق صفحاته ٨٣٢ بقطع المقتطف

«وبعد هذا فلا شك في انهُ اذا وزن عمل كل من اعيان هذا العصر بل من اعيان كل عصر كان السيد الامام محمد رشيد رضا من أرجحهم ميزاناً وأوفاهم قسطاً لا يجحد ذلك الاَّ من رانت عليهِ الضلالة او اعماه الغرض . واني لاجد نشر مناقبه والتنويه بقدره والاشادة بحسناته الكثيرة والانارة لبراهينه الساطعة من عزائم الله الموجبة وفرائضه المبرمة عملاً بقوله تعالى (وزنوا بالقسطاس المستقيم) هذا مضافاً الى ما كان بيننا من الاخاء القديم والذمام المتين والرمي عن قوس واحدة والاقتداء بامام . لا جرم اني ارى ترجمتي له ديناً عليَّ لا يجوز ان ألوي بهِ ما دامت لي أنامل تمسك القلم »

هذه جملة من مقدمة الكتاب تدل القارىء الكريم على منهج ما كتبه عطوفة الامير شكيب ارسلان عن صديقه السيد الامام محمد رشيد رضا طيب الله ثراه بعد وفاته فقد سجل سيرته في هذا السفر النفيس فأتى بترجمة حياته من قلمه رحمه الله وأتى ببعض ما نظمه وكتبه عنه في حياته وبعد مماته ونشر الكتب التي ارسلها اليهِ بعد ما حذف منها ما اقتضى الزمن الحاضر حذفه لاسباب خاصة

والامير شكيب علم من اعلام البيان في هذا العصر وهو آية الاخلاص والوفاء لاصدقائه كتب سفراً مسهباً عن المرحوم احمد شوقي بك كان له احسن الوقع في النفوس وها هو ذا يتحف القراء بسفر اوسع في سيرة امام من ائمة الاسلام وقد قال فيهِ راثياً : —

مضى الذي كان فيه منتهى أملي	ومن نشدت لتعليمي وتهذيبي
ومن عن الاخذ عنهُ شد راحلتي	ومن للقياه إسآدي وتأويبي
شعرت أن خلت الدنيا بمصرعه	لم يكفني طول تشريدي وتغريبي
فمن أناجيه بعد اليوم في حزني	ومن أرى بثه بثي وتعذيبي
واهاً على حجة الاسلام حين خبا	ذاك الشهاب بليلات غرابيب
واهاً على علم الاعلام حين هوى	فلا تصادف قلباً غير منخوب
هوى وكل جبال العلم دانية	عن شأوه فهي منهُ كالاهاضيب
اين الذي كان ان اجرى يراعته	في أي فن اتانا بالاعاجيب

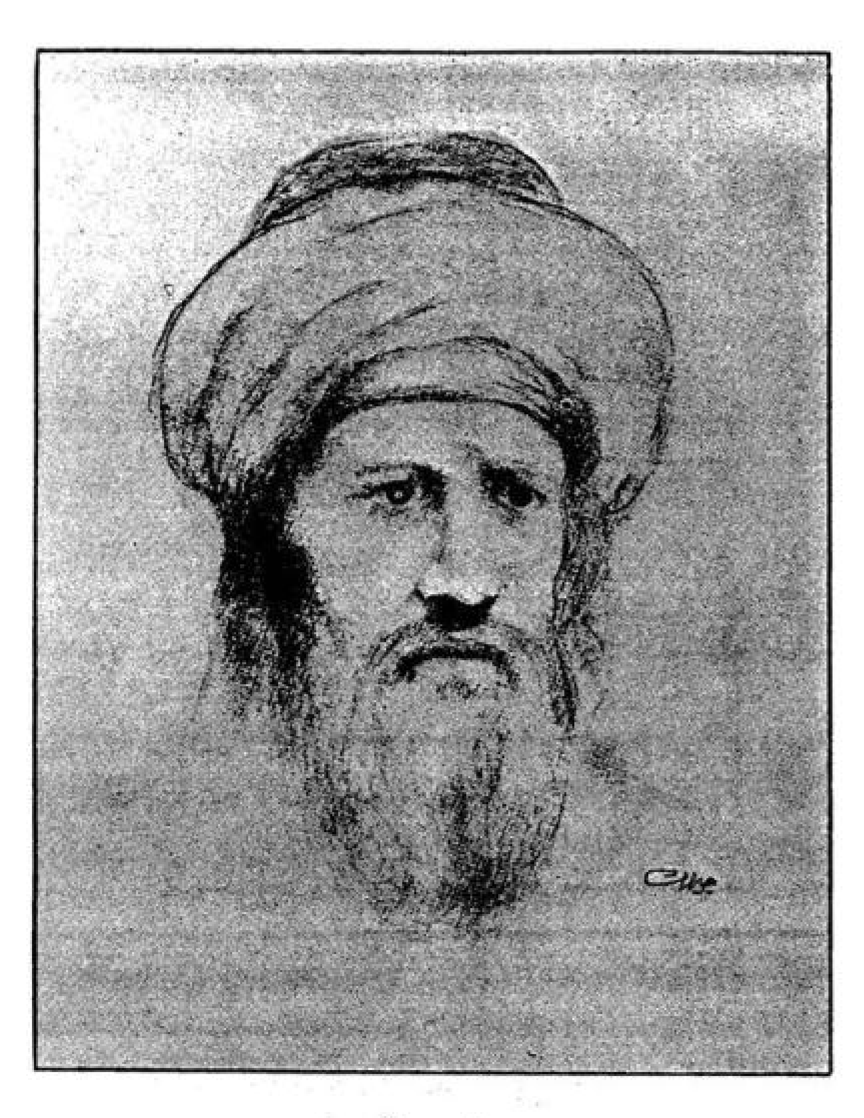
فالكتاب آية من آيات الوفاء وتنويه بقدر عالم كبير وصديق حميم يستحق اعجاب القراء والعناية بهِ والانتفاع بما حواه من سيرة طيبة وكتب خاصة نيفت على نصف صفحات الكتاب والمعلوم ان الكتب الخاصة تكون لها منزلة ممتازة فلو نشرها المؤلف كما هي لكان لها شأن آخر. وفي الكتاب نص المقصورة الرشيدية الكامل فنوجه الانظار الى هذا الكتاب

فهرس الجزء الخامس

من المجلد الثاني والتسعين

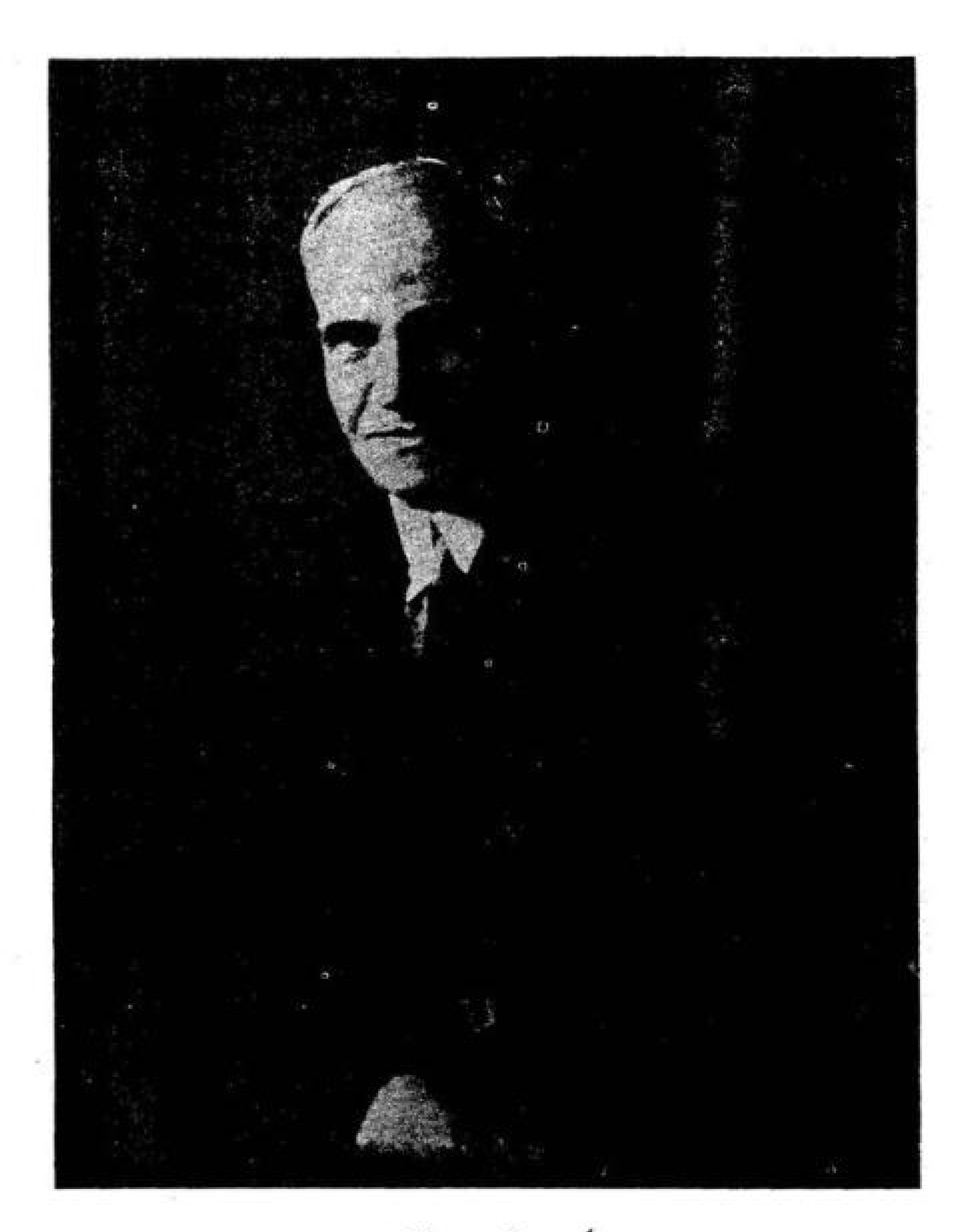
فهرس المجلد الثاني والتسعين

من المقتطف



ابن سینا

کا تخیّلہُ ورسمہُ جبران خلیل جبران



أسعد باسيلي باشا

حديقة المقتطف

رولا

من أروع قصائد الفريد دي موسيه

ترجمة: فليكس فارس



سير الزمان

اوربا المتوسطة

والشرقية

مركز الثقل في السياسة الاوربية الآن

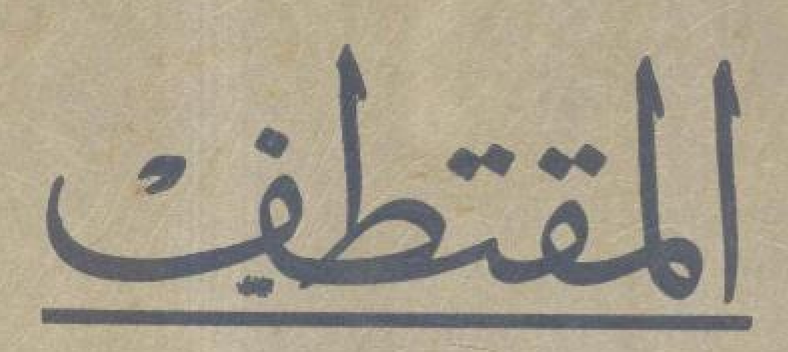


اوربا المتوسطة الشرقية



والى الشمال من لتوانيا لتفيا فاستونيا ففنلندا وهي لم تظهر على هذه الخارطة



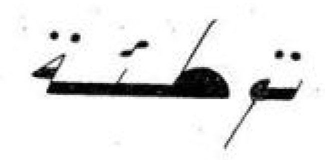


المقتطف



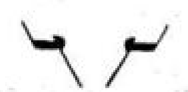
النشأة المسرح المصري

ب . ف



توطئة

إنّ وجهة هذه المسرحيَّة مما انساق له قلمي ورقّت إليه نفسي بعد التحصيل والرويّة والاجتهاد . فرأيتُ أن أصنع للمسرحيَّة مقدّمة أبسط فيها الأسلوب الذي أجريتُها عليه ، فضلاً عن قصائدَ نظمتُها قد وقف على مقاصدها من يدأب في قراءة «المقتطف» ، لكي تكون بياناً لبعض ما نشرته حتى اليوم ثم بعض ما أنا ناشر بعده إن شاءَ ربُّك .



هذه قصة تمثيلية على الطريقة الرمزيّة — إذا شئت . وليست الرمزية ههنا [illegible] توفّق على الرمز بشيء إلى شيء آخر . ولكنّها — فوق هذا — استنباطُ ما وراءَ الحس من محسوس وإبرازُ المضمر وتدوينُ اللوامع والبواده ، بإهمال العالمَ المتناسق المتواضَع عليه المختلَق اختلاقاً يكدّ أذهاننا ، طلباً للعالمَ الحقيقيّ الذي تضطرب فيه رضينا أو لم نرضَ : تدهشنا ظواهره وتروعنا بواطنه وتعجزنا مبادئه — عالمَ الوجدان المشرق والنشاط

الكامن والجماد المتأهّب للتحرّك إلى ما يجري بينها من العلاقات الغريبة والإضافات التائهة في منعطفات الروح ومثاني المادّة ، يشترك في كشفها الإحساسُ الدفين والإدراكُ الصِرف والتخيّلُ المنسرح :

كلّنا يطوي في المكان القصيّ من سريرته شيئاً لابدّ له من أن يُقال — شيئاً أجنبيًا عمّا يتّصل بالمألوف أو المنتظم أو الاجتماعيّ. صاحبُه يكتمه حتى من نفسه وربما جهله، على أنه يتكلم ويتحرّك وهذا الشيءُ شاغلهُ بحيث تُمسي طائفة مُعيَّنة من أقواله وأفعاله مجموعة رموزٍ ، لا رموزُ آراءٍ تنكشف مصادرها وتطّرد مجاريها ولكنْ رموز نزعات مُبهمة وممكنات ضائعة وممتنعات متمثّلة ومغالبات إنما تُرتقب مواصفُها في الساعة التي يهمّ فيها الظلام أن ينفرش فيتصوَّر المرتقبُ هزيزَ الريح وصفق الموج — ثم إنّ مثل هذا الشيء لا يفصّل ولا يعلّل ولكنّه يعرض خطفًا . فكانّ المنشيء يتوجسُ كيف تجاوب نفسُه جرْسَ الأشياء الخارجيّة من دون أن يتحمل ترتيبها ولا تأويلها ، فيعدل عن البسط والتبيين إلى إثبات البرق الذي التوى في السحاب فغزا الظُلمةَ لحظةً ، كأنّما البرق آية وَحْي.

وبَعيدٌ أن يكون الرمز لوناً من التشبيه أو الكناية إلى غير ذلك من ضروب المجاز ، للذهن في وضعها ثم قبولها الحظُّ الأعلى . بل هو صورة أو قلْ سِرب صوَرٍ جزئيةٍ ينتزعها المنشيء من المبذول كما تُنتزَع الأشكالُ من هيئات الموجودات على مرْقم رسّامٍ موفور الحواسّ ، مشغول المخيلة ،مُحدّث القلب ، يَعُدُّ الملموسَ منبثَقَ الانطلاق إلى عالمٍ أمثلَ ، إلى عالمٍ روحانيّ يوفّق بين الواقع والموهوم . فيجعل ذاته الفنّانةَ تعكس على اللوح الموضوعَ المرئيّ بفضل عينين درّبتا على لمح مشاهداته الباطنة . فيمزجُ الرسمُ لوائحَ الرسّام بالخارجيّات ، فتنسجم سرًّا : كأنّ الخطوطَ الأفقيّةَ انبساط نفسه، والخطوطَ العموديّةَ انبعاثها ، والدوائر انطواؤها ، والمنحنيات انقباضها، وكأنّ الضياء

من صحوها، والظلال بعض مشكلاتها، وكأنّ الوجوه الوضّاحة أشواقُها، والمناظر المغبرّة من غمومها: الوجداني يحلّ في المادّي، حتى إنّ الاشكال ربّما تبدو ناقصة أو مختلّة أو مائلة تتردّد عند حدود المعقول لمن لم يكن موطّأ الفهم لها مرهف البصيرة.

وذلك بأنّ هذا الرسّام لا يكاد يحفل بالمنطق، لأنّ المنطق اصطلاح آلته العقل، والعقل إنما يجرّد الأشياء أو يشذّبها ثم يغفل بعضها أو يجهل بعضها. فالتوضيح الذي ينتهي إليه أقرب إلى الاختراع منه إلى التحقيق. والعرفان الجيد شعور بالحقيقة لا العلم بها. وبين العقل والشعور ما بين الهضبة الصخرة والروض الرفّاف.

وإنْ قيل إنّ المنطق هو القانون بل المعيار بل ضابط التناسب، وإنْ قيل إنّ المنطق كمثل الزخرفة العربيّة في أبعادها ومسافاتها ومقاديرها فما لا يرتقي الشكّ إليه أنّ المنطق ينشأ عنه تدبير معقول إنّما يعوزه لهب الحياة: أنظرْ إلى صورة اتّفق أهل الدراية على أنّها خطّافة للعين تصيب في جوانبها شيئاً يترجرج شيئاً يقول لك: «بيني وبين بصرك صلة، صلة اليقظة والإحساس بالوجود». ثم انظر إلى رسم لا يخرج عن خطوط هندسيّة غاية في الدقّة أفلا تقبض صدرك البرودة المنسابة فيه؟ هذا الرسم الذي دبّره العقل من باب الحساب لا يعرف السبيل إلى نفسك، لأنّ النفس على فطرتها تهوى كل ما يرجع إلى الطبيعة الصادقة، والطبيعة تجهل الإحكام في التخطيط والجمود في التعبير: «الطبيعة — على قول المصوّرين التأثريّين les Impressionnistes — لونٌ، تخاطبنا من طريق اهتزازاته الضوئيّة مخاطبةً متقطعة ومتقلبة».

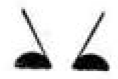
ومثلُ المنشيء إذنْ مثلُ راقصة تنحرف عن قواعد الرقص المضبوط فنّه المتأمّم اعتياداً لا اندفاعاً، فتأبى أن تخطّ أشكالاً محصورةً في نظام سرعان ما يُهتدى إليه، بأن تُحلّل النغمات وتُقطّع الموازين لكيْ تردّها في الفضاء وحدةً متماسكةً حتى

التشنّج، واضحةً وضوحاً يخرّق البصرُ له . وإنّما تكنّي بالتلوّي والتوتّر، والزوان والتقبّض عن انفعالات إحساسها الموسيقي : السماع ينقلب حركةً ! فتراها تُنقّل قدميها على الأرض خفيفتين تهيّأً لقفزةٍ هل تعود بعدها ؟ وتُسلّط ذراعيها على الخلاء الذي حولها تغرف منه طرائفَ تهبُها لمن تلحظه عيناها دون أعيننا ، وتمدُّ أصابعها وتزويها كأنّها تحثُّ وتزجُر قلوباً تطوف بها ، ثم تهصِر الخصر وتُطلق العِطف وتنفُض الثدي وتثني الرأس كأنّها تُنادي ربّاً لا يلتفت إلى عِباده حتّى تتأوّه أجسامُهم فتريد أن تنهدم . فإذا بها ترقص حَسْبَما يخفِق قلبها وينبض عِرقها إذعاناً لإشراق الساعة وانقياداً لهواجسها : فتُخلّص الغريزة من الكبت وتنصر الاضطراب النفسانيَّ من الاختلاج العُضويّ ، فتردُّ الرقص وثبةً حرّةً ، وثبةَ النفس اللطيفة نحو الغبطة المضنية .

ولا يُستخلص من هذا أنّ الإنشاء يصبح ضرباً من الهَذَيان أو أنّه يستحيل مجموعةَ رؤًى شوارد وبَدَواتٍ نوادر . فإنما المنشىء يعرض عن المراسيم الجامدة إرادةَ أن يجعل الكتابة لحناً يغلّب فيه الارتجال الملْهَم على الصناعة الموقوفة: إذ يتجنّب فيه النغَم الحاديَ المعلَّقَ كالسيف الصَّدِيِّ فوق المقاطع واللوازم والفواصل ، ويحذف الانتقالَ المتواتِر تارةً المستديرَ أخرى من القرار حتى الجواب ثم من الجواب حتى القرار في مجرى متساوي النِسَبِ منتظم التقاطيع ، وينبذ تدريج الصوت من الشدّة إلى اللين أو من اللين إلى الشدّة ، ويُهمل توطئة الخروج من طبقة إلى طبقة، ويترك تحْليَةَ القفلة . لِيُنهض التأليف على خطّ هشّ متكسّر، ينحني ويستقيم مع موضوع اللحن ، يمهل ويندفع به ، كأنّما اللحنُ حديثٌ يتجاذبه فِتْيةٌ أنس بعضُهم الى بعض ، فينقطع ويتّصل ويذهب ويجيء ويصعد وينخفض . وإنما الذي يحدو اللحنَ طائفة من المدّات والهَمَسات والهَمَزات تلائمه مرّةً وتُنافره مرّة ، طائفة من الأصوات المُفْرَدَةِ بين حادّةٍ وثقيلة ، ومُفخّمةٍ ومرخّمة ، ومن النقَلات المنفصلة بين

مقلقلة ومضغوطة ، ومقيمة وطافرة ، كأنها من فضلات اللحن تحكي تفاصيل موضوعه وتراسل تعاريجه فتتساوق أنفاسه حتى ينقضي .

يبقى أنّ هذا الإنشاء الذي يعالج ما يلي المادة المباشرة لاصلة له بأنواع أخرى من التأليف : منها الخطابة التي تأكل أدبنا شعره ونثره منذ نشأته ، لأنّ الخطابة حيلة ثم كذب: فإمّا أن تستر بمفرداتها الضخمة وجملها الوارمة بضاعة ضاوية ، وإمّا أن تزوّق ما يكاد يكون مدركاً وتبالغ في التعبير عمّا يكاد يكون محسّاً — ومنها التحليل المطّرد اطراداً الذي يفصل الآراء والميول ويشدّ بعضها إلى بعض فتبدو بسيطة معقولة متلاحقة لأنّ مباعثها لاتزال طيّ الضمائر — ومنها التأثير القريب الفور الذي يهزّ أعصابك دون أن يجعلك تتقرّى العواطف البعيدة أو تجسّ الرعدات الدقيقة، بالتماسه الموضوعات العنيفة السهلة في آن نحو مقابلة الحبّ بالواجب — ومنها الوصف الواقعي الذي يقعد عن الخلوص إلى ماوراء المنظورات : من خواطر وواردات لاتبرز لمشهد الحس — ومنها التلفيق الأدبيّ الذي يستلّ الأشخاص من العالم الإنسانيّ ، فتارةً يعليهم فتحسبهم آلهة وأخرى يهبطهم فتحسبهم شياطين — ثم منها الإبداع الفني لأنّ بلوغ التمام المتناهي في الصناعة نتيجةُ الحذق لانتيجة الشعور، وإنما نتيجة الشعور تطلعٌ قلقٌ إلى تمام لا يتناهى .



وبعدُ فإن أشخاص هذه المسرحية دُمًى تحرّكهم عواطفهم الدفينة ، كما أنّ

الناس آلات في قبضة الحياة الجائشة، إذا هم استبسلوا فنزلوا إلى ساحتها. وقلّما يفعلون (ولا سيا في الشرق العربي).

وكما أنّ الحياة الجائشة تحيّر العقل الغِرّ فتختلط عليه شؤونُها اختلاطاً شديداً حتى يُتاحَ له أن يتدرّب على خشونتها ويستأنس بدقائقها من طريق التألّم والتأمّل والتفهّم فيقدر أن يُطوّح ببصره إلى الحوادث التي وقعت له حياتَه فتنتسق فصولها كلّها أو بعضها بين يديه، كذلك يحسن بمن يقف على هذه المسرحيّة — المُبْهَمة معالمها أوّلَ الأمر — أن يتدبر نواحيها من بعد الوقوف عليها، مستضيئاً باللاحق ليُبصر السابق.

والّذي يَزيد في إبهام معالم هذه المسرحيّة أنّها تجمع في الفاظٍ معدودة طائفةً من الآراء والتأثّرات صبّها الزمان في قوالبها. وكلُّ شيء لاحقٍ بعالَم الفكر طال عهد نشأته واستوائه لا ينقاد للذهن دَفعةً، بل على الذهن أن يتأنّى له يستشفّه — وفي ذلك من اللّذة ما فيه. وعندي أنّه قد حان الزمن الذي فيه أُصبح الإيجاز والإيماء في الإنشاء الرفيع أحبّ الى القارىء العربيّ المهذّب من التطويل والتذييل، حتى إذا رجع القارىء عن الحس الظاهر إلى الحس الباطن تجلّى له ماوراءَ السطور. فتدرَكُ بذلك غايةُ الأدب العالي، ومَدارها أن يجعل المنشىءُ القارىءَ يُشاطره فنّه.

وأمّا لغة المسرحيّة فقد أردتُها سهلة، لأنّه من العسف أن يُغرب المؤلف أو يتكلّف الصياغة ابتغاءَ التهويل، ولاسيا إذا ألّف للمسرح، ذلك أنّ المسرح إنما هو مَنْقَل ألوان الحياة. والحياة الحقُّ طفل يلهو ومايدري أنه لاهٍ، وزهرة تضوع وتعجب لمن يستروح شذاها، ونهر يهدر ولا يطرب لترنيمه. وليس في هذه التعابير كلّها تصنّع ولا استكراه. ثم إنّ الذي أميل إليه أنه كلما بَعُد غورُ التفكير فشطّت المعاني ونزع الأسلوب إلى الإيهام والتلويح بحيث ينبسط على الكلام ظلّ لطيف، جَدُرَ الأداءُ بأنْ يلتزم السلاسةَ والوضوح. على أن تنزّه الكتابة عن المُبتذلات، عن تلك التراكيب

المطروقة المطروقة حتى صارت وساوسَ يَنصبها الادب اليابس في وجه استقلال القلم ، فتمنع الإنشاء أن يدلَّ على صاحبه دلالةً حافلة ، ثم على أن يُتَخيَّر اللفظ مُحَاذَرةَ أن يَزوغ مدلولُه عن المعنى المقصود فَتهزُلَ الفكرة ، وأن تُهَذَّبَ العبارة لئلاَّ تسقط إلى الركاكة فيسمُجَ الأدب.

القاهرة ، ديسمبر ١٩٣٧

قد ورد في هذه التوطئة عدة ألفاظ وتراكيب اصطلاحية ترجع الى التصوف والفلسفة والموسيقى وما اليها جميعاً ، قد تكون غير شائعة لهذا العهد ، غير أني استخرجتها من المصادر العربية الثبتة ، نحو «الرسالة القشيرية » و « مقدمة ابن خلدون » و « الرسالة الشرفية في النسب التأليفية » لصفي الدين عبد المؤمن ابن فاخر الأرموي (مخطوطة ، مخزونة في دار الكتب في باريس : B. N. 2479) . ثم ان هنالك ألفاظاً أخرى وضعتها أو نقلتها من معنى الى معنى فضلاعن تراكيب انصرف اليها قلمي ، منها : النشاط الكامن (أي القائم في النفس بالقوة لا بالفعل) ، والتخيل المنسرح (أي الذي لا يقوم دونه سد) ، والمنتظم (أي المندرج في نظام معين) ، والمبذول (أي ما يقع تحت الحس) ، والذات الفنانة (أي جانب من جوانب الفطرة مهيأ للتأثر بألوان الفن أو ابتداعها) ، والصناعة الموقوفة (أي التي لا تقبل التغير) ، والنغم الحادي (أي الغالب في اللحن والمتردد في ثناياه : Leitmotiv) ، والمنقل (أي المكان الذي ينقل الشيء اليه) ، وغيرها مما يفطن له القارىء من سياق الكلام .

مفرق الطريق

مسرحية في فصل واحد

المسرح

مؤخَّرهُ

صفٌّ من المنازل المنخفضة على شكل المنازل التي تُصاب الآن في الأحياء القديمة

في مصر . من نافذة من نوافذ أحد المنازل الواقعة في الجانب الأيمن

من المسرح يخرج نور . نور مصباح « جاز » (نمّاطة)

كبير . المصباح لا يرى . وإذا أريد إظهاره

فليكن معلقاً بالحائط بمسمار

ضخم معقوف .

مقدَّمهُ

طريق ضيق .

على الأرض جزازات ورق

وبقايا من قصب السكّر . يمتد إلى جانبي

المسرح يميناً ويساراً . الجانب الأيمن منه يضيئه النور

الخارج من النافذة إضاءةً ضئيلة . وأما الجانب الأيسر فبين المظلم

والمنار ، وتشتد الظلمة في أوله من اليسار . والطريق يتحدر من الجانب الأيمن المنار

إلى الجانب الأيسر المظلم . ثم إنه غير مستقيم بحيث يلتقي جانباه وسطَ المسرح زاويةً منفرجة .

الاشخاص

سميرة

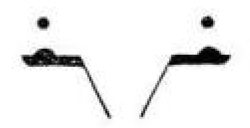
امرأة في السابعة والعشرين أو تقاربها. نحيفة، رشيقة، حسنة الشكل. بَشَرتُها ضاربة إلى الصفرة. شعرها أسود متدلّ بعض الشيء حتى كتفيها. ترتدي «فستاناً» (دُرّاعة) نظيفاً عادياً أسود لا يخلو من أناقة بسيطة، كالذي ترتديه فتيات من العامة في مصر لعهدنا هـذا، مشدوداً إلى ما فوق خصرها، ليس بالواسع بحيث يشفُّ عن رشاقة جسمها، مرتفعاً إلى أسفل العنق، ساقطاً إلى القدمين حتى الحذاء وإلى الذراعين حتى المعصمين. فلا يُرى من الفتاة سوى وجهها السافر وكفَّيها. الحذاء أسود. والمطلوب أن تشتدّ المقابلة بين سواد اللبس وصفرة الوجه واليدين.

الأبله

فتى لا عمر له. مستحكم البنية. منفوش الشعر. يرتدي «جلبيّة بلدي» (جلباباً مصرياً) صفراء. حذاؤه أسود عتيق جداً. تبدو على هيئته القذارة.

هو

شاب في الثلاثين أو يقاربها. جميل المنظر. على رأسه طربوش [هذا غير واجب]. يرتدي «بدلة» (حُلّة) لونها زاهر. وفي عروة في أعلى «البدلة» وردة. حذاؤه أبيض. بَشَرتُه سمراء بل شديدة السمرة.



المسرح

في مفرق الطريق أي حيث ينفرج يمينا مناراً وصاعداً، ويساراً مظلماً ومنحدراً ، يلتقي العقل والشعور، فيتجاذبان المرء ولكل منهما حظه من القوة والغلبة . وأما الجانب المظلم فحيث يقهر الشعور العقل فينحدر المرء وتدعمي رشده الى غاية تحترق عندها النفس . وأما الجانب المنار فحيث يصرع العقل الشعور فيسلك المرء في صعود متلوج بحيا عنده بنجوة من الاحتراق ، بحيا كتل شجرة شظف عودها وجف ورقها وذوى زهرها — على ما هو مبين في رسم الغلاف .

سميرة

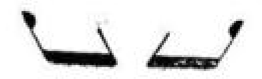
نفس مضطربة تتنازعها حلاوة الماضي الموجع وراحة الحاضر المقفر ، تطمئن الى حياة يلجمها العقل وتجذبها حياة يندلع فيها الشعور . فهي كالموسوسة ، يبدو كلامها هذيانا لأن رأيها لا قرار له. وتراها كلما لمست الحقيقة القاحلة نزعت منها الى متمثلاتها المورقة . واذا انقضت هذه أوت الى التلف المعنوي ارادة ان تحبس حركات نفس رغابة في الاحتراق .

الأبله

لا يقوى على الكلام ، ولكنه يفهم كل شيء . ولا ينكشف أمره حتى ينخلع قلبه، كمظلوم راض بما قسم له يحسبه الناس سادراً ، فاقد الاحساس فيستخفون به ، حتى اذا بنى الجرح الذي يضرب في جنبه فار فارفض فأصاب الظالم رشاش منه يرده الى الواقع . فبكاء الأبله في مختتم هذه القصة — ذلك البكاء الذي نزع الغطاء عن عيني سميرة فنعها أن تبمث على يد مغريها الى الشعور — صرخة مظلوم يعرف أنه من أجلها مقتول.

هو

عنوان الانسان العادي، المنشأ في حلقه المواضعات الاجتماعية (وما أكثرها في الشرق العربي عامة ومصر خاصة)، المبني على البغي، الرقيق لساعته ، العاجز عن ادراك المعاني المجردة حتى يؤخذ بيده فيقاد اليها فيصرعه جلالها ، ثم يود لو يعيش في ظلها دون أن يبذل نفسه بذلا في سبيلها كأنه يقنع بالوقوف بباب هيكلها لعله يظفر ببعض ما فاته من اللذة الخالصة ، فتعوزه الفرصة لتبدل الاحوال التي كانت تكتنفه .



المشهد الأول

الأبله ، سميرة

الأبله جالس في الجانب المنار على الأرض، على مقربة من جدار منزل ، بين يديه رزمة قصب سكر . يقشر قصبة بأضراسه ثم يدفع «عقلة» القصبة (الأنبوبة) الى المرأة فتمضغ منهـا شيئاً وتعيدها اليه فيأتي عليها مصاً . من آن الى آن يضحك ضحكة خفيفة لا معنى لها .

سميرة تجيء وتذهب أمامه في هدوء وبطء . تنظر اليه أحياناً في ذهول .

يستمر هذا التمثيل الصامت زهاء دقيقتين.

وبينما الأبله يكسر « عقلة » من عود قصب على ركبته اذ يشد العود اليه بقوة كأن أحداً يريد خطفه من خلف ، وذلك في أثناء مرور سميرة أمامه بحيث تراه .

سميرة

ما بك ! أيـريد أحد خطفَ قصبيك ؟

الأبله

يومىء أن نعم

سميرة

معاذَ الله ! ومن هذا ؟

الأبله

يحاكي صوت الكلب وهو لا يزال
قابضاً على عود القصب بحرص

سميرة

كلب ؟ ومتى كانت الكلاب تمتصّ القصب ؟

الأبله

يضحك

سميرة

كفى ضحكاً ! كم أشتهي أن أراك تبكي يوماً ، فتُبكيني. [مهلة] أممكن هذا؟
[تنظر اليه]

الأبله

يتأملها في جد

سميرة

أممكن هذا ؟ ولِمَ لا ؟ فهذي الكلاب أصبحت تمتصّ القصب .

الأبله

يطرق

سميرة

أكلبٌ هو ؟

الأبله

يومىء أن نعم

سميرة

لا . إنّ هذا لا يُمكن حصولُه ... كما أنّ بكاءك لن يكون. [صمت] المستحيلات في هذا العالم معروفة [تحدق اليه] .

الأبله

يرفع بصر تائه اليها ورأس القصبة
بين أضراسه وهذه لا تتحرك

سميرة تخاطب نفسها

ولربّما أحببنا أن يكون الأمرُ المستحيل ... مُمكِنا. [مهلة] ماذا أقول ؟
لا . لا . . . ولو أنّ الكلاب أصرّت على امتصاص القصب لقتلتها جميعاً ، جميعاً .
[تخاطب الأبله] أتسمعني ؟ [آمرة] إضحكْ !

الأبله

يضحك ضحكة فيها تكلف وشبه رنين أسى



المشهد الثانى

الأبله ، سميرة ، هو

هو يقدم من الجانب الأيسر في تباطؤ شديد فينصرف الى أول منزل من هذا الجانب . يحاول أن يقرأ اسم الطريق عليه . الأبله ينظر اليه شزراً . سميرة ترمقه في غير عناية . يقبل هو وسط الطريق حيث المكان بين المظلم والمنار وحيث المرأة واقفة. البعد بينه وبين المرأة مقدار « مترين » بحيث يشمله الظلام فوق مايشمل المرأة . يلزم الأبله نظرته طوال الحديث الذي يجري بين هو وسميرة مهملا امتصاص القصب. يعبر عن انفعالاته في صمت .

هو لسميرة

من فضلك ياست : هل هذا زقاق سي عبّود ؟ إني — والظلمة على هذه الشدّة — لا أستطيع قراءة الاسم المكتوب على جدار هذا المنزل [يشير الى المنزل الذي كان انصرف اليه] إن كانت هنالك كتابة .

سميرة

نعم ، هذا زقاق سي عبّود.

هو

شكراً .

سميرة

هل لك أن تفيدني كما أفدتك ؟

هو

يشير أن افعل

سميرة

هل بلغك ، عمرك ، أنّ الكلاب تمتصّ القصب ؟

هو

يؤخر رجلا كمن ذعر من أمر

سميرة

سألتني عن شيء أفلا يحقّ لي أن أسألك عن آخر ؟

هو

ولكنّه سؤال ... سؤال ...

سميرة في لهجة من ينفي شيئا قائماً في ذهن خصمه

لاغرابة فيه .

هو

يتعجب صامتا

سميرة في بطء

كل شيء يبدو غريباً لك إنّما هو جيدٌ معقول عند صاحبه . إنّ سؤالي يدهشك ، ولو جالت أفكاري في ذهنك وتجاوبت على نحو ما تجول في ذهني وتتجاوب لزال دَهَشُك . إنّ الاشياء لا وجود لها إلاّ بنا ، وكلٌّ واحد منا عالمٌ قائمٌ برأسه .

هو

هل لكِ أن تُجيلي أفكارَكِ في ذهني وتجعليها تتجاوب لعلّي أقوى على الردّ ؟

سميرة   في تهيج

إسمعْ . إنّ هـذا [تشير الى الأبله] لايستطيع غير الضحك ، وإني بِضحكِه لسعيدة . وإن عرَف يوماً ما البكاءُ شقيت به . [مهلة] [في تحسر كأنها تخاطب نفسها] ولكنْ... أصادقةٌ أنا ؟ [ثم فكرتها باشارة] وعندي أنه يستطيع البكاء إذا استطاعت الكلابُ امتصاصَ القصب .

هو

إني أوثر ألاّ يجولَ مثل هذه الافكار في ذهني وألاّ يتجاوب .

سميرة

لأنّها أفكار مجانين . [صمت] كلاّ ، بل هي أفكار فئةٍ من الناس يشعرون فوق ما تشعرون . والحقّ أني لا أفهم لِمَ قدرة هذا الأبله على البكاء مرتبطة بقدرة الكلاب على امتصاص القصب . خاطرٌ هجم عليّ من جانبٍ غامض .

هو   ساخراً

صدقتِ .

سميرة

مهما نقُل جميعاً ففي يقيني أنّ وقوع الامر الثاني ينشأ عنه وقوعُ الأمر الأول .

هو

يقين مشكوك فيه .

سميرة

قلتُ : يقيني .

هو

ولكنْ إذا بدا لكل واحد منّا أن يستقلّ بيقينٍ له فإلى أين مصيرنا ؟ إلى الشكّ العام .

سميرة

كلا ! إلى الأمل . [مهلة] [في بطء شديد] الحقيقة ، أليست ذلك الوادي الشَّظِيف يُخْضِلُهُ فَيْضُ مشاهداتي الباطنة ؟

هو

أفّ لهذا الكلام المعقَّد ! [يهم بالانصراف من حيث جاء] .

سميرة

تريدون الأمور واضحةً [هو يلبث في مكانه] خشيةً على سلامة أذهانكم . أينبغي لكل أمر يحصل أن ينساق إلى ناحيةٍ معلومة في ملتويات أفهامكم ، تنتظره ؟ [في سخرية] متاع يندرج في خزانة ! .. لا شيء أكرهُ إلى الحياة من إطارٍ يُعَدّ لمجراها ، إنّ الروح والفكر مع مايجيش فيهما من نزعات ووثبات يُنكران السدّ والحدّ . إنكم تفتكون بهما .

هو — في ضجر ، يشير في عنف

كفى !

سميرة — آمرة في لهف

أعِدْ هذه الكلمة!

هو

لمَ ؟

سميرة — آمرة

أعِدْ .

هو — في شيء من الخشية

كفى . . .

سميرة

لا . أعدها بالنبرة نفسها وأرْدِفها بالإشارة عينها ... أدنُ مني .. لا تخَفْ .

هو — يدنو منها ويقول ويشير كالمرة الاولى

كفى !

سميرة — بالنبرة نفسها والاشارة عينها

كفى !

هو   كمن يخاطب معتوها

مساءَ الخير !

سميرة   تهجم عليه وتمسك بثيابه وترسل
                  طرفها في وجهه ثم في جسمه منتفضة

أي سميرة ؟

هو

من سميرة ؟

سميرة

هل عرفت سميرتين ؟

هو   ينكس رأسه ثم يرفعه ويحدق الى
                  وجه المرأة ويقول في لهجة المدهوش

أنتِ ؟ !

سميرة

لا تجاوب ، وعيناها تكادان تقتلانه

هو   يواصل كلامه

هنا ؟ وهكذا ؟

سميرة

الحبُّ مرحلة الى الفناء ! [مهلة] أمرٌ آخر غريب .

من الآن فصاعداً ينظر هو الى سميرة وجلاً زائغ البصر، مختلج النفس. يحرك يديه الحين بعد الحين في تهيج، ولكن التحريك ليس فيه غلو . وجهه الى الجمهور وسميرة ظهرها الى الجمهور بحيث لا يرى منها الا التفاتات يديها وكتفيها. وأما الأبله فيظل طوال حديث المرأة مبهوتا كالمستفيق على كره من حلم لذيذ والقصبة في يده مائلة ممدودة نحو فمه. يشاهد ما يجري وهو يتألم في صمت . كل ذلك حتى يسمع صوت الناي فتتبدل هيئات الأشخاص الثلاثة .

سميرة في هدوء متممة حديثها

... وما غرابتُه ؟ جرَت الحوادث لي كما يجب أن تجري . أحببتك ، فائتمنتك على ما تملكه يداي حتى أتى يوم قلتَ لي فيه: كفى ! وأشرتَ على نحو ما أشرتَ الآن [تعيد اللفظة بالنبرة والاشارة مرتين كأن اللفظة شبح يلازم ذهنها] . . . فانطلقتُ عنك إلى حيث تنطلق المرأة التي تريد ان تُذلّ الرجال لأنّ واحداً منهم أذلّها . [مهلة] [في سرعة] وأتاني يوماً فيمن كان يأتيني من الرجال الذين كنت ألهو بهم شاب صوته منحوت من صوتك ، فطربت لحديثه وأنا لا أعلم السبب . وأردتُ أن اطرب فوق ماطربت [مهلة] [في تهيج] أممنوع هذا ؟ [في بطء] فعلّمته الكلمات التي كنتَ تنطق بها وأنت مائل عليّ . . . ظلٌّ عريض مطروح على صورةٍ ناصعة . وماكنتُ لأذكرَ أنّها منك ، لأنّ نفسي كانت شربتها فطوتها أضلعي ، ونشرتها شفتا قلبي . وإذا الشاب يوماً يلفظ تلك الكلمات في ذلك الصوت . . . ذلك الصوت ، وهو مائل عليّ . فإذا بك تتمثّلُ لي دَفعَةً ، فكنت كالنار ترفع من بعيد للتائه المطمئن . . . أنتَ ، أنتَ الذي أشربني تلك الكلمات ، أنت الذي قال لي . كفى ! بذلك الصوت. [تشير على نحو ما كان أشار] أنت منقاد لي مرةً أخرى ، وتظفر بي ؟... فخنقتُه ! [هو يتراجع ويرفع يده كأنه يرد شبحاً] [سميرة تواصل كلامها] إنّ أمور القلب لا تنقضي إلاّ بالخنق ! [مهلة] منذ ذلك اليوم أشرقتْ نجاتي ، إذ غاب الذي كان يحسُّ من نفسي وانطفأ الذي كان يشتعل . والآن أعيش في الثلج ... إبعدْ [تلتفت الى الأبله وتصيح] إضحك !

الأبله

يضحك في تراخ

سميرة

هذه الضحكة هي التي تثلجني ، كلّ يوم، كلّ لحظة . أراك دهشاً لأنّ بيننا بيئة إحساس محض... إلاّ أنّه إحساس لا يبلغ الاحتراق. أمّا أنا فقد جُبلت من نارٍ فيأكل

بعضي بعضاً . [مهلة] إنّما أحيا ، والثلجُ من حولي ، طَيْفَ شجرةٍ جرداء !

هو

ولكنْ ألا تهفو نفسك إلى الدفء أحياناً ؟

سميرة في استرخاء

تغالبني فتهفو . غير أنّ الذي يُدفئنا الشمس ، ولذّة الشمس في حُرْقتها .

هو

بقليلٍ من التعقّل تتجنّبين الحُرقة .

سميرة

التعقّل جُعِل لمن يحسب أنّه يُحسّ . مثلي لا بُدّ له من الاحتراق .

هو

إنّك مسرفة .

سميرة

كنتُ كذلك لمّا كنت إنسانة ، لمّا كنت أحبّك ، أيّامَ احترقت

هو

كم أودّ أن أبذل لكِ الدفء .

سميرة

مثلك يُحرق ولا يُدفىء .

هو

علّميني كيف ادفىء .

سميرة

فات الأوان . ما أعرف اليوم إلا كيف احرق ، أفلم أتخرّج على يديك؟ ولِمَ تريد العودة إلى ما كان ؟ هل انتهى إحساسك إلى أقصاه؟ كلاّ ، بل تراني أحاول النجاة

من أرضكم فأسمو عليكم ، فتندم على تهيئتك لي هذه القدرة . [في شدة] إبعدْ ! [مهلة] إنّما حياتي في الثلج .

هو

بينكِ وبين الثلج لا أبرح قائماً .

سميرة

بيني وبين الدفء رائحة حريق .

هو

ولكنْ.. قلبُك .

سميرة في غير عناية

قلبي ؟ [مهلة] لفظ طالما أداره لساني حتى ضاع معناه .

هو

سميرة !

سميرة

ألم أقل لك إني لست أنا . هذا اسم فَنّيي .

هو

ولكن . . .

سميرة

إنّكَ تكثر الاستدراك . ألا تستطيع إطلاقَ الكلام .

هو

أما تعرفين أنّ كل شيء مقيّد ؟ [صمت] هل من شيء يبطل عنده الاستدراك ؟

سميرة بعد مهلة ، وفي بطء ثقيل

إذا احترق . [مهلة] [في تلهف] قلبي ! . .

هو   في لهجة من لا يسلم بحصول أمر

لفظ ضاع معناه .

سميرة   في لهجة من يقيم حجة

ألا ترى البدويّ يتأمّل الصحراء ليلَه ونهارَه ، إذا سئل عن لون رمالها تلعثم ؟

هو

قد عرفتكِ امرأةً لاتحمل كلَّ هذا القدر من العلم . فمن أين أتاك ؟

سميرة   في بطء

أما للحُرقِ فَيَنْض ؟ [مهلة] [في تلهف] قلبي ! . .

هو   في لهجة الحائر

لفظ ضاع معناه . . . ولكنّ هنالك ألفاظاً لاتموت . هذه لفظة الله لا ينفكُّ الخَلق يذكرونها ، أفلا يزال اللهُ اللهَ ؟

سميرة

كما أنّ القلب لايزال على حروفه [تنظر اليه تائهة البصر] .

هو   يدنو منها ويهمس اليها يقربها

الدفء ! الدفء !

سميرة   تحول نظرها عنه كأنها تخاف أن تلين لكلامه. على أنها لاتبتعد عنه . تظهر أنها منجذبة

ذلك وهم .

هو   يقنعها

لولا السراب أيّة قافلةٍ لايَنهكها طولُ الرحلة : ساعةَ اليأس — إذا وارت البئر كنزها عن الأعين القلقة كأنّها فتاة غضّة خَفِرَة ، أو أمست كعجوزٍ تشنّج جلدها لاتبذل سوى الجفاف — يضحك السراب فتعلو الهمم.

سميرة

إنّي عرفت ذلك السراب ، بل شربت منه . وكان الماء أجاجاً على لذّة . وإني أود لو أرتشفه مرةً أخرى . آه ! حتى هذا يفوتني اليوم . [مهلة] [في بطء] الحب مُعتركٌ قتلاه الأوهام.

هو يدنو منها، يقنعها

الشعورُ عكّاز المرأة .

سميرة تنظر اليه في هياج

وما هو للرجل ؟

هو

معراجُه إذا أدرك جوهرَه .

سميرة

ومتى أدركتَه ؟

هو

الليلةَ .

سميرة

شيء تمّ بعد حين تمامه .

هو مدافعا

من ذا يرى أنّ ليس للعنب نشوة من بعد نضجيه ؟

سميرة نافية

في ظنّي أن المرأة جُعلت لتحيا بالحب ، وقد ميتُّ به . وها أنت ذا كأنك تحيا به عني .... إنّ الأمور تنقلب أوضاعُها على أيديكم،لأنكم يُفزعكم الخلوصُ إلى أسرارها

هو

ما أغلظَ كلامَكِ !

سميرة

ولم أنته بعد . [مهلة] أصبحتَ امرأةً تأتيك راضيةً فرحة ، فقلتَ مُتعة . وما كنتَ لتقوى على النزول إلى مضطرَب الحياة، فتعرفَ مَرَحها، فتقولَ نِعمة ... المرأة عندكم زهرة تقتلع لأنَّ إناثكم لم يعلّمنكم أنها تُقطف . وأنَّى لهنَّ أن يفعلنَ وهنَّ يَخشَينَكم أبداً... في عُرفكم أنَّ نساءكم يَهبْنَ لكم أنفسهنَّ. ما أسخفَكم ! إنَّهنَّ يفرِشنَها لكم. [مهلة] أمّا أنا فقد أردتُ أنأشِذَّ عنهنَّ فوهبت لك نفسي حقّاً. فرُحتُ ضحيّةَ ادّعاءٍ جديدٍ للمرأة .

هنا يعلو صوت ناي من النافذة المنارة . صوت خفيت يظل دقيقة . يلتفت الأبله وسميرة وهو الى النافذة . الأبله ينظر شزراً ويطرح بالقصبة التي بيده أرضا . سميرة تضم يديها الى صدرها كالمصلية. هو ينظر كالمأخوذ.

سميرة ل هو

كم يشغلك الناي !

هو

إنه لجيلُ المدّات!

سميرة كأنها في وجد ، شاخصة الى النافذة

إنّها لضلوعي تتقصف مصعّدة في معارج الهواء الصافي. وكم يلذّ لي أن تُفلت ضلوعي من بين جواني! هل تدري ما الإفلات مما يلازمك على كُرهٍ منك؟ إنّ هذا الناي يُعينني على النجاة من الأرض. ولذلك ألبث في هذا المكان، تحت هذه النافذة . . . صاحب الناي ينفخ فيه كل ليلة ، فأحبُّ أن أعيرَه ضلوعي وهو لا يدري. ولو درى لهشّم حُلمي. وما أشدّ حاجتي اليه ! آه، إني أحسّ الحين بعد الحين كأنّ ضلوعي تريد أن تغلق صدري لعطشٍ فيه أعرفه وأهابه.

هو يشير نحو الأبله كأنه يقول:
ألا يسكن هذا عطشك

وهذا؟

سميرة

ضحكه لا يقوى على تسكين ذاك العطش، ولا سيّما في الليل. برودة إلى برودة تهدّ العزم، عزمَ امرأة.

هو

وفيم كلُّ هذا؟

سميرة

أنت لا تفهمني وأنا أفهمك.

هو يشير نحو الأبله

وهل هذا يفهمك؟

سميرة

إن جهله بي من باب آخر.

هنا يعلو صوت الناي، فيتمتم الأبله

هو ينظر الى سميرة ويشير نحو الأبله

ماذا؟

سميرة

كثيراً مايضجّ إذا سمع الناي.

هو

أتُرى صوت الناي يَغيظه؟

سميرة

أتظنه يُدرك أنّ الناي يسعدني على عشرته؟ سترى أنك مخطىء. [تلتفت الى الأبله تأمره] إضحك.

الأبله

لايضحك بل ينظر الى الأرض واجا

سميرة التمثيل نفسه

إضحك !

الأبله

التمثيل نفسه

هو لسميرة

لعلّه يفهمك وأنتِ لاتفهمينه.

سميرة

تظهر التعجب والتفكر

هو يواصل فكرته

علمتني اليوم أنّ الحياة مجموعة سوء تفاهم .

سميرة في لهجة المنكر ، تشير نحو الأبله

إلاّ أنه خفيف العقل .

هو

كما أنتِ واهمة.

سميرة

كما أنتَ مغرور .

هو بعد مهلة قصيرة

ثلاث أحوال من منزلةٍ واحدة .

هنا يعلو صوت الناي مرة ثالثة، ولكن نصف دقيقة فقط

سميرة في أثناء ذلك ، لهو

أسكت الآن .

هو بعد سكوت الناي

حقاً ! إنه لاخَلاص .

سميرة

إنه لمعطاء !

هو

يبذل لك النجاة .

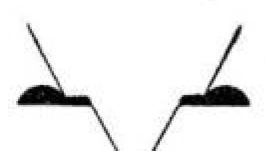
سميرة

من الاختناق .

هو بعد مهلة قصيرة

مسكينة !

سميرة لاتحفل بهذا الرد ، بل تتطلع الى النافذة في شغف، وأما الأبله فيرمقها مغيظاً .



المشهد الثالث

سميرة ، هو

هو يدنو من سميرة ويجعل كفه على كتفها ويجذبها بلطف الى الطريق المظلم وهي منقادة مذهولة وعينها منصرفة الى النافذة ووجهها محول الى مؤخر المسرح لا الى الجمهور . يرى الأبله هذا فينهض يتبعها بحركات واشارات ضالة. وبعد أربع خطوات أو خمس يعود أدراجه وينزوي عن المسرح ناحية « الغيابات » (الكواليس). وفي هذه اللحظة يعلو صوت الناي غاية في الشجي .

سميرة

أمهل .

يقفان . يظل صوت الناي دقيقة كاملة

هو بعد سكوت الناي

أصبحت لاحاجة لك فيه .

يعود الناي دقيقة أخرى كاملة الى مداته الشجية . تستمع سميرة اليه كأنها تنتفض.

سميرة　　　بعد سكوت الناي ، تشير نحو النافذة

دعني أودّعه ... إنه قام مقام عكازٍ لي دهراً... ولم ينحطم قط. وما يُدريني؟ ربما عدتُ اليه ... أفلا أفارقه على وداد؟ [في بطء] لانزال بنا حاجة الى ما ملأ أيدينا مِمّا لم نؤمّل [تميل باذنها نحو النافذة كأنها تريد أن تسمع صوتا متقبضاً].

في هذه اللحظة عينها يسمع من داخل الغابات يميناً — حيث الأبله منزو — نشيج رقيق يقارب مدات الناي الشجية .

سميرة

إسمع الناي يبكيني.

هو　　　يرهف الأذن

لا . إنّ هذا بكاءُ الأبله [مهلة قصيرة] عدوّ الناي.

سميرة ترهف الأذن وتلوي رأسها تحدق الى داخل الغابات من اليمين وتبسط يدها كأنها تدفع شيئاً مكروهاً. في هذه اللحظة يرسل الناي بعض مدات مبهمة تشابه نشيج الأبله .

هو　　　يواصل حديثه

عجباً ! إنّ الناي يراسل الأبله في البكاء . [مهلة قصيرة] عدوّان اتّفقا !

سميرة

ألم نتّفق نحن ؟

هو

جمعتنا اللذةُ وجمعهما الألم .

المشهد الرابع

الأبله ، سميرة ، هو

تنفض سميرة كتفها من كف هو وتسرع نحو الأبله ، فتجذبه من يده في شيء من العنف حتى وسط المسرح ، ثم تدور بحيث تجعل ظهرها ناحية الجانب المنار وظهر الأبله ناحية الجانب المظلم على بعض خطوات أمام هو .

سميرة للأبله

أتبكي ؟ ومن علمك البكاء؟

الأبله

ينظر اليها في تضاؤل

سميرة للأبله ، في شدة

إنّ الكلاب تمتصّ القصب إذَنْ ! وقد فاتني قتلُها . [ثم لهو في لين] أحَرقتَهُ وهو يثلُجُني [ثم للأبله في تراخ] بكاؤك منع البعث !

يتراجع الأبله حتى يقرب من هو

سميرة والأبله يتراجع

ها ! ها ! أنت مثلنا . تبكي وتضحك . ولكنّ ضحكك أكثر من بكائك . فاذكر — إذ كنتَ في بدء أمرك — أنّ للبكاء الغلبةَ أبداً . [مهلة] [للأبله وهو جيماً وهما واقفان جنبا

الى جنب] سيَنْلُج بعضي بعضاً منذ الآن ... [في لهجة التائه] إذا قدرت . [تتراجع حتى تكاد تلصق بالغيابات] [في هدوء تضطرب فيه مأساة] خذا هذا الطريق .. [تشير الى الطريق الذي ما فيه] الذي لا نورَ فيه . . . الذي ينحدر .

سميرة تغيب عن الأعين . هو يأخذ بيد الأبله مطأطئ الرأس والأبله ينشج في سكون ، وكأنّ النشيج يذكّر بمدّات الناي الشجية . ثم يمضيان — الأبله خلف هو — حتى يغيبا .

لحن

مقتطف مارس ١٩٣٨


المقتطف



المقتطف

الجزء الاول من المجلد الثالث والتسعين

١ يونيو سنة ١٩٣٨ — ٢ ربيع الثاني سنة ١٣٥٧

ظواهر الجو واحواله

أيُتاح للعلماء جمع ما يكفي من الحقائق للتنبؤ بها تنبوءًا يُعتمد عليه ؟

يندر بين مباحث العلم الحديث ما هو اوثق اتصالاً بأعمال الحياة اليومية من البحث في احوال الجو. فالطيارة التي يجب ان تقوم برحلة منتظمة على خط معين يهم قائدها وراكبها ان يعرفا ما ينتظر ان يكون عليهِ الجو في خلال الرحلة . والمسافر بباخرة يهمهُ — اذا كان ممن يصابون بالدوار — ان يعرف هل ينتظر ان يكون البحر هائجاً مائجاً بفعل الريح او ساكناً رهواً . والزارع المقيم في الاصقاع الباردة يود أن يعرف هل يكون الربيع دافئاً والصيف معتدلاً ، والقاطن في الاقطار الحارة يرغب في ان يعدهُ العلماء بما يتوقع في الصيف المقبل . ولعل اول ما تتجه اليهِ انظار القراء في هذه البلاد في اثناء فصلي الربيع والصيف ، عند قراءة الصحف ، هو انباء الحالة الجوية كما تذاع من مصلحة الطبيعيات بالحكومة المصرية

ومن المعروف ان استطلاع احوال الجوّ بالوسائل الحديثة لا يمكّن العلماء من توقع الحالة الجوية توقعاً دقيقاً يمتد الى اكثر من يوم واحد . اما التنبؤ بمستقبل الحالة الجوية في الاسبوع القادم او الشهر القادم فيكاد يكون في منزلة التنجيم والكيمياء القديمة . ولكن هذا لا يمنع ان التنبوء بمستقبل الاحوال الجوية كان ولا يزال عملاً يستوقف النظر ويسترعي العناية ولا يندر ان يدر الثروة على بعضهم . حتى ان البيولوجي الفرنسي لامارك كان يعتقد ان حركات القمر تسيطر على احوال الجو . وقضى عشر سنوات في مستهل القرن التاسع عشر ، ينشر كل سنة

كتاباً او تقويماً يضمنهُ ما يتوقعهُ من احوال الجو خلال السنة بناء على قاعدته هذه . وفي مطلع سنة ١٨٣٧ تنبأ كاتب يدعى باتريك مرفي بأن درجة الحرارة في يوم ٢٠ يناير من سنة ١٨٣٨ ستكون أعلى درجات الحرارة في الشتاء كله ، فلما صح ما قال وأذاعت الصحف ذلك عظم الاقبال على تقويمه وجنى من ذلك ثروة لا بأس بها . فالموضوع على ما ترى يستهوي اللب من ناحية وهو شديد الاتصال بالحياة العملية من ناحية أخرى . فهل يتركه رجال العلم في ديجور الوهم ، او يرفعونهُ الى مستوى العلم الدقيق ، وهل في وسعهم أن يفعلوا ذلك ؟

كان همّ العلماء في مستهل القرن العشرين ان يتبينوا الحقائق الطبيعية التي تعيّن أحوال الجوّ ، لعلّهم يستطيعون ان يتوصلوا من طريقها ، الى وسيلة تمكنهم من التنبوء بالظواهر الجوّية شهوراً قبل وقوعها

في مقدمة العلماء الذين أقبلوا على دراسة هذا الموضوع عالم اميركي يدعى تشارلز جريلي أبوت Abbot . كان والد أبوت انكليزيّ الاصل هاجر احد أسلافه الى اميركا في منتصف القرن السابع عشر . وكان يملك مزرعة في احدى الولايات الشمالية الغربية في أميركا وجلّ ما يتمناهُ ان يأخذ أبناؤهُ عنهُ أصول الزراعة العملية ، لكي يعنوا بهذه المزرعة بعد ان تقعدهُ الشيخوخة . لم يكن ابنهُ تشارلز من المولعين بالدرس ولكنهُ مع ذلك كان غير مولع أيضاً بأعمال الحقل . فلما أتم دراستهُ الابتدائية ذهب الى مدرسة عالية في اندوفر . وفي سنة ١٨٩٠ سافر صحبة فريق من رفاقهِ الى مدينة بوسطن ، وكانوا ينوون التقدم لامتحان الانتظام في معهد بوسطن التكنولوجي ، فتقدم للامتحان معهم مع انهُ لم يكن قد استعدَّ لهُ ولما علم انهُ جاز الامتحان منحهُ والده وأختهُ — وكانت معلمة — ما يكفيه على قلة ، للانتظام في ذلك المعهد

كان أبوت في حداثته مولعاً بالاعمال الميكانيكية ولذلك كان شديد الميل الى الهندسة الميكانيكية . إلاَّ رفاقهُ انتظموا في قسم الهندسة الكيمياوية فجاراهم وظلَّ على ذلك حتى أشار عليه احد أساتذه بدراسة الطبيعة لما بدا عليه من دلائل النجابة في موضوعها . ومضت عليه سنتان وكان في احد الايام معنيًّا يبحث في أحد المعامل اذ أقبل عليه رجل في بذلة رسمية وقبعة عالية . فدهش الفتى عندما علم أن زائره ليس الاَّ لنغلي Langley العالم الكبير سكرتير المعهد السمثصوني الاميركي . وكان لنغلي من أشهر الاميركيين في ذلك العهد ، لانهُ كان في مقدمة الذين حاولوا الطيران بآلة أثقل من الهواء . وكان سرّ تلك الزيارة ان مجلس الجامعة كان قد أنبأ لنغلي بعبقرية هذا الشاب فجاء اليه يراهُ ويحدثه قبل ان يدعوه للعمل معهُ في المرصد الفلكي الطبيعي التابع للمعهد . وسرّ لنغلي بما رأى فما عاد الى وشنطن حتى أبرق الى أبوت يدعوهُ اليه عندما وصل أبوت الى مكتب المعهد بوشنطن كان لنغلي قد سافر الى أوربا . فاذا الشاب

الباحث بين ليلة وضحاها مدير للبحث الفلكي الطبيعي في معهد كبير . وكان ذلك في سنة ١٨٩٥

كان لنغلي قبل ذلك بنحو أربع عشرة سنة قد انشأ محطاً في جبل وتني بكاليفورنيا الغرض منهُ وضع بيان لذلك الجزء من طيف الشمس الذي يقع تحت اللون الاحمر . وكان قد بدأ تجاربه لقياس الفعل الحراري في هذه الاشعة ، بجهاز اخترعهُ وسمَّاه « بولومتر » Bolometer وكان قلب هذا الجهاز سلكاً مسودًّا من البلاتين يمتص حرارة الطاقة المنصبة عليهِ فيولّد تياراً كهربائيًّا يزيد وينقص وفقاً لقوة الطاقة الممتصة . وكان في قدرة هذا السلك الكهربائي ان يميّز تغيراً في درجة الحرارة يبلغ جزءًا من مليون جزءٍ من الدرجة

ما الغرض من هذا القياس ؟ كان لنغلي عالماً زكناً فكتب في سنة ١٨٤٤ « إذا كان رصد حرارة الشمس التي تتصل بالارض من أصعب المشكلات في الطبيعيات الفلكية فهو كذلك المشكلة الاساسية في علم الظواهر الجوية meteorology ». وكان رأيهُ انا اذا عرفنا المقدار الاصلي مما يتصل بنا من حرارة الشمس ونوعه وكيف يؤثر في طبقات الهواء وما يتصل منهُ بالارض وكيف يؤثر في حرارة الارض بواسطة الغشاء الغازي الذي يحيط بالكرة الارضية ، وما يرتد من هذه الحرارة الى الفضاء — إذا عرفنا كلّ ذلك أصبح في قدرتنا ان نتنبأ بأحوال الجوّ

ولكنهُ أدرك ان معرفة مقدار حرارة الشمس في الاصل ، قبل ان يمتصها الجوّ ويفرقها عمل صعب الصعوبة كلها ، لان ما يصل منها الى الارض ليس إلاَّ بقيةً مما خرج من الشمس أصلاً على بعد ٩٣ مليوناً من الاميال منا. ومع ذلك حاول لنغلي ان يقيس المقدار الكامل لحرارة الشمس قبل دخولها جوّ الارض. وهذا المقدار يشار اليه عادة باسم « الثابت الشمسي » Solar Contant واذاً فالقياس لا يجب ان يقتصر على الاشعة التي تحت الاحمر بل يجب ان يشمل طيف الشمس كلهُ

كان العالم الفرنسي بوييه Pouillet قد قدّر « الثابت الشمسي » في سنة ١٨٣٨ بوحدة حرارية واحدة و٧٦٣٣ر من الوحدة لكل سنتمتر مربع في الدقيقة . وهذا يعني أننا إذا أخذنا طبقة من الماء مساحتها سنتمتر مربع واحد وعرّضناها فوق الغلاف الغازي الذي يحيط بالكرة الارضية لاشعة الشمس امتص الماء من حرارة الشمس ما يرفع حرارتهُ ١٫٧٦٣٣ وحدة حرارية كلّ دقيقة . فهل هذا القياس صحيح ؟ ان العلم قد تقدم منذ عهد بوييه وإذن فلا بدَّ من اجراء تجارب لتمحيص قول العالم الفرنسي . وكانت النتيجة التي اسفر عنها بحث لنغلي، ان الثابت الشمسي يبلغ نحو وحدتين حراريتين للسنتمتر المربع في الدقيقة

وقد عرَّفت دائرة المعارف « الثابت الشمسي » بقولها انهُ « مقدار الطاقة الواقعة عموديًّا في دقيقة واحدة على سنتمتر مربع من مساحةٍ موقعها خارج جوّ الارض » [1] وقد قدّر هذا

---

(١) ج ٢١ من دائرة المعارف البريطانية الطبعة ١٤ صفحة ٥٦٣

الثابت الشمسي بحسب مباحث أبوت ومقاييسهِ ١٫٩٤ من الوحدة الحرارية ولكنهُ يتفاوت تفاوتاً يسيراً وفقاً لعوامل شتى منها الكلف الشمسي

وجاء في الصفحة ٣٥٦ من المجلد الثامن عشر ان « الثابت الشمسي » يتفاوت بحسب قياس أبوت من ١٫٩٠ من الوحدة الحرارية الى ١٫٩٨ منها

واذ كان أبوت قائماً بهذه المباحث في سنة ١٩٠٣ في مدينة وشنطن العاصمة ظهر لهُ من حقائق الرصد ان فيها ما يشير الى هبوط متوسط حرارة الشمس بنحو عشرة في المائة عن المتوسط المألوف . وبدا لهُ ان هذا الهبوط مستمر برهة . وكان على وشك ان يصرف النظر عن هذه الظاهرة اعتقاداً منهُ ان حالة غير طبيعية في جو الارض حجبت من ضوء الشمس في منطقة وشنطن مقداراً أعظم مما يحجب عادة . ومن حسن الطالع انهُ لم يفعل بل أعاد النظر في ما لديهِ من الحقائق مقابلاً بين ارصاد حرارة الشمس في تسعة وثمانين محطاً من محطات الظواهر الجوية ، منتشرة في المنطقة الشمالية المعتدلة ، في الفترة التي لاحظ فيها النقص بوشنطن ، وبين أرصادها السابقة . فدهش عند ما علم ان متوسط الحرارة هابط كذلك في جميع هذه المحطات عن متوسطهِ في السنوات السابقة . وكان متوسط الهبوط درجتين بالمقياس المئوي . وظلَّ متوسط الحرارة هابطاً بقية تلك السنة . فهل هذا مجرَّد اتفاق ؟ والواقع ان العلماء يقيمون أكبر وزن لما يتبينونهُ من شذوذ عن الاحوال السوية لانهُ قد يهديهم الى حقائق مجهولة . فحدَّث أبوت رئيسهُ لنغلي في الموضوع . وكانا كلاهما يتوقع شيئاً من هذا فعزَّزت الارصاد ما توقعا . وفي شهر يونيو من سنة ١٩٠٤ أعلنا ان الشمس قد تكون نجماً متغيراً وان مقدار اشعاعها ليس ثابتاً . وهذا في حد نفسهِ رأي جريء ، ولكن العلماء دهشوا عند ما عقب العالمان الاميركيان على تصريحهما الاول بأن التغيُّر في درجات الحرارة على الارض ، واذن فالتغيُّر في احوال الجوّ ، متصل اتصالاً وثيقاً بهذا التغير في مقدار اشعاع الشمس

أينطوي هذا القول على ان أبوت كشف شيئاً جديداً يمكن الافادة منهُ في التنبؤ بأحوال الجوّ ؟ وهل عثر حقيقةً على قاعدة تهديهِ في هذا السبيل الوعر ؟ وهل يكفي ان نقيس التغيُّر اليومي في ما يصلنا من اشعاع الشمس ، لكي نعلم ما تكون عليهِ حالة الجو غداً او بعد غدٍ او في الاسبوع القادم ؟ أيستطيع علماء الظواهر الجوية ان يبنوا على هذه القاعدة اقوالاً يبشرن بها الى الزرَّاع مثلاً لكي ينظموا اعمال زراعاتهم في الفصل المقبل على أساسها ؟

هذه هي الاسئلة التي خطرت للذين قرأوا اذاعة أبوت ولنغلي . الا ان أبوت كان عالماً حذراً فلم يندفع في تيار الظنون ، ولا بنى عليها العلالي والقصور ، ولم يثبت كلامهُ الا في صدور الناس الذين يهمهم معرفة أحوال الجوّ اياماً وأسابيع قبل وقوعها . الا أنهُ ما فتئ يبحث في قياسهِ

الحماسة فاندفع في دراسة هذه الظاهرة وما يلابسها ثلاثين سنة متوالية، لعله ينفذ الى السرّ في التنبؤ بأحوال الجوّ وما يجب أن تكون عليه في الاسبوع القادم او الشهر القادم. الاّ انهُ لم يتمادَ في تفاؤله بما تمّ لهُ وبما يمكن ان يتم فكتب: «ومع اننا لانزال بعيدين عن التنبوء بتقلبات الجوّ البعيدة التي تؤثر في الحاصلات فليس بكثير علينا ان نقول إنهُ يبدو لنا اننا سائرون في الاتجاه الصحيح»

ومن ثمَّ أقبل أبوت ورفاقه على البحث بغية جمع حقائق أوفر. وفي سنة ١٩١٠ أستنبط جهازاً أدقيقاً لقياس « الثابت الشمسي ». والواقع ان هذا الجهاز لم يكن جهازاً جديداً بكل معنى الجدّة لانهُ كان الجهاز الذي استعمله بوييه الفرنسي، فأخذه أبوت وأتقن صنعهُ وأضاف اليهِ اضافات متعددة فأصبح وكأنهُ جهاز جديد. وقوام هذا الجهاز مقياس للحرارة مثبت في ثقب في قرص فضي وقد طلي سطح القرص بمادة سوداء لكي يمتص كل الحرارة الواقعة عليهِ. وطريقة استعمالهِ ان يوجه الجهاز الى الشمس رأساً فتسقط أشعة الشمس في الانبوب سقوطاً عموديًّا على القرص مدَّة مائة ثانية. ثم يدوَّن مقدار ارتفاع الحرارة في المقياس، ويقابلهُ بمقدار ارتفاعهِ قبل ذلك وبعده. وعلى هذا الجهاز الاعتماد في قياس الثابت الشمسي كل يوم في مدينة وشنطن. ثم دعاه العلاَّمة هايل الى جبل ولسن بكاليفورنيا، حيث المرصد المشهور لقياس حرارة الشمس هناك. وكان أبوت قبل ذلك قد خلف لنغلي مديراً للمعهد السمثصوني في سنة ١٩٠٦

وبعد ان قام بهذا العمل المضني الدقيق الخالي من روعة الجدَّة، في مرصد جبل ولسن، رأى انهُ لا بدَّ لهُ من ان يقابل أرصاداً بأرصاد اخرى يقوم بها على قمة جبل آخر. وكان يستطيع ان يفعل ذلك على احدى قنن المكسيك، ولكن الثورة كانت مجتاحها فجمع أمتعتهُ وأجهزتهُ وذهب الى بلاد الجزائر لكي يستوثق من ان التقلبات التي تبينها في ارصاده على قنة جبل ولسن ليست متأثرة باضطرابات محلية في الجو. وكانت أجهزتهُ تملأ ثلاثين صندوقاً. فأنشأ المحطة في أحوال جوية مرهقة وأقام هو واندرس انغستروم السويدي يقيسان حرارة الشمس عشرة أشهر متوالية. ولولا ثورة بركان كاتماي في الاسكا لأطالا اقامتهما في الجزائر. ذلك ان ثورة هذا البركان نفثت في جوّ الارض مقداراً عظيماً من الغبار الدقيق، اتصل أثرهُ البالغ بجوّ الجزائر فجعل كلّ قياس لحرارة الشمس في هذه الاحوال قياساً شاذًّا لان هذا الغبار كان يحجب جانباً غير يسير من حرارة الشمس. ومع ذلك أسفرت أرصاد الجزائر — الى ان ثار بركان كاتماي — عن تأييد النتائج التي دلَّت قبلاً في وشنطن وجبل ولسن على تقلب في حرارة الشمس

وكان قد تجمع لديهِ من الحقائق في سنة ١٩١٣ ما حمله على اصدار تصريح مؤكداً فيهِ رأيه بوجود صلة بين التقلب في حرارة الشمس وبين أحوال الجوّ على الارض. اي ان الحرارة على الارض تنخفض وفقاً لقلّة الحرارة المنبعثة من الشمس

قوبل هذا التصريح بكثير من النقد ، وكان الحجة الاولى في تقدم شكّ العلماء في ما للهواء من شأن في امتصاص اشعاع الشمس . فقال بعضهم ان أبُوت استصغر شأن الجوّ في امتصاص اشعاع الشمس وان الثابت الشمسي يجب ان يكون ضمن ما يقول . وهذه مسألة في الوسع تحقيقها . فعمد في السنة التالية الى بلونات مقيَّدة صغيرة وضع فيها جهازه المشهور لقياس الثابت الشمسي ، بعد ان اضاف اليه ما جعلهُ ذاتي التدوين ، واطلقها في ولايتي اوماها ونبراسكا الى اعلى طبقات الجوّ ، فلما عادت البلونات والاجهزة الى الارض ، ودرس ما دوّن فيها ، ثبت ان قياس أبُوت كان دقيقاً وان قياس حرارة الشمس من قنن الجبال كافٍ لهذا الغرض

لقد انقضت عشر سنوات منذ لاحظ أبوت تلك الصلة الظاهرة بين التقلّب في اشعاع الشمس وبين حرارة الارض . ومع ذلك لم يخرج من تلك الملاحظة شيء جديد يستطيع علماء الظواهر الجوية ان يبنوا عليه قاعدة تمكّنهم من التنبوء باحوال الجو تنبوءًا بعيداً دقيقاً . ومع ان مصلحة الظواهر الجوية في اميركا كانت قد انشئت سنة ١٨٧٠ لم تفز من مباحث أبوت بما زاد رجالها علماً ، فمضت في طريقها المألوف تذيع ما تتوقعهُ من احوال الجوّ في الاربع والعشرين الساعة التالية

كانت هذه الاذاعات الرسمية قائمة في اميركا كما هي قائمة في مصر ، على تحليل عوامل الاحوال الجوية كضغط الهواء ، ومستوى الحرارة ، وسرعة الريح واتجاهها ، ومقدار المطر والثلج . وكان في طول الولايات المتحدة الاميركية وعرضها ، وكذلك الاسكا وجزائر الهند الغربية ، ثلاثمائة محط رسمي وسبعمائة محط متطوّع يجمع رجالها الحقائق المتعلّقة بالعوامل التي تقدم ذكرها ، ويبعثون بها بالبرق الى مكتب الجوّ الرسمي في وشنطن العاصمة ، فيستخلص منها العلماء احوال الجوّ المحتملة في الاربع والعشرين الساعة التالية ويذيعونها

ظلت هذه الطريقة في سنة ١٩١٣ على ما كانت عليه في سنة ١٩٠٣ لم تفز من مباحث أبوت بشيء جديد . ومع ذلك ما زال العالم متلهفاً الى العثور على طريقة دقيقة تمكن العلماء من التنبوء الدقيق البعيد المدى باحوال الجوّ . اما أبوت نفسهُ فكان لا يزال على اعتقاده وهو انهُ سالك السبيل الصحيح . ولكن مؤيديه كانوا قلة لا كثرة

الآ ان انباء من الارجنتين بدأت تتطرّق الى مكاتب العلماء المعنيين باحوال الجوّ ، مؤيدة ما قالهُ أبوت . وكان اول ما سمع أبوت بذلك في سنة ١٩١٧ اذ تلقى كتاباً مطويًّا على ما يلي : «في طيه نسخة من رسالة بسطت فيها نتائج المقابلة بين قياسات أبوت الشمسية وبين درجات الحرارة والضغط في شتى انحاء العالم » وكان أبوت قد تعوّد ان يتلقى رسائل تشتمل على مشروعات شاذة ومقترحات غريبة لحلّ اعقد المسائل العلمية باسهل الاساليب ، فأقبل على قراءة هذه الرسالة والريب يساورهُ . ولكنهُ ما كاد يتقدم في مطالعتها حتى ثبت لهُ انها بحث عالم محقّق وقد كان

مدارها تحليلاً دقيقاً لتأثير التقلب الاشعاعي الشمسي — الذي قال بهِ وقاسهُ — في درجات الحرارة والضغط على الارض، فأعجب بها واشار بنشرها حالاً « بالصور والرسوم البيانية »

كان واضع هذه الرسالة، الذي اثبت بها صلة لا تنكر بين التقلب في اشعاع الشمس واحوال الحرارة والضغط على سطح الارض رجلاً اميركياً يدعى هنري هلم كلايتون Clayton مدير محط الظواهر الجوية بالارجنتين. وقد كان عند ما بعث برسالته هذه الى المعهد السمثصوني في السادسة والخمسين من عمر قضاه منذ كان ابن سبع عشرة سنة، في دراسة احوال الجو ورصدها

فلما كان كلايتون في الثالثة والعشرين، نشر في المجلة الاميركية للظواهر الجوية، مقالاً استرعى انظار بعض العلماء فعين مساعداً لمدير المرصد بجامعة مشيغن. ثم اتصل بمرصد هارفرد فبقي فيه خمس عشرة سنة قام في خلالها بدراسة دقيقة للغيوم وعلاقتها بتيارات الهواء في طبقاته العليا. واخترع جهازاً من نوع المطيَّرات التي يطيرها الصغار ولكنهُ جعلها في شكل صندوق يحتوي على أجهزة متنوعة لقياس الظواهر الجوية. وبعد ما اشترك في بحث دولي لدراسة مهاب الرياح في شمال المحيط الاطلنطي نُدب في سنة ١٩١٠ لتدريب رجال محط الظواهر الجوية بالارجنتين. وفي سنة ١٩١٥ عثر على رسائل تحتوي على أعمال أبوت فاكبَّ عليها ووجد تلك الصلة الوثيقة بين ما وجده ابوت من تقلب في اشعاع الشمس، وبين درجات الحرارة والضغط في مواقع مختلفة على سطح الارض. فآمن بان احوال الجوّ مرتبطة بمشاهدات أبوت

عندما تلقى أبوت رسالة كلايتون كان معنيًّا بمسائل اخرى لا تعلق بالشمس. ذلك ان الحكومة الاميركية كانت قد خاضت غمار الحرب، فدعتهُ كما دعت غيره من العلماء لبحث الشؤون العلمية والصناعية الخاصة بالقتال. وكانت مهمتهُ ان يتقن صنع الانوار الكشافة المستعملة ضدَّ الطيارات لانهُ كان من اخبر الخبراء بالمرايا والعدسات. الاَّ انهُ في خلال بحثهِ هذا، كان ذهنهُ مشغولاً. على وعي منهُ وعلى غير وعي، بتلك العلاقة بين تقلب الاشعاع الشمسي واحوال الجوّ على الارض. وكان يؤمل ان يتاح لهُ قريباً انشاء محطات للرصد تمكنهُ ارصادها من امتحان تلك العلاقة. ولم تكد تشرف الحرب على ختامها حتى فاز بانشاء المحط الاول في كاسوما بجمهورية الشيلي، حيث صفاء الجوّ يؤاتي هذا النوع من الارصاد

كان بحث كلايتون قد استرعى نظره واستوقف اهتمامهُ فرغب في ان يتعاون معهُ على المضي فيه. وفي سنة ١٩١٨ اشتركا في سعي لامتحان رأيهما. فاتنما الحكومة الارجنتينية بتأييدها. وشرعا في جمع الحقائق في محطي الارجنتين والشيلي. واتفقا على ان يرسل رجال المحط الشيلي — القائم على جبل ارتفاعه ٧٥٠٠ قدم فوق الصحراء — قياسهم للثابت الشمسي بالتلغراف كلَّ صباح. ولم يكن هذا بالعمل السهل، لان استخراج الثابت الشمسي كان يقتضي عمليات رياضية

دقيقة طويلة . فاخترع ابوت طريقة سريعة وصنع لها جهازاً خاصًّا دعاه Pyrheliometer وبذلك تمكن رجلان مدرّبان في محطة شيلي من القيام بعثات من الارصاد واستخراج الاشعاع الشمسي منها وابراق ارقامها الى محط الارجنتين كلَّ صباح . وكانت النتائج التي اسفرت عنها هذه الارصاد مؤيدة لرأي أبوت وكلايتون . وسلمت حكومة الارجنتين بها وبنت عليها بيانات الاحوال الجوية كانت تنشرهُ يوم الاربعاء من كل أُسبوع فيشمل الاسبوع التالي كلهُ

الاّ ان فريقاً غير يسير من العلماء لم يسلم بأقوال هذين العالمين وكانت حجة هذا الفريق انهم لايفهمون كيف يمكن ان يُحدثَ تغيرٌ يسير يبلغ واحداً في المائة او اقل في اشعاع الشمس تأثيراً ما في أحوال الجو على الارض. وضرب أحدهم مثلاً على ذلك بقوله هبك في حجرة تضيئها مائة مصباح . أفترى فيها تغيراً يذكر في ضوئها اذا أُطفىء احد هذه المصابيح . وأيد هذا الرأي عالم آخر ذو منصب رسمي ، يدعى همفريز ، فقال ان اقل العوامل تأثيراً في أحوال الجو ، هي العوامل التي مصدرها خارج الارض ، لانها يسيرة الفعل او ان فعلها لم يثبت ولذلك لا يلزم ان نعمل لها حساباً في التغيرات الجوية

الاّ ان ابوت لم ينحرف عن جادَّتهِ ، ومع انهُ لم يكن مقتنعاً الاقتناع كلهُ بصحة رأيهِ ، كان واثقاً بأنهُ سائر في الاتجاه الصحيح. فقال ردًّا على ما تقدَّم « يبدو ان تغيراً قدرهُ نصف واحد في المائة في اشعاع الشمس ، يستطيع ان يحدث تغيراً ظاهراً في احوال الجو . فقد يصحب التغير في اشعاع الشمس تغيرٌ في مقدار الغيم فيتضاعف التأثير ويتجسم . ثم إن التقلبات الشمسية تؤثر في الاشعة التي فوق البنفسجي ، وعليهِ فقد تغيّر كثافة طبقة الاوزون . وهذه الطبقة من الاوزون قائمة على ارتفاع أربعين ميلاً فوق سطح الارض وهي عامل فعّال في امتصاص الحرارة المنطلقة من الارض — بعد امتصاصها — الى الفضاء فاذا قلَّت كثافة طبقة الاوزون مليمتراً ، فقد يكون ذلك كافياً لهبوط درجة الحرارة على سطح الارض هبوطاً غير يسير [1] وعند ذلك تتأثر حالات الضغط الجوّي بتغيّر درجات الحرارة . وكذلك يمكن ان يحدث تقلُّب عظيم الشأن في الظواهر الجوّية ... وبهذا قد يفسر تأثير تغيُّر يسير في إشعاع الشمس ، في أحوال الجوّ على الارض

ولم يقف ابوت عند هذا الحدّ . بل مضى يستندي اكفَّ الاغنياء لينشىء المحطات الجوية بغية جمع أوفى قدر من الحقائق في شتى انحاء العالم ، فأنشأها هنا وهناك وهنالك . وكان من نصيب مصر ان أُنشىء فيها احد هذه المحطات ، في جبل سانت كاترين بصحراء سيناء سنة ١٩٣٢ وختم اعمالهُ في السنة الماضية لقلة المال اللازم للمضي في البحث

وكذلك وُلد هذا العلم الجديد !

---

(١) راجع مقتطف ابريل ١٩٣٨ صفحة ٤٣٢



أثر الامراض

المتوطنة في كفاءة الجندي المصري

للدكتور محمد خليل عبد الخالق بك [1]

(ا) مقدمة

يعلق الكثيرون آمالاً كباراً على مستقبل الجيش ، عند اتمام برنامج زيادة عدده وتغيير سلاحه وانشاء الفرق الميكانيكية والقوى الجوية

ويرجع هذا التفاؤل الى الشهرة التي اكتسبها في الحروب التي اشتبك فيها في القرن الماضي منذ عهد قريب ولا يزال الجيل الحاضر يتندر باخباره نقلاً عن اجدادهم وآبائهم الذين شهدوا هذه المعارك في فلسطين وسوريا والاناضول واليونان والقرم وكريت وفتح السودان

وقد أبلى الجندي المصري في جميع هذه المعارك بلاء حسناً حتى هدد بفتح الاستانة لولا تدخل الدول الاوربية . وليس عجيباً أن يتفاءل المصريون المعاصرون بمستقبل جيش هذا ماضيه القريب ، اعتقاداً منهم انه لم يطرأ على الجندي المصري تغيير ذو شأن في الاربعين عاماً الاخيرة التي انقضت على فتح السودان (سنة ١٨٩٦) . وقد اشتهر الجندي المصري في هذه المعارك بالصلابة والاقدام وقوة الاحتمال وعدم الاكتراث بقلة الطعام بالقياس الى الجيوش الاخرى وأخذ قسطه من الراحة والنوم . ولكن هناك معلومات جديدة معروفة في الاوساط العسكرية ولاسيما القائمين على حركة التجنيد وفرز المقترعين والضباط الذين يدربون المستجدين من الجند تنقض هذا الاعتقاد من اساسه . وسنبين فيما يلي العوامل التي تسبب ذلك ألا وهي : الامراض المتوطنة التي يتعرض لها عامة المصريين في سن مبكر من حياتهم وتلازمهم بقية عمرهم

(ب) الامراض الطفيلية بين افراد الجيش المصري

في خريف سنة ١٩٢٣ أثارت حكومة السودان مسألة دخول افراد الجيش المصري الى السودان وهم مصابون بالامراض الطفيلية ، خصوصاً البلهارسيا والانكلستوما ، وخطر ذلك كامل في نشرها بأنحاء السودان حيث يعسكر الجنود

---

(١) الاستاذ بكلية الطب ومدير معهد الابحاث ومستشفى الامراض المتوطنة بوزارة الصحة . وهذا نص المحاضرة التي القاها في مؤتمر المجمع المصري للثقافة العلمية بدورته التاسعة

وقد رأى كبير اطباء الجيش — الدكتور سبنس — وقتذاك أن هذا الطلب ينطوي على كثير من المغالاة اذ أن عدد الجنود الذين يدخلون الى السودان كل عام لا يتجاوز الفين ، وكان محل اقامتهم بالخرطوم او حلفايا او ام درمان حيث لا ينتظر في الظروف العادية أن ينشروا الامراض الطفيلية اذ ان وسائل التخلص من الفضلات والمواد البرازية والبول في ثكناتهم لا تدع مجالاً لانتشار هذه الامراض . ولقد انتهز كبير اطباء الجيش تلك الفرصة لبحث موضوع انتشار الطفيليات وتأثيرها في كفاءة الجيش المصري ، فبدأ ابحاثه بالالتجاء الى قسم البلهارسيا والانكلستوما بمصلحة الصحة ، وقد دربت وقتذاك بعض أطباء الجيش على فحص الافراد وعلاجهم من هذه الامراض ، وقد أعرنا الجيش الادوات والادوية اللازمة

دوّن الدكتور سبنس نتيجة هذا البحث في رسالة نال بها درجة دكتور في الطب من جامعة ادنبره وسأستشهد ببعضها فيما يلي

(ج) نسبة الصالحين من المقترعين للجندية في مصر

يسير نظام التجنيد في مصر من ناحية انتخاب الافراد الصالحين للخدمة العسكرية على نفس النظام المتبع في انجلترا مع العلم بأن التجنيد في مصر عام بينما هو في انجلترا بالتطوع . . . . فتقوم بفحص المقترعين في سن التاسعة عشرة هيئة من الضباط ليس فيهم طبيب ليستبعدوا منهم بدون فحص طبي أولئك الذين لا شك في عدم صلاحيتهم بمجرد المشاهدة كالقصر الشديد او العاهات الجسمانية كالعرج والعور والعمى الخ

وقد تدهشون حينما تعلمون ان ٨٠٬٠٠٠ من ٩٠٬٠٠٠ مقترع يرفضون لهذه الاسباب وحدها ، كما ذكر الدكتور سبنس . يعني ان نحواً من ٩٠ ٪ من المقترعين تبدو عدم لياقتهم للخدمة العسكرية للعيان دون فحص طبي

ومن الـ ١٠٬٠٠٠ الباقية ، ينتخب ٤٠٠٠ ويعفى الباقون (٦٠٠٠) اما لعدم لياقتهم بعد الفحص الطبي او لحفظهم القرآن او دفع البدل العسكري او لغير ذلك من الاسباب كوحيد اب هرم او وحيد أمه المطلقة او عائل اسرة الخ . وقد وجد ان ٩٩ ٪ من مقبولي الجيش من المقترعين (اي من هذه الاربعة آلاف) مصابون بالامراض الطفيلية . ولكن نظراً لبساطة عدواهم او عدم ازمانها لا تؤثر تأثيراً شديداً في مظهرهم الخارجي ، ولكنها تؤثر في كفاءتهم كجنود . . . . فعند بدء تدريبهم في الطابور العسكري ، قل أن لا يغمى على عدد منهم بعد مضي قليل من الوقت . والمرة الوحيدة التي ذكرها الدكتور سبنس والتي لم يحدث فيها اغماء في الطابور كانت الدفعة التي فحص وعولج فيها جميع أفرادها من الامراض الطفيلية قبل تدريبهم

وقد جاء في هذا البحث ايضاً انهُ في سنة ١٩٣٣ كان ١٤٫٠ ٪ من المرضى بالمستشفى العسكري

للجيش المصري يعالجون من الامراض الطفيلية وان ٢٩٫٠٪ من الذين يقصون من الجيش لعدم صلاحيتهم بعد تجنيدهم يرجع السبب في إقصائهم الى البلهارسيا وأغلبها البلهارسيا البولية المنتشرة في شمال الدلتا . وعلى ذلك يمكن اعتبار ان عدد الافراد الصالحين للجندية رغم اصابتهم بالطفيليات اصابة بسيطة لا يتجاوز ٤ ٠٪ بين سن ال١٩ و ٢١ اي السن التي يجب فيها ان تكون الصحة الجسمانية والكفاءة البدنية في أعلى درجاتها

ولو قارنا هذا بنتائج التجنيد في الجيش البريطاني ، مع ان التجنيد فيه بطريق التطوع ، لوجدنا ان ٥ر٢١٪ تقريباً يرفضون بمجرد الفحص الطبي العلي يقابله ٩٠٫٠٪ من المتطوعين المصريين وان ٥ر٢١٫٠٪ تقريباً يرفضون بعد الفحص الطبي يقابلهم ٦٠٫٠٪ من الباقين عندنا فيكون الصالحون للخدمة العسكرية هناك ٥٧٫٠٪ مقابل ٤٫٠٪ في مصر . وهذه الحقائق تدعو الى الجزع الشديد من جهة كفاءة الجيش المصري للدفاع عن بلادنا تجاه الجيوش الاوروبية وتتطلب المبادرة بدون توان الى اصلاح هذه الحالة ، خصوصاً اذا علمنا ان نتيجة أي اصلاح من هذا القبيل سوف لا يظهر أثرها كاملاً إلاّ بعد مرور ٣٠ عاماً ، عندما ينشأ جيل جديد قد اتخذت الاحتياطات لوقايته من عدوى الامراض الطفيلية في سن مبكر

(د) الاسباب التي طرأت وكان من أثرها انحطاط كفاءة المصريين البدنية عامة وبالتالي كفاءة الجندي المصري

كانت الاراضي المصرية الزراعية الى أوائل القرن الحالي تقريباً تروى ريًّا حوضيًّا ، أي انها تزرع محصولاً واحداً في السنة يستمر بضعة أشهر ، وتكون الارض جافة ومعرضة لاشعة الشمس بقية اشهر السنة كما هو الحال اليوم في مديريات جرجا وقنا واسوان . ولقد كانت هذه الاحوال غير ملائمة لنمو الطفيليات التي تصيب الانسان كالبلهارسيا التي تعيش القواقع الناقلة لها في المياه الراكدة او البطيئة الجريان والانكلستوما التي تعيش يرقاتها في الارض الرطبة التي تروى باستمرار او التي يقرب مستوى المياه الجوفية فيها من سطح الارض . والملاريا التي يتكاثر وينمو البعوض الناقل لها في مزارع الارز وبعض البرك ومجاري المياه التي لا توجد الا في المناطق التي يستديم الري فيها طوال شهور السنة ويكون الصرف فيها معدوماً او سيئاً

فبينما تكون نسبة العدوى بالبلهارسيا بنوعيها المثاني والمعوي ٨٠٫٠٪ من سكان الدلتا والفيوم. نجد ان العدوى لا تزيد بحال عن ١٠ ٠٪ من مجموع السكان في المناطق التي تروى ريًّا حوضيًّا بمديريات جرجا وقنا واسوان . بل اغلب هؤلاء العشرة في المائة يصابون بالعدوى اثناء رحلاتهم طلباً للرزق بالعمل في الجهات التي تروي ريًّا صيفيًّا والتي تنتشر فيها العدوى

والشأن في الانكلستوما والملاريا ، يجري على هذا المنوال مع تفاوت في النسب

هذه الامراض نظراً الى وجود مسبباتها في محيط الفلاح بالمناطق الزراعية وفي المياه التي يشربها والمزارع التي يشتغل فيها ، يكون التعرض لها في سن مبكر ، فلا يكاد يحبو الطفل حتى يصاب بالانكلستوما ، تخترق يرقاتها جلده في فناء الدار حيث يتبرز أفراد العائلة وعندما يشب عن الطوق ، ويرتاد مجاري المياه حول القرية — يسقي الماشية او يستحم او يسبح — يصاب بالبلهارسيا ... بل ان جراثيم البلهارسيا كامنة في الماء الذي يجلب في « البلاص » للشرب والنظافة

وهو في جميع ادوار حياته معرض للدغ البعوض الناقل للملاريا في المناطق التي تنتشر فيها زراعة الارز أو توجد بها البرك او مجاري المياه الصالحة لتوالد هذا النوع من البعوض

ويكاد يكون جميع الاطفال في كثير من القرى مصابين بالبلهارسيا ويشاهدون قطرات الدماء تنزل في اعقاب بولهم ، فيعتقدون أن هذا علامة على الرجولة والفتوة

فاذا سألت صبياً : هل انت مصاب بالبلهارسيا اجاب : كلاّ فاذا سألته : هل تتبول دماً اجاب : نعم

فاذا قلت له : ان هذا هو البلهارسيا

اجابك : لا . . . ان هذا علامة الرجولة وجميع الاولاد يتبولون دماً مثلي

وهناك مشاهدات عديدة تثبت أثر الريّ المستديم مع انعدام الصرف في انتشار هذه الامراض على صورة لا تقبل الجدل ، فقد فحصت مناطق في مديريتي قنا واسوان ، قبل تحويل الزراعة فيها من حوضية الى مستديمة بواسطة اقامة طلمبات على النيل . فكان من أثر ذلك أن زادت نسبة المصابين بالبلهارسيا من (٠—١٠ ٪) قبل اقامة الطلمبات الى نسبة تتراوح بين ٤٥ر٧٥ ٪ بعد ثلاث سنين من إقامتها

ومثل آخر تسوقهُ : وهو منطقة كوم امبو الواقعة بالقرب من اسوان التي استغلتها شركة روتها ريّاً مستديماً . . . فنسبة البلهارسيا فيها ٨٢ ٪ بينما هي لا تزيد عن ١٠ ٪ في المناطق المجاورة التي لا زالت تروى على طريقة الحياض

وأود ان ابادر الى القول بأن هذه العلاقة بين الري المستديم مع رداءة الصرف او انعدامه وانتشار هذه الامراض لم يوضح علمياً ويقرر بطريقة لا تدعو الى الشك إلاّ في السنين الاخيرة نتيجة للاعمال والدراسات التي قام بها معهد الابحاث بوزارة الصحة

ويسرني أن أذكر أن الاتجاه الحالي في مصلحة الري بوزارة الاشغال ينصرف الآن الى تحسين الصرف وخفض مستوى المياه الجوفية مما سيعود على صحة السكان وعلى الانتاج الزراعي بالخير الجزيل . ويكفي لتقدير ما تبذله وزارة الاشغال من العناية بهذا الموضوع ان الوزير الحالي معالي حسين باشا سري رئيس هذا المجمع الاسبق رأى ان يلقب نفسه (بوزير الصرف) لا (وزير الري) في مصر ومن الضروري ان يكون هناك تعاون وثيق بين القائمين بأعمال الري

والصرف وبين رجال الزراعة ورجال الصحة، لان هذه الاعمال مرتبط بعضها ببعض ارتباطاً تاماً بحيث يكون لأي تغيير في احدها اثره في النواحي الاخرى . وهكذا يبادر تشعر بأن هذا التعاون سيكون له اثره في رفاهية الفلاح من جهة الصحة ومن جهة تحسين احواله الاقتصادية

(ﻫ) ما يطرأ على المصريين اذا اصيبوا بالامراض الطفيلية في سن مبكر

هذه الطفيليات تفرز سمومها في جسم الانسان وتحدث فيه فقر الدم، فتسوء تغذية اعضائه ويبطىء نموه، وربما كان التأثير في قواه العقلية اشد منه في قواه البدنية

وكثيراً ما يشك رجال القرعة العسكرية في شخصية المقترعين لضآلة أجسامهم، حتى انهم ليظنون انهم استبدلوا الشخص المطلوب بأخ له أصغر منه، اذ لا يمكن تقدير عمر أحد هؤلاء الشبان بأكثر من ثلاثة عشر او أربعة عشر عاماً . . . . بينما يتضح من التحقيق الدقيق في النهاية ان هذا هو الشخص المطلوب بالذات وانه قد بلغ حقيقة التاسعة عشرة او العشرين من عمره وان ضآلة جسمه وظهوره بمظهر الطفولة ناتج عن عدواه في سن مبكر بالامراض الطفيلية . . .

وكثرة هذه الحالات في شمال الدلتا متفقة في ذلك، مع كثرة انتشار الامراض الطفيلية بل ان قصر المصريين وطولهم، قد يرجع في أكثر الحالات الى درجة انتشار عدوى الطفيليات بينهم . ويتضح ذلك جلياً بمقابلة نسب المرفوضين من المقترعين لقصر قامتهم في الوجه البحري ومصر الوسطى ومصر العليا حيث نجد انهم يبلغون ٣١ر٨٨٪ بالوجه البحري، بينما يبلغون ٧ر٨٧٪ بمصر الوسطى، و٤١ر٩٪ بمصر العليا . . . .

وهذه النسب تتفق تماماً مع درجة انتشار الطفيليات فيها . . . . بل لو قابلنا هذه النسب بقصر القامة من مقترعي القاهرة والاسكندرية حيث تكاد تكون عدوى الطفيليات معدومة فيهما، لتبين انها في القاهرة ٣ر٠٪ وفي الاسكندرية ٢½٪ بينما هي في محافظة دمياط التي تمثل أقصى انتشار عدوى الطفيليات في شمال الدلتا بشكل واضح ٩ر٢٦٪

(و) تأثير الامراض الطفيلية في الانتاج العضلي

المشهور عن الفلاح المصري أنه صبور دؤوب مثابر على العمل طيلة نهاره، وقد تمتد به ساعات العمل الى شطر من الليل . . . .

لكن قد يتساءل عن مبلغ إنتاج هذا الفلاح في هذه المدة الطويلة وموازنته بما ينتجه الفلاح الاوربي . وقد قام المستر براون مدير قسم البساتين بوزارة الزراعة بعمل هذه الموازنة بين الفلاح المصري والفلاح الانجليزي، فوجد ان نفقات انشاء قناة في انجلترا تقل عن نفقات انشاء مثلها في مصر مع أن أجر الفلاح الانجليزي يبلغ أضعاف أضعاف أجر الفلاح المصري

ولكن هذا الفارق الكبير في الاجر تعوضهُ الزيادة العظيمة في انتاج الفلاح الانجليزي عن جملة عمال مصريين من المناطق الموبوءة

هنالك تجربة اخرى تبين أثر هذه الامراض في الانتاج . ففي مكان منعزل في غيانا البريطانية تقيم ادارة مناجم البوكسيت (خام الالومنيوم) وتعنى الشركة القائمة على هذا العمل بعلاج العمال والعناية بهم وقد أمكن لطبيب هذه الشركة ان يقنع المدير بوجوب علاج هؤلاء العمال من الانكلستوما وبعد تردد كثير وافق على ذلك . . . وذكر في تقريره النهائي الذي نشر في مجلة « طب البلاد الحارة » بلندن انهُ يقرر ان الشركة لم تصرف اي مبلغ أتى بفائدة تماثل ما جنتهُ الشركة مما أنفقتهُ على علاج العمال من مرض الانكلستوما ، فقد زاد انتاج العمال أنفسهم وبلا تغير في ساعات العمل ٣٣ ٪ مقدراً بالاطنان التي استخرجت وبغير ان يشعر العمال انفسهم بذلك . وعلاوة على ذلك فقد قلت الاجازات المرضية بين العمال من الامراض الاخرى البسيطة كالانفلونزا واشباهها قلة ظاهرة

ويمكننا ان نتصور كيفية حدوث ذلك بان العامل السليم عند ما يضرب بمعوله في الارض يغور الى بعد اعمق في حالة العافية مما يغور اليه في حالة مرضه

وذكر الدكتور سبنس ان الجنود المصريين في السودان يستهدفون بسرعة للامراض وتضعف مقاومتهم اثناء المرض ، مما دعا الفلاح المصري الى كره الغربة ، واذا تغرب انتهز اول فرصة لاوبته الى الوطن ، وفي محيطه الجديد تظهر عدم مقاومته للعوامل الجديدة المحيطة به . . . .

وتلك نقطة هامة تتعلق بامانينا العريضة في استعمار السودان . واكثر المصريين مهاجرة داخل القطر المصري هم من يسكنون جرجا وقنا واصوان (المناطق التي تقل فيها عدوى الطفيليات)

(ز) تأثير الامراض الطفيلية في القوى العقلية

تمكنّا من تقدير درجة التأخر العقلي الناشئة عن هذه الامراض ، بواسطة اختبارات الذكاء . . . وقد تبين من ذلك ان مقدار الذكاء في طفل لهُ من العمر احدى عشرة سنة مصاب بالانكلستوما هو $\frac{1}{2}$ ٧ سنة اي ان قوته العقلية تكون مساوية لطفل سليم في الثامنة والنصف من عمره . . . . والبلهارسيا والملاريا لهما نفس تأثير الانكلستوما وربما اشد

والفلاح المصري مشهور الآن ببطء تفكيره ومن مظاهر ذلك انهُ يلجأ الى اعادة اي سؤال يلقى عليه مهما يكن بسيطاً قبل اجابته . . . فلو سألته عن اسمه لبدأ بترديد سؤالك قائلاً : « اسمي ايه ؟ ! » قبل ان يجيب . ويكابد الضباط عناء كبيراً في تدريبهم على الحركات العسكرية البسيطة مما يستنفد صبر الضباط فيعمدون الى عقاب الجنود او صفعهم ونعتهم بأسوإ الصفات مما لا يحدث مثله في الجيوش الاوربية اذ ان هنالك للجندي كرامة لا يستهان بها . والحقيقة ان

الضباط والجنود معذورون . فالضباط لا يعلمون ان ما بالجندي من عدوى جعلت مداركه لا تتعدى مدارك صبي صغير . ولو علموا ذلك لتذرعوا بالصبر الطويل . والجندي يعمل ما في وسعه باخلاص كبير على الاقل خوفاً من العقاب ولكن مداركه رغم ارادته لا تسمو الى الدرجة التي يتطلبها ضباطه منهُ . ومن المعلوم ان تقدم الجنود في التعليم عائل تقدم التلاميذ في تلقي الدروس وهذا التقدم يقرره المتأخرون لا النوابغ . فالمعلم والضابط كلاهما يراعي في دروسه ان يسير طبقاً لمقدرة اقل فئة من التلاميذ والجنود

ومن الطريف ان مدرسة تابعة لاحدى الارساليات الدينية في كينيا فحص جميع تلاميذها للانكلستوما . فلاحظ القائمون بالتدريس ان الاطفال المصابون هم الذين لا ينصتون للدروس ويشاغبون ويشاكسون زملاءهم ، ويأتي ترتيبهم في المؤخرة . وقد شوهد انهم تحسنوا جداً في الخلق والتحصيل بعد علاجهم ، حتى أنهُ اتبع نظام دوري في هذه المدرسة يقضي بعلاج جميع الطلبة الراسبين في كل امتحان لعدوى الانكلستوما بدون أي فحص ، وقد أتى ذلك بأحسن النتائج

ويلاحظ هنا ان الجندي في الحروب الحديثة لا يطلب منهُ الشجاعة والصبر والاقدام فحسب، ولكن يطلب منهُ استعمال أدوات حربية غاية في دقة الصناعة والتعقيد الميكانيكي يقتضي استعمالها ذكاء ودقة في الملاحظة والتقدير، بحيث تكون مثل هذه الامراض الطفيلية عقبة كبيرة في الحصول على عدد كاف من الاشخاص الصالحين لمثل هذه الاعمال . بل ان هناك فئة الطيارين الذين يجب ان تتوافر فيهم صفات الرجل الكامل بدنيًا وعقليًا. ولقد علمنا انهُ توجد الآن صعوبة كبيرة في الحصول على العدد الكافي من الطيارين من بين أفراد الجيش المصري . ونحن ما زلنا في البداية ولم تصل الطائرات الى العدد الذي يفي بحاجات الدفاع عن البلاد

(ح) كيف يمكن ان نمد الجيش المصري بحاجته من الجنود الاصحاء جسمانيًا وعقليًا .

أوضحنا فيما سلف ان الامراض الطفيلية تحدث أبلغ الضرر عندما تصيب الاطفال فتعيق نموهم الجسماني والعقلي ، ولذلك يجب ان توجه العناية الى المحافظة عليهم من العدوى ، ونصل الى هذه الغاية بما يأتي : —

أولاً — توفير المياه الخالية من الجراثيم للشرب في القرى سواء أمن آبار عميقة كانت ام مياه مرشحة ومعقمة

ثانياً — إقامة مراحيض في كل منزل من منازل الريف ، حتى لا يلجأ السكان الى التبرز في فناء الدار او حولها أو على شواطىء مجاري المياه حول القرية او غير ذلك

ومما يؤسف له أن الاحصاءات دلت على ان ٢½ ٪ فقط من منازل الريف المصري بها مراحيض ، بلا نظر الى قيمتها من الوجهة الصحية

ولا ينتظر اصلاح ما دامت المواد البرازية منتشرة في أفنية الدور وفي الطرقات وعلى شواطىء الترع والمجاري ، ويتعرض للعدوى منها الاطفال منذ نعومة أظفارهم

ثالثاً — نظافة القرى على وجه العموم بأزالة القمامة والقاذورات يومياً ، بالكنس والرش والتخلص منها بالحريق او دفنها في الارض أو نحو ذلك

بدون هذه الوسائل الثلاث (مجتمعة) لاأمل لنا مطلقاًفي الحصول على جنود اكفاء في المستقبل والى أن يحين الوقت لتنفيذ كل ذلك بانشاء المجالس القروية والمحلية التي يجب أن توكل اليها هذه الاعمال ، علينا ان نبادر بفحص وعلاج تلاميذ المدارس الالزامية التي سيدخلها جميع الاطفال المصريين في المستقبل القريب . وربما كان أجدى على مصر علاجهم قبل تعليمهم، فكثير منهم لا يمكنهم الاستفادة من التعليم بهذه المدارس لشدة عدواهم . . . . زد على ذلك أن الفقر المدقع ، يدفع بأهل هؤلاء التلاميذ الى ارسالهم في الصباح على الطوى لا تستر أجسامهم ملابس تحميهم من برد الشتاء او حر الصيف ، وتستنزف الطفيليات دماءهم مما يجعل هذه المدارس بدون علاج الاطفال وتغذيتهم كما قدمت ، دور تعذيب لا دور تعليم

ويسرني ان أذكر ان وزارة المعارف منتبهة لهذه الحالة السيئة وتقوم الآن بوضع نظام كامل للعناية بصحة هؤلاء الاطفال في سائر المدارس كشطر هام من واجباتها التعليمية . . . . إذ اتضح ان اعتلال صحة هؤلاء الاطفال عقبة ليس من السهل التغلب عليها لنجاح التعليم

وسيكون لذلك النظام عند تنفيذه أثره الحسن في رفع مستوى التعليم والصحة والذكاء

وسيكون من نتائجه البعيدة ان يكون هؤلاء الصبية عند بلوغهم سن التجنيد اصلح من الجيل الحاضر للجندية الحديثة

وفي الوقت الحالي يجب ان يكون فحص المجندين عاماً وشاملاً ، ويجب ان يعالجوا جميعاً حتى الشفاء من هذه الامراض قبل البدء في تدريبهم . ولا يكون الفحص والعلاج قاصراً على من تبدو على سيماهم علامات المرض أو شحوب اللون

ولذلك يجب مد القسم الطبي في الجيش المصري بجميع الوسائل الحديثة للتشخيص والعلاج على نطاق واسع . ولا شك في ان ذلك سيؤدي الى رفع مستوى كفاءة الجندي المصري، ومما اسلفنا يتضح انهُ لا يمكننا الحصول على جنود اكفاء دون رفع المستوى الصحي لافراد الامة الذين يجند افراد الجيش من بينهم

اذن فأهم وسائل الدفاع عن القطر المصري ليست فقط في تكديس المدافع والذخائر والطائرات وتوزيعها على جنود لايحسنون استعمالها بل ايضاً في ادخال المياه الصالحة للشرب في القرى وتعميم المراحيض بها وتنظيفها وفحص الاطفال في المدارس وعلاجهم من الامراض الطفيلية

الشعر والحياة

لفليكس فارس

أينَ يا نفسُ تكمن الغاياتُ   في بقاءٍ غاياته شهواتُ
أينَ يا ارضُ في ترابكِ ما يجـدي وما تنتهي بهِ الرغباتُ
أينَ مقياسٌ ما يفيد وما لا   تقعَ فيهِ إنْ حُدِّدتِ الحاجاتُ
نَهلةٌ بعدها كُسيرةُ خُبزٍ   كلُّ شيءٍ سواها فضلاتُ

***

علمتني الحيـاةُ انـَّا خيالاتٌ م ترامى ما حولها الزائلاتُ
ليس للشيء في الوجودِ وجودٌ   إنَّما الشيء ما تريك الصفاتُ
كلُّ ما في الآفاق رصف حروفٍ   والمعاني ما تشعر الكائناتُ
ما الحياةُ الدنيا سوى صفحاتٍ   لكَ منها السطورُ لا الصفحاتُ
أنت تتلو منها شعورك فيها   لحياةُ (اللاشاعرينَ) مماتُ
هي دنيا تداخلَ البؤسُ والنُّعْـماءُ فيها فكلُّها شُبُهاتُ
فقصورٌ وعـزةٌ وثراءٌ   وجنانٌ ظِلالُها وارفاتُ
وقفارٌ ضلَّ الحُداةُ عليها   وبحارٌ تجتاحها العاصفاتُ
ومهودٌ ينوّرُ الطفلُ منها   فاذا الطفلُ في اللحود رفاتُ
كلُّ شيءٍ فيهِ ابتسامٌ ودمعٌ   نِعَمٌ في صميمها نَقِماتُ
كلُّ يأسٍ فيهِ ارتياحٌ خفيٌّ   كلُّ نصرٍ تُطوى بهِ حسراتُ
كم فراقٍ يقرِّب الروحَ للرو   حِ وقربٍ في ضيقه فلواتُ
كم فقيرٍ لم يعرفِ الجوعَ يوماً   وغنيٍّ تجيعهُ الخيراتُ
لستَ تدري اذا سبرتَ الخفايا   ما تواري الآلامُ واللذاتُ

هَنْفَةُ اللذةِ المجوحةِ في القلب زئيرٌ قرارهُ زفراتُ

***

كلُّ ما في الوجود يغرق في الشعر فطيرُ الفلاة والزَّهراتُ

تتلاقى في النور شدواً وعطراً ثم تُفني أشباحَها الظُّلماتُ

يذهب الزهرُ والطيورُ فتبقى في الخفايا العطورُ والنغماتُ

ما أفادَ الطيرَ الشجيَّ التغنّي والأقاحي أنفاسُها العطراتُ

ليس مما نجودُ نحيا فرزق الكلِّ في الكونِ قسمةٌ وهباتُ

***

أيها الشاعرُ الشجيُّ تغنَّى ليس منكَ الإلهامُ والقافياتُ

أفتدري كنهَ الشعورِ ومن أيِّ مهبٍّ تجتاحك الخاطراتُ

أنت قيثارةُ الوجودِ فمن أي وجودٍ تهزّكَ النقراتُ

أفتشكو وفي ضميرك من كلِّ جمالٍ وروعةٍ لوحاتُ

أفتشكو وفي فؤادك من كلِّ فؤادٍ متيَّمٍ خفقاتُ

***

مُتعةُ العيشِ في نفوذِ المعاني والمعاني في روحنا كامناتُ

ما يفيد الكتابُ غِرّاً جهولاً أُغلقت دون فهمه الآياتُ ؟

***

ليس للشيء في الوجودِ وجودٌ إنما الشيء ما تُريك الصفاتُ

ليس يُرضي الخيالَ الأخيالٌ إن هذا ما علّمتني الحياةُ

ألقيت هذه القصيدة في الحفلة التي أقامها الفرع الأدبي لنادي بلدية الاسكندرية في ٩ — ٥ — ٣٨ ، وقد تناظر فيها شعراء الاسكندرية في موضوع « الشعر لا فائدة منه » . فأيد الرأي الشعراء : عثمان حلمي ، يوسف فهمي ، رشاد عبد العزيز ، عبد اللطيف النشار ، وعارضه الشعراء : خليل شيبوب ، عبد القادر العوا ، مصطفى صبحي ، محمد السيد . وترأس المناظرة : الشاعر فليكس فارس

المعدة والانفعال

بحث طريف

في طبائعها المتقلبة

كتب الدكتور ونجيت طد — استاذ التشريح في جامعة وسترن ريزرف الاميركية — في المجلة العلمية الشهرية ، انهُ شرع من سنين يبحث احوال المعدة وطبائعها المتقلبة في اثناء العمل واللعب ، وصدف هو وزميلتهُ المس كونزل عن معد الحيوانات ومعد المرضى لانهما قصدا الى دراسة طبائع المعد في الاصحاء . وبعد بحث طويل استغرق خمس سنوات وشملت تجاربه نحو ثمان مائة طالب من طلاب كلية الطب في الجامعة المشار اليها ، وضعا رسالة عنوانها «نماذج السلوك في القناة الهضمية » ولكن العلماء استقبلوها عند نشرها في سنة ١٩٣٠ بكثير من السخرية الا انّ التجارب التي اجرياها بعد نشر رسالتهما ايدت قولهما الاول وهو ان للمعدة طبائع متقلبة وان معرفتها تسدي خدمة غير يسيرة للذين يريدون ان يتمتعوا بناحية من نواحي الهناءة والرغد في الحياة

والمعدة كما لا يخفى عضو عضلي تتقبض عضلاته وتنبسط في حركة منتظمة كانقباض عضل القلب وانبساطه . الا انهما في المعدة ابطأ منهما في القلب . وقد كان الرأي ان الانقباض والانبساط في عضل المعدة يدفعان محتوياتها الى الاثني عشري على نحو ما يدفع الانقباض والانبساط في عضل القلب الدم في العروق . وعلى ذلك قيل ان الانقباض والانبساط في عضل المعدة يكونان على اشدها خلال تناول الطعام وبعده وان المعدة تكون بين وجبة واخرى في حالة راحة . وقيل كذلك ان المعدة تفرز عصارة حامضة هاضمة غرضها الوحيد ان تهضم او تشرع في هضم بعض مواد الطعام ثم يدفع هذا الطعام الى الاثني عشري بحركة المعدة العضلية المعروفة باسم Peristalsis وقد ترجمهُ الدكتور شرف بقوله الحركة الديدانية الخاصة بالامعاء والاعضاء القنوية

والواقع ان احداً لم يرَ المعدة وهي تقوم بعملها الا بعد ان كشفت الاشعة السينية . نعم كان بعض الجراحين قدروا قبها في اثناء العمليات الجراحية . ولكن الاحوال التي تجري فيها

هذه العمليات تؤثر في المعدة فيقلُّ نشاطها الى ادنى حدٍّ ممكن . ثم ان افراز العصارة المعدية بُحث في الحيوانات ولكن هذا البحث كان يقتضي شقَّ البطن ، وبشقهِ تعود الاحوال السوية داخل المعدة وهي غير سوية

ولكن اذا مزج الطعام بقليل من مركب كبريتات الباريوم ، غدا الطعام غير شفافٍ عند تعريضهِ للاشعة السينية . واذاً تسهل مراقبة المعدة بتعريضها لهذه الاشعة عندما يدخلها هذا المزيج . ومما يبعث على الدهشة ان الدكتور طد وزميلهُ استطاعا في اثناء تجاربهما ، ان يراقبا العصارة المعدية وهي تتجمع داخل المعدة

جربت تجارب من هذا القبيل في المستشفيات ولكن معظم المعد التي اجريت عليها كانت معداً مريضة . فعمد الدكتور طد وزميلهُ الى إجراء تجارب واسعة النطاق على فريق من طلبة الجامعة وانتهوا منها الى نتائج تبعث على الاستغراب

وكان اول ما استوقف نظرهما عندما شرعا في هذه التجارب كبر حجم المعدة وتراخيها وقد شرعا في البحث في شهر سبتمبر من سنة ١٩٢٥ فما اقبل شهر فبراير من السنة التالية حتى تبيّنا ان المعد التي كانت في سبتمبر كبيرة متراخية غدت في فبراير اصغر حجماً واشدَّ نشاطاً . وما اقبل شهر سبتمبر من سنة ١٩٢٦ اي ما انقضت سنة تامة على بدء التجارب حتى زاد انكماش المعد ونشاطها . وعندئذٍ كان قد دخل الجامعة فريق جديد من طلبة السنة الاولى فاذا معدهم كبيرة ومتراخية كمعد زملائهم في شهر سبتمبر السابق ، وفي خلال السنة المدرسية انكمشت ونشطت

هذه الظاهرة الغريبة حيرتهما . وبعد استقصاءٍ خطر لهما انهما امام عضو يتأثر تأثراً كبيراً بالانفعال النفساني . ذلك ان الطلاب الجدد في الجامعة تساورهم المخاوف من بيئة جديدة واساتذة لا عهد لهم بهم من قبل . ولم يستحسن الدكتور طد ان يسم هذه الحالة بالخوف فوصفها بالقلق . فلما استردَّ الطلاب ثقتهم استردَّت معدهم نشاطها المألوف . ومن غريب ما رواه في المجلة العلمية الشهرية انهُ بعدما انقضت سنوات على اجراء هذه التجارب وشاع امرها بين الطلاب وغدوا يتقدمون لها بغير جزع او اضطراب تبين ان معدهم عند الامتحان ليست متنفخة ولا متراخية

واستنبط احد معاونيهما — الدكتور سمرفلد — طريقة بديعة لتقدير حجم المعدة من قياس ظلها في صور الاشعة السينية . فتمكن بها من ان يثبت انهُ عندما يتناول الطالب سائلاً قدرهُ اربع أوقيات لا تلبث معدتهُ بعد خمس حتى تحتوي سائلاً يزيد على اربع أوقيات . والزيادة تتفاوت بتفاوت نوع السائل . فاذا تناول اربع أوقيات من اللبن المخيض كان تضخم المعدة اكثر من تضخمها إذا تناول اربع أوقيات من اللبن الكامل . وقد دلَّ القياس على أن مقدار

السائل في المعدة بعد انقضاء خمس دقائق على تناول اربع أوقيات من اللبن ، بلغ اثنتي عشرة أوقية ، ولكنهُ بلغ بعد تناول المخيض عشرين الى ثلاثين أوقية

إلاَّ ان الدكتور سمرفلد أثبت ان هذه الزيادة لا تصدق الاَّ على المعدة في حالة القلق . فكأنَّ مؤثراً قد أثَّر فيها أفضى الي تجمع العصارة المعدية فيها. فوجه الباحثان عنايتهما الى البوَّاب وهوالصمام الفاصل بين المعدة والاثني عشري . راقبا البواب فوجدا انهُ يبقى مقفلاً فترة طويلة بعد دخول الطعام المعدة عندما تكون المعدة في حالة قلق . أما الطلاَّب الذين كانوا قد تعوَّدوا هذه التجارب وعادوا لا ينفعلون بالاستعداد لها وأجرائها عليهم فقد كان البواب في معدهم يفتح بعد انقضاء دقيقتين على وصول الطعام الى المعدة ، فيخرج ممتزجاً بالعصارة المعدية الى الاثني عشري . وبذلك تمكنا من تفسير تضخم المعدة في حالة القلق . ذلك ان حجم المعدة اشتدَّ تأثراً بمقدار ما يتصرف من العصارة المعدية او ما يبقى في المعدة منهُ بنوع الطعام

هذه التجارب دلَّت على تأثر المعدة بالانفعال النفسي . وبذلك يفسر خطأ الاكثار من الطعام قبل الاسراع الى اللحاق بقطار او دخول امتحان صعب او الاقبال على حضور جلسة عاصفة . ففي هذه الحالة يقفل البواب متأثراً بالحالة النفسية فيتجمع في المعدة الطعام والعصارة المعدية ، وحينئذٍ يحسُّ الانسان بثقل وانتفاخ وبصعود غازات حامضة

والمعد تتفاوت في تأثرها بالانفعال . بل لقد ينشأ الاضطراب عن اطعمة معينة . ذلك ان هذه الاطعمة تؤثر في الجهاز المسيطر على البوَّاب في معدة دقيقة الاحساس فيقفل على نحو ما يتأثر بعض الناس بمواد معيَّنة فيصابون بحالات مرضية . فاذا كان الفعل شديداً فقد يفضي الى التقيؤ . أما اذا كان غير شديد فقد يطول الشعور بالثقل والتلبك وقد يصحبهُ عطاس واحتقان في الرأس

ومن غريب ما قد يحدث ان العطاس الشديد يفتح البوَّاب في بعض الاحيان . وبهذا قد يفسر استعمال بعضهم النشوق بعد الطعام

وإذا كان العقل والشعور يؤثران في المعدة ، فالمعدة تؤثر فيهما . ولعلَّ خير مثل على ذلك الكاتب الالمعي جنصن المشهور في الادب الانكليزي بالمعيته . ويعزى كثير من براعة التخيُّل والتفكير المبدع الى سوء الهضم . بل يسأل بعض الباحثين هل كان في وسع داروين ان يبدع مذهب التطوُّر لولا حدَّة تخيله الناشيء عن سوء الهضم ? ويسأل غيرهم هل كان في وسع جوزيف كونراد الروائي البولندي الانكليزي في العصر الحديث ان يبدع ما أبدع لولا سوء الهضم المزمن . ومن يستطيع ان يعيِّن مدى ما ينسب من روايات أدجار ألان بو الى سوء الهضم وما يعزى منها الى ادمانه المشروبات الكحولية ?

وليس ثمة ريب في ان بعض الناس يلمع ذكاؤهم عندما يجلسون الى مائدة والبعض الآخر

يكاد يغلب عليهِ النعاس ، وان طعام واحداً قد يكون غذاء الواحد وسم الآخر

لقد اقتضى فهم هذه الحقائق سنين من البحث والتجربة . فأولاً ثبت للدكتور طد ومعاونيهِ تأثير الحالة النفسية في المعدة . ثم تأثر المعدة بما يصلها من الطعام . قال : وما زلنا نجهل ما يحدث في المعدة عند ما تزدرد طعاماً لا تؤثره . ولكننا نعلم ان شيئاً يحدث فيؤثر في الجهاز العصبي الحركي المسيطر على البوّاب فيقفل . وليس ثمة ريب في ان ما نشعر بهِ من الثقل بعد تناول بعض الاطعمة سببهُ إقفال البوّاب وتجمع العصارة المعدية مع الطعام في المعدة

ولا يخفى أن العصارة المعدية تركب في الدم وتفرز في المعدة . فاذا لم يكن هناك سبيل يعود بهِ جانب منها الى الدم عن طريق الامتصاص من الامعاء ، لا يلبث الجسم حتى يغدو جافاً كالمومياء ، ومع ذلك لا نكاد نعلم شيئاً عن هذه الدورة الداخلية — دورة العصارة المعدية — ولكن الدكتور طد استحدث بتجاربهِ طريقة لبحثها وهي طريقة مراقبة المعدة بالاشعة السينية ولا سيما تجمع العصارة المعدية فيها عند ما يقفل البواب

وهذا يفضي بنا الى سؤال كبير الشأن وهو خاص بالباعث على انتقال الطعام من المعدة الى الاثني عشري . ومن غريب ما يقال في هذا الموضوع ان اللعاب يسيل عند ما تمضغ طعاماً جامداً ولكنهُ لا يسيل عند ما يدخل الفم طعام سائل : أما العصارة المعدية فتفرز في الحالين وافرازها عند دخول السوائل المعدة أكبر منهُ عند ما يدخلها الطعام غير السائل

ويلوح من هذه التجارب ان افراز العصارة المعدية ، أسلوب من أساليب الخلق ، لغسل داخل المعدة ودفع السائل في المعدة الى الاثني عشري . ذلك انهُ عند ما يكون الطعام الذي يدخل المعدة جامداً يشرع عضل المعدة في الانقباض والانبساط الى حدّ ما دافعاً الطعام الى الامام ، ويساعد ما يفرز من العصارة المعدية على غسل المعدة

ومهما يكن الطعام ، وسواء أجامداً كان أم سائلاً ، يلاحظ ان الانتقال من المعدة الى الاثني عشري يبدأ بعد انقضاء دقيقتين من وصولهِ الى المعدة ، على شرطين : — ان يكون هناك انفعال يؤثر في المعدة ، وان لا تكون المعدة مستهدفة لشدة الاحساس بذلك الطعام . وفي كلا الحالين يتأثر البوّاب فيقفل وتتجمع العصارة المعدية فتنتفخ المعدة ويحس صاحبها بالثقل وسوء الهضم وما يصحبهما . فالطعام لا يبقى طويلاً في المعدة الا في هذين الحالين على ما يعلم

وعسى ان يكون في هذه الحقائق ما يعين بعض القرّاء على تجنب ما يصابون بهِ أحياناً من سوء الهضم لانهم تناولوا الاكل وهم معرّضون لانفعال نفساني شديد ، أو لان معدهم شديدة الاحساس بضروب من الطعام لا تسيغها . ففي الحالة الثانية يجب على كل منهم ان يتبين هذه المواد بالاختبار ويمتنع عنها بقوة المشيئة ، وفي الاولى يجب مراعاة اليقظة والحكمة



لميخائيل نعيمة

جاء في الكتاب ان الله خلق الانسان على صورته ومثاله

لست ادري ، أمن المؤمنين انتم ام من الملحدين . وان كنتم من المؤمنين ، فأيّ الايمان ايمانكم ؟ او كنتم من الملحدين ، فأيّ الالحاد الحادكم ؟ اذ أنّ في الناس من يتبجّح بالايمان وفي تبجّحه الالحاد كله . وفيهم من يغالي في الالحاد وفي مغالاته الايمان كله . مثلما فيهم الذين لا قدرة لهم لا على الايمان ولا على الالحاد

اما انا — أجارني الله واجاركم من هذه النون بين ألِفَيْن ! — فأومن بالله وبانهُ مصدر كل منظور وغير منظور . وايماني بهِ هو حجر الزاوية في حياتي . وأؤمن بالانسان وبانهُ صورة الله ومثاله . وايماني بالانسان هو الفلك التي تحملني في خضم هذا الوجود

لولا ايماني بالله لما كان ايماني بالانسان . ولولا ايماني بالانسان لما كان ايماني بالله . فالايمانان من معدن واحد ، بل هما واحد . والذي هداني الى الله هو الله ذاته ، لا ما قرأته عنهُ في الكتب المنزلة وغير المنزلة . والذي قادني الى الانسان هو الانسان نفسه لا ما وعيتهُ من آثاره وتواريخه ودرسته من علومه وفنونه . فعبثاً ندّعي الايمان بالله قبل ان ينكشف لنا الله في الانسان وعبثاً نحاول فهم الانسان قبل أن يتجلى لنا الانسان في الله . وعبثاً نطلب ذاك او هذا قبل أن ينعتق الخيال فينا من كل قيد فيبصر الخالق في الخليقة ، والخليقة في الخالق

ما خلق الله في كل ما خلق إلاّ ذاته . اذ ليس فوقه او تحته ، ولا امامه او خلفه ، ولا قبله أو بعده شيء لم يكن فيهِ منذ الازل . ومثلما لا يفيض ينبوع الاّ بالذي فيهِ ، ولا تأتي شجرة

(١) الخطبة التي القاها في الكلية الاميركية للبنات ببيروت في ٤ مايو ١٩٣٨

بغير النور الذي في احشائها ، ولا يشتعل عود إلاَّ بالنار التي في قلبه — هكذا لا يفيض من الله إلاَّ الله ، ولا يثمر الله الاَّ الله ، ولا يستطع الله بغير الله . لذلك كان الانسان الصادر عن الله صورة لمصدره . فكان أزليًّا بأزليته . أبديًّا بأبديته . خالقاً بين القدرة التي خلقته

لكنها صورة ما تزال غامضةً في الانسان المتدثر بدثار الحسّ الخشن وكل ما يلازمهُ من من خير عليل وشر هزيل . وكانها الصورة الشمسية قبل تظهيرها . واذ ذاك فغاية الانسان من وجوده واحدة لا تقبل الشرك من ايّ نوع كان . ألاَ وهي تمزيق دثار الحسّ لتظهر الصورة بتمامها فيرتفع الانسان الى ما فوق الخير والشر . واذ ذاك فما الزمان بعقوده ، والمكان بحدوده ، والموت بظلماته ، والولادة بأشمتها ، وكل ما يتخلل ذلك من أنين وحنين ، وذعر وطمأنينة ، وقلق وسكينة ، سوى مساحيق وعقاقير سحرية تُعدّها لنا الحياة لنجلو بها صورة الله فينا ، حتى اذا ما انجلت كل الانجلاء اصبحنا في غنىً عن تلك المساحيق والعقاقير الى الأبد وعدنا نساعد في استعمالها أولئك من اخواننا في الناسوت الذين مابرحت صورهم غامضة ، مبهمة

والناس من هذا القبيل رجلان : رجل يعرف الغاية من هذه المساحيق والعقاقير فيحسن استعمالها ليخلص منها بها ، ورجل يجهل الغاية او يشرك معها غايات سواها . فمساحيق الزمان والمكان ، وعقاقير الخير والشر ، وعناصر الموت والحياة لا تزيد صورة الله فيه الاَّ غموضاً . وما دام الله فينا غامضاً دمنا في ظلمات السجون وقبضة العذاب

هذه عقيدة إيماني بالانسان وحياته . ومن كان ذلك ايمانه نَبَت بهِ روحه عن كل معرفة سوى المعرفة بأنه صورة الله ، وجنحت بهِ عن كل ارادة سوى الارادة المنبثقة من تلك المعرفة والتي لا هدف لها الاَّ الكشف عن الصورة والتمتع بها صافية ، ساطعة ، كاملة . فأصبح في نظره كلّ علمٍ وكل عمل بل وكل نية لا تستمدّ حياتها من هاتيك المعرفة وجماً وغباوة . وأصبحت كل إرادة لا تستوحي قوّتها من تلك الإرادة غلاًّ في العنق وسهماً في الكبد . وهكذا كانت عنده معرفة الله في الانسان وإرادة الوصول اليه نقطة الدائرة من الحياة . فكان كلّ ما تمركز فيها ثم انبعث عنها من اعمال الناس عبارةً من أفق واسع الى أفق أوسع . وكان كل ما زاغ عنها خيبة تقود الى خيبة ، وعثرة تفضي الى عثرة

***

والآن ماذا عساني أقول في الفن الذي سألتموني ان أحدثكم عنهُ ، والذي احاطهُ الناس بهالةٍ من التمجيد والتعظيم ، والتبخير والتكبير ؟ هل يخرج الفن عن انه عملٌ من اعمال الناس ؟ إذنْ هو كسائر اعمال الناس — منهُ ما يتمركز في نقطة الدائرة التي حدثتكم عنها . ففيهِ معرفة

وله إرادة . وهو القليل ، القليل . ومنهُ ما هو زائغ عن نقطة الدائرة . فلا معرفته معرفة، ولا إرادته ارادة . وهو الكثير ، الكثير . الاول يجلو صورة الله في الانسان . والآخر يطمسها بكثير الخطوط والاصوات، والنبرات والحركات ، والاشكال والالوان . الاول يفرض ذاته علينا فرض الصلاة على المؤمن ، والنعاس على الجفن ، والارج على الانف ، والنور على حدقة العين. والثاني يحاصرنا بدعاواته الطويلة عن رسالته « العلوية » في خدمة الحق والجمال . وحقّه لا يتجاوز اللحم والدم فهو خدعة . وجماله لا يتعدى نطاق البصر فهو شفاعة

اذا اردتم مثلاً للفن الذي يذهب بالانسان الى ابعد من الانسان فلسكم في اي هرم من اهرام مصر ذلك المثال . خذوا هرم الجيزة : جدران اربعة محدودة ترتكز على قطعة محدودة من الارض . وهذه الجدران تتماسك بعضها ببعض وبالارض تماسكاً يجعل منها كتلة واحدة تبدو عند قاعدتها ابدية بثباتها ، مروّعة بضخامتها ، ساحقة بثقلها . ثم تأخذ في الارتفاع قيراطاً فقيراطاً وفتراً ففتراً ، واذ ترتفع تنحني بعضها الى بعض وتبقى متشابكة متماسكة . لكنها كلما ازدادت ارتفاعاً ضاقت مساحةً ، ونقصت ضخامةً ، وخفّت وزناً . وعندما تبلغ اقصى مداها في الارتفاع تتلاشى في نقطة في الفضاء . هي نقطة الانفكاك — نقطة الانعتاق — نقطة تلاشي النهايات في اللانهاية . فكأن جهات الهرم الخمس — جدرانه الاربعة والارض القائمة عليها — ما تضخّمت في البداية إلاّ لتتقاص في النهاية . ولا ثقلت وزناً الاّ لتصبح بغير وزن ، ولا ارتبطت بعضها ببعض الاّ لتنفك من كل رباط . ولا كانت شيئاً الاّ لتغدو لاشيء

وهذه بالتمام هي حال الانسان مع حواسه الخمس . فهي لا نفع منها الاّ كدرجات يرقى بها الانسان الى ما وراء الحسّ . ولا خير في قيودها الاّ لتنعتق بها من كل قيد . ولا معنى لوجودها المحدود الاّ لتبلغ بها الوجود الذي لاحدّ لهُ

***

ويلذ لي ، قبل ان أترك مثال الهرم ، ان أذهب بكم الى أبعد مما ذهبت . فأسألكم ان تتمثلوا هرماً قائماً على شاطىء بحيرة صافية وقد انعكس ظله في مائها فبان الهرم وظله كما لو كانا هرمين مستقلين تلاصقت قاعدتهما وكانت قمّة الواحد في الفضاء وقمة الآخر في الماء . ومن ثمّ أريدكم ان تتمثلوا خيال الهرم في الماء كما لو كان خيال العالم في ضمير الله ، وقمّته كما لو كانت نقطة المصدر . أما شاطىء البحيرة فتمثلوه كما لو كان الحد الفاصل بين عالم الخيال وعالم الحس ، او عالم الروح وعالم المادة

يبتدىء الظلّ في نقطة لا سبيل لنا الى ادراكها لا بالحسّ لانها لا تحسّ ، ولا بالعقل لانها

أبعد من مجال العقل ، ولا بالفكر لانها أوسع من نطاق الفكر . وقد نستطيع أن نتخيل وجودها لانها خيال . ثم يستطيل الظل ويتسع في خطوط تجعل لهُ شكلاً . ولكنهُ شكل نعيهِ بالخيال لا غير . ثم ينتهي الظل بالشاطىء فاذا بهِ يتحوَّل فوقهُ الى طائفة من حجارة متراصة ، مترابطة ، لها وزن ولها شكل ، ولها لون ولها قياس . وهذه الحجارة تمعن في الصعود الى ان تنتهي في الفضاء بمثل النقطة التي ابتدأ منها الظل في الماء ، فلا وزن لها اذ ذاك ولا شكل ، ولا لون ولا قياس . هكذا يتكاثف الروح فيغدو مادةً . وتتقاص المادة فتعود روحاً

ولكم من بعد ذلك ان تتمثلوا كل انسان هرماً مستقلاً في ذاته . ثم ان تتمثلوا ذلك الهرم حجراً في هرمٍ أكبر هو البشرية ، والبشرية حجراً في الهرم الاكبر الذي هو الكون . وعندئذٍ فالبشرية التي نحن منها ليست مجموعة اجناس ، وطوائف ، وملل ونحل يفضل بعضها البعض بقوته او ماله ، او بجاهه او بسلطانه ، أو بنسبهِ او بعلمهِ . بل هي بناء واحد أسسه في التراب وأعلاه في اللانهاية . وهو بناء متحرك لا يعرف الجمود . أسفلهُ ينهض أبداً بأعلاه الى فوق ، وأعلاهُ يجذب أسفله الى حيث لا قيد ولا حدّ ، ولا ولادة ولا موت ، ولا عقاب ولا ثواب — الى الله . ولا فرق بين حجرٍ وحجرٍ في هذا البناء — أي بين انسان وانسان — الا على قدر ما يقترب الواحد من الاساس والآخر من القمّة . فالذين في أسفل هم الذين يحملون اثقال الحواس الساحقة ولم يتنبه خيالهم بعد ليهديهم الى الصلة الابدية بينهم وبين القمّة والى الايمان بانهم بالغوها يوماً ما . والذين اقتربوا من القمّة هم الذين نشط خيالهم واشتد ايمانهم فخفت اعباؤهم الحسّية . والذين بلغوا القمّة هم الذين انعتقوا من ربقة الحسّ فما عادوا يشعرون بجاذبية الارض وضغط السماء . وقد يكون في أعالي الهرم كثير ممن يحسبهم الناس في أسفله . وفي أسفله كثير ممن يحسبونهم في أعاليه . ربَّ حجرٍ يلاصق القمّة كان عبداً عند الناس . وسلطانٍ عندهم لم يكن غير حجرٍ في الأساس

***

ما تماديت في الكلام عن الهرم الاّ لاعطيكم مثلاً للفن الذي هو في نظري جدير بالاعتبار وهو الفن الذي إذا ما تحسّستموه أحسستم كأنكم تنعتقون من الحسّ . واذا ما حاولتم تحديده قادكم الى حيث لا حدود . فرأيتموكم شاملين مثلما الله شامل . ورأيتموكم أزليين أبديين مثلما الله أزلي أبدي . ورأيتموكم خالقين مثلما الله خالق . وبكلمة أخرى : هو الفن الذي يكشف فيكم عن صورة الله ومثاله . ولا أريد ان أمضي بكم الى متاحف الارض ومعالمها ، ومراقصها ومغانيها ، ومسارحها ومكانها لا دلكم في رسوم اي الرسامين ، وتماثيل أي المثالين ، وبناء أي البنائين ،

وألحان أي الموسيقيين ، ورقص أي الراقصين ، وتمثيل أي الممثلين ، وشعر أي الشعراء تلمحون لمثل هذا الفنّ أثراً . فالفن كالطبيعة — مفتاحه في نظر الناظر وسمع السامع وما يستبطنان عنهُ من خيال . فلا أنتم تستطيعون ان تنظروا بعيني ، ولا أنا أستطيع ان أسمع بآذانكم

أما الفن الذي لا يطمح من تصوير الطبيعة الاَّ الى نقل جانبٍ ضئيل — وضئيل جداً — من أشكالها وألوانها فهما دقَّ صنعاً لن يعطيكم ذرة مما أنتم قادرون ان تتناولوه مباشرة بحواسكم . فما رأيت البحر على لوحة رسَّام الاَّ كان سخرية بالبحر الذي أبصرتهُ بعيني وسمعتهُ بأذني . ولا الشمس الاَّ كانت تجديفاً على الشمس التي عرفتها في كل قطرة من قطرات دمي . وكذلك الفن الذي لا يخرج في تصويره الانسان مما ألقاه فيه من عواطف وأفكار ، ونيّات وشهوات ، وأفراح وأوجاع ، وتقاليد وأرضاع ، فهو ليس للانسان اكثر من قفل على باب سجنه ، وغشاء فوق الاغشية التي على عينيهِ ، ونير فوق النير الذي على عنقه

هل منكم من لم يرَ من الناس أشكالاً تضيق بها ذاكرته ؟ أم من يجهل أن الانسان يولد ويموت ، وانهُ بين الولادة والموت يدأب ليعيش ، فيقاتل ويناضل ، ويبغض ويحب ، ويغضب ويرضى ، ويحسد ويطمع ، ويمرض ويتعافى ، ويتزاوج ويتناسل الى كل ما هنالك من هواجس ونزعات وتقلبات ؟ فأي نفع لكم ممن يصوِّر كل ذلك بالالوان او بالحجر او بالكلام فلا يزيدكم معرفةً بما أنتم عارفون ؟ ولئن كانت لهُ مقدرة على الوصف والتصوير ليست لكم ، فقد تبهركم المقدرة . لكنها لا تخفف من ثقل ارزاركم ، فلا تعطيكم جناح أمل ، ولا تذكي فيكم شرارة ايمان ، ولا تدنيكم قيد شعرة من المعرفة بانكم صورة الله ، ومن الارادة التي تمكنكم من كشف تلك الصورة

***

اذنْ فالفن نوعان : فنٌّ يبتدىء بالمحسوسات لينتهي منها الى ما وراء الحسّ . فكأنهُ يعالج مساحيق الزمان والمكان عارفاً ان لا نفع منها الاَّ التخلص من قيود الزمان والمكان . وفنٌّ ينشأ في المحسوسات ليفنى فيها . جاهلاً التخلص من مساحيق الزمان والمكان . فكأنهُ لا يلهو بها الاَّ ليصبح واحداً منها . ومما يؤسف لهُ اشدَّ الاسف ان اكثر فنون الناس من هذا النوع الذي كنت ادعوه عقيماً لولا اعتقاد راسخ في ضميري ان الحياة ادرى مني ومنكم بتدبير بنيها . وان لا عقم فيها فهي كالارض تحوّل كل موت الى حياة ، وكل قذارة الى طهارة ، وكل عقم الى خصب

***

ألم أقل أن الانسان خالق بين القدرة التي خلقتهُ ؟ وماذا عساهُ يخلق غير ذاته ؟ فهو في كل ما يعمل انما يخلق ذاته كما يعرفها في اللحظة التي يعمل فيها . ونحن لو كانت لنا عيون تنفذ من

ظواهر الامور الى خفاياها الا بصرنا الانسان كل الانسان في اقل حركة من حركاته وسكنة من سكناته . فما كتب كاتب كلمة الا كتب ذاته فيها . ولا لبس لابس رداء الا لبس فيه ذاته . ولا نطق ناطق بكلمة الا نطق بذاته . والذي نخلقهُ في كل ما نخلق انما هو صورة الله فينا على قدر ما تكون غامضة او جلية . فمن السف ، والحالة هذه ، ان نحاسب كاتباً في ما يكتب ، او شاعراً في ما ينظم ، او رسّاماً في ما يرسم ، او ملحناً في ما يلحن او أي رجل في ما يعمل . اذ انهُ ، حتى ولو حاول ، لما استطاع ان يعمل اكثر او اقلّ مما يعمل ولا غير ما يعمل . واعمال الناس هي المساحيق والعقاقير السحرية التي يجلون او يطمسون بها صورة الله فيهم واذا كان لا بدّ لنا من محاسبة فلنحاسب انفسنا لا غير . ولنحاسب انفسنا حساب من يعرف ان من الاعمال ما يطمس فينا صورة الله ومنها ما يجلوها . ولنحاسب انفسنا حساب من يريد ان يعمل الاعمال التي من شأنها ان تجلو صورة الله . فلا نعبث بشيء لان الله في كل شيء ونحن فيه مع الله . ولا نكبر على انسان لانهُ صورة الله . ولا نصغر أمام انسان لاننا مثال الله . ولا نقيم الفواصل بيننا وبين الناس ، او بين الناس والناس ، لان الناس كلهم حجارة حيّة في هرم الوجود الالهي

***

إنّ أجمل الفنّ ليس في المتاحف ومحترفات الفنانين . بل في حياة موحدة الغاية والارادة ، في قلبها ايمان لا يتزعزع بهدف الانسان الاسمى ، وفي ايمانها محبة لا تنضب لكل من شاركها وما شاركها في ذلك الهدف ، وفي اعمالها وأقوالها ، ونزعاتها ونياتها دعامة لذلك الايمان وزيت لتلك المحبة

فان سئلتم عن ابدع آيات الفن وأغلاها ، قولوا : « ضمير لا يسخر . وجبين لا يعفر . ولسان حليم شكور . وقلب عفيف غفور . وعين لا تبصر القذى . ويد لا تنزل الاذى . وفكر بري في البلية عطية . وخيال يربط الازلية بالابدية » . وهذه قد تعثرون عليها فيمن لا علم لهم بأسرار الالوان والالحان والقوافي قبل ان تلمحوا لها اثراً في كبار الشعراء والرسامين والملحنين وقد تجدونها في الاكواخ الوضيعة قبل ان تجدوها في القصور الرفيعة . وفي الدساكر الحقيرة قبل المتاحف الشهيرة . فلا تخدعكم الالقاب . ولا تغرنكم الشهرة . ولا تعمينكم تقاليد الناس الفنية عن الفن الاكبر — فن امتشاق الانسان من غمد ناموسه ، والوصول به الى ذروة لاهوتية

وان لم يكفكم لبلوغ المحجة عمر واحد — ولن يكفيكم عمر واحد — فالزمان يتسع لاعمار ، بعدها اعمار ، بعدها اعمار . وان لم تكفيكم الارض — ولن تكفيكم الارض — ففي الفضاء مساكن ، بعدها مساكن ، بعدها مساكن

الحياة الفكرية

في عهد المشادة وعصر الاستقرار

لعلي أدهم

من الشائع المتعارف ان عصور السمو الفكري والتفوق الفني والنبوغ الادبي في حياة الامم وسير الحضارات ليست هي الاوقات الممتازة من الناحية الاخلاقية او من الوجهة السياسية ، وقد اشتدّت العناية بالادب وكثر تذوق الفن وعظم الاقبال على صنوف العلم في أغلب نهضات الامم ووثباتها المأثورة بعد انتهاء عهد الطموح الوطني والانتصار السياسي ، وكانت تلك الحياة الفكرية الخصبة نتيجة متطورة من تاثيره وثمرة مرتقبة من ثمراته ، فأثينا واسبارطة لم يخرجا أبدع طرائفهما الادبية وأنفس آيات فنهما في عصر اكتمال قوتهما السياسية وفي ريعان عزتهما القومية ، وفي عصر بركليس لما أخذت تظهر بوادر الضعف وتنتشر علامات التدهور والانحلال كثر التهافت على الفن وذاع التعلق بالادب والاقبال على العلم كأنه نتيجة لازمة محتومة وعلامة واضحة الدلالة على بدء نضوب القوة القديمة ونفاد الحيوية الكامنة ، وكذلك كان الحال في روما ، وذلك انها لما لانت قوتها وثبت القانون وتوطّد النظام واستتبت الاحوال ويرقّ الطباع النافرة ولطفت الامزجة الجامحة ساد الفن وعمّ الادب وارتفع شأن الحياة الفكرية ، وقد جاء هوميروس في العصور القديمة ليتغنى بمفاخر أبطال طروادة ، كما جاء شكسبير في ختام العصور الوسطى ليروي لنا قصة النفس الانسانية في تلك العصور وما انتابها من أهواء وشهوات ونزعات وميول وليحدّثنا عما كان في حياة أهلها من ألوان الجد والعبوس وأفانين الهزل والفكاهة والمجون والدعابة . ولما انتهى عصر الفتوحات الاسلامية كثر المؤرخون والوصّافون وكتّاب السير ورواة الاخبار ، وقد ظهرت الديانة البوذية العظيمة في الهند في عصر من عصور الامن والهدوء والحياة رضية منظمة اذ كان العالم في القرن السادس قبل الميلاد متقلباً مضطرباً يعاني أشد الازمات والحوادث ما بين مصدمات بالدول ومنحدرات بينما الهند قد حمتها جبالها الشم من خطر الاتصال بالعالم والانغماس في فوضاه ونأت بها عن اضطراباته الفاجعة وزوابعه الهادمة ، وكان السلام مرفرفاً في ربوعها فلا تشح على البناء ولا اقتتال على القوت والغذاء ومنتهى أرب الامراء صيد الحمر واقتناص الغيد لا الغزو والفتح وسفك الدماء وازهاق الارواح.

وقد ولد في ذلك العصر الهادىء الوديع في احدى مقاطعات الهند جوتاما بوذا وتنزل عليه

وحي حكمته وهو جالس تحت ظلال شجرة «البو» الجميلة فكانت البوذية ثمرة تلك الحياة الوادعة الحالمة الشبيهة بظلال الخيال ومخيلات الاماني والآمال ، وقد يدعونا ذلك الى أن نستخلص ان الحياة الفكرية تنمو وتزهر حيث تستمكن الحضارة وتستقر الحياة ويأمن الناس سورة الثورات وطوارىء الحدثان ويظفرون في هذا الامن الشامل بالهدوء الذهني والفراغ اللازمين لظهور بدائع الفن وطرف الادب ، وما دام الفن يحتاج الى الاتقان والتجويد والاناة واعمال الفكرة والانصراف عن الشواغل في العالم الخارجي فأحر بأيام الطمأنينة والهدوء ان تكون عصراً ذهبياً للادب والفن

ولكن اذا كانت عصور الهدوء والاستقرار صالحة للادب والفن منشطة لسير الفكر فهل أوقات الثورات الدامية والانقلابات العاصفة معرقلة للادب قاضية على الفن ؟ وهل هي حقيقة تسلب رجال الفكر ونوابغ الفنون الهدوء الفكري والرزانة والاتزان وتحول بينهم وبين متعة الفراغ الكافي لنماء آيات الفن العظيمة ؟ لسنا نجد في التاريخ أدلة كثيرة تثبت ذلك وتنهض به بل قد نلتقي في التاريخ بحقائق تنقضهُ ، فان أوقات الثورات والانقلابات تستفز المشاعر وتهز النفوس هزّاً عنيفاً وتحرك أوتار القلوب وتنبه رواقد العزائم وتستجيش هوامد الهمم فتقوى الخواطر وتتفتح العقول وتشحذ الاحاسيس ويتبع ذلك ظهور نوع من الادب الحر القوي المفعم بالرجولة ، وكثيراً ما كانت أيام الحروب والثورات مبعثاً لجلائل المبتكرات وأنضج ثمرات العقول ، وقد كان القرن السادس عشر مثلاً من القرون الغاصة بالثورات وضروب الحروب المذهبية الدينية والمعارك السياسية الاجتماعية والمجادلات العلمية الادبية وكان في نفس الوقت عصر نهضة جمّ جامها وفاض معينها وناهيك بقرن يحتشد فيه من أعيان الانسانية واقطاب الفكر أمثال لوثر المصلح ورافائيل وميشيل انجلو والشاعر اريستو والكاتب مونتين والعلامة إراسموس ومن العلماء أمثال جاليليو وكوبرنيكس والفيلسوف فانيني وغيرهم من أساطين الفكر وجبابرة العقول وقد انتعشت في ذلك القرن فروع الحياة الفكرية جميعها ووجد كل فن معبراً عنهُ وممثلاً له وكانت ايطاليا حينذاك بخاصة من بين دول أوروبا ممزقة الاوصال مصدوعة الوحدة مسرحاً للفوضى والجرائم المنكرة وأفاعيل القسوة ولكنها كانت في عين الوقت استاذة أوربا وحاملة لواء الحركة الفكرية

وقد نهضت المانيا نهضتها الادبية العظيمة في اوائل القرن التاسع عشر وهي في ظروف عصيبة وعهود عاصفة وكانت مبعثرة الشمل منتثرة الاجزاء مجروحة العزة القومية وقد أتم فيلسوفها الكبير هجل كتابه «ظاهرة العقل» ومدافع الجيوش النابليونية تدوي في أذنيه وقضى فيلسوفها نخت نحبه وهو يذود عن وطنه ويثير حمية تلامذته وأتباعه ، وقد قويت في ذلك الوقت النهضة الفكرية في المانيا فمن مذاهب فلسفية عظيمة كأروع ما عرفت الفلسفة ومن آراء طريفة في التاريخ والنقد الى نظريات أصيلة في اللغة والعلوم ، وقد كان عجيباً ظهور تلك النهضة الرائعة في المانيا التي صرعتها الحوادث وأساء اليها الدهر ولكن أوقات الاضطرابات والثورات من شأنها أن تثير

القلب وتحرك رواكده وتبعث كوامنه فيظهر من النفس كل خفي وينكشف كل كنز دفين وتتفتح أزاهير الروح الداخلية وتخرج منها المبتكرات العظيمة والمنشآت الفنية الخالدة كما خرج هذا العالم الدنيوي من جوف الخواء القديم والفوضى السالفة، وكأن الحركة العامة الشاملة والاضطراب السائد والقلق المستحوذ يرهف الخواطر وينفض اغلاق النفوس فتسخو بقوتها الموفورة وتجود بثروتها الجم المدخر، ولئن كانت حياة الدعة والاستقرار تريح الفكر وتمنحه الهدوء إلا أنها تغله وتخضعه للنظم والقوانين وتحصره في حدود العرف الشائع والرأي العام الذائع، اما في أوقات الاضطرابات فان العقول تجد مراحاً تنطلق فيه كما شاءت لها طبيعتها إذ يقل ضغط الروابط الاجتماعية وتتحطم اغلال العرف وقيود المصطلحات وغير عجيب ان تجود تلك الازمنة بكل نفس ثائرة هدامة خارجة على القواعد المرعية في الدين والآداب والاساليب المتبعة في الفكر والمناهج المألوفة في الفن، ولقد كانت الديانة المسيحية السامية وليدة ثورة من أمثال هذه الثورات ونبت عصر من أشد عصور الاضطرابات. وكذلك نشأت الديانة الاسلامية خلال العواصف والقلاقل ولذلك جاء المتنبي والمعري في أزمنة انحلال وقد تزلزلت رواسي الحياة وتداعت اركان الحضارة

ففي عصور الاستقرار يسود نوع خاص من الفكر وفي عهود المشادة ينبعث نوع آخر مغاير له، فأدب عصور الاستقرار يمتاز بجودة الصناعة وحسن الصقل وبراعة الاتزان وانسجام التأليف ولكنه خال من الحيوية القوية والروح المتوثبة، وأدب عصور المشادة يمتاز بقوته وشدة اسره وعمقه وغزارته وبعيد ابتكاراته وطريف مخترعاته، وفي ازمنة الاستقرار يتصور الناس ان الفن حلية على جيد الحياة وان الادب تسلية تقطع بها ساعات الفراغ ويزجى بها السأم وان العلم نوع من الرفه، أما أزمنة المشادة فيغلب على أدبها روح الجد ونزعة الجهاد والبعد عن الزخارف وعدم تكلف الصنعة، وفي اوقات الاستقرار تسود افكار معتدلة لاشذوذ بها ولا مغالاة ولكن في أيام المشادة والانفعالات تظهر الافكار الكبيرة وكأن النفوس في تلك الازمنة تخرج عن مداراتها المألوفة فتلمس شيئاً من أسرار الحياة المحجبة وغرائبها المستورة وتبصر لمحات من الابدية الخفية ويهبط عليها نوع من حكمة الوحي وقداسة الالهام ويظهر في تلك الفترة الجليل والسخيف والرائع والمضحك وتتجلى المتناقضات والخوارق والمعجزات وتبرز جوانب الروح المختلفة ونواحيها المتناقضة وقد ظهرت في العصر الذي ارسل فيه المتنبي حكمه الخالدة في مسمع الايام حماقات الشاعر ابن سكرة وسخافات ابن حجاج

وعهود الاستقرار عهود اتزان وانسجام فنفوس اهلها هادئة مطمئنة غير مأخوذة بروعة المجهول ولا سكرى بنشوة الجهاد والمكافحة، ولتوضيح ذلك سأوازن بين شاعر يمثل عصراً من عصور الاستقرار النسبي كالبحتري وآخر يمثل عصراً من عصور المشادة والقلق مثل المتنبي، والبحتري والمتنبي شاعران متناقضان في كل شيء؛ البحتري رجل حضارة فهو سلس الطباع غير ناقم ولا متسخط والمتنبي ثائر الطبع غير مستقر النفس، والاول يجيء في عصور الاتزان

وقد استفاضت الحضارة واسبغت ظلها . والثاني لا يقبل الى الدنيا الا في اوائل الحضارة او في نهايتها ، في ثورة التكوين او في اضطراب الاعلال ، والبحتري أنق صياغة وارشق معرضاً ولكن المتنبي يذهلك عن هنات أسلوبه وعيوب فنه بقوة روحه وشدة طبعه ، وقد ظهر الاول والخلافة لم تذهب بعد هيبتها ولم تعصف العواصف بقوتها فكانت شخصية الخليفة تستغرق كل الشخصيات وتنيف عليها وتبسط ظلها فوقها . ولكن الثاني جاء في وقت ملكيات محدودة متعددة الاشباه والنظائر فنمت شخصيته ولم تجد قوة تصدها وتهزمها ولذا ترى الاول يتناسى شخصيته ويفنى في شخصية ممدوحه بينما المتنبي يفيض على ممدوحه من صفات نفسه وشمائلها وتنسج له حلة من خياله ، والاول كالبحيرة الصافية تحرك علية النسائم عذب مياهها وتحدث بها تموجات لطيفة هادئة . والثاني كالبركان الثائر يقذف بالحمم المستعرة ويغلب عليه الالم الدائم والشكوى المستمرة وسوء الظن بالبشر والتقلب بين العطف القوي عليهم والكره الشديد لهم والبحتري ناعمة بالملوك نشوانه عامرة باللذات اوقاته وأحدهما نفس وادعة مطمئنة والثاني نفس متحرقة لا تأوي الى ظل من الامن ولا ترد مترع الراحة

وترى في شعر كل منهما صورة من عصره ، فالبحتري ينظر الى الاشياء القريبة المنال الدانية من الفهم ويتجنب كل ما يحصر الفكر ويكد الذهن ويراعي في شعره موازنة عجز البيت بصدره ويدخر الكلمات الرشيقة والالفاظ الخلابة ليقفل بها القافية ويحاول ان يوجد توازناً ملحوظاً بين الفكرة والتعبير عنها ويقدر لذة الاذن ومتعة السمع بتخير الالفاظ الرقيقة المهذبة ويطرح الغريب الوحش والحشو والزوائد ففي شعره بلاغة وبراعة وتتخلله موسيقية هادئة منسجمة وأوضح صفاته التناسق والسلاسة لا الحرارة وقوة الروح وعبقريته عبقرية متزنة وليست عبقرية متقحمة جريئة كعبقرية المتنبي ، وعواطفه هادئة لا تترامى الى الحدود البعيدة والغايات القاصية فهو رجل بلاط قبل كل شيء مولع بالزينة والتظرف واقتناء العبارات السائغة المقبولة ، وهو يحبس في نفسه مشاعر ويكظم فيها اهواء ولا يرضى الوجود والحياة لكل فكرة تمر بخاطره وعاطفة تختلج بنفسه وانما يتناول الافكار التي اقرها المجتمع واصطلح عليها العرف حتى لا يصطدم بمذهب ولا يغضب معتقداً . وانك لتلمح في استهانة المتنبي بأوضاع اللغة وشذوذه عن القياس مع طول باعه وتمكنه من العربية صورة واضحة عن فوضى عصره وشذوذه وكذلك تسمع خلال شعره نبضات قلب كبير ونزعات روح طموحة لم تلن ولم تذلل وهو يأخذ الحياة مأخذ الجد فلا يكثر في شعره من التجميل والزخرف ولا يجري وراء المحسنات والمزوقات ولا تفارقه في شعره تلك النظرة الاخلاقية النافذة التي امتاز بها عن سائر شعراء العربية والتي هي اساس فلسفته في الحياة وخلاصة تأمله الطبيعة البشرية ، وخلاصة القول ان البحتري مثل صادق وانموذج تام لادب الصنعة والزخرف الذي يظهر في عصور الاستقرار كما ان المتنبي خير عنوان لادب القوة والابتكار الذي يسود في عصور الشدة والقلاقل والاضطرابات

الدستور

والنعرات المذهبية

لانيس المقدسي
استاذ الادب العربي بجامعة بيروت الاميركية

إنَّ من يعرف الشرق العربي قبيل الدستور يعرف ما بلغهُ من الاختلال الاجتماعي والاقتصادي . فسياسة الحكومة الخرقاء والدعايات الاجنبية المختلفة كانت من افعل الوسائل لتوسيع شقّة الخلاف بين ابناء البلاد حتى اصبحت البغضاء الطائفية مستحكمة الحلقات وكثيراً ما كان ذلك يفضي الى « حوادث » دامية وشرّ مستطير . ومهما نحاول تخفيف الامر فلا سبيل الى انكار ما كان في العهد الحميدي من حزّازات بين الاكثرية والاقلية ، بل بين الفروع التي تنتمي الى كلٍّ منها . وفي ذلك يقول سليمان البستاني وهو عثماني صميم ومن الذين خدموا الدولة نائباً ووزيراً « لم يكن من مصلحة ظلـمة الاستبداد في الحكومة الغابرة ان يؤلـفوا بين القلوب اذ كانوا يعتقدون لجهلهم ان وفاق الامة يدك معاقل صوانهم »[1] والى هذه الحال يشير بطل الانقلاب نيازي بقوله من خطبة القاها في جمعية الاتحاد والترقي وذلك قبيل اعلان الدستور[2] « تعلمون ان سفالة الحكومة وجبنها وهونها صيّرتنا سخرية بين الناس والذي يجب ان نقوم به لقاء الحكومة ولقاء مؤامرة اوربا على تقسيمنا هو ان نثبت فعلاً في ثورتنا هذه اننا نحب المسيحيين كاخواننا ونساوي بينهم وبيننا . فليست ثورتنا ضد الاشخاص والعناصر بل هي نهضة ضد اصول الادارة التي اوقعت العداوة بيننا وبين اخواننا في الوطن » . فنيازي هنا يصرّح بهذه الحقيقة المؤلمة ويعزو اللوم في ذلك الى سوء الادارة من جهة والى سياسة المستعمرين من جهة اخرى . ولقد يصحّ ان نستثني مصر لما كانت تتمتع بهِ من حرية اجتماعية بعد الاحتلال . على ان سائر البلدان العربية ولاسيما سوريا كانت — كما هو معروف — تتخبّط في دياجير التعصّب

(١) كتابه عبرة وذكرى (١٩٠٨) ص١٠١ (٢) من تأملات نيازي راجع المورد الصافي ١ — ٦٤

وتقاسي منهُ الاهوال . فلا عجب اذا رأينا السوريين واللبنانيين يهاجرون الى وادي النيل او يضربون في آفاق الارض سعياً وراء الرزق والحرية . وقد اصاب حافظ ابرهيم اذ قال في وصف هؤلاء المهاجرين [١] —

لم يحمهم علَمٌ فيها ولا عددٌ سوى مضاء تحامى ورده النُّوبُ
لهم بكلّ خضمٍّ مسربٌ نهج وفي ذرى كل طود مسلك عجبُ
ما عابهم انهم في الارض قد نُثروا فالشهب منثورة مذ كانت الشهبُ

ولا ينكر ان كثيرين من العقلاء كانوا يرغبون في الحسنى . وفي القضاء على هذا الاختلال الاجتماعي المؤذي ، لكن السياسة على ما يظهر لم تمكّنهم من ذلك

فلما أُعلن الدستور ونودي في الناس بالحرية والمساواة والاخاء زال الضغط فجأةً عن الصدور حتى رأينا من غريب المشاهد ما كان له اثر عميق في ادب ذلك العهد . زعماء الطوائف يتعانقون في الساحات العمومية ويتعاهدون على المودّة الاخوية . قال الدكتور هورد بلس من خطبة له القاها في الجمعية الجغرافية الوطنية باميركا (في ١٨ دسمبر ١٩٠٨) ذاكراً تلك الحال في بيروت — [٢] « فأطلقت حينئذٍ الحرية في المدينة ولم يعد الناس يتمالكون ضبط نفوسهم عن اظهار بهجتهم — والناس الذين قضوا السنين الغابرة والعداوة بينهم مستحكمة صاروا الآن اصدقاء اعزّاء في الحفلات والمجتمعات وصار رؤساء الدين من المسيحيين والمسلمين يتضامون ويتعانقون . قطعت الاغصان من الاشجار وأتي بالبسط من المنازل واكتظت الشوارع بالناس فكانوا يضيفون اخوانهم الذين فقدوا صداقتهم زماناً طويلاً . وكانت امارات المودّة والالفة ظاهرة في كل مكان حتى بين الرعاع وذوي الجرائم »

ولنترك لاديب بيروتي معروف وصف مشهد من هذه المشاهد وهو أُنموذج لما حدث في اهم الحواضر العربية قال — [٣] « من أبهج ما رأيت من هذا الوفاق ان نفراً من شبان حيّ السراي (حي اسلامي) ركبوا العربات فسارت الى محلة الجمّيزة (حي مسيحي) فجدّدوا عهود الاخاء مع اخوانهم المسيحيين بعد ان ابلاها الجهل ورجال السوء . هناك تآخى الفريقان وتحابّ القبيلان وعلموا ان العثمانيين جسم واحد تديره روح واحدة »

ويزكي هذه الشهادة ما ذكرتهُ مجلة الهلال عن بيروت اذ قالت [٤] — « اظهر اهل بيروت بعد اعلان الدستور ما ادهش العثمانيين من الاتحاد والحرية الشخصية وصحة المبدإ . فقد كان أهلها اول من تصافح فيهم الشيخ والقسيس . واظهروا في اثناء انتخاب النواب لمجلس الامة

(١) من قصيدته الشهيرة (لمصر ام لربوع الشام تنتسب) (٢) راجعها في المقتطف ٣٤ — ٣٥٠
(٣) مصطفى الغلاييني في لسان الحال ١ آب ١٩٠٨ (٤) الهلال مج ١٧ — ٤٩٦

استقلالاً في الفكر واتحاداً في الكلمة. ولما وثب بقية حزب التقهقر بجمعية الاتحاد والترقي بالاستانة كانوا في مقدّمة الناقمين على الواثبين. وقاموا يؤيدون الدستور بخطبهم ورسائلهم. وعثروا على بعض الجواسيس يسعون في التفريق بينهم فقبضوا عليهم . وجدّدوا الوفاق بين طوائفهم . وقالوا اذا تباغضت الطوائف في كل المملكة فنحن متفقون في نصرة الدستور الى آخر نسمة من الحياة »

وللشعراء في هذا الوفاق وفي الحضّ على نبذ التعصب الذميم قصائد كثيرة نجتزىء منها ببعض مقطعات على سبيل التمثيل . فمن ذلك هذه الابيات (١)

قد صرتمُ امةً في الارض واحدةً — من آل عثمان لا عُرباً ولا عجما
فلا تفرّقكمُ اجيالكم فرقاً — ولا تقسّمكمُ اديانكم قِسَما
كم قيدوكم بها اسرى وكم سفكوا — دماءكم او احلوا فيكم النقما
واليوم جرّد سيف الحق صاحبه — وهاجم الظلمَ حتى فرَّ منهزما
تعانق الشيخ والقسيس واصطحبا — من بعدما افترقا ضدين واختصما
تآخيا في حمى الدستور واتّحدا — ورفرفت راية التوحيد فوقهما

وهذه النغمة تسمعها في بيروت كما تسمعها في دمشق وبغداد وسواها . فمن دمشق مثلاً قول أحد أدبائها (٢) من قصيدة : —

أيها الشرقيُّ قد بلّغتَ ما — كنت ترجوه فهل ثمَّ خلل
فانبذ البغضاء والحقد ودع — كلَّ ما فيهِ فسادٌ وزغل
كلُّ من في الشرق اخوانٌ فلا — فرق بين الخلق من كلّ النحل

ومن العراق قول شاعره (٣) —

أكرم بعصرٍ حبانا بالمساواة — وخصنا بالتهاني والمسرات
عصرٌ بهِ قد تآخينا فليس ترى — بعد الاخاء طريقاً للعداوات

والذي يظهر من مراجعة النفثات الدستورية ان هذا الشعور الأليم بمساوي التعصب الديني كان أبرز في الشعر السوري اللبناني منهُ في سائر الاقطار العربية . ولعلَّ من أسباب ذلك أن مسألة « الاكثرية والاقلية » لم تبلغ في مكان ما بلغتهُ في الاقطار السوريّة . فمصر كما ذكرنا كانت تحت نفوذ الاحتلال ، والعراق قطر اسلامي لا قوّة للاقلّية فيهِ وبالتالي لا تنافس طائفي موجب للبغضاء . وان كان شيء من ذلك في ذلك الحين فبين المسلمين أنفسهم من سنيّة

(١) من قصيدة لنقولا رزق الله الهلال ١٧ — ١٧٢ (٢) محمد شاكر ياسين: شيخو ٢ — ١٦٥
(٣) من قصيدة: راجع شيخو ٢ — ١٦٤ (ولم نجدها في ديوان الشاعر)

وشيعة . ولم يظهر في الشعر العراقي من اشارة الى احتكاك المسلمين بالمسيحيين الاَّ في عهد الانتداب ، كما نرى في قصيدة وجّهها الرصافي الى المسيحيين ومطلعها [١] —

أما آن ان تُنسى من القوم أضغان فيبنى على أسّ المساواة بنيان
علامَ التمادي لاختلاف ديانةٍ . إن التمادي في الديانة عدوان
إذا جمعتنا وحدةٌ وطنيّةٌ فماذا علينا أن تُعدّد أديان

وهي طويلة وتشفّ عن خوف العراقيين من السياسة العاملة على هدم الكيان القومي بالتفريق بين طوائفه . وسنرجع الى ذلك بعد

أما سوريا وبنوع خاص منطقتها الساحليّة التي تشرف عليها جبال لبنان فقد كان التنافس الطائفي فيها على أشدّه ، وكانت دائماً اكثر تعرّضاً للدعايات الاجنبية وأكثر اختلاطاً بالحضارة الغربيّة . فنشأ من ذلك ضغائن ووقائع دموية كان لها أثر عميق في النفوس . فلا بدع أن نرى الشعر السوري واللبناني في ذلك العهد أشدّ تهجماً على التعصّب الديني واكثر ترحيباً ورجاء بالعهد الجديد . وقد حملت النشوة الدستورية بعضهم على الخروج عن جادّة الاعتدال . فلم يقفوا عند حدّ التهليل بالإخاء والدعوة الى نبذ الاحقاد ، بل تجاوزوه الى درجة التطرف فصاروا يعزون الى الدين ورجاله كلّ أسباب التعصب والشقاق ، ويرجعون اليهم كلّ ما أصاب الشرق من البلايا الاجتماعية ، كقول احد شعراء المهجر [٢]

وإني ليوهيني تقسّم أمتي بأديانها والشرّ بين المذاهب
متى ينتهي كتّابنا وشيوخنا فنخلص من حيّاتهم والعقارب
شقيتنا لنيامهم وراحتهم فهم يسوقوننا كالعيس نحو المعاطب
فما الدين إلاّ نسخة بعد نسخةٍ يزخرفها للناس أهواء كاذب

وفي الشعر الدستوري كثير من مثل هذا التطرّف (ومعظمهُ في الاوساط المسيحية) . فلا عجب اذا رأينا رجال الدين ينكرون ذلك ويقاومونهُ كما فعل الاب لويس شيخو في كلامه على الحماسة الدستورية إذ قال [٣] . « وأسوأ من هؤلاء (أي المبالغين والمتهوّسين) اولئك الذين توسّلوا بالدستور فاستباحوا في شعرهم ذمار الدين وانتهكوا حماه وبخسوا حقّ ممثليه . فترى هذا ينسب الى الدين كلّ الشرور وأسباب النفور ، والدين كما لا يخفى يأمر بالاخاء والتحاب

(١) ديوانه (١٩٣١) ١٥٠ (٢) ابو الفضل الوليد في « أفاريد وعواصف » ٤٠ (٣) آداب القرن التاسع عشر ٢—١٦٨

وغيره يدّعي أن الدين لا دخل لهُ في العمران وانهُ من المسائل العرضية (كقوله)

خلّ قسّي وشيخكم في جدالٍ   وأحكِ لي في المسائل الجوهرية

وإذا ذكر الدين حكم عليهم بالظلم وقت الاستبداد تعجّب أنهم لم يكرموا كآلهة مثل السيد المسيح

مات عيسى فآلهتهُ ألوف   وألوف ماتوا وراحوا ضحيّه

« ويجعل آخر كلّ الاديان متساوية وكلها صحيحة » . . . الى ان يقول .. « فننشدكم الله ايها الشعراء صونوا قرائحكم من كل امتهان ولا تبتذلوا موهبة جاد بها عليكم المنان »

***

ولا بدّ لنا من القول ان هذه الحرب التي اثارها الشعر الدستوري على التعصب الديني قد احدثت شيئاً من التقارب المنشود ، لكنهُ لم يكن ثابت الاركان . فظلت الطائفية اساس الاجتماع والسياسة في البلدان العربية . وظلت مسألة الاكثرية والاقلية عقدة من العقد المستعصية ، حتى في مصر حيث كانت السلطة الاحتلالية تقوم بدور الحماية لحقوق الاقليات . ففي سنة ١٩١١ عقد الاقباط في اسيوط مؤتمراً عامّاً للمطالبة بامور تتعلق بطائفتهم [١] وازاء ذلك عقد المسلمون مؤتمراً في عين شمس [٢] ومن بواعث الرضى ان جوّ المؤتمرين كان مشبعاً بروح الوئام . الاّ ان المدقق في البواعث على انعقادهما لا يسعهُ الاّ ان يرى شبح الطائفية فيهما ماثلاً للعيان . وكذلك كان هذا الشبح في سائر الاقطار العربية

فالدستور أرهف الشعور الاخوي بين الطوائف حيناً ، وفتح للاحرار باب التهجم على التعصب ، حتى ظنّ كثيرون ان اسباب الجفاء الديني قد زالت من الشرق العربي ، وان ابناء الشرق ، على اختلاف نحلهم ، سينعمون في ظل العثمانية الجديدة بعهد جديد تتغلب فيه روح الوطنية الحرّة على النعرات الدينية الهدّامة . والحق يقال ان الشعر العربي لم يتقصّر في الدعوة لهذا العهد الجديد ، ولم يألُ جهداً في اثارة النفوس لتتخلص من قيود الاوهام ومما ورثتهُ من سخائف القرون المعروفة بقرون الظلام . لكن تلك النعرات على ما يظهر كانت أرسخ من ان تستأصلها الثورات الكلامية ، فعادت الى الظهور ولا تزال الى الآن تعمل عملها في حياة الشرق الاجتماعية والسياسية . وسنرى انهُ قد ظهر بعد هبّة الدستور هبّات اخرى هي ايضاً أرهفت الشعور القومي وأهابت بالشرقيين الى الاخاء والوئام . على ان عوامل التفريق لا تزال تعمل في الشرق عملها المعيب ، ولا يزال الشرق برغم الجهود المبذولة بعيداً عن هدفه الوطني المنشود

---

(١) الهلال ١٩ — ٥٠٦ وكان كاتب هذه السطور ممن اتيح له حضور هذا المؤتمر

(٢) « ١٩ — ٥٠٧

﴿ بعد النشوة الدستورية ﴾ حاولنا فيما سبق ان نؤرخ العواطف العربية بوصفنا الاثر الذي أحدثهُ الدستور لاول وهلة في نفوس العثمانيين ولاسيما ابناء الشرق العربي . وقد رأينا كيف برز الشعر في مفتتح العهد الدستوري بحلل قشيبة من الحماسة سُداها الامل ولحمتها الاستبشار . على انهُ لم يظلّ كذلك طويلاً . فلم تكد تمرّ سنة على اعلان الدستور حتى رأينا كثيراً من النفثات الشعرية مصطبغة بألوان قاتمة من الاشفاق والحذر . ولو تحرّينا الاسباب لوجدناها متباينة الاصول . فنها نفسيٌّ ومنشأه ذلك التراخي الذي يعقب عادة شدّة الانفعال او الثوران العصبي . خذ الغضب مثلاً فهو يثير النفس ويشعرها موقتاً بشيءٍ من القوة ، لكنهُ لا يلبث ان يزول ويعقبهُ « رد فعل » مقترن بالضعف والهبوط . ومثله الاغراق في الحبور او الحزن والامل وما الى ذلك من الظواهر النفسية . وذلك ما حدث في الهبة الدستورية . فقد كان الشعر على اثرها متوقداً شديد الحماسة ثملاً يترنح بخمرة الاغتباط . فهزج ورقص وصخب ما شاء . ثم عراه في بعض الاوساط هبوط تدريجيّ الى عليهِ مسحة من التشاؤم

ومن اسباب هذا التشاؤم خيبة الامل في النظام الدستوري. كان الناس يرجون من الدستور المستحيل . يرجون منهُ ان يقلب الاحوال ويغير الطباع وان يجيء لهم فجأة اسباب التقدم والسعادة . على ان النظام وحده غير كافٍ ، ولا بدّ من اتحاد الزمن والعلم والاخلاق للوصول الى الغاية المنشودة . وكما ان الشجرة لا تنمو الاّ اذا تهيأت لها اسباب النموّ ولا تثمر الاّ متى حان الاوان ، كذلك كل دستور . وما على القائمين بهِ الاّ تعهده بحنكة واخلاص ، وتدريب الناس تدريباً منظّماً على السير بموجبه والعمل بمقتضياته. ولا شك في ان العثمانيين عموماً لم يكونوا على استعداد كافٍ للحياة الدستورية . وقد ظهر في تطبيقه نقائص لم يكونوا يتوقعونها مما أثار في النفوس احساسات معكوسة ظهرت في الادب بمظهر الخيبة والفشل

واذا عرفنا ذلك عرفنا الدافع الى قول جرجي زيدان بعد زيارته لسوريا ولبنان عام ١٩١٠ مشيراً الى التشاؤم المستحوذ على بعض النفوس . ومحذّراً من التمادي في ذلك [1] « وطائفة تعجلت استثمار الدستور فهي تريد بعد ان تصير المملكة العثمانية التي قضت قرنين في حال الاحتضار وقد نضبت ماليتها وأجدبت أرضها وأظلمت مدنها وتخرّبت طرقها وشوارعها وفسد كل شيء فيها حتى اخلاق أهلها . واختلّ نظام اجتماعها وفرّق التعصب بين طوائفها ومذاهبها — تريد هذه الفئة من المتقدمين ان تصير هذه المملكة في سنتين مثل أرقى ممالك أوربا وهذا مستحيل »

فقد أدرك زيدان يومئذٍ ما كان يشعر بهِ الناس عموماً من سوء الظن بالحكومة الدستورية وخيبة الامل بما أعلنتهُ من الاصلاح ، فلم يجارهم في النقد بل رأى التريّث والصبر أولى وأضمن

(١) راجع الهلال ١٩ — ٢٩

للوصول الى الغرض المقصود . وقد شاركه في ذلك كثير من المفكرين . الاّ ان بعض الشعراء لم يستطع الصبر على هذه الحال فاندفعوا في سبيل التهكم والانتقاد ، كقول الرصافي من قصيدته شكوى الى الدستور [1]

فهل أيها الدستور تسمع شاكياً بك اليوم يرجو ان يرى نهضة الشرقِ
لقد جئت من أفق الصوارم طالعاً علينا طلوع الشمس من منتهى الافقِ
فصادفت منّا أمةً قد تمشّقت لقاءك حتى جاوزت مبلغ المشقِ
وظلنا نرجّي منك للخرق راقعاً ولكن تراخي الاس متسع الخرقِ

وقول الشاعر القروي في البرازيل [2]

جاءت فكبرنا وشقّ هتافنا قلبَ العنان تيمناً بالجائي
ودعا الفقير لها وسماها أخو البؤس الشديد بأعذب الاسماء
حتى اذا فتر التحمّس وانجلى صبح الحقيقة عن دجى الضوضاء
نادى فلم يجد النداء ودعا فما لباه غير تجاوب الاصداء

ولولي الدين يكن قصيدة موضوعها (الاسترقاق في أيام الحرية) صدّر بها أحد فصول كتابه الصحائف السود سنة ١٩١٠ . وفيها يقول عن الحرية

تشتاق في عزّها ذويها وحصنها دونهم حصين
حتامَ هذي القيود تبقى يارب قد كلّت المتون

وقد عبّر عن عواطف كثير من الناس حين قال على طريقته الشعرية النثرية [3]

« قلت حين نبذوا لنا جيفة الدستور : نؤازر هؤلاء القوم القائمين فينا بالاس، ربما أصابوا من حيث لا يشعرون . وكم رمية من غير رام . وقلت اطمئني أيتها القلوب واسكني يا ثارات النفوس . ووقف اخواني العثمانيون يتفرّجون فما راعنا الاّ مذابح وفتن ، وغارات تلوها غارات ، وصخب وضجيج ، بينا نواب الامة يتجاذبون أطراف الفوائد كلٌّ يريد أن يسمّن كبشه » ثم يقول « اخواننا الذين يظللهم الدستور العثماني لا قبل لهم بمعارضة الحكام وهم معذورون . ثمّ شفار أرهفت ، وسيوف سلّت تقتطف الرقاب كما تقتطف الثمار »

ويبلغ به التشاؤم مبلغه في هذين البيتين [4] مخاطباً رجال الدولة

أفلا يزال السوط حاكمكم وأبو السياط يلذ ذهبا [5]

---

(١) ديوانه (١٩٣١) ٣٧٥ (٢) الرشيديات (سان باولو ١٩١٦) ٧١ (٣) راجع كتاب التجارب (١٩١٣) ٢٤ و ٢٥ (٤) راجع كتاب التجارب (١٩١٣) ٤٢ (٥) اشارة الى انقضاء العهد الحميدي

وتقول أحرار فنمدحكم لا حرٌّ فيكم . كلنا كذبا

على ان أهم ما يذكر له في هذا الباب قصيدة موضوعها « بين أنقاض الوطن » قالها يصف حال الدولة وما وصلت اليه على يد الدستوريين وهي تنيف على الستين بيتاً [1]

حلمنا بشيءٍ وانتبهنا بضدّه وما يجتني من كاذب الحلم حالمُ ?

أقيم بناءٌ بالعراء على شفا ولم تقوَ آساس له ودعائمُ

فما ظنَّ منهُ قائماً فهو مائلٌ ومن ظنَّ منهم بانياً فهو هادمُ

وأربعة [2] مرّت ولم تحلُ لامرئ بها دت على الاقطار وهي سمائمُ

تعوّض يأساً من غدا وهو آملٌ وشام يقيناً من مرى وهو واهمُ

ومثلها تشاؤماً وسخطاً قصيدة موضوعها « التعصب يخرج الحرية من ديارها » . قالها حين نفى الحكام جميل الزهاوي من بغداد ومطلعها «اسيرٌ بدار الظلم اعياه آسره » وفيها يندد بالجور والتعصب ويلوم اولي الامر على انتهاك حرمة الدستور . وهي تبلغ ثلاثين بيتاً ويتجلى لك روحها في قوله [3] —

أحين هوى عبد الحميد بعرشه وغيره بالذم في الناس غابره

يقوم اناس يستعيدون عهده وفينا نيازي قائم وعساكره

ألا لا ترجّي العدل والعدل دوننا موارده محمية ومصادره

تجلى زماناً ثم لم تبتسم لنا أوائله حتى استسرّت اواخره

فولي الدين ينسب الى الاتحاديين الاستبداد بالامر والضغط على الحريات مما يجعل الدستور لقباً أجوف لا خير منهُ . وقد يقال ان هذا الشاعر عصبي المزاج يميل الى سوء الظن فيبالغ في نقده سيئات الدستوريين . على انهُ لم ينفرد بذلك والذي يراجع ادب ذلك العهد يجده مشبعاً باليأس والمرارة . او على الاقل مصطبغاً بصبغة عدم الرضا كما ترى في مقال لرفيق العظم موضوعه الاحزاب في الامة [4] يتهم فيه الاتحاديين واشتدادهم بالسلطة النيابية فيقول — « ان الاحزاب في البلاد الدستورية كالقواعد التي يشاد عليها بناء الدستور . ولا يمكن لقاعدة واحدة أن ترفع ذلك البناء . فهل لاخواننا الاتحاديين ان ينعموا في هذا الامر قليلاً ليعلموا ان القوة لا تبلغ بحزب واحد يحمل ذلك البناء الثقيل بازاء امة جامدة مثل هذا الجمود المخيف . فهي في حاجة الى من يسوقها الى ميدان السياسة ويرشدها الى فضيلة الحكم

(١) راجعها في التجاريب ١٠٨ (٢) أربعة اعوام مرت على اعلان الدستور (٣) راجعها في التجاريب ١٩ (٤) المورد الصافي ٢ — ٢٤٢

الدولي ألا وهي الاحزاب فانما هي التي تتولى تمرين الشعب على ذلك الحكم وتشويقه اليه لتكون يداً واحدة في المحافظة على الحرية والدستور» وهذا الكلام كلام عارف بأحوال البلاد مطلع على دخائل الامور. نعم ليس فيه لذع ولي الدين ولكن فيه ما يشير الى الاسباب التي اثارت كوامن نفسه الحساسة

ومن المنتقدين من رأى الخلل في الشعب نفسه لا في القائمين باصلاحه او المتولين لشؤونه فمن الاجحاف عندهم ان تلقى كل التبعة أو معظمها على عاتق الذين احدثوا الانقلاب وتولوا الاحكام. وان يعزى اليهم وحدهم هذا الفشل في تطبيق النظام. وعلى ذلك يقول الاستاذ الدكتور فيليب حتي من خطبة له موضوعها عن الدوم[1] — «لما لنا قائمة نيابتنا ابداً على حكومتنا ورجال الحكم فينا ولا لوم عليهم ولا تثريب... انما اللوم كل اللوم علينا نحن كافة اذ ان الحكام ليسوا الا بعض افرادها يرتقون بارتقائها وينحطون بانحطاطها. يقولون الداء اختلاف العناصر والدواء ائتلافها وامتزاجها — يقولون الداء ذاتي كثير والدواء توسيع الاذونية والسلطة الادارية — يقولون ويقولون والواقع غير ما يقولون. الداء الحقيقي هو جهلنا حقائق الامور وانحطاطنا علمياً وأدبياً كأفراد وبالتالي كمجموع، والدواء التهذيب الحقيقي. وما الضعف القومي سوى عبارة عن مجموع الضعف الافرادي. اننا في حاجة الى تهذيب عام يشمل الفتيان والفتيات — حاجتنا الى مبادىء قويمة الى آداب حصينة — الى رجال» وتصف لنا الشعور نفسه قصيدة للمؤلف موضوعها «العامة في الشرق» وقد نظمت على اثر بعض الحوادث المؤسفة عام ١٩٠٩ ومنها[2] —

سلانيك[3] حي الجند عنا وسلمي | عليهم سلام المستهام المتيم
وهبت لنا الدستور منك تكرماً | وما نحن اهل للعطا والتكرم
ضجيج وأوهام هو الشرق كله | فهل من فحول في الشدائد مقدم
يقولون ان الشعب في الشرق حاكم | وربك ما للسلطان منه بأظلم
أنيروا أنيروا الجاهلين فانما | بني الشرق تسري في الظلام المخيم
أنيروا أنيروا الجاهلين وبشروا | بدستوركم في عالم الشرق ينعم
فما الشعب بالرأي العمومي ارتقى | الى ذروات المجد من غير سلم

ومما زاد الحالة تفاقماً والنفوس تشاؤماً ما نشأ بعد خمود الثائرة الدستورية من مشادات عنصرية بين العرب والاتراك. فبعد تلك الخطب الحماسية التي نراها في الادب ما بين سنتي ١٩٠٨—١٩٠٩، والتي كانت تميل الى تعزيز الجامعة العثمانية والتباهي بها امام الاجانب، أخذ التشاؤم يتسرب الى بعض الاوساط العربية، فتنبه العرب الى المغالبة بحقوقهم وصاروا يلهجون بذويهم ومفاخرهم في السلطنة وتلك هي الشرارة الاولى من النار التي تأججت بعد ذلك في الثورة الحجازية ثم في الحركة القومية العربية بعد الحرب الكبرى. وسنفرد لهذه الحركة ولآثارها في الادب العربي فصولاً خاصة ونتقدم هنا الى كلمة عن أدب الحرب الكبرى (١٩١٤—١٩١٨) وأثرها الادبي تتمة لما نحن بصدده

---

(١) القاها في ١٩٠٩ ... ونشرت في المورد الصافي ج ٣ — ٢٠٥ (٢) راجعها في المورد الصافي مجلد ١ ج ... (٣) ... الانقلاب الدستوري

حضارة الميتانيين

بقلم قيصر صادر

عضو لجمعية العاديات السورية

لا ندحة لمن اراد ان يتتبّع تاريخ الحضارة الحثية في سوريا الشمالية من ان يلمّ بتاريخ سائر الحضارات التي ازدهرت بجانبها لارتباط بعضها ببعض الى حدٍّ كبير ونخص منها بالذكر الحضارة الميتانية التي لا تكاد تذكر في بطون التاريخ الا لماماً لاحتجابها وراء طيات متراكمة من الاسرار والادهار، على انّنا سنحاول ان نميط اللثام عن آثار هذه الحضارة القديمة وندرسها على ضوء المكتشفات الحديثة التي أخرجها العلم للعيان من جوف الاطلال وحسر عن وجهها آكام الاتربة فتوفر منها لدينا بينات لا يرقى اليها الشك ساعدت على تحديد تاريخ تلك الحضارة وتتبع تطورها

تدل بعض الاسانيد التي ترتقي الى فجر الالف الثالثة قبل المسيح على انه كان يُطلق اسم السوبارو على منطقة واقعة في شمالي ما بين النهرين تمتد من جبل زاخو [1] حتى ضفاف نهر الفرات وتشتمل على حدود اشور وميتانيا [2] وان مشاحنات قوية كانت تقع ما بين سكان هذه المنطقة والمملكة الاكادية التي كانت منتشرة في انحاء بابل ويلوح من بعض الآثار ان الحضارة الميتانية قامت على انقاض الحضارة السومرية في هذه المنطقة وتشرّبت من اصولها . وقد دلت بعض الاسماء المنقوشة على لوحات عثر عليها في خرائب أور وسامرّا على وجود عنصر اسيوي بجانب العنصر السامي الاشوري في شمالي شرقي بابل منذ الالف الثالثة قبل المسيح ويبدو لنا هذا العنصر أشد قوةً وأكثر انتشاراً في الالف الثانية اذ نلاحظ اشتقاق كثير من الاسماء من لغته الصعبة وقيام المملكة الحورية الميتانية في تلك المنطقة على سواعد ذاك الشعب الاسيوي

﴿ خارطة المملكة الميتانية ﴾ ان المملكة الميتانية التي كانت تعتبر من اهم المواقع السياسية في تاريخ الالف الثانية ق.م كانت تحد قديماً بضفاف النهرين اي الدجلة والفرات ثم اتسعت غرباً حتى بلغت شواطىء العاصي وقد كانت عاصمة هذه المملكة «واشوكاني» التي يعين العلامة الاثري

(١) Zagros زاخو سلسلة جبال قائمة في القسم الادنى من اسيا يتألف منها الحد الغربي لمرتفع ايران وهي تمتد من تخوم كردستان حتى حدود بلاد العرب والفرس ويبلغ علوها ٤٧٠٠ متر في قممها العالية تقطنها اليوم عشائر كردية ولورستانية وبختيارية (٢) راجع مقال الاستاذ تورو دانجان العالم في الآثار الحثية المنشور في مجلة سيريا Syria العدد الثاني عشر عام ١٩٣١

المسيو هروزني موقعها في رأس العين على ضفة الخابور . وكانت هنالك مملكة حورية متاخمة لها او بالحري مدغمة بها في كثير من العلاقات والشؤون وكانت قاعدة هذه المملكة الحورية اورفه على ما يُعتقد وكانت مقدرات هاتين المملكتين مرتبطة بحكم الجوار ارتباطاً وثيقاً بعضها ببعض ولاسيما ما يتعلق منها بتعزيز الدفاع عن تخومهما حتى ان الاشوريين لم يفرّقوا بينهما فأطلقوا عليهما اسم مملكة هانيجلباد . على ان هذا الارتباط بين المملكتين لم يدم طويلاً فبينما نرى المملكة الميتانية آخذة بالاتساع والسيطرة على مرور الاحقاب ، لا تكاد الاسانيد التاريخية تحدثنا عن مصير جارتها التي بدأ يخبو ذكرها على ما يظهر ثم يستدل من كثرة اسماء الاعلام الحورية الواردة في ألواح كركوك [1] وفي غيرها من الآثار المكتشفة في بلاد كنعان وفينيقيا على تشتت شمل الحوريين واندحارهم من مملكتهم خلال الالف الثانية وهجرتهم الى تلك الديار

﴿ تاريخ المملكة الميتانية ﴾ ان الكتابات الاثرية المكتشفة ليومنا بمختلف اللغات القديمة من حثية واشورية ومصرية أتاحت وضع تاريخ المملكة الميتانية منذ القرن الخامس عشر ق.م فقط بعد ان ظلت احقاباً طويلة أثراً منسيًّا في غياهب الجهل ولعل الحفريات القادمة كفيلة بنبش تاريخ ما قبل ذلك العهد من الارض التي طوته تحت طبقاتها العميقة منذ الوف الاعوام فليس بوسعنا اليوم اذاً غير ان نبدأ منذ عام (١٤٥٠) ق . م اذ نقف على صولة ملك الميتانيين «سوزارطا بن بارستطر» الذي استطاع ان يوسّع حدود مملكته ويجلب لعاصمته واشوكاني ابواباً من الفضة والذهب من بلاد اشور . وقد عثر على رسالة مبصومة بخاتمه يباهي فيها بسيطرته على املاك واسعة في شرقي مملكته مما يستدل منهُ على بلوغ سطوته حتى اعالي جبال زاخرو . ويؤخذ من كتابة الفراعنة ان الميتانيين بعد ان صدوا غارة الملك تحوتمس الاول في مجدو عام ١٤٨٣ ق.م ما لبثوا ان خضعوا له واستسلموا لمشيئته ثم اندحروا في حروب أخر فولوا الادبار . ويروى انهم اختبأوا في الدياميس هرباً من بطش جيوشه الظافرة . وكذلك تكرر اندحارهم عند ما حمل تحوتمس الثاني (١٤٤٧ — ١٤٢٠) ق . م في اوائل عهده حملته المشهورة على سوريا وعبر العاصي متجهاً نحو قادش حيث زحف عليهم وأسر منهم (٥٥٠) جنديًّا — من نخبة جنودهم الاشداء الذين كانوا يؤلفون الحرس المارياني . بيد انهُ سرعان ما انقلبت تلك العداوة الى تحالف وصارت مملكة ميتانيا تعد في مقدمة الممالك الموالية لمصر . وقد وصف امنوفيس الثاني بالكتابة المنقوشة على المسلة الشمالية القائمة في معبد الكرنك استقباله كبراء الميتانيين الذين أتوا اليه حاملين الجزى على ظهورهم مستمدين منهُ نفثات الحياة باعتباره من مصاف الآلهة

ومما زاد في تعزيز أواصر الصداقة بين المملكتين على توالي الايام زواج تحوتمس الرابع (١٤٢٠ — ١٤١١) من ابنة ارتطاما الاول ملك الميتانيين . على أن رضا مليك مصر بأن يتخذ

[1] نعني بألواح كركوك تلك المجموعة الثمينة التي اكتشفتها بعثة اميركية في يورغان تپه (العراق) سنة ١٩٢٥

له زوجة شرعية خارجاً عن الاسرة الفرعونية كان مما يثير العجب لعلمنا بشدة حرص الفراعنة على نقاء الدم الجاري في عروقهم . فيجمل بنا إذاً ان نبحث عن الاسباب التي حملته على هذا الزواج في ميدان السياسة فنرى في هذا القران رغبةً من فرعون مصر في التقرب من الميتانيين لخطب ودهم وحملهم على مناوأة الحثيين من الخلف لاشغال هذا الشعب الباسل الذي كان يخشى زحفه على وادي النيل بعد ان جمع شمله وشكل وحدة قوية في تلك الآونة وأخذ يتطلع الى توسيع حدود مملكته جنوباً. على ان هذا القران على الرغم من شذوذه في بلاط مصر عن الاصول المرعية لم يكن ميسوراً من الجهة الثانية كما يظن ، لان البلاط الميتاني كان منقسماً الى حزبين فنهم من كان راغباً في هذا القران تقرباً من مصر ومنهم من كان راغباً عنهُ حرصاً على حسن العلاقات مع الجوار . ويذكر تحوتمس الرابع انهُ اضطر أن يوفد رسله سبع مرات متتالية يطالب عروسه ويظهر أنهُ لم يتسنَّ له ان يحظى بها إلاَّ عندما رجحت كفة الحزب الاول . وقد اشترط عليه ان يجعلها ملكة البلاط الكبرى وكذلك كان . وقد عرفت هذه الملكة باسم ميتوميرا وكانت كبيرة الشأن في البلاط . ويلوح من نص رسالة أخرى وجدت في حفريات تل العمارنة موجهة الى أمنوفيس الثالث (١٤١١—١٣٧٥) ق . م . من ملك الميتانيين «توزارطا» بن الملك «سوطارنا» ان هذا الاخير كان أكره على تقديم ابنته المدعوة «جيلوهيبا» حظيةً لامنوفيس الثالث الذي احتفر مسلة تذكارية بهذه الحادثة الخطيرة . وقد جاء في هذه المسلة انهُ في السنة العاشرة من عهد ملكه تقبل من سوطارنا ملك النهرين الكبير ابنته حظيةً مع حاشية بلغ عددها ثلاثمائة وسبع عشرة امرأة . فكانت ترمي المملكة الميتانية من وراء ذلك الى تأمين سلامة حدودها من جهة مصر كما كانت مطمئنة الى علاقاتها مع بلاد أشور القائمة في جوارها والتي كانت خاضعة لها تستمد عونها في المحن والحروب منذ القرن الخامس عشر ق . م . كما تثبت ذلك الكتابات المحفورة على أنصاب المدافن الاشورية التي تذكر أسماء كثير من تلك الضباط الاشوريين المتطوعين في الجيش الميتاني تحت أمرة الملك هانيجلباد الكبير . على ان السلام لم يخيم طويلاً على البلاد الميتانية فما كاد يتوفى الملك سوطارنا حتى نشبت في البلاد الحروب الأهلية واغتال شخص يدعى بورحي ولي العهد «أرطازورما» فعتلى أخوه «توزرطا» العرش بعده وكان ضعيفاً فاستطاع ان يجعل رعيته تخلد الى السكينة وأعاد الى البلاط الطمأنينة بعد أن انتقم من قتلة اخيه في عاصمته واشوكاني . بيد انهُ لم تتسنَّ له السيطرة على المملكة كلها فانقسمت البلاد على ذاتها ونازعهُ اخوه الثالث المدعو «ارتطاما» الملك على مقاطعة الحوريين التي استولى عليها بمساعدة الملك الحثي «سيبلوليوما» فسرعان ما استحكم العداء واشتدت المنافسة بين الاخوين مما حمل ارتطاما على مناجزة أخيه للاستيلاء على مقاطعة الميتانيين نفسها ولكنه فشل في هذه المحاولة فشلاً ذريعاً ورجع القهقرى فاغتنم توزارطا فرصة هذا الانتصار وبعث بهدايا ثمينة من الغنائم التي غنمها من أخيه الى امنوفيس

الثالث فكان بينها عجلة مذهبة مع خيول مطهمة وزوجان من الحلي لزينة صدر اخته جيلوهيبا. فلما درى سيبلوليوما بهذا التقرب من فرعون مصر تحاشى ان يشن الغارة مباشرةً على توزارطا كما كان مزمعاً للاخذ بثأر حليفه ارتطاما ولكنهُ اخذ يطوق المقاطعات السورية التي كانت خاضعة لنفوذ الميتانيين وينتزعها منهم بالحنكة والدهاء شيئاً فشيئاً حتى دانت له كل البلاد الواقعة غربي الفرات. ولما شعر الاشوريون بضعف شوكة توزارطا قاموا يطالبون بخلع نيره عن بلادهم فاضطر الى التخلي عن معظم تلك البلاد ايضاً وتخاذلت بذلك صولة مملكته تخاذلاً رائعاً. واتفق بعد ذلك ان بعث امنوفس الثالث في العام الخامس والثلاثين من عهد ملكه برسول الى توزارطا يطلب اليه يد ابنته «تادوهيبا» فطال التداول بين الفريقين ثم انتهى بالموافقة على اعطائها وقد عثر على قائمة الهدايا التي قدمها توزارطا مع ابنته الى فرعون مصر واستوعب تعدادها ٢٣٥ سطراً من سطور المسلات الكبرى. ولكن امنوفيس الثالث الذي كان قد شاخ ما عتم ان مرض وأشرف على الخطر وبعث يتوسل الى حميه أن يرسل اليه تمثال الالٓهة عشتار من نينوى ذاك الالٓه الذي كان معتاداً ان يلتمس الشفاء من يده إذ يظهر من جواب الملك الميتاني الذي أرفقه بالتمثال المذكور أنهُ سبق لهذا التمثال ان حلَّ في وادي النيل قبل بضعة أعوام وأتى بمعجزات خارقة. فيستدل من ذلك أن البلاد الاشورية مابرحت حتى ذاك العهد خاضعة اكثر مقاطعاتها لحكم الملك الميتاني مما أتاح لهُ ان يتصرف بآلهة اشور المقدسة هذا التصرف الحر. على انهُ بالرغم من وساطة الالٓهة عشتار مالبث امنوفيس الثالث ان قضى نحبه فخلفهُ أمنوفيس الرابع (١٣٧٥–١٣٥٨) وتزوج من ارملته الصبية تادوهيبا الميتانية التي يذهب بعض علماء الآثار الى أنها نفس الملكة نفرتيتي المشهورة التي عثر على تمثالها النصفي الجميل في تل العمارنة ونقل الى متحف برلين. وها كم مقطعاً من نص الرسالة الانيقة التي وردت على فرعون مصر من حميه مهنئاً باعتلاء العرش. «عند ماتوفي أخي امنوفيس الثالث بكيت عليه أياماً طوالاً مع لياليها وانقطعت عن الاكل والشرب حزناً على فقدانه بيد أنهُ عندما علمت ان ابنه الكبير امنوفيس الرابع حلَّ محلهُ ايقنت ان أخي لم يمت واطمأننت على بقاء العلاقات بيننا على ما كانت عليه»

﴿ التحالف مع الحثيين ﴾ غير انهُ ما عتم ان تبدَّل مصير العلاقات المصرية الميتانية وضعف نفوذ الحزب الموالي لمصر في مملكة ميتانيا مما أهاب بالحزب الموالي لاشور ان ينقلب عليه عام ١٣٧٠ ق.م. ويحمل ابن توزارطا على قتل أبيه طمعاً في اعتلاء عرشه ولكنهُ لم يكد ينتشر خبر وفاة الملك توزارطا حتى اتحد ارتطاما ملك المقاطعة الحورية مع أشوربالي ملك المقاطعة الاشورية وحاولا اقتسام المملكة الميتانية. فعند تطور الحال الى هذه الخطورة نجا رئيس الحزب الموالي لمصر ماتيعوذا ابن مليكه توزارطا الصغير وهرب مع سائر أمنائه بمائتي مركبة الى بلدة بابل بيد انهُ لم يُحسن هناك وفادتهُ وعومل معاملة الاعداء الفظة فخسر أعوانه وباع أمتعته وخرج ماتيعوذا من بابل بثلاث عربات من حقدمه واللباس الذي عليه وسلك طرقاً غير مسلوكة

كاد يموت فيها جوعاً حتى وصل الى مقر الملك الحثي سيبلوليوما وطلب الالتجاء اليه فلم يخب ظنه بشهامة هذا الملك الكبير الذي كان بالامس عدو أبيه اللدود فأخذ بنصرته وزوجهُ من ابنته وأرفقهُ بأحد أولاده المدعو «باسيل» وكان هذا قد استولى حديثاً على كركميش فهاجم الاميران معاً مقتصي البلاد الميتانية ، واستوليا عليها فاختصَّ باسيل بالمقاطعة الحورية وعاد ماتيعوذا الى عرش أبيه باحتفال باهر بايعهُ فيه سيبلوليوما بالملك بيد انهُ كان قد تأخر حال البلاد كثيراً وتبددت ثروتها وسلبت غنائمها ، سلبها مستعمروها الذين استنفدوا خيراتها كلها لمنفعة المملكة الاشورية واستعادوا الى عاصمتهم ابواب الذهب والفضة التي كان جلبها الملك سوزارطا الى واشوكاني .

وقد عثر في مكتبة بوغازكوي على نصوص المعاهدة المعقودة ما بين سيبلوليوما وماتيعوذا بنسختيها المتبادلتين مكتوبةً باللغة المسمارية الاكادية التي كانت بمنزلة لغة دولية في ذاك العهد وهي من المعاهدات التي أمليت فيها ارادة الجانب القوي على الضعيف وقد سردت في مقدمتها الحوادث الماضية والحروب الواقعة ما بين الفريقين ثم كيفية التجاء ماتيعوذا الى البلاط الحثي واقترانه بابنة الملك الكبير وتتويجه ملكاً على ميتانيا وبحث في صلب المعاهدة عن نظام معيشة زوجته ابنة الملك الكبير في البلاط الميتاني وعن الميزات التي يجب ان تكون لها في التقدم على سائر زوجات ماتيعوذا اللواتي حدد عددهنَّ بعشر فقط. وعن حق تبوُّؤ اولادها وحدهم العرش من بعد ابيهم وعن الطاعة المتوجبة على الرعية لهذه السلالة المباركة والموالاة الدائمة للمملكة الحثية ثم تلا ذلك بنود الاتفاقات السياسية التي تحتم على الشعبين ان يكونا على وفق دائم وان يوحدا جهودهما لدرء غارات العدو عن بلادهما وان يسلكا سياسة واحدة في معاملة العبيد الهاربين من احد الفريقين الى الآخر. ويختم سيبلوليوما نسخته بتسمية نفسه منقذ ميتانيا الاكبر. اما نسخة ماتيعوذا فتكاد لا تفرق نصوصها عن الاولى الا في الحوادث الماضية التي تختص بشخصه فيسهب في بيانها ويزيدها ايضاحاً وتختم هذه النسخة بيمين مغلظة يقسمها بالمحافظة على الولاء وقد ألمع في ذيلها الى ان كلاً من المليكين قد اودع صورة من هذه المعاهدة في هيكل الاله الذي يدين به واستنزل اللعنة على كل من يعبث بها غير انهُ لم يكتب لماتيعوذا في لوح القدر ان يبقى على العرش زمناً طويلاً فما كاد يتوفى سيبلوليوما حامي بلاده في سنة ١٣٤٧ ق.م حتى انتهز الاشوريون فرصة ضعفه إبان صولتهم وهاجموا البلاد الميتانية التي كانوا يرمقونها من بعيد بعيون ملؤها الجشع والتي لم يكن لها من الحصون الطبيعية ما يرد عنها غائلة الاعداء فخارت امام قواهم الغالبة عزائم مليكيها الضعيفين فاستولوا عليها وضموها الى سائر اجزاء المملكة الاشورية الكبرى التي طغت إبان صولتها على كل الممالك الصغيرة المجاورة لها. وفي ذلك باد ذكر الميتانيين من تاريخ الامم في اواخر القرن الرابع عشر ق.م ولم يبق لهم من اثر غير بعض النقوش المدفونة التي انتشلها العلم حديثاً من بطون الارض وأخذ يقرأ اساطيرها الغابرة على ضوء مصباحه المنير

ابو العلاء المعرى

ونظره الى الحياة

لعبد الرحمن شكري

اذا قرأ القارىء شعر المعري أذكره نظره الى الحياة بنظر شوبنهور وان كان الفيلسوف الالماني قد باعد بين سلوكه في الحياة ونظره اليها واختلف قوله وفعله فهو في قوله يحث على الزهد في الحياة وفي فعله يغنم مغانم لذاتها وفي قوله يرى السعادة في رفض لذاتها وفي فعله ينافس الناس فيها . أما المعري فقد وافق قوله فعله فزهد في قوله وزهد في فعله وهو أيضاً يرى السعادة في رفض مطامع الحياة وجشعها والتقاتل عليها ولو انهُ في بعض قوله قد أدرك بثاقب فكره اختلاف مظاهر السعادة في النفوس فقال :—

تناهبت العيشَ النفوس بِغِرَّةٍ فان كنت تسْتطيعُ النِّهاب فناهب

وقال :— ان الشبيبة نار ان أردت بها أمراً فبادره انَّ الدهر مطفيها

وقال وقد عرف ان من الناس من يجد لذة وسعادة حتى في الاقدام على المهالك :

ومن حبّ دنياهم رموا في وغاهمُ بفيض المنايا بالنفوس الحبائب

فهو في اعترافه بمظاهر السعادة التي يجدها أناس في غير الزهد كما يجد سعادته في الزهد يذكرنا بأناتول فرنس وكيف انهُ صور الناس في قصة تاييس وكلٌّ ينشد السعادة فبعضهم ينشدها في رفض مطامع الحياة وبعضهم في نشدان مطالب الآخرة وبعضهم في الاقبال على الحياة فنظرة الدهري أعظم وأشمل لحاجات النفوس المختلفة . واذا كان في نظر المعري الى الحياة اظهار لمعايب النفس ولشرور الحياة فان الانسانية قد أفادها اظهار تلك المعايب والنفوس حتى وان خالف الناس الشاعر او المفكر المظهر لتلك العيوب في يأسه اذا كان يائساً من معالجتها فلا يستقيم طلب المثل العليا الاَّ بسخط هؤلاء الساخطين وبانكارهم ما ينكرون وبلفت الناس الى عيوب النفس وشرور الحياة والمعرّي يفعل ذلك وهو يعترف بعيوب نفسه قبل ان يلوم الناس على عيوبهم فتراه يقول :

بني الدهر مهلاً ان ذممت فعالكم فاني بنفسي لا محالة أبدأ

ويقول ومن العجائب ان كلاًّ راغب في أم دفر وهو من عيَّابها

(أم دفر هي الدنيا) والحقيقة ان عائب الدنيا انما يعيبها لانهُ يود لو كانت أهنأ وأسعد فهو اذاً يرغب عنها لشدَّة رغبتهِ فيها وفي السعادة التي كان يأملها فيها ولم تستقم لهُ

وقد رأينا في كثير من عصور التاريخ ان رؤية السعادة في الزهد في الحياة وفي رفض مطامعها والامتناع عن التقاتل عليها مبدأ يذيع في العصور التي تعم فيها الشرور وتضطرب فيها الاحوال السياسية حتى يود الناس ان يجدوا ملجأ يحتمون بهِ من شرور الدنيا كما كان البوذيون يفعلون في معابدهم والمسيحيون في أديرتهم والمسلمون في تكاياهم وحتى يريد الناس ان يتجردوا من التأثر بحوادث الحياة فلا فرح ولا حزن كما قال المعرّي

ومن عاين الدنيا بعين من النهى فلا جَذَلٌ يفضي اليهِ ولا كبْتُ

الاَّ أن المعري مع ذلك عَـلِـمَ علم المفكر ان عظة التجارب لا تتغلب على الطباع في كثير من الاحايين فقال :

فهِمَ الناس كالجهول ولا يظــفر الاَّ بالحسرة الحكماء

وقال :— نزول كما زال آباؤنا ويبقى الزمان على ما نرى

وقال :— العقل يسعى لنفسي في مصالحها فما لطبع الى الآفات جذاب

ومن أجل ذلك كان المعرّي يرى ان الفضائل والرذائل طباع وأن الوعظ والزجر والوعد والوعيد لم تغير من أساس النفس الانسانية على مرّ الدهور فقال

كم وعظ الواعظون منا وقام في الارض أنبياء

فانصرفوا والبلاء باقٍ ولم يزل داؤك العياء

وقال :— ولو أن الانام خافوا من العقــبى لما جارت الحياة الدماء

ولكنهُ مع ذلك لا ييأس من اصلاح النشء بتعهد الوليد ومن العجيب ان المعرّي كان يتعصب لاحمد بن أبي الطيب المتنبي وشرح ديوانه وأسماه معجز أحمد على اختلاف مزاجيهما في الوسائل والقوى وان اتفقا في النظرة الى الحياة والى النفوس الانسانية فيقول المتنبي

ومن عرف الايام معرفتي بها وبالناس روَّى رمحه غير راحم

فليس بمرحوم اذا ظفروا بهِ ولا في الردى الجاري عليهم بآثم

أنظر الى قوله (روَّى رمحه غير راحم) وهو لا يرى إثماً في أن يصول بمن وصفهم من البدو في قوله

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ويستحل دم الحجاج في الحرم

ولا نحسب أن استحسان المعرّي لفن المتنبي في شعره هو وحده الذي جلب له هذا الاعجاب وإن كان في فن المتنبي من حكمة المتأمل ما يغري المعرّي بل لعل من أسبابه أيضاً ما يطمح اليه صاحب المزاج الذي يضعف عن الكفاح في الحياة وما ينزع اليه من الرغبة في مجاراة المكافحين في الحياة المقاتلين عليها وهي رغبة تولد إعجاباً وهذه الرغبة وهذا الاعجاب قد يختفيان في النفس بسبب

مزاجها النافر من القتال على الحياة ولكنهما قد يظهران في بعض الأحايين بالرغم من محاولتها التخفي وبالرغم من لوم النفس التي يختفيان فيها للمقاتلين على الحياة وتهجينها جشعهم وأي النفوس لا تنزع الى القتال على الحياة بالرغم من نفورها منه ومن الشرور التي تنشأ منه والتي يصفها المعرّي في قوله:

إن العراق وإن الشام مذ زمن صِفران ما بهما للمُلك سلطان
ساس الامور شياطين مُسَلَّطة في كل مصرٍ من الوالين شيطان
من ليس يحفل خمص الناس كلهم ان بات يشرب خمراً وهو مبطان
من يقوم إمام يستقيد لنا فنعرف العدلَ أجبال وغيطان

وهو في البيت الاخير ينشد إماماً عادلاً قادراً يدفع الشر بالشر ويقضي على شرور (الشياطين المسلّطة) فهو اذاً يجيز القتال على الحياة وإن كان مزاجه ينفر من مظاهر ذاك القتال ووسائله بل هو ينظر ايضاً الى نفوس (الشياطين المسلطة) والى نفوس المجرمين والى الوحوش فيقول:

وما ذنب الضراغم حين صيغت وصيّر قوتها فيما تدمّي

ولكن هذا لا يمنع من طلب إمام قادر يستقيد منهم بقوته ولا يمنع ان يقول المعري: —

ما الظافرون بعزها ويسارها إلا قريبو الحال من خُيّابها

ولعلّ هذا الفكر كان يبعث في نفس المعري رحمة شاملة بالرغم من لومه ذوي العز واليسار والسلطة في قوله (من ليس يحفل خمص الناس كلهم) وهذه الحالة النفسية تذكرنا بحالة الطغرائي النفسية التي جملته يقول:

أُوالي بني الأيام نظرة راحم وان ظنت الجهال اني حاسد
لهم في تضاعيف الرجاء مخاوف ولي في تصاريف الزمان مواعد

على ان المعري قد بلغ في بعض قوله غاية اليأس وان كان بعض قوله يدل على ان تحت اليأس من صلاح النفس والدنيا رغبةً وأملاً في صلاحها فان الامل كثيراً ما يتخذ من قوة سخط اليأس إيماناً وقوة يستخدمها في اصلاح ما يريد اصلاحه فيظهر الامل أملاً معكوساً محولاً الى يأس للاستنجاد بقوة سخط اليأس وبيانه وبلاغته وأثره في النفوس وهذا هو ما يظهر به بعض المصلحين من اليأس في قولهم اذ لولا ان سريرتهم تريد ان تستحث النفوس الى الاصلاح بتخويف النفوس من نتائج هذا اليأس من صلاح الحياة لما لجوا وأمعنوا واستطالوا وأطالوا في بلاغة يأسهم من غير نفاق. لكن المعري كما قلنا قد يجاوز هذه المنزلة من اليأس الى ما هو اشد منها أي الى اليأس من الفن وبلاغته وعلومه ولذته كما في قوله:

أفٍّ لما نحن فيه من عنت فكلنا في تخبّلٍ ودلس
ما النحو ما الشعر والكلام وما مرقش والمسيب بن علس
طالت على ساهر دجنته والصبح ناءٍ فمن لنا بغلس

وربما يدهش القارىء اذا قلت ان هذا من اشد اليأس ولا يهمنا مرقش والمسيب بن علس فلعل الوزن والقافية وحضورها في ذهن المعري اثناء النظم هي الاسباب التي ادت الى ذكرها ولكن مظهر اليأس هو ان الانسان سواء أشاعراً كان ام غير شاعر اذا دهمهُ الهم في الحياة لجأ الى الفنون كي يجد فيها لذة وعزاء وسلوى ومهرباً وقوة لاستئناف الحياة والمهرب من الحياة قد يكون قوة لاستئناف الكفاح في الحياة اذ ليس المهرب هنا الاّ تراجع طالب الراحة وتجديد القوة . فالرجل من العامة ينفّس عن نفسه بفنون العامة من آهات او ادوار غناء والرجل من الخاصة ينفّس عن نفسه بما يناسبهُ من الفنون والشاعر ينفّس عن نفسهِ بشعره والمعري في هذه الابيات يتساءل عن قيمة النحو والشعر والكلام ويرى انها عنت وتحيل ودلس ولكنهُ لم ييأس منها تماماً لانهُ لو كان قد يئس منها حقيقة لما التجأ اليها كما فعل عند ما نظم هذه الابيات نفسها الاّ ان الأقذ منها منزلة من منازل اليأس من الفنون . وهذا شوبنهور الفيلسوف الالماني يقول (إن الانسان يداوي قبح الحياة بالفنون) وهذا نيتشه الفيلسوف الالماني يقول (انك تكره الحياة وتكرها اذا حسبت لها مغزى خلقيًا ولكنك تحبها وتقبل عليها اذا أيقنت ان لها مغزى فنيًا) وأساس تزكية هافلوك ايلس للحياة في كتابه المسمى (رقصة الحياة) هو اعتباره الحياة فنًا في جميع مظاهرها . ولكن المعري لم يكن همه ان يزكي الحياة ولا ان (يتحيل) كي يحبها ويقبل عليها بأن يعد مغزاها مغزًى فنيًا لا خلقيًا كما يريد نتشه الفيلسوف الالماني بل لعلهُ خشى ان يمنع اطمئنان الانسان بسبب تحيل الفنون في تزيين الحياة من الرغبة في اصلاحها والقيام بما يحقق هذه الرغبة لان نظرة المعري الى الحياة كانت نظرة خلقية قبل ان تكون فنية . وللمعري أبيات يخيل للقارىء فيها انهُ فكر في بعض جوانب نظرية النشوء والارتقاء انظر الى قوله :

جائزٌ ان يكون آدم هذا قبله آدم على إثر آدم

ولكن لو دلَّ هذا البيت وأمثاله على ان المعري فكر في بعض جوانب نظرية النشوء والارتقاء فان شعر المعري لا يدل على انهُ قد تملكتهُ نشوة أمل كنشوة الامل التي تملكت الاوربيين عند أول ظهور هذه النظرية ولكنها نشوة عقبها يأس في أوربا فهل مرت نفس المعري بمثل هذه الاطوار ؟ وهل بقيت في نفسه بقية من نشوة الامل وهل هي التي جعلتهُ يستعين ببلاغة اليأس والسخط لتحقيق آماله الخلقية للحياة والنفوس كما بقيت بقية كبيرة في أوربا عقب نشوة الامل الناشئة من نظرية النشوء والارتقاء ؟ ؟ لا شكَّ اننا نبالغ في نسبة آراء هذه النظرية الى المعري وأبلغ برهان على المبالغة انها لو كان قد انفجر فجرها في أفق نفسه لأحدثت نشوة أمل لبلابل صدره كنا نسمع أنغامها في شعره وندرك معانيها واضحة فيه من غير لبس او شك

بعد عهدي

بعلم الفلك

للدكتور فارس نمر باشا

— ٢ —

كنا في عهدنا نعرف اسماء نجوم قليلة من النجوم التي ثبت انها متحركة في الفضاء مثل السماك الرامح والنسر الطائر و٦١ الدجاجة ، ولكن الفلكيين اكبوا بعد عهدنا على تتبع حركات النجوم وتسجيلها في قوائم ، فنشر الفلكي « لويس بوس » سنة ١٩١٠ قائمة بـ ٦١٨٨ نجماً متحركاً ، ومن ضمنها كل النجوم اللامعة (من القدر الاول) في السماء وتلاه مرصد « كرونتجن » فنشر قائمة بـ ١٢٣٦٨ نجماً متحركاً ، اتصل فيها إلى نجوم القدر التاسع التي لا تراها العين الا بالآلات . والذي ساعدهم على ذلك التصوير الضوئي وغيره.

كان عدد النجوم المزدوجة المعروفة في عهدنا نحو ٦ آلاف نجم من مزدوج بصري ، ومزدوج حقيقي ، ويعرف بالثنائي[1] ، فبلغ ١٧١٩٠ سنة ١٩٣١ ، وكان عدد النجوم الثنائية

---

(١) النجم المزدوج — والنجوم المزدوجة Double Stars. تنقسم الى قسمين : الازدواج الحقيقي ، والازدواج البصري فالازدواج البصري ينشأ من وجود نجمين قريبين أحدهما من الآخر ، ولكن على مسافات مختلفة عنا . فيظهر ان النجم مزدوج لانهما يقعان على الخط البصري تقريباً . أما الازدواج الحقيقي ، وهو ما يسمى الازدواج الطبيعي ، فينشأ من ان كليهما يكونان على مسافة واحدة منا تقريباً ، ويدور كل منهما حول الآخر ، ويطلق عليها اسم النجوم الثنائية — Binary وكثير من الثنائيات قد لا تظهر الحركة الدورية فيها الا بالطياف Spectroscope ولذا تسمى الثنائيات الطيفية Spectroscopic Binaries وعند ما يمر مستوى الدورة بالشمس ، قد يتفق ان ينكسف النجم فيسمى الثنائي المنكسف Eclipsing Binary واليك تقسيمها العلمي :

Double Stars.
Optical Pairs
Physical Pairs — Binaries
(1) Visual Binaries.
(2) Spectroscopic Binaries.
(3) Eclipsing Binaries.

*(عن الدكتور محمد رضا مدور)

اي المزدوجة حقيقة لوجود علاقة بينها نحو ٦٠٠ نجم ، فبلغ ١٠٥٤ سنة ١٩٢٤ ، بمساعدة المطياف على اكتشافها . وقد توسعوا في البحث في هذه النجوم الثنائية ، وتوصلوا إلى معرفة كثير من خصائصها مما لم يكن معروفاً في عهدنا . وقل مثل ذلك في النجوم المتعددة أي الثلاثية والرباعية فأكثر حتى تدنو من القتوان او المناقيد في شكلها

والنجوم المتغيرة والمؤقتة وهي التي يزيد نورها تارة ويقل أخرى ، كان عددها في عهدنا نحو مائة ، وكان المعلوم منها قليلاً لا يروي غليلاً . فكشفوا ما كشفوا منها بعد ذلك ، حتى بلغ عددها ٧٠٠ نجم متغير ، وقسموها الى نجوم مؤقتة ، ونجوم متغيرة طويلة المدة ، ونجوم لا يقع تغيرها تحت ضابط . والنجوم المتغيرة في صورة « قيفاوس » وتعرف بالقيفاوية . والنجوم الكاسفة مثل النجم المعروف « بالغول » ، فانهُ يدوم مشرقاً يومين كنجم من القدر ٢٫٣ ، ثم يقل نوره شيئاً فشيئاً حتى يصير خمس ساعات من القدر ٣٫٥ ، ثم يزيد نوره مدة خمس ساعات حتى يعود الى إشراقه السابق ويبقى كذلك ٢٫٥ يوم . وهم يعللون ذلك التغير بأن «الغول» نجم مزدوج ، وأحد الزوجين مظلم اكثر من الآخر . وهما يدوران حول مركز ثقلهما . فتى مرّ المظلم أمام رفيقه ، حجب كثيراً من نوره عنا ، فيكسفهُ . وبذلك يقل نور هذا النجم تارة ويزيد اخرى — وقد أثبت المطياف ذلك . وتوصلوا في رصد المتغيرات القيفاوية في السديم المعروف « بغيمة مجلان » الصغرى في القسم الجنوبي من القبة الزرقاء ، إلى اكتشاف ناموس سموه ناموس المدة والاشراق ، وبه وصلوا الى قياس أبعاد القتوان في المجرة وغير ذلك من معجزات علم الفلك ، التي شرحها المقتطف في عدد شهر ديسمبر الماضي في مقالة عنوانها « ذرع الفضاء والاعلام التي يعتمد عليها في قياسه » فالاشارة الى تلك المقالة تغني الآن عن شرحها

وقد ترقى فلكيو هذا الزمن من الضبط في تعيين اقدار النجوم مالم يبق وجهاً للشبه بين ما كان في عهدنا وما هو في هذه الايام . فحسبوا القدر الظاهر للشعرى اليمانية ‎-١٫٦‎ والقدر الظاهر لأخفى النجوم التي صوّرت بالتصوير الضوئي ٢١

كان رأي الفلكيين في عهدنا ان الشمس ونظامها من السيارات وغيرها ، سائرة في الفضاء نحو نقطة في صورة « الجاثي » بسرعة ١٥٠٠٠٠٠٠٠ ميل في السنة . ورأيهم اليوم أنها سائرة نحو نقطة لا تبعد كثيراً عن « النسر الواقع » بسرعة ١٩٫٥٠٦ كيلو متر (١٢٫٢ ميل في الثانية)

المناقيد أو القتوان عالم في السماء نجومها ملزوزة ومزدحمة . تشبه المناقيد أو قتوان النحل ، منها ما ترى نجومه بالعين المجردة كالثريا والدبران ، ومنها ما يحله المنظار إلى نجوم مفردة وهي كثيرة . وأهمها في بحث الفلكيين القتوان الكروية الشكل وعددها المعلوم الآن ٩٦ عنقوداً كروياً ، أجلها العنقود الكروي في صورة « الجاثي » . وقد عدّ مرصد جبل ولسن فيه ٥٠

الف نجم . والمظنون أنهُ إذا أطيل عرض اللوحة الفوتوغرافية ، كشفت عن عدد لا يقل عن ١٠٠ الف نجم ، كل نجم في كثير منها يفوق شمسنا ألوفاً من المرات في اللمعان والاشراق . وقد قاس الفلكي « شبلي » أبعاد ٦٩ عنقوداً من هذه العناقيد الكروية ، فوجد أن أبعادها تتفاوت بين ٢٣ الف سنة من سني النور و ٢٢٠ الف سنة . والنور يقطع ١٨٦٠٠٠ ميل في الثانية ، فتأمل . ويرى هذا الفلكي أن هذه العناقيد الكروية غير داخلة في عالمنا ، اي في النظام المجري او نظام النجوم التي شمسنا ونظامها داخلة فيه . بل هي خارجة عن عالمنا ، وفي رحاب متاخمة له من رحاب الفضاء

السدم لطخ نيرة في السماء تشبه الضباب الرقيق ويرى اثنان منها بالعين المجردة . أحدها السديم الكبير في صورة « الجبار » ، والآخر السديم الإهليلجي الشكل في صورة « المرأة المسلسلة » . والباقي يرى بالمنظار . وقد كان عدد المعروف منها الى عهدنا يفوق أربعة آلاف سديم . ولكن التصوير الضوئي كشف ألوفاً كثيرة منها ، حتى لقد قدَّر الفلكي يرين Perrine أن عدد ما يرى منها بمراكبة مرصد « لِك » لا يقل عن نصف مليون سديم . وقد توسع فلكيو هذه الايام كثيراً في البحث عن هذه السدم ورصدها وتقسيمها وتصويرها ودرس طيفها بالمطياف ، وقياس أبعادها وحجومها وتعيين مواقعها ، مما لا يستوفى شرحه إلاَّ في كتاب على حدة . فلا أحاول شيئاً من ذلك في هذه المحاضرة . وانما أستطرد منهُ الى ذكر الرأي السديمي

الرأي السديمي

وصاحبه العلامة « لابلاس » وملخصهُ ان النظام الشمسي كله كان سديماً يشغل من الفضاء مساحة اعظم من مساحة أبعد السيارات عن الشمس ، وان هذا السديم الغازي الحامي حمياً شديداً ، كان يدور على نفسه ، وبذلك تكوَّنت منهُ السيارات والأقمار والذنبات وسواها ، بانفصالها عنهُ في حلقات تحوَّلت الى اجرام السيارات والأقمار، او بقيت حلقات كحلقات « زحل » وأول من ذكر هذا الرأي باللغة العربية أستاذنا المرحوم الدكتور فان ديك في كتابه أصول الهيئة . وعقبنا عليه بمقالة مسهبة تلوناها في المجمع العلمي الشرقي في ١٩ من فبراير سنة ١٨٨٣ وذكرنا فيها تجربة « بلاتو » لاثبات هذا الرأي بالتجربة . وقد توسع « وليم هرشل » في هذا الرأي ، فعلل به تكون العوالم كلها من نجوم ثابتة ، وقرانات ، وسدم ، وظلَّ هذا الرأي متبعاً بتفاصيله نحو مائتي سنة ، حتى قام العلماء في بدء هذا القرن وانتقدوه . واتفق رأي اكثرهم اليوم على انهُ وإن كان أصل الاجرام سدماً ، لكنها ، وعلى الأخص السيارات ، لم تتكوَّن بانفصالها عن السديم الاصلي بصورة حلقات ، لأسباب واعتبارات شتى لا يسعنا الآن ذكرها ، بل تكوَّنت من صدور نجوم كثيفة بقرب الشمس فصدمها وتقدَّ بصدمها أجزاء منها . هذا على

قول بعضهم . وعلى قول الآخرين ، وهو المرجح عندهم الآن ، ان هذا الجرم اجتذب مادّة الشمس فكوّن مدًّا بعد مدٍّ ، وهذا المدّ انقدّ عن الشمس ، وكوّن سياراً بعد سيار. وخلاصة ذلك أن السيارات لم تتولد من الشمس إلاَّ بعد ما مرَّ كوكب صدمها فقدَّ بصدمانه أجزاء منها، أو جذبها وأحدث المد فيها ، فانفصل بذلك أجزاء من أحشائها . فكان فلكيو هذه الايام يرون ان كواكب السماء تولدت بالمزاوجة وليس بالانقسام ، سائرة في ذلك على سنة التولد في عالم الاحياء على وجه الارض . فعدول المحدثين اليوم عن رأي « لابلاس » السديمي ، يعد من الانقلابات العظيمة في الرأي ، ويضارع في عظم الشأن مذهب « اينشتين » في النسبية وتحدب الفضاء ، وكون الجاذبية ليست قوة من القوى الطبيعية ، بل خاصة من خواص الزمان والمكان والحركة ، مما أعاد العلماء الى البحث في تعاليم « نيوتن » وقواعد الجاذبية

الى هنا اكتفي بالاشارة الى بعض ما جدّ بعد عهدي بعلم الفلك وأردفهُ بالملاحظات العمومية التالية.

كان الناس ، في بدء امرهم ، يدرسون علم الفلك لينتفعوا بهِ في أمور دنياهم ، كما لا يزالون يدرسون كثيراً من العلوم الى اليوم — فكانوا يقيسون بهِ الزمان ويتنبأون الفصول في توالبها كل سنة ، ويعلمون بهِ كيف يسلكون الصحارى ويجوبون القفار ، ثم كيف يسلكون البحار . وزعموا انهم بعلم التنجيم ومراقبة الطوالع ، يكشفون الغيب ويعلمون مستقبل الانسان وحظه من سعد ونحس، ثم صححوا خطأهم فانتقلوا الى معرفة المستقبل، ولكن مستقبل حركات النجوم وسير الكواكب بدلاً من اعمال البشر وأحوالهم ، حتى لقد بلغ منهم اليوم ان يقضوا زمانهم في الإنباء بمستقبل العالم ونهاية الكون . وما حمل الانسان على التنجيم ، غير زعمه ان للملوك والممالك ولعظام الأنام وسائر بني البشر ، قدراً عظيماً وشأناً جليلاً ، حتى ان حركات الاجرام السموية على جلالة قدرها ، إنما وجدت لتكشف حجب الغيب عن مستقبله وتدل على حظه . ولكن لما اتسع علم الانسان وأدرك انهُ زري الشأن في هذا الكون الى حد أن وجوده وعدم وجوده سيان، نزل من عليائهِ وهبط عن كبريائهِ ، وضرب علم التنجيم ضربة قاتلة ، بحيث لا يعيش الآن إلاَّ حيث يخيم الجهل ويخبو نور العلم ، وعاد الانسان لا يطمع كثيراً بالانتفاع بعلم الفلك في دنياه ، واقتصر ذلك على ما نشاهده الآن من ضبط الساعة والتوقيت وإرشاد السفن الى سلك البحار ، وتحولت رغبته الى الناحية العلمية المحضة ، حتى انهُ ليهتم الآن بأمر سديم من اخفى السُّدم وأبعدها ، اكثر مما يهتم بنجم يضبط به الساعة ليوقت بها . وكذا يغفل شأن المريخ او المشترى وغيرهما من اقرب الكواكب الينا ليرصد نجوماً بعيدة عنا بعداً سحيقاً ، فلا يصل الضوء منها الينا في مئات بل ألوف بل ألوف الالوف من السنين . وقد اصبح لعلم الفلك شأن وأي شأن منذ صار حلقة في سلسلة العلوم وأدمج فيها كجزء منها لا ينفصل عنها ، ويعم الاكتشاف فيها الجواهر المتناهية

في الصغر ، كالكهارب التي لا يبلغ قطر الكهرب منها جزءاً من مليون مليون جزء من المليمتر ، كما يعم السدم المنتشرة في الفضاء والتي يفوق قطر السديم منها ملايين الملايين من الاميال . وازدياد علمنا بالفلك يزيد علمنا بالطبيعيات والكيمياء ، والعكس بالعكس . فقد فات الزمان الذي كانت النجوم تعامل فيه معاملة نقط صغيرة نيرة في قبة السماء ، وأصبح كل نجم منها يعد كأنهُ بوتقة حامية حموّاً لا مثيل له على الارض ، تمثل الطبيعة فيها عملياتها وتجرب تجرباتها على درجات من الحرارة والضغط ، لا يتسنى لكيماوي او لعالم طبيعي تجربتها على الارض ومعرفة نتائجها . وبذلك قد يمكنهُ أن يعرف للمادة خصائص لا تتيسر له معرفتها في الاحوال الطبيعية التي هو فيها — خذ لذلك المادة او الهيولي في بعض السدم . فقد تكون كثافتها أقل بمليون ضعف من كثافة أي مادة كانت على الارض . او خذ بعض النجوم ، فقد تكون مادتها أكثف بمليون ضعف من كل مادة على الارض . فهيهات أن تدرك طبيعة المادة من مجرد التجارب التي نعملها في معاملنا ، حيث لا نستطيع ان نأتي الا جزءاً واحداً من مليون مليون جزء من الكثافة التي في الطبيعة . وزد على كل ما تقدم ان الانسان يجد في علم الفلك من اللذة والبهجة والروعة والجمال ما لا يجده في غيره من العلوم والفنون التي يمتاز بها الانسان على سائر الحيوان ، كما يجد فيه اعظم رافع له عن خبائث الحياة وخسائسها ، ويدرك صغر الدنيا وحقارتها بالنسبة الى عظمة الكون وعجائبه

لا اريد ان ازيد التثقيل على مسامعكم بذكر ما وصل اليه علماء الفلك في اطلاقهم العنان للعقل والخيال في رحاب هذا الفضاء ، وفي ما يجوانبه من الاكوان ، تارةً للاحصاء والوزن والقياس ، وطوراً للوصف والتعليل . فكل من يتصفح كتاباً من كتب علماء الفلك الحديث ، يجد في صفحاته عد النجوم بالملايين وملايين الملايين ، ووزنها بملايين وملايين الاطنان ، وقياس ابعادها وسرعة حركاتها بالملايين وملايين الملايين من الاميال ، وغير ذلك مما لا يحده العقل ولا يكاد يدرك منهُ غير معانٍ غامضة لالفاظ عامة . ان ابسط ما يقال عندهم وأقربهُ الى الادراك عبارات مثل هذه : ان الانسان وجد على الارض منذ ٣٠٠٫٠٠٠ سنة ، وان الاحياء من حيوان ونبات ، وجدت على الارض منذ ٣٠٠ مليون سنة ، وان الارض وجدت في الفضاء بعد انفصالها عن الشمس منذ ألفي مليون سنة . والدنيا كلها بالنسبة الى الكون أصغر من اصغر نقطة في اعظم دائرة ، ولا تحسب شيئاً بالنسبة الى كل نجمة من ملايين النجوم الخفية التي لا تكاد العين تراها لبعدها في المجرة . ولو زالت الارض كلها من الوجود ، لم يشعر بزوالها أحد الا سكان ثلاثة او أربعة من النجوم السيارة التي هي جاراتها لو كان فيها سكان يشعرون

ان اقرب نجم الينا من هذه النجوم التي لا نزال نسميها ثوابت ، مع انها كلها أجرام

متحركة ، يبعد عنا ٢٥ مليون مليون ميل . فضوؤه لا يصل الينا إلاَّ بعد ٤٫٢٧ سنة . اي أكثر من ٤ سنوات وثلاثة اشهر . والضوء يقطع ١٨٦ الف ميل في الثانية الواحدة ، وكذا امواج اللاسلكي ، فاذا فرضنا أن في هذا النجم سكاناً مثلنا ، وانهم يسمعون الاصوات التي تنقل باللاسلكي كما نسمعها ، وأرادت محطة الاذاعة ان تنقل اليهم أقوالي هذه وأنا أقولها ، فانهم لا يسمعونها إلاَّ بعد أربع سنوات وثلاثة اشهر . ومن يدري أين أكون أنا في تلك اللحظة ؟ أأكون باقياً على هذه الارض او أبعد عنها من الشعرى اليمانية ، التي لا تكاد اصوات الراديو تصل اليها بعد نحو ٢٤ سنة ، وليس ٤ سنوات فقط ، مع انها معدودة أيضاً من أقرب النجوم الينا . فلهذا اخترت ان أختم محاضرتي هذه بايراد شرح أنموذج للكون كله محفوظة فيه نسبة بعض مقاساته الى بعض ، على حسب تصميم وضعهُ الفلكي الانكليزي « جيمس جينز » ، ليقرب تصوّر الكون من الافهام . قال : إن الارض تدور في فلكها حول الشمس بسرعة تفوق سرعة قطار الاكسبرس ١٢٠٠ مرة ، فتقطع ٦٠٠ مليون ميل حتى تتم دورتها في سنة كاملة . فلنتصور أننا صغرنا هذه الدائرة الهائلة الاتساع (اي ٦٠٠ مليون ميل) حتى جعلناها اضيق من سم الخياط اي أضيق من ثقب الابرة أو طابع دبوس قطره $\frac{1}{٢٠٠}$ من البوصة الواحدة ، ولنجعل هذه النقطة (أو الدائرة الصغيرة) المقاس الذي نقيس عليه بناءنا . وعليه نصغر الشمس حتى تصير شبه ذرة صغيرة من ذرات الهباء المتطاير في الهواء ، اي حتى تصير كرة قطرها $\frac{1}{٣٠٠٠٠}$ من البوصة ونصغر أرضنا ايضاً حتى تصير كلها أصغر من أن نراها ولو نظرنا اليها بأقوى المكبرات ، وبعبارة أخرى حتى نحذف وجودها من بنائنا لصغرها . وعلى هذا القياس يكون مكان أقرب النجوم منا (وهو في صورة قنطورس) على بعد ٢٢٥ يرداً من ذرة الشمس . وعلى هذا القياس أيضاً يجب ان نكبر أنموذجنا حتى يصير طوله ميلاً وعرضهُ ميلاً وعلوه ميلاً ، لكي يسع الـ ١٠٠ نجم التي هي أقرب النجوم الى شمسنا . وهكذا نسير في البناء فنحسب النجوم كلها (بلا فرق ولا تمييز بينها) ذرات من الهباء في حجمها ، ونضع بجوار ذرة الشمس ذرات أخرى على بعد ربع ميل ، الواحدة من الاخرى . ونضعها في أماكن أخرى على ابعاد أعظم من ذلك ، الواحدة من الاخرى . وإنما زدنا أبعادها لأن النجوم الاخرى التي هي أقرب منها الى الشمس ، تمثل عنقوداً من النجوم ملزوزة ومزدحمة أكثر من سواها

وعلى هذا النمط نزيد في البناء مسافة مئات من الاميال في كل مرة ، حتى إذا وصلنا الى جهة بعيدة عن سطح المجرّة ، نجعل محلات ذرّات النجوم متفرقة وتجمعاتها رقيقة ، لاننا قاربنا هناك حدود انتظام المعروف بالنظام المجري (أسوة بالنظام الشمسي) وفي سطح المجرّة نفسها نبني مسافة ٧ آلاف ميل ، قبلما نصل الى أبعد عنقود كروي ، ومع ذلك نبقى داخل النظام

المجرّي — فلنتأمل ما تقدم قليلاً — صغرنا فلك الارض الذي يبلغ مداره ٦٠٠ مليون ميل، حتى صار كلهُ نقطة أضيق من سم الخياط، وصغرنا الشمس حتى صار قطرها $\frac{1}{٣٠٠٠٠}$ من البوصة وصغرنا النظام المجري، أي الكون الحاوي الشمس ونظامها وكل النجوم التي تظهر في السماء في المجرّة وعلى جانبيها وما فيها من نجوم مزدوجة وثنائية ومتعددة، ونجوم متغيرة وقنوان كروية وغير كروية — هذه كلها صغرناها على نسبة تصغير فلك الارض. فكان النظام المجري مع ذلك نحو سبعة آلاف ميل، وبعبارة أخرى ان سعة فلك الارض الى حجم النظام المجري، كنقطة أضيق من سم الخياط الى قارة أميركا كلها

وبعد ما ننتهي من هذا البناء الهائل الذي يصل الى سبعة آلاف ميل، للدلالة على النظام المجري او العالم الذي شمسنا نجمة منهُ، يجب أن نسير مسافة ٣٠ الف ميل حتى نصل الى حيث نبني الجزء الثاني من بنائنا. وهناك نضع طائفة ثانية من طوائف النجوم ربما كانت أصغر من طائفة نجومنا المجرية، ولكنها أكثر منها لزًّا وحشكاً وازدحاماً، وتحكيها في عدد نجومها

وعلى هذا النسق، نبني بناءنا ونضع فيه جزءاً جديداً على بعد ٣٠ الف ميل اخرى من الجزء الآخر، لطائفة اخرى من النجوم تعد بألوف الملايين، وهكذا حتى نبني كذلك اجزاء لمليوني طائفة من هذه الطوائف، ومتى انتهينا من ذلك يكون اتساع البناء الذي بنيناه نحو اربعة ملايين من الاميال، في كل جهة طولاً وعرضاً وارتفاعاً. هذا البناء الهائل الذي بنيناه، هو مع ذلك غاية في صغر المقاس، يمثل لنا ما نراهُ في السماء بالمنظار، وبعد ذلك يبقى بناء ما لا نعلم كمه ولا كيفه، وإنما نعلم أن ما بنيناه لا يمثل الاَّ جزءاً من الكون كله

كل نظام مجرّي من الانظمة التي بنينا لها مكانها في أنموذجنا، وكل سديم خارج عن نظام المجرة، يحوي ألوف الملايين من النجوم، او من المادة الغازية التي سوف يتكوّن منها ألوف الملايين من النجوم — ونحن قد توصلنا الى معرفة مليونين من هذه النظامات، فعدد النجوم التي نراها الآن بالمنظار العاكس الذي قطر مرآة الشبح فيه ١٠٠ بوصة، يبلغ ألوف الالوف من ملايين الملايين من النجوم، هذا عدا ما لا نعلمهُ في جهات السماء التي لم يصل نظرنا اليها. وعلى هذا القول، لا نخطئ اذا قلنا ان عدد العوالم في الكون أي النجوم في السماء، تعدد ذرات الغبار في جو مدينة لندن — تصوَّر أيها السامع أن الشمس على عظم حجمها لا تبلغ حجم ذرة واحدة من الهباء المتطاير في هواء اوسع مدينة من المدن في العالم، وان الارض كلها لا تساوي جزءاً من مليون جزء من ذرة غبار هذه المدينة. وحينئذٍ يقرب منك تصور نسبة العالم الذي نحن فيه، الى الكون الذي يحوي سائر العوالم

وهناك صورة نموذج آخر يمثل لنا منظراً آخر من مناظر الفضاء الحاوي هذه العوالم. لنفرض

اننا اخذنا كل الغبار الذي في هواء لندن ، وفرشناه بحيث تقع ذراته بعضها من بعض على نسبة الابعاد الواقعة بين بعض النجوم وبعضها في الفضاء . فهذا يقتضي أن ذرات الغبار تبعد بعداً صغيراً جدًّا احداها عن الاخرى حتى لا يزيد متوسط بعدها عن كسر صغير من البوصة . وعليه اذا اردنا ان نجعل بناءنا على مقاس مناسب لمقاس أبعاد الذرات بعضها عن بعض ، وجب أن نجعل البعد بين كل نجمين نحو ربع ميل بدلاً من (كسر البوصة) واذا فعلنا ذلك تبيَّنا مقدار الفراغ في الفضاء ، لانهُ على هذا المقاس اذا فرضنا أننا فرغنا هواء محطة كبيرة كمحطة «واترلو» في لندن من كل الغبار ، ولم يبق فيهِ إلاَّ ست ذرات فقط ، نكون قد مثلنا بذلك مقدار الفراغ بين النجوم في جوانب الفضاء ، وليس في جوانب الفضاء كلها بل حيث تزدحم النجوم داخل النظام المجرّي . واما بقية جوانب الفضاء ففيها مساحات واسعة خالية من كل نجم ، [illegible] ونظام ، بحيث اذا أردنا ان نحافظ على النسبة في بنائنا ، وجب أن نجعل متوسط البعد بين كل ذرة واخرى من ذرات الغبار ٨٠ ميلاً . فالكون في واقع الامر ، غير مملوء نجوماً ، بل هو مساحات واسعة خالية من النجوم إلاَّ نادراً — فتصور هذا الاتساع

لنفرض اننا وقفنا في هذا الفضاء قرب الشمس ، وجعلنا نرقب حركات النجوم وهي تمر أمامنا بسرعة تساوي الف ضعف من سرعة قطار الاكسبريس في سيره . فلو كان الفضاء مزدحماً بالنجوم لكان مثلنا حينئذٍ كمثل من يقف وسط اكثر الشوارع ازدحاماً بالمارة من الناس والمركبات والدواب ونحوها ، وكنا في خطر من الموت سحقاً كل لحظة . ولكننا اذا حسبنا حساب حقيقة الواقع ، وجدنا انهُ لاخوف من أن يصدمنا نجم من النجوم ونحن واقفون بجوار الشمس حتى يمر علينا مليون مليون مليون سنة ، وبعبارة اخرى ، انهُ يظهر بالحساب انهُ لا يصطدم نجم بنجم آخر حتى يمضي عليهِ مليون مليون مليون سنة في سيره ، بحيث يمكننا ان ننام ناعمي البال ، ونقول لا خوف من اصطدام الكواكب على مرّ الاحقاب والاجيال

أيها السادة : هذه عظمة الكون — هذه سعة رحاب الفضاء هذا عدد الملايين من العوالم والاكوان وملايين الملايين من نجوم السماء — فما اعظم هذه العظمة ، وما أفخم هذا الجلال ، وما أوسع هذه الرحاب . ولكن أليس من العجيب الذي لا يقل عن ذلك تعجباً وعظمة وجلالاً وروعة ، ان يحل هذه الطلاسم والاسرار ، ويحيط إدراكه بها احاطة السوار بالمعصم ، جوهر لا أعلم ماهيته ، ولا أدرك سره ، وانما أعلم أنهُ هنة سنجابية اللون مركبة من الفسفور وعناصر اخرى قليلة في دماغ الانسان !

أتمنى أيها السادة لو اني ولدت بعد خمسمائة سنة ، لأعلم سرّ ما تحتوي عليهِ هذه الهنة السنجابية ، كما أعلم سرّ الغاية من هذه العوالم والاكوان ، كما كان يتمنى أستاذي « فن دايك » رحمهُ الله ، وأسكنهُ فسيح جنانه

احمد علي

الاسكندري

ومذهبه في اللغة

فقد مجمع اللغة العربية الملكي في نيف وعامين علمين من اعلامه العاملين الذين قضوا العمر في التحصيل والدرس والاكباب على التمحيص والفحص عن دقائق اللغة . فقد الشيخ حسين والي الحجة الثبت في صرف اللغة وفقد احمد علي الاسكندري الاديب اللغوي الكبير العارف بتاريخ العربية ، المُستتبع بما توالى عليها من تطور خلال العصور التي كان فيها للمدنية الاسلامية الاثر الاول في تمدين العالم الحاف بحوض البحر المتوسط والعالم المغمور في مجاهل آسيا من حدود فارس الى جوف الصين . ويكفي أن اقول هنا أن فقد عالمنا العظيمين كان كارثة على مصر اولاً ثم على عالم الضاد ثانياً . بل اقول أن فقدهما خسارة لا تُعوض

***

يقول الاسقف « إنج » الانجليزي إن لكل انسان ان يعتقد ان الحياة في احتياج اليه ، ولكن ليس له ان يعتقد ان حاجة الحياة اليه حاجة قصوى . وهذا القول صحيح من وجوه كثيرة . فان فقدت مصر هذين العالمين سوف لا يفقد اللغة العربية صرفها ، وسوف لا ينسى الناس أدب العرب ، وسوف يقوم من المصريين من يعتنق مذهبهما في اللغة والادب . وإنما الذي يشعرنا بان فقدهما كارثة قلما تعوض ، فذلك المخزون الذي استخزناه من قواعد اللغة وآدابها وذلك الاجتهاد الذي انتهجاه في تنمية موارد اللغة الفصحى ، وتلك الخواطر التي نماها البحث وصورها التفكير والدرس حتى خلصت من تزوير الشك وارتجاج اليقين ، حتى لابست في النهاية صورة من العقيدة ما كان ليزكز في تصيعها من شيء فرقها اليوم الا عقيدتهما في الدين . هذا ما فقدناه فيهما ، وهذا ما نفتقده فلا نجده . فالصورة الكاملة المتحيزة المؤتلفة من مزايا الرجل العظيم ، صورة لن تتكرر بذاتها مرة اخرى . اما العظمة ، ذلك المعنى الكلي ، فقد توزع على العظماء من أبناء آدم متقمصة صوراً شتى . ولكن صورة واحدة منها لن تتكرر بذاتها اجزاءً وكلاً ،

تفصيلاً واجمالاً . ولهذا أقول ، واقول بحق ، ان فقد والي والاسكندري خسارة لا تعوّض ، بل كارثة قلما تزهى بمثلها دنيا الكوارث

انما نحن في فترة صراع . صراع بين قديم قائم على المأثورات والتقاليد ، وجديد يتطلع الى دنيا جديدة . ولكل من القديم والجديد حقيقة قائمة بذاتها وحياة فياضة بدنيا العصر الخلابة المحبَّبة . قديم هو مجمل ما توارثنا عن القرون الاولى ، وجديد هو مباءة منا وسر أحلامنا ومبعث ميولنا وشهواتنا ومعقد آمالنا والبراح الذي سوف يمرح فيه أولادنا وأحفادنا . فأيهما يقوى القلب على تركه ، وأيهما يهون نبذه على النفس ؟

هذه خطرات تعتلج في نفوس فئة من شباب هذا العصر وقليل من كهوله ، أدركتهم هذه « الخضرمة » العصرية ، حتى ليعز عليهم ان يهاجم مجدد قديماً ، أو ينابذ تصيير من القدم القديم تجديداً . والمعركة دائرة الرحى في جميع مرافق الحياة ، في البيت وفي الشارع وفي دور العلم وفي الملاهي وفي الجامعة وفي الازهر . أما الغرض الذي تدور من حوله المعركة فاللغة العربية ، باعتبارها الاداة الاولى لحضارة شعب عربي الدم والميول والنزعات

***

أما فقيدنا الاستاذ احمد علي الاسكندري فكان لهُ مذهب في اللغة ما فرّط فيه يوماً ولا تسمَّح فترة في أن ينال منهُ أحد منالاً ولا فترت لهُ في الدفاع عنهُ همَّة . هذا المذهب لم يجعل لهذا الاستاذ العظيم من منزل يشغله في عالم « المخضرمين » العصريين ، أولئك الذين يحاولون التوفيق بين ماضي اللغة وحاجات هذا العصر الذي نعيش فيه

كان يعتقد ان اللغة جسم يمكن ان ينمو ويربو بوسائله الذاتية من غير لقاح أو غذاء خارجي. فتعلق بفكرة ان اللغة العربية لغة اشتقاق لا غير ، ثم قصر إجازة الاشتقاق على الصيغ القياسية . والمقصود بالصيغ القياسية تلك الصيغ التي ورد فيها كثير من الكلمات المصوغة على وزانها . أما الصيغ الاخرى وهي الا كثرية الكبرى ، فكان يقول ، على مذهب قدامى اللغويين ، انها صيغ سماعية اي تسمع عن العرب فقط ولكن لا يقاس عليها . بذلك تحصر الدائرة وتضيق ويصبح وضع المصطلحات العلمية وأسماء الشؤون العامة مقتصراً على استخدام وسيلة واحدة هي الاشتقاق من الصيغ القياسية في اللغة . هذا الى جانب المجاز وهو أن يوضع لفظ استعمل لمعنى قديم ليؤدي معنى جديداً تجوزاً ، لعلاقة بين المعنيين ، سواءٌ أكانت العلاقة كبيرة او صغيرة

كان من مذهبه في اللغة ان الفصيح من كلام العرب وحده هو الذي يحق لهُ البقاء . أما ما دون

ذلك فدخيل لاحقّ له في الحياة او البقاء . ومعنى الفصيح عنده ما نقل عن العرب الى نهاية القرن الثالث الهجري، قبل أن يولّد المولدون في اللغة شيئاً وقبل ان تختلط اللغة الفصيحة بعجمة العناصر البعيدة عن العربية السليمة . ولقد يُسلم بنا هذا القول الى ان اللغة العربية ملكٌ للعرب ، وليس للعرب عامة وإنما للعرب الذين عاشوا الى نهاية القرن الثالث الهجري . ذلك في حين ان الثابت ، على مقتضى حكمة النشوء والارتقاء ، إن اللغة ملك لمن يتكلّمونها ويستعملونها ويتخذونها أداة للتفاهم تنمو بنمائهم وتتطور بتطورهم وتصب في القوالب التي تدعوهم الحاجة اليها . والواقع ان لكل زمان حاجاته ، وان من التحكم ان نلزم تلك الاساليب التي انتحاها أسلافنا ، كما تنا غير مخلوقين لزمان بعيد عن زمانهم عشرات القرون

***

هذا مجمل مذهب فقيدنا الكبير . وهو مذهب الى الضيق كما ترى . غير ان اللغة العربية أن أريد بها ان تكون لغة علم وان تؤدّي جميع المعاني العلمية والفنية ، وجب أن ينظر فيها نظرة أخرى وان تمد بوسائل جديدة . ولقد شعر مجمع اللغة العربية الملكي بذلك فأجاز التعريب ، مقيّداً بأن لا يلجأ اليه الاّ عند الضرورة القصوى . والقيد حسن . لولا ان عبارة «الضرورة القصوى» قد جعلت القيد نافياً للإجازة تقريباً

على أن لدينا الى جانب الاشتقاق والتعريب وسيلتين أخريين ، ان تقرّرتا انفسحت أمامنا آفاق مترامية الجنبات واسعة الرحاب ، وكملت بها عدة اللغة لتكون أداة كاملة القوة على الوضع الجديد ، بل على خلق الالفاظ الجديدة لتأدية المعاني المختلفة

***

أما الوسيلة الاولى فهي النحت ، وهو ان ينحت من كلمتين كلمة واحدة كأن يقال مثلا «كهراطيس» للكهربية المغنطيسية ، «وفحمائية» للكربوهيدريت ، وبرمائية للحيوانات التي تعيش في البر والماء ، والاولى منحوتة من كهرب ومغنطيس والثانية من فحم وماء والثالثة من برّ وماء . ولا خطر على اللغة مطلقاً من اتباع هذه السنة . والنحت من أوضاع العرب جروا عليه منذ جاهليتهم . غير أن ما وصل الينا منهُ قليل . ولكنه كافٍ لنعرف انهُ من الاصول التي جرى عليها أفحاح العرب

هنالك الى جانب النحت وسيلة اخرى توسع من آفاق اللغة ، وهي وسيلة سميتها «الاقتباس» وهي جديدة تكلمت فيها من عهد قريب ونالت استحسان جميع المشتغلين بوضع الالفاظ الجديدة من اللغويين والعلماء . فقد لحظت ان الاكثرية العظمى من اسماء الحيوان والنبات ، قد اشتقت

من اصول ثلاثية او رباعية موزونة على وزن لَذَّ للعربي جرسهُ . بذلك يكون العربي قد جرى في وضع اسماء الحيوان والنبات على قاعدة اوحى اليه بها طبيعة الظرف الذي احاط به في مختلف البيئات التي عاش فيها وساعدتهُ سليقته على تطبيقها . فاذا تأملت في الاس الفيت ان العربي كان ينظر في الشيء حيوانا كان ام نباتاً ام جاداً ، فيلحظ فيه كثيراً من الصفات . فاذا غلبت في الشيء صفة ظاهرة صاغ له اسماً مستمداً من اللفظ الذي يدل على هذه الصفة في لغته . فقال العربي « الاسْلِيح » وزان إفعيل نبات يسلح الماشية ، وقال السُّلت وزان فُعل لنوع من الشعير ينسلت في قشرته ويكون كالبر سواء . وقال الشعارير وزان فعاليل وهي جمع فعلول لصغار القثاء لما يكون عليها من الزغب. وقال الخنزير وأصلُها الخزّير وزان فعيل لصفة التخازر التي في عينه ، اذ يكسرها فتظهر كأن بها خزراً ... وهكذا

والسبيل المعقول لتطبيق قاعدة «الاقتباس» هو ان نكب على جمع اسماء الحيوان والنبات عند العرب ، ثم نعرف من اية الصيغ وردت ، ونحصر هذه الصيغ حصراً كاملاً قدر المستطاع ، ثم يجاز قياسيتها والصوغ عليها في وضع اسماء الحيوان والنبات، على ان نلحظ صفة في المسمى ظاهرة او خفية ، ونشتق من اللفظ الذي يؤديها في العربية اسماً علميًّا له . فاننا بذلك لا نخرج عن القاعدة التي جرى عليها العرب ما دمنا نلاحظ شرط لمح الصفـة في المسمى على ما عمل أسلافنا ، واتباعاً لقاعدة قال بها الائمة وهي « ان ما قيس على كلام العرب ، فهو من كلام العرب»

***

اما السؤال الذي ينبغي لنا ان نسأل انفسنا فيه ازاء هذا فهو : هل يخضع العلم للغة ، ام تخضع اللغة للعلم ؟ لا شك ان من الطبيعي ان تخضع اللغة للعلم . لان اللغة أداة تخدم العلم . وعكس هذا بعيد عن الحكمة

فيما اسلفت بيان عن مذهبين سائدين الآن . اما المذهب الاول فلن يؤدي باللغة الاَّ إلى الجمود . فلا هو يوسع من اقيسة اللغة ، ولا هو يجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون . اما المذهب الثاني فإتباعه ضروري ، على ان يقتصد فيه الاقتصاد الواجب حتى لا تمس سلامة اللغة بما يفسدها

وعلى الرغم من ذلك المذهب المحافظ الذي كان ينتقدهُ الاستاذ الفقيد ، فان المثل الذي خلفهُ لنا في الغيرة على اللغة والتفاني في خدمتها وعدم الضنّ بها بمجهود مهما يشقُّ ، او ببحث مهما تتسع آفاقه وتتشعّب مظانه ، لمثل يحتذى ، وما أقل ما بين ظهر انينا من المثل ، وما اكثر حاجتنا اليها

نشوء علم الطبيعة

كتاب اينشتين وانفلد[1]

يواجه الانسان عالم الطبيعة بعينين وأذنين وأنف ويدين ولسان وحلق ودماغ ، وعليها يجب ان يعتمد في فهم ما يكتنفهُ من الاشجار والحجارة والهواء والضوء والرجال والنساء والعوالم السابحة في رحاب الفضاء . ما هي وهل هي ما تبدو لنا او حقيقتها شيء آخر . والرد على هذه الاسئلة ، وما كان من قبيلها، هو همُّ علماء الطبيعة والكيمياء والفلك والاحياء وكذلك الفلاسفة

وقد تحوَّل علم الطبيعة خلال العصور وفقاً للنتائج التي كان العقل يخلص اليها مما تشاهدهُ او تبينهُ اعضاء الحسّ . فالاغريق كانوا يرون في الرياح انفاس الآلهة . وكان أرسطو وفلاسفة القرون التي تلتهُ يعتقدون ان الارض مركز الكون . وكان هذا الرأي وذاك شيئاً معقولاً في نظرهم

ولكننا ننظر الى الكون الآن على انهُ فقاعة آخذة في الانتفاخ ، ومع ما في هذه الصورة من الغرابة ، يرى كثيرون من المطلعين على الحقائق انها صورة معقولة . وقد غدونا في هذا العصر، والزمان لا ينفصل عن المكان. فوقائع الاجسام المختلفة يجب ان تحدَّد بوقتها وزمانها في آنٍ واحد . أما المادة فأصبحنا نتصورها دقائق كهربائية او مادية هي الى الكهربائية أقرب ، لا تخضع في صميمها لاي قانون . وأما الضوء فبلانك واتباعه يقولون فيه انهُ مقادير من الطاقة لا يؤثر في سرعتها حركة مصدرها ولا شدَّة حرارته

والواقع اننا لا نزال في فهمنا للحقيقة النهائية بعيدين بعد الاقدمين عنها

كيف تحوَّل علم الطبيعة من الصور التي قال بها الاقدمون الى الصور التي يقول بها المحدثون ؟ ان كتاب العلامتين اينشتين وانفلد ردٌّ بليغ على هذا السؤال . وهو خالٍ من المعادلات الرياضية ، ولكنهُ ليس من النوع السهل الذي يقرأ في القيلولة للتسلية . فالعلم لهُ ثمن . وثمن الفهم الصحيح الذي تخرج بهِ من هذا الكتاب هو المطالعة بصبر وانعام نظر . وانهُ لمن حسن الحظ ان يعنى عالمان عالميّان كاينشتين وانفلد في معالجة موضوع كموضوع « نشوء الطبيعة » في نحو ٣٠٠ صفحة وان كانا يتطلبان من المطالع جلداً ومثابرة

---

(1) The Evolution of Physics — By Einstein & Infeld, Cambridge University Press.

اما اينشتين فليس في حاجة الى التعريف . واما زميله الدكتور انفلد ، فعالم كبير الشأن وإن لم ينل من الشهرة العالمية ما نالهُ اينشتين . ولد في كراكو ببولندة قبل أربعين سنة وتلقى العلوم العالية في جامعتها القديمة ، ففي جامعة برلين ، ثم حاضر في « لوفو » ثم قضى سنوات في جامعة كمبردج بانكلترا حيث عاون العلاّمة ماكس بورن في وضع نظرية جديدة تصل بين نظرية المقدار (الكوانتم) ومعادلات مكسويل الخاصة بالامواج الكهرطيسية . وأخيراً انتظم في معهد الدراسات العالية بجامعة برنستون حيث يقيم العلامة اينشتين

ويؤخذ مما قرأناهُ عن هذا الكتاب ان انفلد هو الذي اقترح على اينشتين وضع مجلد من هذا القبيل فوقع الاقتراح عندهُ موقع القبول لطول عهده بتقليب هذه الفكرة وتفكيره في تحقيقها . فقبل في الحال . واشترك العالمان في وضع برنامج الكتاب وتقسيم فصوله وبيان محتويات كل فصل ، ولكن كتابة الفصول نفسها قام بها انفلد وحده

تخرج من مطالعة هذا الكتاب بأن « غليليو غليلي » الايطالي كان حداً فاصلاً في نشوء الطبيعة الحديثة . به بدأت الصورة الميكانيكية للطبيعة ، والسعي الى نبذ الروحية (animism) منها . ثم جاء نيوتن فأتمّ الصورة ، ولابلاس فتناهى فيها حتى لقد زعم ان الكون آلة تستطيع ان تعرف أوائلها وأواخرها من دراسة حاضرها وما يجري عليه

ولكن الصورة الميكانيكية قد تداعت . وعادت غير صالحة لتفسير الافعال الكونية صغيرة كانت او كبيرة . وغدا الكون في نظر علماء العصر مشكلة من مشكلات الهندسة العليا لا مجرد آلة . فالذرات ليست الاّ مجموعات من الدقائق لا تستطيع ان تجري عليها الاّ قواعد الاحتمال الرياضي . واذا كانت النظرة الميكانيكية قد شملت النجوم في الفضاء والذرات الدقيقة على الارض فالصورة الكونية الحديثة او علم الطبيعة الحديث علمان . علم النجوم وعلم الذرات . وهذا يدل على ان فهمنا للعالم الخارجي ليس بالفهم الصحيح . هذه الشؤون وما كان من قبيلها ، تراها مبسوطة في كتاب اينشتين وانفلد ، بسطاً علميًّا لا تعتوره المعادلات الرياضية ، ولا تشوبهُ شائبة التفلسف . نعم ان الكتاب لا يرتفع الى مستوى كتابات جينز وادنغتن من حيث الاسلوب الادبي ، اذ يعوزهُ التشبيه المبتكر ، والاستعارة الشعرية . ولعلّ هذا من الخير ، فمن وجوه النقد التي أخذت على العالمين البريطانيين ادخال غير قليل من الشعر والتفلسف في كتاباتهما العلمية

يروي محرّر النيويورك تيمس العلمي ، انهُ لما ذاعت انباء النظرية النسبية ، بعد تقديمها الى دوائر العلم بثلاث عشرة سنة ، كثرت الكتابات فيها وتعدّدت مساعي العلماء والكتّاب العلميين في تبسيطها . ولكن مقالة اينشتين في التيمس كانت خير مقالة في هذا الموضوع . ولعلّ كتابهُ هذا خير بسطٍ لنظرياته — لان هذه النظريات هي على الغالب محور هذا الكتاب

المذاهب الاشتراكية

توطئة لبحث تأثير الماركسية في الادب

لحليم منري

اذا اعتبرنا المساواة السياسية « مثلاً أعلى » للديموقراطية الحديثة فقد ظلّ عدم المساواة الاقتصادية مسألة المسائل في الحياة الاجتماعية بل في الشؤون السياسية مما لم يعرض له العقل الاجتماعي بحل تطبيقي حتى اليوم . ويعزى هذا الاضطراب في التوازن الى التقدم الصناعي في القرن التاسع عشر . ذلك التقدم الذي بدأ صفحة جديدة في حياة المجتمع الانساني بل قد أوجد طبقتين في ذلك المجتمع طبقة « الرأسماليين » الذين ينعمون بأرباح طائلة لا حدّ لها ويعيشون في رفاهية تامة وطبقة « العمال » الذين يتأثرون بحالة العرض والطلب أي حالة السوق التجارية وما قد يطرأ على الصناعة من تقدير معنوي . ولقد أصبح « العمال » منذ هذا التقسيم عرضة للأزمات الاقتصادية في كافة أنحاء العالم

ويرجع نشوء «الرأسمالية» الى سببين رئيسين

أولاً — تأثير المبادىء التي أذاعها الاقتصاديون في القرن الثامن عشر والتي بدأ تطبيقها العملي في اوربا منذ النصف الاول للقرن التاسع عشر

ثانياً — التقدم الصناعي القائم على الاختراعات والاكتشافات العلمية في القرن التاسع عشر فالاقتصاديون قد دعوا الى حرية التجارة والصناعة والى الغاء النظام الخاص بالنقابات . في حين أن هذه الحرية أفادت اصحاب الاعمال أي « الرأسماليين » دون غيرهم لان العامل البسيط كان عاجزاً عن ضمان مركزه الاجتماعي او الدفاع عن مستقبله وحقوقه كفرد في الهيئة الاجتماعية . أما التقدم الصناعي فقد أفضى الى تجمع وسائل الانتاج في أيد قليلة من المتمولين الذين يقبضون المعامل والآلات وينشئون الصناعات ويصمدون للمنافسات التجارية . ونتيجة هذا ان انتهز هؤلاء الفرصة لارهاق العمال وتخفيض اجورهم مما كان يؤدي حتماً الى أن يعاني الفريق الاكبر من الشعب سوء العيش

وإذا كان أصحاب السلطة قد نفضوا أيديهم من الشؤون الصناعية تنفيذاً لمبدأ الحرية السائد في ذلك العهد فقد نشأت المبادىء الاشتراكية التي عرضت لنقد مساوىء الاقتصاديين في الحرية ونسبت اليها اختلاط الانتاج وسوء التدبير وفوضى الحياة الاقتصادية والاجتماعية ثم تطرقت الى نقد نظام « الرأسمالية » الذي يعطي الغنم كله لطائفة قليلة من الناس ويضع الصناع وأصحاب الايدي العاملة في حالة شديدة من البؤس والفقر . ثم ظهر على مسرح الاجتماع طائفة من أصحاب الآراء الاشتراكية لم تكن لهم خطة معينة لقلب أوضاع تلك الحياة الاجتماعية ولم يرسموا صورة كاملة لما يجب ان يكون عليه النظام الجديد للاجتماع

***

﴿ المذاهب الاشتراكية ﴾ الاساس في الاشتراكية ان يُضحي الفرد لمصلحة الجماعة ، والاشتراكية في هذا تضاد « الفردية » او الحرية الاقتصادية بتعبير ادق . وهذه الفردية تعني المحافظة على الانسان وشرفه وشخصيته وهي تقوم على الحرية التي تعتبر اساس النظام الاجتماعي وأساس المجهودات الفردية . وهي لا تطالب الحكومات بالعمل لاسعاد الافراد ولكنها تعمل لكي تحقق الحكومات تيسير السبل للافراد للقيام بمجهوداتهم في دائرة اعمالهم الحرة على احسن حال . وتعتبرُ « الفردية » الهيئة الاجتماعية قائمة على نجاح الافراد في جهادهم الحيوي . وان تلك الهيئة لا تساوي اكثر مما يساويه افرادها . فتقدمها نتيجة لتقدمهم وسقوطها نتيجة لسقوطهم

اما « الاشتراكية » او « الاجتماعية » كما كان ينبغي ان نسميها ، فهي لا تخضع لقوة او تحتمي بسلطان وانما تستمد قوتها وكيانها من سلطة التطور الاجتماعي . والتطور الاجتماعي له عناصره الطبيعية والاقتصادية والنفسية وليس هنا مجال التعليق على هذه العناصر ومدى آثار كل عنصر منها . والمعروف ان الهيئات الاجتماعية تتطور وتتعدل وتختلف مقياس هذا التطور باختلاف الجهاد العقلي وصلة هذا الجهاد بتقدم العلوم الاجتماعية وتطبيقاتها العملية . ويتوقف على هذا ان القوانين الوضعية والنظم المختلفة الخاصة بالمجتمع لا يلبث تأثيرها ان يزول ويتلاشى كلما دار الزمن دورته وبلغ العقل الاجتماعي شأواً بعيداً من التقدم . ولن يبقى من تلك القوانين وهاته النظم الا « الانسب » . ولما كان النظام الاقتصادى القائم في العالم يسخّر طائفة كبيرة من الناس لمصلحة طائفة قليلة من « الرأسماليين » فهو نظام فاسد لا يقره الوضع الطبيعي للحياة ويتحتم تغييره لانهُ لا يقوم على الحق والمساواة

بدأت الاشتراكية منذ أقدم العصور « نظرية من نظريات الفكر الانساني الذي ينحو نحو

النور والحرية وهي لما تزل كذلك على الرغم من المحاولة الروسية الجريئة منذ عام ١٩١٧ لإقامة النظام الاشتراكي في الحكم . وهذه النظرية أعرق في القدم من نظرية الحرية الاقتصادية . اذ لم تتخذ هذه هيئة مذهب الا منذ القرن الثامن عشر . وطبيعي ان توالي العصور لم يضعف المذهب الاشتراكي بل أحياه وصبغه بصبغات اخرى سياسية وثقافية

***

تزعم الاشتراكية في فاتحة القرن التاسع عشر «سنت سيمون» و«روبرت اون» الانجليزي. فسيمون كان له اتباع من جماعة الاشتراكيين الخياليين الذين لا تقوم تعاليمهم على مبادىء عملية وانما تصطبغ بصبغة تصوفية فلسفية . وسيمون يذهب الى انه لكي يجب ان تسعد الانسانية ينبغي ان تستثمر الموارد الطبيعية ويكون توزيعها بطريقة عادلة وذلك بأن يشرف جماعة المفكرين والعلماء والعمال على الادارة الحكومية . اما « روبرت اون » فقد اقترح الغاء النظام الرأسمالي ووضع نظام خاص للصناعة والزراعة والتجارة يسير على اسس التعاون . ولن ننسى ونحن في هذا الصدد ان نقرر ان بعض هذه الآراء كان آمالاً خيالية أكثر منه حقائق ثابتة لبعدها عن الآثار العملية المترتبة على التطور الاقتصادي لهذا الزمن . اما في النصف الثاني من القرن التاسع عشر فقد اتخذت الاشتراكية مجالاً أوسع منها قبلاً وذلك بانتشار آراء «كارل ماركس » العلمية مما سنتحدث عنه

أما مذاهب الاشتراكية فهي الشيوعية. والفوضوية. والجماعية. والماركسية. والماركسية الجديدة

فالشيوعية يمثلها في الفلسفة اليونانية القديمة «أفلاطون» الذي حاول في كتابه «الجمهورية» ان يكون شيوعياً . وإنما حبذ وجود طبقة العبيد لخدمة السادة وللقيام بالأعمال الصناعية وكان يعتبر العامة طبقة من الناس بعيدة عن الاندماج في نظام جمهوريته الشيوعية لانحطاطها عن مستوى الطبقة الارستقراطية . وتلك الجمهورية كانت مؤسسة على المبادىء الفلسفية الخلقية اي على الفضائل وقد جعلها المحور الذي تدور عليه حياة الانسان وعلى العدل الذي هو أساس الملك الموطد ولكنه أنكر حرية الفرد ودعا الى شيوعية النساء. ولقد ظهر في القرن السادس والسابع عشر زعماء للشيوعية سعوا الى نشرها بما كتبوه عنها أمثال « توماس مور» صاحب« جزيرة الارهام » التي تخيل فيها طبقة من الناس يعيشون في جزيرة يقوم بالحكم فيها رجال القضاء بسلطتهم الادبية ولا يملك الفرد فيها حرية التصرف لانه في تصرفاته وأعماله يتبع الجماعة التي تقوم بالحكم. ويجب ان تقوم الشيوعية في الاصل على مبدأين

أولاً — ان يكون عدد سكان الجهة المرغوب نشر الشيوعية فيها قليلاً لا يتجاوز ٢٠٠٠ شخص فكل ما قل عدد السكان صار من السهل نشر الدعوة الشيوعية

ثانياً — أن تكون الهيئة الاجتماعية السائرة طبقاً للنظام الشيوعي فيها كفاية المحافظة على تقسيم الثروة بالزام كل فرد ألاّ يأخذ اكثر من نصيبه

أما الفوضوية فنوع متطرف من الشيوعية وهي تجمع بين الآراء الحرّة والافكار الاشتراكية. فالفوضويون يتمسكون بحرية الفرد وشدة كرههم للحكومة وعدم قبول نظام الملكية الفردية وطرق استخدام العمال . ويعتبر برودون Proudhon أول مؤسس للفوضوية وهو الذي قال ان الملكية هي السرقة بعينها. والفوضوية التي نعنيها هنا هي الفوضوية السياسية الاجتماعية . أما الفوضوية الفلسفية فهي التي تقوم في نفوس الافراد والجماعات ومنشؤها « الانانية » وحب النفس واول من دعا اليها M. Stirner وتنتهي رغبة اصحاب الفوضوية الفلسفية الى ان يتمتع الفرد بأقصى حرية فكرية ممكنة فهم يعتبرون الفرد قوة مستقلة ويفهمون انهُ طالما كان قوياً فالحصول على مطالبه شيء يسير. فهو مذهب « وبعدي الطوفان ». وكل من يقف في وجه المصالح الفردية يجب محوه وازالتهُ . وأما الفوضوية السياسية الاجتماعية فتدعو الى الحرية الفردية المطلقة لان كل طاعة يفهم منها التنازل عن حق من الحقوق الفردية ومذهبها الاعلى هو « يجب ألاّ تقيد الهيئة الاجتماعية الانسان بغير القيود التي أوجدتها الطبيعة » . ولقد تزعم الفوضوية بعد « برودون » « كروبتكين » ثم « باكونين »

واما الجماعية « Collectivisme » فترمي الى ان تكون وسائل الانتاج من ارض ومناجم ومعامل ومصارف مالية ومواد أولية وغيرها ملكاً للجماعة . أما فيما يتعلق بأمور الاستهلاك فتكون حقاً لمن أنتجها بجده واجتهاده . ويجب ان نفهم ان الشيوعية لاتعترف بالملكية . أما الجماعية فلاتلغيها وانما تميز بين الانتاج ووسائله فيظل الانتاج ملكاً لمن أنتجهُ أما وسائل الانتاج فتكون ملكاً للجماعة وهذه الجماعة تحدد مسؤولية كل فرد من افرادها وهي تمده بكل ما يحتاجه لقيامه بعملية الانتاج . وانما لا يكون المنتج حرّاً في بيع انتاجه اذ يجب عليه ان يسلمهُ للجماعة لتعطيه نظيره ما يعادله من الثمن بحسب مجهوده وعمله . تلك هي الجماعية الصناعية اما الجماعية الزراعية فهي التي تشترط ان تكون الارض ملكاً للجميع

***

والآن نقول ان الرجل الذي استطاع ان يركز طائفة كبيرة من الآراء والافكار الاشتراكية في هيئة مذهب علمي اقتصادي هو « كارل ماركس » واضع « الاشتراكية العلمية » او « الماركسية » وهذه الاشتراكية العلمية تتميز عن الاشتراكية الخيالية التي قامت منذ فجر التاريخ والتي تحدث عنها الفلاسفة وكبار « الطوبيين » امثال افلاطون وتوماس مور وولز وغيرهم

﴿كارل ماركس﴾ ولد كارل ماركس سنة ١٨١٨ في « تريفيه » بروسيا . وكان أبوه في الاصل يهوديًا ثم ارتدّ الى المسيحية وكان موظفاً « قضائيًا » بحكومة بروسيا . ولقد درس كارل ماركس في جامعتي بون Bonn وبرلين . وكان قد اختصّ في دراسة التاريخ والفلسفة والاقتصاد السياسي . وترك الحياة الجامعية عام ١٨٤٢ عندما بدأ يحرر جريدة راديكالية هي « نهر الرين » وكان لما احتوته من جرأة فكرية وآراء حديثة ان اغلقتها السلطة البروسية ومن ثمّ هاجر كارل ماركس الى باريس وهنالك نشأت صداقته الخالدة مع المفكر الاشتراكي الالماني « فريدريك إنجلز »

ثم طرد ماركس من باريس عام ١٨٤٥ بعد ان درس آراء الاشتراكيين الفرنسيين وذهب بعد ذلك الى «بروكسل» وتبعه اليها « فريدرك انجلز » فأصدرا في يناير عام ١٨٤٨ « البيان الشيوعي » الذي دعوا فيه العالم الى الاتحاد والانضمام الدولية العامة وقالا فيه . «ايها العمال من كافة البلاد اتحدوا » وبهذا النداء اتجهت الانظار الى المذهب الجديد عند ما نشر كارل ماركس مؤلفه « رأس المال » في عام ١٨٦٧

ولن يظفر الباحث بحلقة مفقودة بين الاشتراكية السابقة على ماركس واشتراكيته العلمية اذ يوجد في أصول الثانية كثير من أسس الاولى . فالماركسية مذهب اقتصادي علمي قام على دعاوة اشتراكية منظمة في وسط حركات ثورية ألبسته رداء جديداً . ولقد كانت نتيجة هذا نجاح الفكرة الاشتراكية بوجه عام وذيوعها في مختلف الاوساط . وطبيعي ان هذا النجاح لا يرجع الى المذهب الاشتراكي في ذاته فهذا قديم قدم الحياة الانسانية نفسها وانما مرجع هذا الى تطوّر الفكر السياسي تبعاً لحق الانتخاب العام الذي جعل دعاة الاشتراكية يطمحون الى تولي السلطة بالوسائل المشروعة والتوجيه الاقتصادي الجديد للهيئة الاجتماعية . وتتلخص نظريات كارل ماركس في الآتي :

﴿نظريته في الحركة لاجتماعية﴾ تتلخص في ان المصالح المادية هي التي تحرك الافراد ومن ثمّ تؤثر في الاخلاق والنظم . «فالمادية التاريخية» Historical Materialism هي عكس «الروحية التاريخية» التي من مقتضاها ان الافكار هي التي تقود الافكار

وتثبت المادية التاريخية وجود نزاع مستمر بين الطبقات المختلفة للجماعة الواحدة وان الجماعة الحاضرة تسير نحو النظام الجمعي طبقاً للتطور الاجتماعي . وأما في القرون الوسطى مثلاً فقد كان الاشراف يستغلون الطبقة المتوسطة التي كافحت النظام الاقطاعي وهذه لما فازت بحقوقها أصبحت عبارة عن طبقة « رأسماليين » يستغلون طبقة العمال ويستولون على جزء من العمل بدون مقابل لعدم اعطائهم الاجور المناسبة . ويحدّد ماركس الاجر العادل على المجهود الذي يصرفه العامل في العمل

وأما الرأسمالي فيستخدم الجزء من العمل الذي يستولى عليه من العامل في زيادة الانتاج . واذن فهنالك جزء من الانتاج لا يستهلك وهذا ما يؤدي الى اضطراب في التوازن بين الانتاج والاستهلاك بل مما يؤدي حتماً الى أزمات قلة الاستهلاك لان العامل لا يستهلك أو لا يمكنهُ ان يستهلك ما يجب ان يستهلكه لقلة أجره

نرى من هذا ان الطبقة الغنية صاحبة الاموال تعيش على عاتق الطبقة الفقيرة التي هي طبقة العمال . ومن هنا نشأ كفاح الطبقات الفقيرة مع اصحاب الاموال اي « الرأسماليين ». وينحصر بحث ماركس في هذا على قاعدة « عدم المساواة في طرق التبادل ». واما بحث من تقدموه فينحصر في سوء نظام الملكية . وماركس يبحث الموضوع من الوجهة الاقتصادية البحتة . أما «سيسموندي» و « برودون » و « سيمون » فكانوا يبحثونهُ من الوجهة الخلقية الاجتماعية . ويقول ماركس ان العمل ليس وحده اساساً للقيمة او سبباً لها بل هو جوهر القيمة او مادتها. وهو الذي يحدد قيمة الاشياء اي ان تلك القيمة تحدد بحسب ما احتاجت اليه من الوقت في صنعها . واذن فالمنفعة لاتصلح ان تحدد قيمة الاشياء وهو لهذا يضع النظام الاجتماعي الاقتصادي كالآتي :

(١) ان تكون وسائل الانتاج تحت تصرف الجماعة وان تكون اموال الاستهلاك تحت النظام الفردي لان الاشتراكية الجمعية خلاف الشيوعية لا تلغي الملكية الفردية الاَّ في وسائل الانتاج

(٢) تنظيم الانتاج وموازنته بالاستهلاك بواسطة الجماعة

(٣) احلال قيمة العمل مكان قيمة المبادلة المبنية على المنفعة وتكاليف الانتاج . ونظريته في التركيز Concentration تتلخص في ان المشروعات الاقتصادية الفردية والملكية الفردية تندمج الصغيرة منها في الكبيرة الى ان تنحصر هذه الاملاك في أيدٍ معدودات وعندئذٍ يسهل على العمال عزل رؤساء الصناعات الكبيرة ليحلوا محلهم وتكون الملكية كلها من صناعات وعقارات ملكاً للعمال ولا يتم هذا التركيز الاَّ اذا كانت المنافسة حرَّة

ولقد كان ماركس يريد تحقيق نظرياته عن طريق التطور الاجتماعي الاقتصادي لتصبح وسائل الانتاج ملكاً للجماعة وحتى يصير ما ينتجهُ العمال ملكاً لهم وبهذا يزول الظلم عن الطبقة المغلوبة على أمرها طبقة العمال المهضومة الحقوق

***

﴿ نظريته في تفسير التاريخ ﴾ ويعتبر اكبر فخر لحياة كارل ماركس الفكرية هو ابتداعه لنظرية « التفسير الاقتصادي للتاريخ » ورأيهُ فيها ان قوى الانتاج هي التي تأتي بالنظام الذي يلائم المجتمع ولا ينبغي ان نطلب اصلاح المجتمع بناء على النظريات « المثالية » التي يقول بها

أصحاب المُثُل العليا، وهذه النظرية تحدد الفوارق الاخلاقية والمادية للبيئات الزراعية والصناعية وان طريقة الانتاج والاستهلاك تحدد للامة توزيع الثروة وهي لذلك تقرر النظام الاقتصادي والسياسي والادبي وتأخذ هذه النظرية الحياة الاقتصادية للامة برهاناً على صحتها . فهو عند ما يوضحها يقول ان الامراء والاشراف كانوا يستولون على العقارات والارض لمصالحهم . فلما انتهى العهد الاقطاعي حلّت الطبقة المتوسطة محلهم Bourgeois Capitalists وهذه هي طبقة الرأسماليين الذين يستغلون الآن الاموال والعمال في الارباح الهائلة التي يحصلون عليها ومصير هذه الطبقة ان تزول إذا استولى العمال على الارض والعقارات . فالبيئة الزراعية أتاحت للامراء الاستيلاء على الارض ثم جاءت الآلات والصناعة فأتاحت للطبقة المتوسطة الاستيلاء على الاموال والاستبداد بالعمال وقد تأتي غداً الاشتراكية فتقرر في العالم سيادة العمال وهكذا يبيد من الوجود طبقة الرأسماليين

ولقد نستطيع ان نقرر ان الجماعة لم تتحول حتى الآن الى النظام الجمعي الذي فرضهُ ماركس على المجتمع فرضاً وكذلك لم تهزم طبقة العمال « الرأسماليين » وقد كان ان ظهر في عصره جماعة شنوا عليه غارة النقد فحبذوا اعتبار المنفعة ونفقة الانتاج أساساً للقيمة وبدأ الكثيرون ينفضّون عن مذهب ماركس الاقتصادي . فلقد أهمل « كوتسكي Kautsky » كثيراً من نظريات ماركس ولم يتفق معهُ على ان المادة وحدها ذات تأثير عظيم في تطور الهيئة الاجتماعية « النظرية المادية التاريخية » بل يؤمن ان الاخلاق لها تأثير كبير في التطور الاجتماعي . ولقد خالفهُ ايضاً في ان طبقة العمال آخذة في التدهور والفقر بدعوة ازدياد عددها مع اندثار الصناعات اليدوية وانتشار الصناعات التي تقوم على الآلات بل طبقاً للاحصاءات المتباينة في مختلف الاقطار مما تدل على ان حالة العمال آخذة في التحسين . ولقد كان كوتسكي هذا من انصار السلم والاستقرار . وممن عارض ماركس ايضاً برنشتين Bernstein . وبخاصة في نظريته عن التوازن الاقتصادي القائم على الانتاج والاستهلاك . وقال بوجوب تحسين حالة العمال الخُلقية وانهُ من الصعب ان يصل الباحث الى تطبيق نظرية التركيز الماركسية على الملكية وحصرها في يد واحدة أو في أيد معدودات

ويقول برنشتين ايضاً ان الاشتراكية حركة والحركة هي كل شيء في الحياة الاجتماعية واما الغاية فليست شيئاً يذكر

وعلى هذه المبادىء التي نالت من بعض نظريات ماركس الى درجة محدودة وفي ظروف خاصة قامت الماركسية الجديدة وهذه الماركسية الجديدة هي النقد الذي وجههُ الناقدون المتقدمون

من أنت ؟

جواب الروح الانسانية : لفيكتور هيجو

عن ديوان « الله ونهاية الشيطان »

Dieu et la fin de Satan

أنت يا من تساميت عن عالم الاحداث

طائفاً هنا وهناك ، ولا يتجلى لك سوى منحى واحد من الكائنات

ان روحي المنبثة في تضاعيف الكائنات هي روح الإنسانية

التي ظهورها في كائن معناه ارتفاع مشعل الانسانية فيه

ان كلماتي الحية ، التي تتجاوب في حنايا النفوس

أشبه ما يكون بسريان طنين النحل في قفيره

اني ملتقى الكائنات على الدوام

ومدار عجلة الحياة

روحكم ، هو أنا ! الذي يقيد سكناتكم وحركاتكم

وانا الذي يطوف على ثغوركم بالابتسام ويجري بالدمع في مآقيكم

ويلهمكم الايمان ويثير الشك والجحود فيكم

أنا ... أنا نفس الكل

أنا الذي أصيح في كل متحفّز للعمل

حسبك ما فعلت : أنا الذات المشتركة بين البشر

ان مقاليد الامور في يدي ، فأنا الذي أقود وأدبر وأحرك

وان كان هنالك شيء ترتعد له فرائصي فهو تجاوز حدّ الاعتدال

فهو ان بدا لي في شبح الفناء مسني الخوف ، وفي نور الحكمة تولاني الرعب

اني أقبض على أعنة الغضب والشهوة

لكي لا ينحرفا عن طريق الخير

وليصحب الانسان اذن في قافلة الحياة أسد الغضب وكلب الشهوة ؟

[نقلها : الدكتور اسماعيل أحمد أدهم]

قاهر البحار

قصة مجلان : أول من دار حول الارض



تلخيص كتاب ستيفان زفيج اعتماداً على الملخص المنشور
في مجلة « ريدرز ديجست » الاميركية

[نقله : محمد مسعد فوزي]

قاهر البحار

قصة فرديناند ماجلان

أول من دار حول الارض

. . كانت الرغبة في الحصول على الافاويه هي الدافع الاول لتلك الاعمال الباهرة . فقد كان طعام الاوربيين طوال العصور الوسطى تافهاً بسيطاً وكانت الفواكه التي نراها الآن كثيرة ، غير معروفة في ذلك العهد . والليمون والبطاطس والشاي لم تكن توجد الا في قصور الامراء

الا ان هذه المواد كانت كثيرة في جزر الهند . كان الجميع يعرفون ذلك ولكن . . ما الفائدة ؟ فالطريق غير ميسور ، والقرصان أسياد البحار . وكانت الافاويه والبهارات تباع في أسواق اوربا . ولكن بأي ثمن ! . . فالزنجبيل والقرفة كانا يباعان بميزان الصيادلة ، أما الفلفل الاحمر الصغير فقد كانت حبته تباع بوزنها ذهباً

ولقد كان الدافع الوحيد لتلك الرحلات البحرية التي لن ينساها التاريخ — رحلات كولومبوس ودياز وكابوت — هو البحث عن طريق قصير آمن للتجارة وتمهيده للحصول على افاويه الشرق التي كان الاوربي يتوق اليها ولا يكاد — لندرتها — يراها في نومه

وعندما نجح فاسكو ديجاما في الوصول الى الهند عن طريق شاطىء افريقية الغربي فحول رأسها الجنوبي سنة ١٤٩٨ بدأ عندئذ النزاع الطويل المستحر بين الدول الكبرى لاستكشاف طرق التجارة واستعمار الشرق . وفي سنة ١٥٠٥ أرسل البورتغاليون اسطولاً لتأسيس مراكز تجارية في جزر الهند وكان فيها فرديناند ماجلان وهو برتغالي شاب في الرابعة والعشرين من عمره . ورجعت سفن ذلك الاسطول بعد ان وصلت الى جزائر ملقا بالقرب من سنغافوره وعلى احداها الشاب ماجلان وقد أصيب بعرج في ساقه . وكان يصحبه عبد سماه « انريك » فكان لهُ على ما سنرى شأن واي شأن في قصة صاحبنا

تفتحت أمام بطلنا ماجلان آفاق واسعة . أراد ان يصل الى (جزائر الافاويه) بالإبحار عن طريق الغرب كما فكر قبله كولومبوس وفيسبوتشي وكورتيز وكابوت . ولكن الفرق بين ماجلان وبينهم أن هؤلاء كانوا يقولون « ربما نجد الطريق . . » وكان بطلنا يقول « أعرف الطريق . . » فنجح هو وأخفق الآخرون

تقدم البحار الشاب الى الملك عمانويل ملك البورتغال وطلب منهُ في حماسة الشاب ورجاء الواثق بنفسه ان يعطيه اسطولاً ليحقق ما يجول برأسهِ فرفض . فتقدم ماجلان بالطلب نفسهِ الى اسبانيا غريمة البرتغال في الاستعمار فوافق ملكها شارلس لا عن عقيدة بنجاح الفكرة ولكن لان حماسة الشاب وسحر الفاظه وعميق ايمانهِ أخذت بلب الامبراطور فوافق على المغامرة الهائلة . ولكن الصعوبات لم تنتهِ عندذلك ، فان ملك البرتغال تدخل بواسطة قنصله في اشبيلية ليحول دون إبحار ذلك الاسطول ببث الريب والروع في نفوس البحارة . وواجهت ماجلان صعوبات عظيمة بشأن جمع البحارة لتلك الرحلة — رحلة الى آفاق مجهولة قد لا يعودون منها . وتمكن ماجلان أخيراً من التأثير في بعض البحارة فانضموا إليهِ . وكان بين البحارة شاب ايطالي اسمه بيجافيتا من أسرة كبيرة انضمَّ الى ماجلان « ليرى روعة المحيط » كما زعم . ونحن مدينون لهذا الشاب كثيراً فقد كان يسجل حوادث الرحلة في مذكراتهِ النفيسة يوماً فيوماً في اسلوب رصين ممتع . وفي صباح ٢٠ سبتمبر سنة ١٥١٩ وقفت في ميناء سان لوكار باسبانيا خمس سفن عليها ٢٦٥ بحاراً وعلى رأسهم الشاب الاعرج . وبعد ظهر اليوم نفسه نشرت السفن اشرعتها وضربت في عرض البحر باسم الله مجريها ومرساها

***

ولقد كانت أصعب مهمات ربان هذا الاسطول الغريب هو ان يوحّد بين هذه المراكب الخمس الهرمة المتفاوتة السرعة . فصدر امر ماجلان بأن تتجمع السفن عند غروب شمس كل يوم وتقترب من « سفينة العلم » وتحيي الربان بهذه الكلمات :

« ليحمك الله .. أيها السنيور الجنرال الربان .. » ثم تتفرق بعد تلقي التعليمات في نظام وهدوء . ولقد كان ربابنة السفن الاربع يتوقعون ان يكون لهم يد في نجاح الرحلة وذلك باطلاعهم على الخرائط واشراكهم في المناقشات . ولكن ماجلان رفض ذلك رفضاً قاطعاً . وكان عليهم ان يتبعوا سفينته طول النهار ثم يقتربوا منها عند غروب الشمس ويحيوه التحية المعتادة في طاعة الجنود

ولقد كان الطريق المرسوم للرحلة هو جهة جنوب الغرب الى البرازيل ولكن ماجلان اتجه ناحية الجنوب على شاطىء افريقيا الغربي . وكان من أثر ذلك ان تقدم جوان كارتاجينا ربان السفينة « سان انطونيو » الى ماجلان سائلاً عن سبب تغيير طريق السير . وربما كان غرض ماجلان من ذلك الاتجاه نحو الجنوب ان يجد ريحاً موافقة ثم يغير طريق السير الى جنوب الغرب ولكن كان جوابه على اعتراض كارتاجينا « ليس لاحد ان يطلب مني الافضاء بشيءٍ اليهِ ! »

ولقد كان من شأن ذلك الرد الحاسم ان غضب كارتاجينا لكرامته ولم يدن من السفينة الاولى عند الغروب للتحية المعتادة . وكان معنى ذلك عند بقية الربابنة انهُ عاد لا يعترف بسلطة

الشاب البرتغالي الاعرج المطلقة . ولكن ماجلان لم يهتم بذلك . وفي اليوم التالي استدعى ربابنة السفن لاجتماع هام يعقد على سفينته وكان بينهم كارتاجينا الذي صمم على الاشتراك والمساهمة في نجاح الرحلة او خيبتها . وكلما عزَّ على ماجلان ان يخضع لمرؤسيه فردَّ عليه ردًّا جافًّا فما كان من هذا الا ان أعلن العصيان فبادر ماجلان وأصدر أمره الى مساعده بالقبض على الربان الثائر فلم يسعهُ الا تنفيذ الامر . ولقد كانت للسرعة التي اتبعها ماجلان في حسم تلك المسألة وتصميمه على رأيه تأثيرهما الكبير في بقية الربابنة فلم ينبس أحدهم بكلمة اعتراض . وعند ما وضعت القيود في يد كارتاجينا تقدَّم أحدهم بخضوع وطلب من ماجلان الامتناع عن إهانة السجين لانهُ اسباني نبيل . ولم يرَ ماجلان من الحكمة ان يمضي في التعسف الى نهايته فرضي بالافراج عنهُ بشرط ان يتعهد لويس ده مندوزا — الذي عهد اليه بمراقبة الاسير — أن يجعل كارتاجينا رهن طلبه . وعين ماجلان ابن عمه مسكيتا مكان كارتاجينا

واستمرَّ الاسطول الصغير يضرب في عرض البحر أياماً وأسابيع بدون أي حدث مهم حتى وصل الى خليج ريو دي جانيرو بعد احد عشر أسبوعاً .ولا بدَّ ان ذلك الخليج وتلك الارض كانا عند البحارة منهوكي القوى بمنزلة جنات النعيم . فقد خرج الاهالي من أكواخهم وأخذوا يحيون الاغراب تعلو وجوههم الدهشة ولا يثير منظرهم الريب.وقد أشار بيجافيتا الى ذلك في مذكراته الى رخص الاشياء التي ابتاعوها او قايضوا عليها ووصف كثرة الخضروات والفواكه قال :

« وكان الاهالي البسطاء يعطوننا لقاء كل جرس معدني صغير سلة كبيرة مملوءة بالبطاطس ». وأكثر من ذلك رخصاً كانت النساء في جمالهنَّ الطبيعي الخلاَّب أو كما كتب بيجافيتا في براعة « النساء اللاتي كان كل ما يغطي أجسادهنَّ السمر الجميلة شعور طوال سود كالليل البهيم . . »

قضى ماجلان في تلك الجنان ثلاثة عشر يوماً ثم استأنف المسير جنوباً على ساحل البرازيل

وفي العاشر من يناير وصلت السفن الى رأس سانتا ماريا فشاهدوا وراءهُ سهلاً وفيه تلٌّ عالٍ سماهُ ماجلان مونتفيدي وكان الخليج الذي نزلوه مصب نهر الريو ده لابلاتا . ولكن ماجلان لم يكن يعلم ذلك فقضى أسبوعين مستقصياً علَّهُ يكون منفذاً ينفذنهُ الى بحار الشرق فخاب ظنهُ عندما تبين لهُ انهُ مصب نهر

اختفت أرض البرازيل المحبوبة واختفت معها أشجار النخيل الماثلة وفواكهها الريّانة . . ونساؤها الجميلات السمراوات . اختفى كل ذلك ولم يعد الرفاق يرون غير الماء الازرق الصافي والسماء الزرقاء المنبسطة والأفق اللانهائي — عادوا لا يرون إلاَّ منظراً واحداً لا يتبدل ولا يتغير حتى تملكهم اليأس العميق . . الاَّ الشاب الأعرج الذي كان يحدوه الامل ثم يخفت ثم يعاوده ثم يخفت وهكذا دواليك

ومضى الاسطول يضرب في عرض البحر ناحية الجنوب . وفي كل ساعة يزيد شقاء البحارة وفزعهم . فقد صارت الايام قصاراً والليالي طوالاً وتراكم الثلج على أشرعة المراكب وتجمد على حبالها وهبت الاعاصير فتحطمت ساريات ثلاث سفن ... ها قد مرَّ نصف عام على ابتداء الرحلة المشؤومة وليس هناك أمل في الوصول الى الهدف المطلوب

ابتدأ الهمس يدور بين البحارة . لقد أمضوا عقودهم لغرض الوصول الى جزائر الافاويه حيث التوابل والذهب . ولكن اي مصير يخبؤه لهم ذلك الاعرج الصامت المشؤوم ؟

وما زال أسطول الرعب يضرب في عرض البحر ، تتركه زوبعة فيناله أعصار ، تائهاً حائراً لا يدري أي طريق يسلك ، محارباً الامواج والزوابع والثلوج . . محارباً الفشل . . متحدياً الطبيعة . . لاجل الحياة العزيزة الغالية

وفي ٣١ مارس سنة ١٥٢٠ رأى ماجلان أرضاً ولكنها لم تكن الاَّ جزيرة مقفرة قاحلة . ولم يكن في استطاعة البحارة ان يسيّروا السفن فرسخاً آخر لشدة ما قاسوا وما نالهم من مشقة وتسب . فرأى ماجلان أن يمضي فصل الشتاء فيها . وحبب ذلك الى البحارة ما رأوه في مياه الجزيرة الساحلية من اسماك وفيرة . وسميت تلك الجزيرة سان جوليان

***

ان صبر الانسان له حد معلوم ولا بد ان يعيل يوماً فتنفجر العواصف المكبوتة في صدرهم عمياء جاهلة مدمرة لا تعرف لها حداً من نظام او قانون او عرف . ولم يكن كل بحار (ماجلان) ولم يكن لديهم شجاعة ماجلان وشبابه ومقدرته وشخصيته وعزمه . ولذلك ما لبث التذمر ان أعلن بعد أن كان يرى على قسمات الوجوه . وكان اكثر المتذمرين ربابنة السفن الاربع فأعلنوا تمردهم وتمكن كارتاجينا (الربان الذي عفى عنهُ ماجلان) من استمالة ربانين آخرين وثلاثين رجلاً مسلحاً وهاجموا السفينة سان انطونيو والظلام يلفهم بردائه والرعد يخفت صوت بنادقهم فقتلوا ضابطاً وعلقوه من عنقه على سارية المركب وسجنوا مسكيتا ابن عم ماجلان معلنين حرب الحياة والموت

وانظر الآن الى ما جاوب به الشاب الاعرج

أرسل خمسة من رجاله المخلصين وعلى رأسهم الضابط الشجاع إسبينوزا الى السفينة المتمردة ومعهُ خطاب الى لويس مندوزا الذي عينهُ الثوار رئيساً عليهم

ولنحاول أن نتصور موقف اولئك الابطال الستة وهم يقتربون بقاربهم الصغير من السفينة المسلحة في ايدي المتمردين . واذا كان اليأس يسلب الانسان عقله ويتركه وحشاً ضارياً في ثوب إنسان ، فان هؤلاء الذين كانوا على ظهر تلك السفينة كانوا في اشد حالات اليأس والتوحش فقد صارت حياتهم جحيماً لا يطاق

هو ذا القارب الصغير يقترب رويداً رويداً من مركب الرعب حتى وصل اليهِ والمتمردون ينظرون اليهم من ضهرها دهشين اذ لم يدر في خلدهم ان ستة رجال في قارب يجرؤون على مهاجمة سفينة كبيرة عليها ستون رجلاً . ولكن رجال ماجلان الشجعان لم يبدوا خوفاً ولا اضطراباً بل صعدوا الى ظهر السفينة يتقدمهم إسبينوزا وتقدم من الربان الثائر مندوزا وسلمهُ خطاب ماجلان يأمره فيهِ بالحضور الى سفينته

كان الفخ بسيطاً ظاهراً — ذلك ما قاله الربان الثائر وما لبث فمه ان انفتح على قهقهة مجلجلة حتى تقلص وانقلبت القهقهة الى نبحة وعواء فقد طعنه اسبينوزا في رقبتهِ طعنة نجلاء لم يلبث بعدها ان سقط يتلوى في دمائه الفائرة

وكما أن ليس في الارض أشجع من الانسان ، فليس فيها أجبن منهُ ، فهاهم ستة رجال عزل يرمون بأنفسهم بين براثن ستين ثائراً . وها هم أولاء يرون رئيسهم جثة هامدة والدم يتدفق من حلقهِ والزبد يسيل من بين شدقيهِ . فلم يبدوا حراكاً ولم يظهروا أية مقاومة . وانقلب الفهد المتوحش الى هرّ أليف فرموا بسلاحهم أمام الابطال الستة . ووقف الربانان الثائران كارتاجينا وجاسبار كيسادا أمام الشاب الاعرج المرعب ليدفعوا ثمن ما قدمت أيديهم

ولم يرض ماجلان ان يعاقب جميع البحارة المتمردين فقد كانوا يبلغون خمس مجموع رجاله. وكان جاسبار كيسادا هو الذي قتل الضابط وعلقهُ على سارية المركب فصمم ماجلان ان يجعله عبرةً لغيره وعقدت المحكمة لمحاكمة كيسادا وأتي بالشهود وترافع عنهُ محاميان من البحارة وسجل الكتبة ما دار في الجلسة وجلس ماجلان في كرسي القاضي واصدر حكمه الرهيب باعدام القاتل

وعرض أمر تنفيذ الحكم على خادم كيسادا وكانت له يد كبرى في الثورة ومني بالعفو عنهُ فقبل وبضربة فأس واحدة أطاح رأس رئيسه المتمرّد

وفي اليوم التالي أصدر ماجلان حكمه الرهيب الثاني على الثائر الآخر وزميل لهُ . وكان الحكم القاسي يقضي بتركهما وحيدين في الجزيرة القاحلة مع تزويدهما بقليل من الطعام . وليترك تنفيذ الحكم الى ارادة الاله القوي القادر

ومما يستحق الذكر ان نفس الحكم صدر ثانية في البقعة نفسها بعد خمس وسبعين عاماً عند ماثار أحد الضباط على الرحالة المستكشف الانجليزي فرانسيس دريك فخيرهذا الضابط بين الانتحار كجندي شجاع على ظهر السفينة وبين ان يقاسي ما قاساه الثائران من قبل . واختار الضابط الشجاع ان يزهق روحه بيده على ارض الجزيرة . وهكذا تخضبت تلك الارض البكر بدماء ثلاثة رجال من الروّاد . ولم تنته مصاعب ماجلان عندذلك . وخيل اليهِ ان حادثة سان جوليان ليست الا شؤماً ونذيراً . ولم يخب ظنه ، فعند ما انتهى الشتاء بزوابعهِ وأعاصيره أرسل ماجلان

السفينة سانتياجو أحسن السفن وأعزها لديه للاستكشاف في عرض البحر وكان ذلك آخر عهده بها . وتمكن بحارتها من الوصول سالمين الى ارض الجزيرة ورووا لرئيسهم قصة غرقها . ولم يتمالك ماجلان نفسه وتشتذ فذرفت عيناه الدموع

وفي ٢٤ اغسطس سنة ١٥٢٠ اصدر أمره بالاقلاع من سان جوليان المشؤومة . ولم ينس رغم ذلك ان يرسل نظرة عابرة الى من حكم عليهم أفظع حكم نطقه به قاض

نكون بذلك قد روينا للقارىء تاريخ اثني عشر شهراً من أعظم اعمال الانسان بطولة وشجاعة. سنة كاملة مرت منذ أن اقلعت السفن الخمس من سان لوكار وعليها رجال يحلمون بالثروة والغنى والوصول الى (جزائر الافاويه) وعلى رأسهم شاب أعرج شجاع . سنة كاملة مرت على بطلنا ماجلان .. لم يكتشف شيئاً ولم يربح شيئاً .. بل خسر وخسر .. يحارب الطبيعة القاسية .. يحارب اليأس يحارب شيطان الضعف في نفسه . فالى متى ينتهي هذا الصراع البشري ..؟!

ولو علم ماجلان وتشتذ انه اصبح قاب قوسين أو أدنى من النهاية لقضي عليه من الفرح. فقد توالت عليه المحن متوالية متتابعة في غير رحمة او هوادة حتى كاد ييأس من الوصول الى نهاية الرحلة . ولكنه كان شاباً ذا أمل

وتشاء الاقدار أن تصيبه بضربة اخرى أشد قوة وقسوة . ففي يوم ٢١ اكتوبر رأى جزيرة اخرى قاحلة وارتأى أن يستريح بسفنه جوارها بضعة أيام . وارسل السفينتين سان انطونيو وكونسبسيون لاستكشاف شاطىء الجزيرة على طوله . وهب اعصار في المساء حتى كادت أن تحطم سفينة ماجلان نفسها بين الصخور . وكان نفس القضاء لابد حالاً بالسفينتين الاخريين . وبقي ماجلان ومن معه من البحارة على شاطىء الجزيرة منتظرين مترقبين بقلوب هالعة جازعة. وخيل اليه ان الاقدار تضحك منه وانها حكمت عليه نفس الحكم الذي اصدره على البحارين المتمردين. وبعد اربعة ايام من الانتظار الرهيب ظهرت السفينتان في عرض البحر تختالان فوق الماء تيهاً وزهواً . لم يصدق ماجلان عينيه ولكن المدافع التي كانت تطلقها السفينتان باستمرار لم تترك للشك سبيلاً الى قلبه . ولكن — تساءل ماجلان — لم تطلق السفينتان البارود الثمين هكذا بدون توقف ؟ ..

كانت السفينتان المزيتان تحملان أخباراً سارة لبطلنا اليائس . فقد هبت العاصفة المروعة عليهما وقطع كل أمل . فالريح العاصفة تدوي من الخلف وتدفعهما ناحية الصخور الماثلة أمامهما . وعلى حين فجأة ، وكأنما ذلك عمل ساحر ، رأى ربان سان انطونيو ممراً صغيراً بين الصخور فاحتمى فيه ولحقته السفينة الاخرى . وكان في ذلك النجاة . ومع انهما لم يجدا المخرج الغربي لهذا الممر الا أن الرجال كانوا على ثقة بأنه مضيق

وتقدمت السفن الاربع وعلى ظهر الاولى ماجلان باضطراب ورهبة من الممر السحري الذي كان على أكبر جانب من الخطورة فان أقل خطإ كان يودي بالسفن ويحطمها على الصخور ولم ينس بطلنا ان يطلق على ذلك الممر اسماً فسماه «تودوس لوس سانتوس» وهو يعرف الآن بمضيق ماجلان. وظلت السفن تتقدم ببطء في ذلك الطريق الضيق ولم يعلم أحد الى أين يفضي بهم وبعد شهر من الزمان من التعب والمشقة والحذر في اجتياز مضيق يعد اجتيازه من معجزات الملاحة على من عرفهُ فكيف بك على مكتشفه، خرجت السفن سليمة من طرفه الآخر الى عرض المحيط الواسع فبكى الشاب الاعرج وتساقطت دموع الفرح والتأثر غزيرة على شعر ذقنه الطويل الكث

لم يكن فرح ماجلان لانهُ وصل الى غرضه بل لانهُ عرف الطريق الذي يسلكه بعد ذلك. وقد كان طريق الرجوع الى الوطن من ناحية المحيط سهلاً ميسوراً. هنا وقف ماجلان يتنازعهُ عاملان، هل يترك المهمة الكبيرة ويرجع الى الوطن المحبوب، او يمضي في رحلتهِ الى النهاية؟

استدعى ماجلان ربابنة السفن الاخرى لاستطلاع رأيهم في ما لديهم من الطعام المخزون. ثم بسط لهم حقيقة الامر في أسلوبهِ الساحر وحماستهِ المتوقدة. لقد حقق الجانب الاول من هدفهم فهل يمضون الى النهاية؟ ولكن التخيل شيء والحقيقة شيء آخر. ولم يكن من المعقول ان يتوقع ماجلان من زملائهِ موافقته على المضيّ في تلك الرحلة المرعبة. وفعلاً عارض أحد الربابنة رئيسهم وكان أكثرهم تشبثاً برأيهِ استافو جوميز ربان السفينة سان انطونيو الجديد. وكانت هناك حقيقة مرّة يعلمها ماجلان وهي نقص المؤن نقصاً ينذر بالخطر

وكان رأي جوميز انهُ اذا آتتهم الاقدار فانهم سيموتون جوعاً ولا ريب. وهو رأي تؤيدهُ الوقائع. الاَّ ان مجلاَّن كان أكثر اهتماماً بعمل عظيم خالدٍ منهُ بحياتهِ الفانية ولذلك عزم على المسير وأصدر الامر الى ربابنة السفن بان يخفوا عن البحارة قلة المؤن

وأرسلت سفينة بقيادة جوميز بعد ذلك لاستكشاف فرع من فروع المضيق ومضى الوقت المعيَّن لذهابها وايابها ولكنها لم تعد، فقضى ماجلان أياماً في البحث عنها على غير جدوى واخيراً استدعى منجماً وسأله في أمرها، فتذكر المنجم أقوال جوميز عن التقدم والنكوص فقال لمجلاَّن ان السفينة عادت الى أسبانيا

هنا واجه مجلاَّن موقفاً حرجاً وتعين عليهِ ان يصدر قراراً خطيراً ذلك انهُ كان يعلم ان السفينة الناكصة، كانت تحتوي على معظم مواد الغذاء، فالسير في الرحلة كان بمنزلة الانتحار. ولكن....

وفي ٢٨ نوفمبر سنة ١٥٢٠ رفعت الثلاث سفن الباقية أشرعتها ضاربة في عرض المحيط المجهول ناحية الغرب

« . . وهناك في مكان بعيد وراء الأفق لا بد ان تقع جزائر الافاويه . . جزائر الدفء والزرقة . . » كذلك قال ماجلان في نفسه ؛ « ولا بدّ أن أجد بعدها بلاد الصين العظيمة ثم هندوستان . . وبعدئذ . . وبعدئذ . . هناك في أقصى الافق لا بدّ ان أصل ثانية الى أسبانيا العزيزة . . . . . »

واختلج بدن بطلنا الكبير من التأثر وسقطت دمعة كبيرة على وجهه الاسمر الطويل الشاحب وأطلقت السفن الثلاث مدافعها تحية للمحيط الذي أخذت تخترق عبابه وهي لا تعلم مصيرها فيه

***

ويعتبر أول اجتياز لهذا المحيط المجهول من أبهر أعمال الملاحة التي سجلها التاريخ للانسان ولقد قيل عن رحلة كولومبوس أنها عمل فذ من أعمال البطولة مع ان سفنه كانت جديدة متينة ولم تزد الرحلة ذهاباً على ٣٣ يوماً . وكانت سفنه وافية الزاد ففي وسعه الرجوع الى الوطن اذ أثبت عجزه عن الوصول الى ضالته

وها هو ذا الشاب الاعرج وها هي ذي رحلته الحمقاء . ها هو ذا ماجلان يتجه باختياره الى فضاء لا يعلم له آخر مع بحارة يائسين هالكين يحوطهم الحرمان ويهددهم الجوع الذي لا يرحم . ها هو ذا ماجلان يرمي بنفسه في يد القدر وسط المحيط الهائل في ثلاث سفن هرمة هالكة تكسرت أشرعتها ووهَتْ حبالها. تلك هي رحلة ماجلاّن . ولما استكملت بعد . . .

وسارت السفن تضرب في عرض المحيط الهائل اللانهائي . ومرّت اربعون يوماً ثم خمسون ثم سبعون ثم مائة . . ولا أرض ولا امل في بلوغ أرض . ولم يكن ماجلاّن قد قطع اكثر من ثلث ذلك المحيط الهائل الذي سماه « الباسيفيكي » أي الهادىء لانهُ كان هادئاً حنوناً

وكان المحيط حقيقة هادئاً ولكنهُ هدوء الموت . فالماء الازرق لا تبديل في لونه والفضاء المقسم لانهاية لهُ والسماء الصافية المتسعة والشمس في وسطها ترسل شواظها من نار . ونحلت وجوه الرفاق وغارت عيونهم في محاجرها جوعاً وتعباً ورعباً . واصبحت السفن الثلاث تحمل فوق ظهورها أشباحاً متحركة وأصبح كل شبح منهم مثلاً حيًّا للبؤس والفزع والجوع

والظمأ . . . كان لا يزال موجوداً ولكن . . أي ظمأ ! . . فالماء العذب لم يعد عذباً بل غدا آسناً أشبه بماء المستنقعات والبرك . والخبز تعفن وتحلل وصارت ترعى فيه الديدان والسوس . والفئران اصبحت من اللذائذ المشتهاة وغدت تطارد في كل الجوانب . وأكل الرجال نشارة الخشب وجلود احذيتهم ليسكنوا صرخات الجوع القاسية في معدهم . ومات من البحارة الباقين مع ماجلان عشرهم . وأشفق الرب أخيراً على ابنائه وشملهم برحمته ففي السادس من مارس سنة ١٥٢١ رأى ماجلاّن جزيرة عن بعد واقترب منها في حذر وأحاطت به قوارب

الاهلين ملوحين بسعف النخيل ولـكن الاسبانيين الهالـكين لم يفهموا تلك التحية بل كان الطعام كل همهم . فقتل اربعون منهم مسلحين وحرقوا أكواخ الاهلين الآمنين وسرقوا ونهبوا كل ما صادفهم في طريقهم . واستراح البحارة ثلاثة أيام أكلوا فيها فواكه وأسماكاً وشربوا ماء عذباً. وفي صباح اليوم الرابع نشرت السفن أشرعتها وعاودت الرحلة اللانهائية

وصادفت السفن في طريقها عدّة جزر أخرى متقاربة سماها ماجلان جزر الفيلبين وهي الجزائر التي دخلت ضمن أملاك الامبراطور شارلس وقد بقيت في حوزة أسبانيا مدّة أطول من جميع البقاع التي كشفها باسم اسبانيا كل من كولومبوس وكورتيز وبيزارو

وفي ٢٨ مارس وصل ماجلان الى جزيرة مازاقا حيث رحب به ملكها كالامبو واستضافهُ عدّة أيام وزوده بمؤن كثيرة وأخبره ان أقرب الجزر اليه هي جزيرة زيبو فأبحرت السفن متجهة اليها

هنا دهش مجلان عند ما رأى عبده « اريك » يفهم معظم ما يقولهُ سكان مازاقا فعلم انهُ انتهى من تطويق الارض ، وان اريك أصبح في منطقة كان مجلان قد بلغها اولاً في رحلته الاولى شرقاً . وبعد مسيرة نصف يوم وصل ماجلان الى جزيرة زيبو . وكان أول ما فعله أن أطلق جميع مدافع المراكب دفعة واحدة فأرعب الاهالي وأظهر ملـكهم الذي دعاه ورجاله الى وليمة كبيرة فيها استعداده لتبادل المتاجر معهُ.ولقد توطدت الصداقة بين ماجلان والراجا حتى ان الاخير أعرب عن رغبته في اعتناق الدين المسيحي . وفي حفل كبير وطني اجتمع الراجا ورؤساء القبائل وقدموا الطاعة الى ماجلان باسم أسبانيا ودخلوا والاهلون في دين الله أفواجاً

وخيل الى ماجلان ان النجوم قد انحازت الى صفه وان السعد أصبح رفيقه وان النجاح أصبح اليه قاب قوسين او أدنى

وكانت بالقرب من زيبو جزيرة أخرى اسمها ماكاتان كان يذهب اليها البحارة في قوارب ويطاردون النساء الوطنيات ويحرقون أكواخهم أثناء الصدام . ورأى ماجلان ضرورة اظهار بطشه لاهالي تلك الجزيرة فصمم على ان يلقنهم درساً قاسياً . ولقد أظهر ملك زيبو استعداده لارسال الف محارب مع ماجلان ولـكن هذا رفض وأخذ معهُ ستين بحاراً مزودين بالبنادق

كان موقع جزيرة ماكاتان محصناً بالصخور من حواليها ولذلك كان اقتراب القوارب منها لا يخلو من خطر . ركب ماجلان الزوارق مع رجالهِ وأخذ يقترب من الجزيرة واستعدّ الاهلون للنضال . وعلى رأسهم ملـكهم مزودين بالسهام المسمومة والنبال . ولندع بيجافيتا وقد كان من ضمن المحاربين يصف لنا المعركة :

« عندما رأى الاهالي المتوحشون ان نيران البنادق في الزوارق عادت لا تحمينا هجموا علينا هجمة رجل واحد بقسيّهم ونبالهم حتى ساد الاضطراب بين صفوفنا وانقلب هجومنا الى دفاع . ثم

أصيب القبطان بنبل مسمومة في ساقه اقعدته عن الحركة وهرب بقية البحارة شذر مذر ولم يبق بجانبه الا خمسة رجال . ولقد ازداد توحش المحاربين عندما رأوا القبطان طريح الارض فتحولوا بجموعهم ناحيته قصد التنكيل به وتحقق ماجلان من الخطر المحدق به فتناسى آلامه وجروحه وقام يعدو صوب الشاطىء والدم ينزف من ساقه والسهام تتساقط حواليه حتى وصل الى الشاطىء سليماً . ولكن لم تلبث نبلة ان اخترقت فخذه فوقع في الماء في وجهه وهجم عليه عشرات منهم بحرابهم وسهامهم وظلوا يطعنونه حتى تهلهل جسمه وزهقت روحه .. »

وهكذا مات البطل العظيم افظع ميتة . مات ولم يحقق امله الذي ولد وعاش وتغرب وقاسى لأجله . مات قبل ان يصل الى نهاية الرحلة وقد صار منها على قاب قوسين . مات ولم يرجع ثانية الى بلاده الحبيبة ولم ير الفخار والعزة التي كانت في انتظاره . . بل ان رجاله عجزوا عن استرداد جثة رائدهم وزعيمهم ! . .

***

لم يبق من البحارة وقتئذ الا ١١٥ بعد ان كانوا في بدء الرحلة ٢٦٥ فاضطروا ان يشعلوا النار في احد المراكب ويغرقوه لقلة عددهم . واخذ سباستيان دل كانو مكان ماجلان ولكن هيهات ان يملاه . وسارت السفينتان الباقيتان ترينيداد وفكتوريا جنباً الى جنب تائهتين وسط المحيط الخضم مدة ستة اشهر . ومازال القدر الغاشم يعبث بهما فما لبثت ان قامت عاصفة هوجاء فغرقت ترينيداد وعليها ٥١ رجلاً

واخيراً وصلت السفينة الباقية فكتوريا الى جزائر ملقة ، جزائر الافاويه والثروة بعد اسبوعين حيث اكرمهم الاهلون كثيراً ولبثوا فيها بضعة اسابيع وهم لا يكادون يصدقون ان تلك الرحلة المروعة قد انتهى نصفها . وحملوا السفينة كل ما تستطيع حمله من توابل وبهارات وابتدأ الشق الثاني من الرحلة — شق الطريق الى الوطن

***

ولقد كانت رحلة السفينة فكتوريا حول النصف الجنوبي من الكرة الارضية — بعد أن اتمت الرحلة حول نصفها الشمالي في ثلاثين شهراً — من أعظم اعمال الملاحة البحرية التي قام بها الانسان في كل العصور

وأخذت السفينة فكتوريا تتهادى بحملها الثمين فوق مياه المحيط في طريقها الى الوطن الغالي وأعيدت المأساة مرة اخرى . فقد فسدت المؤن وتلفت لشدة الحر ووقع البحارة مرة اخرى فريسة الجوع القاتل . ولم يكن في وسعهم ان يأكلوا الفلفل الاحمر بدل الطعام او جوز الطيب بدل الخبز . واخذت حيتان البحر تتبع السفينة متلقفة ما يرمى من الجثث في البحر

وفي ٩ يوليو سنة ١٥٢٢ وصلت السفينة الهالكة الى سنتياجو في جزائر الرأس الاخضر (كايب فرد) التي كانت تابعة للبورتغال . وكان ذلك بعثاً جديداً لهم فأخذوا كفايتهم من المؤن وواصلوا الرحلة

ولم يكن قد بقي من السبعين رجلاً الذين ابحروا من جزائر الافاويه الا نفر يعد على اصابع اليدين فكان عليهم ان يبذلوا جهود الجبابرة لتسيير المركب بحملها الهائل .

وفي ٤ سبتمبر سنة ١٥٢٢ وصلت السفينة الى رأس سان فنسنت في أقصى الغرب من البرتغال وبعد يومين وصلوا الى سان لوكار حيث بدأوا الرحلة قبل ثلاث سنوات خلت . ورمى الرجال بأنفسهم على الشاطئ ، يقبلون أديم الارض ويعفرون بتراب الوطن وجوههم

وفي صباح اليوم التالي أبحرت السفينة فكتوريا نشطة سعيدة متجهة الى أشبيلية . وعند وصولهم اليها صاح الربان ان « أطلقوا المدافع جميعاً ! »

وكما أطلقوها مودعين الوطن قبل ثلاث سنوات ، وكما اطلقوها عندمر ماجلان محيين المحيط الهادي ، وكما أطلقوها مرة ثالثة ورابعة محيين جزائر الفيلبين ، أطلقوها مرة أخيرة محيين الوطن العزيز . ولم يكن لصوت البارود في آخر مرة شبيه في المرّات السابقة ولم يكن يعادله صوت الموسيقى الشجية والرفاق يهتفون بين دويها :

« لقد عدنا . . لقد عملنا ما لم يعمله احدٌ من قبل . . لقد درنا حول العالم »

واجتمعت ألوف من الناس ليشاهدوا الاعجوبة وليروا السفينة المباركة وشحنتها الهائلة وبحارتها الذين صيرتهم أهوال الثلاث السنوات شيوخاً هرمين

وكان اول ما عمل اولئك الابطال عند ما نزلوا أرض الوطن في اشبيليه ان ساروا صفاً واحداً في خرقهم البالية الى بيت الله حيث ركعوا خاشعين شاكرين مترحمين على رئيسهم البطل ورفاقهم الشجعان

وبلغت أخبار تلك الرحلة جميع أنحاء أوربا . ولم يدهش العالم (المعروف وقتئذ) او يعجب بحدث [illegible] تحقيق هذه الرحلة [illegible] إعجابه بأبطالها واثبتت أعظم الشكوك الجغرافية في ذلك الوقت وصدق الجميع ان الارض كروية

***

ولن ينسى التاريخ ماجلان اول بحار اخترق عمر ماجلان . لن ينسى التاريخ ذلك الشاب الاعرج الذي برهن العالم الى اي مدى يصل بالانسان عزمه . ماجلان الذي اصبح المثل الاعلى للشجاعة الخارقة والعزم الراسخ . ماجلان الذي مات قبل أن يرى ثمار عمله . ويرى رأسه مكللة بأكاليل الغار

[محمد سعد فوزي]

مختارات

من الشعر الرائع

للشاعر الفرنسي بودلير Baudelaire

١ — الجمال

أنا جميلة أيها البائدون كأنني حلمٌ حجري .
وصدري ، حيث يغني كل واحد عنهُ خائباً ،
انما صنع ليلهم الشعراء ،
حبّاً أزليّاً صامتاً صمت المادة الابدية !

انني أستوي في السماء كتمثال مبهم ، لا يُفهم .
أجمع قلباً بارداً الى حلة الطيور البيض .
أكره الحركة التي تغير الملامح وتبدل الخطوط(١)
ولن أبكي ولن أضحك أبداً .

والشعراء — ازاء اوضاعي السامية —
التي كأني اقتبستها من اكثر التماثيل زهواً وكبراً ،
هؤلاء الشعراء سينفقون ايامهم في دروس صارمة (٢)

لان لدي — كي يجتذب نفوس هؤلاء العشاق الودعاء —
لدي مرايا صافية ، تجعل كل شيء ينعكس فيها وهو أتى جمالاً .
هذه مرايا عينيَّ ...
عينيَّ الواسعتين للمعات الازلية .

---

(١) رمز لعدم الاحساس في القلب البارد ، والصفاء في لون الطيور . وهو يطلب ازاحة كل ما يتعلق بالحياة ، لأن الجمال — عنده — أسمى يفوق الحياة

(٢) لان عشاق الجمال الحقيقيين لا يستطيعون انفصالا عن درس اعماقه

٢ — انشودة للجمال

هل انت تهوي من السماء العميقة او تخرج من الهاوية ؟
ايها الجمال !
ان نظرتك الجحيمية والالهية تنشر - - بلا نظام — الجريمة والاحسان .
انك لتشبه الخمر فيها اثم كبير ومنافع للناس .

أتخرج انت من الهوة السوداء أو تنحدر من بين النجوم ؟
والقدر المفتون يتبع هُدّاب ثيابك.
وأنت تغرس — غرساً أعمى — الافراح والنكبات .
تسيطر على كل شيء ، ولا تسأل عن شيء .

وتمشي — ايها الجمال — على اموات تسخر منهم .
وليس الهول بأقل فتنة وحسناً من حليك وزخرفك والقتل — بين تحفك القيمة —
يرقص بهوى على صدرك المتكبر !

ما همي — اذا كنت مقبلاً من السماء او الجحيم ! —
أيها الجمال ، أيها المسخ العملاق الباعث على الهول ، السليم القلب
ما همي اذا كانت عينك وابتسامتك وقدمك تفتح لي باباً من — لانهاية —
وحبها وما عرفتها ابداً

ما همي — ان كنت رسول شيطان او آله ؟ املاكاً ام ساحرة !
ما همي — اذا كنت ياذا العينين المخمليتين ،
أيها الايقاع ، أيهذا العبق المنشور ، أيهذا الشعاع المسحور .
يا سلطاني الوحيد

ما همي ما دمت تجعل في ناظري هذا الوجود أقل قبحاً ،
وهذه اللحظات اقل ثقلاً على نفسي

٣ — سمو

فوق الغدران والوديان والجبال
والغابات والغيوم والبحار . . .
واقصى من الشمس ، واقصى من الاثير .
وأبعد من تخوم العوالم المكوكبة . . . .

تتحركين يا روحي برشاقة
وتنفذين — بغبطة — الى الفضاء العميق ، ولذة هادئة نشيطة كسباح ماهر ينتعش في الماء

ألا ارتفعي بعيداً عن هذه الاجواء الموبوءة
وتطهري في الجو الاسمى .
وارشفي — كشراب صافٍ إلهي —
النار اللامعة السنا ، التي تملأ الآفاق الساطعة .

وراء العجز والهموم الكثيفة
التي تنوء المادة البخارية بأثقالها .
سعيد ذلك الذي يقدر — بجناح قوي —
إن يغتدي الى المروج الزاهية النقية .

ذلك الذي تحلق أفكاره كالقبّرات
يصعدن بحرية في الفجر نحو السماوات .
ذلك الذي يشرف على الحياة ،
ويدرك — دون جهد — لغة الازهار والاشياء الخرساء .

* * *

٤ — رسالات

الطبيعة معبد يضم دعائم حية
يخرج منها في بعض الاحيان كلمات مبهمة .
هنا يمر الانسان بغابات من الرموز التي تنظر اليه نظرات أنيسة .

الطيوب والالوان والالحان
تتجاوب كالاصداء الطويلة التي تمازج بعيداً
في وحدة عميقة مظلمة واسعة كالليل وكالضياء .

هنالك طيوب ندية كابدان الاطفال الغضّة .
عذبة كالمزامير ، خضراء كالمروج .
وطيوب فاسدة غنية قوية !

تبيح اسرار الاشياء اللانهائية .
كالند والمسك والبخور واللُبان ،
التي تتغنى باهاجة الروح والحواس .

* * *

٥ — الغريب

— لمن حبك الاكبر ايها الرجل المبهم ؟
ألأبيك ام أمك ، ألاختك ام أخيك ؟
— لا أب لي ولا أم ولا أخ ولا أخت !
ألأصدقائك ؟
انك تلهج بكلمة لا يزال معناها عندي مجهولاً حتى الآن .
ألوطنك ؟
اني اجهل على أية فئة يقوم هذا الوطن ؟
— ألجمال ؟
— سأحبهُ بارادتي كالاهة خالدة !
— ألذهب ؟
— أبغضهُ كما تبغض الاله .
— ما ذا تحب اذاً أيها الغريب ؟
— أحب الغيوم . . . الغيوم التي تسمى ! . . . هنالك . . .
هنالك . . . الغيوم المذهلة .

[نقلها : خليل هنداوي]

بطرس وما صنع

التربية والثقافة في بلاد هؤلاء الغربيين الذين ناطحوا السحاب علماً وحضارة انما تبدأ مع الرضاعة ، ويتكفل بها كل من أعدته وظيفته لذلك من اب وأم ومعلمين وكتاب ، كأن بينهم على ذلك عهداً وإلا ، ليس أحد منهم يغفل عن إداء حصته الواجبة ، وقسطه المنوط بذلك . ولتجدن الناشيء يحاط بهذه التربية وهذه الثقافة، طفلاً ويافعاً من كل جانب ، وفي كل موضع وجيت فيه وحقت . فهي في البيت ، وهي في المدرسة ، وهي في الحياة العامة ، وهي في الكتب والمجلات والصحف

أما الصحف والمجلات فقد أخرجت لهم صحف ومجلات خاصة بهم موقوفة عليهم ، تثقفهم بالحكاية والقصة والنادرة ، وتفكهم بألوان من النقش والتصاوير ، حتى ان بعض الصحف الكبيرة مثل « الماتان » في فرنسا تفرد جانباً من صفحاتها أياماً من الاسبوع، تتحفهم بالفكاهات ممثلة بتصاوير مضحكة على أشكال الحيوان والطير

أما الكتب ، فجميع كتب التعليم والدراسة قد استقصت ذلك بشكل عجيب ، وأتت منه بكل فن غريب . ونجد الشعراء ينظمون مقطوعاتهم وقصائدهم في كثير من مناحي التهذيب والتقويم مما ينفث في نفوس النشء . وأعضاء الاسرة كل معاني القوة وغرّ الاخلاق، بل ان منهم من عُرِف بضرب من الشعر والادب هو شعر وأدب الطفولة ، من ذلك الشاعر المشهور جان إيكار (Jean Aicard) ، فقد خصّ جانباً من أدبه البارع الفائض ، بالاطفال . وبجانب ما كتب وألف ، دبج للاطفال ما دبج ، ومثله فرنسوا فابييه (François Fabié) وأوجين مانويل Eugène Manuel وأشهرهم في ذلك جان ايكار فله كتاب الاولاد (Le livre des petits) وأغنية الطفل (La chanson de l'enfant) . كل أولئك جمع منثورهم ونظيمهم فأوعى ، من كل ما يثقف ويهذّب ويطبع نفوس الاحداث على الهمة والاقدام والتضحية ومحبة الوالدين والوطن ، والتولع بالدرس والعلم ، وما الى ذلك من سائر أخلاق الرجولة التي بها نجاح الفرد في الامة ، والامة في سائر من فطر ربك من خلقه

ومجلة المقتطف الغراء وهي أم مجلات الشرق أجمع ، ومكانتها ما تعلم من نشر العرفان والآداب وضروب الثقافة ، ومحاسن الاعراق ، كما تراها تحفل بنشر كل ما ينهض بالامة من ناحية تقويم الاسرة ، وتهذيب الطفولة وتثقيفها ، جديرة بأن

تفسح لنا شيئاً ما من صفحاتها الغر ، لنشر هذه المنظومة البارعة من نظم الشاعر جبران ابكاريوس ، فانها من جهة ، مثل مشرق على ما قدمنا من القول ، ومن جهة أخرى قطعة من الخلق القويم العالي الذي يحب ، ونحب مجلة المقتطف الزهراء ، ان يتحلى به آباؤنا وفلذات أكبادنا ، رجال المستقبل لهذا الوطن العزيز الكريم

الى قراء المقتطف الافاضل ترجمة هذه القصيدة البديعة :

— بطرس وما صنع —

هذا ما صنع بطرس اذ كان حدثاً ناشئاً

قال لي ، كان أبي ملاحاً مسافراً ،

نائياً عنا مراراً ،عاماً أجمع ....

(انما اكرر عليك ما قال لي بطرس)

رأيت أمي في ليالي الشتاء غالباً

تبكي ، مطبقة الجفنين ، تنصت الريح بأذن مرهفة

— فقلت لها : «ما بالك يا أماه قد اسبلت عينك ؟

— فقالت : «أواه ! ياولدي . الله يحفظنا ويرعانا !

ذلك لاكون احسن نظراً في باطني . قال : وما ترين في باطنك ؟

— قالت : سفينة مائلة تتلطمها أمواج صاخبة ،

تحمل اباك في وجه هوجاء عاصفة .

حينئذ أدنت مني وجهها تقبلني .

أما انا فقلت لها في أذنيها هامساً ،

«أريد اراه مثلك ، ولن تجديني باكياً

* * *

وعاد ابي ، وافرحتاه وواجذلا !

نسيت أمي ما عانت من آلام النية .

ولكنى كنت لا أفتأ أتمثل ليالي الشتاء ،

اذ الريح تذكرني بالمدان يخضن البحار .

وكان أبي اذا هم بالخروج ولو ساعة ،

يقول أسيفاً : «ها إن بطرس يبكي ! » .

حينئذٍ كانت أمي بين ذراعيها تضمني :
وأبي أحياناً من تأثر لا يخرج .

* * *

فذات ليلة وكنت أبدو في إغفاءة الكرى
كانت امي وابي ، بعد العشاء خلا الحديث لهما
فقال ابي : « غداً السفينة تقلع ،
« رحلة بعيد ولكنها في بعض الثغور تنزل ،
« وهناك أكتب اليكِ فاهدإي بالاً وترقبي .
« اما بطرسُ فطيب ، ولكنهُ شديد الضعف رقتهُ بالغه ،
اني لا احب هذي الدموع ، وذا العويل ، وذا الحزن الشديد .
ان اولاد الملاحين لا بد تكون نفوسهم أشد صلابة من الحديد !
يشق عليَّ ان أغادر غلاماً في سنه
دون ان أقبّله ، لئلا تخذلهُ شجاعتهُ
اني أريد أراهُ رجلاً لدى عودتي !
لو يعلم اني الغداة وجه النهار أسافر ،
لشد ما يحزن ! أروم الشخوص وهو في رقاده غارق . »

* * *

بمثل ذلك تكلم أبي ، وكنت أرهف مسمعي .
لا أنكر انهُ ذميم مني تسمّعي ،
ولكن ما افدتهُ من ذا بعض العذر يكسبني
ذلك إني قلت لنفسي : « كن ذا نفس قوية يا بطرس ! »
وفي الغداة حين فتح الباب أبي ،
يدلف على اطراف قدميه الهوينى ، الهوينى ،
ألفاني لدى عرض الباب راقداً مستلقياً ،
فوق طنفسة للكلب ، كلانا جنباً الى جنب ،
فأفقت . وأقبلت أمي ؛ أما أنا فنهضت عالي الرأس مفاخراً ،
هاءنذا لا أبكي ! اني رجل ، فانظر يا أبي ! . . . »
فكان هو أبي ، هذه المرة الباكيا .

[نقلها : احمد أبو الخضر منسي]

الى الابتسام الهاجر

[نموذج من الشعر الهندي]

ان عالم الحب عالم مستقل ذوعرف واصطلاح ورموز خاصة لا يعرفها الا من عانى الحب من صميمه . فالتكرار في جرعات الحب أو ما يرمز اليه اكثر لذة واستحسانا فيه من الجدة والطرافة في غيره

بالامس !

طأطأ قلبي رأسه[1] العزيز لسلطان جمالكِ
وخاض مخاطراً لجج أشعتكِ اللامعة
فوُلد بهِ في عالم لم يك يعرفهُ
وتقمّص بهِ حياة لم يدرك شؤونها
فكنفتهِ كنف الطير فرخه
واسبغتِ عليهِ حنانكِ اسباغَ الأم حنانها على الطفل
فكنتِ تغذينَ شعوره الحديث بتلألؤ جمالكِ حيناً
وتداعبينهُ وتسلينهُ في كآبة انفراده بالتصويت والتصفير طوراً
فكان يتدلل عليكِ ويتغنج
ويجد في عطفكِ برداً وسلاماً من مفاجأة الهوى المضرمة
وفي حنانكِ سبباً للحياة والسعادة
فكنتِ كالمغناطيس المصوَّب اليهِ
ينجذب وينسحب اليكِ من حيثما حلَّ وأينما رحل
نعم ! من حيثما حلَّ وأينما رحل !

---

(١) طأطأ رأسه لفلان اي خضع له

فان المحب قد يعود بُشجح محبوبه أو لا يعود
ولكن سهم المحبوب متى ابتغى المحبَّ لا يخطئه

***

طأطأ عطفك بنان (١) قلبي
ليُحضر في مرج نورك الزاهي
وليتنعم في حديقة جمالك الباهر
فغدا يرتع به منطلقاً في جنةٍ عالية
يشع فيها ضوءك قطوفاً دانية
لا ترى فيها شمس ولا زمهرير
تسقى فيها كؤوس روائك السلسبيل
فأي نعيم أعظم من الذي أتى على غير انتظار
ما دامت الدرة اليتيمة لا تبحث بل تُبحث
وأي سعادة أكبر للقلب من هاته السعادة
ما دمت مسبغة عليه ما يتمناه
فان أسعد الحياة للسمك ليس الا في الماء
وأطرب الانغام لديه وأعذبها ان هي الا طبطبة الامواج او خرير المياه

***

طأطأت ستر القرابة (٢) لقلبي من وجهك الصبيح
ورنوت اليه بعينيك النجلاوين الساحرتين
فأفك به من أسر العقل
وانطلق من كبل التفكير
يخوض غمار الشعور طليقاً
ويجوب آفاق السحر حراً
يتنعم بحرية لم تخطر بباله
لا في أسر العقل ولا في كبل التفكير

(١) طأطأ يده بالبنان اي ارسلها به للاحضار (٢) طأطأت المرأة سترها اي حطته

نعم ! « تجربة » ولدها الحب وربّاها الجمال
فهي منية الدرك للعقل ووعرة الملتمس الفكر
هي مزيج حلاوة الجمال ومرارة الحب
ورحيق الضدين المجتمعين المرتفعين
ليت أهل الحكمة والمنطق كانوا عشاقاً وشعراء !
ليتهم جابوا فلوات الجمال ، وخاضوا بحار الشعور ، وتسوّروا شرفات الحب
فعرفوا تفاهة قوانينهم العقلية وخسة مباديهم المنطقية
ان في الحب يتحد الضدان ويندمج المتباينان
إنهُ واحد واثنان في آن واحد
إن في قطبيهِ يجتمع الفناء والبقاء
ففي أحد طرفيهِ تتميز شخصيتكَ فتقول : « ها أنا ذا »
وفي آخرهما تنعدم شخصيتُكَ فتقول : « لا أنا إلاّ أنتِ »
إن الحب ملتقى الخسارة والمنفعة
فالمحب يسلم نفسهُ كابي الزند [1] للحب
ليتسلمها واري الزند [2] في الحب
نعم ! الحب عالم يصعب الارتياد للعقل وأبيّ القياد للفكر
لان مدى العقل معرفة الصفات
وأما مدى الحب فالاتحاد بالذات

❊❊❊

طأطأتِ الركض في ثراه حياتك [3] لي
فجسّمتِ بهِ في القلب الاماني
وحررتِ العواطف من أسر الركود
وخلقتِ للحياة قيماً جديدة لم تهجس في الضمير
فعلمتُ ما لم أعلم وشعرتُ بما لم أشعر

(١) أي خاسراً (٢) اي ناجحاً رابحاً (٣) طأطأ الركض في ثراه اي أسرع اتفاقه وبالغ فيه

إن مصدر الحب بين القريبين الصلة والدم
ومنبع الحب بين الجنسين العاطفة والشعور
يستظل الاول بالماضي
ويورّف الثانيَ الحال
هو كالنار في الزند
إذا قدحت أحرقت ما حولها من التالد والطارف .
كنتُ بالأمس فاتح القلب لغيرك
واليوم أنا موصد القلب لغيرك
وبالامس كنت بريئاً منك لهم
واليوم أنا بريء منهم لك
بالامس رتعت في براءة الصغر
واليوم أمرح في براءة الحب

***

طأطأتْ نضرتُك في بذر الحبّ [1] في قلبي
وسقاه رواؤكِ وغذاه نور عينيكِ الساحرتين
فأصبح كجنة بربوة أصابها وابل فآتت أُكُلها ضعفين
رباه ! ما هذا الوجود ؟
فانه منذ حل القلب لم يعد السكون يزن به شيئاً
كلما طلع طلوعَ الشمس من برجها على أفق قلبي المظلم
طرب القلب على اوتار أشعتها
طرْبَ المِضراب لنغمة الحب العاشقة
وقدرَ حركة الطرب فيه ونشاطها
حل العينَ من سحره سُكرُ الحيرة سكونها

(١) طأطأ في الامر اي اشتد وبالغ فيه

حقاً وصفهُ عباد جنج في اسطورة (١)

انه خلاصة الكون

ولباب الجمال فيهِ

كم شيء خاض الشعور قعرَه

وهزَّ الحياة قرارها

فاتشح الاسطورة او ارتدى القصة

انهما دليلا الادراك الى الحقيقة المحجوبة

واحسرتاه ! قلبي يحترق شوقاً اليك

والعُرف يحول دون الوصول اليكِ

كم قلوب دامية قدمت قرباناً لإلاهة التقليد !

كم أكباد رطبية أعدمت تقديساً للعرف !

ان كل كاس شربتها من روائكِ على متن الاثير

أضرمت شوقي وزادت غلتي

ان نور الشمس يرد نظري كليلاً وخاسئاً

ولكن نور محياك يزيد بصري حياةً وشوقاً

نظرة الى الشمس تغنيني عن الثانية

ونظرات اليكِ لا تبرد لوعتي بل تزيدها

انها جلال وانتِ جمال

ان الجلال رمز العدل والنظام في الكون

والجمال باعث الحياة والنشاط في الروح

[السيد ابو النصر أحمد الحسيني الهندي]

(١) جنج اسم نهر كبير في الهند يقدسه اتباع الدين البرهمي . وخلاصة الاسطورة عندهم هي ان الاله « توشتري » حين أراد خلق المرأة بعد نفاد مادة الخلق في تكوين العالم وصياغة الرجل بذل جهده في التماس الحيلة الى ذلك حتى اهتدى الى ان يجعلها شيئاً من كل شيء . فصاغها من استدارة البدر ، وجمال هالايا ، وقداسة جنج ، ونضارة الزهرة ، ولطافة النسيم ، ورشاقة الغصن ودموع الغمائم ، وهديل الحمائم ، ولحظات الشادن ، وقسوة الاسد ، وبهجة الطاؤس ، والتواء الافعى ، ثم قدمها الى الرجل فكانت سحراً لناظره ، وفتنة لخاطره وحيرة لنفسه

البعث الالماني

وبدء الانهيار في تسوية الحرب الكبرى

[عالجنا في هذا الباب طائفة كبيرة من كبار المشكلات السياسية العالمية ونحن نقف اليوم هنيهة لكي نلخص لقرائنا تيار الحوادث الاوربية في السنوات الخمس الاخيرة لتكون بمنزلة هيكل يضعون فيه كل مقال من مقالات هذا الباب في محلها . واعتمادنا في هذا التلخيص على كتاب لاستاذ السياسة الدولية في جامعة ويلز عنوانه : « العلاقات الدولية بعد معاهدات الصلح »]

في اليوم السابق لليوم الاخير من شهر يناير سنة ١٩٣٣ قلّد الهر أدولف هتلر رآسة وزارة المانية، ثلاثة من أعضائها نازيون وثمانية وطنيون . وحلّ الريخستاج لاجراء انتخابات جديدة

كان الحزب النازي قد أحرز ٢٣٠ مقعداً في الانتخابات السابقة التي تمت في شهر يوليو سنة ١٩٣٢ فغدا بها أكبر حزب في المجلس ولكنهُ لم يكن حزب أكثرية . ولذلك عقد أمله على احراز الاكثرية في الانتخابات التالية . ولكن حدث في يوم ٢٧ فبراير — وكانت الانتخابات قد أصبحت وشيكة — ان شبّت النار في دار الريخستاج في أحوال يحيط بها الخفاء والريب . فاتخذ هذا الحادث وسيلة لمطاردة الشيوعيين ومن قيل انهم شيوعيون او يعطفون على الشيوعية ، وقد تمّ بعض هذه المطاردة على أيدي البوليس ومعظمها على أيدي قوات غير نظامية مرتدية رداء النازي البنّي. وأسفرت الانتخابات عن زيادة أعضاء النازي في الريخستاج الى ٣٢٢ . ومن ثمّ اشتدّ اضطهاد اليهود والدمقراطيين الاشتراكيين والشيوعيين وأخذت طوائف كبيرة منهم من دورهم الى معتقلات خاصة حيث قست السلطات في معاملتهم . واغتيل كثير منهم ولم يبذل سعيٌ لمحاكمة مغتاليهم . ولقيت الاحزاب الاخرى التي وجه أعضاؤها نقداً الى الدكتاتورية الجديدة ما لقيهُ غيرها . فما انتصفت سنة ١٩٣٣ حتى كانت جميع الاحزاب غير النازية قد حلت وغدت وظيفة الريخستاج ان يلتئم حيناً بعد حين للموافقة على أعمال الزعيم

وخطته . فلما توفي الرئيس هندنبرج في شهر أغسطس من سنة ١٩٣٤ جمع الهر هتلر بين رآسة الدولة ورآسة الحكومة ووافقت البلاد على ذلك في استفتاء عام بأكثرية كبيرة

***

هذا في تطوّر الحالة الداخلية في المانيا ، اما في حلبة السياسة الخارجية فقد كانت تصريحات الحكومة الجديدة مما يبعث على الطمأنينة . فقد أعلن الهرهتلر انهُ لا ينوي تنقيح تسوية الحرب العالمية بالقوة ولكن الذين اطمأنوا الى هذه التصريحات نسوا انهُ ندَّد تنديداً شديداً — في كتابهِ «كفاحي» الذي الفهُ سنة ١٩٢٤ وغدت نسخهُ المتداولة تعدُّ بالوف الالوف في المانيا — بفرنسا. فقال انها عدوَّة المانيا التي يجب سحقها ، وطالب بضم جميع الاقليات الالمانية المتفرقة وراء حدود المانيا الى الريخ الثالث وادماجها فيهِ ، ونظر الى شرق اوربا على انها مجال واسع للاستعمار الالماني . يضاف الى ذلك ان تسلُّح المانيا الذي كان سريًّا حتى ذلك العهد ، زاد سرعةً ونشاطاً وغدا يتمُّ جهاراً ، وشرعت المانيا في انشاء سلاح جوّي ، كان في انشائه كل معنى التحدّي للمواد العسكرية في معاهدة فرساي . الاَّ ان الهر هتلر ابدى في ناحية التسلُّح البحري كثيراً من ضبط النفس لاعتقادهِ ان الخطأ الاكبر الذي ارتكبتهُ السياسة الالمانية قبل الحرب الكبرى انما كان تنفير بريطانيا العظمى وتحويلها الى ناحية العدوّ

ووقع الانقلاب النازي موقعاً عظيماً في نفوس الشعوب المختلفة ، فتبرم فريق من الناس بما كان يروى عن اعمال الاضطهاد والقسوة الجارية في المانيا . وشعر فريق آخر بقلق عظيم مما تحوية في بعض الاعمال والاتجاهات من تحدٍّ للتسوية التي عقدت في سنة ١٩١٩

وكان الشعور الاول غالباً على بريطانيا واميركا ، فتفوَّق فيهما شعور الغضب مما يتمُّ على شعور الخوف مما يتوقَّع ، فلم تتغيَّر خطتها نحو المانيا تغيراً يذكر . اما في روسيا وايطاليا ، حيث انشئ النظام القائم فيها بأساليب لا تختلف كثيراً عن اساليب الدكتاتورية الالمانية ، فلم يكن ثمة مكان للغضب والتبرم بهذه الاساليب ، وانما غلب عليها شعور الخوف من عواقب ذلك ، فعمدت كل منهما الى تغيير الاتجاه في سياستها الخارجية

وسنبين في ما يلي من الصفحات تأثير الانقلاب النازي في تغيير الاتجاهات السياسية في طائفة من دول اوربا

* * *

بولندة وروسيا

وقد كان التغيير الاول اتجاهاً الى التفاهم . فرجال الصحافة والسياسة يعلمون ان « الحب المفقود » بين بعض الدول كان على أشدِّهِ بين المانيا وبولندة . فالمجاز البولندي الذي كان سبيل

بولندة الى بحر البلطيق ، فصل المانيا عن روسيا الشرقية فكأنهُ فصل عضواً حيوياً عن جسم حيٍّ قائمهُ ، ومكّن للالمان الاعتراض والشكوى مرّ الشكوى من معاهدة فرساي . وكان في بولندة — ولا يزال — اقلية المانية فلم يكن هناك اقلية في اوربا اعظم منها شكوى واكثر شكاية الى عصبة الامم ولم يعرف في العقد الاول من حياة العصبة ان مسألة عرضت على المجلس اكثر من مسألة مدينة دانتزج حيث توارت اسباب النزاع بين هذه المدينة الالمانية التي جعلت « مدينة حرّة » وحكومة بولندة التي منحت بعض حقوق في صلتها بها . وما كاد الانقلاب النازي يتم في المانيا حتى حدث نزاع خطير إذ أنزلت بولندة نحو مائتي أسرة بولندية في مكان من مرفإ دانتزج بغير تصريح من حكومة المدينة

ومع ذلك لم تكد تمضي بضعة اشهر على تقلّد الهر هتلر لازمة الحكم ، حتى تمّ التقارب بين بولندة والمانيا وفي يناير سنة ١٩٣٤ وقبيل الاحتفال بعيد هتلر الاول وهو في دست الحكم عقد ميثاق الماني بولندي ، كان من أثره تحويل الاتجاه في سياسة بولندة الخارجية تغيراً تاماً ، وتعديل التشكيل السياسي الدولي في شرق أوربا . ولا يخفى ان ذلك الميثاق كان ينطوي على عهد بعدم الاعتداء مداه عشر سنوات . وكان من النتائج التي أسفر عنها ذلك الميثاق ، توقف الصحف الالمانية والبولندية عن التراشق بالكلام الناري — بعد ان دام ذلك خمس عشرة سنة — وزالت المشكلات الخاصة بالاقلية الالمانية في بولندة ومدينة دانتزج من برنامج عصبة الامم

فكيف تمّ هذا الانقلاب ، وما الباعث عليه ؟

***

كان الهر هتلر قد أحدث هزّة عنيفة في العالم الغربي ، فكيف يتلافى ذلك ويصحّح الميزان؟ أيجدّد خطة رابالو القائمة على التعاون مع روسيا، وكيف يكون ذلك في وسعه أزاء خطته في سحق الشيوعيين في المانيا ؟ إلاّ ان الخوف من الانعزال في حلبة السياسة الدولية خوف كبير ويضاف الى ذلك انهُ كان قد قرّر في نفسه — ولعلّ أصلهُ النمسوي كان ذا أثر في اتخاذ هذا القرار — بان التوسع الالماني الاول يجب ان يتمّ في ناحية النمسا . واذن فالعوامل السياسية جميعها تدل على وجوب عقد هدنة مع جارته الشرقية. فابتاع صداقة بولندة بتعهده أن يمتنع عن اي عمل ضدّها مدى عشر سنوات

وكانت البواعث التي حملت بولندة على التقرب من المانيا قوية كذلك . ذلك بأنه كان قد انقضى عليها خمس عشرة سنة وهي قائمة كأنها على تناد بين دولتين كبيرتين متنافستين . وكانت حليفتها الوحيدة — فرنسا — بعيدة عنها . بل ان فرنسا نفسها كانت قد بينت بعقدها معاهدة لوكارنو (١٩٢٥) ميلها الى تغليب شؤون سلامتها على مصالحها البولندية . ثم كانت قد جرحت

بولندة في عزتها عند ما وافقت على عهدة الدول الاربع التي اقترحها موسوليني سنة ١٩٣٣ على اساس اشتراك الدول الاوربية الكبرى فيها وهي انكلترا وفرنسا والمانيا وايطاليا . ومع ان العهدة لم تصب نجاحاً ما الاَّ انه كان من عواقبها بذر بذور الشقاق بين فرنسا وبين حليفاتها التي رأت في قبول فرنسا لها تضحية بكر امتهن على مذبح الرضى الايطالي . يضاف الى هذا ان بروز المانيا ثانية في الميدان ، دولة قوية عزيزة الجانب ، جعل فائدة العون الفرنسي للدولة البولندية في الوقت الموافق امراً صعباً ان لم يكن متعذراً . وكذلك رأت حكومة بولندة ان مصلحتها تقضي بأن لا تقف موقفاً يثير عداء جارتيها ، فعليها ان تختار صداقة احداهما فاختارت الدولة التي حسبتها اقوى من الاخرى ، وأجدر بالاعتماد عليها — نعني المانيا . نعم ان الميثاق البولندي الالماني كان موقوتاً بعشر سنوات ، ولكن من طبيعة هذه الاتفاقات ان تستمر اذا استطاعت الدول التي تعتمدها ان تحترمها وتنفذها تنفيذاً صادقاً مدى عشر سنوات

***

أما في روسيا السوفيتية فلا يسعنا وصف تأثير الحالة الجديدة فيها الاَّ بالرجوع قليلاً الى ما قبل ذلك العهد . ففي سنة ١٩٢٧ كانت الحكومة الروسية قد أنشأت صلات رسمية مع جميع الدول الكبيرة ما خلا الولايات المتحدة الاميركية . وفي تلك السنة ظهر مندوبو روسيا في جنيف وعلى الرغم من صب جام نقمتهم ونقدهم على العصبة ، اقتفوا آثار الحكومة الاميركية في التعاون مع العصبة في الاعمال الاقتصادية والانسانية والخاصة بنزع السلاح . فحضروا في تلك السنة مؤتمراً اقتصاديًا في جنيف واللجنة التحضيرية لمؤتمر نزع السلاح . وفي تلك السنة ظهرت خطة ستالين القائمة على تحقيق «الاشتراكية في دولة واحدة» على خطة الثورة العالمية . ووضع مشروع السنوات الخمس الاول . وشرع في تنفيذه في أول اكتوبر من سنة ١٩٢٨ فكان معنى هذا ادخال عنصر من «رأسمالية الدولة» على النظام السوفيتي وهذا يعني تغليب مصالح الدولة العملية على المبادىء النظرية للثورة الشيوعية . فلما أنشئت العلاقات الرسمية بين روسيا وانكلترا في عهد وزارة مكدونلد الثانية سنة ١٩٢٩ بدا لمتتبعي الحالة الدولية انهُ لم يبق أمام روسيا الاَّ التفاهم مع الولايات المتحدة الاميركية والانتظام في عصبة الامم حتى تصبح عودتها الى مجامع الدول كاملة بعد ان ظلت مقصيَّة عنها منذ ثورتها في سنة ١٩١٧

وانقضت ثلاث سنوات لم تتقدم فيها روسيا الى تحقيق احد هذين الغرضين تقدماً يذكر. ولكن عقدت حكومة موسكو في صيف سنة ١٩٣٢ مواثيق عدم اعتداء مع ايطاليا وفرنسا . ثم حدث في الربع الاول من سنة ١٩٣٣ ان تقلد الهر هتلر ازمة الحكم في المانيا ، وخرجت اليابان من

العصبة فكان لهذين الحدثين الخطيرين اثرهما في توجيه سياسة روسيا الخارجية . فشهد العالم في صيف سنة ١٩٣٣ تقرباً سريعاً بين روسيا وفرنسا اساسه الخوف المشترك من المانيا . وتلا ذلك ظهور مقالات متعددة في الصحف الروسية ، تنطوي على معنى المقاومة والتنديد بتنقيح المعاهدات القائمة . وفي الوقت نفسه حدث التقرب بين روسيا والولايات المتحدة الاميركية وأساسهُ خوفهما المشترك من اليابان . فذهب الرفيق لتفينوف في شهر نوفمبر من سنة ١٩٣٣ الى وشنطن العاصمة وقطع نيابة عن حكومتهِ العهود الوافية بالامتناع عن بث الدعاية الشيوعية في اميركا ومنح الاميركيين المقيمين في روسيا حرية الشعائر الدينية . وعندئذٍ اعترفت الحكومة الاميركية رسمياً بحكومة السوفيت . وكذلك تمكنت السياسة الروسية كسب صداقة دولتين ، قد تكونان ذات فائدة في علاقتها بألمانيا من ناحية واليابان من ناحية اخرى

ولكن فرنسا اصرّت على وجوب تقدم روسيا للانضمام الى عصبة الامم . فعقدُ ميثاق روسي فرنسي ، يكون ولا ريب متسماً بسمة المحالفات السياسية السابقة للحرب الكبرى اذا ظلّت روسيا غير عضوٍ في جامعة جنيف . وقد يثير مقاومة بريطانيا له . فالمصلحة المشتركة في الدفاع المشترك ضد اي اعتداء الماني ، يجب ان يفرغ في قالب الانتظام في عصبة الامم . وفي شهر يوليو من سنة ١٩٣٤ اقنعت فرنسا كلاً من انكلترا وايطاليا بوجوب السعي لاقناع اعضاء العصبة بتأييد انتظام الاتحاد السوفيتي فيها . وفي اجتماع الجمعية العمومية الذي عقد في شهر سبتمبر من تلك السنة ، قبلت روسيا عضواً في العصبة ولم يقترع ضد انتظامها فيها الا سويسرا وهولندة والبورتغال

في هذه الحالة احتاطت بولندة لنفسها ضدّ روسيا باتفاقها معها، على امتناع موسكو عن تأييد أي عمل تقوم بهِ الاقليات الروسية في بولندة كتقديم العرائض الى مجلس العصبة للنظر في أمرها . وأعلنت في الوقت نفسهِ انها عادت لا تعترف بحق العصبة ان تعنى بمسألة الاقليات المختلفة في بولندة . وهذا نقض فعلي لمعاهدات الاقليات التي وضعت بعد الحرب وكانت بولندة من الدول التي قبلتها

إلاَّ أن ضمان السلامة الذي أصابتهُ روسيا من انتظامها عضواً في عصبة الامم ، لم يكن كافياً لطمأنتها من ناحية المانيا . وكذلك مضت حكومتها في سعيها الى عقد اتفاق مباشر مع فرنسا . وكانت فرنسا حينئذٍ غير راغبة في ردّ هذا السعي ردّاً باتاً. فأكدت لروسيا ان انكلترا لا تعترض عقد ميثاق لضمان السلامة بين فرنسا وروسيا على شرط أن تدعى المانيا للاشتراك فيهِ ، على أن يكون هذا الميثاق من قبيل معاهدة لوكارنو ، أي مما يمكن تطبيقهُ على المعتدي سواء أروسيا كانت المعتدية أم المانيا . وكذلك أعدّت الحكومتان الروسية والفرنسية مشروعاً يعرف باسم « الميثاق

الشرقي » أو « لوكارنو الشرقية » وأهم ما ينطوي عليهِ التعاون المتبادل بين روسيا وفرنسا ضدّ اعتداء المانيا من جهة والتعاون المتبادل مع المانيا ضدّ المعتدي منهما عليها من جهة ثانية . وبدا للمطلعين على قواعدهِ ان فيهِ ما ليس طبيعيًّا اذ كان يصعب على الذهن ان يتصوَّر احوالاً تفوز فيها المانيا بمعونة فرنسا ضدّ روسيا او بمعونة روسيا ضدّ فرنسا . ومع ذلك فقد وافقت الحكومة البريطانية عليهِ في فبراير سنة ١٩٣٥ وعرض هو ومقترحات اخرى على الحكومة الالمانية. فاعترضت المانيا عليهِ اعتراضاً كان بمنزلة الرفض . وقد كان موقف المانيا هذا هو الموقف المتوقع منها في موسكو وباريس . فاغتنمتا هذه الفرصة ووقعتا ميثاق التعاون المتبادل المشهور باسم الميثاق الفرنسي السوفيتي . وقاعدتهُ التعاون المتبادل بينهما اذا هاجمت احداهما دولةٌ اوربية ثالثة. وكذلك نرى ان من نتائج الانقلاب النازي في المانيا احياء المحالفة الفرنسية الروسية التي كانت قائمة قبل الحرب الكبرى

***

النمسا وايطاليا

كان قرار الهر هتلر ان يجعل النمسا الهدف الاول من اهداف سياستهِ الخارجية غير موفَّق من نواحٍ مختلفة . ذلك ان احداً لم يشكَّ بين سنتي ١٩١٩ و١٩٣٣ في ان كثرة الشعب النمسوي كانت راغبة في الاتحاد بالمانيا . ولم يكن في معاهدات الصلح مادة اكثر تعرضاً للنقد من المادة القاضية بمنع هذا الاتحاد . الاّ ان الانقلاب النازي كان قد احدث نفوراً في نواحٍ من الرأي العام النمسوي . فالاشتراكيون الدمقراطيون — وكانوا اكبر حزب في البرلمان النمسوي — واليهود وهم ذوو مقامٍ ونفوذٍ في فينا، لم يكونوا راغبين في ان يكون مصيرهم بمصير اخوانهم في المانيا . ثم ان الكنيسة الكاثوليكية وكانت ذات مكانة في السياسة النمسوية نفرها ما لقيتهُ في المانيا من شدَّة . ويضاف الى هذا وذاك ان الطبع النمسوي الرضيّ لا يتوائم وصفات الخلق الالماني الغالبة على النظام النازي الجديد . والغالب — على الرغم مما تقدم — انهُ لو اجري استفتاء حرٌّ في النمسا في السنة التي تلت قيام الهر هتلر لكانت الاكثرية في جانب الانضمام الى المانيا . ولو لم تكن اكثرية ساحقة

وكان الاثر الاول في النمسا للانقلاب الالماني الرغبة في تقليده . فوقف دولفوس في شهر مارس من سنة ١٩٣٣ الدستور النمسوي على الرغم من معارضة الاشتراكيين الدمقراطيين . وغدت الحكومة النمسوية منذ ذلك التاريخ تعتمد على تأييد هيئة عسكرية خاصة تدعى الهيمفهر لمقاومة

قوة الاشتراكيين الدمقراطيين المسلحة . هنا دخلت الحكومة الالمانية الميدان . فشرعت تذيع من محطاتها في جنوب المانيا اذاعات تنطوي على حملة على الحكومة النمسوية . وجعلت الطيارات الالمانية تلقي على مناطق مختلفة من النمسا نشرات تحتوي على الدعاية النازية . وهرّبت الاسلحة والنقود الى جماعة النازي النمسوي . ورفع رسم التأشير على جوازات الالمان القاصدين الى النمسا رفعاً كاد يكون منعاً باتاً . فردّت الحكومة النمسوية على ذلك بحل الحزب النازي النمسوي في شهر يونيو من سنة ١٩٣٣

وعلى الرغم من مقاومة الهيمفهر ظلّ الرأي الغالب ان النمسا تعنو للضغط الالماني ، لولا تدخل الدول الكبيرة . فقد كان شعور السخط على أعمال الارهاب النازية على أشده في هذه الدول ، فجاءت الحملة على النمسا مؤيدة لهُ . ولم يتخلف الرأي العام الانكليزي عن الرأي العام الفرنسي في وجوب الاحتفاظ باستقلال النمسا . فبذلت مساعٍ دبلوماسية في برلين ولكنها لم تسفر عن نتيجة . وفي شهر اغسطس من تلك السنة عقد للنمسا قرض دولي اشتركت فيه انكلترا وفرنسا وايطاليا ودول أخرى

عند هذا الحدّ بدت ايطاليا في مظهر المدافع الاول عن استقلال النمسا . نعم ان ايطاليا كانت من دعاة تنقيح المعاهدات . وفي العهد السابق لقيام الهر هتلر كانت قد تقرّبت من المانيا فجرتا على خطة مشتركة في بعض المسائل . ولكن رجع الانقلاب النازي في ايطاليا ، كان باعثاً على توجيه سياستها الخارجية توجيهاً جديداً على نحو ما تمّ في روسيا

فايطاليا ترغب في تنقيح المعاهدات . ولكن اذا سمح لالمانيا بضمّ النمسا فقد تغدو المانيا جارة خطرة على دولة سبق لها في معاهدات الصلح ان ضمّت اليها جانباً من ولاية التيرول الجنوبي وفيها أقلية المانية لا بأس بها . ولذلك شرعت حكومة ايطاليا في شتاء سنة ١٩٣٣ تؤيد الهيمفهر تأييداً خفياً ، لانها كانت تعتقد انهُ السور الذي يصون استقلال النمسا . الا أن السنيور موسوليني طلب ثمن هذه المعونة والثمن الذي طلبهُ نزع ما للاشتراكيين الدمقراطيين من السلطة في النمسا ولا سيما في بلدية فينا حيث كان زمام الامر في أيديهم ، وانشاء نظام من الحكم في النمسا على قواعد النظام الفاشستي . فلبيّ هذا الطلب في فبراير من سنة ١٩٣٤ بغير مقاومة تذكر . فسجن مئات من أقطاب الاشتراكيين الدمقراطيين . والغيت المعاهد الاشتراكية . واصبحت سياسة النمسا خارجية وداخلية رهن اشارة من إيطاليا

وكانت عاقبة هذه الاعمال ان فقدت النمسا كثيراً من العطف الذي كانت تتمتع بهِ في انكلترا مع ان الحكومة البريطانية مضت في اعلان خطتها الرسمية القائمة على صون استقلال النمسا . أما النازي فجدّدوا نشاطهم وضاعفوا مساعيهم في النمسا وفي يوم ٢٥ يوليو من سنة ١٩٣٤ احتل فريق

من النازي النمسوي مقرَّ رآسة الحكومة النمسوية الاتحادية بفينا وأُصيب الهر دولفوس بجرح مميت وهو يحاول الفرار . ولكن التدبير خاب ، لان الجيش لم ينقلب الى مساعدتهم ولم تغب شمس ذلك النهار حتى كان في فينا حكومة خلفت دولفوس وفي يدها زمام الامر

وكان الرأي ان تدبير هذه الفتنة لم يكن مستطاعاً لولا تأييد الحزب النازي الالماني وذهب بعضهم الى ان الهر هتلر يتحمل التبعة الادبية في مصرع دولفوس . وحشد السنيور موسوليني جانباً من جيشهِ على حدود النمسا الجنوبية . ولا يعلم هل كان ينوي فعلاً الزحف على النمسا لو نجحت الفتنة

الاَّ ان هذه الحوادث كانت نقطة تحول كبير في شؤون النمسا . ذلك بأن الهر هتلر رأى ان خيبة الفتنة بينت موطن الضعف في سياسته النمسوية ، او لعله خشي حينئذٍ ان يفضي مضيه فيها الى الاصطدام بايطاليا . فغير خطته . وغدا النازي النمسوي لا يتلقى تشجيعاً على القيام بأعمال العنف . ووقفت الحملة على الحكومة النمسوية . وأكد الهر هتلر غير مرة انه ليس في نيته تهديد استقلال النمسا او التدخل في شؤونها الداخلية . وظل سائراً على هذه الخطة مدة سنتين . فلما خاضت ايطاليا معترك النزاع الحبشي وضعفت سيطرتها على اوربا المتوسطة ، عقدت النمسا اتفاقاً مع المانيا في ١١ يوليو من سنة ١٩٣٦ اساسهُ التعاون بينهما ، وقاعدته ان تتصرف حكومة النمسا بوصف كونها حكومة دولة جرمانية مستقلة . فلما انقطعت الاعانة الايطاليـة عن الهيمفهر حُلّ . وكان من أثر ذلك أن اتفقت المانيا وايطاليا على ضرب من الاشراف الثنائي على شؤون النمسا

وصحب هذه التطورات تحسن العلاقات بين ايطاليا والمانيا ، نتيجة لموقف عصبة الامم من ايطاليا في النزاع الحبشي ، وفرض العقوبات عليها ، فانشىء محور برلين روما وزار السنيور موسوليني المانيا في اكتوبر من سنة ١٩٣٧ . وفي بدء هذه السنة — فبراير ١٩٣٨ — دعي الدكتور شوشنج المستشار النمسوي الى مقابلة الهر هتلر في برختسجادن حيث املبت عليهِ شروط اضطر الى قبولها منهـا تعيين احد اقطاب النازي النمسوي وزيراً للداخلية . وما انقضى شهر على ذلك حتى كانت الحوادث قد تطوَّرت في النمسا تطوراً سريعاً افضى الى استقالة شوشنج وميكلاس رئيس الدولة ، وضمّ النمسا الى المانيا وكان ذلك في ١٦ مارس من سنة ١٩٣٨.

اما عاقبة ذلك وتأثيره في موقف ايطاليا من المانيا — وقد اصبحت هذه جارتها عن مضيق برنر — فلا يعلم بعد ، وان كان الحاكمان بامرهما قد اعلنا معاً ، عند زيارة الهر هتلر لايطاليا في اوائل مايو ، متانة المحور بين العاصمتين وقوة العوامل التي تربط بينهما

«وفي مقتطف يوليو القادم نعالج : الاتفاق الصغير: الاتفاق البلقاني : نقض معاهدات الصلح»

باب المراسلة والمناظرة

الشحم وضروبه

[للاب انستاس ماري الكرملي]

تلكأت كثيراً في وضع هذه المقالة ، لاسباب ، منها : إن بعض الادباء كتب إليَّ يقول لي ، بعد انتشار جزء يناير من المقتطف من هذه السنة (١٩٣٨) : إن فصولك في (الدهن وأنواعه) مفيدة ، لكنها غامضة في بعض مناحيها . وأفهمني آخر أنها مبتورة الموضوع ، لأني لم أذكر ضروب الشحم ، بعد أن وفيت بحث الدهن حقه ، وألحَّ عليَّ آخر بأن أمضي في الموضوع قُدُماً ، وأعرض أنواع الشحم ، مع تعليل ضروبها اللغوي ، وزارني خمسة اصدقاء في أوقات متفاوتة ، يلتمسون مني ان أبين منزلة المقالة الموسومة بـ (الدهن والشحم والقول الفصل فيهما) ، الواردة في المقتطف (٩٢ : ٣٣٨) . — فاعتذرت لاشتغالي بما هو أهم من هذا الموضوع . وفي هذا الاسبوع ، هجم عليَّ فريق من المحبين ، وما غادروني إلا من بعد ان استوثقوا مني بأن ألبّي طلبهم ، بعد خروجهم من عندي ، فاضطررت الى ان أرَاميق هذه السطور ، وفاءً بالوعد ، وقياماً بالواجب ، لا حبّاً للرد ، وقد سئمته كل السأم

١ — الدهن

وأول كل شيء يتحتم عليَّ تحقيقهُ ، معنى الدهن . فلقد أوضحنا سابقاً أن من معانيه : الزيت . لكنا قلنا ان الكلمة العربية تنظر الى اليونانية Dêmos . ونزيد الآن على ما تقدم : أن أول معاني هذه الكلمة هو : « دهن الحيوان والانسان » ويقابلهُ في اللاتينية Omentum او بعبارة ثانية تطيب لبعضهم : شحم الانسان والحيوان . وهذا المعنى سبق معناه الآخر الفرعيّ أي الزيت بمعنى ما يستخرج من الانبتة ، إذ ورد بالمعنى الاول في الالياذة في ٢٢ : ٥٠١ — و٢٣ : ٧٥٠ الى غيرها من المواطن . والعدد الاول يشير الى رقم القصيدة بموجب ترتيبها والرقم الثاني الى رقم البيت بحسب ترتيبه . وجاء أيضاً في الاوذيسة في ١٤ : ٤٢٨ الى مواطن عدة أخر . وكذلك في هسيودس الاسكريّ المتوفّى في نحو ٨٠٠ ق . م . في قصيدته الموسومة بثوغونية في البيت ٨٣٨ ، الى غير هؤلاء الشعراء والكتبة والمؤرخين اليونانيين ، مما يضيق المقام عن إيراد شواهدهم . وذلك « قبل الميلاد » . وأما الدهن بمعنى الزيت ، فكان في أوائل النصرانية ، وقبيل الاسلام . فخصر العرب معنى الدهن بما ماع من الشحم ، أو بما يستخرج عصراً من بعض الانبتة الدهنية او الدسمة ، وعليه : كان العود الى الدهن بمعنى الشحم ، أحمد وهو الوجه الاوجه والأشبه والاصل أحق ان يتبع لأنهُ إذا جاز لنا ان نتخذ الفرع حجة لنا ، فبحجة أولى نحسن

بنا ان نتبع الاصل ، ويزيدنا إثباتاً لذلك وأخذاً بهِ ، استعمال جميع الناطقين بالضاد في الربوع العربية اللسان ، بلا شاذٍ ومن أقدم العهد . ولا يهمنا انكار المكابرين لهذا الشيوع والتعميم

والعراقيون يستعملون (الشحم) بمعنى (الـسَّحْـف) أي هذه المادة البيضاء التي ترى في المجترات وتتخذ الفقراء منها الشموع الى يومنا هذا وتسمى بالانكليزية Tallow وبالفرنسية Suif ، وهي تلك المادة التي سمَّاها ابن بري ومن شايعهُ (الودك) كما سيتضح لك ذلك فيما يأتيك من الكلام . وهذا هو معنى (الشحم) في الكتب الدينية وهو الذي يعتمد عليهِ أهل البادية وبعض القبائل في طعامهم من مطبوخ وغير مطبوخ . وترى موفوراً في سنام البعير

واليوم يقول العراقيون : شحمة شحم ، او شحمة من شحم ، ولا يقولون من دهن ، لانا قلنا ان الدهن خاص بما يذوب من الشحم ، وإن كان المعنى الاصليّ هو الشحم الجامد . ولهذا تسمعهم يسألون صاحب المعجنات او الفطائر : هل في جُرَيكك[1] دُهن حرّ أم دُهن ليَّة ؟

فيُجيب عن سؤالهم ذاكراً المادة التي اتخذها في عجن المِرَثّ وهو اسم الجرك عند فصحاء العرب (راجع التاج مادة : (رث ث) فالدُّهن عندهم السمن وإهالة الالية . فاذا أرادوا التحقيق قالوا في الاول : « الدهن الحرّ » وفي الثاني : « دهن الالية » أي الالية . ولهم كلام آخر وهو (اللحم الدهين) كما ذكرنا ذلك سابقاً ، ويراد بذلك : اللحم الكثير الدهن اي الشحم الذائب ومن ينكر ذلك يظهر أنهُ غريب عن العراقيين ولا يفهم لغتهم ، ولهذا قلت سابقاً : (٩٢ : ٦٢) : (اذ في الالية دهن وشحم ، وفي الانسان دهن وشحم ، وفي الامعاء دهن وشحم » اي أنَّ في كل هذه الحاويات دهناً (يذوب عند الحاجة اليهِ) وشحماً (اي جامداً او دهناً جامداً)

٢ — أصل كلمة الدهن ومعناها الاول

قد قلنا سابقاً ان العربية تنظر الى اليونانية (المقتطف ٩٢ : ٦٤) ومعنى ذلك انها تشبهها ، وليس معناهُ ان اليونانية هي من العربية ولا أن العربية هي من اليونانية ، كما يترجمهُ بعضهم . ولما لم يكن عندنا كلام مدون يرتقي عهده الى ما قبل الميلاد ، بخلاف ما عند الاغريق ، نضطر الى النظر في هذه اللغة ، في الالفاظ المشابهة لالفاظنا ، في ما ورد في مدوناتهم لمعرفة قدمها عندنا

وعند استشارة كتبهم ، وجدنا أن أول معنى الدهن الشحم الجامد

وهكذا كان في لغتنا ، ولو كان عندنا من المدوَّنات القديمة كما نرى منها عند الهلنيين لوجدنا أول معنى كان للدهن : الشحم الجامد ، ثم انتقلوا الى المعنى الثاني اي الى الدهن السائل والاهالة ، او بالحالة التي يكون عليها وهو في الجسم . وقد ذكرنا في صدر هذا المقال ، ما ورد من كلام اليونان ، وفيهِ ذكر الدهن بمعنى الشحم ، بقي علينا ان ننظر من أين جاءتهم هذه اللفظة ؟

---

(١) ضرب من الخبز ، هش جداً يهيأ بالسمن (الذي قلنا ان العراقيين انهم يسمونه الدهن الحر ، وهو كلام فصيح) او دهن الالية اي ما يذاب منها وهو اهالة الالية . والمطلوب هنا توجيه نظر الباحث الى استعمال الدهن لشحم الالية اذا أميع او أذيب . والجرك كلمة تركية وتكتب جورك أيضا

أجمع فقهاء لغتهم على ان المادة مأخوذة من Da بمعنى جرى وسال . راجع المعجم اليوناني الفرنسي لبوازاق ص ١٨٢ وقد ذكرنا هذا المعجم في مقالتنا السابقة . — وأنت عليم ان العرب لا تتعلق بفعل مركب من حرفين ، بل إما ان تضعّف آخره ، مثل عدّ وسرّ ، فانهم يقولون فيهما عدّ وسرّ ، واما ان تزيد في أوله واواً او ياء ، كقولهم وعد ويسر . وأصلهما من العدّ والسرور ، لان الواعد يعين عدد الايام التي يتم فيها كلامه في وعده ، ولان اليسر يدخل السرور على النفس . فالاصل (دَا) Da يقابله في لغتنا (وَدَى) بواو في الاول اي جرى وسال ، كما في معاجم اللغة . قالوا : ومنه اسم (الوادي) للموطن الذي يحدّه الماء ليجري فيه

قلنا اذن ثلاثة أدلة منيعة القوى ، تؤيد ان الدهن ، هو هذا الجوهر الدسم ، الجامد في حالته والسائل في أصله ومصيره وهو كذلك في اللغات السامية واليافثية . وهذه الادلة الثلاثة هي : ١ — أصل الكلمة في وضعها الاول او في وضع نشوءها — ٢ استعمالها بهذا المعنى في جميع الديار العربية اللسان ، منذ أقدم العهد الى يومنا هذا . أما سبب عدم استعمال القرآن لها فهو لان الآيات لا تتصدى لجميع ألفاظ الضاد ولا لجميع معاني الالفاظ المستعملة . وهذا واضح كالشمس في رائعة النهار . — ٣ اجماع أهل اللغات اليافثية على هذا الاصل . وهم لا يتهمون بتحزب ، ولا بغرض ، ولا بمكابرة . ولهذا لا يهمنا بعد هذا زعم من يجري في صراط غير مستقيم

اذن : الشحم كالدهن والدهن كالشحم بلا فرق ، اللهم الا ان يقال ان الدهن يراد به اليوم « خاصة » المائع من الشحم ، فهذا عرض لا يؤبه له ، ثم اذا كان خاصاً بالسائل منه في البلد الواحد فهو ليس كذلك في جميع البلاد العربية اللسان . واما ان احدهم ينكر ذلك فيقول : ان في الالية شحم [كذا بحرفه والصواب شحماً] وفي الانسان شحم [كذا] ، وفي الامعاء شحم [كذا] ولا يجوّز أن يقال : ان في الالية شحماً ودهناً وكذلك في الانسان والامعاء فلكونه لم ينتبه الى قولنا ان الدهن المائع من الشحم . فانك اذا أذبت بعض الالية ، وأبقيت البعض الآخر منها فقد أجتمع عندك دهن وشحم . فهل بعد هذا التصريح تصريح أوضح وأبين وهو لا يخفى على أيٍّ كان ؟ ولكن الدهن ورد بمعنى الذائب من الشحم او السائل منه جاز مجيئه بمعنى الزيت . ولهذا ورد هذا المعنى في اليونانية والعربية بعد ان عرف مؤداه الاول كل المعرفة . ومثل هذا وقع (للدَسَم) فان كتب اللغة لا تذكر له إلا معنى الوَدَك والوضر والدنس ؛ لكن كبار علمائهم ذكروا لنا انه قد يأتي بمعنى الزيت الذي يكون في بعض الانبتة . فقد قال صاحب اللسان في مادة (زهام) : « الدسم [شحم] لما أنبتت الارض كالسمسم وغيره » اه . وهذا يبيّن ، كيف ان العرب تتوسع في معاني مفرداتها ، وتنتقل بها من معنى الى معنى ، بجامع معنى الودك ، غير ناظرة الى ان هذا الوَدَك جامد ، ام مائع ؟

٣ من مترادفات الشحم او الدهن : الزهم او الزهمة

للشحم او للدهن الجامد ، (وقد كان الشحم سائلاً في البدن قبل ان يجمد) عدة مترادفات، لا يُرى مثل عددها في سائر اللغات ، من شرقية وغربية ، من سامية وحامية ويافثية ، ونحن لا نتمكن من اثبات جميعها هنا ، اذ تقع اسماؤها مع شروحها ، وذكر اصولها في نحو جزء من اجزاء هذه المجلة ، لكننا نجتزىء بذكر بعض منها ، من باب التمثيل ليس إلاّ . من ذلك الزُهم

قال ابن مكرم في ديوانه في مادة (ز ه م) ما هذا نقله « الزهمة ، بالضمّ : الشحم . قال ابو النجم يصف كلباً : يذكر زُهم الكفَلِ المشروحا

قال ابن بري : اي يتذكر شحم الكفل عند تشريحه . قال : ولم يصف كلباً ، كما ذكر الجوهري ، وانما وصف صائداً من بني نمير لقي وحشاً . وقبله :

لاقت نميراً سامعاً لموحا صاحب اقناص بها مشبوحا

ومن هذا يقال للسمين : «زهم» . وخص بعضهم به شحم النعام، والخيل . والزُهُم والزَهَم: شحم الوحش، من غير ان يكون فيه زهومة ، ولكنهُ اسم لهُ خاص . وقيل: «الزهم» لما لا يجترّ من الوحش ، و« الودك » لما اجترّ ، و« الدسم » لما انبتت الارض كالسمسم وغيره . اه كلام ابن منظور . فانت ترى من هذا ان ابن بريّ قسم « الشحم » ثلاثة اقسام شحم المجترات وسماه «الودك» وشحم غير المجترات من الحيوان وسماه «الزهم» ، وشحم النبات وسماه « الدسم»

فهل لاحظت انهُ اطلق على هذه الموادّ الثلاث اسماء الشحوم . ثم خص كل ضرب منها باسم يختلف عن اسم اخيه . وهل لاحظت ايضاً انهُ سمَّى دهن الانبتة أوزيتها «شحماً» لازيتاً ولا دهناً ، وقد ذكر ابن مكرم نفسهُ في مادة شحم ان « العرب تسمّي سنام البعير شحماً ، وبياض البطن شحماً » ولم يذكر للنبات شحماً لكنهُ توسع في تلك المادة فقال : (شحمة الاذن ، وشحمة العين ، وشحمة الارض ، وشحمة النقا ، وشحمة النخلة ، وشحمة الرمانة ، وشحمة الحنظل ، كل ذلك من باب المشابهة والتوسع في الوضع ، فهم لا يقيدون أنفسهم بقيد بخلاف ما يتصور بعضهم ممن لا وقوف لهم على اسرار اللغة المدنانية وخصائصها ومزاياها ، ولا يجوز لاحد ان يضرب عليها نطاقاً من حديد ، او يبني على حدودها سدًّا مثل سد يأجوج ومأجوج ويقول لها : (قفي في هذا الحد ولا تتجاوزيه)

فلقد رأيت (الشحم)في النبات كما رأيتهُ في الحيوان . وكذلك يقال عن الدهن والدسم الى غيرها مما نقل عنهم وعن لغوييهم الاثبات . فلغة العرب واسعة سعة رمال جزيرتها

٤ الشحم دهن وبعكس

قال في محيط المحيط «اللحم واللحَم من جسم الحيوان : خلاف العظم ، او هو من الضئين

والبقر ونحوهما : المادة الحمراء الرخوة التي تؤكل ، فلا يتناول المادة البيضاء من الشحم و« الدهن » ج لِحام ولُحُوم ولِحْمان ولُحْمان وألْحُم » اه . فهذا نص صريح على ان الدهن غير الزيت الذي يخرج من الشجر او الحجر بل هو شيء يكون في البقر والبشر

على اني — والحق يقال — لا اعتمد هذا المعجم . وقد صرحت بذلك مراراً لا تحصى . وانما ذكرته لمن يجهل صاحبهُ وكل من نقل عنهُ في مناط العيوق . واما انا فلا اثق بهِ لكثرة سقطهِ واقتباسهِ من فريتغ . وهذا رجل الماني قليل الاطلاع على صحيح كلام العرب وصميمه . فكيف جاز للبستاني ان يأخذ صلب كلام معجمهِ منهُ ؟ — فاذا كان فريتغ كثير الغلط والسقط فبالطبع ان يكون ذاك ايضاً على هذا الطراز وكذلك يقال على اقرب الموارد والبستان والمنجد والفرائد الدرية

اما ان هذه المعاجم جمة الاغلاط فنحن لا نتعرض لها هنا ، اذ قد وضعنا لها سفراً ضخماً للاشارة اليها والتصريح بكثير منها ، وانما نتعرض هنا لما ورد في هذه العبارة التي ذكرناها قُبَيْل هذا . فان المؤلف سرد في جمع اللحم : اللِحْمان بالكسر وهذا الجمع لم يذكره احد سوى فريتغ . اما الذي ذكروه فاللُحمان بالضم ، لكن البستاني لا يهمه هذا الامر ولا يتحرى صحة ما ينقلهُ عن فريتغ ، فلكون هذا الرجل ذكر الكسر في معجمهِ ، كان الكسر هو الصحيح وما عداهُ هو القبيح او يكاد . ألا تراه قدم اللحمان بالكسر على اللحمان بالضم ؟ — فهذا شأنه في كل ما اقتبسهُ عن الاستاذ فريتغ[1]. على انا نعتمد البستاني في كل امر اتفق فيهِ واللغويين. وهو في قوله الدهن من الشحم ينضم الى المعنى الشائع الذائع بين متكلمي العربية وبين اللغويين . وقد بينا صدق استعمال الائمة للدهن بالمعنى المعروف في القطعة الثالثة من هذه الكلمة والآن نؤيدهُ بنصٍّ واضح يكون بهِ فصل الخطاب

قال في اللسان في (ودك) : «وفي حديث الاضاحي : ويحملون منها الودك » هو دسم اللحم «ودهنهُ » الذي يستخرج منهُ [لاحظ حسنا وانعم النظر والفكر في كلمة : « ودهنهُ » اي دهن اللحم لا دهن الزيتون] . وودّكتهُ توديكاً . وذلك اذا جملتهُ في شيءٍ هو والشحم اوحِيلابةُ السمن . وشيء وديك وودِك . والدكة : اسم من الودك . . . ودجاجة وديكة أي سمينة . وديكٌ وديك ، ودجاجة وديك وودوك : ذات ودك . ورجل وادك : سمين ذو ودك . والوديكة : دقيق يُساط بشحم شبه الخزيرة » اه . الى آخر ما هناك من الكلام الدال على ان الشحم والودك والسمن والدهن ألفاظ مختلفة لحالات من الشحم . ومن ينكرها ، عليهِ ان ينكر الشمس في رائعة النهار ، فذا الامر أهون . والسلام على من اتبع الهدى

---

(١) المقتطف — وقد ساق الاب انستاس في حاشية طويلة تملأ اكثر من صفحة بعض ما يراه دليلا على ان « البستاني كان مشغوفاً بفريتغ في اول تأليفه لمعجمه محيط المحيط ولما أوشك ان يمسح التام من تأليفه تبين له كثرة ما ورد فيه من الخطاء فندم على عمله هذا ... » فاقتصرنا على الاشارة الى ذلك .



البسلة الصينية ومنافعها المتعددة

وهي فول الصوي او الصويا

Soy, Soya, Soja Bean or Pea

شاهدت نوعاً من الصويا (وهو بذور نبات ينمو في اليابان والصين والهند ويعمل من دقيقه خبز خالٍ من النشاء للمصابين بالبول السكري) معروضاً في قسم البساتين بالمعرض الزراعي الصناعي الحديث في الجزيرة فاسترعى نظري وهمتي ولاسيما حين رأيت اكياس الدقيق والخبز المصنوعة من الصويا لغذاء المرضى، وقيل لي ان الصويا زرعت في مصر حديثاً ، فسألت المعهود اليه في رقابة ذلك القسم بالمعرض ، عن اسعار هاتيك المعروضات فإذا بها زهيدة جداً عند مقابلتها بمنافعها للزراع الذين يغرون زراعتها في اطيانهم ، والمرضى الذين يحتاجون الى التغذي بالخبز المصنوع من دقيقها لمكافحة داء البول السكري . فحداني ذلك على دراسة موضوع الصويا ، فقرأت فيه ابحاثاً مستفيضة في مصادر حديثة مختلفة لكثيرين من علماء الزراعة والطب وغيرهم فآثرت ان اقتطف منها ما يلي :

قال الدكتور هنري ج نبت رئيس مكتب الكيمياء والتربة في وزارة الزراعة الاميركية بواشنطون ما يأتي : —

زرع الصينيون منذ آلاف من السنين ، وما زالوا يزرعون فول الصويا ويقدرونه حق قدره كواحد من الخمسة الحبوب المقدسة التي تعد عندهم من ضروريات حضارة الصين

وقد تنبه العالم الغربي في التاريخ الحديث الى الفول الصيني وعرف جلية مزاياه ، فجعل يبز اهل الصين في وسائل الانتفاع به

ولذلك أنشأت حديثاً حكومة الولايات المتحدة الاميركية في جامعة إيلينوي ، معملاً للاختبارات الكيميائية خاصاً به ، لما يمض على وجوده غير حول واحد وبعض الحول الثاني ، ومع ذلك فقد أخذ يظفر بنتائج باهرة من مباحثه فأعلن منذ اكثر من شهر ، أول مكتشفاته الخطيرة في هذا الصدد ، ونقصد به صقال (ورنيش) الصويا لوقاية سطوح الخشب . وهو صقال يقاوم التأثيرات الجوية كل المقاومة ، فلا يزول من بريقه الا شيء طفيف جداً ولا يتشقق على الاطلاق ولا يتقشر ولا يسود . على حين ان النوع الجيد من «ورنيش سبار» Spar varnish الذي يؤخذ

من المعادن المتبلورة اللامعة قد استعمل في تلك التجربة عينها مدى سبعة أشهر، معرضاً للجو في الخلاء. فحال لونه كلية بعد مضي خمسة أشهر فقط. فأسفرت التجربة عن كون زيت الصويا الذي عولج علاجاً سديداً، حل محل الزيوت الاخرى جميعاً المستعملة الآن في تحضير الورنيش وذلك بنسبة مائة في المائة

وفول الصويا ذو أنواع شتى وقد أحضر احد المكتشفين النباتيين في وزارة الزراعة الاميركية الوفاً من نماذج الصويا التي تزرع في الشرق الاقصى. وجربت زراعتها في الولايات المتحدة وتبين ان بعض تلك الانواع ينجح في مناطق معينة من الارض أو في تربات خاصة. وظهر من تجارب أخرى ان بعضها صالح جداً لعلف المواشي. وبعضها صالح لغذاء البشر وبعضها نافع للصناعة لاحتوائه على مقادير جزيلة من الزيت. ولذلك شرع مربو النباتات في الولايات المتحدة الاميركية في استنبات أصناف جديدة من الصويا وتهجين أصناف أخرى منها لكي تصلح للاحوال الجوية والتربة التي تزرع فيها وتلائم غيرها من لوازم الزراعة الاميركية

وكان بدء زراعة الصويا في الولايات الاميركية سنة ١٨٠٤ وكان نباته اذ ذاك يعتبر بمنزلة نبات نافع من نباتات الشرق، ثم انقضى القرن التاسع عشر كله دون ان يهتم بها أحد الاهتمام الواجب. وحينئذٍ أعلن بعض من كان مقيماً في الشرق الاقصى، منافع الصويا الخطيرة هنالك فقال ان الشرقيين يصنعون منها حليباً رائباً او جبناً يستغنون به عن اللحم. ويطحنونه دقيقاً لعمل الاقراص (كيك) والحلوى بل يستخرجون منه نوعاً من اللبن ويشربونه. والوجه ان الصويا كاللحم واللبن والفاكهة او الحلوى التي تؤخذ عقب الطعام لدى ملايين من أهل الصين ومنشوريا واليابان بيد ان الاميركيين قد نظروا الى حبوب الصويا اول وهلة، نظرة الانكليزي للذرة، واعتبروها علفاً صالحاً للبقر، لا غذاء للبشر

وحينما استعرت نيران الحرب العالمية، كانت زراعة الصويا في أميركا محصورة في حقل صغير، وكانت حينئذٍ تزرع في ولاية كارولينا الشمالية حيث كان الزراع يعلفون بها الخنازير

وقصارى القول ان الصويا اصبحت أسرع المحصولات الاميركية انتشاراً ولا سيما في مناطق الذرة. وتقدر المساحة التي تزرع هناك الآن بالصويا، بأكثر من ستة ملايين فدان وقد أربى محصولها في السنة الماضية على ٤١ مليون بوشل. ومع ذلك ما زالت منشوريا أولى البلاد التي تغل الصويا وصارت الولايات المتحدة ثانية لها

وتصنع فئة من المصانع الاميركية منتجات صناعية من الصويا. وتلك المصنوعات على نوعين. فالنوع الاول منها يحضر من زيت الصويا الذي يعصر من بذورها. ويحضر الآخر من الطحين الذي يتبقى بعد استخراج زيتها. ويدخل زيت الصويا في صنع بعض أنواع الصابون وهو صالح جداً لصنع الصابون

الذي يذوب في المياه العسرة hard . ويستعمل زيت الصويا أيضاً في الادهان — البويات ، والورنيش ومشمع الارض وحبر الطبع وفي المفرقعات . ويمكن ان تصنع منهُ مادة تحل محل الصمغ المرن (الكاوتشوك)

وتركب منها صلصة تؤكل مع السلطة وما اليها . أما طحين الصويا او الكسب فيكبس أقراصاً ويستعمل علفاً للمواشي . واذا طحن دقيقاً ، استعمل لصنع « المكرونة » وصنع منهُ الخبز وغيره من الاغذية التي تستعمل في الفطور . وتدخل الصويا في تغذية الاطفال وفي اصناف الدقيق المخصوصة وغيرها

أما المواد العجينية التي تصنع من الصويا فشبيهة بالعجائن التي تصنع من جبين اللبن ، وقد استطاع أحد صناع السيارات في أميركا صنع عجلات إدارة وأزرار لأبواق السيارات من هذه العجينة وغير ذلك من اجزاء الادوات الصلبة التي تفرغ في القوالب وهي لينة حتى تتجمد

ولتحويل الصويا الى مادة عجينية يضاف الماء الى طحين الصويا، ويمزج بالمواد الكيميائية والمواد الملونة ثم يضاف اليها دقيق الخشب ليسهل تحويلها من السيولة الى الصلابة اذ تسلط عليها الحرارة وتضغط فتكتسب المرونة والصلابة المطلوبتين فتصبح صالحة لمقاومة البلى

وتكاد الصويا تحتوي على ⅕ وزنها زيتاً و ⅖ وزنها بروتيناً . ويستعمل البروتين (١) في تلك المواد العجينية . وفي ايطاليا يضاف دقيق الصويا الى غذاء الجنود . وذلك بأن يخلط دقيق الحنطة الابيض الذي يصنع منهُ الخبز للجيش بمقدار من دقيق الصويا يتراوح بين ١٥ و ٢٠ في المئة . وقد أيد هذا الرأي الدكتور دوجلاس جراي الانكليزي وهو من انصار الانتفاع بدقيق الصويا ما امكن فقال :—

« اذا خلط دقيق الحنطة الابيض بعشرين في المئة من دقيق الصويا اصبح المخلوط محتوياً المواد الفيزيولوجية التي يحتويها الدقيق الاسمر غير المنخول ، وصار الخبز الذي يصنع منهُ أشد تغذية مما يصنع من ذلك وكان ألذ طعماً وأطيب مذاقاً وذلك من فرط ما يحويه دقيق الصويا من البروتين ، وهو بروتين كامل يحوي املاح الامينو (٢) كافة وهي ضرورية لتكوين البروتينات في البنية البشرية . وباضافة ذلك المقدار من دقيق الصويا الى دقيق الحنطة الابيض تزيد البروتين في الخبز العادي ٦٠ ٪

ويحوي دقيق الصويا مقداراً كبيراً من الشحم يستطيع الجسم البشري ادخاره بسهولة في مستودعاته الطبيعية . وبقايا الصويا قلوية أما بقايا الحبوب فحمضية . وتحوي في الاول مواد الفصفور والكلسيوم والحديد . ولعظم تقوية دقيق الصويا يصلح لمقاومة التعب الذي ينشأ عن التربية الناقصة . ومن أهم أسباب ترقي الشرقيين في الاشغال اليومية خلوصهم من الاجهاد

(١) البروتين — عنصر من عناصر مواد الطعام وهو المصدر الاولي للزلال والجبنين والفبرين والجلوتين

(٢) قد ثبت ان البروتين يؤلف من وحدات تعرف بأملاح الامينو

ومنافع الرطل من البروتين تعادل اكثر من رطلين من شرائح لحم البقر (البفتيك) ويساوي اربعة اضعاف وزنه من البيض والحنطة والحبوب، وضعفي مثله من الزبدة والفول واثني عشر ضعفاً من اللبن

ولذلك اخذت المجلات الانكليزية والاميركية الصحية تحث قراءها على ادماج دقيق الصويا في أغذيتهم اليومية بأية وسيلة من الوسائل، وتؤكد لهم أنهم متى جربوه انتشر استعماله تدريجاً انتشاراً كبيراً بدلاً من الدقيق الابيض أو مضافاً اليه، واستغنوا به عن دقيق الحنطة الابيض باعتباره مصدراً غذائياً عظيماً

القاهرة عوض جندي

* * *

الجهاز الرحوي والنشاط الاشعاعي الصناعي
وعلاج السرطان في الغدة الدرقية

يعلم قرّاء المقتطف ممن طالع مقالنا في « تهشيم الذرّة » (مقتطف دسمبر ١٩٣٧ ص٥٢٣) والجانب الاخير من محاضرتنا «في الاشعاع قديماً وحديثاً» ان في وسع العلماء ان يحوّلوا بعض العناصر غير المشعة مشعةً بجهاز يعرف باسم الجهاز الرحوي Cyclotron وقد صنعوا به صوديوماً مشعاً وراديوم E من عنصر غير مشع. ومما يمتاز به الصوديوم الذي حوّل عنصراً مشعاً بهذه الطريقة انهُ لا يطلق الاّ أشعة غمّا حالة ان الراديوم يطلق عدا هذه الاشعة دقائق ألفا ودقائق بيتا . ولذلك ذهب العلماء من البدء الى ان استعمال الصوديوم المشع في الطب لا بدّ ان يكون أسهل من استعمال الراديوم

وقد اطلعنا في الصحف العلمية الاخيرة على ان طبيبين عالمين من أساتذة مدرسة الطب بجامعة هارفرد قد أخذا يستغنيان عن مبضع الجراح في علاج النوامي السرطانية في الغدة الدرقية بالمواد المشعة اشعاعاً صناعياً

ذلك ان من المشكلات التي يتعرّض لها العلماء عند المعالجة بالراديوم او أشعة اكس اختصاص النسج المريضة بتأثير هذا العلاج دون النسج السليمة . وقد استنبطوا وسائل منوّعة لحلّ هذه المشكلة ولكنها لم تحقق الغرض المقصود تحقيقاً تامّاً

الآن الطبيبين سول هرتز وآرثر روبرتس عرفا ان اليود من العناصر التي يمكن تحويلها مشعة بالجهاز الرحوي. فاذا حقن اليود في الدم سار بطبيعته الى الغدة الدرقية. وقد اكتشفا هذه الحقيقة بحقن اليود المشع في شرايين الارانب ، والرأي ان ما يصحُّ على الارانب يغلب ان يصح على الناس

فاذا بلغ اليود المشعّ الغدة الدرقية ، من طريق الدم ، جعل يطلق اشعاعهُ فيها فيفعل فيها فعل ابر مغروزة فيها ومحتوية على الراديوم. الاّ ان اليود المشعّ لم يستعمل حتى الآن في علاج المصابين بسرطان الغدة الدرقية لقلّته

ازالة جزء من الدماغ
لا يؤثر في الذكاء

من غريب ما روي للجمعية السيكولوجية الاميركية في اجتماعها الاخير، ان الدكتور «هب» Hebb احد اقطاب المعهد النورولوجي بمنتريال كندا وجامعة ماكجل الكندية، استطاع في اربع عمليات جراحية ان يزيل جانباً من الدماغ في اربع حالات مختلفة من غير ان يؤثر عمله هذا في ذكاء اصحابها

ففي احدى هذه الحالات أُزيل الفص الجبهي الايسر للدماغ بعملية جراحية ثم بعد الشفاء امتحن الرجل امتحاناً سيكولوجيًّا لمعرفة درجة ذكائهِ فاذا النتيجة التي أسفر عنها هذا الامتحان انهُ في طبقة «الموهوبين». وقد كان هذا الرجل أيمن، ولذلك فالجانب الايسر من دماغهِ كان الجانب المتغلب. وكان رأي فريق كبير من الاطباء ان إزالة جانب من الجانب المتغلب من الدماغ في هذه المنطقة تفضي الى ضعف في قوى التفكير. فلم تؤيد الحالة السابقة هذا الرأي

وفي حادثة أخرى أُزيل من المخ (ولم تشر المجلة التي نقلنا عنها الى المنطقة الخاصة من المخ) من ٤½ في المائة الى ٧ في المائة من وزنهِ فظلَّ ذكاء الرجل كما كان متوسطاً. وفي حالة ثالثة أُزيل الفص الجبهي الايسر للدماغ فبدا لاقربائهِ أذكى بعد إزالتها منهُ قبلها، وانما خسر جانباً من مقدرتهِ على الاقدام في المعاملات التجارية

وقال الدكتور هب انهُ لم يتبين في المصابين الاربعة الذين عالجهم اي أثر من البلادة والجمود والهبوط والخبل بعد العمليات التي تقدَّم ذكرها. واشاد بذكر ثلاثة من اطباء كندا في معهد مونتريال النورولوجي ومعهد الصحة العقلية لمعاونتهم في هذا البحث الطبي النفسي الطريف

* * *

أشعة لقتل المكروبات

استنبط الدكتور هارفي رنتشلر Rentschler احد العلماء الباحثين في قسم المصابيح بشركة وستنهوس الكهربائية الاميركية، مصابيح دعاها «ستريلامب» Sterilamp اي «مصابيح التعقيم» في قدرتها أن تطلق شعاعة من الاشعة فوق البنفسجية طول موجاتها ٢٥٣٧ انغستروم فتفتك بالمكروبات ولا تضير الانسان

وقد استعملت هذه المصابيح اولاً في مستشفى جامعة ديوك فلما ثبتت فائدتها عمدت المستشفيات الكبيرة في الولايات المتحدة الاميركية الى استعمالها في حجر العمليات الجراحية وفي مقدمتها عيادة مايو وغيرها

ولا يخفى ان الالتهاب قد يعقب العمليات الجراحية على الرغم من ادق وسائل التعقيم

وذلك لانهُ من المتعذر الاحتفاظ بجوّ الحجرة التي تجري فيها العملية خالياً من المكروبات . فاستعمال هذه المصابيح يفتك بها جميعاً ، وقد اسفرت تجربتها عن امتناع حدوث الالتهابات التي تعقب العمليات امتناعاً تامًّا

وقد تفرع هذا البحث من بحث آخر كان مدارهُ السعي الى استنباط طريقة لتعقيم انواع الاطعمة بغية حفظها . ولا يخفى ان الطهي وسيلة من وسائل التعقيم وكذلك استعمال بعض المواد الكيمياوية اوالتبريد . ولكن بعض هذه الوسائل لا تجدي في اعداد الاطعمة الغضرة للحفظ كالثمار . واللحم كثيراً ما يتعفن عند ما يحفظ في المبردات . أما الآن ففي وسع الجزار ان يضع في مبرّدته او في واجهته مصابيح التعقيم فتطلق شعاعها فتميت جميع المكروبات فيحفظ اللحم نقيًّا من المكروبات التي تفسده فينتن

ثم هناك استعمال آخر . وهو ان المطاعم الكبيرة في حاجة الى وسيلة تمكنها من تعقيم الاطباق والاكواب التي يستعملها الناس ومنهم المريض والسليم . والغسل وحده لا يكفي فاذا عرضت في مكان خاص لاشعة هذه المصابيح عقمت وغدا استعمالها سليماً من الناحية الصحية

* * *

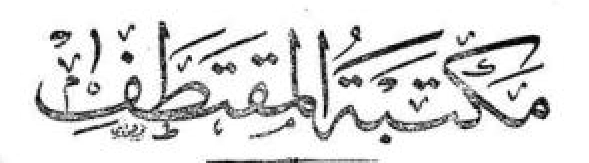
أصل الاشعة الكونية

ألقى العلاّمة الاميركي الدكتور مليكن Millikan خطبة في أكاديمية العلوم الاميركية عرض فيها أدلة جديدة على ان الاشعة الكونية تتولد من تلاشي العناصر المنتشرة في رحاب الفضاء انتشاراً لطيفاً . ويؤخذ من مباحث الدكتور مليكن هذه ان تأثير الشمس المغنطيسي يمتد في الفضاء ويشمل المجموعة الشمسية كلها. وعنده ان العناصر التي تتلاشى في الفضاء فيفضي تلاشيها الى تولّد الاشعة الكونية هي الكربون والنتروجين والاكسجين على الاكثر تليها عناصر الصوديوم والسليكون والالومنيوم . وهذه العناصر أكثر العناصر في الكون المادي وأوزانها الذرية تتفاوت من ٦ الى ٢٨

ثم ان الايدروجين والهليوم من العناصر الكثيرة في الكون ، ولكن الاشعة الكونية الواصلة الى الارض اوالى البلونات العلمية المحلقة في الجوّ ليس بينها ما يدل على أن طاقتهُ تقابل طاقة تلاشي الايدروجين او الهليوم . وهذا حمل الدكتور مليكن على الذهاب الى ان امتداد فعل الشمس المغنطيسي ابعد مما كان يظن . . لان هذا الفعل يؤثر في الاشعة التي قد تتولد من تلاشي الايدروجين والهليوم فتحرفها فتمنعها من الوصول الى جوّ الارض

* * *

— قدر أحد الباحثين ان هنود بيرو كانوا قد استخرجوا من مناجم الذهب فيها ما قيمتهُ نحو ٢٣ مليوناً من الجنيهات حتى تاريخ الفتح الاسباني



مدام كوري

سيرتها بقلم صغرى ابنتيها ايف كوري

Mme Curie by Eve Curie

في السابع من نوفمبر من سنة ١٨٦٧ وضعت زوجة فلادسيلاف سكلو دوفسكي أستاذ الطبيعة في مدرسة البنين العالية بوارسو ببولندة الروسية فتاة دعيت مانيا فلما توفيت هذه الفتاة في ٤ يوليو سنة ١٩٣٤ حزن العالم قاطبة على فقدها لانهُ فقد فيها مدام كوري احد مكتشفي الراديوم

نشأت في بولندة في الثلث الاخير من القرن الماضي وفي ثنايا نفسها عبقرية كامنة ، عبقرية ذهنية تساوقها عبقرية خلقية وإيمان وطني . وتعلمت منذ نشأتها الاولى ان الحياة نضال دائم وان ما يعجز العالم عن سلبهِ اياك انما هو ما يكون في ذهنك وخلقك . فلما اقترنت التربية الصالحة بالعبقرية الموروثة نشأت شخصية فذة ليس في صفحة من صفحات حياتها سطر ممل

لذلك كان الكتاب الذي وضعتهُ صغرى ابنتي مدام كوري في ترجمة والدتها العظيمة سيرة نادرة في بساطتها وجمالها وشدة وقعها في النفس . هو ذا مادة تصلح ان توحي الى موسيقي عظيم الآن او في المستقبل سمفونية من السمفونيات الخالدة . وانك ترى وانت تطالع هذا الكتاب صورة مانيا من شبابها الى شيخوختها . فاذا وقفت عند الصورة الاخيرة وقد ذهبت مسحة النضارة من ذلك الوجه وعلتهُ الغضون تبينت ان ذهاب الجمال لم يذهب بروعتهِ لان نوعاً من التألق الروحي حلَّ فيهِ وأطلَّ من قسماتهِ

كانت حياة مدام كوري منذ حداثتها حافلة بمعاني المأساة . المأساة الشخصية والمأساة الوطنية . فقد ماتت والدتها وهي دون المراهقة وكانت تتعلم في مدرسة فكان لا بد لها ان تتعلم لغة قومها وأدبهم خفية عن الاعين لئلا ينزل بها من الروس أعظم العقاب

ولما كانت في التاسعة عشرة من العمر وقد تفتحت عبقريتها وارثتها أضطرت ان تستخدم معلمة في دار جماعة من الصناعيين البولنديين لكي تعين بجانب من اجرها الضئيل شقيقة لها تتعلم الطب في باريس . ولما احبَّت بكر تلك الاسرة واحبها حالت الحوائل الاجتماعية دون الزواج من « معلمة » كانت هي في قرارة نفسها تعلم انها تفوقهم ذكاء وعلماً ونبلاً فجرحت نفسها ولكنها انطوت على الجرح وقد كتبت في خلال تلك الايام رسائل تقطر عذوبة وكرامة وحكمة — وهي في التاسعة عشرة او العشرين

واخيراً اتيح لها السفر الى باريس لتلقي العلم في السوربون في كلية العلوم فكان عليها ان تعد كل « روبل » في حوزتها وان تسافر في مركبات البضاعة من وارسو الى باريس وان تعيش في باريس عيشة عوز وفاقة معرضة للجوع والبرد وكثيراً ما أغمي عليها لقلة ما كانت تتغذى بهِ. ولكن عقل الفتاة الشغوف بالعلم كان الهادي لها في خضم الحياة

وأخيراً التقت بالاستاذ بيير كوري وكان من علماء الطبيعة الناشئين وله في ميدانها مكتشفات ومخترعات فتحابا منذ النظرة الاولى ولكن ماري ظلت تمانع في قبول الزواج على ما فيهِ من تحقيق لمطامحها العلمية واستقرار لمعيشتها البائسة وذلك لانها كانت ترى في قرارة نفسها ان الواجب القومي يقضي عليها بأن تعود الى وطنها لتسدي اليهِ ما تستطيع من خدمة . فلما رأت منهُ استعداداً للعودة معها الى بولندة ادركت ان ليس من حقها ان تسلب عالماً فذًّا مستقبله العظيم فتزوجا وهنا بدأت تلك الشركة العلمية العظيمة التي استهلت مرحلتها الاولى باكتشاف البولونيوم والراديوم في أحوال كأنها من بنات الخيال ثم انتهت الى مأساة موت الاستاذ كوري وهو خارج من كلية العلوم بوقوعه تحت عجلات مركبة من مركبات النقل

كاد الجزع ان يقضي عليها ولكنها ما لبثت ان أدركت ان العمل العظيم الذي بدأتهُ وإياه يقتضي منها الصبر والشجاعة فمضت فيهِ الى النهاية لا يستوقفها الطمع بالثروة ولا تستهويها الالقاب ولا يحيد بها عن طريقها المرسوم — طريق البحث العلمي — صغيرة ما من صغائر الدنيا

انتخبت استاذاً في السربون محل زوجها فلما ألقت محاضرتها الاولى حضرها الملوك والامراء والعلماء فاستأنفت المحاضرة في الموضوع حيث وقف به زوجها قبل مصرعه . لم تشر ادنى اشارة الى هول خطبها وفداحة خسارتها لانها كانت قد وهبت نفسها للعلم . اما حزنها فلها وحدها تنطوي عليه في ساعات وحدتها الاليمة

واذا كانت مدام كوري قد احرزت جائزة نوبل مرتين مرة مع زوجها والاستاذ بكريل ومرة وحدها فليس ذلك من المصادفات بل هو نتيجة العبقرية والجهد . وليست تربيتها لابنتها ايرن — التي نالت جائزة نوبل كذلك مع زوجها الاستاذ جوليو — بأقل مقاماً في تاريخ العلم الحديث من بحوثها العلمية المبتكرة

ومن اشعة النور التي ادخلت الغبطة على حياة هذه المرأة الفذة ان اتيح لها ان ترى بلادها — بولندة — وقد تحررت من قيود الغاصبين وان أتيح لها ان تسدي اليها خدمة اذ وهبتها مقداراً من الراديوم كان قد اهدي اليها جزاء لها على ما صنعت

ان كاتب هذه السطور لم يقرأ في السنوات الاخيرة كتاباً أرضى نفسه وعقله كسيرة « مدام كوري » وما ذلك الاَّ لان العظمة العقلية العلمية في هذه السيدة حاذت عظمتها الخلقية واتسقت معها

على هامش السياسة

بعض مسائلنا القومية — تأليف الدكتور حافظ عفيفي باشا

« الصحة العامة في مصر . التعليم . مسائلنا المالية . مسائلنا الاقتصادية » موضوعات عالجها صاحب السعادة الدكتور حافظ عفيفي باشا في كتاب أصدره أخيراً بالعناوين الموضوعين في رأس هذا المقال . وهي من أمهات الشؤون الداخلية التي تحتل المقام الاول في خطب العرش وتحاول الوزارات التي تتعاقب في الحكم والاحزاب التي تنتمي هذه الاحزاب اليها ان تجد لها حلولاً . فاذا جاء وزير سابق وسياسي معروف بصدق وطنيته وعظيم خبرته وسعة علمه وساهم بنصيب من البحث في هذه الموضوعات الهامة فان عمله يقابل بالتقدير وما يعرب عنهُ من آراء يصادف ما هو جدير بهِ من عناية واهتمام

وقد مهد الوزير الكاتب لبحثهِ بمقدمة بسط فيها غرضه فنوَّه بأن الاستقلال السياسي الذي نالتهُ البلاد ان هو الاَّ وسيلة للاصلاح الداخلي . وقال ان مصر تملك كل وسائل الاصلاح وأسبابه غير ان بلاداً كثيرة سبقتها في ميادينهِ وهي دائبة الجري أمامنا بخطى أسرع من خطانا والمستقبل للامم السابقة في ميدان القوة والعلم والمال . ثم قال : انهُ حاول ان يشرح في هذا الكتاب باختصار طائفة من مسائلنا لم تحل بعد وانهُ حاول ان يصف ما اعتقده حلاً معقولاً لها وهو لا يدَّعي الكمال فيما عرض من حلول فقد يصل غيره الى ما هو أحسن منها وأفضل ولكنهُ يدَّعي انهُ فكَّر طويلاً فيما كتب واستشار كثيراً من العارفين فيما اقترح ودرس المسائل التي تعرَّض لها دراسة مستفيضة »

وأجمل من ذلك قوله : « لم أقصد بما كتبت مصلحة سياسية شخصية فلست من المشتغلين الآن بالسياسة الحزبية ولا أنوي الاشتغال بها ولهذا ايضاً لم أقصد دعوة لطائفة سياسية معينة او انتقاداً لجماعة بالذات . بل أزيد على ذلك اني مقتنع بان طبيعة المسائل التي تعرضت لها هي من نوع المسائل العامة ذات الصبغة الاهلية التي يجب ألاَّ تختلف في أسسها الجماعات السياسية لانها لا تصلح بطبيعتها لتكون ميداناً للمنافسة الحزبية . ويجب ان يتعاون الجميع على ابعادها عن هذا الميدان واعتبارها مسائل قومية لا تحل الاَّ بسياسة قومية يرضاها الجميع ويؤيدها الجميع . فان جميع الحلول الممكنة والمعقولة تحتاج في تنفيذها الى زمن طويل وسياسة مستمرة وسيتداول الحكم في هذا الزمن وزارات مختلفة ولا تزال هذه المسائل في دور التنفيذ فاذا لم يتفق ساستنا عليها هدمت كل وزارة ما بنت غيرها الخ »

وأشار الوزير بعد ذلك الى نظام الحكم الدستوري وحاجته الى الاحزاب المنظمة ذات البرامج المفصلة وكيف ان احزابنا شغلت بالمسائل السياسية الكبرى وقد سوِّيت هذه المسائل فلم

يبقَ لها عذر في التأخر عن وضع البرامج المشار اليها . وانتقل الى نقد مظهر من مظاهر الحكم الدستوري فقال :

« ويجب ان يفهم انصار الحكم الدستوري في هذه البلاد ان هذا الحكم بما يقرر للجميع من حرية تامة في ابداء الرأي وبما يستند اليهِ من حق الجميع في الانتقاد داخل المجالس وخارجها وبما يفرضهُ على الوزراء من ضرورة الحضور الى المجالس والاشتراك في مناقشاتها والرد على ما يوجه اليهم فيها من اسئلة وتقديم ما يطلب منهم من بيانات . يقلل كثيراً من الوقت الذي يستطيع الوزراء صرفه في عمل وزاراتهم وهو العمل الاساسي الذي جاءت الوزارة للاضطلاع بهِ . . . . وينتظر الجميع ان تقوم بتنفيذه فوراً . . . ويعتبر تنفيذه الثمرة الوحيدة التي تجنيها الامة في النهاية من الاستقلال السياسي ومن الحكم النيابي »

قال : « والا اذا صرف الوزراء صباحهم في مقابلات الزائرين والشاكين والمحتجين والملتمسين من النواب والشيوخ والاصدقاء والناخبين ، وما بعد ظهرهم داخل المجالس النيابية للاشتراك في مداولاتها ومناقشاتها ، وليلهم في حضور الولائم وتحضير الخطب والردود على الاسئلة والاستجوابات البرلمانية فمتى يا ترى يتفرغون للعمل الاساسي الذي جاءت الوزارة للقيام بهِ . . . . . اني ادعو مخلصاً انصار الدستور لتدبر هذه الحالة ووضع حدّ لها »

وختم مقدمته بقوله « ويجب ألاَّ ينسى ساستنا واهل بلادنا ان مصر بمركزها وثروتها استهدفت في جميع ادوار تاريخها المعروف وهي لا تزال مستهدفة الآن وفي المستقبل لاطماع الطامعين من المستعمرين والفاتحين ولا امل لها للوقاية من هذا الخطر الاَّ باصلاح جميع شؤونها وتحسين جميع مرافقها وتجديد نشاطها وقوتها وتقوية جميع معدات الدفاع الجسمية والعقلية والمادية فيها »

وبعد هذه المقدمة التي تضمنت ما تضمنت من صراحة في القول عرض الوزير للمسائل الاربع التي تقدم بيانها وبدأ بمسائل الصحة العامة إما لانهُ طبيب يهتم اهتماماً خاصًّا بها وإما لانه يعتقد ان الصحة اساس الحياة او للامرين معاً . وقد تناول في بحثه تحسين مياه الشرب في القرى والمجاري العامة واصلاح منازل المدن وابادة الحشرات الناقلة للامراض وتحسين غذاء الشعب وزيادة المناعة من الامراض والمستشفيات

وفي التعليم تناول سياسته وأغراضه ومناهجه واللغة العربية وأجور التعليم والعناية بصحة التلاميذ والرياضة البدنية وضرورة بناء مباني المدارس واستخدام السينما في دور التعليم والتعليم الحرّ والالزامي والجامعي والفني وقد كان جانب التشخيص للعلّة غالباً على جانب العلاج

وفي المسائل المالية تكلم عن السياسة المالية ومصروفات الحكومة ونفقات مشروعات الاصلاح وايرادات الحكومة والضرائب

وفي السياسة الاقتصادية تكلم عن تحسين الموارد الزراعية وانتخاب البذور ومقاومة البحوث الزراعية العالية وتجديد الاساليب الزراعية ونشر الدعوة الزراعية وبنك التسليف الزراعي وزيادة الانتاج الزراعي وأصلاح الاراضي البائرة

وتكلم عن الصناعة والتجارة وكل ما يتعلق بهما وأشار بما يؤدي الى تنشيطهما واستنار في كل ما اعرب عنه من آراء وحلول باحصاءات وأرقام وأيد في كثير من آرائه ما يكتبه الباحثون والمفكرون في الصحف في هذه المسائل . والكتاب جدير بأن تنقل منه الصحف والمجلات فصولاً برمتها لان مجرد سرد عناوين الفصول لا يدل القارىء على ما عاني الوزير من مشقة في بحثه وما ابدى من آراء سديدة

وحبذا الحال لو عني المقتطف بتلخيص آراء المؤلف في مسائل الصحة والتعليم وغيرها هههه

طه حسين — دراسة وتحليل

بقلم الدكتور اسماعيل احمد ادهم — رسالة في ٥٨ صفحة — مجلة « الحديث » حلب ، ١٩٣٨

الدكتور اسماعيل احمد ادهم شاب يشارف الثلاثين . الاَّ انهُ جمع بين يديه بضاعة علمية ذات شأن ، تتجاذبها الفلسفة والعلوم الطبيعية والمشرقيات ، ويدل عليها تلك الشهادات التي نالها والمؤلفات التي نشرها ، وتصيها مدوَّنة بقلم الاستاذ سامي الكيالي في مقدمة هذه الرسالة

حقًّا ان بحث الاستاذ الدكتور أدهم أقرب الى الدقة والمتانة منهُ الى التفنن والتخمين ، ذلك بأنهُ قسم موضوع بحثه تقسيماً معقولاً فجعل الفصل الاول تاريخ حياة طه حسين وتحليل شخصيته بالاضافة الى نشأته وتربيته الاولى والثانية وبيئته واتصاله بعلماء الفرنجة في الجامعة المصرية ثم التحاقه بالسوربون ونتيجة حياته الزوجية ، ثم انهُ لم يغفل النظر في مجرى الحياة الباطنة من عوامل الكبت ونزعات العقل الباطن . واما الفصل الثاني فيتناول مذهب طه حسين في النقد الادبي ومذهبه الفني . والفصل الثالث — وهو خاتمة الكتاب — يعرض رأي طه حسين في الدين وغير الدين ثم بعض آراء معاصريه فيه

وخلاصة هذا البحث المستفيض الضارب الى التثبت العلمي في تفاصيله ان مؤلفات الدكتور طه حسين العلمية « في غاية النفاسة ولكن قيمتها العلمية محدودة » لان الدكتور طه حسين « لم يستوف الكثير من التحقيقات العلمية في بحوثه » ، لاسباب يعرضها الدكتور ادهم (ص ٣٠ — ٣١) ولانهُ « اسرف في الاستنتاج ولم يتحوط في الدراسة » (ص ٣٤) . ثم يشير الدكتور ادهم الى متابعة الدكتور طه حسين لهواه في نقده الفني (ص ٤٣) . وفي رأي الناقد أن الدكتور طه حسين ينظر الى الدين على انهُ وضع اجتماعي محض (ص ٤٧) ثم انهُ فنان قبل كل شيء

وسواء أصاب الناقد او أخطأ فما لا شكّ فيه انهُ عمد الى بحثهِ عارفاً بما يقول وذلك لتكونهِ من الناحية العلمية، وغير هياب من قول ما يرى وذلك لتحرر فكره (أنظر مثلاً ص ٣٧ : جهل الشرق العربي وانظر ص ٤٠)

ومما يؤخذ عليهِ — بعد هذا — انهُ يستعمل ألفاظاً وتراكيب في غير مواضعها فتختلط مفاداتها على القارىء العربي . من ذلك قوله : « فيأتيك (طه حسين) بصور من الحياة فتخرج غارقة في تهويل واسراف . . . » (ص ٢٦) فما التهويل والاسراف ههنا ؟ ثم قولهُ : وتحليل شخصيته (اي طه حسين) من الوجهتين النفسية والاثنولوجية » (ص٢٧) و « الاثنولوجية » لفظة نابية ههنا لان معناها المعروف عند علماء التاريخ الاجتماعي لا توافق ما يريد الناقد

وبالجملة فقارىء هذه الرسالة يعترف لصاحبها بالدراية بالبحث المستقيم ويخرج منها والدكتور طه حسين يبدو له في الجملة كاتباً قويًّا ومفكراً حرًّا وعالماً متفنناً ب.ف.

محمود كامل

أنا وأنت — ٢٤١ ص من القطع المتوسط

استعار المؤلف عنوان الكتاب من مجموعة من الشعر الفرنسي للشاعر الرقيق پول جيرالدي وكان في نيته ان ينقل المجموعة الى اللغة العربية ثم بدا لهُ ان القارىء المصري لم يعتد هذا الضرب من الكتب فرأى ان يجعل الكتاب مجموعة من القصص المصرية يفصلها بعضها من بعض مقطوعة عن شعر جيرالدي

والاستاذ محمود كامل صاحب مجلة « الجامعة » يعنى بتأليف القصة والكتابة في فنونها منذ زمن غير قريب . واتجاهه في تأليفه واقعي محض فهو يلاحظ ما يجري في البيئة المصرية ثم يدوّنهُ مع شيء من التصرف لجعل القصة قطعة أدبية تلطف مداخلها ومخارجها. والاستاذ كامل لا يعنى بتشذيب الاسلوب فهو يكتب على الفور ولا يحب مراجعة ما يكتب لالحاح قلمه على المواصلة . وفي المجموعة ما هو مكتوب باللغة العامية (رواية الخائنة مثلاً) ، فكأن هذا اللون من الكتابة لا يزال راغباً في البقاء . ومما صدمنا في تضاعيف الكتاب ان المؤلف يقول في وصف شعر حسناء أسود فاحم أنهُ كتاج من «العاج الاسود» (!) (ص ١٤٨) . ثم انهُ بلغ بهِ انصرافه عن تهذيب العبارة العربية الى ان ينقل بيتاً للشاعر الفرنسي جيرالدى هكذا : « ان ما يقوله الناس كلام فارغ » (ص ٧ وهي الصفحة الاولى من مضمون الكتاب) . وقد رجعنا الى النص الفرنسي فاذا هو : Ce qu'on dit c'est si vide

فما ضرَّ المترجم لو قال : ان الكلام هباء . أو ، لا ثروة فيه ، أو ، لا يغني عن الشعور شيئاً (وهو المعنى المقصود بلفظة vide الفرنسية) ب . ف .

مطبوعات الحكومة العراقية

رسائل نفيسة في آثار العراق

أهدت الينا إدارة الآثار القديمة في العراق سلسلة من الكتب الصغيرة النفيسة الدائرة على وصف أشهر الآثار القديمة في تلك الربوع وصفاً فنيًّا وأثريًّا دقيقاً ومزينة بصور كثيرة حسنة الطبع . ومنها رسالة في « الاخيضر » وهو قصر قديم داخل حصن منيع مشيد في قلب البادية في الجهة الغربية الجنوبية من مدينة كربلا ويبعد عنها نحو خمسة وخمسين كيلومتراً . ويمتد على مقربة من القصر وادٍ رملي يعرف بين البدو باسم وادي الأبيض . وعند الاخيضر تلتقي عدة طرق صالحة لسير القوافل توصل رأساً الى النجف الشريف والكربلاء والدالية من جهة والى عين التمر وواحات شفاثة والرحالية من جهة أخرى. ولذلك يصح القول ان الاخيضر مشيد في موقع تتلاقى فيه طرق القوافل القديمة التي كانت تمتد بين البصرة وحلب من جهة وبين وادي الرافدين وبادية الشام وهضبة نجد من جهة أخرى . ومن الغريب ان تاريخ القصر والحصن غير معلوم بالضبط على الرغم من ضخامة بنائه ودقة تخطيطه وأهمية موقعه وذلك لأنه لا يوجد في القصر او الحصن كتابة تدل على شيء من تاريخه وليس في كتب التاريخ والجغرافية القديمة اشارات صريحة تدل عليه وأقدم الاشارات التي تدل عليه دلالة أكيدة ترجع الى القرن السابع عشر حيث شاهده بعض الروّاد من الاوربيين كدلا فاله في أوائل القرن السابع عشر ونيبهور في أواسط القرن الثامن عشر وماسينيون في أوائل القرن التاسع عشر . ولذلك ترى دائرة الآثار العراقية ان ما يعرف عن الاخيضر لا يتعدى حدود التخمين والفرض

والرسالة تحتوي على وصفه بالتفصيل وعلى الآراء فيه وعلى ٤٦ لوحة و ١٣ شكلاً

***

ومنها رسالة في جسر المستنصر الواقع على بعد تسعين كيلو متراً من مدينة بغداد شمالاً على الطريق المؤدي الى سامرّاء فتكريت ، بالقرب من قصبة بلد ومحطتها وهو مشيد على مجرى نهر الدجيل باتجاه « الشمال ، الجنوب » تماماً . والجسر قائم على اربع قناطر فتحة كل قنطرة من الوسيطين ٥ امتار و ٨٠ سنتمتراً وطول الجسر التام ٥٤ متراً وعرضه [illegible] سنتمتراً . وقد سمي هذا الجسر « جسر حربي » نسبة الى مدينة حربي التي تقع اطلالها في الجهة الجنوبية الغربية منهُ وقد كانت مشهورة بالمنسوجات القطنية وذكرها ياقوت في معجم البلدان وفي انقاضها قطع كثيرة من الخزف . والظاهر انها قديمة وكانت تعرف بهذا الاسم في صدر الاسلام

وتحتوي الرسالة على عشرين لوحة بديعة تبدو فيها النقوش والكتابة الممتدة على جانبيه في كامل روعتها الفنية

ومنها رسالة في خرائب بابل وبورسيبا والاولى واقعة على ٩٥ كيلو متراً الى الجنوب من بغداد عند طريق بغداد الحلة والوصول اليها متيسر من بغداد بسيارة تستغرق ساعتين او بالقطار ويستغرق اربع ساعات . والجزء من الرسالة الخاص ببابل يشتمل على نبذة عن تاريخها ثم اخرى عن حفرياتها فثالثة عن تخطيطها استناداً الى نتائج الحفريات وما فيها من حصون وقصور ومعابد ومساكن اما خرائب بورسيبا فتبعد عن بابل نحو نصف ساعة بالسيارة

والحق بالرسالة خارطتان احداهما لبابل والثانية للمدينة الداخلية ببابل و ١٢٨ رسماً وصورة لاهم الآثار وتخطيط بعضها ومن اجملها صورة ثور مفشى بالمينا من باب اشتار ومنظر تصويري لتحصينات المدينة الداخلية وآخر للمساكن وثالث لمعبد ننماخ ورابع لبرج بابل

***

ان بلاداً كالعراق غنية بآثار الحضارات القديمة المجيدة لا بدَّ ان يكون فيها متحف يحتوي على نفائس لا تقوَّم بمال . ودليل المتحف العراقي الذي بين أيدينا دليلٌ ناطق على صحة ذلك ففي احد أبهائهِ آثار العراق القديمة التي ترتد الى عصور ما قبل التاريخ ولا سيما اواخر الالف الرابعة واوائل الالف الثالثة قبل الميلاد . وفي بهو آخر آثار تمثل غير قليل من الصناعات التي نشأت في العراق خلال المدة التي تمتدُّ بين دور الاسكندر الكبير في القرن الرابع قبل الميلاد واواخر الدور الساساني في القرن السابع الميلادي تقريباً . وقد أشرنا الى هذين البهوين للتمثيل فقط

ونذكر اننا شاهدنا في المتحف البريطاني بلندن أجمل الآثار التي استخرجها «وولي» من أور الكلدانيين وهي من أبدع ما تقع عليهِ العين فعسى ان يتاح للعراق استرجاعها وحفظها في متحفها ببغداد

ويتبع هذا الدليل دليل آخر صغير للقصر العباسي — وهو المعروف عند الناس بقصر المأمون — وهو معرض الغرض منهُ ان يحتوي على الصور والخارطات المتعلقة بمدينة بغداد ومبانيها الأثرية في الدرجة الاولى والمتعلقة بالمدن والمباني الاثرية العراقية الباقية من العهد الاسلامي في الدرجة الثانية ثم استعمال بعض حجره لمعارض موقوتة تعرض فيها صور ونماذج من نفائس الآثار التي أوجدتها الروح العربية في أقطار العالم المختلفة لكي تساعد على تنمية الذوق العربي واحياء الريازة [1] العربية في العراق

وقد وضعت هذه الرسائل النفيسة باشراف الاستاذ ساطع بك الحصري مدير ادارة الآثار العراقية فلهُ ولمن عاونهُ الشكر الجزيل

(١) المقتطف : جاء في محيط المحيط الريازة حرفة الراز والراز رئيس البنائين واصله رائز . فالمقصود على ما يلوح ما نعبر عنه بلفظ « المهارة »

سندباد عصري

تأليف الدكتور حسين فوزي مدير ادارة الاحياء المائية والمصايد ٢٣٨ صحيفة من القطع المتوسط

ليس ادعى الى إبراز معارف الكاتب ، واظهار إتجاهات ذهنه ، ومبلغ تجربتهِ وفهمهِ ، وتوضيح يقظة قلبهِ وإحساسهِ ، والاعلان عن شخصيتهِ وطابعهِ من كتب الرحلات . فان هو حاول ونجح في اخفاء بعض هذه المزايا ، والخصائص في غير كتب الرحلات ، فهو لا ريب عاجز عنهُ فيها ، لان كتب الرحلات كالقصة تتسع لكل صور الحياة ، ولان السفر يلزم الكاتب على الانطواء كثيراً على النفس ، وانعام النظر كثيراً في معالم الاشخاص ومظاهر الاشياء ، والتشوّف كثيراً الى ما وراء الظواهر والمعالم والحنين الى المجهول ، وتقسره على اعترافات لا يقوى على كتمانها او تغشيتها

فمؤلف هذا الكتاب ، طبيب في الاصل ، انصرف عن علاج الاجسام الى علوم الاحياء المائية ، فبلغ فيها رفعة ، وتسامى الى مكانة اعترف له بها علماء لا يحابون في العلم ، فكان المفروض فيهِ ان يبرز روح العلم في هذا المؤلف الذي اختصهُ بتدوين مشاهداته ووصف رحلته العلمية في المحيط الهندي — وهو المنتدب رسميًّا مع طائفة من علماء الانجليز لدراسة طبيعة الاحياء في أمواه هاتيك البحار — ولكن نحيزة الادب المفطور عليها ، وهي غلاَّبة قاهرة ، قسرتهُ على التجرد من خاصية العلم التقريري [1] وبحوثه الجافة ، فسرعان ما اندفع مع الطبيعة الصادقة يجوب اجواءها ، ويتذوق لبابها المكنون ، ولما كانت نفسهُ شاعرة مدركةً ، تفقه القصد وتحيط بالمعنى ، ولما كانت طبيعة الاماكن التي زارها وكان لأهلها خليقة يمتازون بها عن قطان المعمور قاطبة ، قريبة من نفسهِ وعقلهِ ، لم يسعهُ سوى سكب روحه كلها في هذا الكتاب ، فجاء يجمع بين رواء القصة ، وعذوبة الحديث وسعة الاطلاع ، واستلهام ميول النفس وتقلباتها ، وبين درس طبائع شعوبٍ أقامت مدنيتها وحضارتها ، وشادت فلسفتها وعقائدها ، على دعائم صوفية ما برحت مثاراً للبحث والدرس و المقارنة بينها وبين ما جاء بعدها من مثيلاتها حتى مدنيتنا وفلسفتنا وعقائدنا العصرية

أول ما يطالعك في هذا الكتاب شخصية المؤلف وطابعه باديان في صراحته القول الصدق ، أو ما يعتقد انهُ الصدق . وتصويره بعبارات غاية في الوضوح والبساطة ، وتسميتهُ الاشياء بأسمائها بدون ما مواربة ، وتحليله الامور وتبسيطها بغير ما تحذلق ، تارةً جادًّا وطوراً ساخراً ، ثم سعة اطلاعهِ ، ووافر دراستهِ ، ورحابة آفاقهِ في فلسفة العقائد ومقارنة الاديان . فالفتاة البربرية التي رقصت أمامه عارية انما « خلعت رداءها بسهولة رجوعاً الى طبيعتها وحياتها الاولى ، وان

(١) المقتطف : روى المؤلف قصة الرحلة من ناحيتها العلمية في مؤلف آخر

جلبابها وضع من الاوضاع لم تفهم ضرورته بعد » وان غناء هذه البربرية المسلمة ورقصها «صلاة وحشية الى صنم الحرج في صحبة العشيرة تدور حول قربان آدمي » والفقير الهندي الراكب رأسه انما هو « يشخص الى ربهِ بقدميهِ » وان منظر البرهمي وقد غطى نفسه من أم رأسه حتى اخمص قدميهِ برماد نارٍ اشتعلت تحت اقدام « جانيشا » قد أفزعه كما أخافتهُ جهالات هؤلاء المتعبدين المظلمة، فصرخ مردداً عبارة « جوته » المأثورة وقد قالها عند احتضاره « قليلاً من النور أيها السادة » . وان المدن المدفونة تموت كالناس موتاً طبيعيًّا ولكن «أنَّى لنا الكاتب الذي يصف لنا اللحظات الاخيرة من أجل المدن المهجورة»

الانسانية الدنيا التي تعمهُ في ظلام الجهالة تحيط حتى الديانات السامية بخرافات تكاد تلقي اليأس في نفوس الانسانية العليا التي تسعى أبداً الى الاخذ بيد البشرية وأكثر ما تعشش هذه الخرافات وتتوالد وتتكاثر في الهند ، فالبوذية فيها « حركة تحرير كبيرة من الارهاق الهندوسي، من آلهتها القساة ، وفلسفتها المرهقة ، والقضاء على نظام الطبقات الظالم ، كما كانت المسيحية حركة تحرير الطبقات المذلولة في الامبراطورية الرومانية » ولان الروح الهندوسية روح استسلام وايمان ، وتجرّد تضرب مثلاً عليا للتجرد والتقوى « ولكني أومن ان الروحانيات تضيء للانسانية طريقها نحو السمو الروحي ، ولكن قوة هذه الروحانيات تضعف اذا اكتفي بها سلاحاً » بيد أن البوذية صراع ذهني بين الرجل ونفسه « وفي رأيي ان نجاح اليابان يعود بعضهُ الى بساطة البوذية (التي نأت عن الهند واستوطنت اليابان والصين وبورما وسيلان) فلست أتصور اليابان بالغة ما بلغت ، لو ان العقائد الهندوسية تنيخ فيها على عقول الناس وتخنق روح الحرية فيهم »

«وإني لمعجب بغاندي، معجب بأثر روحانيتهِ ضد البراهمة، معجب بغاندي وأمثاله من القادة الروحيين ، معجب بكل فكرة تطهر البشرية من الحمأة . ولا ترتاح نفسي الى الحضارة الهندية، بل أفضل بلا تردد الحضارة اليونانية ، او ربيبتها حضارة أوروبا بعد تخلصها من نير القرون الوسطى ، لانها حضارة بين الروحية والمادية ، تنادي باطلاق العقل البشري من عقاله ليفكر غير مقيد ، لقد سبق فأخرجت حضارة قديمة عبادة تناسلية مرذولة ، ثم اعقبتها أخرى اخرجت عبادة الجمال للجمال ، ثم ثالثة أخرجت العبودية والذلة . ثم رابعة اخرجت الفكر الحر والاحساس الرفيع . اما في اوربا فقد خرج الفرد يبحث عن الحقيقة والجمال ، فوجد شجرة المعرفة فأكل منها »

هذه بعض لمحات من كتاب « سندباد عصري » وفي زعمي ان آيته توطئة قال فيها « درجت على حب الغرب والاعجاب بحضارة الغرب ، وقضيت أهم ادوار التكوين من عمري في اوربا ، فتمكنت اواصري ، وتقوت دعائم إعجابي ، فلما ذهبت الى الشرق ، عدت الى بلادي ، وقد

استحال الحب والاعجاب ايماناً بكل ما هو غربي ». ثم عاد فافرد لهذه التوطئة فصلاً خاصاً « الشرق والغرب » هو بمنزلة الجذع تفرعت منهُ غصون الكتاب قال في ختامه « ولكني وقد عرفت بعض ما أحب ان اعرف عن الهند ، وعرفت بعض ما احب عن اوربا ، اشد ايماناً بالغرب وحضارة الغرب ، واكرر قولي ، مهما كانت الاخطاء التي ارتكبت فان فضيلة هذه الحضارة (الغربية) انها تملك اداة أصلاح ذاتية هي « التفكير الحر »

ليس الكتاب مجرد وصف مشاهدات، واستلماح عادات ، ودراسة فلسفة ، وزيارة معابد، وانما هو صرخة داوية في اذهان من لا تكفيهم الاشارة ليفهموا معاني التفكير، والحياة الحرة، والاحساس بالانسانية . وقد خرج المؤلف على جزائر سيشل ، وفي شوارع « ما هي » يتأثر خطوات الزعيم الخالد ، الذي عانى في سبيل تحرير بلاده ، لا في عنفوان شبابه ، وانما في انحدار شيخوخته ، وحج الى منفى الزعيم الذي لم يقهر وجاس موطىء اقدام الحرية التي لا تغلب

قلت ان المؤلف رجل علم في الاصل، ولكنهُ اديب وفيلسوف ، إلاّ ان أدبه وفلسفته قائمان على حياة فنية ونشاط باد تشيع فيها الروح وتثب

لزم السفينة طوال تسعة اشهر لم يكن يطأ الارض في خلالها الاّ مرات معدودات فلقي مرة الراقصة البربرية وقد تحدثتُ عنها ثم لقي ابنة البنجاب وهي « هذا الشرق الطويل العريض الفارغ ، هي تلك الشعوب التي ما زالت تفكر وتحس باحساس القرون الوسطى » ولقي مرة ثالثة فتاة مجوسية من أتباع زرادشت فاختلطت ذكراها في مخيلته بعادة الدفن عند المجوس ، ويعني بالدفن « التصرف باجساد الموتى » ويقول « المجوس لا يدفنون موتاهم ولا يحرقونهم ، وانما يتركونهم للعقبان تنظف عظامهم تنظيفاً » ولقي مرة رابعة فتاة انجليزية مسترطنة عباسا فرآها تختلف عن النساء الانجليزيات دفيها من « سمو الانوثة وانتصار الرخاوة » والتعليل في ذلك عائد الى جو افريقيا الاستوائي الذي جعل المرأة الانجليزية « مزدوجة التأنيث »

أخشى ان تغريني البحوث الشائقة في الكتاب فاقتطف اطايبها او انقل أكثرها ، وحسبي أن أقول ان جولة الدكتور حسين فوزي في المحيط الهندي قد استكملت تسعة شهور ثم ولد بعدها هذا الكتاب ، واني قمين انك متى بدأت في قراءته ، فلن تتركهُ حتى تأتي على صفحته الاخيرة ، وفي نفسك شوق ورغبة الى قراءته مرة ثانية

اوصيك ايها القارىء بأن لا تتحرج اذا صدمتك بعض كلمات في الكتاب لا وجود لها في قاموس اللغة امثال « استكرد ، وسفر كعّابي ، وشكّه مقلب ، نقشهُ شلّوت او بونيّه ، » وغيرها من الكلمات العامية التي يحلو للمؤلف إقحامها ليسوّغ دعوة له مزمنة في العامية الفصحى ، فان تسلسل هذه الهنات لا يغضُّ من سبحات روحية فياضة بأسمى معاني الاعراب عن خلجات النفس

في يقظتها وفي غيبوبتها إن بالايماء والايحاء ، او بالنظرة او الرنو ، او باللفتة الصوتية او الحوشية

« ما شجرة من الاشجار لولا الروح التي تنفخها المقيدة البشرية فيها ؟ ما السماء والارض والموج المزبد يتكسر على الشاطىء الرملي ، وما القمر ينعكس على مرآة البركة الهادئة لولا النفس الحساسة تتصل اتصالاً غير مفهوم بما لا تفصح عنه الطبيعة بلسان ؟ فقد لا تكفي العين والاذن لادراك روح الجمال »

« العقائد للنفوس البسيطة ، والانسانية الدنيا هي والاحساس الفني عند اهل الثقافة العليا ، طريق واحد لنتيجة واحدة : هز النفس البشرية هزاً رفيعاً عن الاحساسات المادية ، وطلاب الجسد الى الذروات الفكرية التي هي ملك خاص لهذا الحيوان المفكر ، حظي بها دون رصفائه من الحيوانات الاخرى » . ولقد استطاع الدكتور حسين فوزي ان يهز النفس الشرقية هزاً انمى لو يؤلها فيطهرها من الاحساسات المادية ليرتفع بها الى الذروات الفكرية فاستوجب الثناء

القاهرة حبيب الزحلاوي

ملحق تاريخ الآداب العربية

لكارل بروكلمن

ان المستشرق الاكبر الاستاذ كارل بروكلمن من أبعد المشتغلين بالمشرقيات صيتاً واعلاهم قدراً وأرسخهم علماً وأوسعهم اطلاعاً . واعجب ما اتى به هذا العالم انهُ وضع تاريخ آداب اللغة العربية سنة ١٨٩٨ اي وهو في العقد الثالث من عمره . فالتفتت الانظار اليه واتخذ مؤلفهُ حجة ودعامة في الشرق والغرب على السواء ، واليه رجع جميع من كتبوا في ذلك التاريخ امثال جورجي زيدان ونيكلسون وهوار وغيرهم . ولم يقف الاستاذ بروكلمن عند هذا الحد بل وضع بعد هذا ، معجماً سريانيًّا وأخذ يكتب الرسائل ويشترك في اخراج مجلات الاستشراق الالمانية وها هو ذا اليوم ينشر ملحقاً ضخماً لتاريخ آداب اللغة العربية المذكور . وقد ظهر من هذا الملحق الجزء الاول ونصف الجزء الثاني ، فجاء ضعف المؤلف الاول لما زاد عليه المؤلف من المصادر والمراجع والموضوعات . ومن يتصفح الكتاب تأخذه اساليب الانشاء لدى القوم وطرائق التدقيق والتقصي . وسنعود الى الكتابة فيه باسهاب يوم يتم ظهور الجزء الثاني ب . ف .

***

بدرت هفوتان في مقالي « تآليف المستشرقين » المنشور في « مكتبة المقتطف » العدد الماضي . احداها : « فرنسيس كرنكو » (ص ٥٩٩ ، س ١٠) والصواب : فريتس كرنكو — والاخرى : « الاب ملشور » (ص ٥٩٨ ، س ٥ و١٦) والصواب : ملشيور ب . ف .

الدسائس والدماء

صحف مطوية من تاريخ مصر الحديثة تكشف عن عظمة الشعب وبطولة زعمائه — تأليف احمد خيري سعيد — ١٤٨ صحيفة من القطع الوسط اخرجته مطبعة دار الترقي بمصر

لقد نهل الاستاذ احمد خيري سعيد من العلم اولاً ثم نهل من الادب . فلقد اوشك ان يكون طبيباً لما أن طغى عليه الادب واستأثر به ، فترك المشرط والمساعر الى الصحيفة والدواة . ولست اعلم أي الاداتين كان اولى به وأجدى عليه . أما الثابت فهو ان الادب قد استفاد به واستنارت بمجهوده جهات من أدبنا الحديث للاستاذ خيري سعيد فيها أثر ثابت. ولقد كان لمواهبه الطبيعية أثر كبير في نجاحه . فهو حلو الدعابة دائم المرح عميق الشك رضي النفس حسن العشرة . جده مزيج من الاستهتار بالاشياء مهاجَلَّت ونظرة عميقة في حقائقها مسوقة في فكاهة ، لونها الظاهر حلو أخاذ ، وباطنها مرارة تحرج الصدر وتبشس التفس. وهذه صفات قلما يحتاج اليها طبيب ولكن كثيراً ما تكون عدة الاديب للنجاح وأداته في طبع بيئته بطابع مستمد من خصائصه النفسية

جماع هذا تدركه مصوراً في لوحات مقروءة من كتابه هذا . فان « الدسائس والدماء » لم تقو على ان تنزع من المؤلف دعابته ولم تقوَ على ان تحول بينهُ وبين استهتاره بمن انحدر من ابطاله في هوة العدم . ولكنها كذلك ابرزت صورة من سوآت الحياة والتطاحن على الحكم واشياء الدنيا تغمر النفس بتلك الكآبة التي يحلو للمرء ان يعيش في ظلها ساعات مستعيناً بها على تلوين حياته وخطرات نفسه بذلك اللون الداكن المعتم ، فراراً من حسن ظنه بالدنيا ، بعد ان يكون قد أمعن في حسن الظن بها

* * *

والكتاب في مجموعته « رواية » تاريخية تظهر لك الحياة في عصر قريب من عصرنا هو آخر عصر المماليك . فاذا قرأتهُ وارتسمت صوره في مخيلتك عجبت كيف استطاع هذا الشعب المصري ان يخرج من تلك الغمرة التي شملتهُ حينذاك منتصراً وكيف بنى هذه المدنية التي تقوم من حولك وكيف أصبح شعباً حرًّا دستوريًّا اخذ بمد ببصره نحو المستقبل البعيد ويرجع بذاكرته الى الماضي السحيق ليستمد من القدم ومن الازل قوة يستعين بها على اقتحام طريقه الملتوي في عصر الحديد والنار . كل هذا تقرأه في أسلوب بيّن منسق وفي فصول صوّرت بعبارات وصفية نكاد تدرك منها ما سيتلوها ، كالستار المتقن فوق المسرح يوحي اليك بما سترى قبل ان ترى . ولا شكَّ في ان الكتاب ابتكار جديد ، ومن نوع مشوق جمع بين الفن القصصي والحقائق التاريخية وما أحوجنا اليهما معاً ، الى القصة والى التاريخ

رسالة المنبر الى الشرق العربي

٣٤٥ صفحة من قطع المقتطف — طبع بمطبعة المستقبل بالاسكندرية

ليس هناك ما هو أقرب الى التمثيل والتشبيه للخطيب المصقع والاديب المفكر الاستاذ فليكس فارس من الشلال المدّار المتدفق في قوّة وعزم ، الساخر بالاوضاع والحواجز ، المتشعب بقوة الاندفاع في منبسطات الاودية ومنعرجاتها

نعم ، إنك لتقرأ لفليكس فارس ما يلقيه على الناس من منابره فتحس في كل حرف نبرة من صوته ، وصدى لصرخاته يملأ كيان نفسك ، وما تزال تقرأ أو تستمع والحديث يستطيل ويتشعب فلا تدري ما الذي ساقك الى ما انت فيه وما سوف يسوقك اليه حتى يردّك الى مجرى حديثه ويعود بك الى غايته وقصده

وكأنما الشرق كان قد جمع في فتوّة فليكس وصباه تلك الميزة القوية التي شبَّت وقويت بعد ذلك فاستطاع بها ان يستهوي الجماهير بسحر لفظه واندفاع بيانه وحرارة القائه فبثّ فيه اكبر ما يستطيع صدر ان يحمل من معاني الحب والتقدير لوطنه حتى يذيعها على الناس ويمجّدها . فهو يقول انهُ نشأ نشأة الفطرة الشرقية المحرّرة من كل الطباع غريب في الفكر ومن كل استهواء دخيل في العاطفة . ولذلك فانهُ يشيد في كل محاضراته بما للشرق من مدنية قديمة تسحره فلا يرى حسناً الا فيه . وتستولي عليه فكرة جليلة ما ينفكُّ يذيعها بين سطوره — فكرة الوحدة الشرقية ونبذ الخلافات الطائفية والقومية . فما يختلف شرقيٌّ عن شرقيٍّ في الغاية التي اتجهت اليه حقيقة دينه ، ولا اختلف واحدٌ منهم عما يحسُّ الآخر من آلام وما يختلج في صدره من رغبات . . .

وقد تناولت رسالتهُ شتى الموضوعات الادبية والاجتماعية التي عالج فيها ما عالج من علل وأتى علينا فيها من احساساته ومشاعره ما تفيض به روحه وما استلهمتهُ من ينابيع الشرق الثرَّة التي تستهوي الكثيرين في هذا العصر المادي الذي أظمأ جوده النفوسَ الى نهلات من تلك الينابيع ، وقد أثبت بين هذه المباحث قطعٌ من عيون شعره ولعلَّ أروعها قصيدة « هاتف الخلود »

* * *

والجبران خليل جبران النصيب الاكبر من هذه الرسائل فقد حلَّل المؤلف في فصل من الفصول فلسفة جبران رسيانهُ وشرح في سياق كلامه كتاب النبيّ ، وعاد بعد ذلك الى جبران في فصل آخر على أثر صدور كتاب ميخائيل نعيمة فناقشهُ فيه — وان كان ما أورده في الصفحة ١٦٣ ردّاً على ما جاء بكتاب النعيمة في الصفحات ٣٠ و٣١ و٣٣ من كتابه ردوداً غير مقنعة —

إلاّ أنهُ فجيع في التدليل على بعض الردود الاخرى . ولعلَّ ما هال المؤلف من المواقف التي صوّرها الاجمة — بل ما هال الكثيرين من المعجبين بجبران — هو الذي دفع بهذه الحرارة الى قلم الاستاذ فليكس فارس فرأينا صفحات رائعة من الروح الشعري كسبها الادب العربي . . . ولعلّ ذلك محاولة منهُ لإخراج صورة أخرى عن جبران كما يراه هو

كذلك الفصل الذي تناول فيه الثقافة الشرقية بالدرس والتحليل ثم استطرد منهُ الى الكلام عن شاعرية فوزي المعلوف وعن مقدمة شاعر أسبانيا فلاسبازا المنشورة في ديوان « على بساط الريح » وهو من أبدع هذه الرسائل

ومن أمتع الفصول وأولاها بالمناقشة بحثه « منابت الاطفال » الذي عالج فيهِ مشكلة من أهمّ مشكلاتنا الاجتماعية هي اصلاح الاسرة . وفيه يتجلى تدفق الكاتب وتنوّع حديثهِ وتشبه ليلم بكل طرف من أطراف موضوعه

الصيرفي

المنصورة الثانوية

اهدت الينا مدرسة المنصورة الثانوية صحيفتها المدرسية التي يشترك في تحريرها طلبة المدرسة فوجدناها طرفة جميلة في طبعها وتنسيقها وتحرير موضوعاتها . ورأيناها غنية بفنون شتى في العلم والادب. اما أبواب المجلة فقد تناولت الشعر والقصة وباباً ظريفاً في النقد والفكاهة وأبواباً اخرى في العلم والاخلاق والاجتماع والبيئة المدرسية والنشاط المدرسي . وكلها محررة بأقلام نتوقع لها مستقبلاً عظيماً في عالم الكتابة كما نرجو لها مستقبلاً اعظم في بناء مجد الوطن

والصحيفة مصدرة بصورة جميلة لحضرة صاحب الجلالة الملك فاروق فكلمة التقدمة لحضرة الفاضل الاستاذ سيد ابرهيم ناظر المدرسة

ومما لاحظناه في تحرير هذه الصحيفة انها أفردت باباً خاصًّا للقران الملكي السعيد فدلت على الولاء الثابت للبيت المالك الكريم . وأفسحت صدرها للشعراء من طلبة المدرسة تشجيعاً لهم لعلّ منهم من يكون الشاعر الذائع الصيت . وصوّرت البيئة الاقليمية تصويراً صادقاً

أما القسم الافرنجي بالصحيفة فقد قام بتحريره أيضاً طلبة المدرسة باللغتين الفرنسية والانجليزية

والحق ان « المنصورة الثانوية » قد فتحت سبيلاً جديداً في التحرير الصحفي المدرسي ودلت بجمال طبع مجلتها وطرافة موضوعاتها وحسن تنسيقها على ذوق الذين قاموا بتحريرها أو اشتركوا فيه

على كيفك

شاعت في الولايات المتحدة الاميركية وانكلترا في العهد الاخير طريقة إصدار مجلاّت في حجم الجيب او أكبر قليلاً تحتوي على مقالات وفصول مختارة من المجلاّت السيارة والكتب ولكنها ملخصة بحيث لا يرهق طولها القارئ المستعجل ولا يفوّت عليه قصرها ما ينطوي فيها من فائدة . والمجلة التي شقّت هذا الطريق مجلة « ريدرز ديجست » الاميركية ثم تلتها مجلات أخرى من نوعها ولكنها على الغالب لا تجاريها

وقد رأت إدارة مجلة اللطائف المصوّرة ان خدمة الثقافة العامة في مصر تقتضي انشاء مجلة عربية من هذا القبيل فعهدت الى نجل صاحبها الفاضل باصدار هذه المجلة فاذا « على كيفك » المجلة الاولى من نوعها باللغة العربية وعلى نمط المجلات الاوربية والاميركية التي تقدّم ذكرها

فصول هذا العدد تجمع بين الفائدة والتسلية ، وهو يقع في مائة وست وعشرين صفحة مزينة بالصور الكثيرة وبست عشرة صفحة من الصور المطبوعة بطريقة الروتوغرافور

وحبذا الحال لو عني محرّر هذه المجلة بتلخيص بعض المقالات التي تنشر في المجلات والصحف العربية بعد استئذان أصحابها فتكون « على كيفك » رابطة جديدة من روابط الثقافة بين البلدان العربية الشقيقة

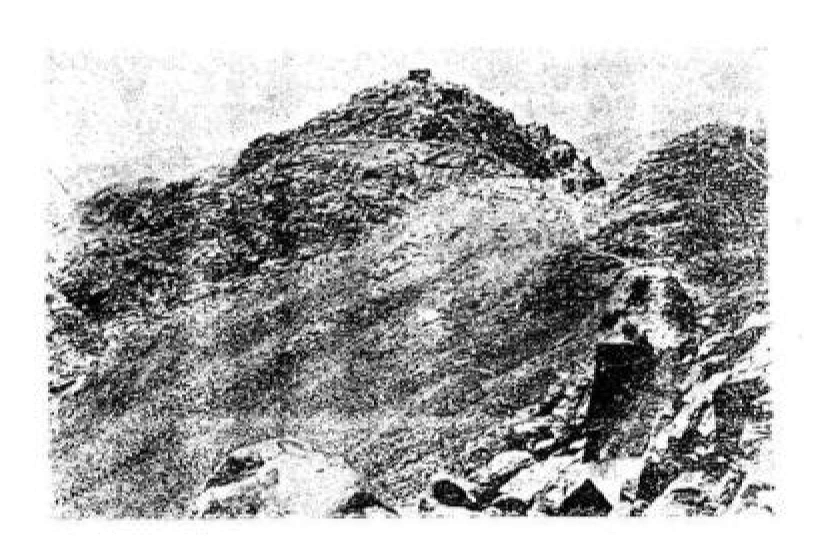
دليل لبنان

لبنان مصيف ممتاز لبلدان الشرق الادنى والشرق الاوسط فقد حبته العناية من المزايا الطبيعية ما يجعله يضارع أشهر مصايف العالم القديم ويفوقها كثيراً ولقد تغنى الشعراء من قديم الزمان بمحاسن لبنان وجمال جوه وطيب مائه وخصب تربته [illegible] المهندسون أخيراً [illegible] الطرق اتقاناً تاماً ومدوها الى جميع انحاء البلاد [illegible] بها لذة عظيمة لما يحيط بها من مناظر بديعة تخلب الالباب [illegible] ترى الاصطياف بالنور الكهربائي [illegible] الفنادق [illegible] وحداثتها [illegible] النور والماء في البهجة والنظافة وتوفير أسباب الصحة والرفاهية

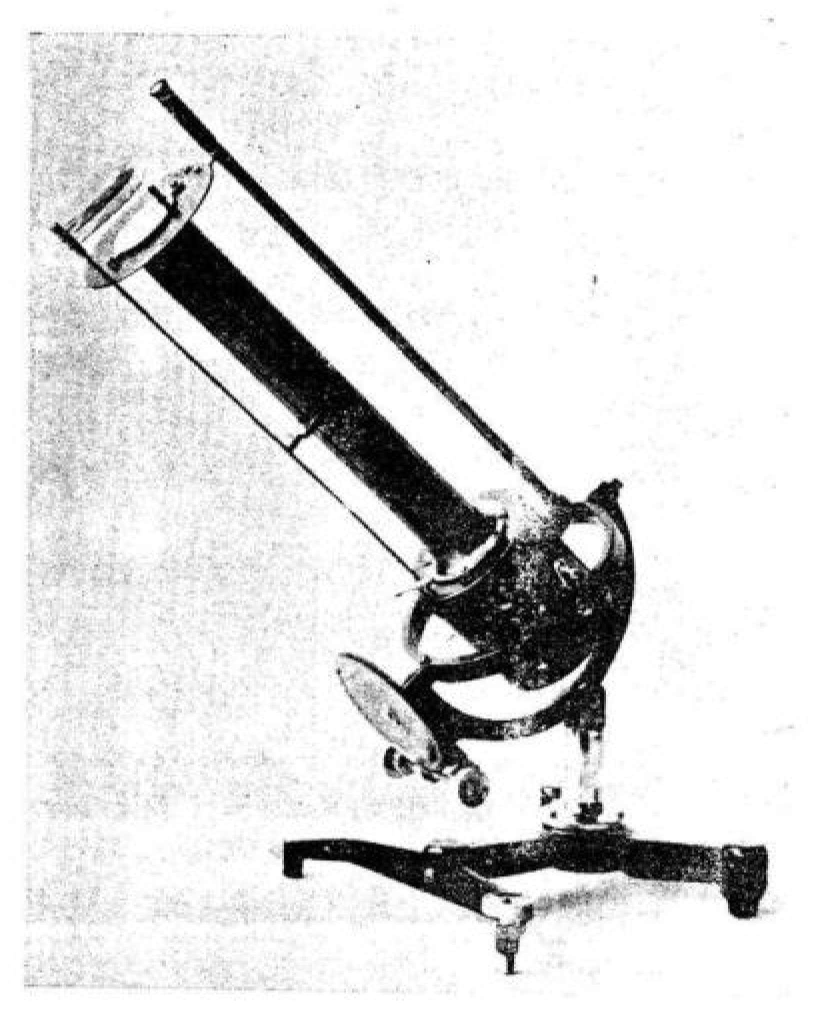
بهذا قدم سعادة خليل بك ثابت دليل لبنان الذي طبعته شركة فرج الله للسياحة وفي الدليل بيانات وافية عن كل مصيف من مصايف لبنان مع نبذة صغيرة عنه وبين فيها طرق المواصلات والفنادق والمنازل المعدة للايجار وغيرها



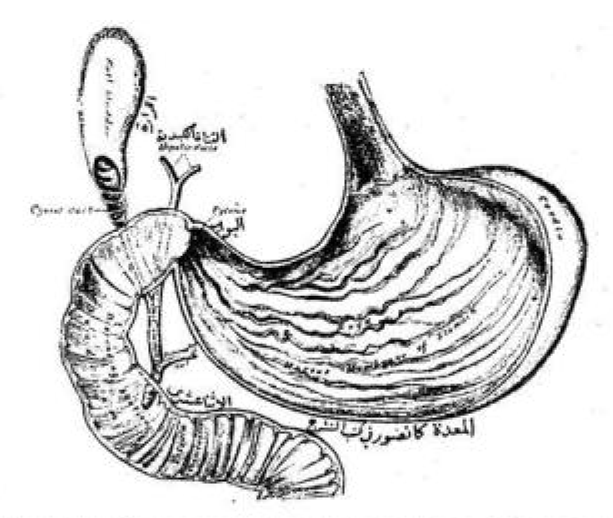
محط رصد الثابت الشمسي على قمة مونتيزوما ببلاد الشيلي حيث الارتفاع
٩٠٠٠ قدم فوق سطح البحر



محط رصد الثابت الشمسي على جبل سانت كاترين في سينا
المرصد على القمة ومسكن البعثة بين القمتين والارتفاع ٨٥٠٠ قدم فوق سطح البحر

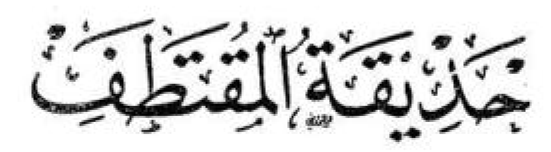


الجهاز الذي صنعهُ أبوت لقياس الثابت الشمسي ويعرف باسم جهاز « القرص الفضي » واسمه العلمي پيرهيليومتر Pyrheliometer





العليا صورة المعدة مفتوحة كما تصوَّر في كتب التشريح والسفلى صورتها الحقيقية كما صُوِّرت باشعة رنتجن



مختارات

من الشعر الرائع

للشاعر الفرنسي بودلير Baudelaire

[نقلها : خليل هنداوي]

بطرس وما صنع

للشاعر الفرنسي : جان ايكار

[نقلها : احمد أبو الخضر منسي]

الى الابتسام الهاجر

نموذج من الشعر الهندي

[للسيد ابو النصر احمد الحسيني الهندي]



البعث الالمانى

وبعد الانهيار في تسوية الحرب الكبرى

١ — انكلترا وروسيا

٢ — النمسا وايطاليا



فهرس الجزء الاول

من المجلد الثالث والتسعين


المقتطف





الجزء الثاني من المجلد الثالث والتسعين

١ يوليو سنة ١٩٣٨ — ٣ جمادى الاولى سنة ١٣٥٧

تفسير طبائع العناصر

بعدد الكهربات وترتيبها حول النواة

ما السرّ في ليونة الذهب وقساوة الكربون وسير التيّار الكهربائي

للفلزات اوصاف هي قوام شخصيتها على نحو ما للناس اوصاف بها يتميز انسان عن آخر. فبعض الفلزات كالذهب والفضة والنحاس ليّن يمدّ اسلاكاً ويطرق رقوقاً لا تزيد سماكة احدها على جزء من الف جزء من البوصة ومع ذلك تظلّ اجزاؤها متصلة مرتبطة بعضها ببعض. هذه الفلزات هي خير موصلات الكهربائية المعروفة . وهناك فلزات اخرى كالتنغستن والفناديوم والكروم والبزموت قاسية لا تلين فاذا طرقت بمطرقة تفرقت اجزاؤها كسراً او تحولت مسحوقاً. ولكن سلكاً من التنغستن هو خير ما يُستعمل في المصابيح الكهربائية المتوهجة لان هذا الفلز موصل رديء للكهربائية فمقاومته لسريان تيارها فيه يرفع حرارته حتى تبلغ درجة البياض. ومن بواعث الاغتباط ان درجة انصهاره عالية جداً

ولا يخفى ان الفلزات النقية عناصر كيماوية كالعناصر الاخرى — كالكربون والكبريت والنيون . فهل كشف العلم اسلوباً من الاساليب يمكّنه من تفسير هذه الخواص التي تميّز شخصية عنصر عن شخصية عنصر آخر او يجب ان نسلّم بانها خواص أغدقتها عليها الطبيعة وكفى. أفي وسع العلم ان يفسّر السرّ في ان الالماس — وهو كربون صرف — اقسى المواد المعروفة على الاطلاق ومانع لسريان التيار الكهربائي فيه . او ان النيون غازٌ والكبريت صلب قابل للتفتت وعازل

جيِّد ؟ وهل نستطيع ان نكشف عن السبب في لين النحاس وحسن توصيله للكهربائية ، وقساوة التيتانيوم وكونه موصلاً رديئاً لها ؟

ان السلوك الانساني مرتبط ارتباطاً وثيقاً بعوامل الوراثة التي تضبط الصفات الوراثية وكذلك تصرف العناصر مرتبط على ما يلوح بالكهيربات (الكهارب او الالكترونات). وقد انقضى اكثر من قرن من الزمان منذ أثبت دلتن ان قوام العناصر ذرات atoms وان ذرات كلّ عنصر متشابهة فاذا اخذنا شذرة من الذهب ونظرنا اليها فانما ننظر الى ملايين الملايين من ذرات الذهب مرتبة على نمط خاص وكل ذرة منها مرتبطة بالذرة الاخرى بطريقة خفية . وفي الالماس كذلك نجد هذا الترتيب ترتيب الذرات وهو أدق نظاماً منهُ في الذهب

فما هو العامل الذي يعين هذا الترتيب ؟

والجواب : هو عدد الكهيربات وترتيبها

نفذ العلم في العصر الحديث الى الذرّة ، فكشف ان الذرّة ليست كرة قاسية بل هي في نظر علمائه نظام معقد البناء . وقد تشبّه كل ذرّة بجماعة من الجنود في حالة المناورة . فالجماعات الكبيرة يقابلها بين الذرّات ذرات العناصر الثقيلة . والجماعات الصغيرة تقابلها ذرات العناصر الخفيفة . وفي قلب الجماعة تتركز القوة يقابلها في الذرة نواتها حيث تتركز الكتلة . وعلى حواشي الجيش الكشافون والحرّاس يقابلهم في الذرة الكهيربات التي تدور في مدارات بعيدة عن النواة . فذرات العناصر الخفيفة نجد فيها عدد الكهيربات الخارجية قليلاً ، على نحو ما نجد الكشافين والحراس الذين يحيطون بجماعة صغيرة من الجيش قلائل . وأما ذرات العناصر الكبيرة فتجد فيها الكهيربات الخارجية كثيرة ولها اكثر من مدار واحد على نحو ما يتحرك الكشافون الكثار حول جيش كبير في مناطق متراكزة متعددة . وكذلك نستطيع ان نتخيل الذرة كتلة مركزية تعرف بالنواة ، صغيرة الحجم كبيرة الكتلة ، تحيط بها على مسافات منها الكهيربات ، وعدد هذه الكهيربات يتفاوت وفقاً لكتلة النواة

الى هذه الكهيربات الخارجية المردُّ في فهم خواص العناصر . فالكشافون في كل جيش منظم، لهم مواقع معينة يتربصون فيها . وكذلك في ذرات العناصر . فخارج النواة مناطق اوكرات مفرغة خيالية تتحرك الكهيربات فيها . وكل منطقة منها لا تتسع لاكثر من ثمانية كهيربات الا المنطقة الاولى فانها تكتفي احياناً بكهيربين . فاذا تمَّ العدد في المنطقة الاولى التي حول النواة، وكان لتلك الذرة اكثر من كهيربين ، وجب على الكهيربات الباقية ان تنتظم في منطقة تالية خارج المنطقة الاولى . فاذا احتشدت المنطقة الثانية بثمانية كهيربات وكان للذرّة اكثر من عشرة كهيربات وجب على الكهيربات الباقية ان تنتظم في منطقة ثالثة وهلمَّ جرّاً

على أن بعض العناصر له من الكهيربات ما يؤلف منطقة كاملة أو منطقتين كاملتين . فالذرّة من هذا العنصر كاملة قوية الدفاع ، لا تحتاج الى نجدة من غيرها . فتسير في طريقها مستقلة عن غيرها . ولما كان تركيبها الكهيربي يميّزها بهذه الصفة ، فجميع الذرّات التي من هذا القبيل تبقى [illegible] التي ذرّاتها على هذا النمط تكون غازات . ومن هذه العناصر الهليوم والنيون والارجون وهي الغازات التي لا تتفاعل تفاعلاً كيميائياً الاّ بالقوة . فالهليوم كهيربان يؤلفان منطقته الاولى ، والنيون عشرة كهيربات تؤلفان منطقتين حول نواته أولاهما فيها كهيربان والثانية فيها ثمانية

إن هذه الكهيربات التي خارج النواة ، تقوم بحراسة النواة ، فتثبت في أماكنها . إلاّ اذا أصابتها قوة هائلة تبعدها من أماكنها ولكنها لا تلبث حتى تعود اليها . والعالم يفسّر الألق الملوّن في غاز النيون بحركة هذه الكهيربات ، فقد ابتعدت من أماكنها بقوة التيار الكهربائي ثم عادت اليها

واذا كانت الغازات (النبيلة) كالنيون والارجون متصفة بالاكتفاء الذاتي في ذرّاتها ، ولا ميل الى الشركة فلا تجتمع هذه الذرات ، فان الالماس يخالف هذه الغازات على خط مستقيم ، ذلك ان ذرّاته لا يمكنها ان تعيش وحدها ، بل هي أبداً متشابكة بالذرات الاخرى متعاونة معها

والالماس كما تعلم كربون صرف . والذرة فيه ستة كهيربات تحيط بالنواة اثنان منها في المنطقة الاولى حول النواة والاربعة الباقية في المنطقة التالية . ولكن منطقة الكهيربات حول النواة لا تستقر الاّ اذا اصبحت تحتوي على ثمانية كهيربات . واذن فالذرة من الكربون تسعى بطبيعة تركيبها الى ان يصبح حولها ثمانية كهيربات . ولما كانت كل ذرة كربون من هذا القبيل فمن الطبيعي ان تتعاون الذرات بما فيه الاشتراك في تحقيق مطالب بعضها بعضاً . وهذا الاشتراك يكون على الطريقة التالية : في الوسط ذرة كربون حول نواتها أربعة كهيربات . فاذا كانت ذرة أخرى [illegible] قريبة منها تجاذبت النواتان فتشتركان في كهيربين . فاذا كانت حول الذرة الاصلية أربع ذرات استطاعت ان تشترك مع كل منها في كهيربين فتصبح ومنطقة كهيرباتها كاملة [illegible] ثمانية كهيربات . اما الذرات التي حول ذرتنا الاصلية فتسعى بالطريقة نفسها الى التعاون مع ذرات أخرى ، وكذلك تتشابك الذرات جميعاً . (أنظر الصورة) ولما كان هذا القبيل

[illegible]

بين ذرات الكربون ، وكيف تتشابك باشتراكها جميعاً بعضها في ذرات بعض فهمنا سر قساوته

الاّ ان هنالك مسألة لا بدّ من تفسيرها في اشتباك هذه الكهيربات بعضها ببعض في ذرات الكربون . فالمعلوم ان الكهيربات سالبة الكهربائية . والدقائق المشحونة شحنة كهربائية من نوع واحد تتنافر وتتباعد . فكيف تستطيع هذه الكهيربات في ذرات الكربون المختلفة ان تتآلف [illegible] كما صوّرناها ووضحنا في الرسم . والرأي أن هذه الكهيربات تدور على

محاورها دوراناً سريعاً جداً فتنشىء في دورانها حقلاً مغنطيسياً حولها . فاذا كان كهيربان من ذرتين متجاورتين يدوران في اتجاه واحد دفع أحدهما الآخر ، اما اذا كانا يدوران في اتجاهين متناقضين فان الحقلين يشتبكان فيتماسك الكهيربان

أما عنصر السليكون فذرته أثقل من ذرة الكربون وأكبر وفيها ١٤ كهيرباً . فاثنان فثمانية منها تنشىء حول النواة منطقتين مستقرتين مكتفيتين ، والاربعة الباقية تكون حول المنطقة الاولى غير مكتفية ولا مستقرة ، بل تميل الى إكمال نفسها على نحو ما تفعل ذرة الكربون ولذلك نجد ان صفات الكربون والسليكون متشابهة . وعلى ذلك يستطاع ان ترتبط ذرة من الكربون بذرة من السليكون كما ترتبط ذرتان من الكربون او من السليكون . فاذا ارتبطتا كان لنا كاربيد السليكون (كاربورندوم) وهو يكاد يجاري الالماس قساوة ويستعمل للحك (abrasion) . واذن يصح ان نقول ان العناصر التي تترابط ذراتها هذا النوع من الترابط هي على العموم مواد قاسية قصفة

فاذا التفتنا الى الفلزات رأينا ذرة النحاس ولها في منطقتها الخارجية — أي في أبعد مناطق الكهيربات عن النواة — كهيرب واحد[1] . فاذا عدنا الى التشبيه العسكري وجدنا ان هذه الجماعة الكبيرة من الجيش (المقابلة لذرة كبيرة) لها حارس واحد . وهذا الحارس يحتاج الى ان يكون سريع التنقل لكي يتمكن من القيام بمهمته . فهو يحرس حيناً ناحية من جماعته ثم يسرع في الانتقال الى الناحية الاخرى . وكذلك يتنقل هذا الكهيرب حول ذرته فكأنه يتنقل بين الذرات . ففي هذه الحالة هذه لا يمكن ان تكون كتلة النحاس كتلة جامدة لان الكهيربات دائمة التنقل للوقوف في مواقع جديدة وفقاً لمقتضيات الحالة . ولكن الحارس في الجيش ، والكهيرب المفرد في ما بين ذرات النحاس ، يحفظ الصلة بين وحدات الجيش وبين ذرات النحاس

ولذلك نجد النحاس مرناً ، يمكن طرقه رقوقاً ومده اسلاكاً من غير ان يتقصف . ولا يخفى ان النحاس موصل جيد للكهربائية والحرارة ، وأما الالماس فلا يوصل احداهما . والحرارة تزيد اهتزاز الذرات . فالذرات المتحركة تستطيع ان تنقل اهتزازها من ذرة الى أخرى حالة ان الذرات الجامدة في مكانها لا تستطيع ذلك . وبهذا تفسر قدرة النحاس على توصيل الحرارة وعجز الالماس عن ذلك

والعلم الحديث يحسب التيار الكهربائي تياراً من الكهيربات . فعندما يندفع عدد من الكهيربات من بطرية كهربائية الى طرف سلك يحدث تحرك في الكهيربات التي في ذلك السلك من أوله الى آخره . فكأن أمامنا صفاً من حجارة « الدومينو » (راجع الصورة) فاذا أضفت الى

---

(١) هذا القول للدكتور سدني فرنش استاذ الكيمياء المساعد في جامعة كولجيت الاميركية في السيَنتفك اميركان ولكن عدد النحاس الذري ٢٩ فله ٢٩ كهيرباً ولا يمكن ترتيبها وفقاً لقاعدة الثمانية بحيث يكون لها في قشرتها الخارجية كهيرب واحد الا اذا اخذنا بالقاعدة المبسوطة في الفقرة الثانية من صفحة ١٣٨ من هذا المقال

احد طرفي هذا الصف حجراً جديداً وحرّكته بحيث يحتل مكان الحجر الاول من ناحيتك حركت كلّ حجر في الصفّ من مكانه الى المكان الذي يليه

فاذا لم يكن في المادة كهيربات متحركة — مثل كهيربات النحاس الخارجية — تعذّر الايصال الكهربائي . وسهولة انتقال التيار مرتبطة بقدرة الكهيربات على التحرك وسرعته . ولذلك نجد ان النحاس والذهب والفضة — وفي كل منها كهيرب واحد خارجي — خير المواد الموصلة للكهربائية . واما الالماس فالكهيربات فيه جامدة مربوطة بغيرها ثابتة في مكانها فهو لذلك لا يصلح موصلاً للكهربائية

***

وصفنا حتى الآن ثلاثة ضروب من القوام الكهربي ، فثمة اولاً الذرة التي لها ثمانية كهيربات في حلقتها الخارجية فذراتها مستقرة ولا تتجمع . وثانياً الذرة التي بها اربع كهيربات في حلقتها الخارجية فهي تميل الى الاشتباك مع ذرات من نوعها فيكون العنصر نفسهُ او المركبات التي تركب منهُ جامدة صلبة . وثالثاً الذرة التي لها كهيرب واحد في حلقتها الخارجية فهي ذرة مادة ليّنة تطرق وتمدّ وتوصل الكهربائية والحرارة . فالنوع الاول هو الغازات غير الفعّالة والثاني المواد القاسية القصفة والثالث الفلزات اللينة . فاذا أردنا ان نشبه أوصاف هذه العناصر بأخلاق الناس قلنا ان الاول يمثل خلق الرجل المكتفي بنفسهِ والثاني خلق الرجل الذي يميل الى التعاون والثالث الرجل الكثير التنقل والحركة — وبين هذه الانواع المحدّدة نجد ضروباً من الاخلاق متوسطة بين هذا وذاك او بين ذاك وذلك

ومن الفلزات عناصر لذراتها كهيربان خارجيان . فهي أقسى قليلاً من النحاس وأقل قليلاً منهُ ايصالاً للكهربائية والحرارة . اما الفلزات التي لذرّاتها ثلاثة كهيربات خارجية فهي أقسى من الفلزات الثانية وأقل ايصالاً منها للحرارة والكهربائية

ولكن عنصر التيتانيوم يستوقف نظرنا . فهو قاس قصف وفي الوقت عينه موصل لا بأس به للتيار الكهربائي ، وهو فلز لا ريب فيه . الا ان لذرته في ابعد مناطقها عن النواة اربعة كهيربات ، ولهذه الصفة يجب ان تجعل خواصهُ قريبة او مشابهة من خواص الكربون . ولكنه ليس كذلك

واذاً فعدد الكهيربات في المنطقة الخارجية من الذرّة ليس بحدّ ذاته العامل الحاسم الفرد في الموضوع دائماً . فعدد الكربون الذري ٦ اي لذرته ستة كهيربات اثنان منها يؤلفان المنطقة الاولى المستقرة حول النواة والاربعة الاخرى تؤلف المنطقة الثانية وهي التي تشتبك بكهيربات ذرات اخرى من الكربون او بكهيربات ذرات السليكون . واما ذرة التيتانيوم فأكبر حجماً ،

ذلك بان رقمها الذري ٢٢ اي ان لها ٢٢ كهرباً ، منها اثنان يؤلفان المنطقة الاولى حول النواة فيلي ذلك منطقتان كلٌّ منها ٨ كهيربات فثالثة فيها اربعة كهيربات . ولو كان عدد الذرّات الخارجية وحده العامل الحاسم لشابه التيتانيوم والكربون . ولكن منطقة الكهيربات الاربعة ابعد عن النواة في ذرة التيتانيوم من الكهيربات الاربعة التي في ذرة الكربون . فاذا عدنا الى تشبيه الالكترونات الخارجية بالحرّاس في الجيش وجدنا ان كهيربات التيتانيوم الخارجية يجب ان تكون اسهل تحركاً وتنقلاً لاتساع المساحة التي عليها ان تحرسها . حالة ان صغر حجم الذرة في عنصر الكربون يجعل هذه الكهيربات اكثر استقراراً لضيق المساحة التي عليها ان تحرسها . ولذلك تختلف الخواص وفقاً لبعد الكهيربات الخارجية عن النواة كذلك

ثم هناك عامل آخر يميل بالعناصر الثقيلة الى طبائع الفلزات . فالذرات التي لها ثلاثة كهيربات خارجية او اكثر من ثلاثة ، يميل زوج من هذه الكهيربات الى الهبوط من منطقته الى منطقة اقرب الى النواة ، فيبقى في المنطقة الخارجية كهيرب واحد . وهذا يجعل بعض طبائعه شبيهاً بطبائع الفلزات . فعنصر الالومنيوم له ثلاثة كهيربات خارجية ، ولكنه مع ذلك يشبه الفلزات في لينه وايصاله للكهربائية . ولذلك يصح ان يوضع بين الفلزات في طبقة النحاس والذهب والفضة . والبزموت على الرغم من خمسة كهيربات خارجية ، وعلى الرغم من انهُ قاسٍ وقصف ، يتصف ببعض اوصاف الفلزات . وطبائعهُ الفلزية تعزى الى كبر ذرته والى ميل زوج من كهيرباته الخارجية الى السقوط من منطقتها الى منطقة أقرب منها الى نواة الذرّة

فشخصيات العناصر لا تبدو في الكهيربات ، بل ان الكهيربات تعينها ويمكن معرفة خصائص العناصر من عددها وترتيبها حول النواة

ففي ناحية نجد الغازات « النبيلة » ممثلة في عنصر النيون — ذرّاتهُ مكتفية بذاتها لان منطقتها الخارجية من الكهيربات تحتوي على العدد الذهبي — ثمانية . ثم يليها الكربون وصفتهُ الخاصة الاشتراكية والتعاون . فكلّ ذرة من ذرّاته مرتبطة باربع ذرّات أخرى عن طريق كهيرباتها الاربعة . ثم في الطرف الآخر نجد النحاس والفضة والذهب وغيرها وهي ليّنة قابلة المدّ والطرق وذلك لان مناطقها الخارجية تحتوي على كهيرب او كهيربين او ثلاثة كهيربات فقط ولكن ما تخسرهُ الذرة في عدد كهيرباتها الخارجية تعوضهُ بسرعة حركة هذه الكهيربات وسهولة تنقلها

والقاعدة الاساسية في هذا النظام هي قاعدة (الرقم ثمانية)

والبحث في طبائع العناصر ليس بالبحث الحديث . فقد حاول الكيمياوي الفرنسي الشهير لافوازيه من قرن ونصف قرن ان ينفذ الى السر في اختلاف طبائع العناصر فخاب في ما يصبو اليه ثم عمد برزيليوس السويدي الى ذلك فلم يكن أكثر توفيقاً من صاحبه الفرنسي . ثم كشف

مندليف الروسي الجدول الدوري وقاعدته انهُ اذا رتبت العناصر ترتيباً أفقيًّا بحسب أوزانها الذرية وجد ان العناصر التي أرقامها ١ و ٨ و ١٥ متشابهة الصفات اي ان العناصر التي تقع في كل خانة ثامنة في الجدول متشابهة فقال ان خواص العناصر صفات دورية لاوزانها الذرية . ثم كشفت النظرية الكهربية (الالكترونية) وتأيدت وأبتدع لوس الاميركي صورة مكعبة للذرة فقال في قلب كل ذرة نواة وحول هذه النواة مكعبات تحتوي على عدد متباين من الكهربات في أماكن معينة . وكل ذرة تميل الى أن يكون لها كهرب واحد في كل زاوية من المكعب أو المكعبات التي حولها . ثم جاء لنغميور وحوَّل صورة لوس الذرية من صورة مكعبة الى صورة كروية

كان لنغميور قد بين وهو يدرس الغازات عند معالجته فلز التنغستن وصلاحهُ ان يكون سلكاً للمصباح الكهربائي ، ان الهليوم عددهُ الذري ٢ والنيون عدده الذري ١٠ وان هذين العنصرين مستقرَّان من الناحية الكيمياوية لا فعل كيمياوي لهما يذكر . فقال في نفسه ان الكهربات التي خارج النوى في ذرَّات هذين العنصرين يجب ان تكون مركبة تركيباً مستقرًّا يجعل الفعل الكيمياوي للعنصرين ضعيفاً او منتفياً . فتصور ذرَّة الهليوم مركبة من نواة وحولها كهربان يدوران في كرة مفرغة حول النواة . وان هذا التركيب تركيب مستقر . وكذلك النيون لاحول نواته عشرة كهربات تدور في كرتين حول النواة ، الاولى وهي أقربهما الى النواة فيها كهربان — مثل كهربي الهليوم — والثانية فيها ثمانية كهربات وهو بناء مستقر

اما الايدروجين فلهُ كهرب واحد في الكرة المفرغة التي حول نواته . فذرتهُ اذاً تميل الى ان تكمل بناءها حتى تصبح مستقرة فتجذب اليها كهرباً من ذرَّة اخرى . وهذا سر فعل الايدروجين الكيمياوي . فاذا التقت ذرة الايدروجين بذرة اوكسجين في احوال موائية — وذرة الاكسجين لها ٨ كهربات اثنان في الكرة الاولى حول النواة وهو بناء مستقر والثانية فيها ستة كهربات فهي تحتاج الى كهربين لتصبح بناء مستقرًّا — تعاونت ذرتان من الايدروجين على ذرة من الاوكسجين فتأخذان بخناقها وتتحد الثلاث الذرَّات فيتركب جزيء الماء وهو مستقر

وعلى هذا النسق مضى لنغميور في تطبيق هذا الرأي ففسَّر به الالفة الكيمياوية والمعادلات الكيمياوية والنظائر . وعند الرجوع بجدول مندليف الدوري القائم على أساس قاعدة الترتيب في ميدان الكهربات نرى كيف يفسّر ترتيبهُ الذي ظهر فيهِ ان العنصر الثامن يشبه العنصر الاول ثم ان العنصر الثامن بعد ذلك — اي الخامس عشر في السلسلة الرقمية — يشبه الثامن والاول وهكذا . وقد كان اعتمادنا في كتابة هذا المقال على مجلة السينتفك اميركان على الغالب وكتب حديثة اخرى في الطبيعة والكيمياء

اسكر

للشاعر الفرنسي بودلير

كن دائماً سكران فالسر كله في السكر

اذا شئت ألاَّ تشعر بأعباء الزمان تنقض ظهرك وتميل بك الى الارض

اذا شئت ذلك فاسكر دائماً ولا تقف !

ولكن بمَ تسكر ؟ بالخمر او الشعر او الفضيلة او . . . ولكن اسكر

اذا كنتَ يوماً على درجات قصر او على بساط عشب،

او في عزلة قاطبة في حجرتك ، وتيقظت وقد نقص سكرك او هدأ —

فاسأل الرياح ، والامواج والكواكب والعصافير ،

واسأل الساعة ، وكل ما يمرّ ويفرّ ، وكل ما يبكي ويئن،

وكل ما يتدحرج ، وكل ما يشدو وكل ما يتكلم .

اسألها عن الساعة . . . .

فالرياح والامواج والكواكب والعصافير والساعة ستجيبك :

« الساعة ساعة السكر »

اذا شئت ألاَّ تكون عبداً وضحية للزمان فاسكر واسكر

بدون انقطاع ،بخمر او بشعر او بفضيلة او بما ترغب

[نقلها : خليل هنداوي]



تقدم علوم الطب

— ١ —

للدكتور شريف عسيران

صدر حديثاً كتاب علمي جليل من أنفس الكتب العلمية موضوعه « تقدم العلم » دبجته أقلام أئمة علماء الانكليز في هذا العصر أمثال السر جيمز جينز والسر وليم براج وءالدين وهكسلي وابلتن . وقد نشر فيه الدكتور ادورد ملاني فصلا نفيساً عن تقدم علوم الطب فيه فائدة للاطباء وعامة الناس . فنقلته لينتفع به الناطقون بالضاد :

ان غرضي من هذه المحاضرة تلخيص علوم الطب في جميع العصور وقد اخترت هذا الموضوع لاني صرفت معظم اوقاتي في الاشتغال بالمشكلات الطبية ولاني رأيت ان اعرض موضوعاً لهُ صلة بحياة كل منا يزيد تقديرنا للخطوات الكبرى التي خطاها علم الحياة في العصر الحديث ولاسيما في عهدنا

من الحقائق الطريفة ان الناس كانوا مشغوفين منذ اقدم عصور التاريخ بدرس الامراض والقضاء عليها . ومن الغريب والحالة هذه ان لا تتقدم معرفة الامراض الحقيقية والسيطرة عليها قبل مائة سنة الا تقدماً يسيراً . فما السبب يا ترى ؟ هل كان البشر في ذلك الوقت دوننا ذكاء؟. من المؤكد ليس هذا السبب لان البشر كانوا قديماً يجارونا ذكاء . ومن رأيي ان هناك ثلاثة اسباب للتأخر خلال تلك الحقبة . اولها : ضلال الناس قديماً — او ما يظهر ضلالاً — الطرق المؤدية الى نظرتهم الصحيحة للمشكلات الصحية والامراض . (٢) مضى على الانسان حين من الدهر قبل ان يدرك انهُ لا يستطيع فهم حقيقة الجسم الانساني ما لم يدرسهُ درساً مباشراً في حالتي الصحة والمرض . (٣) لم يقدر الناس الاختبارات العلمية نسبيًّا الاَّ في الازمنة المتأخرة فكان على الانسان ان يتدرب اولاً على قيمة الملاحظة ثم تحقق بعد ذلك ان النظريات لا تكفي

ما لم تكن مقرونة بالتجارب وقد ظلت النظريات مسيطرة عليهِ حتى حالت بينهُ وبين الملاحظة الجدية في البحث والاستقصاء

وسأشرح الآن اثر هذه العوامل في تقدم الطب : اما بشأن فساد نظر الناس في الصحة والمرض فنعلمهُ من المصريين والاشوريين والبابليين. فعلى الرغم من اهتمامهم بالامراض نظروا اليها نظرة شيء خارق للطبيعة منبعثة من قوة سحرية تسلط الارواح الشريرة على الجسم ولا يمكن القضاء عليها ما لم تخرج تلك الروح . ويمكن الحيلولة دون دخولها او منعها بالتعاويذ والرقى ولكن الصلوات والتضرعات ضرورية لطردها من جسم المريض وبعد طردها يصلح ما فسد من الاعضاء بالعقاقير كالافيون والشوكران والحنصل وزيت الخروع الخ . وكان التنجيم شائعاً جداً في تلك الازمنة كما ان مهنة العرافة كانت مزدهرة . ويلذُّ لنا ان نتذكر ان الكبد كانت بيت القصيد في هذه الاهداف فكانوا يتكهنون بالمستقبل بمراقبة دم وحجم وشكل كل جزء من كبد القرابين التي تقدم . ومن الغريب ان حصر عناية الاقدمين آلاف السنين في عضو واحد من الاعضاء الداخلية وهو الكبد وتأثيرها فيهم ذلك التأثير لم يكن حافزاً لهم الى استقصاء غيرها من الاعضاء ولم يحملهم على الاعتقاد بان المرض من طبيعة الحياة ، واعتقادهم بهِ انهُ من خوارق الطبيعة حال دون تقدم معرفتهم اياه ونظرتهم اليهِ نظرة صحيحة

ومن الحقائق الطريفة انهُ رغماً عن ان صناعة الطب كانت منظمة بعض التنظيم في تلك الايام الخالية لم يُقضَ على عهد الصلوات والتضرعات فكان للكهنة النصيب الاوفر من ممارسة هذه الصناعة وفي دستور شريعة حمورابي الذي كشف مؤخراً وهو يعود الى سنة ٢٠٠٠ قبل المسيح على الالواح البابلية دليل على وجود أساس المجاملات الطبية في ذلك العهد وفيهِ كلام على القوانين الدينية والمدنية والطبية لممارسة الطب وتعاليم عديدة للاطباء نذكر منها اثنين :

(١) اذا عالج طبيب جرحاً شديداً لفتى بسكين من شبهان Bronze وشفي ذلك الرجل او فتح خراجاً في عين فتى بسكين من شبهان يتقاضى عشر شكلات [1] فضة

(٢) اذا عالج طبيب جرحاً شديداً لفتى بسكين من شبهان وسبب وفاته أو فتح خراجاً في عينه آل الى فقدها فيجب قطع يديهِ

ألم يكن الطب مدعاة للدهشة في تلك الايام ؟

ومن الازمنة التي اتصفت بعقم الطب الناشيء عن جهل الناس حقيقة الجسم الانساني ، الاعصر المتوسطة التي ابتدأت من القرن الخامس الى السادس عشر وجاءت اثر انقراض اليونان والرومان انقراضاً كاملاً بوجه التقريب وكانت غزوات البرابرة من جهة وتوالي الاوبئة المهلكة من

(١) وحدة العملة البابلية

جهة ثانية أقوى من الاولى عاملاً مؤثراً في أفول تلك المدنية . وحيث ان العلم والثقافة كانا في قبضة الكنيسة في تلك العصور فقد ظلّ العقل البشري متأثراً بالنزعة الدينية وكان الناس لايقيمون شأناً في الحياة الاّ للموت والديونة والسماء وجهنم والنفس الانسانية هي الكل في الكل والجسد لاشيء . وحيث ان الصحة والمرض من مستلزمات الجسد فلم يقم لهما وزن كبير وظلّ العالم المتمدن بأسره متأثراً بالعقائد المسيحية كما يستنتج من كتابة رجال ذلك العصر البارزين أمثال ترتوليان Tertullian الذي قال لا لزوم للبحث العلمي بوجود الانجيل

ومرّ بين هذين الزمنين الطويلين العقيمين زمن الاشوريين والبابليين والمصريين وزمن العصور الوسطى ، دور ثقافة عظيم وهي ثقافة اليونان والرومان التي أثرت في الطب ، مثلما أثرت في حياة العلم العقلية والعملية . وبعد ان مرّت هذه الثقافة في أدوار مختلفة من صعود وهبوط منذ ازدهارها حتى وقتنا الحاضر ظلت محتفظة بتأثيرها في رجال الطب فكل منا يقدر عظمة أبقراط ومدرسته وأرسطاطاليس وجالينوس واضرابهم . فاليونان اول من أوجد الطب الصحيح وقد حاولوا استئصال المعتقدات الراسخة منذ زمن طويل بأن الامراض متولدة من الارواح الشريرة ولأول مرّة في التاريخ عُدّت الامراض من الامور الطبيعية التي لا يمكن التوصل الى معرفتها قبل درسها وملاحظتها . وجعلوا «العقل الصحيح في الجسم الصحيح» أغلى أماني الحياة . وللتوصل الى هذه الغاية يجب ان يعيش المرء أحسن وأقصى العيشة الطبيعية وقدروا تأثير الطبيعة في الشفاء أعظم تقدير . ان مثل أبقراط العليا في الآداب الطبية تعد حتى اليوم من أسمى الصفات التي يجدر ان يتصف بها الطبيب . ولا يستطيع ان ينكر المرء ان نظر اليونان الى الجسم البشري سواء أمن وجهة الملاحظة كان ام من وجهة البحث العلمي ، كان أول عامل في تقدم علم الطب . ومع ذلك لم تخل تعاليمهم من الحشو الذي اعترض سير دولاب التقدم . ونذكر على سبيل المثال عقيدتهم ان الدم والبلغم والصفراء والسوداء هي العناصر الاربعة المسيطرة على الجسم وهي مولدة الامزجة الاربعة المزاج الدموي والبلغمي والصفراوي والسوداوي فاذا توازنت هذه الامزجة ظلّ الجسم صحيحاً واذا اختلت اعتلت صحة الانسان . وسنرى فيما بعد ان الطب ظلّ متأثراً بهذه العقيدة حتى بعد انطفاء نور الثقافة اليونانية وبعثها من جديد وكان لا بدّ من تحطيمها ليتسنى لهذا العلم التقدم المنشود

إن السبب الرئيسي الثاني لبطء تقدم الطب الطويل الذي ذكرته في بدء محاضرتي هو تأخر الناس في ادراكهم ان معرفة بنية الجسم البشري ضرورية للتوصل الى كنه الامراض وكان هذا العامل من العوامل التي أخرت سرعة تقدم الطب كما كان ينتظر في إبّان عصر الثقافة اليونانية لان تشريح الجسم الانساني كان محرماً عند الاشوريين والبابليين والمصريين حتى اليونانيين أنفسهم

فكانت معرفة الاعضاء والانسجة معرفة حقيقية متعذرة في حالتي الصحة والمرض . وصحيح ان البطالسة بدأوا درس التشريح سنة ٣٠٠ ق . م . بعد استقرار اليونان في الاسكندرية ويجب ان نحسب هذا التاريخ بدء علم التشريح ولكن هذا الاتجاه كان ويا للاسف وقتيًا وموضعيًا ورغمًا عن حيوية أرسطاطاليس وسعيهِ المتواصل في هذا السبيل لم يتمكن من تشريح الجسم البشري وقد حاول ان يستعيض عنهُ بتشريح الحيوانات كالقردة والخنازير واعترف أنهُ لم يرَ الكلى الانسانية قط واجتهد فيها بعد جالينوس كثيراً (سنة ١٣٠ — ٢٠٠ ب . م .) في درس التشريح ووظائف الاعضاء (الفسيولوجيا) وهو من أول من قرر حقيقة ان شريانات الجسم تحوي دماً لا بلغماً ولكنهُ أخفق في اكتشاف سر الدورة الدموية وأن نبضات القلب هي التي تدفع الدم في الاوعية الدموية وصار علم التشريح في خبر كان بعد أفول الثقافة اليونانية من الاسكندرية وطرأ الوهن على الاهتمام بالقضايا الطبية في الاعصر المتوسطة . نعم بقيت هذه الروح حية بعض الشيء بعد فتوحات العرب في الاسكندرية سنة ٦٤٠ ب . م . وفي بيزنطه وسالورنه (Salernum) في جنوبي إيطاليا ومع ان جهودهم تستحق الاعجاب فان مكانتها الرئيسية قائمة على أنها حفظت الطب اليوناني من التلف ولكنها لم تؤثر تأثيراً عامًا في تقدم الطب[1]

لم ينتعش علم التشريح ويصبح فنًا راقياً الاَّ في عهد البعث (Rennaissance) بعد تأسيس مدرسة بادوى (Padua) الطبية ومن المستحيل ان نذكر بالتفصيل الانقلابات العظيمة التي جرت في ذلك العهد والتأثير الكبير الذي أثرتهُ في الطب ولكننا نستطيع ان نجزم كل الجزم بان أقطاباً كباراً ظهروا وقلبوا علم التشريح رأساً على عقب أمثال : —

Leonardo da vinci[2] وفساليوس[3] Vesalius (سنة ١٥٣٧ فا فوق) وفابريكس Fabricus[4] فتقدَّم التشريح تقدماً عظيماً في ذلك العهد ، أحيا تعاليم أبقراط وجالينوس وبعث في علم الطب ثقافة جديدة

---

(١) لقد جحد الكاتب فضل العرب في الطب فانهم لم يحافظوا على الطب اليوناني فقط بل زادوا عليه وابتكروا فيه كما يشهد بذلك فضلاء الشرق والغرب وقد شاع فضل العرب على الطب وذاع ولا حاجة الى الدفاع عنهم فآثارهم تدل عليهم [المترجم]

(٢) عالم ايطالي عظيم رسام نحات بناء موسيقي ميكانيكي مهندس وفيلسوف طبيعي وهو أول من أوجد علم التشريح (١٤٥٢ — ١٥١٩) ولكن كان علمه لنفسه لا لغيره في التشريح

(٣) مشرح ايطالي كبير كان يدرس الهياكل العظمية في ظلام الليل خوفاً من الحكومة وسخر الناس وهو يعد بحق أبا علم التشريح وقد هجره لازدراء الناس به فتأخر الطب مائة سنة الى الوراء ودعى هذا الحادث الطبيب الانكليزي الاشهر وليم اوسلر «فاجعة الطب الكبرى» [المترجم]

(٤) مشرح ايطالي واخصائي بعلم الاجنة مهد السبيل لاكتشاف هارفي الدورة الدموية (١٥٣٧— ١٦١٩) [المترجم]

ذكرنا آنفاً ان عدم تقدير الطرق الاختبارية قدرها كان عاملاً ثالثاً في بطء تقدم علم الطب وقد حان الوقت الآن ان يظهر للعالم فضل هذه الطرق العلمية . كان هارفي تلميذاً في بادوى وقد أثرت فيه تعاليم فابركيس ولاسيما ما يتعلق منها بوجود الصمامات في الاوردة . وشغفهُ هذا هو الذي حمله على ان يعكف على درس الدورة الدموية بعد ان رجع الى انكلترا فكانت نتيجة هذا الدرس مؤلفه النفيس De Matee Cardis سنة ١٦٢٨ شرح فيه الطرق الاختبارية التي تبرهن صحة نظرية دوران الدم في الجسم ولا يعد هذا المؤلف الاول في موضوعه فقط بل من انفس المؤلفات في الطرق الاختبارية وفضلها في كشف الحقائق . ويجب ان نتذكر ان الناس كانوا حتى في بداءة القرن السابع عشر يعتقدون بصحة نظرية جالينوس بأن الدم يجري في الاوعية الدموية بطريقين مختلفين فيعلو ويهبط في كليهما كالمد والجزر ولا يدور دوراناً . ويخال للمرء ان نجاح هارفي حمل المشغوفين بهذا البحث على الاهتمام بالطرق التجريبية واتباعها في ابحاثهم ولكن مع الاسف لم يحدث شيء من ذلك الا عقب مائتي سنة من اكتشاف هارفي ولا يعني انه لم تجر اختبارات خلال تلك الفترة بل كلامنا من الوجهة العامة . وكان العالم يجهل جهلاً تامًّا حقائق الصحة والمرض التي يمكن الجزم فيها بالملاحظة المجردة عن الاختبارات . ولم تكن اسس الكيمياء والطبيعيات قد وضعت بعد لتساعد على تقدم العلم تقدماً محسوساً وقد اخذت طلائع الكيمياء تظهر في عهد هارفي فبطء التقدم الذي يصدق على تقدم التجارب الحيوية لا يصدق على الكيمياء والطبيعيات وظهور اسماء كبار الكيمياويين امثال : —

Glauber,(١) Willis,(٢) Mayow,(٣) Agricola(٤) Stahl(٥)

وبعدهم : Robert Boyle,(٦) Cavendish,(٧) Priestley,(٨) Lavoisier,(٩) Dalton(١٠)

دليل قاطع على ان الكيمياء التي نعرفها بدأت ونمت منذ ذلك العهد . ومن المعروف انهُ نشأ في القرن السابع عشر والثامن عشر اخصائيون ممتازون بعلم الطبيعة ولكن كان اهتمامهم من

---

(١) كيمياوي ألماني اكتشف كيفية تحضير حامض الكلوردريك وسلفات الصودا وغيرها (٢) مشرح انكليزي له اليد الطولى في الكيمياء الاختبارية (٣) كيمياوي انكليزي له مؤلفات نفيسة بهذا الموضوع (٤) عالم الماني مشهور بابحاثه في المعادن (٥) طبيب وكيمياوي الماني (٦) فيلسوف انكليزي في الطبيعيات مكتشف ناموس انتشار الغاز المعروف باسمه (٧) كيمياوي وطبيعي انكليزي اول من أماط اللثام عن حقيقة غاز الهيدروجين (٨) كيمياوي انكليزي اكتشف الاوكسجين وكان يعرف اللغة العربية

(٩) كيمياوي فرنسي أول من بين طبيعة الاحتراق واكتشف مع لابلاس ان الماء مركب من أوكسجين وهيدروجين

(١٠) كيمياوي وطبيعي انكليزي كشف الستار عن تركيب المادة والناموس الذري وله ابحاث ممتعة في النور وهو اول من اكتشف عمى الالوان [المترجم]

الوجهة المرضية محصوراً في تاريخ الامراض الطبيعية فكان سيدنهام Sydenham (١٦٢٤—١٦٩٨) خير ممثل للمذاهب الابوقراطية والطبيب النطاسي الهولاندي بورهاف Boerhave اول من استنبط الطرق الصحيحة للملاحظات الدقيقة في درس الطب . ومن مساوي هذا العهد ان ألمع اطبائه عوضاً عن ان يكتفوا على درس الطب وتقدمه انصرفوا الى ابتكار النظريات الصرفة المبنية عن الحدس والظن في تعليل الامراض . واحسن طريقتين تمثلان هذا المذهب الجديد طريقة Cullen الذي جعل سبب الامراض اما تشنجاً واما استرخاء و John Brown الذي عزا الامراض الى التهيج Excitability وادت هذه النظرية الى مشاحنات كثيرة بين الاطباء كانت مضيعة للوقت وعقيمة لعلم الطب

***

في هذه الحقبة من القرن التاسع عشر التي كانت عقيماً نسبيًّا لعلم الطب ظهرت بوادر التقدم الباهر من ايطاليا ايضاً بواسطة مورغاني Morgagni سنة ١٧٦٠ ذلك بان دقة فحصه الجثث بعد الموت كانت عاملاً في وضع اسس التشريح المرضي واذا قدرنا قيمة حالة الاعضاء بعد الموت في تشخيص الامراض أدركنا شأن الانقلاب الذي أحدثهُ هذا البحاثة الشهير. وتقدمت الابحاث المرضية فيما بعد بتأثير جون هنتر John Hunter (١٧٢٨—١٧٩٣) وكان هنتر بطبيعته مشغوفاً بالابحاث المرضية Pathology وصرف زهرة حياته في التقريب بين الطب والعلوم الطبيعية وهو الذي كتب الى ادورد جنر حينما كان يظن ان الحلاَّبات اللاتي اصبنَ بجدري البقر اكتسبنَ مناعة ضد جدري البشر فقال: « لا تفكر بل جرّب »

وكان لهذه الجملة دويٌّ هائلٌ في عالم الطب ادَّى الى اكتشاف التلقيح ضد الجدري والقضاء عليه

وفي هذا الزمن زادت العناية جدًّا بدقة فحص الجسم الطبيعي في حالتي الصحة والمرض ويرجع الفضل الكبير في هذه الدقة الى نخبة من الاطباء الفرنسيين المتازين فاستنبط لنيك Laennec السماعة سنة ١٨١٩ وصار الاطباء يعولون منذ ذلك الوقت على القرع والتسمع في التشخيص وهذه النخبة هي التي توسعت في أبحاث مورغاني بفحص الرمم بعد الوفاة التي ادت الى الدقة في درس الحوادث المرضية قبل الوفاة وتقدم في ذلك الوقت تشخيص الامراض السريرية تقدماً عظيماً

والحق يقال ان المواد التي ساعدت على الابحاث الطبية كانت تنهال بسرعة في ذلك الوقت على الرغم من ان التجارب الاختبارية كانت راكدة

ونجسر ان نقول ان تاريخ الطب الحديث يعزى الى باستير وكلود برنارد حين صارت الطرق التجريبية هي المعوّل عليها في الابحاث الطبية . وفي سنة ١٨٥٧ — ١٨٩٠ نشر باستور رسائله الطبية عن حامض اللبن والتخمر الكحولي وقد جملته هذه الابحاث يتشبع بروح الفكرة التي كانت عاملاً قوياً في اثبات ان سبب العدوى في الحميات جراثيم حية . وقد تطورت هذه الفكرة لان باستير كان مقتنعاً بالعلاقة بين التخمر والعدوى . وأدّت تحريات باستير الى لستر الذي أثبت ان منشأ تلوث الجروح جراثيم مختلفة من الاحياء السفلى . وعلى هذا الاساس شيد علم منع عدواها بواسطة المطهرات الكيمياوية وأحدث انقلاباً في الجراحة وصيرها عملية سليمة . ومن نتائج اكتشافات باستير ابحاث كوخ الذي نشر سنة ١٨٧٦ تحرياته عن سبب الجمرة الخبيثة Anthrax . ولنتذكر ان كوخ استنبت جرثومة هذا المرض من الحيوانات المصابة بها ولقح حيوانات اخرى بها فأصيبت بعين المرض وفي سنة ١٨٨٢ اكتشف ان سبب السل عصية خاصة فكوخ اول من استنبت زرعاً من الجراثيم الصرفة ووضع اساس علم الجراثيم (بكتيريولوجي) ولم يمض وقت طويل حتى اكتشفت جراثيم التيفود والخناق والهيضة الاسوية والكزاز والطاعون وذات الرئة والسيلان . وقبيل ابحاث كوخ كان رجل فرنسي شهير اسمهُ كلود برنارد Claude Bernard يستعمل الطرق التجريبية في البحث عن وظائف اعضاء الجسم وهو الذي أماط اللثام عن المفرزات الداخلية باكتشافه وظيفة خزن الكبد للسكر الخام(الكليكوجين) فاذا كان كوخ واضع علم الجراثيم فمن المعقول ان يكون كلود برنارد واضع علم وظائف الاعضاء (فسيولوجيا) الحديث

***

ثم ظهر في الميدان في ذلك العهد موضوع جديد وضعهُ فيرشو Virchow وهو علم تركيب انسجة الجسم (هستولوجي) فبين تحت المجهر حقيقة تركيب مختلف خلايا الجسم وتمكن من معرفة مرض الاعضاء بدرس حالة خلاياها حين المرض . وفي هذا الزمن زمن النشاط اي سنة ١٨٥٠ — ١٨٨٠ صارت الفسيولوجيا والبكتريولوجيا والهستولوجيا المرضية والجراحية دروساً طبية معينة . وقبل ان نأتي على تقدم الطب في القرن الحالي نعيد بايجاز ما ذكرناه آنفاً

رأينا علم الطب يتحرر من تأثير السحر والدين ويحسب الامراض من الامور الطبيعية . وعقب ذلك دور البحث في تركيب الجسم فتوصل الباحثون الى العلامات السريرية والتراكيب التشريحية للاعضاء المعلولة وكان العالم قد وصل الى العصر الحالي الذي كان للتجارب فيه اليد الطولى فتقدمت معرفة وظائف الاعضاء واسباب الامراض تقدماً كبيراً وكان لا يزال في اوائل هذا العصر

امراض مجهولة السبب وطرق معالجتها غير معروفة ومع ان الحالة لاتزال الآن كما كانت قبلاً فان جهود الثلاثين السنة المتأخرة آلت الى املاء كثير من الفراغ . فلنبحث عن سبب تدفق النشاط في اوائل القرن الحالي . وهناك اسباب متعددة اهمها ما يلي :

(١) النجاح يولّد النجاح . ومن المستحيل ان يقف اي شخص على اكتشافات باستير ولستر وكوخ ولا يتأثر بها او لا تكون حافزاً لهُ على التتبع والاستقصاء . ومن المعقول ان تضاف ابحاثهم وتتبعاتهم الى جهود غيرهم ممن يسيرون على الخطة نفسها . ان روح التفاؤل هذه عززت ثقة الناس وعقيدتهم بأنهُ ليس من الصعب التغلب على الامراض والمشكلات الصحية وان لاحدّ لنتائج الطرق الاختبارية

(٢) ان التتبعات الحديثة أفضت الى تقدم العلوم الاساسية لدرس الطب كالكيمياء والطبيعيات ووظائف الاعضاء والامراض والعقاقير تقدماً عظيماً فألقت نوراً جديداً على الجسم الصحيح والجسم العليل وكانت سلاحاً جديداً للطب في محاربة الامراض وطرق تشخيصها والوقاية منها ومعالجتها

(٣) السبب الثالث لهذا الاندفاع هو ان العالم المتمدن بأسره اتبع الطريقة اليونانية في النظر الى الحياة وهي ان الصحة تراث عظيم واعتلالها ليس مضرًّا من الوجهة الاقتصادية فقط بل هو السبب الاكبر في آلام البشر وحزنهم وتعذيبهم فكان من الضروري اذاً سواء من الوجهة العملية او العاطفية القضاء على الامراض بالوقاية منها أو شفاءها . واذا كانت البحوث تؤول الى هذه النتيجة فمن الواجب تعزيزها . ان تأثر الناس بهذه العقيدة حمل الحكومة والافراد على تشجيع البحوث الطبية والتوصل الى معرفة الطرق للقضاء على العلل التي كانت تفتك بالناس فانتشرت هذه الحركة في كل العالم . وفي سنة ١٩١٣ أنشأت الحكومة مجلس البحث الطبي Medical Research Council الذي صار في عهد سلفي السير ولز فلتشر من خيرة الطرق لدرس المشكلات المرضية . وقد تضافر هذا المجلس مع كثير من المعاهد الخاصة بتقدم الطب كمعهد ركفلر وباستير للوقاية وغيرهما . وعلاوة على اكتشاف طرق جديدة لمعرفة الامراض دعت المصلحة العامة الى تأسيس وزارة الصحة التي تقدمت تقدماً عظيماً في العشرين السنة الاخيرة فزادت بهذه الواسطة الخدمات الطبية العامة وانتشرت في طول البلاد وعرضها ومن الامثلة على ذلك دور العناية بالحوامل ودور الحضانة ومستوصفات السل والامراض الزهرية وغيرها وغاية جميع هذه المؤسسات استخدام الطرق العلمية الحديثة للوقاية من الامراض وشفائها والمحافظة على الصحة العامة

[في العدد التالي : نتائج هذا النشاط الطبي]

أثر الحرب العامة

في الادب العربي السياسي

لانيس المقدسي
استاذ الادب العربي بجامعة بيروت الاميركية

والمتأمل في الشعر العربي السياسي اثناء هذه الحرب يراه على نوعين — حكومي وعمومي . فالاول مقرون بالسلطة القائمة واعمالها الادارية والسياسية ، وهو أدب كان يوجبه الى الاقلام احد العوامل التالية(١) رهبة تدفع الى المالأة والتقيَّة (٢) طمعٌ يبعث على التزلّف والمداهنة (٣ تهوّس دبني يثير في النفوس التعصّب والحماسة

ولو التفتنا الى سوريا ولبنان وفلسطين والعراق لرأينا ذلك ظاهراً للعيان . فقد دخلت تركيا الحرب الى جانب المانيا نخبَّا بغتةَ ذلك التوتر العنصري وكُممت الافواه والاقلام الاَّ عن حمد الدولة وتحبيذ سياستها . على ان تركيا لم تكن غافلةً عن النزعات اللاتركية الناشئة في الاقطار العربية وعن تنشيط الحلفاء لها . فكان اول ما عملتهُ بعد دخولها الحرب انها ألغت الامتيازات الاجنبية فأصبحت المسيطرة المطلقة على مقدَّرات البلاد ، ثم قسمت الجبهة العربية الى منطقتين حربيتين الاولى منطقة الجيش الرابع ويدخل فيها سوريا ولبنان وفلسطين والحجاز— والثانية منطقة الجيش السادس وهي بلاد ما بين النهرين وأقليم شطّ العرب . وقد رأت ان تنظّم الاولى اولاً وان ترعاها رعاية خاصة فعهدت بها الى احمد جمال باشا الذي عرف الجميع ما جرى على يديهِ من بطش وارهاب . وما قاساهُ العرب في عهده من شدّة وضيق

فن الطبيعي في مثل تلك الاحوال ان لا يكون في البلاد العربية العثمانية أدب سياسي حرّ وان تكبت العواطف الحقيقية في اعماق الصدور . واذا أضفت الى ذلك ان الخلافة الاسلامية كان لا يزال لها تأثير عميق في نفوس المتدينين ، وان المآرب الذاتية كانت تعشّش في صدور الكثيرين فلا تستغرب ان ترى الادب العربي يومئذ تلبس اثواب التعصب للسيف التركي او

الخلافة التركية . خذ بيروت مثلاً فقد كانت اهم مركز ادبي في الشرق العربي (خارج مصر) ومستنبتاً خصباً للدعايات الاصلاحية . كان فيها عشرات الصحف والمطابع والمعاهد العلمية . والذي يُلاحظ ان كثيراً من الصحف العربية كان قبل دخول تركيا الحرب يجاهر بميله الى الحلفاء ، فلما دخلت اضطرَّ امَّا الى التوقُّف وإما الى ممالاة السلطة . فلم يبقَ في تلك المدينة اكثر من ست جرائد . وبالطبع لم تكن اخبارها الاَّ بلاغات تركية المانية ، ولم تكن مقالاتها الاَّ اناشيد مدح لاعمال الدولة العلية . وانهُ لمن المدهش بل المضحك ان تقابل بين ما كانت تكتبهُ طائفة من تلك الجرائد خلال الحرب وما كانت تكتبهُ بعدها ، ولاسيما فيما له علاقة بنهضة العرب ومطالبهم القومية

ومن افضل الامثلة على الادب السياسي الحكومي في تلك الاثناء مجموعة من الخطب والمقالات والقصائد صدرت في بيروت في كتاب خاص بعنوان « البعثة العلمية الى دار الخلافة الاسلامية »[١] ففي ايلول (سبتمبر) سنة ١٩١٥ نظَّمت قيادة الجيش الرابع وفداً من اكثر من ٣٠ رجلاً يمثلون سوريا ولبنان وفلسطين وشمال الجزيرة العراقية وارسلتهم الى عاصمة السلطنة للاغراض التالية[٢]

١ — لعرض اخلاص السوريين وشعورهم على سدَّة الخلافة الاسلامية

٢ — لمشاهدة عظمة الدولة واستعدادها الحربي

٣ — بث عواطف اهل البلاد الى اخوانهم الغزاة المجاهدين

وبعد ان قضوا نحو شهرين هناك بين مآدب تكريمية ومشاهد حربية ، وحفلات خطابية ومواقف شعرية عادوا الى اوطانهم يقصون على الملإ ما شاهدوا وسمعوا وقد دوَّنوا لنا اقوالهم ومشاهداتهم في الكتاب المذكور واليك بعض النماذج منها —

فقرات من خطب القيت في حضرة وزير الداخلية —[٣] يا صاحب الدولة والفضل : —

« ان الانقلابات التي وقعت منذ نشرتم واخوانكم احرار العثمانيين القانون الاساسي في السلطنة قد علَّمت الناس وولاة امورها تعاليم كثيرة . . فتعلمنا بالحرب البلقانية والحرب الطرابلسية كيف نجمع شملنا ونسير في داخليتنا وخارجيتنا . حتى اذا نشبت الحرب العامة اثبتنا اننا امة لا تزال حية »

« كان اناس قليلون في ديار الشام يهمسون في سرهم في اوائل النفير العام بقولهم : ما لنا وللحرب . ان الحياد ابقى علينا وأسلم لكياننا . ولم تكن الاَّ مدة قليلة حتى عرف الخاص والعام بان الحرب مع دول الاستعمار كانت مقررة لحياتنا السياسية والملية »

(١) المطبعة العلمية ١٩١٦ — تأليف الباقر — كرد علي — الجبال — الانسي
(٢) البعثة العلمية ص ٢٥٢ (٣) راجع الكتاب المذكور ص ٤٥ — ٥١

« كانوا يقولون ان في الحرب خراب البلاد ولكن حربنا الحاضرة والحمد لله قد عمرت بلادنا ومحّصت الناس فتبين الخائن المائن من الوطني المخلص ، والخامل من العامل ، والجاهل من العالم . ولو لم توفق الحكومة الى انتداب امثال جمال باشا واخوانه الولاة لسياسة سورية اثناء هذه الازمة لتمّ فيها المضحك المبكي » . ومن الثاني :—

« يا صاحب الدولة — ان قدوم هذا الوفد العلمي المنتخب من خيرة علماء الدين الى دار الخلافة الاسلامية الكبرى والامامة العظمى لاداء فروض العبودية وواجب الاخلاص لعرش الخلافة الاسلامية المقدّس واهداء سلام الشعب السوري الى الابطال المجاهدين في جناق قلعة وساحات القتال واظهار ما يكنّهُ الشعب من عظيم الشكر لاولئك الابطال الذين دافعوا عن حوزة الخلافة وحياض الدين دفاعاً مجيداً خلّده لهم التاريخ بأحرف من نور . . . لهو أنصع برهان على السعي وراء تلك الغاية الشريفة ، وتمكين عرى الرابطة المحمدية والاتحاد الاسلامي ، وتوطيد دعائم الجامعة العثمانية تحت ظلال الهلال المظفر الذي سيخفق ان شاء الله بفضل جهادكم المشكور عن قريب في ربوع قفقاسيا وفوق وادي النيل »

ومما قيل في حضرة ولي عهد السلطنة —[1] « بيت عثمان ياذا الايادي البيضاء على هذه الامة انك جمعت شمل المسلمين تحت لواء الهلال المنصور قروناً وستكون كذلك ابد الدهر ، فكيف لا تتأصل محبة اركانك في قلب كل وليد »

وبعد ان يعرض الخطيب للعلاقات المتينة بين العرب والترك ولفضل العثمانيين في هذه الاخوة المقدّسة يقول — « فكنا امام العادين من دول الغرب في كل وقت نحارب معاً ونعود ظافرين ببركة هذه الاخوة ونحن اليوم كذلك في هذه الحرب الحاضرة وسنكون غداً وبعد غد والتوفيق حليف عَلَمنا الذي يظلّنا بفضلكم يا بني عثمان وحَفَظة بيضة الدين والايمان » . وعلى هذا النسق اكثر الادب السياسي المنثور او كله في ذلك العهد . ولم يختلف عنهُ الادب المنظوم ، ففي مجموعة « البعثة العلمية » نحو من سبع عشرة قصيدة لبضعة شعراء كعلي الريماوي وعبد الكريم عويضه ، وحسين الحبال ، وبدر الدين النعساني وسواهم وكلها ترمي الى نفس الغرض — واليك أمثلة منها . قال أحدهم من قصيدة : —[2]

يا رجالَ الملك إنا أمـــةٌ لا ترى عن آل عثمان بديلْ
حيِّها يا وفدُ حيِّ جنــدها قاهر الاعداء بالسيف الصقيلْ
نصرَ الدينَ وأعلى شأنه فغدا الاسلام في ظلٍّ ظليلْ

ومنها مشيراً الى تراجع أسطول الحلفاء أمام قلاع الدردنيل

(١) راجع البعثة العلمية ص ٦٦ (٢) البعثة العلمية ٦٨

حيِّ قوماً أدهشوا كل الورى ... بثبات العزم والصبر الجميلْ
قهروا الاسطول في البحر فما ... أبحر الاسطول ان عاد ذليلْ
دافعوا عن حوزة الملك بما ... يحفظ التاريخ جيلاً بعد جيلْ
وبنو الشرق الى مصر انبروا ... « وجمال الدين » للفتح كفيلْ

وينوِّه بذلك الى الحملة التي كان يعدّها جمال باشا لعبور ترعة السويس ودخول مصر وللشيخ الرعاوي قصيدة خاطب بها جمال باشا عند عودة الوفد وهي نحو ٤٥ بيتاً وفيها يصف ما رآهُ الوفد في الاستانة ومقابلتهم لاركان الدولة هناك فيقول (١)

لجئنا الى دار السعادة والمنى ... محطّ رحال العزّ والعزُّ يُقصدُ
وزرنا عميد الملك يسمو عماده ... وزرنا وليّ العهد بالفضل يُمهدُ
تحفّ بنا القوّاد من كل جانبٍ ... وأقطاب دار الملك تحفى وتحفدُ
ومنها — خطبنا لهم جمًّا وقد خطبوا لنا ... وأنشد منا القائلون وأنشدوا
مجالس كانت كالربيع بواسماً ... ذكرناك فيها والحقيقة تشهدُ

***

ومنها — رجعنا وما بالقول شيء ليعربٍ ... ولا يعربٌ ينسى الجميل ويجحدُ
على أننا أبناء دين محمدٍ ... يحكّم هذا الحبّ فينا ويعقدُ

ولهُ قصيدة أخرى مطلعها

تيقظتم حزماً فأيقظتم الدهرا ... وأعملتمُ عزماً فأدهشتم العصرا

وفيها يقول (٢)

سلامٌ عليكم ما أجلّ فعالكم ... وأعظم في الايام آياتها الكبرى
سلامٌ على الدستور حلواً مذاقه ... وان كان بعض الناس قد ذاقهُ مرًّا
حماةَ الهدى والملك لله درّكم ... على الخصم قد طبّقتم البرَّ والبحرا
ومنها — سعيتم فقرّبتم بني العُرب منكم ... وقلتم همُ الاخوان في الضُّرّ والسرا
فكانوا لكم أزراً على كل خارجٍ ... عدوٍّ وما كانوا رحقتم زرزا
يعدّون هذا الملك فيهم ومنهمُ ... ولا ينقمون الترك سرًّا ولا جهرا
فكنتم نجاد الملك والعُرب سيفه ... وكنتم يمين الملك والعرب اليسرى

ونختم هذه الامثلة ببعض ابيات من قصيدة لبدر الدين النعساني في احمد جمال باشا. قال: (٣)

لئن أكثر المدّاح فيك القصائدا ... فما بلغوا في الالف من ذاك واحدا

(١) البعثة العلمية ٢٦٠ — ٢٦٥ (٢) البعثة العلمية ٢٠٨ (٣) البعثة العلمية ٢٨٥

ومنها : رمى الله منك الانكليزَ بصارمٍ صقيل بقدُّ الهندوانيَّ غامدا
عتَوا وأبوا الاَّ لقاءك في الوغى أرامم بما راموه منك حصائدا
أقاموا على شط القنال معاقلاً ستبقى لهم يوم اللقاء مصايدا
قطعتَ اليهم بالجيوش مفاوزاً بها الصرصر النكباء تشكو الجلامدا
لقد عزَّ جيشٌ كنتَ فيه رئيسهُ وعزَّت جموعٌ كنت فيهنَّ رائدا
فلم أرَ مثل اليوم أرفع همةً وأعظم آثاراً واكثر حاشدا
وأطهر أخلاقاً وأصفى سريرةً وأنجب مولوداً وأكرم والدا
وقفت على علياك فيضَ براعتي ونفسي وفكري والقوافي الشواردا

هذا هو الادب الحكومي الذي كان ينشر في سوريا والعراق . وهو ولئن لايجوز اعتباره وصفاً صادقاً لحوادث ذلك العهد ورجالهِ فانه بلا شك صورة غير كاذبة لما كانت تثيره الحالة السياسية في الصدور من رهبة ورغبة او هوَس ديني . واذا عرفنا زمانه ومكانه واستطعنا ان نقرأ ما بين السطور تجلى لنا فيه من المشاهد ما قد يساعدنا على فهم كثير من الحقائق

وما يصدق على سوريا والعراق قد يصدق على مصر ايضاً . الاَّ ان المشهدين يختلفان . فمصر كانت عاطفتها كما وصفها الدكتور محمد حسين هيكل بقوله [1] — « تتجه حتى العصور الاخيرة الى جهتين — تتجه صوب مكة ومكة في بلاد العرب والنبي عربي والقرآن عربي . وهي تتجه او كانت تتجه صوب الاستانة مقر الخلافة الاسلامية والاستانة عاصمة الترك . فكل مسلم تعنيه وحدة المسلمين كان يتجه ببصره — الى حين الغيت الخلافة — نحو مكة والاستانة : يستمد من الاولى المدد الروحي ومن الثانية مدد السيف والمدفع »

ومع كل ذلك لم تحرك مصر ساكناً حين اعلن وزير الخارجية البريطاني في ١٨ ديسمبر ١٩١٤ « انهُ بالنظر الى حالة الحرب التي سببها عمل تركيا قد وضعت بلاد مصر تحت حماية جلالته وأصبحت من الآن فصاعداً من البلاد المشمولة بالحماية البريطانية . وبذلك قد زالت سيادة تركيا على مصر الخ [2] » وما ذلك الاَّ لان السلطة البريطانية اصبحت يومئذ الكل وفي الكل . وصار المصريون يشعرون انهم انما يعيشون في ظل سيفها المصلت . فلم يكن من الغريب ان نرى الشعراء يتبارون في التقرب من السلطان حسين كامل . كاسماعيل صبري . وأحمد شوقي . وحافظ ابراهيم . وولي الدين يكن وسواهم . وهذه قصائدهم فيه تشهد بانقلاب الحال او بالتقية

(١) مقدمة الشوقيات ج ١ — م (بتصرف) (٢) الهلال ٢٣ — ٣٢٦ راجع أيضا فيه بلاغات الوكالة البريطانية

حتى ان حافظاً الوطني الصميم وصاحب المواقف المشهورة قبل الحرب لم يتورع عن ان يقول في الانكليز مخاطباً السلطان [1]

فمش للنيل سلطاناً ابيًّا له في ملكه عقد وحلُّ
ووالِ القوم انهم كرامٌ ميامين النقيبة اين حلُّوا
لهم مُلكٌ على التاميز[2] اضحت ذراه على المعالي تستهلُّ
وليس كقومهم في الغرب قومٌ من الاخلاق قد نهلوا وعلُّوا
فان صادقتهم صدقوك ودًّا وليس لهم اذا فتشت مِثل

اما شوقي شاعر الخديو عباس (خصم الانكليز) فقد كانت قصيدته في السلطان حسين كامل « لعبة » فنية حاول فيها الجمع بين وفائه لاميره السابق والواجب عليه للسلطان الجديد وتجنب سخط الانكليز . وقد توفق الى حدّ يذكر له . اذ قال مشيراً الى عباس :

الله يعلم ما كفرتُ صنيعةً في ذا المقام ولا جحدت جميلا

ثم في اعتذاره عن مدح الامير الذي حل محله

أأخون اسماعيل في ابنائه ولقد وُلدت بباب اسماعيلا

ولم يستطع الا ان يقول كلمة في الانكليز فقال :

حلفاؤنا الاحـرار الا انهم ارقى الشعوب عواطفاً وميولا
أعلى من الرومان ذكراً في الورى وأعز سلطاناً وأمنع غيلا
لما خلا وجه البلاد لسيفهم ساروا سماحاً في البلاد عدولا
وأتوا بكابرها [3] وشيخ ملوكها ملكاً عليها صالحاً مأمولا

على انهُ لا بد من القول ان الشعر المصري الحكومي برغم اضطراره الى مجاراة السلطة لم يبلغ في تلك المجاراة مبلغ الشعر السوري والعراقي ، بل ظل اكثر تحفظاً وأقل تطرفاً . واذا كان في مصر يومئذ من غارات ادبية عنيفة على الاتراك فمنشؤها في الاكثر الاوساط اللامصرية تشهد بذلك جرائدهم ونفثات اقلامهم . ولم يكن على ما يظهر مبعثها التملق او التعصب بل الاقتناع (خطأً او صواباً) ان الخلاص من تركيا سيكون فاتحة عصر جديد يحمل الى الاقطار العربية انوار المجد والسعادة

***

اما الادب السياسي العمومي (اي ما كان خارج دوائر السلطة) فمتشابه في جميع الاقطار اذ هو منبعث عن شعور الناس بوطأة الحرب . ومن الطبيعي ان يكون اثره في مختلف البيئات

(١) الهلال ٢٣ — ٣٣٧ (٢) نهر لندن (٣) اي بالسلطان حسين كامل

بالنسبة الى شدة تلك الوطأة او خفتها ، كما يتضح لنا اذا قابلنا ما نظم منهُ في مصر بما نظم في العراق وسوريا ولاسيا بيروت ولبنان حيث بلغت المحنة أشدها . ومن شواهده تلك القصائد التي قيلت في اهوال الحرب وفظائعها كقصيدة الزهاوي « مشهد من الحرب الكبرى » ومنها [١]

في كل ارضٍ وصقع مدافعٌ ثائراتُ
يقتلن كلَّ فتىً قد تفيد منهُ الحياةُ
وليس يبقين الاَّ ارامـلاً ويتامى

***

هناك بحرٌ خضمٌ يجري ليغمر بحرا
هناك بركان نار تسعى لتأكل اخرى
هناك جيش لهامٌ يؤمُّ جيشاً لهُاما

***

من قارعاتٍ صباحاً يهتزُّ منها المكانُ
وبارقاتٍ مساءً يحمرُّ منها الدخان
وناسفاتٍ بليلٍ يبعثنَ موتاً زؤاما

***

القتل قتلٌ ذريع والخطب خطبٌ جُسام
فوق الرغام دماءٌ يحمرُّ منها الرغام
والارض تشرب منها ولا تبلُّ أواما

وكقصيدة أنشدت في بيروت سنة ١٩١٥ موضوعها «متى تضع الحرب أوزارها» ومنها : [٢]

ربوعُ الحضارة أمست محطُّ النسور ومنتجعَ الاضبعِ
وإنَّ ابن آدم شرُّ الضواري اذا هاجهُ هائج المطمعِ
ففي الحرب سلْ عنهُ نيرانها وحُمر الدماء على اليرمعِ
وأشلاء قتلى أبادهمُ مبيدٌ من السيف والمدفعِ

ولو أردنا ان نعدد القصائد التي تضمنت وصفاً للحرب وبلاياها لضاق بنا المقام ويكثر فيها وصف محن الناس من بؤس وجوع وخوف وترمل نساء وتيتم أطفال وما الى ذلك مما يدخل اكثره في باب العوامل الاجتماعية فنرجىء الاسهاب فيه الى فرصة أخرى

(١) ديوانه (١٩٢٤) ١١٤ (٢) راجعها في جريدة الحقيقة (بيروت) ٧ — ٥٩٨

لراجي الراعي

فكتور هيجو

شاعر الشعراء

كل شعر من أشعار هيجو أصبع من كف السماء ، تشير الى مجده . . . ولسان من نار يندلع في سماء الادب والتاريخ ..

الجبل في روعته والبحر في زبده ودرره وأمواجه والافق في سموه وترامي أطرافه اجتمعوا ذات يوم وتداولوا في من يقيمونهُ محامياً يعبّر عن أسرارهم المستقرّة في أعماقهم فاستقرَّ رأيهم على ان يكون الشاعر ذلك المحامي، ونطق الشاعر فاذا هو هيجو . . .

ولد فكتور وعلى رأسه سربٌ من النسور هبطت من أعالي الفضاء وهي مأخوذة بزميلها الجديد ، مضطربة من مستقبله ومنافسته . .

في ذلك اليوم كان يوم النسور يوماً قاتماً .. أتاها شاعر الشعراء فما هي بعده.. وماذا تفيد حوماتها . . .

ولد فكتور فكان يوم ولادته كيوم نابليون في وحيده فلقد تناوله الشعر في ذلك اليوم وأطلَّ بهِ من شرفة الادب على دولة الادب وصاح : المستقبل لي . .

ولد في مقر الاولمب في ظلّ جوبيتر ، وعلى وجهه نور من أنوار السماء ، وأطلَّ على الحياة تعب الفؤاد لاهث الصدر من وطأة القرون على منكبيه فقدّم لهُ فرجيل كأساً من الخمرة صبَّ فيها البحر من زبده فشرب فلم يُطفىء غليله فشرب من دمعه فلم يُطفىء غليله فالتقط دموع الناس دمعة دمعة فلم يُطفىء غليله فلما ضاق بهِ الامر شرب من قلبه طيلة ليله فلما أطلَّ عليهِ الفجر كان قد أهرق دمه في القراطيس فكان مسبح الشعر . . ولما اشتدَّ ساعده جاءهُ هوميرس وقال لهُ : أنا الضرير رأيتك على الرغم من عماي فقد شقت أشعتك حجاب نظري . . وأقبل عليهِ موسه فجلسا ساعة ، تحت الصفصافة الباكية ، وصعد لامرتين الى قمة الجبل ونفخ في البوق مبشراً الدنيا بقدوم شاعر الشعراء . . .

فكتور هيجو . . ومن لا يعرفهُ . فكتور . . وكفى . .

رأى ابا الهول فقال له: لقد أتيت فاسمع فأنا في صرخاتي العجيبة انت في صمتك العجيب

الصدمة التي تشفي

علاج الخَبَل بالانسولين
وتأثير صدمته في المدمنين

هو ذا طريقة جديدة لعلاج الجنون (insanity)[1] وتاريخها لا يرجع الى ما قبل سنة ١٩٣٠ ففي تلك السنة كان الطبيب النفسي النمسوي الدكتور مانفرد ساكل Sakel معنيًّا بدراسة أحوال مدمني المورفين عندما يمنع المورفين عنهم . فتبيَّن ما تبيَّنهُ غيرهُ من الاطباء ، اي الاضطراب والتهيج بل والجنون الوقتيّ في هؤلاء المدمنين وهم في هذه الحالة . فلم يكتفِ بذلك بل خطر لهُ خاطر جعلهُ أساساً لرأيٍ . ذلك بأن تنقُّل المدمن الممنوع عن المخدِّر ، من حالة عقلية الى أخرى ، حملهُ على الظن بان المخدِّر احدث تغيراً في انساج الجسم علاوة على التغير في أحوال العقل . وذهب الى ان خلايا الدماغ تتأثر بالمورفين — وهو سمّ — تأثراً ضارًّا ، فتجذب وهي في هذه الحالة مقادير من المفرزات المهيجة او المثيرة التي تفرزها الغدد ، اكبر مما تجذبهُ في الاحوال السوية

والاطباء يعلمون ان للانسولين فعلاً يميل بأفعال الجسم الحيوية الى الهبوط . والانسولين كما لا يخفى تفرزهُ الغدة الحلوة السليمة فيساعد الجسم على تمثيل السكر . والمصاب (بالديابيطس مليتوس) داء البول السكري لا تفرز حلوتهُ الانسولين فيتجمع السكر في الدم . فاذا حقن المصاب بالقدر الكافي من الانسولين المحضَّر في المعامل فعل فعل الانسولين الطبيعي فيهبط مقدار السكر المتجمع في الدم . ولولاه لمات كثيرون ودمهم مكتظ بالسكر . ولكن اذا حقن المصاب بقدر من الانسولين اكبر مما يجب ان يكون هبط مقدار السكر في الدم الى اقل من مستواه اللازم فيصبح المصاب المحقون وكأنهُ ثملٌ او مخدَّرٌ بالكحول وقد يفقد وعيهُ وتستولي عليه غيبوبة . وعلاج هذه الحالة ادخال مقدار اضافي من السكر في الدم ، والغلوكوز هو ما يستعمل على الاكثر في هذه الاحوال

واذاً فلا يستغرب ان يستولي النعاس على اثر الحقن بالانسولين ، مع ان الانسولين ليس

---

(١) اشرنا الى هذه الطريقة اشارة ملخصة في مقتطف يوليو سنة ١٩٣٧ في باب الاخبار العلمية ص ٢٣٣ وقد قرأنا في هذا الموضوع مقالات في « السينتفيك اميركان » و« الفوروم » و« رسالة العلم » فلخصناها جامعين الاعتماد على مقالة السينتفيك اميركان

مخدراً بحصر المنى . ولذلك فكر الدكتور ساكل في استعمال الانسولين لتهدئة أعصاب مدمني المورفين الذين حيل بينهم وبينهُ . فأصاب في ذلك قسطاً من النجاح . ومع انهُ استعمل مقادير يسيرة من الانسولين في حقن المدمنين لاحظ تغيُّراً يستوقف النظر في احوالهم العقلية بعد الحقن . فالمدمنون الهائجون أخلدوا الى السكينة ، والمنطوون على انفسهم القاطعون كل صلة لهم بعالم الحقيقة عادوا يدركون الحقيقة والواقع ، والنازعون الى الانزواء والخصام انقلبوا الى المودة والتعاون

وقد كان هذا التغيُّر بادياً فيهم حتى في الايام الاولى من انقطاعهم عن المخدّر ، وفي هذه الايام الاولى كان المدمنون اشد ما يكونون عنفاً وهياجاً . فلمع في خاطر الطبيب النمسوي بارق رجاء خطاف . فالانسولين على ما يبدو من تجاربه، يجنح بالمرض الى التراخي والسكينة ، اي الى ان يعود المدمن سويًّا فترة طويلة أو على الدوام مع ان مقادير يسيرة استعملت في حقنه. فهل يكفي الانسولين لشفاء دماغ المجنون اذا حقن بمقادير كبيرة منهُ . ان الفكرة لجريئة ولكنها جديرة بالامتحان

وكان قد علم هو وغيرهُ من معالجة مصابي البول السكري بالانسولين ان حقنهم بمقادير كبيرة من الانسولين لا يؤذيهم الاَّ في أحوال نادرة وان حقنهم حينئذٍ بالغلوكوس يبطل ما يتعرضون لهُ من خطر . ولكنهُ أراد ان يستوثق لانهُ طبيب ذو ضمير حيّ

ولذلك تقدَّم الى امتحان فكرتهِ هـذه خطوة وئيدة أثر خطوة وئيدة وشعارهُ في كل خطوةٍ يخطوها سلامة المصاب . انها في نظره مقدمة على كل شيء آخر . فعلم من تجاربهِ المتعددة ان جميع أنواع الاضطرابات العصبية والعقلية لا تستجيب لعلاج الانسولين هذا . فالخُبـل Shizophrenics يجنون منهُ فائدة عظيمة وأما المصابون بالجنون السوداوي (مقابل للفظ manic-depression وهي حالة يتداول فيها المصابَ دورُ الجنون فدور السوداء : عن معجم دورلند الطبي) فقلما يجنون فائدة ما

والخُبل (shizophrenics) ذوو الشخصية المتهافتة الموزَّعة يشملون الذين تنطوي عقولهم على ذواتهم فيعيشون وكأنهم في حلم وينشئون عالماً خاصًّا بهم لا صلة لهُ بالواقع ويتخيلون انهم يعيشون مع ملوك وملكات وأميرات . ويكثر ان يظن الأخبل نفسهُ شخصاً آخر ، وفي هذا التخيُّل منفذ لهُ من حقيقة الواقع . والمصابون بهذا الضرب من الاضطراب العصبي العقلي ، هم السواد بين الذين يؤخذون الى مستشفيات الامراض العقلية كل سنة في أميركا وعددهم يبلغ نحو مائة الف

ولا يعلم عن سبب هـذه الحالة شيء واضح فيكتفي الاطباء بقولهم ان مردَّها الى « أسباب وظيفية » وهذان اللفظان لا يعنيان شيئاً

ثم هناك المصابون بالجنون السوداوي وهم على الغالب نهبٌ موزَّع بين النشاط والتراخي او الهياج والهبوط. وعلتهم أيضاً تعزى الى « أسباب وظيفية » . وليس ثمة من يعلم هل حالة الاخبل وأحلامهُ الغريبة ، وحالة المجنون السوداوي ، مرضان قائمان بنفسهما او هما عرضان لاصابة

جسمية خفية ، ليست صلتها بالدماغ والجهاز العصبي الأصلة ثانوية . ولذلك يمكن ان تحسب طريقة العلاج بصدمة الانسولين من أعجب الطرائق الطبية الحديثة لانها تعالج مرضاً لا يزال سببه سرّاً مغلقاً

قرّر الدكتور ساكل ان خير اسلوب يتبع في العلاج ، ان يحقن المصاب بمقادير متزايدة من الانسولين حتى يبلغ مقدار الحقنة الواحدة المقدار الذي يحدث الصدمة في الجسم . ومقدار « حقنة الصدمة » يختلف باختلاف المصابين ويتفاوت من ١٥ وحدة انسولين الى ٤٠٠ وحدة

ويقصد بحقنة الصدمة ذلك المقدار من الانسولين الذي يلزم لاحداث الغيبوبة في المحقون بعد اربع ساعات او خمس ساعات من حقنها فيه . وبعد بلوغ هذه المرتبة يحقن المصاب بمقدار الانسولين الذي يحدث الصدمة من ثلاث مرات الى ست مرات في الاسبوع حتى يحرز اكبر قدر من الفائدة . والغالب ان لا يعطى اكثر من خمسين حقنة اذا لم يستجب لتأثيرها . فاذا استجاب جسمه لتأثيرها فقد يعفى من الحقن يومين او ثلاثة ايام في كل اسبوع . وعلى كل حال يجب ان يعفى من الحقن يوماً واحداً في الاسبوع على الاقل

وقد كان أصعب ما اعترض سبيل الدكتور ساكل معرفة طول الغيبوبة التي يحفظ فيها المصاب وعدد « حقن الصدمة » التي يحقن بها . فمنهم من تكفيه ثماني حقن ومنهم من لا يبدأ جسمهم بالاستجابة لتأثير الحقنة الا بعد خمسين حقنة . ثم يبدأ الطبيب في تقليل مقدار الانسولين تدريجاً حتى يغدو مقدارُ الحقنة الاخيرة مقدارَ الحقنة الاولى

ولا يسمح للمصاب بأن يتناول طعاماً قبل الحقن والغالب ان يحقن في الساعة السادسة صباحاً ثم يبطل فعل الانسولين في الجسم بحقن محلول من السكر في الشريان او بأخذه عن طريق الفم ، وذلك في الساعة العاشرة صباحاً اي بعد انقضاء اربع ساعات على اعطائه الحقنة . واذا كانت الحقنة كبيرة وأحدثت صدمة وغيبوبة ، بقي المريض في فراشه وراقب مراقبة دقيقة حتى اذا بدا عليه اي عرض من اعراض الضعف او الهبوط أعطي السكر اللازم لعزز قواه

وبعد ان يعطى محلول السكر يستحم ويتناول فطوره ويسمح له بالقيام والتجوّل . ولكن المراقبة الدقيقة لازمة جدّاً ، لان السكر ينقص فجأة احياناً حتى حدود الخطر ولو كان المصاب قد اكل وشبع . وفي هذه الحالة يجب ان يحقن بمحلول السكر ايضاً

وفي سنة ١٩٣٣ أذاع الدكتور ساكل شفاء عليله الاول بهذه الطريقة وتبعهُ كثيرون ، ونشرت نتائج بحوثه والحالات التي عالجها ، فدهش علماء الطب النفساني مما قرأوهُ في رسائله ، لان تصديق ما فيها بدا صعباً . ولكن الدكتور ساكل شفى ثمانين في المائة من الخبل الذين عالجهم كذلك . والاقبال على تجربة هذه الطريقة في اميركا كبير والصحف حافلة بانبائها ، ولكن التعميم الآن سابق لاوانه والتجارب يجب ان تجرى بحذر عظيم

المذاهب الاشتراكية — ٢

أثر الماركسية

في الادب

لحليم متري

احب بعد أن طرقت هذه الابواب في الاشتراكية ومذاهبها مما قد يقره العقل الاجتماعي الحديث او لا يقره، أن اعرض للبحث الاساسي المقصود به هذا المقال وهو علاقة الماركسية بالادب . فاذا استعرضنا بعض النتائج التاريخية والحركات الفاصلة في تاريخ الاجتماع وجدنا ان الفكر السياسي في اوربا كان قد تطوّر نحو اتجاهات عديدة في الفترة التي استقرت فيها الحال بعد الحروب الثورية في القرن الثامن عشر . ولقد كانت المدرسة الفلسفية الذائعة الصيت إبان ذلك تلك التي قامت على فلسفة « هيجل » وتزعمها « هيجل » نفسه والتي قامت ايضاً من قبله على اكتاف « كانت » الفيلسوف الكبير ومن قبله أسسها فيلسوف الطبيعة « روسو »

ان كثيراً من تعاليم ماركس بل اشتراكيته نفسها في مظهرها ، يعود الى «هيجل». فقد كان نجاح «هيجل» كفيلسوف يعود الى تقديسه « الفكرة » التي اعتبر المادة لها اثراً . واما ماركس فقد أخذ هذه النظرية وقلبها رأساً على عقب وكان باعثه في ذلك النحو من الرأي ان الفكرة في ذاتها لا تقرن الى « محصول المادة » في بناء الجمعية الانسانية ، وانشأ على هذا الاساس نظريته الاجتماعية ، « Materialist Conception of History » « النظرية المادية للتاريخ »

والآن دعنا نبدأ « بماركس وانجلز » ونرى مدى ما قصد به الادب والفن في مذهب « المادية الجدلية » « Dialectical Materialism » او الفلسفة الجدلية أو المنطقية — اذا صح هذا التعبير — . فقد اعتبر ماركس وانجلز ان وجود المجتمع الانساني في أية مملكة وفي أي جيل موقوف على وسائل الانتاج وقد يتهيأ للمجتمع فضلاً عن ذلك « كفايات عليا » كالسياسة والقانون والدين والفلسفة والادب والفن . ونستطيع في غير تحرج ان نطلق على هذه الكفايات « مظاهر النشاط » وهي لا تتجمع كلها في المعاني الاقتصادية وانما من شأنها أن تكوّن بطرق مباشرة أو غير مباشرة « التناسق الاجتماعي » وهي تمتد الى مختلف المرافق العامة كل منها في

اتجاهه الخاص على انها ترتبط في نظام واحد لانها تعمل متضافرة كما انها ترتكز على الحياة الاقتصادية . وإذن فلا يجوز ان يقال ان الحالة الاقتصادية هي وحدها الاثر الفعال وما عداها فلا يعتد به . فقد يتاح مثلاً لطابع اي عصر من « العصور الفنية » ان تؤثر حيويته في « نظام » ذلك العصر بصفة عامة وفي نواحيه الاقتصادية بصفة خاصة . . . لم يحاول « ماركس » أو « أنجلز » إقامة مذاهب اجتماعية اقتصادية لكي يستطيعا بها تحديد « المنزلة الفنية للاجتماع » فقد نشأ كلاهما في مغرب أيام « جيته » الشاعر الالماني العظيم قبل ان ينتهي العصر الذهبي للأدب الالماني . ولقد حاول « ماركس » وانجلز ان يطرقا ابواب الشعر في صدر شبابهما بل لقد اندفعا في غمار الحياة الخيالية واستطاعا ان يبلغا فيها شأواً بعيداً بل استطاعا ان يكونا ناقدين لم تقبل عقليتهما هضم ما كان يكتبهُ « أوجين سو » في مؤلفه « العائلة المقدسة » عن طرق العلاج لبؤس الطبقات المتوسطة في المجتمع . بل لقد ندد « بفردريك فريليجرات » الذي هجر عصبة الاشتراكيين وارتدَّ وطنياً في عام ١٨٧٠ وكذلك أنحى ماركس باللائمة على « هنريش هيني » عند ما ظن ان هذا الاخير قد انحنى خوفاً أمام اصحاب السلطة عندما كتب « تعبيرات الزهد » في وصيته . وهذا ثابت من رسالة ماركس الى انجلز في ديسمبر ١٨٦٦ مع ان ابنة ماركس تقرر ان والدها كان يحب « هيني » بقدر ما كان يتغاضى عن إخفاقه السياسي . ولقد كان ماركس يقول ان الشعراء قد يكونون عباقرة اذا ما تركوا في سبيلهم احراراً فليس من المفروض اساساً ان نضعهم في المستوى العادي الذي نضع فيه سواد الناس

لم يكن من مميزات ماركس وانجلز الحكم على الآداب — آداب السموّ والقوة — في حدود اتجاهاتها السياسية . فلقد طالما انذر ماركس روائيي الاشتراكية بما ينجم من خطر عن الآداب الغامضة التي قد تؤدي نتائجها الى اغراض غير صريحة . ولقد كتب الى « مينا كوتسكي » يقول لها عن احد مؤلفاتها ان شخص البطل والبطلة في قصتها قد ذابا في المبادىء التي يمثلانها ويقول لها لقد اتخذت بعض جوانب تلك القصة لابراز نظرياتك الى المجتمع على أنني أرى ان الاتجاه يجب ان يصدر عن الحوار والحركة دون ان يركزا في مذاهب اجتماعية او نظريات علمية وانهُ ليس على الشاعر ان يطلع على القارىء بحل ما يختتم به نهاية النزاع الذي يسرده »

ولقد أرسل « فرديناند لاسال » مأساته الشعرية « فرانز فون سيكنجن » الى ماركس وانجلز يدعوهما الى نقدها . فكتب اليه ماركس يقول « اذا تركتُ جانباً أي فكرة تعرض لي عن نقد هذا المجهود الأدبي فان قراءتي الأولى لتلك الدرة الثمينة قد أثرت فيَّ التأثير كله وطبيعي ان يثير مثل هذا الادب كل ذي وجدان » . أما انجلز فقد قال انهُ قد قرأها مثنى وثلاث ومن فرط اعجابه بها وضعها جانباً متأملاً في ما عسى ان تمليهُ عليهِ مواضعها من نقد ... » . ولقد

تحدثا في هذا عند ما كانا يدفعان بنفسيهما الى المحيط الادبي لكي يطلعا على الانتاج الفكري ويضعان بصدده ما يعن لهما من ملاحظات . ولا عجب فني عصرها بلغت « الدراما » مكانة رفيعة ولقد أمكنهما ان يبينا كيف ان مكانة « لاسال » السياسية جعلتهُ يخطىء فهم الدور الذي لعبهُ بطل مأساته . أما « شاكسبير » فقد كان « ماركس » يكلف بآثاره الادبية والشعرية كلفاً شديداً . فكان يحفظ شعره عن ظهر قلب . وكان مشغوفاً بكتابة مذكرات عنهُ . ولكن لم يحاول ان يخرج منها بأية فكرة عن الاشتراكية

ولقد كتب ماركس مبيناً مدى العلاقة بين الفن والنظام الاجتماعي فأشار في مقدمته لنقد « الاقتصاد السياسي » الى أن في بعض العصور التي شارف فيها الفن المثل الاعلى لم يكن لهُ ثمة اتصال بالتقدم الاجتماعي . بل لم يكن لهُ صلة بالقواعد المادية التي يقوم عليها نظام الاجتماع . ولم يكن ماركس او انجلز ممن يتخذون الفن سلاحاً . . « Art as weapon » . بل كانا يتأثران بالمثل الاعلى للعقلية التي تشترك في مناحٍ كثيرة للعلوم والمعرفة فلم يحبذا التخصص في احد العلوم او الفنون بل كانا يقدران شخص ذلك العالم الذي قام في أيام « النهضة الاوربية » Renaissance والذي كان موسوعي الثقافة

وهذا « ليوناردو » كان مصوراً ورياضيًّا وعالماً هندسيًّا . ودونك « ميكافيللي » فقد كان شاعراً ومؤرخاً وسياسيًّا ماهراً . كان هذان الرجلان اذن يمثلان تلك النظرية التثقيفية قبل ان يكون لتقسيم العمل « Division of Labour » هذا التحديد لطبيعة العقل ونموه وقبل ان يُفرض على كل انسان عمل خاص . على اننا اذا ما نظرنا الى « لينين » مثلاً وجدنا أنفسنا أمام شخصية مثقفة مجربة وانما نجد أيضاً ان ماركس خصَّ نفسه بشيئين « التنظيم والكفاح » ولقد كان كمعظم الروسيين — يعشق الموسيقى . ويتحدث عنهُ جوركي فيقول « لقد كان يستمع ألحان بيتهوفن فيؤثر سماعها كل يوم على أي شيء ويعبر عن احساسه نحوها فيقول . تلك هي الموسيقى التي ترتفع عن عواطف البشر واني لأذكر بفخر ما يصل اليه سمو العاطفة وجلال الالهام بل ما يصل اليه العقل — على اني لا أستمرىء سماع الموسيقى كثيراً . فهي تؤثر في أعصابك وتجعلك اما متبرماً ساخطاً واما فرحاً راضياً على ان ينتهي هذا التبرم او السخط وذلك الفرح والرضاء الى الاعجاب بأولئك الذين يخرجون الى العالم درراً وفرائد ويعيشون في وادي الجحيم »

ولقد كان لينين مشغوفاً بالقصة والشعر والتمثيل وكان ذا نزعة خاصة في تذوق الفنون الرفيعة ولقد قال ذات مرة في أثناء حديث لهُ في احدى ندوات الشباب : ماذا تقرأون ؟ أتقرأون بوشكين ؟ ؟ — لا . لا . انهُ كان كاتباً من كتاب العامة . وانما نحن نجل « مايكوفسكي » . فابتسم أحد الموجودين وقال : اني لا أظن ان « بوشكين » يفوقهُ كثيراً

وكان لينين يمجد « تولستوي » وكثيراً ما كان يقرأ كتابه « السلم والحرب » ولقد قال لينين عن تولستوي ان عبقريته منقطعة النظير وانهُ الفنان الذي يجب ان يتخذ مثلاً أعلى . ولقد كان لينين يكتب عنهُ مساجلاً نواحي عبقريته كما كان « إنجلز » يحلل نفسية الشاعر الالماني « جيته » وان كان قد عرّض بعدم مقاومته وبتصوفه. وقد كانت فكرة لينين عن جوركي كفكرة ماركس عن « هيني » وكان يقترح في بعض رسائله ان يكون جوركي كاتباً صحافيًّا يدعو للبلشفية . . . على ألاّ يكون من وراء هذا تحطيم نزعته الادبية العالية . . . وجوركي هذا الذي يعنيه لينين لم يستطع احتمال استبداده ودسائس انصاره فهاجر الى أوربا تاركاً منصبه في حكومة الروسيا وقد كان فيها مديراً للفنون الجميلة

ان لينين يمثل تلك « الطوبى » التي تخيلها « ماركس » عن « الاشتراكي المكافح » فقد كان دائم الجلاد والعمل ليصل بأصحاب « الايدي العاملة » الى مركز الحكم . ولقد كانت نظريات « كارل ماركس » انجيلاً يستنير به في حياته الاجتماعية بل كانت الحافز الذي دفع بلينين الى ان يعتنق تلك الفلسفة الجديدة في الاجتماع حتى أتيح لهُ ان يصل الى تمزيق النظام (الرأسمالي). ولقد كان لهُ ان يحذق تلك الاساليب المختلفة التي يحتاج اليها الهدم والبناء وكانت نظريتهُ ان المبادىء شيء والاعمال شيء آخر وان القائد يجب ان « يجرب » لكي يصل الى خير الوسائل والطرق وبذلك ينتهي الى ما يطمع في الوصول اليه . ومما قرب للينين الطريق ما في خلقه من حزم واستهتار وبوهيمية

فقد عرف هذا الرجل كيف يسبر غور النفس الانسانية وكيف يختار الرجال ويدرس أوساطهم وبواعثهم النفسية . واستطاع ان يسخّر المجتمع رجالاً ونساء لخدمة اغراضه التي تنحصر في ان الحكومة يجب ان تسودها الطبقات العاملة (Proletarians) وهذا الرجل الذي كان يعمل بآراء ماركس في الحكم كان يبشر بهذه الآراء ذاتها في الادب والثقافة وكان من رأيه ان يكون الادب خادماً للحياة وان يكون وسيلة فعّالة من وسائل التقدم الاجتماعي . واذا كانت الحرية غاية في ذاتها فتحرير الفكر من أسر التقاليد هو « الغاية » التي يجب ان يسمى اليها الادب

أما « تروتسكي » فكان أديباً يفضّل على لينين . أخرج عام ١٩٢٤ دراسة مسهبة عن « الادب والثورة » عالج فيها المشاكل التي تعرض لها الكتّاب الروسيون وعن علاقاتها بالمجتمع الجديد الذي يعتبر وليداً للثورة . ولقد تعرّض في بحثه لاشياء لم يتعرض لها ماركس وأنجلز من موضوعات تختص بالنقد الادبي تحدث فيه عن قيمة الادب ورسالته في الحياة . لقد قدر تروتسكي منزلة « شكسبير واليونان » فليس يحق لكائن من كان ان يثير غباراً على هذه الآثار الخالدة الحية . ولقد كان هذا رأيهُ بينما الكتّاب الروسيون كانوا يتساءلون عن منزلة الادب

والفن في عصور الانحطاط الدكتاتوري او الحرية الاشتراكية . وما هي الثقافة التي للطبقات العامة التي عنهم نشأت الاشتراكية . وهل تكون هنالك آداب شعبية جديدة في أساليب جديدة تمثل عواطف وآراء تلك الدكتاتورية الشعبية ؟ لقد كان في روسيا جماعة أطلقوا على انفسهم « البروليكتلت » رغبت تلك الجماعة في ان تحتكر الاشراف على الآداب السوفيتية . على ان لينين بدأ في معارضة المشروع بحجة ان الآداب الشعبية شيء لا يقوم على قوة السياسة او استغلال الآراء السياسية وانما يقوم على التطور الطبيعي القائم على المعرفة والعلم والتي جاهد من أجلهما الشعب تحت ضغط رأسمالية الاشراف والحكام . ولقد زعم تروتسكي في كتابه « الادب والثورة » ان الآداب الشعبية والثقافة الشعبية تنتهي الى نتيجة خطيرة في التكوين العلمي لعقلية الشعب اذا استمرت ، إذ تجمع خطأ ثقافة المستقبل في الحيز الضيق لحالتنا الاجتماعية الحاضرة . وانا لنفهم من « ماركسيته » اتجاه التأثيرات الخاصة بالادب القومي الذي يدعو الى الحرية والبعد عن تأثيرات اصحاب السلطة . ولقد قدر تروتسكي أولئك الكتاب والشعراء والروائيين الذين ألهمتهم الحياة كثيراً من دروسها وعرفوا مدى ما ينتهي اليه تفكيرهم من بحث الازمات الاقتصادية . . . وهو مع هذا لم يكن يؤمن بالادب الشعبي الذي حل محل الادب « البرجوازي » . فلقد نما ادب الثورة الفرنسية البرجوازي في كنف العهد القديم ولكن روسيا « الامية » لم يكن لها مثل هذا الحظ من الثقافة وقد لا يحتمل ان تتمتع به في المستقبل لان الدكتاتورية الشعبية لم تكن الاّ فترة انتقال قصد بها إيجاد فكرة انسانية عظيمة . فالشيوعية لم يكن لها حتى اليوم ثقافة فنية ولكن كان لها ثقافة سياسية ! ! . ويقول تروتسكي — لم يكن من السهل ان تطبق مبادىء ماركس على الصور الفنية كما انهُ من السهل ان نقيس الصور الفنية الى مكانتها من السمو الفني بمقاييس الفن نفسه ! ! . لم يتعود الناس في روسيا ان تشرف الحكومة على الاعمال الادبية والفنية . وكذلك لم تحاول الهيئات الادبية ان تثبت وجودها عن طريق الحكومة . وانما كانت في الروسيا منذ الانقلاب الثوري جماعات أدبية حاولت أن تسيطر على الادب برعاية السلطة حيناً وبدون رعايتها حيناً آخر . ولقد كان تروتسكي بمكانته الرسمية يضاد هذه الاتجاهات وينكرها . وكان محبو الادب الروسي يعتقدون ان هذا النوع من الاستغلال بعيد عن الروح الاشتراكي وانهُ شر محض وان الحكومة لا الادب يفيد كثيراً من هذا الاشراف على الثقافة . وهذا العمل بعيد عن جادة الصواب فقد كان الادب « الرومانتيكي » في عهد القيصر يلعب دوراً لم يتح لمثله ان يلعبه في عهود التاريخ كلها . فقد كان النقد الاجتماعي والسياسي والادبي مقضياً عليه بالرقابة . وكان أن ألبس النقد يومئذ لباس « الدراما » لكي يظهر في أثواب مسرحية . ولقد تهيأ المسرح يومئذ عهد جليل من عهود التمثيل الفنية في القرن الثامن

عشر بل ان هذا هو السر في قوة تلك القطع الروائية العظيمة التي انتجها عباقرة الكتاب في تلك الفترة منذ عهد بوشكين حتى تولستوي . وكان هذا الادب التمثيلي يتسم بالتعريض art of implication ولقد كان يكفي لان يفلت مؤلف « تورجينيف »من يد الرقيب لكي يطرد الرقيب نفسه بل يسجن وكان هذا الموضوع التمثيلي « A Sportsman's Sketches »

ظلت الآداب كالسياسة منذ الثورة في حالة شديدة من التناقض والارتباك . أما بعد الثورة فقد كان المفكرون انفسهم اصحاب قوة ورأي . وكان اندماج الثقافة بالسياسة يومئذ لا يخلو من اخطار وشرور . فعمد لينين وتروتسكي ولوناشارسكي وجوركي الى تحرير الادب من اي دعوة . وكان لهم ان يناهضوا هذا الشعور الفكري الذي وجد في اذهان الشعب منذ عهد القيصر والذي كان يعتبر الفن سلاحاً للدعوة . وكان لينين لهذا يفيد كثيراً من دعاوة الصور المتحركة وكان اول فيلم شاهده الشعب هو « لاينشيين » و « بتروفكين » وهو قطعة عظيمة في التعريض والنقد الاجتماعي على نسق الروايات التمثيلية التي مثلت في عهد القيصر . على ان البلاشفة قد أخفقوا بعد موت لينين ونفي تروتسكي في النهوض بهذا النوع من الآداب ولان « ستالين » لم يكن على درجة من الثقافة تعدل تلك التي للينين او تروتسكي . ولقد خمدت حركة النقد المسرحي نفسه لان ذلك الشعب الامي لم يكن ليصل الى تلك الذروة من التفكير

كان جوركي مدافعاً عن حرية القلم بل كان قد ارصد نفسه للدفاع عن حرية الفكر فاليه يرجع هدم « الراب » R. A. P. P. آخر مجهود في الاحتكار الثقافي . ولقد فتح الكنائس والمعاهد السوفيتية لاقطاب الكتاب الاجانب وكذلك لكتاب الكلاسيكيين وان كان هذا التصرف قد ادى الى تدعيم المظهر الديمقراطي وهيأ مجالاً واسعاً للاطلاع على الآداب والعلوم والفلسفات . وهذه الفترة تفضل كثيراً عهد « ستالين » حيث لا سبيل الى معارضة سياسية او نقد اجتماعي . وفي روسيا نجد السياسة تقرر المصير الاجتماعي ؟ . . واذن ما هو على وجه التحديد موقف المفكرين الروسيين . اولئك الذين يهيمون بفلسفة التاريخ او فلسفة الفنون والذين نضعهم في الصدارة اذا ما ذكر ادباء الاجتماع في العالم ! ! ان الموضوعات التي يعرض لها الادب التمثيلي اليوم في الروسيا لا تمت بصلة الى « الميلودرام » ذلك التمثيل القوي الذي يصدر عن العاطفة والمعاني الخلقية . وانما نجد اليوم في الروسيا قصصاً تمثيلية هزيلة تتجه نحو الدعاوة الى اسلوب الحكم الذي يقوم به « ستالين »

ان موسيقى « سكوستا كوفتش » التي لم يتذوقها الجنود كانت دليلاً على اهمال الديمقراطية ومبادئها . وطبيعي ان موت « جوركي » وسجن « بوكارين » و « رادك » ازال « الفرملة » التي كانت تحول دون التدهور الفني وبعبارة اخرى التدهور السياسي . ان تمويه الحقائق التاريخية

في عهود ازمات ستالين وتروتسكي قد ادت الى نتائج وهمية حتى ان الحكومة لا تتوانى في ان تضع للناس برنامجاً جديداً يمثل تاريخهم القديم ويصف اخلاقهم . ومثل هذا التصرف لا ينتهي الا بأفساد الحياة العقلية التي تقوم عليها مظاهر الاجتماع وتقديره . على ان هذا كله يقابله العالم أجمع في شيء من الهدوء والابتسام . وعلى هذا النحو فقد دفعت «الماركسية» بنفسها في مأزق حرج او كما يقولون قد اسقطت نفسها في بئر . ونحن قد يخيل الينا ان «السوفيتيين» لم يبقَ لهم من ماركسيتهم حتى « الثقافة السياسية » في أعنف صورها . وهكذا فقد بعدنا عن تأثير الحرية طالما قد فقدنا إلهامها . واذن الى اي خاتمة تنتهي قضية «الماركسية والادب» . اننا يجب ان نتذرع في هذا البحث بالمنطق السديد وتحكيم العقل واذن فلا ينبغي ان نغفل تلك الآيات الادبية الخالدة التي اخرجها آباء الماركسية . اننا قد نبعد قليلاً عن «تروتسكي» فيما قد قررناه من أحكام ونصرّح بأن «الماركسية» وحدها لا يمكن ان تدلنا على الطيب أو الرديء من الانتاج الفني . فقد يكون هنالك «ماركسي» ممتاز ولكنهُ قد فقد ملكة التخيل او الذوق واذن فهو لا يستطيع ان يفرق بين الغث والسمين في الانتاج الادبي وهذه نتيجة «ايديولوجية» خاصة بتكوين ثقافته

ان دراسة الادب وعلاقته بالاجتماع قديمة جداً قدم « هردر » وفيكو . ولقد سبق « لكولردج » ان تحدث عن تلك العلاقة التي تقوم بين الادب والمجتمع . فقد تبين « قوة » السلطة اليونانية في عهودها التاريخية في ثنايا التعبيرات الادبية اليونانية . كما قد تستطيع ان تلمس «الفردية» الانجليزية في محاورات « تشوسر » . على ان «البرجوازي» الاكبر في هذا السبيل من النقد هو (تين)

ان الكاتب اذا شاء ان يطبق المبادىء والنظريات الماركسية ولا سيّما نظرية ماركس عن « الفلسفة الجدلية » ينبغي ان يدرس الادب الانساني درساً عميقاً . فالشيء الذي يجب ان يتنبه لهُ الكاتبون يتعلق بالمعاني التي ترمي اليها حقائق الادب . ولعل هذه الحقائق لن يصل اليها العقل في يسر وسهولة فقد لا يستطيع الاديب نفسه اداء هذه المعاني في شيء من التبسط . إما لغموضها وإما لابهامها وإما لرمزيتها . وقد يعاني القارىء شيئاً غير قليل من العسر اذا ما انتهى الى حدّ يخيل اليه انهُ الحقيقة او المعنى الذي اراده الكاتب ، وقد يكتفي بما يعثر عليه من آراء اشتراكية تهذيبية . وقد يخطىء اذا ما عرف معنى من المعاني يخالف تلك التي يرمي اليها الكاتب . فبعض المعاني والالفاظ يصح ان يتخذ فيها اكثر من تفسير واحد او معنى واحد . ولقد كتب (فريدريك انجلز) الى (مارجريت هاركنيس) عن هذا فقال لها . (كلما استطاع الكاتب ان يخفي آراءه او خواطره السياسية كلما كانت اقرب الى الوضع الفني . فبلزاك بآرائه الرجعية يفضل زولا كثيراً رغماً عن آراء الاخير الدعوقراطية : فبلزاك كان موضع اعجاب ماركس وانجلز . ولقد كان يرثي لتهدم الطبقة العليا في المجتمع وكان نقده لم يكن مرّاً واستهزاءه لم يكن

عميقاً عند ما كان يصور الشخصيات الاريستوقراطية المعاصرة . تلك الشخصيات التي كان يحبوها بعطفه . بل التي كان اعجابه بها سافراً . وهؤلاء انفسهم كانوا من معارضيه السياسيين الذين استطاعوا أن يمثلوا مطالب الطبقات الشعبية في الفترة بين عامي ١٨٣٠—١٨٣٦ . وعلى هذا فليس من المحتم انهُ ينبغي في الآية الفنية تحديد الاشخاص في معرض النزاع او غيره من شؤون الاجتماع حتى يتهيأ إعداد الصورة الكاملة عن المجتمع . وهذا ما قد يعرض لهُ الادب كما قد تعرض لهُ الموسيقى من وجهة الفن . على انهُ من المفروض تحديد العواطف والانفعالات التي تدفعنا الى الحركات والاعمال ومن هذا نرى ان الذكاء الحقيقي واستشفاف حجب الغيب يدلان على حيوية التفكير في النفس وهذا ما يستطيع الكاتب تبيانه في ادبه اذا كان موهوباً واذا عرف أن يصل الى ما تهيؤه لهُ افكاره من صور وما يمليه عليه عقله من آراء علمية متزنة

وليست الماركسية في النقد تعني الهدم وانما هي تعني البناء . فناقد (اليسار) الذي لا يتزود بالكفاية الادبية قد يعمد الى وزن المؤلفات الادبية بموازين ليست مضبوطة . وهذا مصدره قلة التحصيل والاطلاع على متباين النزعات الادبية والخلقية . فالناقد ينبغي ان يعرض للادب باعتباره (وسيلة) لا باعتباره (غاية) فالمثل الاعلى للادب الماركسي مثلاً هو (فائدته) التي تعود على هذا المجتمع الكبير . كأن يقرر الوضع الصحيح للفرد والمجموع وحقوق المرأة ورسالة العلم في الحياة وماهية الفلسفة وتعديل النظم الاقتصادية وتعريف الحقوق والواجبات . والالتزامات الخلقية المفروضة في الكتّاب والادباء . واليوم الذي تصل فيه الماركسية الى هذا هو الفترة التي « تتحجر » فيها وتصير مذهباً فلسفيًّا كالمذاهب المعروفة . أما مميزات المثل الاعلى للادب الماركسي فهي كما ذكرها (جرانفل هيكس) في مقال لهُ عن الأزمات في النقد ما يأتي : —

أولاً : ان تكون وظيفة هذا الادب ان يفهم القارىء من طبقة العمال دوره الذي يقوم به في الكفاح الاجتماعي . ثانياً : أن يظهر ذلك الادب بطريقة مباشرة او غير مباشرة نتائج كفاح الطبقات

ثالثاً : اشعار القارىء ان الكاتب يساهم في هذا الضرب من الحياة الاجتماعية التي يعرض اليها

رابعاً : ان يكون الكاتب نفسه في مقدمة طبقة العمال عطفاً وروحاً

ولقد عقد في اغسطس عام ١٩٣٤ مؤتمر الكتّاب الروسيين ونودي فيه بمذهب (الاشتراكية الواقعية) في الادب ولم يكن هذا غير محاولة لتقرير بعض الموضوعات الادبية عن الحياة . أما « الفرضيون » الذين يتصوّرون الى حدّ ما أدب المستقبل فلهم ان « يحكموا على نسبة ما وصل اليه الانتاج الادبي في عصور الامبراطورية » وبين فقر الادب في هذه الايام . واذا كان في عرفهم انهُ لم يظهر هنالك أديب يسمو الى نقدهم او يكون مستحقًّا لهُ فهم من أجل هذا يؤملون كثيراً في المستقبل ويعرفون انهم مقبلون على عصر « مادي » او كفاحي قد يوجد فيه طائفة من « المثاليين ».

«والانسانيون» في عرفهم قد وجدوا خير معين في أدب سوفوكليس وشاكسبير « والاشتراكيون الواقعيون » Realist كان لهم تولستوي وأضرابه. على انهُ من الثابت لو ان تولستوي قد عاش في حيز ما يفرضهُ أو يحدده هؤلاء لما كان قد كتب فصلاً واحداً وكذلك لو ان (بايت) و(مور) قد أمكنهما ان يقيا امام (شكسبير) فروضهما لما كان قد خط حرفاً من قصيدة

لقد بدأ الادب الروسي منذ أول هذا العصر ان يسير في وجهتين مختلفتين الاولى وجهة الادب الواقعي والثانية وجهة الادب البرجوازي الكثير (الرومانتيكيات) وقد انتصر الاول بانتصار الماركسية وتهدم الثاني لبعده عن الحياة وقربهِ من الخيال والصنعة والارستقراطية ولقد ظلَّ هذا الاخير منذ نهاية القرن الثامن عشر يسعى للدخول في الحياة ويحاول لكي يجد لهُ تأثيراً فيها فأخفق بعد ما يقرب من المائة سنة بينما الادب «البروليتاري» التقريري قد عرف كيف ينفذ الى صميم الحياة بعد النصف الاخير من القرن التاسع عشر وهو قد بلغ أوج مجده في السنوات التي اعقبت الحرب الكبرى

وقد يقول قائل وما ادعى الاوقات ملاءمة للانتاج الفني ؟ قد يكون في عصري الثورة وما قبل الثورة انتاج ادبي فيهِ حيوية وتجدد . وهذا ما يخالف وقت الثورة نفسه فمالا شك فيهِ ان الصور الادبية العالية يحتاج في صنعها الى فراغ وهدوء والكاتب في غضون الثورة محروم منها . فادب الثورة الفرنسية احتوته خطب (دانتون) ومذكرات (كاميل ديمولان) وقصائد (اندريه شينيه) السياسية القليلة التي كتبت قبل ان تنزع رأسه (الجيلوتين) . اما أدب الثورة الروسية فقد احتوته كتابات لينين وتروتسكي واشعار الكسندر بلوك (الاثنا عشر)

اما ما قبل الثورة فقد كانت العوامل كلها تدعو لاختمار الافكار . ففي القرن الثامن عشر في فرنسا والقرن التاسع عشر في روسيا لم تكن قوة الادب فيهما مستمدة من الثورة المتوقعة ولكن كانت هنالك ظواهر ملموسة للأدب الراقي الذي يسير بخطى واسعة نحو الكمال ولقد كان للمعاهد العلمية الكثيرة وجهابذة الفكر والادب فضل في هذا الصدد لا ينكر واذا عرضنا للادب (البروليتاري) الذي لازم الثورة الاشتراكية فقد نقول ان الكتّاب كانوا يكتبون عن (الواقع) الذي يحيا فيهِ العامل وكانوا كذلك يكتبون عن (البرجوازيه) في أسلوب تميز بالاختصار حتى لكأنهم يطوقون الادب بهذا الغلاف (الرمزي) . لقد كان البؤس والفقر والمظالم السياسية موضوعات تولستوي وديستويفسكي وجوركي والقصص التي كتبها هؤلاء جميعاً تنحو نحو النقد الموضوعي. على ان (القصد) عندهم لم يكن واضحاً وضوح (الفن) وتلك ناحية في الاسلوب قد تطبع أدبهم بطابعها الخاص. على اننا لا ننسى ان جوركي كتب حقاً عن موضوعات هي كالموضوعات التي عرض لها تولستوي وديستويفسكي واضرابهم وانما كان إيضاح الغاية والقصد ما يجب ان يصل اليهِ دائماً . ولعل من ابعث الاسباب للتجديد في أدبهِ انهُ كثيراً ما عدا الوسط الذي يعيش فيهِ ولذلك فقد كتب عن الاقتصاد وحرية المرأة وعدم المبالاة بالعرف الاجتماعي

٤ — علم الانسان

الانسان المجهول

تلخيص : اسماعيل مظهر

٧— ضرورة المفاضلة بين المعلومات المتباينة الخاصة بالانسان — بردجن ومذهبه في التصور الفعال — نبذ المذاهب العلمية والفلسفية — وظيفة الفروض

إنَّ جهلنا بأنفسنا لجهل ذو طبيعة خاصة . جهلٌ ليس مصدره صعوبة الوصول إلى المعلومات الضرورية ، ولا خطأ تلك المعلومات ، ولا ندرتها . بل هو على العكس من ذلك ، جهل سببه وفرة المعلومات التي كدَّستها الانسانية عن نفسها خلال تتالي القرون ، فتنافرت ولم تتسق . أضف الى ذلك تجزيء الانسان قطعاً وتمزيقه تنفاً من طريق تلك العلوم التي حاولت ان تدرس تركيبهُ الجسماني ووَعيه . غير ان هذه المعرفة الواسعة لم تستخدم لمصلحة الانسان في غالب الامر . والواقع انها معرفة لا يمكن استخدامها ، وبوارُها ظاهر يتجلى في ركاكة التصورات القديمة ، وفي الاسس التي قام عليها الطب وعلم الصحة والتعليم وعلم الاجتماع والاقتصاد السياسي . غير أننا نجد إلى جانب هذا أن هنالك حقيقة حية مفعمة بالقوة تتضمنها تلك الكتلة الهائلة من التعريفات والنظريات والمذاهب والمبادىء والرَّغبات والاحلام ، تلك التي تمثل لانظارنا حقيقة تلك الجهود التي بذلها الانسان في سبيل استجماع المعرفة عن ذاته . اضف الى مذاهب العلماء وتأملات الفلاسفة ، تلك النتائج العملية التي بلغها الانسان من طريق التجارب التي مارسها اهل القرون الفوارط ، هذا الى جملة وافرة من المشاهدات كانت روح العلم ، وإن شئت فقل «الفن العلميّ» السبب المباشر في ان ينمو بها الانسان ويستكنه مغلقها . عامة ذا يحفزنا حتماً الى الشعور بضرورة المفاضلة واختيار الاصلح من تلك الاشياء المتباينة المتنافرة

من التصورات العديدة المتعلقة بالانسان ، نذرٌ هو بطبعه مجرَّد تأليف منطقي مصدره العقل الصرف . ولو بحثنا لعجزنا عن أن نجد في العالم الخارج عن حيز العقل (كائناً) ينطبق عليه ذلك التأليف المنطقي . أما غير ذلك من التصورات فنتاج للتجربة والاختبار . وهذه هي التي دعاها (بردجن) (التصورات الفعَّالة) فكل المعرفة الايجابية (اليقينية) تتطلب منا استخدام

فنٌّ مَّا ، وبالحري تتطلب بضع عمليات او أفعال طبيعية او عقلية . فاذا قلنا مثلاً ان شيئاً يبلغ من الطول متراً ، فانما نعني بذلك انهُ يبلغ من الطول مبلغ قطعة من الخشب أو المعدن ، امتدادها مساوٍ لامتداد المتر القياسي المحفوظ في المكتب الدولي للمقاييس والموازين . ونستخلص من هذا المثل ان تصور الطول انما يترادف ومقياس المتر الطولي . ومن هنا يقول بردجمن ان التصورات التي تتصل باشياء خارجة عن حيز الاختبار ، تصورات مسلوبة المعنى ومن هنا يقال ان سؤالاً ما انما يكون معدوم القيمة والنفع ، اذا كان من غير المستطاع ان يستكشف الانسان « العمليات » التي تؤهل بنا الى الاجابة عنهُ

ان دقة « السؤال » في كل الحالات ، تتوقف على « العمليات » التي تؤدي الى فهمهِ واستيعابهِ . فاذا عرفنا الانسان مثلاً بأنهُ « كائن يتألف من مادة ووعيٍ » فان هذا التعريف يكون ولا شك فاقد المعنى . ذلك بأن العلاقات التي تقوم بين الوعي وعالم المادة لم تدخل بعد منطقة الاختبار حتى الآن . وانما يكون التعريف الذي نضعهُ للانسان « تعريفاً فعّالاً » اذا نحن اعتبرناه كائناً قادراً على ان ينشط نشاطاً تتجلى فيهِ آثار الافعال الطبيعية الكيميائية والوظيفية والنفسية . ذلك بأن التصورات الثابتة الحقيقة الدائمة الماهية ، والتي ينبغي ان تكون على الاستمرار أساس علمي الاحياء والطبيعة ، هي التصورات التي ترتبط بأساليب الاختبار . ولنضرب لذلك مثلاً . فان فكرتنا القائمة الآن عن خلايا القشرة المخيّة ، وشكلها الهرمي ، وزوائدها الجذرية المشعبة ، إنما تعود برمتها الى الوسائل التي كشف عنها (رامون كايال) . هذا « تصوُّر فعال » . ومعنى انهُ فعال انهُ تصوُّر يظل ثابتاً لا يتغيَّر حتى تستكشف وسائل أخرى أدق من الوسائل الاولى وأجدى في كشف حقائق جديدة . أما ان نقول ان خلايا القشرة المخية هي مقر الظواهر العقلية ، فلا شكَّ يكون قولاً فاقد القيمة واطلاقاً مسلوب القدر ، لاننا لا نستطيع ان نشاهد ظواهر عقلية مندمجة في مادة الخلايا المخية . بهذا نجد ان (التصورات الفعالة) هي الدعائم الثابتة التي يمكننا ان نشيد من فوقها آمنين . واذن ينبغي لنا ان ننظر في قدر المعرفة العظيم الذي استجمعناهُ عن أنفسنا لنختار منهُ القواعد والمعلومات التي لا تلائم ما هو قائم في أذهاننا لا غير ، بل تلائم أيضاً طبيعة الاشياء

وانا لنعلم ان من التصورات ذوات العلاقة بالانسان ما هو مقصور عليهِ وحده ، ومنها ما يتعلق بجميع الاحياء ، وأن هنالك تصورات غير هذه وتلك ، كالتصورات المستمدة من علم الكيمياء او الطبيعة او الميكانيكا . وانا لندرك فوق هذا جميعه ان هنالك طوائف من التصورات والمدركات تُكوّن ما يشبه الطبقات المتراكم بعضها فوق بعض حتى اذا بلغت القمة ، فعندها نقع على الانظمة الحية . فأول تلك الطبقات تتكون من تصور الكهيربات والجزيئات والذرّات ، وهي أشياء نجدها في أنسجة الانسان العضوية كما نجدها في الاشجار وفي الحجارة وفي السحاب . ثم يأتي بعد ذلك تصور (المكان — الزماني) وتصور الاستمرار والطاقة والقوة والكتلة ، ويعقب على ذلك بتصور القدرة

والتفريغ الكهربي والايونات (الشوارد او الدوالف) والتجمع والتبدُّد الى غير ذلك . فاذا تجمعت الذرات وأمكنها بذلك التجمع ان تبني خلايا نسيجية، وتآلفت الخلايا فكونت أعضاء ومتعضيات، فلا مندوحة من ان نضم الى التصورات السابقة تصورات أخرى كتصور الاجسام الصبغية في الخلية والمورّثات genes والوراثة والتهايؤ adaptation والغريزة الى غير ذلك . على ان كل طائفة من هذه التصورات ينبغي ان تستخدم في المجال العلمي التي هي تابعة لهُ فلا تطغى طائفة منها على مجال طائفة أخرى، والاّ ضللنا السبيل وعجزنا عن ادراك الحقائق ادراكاً يجعلها ذات فائدة عملية

لهذا نقول ان تنافر وجوه المعرفة ذات العلاقة بأنفسنا انما يرجع الى وجود بقايا المذاهب العلمية والفلسفية الدينية متغلغلة في ثنايا الحقائق الايجابية الثابتة . فان العقل اذا أيقن بصحة مذهب من المذاهب أيًّا كان، فان يقينهُ هذا لا يمكنهُ من ادراك الظاهرات الجامدة الواقعة على وجهها الصحيح . ولقد استمرت الانسانية في خلال كل العصور تنظر في ذاتها من خلال مناظير غشيتها المذاهب والمعتقدات والاوهام . وتلك أشياء يجب ان تندثر وتتبدَّد . ولقد قال (كلود برنار) انهُ من الضروري ان يتخلص الانسان من آصار المذاهب الفلسفية والعلمية اذا هو أراد ان يتخلص من العبودية . على اننا لم نحصل على هذه الحرية بعد . فالاحيائيون — Biologists ومن ورائهم القائمون على شئون التربية والاقتصاديون والاجتماعيون، عندما تواجههم معضلات مهوشة معقدة، يستسلمون عادة لاغراء الفكر ويروحون يقيمون نظريات، ثم لا يلبثون ان يحوطوا هذه النظريات بصور من القداسة فتتبلور ثم تصير عقائد، حتى لقد نرى ان علومهم قد تبلورت بالفعل حتى بلغ تبلورها من التعقد والشدة مبلغ المذاهب الدينية

نواجه في التاريخ أمثالاً عديدة تبين لنا عن أمثال هذه الاخطاء شائعة في كل مناطق المعرفة . وأجلى مثل على هذا، العراك القائم بين القائلين بالروحانية والقائلين بالآلية . ان هذا العراك لباقٍ الى يومنا هذا . وهو فوق ذلك عراك سببه خطأ من أشهر الاخطاء التي استغوت الانسان . فالروحانيون يظنون ان الكائن المتعضّي ما هو غير آلة تتماسك اجزاؤها بفضل عامل مفارق للبدن، وان هذا العامل لا علاقة له بالقوانين (الطبيعية الكيميائية) . هم يقولون ان تفاصيل الجسم الحي انما تظل متماسكة مترابطة بحكم مبدإ روحاني مستقل عن البدن، وان مثل هذا المبدأ كمثل المهندس الذي يصمم الآلة ويحكم سيرها . بل قالوا ان هذا العامل المستقل ليس بطاقة، بل ولا يستحدث طاقة . وانما هو مُوكل بتدبير شئون الكائن المتعضّي . ومن الجلي أن هذا المبدأ الروحي ليس (تصوراً فعالاً) . انهُ في الواقع تأليفاً عقليًا . وعلى الجملة نقول ان الروحانيين يعتبرون البدن آلة يدبّرها مهندس يسمونهُ (الروح) أو (القوة العليا) . هذا ولم يتحققوا يوماً ما من ان ذلك المهندس المدبّر ليس شيئاً سوى (ذكاء) الانسان ذاته

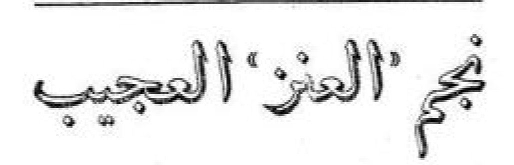
وكذلك الحال اذا نظرنا في ما يقول الآليون . فهم يعتقدون ان جميع مظاهر النشاط

الوظيفي والنفسي يمكن تعليلها بحقائق مستمدة من العلم الطبيعي والكيمياء والميكانيكا . فهم بذلك يشيدون آلة . ولكنهم نسوا ، كما نسي الروحانيون من قبلهم ، انهم هم بذواتهم المهندس الذي أقام هذه الآلة وحبك اطرافها . فهم ، على ما يقول (وودجار) ، قد غفلوا عن حقيقة ذلك المهندس ووجوده . ولا شك في ان هذا التصور بدوره ليس تصوراً فعالاً

بذلك يظهر لنا ان القول بالروحانية والقول بالآلية قولان ينبغي ان ينبذا وينذرا، شأن كل المذاهب الاخرى ، ولنفس الاسباب التي تدعونا الى القضاء على المذاهب عامة . على أنهُ ينبغي لنا الى جانب هذا ان نتحرر من الاوهام ومن الاخطاء ومن الحقائق التي لا تقوم على مشاهدة صادقة ، ومن المسائل التي تناول حلها علماء اتصفوا بضيق العقل وضعف التفكير ، ومن المستكشفات الزائفة التي روجها أدعياء او علماء اكتسبوا شهرتهم بدعاوة الجرائد والصحف الاخرى . ولا ينبغي لنا ان نتحرر من هذا وحده ، بل من اشياء أخرى لا تقل عن تلك أثراً ، كالبحوث غير المثمرة والدراسات الطويلة المملة لاشياء فاقدة المعنى مسلوبة القصد والمغزى

إذا طهرنا أنفسنا من آثار ذلك جميعاً ، اصبحت نتائج البحث الجدي في العلوم ذوات العلاقة بالانسان ، والثروة العظيمة التي ترتبت على التجاريب والاختبارات العلمية ، الاساس الصلب الجامد الذي تقوم من فوقه معرفتنا . واذا نظرنا في تاريخ الانسانية لاستطعنا ان ندرك تفاصيل الجهد الجوهري الذي بذلته خلال العصور بلمحة واحدة

غير انهُ يجب علينا ان نعي انه الى جانب المشاهدات اليقينية الايجابية والى جانب الحقائق الثابتة ، توجد اشياء كثيرة ليست إيجابية وليست بعيدة عن مجال الجدل . والواجب ان أمثال هذه الاشياء لا ينبغي ان تنبذ ، بالرغم من ان « التصورات الفعالة » وحدها هي الاسس التي يقوم من فوقها بناء العلم . ذلك بأن قوة التخيل ، وهي قوة ابتكارية خلاقة ، هي وحدها القوة القادرة على بعث تلك الظنون والفروض والاحلام التي سوف تتمخض عن حقائقها عصور المستقبل. علينا أن نستمر نسائل انفسنا ونضع امامها المشكلات التي تلوح من وجهة نظر النقد العلمي لا معنى لها ولا قيمة . وبفرض اننا حاولنا ان نصد عقولنا عن التطلع الى معرفة المستحيلات والمجهولات ، فلا شك في اننا نخفق في ذلك . فان حب الاستطلاع صفة رسيسة في طبائعنا ، بل هو دافع اعمى لا يعرف سنة ولا يطيع قاعدة . ان العقل البشري يمضي باحثاً في كل الاشياء الخارجية ويمضي مخترقاً اعمق اغوار نفوسنا ، وأعصى تفاصيل كياننا على البحث ، بهمة لا يصيبها الكلال ولا ينفذ اليها الملل . ان حب الاستطلاع يحفزنا الى استكشاف الكون واستيعاب ظواهره وحقائقه . انه صفة فطرية تقودنا في ركابها دائماً الى رحاب مجهولة ، الى جبال شامخة صعبة المرتقى وعثرة المنحدر . ولكنها جبال على تشامخها ووعورة منحدراتها ، تذوب وتتبدد امام هذه القوة ، تبدد الدخان اذا ما ذرته الرياح



نجم «العنز» العجيب

في صورة ممسك الاعنة
وعناية الفلكيين به

« ممسك الاعنة » او « صاحب العنز » او « العناز » ولهُ اسماء اخرى صورة من صور النجوم الشمالية ممثَّلة في بعض الاطالس الاوربية للنجوم في صورة رجل قائم خلف فرساوس بين الثريّا والدب الاكبر ممسكٌ اعنة بيده اليسرى وحاملاً جدياً على ذراعهِ اليمنى . وقد رسم في كتاب الصوفي الفلكي العربي — ومنهُ نسخة خطية مصوَّرة بديعة محفوظة في دار الكتب المصرية — بصورة رجلٍ جاثٍ على ركبتهِ اليسرى وعلى رأسهِ عمامة من الكشمير وباحدى يديهِ عصاً في اسفلها انشوطة وفي اعلاها خيطان ربط بهما حقتان . واسم هذه الصورة باللغة العلمية Auriga وبالانكليزية The Waggoner or Charioteer اي فارس المركبة

في هذه الصورة ما يزيد على ستين نجماً انورها العيوق Capella وهو من القدر الاول . ولكن النجم الذي يهمنا في هذا المقال من نجوم «ممسك الاعنة» ليس العيوق بل « العنز » المعروف في لغة الفلك العلمية باسم «ابسيلون اوريجي» (راجع « بسائط علم الفلك للدكتور صرُّوف » و « المعجم الفلكي » للفريق امين فهد المعلوف) لانهُ من النجوم التي استوقفت انظار الفلكيين في الاشهر الاخيرة بوجه خاص لطبائع خاصة متصف بها كشف العلم عن حقيقتها

***

في مستهلّ القرن السابع عشر (سنة ١٦٠٣) حاول الفلكي الالماني باير Bayer ان يضع اسماء لجميع النجوم التي ترى بالعين المجرَّدة وكان من النجوم التي تناولها نجم في « ممسك الاعنة» وسمهُ بالحرف الخامس من الابجدية اليونانية « ابسيلون » فعرف من ذلك العهد باسم «ابسيلون اوريجي » في كتب الفلكيين ومقابله بالعربية على ما جاء في المعجم الفلكي (المعلوف) العنز

ولم يكن باير ولا غيرهُ من علماء عصره يحلم بان هذا النجم سيصبح في عصرٍ تالٍ موضوع

بحث دقيق . ففي القبة الزرقاء اكثر من مائة نجم تفوق « العنز » اشراقاً . وخمسة آلاف نجم ترى بالعين المجرَّدة . وفي المجرَّة وحدها عشرة آلاف مليون نجم على اقل تقدير . واذا اخذنا بالظاهر من طبائع « العنز » لم نستطع ان نتبيَّن فيه ما يميزهُ عن غيره من النجوم

الاَّ ان الواعظ الالماني فرتش Fritsch كان اول من ظنَّ ان هذا النجم يختلف عن غيره ذلك بانهُ لاحظ في شتاء سنة ١٨٢١ ان اشراق « العنز » قد ضؤل حتى بلغ نصف ما يكون عليه عادة . ولكن هذه الملاحظة نسجت عليها عناكب النسيان خيوطها الدقيقة ، ومضى نحو ربع قرن قبل ان عني أحدٌ بهذا النجم ففي سنة ١٨٤٨ لاحظ الفلكيُّ الالماني شمدت Shmidt ان اشراق العنز كان نصف ما كان عليه في ربع القرن السابق . ومنذ تلك السنة ١٨٤٨ مرَّ العنز في ثلاثة أدوار من ضآلة النور وضعف الاشراق ، كالتي لاحظها شمدت سنة ١٨٤٨ وقبلهُ فرتش سنة ١٨٢١ وذلك في سنة ١٨٧٥ ثم في سنة ١٩٠٢ ثم في سنة ١٩٢٩ — ١٩٣٠

ونحن نعلم الآن ان العنز ليس نجماً فرداً بل هو نجم مزدوج قوامهُ نجمان يدور أحدهما حول الآخر في فترة مداها سبع وعشرون سنة . والنجوم المزدوجة ليست نادرة في القبة الفلكية ، ولكن أوصاف العنز تختلف عن أوصافها . فدراسة عناصر هذا النجم المزدوج أفضت الى توقع كسوف فيهِ في ميعاد معين . فتمَّ الكسوف في ميعاده ، ولكن لوحظ ان ضوء الشريك المشرق في هذا النجم المزدوج لم يحتجب عند ما كان الكسوف تامًّا . فعجب الفلكيون وحيَّروا وظلوا محيَّرين حتى ظهر لهم ، ان العنز ليس نجماً مزدوجاً عاديًّا ، وان الشريك الخفيَّ ليس الاَّ كرة عظيمة من الغاز اللطيف حرارتهُ واطية جدًّا ، لم تعهد من قبل في اي نجم آخر درسهُ العلماء

وكان في مقدمة علماء الفلك الذين عنوا بدراسة هذا النجم الخفي الاستاذ كويبر Kuiper أحد علماء مرصد يركيس فبيَّن بالحساب الرياضي ان قطر الشريك الخفي في « العنز » يزيد ثلاثة آلاف ضعف على قطر الشمس . ووجد أيضاً ان الطاقة الاشعاعية التي يطلقها في الفضاء كل من نجميْ العنز تفوق ستين الف ضعف ما تطلقهُ شمسنا من الضوء والحرارة . ولما كانت مساحة سطح النجم الخفيّ في العنز تفوق عشرة ملايين ضعف مساحة سطح الشمس فالحرارة التي تنطلق من كل بوصة مربعة من سطح نجم العنز الخفيّ تقلُّ مائتي ضعف عن الحرارة التي تنطلق من مساحة مماثلة لها على سطح الشمس

فاذا طبقنا القاعدة الطبيعية بأن قدر الطاقة التي يشعها جسم ما وثيقة الصلة بحرارة ذلك الجسم افضى بنا الحساب الرياضي على هذا الاساس الطبيعي الى ان حرارة سطح النجم الخفي في العنز من رتبة ١٣٠٠ درجة مئوية وهي حرارة واطية جدًّا لاي نجم من النجوم . فحرارة سطح الشمس

٦ آلاف درجة مئوية وحرارة سطح الشعرى ١٠ آلاف درجة مئوية . والجسم الذي حرارتهُ نحو ١٣٠٠ درجة مئوية لا يكاد يبلغ درجة الحمرة ولذلك يكون معظم الطاقة التي يشعها من الاشعة التي تحت الاحمر . واذن فنجم العنز الخفي لا يمكن ان يرى بالعين لان الاشعة التي تحت الاحمر لا ترى بالعين وكذلك لا يمكن تصويرها بألواح التصوير الضوئي العادية

ولما كان قطر هذا النجم يفوق قطر الشمس ثلاثة آلاف ضعف فحجم كرته يجب ان يفوق حجم كرة الشمس ثلاثين الف مليون ضعف ، ولكن مقدار المادة في هذا النجم لا تفوق مقدار المادة في الشمس الاَّ ثلاثين ضعفاً واذاً فكثافة المادة فيه اقل من كثافة المادة في الشمس نحو الف مليون مرَّة . وأقل من كثافة الهواء نحو مليون مرة . ولذلك يصحُّ ان نقول في نجم العنز الخفي انهُ فراغ تام تقريباً يطلق أشعة تحت الاحمر

وقد عني الاستاذ ستروِمغرن Stromgren أحد علماء مرصد يركيز بهذه الناحية من البحث فأثبت ان نجماً هذه صفاته لا بدَّ ان يكون شفافاً تقريباً ولذلك يخترقهُ نجم رفيقهِ في أثناء الكسوف كما يخترق الضوء العادي جدار فقاعة من الصابون . وهذا يفسر المفارقة التي حيَّرت العلماء عند رصد كسوف « العنز » وهي ان النجم الخفي لم يحجب ضوء النجم المشرق

***

وكل ما عرف من الحقائق عن الرفيق الخفي في « العنز » انما يعرف بأساليب قائمة على الحيلة العلمية والمداورة لان أحداً لم يستطع ان يراهُ او يصورهُ حتى الآن

من هذه الاساليب ، أسلوب استنبطهُ وأتقنهُ الدكتور شارلس هتسلر Het zler أحد علماء مرصد يركيز . وقوامهُ ألواح دقيقة الاحساس بالضوء الذي تحت الاحمر ، ولكنهُ يضع أمامها ألواحاً تحجب من الضوء الواقع عليها كلَّ أمواج الاَّ الامواج الاشعة التي تحت الاحمر . وبهذه الطريقة تمكن الدكتور هتسلر من كشف نجوم كثيرة لا تطلق الاَّ أشعة تحت الاحمر . ولو كانت عيوننا تتأثر بالاشعة التي تحت الاحمر فقط لكنا نرى القبة الفلكية على غير ما هي عليهِ. فمعظم النجوم التي نراها الآن كانت تختفي لان ما في ضوئها من الاشعاع الذي تحت الاحمر قليل . ولرأينا نجوماً خفية وقد عظم اشراقها لانها لا تطلق الاَّ هذا الضرب من الاشعاع

ثم هناك جهاز آخر يعرف باسم « الترموكبل » . وهو جهاز لقياس الحرارة عن بعد ، وفي قدرة مستعملهِ ان يتبيَّن حرارة شمعة على بعد مائة ميل . وقوامهُ أنبوب مفرغ أُدخل في جدارهِ قطبان كهربائيان من فلزين مختلفين . وقد ثبت بالتجربة ان خير الفلزات لهذا الغرض البزموت لاحد السلكين وخليط من البزموت والقصدير (١٠ في المائة) للسلك الآخر. فاذا عرض

أحد السلكين لضوء نجم وحرارته بوضع الجهاز في محترق مرقب كبير ، وأبقي السلك الآخر غير معرَّض لها ، تولَّد تيار كهربائي دقيق جدًّا يمكن قياسهُ بالجلفانومتر . فالنجوم التي تبلغ من الخفاء مبلغاً يجعل تصويرها متعذراً قد يكون في اشعاعها قدر يسير من الحرارة لاحداث تيار في سلكي الثرموكپل يمكن قياسهُ (١)

والثرموكپل يقيس ضروب الاشعاع من فوق البنفسجي الى تحت الاحمر . ولقياس ضرب معين من ضروب الاشعاع تستعمل مصافٍ خاصة توضع امام هذا الجهاز فلا يخترقها الا الاشعة التي يراد قياسها . فيقاس مثلاً الاشعاع الكامل لنجم من النجوم ثم يوضع المصفى امام الجهاز ويقاس مقدار ضربٍ خاص من الاشعاع فتعرف النسبة بينهما . وبذلك تعين حرارة النجم

على هذا الاساس العلمي درس علماء مرصد يركز نجم العنز المزدوج فتبينوا ان النجمين قريب احدهما من الآخر وأن معظم الضوء المرئي منهما مصدره النجم المشرق وهو اصغرهما حجماً وأما الآخر فكبير الحجم جدًّا بحيث يمكن ان توضع الشمس وسياراتها حتى فلك اورانوس فيه

ومن اعجب النتائج التي اسفر عنها البحث في هذا النجم الخفي، وجود طبقة من الغاز المؤيَّن حولهُ ionized . وهذه الطبقة ثابتة بحكم الجذب للنجم وتدور مع كتلته اللطيفة حول محوره كما يدور غلاف الارض الغازي مع الارض حول محورها . ولكن الطبقة الغازية التي حول نجم العنز الخفي ، منارة بالضوء الواقع عليها من نجم «العنز» المشرق . فيؤثر فيها هذا الضوء تأثيراً مشابهاً لتأثير ضوء الشمس في الطبقات العليا من غلاف الارض الغازي . اي انهُ يؤين بعض ذرات الغازات فتنفصل الكهيربات عن النوى فتتكوَّن طبقة كنلي هيفيسيْد التي تفعل بالامواج اللاسلكية فعل المرآة بالامواج الضوئية ، فتمنعها من الانطلاق في الفضاء خارج جو الارض وتعكسها الى سطحها ، وبهذا الفعل يفسر انتقال الامواج اللاسلكية حول الارض

الا ان فعل التأين في غلاف النجم الخفي في العنز أشد جدًّا منهُ في الارض . فيجعل غلاف النجم الخفي كثيفاً غائماً . فيصعب على الضوء ان يخترقهُ بسهولة . وقد تمكن علماء مرصد يركز من رصد هذا الغلاف الكثيف بمرقبهم البالغ قطر مرآته اربعين بوصة

ثم يجيء ميعاد الكسوف في هذا النجم المزدوج ، مرة كل سبع وعشرين سنة فيقع النجم المشرق في العنز وراء النجم المعتم . ولولا طبقة الغاز المؤينة حول كرة النجم الخفي لتمكن الرصاد على الارض من رؤية ضوء النجم المشرق كاملاً تقريباً للطافة مادته الغازية . ولكن طبقة الغاز تحجب جانباً من هذا الضوء فيبدو للراصد الارضي ان ضوء العنز قد ضعف على نحو ما بدا لباير سنة ١٨٢١ ولفرتش سنة ١٨٤٨ ولعلماء هذا العصر في سنة ١٩٢٩ — ١٩٣٠

---

(١) راجع فتوحات العلم الحديث صفحة ٣٧

سنابل

من حقول العلم

الذهب في مصر : قديماً وحديثاً

ننقل الى قراء المقتطف في ما يلي ملخص جانب من المحاضرة النفيسة التي القاها الدكتور حسن صادق بك مدير المساحة والمناجم والمحاجر ورئيس المجمع المصري للثقافة العلمية في افتتاح مؤتمره السنوي التاسع قال : —

اما في القطر المصري فان ما وجد من الحلى الذهبية في مختلف العصور التاريخية يدل على عظيم اهتمام قدماء المصريين باستعمال هذا المعدن في مختلف الاغراض كما ان ما سطروه على جدران معابدهم وفي بعض اوراق البردي يدل على ان الذهب الذي استعملوه كانوا يحصلون عليه من المناجم المصرية نفسها وقد كانت الممالك المعاصرة لهم تنظر الى مصر على اعتبار انها اكبر بلاد منتجة لهذا المعدن فكان ملوكهم يستجدون فرعون مصر للحصول منهُ على حاجتهم من هذا المعدن الثمين

كذلك استغلت مناجم الذهب المصرية أبان حكم العرب كما حدثنا عن ذلك المقريزي وغيره من مؤرخيهم . على ان ستاراً كثيفاً من النسيان أسدل بعد ذلك على هذه المناجم الى أن أزاحه مجدد عز مصر محمد علي باشا الكبير مؤسس الاسرة العلوية الكريمة بفضل البعوث العلمية التي أوفدها الى الصحارى فأماطت اللثام عما بها من معادن ومناجم على ان استغلال مناجم الذهب المصرية لم يبدأ في العصور الحديثة الاَّ في اواخر القرن الماضي واستمر استغلال بعضها حتى عام ١٩٢٧ فبلغ مجموع انتاجها في تلك الفترة حوالي ٨٦ الف اوقية . على ان احوال العمل وتعذر وجود الماء وصعوبة النقل كل ذلك جعل الغلة اقل من الكلفة فأهملت المناجم

حتى اذا جاء عام ١٩٣٣ واضطرب النظام المالي في اغلب الامم وخرجت معظمها ومنها انكلترا عن عيار الذهب فانخفضت العملات وارتفع سعر الذهب أصبح سعر الاوقية من الذهب الخالص سبعة جنيهات بعد ان كان في اوقاته العادية لا يزيد على أربعة جنيهات ونصف جنيه واذ كانت نفقات الانتاج لم تزد الا قليلاً مع تحسين محسوس في وسائل النقل بما طرأ على صناعة سيارات النقل من اتقان فقد رؤي

ان الاحوال قد تغيرت تغيراً يشجع على التفكير في اعادة فتح بعض هذه المناجم واستغلالها فقامت الحكومة المصرية بالبحث بواسطة شبان من المصريين تخصصوا في هذه العلوم ورؤي ان من الخير استغلال منجم الذهب بجبل السكري على شاطىء البحر الاحمر على مسافة ١٥٠ كيلو متراً جنوبي بلدة القصير وقد أجريت مباحث في استعمال الماء المالح في عمليات الاستنباط والتنقية لاول مرّة في هذا المنجم فأسفرت عن نجاح قلل لحدّ كبير الاثر السيء الذي لندرة وجود الماء العذب في تلك الجهات . وقد جهز المنجم بوحدة استغلال صغيرة وبدأ الانتاج في يوليو سنة ١٩٣٧ وبلغ مجموع انتاجه في الشهور التسعة الماضية حوالي ١٧٥٠ أوقية قيمتها ١٢٠٠٠ جنيه تقريباً

وباستمرار أعمال الفحص بالتعمق في جوف الارض اتضح وجود مقادير من المعدن تسمح بتوسيع عمليات الاستغلال فأضيف جهاز استغلال آخر لمضاعفة الانتاج والمنتظر ان يتم ذلك في غضون الشهر القادم (يونيو) فتتضاعف مقادير الذهب الناتج مع اضافة قليلة للتكاليف

وقد شجعنا النجاح الذي صادفناه في السكري على توسيع نطاق البحث في مناجم أخرى فاختير لذلك منجم آخر بجبل أم الروس القريب من السكري. والامل معقود على ان تكلل هذه البحوث أيضاً بالنجاح فتبدأ فيه ايضاً عمليات الاستغلال

ولقد تحقق ما كانت تصبو اليه الحكومة من هذه البحوث فاتجهت أنظار بعض الافراد والهيئات من المصريين والاجانب الى بحث بعض مناجم الذهب الاخرى وبدأت الحياة تدب مرّة أخرى في مناجم الذهب المصرية وانا لنرجو ان يصادف هذه الجهود جميعاً النجاح الذي تستحقهُ حتى ليقال بحق ان عصر الفاروق هو عصر ذهبي يدر الخير والبركات على أبناء هذه البلاد

***

يمين العلماء

عندما يتقدم طالب الطب الى نيل شهادته الطبية يقسم يمين أبقراط المشهورة وأساسها رعاية مرضاه خير رعاية يستطيعها والامتناع عن اعطاء عقار مميت او الاشارة به ولو طلب ذلك منهُ، وعن مساعدة امرأة على الاجهاض او افشاء الاسرار الخاصة بصناعته وغير ذلك من القواعد الادبية التي يحسبها الاطباء دستوراً لهم في صناعتهم الشريفة

وقد تقدّم الآن عالم يدعى هوايت Whyte بيمين للعلماء أذاعها في مجلة نايتشر العلمية حاثّاً الجماعات والمعاهد والمجلات العلمية على نشرها والحضّ على اتخاذها رابطة ضدّ التعصب الجنسي والديني. ففي رأيه ان مبادىء العدل والتسامح وجّه اليها تحدّ صريح في السنوات الاخيرة، وان الاساس الذي تقوم عليه فكرة الحق Truth — وهي أساس العلم — قد ضرب بمعول الهدم .

لا ريب عنده في ان للحضارة الاوربية مساويها ولكنه يرى كذلك انه يجب علينا إما أن نبذل طاقتنا للاحتفاظ بحسناتها وإما ان نسلم بالانهيار والارتداد الى التوحش والعنف والتعصب. وأعظم ما تتعرض له من خطر هو الاعتقاد الذائع في ان الناس يستطيعون ان ينعموا بتراث الحضارة طويلاً من غير ان يبذلوا في سبيله. واعتقاد المستر هوايت ان الذين لا يريدون ان يخونوا ذلك التراث يجب ان ينزعوا عن اكتافهم التواضع الكاذب ويصرحوا بموقفهم لان الاحتفاظ بثمار الحضارة وتقاليدها العالية متعذر الا اذا أذعنا في غير غموض وأقمنا الدليل في غير تردد على ولائنا لها. وهذه هي اليمين المقترحة: —

« أنا وارث تقاليد الحضارة التي ثبت انها أرسخ أساساً من الامبراطوريات. فعندما استعمل لغة العلم او منتجاته، فأنا أقدم اجلالي عن غير وعي، لمئات الرجال الذين لم يضنوا بأية تضحية مها تعظم في النضال لترقية العقل البشري وتأييد الحق. ان التسامح والحرية هما لباب تلك التقاليد. لان الفكر المستقل ومحبة الحق ليسا بأساس العلم فحسب بل وأساس العدل والحضارة

لذلك أعلن ولائي لتلك التقاليد وايماني بحرية الفرد في انماء ملكاته لتنمية ثروة الجماعة، ويقيني بأن جماعة الانسان الآن هي الجنس البشري اجمع، وان على كل شعب داخل في هذا النطاق ان يقوم بنصيبه الخاص به. فالتوازن الطبيعي بين الحرية الفردية وبين مطالب الجماعة، وهو حياة الحضارة وصحتها، مهدد الآن من ناحيتين. انه مهدد في بعض الجماعات من ناحية انكار الحرية. وفي البلدان الدمقراطية من ناحية صدوف الافراد عن التبعات الواقعة عليهم

ففي وجه هذا التهديد — اتعهد بانتهاز كل فرصة سانحة لأعلي من شأن تقاليد الحضارة وأحمي كل من يعذب في سبيلها، وان أورث ذلك الى الاجيال القادمة. ولست اعترف بولاء أعظم من ولائي للعمل على صون الحق والتسامح والعدل في العالم المقبل

***

طماطم بلا بزور

يعني قسم البساتين بجامعة مسوري الاميركية باستنبات طماطم لا بذور فيه. والطماطم يحتاج الى التلقيح لكي ينعقد الزهر ثمراً، ولكن التلقيح يعني تكوين بذور في الثمر. لذلك عمد الباحثون الاميركيون الى استئصال اعضاء اللقاح من الزهرة. ولما كان استئصالها يحول دون التلقيح والاثمار وجب عليهم ان يستعيضوا من التلقيح بأساليب كيماوية او ميكانيكية او كهربائية لحمل الزهرة على الانعقاد ثمراً على نحو ما فعل لوب وغيره في حيوان «الرتسا» (توتياء البحر) فانه حملها على التناسل بمهيج كيماوي حيناً وبمهيج كهربائي حيناً آخر

وباحثو جامعة مسوري يستعملون مادة باعثة للنمو من قبيل انوار الغدد الصم ، فتنشأ ثمرة الطماطم من الزهرة وتكون بلا بذور . وهذه الثمار اكبر من ثمار الطماطم عادةً وليس فيها فجوات تحتوي على بذور كالفجوات التي في الطماطم عادةً بل كلها شحم

والمادة المستعملة لهذا الغرض هي الحامض « الاندول استيك indoleacetic » — وهو حامض توجد منهُ مقادير يسيرة في البول في حالة مرض القناة الهضمية — محلولاً في اللانولين (وهو دهن من صوف الغنم) بنسبة ١ من الحامض الى ٥٠٠ من الدهن ، ثم تدهن الازهار التي استؤصلت منها اعضاء اللقاح ثلاث مرات في الاسبوع او كل عشرة ايام

اما ثمن هذه المواد فلا يكاد يذكر ولكن معظم النفقة في طريقة العمل اي في استئصال اعضاء اللقاح من الازهار ودهنها . وقد حاول الباحثون ان يحلّوا رش الحامض محلولاً في الماء محل الدّهن باليد فأسفر ذلك عن نتائج لا بأس بها ولكنها لا تجاري نتائج الدهن باليد . ويعزون ذلك الى سرعة تبخر الماء تاركاً الحامض في بلورات دقيقة يتعذر على الزهرة امتصاصها . والبحث جارٍ الآن عن مادة دهنية أخرى سهلة الامتصاص غير سريعة التبخر فيحلُّ الحامض فيها ويرشُّ على الازهار برشاشة ميكانيكية

وينتظر ان يتجه البحث بعد ذلك الى زيادة محصول هذا الطماطم لانهُ من المستطاع حمل الازهار على الانعقاد ثماراً في أشهر الصيف عند ما تجعل الحرارة والرطوبة حبوب اللقاح ضعيفة الفعل

***

علاج جديد للحروق

اذا حرق الجلد وانكشفت الانساج التي تحته فخير علاج عرف حتى الآن هو استعمال « الحامض التنّيك » Tannic Acid وهو مسحوق أبيض يستخرج من جوز العفص ونباتات اخرى ولهُ فعل قابض فيستعمل في وقف النزف . ولكن الطبيبين جونز وده مارش وهما من اساتذة الكلية الطبية بجامعة نورث وسترن الاميركية اعلنا انهما كشفا مركباً كيماويّاً يفوق الحامض التنيك فائدة في علاج الحروق . واسم هذا المركب باللغة العلمية « هكسامتا فوصفات الصوديوم » فيحلُّ وتدهن بهِ الحروق فيمنع الالتهاب ، وهو يتحد بالمصل السائل من انساج الجسم المكشوفة بحرق الجلد او انسلاخه فينشأ غشاءٌ رطب متين مرن مانع لتكاثر المكروبات

تحت هذا الغشاء ينمو الجلد الجديد ، وتحت الجلد الجديد طبقة من الانساج تكثر فيها الاوعية الدموية الشعرية ، ويزعم الطبيبان جونز وده مارش ان فحص هذه الطبقة في حالتي استعمال الحامض التنيك والدّهن بمركب الصوديوم المذكور أثبت ان الانساج والاوعية في الحالة الثانية اسلم منها في الاولى

التصوف في الاسلام (١)



للدكتور احمد غلوش

دعا الدكتور مكلانهن عميد كلية العلوم الشرقية بالجامعة الاميركية صديقه الاستاذ احمد غلوش الى القاء محاضرة بالانكليزية على فريق من فضلاء الجاليتين الانكليزية والاميركية بالقاهرة ممن يهتمون بدراسة المسائل الشرقية فاجاب الاستاذ هذه الدعوة فوقف الدكتور مكلانهن وقال ان قاعة الدراسات الشرقية كانت حتى الآن تعقد فيها اجتماعات لدرس تاريخ اعلام الشرقيين ومناقبهم ولكننا في هذه الليلة سنسمع هنا لاول مرة رجلاً مصريًّا مسلماً مثقفاً ثقافة اسلامية عالية وحاصلاً على درجات علمية شرفية من الجامعات الاوربية والاميركية وهو الدكتور احمد غلوش فهو سيحاضرنا الآن في موضوع اسلامي بحت يتعلق بالطرق الصوفية في الاسلام ويشرح لنا مراميها واغراضها ونشأتها فقد آن الاوان ليتبادل سكان هذا الوادي الرأي فيما لديهم من صنوف الثقافة الروحية والعلوم والمعارف الدينية ويقدم كل فريق منهم الى الآخر احسن ما عندهُ من ذلك حتى يسود التفاهم بين الجميع مع احتفاظ كل منهم بآرائه الخاصة . قال ونحن معاشر الغربيين كثيراً ما سمعنا بوجود الطرق الصوفية بكثرة في هذه البلاد وسمعنا بالمشايخ والفقراء والدراويش ولكننا في الواقع لا نعرف من حقيقة امرهم شيئاً . وقد تكفل صديقنا الدكتور احمد غلوش الذي اعتنق المبادىء الصوفية ومارس رياضاتها الروحية بان يشرح لنا ما يهمنا ان نعرفه منها . ثم دعا المحاضر الى منصة الخطابة فتقدم وبدأ كلامه بشكر الجامعة الاميركية التي اتاحت لهُ هذه الفرصة للتحدث عن موضوع الصوفية في الاسلام ذلك الموضوع الذي كثيراً ما اخطأ فهمه الغربيون والمستشرقون . واسترسل في الشرح حتى وفى الموضوع حقه

---

(١) ترجمة المحاضرة التي القاها بالانكليزية بقاعة الدراسات الشرقية بالجامعة الاميركية بالقاهرة الدكتور احمد غلوش رئيس جمعية منع المسكرات بالقطر المصري

من البيان. وقد استغرق القاء المحاضرة ساعة كاملة ونحن ننشر هنا ترجمتها لفائدة القراء

***

انهُ لاجل معرفة حقيقة التصوف او اي علم آخر ينبغي عقلاً ان يلجأ في ذلك الى المتصوفين انفسهم او اصحاب ذلك العلم فهم اقدر من سواهم على تجلية الموضوع تجلية صادرة عن خبرة لا يشوبها زيغ ولا تحريف واما نقل العلوم عن غير اهلها فقلما يوصل الى ادراكها على حقيقتها

ولقد قرأت عدة مصنفات لفضلاء المستشرقين من الغربيين فألفيتها في الكثير من مواطنها بعيدة عن محجة الصواب فمن ذلك مثلاً ما يزعمونهُ من ان الصوفية والتصوف دخيلان في الاسلام غريبان عنهُ وانهما انما جاء بهما الاعاجم من الفرس قصداً منهم الى تشويه الدين ويزعمون ايضاً ان اصل التصوف يرجع الى العلوم الآرية من الفارسية والبوذية ونحوها ويقولون غير ذلك من المزاعم التي لا اصل لها

فالتصوف وان كان لبعض الفرس المسلمين شأن كبير في تدوينه وحمل لوائه فهو لا يمت الى المبادئ والمذاهب الآرية اوالبوذية بأدنى سبب . وشتان ما بين الناسك البوذي الذي يزعم انهُ بسلوك طرق خاصة من الرياضة وتعذيب النفس يمحي عنهُ في النهاية وصف الآدمية ويصبح بوذا بنفسه أي إلهاً قد انحلت عنهُ صفات البشرية، وبين المسلم المتصوف الذي يعبد الله وحده طبقاً لاحكام الاسلام ومبادئ الدين الحنيف ثم هو يقوم فوق الفروض المقررة بأنواع من الرياضات الروحية المشروعة المسنونة أساسها الزهد والورع والتقوى وغايتها ان يصير بها أهلاً للفوز برضوان ربه والدخول في حضرته وتذوق طعم الايمان بالوجدان

وكثيراً ما خلط المستشرقون بين المتصوفين وبين المشعوذين ممن يأتون بما يشبه السحر وضروب الاحاجي ويعرفون عندهم باسم أصحاب الاسرار الخفية Mysticism وترجع أسباب هذا الخطإ الى ان المتصوفين كانوا ولا يزالون يعرفون بأهل الباطن وأرباب الاسرار الذوقية فظن أولئك المستشرقون ان أسرار الصوفي هي أمور خفية يحرص على حجبها عن أعين الناس كما هو الشأن عند اهل الشعوذة (Mystics) مع ان حقيقة معنى الاسرار عند الصوفيين انما هي الحقائق التي تنطوي عليها ظاهرات الاشياء والحكمة التي يتذوقونها من القيام بالاحكام والشرائع فهذه الاذواق والمواجيد لا يستطيع الصوفي ان يعبر عنها لاحد لا لانهُ يريد اخفاءها عن الناس بل لانها فوق متناول الوصف والبيان إذ هي أمور ذوقية لا تعرف الا بالذوق والوجدان . ومثلها كمثل حلاوة سكر القصب ونحوها مما لا سبيل الى إدراكه بغير التذوق

ولئن كان من السهل على الفقيه والمحدّث وكل عالم ان يشرح لغيره الفقه والحديث والعلم الذي أصابه فانهُ من العسير المتعذر ان يبين لعامة النــاس أسرار الانوار القدسية والفيوضــات

الربانية التي تفيض على قلبه ثمرة عبوديته واقباله على ربه ورياضاته الروحية

على انهُ مما يؤسف له جد الاسف وجود طوائف من الناس في الشرق ينسبون انفسهم الى الطرق الصوفية وما هم منها في شيء وهؤلاء قد يأتون بضروب من المهمهة والتمتمة والايحاء الذاتي ويركنون الى التنجيم والطوالع والجفر وادعاء معرفة الغيب فكانوا بذلك نكبة على المتصوفة وسبباً دعا بعض المستشرقين الى الحملة على طريق التصوف كما دعا آخرين الى القول بان التصوف ليس في شيء من الدين . بيد ان من يدرك سنة النمو لا بدَّ ان يعرف انهُ كثيراً ما يوجد الى جانب النباتات النافعة والاعشاب الصالحة حشائش أخرى تنمو حولها ولا مندوحة من استئصالها حتى لا تعدو على النبات الطيب فتفسد عليه أمره

ولئن كان كل متصوّف لا بدَّ ان يستمد قواعد سلوكه الروحي من مبادىء الاسلام وتعاليمه الصحيحة فهنالك فرق كبير بين المسلم الصوفي والمسلم العادي ذلك بأن إيمان الاول إيمان تحقيقي ذوقي في حين ان إيمان الثاني إيمان يغلب ان يكون تقليدياً وراثياً انحدر اليه من الآباء او جاءه من طريق التلقين او التعليم او أصابه بحكم الوسط والبيئة التي يعيش فيها دون ان يعرف السر في ضرورة اعتناقه لهذه او تلك من المعتقدات الدينية التي لا بدَّ منها لنجاته في الآخرة . وقد يظل القلب تخامره الشكوك والريب في كثير من هذه المعتقدات ويظل العقل يطالب صاحبه بوضع حدّ لها والتخلص منها . ولهذا كان لا غنى لسالك طريق التصوف عن شيخ خبير بمفاوز الطريق المؤدي الى تذوق حلاوة الايمان والاطمئنان الى صحة السير على ان يكون هذا المرشد او الخبير هو الآخر قد سلك طريق التصوف على يد شيخ آخر سبق له سلوكها وأصبح قادراً على هداية غيره اليها كراكب البحر يريد الوصول الى بلد ناء بعيد فلا مندوحة له من الاسترشاد بربان ماهر يقدر على ان يقود السفينة وركبها الى ذلك البلد في أمن وسلام . ومن ثمَّ نشأت طائفة مشايخ الطرق والمسلكين فيها لارشاد المريدين الى الطريق حتى لا يضلوا السبيل . وكما ان أطباء الاجسام لا بدَّ من الاستعانة بخبرتهم على شفاء العلل والاسقام فكذلك كان لا بدَّ لمرضى القلوب من الاسترشاد بالمشايخ للتخلص من امراض القلوب

ولا بد لمريد الوصول الى الله تعالى عن طريق التصوف من مجاهدة نفسه وتصفية باطنه من ادران الشهوات الحيوانية والملاذ الجسمانية فضلاً عن البعد كل البعد عن الوقوع في الذنوب والخطايا مما نهى عنه الشارع الحكيم وذلك لا يتم له الا بارشاد شيخ عارف بأمراض القلوب وكيفية تطهيرها من بوائق الملاذ والشهوات وبذلك يتم للمريد اكتساب المعارف الربانية التي يهتدي بها قلبه ويطمئن خاطره ويسكن باله اذ يشعر شعوراً باطنياً انهُ قريب من حضرة مولاه ولا يمكن البتة الحصول على شيء من الحكمة الالاهية والاسرار القدسية الا بتصفية القلب

من الحظوظ الدنيوية حتى تنجلي بهذه التصفية مرآته وتصير بحيث تنعكس عليها الانوار الروحية والفتوحات الربانية

وعند المتصوفين ان الانسان لم يخلق في هذه الدنيا عبثاً ولا صدفة وانما خلق لغاية سامية وان جسمه وان كان خسيساً ارضيًّا فان روحه شريفة علوية وان جسمه وان كان سيفنى بموته فان هذه الروح ستبقى بعد الموت خالدة الى الابد فاذا ما تطهر المرء في بوتقة الزهد والتقوى من ادران الشهوة والحظوظ العاجلة الفانية وسلك سبيل الرياضة الروحية الشرعية فانه ليبلغ بذلك اسمى مراتب الرقي الباطني ويصبح وقد تحولت صفاته الى ما يشبه صفات الملائكة فلا يرى سعادة ولا هناءة ولا غبطة الاَّ في عبادة الله والتسبيح بحمده فاذا اعطاه شكر واذا ابتلاه صبر وبصير ولا همَّ له في الدنيا الاَّ طاعة مولاه حتى تصبح هذه الطاعة سجية له وغريزة فيه لا ينفك عنها بأي حال من الاحوال فلا يلبث المريد ان يرى في كل ما امر الدين به حكمة خفية سامية ويرى مثل ذلك في كل ما نهى عنهُ الدين وعند ذلك يدرك السالك معنى قوله تعالى في القرآن الحكيم « واتقوا الله ويعلمكم الله »

وقد تطور التصوف في الاسلام على مدى الاجيال حتى صار علماً قائماً بذاته يسترشد به الخلق الى سبيل الحق وتتحول به صفاتهم البشرية الى صفات شريفة ملائكية ويتذوقون به طعم الايمان بالقلب والوجدان

وقد بدىء بتدوين هذا العلم وتهذبت حواشيه ونظمت مبادئه ورتبت آدابه حوالي النصف الثاني للهجرة النبوية اي نحو عام ٧٦٠ للميلاد . ومع ان ابحاثه واسعة النطاق فيمكن حصرها في ستة موضوعات او مباحث عامة وهي معرفة الانسان نفسه ومعرفة الله تعالى ومعرفة حقيقة الدنيا ومعرفة احوال الآخرة ومراقبة النفس وايثار حب الله على كل ما سواه

ولما كانت هذه الفرصة لا تتسع امامي لشرح هذه المباحث كلها او بعضها فحسبي ان اتحدث عن التصوف الليلة حديثاً مجملاً يجمع بعض ما تفرق من اطرافه الى ان تتهيأ الفرصة لشرح مباحثه تفصيلاً . ولنبدأ بكلمة التصوف ومن اين جاءت فأقول : ان هذه الكلمة دخيلة على اللغة اعني انها ليست عربية الاصل ولم اقف في كتب الصوفية المعتمدة على رأي قاطع في اصل اشتقاقها . ففي المتفرقات للامام الجنيد وقوت القلوب لابي طالب المكي وعوارف المعارف للامام السهروردي والمنقذ من الضلال للامام ابي حامد الغزالي — وهذه امهات كتب الصوفية — نجد ان هؤلاء الائمة جميعاً كانوا في شك من حقيقة تلك الكلمة وقد ذهبوا في امرها مذاهب شتى دون ان يقطعوا بصحة ما ذهبوا اليه . وعندهم انها قد تكون مشتقة من الصفاء لان المتصوفين يدأبون على تصفية بواطنهم من الاهواء والشهوات . واما من التصفية لان الله تعالى تولى تصفية قلوبهم من حظوظ

الدنيا . واما من الصوف لانه كان الغالب في لباسهم لتقشفهم وزهدهم في الناعم من الثياب وأما من الصفة (بضم الصاد وتشديد الفاء) وأصحاب الصفة قوم من اصحاب رسول الله زهدوا في نعيم الدنيا وآثروا الله ورسوله والدار الآخرة وفيهم نزل قرآن في مديحهم واظهار فضلهم . وليس في عدم قطع ائمة الصوفية في امر تسمية طريقتهم ما يطعن في جلال قدرهم فانهم قوم عمليون يعبأون بالاعمال دون الاقوال ويهتمون بتحقيق المسميات دون التعويل على اصل الاسماء

وقد خطر لي بعد طول التفكير ان من الراجح ان تكون كلمة التصوف مشتقة من كلمة تيوصوفية اليونانية التي كانت تطلق عند قدماء اليونان على مذهب روحي يعتنقهُ النساك والزهاد السالفون قبل الاسلام بعدة قرون فكانوا ينأون بجانبهم عن الدنيا ويلجأون الى انواع من الرياضات الروحية والعبادة مما اقتبسوه من انبيائهم ورسلهم حبًّا في التقرب بالروح من خالقهم وتلقي الحكمة والمعارف القدسية منه تعالى . ويؤيد هذا الرأي ما ورد في دائرة المعارف البريطانية من ان التيوصوفيين كانوا معروفين من ازمان بعيدة وكانوا يزهدون في الدنيا وينقطعون الى النسك والعبادة واستنزال الحكمة الالهية على قلوبهم وان هذه الكلمة مركبة من لفظين تركيباً مزجيًّا وهما لفظ تيو (Theo) ومعناه اله و(Sofia) صوفيا ومعناه الحكمة . اي ان اولئك القوم كانوا بزهدهم وعبادتهم يتطلعون الى اكتساب الحكمة الربانية من الله رأساً فهناك تشابه كثير بينهم وبين المتصوفة من حيث اتحاد الواسطة والغاية

ولكن ما هو التصوف ؟

ومهما يكن من خلاف في امر اشتقاق كلمة التصوف فانهُ لا خلاف البتة بين ائمة الصوفية في حقيقة معنى التصوف فقد اجمعوا على انه الطريق الوحيد السلطاني الذي يؤدي الى اكتساب المعارف الالاهية والفتوحات الربانية والاذواق والمواجيد الباطنية مما يزيل كافة الشكوك والريب والغموض والابهام من دخيلة النفس فيما يتصل بالكثير من المعتقدات الدينية التي لا بد من الايمان بها. ومنها مثلاً عقيدة القضاء والقدر التي تدل على ان الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء مع اعتقاد ان المهتدين يؤجرون بدخول الجنة وان العصاة يدخلون النار فان العقل قد يظل حائراً في سبيل التوفيق بين الامرين. وهناك مسألة الايمان بالبعث والنشور بعد الموت والفناء وهناك الاعتقاد بخلق الملائكة والجان والشياطين وهذه مخلوقات لا مثال لها من المنظورات والمحسوسات. ثم مسألة خلق البشر من طين وتراب وخلق الطين والتراب من لا شيء . وهناك مسألة النبوة والرسالة وان الله تعالى يكلم المصطفين الاخيار من عباده وينزل عليهم الوحي من سمائه. فما هذا الوحي وكيف يكون. وما هي تلك النبوة وكيف تكون وهناك مسألة المسائل وهي

الاعتقاد بوجود الله تعالى وجوداً ازليًّا وأبديًّا قبل ان يوجد الزمان والمكان فالعقل الراجح والمنطق الصحيح الواضح يوجبان هذا الاعتقاد على كل عاقل والايمان به في غير ما تردد ولكن الايمان بالشيء تتفاوت درجاته فقد ينقص الى حد ان يكون ظنًّا او اقل من الظن تبعاً للمعاصي التي يرتكبها الانسان قلة وكثرة وقد يتزايد الى حد ان يكون عياناً ومشاهدة وهذا تبعاً لمقدار ما يقوم به المرء من طاعة الله والاقبال على عبادته ضعفاً وقوة. وقد دلت سير المتصوفين الاولين السابقين ممن وصلوا الى الله تعالى وصول مشاهدة ومعاينة يجلان عن الوصف ويدقان عن العبارة على ان هذه الطريقة هي الكفيلة حقًّا بالقضاء على كل غموض وابهام في امور الدين وعقائد الايمان كما قال سيد المتصوفين علي ابن ابي طالب لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً وان هي الاَّ رياضة روحية مباركة ورحلة في طريق العبودية موفقة حتى ينبلج امام قلب السائر فيها نور اليقين فعين اليقين فحق اليقين حيث تنهزم من امام بصيرته ظلمات الحيرة والقلق ويمتلىء الباطن عرفاناً وايماناً بكل ما نطق به الرسل الكرام وجاءوا به من عند الله

وعند الصوفية ان دين الله تعالى واحد في جميع العصور والاجيال ولم يكن في اي زمن سبق سوى الاسلام واعني به التسليم المطلق والخضوع التام لاوامر الله تعالى وما جاء به المرسلون من الشرائع والاحكام وان اختلاف الاديان لم يتناول العقائد قط وانما يتناول اعمال العبادات وكيفياتها وطقوسها تبعاً لحاجة العصر وتعاقب الازمان فالاديان جميعها من حيث اصولها لا تباين بينها ولا خلاف. واساس ذلك الاعتقاد بوجود الله تعالى ووحدانيته واتصافه بكل ما يتصور من صفات الكمال وتنزهه عن كل نقص يخطر على البال والاعتقاد بملائكته وبكتبه المنزلة وبرسله المرسلة وباليوم الآخر وهو يوم الحساب وبالقضاء خيره وشره من الله . وليست العبادات في جميع الاديان مطلوبة لذاتها من صلاة وزكاة وصوم وحج وقربة وانما هي وسائل لا بدَّ منها للمتدين كيما يصل بها الى تطهير قلبه من أدران الشهوات تطهيراً ترقى به الروح الى القرب من الله ودخول الجنة فهي اشبه بالعلاج الذي يتداوى به الجسم من الامراض. وكما ان تعاطي المريض لما يصفهُ له طبيب الاجسام من علاج يهمهُ وحده دون الطبيب الذي يعالجهُ اذ المريض هو الذي سينال به الشفاء دون الطبيب فان الله تعالى غني بذاته عن عبادة عباده فهم الذين سيجنون وحدهم فائدة هذه العبادة

ولما كانت النفوس البشرية بحكم تكوينها وخلقتها الحيوانية بحاجة الى تطهيرها ومداواتها من آثار العلل الشهوانية حتى تصفو وترتقي وتصير اهلاً للعودة الى ربها وخالقها راضية مرضية فان المتصوفين هم اشد عباد الله تمسكاً باحكامه واوامره المقررة في الشريعة كما اتى بها الرسول من عند الله فمن قال ان الصوفيين اهل تفريط في التمسك باهداب الشرائع الالهية فقد ظلمهم

وافترى عليهم فما جاء في كتب المستشرقين من الاوربيين عن تهاون ارباب الطرق الصوفية برسوم الشريعة مخالف للواقع بعيد عن الصواب

والحق ان المتصوف لا يكتفي مثل سائر المسلمين بالقيام بظاهر العبادات المسنونة في الدين بل ينظر بنور البصيرة الى ما تنطوي عليه الرسوم والاحكام من حكمة واسرار فيغوص لالتقاطها واستخراج هذه الاسرار من بواطنها ومكامنها كما يغوص السباح الماهر لالتقاط الاصداف من قيعان البحار لا رغبة في الاصداف ذاتها بل ليستخرج منها الجواهر واللؤلؤ الغالي فالصلاة مثلاً عبادة مطلوبة لانها تنهي عن الفحشاء والمنكر وفيها ذكر الله وذكر الله أجل شأناً وأكبر وهي لا تحقق هذا الفرض اذا كان المصلي لا يؤديها وهو حاضر القلب لا يفكر في اثنائها الا في ادائها على الوجه الاكمل. فالمتصوف يحرص كل الحرص على الفوز باسرار الصلاة على هذا الوجه فلا يصلي وهو شارد الفكر ينصرف بقلبه في خلالها نحو السوق ومصالح الدنيا من مال أو ولد. وكذلك الشأن في سائر العبادات المفروضة فان الصوفي يعرف ما تنطوي عليها من حكمة واسرار فيحرص على بلوغها ويحذر من كل ملابسة تؤدي الى ضياعها . وكم يشفق المتصوفون على عوام المسلمين حين يصلون وهم عن صلاتهم ساهون فلا يفيدهم قيامهم بها على هذا الوجه أجراً فضلاً عن تطهيرهم من الفحشاء والمنكر وهذا الذهول من المسلمين عن اسرار العبادات وعدم الحرص عليها وقلة الحذر من تفويت حكمتها عليهم كان السبب الاكبر في نظر المتصوفين لما أصاب المستوى الروحي في العهود المتأخرة للاسلام من الضعف والانحطاط

التصوف من الناحية التاريخية

وقد يتساءل الكثيرون عن السبب في عدم انتشار الدعوة الى التصوف في صدر الاسلام وعدم ظهور هذه الدعوة الا بعد عهد الصحابة والتابعين. والجواب عن هذا انه لم تكن من حاجة اليها في العصر الاول لان اهل ذلك العصر كانوا اهل ورع وتقوى وأرباب مجاهدة واقبال على العبادة بطبيعتهم وبحكم قرب اتصالهم برسول الله فكانوا يتسابقون ويتبارون في الاقتداء به في ذلك كله فلم يكن ثمة ما يدعو الى تلقينهم علماً يرشدهم الى امر هم قائمون به فعلاً وانما مثلهم في ذلك كمثل العربي القح يعرف اللغة العربية بالتوارث كابراً عن كابر حتى إنه ليقرض الشعر البليغ بالسليقة والفطرة دون أن يعرف شيئاً من قواعد اللغة والاعراب والنظم والقريض فمثل هذا لا يلزمه ان يتعلم النحو ودروس البلاغة ولكن علم النحو وقواعد اللغة والشعر تصبح لازمة وضرورية عند تبلبل الالسن او لمن يريد من الاجانب ان يتفهمها لينتفع بها او عندما يصبح هذا العلم ضرورة من ضرورات الاجتماع كبقية العلوم التي نشأت وتألفت على توالي

العصور في أوقاتها المناسبة. فالصحابة والتابعون وان لم يتسموا باسم المتصوفين فانهم كانوا صوفيين فعلاً وإن لم يكونوا كذلك اسماً. وماذا يراد بالتصوف اكثر من ان يعيش المرء لربه لا لنفسهِ والتحلي بالزهد وملازمة اسباب العبودية والاقبال على الله بالروح والقلب في جميع الاوقات مما وصل بهِ الصحابة والتابعون من حيث الرقي الروحي الى أسمى الدرجات فهم لم يكتفوا بالاقرار بعقائد الايمان والقيام بفروض الاسلام بل قرنوا الاقرار بالتذوق والوجدان وزادوا على الفروض الاتيان بكل ما استحبهُ الرسول من نوافل العبادات وابتعدوا عن المكروهات فضلاً عن المحرَّمات حتى استنارت بصائرهم وتفجرت ينابيع الحكمة في قلوبهم وفاضت الاسرار الربانية من جوانحهم. وكذلك كان شأن التابعين وتابعي التابعين وهذه العصور الثلاثة كانت أزهى عصور الاسلام وخيرها على الاطلاق. وقد جاء عن رسول الله وخاتم الانبياء قوله خير القرون قرني هذا فالذي يليه والذي يليه

فلما تقادم العهد ودخل في حظيرة الاسلام أمم شتى واجناس عديدة واتسعت دائرة الارشاد والتبيين في مختلف ميادين المعرفة والعلوم فمن ثمَّ وجب تقسيم العمل وتوزيعه بين ارباب الاختصاص فقام كل فريق بتدوين الفن والعلم الذي يجيده أكثر من غيره فنشأ بعد تدوين النحو في الصدر الاول علم الفقه وعلم التوحيد وعلوم الحديث وأصول الدين والتفسير والمنطق ومصطلح الحديث وعلم الاصول والفرائض (الميراث) وغيرها وغيرها. وحدث بعد هذه الفترة ان أخذ التأثير الروحي يتضاءل شيئاً فشيئاً وأخذ الناس يتناسون ضرورة الاقبال على الله بالعبودية بالقلب والهمة مما دعا أرباب الرياضة والزهد الى ان يعملوا هم من ناحيتهم أيضاً على تدوين علم التصوف واثبات شرفه وجلاله وفضله على سائر العلوم. ولم يكن ذلك منهم احتجاجاً على انصراف الطوائف الاخرى الى تدوين علومهم كما يظن ذلك خطأً بعض المستشرقين بل كان كما يجب ان يكون سدًّا للنقص واستكمالاً لحاجات الدين في جميع نواحي النشاط مما لا بد منهُ لحصول التعاون على تمهيد اسباب البر والتقوى

وقد بنى ائمة الصوفية الاولون اصول طريقتهم على ما ثبت في تاريخ الاسلام نقلاً عن الثقات الاعلام انهُ حدث في العام الاول للهجرة ان اجتمع بضعة عشر رجلاً من المهاجرين ومثل ذلك من الانصار من اهل المدينة وتقاسموا بينهم ان يزهدوا في الدنيا ونعيمها الزائل ويقبلوا على الله والدار الآخرة ويشغلوا جميع اوقاتهم ولا سيما في اوقات السحر والغسق بصنوف العبادات حبًّا بالله واقتداء برسوله فكان هذا التقاسم بمنزلة عهد قطعوه على انفسهم لله لا مناص لهم من الوفاء بهِ والاَّ كانوا آثمين وذلك ما يسمى بالعهد بين اهل الطريق الى الآن. وكان أساس زهدهم في الدنيا قول النبي صلى الله عليهِ وسلم «الفقر فخري» ومن هنا جاءت التسمية

التي أطلقوها على أنفسهم ومن دخل في طريقهم وسلك سبيلهم وهي (الفقراء) فالواحد منهم كان ولا يزال يسمى بالفقير ومعنى الفقير عندهم ليس من هو بحاجة الى معونة الغير بل معناها الفقير الى رحمة الله المستغني بهِ عن الخلق جميعاً

كذلك ثبت عندهم ان النبي لقن أصحابه ذكر لا اله الاَّ الله جماعة وفرادى فأما تلقينه لاصحابه جماعة فقد رواه شداد بن أوس في حديث صحيح قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليهِ السلام هل فيكم غريب ؟ يعني من أهل الكتاب قلنا لا يا رسول الله فأمر رسول الله صلى الله عليهِ وسلم بغلق الباب وقال ارفعوا أيديكم وقولوا لا اله الاَّ الله فرفعنا أيدينا ساعة وقلنا لا الـه الاَّ الله ثم قال رسول الله صلى الله عليهِ وسلم ألا أبشروا فان الله قد غفر لكم . وأما تلقينه صلى الله عليهِ وسلم لاصحابه فرادى فقد قال عليّ بن ابي طالب كرم الله وجههُ سألت رسول الله صلى الله عليهِ وسلم فقلت يا رسول الله دلني على أقرب الطرق الى الله عزَّ وجلَّ وأسهلها على عبادهِ وأفضلها عند الله فقال يا عليّ عليك بمداومة ذكر الله عزَّ وجلَّ سرًّا وجهراً فقال عليّ كل الناس ذاكرون يا رسول الله وانما اريد ان تخصّني بشيءٍ فقال رسول الله مَهْ يا عليّ ان افضل ما قلتهُ أنا والنبيون من قبلي لا اله الاَّ الله الى آخر الحديث الشريف . فهذا اصل سند القوم في تلقين الذكر الى اليوم وهم يرون من فوائده ارتباط القلوب بعضها ببعض الى رسول الله وان اقل ما يحصل للمريد الصادق اذا دخل في سلسلتهم بهذا التلقين ان يكون اذا حرك بهِ حلقة لسانه جاوبتهُ أرواح الاولياء من شيخهِ الى رسول الله فمن لم يدخل في طريقهم بالتلقين فهو غير معدود منهم وقلما يفتح عليهِ بما فتح بهِ عليهم

ويروى ان أبا بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين كان يتولى قيادة فريق من أولئك الفقراء كما ان عليًّا بن أبي طالب بن عم النبي ورابع الخلفاء كان يقود فريقاً آخر. وبعد وفاة أبي بكر أخلفهُ في طريقتهِ سلمان الفارسي أحد كبار الصحابة من أهل فارس وبعد وفاة عليّ تولى خلافة طريقته الحسنُ البصري وكان كلٌّ منهما يسمى بالخليفة ولهذا صار يطلق اسم الخليفة الى يومنا هذا على كل شيخ من مشايخ الطرق الصوفية

***

ويتمسك المتصوفون في اقبالهم على الله بالهمة وصدق العبودية ، بما جاء في القرآن وهو قولهُ تعالى :

« قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارةٌ تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبّ اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين »

ولهذا اوجب الفقراء اي المتصوفون على انفسهم ان يكونوا في جميع الحالات على قدم الاستعداد للتضحية بهذه المصالح الدنيوية كلها في سبيل قيامهم بحق العبودية لله وحده فلا تلهيهم تجارة ولا بيع ولا اي متاع آخر عن ذكر الله وعبادته واضعين نصب اعينهم الغرض الاسمى من خلقتهم ووجودهم في هذه الحياة الدنيا وهو ما جاء في قول الله تعالى في القرآن وما خلقت الجن والانس الاّ ليعبدون

وقد دلّ تاريخ هؤلاء القوم على ان عمدتهم في التقرب الى الله فوق قيامهم بالمفروض عليهم في الاسلام التزامهم اذكاراً واوراداً كل صباح ومساء وأهم هذه الاذكار ذكر لا اله الاّ الله ثم الصلاة على النبي ومعناها استنزال البركات الديمومية الربانية على روحه صلى الله عليه وسلم

وعندهم كما ثبت بالتجارب والممارسة ان لذكر الله باللسان مع حضور القلب وبالكيفية المخصوصة المتفق عليها لدى شيوخهم وطوائفهم اثراً كبيراً يعجز القلم عن وصفه في تصفية الباطن وتنوير القلب بالانوار والفتوحات الربانية كما ثبت مثل ذلك للصلاة على النبي. والمسلمون مأمورون في القرآن بهذه الصلاة وهي فرض عين على كل مسلم صوفيّاً كان او غير صوفي وانما المتصوفون يكثرون منها جهد الطاقة لما لها من الأثر العظيم في جلاء مرآة القلب وصفاء الروح صفاء مجيباً مظهره الاكبر تملك حب الله ورسوله من صميم نفوسهم

وأما تسميتهم بالمتصوفين فلم تحدث او بالاحرى لم يرد لها ذكر في كتب التصوف المعتمدة الاّ بعد عصر الخليفة المأمون سابع الخلفاء العباسيين (١٩٨ هجرية او ٨١٣ — ٨٣٣ ميلادية) وقد كان ذلك العصر ازهر عصور الادب العربي وفيه توفر العرب على نقل العلوم والفلسفة الاجنبية. والظاهر انهم اتفقوا فيها بكلمة تيوصوفية اليونانية فعربوها ونحتوا منها اسماً معرّباً اطلقوه على جماعة الفقراء فكان هذا الاسم هو التصوف لان كلمة الفقراء لم تكن وافية في ذاتها في الابانة عن المعنى الذي يتميز به المتصوفون عن غيرهم من المسلمين وقد المعنا الى بيان ذلك من قبل

وأما كلمة الصوفية وكلمة الصوفي فهما كذلك منحوتتان من نفس كلمة تيوصوفية المتقدم ذكرها وقد اطلقت الاولى اي الصوفية على العلم نفسه والصوفي على من تحقق بهذا العلم وتلبس به. واما كلمة المتصوف والتصوف فقد استعملت الاولى منهما للدلالة على السالك في هذا الطريق الآخذ في اسباب التحقق به واستعملت الثانية (التصوف) على سلوك الطريق

وقد كان تأسيس اول طريقة نظامية من الطرق الصوفية الطريقة العلوانية لمؤسسها الشيخ علوان في سنة ١٤٩ هجرية (٧٦٦ ميلادية) وبعد ذلك توالى انشاء الطرق الاخرى بتوالي القرون وكانت كل واحدة منها تسمى باسم شيخها ومؤسسها. وقد يتعذر اليوم تعداد الطرق الموجودة الآن كلها لكثرتها. فنجتزىء الآن بذكر اشهرها وهي: —

	اسم الطريقة	مؤسسها	تاريخ تأسيسها
١	العلوانية	الشيخ علوان المدفون بجده	١٤٩ هـ — ٧٦٦ م
٢	الادهمية	الزاهد ابرهيم بن ادهم « بدمشق	١٦١ « — ٧٧٧ م
٣	البسطامية	الامام ابو يزيد البسطامي « جبل بسطام	٢٦١ « — ٨٧٤ م
٤	السقاطية	الامام سري الدين السقطي المدفون ببغداد	٢٩٥ « — ٩٠٧ م
٥	الجيلانية	سيدي عبد القادر الجيلاني «	٥٦١ « — ١١٦٥ م
٦	الرفاعية	سيدي السيد احمد الرفاعي «	٥٧٦ « — ١١٨٢ م
٧	السهروردية	الامام شهاب الدين السهروردي «	٦٠٢ « — ١٢٠٥ م
٨	الشاذلية	سيدي ابو الحسن الشاذلي القصير بالبحر الاحمر	٦٥٦ « — ١٢٥٨ م
٩	المولوية	سيدي جلال الدين الرومي قونيه	٦٧٢ « — ١٢٧٣ م
١٠	الاحمدية	سيدي احمد البدوي طنطا	٦٧٥ « — ١٢٧٦ م
١١	النقشبندية	سيدي بير محمد نقشبند قصر عرفان	٧١٩ « — ١٣١٩ م
١٢	السعدية	الامام سعد الدين دمشق	٧٣٦ « — ١٣٣٥ م
١٣	البختاشية	سيدي الحاج بختاش كيرشر بالبانيا	٧٥٦ « — ١٣٥٧ م
١٤	الخلوتية	سيدي عمر الخلوتي قيصرية	٨٠٠ « — ١٣٩٥ م
١٥	البرهامية	سيدي الحاج برهام انقره	٨٧٦ « — ١٤٧١ م
١٦	البكرية	سيدي ابو بكر الوفائي حلب	٩٠٢ « — ١٤٩٦ م
١٧	الجلشانية	سيدي ابرهيم الجلشاني القاهرة	٩٤٠ « — ١٥٣٣ م
١٨	الجمالية	سيدي جمال الدين اسطامبول	١١٦٤ « — ١٥٧٠ م

فهذه الطرق الصوفية المشهورة وكثير غيرها مما لم نذكره ليس من خلاف بينها من حيث الاسس والمبادىء الاصلية وانما الفرق في نوع الاذكار والاوراد التي يواظب عليها المريدون من اتباع كل طريقة منها فقد يفتح الله تعالى على واحد منهم بطريق الالهام ويؤتى حظاً كبيراً من الانوار القدسية فيكاشف بفائدة ذكر اسم معين من اسماء الله الحسنى فيكون ذلك سبباً او اساساً لانشاء طريقة جديدة مشتقة في الواقع من طريقته الاصلية ومن ثمَّ كان تعدد الطرق الصوفية على تقادم العصور والازمان

وليس في الامكان ان نأتي على تبيان مختلف الاذكار والاوراد وصنوف الرياضات ومدارك السلوك لدى ارباب الطرق المتنوعة وحسبي ان اصف لحضراتكم بالايجاز المراحل التي يقطعها اتباع الطريقة الخلوتية وقد قطعتها بنفسي بتوفيق الله وبارشاد شيخي العارف بالله سيدي عبد الله بن محمد

البناء المدفون في الاسكندرية قدس الله سره وهذا الوصف ينطبق في مجموعه على حال الطرق الاخرى — فأقول:

طريق المتصوف في سلوكه الى الله

يبدأ سلوك هذا الطريق باستشعار رغبة ملحة تستولي على القلب فتبعث بها في باطن المرء داعية قوية نحو تذوق الايمان بالوجدان وعدم الوقوف عند حد التصديق او اليقين الذي حصل عليه بالتوارث او بالاستدلالات المنطقية والعقلية فما أبعد الفرق بين من يعتقد من اهل مصر بوجود لندن في انكلترا وهو لم يشاهدها في حياته وانما آمن بها لتوفر الادلة العقلية على وجودها وبين من رآها رأي العين وعاش فيها زمناً . وتأخذ هذه الرغبة تزداد في القلب تمكناً بمقدار صفاء الروح واستعداد النفس الى الرقي الروحي فيتملكها الحنين والشوق الى معرفة خالقها معرفة ذوقية لا نقلية ولا عقلية ويغلب ان تساور الانسان في هذه الحالة شكوك وظنون وأوهام خفية فيما يتعلق بالمعتقدات الدينية دون ان يجد من عقله مرشداً كافياً لحل معضلاتها والخروج من ظلمات الحيرة المترتبة على تلك الظنون والشكوك فيلجأ عند ذلك الى احد المرشدين الى طريق الحق من مشايخ الصوفية بشرط ان يكون هذا الشيخ من المحققين العارفين بالله ممن سبق لهم سلوك هذا الطريق بعينه وهو مأذون من شيخه بالتسليك فيه ويطلب اليه ان يدخله في عداد اتباعه الآخذين في السلوك الى الله على يديه . ففي هذه الحالة يسمى الطالب (مريداً) أي يريد السير في الطريق وهذه اولى المنازل وتسمى منزلة الارادة فيتلقاه الشيخ بالفرح والسرور ويأخذ عليه العهد بالتوبة من ذنوبه والتبري من حوله وقوته واخلاص النية في مقصده وغايته القيام بما يفرضه الطريق على السائر فيه من الاذكار والاوراد المشروعة فضلاً عن القيام بما يستوجبه الدين من اتباع أوامره واجتناب نواهيه ويوصيه بملازمة التقوى في السر والعلانية ومراقبة الله في كل حال ثم يلقنه الذكر ويعطيه الاوراد ومن ثم يبدأ سلوك المريد ويسمى عند ذلك (سالكاً) جاعلاً اكبر همه في الدنيا الاشتغال بالعبادة والزهد والرياضة بحسب ما يرسمه له الشيخ فيقبل على الله بصدق النية وتصفية القلب عما سوى الله حيث ينتقل بذلك الى مقام يسمى بمقام العبودية ويظل السالك يجاهد في الطريق نفسه وهواه حتى يتغلب عليهما بالاكثار من الضراعة والتذلل والتزلف الى بارئه حتى اذا ما اقبلت عليه العناية الالهية وتقبلت مناجاته وضراعته ارتقت الرغبة في قلبه فصارت عشقاً لله وحباً لذاته العلية وهنا يصل السالك الى مقام في الطريق يسمى (مقام العشق)

ولا يزال هذا العشق يتملك قلب السالك حتى يطرد من باطنه كافة الاماني والحظوظ

والرغبات الدنيوية فيقوده هذا الحال الى مقام ارقى يعرف بمقام (الزهد) حيث تم فيه تصفية القلب وجلاء مرآته جلاءً يجعله بحيث يصير مستعداً لاستقبال ما تنعكس عليها من المعارف القدسية والانوار الالهية بدون واسطة العقل او المخ او اي عمل من اعمال الجسم الفسيولوجية

وهنا يواصل السالك سيره الى الله وهو دائم التفكير في معبوده الاوحد لا يهنأ له عيش ولا يطيب له وقت الا اذا اقترن بذكر الله والتسبيح بحمده وعند ذلك تنبثق في قلب السالك انوار تلك المعارف اللدنية اي التي تهبط على القلب بطريق الالهام الباطني بكيفية تجل عن الوصف وبها تحصل لديه اذواق وجدانية يتفهم بها ما لم يكن يفهمه بعقله من معاني النبوة ويعرف هذا المقام عند المتصوفة بمقام (المعرفة)

ويظل السالك بعد ذلك مواظباً على اذكاره وأوراده التي يتلقاها من شيخه آناً بعد آن بحسب ما يبدو للشيخ من استحقاق المريد لزيادة الترقي الروحي فيشغل بها اوقاته مقرناً ذلك بالعزلة والخلوة والاقلال ما امكن من الطعام والشراب والكلام والنوم الا ما تستوجبه الضرورة والطبيعة مع ملازمة التهجد وقيام الليل والناس نيام فعند ذلك تتملكه حالة شريفة علوية روحية ينتقل بها الى المقام الذي يسمى مقام (الوجد والهيام) وهو اسمى من مقام العشق اذ يستولي على النفس آثاره من جميع نواحيها

فاذا بلغ الفقير هذا المقام السنيّ تواردت على قلبه النفحات الربانية والبركات الالهية توارداً تزداد به معرفته الباطنية بصفات الذات العليّة ما يصل به الى الحقيقة المجردة التي كان ينشدها عندما جاء الى الشيخ وهو اذ ذاك مريد يطلب الوصول اليها . وتسمى هذه المنزلة عند أرباب الطريق بمقام (الحقيقة)

على ان وصول السالك الى هذا المقام لا ينتهي عنده سلوك الطريق بل انهُ يظل بعده يرتقي بالروح الى منازل ثلاث أخرى تعرف بمنزلة (الفناء فاللقاء فالبقاء) . أما الفناء فمعناه فناء العبد عن حظوظه وعن نفسه في الله بل عن اختياره أيضاً ويكون كما قال سيدي ابو الحسن الشاذلي لبعض مريديه « اذا شئت أن تختار فاختر ان لا تختار وفرّ من ذلك المختار ومن فرارك هذا ومن كل شيء الى الله تعالى »

ففي هذا المقام تتجلى عظمة الخالق على قلب السالك فلا يرى الا الله حتى نفسه لا يرى لها أثراً ولا يجد في الوجود من الكائنات الا واجب الوجود وحده وتمحي آثار جميع الموجودات في وجوده تعالى وتتجلي في فؤاد الفقير معنى قوله عزّ وجل في القرآن مخاطباً عباده المتقين فأنيبوا الى ربكم وأسلموا لهُ . ويتضح لهُ بعد الافاقة من سكر الوصول الى هذه الحال الرهيبة معنى قول الحلاج ما في الجبة الا الله اي ان نفسه تلاشت فلم يعد لوجوده عنده من أثر

وقد وصف الامام جلال الدين الرومي شيخ الطريقة المولوية في أبيات لهُ بالفارسية حالة الفناء هذه أبدع وصف ويلوح لي ان هذه الابيات لم تترجم الى العربية حتى الآن وهذا مضمون ما قالهُ في ذلك :

«حينما يستولي روح من الجن على لب انسيّ من الناس تضعف صفات الانس فيهِ الى حد التلاشي ويصبح كلما يصدر منهُ من قول آتياً من وحي ذلك الروح الجني وسلطانه لا من عقل هذا الانسي وتفكيره اذ تتلاشى ذاتيته وقتاً ما يعود في خلالهِ كأنهُ الجنية ذاتها

«وفي تلك الحالة العجيبة تصبح العربية عند التركي لغته ان كانت العربية لغة ذلك الجني المستولى عليهِ فينطق بها دون ان يعرف منها شيئاً وهذا يحدث منهُ في غير إلهام بحسه او وحي يتلقاه ومتى عاد الانسيّ الى نفسه وأفاق ، لم يذكر لفظاً واحداً مما قالهُ وهو تحت ذلك السلطان فاذا صحّ هذا عن الجنية وسلطان استيلائها على اب انسان ، أفيكون خالق الانسان والجان أقل شأناً وأضعف سلطاناً من الانس والجان ؟ حاشا ان يكون ذلك شأن الاله الواحد القهار »

وفي أبيات لهُ أخرى يقول سيدي جلال الدين بالفارسية ما ترجمتهُ بالعربية :

« لو تكلم امامكم رجل سكران من اثر ما شربه من روح الخمر بكلام غريب قلتم انها الخمر التي تتكلم افيكون لروح الخمر هذا الاثر ولا يكون لروح الله مثله اذا استولى على قلب انسان فيجعله ينطق بكلام ليس بكلامه وعبارات ليست هي عباراته

الاّ ان القرآن وان جاءنا من بين شفتي النبي محمد فقد كفر من قال انهُ ليس كلام الله

الفناء عند الصوفي

ومقارنته بالفناء لدى البوذيين

ومما ينبغي التنبيه عليه هنا ان من المستشرقين من الغربيين من ذهب الى حد تشبيه . . . . . . حالة الفناء عند المتصوفين المسلمين بحالة تسمى نيرفانا Nirvana عند البوذيين الوثنيين وهي الحالة التي يتوهم هؤلاء انها نتيجة تعذيبهم انفسهم حتى تتلاشى وتنمحق عنهم فلا تعود النفس الى صاحبها ابداً اذ يزعمون انهُ ينقلب فيصير بوذا بذاته اي إلهاً آخر تعالى الله عما يقولون علوّاً كبيراً . ولست بصدد اظهار ما في هذه المزاعم الوثنية الوهمية من الضلال والمخالفة للتعاليم الدينية الحقة. وانما اقول ان فناء السالك المتصوف غير هذا اذ معناه فناؤه عن نفسه وصفاته الحيوانية الارضية حبًّا في ذات الله بالتزام التهذيب لا التعذيب ومتى تمّ له هذا الفناء اشرف بهِ على طور لا يشهد معهُ في الوجود الاّ الله حتى ولا نفسهِ التي بين جنبيه فلا يرى وجوداً إلاّ لواجب الوجود وحده وأما وجود سواهُ أيًّا ما كان فهو وجود مجازي غير ذاتي لقبوله العدم والفناء اما الوجود الحقيقي الذاتي فهو للذات العلية الابدية الدائمة البقاء وحدها

وتلك المشاهدة لا تحصل بحاسة البصر بل تحصل بعين البصيرة اي بنور ينبعث في القلب انبعاثاً إلهيًا اذ تكون الحواس الظاهرة كلها في غيب عن نفسها كما يحدث لمن يدخل على ملك ذي شوكة وسلطان فتتملكه الهيبة والجلال الى حد انهُ لا يرى شيئاً قط مما في بيت الملك من رياش وغير رياش ولا يرى أحداً ممن يكون جليساً للملك حين دخوله عليهِ حتى ولا يعلم من أمر نفسه شيئاً حين دخوله على حضرة الملك وذلك لاستيلاء الذهول كله عليه

فهذا الامر مشاهد في امور الخلق فكيف بنا وحديثنا يدور حول الفناء في الخالق. ثم ان السالك بوصوله الى مقام الفناء الذي وصفنا طرفاً منهُ يتحقق له قول النبي عليه السلام لاصحابهِ موتوا قبل ان تموتوا اي موتوا عن رؤية وجودكم واختياركم واعتمادكم على حولكم وقوتكم لتعلموا ان الوجود والاختيار هما في الحقيقة وقف على الله الواحد المختار وانكم وان زرعتم الزرع بأيديكم فان الزارع هو الله ولكنكم أسباب وقد يخلق الله بسبب ويخلق ايضاً بلا سبب فهو مسبب الاسباب ورب الارباب وهذا ما ترونهُ كشفاً وعياناً بعد انقضاء أجلكم في الدنيا ويكون الحال كما وصفهُ الله في القرآن بقولهِ تعالى (فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد)

وبعد ان يفيق الطالب من سكر الفناء ينتقل توًّا الى مقام يسمى مقام البقاء ويعرف عند الصوفية أيضاً بمقام (الوصول) او المشاهدة والمكاشفة ومن ذلك قولهم في مواضع كثيرة من كتبهم فلان الواصل الى الله وهذا المقام حالة وراء العقل المجرَّد يعجز القلم عن وصفها وتدق الافهام عن تصور كنهها اذ هي بمعزل عن نطاق المدارك العقلية لانها حالة ذوقية روحية لا تعلق للعقول بها الاَّ بأن تقر بجواز حصولها وعدم استحالتها ومثلها بالنسبة الى المدركات العقلية كمثل ما يؤكل وما يشرب بالنسبة الى حاسة البصر فكما ان هذه الحاسة لا تتعلق الاَّ بالمرئيات دون الاذواق اذ ليس ادراك الاذواق من شأنها ولا من واجباتها بل هو مقصور على حاسة الذوق وحدها فكذلك المواجيد الروحية والاذواق الباطنية القلبية لا تدرك بالعقول والافهام. وانما تدرك بنور البصيرة وطهارة والالباب

وقد تلبث حالة الفناء التي أسلفنا ذكرها مقدار لحظة واحدة او قد تطول اكثر من لحظة وكذلك حالة البقاء او المكاشفة قد تدوم ساعة او اكثر من ساعة حيث يعود السالك بعدها برضوان الله وفضله الى نفسه ولكن ليس الى نفسه الاولى الامارة بالسوء التي كان يجاهد في تهذيبها وصقلها بمهذبات الشرع ويحاول قهرها وتحاول قهره ويسعى في ضبطها ضمن حدود الشريعة وهي تأبى الاَّ الغلبة عليهِ والخلاص من قهره. بل يعود الى النفس الراضية المرضية المهذبة الكاملة المطمئنة بالايمان الراضخة لاحكام الشرع والدين. يعود الآن الى مقام البقاء بالله اي مقام العزة الانسانية المشروحة الصدر المستنيرة بانوار التقوى والصلاح بعيداً عن

الشوائب الشهوانية والحظوظ النفسية والصفات الدنيئة وأخصها العجب والزهو والكبر والرياء والنفاق والحسد والتطلع الى ما في ايدي الناس وقلة الرضى بما قسمهُ الله من الرزق

يعود ليشهد فيهِ الخلق مثالاً حيًّا على صدق روح الاسلام وتكفله بان يبلغ النفس البشرية اقصى ما تتوق اليهِ من الكمالات والرقي الروحي اذ يصير قلبه مليئاً بالصدق والمروءة والنخوة والطهارة والصفاء والعطف والرأفة والحنوّ على عباد الله بل على الخلائق جميعاً حتى الطير والحيوان الاعجم يعطف عليهِ ويرأف بهِ حتى لقد قال في وصف هذه الحال مولانا العارف بالله سيدي محيي الدين العربي ابياتاً منها قوله قدس الله سره : —

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي اذا لم يكن ديني الى دينه داني
وقد صار قلبي قابلاً كل صورة فرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لنيران وكعبة قاصد وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبهُ فالحب ديني وايماني

وقد أراد سيدي جلال الدين الرومي تصوير حالة الوصول الى الله بعد بلوغ مرتبة الفناء فكتب في كتابه المسنوي شعراً بالفارسية هذا معناه : —

« توهم المحب انه قد فني في محبوبه فلما اهتدى الى بيته بعد طول السير والجهاد وقف بالباب فدقَّ عليه يطلب الاذن في الدخول فسمع من الداخل صوتاً ينادي : من بالباب ؟ فقال المحب انا بالباب. فقال الصوت داخل البيت : كلاَّ . كلاَّ . ان هذا البيت لا يسعني ويسع احداً سواي . وظل الباب مغلقاً كما كان فأطرق المحب مليًّا فأدرك ان ما حجبهُ دون الاذن له بالدخول الاَّ شعوره بوجود نفسه معه فعاد أدراجه وعاود جهاده ثم رجع بعد عام يقرع الباب فعاد الصوت يسأل من بالباب ؟ فقال انت انت الذي هنا وأنت انت الذي هناك وأنت وحدك ملء الوجود ولا موجود سواك . وهنا فتح الباب على مصراعيه فدلف منهُ المحب ليحظى بوصال الحبيب »

وبهذه الصورة الشعرية الطريفة أمكن للعارف جلال الدين ان يصوّر لنا كيف ان سلوك سبيل التصوف الحق ينيل النفس المتعطشة اقصى ما تصبو اليهِ من الرقي الروحي

***

هذا أيها السادة ما وسع المقام ذكره من الالمام ببعض اطراف التصوف في الاسلام اجمالاً وعسى ان تتاح لي فرصة اخرى لازيد الموضوع جلاءً وتفصيلاً . واني شاكر لكم حسن استماعكم لي زمناً طويلاً

الى (بتولي) الفاتنة الجمال ذات الروح الاعجب فتنة وجمالاً !!

قبلة الروح !!

هاتِ أدني من في شفتيْ ذا البُرعُمِ
يا لثغرٍ عَنْدَمي (١)

أيُّ سحرٍ قطفهُ ذوبُ شهدٍ وشفهُ
وشهيٌّ وكفُهُ

أتُراه قد شفاني ؟ أم تراه قد سقاني
وحباني بالاماني ؟

لا . . . فما بلُّ الظّما أو شفى جُرْحاً همَى
كان ثغراً ظالما !!

هات روحاً مُلهمي سلسليه في دمي
تحتويه أعظُمي

ها . . . سرَينا في سما هي لغزٌ أبهما
أتراني حالما ؟ !

ها أرانا هائمَينْ في انتشاء ذاهلَينْ
قد غدَونا طائرَينْ كيف طِرنا؟بل وأينْ؟!

لا وربي ما درينا !!

***

آه من قُبلة صبٍّ بحتسي روح المحب
خَلَقتْ اكوان حُبٍّ إنها قبلة . . ربٍّ !!

إنها يا أختَ روحي قبلة الروح لروحي
هدهدت مني جروحي لا تضنّي بل أبيحي

امنحيها للجريح !!...

محمد فهمي

(١) العندم نبات احمر اللون

حضارة الميتانيين

بقلم قيصر صادر
عضو جمعية العاديات السورية

— ٢ —

﴿ اللغة ﴾ عندما نهضت الآثار الميتانية من جوف الثرى ومسحت عن جفونها غبار الايام حاول علماء الآثار ان يستجلوا معاني تلك السطور العالقة على بعضها فلم يوفقوا في محاولاتهم ولبثت كتابات الميتانيين غامضة صامتةً لا تبس ببنت شفة عما تتضمنهُ من الاسرار ريثما يتسنى العثور على لوحات ميتانية مثل لوحات بوغاز كوي ورأس الشمراء التي تدوَّن فيها النصوص الواحدة مترجمة الى عدة لغات تساعد على تفسير بعضها بعضاً . غير انهُ يلوح من اسماء بعض الملوك الواردة باللغات المصرية والحثية ان لغة الميتانيين كانت مزيجاً من ألفاظ اسيوية وآرية وهي تشبه بذلك لغة القوقاس الخشنة وقد اشارت ألواح بوغاز كوي الحثية الى وجود قصص وقصائد موضوعة باللغة الميتانية اشيد فيها باعمال البطل جيلجماش العجيبة كما ان الكتابات الميتانية التي عثر عليها في حفريات تل العمارنة تدل على ارتقاء الفكر وسعة انتشار ادب المراسلة عند الميتانيين كرسالة الملك توزارطا الموجهة الى امنوفيس الثالث التي تنطوي على ٤٩٤ سطراً وهي مخطوطة بالقلم المسماري وتعد هذه الرسالة المطولة من اهم ما عثر عليه حتى يومنا من الاسانيد التي تمهد لدرس اللغة الميتانية بفضل مقدمتها حيث تيسّر حل مدلول بعض الفاظها التي يخاطب عادةً بمثلها فراعنة مصر على انهُ ينتظر عند اتساع حلقة الحفريات في اراضي الميتانيين ان تتوالى البينات التي تساعد على حل رموز هذه اللغة العويصة حلاً نهائياً

﴿ الانظمة والقوانين ﴾ ما برحت لغة الميتانيين مستعصية الحل على علماء الآثار فليست معلوماتنا عن انظمتهم وقوانينهم غير معلومات مقتضبة اخذناها عن كتابات جيرانهم الذين ألمعوا الى هذه الانظمة والقوانين في سياق البحث عن انظمتهم وقوانينهم الخاصة او عن عقود ميتانية محررة بلغة اجنبية فقد كان العرش وراثياً تحرسهُ كوكبة من الجيش يطلق عليها اسم الحرس الماريانى . اما طراز الحكم فكان اقطاعياً ينحصر تولّيه في طبقة من الاعيان تتحدّر من عنصر آري مثل العائلة المالكة نفسها وتكاد تكون قوانين الدولة مستعارة برمتها من قانون حمورابي الذي كان له اعمق تأثير في كل الدول التي قامت فيما بين النهرين . بيد انهُ كان يستثنى من ذلك تشريع التعامل

التجاري عند الميتانيين الذي عرف بميزة خاصة تنطبق على حاجة جماعة معظمهم من الزراع . وقد اشار الاستاذ كوك الى الخاصات التي تميز العقود الميتانية عن سواها وأهمها وجوب بيان المحل الذي تم فيه الصفقة ويدوّن العقد مع ذكر أسماء الشهود الحاضرين مما كان يغفل في معظم العقود الحثية . زد على ذلك ان المكاييل والاقيسة الوارد ذكرها في العقود الميتانية كانت أقرب الى ما هي عليه في أشور مما هي عليه في بابل . فقد كان الكيل المدعو إمر الشائع عندهم يستوعب من الحبوب مبذر مساحة معينة من الارض ويوازي أربعين لتراً من مكاييلنا

﴿شرائع الزواج﴾ كان الخطيب عند الميتانيين ينقد والد الفتاة مبلغاً من المال يرمز فيه الى عادة مشترى المرأة تلك العادة التي كانت متفشية في بابل . بيد انهُ كان يترتب أدباً على الوالد الميتاني ان يسرع باعادة المبلغ المذكور الى الخطيب بعد قبوله شكلاً ويمهر ابنته بباثنة تساعدها على تقديم هدية ثمينة الى بعلها ليلة الزفاف مما لا نرى لهُ مثيلاً في تقاليد الجوار . وقد كان مباحاً للزوج ان يطلق امرأته اذا كانت عاقراً أما اذا كانت ولوداً فلا يحق لهُ ذلك دون أن يعوضها بالمال ويخسر في حال طلاقها حقوق الابوة على أولاده مع بقاء حق الارث محصوراً بعده في أولئك الاولاد دون غيرهم

﴿شرائع التبني﴾ ومما كان شائعاً في البلاد الميتانية شريعة التبني وقد عرفت منها ثلاثة أشكال : ففي الشكل الاول المدعو (أنا شمتي) كان يختار المرء قريباً لهُ يتبناه بطريقة غير قابلة النكول فيرعاه بحمايته ويغدق عليه خيراته . أما في الشكل الثاني المعروف باسم (انامعروتي) فيصح تبني شخص غريب عن العائلة ويحق للمتبنَّى ان يرث حصة معينة من مال المتبني

ولما كانت أراضي الخراج المقطعة للموظفين او الجنود لقاء خدماتهم غير قابلة الانتقال الى الغير الاَّ بطريقة الارث الشرعي فقد أوجد لها المشترع الميتاني حيلةً تساعد صاحبها العاجز عن العمل على الانتفاع بها او استغلالها بواسطة الغير . وذلك بأن يتبنى مالكها شخصاً يهبها لهُ لقاء هدية من الفضة او الحبوب تعادل ثمنها وهذا هو الشكل الثالث وقد أطلق عليه الاستاذ سيدرز الذي اكتشف لوحات كركوك اسم البيع بالتبني

﴿شرائع التعامل التجاري﴾ تكاد طريقة الاستقراض التي كان يجري عليها الميتانيون تشابه طريقة التعامل المعروفة في أيامنا في كثير من الوجوه ولا سيما فيما يتعلق بتعيين موعد الدفع في عقود الاستقراض التي كانت تدوَّن على لوحات من الآجر يختم في ذيلها المدين وتلي توقيعه توقيعات شهود الحال . بيد أن معدل الفائدة كان يتفاوت بحسب نوع البضاعة المشتراة . فاذا كانت هذه البضاعة من مواد البناء كاللبن مثلاً تبلغ الفائدة نحو ٥٠ بالماية في حين ان شريعة حمورابي لا تجيز تقاضي الفائدة بمعدل يربي على ٢٠ بالماية في قرض النقود و ٣٣ ⅓ بالماية على قيمة الحبوب . واذا تعدد المديون كان القانون الميتاني يسوّغ للدائن استيفاء تمام دينه عند الاستحقاق من المدين الاقرب اليه باعتبار المدينين متكافلين متضامنين في وفاء ما عليهم . وقد عثر على عقد

غريب ينص على أن السرية المدينة اذا وضعت خلال مدة الدين يتحتم عليها ان تتخلى عن مولودها الى الدائن أما اذا توفيت اثناء الوضع فلا يكون الدائن ملزماً بدفع ثمنها كما كان مسموحاً للدائن ان ينتفع بما هو مرهون لديه تأميناً على دينه سواء أفضة كان ام تحفة حتى ولو كانت الرهينة انساناً وكان مفروضاً في بعض العقود كفالة شخص ثالث وهذا مأخوذ عن القانون البابلي .
وكان التأجير معروفاً عند البابليين وكثير الرواج فيما يتعلق بعامل صنع اللبن والآلات الزراعية .
أما العقوبات الواجب إنزالها بمن يتخلف عن الدفع فقد كان منصوصاً عليها في العقود نفسها وكانت تسري على المدين من طبعها حين تقصيره في القيام بالشروط الملحوظة وهي على الغالب نقدية ولكنها شديدة في معظم الاحوال لكيما تجعل المدين رادعاً عما قد تسول له نفسه من التواني والتقصير . وقد نصت بعض العقود على عقوبة مؤلمة كاللكم على الفم وكسر الاسنان وما شابه ذلك من صنوف التعذيب التي كانوا يسومون المدين إياها عند اول بادرة تنم على سوء نيته

فيستفاد مما تقدم ان معظم الشرائع الميتانية كانت مستعارة من بابل كما ألمعنا اليه آنفاً انما كان يطرأ عليها بعض التعديلات حسبما كانت تقتضيه أحوال البلاد وحاجاتها ولا مرية في أن معلوماتنا هذه ستزداد مع الايام اضعافاً وتتسع حلقة بحثها عندما ندرك معاني تلك الكتابات العديدة التي أخرجها المنقبون من مكامنها الدفينة

﴿ الديانة ﴾ عندما درسنا ديانة الحثيين على ضوء نصوص لوحات بوغازكوي تبينا ان معابدهم كانت تضم عدداً عديداً من الآلهة تجمعت لديهم بنتيجة فتوحهم لانهم كانوا يبقون على آلهة البلاد التي يستعمرونها وتقاليدها ويكرمونها خشيةً من سخطها وموالاةً لعبدتها حتى ضاقت هياكلهم عن استيعابها وأحيطت عقائد ديانتهم بغموض لا مفر منهُ . وكذلك نرى الامر نفسه قد جمع عند الميتانيين طائفة من الآلهة عندما ضموا تحت لوائهم شتى العشائر التي كانت تقطن سوريا الشمالية وما بين النهرين . وقد أتاحت لنا الظروف ان نتعرف الى معظم هذه الآلهة التي وردت اسماؤها في ذيل المعاهدة المصرية الميتانية التي وضعت تحت رعايتها . ويدل تعداد تلك الآلهة على مختلف العناصر التي تألفت منها المملكة الميتانية اذ كانت تُعرف الشعوب قديماً من اسماء الآلهة التي تنتسب اليها . وقد وجدنا في طليعة هذه الاسماء آلهة الميتانيين الاصلية اي الاله تحشوب ورفيقته هيبا . ثم تليها آلهة البلاد المجاورة والمنضمة الى المملكة الميتانية او التي كان يسطو عليها نفوذها ويتخللها اسماء بعض آلهة بلاد الهند وسوس وبابل التي استقت من عناصرها الحضارة الميتانية . وكذلك نجد اسماء آلهة جبال زاغو ونهري الدجلة والفرات والسماء والارض والريح والسحاب . ويجدر بنا ايضاً ان نلمع الى ورود ذكر اسماء آلهة عشائر حبيري التي يذهب البعض الى انها آلهة اليهود نفسهم الذين كانوا على عهد ازدهار تل العمارنة جماعة من المأجورين يحاربون تحت قيادة ايٍّ كان في سبيل الكسب والغزو . اما الاله تحشوب الكبير الذي كان

يدين به الحثيون ايضاً فقد كان اله العناصر الاربعة والصواعق والانواء والامطار والخصب ويشبه الاله حداد الغربي في كثير من الصفات وتمثله النقوش الميتانية رجلاً مرتدياً لباساً قصيراً مغطى الرأس بتاج او بخوذة ماسكاً بيده اليمنى فأساً وبيده اليسرى رمز الصاعقة المثلث الشعب (انظر رسمه في الصفحة (٥٢٧) من مقتطف دسمبر ١٩٣٦) وتراه في اكثر مواقفه على ظهر ثور وفي بعضها واقفاً على ذرى الجبال . وهيبا رفيقة تحشوب على شاكلة الالهة عشتار كان يبتهل اليها لاكثار النسل وخصب الارض وقد مثلت في النقوش الميتانية برداء طويل وعلى رأسها تاج . وهذان الالهان هما المثل الاعلى للديانات الوثنية القديمة وعبادتهما كانت اكثر كل العبادات شيوعاً في هذه البلاد منذ اقدم العهود

﴿ الفن الميتاني ﴾ جدير بأن نطلق تسمية الفن الميتاني على الآثار المستخرجة مما بين النهرين ومن سائر الانحاء المجاورة والتي تمت الى العهد الذي طغى فيه العنصر الحوري الميتاني على هذه المناطق اي العهد الذي يمتد بعرفنا منذ القرن السادس عشر حتى الرابع عشر ق . م . وتأتي في مقدمة هذه الآثار مجموعة الاسطوانات واللوحات المكتشفة في كركوك والتي تعد من اغنى مجموعات الآثار الحورية الميتانية . وتعتبر صنفاً مهماً بين مختلف الصنوف التي تماثلها اذ تمتاز صناعة حفر هذه الاسطوانات بكثرة وجوه الشبه التي تقربها من صناعة الحفر السومرية تلك الصناعة التي تعتبر النواة الاولى لكل صناعات الحفر المعروفة ليومنا هذا في اسيا الصغرى . تدلنا على ذلك النقوش المتشابهة في الصناعتين والافراط في استعمالها عند الشعبين . ويلوح ان الميتانيين كانوا احذق من سائر معاصريهم في استعارة الفن السومري واكسابه طابعاً خاصاً بهم لانهم كانوا بطبيعتهم الاسيوية اقرب من البابليين وسائر الشعوب السامية الاصل الى فهم خاصة الفن السومري وليد حضارة قريبة من الحضارات الاسيوية . ويبدو ايضاً على بعض الآثار الميتانية انها كانت متأثرة في بعض الاحوال بالطابع المصري وفي بعضها بطابع الايجه وادلتنا على تأثرها بالطابع المصري كثيرة نخص منها بالذكر استعمال قرص الشمس المجنح في بعض النقوش الميتانية . ذاك الرمز الذي يعد بلا جدال ظاهرة مصرية بحتة (راجع الصورة أمام ص ٤٥ من مقتطف يونيو الماضي) كما ان تأثرها بطابع الايجه بارز جلياً في نقش الشجرة المقدسة التي احتفرها الميتانيون على آثارهم بشكل نخلة مهدلة الاغصان كثيرة الزخرف يحرسها إلهان وفي بعض الاحيان اسدان على نحو ما هي عليه في نقوش الايجه . اما سائر الرموز فتكاد تكون كلها مشتقة من اصل سومري كالضفائر التي تغشي معظم اسطوانات كركوك ومشاهد انتصارات البطل جلجامش في مصارعة الثيران والاسود التي يوشك ألاّ يخلو منها اثر ميتاني . وقد يحسن بنا ان نلمح في هذا الصدد الى بعض الآثار الكبرى التي تغلب عليها السمة الميتانية

﴿ اله الخصب ﴾ نجد اكثر هذه النقوش بروزاً وأوثقها نسبة الى صنع الميتانيين نقشاً بارزاً اكتشف في اشور ونقل الى متحف برلين يمثل اله الخصب منحوتاً نحتاً خشناً على الطراز القديم

بلحية طويلة وعينين مجوفتين كانت ترصعها بعض الحجارة، يعلو رأسهُ تاج مزين برسوم حراشف السمك وكذلك القسم الاسفل من ثوبه تغشيه رسوم مشابهة وترمز هذه الحراشف في فن ما بين النهرين الى الارض الجبلية فيكون اذاً هذا الاله من آلهة الجبال الاَّ ان بروز جذعي شجرة من جسمه يحملان ثمراً يشبه الصنوبر وانتصاب وعلين عند قدميه يقطفان ذاك الثمر يحملنا على الاعتقاد بانهُ اله الخصب الذي جاء في الاساطير القديمة انهُ كان يغذي بنفسه الاوعال التي تحرس الشجرة المقدسة كما ان وجود الهتين صغيرتين بجانبه حاملتين الى صدريهما ودلوين تتدفق منها المياه مما يزيد الرمز جلاء ويثبت اشتقاقه من الفن السومري القديم

﴿ رأس الجبول ﴾ يأتي بعد ذلك الرأس الحجري المكتشف في ملاحة الجبول الواقعة على مسافة أربعين كيلو متراً شرقي حلب والمنقول الى متحف اللوفر وهو رأس يزيد عن الحجم الطبيعي قليلاً من الحجر البركاني الازرق وقد نحت نحتاً خشناً يماثل نقش آله الخصب الآنف الذكر . بيد ان هذا الرأس تكاد تنبض فيه عروق الحياة اكثر من كل أثر آخر . له جبين ضيق تكللهُ قبعة مخروطية الشكل ذات خطوط طولية متقابلة كانها قرون ترمز الى الالوهة . أما العينان فيلوح ان تجويفي حدقتيهما كانا مرصعين ببعض الحجارة ويعلوهما حاجبان كبيران في وسطهما أنف أفطس يحيط به وجه ضعيف التركيب خددتهُ غضون ممتدة من المنخرين الى حد الشفتين كما ان الذقن كثيرة الاخاديد . وخلاصة القول ان هذا الرأس تحفة نادرة المثال بين سائر الآثار الميتانية المعروفة ليومنا هذا (صورتهُ بمقتطف يونيو الماضي صفحة ٤٤)

﴿ تمثال مشرفة البرونزي ﴾ ونعني به تمثالاً صغيراً مصنوعاً من البرونز عثر عليه في الحفريات التي أجراها الكونت دي بويسون منذ عشر سنوات في تل المشرفة بالقرب من حمص حيث اكتشف انقاض مدينة قطنة القديمة . وقد صنع هذا التمثال البرونزي على نمط رأس الجبول . أما سائر أعضاء جسمه فلا نتبين منها غير قبضتين مطبقتين وقدمين حافيتين لانهُ جالس على عرش وملتحف برداء طويل موشى بالفرو على مثال أصنام سوريا العليا في ذلك العهد وكذلك اكتشف في حفريات مشرفة نفسها رأس حجري ذو لحية قصيرة بعينين مجوفتين تعلوهما قبعة منحوتة نحتاً كثير النتوء وعليه مسحة من الصناعة القديمة

﴿ أسد الشيخ سعد ﴾ عثر في قرية الشيخ سعد بالقرب من دمشق على تمثال أسد ضخم الحجم من الحجر البركاني حفظ مؤقتاً في المعهد الفرنسي للفن الاسلامي في دمشق وهو يمت الى الآثار الميتانية بشبه شديد لا سيما في هذه الخاصة القوية التي تكسبهُ هيأة تخال معها كأن الحياة نابضة بين جنبيه

﴿ تمثال السفيرة ﴾ اكتشف في قرية السفيرة التي تقع على مسافة ٢٥ كيلو متراً شرقي حلب تمثال حجري صغير مقطوع الرأس والرجلين يبلغ علوه ٤٥ سنتمتراً يدخل في عداد الآثار

الميتانية يمثل شخصاً لابساً رداء لاصقاً بجسمه يشده الى وسطه نطاق عريض وضع في طياته غمد خنجر مزخرف وقد أمسك بكلتا يديه كأساً مقربة من صدره وتعلمنا الكتابة الاشورية القديمة المنقوشة عليه أن صاحب هذا التمثال يدعى أدوني أيا بن انيا وقد قدم تمثاله هدية الى معبد الآلهة

تعبّر هذه المجموعة القليلة عن الميزة التي اختصت بها الآثار الميتانية ألا وهي متانة التعبير وروعة الصنع وهي تصلح لان تكون خير مقدمة لكثير من الآثار التي ينتظر ان تسفر عنها الحفريات المقبلة في العاصمة واشوكاني وفي سائر نواحيها كما انها تعد حلقة وثيقة الاتصال بين الآثار السومرية التي استمدت منها أصولها وبين سائر الآثار التي نحتت على منالها او باتت تحت تأثيرها مثل بعض الآثار الحثية التي يغلب عليها تأثير الفن الميتاني على شاكلة الحجر البارز النقش المكتشف في قلعة حلب سنة ١٩٣٠ وعليه معبودان مجنحان يرفعان على قبضتهما قرص الشمس داخل هلال وقد نشر رسمه في مقتطف شهر فبراير ١٩٣٧ وبعض الآثار الاشورية الميتانية مثل نقش بيسان الذي صور في القسم الاعلى منه اسد وكلب منتصبان احدهما مقابل الآخر وفي القسم الاسفل كلب يعقر اسداً في ردفه مما يجعلنا ان نلمس فيه امتزاج الفنين الاشوري والميتاني خصوصاً في نحت عضلات الاسد وحركة وثوب الكلب . ويجدر بنا قبل اختتام هذا الموضوع ان نأتي ايضاً على ذكر مجموعة الآثار التي اكتشفها البارون اوبنهايم في تل حلف على مقربة من نهر الخابور وبجانب رأس العين تلك الآثار التي حيّرت العلماء في تعيين عهدها ثم كادوا يجمعون على عقيدة الاستاذ جودس الذي يرى انها تمت الى الميتانيين بأوثق الاسباب بالرغم مما يبدو عليها من تأثير الطابع الاشوري وقد حداهم ذلك الى الاعتقاد بأن هذه الآثار صنعت في اواخر عهد الميتانيين عندما بدأ يخبو نفوذهم تحت سطوة الاشوريين وتفوقهم فجاءت تحمل على وجهها مسحة اشورية كادت تخفي وراءها اصلها الميتاني .اما الكتابة الارامية المحفورة على هذه الاصنام والتي اشكل على العلماء في بادىء الامر تفسيرها فقد اتضح انها ترجع الى عهد ملك ارامي يدعى كابارا كان اقام على هذا التل المهجور منذ نحو الف سنة وعثر بين انقاضه القديمة على كمية كبيرة من الآثار المذكورة فأعاد استعمالها واحتفر عليها الكتابات المذكورة باسمه

نقف اليوم عند هذا الحد من دراسة الحضارة الميتانية على أمل ان نعود اليها بعد حين عندما تواصلنا الاكتشافات الجديدة بمعلومات اوفر من شأنها ان تساعدنا على الوقوف على كثير من الامور التي ما برحت متوارية عنا في جوف الثرى . ولعلنا لا نكون على ضلال اذا عقدنا كبير الامل على النتائج الخطيرة التي قد يؤدي اليها اجراء حفريات واسعة النطاق في واشوكاني المعروفة اليوم برأس العين تلك العاصمة الميتانية التي لم يقيض لها بعد من ينبش اطلالها الدارسة ويخرج كنوزها للنور فعسى ان يوفق في القريب من يكشف لنا القناع عن عظمة تلك الحضارة العريقة في القدم ويشق امامنا طريق الوصول الى كنه الحقائق

قبل ان تسكت الحياة ...

شاعر أصيب في حادثة كتب الله له السلامة منها. وهو لم يزل بعد في ميعة الصبا وعنفوان الشباب . فتمنى لو انها كانت القاضية على حياته . فراراً من اثقال الحياة ، وأعباء الدنيا .... فكتبنا اليه هذه الابيات [عبد الغني]

عُمرٌ مدّهُ لك الله مدًّا — كيف لم تلق بالسلامة حمدا ؟
كيف تلقى السلامة اليوم نحسا — ويراها الورى نعيماً وسعدا ؟
كيف تقضي وما تهدمتَ ركنا — كيف تطوى وما تلمت حدًّا ؟ ؟
كيف تمضي ودين مصر علينا — لم يسدَّد وحقها لم يؤدَّى ؟ ؟

* * *

عجباً شاعر تغنّى على الأيك — ويرجو عن ذلك الايك بعدا
عجباً شاعر تأبى على القيد — ويرجو في وحشة القبر قيدا ؟
لم يكد يستريح المهد حتى — رام في التربة السحيقة لحدا ؟

* * *

غنّ يا صاحبي على الروض واطرب — قبل أن تصبح الخمائل جُرْدا ...
غنّ يا صاحبي على النهر واشرب — قبل أن تبخر المياه فتصدى
غنّ يا صاحبي كما شئت والعب — قبل أن تملأ المقابر رجدًّا ! !
غنّ يا صاحبي على العود واضحك — قبل ان تسكت الحياة وتهدا ....
غنّ في هذه الحرارة يوماً — قبل ان تملأ الحديقة بردا ! !
غنّ والورد في الخميلة غضٌّ — قبل أن يذبل الشتاء الوردا ....

* * *

كنتُ يا صاحبي كما أنت ... أبكي — فرأيت الحفاظ بالدمع أجدى ...
كنتُ لا استسيغ عيشي ... ولكن — لم أجد يا أخي من العيش بدا ... ! !

* * *

كيف تقضي وما تخطيتَ عشرا — كيف تمضي وما بلغتَ الاشُدّا ؟
واذا عفتَ في الحياة مقاماً — فلمن ذلك المقام أُعدَّا ؟ ؟ ؟

المنصورة — محمد عبد الغني حسن
عضو بعثة سابق

الاسلام

والرفق بالحيوان

للشيخ احمد مصطفى المراغى
استاذ الشريعة الاسلامية بدار العلوم

يرى الناس صنوفاً من اعمال البر والاحسان مسماة بأسماء غير ما عهدوها ولما نظم دون ما ألفوها فيخيل اليهم ان هذه من مبتكرات العصر الحديث عصر المدنية والنور وان مؤسسيها قوم أشربت قلوبهم بروح الفضيلة وتسامت نفوسهم عن ارتكاب الرذيلة لما لأعمالهم من جليل الخطر وعظيم الاثر مما يشاهد عياناً فهي تقيم كل يوم للناس برهاناً وتظهر لهم حسناً واحساناً في تخفيف ويلات الناس من مختلف الشعوب والطوائف مما لا يخص قبيلاً دون قبيل ولا فئة دون فئة اخرى بل نرى آثارها تعدت الانسان الى الحيوان بطلب الرفق به والشفقة عليه ووقايته من العلل والادواء وتخفيف آلامه ولاجل هذا أسست (جمعيات الرفق بالحيوان) في انحاء المعمورة شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً وهي تسير في اعمالها قدماً وتلقى معونة من بني الانسان في كل بقاع العالم . وكأن القائلين بمثل هذا القول يؤمنون بان الشرائع السماوية قصرت في طلب الرفق بالحيوان ولم تطلبها من الآحاد او الجماعات او كأن العقول البشرية كشفت أنواعاً من اعمال البر والاحسان لم تنبه اليها الشرائع السماوية ، كبرت كلمة تخرج من افواههم — فكنوز الشريعة الاسلامية ملأى بالحض على الشفقة بالحيوان ومواساته بكل ما يكفل له حياة هنيئة ويجلب له خيراً ونفعاً ويخفف عنهُ ألماً ويدفع عنهُ ضيراً والوعيد بالويل والثبور لمن لا يمد يد المساعدة لذلك الحيوان الاعجم . وسيأتي لك بعد من الادلة والبرهانات ما تطمئن اليه نفسك وتعلم ان الشريعة لم تفرط في شيء وان كل ما يخطر ببالك من المعاني السامية والاخلاق الفاضلة التي ترفع النفوس الى مستوى العزة والجلال وتسمو بها الى مراتب الكمال وبها يتاح العطف والمحبة للناس جميعاً وينطبق عليها قولة علي لابنه الحسن « يا بنيّ أحب لغيرك ما تحب لنفسك واكره لهُ ما تكره لها » فهو مسطور في أسفار الشريعة بأجلى بيان بل أعطت دستوراً للشفقة بالحيوان الا

لهُ من شعور واحساس بالآلام والويلات فأوجبت الحدب عليهِ والشفقة بهِ . وها نحن أولاء نفتح لك أبواب تلك الكنوز لترى جواهرها ولآلئها المكنونة وتعلم انها أتت بما ليس وراءه زيادة لمستزيد وان كل الصيد في جوف الفرا [١] وان المسلمين هم المقصرون في عرض تلك الجواهر على النظارة [٢] وانهم ان فعلوا ذلك بهرهم سناها وراقهم زبرجها [٣] وزخرفها وعلموا ان تلك التحف الثمينة لم يحسن أهلها استعمالها فتراكمت عليها الاصداء فحجبت جمالها عن أعين الناظرين حتى أصبحت في حاجة الى من يعيد اليها رواءها [٤] ويعيدها سيرتها الاولى . ويبرز محاسنها ويعرضها على الجماهير وهي تلبس أثوابها القشب [٥] وتختال في معارضها [٦] من أرباب المذاهب والنحل المختلفة في الشرق والغرب وعندئذٍ تظهر تلك السجاحة [٧] في التشريع ويعلم الناس مقدار ما لا حظتهُ الشريعة الاسلامية من الشفقة والرحمة بالحيوان بله [٨] الانسان

روى البخاري عن أبي هريرة ان رسول الله (صلعم) قال بينا رجل يمشي فاشتد عليهِ العطش فنزل بئراً فشرب منها ثم خرج فاذا هو بكلب يلهث ويأكل الثرى من العطش فقال لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي فملأ خفه ثم أمسكه بفيهِ ثم رقى فسقى الكلب فشكر الله لهُ فغفر له .قالوا يا رسول الله وإن لنا في البهائم أجراً قال في كل كبد رطبة أجر [٩] وجاء هذا المعنى في رواية أخرى لمحمد بن اسحاق عن الزهري بسنده المتصل الى سراقة بن مالك قال — سألت عن الضالة من الابل تغشى حياضي قد لطتها الابل فهل لي من أجر ان سقيتها فقال نعم في كل ذات كبد حرى أجر [١٠] كما جاء الحديث الاول بأسلوب آخر عن ابي هريرة ان النبي صلعم قال ان رجلاً رأى كلباً يأكل الثرى من العطش فأخذ الرجل خفه فجعل يغرف له بهِ حتى أرواه فشكر الله لهُ حتى أدخله الجنة . وهأنت ذا ترى ان هذا الحديث يكاد يسيل شفقة بالحيوان انساناً كان او غيره لما فيهِ من الجزاء العظيم على من أحسن اليهِ فانهُ (صلعم) اخبر بشكر ان الله تعالى لفاعلي الاحسان اليهِ وثنائه على من أسدى اليهِ خيراً ووعده بالجنة كفاء شفقتهِ ورحمته .وبالضد من هذا ورد الوعيد الشديد لمن قسا قلبه وغلظ كبده ولم يشفق بالحيوان.فقد روى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما ان رسول الله (صلعم) قال — عذبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت جوعاً فدخلت فيها النار قال . . فقال (والله أعلم) لا هي أطعمتها ولا سقيتها حين حبستها ولا هي ارسلتها

(١) مثل يضرب لمن يفضل على اقرانه والفرا الحمار الوحشي وجمعه افراء (٢) المتفرجين (٣) الزينة (٤) بهجتها (٥) الجديدة (٦) جمع معرض كمنبر ثوب تلبسه العروس ليلة الزفاف (٧) السهولة في التشريع (٨) دع واترك (٩) الثرى التراب الندي ولهث الكلب أخرج لسانه من العطش والحر واللهاث العطش ورقى كصعد وشكر الله له اي قبل عمله . وقول وان لنا في البهائم أجراً اي في سقيها او الاحسان اليها . ورطبة اي برطوبة الحياة (١٠) الضالة هي التي تترك عطنها وتذهب الى جهة أخرى . ولاط الحوض بدره بناه بالحجارة حتى لا يجف ماؤه

فأكلت من خشاش الارض [11] . . اخبر عليه السلام بوحي من ربه بحلول العقوبة بامرأة عذبت قطتها فحبستها الى ان ماتت جوعاً وعطشاً ولم تطعمها من فضلات طعامها او تتركها حتى تطعم من فضل ربها فدخلت بسبب ذلك النار وما اشدها عظة وابلغها نكالاً لمن لا يرعوي ويزدجر من الدهماء [12]

والسوقة الذين يحملون الحيوان مالا يطيق او ينهالون عليه ضرباً وكدماً [13] ولكماً لغير سبب يفهمهُ الحيوان حتى يتقي امثاله فما هي الا الغلظة والفظاظة التي لا تجد لها ما يبررها لدى العقلاء ومثل هذا ما تراه من تركهم الحيوان يسيل من جرحه الدم او يتقيح [14] وهو يألم مما بهِ ثم هو لا يجد له رحيماً منهم بل هم يسومونهُ سوء العذاب فيحملونهُ ثقيل الاحمال فوق جرحه الناغر او يجعلونهُ يدور بالساقية او الطاحونة او نحوهما من الاعمال الشاقة التي تصعب على السليم فضلاً عن المريض وقد حكى الغزالي في كتابه (احياء العلوم) ان النبي (صلعم) كان له ديك فرض فكان يقوم بتمريضه بيده الشريفة ويعني بشأنه. وحكي ايضاً انهُ (صلعم) اكل يوماً الرطب في يمينهِ وكان يحفظ النوى في يساره فمرّت بهِ شاة فأشار لها بالنوى فجعلت تأكل من كفتهِ اليسرى وهو يأكل بيمينهِ حتى فرغ وانصرفت الشاة. وروى الدارقطني والحاكم وأبو نعيم من حديث عائشة ان النبي (صلعم) كان يصغي [15] الى الهرة الاناء حتى تشرب ثم يتوضأ بفضلها [16] .وقالت عائشة رضي الله عنها ما ضرب رسول الله (صلعم) شيئاً قط آدمياً او غيره ضرباً مؤذياً الا ان يجاهد في سبيل الله فيضرب . فقد قتل في وقعة أحد ابي بن خلف وما قتل بيده أحداً سواه وما ضرب خادماً ولا امرأة وما أجل تلك الاسوة لاتباعهِ المؤمنين الذين يهتدون بهديهِ ويقتدون بهِ في عمل . وان تعجب فعجب ان ترى الشريعة طلبت الينا الرأفة بالحيوان عند ذبحهِ كما طلبتها لهُ حال حياتهِ فأمرت بذبحهِ بحدد غير مثلوم ليكون الذبح سريعاً والشعور بالالم في مدى قصير فقال عليهِ السلام : اذا قتلتم فأحسنوا القتلة . وبينت السنة طريق الذبح الشرعية حتى تقوم بأدائها على أكمل وجه فقال عليهِ السلام: ما أنهر [17] الدم وذكر اسم الله فكل ليس السن والظفر وسأخبركم عنه. اما السن فعظم وأما الظفر فدى الحبشة . فأبان (صلعم) ان كل آلة تسيل الدم يصح بها الذبح قصباً [18] كانت او مردة [19] اوحديداً ما خلا السن والظفر. والحكمة في ذلك واضحة فأن السن يجرح ولا تقطع فتزهق الروح ببطوء من غير ان تستبقن من الزكاة الشرعية التي لا تكون الا بقطع الحلقوم [20]

---

(١١) في هرة بسبب هرة وخشاش الارض حشراتها (١٢) العامة (١٣) الضرب على الوجه مع بسط الكف ومع قبضها لكم (١٤) تقيح الجرح صارت فيه مدة او سال قيحه (١٥) يميل (١٦) بما بقي بعد شربها (١٧) أسال (١٨) كل نبات أعوج الساق (١٩) حجر أبيض كالسكين (٢٠) مجرى النفس

والمريء [٢١] والودجين [٢٢] كذلك الظفر يدمي فتزهق الروح خنقاً وتعذيباً : وندب احداد الشفرة قبل اجتماع الذبيح كما كره تعذيب الحيوان بلا داع اليه لقطع الرأس والسلخ قبل ان يسكن اضطرابه . ومن اجل هذا حرم اكل الاصناف الآتية لما فيها من الضرر بآكلها والغلظة والقسوة بالحيوان او اشراك المسلم غير ربه في افعاله وتعظيم سواه في اعماله وقد ارشدت الى ذلك الآية الكريمة «حرّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ [٢٣] لغير الله به والمنخنقة [٢٤] والموقوذة [٢٥] والمتردية [٢٦] والنطيحة [٢٧] وما أكل السبع [٢٨] الاّ ما ذكيتم [٢٩] وما ذبح على النصب [٣٠] وان تستقسموا بالازلام [٣١] ذلكم فسق [٣٢]» . وقد راعى الشارع الحكيم في تحريم ما ذكر المصالح والحكم التي تترتب على تركها والاضرار التي تتولد من فعلها وان السر في كل منها لجلي واضح . اما الميتة فالضرر في اكلها يؤيده الطب وترشد اليه التجربة فأن الحيوان المريض اذا مات يكون مليئاً بالجراثيم والادواء التي كانت السبب في هلاكه فاذا اكل منه الانسان أصيب بأمراض قتالة . وكثيراً ما رأينا وسمعنا عن حوادث في الريف والقرى ذبح فيها ناس حيواناً مريضاً واكلوه فرضوا وماتوا من ادوائهم او اسعفوا بالعلاج حتى شفوا بعد امد طويل . ولهذا السبب عينه حرّم الدم المسفوح شرباً واكلاً من قبل . ان كثيراً من الحيوان حتى الصحيح منهُ قد يكون في دمهِ بعض جراثيم قتالة ولأمر ما طلب الينا الطب الاّ نشرب اللبن الاّ بعد غليهِ خوفاً من وجود جراثيم ضارة في الحيوان الذي حلب لبنه . وانا لنجتزىء بهذا وندع القول لحضرات الاطباء ليقولوا كلمتهم ويدلوا برأيهم الشافي في تلك المسألة الطبية . كذلك يقول الطب ان في الخنازير ديداناً وجراثيم لا تموت بالغلي المعتاد بل تبقى حية بعد ذلك . ومن المعروف ان العرب وغيرهم من سكان البلاد الحارة يأكلون اللحم شيئاً على النار أو على الرضف [٣٣] تحت اشعة الشمس وبهذه الوسيلة الهينة في الانضاج لا تقتل الجراثيم وكذلك المنخنقة تبقى دماؤها فيها متجمدة في عروقها وكثيراً ما تكون ملأى بالجراثيم والامراض ومثلها الموقوذة فان دماءها تبقى مكتنزة في عروقها وربما كانت حافلة بشتى الجراثيم وأصناف الادواء وكذلك المتردية والنطيحة فكل اولئك تبقى دماؤها فيها ولا تخرج من اجسادها وقد عرفت ما في ذلك من اخطار وكذلك ما اكل منه السبع والمراد به الحيوان الضاري كالذئب والضبع والثعلب ونحوها اذ ربما تكون مصابة ببعض الامراض فالاكل من فضلاتها يؤذي ويولد في الجسم امراضاً من

(٢١) مجرى الطعام (٢٢) مجرى الدم (٢٣) رفع الصوت لغير الله (٢٤) التي تموت بالخنق (٢٥) ما ضربت بخشب او بحجر (٢٦) التي تردت من علو (٢٧) التي نطحتها أخرى فماتت (٢٨) الحيوان الضاري (٢٩) ذبحتم (٣٠) حجارة عند الكعبة معدة للذبح عليها والتشريح (٣١) جمع زلم وهو القدح والاستفهام بها طلب معرفة ما لهم قسم بوساطتها (٣٢) خروج عن حدود الدين وقواعده (٣٣) الحجارة المحماة

جنس ما في ذلكم السبع الآكل الا اذا ادركنا الحيوان المأكول وفيه بقية من الحياة بها يضطرب عند الذبح ويخرج منه بعض الدم وعندئذ تخف اضراره بقدر المستطاع . اما اذا ذبح على النصب ففي ذبحه على تلك الشاكلة اشراك من المسلم لغير ربه في اعماله وفيه كفران بنعمة الله وتعظيم للاصنام والاوثان ورجوع الى الجاهلية وكذلك ما استقسم بالازلام فقد كان من عادتهم انهم اذا قصدوا عملاً كغزو او سفر او تجارة او أمر من عظائم الامور ضربوا بثلاثة أقداح مكتوب على احداها امرني ربي . ومكتوب على الثاني نهاني ربي . والثالث غفل [٣٤] فان خرج الآمر مضوا في أعمالهم وان خرج الناهي اجتنبوا العمل وان خرج الغفل أجالوها [٣٥] مرة أخرى . وفي هذا فسق وخروج على الدين ودخول في معرفة علم الغيب وافتراء على الله بقولهم أمرني ونهاني او اشراك بالله ان أريد بالآمر الصنم

فقد اتضح لك مما سلف ان بعضاً من تلك المحرمات انما حرم خوف الضرر وبعضاً حرم لما فيه من الشرك بالله والرجوع الى نزعات الجاهلية والوثنية . وقصارى القول ان محمد بن عبد الله وضع منذ نيف وثلاثة عشر قرناً قوانين للرفق بالحيوان وأتى موادها كاحدث القوانين لتلك الجماعات واذا نحن استخلصنا ذلك من بطون الشريعة ونصوصها يمكن ان نضعها كما يلي : —

١ — تؤسس الشريعة الاسلامية قانوناً للرفق بالحيوان للمسلمين كافة أسودهم وأحمرهم على اختلاف اقليمهم وبلدانهم

٢ — على كل مسلم ان يرفق بالحيوان ويساعده في مطعمه ومشربه في صحته ومرضه فلا يحمله فوق طاقته ولا يضربه ضرباً مبرحاً ويداويه اذا مرض بجميع وسائل العلاج حتى يبرأ

٣ — على كل مسلم ان يرفق بالحيوان عند ذبحه فيذبحه بسلاح ماض بتار حتى تزهق روحه بسرعة ولا يطول تعذيبه

٤ — من رفق بالحيوان حياً كان او ميتاً كان له الاجر الجزيل على عمله والثواب العظيم عند ربه فيدخله فردوس جنانه

٥ — من آذى حيواناً بضربه ضرباً مبرحاً او حمله ما لا يطيق او حبس عنه الطعام كان عقابه عند ربه ناراً سعيراً وعذاباً أليماً

٦ — على كل مسلم حراسة هذا القانون وتنفيذه في خاصة نفسه ونصيحة غيره من المسلمين بتنفيذه وله عند ربه كفاء ذلك أجر المسلم العامل وهو رضوان ربه ورضوان من الله اكبر وذلك هو الفوز العظيم

---

(٣٤) لا كتابة عليه (٣٥) حركوها

كتابان من مصر

يرجع تاريخها الى القرون الوسطى

مخطوطتان ثمينتان

احداها في استنبول والاخرى في رومة

من ذا الذي كان يخطر بباله أن الامام الغزالي حجة الاسلام والفيلسوف الشهير الذي توفي سنة ١١١١ ميلادية (٥٠٥ هجرية) ، سيلقي نوراً أمام علماء النصرانية في القرن العشرين على تاريخ الترجمة العربية للكتاب المقدس !

على ان هذا هو الذي وقع فعلاً . ففي المكتبة التركية تحت قبة أيا صوفيا في استنبول ، يرى الناظر مقالتين مخطوطتين احتوتا بعض آثار الامام العلامة الغزالي التي لم تنشر بعد : احداهما بعنوان « الرد الجميل لالهيات عيسى بصريح الانجيل » . ومن الغريب حقاً أن يبقى هذا الاثر لعالم من اجل العلماء ، ثماني مائة سنة دون ان ينشر على الملأ ! على أننا قد علمنا مع السرور أن طبعة منهُ قد أعدت الآن للنشر في باريس في سلسلة نفيسة للدراسات العليا بجامعة السوربون . ومع شكرنا لجامعة السوربون هذه الخدمة الجليلة للادب العربي ، كنا نود ان يصدر هذا الكتاب عن القاهرة ،حيث كتبت هذه المخطوطة — المحفوظة الآن في استنبول — في سنة ١٢٧٣ ميلادية (٦٦٧ هجرية) . وذلك لان هذه المخطوطة لم تكتب في القاهرة فقط ، بل هي تتصل اتصالاً وثيقاً بزيارة الامام لمدينة الاسكندرية ، كما سترى ، ومن هنا شأنها الخاص لدى العلماء المصريين ، من نصارى ومسلمين . ولقد رأى العلماء والباحثون، في تاريخ الكتاب المقدس باللغة العربية ، انفسهم امام لغز يستوقف العناية حقاً . فان الامام الغزالي رضي الله عنهُ اقتبس في كتابه « احياء علوم الدين » اقوالاً كثيرة منسوبة الى عيسى بن مريم. وهذه قد جمعها ونشرها المستشرق الاندلسي العظيم « أسين بلشيوس Asin Palacios » ، وقد ثبت أنها جميعاً ، ما عدا قولين منها ، ليست من الاناجيل ، وهي شديدة النزعة التعبدية التصوفية ، ولعلها مستقاة من بعض النساك في بلدان الشرق الادنى . ولم يعثر العلماء حتى اليوم على الكتاب أو الكتب التي نقل عنها الامام هذه الاقوال ، ولكنهُ يبدو في جلاء ان الكتاب الذي نقل عنهُ لم يكن العهد الجديد

والآن نجيء الى مثار الدهشة . فان السيد ماسينيون ، الاستاذ بكلية فرنسا « كوليج دو فرانس » كان اول من وجَّه الانظار الى ان مقالة الغزالي الخطية المحفوظة في استنبول حافلة

بمقتبسات مأخوذة عن الترجمة العربية للانجيل ، ولن يمكن ان يقتبسها الكاتب الا اذا كانت أمامه نسخة من هذه الترجمة . فما مصدر هذه المعرفة الجديدة لاقوال السيد المسيح ? وكيف ومتى اطلع إمامنا العلاّمة على الانجيل الكريم ? يذهب الاستاذ «ماسينيون» الى ان هذه المعرفة الجديدة قد تهيأت للامام العلاّمة في غضون زيارته للاسكندرية بعد اعتزاله في بيت المقدس حوالي سنة ١١٠١ م (٤٩٥ هجرية) ومما يؤيد هذا الرأي ان الغزالي اقتبس عبارة من الانجيل القبطي في اللهجة « البحيرية » ومن المستبعد جداً ان يتهيأ له هذا في غير مصر

ورغبةً في استقصاء هذا البحث الشائق كان من المتعين ان أتابع البحث والدرس في مقتبسات الغزالي المنقولة عن الانجيل لعلي أتبين الترجمة التي أخذت عنها . ذلك لان ترجمات الانجيل الى اللغة العربية جرت في بلدان شتى نقلاً عن النسخ اليونانية والسريانية والقبطية . وفي لغة خصيبة بالالفاظ كاللغة العربية، كان طبيعيًّا ان تتفاوت هذه الترجمات في اللفظ ، وان اتفقت كلها في المعنى

وقد أتيحت الفرصة لكاتبة هذه السطور لدرس مخطوطة الغزالي المحفوظة في مكتبة استانبول ، رغبةً في العثور على حل لهذا اللغز والوقوف على مصدر مقتبسات الانجيل فيها

توفى الامام الغزالي سنة ١١١١م فلا بد ان يكون قد اقتبس عن ترجمة قبل هذا التاريخ . والمعلوم لدينا ان ترجمات الانجيل الاولى الى العربية قد نقلت عن اليونانية او السريانية، فراحت الكاتبة تقابل مقتبسات الغزالي بنماذج من الترجمات الاولى المدخرة مخطوطاتها في مكاتب رومية وغيرها من الجامعات الاوربية المختلفة او في دير جبل سيناء . ولكن واحدة منها لم تتفق مع الفاظ الغزالي لا في الترجمات المنقولة عن اليونانية ولا في الترجمات المأخوذة عن السريانية

أفلا يكون الامام قد اقتبس عن ترجمة عربية منقولة عن اللغة القبطية ? ان في اثبات هذا الرأي لذة وفائدة ، وذلك لانهُ يهيء لنا الدليل على ان الامام الغزالي صنف كتابه في مصر ، ثم يلقي نوراً على تاريخ ترجمة الكتاب المقدس في هذه البلاد . وان استطعنا العثور على الترجمة العربية المنقولة عن القبطية ، التي تتفق في الفاظها مع مقتبسات الغزالي (وهو اقتبس خمساً وستين آية من الانجيل وحده) ، فبديهي ان تكون هذه الترجمة قد تمت قبل سنة ١١١١م وهي السنة التي توفى فيها الامام . نقول ان استطعنا هذا ، كان لنا بمنزلة فتح جديد في التاريخ . فان اقدم المخطوطات العربية المنقولة عن القبطية، المعروفة لنا ، يرجع تاريخها الى القرن الثالث عشر . ويكون فيلسوفنا المسلم قد أضاف الى تاريخ ترجمة الكتاب المقدس حقيقة تاريخية هامة . ومن محاسن الصدف ان أدت بنا خاتمة البحث والاستقصاء الى العثور على هذه المخطوطة القديمة واثبات هذا الرأي الذي نذهب اليه ، فقد عثرنا في مكتبة الفاتيكان على مخطوطة من الانجيل الكريم بعامودين احدهما باللغة القبطية والآخر باللغة العربية وهذه المخطوطة هي الترجمة عينها التي اقتبس عنها الامام الغزالي اقواله

اذن يكون الامام الغزالي قد استقى معرفته بأقوال الانجيل من اقباط مصر . والمخطوطة

التي تحتوي هذه الآيات هي النسخة القبطية العربية المحفوظة في مكتبة الفاتيكان ، التي كتبت الى سنة ١٢٠٤ أو ١٢٠٥ ميلادية ، اي بعد انقضاء قرن من الزمن على التاريخ الذي اقتبس فيه الغزالي من هذه النسخة عينها . أفتكون هناك نسخة خطية اخرى مماثلة لها كتبت قبل هذا التاريخ ونقلت هذه عنها ؟ ان تاريخ المخطوطة الفاتيكانية التي نحن بصددها يهيء لنا الجواب على ذلك لانها تلمّح الى الخطر الذي كان يهدّد نسخ الانجيل في تلك الايام العاصفة

وانك لترى في هذه المخطوطة حاشيتين كتبتا في تاريخ متأخر بعد كتابة نصوصها . الاولى كتبت في كنيسة أبي سيفين التي ما زالت قائمة بمصر القديمة وفيها يسجل غبطة البطريرك القبطي غبريال ان المخطوطة مهداة لتكون وقفاً على دير القديس انطونيوس ، في صحراء العرب . ويأمر غبطة البطريرك الآباء والاخوة النازلين في الدير ان يذكروا الواهب في صلواتهم (وقد كان طبيباً ، هو الشيخ والشماس ميخائيل) . ثم ينهي البطريرك بتاتاً اخذ الكتاب من كنيسة الدير . فيقول « إنهُ ليس كسائر الكتب » التي يجوز حملها الى البرج او إخفاؤها (ولعله يقصد بهذا الاغلاق عليها في « خزانة ») بل يجب ان يكون دائماً في الكنيسة مع الكتب الاخرى المعدة للعبادة في أيام الآحاد والاعياد ، يقرأونهُ صباحاً ومساء . فان أراد أحد الرهبان ان يأخذهُ بصفة مؤقتة الى خلوته للدرس او البحث ، فله ان يفعل ذلك على ان يعيده الى الكنيسة

ويخيل الينا ان تلك المخطوطة كانت تعد ثمينة جدًّا ، وان الرهبان قد حرصوا عليها كل الحرص في كنيستهم وراء اسوار موطنهم الصحراوي ، الذي كان اشبه بقلعة ضد غارات اعراب البادية

ولكن الحاشية الثانية تبين انه حتى في تلك القلعة لم يكن الكتاب الثمين بمأمن . فان هذه الحاشية قد اضيفت على الكتاب الاصلي بعد قرنين ونصف من تاريخ الحاشية الاولى (في سنة ١٥٠٦م) بيد البطريرك القبطي في ذلك الزمن — واسمه الانبا يوحنا — ويسجل فيها حل قيود الوقف التي خصّت الكتاب بكنيسة القديس انطونيوس ، وذلك لان الدير « كان قد خلا من ساكنيه » وكان أهل البادية قد نهبوه وحملوا بين اسلابهم مخطوطة الانجيل . ولكن اعيدت المخطوطة فيما بعد ، ولم يقل البطريرك في مذكرته ان كانت المخطوطة قد اعيدت في غارة مضادة قام بها بعض الانصار على العرب ، ام ان الناهبين اعادوها من تلقاء انفسهم لعدم حاجتهم اليها

كان هذا حظ المخطوطات القديمة في تعرضها للنهب والسلب . وانّا لنشكر الله أن أبقى لنا على مخطوطتين من مصر ، يرجع تاريخهما الى القرن الثالث عشر ، إحداهما محفوظة في استنبول مع مقالة للإمام الغزالي والاخرى محفوظة في رومية مع المخطوطة السابقة لها وانا لواجدون في تينك المخطوطتين الثمينتين شعاعاً من النور يسطع على البحث القديم الذي يجد علماء النصرانية والاسلام لإزاحة الحجب عنهُ ، لما فيه من لذة وفائدة تاريخية « بنت الحارث »



مدام كوري

Mme Curie. A Biography, by Eve Curie



مختصر الكتاب الذي ألفته

ايف كوري

كريمة صاحبة الترجمة

نقلته عن مجلة « ريدرز ديجست » : الآنسة ميفرفا عبيد

« لو أضفت أقل زخرفة الى قصة والدتي هذه ، التي تشبه الاساطير أتم الشبه ، لكان ذلك اجراماً مني » . هذا ما كتبتهُ ايف كوري في مقدمة كتابها . ثم استطردت قائلة : « اني لم أذكر أي حادث لم أكن مستوثقة منهُ ، بل لم أخترع من عندي ولا لون فستان . فقد ذكرت الوقائع على حقيقتها وأعدت العبارات المقتبسة كما قيلت »

« واني لارجو ان يشعر القارىء بما كانت تكنّهُ ماري ، وهو يشأو عملها ، ألا وهو بناء خلقها المتين ، تلك الصفة النفسية التي لم يتمكن من تغيير طهارتها الفذة ، لا الصيت الذائع ولا المعارضة اللاذعة . تلك الصفة التي حملت اينشتين على القول : « ان ماري كوري هي الشخص الوحيد ، بين جميع المشهورين ، الذي لم تفسدهُ شهرته »

مدام كوري

بقلم ايف كوري

قصة حياةٍ فذة

في خريف سنة ١٨٩١ انتظمت فتاة من المهاجرين البولنديين تدعى ماري سكلودفسكا في قسم دراسات العلوم بجامعة السوربون بباريس . وكثيراً ما قابل الشبان هذه الفتاة الحيية العنود المرتدية ملابس تدل على الفقر والخشونة وتساءلوا فيما بينهم « من هي » . الا ان الجواب كان غامضاً : « هي أجنبية يصعب نطق اسمها ، تجلس دائماً في الصف الامامي في فصول علم الطبيعة ». وكانوا يتبعون قوامها الرشيق بنظراتهم ، ويتهامسون « ما أجمل شعرها ! » . وقد ظلَّ شعرها الاشقر ورأسها الصغير السلافي مدة طويلة كل ما يعرف به طلبة السوربون ، زميلتهم الخجول

اما هي فكان اقل ما يسترعي التفاتها هؤلاء الشبان لان دراساتها العلمية استحوذت عليها فكانت تنكبّ على العمل بحرارة كحرارة المحموم ، حاسبة كل دقيقة لا تنفقها على التحصيل وقتاً ضائعاً

ولما لم يسمح لها حياؤها المتناهي بصداقة الفرنسيين لجأت الى الحي الذي سكنهُ مواطنوها وقدكان بذاته جزيرة بولندية مستقلة في وسط الحي اللاتيني بباريس وهناك عاشت عيشة بسيطة منعزلة جعلتها وقفاً على العمل . اما دخلها فكان عبارة عن اربعين «روبلاً» شهريًّا وكان يشمل ما اقتصدتهُ من عملها كمربية في بولندا وكذلك المبالغ اليسيرة التي ارسلها اليها والدها ، وكان معلم رياضة وطبيعة في بولندة . فمن هذا الراتب ، وهو ثلاثة فرنكات يوميًّا ، كانت توفي أجرة غرفتها وثمن أكلها ولبسها ونفقاتها بالجامعة

لم تشترك ماري عمداً في اي مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية خارج برنامجها الدراسي حتى امتنعت عن مقابلة الاصدقاء . فعاشت عيشة تقشف سبارطية غريبة عن ميول البشر ، وصلت بها الى عدم الاعتراف بتأثرها بالبرد او الجوع . فكانت تهمل اشعال موقدها حتى لا تضطر الى شراء فحم كما كانت تكتب الارقام والمعادلات دون ان تلاحظ ان اصابعها متجمدة او ان كتفيها ترتعشان . بل لقد كانت الاسابيع تنقضي دون ان تأكل شيئاً غير الخبز والزبدة والشاي ، فاذا ما ارادت ان تتمم بوليمة اشترت بيضتين او قطعة من الشوكولاته او قليلاً من الفاكهة

ولكن سرعان ما اصيبت تلك الفتاة القوية التي تركت وارسو قبل اشهر قليلة بالانيميا ، فكثيراً ما كانت تشعر بالدوار حال قيامها من جانب طاولتها ثم لا تلبث ان تفقد وعيها قبل وصولها الى فراشها . فاذا ما استعادت رشدها وساءلت نفسها عما اصابها ظنّت انها مريضة فاحتقرت مرضها شأن كل شيء يعترض عملها . الاّ انه لم يخطر ببالها حينئذٍ ان مرضها الوحيد هو افتقارها الى التغذية

بيير كوري

كانت ماري قد حذفت الحب والزواج من برنامج حياتها فاذ استولى عليها حبها للعلم بقيت متمسكة تمسكاً شديداً باستقلالها حتى بلغت السادسة والعشرين

ثم ظهر في الميدان بيير كوري ، وهو عالم فرنسي نابغة وقف روحه وحياته على البحوث العلمية وبقي غير متزوج الى سن الخامسة والثلاثين . كان طويل القامة ، ذا يدين طويلتين عصبيتي الاصابع ، ولحية كثة ، ووجه يعبر عن الذكاء النادر الممتاز

تقابلا اولاً عام ١٨٩٤ في المعمل وسرعان ما قرّب بينهما تبادل الشعور وتشابه الميول . فلقد وجد بيير كوري في الآنسة سكلودفسكا الصموت شخصية تبعث على الدهشة . ما اغرب الحديث الى فتاة ساحرة بلغة الاصطلاحات العلمية والتراكيب المعقدة ... بل وما احلاه !

تأمل بيير في شعر ماري الاشقر وجبينها العريض المقوس ويديها المتأثرتين بأحماض المعمل لخيره ظرفها الخالي من اي ادعاء . فحاول بلطف وحزم ان يفوز بصداقة تلك الفتاة . وطلب اليها السماح له بزيارتها . فاستقبلته في غرفتها بود ولكن بكل تحفظ . فانقبض قلب بيير مما رآه حوله من دلائل الفقر المدقع ولكنه قدر في الوقت نفسه الانسجام التام بين خلقها ومسكنها . ففي غرفتها الخالية من الاثاث تقريباً وفي ملابسها المتناهية في البساطة وملامحها الفيورة العنيدة ، ظهرت ماري اجمل منها في اي وقت آخر . فلم يخلبهُ فقط اخلاصها المتناهي لعملها بل وأيضاً شجاعتها ونبلها . فهذه الفتاة الرقيقة تحلت بأخلاق الرجل العظيم ومواهبه . وبعد اشهر قليلة طلب بيير كوري يد ماري ، فلم تقبل هذه الفتاة العنيدة فكرة الزواج الاّ بعد مضي عشرة اشهر لانها رأت ان الزواج من فرنسي وترك بلادها المحبوبة المظلومة خيانة شائنة

***

قضى بيير وماري الايام الاولى من حياتهما معاً في التجول في منطقة «ايل دي فرانس» على عجلتين اشتراها بنقود قدمت اليهما هدية عند زواجهما . فتغذيا بالخبز والجبن والفاكهة واستراحا في فنادق لا يعرفانها ، صادفتهما في الطريق . وهكذا نعما بالوحدة اياماً وليالي طويلة لم ينفقا اثناءها الاّ الطاقة التي تقتضيها العجلتان وقليلاً من الفرنكات بالفنادق القروية . اما

الشقة الصغيرة التي استوطناها اخيراً بشارع جلاسيير رقم ٢٤ فكانت مفتقرة الى جميع وسائل الراحة ، كما انهما رفضا قبول الاثاث الذي قدمه اليهما والد بيير لانهُ لم يكن لماري متسع من الوقت لتنظيفه . فلم تضم تلك الجدران العارية الا بعض الكتب ومقعدين وطاولة من الخشب الابيض عليها رسائل في علم الطبيعة ومصباح يضاء بالغاز وباقة من الازهار . فلم يكن هناك بد لاجسر زائر من ان ينسحب عند ما يرى نفسه امام مقعدين لم يعدّ احدهما له

الا ان ماري تقدمت تدريجيًا في علم تدبير المنزل فاستنبطت بعض المأكولات التي لا تحتاج الى إعداد يذكر او التي يمكن تركها على النار مدة دون مراقبة حتى تنضج . فقبل خروجها الى عملها كانت تضبط حرارة الموقد ضبطاً علميًا وتترك الطعام عليهِ لينضج ثم تعدو الى الدور الاسفل لمشاركة زوجها في المعمل وهناك بعد ربع ساعة تضبط حرارة النار المشتعلة وعليها مواد تختلف كل الاختلاف عن المواد التي تركتها في مطبخها

لم تختلف السنة الثانية من زواجهما عن السنة الاولى الا بالنظر الى حالة ماري الصحية التي تأثرت بحملها . ومع ان مدام كوري كانت ترغب كثيراً في ان ترزق بطفل الا انها تضجرت من مرضها وعجزها عن الوقوف في المعمل لمراقبة مغنطيسية الصلب

قد يظن البعض ان حالة ماري الصحية ألانت من حماسة بيير وحملتهُ على قضاء صيف هادىء معها . الا ان الاثنين ، وكأنهما مجنونان في عدم تبصرهما ، قاما برحلة الى بريست على عجلتيهما في أثناء الشهر الثامن من شهور حملها ، فقطعا في رحلتهما مسافات بعيدة كالمعتاد . ولقد صرحت ماري بعد ذلك انها لم تشعر بتعب ما كما تملّك من بيير شعور غامض بأن زوجه خارقة للطبيعة فلا تخضع للقوانين البشرية . الا انهُ سرعان ما اضطرت الزوجة ان تقطع رحلتها ، على الرغم عن شعورها بان في ذلك اذلالاً لها ، وعادت الى باريس حيث وضعت ابنتها الاولى ايرين ، تلك الطفلة الجميلة التي فازت بجائزة نوبل سنة ١٩٣٤ مع زوجها الاستاذ جوليو

لم يخطر ببال ماري موضوع الاختيار بين حياة البيت ومواصلة حياتها العلمية . فمع انها عنيت بأمور المنزل ، وشؤون كريمتها ، وإعداد الطعام ، الا انها في الوقت نفسه واصلت عملها في معملها الحقير ، ذلك المعمل الذي توصلت فيهِ الى أعظم اكتشاف في العلم الحديث

اكتشاف الراديوم

في نهاية عام ١٨٩٧ اظهرت ميزانية اعمال ماري درجتين جامعيتين وزمالة ورسالة في مغنطيسية الفولاذ المسقى .وكان مرماها التالي هو نيل درجة الدكتوراه . وبينما كانت تفكر في موضوع تختص في بحثه استرعت نظرها نشرة حديثة للعالم الفرنسي هنري بيكرل . اما بيكرل فكان

قد اكتشف ان املاح الاورانيوم اطلقت اطلاقاً ذاتياً اشعة لم تعرف ماهيتها . فركّب الاورانيوم متى وضع على لوحة للتصوير الضوئي يحيط بها ورق اسود يترك اثراً على اللوحة بعد اختراق ذلك الورق . فكانت هذه المشاهدة الاولى لتلك الظاهرة التي اسمتها ماري بعد ذلك بالنشاط الاشعاعي Radio-activity . الاّ ان طبيعة الاشعاع واصله بقيا سرّاً غامضاً

اخذ آل كوري باكتشاف بكرل وتساءلا عن مصدر الطاقة المنبعثة من مركبات الاورانيوم في هيئة اشعاع ففتح لهما هذا السؤال باباً واسعاً للبحث بل قفز بهما قفزة نحو مملكة مجهولة . الاّ انهما واجها في الوقت نفسه صعوبة الفوز بمكان موافق للمضي في ابحاثهما فيه . واخيراً اعطى لماري الحق بفضل مدير مدرسة الطبيعة التي كان بيير مدرّساً فيها ، في استعمال غرفة ارضية رطبة كانت تخزن فيها الماكنات المنبوذة

لم يكن المضي في البحث العلمي في هذا الجحر بالامر الهين . فالحالة الجوية فيه اضرّت بالآلات الحساسة الدقيقة كما اضرّت بصحة ماري . غير انها لم تعر هذا الامر اهتماماً ما فكلما شعرت ببرودة الجو انتقمت لنفسها منها بتدوين درجة البرد في جدولها !

وكلما زادت ماري تعمقاً في دراسة كنه اشعة الاورانيوم زادت اعتقاداً انها الاولى من نوعها . وبعد ان قامت بتلك المهمة الشاقة ، مهمة امتحان جميع الاجسام الكيمياوية وجدت ان مركباً من عنصر آخر هو عنصر الثوريوم اطلق اطلاقاً ذاتياً ايضاً اشعة تشبه الاشعة التي يطلقها الاورانيوم . هذا فضلاً عن ان النشاط الاشعاعي في كلتا الحالتين كان اقوى مما كان ينتظر متى روعي مقدار الاورانيوم او الثوريوم الذي في الجسم الذي اطلق ذلك الاشعاع

فما مصدر ذلك الاشعاع غير العادي ؟ لم يكن هناك الاّ جواب واحد . لا بدّ ان تحوي تلك المواد مقادير صغيرة من عنصر أقوى في نشاطه الاشعاعي من الاورانيوم والثوريوم . ولكن ما هو ذلك العنصر ؟ كانت ماري في اختباراتها قد امتحنت جميع العناصر المعروفة ولم تجد بينها ردّاً على سؤالها . فلا بدّ للعالم إذاً أن يجيب بتلك الجسارة الفذة : « إن تلك المواد تحوي عنصراً غير معروف للآن ، وهو يمتاز بهذا النشاط الاشعاعي العجيب »

عنصر جديد ! لنظرية خلابة ! ولكن لا بدّ من كشف القناع عن تلك المادة المجهولة حتى تتمكن ان تعلن وهي واثقة : « ها هي ذي »

وبعد أن تتبع بيير كوري باهتمام كبير تقدم زوجه السريع في تجاربها انضمّ اليها لمساعدتها صادفاً عن بحوثه الخاصة . فتعاون الآن عقلان واربع أيدٍ في الكشف عن ذلك العنصر المجهول في تلك الغرفة الصغيرة الرطبة ، ثم دام هذا التعاون ثمانية أعوام كاملة ولم ينهه إلاّ حادث أليم

بدأ بيير وماري بحثهما بقياس النشاط الاشعاعي الكائن في كل من العناصر الداخلة في مادة البتشبلند ،

وهو ركاز الاورانيوم فتوصلا الى أن هناك عنصرين لا عنصر واحد يتصف بالنشاط الاشعاعي، وفي شهر يوليو من عام ١٨٩٨ أعلنا اكتشاف أحد هذين العنصرين. وقد سمّتهُ ماري « بولونيوم » تيمناً باسم بلادها المحبوبة بولندة

وفي ديسمبر من عام ١٨٩٨ أعلن آل كوري اكتشاف العنصر الآخر الذي سمياهُ « الراديوم » وهو يتميز بأن نشاطه الاشعاعي عظيم للغاية

العبقرية في سقيفة

لم تتفق الصفات الخاصة بالراديوم مع كثير من النظريات العلمية التي قبلها العلماء مدى مئات السنين . فلذلك كان موقف علماء الطبيعة نحو الاكتشاف الجديد موصوفاً بالتحفظ الشديد علاوة على أن علماء الكيمياء كانوا أكثر تحفظاً منهم لان الكيمياوي بطبيعته لا يسلّم بوجود عنصر جديد إلاّ بعد أن يراه ويختبره ويمتحن تأثير الحوامض فيهِ ويقرر وزنه الذري

اما الراديوم فلم يره احد ولم يقرر وزنه الذري بعد . فلكي يبرهن آل كوري على وجود هذين العنصرين ، البولونيوم والراديوم ، تعين عليهما العمل المتواصل مدة اربع سنوات . ومع انهما كانا قد توصلا الى طريقة فصل المعادن بعضها عن بعض الاّ ان مهمتهما الجديدة اقتضت الاشتغال بمقادير وافرة من المواد الخام

كان ركاز الاورانيوم الذي يحوي عنصري البولونيوم والراديوم يعالج في مناجم سنت جواشمستال ببوهيميا لتستخرج منه أملاح الاورانيوم المستعملة في عمل الزجاج. وقد كان هذا الركاز غالي الثمن ، الاّ ان آل كوري توصلا ببحثهما الى ان استخراج الاورانيوم منهُ يترك عنصري البولونيوم والراديوم كفضلات لا قيمة لها دون ان تتأثر البتة بهذه العملية . فلمَ لا يستخدمان هذه الفضلات التي لا قيمة لها ؟

تحصلا من الحكومة النمساوية على طن من فضلات ركاز الاورانيوم وبدآ عملهما في سقيفة مهجورة بجوار الغرفة التي اجرت فيها ماري تجاربها الاولى . اما هذه السقيفة الجديدة فكانت تستخدمها كلية الطب قديماً حجرة للتشريح الاّ انها عادت لا تصلح حتى لحفظ الجثث . اذ كانت عارية من البلاط وخالية من الاثاث لولا بضع طاولات مطبخ قديمة وسبورة وموقد غاز قديم من الحديد الصب

كانت هذه السقيفة خانقة في الصيف مثل المستنبتات الحافظة للحرارة ، كما انها كانت في الشتاء مثل المنطقة الثلجية في بردها رغماً عن اشعال الموقد بها . الاّ انهما لم يستعملاها كثيراً بل

أجريا أغلب تجاربهما في الخلاء لافتقارها الى المداخن الصارفة للغازات الخانقة

وقد كتبت مدام كوري بعد ذلك قائلة : « ان اسعد سني حياتنا وأفضلها هي تلك التي قضيناها في هذه السقيفة التعسة حيث وقفنا كل وقتنا على العمل . فكثيراً ما قضيت اياماً كاملة وأنا احرك بعض المواد ، وهي تغلي ، بهراوة من الحديد يقرب وزنها من وزني . فاذا ما أتى المساء شعرت اني منهوكة القوى تماماً »

وعلى هذا المنوال استمرّ الاستاذ كوري وقرينته في عملهما من عام ١٨٩٨ الى عام ١٩٠٢ وقد كانت ماري وهي تعمل في صحن تلك الدار ، بملابسها الرثّة الملوثة بالاحماض ، وشعرها المنثور تداعبهُ الريح ، يحوطها الدخان الكثيف الخانق ، كانت ماري وحدها عبارة عن معمل كامل

وقد كتبت مرة تقول : « وصل بي الامر ان اشتغلت بمقدار من المواد يبلغ وزنه عشرين كيلو جراماً مما اضطرني الى ملء الحجرة بأوعية السوائل والرواسب . ولقد كان حمل تلك الاوعية وصب السوائل منها وتحريك المواد المغلاة ساعات طويلة ، عملاً مضنياً حقّاً »

وامتدت ايام العمل اشهراً وانعقدت الاشهر سنوات ، غير ان ذلك لم يثبط من همة بيير وماري وكانا أحياناً يتركان اجهزتهما مدى لحظات قليلة فينتقلان في حديثهما عن الراديوم المحبوب من البحث في ناحيته الفائقة الى التحدُّث في الامور الصبيانية المتعلقة به

ففي احد الايام سألت ماري بحماسة وتشوق تقربان من حماسة الطفل الموعود بلعبة جديدة : « يا ترى ما هو شكله ! وبأي هيئة تتصوره يا بيير؟ »

فأجاب العالم بلطف : « لا أدري ولكني أتمنى ان يكون لونه جميلاً » . واذ استمرت ماري في معالجة الطن من ركاز الاورانيوم الذي ارسل اليها من سنت جواشمستال امتلأت الطاولات القديمة في حجرتها بالمواد الحاوية لمقدار من الراديوم أوفر مما حصلت عليه قبلاً . وقد قاربت الدور النهائي ، دور تنقية السوائل ذات النشاط الاشعاعي القوي ، حين عاقها عن العمل افتقارها الى الاجهزة اللازمة والاستعداد الكافي . ففي هذه السقيفة المعرضة للرياح اختلطت ذرات الحديد والفحم الطائرة بالمواد المنقاة وهي المواد التي اقتضت تنقيتها عناء كبيراً فانقبض قلب ماري من تلك الحوادث اليومية التافهة التي استنفدت كثيراً من وقتها ومجهودها

ووهنت عزيمة بيير امام هذه العقبات المستمرة وفكر في اعتزال العمل لوقت ما لعلّ الايام تهيئ لهما أحوالاً اكثر موافقة للبحث العلمي

الاَّ انهُ في تفكيره هذا لم يحسب لاخلاق ماري حساباً . فلقد ارادت ماري فصل الراديوم عن المواد الاخرى وانها لفاعلة ذلك ، مستخفة بالمتاعب والمشاقّ غير آبهة لما يعوزها من المعارف لاتمام عملها ، تلك الصعوبة التي زادت مهمتها تعقيداً . فما لا يخفى انها كانت عالمة حديثة

المعهد بالاساليب العلمية ولذا كثيراً ما صادفتها ظواهر طبيعية وعمليات حسابية لم تعرف عنها الاَّ القليل فاضطرت الى دراستها دراسة عاجلة حتى تتمكن من مجابهتها

وفي عام ١٩٠٢ بعد انقضاء خمسة واربعين شهراً على اليوم الذي اعلن فيهِ آل كوري فرض وجود عنصر الراديوم تمكنت ماري من احراز النصر بعزيمة واصرار يفوقان صفات البشر. ثم فلقد توصلت الى اعداد ديسجرام من الراديوم النقي كما تمكنت من تقرير وزنهِ الذري فما كان للكيماويين مفر من ان يطأطئوا الرأس امام الوقائع ويعترفوا بوجود الراديوم

حياة شاقة

ومما يؤسف لهُ انهُ كان امام آل كوري نضال غير نضالها مع الطبيعة في معملها. فلقد كان مرتب بيير بمدرسة علم الطبيعة خمسمائة فرنك شهريًّا فقط ولذلك اضطربت الميزانية البيتية حين اضطرا الى استخدام مربية بعد مولد أيرين فكان لا بد من البحث عن موارد اخرى

وفي سنة ١٨٩٨ خلا كرسي أستاذ الكيمياء الطبيعية بجامعة السوربون فقرر بيير ان يطلبهُ. فعلاوة على ان مرتبه كان عشرة آلاف فرنك كانت ساعات التدريس المخصصة لهُ أقل من ساعات التدريس بالمدرسة. إلاَّ أن طلبهُ رفض، ولم يتمكن من الوصول الى مرتبة أستاذ إلاَّ في سنة ١٩٠٤ بعد ان اعترف العالم كله بمكانته العلمية العالية. أما حينئذٍ فقد اضطر الى قبول منصب أقل درجة من المنصب الشاغر بالسوربون، حيث كانت الادارة راضية كل الرضى ان تعهد اليهِ بتعليم بعض العلوم ذات المقام الثانوي مما يستغرق كلَّ يومهِ. وفي الوقت نفسهِ حصلت ماري على منصب مدرسة في مدرسة للبنات بالقرب من فرساي

توصل الآن آل كوري الى موازنة ميزانيتهما إلاَّ أنهما أثقلا كاهلهما بالعمل المضني في الوقت الذي احتاجا فيهِ الى كل قواهما لمواصلة تجاربهما في النشاط الاشعاعي. فحاول اصدقاء بيير جهدهم ان يقربوه من ذلك المقام الذي يصعب الوصول اليهِ ألا وهو منصب أستاذ. فخطر لهم ان عضويته في أكاديمية العلوم لا بدَّ ان ترفع من شأنهِ ولذلك اقترحوا عليهِ أن يرشح نفسه لها في سنة ١٩٠٢. تردد أولاً ثم سلَّم غير راض، لانهُ كان يثقل على طبعهِ القيام بالزيارات المعتادة لاعضاء الاكاديمية، والكلام عما أحرزه من شرف، وما قام بهِ من جلائل الاعمال، بل أنهُ وجد انهُ يتعذر عليهِ بتاتاً القيام بهذه المهمة. فنتج عن ذلك انهُ قام بالزيارات ولكنهُ امتدح منافسه المسيو أماجا . . . فاختار أعضاء الأكاديمية المسيو أماجا

بعد مدة قصيرة رفض بيير قبول وسام اللجيون دونور لانهُ ظهر لهُ أنه من بواعث السخرية أن يقدم الى عالم، اوصدت أمامه أبواب العمل، صليب مغشى بالميناء ومربوط بشريط أحمر من الحرير وذلك على «سبيل التشجيع»

ومضى آل كوري في التعليم بروح طيبة وبدون تذمر باذلين جهدهما في تأدية واجبهما. ولانهما كهما الشديد في عملهما بين تعليم واجراء تجارب علمية نسيا حاجتهما الى الطعام والنوم، بل تماديا في حماقتهما هذه حتى اساءا الى نفسهما والى صحتهما. فكثيراً ما كان يضطر بيير الى الاسراع الى فراشه من جراء ألم شديد في رجليه. اما ماري فتمكنت بصلابة اعصابها من المقاومة، ومع ذلك فقد افزع اصدقاءها شحوب وجهها وهزاله

وكذلك تقدم النشاط الاشعاعي ونما، بينما كان يضني تدريجياً العالمين اللذين وهباه الحياة

قرار «لا قيمة له!»

هذا الراديوم العجيب! عند ما حضّر كلوريداً ظهر مسحوقاً أبيض عادياً يشبه ملح الطعام تمام الشبه. الا أن خواصه مدهشة حقاً. فاشعاعه فاق في شدته غاية ما يمكن توقعه، حتى كان اقوى من اشعاع الاورانيوم مليوني مرة فاخترقت أشعته أقسى المواد غير الشفافة ولم تحجبها الا ستارة كثيفة من الرصاص

أما أحدث أعاجيبه وأعمقها أثراً فهي التمكن من الاستعانة بالراديوم في محاربة السرطان. وهكذا ثبت ان الراديوم نافع اي ان اكتشافه لم يقتصر في خطورته على الناحية التجريبية فقط بل تعداها الى انشاء صناعة جديدة

عندما عرفت قيمة الراديوم الطبية نشطت حركة في مختلف البلدان، ولاسيما في بلجيكا واميركا، لاستغلال الركاز الغني بالنشاط الاشعاعي، ولكن العلماء لم يتمكنوا من استخراج هذا «المعدن العجيب» منه لجهلهم سر العمليات الدقيقة اللازمة لذلك

شرح بيير هذه المسألة لزوجه في صباح احد ايام الآحاد عقب قراءته رسالة وصلته من بعض ارباب الصناعات بالولايات المتحدة الاميركية الذين يريدون استخراج الراديوم ويطلبون منه تزويدهم بالمعلومات اللازمة

فقال لها بيير: «أمامنا طريقان يمكننا الاختيار بينهما. فأما أن نشرح لهم نتيجة بحثنا دون تحفظ، بما في ذلك عملية تنقية الراديوم... وإما»

وهنا أشارت ماري اشارة ميكانيكية تدل على الموافقة وتمتمت: «نعم. طبعاً.». ثم مضى بيير في حديثه:

«وأما أن نعتبر أنفسنا مالكي الراديوم او بعبارة أخرى «مخترعيه» ونسجل طريقة معالجة ركاز البتشبلند فنحتفظ لانفسنا بامتياز صناعة الراديوم في كل العالم»

تأملت ماري بضع ثوان ثم قالت: «هذا مستحيل لانه يتعارض والروح العلمية»

فانفرجت أسارير وجه بيير. ولكن لكي يريح ضميره استطرد الحديث في الموضوع مكرراً

وهو يضحك ضحكاً لطيفاً، مشيراً الى الامر الوحيد الذي عزَّت عليه تضحيته: « و يمكننا حينئذٍ ان نمتلك معملاً كامل المعدات » . أما نظرة ماري فلم تتغير لأنها ثبتت على رأيها وهي رفض الربح المادي

« إن علماء الطبيعة ينشرون دائماً بحوثهم كاملة . فاذا كان اكتشافنا له فائدة تجارية فهذا عارض يجب ألاَّ نستفيد منهُ وحيث أن الراديوم سيستخدم لمعالجة الامراض فيجب ألاَّ نستغله »

لم تحاول ان تقنع زوجها لانها وثقت بانهُ ذكر أمر ملكية الاكتشاف من سبيل الاحتياط فقط . فالكلمات التي فاهت بها بثقة تامة ما كانت الاَّ لتعبر عن شعورهما كليهما ، عن رأيهما الصادق في مكان العالِم في الحياة . ثم اضاف بيير وكأنهُ يقرر أمراً لا قيمة له :

« سأكتب هذه الليلة الى الخبراء الاميركيين وأزودهم بالمعلومات التي طلبوها مني »

وبعد ربع ساعة من هذا الحديث القصير في صباح الاحد قام بيير وماري بنزهة على عجلتيهما في الغابات ، بعد ان اختارا الى الابد بين الفقر والغنى . وفي المساء رجعا منهوكين وأذرعهما ملأى بأوراق الحقول وأزهارها !

الغزو

والآن بدأت مقدمة تلك القطعة الموسيقية الرائعة التي سرعان ما بلغت أوجها . ففي يونيو من سنة ١٩٠٣ دعا المعهد الملكي بلندن بيير لكي يحاضر به في موضوع الراديوم وتبع ذلك سيل من الدعوات لحضور الحفلات والولائم لان لندن بأسرها تاقت الى مشاهدة « والدي الراديوم »

تحمل آل كوري هذه الحفاوة مدة ايام قليلة بشيء من التململ ثم رجعا الى مسكنهما الصغير . ولكن الانكليز السكسونيين متصفون بالولاء لمن يعجبون به . ففي نوفمبر سنة ١٩٠٣ منحت الجمعية الملكية بلندن بيير وماري مدالية دافي وهي من أسمى أوسمتها

وكانت بلاد السويد التالية في تقدير فضلهما . ففي ١٠ دسمبر سنة ١٩٠٣ أعلنت اكاديمية العلوم بستوكهولم ان جائزة نوبل لعلم الكيمياء في تلك السنة قد قسمت مناصفة بين هنري بكرل من ناحية ومدام كوري وزوجها من الناحية الاخرى لاكتشافهم النشاط الاشعاعي

كانت قيمة جائزة نوبل هذه سبعين الفاً من الفرنكات ولم يكن قبلها « يتمارض والروح العلمية » فكانت فرصة عظيمة الآن لانقاذ بيير من ساعات التدريس الطويلة ورعاية صحته . وحالما قبضا تلك النقود أغدقا الهدايا والقروض على أخي بيير وأخت ماري، والهبات للجمعيات العلمية والعطايا لبعض الطلبة البولانديين ولاحدى صديقات ماري منذ طفولتها . كما ان ماري جهزت حماماً حديثاً في بيتها الصغير وأثثت غرفة بسيطة به . ولكن لم يخطر ببالها قط ان تحتفي بتلك الفرصة بشراء قبعة جديدة . كما انها استمرت في التعليم ، مع انها اصرَّت على ان يعتزل بيير عمله بمدرسة الطبيعة

واذ ذاع صيتهما تكدَّست طاولتهما بأكوام الرسائل البرقية ، ونشرت عنهما آلاف

المقالات بالجرائد ووصلتهما مئات الطلبات للحصول على امضائهما او صورتهما ، وكثير من الخطابات من المخترعين ، والاشعار في مدح الراديوم . حتى وصل الامر بأحد الاميركيين ان طلب السماح له بتسمية فرساً للسباق باسم ماري . ولكن سوء تفاهم مستديم فصل بين آل كوري وبين الجمهور الذي اعارهما التفاته الآن . فلقد وصلا الى لحظة مؤلمة جداً في حياتهما لانهما كانا بحاجة الى التفرغ للعمل ليتما رسالتهما التي لم تنته بعد ، حين لم يحسب الصيت اي حساب لذلك . لان الصيت يطغى على العظماء بحمله الثقيل ويحاول ان يعيق تقدمهم غير عابىء بالمستقبل الذي يجاهدون نحوه

فما انالهُ جائزة نوبل للنشاط الاشعاعي من الصيت الدائم حمل الملايين على حساب هذا الاكتشاف الذي لم يتجاوز بعد دور الطفولة ضمن الانتصارات المحققة . بل ان الكثيرين شغلوا انفسهم بالتدخل في حياة هذين الزوجين الخاصة التي تقرب من الاساطير فسلبوهما الكنز الوحيد الذي اعتزا بالاحتفاظ به ، ألا وهو التأمل والهدوء

ولقد علقت ماري على ذلك ، بما كتبتهُ في ربيع سنة ١٩٠٤ :

« . . . ضوضاء مستمرة . فالقوم يلهوننا عن عملنا ولذا اعتزمت على التسلّح بالشجاعة ورفض مقابلة الزائرين ولكنهم يصرون على ازعاجنا . لقد أفسد علينا الصيت حياة العمل الهادئة التي كنا نحياها » . ولقد تألمت ماري بنوع خاص من الدور الذي انتظرها العالم أن تمثلهُ لان طبيعتها لم تتفق وتلك المظاهر التي تقتضيها الشهرة من الاندماج في الحياة الاجتماعية ، والصداقة المتكلفة ، والقسوة في المعاملة أحياناً وادعاء التواضع أحياناً أخرى

فالحادثة التالية ، من آلاف الحوادث مثيلاتها ، تبين جلياً موقف آل كوري تجاه حماسة الجمهور نحوهما . فبينما كانا يتناولان الطعام مرة بقصر الاليزيه مع الرئيس لوبيه وقرينته سألت مدام لوبيه ماري قائلةً : « هل ترغبين في ان أقدمك الى ملك اليونان ؟ »

فأجابت ماري بكل بساطة وأدب واخلاص : « لا أرى جدوى من ذلك »

ولكنها لاحظت حينئذٍ دهشة السيدة التي تكلمها فامتقع وجهها وقالت مستدركة كلامها :
« ولكن . . . ولكن . . . بالطبع أعمل ما يسرك . اي شيء يسرك »

وقد كان يجب على الصيت الدائم الذي أحل بآل كوري كثيراً من النكبات أن يأتيهما بشيء من البركات مثل مقام الاستاذية ، ومعمل لائق ، وفريق من العلماء للتعاون معهما . ولكن متى تحل هذه النعم يا ترى ؟

الاثنان معاً

لما حلت نهاية حمل ماري الثاني في سنة ١٩٠٤ كانت منهوكة القوى لطول المدة التي لازمت

فيها فراشها وهي في حالة تعب شديد وأخيراً في ٦ ديسمبر سنة ١٩٠٤ ولدت طفلة سمينة يعلو رأسها شعر كثّ أسود وهي إيف [1] . ولكن سرعان ما عادت ماري الى عملها بالمدرسة والمعمل . حاول آل كوري كالمعتاد عدم الظهور كثيراً في المجتمعات ولكنهما لم يجدا بدًّا من حضور الحفلات الرسمية لتكريم العلماء الاجانب. في هذه الحفلات فقط كان بيير يلبس سترته الطويلة الرثّة وماري فستان السهرة الوحيد الذي امتلكته

فهذا الفستان الذي احتفظت به ماري سنين طويلة ، مستعينة باحدى الخياطات من وقت لآخر على تغييره بعض الشيء ليوافق الزي المتبع ، كان من الحرير « الجربنادين » الاسود . ولا غرابة اذا كان موضع احتقار أية سيدة عادية ، أما ماري فقد أوجدت لنفسها بما اتصفت به من الاتزان والتحفظ ، ضرباً خاصًّا ملائماً لملابسها . بل لقد ظهرت بمظهر فاخر حقًّا حين صففت شعرها الاشقر وعقصته فوق رأسها وتحلت بعقد لطيف من الذهب صياغته في غاية الرقة كما كشف جسمها النحيف ووجهها البهيج عما بها من سحر وجمال

وفي احدى هذه الحفلات تمتم بيير قائلاً : « انهُ من المؤسف حقًّا عدم حضورنا الحفلات فملابس السهرة تناسبك جدًّا ولكن يعوزنا الوقت »

وتوصل بيير أخيراً في ٣ يوليو سنة ١٩٠٥ الى الانضمام الى الاكاديمية ولكن مع ذلك نال منافسه اثنين وعشرين صوتاً. وفي السنة نفسها أيضاً عينهُ السوربون في منصب أستاذ للطبيعة. فتحققت جميع آماله ما عدا الحصول على معمل وافر الاستعداد لبحوثه وبحوث زوجه

بقيت أمام ماري ثماني سنوات كاملة قبل تمكنها من وضع أجهزة النشاط الاشعاعي في معمل لائق بها ، ذلك المعمل الذي لم يسعد الحظ بيير برؤيته . فبقيت طول عمرها منغصة العيش متألمة ، لان زوجها حرم من تحقيق الامنية المفضلة على جميع أمانيه

في ١٤ ابريل من سنة ١٩٠٦ كتب بيير يقول : « اننا نعمل معاً أنا ومدام كوري لنقيس بالضبط مقدار الاشعاع الذي يطلقهُ . قد يبدو هذا أمراً هيناً ولكننا قضينا الشهور في بحوثنا والآن فقط بدأنا نصل الى نتائج حاسمة »

« اننا نعمل معاً انا ومدام كوري . . .

تلك الكلمات التي خطها بيير قبل موته بخمسة ايام فقط تعبر احسن تعبير عن ماهية اتحاد جبل قوي ، ما كانت لتنال منهُ الحوادث اي منال . فكل تقدم في العمل ، سواء أفوزاً كان ام اخفاقاً ، كان مدعاة لتعزيز تلك الرابطة القوية بين الزوجين وزيادتها متانة وقوة ، فبين هذين الذين أعجب احدهما بالآخر اعجاباً كبيراً نشأت زمالة قوية كانت اسمى تعبير عن حبهما العميق

---

(١) مؤلفة هذه السيرة

وحيدة

حوالي منتصف الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم الخميس ١٩ ابريل سنة ١٩٠٦، في يوم قاتم ممطر، ودع بيير زملاءه اساتذة كلية العلوم بعد ان تغدّى معهم وخرج الى شارع دوفن وحاول عبوره دون ان يلتفت الى عربة نقل قادمة. فلما رآها وقف مذهولاً وحاول الامساك بصدر الجواد الذي يقودها، فتراجع الجواد الى الوراء. الا ان بيير تزحلق على الارض المبتلة ومرت عليه تلك العربة الضخمة المحملة بستة اطنان من البضاعة فسحقت جمجمته، رغم محاولة السائق ان يوقفها. فرفع رجال البوليس ذلك الجسم الدافق الذي فارقته الحياة في اسرع من لمح البرق

الآن الساعة السادسة مساء، وماري، ملأى بالبهجة والحياة، واقفة بباب المنزل تستقبل بعض ضيوف وافدين ولكنها لاحظت في نظراتهم وسلوكهم عطفاً خاصاً. فوقفت ماري جامدة، عديمة الحركة، بعد ان رووا عليها وقائع الحادث وبعد صمت طويل فاهت بهذه الكلمات:

« أحقاً ان بيير قد مات؟ مات؟ مات حقاً!». ومنذ اللحظة التي سجل فيها عقلها تلك الكلمات الثلاث « بيير قد مات» غدت ماري امرأة حزينة، وحيدة، لا تعزى

وبكلمات قليلة طلبت نقل جثة بيير الى المنزل. ثم طلبت الى احدى صديقاتها ان تأخذ ايرن وايف الى بيتها، وبعثت رسالة برقية الى والدها بوارسو. وبعدئذ خرجت الى الحديقة وجلست صامتة، ساكنة، محدقة في غير وعي، ممسكة برأسها بين يديها تنتظر وصول زميلها

ادخلت النقالة ببطء من الباب الضيق الى غرفة بالدور الارضي بالمنزل، فبقيت ماري بعض الوقت وحدها مع زوجها وهي تقبله، وما زال جسمه ساخناً، بقيت هكذا الى ان اخرجت بالقوة من الغرفة حتى لا تشاهد الجثة عند وضعها في الاكفان. اطاعت دون التفات ولكن سرعان ما تنبهت انها بخروجها من الغرفة قد حرمت من تلك الدقائق القليلة الباقية فهرولت الى الداخل الى جانب جثة زوجها. وبعد موت بيير عرضت الحكومة رسمياً على زوجه ان تمنحها هي وطفلتيها معاشاً فأبت ماري مجيبة بشجاعتها المعتادة: « لست بحاجة الى معاش. فاني صغيرة السن ويمكنني العمل لكسب عيشي انا وطفلتي »

وفي ١٣ مايو سنة ١٩٠٦ قرر مجلس كلية العلوم بالسوربون باجماع الاصوات اسناد منصب في التعليم العالي بفرنسا الى امرأة. وبعد ان اصغت ماري بدون اهتمام الى كلام حميها في ان الواجب عليها يقضي بقبول هذا المنصب لتتم رسالتها اجابت بهذه العبارة القصيرة: «سأحاول ذلك»

حل ميعاد محاضرتها الاولى بالسوربون فملأت الجماهير بهو المحاضرات وازدحمت بالدهليز وامتدت الاعناق في انتظار مدام كوري وبدأ القوم يتساءلون: ما تكون اولى كلماتها يا ترى؟ هل تبدأ بشكر وزير المعارف او الجامعة، او تذكر شيئاً عن بيير كوري؟ لا بد ان تذكر شيئاً

عنه فقد جرت العادة ان يبدأ الاستاذ الجديد محاضرته الاولى باطناب سلفه . . . وفي منتصف الساعة الثانية فتح الباب الخلفي وتقدمت ماري كوري الى المنصة في عاصفة من التصفيق . أحنت رأسها لتحيي الجمهور، ولكن حركتها كانت جامدة بعض الشيء. ثم بقيت واقفة حتى هدأت العاصفة

وهنا تطلعت ماري الى الامام وقالت : « متى فكر المرء في التقدم الذي توصل اليه علم الطبيعة في العشر السنوات الاخيرة ، أخذته الدهشة في مبلغ ما طرأ على أفكارنا من التغيير بشأن الكهربائية والمادة.... » . وهكذا واصلت مدام كوري، بهذه العبارة ، الكلام في نفس الموضوع الذي عالجه بيير كوري قبيل مصرعه ، فاغرورقت عيون الحاضرين وسالت الدموع على وجوههم. وبعد ان انهت من محاضرتها خرجت بدون توقف بنفس السرعة التي دخلت بها والجمهور يهتف لها

انتصارات وتجارب

ذاع صيت مدام كوري ومنحت كثيراً من الدبلومات ودرجات الشرف من الاكاديميات الاجنبية . ومع ان أكاديمية العلوم أبت ان تشرفها بعضويتها — اذ أخفقت بالانتخاب بصوت واحد — الا ان السويد كافأتها بجائزة نوبل لعلم الكيمياء في سنة ١٩١١ ، وهذه هي المرة الوحيدة التي منحت جائزة نوبل مرتين لاي رجل او امرأة في العالم

بعد ذلك اشترك السوربون ومعهد باستير في انشاء معهد للراديوم ، يضم قسمين أحدهما معمل لابحاث النشاط الاشعاعي تحت ادارة مدام كوري ، والآخر معمل للابحاث البيولوجية ودراسة معالجة السرطان تحت ادارة طبيب مشهور . ورغماً عن معارضة آل ماري ، تبرعت الاخيرة للمعمل بجرام الراديوم الذي جهزته هي وبيير بيديهما وكان يساوي أكثر من مليون فرنك ذهب . وقد بقي هذا المعمل محور حياتها الى النهاية

وفي أثناء الحرب خدمت ماري وطنها الثاني بكل تضحية واخلاص فاذ وجدت ان المستشفيات تعوزها الاشعة السينية التي يمكن بواسطتها معرفة موضع الرصاص بالمصابين ، قررت في الحال مهمتها، ألا وهي اعداد مراكز خاصة بالكشف بالاشعة السينية فجمعت أجهزة الاشعة التي تمكنت من الحصول عليها في المصانع ومعامل الجامعات ووزعتها على المستشفيات القريبة من باريس ، كما حشدت عدداً كبيراً من المتطوعين من الاساتذة والمهندسين والعلماء لكي يديروا تلك الآلات

والى جانب ذلك أعدت ماري سيارة خاصة بنقل المصابين من الخطوط الامامية في الحرب الى المستشفيات وكانت تلك السيارة، المعدة بجهاز رنتجن وبدينامو، الوحيدة المستعملة اثناء واقعة المرن

جاهدت ماري طويلاً حتى تمكنت من الحصول على عشرين سيارة لهذا الغرض جهزتها كسابقتها، فدعيت تلك السيارات « بالكوريات الصغيرة » . ولم تتأخر عن قيادة احداها بنفسها رغماً عما عانته في سبيل ذلك من التعب

أضافت مفخرة اخرى الى تاريخ جهادها وذلك بان تمكنت من اعداد مائتي غرفة بأجهزة الراديوم، حتى بلغ عدد المصابين الذين عولجوا فيها ما يزيد عن المليون . امام كل ما لاقتهُ ماري من المتاعب والصعاب لم تظهر ادنى تململ أو كلل بل لم تعن بتأثير الاشعة السينية فيها او بتعرضها لخطر النيران حولها . ومما هو جديرٌ بالذكر انها لم تنل ازاء جميع خدماتها لفرنسا في اثناء الحرب اي تقدير رسمي ، ولكنها شعرت في الوقت نفسه انها قامت بالواجب على اكمل وجه

أميركا

في سنة ١٩٢٠ اكتتبت نساء اميركا بمبلغ مائة الف دولار لشراء جرام من الراديوم لاهدائهِ الى ماري كوري وطلبنَ منها مقابل ذلك زيارتهنّ فترددت ماري اولاً في اجابة طلبهنَّ ولكنها ازاء كرمهنَّ لم تجد بدًّا من التغلب على حيائها وانزوائها والتعرض لاول مرة في حياتها ، وذلك في سن الرابعة والخمسين ، لما تفرضهُ عليها رحلة رسمية عظيمة كتلك الرحلة

وهناك على ميناء نيويورك انتظرتها الجماهير الغفيرة مدة خمس ساعات كاملة فعبرت لها بذلك عن مبلغ اجلالها لها بل كان اخلاصها لها أقرب ما يكون الى شعور ديني عميق منهُ الى أي شيء آخر . والآن وقد وجدت ماري في وسط تلك الجماهير زاد الاميركيون تفانياً وتقديراً

لن أحاول في هذا المقام ان أعرّف روح أمة ، ولكني أقرر ان الحماسة المتناهية التي قابل بها الاميركيون ماري كوري لها مغزاها العميق . فان الشعوب اللاتينية مع اعترافها بعبقرية الاميركيين ونبوغهم تدّعي لنفسها الانفراد بتبجيل المثل العليا . ولكنهُ ثبت الآن ان الاميركيين ما ساروا في احتفائهم بماري هذا الاحتفاء العظيم الاّ وراء تلك المثل العليا التي يجلونها . فمن المعقول ان تثير سيدة كهذه بشخصيتها ومكتشفاتها شيئاً من حب الاستطلاع والتعجب ولكن ليس هذا كافياً لوصف ما أظهره الاميركيون من العطف والحب . فانهم ما كانوا حينئذٍ إلا محتفين بالنبل في الحياة ، النبل الممثل في احتقار الارباح المادية ، والتفاني في حب الحياة الفكرية الخالصة ، والرغبة الملحة في خدمة الغير . كانت الجامعات الاميركية جميعها قد دعت مدام كوري لزيارتها وأعدت لها المداليات والدرجات العلمية ولكن مدام كوري وقفت مذهولة حينما أحاطها القوم بالاعجاب والتبجيل وشعرت بالخجل والحياء كلما تطلعت اليها الجماهير المتشوقة لرؤيتها ، بل ان خوفاً غريباً استولى عليها ألا وهو الخوف من ان تقع تحت أرجل الجماهير . وأخيراً ضعفت صحة ماري فلم تتمكن من اتمام رحلتها واضطرت الى الرجوع الى فرنسا نزولاً على ارادة أطبائها ، رجعت ماري منهوكة ولكنها مسرورة راضية لان حياءها وتواضعها ما كانا ليحجبا عنها الحقيقة وهي أنها قد أدخلت السرور على قلوب ملايين من الاميركيين

وإني اعتقد ان رحلة والدتي الى أميركا قد علمتها ان حياة العزلة التي تحياها تتناقض ومقامها

العالي . فمع ان مدام كوري الباحثة قد تمكنت قبلاً من العزلة عن العالم الاَّ ان مدام كوري في سن الخمسين لم تكن باحثة وعالمة فحسب بل ان مقامها الاجتماعي هيأ لها النجاح في رسالتها الى العالم فكان لا بدَّ لها ان تحمل تلك الرسالة

كانت الرحلات التي قامت بها ماري مشابهة لسابقتها اذ شملت حضور المؤتمرات العلمية والمحاضرات والاحتفالات الجامعية وزيارة المعامل فكانت حيثما حلت موضع التكريم والتبجيل

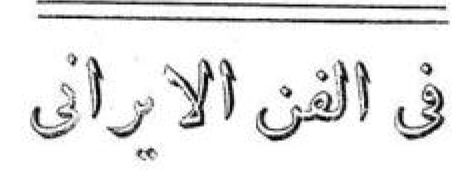
وفي ذلك الوقت جمعت وارسو مبلغاً من المال عن طريق الاكتتاب العام وأنشأت به معهداً للراديوم أسمتهُ « معهد ماري سكلودفسكا كوري » كما قامت النساء الاميركيات بالاعجوبة الثانية وهي تبرعهنَّ بجرام آخر من الراديوم لمدام كوري . فأعاد التاريخ نفسه مرة اخرى اذ زارت ماري نيويورك في ١٩٢٩ ، كما زارتها في سنة ١٩٢١ ، لشكر النساء الاميركيات ولكن زيارتها كانت باسم بولندا هذه المرة . فحلت ضيفة على الرئيس هوفر في البيت الابيض

ومما يسترعي الانتباه ان مدام كوري لم تتغير عنها قبلاً فلم تتغلب على خوفها من الجماهير المحتشدة كما ان الشهرة لم تؤثر في اخلاقها . ويخيل إليَّ انها لم تتمكن من الوصول الى اي « اتفاق ودي » مع الصيت بل كان حليفها الاول والاخير هو المعمل حتى كتبت مرة تقول « اني أشك في لو كنت أتمكن من الحياة بدون المعمل » ولفهم هذه العبارة يتعين علينا فهم مدام كوري وتعرف نفسيتها فلقد كان يغمرها السرور والغبطة متى نجحت في اية تجربة تقوم بها حين كانت تنقض عليها صواعق الهم اذا ما أخفقت فيها

خاتمة الرسالة

استمرت ماري في عملها الى النهاية بنشاط فذٍّ وباهمال فريد ايضاً لراحتها وصحتها . فلم تحترس البتة من خطر الراديوم فتناولتهُ واشتغلت بهِ دون ان تتبع الاحتياطات التي نبهت طلبتها اليها وبعد جهد جهيد أذعنت لان تمتحن دمها في معهد الراديوم . فأظهر الكشف مادة غريبة بهِ. وما هي ؟ ... لقد قضت مدام كوري خمساً وثلاثين سنة وهي تعمل بالراديوم وتتنفس الهواء المشبع به كما تعرضت اثناء سني الحرب الاربع لاشعاع اخطر من الاول وهو أشعاع جهاز رنتجن ولكنها لم تحسب ما اصابها من ألم او حروق الاَّ شيئاً يسيراً في مقابل الاخطار التي تعرضت لها

لم تعر ماري اصابتها بالحمى أخيراً التفاتاً كبيراً ولكن في مايو سنة ١٩٣٤ لازمت الفراش لاصابتها بنزلة صدرية حادة . ولما توقف قلبها القوي أخيراً عن النبض أصدر العلم حكمه وهو ان ما أظهره دمها من العوارض الغريبة يرجع الى الراديوم، المجرم الحقيقي . وفي يوم الجمعة في السادس من شهر يوليو سنة ١٩٣٤ أودعت ماري مقرها الاخير بدون أي احتفال رسمي — تلبية لوصيتها — فدفنت بجانب زوجها بيير في مدفن « سو » بحضور أقاربها واصدقائها وزملائها



في الفن الايراني

للدكتور زكي حسن

امين دار الآثار العربية والمدرس بمعهد الآثار الاسلامية

توطئة

لسنا نقصد ان نعرض في هذه السطور للفن الايراني بالدرس او الشرح المفصل ، ولكننا في هذه المناسبة السعيدة — التي تجمع بين الامتين اللتين كانت لهما الزعامة في ميدان الفنون الاسلامية — لا يسعنا الآن نذكر تراث الايرانيين في هذه الفنون ، وان نبين ما كان لطبيعتهم ولاستعدادهم الفطري من اثر في تكييف الفنون الاسلامية ، والسير بها الى العظمة التي بلغتها بين القرنين الثاني عشر والسابع عشر بعد الميلاد

ولا غرو فقد كان لايران منذ العصور القديمة فن ازدهر في عصر الكيانيين ثم الساسانيين من بعدهم . كما ان الاسكندر المقدوني حين اراد ان ينشىء عاهلية تجمع بين الشرق والغرب اتجه نظره الى ايران ليجعلها مركز هذه العاهلية ، ولكن المنية عاجلته ، فلم يفز بتحقيق مطامعه . على انه نجح الى حد كبير في نشر الثقافة الاغريقية في الشرق الادنى . وكانت ايران وافغانستان ، فترة من الزمن ، ميداناً التقت فيه الاساليب الفنية الايرانية القديمة بالاساليب الفنية الاغريقية . وكان لهذه الفترة أثر ملموس في العلاقة بين الاساليب الفنية الايرانية والبزنطية بعد ذلك ، بل ان أثرها كان ملموساً في مصر نفسها ، حين كانت تتبع رومة وبزنطة في العصر الاغريقي الروماني ثم في العصر القبطي ، فكانت بزنطة تنقل عن ايران الموضوعات الزخرفية ثم تهضمها وتستخدمها في منتجاتها الفنية التي تبعث بها الى الاقاليم التابعة لها على شواطىء البحر الابيض ، فتنقل هذه الاقاليم تلك الموضوعات الزخرفية ، كما يتجلى ذلك في زخارف كثير من قطع المنسوجات التي اكتشفت في صعيد مصر ، وكما يبدو في الرسوم المحفورة على بعض احجار العصر القبطي

ومما يستوقف النظر في تاريخ ايران ان سكانها كان لهم في جميع العصور ولعٌ شديد باتقان منتجاتهم الصناعية، وذوق لطيف في اعداد مساكنهم وحدائقهم وحاجياتهم، ومهارة فائقة في الفنون الجميلة . ولم تكن تمنعهم حروبهم الطويلة مع الروم في العصر الساساني من العناية بالفنون الجميلة فكانوا يشيدون العمائر وينتجون التحف الخزفية والمعدنية التي تشهد لهم بعلوّ الكعب كما كانوا يخلدون انتصاراتهم على الروم بنقوش محفورة في الصخور كنقش رستم وطاق بستان وغيرهما . وقد كانت هذه النقوش آية في قوّة التعبير عن انتصار الايرانيين وانكسار الروم وذلّهم :

ولما امتدَّ الاسلام الى ايران لم يلبث هذا القطر العظيم ان تزعّم العالم الاسلامي في العلم والفنون كما تزعمتهُ مصر في الاحداث السياسية . ويمكننا ان نقول في ثقة واطمئنان ان الطراز الايراني في الفنون الاسلامية ولا سيما في الفنون الفرعية منها ، هو أبدع الطرز الاسلامية على الاطلاق . فهو أكثرها تنوعاً ، وأعظمها في حسن الذوق ، ودقة الزخرفة ، وتناسق اللون وجمال النسب . حقًّا ان العمائر الاسلامية التي تزدان بها القاهرة من عصور الطولونيين والفاطميين والمماليك ثم عمائر الاندلس وعمائر مراكش ولاسيما في عصر بني مرين ، كل هذه قد تفوق العمائر الايرانية دقةً وجمالاً ، ولكننا لا نظن انها تمتاز عنها في الجلال والابهة . بينما منتجات الفنون الفرعية الايرانية من خزف وسجاد وصور ومنسوجات وغير ذلك هي التي لا يتسامى اليها الاَّ النادر من منتجات الامم الاسلامية الاخرى في هذا الميدان

التصوير

فالتصوير الاسلامي مثلاً لا تكاد الزعامة تنعقد فيه لغير الايرانيين ، بل انهم أساتذة الهنود والترك في هذا الميدان . وقد قامت في مراكش حركة حديثة على رأسها المصور محمد راسم ومثلها الأعلى هو الرجوع في التصوير الى الاساليب الفارسية

وقد أثبت علماء الآثار الاسلامية في العصر الحديث ان ازدهار التصوير الاسلامي في ايران دون غيرها من الاقطار الاسلامية ، ثم انتشاره منها الى تلك الاقطار على يد فنانين ايرانيين أو على يد تلاميذ لفنانين من ايران ، كل هذا راجع الى طبيعة الايرانيين أنفسهم ، والى التقاليد الفنية التي كانت لهم قبل الاسلام ، والى المهارة التي اكتسبوها في هذا الميدان فجعلتهم يتسامحون في شأن النحت والتصوير ولا يتأثر الفنانون بينهم بكره هذين الفنين في الاسلام ، ذلك الكره الذي ثبت في الامم الاسلامية السامية الاصل ، والذي كان سبباً في انصراف المسلمين عن تصوير المخلوقات الحية واقبالهم على الزخارف الهندسية والنباتية

ومهما يكن من شيء فقد ارتقت صناعة التصوير في إيران وكان ميدانها في أول الامر توضيح

كتب التاريخ والقصص ودواوين الشعر بالصور الصغيرة ذات الالوان الزاهية الجميلة ، شرحاً لمحتوياتها ، او زينة لها . وقد امتازت العصور الثلاثة الكبرى في تاريخ ايران بثلاث مدارس كبرى في التصوير فاشتهر الطراز او المدرسة المغولية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، واشتهرت المدرسة التيمورية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، واشتهرت المدرسة الصفوية في القرنين السادس عشر والسابع عشر . واما بعد منتصف القرن السادس عشر فقد تأثر المصورون الايرانيون ببعض الاساليب الفنية الغربية في التصوير ولا سيما بعد ان أرسل الشاه عباس الثاني (١٦٤٢ — ١٦٦٦) بعض البعثات العلمية لتلقي العلم والفن في ايطاليا وبعض البلدان الاوربية الاخرى

وتمتاز الصور الايرانية الاسلامية بألوانها الجميلة الذي يتغلب فيها الازرق والذهبي والاخضر والبنفسجي والاحمر ، كما تتميز ببعض اساليب اصطلاحية اتبعها المصورون ، كاهمال الظل وكرسم الاشخاص في أوضاع معينة بغير الاهتمام بقوانين المنظور او بصدق تقليد الطبيعة . وليس في ذلك ما يؤخذ على الصور الفارسية ، لانهُ جزء من طبيعتها ، ولانها حين تقلد الصور الغربية تفقد ذاتيتها ويزول عنها جمالها وسحرها . فضلاً عن ان الفنانين المصريين القدماء والكلدانيين والاشوريين والهنود كانت لهم في ميادين الفن المختلفة أساليب اصطلاحية تميز فنونهم الوطنية . ويعرف المتصلون بالحركات الفنية في العصور الحديثة ان كثيرين من رجال الفن يعملون على التحرر من تقاليد الفن الاغريقي في صدق تمثيل الطبيعة ، ويودون ان ينسجوا على منوال غيره من الفنون في عدم التقيد بالطبيعة . ولا ريب في ان كثيرين من المصورين الغربيين في العصر الحديث يرجعون الى الشرق ولا سيما ايران — فيستلهمونهُ كثيراً من الموضوعات الزخرفية ويستمدون منهُ بعض الاساليب الفنية

وعلى كل حال فان أعاظم المصورين في الاسلام كانوا من الايرانيين او من تلامذتهم في الهند وتركيا — وحسبنا ان نشير هنا الى بهزاد وسلطان محمد وقاسم علي وميرك ومحمدي ومعين مصور وجمال نقاش اصفهاني ورضا عباسي وغيرهم ممن تحدثنا عنهم في كتابنا عن التصوير في الاسلام عند الفرس او ممن نرجو ان نعرض لهم في بحث قريب . وكانت منتجات هؤلاء الفنانين مختلفة النواحي ، ففي بعضها مناظر صيد او قتال عجيبة بأسلوبها القوي وبما فيها من روح وحركة ، بل ان بعضها صور افراد مشهورين تظهر فيها دقة لم يكن يستطيع الوصول اليها في ذلك الوقت الاّ مهرة المصورين في الشرق الاقصى . وفي كثير من الصور الايرانية دعابة ومجون وطرب غير ما نراه في تصوير حوادث الشاهنامة من قتال ومناظر شجاعة واقدام

وقد قام التصوير الاسلامي في الهند وفي تركيا على اكتاف الايرانيين في بادىء الامر ولكنهُ اتخذ في الهند طريقاً آخر متأثراً بالاساليب الفنية الوطنية في الهند نفسها ، حتى اصبح

البون شاسعاً يفطن اليه كل من له المام بسيط بالفنون الاسلامية . وقد ذاع صيت المصورين الايرانيين حتى كان السلاطين من العثمانيين ومن الهنود المغول يستدعونهم للعمل في بلاطهم وكان صغار المصورين في ايران والهند يكتبون على منتجاتهم اسماء مشهوري المصورين ، وذلك طمعاً في بيعها بأغلى الاثمان ، حتى ان بعض مصوري الهنود نسبوا منتجاتهم الى بهزاد كبير مصوري الفرس على الاطلاق اوالى ماني زعيم المانوية ، وقد عاش في القرن الثالث الميلادي واشتهر واتباعه بالمهارة في التصوير وباستخدام الصور في شرح عقائدهم الدينية وقد تسمى باسمه مصور صغير في بلاط الشاه عباس . وفي دار الكتب المصرية وفي المكتبة الاهلية بباريس مجموعتان من الصور الهندية في اولاهما صور منسوبة الى بهزاد وماني وفي الثانية صور منسوبة الى بهزاد ولكن امثال هذه النسبة المفرضة سهل كشفه لمن لهم قسط بسيط من الدراية بتاريخ الفنون

السجاد

على ان اكثر منتجات الفن الايراني انتشاراً في العالم انما هو السجاد . والظاهر ان شهرة ايران في هذا الميدان ترجع الى العصور القديمة فقد كانت تصدر السجاد الى الاغريق ثم الى البيزنطيين والغربيين في العصور الوسطى . ولعل السبب في ازدهار هذه الصناعة في ايران هو تشجيع الملوك والامراء ورجالات الدولة وانفاقهم الاموال الطائلة في انتاج احسن الفرش والابسطة وأفخرها مادة وحسن صناعة على يد كثيرين من العمال ، يشتغلون الشهور الطويلة في صنع سجاجيد تخرج آية في الفن ، لا يدري المرء بأي شيء يعجب فيها أبعظمة الالوان وانسجامها ، أم بجمال الزخارف ودقتها،ام بمتانة الصناعة واتقانها. بل ان الملوك والامراء كثيراً ما كانوا يطلبون الى مشهوري المصورين والرسامين ان يقوموا باعداد الرسوم التي تزين بها السجاجيد الفاخرة . وفي الحق ان المصورين كان لهم في البلاط وفي الحياة الاجتماعية الايرانية نفوذ كبير بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر،فلم يكونوا يقومون بتصوير المخطوطات فحسب بل كانوا يشرفون على شتى انواع الزخرفة : في العمائر ، وعلى المنتجات الخزفية ، والمنسوجات والسجاد. واكبر الظن ان أهم من اشتغل من المصورين بعمل زخارف السجاد هم بهزاد وسلطان محمد وسيد علي . وقد وصل الينا أسماء بعض من قاموا على نسج السجاجيد المشهورة ومن أهمهم غياث الدين جامي ومقصود القاشاني في النصف الاول من القرن الخامس عشر ومحمد أمين الكرماني ونعمت الله جوشقاني. واسماؤهم موجودة على سجاجيد محفوظة الآن في متحف ميلان ومتحف فكتوريا والبرت بلندن وفي ضريح الشاه عباس الثاني بمدينة قم

أما اهم المدن التي اشتهرت بصناعة السجاد في إيران فهي اصفهان وكرمان وقاشان وقم وتبريز وكرباغ وهمدان وشستر وهراة (في افغانستان) وطوس ويزد

ويرجع جمال السجاد الايراني وشهرته الى ابداع ألوانه وتناسقها وحسن توزيعها ، والى متانة الصناعة والعناية بالصوف (حتى لقد كانت الغنم تربى خصيصاً ويعنى بنظافة صوفها لينسج منهُ السجاد) ، كما ان الحرير وخيوط الذهب والفضة كانت تدخل في صناعة السجاجيد المشهورة . ولا ننسى ان حجم السجادة كان يظهر ابداع الزخارف فيها ويساعد المصور او الرسام على اظهار مهارته

والسجاد الايراني على أنواع مختلفة ، ولكن أكثره يمثل غرام الايرانيين بالحدائق ، حتى نرى ان أهم انواعه يشبه الحديقة بما فيه من أزهار ونباتات . وقد كانت هناك أبسطة وسجاجيد تمثل زخارفها مناظر الصيد ، او القتال بين الحيوانات المختلفة ، غير ان ذلك كلهُ كان على أرضية مملوءة بالازهار والنباتات ، ولكنها ازهار ونباتات لم تكن دائماً تقليداً صادقاً للطبيعة ، بل كانت كما غلب عناصر الزخرفة النباتية في الفنون الاسلامية — مهذبة بعض الشيء . فالمعروف ان المسلمين لم يصوروا النبات او الانسان او الحيوان تصويراً صادقاً ، بل كانوا يتخذونها موضوعات زخرفية ، يكيفونها كيف شاءوا مراعين فيها التناظر والبساطة والانسجام ومن ثمَّ فقد كان يسودها في بعض الاحيان شيء من الجمود . ولعل الايرانيين هم اقل الامم الاسلامية اندفاعاً في هذا التيار ، فامتاز الطراز الايراني في الفنون الاسلامية بالزخارف النباتية ولاسيما الازهار وبالاسراف في رسوم الانسان والحيوان والطيور على المنتجات الفنية المختلفة ، وعني الايرانيون أكثر من سائر الامم الاسلامية بصدق تمثيل الطبيعة — الا فيما كانت لهم فيه اصطلاحات واساليب موضوعة . وقد كان اتصالهم بفنون الشرق الاقصى منذ العصر المغولي دافعاً لهم على الدقة في رسم النباتات والازهار

ولا يجب ان ننسى ان صناعة السجاد في ايران لم تكن زاهرة بايران في العصر الصفوي فحسب ، بل ان ما نجده في كتب التاريخ من وصف بساط كسرى الذي غنمهُ العرب في المدائن لا كبر دليل على براعة الايرانيين في هذه الصناعة الجميلة منذ العصور القديمة . ومن المحتمل ان يكون اهل الحيرة قد نقلوا عنهم اسرار هذه الصناعة ، فالمعروف ان سجاجيد ذات زخارف حيوانية كانت تصنع في الحيرة قبيل الاسلام

وقد اختلف رجال الفنون في تقسيم السجاجيد الايرانية فبعضهم يقسمها باعتبار زخارفها الى سجاجيد ذات زخارف شجرية ، واخرى ذات زخارف تمثل مناظر الصيد والعراك ، وثالثة ذات زخارف من آنية ومشكاوات وازهار بينما يجتهد باحثون آخرون في تقسيمها تبعاً للبلاد الايرانية المصنوعة فيها ، ولكن الوصول الى هذا التقسيم الاخير ليس سهلاً ميسوراً ، لان المعلومات الصحيحة بهذا الشأن نادرة جدًّا ، فضلاً عن ان المصانع في البلاد الايرانية المختلفة كانت تقلد أي طراز ينال رواجاً كبيراً ولو كان موطنه في بلد آخر

وقصارى القول انه من الممكن تقسيم السجاجيد الايرانية الى انواع مختلفة بحسب زخارفها كما يمكن نسبة بعض هذه الانواع الى مصانع بعض المدن الايرانية المعروفة ، ولكن بعض المدن الاخرى لا يمكن ان تنسب اليها انواع بالذات ، كما ان بعض الانواع لا نستطيع نسبتها الى اي مدينة بالذات

المنسوجات

اما المنسوجات الايرانية فقد ذاعت شهرتها منذ عصر هيرودوتوس . وكان اهل روما يدفعون فيها الاثمان الباهظة ، ثم أقبل اهل بيزنطة على تقليدها . وبلغت صناعة النسج أوج عزها في العصر الساساني . وقد وصلت الينا بعض قطع من المنسوجات الحريرية الساسانية . والزخارف مكونة في اكثر هذه القطع من مجموعات دوائر او اشكال هندسية أخرى ، فيها رسوم حيوانات او طيور او فرسان في الصيد ، متقابلة او متدابرة ، في ترتيب هندسي جميل ، كما ان بين الحيوانات المتقابلة رسماً تخطيطيًّا مهذباً يمثل شجرة . والمعروف ان الصينيين كانوا يعجبون بهذه المنسوجات الحريرية الساسانية ، وان حكام الاقاليم الصينية الواقعة بين الصين وايران كانوا يقدمون من هذه المنسوجات جزية الى ملوك الصين . والحق ان الايرانيين في ذلك العصر البعيد وفقوا في الوان منسوجاتهم جد التوفيق فكان انسجام هذه الالوان وهدؤها يبرزان عظمة الزخارف ويكسبان القطعة سحراً وجمالاً

ولما انتشر الاسلام في ايران ، وانقضى دور الزهد والتقشف الذي ساد العالم الاسلامي في نشأته ، واختلط العرب بغيرهم من الامم العريقة في المدنية تقدمت الصناعات والفنون . ولقيت صناعة النسج تشجيعاً خاصًّا في الاقاليم الاسلامية المختلفة ، لما سنهُ الخلفاء والامراء في مكافأة رجالات الدولة بالخلع الثمينة من نفيس المنسوجات الحريرية . على ان القطع الايرانية التي وصلت الينا من صدر الاسلام نادرة جدًّا ، واعل السر في ذلك هو غزو المغول الذي قضى على الحرث والنسل . ومهما يكن من شيء فقد ظل الايرانيون نحو ثلاثة قرون في صدر الاسلام يتبعون الاساليب الساسانية في زخارف منسوجاتهم ثم كان القرن العاشر فطغت عليها الاساليب الاسلامية في زخرفة المنسوجات باشرطة من رسوم الحيوانات او زخارف خطية ونباتية . وكان الايرانيون فضلاً عن ذلك يستوردون من الشرق الاقصى الاقمشة الحريرية المزينة بالزهور والنباتات الدقيقة ، فكانت مدينة مرو تصدرها الى سائر الاقاليم الايرانية فيعمل الصناع على تقليدها في كثير من الاحيان . ومن أهم المدن الايرانية التي اشتهرت بمصانع النسج في العصر الاسلامي نيسابور وتبريز وسلطانية وهراة ويزد وشيراز وكرمان . ومن أبدع ما كانت تخرجهُ المصانع الايرانية الرايات والاعلام تزينها العبارات بالخط الكوفي الجميل . ثم كان عصر

السلاجقة في القرن الثاني عشر الميلادي عصر نهضة شاملة ورقي عام في صناعة النسج ، فتقدمت أساليب الصناعة ، وعمد النسّاجون الى الزخارف الساسانية القديمة يستمدون منها موضوعاتهم الزخرفية بعد ان يدخلوا فيها ما يناسب العصر وما يتفق وتأثرهم بدقة الصينيين في رسم النباتات والطيور والحيوانات . وقد عثر المنقبون في قبور مدينة الري على قطع من منسوجات هذا العصر تشهد ببراعة النسّاجين الايرانيين

وزاد تأثر المصانع الايرانية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر بالاساليب الصينية في زخرفة المنسوجات بسبب ازدياد الوارد من الاقمشة الصينية واتساع تجارة ايران مع الشرق الاقصى وغزوات المغول في ايران

***

أما في نهاية القرن الخامس عشر وفي القرن السادس عشر فقد كانت زخارف المنسوجات متأثرة كل التأثر بصور المخطوطات في ذلك العصر فكثيراً ما نرى عليها صور مجنون ليلى وصور بعض حوادث الشاهنامة او بعض الاساطير المشهورة في التاريخ الايراني وفي مؤلفات الشعراء والادباء الايرانيين . وكان لمدينتي هراة وتبريز قصب السبق في انتاج الديباج الذي تزينهُ هذه الزخارف . وهناك بضع قطع من هذا الديباج عليها امضاء صانعها « غياث » وهي محفوظة في ليون وباريس ولندن وفلورنسة

على ان أبدع ما أنتجهُ النسّاجون الايرانيون هي القطيفة (المخمل) التي امتازت بهدوء ألوانها ورقتها المتناهية . وأهم المدن التي ذاع صيتها في نسج القطيفة هي قاشان

وزادت ثروة ايران في عصر الشاه عباس وزاد الاقبال على المنسوجات الفاخرة ، فزادت المنتجات زيادة أثرت قليلاً على جودة النوع وجمال الزخرفة ، اللهمَّ الاَّ فيما كان يصنع للبلاط ورجالات الدولة . وكان أهم أنواع الزخارف في ذلك العصر رسوم أشخاص ذوي قدود هيفاء وأوضاع فيها كثير من التكلف وفتيات او فتيان يكاد المرء يحسبهنَّ نساء . ونحو ذلك من طراز المصور رضا عباسي . والواقع ان تأثير هذا المصور وذيوع صور فتيانه وفتياته لم يكن في المخطوطات المصورة والمنسوجات فحسب ، بل كان في صور الجدران وفي زخارف القاشاني

ثم عاد الايرانيون الى الولع برسوم الازهار والنباتات فاتخذوها لزخرفة عدد كبير من منسوجات القرنين السابع عشر والثامن عشر ووفقوا فيها توفيقاً كبيراً وساعدهم على ذلك تجار البضائع الصينية الذين كانوا ينزلون مدينة أردبيل والخزفيون الصينيون الذين كانوا ينزلون شتى المدن الايرانية

ولا يتسع المقام هنا لتفصيل بعض الانواع الجديدة من المنسوجات الايرانية في القرنين السابع عشر والثامن عشر فحسبنا أن نشير الى منتجات اصفهان وكرمان وقزوين وشيراز ورشت

الخزف

وثمة ميدان آخر من ميادين الفنون الاسلامية كان للايرانيين فيهِ قدم السبق . ذلك هو الخزف . ولا غرو فقد توافرت في ارض ايران عجينة تصلح لصنع الاواني الخزفية ويسهل تشكيلها وتمتاز برقتها وقلة وزنها . وان صح لدى بعض الخبراء ان بلاد الاغريق من ناحية وبلاد الشرق الاقصى من ناحية أخرى قد بلغت في صناعة الخزف درجة من التقدم تفوقت بها على إيران فان بعض الهواة الآخرين يرون في خزف تلك البلاد جموداً ودقة وثقلاً لا يرونهُ في الخزف الايراني

ومهما يكن من شيء فقد امتاز الخزف الايراني في العصر الاسلامي بجمال الاشكال، وتناسق النسب ، وبريق الطبقة الزجاجية المفضية ، وابداع الزخارف وتنوعها . وليس هذا بمستغرب فقد كان لايران تقاليد قديمة في هذه الصناعة منذ عصر قبل التاريخ كما يبدو من القطع الخزفية التي كشفت في نهاوند والتي تزينها زخارف هندسية جميلة. ثم كان عصر الكيانيين وصارت الجدران المصنوعة من الآجر تغطى — كما في قصور مدينة السوس — بطبقة من المينا ، وتنبيء عن الخزف الذي قُدر لجدران العمائر الايرانية ان تكتسي به في العصر الاسلامي . ثم جاء العصر الساساني الذي ازدهرت فيهِ صناعة الخزف كما ازدهرت الفنون الاخرى . ولما انتشر الاسلام في ايران ظلَّ الخزفيون يتطورون شيئاً فشيئاً حتى تركوا الاساليب الفنية الساسانية ، وطبعت منتجاتهم بطابع يجمع بين العناصر الزخرفية الاسلامية وبين ما ورثوه من أساليب ايرانية

وأقدم أنواع الخزف الايراني في العصر الاسلامي هو النوع الذي يعرف باسم « جابري » وهو اسم عبدة الشمس في ايران . ويظن انهُ من صناعتهم قبل أن ينتشر في كل انحائها الدين الاسلامي بعد الفتح العربي ببضعة قرون . والزخارف في هذا الضرب من الخزف تكون في الغالب من رسوم فرسان في الصيد وطيور او حيوانات غير دقيقة الرسم ، ولكنها محفورة حفراً عميقاً في الطبقة البيضاء الرقيقة التي تكسو السطح بحيث يصل هذا الحفر الى العجينة الحمراء المصنوع منها الاناء . وتعلو العجينة الحمراء والطبقة البيضاء التي تغطيها مادة زجاجية شفافة ذات لون اصفر او اخضر او اسمر قاتم

على ان بعض القطع الخزفية من هذا النوع قد وجد عليها كتابات بحروف كوفية تجعل من السهل نسبتها الى القرنين العاشر او الحادي عشر . فمن المحتمل ان يكون خزف «جابري» من منتجات ايران في الاربعة القرون الاولى بعد الاسلام ، ولا سيما في زنجان وعامل والري . ولكن هذه المدينة الاخيرة التي دمرها المغول سنة ١٢٢٠ ميلادية كانت مركزاً عظيماً لصناعة شتى انواع الخزف حتى اننا ننسب اليها نماذج من صناعات خزفية لم توجد الاَّ في اطلالها . ومن

هذه النماذج بعض الاواني والاطباق ذات الصور الآدمية والصناعة الدقيقة التي ترجع الى القرنين الحادي عشر والثاني عشر وقد نجد في بعض هذه القطع صور البراق او صور بط واوز وطيور اخرى

ومما زاد الخزف الايراني جمالاً ذلك التجديد الذي وصل اليه المسلمون في هذه الصناعة وهو البريق المعدني lustre ، فكانوا يرسمون الزخارف على سطح لامع ثم يثبتونها بتعريضها للنار بطريق تكسبها بريقاً معدنياً يختلف لونه بين الاحمر النحاسي والاصفر الضارب الى الخضرة . ويظن بعض علماء الآثار ان هذه الصناعة نشأت في ايران كما يظن آخرون انها بدأت في العراق ويذهب فريق ثالث الى ان مهدها ارض مصر . ولكنها كانت على كل حال خير مخرج للمسلمين من صعوبة الانصراف عن الاواني الذهبية والفضية التي يكرهها رجال الدين لما تدل عليه من ترف واسراف

وكانت هذه الاواني الخزفية ذات البريق المعدني تصنع في كثير من المدن الايرانية ولا سيما في الري وتزينها زخارف متعددة الالوان تمثل بهرام جور وحبيبته في الصيد ، او تمثل السلطان جالساً على عرشه وحوله رجال ونساء من اتباعه ، او تمثل فرساناً في الصيد ، وما الى ذلك مما اعتدنا رؤيته على التحف الايرانية الاخرى ومما كان يزيده التذهيب في الخزف روعة وجمالاً

***

على ان صناعة الخزف ذي البريق المعدني استخدمت على يد الايرانيين في صناعة النجوم والتربيعات التي كانت تكسى بها الجدران ، والتي اصبحت ظاهرة من الظواهر المعمارية في ايران ثم في تركيا وسورية

وبعد ان دمر المغول مدينة الري اصبحت سلطاناباد مركز صناعة الخزف . وصارت تنتج في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ما كانت تنتجهُ الري قبلها ، كما احدثت انواعاً جديدة

ولكن صناعة الخزف لم تكن زاهرة في مدينتي الري وسلطاناباد فحسب ، بل ان مدناً أخرى ، كاصفهان وتبريز وهمدان وفيرامين ومشهد ، كانت لها مكانتها في هذا الميدان . كما ان سلطاناباد كانت تنتج في القرن الخامس عشر خزفاً طريفاً تغلب على زخارفه الفروع النباتية (الارابسك) ورسوم زهور اللوتس . وثمة نوع ينسب الى قرية كوباتشه بداغستان ولكن يظن انهُ كان يصنع على مقربة من تبريز

التحف المعدنية

اما صناعة التحف المعدنية في ايران فقد اتقنها الايرانيون قبل الاسلام . والواقع ان الاواني المعدنية الساسانية عليها مسحة من القوة والعظمة ، قلَّ ان توافرت في تحف معدنية اخرى . ويشهد بذلك ما وصل الينا من الصواني والاطباق الذهبية والفضية ذات الزخارف البارزة ، وما يحتفظ به متحف الهرميتاج بالروسيا والقسم الاسلامي بمتاحف برلين من اباريق

برونزية جميلة ، يظن انها ترجع الى القرن السابع او الثامن بعد الميلاد ، ويغلب على زخارفها رسوم الحيوانات والطيور ومناظر الصيد . كان بعض المتاحف والهواة يحتفظون بتحف معدنية على شكل حيوان او طائر ، ويرجع بعضها الى صدر العصر الاسلامي ، كما يظن ان قطعاً منها ترجع الى العصر الساساني نفسه . ولعلّ اشهر هذه المجموعة بطة في متحف الهرميتاج بالروسيا وبغاء في مجموعة اندجودجيان

على ان دار الآثار العربية في القاهرة تحتفظ بين مقتنياتها بابريق بديع من البرونز يمتّ للفن الساساني بأوثق الصلات ، وان كان المرجح انهُ من صناعة القرن السابع او الثامن الميلادي . وقد عثر على هذا الابريق في ابي صير الملق حيث قتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني امية ، فحمل ذلك بعض العلماء على القول بان مثل هذا الابريق الثمين لا بد ان كان ملكاً لهذا الخليفة وعلى كل حال فان الابريق بديع الشكل ، وجميل بزخارفه المحفورة والمخرمة

وثمة تحف برونزية كثيرة يرجح انها من صناعة ايران في القرنين الحادي عشر والثاني عشر وعلى بعضها زخارف فيها رسوم آدمية . ومن هذه التحف مرايا ذات زخارف بارزة من رسوم مماثلة ، وتقوم على أرضية من فروع نباتية جميلة

أما في عصر السلاجقة فقد كان للتحف الفنية القوة والجلال اللذين امتازت بهما الصناعة الساسانية ، واللذين كانا يناسبان طبيعية السلاجقة أنفسهم، كما كان لها في بعض النواحي الاخرى دقة وظرف يناسبان اعتناقهم الاسلام وغرامهم الجديد بالادب والفن الايرانيين . فلا غرابة اذا وجدنا في هذا العصر تحفاً برونزية ساسانية الطراز والى جانبها بعض الاواني والتحف من الذهب والفضة ، ذات زخارف دقيقة مفرغة في الاناء . وفي مجموعة المسيو رالف هراري بك عدد من هذه الاواني والتحف ، فيها كؤوس وأباريق ومباخر وعلب وملعقة ، وعليها زخارف من طيور وحيوانات حقيقية وخرافية محفورة او مفرغة او بارزة

وفي القرن الثاني عشر الميلادي لم يقف بعض الصنّاع عند حفر الزخارف على التحف بل بدأوا في تكفيتها (تنزيلها) بالمعادن النفيسة ، ولا يزال أبدع مثال لهذه الصناعة اناء من مجموعة بوبرنسكي في متحف الهرميتاج ، صنع سنة ١١٦٣ ميلادية في مدينة هراة ، التي اشتهرت بصناعة التحف المعدنية كما اشتهرت بها أيضاً اصفهان وهمدان وشيراز

ومن المرجح ان طراز مدينة الموصل في صناعة التحف المعدنية قد نقل بعض أساليب هذه الصناعة عن ايران . بل الواقع ان الفرق بين الطراز الايراني والطراز الموصلي لا يزال غير واضح كل الوضوح . حقًّا اننا لا نعرف تحفاً معدنية يمكن نسبتها على وجه التحقيق الى ايران وتكون في الوقت نفسه من الابداع ودقة الصناعة بحيث يمكن مقارنتها بالاواني العديدة التي

صنعت في الموصل ، وعليها امضاء صانعيها ، ولـكن أسماء بعض هؤلاء الصناع تظهر عليها مسحة ايرانية حتى اننا لنتساءل اذا لم يكن هؤلاء الصناع ايرانيين هاجروا من ايران الى بلاد الجزيرة وأتيح لهم ان ينتجوا فيها أبدع التحف المعدنية في الفن الاسلامي

ومهما يكن من شيء فان صناعة التحف المعدنية تقدمت في ايران نفسها ، كما تقدمت في مدرسة الموصل . وكان من اهم مظاهر التطور في الصناعة الايرانية الاناقة والتهذيب في اشكال الاواني وبعض التغيير اللطيف في الزخارف . ثم بلغ هذا التطور اقصاه في عصر الاسرة الصفوية في بداية القرن السادس عشر ، وصارت زينة التحف المعدنية في تكفيتها بزخارف من خطوط او كتابات على ارضية ذات موضوعات زخرفية قوامها فروع نباتية دقيقة

***

ولا يفوتنا ان نذكر ان ايران كانت من اهم اقطار العالم الاسلامي في صناعة نصال السيوف من الصلب والحديد . وكانت هذه النصال تكفت (تنزّل) بالذهب والفضة في بعض الاقاليم الشرقية من ايران . ولا غرو فان اهل ايران كانوا منذ العصور القديمة مغرمين بالاسلحة . على أن ما وصل الينا من الاسلحة الايرانية ليس اقدم من القرن السادس عشر . وربما كانت الاسلحة المرسومة في الصور الفارسية من القرنين الثالث عشر والرابع عشر اكبر عون لنا على دراسة أنواعها قبل العصر الصفوي . اما اهم ما نعرفه من اسلحة الصفويين فخوذة باسم السلطان طهماسب في متاحف استامبول وعليها امضاء صانعها : « ابراهيم بن محمد رضا » . وفي المتحف البريطاني خوذات من عصر الشاه عباس ، وعليها كتابات منزلة بالذهب وزخارف نباتية جميلة . ومن مشهوري صناع الاسلحة في عصر الشاه عباس (١٥٨٧ — ١٦١٩) أسد الله الاصفهاني

***

أما صناعة الزجاج فقديمة في ايران وقد وصل الينا طبق زجاجي من العصر الساساني ومحفور فيه صورة طائر خرافي . كما وجد في مدينة الري تحف زجاجية ترجع الى القرنين العاشر والحادي عشر . ثم ازدهرت صناعة الزجاج في القرون التالية ولاسيما في شيراز وهمدان ونيشابور وسمرقند

وقد كان الحلي والجواهر شأن عظيم في الحياة الاجتماعية الايرانية ولاسيما في البلاط ، وفي ملابس الطبقات العالية فلا عجب ان تخصص في صناعتها مهرة الفنانين في زنجان وأصفهان وتبريز وسلطانية وغيرها من البلدان الصناعية في ايران

تأثير الفن الايراني وانتشاره

ولا يسعنا ان نختم هذه الكلمة عن الفن الايراني بدون أن نشير الى ما كان لهُ من عظيم التأثير على غيره من الفنون الاخرى . والواقع اننا — اذا استثنينا الفن الاغريقي — لا نكاد نجد

فنًا آخر قدّر له ان ينعم بمثل نفوذ الفن الايراني وانتشاره. ففي العصور القديمة كانت الاساليب الفنية الايرانية من أظهر الاساليب الفنية في الشرق الادنى . ويظن كثيرون من العلماء ان اتصال الفن الايراني بالصين يرجع الى العصر الكياني ، حين بدأت الاساليب الفنية في الصين وايران تلتقي في اواسط آسيا وتزحف كل منها الى البلد الآخر . ثم كانت غزوات الفرس في وادي النيل اكبر تعريف لاهل مصر القدماء بهذا الشعب الايراني وبأساليبه الفنية المختلفة التي كان لها بعض التأثير في العمارة وفي زخارف المنسوجات المصرية . كما بدأ اتصال ايران بروما منذ القرن الثالث الميلادي ، حين انتشرت تجارة الحرير مع الصين — واتصلت ايران بعد ذلك ببيزنطة اتصالاً كان لهُ صداهُ في الفنون ، على الرغم من الحروب الطويلة بين هاتين الماعليتين، اللتين كانتا تتنازعان السيادة في العالم المتمدين حينئذٍ

اما في الاسلام فقد أتيح لايران ان تكون في الصف الاول منذ سقطت الدولة الايوبية وتولى العباسيون ، كما صار الفن الايراني أبدع الطرز في الفنون الاسلامية ، وانتشرت التحف الايرانية من حدود الهند الى جبال البرانس ، ومن تركستان وجنوبي الروسيا شمالاً حتى اليمن وزنجبار جنوباً . وكان المهندسون والفنانون الايرانيون يدعون للعمل في سائر الاقاليم الاسلامية . بل ورحلت جالية منهم الى البندقية في القرن الخامس عشر وعلّمت أهلها الاساليب الايرانية في تكفيت المعادن وتجليد الكتب وصناعة الزجاج ، وانتقل كثير من هذه الاساليب الى سائر الاقطار الغربية على يد البنادقة

***

ولم يكن شأن الايرانيين خطيراً في الفنون الفرعية او التطبيقية فحسب . بل ان العمارة الاسلامية ايضاً مدينة لهم بكثير من الظواهر المعمارية التي أصبحت مميزة لها في العصور الوسطى . وليس هذا بمستغرب من شعب كانت له في العصور القديمة مدن كبرسبوليس وقصور كالقصور الساسانية استطاعوا فيها ان يحلوا كثيراً من مشكلات العمارة كالقباب والاسقف والاقبية والاعمدة والعقود

ومهما يكن من شيء فقد امتازت العمائر الايرانية في العصر الاسلامي بالعقود الايرانية وهي التي ينتهي اختناقها بخطين مستقيمين ، كما امتازت بكسوتها بألواح القاشاني التي نبغ أهل ايران في صناعتها . والمشاهد ان المساجد الايرانية عظيمة الشكل بوجهاتها المستطيلة التي يحف بها من الجانبين مأذنة أسطوانية الشكل دقيقة الطرف في أعلاها ولها شرفة تجعلها تشبه الفنار

ولكن موضوع العمارة الايرانية واسع وطريف لا يتسع المجال هنا للتطرق اليه . فحسبنا الآن هذه الصفحات التي استعرضنا فيها ، استعراضاً سريعاً وموجزاً ، ما وصل اليه شعب ايران من مهارة في الفنون بفضل استعداده الفطري ودأبه على العمل وسعيه الى الكمال

ايران الحديثة

ووجوه نهضتها الباهرة

[ليس الغرض من هذا البحث بسط مفاخر الحضارة الايرانية القديمة في العلم والفن والادب والفتوح الحربية ، فلها في جميع أبواب الحضارة والثقافة آيات عجيبة يرى القارىء طرفاً يسيراً منها في باب الفنون في المقال السابق . ولكننا نريد ان نعنى هنا ، بالنهضة الايرانية الحديثة ، في عهد الزعيم الكبير الشاه رضا بهلوي ، بعد ان كانت الدولة الايرانية قد سقطت في العهد السابق الى دركات التفكك والاضطراب والخضوع للاجانب . فهي تمثل في نهضتها الحديثة أسطورة الفينكس المنبعث حياً جديداً من رماده]

كانت بلاد ايران من نحو قرن من الزمان قانعة راضية ، تنتج ما تحتاج اليه من طعام وتكتفي بما تصنعه أيدي أبنائها من المصنوعات الفنية . ولكنها طمعت في أوائل القرن التاسع عشر باستعادة ولاية جورجيا من روسيا فأخفقت وحملت على عقد معاهدة توركومنشاي سنة ١٨٢٨ وهي التي ثبتت فيها قواعد الامتيازات الاجنبية وحتمت عليها القبول برسوم جمركية على الوارد اليها والصادر منها لا تزيد على خمسة في المائة عيناً . وما لبثت الدول الاخرى حتى استندت الى مبدأ « أولى الدول بالمراعاة » في تطبيق القواعد المنطوية في المعاهدة الايرانية الروسية . فكان من اثر ذلك ان زاحمت الواردات الغربية الى ايران ، ما كان يصنع بأيدي ابنائها . وما كان في وسعهم ان يعودوا الى الزراعة ، لان ما تنتجه البلاد حينئذٍ كان كافياً بل وفوق الكافي لسكانها . اما التصدير فكان شاقاً لقلة وسائل النقل وبعد المسافات . فلم يبقَ أمام البلاد الا الانصراف عن الصناعات الوطنية الى انتاج المواد الخام التي تحتاج اليها المصانع الاوربية . فأسفر كل ذلك ، في عهد اسرة قاجار الضعيفة ، عن سقوط ايران في مهاوي الانحطاط السياسي والاقتصادي سقوطاً كاد ان يقضي على الطبقة المتوسطة

فلما اهلَّ القرن العشرون كان ميزانها التجاري منحرفاً ضدها بمقدار ٣٠ في المائة وكان كثير من عقاراتها مرهوناً للبنوك الاجنبية . وانحطت زراعتها وصناعتها الوطنية وهبط عدد سكانها . ثم كانت ثورة سنة ١٩٠٦ فأنشىء مجلس نيابي ولكن الفساد السياسي كان متأصلاً فلم يستأصله الانقلاب الى حكم نيابي . وكان كثير من رجال الحكم يرتشون من الاجانب (مجلة الشؤون

الخارجية يناير ١٩٤١ ص٢٩٦ وعليها الاعتماد في معظم هذا المقال) . فلما عقد الاتفاق الروسي البريطاني سنة ١٩٠٧ كان في طيّاته مايشير الى احتمال تقسيم ايران على نحو ما قسمت بولندة . وأما اعمال الاصلاح المرتقبة فكانت على الغالب لاتتعدى مرحلتها الاولى على نحو ماتم عند ما اخرج مورجان شوستر من البلاد اجابة للمساعي الروسية

فلما نشبت الحرب العامة سنة ١٩١٤ أُنكر على دولة ايران حقوق المحايدين التي ينص عليها القانون الدولي . فلما ارتفع صوت الرئيس ولسن منادياً « بحق تقرير المصير » انبعث رجاءٌ جديد في صدور الايرانيين . ولكن موقعهم الجغرافي ونضال المصالح الاوربية المختلفة في تلك البلاد قضى على هذا الرجاء في مهده . وغدت المسألة الاولى بعد الحرب ، اي الدول تفوز بالنفوذ الفعَّال في تلك البلاد بعد خفضها الى مستوى مستعمرة ، أتكون روسيا الشيوعية ام بريطانيا الرأسمالية

والجواب الذي خطَّهُ الشاه رضا بهلوي في سماء بلادهِ هو هذا — لاروسيا ولا بريطانيا — . والواقع ان التنافس بين الدولتين اسدى خدمة الى قضية الحرية والاستقلال في ايران . ففي ٢٧ يوليو سنة ١٩١٨ اعلنت الحكومة الايرانية الغاء المعاهدات القائمة على غير مبدإ المساواة . وسلَّم البولشفيك بانتهاء المعاهدات الروسية الايرانية جيمعاً وتخلَّوا عن الامتيازات والديون التي كانت لروسيا في ايران قبل عهدهم . اما بريطانيا فكانت اموالها المثمَّرة في تلك البلاد اعظم جداً من اموال روسيا فخشيت تقدم روسيا الى الهند عن طريق ايران فحملت ايران على توقيع معاهدة ، لو نفذت لوضعت ايران تحت اشراف لندن . ولكن انقلاباً وقع في ٢١ فبراير سنة ١٩٢١ فتقلَّد جماعة من الوطنيين مقاليد الحكم وندَّدوا بالمعاهدة البريطانية . وكان عملهم هذا قرعة مدوّية في بوق الحرية الايرانية . ومنذ ذلك الحين تمكنت حكومة ايران من اتقاء نفوذ روسيا بمقابلتهِ بنفوذ انكلترا وبالعكس . والنجاح في هذه الخطة يعزى الى شخصية رضا خان الذي نشأ من صفوف الجيش الى مقام وزير الحربية فرئيس للوزارة فرئيس موقت للحكومة الموقتة التي اعلنت على اثر اسقاط اسرة قاجار في سنة ١٩٢٥ ثم اعتلى العرش في دسمبر سنة ١٩٢٥ بمشيئة الامة وانشأ اسرة بهلوي الشاهانية في ايران . وقد كان غرض الشاه رضا بهلوي واضحاً لناظريه منذ حمل السيف في خدمة بلادهِ ، فلما بلغ المقام الذي يؤهله للعمل اتجهُ الى هدفين اساسيين اولها السيادة التامة داخل البلاد والاستقلال التام في الخارج ولكنهُ ادرك كذلك انهُ اذا حققت ايران استقلالها المنشود فهي لاتستطيع المحافظة عليه الاَّ اذا نظمت نفسها وأخذت بأساليب أوربا

ما كاد رضا خان يزيل من طريقه العقبات السياسية الاجنبية حتى اتجه الى تأكيد سلطة الحكومة المركزية ، على جميع انحاء البلاد ، بعد ان كانت المناطق البعيدة عن العاصمة في حالة فوضى منذ منتصف القرن الماضي . وادرك انه لا يستطيع تحقيق هذا الغرض الاَّ اذا كان

له قوة عسكرية في وسعه الاعتماد على ولائها ، فيحلها محل الوحدات العسكرية المتوازية التي بقيادة الضباط الاجانب . فأنشأ في آخر سنة ١٩٢١ جيشاً ايرانياً قلباً وقالباً ووضعه تحت سلطة وزير الحربية ثم تولى بنفسه قيادة هذا الجيش فأخضع به البلاد كلها . فما اشرقت سنة ١٩٢٥ حتى كانت سلطة الحكومة المركزية مبسوطة على كل ايران . وفي تلك السنة قرر المجلس النيابي وجوب تسجيل المواليد والوفيات وعقود الزواج . وسُنّ قانون يجعل الخدمة العسكرية اجبارية ومدتها سنتان مستثنياً منها خريجي الجامعات

وقد اطردت الزيادة في عدد رجال الجيش الايراني حتى بلغت في السنة الماضية بحسب ملحق دائرة المعارف البريطانية (١٩٣٨) ١٠٠ الف جندي . وجميع ضباط الجيش ايرانيون وثلثهم تلقى علومه العسكرية في فرنسا والمانيا . وهناك قوة عسكرية لصيانة الامن العام يطلق عليها اسم « الامنية » عدد رجالها نحو ١٢ الف جندي وضابط . وقد روى لنا من سافر الى ايران ان رجالها يرتدون ملابس زرقاً فاتحة وقبعات كقبعات الجنود الفرنسيين وهم يسيرون على الطرق ازواجاً يحرسونها . ولايران علاوة على ذلك اسطول بحري صغير في خليج ايران تلقى ضباطه تدريبهم البحري في ايطاليا ، وثمة كذلك نواة لسلاح جوي . يقدّر عدد طياراتها بمائة وخمسين طيارة حديثة معظمها على ما يقال من طراز « هوكر » و « ده هافيلاند »

وقوى الدفاع جميعاً خاضعة لاشراف الشاه المباشر ولا سيطرة للمجلس النيابي عليها . والانتظام في الجيش محبّب للشعب ولا سيما الشبان لما يتاح لرجاله من وسائل التعلم والتثقف ولما له من مقام واحترام احرزهما منذ تولى الشاه اصلاحه وتعزيزه وجعله « يده اليمنى » في انهاض البلاد

وتلا اصلاح الجيش وتنظيمه الاصلاح القضائي . ففي ١٩٢٧ حلّت وزارة العدلية جميع المحاكم القديمة وشرعت في وضع قوانين جديدة واصدارها . فالقانون المدني ينص على حماية الملك والعقود وينظم الزواج والطلاق ويمنع المتعة . والقانون الجنائي ينص على حماية الحريات الخاصة وان كان الحكم أميل الى النوع الدكتاتوري . والقانون التجاري روعي في وضعه تنظيم الاعمال الاقتصادية والمالية فهو يقضي مثلاً بفرض نظام عام لامساك الدفاتر ويمنح الشركات « شخصية قضائية »

اما التعليم والادارة فتستمد ايران ارشادها فيهما من فرنسا . ذلك بان التركيز الاداري الذي اشتهرت به فرنسا يلائم احوال ايران والثقافة الفرنسية لها مقام خاص عند الايرانيين . وفي كل سنة يعود طوائف من الشبان الايرانيين الذين تلقوا العلم في فرنسا اما على حسابهم الخاص واما على حساب الحكومة ، للاشتغال بتوسيع نظام التعليم . فعدد المدارس تضاعف منذ سنة ١٩٢٢ والعناية متجهة بوجه خاص الى تعليم الحرف والصناعات والى ربط الخدمة العسكرية بالواجبات الوطنية . وتكثر المدارس الليلية لخفض مستوى الامية في البلاد من ناحية ولتدريب موظفي الحكومة

تدريباً يمكنهم من الترقي في مناصب الحكومة من ناحية أخرى . ولا تزال المعاهد العلمية الاجنبية مثل كلية ستوارت التذكارية في اصفهان وكلية المرسلين الاميركيين في طهران تخرج شباناً مزوّدين بما يلزم من الكفاءة والوطنية لخدمة بلادهم

اما المشكلة الاقتصادية المعقدة التي واجهها الشاه رضا بهلوي في إيران ، فكانت اصلاح الحياة الاقتصادية في البلاد بعد ان أصابها الخلل والاضطراب على أثر دخول البضائع الاوربية الرخيصة اليها ومنافستها للصناعات الوطنية

أما الصناعة فلا تزال في مهدها . فأكبر مصنع في البلاد للنسيج لا يزيد عماله على ٥٠٠ عامل . وصناعة السجاد التي يصدَّر ٩٥ في المائة من منتجاتها اصيبت اصابة شديدة في اثناء الازمة الاقتصادية العالمية ورفع الرسوم الجمركية في مختلف البلدان ولا سيَّما في الولايات المتحدة الاميركية ، التي كانت تبتاع نصف ما تصدرهُ ايران من السجاد . والزراعة لا تزال عمل ٨٠ في المائة من أهل البلاد بما فيهم القبائل الرحَّالة . وفي البلاد مصادر معدنية ثمينة ولكنها لم تستغلّ إلاَّ قليلاً — اذا استثنينا النفط — وأهمها الحديد والفحم والنحاس والرصاص والمنغنيس والرخام والنيكل والكوبلت

وقد بلغ ما استخرجتهُ « شركة الانجلو برشان » من النفط من منطقة امتيازها في سنة ١٩٣٧ تسعة ملايين ونصف مليون من الاطنان

ثم هناك زراعة الخشخاش الذي يستخرج منهُ الافيون . فمن نحو اربعين سنة اضطرت ايران ان تعنى بزرع نبات ينتج محصولاً يسهل نقلهُ فأقبلت على زراعة الخشخاش حتى بلغ ٥ر٧ في المائة من الدخل العام و١٦ في المائة من الصادرات في سنة ١٩٢٦ ، من هذه الزراعة

ولما كانت عصبة الامم معنيَّة بالسيطرة على تجارة الافيون في مصادره ، أوفدت في سنة ١٩٢٧ لجنة الى إيران لدراسة الموضوع فيها . فقالت اللجنة في تقريرها ان محصول الخشخاش محصول يلائم ايران كلَّ الملاءمة . فهو يزرع في الخريف ولذلك يروى بغير عناءٍ عندما يكثر الماء . وقيمة ما يجنى منهُ من الفدَّان الواحد تزيد اربعة اضعاف على ما يجنى من الحنطة ، فلذلك يسهل على أصحابهِ ان يتحملوا نفقات النقل العالية ، ثم انهُ يصدَّر ولذلك يمكن البلاد من استعمال ثمنهِ في توفية ثمن ما تستوردهُ من الخارج . ثم اقترحت اللجنة ان توجه الحكومة الايرانية عنايتها الى شق الطرق وخزن المياه وتحسين الاساليب الزراعية وانعاش الصناعة الكاسدة ، وان يتاح للحكومة الايرانية ثلاث سنوات للبحث عما يصحّ ان يحلَّ محلَّ الخشخاش كمحصول زراعي ثم تشرع في نقص المساحة المزروعة منهُ ١٠ في المائة كل سنة بعد ذلك . فأنشأت الحكومة الايرانية « احتكار الافيون الحكومي » وجعلت زراعة الخشخاش خاضعة لرخص خاصة وضرائب خاصة وحظرت زراعتهُ في أراضٍ جديدة ووضعت برنامجاً قضت بواسطتهِ على منع زراعة الخشخاش في

مناطق معينة. ومع ان الحكومة اعفت من الضرائب، تلك الاراضي المحولة من زراعة الخشخاش الى زراعة حاصلات اخرى، لم يكن ثمة بدٌّ من ان يكون هذا التحويل بطيئاً . فليس بالسهل ان يتحول الفلاح من زراعة نبات معين ألفهُ وألف اساليب العناية بهِ الى زراعة نبات جديد ، دع عنك الاستيثاق من الملاءمة المفروضة بين الارض والنبات الجديد . وصادرات الافيون الايرانية آخذة في النقص المطرد حتى ان الجمعية العمومية لعصبة الامم وضعت قراراً خاصًّا اعربت فيهِ عن تقديرها لما ابدتهُ الحكومة الايرانية من التعاون وحسن النية في هذا الصدد

والحالة من الناحية المالية خيرٌ منها من الناحية الاقتصادية . فقواعد الاصلاح المالي الذي بدأه الخبير الاميركي الدكتور ملسبو Millspaugh في سنة ١٩٢٢ لا تزال هي هي، قواعد السياسة المالية المتبعة الآن وأهمها السعي سعياً حازماً لتوفية النفقات من الدخل العادي . ويؤخذ من احصاءات سنة ١٩٣٤ ان ٢٠٫٤ في المائة من الميزانية جاء من الرسوم الجمركية و٢٢٫٤ في المائة من شركات الاحتكار (السكر والشاي وعيدان الثقاب والتبغ والافيون والقطن وغيرها) و ١٧٫٦ في المائة من الامتيازات الممنوحة للاجانب . اما النفقات فمنها ٣١٫٤ في المائة للجيش والدفاع الوطني و ٥٧٫٣ في المائة للادارة. وقد بلغت الميزانية في سنة ١٩٣٧ مبلغ ١٥٫٦٢٥٠٠٠ جنيه للدخل و ١٥٫٦٠٠٠٠٠ جنيه للنفقات . ويشهد جميع الكتاب الذين زاروا ايران حديثاً ان موازنة الميزانية من ابواب الدخل العادي لمواجهة النفقات التي تقتضيها مشروعات الحكومة المتعددة، عمل عظيم حقًّا

واهمّ ما تحتاج اليهِ البلاد من الناحية الاقتصادية الآن تمهيد طرق المواصلات . والحكومة الحالية جادة في هذا العمل وهي تنفق على مشروعاتها من مال ايران نفسها بغير ان تلجأ الى عقد قروض اجنبية . ومن اهم هذه الطرق انشاء سكة حديد طولها ١٥٠٠ كيلومتر من خليج ايران الى بحر قزوين طرفاه بندر غازي على بحر قزوين وخور موسى على خليج ايران . والظاهر ان الاعتبارات العسكرية والسياسية مقدمة على الاقتصادية في مد هذه السكة ، ولذلك قد تنقضي سنوات قبل ان تصبح هذه السكة مصدراً للدخل ، ولكنها ستكون ذات شأن عظيم في حفظ الامن العام وتعزيز وسائل الدفاع

ولعلَّ الغاء الامتيازات الاجنبية أشهر مآثر الشاه رضا بهلوي في اصلاح ايران وتعزيز سيادتها واستقلالها . ففي سنة ١٩٢١ كانت الدول الاجنبية في ايران فريقين : فريقاً يتمتع أبناؤه بالامتيازات وآخر خاضع للمحاكم الايرانية كروسيا وتركيا وافغانستان ودول أوربا الجديدة . وكانت دول الفريق الثاني برمةً بهذا التمييز . ولذلك جعل الروسيون يسعون الى الفوز بالعودة الى نطاق الامتيازات لان ذلك يسهّل عليهم بث دعايتهم في ايران ومنها الى حدود الهند .

أما بريطانيا فكانت تؤثر الخضوع للمحاكم الايرانية على التسليم بما يمكن روسيا من بث دعايتها على حدود الهند. فلم تقم عقبة ما من ناحيتها، دون رغبة الحكومة الايرانية في الغاء الامتيازات

وقد الغيت الامتيازات فعلاً في ١٠ مايو سنة ١٩٢٨ . فكان ذلك فوزاً سياسياً كبيراً لحكومة طهران واحتفل بذلك اليوم احتفالاً قومياً . وعقدت بعد ذلك معاهدات مع الدول المختلفة أعترفت فيها جميعاً بمساواة ايران لها. ولكن نص في معظم المعاهدات الجديدة على استثناء الاجانب المقيمين في ايران من مصادرة أملاكهم وحملهم بالقوة على العمل للدولة او الاشتراك في قروضها وما أشبه . وبالغاء الامتيازات استعادت ايران حريتها في ما يتعلق بفرض الرسوم الجمركية وللحال شرعت في المفاوضات لعقد معاهدات تجارية جديدة . وانتهت جميع هذه المساعي في ٢٥ فبراير سنة ١٩٣١ الى سن قانون خاص « باحتكار التجارة الخارجية » ففرضت الحكومة نظاماً من الحصص على الوارد اليها لكي تتمكن من تصحيح الميزان التجاري بين الصادر والوارد

ومما يتبع الاصلاح الاقتصادي والمالي ، الاصلاح الاجتماعي ، من حيث بث الروح الوطنية لتكون الرابطة القوية بين ابناء ايران وتحرير النساء والاستغناء عن الموظفين والخبراء الاجانب وما يتعلق بالملابس وغيرها

هذه الاعمال مكنت الشاه رضا بهلوي من تعزيز سلطة الحكومة المركزية وكسر شوكة السيطرة الاجنبية على مرافق البلاد . ومع ما أحرزته الحكومة الايرانية من انتصارات باهرة في هذه الميادين لا يزال يتعين عليها ان تتقي الضغط الروسي عليها بمقابلته بالضغط البريطاني ، وان تتقي الضغط البريطاني بمقابلته بالضغط الروسي

وجميع العوامل السياسية الخارجية ، سواء أدولية كانت أم خاصة بها ، تؤاتيها على هذا

فقد كانت خطة روسيا السوفيتية فى بادىء الامر ان تحارب الرأسمالية فى الغرب ، باضعاف الامبريالزم الاوربي فى الشرق . ومع ان شيوعيي روسيا يزعمون أنهم راغبون عن التوسع الامبراطوري ويميلون الى الشعوب المستعمرة او التي في حكم المستعمرة ، لا يمكننا ان نعزو سلوكهم في ايران اذ قبلوا الغاء الامتيازات والديون القيصرية السابقة ، الى روح الايثار فقط ، بل ان جانباً منه لا بدّ ان يعزى الى رغبتهم في خضد شوكة بريطانيا في الشرق الاوسط والهند . ثم أنهم كانوا يرغبون في ان يجتذبوا اليهم جميع الشعوب المجاورة التي بينها و بين بعض القوميات الداخلة فى اتحاد الجمهوريات السوفيتية صلة قرابة . وهذا هداهم الى انشاء كتلة من الدول فى الشرق الاوسط اذ عقدوا معاهدات مع تركيا وايران وأفغانستان فى سنة ١٩٢١

ولكن الروسيين خسروا فى حلبة الاعمال الاقتصادية ما كسبوه فى ميدان السياسة ذلك بأن اعمال « قسم احتكار التجارة الخارجية الروسية » أثارت مقاومة تجار ايران واحتجاجهم وانهالت

على الحكومة الايرانية في سنة ١٩٣٤ مطالب التجار بأن تتوقف الحكومة عن معاملة روسيا او ان تجعل «قسم احتكار التجارة الخارجية الايرانية» شديداً كصنوه الروسي

ثم جاء النزاع بين ستالين وتروتسكي ففاز ستالين ، وتغلب القول بتطبيق الشيوعية في روسيا أولاً على الدعوة الى الثورة العالمية . ولذلك جعلت حكومة روسيا تكف عن مساعيها السياسية في البلدان المجاورة لها وقد انتهى هذا الاتجاه الروسي القائم على « المعيشة بسلام والتعاون مع الدول الرأسمالية » الى انتظام روسيا في عصبة الامم في سنة ١٩٣٤

ولكن على الرغم من ذلك لا تزال عناية روسيا بالشرق عظيمة ، بل لعلها اعظم الآن مما كانت . ومتتبعو تقدم روسيا الصناعي يؤكدون ان نصف ما انفقته الحكومة الروسية في مشروع السنوات الخمس الثاني أنفق في البلدان الواقعة الى الشرق من جبال الاورال . فانشاء المصانع الكبيرة في تلك المنطقة لا بد ان يفضي عاجلاً أم آجلاً الى البحث عن أسواق لمنتجاتها في البلدان المجاورة . إلا ان روسيا موجهة الآن معظم عنايتها الى الغرب والشرق الاقصى . فاهتمامها بالشرق الاوسط قليل ، وفي هذا فرصة متاحة لايران لتعزز مكانتها وتؤيد استقلالها

أما بريطانيا العظمى قد شقت طريقاً جديداً في علاقاتها بايران بعد ان سوّي الخلاف على مشكلة شركة النفط (الانجلو برشان) في سنة ١٩٣٣ . ويمتد صك الامتياز الجديد الذي وقع في ابريل من سنة ١٩٣٣ ستين سنة وأقل نصيب تناله الحكومة الايرانية من أرباح الشركة هو ٧٥٠ الف جنيه في السنة — وقد بلغ في السنة الماضية نحو ٣ ملايين من الجنيهات — يضاف اليها مبالغ أخرى مثل مبلغ ١٠ آلاف جنيه لتعليم الايرانيين شؤون صناعة النفط . ثم ان السر جون كادمن المدير المقيم في طهران قام باسم الشركة بأعمال من شأنها أن توثق عرى التعاون بين الشركة وحكومة طهران . وقد عنيت الشركة باقامة مصنع لتكرير البترول في كرمنشاه يدفع اليه النفط بالضغط من حقل خانقين الواقع على حدود ايران العراقية . وقد كان نفط باكو الروسي محتكراً للسوق في شمال ايران لغلاء أجور النقل من عبادان على خليج ايران الى الشمال . فاقام مصنع كرمنشاه يمكن الشركة البريطانية من منافسة النفط الروسي في تلك المنطقة.

واذا صرفنا النظر عن النزاع بين بريطانيا وايران على السيادة على جزر البحرين ، كان في وسعنا ان نقول ان علاقات الحكومتين متسمة بسمة التفاهم والتعاون. وعلاوة على ذلك فبريطانيا تؤيد توثيق عرى التعاون بين دول الشرق الاوسط المتمثلة في ميثاق سعد آباد (طهران) الذي عقد في السنة الماضية بين تركيا وايران والعراق وافغانستان

ولعل اكبر نصر سياسي احرزته ايران الحديثة هو تحويل تركيا عدوتها القديمة الى صديق حميم . فقد كانت العلاقات بينهما على اثر انتهاء الحرب الكبرى مشوبة بالجفاء الشديد فلم تعقد

بينهما معاهدة صداقة حتى سنة ١٩٢٦ ثم تلاها اتفاق على التعاون الاقتصادي في سنة ١٩٢٨ فلما عينت الحدود في سنة ١٩٢٩ بين الدولتين اخذ اقطاب البلادين يتبادلون الزيارات الودية واهمّ اشهرها زيارة الشاه لانقره واستانبول في شهر يونيو من سنة ١٩٣٤

وفي سبتمبر من تلك السنة ، نزلت ايران عن ترشيح نفسها للمقعد الخالي في مجلس العصبة لكي لا تنافس تركيا عليه فردّت تركيا التحية بمثلها في سبتمبر من سنة ١٩٣٧

وليس بين ايران وافغانستان ما يثير مشكلة ما . فقد كان الافغانيون جزءاً من الامبراطورية الفارسية ولا يزالون يتكلمون اللغة الفارسية . نعم ان مسألة الحدود بين الدولتين احدثت شيئاً من الجفاء في سنة ١٩٢١ ولكن الدولتين قبلتا تحكيم تركيا فعينت لجنة لتخطيط الحدود وذهبت الى المنطقة الخاصة في يونيو سنة ١٩٣٤ وتمكنت من حلّ الخلاف وعلى اثر ذلك دخل الفريقان في ميثاق سعد اباد (طهران) سنة ١٩٣٧

أما ايران والعراق فقد كان بينهما فتور نشأ عن توقف حكومة طهران عن الاعتراف بالدولة العراقية الجديدة واشتراطهم لذلك منح الرعايا الايرانيين النازلين في العراق حق التمتع بالامتيازات الاجنبية واباء الحكومة العراقية عليهم ذلك . على ان مسألة الاعتراف قد حلت بعد ذلك في سنة ١٩٣١ عقب زيارة الملك فيصل لطهران في شهر ابريل من تلك السنة فقد اعترفت الحكومة الايرانية بالدولة العراقية وعقدت معها اتفاقاً وقتياً وتبادلت معها الممثلين السياسيين

ولما جاء دور البحث في تنظيم العلاقات السياسية والاقتصادية اثار الايرانيون مسألة الحدود مطالبين بتعديل التحديد ومعلنين انهم لا يعترفون باتفاق الحدود الذي عقد في سنة ١٩٢٣ بين ايران والدولة العثمانية بحجة ان برلمانهم لم يقره ، وأصرّ العراقيون على رفض طلب التعديل لان الاتفاق قديم ولانهُ نفذ فعلاً

ولما تمسك الايرانيون بموقفهم وأبوا التساهل مع العراقيين رفع وزير الخارجية العراقية في سنة ١٩٣٣ الامر الى عصبة الامم طالباً منها التوسط لازالة الخلاف وحمل ايران على الاعتراف بعهودها فانتدبت العصبة السنيور الويزي مندوب ايطاليا لدرس الخلاف ثم عاد الفريقان في سنة ١٩٣٥ فسحبا بالاتفاق القضية على ان يحل بينهما باتفاق مباشر وتم ذلك فعلاً فعقدت في شهر يوليو سنة ١٩٣٧ سلسلة اتفاقات بينهما حلت بموجبها جميع المشكلات ونظمت العلاقات السياسية والاقتصادية والقضائية بين البلادين على اساس ثابت . ثم دخل الفريقان معاً في الميثاق الشرقي الذي عقد في سعد اباد (طهران) عقب ذلك

واستقبلت علاقات الفريقين بعد هذا الاتفاق دوراً جديداً من الود والاستقرار وهي على افضل ما يرام في الوقت الحاضر



الجزء الثامن من الاكليل (١)

ترجمه الانكليزية — بقلم نبيه امين فارس — ثمنها ٥٠ قرشاً —مطبعة جامعة برنستون

نشرنا من أشهر مقالاً بقلم ادورد جرجي موضوعهُ « العلوم العربية في برنستن » أشار فيهِ الى المشروع الذي اخذ بهِ الدكتور فيليب حتي رئيس دائرة العلوم الشرقية في تلك الجامعة العريقة وهو نقل أمهات الكتب العربية الى اللغة الانكليزية وطبعها . وترجمة الجزء الثامن من الاكليل للهمداني من بواكير هذا المشروع العلمي العظيم الشأن

والهمداني من علماء جنوب بلاد العرب المشهورين ولد في صنعاء ولم يعرف تاريخ ميلادهِ وضرب في شبه الجزيرة العربية ثم عاد الى اليمن ونزل في صعدة . ثمَّ سجن في صنعاء وكان سجيناً في عهد الامام الزيدي أحمد الناصر (حوالي ٣١٥هـ ٩٢٧م) ومات في سجنهِ . وأشهر ما اشتهر بهِ الهمداني الجغرافية والاسفار ثم الشعر والنحو والانساب والتاريخ . وكتاب « صفة جزيرة العرب » من أقدم وأتم الكتب التي يعتمد عليها في دراسة بلاد العرب ولا سيَّما جغرافية البلاد وصلة قبائلها بعضها ببعض وبوجهٍ خاص ما كان منها خاصًّا بوطنهِ جنوب بلاد العرب

وجنوب بلاد العرب كان على حضارة راقية ليس لنا من سبيل الى دراستها الاَّ بعض الكتابات الحميرية التي كشفها جوزيف هاليفي (١٨٦٩ — ١٨٧٠) وادوار جلازر (١٨٨٢ — ١٨٩٤) إلاَّ ان الهمداني كان من علماء الاسلام الذين عنوا بتلك الحضارة وكتب عنها ومن هنا ما للجزء الثامن من الاكليل من شأن كبير في دراسة احوال تلك البلاد قبل الاسلام

واذا ذكرنا الجزء الثامن من الاكليل فلأَنهُ لم يصل الينا من أجزاء ذلك السفر النفيس الاَّ جزآن الثامن والعاشر ، وأما الاجزاء الباقية فقد تطرقت اليها أيدي الحدثان . والثامن الذي يهمنا في هذه الكلمة يكشف لنا « ان قدماء اليمانيين بلغوا اقصى الغاية في الرياضيات وجرّ الاثقال لانهم عرفوا كيف يشيدون قصوراً نفيسة متعددة الطباق حتى بلغت عشرين سقفاً ويقاوم بناؤها مرَّ الايام وطوارىء الحدثان . . . ثم انهُ يبين لنا كيف كانوا ينحتون تماثيل البشر والحيوانات والطيور ، ويطلعنا على إحكامهم عمل الآلات المتحركة من نفسها وكذلك الساعات المائية العظيمة المعروفة بالقطارات . . . » (٢)

ولا تزال قصورهم وسدودهم مضرب الامثال في اللغة العربية الى يومنا هذا

---

(١) The Antiquites of South Arabia, VIII Book of Al-Hamadani's Al-Iklil, Nabih Amin Faris, Princeton University Press 1938, $2. 50

(٢) راجع ملحق طبعة الكرملي للجزء الثامن من الاكليل

وقد حفظ من الجزء الثامن من الاكليل نسخ متفرقة ففي المتحف البريطاني نسخة كتبت سنة ١٦٧٦ وفي المكتبة الملكية ببرلين نسخة يرجع تاريخها الى سنة ١٦٧٤ . وكان العلاَّمة مولر D. H. Muller قد اهتمَّ بنسخة المتحف البريطاني فنشر جزءاً منها مع ترجمته باللغة الالمانية في سنة ١٨٧٩ . ولكن احداً لم ينشر نسخة كاملة من الجزء الثامن من الاكليل قبل الاب انستاس ماري الكرملي وذلك في سنة ١٩٣١ (راجع مقتطف ابريل ١٩٣٢ صفحة ٤٨٧)

وكان الدكتور حتي مهتمًّا باصدار نسخة تامة من هذا السفر النفيس بعد مقارنة المخطوطات المختلفة فلما ظهرت نسخة الاب الكرملي عدل عن ذلك ، ولكن مترجم هذا الكتاب لا يزال يرى ان نسخة الكرملي لا تغني عن نسخة اخرى اوفى تحقيقاً وتدقيقاً وشرحاً واسناداً

وكان الباعث على عناية الدكتور حتي في سنة ١٩٢٥ بالاكليل انهُ عثر على نسخة كاملة من الجزء الثامن في مجموعة مراد البارودي بلبنان . ثم بيعت هذه المجموعة الى الثري الاميركي روبرت جاريت واودعها في خزانة جامعة برنستون التي تخرَّج فيها . وعلى نسخة الاب الكرملي المطبوعة ومخطوطة البارودي وما نشرهُ مولر اعتمد نبيه امين فارس في اخراج الترجمة الانكليزية مشيراً في هوامشه الى نسخة الكرملي بالحرف K والى مخطوطة البارودي بالحرف B والى ما نشره مولر بالحرف M

وقد نبَّه في الهوامش على القراءات المختلفة وسعى الى تعريف كل اسم علم ومكان وحيث عجز عن تعريف بعضها أشار الى ذلك في الهوامش أيضاً . كما انهُ اضاف حواشي جغرافية وتاريخية ولغوية حيث رأى لزومها لتوضيح المتن ولم يحجم عن تجاوز ترجمة بعض الاشعار « كمراثي حمير » لاسباب وجيهة ولكنهُ أشار الى كل حذف او تعديل في مكانه . وامله ان تسدَّ الترجمة الانكليزية الثغرة الى حين ظهور نسخة عربية وافية

فالمتن المترجم في هذا الكتاب هو ما اصطفاهُ المترجم بعد المقابلة بين النسخ الثلاث وتدبُّر سياق المعنى والقرينة ، فاذا اختار قراءة إحدى النسخ أشار الى القراءتين الاخريين في الهامش ، واذا اصطفى قراءة خاصة به أشار الى ذلك أيضاً فيورد قراءات النسخ الثلاث ثم يتبعها بكلمة و« يرجَّح انها كذا » . ففي الهامش ٣٥ صفحة ١٤

يقول (الكرملي : ذات خراب — ملر والبارودي : ذات خروب — ويجب ان تكون ذات جروب اي حجارة) وكان هو قد اصطفى في المتن الانكليزي الكلمة التي معناها حجارة

وفي الهامش ٦ صفحة ٢٩ اصطفى قراءة نسخة الكرملي مفضلاً اياها على قراءة البارودي وقراءة مولر وهما واحدة . وفي صفحة ٣٤ سطر ١٩ فضَّل ما ترجمته . القصر القديم على قراءة الكرملي والبارودي وهي القصر القديم وقراءة ملر وهي النص القديم

وعلى هذا النسق من التحقيق اخرجت الترجمة الانكليزية لهذا السفر العربي النفيس

كتاب الشذرات

At Random

تأليف الدكتور أحمد زكي ابو شادي

للدكتور أحمد زكي ابو شادي حيوية فذة نادرة ونشاط لا يكل فهو اذا فوجيء من ناحية بمانع من الموانع تسرَّب من ناحية أخرى فعل الماء المتدفق الذي يتلمس كل منحدر وثغرة . وللدكتور أمل كبير في الانسانية قلما يعدله امل وهو ليس أمل الجاهل لحقائق الحياة فانهُ قد يذكرها بسخط يدل على معرفتهِ مقدار تغلغل النقص في النفس البشرية ولكنك اذا قرأت كتابهُ هذا ولا سيما الاجزاء التي يصف فيها الدكتور الدواء للانسانية السقيمة المعذبة نسيت أنهُ يعرف مقدار النقص وما يقيمهُ من العراقيل والموانع . وخيل اليك خطأ انهُ ساذج لهُ أمل كبير في مستقبل الانسانية لانه لا يدرك العراقيل. ولكن هذا كما قلت من خطإ القارىء فالدكتور قد كان طبيباً للاجسام قبل ان يكون طبيباً للنفوس وللانسانية عامة وهو يعرف ان بين المرضى العنيد الذي لا يطاوع الطبيب ولا بد انهُ قد رأى بين مرضاه من لم يفلح معه طب او دواء والطبيب الشاب في اول عهده بالطب قد يكون عالماً كبيراً وخبيراً بمهنتهِ فيأمل ان يتغلب على مقاومة المريض بعلمه وخبرته ولكنهُ لا يضع أمام بصيرتهِ خطة واضحة للتغلب على عناد المريض ومقاومته والدكتور المؤلف طبيب قديم وهو يصف العلاج ولا بدَّ انهُ قد عرف كيف يتغلب على عناد المريض ولكن ليعذرني الدكتور اذا قلت انهُ يخيل اليَّ ان الخطة التي يتخذها الماكرون من دهاة الاطباء في التغلب على عناد المرضى لم يتخذها الدكتور للتغلب على عناد الانسانية . على ان عناد الانسانية اساس حياتها وفيه نفع كبير فان الانسانية تستفيد من عاطفة المحافظة على القديم كما تستفيد من عاطفة التجديد والرغبة في التغير . ولا تنكر انهُ اذا اختل التوازن بين العاطفتين وطغت واحدة على الاخرى كان الخلل الذي تعمل الحياة على محاربتهِ حتى يضمحل . والدكتور المؤلف يعتقد ان عاطفة المحافظة على القديم طاغية على عاطفة الرغبة في التغير والاصلاح وكل راغب في الاصلاح والتغير يعتقد مثل هذا الاعتقاد كما ان المحافظ على القديم يعتقد عكس ذلك اي يعتقد ان الرغبة في التغير والتجديد طاغية على الرغبة في المحافظة على القديم وتكاد تغرقها وكل منهما يعتقد ان التوازن قد اختل في حياة الناس في هذا العصر إما بسبب الرغبة في التغير وإما بسبب المحافظة على القديم . ولنعد الى عناد الانسانية فأقول : اني لا أريد ان ألوم الدكتور وان أحثهُ على اتباع مكر الاطباء الدهاة فاني لا أعرف كيف يكون هذا المكر وربما كان غير لائق بالكماليين (Idealists) أمثال الدكتور أبي شادي بل لعلَّ قوَّة حركة

الاصلاح وشدة جهود المصلحين كانت بسبب اندفاعهم فيما هم بسبيله من غير مكر او دهاء. ولعل المكر والدهاء من نقص التفاؤل والايمان بالمستقبل . أما ان الدكتور المؤلف اكثر تفاؤلاً مما تقتضيه حقائق الحياة فسألة ترجع الى المزاج. ولقد صرت الآن لا أعتقد ان العقل هو السبب الاول في ايجاد المذاهب الفكرية بل أعتقد ان العقل خادم للمزاج والحياة في حاجة الى المفكر الكثير التفاؤل بل لعل الغلبة كانت في كثير من الاحايين للمتفائلين الذين يشكلون حقائق الحياة بتفاؤلهم أشكالاً جديدة وان كانوا في أحايين أخرى كثيرة قد هزموا شر هزيمة بالرغم من تفاؤلهم. وقد أحسن الدكتور صنعاً بذكر المراجع التي يستطيع القارىء ان يرجع اليها للاستزادة من مادة فصول الكتاب ولاستئناف بحثها . ومهما خالف القارىء المؤلف في رأي أو آراء فانهُ لا يستطيع ان ينكر سعة اطلاعهِ وحسن نيته . والكتاب على اي حال ليس لكل قارىء بل هو للقارىء المطلع الذي يستطيع ان ينتقد ما يقرأ من فصول الكتاب وان يناقشها لان كل فصل من فصول الكتاب لو انهُ كتب للقارىء غير المطلع لاحتاج الى تفسير اطول وإسهاب اعظم اذ ان المؤلف قد يكتفي بالاشارة الى الفكرة او المذهب او المبدأ العلمي او المؤلف او الجملة المقتبسة . وقد ذكر المؤلف الاسباب التي حملتهُ على تأليفه باللغة الانجليزية ومنها ان يصل الى جميع القراء المثقفين الذين يستطيعون قراءة اللغة الانجليزية من مصريين وغير مصريين ولكن ليس معنى هذا ان ليس بين قراء اللغة الانجليزية من المصريين من هو شديد التمسك بالقديم كثير المحافظة عليه ولا أحسب ان الدكتور المؤلف قد فاتهُ هذا الامر

والمؤلف يدعو الى حسن اختيار النسل الانساني ويرى انهُ أحسن وسيلة لترقية الانسانية ثم يصف الصفات التي تؤدي الى الحضارة العالية ثم يبحث أثر العبقريين في حياة الناس ويؤمن بجليل أثر العبقرية وان أساء الناس احياناً استخدام العبقرية ثم يبحث ايهما اصلح الديموقراطية ام الدكتاتورية وهو ممن يؤمن بالديموقراطية بالرغم من الشكوك التي شرح اسبابها والتي شاعت في هذا العصر . ثم يحث على التسامح الديني وحرية التفكير وعلى المساواة بين الرجل والمرأة ثم يحاول حل مشكلات العالم الاقتصادية واصلاح صلات الامم والاخلاق الدولية وينتهي برجاء وأمل كبير للانسانية . ولا نستطيع في هذه الكلمة الصغيرة الاشارة الى كل رأي من آراء الدكتور وبحثه وبعض مبادىء الدكتور هي مبادىء الحضارة الغربية قبل طغيان النازية والفاشية . ومن أجل ذلك يؤمن بالديموقراطية بالرغم من عيوب القائمين بها ورفض النازية والفاشية وما كان يستطيع المؤلف مع كثرة موضوعات كتابه ان يفصل الرد على حجج خصومه الفاشية ونظمها الاقتصادية مثلاً . والمؤلف ايمان كبير بالتربية العلمية ويرى ان نشرها في العالم يؤدي الى رقي الانسانية والقضاء على كثير من شرورها فكأنما هي إكسير

الحياة التي طالما بحث عنهُ فلاسفة القرون الوسطى ولكنهُ مع ذلك يعرف ان الثقافة العالية لا يطالب بها كل آحاد الجماهير وان كان لا بدَّ من غمر أذهانهم في عنصر الثقافة العلمية الحديثة كي يطمئنوا اليها . ولكن في الكتاب آراء لم يأخذ بها جميع المفكرين بعد على ما أظن ومثل ذلك انهُ في كلامهِ عن الاقتصاد لا يريد ان يكون المال المتداول على قدر رصيد الذهب بل على قدر ثروة الامة حتى الثروة العلمية والمعنوية وليعذرني الدكتور اذا شككت في امكان تطبيق هذا المبدأ فاني قد درست التاريخ وأعرف انهُ كلما حاول الساسة تطبيق هذا المبدأ سببوا فوضى اقتصادية وارتباكاً وفاقة وتعاسة وتدهورت العملة وارتفعت الاثمان وربما كنت شديد المحافظة على القديم ولكن ربما كان الذنب ذنب دراستي للتاريخ ولمبادىء الاقتصاد القديمة

وبالرغم من نزعة الكتاب العلمية وغشائهِ العلمي فان القارىء يحس فيهِ عاطفة الشعر ويلمح خياله في اساليب وصفه . ولعل عاطفة الشعر هي التي جعلتهُ في بعض الاحايين لا ينسى خصومه حتى في بعض بحثه العلمي او لعله القلب الذي لكل انسان والذي يتألم فيتذكر فيكتب متأثراً بألمهِ وذكراه وان كان النسيان أروح وأسعد ان أمكن (**)

فقه اللغة — التذكرة (هامش)

بقلم محمد عبد الجواد (استاذ فقه اللغة بدار العلوم العليا) ١١٢ ص ، قطع المقتطف — مطبعة العلوم ، بشارع الخليج ، القاهرة

قد سبق للمؤلف ان نشر كتاباً في اللغة اسماه «التذكرة» (مطبعة المعارف ، ١٩٣٥) ثم صنع له «تكلة» (مطبعة المعارف ، ١٩٣٦) . واليوم يخرج «التذكرة» ، وهي — عندي — أعلى مرتبة وأتمّ نفعاً مما سبقها

«والتذكرة» انما هي تعليق على الالفاظ التي وضعها مجمع اللغة العربية الملكي في مصر . والتعليق تارةً للموافقة والتعزيز واخرى للمجادلة والتفنيد . وقد اضاف المؤلف الى التعليق رسم اشكال الالفاظ الموضوعة . وأحسن بهذا العمل الآخر

والكتاب مقدّمة لها شأنها ، أحب أن اذكر بعض ما فيها لصحته : ففي رأي المؤلف ان المجمع ينبغي له «ان ينظم محاضرات ودراسات لغوية ، في أبان الدورة او في غيرها ، يجمع اليها العلماء في مصر على الاقل ... ويحمل الناس على مشاركته في بحثه وعمله .. » ، وان يكون لهُ مطبعة خاصة وإلاَّ فليطبع مجلته في دار الكتب ، «وأن يرسل النشرات الى المدارس بما اقره من الالفاظ والمصطلحات العلمية والسائرة» وأن يقلع اعضاء المجمع عن «الاستئثار بعمله وحدهم دون ان يشركوا معهم مراسلين او نحوهم .. » وأن «يكثر المجمع ممن يستشيرهم في المواد الخاصة»

مما راه المؤلف ولا أراه « ان يشغل المجمع الصحف بجلساته واخباره وتفاصيل ما يدور فيها اولاً فأولاً ، حتى لا تأتي قراراته فاترة في المجلة بعد فوات الوقت » ، ذلك ان المجمع لا يندرج في نواحي الحياة العامة ، وإن هو الا لَحَقٌ لوزارة المعارف . فأنّى له ان يشغل الناس بما يقع الى اعضائه من اسباب العلم والادب

بل قُلْ انهُ ينبغي للمجمع ، نهاية كل انعقاد ، ان ينشر شبه بيان لما جرى في جلساته ، حتى يتدبّره المشتغلون باللغة . ولكن هل يُعنى المجمع بآراء الغرباء عنهُ ؟

وأما أعماله فسائرة سير السلحفاة ، للتنازع الذي بين طائفة المجددين فيهِ وطائفة المقلدين . وأما مجلته فتجمع فيما تجمع قصائد مدح وخطب استقبال الى جانب مقالات تردها ، على غير كلفة ، الى ما سطره الائمة المتقدمون ، وأخرَ مجراة على قواعد لا ترجع الى علم عصري صحيح ، وأخر — وهي نادرة — تشف عن دراية واطلاع وطرافة ، ثم أخر — وهي المتصلة بالالفاظ والاصطلاحات الموضوعة لا تسكن عطش الكتّاب من ادباء وعلماء ولا عطش الاساتذة والمدرسين

هذا ومن الوجوه التي اصابها المؤلف في تعليقه : ان المجمع ترك « المِسيَعَة والمِسجَة مع عربيتها لفظاً واشتقاقاً » ليختار « المالج وهي فارسية » للدلالة على آلة البَنّاء Truelle (ص ٣) — وأن المجمع خص لفظة « المِشْجَر » بـ « شمّاعة الدهاليز التي تكون بها مرآة احياناً وبها تتوء تعلق بها المعاطف والقلانس ومكان خاص بالعصي والمظلات » على حين « لفظ المشجر كان احق بـ(الشماعة التي اطلق عليها المجمع كلمة مشجب والتي في شكلها فروع كفروع الشجر) ... لمقاربتهِ للفظ وشكل الشجرة » (ص ٤٥) — وثمة اقوال ساقها المؤلف في التعليق لا تكاد تثبت على النظر فيها اظن . منها :

— تفضيلهُ لفظة « القصر » على لفظة « الطِّرز » للدلالة على « الڤيلا » (ص ٨) لان « القصر » غلب عليهِ معنى خاص ، وهو يفيد Palace, Palais.

— رأيه انهُ من المستحسن اطلاق لفظ « رب المثوى وربة المثوى » قياساً على « رب البيت وربته » بدلاً مما ذهب اليهِ المجمع ، اي « أبو المثوى وأم المثوى » على رغم صراحة هذا النص الاخير وورودهِ في لسان العرب . (ص ٩)

بقي انهُ مما يورث الاسف ان في تضاعيف التذكرة طائفة من الغلطات المطبعية اللاحقة بالالفاظ الافرنجية (مثلاً : ص ٢،س ٢ و١٢ ،ص ٢٣،س ١ ،ص ٣٣ ، س ١٦ ،ص٨٦،س٥) والكتاب في جملتهِ جم الفوائد

ب . ف

الاسلام في العالم (١)

تأليف الدكتور زكي علي — ٤٢٨ صفحة باللغة الانكليزية — طبع لاهور بالهند

هوذا طبيب مصريٌّ انقلب مؤرخاً واجتماعيًّا . فكان في كتابهِ هذا صلة بين الشرق والغرب . ذلك بأنهُ قد هالهُ ما رآه في بلدان الغرب من جهلٍ بشؤون الاسلام ومفاخر الحضارة الاسلامية فأخذ على عاتقهِ ان يضع كتاباً مجملاً يستمتع بهِ العامة وترضى عنهُ الخاصة فيكون رسول مودَّة وفهم وعامل استقرار « لان كل خطة أوربية او غربية لا تقيم وزناً للاسلام وما لهُ من قوَّة روحية دافعة نحو الاستقرار لا بدَّ ان تديم الاضطراب والقلق في العالم وهما أصل متاعبهِ » . المقدمة صفحة X

والكتاب قسمان : الاول وهو يشتمل على تسعة فصول تغلب عليهِ النظرة التاريخية المشارقة ، فيها يلخص المؤلف تاريخ الاسلام وقواعده ومفاخر حضارتهِ . فثمة فصل في سيرة النبي العربي الكريم . وآخر في الاسلام : دين ونظام اجتماعي . وآخر في الحضارة الاسلامية وهكذا . والبحث في جميع هذه الفصول آية في الوضوح وحسن السياق . والاسناد متعدد النواحي ، فالمؤلف رجع الى ما كتبهُ المؤلفون باللغات الافرنجية من انكليزية وفرنسية وألمانية ، رجوعه الى أمهات الاصول العربية وما نشر في هذا العصر من الكتب والرسائل في الصحف والمجلات

وأنت تخرج من هذه الفصول بصورة حيَّة للدين الاسلامي ، وحيويتهِ ومكانتهِ في التاريخ . ففيها تقع على تصحيح لبعض الاخطاء الشائعة في الغرب عن أواصر الاسلام ونواهيهِ ، كما تقع على بسط طريف في وضوحهِ قوي في اسناده لمزايا الاسلام وأثره في الحضارة والاجتماع

والقسم الثاني من الكتاب يعالج حاضر الاسلام ونواحي يقظتهِ وتأثيرها في الحياة الدولية ، في أربعة فصول وملحق ، أما الفصل الاول فعنوانهُ يقظة الاسلام والثاني تحرُّر الاسلام والثالث الاسلام والشؤون الدولية والرابع الاسلام والعالم

ففي فصل « يقظة الاسلام » وهو الفصل العاشر يعرض للنهضة السياسية والاقتصادية والفكرية في بلدان الشرقين الأدنى والاوسط . هنا تقع على ذكر الاعمال والمشروعات الكبيرة في هذه الرقعة التاريخية من سطح الكرة . وعنايتهُ بالسياسة والاقتصاد لم تحجب عن عينيهِ معالم النهضة الفكرية من ادبية وعلمية وما يبذل من السعي لتوثيق عرى التعاون الادبي والعلمي بين البلدان المختلفة . في هذه الصفحات يطالعك ذكر امراء القلم العربي في الشعر والقصة

(١) Islam in the World, by Zaki Ali, Published by Shaikh Muhammad Ashraf Lahore, India.

والتاريخ والنقد والعلم . ولكن البحث في هذه الناحية ليس قائماً على مجرَّد السرد بل على السعي لتبيّن التيارات القوية الخفية من اجتماعية وسياسية ودينية وغيرها

ولم يقصر المؤلف عنايته على الادب العربي في هذا الفصل بل عرَّج على النهضة الحديثة في الادبين التركي والايراني باعتبارهما من الامم الاسلامية .. ولم يحصر همَّهُ في اعمال الرجال بل خصَّ بهِ النهضة النسائية كذلك

وأما الفصل الذي يليهِ وهو فصل « تحرُّر الاسلام » فيحتوي على عرض طيّب للتطورات السياسية الحديثة في « تركيا الكمالية » « ومصر المستقلة » وسوريا وفلسطين وبلاد العرب والعراق وشمال افريقية وإيران البهلوية وافغانستان والهند والشرق الاقصى

يقول المؤلف ما ترجمتهُ في صفحة ٣٨٠ و٣٨١ و٣٨٢ : « الاسلام ليس ديناً فحسب بل هو كما بيّنا حضارة ايضاً ، فهو لا يوجه الشعائر الدينية فقط بل وينشىء المجتمع كذلك ، انهُ طريقة للحياة ، طريقة للتفكير وللعمل ، « نظرة الى العالم » تشمل كلَّ ناحية من النشاط الانساني . . . ومن الخطإِ القول ان الاسلام لا يصلح للتقدم ، بمجرد مراقبتهِ في دور معيَّن من الركود او النكوص الظاهر . ذلك بأن الاسلام يحثُّ على البحث ويحضُّ على العلم ، فنظرتهُ الى التقدم نظرة رضىً . والاسلام قاعدتهُ المساواة الاجتماعية والاقتصادية . . . . ان شعار هذا العصر هو الاتحاد وأعظم حاجتهِ الى الاخاء العالمي . وكلاهما قد حققا ضمن نطاق الاسلام . فجميع المسلمين اخوان ، وهذه الفكرة الحية تجمع حقيقةً بين المسلمين كأنهم اعضاء أسرة واحدة . ولانتفاء فروق الطبقات واللون في الاسلام ، يستطيع مسلمان من بلدين مختلفين ان يتفاهما بأسرع ما يستطيعهُ عضوان في أية هيئة دولية . . . . . .

وعلى هذا النمط من بيان مزايا الاسلام كديانة وحضارة ونظام اجتماعي يختم المؤلف كتابهُ بفصل « الاسلام والعالم » . ولكنهُ يلحق بهِ صفحات تحتوي على احصاءات منوَّعة خاصة بعدد السكان في الاقطار الاسلامية المختلفة ثم يليهِ ثبت المراجع وهو يملأ نحو عشر صفحات ويحتوي على اكثر من مائة وخمسين مرجعاً من الكتب ونحو عشرين مجلة وجريدة

والدكتور زكي علي طبيب مصري اشتغل بمستشفى قصر العيني بالقاهرة ثم سافر الى اوربا في بعثة طبية سنة ١٩٣١ فانصرفت عنايتهُ هناك الى تأليف هذا الكتاب النفيس ، بلغة انكليزية تشهد لهُ بطول الباع فيها . وقد أهداهُ الى سمو الخديوي السابق عباس حلمي الثاني ، لان سموهُ رعاهُ واسعفهُ بالمال في أثناء اشتغالهِ بتأليف سفرهِ في أحوال مرهقة

والكتاب بوجهٍ عام ليس دفاعاً عن الاسلام في المقام الاول بل هو عرض تاريخي اجتماعي لمزايا الاسلام ودعوة الى اتخاذ هذه المزايا أساساً لنظام عالمي جديد

مصر والطرق الحديدية

تأليف محمد امين حسونه — صفحاته ٤١٤ قطع وسط

لعلّ هذا الكتاب الاول من نوعه في اللغة العربية — بل في اية لغة على الاطلاق . فهو يتناول تاريخ المواصلات المصرية وبالاخص الطرق الحديدية . فجميع المؤلفات التي دوّن فيها تاريخ مصر الحديث ابى لها مؤلفوها الاّ ان تكون خالية من البحوث المفصلة في شؤون السكك الحديدية ، وغاية ما احرزتهُ من عناية ان لفّ هذا الموضوع المتشعّب في سطور معدودة . وكذلك ظل تاريخ السكك الحديدية في مصر اسراراً متناثرة بين جوانح الاوراق الرسمية والتقارير الفنية لا يظهر منها الاّ النزر اليسير ولا تبدو من احد عناية باستخراج مطويها ولم شتاتها ، الاّ ان يهتم بهذا الشأن فنيٌّ اجنبيٌّ فينشر بلغتهِ بعض الشيء عنهُ

والسكك الحديدية من مقاييس التقدم الاقتصادي في اي بلاد فهي الشرايين الحيوية التي يجري فيها دم الحياة الاقتصادية من بضائع وركّاب . وقد كانت مصر في مقدمة البلدان التي اخذت بالسكك الحديدية ، وتاريخ سككها مرتبط باسماء اعلام الانكليز الذي استنبطوا هذه الطريقة من طرائق المواصلات ، أمثال جورج ستيفنصن وحفيد تريفثك . فقد كان الاول كبير مهندسي السكة والاشغال والثاني رئيساً لهندسة الوابورات واليهما يرجع الفضل في تحسين وسائل النقل بالبخار في مصر

فالموضوع من اي النواحي طرقتهُ ، موضوع شائق مفيد . ومن العار ان ينشأ الطالب المصري وليس يعرف عن شبكة المواصلات الحديدية في وطنهِ الاّ امتدادها من القاهرة الى الاسكندرية وبور سعيد شمالاً والى أسوان جنوباً وما قد يكون لها من فروع

فوقع مصر الجغرافي ، وما بذل من الجهد العظيم لمد السكك الحديدية الاولى في البلاد ، وما سبق ذلك من مفاوضات ، وما يرتبط بهِ من انشاء الكباري العظيمة على النيل لمدّ الخطوط الحديدية عليها ، وتطوُّر ذلك وغيره مما يتعلق بهِ من أيام عباس الاول الى عصر جلالة الملك فاروق ، يجب ان يكون قصة تجمع بين نواحي اللذة والفائدة

وقد تكفل بذلك الاستاذ احمد أمين حسونة ، فبعد ان قضى شهوراً يستعد لوضع هذا الكتاب ، بالبحث والتنقيب في المصادر والمراجع الرسمية المتفرقة ، علاوة على الكتب التاريخية لكي يستخرج منها ما كانت عليهِ أسباب المواصلات قبل مدّ السكك الحديدية ، جمع أمرهُ على كتابة هذه الفصول النفيسة ، وقد أشار الى مراجعهِ العربية والاعجمية ، الرسمية وغير الرسمية ، في ثبت نشر في صدر الكتاب ثم خصّ بعضها بالذكر في مقدمتهِ

وقد رفع المؤلف كتابهُ الى مقام صاحب الجلالة الملك قائلاً فيما قالهُ « ومن المآثر التي تفخر بها مصر انها اول دولة في الشرق استخدمت القطار ، وهو رسول المدنية ورمز الحضارة ودليل الرقي ومظهر العمران ، يصفر فيبشر الناس بقوة العلم ومجد الانسان ، ويجري فيحمل اليهم شتى الارزاق والخيرات . . . »

ولم يكتف المؤلف بدراسة تاريخ المواصلات في مصر قبل السكك الحديدية ، ثمَّ تاريخ انشائها وتطورها ، بل عالج كذلك في آخر الكتاب موضوع النقل المائي وظهور السيارة والنقل الجوّي ، وجميعها من الموضوعات الكبيرة الشأن من حيث المنافسة بينها وبين السكك الحديدية

فالكتاب تاريخي من ناحية ، ومعاصر من ناحية أخرى ، وجميع الذين يهمهم هذا المظهر من النشاط الاقتصادي والاجتماعي في البلاد يجب ان يقتنوهُ

***

ورد الى مكتبة المقتطف الكتب التالية وستتولى الكتابة عنها في أعداد المقتطف التالية

* ادارة الصفوف — وضعهُ الاستاذ أحمد سامح الخالدي — طبع بالمطبعة التجارية بالقدس الشريف

* الانتداب الفلسطيني باطل ومحال — وضعه الاستاذ وديع البستاني — طبع بالمطبعة الاميركية ببيروت

* تربية الحيوان الزراعي — تأليف الدكتور احمد فاضل الحشن — طبع بمطبعة الاعتماد بمصر

* أصول الطب البيطري — تأليف الدكتور ابراهيم نجيب محمود — طبع بمطبعة الاعتماد بمصر

* مروج الذهب ومعادن الجوهر ٤ أجزاء تصنيف الرحالة ابي الحسن علي المسعودي وقد راجع أصوله ورقمه محيي الدين محمد عبد الحميد وطبع بمطبعة دار الرجا ببغداد ويطلب في مصر من مكتبة الشرق الاسلامية ومطبعتها بشارع محمد علي

* الخواص الطبيعية للاراضي الزراعية — تأليف السيد محمد البحيري وحسن مصطفى كامل — طبع بمطبعة وادي الملوك بمصر

* فن الجرائم الجزء الرابع في تذكرة الجرائمي في مخبره — تأليف الدكتور أحمد حمدي الخياط — طبع بمطبعة الترقي بدمشق

* أصول المحاكمات الحقوقية ، دروس نظرية وعملية للاستاذ فارس الخوري — طبع بمطبعة الجامعة السورية بدمشق

* التشريح المرضي والجنائي بقلم الدكتور محمد زكي شافعي والدكتور لبيب شحاته — طبع بمطبعة أمين عبد الرحمن بمصر

* احياء النحو لابرهيم مصطفى — طبع بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر

* معلومات مدنية — تأليف محمود العابدي — طبع بدار الطباعة والنشر الفلسطينية في صفد — فلسطين

* فلسطين العربيـــة بين الانتداب والصهيونية — تأليف عيسى السفري — طبع في مطبعة مكتبة فلسطين الجديدة بيافا

* تربية الخيول العربية الجزء الثاني — تأليف صاحب السمو الملكي الامير محمد علي — طبع بمطبعة علي عناني بمصر

* على حافة العالم الاثيري — ترجمة الاستاذ احمد فهمي ابو الخير — طبع بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر

* البيان والبديع وضع وتصنيف الاسدي م. خير الدين — طبع بمطبعة العصر الجديد — حلب

* شطب العبارات الجارحة من المذكرات والاحكام — لجميل خانكي طبع بالمطبعة العصرية بمصر

* الفؤاديات ديوان شعر المرحوم فؤاد بك محمد جمعه الاديب عبد القادر يوسف طبع بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر

* ضحايا مصر في السودان وخفايا السياسة الانكليزية طبعت بمطبعة السفير بالاسكندرية

* مطبوعات اتحاد اساتذة الرسم في الفنون الاسلامية للدكتور زكي محمد حسن طبعت بمطبعة الاعتماد بمصر

* البلنديات ديوان شعر للشيخ حنا اسعد زخريا طبع بمطبعة ابو الهول بالبرازيل

* خطرات الشعور منتخبات من قصائد ومقالات لديمتري بك خلاط طبعت بمطبعة البصير في الاسكندرية

* صور ولمحات من حياة طالب في اوربا تأليف جورج وهبه العفي طبعت بمطبعة المجلة الجديدة

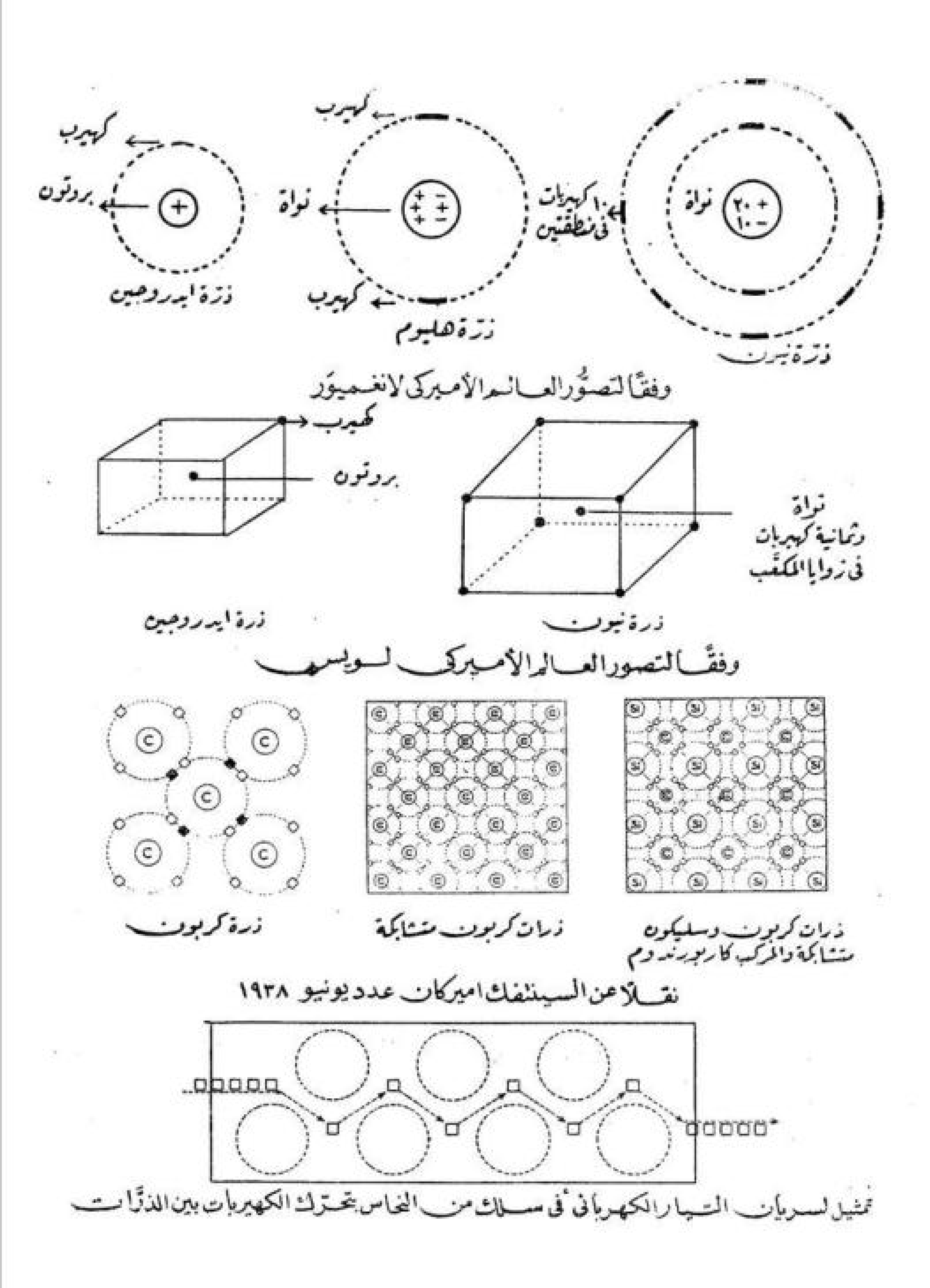
* اسرار الانقلاب وضعهُ السيد عبد الرزاق الحسني طبع بمطبعة العرفان بصيدا

***

مطبوعات مجلة المكشوف

اهدت الينا دار مجلة المكشوف البيرونية طائفة مختارة من مطبوعاتها الادبية والاجتماعية بينها

١ — كان ما كان — بقلم ميخائيل نعيمه
٢ — قميص الصوف — بقلم توفيق يوسف عوّاد
٣ — الباب المرصود — بقلم عمر فاخوري
٤ — عمر افندي — بقلم لطفي حيدر
٥ — المجدلية — بقلم سعيد عقل
٦ — ليلة القدر — بقلم احمد مكي
٧ — ارجوحة القمر — بقلم صلاح لبكي
٨ — الاشتراكية العملية — بقلم ابرهيم حدّاد

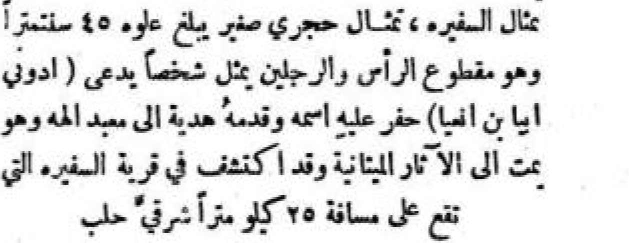


تمثيل لسريان التيار الكهربائي في سلك من النحاس بتحرك الكهيربات بين الذرات



تمثال مشرفة البرونزي، صغير الحجم مصنوع من البرونز بعلو ٥ر١٧ السنتمتر اكتشف بين انقاض مدينة قطنة القديمة المعروفة اليوم بقرية المشرفة في ضواحي حمص ونقل الى متحف «اللوفر» حيث صُنّف بين الآثار الميتانية





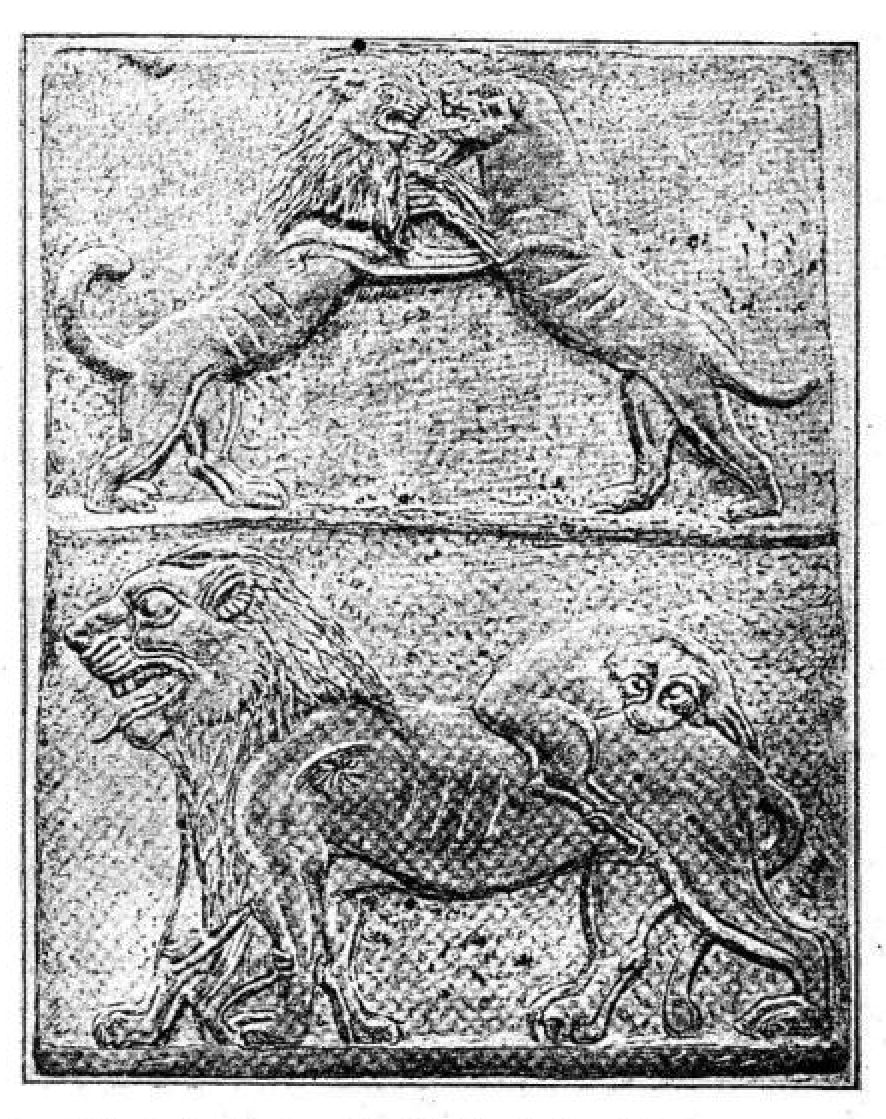
تمثال السفيره ، تمثال حجري صغير يبلغ علوه ٤٥ سنتمتراً وهو مقطوع الرأس والرجلين يمثل شخصاً يدعى (ادوني ايا بن انيا) حفر عليه اسمه وقدمهُ هدية الى معبد الهه وهو يمت الى الآثار الميتانية وقد اكتشف في قرية السفيره التي تقع على مسافة ٢٥ كيلو متراً شرقيّ حلب



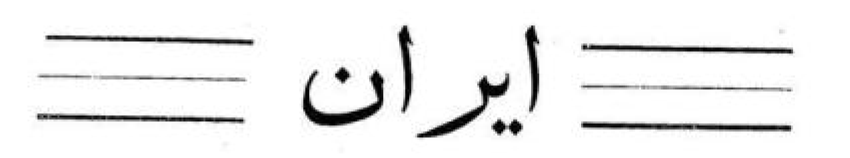
تمثال كبرى المعبودات المتانية من الحجر البركاني الازرق بحجم (٧٤ر٢ × ٧٢ر٠ × ٥٠ر٠ متراً) اكتشف في تل حلف ونقل الى متحف حلب يمثل الهة واقفة عارية القدمين ممسكة بيدها اليسرى وعاء صغيراً كان يملأ عادة بالماء المطهر واما يدها اليمنى فمنبسطة على الصدر وفي رقبتها عقد ذو ستة صفوف وعلى معصميها وكميها أساور وشعرها مسترسل على الظهر



تمثال معبودة ميتانية ، من مكتشفات البارون اوبنهايم في تل حلف تمثل معبودة ميتانية تمسك في يدها اليمنى كأس التقدمة وهي تلبس رداء مزركشاً يغطي الجسم بتمامه ويكشف عن الساعدين وعن قدمين عاريتين حجمه ١٫٨٩ × ٠٫٨٦ × ٠٫٩٧ متراً من الحجر البركاني الازرق نقل الى متحف برلين بعدان سكب عليه نسخة معروضة في متحف حلب



نقش بيسان — يمثل في القسم الاعلى منهُ أسدٌ وكلبٌ منتصبان أحدهما مقابل الآخر وفي القسم الاسفل كلبٌ يعقر أسداً في ردفهِ وهو من الآثار الاشورية المتانية. وقد اكتشف في قرية بيسان من اعمال فلسطين



مفاخر فنونها

للدكتور زكي حسن

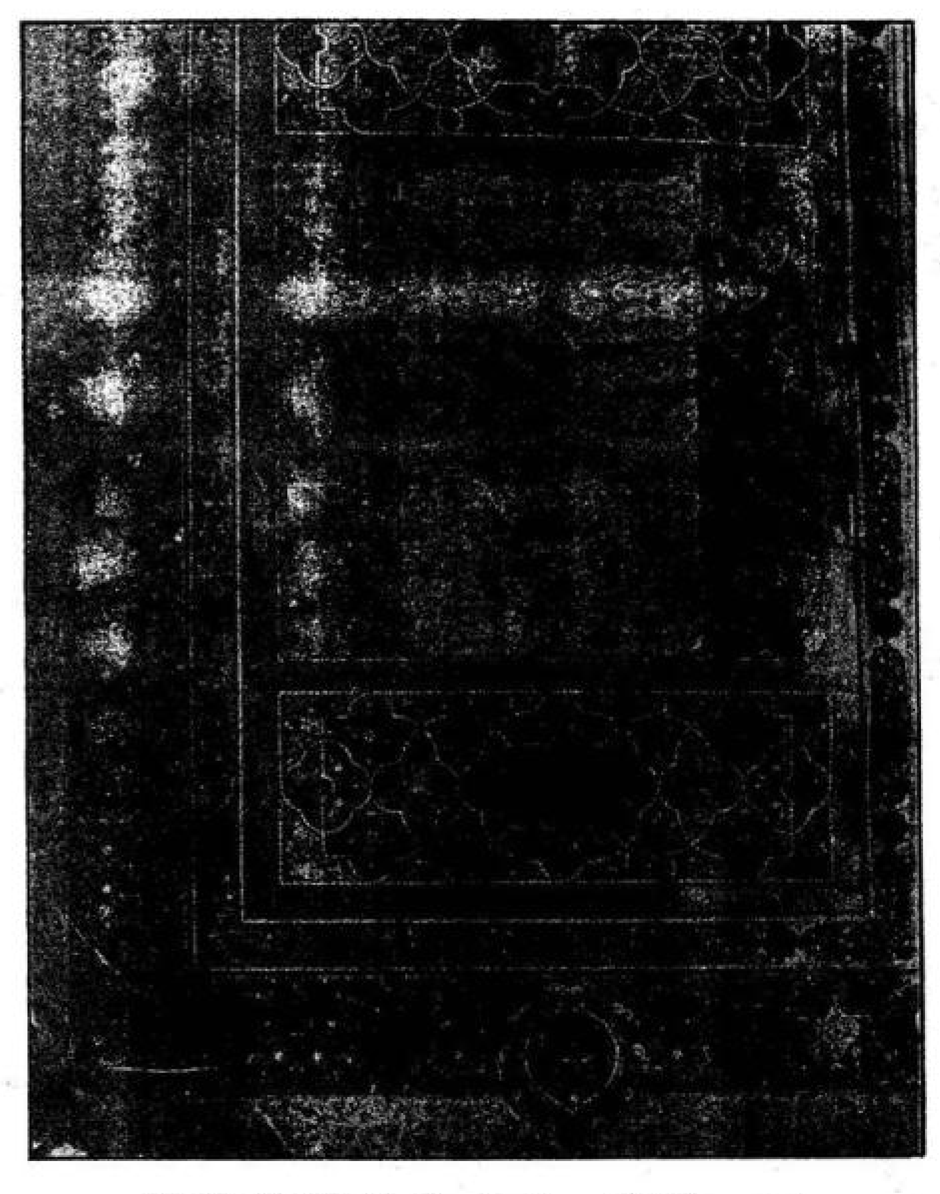
أمين دار الآثار العربية والمدرس بمعهد الآثار الاسلامية

نهضتها الحديثة





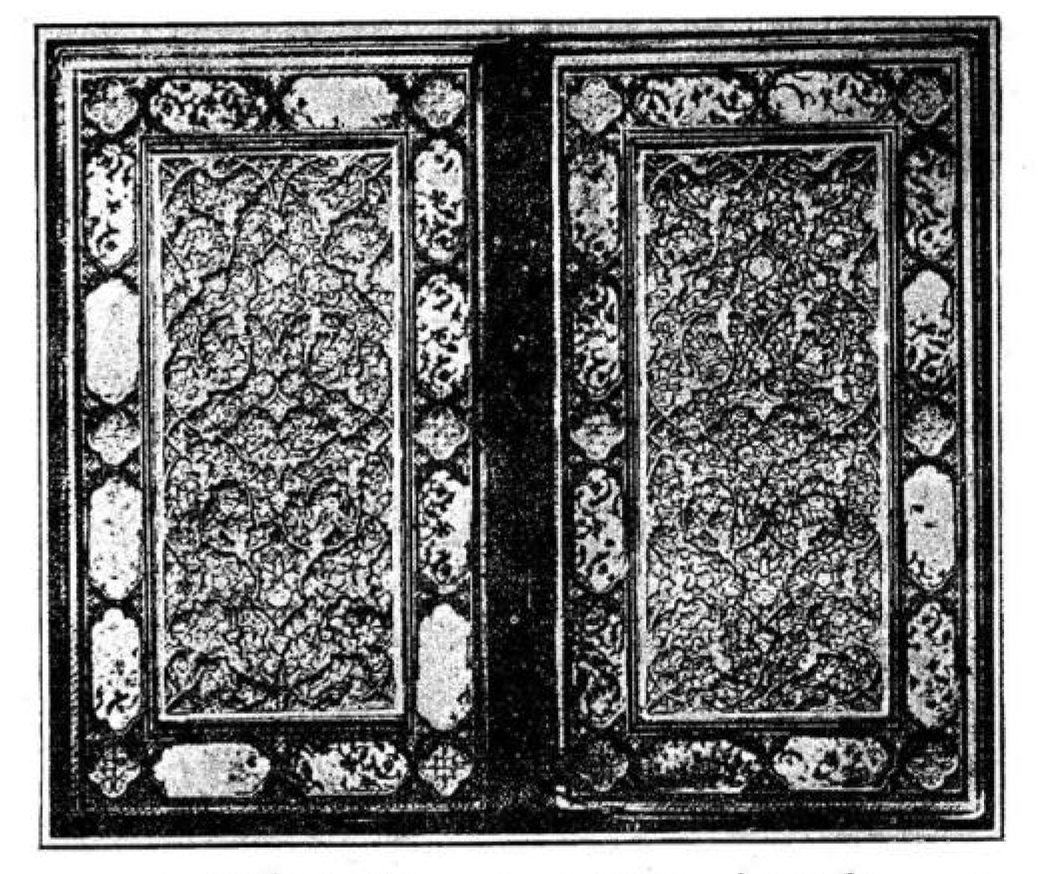
صورة ضرب بالعصا (فلقة) من رسم المصور الايراني محمد قاسم في بداية
القرن السابع عشر



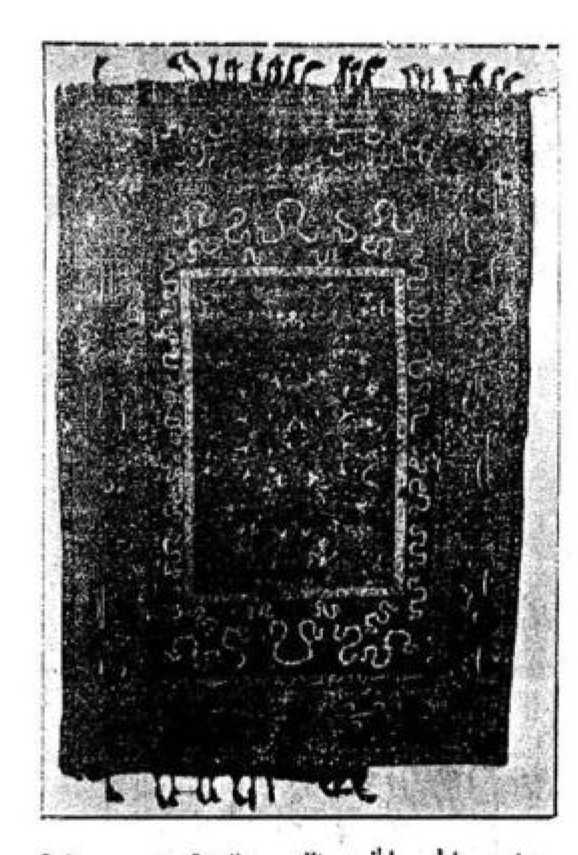
نموذج من الخط الفارسي والصحائف المذهبة في المخطوطات الايرانية

نجمة من القاشاني ذي البريق المعدني . وهي من صناعة قيرامين بايران في سنة ١٢٦٢ ميلادية ومحفوظة الآن بمتحف برلين

صورة صحن من الخزف الايراني المعروف باسم « خزف جابري » ترجع الى القرن الحادي عشر الميلادي ومحفوظة الآن بدار الآثار العربية



جلد كتاب ايراني من القرن السادس عشر من مقتنيات دار الآثار العربية



سجادة من الحرير المخيش بالذهب والفضة وهي من صناعة اصفهان في القرن السادس عشر . وقد وهبها حضرة صاحب السمو الامير يوسف كمال الى دار الآثار العربية



شمعدان من النحاس في مجموعة المسيو دالف هراوي بك . وهو منزل (مكفت) بالذهب والفضة ، وعليه اسم صانعه محمد بن رفيع الدين شيرازي وتاريخ صناعته سنة ٧٦١ هـ (١٣٦٠ ميلادية)



صورة ابريق من النحاس ، صنع في ايران سنة ٧٦٣ هـ
(١٢٧٤ ميلادية)

صورة قطع من منسوجات حريرية ايرانية ترجع الى القرن السادس عشر ، ومحفوظة الآن بدار الآثار العربية

فهرس الجزء الثاني

من المجلد الثالث والتسعين

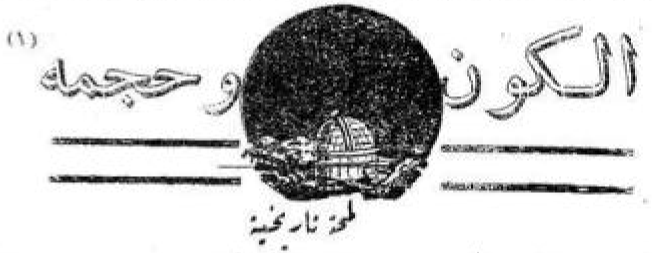

المقتطف



المقتطف

الجزء الثالث من المجلد الثالث والتسعين

١ اغسطس سنة ١٩٣٨ — ٥ جمادى الثانية سنة ١٣٥٧



الكون وحجمه (١)

لمحة تاريخية

يقال ان تاريخ الجنس انما هو تاريخ الفرد مكتوباً بحروف عريضة . وهذا القول ينطبق انطباقاً خاصّاً على مسألة الكون وحجمه . فالطفل الوليد يعجز عن تصوّر حجم الكون لان مهدهُ ومرباهُ وحدة مقياسه . وكذلك كان الجنس البشري في مهده . فقد سلَّم بان الارض — وهي مقرّهُ ودنياهُ — هي اهم جزء في الكون بل ومركزهُ وانها في حجمها هي الكون

ولكننا عندما نتغلغل في منابع العلم الاولى ، نرى دلائل انهيار هذا الرأي رويداً رويداً . ففي القرن السادس قبل المسيح قال فيثاغوراس ان الارض كروية . وفي القرن الرابع ق.م. ذهب هيراقليطوس البنطي الى ان ما يبدو من دوران السماوات ناشئ عن دوران الارض الكروية . وكان من شأن هذه الاقوال ان حملت الناس على تنقيح آرائهم في حجم الارض ومقامها بالقياس الى اجزاء الكون . ثم قام ارسترخس الصامي في القرن الثالث ق . م . وحاول ان يقيس حجم الكون بطريقة القياس العلمي الدقيق . فقد لاحظ انهُ عندما يكون القمر نصفاً يكون الخط الوهمي الواصل بين القمر والشمس عمودياً على الخط الواصل بين القمر والارض . واذن فالمثلث الذي قوامهُ الخطوط الواصلة بين الشمس والارض والقمر تحتوي على زاوية قائمة عند القمر والثانية

---

(١) بحث مبني على محاضرة حديثة للسر جيمز جينز وكتابه « الكون الذي حولنا » وكتاب « جبهة العلم »

التي عند الارض يمكن قياسها بالرصد . والثالثة تعرف بالاستنتاج الهندسي . وبهذه الطريقة حاول ارسترخس ان يعرف النسبة بين الاضلاع الثلاث في هـذه الزاوية اي النسبة بين ابعاد هذه الاجرام الثلاثة ، احدها عن الآخر . وقد كانت نظريتهُ سليمة ولكن ارصادهُ كانت خاطئة . والواقع ان الزاوية عند الارض تختلف عن الزاوية القائمة بمقدار تسع دقائق من القوس . ولكن ارسترخس حسب الفرق ثلاث درجات . وكذلك استنتج ان الشمس تبعد عن الارض عشرين ضعفاً بُعدَ القمر عنها حالة ان الشمس تبعد عن الارض ٤٠٠ ضعف بُعد القمر عنها

ولم يكتفِ ارسترخس بتقدير الابعاد النسبية ، بل سعى كذلك الى تقدير الابعاد الحقيقية . فبفضل انكساغوراس فهمت طبيعة الخسوف . فكان معروفاً حينئذٍ ان الظل الذي ينتشر على وجه القمر وقت الخسوف هو ظل الارض . ولما كان ارسترخس يعلم ان الشمس أبعد كثيراً من القمر عن الارض ، فانهُ ذهب الى ان مساحة الظل قريبة من حجم الارض اي ان الظلّ الواقع على القمر دائرة من حجم الارض تقريباً ، كما نرى على بُعدٍ هو بعد القمر عن الارض . ولما كان يعرف حجم الارض فقد كان من السهل عليهِ ان يحسب بُعد القمر عنها

وفي هذه الناحية ايضاً كانت طريقة ارسترخس سليمة وأرصاده خاطئة . فقد قدَّر ان ظل الارض يفوق قطر القمر ضعفين . والواقع انهُ يفوقهُ ثلاثة أضعاف . وحسب ان القمر يشغل في الفضاء قطعة من القوس قدرها درجتان . والحقيقة ان قدرها نصف درجة . فكانت النتيجة انهُ أخطأ في حساب بُعد القمر وحجمه . والواقع ان القياس الفلكي الدقيق لم يكن من مزاياه ، ولكنهُ كان أول باحث وجه النظر الى عظم الابعاد الفلكية

ثم ان ارسترخس أضاف الى ناحية الابعاد العظيمة في علم الفلك رأياً قد يفوق آراءهُ السابقة شأناً اذ أثبت بتدليل يذكرنا بتدليل كوبرنيكوس في القرن السادس عشر ب . م . ان الارض تدور في فلك دائري حول الشمس . ثم بنى على ذلك قولهُ بأنهُ ما زالت النجوم تبدو ثابتة في مكانها على الرغم من دوران الارض فيجب ان تكون بعيدة جدًّا عن الارض . ومن أقوالهِ ان النسبة بين ابعاد هـذه النجوم الى فلك الارض كالنسبة بين نصف محيط كرة ومركزها . اي ان النظام الشمسي لم يكن الاَّ بمنزلة نقطة في الفضاء

وغني عن البيان ان بطلميوس الاسكندري تحدَّى هذه الآراء في القرن الثاني ب . م . وغلَّب آراءه عليها . فقال انهُ لو كانت الارض تدور لتناثرت في الفضاء الاجسام التي في منطقتها الاستوائية . وخلص من ذلك الى انهُ لو صحَّ رأي ارسترخس في دوران الارض لتبدَّدت مادة الارض هباء في الفضاء ، وهذا في رأيهِ من المضحكات . ومن أقوالهِ في هذا الصدد انهُ لو صحَّ ان الارض تدور وألقيتَ بحجر من علٍ لما وصل الى هدفهِ لان الارض بحركتها تبعد الهدف

في أثناء السقوط . وظلَّت آراء بطلميوس سائدة حتى منتصف القرن السادس عشر عندما ردَّها كوبرنيكوس بالحجة البيّنة . وليس هنا مجال للتبسط في هذه المعركة الحاسمة في تاريخ العلم

وقد كان مصير آراء كوبرنيكوس خيراً من مصير آراء ارسترخس . ذلك لان الطباعة والمرقب كانا قد استنبطا . فما انقضى ثلثا قرن على نشر كتاب كوبرنيكوس حتى أثبت غليليو بالمرقب اي بالمشاهدة صحة اقوال هذا القس البولندي العالم . وقبل ان ينظر غليليو من خلال مرقبهِ الى الفضاء بعشر سنوات ، كان جوردانو برونو يقول بأن النجوم أجسام تشبه الارض والقمر والسيارات ، وهو قول فيثاغوراس قبل الفي سنة . وما انقضت عشر سنوات على مشاهدات غليليو الاولى بمرقبهِ ، حتى كان كبلر قد أذاع رأيهُ بأن النجوم تشبه الشمس . وهذا القول كان أول باعث حمل الناس على ادراك سعة الكون العظيمة . لانهُ اذا كان اشراق النجوم شبيهاً باشراق الشمس فيجب ان تكون على أبعاد عظيمة عنا لكي تبدو صغيرة كما تبدو . فنحن نتلقى ضوءًا من الشمس يفوق مائة الف مليون ضعف ما نتلقاهُ من نجم من القدر الاول كالنسر الطائر أو يد الجوزاء او الدبران . فاذا كانت هذه النجوم من مرتبة الشمس اشراقاً فيجب ان يفوق بُعدها عنا ٣٢٠ الف ضعف بُعدَ الشمس عنا . فاذا حولنا هذا القول الى أسلوب الكلام العلمي الحديث ، قلنا ان نجوم القدر الاول يجب ان تبعد عنا على هذا القياس خمس سنوات ضوئية

ونحن نعلم الآن ان هذا الاسلوب من البحث لا يفضي الى نتائج دقيقة لان القول بان النجوم تماثل الشمس اشراقاً بعيد عن الحقيقة اذ منها ما يفوق الشمس عشرة آلاف ضعفٍ ومنها مالا يبلغ اشراقهُ جزءًا من الف جزء من اشراقها . ولكن الاسلوب نفسهُ سليم اذا اتقن وقد اتقن في العصر الحديث وأضيفت اليهِ اضافات متعددة فغدا قياس ابعاد النجوم من أمتع ما يتناوله الفلكي في بحثهِ

أبعاد النجوم وقياسها

من الواضح ان في الامكان تقسيم النجوم طوائف . فهي تختلف اشراقاً اختلافاً عظيماً ، ولكن النجوم التابعة لطائفةٍ معينة تتشابه اشراقاً ، ولذلك يستطيع الباحث الفلكي ان ينفذ الى بُعد النجم برصد اشراقهِ البادي بالقياس الى اشراق الطائفة التي ينتمي اليها . وتقسيم طوائف النجوم يبنى عادة على دراسة طيوفها

خذ مثلاً على ذلك نجم الشعرى اليمانية . الذي يبدو لنا أبهر النجوم ضوءًا في الفضاء . هذا النجم ، من النجوم القريبة الى الارض ويمكن تعيين بعدهِ بطريقة اختلاف الزاوية ، وهي الطريقة التي يستعملها المهندس عند مسح الارض لتعيين بعد جبل وذلك برصدهِ من مكانين مختلفين بينهما ميل مثلاً او نصف ميل او ميلان ثم يرسم مثلثاً يستخرج منهُ بطريقة علم المثلثات بُعد

الجبل . والشعرى بهذا القياس تبعد عنا ٥١ مليون مليون ميل اي ٨ر٦٥ سنة ضوئية . ثم يتخذ بعد الشعرى مقياساً لبعد النجوم التي من طائفتها . فنجم من طائفتها يقل اشراقهُ البادي عنها ١٠٠ ضعف أبعد منها عنا عشرة اضعاف ، لان قوة الضوء تقل كمربع المسافة

ثم هناك النجوم المعروفة بالمتغيرات القيفاوية والاعتماد عليها في معرفة ابعاد النجوم أدق وهذا الاسلوب من اهم المكتشفات الفلكية الحديثة . والى القارىء وصفهُ موجزاً (١)

من انواع النجوم التي ترصّع القبة الفلكية نوع يعرف باسم « المتغيرات القيفاوية » وقد دعيت هذه النجوم كذلك نسبة الى نجم « ذلتا قيفاوس » . هذه النجوم يتغير اشراقها تغيراً دوريًا فاذ تكون خافية الضياء تراها وقد اخذت تزداد اشراقاً ثم تأخذ بعد ذلك بالخمود حتى ترجع الى حالها الاولى . وقد شبهها جينز بنار الموقد الخامدة وقد القى فيها قدر من الفحم فما لبث حتى اشتدَّ سعيرها . وقد وصفناها في مقتطف دسمبر ١٩٣٥ فقلنا « هذه النجوم قد تكون حمراً او مبياضَّة او صُفراً ، ولكنها على اختلاف ألوانها تنبض نبضاً منتظماً كأن كلاًّ منها قلب كبير ينقبض وينبسط او كأنها شعلة من الغاز تمدها حنفية تفتح وتقفل في فترات منتظمة فاذا فتحت كبرت الشعلة واذا أقفلت ضؤلت الشعلة حتى تكاد تنطفىء » . اما فترة التغير هذه فتختلف باختلاف النجوم من بضعة أيام الى شهر او اكثر

والفضل في كشف هذه الطريقة الجديدة لقياس ابعاد النجوم يرجع الى اميركية تدعى الس لڤيت Leavitt . كانت هذه السيدة تشتغل في مرصد جامعة هارفرد سنة ١٩١٢ . وكان قد مضى عليها سنوات وهي تدرس الالواح المصورة لنواح مختلفة من السموات بغية ان تكشف ما تنطوي عليه هذه الالواح من حقائق جديدة عن النجوم مفردة ومجتمعة . واذ كانت مكبَّة على صورة لاحد القنوان النجمية التي على حدود المجرَّة ، تبيَّنت فيها شيئاً جديداً . ذلك ان طائفة من المتغيرات القيفاوية كانت قد ظهرت في تلك المجموعة النجمية . فلاح لها من دراسة الصورة أن المتغيرات القيفاوية الكبيرة المشرقة كانت أبطأ تغيراً من المتغيرات القيفاوية الصغيرة الخافية . فالفترة التي تنقضي بين خفاء القيفاويات الكبيرة وبلوغها ذروة اشراقها ثم رجوعها الى ما كانت عليه كانت اطول من فترة التغيُّر في القيفاويات الصغيرة . فأسرَّت ذلك الخاطر وعمدت الى ما تجمع من الصور الضوئية للسدم الاخرى التي صورت منذ استعمل تلك الطريقة الفلكيُّ درابر في سنة ١٨٨٠ وخرجت من بحثها الدقيق المستفيض بأن طول فترة التغيُّر متصلة صلة وثيقة بقوة الاشراق . فأعلنت هذه القاعدة الجديدة في علم الفلك

---

(١) راجع مقتطف ابريل ١٩٣٨ مقال « المجرات » صفحة ٣٥٥ ومقتطف دسمبر ١٩٣٥ : مقال « ذرع الفضاء » صفحة ٥٢٥

ولكن الاشراق البادي لنجم من النجوم يختلف عن اشراقه الحقيقي . لان ما يبدو من اشراق أحد النجوم يتوقف على بعده . فقد يكون نجمٌ عظيم الاشراق ولكنهُ عظيم البعد في الوقت نفسه فيبدو للراصد الارضي نجماً غازاً . فاذا كان هناك نجمان قيفاويان على بعد واحد من الارض وكانت فترة التغيُّر في احدهما اقصر من فترة التغير في الثاني ، فالاول أقل اشراقاً من صاحبه . فلما وضعت هذه القاعدة هذا الوضع ظهرت فائدتها في قياس ابعاد النجوم . ولنفرض ان أمامنا نجمين قيفاويين فترة تغيرها واحدة . ثم لنفرض ان اشراق أحدهما البادي يفرق اشراق الآخر مائة ضعف . فالنتيجة الحتمية التي نخرج منها — اذا صحت قاعدة المس لفيت — ان أقلهما اشراقاً يجب ان يكون أبعد من الآخر عشرة اضعاف لان الضياء الصادر من جسم مضيء يقل كمربع المسافة . ثم لنفرض ان أحد هذين القيفاويين واقع في مجموعة من النجوم عرف بُعدها عن الارض . ففي هذه الحالة يمكن استخراج بعد الآخر استخراجاً دقيقاً

وكذلك تمَّ للعلماء أسلوب جديد بارع لذرع الفضاء

ثم عني شابلي وهبل بتطبيق قاعدة المس لفيت على السُّدُم . فاهتمَّ شابلي اولاً بالبحث عن المتغيِّرات القيفارية في القنوان الكروية ، ليتمكن من قياس بعد هذه القنوان بقياس بعد المتغيرات القيفارية التي فيها . وبعد بحث رياضي دقيق استخرج طريقة سهلة تُمكن الباحث من معرفة ابعاد هذه النجوم الحقيقية بدلاً من معرفة ابعادها النسبية واعتمد على هذه الطريقة في قياس بعد قنو هرقل فوجده ٣٦ الف سنة ضوئية . ثم اعتمد عليها في قياس ابعاد مائة من هذه القنوان فوجد ان بعدها وهو الموسوم NGC 7006 يبعد ٢٢٠ الف سنة ضوئية من الارض

اما هبل فصرف عنايتهُ الى قياس السدم بهذه الطريقة فوجَّه نظره اولاً الى السديم المرقوم Messier 31 وهو سديم حلزوني في صورة المرأة المسلسلة ثم الى السديم Messier 33 في صورة المثلث فوجد ان في الاول متغيرات قيفاوية تبلغ العشرة او اكثر قليلاً وان فترة التغيُّر في اشراقها تماثل فترة التغيُّر في بعض القيفاويات التي في المجرَّة . فاستند الى قاعدة المس لفيت كما افرغها شابلي فتبيَّن ان هذا السديم يبعد عنا ٩٠٠ الف سنة ضوئية . واذن فهو خارج المجرَّة حتماً . ثم انتقل الى الثاني وبالطريقة نفسها أثبت انهُ يبعد عنا مليون سنة ضوئية

وقد ظهر من بحوث هبل واعوانه ان اخفى السدم التي تتبينها عين المرقب وتسجلها لوحة التصوير الضوئي الحساسة يبعد ٢٤٠ مليون سنة ضوئية

فلنحاول الآن ان نرسم صورة للكون المنظور كما يرى لو كنا مشرفين عليه من بعيد . ولنجعل هذه الصورة كرة قطرها عشرون قدماً ، وكل بوصة فيها تمثل المسافة التي يجتازها الضوء في مليوني سنة ضوئية . واذن فمجرَّتنا (قطرها نحو ١٠٠ الف سنة ضوئية) تمثل داخل

هذه الكرة برأس دبوس قطره عُشر بوصة . اما النجوم التي ترى بالعين المجرَّدة فتشغل داخل هذا الرأس كرة نصف قطرها ١/٩٠٠ بوصة . اما شمسنا فلا تزيد على حجم كهيرب — على هذا القياس — واما الارض فلا تزيد على جزء من مليون جزء من الكهيرب . وليس ثمة ما يحملنا على الظن بان كرة نصف قطرها ٢٤٠ مليون سنة ضوئية تشتمل على الكون كله . وانما هي ذلك الجزء من الكون الذي نستطيع ان نراه مباشرة او بالواسطة . ولا ريب في ان المرقب الكبير المنتظر البالغ قطر مرآته ٢٠٠ بوصة سيكشف لنا آفاقاً كونية جديدة وراء هذه الآفاق القصية

واذن فلا نستطيع ان نعتمد على الرصد وحده في تقدير حجم الكون، بل يجب الاستناد الى أساليب أخرى . وهذه الاساليب قائمة على قاعدة من نظرية النسبية . ولكن الارصاد الفلكية ليست بكافية لبناء حكم صحيح عليها ، ولذلك يقول السر جيمز جينز ان كل ما نستطيع أن نقوله ونحن واثقون بما نقول ان أبعاد الكون أعظم جدًّا من مسافة ٢٤٠ مليون سنة ضوئية وهو بعد أبعد السدم التي نتبيَّنها بأجهزة الرصد الحديث . أما مدى هذه الابعاد وهل هي آلاف مليون سنة ضوئية كما يقول بعضهم او عشرة آلاف سنة ضوئية كما يقول البعض الآخر او أكثر او أقل فلا يملك علماء العصر سنداً علميًّا كافياً للحكم فيه

عمر النجوم

نلتفت الآن الى موضوع عمر الكون . وهو موضوع يختلف في أركانه عن موضوع حجمه وسعته . وهناك طرائق مختلفة لتقدير هذا العمر ولكن ليس بينها طريقة يصحّ الاعتماد عليها كل الاعتماد . وهي تفضي الى نتائج متضاربة . والمسألة تدور في أبسط اشكالها على قدرتنا على ان تنفذ بأساليبنا العلمية الى ما كان عليه الكون في الماضي السحيق . وليس بالعجيب أن تقل دقتنا كلما تغلغلنا في الماضي

أن مرقب مرصد جبل ولسن الكبير يمكننا من تبين سدم تبعد عنا ٢٤٠ مليون سنة ضوئية، فعند ما يوجَّه المرقب الى هذه الاجرام الكونية ، نشاهد إما مباشرة وإما بالواسطة ، ما كانت عليه قبل ٢٤٠ مليون سنة لان هذا الضوء الذي نراها به غادرها عندئذٍ مجتازاً رحاب الفضاء . واذن فهذه الاجرام كانت موجودة قبل ٢٤٠ مليون سنة ولذلك يصحّ لنا ان نقول ان عمر الكون يزيد على ٢٤٠ مليون سنة . ثم ان هذه الاجرام القصية لا تختلف في أركانها وأوصافها الاساسية عن أجزاء أخرى من الكون أقرب الينا منها . واذن يصح ان نستنتج من هذا ان الكون لم يصبهُ تغير عظيم في أثناء ٢٤٠ مليون سنة . اي ان هذه المدة ليست الا فترة قصيرة في حياة الكون ونشوئه . واذن فعمر الكون يجب ان يكون أضعاف ٢٤٠ مليون سنة ودراسة الارض من ناحية عمرها تؤيد هذا الرأي . ففي وسع العلماء ان يسترشدوا بقواعد

علم الجولوجيا ليتصوروا ما كانت عليه الارض من ٢٤٠ مليون سنة، فيجدوا انها لم تكن تختلف كثيراً عمّا هي عليه اليوم . وهذا لا يبين فقط ان عمر الارض يزيد على ٢٤٠ مليون سنة بل يبين كذلك ان الشمس لم تتغير كثيراً خلال تلك المدة . ولذلك لا بدّ ان يكون عمر الشمس وكذلك عمر الكون الذي هي احد شموسه ، اضعاف ٢٤٠ مليون سنة . وإذا حللت الصخور المحتوية على مواد مشعة عرف العلماء المدة التي انقضت منذ تجمدت تلك الصخور . وقد تبينوا بهذه الطريقة ان اقدم الصخور التي درست على هذه الطريقة يرتدّ تاريخ تجمدها الى ١٧٥٠ مليون سنة . ولذلك يصح أن نقول ان عمر الكون على الاقل ١٧٥٠ مليون سنة

وهناك وسيلة أخرى نستطيع ان نتوسل بها لتقدير عمر الكون . وهي القائمة على فكرة تمدُّد الكون . فالسدم التي خارج المجرَّة تبدو — اذا أخذنا بحيود الخط الاحمر — وكأنها تتفرق مبتعدة عنا وبعضها عن بعض . وقد قاس هيوماسون وهبل سرعة تفرقها وابتعادها فاذا أسرع ما قيس منها سائر بسرعة ٤٢ الف كيلو متر في الثانية . وهي سبع سرعة الضوء . والقاعدة المسلّم بها بوجهٍ عام الآن ان أبعد السدم أسرعها . وان السرعة تختلف باختلاف البعد . فاذا صحّ ان الكون — اي الفضاء — آخذ في التمدُّد وان السدم وهي أجزاء منهُ لا بدّ ان تبتعد بعضها عن بعض ، فالابعاد الكونية المعلومة لدينا الآن ، تتضاعف بعد الفي مليون سنة اذا استمرَّت الاجرام مغذة في سيرها بالسرعة التي تسند اليها الآن

الاَّ ان نظرية النسبية تذهب الى ان الكون لا يمكن ان يمضي في تمدده بمعدل واحدٍ من السرعة، بل في الوسع القول بناء على بعض قواعد النسبية، ان السرعة تزداد بنسبة هندسية ولذلك يقال ان ابعاد الكون تتضاعف بعد ١٤٠٠ مليون سنة على هذا الاساس . وهذا يعني ان ابعاد الكون كانت من ١٤٠٠ مليون سنة نصف ما هي عليه الآن وانها كانت قبل ٢٨٠٠ مليون سنة ربع ما هي عليه الآن . الاَّ انهُ لا نستطيع ان نرتدّ في الزمن على هذا المنوال الى ما لا نهاية له حتى يصبح الكون نقطة مستقرة قبل ان بدأت تتمدد . ويقول جينز ان عمليات رياضية معقدة تحمله على الاعتقاد بأن التمدد الكوني لم يبدأ قبل ١٠٠ الف مليون سنة على الغالب . ولكن الرقم المذكور ليس الاَّ رقماً تقريبيًّا ولا يعتمد عليه . وليس فيهِ دليل حاسم على عمر الكون . وذلك لان عمليات رياضية اخرى تشير الى انهُ من المحتمل ان تكون فترة من التقلص الكوني قد سبقت فترة التمدد التي نشهدها الآن

ثم هناك فكرة جديدة قد يكون لها من الاثر في دراسة عمر الكون كأثر « المتغيرات القيفاوية » في دراسة ابعاده . وهذه الفكرة تقوم على مبدإ « توزع الطاقة المتعادل » بين الذرات في الغاز او بين النجوم في السماء . وهذا موضوع في حاجة الى مقال قائم بنفسه لبسطه.

ولكن لا بدَّ من ايجازه هنا . فالاتجاهُ في ذرات غاز ما الى ان تخسر الذرات التي فيها طاقة تفوق طاقة غيرها وان تكسب هذا ما فقدته تلك حتى يصل الغاز الى حالة من توزع الطاقة المتعادل فيصبح من هذه الناحية في حالة استقرار . والغالب ان يتم هذا التوزع عن طريق الاصطدام بين الذرات

ولكن المسافات الشاسعة بين كواكب السماء تحول دون حدوث اصطدامات كافية لتحقيق هذا التوزع ولذلك فهو يسند الى التفاعل التجاذبي بين النجوم . والمشاهد من رصد النجوم انها على اختلاف كتلها وسرعتها ، تكاد تكون بلغت حالة من التكافؤ في توزّع الطاقة بينها ، واذن فحساب عمر النجوم قائم على طول المدة التي لا بدَّ منها لقوى التفاعل التجاذبي ، لكي تحوّل النجوم من تباين عظيم بينها في مقادير طاقتها الى حالة قريبة من التوزع المتكافئ او المتعادل. والنتيجة التي يخرج بها العلماء من هذا البحث ان عمر الكون من رتبة خمسة ملايين مليون الى عشرة ملايين مليون سنة

فما كانت حالة الكون من خمسة ملايين مليون سنة ؟ ان المشاهدة والرصد في عهدنا يدلان على ان الشمس تشع من الطاقة ما متوسطه ٢٥٠ مليون طن في الدقيقة . فقد كانت تزن امس في الساعة السابعة صباحاً — وهي ساعة كتابة هذه السطور — ٣٦٠ الف مليون طن اكثر مما تزن الآن . فمن مليون مليون سنة كان وزنها يفوق وزنها الآن كثيراً ومعرفة الفرق ممكنة بالحساب وهو يدل على ان ما فقدتهُ من وزنها خلال ذلك ليس الا ٦ في المائة من كتلتها . ولذلك كانت أعظم اشراقاً مما هي الآن وكانت تشع كل دقيقة ٣٠٠ مليون طن في الدقيقة بدلاً من ٢٥٠ مليوناً . فبعد تصحيح الحساب تبين أن الشمس حينئذٍ كانت تفوق ما هي عليه الآن كتلةً واشراقاً . وقد كان من المتعذّر من سنوات ان نصدّق ان الشمس تستطيع ان تولد طاقتها بملاشاة مادتها . ولكن علماء الطبيعة كشفوا خلال هذه السنوات الكهيرب الموجب (البوزيترون) في المعمل . وهذا حمل الباحثين على الاعتقاد بان تحوّل المادة الى اشعاع عمل قائم في المادة الارضية علاوة على تحوّل طاقة الاشعاع الى مادة . وما زلنا قد توصلنا الى معرفة مصدر للطاقة كهذا المصدر فليس ثمة اعتراض على عدّ عمر النجوم بملايين الملايين من السنين

لم يكن تصور رحابة الكون وسعته العظيمة بالامر السهل . واشقُّ من ذلك على العقل تصوُّر سعة الزمن الفلكي وامتدادهُ العظيم . فالكتاب اذا احتوى على مائتي الف كلمة عدَّ كتاباً فوق المتوسط حجماً . ولنقل انَّ كل كلمة متوسطها خمسة احرف . ثم لنأخذ هذا الكتاب وسيلة لتمثيل عمر الارض . ان الحضارة البشرية تمثل فيه بكلمتيه الاخيرتين . والعهد المسيحي بحرفه الاخير او اقل قليلاً . وحياة المتوسط من الناس تمثلها النقطة الاخيرة . هذا هو عمر الارض بالقياس الى عمرنا . وعمر الكون اذا مثل التمثيل نفسهُ اقتضى مجلدات متعددة . واذا صحَّ الرأي الاخير في عمر الكون وجب أن تملأ هذه المجلدات رفوف مكتبة تتسع لالوفٍ منها

العشاق الثلاثة

لعلي محمود طه

« الى ادعياء الحكمة والمعرفة
« الى المتطلعين للسماء في انتظار المعجزة
« الى القابضين على الريح

سرى القمرُ الوضّاح بين الكواكب ... يُفكّرُ فيما تحته من غياهب
فناداهُ من وادي الخليّينَ هاتفٌ ... بصوت محبٍّ في الحياة مقارب
يقول له : يا روعة الحسن والصّبا ... وأجملَ أحلام الليالي الكواعب
أنا العاشقُ الوافي إذا جنّني الدُّجى ... وراعيكَ بين النيّرات الشواقب
ألا ليتني حُرٌّ كضوئك أرتقي ... عوالمكَ الملأى بشتّى العجائب
ويا ليتَ لي كنزَ ابتساماتكَ التي ... تُبعثرها في الكونِ من غير حاسب !

***

فأصغى إليه الضوء في صفوِ جذلان ... وأضفى على الوادي شعاعَ حنان
وجاسَ خلال السُّحْب والماء والثرى ... فلم يرَ في أنحائها وجهَ إنسان
فنادى به : يا صاحبي ضلّ ناظري ... فأين تُرى ألقاكَ أم كيف تلقاني
فأوما له إني هنا تحت شرفتي ... وراء زجاجيها أخذتُ مكاني
أبى البردُ أنْ استقبلَ الليلَ قائماً ... وأن أنزلَ الوادي بحيث تراني
وحسبُ الهوى من عاشقٍ لك وامقٍ ... تَزَوُّدُ عيني من سنا ضوئك الحاني !

***

فألقى عليه الضوء نظرةَ حائر ... وأعرضَ عنهُ بابتسامةِ ساخر

وقال له : يا صاحبي قد جهلتني ... ويا رُبَّ شعرٍ ساقهُ غيرُ شاعر
انا الموثَقُ المكدود طالت طريقه ... طـريقُ اسيرٍ في رعاية آسر
تجاذبني طاحونةُ الشمس كلما ... وقفتُ . وتعضي بي سِياطُ المقادر
وما بسمتي إلاَّ دموعٌ من اللظى ... قد التمعتْ في وجهِ سهمانَ حاسر
فدعْ عنك يا أعجوبة الحبِّ عالمي ... فقبلكَ لم يَدرِ الاعاجيبَ ناظري !

***

وأمعنَ في تفكيرهِ القمرُ الزاهي ... فرَّ بأرضٍ ذاتِ عُشْبٍ وأمواه
يناجيه منها عاشقٌ ذو ضراعةٍ ... مناجاةَ صوفيٍّ لِطَيْفهِ إلَـه
يقول له : يا مُشهدي كلَّ ليلةٍ ... جمالَ محُيًّا رائعِ الحسنِ تَيَّاهِ
شبيهٌ بهذا الضوءِ نورُ جبينهِ ... على أنَّهُ في الناس من غير أشباهِ
ترسمُ لي الاشباحُ طيفَ خياله ... فأدنو لضمٍّ او للثمِ شفاهِ
تمنَّيتُ لو وسَّدتُ خدَّك راحتي ... وصدرُك خفّاقٌ وجفنُك ساهي

***

فرفَّ على الوادي الشعاعُ طروبا ... ونادَاهُ من بين الظلالِ مُجيبا
أزحْ هذه الاغصانَ عنك لعلني ... أصافحُ وجهاً من هواكَ حبيبا
فجاوبهُ : يا قُرَّة العين إنني ... قد اخترتُ من شطِّ الغدير كثيبا
اذا أتعبتْ عيني السماء تطلُّعاً ... وخالستُ لحظاً للنجـوم مُريبا
ففي صفحاتِ الماء نزهةُ عاشقٍ ... يراكَ على بُعْدِ المـزار قريبا
خلوتُ بهِ أرعاك أوفى قسامةً ... وأوفرَ من سحرِ الجمالِ نصيبا !

***

فغاض ابتسامُ الضوءِ من فرط حيرةٍ ... وصاح نجيّي أنت حقّرتَ سيرتي

هو الكونُ مرآتي ومجلى مفاتني — وما لغدير ان يمثّلَ صورتي
وما نظرَ العشّاقُ إلاّ بأعينٍ — تُعظّمُ في المعشوق كلَّ صغيرة
أعيذُ الذي شبّهتني بجماله — أديمَ مُحيّا مثلَ صمّاء صخرتي
أنا الفحمةُ البيضاء ان جنَّني الدُّجى — انا الحمّةُ السوداء رأد الظهيرة
فدَعْ عالمَ الافلاك واقنع بلجّةٍ — وغازلْ من الاسماك كلَّ غريرة!

***

وبينا يهيمُ الضوء في سبحاته — وقد غطَّ هذا الكونُ في سخرياته
رأى شبحاً في قربِ نارٍ كأنما — يودّع طيفاً غابَ عن نظراته
عدَّ ذراعيه، ويُرسلُ صوته — بلوعةِ قلبٍ ذابَ في نيراته
الى القمر الساري مُحيّاه شاخصٌ — كصاحبِ نُسْكٍ غارق في صلاته
فخام عليه الضوء واستمهلَ الخُطى — وأجرى سناه الطلْقَ في قسماته
وصاح به: يا شيخُ ما أنت قائلٌ — تكلّمْ: فان الليل في أخرياته

***

فقال له: يا باعث الحبّ والمنى — سلمتَ وحيّتك العوالمُ والدُّنى
شفيتَ جوى شيخٍ أحبك يافعاً — وعاش بهذا الحبّ جذلان مؤمنا
وأفنيتُ عمري أرتقي عاليَ الذرى — إلى ان بلغتُ اليوم مثواي ههنا
وأوقدُ ناري كي تَراني وأنثني — لأطلق ألحاني وأدعوك موهنا
وقيلَ ضنينٌ لا يجودُ بوصله — فهأنذا ألقاك يا ضوء محسنا
تساوتْ كلابٌ تنبح البدرَ سارياً — ونوّامُ ليلٍ أنكروا آية السنا!

***

فحدّقَ فيه الضوء وارتدَّ مغضبا
وقال له أفنيتَ في سخفك الصبا
ولمّا تُرح جفناً من السهدِ متعبا
وسخريةٌ بالنار أن تتقربا
كأنَّ شعاعي في جفونك قد خبا
ومن عبث مثواك في هذه الرُّبى
على حين لم تبلغْ من النور مرقبا
وما كنتَ إلاّ الواهم المترقبا
وثالثَ عشاقٍ بهم ضقتُ مذهبا
وكانوا لأمثال الخليّين مضربا
فوآسفا، ما كنتُ في الدهر مذنبا
فأجزى بنجوى من تعشّق أو صبا
وساقَ على حبي الدليل المكذّبا
سَلِ العاصيَ الهاوي من الخلد هل نبا
به الليلُ لمّا آثر الأرضَ واجتبى ؟
أأبصر قبلي في الدجنّة كوكبا
أضاء له الدّربَ السحيق المشعّبا
وهل في سنا غيري تَعلّى وشبّبا
بحواء واهتاج اليراعَ المثقبا
حويتُهما روحاً طريداً معذّبا
فذابَ حياتي منهما وتصبّبا

وأورثني هـذا الشحوبَ وأعقبا
رأيت فماً يدنو ووجهاً مخضبا
وجسمين ذابا شهـوةً وتلهبا
وصدراً خفوقاً فـوق صـدرٍ توثبا
غرائزُ فيهـا الغيُّ والنقصُ ركّبا
تَلمَّسُ في ضـوئي الأنامَ المُحببا
فيا شيخ دَعْ هذا الوشاحَ المذهّبا
تر الحمأ المسنونَ في الكأس ذُوّبا
طفا الراح فيـه والـتراب ترسّبا
وإنَّ كلابَ الأرض أشرف مأربا
يُنـيرُ لها ضوئي الظلامَ لتجنبا
خُطى اللصّ يستار الطريقَ المحجّبا
فان نبحت ضوئي تسمّعتُ معجبا
بأرخم لحن رنَّ في الليل مطربا
تحيّةَ مُثْنٍ بي أهـلاً مرحّبا
بي آدم إن لم يكن آدم الأبا
رجوتُ لكم من عالم الرجس مهربا
وآثرتكم بالكلبِ جَداً مهذّبا
وأجملَ بالانسان ان يتكلبا

***

ومالَ عن الارضِ الشعاعُ وغرّبا ووسوسَ في صدرِ الدُّجى فتألبا

الكلف

والاشعة الكونية

الكلف التي تبدو على وجه الشمس والاشعة الكونية والعواصف المغنطيسية ظاهرات طبيعية متباينة ، ولكنها تتباين كأن بينها اتفاقاً على الاتساق في تباينها . وقد كانت هذه الحقيقة لغزاً يحير العقل حتى عهد قريب الا ان العلماء شرعوا ينفذون الى حقيقته

ففي ٢٥ يناير سنة ١٩٣٨ حدثت اعظم العواصف المغنطيسية التي رصدها العلماء في السنين الاخيرة فتأثر بها الراديو حتى كأن قوة خفية جمدت امواجه في الفضاء ، واضطربت مواصلات السفن ، وعجزت اسلاك البرق عن نقل رسائله لتولد تيارات متأثرة قوية فيها ، واشتد ظهور الانوار القطبية . وفي الوقت نفسه اذاعت المراصد وجود كلفة على وجه الشمس تفوق في حجمها الكلف المألوفة . وكانت هذه الكلفة — بحسب الرأي الحديث — إعصاراً من الغاز المتوهج يتسع لعشر كرات كل منها بحجم الارض . اما الاشعة الكونية التي قلما يبدو تغير ما في قوتها ، فبدا للباحثين انها اضعف في تلك الفترة من مستهل هذه السنة مما هي عادة . وكان الباحثون قد أثبتوا ان لاصلة بين الشمس وهذه الاشعة فماذا حدث حتى أثر فيها الاضطراب المجتاح قرص الشمس ؟

ان الكلف الشمسية في رأي الفلكيين اعاصير تنتاب سطح الشمس ، ويكون اتجاه المادة فيها الى الخارج . والغازات المتجهة من قلب الشمس الى خارجها تتمدد فتبرد . وقد يكون الغاز في هذه الفوهة المفتوحة في الشمس أبرد من الغازات التي تحيط بها نحو الف درجة . ولكن ذلك لا يمنع ان يكون غاز الكلفة شديد الحرارة وان تكون حرارته كافية لفصل بروتونات الذرات عن كهيرباتها فتنطلق البروتونات والكهيربات في الفضاء بقوة عظيمة

وقد يعلو كلف الشمس ألسنة تندلع من سطحها الى الفضاء المحيط بها ، وليس بالنادر ان يبلغ ارتفاعها عن سطح الشمس ٢٥٠ الف ميل اي مقدار بعد القمر عن الارض تقريباً . وهذه الالسنة الغازية المندلعة من الشمس تلطف مادتها رويداً رويداً كلما بعدت عن مصدرها حتى تصبح هباء خفيفاً لا يرى . الا ان الذرات واجزاء الذرات المنطلقة من أعاصير الشمس تبقى سائرة في الفضاء بين النجوم

وقد تبقى الكلفة ثلاثة اسابيع او أربعة بغير ان تندلع منها هذه الالسنة النارية وقد تندلع الالسنة ولكنها لا تكون متجهة صوب الارض اذ لا يخفى ان الارض لا تزيد على نقطة صغيرة

في الفضاء اذا رصدت من الشمس . وعلى الرغم من صغر الارض بالقياس الى الشمس وبعدها عنها ، يصيبها أحياناً رذاذ من هذه التيارات المنطلقة في الفضاء

ان الدقائق المشحونة في هذه التيارات — وهي كهربات على الغالب — تخضع لنواميس الكهربائية والمغنطيسية من حيث الجذب والدفع . ولذلك تراها تتجمع متجهة الى قطبي الارض المغنطيسيين عند اقترابها من الارض. وقد أثبت ملكن من عهد قريب ان تأثير الارض المغنطيسي — او حقل الارض المغنطيسي كما يقال باللغة الانكليزية — يمتد الى ما وراء غلافها الغازي اي جوّها ، وعلى بعد ألوف من الاميال عن سطح الارض يؤثر هذا الحقل المغنطيسي في الكهربات المنطلقة في الفضاء صوبَ الارض ، فيحرفها الى القطبين المغنطيسيين ، ولا يمتنع الانحراف الاَّ عن الاشعة الشديدة النفوذ ، ولكن معظم الاشعة الكونية ينحرف كذلك

وعندما تصبح تيارات الكهربائية المنطلقة من الشمس على بضع مئات من الاميال من سطح الارض تبدأ تصطدم في سيرها بدقائق الهواء فينتقل الى هذه الدقائق جانبٌ من طاقة الكهربات فتصبح هذه الدقائق في حالة « تهيج » فتتحول طاقة الاصطدام فيها الى « تألق » . وهذا التألق هو ما يطلق عليه اسم الشفق القطبي او الانوار القطبية . وفي الوسع الرجوع بشكل هذه الاضواء ولونها الى الكهربات الواصلة الى جوّ الارض من الفضاء وتباين طاقاتها

وقد عمد العالم النروجي ستورمر الى تصوير ألوفٍ من هذه الاضواء ثم بيَّن كيف يرجع كل شكل من أشكالها الى طائفة من دقائق ذات طاقة معينة منحرفة في حقل الارض المغنطيسي

ولا يخفى ان من القواعد الطبيعية المسلَّم بها ان الفعل وردَّ الفعل متساويان . فاذا انحرفت طائفة كبيرة من الدقائق المكهربة بتأثير حقل الارض المغنطيسي واتجهت في انحرافها صوب القطب فأحدثت الاضواء القطبية الباهرة ، فالطاقة التي أنفقت في حرفها أخذت من حقل الارض المغنطيسي فأصاب هذا الحقل شيء من التغيير ولما كانت هذه الدقائق المكهربة ليست قادمة من جميع الجهات على السواء ، فالتغيير لا يصيب حقل الارض المغنطيسي في جميع جهاته على السواء. فيتجه الحقل المغنطيسي من تلقاء نفسه الى المساواة، وهذا الاتجاه يدوّن اضطراباً في بوصلة الملاح

ولا يخفى ان علماء الطبيعة أثبتوا من عهد فراداي ان سلكاً متحركاً في حقل مغنطيسي مستقر ، يولّد فيه تيار كهربائي . وان سلكاً مستقراً في حقل مغنطيسي متحرّك يولّد فيه تيار كهربائي كذلك . وكذلك يولّد التغيُّر في حقل الارض المغنطيسي — سعياً وراء العودة الى الاتساق — تيارات كهربائية في أسلاك الشركات البرقية . فاذا بلغت هذه التيارات المؤثرة درجة معينة اضطرب نظام ارسال الاشارات البرقية أيما اضطراب . ويطلق على الاضطرابات التي تقع في حقل الارض المغنطيسي اسم « عواصف مغنطيسية » والعواصف الكبيرة التي من هذا القبيل

نادرة . ولكنها سواء أصغيرة كانت أم كبيرة تدل على وصول تيارات من الدقائق المكهربة من الشمس الى الارض

وقد نسأل ما مصير هذه الدقائق ؟ عندما تصطدم هذه الدقائق بدقائق الهواء يمتصها الهواء فتؤثر فيه فوق الطبقة المعروفة بطبقة كنلي هيفيسيد . وهذه الطبقة أشبه ما يكون بدثار كهربائي يحيط بالارض على ارتفاع معين وقوامها ذرّات اصابتها الاشعة التي فوق البنفسجي فأيّنتها . ولذلك يصيب هذه الطبقة تغير يوميّ بين الليل والنهار . ففي اثناء الليل تعود شظايا الذرّات المؤينة الى التجمع فتبنى منها ذرّات كاملة ثانية . فاذا اتصل بجوّ الارض تيار من الدقائق المكهربة تعاونت مع الاشعة التي فوق البنفسجي في فعل التأيين فيزداد عدد الذرات المؤينة في تلك الطبقة . ومن خصائص الغازات المؤينة انها تعكس الامواج الكهرطيسية اي أمواج الراديو كما لا يخفى . ومن الطبيعي ان يصيب فعل الانعكاس تغيرٌ اذا أصاب الطبقة العاكسة تغير في بنائها

فلما حدثت « العاصفة المغنطيسية » أخيراً لم يدهش مهندسو الراديو ان يجدوا تلاشياً في أشعة الراديو القصيرة التي تجتاز المحيط الاطلنطي فاضطروا ان يغيروا طول الامواج التي يذيعون بها لكي يتمكنوا من الاحتفاظ بالاتصال اللاسلكي . وذلك لانه عندما تتأثر طبقة كنلي هيفيسيد باشعاع الكلف الشمسية تصبح وهي أحسن عكساً لامواج لاسلكية معيَّنة دون غيرها

والاشعة الكونية تصل الى الارض من رحاب الفضاء . ولو أنها كانت تصدر من الشمس لكانت اقوى في النهار منها في الليل . ولكن ذلك لا يقع . فالتغير في الاشعة الكونية بين الليل والنهار لا يزيد على خمس واحد في المائة حالة ان التغير في ضوء الشمس يهبط الى صفر تقريباً على جانب الارض المظلم . واذا كان هذا كذلك فلماذا تضعف الاشعة الكونية في اثناء العواصف المغنطيسية ؟ ان الجواب عن ذلك منطوٍ في طبيعة هذه الاشعة نفسها

ان جانباً من الاشعة الكونية على الاقل دقائق مكهربة . تأتينا من مصادر مجهولة في رحاب الفضاء وطاقتها تتباين من ملايين الى عشرات البلايين من الفولطات . فدقائق هذه طاقتها قلما يؤثر حقل الارض المغناطيسي في حرفها . ولكنها تنحرف قليلاً فتبدو وهي قرب القطبين اشد مما هي عند خط الاستواء بمقدار عشرة في المائة . فاذا تغير الحقل المغنطيسي الذي يحرفها تغيرت شدتها . واذن فالاشعة الكونية التي لا تتأثر بالشمس عادة تتأثر بما تطلقه الكلف الشمسية من دقائق مكهربة تؤثر في حقل الارض المغنطيسي

الاّ ان التغير في الاشعة الكونية ليس كبيراً ولم يكن قياسه بالمستطاع الاّ في العهد الاخير وبعد اتقان اساليب القياس الدقيقة . وقد اعلنت هذه الاساليب اولاً في ٢٥ ابريل ١٩٣٧ ثم حدثت العاصفة المغنطيسية في يناير ١٩٣٨ فظهر الاثر في الاشعة الكونية كما كان متوقعاً

العوامل الفعالة في الادب العربي الحديث — ٧

النهضة العربية

القومية وأثرها الادبي

لانيس المقدسي
استاذ الادب العربي بجامعة بيروت الاميركية

﴿ توطئة ﴾ للعرب في تاريخهم القديم ثلاث نهضات بارزة . الاولى دينية مهدها الحجاز وقد بلغت اوجها بظهور الاسلام وانتشاره في قسم كبير من المعمور . والثانية قومية . وليس بالهيّن فصلها عن الاولى ، على انها تبرز بشكل خاص في العهد الاموي ففيه كان للعرب سلطنة عظيمة الشأن تمتد من حدود الهند الى الاندلس . وكان العرب فيها اهل الادارة والسلطان ، يسبونهم تحاط الدولة والى خزائنهم تجبى الاموال . واما النهضة الثالثة فعلمية لغوية ، وقد بدأت بالنموّ منذ ظهور الاسلام وما زالت حتى بلغت عصرها الذهبي في بغداد وبعض الحواضر الاخرى . ويراد بها ما قامت به اللغة العربية يومئذٍ من نقل العلوم القديمة والتوسع فيها وما عُرف من ازدهار معارفها وآدابها .

ومن المعلوم ان العرب فقدوا بعد الامويين مقامهم السياسي الممتاز في الشرق واخذوا بعد العصر العباسي الاول بالتراجع امام سائر العناصر . ولم يلبثوا في الشرق عقب انحلال الخلافتين العباسية والفاطمية ، ان دخلوا في حكم الدول الاعجمية وآخر هذه الدول السلطنة العثمانية التي يمتد حكمها عليهم من سنة ١٥١٦ م الى نهاية الحرب الكبرى ١٩١٨

ولا نرى قبل القرن التاسع عشر ما يشير الى يقظة قومية للعرب ، فقد كانت قوميتهم في سبات عميق . واول من حاول ايقاظها لاغراض سياسية محمد علي الكبير (مؤسس البيت المالك المصري) او قل ابنه ابرهيم باشا ، وكان ينوي انشاء دولة عربية مركزها القاهرة[١] لكن مشروعه لم يتمّ . ولا يظهر ان البلدان العربية التي نؤرخ ادبها الحديث (مصر وسوريا والعراق) تأثرت يومئذٍ

(١) راجع ما ذكرناه في مستهل الفصل الاول (مقتطف فبراير الماضي) وكذلك تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعي (طبع ١٩٣٠) ص ٢٣٣ و٢٦١

تأثراً جدّيًّا بهذا المشروع او سعت لتحقيقه، على ان البذرة وضعت في الارض وترك للزمان إنباتها

بقي الحال كذلك الى الثلث الاخير من القرن التاسع عشر، وكانت مصر قد استقلت بشؤونها الداخلية عن الدولة العثمانية، والنهضة العلمية قد بدأت في سوريا ولبنان بتنشيط بعض اعلام الحكّام كراشد باشا ومدحت باشا [1] واضرابهما، فنهيأ من كل ذلك بواعث لحركة ادبية تعبّر عن احلام العرب وخوالجهم القومية. ومن هذا القبيل جملة من القصائد والخطب الوطنية التي كان لها اثر يذكر في تخمير الافكار واذكاء الروح القومية وسنذكر شيئاً منها بعد

ومن ظواهر تلك اليقظة القومية نشوء جمعيات غايتها المطالبة بحقوق العرب في السلطنة العثمانية والحضّ على إنهاضهم، كالجمعية التي تأسست سنة ١٨٨١ باسم «جمعية حفظ حقوق الملّة العربية» وقد نشرت نداء الى العرب من مسلمين ومسيحيين تحت عنوان «يا نامه الامة العربية» تدعوهم فيه الى الاتحاد والمطالبة بالحقوق القومية [2] ويبدأ هذا النداء بمخاطبة المسلمين فيلفت نظرهم الى ظلم تركيا ويختم ذلك بقوله —

«فأين انتم واين هم؟ من منكم اليوم امير ومن منكم اليوم وزير ومن فيكم اليوم مدير؟ بل كل واحد منكم فقير، وكبيركم مثل صغيركم حقير، والمال والآمال بأيدي الترك الخ» ثم يلتفت الى المسيحيين فيقول لهم —

«اتحدوا مع المسلمين واستعدوا لنوال حريتكم من المعتدين فان الترك يخشون بأسكم فلا يمسّونكم ولا ينتهكون حرمتكم خوفاً من القناصل. فاتحدوا بقلب مع اخوانكم المسلمين فان مرجع مصالحكم الى واحد»

ويظهر ان بعض ذوي المصالح من الاتراك كانوا يظاهرون العرب، فقد ذكرت جريدة المشير ان جماعة من شبان العرب والاتراك اجتمعوا في باريس لتأسيس جمعية عربية وغاياتها [3]

١ — ان يدافعوا عن حقوق العرب جميعاً مهما تباينت مذاهبهم

٢ — حفظ الامة العربية تحت ظلّ الراية العثمانية في وضع قانون اساسي للخلافة

٣ — ان يساوى بين العرب والترك في كل شيء

٤ — اجراء الاصلاحات الواجبة بالطريقة الواقعة (اي بالفعل)

٥ — استقلال كل ولاية من الولايات (العربية) بماليتها وتخصيص ولايتها بوالٍ عربي او معاون عربي. (وهو كالنظام اللامركزي الذي كان يسعى اليه الاصلاحيون قبيل الحرب الكبرى كما سنرى بعد)

ويلوح لنا ان هذه الجمعية هي نفس الجمعية التي يذكرها سيميونسكو في جريدة الجورنال

(١) راشد باشا كان والياً على سوريا سنة ١٨٦٣ — ٦٨ ومدحت بعده بقليل (٢) جريدة المشير ٢٩ مايو ١٨٩٥ (٣) المشير ١٩ ديسمبر ١٨٩٦

الفرنسية اذ يقول [1] « في العام ۱۸۹٥ بدأت حمّى الاسلام بالارتفاع عند ما تأسست في باريس عصبة الوطن العربي وكان لهذه العصبة قاعدتان جوهريتان هما التحرّر من الاجانب واتحاد البلدان العربية تحت سلطة موحّدة وزمنية »

ولعلّ عصبة الوطن العربي هي الجمعية الوطنية العربية التي يذكرها الاعظمي في كتابه « القضية العربية » [2] وسواء صح ذلك ام لم يصح فالواقع ان العرب اخذوا منذ ايام السلطان عبد العزيز يتنبهون الى حقوقهم ، يطالب احرارهم بها ، وقد تركوا لنا من آثارهم الادبية في العهد السابق لدستور ۱۹۰۸ ما لا يترك مجالاً للشك في ذلك

على ان هذا التنبه لم يبلغ بهم يومئذٍ مبلغ الرغبة الجدية في الانفصال عن تركيا وجل ما كانوا يطلبونهُ ان ينالوا حقوقهم في الدولة . وعلى ذلك يقول المقطم سنة ۱۸۹٤ بعد ان يذكر النسبة العددية بين العرب والاتراك [3] — « ان العرب مظلومون من حيث الادارة والمناصب وان جلالة السلطان لو علم الحقيقة لانصف العرب ونحن لا نشك بحسن نية السلطان ولكننا نشك في ان هذه الحقائق تصل اليه » . واوضح من هذا القول تصريح خليل غانم ، مبعوث سوريا في المجلس العثماني الاول (ايام مدحت) واحد مؤسسي جمعية تركيا الفتاة في باريس ، اذ قال [4] — « ولا نطلب انفصال العرب عن الاتراك لان ذلك يؤول الى الخراب والاندثار . بل نطلب ونتمنى من صميم الفؤاد انضمام الملتين بل ادغامهما الواحدة بالاخرى بحيث تكونان امة واحدة ، ولكن على شرط المساواة في الحقوق والواجبات »

وهذه الروح المسالمة تتجلى في اقوال جمهرة العثمانيين من ابناء العربية . على ان منهم من لم يقف هذا الموقف المسالم بل تراه يتطرف الى درجة التهجم على الدولة ونعتها بشتى النعوت الذميمة . ويغلب ذلك في الصحافة الخارجة عن دائرة النفوذ التركي . او في بعض الاوساط الخاصة المشبعة بروح العداء للادارة الحميدية . واكثره من قبيل الانفعالات النفسية التي كانت تثور في نفوس الشبيبة . وهي عادة عنيفة متطرفة . قلما تنظر في الامور من كل وجهاتها لتميز بين الغث والسمين وتعرف الصحيح من الفاسد . ولكنها على كل حال صادقة . وبرغم تطرفها ، ورغم تعسفها ترسم لمؤرخ الادب صورة جلية لناحية من نواحي تلك البيئة السياسية

﴿ البوادر القومية الاولى في الادب العربي ﴾ ظهر في اصيل القرن التاسع عشر نخبة من احرار الكتبة والشعراء ، واكثرهم كما ذكرنا في فصل سابق ، من دعاة الاصلاح العام للدولة العثمانية . على ان الذي يهمنا هنا هو ذلك الادب القومي المتصل مباشرة بالحركة العربية او بالاسباب

---

(۱) عن صوت الاحرار (بيروت) ۳۰ سبتمبر (ايلول) ۱۹۳۷ (۲) طبع ۱۹۳۱ ص ٤٨ (۳) المقطم عدد ۱۷۲۸ (٤) المشير ۲٥ يناير (ك ۲) ۱۸۹٥ (راجع سيرته في تاريخ الصحافة لطرازي ج ۲)

التمهيدية لها . ويلوح لنا من رجاله ثلاثة نرى في نفثاتهم اصدق مثال لتلك الحركة . وهم ابراهيم اليازجي . وعبد الرحمن الكواكبي . وأديب اسحق . فلننظر في كل منهم وفي الدور الذي قام به

﴿ اليازجي ١٨٤٧—١٩٠٦ ﴾ ولقد يعجب البعض لزجنا ابراهيم اليازجي في هذا المقام وهو المعروف بالتنقيب اللغوي والبعد عن تيار السياسة . على ان الذي يطالع شعره في ابان شبابه يرى فيه عربيًّا شديد النزعة القومية . ودليلنا على ذلك بعض قصائده التي نظمها (وهو في نحو العشرين او بعدها بقليل) فأحدثت في نفوس الناس هزة لا يزال اثرها الى الآن .

ومنها ثلاث قصائد أولاها قصيدة انشدها سنة ١٨٦٨ في الجمعية السورية ومطلعها [1] —

سلامٌ ايها العربُ الكرامُ   وجاد ربوع قطركم الغمامُ
لقد ذكر الزمان لكم عهوداً   مضتْ قدماً فلم يضع الذمام

ويتقدم الى وصف مجالس العلم وأربابها ثم يعود الى ذكر العرب فيقول مفاخراً : —

وما العُرب الكرام سوى نصال   لها في أجفن العَليا مقامُ
لعمرك نحن مصدر كل فضلٍ   وعن آثارنا أخذ الانامُ
ونحن اولو المآثر من قديم   وإن جحدت مآثرنا اللئامُ

ويأخذ من هنا بتعداد امجاد العرب الأُول في العراق والشام والحجاز واليمن والاندلس ويختم ذلك بقوله —

ولسنا القانعين بكل هذا   وليس لنا بعروته اعتصامُ
ولكنا سنجهد للمعالي   الى ان يستقيم لنا قوامُ

والقصيدة الثانية بائية وهي تلهب حماسة ومطلعها [2] —

تنبهوا واستفيقوا ايها العربُ   فقد طمى السيل حتى غاصت الركبُ
فيمَ التعلل بالآمال تخدعكم   وانتمُ بين راحات القنا سُلُبُ
كم تظلمون ولستم تشتكون وكم   تستغضبون فلا يبدو لكم غضب

ومنها

فشمّروا وانهضوا للامر وابتدروا   من دهركم فرصةً ضنّت بها الحقب
لا تبتغوا بالمنى فوزاً لأنفسكم   فليلةً تمَّ إذ ضُمّنت لها الغلب

ثم يشير الى الاتراك فيقول : —

سلاحهم في وجوه القوم مكرهمُ   وخير جندهم التدليس والكذبُ

(١) راجع الآداب العربية في القرن التاسع عشر لشيخو ٢ — ٣٧   (٢) راجع نصها في المشير ٢٥ ابريل ١٨٩٦ وفي مجلة الاصلاح (بونس آيرس) ٤ — ٤ وفي القضية العربية للاعظمي ١ — ٤٣ . ولا يذكر المشير اسم ناظمها . وتعزى في سر مملكة ٧٣ الى أحد مشائخ المسلمين. أما سائر المصادر ومنها زيدان في تراجم مشاهير الشرق ٢ — ١١٩ فتتفق على ان صاحبها اليازجي

لا يستقيم لهم عهدٌ اذا عقدوا ولا يصحُّ لهم وعدٌ اذا ضربوا

وتأخذه الحماسة القومية فيصيح :

بالله يا قومنا هبُّوا لشأنكمُ فكم تناديكم الاسفار والخطبُ
ألستم من سطوا في الارض واقتحموا شرقاً وغرباً وعزوا أينما ذهبوا
فما لكم ويحكم أصبحتم هَمَلاً ووجه عزّكمُ بالهون منتقب
لا دولةٌ لكمُ يشتدُّ أزركمُ بها ولا ناصرٌ للخطب ينتدب
أقداركم في عيون الترك نازلةٌ وحقُّكم بين أيدي الترك مغتصب

وكلُّها على هذا النمط من اثارة الحفائظ والعصبية الجنسيّة

أما الثالثة فهي السيفية المشهورة . قال سليم سركيس : « ان الذي تولى نشرها في دمشق جمعية نظمت ايام مدحت باشا . وقد كان لنشرها رنّة في البلاد فارسلت التلغرافات الى الاستانة وازداد عدد البوليس السرّي والقت الحكومة القبض على كثيرين »[1] . ولما كانت قد نشرت كاخيتها الباقية غفلاً من التوقيع فقد اختلف في ناظمها على ان أكثر المصادر تعزوها الى اليازجي وهي قصيدة طويلة قد تزيد على الستين بيتاً وهاك بعضها[2]

دعْ مجلس الغيد الاوانسْ وهوى لواحظها النواعسْ
ومنها أي النعيم لمن يبيت على بساط الذلّ جالس
ولمن تراهُ بائساً أبداً لذيل الترك « بائس »
ولمن أزمّته بكفّ عداه يُظلمُ وهو آيسْ
ولمن تباع حقوقه ودماؤه بيع الخسائسْ
ولمن يرى أوطانه خِرباً كاطلالٍ دوارسْ

وهنا يقف الشاعر على طلول البلاد ويعدد امجادها الغابرة ثم يقول : —

فالتركُ قومٌ لا يفوز لديهم الاّ المُشاكسْ
أولستمُ العرب الكرام ومن هم الشُّمُّ المعاطسْ
فاستوقدوا نشناطم ناراً تروّع كل قابسْ

ويدعو العرب الى الاتحاد منددّاً بالشقاق والتعصب الديني ومثيريه في نفوس العامة ثم يقول :

ساد الفساد بهم فسادَ الترك فيه بلا معاكسْ
كم تأملون صلاحهم ولهم فساد الطبع مائسْ
ويغركم برق المنى جهلاً وليل اليأس دامسْ

(١) سر مملكة ٦٧ (٢) راجع نصها في سر مملكة ٦٤

عمّت قبائحهم فأضحت لا تحيق بها الفهارس
حالٌ بها طاب التبسم للوغى والموتُ عابس
وحلا بها سفك الدماء فسفكها للجور حابس

ولم تكن هذه النفثات الشعرية نسيج وحدها في تلك العهود بل ظهر مثلها كثير في البلاد العثمانية والمهاجر . وكلها تنم على تخمير قومي أحدثتهُ الاحوال الجديدة في نفوس الشبيبة لذلك العهد

﴿ عبد الرحمن الكواكبي ١٨٤٩ — ١٩٠٢ ﴾ كان هذا الاديب الحلبي اصلاحيًّا حرًّا . وقد اوصلتهُ نزعته الحرة الى السجن . ثم الى هجرة تركيا والطواف في افريقيا وبلاد العرب والهند [١] . وله كتابان معروفان هما « طبائع الاستبداد » و « أم القرى » والاول دعوة جريئة الى الحرية والتخلص من قيود العادات الاجتماعية المضرة . اما الثاني ، وهو الذي يهمنا هنا ، فمن العوامل الفعالة في ايقاظ الشعور القومي بين العرب ، اذ هو يدعو الى خلافة عربية مركزها الجزيرة العربية [٢] ويسرد لذلك اسباباً كثيرة نذكر منها ما يلي [٣] :—

(١) عرب الجزيرة هم مؤسسو الجامعة الاسلامية لظهور الدين فيهم

(٢) عرب الجزيرة اقوى المسلمين عصبية وأشدهم أنفة لما فيهم من الخصائص البدوية

(٣) لغتهم أغنى لغات المسلمين في المعارف ومصونة بالقرآن الكريم من ان تموت وهي اللغة العمومية بين كافة المسلمين

(٤) والعرب أعرف الامم في أصول الشورى وفي الشؤون العمومية

وليس من شأننا في هذا المقام ان نشرح نظرياته اثباتاً او تجريحاً وانما نحن نعرضها تدليلاً على ما كان يختلج في بعض النفوس يومئذٍ واشارة الى تلك الحوافز القومية التي تركت أثرها في الادب العربي

وقد اجمع العلماء والادباء على وصفه بمكارم الاخلاق والشغف بالحرية والاصلاح والجرأة على الجهر بما يراهُ مفيداً لبلاده . وذهب بعضهم الى نقد عنفه ومرارة لهجته قال الطباخ [٤] « ولعل غليان دم الشباب في فؤاده وقتئذٍ ، وتلك النفس المفطورة على الاباء المتعشقة منذ الطفولية لمحاسن الاصلاح المتطلعة اليه تطلّع الاسد الى فريسته هي التي أهابت به ان يطلق لجواد قلمه العنان في هذا الميدان ، وحال حبّه الشديد لاوطانه وشغفهُ العظيم بانتظام احوال بلاده بينهُ وبين التطلع الى امامه ، والالتفات الى ما كان حوله فكبا يراعه ، ولكل جواد كبوة وكان ما كان ، والامور مرهونة بأوقاتها »

وكيفما كان الامر فان الكواكبي كما قال المقتطف [٥] « من كبار رجال النهضة الحديثة

(١) راجع سيرته في الجزء الاول من تراجم مشاهير الشرق لزيدان — وفي اعلام النبلاء للطباخ ج ٧ . ومجلتي المقتطف والمنار (سنة ١٩٠٢) (٢) ام القرى ١٧٢ (٣) ام القرى ١٦٠ (٤) اعلام النبلاء (حلب ١٩٢٦) ٧ ص ٥٢٤ (٥) مج ٢٧ — ٦٢٤

في هذه الديار الا ان المحيط لم يساعده والاجل لم يمهله حتى يتمم مقاصده السياسية والدينية . على ان النقمة التي ضرب عليها قد استمت بعض الناس . ولو لم يهبط مصر لكان دفن مع من دفن في تلك البلاد (اي العثمانية) ولم يُعرف عقله ولا فضله »

فالكواكبي ، كما يتبين لنا من اقواله واعماله ومن آراء اهل الثقافة فيه ، عامل قويّ من تلك العوامل التي حرّكت نفوس الناطقين بالعربية ووجّهت انظارهم الى اصلاح حياتهم القومية وتعزيز منزلتهم السياسية

﴿ اديب اسحق ١٨٥٦ — ١٨٨٥ ﴾ ولم يكن اديب من المناوئين للعثمانية ، وليس في ادبه ما يشتم منه روح الثورة على نظامهم السياسي . على ان فيه تلك الجرائم القومية المنتشرة التي تغلب على ادب الاحرار لذلك العهد . واذا كان لا يهاجم الحكومة العثمانية كاليازجي والكواكبي فهو يجاريهما في الدعوة للقومية العربية والكرامة الوطنية . والذي يبرز في ادبه دأبه على تحريك الروح الشرقية وتعزيزها . فهو يناضل عنها في مصر وسوريا ، وهو في طليعة المناصرين للاحزاب الوطنية الرافعين للواء الحرية . ومن الطبيعي ان يكون في رسالته الشرقية ما يهيب بمواطنيه الى احترام انفسهم باحترام لغتهم وتاريخهم . ومن امثلة ذلك قوله من خطاب مشهور موضوعه دولة العرب[1]

« شعلة سرت من الحجاز فانارت الشام والعراقين ومصر والمغرب والهند واتصلت بأطراف الفرنجة فملأتها نوراً وناراً . فهي بنورها تستضيء ومن نارها تقتبس » وبعد ان يذكر فتوح العرب يقول على طريقته الخطابية : —

« فسارت اسود رجالها على طبور خيولها تطوي الصحارى وتقطع الفدافد ، حتى نطحت برَوقيَ عزمها شرفات الايوان ، ونسرت من الشرق نسر الرومان ، ونشرت على مصر اعلامها وضربت في الاندلس خيامها »

ويأخذ من هنا بمقابلة العرب الأُوَل بعرب اليوم مهيباً بهؤلاء الى الاتحاد ، داعياً اياهم الى تلافي حالهم قبل فوات الاوان . ويقترح لهذه الغاية اجتماعاً عربيًّا يتذاكرون فيه شؤونهم ويطالبون بحقوقهم . وكأنه شعر بتشاؤم البعض او حذرهم من مثل هذا الاجتماع فقال منشطاً ومثيراً للهمم

« أيحسبون ذلك الصوت لا يكون له من صدى ، أم يحسبون أن يذهب ذلك الاجتماع سدى . أوَ لا يعلمون ان مثل هذا الاجتماع منزّهاً عن المقاصد الدينية ، منحصراً في العصبية الجنسية والوطنية ، مؤلفاً من اكثر النحل العربية ، يزلزل الدنيا اضطراباً ويستميل الدول جذباً وارهاباً ، فتعود للعرب الضالة التي ينشدون والحقوق التي يطالبون »

---

(١) راجعه في مجموعته (الدرر) ص ٢٠٠ — ٢٠٣

وليس هذا الكلام اول ما اداه من الرسالة العربية وآخره بل في تضاعيف اقواله كثير مما يوقظ النفوس ويثير النخوة القومية

ومن الخطأ ان نحصر هذا العمل التخميري في اولئك الثلاثة فقد كان مثلهم كثيرون، كالشيخ يوسف النبهاني، ونجيب العازوري اللبناني، وقد اصدر هذا الاخير سنة ١٩٠٥ كتاباً سماه يقظة الامة العربية استحث فيه العرب على استرداد حقوقهم المهضومة (١) وكالشاعر المشهور الشيخ نجيب الحداد وهو القائل من قصيدة (٢) —

آن الاوان لان اخاطر بالدم ... من لم يخاطر بالدما لم يسلم
أجزيرة العرب التي احببتها ... كم من اكفٍّ قد رمتك بأسهم
لعبت أكف الترك فيك فغادروا ... في كل قطر فيك نهراً من دم
قتلوا رجالك واستذلوا من بقي ... فبقيت صرعى لليدين وللفم
وغدا العراق مع الحجاز غنيمة ... وبلاد نجدَ سبيئة المتقسّم
فلينقذ الله العلي جنوده ... وليحفظ العرب التي لم تأثم

وقد ادرك هذه الطبقة طبقة متأخرة كان لها يد كبيرة في ايقاظ الروح القومية وسيرد ذكرهم في غير هذا المقام

بمثل هؤلاء الرواد القوميين من كتبة وشعراء اخذت النفسية العربية تستيقظ من سباتها العميق . فلم يكد فجر القرن العشرين ينبثق حتى كانت العاطفة القومية قد اخذت تحرك القلوب والاقلام . وكان لها في الادب اتجاهات ظاهرة اظهرها تلك المفاخرة بالامجاد السالفة . وتلك الغيرة الملتهبة على اللغة الوطنية والتشكي من اهمالها . كقصيدة حافظ ابراهيم « رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي » . ومنها ما جاء على لسان اللغة شاكية مما المَّ بها —

انا البحر في احشائه الدر كامنٌ ... فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتي
ارى لرجال الغرب عزّاً ومنعةً ... وكم عزَّ اقوام بعزِّ لغات
سقى الله في بطن الجزيرة اعظماً ... يعز عليها ان تلين قناتي
حفظنَ ودادي في البلى وحفظتهُ ... لهنَّ بقلبٍ دائم الحسرات
وفاخرت اهل الغرب والشرق مطرق ... حياء بتلك الاعظم النخرات
ارى كل يوم بالجرائد مزلقاً ... من القبر يدنيني بغير أناة

---

(١) القضية العربية للاعظمي ١ — ٤٨ (٢) اوردها الاعظمي في كتابه ١ — ٤٣ ولم نجدها في ديوانه ولعلها من جملة ما كان ضائعاً من آثاره يوم نشر الديوان

ايهجرني قومي عفا الله عنهم الى لغة لم تتصل برواة
سرت لوثة الاعجام فيها كما سرى لعاب الافاعي في مسيل فرات

والقصيدة كلها على هذا المنوال من تعظيم العربية وذم المعرضين عنها الراغبين في اللغات الافرنجية (١)

ومثلها قصيدة لمصطفى صادق الرافعي موضوعها اللغة العربية والشرق وفيها يقول

ام يكيد لها من نسلها العقب ولا نقيصة الا ما جنى النسب
كانت لهم سبباً في كل مكرمة وهم لنكبتها من دهرها سبب

ومنها في تقلب الايام على هذه اللغة :

أتى عليها طوال الدهر ناصعة كطلعة الشمس لم تعلق بها الريب
ثم استفاضت دياجٍ في جوانبها كالبدر قد طمست من نوره السحب
ثم استضاءت فقالوا الفجر يعقبه صبح فكان ولكن فجرها كذب
ثم اختفت وعلينا الشمس شاهدة كانها لمعة في الجو تلتهب
كان الزمان لنا والالسن جامعة فقد غدونا له والامر ينقلب

ثم يلتفت الى طلاب الادب الاجنبي فيقول مؤنباً

انترك الغرب يلهونا بزخرفه ومشرق الشمس يبكينا وينتحب
وعندنا نهر عذب لشاربه فكيف نتركه في البحر ينسرب
فهل نضيع ما ابقى الزمان لنا وننفض الكف لا مجد ولا حسب
إنا اذن سبة في الشرق فاضحة والشرق منا وان كنا به خرب

ويختم القصيدة بنشوة فخر فيقول

اذا اللغات ازدهت يوماً فقد ضمنت للعرب اي فخار بينها الكتب
وفي المعادن ما تمضي برونقه يد الصدا غير ان لا يصدأ الذهب

وامثال هاتين القصيدتين كثيرة في الادب العربي ومصدرها كما ذكرنا غيرة لغوية نشأت على أثر اليقظة القومية في النصف الاخير من القرن الماضي ولا تزال الى الآن . ويقترن بالغيرة على اللغة ما نظم في ابطال العرب الاقدمين ووقائعهم احياء لسالف المجد وانهاضاً لهمم .
كقول الرصافي من قصيدة مقابلاً بين العرب اليوم والعرب قديماً

لهفي على العرب امست من جودهم حتى الجمادات تشكو وهي في ضجر

(١) ديوانه (١٩٣٧) ج ١ ص ٢٥٣

اين الجحاجح ممن ينتمون الى ذؤابة الشرف الوضّاح من مُضر
قومٌ هم الشمس كانوا والورى قمر ولا كرامة لولا الشمس والقمر
راحوا وقد أعقبوا من بعدهم عقباً ناموا عن الامر تفويضاً الى القدر

وقد اتصلت هذه الروح بالجمعيات الادبية في المعاهد العلمية وخارجها فالتهبت بها نفوس الناشئة وأخذوا في بدء القرن الحالي يتغنون بالاناشيد الحماسية . وهاك مثالاً منها نظم ١٩٠٦ في بيروت لاحدى الجمعيات العربية : —

لغة العرب اذكرينا واذكري ما فات
كيف ننساك وفينا نفحة الحياة

***

يا بني الشام ومصر وبني العراق
هل نسيتم ذكر عصر طبّق الآفاق

***

كنتمُ فيها تمضّى بهجة الازمان
فلماذا اليوم نرضى حالة الهوان

ولشيوع هذه الغيرة اللغوية والتاريخية واتقادها في الادب يومئذٍ اسباب شتى منها — (١) اطراد الانتظام السياسي بمصر وظهورها بمظهر دولة عربية متقدمة (٢) اطراد التقدم العلمي والصحافي في الاقطار السورية والعراقية (٣) ان الاتراك برغم تشديدهم النكير على طلاب الاصلاح كانوا لا يزالون يعتبرون العربية لغة الدين والثقافة الشرقية القديمة ويعدون انفسهم من حماتها ومناصريها فلم يظهر منهم في ذلك العهد ما يرغب المتحمسين لها او يثبط عزائمهم

على ان من الانصاف التاريخي ان نعيد هنا القول ان هذا العمل التحضيري الذي سرى في الاوساط الادبية قبل ١٩٠٨ لم يبلغ درجة النضج . ولم يصل الى نفوس السواد من الامة . فكانت العواطف العمومية لا تزال غير منظمة . وكان الادب العربي بين هذه الروح القومية الآخذة في الاستيقاظ ، وما ألفهُ من الجامعة العثمانية المرتبطة بالخلافة، حيران لا يدري كيف يسير. فهو من جهة قومي ومن جهة عثماني — تارة يتغنى بامجاد العرب ، وطوراً يتغنى بامجاد العرش العثماني . وما زال في هذا الموقف الغريب حتى فوجىء بالدستور فذهبت حيرته وصرت عليه مدة كانت العثمانية الحرة فيها غايته المنشودة (١)

(١) وقد بسطنا ذلك في كلامنا على « الشعلة الدستورية »

عجائب الطبيعة وغرائب المخلوقات

جسم الانسان

بين الحرارة والبرد

لماذا نعرق (١)

كلكم يعلم ان جسم الانسان دافىء ، والغالب ان كلكم يكره ان يصافح راحة كف باردة رطبة ، ويحاول ان يتغلب على كرهه هذا بقوله ان صاحب « اليد الباردة دافىء القلب » على حد المثل الفرنجي السائر . كذلك اذا وضعنا يدنا على عنق بقرة او جواد ، او اخذنا فيها عصفوراً حياً ، أحسسنا بدفء البقرة والجواد والعصفور ، إحساساً هو في نظرنا مرادف للحياة نفسها . ولكن من الحيوانات ما ليس دافئاً . فالكل البل مثلاً لا تزيد حرارته على ٣٠ درجة مئوية ، اي انها تقل سبع درجات عن حرارة اجسامنا نحن ، ولكن اذا اخذ الى غرفة دافئة ارتفعت حرارته بسرعة ، حالة ان الانسان ، تبقى حرارته ، اذا بقي سليماً من المرض حوالي ٣٧ درجة مئوية سواء كان في غرفة على جانب من الدفء او على جانب من البرد

فما هي هذه الحرارة في جسم الانسان ؟ وما معناها ؟ ان الحرارة في الحيوانات العليا ، سببها تفاعلات الاحتراق التي تتم في الجسم ، باتحاد ما نأخذه من مواد الغذاء ، بعنصر الاكسجين الذي نتنفسه عن طريق الرئتين . ومواد الغذاء ترجع في اصلها الى النبات ، والنبات يخزن في خلاياه ، طاقة الشمس ، بأسلوب عجيب ، سنفسره لكم في حديث قادم . واذن فحرارة الجسم ، سببها ، اطلاق طاقة الشمس المخزونة في الطعام . وليس في وسع اي جسم حي ان يخلق طاقة ، وانما يستطيع ان يحولها من شكل الى شكل . ففي هذه الحالة ، كانت الطاقة كامنة في الطعام ، فحولها الى حرارة ، بالتفاعل الكيمياوي

وفائدة الحرارة في جسم الحيوان ، مزدوجة . فهي تساعد على ان تكون افعال الجسم وتفاعلاته الكيمياوية سريعة ، وثانياً على ان تكون منتظمة . ولذلك نرى الحيوانات المعروفة

---

(١) من احاديث العلوم المبسطة التي يذيعها رئيس تحرير المقتطف من محطة الاذاعة الحكومية

بالحيوانات الدافئة الدم كالطيور والفقريات، في مكانة أعلى ومقام أسمى في عالم الحياة من الحيوانات المعروفة بالحيوانات الباردة الدم، كالزواحف والاسماك وغيرها

فالقسم الاول من الحيوانات يوصف بانهُ دافئ الدم، اي ان جسمهُ يبقى على حرارة واحدة. فاذا وضع الانسان في مكان بارد، أبرد من جسمهِ، وأخذ يبرد بفقد حرارتهِ وتشعُّعها الى المحيط البارد الذي يحيط بهِ، يتنبَّه الدماغ، فيحفز العضلات الى زيادة التفاعل فيزيد ما تولدهُ من الحرارة، والى أوعية الدم فتنقبض، حرصاً على حرارة الدم من ان تشعَّ منها الى الخارج. أما اذا كان الانسان او أي حيوان فقري آخر غير الانسان في محيط حارّ، فاذا يفعل حتى لا ترتفع حرارتهُ عن المتوسط السويّ؟ انهُ يخلد الى السكون، لكي لا تكون الحركة، باعثاً على زيادة الحرارة بزيادة التفاعل في الجسم، او يعمد الى تصبُّب العرق من جسمهِ، والعرق عند تبخّره يخفض حرارة الجسم، او تزيد حركة تنفسهِ كما يفعل الكلب في يوم حارّ فيزيد ما يقذفهُ من الحرارة الى الخارج بزيادة الهواء الذي يزفره من الرئتين

هذه الوسائل، تحفظ جسم الحيوان الدافئ الدم، على متوسط واحد، اذا كان الحيوان سليماً من المرض. واذن فملاءمتهُ لمحيطهِ أتم من ملاءمة الحيوانات التي لا تستطيع كل هذا وهو لذلك أوفى منها عدةً في نزاع الحياة

***

ولكننا اذا أخذنا فرخاً من الطير، ووضعناه في مكان بارد، رأينا ان حرارة جسمهِ تأخذ في الهبوط رويداً رويداً حتى يموت برداً، أخيراً، ذلك لان الاجهزة التي تمكن جسم الطائر من الملاءمة بين حرارة الجسم، وحرارة المحيط، لم يتمّ نموها بعد فيهِ، فيروح ضحية هذا النقص

***

ومن الحيوانات الفقرية، حيوانات لم يتم في جسمها نشوء هذه الاساليب، التي تمكنها من مغالبة حرارة البيئة او بردها، والاحتفاظ بحرارة الجسم على مستوىً واحد، فتعمد في أيام البرد، الى ما يعرف باسم «التشتية» او «الاستكنان» اي انها تبحث عن مكان تقارب حرارتهُ حرارة جسمها، وتقبع فيهِ، ممتنعة عن كل حركة، لكي تحتفظ بحرارة جسمها، ما أمكنها الى ذلك سبيلاً

فقلبها في هذه الاحوال ينبض نبضاً ضعيفاً، والدم يجري في عروقها جرياناً بطيئاً، ثم انها في خلال ذلك لا تأكل ولا تبرَّز، والتنفس يكاد يقف، وما خزن في جسمها من الشحم يستنفد قليلاً قليلاً، وكل ذلك، لانها لا تستطيع ان تولد من الحرارة في جسمها، الاَّ جانباً مما تخسرهُ لو تعرَّضت لبرد بيئتها، فتتكفى، من الكفاح، الى القيلولة والصبر والاستكنان

وهذه الحيوانات التي تشتي او تسكن على المنوال المتقدم ، او « تنام نوم الشتاء » كما يصفونها في اللغات الفرنجية ، تختلف من حيث ثقل نومها

فالقنفذ النائم هذا النوم الشتوي ، قد تغطسهُ مدة عشرين دقيقة في الماء ، او تعرضهُ لغازات تكاد تكون خانقة من دون ان يستيقظ . فكأنهُ والميت سواء ، ولكنهُ ليس بميت ، وانما جميع الافعال الحيوية في جسمهِ قد بطؤت بطئاً عظيماً

يقابل هذا من حيث ثقل النوم وخفته حيوان يعرف باسم الزغبة Dormouse وهو من القوارض كالفأر يقيم في الشجر ويبني عشاً يسكنُ فيهِ في الشتاء . فنوم الزغبة الشتوي خفيف جداً ، ومثلها الخفافيش فانها تستيقظ ، اذا تخلل أيام البرد والمطر يوم صحوٍ دافىء

وعندما تستيقظ الحيوانات التي من هذا القبيل ، اي الحيوانات التي تسكنُ في الشتاء ، ترتدُّ اليها حرارة جسمها كاملة ، وقد ذكر الدكتور بمبري ان زغبة مسكّنة ، او مشتية ، تستطيع عند استيقاظها ان ترفع حرارة جسمها ١٩ درجة في ٤٢ دقيقة

***

هنا قد يخطر لبعضكم ان يسألني لو استطاع ، لماذا يشتي القنفذ ، ولكن الخلد ، وهو الحيوان الذي يحفر انفاقاً في الارض لا يشتي اي لا يسكن ولا يمتنع عن الحركة ، في فصل البرد . وتفسير ذلك ان الخلد ، وهو حافر الانفاق في بطن الارض يستطيع ان يجد الخراطين ، أي ديدان الارض ، على عمقٍ كافٍ بعيد عن طبقة الارض المجلدة حتى في منتصف فصل الشتاء فيأكلها فتجهزهُ بالمادة اللازمة لتوليد الطاقة . واذا سألتموني لماذا تسكنُ الخفافيش ولكن الطيور لا تسكنُ قلت لكم ان الطيور التي لا تستطيع ان تحتمل برد منطقة ما ، فتقطع او تهاجر اي تنتقل من بلاد باردة الى بلاد دافئة وهي الطيور القواطع ، وفي كل سنة تمرّ طوائف كثيرة منها بالبلاد المصرية . واذا سألتموني ، لماذا يسكنّ اليربوع ، وهو فأر طويل الرجلين قصير اليدين ولهُ ذنب كذنب الجرذ ، ولكن القرقذان لا يسكنُ قلت لكم : ان القرقذان يستطيع ان يخزن الطعام ، فيأكلهُ في الشتاء ويهضمهُ وهذا الطعام يجهز جسمهُ بالحرارة اللازمة لهُ

واذاً ففي وسعنا ان نقول ان الحيوانات التي لا تسكنُ في الشتاء مجهزة بوسائل تمكنها من الاحتفاظ بحرارة أجسامها في فصل الشتاء البارد

***

على أن لحرارة الجسم ناحية أخرى . فقد حكم على الانسان على ما جاء في التوراة « بعرق جبينك تأكل خبزك » . فما هو العرق ؟ ولماذا نعرق ؟

تعلمون ان على سطح الجلد مسامّ كثيرة . وهذه المسام ، هي في الواقع نهاية غدد صغيرة في الجلد ، هي عبارة عن أنابيب لولبية او حلزونية تأخذ من الدم الذي يجري حواليها الماء وبعض الاملاح ، وتفرزها من هذه المسام التي على سطح الجلد . ويقول علماء التشريح والفسيولوجية ، أن كل بوصةٍ مربعة من سطح الجلد ، تحتوي على نحو ثلاثة آلاف من هذه المسامّ

فاذا كان الجوّ معتدلاً والهواء على جانبٍ وافر من الجفاف تبخر العرق بسرعة. ولكن اذا كان الجو شديد الحرارة ، شديد الرطوبة ، صعب على العرق ان يتبخر بالسرعة التي يفرز بها ، فتتكون منه قطرات كبيرة على الجبهة مثلاً تسقط على الوجه كما تسقط الدموع المنهمرة . في مثل هذه الحالة قد تتغطى البشرة (الجلد) بقطيرات من العرق ، حيث لا تمتصها الملابس وتصبح راحتا الكفين ، وهما غالباً على جانب من الجفاف في معظم الناس رطبتين

***

ومعظم العرق ماء . اذ لا يخفى عليكم ان الجانب الاكبر من المادة الحية ماء ، بل أن الماء يبلغ في بعض الانساج والخلايا تسعين في المائة من المواد التي تتكون منها او اكثر . فالماء الذي يخرج في العرق يؤخذ من الدم ، والدم يمتصهُ من اعضاء الهضم وسائر انساج الجسم . ويقال ان مقدار ما يفرز في يومٍ معتدل الحرارة والرطوبة ، قد يبلغ ثلاث كوبات من العرق ، ولذلك يمكن ان يقال ان من وظائف العرق مساعدة دورة الماء في داخل الجسم

ومع ماء العرق تخرج مواد اخرى ، مقادير يسيرة من الاحماض الدهنية الطيارة ، والزلال والاملاح غير العضوية ، وغيرها من نفايا الجسم . ومن المعروف ان بعض ما نأكلهُ ونشربهُ تظهر آثاره في العرق الذي نفرزهُ . ولذلك قيل ان من وظائف العرق ترشيح بعض المواد التي يتناولها الجسم ، فيخرج بهِ او يفرز بهِ ما لا حاجة بهِ اليهِ

ولكن اذا صحّ هذا ، بعض الشيء ، فانهُ لا يكفي للجواب عن السؤال الذي وجهناه ، وهو لماذا نعرق؟

ان الجواب عن هذا السؤال لا يفهم على صحته ، الاّ اذا لاحظنا زيادة العرق في الجو الحار او عند العمل الشاق . فالعامل الذي يعمل امام الموقد في المصانع او السفن ، يفرز نحو ثلاث كوبات ونصف كوبة من العرق في ثلاثة ارباع الساعة . ونحو خمس كوبات من العرق في ساعة وعشر دقائق . وهذا المقدار لا يكاد يصدَّق لولا ما نعلمهُ عن عدد غدد العرق اللولبية الصغيرة التي وصفناها

فقد قال الفسيولوجي الدكتور رونلد كمبل ماكفي ان عددها على سطح جسم الانسان

يبلغ مليونين ونصف مليون غدة . ولما كانت كل غدة انبوباً حلزونيًّا ، فان طول هذه الانابيب اذا وضعت طرفاً الى طرف يبلغ من ٢٠ ميلاً الى ٣٠ ميلاً فتأملوا

ففي الجو الحار ، وفي خلال العمل الشاق ، يتعرض الجسم لخطر كبير وهو زيادة متوسط حرارته عن المتوسط الطبيعي اي ٣٧ درجة بمقياس سنتغراد

فلكي لا يزيد هذا المتوسط ، ويبقى الجسم على حالته الطبيعية من حيث الحرارة — وقد بيّنت لكم في ما تقدَّم فائدة بقاء حرارة الجسم على مستوى واحد في تنازع البقاء — جهزته الطبيعة بوسيلة العرق لخفض الحرارة الناشئة عن الجوّ الحارّ والعمل الشاق . ذلك ان العرق عندما يفرز يميل الى التبخر ، وفي تبخُّره يحتاج الى حرارة ، فيأخذها من الجسم فتهبط حرارة الجسم الى متوسطها الطبيعي

فتصبُّب العرق من الجسم ، هو اسلوب من اساليب الطبيعة لانقاذ الجسم الحيّ من تأثير ارتفاع الحرارة فيه

ولكن احدكم قد يسأل لماذا لا تعرق الطيور ، وهي من الحيوانات الدافئة الدم . او لماذا لا تعرق الكلاب الاَّ قليلاً جدًّا ، وهي من الحيوانات الدافئة الدم كذلك . والجواب عن ذلك ان للطبيعة وسائل اخرى لتبريد الجسم الحارّ . فالطير تطلب ظلَّ الشجر وهذا يساعدها قليلاً وأوعيتها الدموية تتمدَّد فيتعرَّض مقدار كبير من دمها لفقد جانب من حرارته . ثم ان لها اكياساً من الهواء متصلة برئتي الطائر . فعندما يدور الدم في اوعية الرئتين يتبرد باتصاله بهواء هذه الاكياس . اما الكلب ، فجميعنا يعلم انهُ يربض في يوم حار على ارض باردة وهو يلهث . واللهث ، يعني زيادة التنفس . اي زيادة مقدار الدم الجاري في عروق الرئتين . أي زيادة مقدار الدم المتصل بالهواء الذي في الرئتين ، وبذلك تخفف حرارة جسمه . ثم إن لسان الكلب المندلع من بين شدقيه في يوم حار ، يمكنهُ من تبخير اللعاب الذي تفرزهُ غدد اللعاب في فيه ، وهذا يمكنهُ من تبريد الدم الجاري في اللسان وحواليه ويساعد الرئتين في عملهما على تبريد الدم الجاري في أوعيتها

***

واذن فالرد على السؤال الذي سألناهُ وهو لماذا نعرق ، هو هذا : انما نعرق ، لاننا بهذا الاسلوب تمكننا الطبيعة من التغلُّب على ميل الجسم الى ارتفاع حرارته في الجو الحار او العمل الشاقّ ، عن المتوسط الطبيعي الذي يصلح لهُ . وهذا الاسلوب ، على بساطته بعد فهمه ، من العجائب في دقته وحسن نظامه . وكم في الطبيعة والمخلوقات الحية من البدائع والعجائب !

العامية والفصحى

عود الى الموضوع

بقلم انيس فريحه
دكتور فلسفة في اللغات السامية

عهد الي مرة ان اساهم في وضع كتاب في اسماء الكتب والمقالات والتقارير التي كتبت بعد الحرب العظمى في العلوم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية عن الشرق الادنى العربي[1]. وكان نصيبي ان ادون المصادر العربية . وشد ما كان عجبي لكثرة ما كتب في موضوع « العامية والفصحى » في الجرائد والمجلات . وكنت اقرأ الردود بانتباه خاص لاقف على وجهة نظر المحافظين ، وشعرت اذ ذاك ان المحافظين سيربحون المعركة لتذرعهم بمنطق — مع انه كان ناقصاً — كان يثير في الناس حماسة . سكتت المجلات والجرائد وخفت الصوت وخيل للناس ان الموضوع قد اصبح في سلة المهملات . ولكني كنت ابداً على يقين من ان القضية ستبعث بعد حين ولاسيما بعد ان يشعر الناس بالاستقرار السياسي وبعد ان يصبح التهذيب والمصالح الاقتصادية من جملة الروابط القوية التي تربط اجزاء العالم العربي . لان القارىء المتتبع لتطور النهضة العربية يسلم معي بان القائمين على تغذية الحركة كانوا ولا يزالون يقولون بان الروابط المقدسة التي تربطنا هي اللغة والدين ، فيجب ان لا نمسّا ولذا قضي على البحث قبل ان يسفر عن رأي ناضج

ولكني سررت اذ تحقق يقيني وأثير الموضوع ثانية . وسروري مضاعف — شأن كثيرين من امثالي — لان الذي اثار الموضوع رجل ذو مكانة سياسية ادبية سامية ولان مساعيه ستكون مثمرة ان شاء الله ، هذا اذا اعدت الصحافة التربة لنمو البذرة . نعم ان الموضوع الآن يدور حول اصلاح الخط العربي وتسهيل القواعد واعداد كتب مدرسية مفيدة ، ولكني ارى ان للموضوع هذا صلة بمشكلة اعمق واهم ألا وهي مشكلة وجود لغتين لغة البيت والسوق ولغة الكتب ، وانا ارى في اثارة الموضوع بادرة جديدة سوف يرى الباحثون انفسهم معها منهمكين

---

(١) واسم الكتاب بالضبط « مراجع ما نشر بعد الحرب العظمى عن بلدان الانتداب في الشرق الادنى » مطبوعات الجامعة الاميركية في بيروت

بدرس المسألة من جذورها . والذي يودّ ان يقف على ما قيل للآن في الموضوع ، والذي يريد ان يقف على وجهة نظر بعض المفكرين ، يستطيع ان يُلمّ بفكرة عامة اذا طالع عدد ابريل لمجلة التربية الحديثة التي يصدرها الدكتور امير بقطر في الجامعة الاميركية في القاهرة

وحيث ان الموضوع قد بعث مرة اخرى فعندي ان البحث يجب ان لا ينحصر في فئة من الناس بل يجب ان تسمع اصوات صغار الناس وصغار المعلمين فهؤلاء لديهم كنوز من الاختبارات التي أملتها عليهم الحياة وهم بصعوبة اللغة وتعليمها ادرى لانهم ان تكلموا فانما يتكلمون عن خبرة ويقين . وها انا اجرؤ واصرّح برأي طالما درستهُ ورددتهُ في خلواتي وترددت كثيراً في نشره أما الآن فلي من رحابة صدر المجتمع مشجع ولي في اثارة الموضوع مسوّغ

وقبل الامعان في الموضوع اقول انني من جملة الذين يقولون بانهُ ان كان هنالك من مشكلات في تعليم العربية وتعلمها فانها جميعها تنحلُّ من تلقاء ذاتها اذا كانت براجنا التعليمية تسعى لاحلال الفصحى محل العامية وهذا لا يتوفر الاَّ اذا (اولاً) قضينا قضاء مبرماً على الكتب القديمة البالية — رغم ان بعضها طبع سنة ١٩٣٨ — التي نستعين بها على تعليم اللغة ، واستعنا بعلماء علم النفس الحديث وبعلماء التربية الاخصائيين لوضع اساليب عصرية تمشي وروح العلم (وثانياً) — وهنا يخالفني الكثير — اذا خففنا من حدة الفصحى وتصلبها ، والافضل ان يقال من تصلب القائمين على امرها لان العربية مشهورة بالمرونة والاشتقاق واتباع القياس . ويوم نوفق الى هذا نجد ان ليس هنالك مشكلة خط او مشكلة قواعد او مشكلة اساليب في التعليم

﴿ حقيقة اللغة ﴾ هل اللغة من صنع الآلهة ام نتيجة تطور العقل والفكر ؟ قد يقول قائل ولماذا نسأل هذا السؤال في القرن العشرين وقد كان هذا من مباحث القدماء ؟ المؤسف انهُ لا يزال بين ظهرانينا من يعتقد ان اللغة ملهمة منزلة فهؤلاء يخضعون العقل لاساليب اللغة لا كما يفعل الذين يرون في اللغة عبدةً للعقل والفكر ، فان هؤلاء يخضعون اللغة للعقل . عند ما نبحث اللغة يجب ان نبتعد عن فكرة قدسيتها بمعنى انها لغة الآلهة

وهنالك حقيقة اخرى ننساها أو نتناساها عند بحثنا اللغة . ذلك ان حقيقة اللغة هي النطق اعني ان اللغة هي المحكية لا المكتوبة . لان الكلمة المكتوبة ليست سوى هيكلٍ عظميّ ميتٍ جافٍّ يكسبهُ النطق حياةً . فان مجرد شكل « قتل » يعيد الى الذاكرة مجموعة اصوات وهذه المجموعة يفسرها العقل بصورةٍ ذات معنى هي صورة القتل . ودرس اللغة في الغرب يدور حول اللغة المحكية ، اللغة التي ينطق بها ولا يهتم بالكتابة الاَّ بقدر انها رموز تشير الى اصوات معروفة تنتقل من جيل الى آخر شفهاً . لا يوجد لغة تحت السماء تعبر كتابتها عن منطوقها بالضبط التام .
وحقيقة اخرى ، وهي ان الفيلولوجي لا يعتبر وحدةَ اللغة الكلمة المفردة المستقلة بل وحدات اللغة جمل مفيدة . ونحن اذا فحصنا كتب الصرف بالاخص وكثيراً من ابواب النحو نقصر همنا

على مفردات الكلم بيد انهُ يجب علينا ان ننظر الى اللغة كجمل، كل جملة تفيد معنى . اللغة ظاهرة سيكولوجية لا ظاهرة اركيولوجية

﴿ ما الداعي لطلب الاصلاح ؟ ﴾ لا شك ان بعض الرجعيين يرون في طلب الاصلاح ناحية من نواحي هذه الطفرة الجديدة التي طفرها الشرق الادنى بعد الحرب ، ويرون فيها فذلك المدّعين بان تفكيرهم متأثر بالطابع العلمي الحديث . ويرى البعض ان طلب الاصلاح ليس سوى محاولة سياسية خفية تديرها يد الاستعمار للقضاء على الروابط التي تربط الشرق العربي . وهنالك المتطرفون في رجعيتهم الذين يرون في هذا افتراء على اللغة والدين . اننا لا نوافق على هذه المعترضات . قد يكون بعضها على جانب من الصحة ولكن الدوافع ترجع الى ما هو أعمق وأعم . اننا نرى في الحركة رغبة الناس الخالصة في البساطة في التعبير والطلاقة في الكلام . الانسان ، وهو جزء من الطبيعة ، يتمشى مع القانون الطبيعي الازلي : اتباع اقلّ السُبُل مقاومة . الانسان يكره التفكير في لغة والكلام بأخرى . وقد بدأنا نشعر بتلك الصعوبة غير الطبيعية في تعلم الفصحى . هذا العصر عصر اقتصاد والاقتصاد شعار الفرد كما هو شعار الامة ، الاقتصاد في كل شيء . الاقتصاد في الكلام والتفكير والمال

﴿ النزاع بين لغتين ﴾ نلاحظ في تاريخ تطور اللغة نوعين من التنازع ، الاول نزاع بين لغتين مستقلتين تمام الاستقلال يتكلم بهما في القطر الواحد كما كان الحال بين الالمانية والبوهيمية ، بين الالمانية والمجرية ، بين الفرنسية والفلمنكية ، بين العربية والسريانية والفارسية الخ . وهذا النزاع لهُ اسبابه السياسية البحتة . وأما الثاني فنزاع بين العامية المحكية واللغة الكتابية الادبية . وقد يخطيء من يظن ان هذه مشكلة العرب فقط . كلاّ . هذا النزاع عامٌ مرّت في أدواره جميع الشعوب المتمدنة وفريق كبير منها حلّ المشكل . اما نحن فلا نزال من جملة الحائرين . هذا النوع الاخير من النزاع بين العامية والفصحى لا يعود الى أسباب سياسية بل بالعكس ، هو نتيجة لتطور طبيعي ، نتيجة لحب الناس للغة السلسة البسيطة التي تعبر عن أفكارهم وشعورهم بدون أدنى تكلّف او اجهاد فكر . اللغة الكتابية أبطأ في مجاراة الحياة من لغة العامة . لغة الناس اليومية تتقدم وتتطوّر بتطور الحياة وأساليبها . وأما اللغة الكتابية مع حماتها ، فتتباطأ في سيرها

قلنا ان كثيراً من الدول مرّت في هذا الصراع . اما فرنسا فحلّت المشكلة في القرن الثالث عشر ، وايطاليا بظهور دانتي ، والمانيا بترجمة لوثر للتوراة بلهجة المانية محلية ، وانكلترا بظهور تشوسر وشكسبير . وقاست اليونان الامرّين وسفكت دماء بين اتباع اليونانية القديمة ، لغة أرسطو وافلاطون ، واليونانية الحديثة ، لغة الحياة . والحقيقة ان المحكية كانت تخرج من المعمعة ظافرة

﴿ نشوء اللغة الادبية ﴾ ينبغ عبقري فذّ في أمةٍ ما فيكتب أدبه او ينشد اشعاره بلهجة خاصة ربما تختلف عن لغة السوقة وهذا أمر طبيعي ، وإلاّ فما هو الفرق بين الخاصة والعامة ،

فتستسيغ الناس هذا النوع الجديد من الفن وبروقهم فيحاول الفنان الناشىء حديثاً ان يقتفي أثر من هو ابرز منهُ وبعد زمن نجد ان في كلّ أمة مقياساً ادبيًّا يسعى الناس لتقليده . وتصبح اللهجة التي كتب بها ذاك الادب مقياساً للغة الادب والشعر

لنرجع الى العربية أيُّ لغة هي مقياسنا الادبي ؟ القرآن الكريم وهذا أمر نجمع عليه لانها الحقيقة بعينها . فالصرف والنحو والبلاغة والفصاحة قوانينها وأساليبها مستمدّة من القرآن ومبنية عليهِ

ولكن السؤال الذي لم يجب عنهُ للآن هو هل كانت لغة القرآن الكريم تمثل عامية ذلك العصر أو كانت تمثّل لغة الادب والشعر الراقي؟ سؤال مهم جدًّا ، وقد انبرى للاجابة عليهِ مستشرقون وشرقيون ورغم الجهود الجبارة لا أظن ان لدينا رأياً نثبت من صحتهِ . المسألة لا تزال قيد التخمين والترجيح وانت اذا راجعت الدراسات الدقيقة التي قام بها العلماء تبيّنت خطار الموضوع . فمنهم من قال ان الطريقة المثلى لحل هذه المشكلة هي درس اللهجات المحكية الحالية في الحجاز ونجد والعراق وسوريا . وحقًّا ان كثيراً من هذه اللهجات قد درس درساً وافياً ولدينا المعلومات الكافية عنها . ومنهم من ظنّ ان في الادب بعض بقايا مبعثرات هنا وهناك قد تُلقي ولو بعض النور على المسألة . ومنهم من انبرى لدرس القرآن نفسه والقراءات المختلفة علّهُ يهتدي الى السبيل كما فعل فولرز . ومنهم من حاول ان يجد في الشعر الجاهلي القديم بعض آثار للهجات المحكية . والغريب ان الادلة التي يمكن ان يبنى عليها رأي ناضج قليلة ، لان الادب العربي عدا ديوان ابن قزمان الاندلسي وجانب من مقدمة ابن خلدون ، تقريباً صامت وليس فيهِ ما يرينا بوضوح لغة القوم المحكية سوى اشارات الى ان العرب كانت تتكلم بلهجات . أما ما هي هذه اللهجات وكم كانت تختلف عن لغة القرآن وهل كانت خالية من الاعراب ، جميع هذه المسائل لا تزال اموراً نودّ كثيراً ان يميط البحث عنها اللثام

المهمّ ان اللهجات كانت موجودة . وان لغة القرآن كانت لغة أدبية راقية يتكلم بها الخاصة فقط في مجامع خاصة وهذا أمرٌ مرجحٌ لا بل يقبله الكثيرون لما يجدونهُ في الفصحى من تعقيد يجعلها غير سلسلة لتكون لغة البيت والسوق . ومن اراد مزيداً فليراجع ما قاله شيخ المستشرقين نولدكه الذي لم يرَ في الفصحى لا صعوبة ولا تكلف ، وفولرز الذي يقول بعكسهِ (١)

« الاعراب » وهو العقبة الكؤود في اللغة . ويحق لنا ان نسأل عن قيمته العملية في اللغة كما سأل غيرنا من قبل . فهذا ابن قزمان في مقدمة ديوانهِ الزجلي يحمل حملة شعواء على الاعراب ويقول انهُ عبء ثقيل على اللغة وان لا فائدة منهُ البتة . وابن خلدون في كلامهِ عن « اللسان

(١) لفولرز كتاب في درس لغة القرآن لتبيان وجود اللهجات حتى في القرآن . موضوعه « اللغة العربية » والكتاب بالالمانية . وقد رد عليه نولدكه مراراً . راجع احدى مقالاته في
Neue Beitrage zur semitischen Sprachwissenschaft.

العربي لهذا العهد » يقول « وفقدان الاعراب ليس بضائر لهم (ص ٥٥٨ طبعت بيروت)
ويقول أيضاً (ص ٥٨٣) والاّ فالاعراب لا مدخل لهُ في البلاغة

ولكن لندع الاستشهاد بالقدماء جانباً ولنبحث الموضوع على ضوء الحقائق الفيلولوجية . لنعتبر الاعراب في تاريخ اللغات السامية نجد ان جميع اللغات السامية كانت تعرف الاعراب ولكن منذ بدأ عصر الكتابة والتدوين بدأ الاعراب بالتلاشي كالبابلية والسبئية والارامية والعبرية وفي أدب هذه اللغات نجد بقايا للاعراب هي أشبه بالمتحجرات التي ليس لها الاَّ قيمة تاريخية . أما العربية وهي أحدثهنَّ من حيث التدوين والكتابة فقد حافظت على الاعراب أشد محافظة . السؤال الوجيه لماذا لم تحافظ عليه المحكية؟ أما جواب الرجعيين قديماً وحديثاً فهو ان فقدان الاعراب من علامات الانحطاط والتأخر ومخالطة الاعاجم ، والعامية هي الفصحى في انحطاطها . لماذا لم تحافظ عليه اخوات العربية ؟ هل لانها انحطت ؟ أوَ يسلم بهذا الرأي حماة التورات ؟ أو كتبة الادب السرياني ؟

منشأ علامات الاعراب وقيمتها في اللغة أمر لا يزال موضع البحث . ولكن لنا في منشأه رأي لا ضرر في ايجازه هنا . من المسلم به انهُ كلما بعدت اللغة في القدم ازداد التعقيد خلافاً لما كان يُظن سابقاً ولا يزال يظن الكثيرون منا . المعتقد القديم هو ان اللغة في اطوارها الاولى كانت بسيطة للغاية تتألف من كلمات ذات مقطع او مقطعين ومن جمل غاية في البساطة والافصاح . هذا خطأ محض ، عقل القدماء لم يكن على اتزان ومنطق يمكن ان تكون معهما اللغة في هذه البساطة . لغة القدماء كانت لغة مجازية صورية معقدة للغاية ونزعة الناس كانت منذ فجر التاريخ ولا تزال نحو البساطة والسلاسة ، وأدب لغات كثيرة يريك هذا الانجاه [1] . فالاعراب من جملة المزركشات والمحسنات . ثم هنالك الشعر والغناء ، وهما من أقدم فنون الادب ، يتطلبان وزناً وايقاعاً ورنةً . أليس عندنا نون الربابة ؟ أضف الى هذا عاملين آخرين اولاً حب التفرّد والظهور عند جماعة المغنين والمنشدين والفصاحيين . كيف يتفرّدون ، او كيف يتميزون عن عامة الناس ان لم يكن لكلامهم وقع خاص ونبرة خاصة ونغم خاص ؟ والعامل الآخر ، وهو حديث العهد ، مماحكات اللغويين الذين اشتغلوا بوضع قوانين اللغة من صرف ونحو وتعسفهم في كثير من الاحيان . جميع هذه العوامل عملت معاً وساعدت على ظهور الاعراب

ولكن هل هذا الاعراب ضروري للبلاغة ؟ الاكثرية الساحقة اليوم تقول طبعاً ضروري والغريب ان أدلتهم أوهى من خيط العنكبوت . فقد وقع نظري فقط على حجة واحدة يدلون بها على ضرورة الاعراب وهي جملة « ضرب زيدٌ عمرو » — وتأمل في هذه الواو « الكسينة » في آخر عمرو ! — فيسألونك من الضارب ومن المضروب ؟ كأن المحكية لا تميز بين الفاعل

(١) نرجع المستزيد الى كتابات Otto Jesperson فانه في طليعة الثقات في تطور اللغات وأهم كتبه "Philosophy of Grammar" و "Language"

والمفعول . ألا نقول في العامية زيد ضرب عمرو أي الفاعل يقدم. وفي لبنان حيث أثر السريانية ظاهر يقولون « زيد ضربه لعمرو » وهو تركيب سرياني فصيح . وهل لمجرد وجود عدة جمل قد تدعو الى الارتباك نبرر وجود نظام للاعراب مضن متعب ؟؟

اسمع ما يقول ابن خلدون رداً على هذا السؤال (ص ٥٥٧) « ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربي لهذا العهد واستقرينا أحكامه نعتاض عن الحركات الاعرابية في دلالتها بأمور أخرى موجودة فيه تكون قوانين تخصها ولعلها تكون في أواخره على غير المنهاج الاول في لغة مضر ... »

انا لا نعتقد ان للاعراب قيمة في ذاته والا كانت الحكية حافظت عليه . أنا لا أجد فرقاً في المعنى بين « كان زيدغني » و « كان زيد غنيًا » — « إن زيدغني » و « ان زيداً غني » — « واشتريت عشرين رطل زيت » و « اشتريت عشرين رطلاً زيتاً » واربع — رجال واربع نساء . المعنى واضح جدًا بغير الالتجاء الى قواعد الصرف والنحو الصارمة

﴿ هل تحل العامية محل الفصحى ؟ ﴾ كلاً . والاعتراضات التي يوجهها الرجعيون وجيهة لا يمكن لمنصف ان يرفضها . فالشرق العربي في اشد الحاجة الى التقرب والتآلف واللغة من الاواصر التي تربطنا فاذا اصبحت العامية اللغة الادبية اصبح لكل قطر لغة خاصة لان لهجاتنا متعددة ومختلفة . والمشاهد ان العراقي لا يفهم اللبناني والمصري لا يفهم العراقي اذا كل منهم تكلم بلغة العوام وباصطلاحهم . هنالك اعتراض اوجه وهو ان العامية ينقصها تراث ادبي فأين الشعر فيها وأين القصص وأين الانشاء الرفيع . هذا كله نجده في الفصحى بيد ان العامية من هذه الناحية معدمة مبتذلة

﴿ هل هنالك طريق وسط ؟ ﴾ نعم . وهذه لغة التخاطب عند المتأدبين . ولا ينكر ان في الاقطار العربية اليوم لغة وسطاً لا هي بالعامية المبتذلة ولا هي بالفصحى التامة الاعراب . ألا يأتي المصري ربوع لبنان فيتفاهم مع المتعلمين في لبنان بكل سهولة . ألا يأتي المدرّس المصري العراق فيفهمه الطلبة ويصغي اليه المثقفون ويفهمون كل ما يقول . وكاتب المقال له مع خادمه في النجف الاشرف ما يضحك ويبكي فلا هو يفهمني ولا انا افهمه. ولكني لا اقول اني جلست مرة الى رفاقي واصحابي العراقيين وقلت لاحدهم « ارجوك أعد ما قلت » إلا اذا استعمل اصطلاحاً غريباً محليًا . وهذا شائع في لغات اخرى فليس من الضروري ان يفهم ابن لندن جميع مصطلحات اهل شيكاغو . ثم أليس هذا ما يجري ايضاً في المانيا وفرنسا ؟ الالماني البافاري يصعب عليه فهم ابن برلين اذا كلٌّ منهما تكلم بلهجته الخاصة . ولكن من الملايين العديدة في المانيا قلَّ وقلَّ جدًا ان تجد فيهم من لا يجيد التكلم باللغة العامة لغة المتأدبين ويسمونها Hochdeutsch . وما قولك في Patois ؟ ولكن هل هنالك فرنسيون لا يمكن ان يتفاهموا بلغة واحدة ؟

ونحن نعتقد ان الاقطار العربية في سعيها للقضاء على الامية ستجد نفسها مرتبطة الواحدة بالاخرى

بلغة وسط لغة لا عامية ولا فصحى بالمعنى التام . ما هي مزايا هذه اللغة ؟ يمكن ان نختصر الجواب بقولنا : تتصف هذه اللغة بتجنبها جميع ما من شأنه ان يجعل الفصحى غير سلسة للتخاطب . اذاً ما الذي يجعل الفصحى لغة صعبة ؟ (١) الاعراب (٢) التثنية (٣) قوانين العدد . ولنبحث كلاً على حدة

﴿ الاعراب ﴾ وقد مرّ الكلام عنه . نعتقد ان الاعراب ليس ضرورياً لتأدية المعنى فالمعنى واضح تماماً في هاتين الجملتين : « جاء المعلمين . ورأيت المعلمين ». أنا لا أنكر ان هنالك بعض الجمل الواردة في الادب ، وكثيراً من أبيات الشعر التي لا يظهر فيها المعنى واضحاً الاَّ اذا ظهرت علامات الاعراب ولكن لماذا لا ننظر الى هذه على انها أقلية ، انها عارضة ، أنها بعيدة عن البساطة ؟ لماذا لا يكون هدفنا في الانشاء البساطة والافصاح وعدم افساح المجال للظنّ او الشك ؟ هل هذا بالعسير وفي العربية ما فيها من ضروب التعبير والافهام ؟

﴿ التثنية ﴾ اللغات السامية جميعها كانت تعرف المثنى وفي العبرية والسريانية آثار تدل على وجود التثنية . ولكن لسبب ما — ونظن السبب عدم وجود مبرّر للتثنية — انقرضت . حتى ان بعض اللغات الآرية كانت تعرف التثنية ولكنها سقطت من اللغة عند فجر التاريخ . ومما لاشك فيه هو ان التثنية من بقايا عصر عريق جداً في القدم ، عندما كان الانسان لا يتعدّى في حساباته رقم ٢ وانت اذا اعتبرت حذف التثنية في العربية وجدت ان الضمائر ، وعددها ١٤ ، تنقص الى ١٠

﴿ العدد ﴾ ومن يجيد قواعده غير الذين يعلمون قواعد النحو ؟ نوالله اني اردد قواعده كل مرة اريد كتابة الاعداد . ونعتقد ايضاً ان هذه ظاهرة عريقة في القدم ، نعني بها ظاهرة التضادد . عقل الانسان القديم يفهم الشيء بضده أليس في الطبيعة تضادد ؟ نهارٌ فليل ، شتاء فصيف ، شروق فغروب ، حياة فموت وقس على هذا . وفي تطور العربية مظاهر عديدة لهذه العقلية . اعتبر الجموع المكسرة ، كبير كبار لخرف أ ضده « . أسود سود حذفت الهمزة للتضادد . والتضادد هذا كما قلنا ، له اثر كبير في اللغة لا يمكننا خوض بحثه الآن . وتأنيث العدد مع المذكر هو من هذا القبيل . يقول مينهوف الذي درس لغات الحاميين انهُ وجد عند بعض القبائل ان في حفلات ادخال المراهقين في عداد البالغين كانوا يلبسون الفتاة ثياب الفتى والفتى ثياب فتاة . الضدّ مستحبٌ والضدّ يظهر حسنهُ الضدُّ . فرحمةً بابناء القرن العشرين علينا ان نهجر اساليب القرن المائة قبل فجر التاريخ

﴿ خلاصة ﴾ يشعر العرب اليوم ان الوقت من ذهب ، وان الطفل يبذل جهداً كبيراً لتعلم اللغة ، واحياناً يُسفر هذا المجهود عن خيبة . ومفكرو العرب يشكلون اللجان لدرس قضية اللغة من جديد ، وحيث ان الرأي العام متهيئ لمجابهة الموضوع أشعر كما يشعر غيري ، ان القضية عامة وان القضية تعود الى أعمق من بعض الصعوبات السطحية . المشكلة هي مشكلة وجود لغتين . فهل آن الاوان لدرس امكان الاتفاق على اقرار لغة واحدة هي لغة التخاطب عند المتأدبين ؟

رسالة المنبر

الى الشرق

من امين الريحاني الى فليكس فارس

عن طريق المقتطف

سبقني « الصيرفي » في تقريظ « رسالة المنبر الى الشرق العربي » [1] تأليف صديقي الاستاذ فليكس فارس ، ولكنهُ وقف عند الاشارة الى ما هو في نظري — ونظري — « أمتع الفصول » في الكتاب « وأولاها بالمناقشة » . فجئت أكمل عمله

ان اهم ما في كتاب الاستاذ فليكس « منابت الاطفال » — ذلك الفصل الحافل بتنوع العلوم السياسية والاجتماعية والدينية ، المتأجج بنيران الغضب والتفجُّع ، المتلألىء بانوار منقطعة من انوار التصوف . وان فيه كذلك حملات على العلوم الحديثة ، والنزعات الحرة في اصلاح شؤون الانسان ، واستمرار رقيِّه في هذه الحياة الدنيا

في هذا البحث المستفيض علماً وشعوراً ، يعالج المؤلف « مشكلة من اهم مشكلاتنا الاجتماعية هي اصلاح الاسرة » . والبحث ذو شجون ، وذو فسحات للجدل والمناقشة . فهل يجوز ان يقف عنده المقرظون ساكتين واجفين ؟ هل يكتفون بتقديم الورد للاستاذ فليكس ، ولسان حالهم يقول : لغيرنا ان يقدم الاشواك — اشواك الحقيقة !

فلو قلنا كلنا هذا القول فماذا يحل بالحقيقة ؟ وهَبْكَ أننا اختلفنا في أمرها فاننا لَمُضَيِّعوها في اهمالنا البحث عنها . هذا من الوجهة العلمية العامة . اما من الوجهة الخاصة الشخصية فاني أبوح بسرها . وهو ان للحقيقة هذه صلةً عقليةً بصداقةٍ قديمة ، ومنَّةً روحيةً على قلبين متجاورين متحابين

ألا ان فليكس لصديق عزيز قديم . وقد طالما ترافقنا في جادات العقل والروح ، واتفقنا بل كنا دوماً في طليعة الحملات ، حملات الحرية والعلم ، على معاقل الظلم والضلال

---

(١) راجع مكتبة المقتطف عدد يونيو ١٩٣٨

واني لارى فليكس اليوم في غير تلك الطلائع والحملات . اني اراه اليوم واقفاً في المؤخرة وهو يلتفت الى الوراء ويجنح بعض الاحايين الى جادات لا أثر فيها للعلم الحديث ، وللنزعات الفكرية الحرة . فكأني به يقول : اني في هذه الغمرات الاجتماعية ، والمفاسد البشرية ، أؤثر الرجوع الى الشرائع الالهية

فهل أصلحت الشرائع « الالهية » ما فسد من المجتمع الانساني في غابر الازمان ؟ وهل هذا الفساد الذي يعتري العالم اليوم هو الاول من نوعه في تاريخ الانسان ؟ وهل يجوز — وهل يليق بنا — ان نرجع القهقرى كلما « بعبعت » الايام علينا ، وكلما اكفهرت السبل أمامنا والآفاق ؟

***

ليست الظلمات التي نتعثر بها اليوم بظلمات جديدة . وليس فيها ، على تكلفها ، ما يبرر التفجع والتلوع من أولي الفكر والحجى . ان ظلمات هذا الزمن لمثلما تقدمها ، ولا تختلف بغير مقدارها وانتشارها . هي كثيفة كالحة . نعم . هي عالمية ، ولا ريب . ولكن في قلبها ، وعلى جوانبها ، يكمن فيض من النور الازلي ، وتشع منه ، هنا وهناك ، أشعة العلم والخير والحق الاعلى

وما تاريخ الانسان في نشوئه وارتقائه غير ظلمات تخللتها أشعة من النور . في دوائر الزمان يتثقف الانسان . وان كانت كل دائرة أشد هولاً مما تقدمها ، فالانسان كذلك هو أشد عزماً ، وأكثر علماً ، في مقاومتها والتغلب عليها

هي الظلمات تغشى العلم حقباً من الدهر ، فيتبعها ، بفضل العلم الدائم النمو والازدهار ، أحقابٌ من النور . بل ان الفيض النوري ليتسع ، بعد كل ظلمة ، ويزداد حرارة وتألقاً . كذلك كان ، وكذلك سيكون . هو الناموس الدائم للرقي البشري . هو روح التاريخ في هذا العالم عالمنا . واني ، مع عدد كبير من العلماء والمفكرين ، نؤمن به كما يؤمن الناس بالكتب المقدسة

أما الرفيق القديم ، الاستاذ فليكس ، فهو على ما أرى من غير المؤمنين إيماننا . هو من المؤمنين الاقدمين . أو انهُ عاد اليهم ، وهو ينفخ في الصور الذي نفخ فيه قديماً أشعيا وإرميا . فهل يداوي الانسان مرض يومه بما داوى اجداده امراض ايامهم ؟ هل يحبس المجروح حبسة ايوب ، ويصبح مثله وبنوح ؟ أفي الكتب القديمة — المقدسة — ننشد الدواء لامراضنا الحديثة — لكل امراضنا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ؟ لست ممن يرون ذلك . لست من اصحاب العودات والردات . حسبنا ان نعود الى التاريخ لنرى ما فعلته الاديان في أبنائها .

ومع ذلك فقد أدى كل دين رسالته في فترة من الدهر مقدارها الف سنة ، او ألفان من السنين. وبات بعد ذلك جافًا يابساً عقيماً ، لا يقوّم معوجًا ، ولا يصلح فاسداً ، حتى ولا يسد فراغاً في العقل ، او في القلب ، او في الروح

ومن العبث ان نلجأ اليوم الى مهابط الوحي القديمة ، نحاول الاستنارة بنورها الضئيل — بشمسها الغاربة . لكل أجل كتاب ، ولكل كتاب أجل ، وعلى الاخص في ما يتعلق بالانسان الحر ، وبأسرته ، ووطنه ، ونزعاته العاطفية والوجدانية والفكرية . والانسان الحر رائد الناس

أما كتاب اليوم فهو كتاب العلم . ومن فروع العلم الحديث ، ان كان في تحسين النسل البشري eugenics او في تقييده birth-control فروعٌ صالحةٌ مفيدة ، هي آخذة بالانتشار يوماً فيوماً ، ولا حؤول في انتشارها . فان كان في انطلاق الغريزة الجنسية من قيودها ما تهلع لها القلوب ، فان في مجرد الانطلاق شيئاً من الخير . وسيكثر هذا الخير ، وستقل تلك المآسي ، رويداً رويداً ، كلما ازدادت فيوض النور التي تتبع الظلمات التاريخية

وهاك مثالٌ زماننا من هذه الظلمات ، او من تلك الفيوض النورية — كما تشاء . تقوم اليوم في بلاد السوفيات الروسية تجربة اجتماعية سياسية اقتصادية منقطعة النظير في تاريخ الانسان . ويجب علينا ان نصبر لنرى نتائجها . ليس من الحق ، ولا من العدل ، ولا من الحكمة ، ان نسارع الى شجبها ، او نحكم اعتباطاً عليها . فقد تكون في نتائجها أفظع التجربات ، وقد تكون أكثرها خيراً ونعمة . علينا ان نصبر . والصبر في مثل هذه الانقلابات الاجتماعية لا يحسب صبراً اذا قيس بالسنوات التي لا تتجاوز العشرين او الثلاثين عدًّا

على ان هناك ما يدعو للتفاؤل والاطمئنان ، وخصوصاً في ما يتعلق بشؤون الاسرة وتطورها فاذا قرأنا تشريع السوفيات في الزواج والطلاق ، وفي الامومة ورعاية الاطفال ، تيقنا ان أولئك المشترعين ليسوا من الشياطين او من الجن ، بل هم مثلك ، أيها القارىء الكريم ومثلي ، إنسٌ عقلاء بصراء ، ذوو مثل أعلى ، محبون للجنس الانساني ، غيورون — او غُيُرٌ باللغة التي لا قياس لها — على خيره ، ومثابرون على العمل الذي يستقيم فيه ويدوم ناموس النشوء والارتقاء

***

أجل انهم ينشدون المثل الاعلى لخير الانسان في هذه الدنيا ، مثلك يا أخي فليكس ومثلي ، ويعملون لتحقيقه الاعمال الجبارة ، مهما يكن من خلل فيها او شذوذ . وليس من الحق ان نشجب تلك الاعمال قبل أن نرى ونذوق ثمارها الناضجة . فلا تسرف ، حرسك الله ، في التلوع والتفجّع . اننا سائرون الى الامام على الدوام ، على الرغم من كل ما في حاضرنا من الفساد وعوامله ، ومن الردّات السياسية والدينية والاجتماعية

الاوبئة والتاريخ[1]

عند اليونان القدماء
وفي القرون الوسطى والعصر الحديث

للاوبئة تأثير عظيم في التاريخ . فظهورها فجأة وعنفها وفتكها الذريع وما تتركه في نفوس الناس من شعور العجز ، كل ذلك يجعلها عاملاً من عوامل التفكك المعنوي وباعثاً من بواعث الانهيار في القانون والنظام

ومن المعروف ان قدماء المصريين والهنود والصينيين كانوا عرضة لبلايا الاوبئة . ولكن من بواعث الاسف اننا لا نستطيع ان نعيّن الامراض التي كانوا يبلون بها . اما الوثائق العبرانية فأدق . وفيها نستطيع ان نتبيّن طائفة من الامراض كانت تصيبهم ولا تزال تصيبنا . وقد اشار جاريسون Garrison في كتابه « تاريخ الطب » الى ان الجذام كان بينها ومن المحتمل السل

واول وباء جارف دوّن ذكره في التاريخ هو الوباء الذي وصفه المؤرخ الاغريقي توسيديدس في كتابه «حرب بلوبونيقة» . كانت الحرب ناشبة بين اثينا واسبارطة وكان قد انقضى عليها سنتان . وكان الجيش الاسبارطي قد اكتسح البلاد حول اثينا فالجأ السكان الى داخل اسوارها فاشتد بهم الزحام فتفشى بينهم وباء شديد وعجز الاطباء عن مكافحة داء جديد لا يدرون من طبائعه شيئاً فضاعت مساعيهم هباء وسلم الاثينيون مصيرهم الى الاقدار

وكان المرض عندما يصيب احدهم يبدأ بشعور الحمّى في الرأس . ثم تحمرّ العينان وتلتهبان ويتبع ذلك عطاس متكرر ثم يخشن الصوت ويصبح صاحبه أجشّ . بعد ذلك يسقط المرض على الصدر فتأخذ المريض نوبات من السعال العنيف ثم الى المعدة فيصاب بالغثيان ، وكان معظم المرضى يصاب بالفواق او بالتشنج العنيف ، وكان التشنج قصير المدى في بعضهم وطويله في البعض الآخر . وكانت درجة الحرارة ترتفع كثيراً حتى يعسر على المصاب ان يتحمل الملابس عليه او التدثر بدثار ما . وكان لا بدّ من استعمال وسائل المنع للحيلولة بينهم وبين الغوص في الماء البارد . وعلاوة على كل هذا كان الارق يصيبهم فلا يخلدون لا الى راحة ولا الى نوم

(١) موجز كتاب فرنسي بهذا العنوان تأليف البر كونا Albert Conat عن مجلة « ملخص العلم »

واذا استطاع المصاب ان يغالب هذه الاعراض ، انتقل المرض حينئذٍ الى اطرافهِ فتصاب الاصابع واليدان والقدمان والعينان بالغنغرين . فاذا شفي احدهم كان يشفى وقد فقد نعمة الذاكرة . ولما كان السكان يجهلون سبب تفشي المرض واسلوب انتقاله ، كانوا يجتنبون بعضهم بعضاً ويمتنعون عن اسعاف المصابين حتى الطيور من أكَلة الجيف كانت لاتقارب جثث الموتى

إن اطباء العصر الحديث غير مجمعين على صفة مرض هذه اعراضهُ . ولعلّهُ مرض زال الآن ، او لعلّهُ حمى التيفوس تصحبها امراض أخرى او قد يكون الحمى الشوكية او الحمى القرمزية او الحمى الصفراء او الجدري . وقد بحث الاطباء جميع هذه الآراء . ثم أضاف اليها الدكتور بتو Betau حديثاً رأيهُ في ان هذه الاصابة كانت حمى الدنج وقد ضاعفتها الاصابة بالحمراء

***

أما صفحات تاريخ القرون الوسطى فحافلة بذكر الالم واليأس . فالمجاعات المخيفة والامراض الخفية كانت تصيب الناس فتبدّد شملهم وتنزل بهم الى وهدة القبر . وكانت أوبئة الحصبة والجدري تنتابهم . بل ان الجذام تحوَّل وبائيًّا فأصيب بهِ ألوف من المساكين . وجاءت غزوة العرب لاوربا الجنوبية الغربية معيناً على اثارة هذا الداء الذي اكتسح جنوب غرب اوربا خاصة ، بل لقد كان الجذام يعرف في تلك المنطقة من أوربا باسم « الداء العربي » . وكانت الصلات التجارية في البحر المتوسط وسيلة من الوسائل المتعددة لنقل العدوى

وهناك مرض آخر كان ينتشر حيناً بعد حين فيترك في أثره الموت والخراب والقنوط وكان يوصف بلفظي « النار المقدسة » او « نار الجحيم » . ظهر وانتشر في أوربا في القرن العاشر والحادي عشر والثاني عشر ، ففتك بالناس فتكاً ذريعاً . وكان المصابون بهِ ، تأخذهم حرارة داخلية لا تطفأ . ثم كان بعض الاعضاء يسودّ وينفصل عن باقي الجسم ، فاذا ظلّ المصاب حيًّا عاش بقية حياتهِ عيشة ويل ويأس

وقد روى أحد المؤرخين ان هذا الداء حصد ٤٠ الفاً في بضعة أيام في اربع من الولايات الفرنسية

***

أما الحروب الصليبية فقد فتحت أبواب أوربا للجرذ . فعلى الرغم من البحث المدقق في آداب اليونان والرومان القديمة لم يعثر الباحثون فيها على اشارة واحدة الى الجرذ ، ولعلّهُ كان يعيش بريًّا في صحاري مصر وبلاد العرب . وبهذا يفسَّر عدم اتصالهِ بأوربا عن طريق السفن التجارية ، او عن طريق غزاة العرب لاوربا

وكان الجرذ الاول الذي وصل الى أوربا هو الجرذ الاسود . فهو حيوان يجيد التسلُّق

ولذلك كان يسهل عليهِ ان يتسلق الحبال الى السفن الراسية . وقد شوهد في اوربا اولاً في القرن الثاني عشر ، فما اقبل القرن الثالث عشر على ختامه حتى كان قد انتشر في ارجاء اوربا. ولم يكن معروفاً حينئذٍ انهُ من نقلة مرضٍ معدٍ ، ولكن سطوه على الحقول في ايام الحصاد وعلى الاهراءات جعلتهُ شراً ونكبة على الاهلين فكانوا يعمدون الى الصلاة والضراعة للتخلص منهُ ونشأت بينهم حرفة جديدة هي حرفة «صائد الجرذان» . ولكن الضراعة عجزت عن ردّ شرّه ، وكذلك محترفو صيده

ولكن ما عجز عنهُ الانسان حققهُ حيوان آخر هو الجرذ الاسمر. فهو أصلب بنية وأشد شراً من زميله الاسود ، جاء على ما يلوح من قلب آسيا وأخذ ينتشر في اوربا في القرن الثامن عشر . ففي سنة ١٧٢٧ اجتازت طوائف كبيرة من الجرذ الاسمر نهر الفولجا بروسيا ، ووصلت اميركا حوالي سنة ١٧٧٥ وانتشرت فيها . وفي اقل من قرنين كانت هذه الجرذان قد طوقت الكرة الارضية . الاَّ المناطق القطبية . وكان من نتائج انتشارها انقراض الجرذ الاسود الاَّ جماعات صغيرة منه ظلت مقيمة في اماكن لم يبلغها الجرذ الاسمر

وخطر الجرذ في نقل الامراض المعدية ، أعظم جداً من خطره في السطو على الغلال. ومن الامراض التي تنتقل بواسطة الجرذان الطاعون الدمّلي (الذي وصف في القرون الوسطى باسم « الموت الاسود ») وحمى التيفوس والكَلَب وبعض الامراض الناشئة عن ميكروبات لولبية (spirochetes) . ولعلها تنقل « التريخينوسيس » كذلك

ويذهب المؤرخون الى ان وباء الطاعون الذي تفشّى في القرن الرابع عشر كان أعظم الاوبئة في التاريخ وأشدّها هولاً . وهو هذا الوباء الذي يشار اليهِ في كتب التاريخ والادب باسم « الطاعون الاسود » و « الوباء الكبير » و « الموت الاسود » . فقد بدأ في شمال الصين في سنة ١٣٤٦ حيث فتك بثلاثة عشر مليوناً من الناس في أقل من سنة . ثم أخذ ينتشر متجهاً الى اوربا — مسايراً طرق التجارة . فحصد سكان البلدان الواقعة على مسيره حصداً . ويقال انهُ فتك بالسواد من الناس في المنطقة الواقعة حول دمشق وأورشليم. والمرجح ان عدد ضحاياه في آسيا كلها ما عدا الصين ، بلغ أربعة وعشرين مليوناً . وأصيبت بهِ جميع جزائر البحر المتوسط ، ولم يبقَ من فتكه في جزيرتي كورسيكا وسرديفيا سوى ثلث السكان . ومات بهِ أربعون الفاً في جنوى، ومائة الف في البندقية . وثلث سكان بادوى . وكان يموت بهِ الفان كل يوم في بولونا وفرارا . ثم غزا المانيا فبلغ ضحاياه فيها مليوناً وربع مليون . وفقدت بهِ بولندة نصف سكانها

وتفشى في فرنسا تفشياً ذريعاً . فمات بهِ في مدينة افينيون وجوارها مائة وخمسون ألفاً في سبعة أشهر . وخسرت مدينة آرل نصف أهلها ومرسيليا ثلثيهم . ثم تخطى البحر مع الجرذان

والسفن الى انجلترا فبلغ في عنفهِ درجة لم يسمع بمثلها حتى ليزعم بعضهم ان عشر سكانها فقط نجا من فتكه . ثم انتقل الى النرويج حيث حصد ثلثي السكان . وأما ايسلندا فكاد ان يفتك بجميع سكانها ، وما زالت ايسلندا عاجزة عن استرداد ما فقدتهُ بهِ من اقبال ورخاء

نسوق هذه الارقام على وجه التقريب . ولكن جميع المؤرخين يجمعون على ان وباء الطاعون الكبير فتك بثلاثين الى أربعين مليوناً من سكان أوربا . فاذا أضيف الى ذلك عدد ضحاياه في الصين وسائر القارة الاسيوية بلغ عددهم من ٧٠ الى ٨٠ مليوناً . كان بينهم الغني والفقير ، والنبيل والفلاح — وقد كان من ضحاياه ملكة نافار شقيقة امبراطور المانيا ودوق برغندي وملكة فرنسا وملكة اراجون وملك قشتالة

وصحب الطاعون الاسود ، وتلاه انحلال اجتماعي اضيفت آثاره الى ويلات المرض والموت . فقد كانت الجماهير تلاحق الاطباء الذين يعنون بالمرضى وترجمهم بالحجارة ، خشية ان تتصل بهم العدوى من الاطباء . وليس بالنادر ان نجد الوباء عاملاً حاسماً في حروب ذلك العهد . ففي انكلترا خلف آثاراً من الاضطراب والقلق دامت سنين كثيرة وبلغ من كثرة المائتين بهِ ان قلت اليد العاملة وارتفعت الاجور ارتفاعاً فاحشاً . اما عند صغار الفلاحين فقد كان الوباء مرادفاً للخراب علاوة على الموت . وبتجدد ظهور الوباء في سنة ١٣٦١ و ١٣٦٩ و ١٣٧٣ زاد الاضطراب الاجتماعي وتفاقم

***

وقد صحب رحلات الريادة في القرن الخامس عشر ، تفشي اوبئة كثيرة . فقد ظهرت الحمى الصفراء في عهد رحلة كولومبوس الثالثة ، فأصيبت بها الجاليات التي انزلها لاستعمار جزائر بحر كريب وفتكت بها . وكان اللون الشاحب الذي يبدو على وجوه المصابين ، يبعث الرعب في قلوب الاسبان عند رجوع المصابين الى وطنهم . ولم ترحم هذه الحمى سكان البلاد الاصليين . ولكن الامراض التي انتقلت اليهم مع الاوربيين كانت اخطر شأناً واشدّ فتكاً . فالسلّ حوّل تلك الجزائر قفاراً وحمّى التيفوس كانت تحصد الهنود الحمر بالالوف

وكأن المرض والوباء كانا يسيران في اثر الروّاد الاسبان واتباعهم من المستعمرين فأصيبت جميع المستعمرات بأوبئة مختلفة . وبلغ عدد المائتين في جزيرة هايتي مبلغاً جعل دفنهم متعذراً . فقد حصدت الجدري منهم نحو ثلاثمائة الف في بضع سنوات . وانتقلت الجدري مع الفاتح كورتيز الى المكسيك ففتكت فتكاً ذريعاً حتى لم يبقَ من الفلاحين من يكفي لحرث الارض وزرعها فمات كثيرون جوعاً وغدت امبراطورية « الازتيك » مقبرة واسعة . اما وباء الجدري الكبير الذي تفشى سنة ١٥٢٠ فقد قضى على ثلاثة ملايين ونصف مليون اي نصف السكان

ومع ذلك لم يكن هذا الوباء اعظم مصائبهم . ذلك بان مرضاً جديداً ظهر سنة ١٥٣١ منقولاً مع الغزاة . وهو مرض الحصبة . ثم في سنة ١٥٤٥ ظهر مرض دعاهُ اهل البلاد « ماتلازهوات » . ويقال انهُ حصد ٨٠٠ الف والغالب على الظن انهُ الجدري . ثم تفشى وباء الجدري ثانية في سنة ١٥٧٦ فمات بهِ ما لا يقل عن مليونين

***

وقد كانت رحلة كولمبوس الاولى ذات شأنٍ كبير في تاريخ أوربا . فهي لم تفتح بلداناً جديدة فيها حيوانات ونباتات غريبة فحسب، بل كانت سبيلاً الى نقل جراثيم الزهري (الحلق: السفلس) من العالم الجديد الى العالم القديم . ويقال ان انتشار الزهري في أوربا يرتدُّ الى بحارة كولمبوس الذين أصيبوا به خلال اقامتهم بين الهنود الحمر في هايتي . وكانت غزوة الملك شارل الثامن الفرنسي لايطاليا سبيلاً من سبل نشر هذا المرض. ففي اثناء حصار جيشهِ لمدينة نابولي ظهرت بوادر ذلك المرض الذي أرعب أوربا

وكان مرض الزهري حينئذٍ على جانب من العنف والحدَّة لا يقرن بهما الآن . فكان المصاب تغطيهِ القروح . وكان المرض شديد العدوى . وبعد ما أُخذت مدينة نابولي تفرَّق الجيش الفرنسي ناشراً عدوى الزهري في ايطاليا ومنها انتقلت الى فرنسا فالمانيا وانكلترا . وكان الاطباء عاجزين عن وقفهِ ، فوصفهُ الفرنسيون حنقاً منهم بقولهم انهُ « مرض نابولي » حالة ان الاسبان والايطاليين وسموهُ « بالمرض الفرنسي » [١]

وانتشر الزهري بسرعة عظيمة ، فعزيت طريقة انتقالهِ الى الهواء والماء والتنفُّس [٢]. وعمد الناس الى العطور للتغلُّب على الروائح الكريهة التي تنبعث من قروح المصابين . وأُقفلت الحمامات العامة . وكان من آثاره الاجتماعية انَّ تأثير الزهري في احداث الصلع حدا بالناس الى ارسال شعر الرأس واللحى والشوارب ، فغدا كل من يظهر في المجتمعات العامة وشعره غير مرسل تحوم حولهُ الريب في انهُ من المصابين

(١) جاء في كتاب الشياطين والعقاقير والاطباء Devils Drugs and Doctors تأليف هجارد صفحة ٢٤٠ ما يلي : وكان الاسبان يدعونه مرض اسبانيولا والايطاليون المرض الفرنسي والفرنسيون المرض الايطالي والانكليز أسندوه الى الفرنسيين وكذلك الترك . واما الروسيون فسموه المرض البولندي والهنود واليابانيون المرض البرتوغالي

(٢) يقول هجارد . واتهم الكردينال ولسي بأنه نقل عدوى الزهري الى الملك هنري الثامن بهمسه في أذنه . ومن المؤكد ان هنري الثامن كان مصاباً به والغالب ان عدواه به ترجع الى مصادر غير كلمات الكردينال . وفي سنة ١٤٩٧ صدر قانون في فرنسا يحظر على المصابين به التحدث مع الناس تحت عقاب الاعدام

والكوليرا مرض قديم الانتشار في الهند . ولكنهُ امتدَّ في سنة ١٨٣٤ الى أوربا وسقطت اولى ضحاياهُ في باريس في ٢٢ مارس من تلك السنة . ثم ظهرت اصاباتها فجأة في مناطق مختلفة من العاصمة الفرنسية ثم انتشرت انتشاراً سريعاً في أوربا فمات بها نحو مليون نسمة — ٤٠٠ الف في روسيا و٣٤٠ الفاً في النمسا و١٠٠ الفاً في أسبانيا و٩٥ الفاً في فرنسا . ثم تفشى وباء الكوليرا في أوربا في سنة ١٨٤٧ وسنة ١٨٥٦ وكان صرعاهما اكثر من صرعى وباء سنة ١٨٣٢ وكان آخر وباء كوليرا تفشى في أوربا وباء سنة ١٨٩٢ . وكذلك ظل هذا المرض خلال قرن كامل تقريباً يثير الرعب في نفوس الناس حتى نسوا ويلات الطاعون الدملي لشدة ما بلوا بهِ منهُ

وقد كان الخوف من الكوليرا الباعث الذي حمل الناس على المطالبة بانشاء المجاري العامة وشتى الاعمال الصحية . فأعمال الصحة العامة في اوربا وأميركا هي وليدة هذا الخوف . ولا ريب في انها أثرت تأثيراً لا يعرف مداه في اساليب معيشتنا وطرائق عمارتنا وأفضت الى انشاء صناعات جديدة . ونشبت الحرب الكبرى على أثر فترة من السلام رانت على اوربا ، كان اهم سماتها التقدم العلمي العظيم . وغاب الظن بأن العلم قضى على الاوبئة التي تنبئنا بها صفحات التاريخ . ولكنَّ وباء الانفلونزا تفشَّى في بدء سنة ١٩١٨ في الولايات المتحدة والصين ثم اتصل بفرنسا بعد اشهر فانتشر اولاً بين الجنود ثم بين عامة الشعب . وقد بلغ عدد صرعاهُ في موجاتهِ الثلاث المتوالية نحو عشرين مليوناً من الناس

***

وفي أثناء الحروب البلقانية عادت الحمى التيفوسية الى الظهور . ثم انقضت تلك الحروب ولكن شأفة المرض لم تستأصل من النمسا والمجر وبولندة وروسيا فلما نشبت الحرب الكبرى وعبئت الجيوش الكبيرة عادت التيفوس الى الانتشار وكان اول مراتب انتشارها أسر الصربيين لستين الفاً من جنود النمسا فظهرت الحوادث الاولى في احد معتقلات الاسرى ثم انتشرت في الشعب . وعندما كان المرض على أحدهِ كان يموت بهِ سبعون في المائة من المصابين . ثم بدأ انتشار المرض في الانحطاط في صيف ١٩١٥ ومع ذلك فالذين أصيبوا بهِ بين يوليو ودسمبر من تلك السنة كانوا ٥٠٠ الف مات منهم خمسهم (٢٠٠٫٠٠٠)

وظهرت حمى التيفوس في رومانيا في سنة ١٩١٧ فمات بها مائة الف بحسب الاحصاءات . ولكن اشدَّ فتكها كان في روسيا حيث اجتمعت مع الملاريا والدوسنطاريا وحمى التيفود والحمى القرمزية والجوع وسوء الحالة الصحية في نشر شياطين المرض والموت : وقد صدر تقرير في سنة ١٩٢٢ جاء فيهِ ان ٢٥ مليون اصابة بالتيفوس سجلت في روسيا في السنوات الاربع السابقة مات من اصحابها ثلاثة ملايين

آلية الفن

اتجاهات العصر في الآداب والفنون

لزهري الناهي الفاروقي

مرفوعة الى استاذي صاحب «المصور» : اسماعيل مظهر

١ — توطئة

أصبح الايمان بالنشوء والارتقاء في عصر المدنية الحاضرة ، من المبادىء العميقة التأصل ، التي تخضع لسننها جميع الكفاءات العقلية بما شيدته من الحضارات منذ بداياتها الفطرية الاولى ، التي خرج منها الانسان حيواناً منحط الصفات ، دنيء النشأة ، ماضياً في سبل الارتقاء ومدارج النشوء ، الى ان بلغ الى هذه المدنية التي توشك ان تكون عصر انقلاب وثورة لم تبلغ بعد منتهاها . انتقل فيها الانسان من وداعة القرون الوسطى ، التي كانت آخر حلقة من حلقات الحياة الهادئة ، الى هذه الخليات من المدن حشدت فيها النفوس حشداً ، وتنازعت جوها نواطح السحاب المنتصبة كمردة ثائرة من الجن وسط دخان المعامل القاتم !

تعتبر مدنية الآلة عصر انقلاب في تاريخ البشر ، لما يلابس هذه الفترة التاريخية من ظواهر تجمع بين الحياة الهادئة ، الخالية من ضجيج المعامل ، المنبثة في تضاعيف عقليتها غرارة الفطرة الاولى ، الى الحياة في اميركا وغرب اوربا ، وأصل ثقافتها العلم اليقيني ، وقوام حضارتها الآلة

وقد تناول عامل التطور في هذه الربوع التي أثمرت فيها المدنية جميع نواحي الحياة السابقة ، فنشأت الى جانب حضارة الآلة ثقافة تساير في ماديتها ما ينزع اليه عصر المادة من الصور

فان كان للناس قبل أن يخلقوا الانسان الثالث[١] موسيقى ، فلهم اليوم موسيقى ، وان كان لهم أدب فلهم اليوم أدب ، وإن خلفت قرائحهم على مر العصور ثروة فنية في لوحات رفائيل وميكل انجلو وأضرابهما ، فللعصر الحاضر رسوماته ولوحاته التي رقصت عليها أيد تود من السرعة لو تنطلق في حركة آلية صماء

---

(١) الانسان الصناعي « روبوت »

—٢—

إن في الثقافة الاشتراكية الحديثة أوضح مثال للفن الآلي ، المنبثة في تضاعيفه روح المذهب المادي . تبين هذا واضحاً في الموسيقى والرقص والأدب والرسم والنقش جميعاً

ففي روسيا السوفياتية مُحيت جميع صور الثقافة الاوربية ، لتحل محلها صور اخرى تستمد روحها من روح الآلة ، التي يُرمز اليها كأبعد مدى وصلت اليه عوامل الرقي البشري منذ العصور المظلمة . وتعتبر كأساس لمدنية المستقبل المثالية ، التي تراود عقول العلماء كحلم غامض في حياة يسودها السلام ، ويتخلص فيها الانسان من أوشاب الفطرة وغرارة الوحشية الاولى ، ليشيد صروح مدنيته الخالدة على أساس علمي ، يلوح عصرنا ومدنيتنا الى جانبها كما تلوح غرارة الانسانية الاولى الى جانب مدنيتنا الحديثة

يرجع أساتذة الثقافة الاشتراكية في روسيا إلى أن الفن السائد في الغرب ، إنما له صبغة رأسمالية تعزز الفردية الاستقلالية وهذا يناقض في جوهره فلسفة الاشتراكية من حيث فناء الفردية الذاتية في الجماعية التي يمثلها « الكائن الاجتماعي »

يرون ان ألحان الموسيقى التي تتناوح بين جدران الرأسمالية البرجوازية ، تُستقطر من أدوات تساعد على تكوين الشخصية الفردية ، او ترمز اليها . إذ أن موسيقياً فرداً يستطيع أن يستوحي « البيان » مثلاً نغمات عذبة دون الاشتراك مع عصبة لا يتم عمل فرد فيها وحده . ثم ان حلقات الموسيقى في المسارح والاندية ، وبيوتات الاقلية الحاكمة تغري المرء بالترف ، وتساعد على رفاهية « الصالحين اجتماعياً » ! لذلك ابتدع مجمع موسكو للموسيقى أسلوباً حديثاً يساير روح الاشتراكية ، ولا يناقض نظرية « الكائن الاجتماعي » . وذلك بأن أُلفت أنغام الوحدة الموسيقية من أصوات اشبه شيء بصفير البخار ، ودحرجة العجلات ، وطنين المعادن في معمل من المعامل التي ترصع أنحاء المدينة

وبرجوعه النظر نفسها الى أساليب الرقص ، استنتج الثقات انهُ لا يجب ان يشذ عن قاعدة الآلة ، او تتميز به الروح الفردية . ولدى وضع خطوات الرقص وحركاته ، روعيت في ذلك حركات مختلف أجزاء الآلة الميكانيكية ، التي ان تحركت فيها قطعة منفردة لم تأت بنتيجة ما . فهذه حلقة الرقص ، وهنا رمز للمكبس ، وتمثيل للعجلة ، واشارة للدفاع ، وتقليد للمنسف وهكذا[1]

وبهذا تفادى أولو الامر وجود أي عنصر برجوازي نبيل ، وانما هو جو يلائم ما ينطبع في عقل العامل من صور الآلة والمعمل اللذين يحملان طيهما بذور العصر الذهبي

هذه بدعة جديدة لها ما يبررها من تطور الموسيقى والرقص في سائر مدن أوربا وأميركا .

(١) René Fülöp Miller : The Mind and Face of Bolshevism, New-York City. Alfred. A. Knopf. 1928

إذ ان كلا الفنين قد بلغ من التطور درجة أصبحت فيها صورهما أسرع وأبعد عن هدوء الطبيعة الذي تطالعهُ في ألحان شوبير وموزارت وبتهوفن مثلاً . يقول الفيلسوف عمانوئيل كانت : « ان أوجه التقدُّم كلما ازدادت سرعة قصرت صورها » [1] وهذا صحيح بالنسبة للتغاير الذي طغى على فني الموسيقى والرقص في الغرب . ونعتقد ان مصير هذين الفنين قد توجههُ خطا التطوُّر على مرّ العصور — اذا توغل الانسان في أغوار هذه المدنية الآلية الغربية — الى نفس التوجيه الذي يحاول علماء روسيا التكهن بهِ في صورة عملية قبل أوانه ، سابقين في ذلك عوامل النشوء الطبيعية ، شأنهم في اصلاحاتهم جميعاً

غير انهُ لا يغرب عن بالنا أثر السياسة في هـذا التوجيه . فمن الواضح الجلي ان زعماء الاشتراكية الحديثة في روسيا قد طغوا على الفن يتخذونهُ ذريعة للدعاية ، وأسلوباً يمهدون بهِ للثورة العالمية التي يعتبرونها خير وسيلة لاحداث الانقلاب الصناعي في تاريخ البشر ، والوصول الى عصر تسود الاشتراكية فيهِ بني الانسان وتسدد خطاهم الى آفاق العصر الذهبي ، وتحقق الجنة الدنيوية على الارض ، تلك التي وعدتنا بها شرائع السماء في الحياة الاخرى !

فلندع الآن إصلاحات ثقات الفن وأساتذته في الروسيا في كل من النقش والرسم والبناء اذ انها وثبات أولية لم تؤت القوة التي تستطيع بها ان تنهض الى جانب ما شيده الانسان منذ فجر التاريخ في هذا الحقل . أما أثر السياسة في هذه الحقول فيبين الغرض منهُ عزل روسيا عن مدن العالم ، وتغذية العامل بلون واحد من ألوان الطعام . ولا يخفى ما ينتج هذا التحديد في آفاق الحياة العامة من تعصب وضيق في وجهة النظر قد يرجع بالاتحاد السوفياتي الحر الى تمثيل نفس الدور الذي لعبته محاكم التفتيش والسلطات الكنسية في القرون الوسطى ، أو اعادة مظالم القيصرية التي لم يمض على محاربتها ربع قرن

ولنتوجه الآن شطر الغرب قليلاً ، لنقف على وجهة القوم في الادب

— ٣ —

يقال في تعريف فن الادب انه ضرب من ضروب التعبير عما يجيش في صدر المؤلف من شعور مبهم ، ونداءات يستجيب لها حين يلجأ الى الادب يعبر به عما يجد من شعور . وهذا التعريف يقودنا الى العنصر الذاتي « Subjectivism » الذي نشأ منهُ المذهب الابتداعي « Romantic » وعكس ذلك ان يقال في هذا الفن انه وسيلة لتأدية فكرة الى القارىء . وهذا هو الجانب الموضوعي من الادب « Objectivism » الذي نشأ منهُ الاسلوب الواقعي « Realism » [2] وهو المذهب الذي طغى على رومانتيكية القرن الثامن عشر ، متسلحاً بمبادىء العلم اليقيني ، خاضعاً

(١) معضلات المدنية الحديثة : لاسماعيل مظهر صفحة ١ (٢) Lascelles Abercrombie : Criticism

لقواسم الرقي والنشوء ، متخذاً صبغة علمية خالصة عندما ظهر في أفق المعارف العامة علم النفس الحديث في مستهل هذا القرن. وسنرى في هذا البحث تطور الادب في الغرب ومركزه في هذه المدارس الاسلوبية في بعض أوكار الفن في اميركا وأوربا

يعرف علماء النفس اللغة بأنها أصوات حيوانية تصدرها الحنجرة اذا ما تأثر المتعضي[1] بأي مؤثر جسدي كالالم واللذة ، والخوف والغضب ، والحب والكراهية[2] ويعدون اكتشاف طرق التفاهم بالكلام تطوراً كبيراً ، وحادثة من الحوادث التي وضعت حداً فاصلاً بين عهدين متباينين ، مرّ بهما الانسان في مسرى تطورات الفطرة الرسيسة في أعماقه

والانسان انما يسجل فيما ينتج من الأدب أفكاره بالنسبة الى حالات جسمه ، وصفاته الطبيعية ، وليس في مقدوره ان ينظر في ظواهر الكون ونظامه نظرة موضوعية خارجة عن خواص الذات البشرية . اذ ان كل تعريف تنتجهُ قرائح المفكرين ، انما يعرف أصدق تعريف ذاتيتهم التي لن يستطيعوا ان يتنكبوا سبيلها ، لانها متغلغلة في تضاعيف كيانهم البشري

بهذه النظرة الموضوعية[3] أجرى العلماء عدّة تجارب على الحيوانات وانتهوا الى ان كل بادرة عقلية ، انما هي انعكاس ذاتي ، ورد فعل لتأثر الحواس باحدى المؤثرات الخارجية[4]

وهكذا تهدم هذه النتائج العلمية العقائد السائدة حول الوحي والالهام ، وتردها الى حظيرة التفسير المادي ، التي يدخل ضمنها كل تهيج روحي او وحي مما فوق العقل ، قد يكون سببهُ وضع خاص يتخذه الجسم أو حالة معينة يتأثر بها الجهاز العصبي ، وتعيها الحواس . وينبئنا العلم بأنهُ في الامكان أن تعاد هذه الحالة الروحية ، التي يعتقد السواد الاعظم انها هبة تخضع لمشيئة الآلهة ، أو عوامل المصادفة بواسطة هذه المؤثرات التي يصبها عالم « الموضوع » على عالم « الذات » ![5]

فان كان هذا حقاً ، فالادب لم يعد وحياً تلهمهُ السماء بضعة نفر من الناس ، وانما هو الى حدّ ما علم له قواعد ومهيجات يتلقاها الطالب في دراسته كأسس تستمد عناصرها من « الفسلجة » Physiology . فما هي الا أن يعي الطرق التي يسيطر بها على حالات جسمه ، لينبه بهذا

---

(١) المتعضي هي الكلمة التي وضعها المجمع اللغوي لمعنى عضوي

(٢) The Mind and Face of Bolshevism. P. 221. New-York 1928. Published by Harper & Brothers N. Y. & London.

(٣) نستعمل كلمة « موضوعي » هنا استعمالا فلسفيا نعني به العالم الخارجي ، دون ان يكون لذات الانسان او ميوله علاقة به . ومن الواضح ان استقراء الحقائق الموضوعية ممكن في التجربة والمشاهدة ، وقد قلنا انه عسير الى حد الاستحالة في الاستنتاج والتفكير المجرد

(٤) لا يكاد يخلو كتاب في علم النفس من أمثلة التجارب على الحيوانات وخاصة الكلاب . أما صاحب هذه التجارب فهو بافلوف غالبا . وهو عالم روسي توفي منذ سنتين تقريبا

(٥) Ways of Behaviorism. John B. Watson. Ch. 3.

التفاعل المادي الصفيق ، وحي الشاعر الكامن في اعماق روحه الماجمة . فينتج أنى شاء وكما يشاء !

قد تلوح هذه النظرة المادية في الادب حقيقة علمية لا سبيل الى نقضها ، ورغم انها لا تزال بعيدة عن حيز التجربة الموضوعية المتقنة — شأن كثير من نظريات علم النفس الحديث — الاَّ ان كثيراً من التجارب الطبية الحديثة تعزز وجهة نظر أصحاب هذا المذهب المادي مثل السلوكيين Behaviorists الذين ينكرون وجود العقل والارادة واللاشعور وغيرها مما عجز العلم بوسائله المعروفة عن إثبات وجودها ، فاعتبرها فرضاً ضرورياً . وهم يفسرون التفكير مثلاً بأنهُ اهتزاز دقائق المخ المادية ، يشترك فيه المجموع المتعضي كلهُ ، كعضلات الحلق والصدر والرجلين [1] وهذا حقيقي بالمشاهدة والاختبار

في هذا الوقت الذي يكتسح فيه تيار العلم حظائر الادب ويكشف بأعاصيره الستائر عن الشعور وحقيقة الالهام ، نجد ان الكثرة المطلقة من الشعراء لا تزال تعتقد بالوحي الشعري ، وتناضل عن هذا الرأي ، ولا تجد الغضاضة الذليلة بأن ترضى قانعة بمشيئة المصادفة والوحي

على ان الادلة قد توافرت وأثبتت التجارب بأن الشعر الذي يبلغ المنزلة الرفيعة من الجودة الفنية ، التي علي على القارىء أثر الاحساس النفسي ، انما هو في الحقيقة من جهد التفكير العميق ، والإرادة الدائبة ، فنحن نخطىء كثيراً إن حسبنا أن الشعر وحدة تخضع لشياطين الشعراء ، وموهبة لا تسيِّرها مؤثرات العقل والجسد

ولقد يكون من الخير أن نلزم الصمت ، لننقل رأي كاتب فرنسا الكبير بول فاليرى ، عضو المجمع الفرنسي ، في فقرات من احدى محاضراته النفيسة . قال شاعر فرنسا الكبير : —

« ينظم الشاعر حين يفيض قلبه ، ويمتلىء صدره ، فينطلق لسانهُ ويقول شعراً . ولكم وددت أن يكون هذا الرأي القطير صحيحاً سديداً . إذن لتحمَّل الشاعر تكاليف الحياة ، ورضي المين بيسور الشقاء . ولكن القريحة الفنية قد تتبلد وتظلم حتى لا تعي امراً ولا تنطق حرفاً . فمن يقول بهذا الرأي الغرير يخضع الشاعر لسلطان القدر العابث . وكذلك يغدو الانتاج الشعري مرهوناً بالمصادفة المواتية واللمحة المشرقة ، أو متصلاً بالوحي العالي والموهبة الخارقة . ولست أعلم افتئاتاً على حرية الشاعر وامتهاناً لكرامته كهذا الرأي العاثر ، يجعله منفعلاً لا فاعلاً ، وحاكياً اميناً يقول ما يلقى اليه من الكلام ، فما كان شراً قالوا هذا من عنده ، وما كان خيراً قالوا هذا من عند الله !

« لقد يمتاز الشاعر من بين الناس كافة بلحظات مشرقة خاطفة تعصف بذاته وكيانه عصف الريح بفروع الشجر ، فتتفتح لديه مغاليق نفسه ويطل على دنياه الكامنة ، ويلمح عجائب الروح .

(١) Ways of Behaviorism Ch. 2.

تلك لحظات ثمينة تفيء ما اختبأ بين اللحم والدم ، وتبعث من المعاني والصور ما لا يفهمها او يقدرها الا الشاعر وحده ، لانها مختلطة بأوضار المادة ، صادرة عن اسرار الظلام . وهي معان وصور لا تثبت للمنطق الظاهر ، ولا تلين للبيان الشعري . وكل ما في الامر انها قطع تنتثر من أعماقنا على حالها الطبيعي ، كما تنتثر الاحجار الكريمة من جوف البركان . ولقد ينبغي ان نطرح الاوشاب ، ونحتفظ بالعنصر الصالح ، لنذيبهُ في قالب جديد ، ونقدمهُ جوهرة خالصة للناس

« فالذين يؤمنون بالوحي الشعري يقتلون العمل والابداع ، ويرضون بالشاعر وسيطاً تملي عليه القدرة ما تشاء من ضروب القول ، وألوان المطالعة . وما لمثل هذا يُسخّر الفن . . . ويخلق الشعراء ! » اه [١]

— ٤ —

يبني العلماء على النظرية المادية السابقة في الادب ، نتائج لها خطورتها وقيمتها الادبية . فإن تجاوزنا عما يتولد من اصطدام هذه النظرية بالدين ! . . ألفينا العلم على الضفة الاخرى ، ينبئنا بأنهُ يحسن بالانسان المتمدن — حين نشوء صور جديدة من الحضارة — ان يجدد اللغة التي يفسدها كرّ العصور ، ليساير موكب التطور والارتقاء ، السائر بخطى سهلة خفيفة ، وليسهل نشوء وحدة ثقافية تتناصر مع صور الحضارة المادية في بناء مدنية كاملة باقية [٢] . وقد يلمس هذه الحاجة الاقوام الذين يعيشون في مجتمعات تختلف اختلافاً كلياً عن بيئات أجدادهم الذين ورثوا منهم اللغة فيما ورثوا من اسباب الرقي

وتجديد اللغة انما يكون بطرح الالفاظ الميتة ، التي كانت تعني شيئاً لدى اجدادنا بحسب مقتضيات مدنيتهم ، واستبدالها بألفاظ تنحت بمقتضى حاجات العصر ، وتعني لاهله شيئاً بحسب ما يشعرون . ولا نذهب في تعديد الطرق لنحت الكلمات او وضعها وترجمة المصطلحات العلمية ، فهذا من شأن المتخصصين . وانما يشعر بهذا النقص في مستهل نهضة الشرق الحديثة ، كل من حاول ان يترجم عن إحدى اللغات الاوربية الحية كتاباً في الفلسفة او علم النفس او علم النبات او علم الحياة ، الى غير ذلك من فروع المعرفة الانسانية ، التي يعتبرها العلماء وحدات عضوية تخضع لناموس النشوء والارتقاء بمعنى نشوء فروع جديدة من المعرفة على مرّ الزمن ، وتطورها الى حالات من التنافر والتغاير الجزئي ضمن نطاقها المتحد . اما بقاء اللغة بمفرداتها على سير الزمن ، فشكل من اشكال الثبات الذي لا يتفق مع طبيعة الحياة المتحولة ابداً

فكل نظرة لاتعتبر اللغة كائناً حياً قد ينحل ويذبل اذا لم نمده على الدوام بدم نقي جديد انما هي عامل تقهقر رجعي يعوق سير الرقي ، ويذر اللغة كالمرآة الصدئة قد خط عليها الزمن

(١) مجلة الرسالة عدد ٩٤ (٢) The Mind and Face of Bolshevism. Ch. 6.

أشباح الماضي الجامدة ، فهي مرتسمة عليها لا ترِم ، لتعكس في كل عصور التقدم صورة واحدة للعصر الذي نشأت فيه . فكأنما تكلت أطرافها وغاضت حيويتها

وقد أدرك علماء الغرب هذه المبادىء الاولية لازدهار الثقافة . فتناولوا بالتأليف والتصنيف والترجمة معاجم اللغة في العلوم والآداب والفنون،واستطاعوا ان يجاروا بثقافتهم ثورة الانقلاب الصناعي . وكوّنوا مع بدايات العصر الآليّ ، وحدة أدبية تعبر عن روح هذه المدنية الغربية، وتسمها بسمة لها روعتها . وسنحاول فيما يلي ان نقدم صورة من الشعر الاميركي الحديث لنعطي للقارىء لمحة سريعة عن تطور الآداب ، وتأثرها بحضارة القرن العشرين الآلية[١]

— ٥ —

الشعر قطعة من روح العصر ، وهو مجموع تراكيب كيماوية منسجمة الالوان متحدة العناصر ، تتذوقها الأذن الموسيقية بقدر ما في الشعر من عذوبة الجرس ، ويعيها الوجدان فيتأثر بما تبعثهُ من ضروب المعاني ، وما توصله من صور التعبير . والعاطفة الشعرية انما هي الاحساس بهذا العالم الذي يجرده الشاعر من نفسه، فيعيش فيه لحظات طوالاً او قصاراً ، يتجه فيها الى ما يملأ خياله من الرؤى ، عارضاً ما أولته الطبيعة من حس وادراك للانفعال بالمؤثرات الخارجية والاستجابة لها . فاذا استطاع ان ينقل الى ذهن القارىء او السامع ما يملأ ساحة شعوره المبهم ، أو يجسم في حدود اللغة هذه الاشباح والرؤى التي تبعثها في نفسه مؤثرات الطبيعة او مجالي الحياة « كان بذلك أديباً مِفنَّا يمتاز باستجابته لداعي الاحساس اللفظي . وهي الخطوة الايجابية التي تميز الشاعر المنتج عن القارىء العادي »[٢]

فهل تشعر اذا قرأت « الشعر الحديث » بأن المبين يوصل اليك في هذه العبارات القصيرة واللمحات السريعة ما يجول في خياله من الصور ؟ قد تمضي وقتاً قصيراً او طويلاً في شيكاغو ، فتنساب في تيار البشرية الجائشة ، وتتأملها كالبحر الخضم المائج ، المسرع على أرجله وعجلاته وقد تتقاذفك أباليسها فتسلبك فراغك وشخصيتك ، وتدمجك في ضبابية كثيفة من البشر . وتصرفك عما تحرص عليه من هدوء البال وسحر الخيال ! فهل تشعر اذا رقصت مع الشاعر على توقيع قصيدة ، أنك في شيكاغو حقًّا . . . يزعجك ضجيج دواليبها بقدر ما يروقك أسلوب الشاعر في التعبير ؟ هل تعيش ولو لحظات خاطفة في هذا الجو الفني الذي يتولد في أعماق الشاعر من تقلبه بين ضروريات حياته ومظاهر مدنيته ؟ !

قد تقرأ قصيدة لاعرابي يعيش في البادية . فيسحرك فيها انسجام الموسيقى في البحر الذي يختاره لقصيده ، وفي الكلمات التي ينتقيها ليوصل اليك الصورة التي تراود عقله ، وفي الاسلوب الذي يفهم به الامور والاشياء لينقلها اليك ، كانما هي لوحة فنية قد اكتملت قبل ان يعيها وجدان

(١) اقرأ هذه المختارات في «حديقة المقتطف» في هذا العدد (٢) Lascelles Abercrombie : Criticism

الشاعر ، وتجري على لسانه . ولكنك ترى في الشعر الحديث انهُ لا يتقيد بوزن او قافية ، وأنى لشعر القرن العشرين ان يوضع في رداء خيط قبل ان تنشأ المدنية الحاضرة ، واقتصر على وضعه متخلفاً عن موكب النشوء والارتقاء . وانما هو كلام ينحدر من قام الشاعر كما تنحط الجنادل من القمم الشاهقة ، يستمد صلابته من العلم . ويبلغ دقة الوصف في عبارات موجزة سريعة الصورة ، متوثبة المعنى ، حتى لكأن الشاعر ينظم حين ينظم مسرعاً ، حريصاً على ان لا يمنح لقصيدة من الوقت فوق ما ينبغي ! . . . وأنت حين تقرأ لشاعر حديث . تجد الشعور الذي يهيء لك ان الشاعر يكابد في انتزاع الكلمات التي يعبر بواسطتها عما يتوثب في عقله من المعاني ، ويجد غير قليل من الجهد حين يبحث بين اوضاع اللغة المتوارثة عن رداء يضع فيه بنات افكاره وبكارى معانيه . ولو قد اطلقنا لهُ حرية القول ، لتحرر من القيود التي يتواضع عليها الناس ، ولا تتيسر لديه عقد اللغة ، ولأنشأ أوضاعاً جديدة من الكلام بحسب ما تأتي في روعه مظاهر حياته ومدنيته . وأنت تطالع في هذا الشعر الذي بالآلة غناء قد يجد حيناً حتى يبين كأنهُ كلمات مرصوفة لا تمتُّ الى الشعر بسبب ، وقد يسمو أحياناً فيأتي في روعك ما في روع الشاعر من الاحلام ، ويروعك ما ينبعث فيه من صور فنية يستلهمها الشاعر من دوي المعمل او دخانه !

ونجد في هذا الشعر ايضاً قرب غور معانيه ، وندرة البديع اللغوي ، او التعقيد في المعنى ، وانما الشاعر يتسلسل مما يحوطهُ من الماديات الى آفاق بعيدة من الخيال الشعري . ولكنك واجد فيه على كل حال ثورة صناعية على أمنا الطبيعة ، التي تقدم لنا اروع صور الفن في دوح من البان يهزه النسيم فيترنح من الهواء كأنما فيه نشوة من الطرب ! او ترنيمة غدير ينساب بين الصخور فكأنما تتردد في خريره معاني الطبيعة الهادئة او وحي التاريخ السحيق . فتثور عليها طائبين وحي المادة ، وما تبعثهُ من آفاق محدودة ، او أنغام جامدة . غير ان الجمال الفني في الشعر كما يكون وليد الطبيعة أو كما يكون في سبر أعماق النفوس وحصد ثمرات حقل الشعوب ، فانهُ يكون في الشعر الحديث في كل عصر ، وهو رهن نشوء صور جديدة من ألوان الحضارة المادية. إذن فنحن لا نجد ، حين نقرأ هذا الشعر ، صورة النفس البشرية الخالصة من أوضار المادة وضرورات الحياة بل نجد النفس التي طغت عليها قواسر العيش ، فتغنت بهذا الكلام عبوديتها للآلة وذلها للمادة الصفيقة ، بعد أن كانت صفحات الطبيعة هي المصدر الغالب لكل ما انتج العقل البشري من شعر

وقد لا نستطيع لاول وهلة أن نتذوق مقاطع الشعر الحديث ومعانيه لاعتبارات كثيرة أهمها اختلاف البيئة وجدة هذا التوجيه ، وقد نراه خالياً من الانسجام الموسيقي ، غثّاً بارداً . لانّا تعودنا ان نتلو الشعر لفظاً جيلاً ، يستعلن في اتساق متشابه قوي رائع ، ونحتفظ به في الذاكرة ونعيده لفظاً جيلاً أبداً ، تهضمهُ النفس الواعية ، ثم لا تبالي ان هي ثملت ، أو حزنت ، او ثارت ، ما دام في انشادها رنة الفرح ، او أنّة الالم ، او نزوة الهوى !

ابن سينا [1]

ليس بين ما نظمهُ الاقدمون قصيدة أدنى الى معتقدي وأقرب الى ميولي النفسية من قصيدة ابن سينا في النفس

في هذه القصيدة النبيلة قد وضع الشيخ الرئيس أبعد ما يراودُ فكرة الانسان، وأعمق ما يلازمُ خياله من الاماني التي تولدها المعرفة ، والسؤالات التي يثمرها الرجاء ، والنظريات التي لا تصدر الاّ عن التفكر المستمر والتأملات الطويلة

وليس من الغرائب صدور هذه القصيدة عن وجدان ابن سينا وهو نابغة زمانه ، ولكن من الغرائب ان تكون مظهراً لرجل صرف عمره مستقصياً أسرار الاجسام ومزايا الهيولى . فكأني بهِ قد بلغ خفايا الروح عن طريق المادة وأدرك مكنونات المعقولات بواسطة المرئيات فجاءت قصيدته هذه برهاناً نيراً على ان العلم هو حياة العقل يتدرج بصاحبهِ من الاختبارات العلمية — الى النظريات العقلية — الى الشعور الروحي — الى الله

قد يجد المطالع في ما نظمهُ كبار شعراء الغربيين مقاطع متفرقة تذكره بهذه القصيدة السامية . ففي روايات شكسبير الخالدة أبيات لا تختلف بمعانيها عن قول ابن سينا

وصلت على كرهٍ اليك وربما كرهت فراقك وهي ذات تفجّعِ

وفي اقوال شلي ما يماثل

سجعت وقد كشف الغطاء فأبصرت ما ليس يدرك بالعيون الهجّعِ

وفي تأملات غوتي ما يضارع

وتعود عالمة بكل خفية في العالمين فخرقها لم يرقعِ

وفي ما قاله براوننغ ما يضاهي

فكأنها برق تألق بالحمى ثم انطوى فكأنه لم يلمعِ

ولكن الشيخ الرئيس قد تقدّم جميع هؤلاء بقرون عديدة . فوضع في قصيدة واحدة ما هبط بصور متقطعة على أفكار مختلفة في أزمنة مختلفة . وهذا ما يجعلهُ نابغة لعصره وللعصور التي جاءت بعده ، ويجعل قصيدته في النفس أبعد وأشرف ما نظم في اشرف وأبدع موضوع

---

[1] ننشر هذه القطعة من آثار جبران خليل جبران بمناسبة نشرنا للفصل الاخير من البحث المسهب في سيرة ابن سينا ومؤلفاته



تقدم علوم الطب

— ٢ —

للدكتور شريف عسيران

صدر حديثاً كتاب علمي جليل من أنفس الكتب العلمية موضوعه « تقدم العلم » دبجته أقلام أئمة علماء الانكليز في هذا العصر أمثال السر جيمز جينز والسر وليم براج وهالدين وهكسلي وابلتن . وقد نشر فيه الدكتور ادورد ملانبي فصلا نفيساً عن تقدم علوم الطب فيه فائدة للاطباء وعامة الناس . فنقلته لينتفع به الناطقون بالضاد :

ولنستعرض الآن بعض نتائج انفجار هذا النشاط الطبي الذي تدل عليه زيادة التتبعات الطبية وانتشار المؤسسات الكثيرة . وخير طريقة لذلك مقابلة معدل الولادات والوفيات الناشئة عن الامراض النوعية. بلغت وفيات الاطفال دون السنة من العمر بين سنة ١٨٩٦ — ١٩٠٠ ١٥٦ بالالف بينما سقطت سنة ١٩٣٤ الى ٥٩ بالالف وبلغ معدل وفيات الرجال بسن ٤٥ — ٥٠ (٣ر٢٠) بالالف سنة ١٨٧٠ — ١٨٧٥ وهبط سنة ١٩٢٦ — ١٩٣٠ الى ٧ر١١ بالالف وهبطت وفيات السل الرئوي من ٣٤٧٨ بالمليون بين سنة ١٨٥١ — ١٨٦٠ الى ٧٤٠ بالمليون سنة ١٩٣٤ ونقصت وفيات السعال الديكي من ٥١٠ بالمليون سنة ١٨٧١ — ١٨٨٠ الى ٥١ بالمليون سنة ١٩٣٤ والحصبة من ٣٨٠ الى ٩٣ بالمليون والتيفوئيد من ٣٢٠ الى ٤ بالمليون. وقد هبط معدل اكثر الوفيات المذكورة في القرن الحاضر . أما السل فقد بدأت تناقص وفياته منذ ما يقرب من مائة سنة . فاذا اتخذنا هذه الارقام مقياساً أدركنا المدى الواسع الذي تقدمت فيه الصحة العامة خاصة في الثلاثين السنة المتأخرة

وهناك طرق أخرى غير المذكورة تؤدي الى نفس النتيجة اي تحسين الصحة العامة. صحيح اننا خطونا خطوات كبرى في تشخيص الامراض والوقاية منها وطرق معالجتها ولكن مما لاريب

فيهِ ان طائفة من الامراض تلاشت لاسباب لا علاقة لها بالطرق المذكورة ونذكر على سبيل المثال ان وطأة الامراض خفت لاسباب لم تخرج عن حدّ الظن كداء النقرس (gout) الذي كان كثير الانتشار منذ مائة سنة فأصبح الآن نادراً ولا يعلم احد سبب قلته . ويظن البعض ان سبب ذلك هبوط التسمم بالرصاص. ومن الامراض التي قلت في الثلاثين السنة المرض الاخضر Chlorosis [1] وهو ضرب من فقر الدم يصيب النساء . فمنذ ٢٥ سنة كانت المستوصفات تمج بالفتيات المصابات بهذه العلة . أما اليوم فقلَّ من يعرفها من الاطباء لندرتها . ويزعم البعض ان سبب تلاشيها اقلاع النساء عن لبس المشدات ولكن هذا الرأي مجرد ظن . ومن الامراض القتالة التي كانت منتشرة انتشاراً فظيعاً بشكل وبائي اسهال الاطفال الصيفي فكان يقضي على ألوف الاطفال وقد تناقص الآن كثيراً . ويعزو البعض نقصانه الى تلاشي الذباب من المدن (في بلادهم لا بلادنا) بعد ان حلت السيارات محل الخيل ولكن لم يبت في السبب بعد . ومن الاسباب المهمة لتحسن الصحة نقصان تعاطي المسكرات . وفي هذا النقصان اسرار اكثر مما ندرك في الوقت الحاضر ولكن نستطيع حتى الآن ان نجزم بأن بعض الامراض الناشئة عنهُ قد قلت كثيراً بعد ان نجحت لجنة الاشراف على المشروبات في حمل الشعب على الاعتدال في تعاطيه فغدا الهذيان الرعشي الناشىء عن الكحول نادراً ومن المرجح ان شطراً من اسباب قلة سحق الاطفال في الفراش [2] يعزى الى هذا العامل مع ان حوادثه كانت كثيرة

والسبب الثالث لتلاشي بعض الامراض التحسن الكبير في التنظيم الصحي (Sanitation) والنظافة الشخصية . والفضل الاكبر لانكلترا في قيادة حركة سن الشرائع المتعلقة بالصحة العامة ويجب ان لا تنسى هذه البلاد (يقصد انكلترا) ما لبعض الشخصيات البارزة من الفضل العظيم في حمل المجلس النيابي على تصديق شرائع كهذه رغماً عن شدة المعارضة . ولا نسمع الآ القليل عن هذه الشخصيات امثال Chadwick, Murchison, Simon, Alcband, Buchanan and Benjamin مع ان جهودهم الجبارة هي التي أدت في الشطر الثاني من القرن التاسع عشر الى هبوط الامراض هبوطاً هائلاً . ان انتشار اوبئة الهيضة الآسيوية ساعد كثيراً في حمل المجلس النيابي على سن تشريع الصحة العامة لسنة ١٨٤٨ الذي كان حافزاً لتشريع التنظيم الصحي لسنة ١٨٦٦ . ومع ان التنظيم الصحي ابتدأ عدة سنوات قبل اكتشاف كوخ وكان العمل فيه من الامور المسلَّم بها في ذلك الوقت فانه ازداد زيادة عظيمة حينما تبين ان الجراثيم هي مصدر كثير من الامراض وان أغلبها ينتقل بواسطة الماء واللبن الحليب. ومما لا جدال فيه ان بعض الامراض

(١) نوع من فقر الدم يصيب النساء وعلى الاخص حديثات السن

(٢) يقصد سحق الامهات لاطفالهن ليلاً وهم نائمون بجانبهن

قد زال تقريباً بسبب تحسن التنظيم الصحي كالهيضة الآسيوية والبرداء والطاعون والحمى النمشية والتيفوئيد [١] وآخر الحميات التي تلاشت هي الحمى التيفوئيدية وصارت الوفيات بها صدفة في بريطانيا وتبلغ ٤ بالمليون سنوياً ولا عذر لنا في هذا الوقت حتى على هذا العدد اليسير من الوفيات بها

ولنلتفت الآن الى ناحية اخرى من هذا الموضوع وهي عدد كبير من الامراض تقدمت معرفتنا بتشخيصها ومعالجتها والوقاية منها تقدماً عظيماً بفضل البحوث الطبية الحديثة . وقد تقدمت هذه المعرفة من ثلاث جهات بصورة تقريبية . فالفئة الاولى تشمل الامراض المتولدة من الحيوانات الاحادية الخلية Protozoa والبكتيريا والفيروس فنشأ من درسها فرع من فروع البكتيريولوجي يعرف بالمناعة وآلت معرفة الاطباء المناعة الفعلية والواسطية الى تخفيف وطأة بعض الامراض الجرثومية بعض الشيء كالخناق والحمى الدماغية الشوكية والحصبة والحمى القرمزية. وقد رأينا ان الجدري تلاشت او قلت من عهد جنر بواسطة التطعيم الذي يولد مناعة ضدها وتبين حديثاً ان المصل المُمنِّع (المولِّدة فيه المناعة) المأخوذ من دم ولد شفي حديثاً من الحصبة اذا حقن به ولد معرض للعدوى بهذا المرض فاما ان لا يصاب واما ان تكون الاصابة خفيفة. وما لم يكن الولد دون الثلاث سنوات عمراً او لسبب آخر خاص فان الطبيب لا يرغب في منع الحصبة بل يفضل اصابة خفيفة بها تولد مناعة فعلية . ونستطيع الحكم على نتائج هذه الطريقة الباهرة من تجارب أحد باحثي لندن فقد استعمل المصل المُمنِّع في ٣٩٩ ولداً بعد تعرضهم للحصبة فلم يمت منهم احد بينما مات ٥ بالمائة من الاولاد الذين اتخذوا ضابطاً فلم يلقحوا بالمصل الواقي . وآلت النتائج الحديثة في استعمال مضاد سموم الحمى القرمزية الى تقليل معدل الوفيات بها وتخفيف وطأة عواقبها الوخيمة

ان لتخفيف وطأة الحمى القرمزية والحصبة شأناً كبيراً في تقليل حوادث اصابات امراض الاذن الوسطى الناشئة عقب الحصبة والحمى القرمزية لان عدداً كبيراً من اصابات الصمم في هذه البلاد [٢] ناشيء من مرض الاذن الوسطى واذا لم يقمع هذا الداء العضال فان مشكلة الصمم ستبقى . وقد استنبطت الطرق الآن لتخفيف تأثير هذين المرضين والسير عليهما يؤدي الى النتائج الحسنة

وقد اكتشفوا ضرباً آخر من المعالجة لمعالجة الامراض المتولدة من الحيوانات الوحيدة الخلية وهو المعروف بالمعالجة الكيمياوية Chemotherapy كالسلفرسان ومشتقاته الادوية النوعية في معالجة الزهري التي لا تقلل هذا المرض فقط بل تأثيراته العصبية كشلل المجانين العام وأشباهه وقد حلَّ محل الكينين الذي يعدُّ دواءً نوعياً للبرداء لدرجة ما، مستحضر الاتبرين [٣]

---

(١) هذا في بلادهم نعسى ان تكون سائرين على الدرب (٢) وفي بلادنا ايضاً ينشأ من الحصبة (المعرب)
(٣) لم يذكر البلازموكين بجانب الاتبرين ونعتقد انه لا يزال للكينين منزلته السامية (المعرب)

ومستحضر باير ٢٠٥ في بدء الاصابات بمرض النوم

ان فئة الامراض الثانية الكبرى هي المتولدة من اضطرابات المفرزات الداخلية فالقَدَم Cretinism [١] and Myxeodema [٢] يشفى باعطاء الثيروكسين وهو خلاصة الغدة الدرقية والسكري بالانسولين وهزة الحائط بالـ Parathrombone خلاصة الغدد المحاذية للدرقية ومرض ادسن بخلاصة الجزء القشري من الكظر وفقر الدم الخبيث بخلاصة الكبد . وبما اننا لا نستطيع الافاضة في انتصارات الطب الباهرة في هذه الناحية نرى ان لا بدَّ لنا من توجيه النظر الى اكتشاف حديث عظيم الشأن فان Dakin وزميله استخرجا خلاصة الكبد بصورة صرفة او ما يقرب من ذلك وفعل هذه الخلاصة عجيب فان حقن ١٠٠ او ٢٠٠ منها اسبوعيًّا يجعل الضعيف الشاحب اللون قويًّا نشيطاً وتصيره في أسابيع قليلة مورد الحدين يحيي حياة طبيعية كغيره من الاصحاء . ولا يزال هذا الفرع في تقدم مستمر وله مستقبل كبير وكل من له المام بخلاصات الغدد الجنسية كال asterin, progestin, and androsterone يدرك امكان تقدم هذا الفرع غير المحدود

ان فئة الامراض الثالثة القابلة المعالجة هي الامراض الغذائية . وقد عثروا اثناء البحث في هذا الموضوع على الفيتامين الذي هو من العوامل الاساسية في منفعة الغذاء فعزلت مواده وعرف تركيبها وصرنا نعرف بفضل هذه النتائج كثيراً عن بعض الامراض كالكساح ونخر الاسنان وقابلية العدوى ومرض الاسكربوط والبري بري وغيرها من الاضطرابات الجسدية كالتسمم بالترمس والرعشة الناشئة عن التسمم بالجؤدر (Erpot) ومن نتائج هذا الفرع المهمة اننا صرنا نعلم ان ليست الجراثيم فقط تسبب الامراض بل ان سبب بعضها نقص او زيادة في بعض المواد الكيمياوية الضرورية للجسم . ومع ان هذا السبب يعد حديثاً فالمطلعون على تاريخ الطب يعلمون ان هذه الفكرة ليست حديثة . ففي سنة ١٨٥٠ أدلى شاتان بنظرية خلاصتها ان مرض الجواتر (الجحوظ) متولد من نقص اليود وذكر حججاً بينة في تأييدها . ومن صفحات الطب السوداء المؤلمة ان المجمع العلمي الفرنسي رفض نظرية شاتان بعد ان دققتها لجنة من قبل المجمع واعادت النظر فيها عدة مرات واعتبرتها خطأ لان اعضاءها لم يصدقوا بأن لهذا القدر اليسير من اليود ذلك التأثير العظيم في احداث المرض او منعه . ولم تتحقق نظرية شاتان ويصر لها شأن يذكر الاً سنة ١٨٩٥ حينما بين بومان ان في الغدة الدرقية معدن اليود . والفائدة الوقائية أعلى شأناً من العلاج . صحيح اننا نستطيع شفاء داء الاسكربوط والبري بري بوصف الغذاء الملائم ولكننا نستطيع في الوقت عينه الوقاية منهما بالمداومة على استعمال

(١) في الصغار (٢) في الكبار

الغذاء المناسب لعدم الاصابة بهما. والشيء نفسه يصدق على مرض الكساح. وأود ان اقول هنا كلمة عن موضوع الادوية الواقية والشافية فان الاطباء وعامة الناس لا يفقهون حقيقتها وأهميتها. ان الدواء الشافي عجيب في فعله لانه يزيل الداء حالاً ولا يستطيع المرء ان ينسى مدى تأثيره اذا كان مصاباً بمرض ما. اما المعالجة الوقائية الفعالة فانها تمنع حدوث المرض بتاتاً ولاسيما اذا صارت متداولة وشتان بينها وبين الطريقة الاولى. فالثانية تمحو المرض بينما الاولى إما ان تطيل الحياة وإما ان تخفف علامات المرض ولكنها لا تزيله فيجب ان يكون هدفنا الوقاية من الامراض او القضاء عليها لا معالجتها ويتوقف نجاحنا في هذه الناحية على مدى معرفتنا اصل الداء ومنشأه. ومن العقبات التي تعترض الاستقصاء العلمي لدرجة ما عدم توصلنا الى كنه حقيقة الامراض فاذا تمكنا من معرفة سببها سهلت الوقاية وسهل الشفاء وان لم يكن باستطاعتنا ذلك فقد نتمكن من تخفيف الالم ولا نعرف او نعرف قليلاً عن سببه او قد نعرف الشيء الكثير عن مرض ما ونجهل طرق الوقاية منه او شفائه. فمثلاً قليلة هي الامراض التي نعلم عنها اكثر مما نعرف عن السرطان ومع ذلك لا نعرف الا اليسير عن طرق الوقاية منهُ. اما معرفتنا عن شفائه فصفر. وعكس ذلك السكري وفقر الدم الخبيث فاننا نستطيع اتقاء ضررهما بالانسولين وخلاصة الكبد فتتحسن حالة المصاب مع اننا نجهل او نعلم القليل عن سببهما

وأود ان اقول الآن بضع كلمات عن مباحث طبية خاصة لأبين كيفية كشف الستار عن سبب الامراض ومعالجتها ولان معرفتها هي التي ادت في هذه البلاد (يقصد انكلترا) حيث المواد الغذائية متوفرة الى ضلال الناس في حقيقة فهم الغذاء وتأثيره في الصحة. فقد ظل داء الكساح في انكلترا وسائر العالم المتمدن قروناً ضربة قاضية ومع ان شدته صارت نسبيًّا نادرة في لندن فلا يزال منتشراً في كثير من البلدان الصناعية في الشمال وسببه كما هو معروف نقص في كلس العظام يعرضها لمختلف التشوهات. وحتى سنة ١٩١٤ او ما يقرب من ذلك كانت النظريات مختلفة في سبب هذا المرض وعزوه الى أسباب صحية او معدية او افرازية اوغير ذلك. فدائرة المعارف البريطانية مثلاً عزتهُ في طبعة سنة ١٩١١ الى سموم تتولد في القناة الهضمية واذا أراد اي شخص الآن ان يعرف سبب داء كهذا يتساءل هل كانت الحيوانات تصاب بهِ فاذا كان من الممكن احداثهُ فيها فيمكننا اجراء التجارب اللازمة والتوصل الى معرفة السبب ولكننا لا نتمكن طبعاً من اجراء تجارب كهذه على الانسان وأول ما يجب عمله في معرفة السبب أن نلم بالطريقة التي تمكننا من احداثهِ على الدوام في جراء الكلاب بمحض اختيارنا. وبمثل هذه التجارب عرفوا ان بعض الاغذية تسببهُ وان تغييراً طفيفاً فيها يمنعهُ. ومواد الغذاء الاختباري كما يلي: —

لبن حليب منزوعة قشدته : ١٥٠ — ٢٥٠ س. م يوميًّا

دهن : (زبدة زيت الزيتون او شحم او زيت كبد الحوت) ١٠ غرامات
عصير البرتقال : ٥ س ٢٠ خمير : ٥ — ٧ س ٢٠
حبوب : (كالدقيق والارز والاذرة و...) . .—٢٥٠ غرام لحم : ١٠ — ٢٠ غراماً

وقد وجدوا ان الكساح يحدث او لا يحدث وفقاً للدهن الذي في الغذاء. فاذا كان فيهِ دهن حيواني كالزبد او زيت كبد الحوت فلا يتولد الكساح . واذا اطعمنا جراء غيرها نفس الغذاء وفيهِ زيت الزيتون او زيت بزر الكتان او شحم تولد فيها هذا الداء . واستنتجوا من هذه الاختبارات ان الضابط هو الدهن فبعض انواعه تسبب تصلباً في العظام كالزبدة وزيت كبد الحوت وبعضها ولا سيما الزيوت النباتية تسبب رخاوة فيها فدعوا المادة التي هي العامل في الصلابة والرخاوة (فيتامين) وتسمى الآن فيتامين D فهي التي تسبب صلابة العظام بترسيب فوصفات الكلس فيها ولا تتصلب العظام اذا كانت هذه المادة مفقودة رغماً عن وفرة المواد الكلسية والفصفورية فيها . فهذه المادة هي التي تثبت الكلس . ونستطيع تغيير نوع الحبوب لتجربة تأثيرها باحداث الكساح او عدم إحداثه بنفس الطريقة فاذا أطعمنا جراء كلاب كل عناصر الغذاء الاساسية بشرط ان نطعم بعضها دقيقاً أبيض وغيرها شوفاناً oatmeal والبعض الآخر أرزاً الخ يظهر الكساح بدرجات وفقاً لنوع الحبوب ومقدار الفيتامين D الذي فيها فالغنية بهِ لا تسبب الكساح والتي تحوي قليلاً منهُ تجعل الاصابة خفيفة وهلم جرًّا. فالاذرة البيضاء مثلاً تولدهُ بصورة شديدة والدقيق والارز بدرجة اخف . فهذه التجارب تدل على ان ظهور الكساح لا يتوقف على نقص الفيتامين D فقط بل على نوع الحبوب التي تؤكل . ومن الحقائق الغريبة ان الحبوب التي فيها كلس وفصفور أكثر من غيرها كالاذرة البيضاء والشوفان oatmeal هي التي تولد أردأ انواع الكساح بصورة أشد من المواد المحتوية على مقدار أقل منهما كالارز والدقيق الخ

ان هذه النتائج تدلنا على ان لا نكتفي بالنظريات بل على المرء ان يجرب بنفسهِ ليصل الى الحقيقة . وقد طبقوا هذه التجارب على الاسنان فظهر ان لنخرها علاقة بالغذاء لان المواد التي تجعل العظم قويًّا هي التي تثبت الاسنان السليمة . فيتضح لنا من هذه الدروس ان الحليب وصفار البيض والجبن وزيت كبد الحوت والزبد هي العامل في تولد الاسنان الصحيحة بينا الحبوب كالاذرة والشعير والخبز والارز وكل فئة الحبوب تثبت الاسنان المعيبة . وبما ان الرواضع (أسنان الحليب) تظهر في كثير من الحيوانات في الدور الجنيني او بعد الولادة بقليل فمن البديهي ان تنمو صحيحة اذا أطعمناها المواد الغنية بالكلس والفصفور والعكس بالعكس والثوابت (الاسنان الدائمة) تظهر من بعد الولادة حتى سن البلوغ وتتوقف سلامتها ايضاً على نوع الغذاء . ومن المعلوم ان اسنان اهل هذه البلاد (انكلترا) ليست صحيحة ومعناه ان غذاء الاولاد حتى

الحوامل ناقص بصورة عامة من وجهة صحة الاسنان . ونستطيع ان نتنبأ على وجه يقرب من الجزم ان نخر الاسنان وتحجيج الاسنان Pyorrhea سيظلان ضربة على الامة مالم يتغير نوع الغذاء ، ولا يمكن القضاء عليهما الا باعطاء الحليب والزبد وصفار البيض والجبن والخضر والفواكه الخ خاصة للاولاد . لقد أتيت على ناحيتين فقط من أهمية الغذاء مع ان مجال القول ذو سعة في هذا الموضوع . وقد أصبح من المعروف ان كثيراً من العيوب الجسدية والعقلية في هذه البلاد وغيرها يمكن تقليلها جداً بالتقيد بمبادىء الغذاء المذكورة وسيكون لهذه الوجهة من الطب الحديث الواقي تأثيرها في رفع مستوى صحة العالم

لقد اكملت مهمتي الآن واستعرضت تقدم الطب في مختلف العصور خاصة سرعتها في الخمسين السنة المتأخرة . وانتقدت الاقدمين في محاضرتي لبطئهم في الاهتمام بالامراض والاخطاء التي ارتكبوها اما عمداً وإما سهواً . ومن الطريف ان نعرف نظر الناس فينا بعد آلاف السنين وحكمهم على ما توصلنا اليه . وعلى الارجح أنهم سوف لا يفكرون بقضية الامراض اذ من المحقق انها تصبح نادرة جداً لدرجة ما ويصير المرء يجهد فكره ليتذكر انتشار المرض الفلاني ولا بد ان يقوم منقب يبحث في سير الاولين وآدابهم فيرى اننا تأخرنا في تقدير الطرق التجريبية ويسخر من بعضنا كما نسخر من الذين قبلنا . لقد حاولت ان ارد بعض أسباب بطء الاقدمين في التوصل الى الحقائق التي توصلنا اليها اليوم . ومن الخطأ ان نتقبلها كما نراها اليوم ولا نلتفت الى الجهود التي بذلها البشر في التوصل اليها فعلينا ان لا نتمسك بالنظريات مطلقاً دون التجارب . وسيعثر فيلسوف الغد المنقب عن آثارنا على كثير من الامور المستغربة . ومما لا شك فيه انهُ سيقص على اصدقائه كيف كان الاطباء سواء اعن اقتناعهم الشخصي او بناء على طلب المريض يصفون سلسلة من الادوية كالمحاليل والغرغرات والمساحيق . واذا كان سيسخر من هذه الامور فما احراه ان يسخر من هذه البلاد المتوفرة فيها المواد الغذائية الصحية ومع ذلك يحرم الكثيرون من أبنائها منها واعني بصورة خاصة اللبن (الحليب) . ويعجب حينما يعلم ان مصدّر مقابض المظلات يستطيع مثلاً الحصول على مقادير كبيرة منهُ بسعر الغالون الواحد بخمس بنسات بينما لا نستطيع الحصول على نفس المقدار لتغذية الاطفال بأقل من شلنين وخمس بنسات . ومما لا ريب فيه ان هذه الحالة مؤقتة ومتى عرفنا قيمة الغذاء الصحيح اصبحت أسسهُ راسخة رسوخ التنظيمات الصحية والنظافة اليوم . فالاكتشافات الصحية تترى في الوقت الحاضر وهي تتقدم بخطوات سريعة والحقائق الطبية تتراكم يوماً فيوماً ولا حدَّ لهذا التقدم حتى ان الموظف في الشؤون الصحية يصعب عليه تتبع الطب الواقي — ويجدر بنا ان نعلم اننا في عصر الطب الذهبي وان نعترف بالنعم التي نتمتع بها اليوم

دائرة الحياة

« كل يوم هو في شان »
« وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب »
(قرآن كريم)

شاعر أطرب الاله طويلاً بمقاطيع عذبة الألحان
اسكر الله لحنهُ فدعاه ليرى خطب ذلك الانسان

قيل: يا شاعر الآلـه تخيَّر ! لك من هذه الدنا ما أردته
قال: هاتوا الخلود يا جند ربي فأجابوا بئس الذي قد طلبته

أرأيت الاملاك هاجت وماجت تملأ الارض والسماء دويًّا
ما لدود التراب يرجو خلوداً ؟ ان هذا قد جاء شيئاً فريًّا

رعشة في قلوبهم قد تمشت ولوجه الإله خروا سجودا
قيل: أعطوا عبدي الذي يبتغيه يطلب الخلد فامنحوه الخلودا

نفخة الخلد في حناياه قرَّت إنما الخـلد للإله العليّ
ألبسوه ثوب الخلود وآبوا واحتفى الخلد بالفتى السرمديّ

خيَّروه بين المواطن فاختـار على شاهقٍ رفيع مقامهْ
تركض الارض حوله وهو ثاوٍ ينظر الارض والشموس أمامه

كم عروش هوت على صاحبيها وتماثيل حطَّمتها الصروف
وتهاويل قدَّسوها رآها تتلاشى كما تلاشى طيوف

كم إلـه على التراب صريع وإلـه عن عرشه قد تهاوى
يصرع البعض بعضهم فيخر الـكل من سكرة الصراع نشاوى

نظر الارض والتطور فيها عامل في الجماد والأحياء
وهو لا يأتلي يطل عليه ابداً وجه هذه الزرقاء

جاء دهر عليه وهو مجيلٌ طرفه كالكئيب في الكائنات
فاذا بالرجاء قد مات فيه وبه ملٌ من سكون الحياة

أنا وحدي في الارض تذهب نفسي إثر من أهوى ، ثم يرحل عني
ما ابتغائي من الخلود وحيداً ؟ وجميع الآمال تذهب مني

أيها الغادي للتراب رويداً ! عاد جسمي حنينه للتراب
افتح الباب للردى وانتظرني انني ذاهب لأطوي ثيابي

كل حين أستطلع الركب منهم فأرى الراكبين بعض رفاقي
ينزعون الجلود ثم يعودو ن بروح جديدة الاشواق

هذه من عشقتُ تفنى وتحيا لم تزل روحها تطوف بداري
وجه ليلى ،وروح ليلى ، وليلى لم يبدل منها سوى الأطمار

جهلتني وليت تذكر يوماً انها في حيــــاتها عرفتني
مص من روحها الثرى كل وعي فلها عذرها اذا أنكرتني

سمع الله عبده وهو يشكو قال : ما تبتغي فقال الفناء
سأم عادني وأضعف نفسي ماهي الارض ان خوت والسماء؟

قال رب السماء آمن بأني قد خلقت الوجود أحسن خلق
ملأ الناس بالشكاوى سمائي وهم يشكون من غير حق

يطلبون البقاء في الارض دهراً فاروم ماذا رأيته في البقـاء
لا تلوموا على الفناء وجودي يشفع الكون نفسه بالفناء

كل يوم ترى الإلـه بشان ! كل يوم ترى الآلـه بحال
ما خلودي دوماً بمغنٍ شيئاً أنا لولا تبدلي وانتقالي

لذة الارض هل تخاف انطفاء ؟ انما أنت جمرة في رماد
أفن جسماً والبس سواه جديداً فيك مجموعة من الاجساد

كن كمثل الزمان يوصل ماضيـــه بآت ، وعش كشيء جديد
فيك شيء من الفناء ، وشيء قد قبسناه من صميم الخلود !

خليل هنداوي

وزارة المعارف

نشاطها في دراسة
مشكلات التربية وتشجيع الثقافة العامة

— ١ —

ظلّت وزارة المعارف بمصر ردحاً من الزمن طويلاً تعمل في دائرة لا تتعدّى الحدود التي ترسمها حاجة الحكومة الى موظفين يقومون بالاعمال الكتابية . ولم تتخطّ الوزارة هذه الحدود الآ في ناحيتين اضطرتها الظروف القاهرة الى تخطيها : الاولى حاجة البلاد الى قضاة ومحامين يقيمون هيكل العدل بعد اعادة تنظيم المحاكم الاهلية فأنشئت مدرسة الحقوق ، والثانية حاجة البلاد الى مهندسين يشرفون على مشروعات الري والصرف وتوزيع مياه النيل فأنشئت مدرسة الهندسة . وفيما عدا هاتين الناحيتين لم يشعر المصريون بان للوزارة أثراً في توجيه الثقافة العامة وجهة ما . ولقد نقول بيقين ثابت ان هذه السياسة ظلت مهيمنة على وزارة المعارف حتى عام الثورة سنة ١٩١٩ ، فكان هذا حدّاً فاصلاً بين عهدين من حياة وزارة المعارف . فان اتجاه الافكار الى المثل والغايات العليا وتحويل أنظار الامة الى الاستقلال والى الحرية قد نال وزارة المعارف منهُ نصيب وافر تطلعت بعدهُ الميول الى التوسع في شئون التعليم توسُّعاً لو قسناه في مدى عشرين سنة بما كانت عليهِ حال التعليم قرناً بتمامهِ ، لما استطعنا ان نمثل لهذا القياس الآ بحركة الكهرباء مقيسة الى مشي السلحفاة . هذا اذا اعتبرنا النتائج العملية التي عادت على البلاد من تلك الاستيقاظة الاخيرة

ولقد تدرجت الوزارة في الاخذ بأسباب الاصلاح ، غير ان اعظم وجوه الاصلاح في نظرنا ذلك الميل الجديد الذي بدا أخيراً في أفق وزارة التربية والتعليم من حيث الاتصال بالحركات الثقافية التي تكوّن خارج جدرانها . وفي الحق ان انبتات الصلة بين الوزارة وبين أوجه التثقيف التي كان يقوم بها أفراد عاملون في خارج الوزارة كان سبباً رئيساً عاق التثقيف العام زمناً ما . ولا شك في ان الوزارة باتخاذها هذه الخطوة الموفقة سوف تحقق جزءاً كبيراً من مهمتها الشاقة باعتبارها المهيمنة على الثقافة وعلى التربية العامة . ولا شك في ان الخطوات التي اتخذت في هذه السبيل حتى الآن خطوات ثابتة سوف تتبعها خطوات اكثر توفيقاً باذن الله . فان تأسيس مجمع اللغة العربية الملكي والعمل على تأسيس المجمع الادبي وتنشيط الحياة الفكرية تكفي للدلالة على صحة ما نقول

— ٢ —

في الوسع تقسيم اعمال وزارة المعارف في خلال الاشهر الاخيرة، الخاصة بتشجيع الثقافة العامة قسمين عامين أولهما القسم الخاص بالمباريات حثاً للهمم وحفزاً للقرائح وقد صدر امر الوزير الدكتور محمد حسين هيكل باشا ، بتنظيم ثلاث مباريات كل سنة يمنح الفائزون فيها جوائز مالية نفيسة

١ — المباراة الاولى خاصة باحياء الادب العربي في مصر الاسلامية. وقد جاء في قرار الوزارة: « تعقد وزارة المعارف العمومية كل عام مسابقة في احياء الادب العربي في مصر الاسلامية على ان يقدم كل من المستبقين كتاباً لا يقل عن مائتي صفحة يتناول فيه اية ناحية من نواحي هذا الادب في اي عصر من العصور وعلى ان يكون الكتاب مثالاً حسناً للعمل الجدّي والبحث الشخصي والابتكار الذي يفيد العلم فائدة محققة » . وقد عينت الوزارة « مبلغ ٥٠٠ جنيه يمنح منه ثلاث جوائز لاحسن الكتب التي تقدم في هذه المسابقة » وآخر موعد لتقديم الرسائل للمباراة الاولى هو أول يونيو سنة ١٩٣٩

٢ — والمباراة الثانية خاصة بالمدرسين عامة في الموضوعات التي تقترح معالجتها وقد جعل عنوانها « مباريات تشجيع الانتاج الفكري » وجاء في قرار الوزارة « بما اننا نرى ضرورة العمل على تشجيع الانتاج الفكري بين المدرسين بمدارس الوزارة والمدارس الحرة من طريق حفزهم الى البحث والتأليف في موضوعات اختصاصهم والموضوعات المتصلة بها بما يؤدي الى تقوية شخصيتهم وزيادة حيوية دروسهم وتكوين ذخيرة من الرسائل العلمية والادبية تدعو الى نشاط التفكير العام اذ ينتفع بها الطلاب والجمهور المثقف على السواء وتكون بعيدة عن التقيد بالمناهج وان اتصلت بموضوعاتها، وبما ان المدرسين والاساتذة في جميع البلاد المتحضرة مصدر التجديد العلمي والفكري والعملي في توجيه الحياة الاجتماعية الى أحدث المبادىء وأدق الآراء العلمية والادبية والفنية» قررت الوزارة رصد جوائز سنوية للمدرسين الذين يضعون رسائل علمية وأدبية تمنح في مباريات تعقد كل عام للتأليف بين المدرسين تخصص لها جوائز ثمان قيمة كل منها مائة جنيه تمنح للمتبارين الذين ترى لجان التحكيم ان رسائلهم جديرة بالمنح » وتخصص جائزة لكل من الموضوعات التالية وهي:

الادبية — الاجتماعية — الفلسفية — التاريخية — الجغرافية — الطبيعية — الرياضية — المتصلة بالتربية وعلم النفس — التجارية — الصناعية — الزراعية

وقد اشترطت الوزارة في الرسائل التي يتقدم بها واضعوها لنيل الجائزة ان تكون باللغة العربية وان تكون موضوعاتها بعيدة عن التقيد بالمناهج وان اتصلت بموضوعاتها بعيدة عن طبيعة الكتب المدرسية وان تبدو فيها روح الابتكار في طريقة معالجة الموضوع على الاقل وان يكون لها اتصال بحياة البلاد العلمية والادبية او تاريخها القومي وان تصطبغ بالصبغة القومية في الامثلة

والتطبيق وان يراعى في التأليف التبسط واستيفاء البحث من جميع أطرافه ، والامانة العلمية في ايراد الآراء والنظريات وان يتبع واضع الرسالة أسلوب البحث الحديث وطرائق النقد الحديثة في ايراد نظرياته ومناقشتها كما يشترط ان تكون الرسائل قد وضعت خصيصاً لهذه المباريات ولم يكن قد سبق طبعها ونشرها . وألا تقل عن مائتي صفحة من القطع المتوسط . وتتولى الوزارة نفقة طبع الرسائل التي تنال الجوائز ونشرها وتحفظ للمؤلف قسطاً من أرباحها

وقررت الوزارة ان «تحدد لهذه المباريات في كل عام مدة غايتها ستة أشهر تبتدىء من أول يونيو وتنتهي في آخر نوفمبر يتقدم فيها المتبارون برسائلهم للوزارة غير مطبوعة »

٣ — والمباراة الثالثة خاصة « بالفنانين المصريين لاظهار بعض النواحي المصرية في قالب فني » وان «يعرض كل ما يقدم من الآثار الفنية في معرض عام يقام في شهر نوفمبر من كل سنة وتؤلف لجنة محلية من ذوي الاختصاص لفحص ما يقدم من هذه الاعمال الفنية وتقرير الصالح منها للعرض واختيار الاعمال الممتازة لشرائها وضمها الى مقتنيات وزارة المعارف لتكون نواة لمتحف للموضوعات القومية وتوزيع جوائز على المتفوقين » . والمبلغ المرصود للجوائز ٥٠٠ جنيه وهي تتفاوت من ٥٠ جنيهاً (جائزتان) الى ٣٠ جنيهاً (٤ جوائز) الى ١٥ جنيهاً (ثماني جوائز) الى ٨ جنيهات (١٠ جوائز) الى ٥ جنيهات (ست عشرة جائزة) ولما كانت المذكرة التي وضعها مراقب الفنون الجميلة تعدُّ برنامجاً للناحية القومية في النشاط الفني فانا ننشر ما يلي منها :

لما كانت الفنون الجميلة تساهم في نهضات الشعوب بنصيب وافر لا يقل بحال عن نصيب قادة الفكر ودعاة الاصلاح وهداة الوطنية بما لها من أثر في ارهاف الحس وتحريك العواطف بحيث كانت ولا تزال من أبلغ الوسائل وأقدر العوامل على حفز الهمم واذكاء جذوة الحياة في الامم اذا توجهت هذه الوجهة بدافع صدق من اشتراك اصحابها الفنانين مع ابناء وطنهم في البواعث والشعور وبخاصة انها أقرب من غيرها من وسائل التعبير الى مخاطبة الامة جمعاء بحكم أنها تصويرية تتمثل للعيان وتقع تحت الحواس الظاهرة

ولما كان فنانو مصر الحديثة حريصين الحرص كله على المساهمة في نهضتها كأسلافهم فناني مصر القديمة الذين خلدوا على الصخر مفاخرها الغراء الباقية على الدهر. فتتشرف المراقبة باقتراح ما يأتي :

أولاً — دعوة الفنانين المصريين — وبلادنا في أبان نهضتها واستئناف عزتها — الى ان يستبقوا لتعزيز الروح القومي بفنهم مع الحرص على رسالة الجمال التي هي رسالتهم . وذلك بمعالجة الموضوعات الآتية وما يجري مجراها : —

« التاريخ المصري » يعد التاريخ المصري في أحقابه المتطاولة ، وما تداول أثناءه من دول وما تخلله من احداث جسام، من أحفل التواريخ قديماً وحديثاً بالمواقع الحاسمة والمواقف الرائعة ،

فهو يحدث عن وقائع حربية براً وبحراً وعما كان فيها من هجوم ودفاع ، وحصار واستيلاء على الحصون والقلاع واشتباك بين العمائر البحرية وعما كان من توديع للجيش المسافر واستقباله في عودته استقبال الظافر ، وعما يصحب ذلك من معارض الاسلاب ومواكب الاسرى ، وكذلك مداولات القواد والتقاء أمراء العسكريين واجتماعات التحكيم والمصالحة وما اليها . ولا جرم ان مثل هذه الصور تحتاج الى دراسات تاريخية عميقة للعصر وأزيائه ونوع ادواته وأساليبه الماشية وملامح الوجوه وسماتها وعلى الاخص في الصور التي تلتقي فيها أجناس عدة بالمصريين كالحثيين والاحباش والنوبيين والاشوريين والاغريق والفرس في التاريخ القديم ، وكالعرب والصليبيين من مختلف الممالك في القرون الوسطى ، وكالاتراك والمماليك في العصور الحديثة . على ان هذا الجهد الذي يتكلفهُ الفنان يسفر عن اروع الصور والتماثيل وأوفاها بالمتعة والفائدة . ومع أن الغرض من هذه الصور تقوية الروح القومية في الامة وتعويدها الافتخار بتاريخها وتوكيد ثقتها بنفسها فليس معنى ذلك قصر آثار الفنانين على الانتصارات بل يصح تصوير الوقائع التي منيت فيها الجيوش المصرية بالهزيمة لتألب الاعداء عليهم او لغير ذلك من الاسباب الخارجة عن ارادتهم مع ابراز ما اظهروه من معاني الاستبسال والاقدام على التضحية وبذل النفس الغالية في ميدان الشرف

« الآثار التاريخية » من شأن الفن الالتفات الى الآثار التاريخية ولا يكون ذلك بنقلها نقلاً فوتوغرافيًّا بل بالاعتماد على هذه الاطلال الدوارس بعيد الفنان بخياله بناءها كما كانت في في عهد ازدهارها وبعمرها باهلها سواء أمعابد كانت ام قصوراً . ويسري هذا على الآثار الفرعونية كما يسري على الدور العربية وجميع الآثار الاسلامية

« الموضوعات الدينية » في تاريخنا الديني كثيرون دعوا الى الحق وآثروه على حطام الدنيا وزخرف الحياة ، وما زالت سيرتهم العاطرة تخفف من سلطان المادة على النفوس وتلطف من كثافتها . ولهؤلاء في مصر أضرحة ومقامات وسبل ماء لاستقاء السابلة كما ان فيها فضلاً عن المساجد والجوامع زوايا لعبادة الله ليس لها ضخامة تلك وفخامتها ولكن عليها مسحة من القدسية تخشع لها النفس . والفنانون يجدون في سيرة هؤلاء وآثارهم معيناً طاهراً يستوحون منهُ موضوعات تشعر بطعم الحياة الروحية ومتعة الاشتغال بما فيه صلاح الناس ورضى الله

« المناظر الطبيعية » بعض المواقع الطبيعية المألوفة في مصر تتعلق بها ذكريات قديمة فاذا تشبع الفنانون بهذه الذكريات وجلوها على مسرح هذا المنظر كان المنظر الطبيعي بما أضيف اليه من المعاني وما غمره من خيالات الماضي أملأ للعين وأوقع في النفس

« الاساطير والقصص الشعبية » لدينا من هذه الاساطير والقصص الشعبية ما لا يقل عما لدى الامم الاخرى بل ما يزيد عليها تنوعاً وغنى . وفي امكان الفنانين الايحاء بما فيها من المعاني

الرمزية من غير اخلال بسذاجتها الاولية كما هو الحال في تفسير الخرافات الاغريقية مثلاً . ولا شبهة في ان أمثال هذه الموضوعات تلذ الخاصة كما تستهوي العامة وليس أجدى على النهضة من اشتراك طبقات الامة جميعاً في قوة الشعور بها

﴿ المرأة ﴾ . كذلك لا يصح اهمال المرأة وهي عروس الفنون وصاحبة وحيها على ان يختار الفنانون المرأة في أوج سموها وعظمتها النفسية لا لمجرد فتنتها الجسدية . والتاريخ المصري حافل بالنساء العظيمات ممن جلسن على عرش مصر وغيرهن ممن اشتركن في الذود عن الدين وحماية ذمار الوطن وكنّ مثالاً للخير والفضيلة

ومما يتبع المباريات في تنشيط الحركة الفكرية والفنية في البلاد قرار أصدره وزير المعارف بانشاء لجنة برآسة معاليه وعضوية الشيخ مصطفى عبد الرازق بك والدكتور طه حسين بك والاساتذة احمد امين وخليل مطران وعباس محمود العقاد وابرهيم عبد القادر المازني وتوفيق الحكيم « لبحث وسائل تنظيم الحركة الادبية في مصر » لانهُ قد تبين « ان الحركة الادبية في مصر وان كانت قد نشطت وأصبح بها أثر ظاهر في تثقيف الجمهور وتوجيهه الا انها لا تزال يعوزها التنظيم الذي يكفل لها اطراد التقدم وحسن التوجيه وبما انهُ قد نبتت فكرة الدعوة الى انشاء مجمع أدبي مصري يقصد بهِ على الاخص الى تنظيم الحياة الادبية في مصر وايجاد صلة منظمة تربط الادب والادباء والجهود التي تبذلها وزارة المعارف في تنشيط هذه الناحية وتعاون على تنمية الثروة الادبية في البلاد على غرار ما هو متبع في البلاد ذات النهضات الادبية الكبيرة » (١)

— ٣ —

هذا وقد ألقى معالي وزير المعارف خطبتين نفيستين في شؤون التربية والتعليم احداهما في اجتماع المدرسين في بهو الاحتفالات بالجامعة المصرية والثانية في اجتماع رجال التعليم الالزامي ومن بواعث الاسف ان المجال لا يتسع لنشرهما كاملتين فاخترنا مقتطفات استوقفت نظرنا بما فيها من الحكمة العالية وصدق النظر قال : —

« على ان الامر في التربية والتعليم وضرورة تأثرهما بالفكرة القومية وبالتضامن القومي على الاجيال لا حاجة للانتفاع بهِ الى هذه الموازنة بين العلم والعالم (٢) ، والانسانية والانسان . بل الامر

---

(١) أما القسم الثاني من اعمال وزارة المعارف في العهد الاخير فنصرف الى دراسة مشكلات التربية وفي مقدمتها مشكلة اللغة العربية وتسهيل تعليمها وأساليب تلقينها بحيث يخرج الطلاب وهم مالكون لناصيتها . ومشكلة المركزية واللامركزية في تنظيم الوزارة الاداري . وقد وضعت لجنة قوامها الدكتور طه حسين بك والاساتذة احمد أمين وعلي الجارم بك ومحمد ابو بكر ابراهيم وابراهيم مصطفى وعبد الحميد الشافعي تقريراً شاملاً في الاولى . وأعد سعادة الاستاذ محمد العشماوي بك وكيل الوزارة مذكرة نفيسة خاصة بالثانية . وسنعالج الموضوعين في عدد تال (٢) اشارة من الوزير الى القول بأن العلم لا وطن له والقول الآخر بأنه اذا لم يكن للعلم وطن فللعالم وطن وقول الوزير ان العلم له وطن كذلك وانه يتأقلم

فيهما أيسر من ذلك بكثير . فكلنا متفقون على ان انجع وسائل التربية والتعليم بالنسبة للناشئة ما كان المثل الحي اساسه وما وقع عليه الحس او استطاع ان يتصل به . فما استطاع المتعلم ان يلمسه بيده ويراه بعينه ويسمعهُ بأذنه هو الذي يمثل الحقيقة في ذهنه ، وهو الذي يترك الأثر الباقي في نفسه . الناشىء الذي يرى الجبل ترسم صورته في ذهنه ولا يسهل ان يغيب تعريفه الجغرافي عن ذاكرته . والناشىء الذي يرى صورة موقعة حربية منقوشة على لوحة من اللوحات او ممثلة امامه في السينما يبقى ذاكراً لما رأى من ذلك اضعاف ما يذكره من حفظ عن ظهر قلب ماجرى في هذه الواقعة مما مثلتهُ الصورة او استظهرتهُ الشاشة البيضاء . واذا كانت قواعد العلم الحديث تستلهم سنن الكون من المشاهدة والملاحظة ، ثم من المقارنة والتبويب ، ثم من استقراء ذلك وترتيب النتائج عليه ، كذلك يفعل الناشىء ، وكذلك يجب ان يعوده المعلم ان يفعل ، فيما يقع عليه حسه من المرئيات والمسموعات وغيرها من سائر المحسوسات »

* * *

« التعليم الذي يعتمد على البيئة القومية له — فضلاً عما سبق — أثر في الحياة لا سبيل الى دركه من طريق آخر . لقد قدمت ان عمل الاجيال يجب ان يفضل متضامناً لزيادة الثروة القومية ، معنوية كانت هذه الثروة أم مادية ، ولا يمكن ان تزيد هذه الثروة الا اذا عرف الابناء ما عمل الآباء في أمرها . فاذا لم نقف على تاريخ صناعتنا وفننا وأدبنا وعلمنا وكل مظهر من مظاهر حياتنا وجعلنا همنا الى استعارة معارفنا من غيرنا ، كان ما يتركه كل جيل مختلفاً عما يتركه الجيل الذي سبقهُ ، غير قابل للالتئام معهُ الا بمجهود يحتاج الى زمن والى رجوع الى المقومات القومية التي تعاون على النجاح فيه . فاما اتصال التعليم بالحياة القومية على الاجيال فيعفينا من هذا المجهود الذي يذهب الكثير منهُ سدى ، ولا يؤول الى النتيجة التي نرجوها من اتصال المزيد في ثروتنا »

* * *

« وأقف قليلاً لاقول ان الحرية التي يفهمها المذهب ليست الفوضى ، وانما هي النظام . فالحرية القائمة على أساس من التربية العقلية السليمة تجعلنا نزيد خطواتنا لنسير في السبيل المستقيم الذي يبلغ بنا الى الغاية التي نبتغيها

« الرجل الذي يقدر الحرية على انها النظام ، ويقدر ذلك عن علم ، يؤمن بأن واجبهُ الاول ان يحترم حرية غيره ، وان يؤدي بذلك للغير واجبهُ ، وان يتعاون مع الغير مقابل تعاون الغير معهُ ، وان يقوم بواجباته لذلك طائعاً مختاراً مؤمناً بأن في ذلك الخير لهُ ولامثاله جميعاً ، مطالباً اياهم بأن يؤدوا واجبهم كما يؤدي هو واجبه »

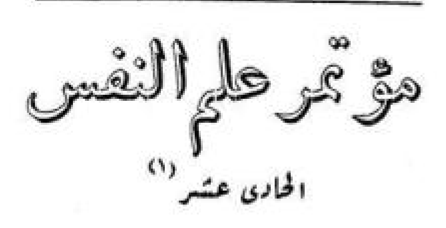
« وحسبكم لتقدروا جلال هذه المهمة ان تذكروا ان المعلم الالزامي يحل من الاطفال الذين يعهد اليهِ بتربيتهم محل الاب والام ، وان عليهِ في هذا الدور من أدوار حياتنا القومية واجبات نحو هؤلاء الابناء اكبر من واجبات آبائهم وأمهاتهم . فهو يتولى أمر هؤلاء الاطفال من اطفال اليوم ورجال الغد ، وهم لا يزالون في السابعة من عمرهم . ويتولى أمرهم وقليل منهم من عني أهله بتربيته في السنوات السبع الاولى من حياته ، لان هؤلاء الاهلين جهلاء ، ولأنهم فوق ذلك مأخوذون عن تربية ابنائهم بالسعي للحياة والكدح فيها . فواجب على هذا المعلم ان يتم النقص في الطفل وان يقوم على تربيته وتهذيبه ليكون من بعد مصريًا فاضلاً نافعاً في حياته الجماعة وان يعده ليكون في مستقبل أيامه شابًا صالحاً وأباً يعنى من شئون ابنائه بما لا يعني الآباء اليوم بهِ من شئون ابنائهم ، لانهم لم يجدوا المعلم الذي يوجههم في الحياة التوجيه الصالح ومن يؤدبهم فيحسن تأديبهم »

* * *

« وكما ان محبة المعلم لتلميذه تحرك في نفس التلميذ محبة أستاذه ، فهي بذلك أسوة حسنة ؛ كذلك الاسوة هي المحرك الاول للفضائل في نفس الناشيء ، وعلى محورها تقوم التربية الصالحة . والمعلم الذي يحسب ان التربية الخلقية او النفسية تقوم على التعاليم او على النصيحة التي يقرأها الاطفال او يحفظونها عن ظهر قلب دون ان يروا مثلها واضحة امام أعينهم معلم غير ناجح بل معلم مفسد للناشئة ، مفسد لزملائهِ اذا لم يكونوا أقوى منهُ نفساً وأكثر بقواعد التربية الصحيحة إيماناً »

« إخواني : انكم تعلمون ما لكم من أثر في البيئة التي تكونون فيها . وأنتم اليوم اعظم أثراً لانكم أنتم في اكثر البيئات القارئون الكاتبون الذين ينظر اليهم الناس على انهم أولو العلم والفضل ، ومصدر الهداية وحسن التقدير . فاذا رأوا فيكم المثل الخلقي الكريم ، ورأوا منكم الاحتفاظ بالكرامة ، وباستقلال الرأي ، والحرص على الخير العام كنتم لهم الائمة الصالحين ؛ وكنتم بذلك قد مهدتم لبلادكم طريق الرفعة والرقي السريع »

« ياحضرات المعلمين : اذا قامت التربية على أساس من عاطفة المحبة ومن الاسوة الحسنة اتجه الجميع الى معرفة بلادهم وما فيها مدفوعين لذلك بعاطفة من الحب يزيدها ما يجدونهُ في هذا الوطن من أسباب الخير والنعمة ، وما يجدونهُ في تاريخهِ من دواعي الفخر والمجد . وحسبكم انتم رجال التعليم الالزامي ان تعلموا اهل كل اقليم ما ينطوي عليهِ من خير أفاءه الله عليهِ ؛ وما كان لهُ على التاريخ من اثر في العصور المختلفة ، وان تعلموهم ذلك بلغة قصصية سهلة يفهمونها ويحبون لذلك من أجلها اقليمهم ، لتكونوا قد بلغتموهم رسالة المعلم الالزامي بعد ان تكونوا قد قمتم بدوركم الجليل في تربيتهم وتعليمهم »



مؤتمر علم النفس

الحادي عشر (١)

للدكتور مظهر سعيد

عقد مؤتمر علم النفس الدولي الحادي عشر بباريس في ٢٤ يوليه الماضي (١٩٣٧) وظلّ منعقداً ثمانية ايام متتالية بالصربون. وافتتحهُ المسيو دلبوس وزير الخارجية وختمهُ وزير المعارف المسيو جان زاي. وقد مثل فيهِ نحو ثلاثين دولة وعشرين جامعة ومعهداً علميًّا كبيراً وحضره نحو ثلثمائة عالم اخصائي في علم النفس كاعضاء عاملين ومائتي اخصائي في العلوم الاخرى المتصلة بعلم النفس وغيرهم من المستمعين كاعضاء منتسبين. ومثلت فيهِ من البلاد الشرقية اليابان والصين والهند ثم مصر لاول مرة في العام الماضي. وقد بلغ من اهتمام الحكومة الفرنسية بهِ دون سائر المؤتمرات الدولية التي عقدت بباريس وهي بالمئات — أن أقام رئيس الجمهورية بقصر الاليزه ووزيرا الخارجية والمعارف ومدير الجامعة ومدير البلدية وعمدة باريس ومكتب المعرض الدولي مآدب متعددة كان الاعضاء فيها موضع الحفاوة والتكريم. ونظمت لهم شركات السكك الحديدية واقسام المباحث الجنائية وشركات الاجهزة السيكولوجية ورآسة اركان حرب الجيش — زيارات خاصة للمعامل وكذلك مستشفيات الامراض العقلية والعصبية. وفتح لهم اللوفر مساء ليروه بأنواره المتجلية وألقى العلماء الاخصائيون محاضرات في سيكولوجية التاريخ والفن والديانات. واعدت لهم حفلات تمثيلية خاصة بمسارح الشاتليه وسانت انطوان ومدينة الجامعة مثلت فيها روايات سيكولوجية هامة متصلة بدراسة علم النفس مثل أوديب الملك وهاملت وماكبث وقطع ممتازة من موليير. ودعاهم المعرض لحفلة ساهرة على السين. ولهذا كله أثره الكبير في تعريف علماء النفس بعضهم ببعض واطلاعهم على ما يقومون بهِ من مباحث لم تقدم بعد للمؤتمر وعرض ما تقوم بهِ بلادهم في هذا الشأن. فهو في الواقع يهيء اطيب الفرص للدعاية القومية بطريقة علمية

ولهذا المؤتمر شأن خاص في ميدان البحث العلمي فهو يعقد مرة كل خمس سنوات ليعرض

(١) المقتطف: اتفق لاحد اصدقاء المقتطف ان كان يزور الدكتور مظهر سعيد فدار الحديث على بعض وجوه التقدم في علم النفس فحدثه الدكتور مظهر عن مؤتمر علم النفس الدولي الحادي عشر الذي عقد في باريس في يوليو سنة ١٩٣٧ فطلب اليه ان يتحف المقتطف بحديث هذا المؤتمر فلبى. فنمحضهما خالص الشكر

فيهِ العلماء آخر ما جدَّ في العلم من بحوث ونظريات وما ابتكر من اجهزة وطرائق وبالجملة كل جديد ظهر خلال تلك السنوات . وقد قدم له نحو اربعة آلاف بحث من مختلف أنحاء العالم لاساطين هذا العلم والاساتذة المشتغلين بهِ وهذا العدد على كثرته لا يمثل الانتاج العظيم في علم النفس وفروعه المتعددة لان المؤتمر يلزم العلماء ألاَّ يقدم الواحد منهم اكثر من بحث واحد ذي صورة مختصرة . وقد أخذ المكتب الدائم للمؤتمر وهو مؤلف من خمسة عشر عالماً مختلفي الجنسيات أمثال ثورندايك في أميركا وسبيرمان ومايرز وفالنتين في انجلترا وبيرون في فرنسا وجانيت وكلاباريد في سويسرا وكفكا وكوهلر في المانيا وبونزو في ايطاليا وغير ذلك من الاسماء العالمية المعروفة — أخذ في دراسة ما قدم لهُ من بحوث زهاء شهرين فأقرَّ منها مائة وثمانية وعشرين فقط طبعت خلاصتها ووزعت على الاعضاء قبل انعقاد المؤتمر لدراستها ومناقشتها . ويخصص لصاحب كل بحث مقبول عشرون دقيقة يشرح فيها بحثه ونظرياته على الاعضاء ثم يناقشونهُ عشرين دقيقة أخرى وبعدئذٍ تبدي اللجنة الدائمة قرارها في البحث بالقبول او الرفض او الاشارة بالتعديل واعادة العرض في المؤتمر الثاني عشر الذي سيعقد بفينا سنة ١٩٤١ هذا عدا بحوث اللجان المشكلة من قبل والمناظرات بين العلماء أصحاب النظريات المتعارضة . ولذلك تجد هذا المؤتمر علميًّا بحتاً وجديًّا ومرهقاً لان المؤتمر ينعقد في كل يوم ثماني ساعات كاملة كلها بحوث ومناقشات فلا يتسع فيهِ الوقت لكلمات الترحيب أو عبارات الشكر وخطب ممثلي الدول عن بلادهم وجهودهم ومبلغ تفوقهم كما يحدث عادة في المؤتمرات الاخرى . بل ان المؤتمر ليبدأ بحوثه العلمية بعد خطبة الافتتاح مباشرةً . وكانت البحوث تلقى في معظم الاحيان في قاعات المحاضرات الكبرى الاربع بالسوربون في وقت واحد لكثرتها . ففي الاول تعرض النظريات الجديدة البحتة وفي الثانية النظريات المعدلة والتطبيق والثالثة للبحوث الدولية والاجتماعية والرابعة للبحوث الطبية . وأدهشني في هذا المؤتمر شيء لم أعهد لهُ مثيلاً من قبل . ذلك أن المقاعد ركبت فيها سماعات كهربائية تتصل بقرص متحرك يشير الى اللغات الست المستعملة في المؤتمر . فبتحريك القرص على لغة خاصة يستطيع العضو ان يسمع بها كل ما يقال في نفس الوقت الذي يتكلم فيهِ المحاضر مع انهُ يتكلم بلغة أخرى . ولا يتسع المقام هنا لذكر كل البحوث الهامة التي قدمت فوضعها كتاب خاص سأقوم بوضعهِ فيما بعد ولذلك أكتفي بسرد بعضها

(١) مشكلة المصطلحات العلمية واختلافها في اللغات المختلفة وضرورة تأليف لجان دولية للبحث في توحيدها . وقد عرضت على اللجنة نماذج من بحوثي في تعريب مصطلحات علم النفس والمعجم الذي أقوم بوضعهِ بالعربية وأبديت وجهة نظر البلاد العربية فوافقت اللجنة على ضمي اليها وسأرفع تقريري في مؤتمر فينا المقبل . (٢) تعديل قوانين ثورندايك في ضوء مباحث مدرسة الجشتالت . (٣) تعديل بعض الطرق والمعادلات الرياضية المستعملة . (٤) مقاييس جديدة للذكاء

والشخصية والامزجة والكفاية الصناعية . (٥) أجهزة جديدة في مختلف الفروع . (٦) كشف بعض الامور المعقدة في الاضطرابات العقلية وطرق تشخيصها بالاجهزة وعلاجها . (٧) وضع مناهج جديدة لدراسة علم النفس واعادة ترتيب فروع العلم وتدرج مباحثه على أساس جديد

وغير هذا كثير مما يهم كل أستاذ مصري لعلم النفس والفروع المتصلة به . وأرى من الواجب ان تحرص وزارة المعارف المصرية على الاشتراك في هذا المؤتمر وارسال الاساتذة الذين يستطيعون ان يقدموا بحوثاً جديدة هامة يكون في قبولها واقرارها من أكبر هيئة علمية في العالم شرف عظيم لمصر

وقد شرفتني وزارة المعارف بانتدابي لحضور هذا المؤتمر فعرضت النظريات الجديدة التي تضمنها واحد من البحوث الواسعة التي قمت بها في مصر وانجلترا . ومن فضل الله أني وجدت بحثي مطبوعاً وموزعاً مع البحوث المائة والعشرين التي قبلت مبدئيًّا وازداد سروري عند ما تقرر ان يكون بحثي الرابع بين جميع البحوث وان ألقيه في اليوم الاول بقاعة ربشيلو وبعد عرضه والمناقشة فيه قررت اللجنة الدائمة هذا القرار الذي يشرفني ويشرف مصر : « ان هذا البحث مستوفٍ لجميع الشروط العلمية ونظرياته مقبولة برمتها وفي ضوئه يتضح بالبرهان القاطع ان البحوث السابقة التي عالجت هذا الموضوع خاطئة ولا يركن اليها » . وسينشر البحث في الكتاب الرسمي للمؤتمر . ولهذه المناسبة أشكر لمعالي وزيرنا المفوض في باريس تهنئته الرقيقة وتشجيعه العظيم وكذلك مندوبي الصحف المصرية الذين بادروا باعلان هذه النتيجة لصحفهم في مصر وجميع الذين عاونوني في البحث بانكلترا ومصر من أساتذة وزملاء ونظار وطلاب فلهم الفضل كل الفضل في نجاحه

ولا يتسع المقام لذكر تاريخ هذا البحث والتجارب التي أجريت والطرائق التي اتبعت فسأضمن كل ذلك كتاباً بالانكليزية وآخر بالعربية ارجو ان تساعدني الوزارة بطبعهما على نفقتها

ولذلك أكتفي الآن بسرد النظريات والنتائج التي توصلت اليها : —

١ — أثبت بالبرهان القاطع وجود استعدادين طبيعيين موروثين مستقلين : أحدهما الاستعداد اللوني ويشمل كافة العمليات العقلية التي تتناول الالوان كالتعرف والتذكر والتصور والتقدير والمقارنة والحكم . والثاني الشكلي للاشكال وقد وضعت لهما رمزين خاصين

٢ — لكل استعداد عامل عام يتناول كل الالوان ومجموعتها او الاشكال على اختلاف أنواعها . وهذا العامل ليس له أي ارتباط بالذكاء العام . فسرعة تذكر الالوان او تمييزها مثلاً ليس دليلاً على الذكاء العام بأي حال من الاحوال كما افترض العلماء والفنانون السابقون حتى العالم الفرنسي بينيا واضع اول أساس لقياس الذكاء أخطأ لجعله تمييز الالوان الاربعة المشهورة مقياساً للذكاء في سن معينة عند الاطفال

٣ — ومع هذا فالاستعداد اللوني بدوره تتبعهُ ستة استعدادات خاصة مستقلة لكل لون من الالوان الرئيسية . فيكون الانسان قويًّا في تمييز الالوان الحمراء وضعيفاً في الزرقاء . كذلك

أربعة عوامل أخرى خاصة بدرجات الالوان

٤ — وفي الاشكال كشفت خمسة عوامل مستقلة خاصة للاشكال المنتظمة وغير المنتظمة وذات الخطوط المستقيمة وذات الخطوط المنحنية والاشكال المؤلفة من الاثنين ووضعت لها هذه الرموز

٥ — التمرين على الالوان في التربية الفنية لا ينتقل اثره الى الاشكال واكثر من هذا ان التحسن في مجموعة ألوان لا ينتج تحسناً في مجموعة اخرى ولا التمرين على رسم الاشكال المنتظمة يفيد في رسم الاشكال غير المنتظمة

٦ — الاستعدادات اللونية لا تظهر في الطفل دفعة واحدة وانما لكل منها سن خاصة ينمو فيها ويظهر على أتمه والبنات على العموم اقدر من الاولاد ويصلن الى سن النضوج اللوني قبل الاولاد بسنين طويلة

٧ — لكل من الجنسين ألوان خاصة يكون استعداده فيها قوياً عن الجنس الآخر وغير ذلك من النتائج الفرعية . وسيكون لتطبيق هذه النظريات أثر عظيم لا في علم النفس فحسب وانما في التربية الفنية وتشخيص الامراض العصبية وتحليل انواع الشخصية

ويكفيني فخراً وتشجيعاً ان العلماء في اوربا قد اعترفوا بهذه النظريات من سنة ١٩٣١ وأقروها في بحوثهم ومؤلفاتهم واتخذوها اساساً لبحوثهم الجديدة منذ اطلاعهم على النسخ القليلة التي طبعتها بانجلترا سنة ١٩٢٩ وان كان اثر هذا لم يصل لمصر بعد

فهذا الاستاذ الباش يقول في مجلة علم النفس الالمانية سنة ١٩٣٤ ان هذه النتائج تثبت ان البحوث السابقة للعلماء (كاتز ريفز . فولسكلت . كوبنبرج) كلها خاطئة في طريقة البحث وان أساس تحليل الشخصية الذي وضعهُ (جانيش وكريتشمر) يجب تعديله في ضوئها. وقال الدكتور (اويسر) استاذ علم النفس العملي بكامبردج في مجلة علم النفس البريطانية سنة ١٩٣١ وسنة ١٩٣٤ وفي مقالة في مجلة (بسيكي) بالنص : «ان هذه النظريات التي قدمها سعيد في بحثه القيم هي أصلح اساس لتحليل الشخصية الى نوعيها المنكمش والممتد وانها أصل من طريقة نيمان وكوهلشتث . وقد أقرّ الرموز التي وضعتها والتجارب التي قمت بها فاستعملها وأعادها ووسعها فوصل الى نفس النتائج . وأوصت مدرسة (فورتمبرج) بتعميم استعمال هذه المقاييس على مقياس جمعي واسع وخصوصاً من الناحية الاجتماعية

وأقر الدكتور (زنجويل) الاستاذ بكامبردج النتائج التي وصلت اليها والعوامل التي كشفتها . وذكرها في كتابه «التذكر والتعرف» وقدم للمؤتمر بحثاً جديداً مبنيًّا عليها . ورأى الدكتور (مايرز) رئيس معهد علم النفس الصناعي البريطاني ان تعمم الطريقة التي ابتكرتها لتمرين ذاكرة الالوان والاشكال على جميع مدارس الفنون . وسيقوم المعهد (وأنا من اعضائه) بطبعها

ويسرني بعد كل هذا أني استطعت ان أقدم لبلادي شيئاً يشرفها وموعدنا مؤتمر فينا سنة ١٩٤١ للبحث الآخر باذن الله

اعلام الطب العربي

ابن البيطار

لفؤاد عينتابي

برع العرب في مختلف فروع الثقافة والعلم ولاسيما في الطب والفلك وكانوا قدوة للعلماء والاطباء في اوربا فأخذ هؤلاء عنهم مدنية الشرق واليونان . وكان للعرب نصيب وافر في انشاء الحضارة الاسلامية وبعث النهضة الفكرية وعتق الفكر من قيود الماضي والنهوض به الى اسمى مراتب الثقافة والتفكير الحر. وممن كان لهم أثر حميد في هذه النهضة العلمية الطبيب العربي الماهر والعشاب المدقق ضياء الدين بن البيطار الذي ساح في اقطار عديدة باحثاً متنقلاً فصادف كثيراً من المشاق والصعاب في سبيل جمع النباتات النادرة الغريبة وترتيبها وتصنيفها ومعرفة فوائدها للاستفادة منها واستعمالها في الطب وهو من اشهر من خدموا المدنية الاسلامية من ارباب العلم والفن فلم يسبقهُ احد في علم النبات فكان اشهر المشابين وهو اللقب الذي كان يطلق على علماء النبات في تلك العصور الزاهرة (وكان ذكيا فطناً ثقة فيما ينقله وكان حجة واليه انتهت معرفة النبات وتحقيقه وصفاته واسمائه واماكنه لايجارى في ذلك)(١)

هو ضياء الدين ابو محمد عبدالله بن احمد المالقي النباتي المشهور ويعرف بابن البيطار . ولد في مدينة مالقة بالاندلس في اواخر القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ويرجع بنسبه على الاكثر الى اسرة ابن البيطار التي استوطنت مالقة . درس علم النبات وفنونه على اكابر علماء عصره وكان استاذه في علم النبات ابو العباس النباتي (٢) وجمع واياه نباتات كثيرة في ضواحي اشبيلية . ولما بلغ حوالي العشرين من عمره ورغب في زيادة الخبرة والمعرفة قصد الى شمالي افريقية ومراكش والجزائر وتونس فكان يبحث عن نباتات هذه البلاد ويعنى بجمعها ويدرسها ويختار النباتات والاعشاب ويحققها ويبحث عن مواضع نباتها ونعت اسمائها على اختلافها وتنوعها . ورحل الى بلاد الاغارقة واقصى بلاد الروم واجتمع بجماعة كثيرة من الذين يعانون هذا الفن واخذ عنهم معرفة نبات كثير وعاينهُ في مواضعه واجتمع في المغرب وغيره بكثير من الفضلاء في علم النبات وعاين منابته وتحقق ماهيته . وظل مدة طويلة في ايطاليا وبلاد اليونان فاجتمع بعلماء الافرنج وباحثهم في النباتات والاعشاب وقد راجع كتاب (ديسقوريدس) العالم

(١) فوات الوفيات ج ١ ص ٢٠٤ (٢) هو ابو العباس احمد بن محمد بن مفرج النباتي المعروف بابن الرومية وهو من اهل اشبيلية راجع ترجمته في طبقات الاطباء لابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ٨١

المعروف النباتي اليوناني وحقق اسماء النباتات وصحّح الاسماء العربية وبحثها بحثاً فنيًّا [٣]

ولما عاد من أسفاره رحل الى مصر وكان حينئذٍ ملكها الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب فأعزَّه وأكرم وفادتهُ ومثواه . وكان يعتمد عليهِ في المسائل الطبية والادوية المفردة والحشائش وجعله في الديار المصرية رئيساً على سائر العشابين وأصحاب البسطات . وهذا مما يدلنا على مكانتهِ الرفيعة في علم النبات وما حازه من ثقة وطيدة لدى الملك. ثم رافق الملك الكامل في رحلتهِ الى الديار الشامية وهناك التقى بابن ابي اصيبعة صاحب كتاب (عيون الانباء في طبقات الاطباء) فأدهشهُ وأعجب بهِ اعجاباً عظيماً . وهذا حديث ابن ابي اصيبعة عنهُ وعن مقابلتهِ لابن البيطار قال :

« أتقن (ابن البيطار) دراية كتاب ديسقوريدس اتقاناً بلغ فيهِ الى ان لا يكاد من يجاريهِ فيما هو فيهِ وذلك انني وجدت عنده من الذكاء والفطنة والدراية في النبات وفي نقل ما ذكره ديسقوريدس وجالينوس فيهِ ما يتعجب منهُ . وأول اجتماعي بهِ كان بدمشق في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ورأيت ايضاً من حسن عشرتهِ وكمال مروءتهِ وطيب اعراقهِ وجودة أخلاقهِ وكرم نفسهِ ما يفوق الوصف ويتعجب منهُ ولقد شاهدت معهُ في ظاهر دمشق كثيراً من النبات في مواضعهِ وقرأت عليهِ ايضاً تفسيره لاسماء أدوية كتاب ديسقوريدس فكنت أجد من غزارة علمهِ ودرايتهِ وفهمهِ شيئاً كثيراً جدًّا وكنت أحضر لدينا عدةً من الكتب المؤلفة في الادوية المفردة مثل كتاب ديسقوريدس وجالينوس والغافقي وامثالها من الكتب الجليلة في هذا الفن فكان يذكر أولاً ما قالهُ ديسقوريدس في كتابهِ باللفظ اليوناني على ما قد صححهُ في بلاد الروم ثم يذكر جملاً مما قالهُ ديسقوريدس من نعتهِ وصفتهِ وأفعالهِ ويذكر ايضاً ما قالهُ جالينوس فيهِ من نعتهِ ومزاجهِ وأفعالهِ وما يتعلق بذلك ويذكر ايضاً جملاً من أقوال المتأخرين وما اختلفوا فيهِ ومواضع الغلط والاشتباه الذي وقع لبعضهم في نعتهِ فكنت أراجع تلك الكتب معهُ ولا أجده يغادر شيئاً مما فيها وأعجب من ذلك ايضاً انهُ كان ما يذكر دواء الا ويعين في اي مقالة هو من كتاب ديسقوريدس وجالينوس وفي اي عدد هو من جملة الادوية المذكورة في تلك المقالة » [٤]

كان ابن أبي اصيبعة تلميذاً لابن البيطار وقد رافقهُ في رحلاتهِ وتتبعاتهِ النباتية في ضواحي دمشق . ولما توفي الملك الكامل بدمشق وتولى المُلك خلفهُ ابنهُ الملك الصالح نجم الدين ايوب ، عاد ابن البيطار الى مصر ودخل في خدمة الملك الجديد فأكرمه (وكان حظياً عنده متقدماً في أيامهِ) [٥]. وكانت وفاة ضياء الدين بن البيطار فجأة بدمشق في شهر شعبان سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨م)

﴿ مؤلفاته ﴾ لما خرج ابن البيطار في رحلتهِ العلمية يجول في أنحاء سوريا وآسيا الصغرى (بلاد الروم) باحثاً منقباً عن النباتات والاعشاب كان يقوم برحلتهِ هذه كطبيب نباتي فجمع

(٣) قاموس الاعلام ش . سامي م ١ ص ٦٠٩ (٤) طبقات الاطباء — ج ٢ ص ١٣٣
(٥) طبقات الاطباء ج ٢ ص (١٣٣)

كثيراً من النباتات والعقاقير وأتحف العالم بكتابه المشهور « الجامع في الادوية المفردة » (٦) الذي صنفهُ للملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل (٧) بعد رحلته الى مصر وبلاد اليونان وآسيا الصغرى (٨) . وهو كتاب فريد في بابه جليل الاثر عظيم الفائدة . وهو أهم ما كتب عن الادوية المفردة وهو عبارة عن معجم طبي او مجموعة مرتبة على الاحرف الهجائية، يشمل النبات والحيوان والمعادن وقد اعتمد في تأليفه على مؤلفي الروم والعرب وعلى تجاربه هو نفسه (٩) . (ووصف فيهِ اكثر من ١٤٠٠ دواء وعقار مما يستعمل في الطب وقابل ذلك مع تآليف ومصنفات أكثر من ١٥٠ من المؤلفين القدماء والعرب . والكتاب المذكور يتضمن ملاحظات دقيقة ويدل على براعة فائقة ومعرفة واسعة في هذا العلم . وهو اعظم كتاب عربي في علم النبات .) (١٠) (وقد استقصى فيهِ ذكر الادوية المفردة واسمها وتحريرها وقواها ومنافعها وبين الصحيح منها وما وقع الاشتباه فيه ، ولم يوجد في الادوية المفردة كتاب أجل ولا أجود منهُ (١١)) . وهذا ما يقوله عنهُ ابن سعيد (١٢) في كتابهِ المغرب (حشر فيهِ ما سمع بهِ فقدر عليه من تصانيف الادوية المفردة ككتاب الغافقي وكتاب الزهراوي وكتاب الشريف الادريسي الصقلي وغيرها وضبطهُ على حروف المعجم وهو النهاية في مقصده .) (١٣)

وقد ترجم (لوكلير) (١٤) هذا الكتاب الى اللغة الفرنسية وضمنه في المجموعة المسماة Notices & Extraits التي تولى نشرها مجمع المخطوطات والآداب . وكان غلان Galland قد ترجمهُ الى اللاتينية ولكنهُ لم يطبع ولا يزال محفوظاً في (المكتبة الوطنية) في باريس. وكانت مدارس الاندلس، كما يقول «لوكلير» تمتاز بصورة خاصة بدروس التاريخ الطبيعي ولا سيما يتعلق بالنباتات والعقاقير (١٥) . وله ايضاً (كتاب المغني في الادوية المفردة) — ويعرف بمفردات ابن البيطار — وهو بحث مختصر في الادوية ومرتب بحسب مداواة الاعضاء المريضة، ومؤلف بالنظر لاستعمالها في الطب . وقد طبعت بعض اجزاء مفردات ابن البيطار باللغة اللاتينية في سنة ١٧٥٨ في مدينة قرمونة Cremona بايطاليا (١٦) . ومن اشهر مؤلفاته — (كتاب الابانة والاعلام بما في المنهاج من الخلل والاوهام) و (شرح ادوية كتاب ديسقوريدس) و (كتاب الافعال الغريبة والخواص العجيبة)

(٦) طبع في سنة ١٢٩١ هـ تحت عنوان (الكتاب الجامع لمفردات الادوية والاغذية) (٧) ناموس الاعلام م ١ ص ٦١٠ (٨) نيكلسون — تاريخ العرب الادبي ص ٤٣٤ (٩) دائرة المعارف الاسلامية (النسخة الفرنسية) الكراس ٢٤ ص ٣٨٨ — ٣٨٩ (١٠) تراث الاسلام ص ٣٣٩ (١١) طبقات الاطباء م ٢ ص ١٣٣ (١٢) هو ابن سعيد المغربي — ابو الحسن نور الدين علي بن موسى (٦١٠ — ٦٨٥ هـ) من اعاظم أدباء الاندلس وشعرائها مؤلف (المغرب في حلى المغرب) و (المشرق في حلى المشرق) (١٣) راجع نفح الطيب م ٢ ص ٤٤ (١٤) Jean Leclerc بحاثة فرنسي — سويسري (١٦٥٧ — ١٧٣٦) وناشر المكتبة العمومية والتاريخية Bibliothèque universelle & historique في مدينة امستردام في ٢٥ مجلدا (١٦٨٦ — ١٦٩٣) (١٥) مفكرو الاسلام ج ٢ ص ٢٩١ Les Penseurs de l'Islam (١٦) تراث الاسلام ٣٥٣

الحلم الحالم

لحسن كامل الصيرفي

في ايّ اوديةِ الخيالِ . بأيّ افلاكِ الجلالِ

طوّفتِ يا حُلماً يطوفُ عليَّ في ساعِ ابتهالِ ؟

***

يا ليتَ للقلبِ المَشُوقِ جناحَ رُوحي او خيالي

لبسطتُ فوق جفونكِ السَّكْرَى وريفاً من ظلالي

ونَعِمْتُ بالطيفِ الجميلِ يَرُودُ أودية الجمالِ

لكنَّ لي أسْراً من الرَّغَباتِ فوّارَ النضالِ

أنا فيهِ مشدودُ الوثاقِ . فهل تمكّين اعتقالي ؟



الشيخ ابو علي بن سينا — ٣

مؤلفاته

بقلم منوشهر مؤدب زاده
صاحب جهره نما الايرانية

١ — مؤلفاته الفارسية

(ا) كتابه المسمى (دانشنامه أو حكمت علائي) وقد سمّاه بعضهم (دانش مايه) وظنه جزءاً من الكتاب المسمّى (حكمت علائي) والاصح أنهما اسمان لكتاب واحد والاختلاف الذي أوقع البعض في الخطأ هو من انتساب الكتاب الى علاء الدولة كاكويه المتقدم ذكره والاسم الذي سمّي به الكتاب . وقد أراد الشيخ بتأليف هذا الكتاب أن يجمل جميع الاجزاء والمباحث الفلسفية بالفارسية ولكنهُ لم يؤلف منهُ سوى قسم المنطق والالهيات والطبيعيات ويُعدّ هذا الكتاب من أحسن تآليفه ولا يختلف كثيراً عن كتاب النجاة المؤلف بالعربية . وكان أهم ما يومىء اليهِ الشيخ في هذا الكتاب محاولة جعل المصطلحات الفلسفية العربية بالفارسية وبذلك أصبح الكتاب أحد المنابع العلمية اللغوية ولاحد تلامذة الشيخ المسمّى (بهمنيار) شرح على هذا الكتاب وقد ضمّنهُ الاعتراضات التي كانوا اوردوها على استاذه وقد أجاب هو عليها وسمّى كتابه هذا « بالتحصيل » . ولدانشنامه انسجام وفصاحة معجبة بالقياس الى الفارسية المستعملة في ذلك العصر وأضف الى سلاسة البيان انهُ أول كتاب في الفلسفة كتب باللغة الفارسية ولكن اذا قسنا هذا الكتاب بالكتب الفارسية الاخرى التي كتبت بالفارسية بعد ذلك ككتب افضل الدين القاشاني مثلاً وجدناه يقلُّ عنها في الانسجام والسبك

وقد ألف الشيخ كتابه هذا لعلاء الدولة بن كاكويه وقد اثنى في المقدمة على حسن اصطناعه اياه واشفاقه عليهِ وشكره لهُ ما اولاه إياه وقال في حقه : (اني وجدت كل آمالي عنده). وقد ظنَّ بعض الناس ان كتاب « دانشنامه » هو آخر كتاب ألّفهُ الشيخ لانهُ لم يمكّن من إتمام تأليفه فاتمهُ أبو عبيد الجوزجاني وكتب مبحث الرياضيات منهُ وليس هذا بالدليل القاطع اذ يمكن ان يشغل المؤلف مشاغل عن اتمام ما يؤلفهُ ويعوقهُ ردحاً من الزمن وفضلاً عن هذا فان هذا القول

يخالف ما قاله المؤرخون حيث انهم اتفقوا على ان آخر تأليف للشيخ هو كتاب الاشارات

(ب) الرسالة المسماة بالمعراجية وقد ألف الشيخ هذه الرسالة لابي جعفر بن كاكويه وهي تشتمل على تأويل للاصطلاحات الشرعية وتفسيرها ومعنى ما ورد منها كروح القدس والوحي وكلام الله والنبوة والرسالة والشريعة . وبعد ذكره القوى الانسانية في المقدمة وبيانه أن وجهة الحركة تجب ان تكون متناسبة مع المتحرك والحركة يبرهن في النتيجة على ان المراد بالمعراج هو معراج الروح وبالعلو علو شرفي ويؤوّل مسألة المعراج على طريقة الحكماء . والظاهر ان جلال الدين الرومي قد استفاد من هذه الرسالة حيث يقول بالفارسية :

گفت پيغمبر كه معراج مرا نيست بر معراج يونس اجتبا
آن ما والاوآن او بشيب زانكه قرب حق برون است از حسيب
نى چو معراج زمينى تا سما بل چو معراج جنيني تا نهى

والمعنى : قال النبي ليس لمعراجي فضل على معراج يونس (النبي) عرجتُ الى فوق وعرج الى تحت لان قرب الله خارج عمّا تصوره . ليس هذا كالعروج من الارض الى السماء بل هو كعروج الجنين الى النهى والعقل . وقد أوصى الشيخ في مقدمة هذا الكتاب أن لا يوحوا بهذه الرموز والاسرار لأحد . وهو يقول « لم أكن من هذه الافكار قبل اتصالي بمجلس علاء الدولة في شيء خوفاً على نفسي واحترازاً من الخطر »

(ج) رسالة النبوة وهي رسالة صغيرة في معنى النبوة والوحي والالهام وتأويلها وهي بالفارسية وأكثرها يطابق مقدمات رسالته المعراجية ولا تختلف عباراتها عن ذلك اختلافاً كليًّا

(د) الرسالة النبضية وقد ألفها لعضد الدين علاء الدولة كاكويه وقد بيَّن فيها أنواع النبض وشرح أقسامه

الكتب العربية [1]

(ا) كتاب الشفاء — وهو كتاب كبير يشتمل على جميع علوم الفلسفة من المنطق والرياضيات والطبيعيات والالهيات ويعدُّ من أهم التآليف الاسلامية وقد شرع أبو علي بتأليفه كما يقول أبو عبيد في همذان وكان ذلك اجابةً لرجاء ابي عبيد فكتب الشيخ ٢٠ صحيفة في مبحث الطبيعيات ثم شغلتهُ الامور الديوانية والحوادث عن إتمام تأليفه . ولما اعتزل وزارة شمس الدولة عاد على بدء وألَّف كتاب الالهيات والطبيعيات سوى النبات والحيوان في ٢٠ يوماً ولم يراجع

(١) ولا عجب اذا خلف لنا أبو علي وهو من أعاظم علماء ايران وأكابرهم كتباً كثيرة وآثاراً خالدة بالعربية لان البحث والدرس يكشفان لنا أن غيره من علماء الأمة الايرانية أيضا قد ألفوا وصنفوا كتبا ورسائل في جميع الفنون والعلوم بالعربية وقد خدموا هذه اللغة أية خدمة وأبقوا لها أي أثر فقد قلدتها آثارهم بقلائد لا تثمن وأنفت لها عزاً ومجداً لا ينفدان مدى الدهر

أي كتاب . ثم شرع في تأليف منطق الشفاء ولكن طالت مدة تأليفه ولم يفرغ منهُ الا في إصفهان وكذلك أتم بحث النبات والحيوان في تلك المدينة

وبزعم أبو عبيد ان عمر الشيخ كان في ذلك الوقت ٤٠ عاماً وليس هذا بصحيح لانهُ كما قدمنا قال كان عمر أبي علي في سنة ٤٠٤ هجرية ٣٢ سنة فإن صحَّ ما يقول وجب ان يكون الفراغ من تأليف الكتاب سنة ٤١٢ اي ان يكون الشيخ في هذا التأريخ في مدينة إصفهان ولكن لا شك انهُ كان عند ذاك في همذان وكان سفره الى اصفهان بعد هذا التاريخ فلا يصح والحالة هذه ان نجعل سنة ٤١٢ السنة التي أتمَّ فيها الشيخ كتابه . وكان الشيخ قد اختصر الفنون الرياضية قبل تأليفه للشفاء ثم ألحقها بعد تأليفه بهِ . وكان المقصود من تأليفه هو تقرير آراء الفلاسفة المشائين وتفسير معتقدهم ولذلك نراه قد اقتصر على الاخذ بترجمة كتب أرسطاطاليس وكتبها في كتاب الشفاء بعد ان هذَّبها ونقحها وأصلحها الى حدٍّ ما ولكنهُ مع ذلك لم يغفل عن تدوين آرائه وتجاربه في المنطق والطبيعيات وكذلك دوَّن قسم الموسيقى من الشفاء طبقاً لآرائهِ التي حصل عليها بعد فحص دقيق وتجارب صرف فيها ردحاً من الزمن

وكان أبو علي يؤلف شرحاً على الشفاء سمَّاه باللواحق وكان يؤرخ ما يؤلفهُ في كل سنة والظاهر انهُ أكبر مؤلف له شرح فيهِ الآراء والاقوال الفلسفية وأطنب في هذا الشرح ولم يثبت انهُ فرغ من اتمامه ونعلم حقًّا ان واحداً من العلماء لم يرَ هذا الكتاب ولا نقل عنه

ويظهر من مقدمته على منطق الشفاء ان الغرض من تأليف الكتاب هو جمع خلاصة من أصول علوم الاقدمين وذكر ما أورد على كل من هذه الاصول وايضاح ما أشكل منها وان يدوَّن الفروع واصولها مع الايجاز في الالفاظ وعدم تكرار المطالب وان يدوِّن ما صحَّ بطلانه من آراء المتقدمين وعقائدهم

والظاهر مما يقوله أبو علي ان كتابه هذا قد حوى كل ما هو مدوَّن في كتب الاقدمين غير انهُ قد غيَّر مواضع الاقوال وجعل كلاً منها في المحل الذي يراه يليق بهِ . وقد حذف مطالب فلسفية كان الاقدمون يدوّنونها في المبادىء المنطقية وقال انهُ دوَّن المنطق أولاً ثم الطبيعيات ثم الرياضيات ثم شرع في تدوين علم الالـهيات بعد ذلك. ولكن أبا عبيد — كما أشرنا سالفاً — يقول أن الشيخ ابتدأ بتأليف الطبيعيات واذا صحَّ ما قال ابو عبيد يجب ان نحمل قول الشيخ على التدوين لا الجمع والتأليف فاذا حملناه على هذا لم يكن بينه وبين أبي عبيد اختلاف في القول

وقد وضع المتأخرون شروحاً على الهيات الشفاء ومنها حاشية آقا حسين الخونساري وملا (الشيخ) أولياء وملاَّ سليمان وتعليقات صدر الدين الشيرازي والاخيرة من أهم الحواشي على الـهيات الشفاء .ولا نعرف حاشية للمتأخرين على طبيعيات الشفاء اللهم الا حاشية وجيزة وضعها آقا جمال

الخونساري على القسم الاول منهُ أي على كتاب السماع الطبيعي ولم يشرح باقي الكتاب ولم يوضح ذلك وليس لهُ حاشية . والظاهر ان السبب في ذلك هو عدم اهتمامهم بعلم النباتات والحيوان والعلوم الطبيعية كلية

وكتاب طبيعيات الشفاء هو المصدر الوحيد للعلماء الطبيعيين في الاسلام وربما لم نتجاوز الحقيقة اذا قلنا انهم لم يزيدوا عليهِ شيئاً ولم تتعدَّ مباحثهم وتحقيقاتهم كتاب السماع الطبيعي ولم يضيفوا الى كائنات الجو والسماء والعالم والنبات والحيوان اي شيء بل اسقطوها من كتبهم

ولم تشتهر وتظهر الهيات الشفاء كما ظهرت طبيعياته ومنطقه ولم يكن لها ذلك النفوذ وذلك لظهور الفلسفة الاشراقية والحكمة المتعالية . وكتاب منطق الشفاء أسهب منطق اسلامي وقد أقبل عليهِ الفلاسفة واعتمدوا عليهِ ولم يشرح مباحث الصناعات الخمس ولم يستوف البحث فيها كتابٌ مثله . وقد اقتبس المتأخرون مطالبهم من هذا الكتاب أو ترجموها عنهُ وكذلك مباحثه الاخرى فان المتأخرين وان كانوا قد أطنبوا في شرح مباحث القضايا والكليات الخمس وتجاوزوا الحد ولكنهم مع ذلك لم يصلوا الى ما وصل اليهِ هذا الكتاب ولم يبلغوا الدرس ولا الغاية فان كل ما قالوه لا يتجاوز حواشي وتفاصيل وضعت على جوانب المطلب والاصل . وقد استفاد الخواجه نصير الدين الطوسي من كتاب منطق الشفاء في كتابهِ المسمى بأساس الاقتباس الذي ألفهُ بالفارسية بل يمكن ان يقال عنهُ انهُ ترجمة لكتاب الشفاء

(ب) كتاب النجاة — كتاب متوسط صغير الحجم يشتمل على مباحث في المنطق والطبيعيات والالهيات وأهم مباحثهِ في تقريره عقائد المشائين وآرائهم على وجه الاختصار ولما لم يكن بينهُ وبين كتب أبي علي الاخرى خصوصاً الشفاء فرق يذكر فقد ظنَّ بعض المعاصرين ان كتاب النجاة مختصر لكتاب الشفاء وتبعهم على هذا جمٌّ من المعاصرين ولكن الامر على غير ما ظنوا فان تأليف منطق النجاة متقدم على تأليف كتاب الشفاء لان أبا علي ألفهُ في جرجان وسماه بالمختصر الاوسط وكذلك سائر مباحثه فانها لا تتفق مع الشفاء من حيث الترتيب

وقد كان يحتوي كتاب النجاة على قسم آخر في تقرير أصول العلم الرياضي ولكنهُ فقد وضاع . وأما منطق النجاة فهو على جانبٍ عظيم من حسن العبارة وسلاستها وسهولة بيانها ولذلك يعدُّ من معجزات ابي علي

(ج) كتاب الاشارات والتنبيهات — وهو كتاب صغير في فن المنطق والعلم الطبيعي والالهي ويظهر انه آخر تأليف لابن سينا وهو يحتوي على خلاصة آرائه ومعتقداته وقد اوصى في آخر الكتاب بأن لا يراه ويطلع عليهِ إلاَّ من كان اهلاً وقد تجلت في هذا الكتاب روح ابي علي العرفانية وقد تكلم في آخر كتاب الالهيات عن المقامات والدرجات العرفانية وتمتاز جمله

وعباراته عن سائر كتب ابي علي لان الشيخ قد ألبسها صبغة ادبية لم يراعها في سائر تآليفه. وترى الانفة تتجلى من خلال عباراتها (فكأن الشيخ قد خلع عليها ثوباً من كبريائه وانانيته) وقد استخفّ ابو علي في كتابه هذا ببعض رؤساء المشائين واحتقرهم ولاجل صعوبة مطالبه واندماجها ولانهُ تآليف اظهرته قريحة هذا الرجل النابغة العظيم فقد أقبل عليه العلماء والفضلاء والفلاسفة من المتأخرين وصار مطمح انظارهم فوضعوا عليه شروحاً كثيرة بالفارسية والعربية وترجموه الى الفارسية ايضاً. ومن الذين شرحوه بالفارسية الامام شهاب الدين السهروردي وتوجد الآن ترجمة فارسية لكتاب الاشارات تنسب الى الانوري (الشاعر الفارسي الذي عاش معاصراً للسلطان سنجر السلجوقي المتوفى سنة ٥٨٣) ولكن لم يحصل ما يثبت ذلك الى الآن. ومن الذين شرحوا الاشارات بالعربية الامام فخر الدين الرازي وقد عارض آراء أبي علي وعنده انهُ ردٌّ على اكثرها. وشرح الخواجه نصير الدين الاشارات وكان متحزباً لابي علي ومشايعاً لهُ فردٌّ اكثر آراء الامام الرازي وقد أجاد في النقد والرد وقام بهذه المهمة خير قيام. ثم بذل كل وسعهِ في تقرير آراء ابي علي وبيان عقائده ولم يشكل عليهِ شيء منها ولم يعترض على أية مسألة من مسائله الاَّ في مسألة العلم حيث يقول: « ولما وصل بي البحث الى هنا لم أتمالك من المخالفة » وشرح نصير الدين على الاشارات أشهر من شرح الامام الرازي وقد عرفهُ طالبو العلم وأخذوا في دراسته

(د) كتاب الحكمة المشرقية او حكمة المشرقيين — هذا الكتاب الذي ورد ذكره في كتب ابي علي كان يشتمل على نخبة آراء أبي علي ومعتقداته الشخصية وقد فقد على ما يظهر ولم يبق منه سوى مباحث في المنطق قد طبعت. وكان مراد ابي علي من تأليفه هذا الكتاب ان يدون المطالب الفلسفية حالة كونهِ خلواً من كل تعصب وتحيز لارسطاطاليس واتباعه. ومع ان الشيخ بعد الفراغ من كتاب الشفاء ورواية كلام ارسطاطاليس وما ترجاه من الناس حيث يقول « من أمكنهُ ان يضيف أصلاً على المنطق فليضفهُ ولا يتوقف عن إلحاقه بهذا الفن » أطنب في مدح أرسطاطاليس وغالى في التحزب له اذ قال: «ولم يضف أحد حرفاً واحداً الى اصول ارسطاطاليس ولم يتمكن من رد قواعده». ثم نراه يعترف في كتابه هذا باضافات الى المنطق ويصرح برأيه في اول الكتاب

يختلف كتاب منطق المشرقيين الذي هو في متناولنا اليوم اختلافاً عظيماً عن كتب ابي علي الاخرى ويتجلى هذا الفرق بصورة عظيمة في مباحث القضايا حيث اظهر الشيخ فيها آراءه وحقق فيها أدق تحقيق وكذلك نراه قد اسهب في مباحث الحد والتعريف وذكر قضايا هي اقرب الى الحقيقة وأكثر تشابهاً لمطالب هذا العصر وهي لا توجد في اي كتاب من كتب المنطق

(ه) كتاب القانون — وهو اعظم كتاب في الطب الاسلامي ويشتمل على خمسة اقسام :

القسم الاول في كليات الطب والصحة وقسم من علم التشريح والعلامات الكلية للامراض . والقسم الثاني يبحث في تركيب الادوية ويسمَّى بأقراباذين . والقسم الثالث يختص بالامراض التي يمكن ان يصاب بها جميع الاعضاء . والقسم الرابع في امراض تخص كل عضو بنفسه . والقسم الخامس في مفردات الادوية . وقد حصل الشيخ على تجارب كتبها في مذكراته ولكن — كما ذكرنا سالفاً — وقد ضاع اكثر هذه التجارب ولو بقيت لاستفاد منها الطب . ويمتاز كتاب القانون من الوجهة العلمية على سائر كتب الطب بأن ابا علي يحاول فيه ان يؤدي الالفاظ الطبيعية بالطرق المنطقية ويجعل التقاسيم منقطية ايضاً ولذلك صار كتاب القانون من الكتب المشكلة فأقبل عليه العلماء والفضلاء يتفهمونهُ ويشرحون ما اشكل منهُ وهكذا أُلفوا للقانون شروحاً كثيرة . ولم يجد كل العلماء والفضلاء انفسهم اهلاً لتدريس القانون فلم يترشحوا لقراءته عليهم ولم يحضر طالبو العلم على كل احد ايضاً . ومع هذا كله فان اكثر مدرسيه لم يمكنهم تدريس كل القانون على الاكثر . وممن درس القانون قطب الدين الشيرازي فقد حضره جملة من الاساتذة ومع ذلك كله لم يتمكن من فهم مطالبه كلها وايضاح ما أشكل منها فقصد نصير الدين الطوسي ولكنهُ على ما يقول لم يكن للطوسي تلك القدرة على تدريس القانون لانهُ لم يحترف الطب ولم يعالج صناعته . واخيراً سافر قطب الدين هذا الى مصر وزار هناك احد الاطباء المصريين وكان رجلاً فاضلاً عالماً بالطب وحصل ايضاً على شروح للقانون وبعد هذا كله تمكن من فهم مطالب هذا الكتاب وحل ما اشكل عليه من المسائل العويصة

وبعد هذا الجهد والنصب العظيم وضع على كليات القانون شرحاً هو أهم واعظم شرح لهذا الكتاب . وكتب غيره للكتاب شروحاً مفصلة ومنها شرح ابن قف المسيحي وشرح مُلاَّ علي الجيلاني وأول من شرحهُ الايلاقي ثم الامام الرازي . ونرى ان اصول القانون لا تختلف كثيراً عن اصول المطالب في كتاب كامل الصناعة . والظاهر ان اباعلي كان يستفيد من كامل الصناعة حينما كان يؤلف كتاب القانون

(و) كتاب التعليقات — وهو كتاب يطابق اسمه مسماهُ فانه يحتوي على جميع المطالب الفلسفية وقد كتبها الشيخ تعليقاً

(ز) كتاب المبدأ والمعاد — كتبه لابي احمد محمد بن ابراهيم الفارسي وهو يشتمل على ثمرة علمين (علم ما بعد الطبيعة وعلم ما في الطبيعة) وكان غرضه من تأليف هذا الكتاب كما يقول ان يكشف الغطاء عما أخفاه المشاؤون ويوضح ما اشكل منه ويسهب فيما اوجزوا . والكتاب يحتوي على المباحث الطبيعية والالهيات كلها ولكن بصورة مختصرة . ويمتاز هذا الكتاب بحسن

التعبير الذي قلما يوجد مثله في اكثر تآليف الشيخ . وقد الف الشيخ لابي الحسين السهلي كتاباً آخر سماه بهذا الاسم غير أنا لم نعثر عليه حتى الآن

(ح) رسالة الفيض الالهي — وموضوع هذه الرسالة التحقيق في مبدإ الوحي والاعجاز والسحر وأنواعه الاخرى . وقد ميز في هذه الرسالة بين الوحي والاعجاز والسحر . وقد ذكر نبذة من تأثير الروح بأرواح اخرى وأجسام خارجة عنها . ويعتقد ان الانسان بعد تقوية كمال الروح والارادة يمكنهُ ان يكون منبعاً لتأثيرات خارجية كثيرة

(ط) رسالة سلامان وابسال — وقد أشار اليها في كتاب الاشارات . وقد روى نصير الدين حكايتها بطرق كثيرة ونظمها الجامي (الشاعر الفارسي الذي عاش في القرن التاسع وتوفي سنة ٨٩٨)

(ي) رسالة الطير — وهي تبحث في كمال النفس وعود الارواح الجزئية الى النفس الكلية وقد استفاد منها العطَّار في رسالة سمّاها (منطق الطير) — والعطار شاعر فارسي عاش في القرن السادس وقتلهُ التتر في اوائل القرن السابع

(يا) رسالة حي بن يقظان — وقد قرأه بعضهم بالطاء المهملة (يقطان) ويظهر لنا ان كلمة يقظان (بالظاء) المعجمة هي الاصح

(يب) كتاب عيون الحكمة — وقد شرحهُ الامام الفخر الرازي ويظهر لنا ان الانوري الشاعر — وقد مرَّ ذكره — يقول فيه : —

« كتابي است مثمن بخط من خادم چو أشك وچهرهٔ من جلدش أز درون وبرون »
« سه گونه در او كرده بو على تقرير . . . . »

والمعنى : كتابة مثمنة كتبها العبد ودفتاها من الظاهر والباطن كدمعي ووجنتي وقد ألف فيها أبو علي ثلاثة من العلوم

وقد نسبوا الى الشيخ أبي علي أشعاراً فارسية وعربية والظاهر أن بعضها منحول . وله القصيدة العينية في النفس التي مطلعها

هبطت اليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزُّز وتمنُّعِ [1]

وقد ألَّف أبو علي كتاباً في اللغة ولكنهُ لم يصل الينا وقد ضاع قبل الاستنساخ . وكانت له رسائل بالفارسية والعربية ولا يزال بعضها باقياً . وله غير ذلك كتب كثيرة أعرضنا عن ذكرها خوف الإطالة . آ.

(١) راجع في صفحة ٣١٦ من هذا العدد من المقتطف رأي جبران خليل جبران في هذه القصيدة

حيوانات مشهورة

وصحة اسمائها

للفريق الدكتور امين المعلوف

الصقور والبزاة — Falcons & Hawks

الصقر كل طائر يصيد ما خلا النسر والعقاب وهو يشمل البازي والباشق والبيدق والزرّق والیؤیؤ والحر والشرق والشاهين والموسق والزمّج وغيرها . والصقر عند البزادرة من اهل الشرق كالعرب والفرس والهنود كما هي عند الافرنج اي صقور وبزاة فالصقور على الغالب سود العيون محددة الرؤوس طوال الاجنحة قصار الارجل والبزاة على الغالب صفر العيون مدورة الرؤوس قصار الاجنحة طوال الارجل . وفي ما يلي بعض ما يعلم من الصقور وما لا يعلم منها

باز . جنس من الجوارح يصاد بهِ — Accipiter. Hawk

باز وبازيّ . (ابن سينا والدميري عن سافيني ٢٣ : ٢٦٩) — A. gentilis. or Astur palumbarius, Goshawk

لُـويحق وابو لاحق (عرب الشام عن سافيني) صقر باز (الاسكندرية عن سافيني) شاه باز (الف ليلة وليلة لبرتن ٢ : ١٦٠) وقد حذفت الزمّج لانهُ ليس بهِ

باز اشهب — A. albidus. White goshawk

باشـق — A. nisus. Sparrow hawk

(الدميري وهو كذلك في مصر والشام : سافيني) بَيْدق (الدميري عن سافيني) ولعل البيدق هو النوع الآتي ذكره ولم يكن معروفاً بهذا الاسم في عهد سافيني . ومن اسماء الباشق الطوطو والعلاّم

بَيْدق او عفصيّ وهذا عن الاب انستاس — A. badius brevipes

زُرّق . كوهي (فارسية) — Elanus caeruleus. Black-winged kite

صقر ابيض في مصر . طائر يصاد بهِ في حجم الباشق او اكبر قليلاً أسود الظهر ابيض البطن أحمر العينين اصفر الرجلين عدَّهُ الدميري صنفاً من البزاة لانهُ اصفر العينين او أحمرها ومنهُ قول أبو نواس من ابيات اوردها الدميري

كأنَّ عينيه لحسن الحدقة — نرجسة نابتة في ورقة

وقال صاحب كتاب انس الملا ان الزُرَّق ذكر البازي في كل جنس من اجناسه وان الكوهية خطأ وصوابه كوهي . ولم أعثر على الكوهي ولا الكوهية في كتب اللغة ولعلَّ اللفظة فارسية بمعنى الجبلي

أما تسمية هذا الطائر بالزُرَّق والكوهي فمن سافيني قال هو الكوهية عند أهل المنزلة ودمياط وفارسكور والزُرَّق عند بعض مؤلفي العرب (٣٧٦:٢٣) . وهو الزُرَّق عند هوغلن ودرسر . وصقر ابيض عند غرني

صقر Falco. True falcon

جنس من الجوارح مجدول البدن مستدير المنخرين طويل الجناحين والذنب عاري الساقين حاد المخالب قصير المنسر معقفه لهُ سن في كل من شدقيهِ

يُؤيؤ . جلم . أبو رياح F. aesalon aesalon. Merlin

صقر جميل هو أصغر الصقور في الشرق يفرخ في أواسط آسية ويشتو في العراق والشام ومصر اسمهُ عند عامة المصريين الجرادية وصقر الجراد

واليؤيؤ في حياة الحيوان « طائر كنيتهُ ابو رياح وهو الجلم من جوارح الطير يشبه الباشق » وفي باب الصقر « اليؤيؤ ويسميهِ أهل الشام الجلم لخفة جناحيهِ وسرعتهما ولان الجلم هو الذي يجز بهِ وهو المقص . وهو طائر صغير قصير الذنب قال الناشىء في وصفه

ويؤيؤ مهذب رشيقِ كأنَّ عينيهِ لدى التحقيقِ

فصان مخروطان من عقيق

وقد عوَّلت في تحقيق هذا الطائر على ماذكره سافيني ودرسر وهوغلن (المؤلف في المقتطف ٣٥: ١٠٧٣)

حُرّ F. biamarcus langypterus. Lanner

طائر من الجوارح أصغر من الشرق والشاهين أصقع اي في رأسهِ بياض أسفع الظهر أغبر البطن رجحت في المقتطف ٣٥ : ١٠٧٢ ان الحر هذا الطائر واللفظة شائعة في العراق والشام ومصر . يطلقها بعضهم على الشرق ويسمونهُ الصقر الحر والبعض الآخر على هذا الطائر كما في معجم دوزي وحيوانات فلسطين لترسترام

شرق . صقر F. cherrug cherrug or F. sacc . Saker falcon

صقر الغزال (مصر) . وهو المشهور بالصقر في المؤلفات العربية والبلاد العربية ولما كان الصقر يشمل الصقور الاخرى قدمت لفظة الشرق وهي فصيحة وواردة في اللغة وهو الاسم النوعي الذي سماه بهِ غراي سنة ١٨٣٣ واللفظة شائعة في الهند وفارس (درسر وكتاب التاريخ الطبيعي الملوكي) وقدقدَّم مؤلف طيور مصر الاسم الاول الذي ذكرتهُ الآن على الاسم الثاني مع ان الثاني وهو الذي وضعهُ غملن أقدم من الاول الذي وضعهُ غراي لذلك قدمت الشرق على الصقر لكي

لا يقع التباس . وقد ذكرت الصقر في المقتطف ٣٥ : ٩٦٧ ولم أذكر الشرق وهو الطائر الذي كان عند السيد محمد النقيب في باب الشيخ فذكرته هذه المرة وكلاهما فصيح كما تقدم ووارد في اللغة

صقر بريم — F. concolor. The sooty falcon

مترجمة وهو صقر أسود يسمونهُ صقر الغروب في مصر لانهُ يخرج عند الغروب

شاهين الهند — F. peregrinator. Shahin or Royal falcon

شاهين — F. peregrinus peregrinus. Peregrine falcon

شاهين العراق او يوصّى — F. peregrinus babylonicus. Babylonian peregrine falcon

شاهين سيبيرية — F. peregrinus calibus. Siberian peregrine falcon

شاهين المغرب — F. P. peregrinoides. Barbary falcon

طائر من الجوارح بين الصقر والحرّ طويل الجناحين لون رأسه وذنبه اسود ضارب الى الزرقة اما صدره فأبيض ضارب الى التوشيم

ويصعب معرفة الشاهين من وصفهِ في الدميري والقزويني وكتب اللغة واحسن وصف لهُ وجدتهُ في كتاب أنس الملا للسيد محمد المنكلي قال الشاهين قصير الساقين قصير الفخذين . . . . واذا كان فرخاً تكون خطوط صدره عريضة كبيرة قصير الرقبة بغلظ عريض الهامة غائر العينين محدب الظهر قصير الذنب . . . اخضر الكفين طويل الاصابع زائد سواد الخدين طويل الجناحين وهي صفة الطائر المسمى F. peregrinus عند علماء الحيوان وهو يختلف باختلاف البلاد

وقال سافيني في الكلام على طيور مصر والشام في وصف مصر مجلد ٢٣ ان الشاهين في المؤلفات العربية هو هذا الطائر وذكر ان فورسكال سماه الشاهين ايضاً . وهو الشاهين في كتاب طيور شمال افريقية الشرقي لفون هوغلن وهؤلاء الثلاثة ثقات يعول عليهم . وقد سألت جماعة من المصريين لقيتهم في حديقة الجيزة (في تاريخ كتابة ذلك للمقتطف اي في خريف سنة ١٩٠٩) عن الشاهين نأروني هذا الطائر وقالوا انهُ يسمى عندهم صقر شاهين فالصقر عند المصريين كل طائر يصيد ما خلا النسر والعقاب اي كما هو في كتب اللغة ويميزون الصقور بعضها عن بعض بقولهم صقر باز وصقر شاهين وصقر الجراد وصقر الغزال الخ وهذا الاخير هو المعروف بالصقر عند بزادرة العرب والافرنج كما مرَّ

أما الشاهين في الهند فهو الطائر الذي سميتهُ شاهين الهند ويظهر ان الشاهين هو هذا الطائر اي كما سماه بزادرة الفرس ثم اطلق العرب اسم الشاهين على الصقور الاخرى القريبة منهُ . ذكر ان اسمهُ الشاهين في الهند جماعة من الثقات منهم السر رتشارد برتن في الف ليلة وليلة ٢ : ١٦ وصاحب كتاب التاريخ الطبيعي الانكليزي في وصف الصقور وغيرها

عاسوق وعوسق — F. tinnunculus. Kestrel or windhover

عويسق وعُوَيسقة F. naumanni. Lesser Kestrel

طائر في حجم الباشق احمر اللون منقط بسواد يسمى في مصر صقر بلدي وصقر الجراد وابو سرقة . ولم يرد ذكر الوسق والعاسوق والعويسق في كتب اللغة ولا في معجم دوزي بل ذكر العوسق الامير أسامة بن منقذ في كتاب الاعتبار صفحة ١٦٢ ولم يصفهُ بل قال انهُ من الجوارح وذكر العاسوق الدكتور بوست في كتاب نظام الحلقات ٢ : ١٦ وذكر العويسقة داود الانطاكي في الباب الرابع فصل البزدرة قال « الباشق وهو أخف الطير وأسرعها نهوضاً والانثى منهُ تسمى الفويسقة او هي صغاره » كذا وردت بالفاء في النسخة المطبوعة التي وقفت عليها وهي مطبوعة طبعاً سقيماً جدًّا وصوابها العويسقة كما هي في نسخةمخطوطة في دار الكتب الملكية في القاهرة . والعويسق يعرف في جبل لبنان بهذا الاسم وقد اريت هذا الطائر الى صديق يعرفهُ فقال هو بعينهِ . وعلى كل فقد اطلقت الوسق والعاسوق على الكبير منهُ والعويسق والعويسقة على الصغير. (المؤلف في المقتطف ٣٥ : ١٠٧٣)

كَونج . زُمَّج . دوبردران F. subbuteo. Hobby

لم اتمكن من تحقيق اسم هذا الطائر بالعربية وكنت ذكرت قبلاً انهُ البيدق او السقاوة ولكنني كنت مخطئاً وربما هو الكونج قال الدميري في باب الصقر «الصنف الثاني من الصقور الكونج ونسبته من الصقور كنسبة الزُرّق الى البازي الاَّ انه احرُّ منهُ ولذلك هو اخف منهُ جناحاً وأقل بخراً ويصيد اشياء من صيد الماء ويعجز عن الغزال الصغير » وفي معجم فولرس الكونج باللغة الهندية طائر ولم يصفه وفي معجم ستينجس هو Falcon وضبطها هكذا كونج وفي معجم ريتشارد سن گونج وقال اسمه Falcon, sparrow-hawk

وللاب انستاس نظر في معجم الحيوان مقتطف ٣٩ : ٣٨٥ يقول فيهِ ان هذا الطائر هو Astur وهو الاريحق وأبو لاحق اي الباز وقد سألته وأنا في بغداد كيف عرف انه هذا الطائر قال انهُ رأى صورته في كتاب في الحيوان قلت ان الصورة لا تكفي للتحقيق العلمي بل يجب معرفة الصقور والبزاة ومعرفة الفرق بينها. والذي أراه الآن انهُ هذا الطائر لانهُ من الصقور لا من البزاة كذلك الزمج لذلك اخرجت الزمج من صفحة ٢و١٠٢ . ولا شبهة ان الزمّج كما قال الاب المحترم فانا نعتمد قوله كما قال انهُ الزمج والزماج بالمعجمة او الزماح بالمهملة فانا نعتمد قول الاب في حركة او كسرة او فتحة . أما في تحقيق الحيوانات فلا نعتمده

ثم ان وبستر في مطوله ذكر هذا الطائر وقال Soar not with the hobbie lest you fall with the lark لا ترتفع كالزمج لئلاَّ تسقط مع القنبرة ، فالزمج من الصقور لا من البزاة فالزمج في العراق هو الكونج كما في معجم الحيوان اي ان كلمة كونج هي مثل زمج تماماً

لُزيق F. vespertinus. Red-legged falcon

طائر من الجوارح في حجم الباشق احمر المنسر والرجلين جفون عينيهِ حمر

ولم يذكر اللزيق بهذا المعنى في كتب اللغة وانما ذكره الامير اسامة بن منقذ في كتاب الاعتبار صفحة ٢٦٢ قال «فجاء جارح مثل العوسق احمر المنسر والرجلين جفون عينيه حمر فقالوا هذا اللزيق» وهو وصف في غاية الدقة ينطبق تماماً على هذا الطائر (المؤلف في المقتطف ٣٥ : ١٠٧٤)

سُنقر Gerfalcon, Gyrfalcon. Hierofalco or Falco

وسُنقور. وشُنْقار وشنغار وشُنقور. شاهين بحري. طائر من الجوارح اعظم من الصقر واجمل منهُ صورة يؤتى بهِ من البلاد الشمالية لذلك سموا السناقر احياناً الشواهين البحرية لانهُ كان يؤتى بها عن طريق البحر

وقد اخذت السنقر ومرادفاتهِ وذكرتهُ في ص ١١٤ من معجم الحيوان. وسنقر اسم سلطان من سلاطين المماليك والبعض يكتبون اسمه بالجيم اي سنجر وحقهُ ان يكتب بالقاف لا بالجيم فلو سألنا صعيديًّا كيف يلفظ هذا الاسم لقال سنقر والعامة هنا تلفظ كما يلفظ اهل القاهرة الجيم فليس جميع اهل مصر من القاهرة

حميمق Buzzard and allied genera

في حياة الحيوان الحميق طائر يصيد القطا والجنادب وسمعت بعض اهل العلم يقول هو الباشق ويفسر بهِ قول ابي الوليد الازرقي في تاريخ مكة وهو: قال ابن جريج: قلت لعطاء اذا كنت محرماً فاقتل العقاب قال اقتل قلت والصقر والحميق فانهما يأخذان حمام المسلمين قال اقتل واقتل البعوض واقتل الذئب فانهُ عدو ذكره في تعظيم الحرم. وفي مستدرك التاج حميمق عن ابي حاتم طائر ولم يزد على ذلك. وقد اعتمدت قول حياة الحيوان لانهُ موافق قول فلور وهس كما سيجيء

حميمق معروف Common buzzard. Buteo Vulgaris

حميمق Long-egged buzzard. Buteo ferox

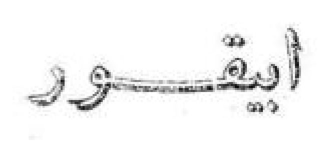
حميمق (جزيرة العرب عن الماجور فلور عن الاستاذ هس). صقر حوَّام (حلمي السماع) سقاوة (حلمي السماع عن عرب الواحات). صقر جراح (غرني) وارى الاقتصار على الحميق لفصاحته ولأن اللذين ذكراه من علماء الحيوان وقد رأيت الكتاب المذكورة فيه في حديقة الحيوان والاسماء التي فيهِ مكتوبة بالعربية ولعلّ الكتاب لا يزال في مكتبة الحديقة

حميمق مسرول Rough legged buzzard. Buteo lagopus

حميمق النحل Honey buzzard. Pernis apivorus

يقال لهُ في الحديقة حوّام النحل والحميق أفصح

هذا ما قدرت على تحقيقه من أسماء الجوارح مما ورد في معجم الحيوان وكتب اللغة وقد انتهيت من كتابة هذا البحث



بقلم سليم خياطه

وأرسطبس له في اللذة مقالة تباين مقالة أنتيثينس . ومقالة أبيقوروس تباينهما معاً
عن « بيرهون »

ليس في الوسع الحديث الطويل عن أبيقور الالهي ، وهو ذلك الحكيم العميق العقل الذي أنشد لوقريطيوس الشاعر لمجده أغنية ملحمية بحجم سفرٍ عادي في سبيل حقيقة الطبيعة والانسان . فما عندي له سوى خطراتٍ من وحي اسمه وفكره وما ظلما به من سوء النسبة . والحق ان الكلام عنهُ ، رغم قلّة ما أبقت عليهِ القرون من آثاره نفسه ، ليمتدُّ ويتشعب ويلذ جدًّا . أليس ان واحداً من أنجب تلامذته المتأخرين ، الراهب « غسندي » ذاته ، لم يستطع ان يكفي الرغبة في تسليم مبادئه إلاَّ بأن يدعو كصاحب مدرسة اختصاصية فريدة في بابها ، تحت ظلال جدران « الكولج دي فرانس » في باريس ، حيث تخرّج على فكره النيّر كوكبة من النجوم اللامعة فيهم أنصع نفسين أبيقوريين ظهرا في وقتيهما : موليير الروائي وفولتير الاديب ؟

وأليس ان «برنيه» ، وهو تلميذ التلميذ ، لم يستطع ان يشرح حتى غسندي ذاك إلاَّ كما قال فرانس في « الحياة الادبية » : « برنيه هذا الذي كان يلقّب بالفيلسوف الظريف ، الذي جاب سوريا ومصر والهند وفارس ، وخدم كطبيبٍ عند اورانغ زيب ، والذي كما ذهب الى كل مكان رجع من الكلّ ، فكان عنده كثير ما يقول ، وكان يدرس من غير انقطاع ، وكان لا يؤمن البتة ، صنّف «لمدام دي لاسابلير» موجزاً لنظام استاذه غسندي ، وهذا الموجز لم يكن أقلّ من ثمانية مجلدات » ؟ فانظر ! هل سمعت ؟ ثمانية مجلدات هي موجز في تلميذ التلميذ ! . .

إذن ، فلنفتش عمّا هو بعد اوجز من ذلك . ولئن أراد شيئاً اقلّ كتمهيدٍ أوليّ يتعرّف بهِ الى فيلسوفنا ، عليهِ بالكتاب الصغير البديع الذي ألّفهُ الاسقف « فينيلون » عن فلاسفة اليونان لتربية الناشئة عليهِ في زمن لويس الرابع عشر [1] . ففي سلسبيل هذه التحفة الادبية

(1) Fénelon-Abrégé de la Vie Des Plus Illustres Philosophes de L'Antiquité.

النقيَّة يتاح للقارئ العادي ان يُلمَّ بشيء مقتضب سهل عن شخص ايقور الكريم ، وبشيء من التماعات الآراء والنظريات العقلية العبقرية التي ظهرت له فيما وصلت اليه مدرسته «الليسيبوسية» «الديموقريطية» ، تلك الآراء والنظريات التي لا تزال منذ أطلت أعمدة آثينا الرخاميَّة الذهبية على الفين واربعماية سنة مقبلة من تطوُّر فكر الانسان ومجتمعه حتى هذه الساعة : يثبت بعضها بتقريرات ومذاهب وتفسيرات علمية مقبولة ، وبعضها يكتشف لها حقائق ما لاح له من أسرارها ، وبعضها الآخر ايضاً يتجه اليها البحث بكلّ قواه لشدة دلائل الصحة فيها وصعوبة قبول التفكير الفلسفي الجدلي (الديالكتيكي) والمادي العلمي لسواها من النظريات والمعقولات التفسيرية لحركة الوجود وتشكلاته . من الامثلة على كل هذه الالتماعات الرائعة بضعة التالية : الذرَّة والجوهر الفرد ، الكهرباء وتفسيرها ، عمر الارض ونظرية طبقاتها ، التطوُّر والارتقاء في ميداني تنازع البقاء والتعاون ، حركة المادة الديالكتيكية ، الاحلام كظاهرة نفسية ومظهر عقلي ، نشوء فكرة الالوهية وتطوُّرها ، نشوء المدنية وظهور المجتمع ، الخ . الخ . . .

بيد ان كتاب فنيلون ، لسوء الحظ ، غير متيسر لابناء العربية الا في طبعةٍ مندثرة صدرت منذ مائة سنةٍ ونيِّف . إذ لا أظن أحداً ترجمه الى العربية حتى اليوم غير كاتبٍ اسمهُ عبد الله بن حسين ، كان من « عدة » ارسلهم محمد علي باشا — على حد تعبيره — « الى الديار الفرنجية » . « شاع أمرهم في الأنام ، فحصَّلوا قدراً جسيماً من اللغات والفنون ، وجلب لهم (محمد علي باشا) كتب العلوم الخ . . . » وقد تمَّ طبع هذا الكتاب في سنة ١٢٥٢ هـ . تحت اسم « مختصر ترجمة مشاهير قدماء الفلاسفة » ، بالتنويه الى تعريبه ، لكن من دون ذكر مؤلفه ، وذلك في دار الطباعة التي أنشأها محمد علي ببولاق . على أننا نكتفي الآن بما يلزمنا من كتاب فنيلون هذا في فصله عن « أيقور » ، وهو لا يتعدى عبارته التالية التي تترقرق في لغة صاحبها الفرنسية عذوبة الماء الزلال في ساقية الواحة او نبع الجبل . قال :

> « ابتاع أيقور حديقةً جميلة ، وأخذ يثقِّفها بنفسه . فيها أنشأ مدرسته وعاش مع تلامذته حياةً حلوةً ورضيَّة ، فكان يعلمهم وهو يتنزَّه أو وهو يشتغل . . . لقد كان حلوَ الطبع مُحبَّباً الى كل الناس . . . وكان يعتقد بأنهُ ليس ما هو أشرف للانسان من أن يزاول الفلسفة . »

ثم مع هذا القول الجميل لا يسعني الآن أن أورد ايضاً حكم القديس اغسطينوس على أيقور ،

حيث قال في « اعترافاته » وهو يتكلم على تفتيشه عن المبادىء والتعاليم التي ترتاح اليها نفسه (وهي المرة الوحيدة التي يذكره فيها) ، قال « : كنت أتحدَّث مع صديقيَّ « آليبيو » و « نيبريديو » عن حدّ الخير وحدّ الشر . وفي نفسي ان أبيقور هو الذي كنت أقلّده غصنَ التخيل [1] لو لم أكن أعتقد بديمومة حياة النفس (يقصد خلودها بعد الموت) وبالعقوبات (يقصد الأخروية) على أفعالنا ، وهو الاعتقاد الذي رفضهُ أبيقور » [2]

إقرأ ايضاً ، بعد رجلي الكنيسة هذين ، قول المؤلف الاندلسي ، القاضي ابي القاسم بن صاعد في كتابه الطريف « طبقات الامم » . فان هذا الكاتب الذكي ، على قلة ورود المضبوط المستقى من ينبوعهِ في مواضيع الفلسفة اليونانية عند كتابنا الاقدمين ، قد أعطانا هو عبارة فيها من الصحة عن أبيقور بقدر ما فيها تماماً من اصوع صفحته . قال : « وأما الفرقة المسماة من الآراء التي كان يراها أصحابها في الغرض الذي كان يقصد اليهِ في تعلم الفلسفة ، فشيعة افيغورس [3] ، ويسمون اصحاب اللذة لانهم يرون الغرض المقصود اليهم في تعلم الفلسفة اللذة التابعة لمعرفتها » [4]

تأمل ، الآن في تينك الشهادتين الوضاءتين بحق فيلسوفنا تصدران عن رجلين صادقين من آباء الكنيسة ، وتأمل فيما وصل الى القاضي بن صاعد من خلال ركام القرون الوسطى من ناحيةٍ حقيقيةٍ عن أبيقور المجهول : هي أن « شيعته » على لغتهِ ولغة اغلب الكتّاب السابقين حتى « مونتابن » ، رأت اللذةَ في اللذةِ التابعة الى معرفة الفلسفة . ثم انظر فيما اشتهر عنهُ ووصم بهِ عند جهلاء الادعياء ومحرّفي المعرفة وسخفاء التفلسف من سوء الصيت وشهوانية الدعوى ، حتى صار أبيقور منسوباً اليهِ عدواناً وتجنياً كل رقيعٍ من مجانين متطرفي اللذات عند الرومانيين ، اولئك الذين قصّر حتى « هوراس » الشاعر في هجوهم وتهزيئهم ، وان كان هو من جهلهِ قد تبعهم أيضاً في إساءة فهم ذلك المعلم الكريم ، فلاك اسمه بغير حقٍ ومرَّغهُ في حظائر الخنازير

طبعاً لم يؤثر هذا الصيت المشوَّه في تحريف حكم المفكرين الانسانيين الثقات الأصلاء وتقديرهم . ففرانسيس بايكون ، مثلاً ، إذ يمر بذكر أبيقور في مقالتهِ « عن الالحاد » ومقالته الاخرى « عن الوحدة في الدين » ، لا يبدي نحوه الا انكاره « السنّي » الصبغة لشهرتهِ الفلسفية عنده ، ولا يحفظ عنهُ انطباعة الشهرة الانفعاسية المشوَّهة ، بل يبدو عليهِ الميل المكتوم بتحذُّر محافظٍ الى رأي أبيقور وتعقيله ، ويعلن بجرأة اعجابه العالي بقوله البديع : « ليس الكفر في رفض الاعتقاد بآلهة السواد ، بل الكفر في الاعتقاد بالآلهة ما يعتقده السواد فيها »

---

(١) الجامعة ، او دليل الاسبقية والاولية (٢) الاعترافات — نهاية الكتاب السادس (AI—XVI—26)

(٣) « أفيغورس » ، اي أبيقور (٤) طبقات الامم — نسخة اليسوعيين ولويس شيخو — بيروت ١٩١٢

غير اننا ، من جهة اخرى ، نجد ان السمعة الرديئة التي لصقت بالابيقورية أثَّرت حتى في مفكر مرتاب حرّ مثل مونتاين . فمع انهُ ، مثلاً ، يطرأ عليهِ ذكر ابيقور ، في فصله الكبير « الاعتذار عن رايمون سيبون » كصاحب تأملة فلسفية تحققت صحتها في اكتشاف جزر الهند الغربية ، فانهُ ، على جري عادته في تمايلات افكاره السائحة مع كل ريح قد تصل بهِ مكاناً او قد لا تصل ، يعود في مقاله « عن بعض ابيات لفرجيل » — في معرض الكلام عن بهيميّة الشهوات ، وحديث الامبراطور الذي افتضّ عشر فتيات في ليلة واحدة والامبراطورة التي بزّتهُ في استبدال خمس وعشرين رجلاً في ليلة واحدة ايضاً — الى ذكر ما سمّاها « فرقة أبيقور » كشيء من القباحة في هذا الباب مثل كلّ ما عدَّد غير ذلك من كتابات وافعال !

انما نحن نعلم اليوم بأنهُ يحدث في التاريخ ان المنتسبين الى معلم انساني كبير ، او قل من ينسبون انفسهم اليهِ ، كثيراً ما يبدلون ويمسخون ويقلبون مبادئهِ ومنطق تعاليمه بحسب الهوى والمصلحة او نوع الضغط والانجاه المادي والمعنوي والنفسي ، من عامّ بيئيّ وخاصّ شخصيّ ، حتى ليصبح هؤلاء المنتسبون بما يخرجون بهِ احياناً سُبَّة كلّ عقل صافٍ وحكمةٍ ناضجة ، وحتى ليتجلبب ذلك المعلم الكبير — وهذا ما يؤسف — في نظر الكثرة التي تجهله ويصعب عليها فهم مستعصيات الفروقات والتطورات والاستنتاجات ، بجلباب خزيهم وعارهم . لقد اشار لينين الى ظاهرة كهذه بشأن ماركس والحركة الاشتراكية من بعده في كتاب من آخر كتبهِ . ومن الامثلة أيضاً على حالة كهذه يسوع المسيح و « المسيحيات » التي انتسبت اليهِ ، ثم كذلك أبيقور وعديد ممن سموا انفسهم او سمَّاهم سواهم « أبيقوريين »

ومن الملاحظ أيضاً بخصوص أمثال هؤلاء المعلمين الكبار ان من ينتسبون اليهم ، ومن يشرحونهم ويتلاحقون عليهم ، يختلفون ويتباينون في أمرهم اكثر من تباين الحق والباطل ! بل قد تكون فسحة تباينهم كالفسحة بينهم وبين من لا يطيقون حتى سماع رنة أسمائهم . وقد يفترقون الى فرق وملل ونحل تتباغض وتتعادى وتثير — لا أقول الثورات : اي حفيات الاصلاحيات الاجتماعية والاقتصادية ، والانشاءات الشعبية والعلمية الكبيرة ، والتطوّر الانساني الارتقائي في العلاقات والتفكير والشعور والعادات — بل تثير مذابح الفتن والحروب والعصبيات الفاترة الحادة ، وانواع النفاق والتنافس السياسي والاغتصابي (والاغتنامي) وهذه الظاهرة كانت قوية جداً وطويلة التاريخ في المسيحية ، وفي المذاهب « الروحية » التي انتشرت كتنظمات مدنية عموماً . ثم هي اصغر من ذلك ، ولكن أبلغ انضغاطاً وأسرع انفجاراً وأفضل ، على الاقل ، نتيجة انسانية ومدنية ، في الاختلافات الاشتراكية التي حصلت من حول اسم ماركس . فالاولى تسيبت وعاشت بالحرب والقتال ، والثانية رافقها ما في حياة

الاستعمار وكيانه من حرب وقتال . بيد ان من انتسبوا الى أبيقور ، ومن لم ينتسبوا ، ومن بعثت فيهم الرجفة حتى رنة اسمه ،اختلف في هذه الظاهرة حالهم . فهم لم يتنابذوا فيما بينهم مصطدمين حول انشقاقات فهمهم لأبيقور ، ولم يشتهروا بشيء من ذلك . انهم لم يتحاربوا ولم يتقاتلوا أبداً !

سبب ذلك ان جماهير الناس ما سمعت قط حتى باسم أبيقور ، كما انهُ لم يكن لا في الحقيقة ولا في الفكرة المشوّهة التي نُسبت الى اسمه ذا قابلية على انتشار التأثير والمكانة في كل بيئة كانت ما تكون . فأبيقور على حقيقته وصفاء فلسفته يصعب ان يجد له مقعداً في بيئة أقل رقيّاً من جمهورية آثينا الخالدة في وقته. والأبيقورية المشوّهة كعبادة بهيمية لا يعلو لها صوت الأفي حلقات ضيقة، كحلقات المتخمين حتى القيء ، الفارغي الرؤوس والقلوب، ومن كانوا على عقليتهم، في دور كدور انحطاط روما الامبراطورية او بغداد العباسيين وممالك الطوائف . لذلك كان اصحاب الهوى والهوس في ابيقور ضافاً قليلين ، على الاكثر المعروف من « المتعاظمين» المتكالفين . لم يأخذوا عنهُ الفلسفة ، بل رأوا فيما تلطّخ به اسمه عنوان رذيلتهم وتسويغاً مبتذلاً لنفوسهم بقدر ما كانوا عليه من ابتذال

وعلى هذا ، فانّ اثراً لم يتضخّم وينتفخ لا لأبيقور ولا لهم في صلب حياتنا الماضية أو الحاضرة ، في عقل بشرية متجمهرة ، مجيّشة ، مسخّفة ، متعاركة بالناب الأزرق والظفر الدامي على صولجان سلطتها ورغيف أطفالها . فحظ ابيقور في خمول الصوت وغلبة الانحراف عليه عائد، إذن ، إلى ان الاعجاب به هو الاعجاب الفلسفي والاخلاقي السلوكي السامي، الهادىء ، المتسامح ، الذي لم يكن الا من نصيب قليلين فهموه وأحبوه ، من فوق الاجيال والأكاذيب ، حُبّ صداقة شخصية ، لا الاعجاب الطّموح ، الملتهب بنيران وجهالات الرغبات « المثالية » ،ولا توجّه وتكريم التفكير « العقائدي »[1] او« التعليمي »[2] الجامد ، التعصبي ، المطلّس الوجه بتلوينات مثالية ، المبطّن القلب في الواقع بنوع تكالبيّة وآنيّة في الغرض (لنسمها : غائية Teleologisme آنية !..)

لهذه العوامل فُقدت حقيقة أبيقور اكثر مما ضاعت حقيقة ماركس . ولو انهُ كانت لفلسفة أبيقور ونظرياته ما كان لافكار ماركس الفلسفية الكبرى ونظرياته الاستنتاجية الاخرى من علاقة وثيقة صارخة بمصالح الناس الآنية والمباشرة ، ولو انهُ كان لها ما لهذه من منطقية سريعة التفتح في صلب الحياة الاجتماعية (بل الماركسية أسرع حتى من منطقية الحياة الاجتماعية لانها مبنية

---

(١) ترجمة استنبتها للفظة Dogmatic (٢) ترجمة استعملتها للفظة Doctrinaire و« التعليمي » في التفكير الحديث « كالعقائدي » في التفكير العتيق

على حركتها — او بالاحرى على ما في الامكان تبينه من الخطوط العامة واتجاهها في حركتها ، إذ تهبط وتتغلغل الى اعماق العيش اليومي بمختلف الاشكال والمجاري التي تتصادم حتى كتصادم الحياة بعضها ببعض ، والتي تصبح في احتكاكها بحالة الجماهير وتفسيرها ذات قابلية على توليد عواطف اهتياجية شديدة —) اذن لكانت هرعت طوائف الناس ايضاً الى ايقور كما هرعوا الى ماركس ، ولتعلقوا به كل طرف وجماعة على وحي ما بهم ونوع حماستهم دفعاً وجذباً ، وشداً ولفتاً ، وتقبيلاً وتخبيطاً !

لكن ماركس ، فيلسوف الثورة الصناعية والتحول الاشتراكي ، قد حظي بعصر ألصق بهِ جمهوراً وأوسع وأكثر اشتباكاً من كل عصر ، مع ان ايقور كان في زمنه شخصية تسترقف عناية الجماهير أيضاً (في أثناء حياته فقط) اكثر من كلّ فيلسوف يونانيّ آخر الا « بيرهون ». ثم ان ماركس قد حظي أيضاً من الاتباع المدركين ، والمحبين المكملين له في قلب حياة زمنهم ، من لم يكن لهم من الجهل ولا من الطمع بهِ كبيرُ شخصيٍّ مثل الذين بلي بهم أيقور. وأيقور ، وان كان قد نال قسطاً من أرقى الذكاء البشري لدفع ظلامته وتجلية حقيقته ، إلاّ انهُ لم يدفع عنهُ أحد بمثل ما دفع هؤلاء عن ماركس ، وبمثل ما رفعوا من نبراس حقيقته من خلال ظلمات الدخان الدامي وعماء الحمق المتفشي

هذا ، وقد يستغرب ان يزعم زاعم بأن فلسفة أيقور تعيش في الماركسية . لكنها حقيقة واضحة لكل من يفهم شيئاً من الفلسفة غير الشهرة والاسماء . وان فلسفة أيقور تعيش فيها من وجهتي الاعتماد في النظر والتعليل على المادية وعلى « الديالكتيكية » . وتعيش فيها ، أيضاً ، بالطبع ، بما يتجه التفكير اليه ، على هذا الاساس المزدوج عندكليهما ، من نفس النتائج والآراء والمبادىء في نفس القضايا ، وان كانت قضايا الثانية ومسائلها الفرعية تختلف أغلبها وتزيد وتتعقد كثيراً عن قضايا الاولى ومسائلها . وذلك لان العصرين مختلفان ، لان مادة البحث والمعلومات الحاصلة والمتيسرة تزيد وتترتب وتتباين في ثانيهما عنها في الاول منهما ، فتنزل الماركسية لهذا السبب من ميدان التفكير الفلسفي الى أقصى ميادين الاحتكاك الواقعي بالمجتمع ، ومن ثمَّ الى التحوُّل الديالكتيكي الحركة بحسب ما تحكم مجاري تلك الميادين ومناقشاتها في مجرى صحة النظريات وسلامة الآراء والتصورات . أما فلسفة أيقور ، وان كان هذا الاسلوب والتعقيل هو أسلوبها وتعقيلها بالطبع والامتياز ، الاّ انها ، لما بيّنا من أسباب ، تكاد تقبع في حقل التعليل والتفسير الكوني والطبيعي ، وفي مبدئية أخلاقية إنسانية عامة

لكنها على كل حال أصدق ما يأتلف ويتساوى من الاساس (اذا لم تكن الوحيدة التي تأتلف وتتساوى) من بين فلسفات جميع العصور السابقة مع أساس فلسفة الاشتراكية الحديثة

العلمية في المنطق والاسلوب ، ثم في الحدود الموضوعية التي تصل اليها معها في التعقيل والاستنتاج وأخيراً في اعتبار أخلاقية الفرد الاجتماعية . أما الوجهة الاخلاقية السلوكية هذه عند أيقور ، فلا أتصور الماركسية وجدت أو يسهل عليها ان تجد للفرد سلوكاً أخلاقياً عملياً عيشياً في مجتمعه أفضل وأعذب وأبلغ استقامةً اجتماعية مما نأتي في أيقورية أيقور ، تلك الحكمة الجميلة المعتدلة في العيش والاجتهاد والرفق بالذات والانسان ، تلك المبادىء والاعتبارات في الخير والشر التي ما أمكن الا ان تفوز باطراء أي رجل صالح عادل كان ، حتى من وُجد في مخيم معاكسي أيقور المذهبيين ، سواء في ذلك مخيم أعلام التقوى والنظر المسيحي او كبار المفكرين الخلقي الضمير . ومن بين كبار المفكرين هؤلاء واحد احب ايقور بعقله وقلبه ، واحب انا أن أتحدث عنه قليلاً كتلميذ حق لذلك المعلم. هو اناتول فرانس ، الذي ترك في ميراث عالم الادب الرفيع بين اكاليل بدائعه كتاباً معجزاً صغيراً لقبه « حديقة أيقور »

لم يرد في هذا الكتاب اسم للفيلسوف الاغريقي أو إشارة مباشرة الى أفكاره ، فيما عدا عناوين الصفحات ، غير مرتين او ثلاث . فما ذكره به في هذين المرتين او الثلاث ما جاء له في جملة من قوله : « ... في اسمى العقول ، واصفاها ، وأعذبها : في ديموقريطٍ ، في أيقورٍ ، في غسنديٍ »[1] ، ثم ما وضعه على لسانه في مساجلة تخيلها بين الفلاسفة تجري وسط الصبّر ون والآس على ضفة نهر في « هاديس » ، عالم ظلال الاموات عند اليونان ، إذ جعله يخاطب ارسطو بمعرض آراء متواردة عن خلود النفس ونفس الحيوان ، قائلاً :

— إيه ارسطو ! هذه النفس فيها (اي الحيوانات) هي مثلها عندنا فانية خاضعة للموت ، وفي ذلك سعادتها . أيتها الظلال العزيزة ! إصطبري منتظرةً في هذه الجنائن مجيء الزمن الذي تفقدين فيه تماماً ، مع فقدان الرغبة القاسية في الحياة ، الحياة نفسها هي واوصابها . ألا فارقدي مقدماً في السلام الذي لا يعكره شيء »

وهكذا ليس هذا الكتاب سيرةً لايقور ، ولا شرحاً ، ولا مجادلةً ولا نقاشاً ، ولم يأت فيه صاحبه حتى على لفظ اسمه إلاَّ كما رأيت . وهو ، إن اردت الصحيح ، ليس الاَّ حديقة أفكار لفرانس ذاته وردت عليه بروح التعقيل الايقوري وأسلوبه من غيرشك ، إذ الكتاب بجملته يعبق برائحةٍ جميلة الجو « ديالكتيك » ايقوريٍّ ماديٍّ ينتج منهُ المؤلف منطق متناسق وحلقة آراء تستقيم في مجموعها مع وزن (او قل : دوزنة) الايقورية الفلسفية ، اي ايقورية ايقور لا غيره

صحيح ان حلقة آراء فرانس هذه ، وجوها العابق بديالكتيك ايقور ، ملوّنة بأصباغٍ

(١) تجوزت في تنوين هذه الاسماء لجلب معنى الافراد على سبيل المثال من جمع من نوع الاسم

شتى متناسقة ومتعارضة ، وفيها مزيج من نكهات كثيرة مما رؤي وظُنّ ، وحق وبطل ، واختلف فيه من معاني الابيقورية : من حقيقة ما جاء منها لابيقور وعنهُ ، وما ائتلف وتناسق حقيقةً مع منطق فلسفته ، في التعابير والنظرات التي يصدرها فرانس مباشرة ، او مما تستخلصهُ او تراه بنفسك في أثناء محاورات تدور فيها الآراء معروضة يوشك ان يتجلى فيها صحيحها الابيقوري من غير تسمية او تنويه الى ما يشبه كلاً ، ودعوةً ابيقورية كالعبارة المقولة فوق والتي وضعها فرانس ، وكأنهُ يتهكم ويخلط بأبيقور «زينونيًا» ورومانيًا او شوبنهوراً «ماكس نوردائيًا» في فم ابيقور ذاته ، واخيراً الى أخس ما تصوّر في الابيقورية وما ألبسته من دعوى المحبة المفرقة المنحلة للمشتهيات البدنية ، واستعمال الملذّات مطلقاً كأعقل وأفضل مصرفٍ للعيش ، وذلك فيما وضعهُ من اعترافاتٍ على لسان « قدموس » الفينيقي الخرافيّ ، رمز اختراع حروف الهجاء ومثال مدنية الصناعة والتجارة والزراعة الاعلى في حضارة البحر المتوسط القديمة ومطالب ... في السلطة المطلقة والانحلال برفاه تنعميّ صفيق ، كل هذا وارد وصحيح من أمر هذا الكتاب ، ولكنهُ يتألف من تلك المجموعة الملوّنة ، كما أشرنا ، مخرج واحد لونهُ صفاء النور ، صفاء منطقٍ أبيقوريّ سليم لا يحتمل ضوءه اظهاراً رائعاً أصليًا لما ليس من الآراء والنظريات مستقيماً مع مجرى شعاعه

غير ان في الكتاب ، عدا هذا وذاك ، محاورةً تعرض النقيض الابيقوري تماماً بمهارة فنٍّ فرانسيّ ساحر . هي آخر قطعة منهُ ، وكأنما الاديب الانساني أراد ان يرينا فلسفة معلمه القديم من معرفة صورةٍ عن عكسها . ذلك انهُ يعرّفنا بايجاز وتهكم رحيم الى انسان رومانتيكي النزعة ، « روسويّ » ، ونوعاً ما شعريّ « برناردين دي سان بيير » ، لا أبيقوري على طول الخط . هو نتاج فكري لاواخر القرن الثامن عشر الفرنسي ، لكنهُ ظهر في أواخر التاسع عشر الفرنسي ، متأخراً بذلك في حساسية نفسهِ عن سير الزمان وعن معدّل حساسية التفكير في سبق سير الزمان لا أقل من مائة سنة . وسبب ذلك ان فلسفة هذا الانسان أكثر ما تشكلت بتأثير أحوالٍ خاصة معينة ، متأخرة فيهِ عن وقتها شذوذاً ، فأحاطت بحياته الشخصية بحيث ظهر اثر تغيرات قرن الثورة الصناعية عليهِ بعظهر أفكار الهدم والانكار في قرن الثورة الديموقراطية السياسية سابقاً . وبكلمة أخرى من استعمال التعبير الماركسي : هو بقية باقية من الطبقة الوسطى الصغيرة الثامن عشرية الفرنسية ، او التاسع عشرية الالمانية ، او الاوائل العشرينيّة في سوريا ومصر العربيتين ، لكنهُ يتأثر في تمزّق نفسه بحياة متغيرة في فرنسا التاسع عشرية ، فرنسة الدنيا « البالزاكية » وبيئة « مدام بوفاري » و« التربية العاطفية » الفلوبيريّة

وعلى هذا فانسان محاورةِ فرانس ، الذي هو فيلسوف لم ينجح بين الناس ، قد ضجر من

حياة المدنية ، مدنية زحف وتغيرات الثورة الصناعية واستفحالها ونوع الحياة الرأسمالية العاجّة التي خلقتها ، الحياة المدخنة الكئيبة ، يذوب فيها نوع الفرد الذي لا يشعر بنفسه الا في ظهوره وضآلة محيطه كما تضيع النحلة بين قبيلتها

كره صاحبنا بيتاً بليداً في صفٍّ في شارع من العاصمة ، فهجرها الى الريف . في الريف اشترى ديراً خرباً وسط عرصة تابعة له . وفي الدير عاش مع ذاته ، ناسياً كل عمل وعيش بين الناس . لا يقرأ عنهم الا بالصدفة ، لا يكتب ، لا يثقّف حتى قطعة ارضه او حديقته ، يتسلى ويقاوم الوقت بالكسل والنظر الطويل في معالم الهواء وغيوم السماء ، ويغذي نفسه بآراء كأنها نصائح التعزية ! فكلها تسفيه وتسخيف لكل ما يدعى او يترادف او يقرب من اسماء مدنية وفن وثقافة وعلم وأدب ورفاه . لقد اصبح عنوان طلب البساطة في البقاء . لا يخدم شيئاً ، ولا يخدمهُ سوى فتاة حسناء ، منفوخة الخدين ، فارغة الرأس والقلب . عنها وعن نفسه يقول لزائره :

— هي سعيدة ، ومهما تعمل فطاهرة . فان العلم والمدنية هما قد خلقا الشر الجسدي يرافقهُ الشر الاخلاقي . انني لأكاد اكون من السعادة مثلها ، اذ انني اكاد اكون من البلاهة مثلها . واذ اصبحتُ لا افكر في شيء ، فانني لم اعد أعذب نفسي . وإذ صرت لا آتي حركة ، فانني لا أخاف ان اسيء عملاً . حتى حديقتي لا اثقفها ، اشفاقاً من ان أتم فعلاً لا استطيع ان احسب نتائجه . وفي هذه الحالة اراني على تمام الاطمئنان »

فهذا الشخص ، كما ترى ، « روسو الجديد » يتكلم ، وان كان اصح كثيراً من روسو العتيق . واقع هو في نفس الحالة التي يهرب ويظن نفسه بمنجىً منها كما سترى من خبث دعابة فرانس . واذا قابلنا مثاله بأبيقور وجدنا ابيقور رجلاً واقعيًّا متمدناً لا ينكر الجمية ويتحنط كالمومياء . هو يثقف عقله وحديقته يوميًّا ، ويبارز الفلاسفة ، ويعلم الناس . يعلمهم وربما بدون اجرة ، ويقدم حتى نفسه مثلاً . يعلم بأن على الانسان — لا قدرة فقط ، بل حتى شاء ام ابى وبالرغم مما في فكره — ان يعتني بحديقته . والا ، فالنتيجة الطبيعية : من اين يأكل ؟ ومن بعض فرط ألم الانسان هل يخلص ؟ عادياً متعادلاً ، حسّاساً ممتازاً ، ولد هذا المخلوق . ومن غابات الهمجية وكهوف السباع فقيراً خرج ، لا طعام على مائدته ولا حائط يقيه العاصفة . وليس كل من جاءت به امه في مدينة مكروهة بصاحب ثروة ، موروثة او « مرسملة » او متعوب عليها ، فيشتري بشيء منها ولو ديراً مهجوراً بعرصةٍ مهملة ، ويكتري ولو فتاة بلهاء تطبخ لهُ الزاد وتُريه وجهَ المرأة

وهكذا ترى . فصاحبنا الذي سيعكس فرانس أفكاره هو عن أفكاره ، كنوع مبالغةٍ في عقلية الرهبنة الاعتزالية التي تتوارى في وكرها إما لفوضى الحياة وخرابها ، كما أشار فرانس في

« حديقة أيقور » الى حدوث ذلك في سبب ازدهار الرهبنة بانهيار امبراطورية روما ومعها جميع بنيان مدنية العالم القديم وأمن الحياة فيه ، وإما لنفس منهوكة ، مخيبة ، شاذة ، متقززة مغرقة في توترأتها العصبية مما يحيط بها ، كما يظهر في اتجاه الافكار الروسوية ، وإما أخيراً بتأثير نواح معتدلة من كلتي هاتين الحالتين معاً كما هو ظاهر في متفلسف فرانس هذا ، الذي مثاله المهرب من المخلوق البشري ، التخاذل عن كل عمل ، الكسل الابدي اللذيذ ، روحه ذات آصرة — على وهن خيطها — بالروح العدمية المقتولة في بعض متشردي قصص مكسيم غوركي ، برغم الفرق الكبير بينهم وبينهُ. انهم في حركة أبدية قائمة محزنة ، وهو في سكون أبدي مخدّر

على ان فرانس قد خرق منطق صاحبه هذا بطعنته النجلاء ، فبدّد ما اوردت لهُ من كلماته فوق كما تبدّد نفحة نسيم يجري من ارخبيل الاغريق شتات غيوم قطنية مندوفة في سماء صائفة . وذلك حيث يردّ عليه ، في محادثتهما التالية ، بقوله :

— لو كنت في محلّك لما شعرت بطمأنينة . من قال لك ، يا صديقي ، بأن سكونك الى هذا الدير المغطى بالطحالب واللبلاب ليس هو عملاً ذا شأن في مجرى الانسانية اعظم من مكتشفات جميع العلماء ، وذا تأثير حقيقة في المستقبل ؟ — ليس هذا بالمحتمل

— بل ليس بالمستحيل ! فأنت تعيش حياةً فريدة . انت تتحدّث بكلمات غريبة قد يمكن ان تجمع وتطبع للنشر . وفي بعض الظروف لا يلزم اكثر من ذلك لكي تصبح ، بالرغم منك وحتى من دون ان يكون لك اي علم بالامر ، مؤسس دين يصبح إيمان ملايين من الناس ، فيجعلهم تعساء واردياء ، ويذبحون باسمك الوفاً من خلق آخرين ! . .

— إذن على الانسان ان يموت كي يطمئن ويكون بريئاً

— حذار من هذا ايضاً : ففي عملية الموت اتمام فعل ذي نتيجة لا يمكن حسبان مداها ! »

هكذا جمل هذا المداعب الكبير فرانس ، هذا الايقوري الأصيل ، المتسربل بجُبّة موروثة في نفس الانسان عن عبقرية اخرى من اليونانيين ، عبقرية « بيرهون » ، ذلك الكاهن الاعلى في هيكل الشكوكيين ، ذلك الذي « كان ايقورس ، في لغة معرب فينلون ، يحب محادثته ومكالمتهُ ويلتذ بسماع قصة معيشته واحواله » — اقول : هكذا جمل اناتول فرانس الايقوري البيرهوني في نفس الرجل الساذج محدّثه « مرساباً » بعد اكثر مما كان قد بلغ به . ما ابدع وارق نكتة فلسفته ! ألا ان عبيراً حلواً من نفس ايقور يفوح عليها !

ولا غرو ، فان هذا الشيخ الاشتراكي الرحيم قد كان ، فيما نعلم ، آخر وابدع كاتب لمع في عصرنا ولا يضير سمعة ايقور انتسابه اليه ، ولا حديقته تثقيفه فيها وتعليمه بين شكول ازهارها ، تحت فواكه غصونها وهينات ظلالها الوئيدة الميول

من روائع الادب الالماني

الآخر !

للكاتب الالماني الشهير آرثر شنيتزلر

Arthur Schnitzler

وحدي !... وحدي !...

انا جالس الى منضدتي ، والمصابيح مشعلة ، الباب المؤدي الى غرفتها مفتوح ، نظري يسبح في ظلام الغرفة ، . . . الاضواء المشعشعة المنبعثة من الدور المقابلة تنعكس على زجاج نافذتي ... يا لله لقد تبدّل كل شيء !... كانت تسبل بعناية ستائر مكتبي ، وتدنيها بعضها من بعض لتمنع عن تقاربنا ، في غيرة قوية ، ضوضاء الشارع والاضواء المجاورة ....

الساعات تمر ، طفت في غرفتي ، ثم أخذت أطوف في غرفتها ، تمددت على كرسيها الطويل ، تمددت عليه بدون حراك ، وطفقت أصوّب نظري نحو النافذة التي تكشف لي عن عالم أصبح بعدها ولا شأن له . . . ثم وقفت الى منضدتها ، وأخذت بيدي اقلامها الحبرية والرصاصية التي لما تزل تعبق بأريج اصابعها . . . انحنيت بعد ذلك على ،وقد مدفأتها المنطفأ ، وشرعت احرّك الاوراق والفحم ، فكأن كل ذلك ، وقد استحال الى رماد ، يصر صريراً حزيناً ، عند ملامسة المحرك الفظ

***

اذهب كل صباح الى المقبرة : الخريف المتأخر تنيره شمس وقحة ، باردة... لا اكاد اشاهد الجدار الابيض عن بعد ، حتى اشعر بحرقة في عيني ... اطوف بين صفوف الاضرحة اراقب الذين يصلون ويبكون ، اصبحت اعرف بعضهم ، وما يدهشني هذه الطريقة المتشابهة التي تكاد تكون هي هي عند الجميع ، وتلك الحركات التي يكررها كل منهم ، في كل مرة ، بدقة فائقة ... اصبحت اعرف هذه

الفادة التي تتهالك على اقدام ضريح يعلوه صليب ، تجهش في البكاء ، وتذرف ذات الدموع ، وتضع ذات ازاهير البنفسج على الارض المبللة ، ثم تنهض وقد راق لون محياها نوعاً ما ، وتشرع تبتعد عن المقبرة بخطوات سريعة وثابتة ... هي تبكي شاباً في الرابعة والعشرين ، خطيبها بدون شك ... كيف تقوى على النهوض ؟ ومن اي ينبوع تستقي ذلك العزاء الذي يلمع في نظراتها كلما عمدت الى النهوض ؟ . . . اريد ان اتبعها ، وان اصرخ في وجهها : « لا عزاء ايتها المجنونة المسكينة ! » ولكن ... وأنا ؟ ... انا وقد اعتدت ان آتي كل يوم الى هنا ... عما ابحث اذن ؟

اولئك النسوة ذوات البراقع الحريرية ، والقفازات السود ، يضايقنني كثيراً ... لاشك أني مثلهن ، شاحب اللون ، منتفخ الاجفان ، ولكني وأنا نمل بشيء سام منقطع النظير ، لا احمل هذا التأثر الذي يرتسم على وجوه الآخرين ، فانظر في شيء من الحسد الى ذلك الانسان الذي تهزه ذات الرجفة التي تهزني

والآن ، فان ثائرتي تثور لمجرد الافتكار بأن جميع هؤلاء الذين يتيهون بين الاضرحة يلتهمهم نفس الالم الذي يلتهمني ، ذلك الالم الخالد الذي نعجز عن التعبير عنه ! اوه ! يا للرحمة ! جميعهم يتألمون ألمي والايام تمضي ،فتجلب افكاراً جديدة ... وتبعث آمالاً جديدة ... وتعيد بصورة اكيدة ربيعاً ينشر خضرته الصفيقة امام انظارنا ... سيعود الهواء فاتراً ... وستعود الازهار تعطر الجو بأريجها ... وستعود النساء تبتسم كما كانت تبتسم من قبل ... وسنخدع عن انفسنا مرة اخرى ... سنخدع عن انفسنا وننسى حزننا ! ....

***

أقف دائماً على بعد بضع خطوات من النَّجَف الذي يواريها ، عندما يوضع الحجر ، استطيع ان اتكىء على درجات الضريح الباردة . وأستطيع أن انحني ، وأن أجثو على قبرها . . . لا أجرؤ الآن على الاقتراب خشية ان تنهال بعض الحصوات على نعشها ... ومع ذلك تنتابني احياناً رغبة لا تقاوم للارتماء على ذلك النجف ونبشه بأصابعي . . . ألمي لا يعرف الصبر ، هو ألم وحشي ، تصطك له أسناني ... أصبحت أبغض كل شيء ، وجميع الناس ، وعلى الاخص اولئك الذين يتألمون مثلي ....

جميع هؤلاء الرجال ، والنساء ، والاطفال ، الذين أصادفهم كل يوم ، يثيرون حفيظتي . . . أتمنى لو أستطيع ان أطردهم . . . وأي حزن ينتابني ، بصورة خاصة ، عندما أفكر ان احدهم جاء البارحة للمرة الاخيرة ، اذ أحس بسكون المرء أمامه ولاحظ انه يخف من يوم لآخر ، وهو يعود من المقبرة . . . انه عاد لا يتألم . . . لقد استيقظ ذات صباح باسماً . . . آه . . . كم أبغض اولئك الذين يستعيدون ابتسامهم !

هل يأتي يوم أستعيد فيه انا ايضاً ابتسامي ؟ . . . وأنسى ؟ . . . لا تكاد ذكرى شبابي تفارقني : اني لأرى نفسي أجتاز الغابة الى جانب محبوبتي . . . كان عليَّ ان أكون سعيداً جدًّا ، وقد كنت سعيداً جدًّا . . . ولكن هنالك بعض لحظات تلتهم في أحشائها كل شيء ، تلتهم المستقبل والماضي لانهما الخلود نفسه ! لم أكن قط من اولئك المتنزهين الهادئين الذين يعبرون الطريق الكبيرة ، ويتوغلون في الحقول ، ويتمددون بلطف في ظلال الغابة ليتذوقوا النسمات البليلة التي ينعشهم بها صباح منوَّر . . . كلاَّ ! لم أكن من هؤلاء ، وانما كنت أتسلق الاشجار ، لاستكشف آفاقاً أوسع ، وكنت أشاهد الطريق اذ ذاك تتلطف في السهول البعيدة حيث يخضر الربيع . . .

في هذه الغرفة ، وازاء هـذه النافذة ذاتها ، التصقت بي ذات يوم امرأة وأخذت تعانقني وتقبلني . . . رجفة باردة هزتني . . . الدقائق ، الساعات ، الايام السنون ، كل ذلك أخذ يهرب ، مسرعاً ، مسرعاً . . . انتهى عهدنا . . . دبَّ البنا الهرم . . . أدركنا النهاية . . . هكذا كنت أدنّس حبنا ، باعترافي بقابليته للزوال ، وهكذا أدنّس ألمي الآن لتفكيري بأنه سيأتي يوم أبتسم فيه !

من هو هذا الرجل ذو الشعور الشقر والعيون الحزينة ؟ من يبكي ؟ الضريح الذي يزوره كل يوم كائن على بعد بضع خطوات من ضريح امرأتي . . . لقد استوقف نظري هذا الرجل لاني لم أستطع ان أبغض كالآخرين . . . هو يأتي قبلي ويبقى حتى بعد ذهابي . . . ومن المحتمل انني كنت لا أشعر بوجوده لو لم أشعر ذات يوم بنظراته ترمقني في كثير من الحنان أزعجني . . . تفرست في وجهه ، فحوّله عني شيئاً فشيئاً ، ثم أخذ يبتعد وهو محاذٍ للجدار . . . لا بدَّ اني عرفته قبل اليوم . . . ان وجهه ليس غريباً عني ! . . .

أين رأيتهُ اذن ؟ . . . في سفر ؟ . . . في مسرح من المسارح او شارع من الشوارع ؟ انهُ يشعر بحزني بصورة غريزية . . . ربما كان بعضهُ حزن كحزني . . . لعلَّ هذا الفرض يفسّر نظراته ، التي لن أنساها قط ! انهُ شاب وجميل !

***

ها قد جلست مرَّةً أخرى الى منضدتي ، أزهار ذابلة تحيط برسم المرأة التي كانت قرينتي ، بل سعادتي ، بل دنياي ! . . . بدأت افهم الاشياء وأقدّرها . . . الايام التي عشتها أخيراً غشت على عقلي . . . أخيراً وجدت نفسي . . .

للمرَّة الاولى منذ شهر . عزمت على ان أشغل نفسي ، ان أفتح مكتبتي ، ان أطالع ، ان انظر في بعض الاوراق ، ان افكر . . . .

لم افعل شيئاً من ذلك . . . عدت الى المقبرة ... كان الليل قد شرع ينشر اجنحته السود . . . ليس في المقبرة احد . . . للمرة الاولى جثوت على ضريحها وطفقت أُقبل الارض التي حنت عليها فوارتها تحتها ... ثم اخذت ابكي : نعم بكيت . . . لا صوت . . . لا نأمة . . . صمت رهيب . . . هواء ساكن ، بارد ...نهضت التمس الخروج بين صفوف الاضرحة من جهة الكنيسة ... لا احد ... كان القمر يسكب ضوءه على صليب ، وعلى الاحجار ، بصورة لا يمكن ان يفوتني معها وجود شخص ما . . . فلما هممت بالذهاب صادفت امرأة ، ملفحة في نقاب الحزن ، وفي يدها منديل ... اني اعرف النساء ... كانت الطريق العريضة المؤدية الى المدينة بيضاء تحت اشعة القمر ، وكنت اسمع وقع خطواتي ، لم يكن هنالك من يتبعني ، وهكذا بلغت منفرداً اطراف المدينة حيث استقبلتني بيوت الضواحي والفنادق ، وترددت في اذني اصداء الجلبة والضوضاء ...

اشعر بتحسن حالي ... الآن وقد عدت احس برغبة ملحة كنت قد نسيتها منذ زمن طويل ، أحس برغبة قوية لفتح نافذتي ، لاسمع جلبة الشارع ، لاسمع اصواتاً بشرية ... ولكن الليل هرم وخرس ... تكاد اصابعي تجمد من البرد وانا اكتب ، والضوء يضطرب رغم سكون الهواء ....

كنت مستنداً الى جدار المقبرة ، وكانت صفصافة ضخمة تحجبني عنهُ . . . بكّرت كثيراً لاكون الاول ، وصلت وفي غرفة الحفار مصباح يضيء ... جاء بعدي

كثيرون ، نساء على الاخص ... وفجأة ... هو ! ... اقترب بهدوء من المكان المعتاد ، اقترب بهدوء بسيفه الواسعتين الحزينتين ، ثم جثا على اقدامه ... بذلت قصارى جهدي لاراه جيداً ... فرأيته يجثو على ضريح امرأتي !!!

انقطعت عن كل حركة ... اخذت أنفاسي تتردد لاهفة متقطعة ... تشنجت اصابعي وهي تشدّ على اغصان الصفصافة ... مرت دقائق ... لم يكن يصلي ... لم يكن يبكي ... واخيراً نهض وشرع يطوف بدون وجهة معينة ، كما كان من عادته ان يفعل ... فاقتربت من الضريح ، ووقفت على بعد منهُ ، مستنداً الى حاجز حديدي يكتنف ضريحاً آخر ، واذا بهِ يعود من ناحيتي وينظر اليَّ بهدوء ... ويستأنف سيره ... ويمر ... اردت ان اسأله ، ولكني لم افعل ... شيّعتهُ زمناً طويلاً بأنظاري ، الى ان اختفى وراء الكنيسة !

لا اعرف بماذا كنت اشعر ، ولا اعرف بماذا اشعر الآن ! ... ولكن سيأتي يوم ... ربما كان غداً ، اراه فيه ، واسأله ، واعرف كل شيء !

* * *

آه يا لها من ليلة ! لا أستطيع ان أرقد ! لم تبلغ الساعة الواحدة . . . فلماذا لا اعود الى المقبرة ؟ ... ماذا استطيع ان افعل هنا ؟ . . . هيا بضع ساعات صبر ، بضع ساعات فقط ، وجنوني يعرف لهُ حدًّا . . . يتضح كل شيء ولكن الى ان يتضح ؟ . . . صبراً ! . . . بضع ساعات وتنقضي !

* * *

أجل على ضريح إمرأتي ! . . . هنالك رأيتهُ مرة ثانية ! ! ! كنت على بعد عشر خطوات منهُ ، لماذا لم انقض عليهِ ؟ ولماذا لم أقطع عليهِ الطريق ؟ عندما شاهدتهُ يبتعد ؟ أليس من حقي ان أسأله عن اسمهِ ؟ وممن أستطيع ان استفهم اذا لم استفهم منهُ ؟

حين أراد تخطي الباب تبعتهُ ، ولكن يظهر انهُ أحسَّ بي ، أجل لست مخطئاً ، لقد أحسَّ بي ، ولذلك حثَّ خطاه مسرعاً ، وأنا بدوري حثثت خطاي ، حتى اذا بلغت الباب ضاع عن عيني لحظة ، ثم ابصرته يمتطي سيارة ، اندفعت تعدو بهِ مسرعة . . . لم تكن هناك سيارة أخرى ، فطاردته راجلاً ، ولكنهُ لم يلبث ان ابتعد عني كثيراً . . . مدة طويلة ، طويلة جدًّا ، وقفت أشيّعهُ بنظراتي كانت

الطريق مستقيمة ، فما زلت أراقبهُ عن بعد حتى اختفت السيارة عن بصري ، فلبثت في ذلك المكان كما أنا الآن لأبث أمام هذه الورقة في حالة قريبة من الجنون ! من هو هذا الرجل ؟ الذي يتجرأ على ان يجثو على ضريح امرأتي ؟ من يكون لها؟ كيف أعرف ذلك ؟ كيف أراه ثانية ؟ . . . آه ! ان ماضي بأسره يتفكك ! إن ماضي بأجمعه تعبث بهِ يد التشويه ! هل انا مجنون ؟ . . . أمن الممكن ان لا تكون قد احبتني ؟ . . . ألم تكن تقف وراء هذا الكرسي ؟ ألم تكن تضع شفاهها على جبيني وتلف ذراعيها حول عنقي ؟ . . . ألم نكن سعيدين ؟ . . . ولكن من يكون اذن هذا الشاب الاشقر الجميل ؟ . . . ولماذا بدا لي محياه غير غريب عني ؟ . . . انهُ ليخيل إليَّ الآن انني شاهدته مراراً في المسارح وفي المغاني ، جالساً تجاهنا وعيونه مسدَّدة الى امرأتي ، لا تكاد تحيد عنها ! . . . ألم يكن هو الذي وقف ذات يوم عند مرور سيارتنا ، وتبعنا زمناً طويلاً بنظراته ؟ من هو ؟ من ؟ من ؟ أيكون عاشقاً افلاطونيًّا ؟ لم تعرفهُ ؟ ولم تتجه انظارها اليه قط ؟ . . . لو لم يكن الامر كذلك لعرفتهُ أنا أيضاً ، إذ كان لا بدَّ لهُ أن يبحث عن وسائل ليرانا في المجتمعات وليتحدث الينا . . . ولكن كلاَّ ! . . . ربما كان يحذرني . . . انهُ تعرَّف على امرأتي ولم يتعرَّف عليَّ ، فتبعها في الشارع وتجرأ على توقيفها . . . كلاَّ . . . لو كان شيء من ذلك لأعلمتني به . . . ولكن هل كانت تعلمني بهِ ؟ واذا كانت تحبهُ ؟ . . . ولكنها كانت تحبني ! . . . كانت تحبني ؟ من أين لي هذه الثقة ؟ ألأنها كانت تقول لي ذلك ؟ جميع النساء يقلنَ ذلك ! . . . والخبيثات يسرفنَ فيهِ أكثر من الطاهرات . . . أوه ! سأجده وسأسأله ! . . . وهو ، على فرض أنها أحبتهُ ، باذا يجيبني ؟ . . . أزور ضريحها لاني كنت أحبها ، ولكنها لم تعرف ذلك قط ! . . . هل استطيع ان اضطره الى قول الحقيقة ؟ . . . ما العمل ؟ . . . هل أستطيع أن استمر احيا هكذا ؟ ؟ ؟

* * *

ثلاثة أيام لم اشاهده خلالها ، كنت اذهب كل يوم ، ولكنهُ لم يعد ثانية . . . الحفارون يجهلون اسمه ! ربما كان قد سافر . . . ولكنهُ سيعود ! . . . سيعود ؟ واذا كان قد توفي ؟ . . . اذا كان قد توفي لانهُ لا يستطيع ان يحيا بدونها ؟ آه ! ان المسألة تبعث على الضحك : أيكون هنالك رجل آخر لا يستطيع ان يحيا بدونها ؟

ان تكون لي سوى رغبة واحدة ، وهي ان اقول له : «سيدي المحترم . لا تذهب في تهجمك عليها الى هذا الحد ، اذ من المحقق انها احبتني انا ايضاً » اريد ان اجمله غيوراً ... قذفت برسمها تحت منضدتي ، هوذا في وسط الغرفة ، على الارض بين رسائلها ، بين رسائلها التي كانت تحفظها في خزائنها وأدراجها ، فتحتها كلها ونبشت فيها ... ماذا وجدت ؟... رسائل كنت ارسلتها اليها ازهاراً كنت اعطيتها اياها ، وشرائط حريرية ، وتذكارات ... ربما كانت بين كل ذلك زهرة مقدمة من قبله ... كيف اعرف ذلك؟ وماذا كنت ابغي العثور عليه ؟ او هل تحتفظ المرأة بشيء يمكن ان يخونها ذات يوم ؟ افرغت جيوبها ، وقلبت أثوابها ، باحثاً عن ورقة، ورقة غرامية ، تكون قد نسيتها سهواً ... لكنها لم تنسَ شيئاً !!!

لم اعد بعد ذلك الى المقبرة ، اني ارتجف لمجرد التفكير برؤية ذلك الضريح ! احيا الآن ساعات اخف من قبل ، لان الايام الاولى قد عبرت دون ان يصاب عقلي بخلل ، وعليَّ ان اقنع بعدم معرفة الحقيقة ابداً ... كم احسد الرجال الذين يعرفون ان نساءهم تخونهم ، اذ انهم متأكدون من مصيبتهم ! وكم احسد اولئك الذين اذا امضهم الشك فاستطاعوا ان يراقبوا نساءهم، على امل ان تخونهنَّ كلمة ، او نظرة ، او حركة !!! اما انا فقد قضى عليَّ الهلاك ! لان الضريح اخرس لا يجيب! ويتفق لي احياناً ان انتفض في الليل مذعوراً من كابوس مخافة ان اكون قد دنست ذكرى امرأة طاهرة !!! آه ! لو استطيع ان احب ذكرى تلك المرأة التي منحتني ذلك المقدار العظيم من السعادة !!! لو استطيع ان ابغض تلك المرأة التي خانتني وعبثت بكرامتي ؟...

اعدت رسمها الى منضدتي ... لمته من الارض وأعدته الى مكانه ... لماذا لا استطيع ان اعبدها ؟ و... ان اجثو امام رسمها كما اجثو امام رسم قديسة وأبكي؟

لماذا لا استطيع ان احتقرها؟...ان امزّق هذا الرسم وأن ادوسه بأقدامي???

طيلة ليالٍ كثيرة ... بكاملها ... لبث نظري عالقاً بهاتين العينين ، الصامتتين ، الباسمتين ، الحافظتين بالالغاز !!!

ازاك شموش
استاذ اللغة والآداب العربية
في الجامعة العبرية بالقدس



شيكاغو

Chicago

للشاعر كارل ساندبرغ

يطالع القارىء في هذا العدد من المقتطف مقالاً نفيساً جداً في « آلية الفن » ص ٣٠٨. وقد أشار كاتبه في آخر فصله الرابع الى أمثلة من الشعر الاميركي تمكن القارىء من استلماح تطور الآداب وتأثرها بحضارة القرن العشرين الآلية . وقد أرفق بمقاله قطعتين مختارتين اكتفينا الآن باحداهما — وهي التي عنوانها شيكاغو — على ان ننشر الثانية وعنوانها التربين Turbine في عدد تال. والشاعر صاحب « شيكاغو » ولد في أميركا سنة ١٨٧٨ من أصل سويدي وقد عالج الاعمال اليدوية في حداثته وحارب في جانب أسبانيا في بورتوريكو وهو في العشرين ثم انصرف الى الادب والصحافة

يا جزارة الخنازير للعالم …

يا خالقة الآلة … مكدسة الحنطة …

اللاهية بخطوط القطارات … القابضة وسق [1] الشعوب .

إنك عاصفة … أجشة الصوت … مكافحة … مدمدمة …

يا مدينة ذوي الاكتاف المربضة :

يحدثونني بأنك فاجرة ، وأنا أومن بما يحدثون …

لأني رأيت نساءك ذوات الاصباغ …

يغررن — على ضوء مصابيح الطرق — شباب الريف

وينبؤونني بأنك معوجة … ملتوية الخلق …

فأجيبهم : أجل . ! حقاً ما تقولون …

فقد شاهدت المجرم يزهق الارواح بمندقيته …

ثم ينطلق حراً ليقتل ثانية

ويخبرونني بأنك وحشية … أما جوابي فهو : —

---

(١) الوسق هو أجرة الشحن

على أوجه النساء والاطفال ... قد طالعت علائم الجوع الشرس ...

وعند ما ألقيت اجابتي ...

التفت الي من استهزأ بي ، وعيرني ببلدتي ...

فرددت اليه هزءا بسخرية ، وقلت : —

أروني بلداً آخر .....

يشمخ برأسه ... وينشد بكبريائه ...

ليكون حيًّا ... نظًّا ... قويًّا ... داهية .. !

« أنظر اليه يرشق الاعمال المكدسة المنهكة باللعنات الحارة ...

هذا العملاق الجريء المتمرد !

الذي يواجه المدن الصغيرة متجلباً في الفضاء » (١)

انهُ ضار كالكلب ، يلغ بلسانه وراء العمل ...

محتال كالوحش الذي يهيم في الفلاة .

انهُ عاري الرأس ... يجرف ، يدس ، يخطط ...

يبني ... فيهدم ... ليبني ثانية ...

وسط الدخان ، يكلل الغبار فمه ، يضحك عن أسنان بيض ،

تحت عبء القدر المرعب ، يضحك كما يضحك الصبي الغرير ...

يضحك كما هو محارب ساذج لم يخسر معركة واحدة .

يضحك لان تحت معصمه يضرب النبض ... وبين ضلوعه قلب الشعب .

يضحك ضحكات الشباب العاصف ، الاجش الصوت ، المكافح .

نصف عريان ... ينضب عرقاً ...

فخور لانهُ جزار الخنازير

خالق الآلة ... مكدس الحنطة ...

العابث بخطوط القطارات ... القابض وسق الشعوب

[ترجمة : زهدي التاجي الفاروقي]

(١) في الاصل : —

"Hinging magnetic curses
Amid the toil of piling job on job,
Here is a tall bald slugger
Set vivid against the little soft cities.

باب الأخبار العلمية

العلم واذاعته وفوائدها (1)

عند ما شرفني حضرة مستشار الاذاعة الاستاذ محمد سعيد لطفي بأن اجعل «العلوم المبسطة» الموضوع العام الذي تدور من حوله احاديثي المذاعة لبيت عن طيبة خاطر . لبيت لانني موقن ان نواحي متعددة من المباحث العلمية تنطوي على كثير مما لا يبلغه الخيال احياناً من المتعة الذهنية الخالصة ولانني اعتقد ان تحبيب العلم الى الناس انما هو توطئة لا بد منها لخلق بيئة روحية تعز العلم والمشتغلين به فتنجب العلماء . ولست اعرف امة واحدة في هذا العصر ، استطاعت ان تبلغ شأواً بعيداً فيه الا بعد ان خلقت هذه البيئة . وأحيت هؤلاء الرجال . وعلاوة على ذلك وذاك ، انني أرى بالاختبار ان العلم الصحيح ، يطبع طالبه بالصفات الروحية المثلى ، بالصبر والصدق والانصاف والاخاء ، فاذا ساوره الغرور وفاخر بما ادرك من علم وقوة ، فلينقلب الى كتاب من كتب الفلك الحديث ، او ليرسل طرفه في هذه العوالم المنثورة في رحاب الفضاء وفي ذهنه شيء من تلك الكتب ، يعرف عندئذ مدى جهله ومبلغ ضعفه فتدركه سجية التواضع والدعة . ان العلم يثقف العقول فيدنيها من قدس الحق لانه يجهزها بوسائل للبحث عن الحق . ويعلمنا

ألا نقنط حين تحدق بنا المصاعب لان العلم لا يتقدم ، وهذه المخترعات العظيمة لا تتم ، الا بالبحث الدقيق والصبر الجميل والمثابرة التي لا ينقطع حبلها . ثم أن كل خطوة يخطوها العالم الى الامام توقظ فيه ذلك الحبور الروحي الذي كان ينسب الى الحكماء الاقدمين عند ما تأخذهم نشوة الفكر الاعلى

يضاف الى هذا ان غرض العلم الأبعد غرض روحاني . هو تحرير الناس من ربقة الاستعباد للقوى الطبيعية بتوفير الراحة والرفاهة للجسم فيتحرر العقل ويتسع امام النفس افق المعرفة والفهم . ولقد صدق من قال ان المعرفة تحرر المستعبدين لا الثورة .

على ان هذا لا يعني : سيداتي وسادتي ، ان العلم خير محض . ضل من يحسب ذلك ومجرد الاشارة الى معدات الحروب الحديثة وما يصحبها من ألم وويل يكفي . ثم ان الحضارة الحديثة مصابة بالتواء في اجتماعها وعرج بما تخلقه الآلات الجديدة من تعطيل العمال عن العمل وإقامة شبح الفاقة والعسر جنباً الى جنب ووجهاً الى وجه مع تمثال الثروة والمتعة

الا مرد هذا وذاك ليس الى العلم نفسه . فهو يعطينا الاسمدة بيد والمفرقعات بأخرى ،

---

(1) كلمة أذاعها رئيس تحرير المقتطف في العيد الرابع لمحطة الاذاعة المصرية في ٣١ مايو ١٩٣٨

والاشعة السينية والمخدرات الطبية بيد، والمدافع الرشاشة والغاز الخانق والمغيبات بأخرى ، والمفرقعات نفسها تستعمل لشق الترع وفتح المحاجر كما تستعمل للهدم والقتل . والصلب لا يحصر استعماله في صنع الأسنة وسك السيوف بل هو يستعمل ايضاً في صنع المحاريث والسيارات والحصادات وسكك الحديد. فالعلم بحد نفسه لا يخدم اله الحرب دون اله السلم ، وانما يعود الفرق بين احسان الاستعمال واساءته الى نفوسنا وشهواتها وأغراضها الادبية . هنا السر مكشوف. ذلك بأن قوة الانسان قد سبقت حكمته في احكام استعمالها . فالعلم لا يغير رغبات الانسان الاصلية وانما يمهد له سبيل تحقيقها . هنا نخرج من ميدان العلم الى ميدان التعليم . بل هنا نخرج من العلم الى الاجتماع . فلو ان العلماء كانوا أنفذ بصيرة ورجال السياسة أبعد فهماً ورجال الاعمال أقل عناية بالكسب الفادح ورجال الحكومات اعظم اقداماً وأبعد بصراً، ورجال التعليم أشد اتباعاً بمبادىء الاسلوب العلمي ، لكان في المستطاع ، ان يوقى المجتمع الحديث جانباً غير يسير من الرجة والقلق اللذين أصاباه من ارتقاء العلم في العصر الحديث

هذه البيئة الروحية العالية التي ينجب فيها العالم الصحيح ويكرم — هي على مدى فهمي — الغرض الذي تبغيه ادارة الاذاعة العربية المصرية ، من نشر الاحاديث العلمية المبسطة ، على اختلاف مذيعيها وموضوعاتهم . وفي وسعي ان اقول متواضعاً ان مستواها في الطبقة العالية مادة وبياناً . والفضل في ذلك عائد الى مستشار المحطة وأعوانه الافاضل . فأنا اذ اشترك في هذا العيد ، اشارك بوجه خاص في الاحتفال بتقدم الفكرة العلمية في البلاد ، وتشجيعها باذاعتها على اجنحة الاثير

* * *

تجاور النبات وتأثيره في نموها

كثيراً ما تفضي المكتشفات العلمية الى ارتقاء العلم المحض . ومن أحدث الادلة على ذلك تفرد باحث الماني يدعى الدكتور هانس موليش Molisch الى حقيقة جديدة عن نمو النبات ، بالاستناد الى اكتشاف عملي في انضاج الثمار

فقد ذاعت في السنوات الاخيرة طريقة لانضاج الثمار بتعريضها لغاز الاثيلين . وقد أشرنا الى ذلك في حينه في المقتطف . ومن الامثلة على ذلك ان تعريض الليمون والموز لغاز الاثيلين مدة قصيرة ينضجهما طبعاً ويحوّل لونهما الى الاصفر خلال بضعة أيام . ثم تبيّن لبعض الباحثين انهُ اذا وضعت ثمار نضجت مبكرة قرب ثمار متأخرة النضج ، أثرت الاولى في الثانية فيسرع نضجها

هذه الحقائق والمشاهدات حملت فريقاً

من الباحثين ، بينهم الدكتور موليش ، على اجراء تجارب بغية الوصول الى سر ذلك . فأسفرت التجارب عن اشياء تستوقف النظر بل وتبعث على الدهشة

***

وقد دارت احدى هذه التجارب على فروخ نبات من فصيلة الفول وفروع شجرة تفاح

أخذ الدكتور موليش أولاً بزور النبات الذي من فصيلة الفول وبزور الحمص وزرعها في حوجلات تحتوي على رمل ومحفوظة في الظلام . وعدَّد الحوجلات التي على هذا المنوال ولكنهُ وضع في ثلاث منها تفاحاً ناضجاً . وما لبث حتى تبين فروقاً تستوقف النظر في فروخ البذور بعد انتاشها . فبعد خمسة أيام تبين ان سوق الفروخ في الحوجلة التي لا تحتوي على التفاح يبلغ طولها ٨٥ مليمتراً حالة انها لا تزيد في الحوجلات المحتوية على التفاح على أكثر من أربعة مليمترات . هذا في ما يخص نبات الفول . أما سوق الحمص فكانت المقاييس ٧٥ مليمتراً و ٥ مليمترات على التوالي . ففروخ الفول كانت أبطأ نمواً حيث كانت الحوجلة حافلة بالابخرة الصاعدة من التفاح الناضج . وكذلك فروخ الحمص . وكانت الجذوع في الحوجلات النقية الهواء مستقيمة حالة انها كانت معوجة في الحوجلات التي فيها التفاح

وقد مكنتهُ هذه التجربة بعد تنويعها من ان يثبت أن التفاح لا يبطىء نمو النبات بل يزيدهُ اذا كان مدى تأثيره في النبات قصيراً . وهذا القول يستقيم مع ما يعرف عن تأثير السموم والمواد المهيجة في الجسم فانها اذا كانت مركزة أضرت بهِ ولكنها اذا كانت مخففة كانت ذات فائدة

وتأثير التفاح في النبات المجاور لهُ ناشيء عن الغازات المنطلقة من التفاح . هذا الغاز هو غاز الاثيلين وهو ينطلق في جوّ الحوجلة فتتناولهُ النباتات المنتشة فيؤثر فيها التأثير المتقدم ذكرهُ

ثم جربت تجارب أخرى ظهر منها ان ثماراً أخرى كالكمثرى والخوخ والدرّاقن تؤثر تأثيراً قويًا في الفول وغيره من الخضراوات . وللبرتقال والبرتقال اليوسفي والليمون والموز والمشمش تأثير من هذا القبيل ولكنهُ أضعف من تأثير الثمار الاولى

ثم نوعت التجربة فبدلاً من ان يوضع التفاح كاملاً في بعض الحوجلات وضع قشره في بعضها ولبهُ في البعض الآخر ، فظهر ان تأثير القشر ضعيفٌ وتأثير اللبّ قوي وامتحن تأثير الجذور فظهر ان الغازات التي تطلقها تؤثر أيضاً تأثيراً متفاوتاً في نمو النباتات المجاورة لها

***

ومن النتائج التي أسفرت عنها هذه التجارب ان الغاز المنطلق من التفاح يعجل سقوط الاوراق من الغصون

أكبر جزيء في الجسم

كشف الدكتور سترن Stern والدكتور ويكوف Wyckoff وهما من اساتذة جامعة يايل الاميركية صبغاً جديداً احمر في الكبد وفصلاه مستقلاً باستعمال جهاز جديد من اجهزة القوة الطاردة ، فاذا الجزيء يفوق جزيء الخضاب (الهيموجلوبين) خمسين ضعفاً حجماً . وقد تسنَّى لهما هذا الكشف خلال بحثهما في كبد الفرس عن انزيم enzyme كبير الشأن يدعى كاتالاز Catalase

قال الدكتور سترن عند قراءة رسالته في هذا الموضوع أمام الجمعية الكيمياوية الاميركية في فرعها النيويوركي ما يلي : « وهذا الصبغ الاحمر يختلف على مدى ما نعلم عن أية مادة أخرى في الكبد او غيرها » ولم يعلم من خواصه بعد ما يمكن كاشفيه من وضعه في طبقة معيَّنة من المواد الكيمياوية المعروفة . ولكن وزنهُ الجزيئي يختلف من ٣٠٠٠٠٠ الى ٤٠٠٠٠٠ ولا نعرف مادة أخرى في اجسام الحيوانات العليا يمكن ان يبلغ جزيئها هذا الحجم . الاَّ ان جزيء « الهيموسيانين » وهو صبغ يوجد في دم الحيوانات غير الفقرية ويحتوي على النحاس قد يقاربه

ولا يزال العمل البيولوجي الذي يقوم به هذا الصبغ الاحمر الذي كشفه سترن وويكوف غامضاً ولكنهما يريان ان له صلةً باستعمال الاوكسجين في جسم الحيوان

* * *

أتغشى بلوطو طبقة من الهواء السائل ؟

لا يخفى على قراء المقتطف أن « بلوطو » هو اسم السيار التاسع في النظام الشمسي الذي كشف في شهر فبراير من سنة ١٩٣٠ في مرصد فلاغستاف بولاية اريزونا الاميركية وكان لمرصد حلوان شأن كبير في تعيين عناصره

ومن رأي السر جيمز جينز العالم الانكليزي ان هذا السيار تغشاهُ طبقة من الهواء السائل لشدة بردهِ الناشيء عن بعده عن الشمس . وان هذه الطبقة تفعل فعل المرآة ، فلا يرى الضوء منعكساً الى مراقبنا الاَّ من وسطها أما الضوء المنعكس عن أطرافها فلا يصل الارض . ولذلك يتعذَّر ان يتخذ اشراق السيار البادي لمراقبنا أساساً لحجمهِ ، فهو أكبر مما نظن

فاذا اخذ العلماء بهذا الرأي ، استطاعوا ان يفسروا تأثير هذا السيار في حركة السيارين اللذين قبلهُ وهما نبتون وأورانوس . وهذا الاضطراب في فلكيهما هو ما حمل الاستاذ بكرنغ على القول بوجود سيار وراء نبتون قبل عشرين سنة او أكثر ، فلما كشف « بلوطو » تعذَّر على العلماء ان يوفقوا بين صغر حجمهِ البادي وتأثيره في فلكي نبتون واورانوس فتحيَّروا

تاريخ كلية الجراحين الملكية بلندن

انتخب الدكتور محمود يومي الجرّاح المصري والاستاذ بكلية الطب المصرية زميلاً في كلية الجراحين الملكية بلندن وهو اول مصري انتخب زميلاً وأول اجنبي من ثلاثين جرّاحاً انتخبوا للزمالة فيها في الاربع والستين السنة الماضية

كانت الجراحة في العصور الوسطى يمارسها الحلاّقون، وفي سنة ١٥٤٠ اصدر البرلمان الانكليزي قانوناً يقضي باتحاد هيئتين مختلفتين كانتا قائمتين في ذلك الوقت احداها تعرف باسم حلاّقي لندن، والاخرى باسم جرّاحي لندن. وكان لا بد من تعيين اربعة رؤساء سنويًّا: اثنين من الحلاّقين، واثنين من الجراحين وقد حظر على الحلاّقين ان يقوموا بعمليات جراحية فيما عدا خلع الاسنان كما حظر على الجراحين ان يمارسوا مهنة قص الشعر والحلاقة . . .

وفي خلال القرن التالي تقدمت الجراحة تقدماً كبيراً ولم يأت عام ١٦٨٤ حتى وجد الجرّاحون ان اشتراكهم مع الحلاقين لا يلائمهم ويسبب لهم مضايقة كبيرة . وأخيراً أصدر البرلمان في سنة ١٧٤٥ قانوناً آخر يقضي بحل الاتحاد وإنشاء هيئتين مختلفتين . فتألفت هيئة الجرّاحين باسم أساتذة فن الجراحين بلندن وهذه الهيئة تطورت مع الزمن حتى صارت كلية الجراحين الملكية بانجلترا وهي تضم اليوم ٢٠٤١٦ عضواً

والكلية الملكية ذات شهرة عالية وهي تضع قواعد الامتحانات وقبول الاعضاء وتنظر في جميع المسائل الخاصة بسوء سلوك الزملاء والاعضاء ولها سلطات مطلقة . وكل عضو او زميل يعزل بقرار من المجلس ، يفقد جميع حقوقه وامتيازاته وتصبح شهاداته (دبلوم) او شهاداته العلمية ملغاة

وزمالة كلية الجراحين الملكية امتياز تصبو اليه النفوس كثيراً ، وفي الامكان الفوز به بتأدية امتحان صعب دقيق ينقسم الى قسمين : الاول في التشريح والفيسيولوجيا ، والثاني في الپثولوجيا وفن جراحة العظام والجراحة عامة وغيرها من العلوم التي يرى المجلس من وقت الى آخر انها لازمة

وفي لندن الآن خمسة عشر جراحاً مصريًّا يعملون لتأدية هذا الامتحان في المستشفيات التي يعترف بها المجلس للتعليم . ويبلغ عدد الذين نالوا لقب زميل بعد الامتحان ٢٣٣٣

ويمنح المجلس من وقت الى آخر الزمالة الفخرية لاشخاص عظماء ممتازين . وقد نال المغفور له الملك فؤاد الاول هذا اللقب في أغسطس سنة ١٩٢٩ ويحمل الدكتور علي باشا ابراهيم هذا اللقب الفخري ايضاً وقد ناله في نوفمبر سنة ١٩٢٨

أما شرف الزمالة بالانتخاب فيندر ان يمنح لطبيب . ولم ينتخب في الاربع والستين السنة

الاخيرة سوى ثلاثين زميلاً وهم يشملون اشهر الجراحين البريطانيين ، والدكتور بيومي هو أول جراح اجنبي أنتخب زميلاً لهم

وتقضي لوائح المجلس بان يكون التفوق في الجراحة او في العلوم التي لها علاقة بالجراحة ، أهم المزايا التي تبرّر التوصية بقبول المرشح زميلاً ولا يجوز تقديم طلب شخصي الى المجلس ولا يقبل ترشيح مباشر ولكن يجوز ان يعرض على المجلس اقتراح بقبول عضو مضى عليه عشرون عاماً على ان يوقعهُ ستة من أعضاء المجلس يجاهرون بأنهم يرون ان الشخص المرشح يصلح للقبول في زمالة الكلية . وبعد ذلك يقترع المجلس على قبول شخص يرشح بهذه الطريقة في الاجتماع الذي يعقده كل ثلاثة أشهر . وعلى كل عضو في الكلية يقبل بهذه الوسيلة في زمالتهم ان يتعهد امام المجلس بما يلي فيقول:

« أنا فلان العضو بالكلية الملكية للجراحين بانكلترا : أعلن باخلاص وصدق انني سأراعي ، ما دمت زميلاً في الكلية المذكورة ، قوانينها وان اطيع كل نداء مشروع يصدر باسم مجلس الكلية ما دام ليس لديّ عذر معقول يحول دون ذلك »

* * *

اكبر ألسنة الشمس

في المقال « الكلف والاشعة الكونية » — راجع صفحة ٢٧٤ من هذا العدد — يجد القارىء اشارة الى الالسنة التي تندلع احياناً من سطح الشمس ويبلغ ارتفاعها عنهُ ٢٥٠ الفاً من الاميال احياناً

وقد اطلعنا ونحن نكتب هذه السطور على ان علماء مرصد جبل ولسن بكاليفورنيا رصدوا اكبر لسانٍ من هذه الالسنة النارية سجلتهُ الآلات الفلكية على ما يعلم، اذ بلغ ارتفاعهُ عن سطح الشمس بحسب القياس الذي قام بهِ الدكتور بتيت Pettit ٩٧٠ الف ميل وكان لايزال آخذاً في الارتفاع عندما اخذت الصورة التي بني عليها هذا القياس . واعظم ارتفاع سابق لاحد هذه الالسنة كان ٦٧٠ الف ميل، رصد وقيس في ١٧ سبتمبر ١٩٣٧

الطيران حول الارض

في خلال شهر يوليو الماضي تمكن الشاب الثري الاميركي رتشرد هيوز من الطيران حول الارض في اقل من اربعة ايام فتخطى بذلك الرقم القياسي الذي ضربهُ ويلي بوست اذ طار حول الارض في سبعة ايام . ولكن بوست كان يطير وحدهُ بطيارة قديمة . واما هيوز فاستقلّ طيارة من احدث طراز وكان معهُ رفيقان . ولكلتا الرحلتين فائدتها في شق الطرق الجوية فالاولى مهدت الطريق والثانية اثبتت امكان زيادة السرعة واستعمال طيارة كبيرة تتسع لاكثر من واحد

***

— هل تعلم ان من الدائرة القطبية الشمالية ينابيع حارّة تبلغ درجة حرارتها ٩٠ درجة مئوية ؟



النزعة العلمية في الادب الحديث

كما لمستها في ثلاثة كتب

الحياة في عصرنا تفهم على ضوء العلم الحديث ، ومن لم يتزوَّد من الثقافة العلمية استغلقت عليه اسرارها وضلَّ في تيهها سواء السبيل

تعقدت الحياة عما كانت عليه في القرون الوسطى ، حين كان العلم وليداً وكلما اتسع افقهُ وبعدت اغواره ازدادت تعقيداً ، فكيف بثقافة القرون الوسطى وما نحا نحوها وتفرع عليه نفهم هذه الحياة الراهنة ? وأحب ان لا يفهم من الحياة معناها الشائع وصورها المبذولة للجميع ، وانما اريد الحياة الكبرى ، حياة الاحياء والجمادات والعوالم المنظورة وغير المنظورة ، قبل ان يخلق الانسان وبعد ان عاش متسامياً من الكوخ وسط الغابة الى ناطحات السحاب في المدينة العصرية

هذه الحياة التي أعنيها هي قصة في اجزاء لا عدد لها ، ورواية شهد الزمن فصولها فوق مسرح لانهائي . ووعى التاريخ قليلاً من مشاهدها لعله أتفهها . وما كان التاريخ ليعي هذا النزر اليسير من رواية الحياة ، لو لم يرسل العلم اشعته الكاشفة على اشلاء الحضارات المطمورة وينبش طبقات الارض عن هياكل المخلوقات البائدة ويجوس جهابذته خلال الادغال والمجاهل بحثاً عن القبائل البدائية والجماعات الفطرية التي تمثل الانسانية في اوائل نشأتها ، دع عنك كشف العلم أسرارَ النفس والطبيعة — او ان شئت الدقة فقل بعض هذه الاسرار

فاذا طالبنا اديب اليوم وكتّاب هذا العصر — فضلاً عن المستنيرين — بالتوفر على الثقافة العلمية ، لم نكن مغالين او متجنين . فهكذا كان دأب الاديب والكاتب والمفكر في سائر العصور . ومن قراءة السير ، يتضح ان الجاحظ وأرازموس وفولتير وجيتا وبرنارد شو وألدوس هكسلي — وهم يمثلون الكاتب والاديب والفنان في مراحل ثقافية أجتازها العلم الحديث — استوعبوا ما وجدوه من زاد المعرفة في رفاقهم

***

مهدت بهذه المقدمة للكلام عن ثلاثة من كتّابنا اعتقد انهم في طليعة المجددين على النمط المتقدم ، هم الاستاذ فؤاد صرُّوف والدكتور بشر فارس والدكتور حسين فوزي — اتصلت

بالاول عن طريق صديقي العلامة العصامي في تحصيل الثقافة العلمية اسماعيل مظهر ، وعن طريق إنتاجه الغزير الذي قلما يشذ عن دائرة العلم — واتصلت بالثاني عن طريق المرحوم الاستاذ جورج طنوس الصحافي الذي ينسب اليه فضل ادخال العنصر الاستفزازي في اخبار الصحف اليومية ، وكان ذلك قبيل سفره الى باريس للحصول على الدكتوراه في الادب — واتصلت بالثالث عن طريق مدرسة الطب ، فقد انتظم طالباً فيها وأنا على وشك الرحيل عنها ، وتعاونا — هو وأنا ومحمود تيمور ومحمود طاهر لاشين على خلق القصة المصرية ، وانشأنا لها « مجلة الفجر » في سنة ١٩٢٥ —

الاستاذ فؤاد صرُّوف ، اكبر منافس لي ، بحكم عملي الصحفي الرئيسي ، فقد حذق تبسيط الثقافة العلمية وجعلها سائغة للجميع ، وأنا ارتزق من هذا الوجه . والوضع الطبيعي ، أن لا أرضى عنهُ — الوضع الطبيعي بين أهل هذا الزمن وكل زمان — لكنني شاذ ، وأحمد الله على هذا الشذوذ ، لانني لا أعيش لآكل الخبز ، وليس تبسيط العلم بالسبيل الوحيد لملء البطن والجيب ، والخير موفور والرزق الحلال كثير ، فلا داعي لاجتواء الفضلاء وبخس الناس أشياءهم

وذهب الاستاذ صرُّوف بفضل آخر عظيم ، لاغنى للنهضة العربية الشرقية عنهُ ، وأعني بهِ نقل العلوم الى لغة الضاد نقلاً صحيحاً ، ولقد وفق — بمفرده — إلى وضع مصطلحات عديدة تمطيه حق المطالبة بحشده في زمرة اعضاء المجمع اللغوي الملكي

وهذا الذي أسلفت لا يقاس بقدرة الاستاذ صرُّوف على القصص ، فأني والله دهشت حينما طالعت كتابه « أساطين العلم الحديث » في جلسة واحدة استغرقت ليلة كاملة من غروب الشمس الى شروقها

هؤلاء هم أبطال الانسانية حقًّا ، لا فريق السفَّاحين . . . هؤلاء شيدوا الحضارة الراهنة . الآخرون هدموا في أسسها واذا وجدتهم بنوا وشيدوا فبأيدي العلماء وبمادة العلم أقاموا الصروح ، بأنكار الذات وحب الحقيقة والتجرد عن شهوات الحياة والتسامي عن مغرياتها ومشاغلها وأطماعها ، فكرة واحدة عظيمة استولت عليهم واستغرقت جهودهم هي الكشف عن أسرار الطبيعة وقوانين الوجود بما فيهِ من صامت وناطق وحي وميت

تلك قصص أعجب من حكايات الغيلان والشطار والسحرة والمردة ، وهي مع ذلك حقائق لم ينسجها خيال « أمنا العجوز »

مغامرات وقمت ، لا ريب فيها ، وصراع مع الفناء ، واستنباط للرفاهية من الادقاع او العدم ، واستدرار للخير من ينابيع المحنة ، وبركات تفيض نوراً ، كل هذا قرأته ، فكأني طالعت الجزء الخامس من قصص الف ليلة وليلة

هذا من جهة اللذة الفنية والاستهواء الروائي ، أما المعلومات العلمية الصحيحة ، فقد حشد الاستاذ صرّوف — بطريقة دس الترياق في الدسم — في كتابه ما يغنيك عن الانتساب الى كلية العلوم

ليس فيما قدمت مبالغة ، وانهُ مما يجب ازجاؤه للاستاذ صرّوف . فلا ننتقل الى الدكتور بشر فارس معتذراً عن إفلاسي بضيق المقام

هذا الاديب الممتاز ، والشاعر المبدع قد عبّ من فلسفة برجسون التي تعتبر وليدة التزاوج بين الفلسفة بمعناها العريان وبين العلم الحديث ثم هو قد حذق طريقة البحث العلمي في اللغات ، لا سيما العربية ، تلك التي تَرِدُ اللفظة الواحدة الى منابتها في مجاهل الماضي ، وانها لرحلة عجيبة مضنية يسافر فيها الباحث دهوراً في طرق تعرج على صنوف الثقافات واجناس الشعوب . ويظهر ان الدكتور الفاضل ، قد درس «فرويد» الى جانب دراساته الشعرية والفنية . وأعرف أنهُ يندس في تضاعيف الحياة هنا وفي أوربا وفي الشرق الشقيق ، فاحصاً ملاحظاً . وقد نضج في العام الاخير عن قصة « رمزية » هي الاولى من نوعها في الادب العربي ، صدَّرها بمقدمة جاءت بذاتها عملاً أدبيًّا رائعاً . ومهما يكن رأي النقاد فيها ، فأني اعتبرها ثمرة لثقافته العلمية — هي شرارة انبعثت من قلب فنّان جملهُ واعياً وجعلهُ الفن منتجاً ، ومثل هذا العمل الفني لا يبدعه فنّان متخلف عن عصرنا ثقافة ونظراً الى الاشياء واستشفافاً للمستور من خلال الظاهر المرئي

ويقيني ان الدكتور بشر فارس لم يتحفنا بعد بأشهى منتجاته الفنية ، كالدكتور حسين فوزي حذوك الفذ بالفذ . فقد زاملت الدكتور فوزي في مدرسة الطب وصاحبتهُ في حياتي الادبية ، أو ناضلنا معاً في سبيل مثل أعلى نشدناه هو : خلق أدب مصري صميم ، وتحرير العقلية المصرية من العبودية الماضي والحاضر ، وبالطبع أدب مصر وعقلية مصر هما أدب العروبة وعقلية العروبة

كتاب « سندباد عصري » هو صرخة العقل المتحرر مرتاعاً من جمود الشرق الهندي واحتجاج المفكر المصري على خرافات أزمنت ومدها الطغيان والجهل بأسباب الحياة فعاشت سخرية الفهماء أجمعين

هذا الكتاب ، حديث نفس برمة وثّابة ساخرة ، وجدت في الهند للفكاهة — المتماهة حتى تسمو فتعود بكاءً وعويلاً ، لكني مع اغتباطي بنجاحه ، اطلب المزيد وأغلب الظن اني سأهنىء نفسي مرة اخرى وزيادة بنجاح زميلي مدير معهد الابحاث المائية

***

ايها الاخوان الثلاثة لقد هجوتكم بذلك المديح الاعرج فاغفروا لي ما تقدم من ذنبي

احمد خيري سعيد

مجلة الدراسات الاسلامية

Revue des Etudes Islamiques. Ed. Geuthner, Paris

صدر الجزء الرابع لسنة ١٩٣٧ من مجلة « الدراسات الاسلامية » التي يصدرها المستشرق المعروف الاستاذ لويس ماسينيون من أعضاء مجمع اللغة العربية الملكي في مصر . ومضمون هذا الجزء أربع مقالات مسهبة . الأولى في أمثال وطلاسم كردية بقلم المسيو لسكو — والثانية عن المسلمين في سورنام (الجويان الهولندية) وهم خليط من الجاويين والهنود ويبلغ عددهم نحواً من ٤٢٠٠٠ ، ولهم تشريع جديد خاص بهم يساير حدود الدين الاسلامي ، وتاريخ هذا التشريع ٣٠ مارس ١٩٣٧ ، وهذه المقالة بقلم المسيو بوسكيه الاستاذ في جامعة الجزائر — والمقالة الثالثة كشاف للصحافة الوطنية في تونس ، وفيه أربعة أجزاء : الصحافة العربية باللغة العربية ، والصحافة العربية باللغة الفرنسية ، والصحافة العربية — اليهودية ، والعناوين الثانوية للصحف العربية واليهودية . وفي خاتمة هذه الاجزاء جدول يبين عدد الصحف التي ظهرت في تونس من ١٨٦١ حتى ١٩٣٧ والمقالة بقلم المسيو زفادوفسكي — وأما المقالة الرابعة فبيان منطقي مفصل للحوادث الجارية في ايران وافغانستان والشرق الاقصى ، بقلم السيد حمزه محفوظ . وهذه الحوادث تنبسط على الشؤون الاجتماعية مثل الحركة النسائية ، والاقتصادية مثل تقدم الصناعات ، والثقافية مثل التعليم الجامعي

وخلاصة هذا الوصف ان « مجلة الدراسات الاسلامية » لا تزال تسير في الطريق التي خطتها لنفسها وهي الالمام بما يجري في الشرق العربي والبلدان الاسلامية لهذا العهد . والمجلة اذن خير معين لتعقب ارتقاء الامم الاسلامية وتتبع تحول الذهنية العربية

قصص وشعر

١ — ﴿ كان ما كان ﴾ عرفت الاستاذ ميخائيل نعيمه القصصي بعد ان عرفت فيه الاديب الناقد ، وقبل ان أعرف فيه المفكّر الفيلسوف . وكان اول ما قرأت له منذ سنوات قصة « العاقر » ثم رواية « الآباء والبنون » فقدرت في قصصه ذلك الضرب من الفن القصصي القائم على التحليل النفسي والتصوير الدقيق للبيئات وهو الضرب الذي برّز فيه كتّاب الروس . ولعلّ لاقامة كاتبنا في الروسيا ودراسته لآدابها أثرها في خلق هذا الروح وبثه في أدبه . وهو أرقى الوان هذا الفن في الشرق ، في نفوس أبنائه ، ثروات لهذا النوع من القصة لان في الحياة الساذجة التي يحيونها وفي العواطف والاحساسات والاستسلام للقدرية التي تستولي على هذه النفوس ما يساعد

الكاتب على التناول والدرس . لهذا كان تقدير أدباء العربية لادب التحليل النفسي لا يقل عن تقدير أدباء الغرب للقصة الروسية واستقبالها الاستقبال الممتاز

فلما أخرج الاستاذ نعيمة للناس مجموعة « كان ما كان » لمست فيها كل عناصر هذه الحيوية التي تضمن لهذا الضرب من القصة خلوده . وفي قصتيه « ساعة الكوكو » و « سنتها الجديدة » بساطة في الموضوع فلا تهويل ولا حوادث مفاجئة الا ما يضرب القدر به في سخريته غير ان المؤلف خلق لريشته ميدانها الفسيح في تصوير هاتين الشخصيتين « خطار » و « ابو ناصيف » وقد تجاذبتهما خواطر واحساسات تهبط الى اعمق الاغوار ثم تعلو فترق حتى تشف عن كل بساطتها تصويراً بارعاً

وفي القصة الاولى بنوع خاص أدقّ تصوير للمدنية الغربية في اصطدامها بالروح الشرقي . ولعلّ هذه الفكرة العابرة في القصة القديمة هي الاساس الاول الذي بنى عليه الاستاذ ميخائيل صورتهُ الرائعة للمدنية الاميركية فيما بعد من كتابه عن جبران تحت عنوان « تمخضت الفأرة فولدت جبلاً »

واذا كانت قصص هذه المجموعة من مواليد سني الحرب وليس فيها ما تجاوز هذا الحدّ فعسى ان لا يضن المؤلف على قرّائه المعجبين بأدبهِ، وبآثاره بعد تلك السنين في الناحية القصصية

***

٢ — ﴿ المجدلية ﴾ ان اروع ميدان للشعر هو القائم على التفكير القصص الديني فإن في هذه الناحية صوراً للشاعر البعيد الخيال ومجالاً لخواطره ، ولا يعنينا في ذلك شطط الشاعر او اعتداله وانما يعنينا من أثره قدرته على تناول موضوعهِ واداؤه واتجاه فكرته ومرمى غايته ودقة تصويره

وقد تناول الاستاذ سعيد عقل قصة مريم المجدلية تناول الشاعر البعيد الغور فصوَّر لنا هذه المرأة الخالدة خلود اسم يسوع اجمل صورة كما رسم ظلالاً للمسيح هي غاية في الفتنة والسحر . وقد وفق الشاعر الى المساوقة بين جرس الفاظه وبين الفكرة التي يسوقها فكل لفظة تعطي دورها وتعبر طريقها في نغم منسجم وبذلك خُلق للقصيدة جوٌّ من الخشوع والتأمل ، فانبثت في ثنايا سطورها خيالات عابرة من قرون غابرة تلمس النهوض فيغمرها هذا الرنين المتدفق

وللدلالة على توفيق الشاعر في صوره أنقل عنهُ هذه الظلال التي تعكس لنا صورة المسيح

كان ، في ذلك الزمان ، على تــلٍّ صغير ، مخضوضر الجنباتِ
شاعر رقّةَ الرضى شفتيه بنثر الياسمين في الكلماتِ
قام بين الامواج من نظر النــاس ومن مسمع الذرى الواجماتِ

يندق الآي في الانام، ويرمي للزمان الحادي بعيد صداهُ
نغمات بموج فيها : يسوعٌ هيهات يرفضُ عنها : اللهُ

***

تبكي رحمة العلى بين جفنيـــهِ اتكاء السنى بحضن البريه
ويجول السلام في شفتيهِ حلماً ابيضاً وأفقاً ظليلا
يلتوي نقلةَ الطفالى نحيلا ينثني مشية الملوك جليلا
الرياحين في يديه تعرّت وارتمت حول كفه اكاليلا
سربلتهُ أطيابهـا ، سربلتهُ سحب النور ، سربلتهُ الهيولى

فاما الصورة التي رسمها للمجدلية ، واما الصورة التي رسمها للقائها بالمسيح فأروع ما سيخلد في الشعر من صور

والقصيدة في مجموعها فيضٌ من إلهام أعنى دوام هبوطه على شاعرنا .وقد قدم الشاعر لهذه القصيدة ببحث فلسفي في الشعر لولا ضيق المقام لعرضنا للقراء منهُ بعض آثاره

***

٣ — « ارجوحة القمر » قرأت للاستاذ صلاح لبكي قطعاً متفرقة في بعض المجلات فاطمأنت روحي الى روحه الوديعة واحسست في رقة خياله وعذوبة لفظه ما يحس القلب الصادق الاحساس اذ يستمع الى انبعاثات قلب صادق التعبير مخلص في ابراز مشاعره

لهذا أرى ان ابرز صفات هذا الشاعر الصدق . وهو اقوى جناح لاحلال الشعر محله من القبول والتقدير فلا تجد بهرجة في اللفظ وتلاعباً فيه ولا زيفاً في التصوير

يرسم لك المشهد من مشاهد الطبيعة فلا ترى أمامك إلاَّ ما رآهُ هوَ بعينيه لم يزد عليه الاَّ الخيال الرفيق الذي يرفُّ بأجنحته الرقيقة فينفض من ألوانه السحرية ما يشيع فيه السحر فتخرج القصيدة وفيها حياة وحركة كما في قصيدته « مساء » التي يقول فيها :

مات لون النهار في الاحداقِ واستراح الدجى على الآفاقِ
وتعالت هناك أغنية الرا عي يسوق القطعان حول السواقي
وأضاءت على السفوح قرى لبـــنان ، يا القرى الملاح العتاق!
فالاساطير في خيال الروابي الـــشهل أطياف ذكرياتٍ رقاقِ

تعرّى ملء الزمان تروّيـه فيهوى الزمان وهي بواقي
ايه يا أخت نهل الناعم الـدافيء من غمرة الليالي الماق
علّنا ننتهي على نغم حلـو كلحن من رؤى العشاق
أو كرجع الصدى تغلغل في الصـخور ومرت الطيوب في الاوراق

وبهذه الريشة الخفّاقة نلمس ألواناً شتى من الشعر الصادق في قصائده « سفر تكوين » و « هفا الليل » و « الانتظار » و « احلام المساء » و « حلم عذراء » وغيرها . ولعل أروعها قطعة « الليل » . واستمع معي الى هذه الابيات من قصيدة « لامرتين » اذ يناجيه بمناسبة ذكرى انقضاء مائة عام على زيارته للبنان فترى في لمحة خاطفة :

نم قرير الطرف في ظل الفناء وأرح نفسك من وقر العناء
وانشق الراحة من كف الثرى فالثرى راحة أبناء الشقـاء
وظلام الرمس للعـين متى تعبت أرحم من وهج الضياء
ضجعة الشاعر في أكفانه ضجعة توجع غير الشعراء

قصائد صلاح لبكي نسمات رقيقة تحمل أصداء عذبة من فؤاد شاعر فيّاض بما في الحياة من جمال وسحر

حسن كامل الصيرفي

المقتطف : « كان ماكان » و « أرجوحة القمر » من منشورات مجلة « المكشوف » البيروتية ويطلبان منها . وأما « المجدلية » فقد نشرها يوسف غصوب ببيروت

ثلاثة كتب قرأتها

١ — نهم

قصة تأليف شكيب الجابري دكتور في العلوم — ٢٠٧ صفحات بقطع كبير — المطبعة العلمية بحلب

عندما فرغت من القراءة الثانية لهذه القصة ، سألت نفسي أصحيح ان مؤلفها هو شكيب الجابري السوري العربي ، ام هو شخص آخر من صميم اعالي شمال اوربا او من قطان قلب الجزر البريطانية ؟ ثم عدت فقلت سيان عندي أمن عنصر سامي كان كاتبها ام من عنصر آري ، او كان الدكتور الجابري يقص قصة اختبارات شبابه على ضوء كهولته [1] فالتزم الحياد التقليدي فاسبغ على بطل قصته عدة اسماء تترنح بين الروسية والجركسية والالمانية ، او قصها اديب غربي

(١) عرفت أن المؤلف في شرح شبابه انما صور حالات الكهولة تصويراً حملني على الظن بأنه كهل

لا يقيم للتقاليد حرمات بغية جعل قصته عالية يحسّ بها كل انسان في كل قطر وعصر ، وزمان ومكان بصرف النظر عن عنصره وجنسه سواء ، اكان هذا او ذاك ، ففي قصته « نهم » قوة قادرة على انتزاعنا من صميم ذاتيتنا لتقصينا عن فوضى الحياة ، وتسمو بنا الى عوالم تجعلنا نشعر بالطمأنينة فيها الى النظام الذي سنه عقل الانسان متحدياً الحياة في فوضى نظمها المشوشة ، ولمؤلفها طرائقه الخاصة ، لا في تصوير لمحات من صور الحياة كما هي فحسب ، بل في ما وسعه من هز شعورنا واستثارة احاسيسنا فجعلنا نقاسمه انفعالات نفسه في الحالات السارة والمكدرة ، ونستطيب عرض هذه الصور ، لا كما هي في الاصل ، بل كما يمكن ان تكون في عرف الفنان وقد ضمنها كثيراً من احتمالات ما في الطبيعة ، فاذهلنا عن الحواشي الفنية التي لا تستمسك كثيراً بالحقائق ولا تتشبث بها ، فأيقنّا ان في تبسيطه وسهولته وبساطته انهُ يقول الصدق الذي لا يشوبه ريب ! !

« نهم » قصة قلب فنان ، اصبحت له شخصيته المترفعة الطموح — بعد جدب وفحولة — لا تهب الحب الاَّ المرأة المجهولة البعيدة ، المرأة القدسية التي احاطها في مخيلته الخصبة بهالة من المحاسن النادرة العلوية ، قلب شاب يودّ ألاَّ يسلم مقاليده الاَّ الى امرأة يتخيلها كاملة في كل شيء ، حتى اذا لم يجد ، عمد الى امرأة ممن حولهُ ، وأسبل عليها من مخيلته الكساء الذي يروقهُ ثم وضع قلبهُ الثمل بخمرة خياله على مذبح هواها

عشرات من النساء طفنَ حول قلب الفنان وتنازعنه ، هجر الاولى لانها أغرقته بفيض نسويتها فلاذت بالدير ، وفشلت الثانية لانها ولجت طريقاً أضلها عن قلبه ، وهكذا الثالثة والرابعة الى آخر ما لا يحصى من عدد الطُلعات المفتونات بالشاب الاديب الذائع الصيت الذي أتقن فن الاستهواء والاستغواء وصار كصيّاد هرم يعرف الطريدة ويعرف بأي طعم تؤخذ ، يفعل كل ذلك طمعاً في استلهام موضوع لقصته أو إضافة خبرة جديدة الى معرفته

واذ يدور قلب الفنان دورتهُ ليتقبل سرّ الكون في الحب ، او يحين الحين الشاذ لايقاظ العواطف الهاجعة ، يجد قلبه قد ذوى ، ويلفي حيويته غاضت او نضبت ، فترده الفتاة التي صدمها بضعفه خائباً مرذولاً في حين أنها فتحت لهُ جوارحها وفتح لها قلبه بصدق ، فيتحول الى متفلسف مستقدس ، ويصير رسّاماً وموسيقيًّا يرسم الدموع والاحزان ، وينشد الآهات والتوجعات

ليست قيمة القصة في الوقائع التي تتألف منها ، ولا في كيفية ترتيبها ، بل قيمتها في الكيفية التي تؤدى بها ، ولقد استطاع هذا الاديب المختمر المتمكن ان يكيّف التأدية على أكمل وجه ، وأدق معنى ومبنى ، وقد نحا نحو كبار القصصيين المجددين في رسم هواجس النفس وتردد الخاطر ، ومحاسبة الضمير — او ما يسمونهُ ضميراً — وسلك مسلكاً فريداً في الحوار هو سمة القصة الممتازة ، بلغة عربية نقية سلسة ، واجتذب كل قارئ ، وقارئة من وعاة الذهن ويقظي

القلب ، وقسرهم على الاعترافات الفردية المخنوقة عن نزوات النفس ، ورغبات الجسد ، ومغالبة العاطفة ، وشجار العقل ، فصارت كل طُلعة من السيدات ومغامرة من الفتيات ، وصار ايضاً كل أديب يقول ، هذه هي قصتي

في وسعي ان أقول ، لو تُرجمت قصة «نهم» الى اللغات الاوروبية للقي مؤلفها الاديب الاريب خيرما يلقاه القصصي الموهوب ، ولرحب بها النقاد أحسن ما يرحبون بالعمل الكامل

هو ذا نجم أشرق في سورية يشير الى ميلاد قصصي

***

٢ — عمر افندي

قصة تأليف لطفي حيدر — ١٦٧ صفحة من القطع المتوسط — منشورات جريدة المكشوف

بين اكثر الاشياء واضدادها برازخ متدانية متقاربة ، ومن غرائب الصدف ان أكتب عن قصتين متناقضتين في وقت واحد ، وأعالج دراسة مؤلفين متضادين كأنهما تعاقدا على ان يقف الاول على أعلا الدرج وينكفئ الثاني على بسطة العتبة الاولى

أعدَّ الاول ، مؤلف قصة « نهم » جميع معدات القصة من موضوع ، وعقدة ووحدة ، وخاتمة ، وفن وصناعة ، وتوجيه وإيحاء ، وتدليل وتحليل ، واستلماح وغنى في الالفاظ ، ومقدرة على الاداء السليم ببساطة ، الى آخر ما هنالك من خصائص يذكرها الناقد بالذات ، وينساق معها الكاتب الموهوب بالسليقة ، ويماشيها المتمكن المكتسب وهو يقدر المصير منذ خطا الخطوة الاولى ولا يغفل اسباب الفراغ في المسافات بين الخطوة والخطوة . في حين ان الثاني مؤلف قصة « عمر افندي » أهمل جميع هذه المعدّات التي لا علم له بها ولا أبه لها والتي لا غنى للقصصي عنها ، وارتكن على قدح ذهنه ، وبقية باقية من انفعالات نفسه من جراء حب نبت عند مشرق الشمس ، وازهر عند الظهر ، وذوى وقت الغروب

يؤسفني ان أقول ان لا فائدة من الوقوف مع المؤلف الناشئ ولا محاسبته على فصول قصته التي تصلح لان تكون « رؤوس مواضيع » لصحيفة مدرسية لا رقابة على تحريرها ، ويسرني ان أنصحه بأن لا يأخذ نفسه بما كتب له كاتب في المقدمة

***

٣ — قميص الصوف

مجموعة قصص تأليف يوسف عواد — ١٣٢ صفحة من القطع المتوسط — منشورات جريدة المكشوف

للاقصوصة شأن آخر يختلف عن شأن القصة ، فبين هذه تجول في ميادين واسعة ، وتقتحم

أجواء فسيحة ، وهي تظل وتستظل ، ترى الفكرة الواحدة في تلك ترتكز على محور واحد يدور المؤلف حولها بلباقة وبساطة

لمؤلف هذه المجموعة القصصية قدرة على استخلاص عناصر القصة من الواقع ، وحرفة في أخذ الحدث الشائع يتذرع به للتقرب من أفهام الناس ، ليدلهم من بعيد على بعض لمحات من شخوص الحياة ، ولكنهُ كسول لا يكلف نفسهُ مشقة التوضيح ، او الايحاء والتوجيه، ولا يعنى بعقد العقدة ولا بتجريش ذهن القارىء على حلها ، لان لا رسالة له في كتابة القصة ولا غرض وهو يكتفي بالحكاية وحدها ، وللحكايات سواء أكانت خرافية ام حقيقية ، موضوعية ام ذاتية ، او كانت بين هذا وذاك ، طرف وملح مستحسنة مستحبة عند بعض الناس

فحكاية « الوسام » الذي منحه الحاكم الى « ابونا القسيس » مستثمر جهود العميان ومستغلّ اعمالهم ، وحكاية « توها » ذلك الجندي الجلف الذي خنق ابنته لانها ازعجته حين رقاده وخاصم زوجته لانها لم تلد ولداً ذكراً ، وحكاية « الرفيق كامل » ذلك الرجل الذي اعتنق المبادىء الشيوعية عن اعتقاد فانتهى به المطاف الى السجن ، وحكاية « بهية » الراقصة المتعطشة الى كتف رجل يحبها بصدق لتنجو من كذبها وأكاذيب عشاقها الوقتيين ، انما هي « حواديت » ينقصها النشاط الفني ، وإكسير الحياة ، يكسبان الافكار التي تمثلها حقيقة وروعة

وللمؤلف ولع خاص في التغالي بالاستمساك بالتعابير السائرة على ألسنة الناس من ابناء محلته وهذه الخاصة ، وان تكن مشكورة ، الاَّ انني لا استطيبها اصلاً لنبوها عن اللغة الفصحى ، ولتعمل الكاتب العامية تعملاً صارخاً ، ولاستبعاثه كلمات حوشية ماتت منذ حقب او اكثر

كل شيء في نهضتنا يدعو الى التجديد والاخذ بأسباب الرقي ، وأساليب العصر ، فالبائع الجوال في شوارع القاهرة ينادي على سلعته « عندنا نفتالين يمنع العتّ من الملابس » اما الطبقة المتعلمة من الجنسين فتكاد تتحدث بلغة تقرب من لغة الجرائد ، لذلك اخالف من يدعو الادباء الى مخاطبة الدهماء بلهجتهم ومصطلحاتهم وتعابيرهم ، لانني اعتقد ان هذه الطبقة تتأثر كثيراً بمن هم اعلى منها وتقتبس عنهم كل شيء حتى الكلام والتعابير فما ضرَّ كتاب القصص لو كتبوا بلغة الحديث الشائعة بين طبقة المثقفين

***

لا ريب ان الدأب في كتابة القصة ، والنشاط في مطالعة ما يكتبه أقطابها سيقوي الملكة الفنية ، ويصقل الاستعداد القصصي عند اضراب مؤلف « قبص الصوف »

القاهرة حبيب الزحلاوي



حضرة صاحب المعالي الدكتور محمد حسين هيكل باشا وزير المعارف وهو خارج من بهو الجامعة المصرية حيث ألقى خطبته التي نشرنا مختارات منها في صفحة ٣٣٠



حضرة صاحب السعادة الأستاذ محمد العشماوي بك
وكيل وزارة المعارف

حديقة المقتطف

الآخر !

للشاعر الالماني الشهير آرثر شنيتزلر
Arthur Schnitzler
نقلها : ايزاك شموش

شيكاغو

للشاعر كارل ساندبرغ
نقلها : زهدي الناجي الفاروقي



آرثر شنتزلر

كاتب نمسوي الماني من اشهر كتاب العصر الحديث . وُلِدَ سنة ١٨٦٢ وتوفي في سنة ١٩٣٣

فهرس الجزء الثالث

من المجلد الثالث والتسعين


المقتطف



المقتطف

الجزء الرابع من المجلد الثالث والتسعين

١ نوفمبر سنة ١٩٣٨ — ٩ رمضان سنة ١٣٥٧

حصاد الصيف

في حقول العلم

١ — رؤية ما لا يرى

مجهر جديد عجيب يفتح آفاقاً علمية واسعة

ما أكثر الاجسام الدقيقة التي يتمنى العالم ان يراها ! الذرة والجزيء وكيف تتركب الذرّات جزيئات وكيف تنتظم الذرّات والجزيئات بلورات ، وما شكل « الفيروس » الذي تسند اليه أمراض لا يعلم لها سبب ظاهر او جرثومة ترى ، والمورّثات genes المنتظمة حبيبات في سبحات الصبغيات Chromosomes وكيف يطرأ عليها التحوُّل العضوي فتحدث التغاير في الصفات الوراثية ؟ هذا قليل من كثير يتمنى العلماء ان يروهُ بأم العين ، لعلهم ينفذون من رؤيته الى فهم بعض هذه الاسرار التي تحيط بنا في المادة والحياة ، وحجابها لا يزداد الاَّ عمقاً وكثافة كلما أمعنا في البحث والتنقيب

كان الرأي ان تكبير الدقائق لا يمكن ان يتعدَّى حدوداً معيَّنة . أثبت ذلك علماء الرياضة كما أثبتوا ان الامواج اللاسلكية لا يمكن ان تدور حول الارض لأنها اذا كانت مشتقة من معدن امواج الضوء الكهرطيسية ، فلن تلبث حتى تنطلق في الفضاء في خطٍ مماسٍ لكرة الارض

الاَّ ان القول باستحالة شيء حافز للعالم المطبوع . وكذلك أثبت مركوني على الرغم من أقوال العلماء بالتجربة البسيطة الحاسمة التي جرَّبها في شهر دسمبر من سنة ١٩٠١ خطأ العلماء إذ أطلق الاشارات اللاسلكيَّة من جنوب انكلترا وتلقاها فعلاً في جزيرة نيوفوندلند . وكذلك تمكن الآن الدكتور غراتون أحد اساتذة جامعة هارفرد ، من ان يصنع مجهراً يكبر قطر الجسم الدقيق ستة آلاف ضعف بدلاً من يقف التكبير عند حدّ عينهُ العلماء وهو ١٥٠٠ ضعف

فقد ذهب الدكتور ارنست آبيه Abbé خبير المجاهر المشهور في محلات زيس Zeiss المختصة بصنع الآلات البصرية ان تكبير قطر الجسم الدقيق بالمكرسكوب ١٥٠٠ قطر هو الحدّ الاعلى للتكبير الآن . أما الدكتور غراتون فقد تمكن من تكبيره ستة آلاف ضعف ويرى ان ليس هناك حدّ نظريّ للتكبير اذا استطاع الانسان الصنّاع ان يتقن الاجهزة اللازمة لذلك . وليدرك القارىء معنى هذا التكبير نضرب لهُ مثلاً بصورة سلبية صورت بمصوّرة ضوئية صغيرة . طول هذه الصورة بوصة ونصف بوصة وعرضها بوصة واحدة . فبحسب رأي الدكتور آبيه يمكن تكبير هذه الصورة تكبيراً يحتفظ بجميع خطوطها جلية غير مشعثة حتى يصبح طولها ١٨٧ قدماً وعرضها ١٢٥ قدماً . (وهذا بصرف النظر عن العوامل الاخرى الداخلة في الموضوع من حيث صنع فلم هذه مساحتهُ) . ولكنها تكبر بحسب أسلوب الدكتور غراتون حتى يصبح طولها ٧٥٠ قدماً وعرضها ٥٠٠ قدم . فكأنك تكبر طابعاً من طوابع البريد الجويّ حتى تغدو مساحته فدانين تقريباً . اما النظرية القديمة فكانت تحتّم انهُ من المتعذر جعله اكثر من نصف فدان بعد اقصى التكبير

اما مجهر الدكتور غراتون فلا يشبه المجهر العادي الذي نراهُ في مختبرات الاطباء ومعامل الكليات . ذلك ان جهازاً يكبّر قطر الجسم ستة آلاف ضعف لا بدّ يكبّر كذلك كلَّ خدش صغير ناشىء من اضعف الهزّات . ثم ان الهزّة مهما تكن ضعيفة لا بدّ ان تؤثر في الجهاز بتحريك الجسم المرئيّ فتكبّر الحركة ويغدو الجسم الذي كان واضحاً جليًّا وهو مشعّث خفيّ . او ينتقل من مجال النظر الجلي ويحلّ محلّهُ جسم آخر لا يعنى بهِ الباحث

ولذلك بُني هذا المجهر العجيب على نمط المراقب الكبيرة بحيث لا يهتزّ ولا يرتجّ . وهو قائم على قواعد راسخة من الصلب مغروزة في الارض تعلوها مصطبة من الاسمنت المسلح ، وهذا يجعل المجهر القائم عليها بعيداً عن الاهتزاز والارتجاج الاَّ اذا نسفت الارض على مقربة منهُ بالديناميت او اصابها زلزال

ثم ان التروس التي يضبط بها قربُ العدسة الى شريحة المجهر الحاملة للجسم الدقيق او بُعدها عنها حتى يرى ذلك الجسم وهو اوضح ما يكون ، لا تدار باليد . بل صنع لها الدكتور غراتون جهازاً يضبطها ضبطاً آليًّا بالضغط على زرّ . ولو ان باحثاً اراد ان يضبط العدسة بيديه دون

هذا الجهاز الآلي لاستغرقت سبع دقائق وهو يدير التروس فلا ترتفع العدسة او تنخفض عن الشريحة اكثر من جزء واحد من مائة جزء من البوصة ، اي مقدار سماكة الورقة التي تقرأ عليها هذا الكلام ، وهذه الحركة لا تستغرق اكثر من بضع ثوان اذا اعتمد الباحث على الزر وجهاز الضبط الآلي

وكذلك ترى ان هذا المجهر العجيب يجمع بين الضخامة والدقة . فهو والقاعدة القائم عليها ضخم كالقاطرة دقيق كالساعة . وهما صفتان لا بدَّ منهما لان كلَّ خطأ يكبر ٦٠٠٠ ضعف فيه

ومما لا ريب فيه ان صنع هذا المجهر سيكشف عن آفاق جديدة في مختلف العلوم ، لان كشف وسائل جديدة للبحث واتقانها من اهم الاساليب التي تدفع بالعلوم الى الامام . فالمطياف خلق علماً جديداً جمع بين الارض والسماء . ولولا « غرفة ولسن الغائمة » لما شهدنا التقدم العظيم الذي شهدناه في الثلاثين السنة الاخيرة في فهم المادة وتركيبها . وكذلك شأن مجهر جراتون . فقد اثبت غراتون وصحبهُ ان هذا المجهر على حداثة العهد بهِ سيكون وسيلة جليلة الشأن في الكشوف العلمية . وقد بلغ من عناية الحكومة الكندية بهِ ان اوصت حالاً بصنع مجهر على مثاله لكي تستعمله في دراسة معادنها المختلفة وتركيبها البلوري

خذ مثلاً على ذلك حبيبات من الذهب كان من المتعذر رؤيتها وتصورها قبلاً . فجاء الدكتور غراتون بمجهره وجعل دراستها مكبرة من أيسر الامور . وهذه الدراسة تيسر للباحث في شؤون المعادن والمناجم ان يعرف مبلغ الذهب في عرق ما ولو كانت حبيباته خفية عن الباحث الذي لا يستعين بمجهره . فاذا عرف مقدار الذهب الخفي والظاهر في عرق ما فلا يتعذر على البحاث ان يبتدعوا الوسائل لاستنباطه منه . وغني عن البيان انه اذا كان استخراج الذهب يقتضي نفقة اكبر من ثمن الذهب المستخرج فلا مجهر صاحبنا يجدي ولا غيره

وكما يفيد المجهر الجديد علماء التعدين يفيد كذلك في الصناعة لانه يمكن الباحثين في الصناعات المختلفة من دراسة الفلزات من ناحية تركيبها البلوري اذ ثبت في العهد الحديث بالاشعة السينية وغيرها ان بين التركيب البلوري وقوة الفلز صلة وثيقة . ولعلهم ينفذون حينئذٍ الى فهم ما أغلق عليهم حتى الآن مما تصاب به الفلزات من « الاعياء » او « التعب » فترى البناء الشامخ والجسر الموطد ثم لا تلبث ان ترى تصدعاً وانهياراً عجز العلماء عن تفسيرهما الاَّ بقولهم ان الفلزات تتعب فيضعف تماسك بلوراتها وتنهار

ثم ان علماء الطب يرقبون بفارغ الصبر وسيلة تمكنهم من فهم سرّ « الڤيروس » الذي يجتاز أدق مسام المرشحات وهم يسندون الى اصناف متباينة منه امراضاً عجزوا عن معرفة سبب ظاهر لها او جرثومة تشاهد وتزرع . وقد ذهب الدكتور وندل ستانلي الاميركي حديثاً الى ان

« فيروس » داء التبغ جزيء بروتيني كبير واقع على حدود الحياة والجماد . فهل يكون مجهر غراتون سبيل العلماء الى رؤية هذا الجزيء وفهمه

نعم ان هذا المجهر لا يزال في حالته الحاضرة عاجزاً عن جلو الذرة لعيوننا القاصرة . ولكنه سيتيح ولا ريب فرصاً نادرة للعلماء فلعلهم ينفذون من طريقه الى فهم الظاهرات الكيماوية وذلك لانه يتيح للباحث رؤية اجسام تزيد حجمها مائة ضعف عن حجم الذرة . واذن فالجزيئات البروتينية الكبيرة — من قبيل جزيئات الفيروس على رأي وندل ستانلي — ستكون في متناوله ومن هذا القبيل دراسة البلورات وكيف تبدأ في التكون ثم كيف تمضي في النمو . فالبلورات لها شأن عظيم في علم الكيمياء الحديثة ، لا يتسع المجال الآن للتوسع فيه

يضاف الى ما تقدم ان هذا المجهر سيسدي خدمة عظيمة الى عالم الآثار المتحجرة (Paleontologist) الباحث عن هياكل الحيوانات البائدة في صخور يرجع تاريخها الى ملايين السنين . ومن هذه الحيوانات ما كان دقيقاً الدقة كلها فلا تراه العين ، ولكن وجوده في صخر ما في منطقة ما او انتفاء وجوده فيها قد يكون سبيلاً الى العثور على ثروة قومية من النفط في تلك المنطقة او الى التوفير على الباحثين عن النفط عناء البحث ونفقاته . وهذا علاوة على ما يمكن ان يضاف من هذا الطريق من حقائق جديدة تزيدنا معرفة باحوال الارض في العصور المتغلغلة في القدم . أو لعله يكشف لنا في هذه الصخور القديمة أحياء دقيقة ما كنا نعلم انها كانت تعيش على سطح الارض في ذلك الزمان . ومن المتوقع ان يكون لهذا المجهر شأن كبير في تصنيف البكتيريا ، وقد كان الاعتماد حتى الآن في تصنيفها على شكلها . فلعلّ المجهر الجديد يكشف عن خواص في تركيبها وتطوّرها تكون أصلح أساساً للتصنيف من شكلها الخارجي

٢ — الاشعة السينية في الحوانيت

امتحان المواد الغذائية بها لنبذ المعيب منها

اقتصر استعمال الاشعة السينية (X Rays) بعيد كشفها او كاد على الاطباء ، فاستعملت لاستطلاع كسر في العظم أو رصاصة في الجسم او علة خفية في سن أو ضرس . ثم استعملت أيضاً لمعالجة بعض النواحي السرطانية

الآن كاشفها رنتجن أدرك عند كشفها انها قد تستعمل في الصناعة فوصف في رسالته الاولى التي نشرها في سنة ١٨٩٥ بعض الاجسام التي صوّرها بهذه الاشعة وبينها « قطعة من المعدن نستطيع ان نتبين عدم تجانسها بالاشعة السينية » . وقد تحقق ما تنبأ به رنتجن قبل أربعين سنة أو تزيد . ودخلت الاشعة السينية ميدان الصناعة فتستعمل الآن في امتحان الاعمدة

والعوارض المصنوعة من الصلب او غيره من الفلزات ليعرف هل فيها شرخ داخلي او موطن ضعف او ثقب حفر خطأً في غير محله ثم ملئ فلا يُرى. وبذلك يجتنب اصحاب المصانع الكوارث التي قد تنشأ عن ضعف في بناء الاجهزة التي يصنعونها والمباني والجسور والطيارات التي تدخل الاعمدة والعوارض في صنعها . والخشب يمكن فحصهُ بها كذلك فتدل فيه على شقوق او عقد أو جيوب صمغية خفية او ثقوب تنقرها الحشرات . كل ذلك تبديه عين الاشعة السينية فانهُ لا يخفى على بصرها النافذ . والحوادث التي تثبت فائدة الاشعة السينية من هذه الناحية كثيرة لا تحصى

ثم دخلت هذه الاشعة ميدان الفن . ففي مؤتمر خبراء الفن الذي عقد في رومية سنة ١٩٣٠ تحت رعاية جامعة الامم صرَّح الدكتور پول جانتز انهُ كشف بالاشعة السينية صورة قيمة لهولبين تحت صورة سخيفة لا قيمة لها . وهذه الوسيلة في امتحان الصور معتمدة الآن مع غيرها من الاساليب الفنية المحضة بين مديري دور الصور المشهورة وكبار المفتنين بيعها وشرائها . ذلك ان أعلام المصورين القدماء كانوا يستعملون أصباغاً معدنية وهي أكثف من الاصباغ النباتية التي تستعمل الآن فاذا أخذت صورة قديمة ورسم فوقها صورة محدثة أو غيرت بعض معالمها اضافة وتحويلاً كان في الوسع معرفة ذلك كله بالاشعة السينية

وأحدث الميادين التي دخلتها الاشعة السينية هو ميدان حوانيت البدَّالين أو بالحري الشركات المختلفة التي تجهز حوانيت البدالين بالفواكه والخضر والجبن وغيرها

في وسع السيدات والطهاة في أغلب الاحيان ان يتبينوا بلمحة او بلمسة او بشمَّة هل ما يشترونهُ من البطاطس والبرتقال واليوسفي والليمون الهندي والتفاح واللحم وغيره من مواد الغذاء ، سليم من العيوب أو لا . ولكن هذه المواد الغذائية وغيرها قد تصاب بعيوب لا تستطيع عين السيدة الناقدة ولا خبرة الطاهي ان تتبينها . وكثيراً ما يؤتى بالليمون اليوسفي الى المائدة فاذا هو في مظهره الخارجي فاخر ريَّان فاذا قشر ثبت انهُ جاف يكاد يكون والخشب سواء . وليس بالنادر ان تبتاع السيدة رؤوس بطاطس تبدو قشرتها ملساء غير مشققة فاذا جيء بها الى المطبخ وسلقت ثم قدمت على المائدة وقطعت ظهر ان فيها تجاويف او حبوباً لها طعم كريه . فيقع اللوم على البدَّال الذي أبتيعت منهُ . ولكنهُ ليس بالملوم ولا التاجر الذي باعهُ ولا الزارع الذي باع التاجر . لان جميع هؤلاء يرغبون أشدَّ الرغبة في تقديم خير ما تجود به الارض ليكفلوا اطراد العمل والربح

ولذلك خطر للاستاذ هارفي R. B. Harvey أحد علماء جامعة مينسوتا الاميركية ان يستعمل الاشعة السينية في استطلاع طلع المواد الغذائية قبل عرضها للبيع على نحو ما تستعمل في استشفاف ما في الجسم الانساني او في أعمدة الصلب او صور المصورين

عندما يذهب مريض الى طبيب طالباً اليه ان يفحص قناته الهضمية بالاشعة السينية يعطيه الطبيب سائلاً فيه احد مركبات البزموت ليشربه ثم يوقفه أمام لوحٍ مفلورة (تتألق بوقع الاشعة عليها) ويوجه اليه من جانبه الآخر الاشعة السينية فتخترق الجسم مستشفة ويبدو الجسم على اللوحة وقد اخترقت الاشعة بعض اجزائه فبدا شفافاً ولم تخترق الآخر فبدا قاتماً. هذه هي القاعدة المتبعة في الشؤون الطبية والصناعية على السواء. فقال الاستاذ هارفي ولماذا لا نجري عليها في فحص البطاطس والبرتقال وغيرهما

وبعد ما أجرى تجارب متعددة وضع رسالة علمية بسط فيها طريقته ونتائجها وتلاها في اجتماعات علمية متعددة حضرها زملاؤه من العلماء، وهو يعلم فائدتها المطبّقة. وفعلاً عني أصحاب الشركات المختلفة التي توزع مواد الغذاء بصنع الاجهزة اللازمة لذلك. والاجهزة تختلف شكلاً وتتشابه قاعدةً. فهي تحتوي على مصباح يولد الاشعة السينية في قلب الجهاز وعلى جانبيه سَيْران نقالان توضع عليهما المادة التي يرغب في امتحانها. ثم يقف على الجانبين المراقبات وأمام عيونهم الالواح المفلورات. وتمرُّ ثمار التفاح او رؤوس البطاطس أمام المصباح السيني فتخترق أشعته كل تفاحة، والفتيات يراقبنَ اللوحة المفلورة فاذا رأت احداهنَّ عليها صورة تفاحة غير سليمة كبست على زرّ أمامها فتتحرك ذراع تقذف تلك التفاحة الى صندوق تحت السير فتنبذ من المجموعة التي توضع في الصندوق المُعَدّ للبيع

وكما يفحص التفاح وغيره يفحص كذلك لحم البط فيعرف موقع رشاش البندقية الذي اصابه بدلاً من ان يترك ذلك لاسنان الآكلين واضراسهم. وليس ما تقدم غير مثل واحد او مثلين على فائدة الاشعة السينية في امتحان المواد الغذائية قبل عرضها في السوق. ولا تكفي صفحة أو صفحتان لتعديد نواحي استعمالها في هذا السبيل

والعمل بهذه الاجهزة سريع جداً. فقد يتناول الجهاز الواحد — في شركة فود ماشينري كوربوريشن بكاليفورنيا — من مائة صندوق الى مائة وخمسين صندوقاً من البرتقال في الساعة الواحدة. او من ١٥٠ صندوقاً الى ٢٠٠ صندوق من الليمون الهندي. وغني عن البيان ان مراقبة الثمار وهي تمر امام جهاز الاشعة السينية عمل يحتاج الى يقظة دائمة وخبرة واسعة

اما العيوب التي تصاب بها الفواكه والثمار والخضر فليس اكثرها مكروبيّاً. فالجيوب او الفجوات في رؤوس البطاطس ترتد على الغالب الى سرعة غير عادية في نموها في احوال شاذة من الحرارة والرطوبة. ولكن القشرة تبقى سليمة ملساء فلا يستطيع أحدٌ كائناً من كان ان يتبين بالنظر المجرد وجود هذه الفجوات. او قد تصاب بساتين البرتقال بالصقيع فيفتك بجانب كبير من ثماره ولكن بعضه لا يموت وانما يؤثر الصقيع في الاكياس الصغيرة المحتوية على

العصارة في داخله فتنشق فيتسرب العصير منها وتنمو الثمرة ولكنها تخرج جافة لا عصير فيها
ويصاب التفاح والليمون الهندي وغيرها بآفات خاصة تترك الثمر سليماً عادياً في مظهره الخارجي
ولكن الاشعة السينية تكشف العيب في داخله

٣ — تأثير الضغط العالي
في خواص المادّة

أثبتت المباحث الطبيعية الحديثة ان لا قبل للعلم بفهم المادة فهماً صحيحاً الاّ اذا عرف تأثير الضغط العالي في ذراتها وجزيئاتها . ذلك ان ٩٩٫٨ في المائة من مادة الارض و٩٩٫٩٩٧٥ في المائة من مادة الشمس خاضعة لضغط يزيد كثيراً على الف ضغط جوّي على البوصة المربعة ويبلغ نحو ١٥ الف جوّ

وبحوث الضغط ليست بالشيء الجديد في علم الطبيعة . فالاكادمية الفلورنسية في عهد غاليليو حاولت ان تعرف هل الماء قابل للانضغاط . فاستعمل مجربوها تلك التجربة إناء من الرصاص لا يحتمل ان يكون الضغط فيه قد زاد على الف جوّ . وخرجوا من تلك التجربة بان الماء غير قابل للانضغاط . ثم جرّب كاندون Candon بين سنة ١٧٦٢ و١٧٦٤ بضع تجارب ليقيم الدليل على ان الماء قابل للانضغاط فنجح في ما سعى اليه . ومع ان الماء يوصف بانهُ لا يضغط فمن المعروف ان بعض العلماء جرّب تجارب مكّنتهُ من ضغط الماء حتى نقص حجمهُ ٥٠ في المائة

وقد عني علماء العصر الحديث بدراسة موضوع الضغط وتأثيره في خواص المادّة ولكنهم لم يتمكنوا من التمادي فيه قبل ان حلّوا مشكلة صنع الاجهزة التي تتحمّل الضغوط العالية التي يبنونها . وفي مقدمة هؤلاء الباحثين الاستاذ بردجمن استاذ الطبيعة في جامعة هارفرد . فقد كتب في مجلة السينتفك اميركان يقول ان اعلى ضغط تمكن العلماء من إخضاعه لقيود التجربة العلمية في المختبر هو ٥٠ الف ضغط جوّي . ووجه الشأن في ذلك ان مادة الارض على عمق مائة ميل تحت سطحها معرّضة لمثل هذا الضغط . ولما كان ٩٢٫٥ في المائة في مادة الارض داخل هذه القشرة التي سمكها مائة ميل ، حيث الضغط أعظم جدًّا من ٥٠ الف ضغط جوّي، فجهلنا باحوال تلك المادة وخواصّها جهل عميق حقًّا

فكيف يؤثر الضغط العالي الذي يستطيع العلماء توليده ، في خواص المادة ودراسة تلك الخواص والمادة خاضعة لهُ ؟

هناك درجات من الحرارة تذوب عندبلوغها ضروب المادة المختلفة او تنصهر . والضغط يؤثر في هذه الدرجة Melting Point فيغيرها

ففي أواخر القرن التاسع عشر ذهب جيمز طمسن شقيق لورد كلفن الى انهُ اذا كان هناك مادة ما من المواد التي تتمدَّد عند الانصهار او الذوبان فدرجة الانصهار او الذوبان يجب ان ترتفع بازدياد الضغط . أما اذا كانت من المواد القليلة التي تتقلص عند الذوبان او الانصهار — كالماء او البزموت او الغاليوم — فدرجة الذوبان او الانصهار يجب ان تنخفض بازدياد الضغط . وجرَّب لورد كلفن تجربة استوقفت الانظار لتأييد رأي شقيقهِ . اما اعترضت كلفن حينئذٍ صعوبة كبيرة وهي ان ضعف الضغط المتاح لهُ لم يمكنهُ من تغيير درجة انصهار او ذوبان المواد التي جرَّب بها تجربتهُ الاَّ تغييراً يسيراً لا يزيد عن جزء من الدرجة . أما الآن وقد غدا في وسع العلماء ان يعرضوا المواد لضغط أعلى جدًّا من الضغط الذي كان في متناول لورد كلفن ففي مكنتهم ان يغيروا درجة الانصهار أو الذوبان مئات من الدرجات المئوية . حتى ليستطيعوا ان يجعلوا الزئبق ان يتجمد على درجة من الحرارة هي درجة الماء الغالي عند ما يعرضونهُ — أي الزئبق — لضغط ٢٨ الف جو

أما حالة الماء عند تعريضهِ لضغط عال فتستوقف النظر خاصة . ما يكون تأثير الضغط فيهِ اذا مضينا في زيادتهِ زيادة لا حدَّ لها ؟ أتنخفض درجة الذوبان انخفاضاً لا حدَّ لهُ الى ان يصيبهُ تغير آخر . وهذا الموضوع كان محل نظر وعناية من العلماء بعد اذاعة رأي طمسن وتجربة شقيقهِ لورد كلفن . الاَّ ان ركن علماء الطبيعة لم يكن كافياً حينئذٍ ليمكنهم من النفوذ الى الحقيقة . وكان عالم يدعى تامان Tammann أول من استعمل ضغطاً قدره ثلاثة آلاف جو في دراسة موضوعات من هذا القبيل . فوجد شيئاً يثير الدهشة . ذلك انهُ وجد ان درجة ذوبان الجمد توالي الهبوط تحت الضغط المتزايد حتى يبلغ الضغط ٢٢٠٠ جوّ فتصير ٢٢ درجة تحت الصفر بميزان سنتغراد وهي درجة أبرد قليلاً من برد مزيج الجمد والملح المستعمل عند عمل المثلجات (دندورمة)

ولكن اذا عرّض الجمد لضغط أكبر من ٢٢٠٠ جوّ وحرارة دون ٢٢ تحت الصفر تهاوت بلوراتهُ ونقص حجمهُ ٢٠ في المائة وانتظمت جزيئاتهُ في بلورات تختلف عن بلوراته المألوفة . وهذا التحوُّل في نظام بلوراتهِ قد ثبت ثبوتاً لا ريب فيهِ بواسطة الاشعة السينية التي أصبحت في السنوات الاخيرة وسيلة فعَّالة لدراسة بناء المادة البلوري . ولا يخفى ان الجمد أقل كثافة من الماء ولذلك فهو يطفو عليهِ . ولكن اذا عرض الجمد لضغط عال كما قدمنا فان ما يصيبه من نقص الحجم وتحول في تركيبه البلوري يجعله اكثف من الماء السائل . فاذا صح قول جيمز طمسن فهذا الجمد الجديد — الذي يزداد حجمه عند الذوبان وهو على نقيض الجمد العادي الذي ينقص حجمهُ عند الذوبان — يجب ان ترتفع درجة ذوبانهُ اذا عرض لضغط عال بدلاً من ان تنقص درجة ذوبانهِ كالجمد العادي . والتجربة تؤيد هذا القول . الاَّ ان الجمد الجديد يتحوَّل الى

جمد من ضرب آخر اذا زاد الضغط الواقع عليه على ٣٥٠٠ جوّ . وقد وجد العلماء انهم يستطيعون ان يصنعوا سبعة اضعاف من الجمد بموالاة زيادة الضغط على كل جديد منها . وآخرها ترتفع درجة ذوبانه الى ١٩٠ درجة مئوية عندما يكون معرّضاً لضغط اربعين الف جوّ . وهي حرارة كافية على ما تعلم لصهر اللحام

فاذا صحّ هذا على الماء فيجب ان يصحّ كذلك على البزموت والغاليوم وهما عنصران ينقص حجمهما عند الانصهار كالماء العادي عند الذوبان . فهل يتحولان الى صنفين جديدين من البزموت والغاليوم بزيادة الضغط عليها حتى يصبحا موادّ ترتفع درجة انصهارها بدلاً من ان تنخفض اي هل يطرأ عليها التحوّل الذي يطرأ على الماء ؟ والجواب بالايجاب ولكن هذا التحوّل فيها لا يتمّ الاّ بعد تعريض البزموت لضغط قدره ٢٨ الف جوّ والغاليوم لضغط قدره ١٣ الف جوّ

فيلوح من هذه التجارب ان ما نراه من تمدّد الماء عند تجمده ليس الاّ ظاهرة تصحّ ما زال الضغط عاديًّا فقط . والغالب عند الاستاذ بردجمن ان جميع المواد تتقلّص عند تجمدها اذا كان الضغط على درجة وافية من الارتفاع

قلنا ان رفع درجة الضغط والمضي في رفعها تدريجاً افضت الى صنع سبعة اصناف من الجمد وما يصحّ على الماء يصحّ على مواد كثيرة . فالبزموت له اربعة اصناف والغاليوم ثلاثة والكافور تسعة ولا يبعد ان تكون احد عشر صنفاً

هذا التحوّل لا بدّ من حدوثه في المواد التي في قلب الارض حيث درجات الحرارة والضغط عالية جدًّا ولا بدّ ان يكون لها خواص غير الخواص التي نسندها اليها على سطح الارض وهي في حالتها المألوفة . وهذا يعني اننا لا نستطيع ان نتكهن بأحوال المادة في قلب الارض الاّ بعد دراسة وافية للمادة وهي معرّضة لدرجات عالية من الضغط والحرارة على سطح الارض وكيف تتحوّل

هذه التحوّلات في المادة وهي معرضة للضغط العالي تزول عند رفع الضغط عنها وترتد المادة الى أصلها . ولكن العلماء وجدوا مادة واحدة يحدث الضغط العالي فيها تحوّلاً دائماً وتلك المادة هي الفصفور الابيض . فالفصفور الابيض كما يعلم القارىء مادة غير مستقرة تلتهب من ذاتها عند تعريضها للهواء . ولكنها تتحول تحوّلاً دائماً بعد تعريضها لدرجة عالية من الضغط فتصبح سوداء بدلاً من ان تكون بيضاء ثم انها لا تلتهب وتوصل الكهربائية بدلاً من ان تقاومها

فتغيير من هذا القبيل يذكي الخيال . ذلك بأنهُ اذا استطعنا ان نغير الفصفور تغييراً دائماً ونحوّلهُ الى مادة جديدة لها خواص مناقضة لخواصها الاصلية ، أفليس في الوسع تحويل غيره من المواد بتعريضها للضغط العالي فنصنع بذلك مواد جديدة لها خواصّ مرغوب فيها ؟

ثم كيف يؤثر الضغط في حجم المواد ؟ الغاز على ما نعلم يعنو بسهولة للضغط فنستطيع أن

تضغط ما يملأ حجرة كبيرة من الهواء في أنبوب عجلة السيّارة . أما الماء فقد قلنا في مستهل الكلام انهُ قابل للانضغاط وان كانت كتب الطبيعة تقول انهُ ليس كذلك وذلك لان التجارب القديمة الى منتصف القرن الثامن عشر عجزت عن ضغطه بما لديها من الوسائل . ثم هناك الجوامد وهي أقل قابلية للانضغاط من الماء ولكنها تنضغط . فالحديد أقل قابلية للانضغاط من الماء مائة ضعف . ولكن اذا استعمل ضغط قدره ألوف من الأجواء أمكن ضغط السوائل والجوامد ضغطاً يسهل قياسهُ . فالسوائل تقل حجماً تحت الضغوط العالية من ٣٠ الى ٤٠ في المائة . وكل سائل لا بدَّ أن يتجمد بزيادة الضغط الذي يوقَّع عليهِ وعندئذٍ يصبح وهو متجمد شأنهُ شأن المواد الجامدة أصلاً من حيث تأثير الضغط العالي فيها . فالجمد العادي اذا عرض لضغط قدره ٥٠ الف جو نقص حجمهُ ٤٠ في المائة عن حجم الماء الذي صنع منهُ أولاً . والفلزات أقل قابلية للضغط من السوائل ولكن التفاوت بينها كبير . فعنصر الكزيوم مثلاً وهو أشد الفلزات قابلية للضغط أسهل انضغاطاً من الماء وينقص الى ٥٠ في المائة من حجمهِ الاصلي اذا عرِّض لضغط ٥٠ الف جو

ثم ان المقاومة لسريان التيار الكهربائي تقل بارتفاع الضغط الذي تعرَّض لهُ المواد حتى لقد تتحول المادة غير الموصلة للتيار الى مادة موصلة فالتلوريوم وكبريتور الفضة ليسا موصلين جيدين في الاحوال العادية ولكنهما يصبحان تحت الضغط الشديد وايصالها للتيار الكهربائي ألوف الاضعاف أقوى مما كان . ومن المواد ما قد تشتد مقاومته للتيار بارتفاع الضغط

ومن اغرب ما روى عن تأثير الضغط العالي خاص باختراق الماء الواح الصلب القاسي والزجاج فقد روى العالم پولتر في مجلة « الطبيعة المطبَّقة » انه اذا ارتفع الضغط ارتفاعاً كافياً ففي الوسع ان يخترق الماء سطحاً صقيلاً من الصلب ، او طبقة سماكتها بضعة مليمترات من لوح زجاجي في بضع دقائق . واختراق الكحول والاثير تحت الضغط اقل من اختراق الماء . اما الغليسرين والزيوت فيندر ان يكون لها قدرة على هذا الضرب من الاختراق . وأغرب من هذا انه اذا رفع الضغط رفعاً فجائيًّا نخرج الماء الذي كان قد تخلل سطح الصلب تفتت السطح . واذا اخذ قضيب من الزجاج وأحيط بالماء وعرض الماء لضغط كافٍ هنيهة ثم رفع الضغط فجأة فالزجاج لا يتأثر . ولكن اذا طال الضغط خمس دقائق ثم رفع فجأة فقضيب الزجاج ينقصم حينئذٍ الى اقراص زجاجية واذا زاد التعرض للضغط الى عشرين دقيقة ورفع فجأة تهاوى القضيب شظايا زجاجية صغيرة

٤ — صنع هرمونات الخصب والعقم

بالتركيب الكيمياوي وامتحان فعله

كان الباحث الاميركي هربرت افانس Evans يبحث في سنة ١٩٢٢ في تناسل الجرذان من حيث علاقتهُ بانوار (هرمونات) الغدد . الاَّ انهُ لم يكن كيمياويًّا وانما كان فسيولوجيًّا يهتم

بالعوامل التي تؤثر في التناسل . وكان غذاء الجرذان احد هذه العوامل . فغذّى جرذانهُ بغذاء يكثر فيه فيتامين A و B فلاحظ هو ومساعدته ان الجرذان تتزاوج وان اناثها تحمل في مواعيدها السوية ولكنها لا تلد بل تسقط حملها . وفي كل حادثة من الحوادث التي شاهداها كان الجنين يموت قبل ميعاد الولادة . وعجز الفيتامينان اللذان تقدّم ذكرهما عن منع هذه الحالة الشاذة

فشرعا يبحثان عن مواد غذائية تحتوي على عنصر غذائي مجهول من شأنه ان يساعد على الحمل والولادة السويين . فوجدا ان ورق الخس فعّال وكذلك جنين حبة الحنطة بل وجدا انهما اذا استقطرا زيتاً من اجنة الحنطة واضافا منهُ مقادير يسيرة جداً الى غذاء هذه الجرذان تمكنت الاناث من حمل الجنين مدة الحمل السوية ثم من ولادته حيًّا سليماً . فلما استوثق افانس من ان نقص هذا العامل الغذائي المجهول يفضي الى عقم ذكور الجرذان والى موت الاجنة في ارحام الاناث اذاع انهُ كشف فيتاميناً جديداً وسمّاهُ بالحرف X ثم وسمهُ آخر بالحرف E بعد ان حقق النتائج التي توصل اليها افانس

وقد طبق كشف افانس على البقر اولاً ثم على النساء فأسفر التطبيق عن نجاح يفوق ما كان متوقعاً له . ذلك ان افانس لم يزعم شأن الباحث العلمي الحذر ان ما يصح على الجرذان يصح على البشر . ولكن الدكتور فوخت مولر الطبيب بمستشفى اورانس ببلاد الدنمارك عالج طائفة من البقر كان مشهوراً عنها اسقاطها اجنتها فأضاف الى غذائها مواد تحتوي على فيتامين E فنجحت تجربته نجاحاً كبيراً . وفي ٢٥ يوليو سنة ١٩٣١ اذاع عن طريق مجلة « اللانست » الطبية نتائج هذا الاسلوب من العلاج في النساء المجهضات . ففي الحادثة الاولى كانت المرأة في الرابعة والعشرين من عمرها وكانت قد حملت اربع مرات واسقطت الجنين في كل منها فتناولها الزيت المستخرج من اجنة الحنطة عن طريق الفم . فكان حملها التالي سويًّا وولدت في الميعاد السوي طفلاً سليماً . وفي الحادثة الثانية كانت المرأة في التاسعة والعشرين من عمرها وكانت بعد وليدها الاول قد حملت اربع مرات واسقطت الجنين في كل منها فأعطيت مقدار ملعقتي شاي من زيت اجنة الحنطة فكانت النتيجة كنتيجة الحادثة الاولى . ومع ذلك اذاع افانس بياناً في سنة ١٩٣٥ حذّر فيه من عواقب استعمال هذا الفيتامين اطلاقاً لشفاء العقم لان العقم قد ينشأ عن اسباب متعددة

هذا موجز ما يعرف عن تاريخ هذا الفيتامين . ولكن مجلة العلم الاسبوعية الاميركية اذاعت في عددها الصادر في ٨ يوليو الماضي ان هذا الفيتامين قد صنع بالتركيب الكيماوي في المعمل وعرفت عناصرهُ وانتظام ذرّاتها في جزيئاته ، وهو مسحوق ابيض يدعى « الفا توكوفيرول » Alpha Tocopherol وضع في غذاء اناث الجرذان البيض بعد ان ثبت عقمها فحملت وولدت سويًّا . وقد اشترك سبعة من العلماء الاميركيين في هذا العمل فاختصّ فريق منهم بناحية تركيبه

الكيماوي ، وفريق آخر بالناحية الحيوية من جهة اجراء التجارب على الجرذان ومراقبتها واستخلاص النتائج منها. وهناك مركَّب آخر يدعى « دوروهيدروكينون » durohydroquinone يقال انهُ اذا استعملت مقادير كبيرة منهُ كان له فعل شبيه بفعل فيتامين E

والظاهر ان السابق الى تركيب مادة « الفا توكوفيرول » وهي وفيتامين E سواءٌ ، هو العالم السويسري الدكتور كارير Karrer ومساعدوه فريتش ورنجييه وسالومون ، ثم تلاهم العلماء الاميركيون فركَّبوهُ وامتحنوا فعلهُ في الجرذان

٥ — شجرة الصابون[1]

قرأنا في السينتفك اميركان وصفاً مسهباً لشجرة الصابون. فقد جاء فيها ان المستركدز قنصل اميركا في الجزائر وصف هذه الشجرة في تقريره فقال ان اصلها من بلاد الصين وهي جميلة المنظر ويبلغ ارتفاعها خمسين قدماً وتبتدىء تحمل ثمراً حينما يصير عمرها ست سنوات . وخشبها محشوك الدقائق يصقل جيداً ويصلح لعمل الاثاث . وتبلغ غلة الشجرة البالغة ٢٠٠ رطل (ليبرة) من الاثمار تباع بجنيهين الى اربعة جنيهات وفي كل ثمرة بزرة حولها قشر والمادة الصابونية في القشر وهي من ٣٠ الى ٤٠ في المائة منه . ويقطع القشر ويفرك بالماء فيرغي كالصابون تماماً وينظف مثل الصابون الجيد بل لا يوجد صابون صناعي اجود من هذا الصابون الطبيعي او يقاربه في جودته ولا سيما لغسل اليدين والوجه . ويمكن سحق القشور وعمل اقراص من مسحوقها فتستعمل كألواح الصابون تماماً ويمكن نقعها بالماء واستعمال نقاعتها لغسل الشعر . وكيفما استعملت فهي أجود من الصابون وأرخص

وفي البزرة نواة فيها زيت أجود من زيت الزيتون من كل وجه سواء استعمل في الطعام او في الصناعة . ومقدار الزيت فيها كثير جداً اكثر مما في حبوب الزيتون . واذا كثر البزر حتى صار يمكن استخدام الآلات لعصر الزيت منهُ صار ثمنه رخيصاً أرخص من زيت بذر القطن وطعمهُ يبقا أطيب من طعم اي زيت آخر . ويبقى من البذر كسب يأكلهُ الفراخ والمواشي وهو علف جيد جداً لها. وورق الشجرة علف للمواشي لامثيل لهُ . ويمكن استعمال الثمر دواء في منع فيضان اللعاب والصرع. ويستعمل أيضاً منفثاً ويقال أن بزره اذا سحق وجبل بالماء أوقف نوبات الصرع . ويوصف ربُّ الثمر دواء للمصابين بالمرض الاخضر او فقر الدم . انتهى

هذا ويليق بالجمعية الزراعية الخديوية (الملكية الآن) ان تجلب بذور هذه الشجرة من بلاد الجزائر وتزرعها في القطر المصري لأنها اذا كانت لها جميع هذه الخواص ووافقها هواء القطر المصري وتربته كانت من أكبر النعم من حيث صابونها وزيتها وخشبها

(١) من ثلاثين سنة في المقتطف ج ٣٣ صفحة ٤٤٨

تيسير قواعد

النحو والصرف والبلاغة

خلاصة تقرير اللجنة

لا شكَّ ان اللغة العربية من أصعب اللغات تعلماً وتعليماً . ونحوها وصرفها مليئان بالخلافات الكثيرة التي تجعل دراسة اللغة أمراً إدًّا . وقد شكلت في وزارة المعارف لجنة من الدكتور طه حسين بك عميد كلية الآداب والاساتذة الاجلاء احمد أمين وعلي الجارم بك ومحمد ابو بكر ابراهيم وابراهيم مصطفى وعبد المجيد الشافعي لاقتراح مشروع لتبسيط قواعد النحو والصرف والبلاغة

ولا ريب ان هذه خطوة من الوزارة تحمد عليها لاننا نرى بعيوننا الصعوبة التي يلقاها طلبة المدارس في تعلم اللغة العربية . ونرى أيضاً طغيان العامية على العربية فيما يجري بين الناس من محادثات . حتى لتكاد العامية تكون لساناً قائماً بذاته

وقد اجتمعت اللجنة المذكورة وأصدرت عدَّة مقترحات ، مهدت لها بمقدمة في ضرورة تعلم اللغة العربية الصحيحة . وفي انتشار العامية حتى في حجر الدراسة . . . وفي كون العامية هي لغة التخاطب في البيت وخارج البيت

ولم تغال اللجنة في حسن الظن بأن تكون العربية الآن لغة البيت والبيئة . وانما رأت ان يكون من الواجب جعل العربية الصحيحة أداة التعبير والكلام في المدارس . وحتمت ان يكون شرح مواد الدراسة بلسان عربي صحيح فالتاريخ والجغرافيا والطبيعة وغيرها تشرح للطلبة بالعربية لا بالعامية كما هو متبع الآن في المدارس

وترى اللجنة ألاَّ يترك للغات الاخرى فرصة تزاحم بها اللغة العربية . فأعفت صبية التعليم الابتدائي من دراسة لغة غير العربية حتى اذا اجتمع للتلميذ الذوق العربي أمكن بعد ذلك — في مرحلة التعليم الثانوي — ان يدرس اللغة الاجنبية المراد دراستها

وقد لاحظت اللجنة انصراف الطلبة عن القراءة المنتجة ورغبتهم عنها . فهم لا يقرءون الاَّ الكتاب المدرسي المقرر للنجاح ، في الامتحان . . . ولاحظت ايضاً فقر أدبنا الحديث

من كتب مفيدة لطوري الصبا والشباب . واقترحت على الوزارة تشجيع المؤلفين الذين سيكونون طلائع هذا النوع من التأليف او الترجمة

وجمت اللجنة اسباب صعوبة اللغة العربية في ثلاث مسائل : —

(١) اسراف القدماء من النحاة في فلسفة الافتراض والتعليل

(٢) اسراف في القواعد

(٣) اسراف في التعمق العلمي باعد بين النحو والادب

وحاولت بعد ذلك تخليص النحو من هذه العيوب . فباعدت — في اقتراحاتها — بينهُ وبين الفلسفة . ولم تجعل للافتراض والتعليل سبيلاً الى دراسة القواعد . وتجنبت التعمق وقاربت بين الاصول والقواعد

ولم تقترح اللجنة حذف دراسة البلاغة كما يريد بعض غلاة المفكرين . وانما اقترحت حذف ما لا صلة له بحياتنا اليوم . وقد كان الاعتدال والاناة وحب هذه اللغة رائد اللجنة ودليلها . فلم تسرف في الانقلاب لعلمها بخطورته . وانما ناشدت الوزارة أن تأنى في الاخذ بالاصلاح المقترح وتهيء له أسبابه

وأهم مقترحات اللجنة في النحو والصرف وجوب الاستغناء عن الاعراب التقديري والمحلي ووجوب إلغاء العلامات الاصلية والفرعية للاعراب . فيقسم الاسم الى ما يظهر عليه الحركات مع مدها وهو الاسماء الخمسة. والى ما يظهر فيه حركتان ضم وفتح وهو الممنوع من الصرف وهكذا

وترى اللجنة أن يكون لكل حركة لقب واحد في الاعراب والبناء . بدلاً من ألقاب الاعراب والبناء

وقسمت الجملة الى قسمين أساسين . اختارت لها اصطلاح المناطقة : الموضوع والمحمول . وبنت الاعراب على هذا الاساس . فالموضوع هو المحدث عنه في الجملة وهو مضموم دائماً الاَّ اذا وقع بعد إن واخواتها . والمحمول هو الحديث ويكون اسماً فيضم او ظرفاً فيفتح او فعلاً او جملة او مع حرف من حروف الاضافة . وتجب المطابقة بين الموضوع والمحمول في التأنيث والعدد

وعلى هذا النحو يسرت اللجنة الاعراب . وجمت القواعد الكثيرة في مسألة صغيرة

وترى اللجنة الغاء الضمير المستتر جوازاً او وجوباً . فمثل (زيد قام) لا ضمير فيه . وزيد الموضوع والفعل المحمول ، ومثل (الرجال قاموا) الرجال الموضوع والفعل قام هو المحمول . والواو والالف علامة للجمع

هذه هي اهم مقترحات اللجنة لخصناها في هذه الكلمة . وانا لنرجو مخلصين أن يتاح للغة العربية فرصة سعيدة تتخلص فيها من المشكلات النحوية والخلافات الجدلية ، وعوامل الضعف

الكثيرة الطارئة عليها حتى تطابق مقتضيات العصر من غير مباعدة بينها وبين الاصول . وحتى تحيا كما نرجو لها . فانا يعزُّ علينا ان نراها غير ذلك كما قال أحد شعراء المهجر المعاصرين

لغة يهون على بنيها ان يروا يوم القيامة قبل يوم مماتها

*

بعد الفراغ من تلخيص تقرير اللجنة اطلعنا بطريق المصادفة السعيدة بينما كنا نراجع مجلدات المقتطف على مقال في المجلد التاسع والعشرين مقتطف ابريل سنة ١٩٠٤ لحضرة العالم الفاضل الاستاذ جرجس الخوري المقدسي أحد أساتذة اللغة العربية بجامعة بيروت الاميركية . وعنوان المقال « العربية وتسهيل قواعدها »

ولحضرة الكاتب الفاضل رأيهُ في تسهيل قواعد العربية نجمله في المسائل الآتية :

(١) يرى حضرتهُ اتحاد ضميري جمع المؤنث والمذكر . فيقال الرجال قاموا والنساء قاموا . من غير حاجة الى استعمال نون النسوة

(٢) ويرى أيضاً حذف باب الممنوع من الصرف . فتجري الكلمات كلها على حال واحدة من التنوين

(٣) ويرى ايضاً حذف الخلافات النحوية في اعراب بعض الكلمات . ولا يرى ضرراً في اعراب (اي) في جميع حالاتها . ولا حاجة الى القول ببنائها متى اضيفت وحذف صدر صلتها

(٤) ويرى رفع الاسم والخبر في جميع الحالات . مهما يختلف عليهما من الافعال الناقصة وان وأخواتها فيقال « محمد قائم » « كان محمد قائم » « ان محمد قائم »

والغرض من مقاله كما يقول هو في كلماته (تسهيل قواعد اللغة حتى لا يجد اولادنا ما يجدونهُ الآن من العناء في دروسها واضاعة الوقت الثمين على غير جدوى)

وهذا المقال الذي كتب ونشر في المقتطف من اربعة وثلاثين عاماً يدل على رغبة قديمة في اصلاح اللغة العربية وتيسير قواعدها وجعلها سائغة للطلاّب . هذه الرغبة التي نادى بها المصلحون أخيراً والتي عنيت بها وزارة المعارف في هذه الايام عناية عملية

واذا كان في مقترحات الاستاذ جرجس المقدسي بعض الخطر على القواعد المقررة في علم النحو ، لان فيها هدماً للاصول . فأن المقال نفسه يدلنا على روح قديمة تميل الى تبسيط اللغة العربية واصلاحها

فهذه الرغبة الجديدة من وزارة المعارف هي في الواقع رغبة جاشت في صدور المصلحين منذ اكثر من ربع قرن . ونرجو لها التوفيق في تنفيذ هذه الامنية . فتيسير العربية هو أجل خدمة تسدى لهذا التراث القديم

* * *

ملتقى الشعر

والفلسفة

حول شاعرية المعري وفلسفته

لعلي ادهم

من أصدق كلمات هيجل قوله « الرجل العظيم يجشم الدنيا مشقة فهمه » فان الدنيا قد تنصف العظيم وتجل شأنه وتذيع ذكره وتنشر مزاياه ونضائله وتقذفه بالورود والازهار وترفع له القباب وتقيم التماثيل وتغمره بآيات التبجيل والتقدير ، وقد تسيء اليه وتعقه وتجازيه شر الجزاء وتفعل به الافاعيل فتغمطه حقه وتنكر عليه فضله وتحصبه بالاحجار او تجرعه السم الذعاف وتصلبه على الاخشاب وجذوع النخل وتمثل به افبح تمثيل ، ولكنها على الحالين لا تألو جهداً بعد مماته في استقصاء اخباره واستئناف النظر في حياته وتدبر أقواله وأفعاله ، وتستعز بما يقع في يدها من آثاره وتحرص عليه الحرص كله ويظل كل جيل يبدأ النظر من جديد في حياته ويرسل رواده ليطوفوا في عالمه ويضعوا المصور الجغرافي الذي يعين مواقع الافكار ومواطن الاحساسات ، ويصف هؤلاء الرواد عند عودتهم تأثراتهم ويكثرون من الحديث عما رأوه من المشاهد فيحفز ذلك غيرهم الى معاناة السفر والضرب في المجاهل

وباعث هذه العناية بحياة العظماء التي لا يعتورها الفتور والتي لا تفتأ تتجدد مع تراخي الاحقاب وتوالي الاجيال هو ان نفوس العظماء مركبة عالية متصلة الاسباب بسر الوجود الخفي الذي تتوق الانسانية الى اجتلائه ويستحثها اليه ميل لا يغالب ، فلا يقعد بها الطالب مهما تصدتها الحوائل وعرضت لها الشواغل ، وكل جيل يفهم العظيم على طريقته ويقدر قيمته بمعياره ، ولكل عصر من العصور طابعه الخاص ومزيته المتفرد بها ، والعصور في ذلك كالافراد لها ملامحها وطبائعها وطرائق تفكيرها وأساليب معرفتها ، ولكل عصر فكرته البارزة ونزعته المهيمنة على نفوس اهله ، وانما يتأثر العصر من العظيم بمقدار اقترابه من هذه النزعة السائدة ، ولقد كانت جمهرة أدباء القرن الثامن عشر وعلى رأسهم فولتير تزدري عبقرية شكسبير وترخص قدرها ،

وكان الشاعر بوب يقول وهو يظن نفسه قد اهتدى الى سر أسرار شكسبير ووقف على الدافع المستغلق الخفي لكتابة رواياته بعد طول البحث والتعمق في النظر « لا بد للانسان ان يطعم » وذلك لغلبة النزعة العقلية على مفكري ذلك العصر عصر الاستعارة وزمان المستنيرين، وكان الثعالبي صاحب اليتيمة يرى أن ملاك شعر المتنبي قوله

أزورهم وظلام الليل يشفع لي وانثني وبياض الصبح يغري بي

لانه طابق بين الزيارة والانثناء وظلام الليل وبياض الصبح ، والشفاعة له والاغراء به وكل هذا جميعاً في بيت واحد ؟ فأية معجزة باهرة وقدرة خارقة للعادة ! ولست أحاول ان أستطيل على الثعالبي وأتناوله من وراء مشارف النقد الحديث واشتد في تعنيفه لهذا الرأي القائل فهو رجل يمثل عصره أحسن تمثيل وله عذره المقبول ، والثعالبي على فضله وكثرة تواليفه لم يرزق من العبقرية ونفاذ النظر وسلامة الفطرة ما يرفعه قليلاً فوق مستوى عصره الفكري ويصونه عن الغوص الى الاعماق في أوهامه وتلبيساته ، وان للمتنبي أبياتاً سائرة كثيرة أحق بهذه المكانة وأجدر بحسن التقدير من هذا الزخرف المموه والطلاء الكاذب الذي راق الثعالبي . والذي يبهرنا في العصر الحاضر من المتنبي جمال أصدق من محسنات البديع ويشرق علينا من ناحيته ضوءلم تبصره عيون الكثيرين من النقاد السالفين ومن بينهم الثعالبي

ومن هؤلاء العظماء الذين تتفاوت في تقديرهم الاجيال وتتشعب الآراء وتتجدد الرغبة في دراستهم بتجدد الازمان أبو العلاء المعري ، فاننا في العصر الحاضر نفهمه على أسلوب يغاير أسلوب معاصريه في فهمه ونسلك اليه طريقاً يخالف طريقهم ونرى فيه غير رأيهم ، فما كانوا ينقمونه منه ويكرهونه من أجله نراه نحن موضعاً للعطف والرحمة والتأمل والتفكير ، وماكانوا ينظرون اليه منه بعين التصغير والتجهيل ننظر نحن اليه منه بعين الاكبار والتبجيل ، وأهل العصور المتأخرة على وجه الاجمال أحسن تقديراً للعظماء لأنهم لا يعبدون العظيم ولا يرجمونه بالاحجار ، وانما يعملون على فهمه ولسنا نتخذ العظماء وسيلة لمعرفة عصورهم ومرآة يتمثل فيها اصطفاق النزعات وتباين الآراء في زمانهم فحسب ، بل نستعين بهم على فهم اسرار نفوسنا واستجلاء غوامضنا ومعرفة خفايا الكون التي تحف بنا من كل النواحي ، وكأننا نقترب من فهم الكون الكبير غير المحدود بتأمل هذه الافلاك النيرة السابحة في جو التاريخ والاكوان الصغيرة المليئة بالاسرار والغرائب والتي ينطوي فيها العالم الاكبر

ومن أغرب غرائب العظماء الجديرة بالنظر والاعتبار والتي قد تظهر لاول وهلة عادية مألوفة جمعهم بين أشياء مختلفة الاعراق متناقضة كل التناقض ، ومن قبيل ذلك التئام النزعة الفلسفية بالسليقة الشعرية في ابي العلاء ، والتئام النزعة العلمية بالموهبة الفنية في مثل جيتي

وابسن، وذلك لان الفلسفة غير الشعر ، والشعر نقيض الفلسفة ، وكلاهما قائم على استعدادات في النفس متغايرة ، وقل مثل ذلك في الملكة الفنية والاستعداد العلمي ، فان الفن الذي دأبه ان ينظر الى الاشياء مجتمعة في كليتها غير العلم الذي يعمد الى التحليل وصدع ألفة الاشياء وبجراهما في طبيعة الانسان تختلف

وليس ابو العلاء فيلسوفاً من باب التوسع والمجاز أو لانهُ أخذ بطرف من الفلسفة ، بل هو فيلسوف بالمعنى الشامل الحديث للكلمة الذي يفهمهُ منها امثال الاساتذة وندلباند وهفدنج وفوييه وغيرهم من كبار مؤرخي الفلسفة في العصور الحديثة ، وهو يدخل الى حظيرة الفلاسفة بمثل البطاقة التي دخل بها أمثال نيتشه وكارلايل وكولردج وغيرهم من عظاء الكتّاب والمؤرخين والشعراء الذين تغلبت عليهم أفكار خاصة ظاهرة المعالم في مناحي تفكيرهم وان لم يقيموا على أساسها مذهباً فلسفيًّا منتظماً محبوك الاطراف متجاوب الاقسام مثل مذهب شوبنهاور وهجل وغيرهما من أصحاب الأبنية الفلسفية الضخمة . ولأبي العلاء أفكار خاصة مبتكرة عن الآداب والاخلاق وآراء في المرأة والتاريخ والاجتماع والحياة وكلها ظاهرة الحدود مطردة الاحكام لا ينى يرددها ترديد العابد تسبيحاته ، ووراء هذه المجموعة من الخواطر المنثورة المنظومة فكرة عامة يفزع اليها ويخفق برايتها ، وهذه الفكرة العامة خفاقة في كل ربوعه الفكرية ، ويصح ان نسميها مذهباً فلسفيًّا وموقفاً خاصًّا تجاه الحياة ، ونستطيع ان ننظر الى هذه الطوائف من الخواطر والافكار التي تموج بها صفحات دواوين أبي العلاء منفصلة عن الصورة الفنية والقوالب الشعرية ، وقد تجاوز المعري منطقة الشاعر الى منطقة الفيلسوف ، فهو من الحين الى الحين يصارع مشكلات الفكر الابدية ويجاهد معضلات الحياة المستعصية بجأش ربيط من غير ونية ولا فتور ، ويحاول ان يفض اغلاقها وينزع النقاب عن سرها ، وتكاد تشعر بلهفة نفسه وتصلصل جوفه من شدة الظماء الى جرعة من المورد الذي يرد كل المفكرين ظمأى متقاصي الشفاه لا ينقع لهم غليلاً ولا يشفي لهم نفساً ، ولم تبرد من لوعته المشبوبة في هذا الجهاد الشاق أضاليل الاماني وكواذب الاحلام ، ولم تصرفهُ عن مطلبه المسير صوارف الحياة وشاغل العيش ، وهو يحتال في رياضة هذه المشكلات ببراعة فنية مدهشة جديرة بأساتذة الفن وأعلام الأدب ، ويكاد يذهلك في شعره التفكير الفلسفي عن الوحي الشعري لولا ما يتألق خلال أشعاره من بارقات الخيال الملون القوي وما يدفقها من حرارة المشاعر الحادة المستيقظة وما يتطاير فيها من تلك الكلمات المجنحة التي لا تثب الا من مقول كبار الشعراء ، ولم يتحدث شاعر من شعراء الحضارة الاسلامية عن سر الوجود وغرائب الحياة والموت ولغز الخلود بلغة تشف عن الاهتمام العظيم مثل أبي العلاء ، ولم يجعلها أحد منهم قطب حياته وكعبة خواطره كما

جعلها أبو العلاء ، فطريقه في الشعر العربي طريق مبتكر لم يسلكه أحد قبله وقليل من طرقهُ وسار في موحش دروبه بعده ، ولقد صار الحق على يده جمالاً شعريًّا قبل ان يصير الجمال حقًّا فنيًّا فهو شاعر تهزه الافكار وتميل بنفسه كل مميل كما تحركه العواطف وتستهويه الخيالات ، ولهُ مكانة محترمة بين الشعراء ومنزله عالية عند الفلاسفة ، وهو من سكان المنطقة الحارة الشعرية ولهُ أيضاً قصور رحبة وضياع فسيحة في المنطقة المتجمدة الفلسفية

وبين الشعر والفلسفة حرب قائمة من قديم الزمان ، وما نود ان تضع هذه الحرب أوزارها ولا أن تنقشع غبرتها ، بل يحلو لنا أن ننفخ في نيرانها المستعرة لتتسع دائرتها وتظل معقودة الغبار الى ما شاء الله ، لو استطعنا الى ذلك سبيلاً ، وقد بدأت هذه الحرب قبل ان يطرد أفلاطون الشعراء من جمهوريته الخيالية خشية ان يفسدوا عليه انسانه الخيالي ، وانما نود دوام هذه الحروب لانهُ ليس مما يسر ان يفنى الشعر في الفلسفة فيستحيل صوراً ذهنية قليلة الجدوى ولا ان تندمج الفلسفة في الشعر فيخف وقارها وتحول خيالات لا طائل تحتها ، ويحسن بكليهما ان يعمل في دائرته ويسير في طريقه وان كان هناك مستوى أسمى يلتقيان في أعاليه ويتصافحان ويطلع كل منهما الآخر على نفيس مدخراته وغالي كنوزه ، ولذا نرانا عند ما نقف حيال شاعر كبير نتسائل عن فلسفته وطريقة نقده للحياة ، كما جرت العادة ان يرصع الفيلسوف كتاباته بشواهد مستمدة من الشعر يدعم بها حجته ويبرر موقفه ، فالشاعر يقتبس من أنوار الفيلسوف والفيلسوف يختلس من أشعة الشاعر ، وهما لا ينسيان هـذا النسب العالي والاخاء الروحي في أشد أوقات الخلاف والعداء

وليست وظيفة الشاعر ان يتداول الحق مباشرة ، وانما وظيفته ان يتداوله من الجانب الحسي وينفحهُ بالجمال ويمزجهُ بحياة الانسان وعواطفه وأهوائه ومراغبه ، وليست المكانة الاولى في الشعر لما قالهُ الشاعر في ذاته وانما لكيفية قوله وأسلوب ادائه ، وهناك جماعة من نقاد الادب يغالون في ذلك فلا يعنيهم من الشعر الا الصورة التي عبر بها الشاعر وتقدير نصيبها من الجمال والاتقان الفني ، ولست أشك في ان الصورة والتعبير لهما في الشعر المكان الاول ، فلقد تؤثر فينا خمرية من خمريات أبي نواس او قطعة من بحتريه تأثيراً أبلغ مما يحدثه فينا أعمق الحكم وأقدس الكتب ، ولكننا بعد ان نفرغ من أمر الصورة لا نقف عند هذا الحد بل ننتقل الى ما وراء ذلك فلا نمنح لقب الشاعر الكبير الا الشاعر الذي عبر عن أعمق الحقائق ولمس خفايا القلوب ويطوف بنا في مشارق النفس ومغاورها ليرشدنا الى آفاق فكرية فسيحة وركز أعلامه فوق مطالعها وثنياتها

وليس الشاعر هو الرصاص الوزان الذي يرصف الالفاظ رصفاً وينحت التراكيب ويوقع

التفاعيل وبتخير التوافي الرنانة ، فهذا وزان نظام لا أكثر ولا أقل مهما تسامى أو أسف ، وانما الشاعر الحق هو من كان بطبيعته أكثر استيعاباً لمؤثرات الكون المحيطة به وبخاصة تلك المؤثرات التي يرتضي تصويرها الفن وهو يجمع الى ذلك موهبة الموسيقية والتنغيم والسيطرة على اللغة وتسخيرها في اداء اغراضه والترجمة عما يقوم بنفسه من التأثيرات وما يدور فيها من شتى الخوالج وهو بذلك يستطيع ان يضمن عواطفه ونوازعه وخواطره عبارة موسيقية منسجمة ويقولها في شعر متسق جميل ، فهو مثل مزهر خفاق توقع عليه الطبيعة ألحانها وتعزف أناشيدها، وهو يفطن بحدة مشاعره الى جمال في الطبيعة يغيب عن عيوننا ويسمع منها انغاماً لا تصل الى آذاننا ويروي لنا عن عالم بعيد وان كان جد قريب منا ويحدثنا عن ارض مسحورة هي التي نعيش فيها ونسعى في مناكبها غير عالمين بما فيها من مفاتن الحسن وروائع الجلال لنبو الشعور وكلالة الحواس

***

على ان توافر هذه المزايا الشريفة والمواهب العالية لا يكفي لانشاء شاعر كبير يعبر عن روح العصر ويصف شتى جوانب النفس الانسانية وتلتقي في نفسه البواعث المختلفة والتيارات المتناوحة، وانما هي تكون شاعراً وسطاً يطربنا شعره ولكنهُ لا يملأ نفوسنا ونتخذه صديقاً مسلياً لا استاذاً نسترشد بحكمته ونعنو لآرائه ، والشاعر الكبير يلزم لهُ مجهود من الطبيعة اكثر من ذلك وعليها ان تجزل لهُ المواهب السنية ولا مفر من ان يزاد الى تلك الحساسية اللطيفة والطبيعة المذودة بالانغام عقل كبير يضيء الظلمات ويكشف المخبآت تشد من قوائمه في اكثر الاحايين ثقافة عالية وعلم وافر ، وأمثال هؤلاء الشعراء قلائل في كل الامم يبخل بهم الزمن وأبو العلاء من هؤلاء النوادر القلائل

ولعل النزعة الفلسفية جارت في ابي العلاء على السليقة الشعرية ، وفي المعركة التي نشبت بين عقله وعواطفه تغلب العقل في كثير من المواقف واستعلى على العاطفة ، وقد دفع ابو العلاء ثمناً غالياً لذلك ، ولولا انتهاجه هذه الخطة واسرافه على نفسه فيها اسرافاً أساء الى شاعريته لكان شعره أجرى الى مسالك النفس وأشد حوكاً في الطباع ، ولقد اجاب ابو العلاء داعي الفلسفة ولم يلب داعي الشعر لما قطع الاتصال المباشر بينهُ وبين الحياة والمجتمع وظل في عقر داره يحلل افكاره ويشرح عواطفه ولا يتعرض لحلو التجارب ومرها ولا يعاني مد الحياة وجزرها ، والوقوف على الشاطيء وعدم المغامرة في اللجج والتقلب في ادوار الامل والخيبة والارتفاع والهبوط مسلك قد يلائم طبيعة الفلاسفة المتنسكين والعباد الزاهدين ولكنهُ مفسدة اي مفسدة للشاعر ابن الطبيعة المدلل وصفيها المحبب ، وقد غض هذا المسلك من روعة خيال المعري وشوه

من جمال شعره ، وثأرت شاعريته الاصيلة لنفسها من نزعة التجريد والانطلاق وراء الحق الفلسفي فصار أطول الناس مصابرة وأشدهم جلداً على القراءة لا يستطيع ان يمضي في قراءة صفحات معدودة من اللزوميات دون ان يحمل على نفسه ويعنتها

***

وحسب ابو العلاء انهُ قد أماط الكذب عن شاعريته لانهُ نزهها عن الخيال وحبسها على تقرير الحق العاري من التمويه والطلاء ، وجاراه في ذلك الدكتور طه حسين فقال في ذكرى ابي العلاء عندما عقد الموازنة بين المتنبي وابي العلاء « المتنبي حكيم ينتحل الحكمة ويتكلف الفلسفة وابو العلاء حكيم حقًّا وفيلسوف لا يعرف التكلف ولا الانتحال ، وحب المال والتماسه من الملوك والامراء اندفع بالمتنبي الى الكذب والمين وجعل حكمته صنعة وفلسفته شركاً لاصطياد المال ، والاستهانة بامر الدنيا جعلت ابا العلاء شديد الحرص على الصدق عظيم الحذر من انتحال الزور فكانت حكمته صادقة وفلسفته فطرية ، ومن هنا استجاب المتنبي الى الخيال وامتنع ابو العلاء عليه » وواضح من رأي الدكتور ان الخيال شديد العلاقة بالكذب وان ابا العلاء حرص على الصدق فنبذ الخيال ، وليس الامر كذلك ، وأرى ان مصدر هذا الوهم هو الخلط بين الحق الفلسفي والحق الفني ، وليس الخيال هو الكذب وانما هو منظار الحقائق ومصور خفايا النفس ، وهو عتاد الشاعر وركنه الركين ، واذا كان الشاعر طائراً فان الخيال جناحه ، وقد يظن ان الخيال كذب وذلك لان الفن نفسه قائم على اكذوبة عريقة النسب في الصدق اذ يخلق عالماً غير العالم ويعمره بالموجودات والاحياء ، والخيال هو عامل الانشاء في بناء هذا العالم وخالق احيائه ومبدع موجوداته ، والفن لا يجاري الواقع ولا يحتذيه لا لانهُ يجافيه ويتعمد ان يقلب نظامه ويعكس سننه وانما لانهُ يحاول ان يكمل نقصه ويسد فجواته ويصفيه ويهذبهُ ، قال شوبنهور « ان وظيفة الخيال هي أن يتم ما تبغي الطبيعة طلابه فيعجزها » وانما المهم في الخيال ان يقوم على صدق الاحساس ، وقد يصف لنا كاتب من الكتاب جزائر واق الواق او جبل قاف وبلاد بليت وهو مع ذلك أصدق حديثاً ممن يصف لك مشهداً عادياً معروفاً ، وقد وصف هومر حرب طروادة وصفاً قد يختلف في ظاهره وتفاصيله عن وصف المؤرخين لها ولكن هومر يعطيك لباب الحادثة ويطلعك على روحها ويترك القشور ويلغي الحشو . والخيال على نوعين : الخيال المنشئ مثل خيال شكسبير ودانتي وجيتي لانهُ يجسم الاحساسات ويخلق الشخصيات ، والخيال النافذ مثل خيال كارلايل ورينان ، وهذا النوع من الخيال هو الذي يعين صاحبه على استحضار

طيوف الماضي وتصوير الشخصيات التي طواها الموت ولولا الخيال لحرمت الانسانية من أروع طرف الادب وأنفس مبتكرات الفن ، وأرجح ان الدكتور عدل رأيه في هذا الموضوع بعض التعديل فقد شدَّد النكير على الأستاذ العقاد لانهُ رمى المعري بضعف الخيال في رسالة الغفران وعدها كبيرة من الكبائر وذلك في المقال الذي كتبهُ في نقد كتاب « المطالعات » ، والمتنبي أقوم بحقوق الشاعرية من أبي العلاء وأوفى بعهودها وحكمته فيض الطبع وثمرة التجربة ، وهو لا يعتسف الحكمة ولا يسوقها لك كالسواق الحطم ولا يؤديها بطريقة تعليمية جافة او على أسلوب المتحذلقين وثرثرة المرفة الذين شحنت غرائزهم بالبديهيات ورخيص الحكم ومبتذل الامثال ، وانما يأتي بالحكمة في سياق وصف حادثة او تصوير موقف باعتبارها جزءاً عضويًّا من الوصف وقطعة من الصورة ، وهذا الايراد الفني للحكم حسب مقتضى الحال وفي المناسبات السانحة هو الذي أثبت حكمة المتنبي على كواهل الدهور وطبعها في النفوس وأجراها على عذبات الالسنة

***

ولقد ظهر جيتي في المانيا في عصر نهضة حافلة ، وكان الجو الفكري يمور بالافكار الفلسفية فسبَّ جيتي من الفلسفة ولكن بمقدار صوناً لشاعريته ، وذهاباً بنفسهِ عن الانغماس في التجريدات ومجافاة عالم الحقائق المعينة والواقع الملموس فلم تذبل شاعريته ولم يُنهَض خياله بل ازداد قوةً على قوة ، وقد تأثر جيتي بالفيلسوفين اسبنوزا وأفلاطون وهو مدين لهما بالكثير « ولكنهُ كما يقول الأستاذ ادورد كيرد في مقالهِ البديع عن « جيتي والفلسفة » ظلَّ طول حياتهِ على أهبتهِ لا يسمح للفلسفة ان تستأثر بنفسهِ ولا يقبل منها الاَّ ما يماشي نوازعهُ ويلائم طبيعته ، وكان يستثمر نتائجها دون أن يضرب في تيهها او يأخذ في مسالكها الملتوية اذ كان يعلم ان قوتهُ الركينة قائمة على وحي الخيال الشعري » وقد أرضى جيتي غريزة حب الاستطلاع القوية في العبقريين دون ان يسيء الى شاعريته ففتح أبوابه لتأثيرات مختلفة وشارك في أكثر الحركات الفكرية ولكنهُ لم يمكنها من اجتياح طبيعته واستئصال غرائزه ، وظلَّ ثبتاً في مهاب رياحها ، وكان يعلم ان الافراط في طلب الحق الفلسفي يطفيء حماسة طلب الحق الفني ، ومن الاستهانة بحقوق الفن ان يسخر الشاعر ملكته لاجل فكرة أو ان يقفها للنضح عن عقيدة ، لان الشاعر فنان قبل كل شيء ، ولا يكون الفن فنًّا خالصاً الاَّ اذا كان مالكاً حريته مطلق السيادة في عالمهِ لا شريك لهُ في ملكه ولا مدافع لهُ عن مكانته ، والدين والفلسفة والادب كلٌّ منهم سيدٌ في عالمهِ ، والشعر لا يكون شعراً الاَّ اذا كان حرًّا طليقاً غير خاضع لسلطان الدين او للفلسفة او

الآداب ، والاشعار التي تتضمن الوعظ والنصائح وتستنفر الناس للفضيلة وتزعهم عن الرذيلة هي نوع من الوعظ وضرب من التبشير ، وأصحابها الصالحون يحاولون انقاذنا من حبائل الشيطان ومهاوي السوء فلهم ثواب عند الله وأجر عظيم في مستقر رحمته لحسن المقصد وسلامة النية ، ولكن الفن لا يجازيهم على مجهودهم لانهم لم يلتمسوا بها وجه الفن ، وأمثال هذه الاشعار شواهد في السلوك ومتون في الاخلاق كما ان ألفية ابن مالك متن في النحو وان كانت منظومة شعراً ، وللفن وجوده الخاص وشخصيته المستقلة ، والفنان الذي يحاول ان يستدرجنا على غرة ليسمعنا دروسه الاخلاقية ومحاضراته عن الفضائل والرذائل نسميه واعظاً ، وليست الفنون والآداب منابر للوعظ ولا أندية للتبشير ، ومن العبث ان ينازع الشعراء رجال الوعظ وظيفتهم ويضيقوا عليهم سبلهم . ومن المشاهد ان الكتاب الفن تتغلب عليهم نزعة الانتصار لناحية خاصة من نواحي الاخلاق يمسخون الطبيعة البشرية ويشوهون تصويرها ، والفنان الصادق تأبى به طبيعته عن مثل ذلك فلا يغالي في نزعة من النزعات ولا ينتصر لجانب من الجوانب

***

وتختلف وظيفة الشاعر عن وظيفة الفيلسوف ، فوظيفة الفيلسوف هي ان يتناول بالتحليل التيارات الفكرية الغالبة على جيل من الاجيال والتي تشكل افكار هذا الجيل وتقوم على اساسها ثقافته ومعرفته ، ويقيس أبعادها ويسبر أغوارها ، أما مجال الشعر فهو اظهار الجمال ، ولقد قال كيتس الشاعر « ان الجمال حق والحق جمال » ولكن مع ذلك فان التفسير الفلسفي للحياة غير التفسير الشعري ، وقد بسط الفيلسوف النقادة الايطالي بندتو كروتشه الفرق بين الفلسفة والشعر في هذه الكلمات القوية « قبل ان يصل الانسان الى درجة تكوين الافكار عن العام كوّن افكاراً خيالية ، وقبل ان يفكر تفكيراً واضحاً كان يفهم الاشياء فهماً غامضاً مختلطاً ، وقبل ان يتكلم ترنم ، ولم ينطق بالنثر الا بعد ان عبر بالشعر ، وقبل ان ينحت الاصطلاحات استعمل المجازات ، فالشعر ليس وسيلة لشرح الفلسفة وانما هو نقيض لها ، فالفلسفة تحرر الذهن من الحواس ، اما الشعر فانهُ يغرقهُ في عالم الحواس ، والفلسفة تصل الى الكمال بنسبة تساميها الى العام ، أما الشعر فيعظم ويكمل بمقدار انحصاره في الخاص ، والفلسفة تضعف الخيال وتكبله والشعر يقويه ويطلقه ، والفلسفة تحذرنا من استحالة العقل الى جسم والشعر يطاربهُ ان يجسم العقل ، وأحكام الشعر مشتقة من الحواس والعواطف ، وأحكام الفلسفة قائمة على التفكير الذي لو تسرب الى الشعر جعله فاتراً ، ولم يعرف في سير التاريخ احد كان شاعراً كبيراً وفيلسوفاً كبيراً معاً » ونستخلص من كلام كروتشه ان الانسان لا يعبد الهين ، وان التفرق في الشعر والنبوغ في الفلسفة لا يجتمعان في صعيد واحد

وان الانسان صدح بالشعر في بواكير الحياة الاجتماعية وفجر التاريخ قبل ان يتكلم نثراً ، ولج في عالم الاحلام وسدر في غلواء الخيالات والاوهام قبل أن يستكثر من الصور المجردة ويعيش على الفروض والنظريات ، فالخيال جاء قبل المنطق والخرافة سبقت التاريخ والغناء تقدم الكلام والشعر أقدم من النثر ، وما زال ذلك يتكرر في حياة الامم ويشاهد في دررجها من مهد الطفولة وملاعبها وغضارة الفطرة وبساطتها الى شباب الحضارة وكهولتها وتكلفها وتعقيدها ، وكل نهضة تبدأ بالشعر ثم تنتقل الى الفلسفة في ابان نضجها وهكذا ينتقل المصباح من يد الشاعر فتتلقفه يد الفيلسوف

***

ولا أجد مثلاً أبلغ في شرح رأي كروتشه من الموازنة بين رجلين أحدهما يمثل الشاعرية في أتم معانيها والآخر يمثل الفلسفة في صورة من أكمل صورها ، وهما شكسبير وشوبنهاور ، فشكسبير يصور لك كل خالجة من خوالج النفس ويكسو نزعات الاهواء صورة اللحم والدم ، ووظيفته ان يريك الحياة بأجزائها وألوانها ، وهو يصور عواطف الحب والبغضاء والانتقام والحسد والغيرة والندم والخوف والجشع والطموح وعدم المبالاة ، ويمثل لك حالة الملك الهمام والقائد الرهيب والعابد المتنسك والمارق الفاجر والبطل الأبي والمتسوّل الوضيع والجبان النكس والعفيفة الطاهرة والداعرة الفاجرة الى سائر تلك الصور العديدة من الاحياء التي تفتن الطبيعة في اخراجها ، أما شوبنهور فهو يشاهد في الحياة أمثال هذه الصور المعينة ولكن ينفذ من خلالها الى الفكرة العامة المستقرّة خلفها ويبني عليها آراءه في الاخلاق ويقيم مذهبهُ الفلسفي ، ويتناول بالتحليل هذه المظاهر ويجردها من أثوابها ويردها في النهاية الى مصدر واحد هو الرغبة في الحياة التي تبدو في صور متعددة

فشكسبير وظيفته أن يمثل ويصور ، أما شوبنهاور فطريقته أن يشرح ويفسر وقد تظفر في روايات شكسبير بالحكم العميقة والنظرات النافذة وضروب الفلسفة العالية ولكنها ليست هناك لذاتها وانما هي جزء من البناء الفني وقطعة من الصورة اقتضتها ضرورة التصوير ، وقد تقرأ لشوبنهاور الروائع الادبية والخيالات الشعرية ولكنها ليست واردة في كتاباته لغرض فني وانما هي هناك مدرجة للتجريد وسلم يرتقي به للفكرة العامة ، وموجز القول ان الشاعر هو احساس الانسانية والفيلسوف هو عقلها ولا انسانية بغير احساس او عقل

« وعقل » الفتى نصف ونصف فؤاده فلم تبق الاّ صورة اللحم والدم



ابو العلاء المعري

حديثك عن بحرٍ اذا هاج أرعبا … فحقك عند الخوض أن تتهيبا

ولكنه البحر الذي لا تهزه … عواصف تذري الراسيات لتلعبا

وخلجانه درٌ تنضده الضحى … وشطآنه تبرٌ تبعثره الصبا

ويقصده الصادي فيلفيه كالندى … وأطهر من دمع الصباح وأعذبا

سلامٌ على شيخ المعرة انه … أفاض على الاجيال سحراً مركبا

سلافة شعرٍ في اباريق حكمةٍ … يطوف بها عانٍ اذا افترّ قطبا

رمته يد الاقدار باليتم والعمى … فكان له العقل الهدى والهدى الأبا

وغادره الجدري صبياً مشوهاً … حكى جلده اللدن الطريق المحصبا

فما فيه ما يرضي العيون وانما … به كلّ ما يرضي الشعور المهذبا

ترى وجهه كالقفر حران مجدباً … وما خلفه كالروض ريان مخصبا

فيا لك قفراً لا ترى غير شوكه … ويا لك شوكاً يبعث العرف طيبا

ويا لك دنيا بين حينٍ وآخرٍ … تمتع محروماً بما عزّ مطلبا

***

تعمدت الاقدار إرهاق احمدٍ … فأسمعها آياً من الهزء معربا

وحاكت له ثوباً قشيباً من الأذى … فحاك لها ثوباً من السخط أقشبا

وأدبت الدنيا بنيها فهالها … فتى هاله ان لا يكون المؤدبا

وما عرفت نفساً اعز ولا نهى … أصح ولا عوداً أشد وأصلبا

رأت في صباها شيبه فتعجبت … وشب أذن شابت فزادت تعجبا

خلودٌ لو ان الشمس تحظى بمثله … لما جاء في التنجيم عن موتها نبا

فقد يطويه الموت الكواكب تاركا … على رغمه فرق السماكين كوكبا

ويمحو جميعَ القول الاَّ حقيقةً تجوب فجاج الارض شرقاً ومغربا
ليعرُبَ هذا المجد يا وُلدَ يعرب فأيّ كريمٍ لا يمجّد يعربا
وللشام هذا الارثُ يا آل جلّقٍ ألا فليتِهْ لبنانُ ولتشمخ الربى !
ولو شاءت الدنيا الى الحقّ عودةً لسارت الى ارض المعرّة موكبا
وحجَّ ضريحَ الشيخ طلاّبُ علمهِ كما حجَّ طلاّبُ التبركِ يثربا

***

ألا ايها الاعمى البصير الذي رأى بفطنتهِ قلبَ الورى المتقلبا
وأبصر بالعقل الخفيات كاشفاً وراء التقى والبرّ مكراً ومأربا
ولم يرَ في الاديان إلاَّ حبائلاً يصيد بها الداعي اليها التكسّبا
حنانيكَ إنّ الالفَ مرّتْ ولم نزل نداري من الانسان صلاًّ وعقربا
توخّيتَ إصلاحَ ابن آدمَ غيرةً وقد كان إصلاح السراحين أقربا
وحاولتَ إطفاءَ الشرور ولم يكن على الشيخ إطفاء البراكين أصعبا
ومن رام تقويم الطباع التي التوتْ قضى يائساً منها كما عاش متعبا
فإنَّ الذي فارقتهُ متعصباً لقد زادهُ مرُّ الليالي تعصُّبا
وما خفقت في اللاذقية ضجّةٌ وما زال ذيّاك الصحيحُ محجّبا
فما الناس الاَّ اثنانِ ضارٍ مدجّجٌ ومستضعفٌ لم يُعطَ ناباً ومخلبا
وإنّا لَنخشى ان نصاحبَ ضيغماً وإنا لنأبى ان نصاحبَ ثعلبا
وما عزَّ من يسطو على حقّ جاره ولو مدَّ بين الارض والشمس كوكبا
وما ذلَّ حقٌّ ، في عراكٍ ، لباطلٍ وكم ربَّ حقّ قد أُذلَّ وخيّبا
وليس يفيد الحقُّ في الحرب ربّةً اذا قُلَّ في الكتف المنضّد أو نبا
وفيمَ اقتتالُ الناس والموتُ قصدُهم سيبلغهُ من هفَّ منهم ومن حبا
فلو أنفقوا بعضَ الذي ينفقونهُ على الشرّ من جهدٍ على الخير ما كبا
قد اختلفوا روحاً وعقلاً وفطرةً كما اختلفوا داراً وديناً ومذهبا
لهم مجلسٌ للسلم عندَهُ فوقهُ سحائبُ نقعٍ تجعل النور غيهبا

اذا اجتمعوا فيه لترتيب خطة … توقعت الاعزال شراً مرتبا
وإن أنصفوا شعباً ضعيفاً بقولهم … رأى نصفهم بالفعل ظلماً مشعبا
ولو وصلت أبحاثهم في اجتماعهم … الى الشيخ — وهو الجهم — في الضحك أغربا

***

فيا من رأى في الدين قيداً لعقله … فأعمل فيه مبرد النقد مغضبا
فلم ير في الاسماع من حلقاته … وفي قفله الا حديداً مذهبا
فأعلن للغاوين لا متهيباً … ولا طامعاً ما كان عنهم مغيبا
« أفيقوا أفيقوا يا غواة فانما … دياناتكم مكر » وأحلامكم هبا
فما عملوا الا بوحي قلوبهم … فأعرض عنهم مشفقاً متعتبا
وآثر ان يحيا بقية عمره … سجيناً اذا جاءوا يؤاسونه أبي
على أنهم لا مهرب من مجيئهم … كما جاء ظمآن نميراً ليشربا
عطاشاً الى ما يسكر النفس حوله … جياعاً الى ما يشبع العقل سغبا
صبا بهم شعر وعلم وانه … خزانة اشعار وعلم لمن صبا
يقول لهم عودوا الى العقل كلما … دعيتم الى تصديق ما العقل كذبا
من اشتار ما كدت له النحلة اعتدى … ومن قتل الشاة البريئة أذنبا
ومن صرح البرغوث من اسر كفه … أعد له في دولة الفضل منصبا
تعاليم احسان وعطف ورأفة … وليدة فكر نوره قط ما خبا
ولكنها ما دام للشر عزة … فتابعها يقضي شقياً معذبا
وما دام ناب الليث يوليه حرمة … فأهلاً وسهلاً بالنيوب ومرحبا !

***

سلام امام العاقلين على حجى … من الشمس يحكي قرصها المتلهبا
ألوف وراء الالف عني وذكره … يظل لامثال الخليقة مضربا

برازيل … الياس فرحات

الانتروبولوجيا والبحث الجنائي

الهيكل العظمي

يدل على سلالة صاحبه وجنسه وقامته وعمره

من البواعث على اغتباط كاتب هذه السطور ان أُتيح لهُ في رحلات مختلفة الى بلدان أوربا واميركا زيارة دور للآثار القديمة فيها خلاصة ما عثر عليه العلماء والمنقبون من بقايا الحيوانات البائدة في العصور المتغلغلة في القدم . من هذه البقايا عظام او كسر عظام ، أخذها العلماء وبنوا على أساسها هياكل عظمية تامة . منها ما هو خاص بحيوانات مختلفة النوع ومتفاوتة الحجم ومنها ما هو لأناس أو لسلالات من الناس قاموا وبادوا في بقاع متباينة من سطح الارض . وقد تكون العظمة عظمة الفخذ او عظمة العضد او قطعة من عظام الجمجمة او فكاً ، ولكن العلماء المختصين يستطيعون على ما يظهر ان يتبيَّنوا من دراسة هذه العظام اوصافاً دقيقة وحقائق متنوعة عن صاحبها ، فيبنوا على هذه الاوصاف والحقائق صورة كاملة لصاحب العظمة سواء أحيواناً كان أم انساناً وقد يستطيعون اذا فازوا ببضع عظام ان يعيدوا بناء الهيكل العظمي كاملاً . وكثيراً ما سأل نفسهُ محيراً كيف يفعلون ذلك ؟

والعلم بآثار الاحياء البائدة جليل الشأن من نواحٍ متعددة . فهو ذو صلة بفهم التطوُّر العضوي في الاحياء ونشوئها . وهو ذو صلة كذلك بدراسة الاحوال الجوية والارضية التي كانت تسود المنطقة التي عاشت فيها تلك الاحياء وما طرأ عليها من تبدُّل . ولكنهُ بحث يتصل بالماضي السحيق ، اذا وجد فيه ذهن العامي متعة وذهن العالم فائدة كبيرة الشأن في استكمال العلوم المتصلة به ، فانهُ من الصعب ان تستشف لهُ فائدة عملية تتصل بحياتنا اليوم

إلاَّ ان قراء المقتطف اصبحوا يعلمون مما يطالعون في فصوله ، ان البحث العلمي لا يمكن حصره في حدود النظر مهما يكن الموضوع نظريًّا ، ولا ان تقسَّم المباحث العلمية تقسيماً حاسماً

بين النظريّ والعمليّ . وهذا يقيننا ويقين كلّ من تتبع تاريخ العلوم وتقدمها

ولذلك ما زال هذا الكاتب يترقب ان تسفر المباحث العلمية الحديثة عن تطبيق عملي لما يعرفهُ علماء الآثار البائدة عن عظام الهيكل الحيواني وما يتبينونهُ فيها من الصفات وما يستخلصونهُ من دراستها من الحقائق . وقد تمَّ لهُ ما كان يتوقع عندما قرأ في إحدى المجلاَّت العلمية الاميركية ، عن تطبيق هذا العلم على البحث الجنائي مما يسهل على رجال البوليس والتحرّي استكشاف بعض الجرائم والجنايات الغامضة

فقد حدث في احد الايام ان جماعة من الاطفال كانت تلعب في حفرة قريبة من حدود قريةٍ كبيرة بأميركا فعثر الاولاد في أثناء لعبهم على مجموعة من العظام ظهر لاولي الامر بعد بحثها أنها عظام بشرية . فعهد الى عالم أنثروبولوجي — وهو وصف هذا الضرب من العلم — بدراستها ففعل وبعدما استوفى دراستهُ وضع أوصافاً دقيقة للانسان الذي كانت هذه العظام عظامهُ . قال ان صاحب هذه العظام امرأة خلاسية اي سليلة سلالتين مختلفتين وقد كانت في هذه الحالة زنجية الام بيضاء الاب، في الثالثة والثلاثين من عمرها طولها خمس اقدام وست بوصات ونصف بوصة ووزنها ١٢٠ رطلاً . فلما اتصلت هذه الحقائق بدائرة الامن العام تمكن رجالها من التعرُّف على سيدة ضاعت ولم يعثر لها على اثر . وكانت أوصاف هذه السيدة محفوظة في دائرة الامن العام ولدى مقابلتها بالاوصاف التي استخرجها العالم الانثربولوجي من دراسة العظام فقط ظهرت مطابقة عجيبة . عمرها ½ ٣٣ — مقابل ٣٣ في اوصاف العالم. طولها ٥ أقدام و٧ بوصات — مقابل ٥ اقدام و ½ ٦ بوصة في أوصاف العالم . وزنها ١٢٥ رطلاً مقابل ١٢٠ رطلاً في أوصاف العالم . لون بشرتها بين الزنجي والابيض في الاثنين

وليس هذا الوصف الدقيق بفلتةٍ اومن قبيل الحزر والاحتمال . وذلك لانَّ الهيكل العظميَّ في الانسان — على قول استاذ التشريح والانثروبولوجيا الطبيعية في جامعة وسترن ريزرف الاميركية — يبين التاريخ الطبيعي لصاحبه بلا خطاء ويبقى قادراً على تبيانهِ بعد انقضاء قرون وصاحبهُ دفين في أطباق الثرى

السلالة تستبين منه والجنس والعمر والقامة . وقد يمكن ان يستخلص من بعض عظامهِ بعض الامراض الخطيرة التي أصيب بها في أثناء الحياة لما تتركه من اثر في العظام

وقد بلغ من تقدم هذه الطريقة أنها أصبحت معواناً لا بدَّ منه للباحث الجنائي وللباحث الأثري وللمؤرخ بل انها تطبق أحياناً على الاحياء فتفحص عظامهم بواسطة الاشعة السينية لاستخلاص ما يمكن ان يكون ذا فائدة في معرفة شؤون لها صلة بالنموّ والصحة

والهيكل العظميّ يبيح اسراره للعلماء والباحثين عن طريق القياس المقابل . فالأوصاف الخاصة بالسلالة مثلاً تمكن معرفتها من النسبة التي بين عظام الجمجمة وعناصرها . فجمجمة الزنجي مستطيلة مسطحة . ومحجرا العينين بعيد احدهما عن الآخر . ومستوى عظام الوجه منحرف انحرافاً شديداً . ثم ان الحوض ضيق وعظام الذراعين طويلة بالقياس الى طول عظام الفخذين

هذه النسبة المختلفة متباينة عما تراه مما يقابلها في هيكل رجل من الجنس الابيض

وليس في وسع الانثروبولوجي أن يميز فقط هيكل رجل من سلالة معينة عن هيكل رجل من سلالة أخرى بل يستطيع كذلك ان يميز هيكل رجل خلاسي أي خليط من سلالتين ودرجة ذلك

ثم ان الجنس او الشق أي هل صاحب الهيكل ذكر او أنثى يمكن استخلاصهُ من دراسة الهيكل العظمي وفي ٩٨ في المائة من الحوادث يمكن الاعتماد في ذلك على دراسة عظام الحوض وهي العظام التي تحمل في المرأة الرحم اي بيت الولد . فاذا درس الحوض وأضيفت اليه دراسة الجمجمة أمكن الجزم في هل صاحب الهيكل ذكرٌ او أنثى . ومن الحقائق التي أثبتتها البحوث والتجارب التي يمكن الاعتماد عليها في هذا الصدد ان سعة الجمجمة تقلُّ في الانثى نحو ٢٠٠ سنتيمتر مكعب عنها في الذكر . وهناك عظمة معينة هي أقل بروزاً في جمجمة الانثى منها في جمجمة الذكر . أما عظمة الحوض في المرأة فأوسع بحكم الطبع منها في الرجل . وهيكلها بوجهٍ عام أدق وأرشق . حالة ان هيكل الرجل أضخم وأقوى

فلنفرض الآن ان سلالة صاحب الهيكل قد تعيَّنت . وأن جنسهُ قد عرف . فلننظر الآن في الاسلوب الذي يعتمد عليه الباحث في تعيين قامته . انَّ ذلك يعتمد على معادلات رياضية استخرجها الباحثون من دراستهم المسهبة للصلة بين القامة وطول العظام في الذراعين والفخذين . وعظمة الفخذ خاصةً من أهم ما يعتمد عليه في هذه الناحية . فقد أثبت الاحصائيون أن طول الرجل يبلغ نحو ضعفي طول هذه العظمة زائد ٨١٣ مليمتراً و ٦ في المائة من المليمتر . قلنا « نحو ضعفين » والواقع ان النسبة الدقيقة هي واحد و٨٨ في المائة . أما النسبة في المرأة فهي ١و٩٤ من طول

عظمة الفخذ زائد ٤٫٧٢٨٤ من المتر . ثم هناك نسب أخرى معروفة للعلاقة بين طول القامة وطول عظمة الذراع العليا المعروفة باسم عظمة العضد والنتائج المعروفة تثبت ان الاعتماد على هذه المقاييس واستخلاص طول القامة استناداً اليها لا يحتمل خطأ أكثر من واحد في المائة

ومن أظرف ما يروى من الحوادث التي كان الحكم فيها للبحث في العظام ان هنديًّا أميركيًّا كان لهُ ولد يملك قطعة من الارض . وغادر الولد البيت ولم يرجع . ثم ظهر ان في هذه الارض بترولاً . فطالب الوالد بحقهِ . فتعذَّر الحكم لهُ لانهُ لم يثبت ان ابنهُ ليس على قيد الحياة . ثم علم من سجلات البوليس في ولاية مجاورة ان شابًّا يشبه في أوصافهِ العامة ابن هذا الهندي قتل وهو ممتطٍ جواداً ودفن . فأمرت المحكمة بأن تنبش الجثة ويعهد بفحص عظامها الى أحد الباحثين المختصين . وبعد دراسة دامت ثلاثة أيام ثبت ان الجثة جثة ابن ذلك الرجل فنال حقهُ في الارث عن طريق البحث الانثروبولوجي

أما عمر صاحب الهيكل العظمي فيمكن استخلاصهُ بدقة عظيمة من دراسة نسيجهِ العظمي اذ في العظام مراكز تعرف باسم مراكز التعظُّم أي التحوُّل الى عظام . وقد درست هذه المراكز درساً دقيقاً وعرفت حالتها في كل سنة من وقت الولادة الى السنة الحادية والعشرين من العمر . فبدراسة هذه المراكز في عظام هيكل ما ، يمكن تعيين العمر اذا كان تحت الحادية والعشرين تعييناً دقيقاً لا يحتمل من الخطاء أكثر من شهرين او ثلاثة أشهر . أما اذا كان فوق الحادية والعشرين فعلى الباحث الاستعانة بتحولات عظمية أخرى ولا سيما في ملتقى عظام الجمجمة نفسها . فأطراف هذه العظام مسنَّنة وتكون غير متداخلة او ملتحمة في بدء العمر ثم تزيد تداخلاً والتحاماً بتقدُّم العمر ، فدراسة حالتها في جمجمة ما ومدى تداخلها والتحامها من العوامل التي تقرن بدراسة مراكز التعظُّم لتعيين العمر . ثم ان حالة المادة العظمية نفسها في العظام تتحول بالتقدم في السن ودرجات تحوُّلها معروفة . فدراسة هذه المادة عامل ثابت من العوامل التي تساعد على تعيين السن

هذه الخواص لا تتغير بعد الموت وتبقى على ما هي مئاتٍ بل ألوفاً من السنين . وقد عيِّن عمر الملك توت عنخ امون من دراسة عظامهِ فاذا هو ١٨ سنة وعيِّن عمر حميهِ الذي كان مدفوناً على قرب فاذا هو ثلاثون سنة . ثم ان دراسة عظامها بيَّنت ان صلة القرابة بين الرجلين كانت

قريبة جداً علاوة على المصاهرة . وكانت هذه الحقائق مما ساعد الباحث الاثري والمؤرخ في عملهما

أما الوزن فلا يمكن تحديده الاَّ بوجهٍ عام ، لان السمنة لا علاقة لها بطول الهيكل وعرضه فقد تدلُّ مقاييس هيكلٍ من الهياكل على أن صاحبهُ من وزن معتدل . ولكن من المحتمل ان صاحبهُ في الواقع كان نهماً قليل الرياضة فكان شديد السمنة ووزنهُ فوق المعدل كثيراً

بقي أن نروي حادثة او حادثتين طبقت فيهما هذه القواعد علاوة على ما تقدم

عثر في أحد الايام على بقايا سيارة محترقة وعثر في هذه البقايا على هيكل عظمي لرجل . وعند البحث ظهر ان اللوحة التي تحمل رقم السيارة مفقودة . فاتجه الفكر الى حدوث جناية . وكان من المعلوم ان رجلاً في تلك المنطقة قد ضاع أثرهُ . وانهُ كان قبل ذلك قد تلقى رسائل تنطوي على تهديدٍ . الاَّ ان الهيكل الذي وجد كان ينقصهُ أحد الفخذين . أي انهُ كان هيكل رجل بترت فخذه . ثم علم ان في تلك المنطقة كان يوجد رجل مبتور احدى الساقين ولهُ ساق من خشب وانهُ كان يهدد بالانتحار . فهل الحادثة حادثة قتل او حادثة انتحار ؟ فلما فحصت عظام الهيكل ظهر ان الاوصاف التي بنيت على الدراسة تنطبق على كلا الرجلين . واذاً فالحل المرتقب متصل بتلك الفخذ الضائعة . فكيف السبيل الى معرفة ذلك

فقال العالم في نفسهِ ، اذا كان هذا الهيكل هيكل الرجل المبتور الساق ، واذا كانت ساقهُ قد بترت قبل سنوات كما هي الحال في احد الرجلين فيجب ان تكون عظمة الحوض التي كانت متصلة بتلك الساق قد ضمرت وتغير نسيجها عن العظمة التي تقابلها في الجهة الاخرى . ففحص عظمة الحوض فحصاً مدققاً فظهر انها كذلك وثبت ان الهيكل هيكل الرجل المبتور الساق . فتغلبت نظرية الانتحار على نظرية القتل

وعثر من بضع سنوات على هيكلين طفلين في تلة تابعة للهنود الحمر في ولاية مسوري الاميركية ففحصا فدل الفحص على انهما طفلان أبيضان واستدل بالاشياء التي كانت تحيط بهما على أنهما دفنا دفناً تامَّ الشعائر قبل مائة سنة تقريباً فلما ذا دفنا هناك في بلاد تابعة للهنود الحمر وهم خصوم البيض في ذلك العهد . فدرس العالم نسيج عظامهما فتبين انهما كانا ضحية سوء التغذية . فبنى على ذلك نظرية لا بأس بها وهي ان أسرة من مقاديم البيض كانت آخذة في النزوح الى غرب اميركا من مائة سنة فوصلت منطقة يقل فيها الطعام والماء وتعسر فيها أحوال العيش فمات الطفل فدفن حيث لا يحتمل ان يتجه اليهِ نظر الهنود فينبشوهُ

الحركات العربية

المنظمة وأثرها الادبي

لانيس المقدسي

استاذ الادب العربي بجامعة بيروت الاميركية

ذكرنا انهُ في الثلث الاخير من القرن الماضي ظهر في سوريا والعراق صيحات أدبية تُهيب بأبناء العربية في السلطنة العثمانية أن ينهضوا من رقادهم ويسموا لاعلاء شأنهم . وقد كان لتلك الصيحات أثر يذكر في تنبيه الشعور ونفض غبار الخمول الذي تراكم عليه قروناً عديدة . على ان الامم العربية لم تكن قد وصلت في حياتها الاجتماعية والسياسية الى درجة التعاون المنظم . فلم تتجاوز تلك الصيحات حدّ اثارة الشعور ، بل لم يكن لها اثر بيّن الاّ في حلقات خاصة من اهل الثقافة . وظلّ الامر كذلك حتى أعلن دستور ١٩٠٨ فغمر البلاد العربية بموجة من الاخلاص والحماسة للوطنية العثمانية . لكن تلك الموجة لم تلبث كما بسطنا في غير هذا المقام ان تراجعت وضعف أثرها في النفوس

وقد دلّت العربَ التجاربُ على ان القانون النظري شيء وتنفيذه شيء آخر ولعلهم ذكروا يومئذٍ خط كلخانة الذي أصدره السلطان عبد المجيد سنة ١٨٣٩ ثم الفرمانات والعهود الصادرة بعد ذلك كفرمان ١٨٥٦ ، وفرمان ١٨٧٤ ، والمادة التاسعة من معاهدة باريس ، ودستور مدحت سنة ١٨٧٦ . وفي كلها كانت تركيا تعترف قانونيًّا بالتساوي بين جميع الاجناس والاديان في السلطنة . على ان ذلك التساوي لم يتمّ فعليًّا

فلما ذهبت النشوة الدستورية الجديدة فتح العرب عيونهم فاذا هم والاتراك وجهاً لوجه ، واذا بينهم اختلاف مريب يثير الشكوك بنيات الاتحاديين — وهم حماة الدستور ومنفذو احكامه . فتملكهم التشاؤم ورأوا ان العهد الجديد لا يختلف عما سبقهُ وانهُ لا بدّ لهم من العمل . وكانوا في مطلع القرن العشرين وقد خطوا خطوات واسعة في سبيل الرقيّ ، وتهيأ لهم من اسباب النهضة

ما لم يتهيأ من قبل ، فأخذ السياسيون منهم ينظمون الجميات والدعايات توصلاً الى نيل حقوقهم وصدًّا للتيار التركي من الطغيان عليهم

وغير نكير ان موقف الاتحاديين من الدستور لم يكن سهلاً . فهم الذين أعلنوه ، وهم الذين كان عليهم أن يحموه ويطبّقوه . فلم يكن غريباً ان يحصروا معظم السلطة في ايديهم وان يكون جلّ تعويلهم على العنصر التركي

وبذلك فتحوا باباً لتذمر غير الاتراك . وسرعان ما أحدث هذا التذمر تكيراً في صفوف الدستوريين من ملكيين وعسكريين ، فبدرت بين العناصر المختلفة ، كما رأينا ، بوادر سوء الظن . ولم يكن بين الشبيبة المتحمسة من يتلافى الامر بالتي هي أحسن ، فكان ما كان من تلك المشادّة المنصرية التي فرّقت قلوب العرب عن الترك وحوّلت أنظارهم الى العصبية القومية

وطبعاً لم يكن عقلاء الطرفين راضين عن هذه الحالة التي أقلّ ما يقال فيها انها توهن قوى الدستوريين وتحرج مركزهم . فقام مفكروهم يدعون الى التساهل وإزالة سوء التفاهم . ومنهم الدكتور رضا توفيق [١] . فقد صرّح سنة ١٩١٠ لمحرّر جريدة (بروجره دي سلانيك) بقوله [٢] — « أنا على اتفاق تام مع الجمعية على ان البلاد في حاجة الى حكومة قوية ، ولكنني أخالفها في استخدام القوة . واذا كان وجودي في المجلس قد قضى عليّ بأن أحمل على طلعت بك الممثل الاكبر للجمعية في الوزارة وصديقي ورفيقي منذ الساعة الاولى في جمعية الاتحاد والترقي فذلك لاعتقادي بأن الواجب عليّ ان أفعل ما فعلت . ولو سكتُّ كغيري لكان ذلك خيانة لايغتفرها الوطن لي . ان الدستور لايكون الا كلمة لامعنى لها اذا لم نحترم الحرية السياسية والحقوق الاساسية وحرية القول والكتابة والخطابة ، واذا لم تعامل العناصر كلُّها معاملة واحدة بمقتضى أحكام الدستور »

ففي كلام هذا التركي الحرّ ما يشير الى سياسة الاتحاديين التي حملت العرب يومئذ على التبرُّم وسوء الظن

وكما كان بين مفكري الاتراك متساهلون يدعون الى الوئام كذلك كان بين مفكري العرب فقد ذكرت جريدة الاهرام ان جمهوراً من العثمانيين في مصر اجتمعوا سنة ١٩١٠ لوداع سليمان البستاني نائب بيروت . فجرى في ذلك الاجتماع من الكلام ما يشفّ عمّا كان بين العنصرين التركي والعربي من توتّر في العلاقات . وها نحن ننقل بعضه بتصرف عن مجلة النبراس البيروتية [٣] — قال رفيق بك العظم « ان العرب مهضومة حقوقهم ولغتهم ممتهنة مضطهدة » .

---

(١) هو عالم تركي كبير وكان من صميم الاتحاديين (٢) ثورة العرب (المقطم ١٩١٦) ص ٥١
(٣) مج ٢ ص ٣٣٣

وهو يعزو هذا لا الى الامة التركية فهي صديقة العرب ولكن الى بعض ذوي المناصب في الاستانة . ثم يقول متحمساً . « فالواجب ان يفهموا اننا لا نصبر على هذا الضيم لانهُ يهمنا ان تحيا الدولة . إن الترك بلا العرب تزول دولتهم ، والعرب بلا الترك يؤكلون ويهضمون ، فحياة الدولة تهمّنا وتهمهم على حدٍ سواء »

وممن تكلموا في ذلك الاجتماع الدكتور يعقوب صرُّوف فقال — « ان معتقدي كان كمعتقد أخينا رفيق بك حتى قابلت اليوم العلاَّمة البستاني ففهمت منهُ الحقائق ، وأنا واثق انهُ لم يقل اليَّ غير الحق . فاذا كان العرب قد حرموا الوظائف فلأنهم لم يسيروا في سلك التوظيف . وان كان قد بدر من بعض كتَّاب الاتراك ما آلم العرب فذلك ليس رأي القابضين على أزمَّة الامور « بل ان رأيهم عكس ذلك تماماً » . . . الى ان يقول . . « فالواجب ان نداوتهم بالنصيحة ونعوّ سوء التفاهم ونساعدهم على ادماج جميع العناصر والطوائف حتى تصحّ الجامعة العثمانية »

وأخذ السيد رشيد رضا يثبت ان هناك سوء تفاهم بين العرب والترك لا يجوز انكاره ، على انهُ كان يحاول ان يحصره في فئة معينة . ومما قالهُ « لا نكران ان بعض ذوي الاغراض في الاستانة هم سبب هذا الشر »

أما البستاني فكان ينزع منزع السياسي العثماني الصميم . وقد شرع يبيّن ان هذه المشادة مبنية على الاوهام ، وان الدولة مفتوحة للعرب كما هي للترك . وفي كلامه — « أقول لكم عن ثقة وعن يقين ان قولهم ان بين رجال الحكومة من الاتراك قوماً يكرهون العرب او يضطهدونهم وهمٌ باطل اختلقهُ بعض أصحاب الاغراض والمفاسد . فالاتراك عموماً ورجال الحكومة منهم خصوصاً يحبون العرب ويجلونهم ويعتمدون عليهم في تأييد الدولة . ولا يضطهدون اللغة العربية بل هم على عكس ذلك يؤيدونها »

فيؤخذ مما ورد في هذا الاجتماع الذي كان يضم نخبة من مفكري العرب ان العرب كانوا يتهمون الاتراك بهضم حقوقهم والاستبداد بالامر دونهم واضطهاد لغتهم . وقد تناول جرجي زيدان ذلك في مجلة الهلال فنشر مقالاً موضوعه العرب والترك حاول فيه الاعتذار عن الاتحاديين وحمل العرب على المودة وحسن الظن . ومما جاء فيه[1] — « لا ننكر استخدام جمعية الترقي نفوذها في الانتخابات حتى جعلت الاكثرية من حزبها ، وانها تلكأت في اسناد الوظائف الكبرى الى العرب . ولكننا لا نحمل ذلك على رغبتها في الاستئثار بالسيادة دون العرب او غيرهم ، ولكن فعلت ذلك على ما نظن رغبة في سلامة الدولة ، وصيانة للدستور الذي نالتهُ بعد شق

(١) الهلال مج ١٧ ص ٤١٥

الانفس من ان تعبث به الايدي اذا تولاه غير اهله» ولشدة رغبة زيدان في المسالمة وعطفه على القائمين بأس الدستور اخذ يلوم بعض مواطنيه على وقوفهم موقف العداء من اخوانهم الاتراك فيقول — « لما اعلن الدستور وجاهر الاتراك انهم يتنازلون عن جنسيتهم وامتيازاتهم رغبة في الوفاق ما كان من العرب الا السعي في تأييد الجامعة العربية . فألفوا جمعية التآخي العربي بالاستانة وأنشأوا الصحف للدفاع عن العرب والتنديد بالاتراك والتفاخر بمجد العرب ودول العرب وعلوم العرب»

وفي كلام زيدان شيء من الحقيقة لا الحقيقة كلها ، فان الذي يراجع تاريخ هذه الحركة يرى كما بينا مراراً ان العرب لم يكونوا عند اعلان الدستور اقل غيرة من الاتراك على الجامعة وان تبعة الشقاق الذي نجم بعدئذ واقعة على الطرفين ولا سيما على الاتراك . فزيدان نفسه يصرح باستئثارهم بالمناصب ولكنه يأخذه بحسن الظن وروح التفاؤل ولا ينتظر من كل واحد ان تكون له تلك الروح فيغضي عما كان يراه من استبداد جنسي

وقد عقد رشيد رضا في مجلة المنار مقالاً ضافياً (١) تناول فيه ما كان من سوء تفاهم بين العنصرين ففصل اسبابه وشرح كلياته وجزئياته ثم قال متحفظاً « لا اقول ان كل ما روي من ذلك صحيح المتن والسند . ولا اقول ان ما صح منها كان بسوء النية وتعمد هضم حقوق العرب . ولكنني لا استطيع ان انكر قول من يقول انها في مجموعها تفيد التواتر المعنوي الدال على انه يوجد في رجال الدولة ورجال الصحافة التركية أناس يسيئون الظن بالعرب ولا يعطونهم حقوقهم ولا يعرفون قيمة اتحادهم بالترك واتحاد الترك بهم »

وسواء كان الاتراك الملومين او كان العرب فالذي يهمنا هنا ان ذلك النفور العنصري يومئذٍ حقيقة لا مراء فيها وانه قد شغل الافكار والاقلام زمناً غير يسير ، وقد أصاب رشيد رضا اذ قال في المقال السابق الذكر « هذا ما كانت عليه البلاد في العام الماضي (١٩٠٩) . وكانت قد نجمت قرون الخلاف ولكن لم يشعر بها الجمهور فلما كثرت وكبرت تنكر الناس في سورية ومصر وخاضت في المسألة الجرائد العربية حتى في اميركا ، وتبارت فيها قرائح الشعراء ، وتجاوبت فيها الاصوات حتى عمت البلاد والجهات . فاهتزت بذلك النعرة العربية اهتزازاً شديداً

ومن دلائل هذا الاهتزاز انهُ في الجلسة التي عقدتها اللجنة المركزية لجمعية الاتحاد والترقي سنة ١٩١٠ قام عضو عربي منها هو عمر منصور باشا مبعوث طرابلس الغرب والقى خطاباً بالغاً منتهى الجرأة ، وفيه يحمل على الاتراك ويعزو اليهم سبب الخلاف الناشب بينهم وبين العرب فيقول متألماً (٢) — « لماذا لا تتعدّون على حقوق الارمن والروم والبلغار العثمانيين . اتعرفون

---

(١) العرب والترك مجلة المنار مج ١٢ ص ٩١٣—٩٣٢ (٢) جريدة البرق (بيروت) سنة ٣ عدد ١٢٢

لماذا ؟ لانّ عند الارمن قنابل ، وللروم اليونان ، وللبلغار بلغاريا . اما نحن فلا يشدّ ازرنا احد ولكن ثقوا انّ لنا الله ورسوله . اذا قال لكم مبعوث عربيّ ان ابناء العرب ممتنون منكم فلا تثقوا بهذا القول ولا تصدقوهُ . اقول لكم هذا على مسمع منكم جميعاً »

ولم يكن اندفاع هذا النائب الجريء في عاصمة الاتراك ومركز قوتهم الا لما كان يراه او يسمعهُ من اقوال غلاتهم حطًّا من كرامة العربية وابنائها . ويكفي ان نذكر من ذلك على سبيل المثال كتاب « قوم جديد » لكاتب تركي اسمهُ عبدالله . فقد ذهب في الغلوّ كلّ مذهب حتى طلب من الاتراك ان ينزعوا اسماء كبار العرب من الصحابة والتابعين عن قباب المساجد ويضعوا محلها اسماء عظام الترك [1]

ومن اقوال غلاتهم قول احدهم [2] — « ما هي العثمانية ؟ ولماذا لا نقول التركية . إن الحقيقة تغلب الخيال ، ومن المحال العقلي ان تظل هذه الشعوب المتباينة مرتبطة بعضها ببعض وراء ستار وهمي . وتحت اسم بالٍ خلق . يجب علينا ما دام في استطاعتنا الحياة ان نصبغ الجيش والاسطول والعلوم والآداب والشرائع والقوانين وكل شيء فنصبغهُ بالصبغة التركية المحضة »

وقد طلب احمد جودت محرر جريدة إقدام ان تنقح اللغة التركية من الكلمات العربيّة . وعلى وتره ووتر اضرابه من الغلاة كان يضرب جماعة من أولي الامر ومثيري شعور الجمهور . وقد تغلبت اصواتهم على أصوات المعتدلين ، وهذا ما دفع العرب الى مقابلتهم بالمثل والكيل لهم بنفس المكيال

والظاهر ان العرب أحسوا بهذا التنكر منذ أوائل العهد الدستوري فعمدوا الى توحيد دفاعهم بتأليف الجمعيات السياسية وهاك أهمّها [3]:—

المنتدى العربي سنة ١٩٠٩ — أسس في الاستانة على ان يكون مثابة للشبان العرب في تلك العاصمة

جمعية الفتاة (الاستانة) — وهي للعرب بمنزلة الاتحاد والترقي للترك

الجمعية القحطانية ١٩٠٩ (مصر) — جمعية سرّية غايتها بث المبادىء الصحيحة بين ابناء الامة العربية وتوحيد صفوفها

الجامعة العربية ١٩١٠ (مصر) غايتها السعي لاتحاد حلفي بين أمراء الجزيرة العربية ثم التعاون على عمران البلاد والدفاع عنها وإنشاء صلة بين الجمعيات العربية في سورية والعراق وغيرهما

حزب اللامركزية ١٩١٢ (مصر) غايته تبيان محسنات الادارة اللامركزية في السلطنة العثمانية

(١) القضية العربية (الاعظمي) ١ — ١٠١ (٢) القضية العربية ١ — ٩٥ (٣) تلخيصاً عن كتاب الثورة العربية لامين سعيد ١ ص ٧ — ٤٩

الجمعية الاصلاحية ١٩١٢ (بيروت) وهي أشبه بفرع من حزب اللامركزية وينحصر عملها في تنفيذ الاصلاح اللامركزي في ولاية بيروت

جمعية العهد ١٩١٣ (الاستانة) وهي تضم نخبة من ضباط العرب في الجيش وغايتها السعي للاستقلال الداخلي لبلاد العرب ، على ان تظلّ متحدةً مع حكومة الاستانة اتحاد المجر مع النمسا (قبل الحرب)

على ان أول جمعية عربية نشأت في ذلك العهد هي جمعية الاخاء العربي . تأسست في الاستانة سنة ١٩٠٨ . ومن غاياتها جمع كلمة الملل العثمانية المختلفة والسعي لاعلاء شأن الامة العربية وصيانة حقوق ابناء العرب وتأييد الحرية والعدل والمساواة بين عناصر الامة العثمانية وإزالة الضغائن وسوء التفاهم من بينهم » الخ الخ

وكان التجانس مفقوداً بين اعضائها فلم تعش طويلاً

ولا ننسى في هذا المقام المؤتمر العربي العام الذي عُقد في باريس (١٩١٣) وضم وفوداً من اكثر الاقطار والمهاجر العربية . وكانت غايته مصارحة الدولة العثمانية بتطبيق نظام اللامركزية في بلاد العرب مع المحافظة على الرابطة العثمانية

***

فالجو العربي الادبي كان في ذلك العهد مشبعاً بالاماني والحركات القومية وملائماً كل الملاءمة لانتشار الدعايات ضد حكومة الاستانة . وقد كانت تلك الدعايات تنبعث عن مصدرين مختلفي الغرض هما — (١) الجمعيات العربية (٢) الايادي الاستعمارية . فالاولى لم تكن غايتها على ما يستدل من نظمها . وتصريحات رجالها الا خدمة القضية العربية باعتبارها مسألة من مسائل السلطنة العثمانية الداخلية . وذلك ما يعنيه رشيد رضا بقوله عن النهضة العربية وتوجهها الى الاصلاح الديني والاجتماعي والمدني [1] — « وهي جديرة بذلك بدليل اتفاقها في سورية والعراق والجزيرة على بناء هذا الاصلاح على اساس اللامركزية الادارية اذ بذلك تحفظ حقوق الدولة العثمانية ويتمكن الارتباط بها ، وبه يعطى كل قطر حقه بحسب استعداده ومذاهب أهله » بل ذلك ما كان يعنيه اولو الامر في كل جمعية سياسية

اما الثانية (الايادي الاستعمارية) فلها غرض آخر — كانت ترمي الى تفكيك عرى الدولة العثمانية وفصل الاقطار العربية لاغراض استعمارية . ولا نشك انها سعت في تنشيط الجمعيات وحمايتها اذ رأت فيها او في بعضها ما قد يوصلها الى هدفها المنشود

(١) المنار ١٦ ص ٧٧٠

ولا نستطيع ان نتثبت هنا المدى الذي بلغتهُ علاقات اوربا بالجمعيات العربية ، بل لا ندري هل حصل قبل الحرب الكبرى تفاهم بين الاستعمار ودعاة القومية . فان هؤلاء كانوا متمسكين بصلاتهم العثمانية يتجنبون الوقوع في أحابيل الاستعمار . على اننا ندري ان اوربا كانت عدّت بدأ حريرية النفس الى طلاب الاصلاح ، وان النفسية العربية كانت في العهد الدستوري (ما بين ١٩٠٩ — ١٩١٤) ظاهرة الاضطراب بدليل ما نراه من نفثاتها الشعرية المعبرة عن خوالجها والمطالبة بتحقيق أمانيها . ومن أمثلة ذلك قصيدة للشيخ سليمان التاجي الفاروقي (فلسطين) تزيد على السبعين بيتاً يخاطب فيها السلطان ويلتمس منهُ النظر في حقوق العرب . وهاك بعضاً منها — :

العُربُ لا شقيتْ في عهدك العرَبُ سيوف ملكك والاقلام والكتبُ
همُ الجبال فما حمّلتهم حملوا لكن اذا سمتهم ضيم النفوس أبوا

ومنها مشيراً الى خيبة آمال العرب

كنا نعلّل بالدستور أنفسنا بفارغ الصبر ذاك اليوم نرتقبُ
حتى اذا جاء لم يحدث لنا حدثاً ولا استجيب لنا في مطلبٍ طلبُ

ولهُ قصيدة أخرى قيلت استفزازاً لنواب العرب . وقد نشرت في جريدة المفيد « بلسان الامة العربية تخاطب أبناءها » وبتوقيع بدوي فلسطين . ومطلعها

بيُمنِ نواصيكم عقدتُ الامانيا ورجّيت ان أعلو لكم من علانيا

ومنها : بنيّ انهضوا واحيوا حياةً عزيزةً حياةً تعيد المجد للعُرب ثانيا

وبعد ان يحدّثنا عن أمجاد العرب يلتفت ثانيةً الى النواب فيقول : —

ألا نهضةً شرقيةً عربيّةً تزلزل أقواماً وتوهي رواسيا
وتقضي على كل امتيازٍ واثرةٍ ويصبح كل الناس فيها سواسيا
ألا رجلاً ذا مِرةٍ فيلمّكم ويرأب صدعاً فيكم بات واهيا
يقوم فلا يرتدّ او يبلغ المنى ويقضي ولكن يبعث السيف قاضيا

وللفاروقي كثير من مثل هذه النفثات القومية . على انها مبعثرة في الجرائد اليومية السورية والمصرية . ولم نقف لهُ على مجموعة خاصة (١)

***

وأشد من أقواله وأعنف نفثات عبد الحميد الرافعي (طرابلس) وقد كان قبل الدستور

(١) ما نشرناه للفاروقي أعلاه هو من بعض ما تكرم علينا به صديقنا الاستاذ ابراهيم طوقان الاديب الفلسطيني المعروف

من مريدي ابي الهدى الصيادي شيخ السلطان عبد الحميد . فلما حدث الانقلاب وحدثت على اثره تلك المشادة المتصرية ثار ثائره على الاتحاديين ، فنظم عدة قصائد ثاربة مظهراً فيها فسادهم ومهيباً بالعرب الى النهوض والتقدم ومنها قصيدة مطلعها (١)

ما تصلح الدنيا ولا ناسها ما لم يلِ الاقوامَ أجناسُها

ومنها
دارك امير العُرب جرثومةً للعرب قد ادركها ياسُها
تجاوز الترك على حقها والترك قوم ضاع إحساسُها

ومنها
هبوا بني العُرب إلامَ الكرى وقد دها الآمال دهّاسُها
طلبتم الاصلاح من عصبةٍ تُوتَرُ بالإفساد اقواسُها
فكم تقيمون على ذلةٍ وروضة الصبر ذوى آسُها
ألستمُ نسلَ القروم الأُلى تنتعل الهامات افراسُها
فجرِّدوا العزم الذي طالما شق صدوراً طال وسواسُها

ويجري في ذلك ثم يقول مشيراً الى الدولة العثمانية وعواطف المسلمين قبلاً نحوها :—

كنّا نرى طاعتها عصرَ ما تلي الاحكامَ اقداسُها

اما اليوم فقد تغيرت الحال عنده وها هي تقف من العرب موقف العداء ومن الدين ولغة القرآن موقف الرياء —

تحسب ان العرب اعداؤها وهم مدى الايام حرّاسُها
عونٌ على السلم وان حاربت فهم مواضيها وأتراسها
تزعم حبَّ الدين لكنْ كما يروّج السلعة دلاسها
لو تألف القرآن ما حاربت لسانه حتى التوى فاسها

وهكذا ينحي بالذع الاليم على اولي السلطة من الاتحاديين فيرميهم بالكفر والتخنث والسفالة والظلم ، ويطلب من العرب الاتحاد والتضامن دفعاً لعادية هؤلاء القوم المارقين الذين لشدة ظلمهم دفعوا البلاد الى هوة الخراب

من عِظم ما جارت باعمالها أنحى على الامة إفلاسها
ما همُّها في دُور حكامها الاّ بأن تملأ اكياسها
فلنتحد فعلاً عسى همةٌ تهتاج بالتوحيد اقباسها
وتنعش الانفس من امة تلهبت بالذل أنفاسها

وقس على هذه القصيدة كثيراً من اقواله

(١) راجعها في ذكرى يوبيله ص ٨٨١

وقد أشرنا سابقاً الى ما أثار الحفائظ من اقوال جريدتي طنين واقدام وما حاوله بعض كتّاب الاتراك الاغرار من الوقيعة بالعرب والحط من لغتهم . وكيف حرّك ذلك الشعر العربي فزخرت لججه وتلاطمت امواجه حتى كنت تراه في العراق كما تراه في سوريا والمهاجر ثائراً بالنخوة القومية مزبداً بالغيرة الجنسية . ومن هـذا الشعر القومي الثائر قصيدة ليوسف حيدر البعلبكي يذكر فيها أمجاد العرب ثم يقول مشيراً الى جريدة اقدام التركية (١)

فقل لجهولٍ راح يثلم عرضهم ولم يدر ان الويل من جهلهم طرّا
خلائفكم كانت بقايا نخارهم ونلتم هدى الايمان من فضلهم طرّا
فلا حرب ذي ثارٍ صلتها سيوفكم ولا صنتمُ عن فارس عرضكم قهرا
فدع عنك يا هذا مباراة معشر اذا ذكروا فالكون يذكو بهم بشرا

ومن هنا يأخذ بوصف العرب وشرف نفوسهم ونخوتهم الجاهلية ويختم ذلك بقوله : —

مناقب في صدر التواريخ أثبتت متى نشرت فاحت بذكرهم نشرا
لقد أقسموا أن لا يقروا على أذى وقد خاب يوماً من على الذل قد قرّا

ويصل هذا الوصف بذكر الاتراك وسوء سياستهم فيقول : —

يريدون منا ان تموت نفوسنا ونرحب في أفعال طيشهم صدرا
يريدون منا ان تطيش حلومنا وان تخفض الاصوات في مجلس الشورى

ثم يلتفت الى قومه مستفزاً حماستهم : —

اليكم بني الاعراب أرفع قصتي لأبلغ فيها من لدن قومنا عذرا
لعلي أرى من عزمكم ما يسرني ومن جدكم ما تعظمون به قدرا
عليكم سلام الله ما دام عرضكم مصوناً لديكم لا يُباع ولا يشرى

***

ويجاريه في هذه العصبية والدفاع عن الامة العربية عبد الحميد الرافعي فيقول في قصيدة نظمت ردّاً على تنديد الاتحاديين باللغة العربية (٢) ومطلعها : —

شنّفْ بذكر مفاخر العربان سمعي وأنعش خاطري وجناني
فحديث آباء الفتى يُنشى به عزماً لتنفخ الروح في الجثمانِ
ولربَّ آثارٍ لهم تذكارها يهب الضمائر قوة الايمانِ
تتفاخر الاجيال في اخبارهم والشمس لا تحتاج للبرهانِ
أهل الشجاعة والبراعة والوفا والصدق والايثار والاحسانِ
جملوا الممالك تحت ظلّ سيوفهم متظللين ذوائب المرّانِ

(١) راجع القصيدة في القضية العربية للاعظمي ١—١٠٦ (٢) ذكرى يوبيل الرافعي ص ١٨٠

وعلى هذا النمط يستمرّ في مدح العرب وذكر مفاخرهم ، ثم يتناول لغتهم ويبيّن فضلها ورفيع شأنها كقوله : —

لغة بفضل جمالها وجلالها شهدت شواهدُ محكمَ الفرقانِ
لغة اذا أدركت سحر بيانها أدركت معنى السحر في الاجفانِ

وبعد ان يصفها في عدة ابيات يلتفت الى مناوئيها فيقول : —

قل للألى جهلوا مكانتها وقد كادوا لها في السرّ والإعلانِ
عاديتمو ما تجهلون ولم يَعِب قدر الورود كراهة الجُعلانِ
والله يأبى ان تهان فبشروا من رام ذلّتها بكل هوانِ

اما ابناؤها الذين انصرفوا عنها الى اللغات الاجنبية فيمانهم بقوله : —

كل اللغات لديكِ يا لغة الهدى خدَمٌ وأنت مليكة الايوانِ
ظلموك أهلُك بالجفاء فأصبحوا والكلُّ يمشي مشية السرطانِ
لم يحفظوا لك ذمّة وتعلّقوا بهوى السّوى ورموك بالهجرانِ
لكنهم غُرّوا بغيرك حقبةً من دهرهم والدهر ذو ألوانِ
حتى اذا انكشف الغطاء وأيقظت مُقلَ الرجال حوادثُ الازمانِ
نهضوا وكلٌّ يستعيذ بربّهِ مما انتشى ويسبُّ بنت الحانِ

ومثل ما تقدّم قصيدة لامين ناصر الدين (لبنان) نظمها سنة ١٩٢٠ وفيها يقول[١] : —

أنسيتِ قدر العرب يا إقدامُ ولهم على هام النجوم مقامُ
أجهلتِ ما نالوه من شرفٍ به يسمو الزمان وتفخر الايامُ
لولاهمُ لم تجرِ فوق مهارقٍ يوماً بذكر مفاخرٍ أقلامُ

وبعد ان يعدّد مناقبهم ومفاخرهم التاريخية يقول : —

ان أسرف الحسّاد تنديداً بنا فلطالما ذمَّ الكرامَ لئامُ
نحن الأُلى بَنَتِ النبوّةُ بيننا ذاك البناء فأزهر الاسلامُ
نحن الأُلى بلسانهم قد أنزلت آي الكتاب وذلك الالهامُ

ثم يلتفت الى الجريدة التركية مؤنباً ومعاتباً : —

أرسلتِ يا إقدام سهم وقيعةٍ لكن أعيدَ اليك وهو سهامُ
أكذا يقوم بخدمة الاوطان ذو قلمٍ ويطلبُ الرقيَّ همامُ

(١) ديوان صدى الخاطر ١٩١٣) ٩٣

أيظن أنا نرتقي الا إذا ضم العناصر ألفة ووئام

***

ويظهر هذا التفاخر الجنسي في قصيدة « ألواح الحقائق » لمحمد حبيب العبيدي الموصلي سنة ١٩١٣ وفيها يقول :(١)

يا بني الضاد إن للضاد حقًا ناطحت دون حقه الآباء
ان رضينا غير الكرامة ورداً غص منّا بشاربيه الماء
ليت شعري ما ينقم القوم منّا أم على أبصار هناك غشاء
يشهد الله ان أول بيت للعلى فينا شاده البنّاء
خيرة الله نحن في الخلق ممّا ولدت من أنسالها حوّاء
نحن شيء وغيرنا بعض شيء نحن نور وغيرنا الظلماء
انما ينكر الحقيقة غرّ أو لئيم او حاسد مستاء
نحن في الحي مهبط الوحي قدماً والينا المصير والانتهاء

ولو أردنا ان نذكر كل ما قيل في هذا الباب لضاقت به الصفحات الكثيرة . فقد كانت الاقطار العربية جميعاً تلهج به ، بل قد ردّد صداه الناطقون بالضاد في كل صقع من اصقاع المعمور . فمن الهند يبعث عبد الحق الاعظمي البغدادي سنة ١٩١٣ رسالة الى المنار يقول فيها(٢) « ان لديه علاجاً لاصلاح حال المسلمين واصلاح البشر اجمعين . وهو وصفة مؤلفة من جزئين اوّلها تعميم اللغة العربية في العالم الاسلامي كله وجعلها لغة التكلم والتعلم والتعامل دون سواها » . واما الجزء الثاني فهو تعزيز العنصر العربي « الذي اعزّ الله به الاسلام ورفع مقامه فوق كل مقام » . . قال — « فاذا غلب الاجانب العرب على امرهم وانشبوا براثنهم في احشاء بلادهم فلا عاصم للامة بعد ذلك من امر الله ولا ملجأ ولا منجاة لها من نوائب الدهر وغوائله » . الى ان يقول . . « نعم ان العنصر العربي جار عليه الظالمون ونهك قواه العادون ومزّق وحدته المارقون . لكنه مع كل ذلك لا يزال أصلح العناصر الاسلامية للقيام بأمر الاسلام واعادة مجد الانام »

وهو يدعو المسلمين الى تهيئة اسباب الوثوب للعرب لينهضوا ويتحدوا ويقودوا المسلمين اجمعين كما قادهم أسلافهم الاولون . « فان البذل لمساعدة العرب على احياء مجدهم هو عين البذل لاعادة مجد الاسلام الذي ما تأسس بناؤه من قبل الا بأيدي العرب ونفوس العرب وأرواح العرب وقلوب العرب »

(١) راجعها في الادب العربي في العراق (لبطي) ١ — ١٥٢ وقد مر ذكرها في فصل سابق
(٢) المنار ١٦ ص ٧٥٣

ومن المهاجر الاميركية المسيحية تسمع ما لا يقلّ عن ذلك حماسة في الدفاع عن العرب وأمجادهم. يقول رشيد أيوب (الولايات المتحدة) من قصيدة يعارض فيها القصيدة التاميةية التركية[١]

فنحن بنو الاعراب كنا ولم نزل ❊ بما خصّنا المولى نفوق الاجانبا

وبعد ان يذكر فضل النبي والصحابة وقوّاد الفتوح الاولى يقول مفاخراً

ألسنا الأُلى سادوا البلاد ودوّخوا البلاد وأبدوا في الحروب عجائبا

وقصر عن ادراكهم كل لاحقٍ ❊ غداة امتطوا ظهر العلى والمناكبا

فكم دولةٍ سدنا وشدنا بهمّةٍ ❊ أحدّ من البيض الرقاق مضاربا

وتتعاظم حميته القومية حتى تبلغ به الى قوله —

كذاك بنينا للعلوم معاهداً ❊ وشدنا لاهل الارض فيها كتائبا

فما روت الايام من عهد آدمٍ ❊ الى اليوم عن شعب يفوق الاعاربا

فيا وطني لا زلت اول بقعةٍ ❊ من الارض أبدت للبرايا عجائبا

طويت من الآثار مالو نشرته ❊ لضاقت به الدنيا حجىً ومواهبا

واذ انتقلنا الى أميركا الجنوبية نرى النخوة العصبية في مهاجرها أبرز وأشد اتقاداً. ولا نبعد عن الحقيقة ان التحمس الجنسي هو صفة أكثر أدبائها. ولولا ضيق المقام لأتينا أمثلة عديدة من نفثاتهم، على أننا نجتزىء بنماذج لبعضهم — فمن ذلك قول « أبي الفضل الوليد »[٢]

ولما رأيت الناس يبنون مجدهم ❊ بكيت على آثارنا العربيةِ

بما زهرهم في روضهم متجدّداً ❊ وقد يبست أزهارنا بعد نضرةِ

لئن كان في الحرية الحلوة الردى ❊ فياحبذا موتي لتحرير أمتي

بني أمّ هل من نهضةٍ عربيةٍ ❊ لصيحاتها يهتز ركن البرية

وقولهُ من قصيدة مذكراً العرب بماضي أمجادهم[٣]

سلامٌ على العرب الخالدين ❊ سلام العلى وسلام الكرمْ

واني لأقرأ تاريخهم ❊ وقد كتبوه بحبرٍ ودمْ

فبين السطور ضياء الهدى ❊ وبين الجفون دموع الندمْ

بني أم هل من نهوض لنا ❊ وهل من هيام بتلك الشيمْ

وهل من رجوعٍ الى عزنا ❊ فبين عظام العظام عظمْ

لقد فقد العرب أخلاقهم ❊ فسادت زماناً جموع العجمْ

(١) ديوانه الايوبيات (١٩١٦) ٣٧ (٢) ديوانه إقليد في عواصف (الطبعة الرابعة) ١٥
(٣) ديوانه الانفاس الملتهبة (الطبعة الثانية) ١٠٢ ولهذا الشاعر دواوين أخرى وكلها تلتهب بالغيرة والعصبية

فقل يا أخي العربيُّ اذا مشيتَ معي قدماً لقدمْ
أحب بلادي واصبو الى رمال القفار وثلج القممْ

وللشاعر القروي قصائد رائعة في هذا الباب ولا سيما في « أعاصيره » وسنعود اليها بعد . وكذلك سنذكر من آثار زملائه الجنوبيين ما يرسم لنا رسماً جلياً روح الأدب القومي في تلك الاصقاع

***

ومن الانصاف ان نقول ان الشعر العربي القومي لم يكن كلهُ في ذلك العهد دفاعاً عن محارم العرب ورداً لسهام أعدائهم في الدولة . بل منهُ ما نشأ عن طبيعة الحال فكانت غايتهُ اصلاحية لا سياسية — الاعتبار بالماضي والحاضر، وتوجيه النظر الى أسباب الرقيّ الصحيح كقصيدة أنشدت سنة ١٩٠٩ في احدى حفلات بيروت ومطلعها (١) —

كفوا البكاء على الطلول الهمد ليس القضاء على البلاد بمعتدي

وهي ترمي الى إيقاظ العرب للجري في سبيل التقدم الاجتماعي والقومي فتحضهم أولاً على توحيد الكلمة تحت راية اللغة : —

أبني العراق ومصر إنَّا امةٌ قعدت بها الايام أسوأ مقعدِ
إن فرّق الايمان بين جموعنا فلساننا العربيُّ خير موحدِ
قربتْ بهِ الأقطار وهي بعيدة وتوحدت من بعد فتّ في اليدِ

ومن هنا تجري القصيدة في وصف هذا التقارب الادبي ثم تتطرق الى النظر في الدين وانهُ اختيار شخصي لا علاقة له بالجامعة القومية المنشودة

دعني وشأني والذي أنا عابد وكما يشا ايمان قلبك فاعبدِ
إني أخوك وان يكن ايماننا في البعد ما بين الثرى والفرقد

ومنها في خطاب الطائفة الكبرى في البلاد

قد كنتم اهل البلاد وانتا كنا كذلك في الزمان الأبعد
كنتم وكنا والبلاد بلادكم وبــلادنا فعلام لم نتوحّد
وإلامَ يقتلنا التعصب عن عمًى ويتيه فينا الجهل تيه السيد

(١) راجعها في مجلة الكلية (بيروت) مج ١ ص ١٥٩

واذا كان لا بدَّ لرقي الشرق العربي من اتحاد لغوي لا ديني فإنما يتوصل الى ذلك بترقية الشعور القومي وتربية النشء على محبة بلادهم وتكريم رابطتهم الوطنية

ربّوا البنين على احترام بلادهم فهم المرجّى للحوادث في الغد
قولوا لهم إن البلاد جميلة شهدتْ لها الاعداء أم لم تشهد
حتامَ نصغر في عيون نفوسنا والامَ نسعى كالسوام الشرَّد
ونحقّر الشرق العزيز لانهُ شرق و . . . . . .

اذا فعلنا فيه والاَّ فباطل دستورنا وباطلة مساعينا نحو العلى

ان تفعلوا فلقد يتم صلاحنا أو لا فما دستورنا بالمسعد
المجد للفعّال في هذا الورى والارض ملك الفارس المستأسد

ومثلها قصيدة للرصافي نظمها في الاستانة سنة ١٩١٠ وموضوعها «الى الامة العربية». سداها ولحمتها اسف على مجد العرب الغابر وحض لهم على نفض الخمول والجري في سنن الحضارة والتقدم. والشاعر فيها وان يكن كما قال «الى اليأس احياناً أكاد أميل»، لا يتمالك ان يختمها متحمساً (١) :—

ألستم من القوم الأُلى كان علمهم له كلُّ جهلٍ في الانام قتيل
له همة ليس الظباة تفلها وان كان منها في الظباة فلول
ألا نهضة علمية عربية فتنعش ارواح لنا وعقول
ويشجع رعديد ويعتز صاغر وينشط للسعي الحثيث كسول

***

ولو دققنا النظر في روح الشعر العربي في العهد الدستوري لوجدنا انه مع شدة تحمسه للعصبية العربية، ومفاخرته بأمجاد العرب الاقدمين كان لا يزال عطوفاً على الجامعة العثمانية، نفوراً من صلف المستعمرين الاوربيين واطماعهم. يدلك على ذلك انه كان في اول الامر ينصر الخطة اللامركزية التي كان ينشدها الاصلاحيون اعتقاداً منه انها ترمي الى تعزيز العرب ضمن السلطنة العثمانية. فلما اشيع بواسطة الدعايات التركية ان للحركة الاصلاحية ولا سيما المؤتمر العربي في باريس علاقة بالاستعمار، وانها لذلك صدع للجامعة العثمانية (٢)، رأينا الشعر يقف موقف المرتاب. بل رأينا بعض المتحمسين يتراجعون على الاعقاب — كمعروف الرصافي فانه

(١) ديوانه (١٩٣١) ٣/١ (٢) راجع وصف هذه الدعايات في المنار ١٦ ص ٦٣٤ و ٦٣٥

نظم بضع قصائد في ذلك . ومنها قصيدة موضوعها « ما هكذا » يحمل فيها على الاصلاحيين فيقول : —(١)

أصبحت أوسعهم لوماً وتثريبا   لما امتطوا غارب الافراط مركوبا

راموا الصلاح وقد جاءوا بلائحة   خرقاء تترك شمل الشعب مشعوبا

لو كان في غير باريز تألبهم   ما كنت أحسبهم قوماً مناكيبا

فاجتماعهم في باريس كان عنده مدعاة الى الاستعمار او توطئة له . وهو لذلك يتطير منهُ فيقول : —

هل يأمن القوم ان يحتلَّ ساحتهم   جيشٌ يدك من الشآم الاهاضيبا

يا أيها القوم لا يغرركم نفر   ضجّوا بباريز افساداً وتشغيبا

فسوف يقرع كلٌّ سنه ندماً   ويسبل الدمع في الخدين مسكوبا

ولم يسكت الاصلاحيون عن حملات الرصافي فردوا عليه ردًّا عنيفاً وأجابهم بالمثل . بل بلغ به الحال ان نظم فيهم قصيدته « ليلة نابغة » فملأها بما يجب ان يتنزه الشعر عنه من هجو وتشنيع(٢)

***

وقد اتهم الرصافي يومئذ بمشايعة الاتراك تزلفاً . او انه اخذ بالدعايات التركية فكان في حكمه متسرعاً . والذي يلوح لنا ان هذا الشاعر العربي لم يكن الوحيد في حذره من الحركة الاصلاحية وغيرته على الجامعة العثمانية . فقد ظهر في انحاء مختلفة من البلاد العربية ما يشير الى حذر المخلصين وخشيتهم من امتداد ايدي الاستعمار وتصديع جامعة الوطنية العثمانية

ومن ذلك هذه القصيدة التي أنشدت في بيروت ١٩١٣ وموضوعها « حديث خطير » وهاك بعض اياتها(٣)

حلك السياسة حولنا متكاثف   تقذى العيون به فليس بصير

في المشرق الادنى لظى متطايرٌ   وسعير نار بالوبال نذير

علقت بأطراف الشآم شرارة   منه فجاشت أنفس وصدور

وبعد وصف الحالة السياسية عموماً وحال البلاد السورية خصوصاً يقول الشاعر للاصلاحيين

أحسبتم الاصلاح أمراً هيّناً   يكفيكم منهُ لحاً وقشور

(١) ديوانه ٣٨١ (٢) ديوانه ٣٨٥ (٣) المورد الصافي مج ٤ ص ٣١٦

فصراخكم عبثٌ اذن وضجيجكم ووعود اوربا لكم تغرير
ما مثل عاصمة العواصم ملجأ كلاَّ وخير الابحر البوسفور

وكانهُ يعتذر عن هذه الحركة ويحاول تفسير أسبابها فيقول —

عرش الخلافة ما البلاد بثورةٍ مهما علا فوق الطروس صرير
ما زال يجمع اهلها تحت الهلال بظلّهِ التوحيدُ والتكبيرُ

وانما السبب الحقيقي في طلب الاصلاح ان الدستور لم يطبّق كما يجب وان الحكام لا يحكمون طبقاً للارادة السنية . فكانت النتيجة تشويش الاحكام وفقد الامن واضطراب الاحوال الاجتماعية والاقتصادية :—

إن يشتكوا ألماً فليس لنقمةٍ في النفس حرّكها هوًى وغرورُ
او يرفعوا صوتاً فسلْ حكامهم هل يحكمون كما قضى الدستورُ

***

ومثل ذلك قصيدة لشبلي الملاّط انشدها سنة ١٩١٣ بمصر في حفلة تكريم خليل مطران . وفيها يذكر حرب البلقان وما طرأ على الدولة العثمانية من طوارىء . ثم يشير الى ما كان قد أشيع عن شماتة بعض العناصر العثمانية باضطراب الدولة وضعفها فيقول دفعاً لتلك الشوائع وتبياناً لموقفهم من العرش العثماني : —

أخطا الأُلى نسبوا لبعض عناصرٍ منها شعور شماتةٍ وتحامي
فلنحن نعلم أن عرش محمدٍ خير لنا من سائر الحكام
بل نحن نفهم انهُ برٌّ بنا من كل محتكم من الآنام

والشاهد في هذه الايات وما تقدمها ان الشعر كان لايزال يرى في العرش العثماني موئلاً للشرقيين وان الاصلاح لا يعني الانفصال عنهُ والالتجاء الى أمم الغرب . على ان ذلك لم يقف دون انتشار الدعوة للقومية العربية والمطالبة بحقوقها في السلطنة . وقد أعلنت الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ وتلك هي العواطف السائدة في البلدان العربية . وقد علمنا في فصل سابق كيف زُجّت تركيا في أوارها وكيف عمّ الاقطار السورية والعراقية الارهاب العسكري فصمت فيها كل لسان حر وخبت كل نزعة قومية

مصح ضهر الباشق

عمل انساني وقومي جليل

[اتيح لرئيس تحرير هذه المجلة ان يزور مصح ضهر الباشق في لبنان خلال الصيف الماضي فأعجب بالعمل من حيث هو منشأة صحية من الطراز الاول ومن حيث هو نتيجة للتضامن القومي في سبيل الانسانية فطلب الى المشرفين عليه ان يتحفوا المقتطف بوصف نشأته وتقدمه وطرق المعالجة فيه]

نبتت فكرة مصح ضهر الباشق في السنوات الاخيرة قبل الحرب العالمية وظهرت الى حيز الوجود بان أوقف المرحوم الدكتور بشاره منسى قطعة ارض من املاكه الخاصة في ضهر الباشق وبنى عليها بعض المحسنين غرفاً ولكن قبل ان يتم البناء ويغدو معداً لقبول المرضى نشبت الحرب العالمية فوقف العمل شأنها في كثير من هذا النوع من الاعمال

وبعد الحرب العالمية تألفت في بيروت جمعية مقاومة السل وكانت في اول امرها مستقلة عن لجنة مصح ضهر الباشق كل الاستقلال الى ان كانت سنة ١٩٢٣ فاتفق الفريقان واتحدا غيرةً وعملاً وتألفت جمعية جديدة تحت اسم جمعية الملجأ الصحي التدرني ومقاومة السل في سوريا ولبنان . والقصد ادارة مصح ضهر الباشق والسعي الى توسيع نطاقه لتعظم الخدمة التي يسديها الى الانسانية

والجمعية هذه وطنية ظاهراً وباطناً تعمل بثقة مثلثة النواحي ثقة الجمعية بصحة المشروع وفائدته ونتائجه الحسنة، وثقتها بغيرة ابناء البلاد واندفاعهم لمساعدتها، وفي الاخير ثقة ابناء البلاد بالقائمين بالعمل والمشرفين على ادارته

﴿ موقع المصح ﴾ ضهر الباشق رابية من روابي جبل لبنان تعلو عن سطح البحر ما يزيد عن ستمائة متر تقترب من بلدة برمانا وتطل على منظر خلاَّب تتفاوت فيه المبهجات الفاتنة بين بحر الروم الواسع الارجاء وما يظهر على اقسام لبنان من آكام رمادية اللون وغيرها مكسوة بالاخضر الدائم وغيرها متشحة بالالوان المتعدّدة وكل منها بلون خاص بها تبدو لمن في المصح جذَّابة خلاَّبة عند غروب الشمس . وبالاجمال انها مناظر فاتنة تختلف باختلاف الفصول والايام ولكنها

في كل حال تبعث في النفس بهجة وأملاً وتنثر على العقل ازهار التصور والخيال فينسى سا كن هذه البقعة ما هو فيهِ ويطلق العنان للتأمل في جمال الطبيعة وقدرة الله فيها . وموقع المصح من جهة الهواء غاية في الملاءمة فلا هو بارد قارس في الشتاء ولا هو حارٌّ مرهقٌ في الصيف . بل الاعتدال فيهِ على أتمه في الفصلين . والمصح قرية صغيرة قائمة بذاتها أبنيتها تزيد على العشرة في كل منها جميع أسباب الراحة وهي مختلفة الهندسة والحجم ولكنها كلها موقَّعة بحيث تصل أشعة الشمس الى كل ناحية من نواحيها والى كل زاوية في غرفها . وعين الشمس قد لا تغمض عن واحدة منها كل النهار

ومن ينظر الى المصح يخالهُ لاول وهلة قرية من قرى الاصطياف الحديثة الجميلة

ويحيط بالمصح حراج من الاشجار الشائعة في آكام لبنان وهي تزيد الموقع جمالاً ولا تمنع أشعة الشمس عن الغرف

﴿ ادارة المصح ﴾ يقوم بادارة المصح لجنة من سيدات بيروت ورجالها يمثلون الطوائف المتعددة في البلاد وطبقات خاصة من عائلات بيروت العلمية والادبية والتجارية على رأسها السري حبيب بك طراد وينوب عنهُ الوجيه عبد الله بك بيهم فهذا التشكيل في الادارة حبَّب العمل الى أهل البلاد وضمن للمصح عطف طبقات البلاد بأجمعها وجعل لكل منها حصة فيهِ

﴿ مال المصح ﴾ لكل نوع من النفقة مورد خاص من المال فالقسم الكبير من الابنية أنشيء بوقفٍ خاص من المحسنين يجد الزائر على عتبة كل بناءٍ منها اسم من أنفق على تشييدهِ

أما نفقة التطبيب ومعالجة المرضى وما يقتضيهِ الامر من إعاشة وتمريض وادارة وخدمة فتقوم بهِ الجمعية بما تمنحهُ من أموال المحسنين واشتراكات الاعضاء ورسوم المرضى

وقد خصصت جمعية اغاثة سوريا في بوسطن من أعمال الولايات المتحدة القسم الوافر من جهودها اذا كنا لا نقول كلهُ لمساعدة هذا العمل

وقام منذ مدَّة بعض اخواننا المهاجرين في أميركا الجنوبية ونظموا جمعية تعمل كجمعية اغاثة سوريا في بوسطن والجمعية هذه توقفت عن العمل من عهد قريب بعد ان جاهدت سنوات عديدة

﴿ مرضى المصح ﴾ يأتون من بلدان الشرق الادنى جميعها وهم من طوائف عديدة وبدرجات اقتصادية مختلفة فمنهم من يدفع الرسم الكامل للدرجة الاولى ومنهم من يحل ضيفاً على المصح وبين الدرجتين سلسلة من الدرجات المعروفة في جميع المستشفيات . وقد خصصت الحكومة اللبنانية باباً في ميزانيتها لتطبيب خمسة عشر مريضاً في المصح

﴿ التطبيب والتمريض في المصح ﴾ والامران يتمان على أحدث الطرق وأشدّها اتقاناً . يتولى أمر الطبابة لجنة من الاطباء على رأسها الدكتور نعمة نحو الاختصاصي المعروف . وفي المصح طبيب

مقيم هو الدكتور احمد سلامة . ثم في المصح عيادة خاصة لطب الاسنان يتولاها احد أطباء بيروت المشهورين

وقد اعترفت الجامعة الاميركية بمقام المصح العلمي ولذلك جعلتهُ من عداد المستشفيات التي تفرض على طلبتها التمرن فيها قبل نيلهم الشهادة الرسمية . ويتولى التمريض ممرضتان قانونيتان يعاونهما عدد من الممرضات اللواتي كسبنَ بالخبرة والمرانة مقدرة في العمل كافية لمزاولته واتقانه

« مكتبة المصح » وفي المصح مكتبة جمعت كتبها من رجال الادب المحسنين وهي موضوع تسلية المرضى وقد نظم المرضى أمرها بحيث يتسنى لكل مريض الانتفاع بها وفي الوقت نفسه المحافظة على الكتب . غير ان المكتبة صغيرة بعدد كتبها فالمجال واسع لارباب الادب الذين يشعرون بالمسؤولية نحو اخوانهم في البشرية لاهداء مؤلفاتهم اليها . والكتب العربية أكثر الكتب طلباً وشيوعاً في المصح ولا سيما ما كان منها يبحث في تاريخ بلدان الشرق الادنى . وعدد كبير من المرضى على درجة كافية من العلم فيلذ لهم مطالعة الكتب الاجتماعية والجرائد السياسية الى ما هنالك من نتائج الحركة الادبية في البلدان العربية

كان معدَّل عدد المرضى في سنة ١٩٢٤ ما يقارب العشرات الثلاث الاولى أما اليوم فيزيد عددهم عن العشرات الثلاث الاولى بعد المائة ومعدَّل الشفاء يقرب من العشرين في المائة والتحسن الاجمالي ما يعادل ٥٣ في المائة والوفيات لا تزيد عن ١٠ في المائة وهذا بحسب احصاء يتناول الاربع عشرة سنة الاخيرة

وقد دخل المصح هذه السنة ولد في الخمس الاولى من حياته مقوس الظهر معوج الفخذين لسلّ قوي في عظامه فاستعان الطبيب بالمعالجة المصحية وبأشعة الشمس وها هوذا اليوم وقد استقام ظهره وكادت تخذاه ان تستقيما

طرق المعالجة [1]

يسهل جدًّا شفاء حوادث التدرن الرئوي اذا اتبع المريض الامور البسيطة التالية :—
في الدرجة الاولى على المريض ألاَّ يتعب رئتيه بامتناعه عن الكلام بصوت عالٍ والضحك والمشي بسرعة وتسلق الجبال وصعود السلالم وكل ما من شأنه ان يزيد عمل الرئتين . والاكثار من الطعام لا يقل عن هذه ضرراً ولو كان الاعتقاد السائد عكس ما ذكرناه اعلاه . والحاجة الى استعمال الادوية واستخدام العقاقير قليلة جدًّا ولا يلجأ اليها الاَّ في حالات خاصة

اما الطرق المتبعة في المصحات ومنها مصح ضهر الباشق فهي المعروفة بالمعالجة المصحية

(١) كلمة موجزة بقلم طبيب المصح الدكتور نحو

Sanatorial Treatment وهي مبنية على ما جاء أعلاه من الوسائط المتبعة لاراحة المريض راحة تامة وما أبسط هذه المعالجة وأسهلها

ولتكون هذه المعالجة فعالة يشترط بأن تكون حالة المريض في بدء المرض بحيث يكون انتشار الكهوف والتجاويف في الرئة الواحدة او الرئتين قليلاً ولكن من الامور المقررة ان المرضى لا يلجأون الى المصحات الاَّ بعد ان يتجاوز المرض الدرجة الاولى حيث المعالجة الصحية المار ذكرها لا تكفي لشفاء العليل ويجب ان يضاف اليها بعض المعالجات الجراحية وهي المعروفة عند الاخصائيين في العالم أجمع . أما الالتجاء الى الجراحة فلا يمكن القول بهِ الاَّ بعد مراقبة المريض ومتابعة سير المرض شهراً او أقل وهذا للحكم في هل تمكن اراحة الرئة بالجراحة راحة تامة . والأس الاول الذي نجريهِ هو المعروف بالابرة الهوائية Artificial Pneumothorax والعملية هذه كناية عن ادخال مقادير معينة من الهواء الى التجويف البيلوري في أوقات معينة بقصد التخفيف على الرئة في عملها او توقيفه مؤقتاً . وهذه الطريقة متبعة في جميع المصحات وفي أحيان كثيرة نجري العملية على الرئتين لاراحتهما اما في وقت واحد واما لاراحة كلٍّ منها في وقت غير وقت راحة الاخرى . وكثيراً ما تساعد هذه الطريقة على شفاء المريض وقد صارت من العمليات السهلة البسيطة بفضل تقدم الفن في اجراء العملية وفي صنع الآلات المختصة بها

وقد يحول دون اتمام هذه العملية عوائق أهمها التصاقات بيلورية تمنع ادخال الهواء ودخوله ولهذا يضطر الطبيب الى الاعتماد على وسائط اخرى خارجية كوضع اكياس رمل على صدر العليل لتضغط هذه على اضلاعه فيصغر حجم الصدر وتقلل حركة الرئة

وهنالك وسائط جراحية كاستئصال عصب الحجاب الحاجز او قطعه فقط او توقيفه مؤقتاً عن العمل بحقنهِ بالكحول . وقد يضطر الطبيب الى استئصال عصب الحجاب الحاجز في الرئتين معاً وهذا الاس قبل الانتشار ولا يلجأ اليهِ الاَّ عند نفاد الحيل جميعها واخفاقها

***

اما في الحالات التي يكون فيها المرض قد تقدم في درجته وتكون الكهوف والتجاويف قد صارت كبيرة جدًّا لا تكفي معها الوسائط التي تقدم ذكرها فنلتجىء الى عمليات اكبر واكثر خطراً وهي قطع الاضلاع . وقد مهر الاخصائيون بهذه العمليات فصاروا يجرونها بلباقة ورشاقة على المريض بحسب حاجته . وهذه العملية الآن منتشرة في عالم المصحات وهي معروفة عندنا وقد أجريناها في حالات صعبة وكانت نتائجها حسنة جدًّا . وكثيراً ما تساعد هذه العملية على شفاء المريض الاس الذي قد يكون مستحيلاً بدونها

متحدي اينشتين

في الهند

الدكتور السر شاه محمد سليمان

للسيد ابو النصر احمد الحسيني الهندي

— ١ —

ليس اهل الشرق ممن لم يفض عليهم القدر سجال عرفه من عبقرية وذكاء وحصافة وبصيرة كما أفاض على الغرب ، بل نجد كثيرين بينهم أوفر حظاً وأعلى مكانة فيها من امثالهم في الغرب. غير انهُ ينقصهم التربية الصالحة والظروف الموفقة . فكم عبقري فيهم ملكت عليهِ التربية الغير الصالحة مذاهبها، وكم نابتة صالحة من الذكاء المتوقد بينهم قتلتها الظروف قبل أن تنضر وتثمر وكم برعوم وضيء من الحذق الحاد أذبلتهُ عواصف الحال قبل ان يتفتح ويفوح

على ان الشرق مع ذهاب التربية الصالحة وفقدان الظروف الموفقة ، ومع ما حلَّ بساحتهِ من مكروه الرق ، وتكاثف لديهِ من مضض العبودية ، فاصطلحت عليهِ أعاصير الحياة ونزلت بهِ آلام البؤس ، فأصبحت الفوضى الفكرية والاقتصادية فيهِ ضاربة الاطناب محتلة الجوانب ، مع كل هذه العوائق الصارفة والعراقيل الرادعة استطاع ان ينجب غير واحد من العبقري والذكي والحصيف والبصير ، سبّاقي الغايات مدركي النهايات ، حازوا شأو السبق في حلبات العلم والادب ، وأحرزوا فوز النضال في شؤون الاجتماع والسياسة ، فبلغوا في قلوب الشعوب بهِ مكانة لا يستباح ذمارها ، ونالوا في محافل العلم عزة لايهضم جانبها

لسنا بصدد ان نستقصي لك مناقب هؤلاء فخر الشرق وذخره جميعاً ، ولا ان ندلك على موضعهم من حدة الذكاء واحداً واحداً ، ولا ان ننبهك على موقعهم من سعة العلم فرداً فرداً ، ولا ان نُعلمك بمشهدهم من قوة البصيرة أُحاد أُحاد . فانهُ امر بعيد المتناول منيع المطلب يعوزه المجلدات الضخمة ، اذ كل جزء من الشرق قد أنجب غير واحد من هؤلاء الرجال العظام ، والشرق واسع الارجاء متزامي الاطراف أتى بالعلم والرم منهم من الزمن الغابر الى العصر الحاضر غير اننا سنتحدث اليك اليوم عن عبقرية برزت اخيراً في انعس اجزاء الشرق وأبأسها الذي رماه

الزمان بسهامه وصدمه بكلكله، فنابته خطوب العبودية وتخرمته بوائق الرق ،فغشيه غشم المستعبد واحفاه حيف المستعمر، فدس على ابنائه عقاربه ، وأرسل بينهم نياربه ، فأفسد ذات بينهم وزرع البؤس فيهم فزادت احزانه ، وكثرت اشجانه ، وتتابعت همومه وتراكمت غمومه ، ألا وهو الهند

لقد استطاعت الهند ، بصرف النظر عن ماضيها الزاهر ، أن تنجب في العصر الحاضر وفي مثل تلك الاحوال السيئة شخصيات بارزة عديدة في ميدان الاجتماع والسياسة ، وفي حلبة العلم والادب . فلا نحسبك تحتاج الى ان نحادثك عن غاندي ، وطاغور ، واقبال ، وبوز ، ورامان، ونهرو، ومحمد علي ، واجمل خان، والانصاري، وشبلي ، وراي، وسروجيني نائيدو وبيكشاه نواز اذا كنت من متتبعي الحركات العلمية والادبية والاجتماعية والسياسية في الشرق، وممن يغشون أندية العلم والادب ، ومحافل الاجتماع والسياسة فيه ويلقون سمعهم وهم شهداء الى ما يطاب فيها نشره ويجمل ذكره. وعليه فقد تكون بلغت تلك الاسماء مسامعك غير مرة لانها مفخرة الهند ونجوم لامعة في سماء الشرق ولكننا نظن ان ليس ابو الكلام احمد ، وشاه محمد سليمان الى الآن سمع أذنيك

اما الاول فهو من كبار حملة العلم وأهم دعائم الوطنية في الهند وأرسخهم في العلوم القديمة الاسلامية والحديثة الاجتماعية وأرجحهم سداداً وأفضلهم ذكاء ، وأبرعهم كتابةً وأصقعهم خطابةً باللغة الاردية . لسانه أرق من ورقة وألين من سرقة (١) . اذا كتب وضع الهناء مواضعَ النقَب ، واذا خطب فلَّ الحزَّ وأصاب المفصِل . ونحن سنحسر عن مآثره في العلم والادب ومعاله في السعي لتحرير الوطن في فرصة أخرى اذا وفقنا الله تعالى لذلك

أما الثاني وهو الذي نحن بصدده فهو امام في علوم القوانين لا يدرك شأوه وحجة في علوم الرياضة لا يشق غباره . وما يهجم من مظاهر عبقريته دفعة ، ويأتي من نشاطه ما يملأ العين غرابة هو انهُ مع كثرة واجباته ووفرة اشغاله ، إذ يتقلد مناصب حكومية واجتماعية وعلمية عديدة كما ستعلم فيما بعد ، استطاع ان يشتغل بأهم العلوم دقةً وأكثرها صعوبةً اشتغالاً علمياً حقيقياً لا يقدح فيه اخلاصه ولا يطعن عليه صدقه . فأنتج به انتاجاً وأبدع فيه ابداعاً حيث أتى في عالم العلم بنظرية شهدت لهُ بالذهن المتوقد والبصيرة النافذة ، ودلت على منزلته من سعة الذرع وقوة الحجى ، إذ أخفقت نظرية العلامة اينشتين في النسبة ونقضتها فاستوقفت انظار كبار العلماء الرياضيين والطبيعيين في العالم وملكت أفكارهم وتناولت خواطرهم ونالت اعجابهم . وقبل أن نتحدث اليك عن تلك النظرية يجدر بنا ان نزف اليك ترجمة حياة صاحبها بالايجاز لتحيط بمكانه من حدة الذكاء ، وموضعه من بسطة العلم ، ومبلغه من علو الثقافة خبراً

انحدر صديقنا المفضال الدكتور السر شاه محمد سليمان عن سلالة كريمة ، لها المجد المؤثل

(١) أي من الحرير

والشرف الموروث ، لان رئيسها الاعلى سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه . ولذلك فبيته في الهند شهير الاثر علماً ومعلوم المفاخر أدباً ، هجر احد رؤسائه بلاد العرب وتوطن دهلي — حاضرة الهند الاسلامية — في عهد السلطان علاء الدين الخلجي [١] . فلما أغار تيمورلنك على الهند ونهب دهلي في سنة ١٣٩٨ م انتقلت الاسرة من دهلي الى بلدة جونفور . ومن جونفور برزت شخصية احد أجداده القريبين له في العلوم والمعارف وهو النابغة العلامة مُلّا محمود الجونفوري المتوفي سنة ١٠٦٢ هـ الذي كان حاد الذهن متضلعاً من العلوم العقلية والرياضية والفلسفية ومن جهابذة اهل النظر فيها في عصره حيث أشير اليه بالبنان وشدت اليه الرحال وله في الفلسفة والحكمة والعلم والادب كتب نفيسة عديدة أهمها واشهرها « الشمس البازغة » . وعلى هذا فنبوغ صديقنا الفاضل شاه محمد سليمان في الحقيقة مثال للنبوغ الوراثي

ولد شاه محمد سليمان في سنة ١٨٨٦ ميلادية في جونفور وكان والده شاه محمد عثمان رحمهُ الله من المحامين الاذكياء الشهيرين فيها وعالماً بارعاً وشاعراً فوطن على تربية اولاده وتعليمهم بنفسه وقام به أتم قيام . كان شاه محمد سليمان من نعومة اظفاره مرهف الذهن حاد الذكاء فاجتاز مرحلة التعليم الابتدائي والثانوي في أقل مدة ونال شهادة Matriculation في سنة ١٩٠٢ من جامعة الله آباد [٢] فكان رابعاً في الجامعة على حسب ترتيب الجدارة بين الناجحين في الدرجة الاولى . ثم انتظم في الكلية للتعليم العالي ونجح في امتحان Intermediate في سنة ١٩٠٤ فكان ثانياً في الجامعة على حسب ترتيب الجدارة بين الناجحين في الدرجة الاولى . ثم نال شهادة B. A. في العلوم الرياضية في سنة ١٩٠٦ فكان اولاً في الجامعة قاطبة على حسب ترتيب الجدارة بين الناجحين في درجة الشرف . فاستحق به مدالية « اقبال » الذهبية من الجامعة ومساعدة من الحكومة للاستزادة في العلوم وتيسير المراد منها وولاء البحث فيها بجامعة كمبردج

في سنة ١٩٠٧ سافر شاه محمد سليمان الى انجلترا ودخل جامعة كمبردج ونال منها في سنة ١٩٠٩ شهادة M. A. في العلوم الرياضية العليا بدرجة الشرف ، وفي سنة ١٩١٠ شهادة L.L.B. في علوم القوانين بدرجة الشرف من نفس الجامعة . وفي ١٩١٠ ايضاً حاز شهادة المحاماة Barrister at Law من جامعة لندن . وفي سنة ١٩١١ شهادة الدكتوراه في الحقوق من جامعة دبلين . والله قد أضفى عليه ذكاء حاداً يغوص أعمق الامور بسهولة ، وفكراً ثاقباً يخترق أسجف الستور بسرعة حيث أصبحت له أصعب العلوم كالرياضيات أطوع من بنانه فما شابهها مثل

(١) تولى الامر في الهند من سنة ١٢٩٥ الى سنة ١٣١٦ ميلادية (٢) لايخفى أن اقامة الامتحانات لجميع الشهادات المختلفة في الهند من حق الجامعات ، ولا علاقة لها بالحكومة أو وزارة المعارف كما توجد في مصر

الالعاب الرياضية طبعاً لم تعص له أمراً . وعليهِ فشاه محمد سليمان من أمهر لاعبي الشطرنج لذلك كانت جامعة كمبردج حين دراسته فيها قد أنابتهُ عنها للمباراة في لعب الشطرنج مع جامعة اكسفورد فناب عنها أحسن مناب

رجع شاه محمد سليمان في سنة ١٩١١ الى الهند مزوداً بالعلوم والمعارف ومستعداً لخدمة الوطن فبدأ يمارس صناعة المحاماة أولاً في مقاطعة جونفور ثم لدى المحكمة العليا في الله آباد في سنة ١٩١٢ . وفي مدة قليلة نال شهرة واسعة لبراعتهِ في القانون ، وسمعة حسنة لاخلاصهِ في العمل ، فعين في سنة ١٩٢٠ قاضياً منتدباً وهو شاب ناهز ٣٤ . وهذا أمر لم يسبق لهُ نظير فان ذلك السن أقل من المعتاد لتقلد القاضي منصبه في الهند . ثم عين قاضياً مستديماً في سنة ١٩٣٢ . وبعده عين رئيساً منتدباً للمحكمة العليا في الله آباد في سنة ١٩٣٠ ثم رئيساً مستديماً في سنة ١٩٣٢ وفي ١٩٣٧ انتخب قاضياً ممتازاً لمحكمة الاتحاد الهندية Federal Court of India التي أنشئت أخيراً في دهلي عاصمة الهند طبقاً للاصلاحات الجديدة وهي الآن أعلى المحاكم في الهند بأسرها

ما عدا منصب القضاء العالي الدائم هذا وما لهُ من الشأن من جهة اشغاله المتواصلة وواجباته المتتابعة التي تفترس صاحبه غُدْوَةً وتقتنصهُ نهزةً وتختطفهُ نهبةً استطاع شاه محمد سليمان ان ينهض في نفس الوقت بأعباء عدة مناصب حكومية علمية اجتماعية هامة أخرى لا يشوبهُ خلل ولا يعتريه أَوَد ولا يخالطهُ وهن ولا أمت . فقام بمهمة العضوية من قبل الحكومة في لجنة التحقيق في شغب بشاور في سنة ١٩٣٠ ، وفي محكمة الضرائب بلندن في ٣ — ١٩٣٢ كما قام بمهمة الرياسة في اللجان الاقليمية العديدة أحسن قيام

أما مناصبه وأعماله العلمية فهو أحد مؤسسي المدرسة الاسلامية الثانوية في الله آباد وكان رئيساً لها . واشتغل سنين سكرتير القسم الداخلي الاسلامي بجامعة الله آباد ، وهو اليوم وكيل الرئيس فيه . وهو عضو هام في المجالس التنفيذية بالجامعة الاسلامية عليقره وبجامعة الله آباد وبمجمع العلماء الهندستاني في اقليم أوَدَه . اشتغل منصب المدير بالجامعة الاسلامية بعليقره منتدباً في سنة ٣٠ — ١٩٢٩ . ومنحهُ الاتحاد الجامعي في تلك الجامعة منصب العضو الدائم لطول مدة حياته في سنة ١٩٣٠ . وفي سنة ١٩٣٤ منحتهُ نفس الجامعة شهادة الدكتوراه الفخرية في الحقوق اعترافاً بفضله وتكريماً لهُ . وفي أوائل السنة الجارية انتخبهُ المجلس التنفيذي في تلك الجامعة مديراً لها . وعلاوة على كونه اليوم مديراً للجامعة الاسلامية بعليقره هو أيضاً رئيس كلية كروسويت للبنات في الله آباد ، وراعي نقابة العلوم الرياضية في الله آباد ، ونائب الرئيس في جمعية العلوم الرياضية بكلكته ورئيس مدرسة مصباح العلوم العربية في الله آباد . ومع ذلك لا يجد فرصة الا وينتهزها ولا نهزة الا وينتهبها لالقاء المحاضرات العلمية لعامة الناس في المراكز

العلمية مثل جامعة الله آباد وجامعة لكهنؤ ، وجامعة عليقره ، وجامعة بنارس

ومن مناصبه واعماله الاجتماعية العلمية أنه يتقلد اليوم منصب الرئيس بمصحة الملك ادوار السابع التذكارية في بوالى . وقد رأس مؤتمر مسلمي الهند الاجتماعي في مدراس في سنة ١٩٢٧ ورأس مؤتمر مسلمي الهند التعليمي في اجمير في سنة ١٩٢٨ وكذلك رأس حفلة توزيع الشهادات بجامعة دكّا في سنة ١٩٢٩ ، وبالجامعة الاسلامية بعليقره في سنة ١٩٣٤ ، وبالجامعة العثمانية بحيدر آباد في سنة ١٩٣٧ . ورأس ايضاً حفلة اكاديمية العلوم في سنة ١٩٣٤ وحفلة نقابة العلوم الرياضية في سنة ١٩٣٦ وحفلة جمعية علوم الفلسفة بجامعة الله آباد في سنة ١٩٣٧ . والقى في كل حفلة من تلك الحفلات خطبة علمية بليغة ناسبت مقتضى الحال ، ودلت على رحب المجال ، فأبانت فصاحة لهجته وجزالة منطقه وبرهنت على طول باعه في العلوم ورسوخ قدمه في الفنون

على انه ليس مجرد تقلد المناصب العديدة مما يقاس به عظمة الرجل ، ولا بلوغ المراتب السنية مكيال لرفعة قدر الانسان وعلو كعبه . بل كفاءته التي تضطلع بأعباء المناصب ولا تنوء وهمته التي تقوم بالواجبات ولا تأودَ ، وحصافته التي تصل الحق في اعماق الامور ولا تكد ، ودهاءه الذي يشق الطريق بين الخطوب ولا تزحزح ، ولن تجدي هذه المزايا نفعاً اذا لم تكن مصحوبة بالاخلاق السامية في الاعمال والمعاملات ، فان الاخلاق أساس كل فضيلة ورذيلة في العالم ومصدر كل فوز وخيبة في الحياة . فالاخلاق العالية هي التي تبني من تلك المزايا لعظمة الرجل مناراً لا ينهدم وترفع لها راية لا تنتكس ، فتوضح به للناس سبيلاً لا يخفى ، وتبين لهم منهجاً لا يبلى

وعليه فشاه محمد سليمان ليس ممن بلغوا تلك المناصب العالية ، فصعروا خدودهم للناس تجبراً ، ومشوا في الارض مرحاً ، وعلوا من دونهم بالعصا ، فخاطوهم القصاء بل هو طيب العشرة محمود الملابسة للغني والفقير ، والرفيع والوضيع ، والمشهور والمغمور ، والخطير والحقير ، لين العريكة دمث الطبع رحب الصدر كريم السجايا لا يخيب آمله ولا يُعدم آمله ولا يحرم سائله . كما هو ذكي لوذعي وبصير ألمعي ، أسبقهم جدارة بتلك المناصب غير مدافع وأفضلهم كفاءة لها غير معارض ، صادق العزيمة ماضي الصريمة ، داهية في تصريف الامور الصعبة الانقياد والشديدة الالتواء ، ذو ذوق علمي سليم دقيق النظر يستجلي غوامض العلوم ويستبطن دخائل الفنون ، واسع الاطلاع ، غزير المادة ، حصيف العُقدة بحر في العلوم الرياضية لا يسبر غوره ، سند في علوم القوانين قلّ ان يوجد مثله . وقصارى الكلام انه ذو اوصاف وعبقرية يحق لصاحبها ان يكون مفخرة الارض التي نبت عنها كما هي ايضاً قمينة بأن تفتخر به وتتباهى

هذا ما عنَّ لنا الآن من سيرة الدكتور السر شاه محمد سليمان صاحب النظرية النسبية الجديدة التي تحدّى بها العلامة آينشتين بايجاز . ووعدنا الحديث عن تلك النظرية المستقبل

مجالى الفكر

الحديث

في الفلسفة والعلم والسياسة

١ — مرشد لفلسفة الأخلاق والسياسات[1]

الاستاذ جود عميد قسم الفلسفة وعلم النفس بكلية بير كبك بجامعة لندن كاتب قدير ومفكر ممتاز وفي الرعيل الثاني من ممثلي الفلسفة الانجليزية في العصر الحديث ولعله أقدرهم جميعاً على ترويض الجموح وتذليل الصعب من المشكلات الفلسفية ، وللرجل نزعة كريمة ترمي الى اذاعة الفلسفة وتقريبها الى الافهام وجعل الاهتمام بها عاماً شاملا غير مقصور على فئة قليلة من أساتذة الجامعات وطلاب العلم ، وقد وفق الى حد كبير في ادراك غايته وتحقيق برنامجه واعانه على ذلك بلاغة أدائه وبراعة أسلوبه ومقدرته الفائقة على التبسيط والتيسير ، وهو لا يلتزم في كتاباته الجد الصارم والوقار المتزمت الذي يصطنعه بعض كتاب الفلسفة وانما يسبغ على كتبه بطريف ملاحظاته مسحة ادبية تجعل قراءتها رحلة هانئة ومتعة مستحبة

وآخر كتاب أصدره هو « المرشد لفلسفة الاخلاق والسياسات » وأخص ما يسترعي النظر في هذا الكتاب الجديد هو نزاهة الاستاذ جود في عرضه المبادىء والنظريات التي تنافر مذهبه الفلسفي الخاص وتنقض افكاره من اساسها ، ومعظم اصحاب النظريات عندما يتصدون لعرض الآراء والمبادىء والتعاليم المخالفة لمذهبهم يمسخونها — ولو عن غير قصد — ويظهرونها في صورة تبعث في كثير من الاحيان على النفور والخلاف . وقد تجلت مقدرة جود على الاعتدال وضبط النفس عند عرض الافكار التي لا يدين بها في هذا الكتاب كما ظهرت في كتابه السابق « مرشد الفلسفة » . ولجود اطلاع واسع دقيق على تاريخ الفلسفة وهو يتتبعها الى مراحلها

---

(1) Guide to the Philosophy of Moral & Politics. By C.E.M. Joad. (Gollancz)

الاخيرة وصورها المستحدثة ويحسن العرض ويجيد التنسيق ويعرف كيف يخرج لك من المادة المتكاثرة كلاً حيًّا متصل الحلقات جيد التسلسل

وكتابه الجديد مقسم الى اربعة اجزاء ، وقد كسر كل جزء على جملة فصول تتناول شتى نواحيه ، وقد تناول في الجزء الاول الفلسفة السياسية والاخلاقية عند اليونان واسماه السياسة والاخلاق لان اليونان في تفكيرهم الفلسفي ، كانوا ينظرون الى الاخلاق والسياسة من حيث هما شيء واحد ، فمشكلة البحث عن طبيعة الحياة الصالحة للفرد ومشكلة معرفة طبيعة المبادىء التي تسيطر على اجتماع الافراد او يجب ان تسيطر على الافراد في المجتمعات كانتا عند اليونان وجهين لمسألة واحدة ، وكانوا يرون انك لا تستطيع ان توفق في علاج احدى هاتين المشكلتين دون ان تبحث الاخرى وتهتدي الى موقف خاص حيالها ، وليس في وسع انسان ان يقرر ما هو أحسن نظام للمجتمع دون ان يفكر في حياة الافراد وسبل اسعادهم، وآراء أفلاطون في هذا الصدد تطابق آراء ارسطو

وتناول في الجزء الثاني الاخلاقيات منفصلة عن السياسيات وذلك لانهُ منذ عهد احياء العلوم قطعت الصلة بين التفكير السياسي والتفكير الاخلاقي وصار ما كان يراه اليونان وحدة لا تنفصم عروتها فرعين مختلفين من فروع التفكير ، وقد حرص التفكير اليوناني على استدامة العلاقة بين الاخلاق والسياسة وحاول الابقاء عليها ولكن مجيء المسيحية وجعلها أساس الحياة في الحياة الاخرى وذهابها الى ان مدينة الله هي منزل القدس وموئل الروح وتهوينها أمر المدينة السياسية مهد السبيل لهذا الانفصال ، ثم ظهرت البروتستنتية فأتمته ، وتوفرت الفلسفة الاخلاقية على بحث معنى الخير والشر ومقياس السلوك الحسن والخلق الفاضل وأصل الواجب الادبي وهل الحق والباطل من المبادىء الاساسية المستقلة بذاتها في الكون او هما مجرد أسماء يلقيها الانسان على الاشياء التي يقرها او التي لا يقرها بحسب أهوائه واتجاه مصالحه ، وهل الحق هو العمل الذي يرضي الحاسة الاخلاقية او هو الذي ينبعث من ارادة حرة او مجرد العمل الذي يسفر عن نتيجة محمودة وأثر طيب ؟ واذا كان هو الذي يسفر عن النتيجة المحمودة والاثر المبرور فما هو ذلك الاثر وما معناه ؟ وواضح انهُ من الصعب أن نجاوب عن مسألة معنى الخير دون ان نبحث مسألة معيار العمل الصالح لانهُ اذا كان للخير معنى فان العمل الصالح اذن هو الذي يزيد هذا الخير وينميه وذلك بطبيعة الحال لا يستلزم الخوض في السياسة ومعالجة مسائلها ، ومن الممكن البحث في طبيعة الواجبات والالتزامات الاخلاقية وأصلها ومصدر سلطانها دون الاشارة الى المبادىء القائم عليها الاجتماع الانساني الذي نسميه « المجتمع » وكثير من كتاب الاخلاق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قد أشبعوا البحث في الفلسفة الاخلاقية دون ان يدعموا آراءهم

بتوضيح تأثير آرائهم الاخلاقية من الناحية السياسية او الاجتماعية

والقارى، قمين ان يلمح من ذلك ان المسيحية انما مهدت السبيل لفصل الاخلاق عن السياسة لانها جعلت حياة الانسان الحقيقية ليست في هذه الدنيا وانما في العالم الآخر ، فالحياة الدنيا زائلة فانية والحياة الأخرى هي الخالدة الباقية ، وحياة الانسان الدنيوية هي بمثابة اعداد وتجربة وقيمتها رهن بالعناية التي يتم بها هذا الاعداد والتهيؤ ، والصالح في هذه الدنيا انما هو صالح لانهُ مدرجة الى نيل السعادة في العالم الآخر ، فليس الصالح للانسان هو الصالح للحكومة كما يعتقد فلاسفة اليونان وانما الصالح هو ما اعان على خلاص الروح واستنقاذها وهو يتحقق في أبهر صوره وأشرق مجاليه في ملكوت الله لا في مملكة قيصر وعالم الارض ، والحكومة لا تلعب دوراً هاماً في تقريب ذلك العالم السماوي وربط اسبابنا باسبابه ، وكانت الحكومة من الناحية العملية تستلزم من الفرد بعض العناية والالتفات والمجهود الذي يحرص الفرد على بذله في سبيل الله والدنو من ملكوته ، وولاء الفرد لله كان في العصور الوسطى شديد الصلة بولائه للكنيسة ومن ثمَّ كانت هناك نظرية سياسية في العصور الوسطى تحاول التفريق بين مطالب الحكومة ومطالب الكنيسة ونشأت تبعاً لذلك فكرة السلطة الروحية والسلطة الزمنية وكان يمثل الاولى البابا ويمثل الثانية الملوك والحكام

وارقف المسترجود الجزء الثالث من كتابه للكلام عن السياسة وذلك لانهُ منذ انتهاء عصر احياء العلوم لمع في آفاق التفكير كثير من الكتَّاب تناولوا بحث السياسة منفصلة عن الاخلاق وكان مدار بحثهم اصل المجتمع والحاجات الانسانية التي نشأ منها والاهتداء الى المبادىء المسيطرة عليه ، والبحث في ضوء تلك المبادىء عن احسن صورة للمجتمع الانساني وهل الاوفق للانسان الحكم الفردي (الاوتوقراطية) او حكم الاقلية (الارستقراطية) او حكم الجميع (الديمقراطية) ؟ واذا كان الحكم الارستقراطي هو أحسن الانظمة فما هي المؤهلات التي يجب أن تتوفر في الفئة القليلة المختارة ؟ واذا كان حكم الاكثرية هو أحسن صور الحكم فما هي الاساليب التي يحسن اتباعها في انتخاب ممثلي تلك الاكثرية ؟ وما مدى السلطة التي يمنحها الاغلبية للنائب ؟ والنائب ان لم يزود بالسلطة الكافية فان الحكومة النيابية لا تستطيع المضي في اعمالها ، ولكن اذا منح سلطة اكثر مما ينبغي فما هو الضمان الذي يمنع من اساءة استعمال هذه السلطة ؟ وما هي حقوق الفرد في علاقته بالحكومة ؟ وما هي حدود سلطة الحكومة ؟ وهل للحكومة سلطة اكثر من السلطة المستمدة من الافراد الذين تتكون منهم ؟ لقد بحث هذه المسائل هوبز ولوك وروسو وهجل وماركس وسبنسر ولم ينظروا الى علاقتها بالاخلاق

وفي الجزء الرابع يرينا المسترجود كيف عاد الفرعان الى الالتقاء في المذاهب السياسية السائدة

وهو يرى ان عودة الاتصال بين الاخلاق والسياسة من ملامح القرن العشرين البارزة وسماته الكثيرة الدلالة ، والحقيقة عنده ان السياسة متصلة بالاخلاق اتصالاً وثيقاً . والقرن العشرين على حق في الرجوع الى توحيدهما ولكنه في الوقت نفسه يصارحنا بأن رجعة القرن العشرين الى فكرة ربط الاخلاق بالسياسة لم تخل من قلب للوضع الاصلي ولم تسلم من تشويه للفكرة القديمة وحقيقة ان الحياة الصالحة للانسان لا يمكن تحقيقها بمعزل عن المجتمع ولكن النظرة الحديثة تعتبر حياة الفرد الصالحة مجرد جزء من صلاح المجتمع وقد أدى ذلك الى مبالغات والتواءات في التفكير الحديث الذي يعتبر الفرد من ناحية كونه واسطة لخير المجتمع ، وقد المستر جود هذا الاتجاه بتوضيح نظريته التي سبق له ان شرحها في مختلف مؤلفاته وهي ان الفرد غاية في نفسه وان وظيفة الحكومة هي ان تفسح له المجال وتمد من اجله الفرصة

وخلاصة القول ان كتاب المستر جود فضلاً عن قيمته الثمينة لدارسي الفلسفة من احسن المراجع وأوثقها لفهم النظريات السياسية الحديثة التي تعمل وراء حوادث هذا العصر المضطرب الجائش ولا مفر لمن اراد ان يفهم العصر على الوجه المرضي ويدرك لب حوادثه وخفايا انقلاباته من الاطلاع عليه وانعام النظر واطالة الفكر فيما بين سطوره

***

٢ — العلم والمجتمع (١)

في الاجتماع السنوي الذي عقده مجمع تقدم العلوم البريطاني في خريف سنة ١٩٣٦ ألقى رئيسه السر جوشيا ستامب خطبة جعل مدارها العلم والاجتماع . ومما قاله فيها ان العالم او المخترع كان الى الثلث الاول من القرن الماضي ، ينتظر بعد الفوز بكشف او مخترع تأييد أمير عظيم أو ثري كبير . ولكن رجال الحكومات واقطاب المال والاعمال غدوا وهم أشد ميلاً الآن الى تشجيع الباحثين على البحث واجازتهم بغير وسيلة واحدة على ما يكشفون او يستنبطون بغية استغلال مكتشفاتهم ومستنبطاتهم . فكانت النتيجة ان الفترة التي كانت تنقضي بين الكشف والاستنباط من ناحية ، ووصولهما الى مرتبة التطبيق الصناعي الواسع النطاق ، اصبحت قصيرة الآن وهذا أبعث على احداث انقلابات فجائية في احوال المجتمع لضيق الوقت المتسع للتمثيل الاجتماعي والملاءمة الاقتصادية . ثم انتقل الخطيب الى بيان الهوة التي مابرحت قائمة بين العالم والاقتصادي والسياسي . فالعالم قلما يعني بنتائج كشفه واستنباطه مع ان ثمارها من أفعل العوامل

(1) Science for the Citizen, by Lancelot Hogben. Published by Allen and Unwin Ltd, London. 12/6

في احداث التحوُّل الاجتماعي ، واذا عني بها ، فعنايتهُ تنحصر في الغالب في تمديد الفوائد التي تغدقها مكتشفاته ومخترعاته على الناس ، ولا تتعداها الى تبيين المزّات الاجتماعية والرجّات الاقتصادية التي تحدثها . فكأن المنطقة التي تحصل فيها المزة والرجة ، وكيف يجب ان تتقيا ، كانت منطقة حراماً على الباحثين . فالعالم كان يحسبها خارجة عن نطاقه الخاص . والاقتصادي قلما اعترف بأن الواجب عليه يقضي بدراسة هذه الناحية من الموضوع . والحكومات كانت تقف بمعزل عما هو حادث الى ان تتفاقم العواقب . فتربية العالم كانت لا تشتمل على تبصيره بعواقب عمله من الناحية الاجتماعية . وتربية السياسي والاداري كان يعوزها تدريبهما على فهم تقدم العلم وما يقتضيه من ملاءمة الكيان السياسي والاجتماعي لهُ . فلما وقع الاصطدام انكر كلٌّ من يهمهُ الامر ان الامر من شأنهِ

هذا بيان الاصل الذي ترتدُّ اليهِ مشكلة الحضارة الحديثة مشكلة الفاقة والقلق حذاء الثروة التي يغدقها العلم ، وشبح التقتيل والتدمير ازاء ما يبدعهُ العلم للسيطرة على قوى الطبيعة المتمردة. وقد اقترحت عدة مقترحات لعلاج الداء وردم الهوّة بين العلم والاجتماع كاقتراح السربوشياستاب ان تكون العلاقة بين العلم والاجتماع ، وتأثير العلم في المجتمع، مجالاً لبحث علمي منظم . وقد قام الاستاذ جوليان هكسلي حفيد هكسلي الكبير ببحث رائد في هذا الموضوع ضمنهُ كتاباً نفيساً . الاّ ان الاستاذ لونسلوت هوغبن مؤلف كتاب « العلم والمجتمع » رأى ان يتغلغل في ماهو أعرق من ذلك في دراسة هذا الموضوع ، فكتب ملخصاً للعلم غلب عليهِ في بحث تطوره التاريخي تأثير العلم الاجتماعي في مختلف العصور. فاذا قرأهُ القارىء افاد منه فائدتين الاولى حقائق العلم مبسطة تبسيطاً يرضي الخاصة ويلذ العامة، والثانية نظرة اجتماعية شاملة لتأثير العلم في تطور الاجتماع البشري

ان الشأن الاول في نظر الاستاذ هوغبن ، هو ذلك القلق الذي يساوره من ناحية جمهور كبير آخذ في الازدياد من الشبان والشابات الذين يعلمون انهم سيكونون الضحايا الاولى لقوى التدمير الناشئة عن سوء تطبيق العلم . فالعلم كان من افعل العوامل في نشوء هذا المجتمع المضطرب والعلم وحده هو الذي يملك وسيلة العلاج . فليعلم الشاب والشابة ان اقطاب العلوم اكتسحتهم التيارات الاجتماعية التي كانت سائدة في العصور المختلفة . بسط لهما جهدك قواعد العلوم المختلفة . وفسر لهما اسلوب البحث العلمي . ثم أجلُ لهما ان العلم ليس « الفطنة المنظمة » بل « العمل المنظم » وعندئذٍ يدرك هؤلاء الشبان والشابات السبيل الى انقاذ انفسهم وانقاذ العالم

يقول الاستاذ هوغبن ما ملخصهُ : أطلق العلم في القرن الماضي قوى جديدة للتنظيم الاجتماعي يقصر عن ادراكها وفهمها التربية السياسية التي تعودناها . فمن سبعين سنة كان في مكنتنا ان نبحث مشكلة الفاقة وهل هي مما يساغ من الوجهة الاخلاقية او مما يجتنب من الناحية المادية.

ولكن ذلك قد تغير . فالفاقة اليوم ليست شيئاً يتعذر اجتنابه من الناحية المادية . والحرب ليست نزعة اخلاقية . انها تهدد بناء الحضارة بالانهيار، اذ نحن لم نستأصل شأفتها بنفس السرعة والشدة اللتين استأصلنا بهما الجدري والملاريا والحمى الصفراء

ومن الواضح ان الهدف الذي يتوخاه الاستاذ هوغبن ، وهو تعليم الناس وطبع العلماء بشعور التبعة الاجتماعية ، عمل عظيم الشأن وعر المسلك ولكنهُ من افراد العلماء الذين في وسعهم ان ينهضوا بهذا العمل . فقد نشأ ورسخ في دراسة علم الاحياء من الناحية الاجتماعية . وهو يعتقد ان معاهدنا العلمية لا تدرس العلم كما يجب ان يدرَّس . ثم انه علاوة على هذا وذاك بارع البراعة كلها في تبسيط العلوم واذا كان قد ادخل على فصوله بعض المعادلات الرياضية فلأنهُ يحترم ذهن القارئ ، ولانهُ يسوقهُ الى المعادلة برفق وعناية فلا يشعر القارئ ، عند بلوغها انهُ امام شيء إدِّ في رواية أخاذة . ولذلك لا يخالجنا شك في ان كتابهُ هذا سيترك الاثر المتوخى في جمهور القراء ، بل وفي جمهور اساتيذ العلوم وهو اهمُّ . لانهُ متى ادرك اساتيذ العلوم — على نحو ما بين السر يوشياستامب — انهم اعضاء في جماعة تتنازعها عوامل الانتقال والانقلاب ، فلعلهم يتحولون الى تخريج الوف من الطلاَّب كلَّ سنة ينطلقون في العالم حاملين رسالة العلم على انهُ « قوة اجتماعية » . ولا نستبعد بعد النجاح المرتقب لمثل هذا المؤلف ان يصبح نموذجاً لمؤلفات اخرى تنسج الى منواله

كان الغالب على الظن حتى الآن ، من دراسة سير العلماء ، ان الرغبة في اقتحام المجهول ، واستطلاع الخفي ، كان المحرّك الاول لهم على البحث والكشف . ولكن الاستاذ هوغبن لا يرى كيف يمكن ان نفسر بهذا الرأي اختراع المضخة البخارية في الوقت الذي كانت انكلترا في أشد الحاجة الى جهاز من قبيلها لنزح المياه من مناجمها . ولا كيف قامت صناعة قطران الفحم الحجري ومركباته في المانيا ، وهي البلاد التي تحتاج أشد الحاجة الى المواد الاولية مما حتم عليها ان تجني من القليل الذي لديها أعظم ما تستطيعهُ من الفائدة . والرأي عندهُ ان الضرورة الاجتماعية هي التي تملي على العالم الموضوع الذي يجب ان يتجه اليه وينفق فيه وقتهُ وجهده ، وهذا لا يمنع ان يكون اندفاع العالم في هذا السبيل على غير وعي منهُ لانهُ ابن عصره متأثر بأحواله وتياراته

والاستاذ هوغبن ليس أول من ذهب هذا المذهب ولكنهُ حتماً اول عالم وضع كتاباً على هذا الاساس ، كتاباً هو في الوقت نفسه تاريخ للعلم ومدخلٌ الى تفسير العلم تفسيراً اجتماعيًّا

والعلم عنده يتقدَّم عند ما تبدو في عصر ما حاجة اجتماعية لا بدَّ من الاستجابة لها ، ولان ذلك العصر يكون قد جمع بين أسلوب وافٍ للبحث والاستكشاف والباعث عليهما

قال : — ان قصة العلم ، سواء أبالحض وصفناه أم بالمطبّق ، ليست منفصلة عن حياة

الانسان . فما ندعوه علماً محضاً لا يعيش الاّ في نظام اجتماعي يخلق للعالِم مشكلات يجب حلها ويجهزه بوسائل وأجهزة لذلك الحل . فلولا الطباعة لما شعرنا بالحاجة الى المناظر (النظارات) ولولا المناظر لما كان لنا المجهر ولا المرقب . ولولاهما لما أدركنا حقيقة سرعة الضوء المطلقة وبعد النجوم باختلاف الزاوية والحيوانات الدقيقة والاختمار والاسباب الجرثومية للامراض . ولولا الساعة ذات الرقّاص والقذيفة لما كان علم الحيل (ديناميكس) ولا نظرية الصوت . ولولا علم الحيل الناشىء من الرقاص والقذيفة لما كان كتاب المبادىء (برنسيبيا الذي وضعهُ نيوتن) . ولولا التعدين تحت أطباق الارض لما شعرنا بالحاجة الى دراسة ضغط الهواء والتهوية والانفجار

ويمكن ان يقال بوجه عام ان كتب العلم العامة تحتوي على فصول لا رابط بينها — فصل في الطبيعة وآخر في الفلك وثالث في الكيمياء ورابع في الاحياء وهكذا ، كأن كلاً منها علم نشأ على حدة نشوءاً مستقلاً . ولكن ذهن الاستاذ هوغبن ذهن فيلسوف يهوى التركيب . وهو يميل الى الاخذ بالصور الذهنية العامة التي توجه الموضوع . ولاسيما الصور والمبادىء الاجتماعية . فاقبالهُ على كتابة مؤلف في العلم ، من الناحية الاجتماعية ، يسبغ على فصول كتابهِ وحدة واتساقاً فترى العلوم المختلفة فيهِ وهي سائرة في طريق الارتقاء جنباً الى جنب

والكتاب خمسة اقسام اولها القسم الذي عنوانهُ « غزو التوقيت والقياس » وفيهِ يتناول الساعات والتقاويم والفلك والهندسة والملاحة والميكانيكا من الناحيتين التاريخية والفنية . ويليهِ « غزو المواد » وهو يتناول نشأة الكيمياء الحديثة وردّ اصولها الى حاجات المعدنين والنساجين . ثم القسم الثالث وعنوانهُ « غزو القوة » وهو يبحث في نشأة الطاقة الميكانيكية والكهربائية ولكنهُ بحث مرتبط باحوال الاجتماع الرأسمالي والثورة الصناعية التي أحدثها المحرّك البخاري . ثم القسم الخاص بغزو « الجوع والمرض » ولعلهُ خير الفصول جميعاً لان الاستاذ هوغبن أحيائي في نشأتهِ واحيائيّ اجتماعي في نزعتهِ وعملهِ . هنا فصول متتالية محبوكة تشمل علوم الاحياء والطب والتطوُّر العضوي من الوجهتين العلمية الفنية والاجتماعية . ثم اخيراً القسم الخاص بغزو « السلوك » وفيهِ يعالج الجهاز العصبي المركزي وعلم النفس ويشرح سلوكنا الانساني وبواعثهُ . ويختم الكتاب بفصل يجمل فيهِ المؤلف فلسفتهُ الاجتماعية ونتائج بحوثهِ

وليس ببعيد ان يكون أثر هذا الكتاب وما ينسج على منوالهِ كأثر « الانسكلوبيذي » التي قام ديدرو على وضعها في القرن الثامن عشر . فلقد ضمَّنهُ الاستاذ هوغبن زبدة المعارف العلمية التي جمعها الناس وحققوها خلال قرون طويلة ثم هو فسرها على ضوء الحاجات الاجتماعية القديمة والمعاصرة ثم قدمها لابناء العصر الحديث أداة للاصلاح الاجتماعي

٣ — الساسة الغبر [1]

للورد نلسن أمير البحر البريطاني وبطل معركة الطرف الاغر قول مأثور في تاريخ الاسطول البريطاني وهو «ان أسطولاً من السفن الحربية البريطانية خير المفاوضين في أوربا» . ومن هذا القول المأثور — الذي وضعهُ مؤلف هذا الكتاب على صفحة على حدة أمام فصله الاول — استخرج المؤلف عنوان كتابه . وغرضه من فصوله أن يصف ما كان للاسطول البريطاني في البحر المتوسط من شأن في حوادث البلدان الواقعة على ضفاف هذا البحر من لدن عقدت الهدنة مع تركيا في أواخر الحرب الكبرى واحتل الحلفاء الاستانة الى نشوب الحرب الاهلية الاسبانية وما لازمها من اعمال الرقابة على سواحل اسبانيا وحماية طرق المواصلات البحرية من جبل طارق الى قناة السويس

والمؤلف كان ضابطاً بحريًّا في الاسطول من سنة ١٩٢٠ الى سنة ١٩٣٢ فلما خرج من الاسطول برتبة «لفتننت كوماندر» اتخذ الكتابة والتأليف صناعة له فكان المكاتب البحري لجريدة المورننج بوست مدى اربع سنوات قبل اندماجها في الديلي تلغراف. وهو الآن المكاتب البحري لجريدة «الصنداي تيمس» ومقالاته في الموضوعات البحرية تنشر في أهم المجلات العالمية

تتجلى لك معرفته بشؤون الاسطول في التفصيلات الممتعة التي يطالعك بها في كل صفحة من صفحاته : أسماء السفن الحربية المنوعة التي اشتركت في مختلف الحوادث وتنقلها من قاعدة بحرية الى أخرى واسماء القواد والضباط واحوال السفن نفسها والروح المعنوية التي تسود رجالها واستعماله المصطلحات البحرية الفنية في المواقف الخاصة. ومع انهُ لا يشير ولا ناشر الكتاب يشير الى انهُ كان ضابطاً في أسطول البحر المتوسط وشهد بنفسه معظم الحوادث التي يصفها فانك لا تكاد تسير قليلاً في مطالعة الكتاب حتى يلوح لك انهُ كان ضابطاً فيه وذلك لدقة الوصف حتى تحس كأنك مما يصف بمشهد

***

الفكرة الاساسية التي يقوم عليها الكتاب هي كما قلنا وصف اعمال الاسطول البريطاني في حوادث البلدان الواقعة على ضفات البحر المتوسط من احتلال اسطنبول الى حريق ازمير الى حادثة كورفو الى ثورة فلسطين (١٩٣٦) الى حوادث النزاع الخطير الذى لازم المشكلة الحبشية

(1) The Grey Diplomatists, by Lt-Comdr. Kenneth Edwards, Rich & Cowan London 15/-

الايطالية الى الحرب الاهلية في أسبانيا ومسائل عدم التدخل والرقابة وحماية المواصلات البحرية بعد مؤتمر نيون

وعند المؤلف ان حادثة جزيرة كورفو كانت حدًّا فاصلاً بين الزمن الذي كان فيه للاسطول البريطاني في البحر المتوسط من الهيبة والمقام ما جعله سيد مياهه ، والزمن الذي بدأت فيه ايطاليا تظهر كدولة بحرية قوية تنازع بريطانيا سيادة البحر المتوسط وتطمح الى ان تخلفها فيه. ويذكر القراء ان سبب تلك الحادثة اغتيال لجنة الحدود الايطالية في جانينا باليونان (٢٨ اغسطس سنة ١٩٢٣) وان السنيور موسوليني بعث ببلاغ نهائي شديد الى حكومة اثينا وبمعظم الاسطول الايطالي الى مياه جزيرة كورفو فضرب الجزيرة بقنابله . وعندما سلمت السلطات اليونانية في كورفو أنزل فصيلة من البحارة الى البر. فلما احتجت اليونان الى عصبة الامم تنكّر موسوليني للعصبة ولم يقم لها وزناً وأصرّ على ان يمحو عار الاغتيال بعمل حاسم فكان له ما أراد عندما نقلت جثث القتلى على احدى المدرعات الايطالية إذ حُييت السفن الحربية اليونانية في مرفأ فاليرون بكورفو على رفع العلم الايطالي تحية وتكفيراً . وتلا ذلك انسحاب القوات الايطالية من الجزيرة

ويلوح مما جاء في كتاب « الساسة الغبر » ان ضباط الاسطول البريطاني في البحر المتوسط أدركوا مغزى هذه الحادثة ولكن رجال السياسة البريطانية في لندن — البعيدين عن حوادث البحر المتوسط المنهمكين بالمشكلات المعقدة التي أورثتهم ايّاها الحرب الكبرى — لم يدركوا ذلك المغزى او انهم أدركوه ولكنهم شغلوا عنهُ بما بدا لهم أخطر شأناً منه . وكذلك والت الحكومات البريطانية المتتالية نقص الاسطول البريطاني بالمعاهدات البحرية المختلفة وفرضت على رجال الاسطول ممارسة سياسة الاقتصاد والتوفير في كل باب من الابواب

هذه الخطة التي جرت عليها الحكومة البريطانية أضعفت الاسطول وحدّت من كفاءة رجاله . وللكوماندر كنيث أدوردز فصلان هما السابع والثامن من كتابه بسط فيهما هذه الناحية من الانحطاط في قوّة بريطانيا البحرية وهو انحطاط استمرّ نحو اثنتي عشرة سنة من بعد تصفية حادثة كورفو في سنة ١٩٢٣ الى النزاع الحبشي الايطالي في سنة ١٩٣٥

فجرياً على خطة الاقتصاد المفروضة على الاسطول أصبحت السفن تقضي في المرفأ وقتاً أطول مما تقضي في عرض البحر وأصبحت المناورات تجري والسفن تسير بسرعة ١٢ عقدة في الساعة بدلاً من ان تسير بسرعة ٢٠ او ٢٣ عقدة في الساعة وهي السرعة المتوقعة في أية معركة بحرية. وغني عن البيان ان الضابط الذي يقود سفينة حربية في معركة ما بسرعة ٢٠ او ٢٣ عقدة في الساعة لا يستطيع ان يتدرب على حسن ادارتها في مناورات تسير فيها بسرعة ١٢ عقدة فقط.

ومن هنا احتمال نشوء خطإ في تنفيذ الخطط البحرية واحتمال حدوث الاصطدام وهو ما وقع فعلاً في بعض المناورات . نعم ان رجال الاسطول حافظوا على مستوى النظافة العالي الذي جرت عليه تقاليدهم ولكنهم حافظوا عليه محافظة سلبية لا ايجابية أي انهم امتنعوا عن كل ما يلطخ لانهُ فرض على كل سفينة — في هذه الفترة — ان تصنع بنفسها الدهان المستعمل لتنظيف النحاس والخشب وغيرهما

ومن هذا القبيل النقص في رجال الاسطول وفي الذخيرة والعتاد الحربي ومن أبلغ الامثلة على ذلك انهُ لما نشبت الازمة الحبشية واضطرت الامبرالية البريطانية ان تخرج من الاستيداع سفناً لتجهيزها واستعمالها كانت لا تجد ما يكفيها من البحارة المدربين في بعض الاحيان . أما الذخيرة فقد روى مؤلف هذا الكتاب ان الاسطول المرابط في مالطة في أغسطس ١٩٣٥ كان لا يملك من الذخيرة الاَّ ما يكفيه لمعركة واحدة — لو اضطرَّ الى الحرب — وبعد ذلك تصبح وحداته سفناً جوفاء (صفحة ١٦٨) . ومما يدلك على حقيقة هذه الحالة ان المؤلف جعل عنواني هذين الفصلين « تقهقر » ثمَّ « ثورة وفتنة » !

الاَّ ان حوادث الحبشة والتحدي الذي وجّه الى الامبراطورية البريطانية الذي كان منطوياً في تلك الحوادث ، أيقظ في الشعب البريطاني غريزة الدفاع عن النفس فبذلت الحكومة البريطانية جهداً جباراً لمواجهة الحالة — اذا اقتضى الامر — بأكبر قوَّة بحرية تستطيع ان تحشدها في البحر المتوسط ولو جردت القواعد الاخرى من القوات اللازمة لها

هذه الفصول أمتع ما في كتاب كله ممتع لانها تتصل بحوادث كان لمصر فيها شأن كبير من حيث الاستعداد الحربي الذي تمَّ في هذه البلاد لمواجهة الطوارىء ومن حيث اتخاذ مرفأ الاسكندرية مقرّاً لاكبر جانب من الاسطول البريطاني بعد خروجه من مالطة ومن حيث ما قيل عن امكان الهجوم على مصر والسودان من لوبيا والاريتره

ثم انها تحتوي على حادثة الطيارة الايطالية التي سقطت على مقربة من المعادي وهي في طريقها الى الاريتره وما قيل عن « صندوق اسود » كان فيها ، يحتوي على أوراق ووثائق خطيرة الشأن . فقد روى المؤلف ان هذا الصندوق نقل الى دار المفوض السامي البريطاني (السفارة البريطانية الآن) فرؤي ان الاوراق التي فيه يجب ان تصل الى لندن حالاً وبطريقة مأمونة . ثم روت الصحف في اليوم التالي ان الكابتن بلاك أحد مشهوري الطيارين الانكليز قام من لندن الى القاهرة بغية التفوق في سرعة الطيران الى جنوب افريقية . فلما وصل مطار الماظة قبل ان عطلاً أصاب طيارتهُ فلا يمضي في رحلته . فعاد الى لندن بدون توقف في اليوم التالي — وكان يحمل معهُ الصندوق الاسود ! ثم هناك تفصيلات الرواية التي رويت عن نية السنيور

موسوليني ان يضرب الاسطول البريطاني ضربة قاضية وهو محتشد في مالطة يوم ٣٠ اغسطس سنة ١٩٣٥ وكيف عرفت الحكومة البريطانية بذلك فلم تظهر انها عارفة ولكنها أصدرت الأمر بخروج الاسطول الى عرض البحر في ٢٩ أغسطس وما روي عن غضب السنيور موسوليني عند ما علم بذلك . هذه الحوادث والروايات وعشرات غيرها تجعل الكتاب أخاذاً كالرواية ، بل من المتعذر ان تحتوي أية رواية يخلقها الخيال من معنى النضال والدرامة أكثر مما تنطوي عليه هذه الدرامة الواقعية

بعد ذلك جاءت ثورة فلسطين سنة ١٩٣٦ فكان للاسطول فيها شأن فصله المؤلف ثم نشبت الحرب الاهلية الاسبانية فتعين على الاسطول البريطاني القيام بأعمال الرقابة على سواحل أسبانيا تنفيذاً لخطة عدم التدخل بالاشتراك مع أساطيل ايطاليا وفرنسا والمانيا وحماية السفن التجارية البريطانية من سفن الفريقين المتنازعين وطياراتهما ، ثم استفحل خطر الغواصات وعقد مؤتمر نيون فحمل الاسطول البريطاني في البحر المتوسط جانباً كبيراً من تبعة حماية المواصلات البحرية فيه

وقد فصل المؤلف في هذه الفصول حادثة الاعتداء على الطراد الالماني «دويتشلند» وهو الاعتداء الذي أفضى الى ضرب ثغر المرية بأسبانيا ، ثم بسط ما قيل عن اعتداء قصد به اغراق الطراد الالماني «ليبستش» وهو الذي أفضى الى انسحاب المانيا وإيطاليا من مشروع الرقابة على سواحل أسبانيا . ويلي هذا تفصيل حوادث مختلفة مما قرأناه في الصحف ولم نعرف ما كان يجري بشأنه في الوزارات والسفارات

واذا كان من المتعذر على كاتب هذه السطور ان يجمل في مقال ما فصله الكاتب في ٣٢٠ صفحة فانهُ مقتنع بأن ما تقدَّم يكفي للدلالة على محتويات الكتاب واتجاهه العام

وعند الكاتب أن برنامج الدفاع القومي الذي هبت بريطانيا الى تنفيذه بعد حوادث الحبشة على أثر الانتخاب العام الذي تمَّ في نوفمبر سنة ١٩٣٥ قد أخذ يعيد الى الاسطول البريطاني سطوته الماضية وكفاءته التاريخية وهو لذلك يختم كتابه بفصل وازن فيه بين العوامل المختلفة في الموقف البحري في البحر المتوسط وخلص منهُ الى القول بأن موقف بريطانيا فيه قويٌّ ويزداد قوَّة رويداً رويداً . فقد بني للاسطول البريطاني في سنة ١٩٣٧ من الطرادات أكثر مما بني لهُ في أية سنة تلت انتهاء الحرب الكبرى وسيتم في سنة ١٩٣٨ صنع أكبر عدد من المدمرات صنع في سنة واحدة بعد سنة ١٩١٨ وستشهد سنة ١٩٤٠ انجاز المدرعات الضخمة

وعنده كذلك ان فتح ايطاليا للحبشة وكون بريطانيا لا تريد الاَّ تأمين مواصلاتها الامبراطورية في البحر المتوسط يجعلان مصالح بريطانيا متممة لمصالح ايطاليا وان موسوليني أدرك ذلك والامل معقود على التفاهم التام بين الدولتين

٤ — بريطانيا والحاكمون بأمرهم [1]

يكاد الباحث في شؤون اوربا الدولية يكون كالسائر في تيه لكثرة ما يواجهه من المعاهدات والمحالفات والعهود وما يصطدم به من تيارات السياسة الظاهرة والخفية وما يطالعه من حقائق تتعلق بالشعوب وتوزيعها والخطط الاقتصادية وتشابكها ووجوه الخلاف في القواعد السياسية والاجتماعية والفلسفية التي تقوم عليها نظم الحكم وتستند اليها مرامي الحكام

فالباحث في حاجة الى دليل في هذا التيه . وكأن كتاب الفرنجة أدركوا هذه الحاجة فهب المؤلفون الى التأليف ودور النشر الى النشر فنفحنا الاستاذ كول بكتابين وسمهما باسم الدليل احدهما لحالة اوربا الاقتصادية والآخر لحالتها السياسية . وطلع الصحافي الاميركي جون غنثر على العالم بكتابه « داخل اوربا » وهو الكتاب الذي نال شهرة عالمية واعيد طبعه مراراً كان مؤلفه في كل مرة يضيف اليه ما جد في حلبة النضال الدولي . ومن قبيل هذه الكتب كتب اخرى تختلف أسلوباً واتجاهاً ولكنها تماثل في الغرض الاساسي

ولعله يصعب على الباحث ان يجد مرشداً له في تيه السياسة الاوربية بعد الحرب الكبرى خيراً من الاستاذ سيتون وطسون استاذ تاريخ أوربا المتوسطة في جامعة لندن . فمنذ ما تخرّج في جامعة اكسفورد ودرس في برلين وباريس وفينا اكب خاصة على التوفر على شؤون اوربا المتوسطة وشرقها الجنوبي وله في ذلك مؤلفات نفيسة في تاريخ النمسا وهنغاريا والبلقان علاوة على اشتراكه في اصدار مجلة « اوربا الجديدة » و« المجلة السلافونية » . ثم انه عاون ماساريك وبنيش في السعي الى تحقيق استقلال تشيكوسلوفاكيا وتربطه باقطاب يوغوسلافيا ورومانيا اواصر صداقة متينة

واذا كان الاستاذ كول قد جعل كتابيه عرضاً تاريخيًّا لشؤون اوربا الاقتصادية والسياسية أصله في القرن التاسع عشر وفروعه في العشرين واخرجه متسماً بسمة عقيدته الاشتراكية ، واذا كان الصحافي غنثر قد أدار فصول كتابه من حول اقطاب اوربا القابضين على ازمتها المتصرفين بمقدراتها وخصائصهم النفسية ، فان الاستاذ سيتون وطسون جعل كتابه بحثاً تاريخيًّا معاصراً يتناول الفترة التي تلت معاهدات الصلح . بل ان معظم فصول الكتاب يدور على الظاهرات السياسية التي طالعت الجمهور في العشر السنوات الاخيرة من مثل قيام النظام النازي في المانيا والفاشستي — ولا سيما حوادث الحبشة — في ايطاليا وتطور النظام السوفيتي في روسيا

والكتاب تغلب عليه وجهة نظر خاصة وهي بيان حالة هذه الدول الدكتاتورية الكبيرة وصلتها بالسياسة البريطانية . فالمؤلف بطبعه ونشأته يمقت الدكتاتورية نظراً وتطبيقاً ولكنه يعترف

---

(1) Britain and The Dictators, by R. W. Seton-Watson, Cambridge University Press. 12,6

بما فيها مما يستهوي الجماهير ولا سيما في دول غلبت على امرها وقيدت بقيود ثقيلة كالمانيا اوظفرت ولكن حرمت مما وعدت به كايطاليا او بلغ فيها مستوى الحياة الاجتماعية ادنى دركات الانحطاط كروسيا . فما تمثر عليه من الصراحة في بعض صفحاته مما يجعله أقرب الى الكاتب الصحافي منهُ الى الاستاذ المؤرخ ناشيء عن اعتقاده بأن مصير جامعة الامم البريطانية ومعها مصير المنشآت الاجتماعية الحرة في العالم معلق الآن في ميزان القدر . ولكن ذلك لا يمنعهُ عن بحث تسوية الحرب الكبرى بحثاً وافياً لبيان ما ارتكبتهُ الحكومة البريطانية وسائر الدول المنتصرة من الاخطاء ولا عن التساؤل عما يمكن القيام به لاصلاح الحال واجتناب الكارثة

والاستاذ سيتون وطسون دقيق الاستقصاء لا تفوته شاردة ولا واردة من اقوال الزعماء ولا من كتابات الصحف المسؤولة في مختلف بلدان اوربا . الاَّ ان علمهُ الواسع واحاطته التامة لا تضجرك فصورة الدرامة واضحة في ذهنهِ والقلم سيال تمدهُ قريحة متوقدة وتسعفهُ طبيعة الحوادث الخطيرة نفسها

الجزء الاول من الكتاب في منزلة توطئة لفصوله الرئيسية فهو يعالج اولاً الخطط السياسية البريطانية قبل الحرب الكبرى وقواعدها ثم خطة بريطانيا في أثناء النضال العالمي . ويلي ذلك تحليل دقيق لتسوية الحرب الكبرى

وفي بحثه تسوية الحرب الكبرى يدفع عنها بعض ما وجه اليها من التهم ثم يأخذ عليها مآخذ خمسة هي رفض الحلفاء ان يناقشوا الالمان في قواعد التسوية مما وسم معاهدة فرسايل بسمة الاملاء . ثم انهُ يأخذ عليها ربط ميثاق العصبة بمعاهدات الصلح ، وتحميل المانيا وحدها تبعة الحرب،والقول بان المانيا لا تصلح لادارة شؤون المستعمرات ، والشدة المتناهية في نصوص التسوية الاقتصادية

ومما يستوقف النظر ان المؤلف المؤرخ لا يأخذ على تلك التسوية الحدود الجغرافية الجديدة التي وضعت بمقتضاها لانهُ يحسب انها حققت مبادىء « الاتنولوجيا » على قدر ما يمكن تحقيقها

وعند الاستاذ سيتون وطسن ان بريطانيا لا تحمل تبعة هذه الاخطاء وحدها . ولكنها تحمل وحدها تبعة خطأ آخر هو في نظره خطأ كبير . ذلك انهُ لما أبت الولايات المتحدة الاميركية الانتظام في معاهدة الضمان الثلاثية لضمان سلامة فرنسا صرفت بريطانيا نظرها عنها كذلك فأنشأت في فرنسا شعوراً بالقلق على سلامتها مما حملها على السعي للفوز بحلفاء آخرين في أوربا وجعلها تبدو في مظهر الراغب في السيطرة على أوربا والاحداق بألمانيا . وهذا سلب بريطانيا جانباً كبيراً من النفوذ في مجامع فرنسا كانت تستطيع — لو قبلت معاهدة الضمان — ان تستعمله وتصرفه الى ما تراه خيراً

وليس في وسع الكاتب ان يلخص في فصل موجز أهم ما في الكتاب فكل صفحة من صفحاته تفصل شؤوناً تتصل بحياتنا اليومية من سياسية واقتصادية سواء في أوربا كنا أم في مصر . الاّ ان الكتاب يتناول في مجمله الدول الدكتاتورية الكبيرة في اوربا وهي المانيا وايطاليا وروسيا . ولكلٍّ منها فصل مسهب . وأطولها الفصل الخاص بألمانيا لانهُ عرج فيه على تحليل المبادىء الايديولوجية التي يستند اليها النظام النازي وشيعته المتحكمة

تطالع هذه الفصول فتخرج منها بأن المؤلف دمقراطي النزعة يكره الاستبداد والتحكم سواء أمن اليمين كان أم من اليسار . وهذا الرأي يلون بعض ما يكتب ولا سيما نهاية الفصول عند ما يريد الخلوص الى نتيجة عامة . أما العرض الذي تشتمل عليه أكثر صفحات هذه الفصول فنزّهٌ الى حد بعيد عن نزعة المؤلف الخاصة

الاَّ انهُ مع كرهه للنظام الدكتاتوري في روسيا يرى ان روسيا لا تهدد السلام العالمي ويدافع عن عقد الميثاق الفرنسوي السوفيتي في سنة ١٩٣٥ لانهُ يرى انهُ اذا عزلت روسيا عزلاً فعالاً عن أوربا فتسلح المانيا والريبة التي تحيط بموقف ايطاليا يجعلان فرنسا في موقف شديد الخطر وهو يقول « ان الغرض من الميثاق المحافظة على توازن القوى في أوربا وهو ما يزعم هتلر انهُ يبغيه . . . »

أما فصله عن ايطاليا فأشد لهجة من سائر الفصول وعنده على ما جاء في آخر الفصل انهُ في الاتصال بموسوليني ومعاملته يجب ان نحيد عن التأثر بالشعور وان ندرس مكيافللي وان نعلم ان موسوليني يحتقر الساسة البريطانيين ويعتقد بأن النزعة السلمية قد أضعفت الشعب البريطاني وان الامبراطورية آخذة في الانحلال وأنهُ يأمل ان ينشيء ما يحل محلها في البحر المتوسط وإفريقية والشرق الاوسط وانهُ معادٍ للنظم النيابية الحرة وفكرة الحرية الفردية والسياسة الشعبية ونظام السلامة الاجتماعية الممثل في جنيف

وفي الكتاب بحث واف في مشكلة الاقليات في أوربا وما تشكو منهُ وعنده ان الاقليات الالمانية في تشيكوسلوفاكيا كانت أحسن حالاً من سائر الاقليات الاوربية المختلفة

وقد أُلحق بالكتاب فصلان احدهما خاص بأسبانيا وسياسة بريطانيا فيها والآخر بالنمسا وحادث ضمها الى الريخ الثالث في شهر مارس الماضي

***

والخلاصة ان الكتاب جدير بأن يكون على مكتب كل متتبع لشؤون أوربا لما يزخر به من الحقائق المرتبة المنظمة في فصوله. انما يجب على من يطالع النتائج التي يخلص اليها المؤلف من عرضه للحوادث والحقائق ان يفعل ذلك وهو عالم بوجهة نظره الدمقراطية

موت سوسو

« سوسو » هرّة أليف ظريف انطفأت فيه شعلة الحياة المقدسة بين يديَّ وهذه مرثيته ، أو مرثية الشعلة الخابية فيه !

لقد همدت في الضلوع الحياة ... فما يرجف القلب أو يخفق
وقد غاب لألاؤها في العيون ... فما ترمق الكون أو تبرق
وقد سكنت نأمة في حشاه ... فما عاد يقفز أو يمرق
فيا قربها لحظة في الزمان ... ويا بعـــد آثارها تنطق
وتنقل من عالم صاخب ... إلى عالم صمته مطبق

***

نقيم الحياة هنا مأتماً ... وما إن ثني جزعاً نفرق
وإن الحياة لمجنونة ... بأبنائها الكل لا تفرق
نحيمتها في صغار الفَراش ... كموت الفتى حادث مرهق
هو الموت في كنهه واحد ... ويزهق من بعد من يزهق
فدا ندحرت في صراع الردى ... فحق لها كل ما تحنق !

***

وترجف في كل حي إذا ... أصاب سواه الردى المزهق
أشعتها في جميع النفوس ... يرقرقها مصدر يألق
فإن مسَّهُ ما يغض الضياء ... تذبذب لألاؤها المشرق (1)
فيا دمعة رقرقت في العيون ... لأن الحياة همت تدفق
يعز على النفس فقد الحياة ... فتجزع الموت إذ يطرق

حلوان ... سيد قطب

---

(1) الحياة وحدة في جميع الأحياء كمستودع الطاقة يمد فروعه المتفرقة ومتى مسه ما يغض من طاقته تذبذبت جميع الفروع . وكذلك يرجف الأحياء لموته

الاسرات الحاكمة

وبعض الاحداث السياسية الخطيرة الشأن

في العالم الاسلامي منذ قيام الاسلام حتى القرن السابع عشر الميلادي

للدكتور زكي محمد حسن

امين دار الآثار العربية والمدرس بمعهد الآثار الاسلامية

يعنى الطلاب في مصر بدراسة التاريخ الاسلامي . ويبذل الاساتذة جهوداً مشكورة في هذا السبيل ، ولكنهم يلاحظون في الطلاب انصرافاً الى العناية بمراحل التاريخ الاسلامي مرحلة مرحلة ، غير عاملين على ربطها بعضها ببعض ليسهل عليهم الافادة مما يتلقونهُ ، والمقارنة بين الاقاليم الاسلامية المختلفة ، ومعرفة الروابط بينها ، والاحداث الخطيرة الشأن في تاريخها . وقد سمعت من بعض الاساتذة الاجانب ، ممن يشتغلون بتدريس الآثار الاسلامية شكوى من عجز الطلاب عن تصور حال العالم الاسلامي كله في اي عصر من العصور ، فدفعني ذلك كله الى كتابة البيانات الآتية ، جمعت فيها أخطر الاحداث السياسية شأناً في التاريخ الاسلامي ، واستعرضت فيها الاقاليم الاسلامية في القرون المختلفة لبيان الاسرات التي كانت تحكمها ، ثم ختمت الكلام على كل قرن باشارة وجيزة الى حالة الفنون فيه . وغاية ما أتمنى ان يكون في هذا البيان ما أرجوه من نفع للطلاب والقراء وان يبعثهم على النظر فيما بلغهُ الاسلام من مجدٍ وما له من شأن خطير في العالم : —

القرن السابع الميلادي

ا — بعث النبي عليه السلام
وكانت الهجرة في سنة ٦٢٢
وبدأ حكم الخلفاء الراشدين في سنة ٦٣٢

ب — ثمَّ فتح الشام في سنة ٦٣٨ وظلَّ يحكمها ولاة من قبل الخلفاء حتى صارت مقر الحكم في عهد بني أمية ابتداء من سنة ٦٦١

ج — وتمّ فتح ايران في سنة ٦٤٢ وبدأ يحكمها ولاة من قبل الخلفاء

د — وتمّ فتح مصر في سنة ٦٤١ وبدأ يحكمها ولاة من قبل الخلفاء

ه — وفي النصف الثاني من القرن السابع بلغ جنود المسلمين حدود الهند بعد ان اجتاحوا افغانستان في سنة ٦٦١، وكذلك غزوا بلاد التركستان (ما وراء النهر) واستولوا على بخارى وسمرقند في سنة (٦٧٤ و ٦٧٦) ولكنهم لم يستعمروها استعماراً منظماً الاّ في أوائل القرن الثامن

و — وتقدّم العرب في شمال افريقيا بعد اخضاعهم مصر ولكن مقاومة البربر كانت شديدة فلم يتم اخضاع افريقيا وتؤسس القيروان الاّ في سنة ٦٧٠ ثم سقطت بعدها قرطاجنة وبلغ العرب شواطىء المحيط الاطلسي

ز — أما في شمال الدولة الاسلامية فقد غزا المسلمون ارمينيا واستولوا عليها في آخر القرن السابع او بداية القرن الثامن . كما انهم استولوا على قبرص في سنة ٩٤٩ وحاصروا القسطنطينية عدّة مرات منذ سنة ٦٧٠

ح — وأهم الآثار التي تنسب الى نهاية هذا القرن قبة الصخرة في بيت المقدس وقصر المشتى في بادية الشام

القرن الثامن

ا — سقطت الدولة الاموية في سنة ٧٥٠ وقامت على أنقاضها الدولة العباسية

ب — كانت الشام مقر الخلافة حتى قيام بني العباس الذين شيدوا بغداد في سنة ٧٦٢ بسبب اخلاص الشام لبني أمية وبعد دمشق عن وسط الدولة الاسلامية وقربها من حدود بزنطة . وازدهرت بغداد في نهاية هذا القرن على يد هارون الرشيد

ج — مصر كان يحكمها ولاة من قبل الخلفاء الامويين فالعباسيين

د — فتح العرب الاندلس سنة ٧١١ وظلّ يحكمها ولاة من قبل بني أمية حتى سنة ٧٥٦ حين أسس عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الدولة الاموية في الاندلس مستقلاً عن الخلافة العباسية . وحدث ان توغل المسلمون في جنوب فرنسا وأخضعوا قسماً منها حتى صدّهم شارل مارتل



في واقعة بلاط الشهداء بين مدينتي تور وبواتييه سنة ٧٣٢

هـ — تبدأ الدولة الادريسية في مراكش سنة ٧٨٨ على أثر ثورة قام بها العلويون في المدينة وأخضعها العباسيون ففرّ ادريس بن عبد الله (من نسل علي بن أبي طالب) الى مصر فراكش حيث أسس الدولة الادريسية

وأما بقية شمالي افريقية فلم يبق خاضعاً منه للخلافة الا الاقليم الذي يعرف الآن باسم تونس . اذ ان أسرتين من الخوارج ظهرتا ايضاً في شمالي افريقية هما بنو رستم وبنو مدرار

و — ومن أهم الآثار الفنية في هذا القرن الجامع الاموي بدمشق وقصير عمرا في بادية الشام ويمتاز هذا القصر الاخير بما على جدرانه من صور جميلة يظهر فيها تأثير الاساليب الفنية البيزنطية والساسانية

القرن التاسع

ا — في بلاد العرب تحكم الدولة العباسية غير ان دخول العناصر الاجنبية من فرس وترك ثم اتساع أطراف القيصرية الاسلامية جعل الخلفاء العباسيين يفقدون سلطانهم الفعلي ولا سيما على الولايات النائية

ب — بلاد الاندلس تحكمها الدولة الاموية من عاصمتها قرطبة

ج — مراكش تحكمها الدولة الادريسية وكذلك يحكم بنو رستم جنوبي غربي تونس . وفي سنة ٨٠٠ يتخلى هارون الرشيد عن حكم افريقية (تونس) ويمنحها أسرة الاغالبة ، تحكمها تحت سيادته الاسمية

د — يفتح المسلمون جزيرة صقلية

هـ — مصر يحكمها ولاة من قبل الدولة العباسية حتى سنة ٨٦٨ حين يستقل بها أحمد بن طولون ويغزو الشام

و — بدأ ظهور الاسرات المستقلة في بلاد العرب نفسها فقام بنو زياد في تهامة وجزء من بلاد اليمن سنة (٨١٩) وقامت ايضاً عدة أسرات صغيرة أخرى

ز — في أيران قام بنو طاهر (٨٢٠ — ٨٧٢) وبنو الصفار (٨٦٧ — ٩٠٣) ثم بنو سامان (٨٧٤ — ٩٩٩)



هـ — وأهم ما امتاز به القرن التاسع من الوجهة الفنية تأسيس المعتصم مدينة سامرا التي ظلت عاصمة الدولة الاسلامية من سنة ٨٣٨ الى سنة ٨٨٣ كما ازدهرت فيه صناعة الخزف ذي البريق المعدني وصناعة تزيين الجدران بالزخارف الجصية ومن أهم آثاره جامع ابن طولون بالقاهرة وأطلال مدينة سامرّا في العراق بما فيها من زخارف جصية وصور

القرن العاشر

ا — بلاد الاندلس تحكمها الدولة الاموية في قرطبة ويتخذ عبد الرحمن الثالث لنفسه لقب خليفة سنة ٩٢٩

ب — في مراكش تحكم الدولة الادريسية حتى سنة ٩٨٥

ج — في شمالي افريقية يسقط بنو الاغالب سنة (٩٠٩) وبنو رستم سنة (٩٠٨) وذلك بسبب قيام الدولة الفاطمية

د — في مصر تسقط الدولة الطولونية سنة ٩٠٥ ويحكم مصر ولاة من قبل الخلافة حتى تقوم الدولة الاخشيدية سنة ٩٣٥ وتسقط سنة ٩٦٩ حين يفتح الفاطميون مصر

اما الفاطميون فقد قاموا في شمالي افريقيا وهزموا الاغالبة سنة ٩٠٩ وبسطوا سلطانهم على مصر وشمالي افريقية الا مراكش — ثم استولوا على الشام . على ان نقلهم مقر الحكم الى القاهرة أفقدهم اجزاء امبراطوريتهم في شمالي افريقية بسبب ضعف مراقبتهم لها فقامت على أنقاضها دول صغيرة مستقلة او شبه مستقلة قضى عليها المرابطون في منتصف القرن الحادي عشر كما قضوا على الاسرات الصغيرة التي قامت على أنقاض الدولة الادريسية بعد سقوطها سنة ٩٨٥

هـ — في ايران تسقط الدولة الصفارية في سنة ٩٠٣ وتظل الدولة السامانية تحكم حتى آخر القرن (٩٩٩) وتظهر دولة الايلخان وكذلك دولة بني بويه في العراق وجنوبي بلاد الفرس ويزول كل نفوذ فعلي للخلفاء العباسيين حين يستولي بنو بويه على الاملاك الباقية لهم ويفلحون في

احتلال بغداد سنة ٩٤٥ وبظل خلفاء العباسيين بعد ذلك لا مظهر لهم الا بلاطهم الخاص حتى يقضي عليهم المغول سنة ١٢٥٨

و — ونشأت في افغانستان الدولة الغزنوية المستقلة سنة ٩٦٢ . وكانت الدولة الصفارية اول الدول الاسلامية التي استعمرت افغانستان استعماراً منظماً وخلفها في كابل حكام من قبل الدولة السامانية ثم افلح البتكين احد قواد السامانيين في انشاء الدولة الغزنوية

ز — قامت في الموصل وحلب الدولة الحمدانية (٩٢٩ — ١٠٠٣)

ح — اما من الناحية الفنية فان أجل ما امتاز به القرن العاشر تشييد الفاطميين مدينة القاهرة في مصر وازدهار الفنون الزخرفية ازدهاراً يتجلى في اكثر منتجاتهم الفنية من خزف ومنسوجات وتحف معدنية وخشبية وزجاجية مما يشهد بعظم الثروة التي جمعها المصريون في ذلك العصر والتي وصفها الرحالة الايراني ناصر خسرو وصفاً مسهباً

القرن الحادي عشر

ا — في الاندلس تسقط الدولة الاموية سنة ١٠٣١ وتقوم الدويلات الصغيرة المعروفة باسم ملوك الطوائف وأهمهم بنو عباد في اشبيلية (١٠٢٣ — ١٠٩١) الذين يستغيثون بالمرابطين لمعاونتهم في حروبهم مع المسيحيين ويلبي المرابطون النداء مرتين ولكنهم في المرة الثانية (سنة ١٠٩٠) يضمون الاندلس الاسلامية الى املاكهم

ب — في شمالي افريقية كان التنافس بين الدويلات الصغيرة وكان نجاح بيزا والبندقية في استرجاع قورسقة وسردينية من العرب سبباً في ضعف النفوذ الاسلامي حتى قامت دولة المرابطين بين البربر سنة ١٠٥٦ واعترفت بسلطان اسمي ديني للخلافة العباسية

ج — في مصر والشام كان الحكم للفاطميين . وقد افلح الصليبيون في الاستيلاء على بيت المقدس سنة ١٠٩٩

د — في بلاد ايران وتركستان تحكم دولة الايلخان كما يحكم بنو بويه (وهم من الشيعة) في العراق وجنوبي ايران حتى سنة ١٠٥٥

ه — وظهر السلاجقة في سنة ١٠٣٧ وقد استطاعوا توحيد العالم الاسلامي من حدود افغانستان الغربية الى البحر الابيض المتوسط واليهم يرجع الفضل في فشل الصليبيين

و — اما في افغانستان فكانت تحكم الدولة الغزنوية التي مدّ سلطانها على اقليم البنجاب في الهند

ز — وقد تقدمت في القرن الحادي عشر صناعات الخزف والنسيج والنحاس المنزل بالفضة ويرجع الفضل في ذلك الى السلاجقة والفاطميين

القرن الثاني عشر

ا — في الاندلس ينتهي حكم المرابطين ويبدأ حكم الموحدين سنة ١١٤٥

ب — في شمالي افريقية تظهر دولة الموحدين وتقضي على سلطان المرابطين سنة ١١٤٦

ج — في مصر تسقط الدولة الفاطمية سنة ١١٧١ ويبدأ حكم الدولة الايوبية التي انشأها صلاح الدين حين كان في خدمة نور الدين محمود بن زنكي الذي كان قد أعلن نفسه سلطاناً على جزء كبير من سورية

د — اما في الشام فقد كان الخلاف بين المسلمين والصليبيين على أشده وأتيح لصلاح الدين في الجزء الاخير من هذا القرن ان يبسط سلطانه على قسم كبير من الشام وان يسترد بيت المقدس سنة ١١٨٧

ه — وكان النفوذ في غربي اسيا للسلاجقة ثم انقسمت دولتهم الى فروع عديدة فقامت على أنقاضها دويلات كوّنها ضباط السلاجقة المسمون الاتابكة ولكن دولة السلاجقة ظلت في الجزء الغربي حتى اول القرن الرابع عشر

و — ظهر الاتابكة فكان منهم اسرة زنكي في الجزيرة وسورية وكان منهم اتابكة الموصل



ز — اما في افغانستان فقد سقطت الدولة الغزنوية سنة ١١٨٦

ح — ويرجع الى هذا القرن بدء ازدهار صناعة التصوير في المخطوطات بالعراق وايران كما أينع الفن المغربي الاسباني على يد الموحدين في الاندلس ونبغ الايرانيون في انتاج ضروب شتى من الخزف الفني الجميل

القرن الثالث عشر

ا — في الاندلس يضمحل نفوذ الموحدين حتى تسقط دولتهم ويطردون من شبه الجزيرة سنة ١٢٣٥ — وتسقط الدويلات الاسلامية الصغيرة واحدة بعد الاخرى اللهمّ الاّ دولة بني نصر في غرناطة الذين تقوم أسرتهم في سنة ١٢٣٢ وتبقى حتى نهاية القرن الخامس عشر

ب — في شمال افريقية تسقط دولة الموحدين وتقوم على أنقاضها دولة بني حفص في تونس (١٢٢٨ — ١٥٣٤) ودولة بني زيان في الجزائر (١٢٣٥ — ١٣٩٣) ودولة بني مرين في مراكش (١١٩٥ — ١٤٧٠)

ج — في مصر وسورية سقطت الدولة الايوبية وقامت دولة المماليك البحرية سنة ١٢٥٠ بعد ان هزم الصليبيون في نفس السنة على أيدي السلطان الايوبي طوران شاه في واقعة المنصورة حيث أسر لويس التاسع ملك الصليبيين وسجن في دار ابن لقمان التي لا تزال قائمة في المنصورة الى الآن، ثم فدى نفسه وجنده بعشرة آلاف الف فرنك . وقد نجح بيبرس البندقداري في صد التتار عن مصر بعد ان هزمهم في واقعة عين الجالوت بفلسطين سنة ١٢٥٩

د — أما اليمن فقد كان الايوبيون قد غزوها سنة ١١٧٣ وسارت لهم السيطرة عليها حتى سنة ١٢٢٩ حين خلفهم في حكمها أسرة الرسوليين (١٢٢٩ — ١٤٥٤)

هـ — في آسيا الصغرى يحكم السلاجقة الروم

و — وفي سورية والجزيرة تحكم أسرة الاتابك عماد الدين زنكي حتى سنة



١٢٥٠؛ وفي ديار بكر تحكم الاسرة الارتقية (١١٠١ — ١٣١٢)

ز — ويبدأ سلطان المغول في ايران من سنة ١٢٥٦ . وتسقط بغداد على يد هولاكو سنة ١٢٥٨

ح — وفي الهند يبدأ نفوذ سلاطين دلهي سنة ١٢٠٦

ط — ومن المميزات الفنية في هذا القرن نشأة الطراز المغربي الاندلسي الذي ينسب في بعض الاحيان الى قصر الحمراء والذي يمتاز بوفرة زخارفه كما يتجلى في هذا القصر . وأتقن المصريون صناعة الحفر الدقيق في الخشب وصناعة التحف المعدنية المنزلة بالفضة والذهب على النحو الذي ازدهر على يد السلاجقة في بلاد الجزيرة ولا سيما الموصل. وظهرت في نهاية هذا القرن صناعة الزجاج المموّه بالمينا في سورية ومصر ومن أبدع منتجاتها مشكاوات المساجد التي تفخر دار الآثار العربية بحيازة عدد كبير منها

القرن الرابع عشر

ا — في الاندلس كان بنو نصر يحكمون بغرناطة

ب — كان شمالي افريقيا مقسماً بين دولة بني حفص ودولة بني زيان ودولة بني مرين

ج — كانت دولة المماليك البحرية تحكم مصر وسورية حتى سنة ١٣٩٠ وظهرت دولة المماليك البرجية او الشراكسة سنة ١٣٨٢

د — سقطت الدولة الارتقية في ديار بكر سنة ١٣١٢

هـ — قامت في آسيا الصغرى سنة ١٣٩٩ وفي بداية القرن الرابع عشر دولة آل عثمان وعبر هؤلاء الاتراك الدردنيل سنة ١٣٥٨ وبدأوا فتح الاقاليم البيزنطية في اوربا حتى خضع لهم في القرن الرابع عشر جزء كبير من شبه جزيرة البلقان

و — كان المغول يحكمون في ايران

ز — بدأ حكم التيموريين في بلاد ما وراء النهر وامتد الى ايران وخضع لهم جزء من الهند في نهاية القرن



ح — ازدهرت العمارة والفنون الفرعية على يد المماليك في مصر كما أينع فن تصوير المخطوطات برعاية التيموريين في هراة وشيراز وتقدمت في ايران صناعة بلاطات القاشاني والقسيفساء من الخزف

القرن الخامس عشر

ا — كان بنو نصر يحكمون في غرناطة حتى سقطت في يد المسيحيين وانتهى سلطان المسلمين في اسبانيا سنة ١٤٩٢ وهي نفس السنة التي كشفت فيها اميركا

ب — كان بنو حفص يحكمون في تونس وبنو مرين في مراكش والجزائر

ج — كانت دولة المماليك البرجية تحكم في مصر وسورية

د — اتسعت فتوحات الدولة العثمانية في آسيا الصغرى والبلقان وأفلح العثمانيون في الاستيلاء على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ فزال أثر الدولة البيزنطية وأصبح البلقان كله من املاك الترك

ه — حكم المغول في ايران ثم خلفتهم الدولة التيمورية

و — قامت في بعض اجزاء الهند أسرات اسلامية محلية

ز — ظل حكم التيموريين في بلاد ما وراء النهر بعد ان غزا تيمور الاقاليم المختلفة في الشرق الادنى وأخضع سورية واستولى على دمشق سنة ١٤٠١

ح — بلغ فن التصوير أوج عظمته في نهاية هذا القرن على يد بهزاد في ايران كما تقدمت صناعة الخزف في مصر وايران وأتقن المصريون صناعة الزجاج المموّه بالمينا وانتقل الى البندقية فنانون من المسلمين فنقل عنهم الفنانون البنادقة كثيراً من الاساليب الفنية في زخرفة التحف المعدنية والزجاجية وفي صناعة التجليد

القرن السادس عشر

ا — انتهى حكم المماليك في مصر وسورية سنة ١٥١٧ وأصبحت البلاد ولاية عثمانية

ب — أخضع العثمانيون الجزائر وتونس وطرابلس بعد ان كان السلطان في أغلب انحائها القراصنة

ج — كان شمالي الجزيرة وما يجاوره من الولايات الواقعة في ايران وآسيا الصغرى خاضعاً لاسرات صغيرة من خلفاء السلاجقة

د — اتسعت فتوحات الدولة العثمانية فهزم السلطان سليم الفرس وضمّ كردستان وديار بكر لدولته وكذلك استولى على سورية ومصر وبلاد العرب من المماليك ووصل سليمان القانوني الى فينا

هـ — قامت الاسرة الصفوية في ايران سنة ١٥٠٢

و — سقطت الاسرة التيمورية في بلاد ما وراء النهر سنة ١٥٠٠

ز — بدأت امبراطورية المغول في الهند سنة ١٥٢٦

ح — ازدهرت الفنون عامة والتصوير خاصة على يد الصفويين في إيران (الشاه عباس الاكبر ١٥٨١ — ١٦٢١) وقد عمل في بلاطهم بهزاد في بداية القرن (حين نبغ في إيطاليا ليوناردو دافنشي وميشيل انجلو ورفائيل) وبلغت صناعة السجاد أوج عظمتها كما أينع الطراز العثماني في الفن الاسلامي وذاع صيت العثمانيين بما كانوا ينتجونهُ من منسوجات حريرية وسجاد ومن خزف في أسنيك وكوتاهية وغيرها وبما شيده المهندس سنان من مساجد غاية في العظمة والجمال — كما ازدهر الطراز الهندي في الفن الاسلامي على يد قياصرة المغول في الهند وذاع صيت العمائر الهندية وما كان ينتجهُ الفنانون الهنود من سجاد وصور واسلحة

القرن السابع عشر

أ — كانت مصر وسورية وشمالي افريقية وآسيا الصغرى تابعة للدولة العثمانية

ب — كانت الدولة الصفوية تحكم في ايران وجزء من العراق

ج — امراء خيوه وبخارى يحكمون في تركستان العربية

د — كان قياصرة المغول يحكمون في الهند وبلغ سلطانهم أوج عظمته على يد أورنجزيب (١٦٥٩ — ١٧٠٧)

هـ — بدأت الفنون الاسلامية في الضعف والتدهور متأثرة بالاساليب الغربية التي تسرَّبت اليها في القسطنطينية وفي ايران والهند ومن أجمل العمائر الاسلامية في هذا القرن تاج محل بمدينة اجرا في الهند

دار الآثار العربية زكي محمد حسن

الميكانيكا

الكلاسيكية

للدكتور اسماعيل احمد أدهم

١ — توطئة

ان تدقيق العلم يوصلنا الى أن صبغة التعليل النهائي لظاهرات الكون كانت ميكانيكية منذ نشأة العلم الى اواخر القرن التاسع عشر ، يزيدنا يقيناً في هذا ، أننا لو أخذنا على عاتقنا أن ندرس كل ما أخرجته المعرفة البشرية — في هذه الفترة — من نظريات وفرضيات مصبوبة في قالب العلم — لا ٔلفيناها في جوهرها القصي ذات صبغة ميكانيكية دفعت لتصور حادثات الكون في عالمي الزمان والمكان ذات نهج آلي خاضعة لنواميس وسنن مادية. ونحن لو أردنا أن نلمس بدء هذه النظرة في التاريخ، فسنضطر الى الرجوع بالزمان الى الوراء أربعة قرون فنلفي أنفسنا في أواسط القرن السادس عشر حين تمخض العقل الانساني عن أعظم انقلاب شمله في أساليب التفكير

لقد كان الانسان منذ عهد سقراط الحكيم (٤٦٩ — ٣٩٩ ق م) يرى غاية التفكير في ادراك الماهية ، وذلك بمعنى تكوين معان تامة الحد . وكان معين التفكير طوال هذه العهود منحصراً في الاستقراء حيث يتدرج العقل من الجزئيات الى الماهية المشتركة بينها ، راداً كل جدل إلى الحدّ والماهية . وهذا المتجه في التفكير دفع الانسان من مقولة الكم حيث وقف بالفكر الانساني عندها بالفيثاغوريين الى مقولة الكيف وكان نتيجة هذا المتجه في التفكير أن ظهرت فلسفة المعاني التي ابتدعها أفلاطون الالهي (٤٢٧ — ٣٤٧ ق م) وأرسطوطاليس المعلم الاول (٣٨٤ — ٣٢٢ ق م) والتي ملكت ناصية العقل البشري طوال القرون الوسطى وكانت سبباً لانصرافه الى الغيبيات . وفي اوائل القرن السادس عشر أخذت جماعات قليلة من المفكرين الغربيين تشك في قدرة الأسلوب التجريدي وإمكان الوصول به الى نتائج تطبيقية وأخذوا يعملون على ادماج النتائج التي تسفر عنها التجارب والمشاهدات في نظام مادي تربطه مبادىء وقوانين عامة ، ذلك بعد أن شعروا بمقدار ما في أساليب القدماء من البعد عن الواقع المحسوس وكان مبعث تفكيرهم الايمان بتجانس عالم الطبيعة ووحدته

وقد ساق هذا الاعتقاد هؤلاء المفكرين الى تعميم النتيجة المستخلصة من ظاهرة على ما عائلها

من ظاهرات وهذا الأسلوب تمخض عن اكتشاف قوانين عامة للطبيعة . ولقد نجحت هذه النظرة يوم أخرج جوهان كپلر (١٥٧١ — ١٦٣٠ م) للناس حركة السيارات ، ويوم كشف السر اسحق نيوتن (١٦٤٢ — ١٧٢٧م) قانون الجاذبية العامة . ولقد بلغ هذا النجاح غايته على يد بيير سيمون مركيز دي لابلاس (١٧٤٩—١٨٢٧م) عندما أخرج للناس كتابه « نظام العالم » وفيه أقام بناء الكون على أساس مادي . ولقد قومت اكتشاف غاليليو غاليليه (١٥٦٤ — ١٦٤٢م) لسنة القصور الذاتي واكتشاف السر اسحاق نيوتن لقوانين الميكانيكا الثلاثة التي بثها كتابه الخالد « المبادىء » هذه النظرة الميكانيكية للكون . وكان ذلك كله مقدمات لعمل فاصل بين دورتين في تاريخ الفكر الانساني ، وأصبح العالم كله لا يخرج في كنهه عن كونه مجرد حادثات تنظم من حدوثها تفاعلات المادة والقوة

ولما كانت فكرة القوانين الطبيعية لم تخرج في أبسط صورها عن أنها تقديم للقيمة التقديرية الرياضية المستخلصة من ظاهرة من الظاهرات على غيرها ، ولما كانت أبسط اختباراتنا التي ترجع اليها الموجودات ترجع للحادثات ، كانت القيمة التقديرية الرياضية للقانون الطبيعي للحادثة عبارة عن تعيين سلوك الحادثة ونهج تصرفها ، وهذا يتطلب تعيين مكانها وزمانها ازاء المقادير الاخرى . ومن جانب آخر نحن نعرف ان النظر الكلاسيكي للزمان والمكان يقرر مطلقية كل منهما لكونهما راجعين لموضوع الحادثة بدون ان تعمل حساباً لعلاقة الحادثة بالشاهد من حيث تتراءى له ولا لآلاته ومقاييسه الذي يعين بها زمان الحادثة ومكانها ، فكل تبدل يطرأ على الراصد او المشاهد ولا آلاته ومقاييسه الذي يعين بها زمان الحادثة ومكانها لا تغير من نتيجة الرصد لانها راجعة للحادثة لاعلاقة لها بالمشاهد ولا آلاته ومقاييسه من حيث يرتبط به موضوع الحادثة

هذه هي قرارة النظر الكلاسيكي للحادثات فهي تلقي دائماً في روعنا ان عالم الطبيعة الزاخر بالحادثات والذي ينظم من حدوثها فواصل الزمان والمكان ، اشياء ثابتة لا تتغير ولا تتحول ، فلو شبهنا ساحل نهر بالمكان وجريانه بالزمان والزورق الحامل للركاب والذي يدفعهُ تيار النهر بالحادثات ، لكان في وسعنا القول بأن الزمان اشبه بالتيار الدافق الذي يدفع الحادثات والمكان كالساحل ازاءه . ومن البدهي انه اذا لم يكن الزورق فالنهر جارٍ ، كذلك اذا لم تكن الحادثات فالزمان ماض في حركاته التعاقبية، والاجسام الباقية على الشاطىء ساكنة في أماكنها. ومعرفة حركة الزورق في النهر يستلزم مبدئياً تحديد بعدها عن الساحل مع تحديد قوة جريان النهر وهذا معناه أنهُ لتعيين حادثة في الكون لا بد لذلك من معرفة فاصلتها المكانية وكذا الزمانية .

هذه الصورة تحيزت في عقل السر اسحاق نيوتون وجميع علماء الفيزيقا النظرية حتى اواخر القرن التاسع عشر ، وهذه الفكرة تحوي مبدأيْ مطلقية الزمان والمكان ، وتجعل انتشار الحوادث في العالم مطلقاً وانتشار حادثتين مطلقتين في الكون يذهب بنا عن طريق مفهوم الاقتران الى التطابق في الزمان

أعني التواقت فلو فرضنا ان حادثة ما طابقت في زمان حدوثها ، زمان حدوث حادثة، أخرى فذلك يحدث مطلقاً في العالم، ومدى المدة والمسافة الفاصلة بين حادثتين مطلق لانهُ يرجع لموضوع الحادثتين

وتتقوم فكرة مطلقية الحوادث في عالمي الزمان والمكان بمفهوم انتشار الاجسام الصلبة في رحاب الخلاء ، فالاشكال والخطوط الهندسية ليست الا وحدات ثابتة ، وشكل جسم ما : هو مجموعة الاوضاع الفراغية التي تستقر فيها النقط التي تشكل ذلك الجسم ، وعليه يمكننا ان نقول ان أساس العلم الكلاسيكي قائم على الرجوع مباشرة للحادثات بدون النظر لحركة الاكوان التي تشملها ، وبذا تكون الهندسة الكلاسيكية مستمدة مفهوماتها الاولية من تساوي الفواصل المكانية

وعلى هذا الاساس يبدو لنا ان أشكال الهندسة مطلقة، وان هذا الاطلاق يكون معنا موضوع الهندسة الكلاسيكية القائمة على مبدأ مطلقية المكان ، وبذا تتحقق النظرة الاقليدية التي تولد معنا قوانين العلاقات بين مبدإ السببية ومبدإ الزمان المطلق

٢ — المبادىء الكلاسيكية

في علمي الميكانيكا والسيناماتيكا

لا يخرج مفهوم الزمان الكلاسيكي عن كونه مجرد ملاحظة فلسفية . وهو لا يعدو اعتبارَ الزمان حالة شعورية مطلقة مبهمة غامضة، فلكي يتخلص مفهوم الزمان من ابهامها وغموضها يجب ان يأخذ صورة رياضية تقديرية ، ولما كان العلم الكلاسيكي ينساق تحت حقائق التجربة الى تصوير زمانين ، موضوعي وذاتي ، الاول في عالم الحادثات وهو نسبي، والثاني في عالم النفس وهو مطلق ، وهذا الانشطار الحادث في مفهوم الزمان كان احدى نقط الضعف في النظرة الكلاسيكية ، غير انهُ كان يتغلب على ذلك بواسطة علم الحركات — السيناماتيكا — القائم على مفهوم الزمان الموضوعي الذي هو صورة تقديرية للزمان الذاتي . ويقوم هذا العلم على أساس يستمده من ادماج مبدإ الزمان في الهندسة الكلاسيكية المستندة الى مفهوم انتشار الاجسام الصلبة ، اذ هو يدقق النظر في الاجسام بالنسبة للزمان والمكان . فهو في منزلة حلقة الوصل بين الهندسة والفيزيقا ، فالنقطة المادية المتحركة حلقة وصل النقطة الهندسية بالذرة

ولما كان مفهوم كل من الزمان والمكان مستقلاً ومطلقاً في نظر علم الحركات ، فان تغير الاجسام لمواضعها في المكان يستفاد منهُ بتقدير الزمان . غير ان هذا لا يدل على ان الزمان يتبع المكان في اي حالة من الحالات ، لانهُ ان كانت قيمة الزمان القياسية تتبع تغير الاجسام لمواضعها خلال المكان، فمفهوم الزمان مستقل لانهُ مطلق لا يتبع حركة القياس ، مثال ذلك حركة الرقاص فاننا نتخذها أساساً لقياس الزمان الا ان حركة الرقاص غير الزمان ! وهي ان كانت ترحي بفكرة الزمن التقديرية الا انها تعجز عن مدّنا بمفهوم الزمان المطلق واذن يمكننا

ان نقول ان فكرة الزمن التقديرية لا المطلقة هي موضوع علم الحركات ، الذي يستوجب قبل كل شيء تعيين حركة النقطة المادية ، وهذا يستلزم معرفة نسبة النقطة المادية أولاً في النظام الذي يحتويها وهذه الحالة شبيهة بحالة تعيين محاور الفصل والوصل أعني الكميات التي تحدد من وضع نقطة ما coördinates في الهندسة التحليلية ، والنتائج التي تسفر عنها التجارب في تعاقب حركات النقطة تكوّن معنا معادلات الحركة

تتقوّم حركة الاجسام ومعادلات الحركة بقوانين الميكانيكا الكلاسيكية التي نشأت بجهود غاليليو ونيوتن وانصبت في مبدأ عام هو مبدأ النسبية الكلاسيكية ، وهذه القوانين تردّ الى خمسة مبادىء :

الأول : مبدأ غاليليو أو قانون القصور الذاتي (الاستمرار) وهو يقرر ان في الاجسام استعداداً للمحافظة على حالتها الطبيعية ، فاذا كانت ساكنة فانها تظل ساكنة ما لم يؤثر فيها مؤثر يخرجها للحركة . وان كانت متحركة فانها تظل متحركة حركة منتظمة مستقيمة ما لم يطرأ عليها طارىء يغير من انتظام حركتها او اتجاهها . فاذا أثرت قوة في جسم اكتسب ذلك الجسم عجلة ، وقانون التعجيل يعرف بالمبدأ الثاني من مبادىء الميكانيكا

الثاني : مبدأ نيوتن الأول او قانون التعجيل : وهو يقرر أن مقدار التعجيل الذي يكتسبهُ الجسم تحت تأثير قوة تحوز نفس الاستقامة مع محصلة القوى المؤثرة في ذلك الجسم ، وهي تساوي نتيجة خارج قسمة المحصلة على كتلة الجسم ، فكأن العجلة التي يكتسبها الجسم تحت تأثير القوة تولد الكتلة . وكتلة جزيء من المادة تحسب بمقدار خطوط القوة التي فيها . وهذا المقدار ثابت لا يتغير . والقوة ليست الاَّ النسبة بين الكتلة وبين مقدار عجلتها أعني الشعاع المساوي للكتلة ومعادلتها : القوة تساوي الكتلة في العجلة . وهي تريك جميع النسب والعلاقات الممكنة بين الكتلة والعجلة والقوة في شكلها الشعاعي المستقل عن نسبتها للمحاور الوضعية . ولما كانت القوى التي تؤثر في نقطة مادية نتيجة لتأثير نقط مادية أخرى ، فهذا التأثير يتبع من جهة الوضع النسبي لهذه النقط . ومن جهة أخرى السرعة النسبية لهاته النقط المادية . ومن هنا لنا ان نخلص بقانون الحركة النسبية الذي يقرر ان النظم المادية سيان كانت ثابتة بالنسبة لمحاورها الوضعية أم كانت متحركة حركة منتظمة مستقيمة ، فان القوانين التي تتبعها واحدة . ذلك لان مقدار تعجيل هذه النظم يتبع القيمة المطلقة لحركة هذه النظم ومعنى هذا في لغة رياضية أن القيمة التفاضلية بين هذه السرع تتبع القيم التفاضلية بين المحاور الوضعية . ومعنى هذا أن هذا المبدأ يشمل ساحة مقدار التعجيل النسبي أو بتعبير أصح ساحة القيم التفاضلية بين مقادير التعجيل فانهُ من الممكن اشتمالهُ على ساحة مبدأ ردّ الفعل

الثالث : مبدأ نيوتن الثاني أو قانون مساواة ردّ الفعل للفعل وبيانه أننا لو أتينا بجسم

ووضعناه على حامل فهذا الوضع لا يمنع تأثير المؤثرات فيه ومنها الجاذبية ، إذ تجذبهُ الارض بقوة تساوي زنته على الحامل ، فاذا لم يكن الحامل متيناً انكسر بتأثير قوة الجذب . والجسم المحمول على الحامل يتولد فيه قوة من فوق الى تحت تساوي زنته وهذه القوة التي تتولد هي الفعل لقوة الجذب . فلو كان الجسم على يد انسان فلكي يمنعهُ من السقوط يجب أن يدفعهُ من تحت الى فوق ليتغلب على قوة جذب الارض له وأعني القوة الدافعة من فوق الى تحت، وللتغلب على هذه القوة يجب أن يدفعهُ على الاقل بقوة موازية لقوة الجذب . وهذا الدفع يتولد دائماً متى وضع الجسم على أي حامل فلو فرض انهُ علق بخيط مشدود لحامل ، فالخيط يتوتر ويكون شدة توتره مساوياً لزنته ، وفي هذه الحالة ينتج أن يدفع الخيط الجسم بقوة تساوي توتره أعني وزن الجسم . وهكذا يكون ردّ الفعل مساوياً لوزن الجسم أعني الفعل . هذه القاعدة عامة ففي حالة اذا لم تحدث القوى المؤثرة حركة في جسم تولد عن ذلك قوة مساوية له وتكون هذه القوة في اتجاه مضاد وهذا ما يعرف بردّ الفعل

واشتمال مبدأ الحركة النسبية على ساحة ردّ الفعل تعود لصحة شموله لساحة القيم التفاضلية بين مقادير التعجيل . ولما كانت مقادير التعجيل تتبع مقدار القوى المؤثرة فان هذا يسوقنا الى مبدأ الجاذبية العامة وفرضية القوى المركزية معاً وهي التي تقرر ان قوة الجاذبية بين جسمين تتناسب مع كتلتيها حيث ان الاجسام تتجذب بعضها لبعض بقوة تساوي حاصل ضرب كتلتيهما مقسوماً على مربع المسافة بينهما ، وهو الشيء الذي يعرف بقانون الجاذبية او مبدأ نيوتن الثالث

ومن المهم ان نلاحظ ان المقدار الذي يحسب مسافة في قانون الجاذبية ليس تناسبهُ مع الكتلة التي هي النسبة بين القوة ومقدار التعجيل انما مع الكتلة الجاذبة وبتعبير أدق ليس مع مقدار قصور ذاتية الجسم انما مع مقدار قابلية الجذب لانهُ يصح ان تكون الجاذبية متناسبة مع عكس مربع المسافة ولا تكون متناسبة مع بسط حاصل ضرب الكتلة . وهذه النظرة تسوقنا الى فرضية القوى المركزية التي تعتبر قوى الدفع والجذب بين الجزيئات المادية راجعة لاعتبار القوى تتوجه مع استقامة الخط المستقيم الواصل بين الجزيئات المادية وتتحول منحصرة في المسافة التي بينها . وهذه الفرضية ان لم يكن قانونها عين قانون الجاذبية النيوتونية فهي على كل حال مشابهة لها

وتركيب السرع في هذه الساحة الخاضعة لقانون عام فرضية القوى المركزية تعود لمبدأ تركيب السرع الذي يرى من وجهة نظره ان محصلة السرع المركبة ترجع لطريقة التحصيل من قاعدة متوازي أضلاع القوى التي تجعل المحصلة مساوية لمجموع المركبتين لها اذا كانت الحركتين على استقامة واتجاه واحد ، فاذا اختلف الاتجاه دون الاستقامة كانت المحصلة مساوية الفرق بين المركبتين . وهذا المبدأ يعتبر المبدأ الخامس من قوانين الميكانيكا الكلاسيكية

وهذه القوانين الخمسة تنصب في مبدأ عام هو : مبدأ النسبية الكلاسيكية [لها تتمة]

الكيمياء الصناعية

الكيميائيون العصريون
وكيف ينتجون النضار من الفضلات

لعوض جندي

كان مطمح كيميائي العصور الوسطى ، تحويل المعادن الرخيصة الى ذهب ، متذرعين الى بغيتهم تلك بما كانوا يسمونهُ « حجر الفلاسفة » وهو السرّ الدفين الذي لم يكونوا يبوحون به لاحدٍ ، اذ كان اولئك المجربون الاولون يركبون مواد ذات روائح كريهة ثم يطبخونها على درجات مختلفة من الحرارة عسى أن يظفروا بتحقيق تلك الاحلام العذبة ، التي كانوا يظنونها تدرُّ عليهم النضار . فكانت مساعيهم تذهب ادراج الرياح

اما الآن فاننا نشاهد العلماء مرتدين مبدعاتهم [1] الكتانية البيضاء في معامل التحاليل الكيميائية حيث يستعملون الدماء الجسيدة [2] وريش الطيور وبذور نبات عباد الشمس والجبنة الخالية من الملح والهلام وقصاصات الشعر التي ينبذها الحلاقون من حوانيتهم ، وذلك لانتاج بلّورات تساوي ضعفي وزنها ذهباً . وتعرف تلك البلّورات الدقيقة التي تضارع الجواهر باحماض الأمينو Amino acids [3] وهي غالية جداً بحيث يبلغ ثمن الرطل الواحد من بعض اصنافها الف ريال

واذا تأملت تلك الاحماض بعينك المجرَّدة تجلت لك شبيهة بأملاح الحمام المذيعة اللون أو مثل مسحوق الطلق الابيض . واذا فحصتها بالمجهر ، استطعت رؤية بلّوراتها الرائعة

ومن المحال القليلة في الولايات المتحدة الاميركية التي يتاح لك ان تبتاع منها احماض الامينو قسم الكيمياء بجامعة كاليفورنيا في لوس انجيليس حيث يقوم الدكتور مكس دن Dr. Max Dunn احد سحَرة الكيمياء في القرن العشرين ، بالاشراف على صنع هاتيك الاحماض لتباع للجامعات والمستشفيات والمختبرات في آفاق المسكونة كافة . واحماض الامينو من المواد الكيميائية النادرة التي قلما توجد خالصة . ولم يكتشف العلماء منها الأ ٢٢ صنفاً فسموها باسماء مختلفة وهي

---

(١) المبدع والمبدعة والمبداعة — ما يصان به الثوب وغيره (٢) الجسد الدم اليابس كالجاسد والجسيد
(٣) وقد اشرنا الى هذه الاحماض وذلك في مقالنا على (البسلة الصينية ومنافعها الغذائية) في مقتطف يونيه سنة ١٩٣٨

تؤلف البروتين الذي هو من اعظم عناصر الكائنات الحية . وتكون على شكل خيوط طويلة كأنها سموط الجواهر . وقد تسمع الطبيب النطاسي ينصح للسيدات الشابات السمينات باجتناب المواد الدهنية والكربوهيدراتية في غذائهن ، ويبيح لهن الافراط في الاغذية البروتينية ، فيصف لهن الخبز والسمك والبيض والخضراوات الغضة والفواكه

ولما كان البروتين يؤلف جانباً جوهرياً من غذائنا ، صار من الطبيعي أن يتحول ويشغل حيزاً خطيراً من اجسامنا . فاذا نظرت الى يديك كلتيهما . فكل ما تستطيع رؤيته فيهما — هو البروتين ، ممثلاً في جلدهما واظفارهما وشعرهما لان جل تركيبنا العضلي البشري ، من البروتين

وبلغ من تعقد التركيب الكيمياني للبروتين ، ان عجز العلماء جميعاً عن تركيب صنف منه ، بيد انهم قد تمكنوا من تحليله فتبين لهم انهُ مؤلف من احماض الامينو المختلفة

وكان أول مجهود بذله الدكتور ضَن نفسهُ لشراء احماض الامينو من مخازن العقاقير الطبية التجارية عقيماً ، إذ لم يكن يباع فيها من اصنافه الاثنين والعشرين الاَّ بعضها وذلك للمباحث العلمية ، وكانت أسعاره باهظة ، وقد بلغت ثمن البلاتين تقريباً . ولذلك توفَّر الدكتور ضن على صناعة أحماض الامينو ليتسنى له ادراك المعلومات الثمينة جداً الخاصة بمزاياها الطبيعية وتركيبها وقابليتها للذوبان فشرع في تأسيس المصانع المعروفة الآن باسم مصانع احماض الامينو

فكان مشروعه هذا من المشروعات الدالة على الجرأة ، غير الرابحة ، من مشروعات جامعة كاليفورنيا التي افتتحت أعمالها التجارية من سنة ١٩٣٥ اذ جعلت تصنع هاتيك الاحماض واحداً فواحداً ودوَّنت أسماءها في قوائم بعثت بها الى الجامعات والمستوصفات والمعامل الكيميائية في العالم قاطبة ، فجاءتها الطلبات تترى

وأصبح الآن ستة عشر نوعاً من احماض الامينو الاثنين والعشرين ، معروضة للبيع مع ان مشروع البيع قائم على اساس اجتناب الربح . وبلغ من صعوبة انتاج بعض تلك الانواع ان الرطل منها يباع بأكثر من الف ريال ، بينما يتفاوت ثمن الرطل من بعضها الآخر ، بين خمسة ريالات و ٨٠٠ ريال . وبعض أنواع احماض الامينو يصنع مباشرة من العناصر الكيميائية وذلك بطرق التركيب الصناعي . وغيرها تؤخذ من بروتينات الحيوانات والنباتات

أما الطريقة التي تصنع بها تلك البروتينات فجديرة بالذكر . وذلك بحسب صنف حمض الأمينو المطلوب ، اذ يؤخذ الدم الجديد والجبن الخالي من الملح وبذور عبَّاد الشمس والحنطة والهلام وقصاصات الشعر ، فتوضع في وعاء كبير حيث تمزج بالحامض الكبريتيك الثقيل او بالحامض الهيدروكلوريك الثقيل أيضاً ثم تغلى أربعاً وعشرين ساعة او اكثر وتضاف اليها مواد كيميائية أخرى ثم تستخرج بالتبخر والتقطير وذلك مع مراعاة تصارى التوءدة والضبط إذ تستخرج

منها مواد غزيرة حتى تصير البقايا مثل مسحوق نفيس او بلورات دقيقة ، وهذه هي أحماض الأمينو فتحلل تحليلاً كيميائياً متقناً ثم توضع في القوارير وتلصق عليها بطاقاتها

وقال الدكتور ضن انهُ قد استجدت لاستخلاص احماض الأمينو طرق أخرى ، ولأول مرة في تاريخ الكيمياء استحالت تلك الاحماض ، بلورات شفافة رائعة كأنها الجواهر الفريدة والتبلور في عرف العلماء دليل على منتهى النقاوة . وهذا أمر جدُّ خطير عند العالم الباحث .

واحماض الأمينو نافعة جداً للناس بوسائل شتى بحيث اذا حرم منها امرؤ حرماناً تاماً ، وهي في منزلة بروتينات ، هلك . اذ لا بدَّ للانسان من الاعتماد على النباتات أو على الحيوانات الآكلة النباتات التي تتغذى بتلك الاحماض . والنباتات هي الكائنات الحية الوحيدة في الكون التي تستطيع امتصاص الاملاح الكيميائية من التربة . وبواسطة الطاقة الشمسية تتمكن النباتات من ضم تلك الاملاح الى الحامض الكربونيك والماء لتوليد البروتينات

ومتى أكلتَ لحماً او اسفاناخاً ، قامت السوائل الهاضمة التي في معدتك ، من فورها ، بالعمل في البروتينات اذ تجزئها الى أحماض الامينو ، ويتولى مجرى الدم توزيعها على أعضاء جسمك جميعها حيث تستعمل موادَّ أولية لإعادة تكوين النُسج التي بليت من الشغل والرياضة

وتساعد أحماض الأمينو أيضاً على تنظيم وظائف الجسم ، فتؤثر في حجمه وسرعة نموه ومقدار الشحم الذي يدخره وكذلك في لون العينين والشعر . وقد تؤثر أيضاً في شخصية المرء

وقدَّر الخبيرون ان مليجراماً من أحماض الامينو المعروفة باسم تيروكسين ، المودعة في الغدَّة الدرقية يتوقف عليه احدى الحالات الثلاث وهي السعادة الطبيعية والحياة والمات والبلاهة

ومن أحماض الامينو ضرب يعرف باسم الحمض الجلوماتيك [1] glumatic acid يصنع ويباع كتوابل للطعام وهو ذو طعم مدهش يشبه طعم اللحوم الطبيعية

ومنهُ صنف آخر يعرف باسم سيستين [2] cystine ويتوافر في الشعر البشري . ويوقن بعض العلماء ان التجارب الدائرة في أحماض الامينو ستحل معضلة الصلع

ومن أحماض الامينو أيضاً ما يسمى جليسن [3] glycine وقد تبين نفعهُ في علاج الامراض العضلية وآخر يسمى هيستدين Histidine يستعمل في علاج القرح المعدية المستعصية

ويتوسل علماء جامعة كليفورنيا بأحماض الامينو الى حل معضلة السرطان

---

(١) عرضت هذا الاسم على صديقنا الاستاذ نقولا حداد الصيدلي الكيميائي والكاتب العلمي المشهور المعروف لقراء المقتطف مستوضحاً اياه عما يعلمه بشأنه فقرر ان هذه التسمية حديثة وقد تكون مركبة تركيبا يدل على خصائص ذلك الحامض ويظهر ان المكتشف الدكتور ضن قد نحت هذا الاسم من المادة البروتينية التي استخرج الحامض منها وقد اطلع الاستاذ حداد ايضا على النص الانكليزي الخاص بهذا المقال فأوضح لي بعض نقطه الغامضة (٢) السيستين — مادة توجد في البول — معجم شرف (٣) الجليسين — ويسمى ايضا سكر جلاتين — معجم شرف

الرسام

حسين بدوي

عرض وتحليل

لمحمد فهمي

أتيح لي ان اكون في « باريس » في شهر اغسطس من هذا العام (١٩٣٨) حين افتتح الفنان «حسين بدوي» معرض رسومه بالمكتب المصري للسياحة بالشانزليزيه تحت رعاية معالي فخري باشا وزير مصر المفوض والمسيو بيتري رئيس جماعة «فرنسا — مصر» فأمكنني أن اشاهد عن كثب تقدير رجال الفنون وكبار المتذوقين للفن من فرنسيين وأجانب لرسوم هذا الفنان وطابعه المتميز بقوة الشخصية وعمق الفكرة وما له من قدرة على توزيع اللون وتحليله الى درجات متعددة لكل درجة تعبيرها الخاص وكأنما يخاطب روحك بلغة من الالوان معبراً عن فكرة منتزعة من اعماق نفسه لا تلبث ان تحسها تتغلغل في اطواء نفسك وإذا بك امام لوحاته تحس وترى وتسمع ! وإذا بالذي امامك ليس بمعرض رسوم بل معرض حياة !

يرتكز فن بدوي على دعائم ثلاث : الفكرة . طريقة التعبير . اللون . كل منها تشعرك بوجودها في قوة ووضوح كأنما تحاول اجتذابك اليها خاصة ولكنها جميعاً تحقق «الكل» المتسق في انسجام تام

(الفكرة) — فالفكرة هي الاساس الذي يحكم به على مدى عمق الفنان واتساع رحاب روحه ومقدار ثروته من الاحساس الفني وقدرته على التفرد الى أسرار الموضوع الذي يعرض له حتى يخلق منه عالماً حافلاً بجميع خصائص العالم الحي من ظواهر وأسرار !

وان الفكرة لتنبت في اعماق نفس بدوي ثم تنمو وتنمو حتى تملأ رحاب نفسه كلها فتخرج للوجود وقد حفلت بكل ما في نفسه من خصائص : قوة شخصية وعمق وابداع !

وهنا يحق لنا ان نقف قليلاً ثم نطوي السنين القهقرى ربع قرن او يزيد لنخلص الى طفولة بدوي ونشأته حيث نتأمل خصائص المحيط الذي في جرينه تبعث « الفكرة » اول ما تبعث في شكلها السديمي وهي في طريقها الى الكمال الانشائي (الخلاق) ذلك هو عالم اللاشعور حيث استقرت في أعماقه الخصائص الوراثية وانطبعت في حناياه صور البيئة وشتيت الذكريات التي أثرت فيه بل حيث مصدر جميع الانفعالات والمشاعر الفائضة التي يعانيها الفنان « في

عقله الباطن » فيحاول الافصاح عنها بأسلوبه الخاص وطريقته في التعبير وبالجملة حيث المادة الخام التي يصوغ منها الفنان فنه !

فبدوي نشأ نشأة مصرية بحتة في ريف مصر وبين حقولها الخضراء الباسمة ربيعاً وشتاء والصفراء الواجمة في الصيف ثم تغذى بتاريخ مصر منذ عهد الفراعين ولمس بروحه روح الفن الفرعوني ووعى جمال الفن الاسلامي ثم هو بحكم نشأته المائلية مؤمن عميق الايمان فيه طهارة المؤمن وصفاء قلبه وثقته! ثم تمثل تقاليد هذا الشعب الموروثة وحياته الحافلة بالآلام والمسرات والاحلام

هذه الخصائص متغلغلة في اعماق نفس بدوي مضافاً اليها مزاجه الخاص وطابعه المتفرّد بالغموض الذي كأنما يشير الى مجاهل ونجوات في اعماق روحه لاينفذ اليها النور تموج بالانفعالات الغامضة والاشباح والاطياف ! فمن هذه جميعاً ممتزجة متفاعلة تتكون طبيعة الفكرة عند بدوي الفنان ! وهي اما رمزية وإما ميثولوجية وإما تصويرية

ففي بعض لوحاته يطوح بك في تيه لا حدود له فيقودك الى مجاهل التاريخ حيث الانسان في حالته البدائية وقد صوره في لوحة « رقصة الكهف » وهو في حالة من النشوة الوحشية (Primitive) ينقر على نغمات دف ساذج مستقيم الاضلاع (اذ لم يكن قد توصل الانسان بعد الى الدف المستدير !) ورفيقته تشاركه نشوته وهما يرقصان امام باب كهفهما المظلم الرهيب وكأن الاثنين اشباح تبدو في ظلام القرون ! . وتارة يدخل بك الى هياكل الفراعنة كلوحتيه « السائل المقدس » و « حارسة المقبرة » فتستشعر تلك الروعة الرهيبة التي خلعها الفراعين على معابدهم ومقابرهم وهي المنبعثة من اعماق روح مصر المفعمة بالقداسة وجلال الايمان . فترى في اللوحة الاولى « السائل المقدس » فتى المعبد في وقار وروعة وهو يصب لفتاة من الشعب الماء المقدس فتتلقاه في إنائها بلهفة وخشوع تستشف خلالها لذة ذلك الايمان العجيب !

وأما « حارسة المقبرة » فتبدو في الظلام وقد أنهكها عناء الوقوف فارتكزت برأسها فوق يديها المجتمعتين على قمة عصاها وأسندت ظهرها واحدى رجليها المنهكتين الى احد الاعمدة الضخمة المحتضنة المقبرة وسط ظلام مخيم . في هذا الجو الرهيب يملأ الاعتقاد نفسك ان هناك مقبرة حقًّا وان بها ميتاً مدفوناً حقًّا وان هذه حارسة منهكة حقًّا

والطابع الرمزي الفريد بلغ القمة في لوحتيه « ليلتهما الاخيرة » و « الامومة » والاولى اقتناها نخري باشا . ولوحات بدوي تبين لنا ناحية الغموض في نفسه ونزوعه الى مجاهل التطور في حياة البشرية وارتياد حقب التاريخ وكأن بدوي لا يعبّر عن عواطفه ومشاعره المشتجرة في محيط عقله الباطن فحسب بل عن مشاعر شعب بأسره بل الانسانية جميعاً ! وهنا يحق لنا ان نقول ان بدوي صاحب مذهب رمزي في الفن وهذا أمرٌ طبيعي في هذه الفترة التي نجتازها من

سلسلة تطورنا الاجتماعي والثقافي وانهُ بعد ان لاحت هذه الظاهرة الرمزية والميثولوجية في انتاجنا الادبي الرفيع من شعر ونثر « أنظر مفرق الطريق لبشر فارس وشهر زاد وأهل الكهف لتوفيق الحكيم وعلى هامش السيرة لطه حسين وشعر بعض شعراء المدرسة الحديثة » ثم كان من الطبيعي حينئذٍ ان يظهر صاحب هذه الطريقة في الفن ومن يرَ لوحات بدوي يحكم انهُ صاحبها

وبدوي حين يفكر في محاكاة الطبيعة سواء الحية او الصامتة يحاول دائماً ان يتحداها فينفخ فيها من روحه ما يهبها النبض والحياة فترى اللوحة وقد خرجت من بين يديهِ تحمل من خصائص بدوي ما يزاحم خصائص الاصل الذي تعبر عنهُ وكأن هناك تنافساً بين شخصيتين قريبتين : بدوي والطبيعة . ولكنهُ في النهاية لا يخضع الاَّ لنفسهِ ! فترى طيف رمزيته يلوح على درجات مختلفة من الوضوح والتستر حسب قابلية الموضوع الذي يعرض لهُ . ومن هنا كانت طبيعة بدوي لا تتفق « والپورتريه » أي تصوير الاشخاص وقد أخبرني انهُ لا يميل اليهِ كثيراً وان كان أحياناً يلجأ اليهِ ليسكب عليهِ من روحهِ وفنهِ وفي هذه الحالة يبلغ الغاية من الاجادة ومن ذلك لوحة « بنت الجيران » اقتناها صبري باشا ولوحة فذة تسمى « عديلة » أطلقت عليها صالونات القاهرة « الجيوكوندا المصرية » وهي لدى مدام سامي باشا

﴿ طريقة التعبير ﴾ — لعل طريقة التعبير في فن بدوي هي أنسب أسلوب للتعبير عن أفكاره . أو قل ان هذا الاسلوب وليد تلكم الافكار، وبدوي في طريقته هذه لا يتأثر بأي مدرسة من مدارس الفنون أو أية شخصية من رجال الفن فكما ان فكرته وليدة طبعه وخصائص نفسه فكذلك أسلوبه ليس الاَّ نتيجة طبيعية للجو النفساني الذي يحيا فيهِ بل هو النتيجة الحتمية لارهاصات روحه وهواجس فؤاده. على انك واجد بينهُ وبين رامبراندت شبهاً غير قليل في ظلاله وعنفه ! فهو إما عابس كالطبيعة الغاضبة وإما كئيب كأحزان الغروب. ويبدو أسلوب بدوي كأنهُ ثوب مفصَّل تبعاً لأدق المقاييس ملائمة للفكرة وابرازاً لما فيها من جمال وسحر ! كل شيء فيهِ جديد مبتكر وكل ذرَّة فيها حية نابضة ومجموعه الكلي يتميز بطابع الاستقلال والطرافة وكأنهُ يقول في كل ذرَّة من أجزائهِ « أنا شيء جديد » وهذه الظاهرة لاحظها ناقدو الفن الفرنسيين فأشاروا اليها في جرائدهم

فاذا اراد ان يعبر الفنان « العودة » مثلاً كانت فتاة ريفية تعود حاملة على رأسها اناءً كبيراً وهي في ثوبها ومشيتها وحزمات الضوء المتساقطة على اللوحة هنا وهناك باحكام عجيب وقد شمرت الفتاة عن ساقيها تخوض في ارض تغطيها المياه فتكاد تلمس ما تعانيه وهي تنقل خطواتها في جهد واعياء وتحس اللهفة والشوق في اندفاع الفتاة والحركة التي تكاد تهز اللوحة هزاً... كل هذه التعبيرات تملك عليك نفسك فلا تتمالك الاّ ان تهتف « حقاً انها العودة ! »

ولبدوي طابع في تعبيره يتناسب ورمزيته فهو لا يبرز لك تفاصيل الاشخاص بدقائقها

واضحة جلية بل على قدر ما تعبر بهِ عن المعاني والانفعالات في الجو الذي يخلعهُ على اللوحة كأنما ينقلك من عالم الحسّ الى عالم التخيُّلات والاسرار فتشارك الفنان في احساسه وشعوره بل كأنك تعيش معه في عالمه

﴿ طريقته المبتكرة ﴾ — توصل بدوي الى ان يخط على لوحة « الاكواريل » الماء المثبت ظلالاً واضواء هي غاية في الاتقان بأسلحة مدبية الاسنة فترى الظلال والاضواء تموج امامك في اللوحة وكأنها ظلال من الطبيعة نفسها تبدو مهيبة رائعة !

هذه الطريقة تتطلب صبراً طويلاً واناة ومهارة لا يطيقها الاّ من وهب نفسه للفن ! ولاشك ان الكثيرين سيحتذون هذه الطريقة الجديدة والاستعانة بها مع « الفرشاة » على رسم الظلال والاضواء. على انني اشك في ان احداً يستطيع البلوغ بها مبلغ بدوي من القدرة والاعجاب. وذلك لانها لا تصلح الاّ لفنان له طابع بدوي ذلك الطابع القاتم في اغلب لوحاته. فترى الاشخاص والمرئيات تنبعث امامك رهيبة لانها تنبعث من الظلام وتخطو في الظلام توضحها حزمات من الضوء يسقطها الفنان من كوّة روحه البعيدة الاغوار فلا ينجلي الظلام تماماً. ولكن تستطيع ان تتبين ما فيهِ من اشباح واشخاص. ففي مثل هذه اللوحات القاتمة يمكن استعمال الاسلحة المدبية اي طريقة بدوي في كشف الاضواء والاظلال على اللوحة بشرط ان يكون الفنان متمكناً من طريقته حاذقاً لها

﴿ اللون ﴾ هذه اسهل النواحي في فن بدوي على ان هذه السهولة نتيجة البساطة والاقتصار غالباً على لون واحد. ولكن المهارة والقدرة على تحليل اللون الى درجات عدة تجعلك حائراً امام تلك المجموعة العجيبة المتناسقة من الالوان، وما هي في الواقع الاّ لون واحد تناولتهُ يد بدوي ومقدرته فكان ما تراه

هذه القدرة على تحليل اللون تضفي على لوحاته طابعاً من البساطة والتعقيد معاً ولكنها البساطة المغرية والتعقيد اللذيذ ثم هي شيء له ان يحوّم بأشباحه واشخاصه في عوالمها المجهولة او المعلومة في غير ما جلبة ولاصخب من تطاحن الالوان وتضاربها. وبذلك يستطيع ان يخلق الجو الملائم كل الملاءمة للانفعالات والمشاعر التي يريد التعبير عنها فتنطق بها وجوه أشخاصه

وكأن كل قسمة من قسمات الوجه تتحدث عما يشتجر في حنايا الصدر وآفاق الفؤاد من أحاسيس وعواطف. وقد كنت أود ان أتناول مجموعة من لوحات هذا الفنان بالتحليل والشرح ولكنني حينما أردت ان أعرض لهذا وجدت ان المجال لا يتسع الآن. وأملي ان يتاح لي تحقيق هذه الرغبة او يتقدم بها غيري ممن تذوقوا فن بدوي ولمسوا روحه في انتاجه الفني وهذه خدمة غير قليلة للفن الجميل

مؤتمر المستشرقين

العشرون

اهم ما تلي فيه من المحاضرات

انعقد مؤتمر المستشرقين العشرون في مدينة بروكسيل عاصمة البلجيك من الخامس الى العاشر من شهر سبتمبر ١٩٣٨ . وكان المؤتمر على تسعة أقسام : مصريات وافريقيات — آشوريات — آسيا الوسطى — الهند — الشرق الاقصى — الشعوب واللغات السامية — العهد القديم ويهوديات — الاسلام — الشرق المسيحي . وقد زادت المحاضرات التي ألقيت على ثلاثمائة واليك أتمها فائدة :

القسم الاول — « هوموروس ومصر » للاستاذ جلبرت (من البلجيك) — « فكرة النقد المالي في مصر الفرعونية » للاستاذ ديميل (من فينا) — « ترتيب اللهجات السائرة في السودان الاوسط » للاستاذ لوقاس (من المانيا) — « المكتشفات الاخيرة لحفريات الجامعة المصرية في قرية هرمو بوليس » للدكتور سامي جبره (من مصر)

القسم الثاني — « النصوص الأكدية في رأس شمرا » للاستاذ فيرولو (من فرنسا) — « حمورابي بحسب رسائل مطوية » للاستاذ جان (من باريس) — « التقويم الاشوري » للاستاذ ولي (من امريكا الشمالية)

القسم الثالث — « اللغة التركية في بغداد في القرن الحادي عشر المسيح » للاستاذ عيني (من تركيا) — « في الشعر التركي — الفربي لعهد السلجوقيين » للاستاذ رُسّ (من انجلترا) — « مواد تركية في اللغة الفارسية الحديثة » للاستاذ كوبرولو (من تركيا)

القسم الرابع — « أصل كلمة كلكتّه » للاستاذ شاترجي (من الهند) — « الرقص الهندي التقليدي نظريًّا وعمليًّا » للاستاذ دفي (من انجلترا)

القسم الخامس — « ملاحظات على رحلة ماركو بولو » للاستاذ بليوت (من فرنسا) — « المناقضات الفلسفية بين الذهنيتين : اليابانية والصينية » للاستاذ ماك نير (من أميركا الشمالية) — « مصادر جديدة للعلاقات الثقافية الخاصة بالحكم المغولي في الصين » للاستاذ هينيش (من المانيا)

القسم السادس — « في تاريخ فلسطين وشرق الاردن في القرن الثاني قبل المسيح وأصل بني اسرائيل » للاستاذ دي فو (من أورشليم) — « راس شمرا وبنو اسرائيل » للاستاذ جاستر (من انجلترا) — « في التعاقب التاريخي للشعر الجاهلي » للاستاذ جرونبوم (من فينا) — « الالفاظ العربية الجنوبية الجارية في اللهجة اليمانية لهذا الزمن » للاستاذ رسّي (من ايطاليا)

القسم السابع — « الجناس اللفظي في اللغة العبرية » للاستاذ سيدن (من هالطة) — « الحديث والتدوين في أقدم تاريخ للاسرائيليين » للاستاذ نوت (من المانيا) — « معنى لفظة الضحايا في المزامير » — الاستاذ ريش (من انجلترا)

القسم الثامن — « القيمة الاستقبالية لسورة أهل الكهف عند المسلمين » للاستاذ ماسينيون (من فرنسا) . (ذكر المحاضر كيف فسّرت فرق المسلمين سورة أهل الكهف على اهوائهم ومنازعهم ناظرة الى ما وقع في الاسلام بعد تدوين القرآن) — « مشروع تيسير قواعد اللغة العربية » و « كتاب الغايات والفصول لابي العلاء المعري » للاستاذ الدكتور طه حسين (من مصر) . (قال المحاضر في الشطر الثاني من محاضرته إن أبا العلاء لم يخرج على التقاليد الاسلامية ولم يرغب في معارضة القرآن وان بين كتاب الغايات والفصول واللزوميات وجوه شبه) — « في نشر كتب علماء الجغرافيا من العرب » للاستاذ كراموس (من هولاندا) — « أصل القصص الاخلاقي والنقد الاجتماعي في الشرق العربي مختتم القرن التاسع عشر » للاستاذ بيرس (من الجزائر) . (تكلم المحاضر على أحمد فارس الشدياق وأديب اسحق والمويلحي والمنفلوطي وفتحي زغلول وناظر بين « حديث عيسى بن هشام » و « ليالي سطيح ») — « مسألة المبنى في الشعر العربي الحديث » للاستاذ بروكلمن صاحب « كتاب تاريخ الآداب العربية » (من المانيا) . (عرض المحاضر للقيود التي توثق النظم العربي على الطريقة التقليدية وأشار الى نشأة الموشّح الذي خفف من ثقل تلك القيود ثم ذكر ان خليل مطران هو الذي فك من القيود وقد حذا حذو الفريد دي موسيه الشاعر الفرنسي الرومنتيكي . وقال ان لخليل مطران مدرسة تجري على مناهجه في النظم فمثّل بأحمد زكي ابي شادي المتأثر بالادب الانجليزي . ثم انتقل المحاضر الى الجيل الحديث من الشعراء فقال ان فيهم من يذهب في تجديد الصياغة الشعرية مذهباً ابعد من مذهب خليل مطران ومدرسته جرأة واستقلالاً ، وكان مثله هنا (شعر بشر فارس) — « بعض نظرات في مذهب السنة في الخلافة » للاستاذ جب (من انجلترا) — « الناحية اللغوية من الشعوبية » للاستاذ ايل (من بلجيكا) . (ذكر المحاضر ما وقع بين العرب والشعوبية من مناظرات ومساجلات حول غنى اللغة العربية عن اللغات السامية واليونانية وغيرها أو حاجتها اليها)

[البقية في آخر باب المكتبة]



صديقي أ ...

للكاتب الالماني الشهير ارثر شنيتزلر Arthur Schnitzler

نقلها ابزاك شموش استاذ اللغة والآداب العربية في الجامعة العبرية بالقدس

صديقي أ... (واسمهُ الحقيقي مارتن راند) الطالب في معهد دراسة اللغات ، كان شاعراً شابًا ، لم يشجعهُ النقّاد قط ، ولم يستطع ابداً أن يقنعني بقيمة الاقاصيص التي كان ينشرها في صحف الملحقات ، ومع ذلك ، فقد كان كالكثيرين من اضرابه لا يعبأ بما اذا كنا نجده أو لا نجده على شيء من الاهلية والفن ، وكان يعبر هذه الحياة مع رفيقة غير منظورة ، مع الهة الشعر ، ويقع منها على ساعات متعة حقيقية

الاّ انهُ كانت تنتابهُ في بعض الاحيان ازمات سوداوية ، تسببها ليس معاكسات الدهر العادية . ولا الهموم البغيضة التي يذوقها كل انسان ، ولكن ... عند ما يكون صديقي أ... حزيناً ، فلانهُ يكون منهمكاً في وضع قصة محزنة يميت فيها من شدة الحب اميرة بعيدة ، او يقتل بسيف احد الخونة فارساً مقداماً . أو يبتدع قصة تحول فيها جنية شريرة دون سعادة شخصين طيبين طاهرين

وعلى نقيض ذلك . كان أ... يطير فرحاً عند ما ينشد الربيع ، او ينشد ليلة سكر يقوم فيها وجه مستعار بتقبيل ثغر رسام شاب متخفٍ في ثوب نوبي سري. وهو يهمس في أذنه : « اني لك ولن يقوى احد على سلبي منك ! »

وا أسفاه ! ان الامر لا يحتمل الجدل ، لقد كانت هذه الدلائل الاولى على جنون صديقي أ... وكثيراً ما كنت اوبخهُ ، وكثيراً ما كنت اعظهُ بصورة رضية ، اذ ان صداقتهُ الوثيقة مع الاشباح كانت مشؤومة في رأيي . ألم يكن من الافضل ان يتعرف على الحياة ، وان يختار له رفيقات سمراوات او شقراوات أمتع وألذّ بما لا حدّ له من تلك المخلوقات الخيالية الشاردة التي يبتدعها تصوره ؟

وذات مرة ، اتبع نصيحتي ، واتخذ لنفسه خليلة .... كانت مغنية طبعاً .. بل اني لمبالغ بعض المبالغة ، اذ انها اذا كانت أصبحت خليلته ، فلانها ارتمت في

احد الاماسي، عند الخروج من دار التمثيل ، بين ذراعيه ... انهُ لمبدأ حزين لمغامرة كانت نهايتها حزينة ايضاً ، ولم ادرك حقيقة ذلك الا عندما كان كل شيء قد انتهى

***

كنت الى جانب أُرْغُني ذات يوم بعد الغداء أُعوم في كرسي الواسع واذا بصديقة أ... الشابة تقبل عليَّ : وكنت أرهف السمع واحدى يديَّ على الارغن ، للحن متنافر يختصر شيئاً فشيئاً ، وأسائل زائرتي بالنظرات وقد عراني ذهول غريب : لقد كانت وحدها ، ولم يسبق لها قط ان جاءت اليَّ بدون أ... فأخذت احدق النظر في الباب لعلي أشاهده يتبعها ، ففهمت سؤالي الصامت وأجابتني بصوت تخنقهُ العبرات

— هو في البيت ... انهُ يشتغل

— وهل أنت قادمة من عنده ؟

ورجوتها ان تتخذ لها مقعداً على الديوان ، وجلست على كرسي بالقرب منها

— وما كاد يستقر بها الجلوس حتى أجهشت بالبكاء

— ماذا حدث يا صديقتي الصغيرة ؟

لم تجب ... انتظرت جوابها بصبر ، ثم استطردت :

— اذن ؟

قلت لها ذلك بهدوء عظيم فأخرجت منديلها وكفكفت عبراتها

— اضرب لحناً مفرحاً جداً ، لحن (فالس)... حينئذٍ استطيع ان أفضي اليك بكل شيء ، فاتجهت الى الارغن وضربت اول لحن خطر لي، واذ ذاك أخذت تتمتم:

— انهُ عادة لايحبني

فتوقفت عن العزف واتخذت هيأة الدَّهِش ، مع ان دهشتي كانت مصطنعة ، اذ اني كنت انتظر شيئاً من هذا النوع ، فقالت لي في حزن :

— استمر في العزف فاحتججت :

— ليس هنا موضع لحن (فالس)

وطفقت اعزف لحناً حزيناً لا بدَّ يهدئ المازحة الارتباك الذي كان يسود بيننا... وكم آسف لاني عزفت ذلك اللحن ! لقد اصبحت اعاق على ذلك شأناً مبنهُ الوسواس

فاستأنفت الفتاة :

— لا بدَّ انهُ أصبح يحب امرأة أخرى، اذ سمعته يصرخ هذا الصباح مرات عديدة : « أنت لست مثلها . . . آه . . . أنت لست مثلها ! » وكنت أحاول بعد ذلك ان أعانقهُ ، فكان ينظر اليَّ كأنهُ عائد من بعيد ويقول لي « اذهبي ! . . . انك تزعجينني . . . كان عليك ان تشعري بذلك » فجمدت في مكاني . . أما هو فقد استمرَّ يكتب ، ووجههُ يشتعل ، وعيناه تلمعان ، وبعد برهة التفت اليَّ وعند ما تحقق انني لم أتحرك ، صرخ : « ألا تزالين هنا ؟ » . . . حينئذٍ ذهبت . . . فسألتها :

— وماذا تظنين فهزَّت أكتافها . . .

— أما أنا فسأحاول ان أقول لك ذلك وان كان يتعذر إفهامك : ليس لك مزاحمة من لحم ودم ، ان من تتحدثين عنها لا وجود ولا حياة لها الاَّ في مخيلة صديقنا أ . . . فحدقت في وجهي بصمت ، فاستأنفت :

— أنا أعرف حق المعرفة . . . ان فيهِ مسًّا جنونيًّا !

وقد بدا عليها شيء من الدهشة للهدوء الذي عبرت فيهِ عن تلك الحقيقة فصرخت :

— اذن . . . هو يفزعني !

— كلاَّ ! لا ينبغي ان تفزعي ، لقد ظننت انك تستطيعين أن تسري حبه بقولك له ذات يوم : أ . . . العزيز ! أنا لا وجود لي ، ما أنا الاَّ بطلة هاربة من احدى أقاصيص الجان . وهـذه السعادة التي تذوقها بين ذراعي ان هي الاَّ حلم من الاحلام

— اذن هو نصف مجنون ؟

— بل هو نصف شاعر ، أي مجنون كامل ! ولكن هدئي روعك . . . لا تبكي . . . وشرعت أعزف لحن (الفالس) الذي كانت قد طلبته مني ، فنهضتْ بهدوء واتجهت نحو الباب ، ولما حاولت مرافقتها منعتني باشارة من يدها

— كلاَّ ! اني سأعود

وفي اليوم التالي ذهبت لأرى صديقي أ . . . ، وكان النهار قد أضحى ، ومع ذلك فقد رأيت أربع شمعات حمر تحترق على منضدته ، اذ انهُ لم يكن يستطيع العمل الاَّ على ضوء الشمع الاحمر ، وكان ينظر بعين كامدة الى الورق الذي تنزلق عليهِ



راعتهُ بدون توقف . فأخذت أطفىء الشمعات الواحدة تلو الاخرى ، ولم يشعر بوجودي الاَّ عندما أطفأت الشمعة الرابعة ، فابتدرني :

— أعذا أنت ؟ فصرخت بلهجة حازمة :

— أ ... دع كل هذا وقم حالاً لنتغذى معاً والاَّ سعيت لسجنك في دار المجانين

فحدجني بعينيهِ الواسعتين ، المديمتيْ البريق

— لقد أتت صديقتك اليَّ البارحة ، فماذا فعلت معها ؟ أخذ يبتسم :

— لا تحدثني عن هذه المخلوقة البشرية المسكينة ، اني لا أريد ان أسمع شيئاً عن الجنس اللطيف بعد الآن !

— طبعاً انت لا تحب النساء الحقيقات لانهنَّ يقترفنَ جريمة سائر المخلوقات البشرية فيأكلنَ ، ويشربنَ ، ويحببنَ ، ويعبرنَ الحياة بما فيها من تفاصيل وفصول الاَّ انهُ قاطعني :

— امرأة واحدة كائنة في نظري ، ولن تقوى على انتزاعي منها ، اسمع ... كانت ذات مرَّة ...

وأنشأ يقص عليَّ قصة فتاة رائقة الجمال كانت تحيا في جزيرة من جزائر المحيط الهادىء ، وكان اسمها « تركيز » ، وكانت على نصيب عظيم من الجمال الى درجة ان انساناً او الهاً لم تقع أنظاره على مثلها وكان أ . . . يشعر بقصوره وعجزه عن ايراد الاوصاف اللازمة ليصف الجمال المنبعث منها ، وأخبرني وقد غارت عيناه انهُ منذ اليوم الذي تسلطت فيهِ « تركيز » على قلبه وعقله ، لم يعد يشعر بأقل عاطفة نحو اي امرأة ، فسألتهُ

— وهل تحبها ؟

— بل أعبدها ! ... ولكن وا أسفاه ! ... انها لن تلبث ان تموت ... اذ ينبغي ان تموت !

فأخذت أهز رأسي ، اذ كنت قد ارتعت حقاً ، فاستطرد

— هنالك امير افريقي احبَّ « تركيز » حبّاً جمّاً مشؤوماً ...

— وهل أصبحت تغار منه ؟

— وماذا أستطيع ان اعمل ما دامت تحبه ؟

— ولكن ... أيها المجنون ... اجعل الامير الافريقي فريسة لنمر ملكي ، وانزل على ضفاف الجزيرة المقدسة ، شاعراً باسم أ ... حتى اذا رأته ...

— انهُ لا يستطيع !

وكانت تلوح على أ ... ملامح الاقتناع الشديد بهذه الحقيقة

— ولمَ لا ؟ ليس عليك الاّ ان تريد ذلك ! ان جميع خيوط هذه القصة هي بين يديك ! كل ذلك قد ابتدعهُ جنونك ! ان « تركيز » الاّ من مبتدعات مخيلتك !

فارتسمت على ثغره ابتسامة صفراء ، وقال بهدوء :

— كلاّ ! فنهضت أذرع غرفته طولاً وعرضاً لأهدئ روعي

— اذهب . . . انك تزعجني ! فوقفت ، وحدّجتهُ بالنظرات

— سأعود في ساعة الغداء

وبينا انا أقفل الباب ابصرت أ . . . يشعل الشموع من جديد ، مع ان ضوء النهار كان قد غمر الدنيا ، وقد أبصرت الناس في الشوارع يسيرون بخطوات ثابتة ، فعجبت لهذا المقدار من الحيوية في بادئ الامر ، ولا غرو ، فان من يخرج من دار المجانين يعجب لكل شيء سليم

وعند الظهر الفيت باب دار صديقي أ . . . مقفلاً بالمزلاج .

— عد هذا المساء ، قال لي

وعند المساء كان الباب مقفلاً ايضاً ، فصرخت :

— ألم تمت « تركيز » بعد ؟

فسمعت أ . . . يتنهد تنهدات عميقة : لا شك ان « تركيز » كانت تنازع

وعند الصباح عدت اليه ، لم يكن الباب مغلقاً ، ولكن أ . . . كان جالساً الى منضدته وهو على أشد ما يمكن من الشحوب ، فسألته :

— ماذا اصابك ؟ فتمتم :

— انها تحتضر ! فأجبت :

— يا للحظ

فأغرورقت عيناه بالدموع دون ان يفهم ، فقلت له وقد أحسست بشيء من الضيق :

— هيا أ . . . أسرع

— لا أستطيع

— انك مضحك ! أنت تجني على نفسك ! كل هذا لا فائدة فيه . . .

— لا فائدة فيه ؟ . . . انت لا تستطيع ان تفهم

فتوجهت الى النافذة وفتحتها :

— أتحس بهذا الهواء البارد ؟ أتشعر برقة هذا الهواء الصباحي الذي يعبث الاوراق على منضدتك ؟ أتبصر وقاحة الشمس التي تهزأ من رأسك المتعب ، والتي تذهب الغبار المتراكم على أرض غرفتك ؟ أترى هذا العالم المتعدد الالوان الذي يسبح في زرقة السماء ؟

فأطل من النافذة ، وأسرع فأغمض عينيه ، كأنما النور يؤذيهما ، ومع ذلك فقد ترك نفسه بين يدي أقودها كما اشاء ، ولكني عبثاً حاولت ان أخلق محادثة لانهُ لم يكن يحري جواباً

— أتريد ان نستقل عربة ؟

— نعم أريد

كانت هذه اول جملة فاه بها ، فتأسيت بها ، وأسرعت فأوقفت عربة مكشوفة ذهبت بنا الى غابة فينا ، فلما توسطنا الحقول ونحن نسلك ذلك الطريق الذي تظللهُ اشجار كبيرة ، مورقة ، لمحت صديقي يبدي حركة دهش واندهال ، وشعرت انهُ يستعيد حواسه ويتبسم فسألته :

— هذا جميل ، أليس كذلك ؟

ولكن ابتسامته كانت قد غارت ، وكأنما هي كانت تعبر عن لسان حاله :

« ألا تزال تظن ان هنالك شيئاً يقوى على انقاذي ؟ »

وتناولنا طعام الغذاء في أحد الفنادق ، وكنت أشجعهُ على الأكل ، ولكنهُ لم يمد يده الى صحن من الصحون ، وانما كان يتنهد ويقول لي :

— انت شهم ، ولكنك لا تستطيع ان تفعل شيئاً في سبيلي ؟

— بل أستطيع كل شيء ، أستطيع ان أعيد كل شيء الى نظامه ، اذا أردت ان تكون عاقلاً . اني أفهمك جيداً ، وأفهم ان روحك المريضة ، هذه الروح

الشاعرة . كان لا بد لها ان تقع في حب «زكيز»

فقاطعني :

— وما دامت «زكيز» تحتضر فينبغي ان اكون شقيًّا !

وأخذت شفاهه ترتجف ، وكانت الشمس قد شرعت تنحدر للمغيب ، والغسق يبسط أجنحته بهدوء على الحقول والغابات الندية ، فسمعته يقول :

— أسرع ! أسرع !

وانطلقت العربة تعدو نحو المدينة ، وكانت الاشباح المتحركة توهمنا ان المنازل الاولية قريبة جداً ، واننا سنبلغ المدينة قبل ان يجن الليل ، وكان صديقي أ . . . لا يفتأ يكرر :

اسرع ! اسرع !

فسمعه السائق ، وألهب الجياد ، وكان أ... ينتحب :

— أريد أن أعود ! أريد ان أعود !

— دع عنك كل شيء ... ينبغي عليك ان تجتنب العمل هذا المساء ...

فنظر اليَّ دهشاً :

بل ينبغي عليَّ ان اشتغل !

وكان تنفسه متهدجاً ، لاهثاً ، بحيث لفت اليه انظار السائق الذي تفرس فيه دهشاً ، ذاهلاً

وكنت ادعوه من حين لآخر أ... أ... ولكنه لم يكن ليسمعني ...

وبينا نحن نجتاز الشوارع المظلمة عرض لمخيلتي مشهد لم استطع ان اتخلص منه ... تخيلت «زكيز» ممددة في تابوت بلوري ، وأمامها شاعري ، يتأكله الحزن وعيناه جامدتان ، يتمشى فيهما ألم عميق يقصر عنهُ الوصف

ولما وقفت العربة عند دار أ ... قفز الى الارض ، وأخذ يصعد السلالم بسرعة عظيمة الى درجة انني عند ما لحقت به كانت شموعه الحمر قد اوقدت ، فجلس الى منضدته دون أن يشعر بوجودي ، وقررت ان امضي الليلة بالقرب منهُ لان حالته كانت تقلقني قلقاً شديداً

كانت يراعته تجري تائهة على صفحات القرطاس ، وكانت النافذة مفتوحة



يضطرب ضوء الشموع من نسمات الهواء التي تهب منها . وكانت الاوراق المبعثرة تدور حول المنضدة ، وكان محياه يزداد تأثراً من دقيقة لاخرى حتى غدا شاحباً كوجوه الاموات

وقد ثبت لديَّ ذات لحظة ان « تركيز » يحتضر ، اذ ابصرت يد أ ... ينتابها التباطؤ ، ونفسه بمروه الاختناق ، فلم يلبث ان ترك قلمه وتهالك على المنضدة ، وهو يجهش في البكاء بمرارة وحزن

فتأسيت بذلك ، وقلت لنفسي : « لقد انتهى الامر ! ان اثر الجمال قد تلاشى والصورة الخيالية الفظيعة التي عاش معها بضعة ايام قد اندثرت ! »

وخيل اليَّ ان الجو قد تغير ، وان الارواح الشريرة تهرب من النافذة ، وان ضوء الشموع قد اخذ يلطف ، وان الهدوء قد عاد الى صديقي المسكين ، اذ كانت نوبة البكاء قد خفت بعض الشيء

فتمددت على الديوان . واستسلمت للرقاد ، ويظهر اني رقدت طويلاً ، اذ لم يكن قد بقي شيء من الشموع عندما استيقظت ، أبصرت أ . . . فاقد الحركة ، منكس الرأس ، فاقتربت منه ، ولمحت في نظراته ما يبعث على الاطمئنان ، فقلت له :

— هيا قم ارقد فأجابني بصوت عادي :

— عُدْ الى منزلك ، ولا تعد تقلق نفسك من اجلي فصرخت فرحاً

— آه أ ... ! هل انتهى كل شيء ؟ فأكبَّ عليَّ يعانقني ويقول :

— نعم ، انتهى كل شيء ! — اذن اسمح لي ان اتمم ليلتي على ديوانك

— لك ما تريد

وكانت تبدو في صوته آثار الصداقة الصميمية . . . لم تفارقني نظراته وانا أتمدد على الديوان ، واخذ يتبسم بلطف عندما اشرت عليه بأن يتمدد هو أيضاً .... بل اني أحسست بنظراته ترتقي حتى بعد ان استغرقت في الرقاد

استيقظت مع الفجر : لم يكن صديقي أ... في الغرفة ، فنهضت واقتربت من المنضدة ، فلمحت على ضوء الفجر الضئيل ورقة مطوية أربع طيات ، وقبل ان أفضها ، أسرعت الى سرير صديقي ، فألفيته منظماً لم يمسه أحد ، فعراني ارتجاف



مربع، وأحسست اني أصبحت فريسة اضطراب غريب . . .

أول نظرة بدرت مني انجهت نحو الشموع ، فاذا بها مرمية الى الارض مع الشاعة ، الى جانب المدفأة . . . بحثت بأنظاري عن الاوراق المخطوطة : كانت الاوراق الممزقة ما تزال على المنضدة : . . حينئذٍ عزمت على ان أفض الورقة ، فاذا بها هذه الكلمات : « ماتت « تركيز » فانتهى كل شيء ! »

فاصطكت أسناني وصرخت : أين هو ؟ . . . رباه ! . . . أين هو ؟ . . .

أسرعت الى مدخل الدار : لم يكن فيه أحد ! . . . فتحت الباب : لم يكن قفص السلم مضاء . فعدت الى الغرفة ، ولمحت شمعة من جانب المدفأة ، فأشعلتها وأسرعت الى صحن الدرج ، وانحنيت على الدرابزون ، فأبصرت . . . شيئاً اسود . ممدداً على الارض . فمددت يدي التي تحمل الشمعة لأتبين بوضوح أكثر فسقطت قطرة شمع على الجسم العديم الحراك ، فهرولت أنزل السلالم مسرعاً والشمعة في يدي حتى اذا أدركت أسفله أبصرت جثة هامدة . . . .

كان وقع اقدامي على السلالم قد أيقظ الجيران ، فهرع الناس من كل جانب يتساءل بعضهم : « ماذا جرى ؟ » . . . ويرسل البعض الآخر صرخات مفزعة

وقد رأيت نفسي مضطراً الى اعطاء شرح لذلك فقلت :

— لقد كان مجنوناً ! . . .

واذا أحد الحضور يأخذ الشمعة من يدي ، أوظنه كان يرتجف ! . . .

***

لقد قرأت القصة الاخيرة التي كتبها صديقي أ . . . انها قصة فاشلة تماماً ، لا يكاد يتبين فيها أثر للفن قط !

ولا شك ان هذه آخرة مؤسفة للقصة ، ولكن حرصي على صحة الرواية يضطرني الى قول الحقيقة . . . ومع ذلك ، فقد كان صديقي أ . . . شاعراً عظيماً اذ أي مخيلة قوية ينبغي أن يكون قد حباه الله بها ، ليستطيع أن يخلق امرأة يحبها الى حد الجنون ؟ حتى لا يعد يستطيع الحياة حين قضت المخيلة على هذه المرأة الاثيرة ؟ ؟ ؟

آه . . . ان لربات الشعر لاهواء غريبة ! ! !

شهوة الموت

«من ديوان (أفاعي الفردوس)
الذي أخرجه الياس أبي شبكة ،
وفي باب مكتبة المقتطف كلمة عنه»

ناقمٌ على السماءْ حاقدٌ على البَشَرْ
ساخط على القضاءْ ثائرٌ على القَدَرْ
غير قطـرة الماءْ لا أحبُّ في السَّحَرْ
صرت أمقت الصفاءْ صرتُ أعشق الكَدَرْ
غير مشهد الدماءْ لا أحبُّ في الصُّوَرْ
ناقمٌ على السماءْ والبشر !

***

جمِّلي ليَ الجسدْ واسكبي لي الرحيقْ
لا تفكري بغدْ قد يجي ولا تفيقْ
ما لنا وللأبدْ إنَّ سرَّهُ عميقْ
الهوى اذا اتَّقَدْ كانَ للبلى طريقْ
فلنَمُتْ يداً بيدْ ولْنُغَيِّبْ البريقْ
بين شهوة الجسد والرحيقْ

توازن القوى البحرية

في البحر المتوسط

الوضع الجغرافي

بعد ان انتهت الازمة التشيكوسلوفاكية ، اتجهت الانظار في مقدمة ما اتجهت اليه الى المشكلة الخاصة بالحرب الاهلية الاسبانية ، لأنها لا تزال كالورم السرطاني تسمّ جسم العلاقات الاوربية ولاسيما ما كان منها خاصاً بسياسة بريطانيا وايطاليا وفرنسا في البحر المتوسط . ونحن المملكة المصرية القائمة على الطرف الشرقي من هذا البحر ، يهمنا بوجه خاص تحوّل العلاقات بين دوله الكبرى ، لان احدى هذه الدول حليفة لنا ومصيرها في هذا البحر مرتبط بمصيرنا الى حد بعيد . ولذلك نقلنا هذه الدراسة الوافية في توازن القوى البحرية في البحر المتوسط ، لما لهذا الموضوع من شأن كبير بوجه عام . ومن صلة وثيقة بنا بوجه خاص

والبحث في هذا الموضوع ، يقتضي منا اولاً دراسة المواقع الجغرافية للبلدان التي تهمها شؤون هذا البحر . وذلك لان الخطة البحرية لدولة انما هي أثر من آثار موقعها الجغرافي . فهذا الموقع الجغرافي يعين الاهداف التي تتجهُ اليها والقواعد البحرية التي تنشئها وتحصنها وطبيعة السفن الحربية التي تبني منها اسطولها ، واذن فالموضوع يشتمل اولاً على بحث الموقع الجغرافي ، ثم الاهداف العسكرية ثم برامج الانشاء البحري ثم قوى الطيران والقواعد البحرية ، ثم المقابلة بين جميع هذه العناصر

هذه الطريقة في البحث تفضي بنا الى تقسيم دول البحر المتوسط او التي تهمها شؤونه بوجه خاص الى أربع طوائف وهي اولاً طائفة البلدان التي يغمر ماء البحر المتوسط سواحلها ولا منفذ لها الى الخارج الاّ عن طريقه . وبلدان هذه الطائفة هي ايطاليا واليونان ويوجوسلافيا وتركيا اذا حسبنا ان البحر الاسود ليس الاّ بحيرة كبيرة لانهُ لا يفضي الى مسالك المحيطات الحرة

اما الطائفة الثانية فهي البلدان التي لها سواحل على البحر المتوسط واخرى على بحر آخر وهي اسبانيا وفرنسا ومصر . ويدخل في فرنسا ممتلكاتها الافريقية وانتدابها السوري واللبناني

والطائفة الثالثة هي الامبراطورية البريطانية ولها في البحر المتوسط موقف خاص

والطائفة الرابعة هي طائفة البلدان التي موقعها الجغرافي خارج البحر المتوسط ولكن لها بعض

مصالح فيه وتتجه الى الرغبة في ان يكون لها شأن في تصريف اموره وفي طليعتها المانيا وروسيا

ومن الواضح ان اهداف هذه الامم تختلف باختلاف وضعها الجغرافي . فالبلدان التي يمكن ان تحسب اسيرة هذا البحر كايطاليا ويوجوسلافيا واليونان وهي التي تعتمد في استيراد مواد غذائها على المواصلات البحرية فيه ، لا يمكن ان تكون خططها وأهدافها شبيهة بخطة دولة اخرى كفرنسا تستطيع اذا سدت في وجهها مسالك البحر المتوسط ، ان تستورد ما تحتاج اليه من الغذاء عن طريق المحيط الاطلنطي ، ولا بخطة الامبراطورية البريطانية التي تستطيع ان تعتمد على طريق الكاب البحري في حال الضرورة ، ولا بخطة المانيا او روسيا اللتين لا تستطيعان أن يكون لهما شأن كبير فيه الا اذا كانتا او كانت احداهما متحالفة مع احدى دول البحر نفسه

فحرية هذا البحر في نظر بعض هذه الدول — كايطاليا — بمنزلة التنفس اي انها مسألة حياة او موت . وهي في نظر الآخر كفرنسا ذات مقام خطير لعلاقتها بممتلكاتها في افريقيا وانتدابها في الشرق الادنى وسهولة تعبئتها الافريقية في حالة الحرب . وهو شريان عظيم الشأن في الامبراطورية البريطانية ، ولكنه ليس مما لا يستغنى عنه من جهة التغذية . اما الدول الاخرى التي لا يغسل ماء هذا البحر سواحلها ، فلا حاجة حيوية بها اليه

ويضاف الى هذه الاعتبارات العامة اعتبارات خاصة ، ففرنسا مثلاً تحصر عنايتها بالجانب الغربي من هذا البحر ، لاهتمامها بمواصلاتها التي تربطها بالمغرب الاقصى وتونس والجزائر . وهذه المواصلات محصورة في منطقة واقعة بين شبه الجزيرة الايبيرية وشبه الجزيرة الايطالية فهذه الحقيقة لا بد ان تكيف خططها البحرية وعلاقاتها السياسية بهذين البلدين . وايطاليا معدَّة من قبل الطبيعة بوضعها الجغرافي لقطع المواصلات بين غرب البحر وشرقه . أما بريطانيا ففي يديها مفتاحان تقفل بهما مدخلي البحر اذا اقتضت الحال وهما جبل طارق وترعة السويس

الاهداف الاستراتيجية

تتباين الاهداف الاستراتيجية طبعاً وفقاً للاعتبارات الجغرافية التي بسطناها فيما تقدم فما هي (ايطاليا) — فلننظر أولاً في موقف ايطاليا . فقد قلنا ان ايطاليا سجينة هذا البحر وهي لا تستطيع ان تستورد معظم الغذاء اللازم لها الا عن طريقه فأمامها أحد مسالك ثلاثة فإما ان تتفاهم مع الدول الباسطة سؤددها على هذا البحر اي مع انكلترا وفرنسا وإما أن يكون لها أسطول يمكنها من ان تسيطر على البحر وحدها وهو على مدى ما نعلم يتعذر عليها الآن ، وإما ان تتفاهم مع إحدى دول القارة الاوربية فتتمكن من ان تحصل منها عند الحاجة على المواد الاولية التي تحتاج اليها صناعتها والغذائية اللازمة لاود شعبها وحينئذٍ يكون في وسعها ان تقف وجهاً لوجه مع قوة الكتلة الفرنسية الانكليزية

وقد وضع كاتبان يدعيان همل Hnmmel وسيورت Siewert كتاباً عنوانه البحر المتوسط، خصا معظم فصوله بموقف ايطاليا . وعندهما انهُ ليس في الوسع إنكار الميل الايطالي الى بسط السيطرة الايطالية على البحر المتوسط . وان هذا الميل ناشيء عن عوامل ثلاثة هي الجغرافي والدمغرافي والاستعماري . فثمانون في المائة من حدود ايطاليا سواحل يغمرها ماء هذا البحر. ولذلك نرى ايطاليا في كل مؤتمر بحري ، تبسط موقعها الجغرافي الخاص في البحر المتوسط وما تلاقيه من الصعوبة في استيراد ما تحتاج اليهِ من مواد الغذاء والصناعة ، ثم تعتمد على هذا الوضع الخاص في طلب الحقوق الخاصة بقوة اسطولها . ولا يخفى ان ايطاليا من أفقر البلدان الاوربية في المواد الاولية كالفحم والمعادن والنفط والخشب وغيرها فأودها قائم على الاستيراد

كانت ايطاليا سنة ١٨٧١ تعد ٢٧ مليوناً ولكن عدد سكانها اليوم ٤٢ مليوناً . هذه الزيادة الكبيرة في عدد السكان أحدثت موجة من الهجرة حتى ليقدر عدد الايطاليين الذين يقطنون خارج ايطاليا بعشرة ملايين منهم ثمانية ملايين في اميركا

والحالة الناجمة عن الموقف الجغرافي وقلة المواد الاولية وموجة الهجرة افضت الى نشوء الفكرة الفاشستية ، النازعة الى الاستعمار باحياء الامبراطورية الرومانية وجعل البحر المتوسط بحيرة ايطالية ، المتجلية في فتح الحبشة والمنشآت الاستعمارية في لوبيا

فلكي تحقق ايطاليا ما تدعوه « بحرنا » عليها أن تنهض الى مستوى قوة نديها في البحر المتوسط أي فرنسا وانكلترا . الا ان موارد ثروتها تجعل ذلك متعذراً عليها الآن . ان موقعها الاستراتيجي يمكنها من ان تبلغ مرتبة من القوة لا تستطيع ندتاها أن تستهينا بها وذلك بانشاء سفن حربية من نوع الغواصات على الاكثر ، وبالسلاح الجوي . فهي تستطيع أن تعرقل مواصلات فرنسا وشمال أفريقية بهذه القوة فتعيق تعبئة القوات الفرنسية . ثم انها تستطيع ان تقطع الصلة بين غرب البحر المتوسط وشرقه فتعرقل مواصلات بريطانيا مع الهند ان لم تقطعها بتاتاً

(فرنسا) — فلنلق الآن نظرة على موقف فرنسا . ان مواصلاتها في غرب البحر المتوسط ذات شأن عظيم جداً في نظرها لأنها السبيل المباشر من مرسيليا وطولون الى أوران والجزائر وتونس . فاذا شاءت ان تعبيء مليون جندي في ممتلكاتها في شمال افريقية وتنقلها الى فرنسا وكانت مواصلاتها في غرب البحر المتوسط مقطوعة او محفوفة بالخطر ، تحتم عليها ان تنقلهم عن طريق المحيط الاطلنطي ، فتضيع بذلك وقتاً ثميناً . فحرية المواصلات في غرب البحر المتوسط مسألة على أعظم جانب من خطر الشأن في نظر فرنسا . ومما يجب الاعتراف بهِ ان هذه الحرية تغدو معرضة لخطر عظيم في حالة نشوب حرب عامة تكون فيها أسبانيا وايطاليا ضد فرنسا

يقابل هذا ان فرنسا تحتل — في حالة نشوب حرب عامة — مواقع في البحر المتوسط

يمكنها من الهجوم على شبه الجزيرة الايطالية . فثمة أولاً الساحل الفرنسي القريب من ايطاليا ثم جزيرة كورسيكا التي مزّز من موقف فرنسا الحربي ازاء ايطاليا . ان المسافة بين كورسيكا وساحل توسكانا الايطالي ٨٤ كيلومتراً ، وبين كورسيكا وجنوى ١٥٠ كيلومتراً وبين كورسيكا وروما وميلانو وتوران ٢٠٠ كيلو متر . ولذلك يمكن القول بأن كورسيكا أصلح ما يكون مكاناً للشروع في الحملات الجوية التي تبغي فرنسا ان توجهها الى ايطاليا في حالة نشوب حرب . ثم يضاف الى ذلك موقع طولون في جنوب فرنسا وبيزرته في شمال افريقية . ومن هنا نتبين ان فرنسا لا تعوزها قواعد الهجوم على ايطاليا في حرب تكون فيها ايطاليا عدوة لها

ثم أن المسافة بين بيزرته وساحل صقلية الغربي قصيرة ، فاذا شاءت ايطاليا ان تستعمل جزيرة بانتلاريا لقطع المواصلات بين غرب البحر وشرقه في مضيق صقلية استطاعت فرنسا ان تعدل هذا العمل وتبطله من بيزرته وهي قاعدة بحرية وجوية عظيمة. واذا كانت ايطاليا تستطيع في بدء الحرب ان تقطع المواصلات البحرية في المضيق بين صقلية وساحل تونس فان وجود بيزرته يجعل استعمال ايطاليا لهذا المضيق متعذراً كذلك

أما (اسبانيا) فلا نزاع في ما لموقعها من عظيم الشأن . فساحلها يمتد من الشمال الى الجنوب على حدود البحر الغربية . ثم انها تملك جزائر البليار ومواقع عظيمة الخطر على الساحل الافريقي مثل مليلة وسبتة . فموالاتها لايطاليا والمانيا تتعب انكلترا وفرنسا كثيراً لانها تعرقل مواصلات فرنسا — كما بينا — وتنقص من قيمة جبل طارق كمفتاح لغربي البحر المتوسط . ومن هنا كان للحرب الاهلية الاسبانية ذلك المقام الخاص في دوائر السياسة الاوربية[1]

ثم كلمة عن (بريطانيا) . فالبحر المتوسط في نظرها طريق اقامت على سواحل خاصة منه الحصون لتأمينه . فثمة جبل طارق في الغرب ومالطة في الوسط . ثم أنها تحرس مدخل البحر من ناحيته الشرقية من مقامها الخاص في فلسطين ومصر. وقد بالغ الكتّاب كثيراً في ما كتبوه عن مالطه وسقوط قيمتها الحربية . ولكنها اذا كانت قد غدت غير صالحة تماماً مباءة للاسطول البريطاني كما كانت فانها لا تزال تصلح حصناً تثوب الى مرفأه الغواصات والطائرات فالهدف الذي تسعى اليه بريطانيا هو حفظ الطريق البحري بين جبل طارق وترعة السويس حرًّا فاذا حدث ما يقطع عليها هذا الطريق ، فانها تحول سفنها التجارية الى طريق الكاب

ثم ان للسياسة البريطانية هدفاً آخر في البحر المتوسط وهو المحافظة على مصالحها وعلاقاتها السياسية في الشرق الادنى

---

(١) راجع « الحرب الاهلية الاسبانية وصداها الدولي » مقتطف نوفمبر ١٩٣٦ صفحة ٤٧٥ — ٤٨٥

أما تركيا فلها شأن كبير في البحر المتوسط لانها تستطيع ان تتحكم الى حدّ بعيد بمخرجه الشرقي ، ولأنها تستطيع ان تمنع روسيا من التدخل في شؤونه بامتلاكها الدردنيل والبوسفور .
وأما آلمانيا وهي ليست من دول هذا البحر بحصر المعنى فتستطيع ان تبرز مقامها فيه اذا تحالفت مع ايطاليا وعندئذٍ فقد تؤيد حليفتها ببعض سفن بحرية من قبيل الغوّاصات او بعمل عسكري في البلقان يتجه الى اسطنبول وسلانيك
بقي أن نقول أن هدف (مصر) هو الاحتفاظ باستقلالها وهي في حاجة الى دولة كبيرة تحالفها فتحالفت مع بريطانيا لان مصالح البلدين من حيث حفظ السلام في البحر المتوسط واحدة

الاساطيل وبرامج الانشاء

ان الشروع في بناء الطراد الايطالي «امبيرو» في جنيف من عهد قريب، يعد خطوة جديدة في تجديد قوة ايطاليا البحرية في البحر المتوسط . وليس في وسع الباحث الا الانحناء باحترام أمام الجهد العظيم الذي بذل في تعزيز الاسطول الايطالي منذ تقلدت الحكومة الفاشستية أزمة الحكم،وذلك لتحقيق الهدف الذي ترمي اليه وهو المساواة بفرنسا التيما فتئت تطالب بها ايطاليا في المؤتمرات البحرية ثم حققها موسوليني في الواقع تقريباً . فالطرادات السبعة التي بنتها فرنسا — ويحمول كل منها ١٠ آلاف طن — ردت عليها ايطاليا بصنع سبعة مثلها من المحمول نفسه .
إلاّ ان ايطاليا نظرت الى موقعها الجغرافي الحربي فرأت انها لا تحتاج الى سفن حربية تصلح للمدى البعيد ، فاتخذت في بناء سفنها الحربية قاعدة خاصة بها فجعلتها اقل سرعة وأقصر مدى واستعملت فرق الوزن الذي كسبتهُ كذلك لجعل دروعها أكثف وأمتن
فنشأ عن ذلك انهُ اذا كانت ايطاليا تساوي فرنسا في عدد الطرادات التي يحمول كل منها عشرة آلاف طن فالرأي بين الخبراء ان الطرادات الايطالية التي بنيت ردًّا على الطرادات الفرنسية ، متفوقة لان الايطاليين استعانوا في بنائها بالعبرة والاختبار
وقد سعت الاميرالية الايطالية ان تتبع برنامج الانشاء البحري الفرنسي ، حذوك النعل بالنعل ، في جميع الاصناف الاخرى من السفن الحربية ، ولكنها كانت تسعى في كل ما تصنعهُ الى التحسين والاتقان على نحو ما فعلت في الطرادات

فالمدمرات الفرنسية التي يحمولها ٢٥٠٠ طن و٣٠٠٠ طن ردت عليها الاميرالية الايطالية بطرادات خفيفة من طراز «الكوندتييري» ويحمول كل منها يتفاوت بين ٥ آلاف طن و٦٧٠٠ طن
أما في الغواصات فتسعى ايطاليا الى مساواة فرنسا بل والى التفوق عليها عدداً . ولكنها أي ايطاليا تصنع غواصات أصغر حجماً وأخف وزناً من الغواصات الفرنسية . وسبب ذلك ان

البحر المتوسط وهو بحر داخلي لا يقتضي غواصات كبيرة تستطيع ان تسافر مسافات طويلة في المحيطات ، فهي في هذا البحر قريبة من قواعدها . ولذلك تفضل ايطاليا أن تزيد عدد ما تبنيه من الغواصات الصغيرة والمتوسطة . ويقابل هذا ان فرنسا تحتاج الى غواصات من الطبقة الاولى حجماً ومدىً لطول مواصلاتها البحرية الاستعمارية

ومع ان ايطاليا عمدت في البدء الى بناء السفن التي توافق خططها البحرية في بحر داخلي — اي السفن الصغيرة الحجم — الا انها عمدت بعد ان شرعت فرنسا في بناء البوارج الكبيرة من طراز الدونكرك والستراسبورج، الى الرد عليها بالشروع في بناء الطرادين الكبيرين فيتوريو فنيتو والليتوريو . وبدلاً من ان يجعل موسوليني محمول كل منهما ٢٦٥٠٠ طن جعل المحمول أقصى ما تسمح به معاهدة وشنطن وهو ٣٥ الف طن . وهو المحمول الذي سيتخذ قاعدة في بناء البارجتين الجديدتين من طراز البارجة « اميرو » التي تقدم ذكرها

ويمكن ان يقال على وجه من الدقة ان الاسطول الايطالي كان في اول يناير سنة ١٩٣٨ مؤلفاً من اربعة طرادات مجددة مجموع محمولها ٩٠ الف طن و١٩ طراداً منها سبعة محمول كل منها ١٠ آلاف طن و ١١٤ مدمرة وسفينة طوربيد و ٨١ غواصة

أما برنامج الانشاء البحري الذي أذيع فواسع النطاق وعند تمامه يصبح الاسطول الايطالي في البحر المتوسط قوة تحاذر[1]

يقابل القوة البحرية الايطالية في البحر المتوسط أسطولا الكتلة الفرنسية البريطانية ، أو ما تستطيعان ان ترصداه منها للخدمة في هذا البحر . فعلينا في المقام الاول ان نبين مجموع قوة الاسطولين ، ثم نشير الى القوة التي تستطيعان رصدها للخدمة في البحر المتوسط

كانت فرنسا في بدء سنة ١٩٣٨ متفوقة على ايطاليا في جميع اصناف السفن الحربية فمحمول سفنها التي لا تزال تحت مستوى التعمير وصالحة للقتال كان ٥٠٠ الف طن حالة ان محمول سفن ايطاليا المقابلة لها ٣٨٠ الف طن . ولكن فرنسا مهددة بخسران هذا التفوق

ولسنا في حاجة في مثل هذا الفصل الى التبسط في وصف العناصر التي يتألف منها الاسطول الفرنسي ويكفي القول انه في مجموعه متفوق على الاسطول الايطالي الآن. ولكن برنامج الانشاء البحري الفرنسي ليست على سعة كافية ولا سرعة وافية ولذلك ينتظر ان تلحق ايطاليا بفرنسا في سنة ١٩٤١ وتسبقها سنة ١٩٤٢ اذا لم توسع فرنسا نطاق برنامجها البحري وتزيد البناء سرعة

(١) يشمل برنامج الانشاء البحري لسنة ١٩٣٧ — ١٩٣٨ اثنتي عشرة (١٢) قائدة مدمرات و١٦ قارب طوربيد وعشرين غواصة . ثم أذيع في ٧ يناير اضافة طرادين (حمولة ٣٥ الف طن) واثنتي عشرة كشافة وطائفة من الغواصات الى برنامج الانشاء البحري وسيكون اسم الطرادين « روما » « وامبيرو »

ثم لننظر في الاسطول البريطاني . ان مجموع محمول سفنه يفوق المجموع الخاص بفرنسا وايطاليا معاً اذ يبلغ ١١٦٠٠٠ر١ طن وهي متفوقة خاصة في البوارج والطرادات الكبيرة وحاملات الطيارات . وموضع الضعف الوحيد في الاسطول البريطاني هو الغواصات . ولذلك يزعم الخبراء انهُ اذا عمل حساب لاسطول المانيا في البحر الشمالي ، ولمقتضيات الطرق الامبراطورية ، استطاعت بريطانيا وحدها ان ترصد للخدمة في البحر المتوسط اسطولاً يفوق الاسطول الايطالي . فاذا ضم اليه جانب من الاسطول الفرنسي كان التفوق حاسماً لا ريب فيه . اما ضعف الغواصات فهناك وسائل لمكافحتها تقلل من خطرها

ويضاف الى هذا ان برنامج الانشاء البحري البريطاني ضخم جداً وهو يبلغ وحده في مجموع محمول سفنه رقماً[1] اعلى من الرقم الخاص بمجموع محمول الاسطول الايطالي الآن ، ومتى تمّ بلغ مجموع محمول السفن في الاسطول البريطاني ٧٠٠٠٠ر١ طن وهذا عدا ١٢ سفينة مجموع محمولها ٦٣ الف طن أقر بناؤها ولكن لم يشرع فيه بعد

اما الاساطيل التابعة لاسبانيا ويوجوسلافيا واليونان وتركيا فلا شأن كبير لها بل ان شأنها صغير جداً ولا يذكر لان معظم سفنها صغيرة وقديمة . اما اسطولا روسيا والمانيا ، فالاول محصور في البحر الاسود وبحر بلطيق ولا يحتمل ان يكون له شأن اكبر من ارسال بضع غواصات الى البحر المتوسط . واما الاسطول الالماني في البحر الشمالي فجل ما يستطيعه ان يقف امام جانب من الاسطول البريطاني وما يؤيده من الاسطول الفرنسي في البحر الشمالي وليس في وسعه ان يرسل نجدة تذكر الى اسطول دولة حليفة في البحر المتوسط

الطيارات والقواعد البحرية

لا يتم البحث في موازنة القوى الحربية في البحر المتوسط الا اذا بينا ما للطائرات الحربية من مقام وتأثير في هذه الموازنة . والطائرات كعامل في تقرير القوى الحربية ينظر الى موضوعها من ناحيتين الاولى عملها في الاستكشاف واطلاق القنابل والثانية القواعد التي تستند اليها

اما الطائرات المستعملة في الاساطيل البحرية فهي نوعان ، نوع تحمله السفن وينطلق من سطحها ، وهذه السفن نوعان نوع خاص بحمل الطائرات ولا عمل له الا حملها والنوع الآخر هو السفن الحربية العادية التي تحمل عدداً يسيراً من الطائرات ولكن ليس لها سطح تتسع كما

(١) يشتمل برنامج الانشاء البحري الانكليزي على ستين سفينة مختلفة مجموع محمولها ٤٢٧ الف طن عدا السفن الاثنتي عشرة الاضافية

ترى في حاملات الطائرات الخاصة ، فتطلقها بالقذف الميكانيكي بجهاز يشبه المنجنيق القديم وقد اتخذ رداء جديداً

ففي هذا النوع من الطائرات نجد التفوق حاسماً للاسطولين البريطاني والفرنسي ولا سيما الاول الذي يعد بين سفنه سبع حاملات للطائرات

ثم هناك القوات الجوية المستقلة عن الاسطول والمستندة الى قواعد على اليابسة وفي هذا النوع يقر الخبراء بان التفوق في البحر المتوسط لايطاليا . وذلك لاسباب في مقدمتها ان سلاحها الجوي كبير وأصنافه كثيرة ثم لان كل سلاحها الجوي مجتمع في شبه الجزيرة الايطالية ، وله قواعد في مواقع غاية في الملاءمة للكر والفر . وقد يكون من الشاق أن توضع موازنة دقيقة بين عدد الطائرات التي تستطيع ايطاليا ان تجردها في حالة نشوب حرب وعدد الطائرات التي تستطيع فرنسا وبريطانيا ان ترصداها للبحر المتوسط ، وذلك لسهولة التنقيل والتبديل في أجهزة تسير بسرعة عظيمة كالطائرات الحربية . وإنما يمكن ان يقال ان ايطاليا متفوقة على فرنسا وبريطانيا في سلاح الطيران من حيث خطط الهجوم والدفاع مما يسهل على اسطولها عمله

هذا في مايتعلق بسلاح الطيران . وقد بقي علينا أن نجمل الكلام في ختام هذا الفصل على القواعد البحرية التابعة لدول البحر المتوسط المختلفة

وأول مايخطر للباحث الميزة التي تتمتع بها ايطاليا من حيث موقعها الجغرافي وهي امتدادها في وسط البحر المتوسط ، وما لها من قواعد بحرية متعددة يثوب اليها الاسطول للتموين والترميم اذا اقتضى الامر ذلك . ثمّ قرب هذه القواعد من مواقع المعارك البحرية المحتملة . هذه القواعد هي ترانتو عند كعب الحذاء الايطالي وسبيزيا وجنوى ونابولي على الساحل الغربي وتريستا وبولا في البحر الادرياتيكي ، ومسينا في جزيرة صقلية وقد أعد مرفأها اعداداً خاصاً ليكون قاعدة للغواصات تستند اليها الغواصات التي تقوم من نابولي وترانتو وبرنديزي . وفي صقلية قواعد أخرى منها تراباني وكاجلياري ، وهذه تصلح لقطع الطريق البحري بين غرب البحر المتوسط وشرقه

ثم هناك جزيرة بانتلاريا الصخرية الواقعة بين طرف صقلية الغربي وساحل تونس وهي تحصن الآن لتؤيد القواعد التي تقدم ذكرها في قطع الطريق البحري

وعلاوة على القواعد البحرية التي تملكها ايطاليا في وسط البحر المتوسط ، لها قواعد في شرق البحر ولاسيما في جزيرتي رودس وليروس في بحر ايجه . ثم لها طرابلس الغرب وبنغازي على ساحل لوبيا الشمالي ، ولكن ساحل لوبيا الشمالي مما يصعب الدفاع عنهُ وحمايتهُ

والخلاصة ان ايطاليا قوية بقواعدها البحرية في الوسط ، ضعيفة في الجناحين

يقابل هذا ان انكلترا وفرنسا لها قواعد لا تقل قوة ومنعة وحسن موقع جغرافي عن قواعد

ايطاليا . والميزة الاولى التي تتمتع بها بريطانيا هي قدرتها على ايصاد بابي البحر المتوسط في الغرب والشرق . فتصبح الدول التي تتوسط هذا البحر وكأنها اسيرة فيه . نعم ان منعة جبل طارق قد يهددها خطر من ناحية اسبانيا اذا كانت معادية لفرنسا وانكلترا . ولكن وجود فرنسا في المغرب الاقصى وقدرتها على استعمال اوران والمرسى الكبير يعزّز موقف انكلترا وفرنسا المنيع عند مدخل البحر من ناحيته الغربية

اما المدخل الشرقي أو بالحري المخرج فهو محكم الايصاد بوجود ترعة السويس وأعمال التحصين التي تقيمها بريطانيا في الشرق الادنى . وليس لمحالفة انكلترا مع مصر غرض أهم من الاشتراك معها في السيطرة على ترعة السويس عندما تقتضي الحاجة ذلك . ثم ان الاسطول البريطاني يستطيع الاستناد الى قواعد الاسكندرية وبور سعيد ومرسى مطروح ويضاف الى ذلك المرفأ العظيم الذي أنشيء في حيفا ، والمعدات التي تمد في مرفأ فاماجوستا بقبرص حتى يصبح قاعدة تصلح للطائرات والغواصات والمدمرات

واذا كانت ايطاليا قوية في القلب ضعيفة في الجناحين فانكلترا قوية في الجناحين ضعيفة في القلب . فليس لها في وسط البحر الأ مرفأ فاليتا في جزيرة مالطة . نعم ان مالطة فقدت بعض قيمتها الحربية لقربها من قواعد الطائرات الايطالية ، ولكن اذا حسبنا ان عمل قاعدة بنزرته الفرنسية في تونس يكمل عمل مالطة كان من الحتم علينا ان نقرر ان فرنسا وانكلترا اقوى في القلب مما كان يظن . ولعل بنزرته نفسها في أبدع موقع لقاعدة بحرية في البحر المتوسط كله . والحكومة الفرنسية تقوم هناك بانشاء حصون عظيمة الشأن ، وهي لقربها من سواحل ايطاليا الغربية تصلح أن تكون مقرّاً تقوم منهُ الحملات الجوية والبحرية على ايطاليا

هذا وان أجاشيو في جزيرة كورسيكا وطولون قاعدتان بحريتان عظيمتا الشأن وتكملان العمل الذي تقوم به بنزرته

ولذلك يمكن ان يقال بوجه عام ان القوات البحرية الانكليزية والفرنسية في البحر المتوسط والقواعد البحرية التي تستند اليها تمكن الدولتين من الاحتفاظ بمكانتهما البحرية المتفوقة فيه

والخلاصة ان مشكلة القوة البحرية وتوازنها في البحر المتوسط لا تقوم الأ في حالة نشوب نزاع بين ايطاليا من جهة وانكلترا وفرنسا من جهة أخرى . فاذا حدث ذلك فالتفوق لدولتي لندن وباريس الأ ان ايطاليا تستطيع بموقعها الجغرافي وطائراتها من قطع الطريق البحري بين غرب البحر وشرقه ما زالت لم تغلب على امرها

راجع مقال « البحر المتوسط في التاريخ » مقتطف فبراير ١٩٣٧ صفحة ١٦١ ومقال « مشكلة البحر المتوسط » مقتطف اكتوبر ١٩٣٧ صفحة ٣٣٧

مكتبة المقتطف

كتب قرأتها

صقر قريش

دراسة لحياة الامير عبد الرحمن الاول الملقب بالداخل مؤسس الدولة الاموية بالاندلس تأليف الاستاذ علي أدهم صفحاته ١٢٨ طبع مطبعة المقتطف

ما قرأت كتاباً في سيرة بطل من أبطال التاريخ ، أو عظيم من أصحاب الفتوحات ، الا وشعرت بانقباض الصدر من وحشية الانسان ومن تفجر روح الشر وانبثاث أصول الجريمة فيه ، وكثيراً ما قلت في سري ، ان روح الخير انما هو اسم لمسمى لا وجود له البتة في نفوس من تواضعنا على تسميتهم بالابطال والعظماء ، وان العظمة والمجد والخلود التي نضفيها ألقاباً مبجلة انما هي نتيجة ضعف في نفوسنا المريضة ، وصور للخوف والاستسلام والاستكانة للطاغية ، وكثيراً ما أعدت أسباب هذا الانقباض النفساني الى مؤلف سيرة البطل نفسه وقد ساقته همجية الحادثات معها ، ولم يقوَ على صد نفسه عن الانزلاق في وحشية الوقائع ، ولا تحرير عقله من التأثرات العاطفية ، فعرض موضوعه عرضاً أشعر القارىء انه يخب في برك من دماء مستنقعة حول القصور والمنازل ، ويموج في مباءات عامرة تتراكم فيها الاشلاء تنبعث منها روائح النتن ، والرمم يعلوها البلى والانحلال ، ومما لاحظت ان أنياب الجريمة والشر تبرز في نفس الطاغية الاديب أكثر مما تظهر في الطاغية الذي لا يحفزه خيال مبدع ولا يدفعهُ الى المغامرات سوى دافع حب المجد ، واشباع الانانية اشباعاً مطلقاً

قلَّ بين كتاب التراجم وسير الابطال من نظر الى روح أعمال الرجل العظيم قبل تدوين وقائعها ، والى ملاحظة نفسيته ودراسة عصره وبيئته دراسة عالم باحث منقب متجرد ، وعمل بحرية وجرأة على اظهار ظروفها وبواعثها ، ملابساتها وخفاياها ، مقدماتها ونتائجها ، وعلى شحذ عقل القارىء ليشترك معهُ في الموازنة والمقارنة ، والمفاضلة والعدل في الحكم له المترجم لهُ او عليه كما فعل مؤلف كتاب صقر قريش

لقد تناول صديقنا الفاضل الاستاذ علي أدهم بالبحث والدراسة شخصية من أبرز الشخصيات الاسلامية جمعت بين خيال الاديب الخالق ، والمصلح الاجتماعي ، والطامح الى استرداد ملك كان موطداً في سبطه وأرومته انتزعهُ منهم من هم أقوى وأقدر ، شخصية عبد الرحمن ، الملقب بالداخل ، المعروف عند سادة العرب بصقر قريش . وان في اصطفائه هذه الشخصية الشاذة ،

الجامعة بين الاشياء واضدادها ، الدالة على العبقرية بأوفر معانيها ومظاهرها ، ومحاولته الاحاطة بها من جميع جوانبها . وابرازه عناصرها الثمينة والخسيسة ، وخصائصها المكيڤالية البشعة وانسانيتها السمحاء ، وعظيم مقدرتها على القفز من الوفاء الى الغدر ، والانقياد والامتناع ، والكره والرضى وغير ذلك من الاضداد بدون ما ترنح او تذبذب ، وفهمه مثار الانفعالات النفسية فهماً لا تشوبهُ شائبة تشكك ، انما هو تجديد في أدبنا العربي في دراسة الشخصيات البارزة على أضواء أحدث العلوم العصرية

والعلوم الحديثة في الحركات التاريخية ، السائرة عفواً الى غاية مجهولة ، تسعى الى معرفة هذه الغاية والقبض على كل فكرة تتناثر عنها . وقد توسلت العلوم الحديثة باجلاء الغوامض ، وتبديد السحب ، وجعلت تاريخ الانسانية سلسلة من افكار توالت على الدنيا بدون انقطاع

ولظهور الفكرة التي تتناثر عن الغاية الكبرى طرائق عدة منها : « انبعاث الغريزة التاريخية طموح العظيم لتحقيق الفكرة » « والايحاء الى الافراد الذين نسميهم أبطال التاريخ واتخاذهم رواداً للفكرة وطلائع لها » فعبد الرحمن اذن من العظماء لانهُ حقق فكرة عصره ، وقام بأكبر مطالب زمنه ، وكان يخضع لعاطفة قوية مسلطة على الغرض الذي يتطلع اليه العصر ، فعبرة التاريخ ليست في الذرائع التي تذرع البطل بها ، بل في تحقيق الفكرة

« ومما يثير حبنا للابطال العظماء وعطفنا عليهم ، ان نهاية اكثرهم كانت اشبه بالمأساة ، فان الفكرة تنبذهم بعد تحقيقها » فكتابة سيرة البطل اذن ، ليست تأريخ ساعة مولده ويوم وفاته ، ولا معرفة مواقعه الحربية وغزواته جيرانه ، واستلاب الضياع ، وسبي النساء ، وكسب الابل والاتن والسائمة ، والتنكيل بالخصوم ، وذبح الآلاف من الاعداء ، انما هي نبش العلل التي سولت كل هذا ومهدت لتحقيق الفكرة الاصلاحية المرتكزة في ضمير البطل التي اوحتها مطالب العصر

***

كانت اسبانيا في ذلك الوقت مختلة الاحوال ، قد تطاول على اهلها الجور ، وتمادى بهم الشقاء « وكانت هناك اقلية من الاثرياء المستأثرين بالامتيازات والمنافع ، واكثرية مهملة مطرحة تعاني الفاقة والحرمان ، وكان اشراف الرومان ، وقد صدئت سيوفهم في اغمادها » اخذوا « يعيشون عيشة مترفة مخلدين الى الدعة متهالكين على اللذة »

زحفت قبائل البربر على اسبانيا ، فوجدت الطريق سهلاً معبداً ، فكانت هذه القبائل تسرف في السلب والنهب والتخريب ، فيئس الشعب من الخير والاصلاح ، لا يبالي أحكمهُ الرومان ام ساس اموره البرابرة . ثم توالت نكبات الحاكمين والمجتاحين ، واستحكمت العداوة

بين المغيرين الغاصبين ، فأودت بهم النكايات الى اقتراف الخيانة العظمى بالذهاب الى موسى ابن نصير حاكم افريقيا العربي ، يزين له الاندلس ، يغريه بخيراتها ، ويحفزه على غزوها والاستيلاء عليها

تفيأ الاسبان ظل حكومة عربية أبرّ بهم من سائر الحكومات السابقة ، وكان اكثر الحكام ينتسبون الى احدى الشعبتين الكبيرتين من العرب وهما قيس من اليمنية والمضرية ، وكانت سيوف هؤلاء العرب لا تغمد مرة الاَّ لتستل مرات من اقربها لتروي من دماء العرب انفسهم « ولو ساد التفاهم وتم الوفاق بين القيسية واليمنية ، لامكن اسبانيا ان تحظى بأيام مليئة بالصفاء بعد تلك الخلافات المتأججة والمعارك الحامية »

ظهر عبد الرحمن ، الدمشقي المولد وأمه بربرية في الوقت الذي تمت فيه كلمة العباسيين وأخذوا يتقبون أثر بني امية ويعملون فيهم القتل والتمثيل

فرّ عبد الرحمن الى افريقيا حيث نفوذ العباسيين هناك قليل الامتداد ، وهنا تبدأ رواية مسلسلة ، تامة الوحدة ، منسجمة الحبك ، سلسة السياق ، نضدها فكر الاستاذ علي أدهم واستخلصها من وعورة التاريخ وجفاف روحه ، فهدها ، فصيّرها لينة المسالك ، مقبولة المحضر ، لا تستكره العين مرأى الدماء المستباحة ، ولا تشفق على شعب عربي فتح الامصار ، ودوّخ الجيوش ، ونشر الدين الاسلامي ، وانتهى نهايتهُ المعروفة « لانهُ لم يكن شيئاً قد تمّ امتزاجه ، وكملت وحدته ، وتلاقت اهواءهُ » وان القارئ قد ينتحل الاعذار المسوّغة لظلم عبد الرحمن الداخل وقسوته « للفارق الكبير بين مزاج البربري النزاع الى عمق العاطفة الدينية ، يأخذ الدين مأخذ الجدّ الصارم ، ويوغل فيه بغير رفق ، وهو شديد الاعتقاد ، كثير التصديق لما وراء الطبيعة ، وبين مزاج العربي الذي لا يطيق الاسراف في الدين ، ولا يأخذه مأخذ الجدّ الشديد العبوس »

أجل ، لقد توفق الاستاذ علي ادهم بما له من مقدرة على تسليط اضواء عقله على كل حادث صعب او سهل ، والنظر اليه نظرة مجردة ، والموازنة بين المسائل المتخذة والنتائج المرتقبة ، والغايات والاغراض المرتبطة بالفكرة ، المتناثرة من الغاية الكبرى ، أقول قد توفق الى إطفاء حدة النزعة البشرية فينا التي ترى الواقع وتحس أثره في النفس وقلما تأبه الى البواعث والذرائع وتحقيق الغرض ، وجعلنا نقتنع ، بمقتضيات الحرص على النجاح ، وقهر الخصوم والاعداء ، انها هي التي جعلت صقر قريش لا يتعفف عن الغدر والخيانة ، ولا يتورع عن الدسيسة ، ولا يحجم عن الشدة المتناهية ، وهذا — في زعمي — من احسن ما بلغ اليه عقل عصري مستنير في المعرفة ، والتوضيح ، والتبسيط والاقناع . واليك نبذة من ذلك قال : —

« جاء عبد الرحمن الاندلسي طريداً قد شرّده الخوف ، واتعبتهُ المطاردة ، فلم يجد أمة موحدة القصد ، متحدة التقاليد متقاربة الاخلاق ، بل وجد على نقيض ذلك اخلاطاً من الامم ، وانماطاً متباينة من الناس ، فقد كانت اسبانيا عند دخوله خليطاً غريباً من بقايا الرومان والاسبان القدماء والقوط والنورمنديين والعرب والبربر ، لا جامعة قومية تربطهم ، ولا مصلحة مشتركة تعين على إدماجهم ، ولا عقلية متشابهة تسيطر عليهم وتسيرهم ، فكان جل مايرمي اليه ويعمل على تحقيقه هو ان يخلق منهم امة واحدة »

***

لم يكتف الاستاذ علي أدهم بتطهير حوادث التاريخ من روائح الدماء وتزويق صور الوحشية الآدمية فيها وتحويلها الى قصة سلسة ، تعلو فيها الجوانب الاصلاحية والاجتماعية على جوانب المجد الذاتي والانانية الفردية ، بل استخلص صوراً فنية من جوانب حياة عبد الرحمن الفنان » الجلاد الرهيب ، والسفاح المبيح ، المستطار الوجدان ، والمستفز العاطفة » وفرق بين طراز رجل العمل وطراز الشاعر — وكان عبد الرحمن اديباً شاعراً وخطيباً ومحدثاً — فقال مقالة جيتي شاعر الالمان الذي صوَّر الاول رجلاً ماثل الاغراض ، محدود القصد ، متزن الملكات . وصوَّر الثاني رجلاً عاجز الارادة ، تلعب به اهواؤه ، وتستعبده عواطفه ، فهو يسير بالحياة على غير هدى ، ليصل بعد استعراض سجاياه وخلائقه انهُ كان رجل عمل دنيوي كقومه الذين كانوا في الجاهلية أصحاب تجارة ، وفي الاسلام انتزعوا الملك بالحيلة والدهاء والعصبية المتماسكة ، وطالجوا صناعة الحكم ، ليقول بلباقة الاديب الحريص على ألاَّ يمس تفنّن الاديب وتحيزته ، إذا توفر الروح الادبي في الرجل الطموح ، فان الادب ، وسعة الخيال ، تدفعان به الى ركوب كل مركب تحقيقاً للغاية المجهولة التي تنثار عنها « الفكرة » لتستقرَّ في ضمير البطل العظيم فيحققها على أتم وجه وأكمل معرفة

والآن وقد تيسر لي بعض ما أود قوله في هذا الكتاب الذي أحسن صديقي الفاضل رئيس تحرير المقتطف جعله احدى هديتيه السنويتين الى قراء مجلته ان أدعو القراء الى الحرص على اقتناء هذه المتعة العلمية والتاريخية والفنية والافادة منها لانها زاخرة بالبحوث الناضجة ، والدراسات المختمرة ، وهي مثال لمن تحدثهم نفسهم في كتابة التراجم والنقد ، واستحثهم بنوع خاص على قراءة فصول فيه عنوانها « معيار البطولة ، والايام الاخيرة ، وعبد الرحمن الفنان ، وتقويم وتقدير » لان كل فصل على حدته خليق بأن يكون كتاباً بل قنية يستمد منها المتأدب والاديب

القاهرة حبيب الزحلاوي

أفاعي الفردوس

ديوان شعر لالياس أبي شبكة — ٩٢ صفحة من قطع المقتطف تقريباً — نشرته دار المكشوف طبع مطبعة الاتحاد في بيروت

كان للحرب العظمى أثرها في الافراد كما كان لها أثرها في الامم ، ولقد هزّت عروش الاخلاق كما هزّت عروش الملوك ، فزعزت في النفوس عقائدها ، وأطلقت الرغائب من عقالها ، وأصابت المُثُل العليا في صميمها . فخرج الناس على كل مألوف ، وطغت عليهم موجات الاستهتار فاندفعوا يقوّضون ما في طرائقهم ويحطمون ويثيرون ويبدّلون لا ترهبهم قوة ولا يصدهم خوف

وكما ان الحياة الاجتماعية قد تأثرت بهذه الثورات فقد تأثرت بها آداب الأمم الغربية كل التأثير فنشأ جيلٌ ثائر الذهن حادُّ الاعصاب صريحٌ كل الصراحة ساخطٌ قلقٌ متشائمٌ حرّ النزعة والفكر لا يقف عند حدٍّ ولا يهيب صعباً ولا يبالي بشيء

ولقد سرى تيار هذه الثورات من الغرب الى الشرق فكان تأثيره أشد وقعاً حيث أصاب الناس في روحانياتهم وجرف في طريقه كل ما قدّسوا وما حرصوا في المحافظة عليه ، فتغيرت الاذهان وتبدلت أساليب الكتابة وتنوعت موضوعاتها ، وقامت الصراحة في النفس مقام النفاق فانطلقت القرائح غير هيابة تطرق ما لم يكن لها ان تطرق وتكشف في جرأة كل ناحية من نواحي الحياة

لقد حالت هذه الخواطر في ذهني وأنا أقرأ ديوان « أفاعي الفردوس » الذي أخرجهُ للناس حمماً سائلاً شاعرٌ قويّ العاطفة مشبوبها قوي الشاعرية الى أبعد حدودها تحسّ في أحرفه النار تلفحك ، وتشعر في جوه بالهامات صاعدة هابطة لا تنقطع زمرها . صريحٌ فيما يهاب الناس الصراحة به ، مصورٌ للثورة العنيفة التي تجتاح نفوس الشباب أروع تصوير ممزّقٌ للقناع الخادع والمظهر المنافق : ذلك هو الياس أبي شبكة شاعر لبنان او بودليره بأدق تعبير

قد تناول شعراء العربية تصوير الحياة البوهيمية في احضان الشهوات ولقد ترك لنا ابو نواس على الاخص اكبر أثر لذلك على ان هذا التصوير حسيٌّ محض يندفع من الجسد الى الجسد في انحطاط وزراية ولا يسمو الى الروح أو يشتعل بحرارتها ، ولا يعبر عن الثورة في النفس بين عوامل الخير والشر ، لا يعنى بالجوهر قدر ما يعنى بالعرض ، ولكن « افاعي الفردوس » يعبر عن كل هذا . ففي قصيدة « القاذورة » اروع صورة للحياة المضطربة الحائرة في ظلمة رغباتها اذ يقول :

فطوّفت في غمر من الليل ، والخنا يعربد والارجاس ترغي وتزبدُ
والحلي الغالي نشيش ورغوة كأن الورى مستنقع يتنهدُ

وأغمدتُ في صلب الدجنة ناظري وفي كل جفن لي من الهدب مبردُ
فأبصرت اطباقاً تُعمّدها يد أصابع من عظم ، وتصبغها يدُ
صباغ بفور الخزي منهُ ملاصقاً اذا علقت فيها النواظر تجمدُ
وشاهدت في الاطباق مفسدة الورى تمور بها الديدان سكرى تعربدُ
هم الناس في الدنيا تهاويل حنّطت بكيتُ عليهم في جحيمي وعيّدوا
وما هذه الدنيا ، يذرّى رمادها لريح الفنا ، الاّ جحيم مرمّدُ
تلاشت بها النيران غير بقية تشبُّ ، لها في شهوة الطين موقدُ
ففي طبق مستنقع في صقيعه نمت حشراتٌ فاجرات توقّدُ
اسامة أقلت في الصدور مراضعاً على فمها الورديّ للاثم مَوردُ
مراضعها فطساء فهي ضفادع على ما بها من شهوة النار تجلدُ !

وان قصيدته « سدوم » لمن أروع ما كسب الشعر العربي . وفيها تصوير لمظاهر الاتفاق بين الحياة المستهترة في مدنية العصر والحياة المستهترة يوم صب الله على سدوم نار غضبه فأطلقتها لهباً وسعيراً . وفيها يهتف ساخراً :

مغناكِ ملتهبٌ وكأسك مترعهْ فاسقي أباك الخمر واضطجعي معه
لم تبق في شفتيك لذات الدما ما تذكرين بهِ حليب المرضعه
قومي ادخلي ، يابنت لوط ، على الخنا وازني فان أباك مهّد مضجعه
ان ترجعي دمك الشهيّ لنبعه كجدول في الارض راجع منبعه
لا تعبأي بعقاب ربك انهُ جرثومة من نارك المتدفعه
في صدرك المحموم كبريت اذا لعبت بهِ الشهوات تجر أضلعه
في صدرك الدامي مناجم للخنا أورثتها نار الذراري المزمعه

الى ان يقول : —

أسدوم هذا العصر لن تتحجبي فبوجه أمك ما برحت مقنّعه
كانت منكّرة كوجهك عندنا هبّت عليها من جهنم زوبعه
قذفتك صحراء الزنى بحضارة ثكلى مشوّهة الوجوه مفجّعه
بؤر مستّرة الفساد بخدعة نكراء بالخزّ الشهيّ مرقّعه

ثم استمع الى التصوير الدقيق للثورة الجامحة أو التطاحن بين الروح والجسم وقد بلغ الشاعر في تصويره هذا الى ابعد حدود الدقة والتعبير تطاوعه الفاظ مصهورة في اتون هذه العاطفة المشبوبة :

اسلية الفحشاء نارك في دمي فتضرّمي ما شئت ان تتضرمي

أنا لست أخشى من جهنم جذوة ما دام جسمي، يا سدوم، جهنمي
طوَّفتِ بي ميتاً بأروقة اللظى فحملتُ تابوتي وسرت بمأتمي
وعصبتِ بالشبق المجمّر جبهتي فرفعتها في عصريَ المتهكم
علمتني لغـة النبوءة عندما فجرت الغام السموم بمنجمي

وكذلك في قصيدته « الشهوة الحمراء » صورة لهذا النضال وان كانت هادئة النفس محطمة الآمال يائسة يهتف فيها بحسرة ومرارة

لقد نعبتُ من الاحلام في جسدٍ ملَّ العفاف بألوان من الألم

أما قصيدتهُ « شمشون » فمن خالدات قصائده ، وفيها يصوّر لنا ثورة شمشون وهو يهتف بدليلة عند ما امسك بأعمدة الهيكل ليقوضهُ :

وارقصي انما البراكين تغلي تحت رجليك كالجحيم النذيرِ
اصبح الليث في يديك اسيراً فاطرحيه سخرية للحمير
واجعلي الفل رمز كل صريع واليواقيت رمز كل غدور
ان اكن سقت في غرامك شراً فالبرايا مطيـة للشرور

اما قصيدة «الصلاة الحمراء» فهي اغنية القلوب التي أثخنتها الجراح وحطمتّها الايام بعد أن عصرتها الليالي ، او هي انشودة الروح اذا خلصت من احضان المادة

وكذلك في قصيدة «الدينونة» و«الطرح» تحس التسامي وتحس الوصول الى التحرر كما تحس المرارة التي تلازم الروح بعد حلاوة النشوات الاولى وبعد ان تبلوَّ الحياة

ان ديوان « افاعي الفردوس » لجدير بالحياة لانه صوت للحياة لا رياء فيها ولا تزويق ، ولا خداع فيها ولا تهويل . وهل هناك ما هو اصدق من هذا البيت لشاعرنا ابي شبكة في تصوير العالم الدنيوي ، وهو :

طريقه الشك — أنى سار — يملكه وحلمه الشهوات الحمر والقرب !

حسن كامل الصيرفي

عصفور من الشرق

حين كتب الاستاذ توفيق الحكيم «عودة الروح» و «اهل الكهف» و«شهرزاد» اطمأن محبو الادب الى ما كتب راجين ان يكون همزة الوصل بين ادب الغرب وأدب العرب . وقد عرض في كتابه الاخير «عصفور من الشرق» لمشكلة «الشرق والغرب» . وأنت لن تعدم في الكتّاب الغربيين انفسهم من قام على نقد النظم الاجتماعية والاقتصادية التي يقوم عليها المجتمع الاوربي الحديث نقداً قوياً لاذعاً يمهد لقيام الثورات احياناً . أما الاستاذ توفيق الحكيم فانه

اراد ان ينقد هذه النظم الغربية بعين « الشرقي » فصور لنا مصريًّا في عهد الشباب يعيش في قلب العاصمة الفرنسية . يغشى الكنيسة فيؤخذ بروعة الخشوع والصلاة ويعجب كيف يدخل الاوربيون الكنيسة كما يدخلون المقهى دون اعداد خاص . ويغشى المسرح فيعجب برواية «الارلزية» ، وأبهاء الموسيقى فيعجب بسنفونية « بتهوفن » الخامسة اعجاب صديقه الروسي «ايفان» بشراب « الفودكا » وتلستوي او أشد ولكنه يأخذ على الحاضرين وعلى الهو الاغراق في البذخ والاسراف في الترف اسرافاً لا يتفق مع التجرد وروحانية الفن

وقد أحبَّ « محسن » فكان في حبه على أشد ما يكون حياء الشرقي وخياله حتى اذا أخفق في حبه أو غررت به من يحب أخذ يجتر ألمه وانقلب ساخطاً لا على نفسه وانما على الغرب ومدنيته . ولعلَّ هذا الاخفاق في الحب قد جعل من « محسن » « عدوًّا للمرأة »

وماذا يأخذه محسن على أهل الغرب ؟ ان صديقه أندريه الذي يعمل في المصنع ثماني ساعات في اليوم ويشعر انهُ عبد رق ثم هو يأكل لحم البقر ويختلف الى المقاهي والمسارح ويأكل ابنه « الجاتو » وتتكفل الدولة بتربيته ان لم تستطع أمهُ تعهده في المنزل ، لهو دون شك أسعد حظًّا في حياته من الفلاح المصري أو العامل المصري . وغريب ان يذكر « محسن » من أحوال الشرق في معرض المقابلة جلوس « سليم » الساعات الطوال ليلمح طرف ثوب حبيبته ولا يذكر شقاء الفلاح وبؤس العامل . ويستمع العصفور الى أحاديث صديقه الروسي عن أديان الشرق وأنبيائه ومذاهب الغرب وزعمائه فيخرج من ذلك كلهُ بأن الشرق قد حلَّ مشكلات المجتمع الكبرى حين جعل مملكة السماء من نصيب البؤساء في هذه الارض كأن هذا الشرق الروحاني لا ينوء بمشكلاته التي كادت تذهب بروحه . الاَّ ان الشرق لأجدر بالبكاء اذا جاز للغرب ان يرفع عقيرته بالشكوى

واذا تركنا الموضوع الى الشكل فالكتاب فصول متتالية تجمع بينها هذه الفكرة الغالبة عن روحانية الشرق ومادية الغرب ، وهو ليس قصة كاملة لها عقدة تأخذ في سبيل الحل الى خاتمة حاسمة

وبعد فهذا العصفور يردد في براعة ما يسمع من الناس فأنت لا تدري أثائر هو أم قانع ومتمرد ام مبتكر ومتفائل أم متشائم . ولو قدر لهذا العصفور ان يتحدث بلسان من ألسنة أهل الغرب لما كان في حديثه جديد على أهل الغرب . ولو انهُ تحدث الينا وفصل الحديث عن هذه الازمة النفسية وألوانها الدقيقة التي يحسها الشرقي المتشبع بشرقيته الروحانية اذا انغمر فجأة في الغرب وحضارته المادية ثم تتبع هذه الازمة الى نهايتها من رجوع الى احضان الشرق ، او احتماء بالتصوف ، او تشكل على غرار الغرب يختلف من حيث سرعته وبطئه او شدته وضعفه — لو انهُ فعل لجاء في حديثه بالجديد الطريف على أهل الشرق والغرب ولعل

الاحتماء بالتصوف هو السبيل الذي يضطر الى سلوكه أدباؤنا اذا خيب المجتمع او الواقع آمالهم. فلم يثبت منهم أحدٌ الى الآن لنقد المجتمع المصري ومهاجمته في كافة نواحيه الخلقية والسياسية والاجتماعية فهم سرعان ما يستولى اليأس على نفوسهم ولا يتمثلون بالابطال من كتّاب الغرب فينعكفون في عالمهم الداخلي لا يخرجون منهُ الاَّ لماماً . وهو سلوك لا يحمد لأدبائنا ولا سيما من كان منهم على صلة وثيقة بالحضارة الغربية ولا يتفق مع الرسالة السامية التي يؤديها الكتّاب للوطن والمجتمع على أننا نحب ان يكون لهذا العصفور من الشرق صِنوٌ «وعصفور من الغرب »

« صقر دمث »

في الفنون الاسلامية

للدكتور زكي محمد حسن — مطبوعات اتحاد أساتذة الرسم قطع متوسط — عدد صفحاته ١٠٨ — مطبعة الاعتماد

لئن كانت الفنون الشرقية قد اسدل عليها ستار من النسيان ردحاً من الزمن الاَّ اننا نراها اليوم تعود سيرتها الاولى من النمو والانتعاش

وردت هذه العبارة في الكلمة التي كتبها رئيس اتحاد اساتذة الرسم صاحب العزة الاستاذ احمد شفيق زاهر بك تصديراً لكتاب «في الفنون الاسلامية» للدكتور زكي محمد حسن امين دار الآثار العربية الذي صدر في صيف هذا العام . فعلى عاتق من يا ترى تعود اليوم الفنون الاسلامية الى سيرتها السابقة الاولى كما كانت في عصور الامويين والعباسيين والفاطميين والسلاطين والماليك

لا شكَّ في ان الفنون الاسلامية بعثت في خلال القرن الماضي على عاتق رجال الفن والاستشراق الالمان والفرنسيين والانجليز . وهي تهب اليوم من مرقدها على عاتق علمائنا النابهين الذين تذوقوا الفنون الاسلامية وأخذوا في دراستها والبحث عن جمالها الغامض والتنقيب في آثارها . ونحن نرى في طليعة الركب بين هؤلاء العلماء العاملين والمتحمسين لخلق ثقافة للفن الاسلامي في مصر — الدكتور زكي محمد حسن أستاذ الفنون الاسلامية في معهد الآثار الاسلامية بالجامعة المصرية والذي يعرف آثاره العلمية قراء المقتطف والمتصلون بالحركة العلمية في مصر

والحق ان دار الآثار العربية أصبحت على رأس المتاحف التي تقوم برسالتها العلمية خير قيام بفضل عملها على نشر الثقافة الفنية بما تصدره من مؤلفات علمية جعلتها محط رحال المشتغلين بالآثار الاسلامية في الشرق والغرب . ومن حسن الحظ اننا نقرأ بين كل حين وآخر عن كتاب في الآثار والفنون الاسلامية يخرجهُ الدكتور زكي أو محاضرة في الموضوع نفسه يلقيها الدكتور زكي او مقال ينشره هو أو بعض زملائه المتحمسين القليلين . . . .

والكتاب الذي نحن بصدده اليوم صورة لما يجب ان يعرفهُ كل متذوق للفن الاسلامي عن نشأته وتطوره . ففيه يتحدث المؤلف عن نشوء الفن الاسلامي وانتشاره وأساليبه المختلفة في البلدان التي عم الاسلام فيها : — من طراز اموي الى طراز عباسي الى طراز اسباني مغربي الى طراز مصري سوري فطراز فارسي فتركي فهندي ....

وبعد ان تكلم المؤلف عن ميزات كل طراز انتقل الى وصف عناصر الزخرفة الاسلامية واهمها الصور الآدمية والحيوانية والرسوم الهندسية والزخارف النباتية والزخارف الخطية

وذكر المؤلف بعض خواص الفنون الاسلامية كما درسها على ضوء المخلّفات الفنية في المتاحف او الحفريات فذكر من هذه الخواص كراهية الفنان المسلم للفراغ وحبه للزخارف المسطحة وتكرار الموضوعات الفنية . . . الخ . ويشتمل الكتاب على ثلاثة وخمسين لوحة تمثل الفنون الاسلامية في الصور المختلفة كالخزف والنجارة والنسيج المطرز والتجليد والزجاج والقاشاني . . . الخ

وقد طبع هذا السفر النفيس طبعاً متقناً على ورق مصقول مما زاد في رونق الكتاب وبهائه فلا يفوتنا ان نقدم الى اتحاد اساتذة الرسم — وعلى رأسه الاستاذ الجليل احمد شفيق زاهر بك — وافر الشكر على عنايته بالعمل على تشجيع الدراسات الفنية وان نتمنى ان يكون التوفيق حليفه وان تكلل جهوده بالنجاح فيكون هذا الكتاب فاتحة سلسلة طيبة في الفنون

« عبد الرحمن »

ابن سينا الفيلسوف

تأليف الاب بولس سعد — طبع بمطبعة الاتحاد على السور بيروت ١٩٣٧ في ١٣٦ صفحة قطع متوسط

نشر هذه الرسالة الاب المحترم بولس سعد عن « ابن سينا الفيلسوف » وابتدأ الكتابة بحديث عن بيئة ابن سينا وما للبيئة من اثر في تكوين الفرد الى ان قال « ولقد اقر علماء البيولوجية على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم ان للبيئة في حياة ابناء آدم اثراً بالغاً ... » وفي هذا الفصل ذكر تنافس الفرس والعرب والاتراك وما لهذا التنافس من أثر في حياة ابن سينا . وفي الفصول التالية ذكر نبذة مفيدة عن حياة ابن سينا من الوجهة العامة والخاصة . ثم ابن سينا العالم ومباحثهُ في المنطق — طبيعيات — النفس — العلة والمعلول — ونبذة عن الوجود الالهي وآراء هذا الفيلسوف العظيم او ارسطو « الاسلام » كما سماه المؤلف الفاضل ، في خالق الكون وآرائه عن حدوث الكون وكيف ثبت والعناية الالهية وفي الفصل الاخير اورد نبذة عن سياسة ابن سينا بين السياسيين

لقد تصفحت هذه الرسالة النفيسة فوجدتها سفراً مفيداً كاملاً عن حياة وآراء الفيلسوف الايراني الاكبر في مختلف المباحث الفلسفية والطبيعية والالهية ونحن نشير على قرائنا الافاضل الذين

لم تسمح أوقاتهم بمطالعة ما كتب عن ابن سينا في مختلف الكتب ان يغتنموا هذه الفرصة السعيدة لمطالعة هذه الرسالة التي تبحث أطوار حياة ابن سينا وما أسداه من خدمات للعلم والفلسفة

« زادة »

علم النفس في الحياة

تأليف ماهر ترجمة نظمي خليل ١٤٠ صفحة — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

أصدرت لجنة التأليف والترجمة والنشر أخيراً كتاب علم النفس في الحياة الذي نقلهُ الى العربية الاستاذ نظمي خليل وقدم لهُ الدكتور عبد العزيز القوصي فقال :

« كان علم النفس قبل الخمسين السنة الاخيرة فرعاً من فروع الفلسفة ، يتخير الباحث فيه المكان الهادىء فيسند رأسه الى يده ، ويطلق العنان الى فكره يحاول ان يهتدي الى موضع العقل أو يقف على خواصه وصلته بالروح وعلاقته بالجسد ، او بجزء منهُ وهو المخ . وهكذا يترك الباحث عقله يضلّ في شعاب التفكير على غير طائل ، فيدور في دائرة صغيرة مقفلة لا يعرف اولها من آخرها ، وقد يصل الى أشياء يخيل اليه انها صحيحة فيأخذ بها ويطمئن اليها ، حتى اذا ما جاء باحث آخر وسلك بعقله طريقاً مغايراً للطريق الاول ، وصل الى أشياء مخالفة للاولى كل المخالفة

« ظلّ الامر على هذه الحال حتى قرب نهاية القرن الماضي فتغيرت نظرة العلماء الى علم النفس وتبع هذا تغيير كبير في طريقة البحث والاستقصاء . فبعد ان كانوا يبحثون في خواص العقل والنفس بدأوا يبحثون في مظاهر سلوك الانسان في الحياة

« ولقد ظهرت كتب عدة تعالج هذه الناحية التطبيقية الهامة في حياة الانسان من بينها هذا الكتاب الذي شمل على صغر حجمه ميادين واسعة من الناحيتين النظرية والتطبيقية ، وعالج هذه المشاكل البارزة التي تكتنف حياة جميع الافراد — رجالاً كانوا او نساء — بلغة تجمع بين القوة والجمال ، وطريقة تجمع بين الاسلوب العلمي الهادىء ، وبين العرض الادبي الاخاذ

« يبدأ الكتاب بالتحدث عن الاسس الاولية التي تتكوّن منها الشخصية ثم طريقة هذا التكوين ، ثم يعرض الى وسائل تنمية العادات الطيبة واستئصال العادات الضارة ، ويتخلل هذا الكثير من التفسيرات الصحيحة لغرائب السلوك عند الكبار والصغار ، فهو يفسر لنا سلوك من نقابل من إخوتنا واطفالنا وأصدقائنا وتلاميذنا وأزواجنا ورؤسائنا ومرءوسينا ، كما يفسر الكثير من سلوكنا الخاص وما يدخل في هذا السلوك من القوى والدوافع ، شعورية كانت او لا شعورية ، فطرية او مكتسبة . ولا ريب ان هذا النوع من المعرفة يجعلنا اقدر على التعامل مع غيرنا ، ويجعل حياتنا اكثر احتمالاً ، وسعادتنا أقرب منالاً

وخلاصة القول ان هذا الكتاب الصغير يفيد كل قارئ، رجلاً كان او امرأة، مهما اختلفت درجة ثقافته. فنقدمه الى القراء، راجين منه النفع، وراجين من الله المدد الكبير »

مؤتمر المستشرقين

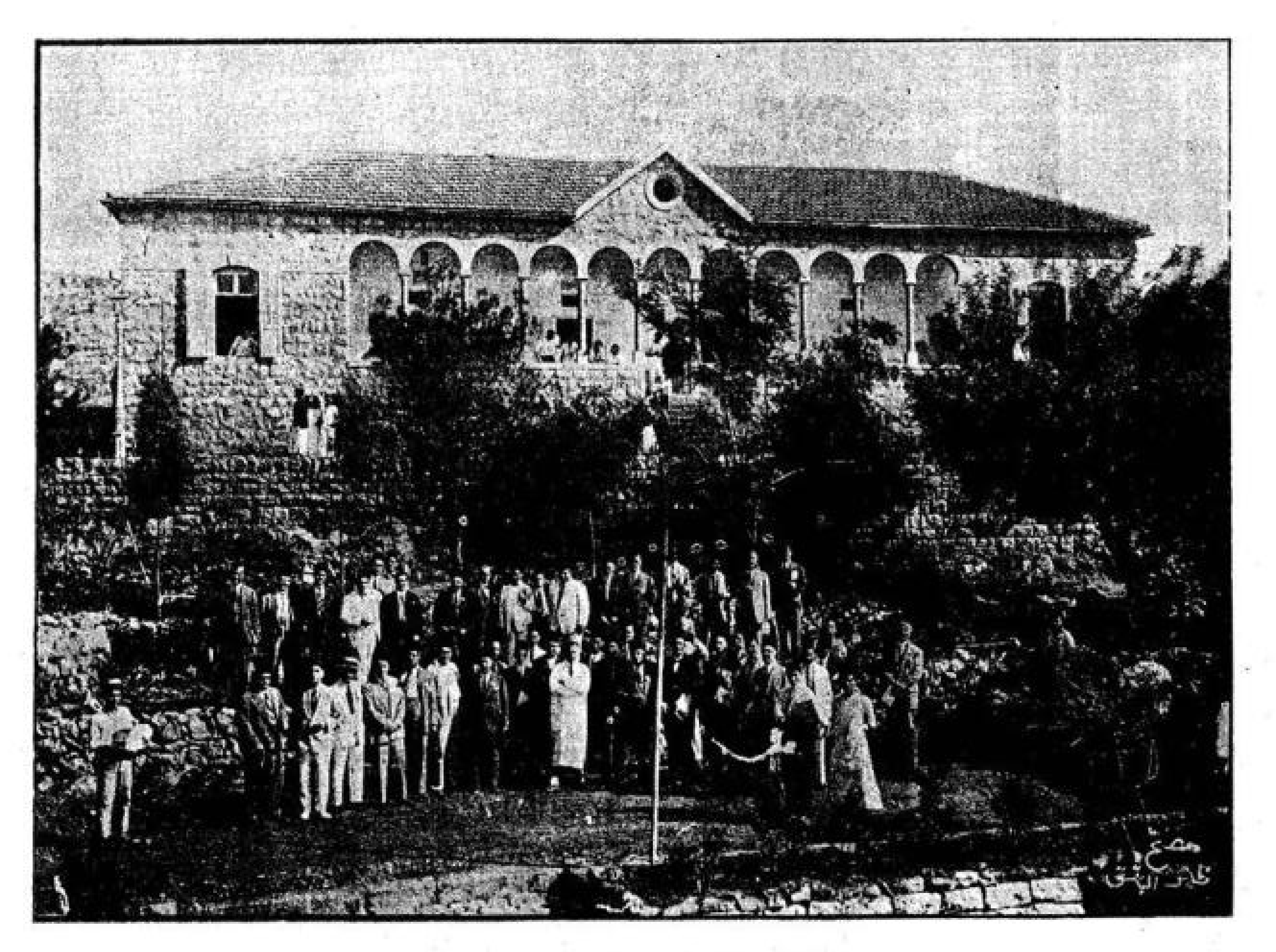
العشرون

أهم ما تلي فيه من المحاضرات

[تابع المنشور على الصفحة ٤٨٤]

« كتاب الامتاع والمؤانسة » للاستاذ احمد امين (من مصر) . (وصف المحاضر هذا الكتاب وهو مخطوط مخزون في الخزانة الزكية لاحمد زكي باشا وذكر السبب الذي من أجله ألفه ابو حيان التوحيدي وقال أن لجنة النشر والتأليف والترجمة ستخرج الجزء الاول منه بعد اشهر معدودات) — « ثلاث مخطوطات » للاستاذ عزام (من مصر) . وصف المحاضر هذه المخطوطات الثلاث وهي في التاريخ والادب والشعر وترجع الى عهد المماليك) — « تعاون الشرقيين والمستشرقين على دراسة الادب العربي » للاستاذ شاده من (المانيا) . (ذكر المحاضر الشرقيين الذين عضدوا علماء الاستشراق في مباحثهم سواء بالتدريس او تأليف المعاجم وكتب قواعد اللغة أو نشر المؤلفات القديمة أو تدوين فهارس خزانات الكتب) . « مجرى الادب العربي في مصر لسنة ١٩٣٨ » للدكتور بشر فارس (من مصر) — (بسط المحاضر من باب التوطئة للمحاضرة الطريقة التي يجري عليها في نقد التآليف الادبية فقال انهُ ينظر الى هذه التآليف من الجانب الاجتماعي ليلمس مقدار الازمة المعنوية والثقافية والاخلاقية التي يعانيها الآن الشرق العربي وفي طليعتهِ مصر . ثم نقد على هذا الاسلوب ستة كتب ظهرت هذه السنة في مصر وهي « في منزل الوحي » و « على هامش السيرة » و « سارة » و « في الطريق » و « سندباد عصري » و « عصفور من الشرق » — « دراسة تآليف الكندي الصميمة ونشرها » للاستاذ جويدي (من ايطاليا) (أخبر المحاضر ان طائفة من تآليف الكندي تنشر الآن في مجلة علمية في روما مع دراسة وافية لها)

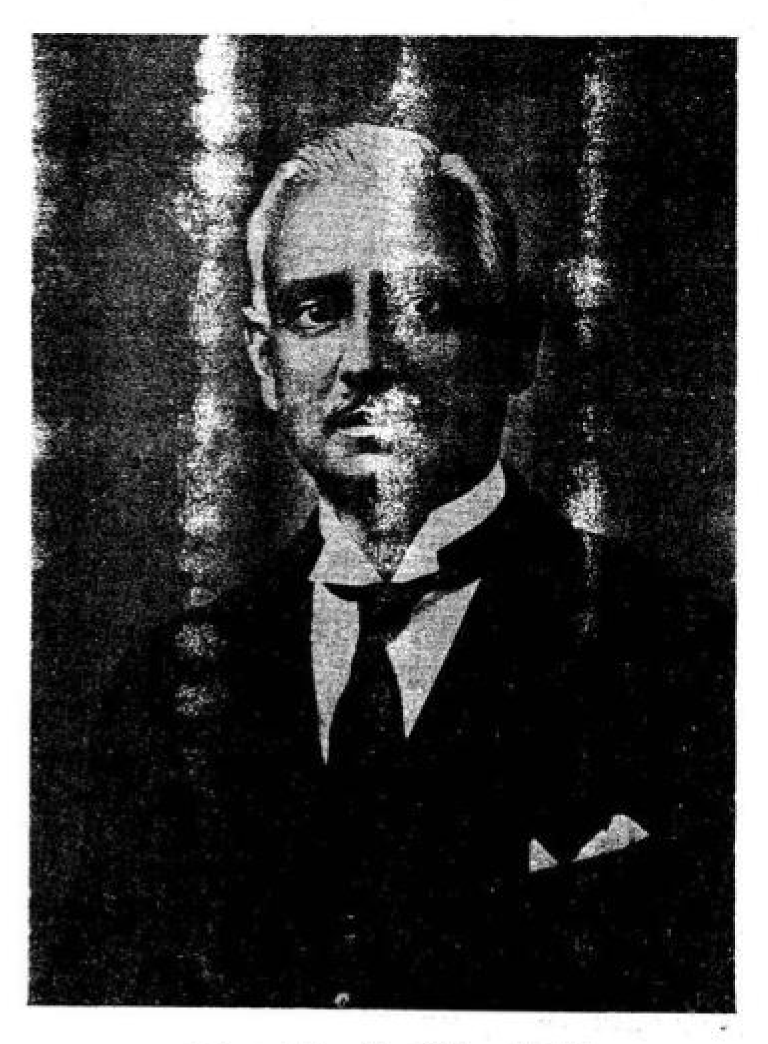
القسم التاسع — « بعض الديارات المصرية بحسب مخطوط الشابُشتي : كتاب الديارات » للاستاذ عطية (من المانيا) — « المظاهر الاولى للحماية الدولية للاقليات الدينية » للاستاذ سفريادس (من أثينا) — « النصوص الجديدة للأدب القبطي الفيومي » للاب سيمون (من ايطاليا » — « حول التاريخ الأقدم للخط القبطي » للاستاذ جودمان (من المانيا)



وفد من المؤتمر الطبي المصري الملتئم في بيروت يزور المصح

بناية وقف السيدة ازابل بشرى في مصح ضهر الباشق

أحدى غرف المصح



العالم الهندي الدكتور السر شاه محمد سليمان



صديقي ! ...

للكاتب الالماني الشهير آرثر شنيتزلر

Arthur Schnitzler

نقلها : ازاك شموش

شهوة الموت

من ديوان (أغاني الفردوس)



توازن القوى البحرية

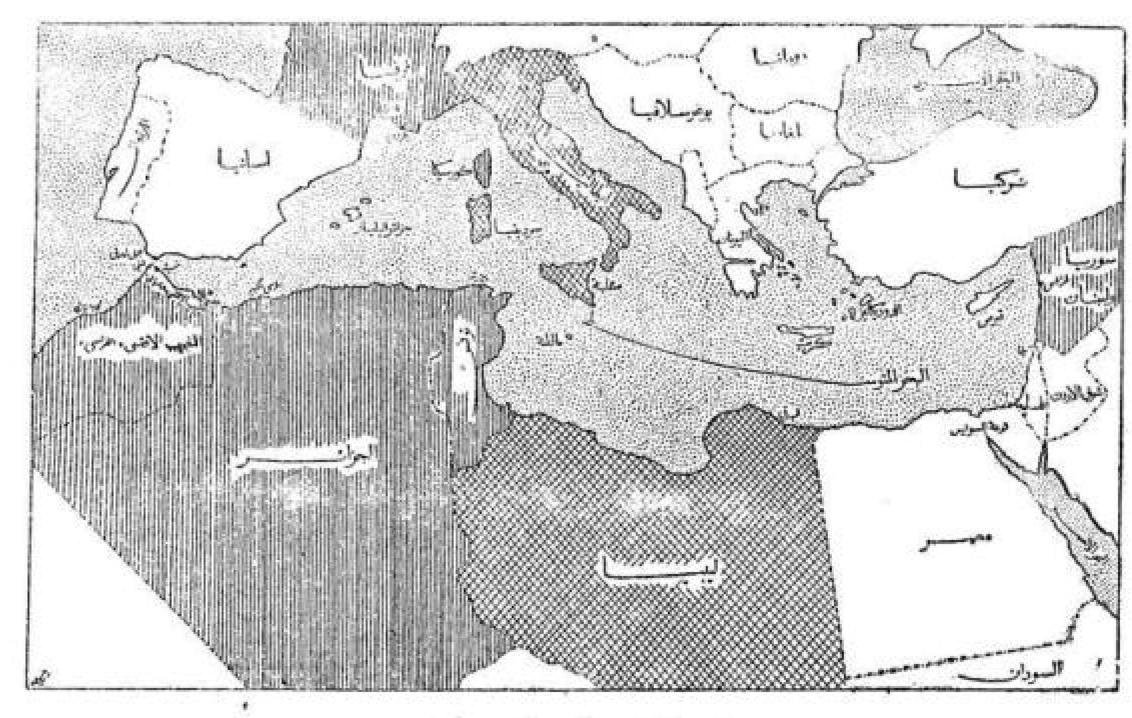
في البحر المتوسط

الوضع الجغرافى

الاهداف الاستراتيجية

الاساطيل وبرامج الانشاء

الطيران والقواعد البحرية



خريطة للبحر المتوسط وسواحله

فهرس الجزء الرابع

من المجلد الثالث والتسعين


المقتطف





الجزء الخامس من المجلد الثالث والتسعين

١ ديسمبر سنة ١٩٣٨ — ٩ شوال سنة ١٣٥٧

حصاد الصيف

في حقول العلم

١ — أتوار النبات

لحياة النبات صلة وثيقة بحياة الحيوان . بل ان حياة الحيوان بوجهٍ عام تعتمد في آخر الامر على عالم النبات . فنمو النبات موضوع عني بهِ الانسان عناية متغلغلة في الماضي . وقد كانت مباحثهُ تنصرف في الغالب الى دراسة العوامل الخارجية التي تؤثر في النمو كالضوء والحرارة والسماد . فوجد الباحثون لكل نبات درسوه حالة معينة هي مزيج من هذه العوامل تتيح لذلك النبات أقصى النموّ . ولكن اذا أحطنا نباتاً بالعوامل الخارجية المتباينة التي تتيح لهُ أقصى النمو، وجدنا مع ذلك عوامل داخلية تؤثر في ذلك النموّ ، فلا نستطيع ان نسيطر على نمو النبات إلاّ اذا عرفنا هذه العوامل وكيف تؤثر فيهِ

وقد تقدم هذا البحث تقدماً يذكر في السنوات العشر الاخيرة . فكشف العلماء أن في تركيب النبات مواد كيمياوية تضبط نموَّهُ على نحو ما تؤثر مفرزات الغدد الصم كالنخامية والدرقية والكظرية وغيرها في ضبط نموّ الانسان . والى القارىء جانباً من الاسلوب العلمي التجريبي الذي جرى عليه العلماء في دراسة هذه الناحية من نمو النبات . وجلُّ هذه التجارب قام بهِ جماعة من علماء الفسيولوجيا النباتية في معهد كاليفورنيا التكنولوجي

ولعلّ خير ما نبدأ بهِ البحث في هذا الموضوع هو التدقيق في تمييز كلمة هرمون hormone (تَوْر) عن كلمة فيتامين vitamin

فمن نحو ستين سنة قام عالم يدعى ساكس Julius Sacks وهو المعروف بلقب (أبي فسيولوجيا النبات) فذهب الى ان تأثير جزء من نبات ما في أجزاء أخرى من ذلك النبات وتنسيق أعمال الاجزاء المختلفة يجب ان يسند الى مواد كيمياوية معينة في النبات نفسهِ. وكان الاساس الذي استند اليه في مذهبهِ هذا أساساً نظريًّا. ومما قاله ان مقادير هذه المواد في النبات صغيرة جدًّا ولكنها مركزة. وميَّز بين هذه المواد والمواد الاخرى التي تعتبر غذاءً ومقاديرها في أجسام النباتات كبيرة

وبعد ما انقضى نحو ربع قرنٍ على قول ساكس هذا ثبت لبعض علماء الفسيولوجيا ان هناك مواد كيمياوية معينة تقوم بمهمة الرسل بين اعضاء الجسم تنسق اعمالها وأطلق عليها العالم ستارلنغ سنة ١٩٠٤ لفظ هرمون وقد وضع لهُ الدكتور محمد شرف لفظ (تَوْر) ومعناه الرسول بين القوم وانما يسهل تخصيصهُ للمعنى العلمي لندرة استعمالهِ بمعنى الرسول في الكلام العربي او الكتابة

فالتوْر اذاً مادة تولد في ناحية من الجسم وتنتقل الى نواحٍ أخرى من الجسم في مقادير يسيرة جدًّا فتحدث تأثيراً فسيولجيًّا معيناً

اما الفيتامينات، فهي مواد كيمياوية معينة يحتاج اليها جسم الحيوان ولكنه يعجز عن تركيبها[1] الاَّ ان الحيوانات تستطيع الحصول عليها من النباتات لان في وسعها أن تصنعها نتيجة لفعل التركيب الضوئي Photosynthesis. والفيتامين كالتوْر يحتاج اليهِ الجسم لانهُ يحدث فيهِ افعالاً فسيولوجية معينة. أما التور فتولده اعضاء الجسم. وأما الفيتامين فيجيئه من الخارج عن طريق الطعام الذي يحتوي عليه

والتمييز بين التور والفيتامين ليس حاسماً. فمادة معينة قد تكون توراً لجسم ما وفيتاميناً لآخر. فالحامض الاسوربيك (فيتامين C) لا يتولد في أجسام الحيوانات العليا ولا بد لها في سبيل الحصول عليهِ من تناوله من الخارج. الاَّ ان الجرذ يستطيع ان يركب هذا الحامض في كبده فهو اذاً من اتوار جسم الجرذ حالة انهُ فيتامين بالقياس الى الحيوانات العليا

ولا يخفى ان من مظاهر النمو في النبات، كانتاش البزرة واستطالة الفرخ وتفتح الزهرة ما سببه كبر حجم الخلايا النباتية. وكبر حجم الخلايا يتأثر بعوامل داخلية متعددة في مقدمتها مادة كيمياوية معينة، هي في الحقيقة تور يدعى اوكسين Auxin. فلننظر الآن في بعض التجارب

(١) راجع مقال الدكتور جيمز بونر Bonner في المجلة الشهرية العلمية عدد نوفمبر ١٩٣٨ صفحة ٤٣٩ في آخرها وعليه الاعتماد في هذا التلخيص

التي اجريت لاثبات فعل هذه المادة وانهُ شبيه بفعل « التَّوْر » في جسم الانسان.

عندما ينمو فرخ الزمير (او الشوفان Oats) يحيط بكل ورقة من أوراقه غمد مفرغ يدعى Coleoptile . هذا الغمد يستطيل من ملمتر واحد او ملمترين الى اربعة سنترات ولا يحدث انشطار الخلايا خلال مدة الاستطالة الا قليلاً . فجُلُّ نموّ الغمد هو استطالة في خلاياه

***

فدراسة العوامل التي تؤثر في نمو الغمد واستطالة خلاياهُ تصلح ان تكون مجالاً لتجريب التجارب بغية الوقوف على تأثير الاوكسين فيهما . وغمد ورق الزمير لا ينمو من طرفه ولا من قاعدته بل من الوسط اذ تستطيل المنطقة المتوسطة بين الطرف والقاعدة . فاذا ازيل طرف الغمد اي اذا قطع رأسهُ نقص معدل النمو في المنطقة المتوسطة نقصاً كبيراً . ولكن اذا اعيد الطرف المقطوع بعد قطعه ووضع على الغمد الذي قطع رأسهُ ظهر ان النقص في معدل النمو لا يكون بيناً . واذن فرأس الغمد يؤثر في معدل نمو المنطقة المتوسطة ، وهذا التأثير يمكن نقله ولو قطع الرأس وأعيد وضعهُ على المقطع . بل اذا وضع غشاء رقيق من الهلام (الجلاتين) بين الرأس المقطوع ومقطع الغمد استطاع الرأس ان يحدث التأثير نفسهُ . واذا اخذ الرأس المقطوع ووضع على جانب الغمد احدث تأثيره المعروف ولكن التأثير يقتصر على الناحية التي وضع عليها ، فيزداد نمو هذه الناحية ويفوق نمو الناحية الاخرى ، وكذلك ينحني الغمد

ولكن كيف نعلم ان تأثير الرأس في نمو المنطقة المتوسطة يرجع الى مادة كيماوية هي من قبيل الانوار التي تفرزها الغدد الصم في الجسم . هذه الناحية من البحث تعهدها الاستاذ ونت Went بتجربة اصبحت مثالاً يحتذى في مثل هذه البحوث

***

ازال الاستاذ ونت رأس الغمد اي قطعهُ ثم وضعهُ على طبقة من الاجار agar وهي المادة التي تستعمل في المعامل البكتيريولوجية لاستنبات الجراثيم . ثم رفع الرأس المقطوع عن الاجار ونبذه ثم وضع طبقة الاجار على مقطع الغمد فأحدثت أعراض النمو في منتصف الغمد . أي ان العامل الباعث على النمو في رأس الغمد انتقل الى الاجار ومنهُ الى منتصف جسم الخلية النباتية . واذن يصح القول بأن أعراض النمو هذه سببها مادة كيماوية

أما الطريقة الكمية quantitative لتبين « عامل النمو » فتقوم على أخذ مكعب من الاجار الذي تطرقت اليه المادة الكيماوية وإلصاقه بجانب الغمد عند منتصفه فينمو من هذه الناحية أكثر مما ينمو من الناحية المقابلة فينحني فيقاس انحناؤه ويتخذ انحناؤه مقياساً لمقدار ما في

المكعب من عامل النمو . فاذا طبق هذا الاسلوب تطبيقاً دقيقاً كان في الوسع قياس تركز مادة النمو هذه في الاجار قياساً لا يحتمل من الخطاء أكثر من ٥ في المائة

والعلماء الباحثون يعلمون الآن ان مقدار هذه المادة في رأس الغمد صغيرة جداً . فاذا قضى عشرون رجلاً ١٢٥ سنة ولا همّ لهم الاَّ قطع رؤوس الاغماد من ورق أفراخ الزمير لكي يستخلص منها « عامل النمو » هذا لما كفى ما يقطعون الاَّ لاستخلاص ما وزنهُ غرام واحد

الاَّ ان الباعث على الاستغراب ان بول البشر يحتوي على مقادير غير يسيرة من هذه المادة وقد بدأ باحثان من علماء الكيمياء العضوية بهولندة اسمهما فرتز كوجل Kögl وهاجن سمت Haagen-Smitt يبذلان ما في طاقتهما من الحيلة العلمية لاستفرادها من البول . وكانا يطبقان طريقة المكعب « الاجاري » في امتحان المادة التي يستخلصانها في كل مرحلة من مراحل البحث وبعد ان ركزا المادة البولية التي شرعا في بحثها مائة الف مرة تمكنا من الحصول على مادة مبلورة اذا وضع منها مقدار يسير جداً (٢ × ١٠–١١ من الغرام) في مكعب اجاري ووضع هذا المكعب ملاسباً لمنتصف الغمد (في فرخ الزمير) انحنى الغمد مقدار عشر درجات . وقد استخلص هذا الباحثان مقداراً لا يكاد يبلغ وزنه غراماً ولكنهُ مع ذلك كان كافياً للبحث الكيمياوي فيه بغية معرفة تركيبه الكيمياوي . وقد أطلق كوجل عليه اسم أوكسين Auxin او بالحري أوكسين—(ا) لان هناك مادة أخرى تشبهه وانما يختلف تركيبها الكيمياوي عنهُ بعناصر جزيء من الماء وقد دعي اوكسين — (ب)

***

وبعد استفراد الاوكسين استفردت مادة اخرى تؤثر في نمو الخلية النباتية ضمن تأثيره وهي تعرف باسم « الحامض إندول — اسيتيك » . الاَّ ان هذه المادة لا تتولد في النباتات العليا ولكنها تتولد بفعل البكتيريا والعفن نتيجة ثانوية لفعل التمثيل فيها . غير ان تركيبه بالتأليف الكيمياوي في المختبر الكيمياوي مستطاع ولذلك مهَّد كشفهُ الى تجربة التجارب بعامل آخر من عوامل النمو الداخلية في النبات

وليست ناحية الاستطالة في خلايا النمو هي الناحية الوحيدة التي يسيطر عليها الاوكسين بل هو يسيطر كذلك على ناحية نموها من حيث اتجاهها الى الشمس او الجاذبية أو انحرافها عنهما Phototropy فالمعروف انهُ اذا وقع ضوء الشمس على النبات كان نموهُ حيث هو متجه الى الشمس اقل منه حيث هو منحرف عنها . وقد ثبت الآن انهُ يمكن تفسير ذلك بتوزيع الاوكسين في النبات نفسه ولذلك تجربة خاصة أشبه بالتجارب السابقة نضرب الآن صفحاً عنها

٢ – الطائرات الطخرورية[1]

رنا الانسان الى الطيور سابحة في الفضاء فطمح الى مجاراتها . فلم يستتب له ذلك الا في القرن العشرين . فلما استقام لهُ الطيران بأجهزة أثقل من الهواء في مستهل هذا القرن اتخذه أولاً وسيلة للرياضة ثم طريقاً من طرق المواصلات . ولو لم تكن الطائرات أسرع من القطارات والسفن لما تعرّض الانسان للمغامرة في ركوب متنها . فالسرعة من أهم البواعث على العناية بالطيران . وقصب السرعة الآن يبلغ نحو ٤٤١ ميلاً في الساعة . او نحو ٦٤٦ قدماً في الثانية وهي سرعة تبلغ نصف سرعة الرصاصة المنطلقة من فوهة مسدّس . واذا ألقينا بجسم من قمة بناية « الامير ستيت » بنيويورك البالغ علوها ١١٠٠ قدم تقريباً كان متوسط سرعته بين القمة ورصيف الشارع نصف سرعة أسرع الطائرات ، حتى اذا صرفنا النظر عن مقاومة الهواء لهُ في هبوطهِ . ولا يمكن ان تبلغ سرعة جسم هابطٍ من علٍ سرعة أسرع الطائرات الا اذا أُلقي من قمة ارتفاعها ٦٤٠٠ قدم

إلا ان السرعة العملية للطائرات المستعملة الآن تبلغ نحو ١٦٠ ميلاً في الساعة للطائرات التي تحطّ على الارض و ٢٠٠ ميل في الساعة للطائرات المائية او « السفن الطيارة » . وهي سرعة لا بأس بها بالقياس الى سرعة القطارات والسفن . فهي تفوق أسرع القطارات ضعفين وأسرع السفن نحو سبعة اضعاف . ومن المرجح — في رأي سيكورسكي المشهور بهندسة الطائرات وصنعها وعنهُ نلخص من مقال نشر لهُ في مجلة جنرال اليكتريك — ان الاعتبارات العملية ستجعل سرعة الطائرات التجارية في العقد المقبل تتفاوت بين ٢٠٠ ميل و ٣٠٠ ميل في الساعة

***

لا يخفى ان سرعة الطائرات زادت تسعة اضعاف في الثلاثين السنة الاخيرة وعلى هذا القياس زعم بعضهم أن سرعتها ستبلغ خلال ربع القرن المقبل الف ميل في الساعة . إلا أن البحوث الحديثة قد أثبتت ان انسياب الهواء حول أجنحة الطائرات يتغير عندما تبلغ سرعة الطائرة سرعة الصوت أي ٧٦٢ ميلاً في الساعة عند مستوى سطح البحر . والتأثير الضارّ لهذا التغير في انسياب الهواء يبدأ في الظهور عند ما تبلغ سرعة الطائرة ٥٠٠ ميل في الساعة .

---

(١) الطبقة الطخرورية تقابل stratosphere . والطخارير في لسان العرب من السحاب قطع مستدقة رقاق واحدها طخرور وطخرورة . وهذا الوصف يقابل المراد من لفظ Cirrus في وصف الغيوم، وهو ضرب من الغيم يكثر في المنطقة العالية من الهواء الموصوفة بلفظة « ستراتوسفير » الاعجمية لذهبنا ادا به

والقبيل بمعناها وجمع القبيل قبل وهو غير مأنوس بهذا المعنى ويحتاج الى اجهاد الفكر وتفسيره في الاستعمال أما القبائل ففي غنى عن ذلك

هذا هو التعريف بنصهِ على ما ورد في معجم الحيوان . ولعلك تذكر في السنة التي قبل الماضية انك قلت في المقتطف قبيلة وجمعها على قبل فداعبتك مداعبة لا أظنك نسيتها فجئتنا الآن بالامة صفحة ١٧٠ من المجلة ولا أدري من أشار عليك بذلك. وسأبين لك في ما يلي انه لا يمكن غير القبيلة فان كلة قبيلة قديمة في اليونانية وكانوا يشتقون كلة ثانية منها هي فلارخ ومعناها رئيس القبيلة او زعيمها وكانوا يستعملون هذه الكلمة أي فلارخ على الطريقة الانكلوسكصونية لملك العرب أيًّا كان مثل امرىء القيس وكل ملك من ملوك غسان . أما الملك عند الروم على ما تعلم فهو باسيليوس لكنهم ما كانوا يستعملون هذه الكلمة الا لهم لانهم شعب الله الخاص وكان جميع ملوك العرب فلارخ كما تقدم أي رئيس القبيلة او زعيمها

طائفة Class

جماعة كبيرة من الاحياء دون القبيلة وفوق الرتبة وقالوا أيضاً قسماً والقسم غير ذلك وقد تقدم . وقال أساتذة بيروت صفًّا لان الصف عندهم للتلامذة بمعنى سنة دراسية واحدة . وقال أساتذة الترك صنفاً وهذه لا بأس بها لولا ان المناطقة استعملوها بمعنى آخر سيأتي ذكره . وقال الدكتور زلزل طائفة فاختار المؤلف هذه اللفظة وكنت أود لو قال طبقة ولكن طائفة سابقة لذلك

أما أنت فقلت أولاً في المقتطف الصف ولم تقل ذلك الا لتخالفني ثم عدلت عنهُ الى الشعب ص ١٧٠ من مجلة المجمع ولعلك أو لعل الذي أشار عليك بذلك أحب ان تكون المقولات من الجماعات الواردة في كتب اللغة أو ليست الطائفة من هذه الجماعات ولعلك لما رأيت اسم زلزل واسمي نفرت منها وأنا لا أعهد فيك ذلك أيها العزيز فالطائفة أحسن ولو أن زلزل قالها وأنا اخترتها

باب Category

اصطلح المؤلف على باب كما في بعض الامثلة المتقدمة ولا بأس من قولنا فصل . أما في المنطق فمقول ومقولة والمقولات العشر أشهر من ان تذكر

قلت وكنت أفضل ان أقول مقول ومقولة كما في المنطق لكن رئيس تحرير المقتطف اعترض على هذه الكلمة لغرابتها فاستعضت عنها بالباب والمقول والمقولة أفضل لانها ترجمة الكلمة المنطقية وقد استعملها زلزل وهو من كبار المواليدين

أما السيد اسماعيل فضرب بهذا عرض الحائط وقال طبقة والكلمة الحقيقية مَقول ومَقولة

يكون الضغط داخلها مقابلاً للضغط على ارتفاع ٨٠٠٠ الى ١٠٠٠٠ قدم . وهذا يعني ان الضغط خارج الحجرة يكون ٧٨٥ رطلاً على القدم المربعة اذا كان ارتفاع الطائرة ٢٥ الف قدم حالة ان الضغط داخلها لا يزيد على ١٥٧٢ رطلاً على القدم المكعبة

ولذلك يجب ان تكون هذه الحجرة متينة البناء يصح الاعتماد على متانتها لانهُ اذا اختل فيها ما افضى الى نقص الضغط داخلها كان ذلك سبباً في ازهاق ارواح بريئة لانهُ اذا ندر بين الناس من يستطيع الصبر على الضغط الخفيف على ارتفاع ٢٥ الف قدم فلن يقوى على تحمله أحد اذا كان الارتفاع ٣٥ الف قدم او فوق ذلك

أما الفوائد التي تنشأ عن الطيران في الطبقة الطخرورية من الهواء فأهمها فائدتان زيادة السرعة بغير زيادة ما ينفق من الوقود ، والطيران فوق منطقة الاضطرابات الجوية لان حالة الهواء على هذا الارتفاع مستقرة فيفضي ذلك الى راحة المسافرين والدقة في تنفيذ برامج السفر . وهاتان الفائدتان تجعلان السفر الجوي في الطبقة الطخرورية مستحبًّا والغالب ان يصبح تحقيقهُ ممكناً في المستقبل القريب

ويعتقد المخترع سيكورسكي ان حجم طائرات المستقبل لا حدَّ لهُ من الوجهة الهندسية . ولكن العوامل الاقتصادية وضرورات السفر تقتضي ان لا تكون الطائرات بالغة مبلغاً عظيماً من الضخامة . فالسفر الجوي مطلوب لانهُ سريع . والسرعة تقتضي ان يكثر قيام الطائرات في مواعيد معينة . فالخطاب الذي يرسل بالباخرة من نيويورك الى لندن قد يستغرق خمسة أيام أو ستة . فاذا كانت الطائرات ضخمة ولا تقوم من نيويورك الى لندن الاَّ مرَّة كل ثلاثة أيام — حتى يتم لها وسق كافٍ — استغرقت رحلة الخطاب بين الانتظار ومدة السفر نحو أربعة أيام فتنقص بذلك قيمة البريد الجوي ولكن اذا كانت الطائرات معتدلة الحجم وتقوم كل يوم كان في الوسع ان ينقل الخطاب من نيويورك الى لندن في يوم واحد او أقل

ثم هناك كفاءتها من الناحية الاقتصادية كناقلة للركاب ، فاذا كانت السفينة تنقل ٢٥٠٠ مسافر من نيويورك الى لندن في أسبوع ، فقد يخطر لنا انهُ لا بدَّ من ٢٥ طائرة تنقل كل منها ١٠٠ مسافر لتحل محلها وتؤدي الخدمة نفسها . والواقع ان خمس طائرات تكفي لانهُ اذا كانت السفينة تقوم بسفرة واحدة بين المدينتين في أسبوع فالطائرة تستطيع أن تقوم بخمس سفرات في المدة عينها . وانما المهمُّ ان تكون أجرة السفر بحيث يكون وسقها من بريد وركاب كاملاً في كل سفرة تقوم بها والاَّ تعرضت الشركة التي تديرها للخسارة

وهذا يبين ان العوامل الاقتصادية ستكون ذات شأنٍ كبير في تعيين حجم الطائرة وسعتها قبل أن تنفذ حيلة المهندسين في تكبيرها

ثم هو يعتقد انهُ في الوسع صنع طائرات او سفن طائرة يكون حملها ٥٠٠ طن أو حتى الف طن وتتسع لالف او أكثر من المسافرين . ولكنهُ يعتقد في الوقت نفسه ان صنع مائة طائرة يكون يحمول كل منها ٢٥٠ طنًّا وتكثر مواعيد قيامها وسفرها يسدي الى السفر الجوّي خدمة أعظم من الخدمة التي تسديها بضع طائرات ضخمة وان هذه الطائرات (التي يحمولها ٢٥٠ طنًّا) ستبقى عماد السفر الجوّي خلال الخمس والعشرين السنة المقبلة. والراجح عنده ان الطائرات البريدية لا تتعدَّى خلال هذه المدة ٥٠ طنًّا الى مائة طن

أما السفينة الجوّية التي يحمولها مائة طن فتحقيقها منتظر — في رأيه — في المستقبل القريب. فهو يزعم انهُ لا تنقضي سنوات حتى يصبح في الوسع اجتياز المحيط الاطلنطي في عشرين ساعة في طائرات تحتوي كل منها على خمسين حجرة كحجر السفن الفخمة وبهو لتناول الطعام يمكن ان يتحول مرقصاً في الليل وحجر خاصة بالتدخين ومكتبة اي ان السفينة الجوية المرتقبة في المستقبل القريب لا تختلف كثيراً عن يخت فاخر

وتصميم سفينة جوية من هذا الطراز يقتضي ادخال عناصر هندسية مستحدثة . فقوة الطيار العضلية لا تكفي لتحريك الاجهزة المسيطرة على حركة الطائرة ولذلك يجب ان تدار هذه الاجهزة بأساليب ميكانيكية. وبدلاً من ان تكون الاجهزة المولدة للقوة المحركة في مقدمة الطائرة لا بد في ابوانها في الاجنحة في غرف خاصة بها حيث يشرف على مراقبتها ميكانيكيون مختصون. ولا بد كذلك من اجهزة لتغذية المحرك عند الطيران في الطبقة الطخرورية واخرى لضبط الحرارة في حجر المسافرين ولا سيما لتدفئتها عند ما تمضي الطائرة بسرعة ٢٥٠ ميلاً في الساعة في جو قد تبلغ درجة برده خمسين درجة مئوية تحت الصفر

الاَّ ان هذه المسائل الهندسية اصبحت خبز مهندسي الطيران ومنهم وسيكورسكي لا يستبعد مطلقاً ان ينتظم السفر الجوي في الطبقة الطخرورية في سنة ١٩٥٠ فيغدو في مكنتك أيها القارئ الكريم ان تطير من اميركا الى اوربا في ١٥ الى ١٨ ساعة وفي اليوم التالي الى شرق آسيا او استراليا او ان تشترك مع غيرك في رحلة من نيويورك الى القطب الشمالي ، او منها الى مجاهل الامازون ، ذهاباً واياباً فتستغرق من ثلاثة ايام الى أربعة

وقد يكشف شيء جديد في خلال ذلك يحتم على مهندسي الطيران أن يغيروا كثيراً مما يتوقعونهُ . فاذا كشفت طريقة اقتصادية مأمونة الجانب مثلاً لاستعمال الايدروجين السائل وقوداً أفضى ذلك الى تغيير كبير في الطيران التجاري البعيد المدى اذ يصبح في الوسع حينئذٍ ان تطير الطائرة المدفوعة بهذا الوقود حول الارض عند خط الاستواء بغير ان تهبط على الارض لتملأ أحواضها بالبنزين ! !

أروع آثار الاسلام المعمارية (١)

جامع السلطان حسن

جلاله الفني ووضعه الهندسي

للاستاذ جاستون فييت
مدير دار الآثار العربية

يعتقد غالب الناس ان عالم الآثار ليس الاَّ معجماً خاصًّا تستمد منهُ التواريخ والمقاييس وأسماء الاعلام في دقة عجيبة . ولكن ثمة بعض المبالغة من غير شك في اعتبار هذه المعلومات أهم ما في جعبة عالم الآثار ، وانما هي أدوات ضرورية لا غنى عنها ومثلها كمثل ستائر المسرح وما اليها . وقد كتب أحد رجال المجمع العلمي الفرنسي المعروفين بتقدم اللاذع « ان السياح كالبوم لا يلازمون غير الخرائب والبلاد الميتة » . فلنشكره على انهُ لم يقصد علماء الآثار بهذا الكلام . فالواقع ان المستندات الاثرية والجزازات العلمية ليست غرضاً في ذاتها وانما هي تضاعف لنا أسباب الولع بالجمال وتبعثنا على تحبيبه الى قلوب الناس

ان الطريق التي سلكها عالم الآثار وان كانت موازية للطريق التي سار عليها المؤرخ الاَّ اننا نلاحظ أحياناً ان كتب التاريخ لا توقفنا من حياة الامة الاَّ على معلومات مشوَّهة جدًّا بينما المظاهر الفنية تسمح لنا بتكوين فكرة عنها أشد انطباقاً على الواقع وأكثر صدقاً

وكما ان قراءة كتاب نفيس في وصف اقليم ما تبعث في قلوبنا رغبة شديدة وتغرينا بزيارة ذلك الاقليم لاجتلاء محاسنه ، فكذلك الاعجاب بعمل فني يهيء لنا أسباب تكوين فكرة صحيحة عن البيئة التاريخية التي ولد فيها ذلك العمل الفني وعن مصدر وحي المبدع الذي صوره وأخرجهُ الى حيز الوجود

وهل ثمَّ أجمل وأبهى من مسجد السلطان حسن كعمل فني بديع يمكن اجتلاؤه وتأمله ! انهُ لأبدع آثار القاهرة وأكثرها تجانساً وتماسكاً وكمالاً ووحدة ، وأجدرها بأن يقوم بجانب تلك الآثار المدهشة التي خلقتها مدنية الفراعنة . أما الظروف التاريخية المحزنة التي شيد فيها فهي كفيلة بأن تزيد عاطفتنا وتبعث أشواقنا وذلك على الرغم مما فيها من مفارقات تحير الالباب . والحق انهُ ليس من الهين ان نصدر حكماً على عصر سلاطين المماليك اذ لا نستطيع ان نكتب

(١) نقله الى العربية محمد وهبي احد خريجي معهد الآثار

تاريخهم دون ان يكون للعاطفة دخل في الموضوع . ومرد العيب في ذلك الى المصادر العربية فالمقريزي في العصر الوسيط والجبرتي في العصر الحديث كتبهما مليئة بالمطاعن والمثالب التي لها في بعض الاحيان نصيب من الصحة . والتاريخ لا يمكن ان يكتب مجرداً عن الوقائع كالمسائل الحسابية وانما يجب ان يدرس في علاقته بجماعة او عدة جماعات انسانية . ومن درس المسائل السياسية الداخلية وحدها في مصر في ذلك العصر لا بدّ واجد فيها من المآخذ والمثالب مالا بد من وقوعه . فالمماليك كما يقول المقريزي كانوا يخلون بالامن ويهاجرون السكان ويذبحونهم وينهبون أموالهم ويسبون نساءهم وأولادهم دون ان يستطيع كائن من كان أن يقفهم عند حدهم وقد كتب غيره يشرح ما كان في نفوس كبار الضباط من أطماع أساسها المصالح الشخصية وحدها ويدلل على جهلهم وصلفهم وفساد خلقهم وأن أولئك الرقيق لم يؤتوا من الطيبة ولا من الرحمة مثقال ذرة

غير ان هذا النقد وأن كان صواباً فاننا ننساه حينما نتأمل الاعمال الفنية التي ابتدعها أولئك الحكام الذين أخضعوا مصر لحكم فردي لا يعرف هوادة ولا رحمة . وانك لواجد في القاهرة حقاً أحجار البناء ناطقة تشدو بعظمة الماضي . واننا لا نفتأ نبحث بأنفسنا في الازقة الضيقة عن مسجد بسيط فنتأمله بأعيننا وكأن جماله قد استحال الى نغمات رقيقة في آذاننا . وعلى طول الطريق بين الجامع الازهر وسور القاهرة الشمالي سلسلة من الجوامع وكأنها نغمات منسجمة متآلفة حتى اذا ما وصلت الى آخرها وجدت أثراً عظيماً . ولكن ما أفخم وما أعظم ذلك النشيد المنبعث من ابراج جامع السلطان حسن التي تتحدى النظر وتحول دون امتداده !

واذا قلبنا الصفحات المجيدة التي سطرها سلاطين مصر في سجل السياسة استوقفنا السلطان حسن وتجلى لنا رمزاً جديراً بالذكر يعبر أصدق تعبير عن نظام المماليك

فالسلطان حسن هو الصورة الحية الملموسة لذلك النظام الامبراطوري الاسلامي في العصور الوسطى . وهي صورة تمثل بقوة عناصرها الارادة الحديدة والشهامة الخالدة التي امتاز بها أكثر سلاطين المماليك

ولقد طعن المؤرخون العرب هذا النظام من حيث لا يشعرون وذلك في نهجهم واتباعهم هذه طريقة التأليف العزيزة عليهم فهم مغرمون بشطر القرون سنين وتجزيء الكليات تجزيئاً عماده سرد تاريخ الافراد بدون رابطة تربط الجزئيات ولا وحدة تنظمها

وعلى كل حال فان فترة حكم السلطان حسن ، أو على الاصح فترتي حكمه ، اذ انهُ عزل مرة ، لمن أشد فترات التاريخ هياجاً واضطراباً . ففي المدة من شهر يونيو ١٣٤١ الى شهر ديسمبر ١٣٤٧ الذي هو تاريخ تولية السلطان حسن العرش ، تولى أريكة الملك ستة سلاطين

وجد أحدهم ميتاً في فراشه وعزل الثاني لحسن حظه وقتل الاربعة الآخرون . ثم حكم السلطان حسن مرتين من ديسمبر ١٣٤٧ الى أغسطس ١٣٥١ ثم من اكتوبر ١٣٥٤ الى مارس ١٣٦١ ثم قتل ولم يكن قد بلغ السابعة والعشرين وكان زمناً مليئاً بالمؤامرات والثورات التي لا تختلف عما حدث قبل توليته

فأما مدة الحكم الاولى فقد انتشر فيها ذلك الطاعون الاسود المريع من سنة ١٣٤٨ الى ١٣٤٩ وامتد الى اوربا الجنوبية ، وفي غضون الفترة الثانية كان الضباط المماليك لا ينفكون عن اثارة الشغب والاخلال بالنظام . وانا نذكر من الامراء شيخون وصرغتمش المشهورين اذ خلفا من الآثار ما نراه اليوم على مقربة من جامع السلطان حسن . وقد أقر المؤرخون بما كان للسلطان من مزايا خلقية كالشجاعة والعزيمة والورع وفسروا الورع باقباله على كتاب في الدين ينسخهُ وهو في السجن

وعلق ايبرس Ebers على تلك الحوادث قال :

« انا لا نفهم في سهولة ، اذا نظرنا الى تلك الايام العصيبة ، كيف تمكن السلطان حسن من توفير الوسيلة والقوة اللازمة لاقامة جامع يعد بحق أفخم وأكمل بناء في العمارة العربية ، فقد كانت الحقول مجدبة والبيوت من الخدم خالية والظمآن لا يجد ماء ودولاب الصناعة واقفاً وأسعار السلع هابطة »

أمر السلطان حسن في الفترة الثانية من حكمه سنة ١٣٥٦ بالبدء في بناء جامعه الذي لم يكمل الا سنة ١٣٦٣ أعني بعد وفاته بسنتين . وقد تحمس كتاب العصور الوسطى من العرب في وصف ذلك الاثر الجليل وتعجبوا أيما اعجاب بمساحته الهائلة وحدوده المترامية وتخطيطه العجيب وبظهوره الأخاذ وعلو ايواناته وقطر قبته وفخامة بابه ، وقالوا ان السلطان كاد يعدل عن العمل لضخامة النفقات ثم قرروا في الختام ان ليس في بلاد العالم ما يضارعه . نشط العمال سبع سنين متوالية وكاد اليأس يستولي على السلطان لولا ان خشي ان يقال ان سلطان مصر غير قادر على اكمال بناء شرع في اقامته ، ولم تكن المصاعب مالية فحسب بل اعتور العمل بعض المصاعب الفنية إذ كان التصميم ان يكون للبناء أربع مآذن فلما كملت المأذنة الثالثة سقطت فاكتفى بالمأذنتين . وقد دهش الكتاب العرب من عظمة البناء فنسجوا حوله رواية عجيبة إذ قالوا : استدعى السلطان المعماريين من انحاء الدنيا وأمرهم بأن يقيموا بناء منقطع النظير وان يستوحوا فيه أعظم بناء في العالم كله ألا وهو إيوان كسرى بالمدائن فشرعوا في البناء على مثاله ورفعوا الجامع الى علو شاهق دونه ذلك الايوان فدهش السلطان وبهره العمل العظيم الرائع فأمر بقطع يدي ذلك المعماري الذي

أقامةُ لئلاّ يختط بناء آخر على مثاله . ولا نقف عند هذه الخرافة طويلاً فهي لاصقة بمباني أخرى كجامع قجماس

قال هرتز ان مساحة جامع السلطان حسن عظيمة فأطول الاضلاع ١٥٠ متراً وعرضها ٦٨ متراً والمساحة الكلية لا تقل عن ٧٩٠٦ أمتار مربَّعة وارتفاعه عند بابه ٧٠ و٣٧ المتر. وحيطانه الضخمة المكسوة من الخارج بالاحجار المنحوتة قائمة على أرض صخرية تهبط هبوطاً هيناً من القلعة نحو المدينة ولذا فقد اضطروا الى إقامة أسس متينة شيد عليها الجامع ...

وكان هذا الجامع مدرسة دينية وقد نشأ هذا النظام في بلاد ايران على يد الدولة السلجوقية التي عنيت بنوع من التعليم مقصود به محاربة الانقسامات والمذاهب العقلية التي تجاوزت الحدود، فالمدرسة وهي المعهد الرسمي لدين الدولة صارت نظاماً سياسيًّا وحصناً للدين كما أسماها كاتب عربي ووضعت البرامج الجديدة على ضوء المبادئ التي أتى بها الامام الغزالي الشهير فتوطدت بها دعائم السنة الصحيحة . ثم انتشرت المدرسة غرباً من بلاد ايران الى سوريا فمصر وفيها تكونت العقول التي عملت على مقاومة الصليبين والمغول ومن أثرها السياسي انقاذ الاسلام وتكوين وحدة مدهشة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر

***

والى التاريخ قصة عجيبة قصها مؤرخ عربي قال : زار السلطان سليم الاول عقب غزوه مصر سنة ١٥١٧ بعض آثار القاهرة فأعجب اعجاباً بجامع المؤيد الجدير بالملوك على حد عبارته ثم دخل جامع الغوري فانتقد البناء وقال في دعابة انهُ يكاد يكون متجراً ولكن لما رأى جامع السلطان حسن أدهشهُ البناء العظيم، وهو العارف بأساليب العمارة فقال انهُ لحصن متين حقًّا . وحسْب مشيد الجامع مكافأة وحسن جزاء هذه العبارة التي تنطق بالحق

والارض التي اختيرت لاقامة البناء واقعة تجاه القصر الحصين الذي يشرف على مدينة القاهرة وقد عرف المعماري كيف يستوحي من هذا الموقع تصميم البناء وكأن الفكر كان متجهاً الى تأسيس بناء يتحدى القلعة بأسوارها الدائمة في قوة فأقام المعماري بناء مشمخراً . وترى القلعة تستذيل، وكأنها تحتذر الهجوم . وأما الجامع فيعلو ويشمخ في هدوء وكبرياء وكأنهُ يريد بالقلعة بطشاً . وهو في مكانه بارز بروزاً بفضل ما بينه وبين القلعة منافسته من ساحة فسيحة

والبناء بما فيه من مدرسة دينية لها تعاليم سياسية متصلة بمذهب الحكومة السني ، يبدو بناء حربيًّا ويدل دلالة واضحة على اعلانه الحرب دون هوادة ولا رحمة على الزندقة والخلافات المذهبية . وأراد المعماري العبقري الذي صممهُ ان يكون بناء ضخماً قائماً أمام قلعة القاهرة ومدرسة حكومية تجمع بين الغرضين جماً عجيباً تدل بمعله على العظمة الحربية وما كان للاسلام من قوة

ثقافية وأضاف النبوغ المعماري الى قوة التعاليم السنية قوة أخرى عبر عنها بأسلوب البناء أدق تعبير . وقد يتساءل المرء اذا ما قرأ تفاصيل التاريخ المعاصر ألم تكن نية الفنان متجهة الى القاء درس خالد في النظام والسلطة . ألسنا نرى فيه نقداً عالياً لسوء النظام والفوضى الاليمة التي كانت منتشرة في شوارع القاهرة وللتقلبات السياسية الشديدة التي تبدو لنا خلال السطور كأنها دوامة شديدة الخطر ؟ يعلو الجامع علواً وكأنه الرقيب الجبار اليقظ وكأنه مثال الرزانة والهدوء ! وليس ثمة اي أثر اسلامي آخر أدل على هذا الغرض وأبلغ في الدلالة . والفنان في الحقيقة كان صريحاً كل الصراحة بل كان صريحاً الى حد الصرامة فقد ألقى بأسلوب البطولة العظيمة درساً قاسياً في الدأب والمثابرة على ذلك السلطان الذي لم يكن في مكنته ان يثبت على العرش وكان الموت الزؤام مصيره المحتوم بل لا يزال ذلك البناء حتى اليوم يتجلى حكمه على فساد الخلق . وسنرى كيف ظل ثابتاً يقاوم شرور الرجال وآثامهم

وقد اكتسب جامع السلطان حسن خلال الازمات السياسية قيمة لا شك فيها تدعونا الى التفكير في شأنه . وهو ليس كبقية الآثار الاسلامية التي تمتاز بالرشاقة وتغشاها مسحة من الحزن الهادئ وانما هو العمل الفني المثالي للتعبير عن علاقة المسلم بخالقه وكأن الانسان لم يرد ان يلتمس به الرعاية الالهية فلم يشيد بناء متواضعاً بل شيد هذا العمل الجبار للاعلان عن وحدانية الله وجبروته

وتعلو مأذنته علواً شاهقاً فضلاً عن ضخامتها وكأنها بهذه الضخامة تؤكد متانتها وأن ليس في الامكان أن ينالها الاذى . على ان امكان قيام هذا البناء الضخم البديع في ذلك العصر الحافل بالحروب والقلاقل يذكرنا بالصور الهولندية في القرن السابع عشر وازدهارها على الرغم من الحروب الاهلية . وقد اشار الى ذلك الكاتب فرومنتان فقال « اذا تخيل المرء ما كانت عليه البلاد في ذلك الوقت العصيب لاندهش ايما دهشة إذ لا يجد في تلك الصور ما يعبر عن عصرها أدنى تعبير ولم تكن للحرب في البر والبحر ولا للحرب الاهلية اي صدى او تأثير في صور الفنانين الذين ينتمون الى تلك المدرسة الكبيرة الحادثة ولم تكن اصوات القنابل المدوية التي لم ينقطع أزيزها ، وقد بلغت حتماً آذان هؤلاء ، بمحدثة اي تأثير فيما صوروه وأبدعوه »

***

كان تصميم المدرسة الدينية في مصر يرمي الى تهيئة المكان ليكون صالحاً من جهة لتعليم المذاهب السنية الاربعة فضلاً عن اقامة شعائر الدين ففي الجزء الاوسط من البناء كان يقوم الجامع للفرائض الدينية وفي الزوايا الاربع كانت تشاد مساكن الاساتذة والطلاب على قدر المال المخصص لها . فترتب على هذا التصميم وجود فراغ حول الصحن الاوسط على هيئة صليب فأكن

تخصص الايوانات الاربعة لأبهاء الدرس وبهذا التصميم العظيم أراد المعماري ان يحتفظ بشكل المدرسة الصليبي غير انهُ ادخل تجديداً ببنائه في الزوايا الاربع مدرسة مصغرة . ولهذا الابتكار شأن مزدوج فقد رفع من قيمة العمل المعماري بتكوين اصحن صغيرة تحوطها حيطان شاهقة يرتد البصر عنها كليلاً

أن تصميم البناء على وجه العموم فيهِ نظام واتساق فقد رأينا كيف ان المعماري رأى ضرورة ابعاد التعليم الديني الحكومي عن الضوضاء باقامة اسوار متينة . كانت ابعاد الارض غير مستقيمة في احدى جهاتها فاتام المعماري الباب في هذه الجهة وليست هذه الحالة فريدة في نوعها وان كان الفنان الاسلامي يتخلص من هذا الانحراف بطرق عمادها التجربة وحدها فتكون انحرافات في البناء مكشوفة ولكن المعماري في هذا الجامع صمم بناءين مرتبطين بدهليز منحن فاحدث بذلك محورين المحور الاول متجه نحو مكة ويشمل ايوانات تدريس المذاهب الاربعة وأيوان القبلة والقبر . وراعى المعماري في المدخل تشييد عدة مبان مصممة على هيئة صليب مصغر جزؤه الاوسط عبارة عن ردهة مفتوحة من احد جانبيها بدلاً من تصميم مدخل تجاه الباب العمومي مباشرة

وكان كثير من المباني الدينية في القرن الرابع عشر مساجد واضرحة في الوقت عينه فكان المسجد يشتمل على قبر مؤسس البناء . على ان اختيار الركن الذي يضم القبر في مسجد السلطان حسن كان اختياراً تجلت فيهِ عبقرية المعماري ، وقد ساعدته الظروف اذ ان توجيه المسجد نحو مكة جعل حائط ايوان القبلة قائماً تجاه القلعة بالضبط وعلى ذلك كان القبر قائماً هناك وكان القصد ان يرمق السلطان مقر الملك وهو راقد في قبره رقدته الابدية ، وكان فكرة المعماري ان يكون السلطان في مماته اقوى منهُ في حياته اذ أكسب تلك الوجهة بروزاً جباراً دونها ابراج القلعة وأضفى على تصميم قواعد المأذنتين اللتين تحيطان بالقبر لوناً كمل بهِ المظهر الحربي

ولكل برج جوانب بين سطوحهِ وكأنها زوايا بارزة ذات حد عريض وكان الغرض منها صيانة الابراج من فعل المقذوفات الحجرية

وفي سبيل هذا التصميم البديع استعان المعماري باساليب معمارية كثيرة لابراز اهم اجزاء البناء من مدخل وصحن وايوان قبلة ومدرسة وتربة

فاول ما يأخذ العين منهُ حدوده المترامية وحيطانه العالية الضخمة فهو يختلف بذلك عن أبنية مصر الرشيقة في القرن الخامس عشر . ولما لم يكن الغرض الاصلي انشاء حصن فقد دخلت الرقة والجمال في تقدير البناء فهناك اذن عاملان أوحيا الى المعماري بالاسلوب وهما العظمة والوقار ووجه المعماري همه الى ابراز هاتين الميزتين فاكتسب البناء هدوءاً واعتدالاً تراها في الاشكال

الزخرفية التي لا اسراف فيها كما تراها ايضاً في بعض السطوح الخالية من الزخارف . وقد روعي في الوجهة ان تبرز هنا وهناك بروزاً يضفي عليها العظمة

اما الكورنيش الذي يتوج الحيطان فيكوّن من عدة طبقات كخلايا النحل عظيمة المظهر ومن ميزاتها ايضاً ان تخدع البصر فتحسب الحيطان أعلى مما هي على حقيقتها . ولم يكن المعماري يقصد بالواجهة التي تقابل قلعة القاهرة ان تسيطر على الشعور بل كان همه توطيد البناء في الارض وتدعيم اساسه واكتفى بما بينهُ وبين القلعة من ميدان فسيح ولكن في الجهات الاخرى حيث لا ساحة ولا ميدان يستطيع المرء ان يشمل البناء بنظرة واحدة ، كان همّ المعماري أن يحس الناظر احساساً من نوع آخر فابتكر اسلوباً جديداً للوصول الى غرضه اذ أحدث في الحيطان تجاويف عمودية طويلة ضيقة ركب فيها النوافذ للانارة اللازمة فبهر وأدهش ثم ان الكورنيش الضخم الذي يطل على الناظر وكأنهُ يريدان ينقض وتلك التجاويف على ما بينها من تباين وتفاوت كل ذلك أحدث الأثر المطلوب في نفس الناظر اذ بدت له الحيطان أعلى مما هي عليه في الواقع مرتين

اما المدخل الرئيسي فعليه سيماء النبل والفخامة وفتحته التي تتوجها الزخارف المعمارية التي تشبه خلايا النحل تتجلى فيها العظمة وكأن هذا الباب الجبار يقوم بدور الساهر على هذه المدينة التي تبلغ من العمر الف عام ويحدث أثراً هو أثر العزة والكبرياء في هدوء واطمئنان

وتسير حين تدخل المسجد في دهليز يكتنفهُ الغموض وهو بناء كامل في حدود التصميم العام له قبة ومحلى بزخارف كخلايا النحل غير ظاهرة في الظلام الذي ينتشر فيها . ويزداد الغموض اذ تسير في دهليز آخر ضيق طوله ثلاثون متراً ينحني مرتين وهو مقبو فيه فتحات ترى السماء خلالها على بعد بين حائطين مقتربين عاليين ثم تسير في طريقك فلا ترى غير السماء بين حيطان ضخمة شاهقة أسفلها مكون من كتل حجرية عظيمة حتى تصل الى باب صغير فتنفذ منهُ الى الصحن الاوسط فيرتفع الستار فجأة عن منظر ما كان يدور في خلدك فيغمرك النور ويبهرك فلا مكان ينتشر فيه الظلام رغم عظم اتساع ايوان القبلة وانك وانت بين حيطان اربعة عالية بيضاء ناصعة لترى السماء الزرقاء وقد اشتدت زرقتها هادئة هدوءاً فكأن السماء خيال. نعم يبهرك النور العظيم ويدهشك علو عقود الصحن فيستولي عليك احساس قوي يعطل فيك لحظة قدرة تحليل العناصر التي يتكوّن منها ما ترى ، وسرعان ما تأخذ عينك رأس منارة ضخمة

في هذا البلد حيث كانت المباني العظيمة في الزمن الماضي البعيد بمنزلة صدى حاجة قسبة لا سبيل الى مقاومتها ، في هذا البلد حيث الاهرامات وآثار الكرنك المتناثرة يبدو جامع السلطان حسن وكأنهُ امر غير مرتقب . نعم وفي ذلك الصحن يحس المرء بالضعف والرهبة امام تلك القوة . فليس الجامع بناء شيدتهُ يد الانسان ورفعتهُ عالياً ليكون بيتاً لله تنبعث منهُ الصلاة

والدعاء الى العزة الالهية وانما هو كتلة عملت فيه الايدي واقتطعت احجاره وأفرغته لاخراج تلك الايوانات الاربعة المحيطة بالصحن الاوسط

واذا ما سرت نحو ايوان القبلة ثم اجتزته وصلت الى المحراب والمنبر ووجدت على اليمين واليسار بابين يوصلان الى تربة السلطان ويشملك الظلام في ذلك المكان وكأن الظلام مهيأ لبث جو ديني هادىء كان مقرراً ان يكتنف الى الابد جثمان السلطان حسن فتتأمل ونتذكر تلك الحياة المضطربة التي عاشها ذلك السلطان البائس . وتغشانا موجة من الحزن اذ نذكر ان القبر خلو من جثمانه فقد افتقدوه بعد ان قتل فلم يجدوه

حقاً ان جامع السلطان حسن أثر اسلامي من القرن الرابع عشر ومن الطراز المعماري الذي انتشر في مصر وسورية ، ولم تكن المدرسة الدينية نظاماً مبتكراً في الحياة الاسلامية في ذلك العصر وهذا الجامع لا يخرج في تصميمه عن الاسلوب العادي خروجاً ظاهراً فاذا حللنا بعض التفاصيل المعمارية تحليلاً دقيقاً وجدنا عناصر اجنبية . ونستطيع في سهولة تتبع الاشكال الزخرفية وقابليتها للتطور .والحق ان المرء ليحس بالضعف اذا ما حاول الوقوف على اصول هذا العمل العظيم فهو مطبوع بالعبقرية التي استطاعت ان تمثل عدة اساليب معمارية معروفة في ذلك الوقت فصاغتها وصبتها في قالب جديد . نعم وهذا الجامع سيظل قائماً بذاته خارجاً عن دائرة المألوف . ولا يمكن ان نعقد بينه وبين الآثار المعاصرة له مقارنة صحيحة لان الابتكار الذي دمغه لقوي جداً فهو نسيج وحده وكأن المعماريين الذين أتوا بعده كانوا يخشون ان يستلهموا فنونه . وكان الفن الاسلامي في ذلك العصر قد تحوّل عن الفن القديم وتشرّب بقواعد جديدة فنجد اننا معشر الغربيين مضطرين الى بذل الجهد لتفهم الفن الشرقي وتذوقه

***

ان جامع السلطان حسن ليضارع الاعمال العظيمة التي ابتدعتها المدنيات المختلفة ويعد من الاعمال الخارقة للعادة وهو وان كان اقل شهرة من غيره الا انه قد يكون اهم واعظم من قصر الحمراء بغرناطة

والفن الاسلامي وان بدا عليه التأثر بالنزعات النفسية تشكله حسبما اتفق غير ان جامع السلطان حسن هو رمز القوة الهادئة المفكرة . وشتان بينه وبين تلك التحف العجيبة حقاً القليلة القيمة فعلاً التي تمثل فخامة الفن الاسباني المراكشي

وفي مصر نفسها عندما اخذ اسلوب فن سلاطين المماليك في الميل ميلاً طبيعياً نحو كل ما هو براق جذاب شاهدنا تفتح زهرة فن جديد ورأينا تحفاً بديعة رشيقة وقطعاً جصية منحوتة بلغت اعلى مراتب الدقة الفنية ومطبوعة بطابع الفنان المخلص في عمله المقبل على صناعته

ونحن وأن كنا نعجب بالزخارف العربية ذات الاشكال الرقيقة غير اننا نلحظ عليها اسلوب الصنعة العادية المتكررة التي تنتج عدداً عظيماً من التحف تحوز رضاء الشعب وتغمر بها الاسواق ولكننا اذ نشاهد جامع السلطان حسن وما به من الزخارف ندرك ان الفكر قد سيطر على هذا العمل العظيم فأكسبه اعتدالاً ورونقاً عظيمين

ولا شك ان العمل العبقري لا يأتي فجأة وانما هو مرتبط بالماضي مثله كمثل الاعمال العادية وقد يتأثر بالاساليب القائمة بل ان هذا التأثر يحدث في اغلب الاحوال . ويمتاز العمل العبقري بالبساطة الى حد كبير فيحسبها أوساط الناس خالية من كل ابتكار ، وهذا خطأ ويؤيد جامع السلطان حسن صدق قولنا فقد ألف المعماري بين القواعد القديمة ومزجها مزجاً تجلت فيه شخصيته وهذا هو عين العبقرية . ثم وبث المعماري في الاشكال روحاً جديدة وفكرة مبتكرة فبرهن على انه قابض على الناصية مسيطر على اسرار المهنة مستخدم أدق الاصول الفنية

ان التوافق لعمل جديد في هذا الجامع العظيم وهو الميزة التي أضفت عليه جماله وعظمته . وقد تم اللحن الموسيقي وخاص للفنان الذي لم يعتمد على نغمات محدودة فحسب وانما اعتمد على ما للتأليف الموسيقي من سحر فارتفع باللحن فوق المستوى العادي وانك لن تجد فيه اي لون صارخ تشمئز منه النفس . بل الالوان كلها متدرجة متآلفة في رفق والعناصر الزخرفية هادئة والجزء خاضع للكل وكأن جمال الزخرفة نشيد لحنه الفنان في عناية ودقة وشعور مستارماً جميع النغمات . وقد وفق آرثر رونيه اذ قال « ان العبقرية هي التي أتاحت لصاحبها السيطرة على الاشكال التقليدية او الهندسية فبث فيها روحاً من عنده فلكل زخرفة في جامع السلطان حسن طابع خاص يمتاز به عن سواها من زخارف الابنية الاخرى »

بلغ المعماري القوة الفنية وأدرك معنى الكل ادراكاً كاملاً فاهتم به وابرز معناه وكان اهتمامه بالجزئيات دون ذلك بكثير . فمن الخطأ القول ان الذوق المعماري لم يكون عند الفنانين المسلمين . وليس يكفي جهلهم بأساليب الفنون القديمة لانكار نبوغهم

والفنان في هذا الجامع لم يوجه همه الى الزخرفة كعامل جوهري في العمارة بل اقتصد فيها وسيطر عليها وأخضعها للكل فأدت اغراضها . وقد يكون هذا الجامع هو الوحيد بين جوامع القاهرة الذي يجمع بين قوة البناء وعظمته ورقة الزخرفة وجمالها . وأثره قوي في نفوسنا اذ له خصائصه التي لا يشترك معه فيها غيره . ان جامع السلطان حسن هو العمل العظيم في الاسلام الذي روعي في تشييده متانة البناء فهو كالمعابد القديمة يتحدى الزمن وينطبق عليه ما تخيله شاعر عربي من ان الزمن هو الذي يقاوم قوة هذه المباني الضخمة . ولا ريب في ان هذا البناء العالمي الشهرة والعظيم القيمة رمز لمجد الاسلام وقوته . وعظمته مقررة معترف بها فاذا قلنا « السلطان

حسن » فهذا كاف للدلالة على البناء كما نقول « بورج » و « شارتر » للدلالة على الكتدرائيتين الخالدتين. وقد اختفى السلطان حسن وكأنه لم يكن وظل مسجده قائماً . واذا تذكرنا ان حسن تفهُّم المآثر الاسلامية يتطلب ان يكون المرء ملمًّا ببعض القواعد عرفنا فضل جامع السلطان حسن فانهُ لا يتطلب منا تأملاً عميقاً والزوَّار الذين يتأثرون بالفن ليسوا بحاجة الى ترجمان ولا الى لغة اخرى غير لغة المماليك او لغة الاسلام . نعم وليسوا بحاجة الى كلمات يستعينون بها على تفهمه والاحساس بقوته . بل ان السائح الذي تضاءل احساسه بالفن يحس امام مسجد السلطان حسن بقوة العمارة احساساً قويًّا . فهو يتأثر دون شك بعلوه الشاهق تأثراً فجائيًّا ثم تأخذ العين ما بين الابعاد من تناسب عجيب فتنتقل من القوة الى الرقة

وقد استطاع المعماري المشبع بالافكار النبيلة القوية ان ينفذ تصميم البناء تنفيذاً دقيقاً في بساطة وروعة ، فالجامع يطغى بقوته على حواسنا ثم يكشف لنا عن عظمة الاسلام وما ينطوي عليه من بأس وقوة. وجمال هذا البناء ينبعث من كون جميع أجزائه خاضعة خضوعاً مناسباً متسقاً لفكرة واحدة. هذا البناء القوي الذي تتمثل فيه الجرأة والقوة يسوده هدوء عظيم كأنه يمثل شرف الفكرة الاسلامية الشامخة

***

ونود ان نتفهم الاسباب الدفينة التي حملتنا على التأثر الى هذا الحد :

البناء يتجلى لنا ذا حيوية عميقة هي في غنى عن الناس ولا شأن لها بهم . وكلما أدركنا علو شأنه ورفيع مقامه ازددنا به اعجاباً . ولا غرو فالانسجام من خصائصه وأثره في النفس أجمل ما يكون. على ان خير ما يعين على تفهم قوة هذا المسجد هو التردد عليه والائتناس به والنظر اليه وحينئذ يكشف لنا عن جمال مدهش وعظمة غالبة ونشيد مبهج . وهو مثال فخم يبهر البصر يدل على روح النظام في وقت كانت الفوضى منتشرة والمعارك دموية . ومن سخرية القدر القاسية ان نجهل اسم خالق هذا العمل العظيم وسنظل له جاهلين بينما الاثر عَلَم على سلطان صغير عزل مرة ثم انهت حياته نهاية محزنة وظل اسمه المقترن بهذا الاثر خالداً على الازمان

لم يكن يصل الى مرتبة السلطان الاَّ من كان في الاصل من الارقاء الذين كانوا يباعون بأبخس الاثمان فاذا ما نالوا حريتهم على يد أسيادهم الذين كانوا ارقاء من قبلهم تنكرت شخصيتهم واتخذوا اسماء جديدة وبذلوا الجهد في العمل على تكوين عظمة المدنية الاسلامية فخلفوا آثاراً فخمة ملؤها الفخار نعرفها تمام المعرفة ولا نعرف اصحابها ولا البواعث الدافعة لهم . وكذلك جامع السلطان حسن فهو عمل عظيم خالد ولكن شخصية الفنان العبقري الذي ابدعهُ يكتنفها الظلام

ومهما يكن من شيء فما اجدرنا بألاَّ نعرف عن خالق العمل العبقري شيئاً . قد رأينا في عصرنا هذا ميل الكتاب الى تحليل حياة الفنان الشخصية والوقوف على ما فيها من الوان البؤس والخروج من ذلك بنظرية لا تتفق في شيء والعبقرية التي تتجلى في أعمالهم. وهل نحس بالسرور

حقًا على ما في ذلك من سوء الخلق وخبث الطوية اذا عرفنا ان المعماري الذي بنى جامع السلطان حسن كان مضطرًا للحصول على الرزق الى القيام بأعمال عادية ليس فيها أثر للشخصية ، ثم ترتب على هذه المقدمات نتائج قد تكون قاسية كل القسوة . انهُ ليجمل بعظمة الاسلام ان تظل شخصية الفنان العبقري الذي شيد هذا الجامع محوطة بالغموض كالشعر الخالد القديم في الالياذة والاوديسية

وقد يكون في وصف الجامع وصفاً مسهباً ما يدعو الى السآمة والملل بالرغم من ان الجزئيات تشترك في ابراز الكليات . ولكن هذا الاثر بحاجة الى قلم بليغ وأسلوب شاعري حتى يمكن ابراز دقائقه وجزئياته حتى لا يكون ما يراه القارىء قاصراً على هذه الجزئيات فحسب وان كانت بعض هذه الجزئيات غاية في الطرافة والابتكار وكأنها بيوت شعر من قصيدة عصماء

قال ابيرس « ان كل ما تراه في الجامع مركب في مكانه تركيباً حادثاً منسجماً فاذا أنعمت النظر في زخارف ايوان القبلة وقاعة القبر جزءاً جزءاً أحسست احساس الرضى، فهناك ثروة فنية وأشكال رشيقة بارعة تتكرر في انتظام وانك لتحاول ان تفهم مدلول الكلمات والآيات القرآنية المندمجة في الزخارف العربية وهي في حد ذاتها زخرفة ممتازة فتبهر نظرك بجمال زخرفتها وتملك وتصححك بجميل عباراتها . »

وانا نتخيل ذلك المكان الذي كانت تشغله المصابيح ذات الالوان المتباينة وكأن لهبها المرتعش يزيده نوراً وحيوية ، فنتأمله اليوم في خشوع وتذكر والتأثر يملأ جوانحنا عظمة المكان الذي انطفأ نوره . تلك المصابيح المموهة بالميناء رآها بعض السياح في مكانها قبل ان تنقل الى دار الآثار العربية ولذا نترك الكلمة لهؤلاء الذين شاهدوا الجامع وعلى الخصوص لهؤلاء الذين لم تصطبغ حماستهم بصبغة تجارية . فقد كتب جوبنو في كتاب وصف مصر ما يأتي : انهُ من أجل مباني القاهرة والاسلام ويستحق ان يكون في المرتبة الاولى من مراتب العمارة العربية بفضل قبته العالية ، وارتفاع مآذنته وعظم اتساعه وفخامة رخامه وكثرة زخارفه التي تكسو الارضية والحيطان في اوضاع بسيطة خاصة بهذه العمارة كما ان حشوات الخشب والبرونز التي تكسو الابواب الخشبية والحديدية محفورة حفراً فنياً

أما فلوبير فقد اختزل الكتابة عنهُ اختزالاً يقرب من الاشارات البرقية ولا يعطينا فكرة صحيحة عنهُ فقد كتب : « مدخل مستدير . مقرنصات . حبال مدلاة . انا نلبس مراكيب من سعف النخيل »

وكتب فرومنتين في يومياته محدداً موضوعه بأسلوب جاف أيضاً : « أثر عجيب نسيج وحده في القاهرة يستحق ان يعد من أجل مباني العصور الذهبية »

أما المصور لينوار فقد كتب عن مصر كتاباً تختلف أجزاؤه في قوتها وأسلوبها والصفحة التي خصصها للسلطان حسن تستحق ان تذكر : « ان جامع السلطان حسن المملوكي يشرف على القاهرة كلها وأسلوب بنائه من أرق الاساليب المبارية ، ومساحتهُ عظيمة ولذا يعد أجمل جامع في الشرق كله بلا نزاع . وموقعه تجاه القلعة والدخول اليه من باب عال بارتفاع الاثر كله مفتوح على شارع جانبي يوصل الى الميدان . هناك رخام من جميع الالوان مرتبط بعضه ببعض بحليات على شكل وردات وزخارف من برونز فيبدو هذا الباب الرئيسي رشيقاً . وينتهي اعلاه في شكل تجويف فيه مئات من المقرنصات تأخذ في القلة حتى تختفي عند منتصف ارتفاعه . وهنا عند الواح من الخشب امتداداً افقيًّا وتحمل مصابيح من الزجاج المموه بالمينا وعدداً من بيض النعام المحلى بالزخارف . يصعد المرء بضع درجات ثم ينزل درجات أخرى فيجد نفسه في دهليز عظيم مزين بمقاعد حجرية على الجانبين . ان هذا الدهليز الناهض بجمل النظر العجيب الذي يتكشف امام الناظر فجأة اشد وقعاً في النفس : صحن عظيم على شكل صليب يوناني في وسطه بناء عربي أجمل ما يكون يقوم على أعمدة من الرخام وتغطيه قبة محلاة بزخارف باهرة ، وهذا البناء المثمن الاضلاع هو الميضأة . وأمام باب الدخول ايوان عظيم هو إيوان القبلة وترى ثلاثة إيوانات أخرى على جوانب الصحن . وايوان القبلة يعلو درجة واحدة فوق مستوى أرضية الصحن وفي نهايته سلاسل مدلاة معلقة بها آلاف من المصابيح كانها نازلة من السماء وتبدو من بعيد كانها قطرات من المطر اوكانها شبكة معلقة في الفضاء . وفي نهاية ايوان القبلة المحراب المزخرف زخرفة فنية المطعم بأنواع المواد الثمينة والالوان والزخارف العربية . اما المنبر فهو من ابدع التحف الخشبية ذات الزخارف المحفورة »

ويرى جابريل شارم ان أجمل بناء في القاهرة هو جامع السلطان حسن المبني على سفح جبل القلعة فقد كتب « ان قبته العظيمة ومنارته القوية وحيطانه النازية العالية المنتهية بكورنيش فخم وأشكال كخلايا النحل تبهر النظر بشكلها العظيم . ان باب الجامع تحفة فنية من أكمل التحف العربية علوه شاهق يتناسب مع اتساعه ويعلوه نصف قبة مقسمة على هيئة مقرنصات في تجويف عميق ينتهي بباب الدخول المصفح بالبرونز ذي الزخارف العجيبة بينما المحراب وحائطه بإيوان القبلة عليها زخارف ذات خطوط نخيلية او مزخرفة بتجاويف ذات أعمدة صغيرة رشيقة . وداخل المسجد أعظمُ فالصحن وما فيه من الميضأة محاط بعقود توصل الى ايوان القبلة . كتابات كوفية محفورة في الحائط مكونة من حروف حجمها غير شائع ملتف عليها فروع نباتية . ثم يدخل المرء حجرة القبر وقبته تبدو اكثر ارتفاعاً من قبة البانتيون بباريس وأوسع منها عشر مرات . وكتاباتها منقوشة على ألواح خشبية . ان الاثر الذي يحدثهُ جامع السلطان حسن في النفس هو

من نوع الأثر الذي نحسهُ ونحن في أجل كاندرائياتنا . ولم تتجلَّ الفكرة الدينية بمثل هذه القوة وهذه العظمة في أي أثر آخر انساني سواه

وانا نورد قول الدوق داركور وهو اقل المعاصرين معرفة بمصر بل اننا لنشعر بأنه لم يكن دائماً منصفاً كل الانصاف . نورد ما كتبهُ عن السلطان حسن لان شعوره هو شعور الأجنبي الذي ما كان يود ان يرى عملاً فنيًّا جميلاً وكأنه بوصفه يقصد الى تشويه الصورة الجميلة لا الى التحمس في ابراز محاسنها . قال :

« ان جامع السلطان حسن يدهشنا قبل كل شيء بأبعاده العظيمة الجميلة وهو يكاد يكون خالياً من الزخارف والقليل الذي فيهِ لا يبدو منقولاً عن الزخارف اليونانية واللاتينية والفرعونية . ان الفن فيهِ قائم بذاته يلبي حاجات خاصة ويبحث عن الجمال في نواحٍ لم تطرقها آثار قبله ونجد فيهِ في نفس الوقت أشكالاً كثيرة معقدة وزخارف غريبة والتناسب فيهِ منعدم فمن أبواب قد تبدو ضخمة عظيمة ولكنها ليست كذلك الى أخرى صغيرة واطئة وهذا يدل على ما يظهر على شعب هو الى العلم أقرب منهُ الى السذاجة والفن فيهِ على كل حال فن مبتكرٌ أصيل ولا يخلو من الزوايا »

وقد كتب جوينو ان المنافسات الدموية بين المماليك كانت عاملاً على كثرة اتجاههم لجامع السلطان حسن على عظمتهِ قد بني في فترة كانت السلطة العليا مفقودة ، بناه طامع في الحكم مدَّعٍ لهُ يناضل منافسهُ المسيطر على القلعة وهو مع ذلك لم يجد صعوبة في اقامة عمل عظيم وان يبني جامعاً يكاد يكون قلعة حصينة »

ويستمر جوينو مسوقاً على أجنحة الخيال . ولكن اذا صرفنا النظر عن الحقيقة التاريخية فان ملاحظاته ذات دقة وعمق . وقد دون مؤرخ في مذكراته عن أحد كبار وزراء الدولة الفاطمية في عصرها الاخير انهُ قال في وصيته السياسية ان من بين الغلطات الثلاث التي ارتكبها انهُ بنى جامعاً خارج باب زويلة يمكن ان يكون نقطة ارتكاز لمن يغير على القاهرة او يدافع عنها « والمقصود هو جامع الصالح طلائع المشيد بالقرب من باب المتولي وقد كان يمكن ان يكون هدفاً حربيًّا كما خشي الوزير لو لم تتسع القاهرة وتصير الاسوار الفاطمية عديمة القيمة . وقد ارتكب السلطان حسن نفس هذه الغلطة . ان الحكومات الاسلامية كانت حكومات أوتوقراطية وقد قبلت الشعوب فكرة السلطة هذه . وعلى ذلك فلم نجد في التاريخ الاسلامي ما يمكن ان يقارن على وجه الخصوص بالنزاع بين البرلمان وبين الملكية في فرنسا

ولو كانت الفكرة النيابية او الشعبية موجودة في القاهرة في ذلك الوقت لكان جامع السلطان حسن القائم تجاه مقر الحكومة بمثابة تهديد للحكومة . وعلى كل حال كان وجود مثل هذا البناء بأبراجه البارزة مصدر خطر دائم

وقد كان الرحالة ليون الافريقي أول من نبه الى وجود بناء من الابنية مشهور جداً ، هو جامع السلطان حسن الذي رفعهُ بانيهِ الى علو شاهق فصار حصناً يحتمي فيهِ المماليك لصد هجمات بعضهم على بعض

وقد ذكر هذه الحقيقة كذلك شارل تومسون الانجليزي ، قال : ان الجامع الذي يبدو متفوقاً على الابنية الاخرى بمأذنته ومظهره الفخم المدهش ، هو جامع السلطان حسن الواقع على سفح الجبل الذي يقوم عليه حصن القلعة . يرتفع الجامع ارتفاعاً شاهقاً ويعلوه كورنيش جميل بارز بروزاً شديد ومحلى بنقوش غريبة . ومساحته مستطيلة ومدخله محلى بالرخام الثمين المختلف الالوان وكذلك على الباب . والدرج الذي كان موصلاً للباب قد تهدم والباب نفسه مسدود اذ كان ملجأ للساخطين اثناء الثورات »

ان القنصل مايه الذي نقل عنه « فورمون » حرفاً بحرف دون ذمة رأى ذلك ايضاً اذ انه اورد في كتاباته : « بالقاهرة جامع قديم فسيح ومرتفع جداً ولا يفصله عن سفح الجبل القائم عليه القصر الا ميدان مفروش بالرمال اتساعه مائة وخمسون قدماً وطوله الف قدم تقريباً وكان هذا الجامع ضاراً في زمن الثورات لان الساخطين كان في امكانهم بضربات السهام ان يحولوا في سهولة دون اتصال جناحي القصر احدهما بالآخر وكان يمكن لرجال القصر من ناحيتهم ان يمطروا الثائرين وابلاً من الحجارة من قمة الجبل التي تشرف على الميدان كله . كانت اقامة بناء ضخم تجاه القوات الحربية السلطانية غلطة سياسية . وقد كتب مؤرخ عربي ان هذا الجامع يقوم تجاه القلعة وما كانت تقوم ثورة الا احتمى الثوار في أعلى البناء وأمطروا حماة القلعة وابلاً من المقذوفات وفي غضون سنة ١٣٩٠ لاقى السلطان برقوق صعاباً شديدة في التغلب على الثوار الذين التجأوا الى هذا الجامع ، وكان هذا السلطان قد خصصهُ قبل تلك الثورة بعشر سنين مخزناً للاسلحة ، فلما رأى ما عاناه في اخماد الثورة امر بهدم الدرج الذي يوصل الى المنارتين وقفل الغرف التي كانت مخصصة لسكن الاساتذة وهدم سلم الباب العمومي كما سدَّ الباب الخلفي وبهذا صار الوصول الى الجامع عن طريق نافذة صغيرة تجاه القلعة كان من السهل سدها عند الثورات. وصارت تلك النافذة باباً جديداً للجامع يدعو المؤذن منها المؤمنين الى الصلاة

وقد نهب الجامع سنة ١٣٩٩ أثناء ثورة أخرى وبني درج المأذنتين من جديد كما يؤخذ من النصوص . وفي سنة ١٤٠٤ بنيت على سطح الجامع أنابيب لقذف المواد الملتهبة على القلعة . وقامت الحكومة نفسها سنة ١٤١٠ بتحصين الجامع مخافة الاضطرابات ولكن الثوار تمكنوا من الاستيلاء عليه بالقوة بعد معركة شديدة واستعملوه في التو مركزاً للمقاومة ، ثم جدد الدرج كله سنة ١٤٢٢

وفي سنة ١٤٣٨ استولى بعض المماليك على الجامع وحرقوا بابه وتحصنوا على السطح فلما عاد الهدوء كان هم السلطان تهديم درج المآذن ثانية

وكتب مؤرخ عربي انهُ في سنة ١٤٥٤ أمر السلطان المهندسين بفحص المنارة جنوبي الجامع اذ كانت تنذر بالسقوط على ما كانوا يؤكدون . ولكن هذه الاشاعة تلاشت عند التحقيق الدقيق ومع ذلك فقد لاحظ المهندسون ان قمة المنارة قد تهدمت وان الهلال الذي كان يعلوها قد أصابهُ العطب ، وذلك من جراء المقذوفات على الجامع أثناء الاضطرابات . فاكتفى بازالة الهلال . وكان هذا العمل في الحقيقة أسهل بكثير من هدم المنارة وختم هذا المؤرخ حديثه بأن هذا الجامع احدى اعاجيب العالم وبانهُ اجمل بناء في الاسلام

وكان السلطان جانبلاط في نهاية عام ١٥٠٠ مهدداً في سلطنته ففكر في الاحتماء بالقلعة وامر بهدم الجامع تجنباً للخطر فشرع العمال ينفذون أمره وظلوا ثلاثة ايام احدثوا فيها بالجامع اضراراً بسيطة وكان الرأي العام قد هاج فاضطر السلطان الى العدول . وهكذا كانت الاوساط البعيدة عن السياسة تهتم دائماً بآثارهم الثمينة . ثم كان ادخال المدفعية ضاراً بالبناء كل الضرر اذ كتب تيفينو سنة ١٦٥٧ يقول « احتمى طومان باي وهو آخر سلاطين المماليك في هذا الجامع تاركاً القلعة السلطان سليم الذي امر باطلاق القنابل على الجامع ولا تزال الثقوب تشاهد حتى اليوم خصوصاً في القبة »

ولنلاحظ حالة القبة السيئة دون الوقوف عند الحقيقة التاريخية فقد سقطت بعد تلك الحوادث بثلاث سنين وحلت محلها قبة اخرى هي التي نراها اليوم ، والدعامات التي تستند اليها من الطراز العثماني . وكانت المنارة الشمالية تهدمت قبل ذلك بسنة واحدة فبنيت محلها منارة اخرى ذات حجم أصغر

وحدث في القرن الثاني عشر من الحوادث ما اضر بهذا الجامع كذلك . وقد روى بول لوكاس الذي كان يقوم برحلته الثالثة سنة ١٧١٦ ما يأتي : « هزم امير جرجا عرب الصعيد ثلاث مرات اذ وقفوا في طريقه وهاجوه ثم عاد الى القاهرة . وكان يمكن هزم العرب هزيمة نهائية باطلاق النار اطلاقاً مستمراً من القلعة لولا النجدة المؤلفة من اربعمائة رجل التي ارسلها الدفتردار فقوي ساعدهم واستولوا على جامع السلطان حسن القريب من حيهم واحتموا فيه فكانت هذه الحيطة سبباً في استيلائهم على السلطة ثم انهم نصبوا مدفعاً في جامع السلطان حسن وصوبوه نحو امير جرجا واستمر اطلاق النار اطلاقاً شديداً اياماً عدة فلولا جامع السلطان حسن لما عرف العرب اين يحتمون . وكان احمد في قلعته واقعاً تحت ضغط النيران المنصبة من الجامع

ثم في سنة ١٧٣٦ حرق باب الجامع واستولى الثوار على البناء فاخرجوا منهُ بالقوة وهدم الباب الكبير

وكتب سافاري في سنة ١٧٧٨ يقول: من جوامع القاهرة الكثيرة ما يقوم بينها كقلاع. ففيها جامع السلطان حسن الذي كان الثوار يحتمون فيهِ في وقت الاضطرابات ويضربون القلعة بالمدافع من قمته . وهذا البناء الكبير بكورنيشه المنقوش نقشاً غريباً والبارز بروزاً عظيماً ، تعلوه قبة عظيمة ، وواجهته محلاة بالرخام الثمين . والابواب اليوم مسدودة وثمة حرس من الانكشارية يحولون دون الاقتراب منه

وانتهت هذه الحال سنة ١٧٨٦ كما قال الجبرتي :

« استدعي العمال لفتح باب هذا الجامع الذي كان مغلقاً وهدمت الدكاكين التي اقيمت تحت هذا الباب وكذلك الحائط الذي اقيم سداً ثم بني باب من حديد ودرج للوصول اليهِ ومقاعد من الحجر »

وقد نمى آرثر رونيه الذي كان محبًّا للجامع حبًّا كثيراً موقعه المعرض للخطر ومن ثم للتلف ولكننا نقرأ ما كتب عنهُ فنراه يميل كل الميل الى وصف تلك الفترة من الزمن وصفاً جميلاً بعيداً كل البعد عن الحقائق التاريخية إذ يقول كانت السطوح والشرفات ملجأ الساخطين والثوار الذين قاوموا حامية قلعة الجبل منذ خمسة قرون سواء أكان الحاكم سلطاناً من سلاطين المماليك ام والياً من قبل الباب العالي او القائد بونابرت ، ثم يردف هذا بقوله « كان الفزع الاكبر عندما كان نابليون في اشد حالات الغضب وذلك في ثورة ٢١ اكتوبر سنة ١٧٩٨ ، ولا تزال الحيطان تحمل آثار طلقات الفرنسويين »

وكان لهذا القول أثره في كل طبعة من طبعات «دليل جوان Joanne » مع خطأ في التاريخ وكان التراجمة يذكرونه على الدوام بل ان بعض الكتاب لم يجد أية غضاضة في نشره من حين لآخر . ومنهم الكاتب كامي موكلير وهو آخر من كتب ذلك . غير ان الاستاذ جان ماري كاريه صحح هذا الخطأ ومن السهل ان نقرأ حوادث ذلك اليوم المحزن الذي قامت فيه الثورة، وان نرجع على الخصوص الى ما كتبهُ الجبرتي الذي كان ينتهز الفرص للتعبير عما يكنهُ في قلبه من البغضاء للفرنسيين وهو شعور طبيعي جدًّا ، والى القارىء ما كتب : « وجّه الفرنسيون مدافعهم الى الجامع الازهر والى بيوت الاحياء المجاورة » وهذا مما يؤسف له بالطبع ولكننا نريد ان نثبت بهِ ان بونابرت لم يتح لهُ ان يضرب جامع السلطان حسن بالمدافع

وقد اطلق الكاتب م. دي فوجاني لخياله العنان فوقع في عدة اخطاء وأحسَّ بالحاجة الى ان يضفي على هذا الجامع لوناً روائيًّا فكتب : « كان السلطان يجتمع بشعبه في هذا الصحن

الفسيح الذي يغمره النور ثم يبلغه أوامره . وكان الشعب يضع هامته على الرخام عند نزول السلطان من على المنبر متجهاً نحو الردهات حيث كان الحرس قائماً بالحراسة ، وكان لاصوات سنكات الحرس الثقيلة رنين على الرخام . واحتمى الفرنسيون فيه اثناء ثورة القاهرة في ٢١ اكتوبر ١٧٩٨ »

فالفصل الاول من هذه الرواية كالروايات اليومية التي نقرؤها ومثله كمثل ما جاء في دليل بيديكير الذي رأى محرره رخام الصحن ملوثاً ببقع يقال انها دم المماليك المذبوحين

اما ما كتبهُ جابريل هانوتو فيعتبر بمنزلة خاتمة الموضوع : «ها هو الجامع الذي يفوق كل ما عداه من الجوامع الاخرى ولا مفر من التسليم بتفوقه . نحن في فترة من فترات الفوضى التاريخية ، ولكن ما اعجب التباين بين الفوضى وبين الفن الذي بلغ السماكين فخامة ونظاماً ! فما الذي يحمله من معنى وما الذي يعبر عنهُ من شعور أشكوى لله من نظام قديم قد انطفأ نوره ام نشيد الانتصار لنظام جديد قد انبثق فجره ومهما يكن من امر فان الوحي والفن قد بلغا الذروة . واني لا اعتقد ان الاسلام قد بلغ في مجال انتصاراته القيمة ماهو ابدع من السلطان حسن»

اما القاعة المربعة التي تعلوها القبة فهي من العجائب . اننا لا ندري ما العظمة التي تسترلي على هذه القاعة الجامعة بين امرين عظيمين متضادين : الثروة الزخرفية والهدوء الذي يشمل المكان» . إن مطالب الحياة الحديثة قد حكمت على السلطان حسن بالنفي : فهو غير معروف للزائرين الذين تجذبهم الاحياء الاكثر ازدحاماً وضجة . وقد استرعى انتباهنا ذلك الهدوء الذي يبدو كأنهُ مقصود من البداية . وفي مصر التي لا تعد فيها الآثار ولا تحصى كثرة تجد جامع السلطان حسن وحيداً منزوياً وهو رغم هذا كله لا يزال من اجمل المباني الاسلامية طرًّا

***

وليس من العبث ان يتوجه المرء خصيصاً لزيارته والاعجاب به فزيارته مقرونة دائماً بالخشوع والادراك وهو ليس بحاجة الى ترجمان يشرحه ويعبر عن جماله وحسنه الفائق وحسبه ان يشاهد فيدرك معاني الجمال . هذا الحصن المكعب الشكل الذي تغشاه الرزانة والصرامة ليذكرنا من غير شك بفترات من التاريخ فيها من المآسي ما يدمي الفؤاد ولا سيما تلك الايام المضطربة التي كان يرفع فيها هامته نحو السماء فالثورات والانقلابات السياسية في ذلك الوقت كانت تحدث والشعب هادىء يتحمّل في صبر عامل في سلام وصمت . وليس من العبث ان نتأمل هذا الجامع ونعجب بذلك الزمن الخالي الذي بلغ اقصى درجات الخصب والغنى . ولنحب اولئك الفنانين البسطاء الذين لم يكسبوا المعارك وانما عملوا على بث روح الجمال في الاشياء

في الفلسفة الحديثة

مصادر العلم

الحديث

للدكتور ابراهيم ناجي

لي سؤال أوجهه اليك ايها القارىء العزيز : أتعرف معنى لهذه الانسانية الصاخبة المدوية . كيف نشأت ؟ وكيف تطورت ؟ لا اقصد ان تعيد الي فصول التاريخ والجغرافية . أو ان تعيد الي فصولاً في علم الاحياء أو الاجتماع . انما أقصد ان تخبرني على وجه التحقيق ما تراه في تطور العقل البشري ! أتظن ان العقل البشري ، ذلك العقل العجيب الذي فهم بالمنطق التجريدي أعظم حقائق الكون ، وأدرك قوانين الضرورة التي تسيطر عليه ، أتظن هذا العقل يمشي الآن بالانسانية في طريق الخير ؟ واذا كنت لا تعتقد ذلك فهل تعرف لماذا يكون النافع ضاراً والذي تتوسم فيه الخير قد يكون مؤدياً للشر ؟ ثم سؤال آخر ..

انت تدرك ايها القارىء الكريم مما تعلمته في التاريخ أن العلوم قد وثبت وثبتها الكبرى بعد عصر النهضة . وان البشرية كانت تغط في نوم عميق قبل ذلك اجيالاً ؟ ما الذي يجعل البشر ينامون ذلك النوم العجيب ؟ وعلى أي نداء يستيقظون ؟ اذا كنت تريد ان تلم بدقائق هذا الموضوع الماماً تاماً فعليك بكتابين من اعظم كتب العالم . الاول كتاب «العقل في دور التكوين» تأليف روبنسون « Mind in The Making » وكتاب « العلم والعصر الحديث » تأليف هوايتهيد « Science and the Modern World » واحب ان اوجز لك في هذا البحث علاقة الفلسفة بالعلم وهل نحن الآن في عصر يصلح للفلسفة أو هي قد دالت دولتها ؟

مما لا ينتهي اليه الشك أن الاغريق هم منابع الفلسفة والعلم . وكل ما جاء بعدهم انما جاء أخذاً عنهم أو نسجاً على غرارهم أو تكملة لما بدأوا به . حقيقة مضت حقب من الاجيال نسي فيها أثرهم . واهملت البشرية أمرهم . وكان الرأي لغيرهم على هذا الترتيب في التاريخ : الرومان — القسطنطينية (الفن البزنطي) وبغداد . العصور الوسطى أي عصور البابوية . الى القرنين السادس والسابع عشر حين استيقظ العقل البشري من غفوته الطويلة . فأخذ المفكرون والعباقرة يرجعون الى مخلفات أثينا . ويراجعون آراء فيثاغورس وأفلاطون وأرسطو

من أول الامر كان الاعتقاد ثابتاً بوجود نظام طبيعي ثابت يحكم الاشياء كلها ويتغلغل في صميمها . كان الاعتقاد ثابتاً بوجود قوانين أزلية تسيطر على الوجود ويظهر ان الانسان لاعتقاده الفطري بذلك كان مقلداً لذلك النظام الطبيعي. فما كاد أثر أثينا يزول حتى أخذ الرومان يشرعون قانونهم المشهور وهذا القانون مثل أعلى في شيئين : الاول في استقائه من فلسفة أثينا والثاني في جعل الترتيب الطبيعي الذي يشعر الانسان بوجوده في القوى الخفية المسيطرة ، مسيطراً كذلك على أحوال البشر، ومعايشهم وان كان الفرق ظاهراً بين قوى أزلية وقوى مرتبة بأيدي البشر . وزاد هذا الترتيب الطبيعي غلواً على مدى الاجيال فصار ترتيباً قاسياً لا يلين ولا يناقش (وذلك في العصور الوسطى) ومهما يقل في أثر تلك العصور المظلمة فأنهُ من الثابت أنها كانت تدريباً للبشرية على النظام والطاعة . ولكن هذا النظام الصارم الذي قوامهُ رد جميع المظاهر الى قوى مسيطرة حديدية المنطق كان يقابله تفاعل كبير . في أواخر القرن السابع عشر أخذ العقل البشري يستيقظ متسائلاً : من العجيب ان كل حقيقة من حقائق الحياة نردها الى تلك القوانين المسيطرة . وجميع الخوارق نردها الى قوى مجهولة لا ندرك كنهها . أليس من الصواب ان نعود فنناقش تلك الحقائق الثابتة المقررة لعلّ في مناقشة الامر العادي من جديد فهم لغير العادي وردها الى مصدرٍ واحد

أخذ العقل البشري يناقش من جديد الحقائق التي مرّت على الاجيال صارمة قاسية المنطق لا تلين . .

هذا هو المنطق العلمي الجديد . أوله إيمان بوجود نظام طبيعي للوجود والثاني مناقشة الحقائق التي تبدو لاغلب الناس عادية مألوفة

ومعنى هذا إيمان بقوة العقل البشري وقدرته بمجرد الفكر التجريدي الوصول الى مفتاح تلك القوانين . كانت هذه النقطة في زمنين متقاربين وفي أمرين متقاربين . جاليليو ونيوتن في العلم . وديكارت في الفلسفة . العلم أخذ يناقش الحقائق المقررة من جديد . والفلسفة على يد ديكارت أخذت تقول « اني أفكر فاذن أنا موجود » . فكما كان نيوتن ينظر الى التفاحة ويفهم منها الجاذبية كان ديكارت يراجع الفلسفة من أولها ويردها الى العقل التجريدي وحده . كان يشك في الماضي بوجه عام ليضع على أساس الحاضر فلسفة جديدة . ومن العجيب أثر الرياضيات في ذلك التفكير . فأغلب هؤلاء العباقرة رياضيون لا يستثنى منهم غير هيوم . وقد يجهل كثير من الناس أثر الرياضيات في تفكير البشرية ولكن الواقع ان معنى الرياضيات الفلسفي هو الاعتماد على التفكير التجريدي البحت . فان قوانين الرياضة ومعادلاتها قوانين عامة . وما هو علم الجبر مثلاً ؟ ما معنى س ، ص ؟ ما معنى تلك المجاهيل ؟ معنى ذلك ان تكون القوانين العامة لا علاقة لها

بشخوص معينة هذا هو معنى التجريد . وكل قانون من هاته القوانين مفتاح لقانون آخر. حتى يمكن ان يقال أن هاته القوانين سلسلة متناسقة من حلقة كبيرة كقصر كبير متعدد الحجر والسراديب . كل مفتاح يفتح باباً جديداً ويؤدي الى حجرة جديدة . وخلاصة هذه النماذج وتلك المفاتيح التي اهتدى اليها المنطق بغير حاجة الى الشخوص والملموسات، ذلك النظام المتناسق الرياضي الذي نسميه « الوجود ». ولكن مع الاسف قد سيطرت على الاجيال حتى بعد عصر النهضة فكرة كئيبة . هذا النظام ما هو ؟ أنظام مادي غير مسؤول؟ هذه الفكرة المادية التي تجاهلت الفكرة التي وراءها ، وهي فكرة « القوة الحيوية » التي ذكرها أفلاطون وعاد اليها برجسون اليوم — أعطت (اي الفكرة المادية) للعالم معنى الوجود الذي يقود عنانه قوة ميكانيكية غاشمة الى ان وجد الفكر البشري اليوم في مأزق يضطره اضطراراً الى طرح هذه الفكرة المادية . واليك البيان : انتهى المنطق التجريدي البحت الى حقيقة هائلة . بل الى حقيقتين الاولى حقيقة التكرار والثانية حقيقة الاهتزازات . وما الثانية الا صدى الاولى . فكل شيء في الحياة يتكرر. هذا التكرار اساس الوجود والحياة ولا يمكن لانسان ان يتذكر شيئاً اذا لم يتكرر . فالفصول تتكرر والقلب يكرر نبضاته والموجة لا ترسم الا بتكرار خطوطها. ما هو النور ؟ ما هو الصوت ؟ ما هو اللحن الموسيقي ؟ ما هذه كلها الا اهتزازات متكررة . وليس لموجة من موجاتها قيمة في وقت بعينه . وانما قيمتها في التكرار ونحن عندما نحلل عناصر الحياة ننتهي الى الالكترونات والى البروتونات ثم الى ما يسمى الكوانتم اي دقيقة « الطاقة » او الكهرباء التي باهتزازها وانطلاقها تكون البروتونات فالذرات . ولكن هذه الذرات عندما نشاهد مساربها الغيبية نجدها تنتقل ولكنها لا تعبر الفراغ الذي تراه اعيننا: فهل هناك إذن فراغ آخر ؟ ها هي ذي الفلسفة تمدُّ يدها لتخرجنا من مأزقنا . وتقول لم لا . هناك فراغ آخر وراء الطبيعة تعبره تلك الذرات. وهذا الفراغ لا تراه أعيننا ولا تستطيع ان تراه . ولكن العلم يجيء محتجًّا. ويقول. ولماذا ترجعون الى تلك الخوارق . اني أفسر لكم. ألم تهتدوا الى التكرار والاهتزازات ؟ ألم تقولوا ان كل موجة لا معنى لها ولا وجود الا بذلك التكرار . ولم لا تكون الحياة أمواجاً من الطاقة . وكل موجة في لحظة معينة لا معنى لها . فاذا تكررت فرسم زمانها بأجمعه هو صورة الموجة وهو مظهرها وكيانها ولذلك نراها في مكان . ثم تختفي في آخر ثم تعود للظهور في غيره عندما تستكمل اهتزازاتها وزمانها

ما معنى هذا ؟ معنى رائع . ان هذه القوى المتكررة التجريدية البحتة هي التي تكون نسب الاشياء الجامدة الملموسة المادية . أو طبقاً لرأي السر جيمز جينز « الوجود فكرة في عقل الله . » ما معنى هذا أيضاً ؟ ان العقل هو كل شيء . وانهُ بمجرد « التجريد » يمكن ان نخلق

من العوالم الجامدة وغير الجامدة ما نشاء . وهناك معنى كبير غير ذلك . استطاع الفكر ان يستيقظ ليشك ويراجع واعتماداً على قوته أمكن ان ينافش فيصل الى أروع الحقائق . فكثرت المخترعات وازدانت الدنيا بآثار المفكرين ونتاج أدمغتهم . والآن ما حال النفس الانسانية ؟ هل صار الانسان أصفى غرائز وأطهر قلباً وأصفى نفساً ! ! قد لا يكون هذا فالعقل البشري يثب وثباً . والنفس الانسانية متخلفة في غياهب البهيمية الاولى . وهذا هو للاسف مصدر الشقاء . فأين العبقري الذي يدعو الى مراجعة الاخلاق والمعتقدات ؟ انني قد أتخيله ولكن لا ألمسه . فهو بعيد بل هو لم يوجد بعد . وعند ما يوجد فقد يشعر العالم بشيء من الايمان الاكبر الذي يتوقف على السعادة التي فكر فيها أفلاطون والتي ينتهي اليها تفكير أصحاب المادة والروح على السواء



فكرة ضائعة

للشاعر الفرنسي سوللي برودوم

فيم أفكر ؟ في هذه الساعة
وفي أيّ حلم جميل قد توارى...

هل أملك دموعاً لابكاء عليه ؟
وقد تركني دهشاً محيّراً .

هذه السعادة التي لم يكن عمرها الاّ لحظة ،
لا تقدر جهودي على استرجاعها .

لم أتذوّق فرح الوجود الاّ في الحُلم
وهذا الحلم — وا أسفاه — قد ولى . . .

[نقلها خليل مِنداوي]

ثورة العرب

مساعيهم لتأسيس ملك عربي

لانيس المقدسي
استاذ الادب العربي بجامعة بيروت الاميركية

حدث في اثناء الحرب الكبرى حادثان كبيران كان لهما اثر عميق في نفسية العرب وبالتالي في شعرهم ، هما اعدام الشهداء ، والثورة الحجازية . ولسنا في مقام البحث عن الاسباب التي أدت الى كليهما وانما نحن نؤرخ الواقع وأثره في ادبنا العربي الحديث

ومن المعلوم ان الدولة العثمانية لم تكن قبل الحرب عمياء عن الحركات القومية العربية فأخذت تبث عيونها في كل ناحية لتلم بكل شيء من امرها . ولم تكن في اول الامر تظهر القسوة والشدة كما يستدل من مفاوضاتها لزعماء الحركة الاصلاحية الذين اجتمعوا في باريس برئاسة عبد الحميد الزهراوي [1] . على انها كظمت ما في نفسها خوفاً من تدخل الاجانب وجعلت تتحين الفرص السانحة

فلما اشتعلت نيران الحرب العامة والغيت الامتيازات الاجنبية اسرعت الدولة الى تفتيش القنصليات المعادية فوقع في يديها بعض الوثائق السرية وبها تمكنت ان تكشف كثيراً من اسرار الجمعيات السرية [2] وحينئذ شمرت عن ساعد الجد فقبضت على جماعة من الزعماء ، وتمكن بعضهم من الفرار الى اوربا ومصر

واحيلت الاوراق الى الديوان الحربي فحكم على نخبة من أعيان الوطنيين بالموت شنقاً . وقد نفذ الحكم في ٦ ايار (مايو) سنة ١٩١٥ في دمشق وبيروت . وحكم بالاعدام غيابياً على نحو ستين من الوجهاء ، فضلاً عمن عوقبوا بالنفي او بالسجن [3]

---

(١) راجع صورة الاتفاق بين الطرفين في المنار ١٦ — ٦٣٩ (٢) راجع تفصيل ذلك في كتاب الثورة العربية لامين سعيد ١ — ٦٦ (٣) راجع اسماء الشهداء والمحكوم عليهم غيابيا في كتاب ايضاحات الذي اصدره جمال باشا وكتاب الثورة العربية الجزء الاول

ومن الصعب الآن ان يصف كاتب ما خالج قلوب السكان يومئذ من الهلع والنقمة . وها نحن نعيد ذكرى تلك الايام المؤلمة فيعود الى نفوسنا ما كنا نشعر به من الضغط والرهبة — شعور مخيف كان يخيم على البلاد حتى لم يكن احد يجسر على التكلم او البحث في الشؤون السياسية . او اظهار الاسف على شهداء العربية

على ان ذلك الضغط التركي الرهيب لم يخلُ من فائدة اجتماعية فقد كان من اسباب التقارب بين الطوائف . وذلك لارتباطهم بشعور عام انهم عنصر مظلوم وأثر ذلك بيّن في الشعر العربي لذلك العهد

والى ذلك الضغط وذلك الشعور الاليم بالظلم يرجع السبب في توسيع شقة الخلاف بين العنصرين التركي والعربي ، وبالتالي الى تسهيل مهمة الحلفاء في سوريا والعراق ، ثم الترحيب بهم يوم تمكنوا من الفوز على تركيا وفصل الاقطار العربية عنها . ومما يعكس لنا هذه الحال قصيدة لرضا الشبيبي نظمها على أثر طرد الاتراك من العراق وهي تحمل لنا أسفهُ بل أسف العثمانيين في العراق لسوء السياسة التركية التي أدّت الى التفرقة بين عنصري الدولة الكبيرين . وفيها يقول : (١)

يامن يعزُّ علينا ان نؤنّبهم ... في حيث لاينفع التأنيب والعذلُ
جفوتمونا وقلتم نحن ساستكم ... متى مطيتها الاخفاق والفشلُ
تأبى الحوادث الاّ ان نملّكمُ ... ولا ودين التآخي ما بنا مللُ
أما صفحنا عن الماضي لأعينكم ... أما أديلت لكم أيامنا الاولُ

ومنها مشيراً الى حكومة الاتحاديين وسوء إدارتهم : —

قيّضتمُ لحفاظ الملك طائفة ... لغيرها الملك والاجناد والدول
قوم من العرب وخز النحل أريهمُ ... وخظ قوم سوانا الاريُ والعسل
عند المغانم تنسونا ويفدحنا ... من المغارم ثقلٌ ليس يحتمل
أين الرهين بأموالٍ لنا ذهبت ... ومن يقيدُ باخوانٍ لنا قُتلوا
إما شهيدٌ معلّى فوق شاهقة ... او موثق بحبال الأسر معتقل

فالشاعر هنا يعيد ذكريات الحرب وما قبلها ويعزو الى الاتحاديين ما أصاب البلاد من شقاء، وما نجم من خلاف أدى الى إيهان قواها ووقوعها في يد الاعداء

***

ومن البديهي ان الشعر العربي في الاقطار العثمانية لم يستطع اثناء الحرب ان يبكي الشهداء كما كان يود . فلما وضعت الحرب اوزارها وخرجت سوريا والعراق والحجاز من المنطقة العثمانية عاد الشعراء الى ذكريات شهدائهم وصاروا يعددون مآثرهم . وقد رفعهم الشعر الى مصاف

(١) راجع كتاب « العراق في دوري الاحتلال والانتداب » للحسني ص ٥٥

الابطال فافتنّ في تمجيدهم وتقديس أهدافهم ، كما فعل الزهاوي في قصيدته « النائحة » وهي تقارب المائة والستين بيتاً . ولا نخطيء اذا سمّيناها « معلّقة الشهداء » . ففيها يصف المشانق وقبور القتلى وأهلهم ، ويذكر أسماء الشهداء واحداً واحداً باكياً شبابهم طالباً الثأر لهم . ثم يذكر ما أصاب الناس من نفي وتشتيت . ويعقب بذكر الثورة ودخول العرب دمشق ويختمها بذم جمال باشا ، والتفاؤل بعهد زاهر ينسي العرب ماضي آلامهم : واليك بعض أبياتها :—(1)

على كلّ عود صاحبٌ وخليلُ وفي كل بيتٍ رنةٌ وعويلُ
علاها وما غير الحميّة سلّمٌ « شبابٌ تسامى للعلى وكهولُ »
لقد ركبوا كور المطايا بحثّهم الى الموت من وادي الحياة رحيلُ
رجالٌ عليهم من سنا الفضل رونقٌ وللمجد فيهم غرّةٌ وحجولُ
مشوا في سبيل المجد يحدوهم الردى وللحق بين الصالحين سبيلُ

***

قبورٌ ببيروت وأخرى بجلقٍ تُجرّ عليها للرياح ذيولُ
سرتْ روحهم تطوي السماء لربها وما غير ضوء الفرقدين دليلُ

وبعد ان يذكر الشهداء ويعدد أسماءهم وصفاتهم يقول : —

بني يعربٍ لا تأمنوا الترك بعدها بني يعربٍ ان الذئاب تصولُ
ولن تسكن الايام عن عصبةٍ جنوا ولكن بما كالوا لهم سنكيلُ
وقد سلبوا حرية الناس مذ عتوا وتلك مرادٌ للحياة وسُولُ
وصبّوا دماء من شعوب بريئةٍ فاخضلّ وهداتٌ بها وتلولُ

ومنها مخاطباً جمال باشا : —

جمالُ لأنت القُبح سموك ضده وثوبك اذ أرفلت فيه ذليلُ
تُريد لمجد العُرب فيما أتيتهُ زوالاً ومجد العرب ليس يزولُ
رويدك لا تغترّ بالدهر ان صفا ولا تأمن الايام فهي تدولُ
وراءك لا تقرب رواسي يعربٍ فقرب رواسيها عليك وبيلُ

***

ولخير الدين الزركلي قصيدة نظمت (كما جاء في ديوانه) « على اثر اعدام الترك فريقاً من

(1) راجعها في ديوانه او في الادب العصري (بعلي) ١ — ١٨

شبان العرب بسورية وقيام الثورة بالحجاز » ومنها في الشهداء —[١]

نعى نادب العُرب شبّانَها ... فجدّد بالنعي احزانَها

بكى كلُّ ذي عزّةٍ تربه ... فهاج نزاراً وعدنانها

فن للمدامع ان لا تفيضَ ... وترسلَ كالسيل هتّانها

فجائعُ هنّ حديث القلوب ... وهيهات تستطيع سلوانها

ومنها : فأبكى على غرر المسلمين ... أباة المذلّة قرآنها

وابكى على آل عيسى المسيح ... شمّ العرانين صلبانَها

نعتْ لغة العُرب من احكموا ... لسان قريشٍ وتبيانها

وناحتْ على من بنوا عزّها ... واعلوا بما اثّلوا شانها

وهناك قصائد لغير هذين الشاعرين فلتراجع في مظانّها

***

وكما نسمع بكاء الابطال في الوطن نسمعهُ في المهاجر . فان المهاجرين لم يكونوا يوماً اقلّ حماسةً من اخوانهم المقيمين . والذي يقرأ دواوين ابي الفضل الوليد ، والشاعر القروي ، وفرحات ، والجرّ ، وصوايا وسواهم يرى من اتقاد العروبة ما قد لا يراه في البلاد العربية نفسها . واليك انموذجاً من شعر المهجر في الشهداء وهو من قصيدة موضوعها « ليحيي العرب »[٢]

بلادَ الشام غادرك الكرامُ ... فعيش الحرّ فيك اذن حرامُ

لقد كثرت من العرب الضحايا ... ولم يهتزّ في الغمد الحسامُ

ومنها مشيراً الى السفاكين حاضّا العرب على الثورة —

وحكّام الخلافة من علوجٍ ... لهم ذمٌّ وليس لهم ذمامُ

يرون محبة الاوطان جرماً ... بهِ يهوي من الاحرار هامُ

لقد قتلوا العواطف والمزايا ... ففي احشائنا منها سهامُ

أنبقى ساكنين بلا حراكٍ ... وللثورات حولينا اضطرامُ

ثم يخاطب الشهداء ويصف شجاعتهم لدى الموت

أيا صحبي الكرام ألا فداكم ... لئامٌ بعد ما قلَّ الكرامُ

مشيتم باسلين الى المنايا ... وكان لكم على النطع ابتسامُ

(١) ديوانه (١٩٢٥) ٦٥ (٢) ديوان الانفاس الملتهبة (للوليد) ٧٢

ليحيَ العرب قد صحتم وتم فصيحتكم لخطتكم دوامُ
فنحن لدى بسالتكم حيارى وأنتم فوق ذلتنا عظامُ
على أعواد مرقبةٍ رفعتم منارات بها يهدى الانامُ
وكنتم قدوةً للشعب مثلي فهل يُرجى له يوماً قيامُ

ويتقدّم من هنا الى مخاطبة ارواحهم ثم يختم قوله بالحكمة التالية —

وربَّ ضحيةٍ أحيتْ شعوباً فكان لها انعتاق واقتحامُ
على البلوى اذن صبر جميل لنا آمالنا ولك السلامِ

وللوليد على هذا النسق عدّة قصائد عربية الروح كصدى الاجيال ، والصرخة الكبرى والدولة العربية وسواها . ومثل ذلك للشاعر القروي . ومن اقواله في الشهداء قصيدة مطلعها [1]

خير المطامع تسليم على الشهدا ازكى الصلاة على ارواحهم ابدا
فلننحن الهام اجلالاً وتكرمةً لكل حرعن الاوطان مات فدى
يا انجم الوطن الزهر التي سطعت في جو لبنان للشعب الضليل هدى
قد علقتكم يد الجاني ملطخة فتدست بكم الاعواد والسدا
بل علقوكم بصدر الافق اوسمة منها الثريا تلظى صدرها حسدا
أكرم بحبل غدا للعرب رابطة وعقدة وحدت للعرب معتقدا

والقصيدة كلها — كا كثر شعر القروي — غيرة وطنية متقدة ، واذكاء لنار الحمية القومية في صدور الشبيبة العربية . وقد اتخذ الوطنيون في سوريا ولبنان يوم ٦ ايار (مايو) عيداً تذكاريًا عامًا . ففي بيروت كما في دمشق يقيمون كل عام مهرجاناً حافلاً يلقون فيه الخطب والقصائد ذاكرين اولئك الوطنيين الذين ضحي بهم على مذبح السياسة والقومية ولو جمع كل ما قيل فيهم منذ انتهاء الحرب الكبرى الى الآن لملأ مجلداً ضخماً . فنقف هنا عند حد الاشارة اليها

***

اما «الثورة الحجازية (او العربية)» فقد اعلنت في مكة سنة ١٩١٦ . والذي يطالع ما نشر من الكتب والرسائل عنها (عربي وغير عربي) يصل الى النتائج التالية —

١ — ان الشعور العربي القومي الذي شهدناه يتأجج عقب اعلان الدستور حتى توصل الى المطالبة باللامركزية خبا في اول الحرب . ولكنه لم يلبث ان تحول الى كراهية الترك ورغبة في التخلص منهم لضغط الاتحاديين في اثناء الحرب

---

(١) راجع ديوانه الاعاصير ص ٥٥

٢ — ان العلاقة بين الاستانة ومكة كانت على شيء من التوتر وقد زادها توتراً اتصال شريف مكة بالجمعيات العربية

٣ — ان الحلفاء وأخصهم بريطانيا تمكنوا من اجتذاب الشريف حسين بن علي اليهم بوعود خلابة منها انهم يساعدونه على استقلال العرب وتأسيس مملكة عربية

٤ — وبناء على هذه الوعود اعلن الحسين الثورة على الاتحاديين فاشترك العرب فعلاً في الحرب الكبرى

وقد كان لهذه الثورة في البلدان العربية (ما عدا مصر) نتائج معنوية خطيرة اهمها انها اذكت في نفوس الناس العصبية الجنسية ، ووضعت في ايديهم سلاحاً فعالاً للمطالبة باعادة مجدهم التليد فأصبح الملك حسين في الادب العربي (في سوريا والعراق) بطل العرب والمطالب الاكبر بحقوقهم . واذا نلفت النظر هنا الى منشور الثورة [1] الذي اذاعه باسطاً فيه الاسباب التي حفزته الى مقاتلة الاتحاديين ومنها اضطهادهم للغة العربية ، وقتلهم لكثيرين من نوابغ النهضة القومية وما قاموا به في البلاد العربية من نفي أسر وافراد ومصادرة اموال ومتاجر ، وغير ذلك من الاعمال المنكرة

وقد اشترك في هذه الثورة عدد غير قليل من السوريين والعراقيين ، وبينهم نخبة من ضباط الجيش التركي سابقاً . ولا بدع فقد اعلن الشريف « انها عربية تشمل كل عربي كائناً من كان على شرط أن يكون صادقاً لوطنه مخلصاً لقومه » [2]

ولا شك أن الاتراك بذلوا جهدهم لاخماد الثورة . وقد استطاعوا في اثناء الحرب ان يكمّوا أفواه الناس في سوريا والعراق عن نشر اخبارها . بل ان يحملوهم على التشنيع بها . على انها كانت في الحجاز قوة فعالة . وكان للادب نصيب كبير فيها . ومن حاملي لوائه شاعر الثورة فؤاد الخطيب فقد اوحت اليه بكثير من الشعر الحماسي . كقوله من قصيدة حيّى بها استقلال العرب ونهضة الحسين ومطلعها [3] —

حيّ الشريف وحيّ البيت والحرما ... وانهض فمثلك يرعى العهد والذمما
يا صاحب الهمة الشماء انت لها ... ان كان غيرك يرضى الأين والسأما

ومنها مخاطباً الاتحاديين —

يا آل جنكيز ان تثقل مظالمكم ... على الشعوب فقد كانت لهم نِعَما

---

(١) راجع المنشور في الثورة العربية (امين سعيد) ١ — ١٤٩ وفي كتاب الوثائق والمعاهدات لجريدة الايام الدمشقية ص ٢٠٦

(٢) كتاب ثورة العرب (المقطم ١٩١٦) ٢٣١ (٣) كتاب ثورة العرب (المقطم ١٩١٦) ٢٤٤

فالظلم ايقظ منهم كلَّ ذي سِنَةٍ ما كان ينهض لولا انه ظُلِما

ومنها مشيراً الى اشتعال الثورة في الحجاز —

فمن يكن عن أباة الضيم في صممٍ فليسمع اليوم صوتاً يحسم الصمما
فقد تكلم صوتُ النار مرتفعاً من الحجاز فشقَّ البيد والأكما
يا ابن النبي وانت اليوم ناصرهم قد عاد متصلاً ما كان منفصما
والتفَّ حولك أبطالٌ غطارفة شمُّ الانوف يرون الموت مغتنما
فاصدمْ بهم حدثان الدهر معترضاً صُدَّا من الترك ان تعرض له انهدما

ثم يلتفت الى العرب مستفزًّا حميتهم ومذكراً اياهم بالمجد الغابر

إيه بني العرب الاحرار ان لكم فجراً أطلَّ على الاكوان مبتسما
من ذلك البيت ، من تلك البطاح ، على تلك الطريق مشت أجدادكم قدما
من كل أروع وثّابٍ اذا انتسبت بيض الصوارم كان الصارم الخذما
لستم بنيهم ولستم من سلالتهم ان لم يكن سعيكم من سعيهم اُمما
الى الشآم ، الى أرض العراق ، الى أقصى الجزيرة سيروا واحملوا العلما

ومثل الخطيب خير الدين الزركلي . ومن نفثاته في هذا الباب قوله سنة ١٩١٨ من قصيدة عنوانها العرب والترك يصف فيها فظائع الاتراك (١) —

عتا أحفاد جنكيز فساقوا سلائل يعربٍ سوق العبيدِ
فكم قتلوا من الاخيار صيداً وكم ساموا المهانة من عميدِ
وكم حملوا على الاعواد ظلماً وكم سقَوْا المنيّة من شهيدِ

ثم يشير الى الثورة فيقول : —

الى أمّ القرى عدت المذاكِي وفي أمّ القرى خفقُ البنودِ
بروقٌ في الحجاز ومضْنَ وهناً فكان بجلّقٍ قصف الرعودِ

ويقول من قصيدته « الشهداء » وقد مرَّ ذكرها : —

أبى السيف الاَّ انتقاماً لها وخاف على الضيم خمرأنها
أثار بني هاشمٍ في الحجاز وأنطق في الترب حسّانها
كتائب هبت تلبي الدعاة وتطوي القفار وكثبانها
برمحٍ يزنٍ وعضْبٍ يمنٍ يُنبّه في التركِ وسنانها
هو الثار أدركه الثائرون اشجى فروقاً وسلطانها

(١) ديوانه ٨٣

وقصائد هذين الشاعرين نموذج لما نظم في الثورة والقائمين بها

ومما نراه في الوطن نراه في المهجر فقد حركت الثورة هناك الشعر العربي فتبارى زعماؤه في وصفها وتعديد حسناتها ، وتمجيد من أوقدوها . كقول رشيد أيوب[1] —

من أقاصي الروم نهديك السلام ... مع نسيم السَّحَرِ
يا شريفاً كلَّما ناح الحمامُ ... فوق غصن الشجرِ

صاحب السيف الصقيل المستهاب ... في دياجي المحَنِ
أنت من قوم لهم تعنو الرقاب ... من قديم الزمنِ

خضتها حرباً على الباغي تدور ... بكماة أُسُدِ
وتركت الترك اصحاب الفجور ... عبرة للابدِ

فأدر ايها الساقي الكؤوس ... جاء وقت الطربِ
واسقنا من خمرة تجلو النفوس ... من ظلام الكُرَبِ

واصغ للبلبل ان لاح الصباحْ ... صاح فوق القُضُبِ
فلتعش للعزّ في تلك البطاح ... دولة للعَرَبِ

وهذا الشاعر من مهاجري السوريين في الولايات المتحدة وهم عموماً أقل تأثراً بالحركة العربية من مهاجري أميركا الجنوبية كما يشهد بذلك شعرهم المنشور في الدواوين والصحف وقد ألمنا وسلّم أيضا بشيء من أقوال هؤلاء « الجنوبيين » الذين كان لهم يد تذكر في إضرام الروح العربية وحفظ الشعلة القومية بين أبناء العرب في تلك الاصقاع

ولما انسحبت الجيوش التركية من الاصقاع العربية ودخل العرب الشام بقيادة فيصل ٣ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٨ أخذت الشعر نشوة الظفر حتى كنت تراه في دمشق وبيروت والقدس وسائر الحواضر تتدفق الحماسة منه تدفق السيل كقول العاملي من قصيدة —[2]

أجل بزغت في الشرق شمس الحقائق ... برغم العدى والمزعجات الطوارقِ
فداة انتضى العضب المهنّد فيصل ... بكل كميٍّ رابط الجأش صادقِ
لعمرك ما العرب الكرام يهولها ... صليل المواضي او دويّ البنادقِ
ولا راعها ما جرعت من مرائر ... وقد نصبت قدماً حبالُ المشانقِ

(١) الايوبيات ٦٩ (٢) ديوانه حماسيات ٤٧

وقول الزهاوي من قصيدته النائحة (وقد مرّ ذكرها) —

وجاءت خيول العُرب تعدو وراءها بمقربة للانكليز خيولُ
هنالك اهل الشام صاحوا وكبّروا وكبّر اعلامٌ بها وسهول
وكان لاخذ الثأر قد ثار ضيغمٌ له في مغار الغابتين شبول
اغر كريم الاصل من فرع هاشم فطاب له فرع وطاب اصول

وقول امين ناصر الدين في «الالهام» من قصيدة موضوعها يوم الصلح : —

فيالك يوماً فيه وثق للورى عرى الصلح رهط صادق العزم حازمُ
فنيلت حقوق واستقلت ممالك وأنصف مظلوم وجوزي ظالمُ
نهضت بهم من وهدة اليأس جملة فعيشهم غضّ الجوانب ناعمُ
طلعت عليهم والوجوه عوابس ولم تمض الا والثغور بواسمُ

وقول اسعد خليل داغر من قصيدته «تاريخ الحرب الكبرى» في فتح سوريا : —

بشراك سورية العزيزةُ فافرحي وتهللي بخلاص شعبك واطربي
فالله سؤلك قد اجاب فبالغي ما شئت في حمد الاله واطنبي
وعلى الأُلى نجوك آيات الثنا صوغي وعن قدر الصنيعة أعربي
اني لمنقذك العظيم لشاكرٌ وبنصره هذا لاكبر معجب

وفي ٢٣ تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٩١٨ احتفل العرب احتفالاً باهراً برفع العَلَم العربي في المكان الذي شنق فيه شهداؤهم ، فكان لرفعه هزّة ادبية عظيمة وهي تتجلى في عشرات القصائد والخطب التي جاشت بها خواطر الادباء من جميع المذاهب . واليك منها هذه القطعة الحماسية وهي من مخمس للشيخ مصطفى الغلاييني [1]

رايةَ العُرب رايةَ المدنية رايةَ المجد رايةَ الحرية
انت مهوى آمالنا الوطنية ومنارٌ يهدى السبيلَ السوية

دمتِ فينا مدى الزمان عليّه

بكِ نحمي الحمى المفدّى ونجني ثمراتٍ تحيي القلوبَ وتُغني
وترجّي الحياة في روض امنٍ وارفٍ ظلّه خصيب اغن

في حمى دولة العلى العربية

(١) راجع قصيدته «نشيد الحرية» في ديوانه

ومن هذه الحماسيات قول شاعر مسيحي من موشح[1]

ايها الابطال حبوا العلما واحملوه
وانصبوه فوق اسوار الحمى واحرسوه
كن لقومي رمز مجد وعلاء في الامم
وتموّج فلك الشعب فداء يا علم

ويعكس شعور المهاجرين قول ابي الفضل الوليد من قصيدة موضوعها نشيد العلم[2]

العُرب حولك جندٌ ايها العَلَم منهم تآلفت الاوطار والهمم
من خضرةٍ وبياض نعمة وهدى وحمرة وسواد نقمة ودم
الوانك استكملت امجاد مملكةٍ فيها تلاقى النهى والبأس والكرم
اليك نرنو وفي اجفاننا عِبرٌ وفي القلوب شعور بات يحتدم
من الحجاز الى ارض الشآم الى ارض العراق لك الآفاق تبتسم
اذا طلعت تطلّعنا الى شرف وعزة فاطلّت حولنا الامم

وقس على هذه الامثلة القليلة ما لو أثبتناه لما وسعته عشرات الصفحات

***

كان الحزب العربي يأمل تأليف سلطنة عربية تضم الشام والعراق والحجاز وسائر الجزيرة العربية تحت العَلَم الهاشميّ . فتكون هذه الاقطار امارات مستقلة في اداراتها الداخلية ولكنها مرتبطة بعرش واحد يجلس عليه الحسين وأولاده من بعده . وكان هذا الحزب يوالي دولة بريطانيا العظمى ويعتبرها سنداً للدولة العربية وحليفة لها على طوارىء الزمن

فلما انقضى العام الاول على تأسيس حكومتهم في دمشق ظهر لهم ان ثقتهم بوعود الحلفاء لم تكن قائمة على أسّ ركين ، وان ألاعيب السياسة الاستعمارية لا يؤمن شرها ، فأخذ التشاؤم يتسرب الى نفوسهم . وبعد أن كانوا بالأمس يطفرون طرباً لذكر الثورة والعَلَم العربي والسيادة القومية ، وقفوا يتهامسون بما سيؤول اليه أمرهم . وطبيعي في مثل تلك الحال أن يمس زهرة شعرهم القومي شيء من الذبول — مسحة من الشعور بالظلم . وعلى ذلك قول الزركلي سنة ١٩١٩ من قصيدة له مطلعها :—[3]

فيمَ الونى وديار الشآم تُقتَسَم أين العهود التي لم تُرع والذِّمم

(١) حليم دموس — ديوانه — ٣٠٧ (٢) الانفاس الملتهبة ١٢٠ (٣) ديوانه ١٥

وهي أكثر من أربعين بيتاً ، وقد يصل فيها شعوره الى درجة الثورة على الظلم فيقول متوعداً —

اليّةً بسماهِ ظللت وطني وأنبتت عشبه بالغيث ينسجم
لئن تولّوا رعينا حسن ودّهم وصبّين منا ومنهم في الزروق دم

وأشد من ذلك قول الفلاييني في دمشق سنة ١٩٢٠ —(١)

عبّوا فأمتكم أمست على خطرٍ جارت عليها الأعادي جور منتقمِ
حتى تسيلٍ ربوع الشام مفعمةً دماً يسيلُ الردى في سيله العرمِ
وذمةِ العُرب والايام شاهدةٌ لنضرمنّ الوغى في السهل والعَلَمِ
حتى يخلّوا بلاد العُرب أجمعها من ساحل الروم حتى ساحل العجمِ

ولم يكن شعراء المهجر أقلّ من شعراء الوطن شعوراً بمكائد الاستعمار وشوقاً من ضياع الآمال . ففي الحفلة الكبرى التي احياها الحزب الوطني السوري في بونس ايرس سنة ١٩٢٠ احتفالاً بتسنم فيصل عرش سوريا القى الدكتور جورج صوايا قصيدة حماسية قال فيها مخاطباً الامة العربية (٢) —

يا امتي جاهري بالحق لا تجمي وناز عي الخلق بقياجدك الحرم

ومنها مشيراً الى فيصل والعَلَم العربي —

قد قام فينا صلاح الدين ويحهم فليقحم الشام من قد قال لم يقم
ففيصل العُرب مستلٌّ بساحتها في حدهِ الحدُّ بين الذل والشمم
يا ايها الشعب دافع عن كيانك لا تجبن وذدْ بالقنا عن مجد ذا العلم

وقد حملت الحماسة شاعراً كبيراً من شعراء المهجر ان يطلب من وطنه لبنان الانضمام الى الدولة العربية في سوريا واليك بعض قوله في ذلك (٣)

فان لم ترضَ بالعُرب اتّصالاً فلا تجعل جزاء الخير شرا
ولا تطلب لاوربا انتصاراً على الشعب الذي ولاك نصرا

ويقول مخاطباً فيصل —

أفيصلُ والمطامع محدقاتٌ بنا وحوادث الايام تترى
فلا تترك لذي طمع علينا يداً تخفي وراء الحلو مرّا

ثم يتطرق الى ذكر الاحزاب واختلافها والى آمال الوطنيين الاحرار فيقول متوعداً —

وان نفشل ويغشى الشام ضيمٌ جعلنا الشام للافرنج قبرا

(١) ديوانه ٦٦ (٢) ديوانه همس الشاعر ص ١٠٥ (٣) الياس فرحات — راجع مجلة الاصلاح (بونس ايرس) ج ٤ عدد ٨

ولهذا الشاعر الوطني كثير مثل ذلك

ومن راجع الشعر العربي السياسي في السنتين التاليتين للحرب (١٩١٩ و١٩٢٠) يجده واحداً في جميع الاوساط السورية والعراقية — نقمة على سياسة اوربا في الشرق ودعوة الى الجهاد في سبيل الاستقلال والمحافظة على كرامة العَـلَم العربي . ولعل اهم ما اثار النفوس في ذلك الوقت واقعة ميسلون وما كان من بسط الانتداب على البلاد السورية — ثم الثورة العراقية والهابها العصبية القومية على ضفاف الرافدين (وسنذكر في باب خاص)

اما مصر فكانت مشغولة باحوالها الخاصّة — كان شعرهـا السياسي منصرفاً الى محاربة الاحتلال ، وتوجيه نظر الامة الى الاستقلال . وبرغم ما كنا نراه يومئذ لبعض ادباء المصريين من العطف على القطرين الشقيقين (سوريا والعراق) لا يسعنا الاّ ان نقول ان الرأي الادبي العام في وادي النيل لم يكن عربيّ النزعة — بل نذهب الى ابعد من هذا فنقول انه كان ناقماً ثورة الحسين على الخلافة العثمانيّة ، تلك الثورة التي انتهت بانتصار الحلفاء ، وتعزيز الاحتلال (عهدئذ) في مصر . ولذا وقف الشعر المصري ازاء القضيّة العربيّة وقفة المعرض نافضاً يده من كل ماله علاقة سياسية أو قومية بسائر البلدان العربية

ويؤيد قولنـا هذا ما صرّح به مصريٌّ صميم [1] اذ قال في حفلة تكريم الوفد العراقي سنة ١٩٣٦ مشيراً الى هذا الموقف والى تحوّل الشعور المصري [2] —

«منذ عشرين سنة أو نحوها كان اكثر المصريين اذا ذكر البلدان العربيّة ذكرها في شيء من الموجدة يشبه الالحاد» . وبعد أن يذكر أن نظرهم الى الاقطار العربية لم يكن يختلف عن نظرهم الى أي قطر شرقي — كاليـابان او الصين مثلاً — يقول — «تلك المرحلة الاولى كانت مرحلة الوسارس والشكوك . فلما توالت الخطوب دراكاً على الاخوات المتقاطعات استيقظت روح الايمان من سباتها العميق فاخذت الالسنة والاقلام العربية كلما ذُكرت العروبة وآلام الشقيقات ذكرتها مصحوبة بشعور من الاخاء لم يكن قبل موفوراً»

***

وقد كان الشعراء في سوريا والعراق حتى في «مرحلة الشكوك والوساوس» التي يشير اليها الاستاذ دياب اعطف على القضية المصرية . على ان تحول الشعور المصري الاخير نحو الشقيقـات العربية قد زادهم حماسة واهتماماً وسنرى بعد كيف يظهر ولاءهم للوطنية المصرية وتقديرهم لجهادها

(١) محمد توفيق دياب منشىء جريدة الجهاد (٢) راجع خطابه في صوت الاحرار عدد ٧٦٢

الفيلسوف المهمل

أهم نواحي عبقريته

ترجمة جديدة لاسحق نيوتن

ليس في تاريخ العلم الحديث عبقرية علمية أصفى معدناً وأوسع نطاقاً من عبقرية « أبي الفلاسفة » اسحق نيوتن . ولكن هذا « الفيلسوف الطبيعي » الذي وضع كتاب المبادىء Principia وكشف تركيب الضوء واستنبط حساب التمام والتفاضل Calculus وصنع المرقب العاكس كان يعني كذلك بالفقه والتاريخ والكيمياء القديمة التي غرضها تحويل العناصر الخسيسة الى أخرى رزينة وثمينة . فكان يهمل الناحية العلمية الاصيلة من عبقريته لانه كان يظن ان قيمة المباحث التي من النوع الثاني أهمّ وأجدى . فنحن في حياة نيوتن أمام « عبقري من الطبقة الاولى في موضوع لم يكن في حسبانه ذا شأن من المقام الاول »

هذا هو السلك الذي ينتظم حبات العقد في سيرة نيوتن كما وضعها صليفن الكاتب الانكليزي ونشرت من أشهر بعيد وفاته [1]

لقد كتبت سيرة نيوتن غير مرّة ونشرت رسائله أو معظمها فليس في كتاب صليفن شيء جديد كبير الشأن لم يكن معروفاً . وانما العناية بكتاب صليفن تستمد من انه أعاد كتابة السيرة النيوتونية من ناحية جديدة . أي أنه رسم صورة لفيلسوف الجاذبية بنفس الالوان والخطوط التي رسمت بها صورهُ السابقة . ولكنهُ قدّم وأخّر وأخفى وأبرز في ألوانه وخطوطه على وجه يلقي على شخصية الفيلسوف ضوءاً جديداً . ومدار هذه الصورة الجديدة هو أن نيوتن لم يكن يعلق شأناً كبيراً بسرّ عبقريته في الرياضة والطبيعة والفلك

خذ مذهب الجاذبية . فليس هنالك ريب في أن نيوتن بدأ يهتمّ بظاهرة الجاذبية وهو بين الثالثة والعشرين والرابعة والعشرين من عمره . قال في احدى رسائله انهُ بدأ في ذلك السن « يفكر في وصول الجاذبية الى مدار القمر . . . وبذلك قابلت بين القوة اللازمة لحفظ القمر في مداره بقوة الجاذبية على سطح الارض » وكان ذلك في سنتي الطاعون (١٦٦٥ و ١٦٦٦) عندما ترك جامعة كمبردج وعاد الى أهله الى أن تخفّ وطأة الوباء . وليس هناك شك كذلك في

(١) Isaac Newton 1643-1727 by J. W. N. Sullivan. Macmillan- London 1938-8/6

انهُ كان مهتمًا بالبحث في هذا الموضوع بعد انقضاء ثلاث عشرة سنة ثم بعد انقضاء عشرين على ذلك استجاب الى حثّ أصدقائهِ فوضع في سبعة عشر شهراً كتاب «المبادئ»

فالسؤال الذي يستوقف النظر هو هذا : لماذا تأخر نيوتن في نشر مكتشفاتهِ الخطيرة الشأن؟

كان التفسير المقبول حتى الآن — وهو الذي أخذنا به في المقتطف — انهُ عندما أراد القيام بعمل الحسابات الخاصة بمذهبهِ في الجاذبية كان القياس الذي اعتمده لنصف قطر الارض غير دقيق فجاء اختلاف بين النظرية والواقع في حسابهِ ، فأبى عليهِ ضميرهُ أن ينشر مذهباً جديداً لم يتيقّن كل التيقّن من دقتهِ . ولكن مطالعة أقوال نيوتن ورسائله تبين انهُ كان يعتقد ان المطابقة بين النظرية والواقع كانت لا بأس بها . وقد أثبت العلاّمة كاجوري مؤرخ العلوم الرياضية ان هناك ما يبعث على الاعتقاد بأن القياس الذي اعتمدهُ لنصف قطر الارض كان يصح الاعتماد عليهِ

وقيل كذلك في تفسير اهماله لنشر ما كشف بأنهُ فرض في حساباتهِ ان كتلة الارض مركزة في مركزها وان هذا الرأي لم يثبت لهُ حتى استنبط فرعاً جديداً كاملاً في الرياضة العالية وان ضميرهُ أبى عليهِ النشر قبل ذلك . ولكن نيوتن نفسهُ لم يترك قولاً ما يفيد انهُ كان يعلّق شأناً كبيراً بهذه الصعوبة التي صادفها بل هنالك ما يشير الى انهُ كان يرى — بصرف النظر عن الارقام — ان نظرية الجاذبية كافية لتفسير حركات السيارات ومداراتها

وها هو ذا الآن كتاب صليفن يأتينا بتفسير جديد غاية في البساطة وهو ان نيوتن لم يكن يظن ان الناموس الكوني الذي كشفهُ كان ذا شأن عظيم . بل كان في نظره مسألة فلسفية هامة في ذاتها ولكنها لا تخرج عن كونها حلاً لمشكلة تستدعي الاهتمام . ذلك لأن عنايتهُ كانت منصرفة على الغالب الى موضوعات فقهية وتاريخية وكيماوية بالمعنى القديم

وكان موضوع الضوء قد استرعى عنايتهُ . فاهتمَّ بهِ وكشف فيهِ كشوفاً خطيرة . إلاَّ انهُ كان منذ طفولتهِ يحب اللُعَب الميكانيكية وتفكيكها وتركيبها وبرع براعة عظيمة في ذلك . ومع ان بحوثهُ في الضوء كانت دون بحوثهِ في الجاذبية نراهُ يؤثر الانصراف اليها لانها كانت ميداناً لاجراء التجارب بأجهزة تعيد الى الذهن ذكرى اللعب التي آثرها في طفولتهِ

كانت الرسالة الاولى التي قدَّمها الى الجمعية الملكية خاصة بالمرقب العاكس المعروف بالمرقب النيوتوني وهو المرقب الذي تحلُّ فيهِ المرآة لجمع الضوء محلَّ العدسة . وقد كان هذا المرقب وليد إبداعهِ الذهني وبراعتهِ اليدوية . ومع ذلك لم يخطر له أن يعرض على الجمعية كشفهُ الخاص بالضوء وهو ان الضوء مركب من الالوان المختلفة مع علمهِ ان هذا الكشف الاساسي مهّد لهُ السبيل الى صنع المرقب العاكس

وما يصدق على موقفه من مكتشفاته الفلكية والطبيعية يصح كذلك على موقفه من مكتشفاته الرياضية . فقد كان يبدو عليه انهُ كان وهو معنيٌّ باستنباط فرع جديد في الرياضة العالية كأنهُ مكبٌّ على شرٍّ يتعين ممارستهُ في الخفاء لا كأنهُ يسدي خدمة عظيمة لتوسيع آفاق الفكر الانساني. ولذلك لم ينشر ما توصل اليه. ولا أبدى اهتماماً ما بأسلوب ندّه الفيلسوف الالماني ليبنتز في الموضوع نفسه . ولا كان يهمهُ ان يذاع ويعلم انهُ السابق الى الكشف . الاّ ان الامر الذي لم يسعهُ ان يطيقه ويصبر عليه ، كان الزعم المروي عن لسان ليبنتز بأن نيوتن اخذ عنه ولم يعترف بما اخذ ولا عمن اخذ . ومع ذلك لم يكن يرغب في الجدال بوجه عام . فقد كان في قدرته ان يناضل وان يثبت اشياء انكرت عليه ويصحح اخرى رويت خاطئة ، ولكنهُ كان يرى ذلك مضيعةً للوقت

كان نيوتن في الثانية والاربعين من العمر عند ما اتم تأليف «المبادىء» الذي قال فيه لابلاس « ان لكتاب المبادىء الذي وضعه نيوتن مقاماً فوق كل ما انتجهُ العقل البشري » . ألَّفهُ في سبعة عشر شهراً اجابةً لحث اصدقائه ولا سيما هالي الفلكي المشهور . وكثيراً ما اشار نيوتن الى كتاب المبادىء بقوله « كتاب هالي » . ألفهُ وكأنهُ خاضع طيلة تلك الشهور لقوة علوية لا قبل له بمقاومتها . فلما انتهى منهُ أُطلق من عقالها وكان انطلاقهُ حاسماً . فقد عاش نيوتن حتى بلغ الخامسة والثمانين ولكنهُ لم يعن في النصف الثاني من حياته عناية جدية بالعلم . ولا يعلم سبب ذلك على وجه صحيح فقد يكون الاعياء الذي اصابه على اثر الانتهاء من المبادىء وقد يكون تأثره بوفاة والدته أو غير ذلك من الاسباب ولكنها جميعها غير وافية . الاّ ان الواقع انهُ اصيب بضعف نفسي وكاد ان يصاب في سنة ١٦٩٣ بخلل عقلي . بل ان الخلل اصابه مدى سنة تقريباً كما يبدو من ضعف التناسق في رسائله الخاصة ولكنه استرد صحته العقلية في آخر السنة وبقي مالكاً لصحته حتى وفاته لم يشعر بحاجة الى النظارات ولم يخلع له الاّ ضرس واحد مع انهُ ولد قبيل تمام الحمل وكان ضعيفاً عليلاً في طفولته

قلنا ان نيوتن كان شديد الاهتمام بمسائل الفقه والتاريخ والكيمياء القديمة وهو يبدو عجيباً حقًّا ويدلُّ على تناقض اساسي بين نضوج نظرته العلمية في بحوث الطبيعة والفلك ونظرته التقليدية في بحوث الكيمياء ، والنظرة العلمية الحديثة القائمة على التجرُّد والتجريب ولدت فيه كاملة وتجلَّت « في مبادئه » و « بصرياته » على أتمها . ولكن الكيمياء استرعت عنايتهُ كما استرعت عناية معاصريه هوك وبويل ولوك . ولم يكن في نظرة نيوتن الى المادة ما يتعارض والكيمياء كما كانت مفهومة في عصره . نعم انهُ لم يسلِّم بالرأي القائل بان المادة قوامها العناصر الاربعة المأخوذة عن قدماء الاغريق وهي التراب والهواء والماء والنار ولكنهُ كان يسلِّم بنظرية ذرية ليس فيها ما يمنع تحوُّل عنصر الى آخر بل انهُ كان يرى التحوُّل من اوضح الصفات التي

تصف بها الطبيعة . ومن اقواله في هذا الصدد « ان تحوُّل الاجسام الى ضوء والضوء الى اجسام يتسق واسلوب الطبيعة التي يبدو انها تغتبط بالتحوُّلات » . والفصل الذي بسط فيه المؤلف هذه الناحية من حياة نيوتن يثبت بلا ريب ان ما كان يعرفهُ نيوتن في علمي الكيمياء والاحياء كان اوليًّا ولكنهُ لم يكن فيهِ متأخراً عن عصرهِ . فنظرتهُ الصائبة في شؤون الطبيعة والفلك والرياضة العالية هبطت في هذين العلمين الى مستوى النظرة السائدة في عصرهِ . واذا كان هذا غير مثير للعجب لان الرجل لا يمكن ان يكون نافذ البصر في جميع العلوم فان العجيب فيه انهُ لم يدرك هذا فكان ينفق من وقتهِ على هذه البحوث وما يتصل بها اكثر مما ينفق على العلوم التي أسلمت اليهِ مقاليدها . واذا كان نيوتن قد اشتهر في العلوم الطبيعية والفلكية بتلك البصيرة الخارقة في النفوذ الى سرّ المشكلة ولمس اهم عناصرها ثم وصفها وصفاً كميًّا Quantitative هو محور العلم الحديث فان هذه البصيرة خانتهُ في بحوث الكيمياء فأنفق وقتهُ وجهدهُ في الجري وراء اوهام . ولعل مرد ذلك الى تلك النظرة الصوفية الدينية فيهِ وقد كانت من أهم النواحي في تركيبهِ النفسي والفكري

فالتفسير العلمي لظاهرات الطبيعة لم يكن في نظر نيوتن تفسيراً للعلة الاولى التي تسبب تلك الظاهرات . ومعرفة العلة الاولى لا يتأتى في رأيهِ الاَّ عن طريق الوحي الرباني . والعلم لا يستطيع ذلك الفهم الاَّ اذا كمل . فالمسوِّغ الوحيد للعلم هو انهُ يقربنا من ذلك . قال : « لا تسير بنا كل خطوة في الفلسفة الطبيعية توًّا الى معرفة العلة الاولى ولكنها تقربنا منها » والعلة الاولى ليست ميكانيكية ولا يمكن افراغها في قالب العبارات الطبيعية . ان العلة الاولى لحركات الاجسام هي مشيئة الله .... ومن هذا القبيل اسناده الجاذبية الى المشيئة العليا . والواقع ان التفسير الطبيعي والتفسير الالهي عالمان متباينان من عوالم الفكر . فالتفسير الاول يتناول — في نظر نيوتن — ما يمكن ان يحسب تقدماً علميًّا . والثاني خاص بما وراء الطبيعة — بالعلل الاولى . وقد كان نيوتن على خلاف ديكارت يرى العالم الواحد متميزاً عن الآخر . الاَّ ان الفرق بينهما لم يكن مطلقاً يدل على ذلك اعتقاده ان العلم متى كمل استطاع ان يكشف العلة الاولى ، العلة التي من وراء الطبيعة . ومع انهُ لم يكن يرى أنَّ العلم في عهده بلغ تلك المرتبة كان يعتقد انهُ سائر في الطريق نحو هذا الهدف . ومن أشهر أقوالهِ المأثورة في هذا الصدد « عند ما كتبتُ رسالتي عن نظامنا كان همي ان أبسط المبادىء التي قد تؤثر في المعتبر من الناس لبث الايمان بالآله . وليس هناك ما هو أبعث على اغتباطي من ان تكون ذات فائدة في تحقيق هذا »

وما فتىء العلم سائراً . . . نحو ذلك الهدف !

وما فتىء العلماء يعنون بالناحية الفلسفية من علمهم لعلَّ اقتران الاثنين يقرّبهم قليلاً من الحقيقة المطلقة او يمكنهم من اماطة اللثام قليلاً عن محياها !

تولستوي

وأحاديثه

لعلي أدهم

يسود عالم الاخلاق نوعان من الآداب ، آداب الارستقراطية وآداب الديمقراطية ، فالطموح وترامي الآمال وجموح المطامع والكبرياء والجبروت وشدة الاعتداد بالنفس والميل الى العدوان وبسط النفوذ واستعمال القسوة وامثال ذلك من الصفات مردها الى آداب الارستقراطية أما الديمقراطية فمن شمائلها التواضع وخفض الجناح والقناعة والحلم وحب العدالة والرأفة والحنان والميل الى التضحية ونكران الذات،وليست هناك حدود فاصلة بين هذين النوعين من الآداب، فمن الناس من تغلب عليه آداب الارستقراطية ومنهم من لآداب الديمقراطية من نفسه المكان الاكبر والقسط الاوفر ، ومنهم من يلتقي في نفسه النوعان ويجتمع الضدان ، وفي بعض الازمنة تنتصر آداب الارستقراطية وفي أزمنة أخرى تفوز آداب الديمقراطية ، ومن الشعوب شعوبٌ آدابُ الارستقراطية أشد تأصلاً في نفسها مثل العرب خاصة والارومة السامية عامة ، ومنها شعوبٌ آداب الديمقراطية أبين في اخلاقها وأعرق في طباعها مثل الشعب الروسي السلافي

***

وقد ظهر في القرن التاسع عشر — ذلك القرن الذي اشتد فيه الصراع بين المذاهب والمبادىء — مفكران كبيران لها من صدق السريرة وعمق الروح وقوة الانسياق مع تيار فكرها ما يسمو بهما عن مرتبة الفنانين والفلاسفة الى مستوى الرسل والانبياء ، ولقد بلغ هذان النبيان الجديدان رسالتهما الى العالم ولم يتلعثم لسانهما في تبليغها ولم يقصر باعهما في نشرها ، فأحدهما — وهو نيتشه — يعد بحق نبي الارستقراطية المطالب بحقوقها ورافع صوتها في العصور الحديثة،والآخر — وهو تولستوي — هو نبي الديمقراطية ومجدد عهد روسو وأقوى المدافعين عن آداب المسيحية عارضة وأجهرهم صوتاً

والاول من نبت المانيا المفكرة الفلسفية ، والثاني درج في روسيا الساذجة المتدينة ، ولم يمنع

الاول وجوده وسط أوربا المسيحية من ان يسدد سهامه الى صميم آداب المسيحية ويرسل عليها صواعق غضبه بلا رحمة وفي غير هوادة ، وكذلك تولستوى لم يمنعه وجوده في روسيا القيصرية من ان يرسل خطاباً الى القيصر تقولا عند تسنمه عرش الروسيا عقب مقتل القيصر اسكندر الثاني يناشده فيه ألاّ يبدأ حكمه بأعدام القتلة وازهاق الارواح ويلتمس العفو عنهم ، وساءه ان أهمل القيصر خطابه ولم يصغ الى رجائه . وقد تغنى نيتشه بأنشودة الانسان الاعلى وملأ بها المسامع ونفض عليها من خياله الخصب أبهج الالوان وأزهى الحلل واستنزف معين شاعريته في تجميلها وترويجها ، واستنفد تولستوى براعته الفنية كلها في رواية « الحرب والسلام » تلك الرواية التاريخية العظيمة والمعجزة الفنية التي يضعها بعض كبار النقاد الى جانب الياذة هوميروس والتي تحمل في مطاويها فكرة ان الجماعات هي التي تلعب أكبر دور في تاريخ الانسانية وأعمالها الجسام لا الابطال والعظماء ، وذلك لان الجماعات في رأيه هي التي تمت على يدها مختلف الاحداث في حرب سنة ١٨١٢ لا نابليون ولا غيره من العظماء البارزين في التاريخ

***

وليس من قذفات الصدف وغرائب الاتفاق ان أخرجت روسيا نبي الديمقراطية ورسول الحب والسلام في العصور الحديثة ، فان الادب الروسي معروف بانسانيته العالية وحفوله بكنوز الحب والعطف ، ولقد نبغ الروس النبوغ كله في الادب الروائي وسبقوا في مضماره سائر الامم ، ولم تخرج روسيا شاعراً عامًّا يعبر عن خصائصها ومميزاتها مثل دانتي عند الايطاليين وشكسبير عند الانجليز وهوميروس عند اليونان وانما أخرجت طائفة من عبقري الروائيين ونوابغ القصصيين ، ولعل أقرب رجال الادب الروسي جميعاً الى تمثيل النفسية الروسية بمختلف ظلالها ومتنوع ألوانها هو كاتبها الكبير تولستوى ، فان انكبابهُ على المسائل الدينية وشدة تعلقه بالديمقراطية يمثلان فيه أعمق غرائز النفسية الروسية وألزم خصائصها ، فالروسي شديد التدين ولكنهُ بعيد عما يشوب العقائد والنحل من اسباب التعقيد وغريب التخريج وما ينشأ حولها من خفايا الصوفية وغرائب الاسرار ، وهو أميل الى البساطة في تدينه ، وهو بطبيعته نزاع الى الرحمة والعطف ، وحتى الشيطان في القصص الروسية موضع رحمة لانهُ وان كان عدو الانسان اللدود الذي لا ينفك يعمل على استغوائه وايقاعه في الشرك ولكنهُ لسوء حظه لا يتقن غير هذه المهنة ولا يعرف سواها وهي من اقدم العصور صناعته التي يجيدها ، فهم لاجل ذلك لا يحقدون عليه بل هو في عرفهم شيطان صالح لا بأس به ، والعادات الاشتراكية عميقة الجذور وشيجة الاصول في نفوسهم

وقد قال احد المفكرين « ليست العبقرية سوى التخلص الانم من تأثيرات الزمن والآداب والوطن » وأرى في هذا الرأي شيئاً من المغالاة ، والاصح في اعتقادي أن في كل عبقري ناحيتين ، ناحية انسانية عالمية وناحية أخرى قومية محلية ، وتولستوى مثال لذلك ، ففيه الجانب الانساني العالمي وهو من ناحية أخرى أنموذج تام للنفسية الروسية تلتقي فيه غرائزها الاصيلة وبواعثها المستخفية العميقة

***

وقد كانت المسائل الدينية ومشكلة الحياة والمبدأ والمصير تساور تولستوى من أوليات حياته الفكرية ، ولكن في بادىء الامر تغلب الفنان في نفسه على النبي والمصلح الديني ، وظل الفن له الاثر الاقوى في حياته حتى انهائه من رواية « حنة كارنينا » فتبدل الحال واشتدت الازمة وغام الجو وتراجع الفنان الى المؤخرة ليفسح المجال للنبي القادم ، قال في اعترافاته يصف ذلك «لما أتممت كتابي « حنة كارنينا » بلغ بي اليأس اقصى حدوده ، وصرت أدمن التفكير وأطيل النظر في الحالة الرهيبة المجتواة التي ألمت بنفسي ، وكانت الاسئلة تنثال عليّ وتتكاثر حولي وتطالبني بالاجابة عليها ، ومثلما تتجه الخطوط كلها الى ناحية واحدة كذلك كانت الاسئلة غير المجاوب عليها تتزاحم وتتدافع متجهة جميعها الى نقطة سوداء ، وبقيت مستمراً في تلك النقطة وقد استولى عليّ الخوف واستقل مشاعري الاحساس بالضعف ، وكنت اناهز الخمسين من عمري لما ساقتني هذه الاسئلة الى هذا الموقف الضنك غير المنتظر ، وانتهيت الى هذه النتيجة وهي انني — وأنا رجل سعيد موفور الصحة — لا املك البقاء ولا اقوى على العيش ، وقد كنت من الناحية البدنية استطيع ان اشتغل في حصاد الدريس كما يستطيع اي مزارع ، وكنت من الوجهة العقلية أستطيع ممارسة الاعمال الفكرية اكثر اليوم مما كنت ،دون أن يعتريني كلال أو مرض ، ولكني برغم ذلك كله انتهيت الى هذه النتيجة وهي انني لا أطيق البقاء ولم أر أمامي إلاّ شيئاً واحداً وهو الموت ، وكنت أرى كل شيء آخر ما خلاه باطلا ومحالاً زائلاً »

وأمثال هذه المواقف التي تربدّ فيها آفاق الفكر ويحلولك ليل النفس وتشتد عليها الحياة وتفزع الى فكرة الموت معروفة في حياة الكثيرين من العظماء وأعالي البشرية ، وكأنها جسر قائم بين حياتين ، حياة سابقة وحياة لاحقة ، وسرعان ما عبر تولستوى هذا الجسر ونجا من أخطاره وأهواله ، قال في اعترافاته وقد ظهر له أن المسائل التي أثارت هواجسهُ وهيجت بلابله قد أجابت عليها الانسانية من آلاف السنين اجابة شافية مقنعة « منذ بدأ الناس يعيشون عرفوا

معنى الحياة وحملوا الحياة حتى انتهت اليّ ، وكل ما في نفسي وكل ما حولي من منظور وغير منظور هو ثمرة تجاربهم ، وحتى الوسائل التي أحكم بها على الاشياء ورثتها عنهم ، وقد ولدت وربيت وترعرعت بفضلهم ، وقد حفروا ونقبوا على الحديد وراضوا الجبال والخيل ، وعلمونا كيف نفلح الارض وكيف نعيش جماعة وننظم الحياة ، وعلموني كيف أفكر وأعلل ، وجئت أخيراً وأنا ثمرة غرسهم ولم أحصل على قوتي إلاّ بأفكارهم أحاول ان أستعين بما أخذته عنهم من المنطق والدراية لأقيم لهم الدليل على سخافتهم وخطلهم ، من الواضح انني أستخف ما لم أحسن فهمه »

وأخذ يفكر بعد ذلك في معنى الله الذي قضى حياته باحثاً عنهُ : ففي صباح يوم من أيام الربيع انطلق الى الغابة ليتملّى من جمال الطبيعة ويسمع الاطيار الصادحة على زرازير الاغصان وليفكر في المسائل التي شغلت خواطره واستأثرت بنفسه في السنوات الثلاث الاخيرة وخاصة مسألة الله ، فأشرقت عليه فكرة ان مسألة الله ليست مسألة ليحكم فيها العقل ، وأحس بأن الله هو الحياة وأن نحيا هو ان نعرف الله

***

ومن ذلك الوقت لم يتطرق الى نفسه الشك بالله ، وذهب بعد ذلك الى الكنيسة ولكنهُ لم يطمئن لتعاليمها ولم تعجبهُ مسيحيتها ، فأدار شراع خواطره الى الرياح وطافت سفينته ببحار هدارة ومرت بجزائر عجيبة ورأى من أعاجيب المذاهب الفلسفية وغرائب النحل والعقائد ما هو أبعث على الدهشة وأغرى بإثارة الظنون من البحار السبعة التي اجتازها « بلوقيا » على أنداده والاهوال المفزعة التي خاض غمارها « جانشاه » في قصة ألف ليلة ، وبعد أن طوف ما طوف رست سفينته في مرفأ المسيحية الخالصة المنقاة من شوائب الكنيسة والخالية من الحشو والزوائد مسيحية تولستوى التي فصّل الكلام عنها في كتبه الاخيرة ، ولكن أتظن الرجل بعد ان عاد من هذه الرحلة الشاقة الطويلة هدأت نفسه وقرت ثورته واستمرأ الراحة والصفو ؟ كلاّ وأنّى لمفكر كبير من طراز تولستوى أن يسترخ في هذه الحياة التي كتب علينا فيها الجهاد والنصب فهو ان اجتنى مرة ثمرة الفوز نغصتها عليه فكرة أن هناك مجاهل لم تعرف ومشكلات عدة لم تحل عقدتها ، فكيف الراحة والطمأنينة ونحن نسعى في مناكب المجهول والكمال البعيد أمامنا ؟ والراحة في هذه الحياة سراب لماع يغص الانسانية بريقها وفجر كاذب يخدعها بضوئه ويقذف بها في أقاليم أشد ظلاماً ، وليست الراحة غرض الحياة وانما غايتها نشدان الكمال الادبي والفكري

وقد نستريح اذا بلغنا الكمال ، ولكن أين منا الكمال ونحن أفراد زائلون تلقاء عالم سرمدي !

كذلك تولستوى من بعد عودته من سياحته الفكرية أخذ يندلع في نفسه لهيب ثورة داخلية لم تنطفىء نيرانها وتهدأ ثائرتها الا بموته ، وبواعث هذه الثورة العنيفة والمأساة المذيبة القلوب هي عجزه عن تنفيذ ما كان يبشر به وفشله في ان يعيش في ظلال تعاليمه وعقيدته الجديدة ، وكان شعوره بهذا التناقض بين أفكاره وأسلوب حياته هو الطير الجارح الذي لا ينفك ينقر وجه هذا « البروميثيوس » المقيد بالاغلال والسلاسل ، ولم يستتر مرة عنه الشعور بهذا التناقض الرهيب بل كان على الدوام ماثلاً لناظره كما يتبع القاتل خيالُ القتيل ، ولم يذهب وقره عن ضميره الفاحص المتهم وعينه الدخيلة الواعية ، وكان يقض مضجعه في هدأة الليل ويجثم على نفسه في أطراف النهار ، وغير تولستوى قد يقنع بالتبشير بما يعتقده حقًّا دون ان تتجاوب حياته مع تعاليمه ، وقد يكون من الصعب ان تصور آلام هذا الضمير الحي وكد هذه النفس اليقظة ، وقد كان تولستوى يعيش عيشة زهادة وخشونة لا من دافع طبيعي — فقد كان بفطرته ابيقوري الغرائز شهواني المزاج — ولكن بمجهود غير قليل من ارادته الصارمة ، وكان يخفض جناح الرحمة لمن حوله ويسقيهم من اخلاقه الشريفة العذب النمير ، ولكن ضميره لم يقنع بهذا ولم يرتض الوقوف عند هذا الحد لانه كان يطالبهُ ويلح عليه في ان يعيش عيشة طاهرة الى أقصى حدودها وأبعد نهاياتها ، وكان يعرف الى اي حد قد فشل في تحقيق مثله الاعلى ، وطالما لفحته هذه المعرفة بشواظ من النار وجرته على مثل شوك القتاد ، وكانت فكرة ثروته الضخمة المتراكمة في المصارف وضياعه الواسعة التي تغل عليه الاموال الطائلة وهو الذي يحبذ الفقر ويدعو الى المساواة ويرفع قسطاس العدالة تتبعهُ في كل مكان وتطارده في كل لحظة وتذكره بنصيحة السيد المسيح لاحد تلامذته بأنهُ اذا أراد ان يتبعه وينتظم في سلك تلامذته فعليه اولاً أن يبدأ بتوزيع امواله بين الفقراء ، اما تولستوي المكروب الحزين فكان يمشي وراء المسيح مثقلاً بحمول الثروة ويأمر غيره دون ان يبدأ بنفسه ويقف امام الانسانية والتاريخ هذا الموقف المتناقض المريب وما أشد وقع ذلك على نفس تولستوي النبيلة الحساسة !

وقد نتساءل هنا هل كان تولستوي حقيقة حريصاً على الدنيا متمسكاً بالمادة يبشر بما يراه حقًّا مع الاحتفاظ بثروته ، ويقول مع صاحبه الفيلسوف شوبنهاور « ان الذي يرسم الصورة الجميلة لا يشترط أن يكون هو أيضاً جميلاً » . ويسلك مسلك المتنبي الشاعر في امتداح الجود والكرم مع شدة الحرص والبخل ؟ والجواب عن هذا التساؤل ان الرجل لم يكن شيئاً من ذلك ، وكان مخلصاً في دعوته اخلاصاً لا تشوبه شائبة ، ولم يمنعهُ من أن يبدأ بنفسه في اتباع تعاليمه سوى زوجته

وباقي أفراد أسرته ، وكانت أسرته قانعة بأن ترى اسمهُ قد طبق الارض وان تشاهد الوفود تحج اليه من أقاصي البلاد ولا تود أن تفقد ثروتها وضياعها لأجل ألاّ يقع التناقض بين مذهبه وحياته ، ولم يستطع تولستوي ان يكسر أغلالهُ العائلية وعاش أسيراً لسلطتها ، وكانت أشد أفراد الاسرة قسوة عليه ومقاومة لتنفيذ تعاليمه زوجته ، ولست أحب أن ألوم تولستوي وأعنفهُ لهذا الضعف والتخاذل فكفاه ما لاقاه من وخز الضمير والألم المبرح ، وقد حاول في آخر سني حياته أن يهرب من أسره ولكنه لم ينفذ الفكرة . وكتب الى صديق له ما ينم على السبب الحقيقي لذلك قال : « لقد تركت فكرة الفرار لانه خطر بفكري ان صوفيا اندريفنا (زوجته) لابد ان تكرهني بعد ذلك ويصير كل شيء اسوأ مما كان » وهنا نقف امام عاطفة سامية من العواطف الانسانية التي يدنسها الاسهاب في وصفها ويغض من جلالها ، على انه فر من منزله بعد ذلك مفاجأة تضرب عن ذكرها وأراد ان يلاقي الموت منفرداً مع خالقه ، ولكن لم تتحقق امنيته اذ لحقته اسرته حيث كان يسلم الروح في غرفة حقيرة باحدى محطات السكة الحديد ويستعد ليتبوأ مكانه في ملكوت الخالدين

***

وسأعرض على القارىء طائفة صغيرة من أحاديثه وهي على قلتها صحيحة الاسناد وقد تكون فحاوى المحادثات أدل على الرجال وأهدى الى نفوسهم من محتويات الاسفار

كان تولستوي يحب من المؤلفين الروس الشاعر بوشكن ولرمنتوف وجوجل وشيكوف ودستوفسكي . قال عن الاخير : « عندما نختبره عن قرب نرى انهُ يكتب بأسلوب رديء وتنقصهُ القوة الفنية ، ولكن ما أغزر مادته وما أكثر ما يقوله لنا » . وقال عن ترجنيف الروائي الروسي الكبير : « أنا مولع بشخصه ولوعاً ولكني لا أضعهُ في مكانة عالية بين الكتّاب » ، وكان قليل الاكتراث بالكتّاب المعاصرين لهُ حاشا أناتول فرانس ، وفي وقت ذيوع شهرة مترلنك كان تولستوي صريحاً في نقده والاقلال من قيمته وذلك برغم اعجاب مترلنك الشديد بتولستوي ، وقد قال لهُ مرة أحد أصدقائه « لقد امتدحك مترلنك وقال في مقدمة مؤلفاته التمثيلية « ان رواية « قوة الظلام » هي أعظم دراما في الدنيا » فضحك تولستوي مستهزئاً وقال لهُ « اذا كانت كذلك فلماذا لم يقلدها ويضرب على غرارها ؟ » وسأله مرة أحد الناس « هل قرأت رواية مونافانا ؟ » (من روايات مترلنك) فأجابهُ « ولمَ أقرؤها ؟ هل اقترفت اثماً ؟ »

وكان يمقت الاتجار بالادب أشد المقت ويغتلي غضبه إذا ذكر ذلك بحضرته قال مرة « ينبغي للانسان ألاّ يكتب الاّ اذا ترك بضعة من لحمه في الدواة كلما غمس فيها القلم »

وقال عن المرأة «النساء على العموم شريرات الى حد ان الفرق ضئيل بين المرأة الصالحة وامرأة السوء»

وجذب مرة صديقه جولد نوايز من ذراعه وهو يودعه — وهو الذي أروي عنه هذه الاحاديث — وقال لهُ هذه النصيحة الغالية «إني أريد ان أقول لك انهُ مهما عظمت مواهبك الموسيقية ومهما كان الوقت والمجهود الذي ضحيت بهِ لهذا الفن فلتذكر ان أهم شيء هو ان تكون رجلاً ، ومن اللازم ان تجعل دائماً نصب عينك ان الفن ليس كل شيء ، وفي علاقتك بالغير ابذل جهدك في ان تقدم لهم اكثر مما في طوقك وان تأخذ منهم اقل ما يمكن اخذه ، وأرجوك المعذرة لهذا القول»

وقال له مرة ان «الانا» شيء زماني يحد جوهرنا الخالد وأرى ان الاعتقاد بخلود النفس يدل على نقص في الفهم»

وفي بعض الاوقات كانت تغلب عليه السويداء فييأس من الدنيا وصلاحها ، وقال مرة وقد اعترته احدى هذه الحالات «ان خطأ الثائرين الرئيسي هو اعتقادهم اننا نستطيع أن نسيطر على الحياة الانسانية ونخضعها للنظام»

وقال مرة اخرى «تمر بي اوقات يغمر نفسي فيها اليأس من كل ما يحدث في الدنيا وأعجب كيف استطاع الناس ان يحتملوا الحياة مع توالي تلك الكبائر والفظائع ، وطالما حزني وحيرني تقويمنا الانسان بأضأل القيم حتى لو اعتبرناه مجرد حيوان نافع ، والحصان الذي يجر العربة يساوي قيمة معينة في نظرنا ونحن ندفعها عن طيبة خاطر ، ولكن الانسان يستطيع مثلاً ان يصنع احذية وأن يعمل في احد المصانع ويعزف على البيان ، ولكن مع ذلك كله فان خمسين في المائة من البشر يقضون نحبهم دون ان يكون هناك ما يستدعي ذلك ، واتذكر أني عندما كنت اربي الدواجن كنت اغضب واتهم الخدم بالتقصير اذا بلغت نسبة الوفيات خمسة في المائة ولكن خمسين في المائة من البشر تزهق ارواحهم بدون مبرر ولا ضرورة»

***

والمرأة في رأيه «تعاكس وتعرقل قانون التقدم ، وهي تقاوم الرجل وتعارضه معارضة شديدة اذا حاول أن ينتقل من بين أطلال حياته السالفة وأنقاضها المحطمة الى حياة جديدة أتم وأحفل منها ، وفي المرأة أنانية محزنة ترتكب أكبر الفظائع باسم الحب»

وقال مرة لاحد اصدقائه «ان أسعد أيام حياتي هو اليوم الذي أعلم فيه أنني فقدت ثروتي وكل ما تملك يدي»

ولم يكن مسيح تولستوي هو آلـه الشدة والعنف وانما كان آلـه الحب والعطف ، مسيح عظة الجبل ، ولقد حدث مرة أن شقيقته ماريا نيكوليفنا عارضت فكرة ان رحمة الله تتسع للخير والشرير ، وبعد ان أصغى اليها تولستوي طويلاً في صبر وأناة قال لها في لطف ورقة « التفتي الآن في دورك ، أن الفرق بين حياة أكثر الناس تقوى وصلاحاً وحياة أشدهم شراً وخطيئة فرق طفيف جداً بالنسبة لكمال الله ، وكيف أسلم بان الله وهو ليس سوى الحب يمكن أن يكون منتقماً جباراً وينزل بالناس صارم العقاب وشديد العذاب »

فاجابته « ولـكن افرض ان بعض الناس عاش طوال حياته في الخطيئة ومات بدون ندم »

فقال لها تولستوي « اي الرجال يريد ان يكون شريراً لا امل في صلاحه ؟ ان الرجل الذي نحكم عليه بانهُ شرير شقي منكود الحظ وينبغي ان نحبه ونرثي لا لامه ، وليس هناك احد يود ان يكون شريراً ، فالشرير انما يرثى له لانهُ لا يبصر الحق »

وكان « اله الحب » هذا يغمر قلب تولستوى بشعور قوي نحو الطبيعة ويوحي لهُ بكلمات من أسطع حكمه وأبهر آياته ، قال في بعض أقواله المبثوث فيها شيء من هذا الشعور « كل ما في الوجود نابض بالحياة وما نراه ميتاً يظهر لنا كذلك لانهُ إما ان يكون جد كبير على الفهم أوجد صغير عليه ، ونحن لا نرى الميكروبات والجراثيم فنحسبها غير حية وكذلك الكواكب تتراءى لنا مسلوبة الحياة لنفس السبب الذي نبدو فيه نحن للنمال غير احياء ، ولا نزاع في ان الارض خافقة بالحياة وان الحجر الملقى على الثرى هو بمثابة الظفر من الاصبع ، والماديون يجعلون المادة أساس الحياة ، وكل النظريات عن أصل الانواع والذرات ومادة الحياة لها قيمتها الى الحد الذي تمكننا به من فهم القوانين المسيطرة على الطبيعة وتكشف لنا عن كنهها ولكن علينا ألاَّ ننسى أنها مجرد فروض وليست أكثر من ذلك . والفلكيون يفرضون لاجل ان يتم حسابهم ويتسق تفكيرهم ان الارض ثابتة ، وكذلك الماديون يبدأون من مقدمة غير صحيحة ولـكنهم لا يعترفون بذلك ولا يعاودون محاولة حل مشكلاتهم على أساس صادق صحيح ، ومذهبهم في الحقيقة أشد المذاهب امعاناً في الغرابة ، ذلك لانهُ يفرض مادة عجيبة الشأن تخلق كل شيء من ذاتها وهي أساس كل شيء ومرجعه فهي شيء لا يتيسر لنا ان نبصره كالناسوت نفسه »

***

وكان في نية تولستوي أن ينبسط في شرح هذه الفكرة ويفصل منها ما أجمله في حديثه بكتاب خاص فأعجله عن ذلك الموت الذي يلهو بالمخلوقات ، ويعصف بالاحياء ، فذهب وفي نفسه منها شيء

مبدأ النسبية

الكلاسيكية

لاسماعيل احمد ادهم

— ١ —

تقوّم مبدأ النسبية الكلاسيكية على مفهوم أوليّ في ان الحوادث تقع في عالم الطبيعة وكأنّها تحدث في الخلاء بدون ان تتأثر بحركة الاجسام التي تصدر عنها . وهذه الفكرة قائمة على أساس أولي في ان النظم المادية سيان كانت ثابتة بالنسبة لمحاورها الوضعية أم كانت متحركة حركة منظمة مستقيمة فالقوانين التي تتبعها واحدة لانها ترجع لمعادلات التحويل الغاليلية التي تقرر وحدة الاشكال والقوانين في مختلف النظم

ومن المهم ان نلاحظ ان قوانين التحويل قائمة على أساس تستمده من تحويل شكل من الاشكال الى صورة أخرى وفقاً لمبدأ معين ، وهذه التحويلات ترد لوجهين في الهندسة :

الاول : بالنسبة لسطح او منحنٍ ومن هذا الوجه مبادىء الرسم المرقاتوري ، وكذلك تَرِدُ اليها الصور التي يتصورها الجغرافيون من وجهة نظر العين لسقوط شعاع الناظرين على سطح الكرة الارضية على سطح مستوٍ . وهذه الصور ليست الاّ النسب والعلاقات بين الصور المرتسمة وسطح الارض الكروي

الثانية : بالنسبة للمتماديات الرياضية على اعتبار ان الاشكال مركبة من المتماديات continu اللامتناهية ، وأكثر المبادىء التي يرجع اليها في هذا الشأن ، تلك التي تعتبر المكان مكوّناً من عناصر بسيطة تشكل اللبنة منها النقطة ، ويبنى أصول التحويل على هذا الاساس . وبهذا يكون تحويل شكل من الاشكال معناه تحويل النقط التي تكون بهذا الشكل الى صورة أخرى وفقاً لقانون معين . فاذا فرضنا ان شكلاً ما أريد استخلاص صورة جديدة منهُ عن طريق التحويل ، فذلك يكون عن طريق تحويل النقط المكونة لذلك الشكل وفقاً للقانون الذي يراد تحويله تبعاً لهُ . وهذه القواعد تعرف في الاصطلاح الرياضي بقاعدة « تحويل الشكل من صورة الى أخرى عن طريق نقل النقط المكونة للصورة الاولى وفقاً لقانون معين »

ولنا أن نستفيد من المبادىء التي بنها رينيه ديكارت (١٥٩٦ — ١٦٥٠ م) عن نظام المتعامدات في كتابه « الهندسة » عام ١٦٣٧م والتي توسع بها الفيلسوف الرياضي ليبنتز (١٦٤٦ — ١٧١٦م) في كتابه Acta Eruditorum lipisisie ص ١٧٠ عام ١٦٩٢م والتي قامت من عليها الهندسة التحليلية في تحديد موضع نقطة على سطح ما محصور بين مستقيمين مثل (ع — عَ) و (س — سَ) قد تقاطعتا في النقطة (م) ، فاذا فرض ان النقطة (ن) واقعة في المستوى المحصور بين الخطين (ع — عَ) و (س — سَ) ورسمنا خطين متوازيين الاول يصل (ن) بالنقطة (نَ) المفروضة على المستقيم (ع — عَ) موازية للمستقيم (س — سَ) ، والثانية تصل (ن) بالنقطة (نً) المفروضة على المستقيم (س — سَ) موازية للمستقيم (ع — عَ) ، فيمكن بذلك تحديد موضع النقطة (ن) بتحديد هذه الابعاد والخطين الموازيين (ن — نً) و (ن — نَ) يعرفان بالكميات الوضعية coordinate للنقطة (ن) . واستناداً الى هذه القواعد يمكن بكل سهولة استخلاص الاصول التي يرجع اليها في تحديد موضع نقطة في الفضاء إذ يكفي تصور خط ثالث من (ص — صَ) المار بالنقطة (م) ليكون معنا ثلاثة متعامدات على المحور (م) ، وتكون كل واحدة من هذه المتعامدات ترتيباً لهذه الكميات الوضعية . واستناداً الى مبدأ التقابل تكون المحاور الثلاثة متحدة في النقطة (ن) ، وهذا النظام الانسجامي يكون معنا المحاور القائمة الزوايا الديكارتية او بتعبير آخر نظام المتعامدات الديكارتي

هذا المبدأ مستعمل في اميركا في الحياة العملية ، فلو أردت أن تعرف عنوان شخص لوجدته مثلاً (مدام إيمي خير : ٢٠ : ٢٥ : ٨) أعني مدام إيمي خير بالشارع ٢٠ بالمنزل ٢٥ بالدور ٨ وبهذا التفسير يتحدد عنوان الشخص تماماً كما هو الحال في تحديد نقطة بنظام المتعامدات الديكارتية . ويكون تحديد العنوان كتحديد النقطة راجعاً لثلاثة خطوط ليست على مسافات محددة من موضع النقطة بل منتظمة بعضها مع بعض في شكل مطرد ordre لتعيين موضع النقطة في الفضاء . ولهذا كان تعامدها بعضها على بعض محدداً لنقطة واقعة بين انفراج زواياها

واستناداً الى هذه القواعد في الهندسة التحليلية يكون الفضاء من حيث يتألف من نقط ، خاضعاً لنظام ثلاثي ، تمتد فيه ثلاثة محاور من كل نقطة كائنة فيه . وهذه بدورها تسوقنا الى أصول المجسمات المستمدة من نظام المتعامدات المنظورة . ويكون بذلك تحويل شكل من الاشكال راجعاً للاصول التي تتبعها النقط المكونة لهذا الشكل في تحولها ، أعني بذلك القوانين التي توفق تبعاً لها نقطها أثناء التحويل . ولما كان أي شكل تابعاً لمحاور نقطه المكونة له وكان محاور كل نقطة ثلاثة خطوط متعامدة كانت قواعد التحويل متصلة بمحاور النقطة أعني كمياتها الوضعية . فلو فرضنا شكلاً كميات نقطه الوضعية (س) ، (ع) ، (ص) كان لنا بناء على قواعد التحويل

س = نا (س ، ع ، ص)
عَ = نع (س ، ع ، ص)
صَ = ني (س ، ع ، ص)

وهنا كل من (نا) و(نع) و(ني) التوابع التي يخضع لها الكميات (س ، ع ، ص) و (سَ ، عَ ، صَ) والتي تعرف علميًا بالكميات الوضعية او المحاور الوضعية أعني التي تحدد من وضع نقطة في الفضاء . وهذه التوابع (نا) و(نع) و (نى) عبارة عن القوانين التي تتبعها الكميات الوضعية

فنحن لو تصورنا نظامين الاول النظام (ن) والثاني النظام (نَ) وعزمنا على ان نستخلص النسب والعلاقات بين هذين النظامين وان نكيف كل نقطة في النظام (ن) وفقاً لما يماثلها في النظام (نَ) . وفرضنا ان نقطة (م) في النظام (ن) كمياتها الوضعية اعني التي تحدد من وضعها في ذلك النظام هي (س و ع ، و ص) كان تحويلها وفقاً لوضع النقطة (مَ) في النظام (نَ) والتي يحدد من وضعها في ذلك النظام الكميات الوضعية (سَ، عَ صَ) يرجع لتناظر وتوازن هذه الكميات والنسب والعلاقات هي التوابع بين هذين النظامين وخط التوابع بعينه سرعة الانتقال ، أعني المدة التي تستغرق الانتقال من وضع النقطة (م) التي تحددها الكميات الوضعية (س ، ع ، ص) في النظام (ن) الى وضع النقطة (مَ)التي تحددها الكميات الوضعية (سَ،عَ،صَ) في النظام (نَ) . فلو رمزنا بالرمز (ت) للزمان وبالرمز (ر) للسرعة كان معنا :

ص = صَ	$X = X'$
ع = عَ	$Y = Y'$
س = سَ — رت	$Z = Z' - t\,u$

هذا اذا كان خط القانون موازياً لامتداد المحور (س) . وهذه المعادلات تعرف بمعادلات التحويل الغاليلية . وهي تؤدي بالفكر الى ان الحوادث تحدث في الأكوان مطلقة وكأنها بالنسبة للخلاء ، سيان في ذلك أكانت ثابتة بالنسبة لمحاورها الوضعية أم كانت متحركة حركة منتظمة مستقيمة ، وسيان كان الخلاء خلواً من كل مادة أو حيزاً مشغولاً بمادة لطيفة كالأثير

هذه هي قرارة النظر الميكانيكي الكلاسيكي في اطلاق حدوث حوادث الطبيعة . ومن هذه النظرة تستمد قانون الحركة النسبية كل قوتها وهي التي تقرر ان النظم المادية سيان كانت ثابتة بالنسبة لمحاورها الوضعية أم متحركة حركة منتظمة مستقيمة فان القوانين التي تتبعها هذه النظم واحدة ذلك لأن مقدار تعجيل هذه النظم يتبع القيمة المطلقة لحركة هذه النظم نظراً لان القيمة التفاضلية بين هذه السرع المحددة للحركة تتبع القيم التفاضلية بين المحاور الوضعية

صفات الادب

الفارسي الحديث

للدكتور عبد الوهاب عزام

[لا يصدر هذا العدد من المقتطف وتتداوله ايدي قرائه حتى يكون مشتركوه قد تلقوا هديتيه السنويتين واحداها كتاب « في نواح مجيدة من الثقافة الاسلامية » : ومن فصول هذا الكتاب بحث نفيس وضعه الدكتور عبد الوهاب عزام استاذ الادب الفارسي بكلية الآداب بجامعة فؤاد الاول موضوعه « الصلات بين العرب والفرس وآدابهما في الجاهلية والاسلام » وقد اخترنا الصفحات التالية من ختام هذا البحث الممتع : المحرر]

*

« صفات الادب الفارسي الحديث » — بعد هذا يحق لنا ان نسأل ما صفات هذا الادب الفارسي الاسلامي شعره ونثره ؟ وما علاقته بالادب العربي ؟

نشأ الادب الفارسي الحديث في رعاية الأدب العربي وتحت سلطانه وطبع على غراره في أكثر الاساليب والموضوعات :

أخذ الأدب الفارسي عن العربي معظم موضوعات الشعر والنثر وكل صور الشعر والنثر وأساليبهما من الوزن والقافية والسجع وانواع البديع الخ . ثم امتاز الادب الفارسي بخصائصه في الاسهاب والقصص وغيرها . وقد اتصل الادبان اتصالاً وثيقاً . وترجم من الفارسية الى العربية شذرات ادبية كما ترجمت الكتب الفهلوية من قبل . نجد في ديوان المعاني للعسكري امثالاً معربة و « جملاً من بلاغات العجم » . وفي اليتيمة امثال معربة كذلك . وفي كتب الادب اخبار عن المتفننين باللغتين والمترجمين شعراً فارسياً الى العربية كبديع الزمان الهمذاني

وأما الترجمة من العربية الى الفارسية فكانت أوسع وأنفع . وقد ذكرتُ بعض المترجمين وما ترجموا من الكتب آنفاً

وكان كثير من المؤلفين والكتّاب والادباء والعلماء يكتبون باللغتين . ومعنى هذا ان تكون اللغتان اداتين للابانة عن افكار واخيلة وصور متفقة . وفي هذا من التقريب بين اللغتين ما فيه

وكانت اللغة العربية لغة العلم والادب في ايران منذ الفتح الاسلامي فلما ترعرعت الفارسية

وصارت لغة علم وادب استمان المنشئون في الادب الفارسي بالالفاظ والعبارات الادبية المألوفة في العربية التي تعوّد الناس التعبير بها زمناً طويلاً .

ونفصل هذا القول تفصيلاً قليلاً فيما يلي :

فأما الشعر فيشارك الشعر العربي في موضوعاته من الهجاء والمدح والغزل والفخر والوصف — في ميل الى المبالغة والاطناب — ويمتاز باشياء :

(١) ذكر ملوك الفرس القدماء وابطالهم مثل فريدون، ورستم ، وزال ، وجمشيد ، وقد سرى هذا الى الشعر العربي الذي نظم في بلاد الفرس كشعر بديع الزمان وامثاله

(٢) ويمتاز الشعر الفارسي بميزتين عظيمتين : الشعر القصصي والشعر الصوفي

فاما الشعر القصصي فقد أولع الفرس به في كل عصر ، وقد رأينا أن أبان بن عبدالحميد نظم كتاب كليلة ودمنة بالعربية ، وأن الرودكي اول شعراء الفرس الكبار نظم هذا ايضاً . ومن الادلة على ولع الفرس بالقصص قصة يوسف وزليخا . فهذه القصة مأخوذة من القرآن ، ولكن شعراء العربية لم يهتموا بها . وأما الفرس فقد نظموها مراراً . نظمها من كبارهم الفردوسي وجامي . ونظمها آخرون — ورواية وامق وعذراء التي قيل انها قدمت لعبد الله بن طاهر فأمر بطرحها في الماء نظمها العنصري شاعر محمود الغزنوي ، ثم الفصيحي في رعاية كيكاوس الزياري ، ونظمها اربعة شعراء آخرون . وقصة ليلى والمجنون نظمها كذلك غير واحد من شعرائهم

وحسبنا شاهنامة الفردوسي التي حاكاها شعراء كثيرون فنظمت شاهنامات أخرى لم تنل ما نالته من القبول والصيت . ومن القصص المنظومة رواية خسرو وكل ، وبلبل نامه لفريد الدين العطار وسلامان وأبسال لمولانا جامي ، وغيرها مما لا يتسع المقال لتعديده

وأما الشعر الصوفي فقد بدأه ابو سعيد بن ابي الخير من بلدة مهنا في خراسان وأبو عبدالله الانصاري من هراة . نظما فيه قطعاً ورباعيات ، ولكن لم يكثر فيه التأليف الا بعد نصف قرن اذ نبغ طليعة فرسانه سنائي الغزنوي ثم قفاه العطار ثم تلاه امام الصوفية مولانا جلال الدين الرومي صاحب المثنوي الذي يسمى القرآن في اللغة الفارسية . ويقال لمؤلفه : لم يكن نبيًّا ولكن اوتي كتاباً . ومن بعد غارات التتار نبغ لسان الغيب شمس الدين حافظ الشيرازي والشيخ عبدالرحمن الجامي الذي يعد آخر شعراء الفرس العظام

والحق ان اللغة الفارسية تبذ سائر لغات العالم بهذا النوع من الشعر النفسي الانساني الفلسفي الذي يرتفع عن جدال المذاهب وعصبيات الآراء . وينفذ الى بواطن الاشياء فيصف النفس الانسانية في اسمى منازعها ، ويرى الحقائق الالهية في اجلى مظاهرها

وأما الفاظ الشعر ففيها كثير من الالفاظ العربية وعليها طابع عربي في تركيبها ، ولكن اثر

العربية في الشعر أقل منه في النثر . وأما قوافيه وأوزانه فلا يمكن تفصيلها في هذا المقال ، وحسبنا ان نقول ان الفرس يكثرون من الشعر المزدوج الذي يسمونه المثنوي وهو شعر القصص كلها . وأكثروا كذلك من الدوبيت أو الرباعي ، وعندهم ما يسمونه تركيب بند ، او ترجيع بند ، وهو قريب من الموشحات العربية — وعندهم الشعر المردف وهو الذي تكرر في آخر اياته كلمة واحدة ويعتبر الروي والقافية ما قبل هذه الكلمة . وجملة القول انهم لم يسهلوا القوافي العربية وان اخترعوا ضروباً فيها

وأما الوزن فجدير بالتدقيق جداً . فان الفرس حاكوا العرب في اوزانهم اول الامر ولكنهم سرعان ما نبذوا اشهر الاوزان العربية . فالطويل والمديد والبسيط والوافر والكامل ، وهي أشهر الاوزان في الشعر العربي ، لم ينظم فيها الفرس الا جماعة من المتقدمين ارادوا اظهار براعتهم كما يقول شمس قيس . ونظموا في الرمل والرجز والخفيف والمضارع والمجتث والمتقارب (وهو وزن الشاهنامة) وأولعوا بالهزج ولعاً شديداً حتى جعلوه اصلاً فرّعوا منه أصناف الرباعي وخرجوا به عن أصله العربي

ويلاحظ انهم لم يتقوا بالبحور عند المقادير العربية ، فالرمل قد يأتي مثمناً والرجز كذلك وما جاءا كذلك في شعر العرب قط والهزج — مثلاً — الذي هو سداسي الاصل عند العرب ومجزوء وجوباً ينظم منه الفرس مثمناً . ثم تصرف الفرس في الزحاف والعلل تصرفاً كثيراً جداً ، واشتقوا من الدوائر العربية بحوراً أخرى قريبة من البحور الاصلية مثل الغريب والمشاكل والقريب

وقد اراد بعض المستشرقين أن يعلل الخلاف بين الاوزان العربية والفارسية بما بين طبائع الامتين من اختلاف . ويقول شمس قيس ان سبب ثقل الطويل والمديد والبسيط ان أجزاءها غير متناسبة في حركاتها وسكناتها ويطيل في بيان ذلك . ولا يمكن الفصل في هذه المسألة الا بعد بحث مفصل في أوزان الشعر العربي وعلاقتها باللغة العربية ، وفي تطور الاوزان العربية في الشعر الفارسي وتبيين ما بين هذا التطور ولغة الفرس من صلة

وينبغي ان نذكر هنا ان وزن الرباعي نقل الى العربية وسمي الدوبيت . ومهما يقل في علاقته بالهزج يحق ان يعد وزناً فارسياً استعارته العربية

وأما النثر الفارسي فأثر العربية فيه أبين : الالفاظ العربية فيه أكثر ، والتركيب قريب من التركيب العربي ، ولكن لا بد من الفرق بين النثر الادبي — نثر الرسائل والمقامات وبين نثر الكتب . فأما الاول فقريب من الشعر ، وأما الكتب فمع اشتراكها كلها في كثرة الالفاظ العربية ينبغي أن يفرق فيها بين كتب التاريخ التي هي قصص يستعمل فيها الكلام المعتاد غالباً وبين المؤلفات العلمية مثل كتب الفقه والتوحيد والبلاغة والطب وهلم جراً . فهذا الصنف الاخير يكاد

يكتب بألفاظ عربية ، وتستعار فيه كل الاصطلاحات العربية ، فاصطلاحات البلاغة وضروب البديع واصطلاحات العروض أُخذت برمتها . وما زادوه فيها اشتقوه من العربية ايضاً . ثم المؤلفات كلها علميها وأدبيها يتخللها كثير من المقتبسات العربية، ففي كتب الدين الآيات والاحاديث، وفي كتب الادب والتاريخ كثير من الابيات والامثال والمأثورات . وقد نجد من ذلك أسطراً متوالية

وخير ما يفعل لمقارنة النثر العربي والنثر الفارسي ان ننظر الى كتاب عربي وترجمته ، لنرى كيف توافق الترجمة الاصل وكيف تخالفها مراعاة لاسلوب اللغة وذوق اهلها . فاذا قارن الباحث كتاب كليلة ودمنة العربي بالترجمة الفارسية التي كتبها نصر بن عبد الحميد والترجمة الاخرى التي كتبها الكاشفي من بعد وسماها أنوار سهيلي عرف كيف تشترك اللغتان في كثير من الالفاظ والعبارات وضروب البديع وكيف تختلفان في الاطناب والتفصيل والمبالغة

مكانة العربية في ايران مع الفارسية

قد عرفنا حال اللغة الفارسية في ايران اجمالاً ، كيف بدأت وكيف تطوّرت وكيف شاركت في فنون كثيرة . وقد يتردد في نفس القارئ هذا السؤال : ما ذا أصاب اللغة العربية في هذه البلاد بعد ان صار لها لغة أدبية خاصة ؟ هل استبدت اللغة الفارسية بالآداب والعلوم ولم يبق للعربية فيها مجال ؟

قد تقلبت الغير باللغتين ولكن يمكن ان يقال ان العربية احتفظت بالسيادة في الاطوار كلها فيما عدا الشعر . فأما بيان هذا ففي هذه الكلمة الموجزة :

لا ريب ان المؤلفات العربية التي أُلفت في بلاد الفرس ما بين أول القرن الرابع وغارات التتار أكثر جداً من نظائرها الفارسية ، ولكن ينبغي ان نفرق بين الشعر وغيره فان الامر فيهما لا يجري على سنن واحد

فأما العلماء المؤلفون فلا حرج على باحث ان يقول انهم كلهم كانوا يعرفون اللغتين ، وقد ألف بعضهم فيهما ولكن المؤلفين بالعربية أشهر ذكراً وأعظم أثراً . وحسبنا ان نذكر ابن مسكويه وابن سينا والبيروني والعتبي والغزالي والرازي والزوزني والتبريزي والنسفي والبيضاوي والطوسي

وأحسن مقياس في هذا ان نعمد الى جماعة ممن ألفوا باللسانين لنرى أمؤلفاتهم العربية أكثر وأعظم أم الفارسية . ولا أحسب الامر يحتاج الى عناء . فيكفينا ان نذكر الغزالي فنحن نعرف مؤلفاته العربية وليس لهُ في الفارسية الا رسالتان : كيمياء السعادة ونصيحة الملوك .

وقد صرّح في الاولى انهُ ألفها بالفارسية ليُفهم العامة — وفخر الدين الرازي لهُ زهاء ثلاثة وثلاثين مؤلفاً يعرف منها في الفارسية واحد فقط هو اختيارات علائي . ونصير الدين الطوسي على تأخر زمانه لهُ نحو خمسين مؤلفاً قليل منها الفارسي . والبيضاوي ألف تفسيره بالعربية ولم يمنح الفارسية الا كتاباً صغيراً أسماه نظام التواريخ

وأما الشعر وما يتصل به فلا ريب ان النبوغ كان لشعراء الفارسية ، فليس فيمن شعروا بالعربية ببلاد الفرس كثير أمثال الفردوسي او الانوري أو العنصري ، ولكن أكثر العلماء الذين اتخذوا العربية لغة علم كانوا ينظمون شعراً عربياً . وكثير من شعراء الفرس نظموا شعراً عربيًّا كذلك . وحسبنا ان نعرف ان الثعالبي وهو من رجال القرن الرابع ذكر في الجزء الثالث والجزء الرابع من اليتيمة واحداً وخمسين ومائة من معاصريه الذين نظموا الشعر العربي في أرجاء بلاد الفرس . وهم أكثر من كل شعراء الفرس الذين ذكرهم عوفي وهو في القرن السابع ولكنهم لا يبلغون درجتهم في الشعر . وقليل منهم يعدّ شاعراً عظيماً في العربية

ومن الشعراء الذين نظموا باللغتين بديع الزمان الهمذاني وابو الفتح البستي وقد ضاع ديوانه الفارسي . والبديع البلخي الذي مدح أحد الامراء بشعر ملمع . وعطاء بن يعقوب الكاتب وكان لهُ ديوانان عربي وفارسي،والباخرزي ، وابن سينا والشيخ السعدي ومن الكتّاب رشيد الدين الوطواط صاحب حديقة الشعر ولهُ رسائل عربية نشرت احداها في رسائل البلغاء

ولم يكن حال اللغتين سواء في العصور كلها فقد كانت الفارسية منذ ظهرت في صعود بينما كانت العربية في هبوط — وهذا الهبوط كان أبين في الشعر منهُ في العلم ، فالراوندي مؤلف راحة الصدور ينقل أبياتاً عربية بليغة لاحد وزراء السلاجقة ثم يأسف على ذلك الزمن ويقول : ان وزراء زمنه لا يفهمون مثل هذا — وصاحب المعجم من رجال القرن السابع يقول ان شعراء زمانه يعرفون اللغتين ولكنهُ لما ألّف كتابه في العروض بالعربية نقم عليه أدباء فارس حتى قسم الكتاب قسمين المعجم والمعرب

وعوفي يقول : فان كل مستعرب يعرف الفارسية وليس كل شاعر فارسي يعرف العربية . ومع هذا كلهُ نرى ان اللغة الفارسية نفسها لم تكن قد ضبطت قواعدها وأحكمت كقواعد العربية حتى نجد شمس الدين الرازي في القرن السابع يشكو من هذا ويشرح القواعد شرح المستنبط الذي لم يُسبق

والخلاصة ان العربية فيما عدا الشعر حلت مكانة فوق الفارسية حتى غارات التتار التي عصفت بالحضارة الاسلامية واصابت العلوم والآداب بضربات لم تفق منها حتى اليوم . ويضيق المجال عن الكلام في أطوار اللغتين بعد سقوط بغداد . وعسى ان تتاح له فرصة أخرى ان شاء الله

دراسات

في آثار الاقدمين الروحية

لناشر سيفين

﴿ تمهيد ﴾ — قيل عن قدمائنا انهم كانوا يعبدون الحيوان لما أُثر عنهم من تقديس بعض أجناسها . وعرف الى جانب هذا انهم اهتدوا قبل سائر الأمم الى عقيدة البعث والحياة الاخرى

والمرء اذ يرى هذا التناقض في اتجاه الفكر ليتولاه العجب من أمرهم وتتملكهُ الحيرة دون ان يفهم كيف صحَّ عندهم ان يسموا من ناحية في عالم الروح الى غير المنظور وان ينحدروا من الناحية الاخرى في عالم المادة الى عبادة الحيوان

وفي هذه المقالات سأعرض للدرس آثارهم الروحية سواء منها ما انتقل الى الديانات الاخرى وما بقي منها في عاداتنا وتقاليدنا القومية وأرجو أن أوفق الى تفهم روحهم والقاء بصيص من النور على بعض الأركان المظلمة من معتقداتهم تبدد ما غشيها من شبهات انصافاً لهم

وبالنظر الى تردد ذكر توت بمناسبة الكشف في منطقة تونه الجبل عن معابد ومومياءات للطائر أيبس والقرد وهما الحيوانان المقدسان لهُ فقد رأيت ان أبدأ هذه الدراسات بهِ

المعبود توت

توت أو تحوت رب الحكمة والسحر عند الاقدمين وإله العلم ومخترع الكتابة ومستنبط علم الحساب وواضع الاسس لسائر العلوم والمعارف

وكانوا يزعمون ان لهُ كتاباً من صفحتين كتبهما بيده وضمنهما العلوم السحرية كلها . فمن يقرأ الصفحة الاولى يصبح لهُ سلطان على السماء والارض ويفهم لغة الطيور وينظر الاسماك في أعماق البحار ومن يقرأ الصفحة الثانية يمكنهُ ان مات وانتقل الى عالم الارواح ان يرتد الى الارض ويأخذ فيها الهيئة التي كان عليها أولاً . وان يرى الشمس في كبد السماء ومن حولها البدر والنجوم ويعاين الآلهة

وقد لبث هذا الكتاب يشغل حيزاً من تفكير المشتغلين بالمسائل الروحية الى أوائل العصر

المسيحي . وقد وجد البردي الذي فيه خبر هذا الكتاب في قبر راهب قبطي بطيبة

ولا يزال لتوت الى أيامنا هذه ذكر عند المشعوذين فان أحدهم اذ يبتدىء بعرض ألاعيبه على الجمهور يرفع صوته بقوله « توت حاوي » كأنهُ يستنجد برب السحر

وكان أهم مركز لعبادته مدينة الاشمونين وهذا الاسم تحريف خيمنو وهو اسمها باللغة القديمة وأطلق عليها في العصر اليوناني اسم هرموبوليس أي مدينة هرمس وهو آله الحكمة عند اليونان

وقد تردد ذكر هذه المدينة في الايام الاخيرة متصلاً بالابحاث التي تجريها بعثة الجامعة المصرية برآسة الدكتور سامي جبره في هذه المنطقة للكشف عن آثارها . وقد وفقت في هذا العام توفيقاً عظيماً اذ كشفت عن اشياء كثيرة تتصل بعبادة توت من معابد ومومياءات للطائر أيبس والقرد وهما الحيوانان اللذان كان الاقدمون يقدسونهما لتوت ويتقربون اليه بأهداء مومياء احدهما الى المعبد . وقد عثر من بين مئات منها على مومياء قرد زينت رقبتهُ وصدره بحلي من الذهب ووجدت على ظهره وقدميه خاتم من الخزف

وهنا يسأل المرء ما علاقة الطائر أيبس او القرد برب الحكمة . واية فضيلة اختص بها هذان الحيوانان واستحقا من أجلها التكريم والتقديس باسم توت.وهذا يتطرق بنا الى موضوع عبادة الحيوان ومن ثمَّ الى دراسة الانسان من الناحية النفسية في حالة الفطرة . ولنقصر بحثنا على مصر منعاً لتشعب الكلام واستفاضته في نواح لا تتسع لها هذه الصحائف

من الامور التي أزعجت الانسان في بداءته توفر الاثمار حيناً وقلتها حيناً آخر واشتداد الحر فترة تعقبها فترة من البرد القارس . واستمرار الجفاف والقيظ زمناً يعقبهُ ارتفاع ماء النهر حتى يغمر الارض جارفاً امامه كل شيء من اكواخ واقوات أدخرت بشق النفس. وقد ظل الانسان أجيالاً في جهالته قبل ان يدرك ان للشتاء نذراً فيستعد له وللجفاف امارات فيأخذ أهبته وللفيضان علامات تنبىء به قبل اغارته فيهرب بأقواته الى حيث لا يدركه الغرق وكان هذا الكشف اول انتصار للانسان على الطبيعة

وكان مفتاح هذا الاكتشاف الظاهرة التي أشار اليها المسيح في سياق احد الامثال التي كان يخاطب بها الشعب وتلاميذه ويضمنها تعاليمهُ لتكون ادنى الى افهامهم اذ قال (انظروا الى شجرة التين وكل الاشجار متى افرخت تنتظرون وتعلمون في انفسكم ان الصيف قد قرب) فقد عرف الانسان ذلك كما عرف ان الشتاء يسبقهُ اصفرار الاشجار وتساقط أوراقها ولاحظ ايضاً ما يصاحب هذه التقلبات من ظهور بعض انواع الطير او الحيوان ومهاجرة غيرها او انكماشها في جحورها

وفي فصل الفيضان تفد الى مصر طوائف من ايبس وهو طائر مائي من فصيلة ابي قردان واذ لاحظ الاقدمون مع الزمن هذا التلازم اتخذوه علامة على قرب هذا الحادث السنوي العظيم وتوهموا انه اذا لم تجيء طوائف منه لا يكون فيضان . فصاروا يحتفظون في اكواخهم

بأفراد منه ويحيطونها بعنايتهم تيمناً به واستجلاباً للخير الذي يصاحبهُ

وتدرج الناس من ذلك الى النظر في السماء فعرفوا ان تقلب الجو انما يرجع الى اختلاف موقع الشمس من الافق وأصبح في امكانهم ان يعرفوا الفصول بالنظر الى ذلك واهتدوا بمراقبة اختلاف وجوه القمر الى تقسيم الزمن الى اسابيع وشهور. ووفقوا علاوة على ذلك الى كشف نجم له شأن خاص في مصر. فقد لاحظوا انه لا يظهر في نقطة بعينها في الافق مع الشمس الا مرة قبيل الفيضان فاتخذوه بشيراً به وآية من السماء على اقترابه وسموه سوذس وهو كوكب الشعرى. وقد مكن هذا الكشف لمصر ان تعطي العالم اول تقويم شمسي معروف. وسيجيء الكلام عنه في موضعه بعد

ومضى الانسان في الملاحظة واستقراء الاسباب حتى انتهى الى القول في تعليل مشاهداته بأن هنالك روحاً عنده علم كل شيء ومحيط بأسرار الكون. وهو انما يتخذ الطير والشجر والكواكب مما يقع تحت ابصار الناس وسيلة لكشفها لهم لينتفعوا بها في شؤونهم من الرحمة وراحوا في سذاجة الفطرة يتصورون لا تقسهم ذلك الروح ويلتمسون له في بيئتهم شبيهاً لانهم لم يكونوا قد مارسوا بعد صناعة التماثيل ولا اية صناعة اخرى فشبهوه بالقرد لذكائه وقدرته على توجيه انظار الناس اليه بتقليد حركاتهم على نحو ما يصف احدنا الولد الذكي اليقظ بالقرد

واتخذوه زلفى لذلك الروح الذي عنده علم كل شيء ولا يضن بعلمه عن الناس ووسيلة للتخاطب معه والشكاية اليه

ولما عرف الانسان الزراعة وتركز اعتماده عليها وارتبط بقاؤه باقبالها وكان ذلك رهيناً بعوامل كثيرة لا سيطرة له عليها ولا علم له بأكثرها اشتد شعوره عندئذ بضعفه وانه لا يملك من امره شيئاً وقوي يقينه بعجزه امام قوى قاصرة غير منظورة لا يستطيع بوسائله المادية دفع شرها او استجلاب خيرها. فكان اذا حزبهُ امر او ضاقت به الحيل في شأن من شؤونه او اصابة شر او نزلت به نازلة كان يجلس رعيناه الى ابيس او القرد مستسلماً الى الهواجس سائلاً الروح الذي لم يتركه في الماضي في ظلمات الجهل وعلمه كثيراً مما لم يكن يعلم ان يأخذ بيده ويكشف كربه. ولما اطمأنَّ الى معونته ورفده اتى اعتماده عليه. ولتيسير توجيه الخطاب اليه [illegible] اسماً [illegible] هذا الاسم [illegible]

وهكذا أصبح الوهم حقيقة وتطور الروح الذي فرض الانسان في جهالته وجوده فرضاً لتعليل امور غاب عنهُ ادراكها وتفسير ظاهرات أخفي عنهُ تعليلها فصار الهاً. واصبحت الكلمات التي كان يناجي بها نفسه وهو في بحران من الهمّ او يخاطب بها الأبيس او القرد وهو مكتئب النفس حزين يائس [illegible] أصبحت هذه الكلمات صلاة

وأضفى هذا التطور على الابيس والقرد حرمةً وتقديساً وصار شأنهما عند الناس كتمثالين او [illegible] الا انهما ليستا من صنع انسان

توت اول شهور السنة المصرية

اتخذ المصريون منذ القدم الفيضان مبدأً لتقويمهم وقد حسبوا الفترة التي تنقضي بين فيضان والذي يليه فوجدوها تستغرق اثني عشر قمراً . ولما كشفوا سوذس ووجدوا أن شروقه مع الشمس يتوافق مع ارتفاع ماء النيل جعلوه مبدأً لدورة السنة الشمسية . وقد تحققوا أن هذه الدورة تزيد عن اثني عشر قمراً بضعة ايام وعالجوا ذلك بجعل الشهر ثلاثين يوماً كاملة ثم اضافة خمسة أيام تجيء عقب تمام الاثني عشر شهراً وهي المعروفة بأيام النسي وبذلك تكون سنتهم ثلاثمائة خمسة وستين يوماً . وللاقدمين أسطورة طريفة في سبب اضافة هذه الايام الخمسة : زعموا أن رع منذ الازل دعا على نوت ربة السماء بألاّ يولد لها ولد في أي يوم من أيام السنة . فاغتمت نوت ومضت الى توت رب السحر والعلم والحكمة وقد كان يحبها وبثته بثها

ونهض توت للاخذ بنصرتها بالرغم من انهُ يعلم استحالة رد قضاء قضى به رع ونقض حكم نطقت به شفتاه ، وأمكنهُ بحكمته تلطيف القضاء . ذلك بأنهُ تحدى اله القمر ليساجله في لعبة تشبه الشطرنج . وقبل اله القمر تحديه مراهناً على نوره . وحالف الحظ توت دوراً بعد دور فكف اله القمر عن اللعب مقرّاً بالهزيمة . عندئذٍ أخذ توت ما ربحهُ من نور القمر وبقدرته أنشأ خمسة أيام . ومنذ ذلك الحين لم يعد نور القمر يكفي لظهوره في الافق الشهر بتمامه . لكن يتضاءل نوره يوماً فيوماً ثم ينمحق ولما يتمّ ثلاثين يوماً

وجعل توت هذه الايام بين السنة المنتهية والتي تليها من غير أن يلحقها بأحداها . وفي تلك الأيام الخمسة وضعت نوت أبناءها أوزيريس وحورس وست وإيزيس ونفتيس على التوالي

وتقديراً لفضل توت في معرفة تقسيم الزمن وانشاء التقويم سمي أول الشهور باسمه

واستمرّ العمل بهذا التقويم أجيالاً الى ان وجد مع توالي السنين ان الاعياد لا تقع في الفصول المقررة لها . فكان فرضاً على الكهنة وهم الحفاظ على الاعياد ضبط أوقاتها وقد عثر على شذرة من رسالة موجهة من أحد رؤساء الكهنة الى مرؤوسيه يعلمهم فيها ان عيد رأس السنة سيوافق اليوم الخامس عشر من الشهر الثامن ويطلب اليهم اعتبار هذا اليوم أول توت . والرسالة مؤرخة في السنة الثالثة والعشرين من حكم الاسرة الثانية عشرة وقد وجد ان هذا التاريخ يوافق سنة ١٨٨٠ قبل الميلاد . وعيد رأس السنة الذي تشير اليه الرسالة من أهم أعياد مصر القديمة وكان يعيد طبقاً لاحدى الاساطير لهاتور تذكاراً للخلاص

وحكاية ذلك كما روتهُ الاسطورة ان الناس تمرّدوا على رع رب الارباب وخرجوا عن طاعته وعصوا أوامره وأخلوا بنواهيه فقرّ رأيه على تأديب العصاة وردهم الى صراط مستقيم . فأعطى هاتور سيف انتقامه وأرسلها حرباً عاتية على الكفرة المتمردين فأثخنت فيهم أيما إثخان

وأهلكت منهم خلقاً كثيراً فسالت الدماء الى النهر فتحوّل أحمر قانياً . ولما رأى رع من عليائه ذلك أخذته الشفقة على جنس الانسان ومال الى الصفح عنهُ وغفران ذنبه . لكن كيف السبيل الى ذلك ورع لن ينقض حكماً بعد ابرامه وهاتور لن تنثني عن عمل وجهت اليهِ ومهمة نيطت بها حتى تتمها . وقد ذلل رع ذلك بوسيلة هي بالحيلة أشبه

أمر رع النساء ليصنعن من الشعير شراباً وأرسل في الوقت نفسه رسلاً الى اسوان ليجلبوا من هنالك عنباً من كل ذي لون أرجواني وقرمزي ليتخذ منهُ عصير أحمر هو النبيذ . ثم اشار بمزج الشراب المصنوع من الشعير بالنبيذ فكان مزاجهما شراباً مسكراً أحمر بلون الدم. وعندئذٍ أمر فأريق الشراب في الاماكن التي اجتازتها هاتور للانتقام . ولما جاءت هاتور في الصباح لاستئناف المذبحة تلفتت يمنة ويسرة فلم تجد أحداً من الناس الاَّ هذا السائل الاحمر فتملكها الغضب وثارت تعطشاً الى القتل وانحنت على الارض وولغت في ذلك السائل وهي تحسب انهُ دم الخلق الذي سفكت فثقل رأسها من المسكر ونامت فنجا الناس بذلك من فتكها . وتلقاء ما كان لهذا الشراب من فضل في خلاص الناس شرع لهم رع ان يشربوه كلما جاء عيد رأس السنة للذكرى

أما السبب في ان أول توت لم يكن يتوافق مع ظهور سوذس طبقاً للقاعدة التي وضعت لهُ منذ انشاء التقويم بل كان يسبق ظهوره سنة بعد أخرى حتى بلغ الفرق بتعاقب الاجيال المبلغ الذي أشارت اليهِ الرسالة وهو سبعة شهور ونصف فهو ان السنة بحسبانها ثلثمائة خمسة وستين يوماً تنقص ربع يوم عن المدة التي تستغرقها الارض في دورانها حول الشمس من نقطة اقترانها بسوذس . وبناء على هذا فالسبعة الشهور والنصف هي مقدار ما تجمَّع من أرباع اليوم في سنين عددها يساوي عدد أيامها وهو مائتان خمسة وعشرون مضروباً في اربع أي تسعمائة سنة ولو كان ترك بدون تعديل لتوافق اول توت مع ظهور سوذس بعد تمام الف واربعمائة وستين سنة وهو الحاصل من ضرب عدد ايام السنة في اربعة

فلو فرضنا ان حادثة ضبط التقويم التي نحن بصددها هي الاولى من نوعها وقد حصلت على ما حققه العلماء المختصون في عام ١٨٨٠ ق.م. فيكون عام ٢٧٨٠ ق.م. من الاعوام التي توافق فيها أول توت مع ظهور سوذس ومن حيث ان الاسرة الاولى تولت الحكم حوالي عام ٤٤٠٠ قبل الميلاد فيمكننا القول بأن التقويم انشىء قبل عام ٢٧٨٠ بدورتين على الاقل اي ٢٩٢٠ سنة وعلى هذا فيكون التقويم انشىء سنة ٥٧٠٠ قبل الميلاد على أقل تقدير

جرى العمل بهذا التقويم على ما بهِ من نقص اجيالاً ولم يفطن أحد الى الطريقة المثلى لاصلاحه حتى ولي الملك بطليموس الثالث الملقب بأفرجت الاول وكان محبباً للرعية مخلصاً للدين فقرر الكهنة اقراراً بفضله واعترافاً بمآثره ان ينشئوا باسمه عيداً يقام كل سنة أربعة أيام متتابعة

ولكي يقع العيد على مرّ السنين في الموعد المقرر له رأوا اصلاح التقويم بأضافة يوم الى كل سنة رابعة . وكان ذلك قبل الميلاد بمائتين ثماني وثلاثين سنة

ولما دخلت مصر في حكم الرومان بعد البطالسة امر اغسطس قيصر في السنة السادسة والعشرين قبل الميلاد بتعديل التقويم المصري بحيث تتوافق شهوره دائماً مع التقويم اليوناني وبمقتضى هذا التعديل اصبح اول توت يوافق اليوم التاسع والعشرين من شهر اغسطس

وقد اسخط تعديل التقويم على هذه الصورة المصريين وكان من مظاهر احتجاجهم عليه احتفالهم بمهرجان اول توت في موعده القديم وهو يوافق على ما حققهُ الفلكيون ١٩ يوليو وهو وقت اقتران سوذس بالشمس في خط عرض هليوبوليس . ولبثوا على ذلك الى ان دخلت المسيحية مصر فكان في انتشارها القضاء على الدين القديم والقضاء على الاساطير بما فيها من اخبار الآلهة ومآثرهم . وابطلت من ثمَّ الاعياد التي انشئت للتنويه بهم والاشادة بذكرهم

ولما لم يكن قد رتب للمسيحية بعد أعياد لتأخذ مكان الاعياد القديمة ، فقد حنّ الشعب الى احياء هذا العيد والاستمتاع بمباهجه ولاسيما انهُ في ظاهره لا يتعارض مع المسيحية اذ كان لذكرى الخلاص وهي العقيدة التي أسس عليها هذا الدين . وفيه تشرب الخمر لذكرى الخلاص وهي بعينها الخمر التي قال عنها المسيح انها دمه الذي يسفك من أجل خلاص العالم وأوصى بشربها للتذكار فصار المصريون يحيونهُ كل سنة ولا يرون في ذلك حرجاً او اثماً . ولما أنشأت الكنيسة عيداً للقيامة جعل هذا المهرجان في أثره ولايزال الى الآن وهو عيد شم النسيم

وفي رأيي ان السبب في هذه التسمية ان العيد في الاصل كان يقع في بداءة فصل الفيضان فكان يطلق عليه اسم هذا الفصل باللغة القديمة وهو شمّو فلما تغيّر الدين وتبع ذلك تغيّر اللغة أصبح هذا الاسم لفظاً بلا معنى . ولمقاربته في النطق للفظ العربي شم أضيف اليه لفظ النسيم لأنه يطابقهُ ويتم معناه . وبذا اصبح الاسم المصري القديم عربياً لفظاً ومعنى

وكثير من العادات المتصلة بهذا العيد ترجع في أصلها اما الى تقليد ديني واما الى عادة اصطلح عليها الشعب منذ القدم للتنويه بمعنى يستفاد منه . فمن النوع الاول عادة شرب الاشربة المتخذة من الشعير كالبوظة والسوبيا في شم النسيم اذ هي مشتقة من فريضة شرب الخمر المستخرجة من خمر الشعير والنبيذ التي شرعها رع لذكرى الخلاص

ومن النوع الثاني عادة شم البصل في صباح يوم شم النسيم . وهي مأخوذة من عادة تنشيق الاطفال عقب وضعهم البصل لتنبيههم ليصيحوا وتمتلىء رئاتهم بالهواء . ولا تزال هذه العادة عند القرويين الى هذه الايام . وقد أريد بها في مناسبة العيد الاشادة بفضل الاله الذي عفا عنهم واستحياهم وكتب لهم عمراً جديداً أوله ذلك اليوم

﴿ أصل بعض العادات المتصلة بشهر توت ﴾ ومن العادات المستغربة ان كثيراً من نساء القبط يبرعن اذا كان اول توت الى سطوح المنازل في الصباح ليرين على زعمهن رأس يوحنا المعمدان في السماء

وفي اعتقادي ان هذه العادة ابتدأت لما كان سوذس من كواكب الدين عند الاقدمين اذ كان مطلعهُ في الصباح مع الشمس يحمل التهانيء بأول توت والبشائر بابتداء فصل الفيضان. فكان الناس يترقبون شروقهُ في الاماكن المرتفعة وألسنتهم تلهج بالدعاء ان يكون مطلعه مطلع خير وبشيراً بعام جديد تتحقق فيه الآمال . فلما دخلت مصر في المسيحية نسي الناس سوذس لكنهم لم ينسوا العادة التي غرسها في الاجداد استبشارهم به واحتفالهم برؤيته . وكان لا بد لبقائها من صبغها بصبغة الدين الجديد فلما قررت الكنيسة عيداً لذكرى مقتل يوحنا المعمدان وجعلت موعده في اليوم الثاني من شهر توت أضاف الشعب المحافظ على عاداته الموروثة عادة التطلع الى الافق في اول توت الى ذكرى هذا الرسول الذي قتل ووضعت رأسه في طبق

وشهر توت عند اكثر الناس لاسيما من القبط غير موافق للزواج ومن اقوالهم في هذا المعنى «عروس توت الفوت» اي الترك. ولم استطع ان أقف على سر هذا التشاؤم حتى كنت في ذات يوم أقلب صفحات كتاب لبدج العالم بالآثار المشهور فاستوقفت نظري عبارة في سياق الكلام عن المعبودة أيزيس تفيد انهُ كان للاقدمين ايام سعود وأيام نحوس وتقويم يرجعون اليه اذا كانت لاحدهم حاجة يريد قضاءها لمعرفة اليوم الموافق لذلك . وقد جاء فيه عن اليوم السادس والعشرين من توت ما يأتي : (لا تعمل عملاً البتة في هذا اليوم ففيه احتدم القتال بين حورس وست وحورس ابن اوزيريس الذي علم المصريين الزراعة وهداهم الى عبادة الآلهة . وست أخوه وكان شريراً نفس على اخيه ما احرزه من نجاح وما صار له من المكانة والسلطان عند الناس فاحتال عليه حتى قتله . ولما بلغ حورس أشده أقسم لينتقمن لابيه من ست . فناصبهُ العداء وكانت الحرب بينهما سجالاً ومن حوادثها تلك المعركة التي يصفها التقويم. ففي أثنائها تدخلت ايزيس وهي ام حورس واخت ست وتداخلت بينهما لمهادنة فحنق عليها ابنها القاتل وفي ثورة غضبه ضربها ضربة اطاحت رأسها فكان من ذلك تشاؤم الاقدمين من هذا اليوم . ولا يزال لهذا التشاؤم ظلهُ يخيم على الشهر كله إلى الآن

يتلخص الآن من هذه الدراسة ان الحيوانات المقدسة تنقسم من حيث الفكرة في تقديسها الى نوعين : الاول — ما يرجع تقديسه الى التفاؤل ويشمل هذا النوع ما يعرف بالطوطم وهو عند الامم التي على الفطرة ذات مقدسة من الحيوان او النبات ومن هذا القبيل عند قدمائنا الايبس . ولا يزال التفاؤل عند الناس شأن عظيم فكم من امرىءٍ يتفاءل بحجر او حلية لا يدعك يحملها كما خرج في شأن من شئونه فاذا سها عنها مرة انقبضت نفسه وتوقع السوء من التشاؤم

والنوع الثاني الحيوانات التي يرمز بها الى صفة من صفات المعبود او معنى يستفاد من أخباره. ويشمل هذا النوع سائر الرموز في الديانات القديمة وسأزيد هذا الموضوع بياناً في المقال الثاني

زهرة

« الى التي تعطر طريقي كل صباح »

ابسمي للصباحْ فهو معنى السماحْ
وازدهي بالفواحْ فهو رَوْحٌ وراحْ
للهوى والمِراحْ

***

عطّري لي الطريقْ بالشذى والرحيقْ
ان قلبي الطليقْ مدمنٌ لا يفيقْ
تحت سحر الاقاحْ

***

أي روض نماكْ أي نبع رواكْ
أي أرضٍ حباكْ نفحةً من شذاكْ
أطلقت لي السراحْ

***

ان قَوْحَ الصدور مثل نوح الطيور
قد نشرتُ الشعور فانثري في العبير
في هدوء الصباح
وازدهي بالفواح
فهو روحٌ وراح
للهوى والمِراح

حسن كامل الصيرفي

الانتخاب الطبيعي

واصلاح النسل

للدكتور شريف عسيران

إن أول من استنبط نظرية الانتخاب الطبيعي وجعلها عاملاً من عوامل تنوع الاحياء ورقيها وتغلبها على غيرها واستمرارها بقوة تنازع البقاء هو العلامة الاشهر داروين مؤلف كتاب «أصل الانواع» وغيره من المؤلفات النفيسة في التاريخ الطبيعي. وقد بين ان الكائنات الحية من أصل واحد تنوعت بعامل الانتخاب الطبيعي وعرّف الانتخاب الطبيعي بأنهُ حفظ التباينات النافعة ونبذ الضارة [1] وقال اذا حصل التباين فمن المؤكد ان يتغلب الافراد الذين يشملهم هذا التباين على غيرهم بعامل تنازع البقاء وتنتقل صفاتهم بحسب ناموس الوراثة الى نسلهم وعزا عدم زيادة النسل وازدحام السكان الى صعوبة الحصول على الغذاء اللازم وتغلب الاعداء وتأثير المناخ [2] وزعم انها من العوامل التي تعيق تكاثر النسل. فالاحياء التي تتغلب على هذه العوامل تنتشر اكثر من غيرها وتخلد نفسها والعكس بالعكس. وتتضمن نظرية الانتخاب الطبيعي ثلاثة أمور:

(١) حصول التباينات الوراثية (٢) تنازع البقاء (٣) بقاء الانسب

وقد حصل تغير كبير في هذه النظرية بدّل أوضاعها فلم يعد الانتخاب الطبيعي العامل الوحيد في اخراج الانواع الجديدة وليست قلة الغذاء سبباً في تقليل النسل وتنازع البقاء [3] وليس بقاء الانسب هو بقاء الاصلح ولا نخوض هذه الموضوعات الزاخرة بل نقتصر منها على ماله علاقة بموضوعنا

يظن البعض ان نظرية الانتخاب الطبيعي انهارت وان تأثيرها اضمحل وقد تمكن البشر من التغلب على محيطهم فتلاشى كثير من الامراض التي كانت تفتك بهم فتكاً ذريعاً كالهيضة والطاعون والجدري والبرداء والدودة الشصية وغيرها ونقص غيرها نقصاً بيناً كالتيفوئيد والسل

---

(١) أصل الانواع : 72 Origin of Species p.

(٢) أصل الانواع : 100 « «

(٣) سنتبسط في تفنيد هذه النظرية في مقالنا الآتي تحديد النسل ومشكلة السكان

الرئوي والزحير وغيرها وغيرها. وقد تلاشى كثير من هذه الامراض في بعض الاقطار التي تعني بالشؤون الصحية الاعتناء اللازم. ويمكن الانسان أيضاً ان يعيش في مختلف الاقاليم بفضل التدابير الصحية والمستنبطات العصرية كالتدفئة والتبريد وتحسين المناخ وغيرها من الوسائل المعلومة التي تغلب بها الانسان على الطبيعة لحدٍّ ما. وقد استطاع ان يطيل حياة ملايين البشر الذين كان لهم نصيب الموت المحتم كالمسلولين والمصابين بداء الكساح ونقص مفرزات الغدد الصم والسكري والزلال وغير ذلك من العلل والامراض. ورغماً عن هذا النصر المبين لا تزال هناك علل وراثية لم يستطع التغلب عليها. فالمصابون بنزف الدم الوراثي Haemophilia أكثر تعرضاً للموت وأقصر عمراً من غيرهم. وقد ظهر من احصاء ٣٧ وفاة من عائلة مامبل الاميركية ان ١٧ منها ناشئة عن هذا الداء. وضحايا المصابين بالصرع والجنون والبله وغيرها من الامراض العقلية أكثر من ان تعدو وهي عامل كبير في قصر عمر المصابين بها. وقد أحصى Bar ٦٢٥ وفاة من المصابين بالنقص العقلي فوجد أن أكبر عدد يموت بين سن ١٠ — ٢٠ ووجد كلارك وستول أن المتوفين من ناقصي العقول في مستشفيات مدينة نيويورك ومدارسها ضعف وفيات الاولاد الاصحاء. وكثرة وفيات اسرتي [١] Jupes & Kallipops من الامور المعروفة في تاريخ هاتين الاسرتين

ان كثرة وفيات الاطفال ملازمة على الاغلب للفقر والجهل والانحطاط العقلي. وقد درس الدكتور Stevenson وفيات انكلترا وويلز بالقياس الى المهن فوجد ارتفاعها وانخفاضها تابعين لارتفاع وانخفاض المهنة فكلما كانت المهنة رفيعة كان معدل الوفيات اقل والعكس بالعكس. وقد وضع جدولاً بذلك لا نرى حاجة الى إثباته

***

هذه ادلة قوية تثبت أن الانتخاب الطبيعي لا يزال مستمراً بعمله لدرجة ما. ومن رأي الدكتور هولمز ان الانتخاب الطبيعي زاد بتقدم المدنية عوضاً عن ان ينقص [٢]. ولنأخذ البغاء مثالاً لتأثير الانتخاب الطبيعي وعلاقة ارتفاع الوفاة بوضاعة المهنة. أن البغي معرضة للامراض الزهرية وفيها ضعف لمقاومة المشروبات الكحولية وهي مفرطة بصحتها بحكم عملها فتسهر كثيراً وتأكل في أوقات غير منتظمة وتتعرض لمختلف الامراض السارية غير الزهرية كالسل الرئوي وغيره. فجميع هذه العوامل تؤول الى قصر عمرها. ولكن ضريبة الموت الكبرى تقع على نسل

---

(١) هما اسرتان اميركيتان يضرب بها المثل في الانحطاط العقلي الناشيء عن الوراثة

(٢) The Eugenic Predicament p. 107-8

هذه الفئة وهناك عاملان رئيسيان يمنعان تناسل هذه الصنف الاول ارادي فالبغايا يتعمدن منع النسل بطرق مختلفة والثاني عامل اجباري ناشيء عن اصابتهنَّ بالامراض الزهرية التي تصيب الاكثرية الساحقة منهنَّ كالسيلان الذي يسبب العقم والزهري الخلقي الذي يسبب موت أولادهنَّ عاجلاً او آجلاً . ولولا هذه الظروف الملازمة لمهنتهنَّ لكنَّ أخصب الانواع انتاجاً . ويروعنا ان نعلم ان البغاء من صالح تحسين النسل. فقد ثبت ان حاصل ذكاء البغايا واطيء وظهر من تقرير اللجنة التي نيط بها البحث عن المتاجرة بالرقيق الابيض في ماستشوستس ان ٥١ من بين ٣٠٠ بغي مرسوهنَّ ضعيفات العقل وذكاء الباقي دون المعدل المطلوب . ويظهر من تقارير Boufaffer عن ٣٠٠ بغي في سجن برسلون ثلثيها كنَّ ناقصات العقل وتوصل غيره الى نفس الملاحظات . وربما اختلفت الآراء فيهنَّ فان نسل مثل هؤلاء غير مرغوب فيه

ومن رأي الدكتور فرتز لنز في كتابه الوراثة البشرية ان للامراض الزهرية تأثيراً حسناً وسيئاً فهي من وجهة تخلص النسل من ضعاف العقول والمجانين وغيرها من الامراض المتولدة من الزهري وتبقي أقوياء الارادة والاذكياء وتحدث عقماً في ضعاف الارادة الذين يستسلمون لشهواتهم ومن وجهة أخرى تفسد النسل بما تحدثه فيه من العاهات[1]

وجد العلماء ان طول العمر وقصره وراثيان لدرجة ما فقد أحصى الكسندر بل مكتشف التلفون عدة أسر في اميركا فوجد طول العمر وقصره وراثيين فيها فكلما طال عمر الآباء كان عمر الابناء طويلاً والعكس بالعكس . وأحصى Plaetz عدة أسر ملكية وهي كما نعلم ممن يتيسر لافرادها المحيط الملائم للحياة وتوصل الى نفس النتيجة كغيره وأثبت ذلك بالارقام الناطقة[2]

يرث المرء في كثير من الامراض استعداداً وراثياً كالسل والكساح وغيرها ويرث ضعفاً في مناعته ايضاً بحسب رأي Davenport يعرضه لانواع الامراض السارية اكثر من غيره فهذه العوامل تساعد في تنقية النسل بالانتخاب الطبيعي لان الفئة التي فيها استعداد وراثي للامراض معرضة للتلف اكثر من غيرها . ثم ان في بعض اصناف البشر استعداداً لانواع المناخ اكثر من غيرهم فالسود يستطيعون مقاومة المناخ الحار اكثر من البيض والبيض المناخ البارد اكثر من السود وهلمَّ جراً

فالانتخاب الطبيعي لا يزال يؤثر تأثيراً محسوساً في اصلاح النسل

(١) The Eugenic Predicament p. 114

(٢) Applied Eugenics p. 88,9

العلوم المبسَّطة[1]

العطور والغازات

استخراجها من قطران الفحم

واستعمال الغازات الحربية إبان السلام

١ — العطور الزكية

اذا زعمت لكم ان عطر البنفسج الزكي ، الذي تبتاعونهُ في قوارير فخمة ، بثمن غالٍ ، مستخرج من قطران الفحم الحجري ، فقد تحملون قولي على محمل المبالغة . ولكنهُ قول لا مبالغة فيهِ . لان العلم الحديث قد كشف الطريق ، الى استخراج الاصباغ الزاهية ، والعطور الزكية ، من قطران الفحم . وهذا من عجائب العلم والصناعة في هذا العصر

وقبل ان أقصَّ عليكم قصة العطور الزكية وكيف تستخرج من أزهار النبات وأوراقهِ وعيدانهِ ولحائهِ ، وكيف جاء الكيمياوي ينافسها ، فاستغنى في كثير منها عن مملكة النبات قاطبة ، وصار يستخرج العطور من قطران الفحم ، بل كيف بذَّ العطور الطبيعية بعطورهِ الصناعية وزاد أصنافها ، أريد ان اشير في صدر الكلام ، الى ان الانسان في العهد الماضي من حضارته ، كان يعتمد على الطبيعة ، في استخراج ما يحتاج اليهِ . نعم كان في مكنتهِ قبلاً ، ان يختار ، مفضلاً هذا الزهر على ذاك ، او خشب هذه الشجرة على خشب تلك ، ولكنهُ كان عاجزاً عن الابداع . فكان اذا طلب السكر ، أرسل الى حيث يكثر زرع قصب السكر في جزائر الهند الغربية . واذا طلب الافاويه بعث في سبيلها المراكب الى جزائر الهند الشرقية . واذا احتاج الى النيلة أتى بها من الهند ، واذا وجب عليهِ استعمال السماد استوردهُ من شيلي ، او المطاط بذل شجر المطاط في الكنغو او مالايا وأخذ لبنهُ . كذلك كان اذا طلب عطر الورد ، أتى بهِ من وادي المريج في تركيا ، وهي احدى المناطق التي يزرع هذا الورد ويستقطر . فالانسان كان في العصر الماضي ، الممتد الى أقدم العصور ، غير مسيطر على بيئتهِ

---

(١) من الاحاديث اللاسلكية التي يذيعها رئيس تحرير المقتطف من محطة مصر الحكومية

ولكنهُ ما كاد يكبُّ على دراسة العلوم الطبيعية ، حتى أخذ يتبين قواعدها واصولها رويداً رويداً ، فنفذ الى أسرار التركيب والبناء ، وخاصة بعد كشف أصول الكيمياء ونواميسها الاساسية فصار في مكنتهِ الآن ان يصنع النيلة والسكر وعطر الورد من قطران الفحم الحجري ، من دون ان يلجأ او يحتاج الى نبات النيلة في الهند او قصب السكر في كوبا او حدائق الورد في تركيا . كذلك استطاع ان يصنع من الهواء والامونيا سماداً جيداً فاستغنى عن سماد شيلي الطبيعي ، وقد توصل اخيراً الى صنع نوع لا بأس بهِ من المطاط من غازٍ لا اكثر ولا اقلّ

***

نعود الآن الى حديث العطور الطبيعية والصناعية ، وهو من أفكه الاحاديث العلمية وألذّها لانهُ في ناحيتهِ الطبيعية ، حديث المروج والحدائق ، فيها الازهار على اختلافها منوّعة الالوان زاهيتها ، يخيّم عليها جوٌّ عبق بعطرها الزكي ، فهو حديث الطبيعة على أجملها وأزكاها . ثم هو في ناحيتهِ الصناعية ، حديث العبقرية والابداع ، يبعث في النفس نشوةً ناشئة عن الشعور بالقوة والسيطرة والمقدرة على مباراة الطبيعة ومنافستها في ابداعها

***

لا يخفى عليكم ان حاسّة الشمّ لم ترتقِ بارتقاء الانسان . بل على الضد من ذلك أنها ضعفت ، فكأنها كانت لازمة في البداوة وقبل البداوة ، فعادت غير لازمة في الحضارة . فالكلب يميّز بين الصديق والعدوّ بالشم ، ويستطيع ان يقفو اثر انسانٍ اذا شمَّ رائحة ملابسه . ولذلك يستعملهُ رجال الشرطة في احوال كثيرة في اقتفاء آثار المجرمين ، او في اقتفاء آثار الذين اختفوا نتيجة لعملٍ اجرامي . وهو عمل كثيراً ما نراهُ على لوحة السينما ونقرأ حوادثه في الصحف

اما الانسان فقد فقد دقة حاسّة الشمّ او كاد . ثم انهُ يستطيع ان يميّز الروائح الطيبة من الروائح الكريهة . ولكن اللغة نفسها اقوى دليل على ضعف هذه الحاسة فيهِ . فليس يحتاج احد ، الى بلاغة نادرة لكي يصف جسماً من الاجسام ، او شيئاً من الاشياء ، وصفاً يمكّنك من معرفتهِ اذا رأيتهُ . فالأميُّ يستطيع ان يصف حيواناً غريباً رآهُ بالفاظٍ تمكّنك من معرفة ذلك الحيوان اذا رأيتهُ أنت . فينبئك بلونهِ وحجمهِ وشكلهِ وما يمتاز بهِ من ذيلٍ او قرون او أنياب او فراء او اذنين عريضتين او ما اشبه . فاذا رأيتهُ قلت في نفسك ، هذا هو الحيوان الذي وصفهُ فلان . ولكن ذلك متعذّر في وصف الروائح . حاول انت ايها البليغ ، ان تصف رائحة معينة ، ولنقل انها رائحة الورد ، من دون ان تستعمل لفظ الورد في وصفها ، بطريقة تمكّن صاحبك من معرفة الرائحة التي تقصدها . ان اللغة في الغالب تقصر دون مرامك ، ولو كنت من البلغاء

العطور محلولات من زيوت معينة او مواد عطرة ، في كحول (سبيرتو) مختلف . أما عطر

القدماء فكانت المواد العطرة نفسها غير محلولة في كحول او مادة أخرى

فالزيوت العطرة تستخرج من مصادر نباتية من الازهار او الاوراق او السوق او الجذور او اللحاء (قشرة السوق والعيدان) بأساليب دقيقة كل الدقة . وقد عرفت بالزيوت لانها في الغالب مواد دهنية او زيتية ، أخف من الماء وتطفو على سطحه من دون ان تمزج به . وهي تشبه زيت الزيتون وزيت بزر الكتّان ، في انها تحدث بقعة دهنية اذا وضعت على الورق ، ولكن بقعة زيت الزيتون تبقى هناك ، وأما بقعة الزيت العطري ، فلا تبقى ، لانها في الغالب زيوت طيارة أي سريعة التبخر

فعطر الياسمين والنارنج والورد والبنفسج (الكلام هنا على العطر الطبيعي) يستخرج من أزهار هذه النباتات . وعطر الخزامى والنعناع يؤخذ من الازهار والاوراق . وعطر الصندل يؤخذ من الخشب . وهناك عطر يعرف بعطر حشيشة الملك يستخرج من الجذور . وعطر البرجموت والليمون والبرتقال يؤخذ من الازهار والاوراق والأثمار. وعطر اللوز المر واليانسون وجوز الطيب يؤخذ من البزور وعطر البلسم المعروف ببلسم بيرو يؤخذ من الصمغ

وهناك عطور أخرى مصدرها يرتد الى الحيوان . فتعرف بالطيوب . وهي أغلى العطور عامة وأندرها . فالعنبر يستخرج من حيوان بحري ، وهو من قذف الحيتان المريضة . والمسك يستخرج من أحد الايائل وقد أشار المتنبي في مدح أحد الامراء الى ذلك بقوله

فان تفق الانام وانت منهم فان المسك بعض دم الغزالِ

والزباد طيب نادر يستخرج من حيوان يعرف باسم سنور الزباد . ومن بواعث الاسف ان أيائل المسك وسنانير الزباد تكاد تنقرض لجدّ الناس في صيدها طلباً لطيبها

***

أن الاساليب المستعملة لاستخراج العطور من مصادرها فبعضها قديم كالتقطير والنقع ، في الادهان والكحول ، وبعضها حديث كاستعمال بخار البترول . ومن النادر ان يكتفى باستعمال طريقة واحدة في استخراج العطر من نوع واحد من الزهر او الخشب بل يستعمل أكثر من أسلوب واحد حتى يثبت ان كل العطر تمّ استخراجهُ

ففي طريقة التقطير، توضع الازهار في انبيق كبير، وتغمر بالماء ، ثم يبدأ عمل التقطير المعروف المستعمل في تقطير ماء الزهر من زهر النارنج او ماء الورد من زهر الورد . أما طريقة النقع في المواد الدهنية ، فيعمد فيها الى وضع الازهار فيها ، حتى تهرأ وتصير كالروّخ (المرهم) والغالب أن يوضع عدد معين من الازهار في دهن نقي او زيت زيتون نقي ، ثم يوضع الاناء في اناء آخر فيه ماء مغليّ ، وبعد وقت معين تخرج الازهار ويوضع غيرها مكانها ، حتى يتشبع

الدهن او الزيت بعطرها . ثم تمرث الازهار ، التي نقعت وتضغط في مكابس مائية حتى يعصر منها كل ما تبقى فيها من العطر . ويؤخذ المروّخ ويغسل مراراً بالكحول فيذيب الكحول العطر الذي فيه ويمتصه فيصبح بعد التصفية والتبريد ، خلاصة من عطر الزهر المستعمل

او قد تستخرج المادة العطرية باستعمال بخار البترول النقي . وهو من أحدث الاساليب ومن أفضلها وطريقته ان تمرث الازهار اولاً ، فتتمزق الغدد الدهنية التي تحتوي على المادة العطرية ، وتتصل هذه المادة ببخار البترول . وتبقى الازهار الممروثة على هذه الحالة ٤٨ ساعة . ثم يبرد البخار ويستقطر فتبقى منه مادة شمعية ، ذات رائحة عطرة زكية ، ويعاد عمل الاستقطار مراراً فتصبح المادة الشمعية خلاصة العطر التي تباع في الاسواق . وقد رأيت ذلك في « جراس » البلدة المشهورة باستقطار العطور في جنوب فرنسا

هذه الاساليب مما يمكن استعماله في الازهار التي تستخرج رائحتها بسهولة ، اذا مرثت . ولا تزول رائحتها اذا مضى عليها وقت طويل بعد قطفها . ولكن ما كان من الازهار كالياسمين والزنبق ، لا يستخرج عطره الا بالحيلة لأن مقدار العطر قليل — ولا يستخرج من طن من الزهر الا اوقية او اوقيتان من العطر — فلا يصلح التقطير لاستخراجه . ولا يستخرج بالنقع ولا ببخار البترول لانهما يتلفان الازهار . لذلك يستخرج عطرها باستعمال الدهن البارد . وآية ذلك ان الازهار الغضة توضع في اطباق مبطنة بالدهن . وتقام هذه الاطباق بعضها فوق بعض وتبدل الازهار الذاوية بغيرها مرة كل ٤٨ ساعة ، وكذلك يمتص هذا الدهن عطر الزهر الفائح فيصبح كالمروّخ في الطرق السابقة ويعالج كما تعالج لاستخراج العطر منه

***

ولا يخفى ان خلاصات العطور المركزة لا تباع الا لصناع العطور التجارية . ويختلف سعر الاوقية من جنيه الى عشرات الجنيهات ، وذلك بحسب الصعوبة التي تعانى في استخراج العطر ، ومقدار الزهر الذي ينفق في الاستخراج . وصناع العطور يمزجونها ثم يحلونها في الكحول ويبيعونها في قوارير أنيقة مختلفة الاشكال والالوان بأسعار غالية . والغالب ان لا يحتوي المحلول اكثر من ١٠ في المائة عطراً و ٩٠ في المائة كحولاً

وسرّ صناعة العطور هو مزج الخلاصات الزيتية بعضها ببعض عند حلّها وبيعها . وهذا المزج فنٌّ دقيق ، توارثت سرّهُ بعض الاسر القديمة التي اشتهرت بهذه الصناعة . فاو الكركلونيا الالماني ، لا يباح سرُّ صناعتهِ ، حتى للعلماء . وكان الكيماوي الالماني [illegible] قد صنع للعطور سلماً كالسلّم الموسيقي ، جعل في أسفلهِ العطور الشرقية القديمة ، مثل عطر خشب الصندل ، وفي أعلاهُ العطور الطيارة الخفيفة ، مثل عطر الهليوتروب . فالخبير يستطيع ان يمزج بين درجات

هذا السلم العطري، كما يمزج الموسيقي بين درجات السلم الموسيقي ، فيخرج الاول عطوراً زكية ، كما يخرج الثاني أنغاماً متآلفة شجية . فاذا كان غير خبير في الحالين ، كانت النتيجة عطوراً متنافرة الاجزاء تؤذي حاسة الشم ، وأنغاماً غير متسقة تؤذي حاسة السمع . والخبراء في معامل العطور الذي يشمّون العطور المركبة ، ويحكمون لها او عليها ، يتناولون مرتبات ضخمة

***

هذا شيء عن العطور الطبيعية واستخراجها والتأليف بينها . وقد نظر الكيمياوي الى ميدان العطور فرآه مجالاً واسعاً للابداع والكسب . رأى مثلاً عطر البنفسج . فهو من اندر العطور وأغلاها ثمناً . فأنت اذا زرعت فداناً كاملاً بزهر البنفسج لم تستطع ان تستخرج من أزهاره الاّ بضع قطرات من العطر الزيتي البنفسجي المصفى . ومن أشق الامور حفظه لانه طيار سريع التبخر . فلما حلّل الكيمياوي هذا الزيت وجد ان عنصره الاساسي مادة تدعى «أيرونون» فلما استفردت هذه المادة نقية من الشوائب ، ظهر انها تبلغ من قوة الرائحة ما يشلّ عصب الشمّ ، فلا يستطيع الانسان ان يحسّ رائحة ما لها . فعمد الكيماوي الى محاولة تركيبها تركيباً صناعيًّا في المعمل ، من دون ان يعمد الى زهر البنفسج على الاطلاق ، بل اعتمد على بعض المواد المستخرجة من قطران الفحم الحجري . فأفلح في ما حاول . فأصبحت العطور المحتوية على رائحة البنفسج رخيصة الثمن الآن بفضله . حتى ليتعذر على أحدٍ الآن في الغالب ان يبتاع عطر البنفسجي الطبيعي . لان العطر الطبيعي لا يستطيع ان ينافس العطر الصناعي ، فلا يصنع الاّ في النادر لانه لا يفي بنفقته، وما يصنع منه تمزج منه مقادير صغيرة جدًّا بالعطر الصناعي

وما تمّ للكيمياوي في عطر البنفسج تمّ له مثله في عطور وطيوب مختلفة مثل عطر الورد وعطر الليمون والمسك وغيرها بل ان بعض الازهار كان مما يتعذر استخراج عطر منه بأحد الاساليب المعروفة مثل زهر « زنبق الوادي » و « الليلج » فصنع الكيمياويون عطوراً صناعية لها نفحة العطر الطبيعي

ولعلّ أعظم انتصار أحرزته الكيمياء في ميدان العطور كان في صنع عطر المسك بالتركيب الكيمياوي . فالمسك أهم مادة في صناعة العطور لانه مثبت للعطور موحّد لها . فاذا مزج خبير عطوراً مختلفة بعضها ببعض كان لا بدّ من استعمال المسك لكي يوحدها ويثبتها وينشىء منها عطراً واحداً منسجماً لا تنافر بين اجزائه . وقد بلغ من اشتداد الطلب على المسك الطبيعي المستخرج من غدد غزال المسك التبتي (نسبة الى بلاد تبت) ان كاد هذا الحيوان ينقرض حتى بلغ ثمن الرطل من المسك غير النقي ١١٢ جنيهاً والنقي الخالص من الشوائب ثمانية آلاف جنيه . فعمد الكيمياوي الى التركيب فتمّ له ما أراد

٢ — الغازات الحربية واستعمالها
في ابان السلام

أما وحديث الحرب يشغل كل ذهن ، فان موضوع الغازات السامة وما اليها يفوق سائر الاحاديث العلمية في استيقافه للنظر واسترعائه للعناية . وبوجه خاص ما يقال عن بناء الاقبية التي لا تخترقها الغازات ، وصنع الكمامات التي تقي منها ، وتمرين الناس وتعويدهم استعمالها ، حتى اذا نشبت حرب ، وأمطرت الطائرات المدن بقنابل الغاز ، عرف الناس كيف يدرأون اخطارها بعض الشيء

ولكن حديثي الليلة لا يتناول هذا الموضوع من ناحيته الحربية ، بل من ناحيته السلمية . وقد يكون أول سؤال يخطر لكل منكم ، هل ثمة فائدة للغازات السامة والخانقة في ابان السلام . والجواب عن هذا السؤال بالايجاب لا ريب فيه . ولكنني بدلاً من أن أروي لكم طريقة استعمالها ، بوصف خواصها وتركيبها ، سأروي لكم بعض حوادث استعملت فيها هذه الغازات ، تتبينون منها مدى فائدتها ولا يفوتكم في خلال الحديث متعة القصة ورواؤها

فالحادثة الاولى حدثت في بنك . وهي حادثة طراز . أي انها حادثة تمثل مئات الحوادث التي تقع في أميركا . ففي أحد الايام ، هجم فريق من الاشقياء على بنك في مدينة في احدى الولايات الاميركية . ولم يكن الهجوم هجوماً بالمعنى المألوف من ضجة وصياح بصحبانه . بل ان فريقاً من الاشقياء وقف، على ما تشاهدون أحياناً في الصور المتحركة ، امام بنك ونزل منهم رجلان وبقي اثنان في السيارة ينتظران . ودخل الرجلان ساحة البنك ووقفا أمام الصراف وهو يعد ربطة كبيرة من النقود الورق ، فالتفت اليهما وقال في بساطة هل لكما خدمة ; فصبا في وجهه وأبرزا أفواه مسدساتهما وأمراه بأن يتخلى عما أمامه من المال ، فما كان منه الا ان ضغط برجله على زر صغير تحت منصته ، فلم يحدث ضغطه هذا صوتاً ولا صياحاً ولا صفيراً ، كما تحدث الاجراس المنبهة ، ولكن ما لبث ثواني حتى ظهرت في جو الغرفة غمامة من دخان قاتم فسعل الشقيان سعالاً شديداً وأغرورقت عيونهما بالدموع ، فألقيا حينئذ بمسدساتهما صاغرين وأخذا يمسحان عراتهما وهما يسعلان ، ولما حاولا الفرار تسكعا في الطريق فما كادا يبلغان الباب حتى كان رجال البوليس قد وصلوا والقوا القبض عليهما . فلما افاقا بعد نصف ساعة مما عراهما ، كان كلُّ ما يشعران به ألماً طفيفاً في عيونهما [١]

---

(١) يعرف هذا الغاز بغاز الدمع وقد يكون مادة « بروم استيون » او « زيليلبرميد » وهو يهيج أغشية العين فتذرف الدمع ويحدث العطاس فاذا استعمل مخففاً كان تأثيره مؤقتاً واذا استعمل قوياً أحدث عسراً في التنفس وسعالاً تشنجياً والتهاباً في الشعب الرئوية

فالفوز على هؤلاء اللصوص نتيجة مباشرة لاستعمال الغازات التي تعدّ للحرب ، في قضاء اوطار الطمأنينة والسلام

وقد شرع اصحاب البنوك وحوانيت الجوهريين الكبيرة في اميركا يركبون المعدّات اللازمة لاستعمال هذا الغاز او ما كان من قبيله لدرء خطر اللصوص . وتبثّ الانابيب التي تنطلق منها هذه الغازات في الجدران ، ولكن مركبيها يتفننون اخفاءها ، فلا يمكن ان يتبينها المجرم ولو كان خبيراً ، لان اخفاءها في البنك الواحد يختلف عن اخفائها في البنك الآخر

***

ومن هذه الغازات غاز يثير العطاس وقد استنبط في خلال الحرب العالمية ، وهو اذا استعملت منهُ مقادير يسيرة لا يسبب ضرراً ما . ومن فوائد هذا الغاز في اميركا ان الشركات التي توزع الغاز الصناعي المستعمل وقوداً في الحمامات عندنا مثلاً ، شرعت تضيف الى كل الف قدم مكعبة من غاز الوقود مقداراً يسيراً من الغاز الذي يثير العطاس . ولا يخفى انهُ اذا ترك انبوب غاز الوقود مفتوحاً في غرفة مقفلة ، كغرفة الحمام ، او حجرة المطبخ أفضى ذلك الى استنشاقه ، وهو سام في انهُ يمنع الاكسجين عن الرئتين فيموت من يستنشقهُ اختناقاً اذا لم يكشف في الحال ويُمدّ بالاسعافات اللازمة

فوجود الغاز المثير للعطاس في غاز الوقود ، ينبّه النائم في غرفة فتحت فيها انبوبة الغاز ، او ينبه السيدة التي تطبخ ولكنها تترك انبوبة غاز في موقدها مفتوحة من دون ان تنتبه ، لان الغاز المثير للعطاس يحمل الرجل النائم ، والسيدة المهتمة بطبخها على العطاس عطاساً شديداً ، فيتنبهان للخطر المحدق بهما ، فيفتحان النوافذ اولاً للتهوية ويبحثان ثانية عن حنفيات الغاز المفتوحة فيقفلانها

وثمة بين الحيوانات حيوان يدعى بالظربان . وهو كريه الرائحة . وقد عمدت بعض شركات الغاز الى صنع غاز كريه الرائحة جدًّا ، وبثّت مقادير يسيرة منه في الغاز المستعمل للوقود . فاذا شمت سيدة في مطابخها هذه الرائحة الكريهة ، عرفت ان احدى حنفيات الغاز تنضح بالغاز فتعمل كل ما يجب ان تعمله لدرء الخطر . ولذلك سمي هذا الغاز بالظرباني اي الكريه الرائحة ومن عجائبه انهُ اذا احرق الغاز في موقد المطبخ او في موقد الحمام فقد الرائحة الكريهة التي يتصف بها . فانتشار الرائحة الكريهة لا يكون الاَّ اذا كان هناك خطر

ولا يخفى ان هناك بعض ضعاف النفوس يعمدون في أثناء ثورة نفسية الى الانتحار باقفال حجرة واطلاق الغاز فيها بفتح حنفياته . فالغاز الذي يحتوي على هذا الغاز الكريه الرائحة يؤثر في انوفهم ، قبل ان يؤثر الغاز في رئاتهم ، فيعجزون في الغالب عن الصبر على رائحته الكريهة

فيقفلون الحنفية ويفتحون النوافذ وينجون كذلك من الموت . وقد تكون هذه النجاة رادعاً لهم في المستقبل عن الاستسلام للضعف والتذرع بالشجاعة والعزيمة في مواجهة مشكلات الحياة

***

وقد تذكرون ان هناك غازاً يدعى غاز الخردل[1] .وهو من أفتك الغازات لانهُ يحرق رئتي من يستنشقهُ بتجفيفهما . وقد استنبط واستعمل في الحرب الكبرى . ولكنَّ لهذا الغاز استعمالاً في وقت السلام يفيد الزراعة والزراع .ومن آيات استعماله ، ما روي عن حادثة غريبة في أميركا ، ان موجة من الارانب ، اكتسحت منطقة من المناطق فالتهمت أخضرها وعاثت فيها وعجز رجالها عن مقاومتها لكثرتها ولسرعة توليدها ، فعمدوا الى المصلحة الحكومية الخاصة بمقاومة آفات الزراعة ، فاستعمل غاز الخردل الفتَّاك برشّهِ في الحقول برشات خاصة . وقد تمَّ الرش باشراف الخبراء الحكوميين . وما سقط الغاز على الارض حتى تحول قطرات صغيرة كقطرات الندى وجاءت طوائف الارانب تسير في الطرق التي طرقتها قبلاً — وكان الغاز قد رُشَّ فيها — فلمقت هذه القطرات بقوائمها فلعقتها بألسنتها ، فهلكت ، وكذلك تغلب رجال العلم بغاز حربي على آفة زراعية فتَّاكة وأنقذوا للزراع ما ثمنهُ مبالغ طائلة من المال

ومن الغازات التي استعملت في الحرب العامة للفتك غاز الهيدروسيانيك وهو غاز سام مركب من الهيدروجين والكربون والنتروجين . وقد رأى الكماويون ان يستفيدوا من استعماله في ابان السلم ، في ابادة الفئران والجرذان وما يعلق بفرائها من البراغيث الناقلة للطاعون وحمى التيفوس وقد نجحوا في ذلك

ولكن من خصائص هذا الغاز ، انك لا تستطيع ان تستدل عليهِ برائحة او لون أو أثر خاص في الانسان . وكذلك يتعرض البحارة للموت بهِ عند استعماله لتطهير السفن الداخلة الى المرافىء من الفئران وما يعلق بها من البراغيث. وفعلاً مات بهِ غير واحد من البحارة على هذا النحو

فما السبيل الى منع هذا الخطر على حياة البحارة ، من دون ان ينتقص فعله كبيد لحملة الطاعون والتيفوس. كل ما تمَّ في هذا الصدد ، ان الغاز الهيدروسيانيك القتال مزج بقليل من غاز الدمع ثم جرب المزيج ، فكان الغاز الاول يفتك بهذه الحيوانات ، والغاز المثير للدموع ينبه على وجوده فيتقي مستعمله شره

---

(١) غاز شفاف يذوب في الكحول والماء وينحل انحلالاً متدرجاً في مقادير كبيرة من الماء له رائحة مثل رائحة الخردل الحقيقة او البصل . وهو بطيء الفعل ولكن شديده لا يؤثر في المرء على الفور فلا يحس من يتعرض له بحكة او حرق في جلده الا انه يتخلل الجلد في خلال ثلث ساعة فتظهر بعد حين لا تلبث ان تتخذ شكل التفاطات الناشئة عن الحرق بالنار . واذا استنشق المرء ١٢ مليغراماً منه في الدقيقة افضى ذلك الى تلف الرئتين. وتتأثر العينان فتتقيحان وتتلف ملتحمتهما وقرنيتهما

وليس يخفى على حضراتكم ان غاز الكلور كان من أول الغازات السامة التي استعملت في الحرب الكبرى . وكان الالمان بادئين باستعماله . ثم جعل بعدئذٍ أساساً لمركبات غازية مختلفة سامة الفعل . والكلور غاز ثقيل أصفر اللون او ضارب الى الصفرة لهُ رائحة خانقة . فاذا استنشقت منهُ مقادير يسيرة أثر في أنساج الحلق والرئتين وشعابهما ، واذا استنشقت منهُ مقادير كبيرة كان سبباً للموت ، ولذلك استعمل في ميادين القتال لابادة الاعداء

على ان لغاز الكلور خواص أخرى مما يجعله من أفيد العناصر الصناعية . فهو من أقوى المطهرات اذا أضيف الى الماء قليل منهُ قتل ما فيهِ من المكروبات المرضية . واذا أضيف الى الماء الذي ترشُّ بهِ الشوارع قتل ما يكون فيها من الجراثيم كذلك

وقد اتيح لي من بضع سنوات ان ازور محطة شركة الماء بروض الفرج ، ورأيت فيها الاجهزة الدقيقة التي تخلط بالماء الذي نشربهُ كل يوم ، مقادير يسيرة معينة من غاز الكلور ، فتقضي على ما يكون باقياً فيهِ من المكروبات بعد ترشيحه بالمرشحات الاخرى . ومع ذلك لاتترك اي أثر كريهٍ في طعمهِ . وهذه الخاصة في غاز الكلور قد جعلت الاقبال عليهِ عظيماً جداً في تطهير مياه المدن الكبيرة في العالم . ففي اميركا الآن اكثر من ٣ آلاف مدينة تستعملهُ لتطهير مياه الشرب فيها . ومجموع سكان هذه المدن يزيد على خمسين مليوناً من الناس . فقلّت بعد استعمالهِ وفيات التيفود نحو ٧٠ في المائة عما كانت عليهِ قبل استعمالهِ . أما حيث لم يستعمل فلم تقل وفيات التيفود الاَّ عشرة في المائة فقط وهذه القلة ناجمة من استعمال وسائط الوقاية المختلفة

ويستعمل هذا الغاز كذلك في المدابغ فتزال بهِ روائح الجلود الخبيثة . وقد يضاف الى مجاري المدن قبل اطلاقها في نهر او على شاطئ بحر فتؤمن أخطارها، وخاصة على السواحل التي تستعمل أجوانها لاستحمام المستحمين . ولا يخلو أي مستشفى حديث من اسطوانة تحتوي على غاز الكلور مضغوطاً ضغطاً عالياً فيستعمل في تطهير الجروح . وتجرب التجارب الآن لاستعماله في حفظ اللحوم والاثمار بمنع الفساد من التطرُّق اليها

وهناك غازات أخرى تستعمل لمكافحة بعض الآفات الحشرية التي تصيب المزروعات او لوقاية دعائم أحواض السفن من نخر الديدان البحرية او برشّها من الجو لاطفاء الحرائق

وكذلك ترون ان العلم ينفح العالم بمواد جديدة يفضي اليها البحث فتستعمل لتقتيل الناس والفتك بالارواح من ناحية ولابادة الحشرات وتطهير المياه وعرقلة اعمال المجرمين من ناحية اخرى . فالعلم لا يتحمل اللوم في اساءة استعمالها وانما مرد ذلك الى اخلاق الناس وتربيتهم الروحية والاجتماعية

السرطان والمرأة

للدكتور فيليب الاشقر
كلية الطب بجامعة بيروت الاميركية

— ١ —

أقدم هذه الصفحات المختصرة إلى طبيب العائلة أولاً والى مرضاه من السيدات ثانياً

أما الطبيب الاختصاصي فله من اختباره وما يجده في المؤلفات المطولة وبطالعه في الجرائد الطبية ما يغنيه عمّا فيها من الحقائق الاولية والعامة . والقصد من تقديمها الى طبيب العائلة تذكيره بما هو معروف لديه وتوجيه نظره إلى كل مايتعلق بسرطان الرحم في أدواره الاولى كي يدقق في الفحص ويشجع النساء على مراجعته عند ظهور الاعراض الاولى في أعضائهن

وقد بذلت الجهد ان ابسط هذه الاوليات لكي يفهمها غير الاطباء من الناس فيزول الخوف المتسلط على بعض السيدات من هذا الداء موجهاً عنايتهنَّ الى أن النجاح في محاربة داء السرطان يتوقف عليهنَّ فالجانب الاكبر من هذه الاورام الخبيثة اذا عرف باكراً وعولج علاجاً تامًّا كان الشفاء منهُ تامًّا ولا يمكن أن يتعاون المريض والطبيب في شفاء علته ما لم يعلم المريض ولو بعض العلم شيئاً عن المرض وهذا ما حدا بي الى كتابة هذه الصفحات

— ٢ —

لممارسة الطب وجهتان فردية وعمومية. فمن الوجهة الفردية يقصد العليل طبيبه بشكو علة ما فيفحصه الطبيب ولا يترك وسيلة الاَّ ويستعملها ليصل الى معرفة اصل الداء وحل جميع أسراره ليتمكن من معالجته حسبما يقتضيه الفن وحسبما يوحي اليهِ ضميره واجتهاده

اما الوجهة العمومية فهي درس سبب المرض وطرق انتشاره واستعمال الوسائل الفعالة التي تمنع تفشيه.وفي كل حكومة من حكومات العالم دوائر تعنى بدقائق هذه الامور وبفضل هذه

المعرفة اصبح اكثر مدن العالم المتمدن خالياً من الاوبئة والامراض المعدية

والتعاون بين الطبيب الذي يمارس صناعته من الوجهة الفردية وادارة الصحة العامة ضروري جداً وبفضل هذا التعاون اصبح بعض الامراض نادر الوقوع والبعض الآخر منحصراً في نطاق لا يتعداه والشعب هو الذي يستفيد من هذا التعاون . وقد غدا للرأي العام قيمة كبرى في مكافحة الامراض وهذا حمل الدوائر الصحية المختصة على إثارة الرأي العام بما تنشره بين الناس من المعلومات عن الامراض وعن كيفية الوقاية منها

من الامراض التي يعالجها الطبيب بكثرة وتعنى بدراستها الاوساط العلمية والدوائر الحكومية في العالم اجمع درساً دقيقاً داء السرطان. وذلك لانه كثير الشيوع وعدد الوفيات به تعد كل سنة بالالوف. وهذا الداء لا يزال في منطقة الطبيب المعالج فدوائر الصحة العامة لا تعمل الا في تسهيل وسائل معالجته ومساعدة الاوساط العلمية مساعدة مادية وادبية للوصول الى حقيقة هذا المرض وسببه ووسائل تجنبه وطرق معالجته

وبفضل هذه الجهود قد توصل الخبراء الى حقائق كانت مجهولة مع ان سبب الداء لم يزل سراً من الاسرار

***

ومن هذه الحقائق أن السرطان اذا عرف في أوله وعولج علاجاً تاماً كان الشفاء منه أكيداً فمكافحة السرطان في الوقت الحاضر تنحصر في أمرين: الأول: أن يفحص الفرد فحصاً عاماً في فترات معينة . والثاني : أن يكون الطبيب ممن يقدر أن يشخص المرض باكراً. وهذا أمر عسير اذا كان السرطان في الأعضاء الداخلية. ولكن اذا أصاب الاعضاء الخارجية فتشخيصه في أدواره الاولى ليس امراً عسيراً . ومن الاعضاء التي تكثر اصابتها بالسرطان الرحم في النساء. ولما كان هذا العضو مما يسهل فحصه فحصاً دقيقاً كان في وسع الطبيب الخبير بالامراض النسائية أن يشخص الداء في بدئه ، هذا اذا جاءت اليه المصابة حال شعورها بتغيير في أعضائها

وحباً باثارة الرأي العام عن هذا الداء وحثاً على استشارة الطبيب عند ظهور الاعراض الاولى أقدم هذه الرسالة على أمل أن يتعاون الطبيب ومرضاه لمعرفة الداء في ابتدائه ومعالجته علاجاً أكيداً وبذلك ينقص عدد الوفيات بداء السرطان العضال

— ٣ —

﴿ ماهو السرطان ﴾ الجسم الانساني مجموع أعضاء مركبة من انسجة مختلفة وهذه مركبة من خلايا تختلف بعضها عن بعض باختلاف الانسجة ولهذه الخلايا أعمار تقوم في أثنائها بواجبها ثم

تموت ويعوض عنها بخلايا أخرى وذلك بفضل خاصة الانقسام التي تتعدد بواسطتها الخلايا ويتركب منها النسيج . وهذا الانقسام له قوانينه وأنظمته يسير دائماً بموجبها . غير أن بعض الخلايا في بعض الانساج ينقسم ويتكاثر خارج الحدود الطبيعية

وهذا الانقسام والتكاثر يولدان ورماً يعرف بالسرطان . فالسرطان إذن ، مرض في خلايا الجسم فتتكاثر الخلايا وتنمو نمواً غير سويّ فبسبب هذا التكاثر تسمماً عاماً في الجسم أو تترك الخلايا مقرها الاول وتجري في الاوعية الدموية أو الليمفاوية وتستقر في محل آخر حيث تتكاثر وتنمو وهذا ما يجعل الداء إذا لم يعالج في أول الامر صعب الشفاء أو مستحيله ويؤدي حتماً الى موت المصاب به . أما السبب الرئيسي الذي يحمل هذه الخلايا على أن تنمو وتتكاثر فلم يزل مجهولاً غير ان هناك في بعض الاعضاء أسباباً مهيئة تجعل وقوع السرطان فيها اكثر احتمالاً من سواها وهذه الاسباب هي التهيج بأنواعه في الانساج وقد يكون هذا التهيج التهابيًّا او كيماويًّا او رضيًّا . وأكثر الاعضاء عرضة لتأثير هذا التهيج ما كان منها بين نسيجين متقاربين — خلايا النسيج الواحد تتقارب شكلاً كلما قربت من خلايا النسيج الآخر كالغشاء المخاطي القريب من النسيج الجلدي كما في الشفتين ، وغشاء الرحم المخاطي حيث يتصل بغشاء المهبل المخاطي وغشاء المعدة المخاطي حيث يداني غشاء الاثنى عشري المخاطي وهلم جرًّا

***

﴿ معنى كلمة سرطان ﴾ أول من وصف هذا الداء طبيب يوناني وسماه سرطان لان الاوعية الدموية التي كانت منتشرة حول الورم الذي وصفهُ تشبه أطراف هذا الحيوان .وقد قبل أطباء الرومان هذه التسمية غير أنهم أعطوه الاسم الروماني لهذا الحيوان وهو السرطان. وهذا هو الاسم الذي يعرفهُ العامة ويستعمله الاطباء عندما يتكلمون عن هذه الاورام الخبيثة. أما في الاوساط الطبية الخاصة فتستعمل مصطلحات يستدل منها على تركيب الورم الباثولوجي أي نوع الخلايا التي يتألف منها هذا الورم

***

﴿ أنواع السرطان ﴾ يسمي الاطباء السرطان باسم الانساج والخلايا المركب منها . فان كان من الابثليوم سمي « ابثليوما » والابثليوم موجود في الجلد وغشاء الفم والحلق واللوزتين والمريء والمثانة وعنق الرحم . وان كان من الغدد سمي « بالاندوتليوما » كسرطان الثدي والغدة الدرقية والمعدة والامعاء والبانكرياس والكبد والكليتين والبروستات والمبيضين وجسم الرحم . وقد يكون السرطان مركباً من الغدد ومن الابثليوم

أما نوع السرطان المعروف بالساركوما فيصيب العظام والغضاريف والنسيج الدهني والعضلات والنسيج الليفي والليمفاوي وما شاكل

وسرطان الجهاز العصبي معروف باسم كلايوما وفي الاورمة الخبيثة قد يكون السرطان مركباً من عدة أنساج وخلايا

قلنا سابقاً ان السرطان مركب من خلايا تتكاثر وتنمو بصورة غير طبيعية غير مقيدة بقانون التقاسم متعدية النظام السوي. وهذا التكاثر ان لم يعالج باكراً ادى الى موت المصاب. وهو درجات فمن الخلايا ما ينمو بسرعة عظيمة ومنها ما ينمو ببطء كلي لا يشعر صاحبه بوجوده حتى ولو كان ظاهراً للعيان. ومما يلاحظ في تكاثر هذه الخلايا ان البعض منها بانقسامه يبقى مشابهاً للخلية الاصلية والبعض الآخر يختلف عنها كل الاختلاف. ومن هذا القبيل يمكن ان يقسم السرطان الى اربع درجات او اربعة انواع

القسم الاول ما كانت خلاياه مشابهة الخلية الاصلية وهذه يكون نموها محدوداً وهذا النوع اقل الانواع خبثاً واقلها استعداداً للوصول الى الاعضاء البعيدة بواسطة الدم والاوعية الليمفاوية

الدرجة الرابعة حيث تكون الخلايا المركب منها الورم السرطاني عديمة الشبه بالخلية الاصلية وهي سريعة التكاثر والانقسام والانتشار وكثيراً ما تسير بواسطة الاوعية الدموية والليمفاوية الى الاعضاء المجاورة حتى والبعيدة كذلك

وبين هاتين الدرجتين نوعان النوع الثاني يقارب النوع الاول والنوع الثالث يقارب النوع الرابع. وهذه الانواع او الدرجات لا يعرفها الا الطبيب الخبير المدقق في التشريح الباثولوجي واهمية معرفة هذه الدرجات هي معرفة انذار الداء وسيره وتأثير العلاج فيه فالنوع الاول مثلاً بطيء النمو قابل الشفاء بعكس النوع الرابع

— ٢ —

سرطان الرحم

ان السرطان في النساء اكثر ما يصيب رحمهن وهو سبب وفاة العدد الكبير منهن كل عام وقد لوحظ ان معدل الوفيات بالسرطان بين ٤٥ — ٦٥ من عمرهن يقارب عشرين بالمائة الثلث منها اصابات في الرحم . والسرطان يصيب عنق الرحم وجسمه بنسبة ٩ الى ١

في علاقة السرطان بالعمر — سرطان عنق الرحم اكثر ما يصاب النساء في العقد الثالث فما فوق وهذا لا يعني ان من كان منهن اصغر سناً لا يصبن بالسرطان بل وجوده في العقد

الثاني فما دون ليس كثير الحدوث . وسرطان جسم الرحم يصيب المرأة بعد ان يقطعها الطمث اي في العقد الرابع فما فوق

﴿علاقة السرطان بعدد الولادات﴾ من المشاهدات السريرية (الكلينيكية) ان السرطان اكثر ما يصيب النساء اللواتي حملن وولدنَ اولاداً وكلما ازداد عدد الولادات ازداد الاستعداد لوجود السرطان ولكن ليست الولادات بحد ذاتها هي التي تهيء الاسباب لوقوع السرطان بل التمزق والالتهابات الموضعية التي تحدث على اثر هذه الولادات

﴿ علاقة تمزق والتهاب العنق بالسرطان﴾ ليس هناك براهين قاطعة تمكننا من الجزم بأن السرطان يبتدىء اولاً في ندبة جرح قديم في عنق الرحم فالسرطان عند ما يظهر بوضوح يكون قد مرّ على ابتدائه زمن ما حتى ليصعب على الفاحص ان يعرف اين كانت بدائته . ولكن من الاختبار السريري (الكلينيكي) يمكن الترجيح بان التمزق والالتهاب في عنق الرحم يمهدان للتغيرات الهستولوجية التي تفضي الى نشوء الاورام السرطانية . وهذه المشاهدات شاهدها الكثيرون من الاطباء الذين يعالجون الامراض النسائية فمع ان سبب السرطان الحقيقي لا يزال مجهولاً يمكن القول — اعتماداً على هذه الاختبارات — بان التمزقات والالتهابات الرحمية قد تؤدي الى نموّ غير طبيعي في الخلايا نتيجة تهيجات مستمرة ومزمنة

هذه هي درجات السرطان الاولى والتهيج المستمر والمزمن في اي جزء من اجزاء الجسم قد يؤدي الى ورم سرطاني . هذه الملاحظة قد أيدها معهد السرطان في جامعة كولومبيا في مدينة نيويورك ومن المهم ان يعرف ان التهيج الموضعي لا يولد سرطاناً بين ليلة وضحاها بل قد تمرّ اعوام قبل ان يصل الى الدرجة التي يصبح فيها الشفاء صعباً فسرطان المعدة او الرحم مثلاً حين يظهر بوضوح يكون قد مرّ على ابتدائه أعوام لا تقل عن العشرة

﴿ علاقة الوراثة بالسرطان ﴾ إذا درسنا السرطان من الوجهة الوراثية درساً علميّاً لم نجد أدلة صريحة على ان السرطان مرض وراثي ولكن عدة احصاءات تدل على ان السرطان كثيراً ما يقع في أفراد العائلة الواحدة فهل يرث الخلف عن السلف الاستعداد للاصابة بالسرطان او يرث التربة التي ينمو عليها السرطان بسهولة كلية

لحد الآن لم يتمكن العلماء من الاجابة عن هذا السؤال ولكن الحقيقة الواقعة لا يمكن انكارها

***

(المقتطف) — وفي الفصل التالي يتناول الكاتب الطبيب اعراض سرطان الرحم وتشخيصهُ وسيرهُ وعلاجهُ

بعد الشباب

الدكتور ابراهيم ناجي

ذهب الشباب فخنتني بعد ذهابه   تذكين ما أطفأته بيديكِ

إني لتقدحني النسائم كلما   حملتها حُرَق المشوق لديكِ

ألقى شذاً رطباً على خديكِ   وأرى لها جمراً على شفتيكِ

لا تذكري نظراً إليها نحو التي   جعل الهوى قدَراً على كفيكِ

ما تلتقي عيني بعينك لحظة   إلا رأيتُ صباي في عينيكِ



الغفران

للشاعر القروي رشيد سليم الخوري

قمتُ عند الصباح أشدو حبوراً   لا أرى علّةً لفرط حبوري

مرسِلاً وجهةَ الفضاء كأني   نبأٌ طيّبٌ سرى في الأثيرِ

[illegible] وجنتيَّ الورد ظلٌّ   دائمٌ فوق موجة من نورِ

أتهادى بين الغصون كغصنٍ   وأناغي العصفورَ كالعصفورِ

صحتُ: ربي! أزال عهد شقائي   أم أراني في عالم مسحورِ

وإذا وردةٌ كوجنة طفلٍ   جنبها شوكةٌ كناب هصورِ

[illegible] ليلة الأمس حلماً   [illegible] أدركت سرَّ هذا السرورِ

[illegible] الرحمن تحت سكون الليل   بالعفو غلغلت في سريري

[illegible] من الغدر [illegible] بشوكة من [illegible]

[من مجلة « الشرق » البرازيلية]

مقتل الحصان

(للشاعر العبقري الانساني فكتور هوجو)

العجلة الثقيلة من فوقها جلمود [1] حجر عظيم ،

والحصان من رأسه الى أخمصه ، [illegible] يسيل ،

يجر ، والحوذي بسوطه ينهال ضرباً ، والجياد [illegible]

تعلو وتُصعد ، والحصان المكروب داني الصدر

يجر ، ويَترسف [2] ، ويئن ، ثم يجر ثم يقف .

والسوط الاسحم [3] فوق رأسه يعصف

هذا يوم الاثنين ، امس كان الرجل يحسو الخمرة في البورشرون [4]

خمرة ملآنة صخباً واهتياجاً وسباباً .

ياعجباً ! مايكون ليت شعري ذاك القانون الرهيب الذي يُسلم

الحي الى الحي والبهيمة المذعورة الى مخمور من الناس !

***

والحصان المزعج أمسى لا يستطيع يخطو بقدم ،

يشعر بظلمة الموت قد غشيتهُ فلا يدري ،

تحت هذا الجلمود الذي أرهقه والسوط الذي يلهبه ،

---

(١) حجر كبير ادنى من الصخرة (٢) يمشي مشية المتثقل المقيد (٣) الشديد السواد

(٤) اسم حانة معروفة

مايفي منه الجلد ، وما عسى يفي منه الرجل

والحوذي ليس سوى وابل من سياط

تنهمر فوق السجين (٤) الذي يسحب مقموده ،

المعذب الذي لا يعرف راحة ولا يوم أحد .

إذا السوط تمزقت خيوطه يضربه بمقبضه ،

وإذا السوط تكسر يركله برجله .

والجواد مرتمداً ، زائغ البصر رازحاً ،

يخفض عنق حزن ورأس متذهل .

ويُسمع لبطن الحصان الصامت المسكين تحت ضربات نعل الرجل ذات الحديد،

يُسمع لبطنه العاري رنين شديد .

* * *

يشهق ، ومنذ قليل كان لا يزال يتحرك ،

ولكنه لم يعد يبدي حراكاً وقواه تبددت .

والضربات متساقطة عليه ملهبة . يحاول لدى النزع

آخر جهده ، ولكن رجله زلقت

فهوى ، فاذا هو تحت « البريش » خائر .

[نقلها احمد أبو الخضر منسى]

(٤) شبه الشاعر الحصان بالمحكوم عليه بالاشغال الشاقة لما يقاسيه من شاق الاعمال وسوء المعاملة

السيد ربيع

منظومة بديعة في وصف الربيع

بقلم الشاعر الفرنسي المعروف بروسبير بلانشمين

السيد ربيع شيخ مسنٌ ،
لا يفتأ متبهرجاً مبتهجاً ذا مرح ،
يرتدي ثوباً جميلاً اخضر
ولست تلقاه في راحة ابداً
يطل من النافذة
اذا شهر ابريل اقبل ،
ويقول بصوت مرتفع : « كيف حال الجو ؟
آن ان نظهر ... »

يا سيد ربيع ياسيد ربيع
عد الينا وليطل مكثك بيننا !

***

ها هي لآلىء الندى
تتألق في كل موضع فوق الكلاء ،
في الغابات حيث تغرد الشحارير
والاوراق تفتح سجونها
والعصافير تشدو بالغداة شدوها
وتقول تمي صباحاً ايتها الشمس ،
وهي تصيح : « ها ساعة اليقظة قد حانت .
فلنضحك ، ولنغن ، ايها الرفقاء ... »

يا سيد ربيع ، يا سيد ربيع

عد الينا وأطل مكثك بيننا !

***

والسيد ربيع من حجرته ،
يقول لها : «لا تصحنَ اني خارج .
يا عجباً لكن ! اني آخُذُ زينتي :
بعد هنيهة اكون خارجاً ،
اني البس ثوب الاحد ،
جديداً من يدي الخياط تسلمته
ومطرزاً من كل لون
لدى الطوق وعلى الاكمام »

يا سيد ربيع ، يا سيد ربيع
عد الينا وأطل مكثك بيننا

***

هاهو السيد ربيع يتحرك
ما أشد مرحه ! ما أصفى دخيلته !
لكم تطابق صدرته المخملية الحمراء
ثوبه الاخضر !
يداه مملوءتان بالازاهر
يعلقها في رؤوس الخمائل !
له بيض الاقاحي
يدل السامين في تمليه .

ياسيد ربيع ، ياسيد ربيع
امكث لدينا ايضا واطل مكثك بيننا !

[نقلها أحمد ابو الخضر منسي]

يقظة العرب [1]

ألفهُ بالانكليزية جورج انطونيوس

تنزل مشكلة فلسطين الآن في الصميم من عناية الحكومة البريطانية وتستأثر بعناية الصحافة في الشرق والغرب ، وتتصل عن طريق اضطهاد اليهود في المانيا وأوربا الوسطى بحلبة السياسة العالمية ، ومن ناحية الشعور العربي القومي المتنبه الغيور على كرامته وحقوقه بالبلدان العربية اللسان جميعاً في الجزيرة ومصر وسورية والعراق . والمشكلة الفلسطينية على ما فيها من عُقد وعلى ما جرَّته فيها السياسة الخاطئة من خسائر في الاموال والرجال ليست الاَّ جزءاً من مسألة أعمّ وأوسع نطاقاً هي مسألة النهضة القومية العربية منذ نشأتها في مستهل القرن التاسع عشر . فقضية العرب ومشكلة الوطن القومي في فلسطين لا يمكن ان تفهم على وجهها الصحيح ولا ان يدبر لها حلٌّ معقول يتفق ومنطق الجغرافية وحقائق الاقتصاد والاجتماع ونوازع النفوس الاَّ اذا ربطت بيقظة العرب من جميع نواحيها

لذلك لا يتردد كاتب هذه السطور في ان يتمنَّى على المستر مكدونلد وأقطاب هويتهول قراءة هذا الكتاب قبل عقد مؤتمر لندن المرتقب

ان كتاب الاستاذ جورج انطونيوس يعالج موضوع نهضة العرب او يقظة العرب معالجة سداها العلم ولحمتها الانصاف . فهو دقيق في تحرّي الحقيقة متزن في عرضها صريح في اصدار الحكم محافظ على النظرة الشاملة عند عنايته بتفصيل الشأن الخاص نافذ النظر في الناحية النفسية والاجتماعية التي من وراء العهود والمعاهدات السياسية والعسكرية .وكل ذلك في أسلوب انكليزي جمع بين النقاوة والجزالة والقوَّة حتى ليخيَّل اليَّ ان « يقظة العرب » يجب ان يوضع بين أبلغ ما كتب بالانكليزية عن العرب وبلادهم

أقبل المؤلف على عمله ولهُ من علمه وخبرته وتوقه الشديد الى اعلان الحقيقة أيًّا كانت عدة وافية للاضطلاع بمهمته ، مهمة تأريخ النهضة العربية

فهو أولاً عربيّ تنفتح أمامهُ ابواب من العلم موصدة في وجوه كتَّاب الفرنجة . فالصحف العربية والوثائق العربية والاتصال بأقطاب العرب بوصف كونه واحداً منهم يكلمهم بلسانهم ويتبين ما يخالجهم في ثنايا الكلام لانهُ صدى لما يموج في صدره ، مباحٌ لهُ متعذر على غيره من

---

(1) The Arab Awakening. By George Antonius, Hamish Hamilton, London. 15/--

بناء الغرب . وغنيٌّ عن البيان انهُ يستحيل على المؤرخ الانصاف والعدل في وصف رأي العرب الاَّ اذا استطاع ان يعرف كل ما يقولون في تعزيزه والدفاع عنهُ

وهذا ثابت في غير صفحة واحدة من صفحات الكتاب . فالرسائل التي تبادلها السر هنري مكماهون والشريف حسين من الاصول التي لا غنى عنها في دراسة القضية العربية، ولاسيما قضية فلسطين ، من ناحيتها السياسية . ومع ان هذه الرسائل نشرت كلها او جُلها في الصحف العربية الاَّ انها ظلَّت محجوبة عن كتَّاب الغرب لان الحكومة البريطانية أبت ان تذيعها . فكيف يستطيع كاتب ان يقول ان فلسطين لم تكن داخلة في المنطقة التي شملتها تلك المراسلات وهو لم يطلع عليها ؟ وقد ردَّ الاستاذ انطونيوس في كتابهِ هذا الزعم ردًّا لا سبيل الى الطعن فيهِ . ولهذا حديث آخر في ناحية اخرى من هذا المقال

ثم ان المؤلف ،معاصر لجلَّة حوادث العهد المتأخر من النهضة العربية ، متصل باقطابها من الفريقين — فريق العرب وفريق الانكليز. مشترك في بعض المفاوضات الخطيرة مع الملك حسين والملك عبد العزيز آل السعود بعد انتهاء الحرب الكبرى. فمهَّد له ذلك ان يجيء في كتابهِ باشياء لم تعرف قبلاً او هي لم تعرف معرفة تامَّة فاستوفاها فألقى عليها ضوءًا جديداً او كانت معروفة فلم تنشر مسندة اسناداً لا مطعن فيه . مثال ذلك اقوال وآراء للحسين وعلي وفيصل وغيرهم من الاقطاب. ولعلَّ اهمها شأناً ذلك التصريح الشفوي الذي ذهب بهِ الكوماندر هوجارث الى الملك حسين بعد ما سمع الملك بمعاهدة سايكس بيكو — وهي تالية لعهود الانكليز له منافية لبعض نصوصها — وطلب تفسيراً لما سمع ، فدوَّنها الملك حسين في مذكراتهِ واذن لمؤلف الكتاب بنقلها فنقلها وترجها وضمَّها الى ما جمعهُ في الشام والعراق والجزيرة من الحقائق التي مكنتهُ من الوصول الى حكم لا يُردُّ في حقيقة وعود الانكليز وحنثهم بها

ثم انهُ راجع المصادر الرسمية المباحة للمؤلفين في مكتب الوثائق بوزارة الخارجية بلندن حيث عثر في جملة ما عثر عليهِ على ضالةٍ طال نشدانهُ لها ، وهي منشورات الجمعية السرية التي انشئت في بيروت سنة ١٨٧٥ للسعي في سبيل تحرير العرب من نير الترك . ذلك بانهُ عثر في تلك الاضابير على تقارير القنصل انكلترا في بيروت اذ ذاك البرد فوجدها تحتوي على نص منشورين من منشورات تلك الجمعية وعلى منشور اصلي . وقد يقال ان البحث عن نصوص هذه المنشورات امر لا شأن له يطلبهُ المؤرخ ليزن بها ما يقول لا لان له قيمة حقيقية في سبيل ما يؤرخ . الاَّ ان هذه النصوص كانت فعلاً كبيرة القيمة عظيمة الشأن . فالجمعية كانت سرية . وما يعرف عنها كان يسيراً يؤخذ بالتناقل . وأغلب اعضائها ذهبوا الى لقاء ربهم . الاَّ ان الدكتور فارس نمر باشا ، وهو احد اعضائها الاصليين روى للمؤلف قصة نشأتها وبيان اغراضها فلما سئل في نصوص تلك المنشورات

التي كانت تعلّق على جدران المدينة في الليل خانتهُ الذاكرة ولم يشأ ان يقول شيئاً ليس بمستوثق منهُ . ولكن العثور على هذه النصوص لازم لانها تبين مدى الاهداف السياسية التي كان اعضاء تلك الجمعية يتطلعون الى تحقيقها، فوجدها المؤلف في لندن . وقد كان احدها بيتاً من الشعر من بائية الشيخ ابراهيم اليازجي المشهورة وهو : —

لِنطلبنَّ بحدّ السيف مأربنا فلن يخيب لنا في جنبهِ طلبُ

والمنشور الآخر يحتوي على برنامج سياسي اساسه استقلال سوريا المتحدة والاعتراف باللغة العربية لغة رسمية والغاء المراقبة وغيرها من القيود المفروضة على حرية الرأي والاعتماد على المجندين السوريين للخدمة العسكرية المحلية

***

ولم يقتصر المؤلف على تأريخ العهد الحديث من نهضة العرب اي منذ اعلنت الثورة العربية في الجزيرة في يونيو سنة ١٩١٦ . بل ارتد الى نشأة النهضة في مستهل القرن التاسع عشر ، وتتبع الجداول الصغيرة من منبعها الصافي في نفوس المتعلمين الى حيث تفيض في ظل الاستبداد ، ولكن الجداول ما لبثت ان تلاقت وتجمع ماؤها فتحولت غدراناً ثم اصبحت الغدران في اثناء الحرب العالمية أتيّاً متدفقاً يشمل العرب في سوريا والجزيرة والعراق

لكل نهضة من النهضات القومية اصول فكرية ترتد اليها وتنبثق منها. وكذلك نهضة العرب. فمؤرخها الذي يهمل ذلك يضل السبيل ويبني على الرمل . إن الثورة الفرنسية لا تفهم بغير ديدرو وروسو وفولتير. والثورة الارلندية لا تدرك حقيقتها بغير هايد ووليم بطلر ييتس وغيرهما من اقطاب الاحياء الادبي باللغة الارلندية. وكذلك النهضة القومية في بلدان البلقان جميعاً . فقد سبق كلاً منها او صاحبها تنبه فكري وبعثٌ ادبيٌ .

وقد عني الاستاذ انطونيوس بهذه الناحية من يقظة العرب عناية خاصة . فاحسن واجاد. هنا تاريخ حقبة من البعث الفكري في لبنان وسوريا ، اصبحت حقائقه غامضة على النشء الجديد لبعده عنها مع ان تيارها القوي لا يزال يجري في عروق حياته اليومية . هنا تباشير النهضة الادبية العلمية في لبنان وسوريا في مستهل القرن التاسع عشر كما تبدو في اعمال المرسلين الاجانب الاول من اميركيين وفرنسيين وفي اعمال الوطنيين وقد خص بالذكر في ذلك العهد ناصيف اليازجي وبطرس البستاني واثرهما واثر تلاميذهما في احياء الارث الادبي العربي، وانشاء المدرسة الوطنية وتأليف الكتب المدرسية باللغة العربية وتأليف الجمعيات العلمية والادبية فكان من اثر ذلك كله ايقاظ الضمير القومي العربي

هذه الحركة العلمية الادبية « نبَّهت أذهان القوم الى أهوال جمودهم المعنوي وأشعلت نار الحماسة في نفوس الذين كانوا يرون ان مردَّ مصائب البلاد الى البغضاء المذهبية التي ترتع في الجهل فأفضى ذلك الى تجديد السعي لانشاء المدارس وعقد العزم على تحطيم الحواجز حواجز الجدال المذهبي العقيم . وليس أقل نتائجها شأناً ان دفعت جماعة من المفكرين الشبان الى الشروع في تحريك المهم لتحرير بلادهم من الحكم العثماني . كانوا تلاميذ اليازجي والبستاني ، الجيل الاول الذي ترعرع على التراث الثقافي المستردّ . وفي تأملهم جماله وروعته اقتربت أذهانهم من الروح العربية فأحسُّوا بحرارة شهوتها للحرية . كانت بذرة الوطنية قد بذرت ، فقامت حركة مصدرها وحيها عربيٌّ . واهدافها قومية لامذهبية . كذلك ولدت الحركة القومية العربية ... » وقد ظلّت خلال الاربعين السنة التالية ضعيفة عاجزة ولكنها كانت « حية سائرة في سبيل النماء الى مصيرها المحتوم على أجنحة الادب المنبعث » .

الا أنَّ معاهد التعليم الاجنبي التي نبَّهت القوم الى العلم فبذرت بذرة القومية العربية ، ما لبثت حتى تعدَّدت بتعدُّد زعمائها ومذاهبها ، من روسية وانكليزية وايطالية جنباً إلى جنب مع الاميركية والفرنسية ، فسرى الضعف الى النهضة القومية في مهدها عن طريق الانقسام بين المتعلمين في هذه المدارس ، فانتقل لواء النهضة العربية الى مسلمي البلاد وفي مقدمتهم في ذلك العهد عبدالرحمن الكواكبي صاحب «أم القرى» و«طبائع الاستبداد» وما فتىء في أيديهم يعاونهم في رفعه واعلاء شأنه فريق كبير من المسيحيين

***

يقسم الكتاب بوجه عام ثلاثة أقسام عامة أولها يتناول النهضة العربية منذ نشأتها الى نشوب الحرب الكبرى وحديثها في هذا العهد هو حديث النهضة العلمية والادبية في البلاد والجمعيات السرِّية المختلفة التي اشترك فيها المسيحيون والمسلمون والدروز وكيف واجه الضمير العربي القومي المتنبه استبداد عبد الحميد وتحكم رجال تركيا الفتاة — بعد فترة قصيرة لمعت فيها بوارق الامل بامكان التعاون بين العرب والترك على أثر الانقلاب العثماني سنة ١٩٠٨ واسقاط عبد الحميد سنة ١٩٠٩ — وفي ماتقدم قليلٌ مما يدلك على طرافة البحث في هذه الفصول

***

أما القسم الثاني فخاص بمقدمات الثورة العربية والمكاتبات التي دارت بين الانكليز واقطاب العرب ثم سيرة الثورة الى ان دخل العرب دمشق في اوائل اكتوبر سنة ١٩١٨

هنا قصة يطربك استهلالها وتفجعك خاتمتها . هنا تحليل الوعود التي قطعها الانكليز للحسين طمعاً بعون العرب العسكري في مؤخرة الترك ثم قصة الحنث بها

تبدأ قصة المفاوضة بين العرب والانكليز في شهر فبراير من سنة ١٩١٤ إذ كان اللورد كتشنر عميداً لبريطانيا في مصر . وكان الامير عبد الله نجل الحسين في القاهرة في طريقه الى مكة المكرمة فزار الاميرُ العربي العميدَ البريطاني ، وفي خلال الزيارة — وكان المستر رونالد ستورس السكرتير الشرقي بدار العميد حاضراً — بسط الامير العربي حالة الجفاء بين السلطات التركية ووالده الحسين شريف مكة ومما قاله انهُ علم بأن حكومة الاتحاديين قد عزمت على عزل أبيه ولمح الى انهُ اذا نفذت هذا العزم فالغالب أن تنشب ثورة في الحجاز . فكان ردُّ كتشنر مبهماً مثبطاً . ومما قالهُ انهُ يرى ان قاعدة الخطة التي جرت عليها تقاليد السياسة البريطانية هي الصداقة لتركيا وانهُ ليس من المحتمل ان تتدخل حكومتهُ اذا نشبت ثورة

الا ان كتشنر أدرك ان عند الامير أشياء أخرى يريد البوح بها فعهد الى ستورس في زيارته بعد يومين ليتيح لهُ التوسع في الكلام . وكذلك كان

ويرى المؤلف ان الشأن الذي يعلق بهذه المحادثات مستمدٌّ من كونها جاءت عند ما كان كتشنر نفسهُ يفكر في الموضوع . فما لا ريب فيه ان واجبهُ الاول كان ينحصر في مصر والسودان . ولكن نظره كان يتعدى حدودها . ذلك ان قيادتهُ لحملة السودان وللجيش البريطاني في الهند وفهمه للمشكلات التي تواجهها القوات البريطانية عند حدود الهند الشمالية الغربية كانت قد هيأت له الاتصال بقوة الاسلام المحاربة فأدرك ما للرابطة الدينية الاسلامية من خطر الشأن السياسي . وفي اثناء اقامته في القاهرة كانت عينه متجهة دائماً الى الاستانة مقر الخلافة . فلاحظ استفحال النفوذ الالماني والتقدم الخطير في مد سكة حديد بغداد . فأحس بما في ذلك من تهديدٍ موجهٍ الى مقام بريطانيا في خليج فارس والهند . وكان لا يخفى عن المقربين اليه ان السياسة البريطانية كانت قد اخطأت في تسليمها بقيام النفوذ الالماني السياسي العسكري في عاصمة الدولة العلية ، ولذلك كان دائم التفكير في خير السبل الى مقاومة هذا الخطر

وليس المقام هنا مقام تفصيل للموضوع فمن اراد تفصيلاً فليطلبه في مظانه ، وصفحات هذا الكتاب على إيجازها من خيرها . ولكن المهم ان محادثات الامير عبد الله مع اللورد كتشنر والمستر ستورس كانت رأس الاسفين — على ما يقول الافرنج — التقت من حوائيه رغبة العرب في الاستقلال ورغبة الانكليز في صد الخطر الذي يهددهم من ناحية خليج فارس والهند

فلما نشبت الحرب الكبرى تجددت العناية بالموضوع بناء على سؤال وجهه المستر ستورس الى كتشنر (وكان قد عين وزيراً للحربية) ، مؤداه « أتأذن لي في ان اتحقق من الامير عبد الله الى اية جانب ينضمُّ العرب اذا خاضت تركيا الحرب لاننا اذا صرفنا النظر عن الاعتبارات العامة يكون انضمامهم الينا معززاً لمؤخرتنا »

ومن ثمة ابتدأت المفاوضات بين الانكليز والشريف حسين ، هل يثبت الى جانب الترك في ساعة محنتهم فيكسب للعرب اعترافهم بالجميل او يغتنم فرصة محنتهم لكسب الحرية العربية بحدّ السيف ؟ استشار الحسين ابنيه عبدالله وفيصل فكان رأي عبدالله الثورة على الترك وكان رأي فيصل اولاً الوقوف الى جانبهم . وقد اثبت الاستاذ انطونيوس بناء على تصريح من فيصل نفسه بان ما قاله لورنس في « اعمدة الحكمة » عن انضمامه الى احدى الجمعيات العربية السرية قبل الحرب خطأ وأنه لم يأخذ بفكرة الثورة العربية الأ بعد ذهابه الى دمشق في سنة ١٩١٥ عند ما تبيّن قوة الحركة واجماع الاقطاب عليها وعندئذٍ انضمّ الى الجمعيتين السريتين السريتين جمعية الفتاة وجمعية العهد

دارت المراسلات الرئيسية بين السر هنري مكماهون مندوب بريطانيا السامي في مصر والشريف حسين ممثلاً للقومية العربية ، وفيها نرى التضال بين قوتين ، كلٌّ منهما في حاجة الى الاخرى ، الأ ان الواحدة — اي الانكليز — تريد عون الاخرى بلا ثمن واضح والثانية تريده عهداً صريحاً بتأييد استقلال العرب . وتلخص قواعد الاتفاق التي يخرج بها الباحث من مطالعة الرسائل في ان يستعمل الشريف حسين ما له من مكانة ونفوذ وما يستطيع تعبئته من قوة مادية لهزم تركيا. نعم ان شروط التعاون العسكري ليست بمنطوية في نصوص معينة في المراسلات لان المفاوضة بشأنها دارت شفهاً ولكن ما تقدم ملخص المفهوم منها والشريف حسين لم يتردد قط في قبوله . يقابل هذا ان يمدّه الانكليز بما يسدُّ النقص في قوته المادية من اسلحة ومال. اما في الناحية السياسية فالشريف كان قد تعهّد باعلان ثورة العرب والتنديد بالأتراك على انهم اعداء الاسلام حالة ان بريطانيا تعهدت مقابل ذلك بأن تعترف بخليفة عربي اذا أعلنت مبايعته وباستقلال العرب في منطقة معيّنة

هذه « المنطقة المعيّنة » غدت مثاراً للجدل بعد الحرب ولاسيما فلسطين . فالرأي العربي على أن فلسطين واقعة فيها . والحكومة البريطانية ترى غير ذلك . والحكم في هذا الخلاف لا يكون الأ بالرجوع الى نصوص مراسلات مكماهون والشريف حسين

ومن غريب الامر ان الحكومة البريطانية لم تنشر نصوص هذه المراسلات باللغة الانكليزية فعمد مؤلف الكتاب الى استيفاء نصوصها العربية المعروفة في الشرق العربي ونقلها الى الانكليزية وجعلها ذيلاً لكتابه . وقد اخذ نصوص رسائل الملك حسين من الملك نفسه اذ كان في عمان قبيل وفاته

فالرسائل التي كانت الحكومة الانكليزية تبعثها بواسطة مندوبها السامي في مصر السر هنري مكماهون الى الشريف حسين كانت تترجم في دار المندوب السامي في مصر ترجمة سقيمة جداً. ولكنها مع ذلك هي الوثائق التي اعتمدها الشريف حسين اساساً للاتفاق . وقد نشرت

في البلدان العربية . فاحجام الحكومة البريطانية عن نشرها لايفهم ، على رغم المطالبة به في البرلمان الانكليزي ومع ان المطالب به كان رجلاً من مقام السر ادورد غراي (لورد غراي بعدئذ) في ٢٧ مارس سنة ١٩٢٣

وبالرجوع الى نصوص هذه الرسائل لايبقى عند منصف شك بان الرأي العربي من حيث دخول فلسطين في المنطقة التي تعهدت بريطانيا بالاعتراف باستقلال العرب فيها ، هو الرأي الصحيح . ولا يتسع المجال الآن لتفصيل ذلك وسنعود اليه في فرصة اخرى

***

اعلنت الثورة العربية وقام العرب بنصيبهم فيها على اتم وجه ولكن السياسة كانت تلعب ألاعيبها وراء ستار . فما كاد الاتفاق يتم بين السر هنري مكماهون ممثلاً بريطانيا والشريف حسين ممثلاً العرب حتى بدأت مفاوضات بين لندن وباريس أفضت الى معاهدة سايكس بيكو السرية وهي المعاهدة التي في شروطها مناقضة تامة لبعض العهود المقطوعة للشريف حسين . ولكن وزارة الخارجية البريطانية امسكت عن اطلاع الوزارة الفرنسية على شروط اتفاقها مع العرب ولعلها امسكت كذلك عن اطلاعها على ان هناك اتفاقاً . فسارت المفاوضات الفرنسية الانكليزية منذ بدإها على اساس خاطىء مما كان مجلبة لكثير من الارتباك والخسارة المادية والاضطراب الاجتماعي بعد انتهاء الحرب. وقد وصف المؤلف معاهدة سايكس بيكو بأنها نتيجة للجشع في افظع صوره . ذلك انهُ جشع مقرون بالريبة فأفضى الى السخف ، وهي مثال على المراوغة في المعاملات الدولية ولعلها ابلغ مثال على الحنث بالوعود . فقد تمت المفاوضات وعقدت المعاهدة بغير معرفة الشريف حسين واحتوت على نصوص تناقض مناقضة تامة شروط الاتفاق بين السر هنري مكماهون وبينهُ ولو انه عرف بها لكان الفى حتماً محالفته مع بريطانيا . فاخفاؤها عنه يزيد الطين بلة من الناحية الادبية . ولم يعرف بها الشريف حسين الا بعد انقضاء سنة ونصف سنة على عقدها وذلك عن طريق المانيا وتركيا بعد قيام الثورة الشيوعية في روسيا ونشر الوثائق والمعاهدات السرية في بتروغراد . وقد كان الغرض من ابلاغ الشريف حسين انباء هذه المعاهدة عن طريق جمال باشا والي سوريا وقائد الجيش الرابع حمله على عقد الصلح بين العرب والاتراك ولكن الشريف ابى ذلك اولاً ثم طالب الانكليز بتفسير ما انتهى اليه . فلم يدر السر رجينالد ونجت (وكان قد خلف السر هنري مكماهون) ما يفعل فأحال المسألة الى وزارة الخارجية البريطانية فأتيحت للوزارة بذلك فرصة نادرة للخروج من مأزق بالاعتماد على وسيلة غاية في البساطة وهي الصراحة في تفسير الموقف ولكنها لم تفعل بل ارسلت الى القاهرة نص ردّ على استفهام الملك حسين أقل ما يقال فيه انهُ ينطوي على تضليل مقصود . ذلك ان

الوزارة لم تؤيد ولم تنف صحة ما نشرتهُ حكومة روسيا الشيوعية وانما افرغت الرد في قالب يفهم منهُ ان ما قاله جمال باشا ليس الا ضرباً من ضروب الوقيعة التركية . وأرسل الرد من قبل السر رجينالد ونجيت مع برقية خاصة منهُ

وهنا ايضاً نرى الحاجة ماسة الى الاطلاع على نصوص الرد والبرقية . ولكن الحكومة الانكليزية لم تنشرها فترجمها الاستاذ انطونيوس من العربية وجعلهما احد ذيول كتابه لانهما من الوثائق التي لا يستغنى عنها في دراسة الموضوع

ومن قبيل معاهدة سايكس بيكو تصريح بلفور المشهور الخاص بالوطن القومي في فلسطين الصادر في نوفمبر سنة ١٩١٧ والمتعارض مع عهود الانكليز للعرب. اما تاريخ المفاوضات والمساعي التي بذلها الصهيونيون قبل الفوز بهذا التصريح فسهب لا يتسع له المجال . ولكن يكفي ان نقول ان المستر اسكويث رئيس الوزارة البريطانية في السنتين الاوليين من الحرب الكبرى كان معارضاً فيه وكذلك فريق كبير من اقطاب اليهود الانكليز ممثلين في « مجلس ممثلي اليهود الانكليز » و« الجماعة اليهودية الانكليزية » وقد كان المستر منتاجو وزير الهند لسانهما فيها . ويرى مؤلف « يقظة العرب » ان الباعث على هذا التصريح ليس ما يقال عن العون المالي الذي فازت به الحكومة من اليهود اذ ثبت الآن ان اكتتاب اليهود في قروض الحرب كان يسيراً ومعظمه من اليهود المعارضين في الخطة التي تضمنها تصريح بلفور . وهو ينكر كذلك ان هذا التصريح جاء مكافأة للدكتور ويزمن على اختراعه مادة متفجرة في وقت الحاجة اليها . وعنده ان الباعث الحقيقي ذو ناحيتين احداهما سياسية وهي اجتذاب يهود المانيا والنمسا الى الاهتمام بنصر الحلفاء لانهم كانوا يفاوضون حينئذ دول الكتلة الالمانية النمسوية للفوز بتصريح من تركيا يماثل التصريح الذي اصدره بلفور بعدئذٍ . وأما الناحية الثانية فعسكرية تستمد شأنها من قرب فلسطين الى مصر وقناة السويس

اذيع تصريح بلفور في ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ اي بعد انقضاء سنة ونصف سنة على قيام الثورة العربية استناداً الى عهود بريطانيا بتأييد استقلال العرب في منطقة كان للحسين الحق كل الحق في اعتبار فلسطين جزءاً منها

وقد كان لاذاعة هذا التصريح تأثير عميق في الدوائر العربية فسرت موجة احتجاج قوية من قبل زعماء العرب في القاهرة . فبذلت السلطات البريطانية جهدها لتسكين مخاوف العرب وتطمينهم خشية ان يفضي ذلك الى خمود الثورة ، وانكشاف مؤخرة الحملة البريطانية في فلسطين . فلما بلغ الملك حسين نبأ التصريح اضطرب وقلق وطلب حالاً من الانكليز ان يحددوا معناه ومداه . فأرسل اليه الكوماندر هوجارث احد رؤساء المكتب العربي في القاهرة في الاسبوع الاول من شهر يناير سنة ١٩١٨ فقابل الملك حسين مرتين وأبلغهُ شفوياً رسالة من قبل الحكومة البريطانية

من شأنها تطمين الملك . وهذا التبليغ ينطوي « على تأكيد صريح بأن نزول اليهود في فلسطين لايسمح به إلاّ إلى مدى اتفاقه مع حرية السكان العرب من الناحيتين السياسية والاقتصادية »

هذا التصريح لم ينشر قبلاً لانه أبلغ إلى الملك حسين شفوياً ولكن الملك العربي دوّنه والاستاذ انطونيوس استأذن في نقله فنقله ثم نشره مترجماً في أحد ذيول الكتاب باللغة الانكليزية

يضاف إلى تصريح هوجارث التصريح الرسمي الذي أبلغ إلى سبعة من أقطاب العرب في القاهرة هم رفيق العظم والشيخ كامل القصّاب ومختار الصلح وعبد الرحمن شهبندر وخالد الحكيم وفوزي البكري وحسن حماده

كان هؤلاء الاقطاب قد أجمعوا الرأي على وضع مذكرة وإرسالها إلى الحكومة البريطانية يستفسرون بها عن نوع الحكومات المنتظر قيامها في سوريا وفلسطين والعراق بعد الحرب علاوة على الاعراب عن رأيهم في ما يساورهم من القلق إزاء معاهدة سايكس بيكو وتصريح بلفور وتناقضهما مع العهود المقطوعة للعرب . فردت عليهم وزارة الخارجية في ١٦ يونيو سنة ١٩١٨ ببيان رسمي تلي عليهم في مقرّ قيادة الجيش البريطاني في القاهرة وأرسلت نسخة من هذا البيان إلى الملك حسين . تلي هذا التصريح على الاقطاب السبعة بالانكليزية وترجمه أحدهم باللغة العربية لاطلاع الذين يجهلون الانكليزية منهم على محتوياته . والنص الذي نشره الاستاذ أنطونيوس هو الترجمة الانكليزية للترجمة العربية . وميزة هذا البيان إنه كان تصريحاً رسمياً علنياً واضح الحدود جدّدت به الحكومة البريطانية عهدها بالمضي في السعي لتحرير البلدان العربية من الحكم العثماني حتى تنال حريتها واستقلالها وأضافت اليه عهداً جديداً بأن لايقوم في أي منطقة من هذه البلدان نظام للحكم بغير رضى الاهلين

فكان من أثر ذلك التصريح ، عند وصوله إلى الملك حسين والى الامير فيصل في العقبة ، اتقاد الشرر ثانية في قوات الثورة بعد ان استولى عليها الجمود

***

أما القسم الثالث من هذا الكتاب النفيس فقد تناول فيه المؤلف التسوية التي تلت الحرب في سوريا وفلسطين والعراق والجزيرة العربية وأدوارها المختلفة وما في هذه التسوية من تناقض مع آمال العرب المشروعة وهو في ثلاثة فصول تشمل ١٤٠ صفحة يصحّ ان تكون كتاباً قائماً بنفسه . استهلّ هذه الفصول ببيان آمال العرب بعد ان اشتركوا في الحرب اشتراكاً فعّالاً وختمها ببحث مشكلة فلسطين . وبين الاستهلال والخاتمة تتعاقب الصور والحوادث — فصل بين اقطاب القضية العربية في دمشق ورجال السياسة في أوربا . وثورة العراق ومؤتمر سان ريمو

وزحف الفرنسيين على دمشق ثم مؤتمر القاهرة وتغيير الخطة السياسية في العراق واختيار الملك فيصل ملكاً عليها وتقدمها نحو الاستقلال بقيادته ومعاونة أقطاب العراقيين والخاصين من رجال الانتداب فيها وحال الجزيرة العربية والخلاف الذي نشب بين الحسين وعبد العزيز آل السعود وكيف أفضى الى ثل عرش الاول وامتداد سلطة الثاني وانبساطها على الحجاز . وليس ماتقدم الاّ اشارة الى الحوادث الرئيسية ، أما بحث العوامل السياسية والاجتماعية التي من وراء الحوادث وتعليلها وربطها بعضها ببعض واسنادها الى الادلة العقلية والنقلية فقد أجاد فيها المؤلف هنا كما أجاد في ماتقدم من الفصول

***

وماذا عن فلسطين ؟ ان الذين يتطلعون الى ما وراء الحجاب الكثيف من أقوال الدعاة وأساطيرهم يرى الحلّ واضحاً ولا سبيل اليه الاّ بالرجوع الى الحكم السليم والعدل . فليس هناك مكان لامة ثانية في بلاد يقطنها شعب قد تنبه ضميره القومي وتربطه بأرضه محبّة لا تغلّب . إن العبرة الوحيدة التي يخرج بها الباحث من المساعي التي بذلت حتى الآن لانشاء دولة يهودية في فلسطين هي ان هذه المساعي أفضت الى تخريب البلاد وليس سبب ذلك لنداء أصيل بين اليهود والعرب ولا ضعف عطف العرب عليهم في محنتهم العالمية ولكن لأنّ انشاء دولة يهودية في فلسطين لايمكن ان يتمّ الاّ باخراج فلاحي فلسطين بالقوة من أرض فيها دورهم ومعابدهم ومقابر آبائهم وأجدادهم . ويلوح من تتبع أحوال فلسطين في السنين الاخيرتين ان هؤلاء الفلاحين يؤثرون مواجهة الموت على التخلي عن أرضهم . ولو لم يكن هناك اعتبار آخر لكان هذا الاعتبار كافياً لحمل أولي الامر على مواجهة الحقيقة الواقعة . أما وهذا الاعتبار تعززه اعتبارات أخرى تستند الى وعود وعهود مقطوعة فقضية العرب في فلسطين تصبح قضية لاتردّ . فوالحالة هذه يجب الاّ يعجز زعماء الانكليز والعرب واليهود عن الوصول الى حلٍّ معقول. وليس ثمة سببٌ يحول دون انشاء دولة عربية مستقلة في فلسطين يأوى اليها من اليهود عددٌ لايعرّض حقوق العرب السياسية والاقتصادية للخطر ، فيعيش فيها اليهودي متمتعاً بجميع الحقوق ، في امنٍ وكرامةٍ ، وتعقد معاهدة بين الدولة العربية في فلسطين والدولة البريطانية تضمن المصالح البريطانيـة العسكرية والاقتصادية في البلاد وسلامة الاماكن المقدسة وحقوق الاقليات وتبيح ليهود البلاد أوسع آفاق الحرية في زعزعة مثلهم الثقافية والروحية

***

وليس هناك — في رأي المؤلف بل في رأي كل منصفٍ — حلٌّ عملي غير هذا !

باب المراسلة والمناظرة

مجلة مجمع اللغة العربية الملكي

في دورته الثالثة

لحضرة الدكتور امين المعلوف

صدر هذا الجزء من المجلة في اكتوبر سنة ١٩٣٨ ولكنهُ مطبوع في سنة ١٩٣٧ فرأيت أن أنظر فيه نظرة عامة ثم أكتب فيه شيئاً وأول ما أبدأ بهِ أقول أن طبعهُ حسن جداً شأن غيره من مطبوعات المطبعة الاميرية ببولاق ثم ان الياء فيهِ غير منقوطة كما هي الحال في المطبوعات المصرية بخلاف السورية والعراقية وهذا لا بأس بهِ لان المصريين مصرون على هذا الخلاف بيننا فعسى أن لايبقى خلاف غير تنقيط الياء . وللاب انستاس عضو المجمع رسالة صغيرة كثيرة الفائدة في هذا الشأن أي انه يشير الى ضرورة تنقيط الياء لسهولة القراءة

والآن أصف المجلة مختصراً فأولها كلمة اللجنة بعد حمد الله والصلاة والسلام على نبيه المبعوث بهداه ورحمته . ثم يلي ذلك كلمة وفاء للمغفور لهُ صاحب الجلالة الملك فؤاد الاول مؤسس المجمع . ثم كلمة ولاء لحضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الاول وكلاهما لحضرة صاحب المعالي الدكتور محمد توفيق رفعت باشا رئيس المجمع . ثم ذكر المغفور لهُ الاستاذ الجليل الشيخ حسين والي فقيد المجمع . ثم كلمة لرئيس المجمع وقد وجه فيها خطابه للوزير والحضور وهي خطبة مسهبة ونفيسة جداً ضمنها أعمال المجمع وقراراته حتى الآن ومما جاء فيه انهُ يطرح كل شيء امام أفاضل العلماء ويقدمه الى الامة العربية جماء ويرجو من رجال الفضل في البلاد العربية كافة تعاوناً نشيطاً ماضياً على اذاعة آثار المجمع بين أبناء بلادهم فالمجمع لهم جميعاً لا لمصر وحدها . ثم كلمة لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ حسين والي فقيد المجمع وكان يومئذٍ لايزال على قيد الحياة وان كلمته حوت شيئاً كثيراً من معرفة اللغة العربية فلا غرو وقد كان رحمه الله اماماً في اللغة . ثم كلمة الاستاذ محمد كرد علي بك عضو المجمع . ثم قصيدة علي الجارم بك عضو المجمع . ثم كلمة الاستاذ ا . ه . ر . جب عضو المجمع . ويلي ذلك أعمال المجمع وهي في قسمين القسم الرسمي والقسم غير الرسمي فالقسم الرسمي فيه قرار طبع معجم الاستاذ الدكتور فيشر عضو المجمع وقرار وضع المعجم الاصطلاحي العلمي وقرار وضع المعجم اللغوي الوسيط

ثم أبدأ في نقد مصطلحات العلوم والاحياء دون غيرها وأرجيء الباقي لفرصة أخرى

مصطلحات علوم الاحياء وهي ٣٣ مصطلحاً لم اجدفيها إلاّ الكريّ وانا افضل الكروي كما قال المجمع في العلوم الرياضية والكري جائز لكنني افضل الكروي ثم ان الكلمة الثانية التي اعترض عليها قولهم القصيمة . ولا يخفى ان الكلمة الانكليزية التي ترجمت بالقصيمة ذات معنيين الاول في شبكية العين ذكرها كل من النجاري بك والدكتور شرف بك وسماها العُصية وهذا المعنى نادر جدًّا والمعنى الآخر وهو الشائع جرثوم معروف فلماذا نترك المعنى الشائع ونتمسك بالنادر والمعنى الشائع وضع له اليازجي كلمة انبوبي والانبوب على ما في القاموس ما بين العقدتين من القصب ووضع له اساتذة المعهد الطبي في دمشق كلمة عصية ذكرها الدكتور حسني سبح في معجمه الملحق بالامراض الباطنية .اما الانبوبي فذكره كل من الياس انطون الياس وخليل سعد في مظنته وهذان اللفظان اصلح من القصيمة . فهذه معناها العود السريع الانكسار والعصية خالية من ذلك

وقد يسرني قولهم الكلس فهي احسن كثيراً من الجير الشائعة في مصر وقد يكون الجير تصحيف القير وهذا البحث لا محل له هنا

ثم القسم غير الرسمي وفيه المقالات والاقتراحات ويجب ان لا ينظر الى هذا القسم كانهُ صادر من المجمع وان كان معظم الناس يظنونه كذلك فالقسم الرسمي فقط صادر من المجمع ومما جاء في هذا القسم ص ١٥٦ في اصطلاحات علوم الاحياء مانصهُ : طائفة مشروحة مما اقره المجمع في دور انعقاده الثالث عني بشرحها الاستاذ احمد العوامري بك عضو المجمع واسماعيل مظهر افندي الموظف به ولما كان هذا القسم غير رسمي والمداعبة تحلو فيه فاني سأداعب السيد اسماعيل بعض المداعبة او المعاتبة وهو الصديق القديم وطالما داعبني وداعبته ولا سيما في علوم الاحياء

في الصفحة ١٦٠ أصلح ما يأتي ، وأما الشحم والدهن فسأعود اليهما في فرصة أخرى بل الفرض هو قولك الدهن وكان يجب ان تقول الشحم وهذا ليس فرضاً عليك بل انت مخير فيه اذا شئت أو هو واجب او مستحب .ثم قلت هناك في طائفة من الحيوانات اللبونة انها من الثديية واذكر أني في مقتطف ابريل سنة ١٩٣٦ قلت اللبونة وبينت الاسباب وانت فضلت الثديية . فاللبونة تلمذ زلزل واخذها عنهُ صاحب المقتطف ثم اخذها عن المقتطف جماعة من الادباء منهم طبيب مشهور في مصر اسمهُ الدكتور محمد عبد الحميد بك فقد قالها في المقطم بالامس وطبيب آخر اسمهُ الدكتور نجيب محمود ذكرها في كتاب اصول الطب البيطري والدكتور حسين زكي في الرسالة قالها عن الاطوم في عدن في العدد ٢٥٣ من مجلة الرسالة واظنك قرأتها لان لك مقالة في العدد عينه وقالها ادباء كثيرون في بيروت ودمشق وبغداد ولست في حاجة الى اثبات شيوعها. ثم انهُ ليس لهذه الطائفة

اثداء منها القنفر والابوسوم وغيرها فان لم تستحسن ذكر زلزل فانسبها الى المقتطف واحد منشئيه عضو الآن في المجمع واظن رئيس تحرير المقتطف ذكرها لايام مضت . فلا تقل بعد الآن ندية فهذه من ايام قلاوون او ابن طولون . كذلك طائفة اخرى سميت الزواحف وانا قلت الزحّافات بصيغة المبالغة نقلاً عن الاب انستاس العضو في المجمع . ثم تحول الى الصفحة المقابلة فتجد هناك الزلال وهي عامية او مولدة لم اعثر عليها الاَّ في كتاب كامل الصناعتين في الطب البيطري . وقلت ان الصواب الآح او بياض البيض . فغير الزلال اكراماً لي ولصاحب التاج فقد ذكرها في المح وقد كان اماماً في اللغة رحمة الله عليه

ثم انتقل معي ايها الصديق الى ص ١٧٧ فتجد هناك القصيمة العالية الذكر وقد تقدم انها لاتصلح بتاتاً وان الانبوبي والقُصبة اصلح منها كثيراً

أما التصنيف فأنت حرٌ في التصنيف الذي يطيب لك . أما أنا فقد ذكرت تصنيفي في معجم الحيوان واني لا أرى التصنيف من شؤون مجمع اللغة فالاعضاء من جهابذة اللغة ومع شدة احترامي لك ولهم فانهم ليسوا من الاحيائيين أو من علماء المواليد ولا أنت منهم بل ربما لايعرفون عنها شيئاً وانما أقول ان تصنيفي متعوب فيه فكل كلمة فيه مكتوبة بعد البحث الدقيق فلك ان تخالفني فيه أو في بعضه وما يأتي هو بعض ماخالفتني فيه وما قلت في معجم الحيوان فالاولى هو ما قلتهُ في معجم الحيوان ص ١٦ وما يليها ثم تصنيفك في أماكن مختلفة من مجلة اللغة أشير اليها بالصفحة

رتبة . مجمع الفصائل المتشابهة (زلزل) Order

هذا ما قلتهُ في معجم الحيوان وقد نسبتهُ الى زلزل لاني وجدت تعريفه أفضل تعريف ولكنهُ ليس لزلزل بل هو أقدم تصنيف فهو للواليدي المشهور أحمد ندى ذكره في كتاب الآيات البيِّنات في علم الحيوانات وأخذه عنهُ بوست وعلي رياض وزلزل وغيرهم فان علماء تلك الايام كانوا أكثر تساهلاً مما نراه الآن فيأخذ الواحد ما للآخر متى كان الاصطلاح صحيحاً . أما انت أيها الصديق فقد خالفتنا جميعاً لا لسبب بل لتقول انك تخالف فسميت الرتبة قبيلة ص ١٦٤ من المجلة وسنأتي القبيلة بعد ذلك . فهل تريد انهُ اذا أنعم عليك جلالة الملك بوسام او رتبة ان يقال أنعم على اسماعيل مظهر بالقبيلة الفلانية من الدرجة الفلانية فانهُ يجب ان يكون تناسباً بين الالفاظ المختلفة باختلاف المعاني

قبيلة Phylum

هي في الاحياء قسم من أقسام المملكة أفرادها من أصل واحد واللفظة يونانية معناها قبيلة

والقبيل بمعناها وجمع القبيل قبل وهو غير مأنوس بهذا المعنى ويحتاج الى اجهاد الفكر وتفسيره في الاستعمال أما القبائل ففي غنى عن ذلك

هذا هو التعريف بنصه على ما ورد في معجم الحيوان . ولعلك تذكر في السنة التي قبل الماضية انك قلت في المقتطف قبيلة وجمعها على قبل فداعبتك مداعبة لا أظنك نسيتها فجئتنا الآن بالامة صفحة ١٧٠ من المجلة ولا أدري من أشار عليك بذلك. وسأبين لك في ما يلي انه لا يمكن غير القبيلة فان كلمة قبيلة قديمة في اليونانية وكانوا ينحتون كلمة ثانية منها هي فلارخ ومعناها رئيس القبيلة او زعيمها وكانوا يستعملون هذه الكلمة أي فلارخ على الطريقة الانكلوسكصونية لملك العرب أيًا كان مثل امرىء القيس وكل ملك من ملوك غسّان . أما الملك عند الروم على ما تعلم فهو باسيليوس لكنهم ما كانوا يستعملون هذه الكلمة الا لهم لانهم شعب الله الخاص وكان جميع ملوك العرب فلارخ كما تقدم أي رئيس القبيلة او زعيمها

طائفة Class

جماعة كبيرة من الاحياء دون القبيلة وفوق الرتبة وقالوا أيضاً قسماً والقسم غير ذلك وقد تقدم . وقال أساتذة بيروت صفًا لان الصف عندهم للتلامذة بمعنى سنة دراسية واحدة . وقال أساتذة الترك صنفاً وهذه لا بأس بها لولا ان المناطقة استعملوها بمعنى آخر سيأتي ذكره . وقال الدكتور زلزل طائفة فاختار المؤلف هذه اللفظة وكنت أود لو قال طبقة ولكن طائفة سابقة لذلك

أما أنت فقلت أولاً في المقتطف الصف ولم تقل ذلك الا لمخالفتي ثم عدلت عنهُ الى الشعب ص ١٧٠ من مجلة المجمع ولعلك أو لعل الذي أشار عليك بذلك أحب ان تكون المقولات من الجماعات الواردة في كتب اللغة أو ليست الطائفة من هذه الجماعات ولعلك لما رأيت اسم زلزل واسمي نفرت منها وأنا لا أعهد فيك ذلك أيها العزيز فالطائفة أحسن ولو أن زلزل قالها وأنا اخترتها

باب Category

اصطلح المؤلف على باب كما في بعض الامثلة المتقدمة ولا بأس من قولنا فصل . أما في المنطق فمقول ومقولة والمقولات العشر أشهر من ان تذكر

قلت وكنت أفضل ان أقول مقول ومقولة كما في المنطق لكن رئيس تحرير المقتطف اعترض على هذه الكلمة لغرابتها فاستعضت عنها بالباب والمقول والمقولة أفضل لانها ترجمة الكلمة المنطقية وقد استعملها زلزل وهو من كبار المواليدين

أما السيد اسماعيل فضرب بهذا عرض الحائط وقال طبقة والكلمة الحقيقية مَقول ومَقولة



تصوير ما يُشَمّ

من زهر الورد وحب المسك

تضع حبة المسك في غرفة فتشمّ رائحتها في تلك الغرفة يوماً بعد يوم، وسنة بعد سنة وهي لا ينقص ثقلها شيئاً محسوساً . ولا تفوح رائحتها في هواء الغرفة كلّ هذا الزمن الاّ اذا خرج شيء منها كل يوم وكل ساعة وانتشر في هواء الغرفة المتجدّد فيصل الى الانف ويؤثر فيه . فما هو هذا الشيء الذي يخرج من حبّة المسك؟ أغاز صادرٌ منها ام اهتزاز في الاثير كاهتزاز الضوء أم حبيبات دقيقة تحمل الرائحة او هي الرائحة نفسها؟ هذا ما لم يتفق عليه العلماء إلى ان جاء العالم الفرنسي « ديفو » Devaux فأثبت بالبرهان العلمي المصوّر صحة الرأي الثالث

ذلك ان زوار المعرض الدولي للجمعية الملكية للتصوير الضوئي بلندن في الصيف الماضي وقفوا امام صور غريبة لا شكل لها ولا قوام ولا صلة بجسم معروف فكأنها خيالات احلام او اوهام حشاشين. وعندما امعنوا النظر فيها رأوا تحتها وصفاً أخذهم دهشة اذ علموا انها صور ضوئية لروائح معينة منها رائحة الورد ورائحة الزنبق وغيرها وان المصوّر يدعى بريتنباخ وانهُ صوَّر بها تجارب علمية يقوم بها الاستاذ « ديفو »

والاستاذ ديفو شيخ وقور سمح الطلعة قضى اربعين سنة باحثاً عمّا نشمه عند ما نفتح زجاجة من العطر او عندما نقرب من انفنا قرنفلة او زنبقة او حبة من المسك او قطعة من الكافور أو بيضة نتنة او قيراً مصهوراً . فهو زعيم علم جديد لا يزال في مهده نعني علم الروائح ويعرف باللغات الاعجمية باسم « الاوسميكس » واصله كلمة اوسميل Osmyl التي تطلق على كل جسم لهُ رائحة . وتجاربهُ هذه أثبتت اثباتاً قاطعاً لكل ريب بان ما نشمهُ هو دقائق متناهية في الصغر تنطلق من الجسم ذي الرائحة ، فتؤثر في جهاز الشمّ في باطن الانف وتنتقل رسالتها العصبية على اعصاب الشم الى المركز الخاص بها في الدماغ

فما طريقة الاستاذ ديفو التي أفضت الى تأييد هذا الرأي ثم أفضت الى هذه الصور العجيبة ؟

هوذا خوان عليهِ وعاء قائم على أربع قوائم وفي الوعاء طبقة من الزئبق عمقها أربعة

مليمترات . ثم هوذا الاستاذ ينظف سطح الزئبق بامرار حرف زجاجي عليها إمراراً لطيفاً . وبعد ذلك يضع قليلاً من مسحوق الطلق المتناهي في نعومة دقائقه . ثم يتجه الى خوانٍ آخر فيأخذ منهُ لوحاً من الزجاج يثبت عليهِ بورق اللصق ورقة منتزعة من زهرة ورد او زهرة ياسمين او زهرة قرنفل ثم يضع اللوح فوق سطح الزئبق على بعد قليل منهُ وورقة الزهرة الى جهة الزئبق

***

أنظر الى دقائق المسحوق الابيض وقد أخذت تتحرك وتنتشر ببطءٍ . ها هي ذي بقعة صغيرة على سطح الزئبق تحت ورق الورد تماماً قد زال منها المسحوق . لا ريب في ان شيئاً منطلقاً من الورقة أخذ يدفع دقائق المسحوق أمامهُ ليحلّ محله . فاذا أحللت قطعة من الكافور أو زهرة الليمون او أي زهرة من أزهار أشجار الفاكهة محل ورقة الورد ، رأيت التحوُّل في انتشار المسحوق على سطح الزئبق عنيفاً ، كأن هناك أعصاراً او زوبعة صغيرة . هذا التبدُّل في انتشار المسحوق على سطح الزئبق بفعل الدقائق المنبعثة من الجسم ذي الرائحة هو ما تراه مصوراً في هاتين الصورتين . وقد عني ريتشباخ بتصويره بأجهزة التصوير الضوئي العادية ، وأجهزة التصوير السينمي . ولا يخفى ان الدور الذي يقوم به المسحوق الابيض في هذه التجارب انما هو لاظهار الحركة التي تتحركها الدقائق الصغيرة المنبعثة من الاجسام ذات الرائحة

وقد صرَّح الاستاذ ديفو بأنهُ ثبت لهُ من تجاربهِ ان الاجسام ذات الرائحة فقط تدفع مسحوق الطلق بالشكل المتقدم . أما الاوراق والازهار والاجسام التي لا رائحة لها فلا تؤثر هذا التأثير فيهِ . واذا حركت غشاء الزئبق بعد اجراء احدى هذه التجارب انبعثت منهُ الرائحة الخاصة بالزهرة — او غيرها من الاجسام — التي جربت بها التجربة . وفي هذا دليل على ان دقائق مادية انطلقت من الزهرة تحمل رائحتها أو هي الرائحة نفسها . وهذا يعني اننا لا نستطيع ان نشبه الروائح بالالوان . فالالوان لا وجود لها الاَّ في شبكيات عيوننا وأدمغتنا فهي التي تفسر ما يؤثر فيها من الامواج فنقول هذا أحمر وذاك أزرق وذلك أخضر

***

* يموت ألوف من المواشي كلَّ سنةٍ بلحسها الدهان الطريّ الذي على مباني المزارع

* كان قدماء المصريين يصفون مرض الجذام بأنه « الموت قبل الموت »

* تدل التجارب على أن الأسماك تشمُّ وتستطيع أن تميز الالوان الزاهية

* يقول أحد أطباء السفن أن الحقن بالاتروبين علاج سريع للدوار وغثيانه

* صنع جهاز تلغرافي جديد يجعل من المستطاع نقل ٩٦ رسالة برقية على سلك واحد في جهة واحدة

فوائد النحاس الاحمر والفضة

قتل الميكروب — مقاومة البلهارسيا بمصر
حفظ عصارات الفواكه وطريقة ماتزكا Matzka

النحاس والميكروبات من ٣٠ سنة

كتبت في «مجلة المحيط» لصاحبها المرحوم المأسوف عليه الاستاذ عوض واصف في جزء مايو سنة ١٩٠٧ اي منذ أحدى وثلاثين سنة النبذة الآتية وذلك في باب اخبارها العلمية فأردت اعادة نشرها الآن تمهيداً للاكتشاف العلمي الحديث الذي سنصفه فيما بعد. واليك تلك النبذة القديمة الجديدة: —

قال جراح انكليزي في منافع النحاس الاحمر الصحية ما يأتي: —

لمعدن النحاس الاحمر خاصية صحية غريبة وهي اهلاك الميكروبات والوقاية من الامراض ولهذا نصح الناس بالرجوع الى حفظ الماء في الاواني النحاسية، وبصنع الاكواز واقداح الشرب منه كما كان القدماء يفعلون لكي ينجوا من وباء الحمى التيفودية. واذا أردت ايها القارىء تحقيق ذلك، خذ فلساً من الفلوس النحاسية وافحصه بالميكروسكوب فتجده خالياً من جراثيم الامراض ثم افحص ايضاً قطعة من من النقود الذهبية وغيرها من الفضية فتجدها مفعمتين بالجراثيم مع ان النقود النحاسية تتداولها غالباً أيدي الفقراء القذرة الملوثة بأدران الجراثيم ولكن الجراثيم لا تعيش على النحاس الاحمر لانه يهلكها فاذا تلوثت تلك النقود بجراثيم الدفتيريا والكوليرا، ماتت الجراثيم في أقل من ساعتين

النحاس الاحمر والكوليرا

ولا يخفى على القراء أن الكوليرا كثيراً ما تتفشى في بلاد الصين غير أن عدواها لا تسري في بعض البلدان لان أهاليها يخزنون مياه الشرب في صهاريج من النحاس الاحمر. وقد يطمع السياح الذين يفدون على بلاد الصين الى ابتياع هاتيك الصهاريج من الصينيين لجمال منظرها فلا يرضون لان عندهم خرافة فحواها ان صحتهم وسلامتهم متوقفتان عليها فلا يفرطون فيها

قلنا «ليت الخرافات كلها حقيقة وصحية كهذه». ومن هذا القبيل ان عمال النحاس الاحمر في منطقة الريفيرا نجوا من الكوليرا التي تفشت في مركزهم على حين انها تفشت بين اقاربهم واصدقائهم في جميع الاماكن المحيطة بهم فكيف نجوا؟ ان الاواني النحاسية وفتكها الذريع بالجراثيم كانت الواقية لهم من الامراض. وعمد بعضهم الى القاء عدة جراثيم حية من جراثيم الكوليرا والحمى التيفودية في وعاء من النحاس الاحمر وضع فيه ماء للشرب على سبيل التجربة وشربوا منه بعد مضي سبع ساعات فلم يمسهم ضرر لأن الجراثيم ماتت بتأثير النحاس.

(والمقصود بالنحاس هنا الميض بالقصدير)

الشب الازرق وتطهير الماء

وجاء في احدى المجلات العلمية في أوائل سنة ١٩٠٥ أيضاً ان الماء المطهر بالنحاس يشرب بأمان وسلامة لخلوه من الميكروبات فان جزءا من مليون من كبريتات النحاس «الشب الازرق» يطهر مليون جزءٍ من الماء ويوفر ألوفاً من الجنيهات لتطهير مياه الاحواض والخزانات من أضراع المياه algae

وفي هذا الصدد يرى كاتب هذه السطور أن الاواني النحاسية أنفع في البيوت من سائر الادوات سواء أكانت من الالومنيوم أم من الصاج المغطى بالمينا أم غيرها ، وهذا نتيجة اختباره الشخصي منذ اربعين سنة . فهلموا أيها القراء الى متاجر «اولاد محمد علي بك الحسيني بشارع النحاسين» المشهورة بالقاهرة حيث تجدون أفخر وأتقن المصنوعات النحاسية بأزهد الأثمان»

أما أخبار الدوائر العلمية المصرية في هذا الصدد فها هي كما يأتي : —

حفظ عصارات الفواكه

كانت الوسيلتان العامتان لحفظ عصارات الفواكه في الشتاء سليمة من العفن على الدوام قبل اختراع طريقة ماتزكا Matzka التي سنصفها فيما يلي ، هما اولاً : المواد الكيمياوية الواقية من الفساد وثانياً التعقيم بطريقة باستير وهي المسماة بالبسترة Pasteurization

والمعروف أن تلك المواد الكيمياوية تجعل الشراب الذي تمزج به ذا طعم غير مرغوب فيه . وان بسترة الشراب المراد تعقيمه تعقيماً تامًّا تقتضي بغليه غلياناً شديداً بحرارة عظيمة زمناً غير يسير . وهذا مما يغير طعم الشراب ويفسد ما يحويه من الفيتامينات فساداً كليًّا او جزئيًّا ولا سيما اذا احدثت البسترة مع وجود الهواء

فلاحظ فون ناجيلي Von Nageli العالم النباتي السويسري في سنة ١٨٩٣ ان الماء الذي يلامس النحاس الاحمر المعدني برهة ، يكتسب منهُ خاصية مقاومة العفن فكانت تلك الملاحظة العلمية ، باعثاً على لفت نظره الى المعادن الاخرى عساه ان يكتشف فيها ما عرفه في النحاس الاحمر — فتحقق حدسه في معدني الفضة والزئبق اذ تبين له انهما يكسبان الماء تلك الخاصية عينها كسباً اشد كثيراً مما يولده فيه النحاس الاحمر مع ان تلك الفلزات الثلاثة عسيرة الذوبان جدًّا في الماء وكان المظنون اولاً ان دقائق قليلة منها تذوب في الماء ذوباناً فعليًّا فتؤثر فيه ذلك التأثير المطهر

تأثير الفضة في السائل

اما الآن فقد ثبت ثبوتاً حاسماً بأن مفعول الفضة في السائل الذي تلامسه ينشأ من تأكسد سطح ذلك الفلز ثم ذوبان طبقة التأكسد الرقيقة في السائل ، سيان كانت تلك الطبقة اوكسيد الفضة الغروي Colloidal silver oxide اوذريرات فضية مشحونة بالكهربائية وهي المعروفة علميًّا بالمؤينة ionized

فاذا لم تعرض الفضة للهواء ولا للأوكسيجين

أو الحامض الكربونيك ، تجردت من خاصية التعقيم اليسير الذى أشرنا اليه. نعم إن ذوبان أوكسيد الفضة في الماء طفيف جداً ولكنه يكفي لاطلاق ذريرات فضية جمة مشحونة شحنة كهربائية (أيونات) ، في ذلك السائل . وقد ذهب العلماء (في تعليل تمكن الفضة من قتل البكتيريا) بعض المذاهب ثم أجمعوا على أن طائفة من الأيونات الفضية تلتصق بكل واحدة من البكتيريا الموجودة في السائل فتحول دون نموها وتقضي عليها

الاسلاك الفضية في التجبير

وقد استعملت خصائص الفلزات لقتل الجراثيم حقبة من الزمن ، وكان ذلك قبلما أدرك العلماء العوامل الحقيقية التي تقوم بذلك التعقيم ، فقام الجراحون في انكلترا واميركا وغيرهما باتخاذ صفائح الفضة واسلاكها لتجبير العظام الكسيرة وعلاج المريضة منها ويؤيد ذلك الحادث الآتي وقد اثبتناه بنقلنا في مجلة المحيط لصاحبها المرحوم الاستاذ عوض واصف في جزء يوليه سنة ١٩٠٦ وها هو : (فتاة ذات جمجمة فضية) اصيبت فتاة اوربية اسمها راشيل روزنبرج عمرها تسعة اعوام في لندن بكسر جمجمتها في أسفل المخ فنقلت الى المستشفى في حالة منذرة بالموت العاجل فعالجها الاطباء بأن استعاضوا عن العظم المحطم بثلاث قطع رقيقة من الفضة حجم كل منها يعادل الشلن فبرئت من سقمها على أثر هذه العملية المدهشة في زمن يسير وعادت الى بيتها صحيحة الرأس ، فتوافد الاقرباء على المنزل لعيادتها وزيارة والديها فصارت راشيل تكشف الضمادات عن رأسها لترى رفيقاتها الصغيرات ما وضعه الاطباء في رأسها من الفضة »

وفي عصر السفائن الخشبية كانت صفائح النحاس الاحمر تثبت في الهياكل الخارجية للمراكب وذلك تحت خطوط عومها منعاً لالتصاق النباتات المائية — الاضراع — algae والحبوينات الصدفية الدقيقة بها . (الضريع وجمعه أضراع نبات في الماء الآجن له عروق لا تصل إلى الأرض . عن الفيروزابادي)

طريقة ماتزكا

وأحدث ما تم في هذا الموضوع أن العلماء قد تذرعوا بخصائص الفلزات المهلكة للجراثيم oligodynamic تذرعاً واسع النطاق ، إلى تعقيم المياه وغيرها من السوائل إذ ثبت لهم أن الحرارة المرتفعة إرتفاعاً معتدلاً تزيد تأثير الخصائص المعدنية في إبادة الجراثيم زيادة كبيرة فسموا هذه الطريقة باسم ماتزكا Matzka فاستفادوا من هذه النتيجة نقص الذرات الفضية التى يستعملونها للتعقيم نقصاً كبيراً عما تقتضيه الطرق الأخرى إذ اتخذوا جهازاً يسخنون فيه السائل المراد تعقيمه بحيث يجعلونه يلامس الفضة مباشرة في مساحة كبيرة جداً في باطن الجهاز . وفي هذه الحالة يكون مقدار الفضة الذي يذوب في السائل أقل من جزء واحد في مائة مليون جزء من السائل المرغوب في تطهيره . وعلى حين أن المرء لايكاد يصدق أن

الفضة المركزة بذلك القدر اليسير ، تؤثر في البكتيريا فتهلكها قد أثبت فوج من الباحثين أن المقادير التي تقل عن ذلك ذات تأثيرعظيم محقق في مثل تلك الحالة الملائمة . وأيضا عند إحداث هذا التخفيف يكون عدد الذرّات الفضية الموجودة في كل سنتيمتر مكعب من السائل كبيراً جدًّا بحيث أن السائل المحتوي على هذا المقدار الضئيل من الفضة إذا اشتمل على مائة ألف بكتيريا في كل سنتيمتر مكعب ، استهدفت كل واحدة منها لتأثير الملايين من أيونات الفضة

كبريتات النحاس ومقاومة البلهارسيا

وجاء في محاضرة ألقاها حضرة النطاسي الدكتور محمد خليل بك عبد الخالق على طلبة طب المناطق الحارة : ـ كبريتات النحاس من أفيد الطرق المستعملة في مصر الآن لمقاومة البلهارسيا وكان أول من اكتشف تأثيرها الناجع في قتل البكتيريا المستر أندو الصيني Ando ويظهر هذا التأثير وإن كانت الكبريتات النحاسية مخفضة بنسبة ١ / ١٠٠٠٠٠٠ فتقتل القواقع . والنحاس الأحمر تأثير شديد في الكائنات الحية الدنيئة من النباتات والحيوانات (كما تقدم القول) وقد استعمل منذ سنين لقتل أضراع الماء الأخضر ... في صهاريج الشرب وحمامات السباحة إذ تمزج كبريتات النحاس بالمياه لتنظيفها وقتل ما عساه يشوبها من الكائنات النباتية . وفي صهاريج من مياه الشرب تجعل الكبريتات النحاسية بنسبة ١ / ١٠٠٠٠٠٠٠ فتختفي الكبريتات بعد انقضاء ٢٤ ساعة إذ تتحد بالمواد العضوية التي في المياه وترسب في قعر الصهريج . وقد ثبت بالتجارب العملية في ري حقول الذرة والقطن وغيرها بكبريتات النحاس المخففة بنسبة ٥ / ١٠٠٠٠٠٠٠ بأنها لاتضر المحصولات . وكذلك البزور التي تنقع عدة أيام في هذا المحلول المخفف بالنسبة عينها تزرع وتروى بالمياه نفسها فتنمو نمواً طبيعيًّا . والقواقع تتأثر تأثراً تامًّا بكبريتات النحاس فاذا وضعت محلول كبريتات النحاس بنسبة أقل من ١ / ١٠٠٠٠٠٠٠ في مخبار محتوٍ على القواقع قتلها في ٢٤ ساعة . وعند استعمال ذلك المحلول المخفف في ترع الري يجب أن يكون بنسبة ٥ على مليون فتختفي منها اربعة اجزاء باتحادها بالمواد الاخرى

ويبقى الجزء الخامس لقتل القواقع . وقد جربت هذه الطريقة في بلدة وردان ثلاثة أشهر فأسفرت عن النتيجة نفسها ، غير انها قتلت سمك البياض إذ تبين انه لم يحتمل مفعول الكبريتات النحاسية فنفق ووجد طافياً على سطح الماء

عوض هنري

***

* ليس في عنق الزرافة من الفقرات أكثر مما في عنقك أو عنقي

* يقال أن البرداء (الملاريا) تسبب مليون وفاة في الامبراطورية البريطانية كل سنة

* يختلف البرتقال عن معظم الفواكه في انهُ لاينضج بعد قطفه



تاريخ مديرية خط الاستواء

من فتحها الى ضياعها من سنة ١٨٦٩ الى سنة ١٨٨٩ في ثلاثة اجزاء
تأليف صاحب السمو الامير الجليل عمر طوسون — مطبعة العدل بالاسكندرية

ان سمو الامير عمر طوسون فخور دائماً بتاريخ الجيش المصري خلال القرن التاسع عشر . ذلك الجيش الذي سجل له بين جيوش العالم أنصع الصفحات في اعمال الفتح المجيد. ذلك الجيش الذي ألفه محمد علي فاستحلّ به النظام في مصر محل فوضى المماليك . هذا الجيش الظافر دائماً الذي فتح أعماله العسكرية في بلاد العرب المقدسة ثم في سوريا وآسيا الصغرى وكريت والمكسيك وبلاد البلقان والروسيا وفي أواسط أفريقية . وهو الذي فتح السودان وعمره وأخيراً أعاده في عام ١٨٩٨!

يخرج اليوم سمو الامير كتابه الجديد تاريخ مديرية خط الاستواء المصرية فيقدم لمواطنيه الذين يجلونه ويقدرون أعماله الخالدة ، تراثاً طيباً عن آثار الفتح المصري في قلب أفريقية — التي تسمى بحق قارتنا، فقد أهمل مؤرخونا للأسف التحدث عن هذه النواحي القومية فجهلناها جهلاً تاماً . وإن كان المؤلفون الاجانب قد تحدثوا عنها كل واحد من ناحية مأربه الخاص ومآرب وطنه . فقد تحدث عنها الانجليز صمويل بايكر وكولفيل وجاكسون وستانلي وونجت . وألف عنها الفرنسيون والالمان والايطاليون والاميركيون أمثال شاييه لونج وأمين باشا وشوينفرت وجونكر وبونولا بك وكازاتي وجيسي وغيرهم لكن لم يتقدم لبحث الجهود المصرية أحد من المواطنين

وكأن هذا الامر قد عزّ على سمو الامير العالم فعزم على أن يقوم بنفسه بالعناية بما أهملناه خلال الاجيال السالفة ، فحقق لنا أمنية طالما تمنينا تحقيقها وأخرج لنا تاريخ حلقة مفقودة من تاريخ مصر في القارة الافريقية ، كانت الى الامس مجهولة ومفقودة باللغة العربية

والجزء الاول من هذا السفر النفيس يشتمل على تاريخ مديرية خط الاستواء من سنة ١٨٦٩ عندما تولى حكمها السير صمويل بايكر باشا بأمر المغفور له الخديو اسماعيل الى عام ١٨٧٣ بمرسوم منحهُ فيه سلطة مطلقة لاخضاع النواحي الواقعة في جنوب غندوكرو ولابطال النخاسة ولانشاء تجارة منظمة

وكانت الحملة التي ذهبت لتحقيق هذه الاغراض تتألف من ١٤٠٠ جندي مشاة وبطاريتين من المدافع وبعض قوات الفرسان (السواري) التي تركها في الخرطوم

ويصف لنا الأمير المؤرخ مراحل هذه الحملة منذ غادرت مصر ووصولها الى الخرطوم وفاشودة والدبة وما لاقته من الصعاب . ثم انشاءها محطة التوفيقية لتكون مقراً للاسطول . ثم وصول السرصمويل بايكر الى غرضه الاول غندوكرو واخضاعه لقبائل تلك الجهات واتصاله بملك اوغنده . وبانتهاء خدمته عاد الى القاهرة وحظي بمقابلة الخديو الذي أنعم عليه بالنيشان العثماني من الدرجة الثانية

وبعد سفر السير صمويل بايكر عين الاميرالاي محمد رؤوف بك مديراً لمديرية خط الاستواء لكونه كان أرقى الضباط الذين كانوا معه . الا انه لم يظل طويلاً في منصبه حتى عين عام ١٨٧٤ غردون باشا بعد مصادفة عجيبة . فقد كان غردون العضو البريطاني في لجنة للدانوب تعمل في الاستانة فتعرف به الوزير المصري نوبار باشا وسأله هل يعرف ضابطاً من فرقة المهندسين العسكريين يقبل أن يخلف السير صمويل . فطلب التفكير في الامر الى أن كتب له بأنه يقبل هذا المنصب اذا رضيت الحكومة البريطانية !

وكان أن وافقت حكومته على هذا الطلب وجاء الى مصر فقابل الخديو وعين في عمله الجديد واختار القائمقام الاميركي شايه لونج ليكون أركان حربه ورافقه مع الحملة الملازم الاول حسن واصف بصفته ياوراً لغردون وهو الذي شغل مناصب متعددة في الجيش وعين فيما بعد مديراً لاسيوط. وذكر لنا سمو الامير رحلة غردون الى مقر عمله عن طريق سواكن والخرطوم ومنها الى بور وغندوكرو . وبوصوله عاد رؤوف بك الى مصر

ووصف سمو الامير اعمال غردون في خط الاستواء باسهاب واف فذكر التجريدات المختلفة التي قامت بها الجنود السودانية والمصرية واحتلاله لبلاد نيام نيام ومكراكا ولادو وجميع الجهود التي بذلها في سبيل نشر النفوذ المصري

و في عام ١٨٧٦ عاد إلى مصر فرحب به الخديو وخلفه البكباشي بروت من أفراد البعثة العسكرية الأميركية

وفي عام ١٨٧٧ استعفى تخلفه على حكمدارية المديرية الاميرالاي ابراهيم فوزي بك . ثم الدكتور امين باشا (١٨٧٨ — ١٨٨٩) وكان ألمانياً اعتنق الاسلام وفي الفصول الخاصة به وصف لنا سمو الأمير جميع الادوار التي لعبها هذا الطبيب في مديريتنا المفقودة وكانت مدته اطول مدة قضاها أجنبي في خدمة الحكومة المصرية في تلك البلاد. وقد شملها سمو الامير الجليل بعناية دقيقة استغرقت كامل الجزء الثاني من مؤلفه النفيس وعدة صفحات من الجزء الثالث فذكر لنا

كيف انتهت خدمته بل وحياته سنة ١٨٩٢ . فهو يصف بتفصيل دقيق اشهر رحلات الأجانب فى تلك الفترة وأهمها رحلة الطبيب يونكر الألماني والكابتن كازاتي الإيطالى وقد تناولا وصف تلك البقاع وعادات أهلها وحيواناتها وتعد كتابتهما عن تلك البلاد مرجعا فاخراً لكتاب العصر الحديث

والجزء الثالث من هذا السفر يشتمل على أهم حوادث الأقليم المصري من عام ١٨٩٠ الى ١٨٩٩ لما قامت حملة المستكشف الانجليزي ستانلي وبدأت الخطوات الأولى فى سبيل انتزاع مديرية خط الاستواء من المصريين بعد جهود السنين الطوال وما بذل فيها من دماء مصرية والتمهيد لحوادث السودان التي انتهت بنشوب الثورة المهدية وضياع السودان

وضياع السودان هو الفصل الختامي للكتاب

فى هذا الفصل يظهر لنا الأمير الجليل كما عرفناه جميعاً المدافع عن حقوق مصر في السودان بجميع الوسائل . فهو يستشهد بأقوال أقطاب رسميين من الانجليز ووثائق حكومية ورسائل ومجادلات برلمانية ... الخ وقد جمع فيه كل ما كتبه سمو الأمير للحكومة البريطانية من خطابات تتعلق بحقوق مصر في وادى النيل وما كتبه لامهات الجرائد الانجليزية وهذا الفصل يعتبر وثيقة نادرة فى التاريخ المصرى بالسودان . وفى ختام الفصل يبين سموه اطماع انجلتره فى امتلاك مديرية خط الاستواء المصرية والتي كان باحتلال مصر لها قد تم وضع يدها على وادي النيل برمته من منابعه فى منطقة البحيرات الى مصبه فى البحر المتوسط

وقد ذيل الكتاب بمراجعه التي عاونته على إخراج هذا السفر النادر من كتب عربية وانجليزية وفرنسية وألمانية . وهي تربي على الخمسين في عددها

ولا يخلو الكتاب أيضاً من فهرست مطول للاعلام التي ورد ذكرها ولا سيا القبائل والجماعات . فيسهل به الرجوع الى محتويات الكتاب

ان قراءة كل صفحة من صفحات هذا الكتاب التي تربي على الالف لتذكر المصريين بما كانت عليه بلادهم في القرن الماضي . فعلينا ان نذكر دائماً تلك الاقاليم الافريقية الشاسعة التي كانت تتألف منها الامبراطورية المصرية والتي كان يرفرف عليها في يوم من أيامنا المجيدة العلم المصري

وعلينا أن لا ننسى كلمة المغفور له الملك فؤاد طيب الله ثراه

« إن الشعب لا يدرك سر مستقبله حتى يرجع بذكراه الى ماضيه فيقدس تاريخ أسلافه ويقدر أعمال أبطاله »

« كولونيل »

المنسوجات القطنية في الشرق الادنى خلال العصور الوسطى

Cotton in Medaevial Textiles of the Near East; Carl Johan Lamm; Librairie Orientaliste, Paul Geuthner, Paris; 1937

للاستاذ الدكتور كارل جوهان لام استاذ الفنون الاسلامية سابقاً بمعهد الآثار الاسلامية بالقاهرة

يذكر خريجو معهد الآثار الاسلامية وطلبتهُ محاضرات استاذهم القديم الدكتور كارل لام عندما كان يحاضرهم في الفنون الاسلامية منذ عام ١٩٣٣ . كما نذكر له بالاعجاب ابحاثه العميقة في الدراسات الفنية التي ينشرها حيناً بعد آخر في مجلة جمعية الآثار القبطية ومجلة الفنون الاسلامية التي تصدر بامبركا Ars Islamica فان الاستاذ لام في طليعة المستشرقين المتضلعين من تاريخ الفن الاسلامي كما أنهُ يعد بين العلماء القلائل الذين أسدوا أجل الخدمات الى الفنون التي تتصل بلادنا . ومن هؤلاء ڤييت وكريسويل وكونبل والمسز ديفونشير والدكتور زكي حسن ومحمود احمد ومايرهوف

وليس الكتاب الذي يخرجهُ اليوم الاستاذ لام نتيجة لدراسة دامت عاماً أو عامين بل هو نتيجة موفقة لابحاث استمرت اعواماً طوالاً قضاها يبحث وينقب عن كل ما ذكره المؤلفون القدماء والمحدثون في الكتب والمخطوطات أو ما شاهده من قطع المنسوجات التي وقع عليها نظره في المتاحف المصرية ومجموعات الهواة في مصر او متاحف البلدان الشرقية باوربا . فان النظرة الاولى التي يلقيها المطلع على صفحات الكتاب تجعله يدرك كيف استطاع الاستاذ لام ان يجمع شتات هذه المعلومات الفياضة الوفيرة ويقدم على عمل الرسوم الدقيقة التي استعان بها على شرح مؤلفه . ولكن الذين اطلعوا على مؤلفات الدكتور لام التي كتبها عن الزجاج الشرقي والخزف الاسلامي والمنسوجات الاسلامية وصناعة الخشب في مصر الاسلامية والتي كتبها في باريز وبرلين واستوكهلم والقاهرة وامستردام يعلمون أن مؤلفه الضخم في المنسوجات القطنية في الشرق الادنى كتبهُ على منوال مؤلفاته السابقة التي تكون جانباً معروفاً في مكتبة الفن الاسلامي . ويمتاز مؤلفه القيم : — "Mittelalterliche Glaser und Steinschnitt arbeiten aus dem Nahen Osten„ المطبوع في جزئين كبيرين عام ١٩٣٠ برلين سيظل دائماً عملاً مثاليًّا ينظر اليه الباحث في الفن نظرة تقدير وحب واحترام

***

وأهم نقطة وفق اليها الدكتور لام في كتابه الجديد اثباته ان نبات القطن كان عنصراً

رئيسياً شاع استعماله في صناعة المنسوجات بدرجة كبيرة لم يكن أحد يتوقعها قبل اليوم

وفي مقدمة مشتملات كتاب الاستاذ لام الذي أخرجته باتقان مطبعة بول باربيه في القاهرة تلك الفصول الطويلة التي يبحث كل فصل منها عن بلد من البلدان التي استعملت القطن في منسوجاتها. وهذه البلدان التي تناولها الدكتور ، هي الهند وتركستان الغربية وآسيا الصغرى واليونان وبلاد العرب وسوقطرة والصومال وزنجبار والحبشة والسودان ومصر والنوبة وبلاد المغرب واسبانيا

وقد حلي الكتاب بخمس وعشرين لوحة فوتوغرافية جميلة تصور أهم قطع المنسوجات التي فحصها الدكتور لام ، سواء احتوت على نبات القطن أم لم تحتو عليه . ولا يدهش القارىء إذا علم أن هذه القطع النفيسة لا يشتمل عليها متحف واحد من متاحف الفنون بل منها ماوجده في دار الآثار العربية ومنها ماعثر عليه في المتحف الوطني في استوكهلم أو متحف تاريخ الثقافة بمدينة لند (Lund) أو متحف روهس للفنون والخزف في جوتنبرج . أو مما وجده في مجموعة والده المستر كارول روبرت لام ، وقد توفي منذ ثلاثة أشهر بقصره في روزلاج بناسبي ، كان من هواة الفنون المعروفين في العالم

وفضلاً عن تلك اللوحات المذكورة ففي الكتاب عشرات الرسوم التفصيلية للزخارف المنقوشة على قطع المنسوجات. تلك الرسوم من إبداع والدة المؤلف السيدة دورا لام، وهي ابنة أحد مشهوري كتاب الفنون والأمين السابق للمتحف الوطني في استوكهلم . وقد اشتركت السيدة الفاضلة مع ابيها في كثير من أعماله الفنية التي ظهرت في مؤلفاته السابقة

***

ولابد لنا أن نشير الى جهود أحد جنود الفن المجهولين فى مصر وهو الاستاذ مصطفى كامل ابراهيم الذى اشترك مع الدكتور لام فى نقل رسوم المنسوجات بطريقة لايشاركه فيها احد فقدم فناً كثير التواضع يعطي لاعماله مسحة واضحة ، وأعماله عنوان طيب على روحه الفنية ومهارته الرائعة فى سبيل اعلاء شأن زخارف الفن الاسلامي

لقد أضاف الدكتور لام الى سلسلة أعماله كتاباً وأثراً نفيساً جداً سيزدهي به ثبت الكتب التي ألفت عن الفنون الاسلامية . وسيتحقق القارىء عند إطلاعه على ماورد بذيل كل صفحة من التعليقات والحواشي كيف أخرج الدكتور لام كتابه بطريقة علمية منظمة . والحق ان هذا الكتاب الفريد هو للدكتور لام بمنزلة مرآة مصقولة لعقله وتفكيره . ذلك العقل الذي يعرف كيف يحيط بموضوعه من كل نواحيه

عبد الرحمن

السل وعلاجه

تأليف الدكتور فيليب الشدياق — ٣٥٠ صفحة قطع المقتطف بنط ٢٠ — كثير الصور والرسوم
طبع مصر ويطلب من المؤلف وجميع المكتبات بالقاهرة والاسكندرية — ثمنه ٦٠ قرشاً صاغاً

اذا علمنا ان الاصابات بالسل الرئوي التي بُلّغ عنها في القاهرة بلغت ٢٣٠٠ اصابة وان الوفيات منها بلغت الالف في كل من سنتي ١٩٣٦ و١٩٣٧، وان عدد الاصابات التي بُلّغ عنها في الاسكندرية في كلّ من السنتين المذكورتين الف والوفيات خمسمائة، وان مكاتب الصحة أبلغت سنة ١٩٣٧ انها تقدر المصابين بالسلّ الرئوي بـ ١٠١٤ في المليون اي ما يزيد على ١٦ الف مصاب في البلاد كلّها، وانهُ اذا اضفنا الى اصابات السل الرئوي غيرها من اصابات سلّ الجلد الذي لا يبلغ عنهُ ابداً وسل الامعاء والعظام والكلى والمثانة وباقي انواع اصابات السل فلا يستبعد ان يبلغ عدد المصابين بها ٣٠ الفاً في القطر المصري والوفيات ١٥ الفاً، ومعظمهم من الفتيان امل الغد ورجاء المستقبل

اذا عرفنا هذه الحقائق الاحصائية هالنا ماتعانيه هذه البلاد من فتك الدرن ونبهنا الى وجوب العناية ببث التعاليم اللازمة للوقاية منهُ وانشاء المعاهد الوافية للوقاية والعلاج

فالخدمة التي اسداها مؤلف هذا الكتاب الدكتور فيليب الشدياق كبيرة لا تقوّم بمال سواء من الناحيتين العلمية والاجتماعية

فمن الوجهة العلمية ضمن فصول كتابهِ اوفى وأحدث ما يعرف عن مرض الدرن وانواعهِ المختلفة بعد درس مسهب وتخصص دقيق في اشهر معاهد السل في بلدان اوربا . فالكتاب من هذه الناحية يصحّ ان يكون في مكتبة كل طبيب ممارس

وقد طالعهُ صاحب السعادة الدكتور سليمان عزمي باشا أستاذ الامراض الباطنية في كلية الطب المصرية فتفضل وكتب الى مؤلفهِ الكلمة التالية: «تصفحت مؤلف الدكتور فيليب الشدياق على مرض السل — الذي يعلم كل فرد فتكهُ بالانسان والحيوان - ومما لا شكّ فيهِ ان مثل هذا الكتاب ضروري جداً لقراء اللغة العربية لعدم وجود مثلهِ بها . وهذا المؤلف غني بمواضيعهِ واسناداتهِ وقد ناقش الكاتب كل نقطة في الموضوع واوضح آراء اساطين هذا الفن . واني اشكر الدكتور الشدياق على هذا العمل الشاق لانهُ لم يدخر جهداً في القيام بهِ خدمة للطب العربي»

أما من الوجهة الطبية العلمية فاننا نقف عند شهادة الطبيب الكبير عزمي باشا وهي شهادة لها مكانتها العالية من خير

أما من الناحية الاجتماعية فقد وصف المؤلف ما يبذل في بلدان أوربا على أيدي الحكومات

والهيئات الأهلية لمكافحة الداء . خذ مثلاً مايقوله في صفحة ٢٥٥ مثالاً على النقد الانشائي :ـ
هكذا يسير الداء في القطر المصري سيراً حثيثاً ويتفاقم ويعيث فساداً فما نحن فاعلون ؟ لدينا ٤٠٠ سرير في مصح حلوان . وأهل حلوان يتذمرون من وجودها ويطلبون إعفاءهم منها . وهناك مصح العباسية وسيتم إعداده قريباً (المقتطف : وقد تم فعلاً وافتتح بعيد صدور الكتاب) وحتى تاريخ نشر هذا الكتاب ليس في القطر المصري كله سوى ثمانية مستوصفات للأمراض الصدرية مع أنه لو كان فيه مائة مستوصف لما كانت كافية . فالذي عندنا من هذا القبيل ليس سوى نواة لعمل ينبغي أن تتسع دائرته بلا إبطاء . وإذا عدنا في بحثنا إلى أهم نقطة جوهرية في هذه الخدمة الاجتماعية وتساءلنا عما فعلنا لوقاية الاطفال ومساعدتهم في أدوار المرض الأولى ، كان الجواب مع الأسف سلبياً . فأننا لم نفعل شيئاً البتة . وعلى الرغم من البرنامج الذي وضعته وزارة الصحة العمومية وطالبت فيه بعمل هذه الانشاءات فليس في هذه الديار مؤسسة واحدة لتدرّن الأطفال. وكان علينا أن نبدأ بمكافحة السل في الصغار لشدة استعدادهم على نحو ماذكرت قبلاً ، لالتقاط العدوى بأجهزتهم النحيفة وتدرج المرض إلى حالة التعقد الابتدائي . فاذا كانت الاصابة قوية رزح الطفل تحتها ومات . وإذا قلت المقاومة بعد سنين عاد المرض إلى الظهور في سن الشباب . ثم .. هل أنشئت مؤسسة واحدة من المؤسسات المعروفة عند الفرنسيين باسم واقيات Preventoria دفعاً عن الضعفاء من الاطفال عادية المرض أو ايقافاً له عند حد ... »

فكتاب الدكتور فيليب الشدياق جامع بين الناحيتين العلمية والاجتماعية في دراسة السل ومكافحته اوفى جمع ويجب أن يذيع في مصر وسائر الاقطار الشرقية لان ذيوعه يسدي خدمة عظيمة الى صحة الشعوب العربية

مجلة جمعية الآثار القبطية

المجلد الرابع سنة ١٩٣٨ مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة
في ٢٠٨ صفحة — حجم متوسط

الذين يتتبعون تقدم الحركة الفكرية في مصر يستطيعون ان يقدروا الجهود الكبيرة التي يبذلها الاستاذ شارل بشتلي سكرتير جمعية الآثار القبطية حتى اضطرت في العام الماضي ان تتخذ لها اسماً جديداً بدلاً عن (جمعية محبي الفن القبطي) يتفق مع الاعمال العظيمة التي تقوم بها من تنظيم المحاضرات العلمية التي تدعو لالقائها اعلام المشتغلين بالفنون والآثار الى جمع البيانات عن الآثار القبطية والقيم بالرحلات وتنظيم المعارض وتركيز الدراسات الأثرية واللغوية تركيزاً

يسهل الافادة منها ... كل ذلك فضلاً عن إصدار المجلة العلمية السنوية وهي « مجلة جمعية الآثار القبطية »

بين يدينا العدد الرابع وهو يشهد بأن المجلة نمت نمواً سريعاً حتى أصبحت اليوم من خير المجلات العلمية التي تصدر في العالم وخيرما يصدر في مصر على الاطلاق . وذلك بما فيها من آثار جهرة الكتاب الاخصائيين

ويشتمل هذا العدد على إثنىعشر مقالاً أولها للأستاذ فرانسيس جرافت من أساتذة جامعة متشيجان تحدث عن « بيرسك والدراسات القبطية في القرن السابع عشر الميلادي » . والمقال الثاني كتبهُ الاستاذ لام الذي كان مدرساً للفنون الأسلامية في معهد الآثار بكلية الآداب . وموضوع هذا البحث دراسة المنسوجات الصوفية المطرزة في العصر القبطي . وقد كتب الاستاذ ديلامي أوليري بحثاً عن تخريب المعابد المصرية القديمة على يد المسيحيين ذكرنا بما كان بعض علماء الغرب يأخذونه على العرب من تخريب بعض الكنائس أو تجريدها من بعض الأعمدة والتيجان

وكتب الاستاذ هنري مونيه سكرتير الجمعية الجغرافية الملكية مقالاً في نشر المسيحية في جزيرة فيلة . ومن أطرف ما في هذا العدد مقال الدكتور جورجي صبحي بك عن بعض العادات والطقوس والكلمات الباقية من العصور المصرية القديمة في حياتنا اليومية الى الآن . وكتب الاستاذ الدكتور كونيل مدير المتحف الاسلامي ببرلين مقالة عن الأساليب الفنية القبطية في المنسوجات الاسلامية . ولسنا في حاجة الى ان نشيد بذكر الدكتور كونيل فهو حامل لواء الفنون الاسلامية في العصر الحاضر . وقد عرف عنه في أبحاثه الدقة والخبرة الواسعة وحسن الذوق والاطلاع الواسع

وكتب الأستاذ فيت مدير دار الآثار العربية بالقاهرة بحثاً قيماً عن العلاقات السياسية بين المصريين والحبش في عصر المماليك . وكلنا نعلم ان الاستاذ فيت من الاخصائيين الافذاذ في دراسة عصر المماليك والقبط . فلا غرو أن جاء مقاله بحثاً مستفيضاً عن العلاقات المصرية الحبشية يزيح لنا النقاب عن أحداث سياسية هامة

ولا نستطيع ان نلم هنا في هذا العرض القصير بكل ما جاء في العدد الرابع من مباحث . ويكفي أن نذكر أسماء المساهمين في تحريره وهم الاساتذة جراف وتيل ودريتون وبومستر ومونيه وفكري ويسى عبد المسيح عدا من تقدم ذكرهم وتمتاز مقالاتهم بالجدة والطرافة والعمق

فجمعية الآثار القبطية جديرة بالتهنئة على الجهود العظيمة التي تبذلها وعلى النجاح الذي نالته منذ ظهورها ونحن نهنىء القائمين بها من كل قلبنا ونرجو لها التوفيق والتقدم المضطرد (...)

ديوان الجارم

في جزأين طبع مطبعة المعارف

لأستاذنا وصديقنا علي بك الجارم رأي في الشعر العربي وجماله . سجله في المقدمة البليغة التي كتبها في الجزء الاول من ديوانه . وهذه المقدمة على ايجازها تعتبر مقياساً جديداً لتذوق الشعر العربي . وان كان هذا المقياس غير محدود الموازين ولا مضبوطها دائماً . وانما هو مقياس ترجع اغلب الوحدات القياسية فيه الى الحس المرهف والشعور الدقيق

لقد حاول كثير من نقاد الشعر أن يشرحوا القصيدة تشريح الأجسام الحية . فاذا استطاعت أن تقف بعد عملية التشريح البشعة أمام مباضعهم الحادة ومشارطهم المرهفة فهي تستحق أن تسمى شعراً والا فهي كلام موزون . ويخيل اليَّ أن هذا النوع من النقد يتسف كل الاعتساف ، ظالم أشد الظلم . فأن الزهرة الجميلة الناضرة تفقد كل معاني الجمال فيها إذا تناولتها يد بالتشريح والتنثير والتجزيء . وما من شك أن هذه الجزيئات الصغيرة هي اللبنات والملاط والجص التي يتكوّن منها جمال الزهرة وهيكلها الفتان . ولكن هذا الجمال الكلي يضيع إذا جزّيء . ويفقد الحلاوة (وسر الاعجاب) إذا حلل . فجماله في كليته . وحلاوته في هيكله

ولو تابعنا هؤلاء الناقدين في استعمال مقاييسهم الظالمة لخرج أكثر من نعدُّ من كبار الشعراء من زمرة الشعر العالي .... فمن السهل أن تمسك فأساً في احدى يديك ومعولاً في الأخرى وتقول : أني ناقد ... والأحرى بالحق أن يقال عنك : أنك هادم ... ولقد مات « شوقي » فاصبح تراثه الشعري في ذمة الزمن . والزمن أعدل الحاكمين

قضيت شطراً من ليلة من ليالي رمضان مع صديق كريم من رجال الطب ، ولهُ شعر ينشر في الصحف المصرية . ولعل علي بك الجارم يسره أن يعرف أنه كان موضع حديثنا في تلك الليلة . ولم يكن حديثنا عن علي الجارم الا حديثاً عن شعره . ناولني صديقي الطبيب الاديب الجزء الاول من ديوان الجارم . وأراني المآخذ الكثيرة التي يأخذها عليه ... وهو يلم حبي لشعر الجارم . وبحكم الطبع لم يكن دفاعي عن شعر الجارم الا دفاعاً عن شعري . فأني أخشى أن يعتسف الناقدون في شعري الى حد قد يضيع معه أمل الشاعر في تقدير الناس له ...

ولا يضير علي الجارم كما يقول بعض نقاده ــ أن قوله في المديح ‹‹ زين الحمى وفخر الحماة من دارج الكلام لامن متخيره ، ولا يضيره قولهم أن كلمة رنين في البيت الآتي غير مناسبة وكان الاولى أن يقال ضجيج أو أنين أو حداء .. والبيت هو

وانحاز للركب الذي من آدم مازال يزعجنا رنينُ حدائه

ولا يضيره قول النحاة منهم أن الباء تزاد في خبر ليس وما . ولكنها لاتزاد في خبر لا كما يقول في مرثيته لسعد زغلول

وجرى بمُغبّر لا العسير بخاذل أملاً ولا نيل السهى بمحال

ولا يضيره قولهم أن النعت السببي يجب ان يكون مفرداً دائماً . ويراعى في تذكيره وتأنيثه مابعده : فتقول الرجال خاشعة ابصارهم . والنساء خاشعة ابصارهنَّ لا كما يقول الجارم في قصيدة دمعة على صديق

يمشي الرعيل نواكساً ابصاره من بعد ماعبث الردى بحماته

وكان الأولى والاصح أن يقول ناكسة ابصارهم

ولا يضيره ان يقولوا ان الجارم مولع باستعمال الكنايات عن الموصوفات . وهو ولوع — كما يقولون — لا يدل على شاعرية وانما يدل على صناعة عرف بها شعر الجارم . فهو يقول سليل الطين [1] بدلاً من الانسان ، ويقول ابن الليل بدلاً من القمر ، ويقول بنت [2] عدنان بدلاً من اللغة العربية محاولاً بذلك ان يقلد كنايات القدماء الجميلة المنثورة في كتب الادب والشعر

لا يضير الجارم الفحل شيء من هذا . فمدي بن زيد لم يضره قول الناقدين ان قوله ويلومون فيك يا ابنة عبد الله والقلب عندكم موثوق

خطأ والصواب موثق . والحارث بن حلزة لم يضره قولهم أن قوله

أجمعوا امرهم بليل فلما أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء

خطأ والصواب أصبح لان الضوضاء مذكرة . وأبو تمام لم يضره قولهم ان قوله

ولو كانت الارزاق تجري على الحجا هلكنَ اذاً من جهلهنَّ البهائم

خطأ والصواب هلكت لان الفعل لا يأخذ فاعلين . وبالامس أقاموا الدنيا وأقعدوها على شوقي بك لانهُ أنث الرفات والواجب تذكيره في قوله في رثاء سعد

يا رفاتاً مثل ريحان الضحى كللت عدن بها هام رباها

الجارم شاعر ولكننا لانستطيع أن نفض خاتم السحر في شعره كما يقول هو عن البحتري. وأنا شخصياً لا أستطيع أن أفهم لماذا أحب حبًّا جمًّا شعر شوقي وعلي محمود طه وأحمد محرم وعلي الجارم

كنت أتحدث مع أديب كبير عالي الثقافة كثير الانتاج ، عن النقد والأدب والشعر فقال أن النقد العربي فوضى غير مضبوط ولا محدود وليست لهُ عند العرب مقاييس محدودة . واني

(١) جـ ٢ ص ٤٦ سطر ٦ (٢) جـ ١ ص ١٥٧ سطر ٦

أرى في هذا المقام أن مقاييس الأدب غير مقاييس الشعر . فليس من الهين أن تضع للشعر — وخاصة الشعر العربي — مقاييس محدودة متمايزة . فمثل هذه المقاييس يذهب بالجمال الشعري .

وليس الجارم شاعراً باعتبار المقياس الذى وضعه هو في مقدمته للجزء الأول . وإنما هو شاعر باعتبار كل نفس تحس الجمال وتدركه — تحسُّ بهِ في اللفظ المختار ، وفي الكلمة في موضعها ، وفي المعنى في سموه ، وفي الاسلوب في قوته ، فتطرب لكل هذه الامور مجتمعة

وللجارم ميزة ظاهرة في شعره الرصين وهي الانسجام اللفظي او ما يعبر عنهُ بالانجليزية « Rythm » — هذا الانسجام او الموسيقى اللفظية هي بلا شك — كما يقول « Lascelles Abercrombie » في كتابه أصول النقد الادبي — أهم وسائل الانتفاع بالاصوات في الفن الادبي لان هذه الموسيقى هي اكبر أثر فعال في خلق ذلك الجزء من العاطفة او الشعور الذي لا يمكن ان تحيا الاختبارات النفسية بغيره . وهذه الموسيقى هي التي ميزت شعر شوقي ، وشعر علي محمود طه ، وشعر الجارم . وهذه الموسيقى بعينها هي التي ترفع كثيراً من النثر الى مرتبة الشعر مع خلوه من الوزن والقافية

يتهمون علي الجارم بأنه شاعر مناسبات ... وأنا نفسي مكوي بنارهذه التهمة . . وما أبرع النقاد في صب الاتهام ! فالشاعر في عرفهم هوالذي يصور الطبيعة ويصف « الجدول الحالم » أو « الناعورة المذعورة » أو « البلبل المغرد » أو يقول في الحب والعاطفة .. حتى ولو كان قوله هراء وتصويره سخيفاً أو كاذباً .. وغرامه خيالاً

وقد ناقشت أحد هؤلاء النقاد — وهو شاعر أطرب لشعره — وكانت المناقشة أمام حضرة رئيس تحرير المقتطف وبينت له أن شعر المناسبات هو نوع من الشعر لا يحسن كل شاعر الكلام فيه . . . أو أنهُ مثل غيره من ضروب الشعر اعراب عن شعور خاص تثيرهُ المناسبات الخاصة

ولقد كشفت لي السنوات التي قضيتها في انجلترا عن « الشاعر جون مايسفيلد » شاعر العرش فما مرت مناسبة قومية من غير ان يخلدها في شعره . وقصيدته في الاحتفال بانزال الباخرة الجبارة « كوين ماري » الى البحر لاتزال ترن في الآذان

*

أن الكلام عن ديوان الجارم أتاح لي فرصة اعبر فيها عن بعض رأيي في الشعر ومقاييسه أما رأيي كله فسأفصله ان شاء الله في مجال آخر . وأهلاً وسهلاً بالديوان العربي المتين

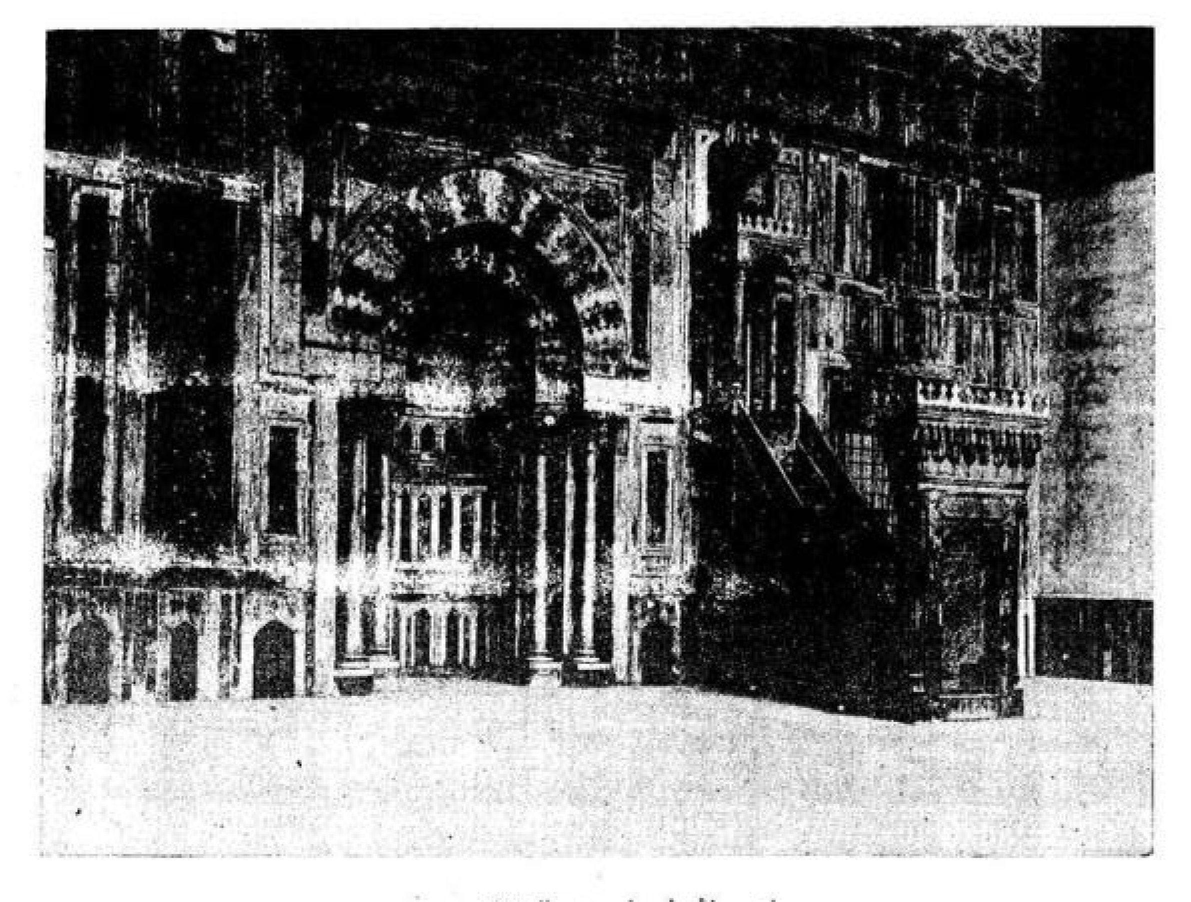
محمد عبد الغني حسن

فهرس الجزء الخامس

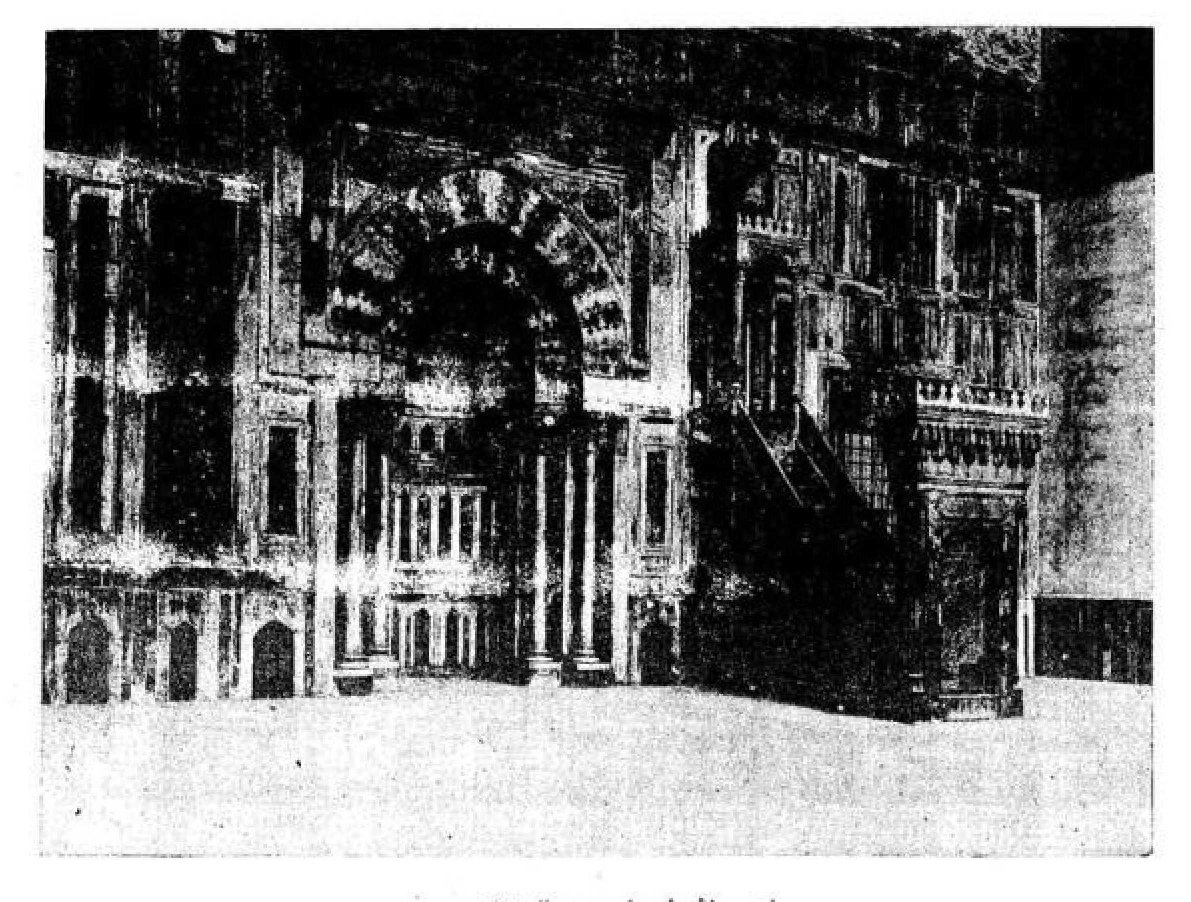
من المجلد الثالث والتسعين

فهرس المجلد الثالث والتسعين

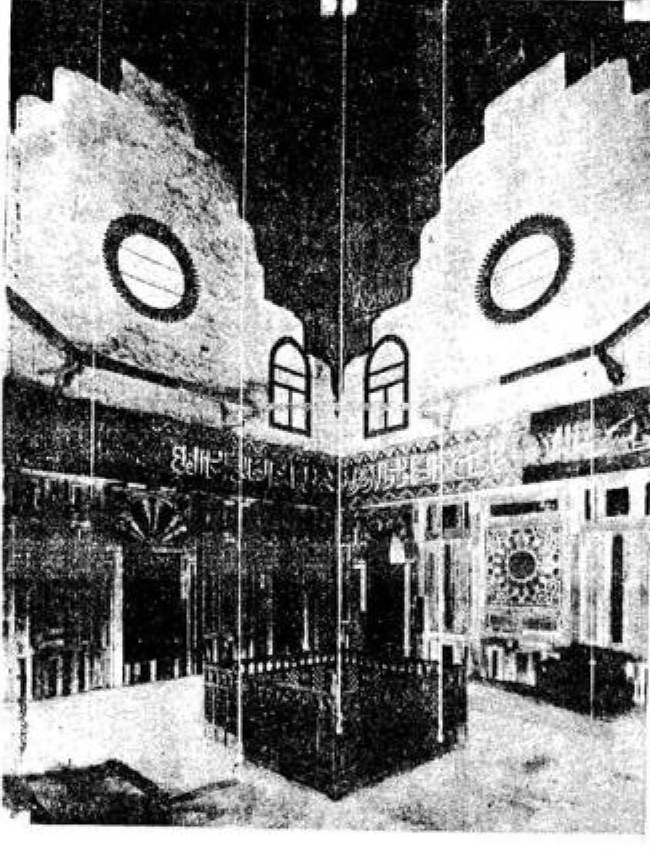
من المقتطف



المنبر والمحراب في جامع السلطان حسن



المنبر والمحراب في جامع السلطان حسن



جامع السلطان حسن من جانب المدخل العام

الضريح في جامع السلطان حسن

حديقة المقتطف

بعد الشباب

للدكتور ابراهيم ناجي

العشران

للشاعر القروي رشيد سليم الخوري

مقتل الحصان

للشاعر العبقري الانساني فكتور هوجو

المجنون ربيع

بقلم الشاعر الفرنسي المعروف بروسبير بلانشمين

[نقلها احمد أبو الخضر منسي]

سِيَرُ الزَّمانِ

يقظة العرب

ألفهُ بالانكليزية جورج انطونيوس

طلائع اليقظة الفكرية

الجمعية السرية الاولى

مراسلات مكماهون : حسين

الوعود ونقضها

مصير فلسطين



صورة رائحة الزنبق — تصوير برتتباخ



صورة رائحة الكافور — تصوير بريتباخ

(النجمة امام الموضوع تدل على انهُ مصوَّر)